

الجزء الأول

خطبة الكتاب

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

وبه تفتي

جَنَّبَكَ اللَّهُ الشُّبْهَةَ وَعَصَمَكَ مِنَ الْخَيْرَةِ وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَعْرِفَةِ نَسَباً وَبَيْنَ الصَّدَقِ سَبَباً وَحَبَّبَ إِلَيْكَ الثَّبْتَ وَزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الْإِنصَافَ وَأَذَاقَكَ حَلَاوَةَ التَّقْوَى وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الْحَقِّ وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ وَطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ الْيَأْسِ وَعَرَّفَكَ مَا فِي الْبَاطِلِ مِنَ الذَّلَّةِ وَمَا فِي الْجَهْلِ مِنَ الْقِلَّةِ وَلَعِمَرِي لَقَدْ كَانَ غَيْرُ هَذَا الدُّعَاءِ أَصُوبَ فِي أَمْرِكَ وَأَدْلَى عَلَى مِقْدَارِ وَزْنِكَ وَعَلَى الْحَالِ الَّتِي وَضَعْتَ نَفْسَكَ فِيهَا وَوَسَّمْتَ عَرْضَكَ بِهَا وَرَضِيَتْهَا لَدَيْكَ حِطَاءً وَلَمَرُوءَتَكَ شِكْلًا فَقَدْ انْتَهَى إِلَيَّ مِلْكُكَ عَلَى أَبِي إِسْحَاقَ وَحَمْلُكَ عَلَيْهِ وَطَعْنُكَ عَلَى مَعْبَدٍ وَتَنْقِصُكَ لَهُ فِي الَّذِي كَانَ جَرَى بَيْنَهُمَا فِي مَسَاوِي الدِّلِكِ وَمَحَاسِنِهِ وَفِي ذِكْرِ مَنَافِعِ الْكَلْبِ وَمَضَارِّهِ وَالَّذِي خَرَجَا إِلَيْهِ مِنْ اسْتِقْصَاءِ ذَلِكَ وَجَمْعِهِ وَمَنْ تَتَّبِعُهُ وَنَظْمِهِ وَمَنْ الْمَوَازَنَةَ بَيْنَهُمَا وَالْحُكْمَ فِيهِمَا ثُمَّ عِبْتَنِي بِكِتَابِ حِيلِ اللَّصُوصِ وَكِتَابِ غِشِّ الصَّنَاعَاتِ وَعِبْتَنِي بِكِتَابِ الْمُلْحِ وَالطُّرْفِ وَمَا حَرَّ مِنَ النُّوَادِرِ وَبَرْدُ وَمَا عَادَ بَارِدُهُ حَارًّا لَفَرَطَ بَرْدِهِ حَتَّى

أَمْتَعَ بِأَكْثَرِ مِنْ إِمْتَاعِ الْحَارِّ وَعِبْتَنِي بِكِتَابِ احْتِجَاجَاتِ الْبِخْلَاءِ وَمَنَاقِصَتِهِمْ لِلسُّمَحَاءِ وَالْقَوْلِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّدَقِ إِذَا كَانَ ضَارًّا فِي الْعَاجِلِ وَالْكَذْبِ إِذَا كَانَ نَافِعًا فِي الْآجِلِ وَلَمْ جُعِلِ الصَّدَقُ أَبَدًا مَحْمُودًا وَالْكَذْبُ أَبَدًا مَذْمُومًا وَالْفَرْقِ بَيْنَ الْغَيْرِ وَإِضَاعَةِ الْحُرْمَةِ وَبَيْنَ الْإِفْرَاطِ فِي الْحَمِيَّةِ وَالْأَنْفَعَةِ وَبَيْنَ التَّقْصِيرِ فِي حِفْظِ حَقِّ الْحَرَمَةِ وَقِلَّةِ الْإِكْتِرَافِ لِسُوءِ الْقَالَةِ وَهَلِ الْغِيْرَةُ اكْتِسَابَ وَعَادَةً أَمْ بَعْضُ مَا يَعْزُضُ مِنْ جِهَةِ الدِّيَانَةِ وَلِبَعْضِ التَّزْيِيدِ فِيهِ وَالتَّحْسِنِ بِهِ أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي طَبَاعِ الْحَرِيَّةِ وَحَقِيقَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ مَا كَانَتْ الْعُقُولُ سَلِيمَةً وَالْآفَاتُ مَنَفِيَّةً وَالْأَخْلَاطُ مَعْتَدَلَةً وَعِبْتَنِي بِكِتَابِ الصُّرَحَاءِ وَالْمُهْجَنَاءِ وَمِفَاخِرَةِ السُّودَانِ وَالْحَمْرَانِ وَمَوَازِنَةِ مَا بَيْنَ حَقِّ الْجُنُودَةِ وَالْعُمُومَةِ وَعِبْتَنِي بِكِتَابِ الزَّرْعِ وَالنَّخْلِ وَالزَّيْتُونِ وَالْأَعْنَابِ وَأَقْسَامِ فَضُولِ الصَّنَاعَاتِ وَمَرَاتِبِ التَّجَارَاتِ وَبِكِتَابِ فَضْلِ مَا بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَفَرْقِ مَا بَيْنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ وَفِي أَيِّ مَوْضِعٍ يَغْلِبُنِ وَيَفْضُلُنِ وَفِي أَيِّ مَوْضِعٍ يَكُنُّ الْمَغْلُوبَاتِ وَالْمَفْضُولَاتِ وَنَصِيبِ أَيْهِمَا فِي الْوَلَدِ أَوْفَرُ وَفِي أَيِّ مَوْضِعٍ يَكُونُ حَقُّهُنَّ أَوْجِبُ وَأَيُّ عَمَلٍ هُوَ بَهْنٌ أَلَيُّ وَأَيُّ صِنَاعَةٍ هُنَّ فِيهَا أَبْلَغُ)

وَعِبْتَنِي بِكِتَابِ الْقَحْطَانِيَّةِ وَكِتَابِ الْعَدْنَانِيَّةِ فِي الرَّدِّ عَلَى

القحطانية وزعمت أنّي تجاوزتُ الحميّة إلى حدّ العصيّة وأنّي لم أصل إلى تفضيل العدنانيّة إلا بتنقّص
القحطانيّة وعبّني بكتاب العرب والموالي وزعمت أنّي بنّختُ المواليّ حقوقهم كما أنّي أعطيتُ العرب ما
ليس لهم وعبّني بكتاب العرب والعجم وزعمت أنّ القول في فرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق
ما بين الموالي والعرب ونسّيتني إلى التكرار والترداد وإلى التكثير والجهل بما في المُعاد من الخطأ وحمل الناس
المؤن وعبّني بكتاب الأصنام وبذكر اعتلالات الهند لها وسبب عبادة العرب إيّاها وكيف اختلفا في جهة
العلة مع اتّفاقهما على جملة الديانة وكيف صار عبّاد البِدّة والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة والأصنام
المنجورة أشدّ الديّانين إلفاً لما دانوا به وشغفاً بما تعبّدوا له وأظهرهم جدّاً وأشدّهم على من خالفهم ضيغاً
وبما دانو ضيغاً وما الفرق بين البُدّ والثّث وما الفرق بين الوثّث والصنم وما الفرق بين

الدُّمية والجنّة ولم صوّروا في محاريبهم ويوت عبادتهم صُورَ عظمائهم ورجالٍ دعوتهم ولم تأثّقوا في التصوير
وتجوّدوا في إقامة التركيب وبالغوا في التحسين والتفخيم وكيف كانت أوليّة تلك العبادات وكيف اقترفت
تلك النّحل ومن أيّ شكل كانت خدع تلك السدنة وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عدداً وكيف شمل ذلك
المذهب الأجناس المختلفة وعبّني بكتاب المعادن والقول في جواهر الأرض وفي اختلاف أجناس الفلزّ
والإخبار عن ذائبها وجامدها ومخلوقها ومصنوعها وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ويُطى عن بعضها
وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ وبعضها ينصبغ ولا يصبغ وبعضها يصبغ وينصبغ وما القول في
الإكسير والتلطيف وعبّني بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس وكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس وفرق ما
بين الملائكة والجنّ وكيف القول في معرفة الهدد واستطاعة العفريت وفي الذي كان عنده علم من الكتاب
وما ذلك العلم وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم

وعبّني بكتاب الأوفاق والرياضات وما القول في الأرزاق والإنفاقات وكيف أسباب التّشهير والترقيح
وكيف يجتلب التجار الحرفاء وكيف الاحتتيال للودائع وكيف التّسبّب إلى الوصايا وما الذي يوجب لهم
حسن التعديل ويصرف إليهم باب حسن الظن وكيف ذكرنا غشّ الصناعات والتجارات وكيف التّسبّب
إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما مؤهّوا وكيف الاحتراس منه والسلامة من أهله وعبّني برسائلي وبكلّ
ما كتبت به إلى إخواني وخُلطائي من مزّج وجدّ ومن إفصاح وتعريض ومن)
تغافل وتوقيف ومن هجاء لا يزال ميسّمه باقياً ومديح لا يزال أثره نامياً ومن مُلح تُضحك ومواعظ تُبكي .
وعبّني برسائلي الهاشميات واحتجاجي فيها واستقصائي معانيها وتصويري لها في أحسن صورة وإظهارها
في أتمّ حلية وزعمت أنّي قد خرجتُ بذلك من حدّ المعتزلة إلى حدّ الزيدية ومن حدّ الاعتدال في التشيع
والاقتصاد فيه إلى حدّ السرف والإفراط فيه وزعمت أنّ مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة وأنّ مقالة
الرافضة خطبة مقالة الغالية وزعمت أنّ في أصل القضية والذي جرّت عليه العادة أن كلّ كبير فأوله صغير
وأنّ كلّ كثير فإنما هو قليل قليل جُمع من قليل وأنشدت قول الراجر :

(قد يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْجَلِيلِ ** وَإِنَّمَا الْقَرْمُ مِنَ الْأَفِيلِ) (وَسُحْقُ النَخْلِ ** مِنَ الْفَسِيلِ) وأنشدت قول الشاعر : (رَبِّ كَبِيرٌ هَاجَهُ صَغِيرٌ ** وَفِي الْبُحُورِ تَغْرَقُ الْبُحُورُ) وقلت : وقال يزيد بن الحكم : (فاعلم بني فإنه ** بالعلم ينتفع العلم) (إن الأمور دقيقتها ** مما يهيج له العظيم) وقلت : وقال الآخر : (صار جداً ما مزحت به ** رب جدٍ ساقه اللعب) وأنشدت قول الآخر : (قد يبعث الأمر الكبير صغيرة ** حتى تظل له الدماء تصيب) وقالت كبشة بنت معدٍ يكرُب :

(جدعتم بعبد الله آنف قومہ ** بني مازن أن سب راعي الخزم) وقال الآخر : (أية نار قدح القادح ** وأي جدٍ بلغ المازح) وتقول العرب : العَصَا من العُصَيَّة ولا تلد الحَيَّة إلا حَيَّةً .
وعبتَ كتابي في خلق القرآن كما عبتَ كتابي في الردِّ على المشبهة وعبتَ كتابي في القول في (أصول الفتيا والأحكام كما عبتَ كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه وعبتَ معارضتي للزيدية وتفضيلي الاعتزال على كلِّ نحلة كما عبتَ كتابي في الوعد والوعيد وكتابي على النصارى واليهود ثمَّ عبتَ جملةً كُتبي في المعرفة والتسمت تمجينها بكلِّ حيلة وصغرت من شأنها وحططت من قدرها واعترضت على ناسخيتها والمنفعين بها فعبتَ كتاب الجوابات وكتاب المسائل وكتاب أصحاب الإلهام وكتاب الحجَّة في تثبيت النبوة وكتاب الأخبار ثمَّ عبتَ إنكاري بصيرة غنام المرتدِّ وبصيرة كلِّ جاحد وملحد وتفرقي بين اعتراض الغمُر وبين استبصار الحقِّ وعبتَ

كتاب الردِّ على الجهمية في الإدراك وفي قولهم في الجهالات وكتاب الفرق ما بين النبيِّ والمتبي والفرق ما بين الحيل والمخاريق وبين الحقائق الظاهرة والأعلام الباهرة ثمَّ قصدت إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه والاعتراض على لفظه والتحقير لمعانيه فزريت على نُحْتِهِ وسبكه كما زريت على معناه ولفظه ثمَّ طعت في الغرض الذي إليه نرغنا والغاية التي إليها قصدنا على أنَّه كتابٌ معناه أنبه من اسمه وحقيقته آنق من لفظه وهو كتابٌ يحتاجُ إليه المتوسِّط العامي كما يحتاجُ إليه العالم الخاصي ويحتاج إليه الرِّبِّض كما يحتاج إليه الحاذق : أما الرِّبِّض فللتعلُّم والدربة وللترتيب والرياضة وللتمرين وتمكين العادة إذ كان جليله يتقدم دقيقه وإذا كانت مقدّماته مرتبةً وطبقاتُ معانيه منزلةً وأما الحاذقُ فللكفاية المؤنة لأن كلَّ من التقط كتاباً جامعاً وباباً من أمّهات العلم مجموعاً كان له غنمه وعلى مؤلفه غرْمُه وكان له نفعه وعلى صاحبه كدُّه مع تعرُّضه لمطاعن البُعَاة ولاعتراض المنافسين ومع عرضِه عقله المكدود على العقول الفارغة ومعانيه على الجهابذة وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة ومتى ظفر بمنله صاحبُ علم أو هجم عليه طالبُ فقه وهو وادع رافه ونشيط جامٌ

ومؤلفه مُتَعَبٌ مكدود فقد كُفي مؤونة جمعه وخزنه وطلبه وتبَّعه وأغناه ذلك عن طول التفكير واستفاد العمر وفلَّ الحدَّ وأدرك أقصى حاجته وهو مجتمعُ القُوَّة وعلى أنَّ له عند ذلك أن يجعلَ هجومه عليه من التوفيق وظفره به باباً من التسديد .

وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبة الأمم وتشابهه فيه العُرب والعجم لأنه وإن كان عربياً أعرابياً وإسلامياً جماعياً

فقد أخذ من طُرفِ الفلسفة وجمع بين معرفة السماعِ وعلم التجربة وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ ويشتهيه الفاتكُ كما يشتهيه الناسك ويشتهيه اللاعبُ ذو اللهو كما يشتهيه المجذ ذو)

الحزم ويشتهيه الغفلُ كما يشتهيه الأريب ويشتهيه الغيُّ كما يشتهيه القطن .

وعبني بحكاية قول العثمانية والضَّرارية وأنت تسمعي أقول في أوّل كتابي : وقالت العثمانية والضَّرارية كما سمعني أقول : قالت الرافضة والزيدية فحكمت عليّ بالنصب لحكايتي قول العثمانية فهلاًّ حكمت عليّ بالتشيع لحكايتي قول الرافضة وهلاّ كتّ عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة وقد حكينا في كتابنا قول الإباضية والصُفريّة كما حكينا قول الأزارقة والزيدية وعلى

هذه الأركان الأربعة بُنيت الخارجية وكلُّ اسمٍ سواها فإنما هو فرعٌ ونتيجةٌ واشتقاقٌ منها ومحمولٌ عليها وإلاّ كنّا عندك من الخارجية كما صرنا عندك من الضَّرارية والناصبة فكيف رضيتَ بأن تكون أسرع من الشيعة أسرع إلى إعراض الناس من الخارجية اللهم إلا أن تكون وجدتَ حكايتي عن العثمانية والضَّرارية أشبعَ وأجمعَ وأتمَّ وأحكم وأجود صنعةً وأبعد غايةً ورأيتني قد وهنتُ حقَّ أوليائك بقدر ما قوّيتُ باطل أعدائك ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدك من الكتاب حاضراً وبرهانك على ما ادعيت واضحاً .

وعبني بكتاب العباسية فهلاًّ عبني بحكاية مقالة من أبي وجوب الإمامة ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أنّ تركَ النَّاسِ سُدىً بلا قيمٍ أرذُ عليهم وهماً بلا راعٍ أربحُ لهم وأجدُرُ أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الآجل وأنّ تركهم نَشراً لا نظامَ لهم أبعد من المفايد وأجمعُ لهم على المرشد بل ليس ذلك بك ولكنّه بهرك ما سمعتُ وملاً صدرك الذي قرأت وأبعلك وأبطرك فلم تتّجه للحجّة وهي لك معرضة ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية ولم تعرف بابَ المخرج إذ جهلتَ بابَ المدخل ولم تعرف المصادر إذ جهلتَ الموارد .

رأيت أنّ سبَّ الأولياء أشفى لدائك وأبلغ في شفاء سقمك ورأيت أن إرسال اللسان أحضرُ لذةً وأبعدُ من النَّصب ومن إطالة الفكرة ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة .

ولو كنت فطنت لعجزك ووصلتَ نقصك بتمام غيرك واستكفيتَ من هو موقفٌ على كفاية مثلك وحيسٌ على تقويم أشباهك كان ذلك أزينَ في العاجل وأحقَّ بالثبوت في الآجل وكتّ إنّ أخطأتك الغنيمة لم تُخطِطك السلامة وقد سلّم عليك المخالف بقدر ما ابتلي به منك الموافق وعلى أنّه لم يُبتل منك إلا بقدر ما ألزمتك من مُؤنة تثقيفك والتشاغل بتقويمك وهل هلّ يضُرُّ السحابَ نباحُ الكلاب وإلاّ كما قال الشاعر : (هل يضُرُّ البحرَ أمسى زائحاً ** أن رمى فيه غلامٌ بحجرٍ) وهل حائنا في ذلك إلاّ كما قال الشاعر : (ما ضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتها ** أم بُلّتَ حيثُ تناطحَ البحرانِ) وكما قال حسّان بن ثابت : (ما أباي أنبَ بالحزنِ يسٌ ** أم لحاني بظهرٍ غيبٍ لييم) وما أشكُ أنّك قد جعلت طول إعراضنا عنك مطيّةً لك

ووجهتَ جِلْمَنَا عنكَ إلى الخوف منك وقد قال زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ لِبَعْضِ مَنْ لَمْ يَرِ حَقَّ الصَّفْحِ فَجَعَلَ الْعَفْوَ سَبَباً إِلَى سُوءِ الْقَوْلِ :

(فَإِنْ عَدْتَ وَاللَّهِ الَّذِي فَوْقَ عَرْشِهِ ** مَنَحْتُكَ مَسْنُونَ الْغَوَارِينَ أَرْزَقَا) (فَإِنْ دَوَاءَ الْجَهْلِ أَنْ تُضْرَبَ الطَّلَى ** وَأَنْ يُغْمَسَ الْعَرِيضُ حَتَّى يَغْرِقَا) وقال الأول : (وَضَعَانِ دَاوَيْتُهَا بِضَعَانِ ** حَتَّى شَفَيْتُ وَبِالْحُقُودِ حُقُودَا) وقال الآخر : (وَمَا نَفَى عَنْكَ قَوْمًا أَنْتَ خَائِفُهُمْ ** كَمَثَلِ وَقَمِكَ جَهَّالًا بِجَهَالِ) فَإِنَّا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا سِنَانُ زُفَرِ بْنِ الْحَارِثِ وَلَا مَعَارِضَةُ هَؤُلَاءِ الشَّرِّ بِالشَّرِّ وَالْجَهْلِ بِالْجَهْلِ وَالْحَقْدُ بِالْحَقْدِ فَإِنْ عِنْدِي مَا قَالَ الْمَسْعُودِيُّ : (فَمَسًّا تَرَابِ الْأَرْضِ مِنْهُ خُلِقْتُمَا ** وَفِيهِ الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحَشْرِ) (وَلَا تَأْنِفَا أَنْ تَرْجِعَا فَتَسْلَمَا ** فَمَا كَسَى الْأَفْوَاهُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ)

(فَلَوْ شِئْتُ أَذْلَى فَيَكُمَا غَيْرَ وَاحِدٍ ** عَلَانِيَةً أَوْ قَالَ عِنْدِي فِي السَّرِّ) (فَإِنْ أَنَا لَمْ أَمُرْ وَلَمْ أَنَّهُ عَنْكُمَا ** ضَحِكْتُ لَهُ كَيْمَا يَلْجُ وَيَسْتَشْرِي) وقال التَّمِيمُ بْنُ تَوَلَّبَ : (جَزَى اللَّهُ عَنِّي جَمْرَةَ ابْنَةِ نُوْفَلٍ ** جَزَاءَ مُغِلٍّ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبِ) (بِمَا خَبَرْتُ عَنِّي الْوُشَاةَ لِيَكْذِبُوا ** عَلَيَّ وَقَدْ أُولِيْتُهَا فِي النَوَائِبِ) يقول : أَخْرَجْتُ خَبَرَهَا فَخَرَجَ إِلَى مَنْ أَحَبُّ أَنْ يَعَابَ عِنْدَهَا وَلَوْ شِئْتُ أَنْ نَعَارِضَكَ لَعَارِضُكَ فِي الْقَوْلِ بِمَا هُوَ أَقْبَحُ أَثَرًا وَأَبْقَى وَسَمًّا وَأَصْدَقُ قِيلًا وَأَعْدَلُ شَاهِدًا وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ تَرَكَ الْمَعَارِضَةَ فَقَدْ صَفَحَ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مَنْ عَارِضَ فَقَدْ انْتَصَرَ)

وقد قال الشاعر قولاً إِنْ فَهَمْتَهُ فَقَدْ كَفَيْتَنَا مَثُونَةَ الْمَعَارِضَةِ وَكَفَيْتَ نَفْسَكَ لِرُومِ الْعَارِ وَهُوَ قَوْلُهُ : (فَاحْشَرْ سُكُوتِي إِذَا أَنَا مَنَصَتْ ** فَيْكَ لِمَسْمُوعِ خَنَا الْقَائِلِ) (فَالَسَامِعُ الذَّمَّ شَرِيكَ لَهُ ** وَمُطْعِمُ الْمَاكُولِ كَالْأَكِلِ)

(مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا ** أَسْرَعُ مِنْ مُنَحْدَرِ سَائِلِ) (وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذِمَّةٍ ** ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ) (فَلَا تَهْجُ إِنْ كُنْتَ ذَا إِرْبَةٍ ** حَرْبُ أَخِي التَّجَرِبَةِ الْعَاقِلِ) (فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ إِذَا هَجَّتهُ ** هَجَّتْ بِهِ ذَا خَيْلٍ خَابِلِ) (تُبْصِرُ فِي عَاجِلِ شِدَائِهِ ** عَلَيْكَ غِبُّ الضَّرَرِ الْآجِلِ) وقد يقال : إِنَّ الْعَفْوَ يُفْسِدُ مِنَ اللَّيْمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنَ الْكَرِيمِ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ : (وَالْعَفْوُ عِنْدَ لَيْبِ الْقَوْمِ مَوْعِظَةٌ ** وَبَعْضُهُ لِسَفِيهِ الْقَوْمِ تَلْرِيبٌ) فَإِنْ كُنَّا أَسَانَا فِي هَذَا التَّقْرِيعِ وَالتَّوْقِيفِ فَالَّذِي لَمْ يَأْخُذْ فِينَا بِحُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَا بِأَدَبِ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلَمْ يَفْزَعْ إِلَى مَا فِي الْفِطَنِ الصَّحِيحَةِ وَإِلَى مَا تَوَجَّهَ الْمُقَابِيِسُ الْمَطْرَدَةُ وَالْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ وَالْأَشْعَارُ السَّائِرَةُ أُولَى بِالْإِسَاءَةِ وَأَحَقُّ بِاللَّائِمَةِ

أخذ البريء بذنب المذنب

قال الله عز وجل : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لَا يَجْنِ يَمِينُكَ عَلَى شِمَالِكَ وَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَآدَابُ رَسُولِهِ وَالَّذِي أُتْرِلَ بِهِ الْكِتَابُ وَدَلَّ عَلَيْهِ مِنْ حُجَجِ الْعُقُولِ . فَأَمَّا مَا قَالُوا فِي الْمِثْلِ الْمَضْرُوبِ رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَتْ وَأَمَّا قَوْلُ الشُّعْرَاءِ وَذَمُّ الْخُطَبَاءِ لِمَنْ أَخَذَ إِنْسَانًا بِذَنْبِ

غيره وما ضَرَبُوا في ذلك من الأمثال كقول النابغة حيث يقول في شعره : (وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَ
** كَذِي العُرِّ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِع)

وكانوا إذا أصاب إبلهم العرَّ كَوُوا السليمَ ليدفعه عن السقيم فأسقمُوا الصحيحَ من غير أن يُبرئوا السقيم .
وكانوا إذا كثرت إبلُ أحدهم قَبِلَغَت الألف ففقتوا عَيْنَ الفحلِ فَإِنْ زَادَتْ الإبلُ عَلَى الألف ففقتوا العَيْنَ
الأخرى وذلك المفقأ والمعْمَى اللذان سمعتَ في أشعارهم .

قال الفرزدق : (غلبتك بالمفقئ والمعْنَى ** وبيتِ المُحتَمِي والحافقاتِ) وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها
العَيْن والسواف والغارة فقال الأول : (فقأت لها عَيْنَ الفَحِيلِ عِيَافَةً ** وفيهنَّ رَعْلَاءُ المسامع والحامي)

الرعلاء : التي تشق أذنها وتترك مدلاة ، لكرمها وكانوا يقولون في موضع الكَفَّارَةِ والأُمْنِيَّةِ كقول الرجل :
إذا بَلَغَتْ إِبِلِي كَذَا وَكَذَا وَكَذَلِكَ غَنَمِي ذَبَحْتُ عِنْدَ الْأَوْثَانِ كَذَا وَكَذَا عَتِيرَةً وَالْعَتِيرَةُ مِنْ نُسْكَ الرَجْجِيَّةِ
والجمع عتائر والعتائر من الظباء فإذا بلغتْ إِبِلُ أَحَدِهِمْ أَوْ غَنَمُهُ ذَلِكَ الْعَدَدَ اسْتَعْمَلَ التَّأْوِيلَ وَقَالَ : إِنَّمَا
قَلْتُ إِنِّي أَذْبَحُ كَذَا وَكَذَا شاةَ وَالظَّباءُ شَاءَ كَمَا أَنَّ الْغَنَمَ شَاءَ فَيَجْعَلُ ذَلِكَ الْقَرْبَانَ شَاءَ كُلَّهُ ثُمَّ يَصِيدُ مِنَ
الظَّباءِ فَلِذَلِكَ يَقُولُ الْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ الْيَشْكُرِيُّ : (عَنَّا بَاطِلًا وَظُلْمًا كَمَا تُع ** تَرُ عَنْ حَجَرَةِ الرَّيْبِضِ
الظَّباءُ) بعد أن قال : (أُم عَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغ ** نَمَ غَازِيَهُمْ وَمِنَّا الْجَزَاءُ) وكانوا إذا أوردُوا البقرَ فلم
تَشْرَبْ إِنَّمَا لَكَدَرِ الْمَاءِ أَوْ لَقَلَّةِ الْعَطَشِ ضَرَبُوا الثَّوْرَ لِيَقْتَحِمَ الْمَاءَ لِأَنَّ الْبَقَرَ تَتَّبِعُهُ كَمَا تَتَّبِعُ الشَّوْلُ الْفَحْلُ
وكما تتبعُ أُنثَى الْوَحْشِ الْحِمَارُ فَقَالَ فِي ذَلِكَ عَوْفُ بْنُ

الْحَرَجِ : (تَمَنَّتْ طَيِّئٌ جَهْلًا وَجُبْنًا ** وَقَدْ خَالَيْتَهُمْ فَأَبَوْا خِلَانِي) (هَجَوْنِي أَنْ هَجَوْتُ جِبَالَ سَلْمَى **
كَضَرْبِ الثَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظَّمَاءِ) وقال في ذلك أَنَسُ بْنُ مُدْرِكَةَ فِي قَبْلِهِ سُلَيْكُ بْنُ السُّلَكَةِ : (أَهْتُ لِلْمَرْءِ إِذْ
نِيكَتْ حَلِيلَتُهُ ** وَأَنْ يُشَدَّ عَلَى وَجْعَائِهَا الثَّفَرُ)

وقال الهَيَّانُ الْفَهْمِيُّ : (كَمَا ضُرِبَ الْيَعْسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ ** وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءَ بَاقِرٌ) وَلَمَّا كَانَ
الثَّوْرُ أَمِيرَ الْبَقْرِ وَهِيَ تَطِيعُهُ كَطَاعَةِ إِنَاثِ النَحْلِ لِلْيَعْسُوبِ سَمَّاهُ بِاسْمِ أَمِيرِ النَحْلِ .
وكانوا يزعمون أَنَّ الْجَنَّ هِيَ الَّتِي تَصُدُّ الثَّيْرَانَ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى تُمَسِكَ الْبَقْرُ عَنِ الشَّرْبِ حَتَّى قَهْلِكَ وَقَالَ فِي
ذَلِكَ الْأَعَشَى : (فَإِنِّي وَمَا كَلَّفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ ** لِأَعْلَمَ مَنْ أَمْسَى أَعْقَى وَأَحْرَبَا) (لَكَالْثَّوْرِ وَالْجَنِّيُّ يَضْرِبُ
ظَهْرَهُ ** وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءَ مَشْرَبًا) (وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءَ بَاقِرٌ ** وَمَا إِنْ تَعَافَ الْمَاءُ إِلَّا لِيُضْرَبَا)
كَأَنَّهُ قَالَ : إِذَا كَانَ يُضْرَبُ أَبَدًا لِأَنَّهُ عَافَتْ الْمَاءَ فَكَأَنَّهُهَا إِنَّمَا عَافَتْ الْمَاءَ لِيُضْرَبَ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَنْصُورٍ
الذُّهَلِيُّ فِي ذَلِكَ : (لَكَالْثَّوْرِ وَالْجَنِّيُّ يَضْرِبُ وَجْهَهُ ** وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ كَانَتْ الْجِنُّ ظَالِمَةً) وَقَالَ نَهْشَلُ بْنُ
حَرِّيٍّ : (أَتُنْزَكُ عَارِضٌ وَبَنُو عَدِيٍّ ** وَتَغْرَمُ دَارِمٌ وَهُمْ بَرَاءُ) (وَكَيْفَ تَكَلَّفُ الشَّعْرَى سُهْيَلًا ** وَبَيْنَهُمَا
الْكَوَاكِبُ وَالسَّمَاءُ)

وقال أبو نُؤيرة بن الحصين حين أخذه الحكم بن أيوب بذنب العطرَق : (أبا يُوسُفٍ لو كنتَ تعلمُ طاعتي ** ونُصحي إذن ما بعثني بالخلق) (ولا ساق سراق العِرافة صالحٌ ** بني ولا كُلفتُ ذنبَ العطرَق) وقال خِداش بن زُهَير حين أخذ بدماء بني محارب : (أَكَلْتُ قَتْلَى مَعْشَرٍ لستُ مِنْهُمْ ** ولا دارُهُم داري ولا نصرُهُم نصري) (أَكَلْتُ قَتْلَى العِيسِ عِيسٍ شَوَاحِطٍ ** وذلك أمرٌ لم تُنَفِّ لَهُ قَدْرِي) وقال الآخر : (إذا عَرَكْتَ عِجْلٌ بنا ذَنْبَ طِيٍّ ** عَرَكْنَا بَنِي اللاتِ ذَنْبَ بَنِي عِجْلِ) ولما وَجَدَ اليهوديُّ أبا حنبلٍ الضبابي في منزله فخصاه فمات وأخذ حنبلُ بني عَبَسَ بجنابة اليهودي قال قيس بن زُهَير : أتأخذنا بذنبِ غيرنا وتسلأنا العقلَ والقاتلَ يهوديٍّ من أهل تيماء فقال : والله أن لو قتلته الريح لوديتُموه فقال قيس لبني عَبَسَ : الموتُ في بني دُبيانَ خيرٌ من الحياة في بني عامر ثم أنشأ يقول : (أَكَلْتُ ذا الحُصَيْنِ إن كان ظالماً ** وإن كنتُ مظلوماً وإن كنتُ شاطناً)

(خصاه امرؤ من آل تيماء طائرٌ ** ولا يعدم الإنسي والجن كائناً) (فَهَلَّا بَنِي دُبيانَ أُمُكَ هَابِلٌ ** رَهَتْ بِقَيْفِ الرِّيحِ إن كُنْتَ رَاهِناً) (إذا قُلْتَ قد أَفْلَتَ من شرِّ حنبلٍ ** أتاني بأخرى شره مُتَباطِناً) (فقد جَعَلَتْ أَكْبَادُنا تجويكُم ** كما تجتوي سوقُ العِصاهِ الكرازا) قتل لقمان بن عاد لسنانه وابنته ولما قَتَلَ لُقمانُ بنُ عادِ ابنته وهي صُحْرُ أُخْتِ لُقَيْمٍ قال حين قَتَلها : أَلَسْتُ امرأَةً وذلك أَنَّهُ قد كان تَروِجُ عِدَّةَ نساءٍ كُلَّهنَّ حَتَّى في أَنفُسِهِنَّ فَلَمَّا قَتَلَ أَخْراهُنَّ ونَزَلَ مِنَ الجبلِ كان أَوَّلَ من تَلَقَّاه صُحْرُ ابنته فوثَبَ عليها فقتلها وقال : وأنت أيضاً امرأةٌ وكان قد ابْتَلَى بَأْنِ أُخْتِهِ كانت مُحْمِقةً وكذلك كان زوجها فقالت لِإِحدى نساءِ لُقمانَ : هذه لَيْلَةُ طُهْرِي وهي ليلَتُكَ فدَعَيْني أَنامُ في مَضْجَعِكَ فَإِنَّ لُقمانَ رَجُلٌ مُنْجِبٌ

فَعَسَى أَن يَقَعَ عَلَيَّ فَأُجَبَّ فَوْقَ عَلِيٍّ أَخِيهِ فَحَمَلَتْ بِلُقَيْمٍ فهو قولُ النَّمِرِ بنِ تَوَلَبَ : (لُقَيْمُ بنُ لُقمانَ من أُخْتِهِ ** فكان ابنُ أُخْتٍ لَهُ وابِئِها) (لِيالِي حَتَّى فَاسْتَحْصَنْتُ ** عليه فُغْرٌ بِها مُظْلِمًا) (فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ مُحْكِمٌ ** فجاءت به رجلاً مُحْكِمًا) فضرِبَتِ العَرَبُ في ذلك المِثْلَ بقتل لقمان ابنته صُحْرًا فقال خُفَّافُ بنُ نَدْبَةَ في ذلك : وقال في ذلك ابنُ أُذَيْنَةَ : (أَتَجَمَّعُ تَهَيِّامًا بِلَيْلِي إذا نَأَتْ ** وَهَجَرانِها ظُلْمًا كما ظُلِمَتْ صُحْرُ) وقال الحارثُ بنُ عُبَادٍ : (قَرِّبًا مَرِبطَ النِعامَةِ مِنِّي ** لَقِيحَتْ حَرْبٌ وائِلٌ عَن حِيالٍ) (لم أَكُنْ من جُناتِها عَلِمَ الـ ** هُ وإِنِّي بَحَرُّها اليَوْمَ صالِي) وقال الشاعر وأظنه ابنُ المَقَفَّعِ :

(فلا تَلُمِ المَرْءَ في شَأْنِهِ ** فَرَبٌّ مَلُومٌ وَلَمْ يَذْنِبْ) وقال آخر : (لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ ** وكم لائِمٌ قد لَأَمَ وَهُوَ مُلِيمٌ) حديثُ سَنَمَارٍ وقال بعضُ العَرَبِ في قتلِ بعضِ المُلُوكِ لِسَنَمَارِ الرُّومِيِّ فَإِنَّه لما عَلَا الحَوَرُ تَرَقُّ ورأى بُنيانًا لم يَرِ مثله ورأى في ذلك المُستَشْرِفِ وخاف إن هو اسْتَبَقاه أن يموتَ فيبني مثلَ ذلك البُنيانِ لرجُلٍ آخَرَ مِنَ المُلُوكِ رَمَى به من فَوْقِ القِصْرِ فقال في ذلك الكَلْبِيُّ في شيءٍ كان بَيْنَهُ وَبَيْنَ بعضِ المُلُوكِ : (سِوَى رَصَّةِ البُنيانِ سَبْعِينَ حِجَّةً ** يُعَلَّى عَلَيْهِ بِالقَرَامِيدِ وَالسَّكْبِ) (فلما رَأَى البُنيانَ تَمَّ سُخُوفُهُ ** وآضَ كَمِثْلِ الطَّودِ ذِي البَاذِخِ الصَّعْبِ) (وَظَنَّ سَنَمَارٌ به كُلَّ حَبْوَةٍ ** وَفازَ لَدَيْهِ بِالْمُودَةِ وَالْقُرْبِ)

(قال اقذِفُوا بِالْعِلْجِ مِنْ رَأْسِ شَاهِقٍ * فذاك لَعَمْرَ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْحَطَبِ) وجاء المسلمون يروي خَلْفَ
عن سلف وتابَع عن سابق وَاخَرُ عَنْ أَوَّلِ أَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي عَيْبِ قَوْلِ زِيَاد : لَا تُخَذِّنِ الْوَلِيَّ بِالْوَلِيِّ وَالسَّيِّ
بِالسَّيِّ وَالْجَارَ بِالْجَارِ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي لَعْنِ شَاعِرِهِمْ حَيْثُ يَقُول : (إِذَا أُخِذَ الرِّيُّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ * تَجَنَّبَ مَا
يُحَاذِرُهُ السَّقِيمُ) قال : وَقِيلَ لِعَمْرُو بْنِ عُيَيْدٍ : إِنَّ فَلَانًا لَمَّا قَدَّمَ رَجُلًا لِيُضْرَبَ عُنُقُهُ فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ مَجْنُونٌ
فَقَالَ : لَوْلَا أَنَّ الْمَجْنُونَ يَلِدُ عَاقِلًا لَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ : فَقَالَ عَمْرُو : مَا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَمَّا قَالَتْ
النَّغْلِيَّةُ لِلْجَحَافِ فِي وَقْعَةِ الْبِشْرِ : فَضَّ اللَّهُ فَاكَ وَأَعَمَّاكَ وَأَطَالَ سُهَادَكَ وَأَقْلَّ رُقَاذَكَ فَوَاللَّهِ إِنْ قُلْتَ إِلَّا
نِسَاءً أَعَالِيَهُنَّ تُدِيُّ وَأَسَافِلُهُنَّ دُمِّي فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : لَوْلَا أَنْ تَلِدَ هَذِهِ مِثْلَهَا لَخَلَيْتُ سَبِيلَهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ
الْحَسَنَ فَقَالَ : أَمَّا الْجَحَافُ فَجَذُودٌ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ .
قال : وَذَمَّ رَجُلٌ عِنْدَ الْأَحْتَفِ بْنِ قَيْسِ الْكَمَّاءِ بِالسَّمَنِ فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَحْتَفِ : رَبُّ مَلُومٍ لَا فِيهِ هَذِهِ السَّيْرَةُ
سَرَتْ فِينَا .)

وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن : (وَإِنَّ أَمْرًا أَمْسَى وَأَصْبَحَ سَالِمًا * مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدٌ)

عناية العلماء بالملاح والفكاهات وقلت : وما بال أهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر وأرباب النحل
والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الطرائف والملحاة وكتب
الفراغ والخلعة وكتب الملاهي والفكاهات وكتب أصحاب الخصومات وكتب أصحاب المراء وكتب
أصحاب العصبية وحمية الجاهلية ألا أنهم لا يحاسبون أنفسهم ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم ولا يخافون
تصفح العلماء ولا لائمة الأرباء وشف الأكتفاء ومشناة الجلساء فهلاً أمسكت يرحمك الله عن عيبتها
والطعن عليها وعن المشورة والموعظة وعن تخويف ما في سوء العاقبة إلى أن تبلغ حال العلماء ومراتب
الأكتفاء فأما كتابنا هذا فسنذكر جملة المذاهب فيه وسنأتي بعد ذلك على التفسير ولعل رأيك عند ذلك أن
يتحول وقولك أن يتبدل فتثبت أو تكون قد أخذت من التوقف بنصيب إن شاء الله .

أقسام الكائنات

وأقول : إِنَّ الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَجْسَامِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ : مَتَّقٍ وَمُخْتَلِفٍ وَمُتَضَادٍّ وَكُلُّهَا فِي جَمَلَةِ الْقَوْلِ جِهَادٌ
وَنَامٍ وَكَانَ حَقِيقَةُ الْقَوْلِ فِي الْأَجْسَامِ مِنْ هَذِهِ الْقِسْمَةِ أَنْ يَقَالَ : نَامٍ وَغَيْرُ نَامٍ وَلَوْ أَنَّ الْحُكَمَاءَ وَضَعُوا لِكُلِّ
مَا لَيْسَ بِنَامٍ اسْمًا كَمَا وَضَعُوا لِلنَّامِيِّ اسْمًا لَا تَبْعُنَا أَثَرُهُمْ وَإِنَّمَا نَنْتَهِي إِلَى حَيْثُ انْتَهَوْا وَمَا أَكْثَرَ مَا تَكُونُ دَلَالَةُ
قَوْلِهِمْ جِهَادٌ كَدَلَالَةِ قَوْلِهِمْ مَوَاتٌ وَقَدْ يَفْتَرِقَانِ فِي مَوَاضِعَ بَعْضَ الْافْتِرَاقِ وَإِذَا أَخْرَجْتَ مِنَ الْعَالَمِ الْأَفْلَاقَ
وَالْبُرُوجَ وَالنَّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَجَدْتَهَا غَيْرَ نَامِيَةٍ وَلَمْ تَجِدْهُمْ يَسْمُونُ شَيْئًا مِنْهَا بِجَمَادٍ وَلَا مَوَاتٍ وَلَيْسَ
لَأَنَّهُمَا تَتَحَرَّكُ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمَا لَمْ تُسَمَّ مَوَاتًا وَلَا جِهَادًا وَنَسَّ يَجْعَلُونَهَا مَدْبَرَةً غَيْرَ مَدْبَرَةٍ وَيَجْعَلُونَهَا مَسْخَرَةً غَيْرَ
مَسْخَرَةٍ وَيَجْعَلُونَهَا أَحْيَا مِنَ الْحَيَوَانِ إِذْ كَانَ الْحَيَوَانُ إِنَّمَا يَحْيَا بِأَحْيَائِهَا لَهُ وَبِمَا تُعْطِيهِ وَتُعِيرُهُ وَإِنَّمَا هَذَا مِنْهُمْ

رأي والأُمم في هذا كَلَّه على خلافهم ونحن في هذا الموضع إنما نعبر عن لغتنا وليس في لغتنا إلا ما ذكرنا .
والناس يسمون الأرض جهاداً وربما يجعلونها مَوَاتاً إذا كانت لم

تُنبِت قديماً وهي مَوَات الأرض وذلك كقولهم : مَنْ أَحْيَا أرضاً مَوَاتاً فهي له .
وهم لا يجعلون الماء والنار والهواء جهاداً ولا مَوَاتاً ولا يسمونها حيواناً ما دامت كذلك وإن كانت لا
تضاف إلى السماء والحس .
والأرض هي أحد الأركان الأربعة التي هي الماء والأرض والهواء والنار والاسمان لا يتعاوران عندهم إلا
الأرض .

تقسيم النامي

ثم النامي على قسمين : حيوان ونبات والحيوان على أربعة أقسام : شيء يمشي وشيء يطير وشيء يسبح
وشيء ينساح إلا أن كل طائر يمشي وليس الذي يمشي ولا يطير يسمى طائراً والنوع الذي يمشي على
أربعة أقسام : ناس وبهائم وسباع وحشرات على أن الحشرات راجعة في المعنى إلى مشاكلة طباع البهائم
والسباع إلا أننا في هذا كله نتبع الأسماء القائمة المعروفة البائتات بأنفسها المتميزات عند سامعيها من أهل
هذه اللغة وأصحاب هذا اللسان وإنما نفرد ما أفردوا ونجمع ما جمعوا .

تقسيم الطير

والطير كل سبي وبهيمة وهمج والسباع من الطير على ضربين : فمنها العتاق والأحرار والجوارح ومنها
البغاث وهو كل ما عظم من الطير : سباعاً كان أو بهيمة إذا لم يكن من ذوات السلاح والمخالب المعقفة
كالنُسر والرخم والغربان وما أشبهها من لئام السباع ثم الحشاش وهو ما لطف جرّمه وصغر شخصه وكان
عديم السلاح ولا يكون كالزرق واليؤيؤ والبادنجان .

فأما همج فليس من الطير ولكنه لما يطير وهمج فيما يطير كالحشرات فيما يمشي والحيات من الحشرات
وأى سبي أدخل في معنى السبعية من الأفاعي والتعابين ولكن ليس ذلك من أسمائها وإن كانت من ذوات
الأنياب وأكالة اللحوم وأعداء الإنس وجميع البهائم ولذلك تأكلها الأوعال والخنزير والقنأذ والعقبان
والشاهمرك والسنانير وغير ذلك من البهائم والسباع فمن جعل الحيات سباعاً وسمّاها بذلك عند بعض
القول والسبب فقد أصاب ومن جعل ذلك لها كالاسم الذي هو العلامة

كالكلب والذئب والأسد فقد أخطأ .

ومن سباع الطير شكل يكون سلاحه المخالب كالعقاب وما أشبهها وشيء يكون سلاحه المناقير كالنُسر
والرخم والغربان وإنما جعلناها سباعاً لأنها أكالة لحوم .

ومن بهائم الطير ما يكون سلاحه المناقير كالكرأكي وما أشبهها ومنه ما يكون سلاحه الأسنان كالبوم

وَالْوَطَاطُ وَمَا أَشْبَهَهَا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ سِلَاحُهُ الصِّيَاصِي كَالدَّيَكَةِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ سِلَاحُهُ السَّلْحُ كَالْحُبَارِي
وَالْتَعْلَبُ أَيْضاً كَذَلِكَ .

وَالسَّيْعُ مِنَ الطَّيْرِ : مَا أَكَلَ اللَّحْمَ خَالِصاً وَالبَهِيمَةَ : مَا أَكَلَتِ الْحَبَّ خَالِصاً وَفِي الْفَنِّ الَّذِي وَالْمَشْتَرَكُ
عِنْدَهُمْ كَالْعَصْفُورِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِذِي مِخْلَبٍ مَعْقَفٍ وَلَا مَنَسَرٍ وَهُوَ يَلْقُطُ الْحَبَّ وَهُوَ مَعَ هَذَا يَصِيدُ النَّمْلَ إِذَا
طَارَ وَيَصِيدُ الْجَرَادَ وَيَأْكُلُ اللَّحْمَ وَلَا يَزُقُّ فِرَاحَهُ كَمَا تَزُقُّ الْحَمَامُ بَلْ يُلْقِمُهَا كَمَا تُلْقِمُ السَّبَاعُ مِنَ الطَّيْرِ
فِرَاحَهَا وَأَشْبَاهُ الْعَصَافِيرِ مِنَ الْمَشْتَرَكِ كَثِيرٌ وَسَنَدُكُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَلَيْسَ كُلُّ مَا طَارَ بِجَنَاحِينَ فَهُوَ مِنَ الطَّيْرِ قَدْ يَطِيرُ الْجِلْعَانُ وَالْجَحْلُ وَالْيَعَاسِيْبُ وَالذَّبَابُ وَالزَّنَائِيرُ وَالْجَرَادُ
وَالنَّمْلُ وَالْفَرَاشُ وَالْبَعُوضُ وَالْأَرْضَةُ وَالنَّحْلُ وَغَيْرُ ذَلِكَ وَلَا يُسَمَّى بِالطَّيْرِ وَقَدْ يُقَالُ ذَلِكَ لَهَا عِنْدَ بَعْضِ
الذِّكْرِ وَالسَّبَبِ وَقَدْ يُسَمُّونَ الدِّجَاجَ طَيْراً وَلَا يُسَمُّونَ بِذَلِكَ الْجَرَادَ وَالْجَرَادُ أَطِيرُ وَالنَّمْلُ الْمَضْرُوبُ بِهِ أَشْهُرُ
وَالْمَلَائِكَةُ تَطِيرُ وَلَهَا أَجْنَحَةٌ وَلَيْسَتْ مِنَ الطَّيْرِ وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ذُو جَنَاحَيْنِ يَطِيرُ بِهَمَا فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَ
وَلَيْسَ جَعْفَرٌ مِنَ الطَّيْرِ .

وَأَسْمُ طَائِرٍ يَقَعُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : صُورَةٌ وَطَبِيعَةٌ وَجَنَاحٌ وَلَيْسَ بِالرِّيشِ وَالْقَوَادِمِ وَالْأَبَاهِرِ وَالْخَوَافِي يُسَمَّى
طَائِراً وَلَا بَعْدَمَهُ يَسْقُطُ ذَلِكَ عَنْهُ أَلَا تَرَى أَنَّ الْخَفَّاشَ وَالْوَطَاطَ مِنَ الطَّيْرِ وَإِنْ كَانَا أَمْرَطَيْنِ لَيْسَ لِهَمَا رِيشٌ
وَلَا زَعْبٌ وَلَا شَكِيرٌ وَلَا قَصَبٌ وَهُمَا مَشْهُورَانِ بِالْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ وَبِالرِّضَاعِ وَبِظُهُورِ حَجْمِ الْآذَانِ وَبِكَثْرَةِ
الْأَسْنَانِ وَالتَّعَامَةِ ذَاتُ رِيشٍ وَمِنْقَارٍ وَيَضِي وَجَنَاحَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنَ الطَّيْرِ .
وَلَيْسَ أَيْضاً كُلُّ عَائِمٍ سَمَكَةٍ وَإِنْ كَانَ مَنَاسِباً لِلسَّمَكِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِيهِ أَلَا تَرَى أَنَّ فِي الْمَاءِ كَلْبَ الْمَاءِ وَعَنْزَ
الْمَاءِ وَخَيْزِيرَ الْمَاءِ وَفِيهِ الرُّقُّ وَالسُّلْحَفَةُ وَفِيهِ الضَّفْدَعُ وَفِيهِ السَّرَطَانُ وَالبَيِّنْبُ

وَالْتَّمَسَاحُ وَالدُّخْسُ وَالدُّلْفَيْنُ وَالدُّلْحَمُ وَالبُنْبُكُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالكَوْسَجُ وَالدُّلْحَمُ وَلَيْسَ
لِلْكَوْسَجِ أَبٌ يُعْرِفُ وَعَامَّةٌ ذَا يَعِيشُ فِي الْمَاءِ وَيَبِيتُ خَارِجاً مِنَ الْمَاءِ وَيَبِيتُ فِي الشَّطِّ وَيَبِيتُ بَيْضاً لَهُ صُفْرَةٌ
وَقَيْضٌ وَغُرْقَى وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ فِي الْمَاءِ مَعَ السَّمَكِ .

تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم

ثُمَّ لَا يَخْرُجُ الْحَيَوَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمٍ كَذَلِكَ يُقَالُ فِي الْجُمْلَةِ كَمَا يُقَالُ الصَّامِتُ لِمَا
لَا يَصْنَعُ صَمْتاً قَطُّ وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ خِلَافُهُ وَالنَّاطِقُ لِمَا لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ فَيَحْمِلُونَ مَا يَرْغُو وَيَغْوُ وَيَنْهَقُ وَيَصْهَلُ
وَيَشْجَحُ وَيَخُورُ وَيَنْعَمُ وَيَعْوِي وَيَنْبَحُ وَيَزُقُّ وَيَضْغُو وَيَهْدِرُ وَيَصْفِرُ وَيُصَوِّصِي وَيُقَوِّقِي وَيَنْعَبُ وَيَزَارُ وَيَتَرَبُّ
وَيَكْشُ وَيَعِجُّ عَلَى نَطْقِ الْإِنْسَانِ إِذَا جُمِعَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَلِذَلِكَ أَشْبَاهُ كَالذِّكُورِ وَالْإِنَاثِ إِذَا اجْتَمَعَا
وَكَالْعَبْرِ الَّتِي تُسَمَّى لَطِيمَةً

وكالطَّغْن فإنَّ هذه الأشياءَ إذا وجد بعضها إلى بعض أو أخذ بعضها من بعض سُمِّيتْ بأنبه النوعين ذِكْراً وبأقواهما والفصيحُ هو الإنسان والأعجم كلُّ ذي صوتٍ لا يفهمُ إرادته إلا ما كان من جنسه ولعمري إنا نفهم عن الفرس والحمار والكلب والسنور والبعر كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوره كما نفهم إرادة الصبيِّ في مَهْدِهِ ونعلم وهو من جليل العلم أنَّ بكاءه يدلُّ على خلاف ما يدلُّ عليه ضحكُه وحمَمُه الفرس عند رؤية المخلاة على خلاف ما يدلُّ عليه حمَمته عند رؤية الحَجَر ودُعَاء الهِرَّة الهرَّ خلاف دعائها لولدها وهذا كثير .

والإنسان فصيح وإنَّ عبَّرَ عن نفسه بالفارسيَّة أو بالهنديَّة أو بالروميَّة وليس العربيُّ أسوأ فهما لِطَمَطَمَةٍ الروميِّ من الرومي لبيان لسان العربيِّ فكلُّ إنسانٍ من هذا الوجه يقال له فصيح فإذا قالوا : فصيح وأعجم فهذا هو التأويل في قولهم أعجم وإذا قالوا العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم فليس هذا المعنى يريدون إنما يعنون أنَّه لا يتكلَّم بالعربيَّة وأنَّ العرب لا تفهم عنه وقال كثيرٌ : (فُبُورِكَ ما أعطى ابنُ لَيْلى بِنِيَّةٍ ** وصامتُ ما أعطى ابنُ لَيْلى وناطقُه)

ويقال جاء بما صأى وصمت فالصامت مثل الذهب والفضة وقوله صأى يعني الحيوان كَلَّه ومعناه نطق وسكَّت فالصامت في كلِّ شيء سِوَى الحيوان .
ووجدنا كونَ العالم بما فيه حكمةً ووجدنا الحِكْمة على ضربين : شيءٌ جُعِلَ حكمةً وهو لا يَعْقِل الحِكْمة ولا عاقبة الحِكْمة وشيءٌ جُعِلَ حكمةً وهو يَعْقِل الحِكْمة وعاقبة الحِكْمة فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنَّه حكمة واختلفاً من جهة أنَّ أحدهما دليلٌ لا يَسْتَدِلُّ والآخر دليلٌ يستدلُّ فكلُّ مُسْتَدِلٍّ دليلٌ وليس كلُّ دليلٍ مستدللاً فشارك كل حيوانٍ سِوَى الإنسان جميعَ الجمادِ في الدلالة وفي عدم الاستدلال واجتمع للإنسان أن كان (دليلاً مستدللاً ثمَّ جُعِلَ للمستدلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال وسمَّوا ذلك بياناً .

وسائل البيان

وجُعِلَ البيان على أربعة أقسام : لفظ وخط وعقد وإشارة

وجُعِلَ بيانُ الدليل الذي لا يستدلُّ تَمَكِّينَه المستدلِّ من نفسه واقتياده كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفة ما استُخِرَ من البرهان وحُشِيَ من الدلالة وأودع من عَجِيب الحِكْمة فالأجسامُ الخُرسُ الصامته ناطقة من جهة الدلالة ومُعَرِّبة من جهة صحَّة الشهادة على أنَّ الذي فيها من التدبير والحِكْمة مخبَّرٌ لمن استخبره وناطقٌ لمن استنطقه كما خبَّرَ المُزَالُ وكُسُوفُ اللونِ عن سوءِ الحالِ وكما ينطق (فعاجوا فأثثوا بالذي أنتَ أهله ** ولو سكنوا أثثتَ عليك الحقائق) وقال آخر : (متى تَكُ في عدوٍّ أو صديقٍ * تُخَبِّرُك العيونُ عن القلوبِ) وقد قال العُكْلِيُّ في صِدْقِ شَمِّ الذَّنْبِ وفي شدَّةِ حسِّه واسترواحه : (يَسْتَخْبِرُ الرِّيحُ إذا لم يَسْمَعْ

****** بمثل مقراع الصفا الموقع) وقال عنتره هو يصف نعيب غراب : (حرق الجناح كأن لحي رأسه ******
جلمان بالأخبار هش مؤلع)

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه : سل الأرض فقل : من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فإن لم تُجبك حواراً أجابتك اعتباراً .

فموضوع الجسم ونصيبته دليل على ما فيه وداعية إليه ومنبهة عليه فالجماد الأكمم الأخرس من هذا الوجه قد شارك في البيان الإنسان الحي الناطق فمن جعل أقسام البيان خمسة فقد ذهب أيضاً مذهبا له جواز في اللغة وشاهد في العقل فهذا أحد قسمي الحكمة وأحد معنيي ما استخرها الله تعالى من الوديعه .

والقسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف وفطرها عليه من غريب الهدايات وسخر حناجرها له من ضروب النعم الموزونة والأصوات الملحنة والمخارج الشجية والأغاني المطربة فقد يقال إن جميع أصواتها معدلة وموزونة موقعة ثم)

الذي سهل لها من الرفق العجيب في الصنعة مما دلله الله تعالى لمناقيرها وأكفها وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة وكيف أعطى كثيرا منها من الحس اللطيف والصنعة البديعة من غير تأديب وتثقيف ومن غير تقويم وتلقين ومن غير تدريج وتمرين فبلغت بعفوها وبمقدار قوى فطرها من البديهة

والارتجال ومن الابتداء والاقتضاب ما لا يقدر عليه خذاق رجال الرأي وفلاسفة علماء البشر بيد ولا آلة بل لا يبلغ ذلك من النس اكملهم خصالا وأتمهم خلا لا من جهة الاقتضاب والارتجال ولا من جهة التعسف والاقتدار ولا من جهة التقدم فيه والتأني فيه والتأني له والترتيب لمقدماته وتمكين الأسباب المعينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحس الجامع القوى المتصرف في الوجوه المقدم في الأمور يعجز عن عفو كثير منها وهو ينظر إلى ضروب ما يحيى منها كما أعطيت العنكبوت وكما أعطيت السُرقة وكما علم النحل بل وعرف التوت من بديع المعرفة ومن غريب الصنعة في غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجب لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك إلا بما قوي عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين والاستطاعة والتصريف وذا التكلف والتجربة وذا التأني والمنافسة وصاحب الفهم والمسابقة والمتبصر شأن العاقبة متى أحسن شيئا كان كل شيء دونه في الغموض عليه أسهل وجعل سائر الحيوان وإن كان يحسن أحدها ما لا يحسن أحدق الناس متى أحسن شيئا عجبيا لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن وأسهل منه في الرأي بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة فلا الإنسان جعل

نفسه كذلك ولا شيء من الحيوان اختار ذلك فأحسن هذه الأجناس بلا تعلم ما يمتنع على الإنسان وإن تعلم فصار لا يحاوله إذ كان لا يطمع فيه ولا يحسدها إذا لا يؤمل اللحاق بها ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين وتجاه أسماع المعتبرين ثم حث على التفكير والاعتبار وعلى الاتعاظ والازدجار وعلى التعرف والتبين وعلى التوقف والتذكر فجعلها مذكرة منبهة وجعل القطر تثنى الخواطر

وتجول بأهلها في المذاهب ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . (مزج الهزل بالجد في الكتاب) وهذا كتابٌ موعظةٌ وتعريفٌ وتفقهٌ وتنبيهٌ وأراك قد عبتَ قبل أن تقفَ على حُدُودِهِ وتفكرَ في فصولِهِ وتعتبرَ آخرَهُ بأوله ومصادره بموارده وقد غلطك فيه بعضُ ما رأيتَ في أثناءهِ من) مزج لا تعرف معناه ومن بطلالة لم تطلع على غورها ولم تدبر لم اجتليت ولا لأيّ علة تُكلفت وأي شيء أريغ بها ولأيّ جد احتمل ذلك الهزل ولأيّ رياضة تُجشمت تلك البطالة ولم تدبر أن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد وأن البطالة وقار ورزانة إذا تُكلفت لتلك العافية ولما قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه

حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه قال أبو شمر : إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه وذلك مثل كتابنا هذا لأنه إن حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مرّ الحق وصعوبة الجد وثقل المؤونة وحلية الوقار لم يصبر عليه مع طوله إلا من تجرد للعلم وفهم معناه وذاق من ثمرته واستشعر قلبه من عزّه ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكد والكثرة من السامة وما أكثر من يُقاد إلى حظه بالسواجير وبالسوق العنيف وبالإخافة الشديدة .

مدح الكتب

ثم لم أرك رضيت بالطعن على كل كتاب لي بعينه حتى تجاوزت ذلك إلى أن عبت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال وكيف تصرفت بها الوجوه وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم حتى عبت الكل بلا علم ثم تجاوزت ذلك إلى التشنيع ثم تجاوزت ذلك إلى نصب الحرب فعبت الكتاب ونعم الذخر والعقدة هو ونعم المجلس والعدة ونعم النشرة والتزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الأنيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشي ظرفاً وإناء شجن مراحاً وجداً

إن شئت كان أبيض من سحبانٍ وائل وإن شئت كان أعيا من باقلٍ وإن شئت ضحكت من نوادرِهِ وإن شئت عجبت من غرائبِ فرائدهِ وإن شئت ألفتك طرائفه وإن شئت أشجنتك مواعظه ومن لك بواعظٍ مله وبزاجرٍ مغرٍ وبناسكٍ فاتك وبناطقٍ أخرسَ وبياردٍ حارٍّ وفي البارد الحارّ يقول الحسن بن هانئ : (قلّ لزهير إذا انتحى وشدا ** أقليل أو أكثر فأنت مهذار) (سخنت من شدة البرودة ح ** تى صرت عندي كالك النار) (لا يعجب السامعون من صفتي * كذلك الثلج بارد حار) ومن لك بطبيبٍ أعرايٍ ومن لك بروميّ هنديّ وبفارسيّ يونانيّ وبقدِيمٍ مولّدٍ وبميتٍ ممّتع) ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخِر والناقص والوافر والخفي والظاهر والشاهد والغائب وبعد : فمتى رأيتَ بستاناً يُحمل في رُدنٍ وروضة تُقلّ

في حجرٍ وناطقاً ينطق عن الموتى ويُترجم عن الأحياء ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تقوى آمن من الأرض وأكنتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديع من أرباب الوديعَة وأحفظ لما استُحفظ

من الآدميين ومن الأعراب المعربين بل من الصبيان قبل اعتراض الاشتغال ومن العُميان قبل التمتع بتميز الأشخاص حين العناية تامة لم تقص والأذهان فارغة لم تنقسم والإرادة وافرة لم تتشعب والطينة لينة فهي أقبل ما تكون للطبايع والقضيب رطب فهو أقرب ما يكون من العلوق حين هذه الحصال لم يخلق جديدها ولم يوهن غروبها ولم تتفرق قواها وكانت كما قال الشاعر : (أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ** فصادف قلباً خالياً فتمكنا) وقال عبدة بن الطيب : (لا تأمنوا قوماً يشبُّ صبيهم ** بين القوابل بالعداوة يُنشعُ) ومن كلامهم : التعلم في الصغر كالنقش في الحجر وقد قال جرّان العود : (تُركن برجلة الروحاء حتى ** تنكرت الديار على البصر) (كوّحي في الحجارة أو وشوم ** بأيدي الروم باقية الثؤور) (وإنّ من أدبته في الصبي ** كالعود يُسقى الماء في غرسه)

(حتى تُراه مورقاً ناضراً ** بعد الذي قد كان في يُنسه) وقال آخر : (يُقوم من ميل الغلام المؤدّب ** ولا ينفع التأديب والرأس أشيب) وقال آخر : (وتلوم عرسك بعد ما هرمت ** ومن العناء رياضة الهرم) وقد قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري فالكتاب أحبُّ إليّ من الحفظ لأنّ الأعرابي ينسى الكلمة وقد سهر في طلبها ليلته فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام .

وعبت الكتاب ولا أعلم جاراً أبرّ ولا خليطاً أنصف ولا رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية ولا أقلّ جناية ولا أقلّ إملالاً وإبراماً ولا أحفل أخلاقاً ولا أقلّ خلافاً وإجراماً ولا أقلّ غيبة ولا أبعد من عضيهة ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ولا أقلّ

تصلفاً وتكلفاً ولا أبعد من وراء ولا أترك لشعب ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب ولا أعلم قريباً أحسن موافاة ولا أعجل مكافاة ولا أحضر معونة ولا أخف مؤونة ولا شجرة أطول عمراً ولا أجمع أمراً ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكاً ولا أوجد في كل إبان من كتاب ولا أعلم نجاجاً في حداثة سنّه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القويمة والتجارب الحكيمة ومن الإخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب قال الله عزّ وجلّ لنبيّه عليه الصلاة والسلام (اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم) فوصف نفسه تبارك وتعالى بأن علّم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم واعتدّ بذلك في نعمه العظام وفي أياديه الجسام وقد قالوا : القلم أحد اللسّانين وقالوا : كل من عرف النعمة في بيان اللسان كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف ثم جعل هذا الأمر قرآناً ثم جعله في أول التنزيل ومستفتح الكتاب .

كون الاجتماع ضروريا

(ثُمَّ أَعْلَمَ رَحِمَكَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ حَاجَةَ بَعْضِ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ صِفَةٍ لَازِمَةٍ فِي طِبَائِعِهِمْ وَخِلَقَةٍ قَائِمَةٍ فِي جَوَاهِرِهِمْ وَثَابِتَةٍ لَا تُزَالُهُمْ وَمُحِيطَةٍ بِجَمَاعَتِهِمْ وَمَشْتَمِلَةٍ عَلَى أَدْنَاهُمْ وَأَقْصَاهُمْ وَحَاجَتُهُمْ إِلَى مَا غَاب عَنْهُمْ

مِمَّا يُعِيشُهُمْ وَيُحْيِيهِمْ وَيُمْسِكُ بِأَرْمَاقِهِمْ وَيُصْلِحُ بِهِمْ وَيَجْمَعُ شَمْلَهُمْ وَإِلَى التَّعَاوُنِ فِي دَرْكِ ذَلِكَ وَالتَّوَازُرِ عَلَيْهِ كَحَاجَتِهِمْ إِلَى التَّعَاوُنِ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَضُرُّهُمْ وَالتَّوَازُرِ عَلَى مَا يَحْتَاجُونَ مِنَ الْإِرْتِفَاقِ بِأُمُورِهِمْ الَّتِي لَمْ تَغِبْ عَنْهُمْ فَحَاجَةُ الْغَائِبِ مَوْصُولَةٌ بِحَاجَةِ الشَّاهِدِ لِحَاجَةِ الْأَدْنَى إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَقْصَى وَاحْتِيَاجُ الْأَقْصَى إِلَى مَعْرِفَةِ الْأَدْنَى مَعَانٍ مُتَضَمِّنَةٌ وَأَسْبَابٌ مُتَّصِلَةٌ وَحَالٌ مُنْعَقِدَةٌ وَجَعَلَ حَاجَتَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا كَحَاجَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا إِلَى أَخْبَارِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ وَحَاجَةٍ مِنْ يَكُونُ بَعْدَنَا إِلَى أَخْبَارِنَا وَلِذَلِكَ تَقَدَّمَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتُ بِالرُّسُلِ وَلَمْ يَسْخَرْ لَهُمْ جَمِيعَ خَلْقِهِ إِلَّا وَهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِرْتِفَاقِ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ وَجَعَلَ الْحَاجَةَ حَاجَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا قِيَامُ وَقُوتِ وَالْأُخْرَى لَذَّةُ وَإِمْتِنَاعِ وَازْدِيَادُ فِي الْآلَةِ وَفِي كُلِّ مَا أَجْذَلَ الْنفُوسِ وَجَمَعَ لَهُمُ الْعِتَادَ وَذَلِكَ الْمَقْدَارُ مِنْ جَمِيعِ الصَّنَفَيْنِ وَفَقْدَ لِكثَرَةِ حَاجَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَعَلَى قَلَرِ اتِّسَاعِ مَعْرِفَتِهِمْ وَبُعْدِ غَوْرِهِمْ وَعَلَى قَلَرِ احْتِمَالِ طَبْعِ الْبَشَرِيَّةِ وَفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ثُمَّ لَمْ يَقْطَعْ الزِّيَادَةَ إِلَّا لِعَجْزِ خَلْقِهِمْ عَنْ احْتِمَالِهَا وَلَمْ يَجْزْ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْعَجْزِ إِلَّا بِعَدَمِ الْأَعْيَانِ إِذْ كَانَ الْعَجْزُ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ وَنَعْتًا مِنْ نُعُوتِ الْعَبِيدِ .

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ تَعَالَى أَحَدًا يَسْتَطِيعُ بُلُوغَ حَاجَتِهِ بِنَفْسِهِ دُونَ الْإِسْتِعَانَةِ

بِبَعْضٍ مِنْ سَخَرَ لَهُ فَأَدْنَاهُمْ مَسْخَرٌ لِأَقْصَاهُمْ وَأَجْلُهُمْ مَيَسَّرٌ لِأَدْنَاهُمْ وَعَلَى ذَلِكَ أَحْوَجَ الْمُلُوكَ إِلَى السُّوْقَةِ فِي بَابٍ وَأَحْوَجَ السُّوْقَةَ إِلَى الْمُلُوكِ فِي بَابٍ وَكَذَلِكَ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَالْعَبْدُ وَسَيِّدُهُ ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ لِلْإِنْسَانِ خَوَلًا وَفِي يَدِهِ مُذَلَّلًا مَيَسَّرًا إِمَّا بِالْإِحْتِيَالِ لَهُ وَالتَّلَطُّفِ فِي إِرَاعَتِهِ وَاسْتِمَالَتِهِ وَإِمَّا بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ وَالتَّكَلُّفِ بِهِ وَإِمَّا أَنْ يَأْتِيَهُ سَهْوًا وَرَهْوًا عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ لَا حَاجَتُهُ إِلَيْهَا لَمَا احْتَالَ هَا وَلَا صَالَ عَلَيْهَا إِلَّا أَنَّ الْحَاجَةَ تَفْتَرِقُ فِي الْجِنْسِ وَالْجِهَةِ وَالْجِلَّةِ وَفِي الْحِظِّ وَالتَّقْدِيرِ .

ثُمَّ تَعَبَّدَ الْإِنْسَانُ بِالتَّفَكُّرِ فِيهَا وَالنَّظَرَ فِي أُمُورِهَا وَالْإِعْتِبَارَ بِمَا يَرَى وَوَصَلَ بَيْنَ عَقُولِهِمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَةِ تِلْكَ الْحُكْمِ الشَّرِيفَةِ وَتِلْكَ الْحَاجَاتِ اللَّازِمَةِ بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ وَبِالتَّقْيِيبِ وَالتَّنْقِيرِ وَالتَّثْبِيتِ وَالتَّوَقُّفِ وَوَصَلَ مَعَارِفَهُمْ بِمَوَاقِعِ حَاجَاتِهِمْ إِلَيْهَا وَتَشَاغَرَهُمْ بِمَوَاضِعِ الْحُكْمِ فِيهَا بِالْبَيَانِ) عَنْهَا .

البيان ضروري للاجتماع

وهو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم ومعبراً عن حقائق حاجاتهم ومعرفةً لمواضع سدِّ الخلة ورفع الشبهة ومداداة الحيرة ولأنَّ أكثرَ الناسِ عن الناسِ أفهمُ منهم عن الأشباحِ الماثلة والأجسامِ الجامدة والأجرامِ الساكنة التي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دقائق الحكمة

وَكُوْزِ الآدَابِ وَيُنَابِعِ الْعِلْمِ إِلَّا بِالْعَقْلِ النَّاقِبِ اللَّطِيفِ وَبِالنَّظَرِ النَّامِّ النَّافِذِ وَبِالْأَدَاةِ الْكَامِلَةِ وَبِالْأَسْبَابِ الْوَافِرَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى مَكْرُوهِ الْفِكْرِ وَالْإِحْتِرَاسِ مِنْ وُجُوهِ الْخُدَعِ وَالتَّحْفُظِ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى وَلَأَنَّ الشَّكْلَ أَفْهَمُ عَنْ شِكْلِهِ وَأَسْكَنُ إِلَيْهِ وَأَصَبُّ بِهِ وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي أَجْنَاسِ الْبَهَائِمِ وَضُرُوبِ السَّبَاعِ وَالصَّبِيِّ عَنْ الصَّبِيِّ أَفْهَمُ لَهُ وَلَهُ آلَفٌ وَإِلَيْهِ أَنْزَعَ وَكَذَلِكَ الْعَالِمُ وَالْعَالَمُ وَالْجَاهِلُ وَالْجَاهِلُ وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ عَنِ الْإِنْسَانِ أَفْهَمُ وَطَبَاعُهُ بِطَبَاعِهِ آتَسُ وَعَلَى قَدْرِ ذَلِكَ يَكُونُ مَوْقِعُ مَا يَسْمَعُ مِنْهُ .

ثُمَّ لَمْ يَرْضَ لَهُمْ مِنَ الْبَيَانِ بِصِنْفٍ وَاحِدٍ بَلْ جَمَعَ ذَلِكَ وَلَمْ يَفْرِقْ وَكَثَّرَ وَلَمْ يَقْلِلْ وَأَظْهَرَ وَلَمْ يُخْفِ وَجَعَلَ آلَةَ الْبَيَانِ الَّتِي بِهَا يَتَعَارَفُونَ مَعَانِيَهُمْ وَالتَّرْجُمَانَ الَّذِي إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ عِنْدَ اخْتِلَافِهِمْ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ وَفِي خَصْلَةٍ خَامِسَةٍ وَإِنْ نَقَصْتَ عَنْ بُلُوغِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ فِي جِهَاتِهَا فَقَدْ تُبَدَّلُ بِجَنَسِهَا الَّذِي وَضَعْتَ لَهُ وَصُرِفَتْ إِلَيْهِ وَهَذِهِ الْخِصَالُ هِيَ : اللَّفْظُ وَالْخَطُّ وَالْإِشَارَةُ وَالْعَقْدُ وَالْخَصْلَةُ الْخَامِسَةُ مَا أَوْجَدَ مِنْ صَحَّةِ الدَّلَالَةِ وَصَدَقَ الشَّهَادَةُ وَوُضُوحُ الْبَرَهَانِ فِي الْأَجْرَامِ الْجَامِلَةِ وَالصَّامِتَةِ وَالسَّاكِنَةِ الَّتِي لَا تَتَبَيَّنُ وَلَا تَحْسُ وَلَا تَفْهَمُ وَلَا تَتَحَرَّكُ إِلَّا بِدَاخِلٍ يَدْخُلُ عَلَيْهَا أَوْ عِنْدَ مُمَسِّكِ خَلِّيٍّ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ تَقْيِيدُهُ لَهَا .

ثُمَّ قَسَمَ الْأَقْسَامَ وَرَتَّبَ الْخُشُوسَاتِ وَحَصَّلَ الْمَوْجُودَاتِ فَجَعَلَ اللَّفْظَ لِلْسَّمْعِ وَجَعَلَ الْإِشَارَةَ لِلنَّظَرِ وَأَشْرَكَ النَّظَرَ وَاللَّمْسَ فِي مَعْرِفَةِ

الْعَقْدَ إِلَّا بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ نَصِيبَ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ نَصِيبِ اللَّامِسِ وَجَعَلَ الْخَطَّ دَلِيلًا عَلَى مَا غَابَ مِنْ حَوَائِجِهِ عَنْهُ وَسَبَبًا مَوْصُولًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْوَانِهِ وَجَعَلَهُ خَازِنًا لِمَا لَا يَأْمَنُ نَسْيَانُهُ فَمَا قَدْ أَحْصَاهُ وَحَفِظَهُ وَأَتَقَنَهُ وَجَمَعَهُ وَتَكَلَّفَ الْإِحَاطَةَ بِهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِلشَّامِّ وَالذَّائِقِ نَصِيبًا .

خطوط الهند

ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط ولبطلت معرفة التضاعيف ولعدموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات ولو أدركوا ذلك لما أدركوه إلا بعد أن تغلظ المؤونة وتنقص المنة ولصاروا في حال معجزة وحسور وإلى حال مضیعة وكلال حد مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الدلالة لكان أربح لهم وأرد عليهم أن يصرف ذلك الشغل في أبواب منافع الدين والدنيا .

نفع الحساب

ونفع الحساب معلوم والخلة في موضع فقله معروفة قال الله تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ثُمَّ قَالَ : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَبِالْبَيَانِ عَرَفَ النَّاسُ الْقُرْآنَ وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ فَأَجْرَى الْحِسَابَ مُجْرَى الْبَيَانِ بِالْقُرْآنِ وَبِحُسْبَانِ مَنَازِلِ الْقَمَرِ عَرَفْنَا حَالَاتِ الْمَدِّ وَالْجُزْرِ وَكَيْفَ تَكُونُ الزِّيَادَةُ فِي الْأَهْلَةِ وَأَنْصَافِ الشُّهُورِ وَكَيْفَ يَكُونُ النِّقْصَانُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ وَكَيْفَ تَلِكُ الْمَرَاتِبُ وَتَلِكُ الْأَقْدَارُ .

فضل الكتابة

ولولا الكتب المدونة والأخبار المخلدة والحكم المخطوطة التي تُحصن الحساب وغير الحساب لبطل أكثر العلم ولغلب سلطان التسيان الذكر ولما كان للناس مفرغٌ إلى موضع استدكار ولو تم ذلك لحُرِمْنَا أَكْثَرَ النِّفْعِ إِذْ كُنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مَقْدَارَ حِفْظِ النَّاسِ لِعَوَاجِلِ حَاجَتِهِمْ وَأَوَائِلِهَا لَا يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ مَبْلَغًا مَذْكُورًا وَلَا يُعْنِي فِيهِ غَنَاءٌ مَحْمُودًا وَلَوْ كُلَّفَ عَامَّةُ مَنْ يَطْلُبُ الْعِلْمَ وَيَصْطَنِعُ الْكُتُبَ إِلَّا يَزَالُ حَافِظًا لِفَهْرَسْتِ كِتَابِهِ لِأَعْجَزِهِ ذَلِكَ وَلِكُلِّ شَطْطٍ وَلَشَغْلِهِ ذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا هُوَ أَوْلَى بِهِ وَفَهْمُكَ لِمَعَانِي كَلَامِ النَّاسِ يَنْقُطِعُ قَبْلَ انْقِطَاعِ فَهْمِ عَيْنِ الصَّوْتِ مَجْرَدًا وَأَبْعَدُ فَهْمِكَ لَصَوْتِ صَاحِبِكَ وَمُعَامِلِكَ وَالْمَعَاوِنِ لَكَ مَا كَانَ صِيَاحًا صَرَفًا وَصَوْتًا مَصْمُوتًا وَنِدَاءً خَالِصًا وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ الْمَفَاهِمَةِ وَعُطْلٌ مِنَ الدَّلَالَةِ فَجَعَلَ اللَّفْظُ

لأَقْرَبِ الْحَاجَاتِ وَالصَّوْتُ لِأَنْفَسَ مِنْ ذَلِكَ قَلِيلًا وَالْكِتَابُ لِلنَّازِحِ مِنَ الْحَاجَاتِ فَأَمَّا الْإِشَارَةُ فَأَقْرَبُ الْمَفْهُومِ مِنْهَا : رَفَعُ الْحَوَاجِبِ وَكَسْرُ الْأَجْفَانِ وَلِي الشِّقَاقِ وَتَحْرِيكُ الْأَعْنَاقِ وَقَبْضُ جِلْدَةِ الْوَجْهِ وَأَبْعَدُهَا أَنْ تَلُوى بِثَوْبٍ عَلَى مَقْطَعِ جَبَلٍ تُجَاهَ عَيْنِ النَّاطِرِ ثُمَّ يَنْقُطِعُ عَمَلُهَا وَيَدْرُسُ أَثَرُهَا وَيَمُوتُ ذِكْرُهَا وَيَصِيرُ بَعْدُ كُلُّ شَيْءٍ فَضْلٌ عَنْ انْتِهَاءِ مَدَى الصَّوْتِ وَمُنْتَهَى الطَّرَفِ إِلَى الْحَاجَةِ وَإِلَى النِّفَاهِ بِالْخُطُوطِ وَالْكِتَابِ فَأَيُّ نَفْعٍ أَعْظَمُ وَأَيُّ مَرْفَقٍ أَعْوَنُ مِنَ الْخَطِّ وَالْحَالُ فِيهِ كَمَا ذَكَرْنَا وَلَيْسَ لِلْعَقْدِ حِظٌّ الْإِشَارَةِ فِي بُعْدِ الْغَايَةِ .

فضل القلم

فلذلك وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع ونوّه بذكره في المنصب الشريف حين قال ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ فَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ كَمَا أَقْسَمَ بِمَا يُحِطُّ بِالْقَلَمِ إِذْ كَانَ اللِّسَانُ لَا يَتَعَاطَى شَأْوَهُ وَلَا يَشْتُقُّ غِبَارَهُ وَلَا يَجْرِي فِي حَلْبَتِهِ وَلَا يَتَكَلَّفُ بَعْدَ غَايَتِهِ لَكِنْ لَمَّا أَنَّ كَانَتْ حَاجَاتُ النَّاسِ بِالْحَضْرَةِ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَمَاكِنِ وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِ اللِّسَانِ حَاجَةً دَائِمَةً وَآكِلَةً وَرَاهِنَةً ثَابِتَةً وَكَانَتْ الْحَاجَةُ إِلَى بَيَانِ الْقَلَمِ أَمْرًا يَكُونُ فِي الْغَيْبَةِ وَعِنْدَ النَّائِبَةِ إِلَّا مَا خُصَّتْ بِهِ الدَّوَابُّ فَإِنَّ لِسَانَ الْقَلَمِ هُنَاكَ أَبْسَطُ وَأَثَرُهُ أَعَمُّ فَلِذَلِكَ

قَدَّمُوا اللِّسَانَ عَلَى الْقَلَمِ . ضَ الْيَدِ فَاللسانُ الْآنَ إِنَّمَا هُوَ فِي مَنَافِعِ الْيَدِ وَالْمَرَافِقِ الَّتِي فِيهَا وَالْحَاجَاتِ الَّتِي تَبْلُغُهَا فَمِنْ ذَلِكَ حِظُّهَا وَقِسْطُهَا مِنْ مَنَافِعِ الْإِشَارَةِ ثُمَّ نَصِيْبُهَا فِي تَقْوِيمِ الْقَلَمِ ثُمَّ حِظُّهَا فِي التَّصْوِيرِ ثُمَّ حِظُّهَا فِي الصَّنَاعَاتِ ثُمَّ حِظُّهَا فِي الْعَقْدِ ثُمَّ حِظُّهَا فِي الدَّفْعِ عَنِ النَّفْسِ ثُمَّ حِظُّهَا فِي إِیْصَالِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَى الْفَمِ ثُمَّ التَّوَضُّؤِ وَالْإِمْتِسَاحِ ثُمَّ انْتِفَادِ الدَّنَانِيرِ وَالْدِّرَاهِمِ وَبُسِ الثِّيَابِ وَفِي الدَّفْعِ عَنِ النَّفْسِ وَأَصْنَافِ الرِّمِيِّ وَأَصْنَافِ الضَّرْبِ وَأَصْنَافِ الطَّعْنِ ثُمَّ التَّنَقُّرِ بِالْعُودِ وَتَحْرِيكِ الْوَتْرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَبُطِلَ الضَّرْبُ كُلُّهُ أَوْ عَامَّتُهُ

وكيف لا يكون ذلك كذلك ولها ضَرْبُ الطُّبْلِ والدُّفِّ وتحريكُ الصَّفَاقَيْنِ وتحريكُ مخارقِ خروقِ المزامير وما في ذلك من الإطلاق والحبس ولو لم يكن في اليدِ إلَّا إمساكُ العِنانِ والزَّمامِ والخطامِ لكانَ من أعظمِ الحُظوظِ وقد اضطرَّبوا في الحُكْمِ بينَ العَقْدِ والإشارةِ ولولا أنَّ مغرانا في هذا الكتابِ سوى هذا البابِ لقد كانَ هذا ممَّا أَحَبُّ أن يعرفه إخواننا

وخلطًاؤنا فلا ينبغي لنا أيضًا أن نأخذ في هذا الباب من الكلامِ إلَّا بعدَ الفراغِ ممَّا هو أولى بنا منه إذ كنتَ لم تنازعني ولم تعبْ كُتبي من طريقِ فضلِ ما بينَ العَقْدِ والإشارةِ ولا في تمييزِ ما بينَ اللفظِ وبينهما وإنَّما قصدنا بكلامنا إلى الإخبارِ عن فضيلةِ الكتابِ .

والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناسِ كُتَبَ الدينِ وحسابِ الدواوينِ مع خَفَّةِ نقلِهِ وصِغَرِ حجمِهِ صامتٌ ما أسكتهُ وبلغَ ما استنطقتهُ ومَن لك بمسامرِ لا يبتدِيكَ في حالِ شُغْلِكَ ويدعوكَ في أوقاتِ نشاطِكَ ولا يُحوِّجُكَ إلى التجمُّلِ له والتذمُّمِ منه ومَن لك بزائرٍ إن شئتَ جعلَ زيارتهُ غِيًّا وورودهُ خِمْسًا وإن شئتَ لَزِمَكَ لزومُ ظِلِّكَ وكان منك مكانٌ بعضيك .

والقلمُ مكنتُ بنفسه لا يحتاج إلى ما عندَ غيره ولا بدَّ لبيانِ اللسانِ من أمورٍ : منها إشارةُ اليدِ ولولا الإشارةُ لَمَّا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ إذا كانَ أخصَّ الخاصِّ قد يدخلُ في بابِ العامِّ إلَّا أنَّه أدنى طبقاته وليس يكفي خاصَّ الخاصِّ باللفظِ عمَّا أذاه كما اكتفى عامُّ العامِّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصَّ الخاصِّ . والكتابُ هو الجليس الذي لا يطريك والصاديق الذي لا يغريك

والرفيق الذي لا يملُكَ والمستميح الذي لا يستريثُك والجارُ الذي لا يَسْتَبْطِيك والصاحبُ الذي لا يريدُ استخراجَ ما عندك بالملقِ ولا يعاملكَ بالمكرِ ولا يخدعُك بالنفاقِ ولا يحتالُ لك بالكذبِ والكتابُ هو الذي إن نظرتَ فيه أطلَّ إمتاعُك وشحَذَ طباعُك وبَسَطَ لسانُك وجوَّدَ بَنانُك وفنَّحَ أَلْفاظُك وبجَّحَ نفسُك وعمَّرَ صدرُك ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصداقةَ الملوكِ وعَرَفْتَ به في شهرٍ ما لا تعرفُهُ من أفواهِ الرجالِ في دهرٍ مع السلامةِ من الغُرمِ ومن كَدِّ الطلبِ ومن الوقوفِ ببابِ المكتسبِ بالتعليمِ ومن الجلوسِ بين يدي مَن أنتَ أفضلُ منه خُلُقًا وأكرمُ منه عِرْفًا ومع السلامةِ من مجالسةِ البُغضاءِ ومقارنةِ الأغبياءِ .

والكتابُ هو الذي يُطِيعُك بالليلِ كطاعتهِ بالنهارِ ويَطِيعُكَ في السفرِ كطاعتهِ في الحضرِ ولا يعتلُّ بومٍ ولا يعتريه كلالُ السهرِ وهو المعلمُ الذي إن افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْكَ وإن قطعتَ عنه المادَّةَ لم يقطعْ عنك الفائدةُ وإن غرَّلتَ لم يدعُ طاعتَكَ وإن هبَّتْ ريحُ أعاديكَ لم يقلبْ عليك ومتى كنتَ منه متعلِّقًا بسببٍ أو معتصمًا بأدنى حبلٍ كان لك فيه غنى من غيره ولم تَضْطَرَّكَ معه وحشةُ الوحدةِ إلى جليسِ السوءِ ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلَّا منعه لك من الجلوسِ على بابك والنظرِ إلى المارَّةِ بك مع ما في ذلك من التعرُّضِ للحقوقِ التي تلزمُ ومن فُضُولِ

النظرِ ومن عادةِ الخوضِ فيما لا يعينُك ومن ملابسةِ صغارِ الناسِ وحضورِ أَلْفاظِهِم الساقطةِ ومعانيهِم الفاسدةِ وأخلاقِهِم الرديَّةِ وجَهالاتِهِم المذمومةِ لكانَ في ذلك السلامةُ ثم الغنيمةُ وإحرازُ الأصلِ مع استفادةِ

الفرع ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سُخْفِ المُنَى وعن اعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما أشبه اللعب لقد كان على صاحبه أَسْبَغَ النعمة وأعظم المنة .

وقد علمنا أن أفضل ما يقطع به الفراغ همارهم وأصحاب الفكاهات ساعات ليلهم الكتاب وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النيل أثر في ازدياد تجربة ولا عقل ولا مروءة ولا في صون (

عرض ولا في إصلاح دين ولا في تثير مال ولا في رب صنعة ولا في ابتداء إنعام .

أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب وقال أبو عبيدة قال المهلب لبيه في وصيته : يا بني لا تقوموا في الأسواق إلا على زرادٍ أو رراق .

وحدثني صديق لي قال : قرأت على شيخ شامي كتاباً فيه من مآثر غطفان فقال : ذهبت المكارم إلا من الكتب .

وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول : غرت أربعين عاماً ما قلتُ

ولا بت ولا اتكأت إلا والكتاب موضوع على صدري .

وقال ابن الجهم : إذا غشني النعاس في غير وقت نوم وبنس الشيء النوم الفاضل عن الحاجة قال : فإذا اعتراني ذلك تناولت كتاباً من كتب الحكم فأجد اهتزازي للفوائد والأرجية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة وعزّ التبيين أشدّ إيقاظاً من نهيق الحمير وهذه الهدم .

وقال ابن الجهم : إذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قلبه وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير العدد فقد تم عيشي وكمل سروري .

وذكر العتي كتاباً لبعض القدماء فقال : لولا طوله وكثرة ورقه

لنسخته فقال ابن الجهم : لكنني ما رغبت فيه إلا الذي زهدك فيه وما قرأت قط كتاباً كبيراً فأخلاني من فائدة وما أحصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت .

وقال العتي ذات يوم لابن الجهم : ألا تعجب من فلان نظر في كتاب الإقليدس مع جارية سلمويه في يوم واحد وساعة واحدة فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة على أنه حرّ مخبر وتلك أمة مقصورة وهو أحرص على قراءة الكتاب من سلمويه على تعليم جارية قال ابن الجهم : قد كنت أظن أنه لم يفهم منه شكلاً واحداً وأراك تزعم أنه قد فرغ من مقالة قال العتي : وكيف ظننت به هذا الظن وهو رجل ذو لسان وأدب قال : لأني سمعته يقول لابنه : كم أنفقت على كتاب كذا قال : أنفقت عليه كذا قال : إنما رغبتني في العلم أي ظننت أني أنفق عليه قليلاً وأكتسب كثيراً فأما إذا صرت أنفق الكثير وليس في يدي إلا (

المواعيد فأني لا أريد العلم بشيء .

السماع والكتابة

فالإنسان لا يعلم حتى يكثُر سماعه ولا بُدَّ من أن تكون كتبه أكثر من سَماعه ولا يعلم ولا يجمع العلم ولا يُخْتَلَف إليه حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألدَّ عنده من الإنفاق من مال عدوه ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألدَّ عنده من إنفاق عُشَّاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضىً وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتِّخاذ الكتب إيثاراً للأعرابي فرسه بالبن على عياله وحتى يؤمِّل في العلم ما يؤمِّل الأعرابي في فرسه حرص الزنادقة على تحسين كتبهم . وقال إبراهيم بن السَّديّ مرة : ودِدْتُ أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيّ الأبيض وعلى تحيُّر الخبر الأسود المشرق البراق وعلى استجداد الخطِّ والإرغاب لمن يخطِّ فإنِّي لم أرَ كورق كتبهم ورقاً ولا كالخطوط التي فيها خطأً وإذا غرمتُ مالا عظيماً مع حبِّي للمال وبُغْضِ الغُرم كان سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليلاً على تعظيم العلم

وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سُكر الآفات قلت لإبراهيم : إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب كإنفاق النصارى على البيع ولو كانت كتب الزنادقة كتبَ حكمٍ وكتبَ فلسفة وكتبَ مقاييسَ وسُننٍ وتبيينٍ أو لو كانت كتبهم كتباً تُعرِّف الناس أبواب الصناعات أو سُبلَ التكسُّب والتجارات أو كتبَ ارتفاقاتٍ ورياضاتٍ أو بعض ما يتعاطاه الناس من القطن والآداب وإن كان ذلك لا يقرب من غيٍّ ولا يُبعد من مآثم لكانوا ممن قد يجوز أن يُظنَّ بهم تعظيمُ البيان والرغبة في التَّبين ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الدَّيَّانة وعلى طريق تعظيم المِلَّة فإنما إنفاقهم في ذلك كإنفاق الجوس على بيت النار وكإنفاق النصارى على صُلبان الذهب أو كإنفاق الهند على سَدَنَةِ البِدَّة ولو كانوا أرادوا العلم لكان العلم لهم مُعرضاً وكتب الحكمة لهم مبدولةً والطرق إليها سهلةً معروفةً فما بالهم لا يصنعون ذلك إلاّ بكتب دياناتهم كما يزخرُ النصارى بيوتَ عباداتهم ولو كان هذا المعنى مستحسنًا عند المسلمين أو كانوا يرون أن ذلك داعيةٌ إلى العبادة وباعثةٌ على الخُشوع لبلَّغُوا في ذلك بعفْوهم ما لا تبلغه النصارى بغاية الجُهد .

مسجد دمشق وقد رأيتُ مسجدَ دِمَشق حين استجاز هذا السبيل ملكٌ من ملوكها ومن رآه فقد علم أن (أ) أحداً لا يرومه وأن الروم لا تسخوا أنفسهم

به فلمّا قام عمرُ بنُ عبد العزيز جَلَّله بالجلال وغطَّاه بالكرايس وطبَّحَ سلاسل القناديل حتّى ذهب عنها ذلك التلألؤُ والبريق وذهب إلى أن ذلك الصنيعُ مجانبٌ لسنَّة الإسلام وأن ذلك الحُسن الرائع والخاصَّ الدَّقِيق مَذْهَلَةٌ للقلوب ومَشْغَلَةٌ دُونَ الخشوع وأنَّ البالَ لا يكون مجتمعاً وهناك شيء يفرِّقه ويعترض عليه . والذي يدلُّ على ما قلنا أنَّه ليس في كتبهم مثلُ سائر ولا خبرٌ طريف ولا صنعةُ أدب ولا حكمةٌ غريبة ولا فلسفةٌ ولا مسألةٌ كلاميةٌ ولا تعريفٌ صناعةٌ ولا استخراجٌ آلة ولا تعليمٌ فلاحيةٌ ولا تدبيرٌ حرب ولا مقارعةٌ عن دين ولا منازلةٌ عن نَحْلة وجلُّ ما فيها ذكر النور والظلمة وتناكُحُ الشياطين وتسافدُ العفاريت وذكر الصنديد والتهويل بعمود السخ والإخبار عن شقلون وعن الهامة والهمامة وكلِّه هُتْرٌ وعيٌّ وخُرافةٌ وسُخريةٌ

وتكذب لا ترى فيه موعظة حسنة ولا حديثاً مؤثقاً ولا تدبيراً معاشٍ ولا سياسة عامة ولا ترتيباً خاصةً فأبى كتاب أجهل وأبى تدبير أفسد من كتاب

يوجب على الناس الإطاعة والبخوع بالديانة لا على جهة الاستبصار والخبّة وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين والناس لا يحبون إلا ديناً أو دنياً : فأما الدنيا فإقامة سوقها وإحضار نفعها وأما الدين فأقل ما يُطمع في استجابة العامة واستمالة الخاصة أن يصور في صورة مغلفة ومموّة تموية الدينار البهرج والدرهم الزائف الذي لا يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقته القليل فليس إنفاقهم عليها من حيث ظننت وكل دين يكون أظهر اختلافاً وأكثر فساداً يحتاج من الترفيع والتمويه ومن الاحتشاد له والغليظ فيه إلى أكثر وقد علمنا أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تعبداً فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيدهم واحتفالهم في إظهار تعليمه .

وقال بعضهم : كنت عند بعض العلماء فكنت أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً فقال لي : اكتب كل ما تسمع فإن أحسن ما تسمع خير من مكانه أبيض .

وقال الخليل بن أحمد : تكثّر من العلم لتعرف وتقلل منه لتحفظ .
وقال أبو إسحاق : القليل والكثير للكتب والقليل وحده للصدر .
وأشد قول ابن يسير : (أما لو أعني كل ما أسمع * وأحفظ من ذاك ما أجمع) (ولم أستفيد غير ما قد جمع * ت قليل هو العالم المصقع) (ولكن نفسي إلى كل نو * ع من العلم تسمعه تنزع) (فلا أنا أحفظ ما قد جمع * ت ولا أنا من جمعه أشبع) (وأحصر بالعي في مجلسي * وعلمي في الكتب مستودع) (فمن يك في علمه هكذا * يكن دهره القهقرى يرجع) (إذا لم تكن حافظاً واعياً * فجمعك للكتب لا ينفع)
التخصص بضروب من العلم وقال أبو إسحاق : كلّف ابن يسير الكتب ما ليس عليها إن الكتب لا تحي الموتى ولا تحوّل الأحق عاقلاً ولا البليد ذكياً ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ وتفتق وتُرهِف وتُشفي ومن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه

فإن ذلك إنما تصوّر له بشيء اعتراه فمن كان ذكياً حافظاً فليقصِد إلى شيئين وإلى ثلاثة أشياء ولا ينزع عن الدرس والمطارحة ولا يدع أن يمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدّر عليه من سائر الأصناف فيكون عالماً بخواصّ ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً إلا نسي ما هو أكثر منه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد .

جمع الكتب وفضلها

وحديثي موسى بن يحيى قال : ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدارس كتاب إلا وله ثلاث نسخ .
وقال أبو عمرو بن العلاء : ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيتُه ينظر في دفتر وجليسه فارغ

اليد إلا اعتقدتُ اللهَ أفضلُ منه وأعقل .

وقال أبو عمرو بن العلاء : قيل لنا يوماً : إنَّ في دارِ فلانٍ ناساً قد اجتمعوا على سَوءةٍ وهم جُلوسٌ على خِيرةٍ لهم وعندهم طُبُورٌ فتسوَّرونا عليهم في جماعةٍ من رجالِ الحيِّ فإذا فتى جالسٌ في وسط

الدار وأصحابُه حوله وإذا هم ييضُ اللَّحَى وإذا هو يقرأ عليهم دفترًا فيه شعر فقال الذي سعى بهم : السَّوءةُ في ذلك البيت وإن دخلتموه عثرتم عليها فقلت : والله لا أكشفُ فتى أصحابه شيوخ وفي يده دفترُ علم ولو كان في ثوبه دُمٌ يحیی بن زكرياء وأنشد رجلٌ يونسَ النحوي : (استودعَ العلمَ قرطاساً فضيعةً * فَبِئْسَ مستودعُ العلمِ القراطيسُ) قال فقال يونس : قاتله الله ما أشدَّ ضنائته بالعلم وأحسنَ صيَّانته له إنَّ علمك من روحك ومالك من بدنك فضعه منك بمكان الرُّوح وضعُ مالك بمكان البدن .

وقيل لابن داحية وأخرج كتابُ أبي الشمقمق وإذا هو في جلود كوفية ودقَّين طائفيتين بخطِّ عجيب فقليل له : لقد أضيع من تجوَّدَ بشعر أبي الشمقمق فقال : لا جرم والله إنَّ العلمَ ليعطيكم على حساب ما تعطونه ولو استطعتُ أن أودعه سُوداءَ قلبي أو أجعله محفوظاً على ناظري لفعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمرته فرأيتُ السَّمَّاطينَ والرجالَ مُثولاً كأنَّ على رؤوسهم الطير ورأيتُ فِرَشَّتَه وبزَّتَه ثم دخلتُ عليه وهو معزول وإذا هو في بيتِ كتبه وحواليه الأسفاطُ والرُّقوق والقماطُ والدفاترُ والمساطرُ والخابرُ فما رأيته قطُّ أفخم ولا أنبل ولا أهيَبَ

ولا أجزل منه في ذلك اليوم لأنَّه جمع مع المهابة الحُبَّة ومع الفخامة الحلاوة ومع السُّودد الحِكْمة .
وقال ابن داحية : كان عبدُ الله بنُ عبدِ العزيز بن عبدِ الله بن عمر بن الخطَّاب لا يجالسُ الناسَ وينزلُ مقبرةً من المقابر وكان لا يكادُ يُرى إلا وفي يده كتابٌ يقرؤه فسئل عن ذلك وعن نزوله (المقبرة فقال : لم أرَ أَوْعظَ من قبر ولا أَمْنَعُ من كتاب ولا أَسْلَمُ من الوحلة فقليل له : قد جاء في الوحلة ما جاء فقال : ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل .

منفعة الخط

وضروبٌ من الخطوطِ بعد ذلك تدلُّ على قدرِ منفعة الخطِّ . قال الله تبارك وتعالى كِرَاماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ وقال الله عزَّ وجلَّ في صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ وقال فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وقال وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ وقال اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً . ولو لم تكتب أعمالهم لكانت محفوظة لا يدخلُ ذلك الحفظُ نسياناً ولكنَّه تعالى وعزَّ علم أن

وخط آخر وهو خطُّ الحازي والعرَّاف والزَّاجر . وكان فيهم حليس الخطَّاط الأسدي ولذلك قال شاعرهم في هجائهم : (فأنتم عضاريط الخُميس إذا غرَّوا * غناؤكم تلُك الأخطيطُ في الثُّربِ) وخطوطُ آخر تكون مستراحاً للأسير والمهموم والمفكر كما يعتري المفكر من قرع السنِّ والغضبان من تصفيق اليد وتجيظ العين . وقال تَابَطَ شَرًّا : (لتقرعنَّ عليَّ السنُّ من نَدَمٍ * إذا تدكَّرت يوماً بعضَ أخلاقي) وفي

خطّ الحزين في الأرض يقول ذو الرمة : (عَشِيَّةَ مَا لِي حِيلَةٌ غَيْرَ أَنِّي * بَلَقَطِ الْحَصَى وَالْخَطَّ فِي الدَّارِ مُوَلِّعٌ) (أخطُّ وأحمو الخطَّ ثم أعيدُهُ * بكفِّي والغربان في الدار وقُع) وذكر النابغة صنيع النساء وفزعهنَّ إلى ذلك إذا سبين واعتربن وفكرن فقال :

(ويخططن بالعيدان في كل منزل * ويخبآن رُمانَ الثدي النواهد) وقد يفرع إلى ذلك الخجلُ والمعلل كما يفرع إليه المهموم وهو قول القاسم ابن أمية بن أبي الصلت : (لا ينقرون الأرض عند سُؤالهم * لتلمس العلات بالعيدان) وقال الحارث بن الكندي وذكر رجلاً سأله حاجة فاعتراه العبثُ بأسنانه فقال : (وأضَّ بكفه يحنكُ ضرساً * يُرينا الله وجعَ بضرٍ) وربما اعترى هؤلاء عدُّ الحصى إذا كانوا في موضع حصى ولم يكونوا في موضع تراب وهو)

قول امرئ القيس : (ظللتُ ردائي فوق رأسي قاعداً * أعدُّ الحصى ما تنقضي حَسراتي) وقال أمية بن أبي الصلت : (نَهراً جارياً وبيتاً علياً * يعتري المعتفين فضلُ نداكا) (في تراخ من المكارم جزل * لم تعللهم بلقط حصاكاً) وقال الآخر وهو يصف امرأة قُتل زوجها فهي محرونة تلقط الحصى : (وبيضاء مكسال كأنَّ وشاحها * على أمِّ أحوى المُقلتين خذول)

(عَقَلْتُ لها من زوجها عندَ الحصى * مع الصُّبح أو في جُحٍ كلِّ أصيل) يقول : لم أُعطيها عقلاً عن زوجها ولم أورها إلاَّ الهمَّ الذي دعاها إلى لقط الحصى يخبر أنَّه لمنعه لا يوصل منه إلى عقل ولا قود . ومما قالوا في الخطِّ ما أنشدنا هشامُ بن محمد بن السائب الكلبي قال : قال المقنَّع الكندي في قصيدة له مدح فيها الوليد بن يزيد : (كالخطِّ في كُتبِ الغلام أجاده * بمداده وأسَدَ من أعلامه) (قلمٌ كخرطوم الحمامة مائل * مُستحفظٌ للعلم من علامه) (يسم الحروف إذا يشاءُ بناءها * لبيانها بالنقط من أرسامه) (من صُوفَةٍ نَفَثَ المداد سُخامه * حتى تغيَّرَ لونُها بسُخامه) (يحفَى فيُقَصِّمُ من شعيرة أنفه * كقلامه الأظفور من قلامه) (وبأنفه شقُّ تلاعم فاستوى * سقي المداد فراد في تلامه) (مُستعجمٌ وهو الفصيحُ بكلِّ ما * نطق اللسان به على استعجامه)

(وله تراجمةٌ بالسنة لهم * تبيان ما يتلون من ترجمه) (ما خطَّ من شيء به كتابه * ما إن يبوخ به على استكتامه) (وهجاؤه قاف ولام بعدها * ميم معلقةٌ بأسفل لامه) ثم قال : (قالت جارحها الغزِيلُ إذ رأت * وجهَ المقنَّع من وراء لثامه) (كم من بُوزِلٍ عامٍها مهريَّة * سُرحَ اليدين ومن بُوزِلٍ عامه) (وهبَ الوليدُ برَحْلها وزمامها * وكذاك ذاك برَحْلِهِ وزمامه) (وقويرح عتدُ أعدِّ لِنِيهِ * لبن اللقوح فعادَ ملءَ حزامه) (وهبَ الوليدُ بسرَّجها ولجامها * وكذاك ذاك بسرَّجه ولجامه) (أهدى المقنَّع للوليد قصيدةً * كالسيف أُرهِفَ حُدَّه بَحْسامه) (وله المآثرُ في قريشٍ كلَّها * وله الخلافةُ بعد موتِ هشامه) وقال الحسن بن جماعة الجذامي في الخطِّ :

(إِلَيْكَ بِسْرِي بَاتَ يُرْقِلُ عَالَمٌ ** أَصَمُّ الصَّدَى مُحَرَّورُ السِّنِّ طَائِعٌ) (بَصِيرٌ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا لَهُ ** لِسَانٌ وَلَا أُذُنٌ بِمَا هُوَ سَامِعٌ) (كَأَنَّ ضَمِيرَ الْقَلْبِ بَاحٌ بِسِرِّهِ ** لَدَيْهِ إِذَا مَا حَثَّ حَشَتُهُ الْأَصَابِعُ) (لَهُ رِيقَةٌ مِنْ غَيْرِ فَرثٍ تَمْلُهُ ** وَلَا مِنْ ضُلُوعٍ صَفَّقَتْهَا الْأَضَالِعُ) (وَقَالَ الطَّائِيُّ يَمْدَحُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ : (وَمَا بِرَحْتِ صُورًا إِلَيْكَ نَوَازِعًا ** أَعْنَتُهَا مُذْ رَاسَلْتُكَ الرِّسَالُ) (لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشِبَابِهِ ** يُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِّي وَالْمَفَاصِلُ) (لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ ** وَأَرَى الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَى دِ عَوَاسِلُ) (لَهُ رِيقَةٌ طُلَّ وَلَكِنَّ وَقَعَهَا ** بَآثَارَهَا فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلُ) (فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْطَقْتَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ ** وَأَعْجَمٌ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلُ) (إِذَا مَا امْتَطَى الْخُمْسَ اللَّطَافَ وَأَفْرَغَتْ ** عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَافِلُ) (أَطَاعَتْهُ أَطْرَافُ الْفَنَاءِ وَتَقَوَّضَتْ ** لَنَجْوَاهِ تَقْوِيضَ الْخِيَامِ الْجَحَافِلُ) (إِذَا اسْتَغْزَرَ الذَّهْنَ الْجَلِيَّ وَأَقْبَلَتْ ** أَعَالِيهِ فِي الْقِرْطَاسِ وَهِيَ أَسَافِلُ)

(وَقَدْ رَفَدَتْهُ الْخِنْصَرَانُ وَسَلَدَتْ ** ثَلَاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلَاثُ الْأَنَامِلُ) (رَأَيْتَ جَلِيلًا شَائُهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ ** ضَنْىً وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلُ) (أَرَى ابْنَ أَبِي مِرْوَانَ أَمَّا لِقَاؤُهُ ** فَدَانٍ وَأَمَّا الْحُكْمُ فِيهِ فَعَادِلُ) (وَقَدْ ذَكَرَ الْبُحْتَرِيُّ فِي كَلِمَةٍ لَهُ بَعْضَ كَهُولِ الْعَسْكَرِ وَمِنْ أَنْبَلِ أَبْنَاءِ كِتَابِهِمُ الْجِلَّةُ فَقَالَ : (وَإِذَا دَجَّتْ أَقْلَامُهُ ثُمَّ انْتَحَتْ ** بَرَقَتْ مَصَابِيحُ الدُّجَى فِي كِتَبِهِ)

الكتابات القديمة

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور ونقشاً في الحجارة وخلقة مَرْكَبَةً فِي الْبُنْيَانِ فَرَبَّمَا كَانَ الْكِتَابُ هُوَ النَّاتِي وَرَبَّمَا كَانَ الْكِتَابُ هُوَ الْحَفَرُ إِذَا كَانَ تَارِيحًا لِأَمْرِ جَسِيمٍ أَوْ عَهْدًا لِأَمْرِ عَظِيمٍ أَوْ مَوْعِظَةً يَرْتَجَى نَفْعُهَا أَوْ إِحْيَاءَ شَرَفٍ يَرِيدُونَ تَخْلِيدَ ذِكْرِهِ أَوْ تَطْوِيلَ مَدَّتِهِ كَمَا كَتَبُوا عَلَى قُبَّةِ عُثْمَانَ وَعَلَى بَابِ الْقَهْرِوَانِ

وعلى باب سَمَرْقَنْدَ وَعَلَى عَمُودِ مَأْرِبٍ وَعَلَى رُكْنِ الْمَشَقَّرِ وَعَلَى الْأَبْلَقِ الْفَرْدِ وَعَلَى بَابِ الرُّهَا يَعْمِدُونَ إِلَى الْأَمَاكِنِ الْمَشْهُورَةِ وَالْمَوَاضِعِ الْمَذْكُورَةِ فَيَضَعُونَ الْخَطَّ فِي أَبْعَدِ الْمَوَاضِعِ مِنَ الدُّثُورِ وَأَمْنَعِهَا مِنَ الدَّرُوسِ وَأَجْدَرَ أَنْ يَرَاهَا مِنْ مَرٍّ بِهَا وَلَا تُنْسَى عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ .

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والتحالفات

وَأَقُولُ : لَوْلَا الْخُطُوطُ لَبَطَلَتِ الْعَهْدُ وَالشُّرُوطُ وَالسَّجَلَاتُ وَالصَّكَّاءُ وَكُلُّ إِقْطَاعٍ وَكُلُّ إِنْفَاقٍ وَكُلُّ أَمَانٍ وَكُلِّ عَهْدٍ وَعَقْدٍ وَكُلِّ جَوَارٍ وَحِلْفٍ وَلِعَظِيمٍ ذَلِكَ وَالثِّقَةُ بِهِ وَالِاسْتِنَادُ إِلَيْهِ كَانُوا يَدْعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ ذِكْرَ الْحِلْفِ وَالْمُذْنَةَ تَعْظِيمًا لِلْأَمْرِ وَتَبْعِيدًا مِنَ النِّسْيَانِ وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ فِي شَأْنِ بَكْرِ وَتَغْلِبُ : (وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قُ ** دَمٌ فِيهِ الْعَهْدُ وَالْكَفْلَاءُ)

(حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّيَّ وَهَلْ يَنْ ** قُضِيَ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ) والمهاريق ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب ولا يقال للكتب مهاريق حتّى تكون كتب دينٍ أو كتب عهودٍ وميثاقٍ وأمان .

الرقوم والخطوط

وليس بين الرُّقُومِ والخطوطِ فرقٌ ولولا الرقوم لهلك أصحابُ البَزِّ والغَزولِ وأصحابُ الساجِّ وعامّةُ المتاجرِ وليسَ بينَ الوُسُومِ التي تكون على الحافرِ كلّهُ والخفِّ كلّهُ والظِّلْفِ كلّهُ وبين الرقومِ فرقٌ ولا بينَ العقودِ والرقومِ فرقٌ ولا بين الخطوطِ والرقومِ كلّها فرقٌ وكلُّها خطوطٌ وكلها كتابٌ أو في معنى الخطِّ والكتابِ ولا بين الحروفِ المجموعَةِ والمصورَةِ من الصوتِ المقطَّعِ في الهواءِ ومن الحروفِ المجموعَةِ المصورَةِ من السوادِ في القرطاسِ فرقٌ واللسانُ : يصنَعُ في جَوْبَةِ الفمِ وهوائه الذي في جوفِ الفمِ وفي خارجه وفي لَهَاتِهِ وباطنِ أسنانه مثلَ ما يصنعُ القلمُ في المدادِ واللَّيْقَةِ والهوائِ والقرطاسِ وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وَخَلَقَ موائلَ ودلالاتٍ فيعرف منها ما كانَ في تلكِ الصُّورِ لكثرةَ تَرَدُّدِها على الأسماعِ ويعرف منها ما كان مصوِّراً من تلكِ الألوانِ لطولِ تَكَرُّرها على الأبصارِ كما استدلُّوا بالصُّحُكِ على السرورِ وبالبكاءِ على الأُمِّ وعلى مثلِ ذلكِ عرفوا معاني الصوتِ وضروبَ صورِ الإشاراتِ وصورِ جميعِ الهيئاتِ

وكما عرف الجنونَ لِقَبِهِ والكلبَ اسمَهُ وعلى مثلِ ذلكِ فهمُ الصبيِّ الزَجَرَ والإغراءِ ووعى الجنونِ الوعيدَ والتهلُّدُ ويمثلُ ذلكِ اشتدادَ حُضْرُ الدابةِ مع رفعِ الصوتِ حتّى إذا رأى سائسَهُ محمّماً وإذا رأى الحمامَ القيمَ عليه انخطَّ للقطرِ الحبَّ قبلَ أن يُلقِيَ له ما يلقطه ولولا الوُسُومُ ونُقُوشُ الخواتمِ لدخلَ على الأموالِ الخلُّ الكثيرُ وعلى خزائنِ الناسِ الضررُ الشديدُ .

الخط والحضارة

وليس في الأرضِ أمةٌ بها طَرِيقٌ أو لها مُسَكَّةٌ ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسْطٌ إلّا ولهم خطٌّ فأما أصحابُ الملكِ والمملكةِ والسُلطانِ والحِجَايةِ والدِّيانَةِ والعبادةِ فهناك الكتابُ المتقنُ والحسابُ المحكَّمُ ولا يخرجُ الخطُّ من الجُزْمِ والمستندِ المنمّمِ والسمونِ كيف كان قال ذلكِ الهيثمُ بنِ عدي وابنِ الكلبي .
تخليدُ الأممِ لمآثرها قال : فكلُّ أمةٍ تعتمدُ في استبقاءِ مآثرها وتحصينِ مناقبها على ضربٍ من الضروبِ وشكلٍ من الأشكالِ .

سقط تخليد العرب لمآثرها

وكانت العربُ في جاهليّتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعرِ الموزونِ والكلامِ المقفّى وكان ذلك هو ديوانها وعلى أنّ الشعرَ يُفيدُ فضيلةَ البيانِ على الشاعرِ الراغبِ والمادحِ وفضيلةَ المأثرةِ على السيّدِ

المرغوب إليه والممدوح به وذهبت العجم على أن تقيّد مآثرها بالبنيان فبنوا مثل كرد بيداد وبنى أردشير بيضاء إصطخر وبيضاء المدائن والحضر والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس قال : ثم إن العرب أحبّت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غمّدان وكعبة نجران وقصر مارد وقصر شعوب والأبلى الفرد وفيه وفي مارد قالوا تمرّد مارد وعزّ الأبلى وغير ذلك من البنيان قال : ولذلك لم تكن الفرس تبيح شريف البنيان كما لا تبيح شريف الأسماء إلا لأهل البيوتات كصنيعهم في النواويس والحمامات والقباب الخضر والشرف على حيطان الدار وكالعقد على الدهليز وما أشبه ذلك فقال بعض من

حضر : كُتب الحكماء وما دوت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات والآداب والأرفاق من القرون السابقة والأمم الخالية ومن له بقيّة ومن لا بقيّة له أبقى ذكراً وأرفع قدراً وأكثر رداً لأنّ الحكمة أنفع لمن ورثها من جهة الانتفاع بها وأحسن في الأحداث لمن أحبّ الذكر الجميل . طمس الملوك والأمراء آثار من قبلهم والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدن لأنّ من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم وأن يُميتوا ذكر أعدائهم فقد هلمّوا بذلك السبب أكثر المدن وأكثر الحصون كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهليّة وعلى ذلك هم في أيام الإسلام كما هدم عثمان صومعة غمّدان وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كلّ قصر ومصنّع كان لابن عامر وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان .

تاريخ الشعر العربي

وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد صغير السنّ أوّل من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حُجر ومُهلهل بن ربيعة وكُتبُ أرسطاطاليس ومعلّمه أفلاطون ثم بطليموس وديمقراطس وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور والأحقاب قبل الأحقاب . ويدلّ على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حُجر : (إنّ بني عوف ابتنوا حسناً * ضيّعه الدُخْلُون إِذْ غَدَرُوا) (أدّوا إلى جارهم خفّارته * ولم يَضِعْ بالمغيّب مَنْ نَصَرُوا) (لا حميريّ وفي ولا عدس * ولا است غير يحكها الثّفر) فانظر كم كان عمر زُرارة وكم كان بين موت زُرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتني عام .

قال : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان

العرب . والشعر لا يُستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل ومتى حوّل تقطّع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط موضع التعجب لا كالكلام المشور والكلام المشور المتبدأ على ذلك أحسن وأوقع من المشور الذي تحوّل من موزون الشعر .

قال : وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين والحكم في الصناعات وإلى كل ما أقام لهم المعاش وبوب لهم أبواب الفطن وعرفهم وجوه المرافق حديثهم كقديمهم وأسودهم كأحمرهم وبعيدهم كقريبهم والحاجة إلى ذلك شاملة لهم .

صعوبة ترجمة الشعر العربي

وقد نُقِلَتْ كتبُ الهند وتُرجمتْ حكم اليونانية وحُوِّلَتْ آدابُ الفرس فبعضها ازدادَ حُسناً وبعضها ما انتقص شيئاً ولو حوِّلتْ حكمة العرب لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن مع أنَّهم لو حوَّلوا لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكرهُ العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم وقد نُقِلَتْ هذه الكتبُ من أمةٍ إلى أمةٍ ومن قرنٍ إلى قرنٍ ومن لسانٍ إلى لسانٍ حتى انتهت إلينا وكنا آخرَ مَنْ ورثها ونظرَ فيها فقد صحَّ أنَّ الكتبَ أبلغُ في تقييدِ المآثر من البُنيان والشعر .

ثم قال بعضُ مَنْ ينصر الشعر ويحوطه ويحتجُّ له : إنَّ التَّرجُمان لا يؤدِّي أبداً ما قال الحكيمُ على خصائص معانيه وحقائق مذهبِهِ

ودقائق اختصاراته وخفيايت حدوده ولا يقدرُ أن يوفيها حقوقها ويؤدِّي الأمانة فيها ويقومَ بما يلزمُ الوكيلَ ويجبُ على الجريِّ وكيف يقدرُ على أدائها وتسليمِ معانيها والإخبار عنها على حقِّها وصدقها إلاَّ أن يكونَ في العلمِ بمعانيها واستعمالِ تصاريِفِ ألفاظها وتأويلاتِ مخارجها ومثْلَ مؤلِّفِ الكتابِ وواضعِهِ فمتى كانَ رحمه الله تعالى ابنُ البَريطيق وابنُ ناعمة وابنُ قُرة وابنُ فِهريز وثيفيل وابنُ هيلي وابنُ المقفَّع مثلاً أرسطاطاليس ومتى كانَ خالدٌ مثلاً أفلاطون

قيمة الترجمة

ولا بدَّ للتَّرجُمان من أن يكونَ بيانهُ في نفس الترجمة في وزنِ علمه في نفسِ المعرفة وينبغي أن يكونَ أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتَّى يكونَ فيهما سواءٌ وغاية ومتى وجدناه أيضاً قد تكلمَ بلسانين علمنا أنَّه قد أدخلَ الضيمَ عليهما لأنَّ كلَّ واحدةٍ من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذُ منها وتعترضُ عليها وكيف يكونُ تمكُّنُ اللسانِ منهما مجتمعين فيه كتمكُّنه إذا انفرد بالواحدة وإنَّما له قوَّةٌ واحدة فإنْ تكلمَ

بلغةٍ واحدة استغرَغتْ تلك القوَّةُ عليهما وكذلك إنْ تكلمَ بأكثرَ من لغتين وعلى حساب ذلك تكون الترجمةُ لجميع اللغات وكلِّما كانَ البابُ من العلمِ أعسرَ وأضيق والعلماءُ به أقلُّ كانَ أشدَّ على المترجم وأجدرُ أن يخطئَ فيه ولن تجدَ البتَّةَ مترجماً يفي بواحدٍ من هؤلاء العلماء .

ترجمة كتب الدين

هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه فما لا يجوز عليه حتى يريد أن يتكلم على تصحيح المعاني في الطبائع ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد ويتكلم في وجوه الإخبار واحتمالاته للوجوه ويكون ذلك متضمناً بما يجوز على الله تعالى فما لا يجوز وبما يجوز على الناس مما لا يجوز وحتى يعلم مستقر العام والخاص والمقابلات التي تلقى الأخبار العامة المخرج فيجعلها خاصة وحتى يعرف من الخبر ما يخصه الخبر الذي هو أثر مما يخصه الخبر الذي هو قرآن وما يخصه العقل مما تخصه العادة أو الحال الرائدة له عن العموم وحتى يعرف ما يكون من الخبر صدقاً أو كذباً وما لا يجوز أن يسمى بصدق ولا كذب وحتى يعرف اسم الصدق والكذب وعلى كم معنى يشتمل ويجمع وعند فقد أي معنى ينقلب ذلك الاسم وكذلك معرفة المحال من الصحيح وأي شيء تأويل المحال وهل يسمى المحال كذباً أم لا يجوز ذلك وأي القولين أفحش : المحال أم الكذب وفي أي موضع يكون المحال أقطع والكذب أشنع وحتى يعرف المثل والبديع والوحي

والكناية وفصل ما بين الخطأ والمذر والمقصور والمبسوط والاختصار وحتى يعرف أبنية الكلام وعادات القوم وأسباب تفاهمهم والذي ذكرنا قليل من كثير ومتى لم يعرف ذلك المترجم خطأ في تأويل كلام الدين والخطأ في الدين أضرب من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء وفي بعض المعيشة التي يعيش بها (بنو آدم .)

وإذا كان المترجم الذي قد ترجم لا يكمل لذلك خطأ على قدر نقصانه من الكمال وما علم المترجم بالدليل عن شبه الدليل وما علمه بالأخبار النجومية وما علمه بالحدود الخفية وما علمه بإصلاح سقطات الكلام وأسقاط الناسخين للكتب وما علمه ببعض الخطورة لبعض المقدمات وقد علمنا أن المقدمات لا بد أن تكون اضطرارية ولا بد أن تكون مرتبةً وكالخيطة الممدودة وابن البطريق وابن قرة لا يفهمان هذا موصوفاً منزلاً ومرتباً مفصلاً من معلم رقيق ومن حاذق طب فكيف بكتاب قد تداولته اللغات واختلاف الأقلام وأجناس خطوط الملل والأمم ولو كان الحاذق بلسان اليونانيين يرمي إلى الحاذق بلسان العربية ثم كان العربي مقصراً عن مقدار بلاغة اليوناني لم يجد المعنى والناقل التقصير ولم يجد اليوناني الذي لم يرض بمقدار بلاغته في لسان العربية بدءاً من الاعتقار والتجاوز ثم يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين وذلك أن نسخته لا يعدمها الخطأ ثم ينسخ له من تلك النسخة

من يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة ثم لا يقص منه ثم يعارض بذلك من يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله إذا كان ليس من طاقته إصلاح السقط الذي لا يجده في نسخته .

مشقة تصحيح الكتب

ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيحاً أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حرّ اللفظ وشریف المعاني أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يردّه إلى موضعه من اتصال الكلام فكيف يطبق ذلك

المعرض المستأجر والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب وأعجب من ذلك أنه يأخذ بأمرين : قد أصلح
الفساد وزاد الصالح صلاحاً ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لإنسان آخر فيسير فيه الوراق الثاني
سيرة الوراق الأول ولا يزال الكتاب تداوله الأيدي الجانية والأغراض المفسدة حتى يصير غلطاً صرفاً
وكذباً مصمماً فما ظنكم بكتاب تتعاقبه المترجمون بالإفساد وتتعاوره الخطاط بشر من ذلك أو بمثله كتاب
متقادم الميلاد دهرى الصنعة .

بين أنصار الكتب وأنصار الشعر

قالوا : فكيف تكون هذه الكتب أنفع لأهلها من الشعر المقفى قال الآخر : إذا كان الأمر على ما قلتم
والشأن على ما نزلتم أليس

معلوماً أن شيئاً هذه بقيته وفضلته وسوره وصوابته وهذا مظهر حاله على شدة الضيم وثبات قوته على
ذلك الفساد وتداول القص حري بالتعظيم وحقيق بالتفضيل على البنيان والتقديم على شعر إن هو حوّل
تفاوت ونفعه مقصور على أهله وهو يعدّ من الأدب المقصور وليس بالميسوط ومن المنافع الاصطلاحية
وليست بحقيقة بيّنة وكل شيء في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات فهي موجودات في هذه الكتب
دون الأشعار وهاهنا كتب هي بيننا وبينكم مثل كتاب أقليدس ومثل كتاب جالينوس ومثل المجسطي مما
تولاه الحجاج وكتب كثيرة لا تحصى فيها بلاغ للناس وإن كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومغيرة فالباقى
كاف شاف والغائب منها كان تكميلاً لتسلط الطبائع الكاملة .
فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا ومنتهى نفعه إلى حيث انتهى بنا القول .

وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة
وأبواب الأصباغ والعطر والأطعمة والآلات وهم أتوكم بالحكمة والمنفعة التي في الحمّات وفي
الأصطرلابات والقرسطونات وآلات معرفة الساعات وصناعة الزجاج والفسيفساء والأسرنج والزنجفور
واللازورد والأشربة والأنبجات والآبارجات ولكم)
المينا والنشادر

والشبه وتعليق الحيطان والأساطين ورد ما مال منها إلى التقويم ولهم صب الزردج واستخراج النشاستج
وتعليق الخيش واتخاذ الجمّازات وعمل الحرّاقات واستخراج شراب الداذي وعمل الدّبابات .

ما ابتدعه الحجاج من السفن والحامل

وكان الحجاجُ أوَّلَ مَنْ أجرى في البحر السفنَ المقيَّرةَ المسمَّرةَ غيرَ المخرَّزةَ والمدهونةَ والمسطَّحةَ (أوَّلَ خَلْقٍ عَمِلَ الحَامِلًا ** أخزاهُ رَبِّي عاجلاً وَّآجِلاً) وقال آخر : (شَيَّبَ أَصْدَاغِي فَهِنَّ بَيَّضُ ** مَحَامِلٌ لَقَدْهَا نَقِيضُ) وقال آخر :

(شَيَّبَ أَصْدَاغِي فَهِنَّ بَيَّضُ ** مَحَامِلٌ فِيهَا رِجَالٌ قَبِضُ) لو يتكون سنة لم يعرضوا وقال القوم : لولا ما عرفوكم من أبواب الحُمْلانات لم تعرفوا صنعة الشَّبه ولولا غَضَارُ الصَّينِ على وجه الأرض لم تعرفوا الغَضار على أَنَّ الذي عَمِلْتُمْ ظاهرٌ فيه التوليدُ منقوصُ المنفعة عن تمام الصَّيْنِ وعلى أَنَّ الشَّبه لم تستخرجوه وإنَّما ذلك من الأمور التي وقعت اتفاقاً لسقوط الناطف من يد الأجير في الصُّفَرِ الذائبِ فَخِفْتُمْ إفساده فلمَّا رأيتم ما أعطاه من اللون عَمِلْتُمْ في الزيادة والنقصان وكذلك جميع ما قَمَّيا لكم ولستم تخرُجون في ذلك من أحدٍ أمرين : إمَّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علمٍ ما أورثوكم وإمَّا أن يكون ذلك قَمَّياً لكم من طريق الاتفاق

الجمازات

وقد علمتم أنَّ أوَّلَ شأنِ الجَمَازاتِ أَنَّ أُمَّ جعفرِ أمرتِ الرِّحَالِينَ أن يَريدُوا في سيرِ النجبية التي كانت عليها وخافت فوتَ الرشيد فلما حُرِّكت مشَّتْ ضروباً من المشي وصنوفاً من السير فجَمَزت في

خلال ذلك وواظمت امرأةً تحسن الاختيار وتفهم الأمور فوجدت لذلك الجمزِ راحةً ومع الراحة لذةً فأمرتهم أن يسيروا بها في تلك السَّيرة فما زالوا يقرَّبون ويبعدون ويخطئون ويصيبون وهي في كلِّ ذلك تصوِّبهم وتخطئهم على قدر ما عرفتُ حتى شَدَّوا من معرفة ذلك ما شَدَّوا ثُمَّ إِنَّها فرغتهم لإتمام ذلك حتى تَمَّ واستوى وكذلك لا يخلو جميعُ أمركم من أن يكون اتفاقاً أو اتِّباعَ أثر .

الترغيب في اصطناع الكتاب

ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب في اصطناع الكتاب والاحتجاج على مَنْ زَرَى على واضعِ الكتبِ فأقول : إنَّ من شكرِ النعمة في معرفة مغاوي الناس ومَرَّاشِدِهِمْ ومضارِّهِمْ ومنافعِهِمْ أن يُحْتَمَلَ ثَقُلُ مؤونتهم في تقويمهم وأن يُتَوَخَّى إرشادُهُمْ وإن جهلوا فضلَ ما يُسَدَّى إليهم فلن يُصانَ العلمُ بمثلِ بذله ولن تُستَبقى النعمة فيه بمثلِ نشره على أَنَّ قراءةَ الكتبِ أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم إذ كان مع التلاقي يشتدُّ التصنُّعُ ويكثرُ التظالمُ وتُفترطُ العصبيةُ وتقوى الحميةُ وعند المواجهةِ والمقابلةِ يشتدُّ حبُّ الغلبةِ وشهوةُ المباهاةِ والرياسة مع الاستحياء من الرجوع والأنفية من الخضوع وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفةِ وعلى هذه

الهيئة امتنعت من التعرف وعميت عن مواضع الدلالة وليست في الكتب علة تمنع من ذلك البغية وإصابة الحجة لأن المتوحد بدرسها والمنفرد بفهم معانيها لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله وقد عليم من له يباهي ومن أجله يغالب .

الكتاب قد يفضل صاحبه

والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ويرجح قلمه على لسانه بأمر : منها أن الكتاب يُقرأ بكل مكان ويظهر ما فيه على كل لسان ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار وتباعد ما بين الأمصار وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب والمنازع في المسألة والجواب ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه ومبلغ صوته وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل ويبقى أثره ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم لما حسن حظنا من الحكمة ولضعف سببنا إلى المعرفة ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرننا ومنتهى تجاربنا

لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا قللت المعرفة وسقطت الهمة وارتفعت العزيمة وعاد الرأي عقيماً والخاطر فاسداً ولكل الحد وتبدل العقل .

أفضل الكتب

وأكثر من كتبهم نفعاً وأشرف منها خطراً وأحسن موقفاً كتب الله تعالى فيها الهدى والرحمة والإخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصُحف والمهارق والمصاحف وقال الله عز وجل ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه وقال : ما فرطنا في الكتاب من شيء ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب .

مواصلة السير في خدمة العلم

وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على آثا وقد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا فما يتتظر العالم بإظهار ما عنده وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه وقد أمكن القول وصلاح الدهر وخوى نجم النقيّة

وهبت ريح العلماء وكسد العي والجهل وقامت سوق البيان والعلم وليس يجد الإنسان في كل حين إنساناً يدرّبه ومقوماً يتقّفه والصبر على إفهام الرّيض شديد وصرف النفس عن مغالبة العالم أشد منه والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عبداً وبما يحتاج إليه قائماً وما أكثر من فرط في التعليم أيام خمّول ذكره وأيام حداثة سنّه ولولا جياذ الكتب وحسنها ومبينها ومختصرها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونزعت إلى حب

الأدب وأنفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشو ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة ومن الجهل وسوء الحال وما عسى ألا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا

كتب أبي حنيفة

وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يعد فقيهاً ولا يجعل قاضياً فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشابه أبي حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر بابه فتظن أنه من باب بعض العمال وبالحرأ ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان

وجوب العناية بتنقيح المؤلفات وينبغي لمن كتب كتاباً ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء وكلهم عالم بالأمور وكلهم متفرغ له ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً ولا يرضى بالرأي الفطير فإن لا ابتداء الكتاب فتنه وعجباً فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الأخلاق وعادت النفس وافرة أعد النظر فيه فيتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ويفهم معنى قول الشاعر : (إن الحديث تغر القوم خلوته * حتى يلج بهم عي وإكثار) ويقف عند قولهم في المثل : كل مجر في الخلاء يسر فيخاف أن يعتريه ما اعتري من أخرى فرسه وحده أو خلا بعلمه عند فقد خصومه وأهل المنزلة من أهل صناعته .

تداعي المعاني في التأليف

وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه

فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة لأنه ابتداء الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة فزاد في غضبه فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار وكذلك صاحب القلم فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب

مقايضة بين الولد والكتاب

واعلم أن العاقل إن لم يكن بالمتبع فكثيراً ما يعتريه من ولده أن يحسن في عينه منه المقبح في عين غيره فليعلم أن لفظة أقرب نسباً منه من ابنه وحركته أمس به رحماً من ولده لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته ومن عين جوهره فصلت ومن نفسه كانت وإنما الولد كالمنخطة يتمخطها والثخامة يقذفها ولا سواء إخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك وإظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنة بكلامه وكتبه فوق فتنة بجميع نعمته .

ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه حتَّى لا يحتاجُ

السامع لما فيه من الروية ويحتاجُ من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السُّفلة والحَشْوِ ويحطُّه من غريب الأعراب ووحشيِّ الكلام وليس له أن يهدِّبه جدًّا وينقِّحه ويصفِّيه ويروِّقه حتى لا ينطقَ إلاَّ بلَبِّ اللَّبِّ وباللفظ الذي قد حذف فُضُولُه وأسقطَ زوائده حتَّى عاد خالصاً لا شَوْبَ فيه فإنَّ فعل ذلك لم يُفهم عنه إلاَّ بأن يجدد لهم إفهاماً مَراراً وتكراراً لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعودوا المسوِّطَ من الكلام وصارت أفهامهم لا تريد على عاداتهم إلاَّ بأن يعكس عليها ويؤخذ بها ألا ترى أنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره وفي كتاب إقليدس كلامٌ يدور وهو عربيٌّ وقد صُنِّيَ ولو سمع بعض الخطباء لما فهمه ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعليمه لأنَّه يحتاج إلى أن يكون قد عرَفَ جهته

الأمر وتعود اللفظ المنطقي الذي استُخرج من جميع الكلام .

قول صحار العبدى في الإيجاز

قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما لصُحارِ العبدى :

ما الإيجاز قال : أن تحبَّ فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ قال معاوية : أو كذلك تقول قال صحار : أقلني يا أمير المؤمنين لا تخطئ ولا تبطئ .
فلو أن سائلاً سألك عن الإيجاز فقلت : لا تخطئ ولا تبطئ وبحضرتك خالد بن صفوان لما عرَفَ بالبديهة وعند أوَّل وهلة أن قولك لا تخطئ متضمَّن بالقول وقولك لا تبطئ متضمَّن بالجواب وهذا حديثٌ كما ترى آثروه ورَضُّوه ولو أن قائلًا قال لبعضنا : ما الإيجاز لظننتُ أنه يقول : الاختصار .
والإيجاز ليس يُعنى به قلة عدد الحروف واللفظ وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومارٍ فقد أوجز وكذلك الإطالة وإنَّما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه ولا يردِّد وهو يَكْنِفي في الإفهام بشطره فما فضل عن المقدار فهو الخطل .
استغلاق كتب الأخفش وقلتُ لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالتَّحْوِ فلم لا تجعلُ

كتبك مفهومةً كلّها وما بأننا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالكَ تقدِّم بعض العويص وتؤخِّر بعض المفهوم قال : أنا رجلٌ لم أضعُ كُتُبِي هذه لله وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلتُ حاجاتهم إليَّ فيها وإنَّما كانت غايي المأالة فأنا أضعُ بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التمسُّل فهم ما لم يفهموا وإنَّما قد كسبتُ في هذا التدبير إذ كنتُ إلى التَّكسُّب ذهبت ولكن ما بال إبراهيم النِّظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ثم يأخذها مثلي في مواقفته وحسن

نظره وشدّة عنايته ولا يفهم أكثرها وأقول : لو أنّ يوسف السَّمْنِيّ كتب هذه الشروط أيّامَ جلسَ سلمان بن ربيعة شهرين للقضاء فلم يتقدّم إليه رجُلان والقلوب سليمةٌ والحقوقُ على أهلها موفّرةٌ لكان ذلك خطأً ولغواً ولو كتبَ في دهره شروطَ سلمان لكان ذلك غرارةً ونقصاً وجهلاً بالسياسةِ وبما

مواضع الإسهاب

ووجدنا الناسَ إذا خطّبوا في صلحٍ بين العشائر أطالوا وإذا أنشدوا

الشعر بين السّماطين في)

مديح الملوك أطالوا وللإطالة موضعٌ وليس ذلك بخطأٍ وللإقلال موضعٌ وليس ذلك من عجز .
ولولا أنّي أتكل على أنّك لا تملُّ بابَ القولِ في البعير حتّى تخرجَ إلى الفيل وفي الذرّة حتّى تخرجَ إلى البعوضة وفي العقرب حتّى تخرجَ إلى الحية وفي الرجل حتّى تخرجَ إلى المرأة وفي الذّبان والنحل حتّى تخرجَ إلى الغرّبان والعقّبان وفي الكلب حتّى تخرجَ إلى الديك وفي الذئب حتّى تخرجَ إلى السبع وفي الطلّف حتّى تخرجَ إلى الحافر وفي الحافر حتّى تخرجَ إلى الخفّ وفي الخفّ حتّى تخرجَ إلى الثرثن وفي البرثن حتّى تخرجَ إلى المخلب وكذلك القول في الطير وعامة الأصناف لرأيتُ أنّ جملة الكتاب وإن كثر عدو ورقه أنّ ذلك ليس ممّا يُملُّ ويُعتدُّ عليّ فيه بالإطالة لأنّه وإن كان كتاباً واحداً فإنّه كتبَ كثيرة وكلُّ مُصحّف منها فهو أمٌّ على حدة فإن أرادَ قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأوّل حتّى يهجمَ على الثاني ولا الثاني حتّى يهجمَ على الثالث فهو أبداً مستفيدٌ ومستطرفٌ وبعضه يكون جَماماً لبعض ولا يزالُ نشاطه زائداً ومتى خرجَ من أي القرآن صارَ إلى الأثر ومتى خرجَ من أثر صارَ إلى خبر ثم يخرجُ من الخبر إلى شعر ومن الشعر إلى نوارٍ ومن النوارٍ إلى حكمٍ عقليةٍ ومقاييس سداد ثم لا يترك هذا الباب ولعلّه

أن يكون أثقلَ والمالُ إليه أسرع حتّى يفضيَ به إلى مزحٍ وفكاهة وإلى سُخفٍ وخُرافة ولست أراه سُخفاً إذ كنتُ إنما استعملتُ سيرة الحكماء وآداب العلماء .

مخاطبة العرب وبنو إسرائيل في القرآن الكريم ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطبَ العربَ والأعرابَ أخرجَ الكلامَ مُخرَجَ الإشارة والوحي والحذف وإذا خاطَبَ بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام فأصوبُ العمل اتّباعُ آثار العلماء والاحتذاءُ على مثال القدماء والأخذُ بما عليه الجماعة .

أقوال بعض الشعراء في صفة الكتب قال ابن يسير في صفة الكتب في كلمة له : (أقبلتُ أهْرُبُ لا آلو مُباعدةً ** في الأرض منهم فلم يُخصني الهربُ) (بقصر أوس فما والت خنادقه ** ولا النواويسُ فالماخورُ فالخربُ) (فأيّما موئلاً منها اعتصمتُ به ** فمن ورائي حثيثاً منهم الطلبُ) (لما رأى تُ باني لستُ معجزهم ** فوتا ولا هرباً قرّبتُ احتجبُ)

(فصرتُ في البيت مسروراً بهم جدلاً ** جازَ البراءة لا شكوى ولا شغبُ) (هم مؤنسون وألّاف غنيّتُ بهم ** فليس لي في أنيسٍ غيرهم أربُ) (لله من جلّساءٍ لا جليسهُم ** ولا عشيرهُمُ للسوءِ مرتقبُ) (لا

بَادِرَاتِ الْأَدَى يَخْشَى رَفِيقَهُمْ ** وَلَا يُلَاقِيهِ مِنْهُمْ مَنْطِقٌ ذَرْبُ) (أَبْقُوا لَنَا حِكْمًا تَبْقَى مِنْهَا ** أُخْرَى
الليالي على الأيام وانشعوا) (فَأَيُّمَا آدَبٍ مِنْهُمْ مَدَدْتُ يَدِي ** إِلَيْهِ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ يَدِي كَثْبُ) (إِنْ
شَتُّ مِنْ مُحْكَمِ الْآثَارِ يَرْفَعُهَا ** إِلَى النَّبِيِّ ثَقَاتٌ خَيْرَةٌ نُجُبُ) (أَوْ شَتُّ مِنْ عَرَبٍ عِلْمًا بَأْوَلِهِمْ ** فِي
الْجَاهِلِيَّةِ أَنْبَتْنِي بِهِ الْعَرَبُ) (أَوْ شَتُّ مِنْ سِيرِ الْأَمْلَاقِ مِنْ عَجَمٍ ** تُنْبِي وَتُخْبِرُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبُ) (
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْ ** وَقَدْ مَضَتْ دُونَهُمْ مِنْ دَهْرِهِمْ حَقْبُ) (يَا قَائِلًا قَصُرَتْ فِي الْعِلْمِ نُهْيَتُهُ
** أَمْسَى إِلَى الْجَهْلِ فِيمَا قَالَ يَنْتَسِبُ) (إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدْ بَانُوا بِعِلْمِهِمْ ** خِلَافَ قَوْلِكَ قَدْ بَانُوا وَقَدْ ذَهَبُوا)

(مَا مَاتَ مِنَّا امْرُؤٌ أَبْقَى لَنَا أَدَبًا ** نَكُونُ مِنْهُ إِذَا مَا مَاتَ نَكْتَسِبُ) (وَقَالَ أَبُو وَجْزَةَ وَهُوَ يَصِفُ صَحِيفَةً
كُتِبَ لَهَا فِيهَا بَسْتَيْنِ وَسَقَا : (رَاحَتْ بَسْتَيْنِ وَسَقَا فِي حَقِيقَتِهِ ** مَا حُمِلَتْ حِمْلُهَا الْأَدْنَى وَلَا السَّدَا) (وَقَالَ
الرَّاجِزُ : (تَعْلَمَنَّ أَنَّ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَ ** تَبْقَى وَيُفْنِي حَدَثُ الدَّهْرِ الْعَنَمُ) (يَقُولُ : كِتَابُكَ الَّذِي تَكْتُبُهُ عَلَيَّ
يَبْقَى فَتَأْخُذْنِي بِهِ وَتَذْهَبُ غَنَمِي فِيمَا يَذْهَبُ .

نَشْرُ الْأَخْبَارِ فِي الْعِرَاقِ وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى نَفْعِ الْكِتَابِ أَنَّهُ لَوْلَا الْكِتَابُ لَمْ يُجْزَ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلُ الرَّقَّةِ وَالْمَوْصِلِ
وَبَغْدَادَ وَوَسَطَ مَا كَانَ بِالْبَصْرَةِ وَمَا يَحْدُثُ بِالْكُوفَةِ

فِي بِيَاضِ يَوْمٍ حَتَّى تَكُونَ الْحَادِثَةُ بِالْكُوفَةِ غُدْوَةً فَتَعْلَمُ بِهَا أَهْلُ الْبَصْرَةِ قَبْلَ الْمَسَاءِ .
وَذَلِكَ مَشْهُورٌ فِي الْحَمَامِ الْمُدَى إِذَا جُعِلَتْ بُرْدًا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ وَذَكَرَ سُلَيْمَانُ وَمَلِكُهُ الَّذِي لَمْ يَوْتَ أَحَدًا
مِثْلَهُ فَقَالَ وَتَقَفَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْمُدَّهْدُ إِلَى قَوْلِهِ : أَوْ لَاذِيحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَلَمْ يَلْبَثْ
أَنْ قَالَ الْمُدَّهْدُ : جِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بَنَاءً يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ
قَالَ سُلَيْمَانُ : اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ)

إِلَيْهِمْ وَقَدْ كَانَ عِنْدَهُ مَنْ يَلْغُ الرِّسَالَةَ عَلَى تَمَامِهَا . مِنْ عَفْرِيتٍ وَمِنْ بَعْضٍ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ فَرَأَى
أَنَّ الْكِتَابَ أَهْيَ وَأَنْبَلُ وَأَكْرَمُ وَأَفْخَمُ مِنَ الرِّسَالَةِ عَنْ ظَهْرِ لِسَانٍ وَإِنْ أَحَاطَ بِجَمِيعِ مَا فِي الْكِتَابِ وَقَالَتْ
مَلِكَةُ سَبَأٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ فَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى اسْتِخْدَامِ الْكِتَابَةِ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا وَقَدْ
يُرِيدُ بَعْضُ الْجَلَّةِ الْكِبَارِ وَبَعْضُ الْأُدْبَاءِ وَالْحُكَمَاءِ أَنْ يَدْعُو بَعْضَ مَنْ يَجْرِي مَجْرَاهُ فِي سُلْطَانٍ أَوْ آدَبٍ إِلَى
مَأْذِيَةٍ أَوْ نِدَامٍ أَوْ خُرُوجٍ إِلَى مَتَنَزَّةٍ أَوْ بَعْضَ مَا يَشْبَهُ ذَلِكَ فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَلْغَهُ الرِّسُولُ

إِرَادَتُهُ وَمَعْنَاهُ لِأَصَابَ مَنْ يُحْسِنُ الْأَدَاءَ وَيَصْلُقُ فِي الْإِبْلَاحِ فَيَرَى أَنَّ الْكِتَابَ فِي ذَلِكَ أَسْرَى وَأَنْبَهَ وَأَبْلَغُ .
وَلَوْ شَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَّا يَكْتُبَ الْكِتَابَ إِلَى كَسْرَى وَقَيْصَرَ وَالتَّجَاشِيَّ وَالْمُفَوِّقَ وَإِلَى ابْنِ
الْجُلْنَدِيِّ وَإِلَى الْعَبَاهِلَةِ مِنْ حَمِيرٍ وَإِلَى هُوْدَةَ بْنِ عَلِيٍّ وَإِلَى الْمُلُوكِ وَالْعِظَمَاءِ وَالسَّادَةِ النُّجَبَاءِ لَفَعَلَ وَلَوْ جَدَّ الْمُبْلَغُ
الْمَعْصُومُ مِنَ الْخَطَا وَالتَّبْدِيلِ وَلَكِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلِمَ أَنَّ الْكِتَابَ أَشْبَهُ بِتِلْكَ الْحَالِ وَأَلِيقَ بِتِلْكَ
الْمَرَاتِبِ وَأَبْلَغُ فِي تَعْظِيمِ مَا حَوَاهِ الْكِتَابُ .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ الْبَشَارَاتِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ بِالْمُرْسَلِينَ وَلَمْ يُوَدِّعْهَا الْكِتَابَ لَفَعَلَ وَلَكِنَّهُ تَعَالَى وَعَزَّ عِلْمُ أَنْ
ذَلِكَ أَمُّ وَأَكْمَلُ وَأَجْمَعُ وَأَنْبَلُ .

وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من يشاكلة أو يجري مجراه فلا يرضى بالكتاب حتى يخرمه ويختمه وربما لم يرض بذلك حتى يُعْتَوَنه ويعظمه قال الله جل وعز : أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى فذكر صحف موسى الموجودة نظام التورث عند فلاسفة اليونانية قالوا : وكانت فلاسفة اليونانية تورث البنات العين وتورث البنين الدين : وكانت تصل العجز بالكفاية والمؤونة بالكلفة وكانت تقول :

لا تورثوا الابن من المال إلا ما يكون عوناً له على طلب المال واغذوه بحلاوة العلم واطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال وليرى أنه العدة والعتاد وأنه أكرم مستفاد .
وكانوا يقولون : لا تورثوا الابن من المال إلا ما يسد الخلة ويكون له عوناً على درك الفضول إن كان لا بُدَّ من الفضول فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فسادهِ وإن كان صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم وبقيتهم له من الكفاية ما يكسبه الحال فإن الحال أفضل من المال ولأنَّ (
المال لم يزل تابعاً للحال وقد لا يتبع الحال المال وصاحب الفضول بعرض فساد وعلى شفا إضاعة مع تمام الحنكة واجتماع القوة فما ظنكم بها مع غرارة الحداثة وسوء الاعتبار وقلة التجربة .
وكانوا يقولون : خير ميراث ما أكسبك الأركان الأربعة وأحاط بأصول المنفعة وعجل لك حلاوة الحبة وبقي لك الأحدوثة الحسنة وأعطاك عاجل الخير وآجله وظاهره وباطنه .
وليس يجمع ذلك إلا كرام الكتب النفيسة المشتملة على ينابيع العلم والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الأرفاق وحجج الدين الذي بصحته وعند وضوح برهانه تسكن النفوس وتتلج الصدور ويعود القلب معموراً والعز راسخاً والأصل فسيحاً .
وهذه الكتب هي التي تريد في العقل وتشحذه وتداويه وتصلحه وتهذبه وتنفي الحُبث عنه وتفيدك العلم وتصادق بينك وبين الحجة وتعودك الأخذ بالثقة وتجلب الحال وتكسب المال .

وراثته الكتب

وراثته الكتب ووراثته الكتب الشريفة والأبواب الرفيعة منبهة للمورث وكنز عند الوارث إلا أنه كنز لا تجب فيه الزكاة ولا حق السلطان وإذا كانت الكنوز جامدة ينقصها ما أخذ منها كان ذلك الكثر مانعاً يزيده ما أخذ منه ولا يزال بها المورث مذكوراً في الحكماء ومنوهاً باسمه في الأسماء وإماماً متبوعاً وعلماً منصوباً فلا يزال الوارث محفوظاً ومن أجله محبوباً ممنوعاً ولا تزال تلك الحجة نامية ما كانت تلك القوائد قائمة ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر وقالوا : من ورثته كتاباً وأودعته علماً فقد ورثته ما يُغَل ولا يَسْتَعِل وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة ولا إلى سقي ولا إلى إسجال بإيغار ولا إلى شرط ولا تحتاج إلى أكار ولا إلى أن تُثار وليس عليها عُشر ولا للسلطان عليها خرج وسواء أفدته علماً أو ورثته آلة علم وسواء دفعك إليه

الكفاية أو ما يجلب الكفاية وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان فمن لم يقدر إلا على دفع السبب ولم يجب عليه إحضار المسبب فكُتب الآباء تحييب للأحياء ومحي لذكر الموتى .

وقالوا : ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً وكانت موارثه كتباً بارعة وآداباً جامعة كان الولد أجدر أن يرى التعلم حظاً وأجدر أن يسرع التعليم إليه ويرى تركه خطأً وأجدر أن يجري من (الأدب على طريق قد أفهج له ومنهاج قد وطئ له وأجدر أن يسري إليه عرق من نجله وسقي من غرسه وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسب النظر في الكتب فلا يأتي عليه من الأيام مقدارُ الشغل بجمع الكتب والاختلاف في سماع العلم إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة وإنما تُفسد الكفاية من له تمت آلاته وتوافت إليه أسبابه فأما الحدّث الغرير والمنقوص الفقير .

فخير موارثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام ويكمل للطلب فخير ميراثٍ ورث كتبٌ وعلم وخير المورثين من أورث ما يجمع ولا يفرق ويصّر ولا يُعمي ويُعطي ولا يأخذ ويجود بالكلّ دون البعض ويدع لك الكثر الذي ليس للسلطان فيه حقّ والركاز الذي ليس للفقراء فيه نصيب والنّعمة التي ليس للحاسد فيها حيلة ولا للصوص فيها رغبة وليس للخصم عليك فيه حجة ولا على الجار فيه مؤونة .

وأما ديمقراط فإنه قال : ينبغي أن يعرف أنه لا بدّ من أن يكون لكلّ كتاب علم وضعه أحدٌ من الحكماء ثمانية أوجه : منها الهمة والمنفعة والنسبة والصحة والصنّف والتأليف والإسناد والتدبير فأولها أن

تكون لصاحبه همة وأن يكون فيما وضع منفعة وأن يكون له نسبة يُنسب إليها وأن يكون صحيحاً وأن يكون على صنف من أصناف الكتب معروفاً به وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة وأن يكون له تدبير موصوف .

فذكر أن أبقرات قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب وهو كتابه الذي يسمى أفوريسموا تفسيره كتاب الفصول .

مقابلة في شأن الكلب وقولك : وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم أصله وخُبث طبعه وسقوط قدره ومهانة نفسه ومع قلة خيره وكثرة شره واجتماع الأمم كلّها على استسقاطه واستسفالته ومع ضربهم المثل في ذلك كلّ به ومع حاله التي يعرف بها ومن العجز عن صولة السباع واقتدارها وعن تمنّعها وتشرفها وتوحّشها وقلة إسماعها وعن مسالة البهائم وموادعتها والتمكين من إقامة مصلحتها والانتفاع بها إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها ولا الاحتيال لمعاشها ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخوفة ولأنّ الكلب ليس بسبع تام ولا بهيمة تامة حتى كأنه من الخلق المركّب والطبائع الملفّقة والأخلاق المتخلطة كالبغل المتلوّن في أخلاقه الكثير العيوب المتولّدة)

عن مزاجه .

وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادّة والأخلاق المتفاوتة والعناصر المتباعدة كالراعي من الحمام الذي ذهبت عنه هداية الحمام

وشكل هديره وسرعة طيرانه وبطل عنه عمر الورشان وقوة جناحه وشدة عصبه وحسن صوته وشحو حلقه وشكل لونه وشدة إطرابه واحتماله لوقع البنادق وجرح المخالب وفي الراعي أنه مُسرّول متقل وحدث له عظمُ بدن وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمه .

وكذلك البغل خرج من بين حيوانين يلدان حيواناً مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقرة فلو كان البغل عقيماً والبغلة عاقراً لكان ذلك أزيد في قوتها وأتمّ لشدهما فمع البغل من الشبق والنَّعْظ ما ليس مع أبيه ومع البغلة من السَّوس وطلب السفاد ما ليس مع أمها وذلك كله قدح في القوة ونقص في البنية وخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأحواله فترك شيهما ونزع إلى شيء ليس له في الأرض أصل وخرج أطول عمراً من أبويه وأصبر على الأثقال من أبويه .

أو كابن المذكورة من النساء والمؤنث من الرجال فإنه يكون أخيث نتاجاً من البغل وأفسد أعراقاً من السَّمع وأكثر عيوباً من العسبار ومن كل خلق خلق إذا تركب من ضد ومن كل شجرة مُطعمَةٌ بخلاف .
وليس يعتري مثل ذلك الخلاسي من الدجاج ولا الورداني من الحمام .

وكل ضعف دخل على الخلقة وكل رقة عرضت للحيوان فعلى قدر جنسه وعلى وزن مقداره وتمكنه يظهر العجز والعيب .

وزعم الأصمعيُّ أنه لم يسبق الحلبة فرس أهضم قط .

وقال محمد بن سلام : لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بقاء .

والهداية في الحمام والقوة على بعد الغاية إنما هي للمصممة من الخضر .

الشيآت في الحيوان ضعف ونقص .

وزعموا أنَّ الشَّيَاتِ كُلَّهَا ضعف ونقص والشَّيَّة : كلُّ لون دخل على لون وقال الله جلَّ وعزَّ : إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا .

ابن المذكورة من المؤنث (

وزعم عثمان بن الحكم أنَّ ابن المذكورة من المؤنث يأخذ أسوأ خصال أبيه وأردأ خصال أمه فتجتمع فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي وأنه إذا خرج كذلك لم ينجع فيه أدب ولا يطمع في علاجه طبيب وأنه رأى في دور تقيف فتى اجتمعت فيه هذه الخصال فما كان في الأرض يومٌ إلّا وهم يتحدثون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبرُ ذنبٍ كان يُنسب إليه .

وزعمت أنَّ الكلب في ذلك كالخنثى والذي هو لا ذكر ولا أنثى أو كالخصي الذي لما قُطع منه ما صار به الذَّكَرَ فحلاً خرج من حدِّ كمال الذَّكَرَ بفقدان الذَّكَرَ ولم يكمل لأن يصير أنثى للغريزة الأصلية وبقيّة الجوهريّة .

وَزَعَمَتْ أَنَّهُ يَصِيرُ كَالنَّبِيدِ الَّذِي يَفْسُدُهُ إِفْرَاطُ الْحَرِّ فَيُخْرِجُهُ مِنْ حُدِّ الْخَلِّ وَلَا يَدْخُلُهُ فِي حُدِّ النَّبِيدِ .
وقال مرداس بن خدام : (سَقَيْنَا عَقَالًا بِالثَّوِيَّةِ شَرْبَةً ** فَمَالَتْ بُلْبُ الْكَاهِلِيِّ عِقَالِ) (فَقُلْتُ اصْطَبَحَهَا يَا
عِقَالُ فَإِنَّمَا ** هِيَ الْخَمْرُ خَيَّلْنَا لَهَا بِخَيَالِ) (رَمَيْتُ بِأُمِّ الْخَلِّ حَبَّةَ قَلْبِهِ ** فَلَمْ يَنْتَعِشْ مِنْهَا ثَلَاثَ لَيَالٍ)
فَجَعَلَ الْخَمْرُ أُمَّ الْخَلِّ قَدْ يَتَوَلَّدُ عَنْهَا وَقَدْ يَتَوَلَّدُ عَنِ الْخَلِّ إِذَا كَانَ خَمْرًا مَرَّةَ الْخَمْرِ .
وقال سعيد بن وهب : (فَالآنَ حِينَ بَدَتْ بِخَدِّكَ لَحْيَةً ** ذَهَبَتْ بِمَلْحَكٍ مِثْلَ كَفِّ الْقَابِضِ) (مِثْلَ السَّلَافَةِ
عَادَ خَمْرٌ عَصِيرُهَا ** بَعْدَ اللَّذَازَةِ خَلَّ خَمْرٌ حَامِضٌ) وَيَصِيرُ أَيْضًا كَالشَّعْرِ الْوَسْطِ وَالْغَنَاءِ الْوَسْطِ وَالنَّادِرَةِ
الْقَاتِرَةِ الَّتِي لَمْ

تَخْرُجَ مِنَ الْحَرِّ إِلَى الْبَرْدِ فَتَضْحَكُ السِّنُّ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْبَرْدِ إِلَى الْحَرِّ فَتَضْحَكُ السِّنُّ .

ما يعتري الإنسان بعد الخصاء

وكيف ما كان قبل الخصاء

قالوا : كُلُّ ذِي رِيحٍ مُنْتَنَةٍ وَكُلُّ ذِي دَفْرِ وَصُنَانٍ كَرِيهِ الْمَشَمَّةِ كَالنَّسْرِ وَمَا أَشْبَهَهُ فَإِنَّهُ مَتَى خُصِيَ نَقَصَ نَتْنُهُ
وَذَهَبَ صُنَانُهُ غَيْرَ الْإِنْسَانِ فَإِنَّ الْخُصْيَ يَكُونُ أَتْنًا وَصُنَانُهُ أَحَدًا وَيَعْمُ أَيْضًا خَبْتُ الْعَرَقِ سَائِرَ جَسَدِهِ حَتَّى
لَتُوجَدَ لِأَجْسَادِهِمْ رَائِحَةٌ لَا تَكُونُ لغيرهم فهذا هذا .
وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ يُخْصَى فَإِنَّ عَظْمَهُ يَدِقُّ فَإِذَا دَقَّ عَظْمُهُ اسْتَرْخَى لَحْمُهُ وَتَبَرَّأَ مِنْ عَظْمِهِ وَعَادَ رَخْصًا
رَطْبًا بَعْدَ أَنْ كَانَ عَضِيلاً صَلْبًا وَالْإِنْسَانُ إِذَا خُصِيَ طَالَ عَظْمُهُ وَعَرُضَ فَخَالَفَ أَيْضًا جَمِيعَ الْحَيَوَانِ مِنْ هَذَا
الْوَجْهِ .

وتعرض للخصيان أيضاً طول أقدام واعوجاج في أصابع اليد والتواء في أصابع الرجل وذلك من أول طعنهم
في السن وتعرض لهم سرعة التغير والتبطل وانقلاب من حد الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون
ورقته وكثرة الماء وبريقه إلى التكرش والكمود

وإلى التقبض والتخدد وإلى الهزال وسوء الحال فهذا الباب يعرض للخصيان ويعرض أيضاً لمعالجة النبات
من الأكرة من أهل الزرع والنخل لأنك ترى الخصي وكأن السيوف تلمع في لونه وكأنه امرأة صينية وكأنه
وذيلة مجلوة وكأنه جُمَارَةٌ رَطْبَةٌ وكأنه قَضِيبُ فِضَّةٍ قَدْ مَسَّهُ ذَهَبٌ وَكَانَ فِي وَجَنَاتِهِ الْوَرْدُ ثُمَّ لَا يَلْبَثُ كَذَلِكَ
إِلَّا نُسِيَّاتٍ يَسِيرَةً حَتَّى يَذْهَبَ ذَلِكَ ذَهَابًا لَا يَعُودُ وَإِنْ كَانَ ذَا خِصْبٍ وَفِي عَيْشٍ رَغَدٍ وَفِي فِرَاقٍ بَالٍ وَقَلَّةٍ
نَصَبَ .

من طرائف عبد الأعلى القاص

٢٠ (وكان من طرائف ما يأتي به عبد الأعلى القاصّ قوله في الخصى وكان لغلبة السلامة عليه يُتوهم عليه الغفلة وهو الذي ذكر الفقير مرة في قصصه فقال : الفقير مرقته سُلقة ورداؤه عِلقة وجردّته فِلقة وسمكته شِلقة وإزاره خرقة .

قالوا : ثم ذكر الخصى فقال : إذا قُطعت خُصيته قَويت شَهوته وسُخِنت مَعِدته ولانَتْ جِلدته وانجردت شَعْرته واتسعت فَفَحْتَه وكثُرَتْ دمعته .

وقالوا الخصى لا يصلح كما لا تصلح المرأة وإذا قطع العضو الذي كان به فحلاً تاماً أخرجته ذلك من أكثر معاني الفحول وصفاتهم وإذا أخرجته من ذلك الكمال صيّر كالبغل الذي ليس هو حماراً ولا فرساً وتصير طباعه مقسومة على طباع الذكر والأنثى وربما لم يخلص له الخلق) ولم يصف حتى يصير كالخلق من أخلاق الرجال أو يلحق بمثله من أخلاق النساء ولكنه يقع مزوجاً مركباً فيخرج إلى أن يكون مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وربما خرجت النتيجة وما يولده التركيب عن مقدار معاني الأبوين كما يجوز عمر البغل عمر أبويه وكذلك ما عددنا في صدر هذا الكلام .

طلب النسل

وقالوا : وللإنسان قوى معروفة المقدار وشهوات مصروفة في وجوه حاجات النفوس مقسومة عليها لا يجوز تعطيلها وترك استعمالها ما كانت النفوس قائمة بطبائعها ومزاجاتها وحاجاتها وباب المنكح من أكبرها وأقواها وأعمها .

ويدخل في باب المنكح ما في طبائعهم من طلب الولد وهو باب من أبوابهم عظيم فمنهم من يطلبه للكثرة والنصرة وللحاجة إلى العدد والقوة ولذلك استلظت العرب الرجال وأغضت على نسب المولود

على فراش أبيه وقد أحاط علمه بأنه من الزوج الأول قال الأشهب بن رُميلة : (قال الأقارب لا تغررك كثرتنا * وأغن نفسك عنا أيها الرجل) (علّ بني يشدّ الله كثرتهم * والتبع يثبت قُضباناً فيكتهل) وقال الآخر : (إنّ بني صبيّة صيفيون * أفلح من كان له ربّيون) يشكو كما ترى صغر البنين وضعف الأسر .

وما أكثر ما يطلب الرجل الولد نفاسةً بماله على بني عمّه ولإشفاقه من أن تليه القضاة وترتع فيه الأمناء فيصير ملكاً للأولياء ويقضي به القاضي الذمام ويصطنع به الرجال .

وربما هم الرجل يطلب الولد لبقاء الذكر وللرغبة في العقب أو على جهة طلب الثواب في مباهاة المشركين والزيادة في عدد المسلمين أو للكسب والكفاية وللمدافعة والنصرة وللامتناع وبقاء نوع الإنسان ولما طبع الله تعالى تعالى بني آدم عليه من حبّ النّرية وكثرة النسل كما طبع

اللّه تعالى الحمام والسنانير على ذلك وإن كان إذا جاءه الولد زاد في همّه ونصبه وفي جُبْنِه وبخله وقد قال النبي : الولد مَجْبَنَّةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ فيحتمل في الولد المؤمن المعروفة والهموم وذكر أبو الأَخَزَرِ الحِمَّاني غير العانة بخلاف ما عليه أصحابُ الرّواج من الحيوان فقال عند ذكر (سيفاده : لا مُبْتَغِي الذرء ولا بالعازل لأنَّ الإنسانَ من بين الحيوان المُرَاجِ إذا كره الولد عزل والمزاج من أصناف الحيوانات إنَّما غايَتها طلبُ الذرء والولد لذلك سُخِّرَتْ وله هيئت لما أراد الله تعالى من إتمام حوائج الإنسان والحمار لا يطلب الولد فيكون إفراغه في الأتان لذلك ولا إذا كان لا يريد الولد عزل كما يعزل الإنسان غير أنَّ غايته قضاء الشهوة فقط ليس يَخطُرُ على باله أنَّ ذلك الماء يُخلَقُ منه شيء .

وروى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال : ليس في البهائم شيء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار .

وعامة اكتساب الرجال وإنفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون إنَّما هو مصروف إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء ولو لم يكن إلا التَّمُصُّ والتطيب والتطوُّس والتعرُّس والتخضُّب

والذي يُعدُّ لها من الطيب والصِّبْغ والحلِّي والكساء والفرش والآنية لكان في ذلك ما كفى ولو لم يكن له إلا الاهتمام بحفظها وحراستها وخوف العار من جنائنها والجنابة

قوله في الغرائز وبيان سبب شره الخصي

فإذا بطل العضو الذي من أجله يكون اشتغال النفس بالأصناف الكثيرة من اللذة والألم فباضطراب أن تعلم أنَّ تلك القوى لم تبطل من التركيب ولم تعدمها الخلقة وإنَّما سُدَّ دونها بسدٍّ وأدخل عليها حجاب فلا بدَّ لها إذا كانت موجودة من عمل لأنَّ عمل كلِّ جوهر لا يُعلم إلاَّ بعدم ذاته فإذا صُرِفَتْ من وجهٍ فاضت من وجه ولا سيما إذا جُمَتْ ونازعت ولا بدَّ إذا زخرت وغزرت وطغت وطمت من أن تفيض أو تفتح لنفسها باباً وليس بعد المنكح بابٌ له موقع كموقع المطعم فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكح وما يشتمل عليه باب المنكح إلى القوة التي عنده للمطعم فإذا اجتمعت القوتان في باب واحد كان أبلغ في حكمه وأبعد غاية في سبيله ولذلك صار الخصى آكل من أخيه لأمه وأبيه وعلى قدر الاستمراء يكون هضمه وعلى قدر حاجة طبعه وحركة نفسه والحرارة المتولدة عن الحركة يكون

الاستمراء لأن الشهوة من أمتن أبواب الاستمراء والحركة من أعظم أبواب الحرارة .

تفوق رغبة الإناث على الذكور في الطعام

ودوام الأكل في الإناث أعمُّ منه في الذكور وكذلك الحِجْرُ دون الفرس وكذلك الرَّمْكة دون البرذون وكذلك النعجة دون الكباش وكذلك النساء في السيوت دون الرجال وما أشكُ أنَّ الرجل يأكل في المجلس الواحد ما لا تأكل المرأة ولكنها تستوفي ذلك المقدار وتُرَبِّي عليه مقطوعاً غير منظوم وهي بدوام ذلك منها

يكون حاصلُ طعامِها أكثرَ وهنَّ يُناسِبنَ الصبيانَ في هذا الوجهَ لأنَّ طبعَ الصبيِّ سريعُ الهضمِ سريعُ الكَلْبِ قصيرُ ملَّةِ الأكلِ قليلُ مقدارِ الطَّعمِ فللمرأةِ كثرةُ معاودتها ثمَّ تَبِينُ بكثرةِ مقدارِ المأكولِ فيصيرُ للخَصِيَّ نصيبانَ : نصيبُهُ من شَبِّهِ النساءِ ثمَّ اجتماعُ قوَى شهوتيهِ في بابٍ واحدٍ أعني شهوةَ المنكحِ التي تحولت وشهوةَ المطعمِ .

قال وقيل لبعض الأعراب : أيُّ شيءٍ آكلُ قال : برْدَوْنَةٌ رَغُوث .
ولشدَّةُ نَهَمِ الإناثِ صارت اللبوةُ أشدَّ غَرَاماً وأنزقَ إذا طلبت الإنسانَ لتأكله وكذلك صارت إناثُ الأجناسِ الصاندةُ أصيَدَ

كالإناثِ من الكلابِ والبُرَاةِ وما أشبه ذلك وأحرصَ ما تكونَ عندَ ارتضاعِ جرائها من أطائها حتَّى صار ذلك منها سبباً للحرصِ والنَّهَمِ في ذلك .

صوت الخصي

ويعرض له عند قطع ذلك العضو تغيُّرُ الصوتِ حتى لا يخفى على من سمعه من غير أن يرى صاحبه أنَّه خَصِيٌّ وإن كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابنَ عمِّه أو بعضَ أترابه من فُحولة جنسه وهذا المعنى يعرض لخَصِيَّانِ الصَّقَالِيَّةِ أكثرُ ممَّا يعرض للخراسانية وللشَّوْشَانِيَّةِ من السُّنْدِ والحُبْشَانِ وما أَقَلَّ مَنْ تجده ناقصاً عن هذا المقدارِ إلَّا وله بيضة أو عَرَقٌ فليس يُحتاج في صِحَّةِ تمييزِ ذلك ولا في دقة الحسِّ فيه إلى حَذَقٍ بقيافة بل تجد ذلك شائعاً في طباعِ السَّفَلَةِ والعُثْرَاءِ وفي أجناسِ الصَّبِيَّانِ والنساءِ . (شعر الخصي) ومتى خُصِيَ قَبْلَ الإنباتِ لم يُنبِتْ وإذا خُصِيَ بعد استحكامِ نباتِ الشعرِ في مواضعه تساقطَ كله إلَّا شعرَ العانة فإنه وإن نَقَصَ من غَلْظِهِ ومقدارِ عدده فإنَّ الباقيَ كثيرٌ ولا يعرضُ ذلك لشعرِ الرأسِ فإنَّ شعرَ

الرأسِ والحاجبينِ وأشْفارِ العينين يكون مع الولادة وإنما يعرض لما يتولد من فضولِ البدنِ .
وقد زعم ناسٌ أنَّ حَكَمَ شعرِ الرأسِ خلافُ حَكَمِ أشْفارِ العينين وقد ذكرنا ذلك في موضعه من باب القول في الشعرِ وهذه الخصالُ من أماكنِ شعرِ النساءِ والخَصِيَّانِ والفُحُولَةِ فيه سواء وإنما يعرض لسوى ذلك من الشعرِ الحادثِ الأصولِ الزائدِ في النباتِ ألا ترى أنَّ المرأةَ لا تصلُحُ فَناسِبُها الخَصِيُّ من هذا الوجهِ فإنَّ عرضَ له عارضٌ فإنما هو من القرعِ لا من جهةِ النَّزَعِ والمرأةُ ربَّما كان في قِصَاصِ مقاديرِ شعرِ رأسِها ارتفاعٌ وليس ذلك بنزَعٍ ولا جَلَحٍ إذا لم يكن ذلك حادثاً يُحدثه الطعنُ في السنِّ .

وتكونُ مقاطعُ شعرِ رأسِهِ ومنتهى حدودِ قِصَاصِهِ كمقاطعِ شعرِ المرأةِ ومنتهى قِصَاصِها وليس شعرُها كلما دنا من موضعِ المِلاَسَةِ والانجرادِ يكون أرقَّ حتى يقلَّ ويضمحلُّ ولكنه يُنبِتُ في مقدارِ ذلك الجلدِ على نباتِ واحدٍ ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعاً واحداً والمرأةُ ربَّما كانت سبلاً وتكون لها شَعْرَاتٌ رقيقةٌ رَغَبِيَّةٌ كالْعِذارِ موصولاً بأصداغِها ولا يعرض ذلك للخَصِيِّ إلا من علةٍ في الخِصَاءِ ولا يرى أبداً بعد مقطَعٍ من صَدْعِهِ شيءٌ من الشَّعْرِ لا من رقيقهِ ولا من كثيفهِ

ذوات اللحي والشوارب

وقد توجد المرأة ذات لحية وقد رأيت ذلك وأكثرُ ما رأيته في عجائز الدهاقين وكذلك الغُيب والشارب وقد رأيت ذلك أيضاً وهي ليست في رأي العين بـجُنْشَى بل نجدُها أنثى تامّة إلا أن تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوَى حتى يظهر في غير ذلك المكان ولا تعرض اللحي للنساء إلا عند ارتفاع الحيض وليس يعرض ذلك للخصي .

وقد ذكر أهلُ بغداد أنّه كان لابنة من بنات محمد بن راشد الخنّاق لحيّة وافرة وأنّها دخلت مع نساء متقبّاتٍ إلى بعض الأعراس لترى العُرس وجلوة العُروس ففطّنت لها امرأة فصاحت : رجلٌ واللّه وأحال الخدم والنساء عليها بالضرب فلم تكن لها حيلة إلا الكشف عن فرجها فنزعن عنها وقد كادت تموت . ويفضل أيضاً الخصي المرأة في الانجراد والزعر بأن تجد المرأة زبّاء الذراعين والساقين وتجدر كَب المرأة في الشعر كأنّه عانة الرجل ويعرض لها الشعر في إبطيها وغير ذلك ولا يعرض للخصي ما يعرض للديك إذا خُصي : أن يذبل عُضروفُ عُرْفِهِ ولحيته .

والخصاء ينقص من شدة الأسر ويقض مُبرَم القوَى ويُرخي معاقِد العصب ويقرب من الهرم والبلى

مشي الخصي

ويعرض للخصي أن يشتدّ وقعُ رجله على أرض السطح حتى لو تفقّدت وقع قدمه وقدم أخيه الفحل الذي هو أعبَلُ منه لوجدت لوقعه ووطئه شيئاً لا تجده لصاحبه وكأنّ العضو الذي كان يشدُّ توتير النساء ومعاقده الوركين ومعاليق العصب لمّا بطل وذهب الذي كان يمسكه

أثر الخصاء في الذكاء

ويعرض له أن أخوين صقْلَيْين من أمّ وأب لو كان أحدهما توءم أخيه أنّه متى خُصي أحدهما خرج الخصيُّ منهما أجودَ خدمةً وأظن لأبواب المعاطاة والمناولة وهو لها أظن وبها ألقى وتجده أيضاً أذكى عقلاً عند المخاطبة فيخصّ بذلك كلّه ويبقى أخوه على غثارة فطرته وعلى غباوة غريزته وعلى بلاهة الصقْلَيْية وعلى سوء فهم العجميّة .

ويد الإنسان لا تكون أبداً إلا خرّقاء ولا تصير صناعاً ما لم تكن

المعرفة ثقافاً لها واللسان لا يكون أبرأ ذاهباً في طريق البيان متصرفاً في الألفاظ إلا بعد أن تكون المعرفة متخلّلة به منقلّة له واضعة له في مواضع حقوقه وعلى أماكن حظوظه وهو علّة له في الأماكن العميقة ومصرفة له في المواضع المختلفة .

فأول ما صنع الخصاء بالصقْلَيْيّ تركيبة عقله وإرهاف حدّه وشخْط طبعه وتحريك نفسه فلما عرّف كانت حرّكته تابعة لمعرفته وقوّته على قدر ما هيّجه .

فأما نساء الصقالبة وصبيانهم فليس إلى تحويل طبائعهم ونقل خلقهم إلى القطننة الثاقبة وإلى الحركة الموزونة وإلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة سبيلٌ وعلى حسب الجهل يكون الخرق وعلى حسب المعرفة يكون الحنق وهذا جملة القول في نسائهم وعلى أنهم لا حظوظ لهم عند الخلوة ولا نفاذ لهم في صناعة إذ كن قد منعن فهم المعاطاة ومعرفة المناولة .

والخصيان مع جودة آلائهم ووفارة طبائعهم في معرفة أبواب الخدمة وفي استواء حالهم في باب المعاطاة لم تر أحداً منهم قط نفذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقة وتضاف إلى شيء من الحكمة لما يعرف ببعد الروية والغوص بإدامة الفكرة إلا ما ذكروا من نفاذ تقف في التحريك للأوتار فإنه كان في ذلك مقدماً وبه مذكوراً

إلا أن الخصي من صباه يحسن صناعة الدابوق ويوجد دعاء الحمام الطوري وما شئت من صغار الصناعات .

وقد زعم البصريون أن حديجا الخصي خادم المثنى بن زهير كان يجاري المثنى في البصر) بالحمام وفي صحة الفراسة وإتقان المعرفة وجودة الرياضة وسندكر حاله في باب القول في الحمام إن شاء الله تعالى .

هذا قولهم فيمن خصي من الصقالبة وملوكنا لعقول خصيان خراسان أحمد وهم قليل ولذلك لم نأت من أمرهم بشيء مشهور وأمر مذكور .

خصيان السند

وأما السند فلم يكن فيهم أيضاً من الخصيان إلا النفر الذين كان خصاهم موسى بن كعب وقد رأيت أنا بعضهم وزعم لي أنه خصى أربعة هو أحدهم ورأيت الخصاء قد جذبته إلى حب الحمام وعمل التلك والهراش بالديوك وهذا شيء لم يجز منه على عرق وإنما قاده إليه قطع ذلك العضو .

خصيان الحبشة والنوبة والسودان

فأما الخصيان من الحبشان والنوبة وأصناف السودان فإن الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم وينقصهم ولا يزيدهم ويحطهم عن مقادير إخوانهم كما يزيد الصقالبة عن مقادير إخوانهم لأن الحبشي متى خصي سقطت نفسه وثقلت حركته وذهب نشاطه ولا بد أن يعرض له فساد لأنه متى استقصى جباهه لم يتماسك بوله وسلس مخرجه واسترخى المسك له فإن هم لم يستقصوا جباهه فإنما يدخل الرجل منزله من له نصف ذلك العضو وعلى أنك لا تجد منهم خصياً أبداً إلا وبسرته بجرة ونفخة شنيعة وذلك عيب شديد وهو ضرب من الفتق مع قبحه في العين وشنعته في الذكر وكل ما قبح في العين فهو مؤلم وكل ما شنع في النفس فهو مؤذ وما أكثر ما تجد فيهم الألع ذلك فاش في باطن شفاههم ومتى كانت الشفاه هذلاً وكانت المشافر منقلبة كانت أظهر للطع وهو ضرب من البرص والبياض الذي يعرض لغراميل الخيل وخصاها ضرب أيضاً

من البرص وربما عَرَضَ مثل ذلك لحشفة قضيب المختون إمَّا لَطَبَعَ الحديد وإمَّا لقرب عهده بالإحداد وسقي الماء إلاَّ أنَّ ذلك لا يعدُّ مكانه

وكلما عَظُمَت الحشفة انبسطَ ذلك البياضُ على قدر الزيادة فيها وإنَّما ذلك كالبياض الذي يعرض من حَرَقِ النار وتشبيطها وكالذي يعرض للصقالية من التَّعالِجِ بالكَيِّ وربَّما اشتدَّ بياضُه حتى يفحشَ ويُردِّيه إلاَّ أنَّه لا يفشو ولا ينتشر إلاَّ بقدر ما ينسط مكانه ويتحوَّل صاحبه رجلاً بعد أن كان صبيّاً وليس كالذي يعرض من البلغم ومن المِرَّة وبعض البرص)
يذهب حتى كأنه لم يكن وبعضه لا يذهب ولا يقف بل لا يزال يتفشَّى ويتَّسع حتى ربَّما سلخه ولا يذهب إلاَّ بأنَّ يذهب به نبي فيكون ذلك علامةً له ومن البهق الأبيض ما يكاد يلحق بالبرص ولكن الذي هوَّ أمره الذي ترون من كثرة بُرءِ الناس منه .
ثمَّ الخصاءُ يكونُ على ضروبٍ ويكون في ضروب فمن ذلك ما يعرض بعد الكبر للأحرار كما يعرض للعبيد وللعرَب كما يعرض للعجم كما خصَّى بعضُ عبَّاهلة اليمن علقمة بن سهل الخصيِّ وإنما قيل لعلقمة بن عبدة الفحل حين وقع على هذا اسمُ الخصي

وكان عبداً صالحاً وهو كان جنَّب الجدِيل وداعراً الفحلين الكريمين إلى عمان وكان من نازليها وهو كان أحدَ الشهودِ على قُدَّامة بن مَطْعُونٍ في شرب الخمر وهو الذي قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه :
أَتَقْبَلُ شهادةَ الخصيِّ قال : أما شهادتك فأقبلُ وهو علقمة بن سهل بن عمارة فلمَّا سمَّوه الخصيِّ قالوا لعلقمة ابن عبدة : الفحل وعلقمة الخصيِّ الذي يقول : (فلن يعدَّ الباقون قبراً لجُثِّي) * ولن يعدَّ الميراثَ مِنِّي المواليا) (حِراسٌ على ما كتَّ أجمعُ قَبْلَهُمْ * هَنِئاً لَهُمْ جَمْعِي وما كتَّ وإِيا) (ودُلِّيتُ في زُوراءُ ثُمَّتَ أَعْتَقُوا * لَشَأْنُهُمْ قَدْ أَفْرَدُونِي وشَانِيا) (فأصبحَ مالي من طريفٍ وتالدٍ * لغيري وكانَ المَالُ بالأُمسِ مالِيا)
وكما عَرَضَ للدَّلَالِ ونُومَةِ الضُّحَى مِن خِصَاءِ عُثْمَانَ بن حَيَّانِ المَرِّيِّ والي المدينة لهما بكتاب هشام بن عبد الملك .

أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك فَمِنْ بَنِي مَرْوَانَ من يدَّعي أنَّ عاملَ المدينة صَحَّفَ لأنَّه رأى في الكتاب : أَحَصِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُخَشَّينَ فَقَرَأَهَا : اخْصِ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ

المُخَشَّينَ وذكر الهيثم عن الكاتب الذي تَوَلَّى قِرَاءَةَ ذلك الكتاب أنَّه قال : وكيف يقولون ذلك ولقد كانت الحاءُ معجمةً بنقطةٍ كأنها سهيل أو تمرُّ صيحانية فقال اليعقوبي : ما وجهُ كتابِ هشامٍ في إحصاءِ عددِ المُخَشَّينَ وهذا لا معنى له وما كان الكتابُ إلاَّ بالحاء المعجمة دون الحاء المهملة .
وذكر عن مشايخ من أهل المدينة أنَّهم حكَّوا عنهما أنَّهما قالَا : الآن صِرْنَا نساءً بالحقِّ كأنَّ الأمرَ لو كان إليهما لاختارا أن يكونا امرأتين قال : وذكر أنَّهما خرجا بالخصلتين من الخِصَاءِ والتخنيث)
من فُتُورِ الكلام ولين المفاصل والعظام ومن التفكُّك والتشَّيِّ إلى مقدار لم يروا أحداً بلغه لا من مخنَّثات

النساء ولا من مؤثني الرجال أبو همام السنوط وكما عرض لأبي همام السنوط من امتلاخ اللُخْم مذاكيره وخصييه أصابه ذلك في البحر في بعض المغازي فسقطت لحيته ولقب بالسنوط وخرج لذلك نهماً وشرهاً .

وقال ذات يوم : لو كان النخل بعضه لا يحمل إلا الرطب وبعضه لا يحمل إلا التمر وبعضه لا يحمل إلا الخبز وبعضه لا يحمل إلا البسر وبعضه لا يحمل إلا الخلال وكنا متى تناولنا من الشمر أخ بسرة خلق الله مكانها بسرتين لما كان بذلك بأس ثم قال : أسغفر الله لو كنت تمنيت أن يكون بدل نواة التمر زبدة كان أصوب ومنه ما يعرض من جهة الأوجاع التي تعرض للمذاكير والخصيتين حتى ربما امتلخهما طيب وربما قطع إحداهما وربما سقطتا جميعاً من تلقاء أنفسهما

نسل منزوع البيضة اليسرى

والعوام يزعمون أن الولد إنما يكون من البيضة اليسرى وقد زعم ناس من أهل سليمان بن علي ومواليهم أن ولد داود بن جعفر الخطيب المعتزلي إنما ولد له بعد أن تزعيت بيضته اليسرى لأمر كان عرض له . والخصي الطيان الذي كان في مسجد ابن رغبان ولد له غلام وكان ليس له إلا البيضة اليمنى فجاء أشبه به من الذباب بالذباب والغراب بالغراب ولو أبصره أجهل خلق الله تعالى بفراسته وأبعدهم من قيافة ومن محاطة النخاسين أو من مجالسة الأعراب لعلم أنه سلالة

وخلاصته لا يحتاج فيه إلى مجزئ المدلجي ولا إلى ابن كريك الخزاعي

خصاء الروم

ومن أهل الملل من يخصي ابنه ويقفه على بيت العبادة ويجعله سادناً كصنيع الروم إلا أنهم لا يحدثون في القضيب حدثاً ولا يتعرضون إلا للأنثيين كأنهم إنما كرهوا لأولادهم إقبال نسائهم ورواهبهم فقط فأما قضاء الوطر وبلوغ اللذة فقد زعموا أنهم يبلغون من ذلك مبلغاً لا يبلغه الفحل كأنهم يزعمون أنه يستقصي جميع ما عندها ويستجلبه لفرط قوته على المطولة .

الروم أول من ابتدع الخصاء وكل خصاء في الدنيا وإنما أصله من قبل الروم ومن العجب أنهم نصارى وهم يدعون من الرأفة والرحمة ورقة القلب والكيد ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف وحسبك بالخصاء مثلاً وحسبك بصنيع الخاصي قسوة ولا جرم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخصييان من طلب الطوائل وتذكر الأحقاد ما لم يظنوه عندهم ولا خافوه من قبلهم

فلا هم ينزعون ولا الخصييان ينكلون لأن الرماية فيهم فاشية وإن كان الخصي أسواراً بلغ منهم وإن كان جمع مع الرماية الثروة واتخذ بطرسوس وأذنة الصياع واصطنع الرجال واتخذ العقدة المغلة فمضرة كل واحد

منهم عليهم تقي بمصرّة قائدٍ ضخمٍ ولم ترَ عداوةً قطّ تجوز مقدارَ عداوتهم لهم وهذا يدلُّ على مقدارِ فرطِ الرغبةِ في النساءِ وعلى شهوةٍ شديدةٍ للمباضعةِ وعلى أهمّ قد عرفوا مقدارَ ما فقدوا وهذه خصلةٌ كريمةٌ مع طلبِ المثوبةِ وحسنِ الأحذوثةِ

خصاء الصابئة

فأما الصابئون فإنّ العابدَ منهم ربّما خصى نفسه فهو في هذا الموضع قد تقدم الروميّ فيما أظهرَ من حُسنِ النيّةِ وانتحل من الديانةِ والعبادةِ بخصاء الولدِ التامِّ ويادخاله النقصَ على النسلِ كما فَعَلَ ذلك أبو المبارك الصابي وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه ويسمعون منه ويسمرَ عندهم للذي يجدونه عنده من الفهم والإفهام وطُرف الأخبار ونوادير الكتب وكان قد أربى على المائة ولم أسمع قطّ بأغزلَ منه وإن كان يصدّق عن نفسه فما في الأرض أزنى منه

حديث أبي المبارك الصابي حدّثني محمد بن عباد قال : سمعته يقول وجرى ذكرُ النساءِ ومحلّهن من قلوب الرجال حتّى زعموا أنّ الرجلَ كلما كانَ عليهن أحرصَ كان ذلك أدلّ على تمامِ الفُحولةِ فيه وكان أذهبَ له في الناحية التي هي في خلقته ومعناه وطبعه إذ كان قد جُعِلَ رجلاً ولم يُجعلَ امرأةً قال ابن عباد فقال لنا : ألسنتم تعلمون أنّي قد أربيتُ على المائةِ فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهنُ الكبرِ ونفاذُ الذكْرِ وموتُ الشهوةِ وانقطاعُ ينبوعِ النطفةِ قد أَمَاتَ حينه إلى النساءِ وتفكيره في الغزلِ قال : قلنا : صدقتَ قال : وينبغي أن يكون من عودَ نفسه تركهنّ مُدداً وتخلّى عنهن سنيّن ودهرًا أن تكون العادةُ وتمرينُ الطبيعةِ وتوطيئُ النفسِ قد حطّ من ثقلِ منازعةِ الشهوةِ ودواعي الباعةِ وقد علمتم أنّ العادةَ التي هي الطبيعةُ الثانيةُ قد تستحكمُ ببعضِ عمدٍ هَجَرَ لَمَاسَةِ النساءِ قال : قلنا : صدقتَ قال : وينبغي أن يكونَ من لم يذُقْ طعمِ الخلوةِ بهنّ ولم يجالسهنّ متبذلاتٍ ولم يسمعَ حديثهنّ وخِلابتهنّ للقلوبِ واستِمالاتهنّ للأهواءِ ولم يرهنّ منكشفاتِ عارياتٍ إذا تقدم له ذلك مع طولِ التركِ ألا يكون بقي معه من دواعيهن شيءٌ قال : قلنا : صدقتَ قال : وينبغي أن يكونَ لمن قد عِلِمَ أنه محبوبٌ وأنّ سببه إلى خِلَاطهنّ محسومٌ أن يكون اليأسُ من أمتن أسبابه إلى الزهد

والسلوةِ وإلى موتِ الخواطرِ قال : قلنا : صدقتَ قال : وينبغي أن يكونَ من دعاهُ الزُّهدُ في الدنيا وفيما يحتويه النساءُ مع جهالهنّ وفتنةِ النِّسَاءِ بهنّ واتخاذِ الأنبياءِ لهنّ إلى أن خصّى نفسه ولم يُكرهه عليه أبٌ ولا عدوٌّ ولا سبّاه سابٍ أن يكون مقدارُ ذلك الزهد هو المقدار الذي يُميتُ الذكْرَ لهنّ ويُسرّي عنه ألمَ فقد وجودهنّ وينبغي لمن كان في إمكانه أن ينشئ العزمَ ويختارَ الإرادةَ التي يصير بها إلى قطعِ ذلك (العضو الجامع لِكبار اللذاتِ وإلى ما فيه من الألمِ ومع ما فيه من الخطرِ وإلى ما فيه من المُثَلَّةِ والنقصِ الداخِل على الحلقة أن تكون الوسواس في هذا الباب لا تعرّوه والدواعي لا تقرّوه قال : قلنا : صدقتَ قال : وينبغي لمن سَخَتْ نفسه عن السكّن وعن الولدِ وعن أن يكون مذكوراً بالعقبِ الصالح أن يكون قد

نسيَ هذا البابَ إن كان قد مرَّ منه على ذُكرٍ هذا وأنتم تعلمون أنَّي سَمَلْتُ عيني يومَ خَصَّيتُ نفسي فقد نسيْتُ كيفية الصُّورِ وكيف تَرُوع وَجْهَلْتُ المراد منها وكيف تُراد أفما كان مَنْ كان كذلك حَرَبًا أن تكون نفسه ساهيةً لاهيةً مشغولةً بالبابِ الذي أحتمل له هذه المكاره قال : قلنا : صدقت قال : أو لو لم أكن هَرَمًا ولم يكن هاهنا طولُ اجتنابٍ وكانت الآلة قائمةً أليس في أنَّي لم أذُق حيوانًا منذُ ثمانينَ

سنة ولم تمتلِ غُروقي من الشرابِ مخافةَ الزيادة في الشهوة والنقصانِ من العزم أليس في ذلك ما يقطع الدواعي ويُسكِن الحركة إن هاجت قال : قلنا : صدقت قال : فَإِنِّي بعدَ جميع ما وصفتُ لكم لأسمعُ نعمة المرأة فَاظُنُّ مرَّةً أنَّ كَبِدِي قد ذابت وأظُنُّ مرَّةً أنها قد انصدعت وأظُنُّ مرَّةً أنَّ عقلي قد اختلس وربما اضطرب فُؤادي عند ضحكٍ إحداهنَّ حتَّى أظُنُّ أنَّه قد خرج من فمي فكيف أَلومُ عليهنَّ غيري فإن كان حفظك الله تعالى قد صدقَ على نفسه في تلك الحال بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال فما ظنُّك بهذا قبل هذا الوقت بنحو سِتِّين سنة أو سبعين سنةً وما ظنُّك به قبل الخِصاء بساعة وليس في الاستطاعة ولا في صفة الإمكان أن يحتجزَ عن إرادة النساءِ ومعه من الحاجة إليهنَّ والشهوة لهنَّ هذا المقدارُ اللهُ تعالى أرحمُ بخلقه وأعلُّ على عبادِهِ من أن يكلفهم هجرانَ شيءٍ قد وصله بقلوبهم هذا الوصلَ وأكَّده هذا التأكيد . وقد خصى نفسه من الصابنين رجالٌ قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأحاديثهم وفي الذي ذكرنا كفايةً إن شاء الله تعالى

استئذان عثمان بن مظعون في الخِصاء

وقد ذُكرَ أنَّ عثمانَ بنَ مَظْعُونٍ استأذَنَ النبي صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال : سِيَاحَةُ أُمَّتِي الْجَمَاعَةِ واستأذَنَهُ في الخِصاءِ فقال :

خِصَاءُ أُمَّتِي الصُّومِ وَالصُّومِ وَجَاءَ فَهَذَا خِصَاءُ الدِّيَانَةِ .

خِصَاءُ الْجَلْبِ وَقِسْوَتُهُ

فَأَمَّا مَنْ خَصَى الْجَلْبَ عَلَى جِهَةِ التَّجَارَةِ فَإِنَّهُ يَجِبُ الْقَضِيبُ وَيَمْتَلِحُ الْأُنْثَيْنِ إِلَّا أَنْ تَقْلَصَتْ إِحْدَاهُمَا مِنْ فَرْطِ الْفَزَعِ فَصِيرٌ إِلَى مَوْضِعٍ لَا يُمْكِنُ رَدُّهَا إِلَّا بِعِلَاجٍ طَوِيلٍ فَلِلْخَاصِيِّ عِنْدَ ذَلِكَ ظُلْمٌ لَا يَفِي بِهِ ظُلْمٌ وَظُلْمٌ يُرْبِي عَلَى كُلِّ ظُلْمٍ لِأَنَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ لَا يَحْفِلُ بِفُوتِ الْمُتَقَلِّصِ وَيَقْطَعُ مَا ظَهَرَ لَهُ فَإِنْ بَرَأَ مَجْبُوبَ الْقَضِيبِ أَوْ ذَا بَيْضَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَدْ تَرَكَهُ لَا امْرَأَةً وَلَا رَجُلًا وَلَا خَصِيًّا وَهُوَ حِينَئِذٍ مِمَّنْ تَخْرُجُ لِحَيْتُهُ وَمِمَّنْ لَا يَدْعُهُ النَّاسُ فِي دُورِهِمْ وَمَوَاضِعِ الْخُصُوصِ مِنْ بِيُوتِهِمْ فَلَا يَكُونُ مَعَ الْخُصْيَانِ مَقْرَبًا وَمَكْرَمًا وَخَصِيبَ الْعَيْشِ مَنْعَمًا وَلَا هُوَ إِذَا رُمِيَ بِهِ فِي الْفُحُولِ كَانَ لَهُ مَا لِلْفُحُولِ مِنَ لَذَّةِ غِشْيَانِ النِّسَاءِ وَمِنْ لَذَّةِ النِّسْلِ وَالتَّمَتُّعِ بِشَمِ الْأَوْلَادِ فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَ الْفُحُولِ مُسْتَضْعَفًا مُحْتَقَرًا وَعِنْدَ الْخُصْيَانِ مَجْرَحًا مَطْرَحًا فَهُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ السَّدِيمِ الْمَعْنَى فَلَا أَعْلَمُ قِتْلَهُ إِذَا كَانَ

القتل قِلةٌ صريحةٌ مُريجةٌ إلا أصغر عند الله تعالى وأسهل على هذا المظلوم من طول التعذيب والله تعالى بالمرصاد .

خصاء البهائم

وأما خصاء البهائم فمنه الوجاء وهو أن يشدَّ عصبُ مجامع الخُصية من أصل القضيب حتَّى إذا نَدَرت البيضة وجَحَظت الخُصية وجأها حتى يرضَّها فهي عند ذلك تدبُل وتنخسف وتذوي وتستدِق حتى تذهب قُواها وتنسدَّ انجاري إليها ويسري ذلك الفسادُ إلى موضع تربية الثُطفة فيمنعها من أن تكثر أو تعذب أو تخثر .

ومنها ما يكون بالشدِّ والعصبِ وشدَّة التحزيق والعقدِ بالخييط الشديد الوثير الشديد الفتل فإذا تركه على ذلك عمل فيه وحرَّ أو أكلَّ ومنعه من أن يجريَ إليه الغذاء فلا يلبث أن يقطع ويسقط .
ومنه الامتلاخ وهو امتلاخ البيضتين فأما خصاء النسل فإنَّ للخاصي حديدةً مرهفةً مُحَمَّاة وهي الحاسمة وهي القاطعة قال أبو زيد : يقال خصيت الدابة أخصيها خصاءً ووجأها أجوُّها وجاء ويقال : برئت إليك من الخصاء أو الوجاء ولا يقال ذلك إلا لما كان قريبَ العهد لم يبرأ منه فإذا برئ لم يُقل له .

وأما الخِصاء فهو أن يسَلَّ الخُصيتين والوجاء أن توجأ العرقُ والخُصيتان على حالهما والمعسوب من التيوس الذي تُعصبُ خُصيتاه حتى تسقطا والواحد من الخُصيان خُصِيٌّ ومُخصِيٌّ ويقال ملست الخُصيتين أملُسهما ملُساً ومُتَنَّتُهما أمتنَّتُهما مثناً وذلك أن تشقَّ عنهما الصَّفَن فتسلُّهما بعروقهما والصَّفَن : جلدة الخُصيتين .

خصاء البهائم والديكة

والخِصاءُ في أحداث البهائم وفي الغنم خاصة يدع اللَّحْمَ رَخِصاً وندياً عذباً فإنَّ خِصاءه بعد الكبر لم يقو خِصاؤه بعد استحكامِ القوَّة على قلب طباعه وأجود الخِصاء ما كان في الصَّغَر وهو يسمَّى بالفارسية ثربخت يُعنى بذلك أنَّه خُصِيَّ رطباً والخُصِيُّ من فحولها أَحْمَلٌ للشحم لعدم الهيج والنَّعْظ وخروج قواه مع ماء الفَحْلة وكثرة السَّفاد تورث الضَّعْف والهزال في جميع الحيوان وقد ذُكِرَ لمعاوية كثرة الجماع فقال : ما استُهِتَرَ به أحدٌ إلا رأيت ذلك في مُنته

خصاء العرب لفحولة الإبل

وكانت العربُ تَخْصِي فُحولةَ الإبل لئلاَّ يأكلَ بعضها بعضاً وتستبقي ما كان أجودَ ضراباً وأكثرَ نَسلاً وكلَّ ما كان مثناً

وكان شاباً ولم يكن مذكراً وهم يسمون الإذكار الخفيّ (وما كان منها عيائاً طباقاً فمنها ما يجعل السدم المعنى وإذا كان الفحل لا يتخذ للضراب شدوا ثبله شداً شديداً وتركوه يهمل ويُقبب في المهجمة ولا يصل إلهن وإن أردنه فإذا طلبن الفحل جيء لهن بفحل قعسريّ ويقولون : لقوة لاقت قبيساً والقبيس من الجمال : السريع الإلقاح واللقوة : السريعة القبول للماء الفحل .

وشكت امرأة زوجها وأخبرت عن جهله باتيان النساء وعيّه وعجزه وأنه إذا سقط عليها أطبق صدره والنساء يكرهن وقوع صدور الرجال على صدورهن فقالت : زوجي عيائاً طباقاً وكل داء له داء وقال الشاعر : (طباقاً لم يشهد خصوماً ولم يقْدْ * ركاباً إلى أكوارها حين تعكف)

خصاء العرب للخيّل

وكانوا يخصّون الخيل لشبيهه بذلك ولعلّة صهيلها ليلة البيات وإذا أكمّنوا الكمناء أو كانوا هرباً .

ويزعم من لا علم له أن الخنذيد في الخيل هو الخصي وكيف يكون ذلك كما قال مع قول خفاف بن ندبة : وخناذيد خصية وفحولاً وقال بشر بن أبي خازم : (وخنذيد ترى الغرمل منه * كطي البرد يطويه التجار) وليس هذا أراد بشر وإنما أراد زمان الغزو والحال التي يعتري الخيل فيها هذا المعنى كما قال جد الأحمير : (لا لا أعق ولا أحو * ب ولا أغبر على مضر) (لكنما غزوي إذا * ضج المطي من الدبر) وإنما فخر بالغزو في ذلك الزمان .

وأما الخنذيد فهو الكريم التام وربما وصفوا به الرجل وقال كثير :

(على كل خنذيد الضحى متمطر * وخيفانة قد هدّب الجري آله) وقال القطامي : (على كل خنذيد السراة مقلص * تحثّ منه لحمه المتكاوس) ومن الدليل على أنهم ربما جعلوا الرجل إذا ما مدحوه خنذيداً قول بعض القيسيين من قيس :

بن ثعلبة : (دعوت بني سعد إليّ فشمرت * خناذيد من سعد طوال السواعد) عبد الله بن الحارث وعبد الملك بن مروان وقال عبد الله بن الحارث وكتب بها إلى عبد الملك بن مروان حين فارق مضعباً : (بأيّ بلاء أم بأية علة * يُقدّم قبلي مُسلم والمهلب) (ويدعى ابن منجوف أمامي كأنه * خصي دنا للماء من غير مشرب) فقلت ليونس : أقوى فقال : الإقواء أحسن من هذا قال : فلما أخذته قيس نصبوه فجعلوا يرمونه بالنبل ويقولون : أذات مغازل ترى يريدون بيت ابن الحرّ : (ألم تر قيساً قيس عيلان برقعت * لحاها وباعت نبلها بالمغازل) فلما أتى مضعب برأسه قال لسويد : يا أبا المنهال كيف ترى قال : أيها الأمير هو والله الذي أتى الماء من غير مشرب .

وقال أعشى همدان : (وأبو بُريدَةَ الذي حَدَّثَهُ ** فينا أَذْلٌ مِنَ الْخَصِيِّ الدَّيْنِجِ) وتعرض للخصيَّ سُرعة الدَّمْعَة وذلك مِنْ عَادَةِ طَبَائِعِ الصَّبِيَّانِ ثُمَّ النِّسَاءِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الصَّبِيَّانِ أَغْزَرَ دَمْعَةً مِنَ النِّسَاءِ وَكَفَاكَ بالشيوخ الهرمين

أخلاق الخصي

ويعرض للخصيِّ العيبُ واللَّعِبُ بالطير وما أشبه ذلك من أخلاق النساء وهو من أخلاق الصبيان أيضاً . ويعرض له الشَّرُّ عندَ الطعام والبخل عليه والشحُّ العامُّ في كلِّ شيء وذلك مِنْ أخلاق الصَّبِيَّانِ ثُمَّ النِّسَاءِ . وقال الشاعر : (كَأَنَّ أَبَا رُومَانَ قَيْسًا إِذَا غَدَا * خَصِيٌّ بِرَاذِلٍ يُقَادِرْهِصُ) (له مَعْدَةٌ لَا يَشْتَكِي الدَّهْرَ ضَعْفَهَا ** وَحَجَرَةٌ بِالدُّورِقَيْنِ قِمُوصُ) ويعرض للخصيَّ سُرعة الغضب والرضا وذلك مِنْ أخلاق الصَّبِيَّانِ والنِّسَاءِ ويعرض له حُبُّ النَمِيمَةِ وَضِيقُ الصَّدْرِ بِمَا أُودِعَ مِنَ السَّرِّ وذلك مِنْ أخلاق الصبيان والنساء ويعرض له دُونُ أَخِيهِ لِأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَدُونِ ابْنِ عَمِّهِ وَجَمِيعِ رَهْطِهِ الْبَصَرُ بِالرَّفْعِ وَالْوَضْعِ وَالْكَسْرِ وَالرَّشِّ وَالطَّرْحِ وَالْبَسْطِ وَالصَّبْرُ عَلَى الْخِدْمَةِ وَذَلِكَ يَعْرِضُ لِلنِّسَاءِ

ويعرض له الصبرُ عَلَى الرُّكُوبِ وَالْقُوَّةُ عَلَى كَثْرَةِ الرُّكُضِ حَتَّى يَجَاوِزَ فِي ذَلِكَ رِجَالَ الْأَتْرَاكِ وَفِرْسَانَ الْخَوَارِجِ وَمَنْ دَفَعَ إِلَيْهِ مَوْلَاهُ دَابَّةً وَدَخَلَ إِلَى الصَّلَاةِ أَوْ لِيُغْتَسَلَ فِي الْحَمَامِ أَوْ لِيَعُودَ مَرِيضًا لَمْ يَتْرُكْ أَنْ يُجْرِيَ تِلْكَ الدَّابَّةَ ذَاهِبًا وَجَائِيًا إِلَى رَجُوعِ مَوْلَاهُ إِلَيْهِ . ويعرض له حُبُّ الرَّمِيِّ بِالنَّشَابِ لِلَّذِي يَدُورُ فِي نَفْسِهِ مِنْ حُبِّ غَزْوِ الرُّومِ ويعرض له حُبُّ أَنْ تَمْلِكَهُ الْمُلُوكُ عَلَى أَلَّا تَقِيمَ لَهُ إِلَّا الْقُوَّةَ وَيَكُونُ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ تَمْلِكَهُ السُّوقَةُ وَإِنْ أَحَقَّتْهُ بَعِيشُ الْمُلُوكِ . وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّهُمْ مَعَ خُرُوجِهِمْ مِنْ شَطْرِ طَبَائِعِ الرِّجَالِ إِلَى طَبَائِعِ النِّسَاءِ لَا يَعْرِضُ لَهُمُ التَّخْيِثُ وَقَدْ رَأَيْتُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْأَعْرَابِ مُحَنَّنًا مُتَفَكِّكًا وَمُؤَنَّنًا يَسِيلُ سَيْلًا وَرَأَيْتُ عِدَّةَ مُجَانِينَ مُحَنَّنِينَ وَرَأَيْتُ ذَلِكَ فِي الزَّجَجِ الْأَفْحَاحِ وَقَدْ خَبَّرَنِي مَنْ رَأَى كُرْدِيًّا مُحَنَّنًا وَلَمْ أَرْ خَصِيًّا قَطُّ مُحَنَّنًا وَلَا سَمِعْتُ بِهِ وَلَا أَدْرِي كَيْفَ ذَلِكَ وَلَا أَعْرِفُ الْمَانِعَ مِنْهُ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ إِلَى ظَاهِرِ الرَّأْيِ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِيهِمْ عَامًّا . وَمَا يَزِيدُنِي فِي التَّعَجُّبِ مِنْ هَذَا الْبَابِ كَثْرَةُ مَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ الْخُلَاقِ مَعَ قَلَّةِ مَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ التَّخْيِثِ مَعَ مَفَارِقَتِهِمْ لَشَطْرِ مَعَانِي الرِّجَالِ إِلَى شِبْهِ النِّسَاءِ .)

ويزعم كثير من الشيوخ المعمرين وأهل التجربة المميزين أنهم اختبروا أعماراً ضروبِ الناس فوجدوا طول الأعمارِ في الخصيان أعمَّ منه في

مثل أعدادهم من جميع أجناس الرجال وأنهم تفقدوا أعمارَهم وأعمارَ إخوتهم وبنِي أعمامهم الذين لم يُخَصَّوْا فوجدوا طولَ العُمُرِ فِي الْخَصِيَّانِ أعمَّ ولم يجدوا في عمومِ طوالِ العمرِ فيهم واحداً نادراً كفلانٍ وفلانٍ من الفحول .

وزعموا أنّهم لم يجدوا لطول أعمارهم علّة إلاّ عدم النّكاح وقلة استفراغ النّطف لقوى أصلاهم .
قالوا : وكذلك لم نجد فيما يعيشُ النّس في دُورهم من الخيل والإبل والحمير والبقر والغنم والكلاب
والدّجاج والحمام والدّبكة والعصافير أطول أعماراً من البغال .
وكذلك قالوا : وجدنا أقلّها أعماراً العصافير وليس ذلك إلاّ لكثرة سفادِ العصافير وقلة سفادِ البغال .
وجعل هؤلاء القومُ زيادةَ عمر البغلِ على عمر أبيه دليلاً على أنّ قول النّس : لا يعيشُ أحدٌ فوق عمر
أبيه خطأً وأولئك إنما عنوا النّاس دون جميع الحيوان

النتاج المركب

وقالوا : قد وجدنا غُرمولَ البغلِ أطولَ من غُرمولِ الحمار والفرس والبرذون وهؤلاء أعمامه وأحواله فقد
وجدنا بعض النّتاج المركّب وبعض الفروع المستخرجة أعظم من الأصل ووجدنا الحمام الرّاعي أعظم من
الورشان الذي هو أبوه ومن الحمامة التي هي أمّه ولم نجد أخد من عمر الورشان شيئاً وخرج صوته من
تقدير أصواتهما كما خرج شحّيح البغل من هميق الحمار وصهيل الفرس وخرج الرّاعي مُسرولاً

ولم يكن ذلك في أبيه وخرج مُثقالاً سيّء الهداية وللورشان هداية وإن كان دون الحمام وجاء أعظم جنة
من أبيه ومقدارُ التّقس من ابتداء هديله إلى منقطعه أضعافُ مقدار هديل أبيه .
وفوالجُ البُخت إذا ضربت في إناث البُخت ولم يخرج الحوَارُ إلاّ أذن قصير العنق لا ينال كلاً ولا ماءً إلاّ بأنْ
يُرفعا إليه فيصيرُ لمكان نُقصان خلقه جُورَ لحم ولا يكون من اليعملات ولا من السابقة ولو علّوه وكفّوه
مؤنة تكلف المأكول والمشروب ثم بلغ إلى أن يصيرَ جهلاً يمكنه الضراب وكذلك الأثني التي هي الحائل إلى
أن تصير ناقة فلو ألحقها الفحل لجاء ولدها قصر عنقا من الفيل الذي لو لم يجعل الله تعالى له خرطوماً
يتناول به طعامه وشرابه لمات جوعاً)

وهو الأ وليس كذلك العراب وإذا ضربت الفوالجُ في العراب جاءت هذه الجوامز والبُخت الكريمة التي
تجمع عامّة خصال العراب وخصال البُخت فيكون ما يُخرج التركيب من هذين الجنسين أكرم وأفخم
وأفقس وأثمن ومتى ضربت فحول العراب في إناث البُخت جاءت هذه الإبل البهويّة والصّرصرانية فتخرج
أقبح منظراً من أبيها وأشدّ أسراً من أبيها وقال الراجر : ولا بهويّ من الأباغر

وبعد فإنّ هذه الشّهريّة الخُراسانية يخرج لها أبدان فوق أبدان أمهاتها وآبائها من الخيل والبراذين وتأخذ من
عنق الخيل ومن وثاجة البراذين وليس نتاجها كنتاج البرذون خالصاً والفرس خالصاً .
وما أشبه قرابة الحمار بالرمكة والحجر من قرابة الحمل الفالج البُختي بقرابة القلوص الأعرابيّة .

الحمير الوحشية

ويقال إن الحمرة الوحشية وبخاصة الأهدرية أطول الحمير أعماراً وإنما هي من نتاج الأهدر فرس كان لأردشير بن بابك صار وحشياً فحمى علة عاناتٍ فضرِب فيها فجاء أولاده منها أعظم من سائر الحمير وأحسن وخرجت أعمارها عن أعمار الخيل وسائر الحمير أعني حمير الوحش فإن أعمارها تزيد على الأهلية مراراً علة .

عير أبي سيارة ولا يعرفون حمراً وحشياً عاش أكثر وعمر أطول من عير أبي سيارة عميلة بن أعزل فإنهم لا يشكون أنه دفع عليه بأهل الموسم أربعين عاماً قال الأصمعي : لم يكن عيراً وإنما كان أتاناً .

لهج ملوك فارس بالصيد

وزعموا وكذلك هو في كتبهم أن ملوك فارس كانت لهجة بالصيد إلا أن بهرام جور هو المشهور بذلك في العوام .

وهم يزعمون أن فيروز بن قباد الملك الفارسي ألح في طلب حمار أخدري وقد ذكر له ووُصف فطاو له عند طلبه والتماسه وجد في ذلك فلج به عند طلبه الاغترام وأخرجته الحفيظة إلى أن آلى ألا يأخذه إلا أسراً ولا يطارده إلا فرداً فحمل فرسه عليه فحطه في خبار فجمع جراميزه وهو على فرسه ووثب فإذا هو على ظهره فقمص به فضم فخذه فحطم بعض أضلاعه ثم أقبل به إلى معظم الناس وهم وقوف ينظرون إليه وهو راكبه .

قالوا : وكان الملك منهم إذا أخذ عيراً أخدرياً وغير ذلك فإذا وجده فتياً وسمه باسمه وأرخ في اسمه يوم صيده وخلق سبيله وكان كثيراً إذا ما صاده الملك الذي يقوم به بعده سار فيه مثله

الحكمة في تخالف الترعات والميول

ولولا أن ناساً من كل جيل وخصائص من كل أمة يلهجون ويكلفون بتعريف معاني آخرين لدرست ولعل كثيراً من هؤلاء يُزري على أولئك ويعجب الناس من تفرغهم لما لا يجدي وتركهم التشاغل بما يُجدي فالذي حبب لهذا أن يرصد عمر حمار أو ورشان أو حية أو ضب هو الذي حبب إلى الآخر أن يكون صياداً للأفاعي والحيات يتتبعها ويطلبها في كل واد وموضع وجبل للترياقات وسخر هذا ليكون سانس الأسد والفهود والثمور والبيور وترك من تلقاء نفسه أن يكون راعي غنم .

والذي فرق هذه الأقسام وسخر هذه النفوس وصرف هذه العقول لاستخراج هذه العلوم من مدافنها وهذه المعاني من مخايبها هو الذي سخر بطليموس مع ملكه وفلاناً وفلاناً للتفرغ للأموال السماوية ولرعاية النجوم واختلاف مسير الكواكب وكل ميسر لما خلق له لتتم النعمة وتكمل المعرفة وإنما تأتي التيسير للمعاصي .

فأما الصناعات فقد تقصر الأسباب بعض الناس على أن يصير حائكاً وتقصر بعضهم على أن يكون صيرافياً

فهي وإن قصرتْهُ على الحِياكة فلم تقصُرْهُ على خُلْفِ المواعيد وعلى إبدالِ الغُزُولِ وعلى تشقيقِ العملِ دونَ الإحكامِ والصدقِ وأداءِ الأمانةِ ولم تقصرِ الصيرْفِ على التطفيفِ في الوزنِ والتغليطِ

في الحسابِ وعلى دسِّ المموّه تعالى اللهُ عزَّ وجلَّ عن ذلك علواً كبيراً .

خضوع النتاج المركب للطبيعة

ولو كان أمرُ النَّتاجِ وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج إلى تقدير الرأي وما هو أقربُ إلى الظنِّ لكانت الأطلاف تجري مجرى الحوافر والأخفاف ألا ترى أنَّ قرابة الضأن من الماعز كقرابة البخت من العراب والخيل من الحمير وسبيل نتائج الظلف على خلاف ذلك لأنَّ التيسَ على شدَّةِ غُلْمته لا يعرض للنعجة إلا بالقليل الذي لا يُذكر وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك : إمَّا ألا يتمَّ خلقه وإمَّا ألا يعيش وكذلك الكيشُ والعتر فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج لأنه قد يضرب الجنس في الجنس الذي لا يُلقحه ولا يكون اللقاح إلا بعد ضراب .

وطلبَ التيس للنعجة قليل وأقلُّ من القليل وكذلك الكيش للعنز وأقلُّ من ذلك أن تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البتة .

وقد تجاسرَ نَسٌّ على توليدِ أبوابٍ من هذا الشكل فادَّعوا أموراً ولم يحفلوا بالتقريب والتكذيب عند مسألة البرهان .

زعم في الزرافة

زعموا أنَّ الزرافة خلقٌ مركب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية

وبين الذئخ وهو ذكر الضباع وذلك أنَّهم لما رأوا أنَّ اسمها بالفارسية أشتَرِكاو بلنك وتأويل أشتَرِكاو بتأويل كاف بقررة وتأويل بلنك الضبع لأن الضباع عُرِج كذلك الذكر والأنثى يكون بهما خُماع كما عرض للذئب القزل وكلُّ ذئبٍ أقزلُّ وكما أنَّ كلَّ غرابٍ يحجل كما يحجل المقيّد من الناس وكما أنَّ العصفور لا يمشي ومشيه أن يجمع رجله أبداً معاً في كلِّ حركةٍ وسكونٍ وقولهم للزرافة أشتَرِكاو بلنك اسم فارسيٌّ والفرس تسمي الأشياء بالاشتقاق كما تقول للنعام : اشتَرِكاو وكأنَّهم في التقدير قالوا : هو طائر وجمل فلم نجد هذا الاسم أوجب أن تكون النعامُ نتاج ما بين الإبل والطير ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين سمّوها بذئب الشين وهم يسمون الشيء المرَّاحلو ترش شيرين وهو في التفسير حلّو حامض فجسّر القوم فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثاً وجعلوا الخلقة ضرباً من التراكيب فقالوا : قد يعرض الذئخ في تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها فتلقح بولدٍ يجيء خلقه ما بين خلق الناقة والضبع فإن كان أنثى فقد يعرض)

لها الثور الوحشي فيضربها فيصير الولد زرافة وإن كان ولد الناقة ذكراً عرض للمهاة فألقحها فتلد زرافة فمنهم من حجر البتة أن تكون الزرافة الأنثى تلقح من الزرافة الذكر وزعموا أن كل زرافة في الأرض فإنما هي

من التناج الذي ركبوا وزعموا أن ذلك مشهور في بلاد الحبشة وأقاصي اليمن وقال آخرون : ليس كل خلق مركب لا ينسل ولا يبقى نجله ولا يتلاقح نسله على ما حكينا من شأن الورشان والراعي وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم ويتهمون الكتب وتغرهم كثرة أتباعهم ممن تجله مستهتراً بسماع الغريب ومغرماً بالطرائف والبدائع ولو أعطوا مع هذا الاستهتار نصيباً من الثبوت وحظاً من التوقي لسلمت الكتب من كثير من الفساد .

التناج المركب في الطيور

وأنا رأيت طائراً له صوت غير حسن فقال لي صاحب الطيور : إنه من نتاج ما بين القمري والفاخته . وقناص الطير ومن يأتي كل أوقه وغيضة في التماس الصيد يزعمون أن أجناساً من الطير الأوابد والقواطع تلتقي على المياه فتسافد وأنهم لا يزالون يرون أشكالا لم يروها قط فيقدرون أنها من تلاقح تلك المختلفة .

زعم بعض الأعراب في الحرباء

وقال أبو زيد النحوي وذكر عمن لقي من الأعراب أنهم زعموا أن ذكر أم حنين هو الحرباء قال : وسمعت أعراباً من قبس يقول لأم حنين حبيبة والحبيبة هو اسمها قال : وقيس تسمي ذكر العظاءة العصفوط . وقال يحيى الأغر : سمعت أعرابياً يقول : لا خير في العظاءة وإن كان صعباً مكوناً قال : فإذا سأم أبرص والورل والوحر والضب والحلكاء كلها عنده عظاءة . (ولد الثعلب من الهرة الوحشية) وزعم يحيى بن نعيم أن الثعلب يسفد الهرة الوحشية فيخرج بينهما ولد وأنشد قول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه : (أبوك أبوك وأنت ابنه ** فبئس البني وبئس الأب) (وأهلك سوداء نويبة ** كأن أنملها العنظ)

وأنشد أبو عبيدة قول عبد الرحمن بن الحكم : (ألا أبلغ معاوية بن حرب ** مغلغلة عن الرجل اليماني) (أتغضب أن يقال أبوك عَفَّ ** وترضى أن يقال أبوك زاني) (فأشهد أن رحمك من قریش ** كرحم الفيل من ولد الأتان) قال كيسان : ولأي شيء قال : كرحم الفيل من ولد الأتان إنما كان ينبغي أن يقول : كرحم الفيل من الخنزير قال أبو عبيدة : أرادها هو التباعد بعينه وأنت تريد ما هو أقرب .

زعم بعض المفسرين والإخباريين في حيوان سفينة نوح

وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار : أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة فرمى من منخره بزوج سنابير فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد وسلح الفيل زوج خنازير فلذلك الخنزير أشبه

شيء بالفيل قال كيسان : فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنابير وتلك السنورة حواءها قال أبو عبيدة لكيسان : أولم تعلم أنت أن لكل جنس من

شره سعد القرقرة

ولما رأى أبو قردودة سعد القرقرة أكل عند الثعمان مسلوحاً بعظامه قال : (بين النعام وبين الكلب منبئة ** وفي الذئاب له ظئر وأحوال) يقول : إن سعداً ضرب في أعراقه نجر النعام الذي يلتهم الجمر ويلتقم الحجارة فيطفيئ الجمر ويميع الصخر وضرب في أعراقه نجر الكلب الذي يرض كل عظم ولا يقبض عليه بكفه إلا هو واثق بفته ولا يسيغه إلا وهو على ثقة من استمراره فأما الذئب فإنه لا يروم بفكه شيئاً إلا ابتلعه بغير معاناة عظماً كان أو غيره مصمتاً كان أو أجوف .)
ولذلك قال الراجز : (أطلس يخفي شخصه غباره ** في فمه شفرته وناره) فأبو قردودة لم يرد أن الذئب والكلب خالاه وأن النعام نجله وإنما قال ذلك على المثل والتشبيه ولم يرد أن له ظئراً من الكلاب وخالاً من الذئاب .

وشبيه ذلك قول أمير المؤمنين المأمون لبعض الناس : يا نطف

الخمارين ونزاع الطؤورة وأشباه الخؤولة .

وعلى شبيه بذلك قال سلم بن قتيبة لبعض من ذكره وهو عند سليمان بن علي : أيها الأمير إن آل فلان أعلاج خلق الله وأوباشه لنام غدر شرابون بأنقع ثم هذا بعد في نفسه نطفة خمّار في رحم صنّاجة .

زواج الأجناس المتباينة من الناس

وقال لي أبو إسحاق : قال لي أبو العباس وأبو العباس هذا كان ختن إبراهيم على أخته وكان رجلاً يدين بالنجوم ولا يقر بشيء من الحوادث إلا بما يجري على الطباع قال أبو إسحاق : وقال لي مرة : أتعرف موضع الخطوة من خلوة النساء قلت : لا والله لا أعرفه قال : بل اعلم أن لا يكون الخط إلا في نتاج شيكلين متباينين فالتقاؤهما هو الأكسير المؤدّي إلى الخلاص : وهو أن تزوج بين هندية وخراساني فإنها لا تلد إلا الذهب الإبريز ولكن احرس ولدها إن كان الولد أنثى فاحذر عليها من شلة لواط رجال خراسان وزناء نساء الهند واعلم أن شهوتها للرجال على قدر حظوتها عندهم واعلم أنها ستسحق النساء على أعراق الخراسانية وتزني بالرجال على أعراق الهند واعلم أنه مما يزيد في زناها ومساحتها معرفتها بالخطوة عند الرناة وبالخط عند السحاقات .

وقالوا في الخلق المركب ضرراً من الحق والباطل ومن الصدق والكذب فمن الباطل زعمهم أن الشبوط ولد الزجر من البني وأن الشبوط لا يخلق من الشبوط وأنه كالبعل في تركيبه وإنسائه ورووا ذلك عن أبي

وائلة إياس بن معاوية بن قرّة .

وزعموا أنّ أمّ جعفر بنت جعفر بن المنصور حصّرت في حوض لها ضخمة أو بركة كبيرة عدداً كثيراً من الزجر والبنيّ وأنها لم تخلطُ بهما غيرهما فمات أكثره وبقيت بقية كانت الصميم في القوّة وفي احتمال تغيّر المكان فلم تحمل البيض حيناً ثمّ إنّها حملت بالشبايط .

مطر الضفادع والشبايط

وزعم حُرَيْثُ أنّه كان بأيّذَج فإذا سحابة دهماء طخياء تكاد تمسُّ الأرض وتكاد تمسُّ قِمَمَ رؤوسهم وأنّهم سمعوا فيها كأصوات الجنّيق وكهدير الفحول في الأشوال ثمّ إنّها دفعت بأشدّ مطر رُئي أو سُمع به حتى استسلموا للغرق ثمّ اندفعت بالضفادع العظام ثمّ

اندفعت بالشبايط السّمان الخِداال فطبخوا واشتروا وملّحوا وادّخروا .

غرور أبي وائلة والخليل بن أحمد

وروا عن أبي وائلة أنّه زعم أنّ من الدليل على أنّ الشبّوط كالبعل أنّ الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبايط في جوفها بيضاً قطّ فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدّة العقل المنعوت بقُوب الفراسة ودقّة الفطنة صحيحاً فما أعظم المصيبة علينا فيه وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً وذلك أنّي سمعتُ له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس يدلُّ على أنّ الرجل حين أحسن في أشياء وهمه العُجب بنفسه أنّه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه .

وغرّه من نفسه الذي غرّ الخليل بن أحمد حين أحسن في النحو والعروض فظنّ أنّه يحسن الكلام وتأليف اللّحون فكتب فيهما كتابين لا يُشير بهما ولا يدلُّ عليهما إلّا المرّة المحترقة ولا يؤدّي إلى مثل ذلك إلّا خذلان من الله تعالى فإنّ الله عزّ وجلّ لا يُعجزه شيء .

بيض الشبّوط وتناسله

والشبّوط حفظك الله تعالى جنسٌ كثيرُ الذكور قليلُ الإناث فلا يكون إنثاه أيضاً يجمعن البيض وإذا جمعن فلو جمعت بيضَ عشرٍ منهنّ

لما كان كشطُ بيضِ بُنيّةٍ واحدةٍ وقد رأيتُ بيضَ الشبّوط وذقته للتعرف فوجده غير طائل ولا مُعجب وكلُّ صيادٍ تسأله فهو يُنيك أنّ له بيضاً ولكنّه إذا كان يكون ضئيلاً قليلاً لأنّ الشبايط في أصلِ العدد من أقلّ السمك وكذلك الجنس منه إذا كانت الأنثى منه مذكاراً .

على أنّه ربّ فمرّ يكون أكثرُ سمكه الشبّوط وذلك قليل كنهر رامهرمز والشبّوط لا يترى في البحار ولا

يسكن إلا في الأودية والأهوار ويكره الماء المالح ويطلب الأعدب فالأعدب ويكون في الماء الجاري ولا يكون في الساكن وسنذكر شأنه في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

رد على ما زعموا في الزرافة

ولم يصب أبو واثلة وكذبوا على أم جعفر فإذا قالوا في الزرافة ما قالوا فلا تأمنهم على ما هو دونه وإن كان من كذب على الموتى واستشهد الغيب أحق فصاحب الزرافة قد استعمل بعض هذه الحيلة وصاحب الشبوط يكذب على الأحياء ويستشهد الحضور وإن كان الذي دعا إلى القول في الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلاً على تركيب

الخلق فالجاموس بالفارسية كاوماش وتأويله ضائي بقري لأهم وجدوا فيه مشابهة الكباش وكثيراً من مشابهة الثور وليس أن الكباش ضربت في البقر فجاءت بالجواميس .

رأي الفرس في تقسيم الحيوان

وزعم الفرس أن الحيوان كله الذي يلد حيواناً مثله مما يمشي على أربع قوائم لا تخلو أجناسها من المعز والضأن والجواميس عندهم ضأن البقر والبخت عندهم ضأن الإبل والبراكين عندهم ضأن الخيل

زعم في الإبل

والناس يقولون في الإبل أقاويل عجيبة : فمنهم من يزعم أن فيها عرقاً من سفاد الجن وذهبوا إلى الحديث : أنهم إنما كرهوا الصلاة في أعطان الإبل لأنها خلقت من أعناق الشياطين فجعلوا المثل والجاز على غير جهته وقال ابن ميادة : (فلما أتاني ما تقول مُحاربٌ ** تغت شياطين وجن جنونها)

قال الأصمعي المأثور من السيوف الذي يقال : إن الجن عملته . وهم يسمون الكبر والخزوانة والنعرة التي تضاف إلى أنف المتكبر شيطناً قال عمر : حتى أنزع شيطانه كما قال : حتى أنزع النعرة التي في أنفه ويسمون الحية إذا كانت داهية منها شيطناً وهو قولهم : شيطان الحماسة قال الشاعر : (تعالج مثنى حصرمي كأنه ** تعمج شيطان بذي خروع قفر) شبه الزمام بالحية وعلى مثل ذلك قال الشاعر : والهاب : الحية الذكر وكذلك الأيم وقد نهي عن الصلاة عند غيوبة الشمس وعند طلوع القرص إلى أن يتتام ذلك وفي الحديث : إنها تطلع بين قرني شيطان .

ضرورة حذف اللغة للعالم والمتكلم

فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يئل عندهم على

معانيهم وإرادتهم ولتلك الألفاظ مواضع أُخِرُ ولها حينئذ دلائل أخر فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك .

الإبل الوحشية

وزعم نلس أن من الإبل وحشياً وكذلك الخيل وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير والحمائم وغير ذلك فرعموا أن تلك الإبل تسكن أرض وبار لأنها غير مسكونة ولأن الحيوان كلما اشتدت وحشيته كان للخلاء أطلب قالوا : وربما خرج الجمل منها لبعض ما يعرض فيضرب في أدنى هجمة من الإبل الأهلية قالوا : فالمهرية من ذلك التناج .
وقال آخرون : هذه الإبل الوحشية هي الحوش وهي التي من بقايا إيل وبار فلما أهلكهم الله تعالى كما أهلك الأمم مثل عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وجاسم بقيت إبلهم في أماكنهم التي لا يطورها إنسي فإن سقط إلى تلك الجزيرة بعض الخلاء أو بعض من أصل الطريق حث

الجن في وجهه فإن ألح خبلته فضربت هذه الحوش في العمانية فجاءت هذه المهرية وهذه العسجدية التي تسمى الذهبية .

وأنشدني سعدان المكخوف عن أبي العميث قول الراجز : (ما ذم إيلي عجم ولا عرب ** جلودها مثل طواويس الذهب) وقال الآخر : (إذا اصطكت بضيق حجراتها ** تلاقى العسجدية واللطم) والعسجد من أسماء الذهب .

قالوا : وإنما سميت صاحبة يزيد بن الطثرية حوشية على هذا المعنى .
وقال روبة : جرت رحانا من بلاد الحوش

رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبايط

وأما الذي زعم أنهم مطروا الشبوط فإنه لما ظن أن الضفادع التي تُصاب بعقب المطر بحيث لا ماء ولا حل ولا عين ولا شريعة فإنهم ربما رأوها وسط الدو والدّهناء والصمّان ولم يشك أنها كانت في السحاب وعلم أنها تكون في الأنهار ومنابع المياه وليس ذلك من الذكر والأنثى قاس على ذلك الظن السمك ثم جسر فجعل السمك شبوطاً وتلك الضفادع إنما هي شيء يُخلق تلك الساعة من طباع الماء والهواء والزمان وتلك التربة على مقادير ومقابلات وعلى ما أجرى الله تعالى عليه نشأة الخلق .

امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة

وقد تُعرف القرابةُ التي تكون في رأي العين بين الشكّلين من الحيوان فلا يكون بينهما تسافُدٌ ولا تلاقُحٌ كالصّان والمعز وكالفأر والجُرْذَان فليس بالعجَب في البقر والجواميس أن تكون كذلك وقد رأينا الخِلاسيَّ من الدجاج والديكة وهو الذي تَخَلَّق من بين المولّدات والهنديّات وهي تحمل اللحم والشحم . وزعم لي مسعود بن عثمان أنه أهدى إلى عمرو بن مَسْعُود دجاجة ووُزِنَ فيها سبعة عشرَ رطلاً بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة .

ورأينا الخِلاسيَّ من الناس وهو الذي يتخلَّق بين الحبشيِّ والبيضاء والعادةُ من هذا التركيب أنه يخرج أعظمَ من أبويه وأقوى من أصله ومثمره ورأينا البَيَسريَّ من الناس وهو الذي يُخلَق من بين البيض والهند لا يخرج ذلك النَّتاجُ على مقدار ضخَم الأبوين وقوّتهما ولكنه يجيءُ أحسنَ وأملحَ وهم يسمُّونَ الماءَ إذا خالطته الملوحة بيسراً قياساً على هذا التركيب الذي حكينا عن البيض والهنديات ورأينا الخِلاسيَّ من الكلاب وهو الذي يُخلَق بين السُّلوقيِّ وكلب الراعي ولا يكون ذلك من الزَّئني والقلطي ومن كلاب الدُّور والحُرّاس وستقول في السَّمْع والعِساب وفي غيرهما من الخَلْقِ المركَّب إن شاء الله تعالى . أطول الناس أعماراً وذكرُوا أنَّهم وجدوا أطولَ أعمار الناس في ثلاثة مواضع : أوّلها سَرَوْحِير ثم فرغانة ثم اليمامة وإنَّ في الأعراب لأعماراً أطولَ على أنَّ لهم في ذلك كِذْباً كثيراً والهندُ تُربي عليهم في هذا المعنى هكذا يقول علماء العرب .

أثر النبيذ في عمر الإنسان وكان عثمانُ ماش ويزال وجدعان يذكرون أنَّهم عدُّوا أربعينَ فتيانٍ قريش وثقيف أعمارَ عامٍ واحد فأحصَوْا عشرينَ من قريش وعشرينَ من ثقيف وتوخَّوا المتجاورين في الحِلَّة والمتقاربين في الدُّور من الموقرين على النبيذ والمقصورين على التناؤم وأنَّهم أحصَوْا مثلَ ذلك العدد وأشباه أولئك في السنِّ مَنْ لا يذوق النبيذ ولا يعرفُ شراباً إلا الماءَ فذكروا أنَّهم وجدُّوا بعدَ مرورِ دهرٍ عامَّةٍ من كان يشربُ النبيذَ حياً ومن لا يشربه قد مات عامَّتْهم وكانوا قد بلغوا في السنِّ أما عثمان ويزال فكانا من المعمرين وقد رأيتُهما جميعاً ولم أسمع هذا منهما) وسنأتي على هذا الباب في موضعه من ذكر المعمرين ونميِّز الصدق فيه من الكذب وما يجوز وما لا يجوز إن شاء الله تعالى

بعض ما يعرض للخصيان

وما أكثر ما يعرض للخصيان البولُ في الفراش وغير ذلك ولا سيّما إذا بات أحدهم مُمتلئاً من النبيذ . ويعرض لهم أيضاً حبُّ الشراب والإفراط في شهوته وشدة التَّهم . ويعرض لهم أيضاً إيثار المخفِّس وحبُّ الصِّرفِ وذلك أيضاً

مما يعرض للنساء والإفراط في شهواتهنَّ وشدة الهمة لهنَّ والغيرة عليهنَّ ويحتلمون ويجنبون ويغتسلون ويرون الماء غير الرائق ولا الغليظ الذي له ريح طلع الفحل .

ويعرض للخصي شدة الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثير أو جاه عريض حتى ربما كان عند مولاه بعض من عسى أن يتقدم هؤلاء المذكورين الذين يكون الخصي كلفاً بهم وبتعظيمهم ومغرمًا بخدمتهم في الأدب والحسب وفي بُعد الهمة وكرم الشئمة فيعيد عند دخول ذلك الرجل الذي له السلطان والجاه والمال إلى متكأ هذا الأديب الكريم والحسيب الشريف فينزع من تحت مرقفه غير محتفل بذلك ولا مكترث لما فيه ويضعه له من غير أن يكون موضع المرافق بعيداً أو كان ذلك ثم يفوت بعض الفوت ويفعل ذلك وإن كان يعاشر هذا الأديب الكريم مولاه وهو على يقين أنه لا يرى ذلك الموسر وصاحب الجاه أبداً .

أقوال في خصاء الخيل وقد حرّم بعضهم خصاء الخيل خاصة وبعضهم زاد على ذلك حتى حرّم خصاء البهائم وقال بعضهم : إذا كان الخصاء إنما اجتلبه فاعله أو تكلفه صاحبه على جهة التماس المنفعة أو على طريق التجارة

فذلك جائز وسبيله سبيل الميسم فإن الميسم نار و ألمه يجوز كل ألم وقد رأينا إبل الصدقة موسومة ووسمت العرب الخيل وجميع أصناف النعم في الإسلام على مثل صنيعها في الجاهلية وقد كانت القصواء ناقة النبي صلى الله عليه وسلم موسومة وكذلك العضباء .

وقال آخرون : الخصاء غير شبيه بالميسم لأن في الخصاء من شدة الألم ومن المثلة ومن قطع النسل ومن إدخال القصص على الأعضاء والقصص لمواد القوى ما ليس في الميسم وغيره وهو) بقطع الألية أشبه والسمة إنما هي لدعة والخصاء مجاوز لكل شديدة .

قال القوم : ولا بأس بقطع الألية إذا منعت بثقلها أو عظمها الشاة من اللحاق بالقطيع وخيف عليها من الذنب وقطع الألية في جواز العقول أشبه من الميسم لأن الميسم ليس للبعير فيه حظ وإنما الحظ فيه لرب المال وقطع الألية من شكل الحنان ومن شكل البط والفصد ومن جنس الوجور والبيطرة ومن جنس اللدود والحجامة ومن جنس الكي عند الحاجة وقطع الجارحة إذا خيف عليها الأكلة وسم الإبل

قال الأوّلون : بل لعمرى إن للإبل في السمات لأعظم المنافع لأنها قد تشرب بسماها ولا تُدَاد عن الحوض إكراماً لأربابها وقد تصل فتؤوى وتصاب في الهواشات فتزد .

قالوا : فإننا لا نسألكم إلا عن سمات الخيل والبغال والحمير والغنم وبعد فكيف نستجير أن نعملها بالإحراق بالنار لأمر عسى ألا يحتاج إليه من ألف بعير واحد ثم عسى ألا يحتاج من جميع ذلك في جميع عمره إلا إلى شربة واحدة .

وقال القوم : إنما المياسم في النعم السائمة كالرُقوم في ثياب البرّاز ومتى ارتفعت الرقوم ومُتعت المياسم اختلطت الأموال وإذا اختلطت أمكن فيها الظلم والمظلوم بأذى نفسه دون المعيشة والمهزيمة .

وقالوا : ليس قطع الألية كالجثمة وكالشيء المصبور وقد نهينا عن إحراق الهوام وقيل لنا : لا تعذبوا بعذاب

اللّٰه تعالى والميسم نار وقطع الألية من شكل قطع العروق وصاحب الجئمة يقدر أن يرمي إن كان به تعلم
الرماية شيئاً لا يألم ولم يُنه عن تعذيبه فما يرد الشيء المصبور من العذاب مردّاً بوجه من الوجوه القول في
نقص بعض أجزاء الحيوان أو نقضها أو إيلاها

وقال آخرون : ليس لك أن تُحدث في جميع الحيوان حدثاً من نقض أو قص أو إيلا لأنك لا تملك النشأة
ولا يمكنك التعويض له فإذا أذن لك مالك العين بل مخترعه ومنشئ ذاته

والقادر على تعويضه وهو الله عز وجل حلّ لك من ذلك ما كان لا يحلّ وليس لك في حجة العقل أن
تصنع بها إلا ما كان به مصلحة كعلاج الدبر وكاليطرة .

وقال آخرون : لنا أن نصنع كلّ ما كان يُصنع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده
ثم لم يكن مدفوعاً عند بعضهم إلا أن يكون نهى ذلك البعض من جماعتهم في طريق الخلاف والرد والمفارقة
ولا يكون عندهم قولاً من الأقاويل فإن ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلف يعرف وجه الملام
والمذهب في ذلك معروف وإن كان خارجاً من ذلك الحد فقد علمنا أنه أبيض من طريق التبعّد والخنة كما
جعل الله تعالى لنا ما أحلّ ذبحه من البهائم وكما جعل لنا أن نقتل القمل والبراغيث والبعوض وإن لم يكن
منها إلا مقدار الأذى فقط والقتل لا يكون قصاصاً من الأذى ولكن لما أباح لنا خالق الشيء والقادر على
تعويضه قتله كان قتله أسوغ في العقل مع الأذى من ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى .

قال : وليس كل مؤذٍ ولا كل ذي أذى حكم الله تعالى فيه بإباحة القتل والله عز وجل بمقادير الأمور
وبحكم المختلف والمتفق والقليل من ذلك والكثير أحكم وأعلم .

وقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام فأطاع
الوالد وطاوع الولد .

والجواب الماضي إنما هو قول من قال بالتعويض وهو قول النظم وأكثر المتكلمين يعترضون عليه فيه .

منع خصاء الإنسان وإباحته

ولا يزال يرحمك الله تعالى بعض الملحدين من المعاندين أو بعض الموحدين من الأغبياء المنقوصين قد طعن
في ملك الخصي وبيعه وابتاعه ويذكرون الخصي الذي كان المقوقس عظيم القبط أهده إلى النبي صلى الله
عليه وسلم وعلى آله مع مارية القبطية أم إبراهيم عليه السلام قالوا : فقد ملك عليه الصلاة والسلام
خصياً بعد أن عرفه وأحاط علمه بأنه خصي وأنتم ترعمون أن الخصاء حرام وأن من اشترى من الخاصي
خصياً ثم زاد على قيمته وهو فحل فقد أعان على الخصاء وحث عليه ورغب فيه وأنه من أفحش الظلم
وأشدّ القسوة وزعمتم أن من فعل ذلك

فهو شريك الخاصي في الإثم وأنّ حاله كحال المعروفين بالابتاع من اللصوص وقتلتم : وكذلك من شهد
القمار وهراش الكلاب ونطاح الكباش وقتل الديوك وأصحاب الجراحات وحرب الفنتين الضالّتين وقتلتم :

لأن هذه المواضع لو لم تحضرها التظاهرة لما عملوا تلك الأعمال ولو فعلوها ما بلغوا مقدار الشطر لعلبة الرياء والسمة على قلوب الناس فكذاك الخاصي والمشتري والمبتاع من المشتري شركاء متعاونون وخلفاء مترادفون وإذا كان المبتاع (يزيد في السلعة لهذه العلة والبائع يزيد في السوم لهذا السبب وقد أقرتم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبل له من المقوقس كما قبل مارية واستخدمه وجرى عليه ملكه وأمره فافهم فهملك الله تعالى ما أنا مجيب به في هذه المسألة والله الموفق وعلى الله قصد السبيل .

أقول : قبل كل شيء لا يخلو هذا الحديث الذي رويموه من أن يكون مرضي الإسناد صحيح المخرج أو يكون مسخوط الإسناد فاسد المخرج فإن كان مسخوطاً فقد بطلت المسألة وإن كان مرضياً فقد علمنا أنه ليس في الحديث أنه قبله منه بعد أن علم أنه خصي وعلى أن قبول الهدية خلاف الابتاع لأن بائع الخصي إنما يحرم عليه التماس الزيادة وكذلك المبتاع إنما يحرم عليه دفع الزيادة إذا كان لو سلم إليه بذلك الثمن فجلاً أجمل منه وأشب وأخدم منه لم يزده والبائع أيضاً لا يستام بالفحل سومه بالخصي وقبول الهدية وقبول الهبة وسبيل البيع والابتاع

لا بأس به إذا كان على ما وصفنا وإنما هدية الخصي كهدية الثوب والعطر والدابة والفاكهة ولأن الخصي لا يحرم ملكه ولا استخدمه بل لا يحل طرده ونفيه وعتقه جائز وجواز العتق يوجب الملك ولو باعه المالك على غير طلب الزيادة أو لو تاب من الخصاص أو استحله مما أتى إليه لماً حرم على الخاصي نفسه استخدامه والخصي مالٌ وملك واستخدامه حسن جميل ولأن خصاء إياه لا يعتقه عليه ولا يُزيل عن ملكه إلا بمثل ما وجب به ملكه .

وأخرى : أن في قبول هدية ذلك الملك وتلقي كرامته بالإكرام تدبيراً وحكمة فقد بطلت المسألة والحمد لله كما هو أهله .

وقد روي مع ذلك أيضاً : أن زباعاً الجذامي خصى عبداً له وأن النبي صلى الله عليه وسلم وربما سألوا عن الشيء وليس القول فيه يقع في نسق القول في الخصي وفي الخلق المركب ولكن إذ قد أجبننا في مسألة كلامية من مسائل الطعن في النبوة فلا بأس أن نضيف إليها أخرى ولا سيما إذا لم تطل فتزيد في طول الكتاب .

وقد لا يزال الطاعن يقول : قد علمنا أن العرب لم يسموا حروب أيام الفجار بالفجور وقريش خاصة إلا أن القتال في البلد الحرام في الشهر الحرام كان عندهم فجوراً وتلك حروب قد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم

وعلى آله وهو ابن أربع عشر سنة وابن أربع عشرة سنة يكون بالغاً وقال : شهدت الفجار فكنت أنبل على عمومي .

وجوابنا في ذلك : أن بني عامر بن صعصعة طالبوا أهل الحرم من قريش وكنانة بجزيرة البراض (بن قيس في قتله عروة الرحال وقد علموا أنهم يطالبون من لم يجن ومن لم يعاون وأن البراض بن قيس كان قبل ذلك خليعاً مطروداً فاتوهم إلى حرمهم يلزمونهم ذنب غيرهم فدفأوا عن أنفسهم وعن أموالهم وعن

ذرايرهم والفاجر لا يكون المسعّي عليه ولذلك أشهد الله تبارك وتعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام ذلك الموقف وبه نُصروا كما نُصرت العربُ على فارسَ يوم ذي قارٍ به عليه الصلاة والسلام وبمخرجه وهذان جوابان واضحا قريبان والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

ثم رجّع بنا القول إلى ذكرِ محاسنِ الخصيِّ ومساويه .
الخصيُّ يَنكحُ ويتخذ الجوّاري ويشتدُّ شغفه بالنساء وشغفهنَّ به وهو وإن كان محبوب العضو فإنّه قد بقي له ما عسى أن يكون فيه من ذلك ما هو أعجبُ إليهنَّ وقد يحلم ويخرجُ منه عند الوطء ماءً ولكنّه قليلٌ متغيّر الريح رقيقٌ ضعيف وهو يباشر بمشقة ثم لا يمنعه من المعاودة الماء الذي يخرج منه إذ كان قليل المقدار لا يخرجه من القوة إلى الضعف

مثل الذي يعتري من يخرج منه شيء يكون من إنسان وهو أخثرُ وأكثر وأحدُ ربحاً وأصحُّ جوهرًا والخصيُّ يجتمع فيه أمنيّة المرأة وذلك أنّها تبغض كلَّ سريع الإراقة بطيء الإفاقة كما تكره كلَّ ثقیل الصدر وخفيف العجز والخصيُّ هو السريع الإفاقة البطيء الإراقة المأمونُ الإلقاح فتقيمُ المرأةُ معه وهي آمنة العار الأكبر فهذا أشدُّ لتوفير لذتها وشهوتهما وإذا ابتذلن الخيضان وحقرن العبيد وذهبت الهيبة من قلوبهنَّ وتعظيمُ البعول والتصنعُ لذوي الأقدار باجتلاب الحياء وتكلف الخجل ظهر كلُّ شيء في قوى طبائعهنَّ وشهوآتهنَّ فأمكنها التّخير والصّباح وأن تكون مرّة من فوق ومرّة من أسفل وسمحت النفسُ بمكنونها وأظهرت أقصى ما عندها .

وقد تجد في النساء مَنْ تؤثر النساءُ وتجدُ فيهنَّ من تُؤثر الرجال وتجدُ فيهنَّ مَنْ تؤثرُ الخيضان وتجدُ فيهنَّ من تجمعُ ولا تفرّق وتعمُّ ولا تخصُّ وكذلك شأنُ الرجال في الرجال وفي النساء والخيضان فالمرأة تنازع إلى الخصيِّ لأنَّ أمره أستر وعاقبته أسلم وتحرصُ عليه لأنّه ممنوعٌ منها ولأنَّ ذلك حرامٌ عليها فلها جاذبان : جاذبٌ حرص كما يُحرص على الممنوع وجاذبٌ آمن كما يُرغب في السلامة وقال الأصمعيّ : قال يونس بن عُبيد : لو أخذنا بالجزع لصبرنا قال الشاعر :

(وزادها كلفاً بالحَبِّ أنْ منعتْ ** وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنعا) والحرصُ على الممنوع بابٌ لا يقدر على الاحتجاز منه والاحتراس من خُدعه إلا كلُّ مبرِّز في (

الفتنة ومتمهّل في العزيمة طويل التجارب فاضل العقل على قوَى الشهوات وبنس الشيء القرينُ السوء وقالوا : صاحب السوء قطعهُ من النار .

وبابٌ من هذا الشكل فبكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه وتقفوا عنده وهو ما يصنع الخبرُ السابق إلى السمع ولا سيّما إذا صادف من السامع قلة تجربة فإن قَرَن بين قلة التجربة وقلة التحفّظ دخل ذلك الخبر السابق إلى مستقرّه دُخولاً سهلاً وصادف موضعاً طيئاً وطبيعة قابلة ونفساً ساكنة ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته ومتى ألقي إلى الفتيان شيء من أمور الفتيات في وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل وكذلك متى ألقي إلى الفتيان شيء من أمورهنَّ وأُمُورِ العُلَمان وهناك سُكّر الشباب فكذلك تكون حالهم وإن الشُّطَّار ليخلو أحدهم بالغلام الغرير فيقول له : لا يكون الغلام

فَتَى أَبَدًا حَتَّى يَصَادِقَ فَتَى وَإِلَّا فَهُوَ تَكْشِ والتكش عندهم الذي لم يؤدبه فتى ولم يخرج به فما الماء العذب
البارد بأسرع في طباع العطشان من كلمته إذا كان للغلام أدنى هوى في

الفتوة وأدنى داعية إلى المنالة وكذلك إذا حلت العجوز المدربة بالجارية الحديثة كيف تخبئها وأنشدنا :
فَأَتَتْهَا طَبَّةٌ عَالِمَةٌ * تَخْلُطُ الْجِدَّ بِأَصْنَافِ اللَّعْبِ (ترفعُ الصوتَ إذا لانت لها * وتناهي عند سورات
الغضب) وقال الشاعر فيما يشبه وقوع الخبر السابق إلى القلب : (نَقَلَ فَرَادَكَ حَيْثُ شَتَّ مِنَ الْهَوَى *
ما الحبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ) (كم منزل في الأرض يألفه الفتى * وحينئذ أبداً لأوّل منزل) وقال مجنون
بني عامر : (أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى * فصادف قلباً خالياً فتمكّنا)

أثر التكرار في خلق الإنسان

وباب آخر ممّا يدعو إلى الفساد وهو طول وقوع البصر على الإنسان الذي في طبعه أدنى قابل وأدنى حركة
عند مثله وطول التداين وكثرة الرؤية هما أصل البلاء كما قيل لابنة الحُسّ : لم ولو أن أقبح الناس وجهاً
وأنتهم ربحاً وأظهرهم فقراً وأسقطهم

نفساً وأوضعهم حسباً قال لامرأة قد تمكّن من كلامها ومكّنته من سمعها : واللّه يا مولاتي وسيدي لقد
أسهرت ليلي وأرقت عيني وشغلّيتني عن مهمّ أمري فما أعقل أهلاً ولا مالاً ولا ولداً لنقض طباعها)
ولفسخ عقدها ولو كانت أبرع الخلق جمالاً وأكملهم كمالاً وأملحهم ملحاً فإنّ قبيحاً مع ذلك من هذا
المتعشّق أن تدمع عينه احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ومُعَاذَةُ الْعُدْوِيَّةِ وَرَابِعَةُ الْقَيْسِيَّةِ
وَالشَّجَاءُ الْخَارِجِيَّةُ .

زهد الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه

وإنّما قال عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه : اضربوهنّ بالعرى لأنّ الثياب هي المدعاة إلى الخروج في
الأعراس والقيام في المناحات والظهور في الأعياد ومتى كثر خروجها لم يعدمها أن ترى من هو من شكل
طبعها ولو كان بعلمها أتمّ حسناً والذي رأته أقصّ حسناً لكان ما لا تملكه أطرف ممّا تملكه ولكن ما لم تله
ولم تستكثر منه أشدّ لها اشتغالا وأشدّ لها اجتذاباً ولذلك قال الشاعر : (وَلِلْعَيْنِ مَلْهُىً بِالْثَلَاذِ وَلَمْ يَقْدُ *
هوى النفس شيءٌ كاقْتِيَادِ الطَّرَائِفِ) وقال سعيد بن مسلم : لأن يرى حرمتي ألف رجل على حالٍ تكشف

منها وهي لا تراهم أحبّ إليّ من أن ترى حرمتي رجلاً واحداً غير منكشف .
وقال الأوّل : لا يضركُ حُسْنُ من لم تعرف لأنك إذا أتبعته بصرك وقد نقضت طبعك فعلمت أنّك لا تصل
إليها بنفسك ولا بكتابك ولا برسولك كان الذي رأيت منها كالحلم وكما يتصور للمتمني فإذا انقضى ما

هو فيه من المني ورجعت نفسه إلى مكانها الأول لم يكن عليه من فقدتها إلا مثل فقد ما رآه في النوم أو مثله له الأماي .

عقيل بن علفة وبناته

وقيل لعقيل بن علفة : لو زوجت بنتك فإن النساء لحم على وضم إذا لم يكن غايات قال : كلا إني أجيئن فلا يأسرن وأعريهن فلا يظهرن فواقت إحدى كلمتيه قول النبي صلى الله عليه وسلم وواقت الأخرى قول عمر بن الخطاب لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الصوم وجاء وقال عمر : استعينوا عليهن بالعري وقد جاء في الحديث : وقروا أشعارهن فإن ترك الشعر مجفرة

وقد أتينا على هذا الباب في الموضع الذي ذكرنا فيه شأن الغيرة وأول الفساد وكيف يئب وكيف يحصد . وقد رأيت غير خصي يتلوّط ويطلب الغلمان في المواضع ويخلو بهم يأخذهم على جهة الصداقة ويحمل في ذلك الحديد ويقا تل دون السخول ويتمشى مع الشطار .

وقد كان في قطعة الربيع خصي أثير عند مولاه عظيم المتزلة عنده وكان يثق به في ملك يمينه وفي حرمة من بنت وزوجة وأخت لا يخص شيئاً دون شيء فأشرف ذات يوم على مربد له وفي المربد غنم صفايا وقد شدّ يدي شاة وركبها من مؤخرها يكومها فلما أبصره برق وبعل وسقط في يديه وهجم عليه أمر لو يكون رآه من خصي لعدو له لما فارق ذلك الهول أبداً قلبه فكيف وإنما عاين الذي عاين فيمن كان يخلقه في نسائه من حرمة وملك يمينه فينما الرجل وهو واجم حزين وهو ينظر إليه وقد تحرق عليه غيظاً إذ رفع الخصي رأسه فلما أثبت مولاه مرّ مسرعاً نحو باب الدار ليركب رأسه وكان المولى أقرب إلى الباب منه فسبقه إليه وكان الموضع الذي رآه منه

موضعا لا يصعد إليه فحدث لشقائه أمر لم يجد مولاه معه بدءاً من صعوده فلبث الخصي ساعة ينفض من حمى ركبته ثم فاذ ولم يمس إلا وهو في القبر .

ولفرط إرادتهم النساء وبالحسرة التي نالتهن وبالأسف الذي دخلهن أبغضوا الفحول بأشد من تباعض الأعداء فيما بينهم حتى ليس بين الحاسد الباغي وبين أصحاب النعم المتظاهرة ولا بين الماشي المعنى وبين راكب الهملاج الفاره ولا بين ملوك صاروا سوقة وبين سوقة صاروا ملوكاً ولا بين بني الأعمام مع وقوع التنافس أو وقوع الحرب ولا بين الجيران والمتشاكليين في الصناعات من الشنف والبغضاء بقدر ما يلتحف عليه الخصيان للفحول .

وبغض الخصي للفحل من شكل بغض الحاسد لذی النعمة وليس من شكل ما يولده التنافس وتلججه الجنایات .

نسك طوائف من الناس

ولرجال كل فن وضرب من الناس ضرب من النسك إذ لا بد لأحدهم من النزوع ومن ترك طريقته الأولى : فنسك الخصي غزو الروم لما أن كانوا هم الذين خصّوهم ولزوم أذنة الرباط بطرسوس وأشباهاها فظن عند ذلك أهل الفراسة أن سبب ذلك إنما كان لأن الروم لما كانوا هم الذين خصّوهم كانوا مغتاطين عليهم وكانت

متطلبية إلى التشفي منهم فأخرج لهم حب التشفي شلة الاعتزام على قتلهم وعلى الإنفاق في كل شيء يبلغ منهم ونسك الخراساني أن يحج : ونسك البنوي أن يدع الديوان ونسك المغني : أن يكثر التسبيح وهو يشرب النبيذ والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والصلاة في جماعة ونسك الرافضي : إظهار ترك النبيذ ونسك السوادي ترك شرب المطبوخ فقط ونسك اليهودي : إقامة السبت ونسك المتكلم : التسرع إلى إكفار أهل المعاصي وأن يرمي الناس بالجبر أو بالتعطيل أو بالزندقة يريد أن يوهم أمورا : منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه للدين والإغراق فيه ومنها أن يقال : لو كان نطفاً أو مرتاباً أو محتجاً على بلية لما رمى الناس ولرضي منهم بالسلامة وما كان ليرميهم إلا للعر الذي في قلبه ولو كان هناك من ذل الريبة شيء لقطعه ذلك عن التعرض لهم أو التنبيه على ما عسى أن حرّكهم له أن يتحرّكوا ولم نجد في المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوباً ممن يرمي خصومه بالكفر .
الجماز وجارية آل جعفر وكان أبو عبد الله الجمّاز وهو محمد بن عمرو يتعشق جارية

لآل جعفر يقال لها طغيان وكان لهم خصي يفظها إذا أرادت يوت المغنين وكان الخصي أشدّ عشقاً لها من الجمّاز وكان قد حال بينه وبين كلامها والدنو منها فقال الجمّاز وكان اسم الخادم سنّاناً : (ما للمقيت سينان ** وللطباء الملاح) (لبس زان خصي ** غاز بغير سلاح) وقال فيه أيضاً وفيها : (نفسي الفداء لطبي ** يئني وأحبه) (به أجاب سيناناً ** ينيكه أين زبه) وقال أيضاً فيهما : (ظبي سينان شريكي ** فيه فبس الشريك) (اينيك سيناناً ** ولا يدعنا نيك) ما قيل من الشعر في الخصاء وقال البخاري يذكر محاسن خصال الخصيان : (ونساء لمطمئن مقيم ** ورجال إن كانت الأسفار)

وقال حميد بن ثور يهجو امرأته : (جلبة ورهاء تخصي حمارها ** بغي من بغي خيراً إليها الجلامد) وقال مزرد بن ضرار : (فجاءت كخصي العير لم تحل عاجة ** ولا جاجة منها تلوح على وشم) وقال عمرو الخاركي : (إذا لام على المرد ** نصيح زاني حرصا) (ولا والله ما أق ** لع ما عمرت أو أخصي) (رماك الله من أير بأفعى ** ولا عافاك من جهد البلاء) (جزاك الله شراً من رفيق ** إذا بلغت بي ركب النساء) (أجبن في الكريهة حين نلقى ** وما تفك تُنعظ في الخلاء) (فلا والله ما أمسى رفيقي ** ولولا البول غوجل بالخصاء)

وقال بعض عبد القيس : (ما كان قحذم ابن واهصة الخصى ** يرجو المناكح في بني الجارود) (ومن انتكاس الدهر أن زوجتها ** ولكل دهر عشرة مجدود) (لو كان منذر إذ خطبت إليهم ** حياً لكان

خَصَاكَ بالمعمود) وقال أبو عبيدة : حَدَّثَنِي أَبُو الْخَطَّابِ قَالَ : كَانَ عِنْدَنَا رَجُلٌ أَحْدَبُ فَسَقَطَ فِي بئر فَذَهَبَتْ حَدِيثَهُ وَصَارَ آدِرٌ فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ تَحْدِثُكَ فَقَالَ : الَّذِي جَاءَ شَرٌّ مِنَ الَّذِي ذَهَبَ .
وَأَبُو الْحَسَنِ عَنْ بَعْضِ رِجَالِهِ قَالَ : خَرَجَ مَعَاوِيَةُ ذَاتَ يَوْمٍ يَمْشِي وَمَعَهُ خَصِيٌّ لَهُ إِذْ دَخَلَ عَلَى مَيْسُونَ ابْنَةِ بَحْدَلٍ وَهِيَ أُمُّ يُزَيْدٍ فَاسْتَرَتْ مِنْهُ فَقَالَ : أَتَسْتَرِينَ مِنْهُ وَإِنَّمَا هُوَ مِثْلُ الْمَرْأَةِ قَالَتْ : أَتُرَى أَنَّ الْمِثْلَةَ بِهِ تُحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى .

ذَكَرَ مَا جَاءَ فِي خِصَاءِ الدُّوَابِّ ذَكَرَ آدَمُ بْنُ سَلِيمَانَ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : قَرَأْتُ كِتَابَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
تَعَالَى عَنْهُ إِلَى سَعْدِ يَنْهَى عَنْ حَذْفِ أَذْنَابِ الْخَيْلِ وَأَعْرَافِهَا وَعَنْ خِصَائِهَا وَيَأْمُرُهُ أَنْ يُجْرِيَ مِنْ رَأْسِ الْمَائَتَيْنِ وَهُوَ أَرْبَعَةٌ فَرَاخٍ .
وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ كَانَ يَنْهَى عَنْ خِصَاءِ الْبَهَائِمِ وَيَقُولُ : هَلِ الْإِنْمَاءُ إِلَّا فِي الذَّكَورِ .
وَشَرِيكَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : أَخْبَرَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهَاجِرِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّخَعَمِيِّ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ نَهَى عَنْ خِصَاءِ الْخَيْلِ .

وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهَاجِرِ قَالَ : كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ لِبَعْضِ عَمَلِهِ : لَا تُجْرِيَنَّ فَرَسًا إِلَّا مِنَ الْمَائَتَيْنِ وَلَا تُخَصِّنَنَّ فَرَسًا .
وَقَالَ : وَسَمِعْتُ نَافِعًا يَقُولُ : كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَكْرَهُ خِصَاءَ الذَّكَورِ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ .
وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَنْ نَافِعٍ : أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا كَانَ يَكْرَهُ الْخِصَاءَ وَيَقُولُ : لَا تَقْطَعُوا نَامِيَةَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى .
وَعَبْدُ اللَّهِ وَأَبُو بَكْرٍ ابْنَا نَافِعٍ عَنْ نَافِعٍ قَالَ : هُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَنَّ تُخَصَّى

وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ذَنْبٍ قَالَ : سَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ : هَلْ يَخْصَاءُ الْبَهَائِمُ بِأَسْ قَالَ : أَخْبَرَنِي عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ هُمَا عَنْ صَبْرِ الرُّوحِ قَالَ الزُّهْرِيُّ : وَالْخِصَاءُ صَبْرٌ شَدِيدٌ .

وَأَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ قَالَ : هُوَ الْخِصَاءُ .

وَأَبُو جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ .
أَبُو بَكْرِ الْهَنْدَلِيُّ قَالَ : سَأَلْتُ الْحَسَنَ عَنْ خِصَاءِ الدُّوَابِّ فَقَالَ : تَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا لَعَنَ اللَّهُ مَنْ خَصَّى الرِّجَالَ .
أَبُو بَكْرِ الْهَنْدَلِيُّ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ قَالَ : خِصَاءُ الدُّوَابِّ قَالَ : وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : أَخْطَأَ عِكْرِمَةُ هُوَ دِينَ اللَّهِ . نَصَرَ بْنِ طَرِيفٍ قَالَ : حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ قَالَ : خِصَاءُ الْبَهَائِمِ فَلْيَغْ مَجَاهِدًا فَقَالَ : كَذَبَ هُوَ دِينَ اللَّهِ .

فَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّ الَّذِي قَالَ عِكْرِمَةُ هُوَ الصَّوَابُ وَلَوْ كَانَ هُوَ الْخَطَأُ لَمَا جَازَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ لَهُ : كَذَبْتَ وَالنَّاسُ لَا يَضَعُونَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ

في موضع خطأ الرأي مَن يُظَنُّ به الاجتهاد وكان مَن له أن يقول ولو أنَّ إنساناً سمع قولَ الله تبارك وتعالى :
فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ قَالَ : إِنَّمَا يعني الخِصاء لم يقبل ذلك منه لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالة على شيء دون شيء
وإذا كان اللفظ عامًّا لم يكن لأحد أن يقصد به إلى شيء بعينه إلا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قال
ذلك مع تلاوة الآية أو يكون جبريل عليه السلام قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لأنَّ الله تبارك وتعالى
لا يضمّر ولا ينوي ولا يخصُّ ولا يعمُّ بالقصد وإنَّما الدلالة في بنية الكلام نفسه فصورة الكلام هو (
الإرادة وهو القصد وليس بينه وبين الله تعالى عملٌ آخر كالذي يكون من الناس تعالى الله عن قول المشبهة
علوًّا كبيراً .

أبو جرير عن عمار بن أبي عمار أنَّ ابنَ عباسٍ قالَ في قوله تعالى : وَلَا تُرْثُهُمْ فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ قَالَ : هو
الخِصاء .

وأبو جرير عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباسٍ مثله .
أبو داود النَّخَعِيُّ عن محمد بن سعيدٍ عن عبادة بن نسيٍّ عن إبراهيم بن محيريز قال : كان أحبَّ الخيلِ إلى
سَلَفِ المسلمين في عهد عمر وعثمان ومعاوية رضي الله تعالى عنهم الخِصيانُ فَإِنَّهَا أخفى للكَمينِ والطلائعِ
وأبقى على الجَهْدِ .

أبو جرير قال : أخبرني ابن جريج عن عطاء أنه لم يرَ بأساً بخِصاء الدواب .
وأبو جرير عن أيوب عن ابن سيرين أنه لم يكن يرى بأساً بالخِصاء ويقول : لو تُرِكَت الفحولة لأكل بعضها
بعضاً .

وعمر ويونس عن الحسن : أنه لم يكن يرى بأساً بخِصاء الدواب .
سفيان بن عيينة عن ابن طاوس عن أبيه : أنه خصى بعيراً .
وسفيان بن عيينة عن مالك بن مغول عن عطاء أنه سئل عن خِصاء البغل فقال : إذا خفت عِصاضه .

أقوال في النتاج المركب

وَلَنُصِلَ هذا الكلام بالكلام الذي قبل هذا في الخلق المركب وفي تلاقيح الأجناس المختلفة زعموا أن العِسابَ
ولد الضبع من الذئب وجمعه عسابر وقال الكمي : (وتَجَمَّع المتفرِّقون * * ن من الفراعِل العِسابِر) يرميهم
بأنَّهم أخلاطٌ ومُعلَّهَجُونَ .

السمع ولد الذئب من الضبع وزعموا أن السَّمع ولد الذئب من الضبع ويزعمون أن السَّمع

كالحيَّة لا تعرف العِلل ولا تموت حَتْفَ أنفها ولا تموت إلا بعَرَضٍ يَعْرِض لها ويزعمون أنه لا يعدو شيء
كعدو السَّمع وأنه أسرع من الريح والطير .

وقال سهم بن حنظلة يصف فرسه : (فاعصِ العواذل وارمِ اللَّيلَ في عرضٍ * * بذي شبيبٍ يُقاسي ليلَه

(خَبَبًا) (كَالسَّمْعِ لَمْ يَنْقَبِ الْبَيْطَارُ سِرَّتَهُ ** وَلَمْ يَدِجْهُ وَلَمْ يَغْمِزْ لَهُ عَصَبًا) وَقَالَ ابْنُ كُنَاسَةَ يَصِفُ فَرَسًا : (كَالْعُقَابِ الطُّلُوبِ يَضْرِبُهَا الطَّاءُ ** لُوقْدَ صَوَّبَتْ عَلَى عِسْبَارٍ) وَقَالَ سُورُ الذَّنْبِ : (هُوَ سَمْعٌ إِذَا تَطَطَّرَ شَيْئًا ** وَعُقَابٌ يَحْتَبُهَا عِسْبَارٌ) يَقُولُ : إِذَا اشْتَدَّ هَرَبُ الْمَطْلُوبِ الْهَارِبِ مِنَ الطَّالِبِ الْجَادِّ فَهُوَ أَحْتٌ لِلطَّالِبِ وَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ صَارَ الْمَطْلُوبُ حِينْدٌ فِي مَعْنَى مَنْ يَحْتَاطُّ الطَّلِبُ إِذْ صَارَ إِفْرَاطٌ سَبَبًا لِإِفْرَاطِ طَلِبِ الْعُقَابِ .

وَقَالَ تَابِطُ شَرًّا أَوْ أَبُو مُحَرِّزٍ خَلْفَ ابْنِ حَيَّانِ الْأَحْمَرِ :

(مُسَبِّلٌ بِالْحَيِّ أَحْوَى رِفْلٌ ** وَإِذَا يَعْدُو فَسَمْعٌ أَزَلُّ) وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : يَدِيرُ عَيْنِي لِمَطَةِ عِسْبَارِهِ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : كَانَ مِنْهَا طَرَفُهُ اسْتِعَارَهُ وَقَالَ آخَرُ : تَلْقَى بِهَا السَّمْعُ الْأَزْلَ الْأَطْلَسَا وَزَعَمُوا أَنَّ وَلَدَ الذَّنْبِ مِنَ الْكَلْبَةِ الدَّيْسَمِ وَرَوَوْا لِبِشَّارِ بْنِ بُرْدٍ فِي دَيْسَمِ الْعَنْزِيِّ أَنَّهُ قَالَ : (أَدَيْسَمُ يَا ابْنَ الذَّنْبِ مِنْ نَسْلِ زَارِعٍ ** أَتَرَوِي هِجَائِي سَادِرًا غَيْرَ مُقْصِرٍ) وَزَارِعٌ : اسْمُ الْكَلْبِ يُقَالُ لِلْكَلابِ أَوْلَادُ زَارِعٍ . زَعَمَ لَأَرْسُطُو فِي النَّتَاجِ الْمَرْكَبِ وَزَعَمَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ أَنَّ أَصْنَافًا أُخَرَ مِنَ السَّبَاعِ الْمَتَرَاوِجَاتِ الْمُتَلَاقِحَاتِ مَعَ اخْتِلَافِ الْجِنْسِ وَالصُّورَةِ مَعْرُوفَةٌ

فَ النَّتَاجِ مِثْلُ الذَّنَابِ الَّتِي تَسْفِدُ الْكَلَابَ فِي أَرْضِ رُومِيَّةٍ : قَالَ : وَتَوَلَّدَ أَيْضًا كَلَابٌ سَلُوقِيَّةٌ مِنْ ثَعَالِبِ وَكَلَابِ قَالَ : وَبَيْنَ الْحَيَوَانِ الَّتِي يَسْمَى بِالْيُونَانِيَّةِ طَاغَرِيسُ وَبَيْنَ الْكَلْبِ تَحْدُثُ هَذِهِ الْكَلَابُ الْهِنْدِيَّةُ قَالَ : وَلَيْسَ يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الْوِلَادَةِ الْأُولَى . قَالَ أَبُو عَثْمَانَ : عَنْ بَعْضِ الْبَصْرِيِّينَ عَنْ أَصْحَابِهِ قَالَ : وَزَعَمُوا أَنَّ نِتَاجَ الْأُولَى يَخْرُجُ صَعْبًا وَحَشِيًّا لَا يَلْقَنُ وَلَا يُولَفُ .

تَلَاقِحُ السَّبْعِ وَالْكَلْبَةِ وَزَعَمَ لِي بَعْضُهُمْ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ مِنْ بَنِي تَيْمٍ أَنَّ الْكَلْبَةَ تَعْرِضُ لِهَذَا السَّبْعِ حَتَّى تَلْقَحَ ثُمَّ تَعْرِضُ لِمِثْلِهِ مَرَارًا حَتَّى يَكُونَ جَرَوُ الْبَطْنِ الثَّالِثِ قَلِيلَ الصَّعُوبَةِ يَقْبَلُ الثَّلَقِينَ وَأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ إِنَاثَ الْكَلَابِ وَيَرْبِطُونَهَا فِي تِلْكَ الْبَرَارِيِّ فَتَجِيءُ هَذِهِ السَّبَاعُ وَتَسْفِدُهَا وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَتْنَى يُجْتَمَعُ عَلَى حَبِّ سَفَادِهَا وَلَا ذَكَرٌ يَجْمَعُ لَهُ مِنَ النَّزْوَعِ إِلَى سَفَادِ الْأَجْنَاسِ الْمُخْتَلِفَةِ أَكْثَرَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَلْبِ وَالْكَلْبَةِ . قَالَ : وَإِذَا رَبَطُوا هَذِهِ الْكَلَابَ الْإِنَاثَ فِي تِلْكَ الْبَرَارِيِّ فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ السَّبَاعُ هَائِجَةً سَفِدَتْهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنِ السَّبْعُ هَائِجًا فَالْكَلْبَةُ مَأْكُولَةٌ وَقَالَ أَبُو عَدْنَانَ :

(أَيَا بَاكِي الْأَطْلَالِ فِي رَسْمِ دِمْنَةٍ ** تَرُودُ بِهَا عَيْنُ الْمَهَا وَالْجَاذِرُ) (وَعَانَاتُ جَوَالٍ وَهَيْقُ سَفَنَجٍ ** وَسِنْدَاوَةٌ فَضْفَاضَةٌ وَحَصَّاجِرُ) (وَسَمْعٌ خَفِيُّ الرَّرِّ ثَلْبٌ وَدَوْبَلٌ ** وَثُرْمَلَةٌ تَعْتَادُهَا وَعَسَابِرُ) وَقَدْ سَمِعْنَا مَا قَالَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ مِنْ قَبْلِ وَمَا نَظُنُّ بِمِثْلِهِ أَنْ يَخْلُدَ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْكُتُبِ شَهَادَاتٍ لَا يَحْقِّقُهَا الْامْتِحَانُ وَلَا يَعْرِفُ صِدْقَهَا أَشْبَاهُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَمَا عِنْدَنَا فِي مَعْرِفَةِ مَا ادَّعَى إِلَّا هَذَا الْقَوْلُ . وَأَمَّا الَّذِينَ ذَكَرُوا فِي أَشْعَارِهِمُ السَّمْعَ وَالْعِسْبَارَ فَلَيْسَ فِي ظَاهِرِ كَلَامِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى مَا ادَّعَى عَلَيْهِمُ النَّاسُ مِنْ هَذَا التَّرَكِيبِ الْمُخْتَلَفِ فَأَدَّيْنَا الَّذِي قَالُوا وَأَمْسَكْنَا عَنِ الشَّهَادَةِ إِذْ لَمْ نَجِدْ عَلَيْهَا بُرْهَانًا .

ولاد السعلاة وللنّس في هذا الضّرْب ضروبٌ من الدعوى وعلماءُ السوء يُظهرون تجويزَها وتحقيقَها كالذي يدّعون من أولاد السّعالي من الناس كما ذكروا عن عمرو بن يربوع وكما يروي أبو زيد النحوي عن السّعلاة

التي أقامت في بني تميم حتى وَلَدَتْ فيهم فلمّا رأتُ برقاً يلمعُ من شقِّ بلاد السّعالي حَتَّتْ وطارَتْ إليهم فقال شاعرهم : (رَأَى بَرْقاً فَأَوْضَعَ فَوْقَ بَكْرٍ * فَلَا بَكَ مَا أَسْأَلَ وَمَا أَغَامَا)
وأنشدني أن الجنَّ طرَقوا بعضَهم فقال : (أَتَوَا نَارِي فَقُلْتُ مَتُونْ أَنْتُمْ * فَقَالُوا الْجِنُّ قُلْتُ عِمُوا ظَلَامَا)
فقلتُ إلى الطّعام فقال منهم * زعيمٌ نَحْسُدُ الْإِنْسَ الطّعامَا) ولم أعِب الرواية وإنّما عبتُ الإيمانَ بها
والتوكيدَ لمعانيها فما أَكْثَرَ من يروي هذا الضربَ على التعجُّبِ منه وعلى أن يجعلَ الروايةَ له سبباً لتعريفِ النَّاسِ حقَّ ذلك من باطله وأبو زيدٍ وأشباهه مأمونون على النَّاسِ إلّا أن كلَّ من لم يكن متكلماً حاذقاً وكان عند العلماء قدوةً وإماماً فما أَقْرَبَ إفساده لهم من إفسادِ المتعمّدِ لإفسادهم وأنشدوا في تثبيتِ أولاد السّعلاة : (تقول جمع من بُوان ووَيْدٌ * وَحَسَنٌ أَنْ كَلَفْتَنِي مَا أَجِدُ) (وَلَمْ تَقُلْ جِيءَ بِأَبَانٍ أَوْ أُحْذِ * أَوْ وَلِدِ السّعلاةِ أَوْ جَرَوِ الْأَسَدِ) أو ملكِ الأعجام مأسوراً بقيد

وقال آخر : يا قَاتِلَ اللَّهِ بَنِي السّعلاةِ عمراً وقابوساً شَرَارَ النَّاتِ ما زعموا في جرهم وذكروا أن جرهماً كان من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم وكان الملكُ من الملائكة إذا عصى ربّه في السماء أهبطه إلى الأرض في صورة رجل وفي طبيعته كما صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشأن الزّهرة وهي أناهيد ما كان فلما عصى الله تعالى بعضُ الملائكة وأهبطه (لا هُمَّ إِنَّ جُرْهُمَا عِبَادُكَ * النَّاسِ طِرْفٌ وَهُمَّ تِلَادُكَ) ما زعموا في بلقيس وذي القرنين ومن هذا النسل ومن هذا التركيب والنجل كانت بلقيسُ ملكة

سبأ وكذلك كان ذو القرنين كانت أمّه فيرى آدميةً وأبوه عبري من الملائكة ولذلك لما سمع عمرُ بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه رجلاً ينادي : يا ذا القرنين فقال : أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتُم إلى أسماء الملائكة .

وروى المختارُ بن أبي عبيد أنّ عليّاً كان إذا ذَكَرَ ذا القرنين قال : ذلك الملكُ الأمرط .
ما زعموا من تلاقح الجن والإنس وزعموا أنّ التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والإنس لقوله تعالى :
وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ (وَالْأَوْلَادِ وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنِّيَّاتِ إِنَّمَا تَعْرِضُ لَصَرَاحِ رِجَالِ الْإِنْسِ عَلَى جِهَةِ التَّعَشُّقِ وَطَلَبِ السَّفَادِ وَكَذَلِكَ رِجَالُ الْجِنِّ لِنِسَاءِ بَنِي آدَمَ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَعَرَضَ الرِّجَالُ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ لِلنِّسَاءِ وَنَسَاؤُهُمُ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .

ومن زعم أن الصّرغَ من المِرّة ردّ قوله تعالى : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ وَقَالَ تَعَالَى : لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَلَوْ كَانَ الْجَانُّ لَا يَفْتَضُ

الآدميات ولم يكن ذلك قط وليس ذلك في تركيبه كما قال الله تعالى هذا القول .
وزعموا أن النسّانس تركيب ما بين الشقّ والإنسان ويؤمنون أن خلقاً من وراء السدّ تركيب من النسّانس
والناس والشقّ ويأجوج ومأجوج وذكروا عن الواق واق والدوال باي أنهم نتاج ما بين بعض الثبات
والحيوان وذكروا أن أمة كانت في الأرض فأمر الله تعالى الملائكة فأجلوهم وإياهم عنوا بقولهم : أتجعل
فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ولذلك قال الله عز وجل لآدم وحواء
: ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فهذا يدل على أن ظالماً وظالماً قد كان في الأرض .
قال الأصمعي أو خلف في أرجوزة مشهورة ذكر فيها طول عمر الحية : (أرقش إن أسبط أو تثني **
حسبت ورساً خالط اليرثا) (خالطه من هاهنا وهنا * إذا تراءاه الحواة استننا) قال : وكان يقال لتلك
الأمة مهنا .

قول الجوس في بدء الخلق وزعم الجوس أن الناس من ولد مهنة ومهينة وأنهما تولدا فيما بين أرحام
الأرضين ونطفتين ابتدرتا من عيني ابن هرمر حين قتله هرمر وهاقات أصحاب الاثنين كثيرة في هذا الباب
ولولا أنني أحببت أن تسمع نوعاً من الكلام ومبلغ الرأي لحدثت لله تعالى شكراً على السلامة عبد الله بن
هلال صديق إبليس وختنه وزعم ابن هيثم أنه رأى بالكوفة فتى من ولد عبد الله بن هلال الحميري صديق
إبليس وختنه وأنهم كانوا لا يشكون أن إبليس جدّه من قبل أمهاته وسنقول في ذلك بالذي يجب إن شاء
الله تعالى وصلة هذا الكلام تحي بعد هذا إن شاء الله تعالى .

حوار في الكلب والديك

وقلت : ولو تم للكلب معنى السبع وطباعه لما ألف الإنسان واستوحش من السبع وكره الغياض وألف
الدور واستوحش من البراري وجانب القفار وألف المجالس والديار ولو تم له معنى البهيمة

في الطبع والخلق والغذاء لما أكل الحيوان وكلب على الناس نعم حتى ربما كلب ووثب على صاحبه وكلب
على أهله وقد ذكر ذلك طرفة فقال : (كنت لنا والدهور آونة * تقتل حال النعيم بالئوس) (ككلب
طسم وقد ترببه * يعله بالحليب في الغلس) (ظل عليه يوماً يفر فرّه * إلا يلغ في الدماء يتهس) وقال
حاجب بن دينار المازني في مثل ذلك : (كذي الكلب لما آمن الكلب رابه * ياحدى الدواهي حين فارقه
الجهل) وقال عوف بن الأحوص : (فإني وقيساً كالمسمن كلبه * تخذشه أثيابه وأظافره) وأنشد ابن
الأعرابي لبعضهم : (وهم سمئوا كلباً ليأكل بعضهم * ولو ظفروا بالحرز ما سمئ الكلب) وفي المثل :
سمئ كلبك يأكلك .

وكان رجل من أهل الشام مع الحجّاج بن يوسف وكان يحضر طعامه فكتب إلى أهله يخبرهم بما هو فيه من

الْخِصْبُ وَأَنَّهُ قَدْ سَمِنَ فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ امْرَأَتُهُ : (أَتُهْدِي لِي الْقِرْطَاسَ وَالْخِزْرَ حَاجَتِي ** وَأَنْتَ عَلَى بَابِ الْأَمِيرِ بَاطِنٌ) (إِذَا غَيْتَ لَمْ تَذْكُرْ صَدِيقًا وَإِنْ تَقَمَّ ** فَأَنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ ضَنِينٌ) (فَأَنْتَ كَكَلْبِ السَّوَاءِ فِي جُوعِ أَهْلِهِ ** فَيَهْزُلُ أَهْلُ الْكَلْبِ وَهُوَ سَمِينٌ) وفي المثل : سمن كلب في جوع أهله وذلك أنه عند السَّوَأِ يصيب المال والإخْدَاجَ يعرض للنُّوقِ يأكلُ الجِيفَ فيسَمِنُ وعلى أنه حَارِسٌ مُحْتَرَسٌ مِنْهُ وَمَوْئِسٌ شَدِيدُ الْإِيحَاشِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَلِيفٌ كَثِيرُ الْخِيَانَةِ عَلَى إِلْفِهِ وَإِنَّمَا اقْتَنَوْهُ عَلَى أَنْ يَنْذِرَهُمْ بِمَوْضِعِ السَّارِقِ وَتَرْكُوا طَرْدَهُ لِيَنْبَهُهُمْ عَلَى مَكَانِ الْمَبِيتِ وَهُوَ أَسْرَقَ مِنْ كُلِّ سَارِقٍ وَأَدْوَمَ جَنَایَةً مِنْ ذَلِكَ الْمَبِيتِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سَرُوقٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ الشَّاعِرِ : (أَفِي أَنْ سَرَى كَلْبٌ فَيَتَّ جُلَّةً ** وَجَبَجَبَةً لِلْوُطْبِ لَيَلَى تُطْلُقُ)

فَهُوَ سَرَّاقٌ وَصَاحِبُ بَيَاتٍ وَهُوَ تَبَّاشٌ وَآكُلُ لُحُومِ النَّاسِ أَلَا إِنَّهُ يَجْمَعُ سِرْقَةَ اللَّيْلِ مَعَ سِرْقَةِ النَّهَارِ ثُمَّ لَا تَجِدُهُ أَبَدًا يَمْشِي فِي خَزَانَةٍ أَوْ مَطْبَخٍ أَوْ عَرَصَةٍ دَارٍ أَوْ فِي طَرِيقٍ أَوْ فِي بَرَارِيٍّ أَوْ فِي ظَهْرِ جَبَلٍ أَوْ فِي بَطْنٍ وَادٍ إِلَّا وَخَطْمُهُ فِي الْأَرْضِ يَتَشَمُّ وَيَسْتَرُوحُ وَإِنْ كَانَتِ الْأَرْضُ بِيضَاءً حَصَّاءً وَدَوِّيَّةً مَلْسَاءً أَوْ صَخْرَةً خَلْقَاءَ حَرَصًا وَجَشَعًا وَشَرَاهَا وَطَمَعًا نَعَمَ حَتَّى لَا تَجِدَهُ أَيْضًا يَرَى كَلْبًا إِلَّا اشْتَمَّ اسْتَمَّ وَلَا يَتَشَمُّ غَيْرَهَا مِنْهُ وَلَا تَرَاهُ يُرْمَى بِحَجَرٍ أَيْضًا أَبَدًا إِلَّا رَجَعَ إِلَيْهِ فَعَضَّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ لَا يَكَادُ يَأْكُلُ إِلَّا شَيْئًا رَمَوْا بِهِ إِلَيْهِ صَارَ يَنْسَى لِفَرْطِ شَرِّهِ وَغَلَبَةِ الْجَشَعِ عَلَى طَبْعِهِ أَنَّ الرَّامِيَ إِنَّمَا أَرَادَ عَقْرَهُ أَوْ قَتْلَهُ فَيُظَنُّ لَذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ إِطْعَامَهُ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ كَذَلِكَ يَخِيلُ إِلَيْهِ فَرْطُ النَّهْمِ وَثَوْبُهُ غَلَبَةُ الشَّرِّ وَلَكِنَّهُ رَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى النَّاسِ عَجْرًا وَلَوْمًا وَفُسُولَةً وَنَقْصًا وَخَافَ السَّبَاعَ وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الصَّحَارَى .

وَلَمَّا سَمِعُوا بَعْضَ الْمَفْسِّرِينَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ إِنَّ الْمَحْرُومَ هُوَ الْكَلْبُ وَسَمِعُوا فِي الْمَثَلِ : اصْنَعُوا الْمَعْرُوفَ وَلَوْ إِلَى الْكَلْبِ عَطَفُوا عَلَيْهِ وَاتَّخَذُوهُ فِي الدُّورِ وَعَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ سِفْلَتِهِمْ وَأَغْبِيائِهِمْ وَمَنْ قَلَّ تَقَرُّزُهُ وَكَثُرَ جَهْلُهُ وَرَدَّ الْآثَارَ إِمَّا جَهْلًا وَإِمَّا مَعَانِدَةً . وَأَمَّا الدِّيكُ فَمِنْ بَهَائِمِ الطَّيْرِ وَبَغَائِهَا وَمَنْ كَلُولِهَا وَالْعِيَالِ عَلَى

أَرْبَابِهَا وَلَيْسَ مِنْ أَحْرَارِهَا وَلَا مِنْ عِتَاقِهَا وَجَوَارِحِهَا وَلَا مِمَّا يَطْرِبُ بِصَوْتِهِ وَيُشْجِي بِلَحْنِهِ كَالْقَمَارِيِّ وَالْدَّبَاسِيِّ وَالشَّفَّانِينَ وَالْوَرَّاشِينَ وَالْبَلَابِلِ وَالْقَوَاحِثِ وَلَا مِمَّا يُوقِقُ بِمَنْظَرِهِ وَيَمْتَعُ الْأَبْصَارَ حَسَنُهُ كَالطَّوَاوِيسِ وَالتَّدَارِجِ وَلَا مِمَّا يَعْجِبُ بِمَدَائِنِهِ وَيُعْقِدُ الذِّمَامَ بِالْفَهِّ وَنِزَاعِهِ وَشِدَّةِ أُنْسِهِ وَحَنِينِهِ وَثُرَيْلِهِ بِإِرَادَتِهِ لَكَ وَتَعَطُّفِ عَلَيْهِ لِحَبِّهِ إِيَّاكَ كَالْحَمَامِ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِنْ ذَوَاتِ الطَّيْرِانِ مِنْهَا فَهُوَ طَائِرٌ لَا يَطِيرُ وَبَهِيمَةٌ لَا يَصِيدُ وَلَا هُوَ أَيْضًا مِمَّا يَكُونُ صَيْدًا فَيَمْتَنِعُ مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ وَيُورِدُ لِهَذِهِ اللَّذَّةَ .

وَالْخُفَّاشُ أَمْرَطٌ وَهُوَ جَبْدُ الطَّيْرِانِ وَالْدَّيْكُ كَاسٍ وَهُوَ لَا يَطِيرُ وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنْ ذِي رِيَشٍ أَرْضِيٍّ وَمَنْ ذِي جِلْدَةٍ هَوَائِيٍّ .

وَأَجْمَعُ الْخَلْقَ لَخْصَالِ الْخَيْرِ الْإِنْسَانِ وَلَيْسَ الزَّوْاجُ إِلَّا فِي الْإِنْسَانِ وَفِي الطَّيْرِ فَلَوْ كَانَ الدِّيكُ مِنْ غَيْرِ الطَّيْرِ ثُمَّ كَانَ مِنْ لَا يَزَاجُ لَقَدْ كَانَ قَدْ مُنِعَ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ وَعَدِمَ هَذِهِ الْمَشَاكَلَةَ الْغَرِيبَةَ وَحُرِّمَ هَذَا السَّبَبَ الْكَرِيمَ وَالشَّبَّهَ الْخَمُودَ فَكَيْفَ وَهُوَ لَا يَزَاجُ وَهُوَ مِنَ الطَّيْرِ الَّذِي لَيْسَ الزَّوْاجُ (

والإلف وثبات العهد وطلب الذرة وحب النسل والرجوع إلى السكن والحين إلى الوطن إلا له وللإنسان وكل شيء لا يزواج فإثماً دخله النقص وخسر هذه الفضيلة من جهة واحدة وقد دخل الديك النقص

من جهتين ووصف أبو الأخرز الحماني الحمار وغير العانة خاصة فإنه أمثل في باب المعرفة من الأهلي فذكر كيف يضرب في الأثن ووصف استبهامه عن طلب الولد وجهله بموضع الذرة وأن الولد لم يجي منه عن طلب له ولكن النطفة البرية من الأسقام إذا لاقت الأرحام البرية من الأسقام حدث النتاج على الخلقة وعلى ما سويت عليه البنية وذكر أن نرؤه على الأتان من شكل نرؤه على العير وإثماً ذلك على قدر ما يحضره من الشبق ثم لا يلتفت إلى دبر من قبل وإلى ما يلحق من مثله فما لا يلحق فقال : لا مبنغي الضن ولا بالعازل يقول : هو لا يريد الولد ولا يعزل .

والأشياء التي تألف الناس ولا تريد سيواهم ولا تحن إلى غيرهم كالعصفور والخطاف والكلب والسنور والديك لا يألّف منزله ولا ربه ولا يُنازع إلى دجاجته ولا طروفته ولا يحن إلى ولده بل لم يدر قط أن له ولداً ولو درى لكان على درايته دليل فإذ قد وجدناه لبيضه وفرارجه الكائنة منه كما نجد له لما لم يلدّه ولمّا ليس من شكله ولا يرجع إلى نسبه فكيف تُعرف الأمور إلا بهذا وشبهه وهو مع ذلك

أبله لا يعرف أهل داره ومبهوت لا يُثبت وجه صاحبه وهو لم والكلب على ما فيه يعرف صاحبه وهو والسنور يعرفان أسماءهما ويألفان موضعهما وإن طردا رجعا وإن أُجِيعا صبرا وإن أُهِنّا احتملا . والديك يكون في الدار من لدن كان فزوجاً صغيراً إلى أن صار ديكاً كبيراً وهو إن خرج من باب الدار أو سقط على حائط من حيطان الجيران أو على موضع من المواضع لم يعرف كيف الرجوع وإن كان يُرى منزله قريباً وسهل المطلب يسيراً ولا يذكر ولا يتذكر ولا يهتدي ولا يتصور له كيف يكون الاهتداء ولو حنّ لطلب ولو احتاج لالتمس ولو كان هذا الخبر في طباعه لظهر ولكنّها طبيعة بلهاء مستبهمة طامحة وذاهلة ثم يسفد الدجاجة ولا يعرفها هذا مع شدة حاجته إليها وحرصه على السفاد والحاجة تفتق الحيلة وتلّ على المعرفة إلا ما عليه الديك فإنه مع حرصه على السفاد لا يعرف التي يسفد ولا يقصد إلى ولد ولا يحضن بيضاً ولا يعطفه رحم فهو من ها هنا أحمق من الحباري وأعق من الضب) وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه : كل شيء يحب ولده حتى الحباري فضرب بها المثل كما ترى في الموق والغفلة وفي الجهل والبله وتقول العرب : أعق من الضب لأنه يأكل حسوله . أكل الهرة أولادها

وكرم عند العرب حظ الهرة لقولهم : أبر من هرة وأعق من ضب فوجّهوا أكل الهرة أولادها على شدة الحب لها ووجّهوا أكل الضب لها على شدة البغض لها وليس ينجو منه شيء منها إلا بشغله بأكل إخوته عنه وليس يحرسها ممّا يأكلها إلا ليأكلها ولذلك قال العمّلس بن عقيل لأبيه عقيل بن غلفة : (أكلت بئيك أكل الضب حتى * وجدت مرارة الكلاء الويل) (فلو أن الألى كانوا شهوداً * منعت فناء بيتك من بجيل) وقال أيضاً : (أكلت بئيك أكل الضب حتى * تركت بئيك ليس لهم عديد) وشبه السيد بن محمد

الحميري عائشة رضي الله تعالى عنها في نصبها الحرب يوم الجمل لقتال بينها بالهرّة حين تأكل أولادها فقال : (جاءت مع الأشقيين في هودج ** تُزجي إلى البصرة أجنادها) (كأنها في فعلها هرة ** تريد أن تأكل أولادها) رعاية الذئبة لولد الضبع وقول العرب أيضاً : أحق من جهيزة وهي عرس الذئب لأنها تدع ولدها وترضع ولد الضبع . (كمرضة أولاد أخرى وضعت ** بينها فلم ترقع بذلك مرقعا)

رعاية الذئب لولد الضبع ويقولون : إن الضبع إذا صيدت أو قُلت فإن الذئب يأتي أولادها باللحم وأنشد الكُميت : (كما خامت في حضنها أم عامر ** لذي الحبل حتى عال أوس عيالها) وأوس هو الذئب وقال في ذلك : (في كل يوم من ذواله ** ضغت يزيد على إباله) (فلاخشائك مشقصاً ** أوساً أويس من الهباله)

الأوس : الإعطاء وأويس هو الذئب وقال في ذلك الهذلي : (يا ليت شعري عنك والأمر أمم ** ما فعل اليوم أويس في الغنم) وقال أمية بن أبي الصلت : (وأبو اليتامى كان يحسن أوسهم ** ويحوطهم في كل عام جامد) حمق النعامة ويقولون : أحق من نعامة كما يقولون : أشرد من نعامة قالوا ذلك لأنها تدع الحظن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم فإن هي

في خروجها ذلك رأت بيض أخرى قد خرجت للطعم حصنت بيضها ونسيت بيض نفسها ولعل تلك أن تُصاد فلا ترجع إلى بيضها بالعرء حتى تهلك قالوا : ولذلك قال ابن هرمة : (فإني وتركي ندى الأكرمين ** وقدحي بكفي زئداً شحاحاً) (كئاركة بيضها بالعرء ** ومليسة بيض أخرى جناحاً) وقد تحضن الحمام على بيض الدجاج وتحضن الدجاجة بيض الطاوس فأما أن يدع بيضه ويحضن بيض الدجاجة أو تدع الدجاجة بيضها وتحضن بيض الطاوس فلا فأما فروج الدجاجة إذا خرج من تحت الحمامة فإنه يكون أكيس وأما الطاوس الذي يخرج من تحت الدجاجة فيكون أقل حسناً وأبعض صوتاً .

الفرخ والفروج وكل بيضة في الأرض فإن اسم الذي فيها والذي يخرج منها فرخ إلا بيض الدجاج فإنه يسمى فروجاً ولا يسمى فرخاً إلا أن الشعراء يجعلون الفروج فرخاً على التوسع في الكلام ويجوزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر قال الشاعر : (لعمري لأصوات المكاكي بالضحي ** وسود تداعي بالعشي نواعيه) (أحب إلينا من فراخ دجاجة ** ومن ديك أنباط تئوس غباغبه)

وقال الشماخ بن ضرار ألا من مبلغ خاقان عني تأمل حين يضربك الشتاء (فتجعل في جنبك من صغير ** ومن شيخ أضرب به الفناء) (فراخ دجاجة يتبعن ديكاً ** يلذن به إذا حمس الوعاء) فإن قلت : وأي شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك حتى يتفرغ لذكر محاسنهما)

ومساويهما والموازنة بينهما والتنوية بذكرهما شيخان من عليّة المتكلمين ومن الجلة المتقدمين وعلى أنهما متى أبرما هذا الحكم وأفصحا بهذه القضية صار بهذا التدير بهما حظّ وحكمة وفضيلة وديانة وقلدهما كل من هو دونهما وسيعود ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوزيان بين الدبان وبنات وردان وبين الخنافس والجعلان وبين جميع أجناس الهمج وأصناف الحشرات والحشاش حتى البعوض والفراش والديدان والقردان فإن جاز

هذا في الرأي وتم عليه العمل صار هذا الضرب من النظر عوضاً من النظر في التوحيد وصار هذا الشكل من التمييز خلفاً من التعديل والتجويز وسقط القول في الوعد والوعيد ونسي القياس والحكم في الاسم وبطل الرد على أهل الملل والموازنة بين جميع التحل والنظر في مرشد الناس ومصالحهم وفي منافعهم ومراقبتهم لأن قلوبهم لا تتسع للجميع وألسنتهم لا تنطق بالكل وإنما الرأي أن تبدأ من الفتق بالأعظم والأخوف فالأخوف .

وقلت : وهذا باب من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرف وطريق من طرق المراح وسبيل من سبل المضاحك ورجال الجد غير رجال الهزل وقد يحسن بالشباب ويقبح مثله من الشيوخ ولولا التحصيل والموازنة والإبقاء على الأدب والديانة بشدة المحاسبة لما قالوا : لكل مقام مقال ولكل زمان رجال ولكل ساقطة لاقطة ولكل طعام أكلة .

تنوع الملكات وقوتها وضرورة ظهورها قد زعم أناس أن كل إنسان فيه آلة لمرق من المرافق وأداة لمنفعة من المنافع ولا بد لتلك الطبيعة من حركة وإن أبطأت ولا بد لتلك الكامن من ظهور فإن أمكنه ذلك بعته وإلا سرى إليه كما يسري السم في البدن ونمى كما ينمي العرق كما أن البزور البرية والحبة الوحشية الكامنة في أرحام الأرضين لا بد لها من حركة عند زمان الحركة ومن التفق والانتشار في إبان الانتشار وإذا صارت الأمطار لتلك الأرحام كالثظفة وكان بعض الأرض كالأم العاذية فلا بد لكل ثدي قوي أن يظهر قوته كما قال الأول : ولا بد للمصدور يوماً من الثفت

وقال : ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبر ولذلك صار طلب الحساب أخف على بعضهم وطلب الطب أحب إلى بعضهم وكذلك النزاع إلى الهندسة وشغف أهل النجوم بالنجوم وكذلك أي ضاً ربما تحرك له بعد الكبرة)

وصرف رغبته إليه بعد الكهولة على قدر قوة العرق في بدنه وعلى قدر الشواغل له وما يعترض عليه فتجد واحداً يلهج بطلب الغناء واللحون وآخر يلهج بشهوة القتال حتى يكتب مع الجند وآخر يختار أن يكون وراقاً وآخر يختار طلب الملك وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم ثم لا تلري كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر إلا بجملة من القول ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض يعلم لم اختار ذلك في جملة ولا تفسير إذ كان لم يعجز منه على عرق ولا اختاره على إرث .

من سار على غير طبعه وليس العجب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور ويحركه في بعض الجهات ولكن العجب ممن يموت مغنياً وهو لا طبع

له في معرفة الوزن وليس له جرم حسن فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغني خاصة أن يكون مطرباً ومغني عامة وآخر قد مات أن يذكر بالجود وأن يستحي على الطعام وهو أبخل الخلق طبعاً فتراه كلفاً باتخاذ الطيبات ومستتهراً بالكثير منها ثم هو أبداً مفتضح وأبداً منتقض الطباع ظاهر الخطأ سيئ الجزع عند

مؤاكلة من كان هو الداعي له والمرسل إليه والعارف مقدار لقمه ونهاية أكله فإن زعمتم أن كل واحد من هؤلاء إنما هو رهنٌ بأسبابه وأسيرٌ في أيدي علله عنزتم جميع النام وجميع المقصرين وجميع الفاسقين والضالين وإن كان الأمر إلى التمكن دون التسخير أفليس من أعجب العجب ومن أسوأ التقدير التمثيل بين الديكة والكلاب . قد عرفنا قولك وفهمنا مذهبك .

فأما قولك : وما بلغ من خطر الديك وقدر الكلب فإن هذا ونحوه كلامٌ عبدٌ لم يفهم عن ربه ولم يعقل عن سيده إلا بقدر فهم العامة أو الطبقة التي تلي العامة كأنك فهمك الله تعالى تظن أن خلق الحيّة والعقرب والتدبير في خلق الفراش والذباب والحكمة في خلق الذئب والأسد وكل مبعض إليك أو محقر عندك أو مسخر لك أو واثب عليك أن التدبير فيه مخلفٌ أو ناقص وأن الحكمة فيه صغيرة أو مزروعة .

مصلحة الكون في امتزاج الخير بالشر اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر والضرّ بالنافع والمكروه بالسارّ والضعة بالرفعة والكثرة بالقلّة ولو كان الشرّ صرّفاً هلك الخلق أو كان الخير (محضاً سقطت المحنة وتقطعت أسباب الفكرة ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز ولم يكن للعالم تثبّت وتوقّف وتعلّم ولم يكن علم ولا يعرف باب التبيين ولا دفع مضرة ولا اجتلاب منفعة ولا صبر على مكروه ولا شكر على محبوب ولا تفاضل في بيان ولا تنافس في درجة وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة ولم يكن على ظهرها محقّ يجد عز الحق ومبطل يجد ذلة الباطل وموقن يجد برد اليقين وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم ولم تكن للنفوس آمالٌ ولم تشعبها الأطماع ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس ومن جهل اليأس جهل الأمن وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء إلى حال السع والبهيمة وإلى حال الغبابة والبلادة وإلى حال النجوم في السخرة فإنها أنقص من حال البهائم في الرثعة ومن هذا الذي يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو برجاً من البروج أو قطعة من الغيم أو يكون المجرة بأسرها أو مكيالاً من الماء أو مقداراً من الهواء وكل شيء في العالم فإنما هو للإنسان ولكل مختبر ومختار وأهل العقول والاستطاعة ولأهل التبيين والروية .

وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة ولذة السبع بلطع الدّم وأكل اللحم من سرور الظفر بالأعداء ومن افتتاح باب العلم بعد إدمان القرع وأين ذلك من سرور السودد ومن عزّ الرياسة وأين ذلك من حال الثبوة والخلافة ومن عزهما وساطع نورهما وأين تقع لذة درك الحواس الذي هو ملاقة المطعم والمشرب وملاقة الصوت المطرب واللون المونق والملمسة اللينة من السرور ولو استوت الأمور بطل التمييز وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة ولو كان ذلك لبطلت ثمرة التوكل على الله تعالى واليقين بأنه الوزر والحافظ والكالي والدافع وأن الذي يحاسبك أجود الأجودين وأرحم الراحمين وأنه الذي يقبل اليسير ويهب الكثير ولا يهلك عليه إلا هالك ولو كان الأمر على ما يشتهي الغرير والجاهل بعواقب الأمور لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو إليه ولتعتلت

وَأَنَّ صَاحِبَ الْبَوَاسِيرِ يَأْكُلُهُ لِيُزْلِقَ عَنْهُ الثَّغْلَ وَيَسْهَلَ عَلَيْهِ مَخْرَجُ الرَّبْلِ وَتَقِفَ مِنَ الزَّيْتُونِ عَلَى زَيْتِهِ
وَالْإِصْطَبَاحِ بِهِ وَعَلَى التَّأْدُّمِ بِهِمَا وَالْوَقُودِ بِشَجَرِهِمَا وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمَا فَقَدْ أَصَاتَ ظَنًّا بِالْقُرْآنِ
وَجَهَلَتْ فَضْلَ التَّأْوِيلِ وَلَيْسَ لِهَذَا الْمَقْدَارِ عَظَمُهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَقْسَمَ بِهِمَا وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِمَا .
وَلَوْ وَقَفْتَ عَلَى جَنَاحِ بَعُوضَةٍ وَقُوفَ مُعْتَبِرٍ وَتَقَلَّلْتَ تَأْمُلَ مُتَفَكِّرٍ بَعْدَ

أَنْ تَكُونَ ثَاقِبَ النَّظَرِ سَلِيمَ الْآلَةِ غَوَّاصًا عَلَى الْمَعَانِي لَا يَعْتَرِيكَ مِنَ الْخَوَاطِرِ إِلَّا عَلَى حَسَبِ صِحَّةِ عَقْلِكَ
وَلَا مِنَ الشَّوَاغِلِ إِلَّا مَا زَادَ فِي نَشَاطِكَ لَمَلَأَتْ ثُمَّ تُوجِدُكَ الْعِبْرَةُ مِنْ غَرَائِبِ الطَّوَامِيرِ الطُّوَالِ وَالْجُلُودِ
الْوَاسِعَةِ الْكِبَارِ وَلَرَأَيْتَ أَنَّ لَهُ مِنْ كَثْرَةِ التَّصَرُّفِ فِي الْأَعَاجِيبِ وَمِنْ تَقَلُّبِهِ فِي طَبَقَاتِ الْحِكْمَةِ وَلَرَأَيْتَ لَهُ مِنْ
الْعُزْرِ وَالرَّيْعِ وَمِنْ الْحَلَبِ وَالْدَّرِّ وَلَتَبَجَّسَ عَلَيْكَ مِنْ كَوَامِنِ الْمَعَانِي وَدَفَائِنِهَا وَمِنْ خَفِيَّاتِ الْحُكْمِ وَبَنَائِعِ الْعِلْمِ
مَا لَا يَشْتَدُّ مَعَهُ تَعْجُجُكَ مِمَّنْ وَقَفَ عَلَى مَا فِي الدَّيْكَ مِنَ الْخِصَالِ الْعَجِيبَةِ وَفِي الْكَلْبِ مِنَ الْأُمُورِ الْغَرِيبَةِ وَمِنْ
أَصْنَافِ الْمَنَافِعِ وَفُتُونِ الْمَرَافِقِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَحْنِ الشَّدَادِ وَمَعَ مَا أَوْدَعَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي مَتَى تَجَلَّتْ لَكَ
تَصَاغَرَ عِنْدَكَ كَبِيرُ مَا تَسْتَعْظِمُ وَقَلَّ فِي عَيْنِكَ كَثِيرُ مَا تَسْتَكْثِرُ كَأَنَّكَ تَظُنُّ أَنَّ شَيْئًا وَإِنْ حَسُنَ عِنْدَكَ فِي ثَمَنِهِ
وَمَنْظَرُهُ أَنَّ الْحِكْمَةَ الَّتِي هِيَ فِي خَلْقِهِ إِنَّمَا هِيَ عَلَى مَقْدَارِ ثَمَنِهِ وَمَنْظَرُهُ . (كَلِمَاتُ اللَّهِ) وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
: وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ وَالْكَلِمَاتُ
فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لَيْسَ يُرِيدُ بِهَا الْقَوْلَ وَالْكَلَامَ الْمُؤَلَّفَ مِنَ الْحُرُوفِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ النَّعْمَ وَالْأَعَاجِيبَ وَالصِّفَاتِ وَمَا
أَشْبَهَ ذَلِكَ فَإِنَّ كَلَامًا مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ

لَوْ وَقَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ رَقِيقُ اللِّسَانِ صَافِي الذِّهْنِ صَحِيحُ الْفِكْرِ تَأَمَّنَ الْأَدَاةَ لَمَا بَرِحَ أَنْ تَحْسِرَهُ الْمَعَانِي وَتَغْمِرَهُ
الْحِكْمُ .

وَقَدْ قَالَ الْمُتَكَلِّمُونَ وَالرُّؤَسَاءُ وَالْجِلَّةُ الْعُظَمَاءُ فِي التَّمَثِيلِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَفِي فَرْقٍ مَا بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ
وَطَبَاعِ الْجَنِّ أَبْعَدُ مِنْ طَبَاعِ الْإِنْسِ وَمِنْ طَبَاعِ الدَّيْكَ وَمِنْ طَبَاعِ الْكَلْبِ وَإِنَّمَا
ذَهَبُوا إِلَى الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَيَحْتَلُّ إِلَيَّ أَنَّكَ لَوْ كُنْتَ سَمِعْتَهُمَا يَمْتَلَانِ مَا بَيْنَ التُّدْرُجِ وَالطَّائِسِ لَمَّا اشْتَدَّ تَعْجُجُكَ
وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ تَمَثِيلَ مَا بَيْنَ خِصَالِ الدَّرَّةِ وَالْحَمَامَةِ وَالْفِيلِ وَالْبَعِيرِ وَالتَّلْبِ وَالذِّيبِ أَعْجَبَ وَلَسْنَا نَعْنِي أَنَّ
لِلدَّرَّةِ مَا لِلطَّائِسِ مِنْ حَسَنِ ذَلِكَ الرِّيشِ وَتَلَاوِينِهِ وَتَعَارِيَجِهِ وَلَا أَنَّ لَهَا غَنَاءَ الْفَرَسِ فِي الْحَرْبِ وَالدَّفْعِ عَنْ
الْحَرَمِ لَكِنَّا إِذَا أَرَدْنَا مَوَاضِعَ التَّدْبِيرِ الْعَجِيبِ مِنَ الْخَلْقِ الْخَسِيسِ وَالْحَسِّ اللَّطِيفِ مِنَ الشَّيْءِ السَّخِيفِ
وَالنَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ مِنَ الْخَلْقِ الْخَارِجِ مِنْ حُدُودِ الْإِنْسِ وَالْجَنِّ وَالْمَلَائِكَةِ لَمْ نَذْهَبْ إِلَى ضِحْمِ الْبَدَنِ وَعِظَمِ
الْحُجْمِ وَلَا إِلَى الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ وَلَا إِلَى كَثْرَةِ الثَّمَنِ وَفِي الْقَرْدِ أَعَاجِيبٌ وَفِي الدُّبِّ أَعَاجِيبٌ وَلَيْسَ فِيهِمَا كَبِيرُ
مَرْفُوقٍ إِلَّا بِقَدْرِ مَا تَتَكَسَّبُ بِهِ أَصْحَابُ الْقَرْدَةِ وَإِنَّمَا قَصَدْنَا إِلَى شَيْئَيْنِ يَشِيعُ الْقَوْلُ فِيهِمَا وَيَكْثُرُ الْإِعْتِبَارُ ثُمَّ
يَسْتَخْرِجُ الْعُلَمَاءُ مِنْ خَفِيِّ أَمْرِهِمَا وَلَوْ جَمَعْنَا بَيْنَ الدَّيْكَ وَبَيْنَ بَعْضِ

مَا ذَكَرْتَ وَبَيْنَ الْكَلْبِ وَبَيْنَ وَقَدْ ذَكَرْتَ أَنَّ بَعْضَ مَا دَعَاكَ إِلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمَا وَالتَّعَجُّبِ مِنْ أَمْرِهِمَا سَقُوطُ
قَدْرِ الْكَلْبِ وَنَدَالَتُهُ وَبَلَّةُ الدَّيْكَ وَغَبَاوَتُهُ وَأَنَّ الْكَلْبَ لَا بَهِيمَةً تَامَّةً وَلَا سَيْعًا تَامًا وَمَا كَانَ لِيُخْرِجَهُ مِنْ شَيْءٍ

من حدود الكلاب إلى حدود الناس مقدار ما هو عليه من الأنس بهم فقد يكون في الشيء بعض الشبه من شيء ولا يكون ذلك مُخرجاً لهما من أحكامهما وحدودهما .

تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوهما وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس والغيث والبحر والأسد والسيف والحية والنجم ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان وإذا ذُموا قالوا : هو الكلب والخنزير وهو القرد والحمار وهو الثور وهو التيس وهو الذيب وهو العقرب وهو الجعل وهو القرني ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء وسموا الجارية غزالاً وسموها أيضاً خشفاً ومهرةً وفاخيةً وحمامةً وزهرةً وقضيياً وخيزراناً على ذلك المعنى وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب فذكروا الأسد والثور والحمل والجدي والعقرب والحوت وسموها بالقوس والسنبلة والميزان وغيرها وقال في ذلك ابن عسلة الشيباني :

(فَصَحَوْتَ وَالتَّمَرِيُّ يَحْسِبُهَا ** عَمَّ السَّمَاءِ وَخَالَهَ النَّجْمُ) وَيُرَوَّى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : نِعْمَتِ الْعَمَةِ لَكُمْ التَّحْلَةُ خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينَةِ آدَمَ وَهَذَا الْكَلَامُ صَحِيحٌ الْمَعْنَى لَا يَعْنِيهِ إِلَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ مَجَازَ الْكَلَامِ وَلَيْسَ هَذَا تَمَّا يَطْرُدُ لَنَا)

أن نقيسه وإنما تُقدِّم على ما أقدموا وتُحجم عما أحجموا وننتهي إلى حيث انتهوا .
ونراهم يسمون الرجل جملاً ولا يسمونه بعيراً ولا يسمون المرأة ناقةً ويسمون الرجل ثوراً ولا يسمون المرأة بقرةً ويسمون الرجل حمراً ولا يسمون المرأة أتاناً ويسمون المرأة نعجةً ولا يسمونها شاة وهم لا يضعون نعجةً اسماً مقطوعاً ولا يجعلون ذلك علامةً مثل زيد وعمرو ويسمون المرأة عنزاً .

تسمية الإنسان بالعالم الأصغر

أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي خُلِقَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِهِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّما سَمَّوْهُ الْعَالَمَ الصَّغِيرَ سَلِيلَ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ لِمَا وَجَدُوا فِيهِ مِنْ جَمْعِ أَشْكَالٍ مَا فِي الْعَالَمِ الْكَبِيرِ وَوَجَدْنَا لَهُ الْخَوَاصَّ الْخَمْسَ وَوَجَدُوا فِيهِ الْخُسُوفَاتِ الْخَمْسَ وَوَجَدُوهُ يَأْكُلُ اللَّحْمَ وَالْحَبَّ وَيَجْمَعُ

بين ما تقتات به البهيمة والسبع ووجدوا فيه صولة الحمل ووثوب الأسد وغدر الذئب وروغان الثعلب وجبن الصقر وجمع الذرة وصنعة السُرْفَة وجود الديك وإلف الكلب واهتداء الحمام وربما وجدوا فيه مما في البهائم والسباع خلقتين أو ثلاثة ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصولته وحفده وصبره على حمل الثقل ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتَّهياً فيه من مثل غدره ومكره واسترواحه وتوحشه وشدّة نُكره كما أن الرجل يصيب الرأي الغامض المرّة والمرتين والثلاث ولا يبلغ ذلك المقدار أن يقال له داهية وذو نُكر أو صاحب بزل أو كما يخطئ الرجل فيفحش خطأه في المرّة والمرتين والثلاث فلا يبلغ الأمر به أن يقال له غبيّ وأبله ومنقوص .

وسمّوه العالم الصغير لأنهم وجدوه يصور كل شيء بيده ويحكي كل صوت بفمه وقالوا : ولأن أعضاءه مقسومة على البروج الاثني عشر والنجوم السبعة وفيه الصفراء وهي من نتاج النار وفيه السوداء وهي من نتاج الأرض وفيه النّم وهو من نتاج الهواء وفيه البلغم وهو من نتاج الماء وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة

فجعلوه العالم الصغير إذ كان فيه جميع أجزائه وأخلطه وطبائعه ألا ترى أن فيه طبائع الغضب والرضا وآلة اليقين والشك والاعتقاد والوقف وفيه طبائع الفطنة والعبادة والسلامة والمكر والنصيحة والغش والوفاء والغدر والرياء والإخلاص والحب والبغض والجِدُّ والهزل والبخل والجود والاقتصاد والسرف والتواضع والكبر والأنس والوحشة والفكرة والإمهال والتمييز والخبث والجبن والشجاعة (والحزم والإضاعة والتبذير والتقتير والتبذل والتعزز والادّخار والتوكل والقناعة والحرص والرغبة والزهد والسخط والرضا والصبر والجزع والذكر والنسيان والخوف والرجاء والطمع واليأس والتنزه والطبع والشك واليقين والحياء والفحّة والكتمان والإشاعة والإقرار والإنكار والعلم والجهل والظلم والإنصاف والطلب والهرب والحقد وسرعة الرضا والحدة وبُعد الغضب والسُرور والهمم واللّنة والألم والتأمل والتمني والإصرار والتّدم والجماح والبدوات والعيّ والبلاغة والنطق والخرس والتصميم والتوقف والتغافل والتفاطن والعفو والمكافأة والاستطاعة والطبيعة وما لا يحصى عدده ولا يُعرف حدّه .

فالكلب سيع وإن كان بالناس أنيساً ولا تخرجه الخصلة والخصلتان ممّا قارب بعض طبائع الناس إلى أن يخرجّه من الكلبيّة قال : وكذلك الجميع وقد عرفت شبه باطن الكلب بباطن الإنسان وشبه ظاهر القرد بظاهر الإنسان : ترى ذلك في طرّفه وتغميض عينه وفي ضحكته وفي حكايته وفي كفه وأصابعه وفي رفعها ووضعها وكيف يتناول بها وكيف يجهز اللقمة إلى فيه وكيف يكسر الجوز ويستخرج لبّه وكيف يلقن كل ما أخذ به وأعيد عليه وأتّه من بين جميع الحيوان إذا سقط في الماء غرق مثل الإنسان ومع اجتماع أسباب

المعرفة فيه يغرق إلا أن يكتسب معرفة السباحة وإن كان طبعه أوفى وأكمل فهو من هاهنا أنقص وأكلُّ وكلُّ شيءٍ فهو يسبح من جميع الحيوانات ممَّا يوصف بالمعرفة والفطنة وممَّا يوصفُ بالعَباوة والبلادة وليس يصير القردُ بذلك المقدار من المقارَبة إلى أن يخرج من بعض حدود القروود إلى حدود الإنسان .

عود إلى الحوار في شأن الكلب والديك وزعمت أن ممَّا يمنع من التمثيل بين الديك والكلب أنه حارسٌ محتسٌّ منه وكلُّ حارسٍ من الناس فهو حارسٌ غيرُ مأمونٍ تبدُّله .

ولقد سأل زيادُ ليلةً من الليالي : مَنْ على شُرطتكم قالوا : بلج بن نُشبة الجُشمي فقال : (وساعٍ مع السلطان يسعى عليهم ** ومحتسٍ من مثله وهو حارس)

ويقال : إن الشاعر قال هذا الشعر في الفلاس النهشلي حين ولي شُرطة الحارث بن عبد الله فقال : (أقلي عليّ اللوم يا ابنة مالك ** ودُمي زماناً ساد فيه الفُلافس) (وساعٍ مع السلطان يسعى عليهم ** ومحتسٍ من مثله وهو حارس)

وليس يُحكم لصغار المضار على كبارها بل الحكمُ للغامر على المغمور والقاهر على المقهور ولو قد حكينا ما ذكر هذا الشيخ من خصال الكلب وذكر صاحبه من خصال الديك أيقنت أن العجلة من عمل الشيطان وأن العجب بنس صاحب .

وقلت : وما يبلغ من قدر الكلب ومن مقدار الديك أن يتفرغ لهما شيخان من جلة المعتزلة وهم أشرف أهل الحكمة فأي شيء بلغ غفر الله تعالى لك من قدر جزء لا يتجزأ من رمل عاج والجزء الأقل من أول قطع الذرة للمكان السحيق والصحيقة التي لا عمق لها ولأي شيء يُعنون بذلك وما يبلغ من ثمنه وقدر حجمه حتى يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة والكهول العلية وحتى يختاروا النظر فيه على التسبيح والنهليل وقراءة القرآن وطول الانتصاب في الصلاة وحتى يزعم أهله

أنه فوق الحج والجهاد وفوق كل بر واجتهاد فإن زعمت أن ذلك كله سواء طالبت الخصومة معك وشغلنا بهما عما هو أولى بنا فيك على أنك إذا عممت ذلك كله بالذم وجللته بالعبص صارت المصيبة فيك أجل والعزاء عنها أعسر وإن زعمت أن ذلك إنما جاز لأنهم لم يذهبوا إلى أثمان الأعيان في الأسواق وإلى عظم الحجم وإلى ما يروق العين ويلائم النفس وأنهم إنما ذهبوا إلى عاقبة الأمر فيه وإلى نتيجته وما يتولد عنه من علم النهايات ومن باب الكل والبعض وكان ويكون ومن باب ما يحيط به العلم أو ما يفضل عنه ومن فرق ما بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين فإن كان هذا العنر مقبولا وهذا الحكم صحيحا فكذلك نقول في الكلب لأن الكلب ليس له خطر ثمين ولا قدر في الصدر جليل لأنه إن كان كلب صيد فديته أربعون درهماً وإن كان كلب ضرع فديته شاة وإن كان كلب دار فديته زنبيل من تراب حق على القاتل أن يؤدبه وحق على صاحب الدار أن يقبله فهذا مقدار ظاهر حاله ومفتشه وكوامن خصاله ودفاتن الحكمة فيه والبرهانات على عجيب تدبير الرب تعالى ذكره فيه على خلاف ذلك فلذلك استجازوا النظر في شأنه والتمثيل بينه وبين نظيره وتعلم أيضاً مع ذلك أن الكلب إذا كان فيه مع خموله وسقوطه من عجيب التدبير والعممة السابعة والحكمة البالغة مثل هذا الإنسان

الذي له خلق الله السموات والأرض وما بينهما أحقُّ بأن يفكر فيه ويحمد الله تعالى على ما أودعه من الحكمة العجيبة والتعجُّب السابعة .

وقلت : ولو كان بدل النظر فيهما النظر في التوحيد وفي نفي التشبيه وفي الوعد والوعيد وفي)

التعديل والتجوير وفي تصحيح الأخبار والتفضيل بين علم الطبائع والاختيار لكان أصوب .

دفاع عن المتكلمين والعجب أنك عمدت إلى رجال لا صناعة لهم ولا تجارة إلا الدعاء إلى ما ذكرت والاحتجاج لما وصفت وإلا وضع الكتب فيه والولاية والعداوة فيه ولا لهم لذة ولا هم ولا مذهب ولا مجاز إلا عليه وإليه فحين أرادوا أن يقسطوا بين الجميع بالحِصص يعدلوا بين الكل يعطاء كل شيء نصيبه حتى يقع التعديل شاملاً والتقسيم جامعاً ويظهر بذلك الخفي من الحكم والمستور من التدبير اعترضت بالتعجب والتعجب وسطرت الكلام وأطلت الخطب من غير أن يكون صوب رأيك أديب وشائع حكيم .

نسك طوائف من الناس وسأضرب لك مثلاً قد استوجبت أغلظ منه وتعرضت لأشد منه ولكننا نستأني بك وننظر أوتيتك وجدنا لجميع أهل القص ولأهل كل صنف منهم نسكاً يعتمدون عليه في الجمال ويحتسبون به في الطاعة وطلب المثوبة ويفزعون إليه على قدر فساد الطباع وضعف الأصل

واضطراب الفرع مع خبث المنشأ وقلة الثبوت والتوقف ومع كثرة القلب والإقدام مع أول خاطر : فنسك المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلَّى برمى الناس بالريية ويتزين بإضافة ما يجد في نفسه إلى خصمه خوفاً من أن يكون قد فطن له فهو يستتر ذلك الداء برمى الناس به .

ونسك الخارجي الذي يتحلَّى به ويتزيًا بجماله إظهار استعظام المعاصي ثم لا يلفِت إلى مجاوزة المقدار وإلى ظلم العباد ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب أن يظلم أظلم الظالمين وأن في الحق ما وسع الجميع . ونسك الخراساني أن يحج وينام على قفاه ويعقد الرياسة وينتهي للشهادة ويبسط لسانه بالحسبة وقد قالوا : إذا نسك الشريف تواضع وإذا نسك الوضع تكبر وتفسيره قريب واضح ونسك البوي والجندي طرح الديوان والزراية على السلطان ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ ونسك الخصي لزوم طرسوس وإظهار مجاهدة الروم ونسك الرافضي ترك النبيذ ونسك البستاني ترك سرقة الثمر ونسك المغني الصلاة في الجماعة وكثرة التسييح والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

ونسك اليهودي التشدد في السبت وإقامته .)

والصوفي المظهر النسك من المسلمين إذا كان فسلاً يبغي العمل

تطرف وأظهر تحريم المكاسب وعاد سائلاً وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له .

وإذا كان التصرائي فسلاً ندلاً مبعضاً للعمل وترهب ولبس الصوف لأنه واتق الله متى ليس وتزيًا بذلك الزبي وتحلَّى بذلك اللباس وأظهر تلك السيماء أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه ثم لا يرضى بأن ربح الكفاية باطلاً حتى استطال بالمرتبة .

فإذا رمى المتكلم المريب أهل البراعة ظناً أنه قد حوّل ربيته إلى خصمه وحوّل براءة خصمه إليه وإذا صار كل واحد من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا فقد بلغ الأمانة ووقف على النهاية فاحذر أن تكون منهم واعلم

أَنَّكَ قد أشبهتهم في هذا الوجه وضارعتهم في هذا المذهب .
مما قدّمنا ذكره وبينه وبين ما ذكرنا بعض الفرق .

يقال : أجرأ من الليث وأجبن من الصّفر وأسخى من لافطة وأصبر على الهون من كلب وأحذر من عقّق وأزهى من غراب وأصنع من سُرقة وأظلم من حية وأغلر من الذئب وأخبث من ذئب الحمز وأشدّ عداوة من عقرب وأروغ من ثعلب وأحق من حبارى وأهدى من قطاة وأكذب من فاختة وألأم من كلب على جيفة

وأجمع من ذرة وأضل من حمار أهلي وأعق من ضب وأبر من هرة وأنقر من الظليم وأضل من ورل وأضل من ضب وأظلم من الحية .

فيعبّرون عن هذه الأشياء بعبارة كالعبارة عن الناس في مواضع الإحسان والإساءة حتّى كأنّهم من الملوّمين والمشكورين ثم يعبّرون في هذا الباب الآخر بدون هذا التعبير ويجعلون خبرهم مقصوراً على ما في الخلقة من الغريزة والقوى فيقولون : أبصر من عقاب وأسمع من فرس وأطول ذمّاً من ضب وأصح من الظليم .
والثاني يشبه العبارة عن الحمد والندم والأول يشبه العبارة عن اللاتمة والشكر وإنّما قلنا ذلك لأنّ كلّ مشكور محمود وليس كلّ محمود مشكوراً وكلّ ملوم مذموم وليس كلّ مذموم ملوماً وقد يحمّدون البلدة ويذمّون الأخرى وكذلك الطعام والشراب وليس ذلك على جهة اللوم ولا على جهة الشكر لأنّ الأجر لا يقع إلّا على جهة التخير والتكلف وإلّا على ما لا ينال إلا بالاستطاعة والأول إنّما ينال بالخلقة وبمقدار من المعرفة ولا يبلغ أن يسمّى عقلاً كما أنّه ليس كلّ قوّة تسمّى استطاعة واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

(ما ذكر صاحب الديك من ذم الكلاب)

وتعدد أصناف معانيها

وتعداد أصناف معانيها ومثالبها من لؤمها وجبنها وضعفها وشرها وغرّها وبذائها وجهلها وتسرعها ونشها وقدرها وما جاء في الآثار من التّهي عن اتّخاذها وإمساكها ومن الأمر بقتلها وطردها ومن كثرة جناياتها وقلة ردّها ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها وقبحها وقبح معازلتها ومن سماجة بُاحها وكثرة أذاها وتقذّر المسلمين من دنوّها وأنّها تأكل لحوم الناس وأنّها كالخلق المركّب والحيوان الملقق : كالبعل في الدوابّ وكالراعي في الحمام وأنّها لا سبع ولا بهيمة ولا إنسيّة ولا جنيّة وأنّها من الجنّ دون الجنّ وأنّها مطايا الجنّ ونوع من المسخ وأنّها تنبش القبور وتأكل الموتى وأنّها يعترّيها الكلب من أكل لحوم الناس .
فإذا حكينا ذلك حكينا قول من علّد محاسنها وصنّف مناقبها وأخذنا من ذكر أسمائها وأنسابها وأعراقها وتفدية الرجال إيّاها

واستهتارهم بها وذكر كسبها وحراستها ووفائها وإلفها وجميع منافعها والمرافق التي فيها وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفطن العجيبة والحسّ اللطيف والأدب الحمود وذلك سوى صدق الاسترواح وجودة

الشَّمَّ وَذَكَرَ حَفْظَهَا وَنَفَاذَهَا وَاهْتِدَائَهَا وَإِثْبَاتَهَا لَصُورِ أَرْبَابِهَا وَجِرَانِهَا وَصَبْرِهَا وَمَعْرِفَتِهَا بِحُقُوقِ الْكَرَامِ وَإِهَانَتِهَا لِلنَّامِ وَذَكَرَ صَبْرَهَا عَلَى الْجَفَا وَاحْتِمَالِهَا لِلْجُوعِ وَذَكَرَ ذِمَامَهَا وَشَلَّةَ مَنْعِهَا مَعَاقِدَ الذَّمِّ مِنْهَا وَذَكَرَ يَقَظَتَهَا وَقَلَّةَ غَفْلَتِهَا وَبُعْدَ أَصْوَاتِهَا وَكَثْرَةَ نَسْلِهَا وَسُرْعَةَ قَبُولِهَا وَالْقَاحِهَا وَتَصَرُّفِ أَرْحَامِهَا فِي ذَلِكَ مَعَ اخْتِلَافِ طِبَائِعِ ذَكَورِهَا وَالذَّكَورِ مِنْ غَيْرِ جَنْسِهَا وَكَثْرَةَ أَعْمَامِهَا وَأَخْوَالِهَا وَتَرَدُّدِهَا فِي أَصْنَافِ السَّبَاعِ وَسَلَامَتِهَا مِنْ أَعْرَاقِ الْبَهَائِمِ وَذَكَرَ لَقْنَهَا وَحِكَايَتَهَا وَجُودَةَ تَقَاتِفِهَا وَمَهْنَهَا وَخِدْمَتِهَا وَجَدَّهَا وَلَعْبَهَا وَجَمِيعَ أُمُورِهَا بِالْأَشْعَارِ الْمَشْهُورَةِ وَالْأَحَادِيثِ الْمَأْثُورَةِ وَبِالْكَتُبِ الْمَثَرَّةِ وَالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ وَعَنْ تَجَرِبَةِ النَّاسِ لَهَا وَفِرَاسَتِهِمْ فِيهَا وَمَا عَانِيُوا مِنْهَا وَكَيْفَ قَالَ أَصْحَابُ الْقَالِ فِيهَا وَيَاخْبَارِ الْمُتَطَيِّرِينَ عَنْهَا وَعَنْ أَسْنَانِهَا وَمُنْتَهَى أَعْمَارِهَا وَعِلْدِ جِرَانِهَا وَمِلَّةِ حَمَلِهَا وَعَنْ أَسْمَائِهَا وَأَلْقَابِهَا وَسِمَاتِهَا وَشِيَاكُمَا وَعَنْ دَوَائِهَا وَأَدْوَانِهَا

وَسِيَاسَتِهَا وَعَنْ اللَّاتِي لَا تَلْقُنُ مِنْهَا وَعَنْ أَعْرَاقِهَا وَالْخَارِجِيِّ مِنْهَا وَعَنْ أَصُولِ مَوَالِيدِهَا وَمُخَارِجِ بِلْدَانِهَا .
وَذَكَرَ صَاحِبُ الدِّيكِ مَا يَحْفَظُ مِنْ أَكْلِ الْكِلَابِ لِلْحُومِ النَّاسِ فَقَالَ : قَالَ الْجَارُودُ بْنُ أَبِي سَبْرَةَ فِي ذَلِكَ : (فَمَنْ كَانَ عَنْهُ بِالْمَغِيبِ سَائِلًا ** فَقَدْ صَارَ فِي أَرْضِ الرُّصَافَةِ هَالِكًا) (تَظَلُّ الْكِلَابُ الْعَادِيَاتُ يَنْشُنُهُ ** إِذَا اجْتَبَنَ مُسَوِّدًا مِنَ اللَّيْلِ حَالِكًا) وَقَالَ نُفَيْعُ بْنُ صَفَّارٍ الْخَارِبِيُّ مِنْ وَلَدِ مُحَارِبِ بْنِ خُصْفَةَ فِي حَرْبِ قَيْسٍ وَتَغْلِبَ : (أَفْتَتَ بَنِي جُشَمِ بْنِ بَكْرِ حَرْبَنَا ** حَتَّى تَعَادَلَ مِيلُ تَغْلِبَ فَاَسْتَوَى) (أَكَلَ الْكِلَابُ أَنْوْفَهُمْ وَخُصَاهُمْ ** فَلَتَبَكَ تَغْلِبُ لِلْأَنْوَفِ وَلِلْخُصَى) وَقَالَ أَبُو يَعْقُوبَ الْحَرَمِيُّ وَهُوَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّانَ بْنِ قُوْهِى فِي قَبْلَى حَرْبِ بَغْدَادِ :

(وَهَلْ رَأَيْتَ الْفَتِيَانَ فِي بَاحَةِ ** الْمُعْتَرِكِ مَعْفُورَةٍ مَنَاحِرُهَا) (كُلَّ فَتَى مَانِعٍ حَقِيقَتَهُ ** يَشْقَى بِهِ فِي الْوَعَى مَسَاعِرُهَا) (بَاتَتْ عَلَيْهِ الْكِلَابُ تَنْهَشُهُ ** مَحْضُوبَةً مِنْ دَمٍ أَظْفَرُهَا) وَقَالَ أَبُو الشَّمَقْمَقِ وَهُوَ مَرْوَانَ بْنُ مُحَمَّدٍ مَوْلَى مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَيَكْنَى أَبُو مُحَمَّدٍ : (يُوسُفُ الشَّاعِرُ فَرَّخٌ ** وَجَدَّوهُ بِالْأُبْلَةِ) (حَلَقِي قَدْ تَلَقَّيْتُ ** كَامِنًا فِي جَوْفِ جُلَّةٍ) (خَيْطُوهَا خَشْيَةَ الْكَلِّ ** بَ عَلَيْهِ بِمَسَلَّةٍ) وَذَكَرَ لِي عَنْ أَبِي بَكْرِ الْهَذَلِيِّ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ الْحَسَنِ إِذْ أَقْبَلَ وَكَيْعُ بْنُ أَبِي سُودٍ فَجَلَسَ فَقَالَ يَا أَبَا سَعِيدٍ : مَا تَقُولُ فِي دَمِ الْبَرَاغِيثِ يُصِيبُ الثُّوبَ : أَيْصَلَى فِيهِ فَقَالَ : يَا عَجَبًا مِمَّنْ يَلْغُ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُ كَلْبٌ ثُمَّ يَسْأَلُ عَنْ دَمِ الْبَرَاغِيثِ فَقَامَ وَكَيْعٌ يَتَخَلَّجُ فِي مِشْيَتِهِ كَتَخَلَّجِ الْجَنُونِ فَقَالَ الْحَسَنُ : إِنَّ لِلَّهِ فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ نِعْمَةً فَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الْمَعْصِيَةِ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنَا مِمَّنْ يَتَّقَوْنَ بِنِعْمَتِكَ عَلَى مَعْصِيَتِكَ .

مَا أَضْيَفَ مِنَ الْحَيَوَانِ إِلَى خَبْثِ الرَّائِحَةِ وَقَالَ صَاحِبُ الدِّيكِ : أَشْيَاءُ مِنَ الْحَيَوَانِ تُضَافُ إِلَى نَشَنِ الْجُلُودِ وَخُبْثِ الرَّائِحَةِ كَرِيحِ أَبْدَانِ الْحَيَّاتِ وَكُنْتَنِ الثُّيُوسِ وَصُنَانِ عَرَقِهَا وَكُنْتَنِ جِلْدِ الْكِلَابِ إِذَا أَصَابَهُ مَطَرٌ وَضُرُوبٌ مِنَ النَّتَنِ فِي سِوَى ذَلِكَ نَحْنُ ذَاكِرُوهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَقَالَ رَوْحُ بْنُ زَنْبَاعٍ الْجُدَامِيُّ فِي امْرَأَتِهِ وَضُرْبِ الْكَلْبِ الْمَثَلِ : (رِيحُ الْكَرَائِمِ مَعْرُوفٌ لَهُ أَرَجٌ ** وَرِيحُهَا رِيحُ كَلْبٍ مَسَّهُ مَطَرٌ) قَالَ : وَكَانَتْ امْرَأَةُ رَوْحِ بْنِ زَنْبَاعٍ أُمُّ جَعْفَرِ بْنِ التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ

زَوْجَهُ إِيَّاهَا)

وقال : إِنَّهَا جَارِيَةٌ حَسَنَاءُ فَاصْبِرْ عَلَى بَدَاءِ لِسَانِهَا .

وقال الآخر : (وَرِيحٌ مَجْرُوبٌ وَرِيحٌ جُلَّةٌ ** وَرِيحٌ كَلْبٌ فِي غَدَاةٍ طَلَّةٌ) (كَأَنَّ رِيحَهُمْ مِنْ خُبْتِ طُعْمَتِهِمْ ** رِيحُ الْكِلَابِ إِذَا مَا بَلَّهَا الْمَطَرُ) وَمَا ذُكِرَ بِهِ الْكَلْبُ فِي أَكْلِهِ الْعَذْرَةَ قَوْلُ الرَّاجِزِ : أَحْرَصُ مِنْ كَلْبٍ عَلَى عَقِيٍّ صَبِيٍّ وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حَنْظَلَةُ بْنُ عَرَادَةَ فِي ذِكْرِه لَابْنِهِ السَّرْنَدِيُّ :

(مَا لِلسَّرْنَدِيِّ أَطَالَ اللَّهُ أَيْمَتَهُ ** خَلَّى أَبَاهُ بِقَفْرِ الْيَدِ وَادَّجَا) (مِجْعٌ خَيْثُ يُعَاطِي الْكَلْبُ طُعْمَتَهُ ** وَإِنْ رَأَى غَفْلَةً مِنْ جَارِهِ وَجَا) (رَيَّيْتَهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَصْرُبُهُ ** وَالْكَلْبُ يُلْحَسُ مِنْ تَحْتِ اسْتِهِ الرَّدْجَا) يُقَالُ لِلَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بطنِ الصَّبِيِّ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بطنِ أُمِّهِ عَقِيٌّ بِكسرِ الْعَيْنِ وَيُقَالُ عَقِيٌّ الصَّبِيُّ يَعْقِي عَقِيًّا فَإِذَا شَدَّ بَطْنُهُ لِلسَّمَنِ قِيلَ قَدْ صُرِبَ لَيْسَمَنْ وَالْعَقِيُّ هُوَ الْعَقِيَّةُ الْعِيبَةُ وَإِيَّاهُ عَنَى ابْنُ عَمْرٍو حِينَ قِيلَ لَهُ : هَلَّا بَايَعْتَ أَخَاكَ ابْنَ الزُّبَيْرِ فَقَالَ : إِنْ أَخِي وَضَعَ يَدَهُ فِي عَقِيَّةٍ وَدَعَا إِلَى الْبَيْعَةِ إِنِّي لَا أَنْزِعَ يَدِي مِنْ جَمَاعَةٍ وَأَضْعُهَا فِي فُرْقَةٍ .

وفي الحديث المرفوع : الرَّاجِعُ فِي هَيْبَتِهِ كَالرَّاجِعِ فِي قَيْتِهِ وَهَذَا الْمَثَلُ فِي الْكَلْبِ .

ويقال : أَبْجَلُ مِنْ كَلْبٍ عَلَى جِيْفَةٍ وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي الْكَلْبِ : الْجِيْفَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّحْمِ الْغَرِيضِ وَيَأْكُلُ الْعَذْرَةَ وَيَرْجِعُ فِي قَيْتِهِ وَيَشْغَرُ بَيَوْلِهِ فَيَصِيرُ فِي جَوْفٍ فِيهِ وَأَنْفُهُ وَيَحْدِفُهُ تَلْقَاءَ خَيْشُومِهِ .

وقال صاحب الكلب : إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَسْتَسْقِطُونَ الْكَلْبَ وَتَسْتَسْفِلُونَهُ بِهَذَا وَأَشْبَاهِهِ فَالْجِيْفَةُ أَنْتُمْ مِنَ الْعَذْرَةِ وَالْعَذْرَةُ شَرٌّ مِنَ الْقِيَّةِ وَالْجِيْفَةُ أَحَبُّ إِلَى أَشْرَافِ السَّبَاعِ وَرُؤُسَائِهَا مِنَ اللَّحْمِ الْعَبِيْطِ الْغَرِيضِ الْغَضِّ .
مَأْكُلُ السَّيْعِ وَالْأَسَدُ سَيِّدُ السَّبَاعِ وَهُوَ يَأْكُلُ الْجِيْفَةَ وَلَا يَعْرِضُ لِشَرَائِعِ الْوَحْشِ وَافْتِرَاسِ الْبَهَائِمِ وَلَا لِلْسَّابِلَةِ مِنَ النَّاسِ مَا وَجَدَ فِي فَرِيْسَتِهِ فَضْلَةً وَيَبْدَأُ بَعْدَ شَرْبِ الدَّمِّ فَيَقْرُبُ بَطْنَهُ وَيَأْكُلُ مَا فِيهِ مِنَ الْغَثِيْثَةِ وَالنَّفْلِ وَالْحَشْوَةِ وَالزَّبْلِ وَهُوَ يَرْجِعُ فِي قَيْتِهِ وَعَنْهُ وَرِثَ السُّنُورِ ذَلِكَ .
مَا قِيلَ فِي السَّيْعِ مِنَ الْأَمْثَالِ)

وهو المضروبُ به المثلُ فِي التَّجْدَةِ وَالْبَسَالَةِ وَفِي شِدَّةِ الْإِقْدَامِ وَالصَّوْلَةِ فَيُقَالُ : مَا هُوَ إِلَّا الْأَسَدُ عَلَى بَرَائِنِهِ وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الْأَسَدِ وَهُوَ أَجْرَأُ مِنَ اللَّيْثِ الْعَادِي وَفُلَانٌ أَسَدُ الْبِلَادِ وَهُوَ الْأَسَدُ الْأَسْوَدُ وَقِيلَ لِحَمْزَةِ بَنِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ أَسَدُ اللَّهِ فَكَفَّاكَ مِنْ نُبْلِ الْأَسَدِ أَنَّهُ اشْتَقَّ لِحَمْزَةِ بَنِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ مِنْ اسْمِهِ وَيُقَالُ لِلْمَلِكِ أَصِيدٌ إِذَا أَرَادُوا

أَنْ يَصِفُوهُ بِالْكِبَرِ وَقِلَّةِ الْإِلْتِفَاتِ وَأَنَّ أَنْفَهُ فِيهِ أَسْلُوبٌ وَلَأَنَّ الْأَسَدَ يَلْتَفِتُ مَعًا لِأَنَّ عُنُقَهُ مِنْ عَظْمٍ وَاحِدٍ وَقَالَ حَاتِمٌ : (هَلَّا إِذَا مَطَرَ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ ** وَرَفَعْتَ رَأْسَكَ مِثْلَ رَأْسِ الْأَصِيدِ) (يَذُودُونَ كَلْبًا بِالرَّمَاكِ وَطَيْئًا ** وَتَغْلِبُ وَالصَّيْدَ النَّوَاطِرُ مِنْ بَكْرِ) وَقَالَ الْآخَرُ : (وَكَمْ لِي بِهَا مِنْ أَبٍ أَصِيدٍ ** نَمَاهُ أَبٌ مَا جَدَّ أَصِيدٌ) وَبَعْدُ فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ الْجِيْفَةَ لَمْ يَبْعُدْ مِنْ طَبْعِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَهِي اللَّحْمَ الْغَابَّ

ومنهم من يشتهي التمسك سود وليس بين التمسك سود وبين المصلوب اليابس كبير فرق وإنما يذبحون الديكة
والبط والدجاج والدراج من أول الليل ليسترخي لحمها وذلك أول التجفيف .
فالأسد أجمع هذه الحصال من الكلب فهلاً ذكرتم بذلك الأسد وهو أنه ذكر وأبعد صيتاً .
وأما ما ذكرتم من تنن الجلد ومن استنشاق البول فإن لليس في ذلك ما ليس للكلب وقد شاركه في
الحذف بيوله تلقاء أنفه وباينه بشدة الصنن فإن الأمثال له أكثر ذكراً وفي العنز أيضاً عيوب .

وفي توجيه التيس بيوله إلى حاق خيشومه قال الشاعر لبعض من يهجوّه : (دُعيتَ يَريدَ كي تَريدَ فلم تَردْ
** فعاد لك المُسمي فأسماك بالقحر) (وما القحُرُ إلّا التيسُ يَعنك بولُه ** عَليه فيمَذي في لَبانٍ وفي نحر)
(أعثمانُ بنُ حَيّان بن لؤم ** عَنودٌ في مفارقِه يَولُ) (ولو أني أَشافُهُه لَشالت ** نَعامُتهُ ويفهَم ما يَقول)
وبعد : فما يُعلم من صنيع العنز في لبنها وفي الارتضاع من خلفها إلّا أقبح .
وقال ابن أحمر الباهلي في ذلك : (إِنّا وَجدنا بَني سَهمٍ وجملَهم ** كالعنز تَعطِفُ رَوقِها وتَرتَضِعُ)
وقلتُم : هَجا ابنُ غادية السلمي بعضَ الكِرام حينَ عَزلٍ عن يَنبُع فقال لمن ظنَّ أَنه إِنما عَزلَ لمكانه : (
رَكبوك مُرتَحِلاً فظَهَرُك مِنهُم ** دَبرُ الحراقِفِ والفَقارِ مَوقِعُ) (كالكلبِ يَتَبِعُ خانِقِيهِ وَيَنبَجي ** نحوَ الذين
بِهِم يَعرُزُ وَيَمْنَعُ)

وقال ابن هرمة الفهري : (فما عادَت لَذي يَمِن رَؤوساً ** ولا صَرتَ بَفرقِها نِزاراً) (كعَنزِ السَّوءِ تَنطَحُ
مَنَ خَلاها ** وتَراُم مَن يَحدُّ لها الشِّقاراً) وما نَعلم الرُجوعُ في الجِرةِ وإِعادة الفَرتِ إلى الفم لِيستَقصى
مَضغُها إلّا أَسَمَجَ وأَقلَنَ من الرُجوعِ في القِيءِ وقد اختارَ اللهُ عَزَّ وجلَّ تلكَ الطَبيعةَ للأَنعام وجعلَ الناسَ
لِيسوا لشيءٍ من اللُحمان أَشدَّ أَكلاً ولا أَشدَّ عَجباً بِهِ مِنكم ولا أَصلَحَ لأَبدانِهِم ولا أَغذى لَهُم من لُحوم
هذه الأَنعام أَفنانِها ومَسانِها .

وقال صاحب الديك : ما يشبه عودُ الماشية في الجرة ورجوعُها في الفرت تطحنه وتُسيعه الرجوع في القيء
وقد زعمتم أن جرة البعير أنتن من قيء الكلاب لطول غبوها في الجوف وانقلابها إلى طباع الرّبل وأنها أنتن
من الثلث وإنما مثل الجرة مثل الرّيق الذي ذكره ابن أحمر فقال : (هذا النشاء وأَجِدُ أن أَصاحبه ** وَقَدْ
يَدومُ رِيقُ الطامِعِ الأملُ) فإنما مَثَلُ القِيءِ مَثَلُ العَذرةِ لأنَّ الرّيقَ الذي زعمتم ما دام في فم

صاحبه أُلذُّ من السلوى وأمتع من النسيم وأحسن موقِعاً من الماء البارد من العطاش المسهوم والريق كذلك
ما لم يرايل موضعه ومتى زایل فَمَ صاحِبِهِ إلى بعض جِلده اشتدَّ نَشته وعادَ في سَبيل القِيء .

فالريق والجرة في سبيل واحد كما أن القيء والعذرة في سبيل واحد ولو أن الكلب قَلَسَ حَتَّى يَمتلئَ مِنْهُ فَمه
ثم رَجعَ فِيهِ مِنْ غَيرِ مِباينَةٍ لَهُ لكانَ فِي ذلكَ أَحَقُّ بِالنَظافَةِ مِنَ الأَنعامِ فِي جِرتِها وَحَشيَّها وَأَهليَّها وَإِنَّ الأَرانِبَ
لَتَحِيضُ حِيضاً تَناءُ فَمَ عافَ لَحَمَها أَصحابُ التَّقَدُّرِ لِمَشارِكتِها الأَنعامَ فِي الجِرةِ .

فقال صاحب الكلب : أمّا ما عبتموه من أَكلِ العَذرةِ فَإِنَّ ذلكَ عامٌّ فِي الماشِيةِ المتخَيَّرِ لَحَمُها على اللُحمانِ

لأنَّ الإبل والشيء كلها جَلَّالَةٌ وَهْنٌ عَلَى يَابِسٍ مَا يَخْرُجُ مِنَ النَّاسِ أَحْرَصُ وَعَلَى)
أَنَّهُ إِذَا تَعَوَّدَتْ أَكَلَ مَا قَدْ جَفَّ ظَاهِرُهُ وَدَاخِلُهُ رَطْبٌ رَجَعَ أَمْرُهَا إِلَى مَا عَلَيْهِ الْكَلْبُ ثُمَّ الدَّجَاجُ لَا تَرْضَى
بِالْعَذْرَةِ وَبِمَا يَبْقَى مِنَ الْحُبُوبِ الَّتِي لَمْ يَأْتِ عَلَيْهَا الْاسْتِمْرَاءُ وَالْمُضْمُ حَتَّى تَلْتَمِسَ الدِّيدَانُ الَّتِي فِيهَا فَتَجْمَعُ
نَوْعِينَ مِنَ الْعَذْرَةِ لِأَنَّهَا إِذَا أَكَلَتْ دِيدَانَ الْعَذْرَةِ فَقَدْ أَتَتْ عَلَى النَّوَاعِينَ جَمِيعاً وَلِذَلِكَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ
الْحَكَمِ فِي هِجَائِهِ الْأَنْصَارَ بِخَيْثِ الطَّعَامِ

فَضْرَبَ الْمَثَلَ بِالدَّجَاجِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ وَتَرَكَ ذِكْرَ الْكَلَابِ وَهِيَ لَهُ مُعْرِضَةٌ فَقَالَ : (وَلِلْأَنْصَارِ أَكْلٌ فِي
قُرَاهَا ** لِحُبِّ الْأَطْعِمَاتِ مِنَ الدَّجَاجِ) وَلَوْ قَالَ : (وَلِلْأَنْصَارِ أَكْلٌ فِي قُرَاهَا ** لِحُبِّ الْأَطْعِمَاتِ مِنَ
الْكَلَابِ) لَكَانَ الشَّعْرُ صَحِيحاً مُرَضِياً .

وَعَلَى أَنَّ الْكَلَابَ مَتَى شَبِعَتْ لَمْ تَعْرِضَ لِلْعَذْرَةِ وَالْأَنْعَامِ الْجَلَّالَةِ وَكَذَلِكَ الْخَافِرُ قَدْ جَعَلَتْ ذَلِكَ كَالْحَمَضِ إِذَا
كَانَتْ لَهَا خَلَّةٌ فَهِيَ مَرَّةٌ تَتَغَذَّى بِهِ وَمَرَّةٌ تَتَحَمَّضُ وَقَدْ جَاءَ فِي لُحُومِ الْجَلَّالَةِ مَا جَاءَ .
وَمَلُوكُنَا وَأَهْلُ الْعَيْشِ مِمَّا لَا يَرِغِبُونَ فِي شَيْءٍ مِنَ اللَّحْمَانِ رَغِبَتَهُمَا فِي الدَّجَاجِ وَهَمَّ يَقْدَمُونَهَا عَلَى الْبَطِّ
وَالنَّوَاهِضِ وَالْقَبْجِ وَالثَّرَاجِ نَعَمَ وَعَلَى الْجِدَاءِ وَالْأَعْنَقِ الْحُمْرِ مِنْ بَنَاتِ الصَّفَايَا وَهَمَّ يَعْرِفُونَ طَبْعَهَا وَسُوءَ
قُوَّتِهَا وَهَمَّ مَعَ ذَلِكَ يَأْكُلُونَ الرِّوَاعِيَّ كَمَا يَأْكُلُونَ الْمَسْمَنَاتِ .
الشُّبُوطُ أَجُودُ السَّمَكِ وَأَطْيَبُ مَا فِي الْأَنْهَارِ مِنَ السَّمَكِ وَأَحْسَنُهَا قُدُوداً وَخَرَطاً وَأَسْطُهَا سَبُوطاً وَأَرْفَعُهَا
ثَمناً وَأَكْثَرُهَا تَصْرِفاً فِي الْمَالِ وَالطَّرِيقِ وَفِي

الْقَرِيسِ وَالنَّشُوطِ الشُّبُوطُ وَلَيْسَ فِي الْمَاءِ سَمَكَةٌ رَفِيعَةُ الذِّكْرِ وَلَا ذَاتُ خُمُولٍ إِلَّا وَهِيَ أَحْرَصُ عَلَى أَكْلِ
الْعَذْرَةِ مِنْهَا وَإِنَّهَا فِي ذَلِكَ لِأَشَدُّ طَلَباً لَهَا مِنَ الْخِنْزِيرِ فِي الْبَرِّ وَالْجَرِّيِّ فِي الْبَحْرِ .
لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَقَدْ عَلَّمَ النَّاسُ كَيْفَ اسْتِطَابَةُ أَكْلِ لُحُومِ الْخِنْزِيرِ وَأَكْلُ الْخِنْزِيرِ لَهَا وَكَيْفَ كَانَتْ الْأَكَاسِرَةُ
وَالْقِيَاصِرَةُ يَقْدَمُونَهَا وَيَفْضَلُونَهَا وَلَوْلَا التَّعَبُّدُ لَجَرَى عِنْدَنَا مَجْرَاهُ عِنْدَ غَيْرِنَا .
وَقَدْ عَلَّمَ النَّاسُ كَيْفَ اسْتِطَابَةُ أَكْلِ الْجَرِّيِّ لِأَذْنَابِهَا .
مَا قِيلَ فِي الْجَرِّيِّ (

وَفِي الْجَرِّيِّ قَالَ أَبُو كَلْدَةَ : هُوَ أَذْمُ الْعُمَيَّانِ وَجَيِّدٌ فِي الْكَوْشَانِ وَدَوَاءٌ لِلْكَلْبَتَيْنِ وَصَالِحٌ لَوَجَعِ الظَّهْرِ وَعَجَبُ
الذَّنْبِ وَخِلَافٌ عَلَى الْيَهُودِ وَغِيظٌ عَلَى الرِّوَاغِ فِي أَكْلِهِ إِحْيَاءٌ لِبَعْضِ السُّنَنِ وَإِمَاتَةٌ لِبَعْضِ الْبَدَعِ وَلَمْ يُفْلَجْ
عَلَيْهِ مُكَثَّرٌ مِنْهُ قَطُّ وَهُوَ مُحَنَّةٌ بَيْنَ الْمُبْتَدِعِ

وَالسُّنِّيِّ هَلَكَ فِيهِ فِتْنَانٌ مَذْكَانَتِ الدُّنْيَا : مُحَلَّلٌ وَمَحْرَمٌ .

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : هُوَ قِيحُ الْمَنْظَرِ عَارِي الْجِلْدِ نَاقِصُ الدِّمَاغِ يَلْتَهُمُ الْعَذْرَةَ وَيَأْكُلُ الْجُرْذَانَ صَحَاحاً وَالْفَارَّ
وَزَهَمٌ لَا يُسْتَطَاعُ أَكْلُهُ إِلَّا مُحْسِياً وَلَا يَتَصَرَّفُ تَصْرِفاً السَّمَكِ وَقَدْ وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ الْمِسْخِ لَا يَطْيِبُ مَمْلُوحاً
وَلَا مَقْمُوراً وَلَا يُؤْكَلُ كَبَاباً وَلَا يُخْتَارُ مَطْبُوخاً وَيُرْمَى كُلُّهُ إِلَّا ذَنْبُهُ .

وَالْأَصْنَافُ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْعَذْرَةِ كَثِيرَةٌ وَقَدْ ذَكَرْنَا الْجَلَالَاتِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْجَرِّيِّ وَالشُّبُوطِ مِنَ السَّمَكِ

ويعرض لها من الطير الدجاجُ والرَّخْمُ والمَهادِد .

الأنوق وما سمي بهذا الاسم وقد بلغ من شهوة الرَّخْمَةِ لذلك أن سَمَّوها الأنوق حتى سَمَّوا كلَّ شيءٍ من الحيوان يعرض للعذرة بأنوق وهو قول الشاعر : (حتَّى إذا أضحي تَدَرَّى واكتحل ** لجارتيه ثم وَلَّى فنثلُ)

رزقَ الأنوقَيْنِ القرْنَيَّ والجُعَلْ ولشدة طلب الجعل لذلك قال الشاعر : (يَبِيتُ في مجلس الأَقوامِ يَرَبُّوهم ** كَأَنَّهُ شُرْطِيٌّ بَاتَ في حَرَسِ) وكذلك قال الآخر : (إذا أتوه بطعامٍ وأكلَ ** بَاتَ يَعِشِي وَحَدَه أَلْفِي جُعَلْ) هذا البيت يدلُّ على عِظَمِ مقدار النَّجْوِ فهجاه بذلك وعلى أَنَّ الجُعَلْ يقتات البراز .

وفي مثل ذلك يقول ابن عَبَّالٍ إن كان قاله وإنما قلت هذا لأنَّ الشعر يَرْتَفِعُ عنه والشعر قوله : (نَعْمُ جارُ الخنزيرةِ المرضعُ الغرَّ ** نِى إذا ما غدا أبو كلثومِ) (ثابِياً قد أصابَ عند صديقٍ ** من تَرِيدِ مَلَبِقٍ مأدومِ) (ثم أنحى بجعره حاجبَ الشمِّ ** سِ فالقَى كالمِغْلَفِ المَهْدُومِ) (بضَريطٍ ترى الخنازير منه ** عامداتٍ لَنَلِّه المَركومِ) وقال الراجز في مثل ذلك : (قد دَقَّه تَارِدُهُ وَصَوْمَعَا ** ثُمَّتَ أَلْبَانُ البَخَاتِي جَعَجَعَا)

(جَعَجَعَةَ العَوْدِ ابْتَغَى أَنْ يَنْجَعَا ** ثُمَّتَ خَوَى بَارِكَا وَاسْتَرْجَعَا) وفي طلب الجُعَلِ للزَّيْلِ قال الراجز وهو أبو الفُصْنِ الأَسَدِي : (ماذا تَلَاقِي طَلَحَاتُ الحَرَجِ ** من كل ذات بُخْنٍ غَمَلَجِهِ) (ظَلَّ لها بَيْنَ الحلالِ أَرَجِهِ ** مِنَ الصُّرَاطِ والفُسَاءِ السَّمَجِهِ) (فَجَنَّتُهَا قَاعِدَةٌ مَنْشَجِهِ ** تعطيه عنها جَعَلًا مُدَحْرَجِهِ) وقال يحيى الأغر : يقول العرب سَدَكْ به جَعَلَهُ وقال الشاعر : (إذا أَتَيْتُ سُلَيْمِي شَبَّ لي جُعَلٌ ** إِنَّ الشَّقِيَّ الذي يُغَرِّى به الجُعَلُ) يضرب هذا المثلُ للرجل إذا لَصِقَ به من يكره وإذا كان لا يزال يراه وهو يهرُبُ منه قال يحيى : وكان أصلُه ملازمة الجُعَلِ لمن بات في الصحراء فكَلَّمَا قام لحاجة تبعه لأنَّه عنده أنه يريد الغائط .

القرنبي وفي القرْنَيَّ يقول ابن مقبل :

(ولا أطْرُقُ الجاراتِ بالليلِ قابِعاً ** قُبُوعَ القرْنَيَّ أَخْلَفْتَهُ مجاعره) والقُبُوعُ : الاجتماع والتقبض والقرْنَبِيُّ : دويبةٌ فوق الخُنْفَسَاءِ ودون الجعل وهو والجعل يتبعان الرجلَ إلى الغائط .

ومن الطير الذي يُضَارِعُ الرَّحْمَةَ في ذلك المَهْدَهُدُ منتنُ البدنِ وإن لم تجده ملطخاً بشيءٍ من العذرة لأنَّه يبني بيته ويصنع أفحوصه من الزَّيْلِ وليس اقتيائه منه إلَّا على قَلَرِ رَغْبَتِهِ وحاجته في ألاَّ يَتَّخِذَ بيتاً ولا أفحوصاً إلَّا منه فخامرَه ذلك النَّتْنُ فَعَلِقَ ببدنه وجرى في أعراق أبويه إذ كان هذا الصنيع عامًّا في جنسه .

وتعترى هذه الشَّهْوَةُ الذَّبَانِ حتَّى إنَّها لو رأتُ عسلاً وقَدَرًا لكانت إلى القَدَرِ أسرعَ وقال الشاعر : (قَفَا خَلْفَ وَجْهِ قَدْ أُطِيلَ كَأَنَّهُ ** قَفَا مالِكٍ يُقْصِي الهُمومَ عَلى بَقِي) (وأعظمُ زهوًّا من ذبابٍ على خِراءِ ** وأَجَلُ من كَلَبٍ عَقُورٍ على عَرَقِ) ويزعمون أنَّ الزُّنُورَ لهيْجٌ بصيد الذَّبَانِ ولا يكاد يصيده إلَّا وهو

ساقطاً على عذرة لفرط شهوته لها ولاستفراغها فيعرف الزُّنُور ذلك فيجعل غفلته فرصة ونهضة قالوا :
وإنما قلنا ذلك لأننا لم نجد له يروم صيده وهو ساقطٌ على ثمرة فما دونها في الحلاوة .
شعر في الهجاء وقال أبو الشَّمَمَق في ذلك : (الطريق الطريق جاءكم الأح ** مق رأس الأنتان والقذرة)
يمشي رويداً يريد حلقكم كمشي خنزيرة إلى عذره وقال حمادُ عَجْرَد في بشار بن بُردٍ العَقِيلِي : (ما صَوَّرَ
اللهُ شَبْهاً له ** من كلِّ مَنْ مِنْ خَلْقِهِ صَوَّراً) (أَشَبَّهَ بِالْخَنزِيرِ وَجْهاً ولا ** بالكلب أعرافاً ولا مَكْسِراً)
ولا رأينا أحداً مثله ** أَنجَسَ أو أَطْفَسَ أو أَقْدَرَا) (لو طُلِيتُ جِلْدُهُ عِبراً لَنَتَّتْ ** جِلْدُهُ الْعِبرَا) (أو
طُلِيتُ مِسْكَاً ذَكِيّاً إِذَنْ ** تَحَوَّلَ الْمِسْكُ عَلَيْهِ خِيراً) وقال أبو نُواس في هِجَاءِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى بن خالد
البرمكي : (إذا ما مدحتُ فتى من خِيراً ** أليس جزائي أن أعطى الخِيراً) وقال أعرابيٌّ يهجو رجلاً يقال له
جُلُمُود بن أوس كان مُتَنِّ العرق :

(إِنِّي إذا ما عارضي تَأَلَّقَا ** وَرَعَدَتْ حَافَتُهُ وَبَرَقَا) (أَهْلَكْتُ جُلُمُودَ بْنَ أَوْسٍ غَرَقَا ** كَانَتْ لِحْمَاءَ فَصَارَ
أَحْمَقَا) أَحَبْتُ شَيْءَ عَرَقَا وَخَرَقَا وقال حمادُ عَجْرَد في بشار : (بَلْ لَعَمْرِي لِأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الْكَلِّ ** ب
وَأُولَى مِنْهُ بِكُلِّ هَوَانٍ) (وَلَرِيحُ الْخَنزِيرِ أَطْيَبُ مِنْ رِي ** حِكْ يَا ابْنَ الطَّيَّانِ ذِي الثُّبَّانِ) وقال بعض
الشعراء في عبد الله بن عُمير : (غَرَا ابْنُ عُمَيْرٍ غَزْوَةً تَرَكْتُ لَهُ ** ثَنَاءَ كَرِيحِ الْجَوْرَبِ الْمُتَخَرِّقِ)
وقال حمادُ عَجْرَد في بشار : (قُلْ لَشَقِيٍّ الْجَدُّ فِي رَمْسِهِ ** وَمَنْ يَفِرُّ النَّاسُ مِنْ رِجْسِهِ) (لِلْقِرْدِ بِشَّارِ بْنِ
بُرْدٍ ولا ** تَحْفِلُ بِرِغَمِ الْقِرْدِ أَوْ تَعْسِهِ) (لِلْقِرْدِ بِاللَّيْثِ اغْتِرَارٌ بِهِ ** فَمَا الَّذِي أَدْنَاكَ مِنْ مَسِّهِ) (يَا ابْنَ
اسْتِهَا فَاصْبِرْ عَلَى ضَعْفَةٍ ** بَنَابِهِ يَا قِرْدُ أَوْ ضِرْسِهِ) (فَهَارُهُ أَحْبَبْتُ مِنْ لَيْلِهِ ** وَيَوْمُهُ أَحْبَبْتُ مِنْ أَمْسِهِ)

(وليس بالمُتْلَعِ عَنْ غِيهِ ** حَتَّى يُدَلِّي الْقِرْدُ فِي رَمْسِهِ) (مَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئاً لَهُ ** مِنْ جَنَّةٍ طُرّاً وَمِنْ إِنْسِهِ)
(وَاللَّهِ مَا الْخَنزِيرُ فِي ثَنَنِهِ ** مِنْ رُبْعِهِ بِالْعَشْرِ أَوْ خُمْسِهِ) (بَلْ رِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِهِ ** وَمَسُّهُ أَلْيَنُ مِنْ مَسِّهِ)
(وَعَوْدُهُ أَكْرَمُ مِنْ عَوْدِهِ ** وَجَنِسُهُ أَكْرَمُ مِنْ جَنِسِهِ) وأنا حفظك الله تعالى أَسْتَظَرُّ وَضَعَهُ الْخَنزِيرَ بِهَذَا
الْمَكَانِ وَفِي هَذَا الْمَوْضِعِ حِينَ يَقُولُ : وَعَوْدُهُ أَكْرَمُ مِنْ عَوْدِهِ .

وَأَيُّ عَوْدٍ لِلْخَنزِيرِ قَبَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقِيحٌ مِنْ يَشْتَهِي أَكْلَهُ وَقَالَ حَمَادُ عَجْرَد في بشار بن بُرد : (إِنَّ ابْنَ بُرْدٍ
رَأَى رُؤْيَا فَأَوَّلَهَا ** بَلَا مَشُورَةَ إِنْسَانٍ وَلَا أَثَرَ) (رَأَى الْعَمَى نِعْمَةً لِلَّهِ سَابِغَةً ** عَلَيْهِ إِذْ كَانَ مَكْفُوفاً عَنْ
النَّظَرِ) (وَقَالَ : لَوْ لَمْ أَكُنْ أَعْمَى لَكُنْتُ كَمَا ** قَدْ كَانَ بُرْدُ أَبِي فِي الضَّيِّقِ وَالْعُسْرِ) (أَكَلْتُ نَفْسِي
بِالنَّظَرِ مَجْتَهِداً ** إِمَّا أَجِيراً وَإِمَّا غَيْرَ مُؤْتَجَرٍ) (أَوْ كُنْتُ إِنْ أَنَا لَمْ أَقْنَعْ بِفَعْلِ أَبِي ** قَصَابَ شَاءَ شَقِيَّ الْجَدِّ
أَوْ بَقَرٍ) (كَأَخَوَتِي دَائِباً أَشْقَى شَقَاءَهُمْ ** فِي الْحَرِّ وَالْبُرْدِ وَالْإِدْلَاجِ وَالْبُكْرِ) (فَقَدْ كَفَانِي الْعَمَى مِنْ كُلِّ
مَكْسَبَةٍ ** وَالرِّزْقُ يَأْتِي بِأَسْبَابٍ مِنَ الْقَدَرِ)

(فَصُرْتُ ذَا نَشَبٍ مِنْ غَيْرِ مَا طَلَبَ ** إِلَّا بِمَسْأَلَتِي إِذْ كُنْتُ فِي صَعْرِي) (أَضْمُ شَيْئاً إِلَى شَيْءٍ فَأَذْخَرَهُ **
مِمَّا أَجْمَعَ مِنْ قَمَرٍ وَمِنْ كَسَرٍ) (مَنْ كَانَ يَعْرِفُنِي لَوْ لَمْ أَكُنْ زَمِناً ** أَوْ كَانَ يَذُلُّ لِي شَيْئاً سِوَى الْحَجَرِ) (لَقَدْ
فَطِنْتُ إِلَى شَيْءٍ تَعِيشَ بِهِ ** يَا ابْنَ الْخَبِيثَةِ قَدْ أَدْقَقْتُ فِي النَّظَرِ) (يَا ابْنَ الَّتِي نَشَرْتَ عَنْ شَيْخٍ صَبِيئَهَا **

لأير ثوبانَ ذي الهامات والعُجَرِ (أما يكُفُّكَ عن شَتْمِي ومنقَصَتِي ** ما في حِرَامِكَ من نَشْنٍ ومن دَفْرِ) (نفَتَكَ عنها عُقِيلٌ وهي صادقة ** فسل أسيداً وسل عنها أبا زُفْرِ) (يا عبد أُمّ الطباء المستطبَّ بها ** من اللوى لست مولى الغرِّ من مُضَرِّ) (بل أنت كالكلب ذُلاًّ أو أذلُّ وفي ** نَذَالَةِ النفس كالخنزير واليَعْرِ) (وأنت كالقرَدِ في تشويه منظره ** بل صورةُ القرد أبهى منك في الصُّورِ) ووصف ابن كريمة حشاً له كان هو وأصحابه يتأذون برمحه فقال : (ولي كَيْفٌ بِحَمْدِ اللَّهِ يطرقني ** أرواح وادي خبال غير فتار)

(له بدائع نَشْنٍ ليس يعرفها ** من البرية إلا خازن النار) (إذا أتاني دَخِيلٌ زَادَنِي بدعاً ** كَأَنَّهُ لَهِيَجٌ عَمْداً ياضراًري) (قد اجتواني له الخَلَانُ كُلُّهُمْ ** وباعَ مَسْكَنَهُ مِن قُرْبِهِ جاري) (فمن أراد من البرسَامِ أَقْتَلَهُ ** أو الصُّدَاعِ فمره يدخلن داري) (استكثفَ التَّنُّ في أنفي لكثرتِه ** فليس يوجِدُنيهِ غيرُ إضماري) وقيل للمحلول : وملك ما حفظت بيتَ شعرٍ قط فقال : بيتاً واحداً اشتهيته فحفظته فليل له : فهاته قال : أما إني لا أحفظ إلا بيتاً واحداً قيل : فكيف رزق منك هذا البيت فَأَنشِدُهُ فَأَنشَدَهُم : كَأَنَّمَا نَكْهَتْهَا مِدَّةٌ تَسِيلُ من مَخْطَةِ مَجْدُومٍ وزعم أصحابنا أن رجلاً من بني سعد وكان أنتن الناس إبطاً بلغه أن ناساً من عبد القيس يتحدّونه برجلٍ منهم فمضى إليهم شداً فوافاهم وقد أَرَبَدَ إبطاه وهو يقول : (أقبلتُ من جِلْهَةِ ناعتينا ** بذِي حُطَاطٍ يُعْطِسُ المَخُونَا)

(يَزُوي له من نَشْنِهِ الجَبِينَا ** حتّى تَرَى لوجهه غُضُونَا) نُبِتَ عبدُ القيس يَاطُونَا قال : ومَتَحَ أعرابيٌّ على بئرٍ وهو يقول : (يا رِيْهَا إذا بدا صُنَانِي ** كَأَنِّي جاني عُيُتْرَانِ) وقال آخر : (كَأَنَّ إيطيَّ وقد طال المدى ** نَفْحَةُ خُرءٍ من كَوَامِيخِ القرى) ويقال إنّه ليس في الأرض رائحةٌ أنتنٌ ولا أشدُّ على النفس من بَخَرٍ فمٍ أو نَشْنٍ حرٍّ ولا في وقال صاحب الكلب : فما نرى النَّاسَ يَعْفُونُ تسميدُ بقولهم قبل نُجومِها وتفتق بزورها ولا بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللبِّ منها حتّى ربّما ذرّوا عليها السَّمَادَ ذَرّاً ثمَّ يُرْسَلُ عليها الماء حتّى يَشْرَبَ اللَّبُّ قُوى العذرة بل من لهم بالعذرة وعلى أنّهم ما يصيغونها إلا مغشوشةً مُفْسِدةً وكذلك صنيعهم في الريحان فأما النَّخْلُ فلو استطاعوا أن يَطْلُوا بها الأجزاء طلياً لفعلوا وإنّهم ليوقدون بها

الحَمَامَاتِ وَأَتَاتِينَ المِلَالِ وتناير الخبز ومن أكرم سادهم الأبعادُ كُلُّهَا والأختاء إذا جفّت وما بين الثَّلَاطِ جَافاً والختاء يابساً وبين العذرة جافّةً ويابسةً فرق وعلى أنّهم يعالجون بالعذرة وبخرِ الكلب من الذُّبْجَةِ والخائوق في أقصى مواضع التفرُّز وهو أقصى الحلق ومواضع اللهاة ويضعونها على مواضع الشوكة ويعالجون بها عُيون الدّوابِّ .

أقول لمسيح الكناس وقال مسبح الكناس : إِنَّمَا اشْتَقُّ الخيرَ من الخُرءِ والخُرءِ في النوم خير وسلحةٌ مُلَرِكَةٌ أَلَذُّ من كَوْمِ العروس ليلة العرس ولقد دخلتُ على بعض الملوك لبعض الأسباب وإذا به قُعاصٌ وزكام وتقلُّ رأس وإذا ذلك قد طاوله وقد كان بلغني أنّه كان هجر الجلوس على المقعدة وإتيان الخلاء فأمرته بالعود إلى عادته فما مرّت به أيامٌ حتّى ذهب ذلك عنه .

وزعم أن الدنيا مُنْتَبِة الحيطان والتربة والأثمار والأودية إلا أن النَّاسَ قد غمرهم ذلك الشنّ الحيط بهم وقد

مَحَقَّ حِسَّهُمْ لَهُ طَوْلُ مُكْتِهِ فِي خِيَاشِمِهِمْ قَالَ : فَمِنْ ارْتَابَ بِخَبْرِي فَلْيَقِفْ فِي الرَّدِّ إِلَى أَنْ يَمْتَحَنَ ذَلِكَ فِي
أَوَّلِ مَا يَخْرُجُ إِلَى الدُّنْيَا عَنْ بَيْتِ مَطِيبٍ وَلَيْتَشَمَّ تَشَمُّ

الْمَتَشَبِّثُ عَلَى أَنَّ الْبَقَاعَ تَفَاوَتْ فِي النَّتَنِ فَهَذَا قَوْلُ مَسْبَحِ الْكَتَّاسِ .

عصبية سلمويه وابن ماسويه

وزعم لي سَلْمَوِيَّهُ وابن ماسويَّه مُتَطَبِّبَا الْخُلَفَاءِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ جِيفَةٌ أَنْتَنُ نَتْنًا وَلَا أَتَقَبُّ تُقُوبًا مِنْ جِيفَةٍ
بَعِيرٍ فَظَنَنْتُ أَنَّ الَّذِي وَهَمَهُمَا ذَلِكَ عَصِيَّتُهُمَا عَلَيْهِ وَبَغْضُهُمَا لِأَرْبَابِهِ وَلَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى
آلِهِ هُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْكِتَابِ بِرَاكِبِ الْبَعِيرِ وَيُقَالُ إِنَّ الْحَجَّاجَ قَالَ لَهُمْ : أَيُّ الْجِيفِ أَنْتَنُ فَقِيلَ : جِيفُ الْكَلَابِ
فَامْتَحِنْتُ فَقِيلَ لَهُ : أَنْتَنُ مِنْهَا جِيفُ السَّنَانِيرِ وَأَنْتَنُ جِيفُهَا الذُّكُورُ مِنْهَا فَصَلَبَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بَيْنَ جِيفَتَيْ سَنُورَيْنِ
ذَكَرْنِي .)

أَطِيبَ الْأَشْيَاءَ رَائِحَةٌ وَأَنْتَنُهَا وَأَنَا أَقُولُ فِي النَّتَنِ وَالطَّيِّبِ شَيْئًا لَعَلَّكَ إِنْ تَفَقَّدْتَهُ أَنْ تَوَافَقَنِي عَلَيْهِ وَتَرْضَى قَوْلِي
أَمَّا النَّتَنُ فَإِنِّي لَمْ أَشَمَّ شَيْئًا أَنْتَنَ مِنْ رِيحِ حُشٍّ مَقْبَرٍ يُولُ فِيهِ الْخِصْيَانُ وَلَا يُصَبُّ عَلَيْهِ الْمَاءُ فَإِنَّ لِأَبْوَاهِمُ
الْمُتَرَادِفَةِ الْمُتَرَكَبَةِ وَلِرِيحِ الْقَارِ وَرِيحِ هَوَاءِ الْحَشِّ وَمَا يَنْفَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ رِيحٍ

الْبَالُوعَةِ جِهَةً مِنَ النَّتَنِ وَمَذْهَبًا فِي الْمَكْرُوهِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَبْدَانِ عَمَلٌ وَإِنَّمَا يَقْصِدُ إِلَى عَيْنِ الرُّوحِ وَصَمِيمِ
الْقَلْبِ وَلَا سَيِّمًا إِذَا كَانَ الْخَلَاءُ غَيْرَ مَكْشُوفٍ وَكَانَ مَغْمُومًا غَيْرَ مَفْتُوحٍ فَأَمَّا الطَّيِّبُ فَإِنِّي لَمْ أَشَمَّ رَائِحَةً قَطُّ
أَحْيَا لِلنَّفْسِ وَلَا أَعْصَمَ لِلرُّوحِ وَلَا أَفْتَقَ وَلَا أَغْنِجَ وَلَا أَطِيبَ خِمْرَةً مِنْ رِيحِ عَرُوسٍ إِذَا أُحْكِمْتَ تِلْكَ
الْأَخْلَاطُ وَكَانَ عَرَفَ بَدَنَهَا وَرَأْسَهَا وَشَعْرَهَا سَلِيمًا وَإِنْ كَانَتْ بِمَدِينَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّكَ
سَتَجِدُ رِيحًا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَهَا إِلَّا رِيحُ الْجَنَّةِ .

ما قيل في الطربان

وَمَا قَالُوا فِي النَّتَنِ وَفِي رِيحِ جُحْرِ الطَّرْبَانِ خَاصَّةً قَوْلَ الْحَكَمِ بْنِ عُبَيْلٍ : (أَلْقَيْتَ نَفْسَكَ فِي عَرُوضِ مَشَقَّةٍ
** وَلَحْصَدُ أَهْلِكَ بِالْمَنَاجِلِ أَهْوَنُ) (أَنْتَ امْرُؤٌ فِي أَرْضِ أَمْلِكَ فَلِفْلٌ ** جَمٌّ وَفُلْفُلْنَا هُنَاكَ الدُّنْدُنُ) (فَبِحَقِّ
أَمْلِكَ وَهِيَ مِنْكَ حَقِيقَةٌ ** بِالْبَرِّ وَاللَّطْفِ الَّذِي لَا يُخْزَنُ) (لَا تُدْنِ فَاكًا مِنَ الْأَمِيرِ وَنَحْهَ ** حَتَّى يُدَاوِيَ مَا
بَأَثْمِكَ أَهْرَنُ) (إِنْ كَانَ لِلطَّرْبَانِ جُحْرٌ مُتَيْنٌ ** فَلَجُحْرُ أَهْلِكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَنُ)

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ وَذَكَرَ الطَّرْبَانَ حِينَ رَمَى قَوْمًا بِأَتْنِهِمْ يَفْسُونُ فِي مَجَالِسِهِمْ لِأَنَّ الطَّرْبَانَ أَنْتَنُ خَلَقَ
اللَّهُ تَعَالَى فَسُوءَةً وَقَدْ عَرَفَ الطَّرْبَانَ ذَلِكَ فَجَعَلَهُ مِنْ أَشَدِّ سِلَاحِهِ كَمَا عَرَفَتِ الْحُبَارِيُّ مَا فِي سِلَاحِهَا مِنْ
الْآلَةِ إِذَا قَرَّبَ الصَّقْرُ مِنْهَا وَالطَّرْبَانُ يَدْخُلُ عَلَى الصَّبِّ جُحْرَهُ وَفِيهِ حُسُولُهُ أَوْ بِيضُهُ فَيَأْتِي أَصْبَقَ مَوْضِعٍ فِي
الْجُحْرِ فَيَسُدُّهُ بِيَدَيْهِ وَيَحْوِلُ اسْتِنَهُ فَلَا يَفْسُو ثَلَاثَ فُسُوتٍ حَتَّى يُدَارَ بِالصَّبِّ فَيَخْرُ سَكْرَانًا مَفْشِيًّا عَلَيْهِ

فيأكله ثم يقيم في جحره حتى يأتي على آخر حُسوله .

وتقول العرب : إله ربما دخل في خلال الهجمة فيفسو فلا تتم له ثلاث فسوات حتى تنفرق الإبل عن المبرك تتركه وفيه قردان فلا يردها الراعي إلا بالجهد الشديد .

فقال الربيع وهجاهم أيضاً بريح الثيوس : (قليل غناؤهم في الهياج ** إذا ما تنادوا لأمر شديد) (وأنتم كلاب لدى دوركم ** قمر هريو العقور الرصود) (وأنتم طرايئ إذ تجلسون ** وما إن لنا فيكم من نديد) (وأنتم ثيوس وقد تعرفون ** بريح الثيوس وقبح الحدود) قال : أفسى من الطربان ويسمى مفرق النعم يريدون من نثر ريح فسائه ويقال في المثل إذا وقع بين الرجلين

شر فتباينا وتقاطعا : فسا بينهما طربان ويقال : أنتن من طربان لأن (ولو كنت في نار الجحيم لأصحت ** طرايئ من حمان عني تنيرها) وكان أبو عبيدة يسمي الحماني صاحب الأصم : الطربان يريد هذا المعنى كما يسمى كل حماني طربانا .

وقال ابن عبدل : (لا تُدْنِ فك من الأمير ونحوه ** حتى يداوي ما بأهلك أهرن) (إن كان للطربان جحر متين ** فلجحر أنفك يا محمد أنتن) في شعره الذي يقول : (ليت الأمير أطاعني فشفيته ** من كل من يكفي القصيد ويلحن) (متكور يحنو الكلام كأنما ** بات مناخره بدهن ثورن) (وبني لهم سجنًا فكنت أميرهم ** زمنًا فأضرب من أشاء وأسجن) (قل لابن أكلة العفص محمد ** إن كنت من حب التقرب تجبن) (ألقيت نفسك في عروض مشقة ** ولحصد أهلك بالمناجل أهون) (أنت امرؤ في أرض أمك فلفل ** جم وفلفلنا هنك الدندن)

(فبحق أمك وهي منك حقيقة ** بالبر واللطف الذي لا يخزن) (إن كان للطربان جحر متين ** فلجحر أنفك يا محمد أنتن) (فسَل الأمير غير موفقي ** وبؤ أبيه للفصاحة معدن) (وسل ابن ذكوان تجده عالما ** بسليقة العرب التي لا تحزن) (إذ أنت تجعل كل يوم عفسة ** فتجيد ما عملت يدك وتحسن) (أشبهت أمك غير باب واحد ** أن قد خئت وأنها لا تخن) (فلئن أصبت دراهما فدفنتها ** وفئت فيها وابن آدم يفتن) (فيما أراك وأنت غير مدرهم ** إذ ذاك تقصيف في القيان وترفن) (إذ رأس مالك لعبة بصرية ** بيضاء مغربة عليها السوسن) وقال ابن عبدل أيضاً : (نجوت محمداً ودخان فيه ** كريح الجعر فوق عطين جلد) (ركبته إليه في رجل أتانى ** كريم يطلب المعروف عندي) (قتلته له ولم أعجل عليه ** وذلك بعد تقريظي وحمدي) (فأعرض كمحاً عني كأني ** أكل صخرة في رأس صمد)

(أقرب كل آصرة ليدنو ** فما يزداد مني غير بعد) (فلو كنت المهذب من تميم ** لحفت ملامتي ورجوت حمدي) (نجوت محمداً فوجدت ربحاً ** كريح الكلب مات قريب عهد) (وقد ألدعتني ثعبان نتن ** سبيل إن سلمنا أهل نجد) (وأدنى خطمه فوددت أني ** قرنت دونوه مني ببعد) (كما افتدت المعادة من جواه ** بخلفتها ولم ترجع بزئد) (وفارقها جواه فاستراحت ** وكانت عنده كأسير قد) (وقد أدنيت فاه إلي حتى ** قتلته بذاك نفسي غير عمد) (وما يدنو إلى فيه ذباب ولو طليت مشافره بقند) (يذقن

حلاوةً ويخفن موتاً ** زعافاً إن هممن له بوردي (فلما فاح فوه علي فوحاً ** بمثل غيثة الدبر المغد)
فقلت له : تنح بفيك عني ** فما هذا بريح قنار رند)

(وما هذا بريح طلاً ولكن ** يفوح خراك منه غير سردي) (فحدثني فإن الصلح أدنى ** لباب الحق من
كذب وجحد) (أبات يجول في عفج طحور ** فأعلم أم أتاك به معدّي) (فإن أهديت لي من فيك حنفي
** فإنني كالذي أهديت أهدي) (لكم شرداً يسرن مغنيات ** تكون فنونها من كل فند) (أما تحري
خزيت لها إذا ما ** رواها الناس من شيب ومرد) (لأرجو إن نجوت ولم يصني ** جوى إنني إذن لسعيد
جد) (وقلت له : متى استطرفت هذا ** فقال أصابي من جوف مهدي) (فقلت له : أما ذاويت هذا **
فتعذر فيه آمالاً بجهد) (فقال : أما علمت له رقاءً ** فتسديه لنا فيما تستدي) (فقلت له : ولا آله
عيا ** له فيما أسر له وأبدي) (عليك بقينة وبجعر كلب ** ومثلي ذاك من نون كنعدي) (وحليت
وكراث وثوم ** وعودي حرمل ودماغ فهد) (وحجرة ابن آوى وابن عرس ** ووزن شعيرة من بز
فقد)

(وكف ذرخرح ولسان صقر ** ومتقالين من صوان رقد) (يلدق ويعجن المخول منه ** ببول آجن
وبجعر قرد) (وتدفيه زماناً في شعير ** وترقبه فلا يبدو لبرد) (فإن حضر الشتاء وأنت حي ** أراك الله
غيك أمر رشد) (فدخرجها بنادق وازدردها ** متى رمت التكلم أي زرد) (فتقف بالمصل على مصل
** يلعوم وشدق مسمعد) (وويلك ما لبطنك مذ قعدنا ** كأن دويّه إرزام رعد) (فإن لحكة الناسور
عندي ** دواء إن صبرت له سيجدي) (يُميت الدود عنك وتشتهيه ** إن انت سننته سن المقدّي) (به
وطليته بأصول دقلى ** وشيء من جنى لصف ورند) (أظني ميتاً من تن فيه ** أهان الله من ناجاه بعدي
)

أشعار العرب في هجاء الكلب

وقال صاحب الديك : سنذكر أشعار العرب في هجاء الكلب مجرداً على وجهه ثم نذكر ما ذموا من خلاله
وأصناف أعماله وأموراً من صفاته ونبدأ بذكر هجائه في الجملة قال بشار بن بُرد : (عددت سويداً إذ
فخرت وتولباً ** وللكلب خير من سويد وتولب) (أتذكر إذ ترعى على الحي شاءهم ** وأنت شريك
الكلب في كل مطعم) (وتلحس ما في القعب من فضل سُوره ** وقد عاث فيه باليدن وبالقم) وقال ابن
الذئبة : (من يجمع المال ولا يتب به ** ويترك المال لِعام جذبه) (يهن على الناس هوان كليه وقال آخر :
إن شريبي لا يغب بوجهه ** كلومي كأن كلباً يهارش أكلباً) (ولا أقسم الأعطان بيني وبينه ** ولا أتوقاه
وإن كان مجرباً) هجا الأصوص ابناً له فشيبهه بجرو كلب فقال : (قبح به من ولد وأشقيح ** ثل جري
الكلب لم يققح)

(إن يَرِ سَوْءًا مَا يَقُمُ فَيَنْبَحُ ** بالبابِ عند حاجةِ المستفتحِ) وقال أبو حُرَابَةَ : (يا ابنَ عليٍّ بَرِحَ الحَفَاءُ ** أَتَ لَغَيْرِ طَلْحَةَ الْفَدَاءِ) (قد علِمَ الأشرافُ والأَكْفَاءُ ** أَنَّكَ أَنتَ التَّاقِصُ اللَّفَاءُ) (بنو عليٍّ كُلُّهُمْ سَوَاءٌ ** كَأَنَّهُمْ زِينَةُ جِرَاءِ) وقال عبد بنى الحسحاسِ وذكر قبح وجهه فقال : (أَتَيْتُ نِسَاءَ الْحَارِثِيِّينَ غُدُوَّةً ** بوجهِهِ بَرَأَهُ اللَّهُ غَيْرَ جَمِيلِ) (فشَبَّهَنِي كَلْبًا وَلَسْتُ بِفَوْقِهِ ** ولا دونَهُ إن كانَ غيرَ قَلِيلِ)

وقال أبو ذباب السعدي في هوان الكلب : (لِكِسْرَى كانَ أَعْقَلَ من تَمِيمٍ ** لِيَالِي فَرٌّ من أَرْضِ الصَّبَابِ) (وأَسْكَنَ أَهْلَهُ بِيَلادِ رِيفٍ ** وَأَشْجارِ وَأَهْمارِ عَذَابِ) (فصارَ بَنُو بَنِيهِ لها مُلُوكًا ** وصَرنا نَحْنُ أَمْثالَ الْكِلَابِ) (فلا رَحِمَ الإِلَهُ صَدَى تَمِيمٍ ** فَقَدْ أَرَزَى بنا في كُلِّ بابِ) وأراد اللعين هجاء جرير وجرير من بني كليب فاشتق هجاءه من نسبه فقال : (سَأَقْضِي بَيْنَ كَلْبِ بَنِي كَلِيبٍ ** وَبَيْنَ الْقَيْنِ قَيْنِ بَنِي عِقَالِ) (فَإِنَّ الْكَلْبَ مَطْعَمُهُ حَيْثُ ** وَإِنَّ الْقَيْنَ يَعْمَلُ في سَفالِ) (كَلالَ الْعَبْدِ يَنْقَدُ عِلْمَتُ مَعَدٍّ لَيْمٍ الْأَصْلِ من عَمٍّ وَخالٍ ** فما بُقِيَيا عَلَيَّ تَرَكَتُماني) وقال رجلٌ من هُمْدانٍ يقال له الصُّحَّاكُ بن سعد يهجو مَرْوان بن محمد بن مروان بن الحكم واشتقَّ له اسمًا من الكلب فجعله كلبًا فقال : (لَجَّ الْفِرارُ بِمَرْوانٍ فَقُلْتُ لَهُ ** عادَ الظُّلُومَ ظَلِيمًا هُمُهُ الْهَرَبُ) (أينَ الْفِرارُ وتَرَكْتُ الْمَلِكُ إنْ قَبِلْتُ ** مِنْكَ الْهُوَيْنَى فلا دِينَ ولا أَدْبُ)

(فَرَأَشَتُهُ الْحِلْمَ فِرْعُونَ الْعَذابِ وإنَّ ** يُطَلَّبُ نَدَاهُ فَكَلْبٌ دُونَهُ كَلْبُ) وقال آخر وجعل الكلبَ مثلاً في اللُّؤْمِ : (سَرَتْ ما سَرَتْ من لَيْلِها ثُمَّ عَرَسَتْ ** على رَجُلٍ بِالْعَرَجِ أَلَامٌ مِنْ كَلْبِ) وكذلك قول الأسود بن المنذر فإنه قال : (فَإِنَّ امْرَأًا أَنْتُمْ حَوْلَهُ ** تُخْفُونَ قُبَيْتَهُ بِالْقِيَابِ) (يُهَيِّنُ سَرَائِكُمْ جَاهِدًا ** وَيَقْتُلُكُمْ مِثْلَ قَتْلِ الْكِلَابِ) وقال سحيمة بن نعيم : (أَلَسْتُ كَلِيبًا لَكَلْبٍ وَكَلِيبَةٍ ** لها عِنْدَ أَطْنابِ الْبُيُوتِ هَرِيرُ) وقال التَّجْرانيُّ في ذلك : (مِنْ مَنْزِلِي قَدْ أَخْرَجْتَنِي زَوْجَتِي ** قَهْرُ فِي وَجْهِ هَرِيرِ الْكَلْبَةِ) (أُمُّ هِلَالٍ أَبْشَرِي بِالْحَسْرَةِ ** وَأَبْشَرِي مِنْكَ بِقُرْبِ الضَّرَّةِ)

الفلحس والأرشم

ويقال للكلب فلحس وهو من صفات الحرص والإلحاح ويقال : فلان أسأل من فلحس وفلحس : رجل من بني شيبان كان حريصاً رغبياً ومُلِحِفاً مُلِحِحاً وكلُّ طُفَيْليٍّ فهو عندهم فَلَحَسٌ .
والأرشم : الكلب والذئب وقد اشتقَّ منه للإنسان إذا كان يتشمَّم الطعام ويتبع مواضعه قال جرير في بعضهم :

(لَقِيَ حَمَلَتُهُ أُمَّهُ وَهِيَ صَيْفَةٌ ** فَجاءَتْ بَيْنَتِي لِلصَّيْفَةِ أَرْشَمًا) وقال جريرٌ في استِرواحِ الطعامِ : (وَبَنُو الْمُحْجِمِ سَخِيفَةٌ أَحْلَامُهُمْ ** تُطُّ اللَّحَى مُتَشابَهُو الْأَلْوَانِ) (لو يَسْمَعُونَ بِأَكْلَةٍ أو شَرِبَةٍ ** بَعْمَانُ أَضْحَى جَمْعُهُمْ بَعْمَانِ) (مُتَابِطِينَ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ ** صُعُرَ الْخُدُودِ لَرِيحِ كُلِّ دُخَانِ) وقال سَهْمُ بن حَنْظَلَةَ الْغَنَوِيُّ في ذلك : (وَأَمَّا كِلابٌ فَمِثْلُ الْكِلا ** ب لا يُحْسِنُ الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرًا) (وَأَمَّا هِلَالٌ فَعِطَارَةٌ ** تَبِيعَ كِبَاءَ وَعِطْرًا كَثِيرًا)

بين جرير والراعي

ومرّ جرير يوماً بالمربد فوقف عليه الراعي وابنه جندل فقال له ابنه جندل : إنّه قد طال وقوفك على هذا الكلب الكلبيّ فإلى متى وضرب بغلته فمضى الراعي وابنه جندل فقال جرير : والله لأثقلنّ

رواحلك فلما أمسى أخذ في هجائه فلم يأت ما يريد فلما كان مع الصبح انفتح له القول فقال : (فغصّ الطرف إنك من نمير ** فلا كعباً بلغت ولا كلاباً) (ولو جعلت فقاح بني نمير ** على خبث الحديد إذا لذاب) ثم وقف في موقفه فلما مرّ به جندل قبض على عنان فرسه فأنشده قوله حتى إذا بلغ إلى هذا البيت : (أجندل ما تقول بنو نمير ** إذا ما الأير في است أيك غابا) قال : فأدبر وهو يقول : يقولون والله شرّاً . وقال الشاعر وضرب بالكلب المثل في قبح الوجه : وضبار : اسم كلب له . أمثال في الكلاب وقال كعب الأحبار لرجل وأراد سفراً : إنّ لكل رفقة كلباً فلا تكن كلب أصحابك . وتقول العرب : أحبّ أهلي إليّ كلبهم الطاعن ومن الأمثال وقع الكلب على الذئب ليأخذ منه مثل ما أخذ ومن أمثالهم :

الكلاب على البقر ومن أمثالهم في الشؤم قولهم : على أهلها دلت براقش وبراقش : كلبه قوم نبحت على جيش مرواً ليلاً وهم لا يشعرون بالحي فاستباحوهم واستدلوا على مواضعهم بنباحها . قال الشاعر : (ألم تر أنّ سيّد آل ثور ** نبأته عضه كلب فماتا)

قتيل الكيش وقيل العنز

وقال صاحب الكلب : قد يموت الناس بكلّ شيء وقد قال عبد الملك بن مروان : ألا تعجبون من الضحّاك بن قيس يطلب الخلافة ونطح أباه كبش فوجد ليس به حبص ولا نبض وقال عرفة بن شريك يهجو أسلم بن زُرعة ووطئت أباه عنز بالمربد فمات فقال : (فيما ابن قيل العنز هل أنت ثائر ** بزُرعة تيساً في الزريرة أزما) وقال أبو الهول يهجو جعفر بن يحيى : (أصبحت محتاجاً إلى الضرب ** في طلب العرف إلى الكلب)

(قد وقح السب له وجهه ** فصار لا ينحاش للسب) (إذا شكاً صب إليه الهوى ** قال له مالي وللصب) (أعني فتى يطعن في دينه ** يشب معه خشب الصلب) قال : وقلت لأبي عبيدة : أليس بقع الكلاب أمثالها قال : لا قلت : ولم قال : (وخفت هجاءهم لما تَوَاصَوْا ** كخوف الذئب من بقع الكلاب) قال : ليس هكذا قال إنما قال : خوف الذئب من سود الكلاب ألا ترى أنّه حين أراد الهجاء قال : (كأنك بالبارك بعد شهر ** تخوض غموره بقع الكلاب) ويدل على ذلك قول الجدي : (لعمري لجو من جواء سويقة ** أسافله ميث وأعلاه أجزع) (من الجوسق الملعون بالرّي لا يني ** على رأسه داعي المنية يلمع) (يقولون لي صبراً فقلت : لطالما ** صبرت ولكن لا أرى الصبر ينفع)

(فليت عطائي كان قَسَمَ بَيْنَهُمْ ** وكان لي الصَّمَان والحَزْنُ أَجْمَعُ) (وكان لهم أَجْرِي هِنِيئاً وأصبحتُ **
 بي البازلُ الكُوماء بالرمْل تَصْنَعُ) (أَأَجْعَلُ نَفْسِي عِدْلَ عِلْجٍ كَأَنَّمَا ** يموتُ به كَلْبٌ إِذَا مَاتَ أَبْقَعُ)
 قال : فقد بَيَّن كما ترى أَنَّ الأَبْقَعَ شَرُّهَا قال : وقلت : فلم قال الشاعر : (أرسلتَ أَسْداً على بُقْعِ
 الكلابِ فقد ** أَمسى شَرِيذُهُمْ في الأَرْضِ فُلَالاً) قال : فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم وإذا صَغُرَ شَأْنُ
 من هَزَمُوا فقد صَغُرَ شَأْنُ الممدوح بل إِنَّمَا قال : أرسلتَ أَسْداً على سودِ الكلابِ .
 قال : وإِنَّمَا جاء الحديثُ في قتلِ سُدودِ الكلابِ لأنَّ عَقْرَهَا أَكْثَرُ ما تكون سوداً وذلك من غَلَبَةِ أنفُسِهَا .
 وليس في الأَرْضِ حيوانٌ من بقرَةٍ وثورٍ وحمارٍ وفرسٍ وكلبٍ وإنسانٍ إلَّا والسُّودُ أَشَدُّهَا أَسْراً وَعَصَباً
 وأظهرها قُوَّةً وصَبْراً .

(يا ثَابِتَ بنِ أَبِي سَعِيدٍ إِنَّهَا ** ذُولٌ وأُخْرٍ بِهَا بَأْنُ تَنْقَلَا) (هَلَّا جعلتَ لها كَحُرْمَةِ دِعْبِلٍ ** في استِ أُمِّ
 كَلْبٍ لا يساوي دِعْبِلًا) وقال ابن نوفل : (وجئتَ على قَصْوَاءَ تنقلُ سَوْدَةً ** إلينا وكم من سَوْدَةٍ لا
 تَهَابُهَا) (وترعَمُ أَن لَمْ تَخْرُ سَلَمُ بنُ جَنْدَلٍ ** وقد خَزَيْتَ بعدَ الرِّجالِ كَلابُهَا) وقال الحسن بن هانئ يهجو
 جعفر بن يحيى : (قفًّا خلف وجهه قد أَطِيلُ كَأَنَّهُ ** قفا مالك يقضي المموم على بَقِ) (وأعظمُ زهواً من
 ذبابٍ على خِرٍّ ** وأَجْلُ من كَلْبٍ عَقُورٍ على عَرَقٍ) وقال أبو الشَّمَمَقِ : (أَهلُ جودٍ ونائلٍ وفَعَالٍ **
 غَلَبُوا الناسَ بالثَّدَى والعَطِيَّةِ) (جَنَّتُهُ زائراً فادْنَى مَكَاني ** وتلقَى بِمَرْحَبٍ وَتَحِيَّةٍ) (لا كِمِثْلِ الأَصَمِّ حارِثَةُ
 اللُّؤْ ** م شَبِيهِ الكَلْبِيَّةِ القَلْطِيَّةِ) (جَنَّتُهُ زائراً فَأَعْرَضَ عَنِّي ** مثلَ إِعْراضِ قَحْبَةٍ سُوْسِيَّةٍ) (وتولَّى كَأَنَّهُ
 أيرِ بَغِلٍ ** غابَ في دُبُرِ بَغْلَةٍ مِصْرِيَّةٍ) (أَلَا قُولاً لِسِرَّانِ المِخْازِي ** ووجهِ الكَلْبِ والتَّيسِ الضُّرُوطِ)

(له بطنٌ يَضِلُّ الفيلُ فيه ** ودُبُرٌ مثلُ رَاقُودِ النَّشُوطِ) (وأَيُّ عارِمٍ لا خَيْرَ فيه ** كدُورِ سَفِينَةٍ في بَقِ
 رُوطِ) (ولحِيَّةٌ حائِكٌ من بابِ قلبٍ ** مُوصَلَةٌ الجِوانِبِ بالخُيُوطِ) (له وجهٌ عليه الفَقْرُ بادٍ ** مُرَقَّةٌ
 جِوانِبُهُ يَقُوطِ) (إِذَا نَهَضَ الكِرَامُ إِلَى المَعَالِي ** تَرَى سِرَّانَ يَسْفُلُ في هُيُوطِ) وقال أيضاً في ذلك : من
 البسيط (يا رازِقَ الكَلْبِ والخَنْزِيرِ في سَعَةٍ ** والطيرِ والوَحْشِ في يَهْمَاءَ دَوِيَّةٍ) (لو شئتَ صَيَّرْتَهُ في حالِ
 فاقته ** حتى تُفَرِّقَ بَتْلَكَ الحَالِ عَيْنِيهِ) وقال جرير بن عطية يهجو الصَّلَتانِ العبدِيَّ : (أقولُ لها والدَّمْعُ
 يغسلُ كُحْلَهَا ** متى كان حَكْمُ اللَّهِ في كَرَبِ النَخْلِ) فأجابه الصَّلَتانُ فقال : (تُعَيِّرُنا أَنَّ كانتِ النَّخْلُ
 مالِنا ** وودَّ أبوك الكَلْبُ لو كان ذا نَخْلٍ) يعيِّره جريرُ بأنَّه كان هو وأبوه من أصحابِ النَّخْلِ .

وقال وضاح اليمَن : (وأَكْتَمَ السَّرَّ غَضَباناً وفي سَكْرِي ** حتى يكونَ له وَجْهٌ ومُسْتَمِعٌ) (وأَتْرَكُ القَوْلُ
 عن عِلْمٍ ومَقْدَرَةٍ ** حتى يكونَ لَذاكَ النَّجْدُ مُطْلَعٌ) (لا قُوَّةَ قُوَّةِ الرَّاعِي رِكائِبُهُ ** يَبِيتُ ياوِي إِيْلِهِ
 الكَلْبِ والرُّبْعِ) (ولا العَسِيفِ الَّذِي تَشْتَدُّ عُقْبَتُهُ ** حَتَّى يَثُوبَ وباقِي نَعْلِهِ قُطْعُ) وقال محمد بن عباد
 الكاتب مولي بحيلة وأبوه من سبي دابق وكاتب زهير وصديق ثمامة يهجو أبا سعد دعي بني مخزوم وبعد أن
 لقي منه ما لقي : (فَعَلَتْ نِزارُ بك الَّذِي اس ** تَأَهَّلَتْهُ نَفِيّاً وَضَرْباً) (فَهَجَوْتَ قَحْطاناً لَأَه ** جُوهَمُ
 مَكايِدَةً وإِرْباً) (وأردتَ كَيْما تَشْتَفِي ** بِهَجائِهِمُ مِنْهُمْ فَتَرَبّاً) (ووثقتُ أَنَّكَ ما سَبِ ** تَ حَمَاكَ لَوْمُكَ

أَن تُسَبَّأَ) (كالكلب إن ينيح فلي ** س جوابه إلاَّ اخسَ كَلْبًا) (خَفَضَ عليك وقرَ مكا ** نك لا تطفُ شرقاً وغرباً) (واكشِفُ قِنَاعَ أبيك فال ** آباءُ ليس تُنال غصْباً)

وقال آخر يصف كلباً : (ومُبْدِي الشَّحْنَاءِ بيبي وبينه ** دعوتُ وقد طال السُّرى فدعاني) فوصفه كما ترى أنَّه يبيدي له البغضاء .

وقال آخر : (سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ثم عَرَسَتْ ** عَلَى رَجُلٍ بِالْعَرَجِ الْأَمِّ من كَلْبٍ) وقال راشد بن شهاب اليشكريُّ : (فلستُ إذا هَبَّتْ شَمَالُ عَرِيَّةٍ ** بَكَلْبٍ عَلَى لحمِ الْجَزُورِ ولا بَرَمٍ) وقال كثير بن عبد الرحمن وهو يصف نعلًا من نعال الكرام : (إذا طُرِحَتْ لم يَطْبُ الكلبَ رِيحُها ** وإن وُضِعَتْ في مجلسِ الْقَوْمِ شُمَّتِ) وقال اللعين في بعض أضيافه يخبر أنَّه قراه لحمَ كلبٍ وقد قال ابنُ الأعرابي : إنَّما وصف تيساً : فقلتُ لِعَبْدِي اقْتُلَا داءَ بطنه وأعفاجه اللائي هُنَّ زوائدُ (فجاءَ ابْنُ خَرِشَاوِي شَعِيرَ عليهما ** كَرَادِيسُ من أوصالٍ أَعْقَدَ سَافِدٍ) وقال خُلَيْدُ عَيْنٍ وهو يهجو جريز بن عطية ويردُّ عليه : (وعيِّرَنا بالنخل أن كان مالنا ** وودَّ أبوك الكلب لو كان ذا نخل)

وقال دَعْبِل بن عليٍّ : (ولو يشربُ الماءَ أهلُ العفا ** ف لما نال من مائهم شَرِبَهُ) (ولكِنَّه رزقُ مَنْ رَزَقَهُ ** يعمُّ به الكلبُ والكلبةُ) (من هُجِيَ بِأَكْلِ حُومِ الْكِلَابِ ولُحُومِ النَّاسِ) قال سالم بن دارة الغطفاني : (يافْقَعَسِي لَمْ أَكَلْتَهُ لِمَهُ ** لو خافَكَ اللَّهُ عليه حرَّمَهُ) فما أَكَلَتْ لحمَهُ ولا دَمَهُ وقال الفرزدق في ذلك : (إذا أسديُّ جاع يوماً ببلدٍ ** وكان سميناً كلبه فهو آكله) وقال مساور بن هند : (إذا أسديَّةٌ ولدتْ غَلاماً ** فبشَّرها بلؤمٍ في الغلامِ) (يخْرِسُها نساءُ بني دُبَيْرٍ ** بأخبثِ ما يجدن من الطَّعامِ) (ترى أظفارَ أَعْقَدِ مُلَقِيَّاتٍ ** برائثُها . على وَضَمِ الثُّمَامِ) فهذا الشعر وما أشبهه يدلُّ على أنَّ اللعين إنَّما قراهم كلباً ولم يقرِّهم تيساً وأنَّ الصوابَ خلافُ وقال مُساوِر بن هند أيضاً : (بني أسدٍ أن تُمحل العامَ فْقَعَسَ ** فهذا إذن دَهْرُ الْكِلَابِ وعامُها)

وقال شريح بن أوس يهجو أبا المهوش الأسدي : (وعيِّرَنا قمرَ العراقِ وبُورِهِ ** وزادُك أيرَ الكَلْبِ شَيْطَهُ الجُمُرِ)

أَكَلَ حُومِ النَّاسِ

وما قيل في ذلك من شعر

وقال معروفُ الدُّبَيْرِيِّ في أَكْلِهِمْ حُومَ النَّاسِ : (إذا ما ضِفَتْ يوماً فقعسياً ** فلا تَطْعَمَ له أبداً طعاماً) (فإنَّ اللحمَ إنسانٌ فدَعَهُ ** وخيرُ الرِّادِ ما مَنَعَ الحراما) وقد هُجِيَ هذيلٌ وأسدٌ وبلعْبَرٌ وباهلةٌ بِأَكْلِ حُومِ النَّاسِ قال حسَّان بن ثابت يذكر هذيلاً : (إن سَرَّكَ الغَدْرُ صِرْفاً لا مِزاجَ له ** فأتِ الرَجِيعَ وسل عن دارِ

لِحَيَّانٍ (قَوْمٌ تَوَاصَوْا بِأَكْلِ الْجَارِ بَيْنَهُمْ ** فَالْكَلْبُ وَالشَّاةُ وَالْإِنْسَانُ سَيَّانٍ) وقال الشاعر في مثل ذلك في هذيل : (تَدَاعَوْا لَهُ مِنْ بَيْنِ خَمْسٍ وَأَرْبَعٍ ** وَقَدْ نَصَلَ الْأُظْفَارُ وَانْسَبَا الْجِلْدُ)

(وَرَفَعْتُمْ جُرْدَانَهُ لِرَئِيسِكُمْ ** مُعَاوِيَةَ الْفُلَحَاءِ يَالِكَ مَا شَكَّدِ) وقال الشاعر في ذلك في باهلة : (إِنَّ غَفَاقًا أَكَلَتْهُ بَاهِلُهُ ** تَمَشَّشُوا عِظَامَهُ وَكَاهَلَهُ) وَأَصْبَحَتْ أُمُّ غَفَاقٍ تَأْكُلُهُ وَهَجَا شَاعِرٌ آخَرَ بَلْعَبَرٍ وَهُوَ يَرِيدُ ثَوْبَ بَنِ شَحْمَةَ وَكَانَ شَرِيفًا وَكَانَ يُقَالُ لَهُ مَجِيرُ الطَّيْرِ فَأَمَّا مَجِيرُ الْجُرَادِ فَهُوَ مَدْلَجُ بَنِ سُويْدٍ بَنِ مَرْشَدٍ بَنِ خَيْرِي فَعَبَّرَ الشَّاعِرُ ثَوْبَ بَنِ شَحْمَةَ بِأَكْلِ الرَّجُلِ الْعَبْرِيِّ لَحْمَ الْمَرْأَةِ إِلَى أَنْ أَتَى ثَوْبٌ مِنَ الْجَبَلِ فَقَالَ : (عَجَلْتُمْ مَا صَادَكُمْ عِلَاجٌ ** مِنَ الْعُنُوقِ وَمِنَ النَّعَاجِ) حَتَّى أَكَلْتُمْ طِفْلَةً كَالْعَاجِ فَلَمَّا عَيَّرَهُ قَالَ ثَوْبٌ : (يَا بَنَتَ عَمِّي مَا أَدْرَاكِ مَا حَسْبِي ** إِذْ لَا تَجْنُ حَيْثُ الزَّادُ أَضْلَاعِي) (إِنِّي لَذُو مِرَّةٍ تُخْشَى بَوَادِرُهُ ** عِنْدَ الصَّبَاحِ بِنَصْلِ السَّيْفِ قِرَاعِ) وَمِنْ ظَرِيفِ الشَّعْرِ قَوْلُ أَبِي عَدْنَانَ :

(فَمَا كَلْبَةُ سُودَاءٍ تَقْرَى بِنَاجِيَا ** عِرَاقًا مِنَ الْمَوْتِ مَرَارَ وَتَكْدَمُ) (أُتِيحَ لَهَا كَلْبٌ فَضَنَّتْ بَعْرِقَهَا ** فَهَارَشَهَا وَهِيَ عَلَى الْعَرَقِ تَعْدِمُ) فَقَفَّ عَلَى هَذَا الشَّعْرِ فَإِنَّهُ مِنْ أَعَاجِيبِ الدُّنْيَا .
وَقَالَ سُنَيْحُ بْنُ رَبَاحٍ شَارَ الزُّنْحِي : (مَا بَالُ كَلْبِ بَنِي كَلِيبٍ سَبَّحْنَا ** أَنْ لَمْ يُوَازِنْ حَاجِبًا وَعِقَالًا)

قتيل الكلاب

وَتَنَازَعَ مَالِكُ بْنُ مِسْمَعٍ وَشَقِيقُ بْنُ ثَوْرٍ فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ : إِنَّمَا رَفَعَكَ قَبْرٌ بُسِّتَ فَقَالَ شَقِيقٌ : حِينَ وَضَعَكَ قَبْرٌ بِالْمَشْقَرِ يَا ابْنَ قَتِيلِ النِّسَاءِ وَقَتِيلِ الْكِلَابِ .
قَالَ : وَكَانَ يُقَالُ لِمِسْمَعِ بْنِ شَيْبَانَ قَتِيلُ الْكِلَابِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَجَأَ فِي الرَّدَةِ إِلَى قَوْمٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ فَكَانَ كُلُّهُمْ يَنْبَحُ عَلَيْهِ فَخَافَ أَنْ يَدُلَّ عَلَى مَكَانِهِ فَقَتَلَهُ فَقَتِلَ بِهِ .

أمثال أخرى في الكلب

قال : والعرب تقول : أَسْرَعُ مِنْ لَحْصَةِ كَلْبٍ أَنْفُهُ وَيُقَالُ :

أَحْرَصُ مِنْ لَعْوَةٍ وَهِيَ الْكَلْبَةُ وَجَمْعُهَا لِعَاءٌ وَفِي الْمَثَلِ : أَلَامُ مِنْ كَلْبٍ عَلَى عَرَقٍ وَنَعِمَ كَلْبٌ فِي بؤْسِ أَهْلِهِ وَفِي الْمَثَلِ : اصْنَعِ الْمَعْرُوفَ وَلَوْ مَعَ الْكَلْبِ .

وقال ابن سيرين : الْكَلْبُ فِي النَّوْمِ رَجُلٌ فَاحِشٌ فَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ فَهُوَ عَرَبِيٌّ وَإِنْ كَانَ أَبْيَضَ فَهُوَ عَجَمِيٌّ .
وقال الأصمعي عن حماد بن سلمة عن ابن أخْتِ أَبِي بَلَالٍ مِرْدَاسٍ بَنِ أُدْيَةَ قَالَ : رَأَيْتُ أَبَا بَلَالٍ فِي النَّوْمِ كَلْبًا تَنْزِفُ عَيْنَاهُ وَقَالَ : إِنَّا حَوْلْنَا بَعْدَكُمْ كِلَابًا مِنَ النَّارِ .

قال : وَلَمَّا خَرَجَ شَمِيرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ الضَّبَابِي لِقِتَالِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا فَرَأَى الْحُسَيْنُ فِيمَا يَرَى النَّائِمَ أَنَّ كَلْبًا أَبْقَعَ يَلْعُغُ فِي دِمَائِهِمْ فَأَوَّلَ ذَلِكَ أَنْ يَقْتُلَهُمْ شَمِيرُ بْنُ ذِي الْجَوْشَنِ وَكَانَ مُنْسَلَخًا بَرَصًا

قال : والمسلمون كلهم يسمون الخوارج : كلاب النار .

شعر في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان ليس بينها الكلب وقال صاحب الديك : صاحب الكلب يصفه بالسرعة في الحضر وبالصبر على طول العدو وبسعة الإهاب وأنه إذا عدا ضبع وبسط يديه ورجليه حتى لمس قصصه الأرض وحتى يشرط أذنيه بشبّا أظفاره وأنه لا يحتشي ريحاً مع ما يصيب الكلاب من اللّهث فإن كان كما تقولون فلم وصف الشعراء الفرس وشبهته بضروب من الخلق وكذلك الأعضاء وغير ذلك من أمره وتركوا الكلب في المنسأ لا يلتفت أحد لفته (عن لسان كجثة الورل الأح * مر مع الندى عليه العراء) ولم يذكره في شيء وقال خالد بن عجرة الكلبي : (كأن لسانه ورل عليه * بدار مضية مع العراء) وقال امرؤ القيس : (وخذ أسيل كالمسن وبركة * كجوجو هيق دفه قد تمورا) ولم يذكره في شيء وقال عتبة بن سابق : (عريض الحد والجلب * هة والصهوة والجلب) ولم يذكره في شيء وقال امرؤ القيس : (وسامعتان تعرف العتق فيهما * كسامعتي مذعورة وسط ربرب)

ولم يذكره في شيء من ذلك وقال عتبة بن سابق : (ولها بركة كجوجو هيق * ولبان مضرج بالخصاب) ولم يذكره في شيء وقال خفاف بن ندبة : (عبل الذراعين سليم الشظا * كالسيد يوم القرّة الصارد) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال امرؤ القيس : ولم يذكره في شيء من ذلك وقال عتبة بن سابق : (وأرساغ كأعناق * طباء أربع غلب) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال الجعدي : (كأن تماثيل أرساغه * رقاب وعود لدى مشرب) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال امرؤ القيس : (لها متنتان خطاتا كما * أكب على ساعديه الثمر) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال أبو ذؤاد :

(يمشي كمشي نعمتين * ثنابان أشق شاخص) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال ابن الصعق : (بمحنب مثل العقاب * ب تحاله للضمير قدحا) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال ربيعة بن جشم النمري ويروي لامرؤ القيس : (وساقان كعابهما أصمعا * ن لحم حماتيهما منبت) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري : (كأن حماتيهما أربان * تقبصتا خيفة الأجل) (كأن حماتيهما كردوس فحل * مقلصة على ساقى ظليم) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال الأعشى : (أما إذا استقبلته فكأنه * جذع سما فوق النخيل مشذب) (وإذا تصفحه الفوارس معرضاً * فتقول سرحان الغضا المنصوب) (أما إذا استدبرته فتسوقه * ساق يهملها وظيف أحذب)

منه وجاعرة كأن حماها * لما كشفت الجل عنه أرنب) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال الأسعر الجعفي : (أما إذا استقبلته فكأنه * باز يكفكف أن يطير وقد رأى) (أما إذا استعرضته متمطراً * فقول هذا مثل سرحان الغضا) (أما إذا استدبرته فتسوقه * ساق قوموص الوقع عارية النسا) ولم يذكره في شيء وقال

أبو داؤد : (السيد ما استقبلته وإذا ** ولي تقول مُلَمَلَمَ ضَرْبُ) (لَأَمَّ إذا استعرضته ومشى ** متتابعاً ما خائنه عَقْبُ) (يمشي كمشي نعامه تبع ** أخرى إذا هي راعها خطبُ) (له أَيْطَلًا ظبي وساقاً نعامه ** وإرخاء سرحان وتقريبُ تَنُفُّلِ) ولم يذكره في شيء من ذلك وقال ابن سنان العبدى : (أما إذا ما أقبلت فُمطارة ** كالجدع شذبه نفى المنجلِ) (أما إذا ما أعرضت فنبيلة ** ضخم مكان حزامها والمركلِ) (أما إذا تشتد فهي نعامه ** تنفي سناكبها صلاب الجنلِ) قول أبي عبيدة في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان قال أبو عبيدة : وما يشبه خلقه من خلق النعام طول وظيفها وقصر

ساقها وعري نسيها وما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها وما يشبه من خلقه خلق الحمار الوحشي غلظ لحمه)

وظماً فصوصه وسرايته وتمحص عصبه وتمكن أرساغه وعرض صهوته .
قال صاحب الكلب : قد قال أبو عبيدة : إنَّ ما يشبه من خلقه خلق الكلب هرت شدقه وطول لسانه وكثرة ريقه والحدار قصه وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورُحْب جلده ولحوق بطنه وقال طفيل الغنوي يصف الخيل : (تباري مَراخيها الزجاج كأنها ** ضراءُ أحسَّتْ نبأً من مكَلِّبِ) وقال طفيل أيضاً : وقال صاحب الديك : وأين يقع البيتُ والبيتان والثلاثة من جميع أشعار العرب وقال صاحب الكلب : لعلنا إن تتبنا ذلك وجدناه كثيراً ولكنك تقدّمت في أمر ولم تُشعر بالذي تعني فنلتقط من الجميع أكثر مما النقط والإنسان شريف الأعضاء وقد تشبه مواضع منه مواضع من الفرس العتيق وما حضرنا من الأشعار إلا قوله :

(وترى الكميّة أمامه ** وكأنه رجلٌ مُغاصِبُ) وقال الشاعر في ذلك : (خوصٌ تَرَاخَ إلى الصراخ إذا غدت ** ففعل الضراء تَرَاخَ للكلابِ) وقد شبهوا بالكلب كل شيء وكان اسم فرس عامر بن الطفيل الكلب والمزنوق والورد .

شعر في وصف الناقة

قال صاحب الديك : قد قال أوس بن حجر ووصف الناقة ونشاطها والذي يهيجها فقال : (كأنَّ هراً جَنِيّاً عند مَعْرِضِها ** والنفَّ ديكٌ برجليها وخنزيرُ) فهلاً قال : والنفَّ كلبٌ كما قال : والنفَّ ديكُ وقال أبو حية : وقال الأعشى : (بجلالة سُرُحٍ كأنَّ بدفها ** هراً إذا انتعل المطيُّ ظلالها) وقال عنترة بن شدّاد العبسي : (وكأنما ينأى بجانب دَفِّها الـ ** وحشيٌّ من هزج العشي مؤوِّمِ)

(هُرٌّ جَبِيْبٌ كلِّما عطفتْ له ** غَضَبِي اتقاها باليدين وبالفمِ) وقال المثقَّب العبدى : (فسلاً لهمَّ عنك بذاتِ لَوْثٍ ** عَذافرة كَمَطْرِقة القُيُونِ) (بصادقة الوحيف كأنَّ هراً ** يُباريها ويأخذ بالوَصِينِ) قال صاحب الكلب : إنما يذكرون في هذا الباب السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار كما ذكر الهُرَّ وابن آوى والكلبُ ليس يوصف بالمخالب وليس أنَّ الهُرَّ أقوى منه ألا ترى أوس بن حجر قال في ذلك : كأنَّ

هراً جَنِيْباً عِنْدَ مَغْرَضِهَا فَذَكَرَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يُوصَفُ بِالْخَلْبِ وَالْخَدَشِ وَالْخَمَشِ وَالتَّظْفِيرِ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَفْرَغَهَا وَيَتَوَرَّهَا حَتَّى تَذْهَبَ جَافِلَةً فِي وَجْهِهَا أَوْ نَادَّةً أَوْ كَأَنَّهَا مَجْنُونَةٌ مِنْ حَاقِ الْمَرْحِ وَالنَّشَاطِ قَالَ : وَقَالَ أَبُو النِّجَمِ : (لَوْ جُرَّ شَنْ وَسَطُهَا لَمْ تَخْفَلِ * مِنْ شَهْوَةِ الْمَاءِ وَرَزَّ مَعْضَلُ) وَلَوْ قَالَ أَوْس :

وَالنَّفَّ شَنْ بَرَجْلِيهَا وَخَنْزِيرٍ لَكَانَ جَائِزاً لَوْلَا يُنْسُ الشَّنُّ وَقُحُولُهُ وَأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يَلْتَوِي عَلَى رَجْلِيهَا وَقَالَ آخَرُ : (كَأَنَّ ابْنَ آوَى مُوْتَقٌّ تَحْتَ غَرْزِهَا * إِذَا هُوَ لَمْ يَكْلَمْ بِنَائِيهِ ظَفَرًا) وَقَالَ صَاحِبُ الدِّيكِ : حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَا يَجِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُعْطِيَ عَطِيَّةً وَيَرْجِعَ فِيهَا إِلَّا الْوَالِدَ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ وَمِثْلَ الَّذِي يُعْطِي الْعَطِيَّةَ ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا كَمِثْلِ الْكَلْبِ يَأْكُلُ حَتَّى إِذَا شَبِعَ قَاءً ثُمَّ عَادَ فِي قَيْئِهِ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا يَرْجِعُ فِي هَيْبَتِهِ إِلَّا الْوَالِدُ مِنْ وَلَدِهِ وَالْعَائِدُ فِي هَيْبَتِهِ كَالْعَائِدِ فِي قَيْئِهِ .

وَعَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَمَرَ بِقَتْلِ الْكَلْبِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ : وَكَانَتْ أُمِّي تَحْتَ أَبِي بَكْرٍ وَكَانَ جَرَّوْ لِي تَحْتَ سَرِيرِهِ فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَتِ وَكَلْبِي أَيْضاً فَقَالَ : لَا تَقْتُلُوا كَلْبَ ابْنِي ثُمَّ أَشَارَ بِإصْبَعِهِ إِلَى الْكَلْبِ أَيَّ خَذَوهُ مِنْ تَحْتِ السَّرِيرِ وَأَنَا لَا أَدْرِي فَقَتَلَ . وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةٍ قَالَ : أُمْتَانِ مِنَ الْجَنِّ مُسَخَّنَا وَهُمَا الْكِلَابُ وَالْحَيَّاتُ . ابْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ : إِذَا عَرَفَ الرَّجُلُ قَلْبَ نَفْسِهِ صَارَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَذَلَّ مِنَ الْكَلْبِ .

لُؤْمُ الْكَلْبِ

قَالَ صَاحِبُ الدِّيكِ وَذَكَرَ الْكَلْبَ فَقَالَ : مِنْ لُؤْمِهِ أَنَّهُ إِذَا أَسْمَنَتْهُ أَكَلَتْكَ وَإِنْ أَجْعَلْتَهُ أَنْكَرَكَ وَمِنْ لُؤْمِهِ اتِّبَاعُهُ لِمَنْ أَهَانَهُ وَإِلْفُهُ لِمَنْ أَجَاعَهُ لِأَنَّهُ أَجْهَلُ مَنْ أَنْ يَأْنِسَ بِمَا يَأْنِسُ بِهِ وَأَشْرَهُ وَأَنَّهُمْ وَأَحْرَصُ وَأَلْجُ مَنْ أَنْ يَذْهَبَ بِمَطْمَعَتِهِ مَا يَذْهَبُ بِمَطَامِعِ السَّبَاعِ .

وَمِنْ جَهْلِهِ أَيْضاً أَنَّهُ لَمْ يَجِدْهُ يَحْرُسُ أَحْسَنِينَ إِلَيْهِ بِنَبَاحِهِ وَأَرْبَابَهُ الَّذِينَ رَبَّوْهُ وَتَبَنُّوْهُ إِلَّا كَحِرَاسَتِهِ لِمَنْ عَرَفَهُ سَاعَةً وَاحِدَةً بَلْ لِمَنْ أَذَلَّهُ وَأَجَاعَهُ وَأَعْطَشَهُ بَلْ لَيْسَ ذَلِكَ مِنْهُ حِرَاسَةً وَإِنَّمَا هُوَ فِيهِ مِنْ فَضْلِ الْبَدَاءِ أَوْ الْفُحْشِ وَشِدَّةِ التَّحَرُّشِ وَالتَّسَرُّعِ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ فِي ذَلِكَ : (إِذَا تَخَازَرْتُ وَمَا بِي مِنْ خَزَرٍ * ثُمَّ كَسَرْتَ الْعَيْنَ مِنْ غَيْرِ عَوَرٍ) (أَبْذَى إِذَا بُؤْذِيَتْ مِنْ كَلْبٍ ذَكَرَ * أَسْوَدَ قَرَّاحٍ يُعْوِي فِي السَّحَرِ)

جَبْنُ الْكَلْبِ

وَالْكَلْبُ جَبَانٌ وَفِيهِ جَرَاءَةٌ وَلُؤْمٌ وَلَوْ كَانَ شَجَاعاً وَفِيهِ بَعْضُ التَّهَيُّبِ

كَانَ أَثْمَلُ وَمِنْ فَرَطِ الْجَبْنِ أَنَّهُ يَفْرَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَيَنْبَحُهُ .

وَالْبَرْدُونَ رَبِّمَا رَمَحَ الْبَرْدُونَ مَبْتَدَأً وَقَلَقَ وَصَهْلَ صَهِيلاً فِي اخْتِلَاطٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ قُوَّةٍ يَجِدُهَا فِي

نفسه على المرموح ولكنه يكون جباناً فإذا رأى البرذون الذي يظن أنه يعجز عنه أراه الجبن أنه واقع به فعندها يقلق وإذا قلق رَمَحَ وهذه العلة تعرض للمجنون فإن المجنون الذي تستولي عليه السوداء ربما وثب على من لا يعرفه وليس ذلك إلا لأن المرة أو همتته أنه يريد بسوء وأن الرأي أن يبدأ بالضرب وعلى مثل ذلك يرمي بنفسه في الماء والنار .

مما حدث للنظام

فأما الذي شهدت أنا من أبي إسحاق بن سيار النظام فإنا خرجنا ليلة في بعض طرقات الأبلّة وتقدّمته شيئاً وألح عليه كلبٌ من شكل كلاب الرعاء وكره أن يعدو فيغريه ويضربه وأنف أيضاً من ذلك وكان أنفاً شديداً الشكيمة أباء للهزيمة وكره أن يجلس مخافة أن يشغره عليه أو لعله أن يعضّه فيهرت ثوبه وألح عليه فلم ينله بسوء فلما جُزنا حدّه وتخلّصنا منه قال إبراهيم في كلام له كثير يعدّد خصاله المذمومة فكان آخر كلامه أن قال : إن كنت سبّع فاذهب مع السباع وعليك بالبراري والغياض وإن كنت بهيمة فاسكت عنّا سكوت البهائم)

ولا تنكر قولي وحياتي عنه بقول ملحون من قولي : إن كنت سبّع ولم أقل إن كنت سبعا .

إفساد الإعراب لنوادير المولدين

وأنا أقول : إنّ الإعراب يفسد نوادر المولدين كما أنّ اللحن يفسد كلام الأعراب لأنّ سامع ذلك الكلام إنّما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج وتلك اللغة وتلك العادة فإذا دخلت على هذا الأمر الذي إنّما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل وحوّلته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجاسة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته .

ثم قال أبو إسحاق : إنّ أطعمه اللصّ بالنهار كسرة خبزٍ خلاه ودار حوله ليلاً فهو في هذا الوجه مرتشٍ وآكلٌ سُحت وهو مع ذلك أسمعُ الخلق صوتاً وأحقّ الخلق يقظةً ونوماً وينام النهار كله على نفس الجادة وعلى مدقّ الخوافر وفي كل سوقٍ وملتقى طريق وعلى سبيل الحمولة وقد سهر الليل كله بالصياح والصخب والتصب والتعب والغيط والغضب وبالجئيء والذهاب فيركبه من حبّ النوم

على حسب حاجته إليه فإن وطئته دابةً فأسوأ الخلق جرّعاً ولألمه لؤماً وأكثره ثباحاً وغوّاءً فإن سلم ولم تطأه دابةً ولا وطئه إنسان فليست تتم له السلامة لأنه في حال متوقّع للبليّة ومتوقّع البليّة في بليّة فإن لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالاً منه لأنه أسوأهم جرّعاً وأقلهم صبراً ولأنّه الجاني ذلك على نفسه وقد كانت الطرق الخالية له معرضة وأصول الحيطان مباحة .

وبعد فإن كلّ خلقٍ فارق أخلاق الناس فإنه مذموم والناس ينامون بالليل الذي جعله الله تعالى سكناً

وينتشرون بالتَّهَار الذي جعله الله تعالى لحاجات الناس مَسْرَحاً .

قال صاحب الكلب : لو شئنا أن نقول : إنَّ سهره بالليل ونومه بالنهار خَصْلَةٌ ملوكيَّة لقنا ولو كان خلاف ذلك أَلَدَ لكانت الملوك بذلك أولى وأَمَّا الذي أشرتم به من النوم في الطرق الخالية وعبثتموه به من نومه على شوارع الطُّرُق والسَّككِ العامرة وفي الأسواق الجامعة فكلُّ امرئٍ أعلم بِشأنه ولولا أنَّ الكلبَ يعلم ما يلقى من الأحداث والسُّفهاء وصبيان الكتَّاب من رضِّ عظامه بألواحهم إذا وجدوه نائماً في طريق خال ليس بحضرته رجالٌ يُهابون ومشِيخةٌ يرحمون ويزجرون السفهاء وأنَّ ذلك لا يعتريه في مجامع الأسواق لَقَلَّ خلافه عليك ولما رقد في الأسواق وعلى أنَّ هذا الخُلُق إنَّما يعترى كلاب الحُرَّاس وهي

التي في الأسواق مأواها (

وبعد فمن أخطأ وأظلم مَن يكلف السباع أخلاقَ الناس وعادات البهائم وقد علمنا أنَّ سباع الأرض عن آخرها إنَّما تهيج وتسرح وتلتمس المعيشة وتتلاقى على السفاد والعظام ليلاً لأنها تبصر بالليل .

سبب اختيار الليل للنوم

وإنما نام الناس بالليل عن حوائجهم لأنَّ التمييز والفصيل والتَّيْن لا يمكنهم إلاَّ نهاراً وليس للمتعب المتحرِّك بدٌّ من سكون يكون جَماماً له ولولا صرفُهم التماسَ الجَمَام إلى الوقت الذي لو لم يناموا فيه والوقت مانع من التمييز والتَّيْن لكانت الطبائع تنقض فجعَلوا التَّوَم بالليل لضربين : أحدهما لأنَّ الليلَ إذ كان من طبعه البرد والرُّكود والخُتُورة كان ذلك أنزَعَ إلى النوم وما دعا إليه لأَنَّهُ من شكله وأَمَّا الوجه الآخر فلأنَّ الليلَ موحِشٌ مُخَوِّف الجوانب من الهوامِّ والسباع ولأنَّ الأشياء المبتاعة والحاجات إلى تمييز الدنانير والدراهم والحبوب والزرور والجواهر وأخلاق العطر والبرِّبهار وما لا يحصى عدده فقادتهم طبائعهم وساقطهم غرائزهم إلى وضع النوم في موضعه والانتشار

والتصرف في موضعه على ما قنَّ الله تعالى من ذلك وأحبه وأَمَّا السباع فإنَّها تنصرف وتبصر بالليل ولها أيضاً عللٌ أخرى يطول ذكرُها .

وأَمَّا ما ذكرتموه من نوم الملوك بالتَّهَار وسهرهم بالليل فإنَّ الملوك لم تجهلْ فضلَ النوم بالليل والحركة بالنهار ولكنَّ الملوك لكثرة أشغالها فضلتْ حوائجها عن مقدار النهار ولم يتسع لها فلما استعانت بالليل ولم يكن لها بدٌّ من الخلوة بالتدبير المكتوم والسرِّ المخزون وجمعت المقدارَ الفاضلَ عن اتِّساع النهار إلى المقدار الذي لا بدُّ للخلوة بالأسرار منه أخذتْ من الليل صدرًا صالحًا فلمَّا طال ذلك عليها أعانها المِران وخفَّ ذلك عليها بالدُّرْبَة .

ونلسَّ منهم ذهبوا إلى التناول من الشراب وإلى أن سَماع الصوت الحسن مما يزيد في المنة ويكون مادَّةً للقوة وعلموا أنَّ الهوامَّ إذا كانت لا تتناول الشراب ولا تتكلف السماع على هذا المعنى أن ظنَّها سيئاً وقولها

سيكثُر فَرَاوَا أَنَّ اللَّيْلَ أُسْتُرُ وَأَجْدُرُ أَن يَتَمَّ بِهِ التَّدْبِيرُ وَقَالَ الرَّاجِزُ : اللَّيْلُ أَخْفَى وَالنَّهَارُ أَفْضَحُ وَقَالُوا فِي الْمَثَلِ : اللَّيْلُ أَخْفَى لِلْوَيْلِ .

تلهي الخزون بالسماع

وما زالت ملوكُ العجم تلهي الخزون بالسماع وتعلل المريض وتشغله عن التفكير حتَّى أخذت (ذلك ملوكُ العرب عن ملوك العجم ولذلك قال ابن عسلة الشيباني : (فصحوت والنمري يحسبها * عمَّ السَّماكِ وخالة النجم) النجم : واحد وجمع وإنما يعني في البيت الثرياً ومدجنة : يعني سحابة دائمة . قول أم تأبط شراً في ولدها وفيما يحكى عن امرأة من عقلاء نساء العرب وإذا كان نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدّمة فيهم فرووا جميعاً أن أم تأبط شراً قالت : والله ما ولدته يتناً ولا سقته غيّلاً ولا أبته على مأقة . فأما اليتن فخروج رجل المولود قبل رأسه وذلك علامة سوء ودليل على الفساد وأما سقي الغيل فارتضاع لبن الحبلَى وذلك فسادٌ شديد .

ما ينبغي للأم في سياسة رضيعها حين بكائه وأما قولها في المأقة فإن الصبي يبكي بكاءً شديداً متعباً موجعاً فإذا كانت الأم جاهلةً حرّكته في المهد حركةً تورثه الدوار أو نومته بأن تضرب يدها على جنبه ومتى نام الصبي وتلك الفرعة أو اللوعة أو المكروه قائم في جوفه ولم يعلل ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسره حتى يكون نومه على سرور فيسري فيه ويعمل في طباعه ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غم فإن ذلك ممّا يعمل في الفساد والأثم الجاهلة والمرقصة الخرقاء إذا لم تعرف فرق ما بين هاتين الحالتين كثر منها ذلك الفساد وتراذف وأعان الثاني الأوّل والثالث الثاني حتّى يخرج الصبي مائقاً وفي المثل : صاحبي متق وأنا تقّ يضرب هذا المثل للمسافر الأحق الرقيق والزميل وقد استفرغه الضجر لطول السفر فقلبه ملآن فأول شيء يكون في ذلك المتق من المكروه لم يحتمله بل يفيض ضجره عليه لامتلأته من طول ما قاسى من مكروه السفر .

ما يحتاج إليه الملوك فاحتاج حُذّاق الملوك وأصحاب العنايات التأمّة أن يداووا أنفسهم بالسماع الحسن ويشدّوا من متنتهم بالشراب الذي إذا وقع في الجوف حرّك الدّم وإذا حرّك الدّم طباع السرور ثم لا يزال زائداً

في مكيال الدم زائداً في الحركة المولدة للسرور هذه صفة الملوك وعليه بنوا أمرهم جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه .

وقال صاحب الكلب : أمّا تركه الاعتراض على اللص الذي أطعمه أيّاماً وأحسن إليه مراراً (فإنما وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه وتعاهدتهم له فإذا كان عهده ببر اللص أحدث من عهده ببر

أهله لم يكلف الكلب النظر في العواقب وموازنة الأمور والذي أضمر اللص من البيات غيب قد ستر عنه وهو لا يدري أجباء ليأخذ أم جاء ليعطي أو هم أمروه أو هو المتكلف لذلك ولعل أهله أيضاً أن يكونوا قد استحقوا ذلك منه بالضرب والإجاعة والسب وأما سماجة الصوت فالبلغ أسمع صوتاً منه كذلك الطاووس على أنهم يتشاءمون به وليس الصوت الحسن إلا لأصناف الحمام من القماري والدباسي وأصناف الشفانين والوراشين فأما الأسد والذئب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهايم فكذلك وإنما لك أن تدم الكلب في الشيء الذي لا يعم والناس يقولون : ليس في الناس شيء أقل من ثلاثة أصناف : البيان الحسن والصوت الحسن والصورة الحسنة ثم الناس بعد مختلطون ممتزجون وربما كان من الناس بل كثيراً ما تجده وصوته أقبح من صوت الكلب فلم تخصون الكلب بشيء عامة الخلق فيه أسوأ حالاً من الكلب وأما عواؤه من وطء الدابة وسوء جزع من ضرب الصبيان فجزع

الفرس من وقع عذبة السوط أسوأ من جزع من وقع حافر بردون وهو في هذا الموضع للفرس أشد مناسبة منه للحمار .
على أن الديك لا يذكر بصير ولا جزع .

نوار ديسيموس اليوناني

قال صاحب الديك : حدثني العتي قال : كان في اليونانيين مرور له نوار عجيبة وكان يسمى ديسيموس قال : والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة ما منها إلا وهي غرة وعين من عيون النوار : فمنها أنه كان كلما خرج من بيته مع الفجر إلى شاطئ الفرات للغائط والطهور ألقى في أصل باب داره وفي دوارته حجراً كي لا ينصفق الباب فيحتاج إلى معالجة فتحه وإلى دفعه كلما رجع من حاجته فكان كلما رجع لم يجد الحجر في موضعه ووجد الباب منصفقاً فكمن له في بعض الأيام ليرى هذا الذي يصنع ما يصنع فبينما هو في انتظاره إذ أقبل رجل حتى تناول الحجر فلما نحاه عن مكانه انصفق

الباب فقال له : ما لك ولهذا الحجر وما لك تأخذه فقال لم أعلم أنه لك قال : فقد علمت أنه ليس لك .

قال : وقال بعضهم : ما بال ديسيموس يعلم الناس الشعر ولا يقول الشعر قال : ديسيموس (كالمسن الذي يشحد ولا يقطع .

ورآه رجل يأكل في السوق فقال : أأأكل في السوق فقال : إذا جاع ديسيموس في السوق أكل من السوق .

قال : وأسمعه رجل كلاماً غليظاً وسطاً عليه وفحش في القول وتحلم عنه فلم يجبه فقليل له : ما منعك من مكافأته وهو لك معرض قال : رأيته لو رمحك حماراً أكتت ترمحه قال : لا قال : فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه قال : لا قال : فإن السفية إما أن يكون حماراً وإما أن

أمثال أخرى في الكلب

وقال صاحب الديك : يقال للسفيه إنما هو كلب وإنما أنت كلبٌ نَبَّاحٌ وما زال يَنْبَحُ علينا منذُ اليوم
وكلبٌ من هذا ويا كلب ابن الكلب وأخسأ كلباً .
وقالوا في المثل : احتاج إلى الصُوف من جَرَّ كلبه و أجمع كلبك يتبعك وأحبُّ شيء إلى الكلبِ خانقهُ وسَمَن
كلبك يأكلك

وأجوع من كَلْبَةِ حَوْمَلٍ وكالكلب يربض في الآريِّ فلا هو يأكل ولا يدعُ الدابةَ تعتلف .
براقش وفي أمثالهم في الشؤم : على أهلها دَلَّتْ بِرَاقِشُ .
وبراقش : كلبة نبحت على جيشٍ مرُّوا في جوف الليل وهم لا يشعرون بموضع الحيِّ فاستدلُّوا عليهم بُباح
الكلبة فاستباحوهم .

الجنّ والحنّ وقال صاحب الديك : روى إسماعيلُ المكي عن أبي عطاء العطاردي قال : سمعت ابن عبّاس
يقول : السُّود من الكلاب الجنّ والبَقع منها الحنّ ويقال إنّ الحنَّ ضَعْفَةُ الجنّ كما أنّ الجنّيّ إذا كفر وظلّم
وتعدّى وأفسد قيل شيطان وإن قوي على البنين والحمل الثقيل وعلى استراق السمع قيل مارد فإن زاد
فهو عفريت فإن زاد فهو عبقرى كما أنّ الرجل إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع فإن زاد
فهو البطل فإن زاد قالوا : بُهْمَةٌ فإن زاد قالوا : أليس فهذا قول أبي عبيدة .
وبعض النَّاس يزعم أنّ الحنّ والجنّ صِنْفان مختلفان وذهبوا إلى قول الأعرابي حين أتى بعض الملوك ليكتب
في الرِّمَى فقال في ذلك : (إن تكتبوا الرِّمَى فَإِنِّي لَرَمَنٌ ** من ظاهر الداءِ وداءِ مُسْتَكِنٍ)

(أَيْتُ أَهْوِي فِي شَيَاطِينِ تُرِنَ ** مختلفٍ نَجَارُهُمْ حِنٌّ وَجَنٌّ) ما ورد من الحديث والخبر في قتل الكلاب
وعن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر : قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب حتى
أن المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله ثم نهانا عن قتلها وقال : عليكم بالأسود البهيم ذي النكتين على
عينيه فإنه شيطان .

وعن أبي الزبير عن جابر قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب فكنا نقتلها كلها حتى
قال : إنها أمة من الأمم فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتين على عينيه فإنه شيطان وعبد الله وأبو بكر ابنا
نافع عن ابن عمر ونافع عن أبي رافع قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقتل الكلاب فكُنَّا
نقتلُها فانتهيت إلى ظاهر بني عامر وإذا عجوزٌ مسكينة معها كلب وليس قريبا إنسان فقالت : ارجع إلى
النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنّ هذا الكلب يؤنسني وليس قربي أحد فرجع إليه فأخبره فأمر أن يقتل
كلبها فقتله وقال في حديث آخر : إنّه لما فرغ من قتل كلاب المدينة وقتل كلب المرأة قال : الآن استرحت
قالوا : فقد صحَّ الخبرُ عن قتل جميع الكلاب ثم صحَّ الخبرُ بنسخ بعضه وقتل الأسود البهيم منها مع الخبر
بأنّها من الجنّ والحنّ وأنّ أمتين مُسَخَّنات وهما الحيات والكلاب .

ثم روى الأشعث عن الحسن قال : ما خطب عثمانُ خطبةً إلّا أمرَ بقتل الكلاب وذبح الحمام وعن الحسن

قال : سمعت عثمان بن عفان يقول : اقتلوا الكلاب واذبحوا الحمام .
قال : وقال عطاء : في قتل كلب الصيد إذا كان صائداً أربعين درهماً وفي كلب الزرع شاة .

ما ورد من الحديث والخبر في دية الكلب

والحسن بن عمارة عن يعلى بن عطاء عن إسماعيل بن حسان عن عبد الله بن عمر قال : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلب الصيد بأربعين درهماً وفي كلب الغنم بشاة وفي كلب الزرع بفرق من طعام وفي كلب الدار بفرق من تراب حق على القاتل أن يؤدّيه وحق على صاحب الدار أن يقبضه .
قالوا : والتراب لا يكون عقلاً إذا كان في مقدار الفرق .
وفي قوله : وحق على صاحب الدار أن يقبضه دليل على أنه عقوبة على اتخاذه وأن ذلك على (التصغير لأمر الكلب وتحقيره وعلى وجه الإرغام لما لكه ولو كان عوضاً أو ثواباً أو كان في طريق الأموال الخروص عليها لما أكره على قبضه أحد ولكان الغفو أفضل .

ما ورد من الحديث والخبر في شأن الكلب

قال : وسئل عن الكلب يكون في الدار وفي الدار من هو له كاره .
ابن أبي عروبة عن قتادة عن أبي الحكم : أن ابن عمر سئل عن ذلك فقال : المأثم على رب الدار الذي يملكها .
وعن ابن عمر قال : من اتخذ كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا صيد نقص من أجره كل يوم قيراط فقال رجل : فإن اتخذه رجل وهو كاره قال : إنما إثمه على صاحب الدار .
وصدقة بن طيسلة المازني قال : سألت الحسن قلت : إن دورنا في الجبان وهي مَعُورَة وليس وعن ابن أبي أنيسة عن سالم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو كلب ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان .
وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : من اقتنى كلباً فإنه ينقص من عمله كل يوم قيراط .
ويونس عن أبيه عن إسحاق قال : حدثنا هنيذ بن خالد الخزازي قال : انطلقت مع نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نعود رجلاً من

الأنصار فلما انتهوا إلى باب الدار ثارت أكلب في وجوه القوم فقال بعضهم لبعض : ما يُبقي هؤلاء من عمل فلان شيئاً كل كلب منها ينقص قيراطاً في كل يوم .

هشام بن حسان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من اتخذ كلباً ليس بكلب صيد ولا زرع ولا ضرع فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطاً والقيراط مثل جبل أحد .

يونس عن أبي إسحاق عن مجاهد قال : أقبل عبد الله بن عمرو بن العاص حتى نزل ناحية مكة وكانت امرأة عم له تماديه فلما كانت ذات يوم قالت له : لو أرسلت إلي الغنم فاستأنست برعائها وكلاهما فقد

نزلت قاصية فقال : لولا كلابها لفعلت إن الملائكة لا تدخل داراً فيها كلب .
الثوري عن سمالك بن حرب أن ابن عباس قال على منبر البصرة : إن الكلاب من الحنّ وإن الحنّ من ضعفه
الحنّ فإذا غشيتكم منها شيء فآلقوا إليها شيئاً أو اطرودوه فإن لها أنفُسَ سوء)
وهشيم عن المغيرة عن إبراهيم قالوا : لم يكونوا ينهوننا عن شيء من اللعب ونحنُ غلمان إلا الكلاب .
قال صاحب الديك : روى إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي عن محمد بن المنكدر عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن
قال : تقامر رجُلان على عهد

عُمر بديكين فأمر عمر بالديكة أن تُقتل فأتاه رجلٌ من الأنصار فقال : أمرتَ بقتل أمةٍ من الأمم تسبيح الله
تعالى فأمر بتركها .

وعن قتادة أن أبا موسى قال : لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا أهل قرية وقد سمعتم ما قال الله تعالى
في أهل القرى : أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ .
وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنه الناس لأن تأويله هذا ليس على وجهه ولكنه كره للفرسان
ورجال الحرب اتخاذ ما يتخذونه الفلاح وأصحاب النعش مع حاجته يومئذ إلى تفرغهم لحروب العجم
وأخذهم في تأهب الفرسان وفي دربة رجال الحرب فإن كان ذهب إلى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل
مرغوب عنه .

وقال صاحب الكلب لصاحب الديك : فقد أمر عُمر بقتل الديكة ولم يستثن منها شيئاً دون شيء ونهى أبو
موسى عن اتخاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء والديكة تدخل في هذا الاسم واسم الدجاج يجمعها
جميعاً ورويت في قتل الحمام مثل روايتكم في قتل الكلاب ولم أركم رويتم أن الحمام مسخ ولا أن بعضه من
الحنّ وبعضه من الحنّ ولا أن أمتين مسختا وكان أحدهما الحمام وزعمتم أن عمر إنما أمر بقتل الديكة حين
كره الهراش بها والقمار بها فلعل كلاب المدينة في تلك الأيام كثر فيها العقور وأكثر أهلها من الهراش بها
والقمار فيها وقد علمتم أن ولاية المدينة ربما دمروا على صاحب الحمام إذا خيف قبله

القمار وظنوا أنه الشرف وذكروا عنه الرمي بالبندق وخديعة أولادهم بالفراخ فما بالكم لم تُخرجوا
للكلاب من التأويل والعذر مثل الذي خرّجتم للحمام والديكة .

المسخ من الحيوان ورويت في الجري والضباب أنهما كانتا أمتين مسختا وروى بعضهم في الإربابنة أنها
كانت خيطة تسرق السلوك وأنها مسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلاً على جنس
سرقها ورويت في الفأرة أنها كانت طحانة وفي سهيل أنه كان عشاراً باليمن وفي الحية أنها كانت في صورة
جمل وأن الله تعالى عاقبها حتى لاطها بالأرض وقسم عقابها على عشرة)

أقسام حين احتملت دخول إبليس في جوفها حتى وسوس إلى آدم من فيها وقتلتم في الوزغة وفي الحكاة ما
قتلتم وزعمتم أن الإبل خلقت من أعنان الشياطين وتأولتم في ذلك أقبح التأويل وزعمتم أن الكلاب أمة من
الحنّ مسخت والذئب أحق بأن يكون شيطاناً من الكلب لأنه وحشي وصاحب قفار وبه يضرب

المثل في التعدي والكلب ألوف وصاحب ديار وبه يضرب المثل والذئب خثور غدار والكلب وفي مناصح وقد أقام الناس في الدى ار الكلاب مقام السنابير للغار والذئب مضرة كله والكلب منافعه فاضلة على مضاره بل هي غالبية عليها وغامرة لها وهذه صفة جميع هذه الأشياء النافعة .

والناس لم يطبقوا على اتخاذها عبثاً ولا جهلاً والقضاة والفقهاء والعباد والولاة والنسك الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر والمختسبة وأصحاب التكلف والتسليم جميعاً لم يطبقوا على ترك التكبر على ما يشاهدونه منها في دور من لا يعصيه ولا يمتنع عليهم إلا وقد علموا أنه قد كان لقتل الكلاب بأعيانها في ذلك الدهر معنى وإلا فالتناس في جميع أقطار الأرض لا يجمعون على مسالمة أصحاب المعاصي الذين قد خلعوا غلرهم وأبرزوا صفحتهم بل ما ترى خصماً يطعن على شاهد عند قاض بأن في داره كلباً ولا ترى حكماً يرد بذلك شهادة بل لو كان اتخذ الكلاب مأموراً به كما كان إلا كذلك .

ولو أنكم حملتم حكم جميع الهداهد على حكم هدهد سليمان وجميع الغربان على حكم غراب نوح وجميع الحمام على حكم حمامة السفينة وجميع الذئاب على حكم ذئب أهبان بن أوس وجميع الحمير على حكم حمار غزير لكان ذلك حكماً مردوداً .

أمور حدثت في دهر الأنبياء

وقد نعرض لخصائص الأمور أسباب في دهر الأنبياء وتزول الوحي لا يعرض مثلها في غير زمانهم : قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الأرض على صورة دحية الكلبي وكان إبليس يتراءى في السكك في صورة سراق المدلجي وظهر في صورة الشيخ النجدي ومثل هذا كثير .

ما يسمى شيطانا وليس به فإن زعمتم أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى رجل يتبع حماماً طياراً فقال : شيطان يتبع شيطانا فخيرونا عمن يتخذ الحمام من بين جميع سكان الآفاق ونازلة البلدان من الحرمين والبصريين ومن بني هاشم إلى من دونهم أترعمون أنهم شياطين على الحقيقة وأنهم من نجل (الشياطين أو ترعمون أنهم كانوا إنساً فمسخوا بعد جناً أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان على مثل قوله شياطين الجن والإنس وعلى قول عمر : لأترعن شيطانه من نعرته وعلى قول منظور بن رواحة : (فلما أتاني ما تقول ترقصت * شياطين رأسي وانتشيت من الحمر)

وقد قال مرة أبو الوجيه العكلي : وكان ذلك حين ركبني شيطاني قيل له : وأي الشياطين تعني قال : الغضب .

والعرب تسمي كل حية شيطانا وأنشد الأصمعي : (تلاعب مثني حصرمي كائنه * تعمج شيطان بذي خروغ قفر) وقالت العرب : ما هو إلا شيطان الحماطة ويقولون : ما هو إلا شيطان يريدون القبح وما هو إلا شيطان يريدون القطنة وشدة العارضة .

وروي عن بعض الأعراب في وقعة كانت : والله ما قتلنا إلا شيطان برصاً لأن الرجل الذي قاتلهم كان اسمه شيطان وكان به برص .

وفي بني سعد بنو شيطان قال طفيل الغنوي : وشيطان إذ يدعوهم ويثوب وقال ابن ميادة :

(فلما أتاني ما تقول محاربٌ ** تغت شياطيني وجنُّ جنوئها) وقال الراجر : (إني وإن كنتُ حديثَ السنِّ ** وكان في العين بُؤ عني) وقال أبو النجم : (إني وكلُّ شاعرٍ من البشرِ ** شيطانه أنثى وشيطاني ذَكَرٌ) وهذا كله منهم على وجه المثل وعلى قول منظور بن رَواحة : (أتاني وأهلي بالدمّاح فغمرةٌ ** مسبُّ عوفٍ اللؤم حيّ بني بدرٍ) (فلما أتاني ما يقولُ ترقّصتُ ** شياطينُ رأسي وانتشيتُ من الحمر) خرافة العذرى وقد رويتم عن عبد الله بن فايد بإسنادٍ له يرفعه قال : خرافة رجل من بني عذرة استهوتته الشياطين فتحدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بحديث فقالت امرأةٌ من نسائه : هذا من حديث خرافة قال : لا وخرافة حقّ .

حديث عمر مع الذي استهوتته الجن ورويتم أنّ شريك بن خُباسة دخلَ الجنةَ وخرجَ منها ومعه ورقةٌ من ورقها وأنّ عمر سأل الرجل المفقود الذي استهوتته الجنُّ فقال : ما كان طعامهم قال : القول والرّمة وسأل عن شراهم فقال : الجدف وقال الأعشى : (وإني وما كلّتموني وربكم ** لأعلم من أمسى أعق وأحوبا)

من خنقته الجن ثم عود إلى الحوار وزعمتم أنّ الجنّ خنقت حرّ بن أمية وخنقت مرداس بن أبي عامر وخنقت الغريض المغنيّ وأنها قتلت سعد بن عبادة واستهوت عمرو بن عدي واستهوت عمارة بن الوليد فأنتم أملياء بالخرافات أقوياء على ردّ الصحيح وتصحيح السقيم وردّ تأويل الحديث المشهور إلى أهوائكم وقد عارضناكم وقابلناكم وقارضناكم .

وقالوا : في الحديث أنّ من اقتنى كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا قص فقد أنتم فهاتوا شيئاً من جميع الحيوان يصلح للزرع والضرع والقنص وبعد فهل اتخذوا كلب الضرع إلّا ليحرس الماشية وأولادها من السباع وهل عند الكلب عند طروق الأسد والنمر والذئب وجميع ما يقتات اللحمان من رؤساء السباع إلّا صباحه ونباحه وإنذاره ودلالته وأنّ يشغلها بعض الشغل ويهجهج بها بعض المهججة إلى أن يلحق بها من يحميها ويتوافى إليها من يذود عنها إذ ليس في هذا القياس أتا متى وجدنا دهرًا تكثُر فيه اللصوص ويفشو فيه السرّاق وتظهر فيه الثّقوب ويشيع فيه التسلُّقُ من إذا أفضى إلى منزل القوم لم يرض إلا بالحرية ليس دونها شيء أو يأتي على الأنفس وهو لا يصل إلى ما يريد حتى يمرّ على النساء مكشّفات

ومن عسى إذا أخذ المرأة أخذ يدٍ إلّا يرضى أن يتوعّد بذبح الأولاد وأن يُتقى بالمال حتّى يذبح ومن عسى إن تمكّن شيئاً أو أمن قليلاً أن يركب الحرّم بالسّوءة العظمى وبالي لا شوى لها فهذا الحال أحقّ بالحراسة من تلك الأحوال .

وبعد فلم صار نساء الحرّمين يتزاوَرْنَ ليلاً ونساء المصرين يتزاوَرْنَ نهاراً ونساء الحرّمين لا يرين نهاراً ونساء المصرين لا يُرين ليلاً إلّا للمكابرات ولمكان كثرة من يستقفي ويتحوّب للنقب (

والتسلُّق وإذا كان الأمر كذلك فأَيُّ الأمور أحقّ بالتحصين والحياطة وأيهما أشبه بالتغير والإضاعة : اتخاذ الكلاب التي لا تنام عند نوم من قد دأب نهاره أو ترك اتخاذها ويقظة السرّاق على قنر المسروقين .

وعلى أنّا لو حُلنا بين حرس الأسواق وما تشتمل عليه من حرائب الناس وبين اتّخاذ الكلاب لامتنعوا من ضَمان الحراسة ولا تمتنع كلّ محروس من إعطائهم تلك الأجرة ولوجد اللصوص ذلك من أعظم النعم وأجود

الْفُرْصُ أَوْ مَا تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْحَرِيمَ وَهَذِهِ الْحُرْمَاتُ وَهَذِهِ الْعُقَاتِلُ مِنَ الْأَمْوَالِ أَحَقُّ بِالْمَنْعِ وَالْحِرَاسَةِ وَالِدَّفْعِ عَنْهَا بِكُلِّ حِيلَةٍ مِنْ حِفْظِ الْغَنَمِ وَحَرِيمِ الرَّاعِي وَحُرْمَةِ الْأَجِيرِ وَبَعْدَ فَإِنَّ الذَّنْبَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى قَطِيعٍ وَاحِدٍ وَالَّذِي يُخَافُ مِنَ الذَّنْبِ السَّلَّةَ وَالْخَطْفَةَ وَالِاسْتِلَابَ وَالِاخْتِلَاسَ وَالْأَمْوَالُ الَّتِي فِي حَوَانِيتِ

التِّجَارِ وَفِي مَنَازِلِ أَهْلِ الْيَسَارِ يَأْتِيهَا مِنَ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ وَمَنْ تُجِبُ أَصْحَابُ النُّجْلَةِ مِنْ يَحْتَمِلُهَا بِحِذَائِهَا مَعَ ثِقَلِ وَزْنِهَا وَعَظَمِ حَجْمِهَا ثُمَّ يَجَالِدُونَ دُونَ ذَلِكَ بِسُيُوفِ الْهِنْدِ وَبِالْأُذْرُعِ الطُّوَالِ وَهُمْ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْخَلِيقَةِ لَوْلَا أَنَّهُمْ قَدْ أَحْسَوْا مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْجَرَاءَةَ وَثَبَاتَ الْعَزِيمَةِ بِمَا لَيْسَ مِنْ غَيْرِهِمْ لَكَانُوا كَغَيْرِهِمْ وَلَوْلَا أَنَّ قُلُوبَهُمْ أَشَدُّ مِنْ قُلُوبِ الْأَسَدِ لَمَّا خَرَجُوا عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ يَطَالِبُونَهُمْ وَعَلَى أَنَّ السُّلْطَانَ لَمْ يُؤَلَّ إِلَّا لِمَكَانِهِمْ وَالْكَلابُ لَمْ تُتَّخَذْ إِلَّا لِلْإِثْذَارِ بِهِمْ وَعَلَى أَنَّهُمْ إِذَا أَخَذُوا مَاتُوا كِرَامًا .

وَلَعَلَّ الْمَدِينَةَ قَدْ كَانَتْ فِي ذَلِكَ الدَّهْرِ مَأْمُونًا عَلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الْفُسَادِ وَكَانَ أَكْثَرُ كِلَابِهَا عَقُورًا وَأَكْثَرُ فِتْيَانِهَا مِنْ بَيْنِ مُهَارِشٍ أَوْ مَقَامِرٍ وَالْكَلبُ الْعَقُورُ وَالْكَلبُ الْكَلْبُ أَشَدُّ مُضِرَّةً مِنَ الذَّنْبِ الْمَأْمُورِ بِقَتْلِهِ .
وَقَدْ يَعْرِضُ لِلْكَلابِ الْكَلْبُ وَالْجَنُونَ لِأُمُورٍ : مِنْهَا أَنْ تَأْكُلَ لُحُومَ النَّاسِ وَمِنْهَا كَالْجَنُونَ الَّذِي يَعْرِضُ لِسَائِرِ الْحَيَوَانِ .

قَتَلَ الْعَامَّةُ لِلزَّوْغِ وَجُهَالُ النَّاسِ الْيَوْمَ يَقْتُلُونَ الْوَزْغَ عَلَى أَنَّ آبَاءَهَا وَأُمَهَا قَدْ كَانَتْ تَنْفُخُ عَلَى نَارِ إِبْرَاهِيمَ وَتَنْقُلُ إِلَيْهَا الْخَطْبَ فَأَحْسَبُ أَنَّ آبَاءَهَا

وَأُمَهَا قَدْ كُنَّ يَعْرِفْنَ فَصْلَ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُنْتَبِيِّ وَأَنَّهُنَّ اعْتَقَدْنَ عِدَاوَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى تَقْصِيرٍ فِي أَصْلِ النَّظَرِ أَوْ عَنْ مَعَانِدَةٍ بَعْدَ الْإِسْتِثْنَاءِ حَتَّى فَعَلْنَ ذَلِكَ كَيْفَ جَازَ لَنَا أَنْ تَزِرَ وَازِرَةً وَزِرَ أُخْرَى إِلَّا أَنْ تَدْعُوا أَنَّ هَذِهِ الَّتِي نَقْتُلُهَا هِيَ تِلْكَ (

الْجَاهِدَةُ لِلنَّبُوَّةِ وَالْكَافِرَةُ بِالرَّبُوبِيَّةِ وَأَنَّهَا لَا تَتَنَاقَحُ وَلَا تَتَوَالِدُ .

وَقَدْ يَسْتَقِيمُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ أَنْ تَقْتُلَ أَكْثَرُ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ إِمَّا مِنْ طَرِيقِ الْخَنَةِ وَالتَّعْبُدِ وَإِمَّا إِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَضَى عَلَى جَمَاعَتِهَا الْمَوْتَ أَنْ يَجْرِيَ ذَلِكَ الْمَجْرَى عَلَى أَيْدِي النَّاسِ كَمَا أَجْرَى مَوْتَ جَمِيعِ النَّاسِ عَلَى يَدِ مَلِكٍ وَاحِدٍ وَهُوَ مَلِكُ الْمَوْتِ .

وَبَعْدَ فَلَعَلَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَذَا الْقَوْلُ إِنْ كَانَ قَالَهُ عَلَى الْحِكَايَةِ لِأَقَاوِيلِ قَوْمٍ وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ عَلَى مَعْنَى كَانَ يَوْمَئِذٍ مَعْلُومًا فَتَرَكَ النَّاسُ الْعِلَّةَ وَرَوَوْا الْخَبَرَ سَالِمًا مِنَ الْعِلَلِ مَجْرَدًا غَيْرَ مُضْمَنٍ .
وَلَعَلَّ مَنْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ شَهِدَ آخَرَ الْكَلَامِ وَلَمْ يَشْهَدْ أَوَّلَهُ وَلَعَلَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَصَدَ بِهَذَا الْكَلَامِ إِلَى نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَدْ كَانَ دَارَ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَهُ فِيهِ شَيْءٌ وَكُلُّ ذَلِكَ مُمْكِنٌ سَائِعٌ غَيْرُ مُسْتَنَكِرٍ وَلَا مَدْفُوعٍ .

وَقَدْ رَوَيْتُمْ فِي الْفَوَاسِقِ مَا قَدْ رَوَيْتُمْ فِي الْحَيَّةِ وَالْحِدَاةِ وَالْعَقُورِ وَالْفَأْرَةِ وَالْغُرَابِ وَرَوَيْتُمْ فِي الْكَلْبِ الْعَقُورِ وَكَيْفَ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ فَإِنْ كُنْتُمْ فَقَهَاءَ فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ تَسْمِيَةَ الْغُرَابِ بِالْفَيْسِقِ وَالْفَأْرَةِ بِالْفُؤَيْسِقَةِ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ شَكْلِ تَسْمِيَةِ الْفَاسِقِ وَلَا مِنْ شَكْلِ تَسْمِيَةِ وَقَدْ قَالُوا : مَا فَجَّرَهَا إِلَّا فَاجِرٌ وَلَمْ يَجْعَلُوا الْفَاجِرَ

اسماً له لا يفارقه وقد يقال للفاسق من الرجال : حيث وقد قال صلى الله عليه وسلم : من أكلَ من هذه الشجرة الحبيثة فلا يقربن مصلانا وهو على غير قوله عز وجل الحبيثات للخبيثين وقد قال بعض الرُّجَّاز وذكر ذئباً : (أما أتاك عني الحديثُ * إذ أنا بالغائط أستغيثُ) (والذئبُ وسطُ غمي يغيثُ * وصيحتُ بالغائط يا حبيثُ) وهذا الباب كثير وليس هذا موضعه وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكم .
وقد يشبه الاسمُ الاسمَ في صورة تقطيع الصوت وفي الخطِّ في القرطاس وإن اختلفت أماكنه ودلالته فإذا كان كذلك فإنما يعرف فضله بالمتكلمين به وبالحالات والمقالات وبالذين عُنوا بالكلام وهذه جملةٌ وتفسيرها يطول .

القتل والقصاص وقالوا : قد أمرنا بقتل الحية والعقرب والذئب والأسد على معني يتتظم معنيين : أحدهما الامتحان والتعبُّد بفكر القلب وعمل الجارحة لا على وجه الانتقام والعقوبة وأمرنا بضرب (الباغي بالسيف إذا كانت العصي لا تُغني فيه على جهة الدفع وعلى جهة العقاب ولم نُؤمر بالقصد إلى قتله وإنما الغاية في دفع بأسه عنا فإن أتى إلى ذلك المقدار عليه كان كسارقٍ مات من قطع يده وقاذفٍ مات عن جلد ظهره وقد أمرنا بالقصد إلى قتل الحيات والعقارب وإن لم تعرض لنا في ذلك الوقت لأنَّ جنسها الجنسُ المتلف متى همَّ بذلك وليس لنا أن نضرب الباغي بالسيف إلا وهو مقبلٌ غير مدبرٍ ولنا أن نقتل الحية مقبلةً ومدبرةً كما يُقتل الكافر مقبلاً ومدبراً إلا أنَّ قتلَ الكافر يجمع الامتحان والعقوبة وليس في قتل الحية إلا الامتحان وقد كان يجوز أن تمتحن بجسها والاحتياط لمنعها دون قتلها وإذا ولَّى الباغي من غير أن يكون يريد الرجوع إلى فنة فحكمه الأسر والحبس أبداً إلى أن يؤنس منه التروغُ وسبيل الأحناس والسباع وذوات السموم من الهمج والحشرات القتلُ مقبلةً ومدبرةً وقد أبيض لنا قتلُ ضروبٍ من الحيوان عندما يبلغ من جباياتها علينا الخلدش فضلاً من الجرح والقتل كالبعوض والنمل والبراغيث والقمل .
والبعيرُ قتلهُ فسادٌ فإن صال على الناس كان قتلهُ صلاحاً والإنسان قتلهُ حرامٌ فإن خيفَ منه كان قتلهُ حلالاً .

طائفة من المسائل

والحديث عن مسخ الضبِّ والجريِّ وعن مسخ الكلاب والحككة وأنَّ الحمامَ شيطان من جنس المزاح الذي كنَّا كتبنا به إلى بعض إخواننا ممن يدعي علمَ كلِّ شيء فجعلنا هذه الخرافات وهذه الفطن الصغار من باب المسائل .

فقلنا له : ما الشَّنَقاقُ والشَّيْصَبانُ وتنكوير ودر كاذب ومن قاتل امرأة ابنِ مقبل ومن خائق الغريص ومن هاتف سعد

وخبرنا عن بني أقيش وعن بني لبنى ومن زَوْجُها وعن بني غزوان ومن امرأته وعن سملقة وزُوبعة والميدعان وعن النقر ذي الرقبة وعن آصف ومن منهم أشار بأصفر سليم وعن أطيّس اسم كلب أصحاب الكهف وكيف صارت الكلاب لا تنبح من سمّاه وأين بلغ كتاب شرطهم وكيف حدثوا عن ابن عبّاس في الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب والعنكبوت والجريّ أنّهنّ كلّهنّ مسخ وكيف خُصّت هذه بالمسخ وهل يحلّ لنا أن نُصدّق بهذا الحديث عن ابن عبّاس وكيف صارت الطباء ماشية الجنّ وكيف صارت الغيلان تُغيّر كلّ شيء إلاّ حوافرها ولم ماتت من ضربة وعاشت من ضربتين ولم)
صارت الأرناب والكلاب والنعام مراكب الغيلان ولم صارت الرواقيد مطايا السّواحر وبأي شيء زوّج أهل السّعلاة ابن يربوع وما فرق ما بينه وبين عبد الله بن هلال وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بصبر على يد حرمي

وأبي منصور ولم غضب من ذلك المذهب ولم مضى على وجهه شفشف وما الفرق بين الغيلان والسّعالين وبين شيطان الخضراء وشيطان الحمّاطة ولم عُلق السمك المالح بأذنايه والطريّ بأذانه وما بال الفراع تُحمّل بأجنحتها والفرايح بأرجلها وما بال كلّ شيء أصل لسانه ثمّ يلي الخلق وطرفه ثمّ يلي الهواء إلاّ لسان الفيل ولم قالت الهند : لولا أنّ لسانه مقلوب لتكلّم ولم صار كلّ ماضغٍ وآكلٍ يُحرّك فكّه الأسفل إلاّ التماسيح فإنه يحرك فكّه الأعلى ولم صار لأجفان الإنسان الأشعار وليس ذلك للدواب إلاّ في الأجفان العالية وما بال عين الحرّادة وعين الأفعى لا تدوران وما بيضة العُقر وما بيضة الديك ولم امتنع بيض الأنوق وهل يكون الأبلق العقوق وما بال لسان سمك البحر عديماً وما بال الغريق من الرّجال يطقو على قفاه ومن النساء على وجهه ولم صار القتيل إذا قُتل يسقط على وجهه ثمّ يقلبه ذكره

وأين تذهب شقشقة البعير وغُرمول الحمار والبغل وكبد الكوسج بالنهار ودّم الميت ولم انتصب خلق الإنسان من بين سائر الحيوان وخبرني عن الضفادع لم صارت تنقّ بالليل وإذا أوقدت النار أمسكت . وقالوا : قد عارضناكم بما يجري مجرى الفساد والخرافة لتردّكم إلى الاحتجاج بالخبر الصحيح المخرج للظاهر .

فإن أعجبتك هذه المسائل واستطّفت هذا المذهب فاقرا رسالتي إلى أحمد ابن عبد الوهاب الكاتب فهي مجموعة هناك .

والكلاب أصناف لا يحيط بها إلاّ من أطال الكلام وجملة ذلك أنّ ما كان منها للصيد فهي الضّراء وواحدتها ضرورة وهي الجوارح والكواسب ونحن لا نعرفها إلاّ السّلوّقيّة وهي من أحرار الكلاب وعناقها والحلاسية هجنها ومقاريفها وكلاب الرعاء من زينيها

وكردبها فهي كرادتها .

وقد تصيد الكلاب غير السّلوّقيّة ولكنّها تقصّر عن السّلوّقيّة بعيداً وسلوق من أرض اليمن كان لها حديد جيّد الطبع كريم العنصر حرّ الجوهر وقد قال النابغة : (تقدّ السلوقيّ المضاعف نسجه * وتوقد بالصّفاح

نَارَ الْحَبَابِ)

وقال الأصمعيّ : سمعتُ بعضَ الملوك وهو يركض خلفَ كلبٍ وقد دنا خطمه من عَجَب ذنب الظبي وهو يقول : إيه فدتك نفسي وأنشد لبعض الرجاز : مَفْدَيَاتٍ وَمَلْعَنَاتٍ قال صاحب الديك : فلمّا صار الكلبُ عندهم يجمع خصالَ اللؤم والتدالة والحرص والشَّرَّ والبذاء والتسرُّع وأشباه ذلك صاروا يشقُّون من اسمه لمن هجّوه بهذه الخصال وقال بشَّار : (واستغنٍ بالوجبات عن ذهبٍ * لم يبقَ قبلكَ لامرئٍ ذهبُهُ)

ما اشتق من اسم الكلب

قال صاحب الكلب : لما اشتقوا من اسمه للأشياء الممودة أكثر قال عامر بن الطفيل : (ومدجج يسعى بشكته * محمرة عيناه كالكلب) ومن ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة وكراب بن ربيعة ومكالب بن ربيعة ومكلبة بنو ربيعة بن نزار وفيهم من السباع أسد وضبيعة وذئب وذؤيب وهم خمسة عشر رجلاً ثمانية من جميع السباع ومن الثمانية أربعة مشتقة من اسم الكلب ومن هذا الباب كليب بن يربوع وكراب بن ربيعة وكراب بن وبرة ومنه بنو الكلبة قال الشاعر : (سيكفيك من ابني نزارٍ لراغب * بنو الكلبة الشم الطوال الأشاجع) والكلبة لقب مية بنت علاج بن شحمة العنبري وبوها بنو الكلبة الذين سمعت بهم تزوجها خزيمه بن النعمان من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار فهي أمهم وفيها يقول شبيل بن عذرة الضبيعي

صاحب الغريب وكان شيعياً من الغالية فصار خارجياً من الصُفريّة : (بنو كلبه هراة وأبوهم * خزيمه عبدٌ حاملُ الأصل أو كس) وفي مية الكلبة يقول أبوها وهو علاج بن شحمة : (دعنها رجالٌ من ضبيعة كلبه * وما كان يُشكى في الحول جوارها) وما اشتق له من اسم الكلب من القرى والبلدان والناس وغير ذلك قولهم في الوقعة التي كانت يارم الكلبة ومن ذلك قولهم : حين نزلنا من السراة صرنا إلى نجد الكلبة . وكان سبب خروج مالك بن فهم بن غنم بن دوس إلى أزد شنوعة من السراة أنّ بني أخته قتلوا كلبه لجاره وكانوا أعداء منه فغضب ومضى فسمي ذلك النجد الذي هبط منه نجد الكلبة . ويطسّوج بأدوريا فمر يقال له : فمر الكلبة ويقولون : كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب ومن ذلك قولهم :

عباد بن أنف الكلب ومن ذلك أبو عمر الكلب الجرمي النحوي وكان رجلاً من العلية عالماً عريضاً نحويّاً فرضياً وعلويّه كلب المطبخ وكان أشرب الناس للنبذ وقد راهنوا بينه وبين محمد بن علي . والكلب : كلب الماء وكلب الرحي والضبة التي يقال لها الكلب وكذلك الكلبة والكلبتان والكلاب والكلوب .

وقال راشد بن شهاب في ذلك المعنى : (أمكن كلاب القنا من ثغورها * وأخضب ما يبدو من استاهها بدم) وقال : وقال الراجز : (ما زال مذ كان غلاماً يستتر * له على العير إكاف وثغر) والكلبتان والعلاءة والوتر وقال أشهب بن ربيعة وكان أول من رمى بني مجاشع بأنهم قيون : (يا عجباً هل يركب

الْقَيْنُ الْفَرَسُ ** وَعَرَقُ الْقَيْنِ عَلَى الْحَيْلِ نَجَسٌ (وَإِنَّمَا أَدَاتُهُ إِذَا جَلَسَ ** الْكَلْبَتَانِ وَالْعَلَاةُ وَالْقَبَسُ)
وكان اسم المزنون فرسٍ عامر بن الطفيل : الكلب .

وقد زعمت العلماء أن حرب أيام هَراميت إنما كان سبيه كلب .
قال صاحب الديك : قد قيل للخوارج : كلاب النار وللنوائح : كلاب النار .
وقد قال جندل بن الراعي لأبيه في وقوفه على جريو : ما لك تُطيل الوقوفَ على كلبِ بني كليب وقال
زفر بن الحارث : (يا كلبُ قد كَلَبَ الزَّمانُ عَلَيْكُمْ ** وَأَصَابَكُمْ مِنَّا عَذَابٌ مُرْسَلٌ) (إِنَّ السَّمَاءَ لَا
سَمَاقَ فَالْحَقِّي ** بِمَنَابِتِ الزَّيْتُونِ وَابْنِي بِحَدَلٍ) وقال حُصَيْن بن القَعْقَاعِ يرثي عُتَيْبَةَ بن الحارث : (بَكَرَ
التَّعْيُ بِخَيْرِ خَنْدِفٍ كُلِّهَا ** بِعُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شَهَابٍ) (قَتَلُوا ذُوَابًا بَعْدَ مَقْتَلِ سَبْعَةٍ ** فَشَقَى الْغَلِيلَ
وَرَبِيبَةَ الْمَرْتَابِ) (يَوْمَ الْحَلِيسِ بِذِي الْفَقَارِ كَأَنَّهُ ** كَلَبٌ بِضَرْبِ جَاهِمٍ وَرِقَابِ) وقال آخر : (لِلَّهِ دُرٌّ بِنِي
الْحَدَّاءِ مِنْ نَفَرٍ ** وَكُلُّ جَارٍ عَلَى جِيرَانِهِ كَلَبٌ) (إِذَا غَدَوْا وَعَصِيُّ الطَّلَحِ أَرْجُلُهُمْ ** كَمَا تَنْصَبُ وَسَطَ
الْبَيْعَةِ الصُّلْبِ) وإذا كان العود سريع العلوق في كلِّ زمانٍ أو كلِّ أرضٍ أو

في عَامَّةِ ذَلِكَ قالوا : ما هو إِلَّا كلب .

وقالوا : قال النبي صلى الله عليه وسلم في وزيرٍ بن جابر حين خرجَ من عنده واستأذنه إلى أهله : نعم إن لم
تدرِ كَهْ أُمُّ كَلْبَةٍ يَعْنِي الْحُمَى .

ومَّا ذَكَرُوا بِهِ الْعَضْوُ مِنْ أَعْضَاءِ الْكَلْبِ وَالْكَلْبَةِ وَالْخَلْقِ مِنْهُمَا أَوِ الصِّفَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْ صِفَاتِهِمَا أَوِ الْفِعْلِ
الْوَاحِدِ مِنْ أَعْمَالِهِمَا قَالَ رُبُّهُ : لَا قِيَتَ مَطْلًا كُنْعَاسِ الْكَلْبِ يَقُولُ : مَطْلًا مُقَرَّمَطًا دَائِمًا وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي
ذَلِكَ : قَالَ : هَذِهِ أَرْضُ ذَاتِ غَبْرَةٍ مِنَ الْجَدْبِ لَا يَبْصُرُ الْقَوْمُ فِيهَا النِّجْمَ الَّذِي يُهْتَدَى بِهِ إِلَّا وَهُوَ كَأَنَّهُ عَيْنُ
الْكَلْبِ لِأَنَّ الْكَلْبَ أَبَدًا مُغْمِضٌ غَيْرَ مُطْبِقِ الْجَفُونِ وَلَا مُفْتَوِّحِهَا وَالْمُهْبَى : الظُّلْمَةُ وَاحِدُهَا هَابٌ وَالْجَمْعُ هُبَى
مِثْلُ غَازٍ وَغُرَى وَالْقَبَاعِ : الَّتِي قَبَعَتْ فِي الْقَتَامِ وَاحِدُهَا قَابِعٌ كَمَا يَقْبَعُ الْقَنْفَذُ وَمَا أَشْبَهَهُ فِي جُحْرِهِ وَأَنْشَدَ
لَا بَنَ مَقْبَلِ : (وَلَا أَطْرُقُ الْجَارَاتِ بِاللَّيْلِ قَابِعًا ** قُبُوعَ الْقَرْيَةِ أَخْلَفْتَهُ مَجَاعِرَهُ) وَالْقُبُوعُ : الْاجْتِمَاعُ
وَالنَّقْبُصُ وَالْقَرْيَةُ : دُوَيْبَّةٌ أَكْثَرُ مِنْ الْخَنْفَسَاءِ .

شعر في الهجاء له سبب بالكلب

وقال الآخر في صفة بعض ما يعرض له من العيوب : (مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلٍ أَهْجَوْتَهَا ** أَمْ بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ
الْبَحْرَانِ) (إِنَّ الْأَرَاقِمَ لَا يَنَالُ قَدِيمُهَا ** كَلْبٌ عَوَى مُتَهَتِّمُ الْأَسْنَانِ) وقال الشاعر في منظور بن زَبَّانِ : (
لبس ما خَلَفَ الْآبَاءُ بَعْدَهُمْ ** فِي الْأُمَّهَاتِ عِجَانُ الْكَلْبِ مَنظُورُ) ومن هذا الضرب قول الأعرابي : (
كلاب لعاب الكلب إن ساق هَجْمَةٌ ** يَعْدَبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَيُهَيِّئُهَا) وقال عمرو بن معد يكرب : (لَحَا اللَّهُ
جَرْمًا كُلَّمَا دَرَّ شَارِقٌ ** وَجُوهُ كِلَابٍ هَارَشَتْ فَازْبَارَتْ) وقال أبو سفيان بن حرب : (وَلَوْ شِئْتُ لَنَجَّيْتُ

كُمَيْتٌ طِمْرَةٌ ** ولم أَجْعَلِ النَّعْمَاءَ لَابِنِ شُعُوبِ) (وما زال مُهْرِي مَزَجَرَ الْكَلْبِ مِنْهُمْ ** لدُنْ غَدْوَةٌ حَتَّى دَنَتْ لُغْرُوبِ) وقال عبد الرحمن بن زياد :

(دَعْتَهُ بِمَسْرُوقِ الْحَدِيثِ وَظَالِعِ ** من الطرف حتى خاف بَصْبَصَةَ الْكَلْبِ) وقال شريح بن أوس : (وعَيَّرْتَنَا قَمَرَ الْعِرَاقِ وَنَحْلَهُ ** وزادك أَيْرَ الْكَلْبِ شَيْطَهُ الْجَمْرُ) وقال آخر وهو يهجو قوماً : (فجاءا بخرشَاوَيِ شَعِيرَ عَلَيَّهِمَا ** كِرَادِيْسُ مِنْ أَوْصَالِ أَعْقَدَ سَافِدِ) وقال الحارث بن الوليد : (ذهب الذين إذا رَأَوْنِي مُقْبِلًا ** هَشُّوا وَقَالُوا : مَرَحَبًا بِالْمُقْبِلِ) وقال سَبْرَةُ بن عمرو الفقعسي حين ارتشى ضَمْرَةَ النَهْشَلِي ونفر عليه عباد بن أنف الكلب الصيداوي فقال سبرة : (يا ضَمْرُ كَيْفَ حَكَمْتَ أَمُكَ هَابِلُ ** وَالْحَكْمُ مَسْئُولٌ بِهِ الْمُتَعَمِّدُ) (أَحْفِظْتَ عَهْدًا أَمْ رَعَيْتَ أَمَانَةً ** أَمْ هَلْ سَمِعْتَ بِمَثَلِهَا لَا يُنْشَدُ) (شَنْعَاءُ فَاقِرَةٌ تَجَلُّلُ مُهْشَلًا ** تَغُورُ بِهِ الرِّفَاقُ وَتُنْجَدُ) (إِنَّ الرِّفَاقَ أَمَالٌ حَكَمَكَ حُبُّهَا ** فَلَكَ الْلِقَاءُ وَرَاكِبٌ مُتَجَرِّدُ) (فضح العشيْرَةُ واستمرَّ كَأَنَّهُ ** كَلْبٌ يَبْصِصُ لِلْعِظَالِ وَيَطْرُدُ) (لَا شَيْءَ يَعْدِلُهَا وَلَكِنْ دَوْنَهَا ** خَرَطُ الْقِتَادِ تَهَابُ شَوْكَتِهَا الْيَدُ) (جَوْعَانٌ يَلْحَسُ أَسْكَتَنَا زَيْفَةً ** غَلِمَ يَثُورُ عَلَى الْبَرَاثِنِ أَعْقَدُ) وقال مزْرَدُ بن ضَرَار : (وَإِنَّ كِنَازَ اللَّحْمِ مِنْ بَكَرَاتِكُمْ ** تَهَرُّ عَلَيْهَا أُمُكُمُ وَتُكَالِبُ)

(وَلَيْتَ الَّذِي أَلْقَى فَنَازُكَ رَحْلَهُ ** لَتَقْرِيَهُ بِالتَّ عَلَيْهِ النَّعَالُ) وهذان البيتان من باب الاشتقاق لا من باب الصفات وذِكْرُ الأَعْضَاءِ وقال : (يَا سَبْرُ يَا عَبْدَ بَنِي كِلَابٍ ** يَا أَيْرَ كَلْبٍ مُوثِقٍ بِيَابِ) لَا يَغْلِقَنَّكُمْ ظُفْرِي وَنَابِي وَقَالَ الْآخَرُ : (كَأَنَّ بَنِي طُهَيْيَةَ رَهْطَ سَلَمَى ** حَجَارَةٌ خَارِي يَرْمِي الْكِلَابَا) وقال صاحب الكلب : ومما اشتقَّ من اسم الكلب في موضع النباهة كليب بن ربيعة هو كليب وائل ويقال إنه قيل في رجلين من بني ربيعة ما لم يُقَلَّ في أحدٍ من العرب حَتَّى ضُرِبَ بِمَا المثل وهو قولهم : أعزُّ من كليبٍ وائلٍ والآخَرُ : لَا حَرَّ بَوَادِي عَوْفٍ .

قالوا : وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوض حوضاً وكان يحمي الكلاء ولا يُتَكَلَّمُ عنده إلاَّ خفضاً ويجر الصيد ويقول : صيدُ أرضِ كذا وكذا في جوارِي لَا يباح وكان له جرو كلب قد كَنَّه فرما قَذَفَ به في الروضة تعجبه فيحملكها إلى منتهى عوائه ويلقيه بحريم الحوض فلا يرده بعير حَتَّى تصدرَ إليه .

ما قيل من الشعر في كليب

وفي ذلك يقول معبد بن شعبة التميمي : (أَظُنُّ ضِرَارًا أَنَّنِي سَأَطِيعُهُ ** وَأَنَّنِي سَأَطِيعُهُ الَّذِي كَتَّ أَمْنَعُ) (تقدَّم في الظلم المُبِينُ عَامِدًا ** ذِرَاعًا إِذَا مَا قُلِّمَتْ لَكَ إِصْبَعُ) (كَفْعَلِ كُليبٍ كَتَّ أَنَيْتَ أَنَّهُ ** يَخْلُطُ أَكْلَاءَ الْمِيَاهِ وَيَمْنَعُ) (يُجِيرُ عَلَى أَفْنَاءِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ** أَرَانِبَ ضَاخٍ وَالظُّبَاءَ فَتَرْتَعُ) وقال دريد بن الصمة : (لِعَمْرُكَ مَا كُليبٌ حِينَ دَلَّى ** بِحَبْلِ كَلْبِهِ فِيمَنْ يَمِجُ) (بِأَعْظَمَ مِنْ بَنِي سَفِيَانٍ بَغْيًا ** وَكُلُّ عَدُوِّهِمْ مِنْهُمْ مَرِيحُ) وقال العباس بن مرداس : (كَمَا كَانَ يَبْغِيهَا كَلِيبٌ بِظُلْمِهِ ** مِنْ الْعَزِّ حَتَّى طَاحَ وَهُوَ قَيْلُهَا) (

على وائل إذ يُنزل الكلب مائحاً** وإذ يُمنع الأكلاء منها حلولها (وقال عباس أيضاً لكليب بن عهمة الظفري :

(أَكْلِبُ إِنَّكَ كُلَّ يَوْمٍ ظَالِمٌ** وَالظَلَمُ أَنْكَدُ وَجْهَهُ مَلْعُونٌ) (تَبْغِي بِقَوْمِكَ مَا أَرَادَ بَوَائِلُ** يَوْمَ الْغَدِيرِ سَمِيكَ الْمَطْعُونُ) (وَإِخَالُ أَتْكَ سَوْفَ تَلْقَى مِثْلَهَا** فِي صَفْحَتَيْكَ سَنَائِهِ الْمَسْنُونُ) وقال النابغة الجعدي : (رَمَى ضَرْعُ نَابٍ فَاسْتَمَرَّ بِطَعْنَةٍ** كَحَاشِيَةِ الْبُرْدِ الْيَمَانِيِّ الْمَسْهَمِ) وقال قَطْرَانُ الْعَبْشَمِيِّ وَيُقَالُ الْعَبْشِيُّ : (أَلَمْ تَرِ جَسَّاسَ بْنَ مُرَّةٍ لَمْ يَرِدْ** حِمَى وَائِلٍ حَتَّى احْتَدَاهُ جَهْلُهَا) (أَجَرَ كَلِيبًا إِذْ رَمَى النَّابَ طَعْنَةً** جَدَّتْ وَائِلًا حَتَّى اسْتَخَفَّتْ عَقُولَهَا) (بِأَهْوَنَ مِمَّا قُلْتَ إِذْ أَنْتَ سَادِرٌ** وَلِلدَّهْرِ وَالْأَيَّامِ وَالْإِدِيلِهَا) وقال رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة : (نَحْنُ أَبْسَنُ تَغْلِبَ ابْنَةِ وَائِلٍ** بِقَتْلِ كَلِيبٍ إِذْ طَغَى وَتَخَيَّلَا) (أَبَانَاهُ بِالنَّابِ الَّتِي شَقَّ ضَرْعَهَا** فَأَصْبَحَ مَوْطُوءَ الْحِمَى مَتَذَلَّلَا) وقال رجل من بني سدوس : (وَأَنْتَ كَلِيبِي لِكَلِيبٍ وَكَلِيبَةٍ** هَا حَوْلَ أَطْنَابِ الْبَيْوتِ هَرِيرُ)

وقال ابن مقبل العجلاني : (بَكَتْ أُمُّ بَكْرِ إِذْ تَبَدَّدَ رَهْطُهَا** وَأَنْ أَصْبَحُوا مِنْهُمْ شَرِيدٌ وَهَالِكٌ) (وَإِنْ كَلَا حَيِّكَ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ** لَوْ أَنَّ الْمَنَايَا حَالَهَا مَتَمَّاسُكُ) (كَلَابٌ وَكَعْبٌ لَا يَبِيتُ** أَخُوهُمُ ذَلِيلٌ وَلَا تُعْبِي عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ) (قَدْ سِرْتَ سَيْرَ كَلِيبٍ فِي عَشِيرَتِهِ** لَوْ كَانَ فِيهِمْ غَلَامٌ مِثْلُ جَسَّاسٍ) (الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النِّجْلَاءُ عَانِدُهَا** كَطَرَةِ الْبَرْدِ أَعْيَا فَتَقُهَا الْآسِي) هون من تبالة على الحجاج وقال أبو اليقظان في مثل هذا الاشتقاق : كان أوّل عمل وليه الحجاج بن يوسف تبالة فلما سار إليها وقرب منها قال للدليل : أين هي وعلى أيّ سمت هي قال : تسترك عنها هذه الأكمة قال : لا أراني أميراً إلّا على موضعٍ تسترني منه أكمة أهونُ بها عليّ وكرّ راجعاً فقليل في المثل : أهونُ من تبالة على الحجاج .
والعامة تقول : هو أهونُ عليّ من الاعراب على عركوك .

الحجاج والمنجم حينما حضرته الوفاة

قال : ولما حضرت الحجاج الوفاة وقد ولي قبل ذلك ما وليَ وافتتح ما افتتح وقتل من قتل قال للمنجم : هل ترى ملكاً يموت قال : نعم ولست به أرى ملكاً يموتُ اسمه كُليبُ وأنتَ اسمُك الحجاج قال : فأنا والله كليبُ أمّي سَمَّيْتُ بِهِ وَأَنَا صَبِيٌّ فَمَاتَ وَكَانَ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْخُرَاجِ يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلَمٍ وَعَلَى الْحَرْبِ يَزِيدُ بْنُ أَبِي كَبْشَةَ .

قال : والعرب إنّما كانت تسمّي بكلب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك وكان الرجل إذا وُلِدَ له ذكر خرج يتعرّض لزجر الطير والقائل فإن سمع إنساناً يقول حجراً أو رأى حجراً سَمَّى ابْنَهُ بِهِ وَتَفَاعَلَ فِيهِ الشَّلَّةُ وَالصَّلَابَةُ وَالْبَقَاءُ وَالصَّبْرُ وَأَنَّهُ يَحْطُمُ مَا لَقِيَ وَكَذَلِكَ إِنْ سَمِعَ إِنْسَاناً يَقُولُ ذُبَاباً أَوْ رَأَى ذُبَاباً تَأَوَّلَ فِيهِ الْفُطْنَةَ وَالْحُبَّ وَالْمَكْرَ وَالْكَسْبَ وَإِنْ كَانَ حِمَاراً تَأَوَّلَ فِيهِ طَوْلَ الْعُمُرِ وَالْوَقَاحَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْجَلْدَ وَإِنْ كَانَ كَلْباً تَأَوَّلَ فِيهِ الْحِرَاسَةَ وَالْيَقِظَةَ وَبُعْدَ الصَّوْتِ وَالْكَسْبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

ولذلك صورَّ عبيد الله بن زياد في دهليزه كلباً وأسداً وقال : كلب نابح وكبش ناطح وأسد كالح فطيرٌ إلى ذلك فطارت عليه .

وقال آخر : لو كان الرجل منهم إنَّما كان يسمِّي ابنه بحجر وجبل وكلب وحمار وثور وخنزير وجعل على هذا المعنى فهلاً سَمَّى ببرذون وبغل وعقاب وأشباه ذلك وهذه الأسماء من لغتهم .
قال الأول : إنَّما لم يكن ذلك لأنَّه لا يكاد يرى بغلاً وبرذوناً ولعلَّه لا يكون رأهما قط وإن كانت الأسماء عندهم عتيلة لأُمورٍ لعلَّهم يحتاجون إليها يوماً ما .

قالوا : فقد كان يسمع بفرس وبغير كما كان يسمع بحمار وثور وقد كان يستقيم أن يشتقَّ منهما اشتقاقاً محموداً بل كيف صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمِّي بنجم ولا يسمِّي بكوكب إلاَّ أنَّ بعضهم قد سَمَّى بذلك عبداً له وفيه يقول : (كَوَكَبُ إِنْ مُتْ فَهِيَ مِيتِي * لا مُتْ إلاَّ هَرِمًا يا كَوَكَبُ) ووجدناهم يسمون بجبل وسند وطود ولا يسمُّون بأحد ولا بشير وأجأ وسلَمى ورَضوى وصنيد وحميم وهو تلقاء عيونهم متى أطلعوا رؤوسهم من خيامهم ويمسون بَبْرَج ولا يسمون بفلك و يسمون بقمر وشمس على جهة اللقب أو على جهة المديح ولم يسمُّوا بأرض وسماء وهواء وماء إلاَّ على ما وصفنا وهذه الأصول في الرجز أبلغ كما أنَّ جبلاً أبلغ

من حجر وطوداً أجمع من صخر وتركوا أسماءَ جباهم المعروفة .
وقد سمَّوا بأسد وليث وأساماة وضِرْغامَة وتركوا أن يسمُّوا بسبع وسبعة وسبع هو الاسم الجامع لكل ذي ناب ومخلب .

قال الأول : قد تسمَّوا أيضاً بأسماء الجبال فتسمَّوا بأبان وسلَمى .
قال آخرون : إنَّما هذه أسماء نلس سمَّوا بها هذه الجبال وقد كانت لها أسماء تركت لثقلها أو لعلَّه من العلل وإلاَّ فكيف سمَّوا بسلَمى وتركوا أجأ ورَضوى .
وقال بعضهم : قد كانوا ربَّما فعلوا ذلك على أن يتفق لواحدٍ ولودٍ ولعظمٍ جليل أن يسمع أو يرى حمارة فيسمِّي ابنه بذلك وكذلك الكلب والذئب ولن يتفق في ذلك الوقت أن يسمع بذكر فرس ولا حِجْر أو هواء أو ماء فإذا صار حمار أو ثور أو كلب اسم رجل معظَّم تتابعت عليه العرب تطيرُ إليه ثم يكثر ذلك في ولده خاصَّةً بعده وعلى ذلك سمَّت الرعية بنبيها وبناتها)
بأسماء رجال الملوك ونسائهم وعلى ذلك صار كلُّ عليٍّ يكنى بأبي الحسن وكلُّ عمرٍ يكنى بأبي حفص وأشباه ذلك فالأسماء ضروب منها شيء أصليٌّ كالسَّماء والأرض والهواء والماء والنار وأسماءٌ أخرى مشتقَّة منها على جهة الفأل وعلى شكل اسم الأب كالرجل

يكون اسمه عمر فيسمى ابنه عميراً ويسمِّي عميرٌ ابنه عمران ويسمِّي عمران ابنه مَعمرًا وربَّما كانت الأسماء بأسماء الله عزَّ وجلَّ مثل ما سَمَّى الله عزَّ وجلَّ أبا إبراهيم آزر وسَمَّى إبليس بفاسق وربَّما كانت الأسماء مأخوذةً من أمورٍ تحدث في الأسماء مثل يوم العروبة سَمِّيت في الإسلام يوم الجمعة واشتقَّ له ذلك من صلاة

يوم الجمعة .

الألفاظ الجاهلية المهجورة وسنقول في المتروك من هذا الجنس ومن غيره ثم نعود إلى موضعنا الأول إن شاء الله تعالى .

ترك الناس مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان : الحُمْلان والمكْس وقال جابر ابن حنّى : وكما قال العبدى في الجارود : (أيا ابن المعلّى خلّتنا أم حسبنا ** صرّاري نُعطي الماكسين مُكوسا)

وكما تركوا انعم صباحاً وانعم ظلاماً وصاروا يقولون : كيف أصبحتم وكيف أمسيتم وقال قيس بن زهير بن جذيمة ليزيد بن سنان بن أبي حارثة : انعم ظلاماً أبا ضمرة قال : نعمت فمن أنت قال : قيس بن زهير . وعلى ذلك قال امرؤ القيس : (ألا عِم صباحاً أيّها الطلّ البالي ** وهل يعمّن من كان في العُصر الخالي) وعلى ذلك قال الأول : (أتوا ناري فقلتُ منون قالوا ** سرّاة الجنّ قلتُ عمّوا ظلاماً) وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السيّد المطاع : آيت اللعن كما قيل : مهلاً آيت اللعن لا تأكل معة وقد زعموا أن حذيفة بن بدر كان يُحيّا بتحية الملوك ويقال له : آيت اللعن وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفراً . وقد ترك العبد أن يقول لسيده ربّي كما يقال ربُّ الدار وربُّ البيت وكذلك حاشية السيّد (ربُّنا وابننا وأفضل من يم ** شي ومن دون ما لديه الثناء)

وكما قال لبيد حين ذكر حذيفة بن بدر : (وأهلكن يوماً ربّ كِنَلَة وابنه ** وربّ معدّ بين خبّت وعَرَعر) وكما عير زيد الخيل حاتم الطائي في خروجه من طيء ومن حرب الفساد إلى بني بدر حيث يقول : (وفرّ من الحرب العوان ولم يكن ** بها حاتم طبّاً ولا متطبّباً) (وريب حصناً بعد أن كان آيباً ** أبوة حصن فاستقال وأعتباً) (أقم في بني بدر ولا ما بهمنا ** إذا ما تقصّت حربنا أن تطربا) وقال عوف بن محمّل حين رأى الملك : إنّه ربي وربّ الكعبة وزوجه أم أناس بنت عوف وكما تركوا أن يقولوا لقوام الملوك السدنة وقالوا الحجة .

وقال أبو غبيدة معمر بن المثنى عن أبي عبد الرحمن يونس بن حبيب الحوي حين أنشدّه شعر الأسدي : (ومركضة صريحي أبوها ** تُهان لها الغلامه والغلام)

قال : فقلت له : فتقول : للجارية غلامه قال : لا هذا من الكلام المتروك وأسماءه زالت مع زوال معانيها كالمرباع والنشيطه وبقي الصّفايا فالمرباع : رُبع جميع الغنيمه الذي كان خالصاً للرئيس وصار في الإسلام الخمس على ما سنّه الله تعالى وأما النشيطه فإنّه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العلق النفس يراه إذا استحلّاه وبقي الصّفيّ وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كل مَعْنَم وهو كالسيف اللّهْذَم والفرس العتيق والدرع الحصينة والشيء النادر .

وقال ابن عَنَمَة الضبيّ حليف بني شيبان في مراثيه بسطام بن قيس : (لك المرباع منها والصّفايا ** وحُكْمُك والنشيطه والفُضُول) والفُضُول : فضول المقاسم كالشيء إذا قسم وفضلت فضلة استهلكت

كالزُلُوفَة والسيف والدَّرْع والبيضة والجارية وغير ذلك .
كلمات إسلامية محدثة وأسماء حدثت ولم تكن وإنما اشتقت لهم من أسماء متقدمة على التشبيه مثل قولهم لمن
(

أدركَ الجاهليَّة والإسلام مُخَضَّرَم كَأبي رجاءِ العُطارديِّ بن سالمَة وشقيق بن سالمَة ومن الشعراء النابغة
الجعديُّ

وابن مقبل وأشباههم من الفقهاء والشعراء ويدلُّ على أنَّ هذا الاسم أحدث في الإسلام أنَّهم في الجاهليَّة لم
يكونوا يعلمون أنَّ ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهليَّة ولا يقال إنَّ أوَّل من سَمَّى الأرض التي لم تُحَفَر قطُّ
ولم تحرثْ إذا فعل بها ذلك مظلومة النابغة حيث يقول : (إلَّا الأوراريَّ لَأَيَّاً ما أبينُّها ** والنَّويَّ كالحوضِ
بالمظلومةِ الجَلَدِ) ومنه قيل سقاء مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه وقال الحادِرة : (ظَلَمَ البطاحُ له انْهلالُ
حريصةٍ ** فصفا النَّطافُ له بُعيدُ المَقْلَعِ) وقال آخر : (قالتْ له مَيَّ بأعلى ذي سَلَمٍ ** لو ما تَوَرُّنا إذا
الشَّعبُ أَلَمَ) ألا بلى يا مَيَّ واليومُ ظَلَمَ يقول ظلم حين وضع الشيء في غير موضعه وقال الآخر : أنا أبو
زينب واليومُ ظَلَمَ وقال ابن مقبل : (عادَ الأذلةُ في دار وكان بها ** هُرْتُ الشَّقَاشِقُ ظالِمُونَ للجزرِ) وقال
آخر : (وصاحبِ صدقٍ لم تنلني أذاته ** ظَلَمْتُ وفي ظُلُمي له عامداً أجراً) (لا يَظْلِمُونَ إذا ضيفوا
وطابَهُمْ ** وهم لجودهم في جُزْرِهم ظَلَمَ)

وظلم الجزور : أن يعرقبوها وكان في الحقِّ أن تنحر نحراً وظلمهم الجزر أيضاً أن ينحروها صِباحاً سماناً لا
علةَ بها .

قال : ومن ذلك قولهم : الحرب غشوم وإنما سُمِّيت بهذا لأنها تنال غير الجاني .
قال : ومن ذلك قولهم : مَنْ أَشْبَهَ أباه فما ظَلَمَ يقول : قد وضع الشبه في موضعه .
ومن المحدثِ المشتقِّ اسم منافق لمن رَأَى بالإسلام واستسرَّ بالكفر أخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والدماءِ
ومثل المشرك والكافر ومثل التيمُّ قال الله تعالى : فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً أي تحَرَّوْا ذلك وتَوَخَّوه وقال :
فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ فَكثُرَ هذا في الكلام حتَّى)

صار التيمُّ هو المسح نفسه وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالتْ صُحبَتهم وملاستهم له وكما
سَمَّوْا رَجِيعَ الإنسان الغائط وإنَّما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر .
ومنه العذرة وإنَّما العذرة الفناء والأفنية هي العذرات ولكن لما طال إلقاؤهم النَّجْو والرَّبْل في أفنيتهن سُمِّيت
تلك الأشياء التي رَمَوْا بها باسم المكان الذي رميت به وفي الحديث : أَتَقُوا وقال ابن الرقيات : (رَحِمَ اللَّهُ
أَعْظَمًا دَفَنُوهَا ** بِسَجِسْتَانِ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ)

(كان لا يحجبُ الصديقَ ولا يع ** تَلُّ بالبخلِ طَيِّبَ العذراتِ) ولكنَّهم لكثرة ما كانوا يُلقون نجوهم في
أفنيتهن سموها باسمها .

ومنه التجو : وذلك أنَّ الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة تستر بنجوة .

والتجو : الارتفاع من الأرض قالوا من ذلك : ذهب يَنْجُو كما قالوا ذهب يتغوط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر ثم اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى .
وقالوا : ذهب إلى المخرج وإلى المتوضأ وإلى المذهب وإلى الخلاء وإلى الحشّ وإنّما الحشّ القطعة من النخل وهي الحشّان وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاء الحاجة دخلوا النخل لأنّ ذلك أستر فسموا المتوضأ الحشّ وإن كان بعيداً من النخل كلّ ذلك هرباً من أن يقولوا ذهب لخرء لأنّ الاسم الخرء وكل شيء سواه من ورجيع وبراز وزبل وغائط فكله كناية ومن هذا الباب الملة والملة موضع الخبزة فسموا الخبزة باسم موضعها وهذا عند الأصمعيّ خطأ .

ومن هذا الشكل الراوية والراوية هو الجمل نفسه وهو حامل المزايدة فسميت المزايدة باسم ومنه قولهم : ساق إلى المرأة صداقها قالوا : وإنّما كان يقال ذلك

حين كانوا يدفعون في الصّدّاق إيلاً وتلك الإبل يقال لها النافجة وقال شاعرهم : (وليس تلادي من وراثة والدي ** ولا شاد مالي مُستفاد النوافج) وكانوا يقولون : تهنيك النافجة قال : فإذا كانوا يدفعون الصّدّاق عيناً وورقاً فلا يقال ساق إليها الصّدّاق .

ومن ذلك أنّهم كانوا يضربون على العروس البناء كالقبة والحية والخيّام على قدر الإمكان فيقال بني عليها اشتقاقاً من البناء ولا يقال ذلك اليوم والعروس إمّا أن تكون مقيمةً في مكانها أو تتحوّل إلى مكان أقدم من بنائها .

قال : ومن ذلك قولهم في البغي المكتسبة بالفجور : قحبة وإنّما القحّاب السعال وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنت وتكسبت بالزنى قالوا قحبت أي سعلت كناية وقال الشاعر : إنّ السعال هو القحّاب وقال : (وإذا ما قحبت واحدة ** جاب المبعّد منها فخصف) وكذلك كان كنايةهم في انكشاف عورة الرجل يقال : كشف علينا متاعه وعورته وشواره

كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم لم يتقدمه فيهن أحد

وكلمات النبي صلى الله عليه وسلم لم يتقدمه فيهن أحد : من ذلك قوله : إذا لا يتسطح فيها عَنزان ومن ذلك قوله : مات حنّف أنفه ومن ذلك قوله : يا خيل الله اركبي ومن ذلك قوله : كل الصيّد في جوف الفراء وقوله : لا يُلْسَعُ المؤمنُ من جُحْرِ مرتين .

شنشنة أعرفها من أخزم وقال عُمر رضي الله تعالى عنه : شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم يعني شبه ابن العباس بالعبّاس وأخزم : فحل معروف بالكرم .

ما يكره من الكلام وأما الكلام الذي جاءت به كراهيةً من طريق الروايات فروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : لا يقولنَّ أحدُكم خَبِثَ نفسي ولكن ليقُلْ لَقِستَ نفسي كأنه كره أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخُبث والفساد بوجه من الوجوه .

وجاءَ عن عمر ومجاهد وغيرهما النهيُّ عن قول القائل : استأثرَ اللهُ بفلان بل يقال مات فلان ويقال استأثرَ اللهُ بعلم الغيب واستأثرَ اللهُ بكذا وكذا .

قال النَّخَعِيُّ : كانوا يكرهون أن يقال : قراءة عبد الله وقراءة سالم وقراءة أبيّ وقراءة زيد وكانوا يكرهون أن يقولوا سنّة أبي بكر وعمر بل يقال سنّة الله وسنّة رسوله ويقال فلان يقرأ بوجه كذا وفلان يقرأ بوجه كذا . (

وكره مجاهد أن يقولوا مُسَيِّجِدٌ ومُصَيِّحِفٌ للمسجد القليل الذَّرْع والمصحف القليل الورق ويقول : هم وإن لم يريدوا التصغير فإنّه بذلك شبيه .

وجوه تصغير الكلام وربما صغّروا الشيءَ من طريق الشَّقَّة والرَّقَّة كقول عمر : أخافُ على هذا العُريب وليس التصغير بهم يريد وقد يقول الرجل : إنّما فلانٌ أَخِيّ وصَدِيقِي وليس التصغير له يريد وذكر عمرُ ابن مسعود فقال : كُنَيْفٌ مُلَى علماً وقال الحُبَاب بن المنذر يوم السَّقِيفَةِ : أنا جُذَيْلُهَا المَحْكُكُ وعُذَيْقُهَا المَرْجَبُ وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعائشة : الحُميراء وكقولهم لأبي قابوسَ الملك : أبو قُيس وكقولهم : دَبَّتْ إليه دَوِيهِيَّةُ الدهر وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقّة المسلك .

ويقال إنّ كلّ فُعِيلٍ في أسماء العرب فإنّما هو على هذا المعنى كقولهم المُعَيِّدِيّ وكنحو : سُليمٌ وضَمِير وكليبٌ وعُقَيْرٌ وجُعِيلٌ وحُميدٌ وسُعِيدٌ وجُبَيْرٌ وكنحو عُبيدٌ وعُبَيْدُ اللهِ وعُبَيْدُ الرماح وطريق التحقير والتصغير إنّما هو كقولهم : نُجِيلٌ ونُذِيلٌ قالوا : ورُبَّ اسمٍ إذا صغّرته كان أملاً للصنْدُر مثل قولك أبو عبيد الله هو أكبر في السماع من أبي عبد الله وكعب بن جُعِيلٍ هو أفخم من كعب بن جعل وربما كان التصغير خَلْقَةً وبنية لا يتغيّر كنحو الحُمَيّا والسُّكَيْتِ وجُنَيْدَةٍ والقَطِيعَا والمَرِيطَاء والسُّمِيرَاء والمَلِيسَاء وليس هو كقولهم القُصَيْرَى وفي كبيدات السماء والثريا .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : دَقَّقْتُ البابَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من هذا فقلت : أنا فقال : أنا كأنّه كرهَ قولي أنا .

وحَدَّثني أبو عليّ الأنصاري وعبد الكريم الغفاريّ قالا : حدَّثنا عيسى بن حاضِر قال : كان عمرو بن عُبيد يجلس في داره وكان لا يدعُ بابَه مفتوحاً فإذا قرعَه إنسان قامَ بنفسه حتّى يفتحَه له فأَتَيْتُ البابَ يوماً فقرعته فقال : من هذا فقلت : أنا فقال : ما أعرف أحداً يسمّى أنا فلم أَقُلْ شيئاً وقمتُ خلفَ البابِ إذ جاءَ رجلٌ من أهل

خراسان فقرعَ البابَ فقال عمرو : من هذا فقال : رجلٌ غريبٌ قدِمَ عليك يلتمس العلم فقام له ففتح له البابَ فلمّا وجدتُ فرجةً أردتُ أن أَلجَ البابَ فدفعَ البابَ في وجهي بعُنفٍ فأقمتُ عنده أياماً ثم قلتُ في نفسي : والله إنّني يومَ أتَغَضَّبُ على عمرو بن عُبيد لَغَيْرِ رَشِيدِ الرَّأْيِ فأَتَيْتُ البابَ فقرعته عليه فقال : (

وقال رجل عند الشَّعْبِيِّ : أليس الله قال كذا وكذا قال : وما عَلَّمَك وقال الربيع بن خُثَيْم : اتَّقُوا تكذيب الله لِيَتَّقَ أحدكم أن يقول قال الله في كتابه كذا وكذا فيقول الله كذبت لم أقله .
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يقل أحدكم أهريق الماء ولكن يقول أبول .
وسأل عمر رجلاً عن شيء فقال : الله أعلم فقال عمر : قد خزيْنَا إن كُنَّا لا نعلم أن الله أعلم إذا سُئِلَ أحدكم عن شيء فإن كان يعلمه قاله وإن كان لا يعلمه قال : لا علم لي بذلك .
وسمعَ عمر رجلاً يدعو ويقول اللهم اجعلني من الأقلين قال : ما هذا الدعاء قال : إني سمعت الله عز وجل يقول : وقليلٌ من عِبَادِي الشُّكُورَ وقال : وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ قال عمر : عليك من الدعاء بما يُعرف .
وكره عمر بن عبد العزيز قولَ الرجل لصاحبه : ضعه تحت إبطك وقال :

هَلَّا قَلْتَ تحت يديك وتحت منكبك وقال مرّةً وراثَ فرسٌ بحضرة سليمان فقال : ارفعوا ذلك الثَّيْلَ ولم يقل ذلك الرّوث .

وقال الحجاج لأُمّ عبد الرحمن بن الأشعث : عَمَدَتْ إلى مال الله فوضَعْتَهُ تحتَ كَأَنَّهُ كره أن يقول على عادة الناس : تحت استك فلجلج خَوْفًا من أن يقول قَدْعًا أو رَفْنَا ثم قال : تحت ذيلك .
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يَقُولَنَّ أحدكم لمملوكه عَبْدِي وَأَمَتِي ولكن يقول : فتأيَ وكره مُطَرَّف بن عبد الله قولَ القائل للكلب : اللَّهُمَّ أَخْزِهِ .

وكره عمران بن الحصين أن يقول الرَّجُلُ لصاحبه : أَنَعَمَ اللَّهُ بك عِينًا ولا أَنَعَمَ اللَّهُ بك عِينًا وقد كرهوا أشياءً مَّا جَاءَتْ في الروايات لا تُعرف وجوها فرأى أصحابنا : لا يكرهونها ولا نستطيع الردّ عليهم ولم نسمع لهم في ذلك أكثرَ من الكراهة ولو كانوا يروون الأمورَ مع عللها وبرهاناتها خَفَّتِ المؤنة ولكن أكثرَ الروايات مجرّدة وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دونَ حكاية العلة ودون الإخبار عن البرهان وإن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهلةً واحدة

قال ابن مسعود وأبو هريرة : لا تسمُوا العَبَّ الكَرَمَ فَإِنَّ الكَرَمَ هو الرجلُ المسلم .

وقد رفعوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله : لا تسمُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدهرَ هو الله فما أحسن ما فسرَ ذلك عبد الرحمن بن مهدي قال : وجهُ هذا عندنا أنَّ القومَ قالوا : وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ فلما قال القوم ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : ذلك الله يعني أن الذي أهلك القرون هو الله عز وجل فتوهم منه (المتوهم أنه إنما أوقع الكلام على الدهر .

وقال يونس : وكما غلطوا في قول النبي صلى الله عليه وسلم لحسان : قُلْ وَمَعَكَ رُوحُ الْقُدُسِ فقالوا : قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان : قُلْ وَمَعَكَ جبريل لأنَّ روح القدس أيضاً من أسماء جبريل ألا ترى أن موسى قال : لَيْتَ أَنَّ رُوحَ اللَّهِ مع كلِّ أحد وهو يريد العصمة والتوفيق والنصاري تقول للمتنبي : معه روح دكالا ومعه روح سيفرت وتقول اليهود : معه روح بعلزبول يريدون شيطانا فإذا كان نبيا قالوا :

روحه روح القدس وروحه روح الله وقال الله عز وجل : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا يعني القرآن .

وسمع الحسن رجلاً يقول : طلع سهيل وبرد الليل فكره ذلك وقال : إن سهيلاً لم يأت بحر ولا ببر قط وهذا الكلام مجاز ومذهب وقد كره الحسن كما ترى .
وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيمة والسحابة : ما أحلقها للمطر وهذا كلام مجازه قائم وقد كرهه ابن أنس كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية احتاطوا في أمورهم فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق .
وروا أن ابن عباس قال : لا تقولوا والذي خاتمته على فمي فإنما يختم الله عز وجل على فم الكافر وكره قولهم : قوس قرح وقال : قرح شيطان وإنما ذهبوا إلى التعرّيج والتلوين كأنه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية وكان أحب أن يقال قوس الله فيرفع من قدره كما يقال بيت الله وزوار الله وأرض الله وسماء الله وأسد الله .
وقالت عائشة رضي الله عنها : قولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ولا تقولوا : لا نبي بعده فإلا تكن ذهبت إلى نزول المسيح فما أعرف له وجهاً إلا أن تكون قالت لا تغيروا ما سمعتم وقولوا كما قيل لكم والفظوا بمثله سواء .
وكره ابن عمر رضي الله عنهما قول القائل : أسلمت في كذا وكذا وقال : ليس الإسلام إلا لله عز وجل وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل وقد كرهه ابن عمر وهو أعلم بذلك .

وكره ابن عباس رضي الله عنهما قول القائل : أنا كسلان .
وقال عمر : لا تسموا الطريق السكة .
وكره أبو العالية قول القائل : كنت في جنازة وقال : قل تبع جنازة كأنه ذهب إلى أنه عنى أنه كان في جوفها وقال قل تبع جنازة والناس لا يريدون هذا ومجاز هذا الكلام قائم وقد كرهه أبو العالية وهي عندي شبيهة بقول من كره أن يقول : أعطاني فلان نصف درهم وقال : إذا قلت : كيف تكيل الدقيق فليس جوابه أن تقول : القفيز بدئني ولكن يتناول القفيز ثم يكيل به الدقيق ويقول : هكذا الكيلة وهذا من القول مسخوط .

وكره ابن عباس قول القائل : الناس قد انصرفوا يريد من الصلاة قال بل قولوا : قد قصوا الصلاة وقد فرغوا من الصلاة وقد صلوا لقوله : ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم قال : وكلام الناس : كان ذلك حين انصرفنا من الجنازة وقد انصرفوا من السوق وانصرف الخليفة وصرف الخليفة الناس من الدار اليوم بخير وكنت في أول المنصرفين وقد كرهه ابن عباس ولو أخبرونا بعلمته انتفعنا بذلك .
وكره حبيب بن أبي ثابت أن يقال للحائض طامث وكره مجاهد قول القائل : دخل رمضان وذهب رمضان

وقال : قولوا شهر رمضان فلعل رمضان اسم من أسماء الله تعالى .
قال أبو إسحاق : إنما أتى من قبل قوله تعالى : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي

أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ فقد قال الناس يوم التَّروية ويوم عَرَفَةَ ولم يقولوا عَرَفَةَ .
رأي النِّظَام في طائفة من المفسرين وصور من تكلفهم .

كان أبو إسحاق يقول : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصّبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس وكلّما كان المفسر أغرب عندهم كان أحبّ إليهم وليكن عندكم عِزْمَةٌ والكَلْبِيُّ والسُّدِّيُّ والضَّحَّاكُ ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأَصَمُّ في سبيل واحدة فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم وقد قالوا في قوله عزّ وجلّ : وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ : إنّ الله عزّ وجلّ لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها بل إنّما عني الجبّة وكل ما سجد الناس عليه : من يدٍ ورجلٍ وَجَبْهَةٍ وَأَنْفٍ وَثَنَةٍ

وقالوا في قوله تعالى : أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ : إنّهُ ليس يعني الجمال والثَّوَقَ وإنّما وإذا سُئِلُوا عن قوله : وَطَلَحَ مَنْضُودٍ قَالُوا : الطلح هو الموز .

وجعلوا الدليل على أنّ شهر رمضان قد كان فرضاً على جميع الأمم وأنّ الناس غيروه قوله تعالى : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ .

وقالوا في قوله تعالى : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالُوا : يعني أنّه حَشَرَهُ بِلَا حِجَّةٍ .

وقالوا في قوله تعالى : وَيُلْ لِلْمُطَفِّفِينَ : الويل وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي ومعنى الويل في كلام العرب معروف وكيف كان في الجاهليّة قبل الإسلام وهو من أشهر كلامهم .
وسئلوا عن قوله تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ قَالُوا : الفلق : وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفونه وقال آخرون : الفلق : المَقْطَرَةُ بلغة اليمن .

وقال آخرون في قوله تعالى : عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً قَالُوا : أخطأ من وصل بعض هذه الكلمة ببعض قَالُوا : وإنّما هي : سَلْ سَيْلاً إليها يا محمد فإن كان كما قالوا فأين معنى تسمى وعلى أي شيء وقع قوله تسمى فتسمى ماذا وما ذلك الشيء وقالوا في قوله تعالى : وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا الْجُلُودُ كناية عن الفروج كأنه كان لا يرى أنّ كلام الجلد من أعجب العجب .

وقالوا في قوله تعالى : كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ : إنّ هذا إنّما كان كناية عن الغائط كأنه لا يرى أنّ في الجوع وما ينال أهله من الدلّة والعجز والفاقة وأنّه ليس في الحاجة إلى الغذاء ما يُكْتَفَى به في الدلالة على أنّهما مخلوقان حتّى يدّعي على الكلام ويدّعي له شيئاً قد أغناه الله تعالى عنه .

وقالوا في قوله تعالى : وَثِيَابَكَ فَطَهَّرَ : إنّهُ إنما عني قلبه .

ومن أعجب التأويل قول اللّحْيَانِي : الجَبَّار من الرجال يكون على وجوه : يكون جبّاراً في الضّخَم والهُوَّة

فتأول قوله تعالى : إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ قال : ويكون جَبَّارًا على معنى قَتَالًا وتأول في ذلك : وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ وقوله لموسى عليه السلام : : إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ أي قَتَالًا بغير حق والجبار : المتكبر عن عبادة الله تعالى وتأول قوله عز وجل : وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وتأول في ذلك قول عيسى : وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا أي لم يجعلني متكبرًا عن عبادته قال : الجبار : المسلط القاهر وقال : وهو قوله : وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ أي مسلط فتقهرهم على الإسلام والجبار : الله . وتأول أيضاً الخوف على وجوه ولو وجله في ألف مكانٍ لقال : والخوفُ على ألف وجه وكذلك الجبار وهذا كله يرجع إلى معنى واحد إلا أنه لا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل . وقال رجل لعبيد الله بن الحسن القاضي : إِنَّ أَبِي أَوْصَى بَثْلَثَ مَالِهِ فِي الْحَصُونِ قال : اذهب فاشتر به خيلاً فقال الرجل : إِنَّهُ إِنَّمَا ذَكَرَ الْحَصُونِ قال : أما سمعت قول الأسعر الجعفي : (

(ولقد علمت على تجنبي الردى * أن الحصون الخيل لا مدر القرى) فينبغي في مثل هذا القياس على هذا التأويل أنه ما قيل للمدن والحصون حصون إلا على التشبيه بالخيل . وخبرني الثوري قال : قلت للحسن القاضي : أوصي جدِّي بثلث ماله لأولاده وأنا من أولاده قال : ليس لك شيء قلت : ولم قال : أو ما سمعت قول الشاعر : (بنونا بنو أبنائنا وبنائنا * بنوهنَّ أبناء الرجال الأباعد) قال : فشكوت ذلك إلى فلان فزادني شراً . وقالوا في قوله : مَا سَاءَكَ وَنَاءَكَ : ناءك أبعذك قالوا : وساءك أبرصك قال : لقوله تعالى : تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَبَسَّ التَّكْلُفُ . وقال ابن قميئة : (وحمال أثقال إذا هي أعرضت * على الأصل لا يسطيعها المتكلف) وقال الله وهو يخبر عن نبيه صلى الله عليه وسلم : وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ .

رأي في أبي حنيفة وسئل حفص بن غياث عن فقه أبي حنيفة فقال : أعلم الناس بما لم يكن وأجهل الناس بما كان .

وقالوا في قوله تعالى : ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ قالوا : النعيم : الماء الحار في الشتاء والبارد في الصيف . الصرورة ومن الأسماء المحدثّة التي قامت مقام الأسماء الجاهليّة قولهم في الإسلام لمن لم يحج : صرورة . وأنت إذا قرأت أشعار الجاهليّة وجدتهم قد وضعوا هذا الاسم على خلاف هذا الموضع قال ابن مقروم الضبي : (لو أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ رَاهِبٍ * عَبْدَ إِلَهٍ صَرُورَةٌ مُتَبَتِّلٍ) (لَدَنَا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا *) وَلَهُمْ مَنْ تَلْمُزُهُ بِنَزْلٍ (والصرورة عندهم إذا كان أرفع الناس في مراتب العبادة وهو اليوم اسم للذي لم يحجَّ إمّا لعجزٍ وإمّا لتضييعٍ وإمّا لإنكارٍ فهما مختلفان كما ترى .)

فإذا كانت العرب يشتقون كلاماً من كلامهم وأسماءً من أسمائهم واللغة عارية في أيديهم فمن خلقهم

ومكّنهم وألمهم وعلمهم وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس فالذي أعارهم هذه النعمة أحقّ بالاشتقاق وأوجب طاعةً وكما أنّ له أن يبتدئ الأسماء فكذلك له أن يبتدئها ثمّ أحبّ قد سمى كتابه المنزل قرآنًا وهذا الاسم لم يكن حتى كان وجعل السجود للشمس كفراً فلا يجوز أن يكون السجود لها كفراً إلاّ وترك ذلك السجود بعينه يكون إيماناً والترك للشيء لا يكون إلاّ بالجراحة التي كان بها الشيء وفي مقداره من الزمان وتكون بدلاً منه وعقباً فواحدة أن يسمى السجود كفراً وإذا كان كفراً كان جحوداً وإذا كان جحوداً كان شركاً والسجود ليس بجحد والمحدد ليس بإشراك إلاّ أن تصرفه إلى الوجه الذي يصير به إشراكاً . (ما اشتق من نباح الكلاب وما قيل من الشعر فيه) وقال طفيل الغنوي : (عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ بُبُوحَ مَقَامَةٍ ** ولم تَرَ ناراً تَمَّ حَوْلَ مجرمٍ) وإنما أخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب .

(سقط : وذكروا أن الظبي إذا أسن ونبت لقروته شعب نبج ، وهو قول أبو داود) (وقصرى شنج الأنسا ** نباح من الشعب) يعني من جهة الشعب وأنشد بعضهم : (وينح بين الشعب نبجاً كآته * نباح سلوق أبصرت ما يُريها) (ويبيضها الهزل المسودّ غيرها ** كما ايضاً عن حمض المراحم نبها) لأن الظبي إذا هزل ابيض والبعير يشيب وجهه من أكل الحمض وكذلك قال ابن لجأ : شابت ولما تدن ذكائها كما قال الآخر : (أكلن حمضاً فالوجوه شيب * شربن حتى نزع القلب) وقد تصير الناقة الحمراء إذا أتمت حبشيّة ولذلك قال الشاعر : حمراء لا حبشيّة الإتمام وما أشبه ذلك بقول العبدى : (ودأويتها حتى شتت حبشيّة * كأن عليها سُنْدُساً وسُدُوساً)

والدّواء : اللبن فلذلك تصير الفرس إذا ألفت شعرها وطرت تستديل هذا اللون . وقال خالد بن الصقعب التّهديّ : (كأنّ عرين أيكته تلاقى ** به جمعان من نبط وروم) (نباح الهدهد الحوليّ فيه * كنبج الكلب في الأنس المقيم) ويقال إن الهدهد ينبج وربّما جعلوا الهدهد الذي ينبج الحمام الذكر قال الشاعر وهو يصف الحمام الذّكر كيف يصنع فيها : (وإذا استترن أرّن فيها هُدُهد * مثل المدالك خضبتّه بجساد) وقال طفيل في التّبوح والمجاعات : (وأشعت ترهاه التّبوح مدقع * عن الزّاد ثمّ جلف الدهر مخّتل) وقال الجعديّ : (فلما دنونا لصوت التّباج * ولا نبصر الحيّ إلاّ التماساً) وقال ابن عبدل : (آليت إذ آليت مجتهداً * ورفعت صوتاً ما به بح) (لا يدرك الشعراء منزليّ * في الشعر إن سكّتوا وإن نبّحوا) وقال عمرو بن كلثوم :

(وقد هرت كلاب الحيّ منّا * وشدّ بنا فتادة منّ يلبنا) وقال بعض العلماء : كلاب الحيّ شعراؤهم وهم الذين ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم وقال آخرون : إن كلاب الحيّ كلّ عقور وكلّ ذي عيون أربع . وأما قوله : (لعمرك ما خشيت على أبيّ * رماح بني مقيّدة الحمار) (ولكنّي خشيت على أبيّ * رماح الجنّ أو إياك حار) فالطّواعين هي عند العرب رماح الجن وفي الحديث : إنّ الطّاعون وخز من الشيطان . وقال أبو سلمى : (لا بدّ للسودد من أرماع * ومن سفبه دائم التّباج) (ومن عديديّ يتقى بالراح)

وقال الأعشى : (مِثْلُ أَيَّامٍ لَنَا نَعْرِفُهَا ** هَرَّ كَلْبُ النَّاسِ فِيهَا وَنَبَحَ) (رُزْنُ الْأَحْلَامِ فِي مَجْلِسِهِمْ ** كَلَّمَا كَلَبُ مِنَ النَّاسِ نَبَحَ)

وقال : (سَيَبَحُ كَلْبِي جَاهِدًا مِنْ وَرَائِكُمْ ** وَأَغْنِي غَنَائِي عَنْكُمْ أَنْ أُؤْتَبَا) (وَلَا هَرَّهَا كَلْبِي لِيَبْعَدَ تَعْرِهَا ** وَلَوْ تَبَحَّتْنِي بِالشَّكَاةِ كَلَابُهَا) كلاهما : شعراؤها وهو قول بشر بن أبي خازم : (وَإِنِّي وَالشَّكَاةَ لَأَلِ لَأَمِ ** كَذَاتِ الضُّغْنِ تَمْشِي فِي الرَّفَاقِ) وقال أبو زبيد : (أَلَمْ تَرِنِي سَكَنْتُ لِأَيَّا كَلَابِهِمْ ** وَكَفَكَفْتُ عَنْكُمْ أَكْلِي وَهِيَ عُقْرُ)

هجاء ضروب من الحيوان

قال صاحب الكلب : قد علمنا أنكم تتبعتم على الكلب كل شيء هُجِيَ به وجعلتم ذلك دليلاً على سقوط قدره وعلى لؤم طبعه وقد رأينا الشعراء قد هَجَوْا الأصناف كلها فلم يُفَلتْ منهم إنسان ولا سباع ولا بهيمة ولا طائر ولا هَمَج ولا حشرة ولا رفيع من الناس ولا وضع

إِلَّا أَنْ يَسْلَمَ بَعْضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِالْخُمُولِ فَكَفَاكَ بِالْخُمُولِ دَقَّةً وَلُؤْمًا وَقَلَّةً وَنَذَالَةً وَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي عَائِدٍ لِيَأْسَ بْنِ سَهْمٍ : (فَأَبْلِغْ إِيَّاسًا أَنَّ عَرَضَ ابْنِ أُخْتِكُمْ ** رِدَاؤُكَ فَاصْطَنُ حَسَنَهُ أَوْ تَبَدَّلْ) (فَإِنْ تَكُ ذَا طَوْلٍ فَإِنِّي ابْنُ أُخْتِكُمْ ** وَكُلُّ ابْنِ أُخْتٍ مِنْ نَدَى الْخَالِ مَغْتَلِي) (فَمَا ثَعْلَبُ إِلَّا ابْنُ أُخْتٍ ثَعَالَةٍ ** وَإِنَّ ابْنَ أُخْتِ اللَّيْثِ رِيَالُ أَشْبَلِ) (وَلَنْ تَجِدَ الْآسَادَ أَخْوَالَ ثَعْلَبٍ ** إِذَا كَانَتْ الْمِيجَا تَلُوذُ بِمَدْخَلِ) فهذا من الثعلب وقال مزرد بن ضرار : (وَإِنَّ كِنَازَ اللَّحْمِ مِنْ بَكَرَاتِكُمْ ** قَهْرٌ عَلَيْهَا أُمُكُمُ وَتَكَالِبُ) (وَلَيْتَ الَّذِي أَلْقَى فَنَاؤُكَ رَحْلَهُ ** لَتَقْرِيه بِالتَّ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ) فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذي كفاه به نذالة قال ابن هرمة : (فَمَا عَادَتْ بِذِي يَمَنِ رُؤُوسًا ** وَلَا ضَرَّتْ لِفَرْقَتِهَا نِزَارًا)

(كَعَنْزِ السَّوَاءِ تَنْطَحُ مِنْ خِلَالِهَا ** وَتَرَامُ مِنْ يُحْدِثُهَا الشَّفَارَا) وهذا قول الشاعر في العنز وقال ابن أحر : (إِنَّا وَجَدْنَا بَنِي سَهْمٍ وَجَمَلَهُمْ ** كَالْعَنْزِ تَعَطَّفَ رَوْقِهَا فَنَرْتَضِعُ) وقال الفرزدق : (عَلَى حِينٍ لَمْ أَتْرُكْ عَلَى الْأَرْضِ حَيَّةً ** وَلَا نَابِحًا إِلَّا اسْتَقَرَّ عَقُورُهَا) (وَكَانَ نُفَيْعٌ إِذْ هَجَانِي لِأَهْلِهِ ** كَبَاحِثَةٍ عَنْ مُدْيَةِ تَسْتَبِيرُهَا) فهذا قولهم في العنز ولا نعلم في الأرض أقل شراً ولا أكثر خيراً من شاة . (يَا لِلرَّجَالِ لِقَوْمٍ قَدْ مَلِئْتَهُمْ ** أَرَى جَوَارِهِمْ إِحْدَى الْبَلَيَاتِ) (ذَنْبٌ رَضِيعٌ وَخِزِيرٌ تُعَارِضُهَا ** عَقَارِبٌ وَجِنَتْ وَجَنَّا بِحَيَاتِ) (مَا ظَنُّكُمْ بِأَنَاسٍ خَيْرُ كَسْبِهِمْ ** مُصْرَحَ السُّحْتِ سَمُوهُ الْأَمَانَاتِ) فهذا قولهم في العقارب والحيات والضباع والخنازير .

وقال حماد عَجْرَدٌ فِي بَشَارٍ : (قَدْ كَانَ فِي حَيٍّ غَزَالَةٍ شَاغِلٌ ** لِلْقَرْدِ عَنْ شَتْمِي وَفِي ثَوْبَانِ) (أَوْ فِي سَمِيعَةِ أُخْتِهَا وَشَرَادِهَا ** لِحُجُومِهَا مَعَ سِفْلَةِ الْمُجَانِ) (أَوْ يَتِ ضَيْقَ عَرْسِهِ وَرُكُومِهَا ** شَرَّ الْبَغَاءِ بِأَوْكَسِ الْأَثْمَانِ)

هذا قول حماد في القرد وقال حماد في بشّار بن بُرد أيضاً : (ولكنّ معاذَ الله لستُ بقاذِفٍ * بريئاً لسوّاق لقومِ نوائح) (وما قلتُ في الأعمى لجَهلٍ وأمه * * ولكنّ بأمرٍ بيني لي واضح) (سأعرضُ صحفاً عن حصينٍ لأُمّه * * ولست عن القرد ابنِ بردٍ بصافِح) وقال الآخر : (لما أتيت ابني يزيد بن خنعم * * أرى القردَ والخنزيرَ مُحْتَبَيْنِ) وقال العتّابي : (اسجدَ لقردِ السوءِ في زمانه * * وإن تَلَقَّاكَ بِخَنَزَوانِه) لا سيّما ما دام في سلطانه وقال أبو الشمقمق : (إن رياحَ اللّؤمِ من شجّه * * لا يطمع الخنزير في سلجِه) (كفاه قُقل ضلّ مفتاحه * * قد يئس الحدّاد من فتحِه) وقال خلف بن خليفة : (فسبحان من رزقه واسع * * يعمُّ به القردَ والقردة)

وهذا كثير ولعمري لو جُمع كلّه لكان مثل هجاء الناس للكلب وكذلك لو جمع جميع ما مُدِح به الأسد فما دونه والأمثالُ السائرة التي وقعت في حمد هذه الأشياء لما كانت كلّها في مقدارٍ مديح الكلب فهذه حُجَّتنا في مرتبة الكلب على جميع السباع والبهائم .

ولما قال معبدٌ في قتل الكلب وتلا قول الله عزّ وجلّ : وَائْتِلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ :

وإن كنتَ إنّما جعلتَ الكلبَ شرّاً الخلق بهذه العلة فقد قال على نسق هذا الكلام : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ فَاَلَّذِي قَالَ فِي الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ أَعْظَمَ فَاسْقِطٌ مِنْ أَقْدَارِهَا بِقَدْرِ مَعْنَى الْكَلَامِ وَأَدْنَى ذَلِكَ أَنْ تُشْرِكَ بَيْنَ الْجَمِيعِ فِي الدَّمِ فَإِنَّكَ مَتَى أَنْصَفْتَ فِي هَذَا الْوَجْهِ دَعَاكَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ تُنْصِفَهَا فِي تَتَبُعِ مَا لَهَا مِنَ الْأَشْعَارِ وَالْأَمْثَالِ وَالْأَخْبَارِ وَالْآيَاتِ كَمَا تَتَبَعْتَ مَا عَلَيْهَا .

الشرف والحمول في القبائل

وقال صاحب الكلب : سنضرب مثلاً بيننا يكون عدلاً : إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء وكثير السادات في العشائر وكثير الرؤساء في الأرحاء وكان الآخر قليل الذرء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير حملوا أو دخلوا في غمار العرب وغرقوا في معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك وسلموا من أن يضربَ بهم المثل في قِلَّةٍ ونذالة إذا لم يكن شرٌّ وكان محلُّهم من القلوب محلٌّ من لا يَغْبِطُ الشعراء ولا يحسدهم الأكفأ وكانوا كما (وقولاً إذا جاوزتما أرضَ عامرٍ * * وجاوزتما الحيين هُداً وخنعمًا) (نزيعان من جرّم بن ربّانٍ إنهم * * أبوا أن يُريقوا في الهزاهز محجماً)

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الذرء وكان فيهم خيرٌ كثيرٌ وشرٌّ كثيرٌ ومثالبٌ ومناقبٌ ولم يَسَلَمُوا من أن يُهَجَّوا ويُضَرَّبَ بهم المثل ولعلّ أيضاً أن تنفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وأمثال تسير على السنة

العلماء فيصيرُ حينئذٍ من لا خير فيه ولا شرٌّ أمثلَ حالاً في العامة ممن فيه الفضلُ الكثيرُ وبعضُ النقصِ ولا سيما إذا جاؤوا من يأكلهم وحاقوا من لا ينصفهم كما لقيت غني أو باهلة .

ولو أن عبساً أقامت في بني عامر ضعفاً ما أقامت لذهب شطرُ شرفها ولكن قيس بن زهير لما رأى دلائل الشرِّ قال لأصحابه : الذلُّ في بني غطفان خير من العزِّ في بني عامر .

وقد يكون القوم خلولاً مع بني أعمامهم فإذا رأوا فضلهم عليهم حسدوهم وإن تركوا شيئاً من إنصافهم اشتدَّ ذلك عليهم وتعاضمهم بأكثر من قدره فدعاهم ذلك إلى الخروج منهم إلى أعدائهم فإذا صاروا إلى آخرين فكوههم وحملوا عليهم فوق الذي كانوا فيه من بني أعمامهم حتى يدعُوهم ذلك إلى الندم على مفارقتهم فلا يستطيعون الرجوع حميةً واتقاءً ومحافةً أن يعودوا لهم إلى شيء مما كانوا عليه وإلى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم ومن شدة (بكل وإد بنو سعد) وقد خرج الأضبط بن قريع السَّعْدِيُّ من بني سعد فجاوزَ ناساً فلما رأى مذهبهم وظلمهم ونهكهم قال : بكل وإد بنو سعد فأرسلها مثلاً .

وقد كان عباس بن ربيعة الرُّعْلِي سَيِّدَ بني سليم وقد ناله ضيم في بعض الأمر فأبى الضيم فلما حاول مفارقتهم إلى بني غنم عزَّ عليه فقال في كلمة له : (وأمكم تُزجي التَّوَامَ لَبْعُهَا *) وأُمُّ أَحِيَكُم كَرْزَةُ الرَّحْمِ عَاقِرُ) وزعموا أن أبا عمرو أنشد هذا الشعر وخبر عن هذه القصة في يوم من أيامه فدمعت عينه فحلف شُبَيْل بن عَزْرَةَ بالطلاق : إِنَّهُ لَعَرِيٌّ فِي الْحَقِيقَةِ لِعِيَّةٍ أَوْ لِرِشْدَةِ قِبَائِلٍ فِي شَطْرِهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ وَفِي الشَّطْرِ الْآخِرِ شَرٌّ وَضَعَةٌ فَمِنْ الْقِبَائِلِ الْمُتَقَادِمَةِ الْمِلَادِ الَّتِي فِي شَطْرِهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ وَفِي الشَّطْرِ الْآخِرِ شَرٌّ وَضَعَةٌ مِثْلُ قِبَائِلِ غُطْفَانَ وَقَيْسِ عِيلَانَ وَمِثْلِ فِزَارَةَ وَمَرَّةٍ وَثَعْلَبَةَ وَمِثْلِ عَبَسَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ غُطْفَانَ ثُمَّ غَنِيَّ وَبَاهِلَةَ وَالْيَعْسُوبَ وَالطُّفَاوَةَ فَالشَّرُّ وَالْخَطَرُ فِي عَبَسَ وَذِيَّانَ وَالْمِثْلَى وَالْمَلْقَى وَالْخُرُومَ وَالْمَظْلُومَ مِثْلُ بَاهِلَةَ وَغَنِيَّ مِمَّا لَقِيتُ مِنْ صَوَائِبِ سِهَامِ الشَّعْرَاءِ وَحَتَّى كَانَتْهُمْ آلَةُ الْمَدَارِجِ)

الأقدام ينكب فيها كلُّ ساعٍ ويعثر بها كلُّ ماش

وربما ذكروا اليعسوب والطفافة وهاربة البقاء وأشجع الخنثى ببعض الذكر وذلك مشهور في خصائص العلماء ولا يجوز ذلك صدورهم وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلا بغني وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب حتى صار من لاخير فيه ولا شرٍّ عنده أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشرِّ وصار مثلهم كما قال الشاعر : (اضرب ندى طَلْحَةِ الطَّلَحَاتِ مبتدئاً *) بِيَخْلُ أَشْعَثَ وَاسْتَيْتَ وَكُنْ حَكَمًا) (تخرج خِزَاعَةٌ مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ *) وَلَا تَعُدُّ لَهَا لُؤْمًا وَلَا كَرَمًا) وقد ظرف في شعره فظلم خِزَاعَةٌ ظُلْمًا عَاقِرِيًّا .

وقال في مثل ذلك الأشعر الرِّقْبَانِ الْأَسَدِيِّ :

(بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا *) بَأَنَّكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ مُضِرٌّ) (وَأَنْتَ مَلِيخٌ كُلْحَمِ الْحَوَارِ *) فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرٌّ) (وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ فِي عِلْبَاءَ بْنِ حَيْبٍ حَيْثُ يَقُولُ : (أَرَى الْعِلْبَاءَ كَالْعِلْبَاءِ *) لَا حُلُوٌّ وَلَا مُرٌّ) (

شُيِّخٌ مِنْ بَنِي الْجَارِوِ** (لَا خَيْرَ وَلَا شَرَّ) وَالْخُمُولُ اسْمٌ لْجَمِيعِ أَصْنَافِ النَّقْصِ كُلِّهَا أَوْ عَامَّتُهَا وَلَكِنَّهُ كَالسَّرِّ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَلَيْسَ يَنْفَعُكَ الْعَامَّةُ إِذَا ضَرَّتْكَ الْخَاصَّةُ .

وَمِنْ هَذَا الضَّرْبِ تَقِيمُ بْنُ مَرْثُورٍ وَعُكْلٌ وَتَيْمٌ وَمَزِينَةٌ فَفِي عُكْلٍ وَتَيْمٍ وَمَزِينَةٍ مِنَ الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ مَا لَيْسَ فِي ثَوْرٍ وَقَدْ سَلِمَ ثَوْرٌ إِلَّا مِنَ الشَّيْءِ الْيَسِيرِ مِمَّا لَا يَرُويهِ إِلَّا الْعُلَمَاءُ ثُمَّ حَلَّتِ الْبَلِيَّةُ وَرَكَدَ الشَّرُّ وَالتَّحَفُ الْهَجَاءُ عَلَى عُكْلٍ وَتَيْمٍ وَقَدْ شَعَّثُوا بَيْنَ مَزِينَةٍ شَيْئاً وَلَكِنَّهُمْ حَبَّبَهُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ قَاطِبَةً مَا تَقِيأُ لَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ حِينَ قَلَّ حَظُّ تَيْمٍ فِيهِ وَقَدْ نَالُوا مِنْ ضَبَّةٍ مَعَ مَا فِي ضَبَّةٍ مِنَ الْخِصَالِ الشَّرِيفَةِ لِأَنَّ الْأَبَّ مَتَى نَقَصَ وَلَكُهُ فِي الْعِدَدِ عَنْ وَلَدِ أَخِيهِ فَقَدْ رَكِبَهُمُ الْآخَرُونَ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ حَتَّى يَرَوْا تَسْلِيمَ الْمُرْبَاعِ إِلَيْهِمْ حَظّاً وَالسَّيْرَ تَحْتَ الْلُؤَاءِ وَالْحَمْلَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ فِي النَّوَابِ حَتَّى رُبَّمَا كَانُوا كَالْعَضَارِيطِ وَالْعُسْفَاءِ وَالْأَتْبَاعِ فِي الْأَتْبَاعِ وَالْخِلَاءِ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ مِنْ ذَلِكَ بَدْءاً كَأَنَّهُمْ مَتَى امْتَنَعُوا خَذَلُوهُمْ فَاسْتَبَاحُوهُمْ فَأَرَوْا أَنَّ النَّعْمَةَ أَرِيحُ لَهُمْ .

وَقَدْ أَعَانَ غِيلَانٌ عَلَى الْأَحْنَفِ بِكَلِمَةٍ فَقَالَ الْأَحْنَفُ : عَيْبٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتْبَاعُ فِي الْإِسْلَامِ)
فَإِنْ هَرَبُوا تَفَرَّقُوا فَصَارُوا أَشْلَاءَ فِي الْبِلَادِ فَصَارَ حَكْمُهُمْ حَكْمٌ مِنْ دَرَجٍ وَحَكْمُ أَبِيهِمْ كَحَكْمِ مَنْ لَمْ يُعْقَبْ وَإِذَا هُمْ حَالِقُوا الْقُرْبَاءَ فَذَلِكَ حَيْثُ لَا يَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ مِنَ الذِّلِّ وَالْغَرَمِ .
وَالْحِلْفُ ضَرْبَانُ : فَأَحَدُهُمَا كَانِضْماً عَيْسَ وَضَبَّةً وَأَسَدٌ وَغَطْفَانٌ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَقْوِيَاءُ لَمْ يُنْهَكُوا كَمَا تُنْهَكُ بَاهِلَةٌ وَغَنَى لِحَاجَةِ الْقَوْمِ إِلَيْهِمْ وَلِخَشَوْنَةِ مَسْئِهِمْ إِنْ تَذَكَّرُوا عَلَى حَالٍ فَقَدْ لَقِيتَ ضَبَّةً مِنْ سَعْدٍ وَعَيْسٌ مِنْ عَامِرٍ وَأَسَدٌ مِنْ عَيْنِيَّةَ بْنِ حَصْنٍ مَا لَقُوا .
وَقَدْ رَأَيْتَ مَشَقَّةَ ذَلِكَ عَلَى النَّابِغَةِ وَكَيْفَ كَرِهَ خُرُوجَ أَسَدٍ مِنْ بَنِي ذُبْيَانَ .
وَعَيْنِيَّةُ بْنُ حَصْنٍ وَإِنْ كَانَ أَسَدٌ مِنَ النَّابِغَةِ وَأَشْرَفَ فَإِنَّ النَّابِغَةَ كَانَ أَحْزَمَ وَأَعْقَلَ .

وَقَدْ سَلِمَتْ ثَوْرٌ وَابْتَلَيْتَ عُكْلٌ وَتَيْمٌ وَلَوْلَا الرِّبْعُ بْنُ خُثَيْمٍ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَمَا عَلِمْتَ الْعَامَّةُ أَنَّ فِي الْعَرَبِ قَبِيلَةً يُقَالُ لَهَا ثَوْرٌ وَلَشَرِيفٌ وَاحِدٌ مَنِ قَبِلَتْ تَيْمٌ أَكْثَرُ مِنْ ثَوْرٍ وَمَا وَلَدَ .
وَكَذَلِكَ بَلَعْنِي قَدْ ابْتَلَيْتَ وَظَلَمْتَ وَبُخِستَ مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْفُرْسَانِ وَالشُّعْرَاءِ وَمِنَ الزُّهَادِ وَمِنَ الْفُقَهَاءِ وَمِنَ الْقُضَاةِ وَالْوُلَاةِ وَمِنَ نَوَادِرِ الرِّجَالِ إِسْلَامِيِّينَ وَجَاهِلِيِّينَ .
وَقَدْ سَلِمَتْ كَعْبُ بْنُ عَمْرٍو فَإِنَّهُ لَمْ يَنْلِهَا مِنَ الْهَجَاءِ إِلَّا الْخُمْشَ وَالنُّشْفَ .
وَرَبُّ قَوْمٍ قَدْ رَضُوا بِخُمُولِهِمْ مَعَ السَّلَامَةِ عَلَى الْعَامَّةِ فَلَا يَشْعُرُونَ حَتَّى يَصَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قِمَمِ رُؤُوسِهِمْ حِجَارَةَ الْقَذْفِ بِأَبْيَاتٍ يَسِيرُهَا شَاعِرٌ وَسُوطَ عَذَابٍ يَسِيرُ بِهِ الرَّاكِبُ وَالْمَثَلُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ : (إِنْ مَنَافَاً فَفَقَحَّةٌ لِدَارِمٍ** كَمَا الظُّلُمُ فَفَقَحَةُ الْبِرَاجِمِ) (وَجَدْنَا الْحُمْرَ مِنْ شَرِّ الْمَطَايَا** كَمَا الْحَبِطَاتُ شَرُّ بَنِي تَيْمٍ)
فَمَا الْمَيْسَمُ فِي جِلْدِ الْبَعِيرِ بِأَعْلَى مِنْ بَعْضِ الشَّعْرِ .

أثر الشعر في نباهة القبيلة

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد والفعال مثل نُمير يصير أهله إلى ما صارت إليه نُمير وغير غير فما ظنك بالظلم وعنف وبالحيطات وقد بلغ مضرة جرير عليهم حيث قال : (فَعُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمِيرٍ * فلا كعباً بلغت ولا كلاباً) إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قومًا آخرين :

وَسَوْفَ يَزِيدُكُمْ ضَعْفَةً هِجَائِي كَمَا وَضَعَ الْهَجَاءُ بَنِي نُمِيرٍ (

وحتى قال أبو الرُّدَيْنِيَّ : (أَتَوَعَّدُنِي لِتَقْتُلَنِي نُمِيرٌ * مَتَى قُلْتَ نُمِيرٌ مَنْ هَجَاهَا) بكاء العرب من الهجاء وذكر بعض من بكى منهم لذلك ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء وهذا من أول كرمها كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى علقمة بن علاثة وكما بكى عبد الله بن جُدعان من بيت لخدّاش بن زهير وما زال يهجوهم من غير أن يكون رآه ولو كان رآه ورأى جماله وبهائه ونبله والذي يقع في النفوس من تفضيله ومحبه ومن إجلاله والرقّة عليه أمسك ألا

تري أن النّبيت وغسان بن مالك بن عمرو بن تميم ليس يعرفهم بالعجز والقلّة إلا دَغفل بن حنظلة وإلا النّخار الغنريّ وإلا ابن الكيس النمريّ وإلا صُحار العبدى وإلا ابن شريّة وأبو السّطّاح وأشباههم ومن شابه طريقهم والاقتباس من مواريتهم وقد سلموا على العامة وحصلوا نسب العرب فالرجل منهم عربي تميمي فهو يعطي حقّ القوم في الجملة ولا يقتضي ما عليه وعلى رهطه في الخاصّة والحرمان أسوأ حالاً في العامة من هذه القبائل الحاملة وهم أعدّ وأجلد .

ما تبتلى به القبائل فيصيبها الخمول وبلية أخرى : أن يكون القبيل متقادماً الميلاد قليل الذلة قليل السيادة وقيماً أن يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التام فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكل من رآهم أو سمع بهم أضعافُ الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتلوا بشرف إخوتهم .

ومن شؤم الإخوة أن شرفهم ضعة إخوتهم ومن يُمن الأولاد أن شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم : كعبد الله بن دارم وجرير بن دارم فلو أن الفقيم لم يناسب عبد

ولقد ضعفتُ قريش لما جاءتْ به من الخصال الشريفة التامة من أركان كنانة سنّام الأرض وجبلها وعينها التي تبصر بها وأنفها التي بها تعطس فما ظنك بمن أبصر بني زيد بن عبد الله بن دارم وبني نمشل بن دارم وبني مجاشع بن دارم ثم رأى بني فقيم بن جرير بن دارم وكذلك كل أخوين إذا برع أحدهما وسبق وعلا الرجال في الجود والإفضال أو في الفروسة أو في البيان فإن كان الآخر وسطاً من الرجال قصدوا بحسن مآثره في الطبقة السفلى لتبين البراعة في أخيه فصارت قرابته التي كانت مفخرة هي التي بلغت به أسفل السافلين وكذلك عنزة بن)

أسد في ربيعة ولو كان سودد ربيعة مرة في عنزة ومرة في ضبيعة أضجم لكان خيراً لهم اليوم ولود كثير من هؤلاء القبائل التي سلمت على الشعراء أو على العوام أن يكون فيهم شطر ما للعزّيين من الشرف ولو أن الناس وازنوا بين خصال هذه القبائل خيرها وشرّها لكانوا سواء .

وقال صاحب الكلب : ذكرت عيوب الكلب فقلت : الكلب إذا كان في الدار مَحَقَّ أجور أهل الدار حتى

يَأْتِي عَلَى أَقْصَاهَا لِأَنَّ الْأَجُورَ إِذْ أُخِذَ مِنْهَا كُلُّ يَوْمٍ وَزَنَ قِيرَاطٌ وَالْقِيرَاطُ مِثْلُ أَحَدٍ لَمْ يَلْبَثْ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى آخِرِهَا وَقُلْتُ : فِي الْكَلْبِ أَشَدُّ الْأَذَى عَلَى الْجَارِ وَالضَّيْفِ

وَالدَّخِيلِ يَمْنَعُهُ النَّوْمُ لَيْلاً وَالْقَائِلَةَ نَهَاراً وَأَنْ يَسْمَعَ الْحَدِيثَ ثُمَّ الَّذِي عَلَى سَامِعِ الثُّبَاحِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْكَلْبِ مَا يُوْذِي بِشِدَّةِ صَوْتِهِ إِلَّا بِدَامَةِ مَجَاوِبَةِ الْكَلَابِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مِمَّا يَنْغَصُّ الْعِيشَ وَيَمْنَعُ مِنَ الْكَلَامِ وَالْحَدِيثِ .
شَعَرَ فِي النَّبَاحِ وَالِاسْتِنْبَاحِ وَقَالَ أَرْطَاةُ بْنُ سُهَيْبَةَ فِي بَعْضِ افْتِخَارِهِ : (وَإِنِّي لَهَوَّامٌ إِلَى الضَّيْفِ مَوْهِنًا ** إِذَا أَغْدَفَ السَّيْرَ الْبَخِيلُ الْمَوَاكِلُ) (دَعَا فَأَجَابَتْهُ كَلَابٌ كَثِيرَةٌ ** عَلَى تَقَّةٍ مَنِيَّ بِمَا أَنَا فَاعِلٌ) (وَمَا دُونَ ضَيْفِي مِنْ تِلَادٍ تَحُورُهُ ** يَدُ الضَّيْفِ إِلَّا أَنْ تُصَانَ الْحَالِلُ) وَقَالَ ابْنُ هَرَمَةَ : (وَمُسْتَنْجِحٌ نَهَيْتُ كَلْبِي لَصَوْتِهِ ** وَقُلْتُ لَهُ قُمْ فِي الْيَفَاقِ فَجَاوِبِ) (فَجَاءَ خَفِيَّ الصَّوْتِ قَدْ مَسَّهُ الضَّوْىُ ** بِضَرْبَةٍ مَسْنُونِ الْغُرَارَيْنِ قَاضِبِ) (فَرَجَبَتْ وَاسْتَبْشَرَتْ حَتَّى بَسَطَتْهُ ** وَتِلْكَ الَّتِي أَلْقَى بِهَا كُلَّ آتِبِ) وَقَالَ آخَرُ : (هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعُمُ كَلْبُهُ ** دَعِ الْكَلْبَ يَنْبَحْ إِنَّمَا الْكَلْبُ نَابِحٌ)

وَقَالَ مَزْرَدُ بْنُ ضَرَّارٍ : (فَإِنْ آتَى سَارَ أَسْمَعَ الْكَلْبَ صَوْتَهُ ** أَتَى دُونَ نَبَحِ الْكَلْبِ وَالْكَلْبُ دَائِبٌ) وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ : (سَقَى اللَّهُ الْقِيَابَ بَتْلُ عَبْدِي ** وَبِالْشَّرْقَيْنِ أَيَّامَ الْقِيَابِ) (وَأَيَّاماً لَنَا قَصُرَتْ وَطَالَتْ ** عَلَى فُرْعَانَ نَائِمَةِ الْكَلَابِ)
وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَطَفَانَ : (إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسْتَبْقِ وَدَّ صَحَابِيَّةٌ ** عَلَى دَخْنٍ أَكْثَرَتْ بَثَّ الْمَعَاتِبِ) (وَإِنِّي لِأَسْتَبْقِي أَمْرًا السَّوْءِ غُلَّةً ** لَعْدُوَّةَ عَرِيضٍ مِنَ النَّاسِ جَانِبِ) (أَخَافُ كَلَابَ الْأَبْعَدِينَ وَنَبَحَهَا ** إِذَا لَمْ تَجَاوِبْهَا كَلَابُ الْأَقَارِبِ) وَقَالَ أُحْيِيحَةُ بْنُ الْجُلَاحِ : (مَا أَحْسَنَ الْجَيْدَ مِنْ مُلَيْكَةِ وَالِّ ** بَاتَ إِذْ زَانَهَا تَرَائِبُهَا) (يَا لَيْتَنِي لَيْلَةً إِذَا هَجَعَ الْ ** نَاسُ وَنَامَ الْكَلَابُ صَاحِبُهَا) وَقُلْتُ : وَفِي الْكَلْبِ قُدَارَةٌ فِي نَفْسِهِ وَإِقْدَارُهُ أَهْلُهُ لِكثَرَةِ سُلَاحِهِ وَبَوْلِهِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِالسُّلَاحِ عَلَى السُّطُوحِ حَتَّى يَجْفِرَ بِبِرَائَتِهِ وَيَتَقَبَّ بِأَظَافِرِهِ وَفِي ذَلِكَ التَّخْرِيبُ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنَّهُ يَكُونُ سَبَبُ الْوَكْفِ وَفِي الْوَكْفِ مِنْ مَنَعَ النَّوْمِ وَمِنْ إِفْسَادِ حُرِّ الْمَتَاعِ مَا لَا يَخْفَى مَكَانَهُ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ عَضِّ الصَّبْيَانِ وَتَفْزِيعِ الْوِلْدَانِ وَشَقِّ الثِّيَابِ وَالتَّعَرُّضِ لِلزَّوَارِ وَمَعَ مَا فِي خَلْقِهِ أَيْضاً مِنَ الطَّبْعِ الْمُسْتَدْعِي لِلصَّبْيَانِ إِلَى ضَرْبِهِ وَرَجْمِهِ وَتَهْيِيجِهِ بِالْعَبَثِ وَيَكُونُ سَبَباً لِعَقْرِهِمُ وَالْوُثُوبِ عَلَيْهِمْ .
وَقُلْتُ : وَبِئْسَ الشَّيْءُ هُوَ فِي الدَّارِ وَفِيهَا الْحُرْمُ وَالْأَزْوَاجُ وَالسَّرَارِيُّ وَالْحَطِيطَاتُ الْمَعْشُوقَاتُ وَذَلِكَ أَنْ ذَكَرَهُ أَيْرُظُ ظَاهِرُ الْحَجَمِ وَهُوَ إِمَّا مُقْبِعٌ وَإِمَّا قَائِمٌ وَلَيْسَ مَعَهُ مَا يُوَارِيهِ وَرَبَّمَا أَشْطَرُّ وَأَنْعَظُ بِحَضْرَتِهِمْ وَلَعَلَّهُنَّ يَكُنَّ مُعْجِبَاتٍ أَوْ مُحْتَاجَاتٍ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ عِنْدَ غِيَبَةِ فَحْلِهِنَّ وَإِذَا عَجَزَ عَنْ أَنْ يَعْجُمَهُنَّ .
وَفَدِ قُرْحَانٌ وَقَدْ رَمَى ضَابِيَّ بْنَ الْحَارِثِ الْبُرْجُمِيِّ أُمَّ أَنْاسٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنَّ الْكَلْبَ الَّذِي كَانَ يُسَمَّى قُرْحَانَ كَانَ يَأْتِي أَمَّهُمْ حَتَّى اسْتَعْدَوْا عَلَيْهِ وَحَبَسَهُ فِي ذَلِكَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَلَوْلَا أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي رَمَاهُمْ بِهِ

كان مما يكون ويجوز ويُخافُ مثله لما بلغ منه عثمانُ ما بلغ حتّى مات في حبسه وفي ذلك يقول ضائع ابن الحارث : (تجشّم نحوي وفدُ قُرحان شقّةٌ ** تطلُّ بها الوجناء وهي حسيّ) (فرودُتهم كلباً فراحوا كأنما ** حباهم بتاج المهرمان أمير) (إذا عثت من آخر الليل دُخنةٌ ** يبيت له فوق السرير هريّ)

قصص تتعلق بالكلاب

وزعم اليعقوبيُّ أنّه أبصر رجلاً يَكُومُ كلبَةً من كِلاب الرعاء ومَرَّ بذلك الرُّبَّ العظيم في ثفرها والثَّفر منها ومن السبع كالحِر من المرأة والطَّيبة من الأتان والحِجر والحياء من الناقة والشاة فرعم أنّها لم تعقد عليه ولا ندري أمكنته أم اغتصبها نفسها .

وأما النَّاس ففي مُلح أحاديثهم : أنّ رجلاً أشرف على رجل وقد ناك كلبَةً فعقدت عليه فبقي أسيراً مستخزياً يدور معها حيث دارت قال : فصاح به الرجل : اضرب جَنبيها فأطلقته فرفع رأسه إليه فقال : أحرّاه الله أيّ نياك كلباتٍ هو .

وخبرني من لا أردُّ خبره أنّه أشرف من سطحٍ له قصير الحائط فإذا هو بسوادٍ في ظلِّ القمر في أصل حائط وإذا أتيتُ كلبَةً فرأى رأسَ إنسانٍ يدخل في القمر ثم يرجع إلى موضعه من ظلِّ القمر فتأمل في ذلك فإذا هو بحارس ينيك كلبَةً قال : فرجته وأعلمته أنّي قد رأيته فصبحني من الغد يقرع الباب عليّ فقلت له : ما حاجتك وما جاء بك فلقد ظننت أنّك ستركب البحر أو تمضي على وجهك إلى البراري قال : جعلتُ فداك أسألك أن تستر عليّ سترَ الله عليك وأنا أتوب على يديك قال : قلت وبلّك فما اشتيت من كلبَةٍ قال : جعلتُ فداك كلُّ رجلٍ حارسٍ ليس له زوجةٌ ولا نجلٌ فهو ينيك إناثَ الكلاب إذ كنَّ عظامَ الأجسام قال : فقلت : فما يخاف أن تعضّه قال : لو رامَ ذلك منها غيرُ الحارس التي هي له وقد باتت معه فأدخلها في كيسائه في ليالي البرد والمطر لما تركته وعلى أنّه إن أراد أن يوعبه كلّهُ لم تستقرّ له قال : ونسيتُ أن أسأله : فهل تعقد على أيور النَّاس كما تعقد على أيور الكلاب فلقيته بعد ثلاثين سنة فقال : لا أدري لعلّها لا تعقد عليه لأنّه لا يُدخله فيها إلى أصله لعلّ ذلك أيضاً إنّما هو شيءٌ يحدث بين الكلب والكلبة فإذا اختلفا لم يقع الالتحام قال : فقلت : فطيبٌ هو قال : قد نكثت عامّة إناث الحيوانات فوجدتهنّ كلّهنّ أطيّب من النساء قلت : وكيف ذلك قال :

ما ذاك إلاّ لشدة الحرارة قال : فطال الحديث حتى أنس فقلت له : فإذا دار الماء في صلبك وقرب الفراغ قال : فربّما التزمتُ الكلبة وأهويت إلى تقبيلها ثم قال : أما إنّ الكلابَ أطيّبُ شيءٍ أفواهاً وأعذبُ شيءٍ ريقاً ولكن لا يمكن أن أنيكها من قدامٍ ولو ذهبتُ أن أنيكها من خلف وثّيتُ رأسها إلى أن أقبلها لم آمن أن تطنّ بي أيّ أريد غير ذلك فتكلم فمي ووجهي قال فقلت : فإنّي أسألك بالذي يسترُ عليك هل ترعت عن هذا العمل منذ أعطيتني صفقة يلك)

بالتوبة قال : ربّما حنّنتُ إلى ذلك فأحتبسُ بعهدك .

قال : وقلتُ : وإنّك لحنّنتُ إليها قال : واللّه إني لأحنّ إليها ولقد تروّجتُ بعدك امرأتين ولي منهما رجلان ونساء ومن تعود شيئاً لم يكذبُ عنه قال : فقلتُ له : هل تعرف اليومَ في الحُرّاس مَنْ ينيك الكلبات قال : نعم خذ محمويّه الأحمر وخذ يشجب الحارس وخذ قفا الشاة وخذ فارساً الحَمَاميّ فإنّ فارساً كان حارساً وكان قيّمَ حَمَامٍ وكان حَلَقِيّاً فزعم أنّه ناكُ الكلابَ خمسين سنة وشاخ وهزل وقبح وتشنّج حتّى كان لا يُنيكه أحد قال : فلم يزل يَحْتالُ لكلبٍ عنده حتّى ناكه قال : وكان معه بحير حتّى قتله للصّوص ثمّ أشرف على فارسٍ هذا المحتسبُ الأحذبُ وهو ينيك كلبه فرماه بحجر فدمّغه قال : فالكلاب كما ترى تُتّهم بالنساء وينيكها الرجال وتنيك الرجال وليس شيءٌ أحقّ بالنفي والإغراب والإطراد وبالقتل منها ونحن

من السباع العاديّة الوحشيّة في راحة إلاّ في الفُرط فإنّ لها غراماً على بعض الماشية وجنايةً على شرار العامّة وكذلك البهائم وما عسى أن يبلغ من وطءٍ بعير ونطح كبش أو خمش سنور أو رمح حمار ولعلّ ذلك يكون في الدهر المرّة والمرتين ولعلّ ذلك أيضاً لا ينال إلاّ عبداً أو خادماً أو سائساً وذلك محتمل فالكلاب مع هذه الآفات شركاء الناس في دورهم وأهاليهم .

قال صاحب الكلب : إن كنتم إلى الأذى بالسُّلاح تذهبون وإلى قشر طين السطوح بالبرائن تميلون وإلى نتن السُّلاح وقدر المأكول والمشروب تقصدون فالسنور أكثر في ذلك وقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك أنّه قال : هُنَّ مِنَ الطَّوَافَاتِ عَلَيْكُمْ فإذا كان ذلك في السنائر مغتفراً لا تنفاعهم بها في أكل الفأر فمنافع الكلاب أكثر وهي بالاعتقاد أحقّ وفي إطلاق ذلك في السنور دليلٌ على أنّه في الكلاب أجورٌ . وأما ما ذكرتم من إنعاضه فلعمري إنّ ما ينبغي للغيور أن يُقيم الفرسَ ولا البرذونَ والبغلَ والحمارَ والتيسَ في المواضع التي تراها النساءُ والكلبُ في ذلك أحسنُ حالاً وقد كره ناسٌ إدخال منازلهم الحمامَ والدّيكَةَ والدجاجَ والبَطَّ خاصة لأنّ له عند السفاد قضيياً يظهر وكذلك التيس من الطباء فضلاً عن ثيوس الصفايا فهذا المعنى الذي ذكرتم يجري في وجوه كثيرة

وعلى أنّ للحمام خاصّة من الاستشارة والكسَم بالذئب والتقييل الذي ليس للناس مثله ثمّ التقييل والتغرّل والتنفّس والابتهاج بما يكون منه بعد الفراغ وركوب الأنثى للذكر وعدم إمكانها لغير ذكرها ما يكون أهيج للنساء ممّا ذكرتم فلم أفردتم الكلب بالذكر دون هذه الأمور التي إذا عاينت المرأة غُرْمُولَ واحدٍ منها حقّرت بعلها أو سيّدها ولم يزل ظلّ ذلك الغرْمُول يعارضها في النوم وينبّهها ساعة الغفلة ويُحدث لها التمنيّ لما لا تقدر عليه والاحتقار لما تقدر عليه وتركتم ذكر ما هو أجلُّ وأعظمُ إلى ما هو أخسُّ وأصغرُ فإن كنتم تذهبون في التشنيع عليه إلى ما يعقر من الصبيان عند العبث والتعرّض والتحكك والتهييج والتحرّيش فلو أنّ الذي يأتي صبيائكم إلى الكلب من الإلحاح بأصناف العبث والصبيان أقسى الخلق وأقلّهم رحمةً أثّرلوه بالأحنف ابن قيس وقيس بن عاصم بل بحاجب بن زُرارة وحِصن بن حذيفة لخرّجوا إلى أقبح ممّا يخرج إليه الكلب ومن ترك منهم الأخذ فوق يد ابنه فهو أحقّ باللائمة .

وبعد فما وجدنا كلباً وثبَّ على صبيٍّ فعقره من تلقاء نفسه وإِنَّه ليرتدُّ عليه وهو في المهد وهو لحمٌ على وشمٍ فلا يشمه ولا يدنو منه وهو أكثرُ خلقِ الله تعالى تشمُّماً واسترواحاً وما في الأرضِ كلبٌ يلقي كلباً غريباً إلاَّ شمَّ كلُّ واحدٍ منهما استَ صاحبه ولا في الأرضِ مَجوسِيٍّ يموتُ فيحزنُ على موته ويحملُ إلى النأووس إلاَّ بعد أن يُدنى منه كلبٌ يشمه فإنَّه لا يخفى عليه في شمه عندهم أحيٌّ هو أم ميّتٌ للطافةِ حسّه وإنَّه لا يأكلُ الأحياءَ فأما اليهودُ فإنَّهم يتعرَّفون ذلك من الميتِ بأن يدهنوا استه ولذلك قال الشاعر وهو يرمي ناساً بدين اليهودية : إذا مات منهم ميّتٌ مسحوا استه بدهنٍ وحفُّوا حوله بقرام

جنايات الديك

وقالوا : فإذا ذكرتُم جناياتِ الكلابِ فواحدٌ من جناياتِ الدِّبْكةِ أعظمُ من جناياتِ الكلابِ لأنَّ عبدَ الله بن عثمان بن عفَّان ابنَ بنتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إنَّما مات من نقرِ ديكٍ في دارِ عثمان نقرَ عينه فكان سببَ موته فقتلُ الديكِ لعنرةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من كثيرٍ ممَّا تستعظمونه من جناياتِ الكلابِ .

وقد نقرَ ديكٌ عينَ ابنِ حَسْكةَ بنِ عَتَّابٍ أو عينَ ابنِ أخته .
وقد نقرَ ديكٌ عينَ ابنِ الريانِ بنِ أبي المسيح وهو في المهد فاعورٌ ثمَّ ضربته الحُمرةُ فمات ووثبَ ديكٌ فطعن بصيصته عينَ بنتِ ثُمَامَةَ بنِ أشرس قال ثُمَامَةُ : فأتاني الصَّريخُ فو الله ما وصلتُ إليها حتى كمد وجهها كلُّه واسودَّ الأنفُ والوجنتان وغارَتِ العينان وكان شأنُ هذا)
الديك فيما زعم ثُمَامَةُ عجباً من العجب : ذكر أن رجلاً ذكر أن ديكاً عند بَقَالٍ لهم يقاتل به الكلابُ قال : فأتيتُ البَقَالِ الذي عنده فسألته عن الديك فرعم أنَّه قد وجَّه به إلى قتالِ الكلابِ وقد تراهنوا في ذلك فلم أبرحُ حتَّى اشتريتهُ وكنْتُ أصوئه وجعلته في مَكَنَةٍ فخرجت يوماً لبعضِ مصلحةٍ وأقبلتُ بنتي هذه لتظر إليه فكان هذا جزائي منه .

قال : وديكٌ آخرُ أقبلَ إلى رأسِ زيد بن علي حنَّيٍّ وطئَ في ذؤابته ثمَّ أقبلَ ينقرُ دماغه وعينه فقال رجل من قريش لمن حضر ذلك من الخدم :

نفع الكلب

والكلب إن كان كما يقول فإنَّ له يداً تشجُّ وأخرى تأسُو بل ما يدفعُ الله بحراسته ويجلب من المنافع بصيده أكثرُ وأغمر وهو

الغامر لا المغمور والفاضل لا المفضول والديك يفقأ العيون وينقر الأدمغة ويقتل الأنفس ويشج ولا بأسو
فشره صرف وخيره ممزوج إلا أن يزعموا أنه يحرس من الشيطان فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى
البرهان ومن عارض منافع الكلاب وحراستها أموال الناس من اللصوص ومنع السباع من الماشية وموضع
نفع الكلب في المزارع وذلك عيان ونفعه عام وخطبه عظيم بما يدعى من حراسة الديكة للشيطان لم يكايل
ولم يوازن ولم يعرف المقايسة ولا وقف قط على معنى المقابلة ودل بذلك على أن مبلغ رأيه لا يجوز رأي
النساء .

العواء وما قيل من الشعر فيه

ويكون العواء للكلب والذئب والفصيل وقال النابغة : (ألم أك جاركم فتركتموني ** لكلي في دياركم
عواء) وقال الشاعر : وقال الشاعر : (ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ** ليسقط عنه وهو بالثوب مغمصم
(

(عوى في سواد الليل بعد اعتسافه ** لينبح كلباً أو ليفزع نومة) (فجأوبه مستسمع الصوت للقرى **
له مع إتيان المهين مطعم) (يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً ** يكلمه من حبه وهو أعجم) وقال ذو
الرمة : (به الذئب محروناً كأن عواءه ** عواء فصيل آخر الليل مُحثل) وقال آخر : (ومنهل طامسة
أعلامه ** يعوي به الذئب وترفو هامه) وقال عقيل بن علفة يهجو زبأن بن منظور : (لا برك الله في قوم
يسودهم ** ذئب عوى وهو مشدود على كور) (لم يبق من مازن إلا شرارهم ** فوق الحصى حول زبأن
بن منظور) وقال غيلان بن سلمة : (ومعرس حين العشاء به ** الحبس فالأنواء فالعقل) (فتركنه يعوي
بقرته ** ولكل صاحب قفرة شكل) (بثوفة جرداء يجزعها ** لحب يلوح كأنه سحل) وقال مغلس بن
لقيط : (عوى منهم ذئب فطرب عادياً ** على فعليات مُستثار سخيمها)

(إذا هن لم يلحسن من ذي قرابة ** دماً هليست أحسادها ولحومها) وقال الأحمير السعدي : عوى
الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى)
وصوت إنسان فكدت أطيرو وقال آخر : (وعاء عوى والليل مستحلس الندى ** وقد زحفت للغور تالية
النجم) وذلك أن الرجل إذا كان باغياً أو زائراً أو ممن يلتمس القرى ولم ير بالليل نارا عوى ونبح لتجبيه
الكلاب فيهندي بذلك إلى موضع الناس .

وقال الشاعر : ومُستنبح أهل الثرى يلمس القرى إلينا ومساه من الأرض نازح (ومستنبح بعد الهدوء
دعوته ** وقد حان من ساري الشتاء طروق) فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب .

ما قالوا في أنس الكلب وإلفه

وقال صاحب الكلب : ومّا قالوا في أنس الكلب وإلفه وحبه لأهله ولمن أحسن إليه قول ابن الطّشيرة : (يا أمّ عمر و أنجري الموعودا ** وارعيّ بذاك أمانةً وعهوداً) (ولقد طرقت كلابَ أهلك بالضّحى ** حتّى تركتُ عَقُورَهُنَّ رُقُوداً) (يضربنّ بالأذنانِ من فرحِ بنا ** متوسّداتٍ أذرعاً وخدوداً) وقال الآخر : (لو كُنْتُ أَجِلُ خَمِراً يَوْمَ زَرْتُكُمْ ** لم يُنكَرِ الكلبُ أنّي صاحب الدّارِ) (لكنّ أتيتُ وريحُ المسكِ يفعمني ** والعبرُ الورْدُ أذكيه على النارِ) (فأنكر الكلب ريجي حين أبصرني ** وكان يعرف ريح الرّقّ والقارِ) وقال أبو الطّمحان القيّني في الإلف وهو يمدح مالك بن حمار الشّمخي :

(فما أنا والبكارة من مخاضٍ ** عِظامِ جِلَّةٍ سُلُسٍ وبُزْلِ) (وقد عرَفَتْ كلابُهُمُ ثيابي ** كأني منهمُ ونسيتُ أهلي) (نمتُ بك من بني شَمَخٍ زِنَادٌ ** لها ما شئتَ من فرعٍ وأصلِ) وقال الشاعر في أنس الكلاب وإلفها يذكر رجلاً : (عفيف بتسواقِ العِشارِ ورعِها ** ولكنّ بَلَقَامِ الثَّريدِ رَفِيقُ) (سَيِّدُ يَظَلُّ الكلبِ يَمَضُغُ ثَوْبَهُ ** له في ديارِ الغانياتِ طَرِيقُ) وقال الآخر : (بات الحويرثُ والكلابُ تَشُمُّهُ ** وسرتُ بأبيضِ كاهلالِ على الطّوى) وقال ذو الرمة : (رأيته كلابُ الحي حتّى أَلْفَنِي ** ومُدَّتْ نُسُوجِ العنكبوتِ على رحلي) وقال حسّان بن ثابت : (أولاد جَفَنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أبيهْمُ ** قَبْرِ ابنِ ماريةِ الكريمِ المُفْضِلِ) (بيض الوجوه نَقِيَّةٌ حُجَرَاتُهُمْ ** شَمُّ الأثوفِ من الطّرازِ الأوَّلِ) (يُغَشُّونَ حتّى ما تَهْزُ كلابُهُمْ ** لا يَسْأَلُونَ عن السّوادِ المُقْبِلِ) (وبوأت بيتك في معلّمٍ ** رَحِيبِ المَباءَةِ والمسرحِ) (كَفَيْتِ العُفَاةَ طِلَابَ القُرى ** ونَبَحَ الكلابِ لمُسْتَنَجِحِ)

(تَرَى دَعَسَ آثارِ تلكِ المطيِّ ** أخاديدَ كاللّقمِ الأَفِيحِ) (ولو كُنْتُ في نفقِ زائغٍ ** لَكُنْتُ على الشّركِ الأَوْضَحِ) وفي مثل ذلك وليس في ذكر إلف الكلاب ولكِنَّه ما ينبغي أن يكون مجموعاً إلى هذه الأشعار وبك إلى ذلك حاجة شديدة قال أميّة بن أبي الصّلت : (لا الغياباتُ مُتَوَاكٍ ولكنّ ** في ذُرَى مُشْرِفِ القُصورِ ذَرَاكَا) وقال البزّار الحلّي في المعنى الأول : (أَلَفَ الناسَ فما يَنْبَحُهُمْ ** من أسيفٍ يبتغي الخَيْرِ وَحُرّاً) وقال عمران بن عصام : (لِعَبْدِ العَزِيزِ على قَوْمِهِ ** وَغَيْرِهِمْ مِنْ غَامِرِهِ) (فَبابِكَ أَلِينُ أبوابِهِمْ ** ودَارُكَ أَهْلُهُ عَامِرِهِ) (وَكَلْبُكَ أَنَسٌ بِالْمَعْتَنِينَ ** من الأمِّ بَابَتِهَا الزَّائِرَهُ) (وَكُفُّكَ حِينَ تَرَى السَّائِلِي ** نَ أُنْدَى من اللَّيْلَةِ الماطِرَةِ) وقال هلال بن خثعم : (إِنِّي لَعَفٌُّ عن زيارةِ جارَتِي ** وَإِنِّي لَمَشْؤُءٌ إِلَيَّ اغْتِيَابُهَا)

(إذا غابَ عنها بعلها لم أكنْ لها ** زَوُوراً ولم تأنسْ إليّ كلابُها) (وما أنا بالدّاري أحاديثَ سرّها ** ولا عالِمٌ مِنْ أيِّ حَوْكٍ ثِيابُها) (وَإِنَّ قِرَابَ البَطْنِ يَكْفِيكَ مَلْؤُهُ ** وَيَكْفِيكَ سَوَاءُتِ الأُمُورِ اجْتِنَابُها) وقال حاتم الطائي وهو حاتم بن عبد الله ويكنى أبا سَفّانة وكان أسره ثوب ابن شحمة العنبريّ مُجبر الطير : (إذا ما بِجَيْلِ النَّاسِ هَرَّتْ كِلاهُ ** وَشَقَّ على الضَّيْفِ الغريبِ عَقُورُها) (فَإِنِّي جَبانُ الكلبِ بيتي موطّأً ** جَوادُ إذا ما النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيرُها) (ولكن كلابي قد أُقِرَّتْ وَعُودَتْ ** قليل على مَنْ يعترِبها هَرِيرُها)

هجو الناس بهجو كلابهم

وقال صاحب الكلب : إن كثيراً من هجاء الكلب ليس يراد به الكلب وإنما يراد به هجاء رجل فيجعل الكلب وصلة في الكلام ليبلغ ما يريد من شتمه وهذا أيضاً مما يرتفق الناس به (من دون سيك لون ليل مظلم ** وحفيف نافجة وكلب مُوسد) (وأخوك محتمل عليك ضغينة ** ومُسيّف قومك لائم لا يحمّد)

(والصيّفُ عندك مثلُ أسودٍ صالحٍ ** لا بل أحبهما إليك الأسود) فهذا قول الشاعر وقال الآخر : وما يك في من عيبٍ فإنّي جبانُ الكلبِ مهزولُ الفصيلِ فهو لم يرِدْ مدحَ الكلبِ بالجن وإنما أراد نفسه حين قال : وحفيف نافجة وكلب موسد فإن كان الكلب إنما أسره أهله فإنما اللوم على من أسره وإنما هذا الضرب كقوله : (قوم إذا استنبح الأضيافُ كلبهم ** قالوا لأُمهم بُوي على النَّارِ) ومعلوم أن هذا لا يكون ولكن حقر أمرهم وصغرهم .

وقال ابن هرمة : (وإذا تنورَ طارقٍ مستنبحٍ ** نبحتَ فدلتُهُ عليّ كلابي) وقال ابن مهية : (جلبنا الخيلَ من شُعبي تشكّي ** حوافرها الدوايرَ والتسورا) (ولم يكُ كلبهم ليفيق حتّى ** يهارش كلبهم كلباً عقورا) ومعلوم أن هذا لا يكون إنما هو مثل وقال أعرابي :

(أخو ثقةٍ قد يحسبُ المجدَ فرصةً ** إلى أهله أو ذمّةً لا تُخفّرُ) (حبيبٌ إلى كلبِ الكريمِ نباحه ** كريةً إلى الكوماءِ والكلبُ أبصرُ) وقال ابن هرمة : (وفرحة من كلابِ الحيّ يتبعها ** شحمٌ يرفُّ به الداعي وترعيبُ) فهذا قول هؤلاء وقال الآخر : (هجمنّا عليه وهو يكعمُ كلبه ** دَع الكلبُ ينبَحُ إنّما الكلبُ نابحُ) وقال الآخر : (وتكعمُ كلبُ الحيّ من خشيةِ القرى ** وناركُ كالعدراءِ من دُونها سترُ) وقال أعشى بني تغلب : (إذا احتلت معاوية بن عمرو ** على الأطواء خنقتِ الكلابا) فالكلب مرّةً مكعوم ومرّةً مخنوق ومرّةً مُوسد ومحرش ومرّةً يجعله جباناً ومرّةً وثاباً كما قال الراعي في الخطيئة : (وقعنا إليه وهو يخنقُ كلبه ** دَع الكلبُ ينبَحُ إنّما الكلبُ نابحُ) وقال أعشى بني تغلب :

(بكيتَ على زادٍ خيئتَ قريته ** ألا كلُّ عبسيّ على الزادِ نابحُ) وقال الفرزدق : ولا تنزع الأضياف إلا إلى فتى إذا ما أبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقداً وقال الآخر : دَع الكلبُ ينبَحُ إنّما الكلبُ نابحُ وقال الآخر : ألا كلُّ كلبٍ لا أبا لك نابحُ وقال الفرزدق : إذا ما أبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقداً) ومتى صار الكلب يأبى النباح فهذا على أنهم يتشفون بذكر الكلب ويترفقون به لا على أن هذا الأمر الذي ذكروه قد كان على الحقيقة : وقال الآخر وهو جرير :

(يُثير الكلابَ آخرَ الليلِ وطؤه ** كضَبِّ العرادِ خطؤه متقاربُ) (فبات يُمنيّنا الربيعَ وصوبه ** وينظرُ من لقاعةٍ وهو كاذبُ) فذكر تقاربَ خطوه وإخفاءَ حركته وأنه مع ذلك قد أثار الكلاب من آخر الليل وذلك وقت نومها وراحتها وهذا يدلُّ على تيقظها ودقّة حسّها .

وفيما ذكروا من حالة الكلب لسبب القرى من البرد والذي يلقي وكيف الشأن في ذلك قال أعشى باهلة : (وأجحرَ الكلبُ مبيضُ الصقيعِ به ** وألجا الحيّ من تنفاحه الحجرُ)

وقال الخطيئة : (إذا أبحر الكلب الصقيع اتقىته ** بأباج لا خور ولا قفرات) وقال ابن هرمة : (وسل الجار والمصعب والأض ** ياف وهنا إذا تحبوا لديا) (كيف يلقونني إذا نبج الكل ** ب وراء الكسور تبجاً خفياً) (ومشي الحالب الميس إلى النا ** ب فلم يقر أصفر الحي رياً) (لم تكن خارجة من تراث ** حادث بل ورثت ذاك علياً) (وتبرد برد رداء العرو ** س في الصيف رقرقت فيه العبيرا) (وتسخن ليلة لا يستطي ** غ نباحاً بها الكلب إلا هريرا) وقال الهذلي : (ليلة يصطلي بالفرت جازرها ** يختص بالتقري المثرين داعيها) (لا ينبج الكلب فيها غير واحدة ** من الشتاء ولا تسري أفاعيها)

وقال الفرزدق : (إذا اهر آفاق السماء وهتكت ** كسور بيوت الحي نكبأ حر جف) (وجاء قريع الشول قبل إقالها ** يرف وجاءت خلفه وهي زحف) (وهتكت الأطناب كل ذفرة ** لها تامل من عاتق النّي أعرف) (وباشر راعيها الصلي بلبانه ** وكف لحر النار ما يتحرّف) (وقاتل كلب الحي عن نار أهله ** ليربض فيها والصلا متكئ) (وأصبح مبيض الصقيع كآته ** على سروات النيب قطن مندّف)

الجزء الثاني

احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

(والأمثال السائرة والأخبار الصحيحة والأحاديث الماثورة وما أوجد العيان) (فيها وما استخرجت التجارب منها من أصناف المنافع والمرافق وعن)

مواضع أخلاقها المحمودة وأفعالها المرادة

(. ونبدأ بقول العرب : إن دماء الملوك شفاء من داء الكلب ثم نذكر الأبواب لما قدمنا في صدر كلامنا هذا قال بعض المربين : (أرى الخلان بعد أبي عمير ** بحجر في لقائهم جفاء) (من البيض الوجوه بني سنان ** لو أنك تستضيئ بهم أضواء) (لهم شمس النهار إذا استقلت ** ونور ما يعييه العماء) (بناء مكارم وأساة كلم ** دماؤهم من الكلب الشفاء) وقال الفرزدق :

(سقط : بيت الشعر) (من الدارمين الذين دماؤهم ** شفاء من الداء الحنة والحبل) وقال عبد الله بن قيس الرقيات : (عاودني التمس فاشتفيت كما ** تشفي دماء الملوك من كلب) وقال ابن عياش الكندي لبني أسد في قتلهم حجر بن عمرو :

(عبيد العصا جنتم بقتل رئيسكم ** تربقون تلموراً شفاء من الكلب) وقال الفرزدق : (ولو تشرب الكلبى المراض دماءنا ** شفتها وذو الحبل الذي هو أدنف) وذلك أنهم يزعمون أن دماء الأشراف والملوك تشفي من عضة الكلب الكلب وتشفي من الجنون أيضاً كما قال الفرزدق : (ولو تشرب الكلبى المراض دماءنا ** شفتها)

ثم قال : وذو الحبل الذي هو أدنفُ وقد قال ذلك عاصم بن القرية وهو جاهليّ : (وداوئنه مما به من مَجَنَّةٍ ** دم ابن كُهل والنطاسي واقف) (وقلدته دهرًا تيممة جدّه ** وليس لشيء كادّه الله صارف) وكان أصحابنا يزعمون أن قولهم : دماء الملوك شفاء من الكلب على

معنى أن الدّم الكريم هو (كلبٌ من حسٍّ ما قد مسّه ** وأفانين فؤاد مُختبلٌ) وعلى معنى قوله : كلبٌ بضربِ جماجمٍ ورقابٍ فإذا كلبٌ من الغيظ والغضب فأدرك ثأره فذلك هو الشفاء من الكلب وليس أن هناك دماء في الحقيقة يُشربُ ولولا قول عاصم بن القرية : والنطاسي واقفُ لكان ذلك التأويلُ جائزاً وقول عوف بن الأحوص :

(ولا العنقاء ثعلبة بن عمرو ** دماء القوم للكلبي شفاء) وفي الكلب يقول الأعشى : (أراني وعمراً بيننا دقٌ منشيمٌ ** فلم يبق إلا أن يُجنَّ وأكلبا) ألا ترى أنّه فرّق بينهما ولو كان كما قال لبيد بن ربيعة : (يسعى خزيمه في قومٍ ليهلكهم ** على الحمالة هل بالمرء من كلب) لكان ذلك على تأويل ما ذهبوا إليه جائزاً وقال الآخر : (وأمر أميرى قد أطعمتُ فإنّ ما ** كواه بنارٍ بين عينيه مُكلبٌ) وهذا عندي لا يدخل في الباب الأوّل وقد جعلوه منه .

قال صاحبُ الكلب : وزعمتم أنّه يبلغُ من فضل قوّة طباع الديك في الإلقاح أنّه متى سفد دجاجة وقد احتشت بيضاً صغاراً من نتاج الرّيح

والتراب قلبها كلّها حيواناً ولو لم يكن سفدها إلا مرّة واحدة وجعلتموه في ذلك بغاية الفحلة فطباعُ الكلب أعجبُ إلقاحاً وأتقُبُ وأقوى وأبعد لأنّ الكلب إذا عضّ إنساناً فأوّل ذلك أن يُحيله نباحاً مثله وينقله إلى طباعه فصار ينبح ثم يُحيله ويُلقحه بأجزاء صغارٍ يؤولها علّقاً في صور الكلاب على بُعد ما بين العُصرين والطّعين والجنسين والذي يتولّد في أرحام الدجاج أقرب مشاكلة إلى طباع الديك فالكلب هو العجب العجيب لأنّه أحبل ذكراً من خلاف جنسه ولأنّه مع الإحبال والإلقاح أحاله نباحاً مثله فتلك الأدراس وتلك الكلاب الصغار أولادٌ ونتاج وإن كان لا يبقى . وقد تعلمون أن أولاد البغلات من البغال لا تبقى وأن اللّقاح قد يقع وإنما مُنع البغل من البغلة بهذه العلة .

أسرة تنوارث دواء الكلب

قال أبو اليقظان وغيره : كان الأسود بن أوس بن الحمرة أتى النجاشي ومعه امرأته وهي بنت الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن

ثعلبة فقال النجاشي : لأعطيتك شيئاً يشفي من داء الكلب فأقبل حتّى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت فأوصى امرأته أن تتزوّج ابنه قدامة بن الأسود وأن تعلّمه دواء الكلب ولا يخرج ذلك منهم إلى أحد فتزوّجته نكاح مّقت وعلمته دواء الكلب فهو إلى اليوم فيهم .

فولَدَ الأسود قُدَّامة وولد قُدَّامة المُحِلُّ وأُمُّه بنت الحارث فكان اِخْلُ يُداوي من الكَلْب فولد اِخْلُ عُقبةً وعمرًا فداوى ابنُ اِخْلُ عُتيبة بن مرداس وهو ابن فسوة الشاعر فبال مثل أجراء الكلب علقًا ومثل صُور التَّمَل والأدراص فقال ابن فسوة حين برئ : (ولولا دواء ابن المُحِلِّ وعلمه ** هَرَرْتُ إذا ما النَّاسُ هَرَّ كلابُها)

(وأخرج عبد الله أولاد زارع ** مَوْلَعَة أكتافها وجنوبُها) وأولاد زارع : الكلاب .
وأما قوله : ولولا دواء ابن المُحِلِّ وعلمه هَرَرْتُ فإنَّما ذهبَ إلى أنَّ الذي يَعَضُّهُ الكَلْبُ الكَلْبُ يَنبَحُ نباح الكلاب ويَهْرُ هريها . (أعراض الكَلْب) وقال مُحَمَّد بن حفص وهو أبو عبيد الله بن محمد ابن عائشة :
عَضَّ رجلًا من بني العنبرِ كَلْبٌ كَلْبُ فأصابه داءُ الكلب فبال علقًا في صورة الكلاب فقالت بنت المستنشر :

(أبا لك أدراصًا وأولادَ زارعٍ ** وتلكَ لعمري نُهيّة المتعجَّب) وحَدَّثني أبو الصَّهْبَاء عن رجالٍ من بني سعد منهم عبد الرحمن بن شبيب قالوا : عَضَّ سنجيرَ الكَلْبُ الكَلْبُ فكان يعطشُ ويطلبُ الماءَ بأشدَّ الطلب فإذا أتوه به صاح عند معاينته : لا لا أريد وهكذا يصيب صاحبُ تلك العَضَّة وذلك أنَّه يعطش عنها أشدَّ العطش ويطلب الماءَ أشدَّ الطلب فإذا أتوه به هَرَبَ منه أشدَّ الهرب فقال دَلَمَ وهو عبدُ لبني سعد : (لقد جئت يا سنجير أجلو ملقة ** إباؤك للشيء الذي أنت طالب) وهي أبياتٌ لم أحفظ منها إلا هذا البيت .

وذكر مَسْلَمَة بن محارب وعليُّ بن مُحَمَّد عن رجاله أنَّ زيادًا كتب دواء الكلب وعلَّقه على باب المسجد الأعظم ليعرفه جميع الناس .

(ردَّ على ما زعموا من أعراض الكلب) وأنا حفظك الله تعالى رأيتُ كلبًا مرَّةً في الحَيِّ ونحن في الكُتَّاب فعرض له صبيٌّ مَهْدِيًّا من أولاد القصَّايين وهو قائمٌ يمحو لَوْحَهُ فعضَّ وجهه فنقع ثَنِيَّة دون موضع الجفن من عينه اليسرى فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خَلَّتْ فرمى به ملقيًّا على وجهه وجانب شدقه وترك مُقْلَتَه صحيحةً وخرج منه من الدَّم ما ظننتُ أنَّه لا يعيش معه وبقي الغلامُ مبهوتًا قائمًا لا ينيس وأسكنه الفزع وبقي طائر القلب ثمَّ خيط ذلك الموضعُ ورأيتُه بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكُتَّاب وليس في وجهه من الشَّنَر إلا موضعُ الخيط الذي خيط فلم يَنبَحْ إلى أن برئ ولا هَرَّ ولا دعا بماءٍ حتَّى إذا رآه صاح : رُدُّوه ولا بال جروا ولا علقًا ولا أصابه نَمًا يقولون قليل ولا كثير ولم أجِدْ أحدًا من تلك المشايخ يشكُّ أنَّهم لم يروا كلبًا قطُّ أكلَبَ ولا أفسَدَ طبعًا منه فهذا الذي عاينت .
وأما الذي بلغني عن هؤلاء الثقات فهو الذي قد كتبتُه لك .

(مما قيل في الكلب الكلب) وفي الكَلْب الكَلْبُ أنشد الأعرابي : (حَيَّاكُم الله فَإِنِّي منقلبٌ ** وإِنما الشاعر مجنون كلبٌ) أكثر ما يأتي على فيه الكَدْبُ (فَإِنْ كنتم كَلْبِي فعندي شفاؤكم ** وفي الجنِّ إن كان

اعتراك جُنُونُ) وأنشدني : (وما أدري إذا لاقيتُ عَمْرًا * أَكَلَنِي آلُ عمرو أم صِحاحُ) قال : فأما
المُكَلَّب الذي يصيبُ كلابه داءٌ في رؤُوسها يسمَّى الجُحام فتُكوى بين أعينها

مسألة كلامية

وسنذكر مسألة كلامية وإنما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام ولو كان أعلم
الناس باللغة لم ينفعل في باب الدين حتى يكون عالماً بالكلام وقد اعترض معترضون في قوله عز وجل :
وَأَثَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي

آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
فَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا الْمَثَلَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُضْرَبَ لِهَذَا الْمَذْكُورِ فِي صَدْرِ هَذَا الْكَلَامِ لِأَنَّهُ قَالَ : وَأَثَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي
آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَمَا يُشَبِّهِ حَالُ مَنْ أُعْطِيَ شَيْئاً فَلَمْ يَقْبَلْهُ وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَ ذَلِكَ بِالْكَلْبِ الَّذِي إِنْ
حَمَلَتْ عَلَيْهِ نَبَحَ وَوَلَّى ذَاهِباً وَإِنْ تَرَكَهُ شَدَّ عَلَيْكَ وَنَبَحَ مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ : يَلْهَثُ لَمْ يَقَعْ فِي مَوْضِعِهِ وَإِنَّمَا يَلْهَثُ
الْكَلْبُ مِنْ عَطَشٍ شَدِيدٍ وَحَرٍّ شَدِيدٍ وَمَنْ تَعَبَ وَأَمَّا التُّبَّاحُ وَالصَّيَّاحُ فَمِنْ شَيْءٍ آخَرَ قُلْنَا لَهُ : إِنْ قَالَ ذَلِكَ
مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَقَدْ يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ الرَّادُّ لَا يَسْمَى مُكَذِّباً وَلَا يَقَالُ لَهُمْ كَذَبُوا إِلَّا وَقَدْ كَانَ
ذَلِكَ مِنْهُمْ مَراراً فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَلَيْسَ بَعِيدَ أَنْ يَشَبِّهَ الَّذِي أُوتِيَ الْآيَاتِ وَالْأَعَاجِبِ وَالْبَرَهَانَاتِ
وَالْكَرَامَاتِ فِي بَدْءِ حَرْصِهِ عَلَيْهَا وَطَلَبِهَا بِالْكَلْبِ فِي حَرْصِهِ وَطَلَبِهَا فَإِنَّ الْكَلْبَ يُعْطَى الْجِدَّ وَالْجُهْدَ مِنْ
نَفْسِهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ وَشَبَّهَ رَفْضَهُ وَقَذْفَهُ لَهَا مِنْ يَدَيْهِ وَرَدَّهُ لَهَا بَعْدَ الْحَرْصِ عَلَيْهَا وَفَرَطِ الرِّغْبَةِ فِيهَا
بِالْكَلْبِ إِذَا رَجَعَ يَنْبَحُ بَعْدَ

إِطْرَاكِ لَهُ وَوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ رَفْضُ قَبُولِ الْأَشْيَاءِ الْخَطِيرَةِ النَّفِيسَةِ فِي وَزْنِ طَلِبِهِمْ)
والحرص عليها والكلب إذا أتعب نفسه في شلّة التُّبَّاحِ مَقْبَلاً إِلَيْكَ وَمَدْبِراً عَنْكَ لَهْتَ وَاعْتَرَاهُ مَا يَعْتَرِيهِ عِنْدَ
التَّعَبِ وَالْعَطَشِ وَعَلَى أَتْنَا مَا نَرْمِي بِأَبْصَارِنَا إِلَى كِلَابِنَا وَهِيَ رَابِضَةٌ وَادِعَةٌ إِلَّا وَهِيَ تَلْهَثُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ
هَنَّاكَ إِلَّا حَرَارَةُ أَجْوَافِهَا وَالَّذِي طُبِعَتْ عَلَيْهِ مِنْ شَأْنِهَا إِلَّا أَنَّ لَهْتَ الْكَلْبُ يَخْتَلِفُ بِالشَّلَّةِ وَاللَّيْنِ .

كرم الكلاب

وقال صاحب الكلب : ليس الديك من الكلب في شيء فمن الكلاب ذواتُ الأسماء المعروفة والألقاب
المشهورة ولكرامها وجوارحها وكواسيها وأحرارها وعناقها أنسابٌ قائمةٌ ودواوينٌ مخلّدةٌ وأعراقٌ محفوظةٌ
ومواليدٌ مُحْصَاةٌ مثل كلب جذعان وهو السَّلْهَبُ بن البراق بن يحيى بن وثّاب بن مظفر بن مُحَارِش .

شعر فيه ذكر أسماء الكلاب

وقد ذكر العرب أسماءها وأنسابها قال مزرد بن ضرار :

(فعَدَّ قَرِيضَ الشَّعْرِ إِنْ كُنْتَ مُغْزَرًا ** فَإِنْ غَزِيرَ الشَّعْرِ مَا شَاءَ قَاتِلُ) (لَنَعْتَ صُبَّاحِي طَوِيلَ شَقَاؤُهُ ** لَهُ رَقَمِيَّاتٌ وَصَفَرَاءُ ذَابِلُ) (بَقِيْنَ لَهُ مِمَّا يَبْرِيْ وَأَكْلَبُ ** تَقَلُّقُلْ فِيْ أَعْنَاقِهِنَّ السَّلَاسِلُ) (سَخَامٌ وَمِقْلَاءُ الْقَنِيصِ وَسُلْهَبٌ ** وَجَدَلَاءُ وَالسَّرْحَانُ وَالْمَتَنَاوُلُ) (بَنَاتُ سُلُوقِيَيْنِ كَانَا حَيَاتَهُ ** فَمَاتَا فَأَوْدَى شَخْصُهُ فَهُوَ خَامِلُ) (وَأَيُّقِنُ إِذْ مَا تَا بَجُوعٍ وَخَلَّةٍ ** وَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ : إِنَّكَ عَائِلُ) (فَطَوَّفَ فِي أَصْحَابِهِ يَسْتَشِيهِمُ ** فَأَبَ وَقَدْ أَكَدْتُ عَلَيْهِ الْمَسَائِلُ) (فَقَالَ لَهَا : هَلْ مِنْ طَعَامٍ فَإِنِّي ** أَذُمُّ إِلَيْكَ النَّاسَ أَمُّكَ هَابِلُ)

(فَقَالَتْ : نَعَمْ هَذَا الطَّوِيُّ وَمَاؤُهُ ** وَمُحْتَرَقٌ مِنْ حَائِلِ الْجِلْدِ قَاحِلُ) (فَلَمَّا تَنَاهَتْ نَفْسُهُ مِنْ طَعَامِهِ ** وَأَمْسَى طَلِيحًا مَا يُعَانِيهِ بَاطِلُ) (تَغَشَّى يَرِيدُ التَّوْمِ فَضْلَ رَدَائِهِ ** فَأَعْيَا عَلَى الْعَيْنِ الرُّقَادَ الْبَلَابِلُ) فَفَكَّرَ فِي هَذَا الشَّعْرِ وَقَفَّ عَلَى فُصُولِهِ حَتَّى تَعْرِفَ غِنَاءَ الْكِلَابِ عِنْدَهُمْ وَكَسْبَهَا عَلَيْهِمْ وَمَوْقِعَهَا مِنْهُمْ وَقَالَ لَبِيدٌ فِي ذِكْرِهَا وَذَكَرَ أَسْمَاءَهَا : (لَتَذُودُهُنَّ وَأَيُّقِنْتُ إِنْ لَمْ تَذُدْ ** أَنْ قَدْ أَحْمَمَ مِنَ الْخُتُوفِ حَامُهَا) (فَتَقَصَّدْتُ مِنْهَا كَسَابَ وَضَرَجْتَ ** بَدَمٍ وَغُودِرَ فِي الْمَكْرِ سَخَامُهَا)

عادة الشعراء حين يذكرون الكلاب

والبقر في شعرهم

ومن عادة الشعراء إذا كان الشعرُ مَرثِيَةً أو مَوْعِظَةً أَنْ تَكُونَ الْكِلَابُ الَّتِي تَقْتُلُ بَقَرَ الْوَحْشِ وَإِذَا كَانَ الشَّعْرُ مَدِيحًا وَقَالَ كَأَنَّ نَاقَتِي بَقْرَةً مِنْ صِفَتِهَا كَذَا أَنْ تَكُونَ الْكِلَابُ هِيَ الْمَقْتُولَةُ لَيْسَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ حِكَايَةٌ عَنْ قِصَّةٍ بَعِيْنَهَا وَلَكِنَّ الشَّيْرَانَ رَبَّمَا جَرَحَتِ الْكِلَابُ وَرَبَّمَا قَتَلَتْهَا

شعر آخر فيه ذكر لبعض أسماء الكلاب

وقال لبيدٌ في هذا القول الثاني غير القول الأول وذلك على معنى ما فسرت لك فقال في ذلك وذكر

أسماءها : (فَأَصْبَحَ وَانْشَقَّ الصُّبَابُ وَهَاجَهُ ** أَخُو قَفْرَةٍ يُشْلِي رِكَاحًا وَسَائِلًا)

(عَوَابِسَ كَالنُّشَّابِ تَدْمِيْ نَحْوَرُهَا ** يَرَيْنَ دِمَاءَ الْهَادِيَّاتِ نَوَافِلًا) وَمِنْ أَسْمَائِهَا قَوْلُهُمْ : عَلَى أَهْلِهَا جَنَتْ بِرَاقِشٍ وَمِنْ أَسْمَائِهَا قَوْلُ الْآخَرِ : ضَبَّارُ : (سَفَرْتُ فَقُلْتُ لَهَا هَجٌّ فَبَرَقَعَتْ ** فَذَكَرْتُ حِينَ تَبَرَقَعَتْ ضَبَّارًا) وَقَالَ الْكُمَيْتُ الْأُسْدِيُّ : (فَبَاتَ وَبَاتَ عَلَيْهِ السَّمَا ** ءُ مِنْ كُلِّ حَايِيَةٍ تَهْطُلُ) (مُكَبًّا كَمَا اجْتَنَحَ الْهَالِكِيُّ ** عَلَى التَّصَلِّ إِذْ طُبِعَ الْمَنْصُلُ) ثُمَّ ذَكَرَ أَسْمَاءَ الْكِلَابِ فَقَالَ : (وَفِي ضَيْنٍ حِقْفٍ يَرَى حِقْفَهُ ** خَطَافٍ وَسَرْحَةٍ وَالْأَخْدَلُ)

(وأربعة كقداح السرا ** ء لا عانيات ولا عبل) (بتنا وبات جليد الليل يضربنا ** بين البيوت قرانا نبج درواس) (إذا ملا بطنه ألبانها حلباً ** باتت تغنيه وضرى ذات إجراس) ودرواس : اسم كلب والوضرى : استه وغناؤها : الضراط وقال ضاي بن الحارث في ذلك : (فترملت بدم قدام وقد ** أوفى اللحق وحان مصرعه) وقال الآخر : (ولو هيا له الله ** من التوفيق أسبابا) (لسمي نفسه عمراً ** وسمي الكلب وثابا) ومثل هذا كثير .

أحرص الكلاب

والكلب أشد ما يكون حرصاً إذا كان خطمه يمس عجب ذنب الطي والأرنب والثور وغير ذلك مما هو من صيده ولذلك قال الشاعر : (ربما أغدو معي كلبى ** طالباً للصيد في صحبي) (فاستدرته فدر لها ** يلطم الرفعين بالترب) (فاذراها وهي لاهية ** في جيم الحاج والغرب) (ففرى جماعهن كما ** قد محلولان من عصب)

ثم قال : (غير يغفور أهل به ** جاف دفيه عن القلب) (ضم لحييه بمخطمه ** ضمك الكسرين بالشعب) (وانتحي للباقيات كما ** كسرت شغواء من هب) (فتعايا التيس حين كبا ** ودنا فوه من العجب) (ظل بالوعساء ينفذه ** آرمأ منه على الصلب) (تلك لذاتي وكنت فتي ** لم أقل من لذة حسي) الإهلال والاستهلال وأما قوله : غير يغفور أهل به فالإهلال الذي ذكر هو شيء يعتريه في ذلك الوقت يخرج من جوفه صوت شبيه بالعواء الخفيف وهو

ما بين العواء والأنين وذلك من حاق الحرص وشدة الطلب وخوف القوات ويقال : أهلت السماء إذا صبت واستهلت : إذا ارتفع صوت وقعها (يهل بالفرقد ركائها ** كما يهل الراكب المعتمر) ومنه استهلال الصبي ولذلك قال الأعرابي : رأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح واستهل أليس ذلك يطل

تخريق الكلب أذنيه

وإذا ضيع الكلب وهو أن يمد ضبعه كله ولا يكون كالحمار الضيق الإبطين والكلب في افتراش ذراعيه وبسط رجليه حتى يصيب قصه الأرض أكثر من الفرس وعند ذلك ما ينشط أذنيه حتى يدميهما ولذلك قال الحسن بن هانئ وقد طال ما نعت بهما : (فانصاع كالكوكب في انحداره ** لفت المشير موهناً بناره) (شدا إذا أخصف في إحضاره ** خرّق أذنيه شبا أظفاره) وأول هذه الأرجوزة : (لما غدا الثعلب من وجاره ** يلتبس الكسب على صغاره)

معرفة أبي نواس بالكلاب وجودة شعره

وأنا كُتبتُ لك رجزه في هذا الباب لأنَّه كان عالماً راوية وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب وذلك موجود في شعره وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحدق بالصنعة وإن تأملتَ شعره فضلتَهُ إلا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبداً أشعرُ وأنَّ المولَّدين لا يقاربونهم في شيء فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحقَّ من الباطل مادمتَ مغلوباً

طرديات أبي نواس

قال الحسن بن هانئ : (لما غدا الثعلبُ من وجاره ** يلتمس الكسبَ على صغاره) (عارضته في سنن امتياريه ** مضمرٌ يُموجُ في صداره)

(في حلق الصُّفَر وفي أسياره ** منضمةٌ قُصْرَاهُ من إضماره) (قد نَحَتَ التسهيمُ من أقطاره ** من بعد ما كان إلى أصباره) (غَضّاً غَذَتْهُ الجُورُ من عِشاره ** أيام لا يُحجبُ عن أظاره) (وهو طَلاً لم يدُنْ من إشغاره ** في منزلٍ يُحجبُ عن زُواره) (يُسلسُ فيه طَرْفِيْ نهاره ** حتَّى إذا أحمَدَ في اختباره) (جَمَرٌ غَضِيٌّ يَدْمِنُ في استعاره ** كأنَّ لَحْيِيه لَدَى افتراه)

(شك مَساميرَ على طَوَّاره ** يضمُّ قطريه من اضطباره) (وإن تَمَطَّى تَمَّ في أشباره ** عَشْرٌ إذا قَلَّ في اقتداره) (سَمْعٌ إذا استرَوَحَ لم تُمارِه ** إلا بأن يُطَلِّقَ من عذاره) (فانصاع كالكوكب في المنحدره ** لَفَتْ المُشيرُ مُوهناً بناره) (شدّاً إذا أَحْصَفَ في إحضاره ** خرَّقَ أذنيه شبا أظفاره) (حتى إذا ما انساب في غباره ** عافره أخرَقَ في عِفاره)

(فتَلْتَلِ المَفْصِلَ من فَقاره ** وشقَّ عنه جانبيَّ صداره) (ما خَيْرَ لِلثعلب في ابتكاره طردية ثانية لأبي النواس وقال في كلب سليمان بن داود الهاشمي وكان الكلبُ يسمى زُنْبوراً : (إذا الشياطينُ رأتْ زُنْبوراً ** قد قُلِدَ الحَلَقَةُ والسُّيُورُ) (دَعَتْ لِحْزَانَ الفَلَا بُبُورَا ** أدفى ترى في شِدْقِهِ تأخيراً) (ترى إذا عارضته مفرورا ** خناجراً قد نبئتْ سَطُورَا)

(سقط : بيت الشعر) (فتلتل المفصل من فقاره ** وشق عنه جانبي صداره) (حتَّى توفى السَّبْعَةُ الشهورا ** من سِنِّهِ وَبَلَغَ الشُّعُورَا) (وعرف الإيحاء والصَّفِيرَا ** والكفَّ أن تومئ أو تشيرا) (يعطيك أقصى حُضْرَه المذخورا ** شدّاً ترى من همزه الأظفُورَا) (مُنْتَشِطاً من أذنه سِيُورَا ** فما يزالُ والغا تامورا) (من ثعلب غادره مجزورا ** أو أرنب كورَها تكويرَا) (أو ظبية تقرو رشاً غريرا ** غادرها دون الطَّلا عَقيرا) (فامتع الله به الأميرا ** ربي ولا زال به مسرورا) (وقد قال كما ترى : (شدّاً ترى من همزه الأظفُورَا ** مُنْتَشِطاً من أذنه سِيُورَا)

يَاثر قوله : (حَتَّى تَوَفَّى السبعة الشهورا ** من سِنِّه وبلغ الشغورا) فَإِنَّ الكلب إذا شغل برجله وبأَلْ
فذلك دليل على تمام بلوغه للإلقاح وهو من الحيوان الذي يحتلم .
وأما احتلام الغلام فيعرف بأمور : منها انفراق طرف الأرنبة ومنها تغيُّر ريح إبطيه ومنها الأنياب ومنها
غلظ الصوت ومن الغلمان من لا يحتلم وفي الجواري جوارٍ لا يحضن وذلك في النساء عيب وليس مثله من
الرجال عيباً وقد رأيت رجالاً يوصفون بالقوة على النساء وبعضهم لم يحتلم إلا مرة أو مرتين وبعضهم لم
يحتلم البتة
طردية ثالثة لأبي نواس قد قال الحسن بن هانئ مثل ذلك في أرجوزة أخرى : (يَمْرِي إِذَا كَانَ الْجِرَاءُ عَبْطَا
** بَرَاثِنَا سُحْمَ الْأَثَافِي مُلْطَا)

يَنْشِطُ أُذْنِيهِ بَيْنَ نَشْطَا وهذه الأرجوزة أولها : (عَدَدْتُ كَلْبًا لِلطَّرَادِ سَلْطَا ** مَقْلَدًا قَلَانَدًا وَمَقْطَا) (فهو
الجميل والحسيب رهطاً ** ترى له شِدْقَيْنِ خُطًّا خَطًّا) (يمرى إِذَا كَانَ الْجِرَاءُ عَبْطَا ** بَرَاثِنَا سُحْمَ الْأَثَافِي
مُلْطَا) (ينشط أُذْنِيهِ بَيْنَ نَشْطَا ** تَخَالُ مَا دَمِينُ مِنْهَا شَرْطَا) (ما إِنْ يَقَعَنَّ الْأَرْضُ إِلَّا فَرْطَا ** كَأَنَّمَا
يُعْجَلِينَ شَيْئًا لَقْطَا)

(يَلْقَيْنِ مِنْهُ حَكْمًا مَشْتُطًا ** لِلْعَظْمِ حَطْمًا وَالْأَدِيمِ عَطًّا) ٤

شعر في نعت سرعة القوم

والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال : (يخفي التُّرابَ بأظلاف ثمانية ** ومُسْهِنَ إِذَا أَقْبَلْنَ
تَحْلِيلُ) وقال الآخر :

(وَكَأَنَّمَا جَهَدَتْ أَلْيَتُهُ ** أَنْ لَا تَمَسَّ الْأَرْضَ أَرْبَعُهُ) فأفرط المولِّدون في صفة السرعة وليس ذلك بأجود
فقال شاعرٌ منهم يصف كلبة بسرعة العدو : كَأَنَّمَا تَرْفَعُ مَا لَمْ يُوضَعَ وقال الحسن بن هانئ : ما إِنْ يَقَعَنَّ
الْأَرْضُ إِلَّا فَرْطَا وقال الحسن بن هانئ في نعت كلب : (أُنَعْتُ كَلْبًا أَهْلُهُ فِي كَلِّهِ ** قَدْ سَعِدَتْ جَدُودُهُمْ
بِجَدِّهِ)

(سقط : بيت الشعر) (فكل خير عندهم من عنده ** يظل مولاه له كعبده) (بيت أدنى صاحب من
مهده ** وإن عري جلله بُرْدِهِ) (ذو غُرَّةٍ مَحْجَلٌ بَزَنْدِهِ ** تَلَدَّ مِنْهُ الْعَيْنُ حُسْنَ قَدِّهِ) (يا حُسْنَ شِدْقِيهِ
وطولَ خَدِّهِ ** تَلَقَّى الطَّبَّاءُ عَنَّا مِنْ طَرْدِهِ) (يشربُ كأساً شَدُّهَا فِي شَلِّهِ ** يَا لَكَ مِنْ كَلْبٍ نَسِيجِ
وخده) طردية خامسة لأبي النواس وقال في صفاتها وأسمائها وسماتها وأنسابها وألقابها وتفدية أربابها لها كما
ذكرنا قبل ذلك : (قد أَغْنَيْتَنِي وَالطَّيْرُ فِي مَنَوَاتِهَا ** لَمْ تُعْرِبِ الْأَفْوَاهُ عَنْ لُغَاتِهَا)

(بَأَكْلَب تَمَرَحُ فِي قِدَاتِهَا ** تَعُدُّ عَيْنَ الْوَحْشِ مِنْ أَقْوَاتِهَا) (قَدْ نَحَتَ التَّقْرِيحَ وَارِيَاتِهَا ** مِنْ شِلَّةِ التَّسْهِيمِ وَاقْتِيَاتِهَا) (وَأَشْفَقَ الْقَانِصُ مِنْ حُفَاتِهَا ** وَقَلْتُ قَدْ أَحْكَمْتُهَا فَهَاتِهَا) (وَأُذِنَ لِلصَّيْدِ مُعْلِمَاتِهَا ** وَارْفَعُ لَنَا نِسْبَةَ أُمَّهَاتِهَا) (فَجَاءَ يُزْجِيهَا عَلَى شِيَاهَا ** شَمَّ الْعِرَاقِيبَ مَوْتَفَاتِهَا) (غَرَّ الْوُجُوهَ وَمَحْجَلَاتِهَا ** مُشْرِفَةً الْأَكْنَافِ مُوْفِيَاتِهَا)

(قُودُ الْخِرَاطِيمِ مُخَرِّطَاتِهَا ** سُودًا وَصُفْرًا وَخَلْنَجِيَّاتِهَا) (مَخْتَبِرَاتُ مِنْ سُلُوقِيَّاتِهَا ** كَأَنَّ أَقْمَارًا عَلَى لَبَاتِهَا) (تَرَى عَلَى أَفْحَازِهَا سِمَاتِهَا ** مُفَدِّيَاتٍ وَمُحْمِيَّاتِهَا) (مَفْرُوشَةُ الْأَيْدِي شَرَنْبَاتِهَا ** شَمَّ الْعِرَاقِيبِ مَوْلَاتِهَا) (حَيْدَ الْأَظَافِرِ مُكْعِبَرَاتِهَا ** زُلَّ الْمَآخِرِ عَمَلَسَاتِهَا) (تَسْمَعُ فِي الْآثَارِ مِنْ وَحَاتِهَا)

(مِنْ نَهْمِ الْحَرِصِ وَمِنْ خَوَاتِهَا ** لَتَفْنَأُ الْأَرْنَبَ عَنْ حَيَاتِهَا) (إِنَّ حَيَاةَ الْكَلْبِ فِي وَفَاتِهَا ** حَتَّى تَرَى الْقَدَرَ عَلَى مَتَفَاتِهَا) (كَثِيرَةُ الصَّيْفَانِ مِنْ غَفَاتِهَا ** تَقْدِفُ جَلَالَهَا بِجَوَزِي شَاتِهَا) (فَقَدْ قَالَ كَمَا تَرَى : (تَسْمَعُ فِي الْآثَارِ مِنْ وَحَاتِهَا ** مِنْ نَهْمِ الْحَرِصِ وَمِنْ خَوَاتِهَا) وَهَذَا هُوَ مَعْنَاهَا الْأَوَّلُ وَأَمَّا قَوْلُهُ : تَعُدُّ عَيْنَ الْوَحْشِ مِنْ أَقْوَاتِهَا فَعَلَى قَوْلِ أَبِي النَّجْمِ :)
تَعُدُّ عَانَاتِ اللَّوَى مِنْ مَالِهَا كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ جَلْبَابِهِ

هُوَ قَوْلُ الْأَوَّلِ : كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ كِسَائِهِ وَهُوَ كَمَا قَالَ الْآخِرُ : كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ بُرْدِ سَمَلٍ طَرْدِيَةٍ سَادِسَةٍ لِأَبِي النَّوَاسِ وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ : (لَمَّا تَبَدَّى الصُّبْحُ مِنْ حِجَابِهِ ** كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ جَلْبَابِهِ) (وَانْعَدَلَ اللَّيْلُ إِلَى مَآبِهِ ** هِجْنًا بِكَلْبٍ طَالَمَا هِجْنًا بِهِ) (خَرَطَهُ الْقَانِصُ وَاعْتَدَى بِهِ ** يَعْرِضُهُ طَوْرًا عَلَى اسْتِصْعَابِهِ) (وَتَارَةً يَصْبُ لَانْصَابِهِ ** فَاِنْصَاعَ لِلصَّوْتِ الَّذِي يَعْنِي بِهِ) (كَلِمَعَانِ الْبَرْقِ مِنْ سَحَابِهِ)
(كَأَنَّ عَيْنِيهِ لَدَى ارْتِيَابِهِ ** فَصًّا عَقِيقٍ قَدْ تَقَابَلَا بِهِ) (حَتَّى إِذَا عَفَّرَهُ هَاهَا بِهِ ** بَابًا بِهِ يَا بَعْدَ مَا بَابًا بِهِ) (وَمِيعَةٍ تُعْرِفُ مِنْ شَبَابِهِ ** كَأَنَّ مَتْنِيهِ لَدَى انْسِلَابِهِ) (مَتَنَا شُجَاعٍ لَجَّ فِي انْسِيَابِهِ ** كَأَنَّمَا الْأُظْهُورُ فِي قِنَابِهِ)

(مُوسَى صَنَاعَ رُدٍّ فِي نَصَابِهِ ** يَثْرُدُ وَجْهَ الْأَرْضِ فِي ذَهَابِهِ) (كَأَنَّ نَسْرًا مَا تَوَكَّلْنَا بِهِ ** يَعْفُو عَلَى مَا جَرَّ مِنْ ثِيَابِهِ) (إِلَّا الَّذِي أَثَرَ مِنْ هُدَابِهِ ** تَرَى سَوَامَ الْوَحْشِ يُحْتَوَى بِهِ) (يَرْحَنَ أَسْرَى ظُفْرِهِ وَنَابَهُ)

٤

صفة أبي نواس لتغلب أفلت منه مرارا

(وَقَالَ فِي ثَغْلِبِ كَانَ قَدْ أَفْلَتَ مِنْهُ مَرَارًا : (قَدْ طَالَمَا أَفْلَتَ يَا ثَعَالَا ** وَطَالَمَا وَطَالَمَا وَطَالَا) (جُلْتُ بِكُلِّي يَوْمَكَ الْأَجْوَالَا ** مَا طَلْتُ مَنْ لَا يَسْأَمُ الْمِطَالَا) (حَتَّى إِذَا الْيَوْمُ حَدَا الْإِصْلَالَا ** أَتَاكَ حَيْنُ يُقَدِّمُ

(الآجالا) طردية سابعة لأبي نواس وقال أبو نواس أيضاً : (لَفْتِيَّةٌ قَدْ بَكَرُوا بِأَكْلِبِ * قد أدبوها أحسنَ التأديب)

(مِنْ كُلِّ أَدْفَى مَيْسَانِ الشَّكْبِ * يشبُّ فِي الْقَوْدِ شِبَابَ الْمُقَرَّبِ) (يَنْشِطُ أُذُنِيهِ بِجِدِّ الْمِخْلَبِ * فما تني وشيقة من أرنب)

(وَجِلْدَةٌ مَسْلُوبَةٌ مِنْ ثَعْلَبِ * مَقْلُوبَةُ الْفُرَّةِ أَوْ لَمْ تُقْلَبِ) (وَعَيْرُ عَانَاتٍ وَأُمُّ التَّوَلَبِ * ومِرْجُلٌ يَهْدِرُ هَذِرُ الْمُصْعَبِ) يَقْذِفُ جَلَالَهُ بِجُوزِ الْقَرْهَبِ (صَفَةٌ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى فَرَاهِيَةِ الْكَلَابِ)

وشياهما وسياستها

قال بعض من خبر ذلك : إنَّ طول ما بين يدي الكلب ورجليه بعد أن يكون قصير الظهر من علامة السُرعة

قال : ويصفونه بأن يكون صغير الرأس طويل العنق غليظها وأن يشبه بعض خلقه بعضاً وأن يكون أغضف الأذنين مُفرط الغضف ويكون بعيد ما بينهما ويكون أزرق العينين طويل المقلتين ناتئ الحدقة طويل الخطم واسع الشدقين ناتئ الجبهة عريضها وأن يكون الشعر الذي تحت حنكه كأنه طاقة ويكون غليظاً وكذلك شعرُ خديهِ ويكون قصير اليدين طويل الرجلين لأنه إذا كان كذلك كان أسرع في الصعود بمنزلة الأرنب قالوا : ولا يكاد يلحق الأرنب في الصَّعود إلَّا كلُّ كلبٍ قصيرِ اليدين طويلِ الرجلين وينبغي أن يكون طويل الصدر غليظاً ويكون ما يلي الأرض من صدره عريضاً وأن يكون غليظ العضدين مستقيم اليدين مضموم الأصابع بعضها إلى بعض إذا مشى أو عدا وهو أجدرُّ ألاَّ يصير بينها من الطين وغير ذلك ما يفسدها ويكون ذكيَّ القواد نشيطاً ويكون عريض الظهر عريض ما بين مفاصل عظامه عريض ما بين

عظمي أصل الفخذين اللذين يصبيان أصل الذنب وطويل الفخذين غليظهما شديد لحمهما ويكون رزين الخزم رقيق الوسط طويل الجلدة التي بين أصل الفخذين والصدر ومستقيم الرجلين ويكون في ركبته انحناء ويصير قصير الساقين دقيقتها كأنهما خشبة من صلابتهما وليس يكره أن تكون الإناث طوال الأذنان ويكره ذلك للذكور ولين شعرهما)

يدلُّ على القوة وقد يرغب ذلك في جميع الجوارح من الطير وذوات الأربع من لين الرِّيش لذوات الريش ولين الشعر لذوات الشعر من عتاق الخيل علامةٌ صالحة قال : وينبغي أن يكون الكلب شديد المنازعة للمقود والسلسلة وأن يكون العظم الذي يلي الجنبين من عظام الجنبين صغيراً في قدر ثلاث أصابع وزعم أنَّهم يقولون : إنَّ السُّود منها أقلُّها صبراً على البرد والحر وإنَّ البِيض أفرُّه إذا كنَّ سُوْدَ العيون قال : ومن علامة الفرَّه التي ليس بعدها شيء أن يكون على ساقيه

أو على إحداهما أو على رأس الذنب مخلب وينبغي أن يُقطع من السَّاقين لتلا يمنعه من العدو

خير غذاء للكلب

وذكر أنّ خير الأشياء التي تُطعمُها للكلب الحيزُ الذي قد يَسِر (سقط : الصفحة كاملة) ويَكُون الماء الذي يسقاه عليه شيء من زيت ، فإن ذلك كالتحسّ للخيّل ، ويشتهد عليه عدوه .

خير طعام لإسمان الكلاب

وقال : خير الطعام في إسمان الكلاب رأس مطبوخ ، وأكارع بشعرها ، من غير أن تطعم من عظامها شيئاً ، والسمن إذا طعم منه قدر ثلاث سكرجات مرتين أو ثلاث مرات فإن ذلك مما يسمنه ، ويقال إنه (الصفحة كاملة) يعيد لهرم شاباً ، حتى يكون ذلك في الصيد وفي المنظر ، والعظم والثريد من أرد ما تأكله للعدو .

من علاج الكلاب

ومما يكون غذاء ومن خير شيء يداوي به الكلب من وجع البطن والديدان ، أن يطعم قطعة ألية وصوف شاة معجوناً بسمن البقر ، فإنه يلقي كل دود وقدر في بطنه .
وخير ما يعالج به الخفا أن يدهن أسته ثلاثة أيام ، ويجم فيها ولا يستعمل ، أو يمسح على يديه ورجليه القطران .
وذكر عن خزيمة بن طرخان الأسدي ، من أهل همدان ، أنه قال : ليس من علاج الكلب خير من أن يحقن (كدى ، وأكدى ، والكدية) .
وقال : يقال كدى الجرو يكدى كدى وهو داء يأخذ الجراء خاصة ، يصيبها منه قيء وسعال ، حتى تكوى بين عينيها . ويقال أكدى

عداوة بعض الحيوان لبعض وزعم صاحب المنطق أنّ العقاب تأكل الحيات وأن بينهما عداوة لأنّ الحيّة أيضاً تطلب بيضها وفراخها قال : والغداف يقاتل البومة لأنّ الغداف يخطف بيض البومة فهاً وتشدّ البومة على بيض الغداف ليلاً فتأكله لأنّ البومة ذليلة بالنهار رديّة النظر وإذا كان الليل لم يقوَ عليها شيء من الطير والطير كلّها تعرف البومة بذلك وصنيعها بالليل فهي تطير حول البومة وتضربها وتنتف ريشها ومن أجل ذلك صار الصيادون ينصبونها للطير والغداف يقاتل ابن عرسٍ لأنه يأكل بيضه وفراخه

قال : وبين الحدأة والغداف قتال لأنّ الحدأة تخطف بيض الغداف لأنّها أشدّ محالب وأسرع طيراناً وبين الأترغلة والشقرق قتال لأنّه يقتل الأترغلة ويطلبها وبين العنكبوت والعظاية عداوة والعظاية تأكل

العنكبوت وعصفور الشوك يعبث بالحمار وعبثه ذلك قتال له لأن الحمارة إذا مر بالشوك وكانت به دبرة أو جرب تحكك به ولذلك متى فحق الحمارة سقط بيض عصفور الشوك وجعلت فراخه تخرج من عشها وهذه العلة يطير العصفور وراء الحمارة وينقر رأسه والذئب مخالف للثور والحمارة والثعلب جميعاً لأنه يأكل اللحم النقي ولذلك يقع على البقر والحمير والثعلب

وبين الثعلب والزرق خلاف لهذه العلة لأنهما جميعاً يأكلان اللحم والغراب يخالف الثور ويخالف الحمارة جميعاً ويطير حولهما وربما نقر عيونهما وقال الشاعر : (عَادَيْتَنَا لَا زِلْتَ فِي تَبَابٍ * عَدَاوَةَ الْحِمَارِ لِلْغُرَابِ) ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق لأن الثعلب لا يجوز أن يُعَادِي مِنْ بَيْنِ أَحْرَارِ الطَّيْرِ وَجَوَارِحِهَا الزُّرْقَ وَحَدَهُ وَغَيْرَ الزُّرْقِ أَكَلِ اللَّحْمِ وَإِنْ كَانَ سَبَبُ عِدَاوَتِهِ لَهُ اجْتِمَاعُهُمَا عَلَى أَكْلِ اللَّحْمِ فَلْيُغَضِّ الْعُقَابَ مِنَ الطَّيْرِ وَالذَّئْبَ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ فَإِنَّهَا أَكَلِ اللَّحْمِ وَالثَّعْلَبُ إِلَى أَنْ يَحْسُدَ مَا هُوَ كَذَلِكَ أَقْرَبُ وَأَوْلَى فِي الْقِيَاسِ فَلَوْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعُمُّ أَكْلَةَ اللَّحْمِ بِالْعِدَاوَةِ حَتَّى يُعْطَى الزُّرْقَ مِنْ ذَلِكَ نَصِيْبِهِ كَانَ ذَلِكَ أَجْوَزَ وَلَعَلَّ الْمُتَرَجِّمَ قَدْ أَسَاءَ فِي الْإِخْبَارِ عَنْهُ قَالَ : وَالْحَيَّةُ تَقَاتِلُ الْخَنْزِيرَ وَتَقَاتِلُ ابْنَ عَرَسٍ وَإِنَّمَا تَقَاتِلُ ابْنَ عَرَسٍ إِذْ كَانَ مَأْوَاهُمَا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ وَتَقَاتِلُ الْخَنْزِيرَ لِأَنَّ الْخَنْزِيرَ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ الْقَنَافِدُ وَالْأَوْعَالُ وَالْخَنَازِيرُ وَالْعُقَبَانُ قَالَ : فَالْحَيَّةُ تَعْرِفُ هَذَا مِنَ الْخَنْزِيرِ فَهِيَ تُطَالِبُهُ .

قال : والغراب مصادق للثعلب والثعلب مصادق للحية والأسد والنمر مختلفان قال : وبين الفيلة اختلاف شديد وكذلك ذكورها وإنانها وهي تستعمل الأنياب إذا قاتل بعضها بعضاً وتعتمد بها على الحيطان فتهدمها وترحم النحلة مجنبها فتصرعها

تذليل الفيل والبعير

وإذا صعب من ذكورها شيء احتالوا له حتى يكومهم ذكر آخر فإذا كامه خضع أبداً وإذا اشتد خلقه وصعب عصبوا رجله فسكن ويقال إن البعير إذا صعب وخافه القوم استعانوا عليه فأبركوه وعقلوه حتى يكومهم فحل آخر فإذا فعل ذلك به ذل (الفيل والسنور) وأما أصحابنا فحكوا وجوه العداوة التي بين الفيل والسنور وهذا أعجب وذهبوا إلى فزع الفيل من السنور ولم يروه يفزع فما هو أشد وأضخم وهذا الباب على خلاف الأول كأن أكثر ذلك الباب بُني على عداوة الأكفاء .

والشاة من الذئب أشد فرقا منها من الأسد وإن كانت تعلم أن الأسد يأكلها

الحمام والشاهين

وكذلك الحمام يعتريه من الشَّاهين ما لا يعتريه من العقاب والبازي والصقر

أعداء الفأرة

وكذلك الفأرة من السنور وقد يأكلها ابنُ عرسٍ وأكثر ذلك أن يقتلها ولا يأكلها وهي من السنور أشدُّ فرقاً

الثعلب والدجاجة

والدجاجة تأكلها أصناف من السباع والثعلب يطالبها مطالبةً شديدة ولو أن دجاجاً على رفٍّ مرتفع أو كنَّ على أغصان شجرة شاهقة ثم مرَّ تحتها كلُّ صنفٍ ممَّا يأكلها فإنَّها تكون مستمسكةً بها معتصمةً بالأغصان التي هي عليها فإذا مرَّ تحتها ابنُ آوى وهنَّ ألفٌ لم تبقَ واحدةٌ منهنَّ إلا رمتُ بنفسها إليه

ما يأباه بعض الحيوان من الطعام

والسبع لا يأكل الحارَّ والسنور لا يذوق الحموضة ويَجَزَع من الطعام الحارَّ والله تعالى أعلم ثم رجع بنا القول إلى مفاجر الكلب ونبدأ بكلِّ ما أشبه فيه الكلب الأسود والإنسان وبشيء من صفات العظال قال صاحب المنطق في كتابه الذي يقال له الحيوان في موضع ذكر فيه الأسد قال : إذا ضرب الأسدُ بمخالبه رأيتَ موضع آثار مخالبه في أقدار شرط الحجام أو أزيد قليلاً إلا أنَّه من داخلٍ أوسعُ خرزاً كأنَّ الجلدَ ينضمُّ على سم مخالبه فيأكل ما هنالك فأما عَصَتُهُ فإنَّ دواءها دواءُ عَصَةِ الكلب قال : وممَّا أشبه فيه الكلب الأسد انطباقُ أسنانه وممَّا أشبه فيه الكلب الأسد النَّهْمُ فإنَّ الأسدَ يأكل أكلاً شديداً ويمضغ مضغاً متداركاً ويتلع البضغ الكبار من حاقِّ الرغبة ومن الحرص

وكالذي يخاف الفوت ولما نازع السنور من شَبْهِهِ صار إذا أُلْقِيَتْ له قطعة لحم فإمَّا أن يحملها أو يأكلها حيث لا تراه وإمَّا أن يأكلها وهو يكثر التلَفُّت وإن لم يكن بحضرته سنور ينازعه والكلب يعصُّ على العظم ليرضه فإن مأنعه شيءٌ وكان ممَّا يُسِيغُه ابتلعه وهو واثق بأنَّه يستمرِّيه ويُسيغه والنَّهْم يعرض للحياة والحياة لا تمضغ وإنما تبتلع ذوات الراسات وهي غير ذوات الأنياب فإنَّها تمضغ المضغعة والمضغتين وإن ابتلعت شيئاً فيه عظم أتتْ عوداً شاخصاً فالتوت عليه فحطمت العظم والحياة قوية جداً قال : والأسد وإن كان ممَّا لا يفارق الغياض ولا يفارق الماء فإنه قليلُ الشرب للماء وليس يُلْقَى رجعه إلا مرةً في اليوم وربما كان في اليومين والثلاثة ورجعه يابس شديد اليأس متعلِّق شبيهه برجيع الكلب ويشبهه أيضاً من جهة أخرى وذلك أنَّهما جميعاً إذا بالاً شَعَرَا

والكلب من أسماء الأسد لقاربة ما بينه وبين الكلب والكلب يُشبهه الخنزير فإنَّ الخنزير يسمَن في أسبوع وإن

جاع أياماً ثم شبع شبعة تبين ذلك تبيناً ظاهراً ألا تراه ينزع إلى محاسن الحيوان ويُشبهه أشراف السباع
وكرائم البهائم

عظام الكلاب

ويقال : ليس في الأرض فحلٌ من جميع أجناسِ الحيوانِ لذكره حجمٌ ظاهر إلا الإنسان والكلب وليس في
الأرض شيان يتشابهان من فرط إرادة كل واحدٍ منهما لطباع صاحبه حتى يلتحم عضو الذكر بعضو
الأنثى حتى يصير التحامهما التحام الخِلقة والبنية لا كالتحام الملازمة والملازمة إلا كما يوجد من التحام
قضيبي الكلب بتفر الكلبة .
وقد يلزق القُراد ويغمس العلس مقاديمه في جوف اللحم حتى يُرى صاحبُ القُراد كأنه صاحبُ ثولول وما
القُراد المضروبُ به المثلُ في الالتحام إلا دون التحام الكلبين ولذلك إذا ضربوا المثل للمتباضيعين بالسُيوف
والمُلْتَقِينَ للصِّراع فالنف بعضُهم ببعض قالوا :

كأنهم الكلاب المتعاطلة وليس هذا النوعُ من السِّفاد إلا للكلاب وزعم صاحبُ المنطق وغيره أن الذُّبابَ في
ذلك كالكلب

إسماعيل بن غزوان وجارية موسى بن عمران

وكان إسماعيل بن غزوان قد تعشقَ جاريةً كانت لمويس بن عمران وكانت إذا وقعت وقعةً إليه لم تمكث
عنده إلا بقدر ما يقع عليها فإذا فرغ ليست خفها وطارَت وكان إسماعيلُ يشتهي المعاودةَ
وأن يطيلَ الحديثَ ويريدُ القرصَ والشمَّ والتقبيلَ والتجريدَ ويعلم أنه في الكوم الثاني والثالث أجدر أن يُنظرَ
وأجلز أن يشتقي فكان ربما ضجرَ ويذكرها بقلبه وهو في المجلس فيقول : يارب امسخني وإياها كلبين
ساعة من الليل أو النهار حتى يشغلا الالتحام عن التفكير في غضب مولاتهما إن احتبست

من أعاجيب الكلاب

وفي الكلبة أعجوبة أخرى : وذلك أنه يسفدها كلبٌ أبقع وكلب أسود وكلب أبيض وكلب أصفر فتؤدي
إلى كل سافدٍ شكله وشبهه في أكثر ما يكون ذلك وأما تأويل الظالع في قول الحطيئة : (تسديتها من بعد ما
نام ظالعُ ال ** كلابٍ وأخى ناره كل موقد)

قال الأصمعي : يطلع الكلبُ لبعض ما يعرض للكلاب فلا يمنعه ذلك من أن يهيج في زمن هيج الكلاب
فإذا رأى الكلبة المستحرمة لم يطمع في معالنتها والكلابُ منتبهة تنبح فلا يزال يتنظر وقت فترة الكلاب

ونومها وذلك من آخر الليل وقال أحيحة بن الجلاح : (يا ليتني ليلة إذا هجع ال ** ناس ونام الكلاب
صاحبها)

طردية ثامنة لأبي نواس

ومما قيل في الكلاب : من الرجز قول أبو نواس :

(وفيتية من آل ذهل في النرى ** من الرفاشيين في أعلى العلا) (ييض بهليل كرام المتسمى ** باثوا
يسبرون إلى صوح اللوى) (ينفون عن أعينهم طيب الكرى ** إلا غشاشاً بعد ما طال السرى) (يعدين
إبلاء الفتى على الفتى ** حتى إذا ما كوكب الصبح بدا)

(رحية الأشداق غضف في دفا ** تلوي بأذنان قليلات اللحا) (سمعمعات الضمر من طول الطوى **
من كل مضبور القرأ عاري النسا) (محملج المتين منحوض الشوى ** شرنبت الرثن خفاق الحشا)

(تحال منه القص من غير جنا ** مسنتا صفواء في حيدى صفا) (يلتهب الغائط منه إن عدا ** يقادح المرو
وشذآن الحصا) (حتى إذا استسحر في راد الضحى ** بمرى أوفى به على الربا) (أراباً من دونها سرباً
ظبا ** نواشراً من أنس إلى خلا)

(فوضى يدغرن أفاحيص القطا ** لعلن واستلهشن من غير ظما) (مبالغات في نهيم وصاى ** كأنما
أعينها جمر الغضى) (ثم تطلعن معاً كالبرق لا ** في الأرض يهوين ولا لوح الهوا) (كأنها في شرطها لما
انبرى ** كواكب يرمى الشياطين بها)

(يذمرن بالإيساد ذمراً وآيا ** حتى إذا ما كنّ منهنّ كها) (دارت عليهنّ من الموت رحي ** تجذهنّ
بحديدات الشبا) (شوامد يلعنن معبوط الدما ** بين خليع الزور مرضوض الصلا)

(ومائل القودين مجلوز القفا ** يُقفين بالأكباد منها والكلى) (وبالقلوب وكراديس الطلى طردية تاسعة
لأبي النواس وقال أيضاً : (لما تبدى الصبح من حجابيه ** وانعدل الليل إلى مآبه) (خرطه القانص واغتندى
به ** في مقود يردع من جذابه) (يعزّه طوراً على استصعابه ** وتارة ينصب لانصبابه) (كأنما يفتّر من
أنيابه ** عن مرهفات السن من حرابه) (يرثم أنف الأرض في ذهابه ** حتى إذا أشرف من جذابه)

(بعد انحدار الطرف وانقلابه ** بروضة القاع إلى أعجابه) (أرسله كالسهم إذ غالى به ** يكاد أن ينسل
من إهابه) (كلمعان البرق في سحابه ** حتى إذا ما كاد أو حدا به) (وانصت للصوت الذي يدعى به
** كأنما أدمج في خضابه) (ماين حيه إلى أفرابه ** مشهر الغدو في إياه)

وقال أيضاً : ما البرق عارضٌ لمّاح ولا انقضاء الكواكب المنصاح (ولا انبتات الدّلّو بالمّتاح ** ولا انسياب الحوت بالمّنداح)

(حين دنّا من راحة السّباح ** أجدّ في السّرعة من سرياح) (يكادُ عندَ ثَمَلِ المِراح ** إذا سَمّا الخاتِلُ للأشباح) (يطيرُ في الجوّ بلا جناح ** يفتّر عن مِثْلِ شَبّا الرّماح) (فكمّ وكمّ ذي جدّة ليّاح ** ونازبٍ أغفرَ ذي طماح)

غادره مضرج الصفاح

باب آخر في الكلب وشأنه

تفسير شعر قيل في الكلاب

قال طفيل الغنوي : (أناس إذا ما أنكر الكلبُ أهله ** حموا جارههم من كلّ شنعاء مُظلع) يقول : إذا تكفّروا في السّلاح لم تُعرفهم كلابهم (فلا ترفعي صوتاً وكوني قصيّة ** إذا ثوب الدّاعي وأنكرني كلّي) يقول : إيّاك والصّراخ إذا عاينت الجيش

وقوله : أنكرني كلبي يخبر أنّ سلاحه تامّ من الدّرع والمِغفر والبيضة فإذا تكفّر بسلاحه أنكره كلبه فبيحه وأما قوله : (إذا خرّس الفحل وسطَ الحُجور ** وصاح الكلابُ وعقّ الولد) فأمّا قوله : إذا خرّس الفحل فإنّ الفحل إذا عاين الجيش وبوارق السيوف لم يلتفت لفت الحُجور وأمّا قوله : وصاح الكلاب فإنّ الكلاب في تلك الحالة تبّح أربابها كما تبّح سرعان الخيل إليهم لأنّها لا تعرفهم من عدوّهم وأمّا قوله : وعقّ الولد فإنّ المرأة إذا صبّحتهم الخيل ونادى الرجال يا صباحاه ذهلت عن ولدها وشغلها الرّعب عن كلّ شيء فجعل تركها احتمال ولدها والعطف عليه في تلك الحالة عقوقاً منها وهو قولهم : نزلت بهم أمور لا يُنادى وليدها وإنما استعاروا هذه الكلمة فصيّروها في هذا الموضع من هذا المكان وقد ذكر ذلك مزرد بن ضرار وغيره فقال :

(تبرّأت من شتم الرجال بتوبة ** إلى الله منى لا يُنادى وليدها) (ظهرتم على الأحرار من بعد ذلّة ** وشقوة عيش لا يُنادى وليدها) والذي يُخرسه إفراطُ البرد وإلحاح المطر كما قال الهذلي : (وليلة يصطلي بالفرث جازرها ** يختصّ بالتقرى المثرين دأعيها) (لا يَبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدة ** من الصّقيع ولا تسري أفاعيها)

وقال ابن هرمة : (واسأل الجار والمعصب والأضيا ** ف وهنّا إذا تحيوا لدياً) (كيف يلقونني إذا نبّح الكل ** ب وراء الكُسور نبّحاً خفياً) وقال آخر : (إذا عمي الكلبُ في ديمة ** وأخرسه الله من غير صرّ

(يقول : الكلبُ وإن أحرَسَه البردُ الذى يكون مع المطر والريِّح التي تمرُّ بالصَّحارى المطيرة فَيَبْرُدُ فإنَّ الكلب وإن ناله ذلك فإنَّ ذلك من خِصْبٍ وليس ذلك من صِرٍّ

نبح الكلاب السحاب

والكلب إذا ألحَّت عليه السحاب بالأمطار في أيام الشتاء لَقِيَ جَنَّةً فمَتَى أَبْصَرَ غِيماً نبحه (وما لي لا أغرُو وللدهر كَرَّةً ** وقد نَبَحْتُ نحوَ السماءِ كلاهما) يقول : قد كنت أدْعُ الغزو مخافة العطش على الخيل والأفئس فما غُذِرِي اليوم والغدران كثيرة ومناقع المياه موفورة والكلاب لا تَنبَحُ السحاب إلاَّ من إلحاح المطر وتراذه وقال الأفوه الأودي في نبح الكلاب السحاب وذلك من وصف الغيم : (له هَيْدَبٌ دانٍ ورغدٌ ولَجَّةٌ ** وبرق تراه ساطعاً يتلجُّ) (فبأنت كلاب الحيِّ يَنْبَحُنْ مُزْنُهُ ** وأضحت بناتُ الماء فيها تَعَمَّجُ)

(قول أبي حَيَّة النُميري في الكلب) وقال أبو خالد النُميري : وذكروا فرعون ذا الأوتاد عند أبي حَيَّة النُميري فقال أبو حَيَّة : الكلبُ خير منه وأحزم قال : فقليل له كيف خَصَصْتَ الكلبَ بذلك قال : لأنَّ الشاعر يقول : (وما لي لا أغرُو وللدهر كَرَّةً ** وقد نَبَحْتُ نحوَ السماءِ كلاهما) وقال الفرزدق : (فَإِنَّكَ إن تَجُو حَنيفَةً سادراً ** وقبلك قد فاتوا يَدَ المتناولِ) (كَفِرَعُونَ إذ يرمي السَّمَاءَ بسهمِهِ ** فرُدَّ عليه السهمُ أفوقَ ناصلي) (تَعْصَبُ فهد الأحرز للكلب) وزعم فهدُ الأحرز أنَّ الكلبَ إِنَّمَا عَرَفَ مَخْرَجَ ذلك الشيء المؤذي له حتَّى نبحه بالقياس لأنَّه إِنَّمَا نَبَحَ بعد أن توالى عليه الأذى من تلك الجهة وكان فهد يتعصَّب للكلب فقلت له : وكذلك الحمار

إذا رفعت عليه السَّوط مرَّ من تحك مرَّاً حثيثاً فالقياس علَّمُه أنَّ السَّوط متى رُفِعَ حُطَّ ومتى حُطَّ أصابه ومتى أصابه ألم فما فضلُ الكلبُ في هذا الموضع على الحمار والحمار هو الموصوف بالجهل

مما قيل في نباح الكلاب

قال الفرزدق : (وقد نَبَحَ الكلبُ السحابَ ودُونَهَا ** مَهَامُهُ تَعْشِي نَظْرَةَ المتأملِ) وقال الآخر : (ما لك لا تَنبَحُ يا كَلْبُ الدَّوْمِ ** قد كُنتَ نَبَّاحاً فما بالُ اليَوْمِ) قال : كان هذا رجلٌ يتنظر عيراً له تَقْدَمُ فكان إذا جاءت العيرُ نبح فاحتبست عليه العيرُ فقال كالتمني كالمنتظر المستبطى : ما لك لا تَنبَحُ أي ما للعير لا تأتي وقال : خرج إليس بن معاوية فسمع بُباح كلب فقال : هذا كلبٌ مشدود ثم سمع نباحه فقال : قد أُرسِلَ فأنتهوا إلى الماء فسألوهم فكان كما قال فقال له غيلان أبو مروان : كيف علمتَ أنَّه موثقٌ وأنَّه أطلق قال :

كان نباحه وهو موثق يُسمع من مكانٍ واحد فلما أطلق سمعته يُقْرُبُ مرَّةً ويبعد مرَّةً ويتصرَّفُ في ذلك وقالوا : مرَّ إليس بنُ معاوية ذاتَ ليلةٍ بماء فقال : أسمعُ صوتَ كلبٍ غريب قيل له : كيف عرفتَ ذلك

قال : بُخْضُوعُ صَوْتِهِ وَشِلَّةُ نُبَاحِ الْآخِرِ فَسَالُوا إِذَا هُوَ غَرِيبٌ مَرْبُوطٌ وَالْكَلَابُ تَبَحُّهُ اسْتَطْرَادَ لَغْوِي
وقال بعض العلماء : كَلْبٌ أَبْقَعَ وَفَرَسٌ أَبْلَقُ وَكَبْشٌ أَمْلَحُ وَتَيْسٌ أَبْرَقُ وَثُورٌ أَشْيَاهُ وَيُقَالُ كَلْبٌ وَكَلَابٌ
وَكَلِيبٌ وَمَعَزٌ وَمَاعِزٌ وَمَعِيزٌ وَقَالَ لَبِيدٌ : (فَبِتْنَا حَيْثُ أَمْسَيْنَا قَرِيبًا ** عَلَى جَسَدَاءَ تَنْبَحُنَا الْكَلِيبُ)

وقال عَلَقَمَةُ بْنُ عَبْلَةَ : (وَتُصْبِحُ عَنْ غِيبِ السُّرَى وَكَأَنَّهَا ** مُوَلَّعَةٌ تَخْشَى الْقَنِيصَ شُبُوبُ) (تَعَفَّقُ
بِالْأَرْطَى لَهَا وَأَرَادَهَا ** رَجَالٌ فَبَدَّتْ نَبْلَهُمْ وَكَلِيبُ) (فَمَنْ لِلخَيْلِ بَعْدَ أَبِي سَرَّاجٍ ** إِذَا مَا أَشْنَجَ الصَّرَّ
الْكَلِيبَا) وهؤلاء كلهم جاهليون

رَأَى حَمْوِيَةَ الْخَرَبِيِّ فِي بَقْعِ الْكَلَابِ وَسَوَادَهَا وَقَالَ حَمْوِيَةُ الْخَرَبِيِّ وَأَنْشَدُوهُ : (كَأَنَّكَ بِالْمُبَارَكِ بَعْدَ حِينَ
** تَخُوضُ غِمَارَهُ بُقْعَ الْكَلَابِ) وَأَنْشَدُوهُ : (أَرْسَلْتُ أَسَدًا عَلَى سُودِ الْكَلَابِ فَقَدْ ** أَمْسَى شَرِيدُهُمْ فِي
الْأَرْضِ فَلَا لًا) فَقَالَ : لَا خَيْرَ فِي بُقْعِ الْكَلَابِ الْبَتَّةِ وَسُودِ الْكَلَابِ أَكْثَرُهَا عَقُورًا

خير الكلاب والسنانير

وخيرُ الكلاب ما كان لوْنُهُ يذهب إلى ألوان الأسد من الصفرة والحُمْرة والتقيع هُجْنَةً وخيرُ السنانير
الْخَلَنْجِيَّةُ وخيرُ كلاب الصيدِ الْبَيْضُ قالوا : إِنَّ الْأَسَدَ لِلْهَرَّاشِ الْحُمْرِ وَالصُّفْرِ وَالسُّودَ لِلدَّنَابِ وَهِيَ شَرُّهَا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لَوْلَا أَنَّ الْكَلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا وَلَكِنْ اقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ
بِهِمْ وَكُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْخِيَوَانِ إِذَا اسْوَدَّ شَعْرُهُ أَوْ جُلْدُهُ أَوْ خَيْرُ الْحَمَامِ وَزَعَمَ أَنَّ الْحَمَامَ الْهَدَاءَ إِنَّمَا هُوَ فِي الْخُضْرِ
وَالنَّمْرِ إِذَا اسْوَدَّ الْحَمَامُ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْإِحْتِرَاقِ صَارَ مِثْلَ الرَّجِيِّ الشَّدِيدِ الْبَطْشِ الْقَلِيلِ الْمَعْرِفَةِ وَالْأَسْوَدَ
لَا يَجِيءُ مِنَ الْبَعْدِ لِسُودِ هِدَايَتِهِ وَالْأَبْيَضُ وَمَا ضَرَبَ فِيهِ الْبَيَاضُ لَا يَجِيءُ مِنَ الْغَايَةِ لَضَعْفِ قَوَاهِ وَعَلَى قَدَرِ مَا
يَعْتَرِيهِ مِنَ الْبَيَاضِ يَعْتَرِيهِ مِنَ الضَّعْفِ

فَالْكَلْبُ هُوَ الْأَصْفَرُ وَالْأَحْمَرُ وَالْحَمَامُ هُوَ الْأَخْضَرُ وَالْأَنْمَرُ وَالسَّنُورُ هُوَ الْخَلَنْجِيُّ الْعَسَّالُ وَسَائِرُ الْأَلْوَانِ
عَيْبٌ وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا وَمِنْهَا الْخَارِجِيُّ كَمَا يَكُونُ مِنَ الْخَيْلِ وَلَكِنَّهُ لَا يَكَادُ يَنْجِبُ وَلَا تَعْدُو الْأُمُورُ الْحَمُودَةُ
مِنْهُ رَأْسُهُ وَقَدْ يَكُونُ رَبَّمَا أَشْبَهَ وَقَرَبَ مِنَ النَّجَابَةِ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ كَهَذِهِ الْأَمْهَاتِ وَالْآبَاءِ الْمُنْجِبَةِ إِلَّا
أَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ بَطُونِ عِدَّةٍ .

استطرد لغوي وقال أبو زيد : قَالَ رَدَّادٌ : أَقُولُ لِلرَّجُلِ الَّذِي إِذَا رَكِبَ الْإِبِلَ فَعَقَرَ ظَهْرَهَا مِنْ إِتْعَابِهِ هَذَا
رَجُلٌ مِعْقَرٌ وَكَذَلِكَ السَّرَجُ وَالْقَتَبُ وَلَا يَقَالُ لِلْكَلْبِ إِلَّا عَقُورٌ وَيُقَالُ هُوَ ضَرُوكَ لِلْكَلْبِ الضَّارِي عَلَى الْبَيْدِ
وَضُرُوكَ لِلْكَلْبَةِ وَهَذَا ضَرَاءٌ كَثِيرَةٌ وَكَلْبٌ ضَارٍ وَكَلَابٌ ضَوَارٍ وَقَدْ ضَرَبْتُ أَشَدَّ الضَّرَاوَةِ وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ :
وقال طفيل الغوي :

(تُبَارِي مَرَاحِيهَا الزَّجَاجَ كَأَنَّهَا * ضِرَاءٌ أَحَسَّتْ نَبَأَهُ مِنْ مَكْلَبٍ)
ومنه قيل : إناء ضار وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه : إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْمَجَازِرَ فَإِنَّ لَهَا ضِرَاوَةً كضِرَاوَةِ الْخَمْرِ
وقال الأصمعيّ : كلب أبْقَعُ وكنبة بَقَعَاءَ وفرس أبلق وفرس بَلَقَاءَ وتيس أبرق وعُتْرُ بَرَقَاءَ وكذلك جَبَلُ
أبرق وكسَاءُ أبرق وكنب أبرق .

الغلام الشاعر وقال ابن داحية : نزل عندنا أعرابيٌّ ومعه ابنان له صغيران وكان أحدهما مُسْتَهْتَرًا بِاللَّعِبِ
بِالْكَلَابِ وكان الآخر مُسْتَهْتَرًا بِالْحُمَلَانِ فقال الأعرابيُّ لصاحب الكلب : (مَا لِي أَرَاكَ مَعَ الْكَلَابِ جَنِيْبَةً
* وَأَرَى أَخَاكَ جَنِيْبَةَ الْحُمَلَانِ) قال : فردَّ عليه الغلام : (لَوْلَا الْكَلَابُ وَهَرُّشُهَا مَنْ دُونَهَا * كَانِ الْوَقِيرُ
فَرِيْسَةَ الذُّؤْبَانِ) والوقير : اسم للغنم الكثيرة السائمة مع ما فيها مِنَ الْحَمِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وقال الشماخُ بنُ
ضِرَارٍ : (فَأَوْرَدَهُنَّ تَقْرِيْبًا وَشَدًّا * شَرَائِعَ لَمْ يَكْدُرْهَا الْوَقِيرُ)

وقال الشاعر في تنبئ ما قال الغلام : (تَعْدُو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كَلَابَ لَهُ * وَتَنْتَقِي صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ
الضَّارِي) وقال الآخر : (إِنَّ الذَّنَابَ تَرَى مَنْ لَا كَلَابَ لَهُ * وَتَنْتَقِي حَوْزَةَ الْمُسْتَنْفِرِ الْحَامِي) عَفَّةُ عُمَرَ بْنِ
أَبِي رَبِيعَةَ وَابْنِ أَبِي عَتِيقٍ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ : قَدِمَتِ امْرَأَةٌ إِلَى مَكَّةَ وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَعَفَافٍ وَبَرَاعَةٍ
وَشَارَةً فَأَعْجَبَتْ ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَخَافَتْ شِعْرَهُ فَلَمَّا أَرَادَتْ الطَّوْفَ قَالَتْ لِأَخِيهَا : أَخْرِجْ مَعِيَ
فَخَرَجَ مَعَهَا وَعَرَضَ لَهَا عُمَرُ فَلَمَّا رَأَى أَخَاهَا أَعْرَضَ عَنْهَا فَأَنْشَدَتْ قَوْلَ جَرِيرٍ : (تَعْدُو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا
كَلَابَ لَهُ * وَتَنْتَقِي حَوْزَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الضَّارِي)

هذا حديثُ أبي الحسن وأما بنو مَخْزُومٍ فيزْعُمُونَ أنَّ ابنَ أبي ربيعةَ لم يَحُلْ إِزَارَةً على حَرَامٍ قَطُّ وإنما كان يذهب في نسيبه إلى أخلاقِ ابنِ أبي عتيقٍ فإنَّ ابنَ أبي عتيقٍ كان من أهل الطَّهارة والعفاف وكان من سمعَ كلامه توهَّم أنَّه من أجراً الناس على فاحشة وما يُشبه الذي يقولُ بنو مَخْزُومٍ ما ذكروا عن قريش والمهاجرين فإنَّهم يقولون : إنَّ عمر بن عبد)

الله بن أبي ربيعة إنما سُمِّيَ بعمر بن الخطاب وإِنَّه ولد ليلة ماتَ عمر فلما كان بعد ذلك ذكروا ومثُلُ هذا الكلام لا يقال لمن يُوصف بالعِفَّة الثابتة وصية شريح لمعلم ولده ولُبَّغِض المَزاح في لعب الصبيان بالكلاب واستهتارهم بها كَتَبَ شريح إلى معلِّمٍ ولَدٍ له كان يَدَعُ الكِتَابَ وَيَلْعَبُ بالكلاب : (تَرَكَ الصَّلَاةَ لِأَكْلِ يَلْهُو بها ** طَلَبَ الْهَرَّاشِ مع الْغَوَاةِ الرُّجَسِ)

(وليأتينك غادياً بصحيفةٍ ** يَغْدُو بها كصحيفة المتلمِّسِ) (فإذا خَلَوْتَ فَعَضَّهُ بِمَلَامَةٍ ** أو عَظَّهُ مَوْعِظَةً الأديب الأكيس) (وإذا هَمَمْتَ بضربه فَبِدْرَةٍ ** وإذا ضَرَبْتَ بها ثلاثاً فَاحِسِ) (واعلمْ بأنك ما فعلتَ فإنَّه ** مَعَ مَا يَجْرَعُنِي أعزُّ الأنفُسِ) وهذا الشعر عندنا لأعشى بني سليم في ابنٍ له وقد رأيتُ ابنه هذا شيخاً كبيراً وهو يقول الشعر وله أحاديثُ كثيرةٌ طريفة

من دلائل كرم الكلب

وقال صاحب الكلب : وما يدلُّ على قَدْرِ الكلب كثرة ما يجري على ألسنة النَّاسِ من مَدْحِهِ بالخير والشرِّ وبالحمد وبالذمِّ حتَّى ذكر في القرآن مرَّةً بالحمد ومرَّةً بالذمِّ وبمثل ذلك ذكر في الحديث وكذلك في الأشعار والأمثال حتى استعمل في الاشتقاقات وجرى في طريق الفأل والطَّيرة وفي ذكر الرؤيا والأحلام ومع الجن والحِنِّ والسَّبَّاع والبهائم فإن كنتم قضيتُم عليه بالشرِّ والنقص وباللؤم وبالسقوطِ لأنَّ ذلك كَلَّه قد قيل فيه فالذي قيل فيه من الخير أكثرُ ومن الخصال الحمودة أشهر وليسَ شيءٌ أجمعَ لخصال النقص من الحُمُول لأنَّ تلك الخصال المخالفة لذلك تُعطي من التَّباهة وتُقيم من الذكر على قَدْرِ المذكور من ذلك وكما لا تكون الخصال التي تُورث الحُمُول مورثة للتَّباهة فكذلك خصال التَّباهة في مجانبة الحُمُول لأنَّ الملوَمَ أفضلُ من الخامل

الترجمان بن هريم والحارث بن شريح وسمع الترجمان بن هُرَيْم عند يزيد بن عمر بن هبيرة رجلاً يقول : ما جاء الحارث ابن شريح بيوم خيرَ قَطٍّ قال التَّرجمان : إلا يكنُ جاء بيوم خيرَ فقد جاء بيوم شرٍّ)

سياسة الحزم وبعْدُ فأبى رئيسٍ كان خيرُهُ محضاً عدمَ الهَيْبَةِ وَمَنْ لم يَعْمَلْ بإقامة جزاءِ السيئة والحسنة وقتل في موضع القتل وأحيا في موضع الإحياء وعفا في موضع العفو وعاقب في موضع العقوبة ومنع ساعة المنع وأعطى ساعة الإعطاء خالفَ الرَّبُّ في تدبيره وظنَّ أن رحمته فوق رحمة ربه

وقد قالوا : بعضُ القتلِ إحياءٌ للجميعِ وبعضُ العفوِ إغراءٌ كما أنَّ بعضَ المنعِ إعطاءٌ ولا خَيْرَ فيمن كان خَيْرُهُ مُخْضاً وَشَرُّهُ مِنْهُ مَنْ كَانَ شَرُّهُ صَرْفاً ولكن اخلِطِ الوعدَ بالوعيدِ والبشرَ بالعوس والإعطاءَ بالمنعِ والحلمَ بالإيقاعِ فإنَّ الناسَ لا يهابون ولا يصلحون إلاَّ على الثوابِ والعقابِ والإطماعِ والإخافةِ ومن أخافَ ولم يُوقِعْ وعُرفَ بذلكَ كانَ كَمَنْ أَطْمَعَ ولم يُنْجَزْ وعُرفَ بذلكَ ومن عُرفَ بذلكَ دخلَ عليه بحسبِ ما عُرفَ منه فخيرَ الخيرِ ما كانَ مُزْوجاً وَشَرُّ الشَّرِّ ما كانَ صَرْفاً ولو كانَ الناسُ يصلحونَ على الخيرِ وحدهِ لكانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَوَّلِي ذلكَ الحكمِ وفي إطباقِ جميعِ الملوكِ وجميعِ الأئمةِ في جميعِ الأقطارِ وفي جميعِ الأعصارِ على استعمالِ المكروهِ والحبوبِ دليلٌ على أنَّ الصوابِ فيه دونُ غيره وإذا كانَ الناسُ إنما يصلحونَ على الشَّدَّةِ واللينِ وعلى العفوِ والانتقامِ وعلى البذلِّ والمنعِ وعلى الخيرِ والشَّرِّ عادَ بذلكَ الشَّرُّ خيراً وذلكَ المنعُ إعطاءٌ وذلكَ المكروهُ محبوباً وإنَّما الشَّأنُ في العَوَاقِبِ وفيما يدومُ ولا ينقطعُ وفيما هو أدومُ ومن الانقطاعِ أبعدُ

وقال الشاعر وهويمدح قوماً : (وإن توددتهم لانوا وإن شهِموا ** كَشَفَتْ أذمارَ حَرْبٍ غيرَ أغمارِ) وقال العتيبي : (ولكن بنو خيرٍ وشَرِّ كليهما ** جميعاً ومَعروفٍ أَلَمٌ وَمُنْكَرٍ)

وقال بعضُ من ارتجز يومَ جَبَلَةِ : (أنا الغَلامُ الأعسرُ ** الخيرُ فيَّ والشَّرُّ) والشَّرُّ فيَّ أكثرُ وقال عبدُ الملكِ بن مروان لَزُفَرِ بن الحارث وقد دخلَ عليه في رجالاتِ قيسِ : أَلَسْتَ امرأً من كندةِ قال : وما خيرٌ من لا يُتَّقَى حَسَداً ويُدعى رغبةً وقال ثُمَامَةُ : الشُّهْرَةُ بالشَّرِّ خيرٌ من أن لا أعرفَ بخيرٍ ولا شَرِّ أماراتِ النباهةِ وكان يقال : يُسْتَدَلُّ على نباهةِ الرَّجلِ من الماضينَ بَتَبَائِنِ الناسِ فيه وقال : ألا ترى أن علياً رضيَ اللهُ تعالى عنه قال : يَهْلِكُ في فِتْتانٍ : مُحِبُّ مُفْرَطٍ ومُبْغِضُ مُفْرَطٍ وهذه صفةُ أَنَبِهِ الناسِ وأبعدِهِمُ غايةً في مراتبِ الدِّينِ وشَرَفِ الدُّنيا ألا ترى أن الشاعر يقول :

(أَرَى العِلْبَاءَ كَالْعِلْبَاءِ ** لا حُلُوٌّ ولا مَرٌّ) وقال الآخرُ : (عَيْرَتِي يا ثَكْلَتِي أُمِّي ** أَسودَ مِثْلَ الجُلْعِ الأَحْمِ) (يَنْطَحُ غُرْضُ الجَبَلِ الأَصَمِّ ** ليس بذي القَرْنِ ولا الأَجَمِّ) وإذا كانَ الرَّجلُ أبرَعَ الناسِ بَرَاعَةً وأظْهَرَهُمُ فَضْلاً وأَجْمَعَهُمُ لِحْصَالَ الشَّرَفِ ثُمَّ كانت كُلُّ خِصْلَةٍ مِساوِيَةٍ لِأختِها في التَّمَامِ ولم تَغْلِبْ عليه خِصْلَةٌ واحِدَةٌ فإنَّ هذا الرَّجلُ لا يَكادُ يوصَفُ إلاَّ بالسيادةِ والرياسةِ خاصَّةً إذا لم يكن له مَسْنَدٌ عما يكونُ هو الغالبُ عليه وقالوا فيما يشبه ما ذكرنا وإن لم يكن هو بعينه قال الشاعر :

(هَيْنُونٌ لَيْنُونٌ أيسارٌ ذوو يُسْرِ ** سُوَاسُ مَكْرَمَةٍ أبناءُ أيسارِ) (مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقُلَ لاقِيَتُ سيِّدَهُمُ ** مِثْلُ النُّجُومِ التي يسري بها الساري) وقد قال مثل الذي وصَفنا جعفرَ الضَّيِّ في الفضلِ بن سهلٍ : أيُّها الأميرُ أَسَكَّنَتْنِي عن وصفِكَ تَساوِي أفعالِكَ في السُّودِّ وحيرتني فيها كَثْرَةُ عِددها فليس إلى ذكرِ جميعِها سَبِيلٌ وإن أردتُ وَصْفَ واحدةٍ اعترضتُ أختها إذ لم تكن الأولى أحقَّ بالذكرِ ولست أَصْفُها إلاَّ بإظهارِ العجزِ عن وَصْفِها ولذلك قالوا : أحلمُ من الأحنفِ وما هو إلاَّ في حلمٍ معاويةٍ وأحلمُ من قَيسِ بن عاصمٍ ولم يقولوا : أحلمُ من عبدِ المَطْلَبِ ولا هو أحلمُ من هاشمٍ لأنَّ الحلمَ خِصْلَةٌ من خِصَالِهِ كَتَمَامِ حلمِهِ فلمَّا كانت خِصْلَتُهُ مُتساوِيَةً

وخلاله مشرفة متوازية وكلها كان غالباً ظاهراً وقاهراً غامراً سمي بأجمع الأشياء ولم يُسم بالخصلة الواحدة فيستدل بذلك على أنها كانت أغلب خصال الخير عليه .

هجاء السفهاء للأشراف وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يُظن أنه الأحق به (وفخرت به)

عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ومن طلب عيباً وجده فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه ولذلك هجى حصن بن حذيفة وهجى زُرارة ابن عُدس وهجى عبد الله بن جُدعان وهجى حاجب بن زُرارة وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عيينة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زُرارة ولأن لقيطاً لم يأمر بسحب ضمرة بن ضمرة إلا وهو لو بقي لجاوز ظلم كليب وتمكع عيينة فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون وكانوا بين أن يظلموا وبين أن يظلموا ظمناً ممن ظلمهم ولا بد من الاحتمال كما لا بد من الانتصار وقد قال عز وجل : وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى رَجَعَ قَوْلُ الْحَكِيمِ الْأَوَّلِ : بعض القتل إحياء للجميع

حزم السادة وعامة هؤلاء السادة لم يكن شأنهم أن يردوا الناس إلى أهوائهم وإلى الانسياق لهم بعنف السوق وبالحرَب في القود بل كانوا لا يوثرون الترهيب على الترغيب والخشونة على التلين وهم مع ذلك قد هجوا بأقبح الهجاء ومتى أحب السيد الجامع والرئيس الكامل قومه أشد الحب وحاطهم على حسب حبه لهم كان بغض أعدائهم له على حسب حب قومه له هذا إذا لم يتوثب إليه ولم يعترض عليه من بني عمه وإخوته من قد أطعمته الحال بالحق به وحسد الأقارب أشد وعداوتهم على حسب حسدهم وقد قال الأولون : رضا الناس شيء لا ينال وقد قيل لبعض العرب : من السيد فيكم قال الذي إذا قبل هيباه وإذا أدبر اغتباها وقد قال الأول : بغضاء السوق موصولة بالملوك والسادة وتجري في الحاشية مجرى الملوك صعوبة سياسة العوام وليس في الأرض عمل أكد لأهلها من سياسة العوام وقد قال الهذلي يصف صعوبة السياسة :

(وإن سياسة الأقسام فاعلم * لها صعداء مطلبها طويل) (ودون الندى في كل قلب ثنية * لها مصعد حزن ومنحدر سهل) (وود الفتى في كل نيل ينيله * إذا ما انقضى لو أن نائله جزل) وقال عامر بن الطفيل : (وإني وإن كنت ابن سيد عامر * وفارسها المشهور في كل موكب) (فما سودتني عامر من وراثة * أبي الله أن أسمو بأب ولا أب) (ولكنني أحيى حماها وأتقي * أذاها وأرمني من رماها بمنكب) وقال زياد بن طبيان لابنه عبید الله بن زياد وزیاد یغرغر بنفسه :

ألا أوصي بك الأمير قال : لا قال : ولم قال : إذا لم يكن للحي إلا وصية الميت فالحي هو الميت وقال آخر في هذا المعنى : والعز لا يأتي بغير تطلب وقال بشامة بن الغدير في خلاف ذلك وأن يشب أن يكون منه كان :

وَجَدْتُ أَبِي فِيهِمْ وَجَدْتُ كِلَيْهِمَا ** يُطَاعُ وَيُؤْتَى أَمْرُهُ وَهُوَ مُحْتَيٍّ (فَلَمْ أَتَعَمَّلْ لِلسَّيَادَةِ فِيهِمْ ** وَلَكِنْ أَتَنِي طَائِعًا غَيْرَ مُتَعَبٍ) بَحْثُ فِي السَّعَادَةِ

وَقَالَ مَنْ يَخَالِفُهُ : لَا يَخْلُو صَاحِبُ الْبَدَنِ الصَّحِيحِ وَالْمَالِ الْكَثِيرِ مَنْ أَنْ يَكُونَ بِالْأُمُورِ عَالِمًا أَوْ يَكُونَ بِهَا جَاهِلًا فَإِنْ كَانَ بِهَا عَالِمًا فَعِلْمُهُ بِهَا لَا يَتْرَكُهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ لَا تَكُونُ كَعَدَمِهَا لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَوْجُودَةً غَيْرَ عَامِلَةٍ لَكَانَتْ الْمَعْرِفَةُ كَعَدَمِهَا وَفِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ مَا أَوْجَبَ التَّبَاهَةَ وَأَدْنَى حَالَاتِهِ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنْ حَدِّ الْخُمُولِ وَمَتَى أَخْرَجْتَهُ مِنْ حَدِّ الْخُمُولِ فَقَدْ صَارَ مَعْرُضًا لِمَنْ يَقْدِرُ عَلَى سَلْبِهِ وَكَمَا أَنَّ الْمَعْرِفَةَ لَا بَدْلَ لَهَا مِنْ عَمَلٍ وَلَا بَدْلَ لِلْعَمَلِ مَنْ أَنْ يَكُونَ قَوْلًا أَوْ فِعْلًا وَالْقَوْلُ لَا يَكُونُ قَوْلًا إِلَّا وَهْنَاكَ مَقُولٌ لَهُ وَالْفِعْلُ لَا يَكُونُ فِعْلًا إِلَّا وَهْنَاكَ مَفْعُولٌ لَهُ وَفِي ذَلِكَ مَا أَخْرَجَ مِنَ الْخُمُولِ وَعُرفَ بِهِ الْفَاعِلُ وَإِذَا كَانَتْ الْمَعْرِفَةُ هَذَا عَمَلُهَا فِي التَّنْبِيهِ عَلَى نَفْسِهَا فَالْمَالُ الْكَثِيرُ أَحَقُّ بِأَنْ عَمَلُهُ الدَّلَالَةُ عَلَى مَكَانِهِ وَالسَّعْيَةُ عَلَى أَهْلِهِ وَالْمَالُ أَحَقُّ بِالنَّمِيمَةِ وَأَوْلَى بِالشُّكْرِ وَأَخْذِ لَصَاحِبِهِ بَلْ يَكُونُ لَهُ أَشَدُّ قَهْرًا وَلَحْيَةً أَشَدَّ فُسَادًا وَإِنْ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ نَاقِصَةً فَيَقْدُرُ نَقْصَانُهَا يَجْهَلُ مَوَاضِعَ اللَّذَّةِ وَإِنْ كَانَتْ تَامَةً فَيَقْدُرُ تَمَامُهَا يُنْفَى الْخُمُولُ وَيُجْلِبُ الذِّكْرُ وَبَعْدُ فَلَيْسَ يَفْهَمُ فَضِيلَةَ السَّلَامَةِ وَحَقَائِقَ رُشْدِ الْعَافِيَةِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ)

مِنَ الْمَعْرِفَةِ إِلَّا الشَّدْوُ وَإِلَّا خِلَاقَ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَمَتَى كَانَ ذَلِكَ

كَذَلِكَ لَمْ يُعْرِفِ الْمُدْخَلَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ يَكْرَهُ ذُو الْمَالِ الشُّهُرَةَ وَمَنْ عَرَفَ ذَلِكَ عَلَى حَقِّهِ وَصَدَقَهُ لَمْ يَدَعِهِ فَهْمُهُ لِذَلِكَ حَتَّى يَدُلَّ عَلَى فَهْمِهِ وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَفْهَمُ هَذَا الْمَوْضِعَ حَتَّى يَفْهَمَ كُلُّ مَا كَانَ فِي طَبَقَتِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَفِي أَقْلٍ مِنْ ذَلِكَ مَا يَبِينُ بِهِ حَالَهُ مِنْ حَالِ الْخَامِلِ وَشُرُوطِ الْأَمَانِيِّ غَيْرِ شُرُوطِ جَوَازِ الْأَفْعَالِ وَإِمْكَانِ الْأُمُورِ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَلَدُّ وَلَا أَسْرُّ مِنْ عِزِّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَمِنَ الظُّفْرِ بِالْأَعْدَاءِ وَمَنْ عَقَدَ الْمَتْنَ فِي أَعْنَاقِ الرِّجَالِ وَالسُّرُورِ بِالرِّيَاسَةِ وَبَشْمَةِ السِّيَادَةِ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ هِيَ نَصِيبُ الرُّوحِ وَحِطُّ الذَّهْنِ وَقِسْمُ النَّفْسِ فَأَمَّا الْمَطْعَمُ وَالْمَشْرَبُ وَالْمَنَكْحُ وَالْمَشْمَةُ وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ نَصِيبِ الْخَوَاسِ فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ أَشَدَّ نَهْمًا وَأَرْغَبَ كَانَ أَمَّ لَوْجَدَانِهِ الطَّعْمُ وَذَلِكَ قِيَاسٌ عَلَى مَوَاقِعِ الطَّعْمِ مِنَ الْجَائِعِ وَالشَّرَابِ مِنَ الْعَطْشَانِ وَلَكِنَّا إِذَا مِيلْنَا بَيْنَ الْفَضِيلَةِ الَّتِي مَعَ السُّرُورِ وَبَيْنَ لَذَّةِ الطَّعَامِ وَمَا يُحْدِثُ الشَّرُّهُ لَهُ مِنْ أَلَمِ السَّهْرِ وَالْإِلْتِهَابِ وَالْقَلْقِ وَشَدَّةِ الْكَلْبِ رَأَيْنَا أَنَّ صَاحِبَهُ مَفْضُولٌ غَيْرُ فَاضِلٍ هَذَا مَعَ مَا يُسَبِّبُ بِهِ وَمَعَ حَمَلِهِ لَهُ عَلَى الْقَبِيحِ وَعَلَى أَنَّ نِعْمَتَهُ مَتَى زَالَتْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَشَقَى مِنْهُ هَذَا مَعَ سُرُورِ الْعَالَمِ بِمَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ السَّلَامَةِ مِنْ آفَةِ الشَّرِّهِ وَمِنْ فُسَادِ الْأَخْلَاطِ .

وَبَعْدُ فَلَا يَخْلُو صَاحِبُ الثَّرْوَةِ وَالصَّامِتِ الْكَثِيرِ الْخَامِلِ الذِّكْرُ مَنْ أَنْ يَكُونَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْمَرْكَبِ الْفَارِهِ وَالثَّوْبِ اللَّيْنِ وَالْجَارِيَةِ

الْحَسَنَةِ وَالِدَارِ الْجَيِّدَةِ وَالْمَطْعَمِ الطَّيِّبِ أَوْ يَكُونُ مَنْ لَا يَرْغَبُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ لَا يَرْغَبُ فِي هَذَا النَّوْعِ كُلِّهِ وَلَا يَعْمَلُ فِي مَالِهِ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ وَلَا يُعْجَبُ بِالْأَحْدُوَّةِ الْحَسَنَةِ وَيَكُونُ مَنْ لَا تَعْدُو لَذَّتُهُ أَنْ يَكُونَ كَثِيرِ الصَّامِتِ فَإِنْ هَذَا حِمَارٌ أَوْ أَفْسَدُ طَبْعًا مِنَ الْحِمَارِ وَأَجْهَلُ مِنَ الْحِمَارِ وَقَدْ رَضِيَ أَنْ يَكُونَ فِي مَالِهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْ الْوَكِيلِ وَبَعْدُ فَلَا بَدْلَ لِلْمَالِ الْكَثِيرِ مِنَ الْحِرَاسَةِ الشَّدِيدَةِ وَمِنَ الْخَوْفِ عَلَيْهِ فَإِنْ أَعْمَلَ الْحِرَاسَةَ لَهُ وَتَعَبَ فِي حِفْظِهِ وَحَسَبَ الْخَوْفَ خَرَجَ عَلَيْهِ فَضْلٌ فَإِنْ هُوَ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ التَّوَكُّلِ فَهُوَ فِي طَبَاعِ الْحِمَارِ

وفي جهله والذي أوجب له الخمول ليؤديه إلى سلامة المال له قد أعطاه من الجهل ما لا يكون معه إلا مثل مقدار لذة البهيمية في أكل الحَبْط وإن هو ابتاع فُرّة الدواب وفُرّة الخدم والجوّاري واتخذ الدار الجيدة والطعام الطيب والثوب اللين وأشباه ذلك فقد دلّ على ما له ومن كان كذلك ثم ظهرت له ضيعة فاشية أو تجارة (مُربحة يحتمل مثل ذلك الذي يظهر من نفقته وإلا فإنه سيوجد في اللصوص عند أول من يقطع عليه أو مكابرة تكون أو تعب يؤخذ لأهله المال العظيم

ولو عني بقوله الخمول وصحة البدن والمال فذهب إلى مقدار من المال مقبولا ولكن ما لمن كان ماله لا يجاوز هذا المقدار يتهيأ الخمول ولعمري إن الخمول ليكون في طبقات كثيرة قال أبو نخيلة : (شكرتُك إن الشُّكْرَ حَبْلٌ من التَّقَى ** وما كلُّ من أفرضته نعمة يقضي) (فأحييت من ذكري وما كان حاملا ** ولكن بعض الذكر أبه من بعض) قالوا : ولسقوط الحامل من عيون الناس قالت الأعرابية لابنها : إذا جلست مع الناس فإن أحسنت أن تقول كما يقولون فقل وإلا فخالف تذكّر

وأما الأصمعيّ فرغم أنها قالت : فخالف ولو بأن تعلّق في عنقك أير حمار وليس يقول هذا القول إلا من ليس يعرف شكر الغنى وتقلب الأموال إلى ما خلقت له وقطعها عقلها وخلعها عذرها وتية أصحابها وكثرة خطاهم في حفظها وسرّها وعجزهم عن إماتة حركتها ومنعها من جميع ما تُنازع إليه وتحمل عليه ملحّة من الملح وقد روي في الملح أن رجلاً قال لصاحب له : أبوك الذي جهل قدره وتعدّى طوره فشقّ العصا وفارق الجماعة لا جرم لقد هُزم ثم أُسر ثم قتل ثم صلب قال له صاحبه : دغني من ذكر هزيمة أبي ومن أسره وقتله وصلبه أبوك هل حدث نفسه بشيء من هذا قط وليس إلى الناس بعدُ الهمم وقصرها وإنما تجري الهمم بأهلها إلى الغايات على قدر ما يعرض لهم من الأسباب ألا ترى أن أبعاد الناس همّة في نفسه وأشدّهم تلفتاً إلى المراتب لا تنازعه نفسه إلى طلب الخلافة لأن ذلك يحتاج إلى نسب أو إلى أمر قد وطئ له

بسبب كسب طلب أوائل الخوارج الخلافة بالدين وحده دون النسب فإن صار من الخوارج فقد حدث له سبب إمكان الطلب أكدى أم نجح وقد زعم ناس من العلماء أن رجلاً خطبت للسيادة والتباهة والطاعة في العشرة .

سلطان الحظ في نباهة القبيلة

وكذلك القبيلة ربما سعدت بالخطّ وربما حظيت بالجدّ وإنما ذلك على قدر الاتفاق وإنما هو كالمعافى والميتلى وإنما ذلك كما قال زهير : (وَجَدْتُ المَنَايا حَبْطَ عَشَوَاءَ مَنْ تُصِيبُ ** ثَمَنُهُ وَمَنْ تُخْطِي يَعْمَرُ فِيهِمْ)

سلطان الحظ على الآثار الأدبية

وكما تُخطئ بعض الأشعار وبعض الأمثال وبعض الألفاظ دون غيرها ودون ما يجري مجراها أو يكون أرفع منها قالوا : وذلك موجود في المرزوق واخروم وفي المحارف

والذي تجوز عليه الصَّدَقَةُ وكم من حاذق بصناعته وكثير الجَوْلَانِ في تجارته وقد بلغ فرغانة مرّة والأندلس مرة ونَقَبَ في البلاد ورَبَعَ في الآفاق ومن حاذق يُشَاوِر ولا يُسْتَعْمَلُ ثُمَّ لا تجدهما يَسْتَبِينَانِ من سُوءِ الحال وكثرة الدِّينِ ومن صاحب حرب منكوب وهو اللَّيْثُ على برائنه مع تَمَامِ العزيمة وشِدَّةِ الشَّكِيمَةِ ونَفَازِ البصيرة ومع المعرفة بالمكيدة والصَّبْرُ الدَّائِمُ على الشِدَّةِ وَبَعْدُ فَكَمْ مِنْ بَيْتٍ شَعَرَ قَدْ سَارَ وَأَجُودُ مِنْهُ مَقِيمٌ فِي بَطُونِ الدَّفَاتِرِ لَا تَزِيدُهُ الْأَيَّامُ إِلَّا خَوَلًا كَمَا لَا تَزِيدُ الَّذِي دُونَهُ إِلَّا شُهْرَةً وَرِفْعَةً وَكَمْ مِنْ مَثَلٍ قَدْ طَارَ بِهِ الْخَطُّ حَتَّى عَرَفْتَهُ الْإِمَاءُ وَرَوَاهُ الصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءُ

أثر الحظ في نباهة الفرسان

وكذلك حظوظ الفرسان وقد عُرِفَتْ شُهْرَةٌ عُنْتَرَةٌ فِي الْعَامَّةِ وَنِبَاهَةٌ عَمُرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرِبُ وَضَرَبَ النَّاسُ الْمَثَلَ بَعِيدَ اللَّهِ بْنِ الْحَرِّ وَهُمْ

لا يعرفون بل لم يسمِعُوا قَطُّ بِعُتَيْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شَهَابٍ وَلَا بِبِسْطَامِ بْنِ قَيْسٍ وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ أَذْكَرَ مِنْهُمَا نَسَبًا وَيَذْكُرُونَ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ الْحَرِّ وَلَا يَعْرِفُونَ شُعْبَةَ بْنَ ظَهِيرٍ وَلَا زُهَيْرَ بْنَ ذُؤَيْبٍ وَلَا عَبَّادَ بْنَ الْحَصِينِ وَيَذْكُرُونَ اللَّسْنَ وَالْبَيَانَ وَالْخَطِيبَ ابْنَ الْقُرَيْبَةِ وَلَا يَعْرِفُونَ سَحْبَانَ وَائِلَ وَالْعَامَّةُ لَمْ يَصِلْ ذِكْرُ هَؤُلَاءِ إِلَيْهِمْ إِلَّا مِنْ قَبْلِ الْخَاصَّةِ وَالْخَاصَّةُ لَمْ تَذْكُرْ هَؤُلَاءِ دُونَ أُولَئِكَ فَتَرَكْتُ تَحْصِيلَ الْأُمُورِ وَالْمَوَازَنَةِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَحَكَمْتُ بِالسَّابِقِ إِلَى الْقَلْبِ عَلَى قَدْرِ طِبَاعِ الْقَلْبِ وَهَيْئَتِهِ ثُمَّ اسْتَوَتْ عِلَلُ الْعَامَّةِ فِي ذَلِكَ وَتَشَابَهَتْ الْعَامَّةُ وَالْبَاعَةُ وَالْأَغْنِيَاءُ وَالسَّقَلَةُ كَأَنَّهُمْ أَعْدَارُ عَامٍ وَاحِدٍ وَهُمْ

فِي بَاطِنِهِمْ أَشَدُّ تَشَابَهًا مِنَ التَّوَامِينِ فِي ظَاهِرِهِمَا وَكَذَلِكَ هُمْ فِي مَقَادِيرِ الْعُقُولِ وَفِي الْإِعْتِرَاضِ وَالتَّسْرُّعِ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الصُّورُ وَالتَّعَمُّمُ وَالْأَسْنَانُ وَالْبُلْدَانُ تَشَابَهَ طِبَاعُ الْعَامَّةِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَفِي كُلِّ عَصْرِ وَذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَدَّ قَرِيشٍ وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ فَذَكَرَ أَلْفَاظَهُمْ وَجَهْدَ مَعَانِيهِمْ وَمَقَادِيرَ هَمَمِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي وَزْنٍ مَا يَكُونُ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَقَالَ : تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ وَقَالَ : أَتَوَاصَوْا بِهِ ثُمَّ قَالَ : وَخُصَّتُمْ كَالَّذِي خَاصُّوا وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَجِدُ بُدًّا فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَفِي كُلِّ عَصْرِ لِلْحَاكِمَةِ مِنْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى مَقْدَارٍ وَاحِدٍ وَجِهَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ السَّخَطِ وَالْحَقْمِ وَالْعِبَاوَةِ وَالظُّلْمِ وَكَذَلِكَ النُّخَاسُونَ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ مِنْ أَصْنَافٍ مَا يَبِيعُونَ وَكَذَلِكَ السَّمَاكُونَ وَالْقَلَّاسُونَ وَكَذَلِكَ أَصْحَابُ الْخُلُقَانِ كُلُّهُمْ فِي كُلِّ دَهْرٍ وَفِي كُلِّ بَلَدٍ عَلَى مِثَالٍ وَاحِدٍ وَعَلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَكُلُّ حِجَامٍ فِي الْأَرْضِ فَهُوَ شَدِيدُ الْاسْتِهْتَارِ بِالنَّبِيذِ وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي الْبُلْدَانِ وَالْأَجْنَاسِ وَالْأَسْنَانِ

وَلَا تَرَى مَسْجُونًا وَلَا مَضْرُوبًا عِنْدَ السُّلْطَانِ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ : إِنِّي مَظْلُومٌ وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ : لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ مَسْجُونًا تَسَائُلُهُ مَا بِالْ سِجْنِكَ إِلَّا قَالَ مَظْلُومٌ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ خَصْمَانِ يَتَنَازَعَانِ إِلَى حَاكِمٍ إِلَّا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدَّعِي عَدَمَ الْإِنْصَافِ (وَالظُّلْمِ عَلَى صَاحِبِهِ .

مبالغة الإنسان في تقدير ما ينسب إليه

وليس في الأرض إنساناً إلا وهو يطرب من صوت نفسه ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده إلا أن الناس في ذلك على طبقات من الغلط : فمنهم الغرق المغمور ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف ولذلك احتاج العاقل في العجب بولده وفي استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقى ومن إعادة النظر والتهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك

جود حاتم وكعب بن مامة

والعامة تحكم أن حاتماً أجود العرب ولو قدّمته على هرم الجواد لما اعتزضته عليهم ولكن الذي يحدث به عن حاتم لا يبلغ مقدار ما رَوَوْهُ عن كعب بن مامة لأن كعباً بذل نفسه في أعطية الكرم وبذل المجهود فساوى حاتماً من هذه الوجه وبأينه ببذل المهجة ونحن نقول : إن الأشعار الصحيحة بما المقدار الذي يوجب اليقين بأن كعباً كان كما وصفوا فلو لم يكن الأمر في هذا إلى الجُدود والحُظوظ والاتِّفاقات وإلى علل باطنة تجري الأمور عليها وفي القوصِ عليها وفي معرفتها بأعيانها عُسرَ لَمَّا جرت الأمور على هذه

الجاري ولو كان الأمر فيها مفوضاً إلى تقدير الرأي لكان ينبغي لغالب بن صعصعة أن يكون من المشهورين بالجود دون هرم وحاتم

كلف العامة بمآثر الجاهلية

فإن زعمت أن غالباً كان إسلامياً وكان حاتم في الجاهلية والناس بمآثر العرب في الجاهلية أشد كلفاً فقد صدقت وهذا أيضاً ينبئك أن الأمور في هذا على خلاف تقدير الرأي وإنما تجري في الباطن على نسق قائم وعلى نظر صحيح وعلى تقدير محكم فقد تقدّم في تعييتهما وتسويتهما من لا تخفى عليه خافية ولا يفوته شيء ولا يعجزه وإلا فما بال أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكبر في النفوس وأحل في الصدور من رجال الجاهلية مع قرب العهد وعظم خطر ما ملكوا وكثرة ما جادت به أنفسهم ومع الإسلام الذي شملهم وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم .

ولو أن جميع مآثر الجاهلية وزنت به وبما كان في الجماعات اليسيرة من رجال قريش في الإسلام لأربت هذه عليها أو لكانت مثلها .

دلالة الخلق على الخالق

فليس لقدر الكلب والدّيك في أنفسهما وأثامهما ومناظرهما ومحللّهما من صدور العامة أسلفنا هذا الكلام وابتدأنا بهذا القول ولسنا نقف على أثامهما من الفضة والذهب ولا إلى أقدارهما عند الناس وإنما نتطرّف فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صنّعه وعلى عجب تدبيره وعلى لطيف حكمته وفيما

استخزنهما من عجائب المعارف وأودعهما من غوامض الأحساس وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق ودلّ بهما على أنّ الذي ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما ويعتبر بهما ويسبح الله عزّ وجلّ عندهما فغشّى ظاهرهما بالبرهان وعمّ باطنهما بالحكم وهيّج على النظر فيهما والاعتبار بهما ليعلم كلّ ذي عقل أنّه لم يخلق الخلق سدّى ولم يترك الصّور هملاً وليعلموا أنّ الله عزّ وجلّ لم يدع شيئاً غفلاً غير موسوم ونشراً غير منظوم وسدّى غير محفوظ وأنه لا يخطئه من عجيب تقديره ولا يعطله من حليّ تدبيره ولا من زينة الحكم وجلال قدرة البرهان

ثمّ عمّ ذلك بين الصّوّاية والفراشة إلى الأفلاك السبعة وما دونها من الأقاليم السبعة . ٤ (تأويل الآية الكريمة : ويخلق ما لا تعلمون .) وقد قال تعالى : وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وقد يتّجه هذا الكلام في وجوه : أحدها أن تكون ها هنا ضروب من الخلق لا يعلم بمكانهم كثير من الناس ولا بدّ أن يعرف ذلك الخلق معنى نفسه أو (يعلمه صفوة جنود الله وملائكته أو تعرفه الأنبياء أو يعرفه بعض الناس لا يجوز إلّا ذلك أو يكون الله عزّ وجلّ إنما عني أنّه خلق أسباباً ووهب عللاً وجعل ذلك رفداً لما يظهر لنا ونظاماً وكان بعض المفسرين يقول : من أراد أن يعرف معنى قوله : وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ فليوقد ناراً في وسط غيضة أو في صحراء بريّة ثم ينظر إلى ما يغشى النار من أصناف الخلق من الحشرات والهمج فإنّه سيرى صوراً ويتعرف خلقاً لم يكن يظنّ أنّ الله تعالى خلق شيئاً من ذلك العالم وعلى أنّ الخلق الذي يغشى ناره يختلف على قدر اختلاف مواضع الغياض والبحار والجبال ويعلم أنّ ما لم يبلغه أكثر

وأعجب وما أزد هذا التأويل وإنّه ليدخل عندي في جملة ما تدلّ عليه الآية ومن لم يقل ذلك لم يفهم عن ربّه ولم يفقه في دينه . ٤

ديدان الخلل والملح

كأنك لا ترى أنّ في ديدان الخلل والملح والديدان التي تتولد في السّموم إذا عتقت وعرض لها العفن وهي بعد قوائل عبرة وأعجوبة وأنّ التفكير فيها مشحذة للأذهان ومنهية لذوي الغفلة وتحليل لعقدة البلدة وسبب لاعتقاد الرويّة وانفساح الصدور وعزّ في النفوس وحلاوة تفتاتها الرّوح وثمرّة تغذي العقل وترقّ في الغايات الشريفة وتشرّف إلى معرفة الغايات البعيدة ٤

فأرة البيش والسمندل

وكأنك لا ترى أنّ في فأرة البيش وفي السمندل آية غريبة وصفة عجيبة وداعية إلى التفكير وسبباً إلى التعجب والتعجيب .

٤ (الجعل والورد) وكأنك لا ترى أنّ في الجعل الذي متى دفنته في الورد سكنت حركته وبطلت في رأي العين رُوحه ومتى أعدته إلى الرّوث انحلت عُقدته وعادت حركته ورجع حسّه أعجب العجب ٤

حصول الخلد على رزقه

وأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنَ الْخُلْدِ وَكَيْفَ يَأْتِيهِ رِزْقُهُ وَكَيْفَ يَهَيِّئُ اللَّهُ لَهُ مَا يَقُوتُهُ وَهُوَ أَعْمَى لَا يَبْصُرُ وَأَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ وَبَلِيدٌ لَا يَتَصَرَّفُ وَأَبْلَهُ لَا يَعْرِفُ وَمَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ بَابَ جُحْرِهِ وَلَا يَتَكَلَّفُ سِوَى مَا يَجْلِبُ إِلَيْهِ رَازِقُهُ وَرَازِقُ غَيْرِهِ وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنْ طَائِرٍ لَيْسَ لَهُ رِزْقٌ إِلَّا أَنْ يَخْلُلَ أَسْنَانَ التَّمْسَاحِ وَيَكُونَ ذَلِكَ لَهُ .

٤

الطائران العجيبان

وأَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنْ طَائِرَيْنِ يَرَاهُمَا النَّاسُ مِنْ أَدْنَى جُدُودِ الْبَحْرِ مِنْ شِقِّ الْبَصْرَةِ إِلَى غَايَةِ الْبَحْرِ مِنْ شِقِّ السَّنَدِ أَحَدُهُمَا كَبِيرُ الْجَنَّةِ يَرْتَفِعُ فِي الْمَوَاءِ صُعْدًا وَالْآخَرُ صَغِيرُ الْجَنَّةِ يَتَقَلَّبُ عَلَيْهِ وَيَعْبَثُ بِهِ فَلَا يَزَالُ مَرَّةً يَرْفِرُ حَوْلَهُ وَيَرْتَقِي عَلَى رَأْسِهِ وَمَرَّةً يَطِيرُ عِنْدَ ذُنَابَاهُ وَيَدْخُلُ تَحْتَ جَنَاحِهِ وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ فَلَا يَزَالُ يَغْمُهُ وَيَكْرُبُهُ حَتَّى يَتَّقِيهِ بِذَرْقِهِ فَإِذَا ذَرَقَ شَحَا لَهُ فَاهُ فَلَا يَخْطِي أَقْصَى حَلْقِهِ حَتَّى كَأَنَّهُ دَحَا بِهِ فِي بئرٍ وَحَتَّى كَأَنَّهُ ذَرْقُهُ مِدْحَاً بِيَدِ أَسْوَارٍ فَلَا الطَّائِرُ الصَّغِيرُ يَخْطِي فِي التَّلَقِّيِ وَفِي مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ لَا رِزْقَ لَهُ إِلَّا الَّذِي فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ وَلَا الْكَبِيرُ يَخْطِي التَّسْدِيدَ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَنْجِيهِ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَتَّقِيَهُ بِذَرْقِهِ فَإِذَا أَوْعَى ذَلِكَ الذَّرْقُ وَاسْتَوْفَى ذَلِكَ الرِّزْقُ رَجَعَ

شِبَعَانِ رِيَّانَ بِقُوتِ يَوْمِهِ وَمَضَى الطَّائِرُ الْكَبِيرُ لَطِيئَتِهِ وَأَمْرُهُمَا مَشْهُورٌ وَشَأْنُهُمَا ظَاهِرٌ لَا يُمْكِنُ دُفْعُهُ وَلَا تُهْمَةُ الْمَخْبِرِينَ عَنْهُ .

اختلاف بين الحيوان في الطباع

فَجَعَلَ تَعَالَى وَعَزَّ بَعْضَ الْوَحُوشِ كَسُوبًا مُحْتَالًا وَبَعْضَ الْوَحُوشِ مَتَوَكِّلًا غَيْرَ مُحْتَالٍ وَبَعْضَ الْحَشَرَاتِ يَدَّخِرُ لِنَفْسِهِ رِزْقَ سَنَتِهِ وَبَعْضًا يَتَّكِلُ عَلَى الثَّقَةِ بِأَنَّ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ قَدْرَ كِفَايَتِهِ رِزْقًا مَعْدًّا وَأَمْرًا مَقْطُوعًا وَجَعَلَ بَعْضَ الْهَمَجِ يَدَّخِرُ وَبَعْضَهُ يَتَكَسَّبُ وَبَعْضَ الذُّكُورِ يُعُولُ وَلَدَهُ وَبَعْضَ الذُّكُورِ لَا يَعْرِفُ وَلَدَهُ وَبَعْضَ الْإِنَاثِ تُخْرِجُ وَلَدَهَا وَبَعْضَ الْإِنَاثِ تَضَيِّعُ وَلَدَهَا وَتَكْفُلُ وَلَدَ غَيْرِهَا وَبَعْضَ الْأَجْنَاسِ مَعْطُوفَةٌ عَلَى كُلِّ وَلَدٍ مِنْ جِنْسِهَا وَبَعْضُ الْإِنَاثِ لَا تَعْرِفُ وَلَدَهَا بَعْدَ اسْتِعْنَائِهِ عَنْهَا وَبَعْضُ الْإِنَاثِ لَا تَرَالُ تَعْرِفُهُ وَتَعْطِفُ عَلَيْهِ وَبَعْضُ الْإِنَاثِ تَأْكُلُ وَلَدَهَا وَكَذَلِكَ بَعْضُ الذُّكُورِ وَبَعْضُ الْأَجْنَاسِ يُعَادِي كُلَّ مَا يَكْسِرُ بِيضَهَا أَوْ يَأْكُلُ أَوْلَادَهَا وَجَعَلَ يُتَمِّمُ بَعْضُ الْحَيَوَانِ مِنْ قَبْلِ أُمَّهَاتِهَا وَجَعَلَ يُتَمِّمُ بَعْضُهَا مِنْ قَبْلِ آبَائِهَا وَجَعَلَ بَعْضُهَا لَا يَلْتَمِسُ الْوَلَدَ وَإِنْ أَتَاهُ الْوَلَدُ وَجَعَلَ بَعْضُهَا مُسْتَفْرِغٌ أَلْهَمَ فِي حُبِّ الذَّرِّ وَالْتِمَاسِ الْوَلَدِ وَجَعَلَ بَعْضُهَا يُزَاوِجُ وَبَعْضُهَا لَا يُزَاوِجُ

لِيَكُونَ لِلْمَتَوَكِّلِ مِنَ النَّاسِ جِهَةٌ فِي تَوَكُّلِهِ وَلِلْمَتَكَسِّبِ جِهَةٌ فِي تَكَسُّبِهِ وَلِيُحْضِرَ افْتِرَاقَ الْمَعَانِي وَاخْتِلَافَ الْعِلَلِ وَلِمَكَانِ افْتِرَاقِ الْمَعَانِي وَاخْتِلَافِ الْعِلَلِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِبَعْضِهِمْ : اَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ وَقَالَ لِبَلَالٍ : أَنْفِقْ بِلَالٌ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِفْلَاحًا .

فَافْهَمُوا هَذَا التَّدْبِيرَ وَتَعَلَّمُوا هَذِهِ الْحُكْمَ وَاعْرِفُوا مَدَاخِلَهَا وَمَخَارِجَهَا وَمَفَرِّقَهَا وَمَجْمُوعَهَا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ

يُرَدَّد في كتابه ذِكْرَ الاعتبارِ والحثَّ عَلَى التفكيرِ والترغيبِ في النظرِ وفي التَّثَبُّتِ والتعرُّفِ والتوقُّفِ إِلَّا وهو يريد أن تكونوا علماءً من تلك الجهة حكماً من هذه التبعة .

المعرفة والاستدلال ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى كما أنَّه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى لولا تمييز المضار من المنافع والردى من الجيد بالعيون الجعولة لذلك لما جعل الله عز وجل العيون المدركة والإنسان الحساس إذا كانت الأمور المميّزة عنده أخذ ما يحتاج إليه وترك ما يستغني عنه وما يضرُّ أخذه فيأخذ ما يحبُّ ويدع ما يكره ويشكر

على الخبوع ويصبر على المكروه حتى يذكر بالمكروه كيفية العقاب ويذكر بالخبوع كيفية الثواب ويعرف بذلك كيفية التضاعيف ويكون ما يغمه رادعاً له وممتحناً بالصبر عليه وما يسره باسطاً له وممتحناً بالشكر عليه وللعقل في خلال ذلك مجال وللرأي تقلب وتنشئ للخواطر أسباب وينتهي لصواب)

الرأي أبواب ولتكون المعارف الحسية والوجدانات الغريزية وتمييز الأمور بها إلى ما يتميز عند العقول وتحصره المقاييس وليكون عمل الدنيا سلماً إلى عمل الآخرة وليترقى من معرفة الحواس إلى معرفة العقول ومن معرفة الروية من غاية إلى غاية حتى لا يرضى من العلم والعمل إلا بما أذاه إلى الثواب الدائم ونجاه من العقاب الأليم

ما يحسن الكلب مما لا يحسنه الإنسان

سندكر طرفاً مما أودع الله عز وجل الكلب مما لا تحسنه أنت أيها الإنسان مع احتقارك له وظلمك إياه وكيف لا تكون تلك الحكم لطيفة وتلك المعاني غريبة وتلك الأحساس دقيقة ونحن نعلم أن أدق الناس حساً وأرقهم ذهناً وأحضرهم فهماً وأصحهم خاطراً وأكملهم تجربة وعلماً لو رام الشيء الذي يحسنه الكلب في كثير من حالات الكلب لظهر له من عجزه وخرقه وكلال

حدّه وفساد حسّه ما لا يعرف بدونه إن الأمور لم تقسم على مقدار رأيه ولا على مبلغ عقله وتقديره ولا على محبته وشهوته وأن الذي قسم ذلك لا يحتاج إلى المشاورة والمعاونة وإلى مكائفة ومرافدة ولا إلى تجربة وروية ونحن ذاكرون من ذلك جملاً إن شاء الله تعالى .

خبرة الكلب في الصيد

اعلم أن الكلب إذا عاين الطباء قريبة كانت أو بعيدة عرف المعتل وغير المعتل وعرف العنز من التيس وهو إذا أبصر القطيع لم يقصد إلا قصد التيس وإن علم أنه أشد حُضراً وأطول وثبةً وأبعد شوطاً ويدع العنز وهو يرى ما فيها من نقصان حُضرها وقصر قاب خطوها ولكنه يعلم أن التيس إذا عدا شوطاً أو شوطين حَقَبَ ببوله . ما يعرض للحيوان عند الفزع وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يعرض له إمّا سلس البول والتقطير وإمّا الأسر والحَقَب وكذلك المضروب بالسياط على الأكثاف وبالعصي على الأستاه وما أكثر ما يعتريهم البول والغائط

وكذلك صار بعضُ الفُرسان الأبطال إذا عاينَ العدوَّ قَطَرَ إلى أن يذهب عنه هُولُ الجَنان وإذا حَقَبَ التَّيسَ لم يستطع البُولُ مع شدَّةِ الحُضر ومع النَّفَرِ والزَّمَعِ ووضع القوائم معاً ورَفَعها معاً في أَسْرَعٍ من الطَّرَفِ فيثقلُ عَدُوُّهُ ويقصرُ مَدَى خُطاه ويعتريه البُهرُ حتَّى يلحقه الكلبُ فيأخذه والعنز من الطَّيِّاء إذا اعتراها البُولُ من شدَّةِ الفَزَعِ لم تجمعهُ وحذفت به كإيزاغ المَخاض الصَّوَارِبِ لِسَعَةِ السَّبِيلِ وسهولة المخرج فتصير لذلك أدومَ شَدًّا وأصبرَ على)
المطاولة .

فهذا شيءٌ في طبعِ الكلبِ معرفته دونَ سائر الحيوان . والكلبُ الجَرَّبُ لا يحتاجُ في ذلك إلى مُعانةٍ ولا إلى تعلُّمٍ ولا إلى رويَّةٍ ولا إلى تكلفٍ قد كفاه ذلك الذي خَلَقَ العقلَ والعقلُ والمعقولُ والداءُ والدواءُ والمداواةُ والمداوي وقسمُ الأمور على الحكمة وعلى تمام مصلحة الخليقة .

ذكاء الكلب ومهارته في الاحتيال للصيد

ومن معرفة الكلب أنَّ المُكَلَّبَ يُخرجه إلى الصيد في يومِ الأرض فيه ملبسة من الجليد ومغشاة بالثلج قد تراكم عليها طبقاً على طبق

حتَّى طَبَّقها واستفاض فيها حتَّى ربَّما ضربته الريح ببردها فيعود كلُّ طبقٍ منها وكأته صفاةً ملساء أو صخرة خَلْقاء حتى لا يثبت عليها قَدَمٌ ولا خُفٌّ ولا حافر ولا ظِلْفٌ إلَّا بالتشبُّبِ الشديد أو بالجُهدِ والتَّفريقِ فيمضي الكلابُ بالكلب وهو إنسانٌ عاقلٌ وصيَّادٌ مجرَّبٌ وهو مع ذلك لا يدري أينَ جُحر الأرنب من جميعِ بَسائِطِ الأرض ولا موضعَ كُناسِ ظبيٍّ ولا مَكُوِّ ثعلبٍ ولا غيرَ ذلك من مَوَالجِ وحوشِ الأرض فيتخرَّقُ الكلبُ بينَ يديه وخَلْفَهُ وعن يمينه وشماله ويتشمَّمُ ويتبصَّرُ فلا يزال كذلك حتَّى يقف على أفواه تلك الجُحرة وحتى يُشير الذي فيها بتنفيس الذي فيها وذلك أن أنفاسها وبُخارَ أجوافها وأبدانها وما يخرج من الحرارة المستكنة في عمق الأرض ممَّا يُذيب ما لاقاها من فَمِ الجُحر من الثلج الجامد حتى يرقَّ ويكاد أن يثقبه وذلك خفيٌّ غامضٌ لا يقع عليه قانص ولا راعٍ ولا قائف ولا فلاحٌ وليس يقع عليه إلَّا الكلب الصائد الماهر

وعلى أنَّ للكلب في تَتَبُعِ الدَّرَاجِ والإصعادِ خَلْفَ الأرنب في الجبل الشاهق من الرِّقِّ وحسن الاهتداء والتَّنَاقِي ما يخفى مكانه على البيازرة والكلَّابِين .

الانتباه الغريزي في الكلب

وقد خَبَّرني صديقٌ لي أنَّه حبس كلباً له في بيتٍ وأغلقَ دونه الباب في الوقت الذي كان طَبَّاحه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم ثمَّ أَحَدَ سِكِّيناً بسكين فنبَحَ الكلب وقلقَ ورام فتح الباب لتوهمه أنَّ الطَّبَّاحَ قد رَجَعَ من السوق بالوظيفة وهو يجد السكِّينَ ليقطع اللحم قال : فلما كان العشيُّ صَنَعْنَا به مثلَ ذلك لتعرِّفَ حاله في معرفة الوقت فلم يتحرَّك قال : وصنعتُ ذلك بـكَلْبٍ لي آخر فلم يَقْلُقْ إلَّا قلقاً يسيراً فلم يلبث أن رَجَعَ

الطَّباخُ فَصَّنَعَ بِالسَّكِّينِ مِثْلَ صَنِيعِي فَقَلِقَ حَتَّى رَامَ فَتَحَ الْبَابَ قَالَ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ عَرَفَ الْوَقْتَ بِالرَّصْدِ فَتَحَرَّكَ لَهُ فَلَمَّا لَمْ يَشْمَ رِيحَ اللَّحْمِ عَرَفَ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ ثُمَّ لَمَّا سَمِعَ صَوْتَ السَّكِّينِ

وَالْوَقْتُ بَعْدُ لَمْ يَذْهَبْ وَقَدْ جِيءَ بِاللَّحْمِ فَشَمَّ رِيحَ اللَّحْمِ مِنَ الْمَطْبَخِ وَهُوَ فِي الْبَيْتِ أَوْ عَرَفَ فَصَلَ مَا بَيْنَ إِحْدَايِ السَّكِّينِ وَإِحْدَادِ الطَّباخِ إِنَّ هَذَا أَيْضاً لَعَجَبٌ وَإِنَّ اللَّحْمَ لَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الذَّرَاعَانِ وَالثَّلَاثَ الْأَذْرَعِ فَمَا أَجْدُ رِيحَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أُذْنِيَهُ مِنْ أَنْفِي وَكُلُّ ذَلِكَ عَجَبٌ .

وَلَمْ أَجِدْ أَهْلَ سَكَّةِ أَصْطَفَانُوسَ وَدَارَ جَارِيَةٍ وَبَاعَةَ مُرَبَّعَةٍ بَنِي مِثْقَرٍ يَشْكُونُ أَنَّ كَلْباً كَانَ يَكُونُ فِي أَعْلَى السَّكَّةِ وَكَانَ لَا يَجُوزُ مَحْرَسَ الْحَارِسِ أَيَّامَ الْأُسْبُوعِ كُلِّهِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ أَقْبَلَ قَبْلَ صَلَاةِ الْعُدَاةِ مِنْ مَوْضِعِهِ ذَلِكَ إِلَى بَابِ جَارِيَةٍ فَلَا يَزَالُ هُنَاكَ مَا دَامَ عَلَى مِغْلَاقِ الْجُزَارِ شَيْءٌ مِنْ لَحْمٍ وَبَابُ جَارِيَةٍ تُنَحَرُ عَنْهُ الْجُزُرُ فِي جَمِيعِ أَيَّامِ الْجَمْعِ خَاصَّةً فَكَانَ ذَلِكَ لِهَذَا الْكَلْبِ عَادَةً وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ غَدَاةَ الْجُمُعَةِ أَقْبَلَ .

فَلَيْسَ يَكُونُ مِثْلُ هَذَا إِلَّا عَنْ مَقْدَارِيَّةٍ بِمَقْدَارِ مَا بَيْنَ الْوَقْتَيْنِ وَلَعَلَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ يَنْتَابُونَ بَعْضَ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ

إِنَّمَا لَصَلَاةٍ وَإِنَّمَا لَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَا يَغْدُمُهُمُ النَّسِيَانُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالِاسْتِذْكَارُ بِغَيْرِهِمْ وَهَذَا الْكَلْبُ لَمْ يَنْسَ مِنْ نَفْسِهِ وَلَا يَسْتَذْكُرُ بِغَيْرِهِ وَزَعَمَ هَؤُلَاءِ بِأَجْمَعِهِمْ أَنَّهُمْ تَفَقَّدُوا شَأْنَ هَذَا الْكَلْبِ مِنْذُ انْتَبَهُوا لِصَنِيعِهِ هَذَا فَلَمْ يَجِدُوهُ غَادِرَ ذَلِكَ يَوْماً وَاحِداً فَهَذَا هَذَا . (قِصَّةٌ فِي وِفَاءِ الْكَلْبِ) (يُعَرِّدُ عَنْهُ جَارُهُ وَشَقِيقُهُ * وَيَنْبِشُ عَنْهُ كَلْبُهُ وَهُوَ ضَارِبُهُ) قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّ رَجُلًا خَرَجَ إِلَى الْجَبَانِ يَنْتَظِرُ رِكَابَهُ فَأَتْبَعَهُ كَلْبٌ كَانَ لَهُ فَضْرَبَ الْكَلْبَ وَطَرَدَهُ وَكَرِهَ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَرَمَاهُ بِحَجَرٍ فَأَبَى الْكَلْبُ إِلَّا أَنْ يَذْهَبَ مَعَهُ فَلَمَّا صَارَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَرِيدُ فِيهِ الْإِنْتِظَارَ رِبَضَ الْكَلْبُ قَرِيباً مِنْهُ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَاهُ أَعْدَاءُ لَهُ يَطْلُبُونَهُ

بِطَائِلَةٍ لَهُمْ عَنْدهُ وَكَانَ مَعَهُ جَارٌ لَهُ وَأَخُوهُ دُنْيَاً فَأَسْلَمَاهُ وَهَرَبَا عَنْهُ فَجَرَحَ جِرَاحَاتٍ وَرُمِي بِهِ فِي بَشَرٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ الْقَعْرِ ثُمَّ حَثَّوْهُ عَلَيْهِ مِنَ التَّرَابِ حَتَّى غَطَّى رَأْسَهُ ثُمَّ كُمَّمْهُ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْهُ وَالْكَلْبُ فِي ذَلِكَ يَزْجُمُ وَيَهْرُ فَلَمَّا انْصَرَفُوا أَتَى رَأْسَ الْبَشَرِ فَمَا زَالَ يَعْوِي وَيَنْبِثُ عَنْهُ وَيَحْثُو التُّرَابَ بِيَدِهِ وَيَكْشِفُ عَنْ رَأْسِهِ حَتَّى أَظْهَرَ رَأْسَهُ فَتَنَفَّسَ وَرُدَّتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَقَدْ كَادَ يَمُوتُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا حُشَاةٌ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ مَرَّ نَاسٌ فَأَنْكَرُوا مَكَانَ الْكَلْبِ وَرَأَوْهُ كَأَنَّهُ يَخْفِرُ عَنْ قَبْرِ فَنَظَرُوا فَإِذَا هُمْ بِالرَّجُلِ فِي تِلْكَ الْحَالِ فَاسْتَشَالُوهُ فَأَخْرَجُوهُ حَيًّا وَحَمَلُوهُ حَتَّى أَذَوْهُ إِلَى أَهْلِهِ فَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ يُدْعَى بِبَشَرِ الْكَلْبِ وَهُوَ مُتِيَامِنٌ عَنِ التَّجَفُّفِ وَهَذَا الْعَمَلُ يَدُلُّ عَلَى وَفَاءٍ طَبِيعِيٍّ وَالْفِ غَرِيزِيٍّ وَمَحَامَاةٍ شَدِيدَةٍ وَعَلَى مَعْرِفَةٍ وَصَبْرٍ وَعَلَى كَرَمٍ وَشُكْرِ وَعَلَى غِنَاءٍ عَجِيبٍ وَمَنْفَعَةٍ تَفُوقُ الْمَنَافِعَ لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ مِنْ غَيْرِ تَكْلَفٍ وَلَا تَصْنُوعٍ .

وَقَالَ مُؤَمِّلُ بْنُ خَاقَانَ لِأَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ وَقَدْ أَكَلَ جَرَوْ كَلْبٌ : أَتَأْكُلُ لَحْمَ الْكَلْبِ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ : (إِذَا

أسديّ جاعٌ يوماً ببلدةٍ** وكان سميناً كلبه فهو آكله) أَكُلَ هذا قَرَمًا إلى اللحم قال : فأنشأ الأسديُّ يقول : (وصَبًّا بِحَظِّ اللَّيْثِ طُعْمًا وَشَهْوَةً** فسائل أخا الحلفاء إن كنت لا تدري)

طلب الأسد للكلب

قال : وذلك لأنَّ الأسدَ لا يحرص على شيءٍ من اللُّحمانِ حرصه على لحم الكلب وأما العامة فتزعم أنَّ لحوم الشاء أحبُّ اللُّحمانِ إليه قالوا : ولذلك يُطيف الأسدُ بِجَنَابَاتِ الْقُرى طلباً لاغترار الكلب لأنَّ وثبة الأسد تُعجل الكلب عن القيام وهو رابض حتَّى رُبَّما دعاهم ذلك إلى إخراج الكلب من قراهم إلّا أنَّ يكون بقرب ضياعهم خنازيرُ فليس حينئذٍ شيءٌ أحبُّ إليهم من أن تكثر الأسدُ عندهم وإنَّما يُخرجون عنهم في تلك الحالات الكلاب لأنَّهم يخافونها على ما هو عندهم أنفسُ

من الكلب وهذه مصلحةٌ في الكلب ولا يكون ذلك إلّا في القرى التي بقرب الغيضة أو المأسدة . فرغم لي بعض الدَّهَّاقين قولاً لا أدري كيف هو ذكر أنَّهم لا يشكُّون أنَّه إنَّما يطلبُ الكلبُ لحنقه عليه لا من طريق أنَّ لحمه أحبُّ اللُّحمانِ إليه وإنَّ الأسدَ ليأتي مَنَاقِعَ المياه وشطوطَ الأنهار فيأكل السُّراطين والضفادع والرَّق والسلاحف وإنَّه أشرُّه من أنَّ يختارَ لحمًا على لحم قال : وإنَّما يكون ذلك منه إذا أرادَ المتطَرِّفَ من حمير القرية وشائها وسائر دوابِّها فإذا لَحَّ الكلبُ في الثُّباح انتبهوا ونذروا بالأسد فكانوا بيِّنَ أن يحصنوا أموالهم ويُنَّ أن يهجهجوا به فيرجع خائباً فإذا أرادَ ذلك بدأ بالكلب لأنَّ يأمن بذلك الإنذار ثمَّ يستولي على القرية بما فيها فإنَّما يطالب الأسدُ الكلابَ لهذه العلة .

من حيل الأسد في الصيد سمعتُ حديثاً من شُبُوح مَلَّاحي الموصل وأنا هائب له ورأيتُ الحديثَ يدور بينهم ويتقبله جميعهم وزعموا أنَّ الأسدَ رُبَّما جاء إلى قَلَس السفينة فيتشبَّث به ليلاً والملاحون يمدُّون السفينة فلا يشكُّون أنَّ القَلَس قد النَفَّ على صخرة أو تعلَّق بِجَذَمِ شجرة ومن عادتهم أن يبعثوا الأوَّل من المدَّادين ليحلَّه فإذا رجع إليه الملاح ليمنه تمدد الأسدُ بالأرض ولزق بها وغمض عينيه كي لا يُبصرَ ويبصُّهما بالليل فإذا قرُب منه وثب عليه فخطفه فلا يكون للملاحين همٌّ إلّا إلقاء أنفسهم في الماء وعبورهم إليه وربما أكله إلّا ما بقي منه ورُبَّما جرَّ (سلاح الكلب وسلاح الدِّيك) قالوا : فليس الدِّيك من بابة الكلب لأنَّه إنَّ ساورةَ قَهْره قَهْرًا ذريعاً وسلاحُ الكلب الذي هو في فيه أقوى من صبيصة

الدِّيك التي في رجله وصوته أُنْدَى وأبعد مدَى وعينه أيقظ .

دفاع عن الكلب

والكلب يكفي نفسه ويحمي غيره ويؤول أهله فيكون لصاحبه غُمه وليس عليه غُرمه ولَمَّا يَرْمَحُ الدوابُّ من الناس ولَمَّا يَحْرَن ويجمَع وتنطَح وتقتل أهلها في يومٍ واحد أكثرُ ممَّا يكون من جميع الكلاب في عام والكبش

يَنْطَحُ فَيَقْتُلُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُهَاجَ وَيُعَبَثَ بِهِ وَالْبَرْدُونَ يَعْصُ وَيَرْمَحُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُهَاجَ بِهِ وَيُعَبَثَ وَأَنْتَ لَا تَكَاذُ تَرَى كَلْبًا يَعْصُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ قَبِيحٍ شَدِيدٍ وَأَكْثَرُ ذَلِكَ أَيْضًا إِنَّمَا هُوَ النَّبَاحُ وَالْوَعِيدُ .

معرفة الكلب صاحبه وفرحه به

والكلب يعرف وجه ربه من وجه عبده وأميته ووجه الزائر حتى ربما غاب صاحب الدار حولا مجرما فإذا أبصره قادما اعتراه من الفرح والبصصة والعواء الذي يدل على السرور وعلى شدة الحنين ما لا يكون فيه شيء فوقه .

وحبرني صديق لي قال : كان عندنا جرو كلب وكان لي خادم هج يتقريبه مولع بالإحسان إليه كثير المعاينة له فغاب عن البصرة أشهرا فقلت لبعض من عندي : أتظنون أن فلانا يعني الكلب يثبت اليوم صورة فلان يعني خادمه الغائب وقد فارقته وهو جرو وقد صار كلبا يشعر ببوله قالوا : ما نشك أنه قد نسي صورته وجميع بره كان به قال : فبينما أنا جالس في الدار إذ سمعت من قبل باب الدار نباحه فلم أر شيئا فالتفت من التأثب والتعثيث والتوعد ورأيت فيه بصصة

السرور وحنين الإلف ثم لم ألبث أن رأيت الخادم طالعا علينا وإن الكلب ليلتف على ساقه ويرتفع إلى فخذه وينظر في وجهه ويصيح صياحا يستبين فيه الفرح ولقد بلغ من إفراط سروره أنني ظننت أنه عرض ثم كان بعد ذلك يغيب الشهرين والثلاثة أو يمضي إلى بغداد ثم يرجع إلى العسكر بعد أيام فأعرف بذلك الضرب من البصصة وبذلك النوع من النباح أن الخادم قدم حتى قلت لبعض من عندي : ينبغي أن يكون فلان قد قدم وهو داخل عليكم مع الكلب وزعم لي أنه ربما ألقى لهذا الجرو إلى أن صار كلبا تاما بعض الطعام فيأكل منه ما أكل ثم يمضي بالباقي فيخبئه وربما ألقى إليه الشيء وهو شبعان فيحتمله حتى يأتي به بعض المخابي فيضعه هناك حتى إذا جاع رجع إليه فأكله .

وزعم لي غلماني وغيرهم من أهل الدرب أنه كان ينبح على كل راكب يدخل الدرب إلى عراقيب برذونه سائسا كان أو صاحب دابة إلا أنه كان إذا رأى محمد بن عبد الملك داخلا إلى باب الدرب أو خارجا منه لم ينبح البتة لا عليه ولا على دابته بل كان لا يقف له على الباب ولا على الطريق ولكن يداخل الدهليز سريعا فسألت عن ذلك فبلغني

أنه كان إذا أقبل صاح به الخادم وأهوى له بالضرب فيدخل الدهليز وأنه ما فعل ذلك به إلا ثلاث مرار حتى صار إذا رأى محمد بن عبد الملك دخل الدهليز من تلقاء نفسه فإذا جاوز وثب على عراقيب دواب الشاكرية ورأيت هذا الخبر عندهم مشهورا قال : وكنا إذا تغدنا دنا من الخوان فزجرناه مرة أو مرتين فكان لا يقرنا لمكان الزجر ولا يبعد عن الخوان لعله الطمع فإن ألقينا إليه شيئا أكله ثم ودنا من أجل ذلك بعض الدنو فكنا نستظهر عليه فرمي باللقمة فوق مربضه بأذرع فإذا أكلها ازداد في الطمع فقربه ذلك من الخوان ثم يجوز موضعه الذي كان فيه ولولا ما كنا نقصد إليه من امتحان ما عنده ليصير ما يظهر لنا حديثا لكان إطعام الكلب

والسُّنَّور من الخِوان خطأ من وجوه : أولُّها أن يكون يصير له به دربة حتَّى إنَّ منها ما يمدُّ يده إلى ما على المائدة حتَّى

ربما تناول بفيه ما عليها وربَّما قاء الذي يأكل وهم يرونه وربَّما لم يرضَ بذلك حتَّى يعودَ في قبته وهذا كله ممَّا لا ينبغي أن يحضُرهُ الأكل بين أيدي السَّباع فأما علماء الفرسِ والهند وأطبَّاء اليونانيِّين ودُهاةُ العرب وأهلُ التَّجربة من نازلةِ الأمصار وحُذاق المتكلِّمين فإنهم يكرهون الأكلَ بين أيدي السَّباع يخافون نفوسَها وأعينها لِذَلي فيها من الشَّرِّ والحِرصِ والطَّلَبِ والكَلْبِ ولَمَّا يتحلَّل عند ذلك من أجوافها من البخار الرديء وينفصل من عيونها من الأمور المفسدة التي إذا خالطت طباعَ الإنسان نقصتَه وقد رُوي مثلُ ذلك عن الثَّوري عن سِمَاك بن حَرْب عن ابن عَبَّاسٍ أَنَّهُ قال على مِنبرِ البَصرة : إنَّ الكلاب من الحِنِّ وإنَّ الحِنَّ من ضَعْفَةِ الحِنِّ فإذا غشيكم منها شيءٌ فألقوا إليه شيئاً واطردوها فإنَّ لها أنفُسَ سوءٍ ولذلك كانوا يكرهون قيامَ الخدمِ بالمذابِّ والأشربةِ على رؤوسهم وهم يأكلون مخافة النفس والعين وكانوا يأمرُون بِإشباعهم قبل أنْ

يأْكُلُوا وكانوا يقولون)

في السُّنَّور والكلب : إمَّا أن تطرده قبل أن تأكلَ وإمَّا أن تشغلهُ بشيء يأكله ولو بعظم ورأيتُ بعضَ الحكماء وقد سقطت من يده لقمةٌ فرَفَعَ رأسه فإذا عينٌ غلامٍ له تحدَّق نحوَ لقمته وإذا الغلامُ يزدرُّ ريقه لتحلُّب فيه من الشَّهوة وكان ذلك الحكيمَ جيِّدَ اللَّقْمِ طيِّبَ الطَّعامِ ويضيقُ على غلامانه فيزعمون أن نفوسَ السَّباع وأعينها في هذا الباب أردأ وأخبث وبينَ هذا المعنى وبين قولهم في إصابة العينِ شيءٌ العجيبُ المستحسنُ شَرَكَةٌ وَقَرَابَةٌ وذلك أنَّهم قالوا : قد رأينا رجلاً ينسب ذلك إليهم ورأيناهم وفيهم من إصابة العينِ مقداراً من العدد لا نستطيع أن نجعل ذلك التَّسَقُّ من باب الاتِّفاق وليس إلى ردِّ الخبر سبيل لتواتره وتراؤفه ولأنَّ العيانَ قد حقَّقه والتَّجربة قد ضُمَّت إليه

العين التي أصابت سهل بن حنيف

وفي الحديث المأثور في العين التي أصابت سَهْلَ بن حُنيف فأمرَ

رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك بالذي أمرَ وذلك مشهور .

كلام في العين والحسد

قالوا : ولولا فاصل يفصل من عين المستحسنِ إلى بدن المستحسنِ حتَّى يكون ذلك الداخلُ عليه هو الناقضُ لقوَّاهُ لَمَّا جاز أن يلقي مكروهاً البتَّة وكيف يلقي المكروه من انساقٍ في حيزه وموضعه والذي أصابته العين في حيزه أيضاً وموضعه من غير تماسٍ ولا تصادمٍ ولا فاصل ولا عامل لاقي معمولاً فيه ولا يجوز أن يكون المعتل بعد صحته يعتلُّ

من غير معنى بدئه ولا تنتقض الأخلاط ولا تتزاييل إلا لأمرٍ يعرض لأنه حينئذٍ يكون ليس بأولى بالانتقاض من جسمٍ آخر وإن جاز للصحيح أن يعتل من غير حادث جاز للمعتل أن يبرأ من غير حادث وكذلك القول في الحركة والسكون وإذا جاز ذلك كان الغائب قياساً على الحاضر الذي لم يدخل عليه شيء من مستحسن له فإذا كان لابد من معنى قد عمل فيه فليس لذلك المعنى وجه إلا أن يكون انفصل إليه شيء عمل فيه وإلا فكيف يجوز أن يعتل من ذات نفسه وهو على سلامته وتمام قوته ولم يتغير ولم يحدث عليه ما يغيره فهو وجسم غائب في السَّلامة من الأعراض سواء وهذا جواب المتكلمين الذين يصدّقون بالعين ويثبتون الرؤيا .

صفة المتكلمين وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة يصلح للرئاسة حتى يكون (الذي يحسن من كلام الدّين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة والعالم عندنا هو الذي يجمعهما والصيب هو الذي يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل

عجزه على الكلام في التوحيد وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصح إذا قرنتها بالتوحيد ومن قال فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع .

وإنما يئأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفّر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع لأنّ في رفع أعمالها رفع أعيانها وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله فرفعت الدليل فقد أبطلت المدلول عليه ولعمري إن في الجمع بينهما لبعض الشدة . وأنا أعود بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل نقضت ركناً من أركان مقالي ومن كان كذلك لم ينتفع به .

القول في إصابة العين ونحوها

فإن قال قائل : وما بلغ من أمر هذا الفاصل الذي لا يشعر به القوم الحضور ولا الذي انفصل منه ولا المار بينهما ولا المتلقي له ببدنه وليس دونه شيء وكيف لم يعمل في الأقرب دون الأبعد والأقرب إنسان مثله ولعله أن يكون طبعه أشدّ اجتذاباً للآفات وبعد فكيف يكون شيء يصرع الصحيح ويضع القائم وينقض القوى ويمرض الأصحاء ويصدع الصّخر ويهشم العظم

ويقتل الثور ويهدد الحمار ويجري في الجماد مجراه في النبات ويجري في الثبات مجراه في الحيوان ويجري في الصلابة والملاسة جريه في الأشياء السخيفة الرّخوة وهو ممّا ليس له صدم كصدم الحجر أو غرب كغرب السيف أو حدّ كحدّ السنّان وليس من جنس السمّ فيحمل على نفوذ السمّ وليس من جنس الغذاء فيحمل على نفوذ الغذاء وليس من جنس السّحر فيقال إنّ العمار عملوا ذلك من طريق طاعتهم للعزائم فلعلّ ذلك إنّما كان شيئاً وافق شيئاً قيل لهم : قد تعلمون كيف مقدار سمّ الجرّارة أو سمّ الأفعى وكيف لو وزنتم الجرّارة قبل لسعها وبعده لو جدتموها على حال واحدة وأنت ترى كيف تفسخ عقده بدن الفيل وكيف تنقض قوى البعير من غير صدم كصدم الحجر وغرب كغرب السيف وحدّ كحدّ السنّان فإن قلت : فهل ناب الأفعى وإبرة العقرب إلا في سبيل حدّ السنّان قلنا : إنّ البعير لو كان إنّما يتفسخ لطنّ العقرب بإبرتها لما كان ذلك يبلغ منها

مقدار التَّخَسُّ ففقط ولكِنَّه لأَبَدٌ أن يكون)

ذلك

لأحد أمرين : إمَّا أن تكون العقربُ تمجَّ فيه شيئاً من إبرتها فيكون طبع ذلك وإن قلَّ يفسخ الفيلَ والزَّنبيلَ وإمَّا أن يكون طبعُ ذلك الدَّم إذا لاقاه طبعُ ذلك الناب وتلك الإبرة أن يُجمد فيقتل بالإجماد أو يذيب فيقتل بالإذابة فأَيُّهما كان فإنَّ الأمرَ فيه على خلاف ما صدَّرتُم به المسألة .

ولا تنازع بين الأعراب والأعرابُ ناسٌ إنَّما وضعوا بيوتهم وأبنيتهم وسطَ السَّبَّاع والأحناش والهمج فهم ليس يعبرون إلَّا بها وليس يعرفون سواها وقد أجمعوا على أنَّ الأفعى إذا هَرَمَت فلم تَطْعَمْ ولم يبقَ في فمها دم أنَّها تنكر بأنفها وتطعن به ولا تعضُّ فيها فيبلغ التَّكْرُّ لها ما كان يبلغ لها قبلَ ذلك اللَّدْغُ وهل عندنا في ذلك إلا تكذيبُهم أو الرجوعُ إلى الفاصل الذي أنكرتموه لأنَّ أحداً لا يموت من تلك التَّخسة إن كان ليس هناك أكثر من تلك الغمزة (كنتم كَمَنُ أدخَلَ في جُحْرِ يداً ** فأخطأ الأفعى ولأقَى الأسودا) ثم قال : بالشَّم لا بالسَّم منه أقصدا وقال الآخر :

(أصمَّ ما شَمَّ من خَضْرَاءَ أيسها ** أو مسَّ من حجرٍ أوهاه فانصدعا) وقد حدَّثني الأصمعيُّ بفرق ما بين التَّكْرُّ وغيره عند الأعراب وههنا أمثال نضُرُّها وأمور قد عايَنتموها يدلُّ بها هذا المعنى عندكم ويسهلُ بها المدخلُ قولوا لنا : ما بال العجينِ يكون في أقصى الدار ويفلق إنسان بطيخةً في أدنى الدار فلا يفلح ذلك العجين أبداً ولا يخنتمر فما ذلك الفاصلُ وكيف تقولون بصدمٍ كان ذلك كصدم الحجر أو بغرب كغرب السيف وكيف لم يعرض ذلك الفساد في كلِّ معجون هو أقربُ إليه من ذلك العجين وعلى أنَّ نكزَ الحيةَ التي يصفه الشعراءُ بأنَّ المنكوزَ ميَّت لا محالة في سبيل ما حدَّثني به حاذقٌ من حدَّاق الأطباء أنَّ رجلاً يضرب الحيةَ من دواهي الحيات بعصاه فيموت الضاربُ لأنهم يرون أنَّ شيئاً فصلَّ من الحية فجرى فيها حتَّى داخل الضارب فقتله والأطباء أيضاً والنصارى

أجراً على دفع الرُّؤيا والعين وهذه الغرائب التي فأما الدُّهرية فمنكرةٌ للشياطين والجنِّ والملائكة والرُّؤيا والرُّقى وهم يرون أنَّ أمرهم لا يتمُّ لهم إلَّا بمشاركة أصحاب الجَهالات .)

وقد نجدُ الرُّجُل ينقف شحم الحنظل وبينه وبين صاحبه مسافةٌ سالحة فيجد في حلقه مرارة الحنظل وكذلك السُّوس إذا عولج به وبينه وبين الإنسان مسافةٌ متوسطة البعد يجد في حلقه حلاوة السُّوس وناقف الحنظل لا تزال عينه تمهلُ مادام ينقفه ولذلك قال ابن حُذام قال أبو عبيدة : وهو الذي يقول : (كَأَنِّي غداةَ البين يومَ تحمَّلوا ** لدى سَمَرَاتِ الحيِّ ناقفُ حنظل) يخبر عن بكائه ويصف دُرُورَ دمعته في إثر الحمل فشبَّه نفسه بناقف الحنظل وقد ذكره امرؤ القيس في قوله :

(عوجاً على الطَّلَلِ القديم لعلَّنا ** نَبْكي الدِّيارَ كما بكى ابن حمام) ويُرْعَمون أنَّه أوَّل من بكى في الدِّيار وقد نجدُ الرُّجُل يقطع البصل أو يُؤخِفُ الحُرْدل فتدمع عيناه وينظر الإنسان فيدمع النَّظَرُ في العين الحمرة فتعتري عينه حمرة والعرب تقول : لهُو أعدى من الثُّوباء كما تقول : لهُو أعدى من الجرب وذلك أنَّ من تشاءب مراراً وهو

تُجاه عينِ إنسانٍ اعتري ذلك الإنسان التثاؤب ورأيت ناساً من الأطباء وهم فلاسفة المتكلمين منهم مَعمر
ومحمد بن الجَهْم وإبراهيم بن السَّنْدِي يكرهون ذُئوَّ الطامثِ من إناءِ اللبنِ لتسوطه أو تعالج منه شيئاً فكأثمهم
يرون أن لبدنِها ما دام ذلك العرضُ يعرضُ لها رائحةٌ لها حِدَّةٌ وبخارٌ غليظٌ يكون لذلك المسُوطُ مُفسِداً .

من أثر العين الحاسدة

ولا تُبعدَنَّ هذا من قلبك تباعداً يدعوك إلى إنكاره وإلى تكذيب أهله فإن أبيتَ إلا إنكارَ ذلك فما تقول في
فَرسٍ تحصَّنَ تحتَ صاحبه وهو في وسط موكبه وغبَّارُ الموكبِ قد حالَ بين استبانة بعضهم لبعض وليس في
الموكبِ حِجْرٌ ولا رَمَكَةٌ فليتنفُصْ صاحبُ الحصانِ فيرى حِجْراً أو رَمَكَةً على قابِ غَرَضٍ أو غَرَضِينَ أو غَلْوَةٍ أو
غلوتين حدَّثني كيف شَمَّ هذا الفرسَ ريحَ تلك الفرسِ الأنتى وما باله يدخل داراً من الدُّورِ وفي الدَّارِ الأخرى
حِجْرٌ فيتحصَّنُ مع دخوله من غير معاينة وسماعٍ سهيل وهذا الباب سيقع في موضعه إن شاء الله تعالى وقال
أبو سعيد عبد الملك بن قريب : كان عندنا رجلان يَعيَّنان الناس فمرَّ أحدهما بحوضٍ من حجارة فقال : تالَّه ما
رأيت كالיום قطَّ فتطاير الحوض فلقين فأخذه أهله فضبَّوه بالحديد فمرَّ عليه ثانية فقال : وأبيك لقلماً أضرتُ
قال : وأما الآخر فإنه سمع صوتَ بولٍ من وراء حائط فقال : إنَّكَ لشَرُّ الشَّخْبِ فقالوا له : إنه فلانُ ابنك قال
: وانقطع ظهراه قالوا : إنه لا بأسَ عليه قال : لا يبولُ والله بَعْدَها أبداً قال : فما بال حتَّى مات قال
الأصمعي : ورأيت أنا رجلاً عَيُوناً فدُعِيَ عليه فعَوَّرَ قال : إذا رأيتُ الشيءَ يُعجبني وجدتُ حرارةً تخرجُ من
عيني قال : وسمع رجلاً بقرةً تُحلبُ فأعجبه صوتُ شَخْبِها فقال : أيتَّهن هذه فخافوا عينه فقالوا : الفلانية
لأخرى ورَّوا بها عنها فهلكتا جميعاً : المورَّى بها والمورَّى عنها وقد حَمَلَ النَّاسُ كما ترى على العين ما لا يجوز
وما لا يسوغ في شيء من المجازات وقولُ الذي اعورُ : إذا رأيتُ الشيءَ يُعجبني وجدتُ حرارةً تخرجُ من عيني
مِنْ أعظم الحُججِ في الفاصل من صاحب العين إلى العين استطراد لغوي قال : ويقال إن فلاناً لَعَيون : إذا كان
يتشوفُ للناس ليصيبهم بعينٍ ويقال عَنَتُ فلاناً أعينه عَيْناً : إذا أصبته بعينٍ ورجلٌ مَعِينٌ ومعيون : إذا أصيب
بالعين وقال عباس بن مرداس : (قد كان قومك يحسبونك سيِّداً ** وإحال أنك سيِّدٌ معيُونُ)

ويقال للعَيون : إنَّه لَنَفوسٌ وما أنفَسَه أي ما أشدَّ عينه وقد أصابته نفس أو عين .
وأما قول القائل : إنَّ من لؤمِ الكلبِ وغدره أن اللصَّ إذا أراد دارَ أهله أطعمَ الكلبَ الذي
يجرسهم قَبْلَ ذلك مراراً ليلاً ونهاراً ودنا منه ومسح ظهره حتى يُثبت صورته فإذا أتاه ليلاً أسلمَ إليه الدارَ بما
فيها فإن هذا التأويل لا يكون إلا من نتيجة سوءِ الرأي فإن سوءَ الرأي يصوِّرُ لأهله الباطلَ في صورة الحقِّ وفيه
بعضُ الظُّلمِ للكلبِ وبعضُ المعاندة للمحتجِّ عن الكلبِ وقد ثَبِتَ للكلبِ استحقاقُ المدحِ من

حيثُ أَرَادَ أن يهجوه منه فإن كان الكلبُ بفرطِ إلفه وشكره كفَّ عن اللصِّ عندَ ذِكرِ إحسانه وإثباتِ صورته
فما أكثرَ من يُفرطُ عليه الحياءُ حتَّى ينسبَ إلى الضَّعفِ والكرمِ وحتَّى ينسبَ إلى الغفلةِ ورُبُّما شابَ الرَّجُلُ
بعضَ الفطنة ببعضِ التَّغافلِ ليكونَ أتمَّ لكرمه فإنَّ الفطنة إذا تَمَّتْ منعت من أمورٍ كثيرةٍ ما لم يكن الخِيمُ كريماً
والعِرْقُ سليماً . وإنك أيُّها المتأوِّلُ حينَ تكلفَ الكلبُ مع ما قد عَجَّلَ إليه اللصُّ من اللُّطفِ والإحسانِ أن

يتذكرَ نعمةً سائلةً وأنْ يحترس من خديعةِ احسنِ إليه مخافةً أنْ يكونَ يُرِغُ يَكرامه سوءاً لَحَسَنُ الرَّايِ فيه بعيدُ الغايةِ في تفضيله ولو كان للكلبِ آلةٌ يعرفُ بها عواقبَ الأمورِ وحوادثِ الدهورِ وكان يوازن بينَ عواجلها وأوآجلها وكان يعرف مصادرها ومواردها ويختار أنقص الشرِّين وأتمَّ الخيرين ويتثبتُ في الأمورِ ويخاف العيبَ ويأخذ بحجةٍ ويُعطي بحجةٍ ويعرف الحُجَّةَ من الشُّبهةِ والثَّقةَ من الرَّيبةِ ويتثبتُ في العلةِ ويخاف زَيعَ الهوى وسرفِ الطبيعةِ لكانَ من كبارِ المكلفين ومن رؤوس الممتحنين .

أختيار الأشياء والموازنة بينها لدى العاقلين

والعادةُ القائمة والتَّسَقُّ الذي لا يُتَخَطَّى ولا يَغَادَرُ والنظامُ الذي لا ينقطع ولا يختلط في ذوي التمكن والاسطاعة وفي ذوي العقول والمعرفة أنْ أبدانهم متى أحسَّت بأصناف المكروه والحبوب وازنوا وقابلوا وعَايَرُوا ومَيَّزُوا بين أتمَّ الخيرين وأنقص الشرِّين ووصلوا كلَّ مضرَّةٍ ومنفعةٍ في العاجل بكلِّ مضرَّةٍ ومنفعةٍ في الآجل وتنبهوا مواقعها وتدبَّروا مساقطها كما يتعرَّفون مقاديرها وأوزانها واختاروا بعدَ ذلك أتمَّ الخيرين وأنقص الشرِّين فأما الشرَّ صرفاً والخير محضاً فإنَّهم لا يتوقَّفون عندهما ولا يتكلَّفون الموازنةَ بينهما وإنَّما ينظرون في الممزوج وفي بعض ما يخشى في معارضته ولا يوثقُ بِمَعْرَاةٍ ومُكشَّفِهِ فيحملونه على خلاص الدَّهن كما يحمل الذهب على الكير

وأما ذوات الطَّبائعِ المسخَّرة والغريزة الخبولة فإنَّما تَعْمَلُ من جهة التسخير والتنبيه كالسمِّ الذي يقتل بالكمِّية ولا يغذو وكالغذاء الذي يغذو ويقتل بالمجاوِزة لمقدار الاحتمال وإن)
هَيَّا اللهُ عزَّ وجلَّ أصنافَ الحيوانِ المسخَّرة لدرك ما لا تبلغه العقولُ اللطيفة بلغته بغير معاناةٍ ولا ومتى تقدَّمتْ إلى الأمور التي يعالجها أهلُ العقولِ المبسوطة المتمكِّنة بطبائعها المقصورة غير المبسوطة لم يمكنها أن تعرف من تلك الطبيعة ما كان موازياً لتلك الأمور ببديهةٍ ولا فكرةٍ وإذا كانت كذلك فليس بواجب أن تكون كلَّما أحسنتْ أمراً أمكنها أن تُحسِّنَ ما كان في وزنه في الغُمُوض والإلطاف وفي الصَّنعةِ التي لا تمكُنُ إلَّا بحسن التأتّي وببعد الرويَّةِ وبمقابلةِ الأمورِ بعضها ببعض وهذا الفنُّ لا يُصابُ إلَّا عند من جهته العقل وبمكُنهُ الاستدلالُ والكفُّ عنه والقطعُ له إذا شاء وإتمامه إذا شاء وبلوغ غايته والانصرافُ عنه إلى عَقِيْبِهِ من الأفعالِ ومن جهتهُ تعرَّفُ العِللِ ويُمكنهُ إكراه نفسه على المقاييس والتكلف والتأتّي

ومتى كانت الآلة موجودةً فإنَّها تُنبِّئُك على مكانها وإلا كان وجودها كعدمها وبالحسِّ الغريزي تُشعرُ صاحبها بمكانها لا يحتاج في ذلك إلى تلقينٍ وإشارةٍ وإلى تعليمٍ وتأديبٍ وإن كان صاحبُ الآلة أحمقَ من الحبارى وأجهلَ من العقرب

الإلهام في الحيوان

والعاقل الممكَّن لا يفضلُ في هذا المكان على الأشياءِ المسخَّرة ولا ينفصل منها في هذا الباب .
وليس عند البهائم والسباع إلَّا ما صنعت له ونصبت عليه وألهمت معرفته وكيفية تكلف أسبابها والتعلُّم لها من

تلقاء أنفسها فإذا أحسن العنكبوت نسج ثوبه وهو من أعجب العجب لم يحسن عمل بيت الزبور وإذا صنع التحل خلاياه مع عجيب القسمة التي فيها لم يحسن أن يعمل مثل بيت العنكبوت والسُرقة التي يقال : أصنع من سُرقة لا تُحسن أن تُبنى مثل بيت الأرضة على جفاء هذا العمل وغلظه ودقة ذلك العمل ولطافته وليس كذلك العاقل وصاحب التمييز ومن ملك التصرف وخول الاستطاعة لأنه يكون ليس بنجار فيتعلم التجارة ثم

يبدو له بعد الحذف الانتقال إلى الفلاحه ثم ربما ملها بعد أن حذفها وصار إلى التجارة .

أسمح من لافظة

وقال صاحب الكلب : وزعمت أن قولهم أسمح من لافظة أن اللافظة الديك لأنه يعص على الحبة بطرفي منقاره ثم يحذف بها قدام الدجاجة وما رأينا أحداً من العلماء ومن الذين رَووا هذا المثل يقول ذلك والناس في هذا المثل رجلان : زعم أحدهما أن اللافظة العنز لأن العنز (ترعى في روضة وتأكّل من معلقها وهي جائعة فيدعوها الراعي وصاحبها باسمها إلى الحلب فتترك ما هي فيه حتى تُنهك حلباً وقال الآخر : اللافظة الرّحى لأنها لا تمسك في جوفها شيئاً مما صار في بطنها وكيف تكون اللافظة الديك وليس لنا أن نلحق في هذه الكلمة تاء التانيث في الأسماء المذكورة واللافظة مع هاء التانيث أشبه بالعنز والرّحى وإنما سمينا الجمل راويةً وحامل العلم راويةً وعلامة حين احتج أهل اللغة على ذلك ولم يختلفوا فيه وكيف ولا اختلاف

بينهم أن الديك خارج من هذا التأويل وإن اختلافهم بين العنز والرّحى وبعد فقد زعم ثمامة بن أشرس رحمه الله تعالى : أن ديكاً مرّو تطرد الدجاجة عن الحب وتنزع الحب من أفواه الدجاج وقال صاحب الديك : قولهم : أسمح من لافظة لا يليق بالرّحى لأن الرّحى صخرة صماء والذي يخرج ما في بطنها المدير لها والعرب إنما تمدح بهذه الأسماء الإنسان وما جرى مجراه في الوجوه الكثيرة ليكون ذلك مشحذة للأذهان وداعية إلى السباق وبلوغ الغايات وأما ترك الشاة للعلف فليس بلفظ للعلف إلا أن يحملوا ذلك على انجازات البعيدة وقد يكون ذلك عند بعض الضرورة والشاة ترضع من خلفها حتى تأتي على أقصى لبن في ضرعها وتشر العلف وتقلب

المخلّب وتنطح من قام عليها وأتاها بغدائها وهي من أمّوق البهائم وزوجها شتيم الحيا منتن الريح يبول في جوف فيه وفي حاق خياشيمه وتقول العرب : ما هو إلا تيس في سفينة إذا أرادوا به العبّابة وما هو إلا تيس إذا أرادوا به نتن وأمر الديك وشأنه وكيف يلفظ ما قد صار في منقاره وكيف يؤثر به طروفته من ذات نفسه شيء يراه الناس ويراه جميع العباد وهذه المكرمة وهذا الغزل وهذا الإيتار شيء يراه الناس لم يكن في ذكر قط ممن يزواج إلا الديك والديك أحق بهذا المثل فإن كنتم قد صدقتم على العرب في تأويل هذا المثل فهذا غلط من العرب وعصبيّة للبن وعشق للدقيق والمثل إنما يلفظ به رجل من الأعراب وليس الأعراي بقُدوة

إلا في الجرّ والنصب والرفع وفي الأسماء وأما غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب فالديك أحق بهذا المثل الذي ذكرنا وسائر خصاله الشريفة والذي يدل على أن هذا الفعل في الديك إنما هو من جهة الغزل لا غير أنه لا يفعل ذلك إذا هزم وعجز عن السّقاد وانصرفت رغبته عنهن وهو في أيام شبابه أنهم وأحرص على المأكول

وأضنُّ على الحبِّ فما لَهُ لم يُؤثرهنَّ به عندَ زهده ويؤثرهنَّ عندَ رغبته وما (
بألهُ لم يفعل ذلك وهو فروج صغير وصنع ذلك حين أطاق السفاد فتركه لذلك في العجز عنهنَّ وبذله في أوقات
القوة عليهنَّ دليل على الذي قلنا وهذا بين لا يرُدُّه إلَّا جاهل أو معاند .

دفاع عن الكلب

وقال صاحب الكلب : لسنا نُنكر خِصالَ الديك ومناقبه من الأخبار المحمودة ولولا ذلك ما ميَّلنا بينه وبين
الكلب ومن يميل بين العسل والخلِّ في وجه الحلاوة والحموضة وكيف يفضل شيء على شيء وليس في
المفضول شيء من الفضل والذي قلتم من قدِّفه الحبُّ قدَّام الدَّجاج صحيح وليس هذا الذي أنكرنا وإنَّما
أنكرنا

موضع المثل الذي صرفتموه إلى حجتكم وتركتم الذين ما زال الناس يقلِّدونهم في الشاهد والمثل وإن جاز لكم
أن تردُّوا عليهم هذا المثل جاز لكلِّ من كره مثلاً أو شاهداً أن يردَّ عليهم كما ردَّدتم وفي ذلك إفسادُ أمرِ
العربِ كله فإن زعمتَ أنَّ الديك كان أحقَّ به فخصومك كثير ولسنا نحيط بأوائل كلامهم على أيِّ مقادير
كانوا يضعونها ومن أيِّ شيء اشتقُّوها وكيف كان السبب ورُبَّ شيء أنكرناه فإذا عرفنا سببه أقرنا به وقال
أبو الحسن : مرَّ إياسُ بنُ معاوية بديك ينقر حبًّا ولا يفرقه فقال : ينبغي أن يكون هذا هرمًا فإنَّ الهرم إذا ألقي
له الحبُّ لم يفرقه ليجتمع الدجاج حوله والهرم قد فئت رغبته فيهنَّ فليس هُمَّه إلَّا نفسه .
وروا عنه أنَّه قال : الالافظة الديك الشابُّ وإنَّه يأخذ الحبة يؤثر بها الدَّجاج والهرم لا يفعل ذلك وإنَّما هو
لالفظةٌ مادام شابًّا

وقال صاحب الكلب : وذكر ابن سيرين عن أبي هريرة : أن كلباً مرَّ بامرأة وهو يلهث عند بئر فنزعت خُفَّها
فسقته فغفرَ الله تعالى لها وعنه قال : غفرَ الله لبغيٍّ أو لمؤمنة مرَّ بها كلبٌ فنزعت خُفَّها فسقته وقال صاحب
الكلب : وقال ابن داحية : ضرب ناسٌ من السُّلطاء جارا لهم ولبيوه وسحبوه وجروه وله كلبٌ قد ربَّاه فلم
يزلَّ ينبحُ عليهم ويشقُّ ثيابهم ولولا أنَّ المضروب المسحوب كان يكفُّه ويزجره لقد كان عقر بعضهم أو منعه
منهم .

قال إبراهيم النَّظام : قدَّمتم السُّنور على الكلب ورويتم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أمرَ بقتل الكلاب
واستحياء السنابير وتربيها كقولها عند مسألته عنها : إنَّهنَّ من الطَّوائفِ عليكم وكلُّ منفعةٍ عندَ
السُّنورٍ إنَّما هي أكلُ الفأر فقط وعلى أنكم قلما تجدون سنورا يطلبُ الفأر فإن كان مما يطلبُ ويأكلُ الفأر لم
يعدمكم أن يأكلَ حماكم وفراخكم والعصافير)

التي يتلهَّى بها أولادكم والطائر يتخذُ لحسنه وحسنِ صوته والذي لا بدَّ منه الوثوبُ على صغار الفرائج فإن
هو عَفَّ عن أموالكم لم يعفَّ عن أموال جيرانكم ومنافع الكلب لا يحصيها الطَّوامير والسُّنور مع ذلك يأكل
الأوزاغ والعقارب والحنافيس وبناتِ وِرْدان والحياتِ ودخالاتِ الآذان والفأر والجُرذان وكلَّ خبيثة وكلَّ ذاتِ
سمٍّ وكلَّ شيءٍ

تعافه النفس ثم قلتهم في سؤر السنور وسؤر الكلب ما قلتهم ثم لم ترضوا به حتى أضفتموه إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم .

أطيب البهائم أفواها ولا يشكُّ الناس أن ليس في السباع أطيَّبُ أفواهاً من الكلاب وكذلك كلُّ إنسانٍ سائلِ الرقيق سائلِ اللعاب والخُلوف لا يعرض للمجانين الذين تسيلُ أفواههم ومن كان لا يعتريه الخُلوف فهو من البحر أبعدُ وكما أن طولَ انطباقِ الفم يُورث الخُلوف فكثرةُ تحلُّبِ الأفواه بالرقيق تنفي الخُلوف وحتى إن من سال فوه من اللعاب فإنما قضوا له بالسلامة من فيه وإن استنكهوه مع أشباهه وجدَّوه طيباً وإن كان لا يقربُ سواكاً على الرقيق وكذلك يقال إن أطيَّبَ النَّاسِ أفواهاً الرُّنَج وإن كانت لا تعرفُ سنوناً ولا سواكاً .

على أن الكلبَ سُبُعٌ وسباعُ الطيرِ وذواتِ الأربعِ موصوفةٌ بالبحرِ والذي يضربُ به في ذلك المثل الأسدُ وقد ذكره الحكمُ بن عبدل في هجائه محمَّدَ بنَ حسان فقال :

(فنكَّهته كنكَّهةً أخدرِيَّ * شتيمٌ شابِكِ الأثيابِ وردِ) وقال بشرُّ : (وأفسَى من الطَّربانِ في ليلةِ الكرى *)

وأخلفُ من صقرٍ وإن كانَ قد طعمَ) يهجو بها حمادَ عجرَدَ ويقال : ليس في البهائم أطيَّبُ أفواهاً من الطباء . (رضيعٌ ملَّهم) وزعم علماءُ البصريِّين وذكر أبو عبيدة النحويُّ وأبو اليقظان سُحيم بن حفص وأبو الحسن المدائني وذكر ذلك عن محمَّد بن حفص عن مَسْلَمَةَ بن محارب وهو حديثٌ مشهورٌ في مشيخة أصحابنا من البصريِّين أن طاعوناً جارفاً جاءَ على أهلِ دار فلم يشكُّ أهلُ تلكَ الحَلَّةِ أنه لم يبقَ فيها صَغِيرٌ ولا كبيرٌ وقد كان فيها صَيٌّ يرْتَضِعُ ويحبو ولا يقوم على رجليه فعمدَ مَنْ بقي من المطعونين من أهل تلكَ الحَلَّةِ إلى باب تلكَ الدار فسدَّه فلما كان بعد ذلك بأشهرُ)

تحوَّلَ فيها بعضُ ورثةِ القومِ ففتح البابَ فلما أفضى إلى عَرِصةِ الدَّارِ إذا هو بصبيٍّ يلعبُ مع

أجراءِ كلبَةٍ وقد كانت لأهل الدار فراعه ذلك فلم يلبث أن أقبلت كلبَةٌ كانت لأهل الدار فلما رآها الصبيُّ حبا إليها فأمكنته من أطبائها فمصَّها فظنُّوا أن الصبيَّ لما بقي في الدار وصارَ منسياً واشتدَّ جوعُهُ ورأى أجراءها تستقي من أطبائها حبا إليها فعطفت عليه فلما سقته مرةً أدامت ذلك له وأدام هو الطلب .

والذي ألهم هذا المولودَ مصَّ إمامه ساعةً يولَّد من بطن أمِّه ولم يعرف كيفية الارتضاع هو الذي هداه إلى الارتضاع من أطباء الكلبَةِ ولو لم تكن الهدايةُ شيئاً مجعولاً في طبيعته لما مصَّ الإهَامَ وحلمةَ الثدي فلما أفرط عليه الجوعُ واشتدَّت حالُهُ وطلبتَ نفسه وتلك الطبيعةُ فيه دَعَتْهُ تلك الطبيعة وتلك المعرفةُ إلى الطلب والدنوَ فسبحانَ مَنْ دَبَّرَ هذا وألهمه وسوَّاه ودلَّ إلهامَ الحمام ومثلُ هذا الحديث ما خُبِّرَ به عن بابويه صاحب الحمام ولو سمعت قصصه في كتاب اللصوص علمت أنه بعيدٌ من الكذب والتريد وقد رأيته وجالسته ولم أسمع هذا الحديث منه ولكن حدثني به شيخٌ من مشايخ البصرة ومن التَّزول بحضرة مسجد محمد بن رَغَبان وقال بابويه :

كان عندي زوجُ حمامٍ مقصوص وزوجُ حمام طيَّار

وفرخانٍ من فراخ الزَّوج الطيَّار قال : وكان في الغُرَّة ثَقْبٌ في أعلاها وقد كنتُ جعلت قُدَّامَ الكَوَّة رَفًّا ليكونَ مسقطاً لما يدخلُ ويخرج من الحمام فتقدَّمتُ في ذلك مخافة أن يعرض لي عارضٌ فلا يكون للطَّيَّار منفذ للتكسُّب ولورود الماء فيينا أنا كذلك إذ جاءني رسولُ السلطان فوضَّعني في الحبس فنسيت قدرَ الزَّوج الطَّيَّار

والفرخين وما لهما من الثمن وما فيهما من الكرم ومث من رَحمة الزَّوج المقصوص وشغلني الاهتمامُ بهما عن كثير مما أنا فيه فقلت : أمَّا الزَّوجُ الطَّيَّارُ فإِنَّهُمَا يَجْران وَيَرْقَّان وَلَعَلَّهُمَا أَنْ يَسْلَمَا وَلَعَلَّهُمَا أَنْ يَذْهبا وقد كنتُ رَبَّيتُهُما حتى تَحَصَّنَا وَوَرَدَا فإذا شَبَّ الفَرخان وَهَضَا مع أبويهما وسقطا على المعلاة فإِذَا أَنْ يَثْبُتا وإِذَا أَنْ يَذْهبا ولكنْ كَيْفَ يَكُونُ حَالُ المقصُوصَيْنِ وَمَنْ أَسوأُ حَالاً مِنْهُمَا فَخُلِّي سَبِيلِي بَعْدَ شَهر فلم يكن لي هَمٌّ إِلَّا التَّظَرُّ إلى ما خَلَّفْتَ خَلْفِي من الحمام وإذا الفَرخان قد ثَبَّتَا وإذا الزَّوجانِ قد ثَبَّتَا وإذا الزَّوجانِ الطَّيَّارانِ ثَبَّتَا على حاملهما إِلَّا أَنِّي رَأيتُهُما زاقَيْنِ إذ علامةُ ذلك في موضعِ العَجَبِ وفي القِرطَمَتَيْنِ وفي أصولِ المناقيرِ وفي عيونهما فقلت : فكيف يكونان زاقَيْنِ مع استغناء فرخيهما)
عنهما ولا أشكُّ في موت المقصُوصين ثُمَّ دخلتُ الغرفة فإذا هما على

أفضلِ حال فاشتدَّ تعجُّبي من ذلك فلم أَلْبَثُ أَنْ دَنَوْتُ إلى أفواه الزَّوجِ الكبارِ يصنعان كما يصنع الفرخ في طلب الزَّقِّ ورأيتُهُما حين زَقَّاهما فإذا هما لما اشتدَّ جوعُهُما وكانا يريانهُما يَزَقَّانِ الفَرخين وَيَريانِ الفَرخين كَيْفَ يَسْتَطْعمان وَيَسْتَزَقَّانِ حَمَلُهُما الجوعُ وحبُّ العيشِ وتَلَهَّبُ العطشُ وما في طبعِهِما من الهدايةِ على أَنْ طلبا مَا يَطْلُبُ الفَرخُ فزَقَّاهُما ثُمَّ صار الزَّقُّ عادةً في الطَّيَّارِ والاستطعامُ عادةً في المقصوص .
من عجائب الحمام ومن الحمامِ حَمَامٌ يَزُقُّ فِراخه ولا يَزُقُّ شَيْئاً من فِراخِ غيره وإن دنا منه مع فِراخِهِ فَرخٌ من فِراخِ غيره وشاكَلَ فَرخيه في السِّنِّ واللَّونِ طردَهُما ولم يَزَقَّهُما ومن الحمامِ ما يَزُقُّ كُلَّ فَرخٍ دنا منه كما أَنَّ من الحمامِ حَمَاماً لا يَزُقُّ فِراخَهُ البَتَّةَ حَتَّى يَمُوتَ وإِنَّمَا تَعْظُمُ البَلِيَّةُ على الفَرخِ إذا كان الأبُّ هو الذي لا يَزُقُّ لِأَنَّ الوِلادةَ وعامةَ الحَضنِ والكفْلَ على الأمِّ فإذا ظَهر الولدُ فعامَّةُ الزَّقِّ على الأبِّ كأنه صاحبُ العيالِ والكاسبِ عليهم وكالأمِّ التي تلد وتُرضع .

وأعجبُ من هذا الطائرُ الذي يقال له كاسرُ العظامِ فَإِنَّهُ يَبْلُغُ من بَرِّ الفِراخِ كُلِّها بعدَ القِيامِ بشأنِ فِراخِ نفسه أَنَّهُ يَتَعاهدُ فَرخَ العُقَابِ الثالثِ الذي تخرجه من عَشَّها لِأَنَّها أَشْرُهُ وأَرغَبُ بَطْناً وأَقسى قَلْباً وأَسوأُ خُلُقاً مِنْ أَنْ تَحْتَمِلَ إِطعامَ ثلاثةٍ وهي مَعَ ذلك سَريعةُ الجَزَعِ فتخرج ما فَضَّلَ عن فرخينِ فإذا أخرجته قبله كاسرُ العِظامِ وأَطْعَمَهُ لِأَنَّ العُقَابَ من اللاتِي تَبِيضُ ثلاثَ بيضاتٍ في أَكثَرِ حالاتِها .
دفاعُ أسدي عن أَكلِ قومه لحومِ الكلابِ قال : وَغَيْرُ رَجُلٍ من بَنِي أُسدٍ بِأَكَلِ لحومِ الكلابِ وَذَهَبَ إلى قولهِ :
يا فَقْعَسِيُّ لِمَ أَكَلْتَهُ لِمَهُ

لو خافَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَرَمَهُ فَمَا أَكَلْتَ لَحْمَهُ ولا ذَمَّهُ قال : فقال الأعرابي : أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّدَّةَ والشَّجاعةَ والبأسَ والقوةَ من الحيوانِ في ثلاثةٍ أَصنافٍ : العُقَابِ في الهِواءِ والتمساحِ في ساكنِ الماءِ والأسدِ في ساكنِ الغياضِ وليس في الأرضِ لَحْمٌ أَشْهى إلى التمساحِ ولا إلى الأسدِ من لحمِ الكلبِ فَإِنْ شَتِمْتَ فَعُدُّوهُ عَدُوًّا لهما)
فإِنَّهُما يَأْكُلانِهِ من طريقِ القَيْظِ وطلبِ الثَّارِ وإِنْ شَتِمْتَ فَقُولُوا غيرَ ذلك .
وبنو أُسدٍ أُسدُ الغياضِ وأشبهُ شَيْءٍ بالأَسدِ فَلِذلِكَ تَشْتَهِي من اللُّحمانِ أَشْهائِها إلى الأسدِ والدَّلِيلُ على أَنَّهُمُ

أُسَدٌ وفي طباعِ الأسدِ أُنْكَ لو أَحْصَيْتَ جَمِيعَ الْقَتْلَى من سادات العرب وَمِنْ فُرْسَانِهِمْ لَوَجَدْتَ شَطْرَهَا أو قَرِيباً
من شَطْرَهَا لبني أسد .

أنفة الكلب

قالوا : ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ كُلُّهُ أَنَّ الْكَلْبَ لَا يَرْضَى بِالنَّوْمِ وَالرُّبُوضِ عَلَى بَيَاضِ الطَّرِيقِ وَعَلَى عَفْرِ التُّرَابِ وَهُوَ يَرَى
ظَهْرَ الْبَسَاطِ وَلَا يَرْضَى بِالْبَسَاطِ وَهُوَ يَجِدُ الْوَسَادَةَ وَلَا يَرْضَى بِالْمَطَارِحِ دُونَ مُرَافِقِ الْمَطَارِحِ فَمَنْ نُبِّلَهُ فِي نَفْسِهِ
أَنْ يَتَخَيَّرَ أَوْدَاناً أَنْبَلَ مَوْضِعَ فِي الْمَجْلِسِ وَحَيْثُ يَدْعُو رَبُّ الْمَجْلِسِ صَيَانَةً لَهُ وَإِبْقَاءَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّرَ فِيهِ مَنْ لَا
يَجُوزُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَدْرًا فَلَا يَقْصُرُ الْكَلْبُ دُونَ أَنْ يَرْفَى عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَ فِي حُجْجٍ مُعَاوِيَةَ فِي اتِّخَاذِ الْمُقْصُورَةِ بَعْدَ
ضَرْبِ الْبُرْكِ إِيَّاهُ بِالسَّيْفِ أَنَّهُ أَبْصَرَ كَلْبًا عَلَى مَنْبَرِهِ .
هَذَا عَلَى مَا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنْ إِكْرَامِ الرَّجُلِ الْجَمِيلِ اللَّبَاسِ حَتَّى لَا يَنْبَحُ عَلَيْهِ إِنْ دَنَا مِنْ بَابِ أَهْلِهِ مَعَ الْوُثُوبِ عَلَى
كُلِّ أَسْوَدٍ وَعَلَى كُلِّ رَثٍّ الْهَيْئَةِ وَعَلَى كُلِّ سَفِيهِ تَشَبُّهُ حَالَهُ حَالَ أَهْلِ الرَّيَّةِ

وَمِنْ كِبَرِهِ وَشِدَّةِ تَجَبُّرِهِ وَفَرْطِ حِمِيَّتِهِ وَأَنْفَتِهِ وَاحْتِقَارِهِ أَنَّهُ مَتَى نَبَحَ عَلَى رَجُلٍ فِي اللَّيْلِ وَلَمْ يَمْنَعْهُ حَارِسٌ وَلَمْ يُمْكِنْهُ
الْقُوَّةُ فَدَوَاؤُهُ عِنْدَ الرَّجُلِ أَنَّهُ لَا يَنْجِيهِ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَقْعُدَ بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَخْزِيًا مُسْتَسْلِمًا وَأَنَّهُ إِذَا رَأَاهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ
دَنَا مِنْهُ فَشَعَرَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَهْجُرْهُ كَأَنَّهُ حِينَ ظَفَرَ بِهِ وَرَأَاهُ تَحْتَ قُدْرَتِهِ رَأَى أَنْ يَسْمَهُ بِمِيسَمٍ ذَلِكَ كَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَجُرُّ
نَوَاصِي الْأَسْرَى مِنَ الْفُرْسَانِ إِذَا رَامَتْ أَنْ تَخْلِيَ سَبِيلَهَا وَتَمَنَّ عَلَيْهِا وَلَوْ كَفَّ الْعَرَبِيُّ عَنْ جَزِّ نَاصِيَتِهِ لَوْسَمَهُ
الْأَسِيرُ مِنَ الشَّعْرِ وَالْقَوَافِي الْخَالِدَاتِ الْبَوَاقِي الَّتِي هِيَ أَبْقَى مِنَ الْمِيسَمِ بِمَا هُوَ أَضَرُّ عَلَيْهِ مِنْ جَزِّ نَاصِيَتِهِ وَلَعَلَّهُ لَا
يَبْلُغُ أَهْلَهُ حَتَّى تَسْتَوِيَ مَعَ سَائِرِ شَعْرِ رَأْسِهِ وَلَكِنْ ذَلِكَ الْجَزُّ لَا يَزَالُ يُلُوحُ فِي وَجْهِهِ وَلَا يَزَالُ لَهُ أَثَرٌ فِي قَلْبِهِ .

تقدير مطرف للكلب

وَذَكَرَ أَنَّ مُطَرِّفَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ لِلْكَلْبِ إِخْسًا وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فِي دَعَائِهِ عَلَى أَصْحَابِ الْكَلْبِ
الَّذِي كَانَ

أَرْبَابُهُ لَا يَمْنَعُونَهُ مِنْ دُخُولِ مُصَلَّاهُ قَالَ : اللَّهُمَّ امْنَعْنِهِمْ بَرَكَةَ صَيْدِهِ دَلِيلَ عَلَى حَسَنِ رَأْيِهِ فِيهِ .
مِنْ أَقْوَالِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالُوا : وَمَرَّ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ فِي الْحَوَارِيِّينَ بِجَيْفَةِ كَلْبٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا أَشَدَّ نَتَنَ
رِيحِهِ قَالَ : فَهَلَّا قُلْتُ : مَا أَشَدَّ بَيَاضَ أَسْنَانِهِ . قَالُوا : وَقَالَ رَجُلٌ لِكَلْبٍ : إِخْسًا وَيْلَكَ فَقَالَ هَمَّامُ بْنُ الْحَارِثِ :
الْوَيْلُ لِأَهْلِ النَّارِ .

هراش الكلاب

وَالْهَرَّاشُ الَّذِي يَجْرِي بَيْنَهَا وَهُوَ شَرٌّ يَكُونُ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَجْنَاسِ الْمُنْفَقَةِ كَالْبِرْذَوْنِ وَالْبِرْذَوْنِ وَالْبَعِيرِ وَالْبَعِيرِ وَالْحِمَارِ
وَالْحِمَارِ وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَجْنَاسِ فَأَمَّا الَّذِي يَفْرُطُ وَيَتَمُّ ذَلِكَ فِيهِ وَيَتَمَنَّعُ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ

ويقع فيه القِمار ويتخذ لذلك وينفق عليه ويُغالى به فالكلبُ والكلبُ والكبشُ والكبشُ والدِّيكُ والدِّيكُ والسُّمائي والسُّمائي التحريش بين الجرذان فأما الجرذُ فإنه لا يقاتل الجرذَ حتَّى يشدَّ رجل أحدهما في طرف خيط ويشدَّ الجرذُ الآخر بالطرف الآخر ويكون بينهما من المساواة والالتقاء والعَضُّ والخمش وإراقة الدِّم وفَرَي الجلود ما لا يكون بين شيتين من الأنواع التي يُهارش بها . والذي يحدث للجرذان طبيعة القتال الرباطُ نفسه فإن انقطع الخيطُ وانحلَّ العقدُ أخذَ هذا شرقاً وهذا غرباً ولم يلتقيا أبداً وإذا تقابلت جِحرَةُ الفأر وخلا لها الموضعُ فبينها شرٌّ طويل ولكنه لا يعدو الوعيد

قصة ثمانية فيما شاهده من الفأر وحدثني ثمانية بن أشرس قال : كان بقي في الحبس جُحرُ فأر وتلقاه جُحرُ آخر فبرى لكل واحدٍ منهما وعيداً وصباحاً ووثوباً حتَّى يُظنَّ أنَّهما سيلتقيان ثم لا يحتجزان حتَّى يقتل كل واحدٍ منهما صاحبه فبينما كل واحدٍ منهما في غاية الوعيد إذ مرَّ هارباً حتَّى دخل جُحره فما زالا كذلك حتَّى أتى الله تعالى بالفرج وخُلِّي سبيلي .

جودة الشم عند الكلاب السلوقية

وزعم أنَّ السِّلوقيَّة الطويلة المناخر أجودُ شَمّاً والشمُّ العجيب والحسُّ اللطيف من ذلك إلّا أنَّ ذلك في طلب الذكور للإناث والإناث للذكور خاصة وأما شَمُّ المأكول واسترواح الطُّعم فللسَّبَاع في ذلك ما ليس لغيرها وإنَّ الفأرَ ليشمُّ وإنَّ الذرَّ والنمل ليشمُّ وإنَّ السنانير لتشمُّ وكذلك الكلب وله في ذلك فضيلة ولا يبلغ ما يبلغ الذئب وقال أعرابي : (كان أبو الصَّحيم من أربابها * صَبَّ عليه الله من ذنابها) (أطلس لا ينحاش من كلابها * يلتهم الطائر في ذهابها)

في الجريرة الأولى فلا مشى بها ألا تراه يجتهد في الدعاء عليها بذنب لا ينحاشن الكلاب ما يُشبه بالكلب وليس هو منه وإذا جرى الفرس المحجل شَبَّهوا قوائمه بقوائم الكلب إذا ارتفعت في بطنه فيصير تحجيلها كأنه أكلبٌ صغارٌ تعدو كما قال العُماني : (كأن تحت البطن منه أكلباً * بيضاً صِغاراً ينتهشن المنقبا) وقال البدرى : (كأن أجراء كلابٍ بيض * دون صِفاقيه إلى التَغريض)

وقال الآخر : (كأن قِطاً أو كلاباً أربعا * دون صِفاقيه إذا ما ضبعا) ويصفون الطَّلَعُ أوَّل ما يبدو صِغاراً بأذان الكلاب البيض وقال في ذلك الرَّاجزُ : (أنعتُ جُمَّاراً على سحيض * يخرج بعد النَّجم والنبيض) طلعاً كأذان الكلاب البيض ويوصف صوت الشَّخْب في الإناء بهرير هراش الكلاب قال أعرابي : (كأن خليفها إذا ما هراً * جرواً كلابٍ هورشا فهراً) وقال الآخر : هراشُ أجراءٍ ولما تُنْغِر

وقال أبو دُوَاد : (طويل طامح الطرف * إلى وهوة الكلب .)

جواب صبي

وزعم الهيثم بن عدي قال : كان رجل يُسمَّى كلباً وكان له بُنيٌّ يلعبُ في الطريق فقال له رجلٌ : ابن من فقال : ابن وَوْ وَوْ وَوْ (ما يستحبُّ في ذنب كلب الصيد) ويحبُّون أن يكون ذنب الكلب الصَّائِدِ يابساً ليس له من اللحم قليل ولا كثير ولذلك قال :

تلوي بأذنان قليلات اللَّحَا وقال الشاعر : (إِنِّي وَطَلَبَ ابْنِ غَلَّاقٍ لِيَقْرِيَنِي ** كَالغَابِطِ الْكَلْبِ يَبْغِي الطَّرْقَ فِي الذَّنْبِ) الطَّرْقُ : الشَّحْمُ اليسير يقال : ليس به طَرْقٌ .

طيب لحم أجراء الكلاب

ويقال : ليس في الأرض فَرْخٌ ولا جروٌ ولا شيءٌ من الحيوان أسمنَ ولا أرطبَ ولا أطيبَ من أجراء الكلب وهي أشبهُ شيءٍ بالحمام فإنَّ فِرَاحَ الحمام أسمنٌ شيءٌ مادامت صغاراً من غير أن تسمنَ فإذا بلغتْ لم تقبل الشحم وكذلك أولادُ الكلاب .

وقال الآخر : (وأغصَفِ الأذُنَ طاوي البطنِ مُضْطَمِرٍ * لَوْهُوهِ رَذِمِ الحِيشومِ هَرَّارِ) الأصمعيُّ قال : قال أعرابيٌّ : أصابتنا سَنَةٌ شديدةٌ ثم أعقبَتْها سَنَةٌ تتابعُ فيها الأمطارُ فسمِنتِ الماشيةُ وكثُرَتِ الألبانُ والأسمانُ فسَمِنَ ولُدانُ الحَيِّ حتَّى كأنَّ استَ أحدهم جرو يتمطى .

طلب أبي دلامة أبو الحسن قال : قال أبو العباس أمير المؤمنين لأبي دُلَامة : سلَّ قال : كلباً قال : ويَلِكُ ما تصنع بالكلب قال : قلت أصيدُ به قال : فلك كلب قال : ودابةٌ قال : ودابةٌ قال : وغلاماً يركب الدابة ويصيد قال : وغلاماً قال : وجاريةٌ قال : وجاريةٌ قال : يا أمير المؤمنين كلبٌ وغلامٌ وجاريةٌ ودابةٌ هؤلاء عيال ولا بدَّ من دار قال : ودار قال : ولا بدَّ هؤلاء من غَلَّةٍ ضيعةٍ قال : أقطعناك مائةً جَرِيبٍ عامرةً ومائةً جَرِيبٍ غامرةٍ قال : وأيُّ شيء الغامرة قال : ليس فيها

نبات قال : أنا أقطعك خمسَ مائةٍ جَرِيبٍ من فيافي بني أسد غامرةٌ قال : قد جعلنا لك المائتين عامرتين كُلِّها ثمَّ قال : أبقِيْ لك شيء قال : نعم أقبل يدك قال : أمَّا هذه فدعها قال : ما منعتَ علمه حيلة فوقع في أسرها) أبو الحسن عن أبي مريم قال : كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كثر عليه الدِّين حتَّى توارى من غرمائه ولزِمَ منزله فأتاه غريم له عليه شيءٌ يسير فتلطَّفَ حتَّى وصل إليه فقال له : ما تجعلُ لي إن أنا دلتك على حيلةٍ تصيرُ بها إلى الظهورِ والسَّلامةِ من غرمائك قال : أَقْضِيكَ حَقَّكَ وَأزِيدُكَ مِمَّا عِنْدِي مِمَّا تَقْرُ به عينك فتوثَّقَ منه بالأيمان فقال له : إذا كان غداً قَبْلَ الصَّلَاةِ مرَّ خادِمُكَ يَكْنُسُ بابَكَ وفَناءَكَ ويرشُ ويسسُطُ على دكانك حُصراً ويضعُ لك مَتَكاً ثمَّ أمهل حتَّى تصبَحَ ويمرَّ الناسُ ثمَّ تجلسُ وكلُّ من يمرُّ عليك ويسلِّمُ انبَحَ له في وجهه ولا تزيدَنَّ على التُّباحِ أحداً كانئاً من كان ومنَ كَلَمِكَ من أهْلِكَ أو خدمك أو من غيرهم أو غريمٍ أو غيره حتَّى تصيرَ إلى الوالي فإذا كَلَمَكَ فانبَحَ له وإيَّاكَ أن تزيدَه أو غيره على التُّباحِ فإنَّ الوالي

إذا أيقنَ أنَّ ذلك منك جدُّ لم يشكَّ أنَّه قد عَرَضَ لك عارضٌ من مَسٍّ فيخلِّيَ عنك ولا يغري عليك قال : ففعلَ فمرَّ به بعضُ جيرانه فسَلَّمَ عليه فنبَحَ في وجهه ثمَّ مرَّ آخرُ ففعلَ مثلاً ذلك حتَّى تسامعَ غرماؤه فأتاه بعضهم

فسلم عليه فلم يزد عليه التُّباح ثمَّ آخرُ فتعلَّقوا به فرفعوه إلى الوالي فسأله الوالي فلم يزد عليه التُّباح فرفعه معهم إلى القاضي فلم يزد عليه ذلك فأمرَ بحبسهِ أيَّاماً وجعلَ عليه العيونَ وملكَ نفسه وجعلَ لا ينطق بحرفٍ سوى التُّباح فلما رأى القاضي ذلك أمرَ بإخراجه ووضعَ عليه العيونَ في منزله وجعلَ لا ينطق بحرفٍ إلاَّ التُّباح فلما تقررَ ذلك عند القاضي أمرَ غرماءَهُ بالكفِّ عنه وقال : هذا رجلٌ به لَمَمٌ فمكثَ ما شاء الله تعالى ثمَّ إنَّ غريمَهُ الذي كان علَّمَهُ الحيلة أتاه متقاضياً لِعِدَّتِهِ فلما كلمه جعلَ لا يزيدهُ على التُّباح فقال لَهُ ويا فلان وعليَّ أيضاً وأنا علِّمتكَ هذه الحيلة فجعلَ لا يزيدهُ على التُّباح فلما يئسَ منه انصرفَ يائساً ممَّا يطالبه بِهِ .

اتحاد المتعاضدين في وجه عدوِّهما المشترك قال أبو الحسن عن سلمة بن خطاب الأزديَّ قال : لما تشاغل عبدُ الملك بن مروانَ بمحاربة مُصعبِ بن الزُّبير اجتمعَ وجوهُ الرُّومِ إلى ملكهم فقالوا له : قد أمكنَّتكَ الفرصةُ من العرب بتشاغلِ بعضهم

مع بعض لوقوع بأسهم بينهم فالرأي لك أن تغزوهم إلى بلادهم فإنَّك إن فعلتَ ذلك بهم نلتَ حاجتَكَ فلا تدعهم حتَّى تنقضيَ الحربُ التي بينهم فيجتمعوا عليك فنهاهم عن ذلك وخطأً رأيهم فأبوا عليه إلاَّ أن يغزوا العربَ في بلادهم فلما رأى ذلك منهم أمرَ بكليْنٍ فحرَّشَ بينهما فاقتتلا قتالاً شديداً ثمَّ دعا بتعلبٍ فخلَّاه فلما رأى الكلبان الثعلبَ تركا ما (

كانا فيه وأقبلا عليه حتَّى قتلاه فقال ملك الروم : كيف ترون هكذا العربُ تقتلُ بينها فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا فعرَّفوا صدقه ورجعوا عن رأيهم .

قال : وقال المغيرةُ لرجلٍ خاصمَ إليه صديقاً له وكان الصديقُ توعَّدَهُ بصدقةِ المغيرة فاعلمه الرجلُ ذلك وقال : إنَّ هذا يتوعَّدني بمعرفتكَ إيَّاه وزعم أنَّها تنفعه عندكَ قال : أجلَّ إنَّها والله لتنفعَ وإنَّها لتنفعَ عند الكلبِ العقور

فإذا كان الكلبُ العقورُ كذلك فما ظنُّكَ بغيره وأنت لا تصيبُ من الناسَ من تنفعُ عنده المعرفةُ من ألفٍ واحداً . وهذا الكرمُ في الكلابِ عامٌّ والكلبُ يجرسُ ربَّهُ ويحمي حريمه شاهداً وغائباً وذاكراً وغافلاً ونائماً ويقظان ولا يقصِّرُ عن ذلك وإن جفوه ولا يخذلهم وإن خذلوه .

نوم الكلب

والكلبُ أيقظُ الحيوانِ عيناً في وقتِ حاجتهم إلى النومِ وإنَّما نومه نهاراً عند استغنائهم عن حراسةٍ ثمَّ لا ينام إلاَّ غراراً وإلاَّ غشاشاً وأغلبُ ما يكوُمُ النَّومُ عليه وأشدُّ ما يكونُ إسكاراً له أن يكونَ كما قال رؤية : لا قيتَ مطلاً كنُعاسِ الكَلْبِ يعني بذلك القَرْمَطَةُ في المواعيد وكذلك فإنَّه أنومَ ما يكونُ أن يفتحَ عينه بقدر ما يكفيه

قول رجل من العرب في الجمال وقيلَ لرجُلٍ من العرب : ما الجمال فقال : غُور العينين وإشراف الحاجبين ورُحْبُ الأَشْداقِ وبُعْدُ الصوتِ .

علاج الكلب واحتماله

هذا مع قلة السامة والصبر على الجفوة واحتمال الجراحات الشداد وجواف الطعان ونوافذ السهام وإذا ناله ذلك لم يزل ينظفه بريقه لمعرفته بأن ذلك هو دواؤه حتى يبرأ لا يحتاج إلى طبيب ولا إلى مرهم ولا إلى علاج .

طول ذماء الضب والكلب والأفعى

وتقول العرب : الضب أطول شيء ذماء والكلب أعجب في ذلك منه وإنما عجبوا من الضب لأنه يغير ليلته مذبحاً مفرياً الأوداج ساكن الحركة حتى إذا قرب من النار تحرك كأنهم يظنون أنه قد كان حياً وإن كان في العين ميتاً والأفعى تبقى أياماً تتحرك

ما يعتريه الاختلاج بعد الموت فأما الذي يعتريه الاختلاج بعد جموده ليلة فلحم البقر والجُرُ تخرج وهي على المعاليق

حياة الكلب مع الجراح الشديدة

قال : والكلب أشد الأشياء التي تعيش على الجراح التي لا يعيش عليها شيء إلا الكلب والخنزير والخنفساء . (قوة فك الكلب وأنيابه) والكلب أشد الأشياء فكاً وأرهفها ناباً وأطيهاً فماً وأكثرها ريقاً يرمى بالعظم المدمَج فيعلم بالغريزة أنه إن عضه رضه وإن بلعه استمرأه .

إلف الكلب وغيره من الحيوان للإنسان

وهو ألفت للناس مشارك من هذا الموضع العصافير والخطاطيف والحمام والسنانير بل يزيد على ذلك في باب الخاص وفي باب العام فأما باب الخاص فإن من الحمام ما هو طوراني وحشي ومنه ما هو آلف أهلي والخطاطف من القواطع غير الأوابد إذا قطع إلى الإنس لم يبن بيته إلا في أبعد المواضع من حيث لا تناله أيديهم فهو مقسوم على بلاده وبلاد من اضطرته إليه الحاجة والعصافير تكون في القرب حيث تمتنع منهم في أنفسهم والكلاب مخالطة لها ملابسة ليس منها وحشي وكلها أهلي وليس من القواطع ولا من الأوابد ما يكون آنس بالناس من كثير وعلى أن إلف الكلب فوق إلف الإنسان الألف وهو في الكلب أغرب منه في الحمام والعصفور لأنه سيع والحمام بهيمة والسبع بالسباع أشبه فتركها ولم يناسبها ورغب عنها وكيف وهو يصيد الوحوش ويمنع جميع السباع من الإفساد فذلك أحمد له

وأوجب لشكره ثم يصير في كثير من حالاته آنس بالناس منه بالكلاب دنية وقصرة ولا تراه يلعب كلباً ما دام إنساناً يلعبه ثم لم يرض بهذه القرابة وهذه المشاكلة وبمقدار ما عليه من طباع الخطاطف والحمام والعصفور وبمقدار ما فضلها الله تعالى به من الأنس حتى صار إلى غاية المنافع سلماً وإلى أكثر المرافق .

الحاجة إلى الكلاب

وليس لحارس الناس ولحارس أموالهم بُدٌّ من كلب وكلّما كان أكبر كان أحبَّ إليه ولا بدَّ لأقاطيع المواشي من الكلاب وإلاَّ فإنَّها هب للذئاب ولغير الذئاب ثم كلاب الصيِّد حتَّى كان أكثرُ أهل البيت عِيالاً على كلِّ كلب مقلدات الأنسان من الحيوان وقد صار اليومَ عندَ الكلب من الحكايات وقبول التلقين وحُسن التصريف في أصناف اللَّعب وفي فطن الحكايات ما ليس

في الجوارح المذلة لذلك المصروفة فيه و ما ليس عند الدب والقرد والفيل والغنم المكيَّة والبيعاء (الكلب الزَّيْنِيّ) والكلب الزَّيْنِيّ الصَّيْنِيّ يُسْرِج على رأسه ساعاتٍ كثيرةً من اللَّيْل فلا يتحرَّك وقد كان في بني ضَبَّة كلب زَيْنِيّ صَيْنِيّ يُسْرِج على رأسه فلا ينبض فيه نابض ويدعونه باسمه ويُرمى إليه ببضعة لحم والمسرَّجة على رأسه فلا يميل ولا يتحرَّك حتَّى يكون القومُ هم الذين يأخذون المصباح من رأسه فإذا زایل رأسه وثب على اللحم فأكله ذُرْب فدرب وثقف فتقف وأدب فقبل وتعلّق في رقبتة الزنبلة والدَّوْخَلَّة وتوضع فيها رُقعة ثم يمضي إلى البقال ويجيء بالحوائج .

تعليم الكلب والقرد

ثمَّ صار القَرَّادُ وصاحبُ الرُّبَّاح منْ ثمَّ يستخرجُ فيما بين الكلب والقرد ضروباً من العمل وأشكالاً من الفِطْن حتَّى صاروا يطحنون

عليه فإذا فرغ من طحنه مضوا به إلى المتَمَعِّك فيُمعِّك كما يُمعِّك حمار المكارى وبغل الطحَّان وقراة أخرى بينه وبين الإنسان : أنّه ليس شيءٌ من الحيوان لذكره حِجْمٌ يادٍ إلا الكلب والإنسان . ما يسبح من الحيوان وما لا يسبح والكلب بعد هذا أسبح من حيّة ولا يتعلّق به في ذلك الثور وذلك فضيلة له على القرد مع كثرة فطن القرد وتشبّهه بالإنسان لأنّ كلّ حيوانٍ في الأرض فإنّه إذا ألقى في الماء الغمر سبح إلا القرد والفرس الأعسر والكلب أسبحها كلّها حتّى أنّه يُقدِّم في ذلك على البقرة والحيّة .

أعجوبة في الكلاب من الأعاجيب

وفي طباع أرحام الكلاب أعجوبة لأنّها تَلَقَّح من أجناس غير الكلاب ويُلقحها كما يلقح منها وتلقح من كلاب مختلفة الألوان فتؤدّي شبه كلّ كلب وتمتلى أرحامها أجراً من سيفاد كلب ومن مرة واحدة كما تمتلى من عدّة كلاب ومن كلب واحد وليست هذه الفضيلة إلا لأرحام الكلاب .

فخر قبيلتين زنجيتين قالوا : والزنج صنفان قبيلة زنجية فوق قبيلة وهما صنفان : النمل والكلاب فقبيلة هم الكلاب وقبيلة هم النمل فخر هؤلاء بالكثرة وفخر هؤلاء بالشدة وهذان الاسمان هما ما اختاراهما لأنفسهما ولم يُكرها عليهما .

حديث أكلك كلب الله

قال : ويقال إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لعُتبة بن أبي هَب : أكلك كلبُ الله فأكله الأسد فواحدةٌ : قد ثبت بذلك أنَّ الأسد كلبُ الله والثانية : أنَّ الله تبارك وتعالى لا يُضاف إليه إلَّا العظيمُ

من جميع الخير والشرِّ فأما الخير فقولك : بيت الله وأهل الله وزُور الله وكتاب الله وسماؤه وأرض الله وخليل الله وكليم الله وروح الله وما أشبه ذلك وأما الشرُّ فكقولهم : دَعِه في لعنةِ الله وسخطِ الله ودَعِه في نار الله وسَعيره وما أشبه ذلك وقد يسمِّي المسلمون والناس كلباً .

تسمية بنات آوى والثعالب والضباع بالكلاب

وقد زعم آخرون : أنَّ بناتِ آوى والثعالب والضباع والكلاب كلها كلاب ولذلك تسافد وتلاقح وقال آخرون : لعمرى إنَّها الكلاب إذا أردتم أن تشبهوها فأما أن تكون كلاباً لعلَّة أو عِلَّتَيْن والوجوه التي تختلف فيها الكلاب أكثر فإنَّ هذا لما لا يجوز وقول مَنْ زعم أنَّ الجواميس بقرٌ وأنَّ الخيلَ حُمُرٌ أقربُ إلى الحقِّ من قولكم وقول مَنْ زعم أنَّ الجواميس ضأنُ البقر والبقر ضأنُ أيضاً ولذلك سمَّوا بقرَ الوحشِ نعاجاً كأنهم إنما ابتغوا اتفاق الأسماء وما بال من زعم أنَّ الأسد والذئب والضبع والثعلب وابنِ آوى كلابٌ أحقُّ بالصواب ممَّن زعم أنَّ الجواميس ضأنُ والبقر ضأنُ

والماعزُ كلها شيء واحد وهذا أقربُ إلى الإمكان لتشابهها في الظلف والقرون والكروش وأنها تجترُ والسِّنور والفهد والنمر والبيبر والأسد والذئب والضبع)

والثعلبُ إلى أن تكون شيئاً واحداً أقرب وعلى أنَّنا لم ننتبه إلى الساعة أنَّ الضباع والكلاب وبناتِ آوى والذئاب تتلاقح وما رأينا على هذا قط سِمْعاً ولا عِسْبَراً ولا كلَّ ما يعدُّون وما ذكَّروهم لذلك إلَّا من طريق الإخبار عن السرعة أو عن بعض ما يُشبه ذلك فأما التلاقح والتركيب العجيب الغريب فالأعراب أفطنُ والكلام عندهم أرخص من أن يكونوا وصَّفوا كلَّ شيء يكون في الوحش وكلَّ شيء يكون في السَّهل والجبل مما إذا جمع جميع أعاجيبه لم يكن أظرف ولا أكثرَ ممَّا يدَّعون من هذا التسافد والتلاقح والتراكيب في الامتزاجات فكيف يدَّعون ما هو أظرف والذي هو أعجب وأرغب إلى ما يستوي في معرفته جميعُ الناس تنمَّة القول في حديث السابق وقال آخرون : ليس الكلبُ من أسماء الأسد كما أنَّ ليس الأسد من أسماء الكلب إلَّا على أنَّ تمدَّخوا كلبكم فيقول قائلكم : ماهو إلَّا

الأسد وكذلك القول في الأسد إذا سَمَّيتموه كلباً وذلك عند إرادة التصغير والتحقيق والتأنيب والتقريع كما يقال ذلك للإنسان على جهة التشبيه فإنَّ كان النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك فإنَّ ذلك على بعض ما وصفنا لك ويقول أهل حمص : إنهم لا يُغلبون لأن فيها نورَ الله في الأرض وما كلبُ الله إلَّا كنور الله . والله تبارك وتعالى علوًّا كبيراً لا تضاف إليه الكلابُ والسنانيرُ والضباعُ والثعالب والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا قطُّ وإنَّ كان قاله فعلى صلةٍ كلامٍ أو على حكايةٍ كلام .

وقال صاحب الكلب : قد وضَّح الأمر وتلقَّاه الناس بالقبول في أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : أَكَلَك كلبُ الله وهو يعني الأسد ومن دفع هذا الحديث فقد أنكرَ علاماتِ الرسول صلى الله عليه وسلم .

التسمية بمشتقات الكلب

وَالنَّاسُ قَدْ سَمَوْا النَّاسَ بِكَلْبٍ وَكَلِيبٍ وَكِلَابٍ وَأَكْلَبُ وَمَكَالِيبُ وَمَكَالِبَةُ بَنُو رَبِيعَةَ وَكَلِيبُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ
وَفِي الْعَرَبِ مِنْ

القبائل كلب وبنو الكلبة وبنو كلاب وأكلب بن ربيعة بن نزار عِمَارَةُ ضَخْمَةُ وَكَلْبُ بْنُ وَبَرَةَ جَذَمٌ مِنَ
الْأَجْدَامِ وَهُمْ نَفَرٌ جُمُجُمَةٌ وَكُلُّ سَادَاتٍ فَهُوَ يَكْنَى أَبَا كَلِيبٍ وَمِنْ ذَلِكَ عَمْرُو ذُو الْكَلْبِ وَأَبُو عَمْرٍو الْكَلْبُ
الْجَرْمِيُّ وَأَبُو عَامِرٍ الْكَلْبُ النَّحْوِيُّ وَكَيْفَ لَا يَجُوزُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يُسَمَّى الْأَسَدُ بِالْكَلْبِ وَكُلُّ هَؤُلَاءِ أَرْفَعُ مِنَ
الْأَسَدِ وَقَدْ قَالُوا : كَلْبُ الْمَاءِ وَكَلْبُ الرَّحَى وَالضَّبَّةُ الَّتِي فِي الرَّحْلِ يُقَالُ لَهَا الْكَلْبُ وَالْكَلْبُ : الْخَشْبَةُ الَّتِي تَمْنَعُ
الْحَائِطَ مِنَ السَّقُوطِ

وتشخص في القناطر والمنسيات والكلب الذي في السماء ذو الصُّورِ ويقال : دَاءُ الْكَلْبِ وَقَدْ اعْتَرَاهُ فِي الطَّعَامِ
كَلْبٌ وَقَدْ كَلَبَ عَلَيْهِمْ فِي الْحَرْبِ وَدِمَاءُ الْقَوْمِ لِلْكَلْبِيِّ شِفَاءٌ وَمِنْهُ الْكَلْبَةُ وَالْكَلْبَتَانِ وَالْكُلَابُ وَالْكُلُوبُ ثُمَّ
الْمَكْلَبُ وَالْمَكْلَبُ وَهَذَا مُخْتَلَفٌ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ الْأَصْلِ وَمِنْهُ عَلْوِيَّةُ كَلْبِ الْمَطْبِخِ وَحَمِيهِ كَلْبُ الْجَنِّ .

بين أبي علقمة المزني وسوار بن عبد الله ولما شهد أبو علقمة المزني عند سوار بن عبد الله أو غيره من القضاة و
توقَّفَ فِي قَبُولِ شَهَادَتِهِ قَالَ لَهُ أَبُو عَلْقَمَةَ : لَمْ تَتَوَقَّفْ فِي إِجَازَةِ شَهَادَتِي قَالَ : بَلَّغْنِي أَنَّكَ تَلْعَبُ بِالْكِلَابِ
وَالصُّقُورِ قَالَ : مَنْ خَبَّرَكَ أَنِّي أَلْعَبُ فَقَدْ أَبْطَلَ وَإِذَا بَلَّغَكَ أَنِّي أَصْطَادُ بِهَا فَقَدْ صَدَّقَكَ مَنْ أَبْلَغَكَ وَإِنِّي أَخْبِرُكَ
أَنِّي جَادٌّ فِي الْأَصْطِيَادِ بِهَا غَيْرُ لَاعِبٍ وَلَا هَازِي فَقَدْ وَقَفَ الْمُبَلِّغُ عَلَى فَرْقٍ مَا بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّعِبِ قَالَ : مَا وَقَفَ
وَلَا وَقَفْتَهُ عَلَيْهِ فَأَجَارَ شَهَادَتَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحْلِلَ لَهُمْ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحْلِلَ لَهُمْ
فَقَالَ لِنَبِيِّهِ : قُلْ أُحْلِلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ فَاشْتَقَّ لِكُلِّ صَائِدٍ وَجَارِحٍ كَاسِبٌ مِنْ بَازٍ
وَصَقْرٍ وَعُقَابٍ وَفَهْدٍ

وشاهين وزرَّق ويؤيؤ وباشق وعَنَاق الْأَرْضِ مِنْ اسْمِ الْكَلْبِ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَعْمُهَا نَفْعًا وَأَبْعَدُهَا صِيئًا
وَأَنبَهَاهَا ذِكْرًا ثُمَّ قَالَ : تَعَلَّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَذَكَرَ
تَعْلِيمَهُمْ لَهَا إِذْ أَضَافَ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ أَذْهَابِهَا وَأَنَّهَا تُمَسِّكُ عَلَى أَرْبَابِهَا لَا عَلَى أَنْفُسِهَا وَزَعَمَ أَصْحَابُ
الصَّيِّدِ أَنَّ لَيْسَ فِي الْجَوَارِحِ شَيْءٌ أَجْدَرُ أَنْ يُمَسِّكَ عَلَى صَاحِبِهِ وَلَا يُمَسِّكَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْكَلْبِ (
تَأْوِيلُ آيَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ
كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا : رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا
فَخَبَّرَ كَمَا تَرَى عَنْ دَعَائِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَزَّ : فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ
بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا
بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا : رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ لَهَا
لَقَدْ قُلْنَا

إِذَا شَطَطًا ثُمَّ قَالَ : فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الصِّفَةِ لِحَالِهِم وَالتَّمَكِينِ لَهُمْ مِنْ قُلُوبِ السَّامِعِينَ وَالْأَعْجُوبَةِ الَّتِي أَنَاهُمْ بِهَا : وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ثُمَّ قَالَ : لَوْ أَطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَنْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا فَخَبَّرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَصْحَبُوا مِنْ جَمِيعِ مَنْ يَأْلَفُ النَّاسُ وَيَرْتَفِقُونَ بِهِ وَيَسْكُنُونَ إِلَيْهِ شَيْئًا غَيْرَ الْكَلْبِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَأْلَفُ النَّاسَ وَيَرْتَفِقُونَ بِهِ وَيَسْكُنُونَ إِلَيْهِ : الْفَرَسَ وَالْبَعِيرَ وَالْحِمَارَ وَالْبَغْلَ وَالْغُرَّ وَالشَّاةَ وَالْحَمَامَ وَالْدِّيَكَةَ كُلَّ ذَلِكَ مِمَّا يَرْتَفِقُ بِهِ وَيُسْتَصْحَبُ فِي الْأَسْفَارِ وَيُنْقَلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ .

وَالنَّاسُ يَصْطَادُونَ بِغَيْرِ الْكَلْبِ وَيَسْتَمْتَعُونَ بِأُمُورٍ كَثِيرَةٍ فَخَبَّرَ عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ جَعَلَهُمْ خِيَارًا أَوْ أَمْرًا أَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَارُوا اسْتَصْحَابَ شَيْءٍ سِوَى الْكَلْبِ وَلَيْسَ يَكُونُ ذَلِكَ مِنَ الْمَوْفِقِينَ الْمَعْصُومِينَ الْمُؤَيَّدِينَ إِلَّا بِخَاصَّةٍ فِي الْكَلْبِ لَا تَكُونُ فِي غَيْرِهِ ثُمَّ أَعَادَ ذِكْرَ الْكَلْبِ وَنَبَأَ عَنْ حَالِهِ بِأَنْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ

إِلَّا مَرَاءَ ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَفِي قَوْلِهِمْ فِي الْآيَةِ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكَلْبَ رَفِيعُ الْحَالِ نَبِيهِ الذِّكْرُ إِذْ جُعِلَ رَابِعُهُمْ وَعُطِفَ ذِكْرُهُ عَلَى ذِكْرِهِمْ وَاشْتَقَّ ذِكْرُهُ مِنْ أَصْلِ ذِكْرِهِمْ حَتَّى كَانَتْ وَاحِدَةً مِنْهُمْ وَمِنْ أَكْفَانِهِمْ) أَوْ أَشْبَاهَهُمْ أَوْ مِمَّا يَقَارِبُهُمْ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَقَالَ : سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ مَعَهُمْ كَلْبٌ لَهُمْ وَبَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ مَعَهُمْ كَلْبٌ لَهُمْ وَبَيْنَ قَوْلِهِ (رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) فَرَقَ بَيْنَ وَطَرِيقٍ وَاضِحٍ فَإِنْ قُلْتُمْ : هَذَا كَلَامٌ لَمْ يَحْكِهِ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّمَا حَكَاهُ عَنْ غَيْرِهِ وَحَيْثُ يَقُولُ : ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ وَقَدْ صَدَقْتُمْ وَالصِّفَةُ عَلَى مَا ذَكَرْتُمْ لِأَنَّ الْكَلَامَ لَوْ كَانَ مُنْكَرًا لَأَنْكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَوْ كَانَ مُعْبِيًّا لَعَابَهُ اللَّهُ فَإِذَا حَكَاهُ وَلَمْ يَعْجُزْ وَجَعَلَهُ قَرَأَنًا وَعَظْمَةً بِذَلِكَ الْمَعْنَى مِمَّا لَا يَنْكَرُ فِي الْعَقْلِ وَلَا فِي اللُّغَةِ كَانَ الْكَلَامُ إِذَا كَانَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ مِثْلَهُ إِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنْزَلُ لَهُ الْإِسْطَاعَةُ قَبْلَ الْفِعْلِ وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ بَعْضِ الْمُخَالَفِينَ فِي الْقَدَرِ فَإِنَّهُ سَأَلَ بَعْضَ أَصْحَابِنَا فَقَالَ : هَلْ تَعْرِفُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ يُخْبِرُ عَنِ الْإِسْطَاعَةِ أَنَّهَا قَبْلُ

الْفِعْلِ قَالَ : نَعَمْ أَتَى كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ قَالَ الْمُخَالَفُ : سَأَلْتُكَ أَنْ تُخْبِرَنِي عَنْ اللَّهِ فَأَخْبَرْتَنِي عَنْ عَفْرَيْتٍ لَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيَّ لَبْرَقْتُ فِي وَجْهِهِ قَالَ صَاحِبُنَا : أَمَّا سَلِيمَانُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ تَرَكَ التَّكْبِيرَ عَلَيْهِ وَلَوْ كَانَ مِثْلُ هَذَا الْقَوْلِ كُفْرًا وَافْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ وَمَغَالِبَةً وَتَفْوِضًا لِلْمَشِيئَةِ إِلَى النَّفْسِ لَكَانَ سَلِيمَانُ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَحَقُّ بِالْإِنْكَارِ بَلْ لَمْ يَكُنِ الْعَفْرِيَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الَّذِي يَسْرِعُ فِيهِ وَيَذْكُرُ الطَّاعَةَ وَلَا يَتَقَرَّبُ فِيهِ بِذِكْرِ سُرْعَةِ الْفِعْلِ وَيُبَشِّرُ فِيهِ بِأَنْ مَعَهُ مِنَ الْقُوَّةِ الْجَعُولَةِ مَا يَنْهَيَا مِثْلَهُ قَضَاءُ حَاجَتِهِ فَيَكْذِبُ ثُمَّ لَا يَرْضَى بِالْكَذِبِ حَتَّى يَقُولَ قَوْلًا مُسْتَنْكَرًا وَيَدَّعِي قُوَّةَ لَا تُجْعَلُ لَهُ ثُمَّ يَسْتَقْبِلُ بِالْإِفْرَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالِاسْتِبْدَادِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ نَبِيًّا قَدْ مَلَكَ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ وَالرِّيَّاحَ وَالطَّيْرَ وَتَسْيِيرَ الْجِبَالِ وَنَطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ثُمَّ لَا يَزِرْهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُضْرَبَهُ وَيَسْجُنَهُ

فضلاً عن أن يقتله .

وبعدُ فإن الله تبارك وتعالى لم يجعل ذلك القول قرآناً ويترك التنبيه على ما فيه من العيب إلا والقول كان صدقاً مقبولاً

وبعد فإن هذا القول قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاه على الناس وما زالوا يتلونه في مجالسهم ومحاربيهم أفما كان في جميع هؤلاء واحدٌ يعرف معرفتك أو يغضبُ الله تعالى غضبك .

دفاع عن الكلب

قال صاحب الكلب : لو اعترضت جميع أهل البدو في جميع الآفاق من الأرض أن تُصيبَ أهلَ خيمةٍ واحدةٍ ليس عندهم كلبٌ واحدٌ فما فوق الواحد لما وجدته وكذلك كانوا في الجاهلية وعلى ذلك هم في الإسلام فمن رجع بالتخطفة على جميع طوائف الأمم والتأنيب والاعتراض على جميع اختيارات الناس فليتهم رأيه فإن رأي الفرد ولا سيما الحسود لا يفي برأي واحد ولا يرى الاستشارة حظاً وكيف بأن يفي بجميع أهل البدو من العرب والعجم والدليل على أن البدو قد يكون في اللغة لهما جميعاً قولُ الله عزَّ وجلَّ : وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ولو ابتلي صاحبُ هذا القول بأن ينزل البادية لتحوّل رأيه واستبدلَ به رأي

من قد جرّب تقريبَ الكلب وإبعاده وقد قال أبو عبّاد النُميري : لا يكون البُنيان قريةً حتى ينبحَ فيه كلبٌ ويزقّ فيه ديكٌ ولما قال أحمد بنُ الحاركي : لا تصير القريةُ قريةً حتى يصيرَ فيها حائكٌ ومعلمٌ قال أبو عبّاد : يا مجنون إذا صارت إلى هذا فقد صارت مدينة .

وللكلب إثباته وجهٌ صاحبه ونظره في عينيه وفي وجهه وحبه له ودُّؤه منه حتّى ربّما لاعبه ولاعب صبيانه بالعضّ الذي لا يؤثّر ولا يُوجع وهي الأضراسُ التي لو نشبها في الصخر لنشبت والأنيابُ التي لو أنحى بها على الحصى لرطّها

وقد تراه وما يصنع بالعظم المدمّج وبالفقرة من الصُّلب القاسي الذي ليس بالنّخر البالي ولا بالحديث العهد بالودك الذي يلين معه بالمضغ ويطيب فتراه كيف يرضه ويفتته ثم إن مانعه بعض الممانعة ووافق منه بعض الجوع كيف يبتلعه وهو واثق باستمرائه وهضمه أو يذاذته وحلّه . وله ضروبٌ من النّعم وأشكال من الأصوات وله نوح وتطريب ودعاء وخوار وهريز وعواء وبصصة وشيء يصنعه عند الفرح وله صوتٌ شبيهة بالأنين إذا كان يَغشى الصيد وله إذا لاعبَ أشكاله في غُدوات الصّيف شيءٌ بين العواء والأنين وله وطءٌ للحصى مثله بأن لو وطى الحصى على أرض السطوح لا يكون مثله وطء الكلب يربى على وزنه مراراً وإذا مرّ على وادٍ جامدٍ ظاهر الماء تنكّب مواضع الخريز في أسفله .

قال الشاعر ورأى رجلاً اسمه وثّاب واسم كلبه عمرو فقال : (ولو هَيَّا له الله * من التوفيق أسبابا) (لسمّى نفسه عمراً * وسمّى الكلبَ وثّابا)

(أطباء الكلبة والخنزيرة والفهدة) قال : والكلبة كثيرة الأطباء وكذلك الخنزيرة وللْفَهْدَة أربعة أطباء من لدن صدرها وقرب إبطيها إلى رفعيها وللْفِيل حلمتان تصغران عن جثته وهما مما يلي الصدر مثل الإنسان والدُّكْر في ذلك يشبه بالرجل لأن للرجل ثديين صغيرين عن جثته .

ويقال : إن على الكلاب واقية من عبث السُّفهاء والصبيان بها قال دُرَيْد بن الصَّمَّة حين ضرب امرأته بالسيف ولم يقتلها : (أَقْرَ الْعَيْنَ أَنْ عُصِبَتْ يَدَاهَا ** وما إن يُعْصَبَانِ عَلَى خِصَابِ)

(فَأَبْقَاهُنَّ أَنْ لَهْنٌ جَدًّا ** وواقية كواقية الكلاب) وقال الآخر : (إِنْ يَقْنَا اللَّهَ مِنْ شَرِّهَا ** فَإِنَّ الْكِلَابَ لَهَا واقية) و يروى : سَيْنَجِيه مِنْ شَرِّهَا شَرُّهُ وقال غيره : (وَلَقَدْ قَتَلْتُكَ بِالْهَجَاءِ فَلَمْ تُمِتْ ** إِنْ الْكِلَابَ طَوِيلَةَ الْأَعْمَارِ) وقال بِشْر بن الْمُعْتَمِر : (النَّاسُ ذَابًا فِي طِلَابِ الثَّرَا ** فَكُلُّهُمْ مِنْ شَأْنِهِ الْخَثَرُ) (كَأَذُوبٍ تَنْهَشُهَا أَذُوبٌ ** لَهَا عَوَاءٌ وَلَهَا زَفْرُ)

استطرد لغوي قال : ويقال فَرَحَ الكلب ببوله يفرح فَرَحًا إذا بال قال : وقال أَبُو الصَّقَر : يَفْرَحُ ببوله حين يبول وشعر الكلب يشعر إذا رفع رجله بال أو لم يبيل ويقال شغرت بالمرأة أشعرها شغراً إذا رفعت رجلها للنكاح قال : ويقال عاظل الكلب مُعَاظِلَةً يعني السَّفَاد قال أَبُو الرَّحَف : (كَمِشِيَّةِ الْكَلْبِ مَشَى لِلْكَلْبَةِ ** يَبْغِي الْعِظَالَ مُصْحَرًا بِالسَّوَةِ) قال : ويقال كلب عاظل و كلاب عَظَل وَعَظَالِي وقال حسان بن ثابت الأنصاري : (وَلَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْ يَزِيدَ وَخَالِدٍ ** وَلَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْ مُعَاظِلَةِ الْكَلْبِ)

قال مَالِكُ بن عبد الله الْجَعْدِي يوم فَيْفِ الرِّيح : حَدَّثَنِي أَبِي لَقَدْ نَظَرْتُ يَوْمَئِذٍ إِلَى بَنِي عَبْدِ

الْحَارِثِ بْنِ غَيْرٍ فَمَا شَبَّهْتُهُمْ إِلَّا بِالْكِلَابِ الْمُتَعَاظِلَةِ حَوْلَ اللِّوَاءِ .

وقال أَبُو بَرَاءٍ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ مَلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ لَاعِبَهُ الْحَارِثُ وَالْيَوْمُ قَالَ فَقَالَ مِنْذُ يَوْمَئِذٍ قَالَ : وَالسَّلَوَقِيَّةُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى سَلُوقٍ مِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ لَهَا سِلَاحٌ جَيِّدٌ وَكِلَابٌ فَرُّهُ وَقَالَ الْقَطَامِيُّ : (مَعَهُ صَوَارٍ مِنْ سَلُوقٍ لَهُ ** طَوْرًا تُعَانِدُهُ وَتَنْفَعُهُ) تَغْفِيرُ الْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ أَوْلَادُهَا قَالُوا : وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ بِهَيْمَةٍ وَلَا سَبْعَ أَنْشَى تَرِيدُ فِطَامَ وَلَدِهَا وَإِخْرَاجَهُ مِنَ اللَّبَنِ إِلَى اللَّحْمِ أَوْ مِنَ اللَّبَنِ إِلَى الْعُشْبِ إِنْ كَانَتْ بِهَيْمَةٍ

إِلَّا وَهِيَ تَغْفِرُ وَلَدَهَا وَتَغْفِرُ : أَنْ تَرْضَعَهُ وَتَمْنَعَهُ حَتَّى يَجُوعَ وَيَطْلُبُ اللَّحْمَ إِنْ كَانَ سَبْعًا وَالْعُشْبَ إِنْ كَانَ بِهَيْمَةٍ فَلَا تَرَالُ تَنَوَّلُهُ وَتُمَاطِلُهُ وَكَلِمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ كَانَ وَقْتُ مَنَعِهَا لَهُ أَطْوَلَ حَتَّى إِذَا قَوِيَ عَلَى أَكْلِ اللَّحْمِ أَوْ الْعُشْبِ فَطَمَتْهُ قَالَ لَبِيدٌ فِي مِثْلِ ذَلِكَ : (أَفْتَيْلِكَ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ ** خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصَّوَارِ قِرَامُهَا) (خَنْسَاءُ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمِ ** عُرْضَ الشَّقَاتِقِ طَوْفُهَا وَبُعَامُهَا) (لَمَعْفَرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوُهُ ** غَبَسَ كَوَاسِبُ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا) (صَادَفَنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْبَنَهَا ** إِنَّ الْمَنَايَا لَا تَطِيشُ سِهَامُهَا) لِأَنَّ الْبَقْرَةَ إِذَا كَانَتْ بِحَضْرَةِ وَلَدِهَا لَمْ تَضِيْعُهُ وَمَنْعَتِ السَّبَاعَ مِنْهُ وَقَاتَلَتْ دُونَهُ بِقُرُونِهَا أَشَدَّ الْقِتَالِ حَتَّى تُنْجِيَهُ أَوْ تَعْطِبَ .

بعض من كني بالكلاب

قال : وكان ابنُ لِسَانِ الحُمَرةِ يكنى أبا كلابٍ وكان زوجُ حُبَيِّ المدَنِيَّةِ يقال له ابنُ أمِّ كِلابٍ وقال الشَّاعِرُ
يذكرُها :

(وَمَا وَجَدْتُ وَجْدِي بِهِ أُمٌّ وَاحِدٍ ** وَلَا وَجْدُ حُبَيِّ بَابِنِ أُمِّ كِلَابٍ)

صفة عيون الكلاب

وقال آخر يصفُ عيونَ الكلابِ إذا أبصرت الصَّيْدَ : (مَجْزَعَةٌ غُصْفٌ كَأَنَّ عِيُونَهَا ** إِذَا آذَنَ الْقُنَاصُ بِالصَّيْدِ
عَضْرَسُ) مجزعة : في أعناقها جَزَعٌ وهو الودع يُجعل في القلائد يقول : تبيضُ عيونُها حينَ تختلُ الصَّيْدَ
والعَضْرَسُ هاهنا : البردُ وقال الآخر : (خُوصٌ تَرَاخَ إِلَى الصُّرَاخِ إِذَا غَدَتْ ** فِعْلَ الصُّرَاءِ تَرَاخَ لِلْكَلابِ)
وقال آخر وذكر الصُّرَاءَ وهو يصف الشَّيْخَ وَضَعْفَهُ : (وَمِنْهَا أَنْ يُقَادَ بِهِ بَعِيرٌ ** ذُلُولٌ حِينَ تَهْتَرِشُ الْكِلابُ)

قال : وهُم عند الحاجة يُعِدُّون الكلبَ والمطيةَ وأنشد : (فَأَعْقَبَ خَيْرًا كُلَّ أَهْوَاجٍ مَهْرَجٍ ** وَكُلَّ مُفْدَاةٍ الْغُلَالَةِ
صَلْدِمٍ) وقال الآخر : مُفْدَيَاتٍ وَمَلَقِيَّاتٍ وأنشد قول أبي ذؤيب في شبيهه بالمعنى الأول : يقول : هذه الشَّيران لما
قد لُقِّنَ مع الصبح والإشراق من

الكلاب صار أحدها حين يَرى ساطع الصبح يَفْرَعُ وذلك أَنَّهَا تَمَطَّرُ لَيْلَتَهَا فَتَشْرِقُ فِي الشَّمْسِ فَعندها تُرْسَلُ
عليها الكلاب صولة الذئب على الغنم مع الصبح ويقال إنَّ أَكْثَرَ ما يَعْرِضُ الذَّئْبُ لِلْغَنَمِ مع الصُّبْحِ وَإِنَّمَا رَقَبَ
فِثْرَةَ الْكَلْبِ وَكِلَالَهُ لِأَنَّهُ بَاتَ لَيْلَتَهُ دَائِبًا يَحْرُسُ وَقَالَ أَعرابيٌّ وَكَسَرَ ذَنْبَ شَاةٍ لَهُ مع الصُّبْحِ فَقَالَ : (أَوْدَى
بَوْرْدَةِ أُمِّ الْوَرْدِ ذُو عَسَلٍ ** مِنَ الذَّئَابِ إِذَا مَا رَاخَ أَوْ بَكَرَا) (لَوْلَا ابْنُهَا وَسَلِيلَاتُهَا غَرَّرَ ** مَا انْفَكَّتْ
الْعَيْنُ تَذَرِي دَمْعَهَا دِرْزَا) (كَأَنَّمَا الذَّئْبُ إِذْ يَعْدُو عَلَى غَنَمِي ** فِي الصُّبْحِ طَالِبٌ وَتَرٍ كَانَ فَاتَّارَا) (اعْتَامَهَا
اعْتَامَهُ شَتْنٌ بِرَائْتِهِ ** مِنَ الصُّوَارِي اللَّوَاتِي تَقْصِمُ الْقَصْرَا)

مسألة زيد الخيل للرسول الكريم ولما قال النبي عليه الصلاة والسلام لزيد الخيل من الخير ما قال وسماه زيد
الخير ما سألته زيدٌ شيئاً ولا ذكر له حاجة إلاَّ أَنَّهُ قال : يا رسول الله فينا رجلان يقال لأحدهما ذريح والآخر
يكنى أبا دُجَانَةَ ولهما أكلب خمسة تصيد الطباء فما ترى في صيدهم فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ
لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا فَأْوَلُ شَيْءٍ يَعْظُمُ فِي عَيْنِكَ شَأْنُ
الْكَلْبِ أَنَّ هَذَا الْوَافِدَ الْكَرِيمَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ وَسُمِّيَ بِمَا لَمْ يَسْمَ بِهِ أَحَدٌ لَمْ يَسْأَلْ إِلَّا عَنِ شَأْنِ الْكَلْبِ وَثَانِيَةٌ
وَهِيَ أَعْظَمُهَا : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ فِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ آيَةً مُحْكَمَةً فَقَالَ : أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ فَسَمِيَ صَيْدَهَا طَيْبًا ثُمَّ
قال : وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ مُخْبِرًا عَنْ قَبُولِهَا لِلتَّعْلِيمِ

والتأديب ثم قال : مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ وَلَوْلَا أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالْعِلْمِ مَرَضِيٌّ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمَا أَضَافَهُ
إِلَى نَفْسِهِ ثُمَّ قال : فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَعْظُمُ بِهِ فِي عَيْنِكَ إِمْسَاكُهُ عَلَيْكَ
وهكذا يقول أصحابُ الصَّيْدِ إِنَّ كُلَّ صَائِدٍ فَإِنَّمَا يُمْسِكُ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا الْكَلْبَ فَإِنَّهُ يُمْسِكُ عَلَى صَاحِبِهِ وَلَوْ

كان الجوابُ لزيد الخيل سُنَّةً من سُنَنِ النبي صلى الله عليه وسلم لكانَ في ذلك الرَّفْعَةُ فكيفَ والكتابُ فوقَ السُّنَّةِ وقد روى هشامُ أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ سَمَّى كِلَابَ ذَرِيحٍ هذه وکلابَ أبي دُجَانَةَ فقال : المختلِسُ وغَلَابُ والقَنِيصُ وسلهَبُ وسِرْحانُ والمتعاطِسُ .

دواء الذبحة والخانوق وزعم الأطباء أنَّ من أجود أدوية الذبحة والخانوق أنَّ ينفع في حلق من كان ذلك به ما جَفَّ من رَجيع الكلاب وأجودُ ذلك أنَّ يكون يتغرغر به وربما طلوه على جلد الخموم الحديد الحُمَّى .

رجيع الكلاب

وأجود رجيع الكلاب أنَّ يشتدَّ بياضه وليس يعتريه البياضُ إلَّا عن أكل الطعام وذلك رديءٌ للقناص منها .
والجُجور قد تبيضُ إذا كان قوتُ صاحبها اللبن ولذلك قال أبو كلاب وهو ابن لسان الحمرة ومربُّه رجلٌ من بني أسد فقال : قد علمت العربُ يا معشرَ بني أسدٍ أنَّكم أشدُّها بياضَ جُجور فعكفَ عليه فضربه بالسيف حتى برَدَ وذلك أنَّه غيرَه بأنهم لا يعرفون البَقْل ولا يعرفون إلَّا اللبن وقال الشاعرُ يهجو ناساً منهم : (عَراجلَةٌ بيضُ الجُجورِ كأنَّهم ** بمنعرج الغيطانِ شُهْبُ العناكِبِ) والعرب تقول : اللَّحْم أَقْلُ الطَّعامِ بَخْرًا

دفاع عن الكلب

وقال صاحب الكلب : وما للديك وللكلاب والكلابُ ينزَلُ فيها القرآنُ ويُحدِّثُ فيها السننُ ويُشتقُّ من أسمائها للناس وللأسد ولها أسماءٌ معروفةٌ وأعراقٌ منسوبةٌ وبُلدانٌ مشهورةٌ وألقابٌ وسماتٌ ومناقبٌ ومقاماتٌ وما للديك إلَّا ما تقول العوام : إنَّه إذا كان في الدارِ ديكٌ أبيضُ أفرقُ لم يدخله شيطانٌ وليس يقومُ خيرٌ ذلك ولو كان ذلك حقًّا بشؤمه لأنَّ العوامَ تقضي على من كان في داره ديكٌ أبيضُ أفرق بالزندقة .
والذين يقولون إنَّ الدار إذا كان فيها ديكٌ أفرقُ لم يدخلها شيطانٌ هم الذين يقولون من أكل لحم سِنورٍ أسودَ لم يضره سحرٌ وإذا دُخِنَت الدار بالدُخنة التي سموها بدُخنة مريم أو باللُّبان لم يكن عليها العُمار الدَّار سبيل فإن مرَّت ساحرة تطير سقطت وهم الذين لا يشكُّون أنَّ من نام بين البابين تحبَّطه العُمارُ وخبلته الجنُّ

(ما يقال له : جرو) قال : ويقال لولد الكلب والذئب والسِّنور أشباه ذلك : جرو ويقال للصغير من الحنظل على مثل ذلك : جرو وقال النَّمِرُ بنُ تَوْلَبٍ : (بجروٍ يلقى في سِقَاءٍ كأنَّه ** من الحنظلِ العاميِّ جَرَوْ مفلقُ .)

من قول الكلب

ومَّا زادَ في ذِكرِ الكلب قولُ السيِّدِ بنِ محمدٍ في شأن عائشة في الحديث الذي رَوَّه وكان

(تَهْوِي من البلدِ الحرامِ فنبَّهَتْ ** بَعْدَ المَدْوِ كِلَابَ أَهْلِ الحَوَّابِ)

قال : ويقال صرَّفت الكلبة صِرَافًا وصُروفًا وظلَّعت تظَّلَع ظُلوعًا (قولهم : لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب)
قال : ومن الأمثال في ذلك : لا أفعلُ حتَّى ينَام ظالِعُ الكلاب قال الأصمعيُّ : هذا باطلٌ إنَّما ذلك إذا أصابَ الكلبَ ما يظَّلَع منه لم يُطَق سِفاد الكلبة حتَّى تهدأ الرَّجُلُ وحَتَّى تملَّ الكلابُ الثُّباح وتفتَرِقَ وتحتاج إلى التَّوم

لطول التعب وإذا كان في ذلك الوقت يلتمس الظالع ورام سيفاد الكلبة لم يعرف ظله إلا الكلبة وأنشد فقال :
(تسديتها من بعد ما نام ظالع الـ ** كلاب وأخبي ناره كل موقد) وأنشد غيره لجبران العود : (وكان فؤادي
قد صحا ثم هاجه ** حمائم ورفق بالمدان هتف) (كأن الهديل الظالع الرجل وسطها ** من البغي شريب
يغرّد مترف)

ما قيل من الشعر في إشلاء الكلب على الضيوف وقالوا أبياتاً في غير هذا الباب قال الأعراي : (فقلت
لأصحابي أسر إليهم ** إذا اليوم أو يوم القيامة أطول) وقال آخر : (أعددت للضيّان كلباً ضارياً ** عندي
وفضل هراوة من أرزن) وقال في خلاف ذلك مالك بن حريم الهمداني : (وواحدة إلا أبيت بغرة ** إذا ما
سوام الحبي بات مصرعاً)

(وثانية ألا تفرّج جاري ** إذا كان جار القوم فيهم مفزعاً) (وثالثة ألا أصمت كلبنا ** إذا نزل الأضياف
حرصاً لتوزعاً) استطراد لغوي قال : ويقال لحز الكلب الإناء فهو يلحزه لحزاً ولحسه فهو يلحسه لحساً قال
أبو يزيد : وذلك إذا لحس الإناء من باطنه والقرو : ميلعة الكلب فإذا كان للكلب فائماً هو من أسفل كوز أو
ما أشبه ذلك وإلا فالقرو أسفل نخلة ينجر ويقوب ويتبذ فيه .
وقال الأعشى : (أرمي بها البید إذا أعرضت ** وأنت بين القرو والعاصر) (في مجدل شيد بنيائه ** يزل عنه
ظفر الطائر) ومما يحاجي به الناس بعضهم بعضاً أن يقولوا : تعرفون شيئاً إذا قام كان أقصر منه إذا قعد
يريدون الكلب لأن الكلب قعوده

إقعاؤه وهو إذا أقعى كان أرفع لسمكه وأرفع في الهواء طويلاً منه إذا قام وقال عمر بن لجأ : (عليه جنوا قتب
مستقدم ** متع كإقعاء الكلب المعصم) ويقال أقعى الكلب إقعاء ولا يقال قعد ولا جلس وفي الحديث : أنه
نهى أن يُقعى أحدُهم في الصلاة إقعاء الكلب .
معرفة سن الكلب قال صاحب الكلب : يُعرف فتاء الكلب وهرمه بالأسنان فإذا كانت سوداء كانت دليلاً
على كبره وإذا كانت بيضاء حادة دلت على الفتاء والحدأة وقال : أسنان الذكر أكثر .
أصناف الحيوان المشقوقة الأفواه وأصناف الحيوان المشقوقة الأفواه كالكلب والأسد والفهد موصوفات بشدة
الماضيغ والفك والخراطيم كالكلب والخنزير والذئب فأشبه الكلب الأسد في شخو الفم واتساعه وعلى أن
شخو فمه على مقدار

جسمه وأشبه الذئب والخنزير في طول الخطم وامتداد الخرطوم ولذلك كان شديد القلب جيّد الاسترواح
فجمع الكلب دون هذه الأصناف ما يصلح للرض والخطم بعض ما قيل في الأسد والأسد حريص واسع
الشخو فهو يبتلع البضعة التي لو رآها الإنسان لم يظن أن حلقه يتسع لمرو ذلك ويقال إن عنقه عظم واحد
واللقم لا تجول فيه وهو في ذلك قليل الرقيق فلا يسلس في حلقه ما يمر فيه بل يبتلع لفرط نهمه وشخو لحييه
ضعفي ذلك المقدار وقد زعم ناس أن الذي يدل على أن عنق السبع عظم واحد ضعفه عن تصريفه عنقه فلا

يلتفت إلاّ معاً فيسمى الأصيد وقال جِران العودِ في الذئب : (شدَّ المماضِ منه كلَّ مُلْتَفَتٍ *) وفي الذّراعين
والخرطوم تسهيل)

وقالوا في أسنان الذئب وفي أسنان بعض الحياتِ بأنّها ممطولة في الفكّين يُذهَبُ إلى أنّه عظمٌ مخلوق في الفك
وأنه لا يُنْغَرُ وأنشدوا : (مُطْلَنَ في اللَّحْيَيْنِ مَطْلًا إلى *) رأسٍ وأشدّاقٍ رحيباتِ)
والحياتُ توصفُ بسعة الأشدّاق والأفاعي خاصّة هي المنعوتة بذلك وقال الشاعر وهو جاهلي : (خُلِقَتْ
لَهَا زِمَةٌ عَزِيزٌ وَرَأْسُهُ *) كالقرصِ فُلُطَحَ من طحينٍ شَعِيرِ)

(ويديرُ عَيْنًا لِلوِقَاعِ كَأَمَّا *) سمراء طاحت من نَفِيسِ بَرِيرِ) (مما أشبه فيه الكلبُ الإنسان والأسد) ومما أشبه
فيه الكلبُ الإنسان والأسد أن كلّ واحدٍ من هذه الأجناسِ إنّما له بطنٌ واحد وبعد البطن المعى إلا أن بعض
بطنها أعظم من بعض ويناسبها في الذي ذكرنا الذئبُ والذئبُ فما أكثر ما يناسبان الكلب فلذلك صار
يتناكحان ويتلاقحان وهذا قول صاحب المنطق قال : وأمعاء الكلب أشبه شيءٍ بأمعاء الحية وهذا أيضاً مما يزيد
في قدره لأنّه إمّا أن يشبه الإنسان وإمّا أن يشبه رؤساء السباع ودواهي الحشرات وكلّما كانت هذه المعاني فيه
أكثر كان قدره أكبر

ما يحتلم من الحيوان وما يحتلم قال : والكلب يحلم ويحتلم وكذلك الفرس والحمار والصبي يحلم ولا يحتلم
والثور في هذا كله كالصبي ويعرف ذلك في الكلب إذا تفرّغ وأنعط وزعم أن الاحتلام قد غوين من الفرس
والبرذون والحمار بعض الأمور التناسلية لدى الحيوان . قالوا : وليس العِظال والتحام الفرجين إلا في الكلب
والذئب ومن أراد أن يُفرّق بين الكلاب إذا قالوا : والحيوان الذي يطاول عند السّفاد معروف مثل الكلب
والذئب والعنكبوت والجمل وإن لم يكن هناك التحام وإذا أراد العنكبوت السّفاد جَلَبَتِ الأنثى بعض خيوط
نسجها من الوسط فإذا فعلت ذلك فعل الذكر مثل ذلك فلا يزالان يتدانيان حتى يتشابكا فيصير بطنُ الذكر
قُبالة بطنِ الأنثى وذلك شبيهٌ بعبادات الصّفاة .

وقال أبو الحسن عن بعض الأعراب قال : إذا هَجَمَ الرَّجُلُ على الذئب والذئبة وهما يتسافدان وقد التحم
الفرجان قتلتهما ذلك الهاجم عليهما كيف شاء لأنّهما قليلاً ما يُوجدان كذلك لأنّ الذئب وحشيٌّ جداً وشهيٌّ
جداً صاحبُ قفرة وخلوة وانفرادٍ وتباعد وإذا أراد الذئبة توخّى موضعاً من القفار لا يطوّه الأُنيس خوفاً على
نفسه وضئاً بالذي يجد في المطاولة من اللذة .)

حديث أحمد بن المشي وحدّثني أحمد بن المشي قال : خرجتُ إلى صحراءِ خوخ لجناية جنيتها وخِفْتُ الطلّب وأنا
شابٌّ إذ عرض لي ذئب فكنّْتُ كلّما دُرْتُ من شِقِّ استدارِ بي فإذا دُرْتُ له دارٌ من خلفي وأنا سَطَطَ بَرِّيَّةٍ لا
أجد مُعِيناً إلاّ بشيء أسند إليه ظهري وأصابني الدُّوارُ وأيقنْتُ بالهلكة فبينما أنا كذلك وقد أصابني ما أصابني
وذلك هو الذي أراده الذئب وقدره إذا ذبّة قد عرّضت وكان من الصُّنع وتأخير الأجل أن ذلك كان في زمن
اهتياجها وتسافدها فلما عابنها تركني وقصدَ نحوها فما

تَلْعَنَمَ أَنْ رَكِبَهَا وَقَدْ كُنْتُ قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَنَّهَا تَلْتَحِمُ فَمَوَّتَ سَهْمِي وَهِيَ يَنْظُرَانِ إِلَيَّ فَلَمَّا لَمْ أَرَ عِنْدَهُمَا نَكِيرًا حَقَّقْتُ ذَلِكَ عِنْدِي مَا كَانَ فِي الْكِتَابِ مِنْ تَلَاخُمِهِمَا فَمَشَيْتُ إِلَيْهِمَا بِسَيْفِي حَتَّى قَتَلْتُهُمَا .

لقاح الكلاب والخنزير

قال : وَمَا يُعَدُّ لِلْكَلابِ أَنَّهَا كَثِيرًا مَا تُلْقَحُ وَتُلْقَحُ لِحَالِ الدَّفْعِ أَوْ الْخِصْبِ وَالْكَلبُ وَالْخَنزِيرُ فِي ذَلِكَ سِوَاءٌ وَلَا يَكَادُ غَيْرُهُمَا مِنَ الْأَصْنَافِ يَتَلَقَّحُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ فَالْكَلبُ كَمَا تَرَى يَنَازِعُ أَيْضًا مَوَاضِعَ الْإِسَاءَةِ وَالْحَاسَنِ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانِ .

أَسْوَأُ مَا يَكُونُ الْحَيَوَانُ خَلْقًا قَالَ : وَإِنَاثُ الْكَلابِ تَصْعُبُ أَخْلَافُهَا إِذَا كَانَ لَهَا جِرَاءٌ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ بَيْضٌ أَوْ جِرَاءٌ أَوْ فِرَاحٌ فَأَسْوَأُ مَا يَكُونُ خُلُقًا وَأَنْزَقُ وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ أَذًى وَأَعْرَمُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ إِلَّا إِنَاثُ الْبَقَرِ . وَالْكَلبُ كُلَّمَا كَانَ أَسَنُّ كَانَ صَوْتُهُ أَجْهَرَ وَأَغْلَظَ .

تناسل الكلاب

قال : وَالْكَلبُ يَنْزُو إِذَا تَمَّتْ لَهُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ وَرَبَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ وَالْكَلبَةُ الْأُنْثَى تَحْمِلُ وَاحِدًا وَسِتِينَ يَوْمًا أَطْوَلَ مَا يَكُونُ وَلَا تَضَعُ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ لِحَمْلِهَا سِتُّونَ يَوْمًا وَلَا يَبْقَى الْجُرْوُ وَلَا يَثْرَبَى إِذَا قَصَرَ عَنْ ذَلِكَ وَالْأُنْثَى تَصْلُحُ أَنْ يُنْزَى عَلَيْهَا بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ .

وَلَدَ الْبَكْرِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ وَالْكَلبَةُ وَالْحِجْرُ وَالْمَرَأَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ يَكُونُ أَوَّلُ نَتَاجِهَا أَصْغَرَ جُثَّةٍ وَكَذَلِكَ الْبَيْضُ إِذَا كَانَ بَكْرًا وَكَذَلِكَ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ فَرْجٍ أَوْ فَرْخٍ بَقِيَّةُ الْقَوْلِ فِي تَنَاسُلِ الْكَلابِ وَذُكُورِ الْكَلابِ تَهْيِجُ قَبْلَ الْإِنَاثِ فِي السَّنِّ وَالْإِنَاثُ تَهْيِجُ قَبْلَهَا فِي وَقْتِ حَرَكَتِهَا وَكَلَّمَا تَأَخَّرَ وَقْتُ الْوَلَدِ إِلَى تَمَامِ الشَّبَابِ كَانَ أَقْوَى لَوْلَدِهِ

وَالْكَلابُ لَا تَرِيدُ السَّفَادَ عُمْرَهَا كُلَّهُ بَلْ إِلَى وَقْتٍ مَعْلُومٍ وَهِيَ تَلْقَحُ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ ثَمَانِيَةَ عَشْرَةِ سَنَةٍ وَرَبَّمَا انْتَدَرَتْ الْكَلبَةُ فَبَلَّغَتْ الْعِشْرِينَ وَالْكَلابُ أَجْنَاسٌ كَثِيرَةٌ : الْكَلبُ السَّلُوقِيُّ يَسْفَدُ إِذَا كَانَ ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ وَالْأُنْثَى تَطْلُبُ ذَلِكَ قَبْلَ الثَّمَانِيَةِ وَذَلِكَ عِنْدَ شُغُورِ الذَّكَرِ بِيُولِهِ وَالْكَلبَةُ تَحْمِلُ مِنْ نَزْوٍ وَاحِدٍ وَقَدْ عَرَفَ ذَلِكَ الَّذِينَ عَرَفُوا الْكَلابَ وَحَضَرُوا لِيَعْرِفُوا ذَلِكَ قَالَ : وَالْكَلبَةُ السَّلُوقِيَّةُ تَحْمِلُ سُدُسَ السَّنَةِ سِتِّينَ يَوْمًا وَرَبَّمَا زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ وَالْجُرْوُ إِذَا وُضِعَ يَكُونُ أَعْمَى اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا ثُمَّ يَبْصُرُ وَالْكَلبَةُ تَسْفَدُ بَعْدَ وَضْعِهَا فِي الشَّهْرِ الثَّانِي وَلَا تَسْفَدُ قَبْلَ ذَلِكَ .

وَمِنْ إِنَاثِ الْكَلابِ مَا تَحْمِلُ خُمُسَ السَّنَةِ يَعْنِي اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ يَوْمًا وَإِذَا وَضَعَتْ الْجِرَاءَ تَكُونُ عَمِيَاءَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا . وَمِنْ أَصْنَافِ الْكَلابِ مَا يَحْمِلُ رُبْعَ السَّنَةِ أَعْنِي ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَتَضَعُ جِرَاءَ وَتَبْقَى كَذَلِكَ سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا ثُمَّ تُرْضِعُ جِرَاءَهَا عَلَى عِدَدِ أَيَّامِهَا الَّتِي لَا تَبْصُرُ فِيهَا .

وَزَعِمَ أَنَّ إِنَاثَ الْكَلابِ تَحْيِضُ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَعَلَامَةُ ذَلِكَ وَرَمَ أَثْفَارِهَا وَلَا تَقْبَلُ السَّفَادَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ بَلْ فِي السَّبْعَةِ الَّتِي بَعْدَهَا لِيَكُونَ ذَلِكَ تَمَامَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ يَوْمًا أَكْثَرَ مَا يَكُونُ وَرَبَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِتَمَامِ سِتَّةِ عَشَرَ يَوْمًا .

قالوا : وإناث الكلاب تُلقِي بَعْدَ وَضْعِ الجِراءِ رُطوبَةً غليظةً بلغميّةً وإذا وَضَعَتْها بَعْدَ الجِراءِ اعتراها هُزالٌ وكذلك عامّةُ الإناث ولبنها يظَهَرُ في أطبائها قبل أن تَضَعَ بخمسة أيام أكثر ذلك وربما كَثُرَ اللبنُ في أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام وربما كان ذلك في مقدارِ أربعة أيام ولبنها يظَهَرُ)

ويجود إذا وَضَعَتْ من ساعتها قال : فأَمَّا السلوقيّةُ فيظهر لبنها بعد حملها بثلاثين يوماً ويكون لبنها أوّلَ ما تَضَعُ غليظاً فإذا أزمَنَ رَقٌّ ودَقٌّ ولَبَنُ الكلابِ يخالف لبَنَ سائرِ الحيوانِ بالغلظ بعد لبَنِ الخنازير والأرانب .

وقد تكون علامة مبلّغُ سِفادها مثلَ ما يَعْرِضُ للنّساءِ من ارتفاعِ الثّديين ومعرفة ذلك عسيرة وهذه علامات تظهر لإناث الكلاب وذكورة الكلاب ترفع أرجلها وتبول لتمام سِتّة أشهر ومنها ما لا يفعل ذلك إلى أن يبلغ ثمانية أشهر ومنها ما يعجّل قبل ذلك قال : ونقول بقول عامٍّ إنّ الذكورَ تفعلُ ذلك إذا قَوِيَتْ فأَمَّا الإناث فهي تبول مُقْعِيَةً ومنها ما تشغَرُ وأكثرُ ما تَضَعُ الكلبةُ اثنا عَشَرَ جِرواً وذلك في الفَرطِ

وأكثر ذلك الخمسة والستّة وربما وضعت واحداً فأَمَّا إناث السلوقيّة فهي تَضَعُ ثمانية أجراء وإناثها وذُكُورها تسفد ما بَقِيَتْ وَيَعْرِضُ للكلاب السلوقيّة عَرَضٌ خاصٌّ : وهي أنّها كلّما بقيت كانت أقوى على السّفاد

أعمار الكلاب

وذكورة السلوقيّة تعيش عَشَرَ سنين والإناث تعيش اثني عشرة سنة وأكثر أجناس الكلاب تعيش أربع عشرة سنة وبعض الأجناس تبقى عشرين سنة . قال : وإناث الكلاب أطولُ أعماراً من الذكور وكذلك هي في الجملة وليس يُلقِي الكلب من أسنانه سنّاً ما خلا الثّابين وإنّما يلقيهما إذا كان ابنَ أربعة أشهر . قال : ومن أجل أنّ الكلاب لا تُلقِي غيرَ هذين الثّابين يشكُّ بعض الناس أنّها لا تُلْقِي سِنّاً البتّة

أمراض الكلاب

قال : وللكلاب ثلاثة أصنافٍ من المرض وأسماؤها : الكلب بفتح اللام والذبحة والنقرس والكلب جُنُون فإنّ عَرَضَ لشيء من الحيوان كَلْبٌ أيضاً أماته ما خلا الإنسان وهو داءٌ يقتل الكلاب وتقتل به الكلابُ كلَّ شيءٍ عَضَّتْهُ إلاّ الإنسان فإنّه يعالج فيسَلِّمُ أدواء بعض الحيوان قال : وداء الكلب يعرض للحمار فأَمَّا الجنون وذهابُ العقل فإنّه يصيبُ كلَّ شيءٍ فمن ذلك ما يصيب الدوابّ فإنّ منها ما يُصرَعُ كما يُصرَعُ الجنون والسائس من الدواب : الذاهب العقل .

صرع أعين الطبيب وقد كان شأن أعين الطبيب عَجَباً وذلك أنّه كان يُصرَعُ واتَّفَقَ أنّه كان له بغلٌ يصرع فكان ربّما اتَّفَقَ أن يُصرَعاً جميعاً وقد رأى ذلك كثير من أصحابنا البصريّين

الصَّرْعُ عند الحيوان والصَّرْعُ عامٌّ في الحيوان ليس يسلم منه صنف منها حتّى لا يعرض له منه شيء والإِنسان فوق جميع الحيوان تعذيباً وكذلك هو في العقل والمعرفة والاحتيايل له مع دفع المضرة واجتلاب المنفعة وما أكثر ما يعترهم ذلك ومن ذلك ما يذهب ومن ذلك ما لا يذهب بعض من عرض لهم الصرع من الفضلاء وقد كان

بَحْتِيشَوْعُ الْمُتَطَبِّبُ عَرَضَ لَهُ ذَلِكَ وَقَدْ كَانَ عَرَضَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ قُرَيْبٍ فَذَهَبَ عَنْهُ وَرَبَّمَا عَرَضَ لِلرَّجُلِ الَّذِي لَا يُظُنُّ بِهِ ذَلِكَ فِي بَيَانٍ وَلَا تَبْيِينَ وَلَا فِي أَدَبٍ وَلَا فِي اعْتِدَالٍ مِنَ الْأَخْلَاطِ وَالصَّحَّةِ مِنَ الْمَزَاجِ ثُمَّ لَا يَعْرِضُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا لَا حِيلَةَ لَهُ فِيهِ كَمَا كَانَ يَعْرِضُ لِبِشْرِ بْنِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ النُّحَوِيِّ

الْمَازَنِيِّ وَكَمَا عَرَضَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ وَمَنْصُورِ الْأَسَدِيِّينَ فَمَا زَالَا كَذَلِكَ حَتَّى مَاتَا وَلَمْ يَبْلُغَا أَهْمَا صُرْعًا .
الموتة والموتة جنسٌ من الصَّرْعِ إِلَّا أَنَّ صَاحِبَهُ إِذَا أَفَاقَ عَادَ إِلَى كِمَالِ عَقْلِهِ كَالنَّائِمِ وَالسَّكَرَانِ وَالْمَغْشَى عَلَيْهِ وَإِنْ عَاشَ صَاحِبُ الْمَوْتَةِ فِي ذَلِكَ مِائَةَ عَامٍ . وَلَيْسَ يَلْقَى شَيْءًا مِنَ الْحَيَوَانِ فِي هَذَا الْبَابِ كَمَا يَلْقَى الْوَرَشَانُ (
أَخْتِلَافُ دَرَجَاتِ السُّكْرِ لَدَى الْحَيَوَانِ كَتَبَيَاهَا لَدَى الْإِنْسَانِ وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ شَيْءًا مِنَ الْحَيَوَانِ إِلَّا وَهُوَ يَسْكُرُ وَاخْتِلَافُ سَكْرِهِ كَاخْتِلَافِ سَكْرِ الْإِنْسَانِ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَرَاهُ يَتَحَدَّثُ وَهُوَ يَشْرَبُ فَلَا تَنْكَرُ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى يَغْلِبَ عَلَيْهِ نَوْمُ السُّكْرِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً

وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَاهُ وَالنَّبِيدَ يَأْخُذُ مِنْهُ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ وَتَرَاهُ كَيْفَ تَنْقُلُ حَرَكَتَهُ وَيَغْلُظُ حَسَّهُ وَيَتَمَحَقُّ حَتَّى يَطِيشَ عَلَيْهِ السُّكْرُ بِالْعَبَثِ وَيَطْبِقَ عَلَيْهِ النَّوْمَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ بِالْعَبَثِ لَا يَعْدُوهُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَرْضَى بَدُونَ السَّيْفِ وَإِلَّا بَانَ يَضْرِبُ أُمَّهُ وَيَطْلُقُ امْرَأَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الْبُكَاءُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الضَّحْكُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الْمَلَقُ وَالتَّقْدِيرُ وَالتَّسْلِيمُ عَلَى الْمَجَالِسِ وَالتَّقْيِيلُ لِرُؤُوسِ النَّاسِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْقِصُ وَيَشَبُّ وَيَكُونُ ذَلِكَ عَلَى ضَرِيرَيْنِ : أَحَدُهُمَا مِنَ الْعَرَضِ وَفَضْلُ الْأَشْرِ وَالْآخَرُ تَحْرِيكُ الْمَرَارَةِ وَهِيَ عِلَّةُ الْفَسَادِ وَهِيَ جَانِبُ الْآفَةِ .
وَكُلُّ هَذِهِ الْحَالَاتِ وَالصُّوَرِ وَالنَّعَوَاتِ وَالْأَجْنَاسِ وَالتَّوَلِيدِ الَّذِي يَخْتَلِفُ فِي طِبَاعِ النَّاسِ وَطِبَاعِ الْأَشْرَبَةِ وَطِبَاعِ الْبُلْدَانِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَسْنَانِ وَعَلَى قَدَرِ الْأَعْرَاقِ وَالْأَخْلَاقِ وَعَلَى قَدَرِ الْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ وَعَلَى قَدَرِ التَّنَصُّيفِ وَالتَّوْفِيقِ قَدْ وَجَدُوهُ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ إِلَّا أَنَّ فِي النَّاسِ وَاحِدَةً لَمْ تُوجَدْ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانِ قَطُّ فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ لَا يَسْكُرُ الْبَيْتَةَ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْجَهْمِ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْعَمِّيُّ

وَكَانَ بَيْنَ عَقْلِ زَبِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ إِذَا شَرِبَ عَشْرَةَ أَرْطَالٍ وَبَيْنَ عَقْلِهِ إِذَا ابْتَدَأَ الشَّرْبَ مَقْدَارًا صَالِحًا .
سَكْرُ الْعَمِيِّ وَإِمَّا الْعَمِيِّ فَإِنَّ بَنِي عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَادِيِّينَ دَعَوْنِي مَرَّةً لِيَعَجَّبُونِي مِنْهُ وَلَمْ يَنْبَهُونِي عَلَى هَذِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي فِيهِ لَا كَوْنُ أَنَا الَّذِي أَنْتَبَهَ عَلَيْهِ فَدَخَلْتُ عَلَى رَجُلٍ ضَخْمٍ قَدَمٌ غَلِيظٌ اللِّسَانُ غَلِيظُ الْمَعَانِي عَلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ أَشَلُّ الْمَوْتَةَ وَفِي مَعَانِيهِ اخْتِلَافٌ لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ يُوَاقِي صَاحِبَهُ وَلَا يَعَاوُنُهُ وَلَا يَشَارِكُهُ وَلَا يَنَاسِبُهُ وَحَتَّى تَرَى أَنَّ أُذُنَهُ فِي شَبَقٍ وَلِسَانُهُ فِي شَقٍّ وَحَتَّى تَظُنَّ أَنَّ كَلَامَهُ كَلَامٌ مَحْمُومٌ أَوْ مَجْنُونٌ وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقْطَعُ نِظَامَ الْمَعَانِي وَيَخْلُطُ بَيْنَ الْأَسَافِلِ وَالْأَعَالِي فَشَرِبَ الْقَوْمُ شَرَبَ الْهَيْمِ وَكَانَتْ لَهُمْ أَجْسَادٌ مَذْبُورَةٌ وَأَجَوَافٌ مَنَكْرَةٌ وَكَانَتْ كَأَنِّي رَجُلٌ مِنَ النَّظَّارَةِ فَمَا زَالَ الْعَمِيُّ يَشْرَبُ رَطْلًا وَيَرْقُ لِسَانُهُ وَيَنْحَلُّ عَقْدُهُ وَيَصْفُو ذَهْنُهُ وَيَذْهَبُ كَدْرُهُ وَلَوْ قُلْتُ إِنِّي لَمْ أَرِ مَثْلَهُ حُسْنِ نَفْسٍ كُنْتُ صَادِقًا فَالْتَفَتُ إِلَى الْقَوْمِ أَجْمَعِهِمْ (
فَقَالُوا : لَوْلَا هَذَا الْعَجَبُ مَا عَجَبْنَاكَ الْيَوْمَ مَعَ حَدَاثَةِ عَهْدِنَا بِكَ .

وَزَعَمَ الْعَمِيُّ وَكَانَ كَثِيرَ الْمَنَازَعَةِ عِنْدَ الْقَضَاةِ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَارَبَ الْعَشْرَةَ الْأَرْطَالِ ثُمَّ تَنَازَعَ الْخُصُومَ كَانَ ذَلِكَ

اليوم الذي يفوت فيه ذرعُ الخصوم للحن بحجته ويستميل فيه رأي القاضي المنعقد في مجلسه الطويل القطوب في وجه من نازع إليه وقال الشاعر : (وجدتُ أقلَّ النَّاسِ عقلاً إذا انتشى ** أقلَّهُمُ عقلاً إذا كان صاحياً) (تزيد حُسى الكاس السَّفِيهَ سَفَاهَةً ** وتتركُ أخلاقَ الرِّجالِ كما هيا) قال : وهذا شعر بعض المولدين والأعاريب لا تُخطئ هذا الخطأ قد رأينا أسفَهَ الناسِ صاحياً أحلم الناسِ سكران وهو مرداسُ صاحب زهير ورأينا أحسنَ النَّاسِ خلُقاً وأوزنهم حلماً حتَّى إذا صار في رأسه رطلٌ كان أخفَّ من فرَاشة وأكثرَ نزواً من جَرادةٍ رَمِضةٍ فإنَّ المثلَ بها يُضرب .

سبب ما له عرفَ المعتزلة سكرَ البهائم وكان سببُ ما له عرفَ أصحابنا سكرَ البهائم أنَّ محمدَ بنَ عليٍّ بنِ سليمانَ الهاشميَّ لما شرب على علويه كلب المطبخ وعلى الدُّهَّمان وعلى شُرَّاب

البصريين وعلى كُلِّ من نزع إليه من الأقطار وتحداه من الشرَّاب الجَوَادَّ من الشرَّاب أحبَّ أن يشرب على الإبل من البخاتيِّ والعِرابِ ثُمَّ عَلَى الظِّلْفِ من الجواميس والبقر ثم على الخيل العِتاق والبراذين فلما فرغ من كلِّ عظيم الجثة واسع الجفرة صار إلى الشاء والطِّباء ثُمَّ صار إلى النُّسور والكلب وإلى ابن عرس وحتَّى أتاهم حاوٍ فأرغبه فكان يَحْتالُ لأفواه الحيات حتَّى يصبَّ في حاقِّ أجوافها بالأقماع المدنيَّة وبالمساعط ويتخذ لكلِّ شيء شكله وكان ملكاً تواتيه الأمور وتطيعه الرجال فأبصروا تلك الاختلافات في هذه الأجناس المختلفة . نعت النظام فخر بن أبي إسحاق إبراهيم النظام وقد كان جالساً حيناً وكان إبراهيم مأمون اللسان قليل الزَّلَّ والزيغ في باب الصدق والكذب ولم أزعم أنَّه قليلُ الزيغ والزَّلَّ على أنَّ ذلك قد كان يكون منه وإن كان قليلاً بل إنَّما قلتُ على مثل قولك : فلان قليل الحياء وأنت لست تريد هناك حياءً البتة وذلك أنَّهم ربَّما وضعوا القليل في موضع ليس وإنما كان عيبه الذي لا يفارقه سوءَ) ظنَّه وجودة قياسه على العارض

والخاطر والسابق الذي لا يُوثق بمثله فلو كان بدَّلَ تصحيحه القياسَ التمسَ تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص ولكنه كان يظنُّ ثم يقيس عليه وينسى أنَّ بدءَ أمره كان ظناً فإذا اتقنَ ذلك وأيقنَ جزم عليه وحكاؤه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحَّة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت وكان كلامه إذا خرج مخرج الشَّهادة القاطعة لم يشكَّ السامعُ أنَّه إنَّما حكى ذلك عن سماعٍ قد امتنحه أو عن معاينةٍ قد بهرتَه . حديث البهائم في تجربة إسكار البهائم والسباع فحدثني إبراهيم قال : شهدتُ أكثرَ هذه التَّجربة التي كانت منهم في إسكار البهائم وأصناف السباع ولقد احتالَ لأسدٍ مقلَّم الأظفار يُنادى عليه : العجب العجب حتَّى سقاه وعرفَ مقداره في الاحتمال فزعم أنَّه لم يجد في جميع الحيوان أملح سكرًا من الطِّي ولولا أنَّه من الترفه لَكنتُ لا يزال عندي الطِّي حتَّى أسكره وأرى طرائفَ ما يكون منه .

قال : وإناث الكلاب السوقية أسرع تعلماً من الذكورة قال : وجميع أصناف السباع ذكورتها أجراً وأمضى وأقوى إلَّا الفَهْدَةَ والذَّيْبَةَ والعامَّة تزعم أنَّ اللَّبؤة أجراً من الأسد وليس ذلك بشيء وهو أنزق وأحد وأفرق من المهجَّهة وأبعد من التصميم وشدة الصَّولة . (بين عروة بن مرثد وكنب حسيه لصاً) قال بشر بن سعيد :

كان بالبصرة شيخٌ من بني نَهْشَلٍ يقال له عُروة بن مرثد نزل ببني أختٍ له في سَكَّة بني مازن وبنو أخته من قُريش فخرج رجالُهم إلى ضياعهم وذلك في شهرِ رمضان وبقيت النساءُ يصلين في مسجدهم فلم يبق في الدار إلا كلبٌ يُعْسُ فرأى بيتاً فدخل وانصفق الباب فسمع الحركةَ بعضُ الإمامِ فظنوا أنَّ لصاً دخل الدار فذهبت إحداهنَّ إلى أبي الأعزِّ وليس في الحيِّ رجلٌ غيره فأخبرتهُ

فقال أبو الأعزِّ : ما يبتغي اللصُّ مِنَّا ثمَّ أخذَ عصاهُ وجاء حتَّى وقفَ على بابِ البيت فقال : إيه يا مَلَأْمَانُ أما واللهِ إنَّك بي لعارف وإنِّي بك أيضاً لعارف فهل أنتَ إلا من لُصوصِ بني مازن شربتَ حامضاً حبيثاً حتَّى إذا دارت الأقداحُ في رأسك متنتك نفسك الأمانِيَّ وقلتَ دُورَ بني عمرو والرجالُ خلُوف والنساءُ يصلين في مسجدهنَّ فأسرقهنَّ سوءةً والله ما يفعل هذا الأحرارُ لبئسَ والله ما متنتك نفسك فاخرج وإلا دخلتُ عليك فَصَرَمْتُكَ مِنِّي العُقوبةَ لايمُ اللهَ لتُخرجنَّ أو لأهتفنَّ هتفةً مشؤومةً عليك يلتقي)
فيها الحَيان : عمرو وحنظلة ويصيرُ أمرك إلى تال ويجيء سعدٌ بعددِ الحصى ويسيل عليك الرجالُ من هاهنا وهاهنا ولن فعلت لتكوننَّ أشأمَ مولودٍ في بني تميم فلما رأى أنَّه لا يجيئه أخذَه باللِّين وقال : اخرج يا بُنيَّ وأنتَ مستورٌ إنِّي والله ما أراك تعرفني ولو عرفتني لقد قنعتَ بقولي واطمأنت إلى أنا عُروة بن مرثد أبو الأعزِّ المُرثديُّ وأنا خالُ القومِ وجلدةُ ما بين أعينهم لا يعصُوني في أمرٍ وأنا لك بالذمة كفيلاً خفيراً أصيرُك

بين شحمة أذني وعاتقي لا تُضارَّ فاخرج فأنتَ في ذِمَّتِي وإلا فإنَّ عندي قَوْصَرَتَيْنِ إحداهما إلى ابن أختي البارِّ الوَصُول فخذُ إحداهما فانتيبُها حلالاً من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أطرقَ وإذا سكت وثب يُرِيعُ المخرج فتهافت الأعرابيُّ أي تساقط ثمَّ قال : يا أَلَمَ الناسِ وأوضعهم ألا يأتيك لك أنا منذُ الليلة في وادٍ وأنتَ في آخر إذا قلتُ لك السَّوداءَ والبيضاء تسكتُ وتطرق فإذا سكتُ عنك تَريِعُ المخرج والله لتُخرجنَّ بالعفو عنك أو لألجَنَّ عليك البيت بالعُقوبة فلما طال وقوفُه جَاءَتْ جاريةٌ من إماءِ الحيِّ فقالت : أعرابيٌّ مجنونٌ والله ما أرى في البيتِ شيئاً ودفعت البابَ فخرج الكلبُ شديداً وحاذَ عنه أبو الأعزِّ مستلقياً وقال : الحمدُ لله الذي مَسَحَكَ كلباً وكفاني منك حرباً ثمَّ قال : تالله ما رأيتُ كالبيلةَ ما أراه إلا كلباً أما

بعض خصال الديك

قال صاحب الديك : في الديك الشَّجاعةُ وفي الديك الصَّبْرُ عند اللِّقاء وهم لا يجدون الصَّبْرَ تحت السيَّات والعصا إلا أن يكون ذلك موصولاً بالصَّبْر في الحرب على وقع السِّلَاح

وفي الديك الجَوْلان وهو ضرب من الرَّوَغان وجنسٌ من تدبير الحرب وفيه الثَّقافة والتسديد وذلك أنَّه يقدرُ إيقاع صَيْصِيَّتِهِ بعين الديك الآخر ويتقرَّب إلى المذبح فلا يخطئ وهم يتعجبون من الجزار ويضربون به المثل إذ كان لا يخطئ اللَّبَّةَ ومن اللَّحَام إذا كان لا يخطئ المَفْصِلَ ولذلك قالوا في المثل : يطبِّقُ الحَزَّ ولا يخطئُ المَفْصِلَ وهذا القولُ يذمُّون به ويمدحون والديك في ذلك أعجبُ وله مع الطَّعنة سرعة الوثبة والارتفاع في الهواء وسلاحه طَيرٍ وفي موضع عجيب وليس ذلك إلاَّ له وبه سَمَّى قَرْنُ الثور صَيْصِيَّةً ثمَّ سَمَّوا الآطام التي كانت بالمدينة

للامتناع بها من الأعداء صياصي قال الله عز وجل : وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ
وَالْعَرَبُ تَسْمِي الدَّارِعَ وَذَا الْجُنَّةَ صَاحِبَ سَلاح فلما كان اسم سلاح الديك وما يتمتع به صيصية سموا قرن
الثور الذي يجرح صيصية وعلى أنه يشبه في صورته بصيصية الديك

وإن كان أعظم ثم لما وجدوا تلك الآطام معاقلهم وحصونهم وجنتهم وكانت في مجرى الثرس والدرع والبيضة
أجروها مجرى السلاح ثم سموها صياصي ثم أسموا شوكة الحائك التي بها هيئ السداة واللحمة صيصية إذ كانت
مشبهة بها في الصورة وإن كانت أطول شيئاً ولأنها مانعة من فساد الحوك والغزل ولأنها في يده كالسلاح متى
شاء أن يحا بها إنساناً وجاء به وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ : (نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَالرَّمَا حُ تَنُوشُهُ * كَوَقَعَ الصَّيَاصِي فِي
النَّسِيجِ الْمَمْدَدِ)

استطراد لغوي

وقد تسمي العرب إبرة العقرب شوكة كما تسمي صيصية الديك شوكة وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك
النخل

ويقال لمن ضربته الحُمرة قد ضربته الشوكة لأن الشوكة إذا ضربت إنساناً فما أكثر ما تعتريه من ذلك الحمرة
وقد قال القَاطِمِيُّ فِي تسمية إبرة العقرب شوكة : (سَرَى فِي جَلِيدِ الْأَرْضِ حَتَّى كَانَتْهَا * تَخْزَمُ بِالْأَطْرَافِ شَوْكُ
الْعَقَارِبِ) وتوصف الحِجْرُ وتشبه بالشوكة لأن الشوكة غليظة المآخر لطيفة المقادِم والشوك والسلاء سواء
وقال فِي ذَلِكَ عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ يَصْفِ الْحِجْرُ : (سَلَاءٌ كَعَصَا التَّهْدِي غَلَّهَا * ذُو فَيْئَةٍ مِنْ نَوَى قُرَّانٍ
مَعْجُومٌ) ومن سمى إبرة العقرب حمة فقد أخطأ وإنما الحمة سموم ذوات الشعر كالدُّبُرِ والزَّنايِرِ وذوات
الأنياب والأسنان كالأفاعي وسائر

الحيات وسموم ذوات الإبر من العقارب فأما البيش وما أشبهه من السموم فليس يقال له حمة وها هنا أمور لها
سموم في خراطيمها كالذَّبَّانِ والبَعُوضُ وأشياء من الحشرات تعضُّ وربما قتلت كالشَّبَثِ وسامَّ أَرَصَ والطَّبَّوْعُ
شديد الأذى والرُّتِيلاءُ ربما قتلت والضَّمَجُ دون ذلك وعقارب طيَّارة : ولم نرهم يسمون جميع السموم بالحمة
فقلنا مثل ما قالوا وانتهينا إلى حيث انتهوا .

بعض من تقتل عضته

وقد يُعرفُ بعضُ النَّاسِ بآئه متى عضَّ قَتَلَ كان منهم صفوان أبو جشَمِ الثَّقَفِيِّ وداوُدُ الْقَرَّادُ وسيقع هذا البابُ
في موضعه على ما يمكننا إن شاء الله تعالى .

استطراد لغوي

والناس يسمُّون الرَّجُلَ إذا بلغ مِنْ حرصه ألا يدع ذكراً غلاماً كان أو رجلاً وخصياً كان أو فحلاً إلا نكحه
مِنْ فَرْطِ غُلْمته ومن قُوَّةِ فِحْلته : صِصِيَّة ويقولون : ما فلان إلا صِصِيَّة وهو

بعض مزايا الديك

وللديك انتصابُهُ إذا قام ومباينته صورةً في العين لصورة الدجاجة وليس هذا الفرقُ الواضحُ من جميع الإناث
والذكور موجوداً إلا فيه وليس ذلك للحمام والحمامة ولا للحمار والحمارة ولا للبرذون والرمكة ولا للفرس
والحِجْر ولا للجمل والثَّاقَة وليس ذلك إلا لهذه الفحولة لأنها كالرجل والمرأة والتَّيس والظبية والديك
والدَّجاجة وكالفُحَّال والنخلة المطعمة ألا ترى أنك لو رأيتَ ناقةً مقبلة لم تدر

أنَّاقة هي أم جمل حتى تنظر إلى موضع الثَّيل والصَّرْع وإلى موضع الحيا وكذلك العنز وكذلك جميع ما وصفت
إلا أن يدعوا أن للعامة أو لبعض الخاصة في ذلك خصوصيةً ولذلك ضربوا المثل بالتَّيس والنخلة والفُحَّال
فاشتقوا من هذا الفحل وهذا أيضاً من خصال الديك ثمَّ للديك حية ظاهرة وليست تكون اللَّحى إلا للجمل
فإنه يوصف بالعثنون وإلا للتَّيس وإلا للرجل وقال الرَّاجز في الجمل : (مختلط العثنون كالتَّيس الأحم ** سام
كأنَّ رأسه فيه وذم) إذ ضمَّ من قطريه هياج قَطِمَ ثمَّ الديك بعدُ صاحب اللَّحية والفرق قالت امرأة في ولدها
وزوجها : أمَّا قولها أشهب فإنها تريد أنَّ شعرَ جسده قد ابيضَّ من الكبر وإنما جعلت شعرَ رأسه كُراس الديك
لأنَّه كان مخضوبَ الرأس واللَّحية بالحمرة ثمَّ لم ترضَ له بشبه الرجال من هذا الوجه حتَّى جعلت رأسه

أفرق وذلك شيءٌ من الجمال والوقار والفضل لا يتهيأ للناس مع كمالهم وتماهم إلا بالتكلف والاحتيال فيه ثمَّ
يلعب من شدة تعجله ومن قوته على السَّفاد وعلى الباب الذي يفخر به الإنسان إذا كان ذا حظٍّ منه وهو ممَّا
يُذكي النَّفس كبحو ما ذكر عن التَّيس المراتي وكبحو ما تراههم يُبركون للبُخِّي الفالج عدَّة قلاص فإذا ضرب
الأولى فخافوا عليها أن يحطمها وهو في ذلك قد رمى بمائه مراراً أفلته الرَّجَالُ على التي تليه في القرب حتى يأتي
على الثَّلاث والأربع على ذلك المثال وما دعاهم إلى تحويله عن الثَّالثة إلى الرَّابعة إلا تخوفهم من العجز منه
وزعم أبو عبد الله الأبرص العمي وكان من المعتزلين أنَّ التَّيس المراتي قرع في أول يومٍ من أوَّل هِجَّة نيقاً
وثمانين قرعة والناس يحكون ما يكون من العصفور في الساعة الواحدة من العدَد الكثير والناس يُدخلون هذا
الشكل في باب الفضل وفي باب شدة العجلة وتظاهر القوة والديك يكون له وحده)
الدَّجاج الكثير فيوسعها قمطاً وسفاداً

وقد قلنا في حالة البيض الكثير الثَّرابي وقلبه إيَّاه بسفادٍ إلى الحيوانية وعلى أنَّ الذي يَخْصِيه وأنا رأيتُ ديكاً
هندياً تسَمَّ دَجاجة هندية فلم يتمكَّن منها فرأيت نطقته حين مجَّها وقد زلق عن ظهرها على مدرة وكانت الدار
مُثارة لتُجعل بُستاناً فإذا تلك الحجة كالبرقة البيضاء فأخذها بعضُ مَنْ كان معنا فشَمَّها حين رأى بياضها
وخنورتها وكدرتها ليعلم هل تناسب ريحُها ريحَ نطفة الإنسان وريحَ طلع الفُحَّال فلم يجد ذلك .
ثمَّ معرفة الديك بالليل وساعاته وارتفاق بني آدم بمعرفته وصوته : يعرف آناء الليل وعدَد الليل وعدَد
السَّاعات ومقادير الأوقات ثمَّ يقسِّط أصواته على ذلك تقسيطاً موزوناً لا يُغادر منه شيئاً ثمَّ قد علمنا أنَّ اللَّيْل

إذا كان خمسَ عشرةَ ساعةً أنّه يقسّطُ أصواته المعروفةَ بالعدد عليها كما يقسطها والليل تسعُ ساعات ثم يصنع فيما بين ذلك من القسمة وإعطاء

الحصص على حساب ذلك فليعلم الحكماء أنّه فوقَ الأسطرلاب وفوق مقدار الجزر والمدّ على منازل القمر وحتىّ كأنّ طبعه فلکّ على حدة فجمعَ المعرفةَ العجيبةَ والرعايةَ العجيبةَ .
وربّ معرفةٍ تكون نبيلةً وأخرى لا تكون في طريق النّباله وإنّ كانت المعارفُ كلّها مفصّلة مقدّرة إلا أنّها في منازلٍ ومراتبٍ وليس في الأرض معرفةً بدقيقٍ ولا جليلٍ وهي في نفسها شريفة كريمةً والمعرفةُ كلّها بصر والجهلُ كله عمى والعمى كلّهُ شَيْنٌ ونقص والاستبانةُ كلّها خيرٌ وفضلٌ ثمّ له بعد ذلك ارتفاق الناس بهذا المعنى منه ومن ذلك بُعدُ صوته وأنه يدلُّ على أنّ موضعه مأهولٌ مأنوسٌ ولذلك قالوا : لا يكون البُنيانُ قريةً حتىّ يصقّع فيها ديك . وليس في الأرض طائرٌ أملحُ ملحاً من فرُوجٍ وليس ذلك الاسم إلاّ لولد الديك وإلاّ فكلُّ شيءٍ يخرج من البيض فإنّما هو فرخ

والفرُوج حين تنصدع عنه البيضة يخرج كاسباً عارفاً بموضع لقط الحب وسدّ الخلة وهو أسيّد للذّباب من السّودانيّ ويدرُج مع الولادة بلا فصل وهذا مع ما أعطى من محبّة النساء ورحمة الرجال وحُسن الرّأي من جميع الدار ثم اتّباعه لمن دَعاه وإفقه لمن قرّبه ثمّ ملاحه صوته وحُسن قدّه ثمّ الذي فيه ثمّما يصحُّ له الفروج ويتفرّج فيه .

تفضيل الديك على الثعلب

قول جعفر بن سعيد في تفضيل الديك على الطاوس

وكان جعفر بن سعيد يزعم أنّ الديك أحمدُ من الطاوس وأنّه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلّعه إذا مشى سلیمٌ من مقابح الطاوس ومن موقه وقبح صورته ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قُبْح رجله ونذالة مرآته وزعم أنّه لو ملك طاوساً لألبسَ رجله خفّاً

وكان يقول : وإنّما يفخر له بالتلاوين وبتلك التعاريج التي لألوان ريشه وربّما رأيتَ الديك النّبطيّ وفيه شبيهةً بذلك إلاّ إنّ الديك أجملُ من التّدْرُج لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف وأسلمٌ من العيوب من الطاوس وكان يقول : ولو كان الطاوس أحسنَ من الديك النّبطيّ في تلاوين ريشه فقط لكان فضلُ الديك عليه بفضل القدّ والخِرْط وبفضل حُسن الانتصاب وجودة الإشراف أكثرَ مِنْ مقدارِ فضلِ حُسنِ ألوانه على ألوان الديك ولكان السليمُ من العيوب في العين أجملَ لاعتراض تلك الخصال القيّحة على حسن الطاوس في عين الناظر إليه وأوّل منازل الحمد السلامة من الذّمّ وكان يزعم أنّ قول الناس فلانٌ أحسنُ من الطاوس وما فلان إلاّ طاوس وأنّ قول الشاعر :

جلودها مثل طواويس الذهب وأتتهم لما سموا جيش ابن الأشعث الطواويس لكثرة من كان يجتمع فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال إنما قالوا ذلك لأن العامة لا تبصر الجمال ولقرس رائع كريم أحسن من كل طائوس في الأرض وكذلك الرجل والمرأة وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصبه كحسن البازي وانتصابه ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشَّيَاتِ والهيئة والرأس والوجه الذي فيه .

وكان جعفر يقول : لما لم يكن في الطائوس إلا حسنه في ألوانه ولم يكن فيه من الخاسن ما يزاكم ذلك ويجاذبه وينازعه ويشغل عنه ذكر وتبين وظهر وخصال الديك كثيرة وهي متكافئة في الجمال ونقول : لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير وكما أنه ليس للعرب في الناس نظير وذلك حين لم تكن فيه خصلة أغلب من أختها وتكاملت فيه وتساوت وتوافقت إليه

فكان الطبع في وزن المعرفة فقالوا عند ذلك : سيّد الأبطح وسيّد الوادي وسيّد قريش وإذا قالوا سيّد قريش فقد قالوا سيّد العرب وإذا قالوا سيّد العرب فقد قالوا سيّد الناس)

ولو كان مثل الأحنف الذي برع في حلمه وبرع في سائر خصاله لذكروه بالحلم ولذلك ذكر قيس بن زهير في الدهاء والحرث بن ظالم في الوفاء وعتيبة ابن الحرث في النجدة والثقافة ولو أن الأحنف بن قيس رأى حاجب بن زُرارة أو زُرارة بن عُدس أو حصن بن حذيفة لقدّمهم على نفسه وهؤلاء أيّون أهل الوبر لا يُذكرون بشيء دون شيء لاستواء خصال الخير فيهم وفي منحول شعر النابغة : (فألفت الأمانة لم تُخنها ** كذلك كان نوح لا يخون) وليس لهذا الكلام وجه وإنما ذلك كقولهم كان داود لا يخون وكذلك كان موسى لا يخون عليهما السلام وهم وإن لم يكونوا في حال من الحالات أصحاب خيانة ولا تجوز عليهم فإن الناس إنما يضربون المثل بالشيء النادر من فعل الرجال ومن سائر أمورهم كما قالوا : عيسى ولو ذكر ذاكر الصبر على البلاء فقال : كذلك كان أيّوب لا يجزع

كان قولاً صحيحاً ولو قال : كان كذلك نوح عليه السلام لا يجزع لم تكن الكلمة أعطيت حقها ولو ذكر الاحتمال وتجرع الغيط فقال : وكذلك كان معاوية لا يسفه وكان حاتم لا يفحش لكان كلاماً مصروفاً عن جهته ولو قال : كذلك كان حاتم لا ييخل لكان ذلك كلاماً معروفاً وكان القول قد وقع موقعه وإن كان حاتم لا يُعرف بقلّة الاحتمال وبالتسرّع إلى المكافأة ولو قال : سألتك فمعتني وقد كان الشّعبي لا يمنع وكان النخعي لا يقول لا لكان غير محمود في جهة البيان وإن كان ممن يُعطي ويختار نعم على لا ولكن لما لم يكن ذلك هو المشهور من أمرهما لم تُصرف الأمثال إليهما ولم تضرب بهما قال جعفر : وكذلك القول في الديك وجهاله لكثرة خصاله وتوازن خلالة ولأن جمال الديك لا يلهج بذكره إلا البصراء بمقادير الجمال والتوسط في ذلك والاختلاط والقصد وما يكون ممزوجاً وما يكون خالصاً وحسن الطائوس حسن لا تعرف العوام غيره فلذلك لهجت بذكره

ومن الدجاج الحلاسي والهندي ومن الدجاج الزنجي ومنها الكسكري ومن الديكة ما يُخصى فلا يبلغه في الطيب والسمن شيء وإن اشتدّ لحمه وإن كان غير خصي فقد يُمدح ذلك من وجهه هو أرذ عليه في باب الفخر من رخاوة اللحم واستطابة الأكل وعلى أنه لو كان أدناه من بعض سباع الطير أو عدا خلفه إنسان فكان يريد

أَخَذَهُ حَتَّى إِذَا فَسَخَهُ الْبَهْرُ ارْتَدَّ فِي مَوْضِعِهِ لَا يَبْرَحُهُ ثُمَّ ذَبَحَهُ عَلَى الْمَكَانِ لَجَمَعَ بِهِ الْخِصَالُ كُلَّهَا وَلَوْ عُلِقَ فِي عُنْقِهِ حَجَرٌ لَبَلَّتَهُ بَعْدَ أَنْ ذَبَحَهُ (

أَوْ أُولِجَ بَطْنُهُ شَيْئاً مِنْ حِلْتَيْتِ لَجَمَعَ بِهِ الْخِصَالُ فَإِنَّهُ أَعْمَلُ فِيهِ مِنَ الْبُورَقِ وَقَشُورِ الْبِطِيخِ فِي اللَّحْمِ الْمَفْصَلِ وَهُوَ بَعْدُ غَيْرُ يَحْمِي دَجَاجَهُ وَقَالَ الرَّاجِزُ : يَغَارُ وَالْغَيْرَةُ خُلُقٌ فِي الذَّكَرِ

وقال الآخر : الفحل يَحْمِي شَوْلَهُ مَعْقُولاً

لحم الدجاج

ولحم الدجاج فوق جميع اللحمان في الطيب والبياض وفي الحسن والملوك تقدّمه على جميع الفراخ والنواهيض والبطّ والدجاج وهم للدجاج آكلٌ منهم للجدهاء الرضع وللعنق الحمر من أولاد الصّفايا . والدجاج أكثر اللحوم تصرفاً لأنّها تطيب شواءً ثم حارّاً وبارداً ثم تطيب في البزْمَاوَرْد ثم تطيب في الهرايس

ويحدث لها به نَفْحَةٌ لَا تُصَابُ مَعَ غَيْرِهَا وَتَطْيَبُ طَبِيخاً وَتَطْيَبُ فُصُوصِهَا وَإِنْ قَطَعْتَهَا مَعَ اللَّحْمِ دَسِمَ ذَلِكَ اللَّحْمُ وَتَصْلَحُ لِلْحَشَاوِي وَلِلْمَلَاقِصْطِي وَتَصْلَحُ فِي الْأَسْفَرَجَاتِ وَسَمِيْنُهَا يَقْدَمُ فِي السَّكْبَاجَةِ عَلَى الْبَطِّ إِلَّا أَنَّهُمَا تُطْعَمُ الْمَفْصُودَ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِلْبَطِّ .

لفظ : الدجاج قال : والدَّيْكَ دَجَاجٌ إِذَا ذَكَرْتَ فِي جَمَلَةِ الْجِنْسِ وَهَذَا الْبَابُ مِمَّا تَغَلَّبَ فِيهِ الْإِنَاثُ عَلَى الذُّكُورِ وَقَالَ آخَرُونَ : لَا وَلَكِنَّ الدَّيْكَ نَفْسَهُ دَجَاجَةٌ إِلَّا أَنَّهُمْ أَرَادُوا إِبَانَتَهُ بِأَنَّهُ ذَكَرٌ فَقَالُوا : دَيْكَ كَمَا يَسْمُونُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى فِرْساً بَلَاهَاءٌ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يُشْتَوِا إِنْثَاهَا قَالُوا حَجْرٌ وَإِنْ كَانَتْ حِجْراً فَهِيَ فِرْسٌ وَقَالَ الْأَخْطَلُ : (نَارِغَتُهُ فِي الدُّجَى الرَّاحُ الشَّمُولُ وَقَدْ ** صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْفَةُ السَّارِي)

وقد بيّن ذلك القرشيّ حيث يقول : (اطْرُدُوا الدَّيْكَ عَنْ ذُوَابَةِ زَيْدٍ ** كَانَمَا كَانَ لَا تَطَاهُ الدَّجَاجُ) وذلك أنّه كَانَ رَأَى رَأْسَ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فِي دَارِ يَوْسُفَ بْنِ عَمْرِو فَجَاءَ دَيْكٌ فَوَطِئَ شَعْرَهُ وَنَقَرَهُ فِي لَحْمِهِ لِأَكْلِهِ .

حوار في صياح الديكة

قالوا : قد أخطأ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الدَّيْكَهَ إِنَّمَا تَتَجَاوَبُ بَلْ إِنَّمَا ذَلِكَ مِنْهَا شَيْءٌ يَتَوَافَقُ فِي وَقْتٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِتَجَاوُبٍ كَنَبَاحِ الْكِلَابِ لِأَنَّ الْكِلَابَ لَا وَقْتَ لَهُ وَإِنَّمَا هُوَ صَامِتٌ سَاكِتٌ مَا لَمْ يَحْسَ بِشَيْءٍ يَفْزَعُ مِنْهُ فَإِذَا أَحْسَسَ بِهِ نَبَحَ وَإِذَا سَمِعَ نُبَاحَ كَلْبٍ آخَرَ أَجَابَ ثُمَّ

أَجَابَ ذَلِكَ آخَرُ ثُمَّ أَجَابَهُمَا الْكَلْبُ الْأَوَّلُ وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ الْمَجَاوِبُ جَمِيعُ الْكِلَابِ وَالْدَّيْكَ لَيْسَ إِذَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَنْكَرَ شَيْئاً اسْتَجَابَ أَوْ سَمِعَ صَوْتاً صَقَعَ وَإِنَّمَا يَصْقَعُ لَشَيْءٍ فِي طَبْعِهِ إِذَا قَابَلَ ذَلِكَ الْوَقْتَ مِنَ اللَّيْلِ هَيَّجَهُ فَعَدَّدَ أَصْوَاتِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُظَنُّ أَنَّهُ تَتَجَاوَبُ فِيهِ الدَّيْكَهَ كَعَدَدِ أَصْوَاتِهِ فِي الْقَرْيَةِ وَلَيْسَ فِي الْقَرْيَةِ دَيْكٌ غَيْرُهُ وَذَلِكَ هُوَ فِي الْمَوَاقِيتِ وَالْعَلَّةُ الَّتِي لَهَا يَصْقَعُ فِي وَقْتٍ بَعَيْنُهُ شَائِعَةٌ فِيهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْكِلَابُ قَدْ تَبَيَّنَ الْكِلَابُ فِي الْحُرِّيَّةِ وَكِلَابٌ فِي بَنِي سَعْدٍ غَيْرِ نَابِجَةٍ وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ دَيْكَةً الْمَهَالِبَةِ تَصْقَعُ وَدَيْكَةُ الْمَسَامِعَةِ

ساكنة فإن أراد مريدٌ بقوله إنَّ الدَّيْكَهَ تتجاوب وعلى مثل قول العرب : هذه الجبال تتناظر إذا كان بعضها قِبالة بعض وإذا كان الجبلُ من صاحبه بالمكان الذي لو كان إنساناً رآه جاز ذلك وعلى هذا المثل قال النبي صلى الله عليه وسلم في نارِ المشركين ما قال حيث قال : لا تَتَرَاءَى نارَاهُما ومع قول الشاعر :

لا تتراءى قبورهما (سَلِ الدَّارَ مِنْ جَنْبِي حَبْرٌ فَوَاهِبٌ *) وَحَيْثُ يَرَى هَضْبَ الْقَلْبِ الْمَضِيحُ (وتقول العرب : إذا كانتَ بمكان كذا وكذا حيثُ ينظرُ إليك الجبلُ فخذُ عن يسارك أو عن يمينك وقال الرَّاجِزُ : وكما يرى شَيْخُ الْجِبَالِ ثَيْراً وشيخ الجبال عنده أبو قبيس وقال النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار : أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ مع كلِّ مشركٍ قيل : ولم يا رسولَ الله قال : لا تتراءى ناراهُما

وقال الكسائي : تقول العرب : داري تنظرُ إلى دار فلان ودورنا تتناظر وقال الله تبارك وتعالى : وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَإِنَّمَا قَالَ الْقَوْمُ فِي تَجَاوُبِ الدَّيْكَهَ بَيْتَ شَعْرٍ سَمِعُوهُ لِلطَّرِمَاحِ جَهْلُوا مَعْنَاهُ وَهُوَ : (فَيَا صَبِيحَ كَمْشٍ غَبَرَ اللَّيْلُ مَصْعَدًا *) بِسَمِ وَنَبَهُ الْعَفَاءُ الْمَوْشَحُ (إذا صاح لم يخذل وجاب صوتهُ *) هاش الشوى يصدحن من كل صداح (وكذلك غلطوا في قول عبدة بن الطبيب : (إذا صفق الديك يدعو بعض أسرته *) إلى الصباح وهم قوم معازيل (وإنما أرادَ تَوَافِي ذلك منها معاً فجعلها دعاءً وتجاوبا على ما فسرناه .

قال صاحب الكلب : لولا أننا وجدنا الحمار المضروب به المثل في الجهل يقوم في الصَّباح وفي ساعات اللَّيْلِ مقام الدَّيْكَهَ لقد كان ذلك قولاً ومذهباً غيرَ مَرْدُودٍ ولو أنَّ متفقداً يَتَفَقَّدُ ذلك من الحمار لوجدَه منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم ولوجدَ ذلك مقسوماً على ساعات الليل ولكان لقائل أن يقول في تَهِيقِ الحمار في ذلك الوقت : ليس على تجاوبٍ إنما ذلك شيء يتوافى معاً لاستواء العلة ولم تكن للدَّيْكَهَ الموصوفِ بآئهِ فوق الأسطِراب فضيلةٌ ليست للحمار وعلى أن الحمار أبعدُ صوتاً وقد بلغ من شِدَّةِ صوتِهِ ما إن حَلَفَ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : إنَّ الحمار ما ينام قيل له : وما ذاك قال : لَأَنِّي أَجِدُ صِيَاحَهُ لَيْسَ بِصِيَاحِ شَيْءٍ أَنْتَبِهَ تِلْكَ السَّاعَةَ وَلَا هُوَ صِيَاحٌ مِنْ يَرِيدُ أَنْ يَنَامَ بَعْدَ انْقِضَاءِ صِيَاحِهِ هَذَا وَالْحِمَارُ هُوَ الَّذِي ضَرَبَ بِهِ الْقُرْآنُ الْمَثَلَ فِي بَعْدِ الصَّوْتِ وَضَرَبَ بِهِ الْمَثَلَ فِي الْجَهْلِ فَقَالَ : كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوَانِ أَجْهَلَ بِمَا فِي بَطُونِ الْأَسْفَارِ مِنَ الْحِمَارِ لَضَرَبَ اللَّهُ الْمَثَلَ بِهِ دُونَهُ عَشْرَةَ أَمْثَالٍ فِي شَأْنِ الْحِمَارِ وَعَلَى أَنَّ فِيهِ مِنَ الْخِصَالِ مَا لَيْسَ فِي الدِّيكِ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ وَضَعَتْهُ مِنَ الْأَمْثَالِ الَّتِي هِيَ لَهُ فِي عَشْرَةِ أَمَاكِنَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

كُلُّ الصَّيِّدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا وَكِفَاكِ بِهِ مَثَلاً وَقَالَ الْعَرَبُ : أُنْكَحُ مِنَ الْفَرَا وَالْفَرَا مُهْمُوزٌ مَفْتُوحَةٌ الْفَاءُ مَجْمُوعَةٌ فِرَاءٌ قَالَ الشَّاعِرُ : (بِضَرْبِ كَاذَانَ الْفِرَاءِ فُضُوهُ *) وَطَعْنُ كَايَزَاغِ الْمَخَاضِ تَبُورُهَا (وتقول العرب : الْعَيْرُ أَوْقَى لِدَمِهِ وَقَوْلُهُمْ : مَنْ يَبْكُ الْعَيْرَ يَبْكُ نَيْكاً وَقَالُوا : الْجَحْشُ إِذَا فَاتَتْكَ الْأَعْيَارُ وَقَالُوا :

أَصْبَرُ مَنْ عَيْرَ أَبِي سَيَّارَةَ لِأَنَّهُ كَانَ دَفَعَ بِأَهْلِ الْمَوْسَمِ عَلَى ذَلِكَ الْحِمَارِ أَرْبَعِينَ عَاماً وَقَالُوا : إِنْ ذَهَبَ عَيْرٌ فَعَيْرٌ فِي الرِّبَاطِ وَقَالُوا فِي الْمَدِيحِ لِصَاحِبِ الرَّأْيِ : جُحِيشَ وَحَدِّهِ وَغَيْرَ وَحَدِّهِ وَالْعَيْرُ يَضْرِبُ وَالْمَكْوَاةُ فِي النَّارِ وَقَالُوا :

حَمَارٌ يَحْمِلُ أَسْفَاراً وَ أَضْلُ مِنْ حَمَارِ أَهْلِهِ وَ)
أَخْرَى اللَّهُ الْحِمَارَ مَالاً لَا يُزَكَّى وَلَا يَذْكَى وَ قَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَ النَّزْوَانِ

فالذي مُدَح به أكثر فقد وجدنا الحمار أبعد صوتاً ووجدناه يعرف من أوقات الليل ويميز عدداً معلوماً إلى الصبح إلا أن له في الأسفار فضيلة والحمار أجعل الخلق فليس ينبغي للديك أن يقضى له بالمعرفة والحمار قد ساواه في يسير علمه ثم بآيته أن الحمار أحسن هداية والديك إن سقط على حائط جاره لم يحسن أن يهتدي إلى داره وإن خرج من باب الدار ضلّ وضلّاه من أسفل كضلاله من فوق .

ما روى صاحب الديك من أحاديث في الديك

قال صاحب الديك : حدثونا عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة قال : صرخ ديكٌ عند النبي صلى الله عليه وسلم فسبّه بعض أصحابه فقال : لا تسبّه فإنه يدعُو إلى الصلاة وعن ابن الماجشون عن صالح بن كيسان عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود عن يزيد بن خالد الجهني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سب الديك وقال : إنه يؤذّن للصلاة .

الحسن بن عمار عن عمرو بن مرة وعن سالم بن أبي الجعد يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنّ ما خلق الله تعالى لديكاً عرفه تحت العرش وبرائته في الأرض السفلى وجناحه في الهواء فإذا ذهب ثلثا الليل وبقي ثلثه ضرب بجناحه ثم قال : سبحوا الملك القدوس سبح قدوس أي أنّه لا شريك له فعند ذلك تضرب الطير بأجنحتها وتصيح الديكة وأبو العلاء عن كعب : إنّ لله تعالى ديكاً عنقه تحت العرش وبرائته في أسفل الأرضين فإذا صاحت الديكة يقول : سبحان الملك القدوس الملك الرحمن لا إله غيره قال : والديكة أكيس شيء وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنّ الديك الأيضا صديقي وعدو وعدو الله يحرس دار صاحبه وسبع دور وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت معه في البيت . وروي أنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسافرون بالديكة .

ذبح الديك الأفرق

وزعم أصحاب التجربة أنّه كثيراً ما يرون الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق أنّه لا يزال يُنكب في أهله وماله .

كيف تعرف الديك من الدجاجة

إذا كان صغيراً

وَمَا فِي الْحَاجَةِ أَنْ يُقَالَ : كَيْفَ تَعْرِفُ الدِّيكَ مِنَ الدَّجَاجَةِ إِذَا كَانَ صَغِيرًا حِينَ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضَةِ فَقَالُوا :
يَعْلَقُ بِمَنْقَارِهِ فَإِنْ تَحَرَّكَ فَهُوَ دِيكَ وَإِنْ لَمْ يَتَحَرَّكَ فَهُوَ دَجَاجَةٌ .

شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك

قال الشاعر في حُسن الدَّجَاجَةِ وَنَبْلِ الدِّيكَ : (غَدَوْتُ بِشَرِيَةٍ مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ ** أبا الدَّهْنَاءِ مِنْ حَلَبِ الْعَصِيرِ)
(وَأُخْرَى بِالْعَقْنَقَلِ ثُمَّ رُحْنَا ** نَرَى الْعُصْفُورَ أَعْظَمَ مِنْ بَعِيرِ) (كَأَنَّ دَجَاجَهُمْ فِي الدَّارِ رُقْطًا ** بَنَاتُ الرُّومِ فِي قُمْصِ الْحَرِيرِ) (فَبِتُّ أَرَى الْكَوَاكِبَ دَانِيَاتٍ ** يَنْلَنَ أُنَامِلُ الرَّجُلِ الْقَصِيرِ) (أَدْفَعُهُنَّ بِالْكَفَيْنِ عَنِّي **
وَأَمْسَحْ جَانِبَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ)

طعن صاحب الكلب في الديك

وقال صاحب الكلب : الأشياءُ التي تألفُ الناسُ لا تريدُ سواهم كالعصفور والخُطَّافِ والكلبِ والسَّنُورِ
والدِّيكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ النَّاسُ وَلَيْسَ مِمَّا يَحْنُ إِلَيْهِمْ فَيَقْطَعُ الْبِلَادَ نَزَاعًا فَيَكُونُ كَالْقَوَاطِعِ مِنَ الطَّيْرِ الَّتِي تَرِيدُهُمْ
كَالْخُطَّافِ وَلَا هُوَ مِنَ الْأَوَابِدِ كَالْعُصْفُورِ الَّذِي حَيْثُمَا دَارَ رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَلَا هُوَ كَالْكَلْبِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ سِوَاهُمْ
وَلَا هُوَ كَالْأَهْلِيِّ مِنَ السَّنَانِيرِ الَّتِي مَتَى أَلْفَيْتَهُمْ لَمْ تَفَارِقْهُمْ وَتَعَسَّ بِاللَّيْلِ وَتَطَوَّفَ فِي الْقَبَائِلِ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ ثُمَّ لَا
يَكُونُ مَرْجِعُهَا إِلَّا إِلَيْهِمْ وَالْدِّيكَ فِي خِلَافِ ذَلِكَ كُلِّهِ ثُمَّ لَا يَأْلَفُ مَنْزِلَهُ وَلَا يَعْرِفُ رَبَّهُ ثُمَّ لَا يَحْنُ إِلَى دَجَاجِهِ ثُمَّ
لَا تَتَوَقَّعُ نَفْسُهُ إِلَى طَرُوقِهِ وَلَا يَشْتَاقُ إِلَى وَلَدِهِ وَلَا يَعْرِفُ الَّذِينَ غَذَوْهُ وَرَبَّوْهُ بَلْ لَمْ يَدْرِ قَطُّ أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَلَوْ كَانَ
دَرَى لَكَانَ عَلَى دِرَاسَتِهِ دَلِيلٌ فَإِذَا قَدْ وَجَدْنَاهُ لَفَرَّارِيحِهِ وَبَيْضِهِ الْمَخْلُوقَةِ مِنْهُ وَمِنْ نَجْلِهِ كَمَا نَجَدَهُ لَمَّا لَمْ يَلِدْ وَلَمَّا لَيْسَ
مِنْ شَكْلِهِ أَيْضًا وَلَا يَرْجِعُ إِلَى نَسَبِهِ فَكَيْفَ لَا نَقْضِي عَلَيْهِ بِالْتَّقْصِ إِذْ كَانَتْ الْأُمُورُ لَا وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَهْلَ دَارِهِ
وَلَا يُثَبِّتُ وَجْهَ صَاحِبِهِ الَّذِي لَمْ يُخْلَقْ إِلَّا عِنْدَهُ وَفِي ظِلِّهِ وَتَحْتَ جَنَاحِهِ وَلَمْ يَزَلْ فِي رِزْقِهِ وَعِيَالِهِ وَالْحَمَامِ تَرْجِعُ إِلَيْهِ
مِنْ مَائَتِي فَرَسَخٍ وَيُصْطَادُ فَيَتَحَوَّلُ عَنْ وَطَنِهِ عَشْرَ حِجَجٍ ثُمَّ هُوَ

عَلَى ثَبَاتِ عَهْدِهِ وَقُوَّةِ عَقْدِهِ وَعَلَى حِفَاظِهِ وَإِلْفِهِ وَالنَّزَاعِ إِلَى وَطَنِهِ فَإِنْ وَجَدَ فُرْجَةً وَوَأْفَقَ جَنَاحَهُ وَافِيًا وَافَاهُ
وَصَارَ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ جَنَاحُهُ مَقْصُوصًا جَدَفَ إِلَى أَهْلِهِ وَتَكَلَّفَ الْمَضْيَّ إِلَى سَكْنِهِ فَإِمَّا بَلَغَ وَإِمَّا أَعْذَرَ .
وَالْخُطَّافُ يَقْطَعُ إِلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَبْلُغُهُ خَبْرٌ وَلَا يَطُورُهُ صَاحِبُ سَفَرٍ عَلَى أَنَّا لَا نَرَاهُ يَتَّخِذُ وَكْرَهُ إِذَا صَارَ إِلَيْهِمْ
إِلَّا فِي أَحْصَنِ مَوْضِعٍ وَلَا يَحْمِلُهُ الْأُنْسُ بِهِمْ عَلَى تَرْكِ التَّحَرُّزِ مِنْهُمْ وَالْحَزْمِ فِي مُلَابَسَتِهِمْ وَلَا يَحْمِلُهُ الْخَوْفُ مِنْهُمْ
عَلَى مَنَعِ نَفْسِهِ لَذَّةِ السُّكُونِ إِلَيْهِمْ وَلَا يَبْخَسُ الْارْتِفَاقُ بِهِمْ حَظَّهُ وَالْعَصَافِيرُ لَا تَقِيمُ فِي دَارٍ إِلَّا وَهِيَ مَسْكُونَةٌ
فَإِنْ هَجَرَهَا النَّاسُ لَمْ تُقِمَّ فِيهَا الْعَصَافِيرُ .

قول صاحب الكلب في السنور والهرة والسنور يعرف ربة المنزل ويألف فرخ الحمام ويُعابث فراريج الدار إن
سُرِقَ ورُبْتُ شهرًا عاد عند انفلاته وانحلال رباطه والهرّة تعرف ولدها وإن صار مثلها وإن أُطعمت شيئًا حملته
إليه وآثرته به وربما ألقى إليها الشيء فتدنو لتأكله ويُقبل ولدها فتُمسك

عنه وترصه له وربما طرح لها الشيء وولدها غائب عنها ولها ضروب من النعم وأشكال من الصياع فتصيح ضرباً من الصياع يعرف أهل الدار أنه صياح الدعاء لا غير ذلك ويقال : أبر من هرة)
ومنى أرادت ما يريد صاحب الغائط أتت مواضع تراب في زاوية من زوايا الدار فتبحثه حتى إذا جعلت له مكاناً كهينة الحفرة جعلته فيها ثم غطته من ذلك الثراب ثم تشمت أعلى ذلك التراب وما ظهر منه فإن وجدت شيئاً من الرائحة زادت عليها تراباً فلا تزال كذلك حتى تعلم أنها قد أخفت المرئي والمشموم جميعاً فإن هي لم تجد تراباً خمشت وجه الأرض أو ظهر السطح حتى تبلغ في الحفر المبلغ ومن ستر ذلك الجهود .
وزعم ناس من الأطباء أن السنور يعرف وحده ريح رجعه فإنما يستره لمكان شم الفأر له فإنها تفر من تلك الرائحة أو يعطيه لما يكون فيه من خلق من أخلاق الأسد وما يشاكل فيه الأسد في الخلق على قدر ما يشاكله في الخلق وتعداد ذلك كثير .

(سلاح الديك) والديك لا تراه إلا ساحاً ثم لا يتوقى ثوب رب الدار ولا فراشه ولا بساطه هذا وحيائه التراب ولذا يدفن نفسه فيه ويدخله في أصول ريشه ثم لا ترى سلاحاً أنتن من سلاحه ولا يشبه ذرق الحمام وصوم النعام وجعر الكلب ثم مع ذلك لا تراه إلا سائلاً رقيقاً ولو كان مدحرجاً كأبعاد الشاء والإبل والظباء أو متعلقاً يابساً كجعر الكلب والأسد ثم لو كان على مقدار ننته لكان أهون في الجملة وقال أبو نواس في ديك بعض أصحابه : (آذيتنا بديكك السلاح ** فنجنا من منبت الأرواح .)

استخدام الخناقين للكلب

وقال صاحب الكلب : ومن مرافق الكلب أن الخناقين يظاهر بعضهم بعضاً فلا يكونون في البلاد إلا معاً ولا يسافرون إلا معاً

فربما استولوا على درب بأسره أو على طريق بأسره ولا ينزلون إلا في طريق نافذ ويكون خلف دورهم : إما صحارى وإما بساتين وإما مزابل وأشباه ذلك وفي كل دار كلاب مربوطة وذفوف وطبول ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلّم كتاب منهم فإذا خنق أهل دار منهم إنساناً ضرب النساء بالدفوف وضرب بعضهم الكلاب فسمع المعلم فصاح بالصبيان : انبحوا وأجابه أهل كل دار بالدفوف والصنوج كما يفعل نساء أهل القرى وهيجوا الكلاب فلو كان المخنوق حماراً لما شعر بمكانه أحد كما كان ذلك بالرقّة .
وانظر كيف أخذوا أهل درب بأسره وذلك أن بعضهم رغب في ثوب كان على حمال وفيه دريهمات معه فألقى الوهق في عنقه فغشي عليه ولم يمت وتحرك بطئه فأتى المتوضاً وتحرك)
الحمال والساجور في عنقه فرجعت نفس الحمال فلما لم يحس بأحد عنده قصد نحو باب الدار وخرج وزياره في عنقه وتلقته جماعته فأخبرهم الخبر وتصايح الناس فأخذوا عن آخرهم .

بعض الخبر والشعر في الخناقين

وقد كان بالكوفة شبيهة بذلك وفي غيرها من البلدان فقال حمادُ الراوية وذكر المرميين بالخنق من القبائل وأصحاب القبائل والتحل وكيف يصنع الخنق وسمى بعضهم فقال : (إذا سرتَ في عجلٍ فسرٍ في صحابةٍ ** وكِنْدَةُ فَاحْذَرُهَا حِذَارَكَ لِلْخَسَفِ) (وفي شبيعة الأعمى زيار وغيلةٌ ** وقَشَبٌ وإعمالٌ لجندلة القَذْفِ) (وكلُّهم شرٌّ على أن رأسهم ** حميدة والميلاء حاضنة الكِسْفِ) (متى كنتَ في حيٍّ بجيلةٍ فاستمع ** فإنَّ لهم قَصْفاً يذلُّ على حَتَفِ) (إذا اعتزموا يوماً على خنقِ زائرٍ ** تداعوا عليه بالتباح وبالعزف)

وأما ذكره لبني عجل فلمكان ذي الضفرتين وغيره من بني عجل وأما ذكره كندة فقد أنشدنا سُفيان بن عيينة وأبو عبيدة النحوي : ومن كِنْدَةِ أَبُو قَصْبَةِ أَخَذَ بِالْكُوفَةِ وَقَتِلَ وَصُلِبَ وَكَانَ بِالْكُوفَةِ مَن يَأْكُلُ لَحُومَ النَّاسِ عَدِيَّةُ الْمَدِينَةِ الصُّفْرَاءِ وَكَانَ بِالْبَصْرَةِ رَادَوِيَهُ صَاحِبُ قِصَابٍ رَادَوِيَهُ وَأَمَّا الْأَعْمَى فِي بَنِي ضَبَّةِ الَّذِي ذَكَرَهُ فَهُوَ الْمَغِيرَةُ بْنُ سَعِيدٍ صَاحِبُ الْمَغِيرَةِ وَهُمْ صِنْفٌ مَن يَعْمَلُ فِي الْخَنْقِ بِطَرِيقِ الْمَنْصُورِيَّةِ وَالْمَغِيرَةُ هَذَا مِنْ مَوَالِي بَجِيلَةٍ وَهُوَ الْخَارِجُ عَلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ خَالِدٌ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ : أَطْعُمُونِي مَاءً وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ يَحْيَى بْنُ نَوْفَلٍ :

(وَقُلْتَ لِمَا أَصَابَكَ أَطْعُمُونِي ** شَرَاباً ثُمَّ بُلْتَ عَلَى السَّرِيرِ) (لِأَعْلَاجِ ثَمَانِيَةٍ وَشَيْخٍ ** كَبِيرِ السِّنِّ ذِي بَصَرٍ ضَرِيرِ) (وَأَمَّا حَمِيدَةُ فَقَدْ كَانَتْ لَهَا رِيَاسَةٌ فِي الْغَالِيَةِ وَهِيَ مَن اسْتَجَابَ لِلْيَلَى السَّبَائِيَةِ النَّاعِظِيَّةِ وَالْمِيَلَاءِ حَاضِنَةُ أَبِي مَنْصُورٍ صَاحِبِ الْمَنْصُورِيَّةِ وَهُوَ الْكِسْفُ قَالَتِ الْغَالِيَةُ : يَا هَ عَنَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ وَقَدْ ذَكَرَهُ أَبُو السَّرِيِّ مَعْدَانُ الْأَعْمَى الشُّمَيْطِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي صَنَفَ فِيهَا الرَّافِضَةُ ثُمَّ الْغَالِيَةُ وَقَدَّمَ الشُّمَيْطِيُّ عَلَى)
جميع أصناف الشيعة فقال :

(إِنَّ ذَا الْكِسْفِ صَدَّ آلُ كُمَيْلٍ ** وَكُمَيْلٌ رَذُلٌ مِنَ الْأَرْذَالِ) (مِنْهُمْ جَاعِلُ الْعَسِيبِ إِمَاماً ** وَفَرِيقٌ يَرْضُ زُنْدَ الشَّمَالِ) (وَفَرِيقٌ يَقُولُ إِنَّا بَرَاءٌ ** مِنْ عَلِيٍّ وَجُنْدُبٍ وَبِلَالٍ) (وَبَرَاءٌ مِنَ الَّذِي سَلَّمَ الْأُمُّ ** رَ عَلَى قُدْرَةٍ بَغِيرِ قِتَالِ) (وَفَرِيقٌ يَدِينُ بِالنَّصِّ حَتْمًا ** وَفَرِيقٌ يَدِينُ بِالْإِهْمَالِ) (لِأَنَّ الْكُمَيْلِيَّةَ لَا تَجِيزُ الْوَكَاةَ فِي الْإِمَامَةِ وَتَقُولُ لَا بُدَّ مِنْ إِمَامٍ صَامِتٍ أَوْ نَاطِقٍ وَلَا بُدَّ مِنْ عِلْمٍ يَمُدُّ النَّاسَ إِلَيْهِ أَغْنَاهُمْ وَأَبُو مَنْصُورٍ يَقُولُ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَأَمَّا قَوْلُهُ : (وَفِي شبيعة الأعمى زيار وغيلةٌ ** وقشب وإعمالٌ لجندلة القَذْفِ)

فقد قال معدان : (حبشيٌّ وكافر سبياني ** حربيٌّ وناسخ قتال) (تلك تيمية وهاتيك صمت ** ثم دين المغيرة المغتال) (خنق مرةً وشمُّ بخار ** ثم رضخٌ بالجندل المتوالي) (لأن من الختاقين من يكون جامعاً وبذلك يسمونه إذا جمع الخنق والتشميم وحمل معه في سفره حَجَرَيْنِ مُسْتَدِيرَيْنِ مُدْمَلَكَيْنِ وَمَلْمَلَيْنِ فَإِذَا خَلَا بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الرُّقَّةِ اسْتَدْبَرَهُ فَرَمَى بِأَحَدِهِمَا قَمَحْدُوتَهُ وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَ سَاجِداً فَإِنْ دَمَعَهُ الْأَوَّلُ سَلَبَهُ وَإِنْ هُوَ رَفَعَ رَأْسَهُ طَبَّقَ بِالْآخَرِ وَجْهَهُ وَكَذَلِكَ إِنْ أَلْفَاهُ نَائِماً أَوْ غَافِلاً وَلَقَدْ صَحِبَ مِنْهُمْ نَاسٌ رَجُلًا خَرَجَ مِنَ الرِّيِّ وَفِي حَقْوِهِ هِمَيَانٌ فَكَانَ لَا يَفَارِقُ مُعْظَمَ النَّاسِ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ قَرُبَ مِنْ مَفْرَقِ الطَّرِيقَيْنِ وَرَأَوْا احْتِرَاسَهُ وَهُمْ نَزُولٌ إِمَامًا فِي صَحْرَاءٍ وَإِمَامًا فِي بَعْضِ سَطُوحِ الْخَانَاتِ وَالنَّاسُ مُتَشَاغِلُونَ بِأُمُورِهِمْ فَلَمْ يَشْعُرْ صَاحِبُ الْهِمَيَانِ نَهَارًا وَالنَّاسُ حَوْلَهُ إِلَّا

وَالْوَهْقُ فِي عُنُقِهِ وَطَرَحَهُ الْآخِرُ حِينَ الْقَاهِ فِي عُنُقِهِ وَوَثَبَ إِلَيْهِ وَجَلَسَ عَلَى صَدْرِهِ وَمَدَّ الْآخِرُ بَرَجْلِيهِ وَأَلْقَى عَلَيْهِ ثَوْبًا وَأَذَنَ فِي أُذُنِهِ

فَقَامَ إِلَيْهِمْ بَعْضُ أَهْلِ الرُّفْقَةِ كَالْمَعِينِ وَالْمَتَفَجِّعِ فَقَالُوا لَهُ : مَكَانَكَ فَإِنَّهُ إِنْ رَأَى خَجَلَ وَاسْتَحَى فَأَمْسَكَ الْقَوْمُ عَنْهُمْ وَارْتَحَلَ الْقَوْمُ وَأَعْجَلُوا بِصَاحِبِهِمْ فَلَمَّا خَلَوْا بِهِ أَخَذُوا مَا أَحْبَبُوا وَتَرَكَوْا مَا أَحْبَبُوا ثُمَّ حَمَلُوهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ حَتَّى إِذَا بَرَزُوا رَمَوْهُ فِي)
بَعْضِ الْأَوْدِيَةِ .

شَعَرَ أَعَشَى هَمْدَانَ فِي السَّبْيَةِ وَقَدْ ذَكَرَ أَعَشَى هَمْدَانَ السَّبْيَةَ وَشَأْنَهُمْ فِي كُرْسِيِّ الْمُخْتَارِ : (شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنْكُمْ سَبْيَةٌ ** وَإِنِّي بِكُمْ يَا شُرْطَةُ الْكُفْرِ عَارِفٌ) (وَأُقْسِمُ مَا كُرْسِيُّكُمْ بِسَكِينَةٍ ** وَإِنْ كَانَ قَدْ لُفَّتْ عَلَيْهِ الْفَائِفُ) (وَإِنِّي أَمْرٌ أَحْبَبْتُ آلَ مُحَمَّدٍ ** وَآثَرْتُ وَحْيًا ضَمَنْتُهُ الْمَصَاحِفُ)

(وَإِنْ شَاكَرًا طَافَتْ بِهِ وَتَمَسَّحَتْ ** بِأَعْوَادِ ذَاوِ دَبْرَتِ لَا تَسَاعَفُ) (وَدَانَتْ بِهِ لَابِنِ الزُّبَيْرِ رِقَابُنَا ** وَلَا غَبَنَ فِيهَا أَوْ تُحَزَّرُ السَّوَالِفُ) (وَأَحْسَبُ عُقْبَاهَا لَالَ مُحَمَّدٍ ** فَيَنْصَرُّ مَظْلُومٌ وَيَأْمَنُ خَائِفٌ) (وَيَجْمَعُ رَبِّي أُمَّةً قَدْ تَشَتَّتَتْ ** وَهَاجَتْ حُرُوبٌ بَيْنَهُمْ وَحَسَائِفُ) أَبُو عُبَيْدَةَ : الْحَسِيفَةُ الضَّعِيفَةُ وَجَمْعُهَا حَسَائِفُ .
مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِيَدِهِ وَمَا أَكْثَرَ مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِيَدِهِ إِمَّا خَوْفَ الْمَثَلَةِ وَإِمَّا خَوْفَ التَّعْذِيبِ وَالْهَوَانِ وَطُولِ الْأَسْرِ وَقَدْ كَانَ الْحَكَمُ بْنُ الطُّفَيْلِ أَخُو عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ وَأَصْحَابُهُ خَنَقُوا أَنْفُسَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ فَعَيَّرُوا بِذَلِكَ تَعْيِيرًا شَدِيدًا فَقَالَ خُرَاشَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ : (وَقُدَّتْهُمْ لِلْمَوْتِ ثُمَّ خَذَلَتْهُمْ ** فَلَا وَالَّتِ نَفْسُ عَلَيْكَ تَحَاذَرُ) (فَهَلْ تَبْلَغُنِي عَامِرًا إِنْ لَقِيتَهُ ** أَسْلَيْتَ عَنْ سُلَيْمَانَ أَمْ أَنْتَ ذَاكِرُ)

(فَإِنْ وَرَاءَ الْحَيِّ غَزْلَانِ أَيْكَةٍ ** مُضَمَّخَةً أَذَانُهَا وَالْغَدَائِرُ) (وَإِنَّكُمْ إِذْ تَخْتَفُونَ نَفُوسَكُمْ ** لَكُمْ تَحْتَ أَظْلَالِ الْعِصَاهِ جَرَائِرُ) (وَنَحْنُ صَبَحْنَا عَامِرًا فِي دِيَارِهَا ** عَلَالَةً أَرْمَاحَ وَعَضْبًا مُذَكَّرًا) (بِكُلِّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنْدٍ ** وَلَكِنَّ مِنَ الْخَطِيئِ قَدْ طَرَأَ سَمَرًا) (عَجِبْتُ لَهُمْ إِذْ يَخْنُقُونَ نَفُوسَهُمْ ** وَمَقْتَلَهُمْ عِنْدَ الْوَعَى كَانَ أَعْدَرًا) (يَشْتَدُّ الْحَلِيمُ مِنْهُمْ عَقْدَ حَبْلِهِ ** أَلَا إِنَّمَا يَأْتِي الَّذِي كَانَ حُدْرًا)

رثاء أَبِي زُبَيْدِ الطَّائِي كَلْبًا لَهُ وَقَالَ أَبُو زُبَيْدٍ فِي كَلْبٍ لَهُ كَانَ يُسَاورُ الْأَسَدَ وَيَمْنَعُهُ مِنَ الْفَسَادِ حِينَ حَطَمَهُ الْأَسَدُ وَكَانَ)

اسْمُهُ أَكْدَرُ فَقَالَ : (أَخَالَ أَكْدَرُ مُخْتَلًا كَعَادَتِهِ ** حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ) (لَا قَى لَدَى ثَلَلِ الْأَضْوَاءِ دَاهِيَةٍ ** أَسْرَتْ وَأَكْدَرَتْ تَحْتَ اللَّيْلِ فِي قَرْنِ)

(حَطَّتْ بِهِ سُنَّةٌ وَرَهَاءُ تَطْرُدُهُ ** حَتَّى تَنَاهَى إِلَى الْأَهْوَالِ فِي سَنَنِ) (إِلَى مُقَارِبِ خَطُوبِ السَّاعِدِينَ لَهُ ** فَوْقَ السَّرَاةِ كَذْفَرَى الْقَارِحِ الْعَضَنِ) (رِبَالُ ظُلُمَاءَ لَا قَحْمٌ وَلَا صَرَعٌ ** كَالْبَغْلِ خَطَّ بِهِ الْعِجْلَانِ فِي سَكَنِ) (فَأَسْرِيَا وَهَمَا سَنًا هُمُومَهُمَا ** إِلَى عَرِينِ كُعُشِّ الْأَرْمَلِ الْيَهَنِ) (هَذَا بِمَا عَلَقَتْ أَظْفَارُهُ بِهِمْ ** وَظَنُّ أَكْدَرٍ غَيْرُ الْأَفْنِ وَالْحَتَنِ)

(سقط : بيت الشعر) (حتى إذا ورد الغزال وانتهت ** لحسه أم أجر ستة شزن) (بادٍ جناجها حصاء قد أفلت ** لمن يبهرن تعبيراً على سدن) (وطنٌ أكدرُ أن تموا ثمانية ** أن قد تجلَّل أهل البيت باليمن) (فخاف عزَّهم لما دنا لهم ** فحاص أكدرُ مشفقاً من الوسن) (بأربع كلُّها في الخلق داهية ** عُصفٍ عليهن ضافي اللحم واللبن) (ألفاه متخذ الأنياب جنته ** وكان بالليل ولاجاً إلى الجنن) (رثاء أعرابي شاة له أكلها ذئب وقال صاحب الكلب : قال أعرابي وأكل ذيب شاة له تسمى وردة وكُنيتها أم الورد :

(أودى بوردة أم الورد ذو عسل ** من الذئب إذا ما راح أو بكرًا) (لولا ابنتها وسليلا لها غرر ** ما انفكت العين تدرى دمعها درراً) (كأنما الذئب إذ يعدو على غنمي ** في الصبح طالب وتر كان فاتئرا) (اعتمأها اعتمأه شتن برائنه ** من الضواري اللواتي تقصم القصرا) قال : في هذا الشعر دليل أن الذئب إنما يعدو عليها مع الصبح عند فتور الكلب عن الثباح لأنه بات ليلته كلها دائباً يقظان يحرس فلما جاء الصبح جاء وقت نوم الكلاب وما يعترىها من التعاس ثم لم يدع الله على الذئب بأن يأكله الأسد حتى يختاره ويعتامه إلا والأسد يأكل قول صاحب الديك في إجازة الشعراء الدجاج وقال صاحب الديك : لم نر شريفاً قط أجاز شاعراً بكلب ولا حبا به زائراً وقد رأيتهم يجيزون الشعراء بالدجاج وأعظم من

ذلك أن لقيم الدجاج لما قال في افتتاح خبير وهو يعني (النبي صلى الله عليه وسلم : (رُميت نطاة من النبي بقلق ** شهباء ذات مناكب وفقار) وهب له دجاج خبير عن آخرها رواه أبو عمرو والمدائني عن صالح بن كيسان ولتلك الدجاج قيل : لقيم الدجاج . إياس بن معاوية وأخوه وقال صاحب الكلب : قال أبو الحسن : كان إياس بن معاوية وهو صغير ضعيفاً دقيقاً دميماً وكان له أخ أشد حركه منه وأقوى فكان معاوية أبوه يقدمه على إياس فقال له إياس يوماً يا أبت إنك تقدم أخي عليّ وسأضرب لك مثلي ومثله : هو مثل الفروج

حين تنفلق عنه البيضة يخرج كاسياً كافياً نفسه يلتقط ويستخفه الناس وكلما كبر انتقص حتى إذا تم فصار دجاجة لم يصلح إلا للذبح وأنا مثل فرخ الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقط لا يقدر على حركة فأبواه يغذوانه حتى يقوى ويثبت ريشه ثم يحسن بعد ذلك ويطير فيجد به الناس ويكرمونه ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء فيصان لذلك ويكرم ويشتري بالأثمان الغالية فقال أبوه : لقد أحسنت المثل فقدمه على أخيه فوجد عنده أكثر مما كان يظن فيه .

قال صاحب الكلب : وقد أغفل إياس في هذا القول بعض مصالح الدجاج وذلك أن الدجاج من لدن يخرج من حد الصغر والكيس إلى أن يدخل في حد الكبر واحتمال اللحم والشحم يكون أخبث حالاً لأنه لا يصلح فيه للذبح وقد خرج من حد الكيس والاستملاح وإياس هو الذي يقول : لست بجبّ والخب لا يخدعني ولا يخدع ابن سيرين وهو يخدع أبي ويخدع الحسن .

باب ما يحتاج إلى معرفته

يقال فَرَجُ المرأة والجمع فُرُوج وهو القُبْل والْفَرْجُ كناية و الاسم الحِرُّ وجمعه أحرّاح وقال الفرزدق : (إِنِّي أَقُوْدُ
جَمَلًا مَرَّاحًا ** في قُبَّةٍ مُوقَرَةٍ أَحْرَاحًا) قالوا : وإِنَّمَا جَعَوْهُ عَلَى أَحْرَاحٍ لِأَنَّ الْوَاحِدَ حِرْحٌ هَكَذَا كَانَ أَصْلُهُ وَقَدْ
يَسْتَعَارُ ذَلِكَ وَهُوَ قَلِيلٌ قَالَ الشَّاعِرُ : فلم يرض الاستعارة حتَّى أَلْحَقَ فِيهَا الْهَاءَ وَهُوَ الْكَعْثَبُ وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ : (
إِذَا بَطِحتْ فَوْقَ الْأَثَاثِي رَفَعْنَهَا ** بَنَدِييْنَ مَعَ نَحْرِ كَرِيمٍ وَكَعْثَبٍ)

وقال الأغلب : حَيَّاكَةَ عَنْ كَعْثَبٍ لَمْ يَمْصَحْ وَهُوَ الْأَجَمُ وَقَالَ الرَّاجِزُ : (جَارِيَةٌ أَعْظَمَهَا أَجْمُهَا ** قَدْ سَمَّيْتُهَا
بِالسَّوِيْقِ أُمُّهَا) بَائِنَةُ الرَّجُلِ فَمَا تَضَمُّهَا وَقَالَ : وَقَدْ يَسْمَى الشُّكْرُ بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَإِسْكَانِ الْكَافِ وَأَنْشَدُوا : (
وَكُنْتَ كَلِيلَةَ الشَّيْبَاءِ هَبَّتْ ** بَمَنْعِ الشُّكْرِ أَتَأَمُّهَا الْقَبِيلُ) أَتَأَمُّهَا : أَفْضَاهَا وَأَمَّا قَوْلُهُ : (قَدْ أَقْبَلْتُ عَمْرَةَ مِنْ
عِرَاقِهَا ** مُلْصَقَةَ السَّرَجِ بِحَاقٍ بِاقِهَا) قَالَ : وَهُوَ إِنْ أَرَادَ الْحِرَّ فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَلَكِنَّهُ سَمَاهُ بِذَلِكَ عَلَى
الْمَزَاجِ

قالوا : وَالطَّبِيَّةُ اسْمُ الْفَرْجِ مِنَ الْحَافِرِ وَالْجَمْعُ الطَّبِيَّاتُ وَقَدْ اسْتَعَارَهُ أَبُو الْأَخْزَرِ فَجَعَلَهُ لِلْخُفِّ فَقَالَ : (سَاوَرَهَا
عِنْدَ الْقُرُوءِ الْوَحْمُ ** فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطَّبِيَّاتِ الْجَحْمُ) (فَجَاءَ بَغْرُمُولُ وَفَلَكُ مُدْمَلِكٍ ** فَخَرَقَ ظَبِيَّهَا
الْحِصَانُ الْمُشْبِقُ) وَهُوَ مِنَ الظَّلْفِ وَالْخُفِّ الْحَيَا وَالْجَمْعُ أَحْيِيَّةٌ وَهُوَ مِنَ السَّبْعِ ثَفَرٌ وَقَدْ اسْتَعَارَهُ الْأَخْطَلُ لِلظَّلْفِ
فَقَالَ : (جَزَى اللَّهُ عَنَّا الْأَعْوَرَيْنِ مَلَامَةً ** وَعَبَلَةَ ثَفَرِ الثَّوَرَةِ الْمُتَضَاجِمِ) فَلَمْ يَرْضَ أَنْ اسْتَعَارَهُ مِنَ السَّبْعِ لِلْبَقَرَةِ
حَتَّى جَعَلَ الْبَقَرَةَ ثَوْرَةً وَقَدْ اسْتَعَارَهُ النَّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ)

لِلْحَافِرِ كَمَا اسْتَعَارَهُ الْأَخْطَلُ لِلظَّلْفِ فَقَالَ : (بُرَيْدُنَةُ بَلَّ الْبَرَاذِينَ ثَفَرَهَا ** وَقَدْ شَرِبْتُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُيْلًا)

وقد قالوا بِرِذْوَنَةٍ وَقَالَ الرَّاجِزُ : (تَرْحُزْ حِي إِلَيْكَ يَا بِرِذْوَنَةُ ** إِنَّ الْبَرَاذِينَ إِذَا جَرَيْنَتْ) مَعَ الْحِيَادِ سَاعَةً أَعْيِنَتْ
وقد استعاره آخَرُ فَجَعَلَهُ لِلنَّعْجَةِ فَقَالَ : (وَمَا عَمُرُو إِلَّا نَعْجَةً سَاجِسِيَّةً ** تَحْرُكُ تَحْتَ الْكَبْشِ وَالثَّفَرِ وَارِمُ)
وَالسَّاجِسِيَّةُ : ضَأْنٌ فِي تَغْلِبٍ وَقَدْ اسْتَعَارَهُ آخَرُ فَجَعَلَهُ لِلْمَرْأَةِ فَقَالَ : (نَحْنُ بَنُو عَمْرَةَ فِي انْتِسَابٍ ** بِنْتُ سُؤَيْدٍ
أَكْرَمَ الضَّبَابِ) وَيُقَالُ لَجُرْدَانِ الْحِمَارِ غَرْمُولٍ وَقَدْ يُقَالُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ وَقَضِيبُ الْبَعِيرِ وَهُوَ لِكُلِّ شَيْءٍ وَمَقْلَمُ
الْجَمَلِ فَقَطْ وَمِنَ السَّبَاعِ الْعَقْدَةُ وَأَصْلُهُ لِلْكَلْبِ وَالذَّنْبُ وَقَالَ جَرِيرٌ : (إِذَا رَوَيْنَ عَلَى الْخَنْزِيرِ مِنْ سَكْرِ **
نَادَيْنَ يَا أَعْظَمَ الْقَسِيِّنِ جُرْدَانًا) وَيُقَالُ : صَرَفْتُ الْكَلْبَةَ صَرَفًا وَصِرُوفًا وَظَلَعْتُ تَظْلَعُ ظِلْوَعًا

وقالوا فِي الْأَمْثَالِ : لَا أَفْعَلُ حَتَّى يَنَامَ ظَالِعُ الْكَلَابِ أَيِ الصَّارِفِ وَلَمْ يَعْرِفِ الْأَصْمَعِيُّ ظَلَعْتُ الْكَلْبَةَ بِمَعْنَى
صَرَفْتُ وَاسْتَحْرَمْتُ وَأَجْعَلْتُ وَاسْتَجْعَلْتُ وَاسْتَطَارَتْ وَالدُّبَّةُ فِي ذَلِكَ كَالْكَلْبَةِ قَالَ : وَيُقَالُ فِي السَّبَاعِ : قَدْ
وَضَعْتُ وَوَلَدْتُ وَرَمَصْتُ مِثْلَ مَا يُقَالُ لِلنَّاسِ وَالْغَنَمِ .

بحث في المذكر من الحيوان ومؤنثه

قال : وَيُقَالُ كَلْبِيَّةٌ وَكَلْبٌ وَذَنْبِيَّةٌ وَذَنْبٌ وَبِرْدُونٌ وَبِرْدُونَةٌ وَأَنْشُدُ :

(أَرَيْتَ إِذَا مَا جَالَتْ الْحَيْلُ جَوْلَةً ** وَأَنْتَ عَلَى بَرْدَوْنَةٍ غَيْرِ طَائِلٍ) ويقال رجل ورجال وامرأة ونساء وليس لها جمعٌ من واحدها ويقال بعير وناقة وجمال ولا يقال جملة ولا بعيرة وقد قالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخة ويقال كبش ونعجة ولا يقال كبشة كما لا يقال أسدة ويقال أسد ولبوة ولبوات ويقال ذئبة وذئب وقال الشاعرُ :
ويقال إنسان وإنسانة وسبع وسبعة وحمّام وحمّامة وحمّار وحمّارة وسرحان وسرحانة وسيد وسيدة وهقل وهقلة وإلق وإلقة وقال رؤبة : جَدَّ وَجَدَتْ إِلَقَةً مِنَ الْإِلْقِ وَزَعَمَ أَنَّهُ يَقَالُ ضَبْعٌ وَضَبْعَةٌ وَثَعْلَبٌ وَثَعْلَبَةٌ وَأَصْحَابُنَا لَا يَقُولُونَ هَذَا وَيُضْحِكُونَ مِمَّنْ يَقُولُونَ ضَبْعَةٌ عَرَجَاءُ وَيَقَالُ ثُرْمَلَةٌ

ويقال من الفراخ فرخ وفرخة ومن النمر نمر ونمرة قال : ويقال ذبيح وذبيحة وضبان وضبانة وجبال وجبالة ويقال عقرب وعقربة والعقربان الذكر وحده وقال الشاعرُ : (كَأَنَّ مَرَعِي أُمُكُمُ إِذْ غَدَتُ ** عَقْرَبَةٌ يَكُومُهَا عَقْرُبَانُ) ومن الصفادع ضفدع وضفدعة ومن القنافذ قنفذ وقنفذة وشيهم وشيهمة ومن القروود قرد وقردة ويقال إلقة وإلقة ولا يقال إلق ويقال لولد القرد ربّاح والأنثى إلقة وقال الشاعرُ : (وَإِلَقَةٌ تُرْعِثُ رَبَّاحَهَا ** وَالسَّهْلُ وَالتَّوْفَلُ وَالتَّضْرُ)

ومن النعام هقل وهقلة وهيق وهيقة وصعل وصعلة وسفنج وسفنجة ونعام ونعامة والواحد من فراخها الرأل والجمع رئال ورئالان وأرأل وأرؤل والأنثى رألة وحفانة والجمع حقان وقد يكون الحقان أيضاً للواحد ويقال لها قلاص والواحدة قلوص ولا يقال قلوصة ويقال ظليم ولا يقال ظليمة ويقال نقنق ولا يقال نقنقة ويقال من الأرناب أرنب ولا يقال أرنبة والذكر خُرَزَ ويقال للأنثى عكرشة ولولدها خرنق ويقال هذه أرنب وهذه عقاب ولا يقال هذا الأرنب ولا هذا العقاب وقال الشماخ : (فَمَا تَنْفَكُ بَيْنَ غَوِيرِ صَاتٍ ** تَجَرَّ بِرَأْسِ عَكْرِشَةٍ زُمُوعِ)

قال ويقال لولد الكلب جرو والأنثى جروة وهو درص والجمع أدراص ويقال لمن عضه الكلبُ (الْكَلْبُ : بِالْ كَأَدْرَاصِ الْكِلَابِ .

بدء الإبصار عند أولاد السباع

وجرو الكلب يكون أعمى عشرة أيام وأكثر وقد يعرض شبيه بذلك لكثير من السباع .
استطرد لغوي ويقال بصص الجرو وفقح وجصص إذا فتح عينيه شيئاً وصاصاً إذا لم يفتح عينيه ولذلك قال عبيد الله بن جحش والسكران بن عمرو للمسلمين ببلاد الحبشة : إِنَّا فَقَحْنَا وَصَاصْنَا قَالَ بَعْضُ الرُّجَازِ فِي بَعْضِ الصَّبَّيَّانِ :

(أَقْبَحَ بِهِ مِنْ وَلَدٍ وَأَشَقَّحَ * مِثْلَ جُرَيِّ الْكَلْبِ لَمْ يَفْقَحْ) ويقال لولد الأسد جرو وأجراء وجراء وهي لجميع السباع ويقال له خاصة : شبل والجمع أشبال وشبول وقال زهير : (وَلَأَنْتَ أَشْجَعُ حِينَ تَتَجَهَّأُ ال * أَبْطَالُ مِنْ لَيْثٍ أَبِي أَجْرٍ .)

خبث الثعلب

وحدثني صديق لي قال : تعجّب أخ لنا من خُبث الثعلب وكان صاحب قنص وقال لي ما أعجب أمر الثعلب يفصل بين الكلب والكلاب فيحتال للكلاب بما يعلم أنّه يجوز عليه ولا يحتال مثل تلك الحيلة للكلب لأنّ الكلب لا يخفى عليه الميت من المغشي عليه ولا ينفع عنده التماوت ولذلك لا يحمل من مات من الجوس إلى النار حتى يُدنى منه كلبٌ لأنّه لا يخفى عليه مغمور الحسّ حيٌّ هو أو ميت وللكلب عند ذلك عمل يستدلّ به الجوس

قال : وذلك أنّي هجمت على ثعلب في مضيق ومعني بُني لي فإذا هو ميتٌ منتفخٌ فصدّدت عنه فلم ألبث أن لحقني الكلاب فلما أحسّ بها وثب كالبرق بعد أن تحايد عن السنن فسألت عن ذلك فإذا ذلك من فعله معروفٌ وهو أن يستلقي وينفخ خواصره ويرفع قوائمه فلا يشكّ من رآه من الناس أنّه ميت منذ دهر وقد تركز بالانتفاخ بدنه فكنت أتعجب من ذلك إذ مررت في الرُّقاق الذي في أصل دار العباسية ومنفذه إلى مازن فإذا جرو كلب مهزول سيئ الغذاء قد ضربه الصبيان وعقروه فقرّ منهم ودخل الرُّقاق فرمى بنفسه في أصل أسطوانة وتبعوه حتّى هجموا عليه فإذا هو قد تماوت فضربوه بأرجلهم فلم يتحرك فانصرفوا عنه فلما جاوزوا تأملت عينه فإذا هو يفتحها ويغمضها فلما بعدوا عنه وأمنهم عدا وأخذ في غير) طريقهم فأذهب الذي كان في نفسي للثعلب إذا كان الثعلب ليس فيه إلاّ الروغان والمكر وقد ساواه الكلب في أجود حيله .

مقايسة بين الثعلب والكلب

ومع الكلب بعد ما ليس معه إلاّ أن يفخر بفروته في موضع انتفاع الناس به فجعر الكلب للذئبة أنفع منه إذ كان في الذئبة الموت وليس يقوم مقامه شيء وجلد الثعلب منه عوض .
قول صاحب الديك في الكلاب قال صاحب الديك : شرار عباد الله من قتل أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم نجد شعراء الناس شبهوا أولئك القاتلين بشيء سوى الكلاب قال أبو نضلة الأبار في قتل سلم بن أحوز المازني صاحب شرطة نصر بن سيار اللّبيجي بن زيد وأصحابه فقال : (كلاب تعاوت لاهدى الله سبلها ** فجاءت بصيد لا يحل لأكل) (بنفسي وأهلي فاطمي تقنصوا ** زمان عمى من أمة وتخاذل) (لقد كشفت للناس ليث عن استنها ** وغاب قبيّل الحقّ دون القبائل)

قال صاحب الديك : وروى هشيم عن المغيرة عن إبراهيم قال : لم يكوّنوا ينهوننا عن شيء من اللعب ونحن غلمان إلاّ الكلاب .

التقامر بالبيض وذكر محمد بن عجلان المديني عن زيد بن أسلم أنّه كان لا يرى بأساً بالبيض الذي يتقامر به الفتيان أن يهدى إليه منه شيء أو يشتريه فيأكله .

وهشام بن حسان قال : سئل الحسن عن البيض يلعب به الصبيان يشتريه الرجل فيأكله فلم ير به بأساً وإن أطعموه أن يأكل منه والجوز الذي يلعب به الصبيان .

وحاتم بن إسماعيل الكوفي قال : حدثنا عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب أنه لم يكن يرى بأساً بالبيض الذي يلعب به الصبيان .

قتل الحيات والكلاب

قال : وحدثني ابن جريج قال وأخبرني عبد الله بن عبيد بن عمير قال : أخبرني أبو الطفيل أنه سمع علي بن أبي طالب يقول : اقتلوا من الحيات ذا الطفتين والكلب الأسود البهيم ذا الغرّتين .
قال : والغرّة : حوّة تكون بعينيه .

قول صاحب الكلب في صقاع الديك

قال صاحب الكلب : قد أخبرني أبو حرب عن منصور القصّاب قال : سألت الحسن عن البيض الذي يتقامرون به فكرهه .

وما رأينا قط أحداً يريد الادّلاج ينتظر صقاع الديك . وإنّما يوالي الديك بين صياحه قبيل الفجر ثم مع الفجر إلى أن ينسط النهار وفيما بين الفجر وامتداد النهار لا يحتاج الناس إلى الاستدلال بأن يصوت الديك . ولها في الأسحار أيضاً بالليل الصيحة والصيحات وكذلك

الحمار . على أنّ الحمار أبعد صوتاً وأجدر أن ينبّه كلّ نائم حاجة إن كانت له . وما رأينا صاحب سحور يستعمله وكذلك صاحب الأذان وما رأيناه يتكل في وقت أذانه على صياح الديك لأنّ صورة صوته ومقدار مخرجه في السحر الأكبر كصياحه قبل الفجر . وصياحه قبل الفجر كصياحه وقد نورّ الفجر وقد أضاء النهار . ولو كان بين الصيحتين فرقاً وعلامة كان لعمري ذلك دليلاً .

ولكنّه من سمع هتافه وصقاعه فإنّما يفرّج إلى مواضع الكواكب وإلى مطلع الفجر الكاذب والصادق .
والديك له عدّة أصوات بالتهار لا يغادر منها شيئاً وتلك أوقات لا يحتاج فيها الناس إليه .
وملوكنّا وعلمناؤنا يستعملون بالتهار الأسطرلابات وبالليل البنكومات ولهم بالتهار سوى الأسطرلابات خطوط وظلّ يعرفون به ما مضى من النهار وما بقي . ورأيناهم يتفقّدون المطالع والجاري . ورأينا أصحاب البساتين وكلّ من كان بقرب الرياض يعرفون ذلك بريح الأزهار .
ورأينا الروم ونصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير وببُكورها وغدوها وأصواتها ولذلك قالوا في وصف الرجل : له

وثبة الأسد وروغان الثعلب وانسلاّب الذئب وجمع الذرّة وبُكور الخنزير . والرّاعي يعرف ذلك في بكور الإبل وفي حينها وغير ذلك من أمورها .

وللحمّام أوقات صياح ودعاء مع الصبح وقبيل ذلك على نسق واحد ولكنّ الناس إنّما ذكروا ذلك في الديك والحمار لامتداد أصواتهما .)

هديل الحمام

وهديل الحمام ودعاؤه لا يجوزُ بعيداً إلا ما كان من الوراشرين والفواخيت في رؤوس النحل

ما يصيح من الطير مع الفجر

وللعصافير والخطاطيف وعامة الطير فما يصفر أو يُصرصر وما يهدل مع الفجر إلى بُعيد ذلك صباح كثير . ثم الذي لا يدع الصباح

في الأسحار مع الصبح أبداً الضوع والصدى والهامة والبومة وهذا الشكل من الطير . وقد كتبنا في غير هذا الموضوع الأشعار في ذلك .

قال : وقد يصيح مع الصبح البوم والصدى والهامة والضوع والخطاطيف والعصافير والحمر في ذلك الوقت أكثر من الديكة . قال الوليد بن يزيد في ذلك : (سَلِمَى تَيْكَ فِي الْعِيرِ ** قَفِي إِنْ شَتَّ أَوْ سِيرِي) (فلما أن دنا الصبحُ ** بأصواتِ العَصَافِرِ) وقال كلثوم بن عمرو العتّابي : (يَا لَيْلَةَ بُحَوَّارِينَ سَاهِرَةٍ ** حَتَّى تَكَلَّمَ فِي الصُّبْحِ الْعَصَافِرُ)

فالعصافير والخطاطيف والحمر والحمام والضوعان وأصناف البوم كلها تقوم مقام الديك . وقال ثعلبة بن صُعير المازني : (أَعْمِيرَ مَا يُدْرِيكَ أَنْ رُبَّ فِتْيَةٍ ** بِيضِ الْوَجْهِ ذَوِي نَدَى وَمَآثِرِ) (بَاكِرُهُمْ بِسِبَاءِ جَوْنٍ مُتَرَعِ ** قَبْلَ الصُّبْحِ وَقَبْلَ لَغْوِ الطَّائِرِ)

صوت الديك وما قيل فيه من الشعر

قال : ويقال لصوت الديكة الدعاء والزقاء والهُتاف والصُراخ والصُّقاع . وهو يهتِف ويصقَع ويزقُو ويصرُخ . وقال جرّان العود :

(تَمِيلُ بِكَ الدُّنْيَا وَيَغْلِبُكَ الْهُوَى ** كَمَا مَالَ خَوَّارُ النَّقَا الْمُتَقَصِّفِ) (وَتُلْغَى كَأَنَّا مَعْنَمٌ قَدْ حَوْبَتَهُ ** وَتَرْغَبُ عَنْ جَزَلِ الْعَطَاءِ وَتَصْدَفُ) (فَمَوْعِدُكَ الشَّطُّ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِنَا ** وَأَهْلِكَ حَتَّى تَسْمَعَ الدِّيكَ يَهْتِفُ) وقال الممرّق العبدِيُّ : (وَقَدْ تَخَذَتْ رَجُلَايَ فِي جَنْبِ غَرْزِهَا ** نَسِيفاً كَأَفْحَوْصِ الْقَطَاةِ الْمَطْرَقِ) (أُنِيخْتَ بِجَوْ يَصْرُخُ الدِّيكَ عِنْدَهَا ** وَبَاتَتْ بِقَاعِ كَادِي النَّبْتِ سَمَلَقِ) وقال لبّيد : (لَدُنْ أَنْ دَعَا دِيكَ الصُّبْحَ بِسُحْرَةٍ ** إِلَى قَدَرِ وَرْدِ الْخَامِسِ الْمُتَأَوِّبِ)

طيور الليل

ويقال للطائر الذي يخرج من وكره بالليل البومة والصدى والهامة والضوع والوطواط والخفّاش وغراب الليل ويصيّد بعضها الفأر

وساماً أبرصَ والفَطا وصِغارَ الحشرات وبعضها يصيد البعوض والفراش وما أشبه ذلك . واليوم يدخل بالليل على كل طائرٍ في بيته ويُخرجه منه ويأكلُ فراخه وبيضه . وهذه الأسماء مشتركة .
ما قيل من الشعر في الهامة والصدى وقال خزيمة بن أسلم : (فلا تَرْقُونَ لي هامةً فوق مَرْقَبٍ ** فإن رُقَاءَ الهامِ أَحَبُّ حَابِثٍ) وقال عبد الله بن خازم أو غيره : (فإن تلك هامةٌ بَهْرَاءَ تَرْقُو ** فقد أَرْقَيْتَ بالمروين هاما) وقال توبة بن الحمير : (ولو أن ليلي الأخيلىة سَلَمْتُ ** عَلَيَّ ودوني جَنْدَلٌ وصفائح) (لَسَلَمْتُ تسليمَ البشاشة أَوْزَقاً ** إليها صدى من جانب القبر صائح)

وقال الرَّاجز : (وَمَنْهَلٌ طامِسةٌ أعلامُهُ ** يَعْوِي به الذَّنْبُ وَيَرْقُو هَامُهُ) (تَجَشَّمْتُ من جَرَّاكِ واليوم والصدى ** له صائح أن كنتِ أسْرِيَتِ من أجلي) وقال سويد بن أبي كاهل في الضُّوْع : (لن يضرني غير أن يحسُدَنِي ** فهو يَرْقُو مثل ما يرقو الضُّوْع) قال : في قراءة ابن مسعود : إن كانت إلا رَقِيَةً واحدةً ونفخ في الرَقِيَةَ يريد الصُّور .
وصوت الدجاجة القوقاة تقول هي تقوقى .

شعر في الدجاج

وقال أعرابي : (أليس يرى عيني جُبيرة زوجها ** وَمَحَجَرُهَا قامت عليه النوائجُ) (تَنْجَبُهَا لا أكثر الله خيرُهُ ** رُمِيصاء قد شابت عليها المسائجُ) (لها أنف خنزيرٍ وساقا دجاجةٍ ** ورؤيتها تَرَحُّ من العيشِ تَارِحُ)
وقال المُجَبِّر السُّلُوي : (لا نوم إلا غَرَارُ العَيْنِ سَاهِرَةً ** حتى أُصِيبَ بغيظِ آلٍ مطلوبٍ) (إن تمَجَّرُونِي فقد بَدَلْتُ أَيْكُتْكُمْ ** ذَرَقَ الدجاج بحَفَازِ اليَعَاقِبِ) (أَلَمْ تَعْلَمَا يا ابْنِي دجاجة أنِّي ** أَغْشُ إذا ما التُّصَحُّ لم يُتَقَبَّلِ)

شعر في هجاء الدجاج وهجاء من اتخذها

وقال صاحب الكلب : وسنروي في الدجاج ونذكرُ كلَّ من هجاها وهجا مَنْ اتَّخَذَهَا وأشبهها في وجهٍ من الوجوه قال الراجز : (أقبلن من نِيرٍ ومن سَوَاجٍ ** بالحيِّ قد ملَّ من الإدلاج) (فَهَمْ رَجَاجٌ وعلى رَجَاجٍ ** يمشون أفواجاً إلى أفواج)

مشيَ الفراريج إلى الدجاج وقال عبد الله بن الحجاج : (فإن يُعْرِضَ أبو العباسِ عَنِّي ** ويركب بي عَرُوضاً عن عَرُوضٍ) (ويجعل ودَّه يوماً لغيري ** وَيُغِضُنِي فإني من بَغِيضٍ) (فنصرُ الله يأسُو كلَّ جُرْحٍ ** وَيَجْبُرُ كَسْرَ ذي العظم المهيضِ) (فدى لك من إذا ما جئتُ يوماً ** تلقاني بجامعةٍ رُبُوضٍ) (لدى جنبِ الحوانِ وذاك فُحشٌ ** وبُنست خُبْزة الشَّيْخِ المريضِ)

(إوْزَة غِيضَةٍ لَقِحت كشافاً ** لَفَقَحَتْهَا إذا بَرَكْتَ نَقِيضُ) وقالت امرأة في زوجها وهي ترقص ابناً لها منه : (وَهَيْتُهُ من سَلَفِ أَفوكَ ** ومن هَيْلٍ قد عسا حَنِيكِ) أشهبَ ذي رأسٍ كَرَأْسِ الديكِ تريد بقولها أشهب أنه

شيخ وشعر جسده أبيض وأن لحيته حمراء .

وقد قال الشاعر وهو الأعشى : (وبني المنذر الأشاهب بالحي ** رة يمشون غدوة كالسيوف) وإنما أراد الأعشى أن يعظم ويفخم أمرهم وشأنهم بأن يجعلهم شيوخا . وأما قولها : ذي رأس كرأس الديك فإنما تعني أنه مخضوب الرأس واللحية .

وقال الآخر : (حلت خويلة في حي مجاورة ** أهل المدائن فيها الديك والفيل) (يقارعون رؤوس العجم صاحبة ** منهم فوارس لا عزل ولا ميل)

قال ابن أحر : (في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة ** لا يبتغي دونهما سهل ولا جبل) (هيهات حي غدوا من تجر منزلهم ** حي بنجران صاح الديك فاحتملوا) وقال : (أبعد حلول البركاء وجامل ** غدا سارحا من حولنا وتنشرا) (تبدلت إصطبلا وتلا وجرة ** وديكا إذا ما آنس الفجر فرفرا) (وبستان ذي ثورين لا لين عنده ** إذا ما طغى ناطوره وتغشمرا) وقال أوس بن حجر : (كأن هرا جنيبا عند مغربها ** والتف ديك برجليها وخنزير)

وقال الحكم بن عبدل : (مررت على بغل تزفك تسعة ** كأنك ديك مائل الرأس أعور) (تحيرت أثوابا لزينة منظر ** وأنت إلى وجه يزينك أفقر) وقال النمر بن تولب : (أعذني رب من حصر وعي ** ومن نفس أعالجها عاجا) (ومن حاجات نفسي فاعصمني ** فإن لمضمرات النفس حاجا) (وأنت وليها وبرئت منها ** إليك وما قضيت فلا خالجا) (وتأمري ربيعة كل يوم ** لأشربها وأقتني الدجاجا) (وما تغني الدجاج الصيف عني ** وليس بنافعي إلا نضاجا) (أهلكها وقد لاقيت فيها ** مزار الطعن والضرب الشجاجا)

(وتذهب باطلا غدوات ضهي ** على الأعداء تختلج اختلاجا) (جموم الشد شائلة الدنابي ** تحال بياض غرقها سراجا) (وشدي في الكريهة كل يوم ** إذا الأصوات خالطت العجاجا) وقال عبد الرحمن بن الحكم : (وللأنصار أكل في قراها ** لحث الأطمعات من الدجاج) وقال الآخر لصاحبه : (آذيتنا بديكك السلاح ** فنجنا من مئنت الأرواح) وقالوا : هو أسلح من حبارى ساعة الخوف ومن دجاجة ساعة الأمن . وقال عقيل بن علفة : (وهل أشهدن خيلا كأن غبارها ** بأسفل علكد دواخن تنضب) (تبيت على رمض كأن عيونهم ** ففاح الدجاج في الودي المعصب)

وقال صاحب الديك : حدث الأصمعي قال : أخبرني العلاء بن أسلم قال : أردت الخروج إلى مكة المعظمة شرفها الله تعالى فجاءني هشام ابن عتبة وهو أخو ذي الرمة فقال لي : يا ابن أخي إنك تريد سفرا يحضر الشيطان فيه حضورا لا يحضره في غيره فاتق الله وصل الصلوات لوقتها فإنك مصليها لا محالة فصلها وهي تنفعك واعلم أن كل رقيقة كلبا ينبج عليهم فإن كان نهب شركوه فيه وإن كان عار تقلده دونهم فلا تكن كلب الرقيقة وقد رووا شيها بذلك عن تبيع بن كعب .

أم كلبة وقال زيد الخيل : (يا نصر نصر بني قعين إنما ** أنتم إماء يتبعن الأشترا)

(يتبعن فضلة أهر كلب منعط *عَضُّ الكلاب بعجهه فاستثفراً) قال : فلما قدم زبد من عند النبي صلى الله عليه وسلم قال أبرح فتى إن لم تدركه أم كلبة يعنى الحمى .

الكلب بين الهجاء والفخر وقال جرير في البيعث : وقال صاحب الكلب : وقد قال عمرو بن معد يكرب : (وقد كنت إذا ما الح *يُ يوماً كَرِهُوا صلحي) (أَلْفُ الخيلَ بالخيلِ * وأَكْفِي النَّبَحَ بالنبح) استعارات من اسم الكلب قال ومن الاستعارات من اسم الكلب قول الرجل منهم إن أوطن نفسه على شيء : قد ضَرَبْتُ جَرَوَتِي وضربت عليه . وقال أبو التجم :

(حتى إذا ما ابيضَّ جرو التَّنْفُلِ * وبُدِّلَتِ والدهر ذو تبدلٍ) وقال : من الحنظل العاميَّ جرو مفلقُ وقال عُتْبة الأعرور : (ذهب الذين أحبُّهم * وبقيت فيمن لا أحبه) (إذ لا يزال كريم قو * مي فيهم كلبٌ يسُّبه)

احتقار العرب للصيد

فخرتم علينا بصيد الكلب وهجوم الديك إذ كان مما لا يصيد ولا يصاد به وقد وجدنا العرب يستدلُّون الصيد ويحقرون الصياد فمن ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

(ابني زيادِ أتم في قومكم * ذَنَبٌ ونحن فروع أصل طيِّبٍ) نصلُ الخميس إلى الخميس وأنتم بالقهر بين مربِّق ومكَلَّبٍ (لا يحسِّنُ بنو طليحةَ حربنا * سوق الحمير بحانة فالكوكبِ) (حيدٌ عن المعروف سعيُ أبيهم * طلبُ الوعول بوفضةٍ وبأكَلْبٍ) (حتى يكهنَ بعد شيبٍ شامل * ترحاً له من كاهن متكذِّبٍ) ٤

الاشتفاء بدماء الملوك والأشراف

وأما قول زهير : (وإن يُقتلو فيُشتَفَى بدمائهم * وكانوا قديماً من مناياهم القتلُ) فهذا البيت نفسه ليس يدلُّ على قولهم أن كل من كان به جنونٌ أو كَلْبٌ ثم حساً من دم ملكٍ أو سيدٍ كريم أفاق وبرئ .

فرار الكلب الكلب من الماء

(سقط : السطر كامل)

وقد ضربوا لصاحب الكلب أمثالا كثيرة في شدة طلبه الماء ، وفي شدة فراره منه إذا عاينه

وقالوا وقتلتم : فالماء المطلوب إذا عاينه من غير أن يمسه وهو الطالب له ولم يحرص عليه إلا من حاجة إليه . فكيف صار إذا رآه صاح قالوا : وقد يعتري الناظر إلى الماء والذي يديم التَّحديق إليه وهو يمشي على قنطرةٍ أو جُرْفٍ أو جسر الدُّوار فإنه ربما رمى بنفسه من تلقاء نفسه إلى الماء وإن كان لا يحسن السباحة . وذلك إنما يكون على قدر ما يصادف ذلك من المزار ومن الطَّبَّاع .

فمن فعل ذلك بنفسه أبو الجهجهاه محمد بن مسعود فكاد يموت حتى استخرج . ومنهم منصور بن إسماعيل التَّمَّار وجماعة قد عرفت حالهم .

ما يعتري المختنق والممرور وهذا كما يعتري الذي يصيبه الأسنُّ من البخار المختنق في البئر إذا صار فيها فإنه ربما استقي واستخرج وقد تغيّر عقله . وأصحاب الركايا يرون أن دواءه أن يلقوا عليه دثاراً ثقيلاً وأن يزمّل تزميلاً وإن كان في تمّوز وآب ثم يحرس وإن كان قريباً من رأس البئر فإنّه

إن لم يحل بينه وبينها طرح نفسه في تلك البئر أتاها سعيّاً في أوّل ما يفتح عينه ويرجع إليه اليسير من عقله ثم يُكفي نفسه فيها من ذات نفسه في الموضع الذي لقي منه ما لقي وقد كان عنده معلوماً أنّ القوم لو تركوه طرفة عين لهلك . هكذا كان عنده أيام صحّة عقله فلمّا فسد أراه وكما يعتري المروّر حتى يرجم الناس فإن المرّة تصوّر له أن الذي رجمه قد كان يريد رجمه فيرى أن الصواب يبدأه بالرجم وعلى مثل ذلك ثريه المرّة أن طرحه نفسه في النار أجود وأحزم .

وليس في الأرض إنسان يذبح نفسه أو يختنق أو يتردّى في بئر أو يرمي نفسه من حلقٍ إلا من خوف المثلة أو التعذيب أو العير وتقرّيع الشامتين أو لأن به وجعاً شديداً فيحرّك عليه المرّة فيحمى لذلك بدئه ويسخن جوفه فيطير من ذلك شيء إلى دماغه أو قلبه فيوهمه ذلك أن الصواب في قتل نفسه وأن ذلك هو الراحة وأن الحزم مع الراحة .

ولا يختار الخنق الوادع الرابع ابلفافه السليم العقل والطّباع . وللغيظ ربما رمى بنفسه في هذه المهالك وقذف بها في هذه الهاوي .

وقد يعتري الذي يصعد على مثل سنسيرة أو عقرقوف أو خضراء

زوج فإنه يعتريه أن يرمي بنفسه من تلقاء نفسه فيرون عند ذلك أن يصعد إليه بعض المعاولين الجريّن ولا يصنع شيئاً)

حتى يشدّ عينيه ويحتال لإنزاله . فهذا المعنى عامٌّ فيمن كانت طبيعته تنور عند مثل هذه العلة . وما أكثر كمن لا يعتريه ذلك .

وقد قال الناس في عذر هؤلاء ولأنّ فيهم ضرراً من الأقاويل .

وإنما تكلمنا على المغلوب . فأما من كانت هذه العوارض لا تُفسد عقله ولا تنقُص استطاعته فليس بيننا اختلافٌ في أنه ملوم . على أن إلزامه اللائمة لا يكون إلّا من بعد خصومة طويلة لا يصلح ذكرها في هذا الباب .

الغراب

لؤم الغراب وضعفه

وقال صاحب الكلب : الغربا من لئام الطير وليس من كرامها ومن بغائها وليس من أحرارها ومن ذوات البرائن الضعيفة والأظفار

الكليلة وليس من ذوات المخالب المعقّفة والأظفار الجارحة ومن ذوات المناكير وليس من ذوات المناسر . وهو مع أنه قويُّ النَّظر . لا يتعاطى الصيد . وربما راوغ العصفور ولا يَصيد الجرادة إلا أن يلقاها في سدٍّ من الجراد . وهو فسَلٌ إذا أصاب جيفةً نال منها وإلا ماتةً زالاً ويتقمم كما يتقمم بهائم الطير وضعافها وليس بهيميةً لمكان أكله الجيف وليس بسَّبعٍ لعجزه عن الصيد .

ألوان الغربان

وهو مع ذلك يكون حالك السواد شديد الاحتراق ويكون مثله من الناس الرُّنَج فإنهم شرارُ الناس وأردأُ الخلق تركيباً ومزاجاً كمن بردت بلاده فلم تطبخه الأرحام أو سخنت فأحرقته الأرحام . وإنما صارت عقولُ أهل بابل وإقليمها فوق العقول وجهالهم فوق الجمال لعله الاعتدال .

وللغربان إما أن يكون شديد الاحتراق فلا يكون له معرفةٌ ولا جمال وإما أن يكون أبقع فيكون اختلافُ تركيبه وتضادُّ أعضائه دليلاً على فسادِ أمره . والبُّقع أَلَمٌ من السود وأضعف .

أنواع الغربان

ومن الغربان غراب الليل وهو الذي ترك أخلاق الغربان وتشبَّه بأخلاق اليوم . ومنها غرابُ البَيْنِ . وغراب البين نوعان : أحدهما غرابانٌ صغارٌ معروفةٌ بالضَّعف واللُّؤم والآخر كُلُّ غراب يُتَشَاءَمُ به . وإنما لزمه هذا الاسم لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنُّجعة وقع في مرايض يبوهم يلتمس ويتقمَّم فيتشاءمون به ويتطَيَّرون منه إذا كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا فسمَّوه غراب البين . ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم له مخالفةً للرَّجر والطَّيرة وعلموا أنه نافذ البصر صافي العين حتى قالوا أصفى من عين الغراب كما قالوا : أصفى من عين الدَّيك

فسمَّوه الأعور كنايةً كما كنوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بصير . وبها اكتني الأعشى بعد أن عمي . ولذلك سمَّوا الملدوغ والمنهوش سليماً وقالوا للمهالك من الفياثي : المفاوز . وهذا كثير .

التشاؤم بالغراب

ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقُّوا من اسمه الغربة والاعتراب والغريب . وليس فغي الأرض بارحٌ ولا تطيح ولا قعيد ولا أعصب ولا شيءٌ مما يتشاءمون به إلا والغراب عندهم أنكدُّ منه يرون أن صياحه أكثر أخباراً وأن الرَّجر فيه أعمُّ . وقال عنترة : (حَرَقَ الجناح كأن لحى رأسه * جَلَمَانِ بالأخبار هَشٌّ مَوْع)

التعابير بأكل لحم الغراب

وهو عندهم عار وهم يتعايرون بأكل لحمه . ولو كان ذلك منهم لأنه يأكل اللحوم ولأنه سبع لكانت الضواري والجوارح أحقّ بذلك عندهم . وقد قال وَعَلَّةُ الْجَرْمِي : (فما بالعار ما عَيَّرْ ثُمونا * شِواءَ النَاهِضَاتِ مع الخبيص) (فما لحمُ الغرابِ لنا بَزَادٍ * ولا سَرَطَانُ أَهْمَارِ البَرِيصِ)

فسق الغراب وتأويل رؤياه

قال : والغربان جنسٌ من الأجناس التي أمر بقتلها في الحِلِّ والحرم وسمّيت بالفسق وهي فواسق اشتق لها من اسم إبليس .

وقالوا : رأى فلان فيما يرى النائم أنه يُسْقَطُ أعظم صومعةٍ بالمدينة غرابٌ . فقال سعيد بن المسيّب : يتزوح أفسق الفاسقين امرأةً من أهل المدينة . فلم يلبثوا إلا أياماً حتى كان ذلك .

غراب نوح

وقالوا في المثل : لا يرجعُ فلانٌ حتى يرجع غرابُ نوح وأهل البصرة يقولون : حتى يرجع نشيطٌ من مَرَوَ وأهل الكوفة يقولون : حتى يرجع مصقّلةً من سِجِسْتان . فهو مثلٌ في كل موضعٍ من المكروه .

قبح فرخ الغراب وفرخ العقاب

وزعم الأصمعيّ عن خلفٍ الأحمر أنّه قال : رأيت فرخ غراب فلم أر صورة أقبَحَ ولا أسمى ولا أبغضَ ولا أقدرَ ولا أنقَ منه . وزعم أنّ فراخَ الغراب أنثى من الهدهد على أنّ الهدهد مثلٌ في التّن فذكر عظم رأسٍ وصغرَ بدن وطولَ منقار وقصرَ جناح وأنه أمرط أسود وساقط النفس ومُنتن الرّيح .

وصاحب المنطق يزعم أنّ رؤيةَ فرخ العقاب أمرٌ صعب وشيءٌ عسير . ولست أحسن أن أقضيَ بينهما . والغرواين عندنا بالبصرة أوابدٌ غير قواطع وهي تفرخ عندنا في رعوس النخل الشّامخة والأشجار العالية .

أسطورة خداع الغراب للدّيك

فالغرابُ عند العرب مع هذا كلّهُ قد خدع الدّيك وتلعب به ورهّنه عند الحمّار وتخلّص من الغرم وأغلقه عند الحمّار فصار له الغنم وعلى الدّيك الغرم ثم تركه تركاً ضرب به المثل . فإن كان معنى الخبر على ظاهر لفظه فالديك هو المغبون والمخدوع والمسخور به ثم كان المتلعب به أنذل الطير والأَمّة .

وإن كان هذا القولُ منهم مجرى مجرى الأمثال المضروبة فلولا أن غلبا الدّيك في قلوبهم دون محلّ الغراب على لؤم الغراب ونذالته وموقه وقلة معرفته لما وضعوه في هذا الموضع .

٤ (دهاء أمية بن أبي الصلت) فإن أردتم معرفة ذلك فانظروا في أشعارهم المعروفة وأخبارهم الصحيحة ثم ابدءوا بقول أمية بن أبي الصلت فقد كان داهيةً من دوهي ثقيف وثقيفٌ من دهاة العرب وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنه كان قد همَّ بادعاء النبوة وهو يعلم كيف الخصال التي يكون بها الرجل نبياً أو متنبياً إذا اجتمعت له . نعم وحتى ترشح لذلك بطلب الروايات ودرس الكتب . وقد بان عند العرب علامةً ومعروفاً بالجولان في البلاد راويةً .

حديث العرب في الغراب

والديك وطوق الحمام

وفي كثيرٍ من الروايات من أحاديث العرب أن الديك كان نديماً للغراب وأنها شربا الخمر عند حمارٍ ولم يعطياه شيئاً وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ورهن الديك فخاس به فبقي محبوساً .

وأن نوحاً صلى الله عليه وسلم حين بقي في اللجة أياماً بعث الغراب فوقه على جيفةٍ ولم يرجع ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مرفأً واستجعلت على نوح الطوق الذي في عنقه فرشاه بذلك أي فجعل ذلك جعلاً لها .

وفي جميع ذلك يقول أمية بن أبي الصلت . (بآية قام ينطق كل شيء ** وخان أمانة الديك الغراب) يقول :

حين تركه في أيديهم وذهب وتركه .

ثم قال : (وأرسلت الحمامة بعد سبع ** تدل على المهالك لا تهاب) (تلمس هل ترى في الأرض عيناً ** وغايته من الماء العباب) (فجاءت بعدما ركضت بقطفٍ ** عليه الثأط والطين الكباب) (فلما فرسوا الآيات صاغوا ** لها طوقاً كما عقد السخاب)

(إذا ماتت تورثه بنيتها ** وإن تقتل فليس لها استلاب) (كذي الأفعى يرببها لديه ** وذو الجنى أرسله يتاب)

(فلا ربُّ المنية بأمنها ** ولا الجنى أصبح يُستتاب) الجنى : إبليس لذنوبه . والأفعى هي الحية التي كلم إبليس آدم من جوفها . ومن لا علم عنده يروي أيضاً أن إبليس قد دخل جوف الحمار مرةً وذلك أن نوحاً لما

دخل السفينة تمنع الحمار بعسره ونكده وكان إبليس قد أخذ بذنبه . وقال آخرون : بل كان في جوفه فلما قال إبليس للحمار : ادخل يا ملعون ودخل الحمار دخل إبليس معه إذ كان في جوفه . قال : فلما رآه نوح في

السفينة قال : يا ملعون من أدخلك السفينة قال : أنت أمرتني . قال : ومتى أمرتك قال : حين قلت ادخل يا ملعون ولم يكن ثم ملعون غيري)

قال أمية بن أبي الصلت : (هو أبدى من كل ما يأتئ لنا ** س أمائيل باقيات سفورا) (خلق النخل مصعدات تراها ** تقصف اليابسات والخضورا)

(والتماسيح والتمائيل والأل ** يَل شَتَّى والرَّيم واليعفور) (وصواراً من النواشط عينا ** ونعاماً خواضباً
وحميراً) (وأسوداً عوادياً وفيولاً ** وذياباً والوحش والخنزيراً) (وديوكاً تدعو الغراب لصلح ** وإوزين
أخرجت وصقورا) قال : ثم ذكر الحمامة فقال : (سمع الله لابن آدم نوح ** ربنا ذو الجلال والإفضال)
حين أوفى بذى الحمامة والنا ** س جميعاً في فلكه كالعيال) (فأتته بالصدق لما رشها ** وبقطف لما غدا
عشكال) (ووصف في هذه القصيدة أمر حمامة والغراب صفةً ثانية وغير ذلك وبدأ بذكر السفينة فقال : (ترفعُ
في جري كأن أطيطه ** صريف محال تستعيد الدّواليا)

(على ظهر جونٍ لم يُعدّ لراكب ** سراه وغيم ألبس الماء داجيا) (تشق بهم قهوي بأحسن إمرة ** كأن عليها
هادياً ونواتيا) (وكان لها الجوديُّ نمياً وغايةً ** وأصبح عنه موجه متراخيا) (ثم قال : (وما كان أصحاب
الحمامة خيفة ** غداةً غدت منهم تضم الخوافيا) (رسولاً لهم والله يُحكّم أمره ** يبين لهم هل يونسُ الثوب
باديا) (فجاءت بقطف آيةً مستبينةً ** فأصبح منها موضع الطين جاديا) (على خطمها واستوهبت ثم طوقها
** وقالت ألا لا تجعل الطوق حاليا) (ولا ذهباً إني أخاف نباهم ** يخالونه مالي وليس بماليا)

(وزدني على طريقي من الحلبي زينةً ** تُصيب إذا أتعت طوقي خضابيا) (وزدني لطرف العين منك بنعمةً **
وأرث إذا ما مت طوقس حماميا) (يكون لأولادي جملاً وزينةً ** ويهوين زيني زين أن يرانيا)
ثم عاد أيضاً في ذكر الديك فقال : (ولا غرو إلا الذيك مدمن حمرةً ** نديم غراب لا يمل الحوانيا) (وممره
عن الغراب حبيبته ** فأوفيت مرهوناً وخلفاً مسابيا) (أمنتك لا تلبث من الدهر ساعةً ** ولا نصفها حتى
تنوب مآبيا) (ولا تدركنك الشمس عند طلوعها ** فأعلق فيهم أو يطول ثوائيا) (فردّ الغراب والرداء
يحوزه ** إلى الذيك وعداً كاذباً وأمانيا) (بأية ذنب أو بأية حجةً ** أدعك فلا تدعو علي ولا ليا) (فإني
ندرت حجةً لن أعوقها ** فلا تدعو بي مرة من ورائيا)

(تطيرت منها والدعاء يعوقني ** وأزمت حجاجاً أن أطير أماميا) (فلا تياسن إني مع الصُّبح باكراً ** أوافي غداً
نحو الحجيج الغواديا) (حبّ امرئ فاكهته قبل حجّتي ** وآثرت عمداً شأني قبل شانيا) (هنالك ظن الجدديك
إذ زال زولُه ** وطال عليه الليل ألا مفاديا) (فلما أضاء الصُّبح طربّ صرخةً ** ألا يا غراب هل سمعت
ندائيا) (على وده لو كان ثم مجيبه ** وكان له ندمان صدق مواتيا) (وأمسى الغراب يضرب الأرض كلّها
عتيقاً وأضحى الديك في القدّ عانيا) (فذلك مما أسهب الخمر لبّه ** ونادم ندماناً من الطير عاديا)

قال : ومن الطير ما يُلقم فراخه مثل العصفور لأنّ العصفور لا يرقّ . وكذلك أشباه العصفور .
ومن الطير ما يرقّ فراخه مثل الحمام ومتا أشبه ذلك كبهاثم الطير الخالصة لأنّ الدجاجة تأكل اللحم وتلغ في
الدم وولدها حين يخرج من البيض يخرج كاسباً مليحاً كيساً بصيراً بما يُعيشه ويقوته ولا يحتاج إلى تلقيم سباع
الطير والعصافير لأولادها لأنّ أولادها إذ لم ترضع ولم تلقط الحبّ كالفراريح أوّل ما تخرج من البيض ولم تزقها
الآباء ولا الأمهات كأجناس الحمام فلا بد لها من تلقيم .

ما له طبيعة مشتركة من الطير

والفرُّوج مشترك الطبيعة قد أخذ من طبائع الجوارح نصيباً وهو أكله للحم وحسوه للدم وأكله للديدان وما هو أقدر من الذباب . والعصفور أيضاً مشارك الطَّباع لأنه يجمع بين أكل الحبوب واللُّحمان وبين لقط الحبوب وأجناس كثيرة من الحيوان كالنمل إذا طار

وكالجراد وغير ذلك . وليس في الأرض رأسٌ أشبه برأس الحية من العصفورة .

هداية العصفور

والعصفور يتعالى ويطير ويهتدي ويستجيب . ولقد بلغني أنه قد رجع من قريب من فرسخ . وهي تكون عندنا بالبصرة في الدُّور فإذا أمكنت الثمارُ لم تجد منها إلا اليسير فتصير من القواطع إلى قاصي النخل وذلك أنها إذا مرَّت بعصافير القرى وقد سبقت إلى ما هو إليها أقرب جاوزتها إلى ما هو أبعد ثم تقرب الأيام الكثيرة إلى ما هو أبعد ثم تقرب الأيام الكثيرة المقدار في المسافة إلى أكثر مما ذكرت من الفرسخ أضعافاً . تحنن العصافير وعطفها والعصافير لا تقيم في دور الأمصار إذا شخص أهلها عنها إلا ما كان مقيماً منها على بيض أو فراخ فإنه ليس بالأرض طائرٌ أحنى على ولده ولا أشدُّ تعطفاً من عصفور . والذي يدلُّ على أن في طبعها من ذلك ما ليس

في طبع سواها من الطير الذي تجد من إسعاد بعضهنَّ لبعض إذا دخلت الحية إلى حُجر بعضهن لتأكل فرخاً أو تبتلع بيضاً فإن لأبوى الفرخ عند ذلك صياحاً وقللاً وطيراناً وتدفيفاً وترنيقاً فوق الحُجر ودونه وحواليه فلا يبقى عصفورٌ من حيث يسمع صياحهما أو يسمع أصواتهما إلا جئن أرسالاً مسعداتٍ يصنعن معهما كما يصنعان .

حذر العصفور وليس في الأرض أصدق حذراً منه . ويقال إنه في ذلك لأكثر من العقق والغراب . وخبرني من يصيد العصافير قال : ربما كان العصفور ساقطاً على حائط سطح بجذائي فيغمي صياحه وحده صوته فأصيح وأومئ إليه يدي وأشير كأي أرميه فما يطير . حتى ربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً كل ذلك لا يتحرك له . فإن مسَّت يدي أدنى حصاة أو نواة وأنا أريد رميها طار قبل أن تستمكن منها يدي .

سفاد العصفور وأثره في عمره وليس في الطير أكثر عددَ سفادٍ من العصافير ولذلك يقال إنها أقصر الطير أعماراً . يقال إنه ليس شيءٌ مما يألف الناس ويعايشهم في دورهم أقصر عمراً منها . يعنون : من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والكلاب والسنانير والخطاطيف والزراير والحمام والدجاج . نقران العصفور ولا يقدر العصفور على المشي وليس عنده إلا النقران ولذلك يسمى النقران وإنما يجمع رجله ثم يشب وذلك في جميع حركاته وفي جميع ذهابه ومجيئه . فهي الصَّعو والعصافير والنقايز . وإن هو مشى هذه المشية التي هي نقران على سطحٍ وإن ارتفع سمكه فكأنك تسمع لوطنه وقع حجرٍ لشدة وطئه ولصلابة مشيه . وهو ضدُّ الفيل لأن إنساناً لو كان جالساً ومن خلف ظهره فيلٌ لما شعر به لحفة وقع قوائمه مه سرعة مشي وتمكين في الخطا .

والرَّخْم والنَّسْر سباع وإنما قَصَّرَ بها عدم السلاح . فأما البدن والقوَّة ففوق جميع الجوارح ولكنها في معنى الدَّجاج لمكان البرائن ولعدم المخالب .

وفاء العصفير ولقد رأيت سنَّوراً وثب على فرخ عصفورٍ فأخطأه فتناول الفرخ بعض الغلمان فوضعه في البيت فكان أبوه يجيء حتى يطعمه فلما قوي وكاد يطير جعله في قفص فرأيت أباه يجيء يتخرق السنَّانير وهي قفص به حتى يدخل إليه من أعلى فتح الباب وهي قفص بالوثوب والاختطاف له حتى يسقط على القفص فينازعه ساعة فإذا لم يجد إلى الوصول سبيلاً طار فسقط خارجاً من البيت ثم لا يصبر حتى لا يعود . فكان ذلك دأبه . فلما قوي فرخه أرسلوه معه فطارا جميعاً .

وعرفنا أنه الأبُّ دون الأمِّ لسواد اللحية .

القول في سماجة صوت الديك

قال : والدليل على أن صوت الديك كرية في السَّماع غير مطربٍ قول الشاعر : (ذكر الصُّبوح بسُحرةٍ فارتاحا ** وأملَّه ديك الصُّباح صياحا)

صغر قدر الدجاج

قال : ويدلُّ على صِغر قدر الدجاج عندهم قول بشار بن بردٍ الأعمى : (مجدك يا ابن أقرع نلت مالا ** ألا إن اللئام لهم جدود) (فمن نذر الزيادة في الهدايا ** أقمت دجاجة فيمن يزيد)

أثر كثرة الدجاج في عدد بيضها وفراريها

قال : وإذا كثر الدجاج في دارٍ أو إصطبل أو قرية لم يكن عدد بيضها وفراريها على حسب ما كان يبيض القليل منهم ويفرخه . يعرف ذلك تُجَّار الدَّجاج ومن اتخذها للغلة .

رعي الدجاج في مصر

وهي بمصر ترعى كما يرعى الغنم ولها راع وقيم .

فراخ الدجاج وفراخ الحمام

والموت إلى الدَّجاج سريع جداً والعادة في صِغار فراريها خلاف ما عليها نتو فراخ الحمام لأنَّ الفُرُوج تتصدَّع عنه البيضة في كيِّسٍ ظريف مليح مقبول مُحَبَّبٌ غنيٌّ بنفسه مكنتفٍ بمعرفته بصيرٍ بموضع معيشته من لقط الحب ومن صيد الدُّباب وصغار الطير من الهوام .

ويخرج كاسياً حتى كأنَّه من أولاد ذوات الأربع . ويخرج سريع الحركة شديد الصوت حديده (يدعى بالنَّقَر

فُجِيبَ وَلَا يُقَالُ لَهُ : قَرَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى يَلْقَاهُ . فَإِنْ اسْتَدْبِرَهُ مُسْتَدْبِرٌ وَدَعَاهُ عَطْفٌ عَلَيْهِ وَتَتَبَعَ الَّذِي يَطْعُمُهُ وَيَلَاعِبُهُ وَإِنْ تَبَاعَدَ مِنْ مَكَانِهِ الْأَوَّلِ . فَهُوَ آلَفٌ شَيْءٌ .

ثُمَّ كُلَّمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ مَاقَ وَحَقَّ وَنَقَصَ كَيْسُهُ وَأَقْبَلَ قَبْحُهُ وَأَدْبَرَ مِلْحُهُ . فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَنْسَلِخَ مِنْ جَمِيعِ مَا كَانَ يُحِبُّ لَهُ إِلَى ضِدِّ ذَلِكَ وَيَصِيرُ مِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالٍ لَمْ يَبْلُغِ الْإِنْتِفَاعَ بِذِكِّهِ وَيَبْيُضُّهِ وَفَرَارِيحِهِ وَذَهَبَ عَنْهُمْ الْإِسْتِمْتَاعُ بِكَيْسِهِ . وَلَا يَكَادُ يَقْبَلُ الشَّحْمَ

حَتَّى يَلْحَقَ بِأَبْيِهِ وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَتْ أَنْشَى لَا تَقْبَلُ السَّمْنَ وَلَا تَحْمِلُ اللَّحْمَ حَتَّى تَكَادَ تَلْحَقُ بِأُمِّهَا فِي الْجَثَّةِ . وَالْفَرَخُ يَخْرُجُ حَارِضًا سَاقِطًا أَنْقَصَ مِنْ أَنْ يُقَالَ لَهُ مَائِقٌ وَأَقْبَحَ شَيْءٌ . وَهُوَ فِي ذَلِكَ عَارِي الْجِلْدِ مُخْتَلِفُ الْأَوْصَالِ مُتَفَاوِتُ الْأَعْضَاءِ ضَعِيفُ الْحَوَصَلَةِ عَظِيمُ الْمَنَارِ . فَكُلَّمَا مَرَّتْ بِهِ الْأَيَّامُ زَادَتْ فِي لَحْمِهِ وَشَحْمِهِ وَفِي مَعْرِفَتِهِ وَبَصَرِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ خَرَجَ مِنْهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْمُودَةِ مَا عَسَى لَوْ أَنَّ وَاصِفًا تَتَّبَعَ ذَلِكَ لَمَلَأَ مِنْهُ الْأَجْلَادَ الْكَثِيرَةَ . ثُمَّ إِذَا جَازَ حَدَّ الْفِرَاحِ إِلَى حَدِّ النَوَاهِضِ إِلَى حَدِّ الْعُقُقِ وَالْمُخَالِبِ قَلَّ لَحْمُهُ وَذَهَبَ شَحْمُهُ عَلَى حِسَابِ ذَلِكَ يَنْقُصُ . فَإِذَا تَمَّ وَانْتَهَى لَمْ تَكُنْ فِي الْأَرْضِ دَابَّةٌ وَلَا طَائِرٌ أَقَلَّ شَحْمًا وَلَا أَحْبَثَ لَحْمًا مِنْهُ وَلَا أَجْدَرَ إِلَّا يَقْبَلُ شَيْئًا مِنَ السَّمَنِ وَلَوْ تَخَيَّرُوا لَهُ فُؤَادَةَ الْمَسْمِنَاتِ وَمَا يَسْمَنُ بِهِ مَا سَمِنَ .

وَسَأَلْتُ عَنْ السَّبَبِ الَّذِي صَارَ لَهُ الدَّجَاجُ إِذَا كَثُرْنَ قَلَّ بَيِضُهُنَّ وَفَرَاحَهُنَّ فَرَعَمُوا أَنَّهَا فِي طَبَاعِ النَّحْلِ فَإِنَّ النَّخْلَةَ إِذَا زَحَمَتْ أَحْتَمَى بِلَ إِذَا مَسَّ طَرَفُ سَعْفِهَا طَرَفَ سَعْفِ الْأُخْرَى وَجَاوَرَتْهَا وَضَيِّقَتْ عَلَيْهَا فِي الْمَوَاءِ وَكَذَلِكَ أَطْرَافُ الْعُرُوقِ فِي الْأَرْضِ كَانَ ذَلِكَ كَرِبًا عَلَيْهَا وَغَمًّا .

قَالُوا : فَتَدَانِيهَا وَتَضَاغُطُّهَا وَأَنْفَاسُهَا وَأَنْفَاسُ أَبْدَانِهَا يُحْدِثُ لَهَا فُسَادًا .

قَالَ : وَكَمَا أَنَّ الْحَمَامَ إِذَا كَثُرَتْ فِي الْكُنَّةِ وَالشَّرِيجَةِ احْتَاجَتْ إِلَى شَمْسٍ وَإِلَى مَاءٍ تَغْتَسِلُ فِيهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَإِلَى أَنْ تَكُونَ بُيُوتُهَا مَكْنُوسَةٌ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ وَمَرَشُوشَةٌ وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لَهَا كَبِيرُ بَيِضٍ . عَلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ لَهَا فِي الصَّمِيمِ الدَّفْءُ فِي الشِّتَاءِ وَالْكِنُّ فِي الصَّيْفِ لَمْ تُغَادِرِ الدَّهْرَ كُلَّهُ أَنْ تَبْيِضَ .

فخر صاحب الديك بكثرة ما اشتق من البيض

قَالَ صَاحِبُ الدِّيَكِ : فَخَرْتُمُ لِلْكَلْبِ بِكَثْرَةِ مَا اشْتَقَّ لِلْأَشْيَاءِ مِنْ اسْمِ الْكَلْبِ وَقَدْ اشْتَقَّ لِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ الْعِدَدِ مِنَ الْبَيْضِ فَقَالُوا لَقَلَّانِسُ الْحَدِيدِ بَيِضٌ وَقَالُوا : فَلَانَ يَدْفَعُ عَنْ بَيِضَةِ الْإِسْلَامِ (وَقَالُوا : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَا بَيِضَةُ الْبَلَدِ . وَفِي مَوْضِعِ الدَّمِّ مِنْ قَوْلِهِمْ : وَيَسْمَى رَأْسُ الصَّوْمَةِ وَالْقَبَةِ بَيِضَةً . وَيُقَالُ لِلْمَجْلِسِ إِذَا كَانَ مَعْمُورًا غَيْرَ مَطْوُولٍ بَيِضٌ جَائِمَةٌ وَيُقَالُ لِلْوَعَاءِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْحِنْ وَالْخَرَاجُ وَهُوَ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ الْقَيْحُ بَيِضَةً . وَقَالَ الْأَشْتَرُ بْنُ عَبَادَةَ : (يَكْفُ غُرُوبُهَا وَيَغْضُ مِنْهَا) * وَرَأَى الْقَوْمَ خَشِيَةً أَنْ يَلَامُوا (مَظَاهِيرُ بَيِضَتَيْنِ عَلَى دِلَاصٍ * بِهٍ مِنْ وَقْعَةٍ أُخْرَى كِلَامٌ) وَقَالَ النَّابِغَةُ : (فَصَبَّحَهُمْ مُلْمَلَمَةً رَدَا حَا * كَأَنَّ رُؤُوسَهُمْ بَيِضُ النِّعَامِ)

وَقَالَ الْعُجَيْرُ السَّلُولِي : (إِذَا الْبَيْضَةُ الصَّمَاءُ عَضَّتْ صَفِيحَةً * بِحَرَبَائِهَا صَاحَتْ صِيحَاً وَصَلَّتْ) ٤

شرط أبي عباد في الخمر

ولما أنشدوا أبا عباد التَّمَرِيَّ قولَ ابنِ مَيَّادَةَ وهو الرَّمَّاحُ : (ولقد غَدَوْتُ على الفَتَى في رحله ** قبل الصَّبَاحِ
بُتْرَعِ نَشَاجِ) (جَادَ القَلالُ له بَدَرٌ صِبابَةٌ ** حمراءَ مثلَ سَخِينَةِ الأوداجِ) (تَدْعُ الغَوِيَّ كَأَنَّهُ في نَفْسِهِ ** مَلِكٌ
يَعَصَّبُ رَأْسُهُ بِالنَّجَاجِ)

(ويظَلُّ يَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ حَوْلَهُ ** نُجَبَ العِراقِ نَزَلَنا بالأحْداجِ) فحين سمعه أبو عباد يقول : (حُبِسْتُ ثَلَاثَةَ
أَحْرُسٍ في دَارَةٍ ** قَوْرَاءَ بَيْنَ جَوَازِلِ وَدِجَاجِ) قال : لو وجدتُ حَمْرًا زَيْتِيَّةَ ذَهَبِيَّةَ أَصْفَى من عَيْنِ الدِّيكِ وَعَيْنِ
الغَرابِ وَلَعَابِ الجُنْدَبِ وماءِ المِفاصلِ وأَحْسَنَ حَمْرَةً من النَّارِ ومن نَجِيعِ غِزالٍ ومن قُوَّةِ الصَّبَاغِ لَمَا شَرِبْتُهَا
حَتَّى أَعْلَمَ أَنَّهَا من عَصِيرِ الأَرَجْلِ وَأَنَّهَا من نَباتِ القَرَى وما لَمْ تَكْدرِ في الرِّفَاقِ

وَأَنَّ العَنَكَبُوتَ قد نَسَجَتْ عَلَيْهَا وَأَنَّهَا لَمْ تَصِرْ كَذَلِكَ إِلَّا وَسَطَ دَسْكَرَةٍ وفي قَرْيَةٍ سَوَادِيَّةٍ وَحَوْلَهَا دِجَاجٌ
وَفَرَارِيحٌ .

وإن لَمْ تَكُنْ رُقْطَاءَ أو فِيهَا رُقْطَ فَإِنَّهَا لَمْ تَتَمَّ كَمَا أُرِيدُ . وَأَعْجَبَ من هَذَا أَنِّي لَا أُنْتَفِعُ بِشَرْبِهَا حَتَّى يَكُونَ بِأَنْعِهَا
عَلَى غَيْرِ الإِسْلامِ وَيَكُونَ شَيْخًا لَا يُفْصَحُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَيَكُونُ قَمِيصُهُ مُتَقَطَّعًا بِالْقَارِ . وَأَعْجَبَ من هَذَا أَنَّ الَّذِي لَا
بَدَّ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ إِنْ كَانَ مُجُوسِيًّا شَهْرِيَّارَ وَمَازِيَّارَ)

وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِثْلَ أَذِيرٍ وَارْدَانٍ وَبِازَانَ . فَإِنْ كَانَ يَهُودِيًّا فَاسْمُهُ مَانِشَا وَأَشْلُومَا وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا
فاسْمُهُ يُوْشَعٌ وَشَمْعُونٌ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ .

اسْتَطْرَادَ لَغَوِيٍّ وَيُقَالُ حَمَسَ الشَّرُّ وَأَحْسَ إِذَا اشْتَدَّ . وَيُقَالُ قد احْتَمَسَ الدِّيكَانُ احْتِمَاسًا إِذَا اقْتَسَلَا اقْتِسَالًا
شَدِيدًا . وَيُقَالُ وَقَعَ الطَّائِرُ يَقَعُ وَقُوعًا . وَكُلُّ واقِعٍ فَمَصْدَرُهُ الوقوعُ ومكانُهُ مَوْقِعَةٌ والجمعُ مَوَاقِعُ . وَقَالَ
الرَّاجِزُ : (كَأَنَّ مَتْنِيهِ من التَّفْيِّ ** مَوَاقِعُ الطَّيْرِ عَلَى الصَّفْيِ)

يُقَالُ صَفًّا وَصَفِيًّا . وَالتَّفْيُّ : مَا نَفَى الرَّشَاءَ مِنَ المَاءِ وَمَا تَنْفِيهِ مِشَافِرُ الإِبِلِ مِنَ المَاءِ الْمَدِيرِ .

فَشَبَّهُ مَكَانَهُ عَلَى ظَهْرِ السَّاقِيِ وَالْمُسْتَقِيِ بِذَرْقِ الطَّيْرِ عَلَى الصَّفَا .

ويُقَالُ وَقَعَ الشَّيْءُ مِنْ يَدِي وَقُوعًا وَسَقَطَ مِنْ يَدِي سُقُوطًا . وَيُقَالُ وَقَعَ الرِّبْعُ بِالأَرْضِ وَيُقَالُ سَقَطَ . وَقَالَ
الرَّاعِي : (وَقَعَ الرِّبْعُ وَقَدْ تَفَارَبَ خَطْوُهُ ** ورَأَى بِعَقْوَتِهِ أَزَلَ نَسُولا) لَوْمَ الفُروجِ قَالَ : وَكَانَ عِنْدَنَا فُرُوجٌ
وَفِي الدَّارِ سَنَانِيرُ تُعَابَثُ الحِمَامَ وَفَرَاخُهُ وَكَانَ الْفُرُوجُ يَهْرُبُ مِنْهَا إِلَى الحِمَامِ فَجَاءُواَنَا بِدُرَّاجٍ فَتَرَكَ الحِمَامَ وَصَارَ
مَعَ الدُّرَّاجِ ثُمَّ اشْتَرَيْنَا فُرُوجًا كَسْكَرِيًّا لِلذَّبْحِ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَفْصٍ فَتَرَكَ الدُّرَّاجَ وَلَزِمَ قُرْبَ القَفْصِ فَجِئْنَا بِدِجَاجَةٍ
فَتَرَكَ الدِّيكَ وَصَارَ مَعَ الدِّجَاجَةِ فَذَكَرْتُ قَوْلَ الْفَزْرِ عَبْدِ بَنِي فَزَارَةَ وَكَانَتْ بِأُذُنِهِ خُرْبَةٌ :

إِنَّ

الوئلم

يَتَبَرَّعُ فِي جَمِيعِ الطَّمَشِ لَا يَقْرُبُ الْعَنْزُ الضَّانَ مَا وَجَدَتْ الْمَعَزَ وَتَنْفِرُ مِنَ الْمُخَلَّبِ وَلَا تَتَأَنَسُ بِالْحَفِّ . فَجَعَلَهَا كَمَا تَرَى تَنْفِرُ وَلَا تَأَنَسُ مِنْزِلَهُ .

وَكَذَلِكَ حَدَّثَنَا الْأَصْمَعِيُّ قَالَ : قُلْتُ لِلْمُنْتَجِعِ بْنِ نَبِيهَانَ وَكَانَتْ بِأُذُنِهِ خَرِيبةٌ أَكَانَ تَمِيمٌ مُسْلِمًا قَالَ : إِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي سَمَّى ابْنَهُ زَيْدًا مَنَاءً فَمَا كَانَ مُسْلِمًا وَإِلَّا يَكُنْ هُوَ الَّذِي سَمَّاهُ فَلَا أُدْرِي . وَلَمْ يَقُلْ : وَإِلَّا يَكُنْ هُوَ سَمَّاهُ فَقَدْ كَانَ مُسْلِمًا . ٤ (الْوَنَامُ) وَالْوَنَامُ : الْمَشَاكِلَةُ . وَقَالُوا : تَقُولُ الْعَرَبُ : لَوْلَا الْوَنَامُ لَهْلَكَ الْأَنَامُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : تَأْوِيلُ ذَلِكَ : لَوْلَا أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا رَأَى صَاحِبَهُ قَدْ صَنَعَ خَيْرًا فَتَشَبَّهَ بِهِ لَهْلَكَ النَّاسُ . وَقَالَ الْآخَرُونَ : إِنَّمَا ذَهَبَ إِلَى أَنْسٍ بَعْضُ النَّاسِ بَعْضُ كَأَنَّهُ قَالَ : إِنَّمَا يَتَعَايَشُونَ عَلَى مَقَادِيرِ الْأَنْسِ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَلَوْ عَمَّتْهُمْ الْوَحْشَةُ عَمَّتْهُمْ الْهَلَكَةُ . وَقَالَ قَوْمٌ بَنَ مَالِكٍ فِي الْوَنَامِ : (عَلَامٌ أَوْانِمُ الْبَخْلَاءِ فِيهَا * فَاقْعَدْ لَا أَرْوُرُ وَلَا أَرْارُ)

وَقَالَ الْأَخْطَلُ : (نَازَعْتُهُ فِي الدَّجَى الرَّاحَ الشَّمُولَ وَقَدْ * صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْفَةُ السَّارِي) (لَمَّا مَرَرْتُ عَلَى الدَّيْرَيْنِ أَرْقَنِي * صَوْتُ الدَّجَاجِ وَقَرَعُ بِالنَّوَاقِيسِ) شَعَرَ فِي الدِّيَكَةِ وَالدَّجَاجِ قَالُوا : وَقَدْ وَجَدْنَا الدِّيَكَةَ وَالدَّجَاجَ وَأَفْعَالُهَا مَذْكُورَاتٌ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ قَالَ ذُو الرُّمَّةِ : (كَأَنَّ أَصْوَاتَ مَنْ يُغَالْهُنَّ بِنَا * أَوَاخِرِ الْمَيْسِ أَصْوَاتُ الْفَرَارِيحِ) وَقَالَ الْهَذَلِيُّ : (وَمَنْ أَيْنَهَا بَعْدَ إِبْدَانِهَا * وَمَنْ شَحِمَ أَتْبَاجُهَا الْهَابِطُ)

(تَصِيحُ جِنَادِيَّةٍ رُكْدًا * صِيحَ الْمَسَامِيرِ فِي الْوَاسِطِ) (فَهُوَ عَلَى كُلِّ مُسْتَوْفَرٍ * سَقُوطُ الدَّجَاجِ عَلَى الْخَائِطِ) وَقَالَ مَرْوَانَ بْنُ مُحَمَّدٍ : (ضِيْعٌ مَا وَرَثَهُ رَاشِدٌ * مِنْ كَيْلَةِ الْأَكْدَاسِ فِي صَفِّهِ) (فَرَبٌّ كَدَسٍ قَدْ عَلَا رَمْسَهُ * كَالدَّيْكَ إِذْ يَلْعُو عَلَى رَقِّهِ) بَيْضَةُ الدَّيْكَ وَبَيْضَةُ الْعَقْرِ وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِلَّذِي يُعْطَى عَطِيَّةً لَا يَعُودُ فِي مِثْلِهَا : كَانَتْ بَيْضَةُ الدَّيْكَ . فَإِنْ كَانَ مَعْرُوفٌ لَهُ قِيلَ : بَيْضَةُ الْعَقْرِ . وَيُقَالُ دَجَاجَةٌ بَيَوضُ فِي دَجَاجٍ بَيِضٍ وَيُيَضُّ بِأَسْكَانٍ مَوْضِعُ الْعَيْنِ مِنَ الْفَعْلِ مِنْ لُغَةٍ سَفَلَى مُضَرٍّ وَضَمٍّ مَوْضِعُ الْعَيْنِ مِنْ نَظِيرِهِ مِنَ الْفَعْلِ مَعَ الْفَاءِ مِنْ لُغَةِ أَهْلِ الْحِجَازِ .

وَيُقَالُ عَمِدُ الْجَرْحِ يَعْمَدُ عَمْدًا إِذَا عَصَرَ قَبْلَ أَنْ يَنْضَجَ فُورِمَ وَلَمْ يُخْرِجْ بَيْضَتَهُ وَذَلِكَ الْوِعَاءُ وَالْغِلَافُ الَّذِي يَجْمَعُ الْمِدَّةَ يَسْمَى بَيْضَةً . وَإِذَا خَرَجَ ذَلِكَ بِالْعَصْرِ مِنْ مَوْضِعِ الْعَيْنِ فَقَدْ أَفَاقَ صَاحِبُهُ . وَيُقَالُ حَضَنَ الطَّائِرُ فَهُوَ يَحْضِنُ حِضَانًا . ٤

السفاد والضراب ونحوهما

وَيُقَالُ هُوَ التَّسَافِدُ مِنَ الطَّيْرِ وَالتَّعَاضُلُ مِنَ السَّبَّاحِ : وَيُقَالُ قَمَطَ الْحَمَامُ الْحَمَامَةَ وَسَفِدَهَا . وَيُقَالُ قَعَا الْفَحْلُ يَقْعُو قَعْوًا وَهُوَ إِسْرَالُهُ بِنَفْسِهِ عَلَيْهَا فِي ضَرَابِهِ . وَالْفَحْلُ مِنَ الْحَفِّ يَضْرِبُ وَهُوَ الْقَعْوُ وَالضَّرَابُ . وَمِنْ الظَّلْفِ وَالْحَافِرِ يَنْزُو وَنَزَا وَكَذَلِكَ السَّنَانِيرُ . وَالظَّلِيمُ يَقْعُو وَكُلُّ الطَّيْرِ يَقْعُو قَعْوًا . وَأَمَّا الْحَفُّ وَالظَّلْفُ فَإِنَّهُ يَقْعُو بَعْدَ التَّسْنِمِ . وَهُوَ ضَرَابٌ كُلُّهُ مَا خِلا التَّسْنِمِ . وَأَمَّا الظَّلْفُ فَخَاصَّةٌ فَهُوَ قَافِطٌ يَقَالُ قَفِطٌ يَقْفُطُ قَفْطًا . أَوْ الْقَفْطُ نَزْوَةٌ وَاحِدَةٌ . وَلَيْسَ فِي الْحَافِرِ إِلَّا النَّزْوُ .

حَضَنَ الدَّجَاجُ بَيِضَ الطَّائِرِ قَالَ : وَيُوضَعُ بَيِضُ الطَّائِرِ تَحْتَ الدَّجَاجَةِ وَأَكْثَرُ ذَلِكَ لِأَنَّ الذَّكَرَ يَبْعَثُ بِالْأُنْثَى

إذا حَصَنْت .

قال : ولهذا العلة كثير من إناث

طير الوحش يهرّبن بيضهنّ من ذكورهما ثمّ لا تضعه بحيث يشعر به ذكورهنّ .
قال : ويوضع تحت الدجاجة بيضتان من بيض الطاوس لا تقوى على تسخين أكثر من ذلك . على أنّهم
يتعهّدون الدجاجة بجميع حوائجها خوفاً من أن تقوم عنه فيفسده الهواء . ٤

خصى ذكور الطير

قال : وخصى ذكور أجناس الطير تكون في أوان أوّل السفاد أعظم . وكلّما كان الطير أعظم سفاداً كانت
خصيته أعظم مثل الديك والقبج والحجل .
وخصية العصفور أعظم من خصية ما يساويه في الجثة مرّتين .
بيض الدجاج قال : وكلّ ما كان من الدجاج أصغر جثة يكون أكبر لبيضه . وبعض الدجاج يكون يبيض بيضاً
كثيراً وربما باض بيضتين في يوم واحد وإذا عرض له ذلك كان من أسباب موته .

٤

شعر في صفة الديك

وقال آخر في صفة الديك : (ماذا يؤرّقني والنوم يُعجّيني ** من صوت ذي رَعَثاتٍ ساكنٍ الدَّارِ) (كَأَنَّ
حُمَاضَةً في رأسه نَبَتَ ** من آخر الليل قد هَمَّت بِإِثْمَارِ) وقال الطَّرْمَاح : (فيا صَبِيحُ كَمَشَّ غُبَرَ اللَّيْلِ مُصْعِداً
** بِسَمِّ وَنَبِّهَ ذا العَفَاءِ المَوْشِحِ) (إذا صاح لم يُخْذَلْ وَجَاوَبَ صَوْتُهُ ** حَمَاشُ الشَّوَى يَصْدَحَنَ مِنْ كُلِّ مُصْدَحِ
(

حضن الحمام بيض الدجاج قال : والفروج إذا خرج من بيضه عن حضن الحمام كان أكيس له . ٤

بيض الطاوس

وبيضُ الطَّائِوس إذا لم تحضنه الأنثى التي باضته خرج الفرج أقماً وأصغر .
بيض الدجاج قال : وإذا أُهرِمَت الدَّجَاجَةُ فليس لأوآخر ما تبيض صُفْرَةً . وقد عاينوا للبيضة الواحدة مُحْتَيْنِ
خَبْرِي بذلك جماعة مَن يَتَعَرَّفُ الأمور . وإذا لم يكن للبيضة مُحٌّ لم يُخْلَقْ من البيضة فَرُوجٌ ولا فرخ لأنّه ليس له
طعام يغذوه ويُربّيه . والبيض إذا كان فيه مَحْتَنان وكان البياض وافراً ولا يكون ذلك للمسنّات فإذا كان ذلك
خلق الله تعالى من البياض فَرُوجين وتربّى الفُرُوجان وتمّ الخلق لأنّ الفرج إنّما يخلق من البياض والصفرة غذاء
الفروج .

استطراد لغوي

قال : ويقال قَفَط الطائر يقفُط قفطاً وسفد يسفد سفداً وهما واحد . ويكون السفاد للكلب والشاة . ويقال قَمَط الحمام يقمُط قمطاً .

ويقال ذَرَق الطائر يذُرُق ذرقاً وخزَق يخزُق خزقاً ويقال ذلك للإنسان . فإذا اشتقَّ له من الحذقة نفسه ومن اسمه الذي هو اسمه قيل خريء وهو الخُرء والخِرء . ويقال للحافر راث يروث وللمعز والشاة : بعريبعر .
ويقال للنَّعام : صام يَصُوم وللطير نجا ينجو واسم نجو النَّعام الصَّوم واسم نجو الطير العُرَّة . وقال الطَّرمَّاح : (في شَنَاظِي أَقْنٍ بَيْنَهَا ** عُرَّة الطَّيْرِ كَصُوم النَّعَامِ) ويقال للصبي عَقَى مأخوذ من العقى .
ويقال لحمت الطير . ويقال لحم طائرك إلحماً أي أطعمه لحماً واتخذ له . ويقال هي لُحمة النَّسب . ويقال ألحمت الثوب إلحماً وألحمت الطائر إلحماً وهي لحمة الثوب ولحمة بالفتح

صفاء عين الديك ومن خصال الدَّيِّك الخمودة قولهم في الشراب : أَصْفَى مِنْ عَيْنِ الدَّيِّك وإذا صفوا عَيْنِ الحمام الفقيع بالحمرة أو عَيْنَ الجرادِ قالوا : كَأَنَّهَا عَيْنُ الدَّيِّك . وإذا قالوا : أَصْفَى مِنْ عَيْنِ الغرابِ فَإِنَّمَا يريدون حِدَّتَهُ ونفاذَ البصر .)

ما قيل في عين الديك وفي عين الديك يقول الأعشى : (وكأس كَعِينِ الدَّيِّكِ بَاكَرَتْ حَدَّهَا ** بَغَرْتَهَا إِذْ غَابَ عَنْهَا بُغَائِهَا) وقال آخر : (وكأس كعين الديك باكرت حدّها ** بفتيانِ صِدْقِ والنّواقيسِ تُضْرَبُ)

وقال آخر : (قَدَّمْتُهُ عَلَى عُقَارِ كَعِينِ الدَّيِّ ** كَ صَفَى زُلَّالَهَا الرَّاوُوقُ) وقال الآخر : (ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ وَشَهْرًا مُجَرَّمًا ** تَضِي كَعِينِ الْعُتْرُفَانِ الْمَجَاوِبِ) والعُتْرُفَانِ من أسماء الدَّيِّكِ وسماء بالجواب كما سَمَاهُ بِالْعُتْرُفَانِ .
وإذا صفوا المَاءَ والشرابَ بالصَّافِي قالوا كَأَنَّهُ الدَّمْعُ وكَأَنَّهُ مَاءُ قَطَرٍ وكَأَنَّهُ مَاءُ مَفْصِلٍ وكَأَنَّهُ لَعَابُ الْجَنْدَبِ .
إِلَّا أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ قَالَ : (مَطْبَقَةٌ مَلَانَةٌ بِابِلِيَّةٍ ** كَأَنَّ حُمِيَّهَا عُيُونُ الْجَنَادِبِ)

وقال آخر : (وَمَا قَرَقَفْتُ مِنْ أَذْرِعَاتٍ كَأَنَّهَا ** إِذَا سُكِبَتْ مِنْ دَهْنِهَا مَاءُ مَفْصِلٍ) المفاصل وماء المفاصل والمفاصل : ماءٌ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ . وقال أبو ذؤيب : (مَطَافِيلُ أَبْكَارٍ حَدِيثٍ نَتَاجُهَا ** تَشَابُ بِمَاءٍ مِثْلِ مَاءِ الْمَفَاصِلِ) وقال ابن نجيم : إِنَّمَا عَنُوا مَفَاصِلَ فَقَارِ الْجَمَلِ لِأَنَّ لِكُلِّ مَفْصِلٍ حُقّاً فَيَسْتَنْقِعُ فِيهِ مَاءٌ لَا تَجِدُ مَاءً أَبَدًا أَصْفَى وَلَا أَحْسَنَ مِنْهُ وَإِنْ رَقَّ .

تقوب بصر الكلب وسمعه وقال مرة قطرب وهو محمد بن المستنير النحوي : وَاللَّهِ لَفَلَانِ أَبْصَرُ مِنْ كَلْبٍ وَأَسْمَعُ مِنْ كَلْبٍ وَأَشْمُ مِنْ كَلْبٍ . فقيل له : أَنَشَدْنَا فِي ذَلِكَ مَا يُشَبِّهُ قَوْلَكَ . فَأَنشَدَ قَوْلَهُ : (يَا رَبِّةَ الْبَيْتِ قَوْمِي غَيْرِ صَاغِرَةٍ ** حُطِّي إِلَيْكَ رِحَالِ الْقَوْمِ فَالْقُرْبَا) (لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ ** حَتَّى يَجْرَّ عَلَى خَيْشُومِهِ الذَّنْبَا)

وأنشد هذا البيت في ثُقُوب بصره والشَّعر لمرَّة بن مُحكَان السعديّ . ثمَّ أنشدَ في ثُقُوب السَّمْع : (خَفِيّ
السُّرَى لَا يَسْمَعُ الْكَلْبُ وَطَأَهُ * * أَتَى دُونَ نَبْحِ الْكَلْبِ وَالْكَلْبُ دَابِب) خصال القائد التركي قال أبو الحسن
: قال نصر بن سيار اللَّيْثِي : كان عظماءُ التُّركِ يقولون للقائد العظيم القيادة : لَا بَدَأَ أَنْ تَكُونَ فِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ
من أخلاق

الحيوان : سخاء الديك وتحنُّن الدجاجة وقلب الأسد وحيلة الخنزير وروغان الثعلب وختل الذئب وصبر الكلب
على الجراحة وحذر الغراب وحراسة الكُرْكِيِّ وهداية الحمام .
وقد كتبنا هذا في باب ما للدَّجَاجِ والدَّيِّكِ لأنَّ صاحبَ هذا الكلامِ قَسَمَ هذه الخصال فأعطى كلَّ جنسٍ منها
خَصْلَةً واحدة وأعطى الجنس الدجَّاجَ خَصْلَتَيْنِ .
بعض ما ورد من الحديث والخبر في الديك وعَبَّاد بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن زيد قال : كان مكحولٌ يسافر
بالدَّيِّكِ .

وعنه في هذا الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدَّيِّكُ صَدِيقِي وَصَدِيقُ صَدِيقِي وَعَدُوٌّ عَدُوٌّ اللَّهِ
يَحْفَظُ دَارَهُ وَأَرْبَعُ دُورٍ مِنْ حَوَالِيهِ .
والمسيب بن شريك عن الأعمش نحسبه عن إبراهيم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لَا تَذَبْحُوا
الدَّيِّكِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُفْرَحُ بِهِ .

٤

ريش جناح الطائر

قال : وليس جناح إلا وفيه عشرون ريشةً : فأربعُ قوادم وأربعُ مناكب وأربع أباهر وأربع كلى وأربعُ خَوَافٍ
ويقال : سبعُ قوادم وسبعُ خَوَافٍ وسائرُه لقب . ٤

والكف والركبة لدى الإنسان وذوات الأربع

قال : وكلُّ شيءٍ من ذوات الأربع فركبته في يديه وركبنا الإنسان في رجله قال : والإنسان كفُّه في يده
والطائر كفُّه في رجله . ٤

أسنان الإنسان

قال : وفي الفم ثنيتان ورباعيتان ونابان وضاحكان وأربعة أرحاءٍ سوى ضرس الحُكْمِ والتَّواجذ والعوارض سواء
ومثلها أسفل .

النفأول بالدجاجة)

قال صاحب الديك : والدَّجَاجَةُ يُتَفَاعَلُ بِذِكْرِهَا وَلِذَلِكَ لَمَّا وَلِدَ لِسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ عَنَسَةَ بْنَ سَعِيدٍ قَالَ لِابْنِهِ يَحْيَى : أَيْ شَيْءٍ تَنْحَلُّهُ قَالَ : دَجَاجَةٌ بِفَرَارِيجِهَا يَرِيدُ احْتِقَارَهُ بِذَلِكَ إِذَا كَانَ ابْنُ أُمَةٍ وَلَمْ يَكُنْ ابْنُ حُرَّةٍ فَقَالَ سَعِيدٌ أَوْ قِيلَ لَهُ : إِنْ صَدَقَ الطَّيْرُ لِيَكُونَنَّ أَكْثَرُهُمْ وَلَدًا فَهَمُّ الْيَوْمِ أَكْثَرُهُمْ وَلَدًا وَهُمْ بِالْكُوفَةِ وَالْمَدِينَةِ .
شعر في الدجاج وقال الشاعر : (غَدَوْتُ بِشُرْبَةٍ مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ * إِبَا الدَّهْنَاءِ مِنْ حَلَبِ الْعَصِيرِ) (وَأُخْرَى بِالْعَقْتَلِ ثُمَّ سِرْنَا * نَرَى الْعُصْفُورَ أَعْظَمَ مِنْ بَعِيرِ) (كَأَنَّ الدِّيكَ دِيكَ بَنِي تُمَيْرٍ * أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى السَّرِيرِ) (كَأَنَّ دَجَاجَهُمْ فِي الدَّارِ رُقْطًا * بَنَاتُ الرُّومِ فِي قُمْصِ الْحَرِيرِ) (فَبِتُّ أَرَى الْكَوَاكِبَ دَانِيَاتٍ * يَنْلَنُ أُنَامِلُ الرَّجُلِ الْقَصِيرِ) (أَدَافِعُهُنَّ بِالْكَفَيْنِ عَنِّي * وَأَمْسَحُ جَانِبَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ)

نطق الدجاج قال : ويوصف بالدُّعَاءِ وبالمنطق قال لبيد بن ربيعة : (وَصَدَّهُمْ مَنْطِقُ الدَّجَاجِ عَنِ الْقَصِّ * د وَضَرَبُ النَّاقُوسِ فَاجْتُنَّبَا) (لَكُنْ أَنْ دَعَا دِيكَ الصَّبَاحَ بِسُحْرَةٍ * إِلَى قَدَرٍ وَرَدِ الْخَامِسِ الْمُتَأَوَّبِ) دُعَابَةُ أَعْرَابِي وَقِسْمَتُهُ لِلدَّجَاجِ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : حَدَّثَنِي أَعْرَابِيٌّ كَانَ يَنْزِلُ بِالْبَصْرَةِ قَالَ : قَدِمَ أَعْرَابِيٌّ مِنَ الْبَادِيَةِ فَأَنْزَلْتُهُ وَكَانَ عِنْدِي دَجَاجٌ كَثِيرٌ وَلِي امْرَأَةٌ وَابْنَانُ وَابْنَتَانُ مِنْهَا فَلَقَبْتُ لَامْرَأَتِي : بَادِرِي وَاشْوِي لَنَا دَجَاجَةً وَقَدَمِيهَا إِلَيْنَا نَتَغَدَّاهَا فَلَمَّا حَضَرَ الْغَدَاءُ جَلَسْنَا جَمِيعًا أَنَا وَامْرَأَتِي وَابْنَايَ وَابْنَتَايَ وَالْأَعْرَابِيَّ قَالَ : فَدَفَعْنَا إِلَيْهِ الدَّجَاجَةَ فَقَلْنَا لَهُ : اقْسِمْهَا بَيْنَنَا نَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ نَضْحَكَ مِنْهُ فَقَالَ : لَا أَحْسَنُ الْقِسْمَةَ فَإِنْ رَضِيتُمْ بِقِسْمَتِي قَسَمْتُهَا بَيْنَكُمْ قَلْنَا : فَإِنَّا نَرْضَى فَأَخَذَ رَأْسَ الدَّجَاجَةِ فَقَطَعَهُ فَنَاولَ كُنْيَاهُ وَقَالَ : الرَّأْسُ لِلرَّأْسِ وَقَطَعَ الْجَنَاحَيْنِ وَقَالَ : الْجَنَاحَانِ

لِلابْنَيْنِ ثُمَّ قَطَعَ السَّاقَيْنِ فَقَالَ : السَّاقَانِ لِلابْنَتَيْنِ ثُمَّ قَطَعَ الزِمَكِيَّ وَقَالَ : الْعُجْزُ لِلْعُجْزِ وَقَالَ : الزُّورُ لِلزَّائِرِ : قَالَ فَأَخَذَ الدَّجَاجَةَ بِأَسْرَافِهَا وَسَخِرَ بِنَا قَالَ : فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدَاةِ لَامْرَأَتِي : اشْوِي لَنَا خَمْسَ) دَجَاجَاتٍ فَلَمَّا حَضَرَ الْغَدَاءُ قُلْتُ : اقْسِمْ بَيْنَنَا قَالَ : إِنِّي أَظُنُّ أَنَّكُمْ وَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ قَلْنَا : لَا لَمْ نَجِدْ فِي أَنْفُسِنَا فَأَقْسِمَ قَالَ : أَقْسِمُ شَفْعًا أَوْ وَتَرًا قَلْنَا : اقْسِمْ وَتَرًا قَالَ : أَنْتَ وَامْرَأَتُكَ وَدَجَاجَةٌ ثَلَاثَةٌ ثُمَّ رَمَى إِلَيْنَا بِدَجَاجَةٍ ثُمَّ قَالَ : وَابْنَاكَ وَدَجَاجَةٌ ثَلَاثَةٌ ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِمَا بِدَجَاجَةٍ ثُمَّ قَالَ : وَابْنَتَاكَ وَدَجَاجَةٌ ثَلَاثَةٌ ثُمَّ رَمَى إِلَيْهِمَا بِدَجَاجَةٍ ثُمَّ قَالَ : أَنَا وَدَجَاجَتَانِ ثَلَاثَةٌ وَأَخَذَ دَجَاجَتَيْنِ وَسَخِرَ بِنَا قَالَ : فَرَأَانَا وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى دَجَاجَتَيْهِ فَقَالَ : مَا تَنْظُرُونَ لَعَلَّكُمْ كَرِهْتُمْ قِسْمَتِي الْوِتْرَ لَا يَجِيءُ إِلَّا هَكَذَا فَهَلْ لَكُمْ فِي قِسْمَةِ الشَّفْعِ قَلْنَا : نَعَمْ فَضَمَّهِنَّ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَنْتَ وَابْنَاكَ وَدَجَاجَةٌ أَرْبَعَةٌ وَرَمَى إِلَيْنَا بِدَجَاجَةٍ ثُمَّ قَالَ : وَالْعُجُوزُ وَابْنَتَاهَا وَدَجَاجَةٌ أَرْبَعَةٌ وَرَمَى إِلَيْهِنَّ بِدَجَاجَةٍ ثُمَّ قَالَ : أَنَا

وِثْلَاثُ دَجَاجَاتٍ أَرْبَعَةٌ وَضَمَّ إِلَيْهِ الثَّلَاثَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ الْحَمْدُ أَنْتَ فَهَمَّتْنِيهَا .

قول صاحب الكلب على كيس الفروج قال صاحب الكلب : أَمَّا قَوْلُهُمْ : مِنْ أَعْظَمِ مَفَاخِرِ الدِّيَكِ وَالدَّجَاجِ عَلَى سَائِرِ الْخِيَوَانِ إِنَّ الْفُرُوجَ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضَةِ كَاسِيَا يَكْفِي نَفْسَهُ ثُمَّ يَجْمَعُ كَيْسَ الْخِلْقَةِ وَكَيْسَ الْمَعْرِفَةِ وَذَلِكَ كُلُّهُ مَعَ خُرُوجِهِ مِنَ الْبَيْضَةِ فَقَدْ زَعَمَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ أَنَّ وَلَدَ الْعَنْكَبُوتِ يَأْخُذُ فِي التَّنْسِجِ سَاعَةً يُوَلِّدُ وَعَمَلُ الْعَنْكَبُوتِ عَمَلُ شَاقٍّ وَلَطِيفٌ دَقِيقٌ لَا يَبْلُغُهُ الْفُرُوجُ وَلَا أَبُو الْفُرُوجِ عَلَى أَنَّ مَا مَدَحُوا الْفُرُوجَ بِهِ مِنْ خُرُوجِهِ مِنَ الْبَيْضَةِ كَاسِيًا قَدْ شَرِكَهُ فِي حَالِهِ غَيْرُ جَنْسِهِ وَكَذَلِكَ ذَوَاتُ الْأَرْبَعِ كُلُّهَا تُلِدُ كَوَاسِيَّ كَوَاسِبَ كَوَلَدَ الشَّاءِ

وفراخ القَبَجِ والدُّرَّاجِ وفراخ البطِّ الصَّيْنِيِّ في ذلك كلّهُ لاحِقَةٌ بالفرايِجِ وتزِيدُ على ذلك أنّها تزداد حُسناً
كلّما كَبُرَتْ فقد سقط هذا الفخر .

شعر هنلي في الديك (هَتَفْتُ أُمَّ حُصَيْنٍ ** ثُمَّ قَالَتْ : مَنْ يَبِيكَ) (فَتَحْتُ فَرْجًا رَحِيًّا *) مِثْلَ صَحْرَاءِ الْعَيْكِ) (فِيهِ وَزٌّ فِيهِ بَطٌّ ** فِيهِ دُرَّاجٌ وَدِيكٌ) حديث صاحب الأهواز عن العرب قال : ومما فيه ذِكْرُ الدَّجَاجِ وليس من شِكْلِ ما بَنِينَا كَلَامَنَا عَلَيْهِ وَلَكِنَّهُ يُكْتَبُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعَجَبِ قَالَ : قَالَ الْهَامِزُ قَالَ صَاحِبُ الْأَهْوَازِ : مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَعْجَبَ مِنَ الْعَرَبِ أَتَيْتُ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ فَكَلَّمْتُهُ فِي حَاجَةٍ لِي إِلَى ابْنِ زِيَادٍ وَكُنْتُ قَدْ ظَلَمْتُ فِي الْخِرَاجِ فَكَلَّمْتُهُ)

فَأَحْسَنَ إِلَيَّ وَحَطَّ عَنِّي فَأَهْدَيْتُ إِلَيْهِ هَدَايَا كَثِيرَةً فَغَضِبَ وَقَالَ : إِنَّا لَا نَأْخُذُ عَلَى مَعُونَتِنَا أَجْرًا فَلَمَّا كُنْتُ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ سَقَطْتُ مِنْ رِدَائِي دَجَاجَةٌ فَلَحَقَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ : هَذِهِ سَقَطَتْ مِنْ رِدَائِكَ فَأَمَرْتُ لَهُ

بِدِرْهِمٍ ثُمَّ لَحَقَنِي بِالْأُبُلَّةِ فَقَالَ : أَنَا صَاحِبُ الدَّجَاجَةِ فَأَمَرْتُ لَهُ بِدِرْهِمٍ ثُمَّ لَحَقَنِي بِالْأَهْوَازِ فَقَالَ : أَنَا صَاحِبُ الدَّجَاجَةِ فَهَلْتُ لَهُ : إِنْ رَأَيْتَ زَادِي بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ قَدْ سَقَطَ فَلَا تُعْلِمْنِي وَهُوَ لَكَ .

جرو البطحاء قال صاحب الكلب : كان يقال لأبي العاصي بن الربيع بن عبد الغزي بن عبد شمس وهو زوج المورياني أسطورة البازي والديك قال صاحب الديك لصاحب الكلب : وسنضرب لك المثل الذي ضربه المورياني للديك والبازي : وذلك أن خلاد بن يزيد الأرقط

قال : بينما أبو أيوب المورياني جالس في أمره ونهيهِ إذ أتاه رسول أبي جعفر فأنشع لونه وطار عصفير رأسه وأذن يوم بأسه وذعر ذعراً نقض حُبُوتَهُ واستطار فؤاده ثُمَّ عاد طلقَ الوجهَ ففجعنا من حاله وقلنا لَهُ : إِنَّكَ لَطِيفُ الْخَاصَّةِ قَرِيبُ الْمَنْزِلَةِ فَلَمْ ذَهَبْ بِكَ الدُّعْرُ وَاسْتَفْرَغْتَ الْوَجَلَ فَقَالَ : سَأَضْرِبُ لَكُمْ مِثْلًا مِنْ أَمْثَالِ النَّاسِ . زَعَمُوا أَنَّ الْبَازِيَّ قَالَ لِلدَّيْكَ : مَا فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ أَقْلُ وَفَاءً مِنْكَ قَالَ : وَكَيْفَ قَالَ : أَخَذَكَ أَهْلُكَ بَيْضَةً فَحَضَنُوكَ ثُمَّ خَرَجْتَ عَلَى أَيْدِيهِمْ فَأَطْعَمُوكَ عَلَى أَكْفِهِمْ وَنَشَأْتَ بَيْنَهُمْ حَتَّى إِذَا كَبُرَتْ صَرْتَ لَا يَدْنُو مِنْكَ أَحَدٌ إِلَّا طَرَتْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا وَضَجَجْتَ وَصَحْتَ وَأَخَذْتُ أَنَا مِنَ الْجِبَالِ مَسْنًا فَعَلَّمُونِي وَالْفُؤُونِي ثُمَّ يَحْلِي عَنِّي فَأَخَذُ صَيْدِي

في الهواء فَأَجْبِيءُ بِهِ إِلَى صَاحِبِي فَقَالَ لَهُ الدَّيْكَ : إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ مِنَ الْبُرَاةِ فِي سَفَافِيدِهِمْ مِثْلَ مَا رَأَيْتَ مِنَ الدُّيُوكِ لَكُنْتَ أَنْفَرُ مِنِّي وَلَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمَ لَمْ تَتَعَجَّبُوا مِنْ خَوْفِي مَعَ مَا تَرَوْنَ مِنْ تَمَكُّنِي حَالِي .

استجداة الخيل والكلاب قال صاحب الكلب : ذكر محمد بن سلام عن سعيد بن صخر قال : أرسل مسلم بن عمرو ابن عَمٍّ لَهُ إِلَى الشَّامِ وَمِصْرَ يَشْتَرِي لَهُ خَيْلًا فَقَالَ لَهُ : لَا عِلْمَ لِي بِالْخَيْلِ وَكَانَ صَاحِبُ قِصَصٍ قَالَ : أَلَسْتَ صَاحِبَ كِلَابٍ قَالَ : بَلَى قَالَ فَانْظُرْ كُلَّ شَيْءٍ تَسْتَحْسِنُهُ فِي الْكَلْبِ فَاسْتَعْمَلَهُ فِي الْفَرَسِ فَقَدِمَ بِخَيْلٍ لَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَبِ مِثْلَهَا .)

حاجة الديك إلى الدجاجة قال محمد بن سلام : استأذن رجلٌ عليَّ امرأةً فقالت له : ماله من حاجةٍ قالت الجارية : يريدُ أن يذكر حاجة قالت : لعلها حاجة الديك إلى الدجاجة .

هرب الكميت من السجن متنكراً بثياب زوجه محمد بن سلام عن سلام أبي المنذر قال : حبس خالد بن عبد الله الكميت بن زيد وكانت امرأته تخلف إليه في ثياب وهيئة حتى عرفها البوابون فلبس يوماً ثيابها وخرج عليهم فسمي في شعره البوابين التوابح وسمي خالداً المشلي :

(خرجت خروج القدح قدح ابن مُقْبِل * على الرِّغم من تلك التَّوابح والمشلي) (عليَّ ثياب الغانيات وتحتها * صرِيمة عَزْمٍ أَشْهَتْ سَلَّةَ النَّصْلِ .) فتيا الحسن في استبدال البيض قال : وأخبرنا خَشْرَم قال : سمعتُ فلاناً البقال يسأل الحسن قال : إن الصبيان يأتونني ببيضتين مكسورتين يأخذون مني صحيحةً واحدة قال : ليس به بأس أرحام الكلاب محمد بن سلام عن بعض أشياخه قال : قال مُصْعَب بن الزُّبَيْر على منبر مسجد البصرة لبعض بني أبي بكره : إنما كانت أمكم مثل الكلبة يتزو عليها الأعفر والأسود والأبقع فتؤدي إلى كل كلب شبهه

هذا في هذا الموضع هجاء وأصحاب الكلاب يرون هذا من باب التجابة وأن ذلك من صحة طباع الأرحام حين لا تختلط التطف فتجيء جوارح الأولاد مختلفة مختلطة .

من وصية عثمان الخياط للشاطر وقال صاحب الكلب : في وصية عثمان الخياط للشاطر اللصوص : إياكم إياكم وحب النساء وسماع ضرب العود وشرب الزبيب المطبوخ وعليكم باتخاذ العلمان فإن غلامك هذا أنفع لك من أخيك وأعون لك من ابن عمك وعليكم بنبذ التمر وضرب الطنبور وما كان عليه السلف واجعلوا الثقل باقلاء وإن قدتم على الفستق والريحان شاهسقرم

وإن قدرتم على الياسمين ودعوا لبس العمائم وعليكم بالقناع والقلنسوة كُفِّر والخف شريك واجعل لهوك الحمام وهارش الكلاب وإياك والكباش واللعب بالصقورة والشواهي وإياكم والفهود فلما انتهى إلى الديك قال : والديك فإن له صبراً ونجدة وروغاناً وتدبيراً وإعمالاً للسلاح وهو)
يبهر بهر الشجاع .

ثم قال : وعليكم بالنرد ودعوا الشطرنج لأهلها ولا تلعبوا في النرد إلا بالطويلتين والودع رأس مال كبير وأول منافعه الخنق باللقف . ثم حدثهم بحديث يزيد بن مسعود القيسي .

كراهية الكلب الأسود البهيم وقال صاحب الديك : ذكر محمد بن سلام عن يحيى بن النضر عن أبي أمية عبد الكريم المعلم قال : كان الحسن بن إبراهيم يكره صيد الكلب الأسود البهيم .

قصيدة ابن أبي كريمة في الكلب والفهد وأنشد صاحب الكلب قول أحمد بن زياد بن أبي كريمة في صفة صيد الكلب قصيدة طويلة أولها :

(وَغَبَّ غَمَامٌ مَزَقَتْ عَنْ سَمَانِهِ ** شَامِيَّةٌ حَصَاءُ جُونِ السَّحَابِ) (مُوَاكِهٌ طَلَقَ لَمْ يَرُدِّدْ جَهَامَهُ ** تَدَاوُبُ
أَرْوَاحِ الصَّبَا وَالْجَنَابِ) (بَعَثْتُ وَأَثَوْتُ الدُّجَى قَدْ تَقَلَّصَتْ ** لَغَرَّةٌ مَشْهُورٌ مِنَ الصُّبْحِ ثَاقِبِ) (قَدْ لَاحَ
نَاعِي اللَّيْلِ حَتَّى كَانَتْهُ ** لَسَارِي الدُّجَى فِي الْفَجْرِ قَدْ بَدَّلَ رَاهِبِ) (تَجَنَّبَ غَضْفٌ كَالْقِدَاحِ لَطِيفَةً **
مُشْرِطَةً آذَانَهَا بِالْمُخَالِبِ)

(تَخَالُ سَيَاطُ فِي صَلَاحِهَا مُنَوِّطَةً ** طَوَالَ الْهُوَادِي كَالْقِدَاحِ الشَّوَاظِ) (إِذَا افْتَرَشْتَ خَبْتًا أَثَارَتْ بِمَنْتِهِ **
عَجَاجًا وَبِالْكَذَّانِ نَارُ الْحَبَابِ) (يَفُوتُ خُطَاهَا الطَّرْفُ سَبْقًا كَانَتْهَا ** سِهَامٌ مُغَالٌ أَوْ رُجُومٌ الْكَوَاكِبِ) (
طِرَادُ الْهُوَادِي لَاحَهَا كُلُّ شَتْوَةٍ ** بِطَامَسَةِ الْأَرْجَاءِ مَرَّتِ الْمَسَارِبِ) (تَكَادُ مِنَ الْأَحْرَاجِ تَنْسَلُ كُلَّمَا **
رَأَتْ شَبَحًا لَوْلَا اعْتِرَاضُ الْمَنَاقِبِ) (تَسُوفُ وَتُوفِي كُلَّ نَشْرِ وَفَدْفِدٍ ** مَرَابِضُ أَبْنَاءِ التَّفَاقِ الْأَرَانِبِ) (
كَأَنَّهَا ذَعْرًا يُطِيرُ قُلُوبَهَا ** أَنْيُنُ الْمَكَكِيِّ أَوْ صَرِيرُ الْجَنَادِ)

(تَدِيرُ عِيُونًا رُكِبَتْ فِي بَرَاطِلٍ ** كَجَمْرِ الْعَضَى خُزْرًا ذِرَابُ الْأَنَابِ) (إِذَا مَا اسْتُجِنَتْ لَمْ يُجَنَّ طَرِيدُهَا
** هُنَّ ضِرَاءٌ أَوْ مَجَارِي الْمَذَانِبِ) (وَإِنْ بَاصَهَا صَلَاتًا مَدَى الطَّرْفِ أَمْسَكَتْ ** عَلَيْهِ بَدُونُ الْجُهْدِ سُبُلُ
الْمَذَاهِبِ) (تَكَادُ تَفْرَى الْأَهْبُ عَنْهَا إِذَا انْتَحَتْ ** لَنِبَاةٍ شَخَتْ الْجُرْمُ عَارِي الرُّوَاكِبِ)

(كَأَنَّ غَصُونَ الْخَيْزِرَانِ مُتَوْنَهَا ** إِذَا هِيَ جَالَتْ فِي طِرَادِ الثَّعَالِبِ) (كَوَاشِرُ عَنْ أَنْيَابِهِنَّ كَوَاحٍ ** مُذَلَّعَةٌ
الْآذَانِ شَوْسُ الْحَوَاجِبِ) (ثُمَّ وَصَفَ الْفُهُودُ : (بِذَلِكَ أَبْغَى الصَّيْدَ طَوْرًا وَتَارَةً ** بِمُخْطَفَةِ الْأَكْفَالِ رُحْبِ
الْتَرَاتِبِ) (مَرْقَقَةُ الْأَذْنَابِ تُمَرُّ ظُهُورُهَا ** مَخْطُطَةُ الْأَمَاقِ غُلْبِ الْعَوَارِبِ) (مُدْتَرَّةٌ وَرُقَى كَأَنَّ عِيُونَهَا **
حَوَاجِلُ تَسْتَدْمِي مَتَوْنَ الرُّوَاكِبِ)

(إِذَا قَلْبُهَا فِي الْفَجَاجِ حَسِبَتْهَا ** سَنَا ضَرَمَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ثَاقِبِ) (مُوَلَّعَةٌ فَطَحَ الْجِبَاهُ عَوَابِسُ ** تَخَالُ
عَلَى أَشْدَاقِهَا خَطٌّ كَاتِبِ) (نَوَاصِبُ آذَانِ لَطَافٍ كَانَتْهَا ** مَدَاهِنُ لِلْإِجْرَاسِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ) (ذَوَاتُ
أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْفُفِهَا ** نَوَافِذُ فِي صُمِّ الصُّخُورِ نَوَاشِبِ) (ذِرَابُ بَلَا تَرْهِفُ قَيْنَ كَانَتْهَا ** تَعْقِرُ
أَصْدَاغَ الْمَلَاكِ الْكَوَاعِبِ) (فَوَارِسُ مَا لَمْ تَلَقْ حَرْبًا وَرَجُلَةً ** إِذَا آنَسَتْ بِالْبَيْدِ شُهْبَ الْكَتَابِ)

(تَرَوُّ وَتَسْكِينٌ يَكُونُ دَرِينَةً ** هُنَّ بِذِي الْأَسْرَابِ فِي كُلِّ لَاحِبِ) (تَضَاعَلُ حَتَّى لَا تَكَادُ تُبَيِّنُهَا ** عِيُونُ
لَدَى الصَّرَاتِ غَيْرِ كَوَاذِبِ) (حِرَاصُ يَفُوتُ الْبَرْقَ أَمَكْتُ جَرِيهَا ** ضِرَاءُ مِبَلَّاتٍ بِطُولِ التَّجَارِبِ) (
تُوسِّدُ أَجْيَادَ الْفَرَائِسِ أَذْرَعًا ** مَرْمَلَةٌ تَحْكِي عَنَاقِ الْحَبَابِ)

قال دِعْبَلُ الشَّاعِرِ : أَقْمَنَا عِنْدَ سَهْلِ بْنِ هَارُونَ فَلَمْ نَبْرَحْ حَتَّى كِدْنَا نَمُوتُ مِنَ الْجُوعِ فَلَمَّا اضْطَرَّرْنَا قَالِ :
يَا غِلَامُ وَيْلَكَ غَدْنَا قَالِ : فَأَتَيْنَا بِقَصْعَةٍ فِيهَا مَرَقٌ فِيهِ لَحْمٌ دِيكَ عَاسٍ هَرَمَ لَيْسَ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا غَيْرُهَا لَا تَحْزُ
فِيهِ السَّكِينُ وَلَا تَوَثِّرُ فِيهِ الْأَضْرَاسُ فَاطَّلَعَ فِي الْقَصْعَةِ وَقَلَّبَ بَصَرَهُ فِيهَا ثُمَّ أَخَذَ قِطْعَةً خَبِزٍ يَابَسَ فَقَلَّبَ جَمِيعَ
مَا فِي الْقَصْعَةِ حَتَّى فَقَدَ الرَّأْسَ مِنَ الدِّيَكِ وَحَدَهُ فَبَقِيَ مَطْرَقًا سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى الْغِلَامِ فَقَالَ : أَيْنَ الرَّأْسُ

فقال : رميتُ به قال : ولم رميت به قال : لم أظنك تأكله قال : ولأَيِّ شيءٍ ظننتَ أنِّي لا آكله فوالله إنِّي لأَمقتُ مَنْ يرمي برجليه فكيف من يرمي برأسه ثم قال لله : لو لم

أكره ما صنعتَ إلَّا للطَّيْرَةِ والفأل لكرهته الرأسُ رئيسٌ وفيه الخواصُّ ومنه يصدح الديك ولولا صوته ما أريدَ وفيه فرقهُ الذي يُبرِّك به وعينه التي يضرب بها المثل يقال : شرابٌ كعين الديك ودماغه عجيب لوجع الكلية ولم أرَ عظماً قَطُّ)

أهشَّ تحت الأسنانِ من عظمِ رأسِهِ فهَلَّا إذْ ظننتَ أنِّي لا آكله ظننتَ أنَّ العيالَ يأكلونه وإنْ كانَ بلغَ من بُبُلِكَ أنك لا تأكله فإنَّ عِنْدَنَا من يأكله أو ما علمتَ أنه خيرٌ من طَرَفِ الجَنَاحِ ومن السَّاقِ والعنقِ انظرْ أين هو قال : والله ما أدري أينَ رميتُ به قال : لكنِّي أدري أنكَ رميتَ به في بطنك والله حسيبك .

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

استنشاط القارئ ببعض الهزل

وإن كُنَّا قد أَمَلْنَاكَ بالجدِّ وبالاحتجاجاتِ الصحيحةِ والمروِّجةِ لتكثرَ الخواطرُ وتشحدَ العقولُ فإنَّا سننشطُك بعضَ البطالاتِ وبذكرِ العللِ الطَّرِيفةِ والاحتجاجاتِ الغريبةِ فربَّ شعْرٍ يبلغُ بقرطِ غباوةٍ صاحبه من السرورِ والضحكِ والاستطرافِ ما لا يبلغه حشدُ أحرَّ النوادرِ وأجمعِ المعاني .

وأنا أستظرفُ أمرينِ استظرافاً شديداً : أحدهما استماعُ حديثِ الأعرابِ والأمرُ الآخرُ احتجاجُ متنازعينِ في الكلامِ وهما لا يحسانِ منه شيئاً فإنَّهما يُثيرانِ من غريبِ الطَّيبِ ما يُضحكُ كلَّ ثَكْلَانٍ وإن تشدَّدَ وكلَّ غضبانٍ وإن أحرَقَه لهيبُ الغضبِ ولو أنَّ ذلك لا يحلُّ لكان في بابِ اللُّهُوِ والصَّحْكِ والسُّرُورِ والبطالةِ والتشاغلِ ما يجوز في كلِّ فنٍ .

وسنذكر من هذا الشكلِ عللاً ونوردُ عليك من احتجاجاتِ الأغبياءِ حُجَجاً فإن كنتَ ممن يستعملُ الملالَةَ وتَعَجَّلَ إليه السَّامةَ كان هذا البابُ تنشيطاً لقلبك وجَمَاماً لقوتك ولنبتدئِ النَّظَرَ في بابِ الحمامِ وقد ذهب عنك الكلالُ وحدثَ النشاطُ .

وإن كنتَ صاحبَ علمٍ وجدِّ وكنتَ ممرَّناً موقَّحاً وكنتَ إلفَ تفكيرٍ وتنقيرٍ ودراسةٍ كُتُبٍ وحِلَفَ تبيينٍ وكان ذلك عادةً لك لم يضركَ مكانه من الكتابِ وتخطَّيه إلى ما هو أولى بك

ضرورة التوقيع في التأليف وعلى أنني قد عزمتُ والله الموفقُ أنني أوشح هذا الكتابَ وأفصلُ أبوابه بنوايرَ من ضروبِ الشعرِ وضروبِ الأحاديثِ ليخرج قارئُ هذا الكتابِ من بابٍ إلى بابٍ ومن شكلٍ إلى شكلٍ فإنِّي رأيتُ الأسماعَ تملُّ الأصواتَ المطربةَ والأغانيَ الحسنةَ والأوتارَ الفصيحةَ إذا طال ذلك عليها وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة .
وإذا كانت الأوائِلُ قد سارت في صغارِ الكتبِ هذه السيرةَ كان هذا التدبيرُ لِمَا طالَ وكثُرَ أصلحَ وما غابتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً .
وقال أبو الدرداء : إنِّي لأجُمُّ نفسي ببعضِ الباطلِ كراهةً أن أحملَ عليها من الحق ما يملؤها .
فمن الاحتجاجات الطيبة ومن العللِ الملهية ما حدثني به ابن المديني قال : تحوّل أبو عبد الله الكرخيُّ اللّحيانيُّ إلى

الحريّة فادّعى أنّه فقيه وظنَّ أن ذلك يجوزُ له لمكانِ لحيته وسمته قال : فألقى على باب داره البواريّ وجلس وجلس إليه بعضُ الجيران فأتاه رجلٌ فقال : يا أبا عبد الله رجلٌ أدخل إصبعة في أنفه فخرجَ عليها دمٌ أي شيء يصنع قال : يحتجم قال : قعدت طيباً أو قعدت فقيهاً

جواب أبي عبد الله المروزي

(وحديثي شمعون الطبيب قال : كنت يوماً عند ذي اليمينين طاهر بن الحسين فدخل عليه أبو عبد الله المروزيّ فقال طاهر : يا أبا عبد الله
مذُ كم دخلت العراق قال : منذ عشرين سنة وأنا صائم منذ ثلاثين سنة قال : يا أبا عبد الله سألتك عن مسألة فأجبنا عن مسألتين

جواب شيخ كندي

وحدثني أبو الجهم قال : ادّعى شيخٌ عندنا أنّه من كندة قبل أن ينظرَ في شيءٍ من نسبِ كندة فقلت له يوماً وهو عندي : ممن أنت يا أبا فلان قال : من كندة قلت : من أيّهم أنت قال : ليس هذا موضع هذا الكلام عافاك الله .
ودخلتُ على حنّ أبي بكر بن بريرة وكان شيخاً يتحلّ قول الإباضية فسمعتُه يقول : العجبُ من يأخذه التَّوَمُّ وهو لا يزعم أن الاستطاعة مع الفعل قلت : ما الدليل على ذلك قال : الأشعار الصحيحة قلت : مثل ماذا قال : مثل قوله :

مَا إِن يَقَعْنَ الْأَرْضَ إِلَّا وَفَقًا وَمِثْلَ قَوْلِهِ : يَهُوِينَ شَتَّى وَيَقَعْنَ وَفَقًا وَمِثْلَ قَوْلِهِمْ فِي الْمِثْلِ : وَقَعَا كَعِكْمَيَّ عَيْر .
وكهوله أيضاً : (مَكْرٌ مَقْبَلٌ مُدْبِرٌ مَعَاً ** كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ) وكهوله : (أَكْفُ يَدَي

عن أن تمسّ أكفهم** إذا نحن أهوينا وحاجتنا معا (ثم أقبل عليّ فقال : أما في هذا مقنع قلت : بلى وفي دون هذا

جواب هشام بن الحكم

وذكر محمد بن سلام عن أبان بن عثمان قال : قال رجل من أهل الكوفة لهشام ابن الحكم : أئوى الله عزّ وجلّ في عدله وفضله كلّنا ما لا نطيقُ ثمّ يعذبنا قال : قد والله فعل وكنا لا نستطيع أن نتكلّم به .

سؤال مرور لأبي يوسف القاضي

وحدثني محمد بن الصباح قال : بينا أبو يوسف القاضي يسيرُ بظهر الكوفة وذلك بعد أن كتب كتاب الحيل إذ عرض له مرورٌ عندنا أطيب الخلق فقال له : يا أبا يوسف قد أحسنت في كتاب الحيل وقد بقيت عليك مسائل في الفطن فإن أذنت لي سألتك عنها قال : قد أذنت لك فسأل قال : أخبرني عن الحرّ كافرٌ هو أو مؤمن فقال أبو يوسف : دين الحرّ دين المرأة ودين صاحبة الحرّ : إن كانت كافرةً فهو كافر وإن كانت مؤمنةً فهو مؤمن قال : ما صنعت

شيئاً قال : فقل أنت إذن إذ لم ترض بقولي فقال : الحرّ كافر قال : وكيف علمت ذلك قال لأن المرأة إذا ركعت أو سجّدت استدبر الحرّ القبلة واستقبلت هي القبلة ولو كان دينه دين المرأة لصنع كما تصنع هذه واحدة يا أبا يوسف قال : صدقت .

قال : فتأذن لي في أخرى قال : نعم قال : أخبرني عنك إذا أتيت صحراءً فهجمت على بولٍ وخراء كيف تعرف أبول امرأةٍ هو أم بول رجل قال : والله ما أدري قال أجل والله ما تدري قال : أفتعرف أنت ذاك قال : نعم إذا رأيت البول قد سال على الخراء وبين يديه فهو بول امرأة وخراء امرأة وإذا رأيت البول بعيداً من الخراء فهو بول رجل وخراء رجل قال : صدقت . قال : وحكي لي جواب مسائل فنسيت منها مسألة فعاودته فإذا هو لا يحفظها .

جواب الحجاج العبسي

وحدثني أيوب الأعور قال قاتل للحجاج العبسي : ما بال شعر الامة إذا نبت أسرع والتفّ قال : لقربه من السماد والماء هطل عليه .

جواب نوفل عريف الكناسين

وحدثني محمد بن حسن قال : وقفت على نوفل عريف الكناسين وإذا مؤسوس قد وقف عليه وعنده كلّ كنّاس بالكرخ فقال له الموسوس : ما بال بنت وردان تدعّ قعر البئر وفيه كُرّ خراء وهو لها مُسلمٌ وعليها

موفر وتحيء تطلب اللطاحة التي في است أحدنا وهو قاعدٌ على المقعدة فتلزم نفسها الكلفة الغليظة وتعرض للقتل وإنما هذا الذي في أسنانها قيراط من ذلك الدرهم وقد دفعنا إليها الدرهم وافيًا وافرًا قال : فضحك القوم فحرك نوفل رأسه ثم قال : أتضحكون قد والله سأل الرجل فأجيبوا وأما أنا فقد والله فكرت فيها منذ ستين سنة ولكنكم لا تنظرون في شيء من أمر صناعته لا جرم أنكم لا ترتفعون أبدًا قال له الموسوس : قل يرحمك الله فأنت زعيم القوم فقال نوفل : قد علمنا أن الرطب

أطيب من التمر والحديث أطرف من العتيق والشيء من معدنه أطيب والفاكهة من أشجارها أطرف قال : فغضب شريكه مسيح الكناس ثم قال : والله لقد وبختنا وهولت علينا حتى ظننا أنك ستجيب بجواب لا يحسنه أحد ما الأمر عندنا وعند أصحابنا هكذا قال : فقال لنا الموسوس : ما الجواب عافاكم الله فإني ما نمت البارحة من الفكرة في هذه المسألة قال مسيح : لو أن لرجل ألف جارية حسناء ثم عتق عنده لبردت شهوته عنهن وفترت ثم إن رأى واحدة دون أخسهن في الحسن صبا إليها ومات من شهوتها فبت وردان تستطرف تلك اللطاحة وقد ملأت الأولى وبعض الناس

الفطير أحب إليهم من الخمير وأيضاً إن الكثير يمنع الشهوة ويورث الصدود قال : فقال الموسوس واستحسن جواب مسيح بعد أن كان لا يرى جواباً إلا جواب نوفل : لا تعرف مقدار العالم حتى تجلس إلى غيره أنتم أعلم أهل هذه المدرة ولقد سألت علماءها عنه منذ عشرين سنة فما تخلص أحد منهم إلى مثل ما تخلصتم إليه وقد والله أنتم عيني وطاب بكم عيشي وقد علمنا أن كل شيء يستلب استلاباً أنه ألد وأطيب ولذلك صار الديب إلى الغلمان ونيكهم على جهة القهر ألد وأطيب وكل شيء يصيبه الرجل فهو أعز عليه من المال الذي يرثه أو يوهب له .

علة الحجاج بن يوسف قال : وحدثنني أبان بن عثمان قال : قال الحجاج بن يوسف : والله لطاعتي أوجب من طاعة الله لأن الله تعالى يقول : فاتقوا الله ما استطعتم

فجعل فيها مثنوية وقال : واسمعوا وأطيعوا ولم يجعل فيها مثنوية ولو قلت لرجل : ادخل من هذا الباب فلم يدخل لحل لي دمه .

احتجاج مدني وكوفي

قال : وأخبرني محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال : قال رجل من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة : نحن أشد حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله منكم يا أهل المدينة فقال المدني : فما بلغ من حبك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله قال : وددت أنني وقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه لم يكن وصل إليه يوم أحد ولا في غيره من الأيام شيء من المكروه يكرهه إلا كان بي دونه فقال المدني : أفعدك غير هذا قال : وما يكون غير هذا قال : وددت أن أبا طالب كان آمن فسر به النبي صلى الله عليه وسلم وأني كافر

وحدثني أبان بن عثمان قال : قال ابن أبي ليلى : إني لأسأير رجلاً من وجوه أهل الشام إذ مرَّ بحمّالٍ معه رُمان فتناول منه رُمّانة فجعلها في كُفِّهِ فَعَجِبْتُ من ذلك ثم رجعت إلى نفسي وكذبت بصرى حتى مرَّ بسائل فقير فأخرجها فناوله إياها قال : فعلتُ أني رأيتها فقلتُ له : رأيتك قد فعلتَ عجباً قال : وما هو قلت : رأيتك أخذتَ رُمّانةً من حمّالٍ وأعطيتها سائلاً قال : وإنك ممن يقول هذا القول أما علمتُ أني أخذتها وكانت سيئةً وأعطيتها فكانت عشرَ حسناتٍ قال : فقال ابن أبي ليلى : أما علمتُ أنك أخذتها فكانت سيئةً وأعطيتها فلم تُقبل منك

جهل الأعراب بالنحو

وقال الربيع : قلت لأعرابيٍّ : أتَهْمَزُ إسرائيل قال : إني إذا لرجُلٍ سوء قلت : أتَجُرُّ فلسطين قال : إني إذا لَقَوِي .

احتجاج رجل من أهل الجاهلية

قال : وحدثنا حمّاد بن سلمة قال : كان رجلٌ في الجاهلية معه مِحْجَنٌ يتناولُ به متاعَ الحاجِّ سرقةً فإذا قيل له : سرقت قال : لم أسرق إنما سرَقَ مِحْجَنِي قال : فقال حماد : لو كان هذا

الأعمش وجليسه

قال : وحدثني محمد بن القاسم قال : قال الأعمش جليسه له : أما تشتهي بناني زُرْقَ العيونِ نقيّةَ البطونِ سُودَ الظُّهورِ وأرغفةَ

حارّةَ لينةٍ وخلاً حاذقاً قال : بلى قال : فانمض بنا قال الرجل : فنهضتُ معه ودخل منزله قل : فأومأ إليّ : أنْ خُذْ تلك السِّلّة قال : فكشفها فإذا برغيفين يابسين وسُكَّرَجَة كامخٍ شبيثٍ قال : فجعل يأكل قال : فقال لي تعال كُلْ فقلت : وأين السمك قال : ما عندي سمك إنما قلت لك : تشتهي . (رأيي حفص بن غياث في فقه أبي حنيفة) قال : وسئل حفصُ بن غياث عن فقه أبي حنيفة قال : كان أجهلَ النَّاسِ بما يكون وأعرفهم بما لا يكون .

علة خشنام بن هند

وأما علة خُشْنَام بن هند فإنَّ خشنام بن هند كان شيخاً من الغالية وكان ممن إذا أراد أن يسميَ أبا بكر وعمرَ قال : الجبْتُ والطَّاعوت ومُنْكَر ونَكِير وأُفٌّ وَتَفٌّ وكُسِيرٌ وعُوِيرٌ وكان لا يزال يُدْخِلُ داره حمارَ كَسَّاحٍ ويضربه مائةً عصاً على أن أبا بكر وعمرَ في جوفه ولم أر قطُّ أشدَّ احتراماً منه وكان مع ذلك نبيذياً

وصاحبَ حَمَامٍ ويُشَبِّهه في القَدِّ والحَرْطِ شُيُوخَ الحَرِيَّةِ وكان من بني عُبرٍ من صميمهم وكان له بُنيٌّ يتبعه فكان يزني أمه عند كلِّ حقٍّ وباطلٍ وعند كلِّ جدٍّ وهزلٍ قلت له يوماً ونحن

عند بني رُبَيعٍ : ويحك بأيِّ شيءٍ تستحلُّ أن تقذفَ أمَّه بالزَّنا فقال : لو كان عليَّ في ذلك حَرَجٌ لما قدَفْتُها : فلمَ تروِّجتَ امرأةً ليس في قدْفِها حرجٌ قال : إنِّي قد احتلتُ حيلةً حتَّى حلَّ لي من أجلها ما كان يحرمُ قلت : وما تلك الحيلةُ قال : أنا رجلٌ حديدٌ وهذا غلامٌ عارمٌ وقد كمت طَلَّقت أمه فكتبتُ إذا افترتُ عليها أثمت فقلت في نفسي إن أرغتها وخذعتها حتَّى أنيكها مرَّةً واحدةً حلَّ لي بعد ذلك افترائي عليها بل لا يكونُ قولي حينئذٍ فُرِيَّةً وعِلْمَتُ أن زَنِيَّةً واحدةً لا تعللُ عشرةَ آلافِ فُرِيَّةٍ فأنا اليومَ أصدِّقُ ولستُ أكذبُ والصادقُ مأجورٌ إني والله ما أشكُّ أن الله إذا علم أنَّي لم أزن بها تلك المرَّة إلا من خوف الإثم إذا قدَفْتُها أنَّه سيجعلُ تلك الزَّنيةَ له طاعةً فقلت : أنت الآن على يقين أن زناكَ طاعةٌ لله تعالى قال : نعم .

حجة الشيخ الإباضي في كراهية الشيعة

قال الشيخُ الإباضي وقد ذهب عني اسمه وكنيته وهو ختن أبي بكر بن بَريرة وجرى يوماً شيءٌ من ذِكرِ التشيعِ والشيعةِ فأنكر ذلك واشتدَّ غضبه عليهم فتوهَّمْتُ أن ذلك إنَّما اعتراه للإباضية التي فيه وقلت : وما عليَّ إن سألتَه فإنه يُقال : إنَّ السائل لا يعدمُه أن يسمَعَ في الجواب حُجَّةً أو حيلةً أو مُلحةً فقلت : وما أنكرتُ من التشيعِ ومن ذكر الشيعةِ قال : أنكرتُ منه مكان الشين التي في أول الكلمة لأنِّي لم أجد الشين في أول كلمةٍ قطُّ إلا وهي مسخوطة مثل : شؤمٌ وشرٌّ وشيطانٌ وشغبٌ وشحٌّ وشمالٌ وشجنٌ وشيبٌ وشينٌ وشراسةٌ وشنجٌ وشكٌّ وشوكةٌ وشبثٌ وشركٌ وشاربٌ وشطيرٌ وشطورٌ وشعرةٌ وشاني

وشتمٌ وشتمٌ وشيطرٌجٌ وشنةٌ وشناعةٌ وشامةٌ وشوصةٌ وشترٌ وشجوبٌ وشجَّةٌ وشطونٌ وشاطنٌ وشنٌ وشلٌّ وشييصٌ وشاطرٌ وشاطرةٌ وشاحبٌ .

قلت له : ما سمعتُ متكلِّماً قطُّ يقول هذا ولا يبلغه ولا يقومُ لهؤلاء القومُ قائمةٌ بعد هذا .

حيلة أبي كعب القاص

قال : وتعثَّى أبو كعب القاصُّ بطفشيل كثير اللُّوبيا وأكثر منه وشرب نبيذَ تمرٍ وغلَّس إلى بعض المساجد ليَقصَّ على أهله إذ انفصل الإمامُ من الصلاة فصادف زحاماً كثيراً ومسجداً مستوراً بالبوارى من البردِ والريِّحِ والمطرِ وإذا محرابٌ غائرٌ في الحائط وإذا الإمامُ شيخٌ ضعيفٌ فلمَّا صلَّى استدبرَ الخرابَ وجلسَ في زاويةٍ منه يسبحُ وقام أبو كعب فجعلَ ظهره إلى وجه الإمامِ ووجهه إلى وجوه القومِ وطبَّق وجهه الخرابَ بجسمه وفروته وعمامته وكسائه ولم يكن بين فقحته وبين أنف الإمامِ كبيرُ شيءٍ وقصَّ وتحركَ بطنه فأراد أن يتفرَّجَ بفسوةٍ وخاف أن تصير ضراطاً فقال في قصصه : قولوا جميعاً : لا إله إلا الله وارفعوا بها أصواتكم

وَفَسَا فَسُوءٌ فِي الْخِرَابِ فَدَارَتْ فِيهِ وَجَّحَتْ عَلَى أَنْفِ الشَّيْخِ وَاحْتَمَلَهَا ثُمَّ كَدَّهَ بَطْنُهُ فَاحْتَاجَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَ : قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَارْفَعُوا بِهَا أَصْوَاتَكُمْ فَأَرْسَلَ فَسُوءٌ أُخْرَى فَلَمْ تُخْطِ أَنْفَ الشَّيْخِ

وَاحْتَنَقَتْ فِي الْمَخْرَابِ فَخَمَّرَ الشَّيْخُ أَنْفَهُ فَصَارَ لَا يَدْرِي مَا يَصْنَعُ إِنَّهُ هُوَ تَنْفَسُ قَتَلَتْهُ الرَّائِحَةُ وَإِنْ هُوَ لَمْ يَتَنَفَّسْ مَاتَ كَرَبًا فَمَا زَالَ يُدَارِي ذَلِكَ وَأَبُو كَعْبٍ يَقْصُ فُلْمَ يَلْبَثُ أَبُو كَعْبٍ أَنْ احْتَاجَ إِلَى أُخْرَى وَكَلَّمَا طَالَ لُبُّهُ تَوَلَّدَ فِي بَطْنِهِ مِنَ النَّفْخِ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فَقَالَ : قُولُوا جَمِيعًا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَارْفَعُوا بِهَا أَصْوَاتَكُمْ فَقَالَ الشَّيْخُ مِنَ الْخِرَابِ وَأُطْلِعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : لَا تَقُولُوا لَا)

تَقُولُوا قَدْ قَتَلَنِي إِنَّمَا يَرِيدُ أَنْ يَفْسُوهَ ثُمَّ جَذَبَ إِلَيْهِ ثَوْبَ أَبِي كَعْبٍ وَقَالَ : جِئْتُ إِلَى هَاهُنَا لِنَفْسُوهُ أَوْ تَقْصُرَ فَقَالَ : جِئْنَا لِنَقْصَ فَإِذَا نَزَلَتْ بَلِيَّةٌ فَلَا بَدَّ لَنَا وَلَكُمْ مِنَ الصَّبْرِ فَضَحَكَ النَّاسُ وَاحْتَلَطَ الْمَجْلِسُ .
جَوَابُ أَبِي كَعْبٍ الْقَاصِّ وَأَبُو كَعْبٍ هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَقْصُ فِي مَسْجِدِ عَنَابٍ كُلِّ أَرْبَعَاءٍ فَاحْتَبَسَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَطَالَ انْتِظَارُهُمْ لَهُ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ رَسُولُهُ فَقَالَ : يَقُولُ لَكُمْ أَبُو كَعْبٍ : انْصَرَفُوا فَإِنِّي قَدْ أَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَخْمُورًا

عَلَّةُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَمَّا عَلَّةُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِشَكْسَتْ فَإِنَّ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ لَهُ مَالٌ وَكَانَ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الزَّكَاةِ وَجَاءَ الْقَوَادُّ بِغُلَامٍ مُوَاجِرٍ قَالَ : يَا غُلَامُ أَلَمْ أَمْ أَلَمْ أَلَمْ خَالَاتٍ فَيَقُولُ الْغُلَامُ : نَعَمْ فَيَقُولُ : خُذْ هَذِهِ الْعَشْرَةَ الدِّرَاهِمَ أَوْ خُذْ هَذِهِ الدَّنَانِيرَ مِنْ زَكَاةٍ مَالِي فَادْفَعْهَا إِلَيْهِنَّ وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُبْرِكَنِي بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى جِهَةِ الْمَكَارِمَةِ فَافْعَلْ وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُنْصَرِفَ فَانْصَرِفْ فَيَقُولُ ذَلِكَ وَهُوَ وَاقِعٌ أَنَّ الْغُلَامَ لَا يَمْنَعُهُ بَعْدَ اخْتِذِ الدِّرَاهِمَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَبْلُغَ مِنْ صِلَاحِ طَبَاعِ الْمُوَاجِرِينَ أَنْ يُؤَدُّوا الْأَمَانَاتَ فَغَبَرَ بِذَلِكَ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَلَيْسَ لَهُ زَكَاةٌ إِلَّا عِنْدَ أَمَهَاتِ الْمُوَاجِرِينَ وَأَخْوَاهُمْ وَخَالَاتِهِمْ .

احتجاج كوفي للتسمية بمحمد

وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ كَاسِبٍ قَالَ : قَالَ لِي الْفَضْلُ بْنُ مَرْوَانَ شَيْخٌ مِنْ طَيِّبِ الْكُوفِيِّينَ وَأَغْبِيَاءِهِمْ : إِنَّ وَلَدَ لَكَ مَائَةً ذَكَرَ فَسَمَهُمْ كُلَّهُمْ مُحَمَّدًا وَكَتَبَهُمْ بِمُحَمَّدٍ فَإِنَّكَ سَتَرَى فِيهِمُ الْبِرَّ أَوْ تَذَرِي لِأَيِّ شَيْءٍ كَثُرَ مَالِي قُلْتَ : لَا وَاللَّهِ مَا أَدْرِي قَالَ : إِنَّمَا كَثُرَ مَالِي لِأَنِّي سَمَّيْتُ نَفْسِي فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ مُحَمَّدًا وَإِذَا كَانَ اسْمِي عِنْدَ اللَّهِ مُحَمَّدًا فَمَا أَبَالِي مَا قَالَ النَّاسُ

جواب أحمد بن رباح الجوهري

وَشَبَّهَ هَذَا الْحَدِيثَ قَوْلَ الْمُؤَزِّي : قُلْتَ : لِأَحْمَدَ بْنِ رِيَّاحِ الْجَوْهَرِيِّ اشْتَرَيْتَ كِسَاءً أَبْيَضَ طَبْرِيًّا بِأَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ فِيمَا تَرَى عِيُونَهُمْ قَوْمَسِيَّ يَسَاوِي مَائَةَ دِرْهَمٍ قَالَ : عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ طَبْرِيٌّ فَمَا عَلَيَّ مِمَّا قَالَ النَّاسُ

احتجاج حارس يكنى أبا خزيمه

وكان عندنا حارس يكنى أبا خزيمه فقلت يوماً وقد خطر على بالي : كيف اكتنى هذا العليج الألكن بأبي خزيمه ثم رأيته فقلت له : خبرني عنك أكان أبوك يسمى خزيمه قال : لا قلت : فجلتك أو عمك أو خالك قال : لا قلت : فلك ابنٌ يسمى خزيمه قال : لا قلت : فكان لك مولى يسمى خزيمه قال : لا قلت : فكان في قريتك رجلٌ صالح أو فقيه يسمى خزيمه قال : لا قلت : فلم اكتنيت بأبي خزيمه وأنت عليج ألكن وأنت فقيرٌ وأنت حارس قال : هكذا اشتبهت قلت : فلأي شيءٍ اشتبهت هذه الكنية من بين جميع الكنى قال : ما يُدريني

جواب الزبدي

() وحدثني مسعدة بن طارق قلت للزبدي ومررت به وهو جالسٌ في يوم غمق حارٍّ ومد على باب داره في شروع نهر

الجوبار بأردية وإذا ذلك البحر يختر في أنفه قال فقلت له بعث دارك وحظك من دار جدك زياد بن أبي سفيان وتركت مجلسك في ساباط غيث وإشراكك على رحة بني هاشم ومجلسك في الأبواب التي تلي رحة بني سليم وجلست على هذا النهر في مثل هذا اليوم ورضيت به جاراً قال نلت أطول آمالي في قرب هؤلاء البرازين قلت له لو كنت بقرب المقابر فقلت نزلت هذا الموضع للاتعاض به والاعتبار كان ذلك وجهاً ولو كنت بقرب الحدادين فقلت لأتذكر بهذه النيران والكيران نار جهنم كان ذلك قولاً ولو كنت اشتريت داراً بقرب العطارين فاعتلت بطلب رائحة الطيب كان ذلك وجهاً

فأما قرب البرازين فقط فهذا ما لا أعرفه أفلك فيهم دار غلة أو هل لك عليهم دُيون حالة أو هل لك فيهم أو عندهم غلمان يؤدون الضريبة أو هل لك معهم شركة مضاربة قال : لا قلت : فما ترجو إذا من قربهم فلم يكن عنده إلا : نلت آمالي بقرب البرازين .

حكاية ثمامة عن مرور وحدثني ثمامة بن أشرس قال : كان رجلٌ مرور يقوم كل يوم فيأتي دالية لقوم ولا يزال يمشي مع رجال الدالية على ذلك الجذع ذاهباً وجائياً في شلة الحر والبرد حتى إذا أمسى نزل إليهم وتوضأ وصلى وقال : اللهم اجعل لنا من هذا فرجاً ومخرجاً ثم انصرف إلى بيته فكان كذلك حتى مات . بين أعمى وقائده وحدثني المكّي قال : كان رجلٌ يقود أعمى بكراء وكان الأعمى ربما عثر العثرة ونكب التكة فيقول : اللهم أبذل

لي به قائداً خيراً منه قال : فقال القائد : اللهم أبذل لي به أعمى خيراً لي منه حماقة مرور وحدثني يزيد مولى إسحاق بن عيسى قال كُنّا في منزل صاحب لنا إذ خرج واحدٌ من جماعتنا ليقيلاً في البيت الآخر فلم يلبث إلا ساعة حتى سمعناه يصيح : أوه أوه قال : فنهضنا بأجمعنا إليه فرعين فقلنا له : ما لك وإذا هو نائم على

شَقَّه الأيسر وهو قَابِضٌ على خَصِيَّتِهِ بيده فَقَلَّتْ له : لم صَحَّتْ قال : إذا غَمَزْتَ خُصْيَتِي اشْتَكَيْتَهَا وإذا اشْتَكَيْتَهَا صَحَّتْ قال : (

فَقُلْنَا له : لا تَغْمِزْهَا بَعْدُ حَتَّى لا تَشْتَكِيَ قال : نعم إِنْ شاءَ اللهُ تعالى .

حَمَاقَةُ مَوْلَاةٍ عَيْسَى بنِ عَلِيٍّ قالَ يَزِيدُ : وَكَانَتْ لِعَيْسَى بنِ عَلِيٍّ مَوْلَاةٌ عَجُوزٌ خُرَاسَانِيَّةٌ تَصْرُخُ بِاللَّيْلِ مِنْ ضَرْبَانِ ضَرَسَ لَهَا فَكَانَتْ قَدْ أَرَقَّتْ الأَمِيرَ إِسْحَاقَ فَقُلْتُ له : إِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لا تَدَعُ أَكْلَ التَّمْرِ قال : فَبِعَثْ إِلَيْهَا بِالْغَدَاةِ فَقَالَ لَهَا : أَتَأْكُلِينَ التَّمْرَ بِالنَّهَارِ وَتَصِيحِينَ بِاللَّيْلِ فَقَالَتْ : إِذَا اشْتَهَيْتُ أَكَلْتُ وَإِذَا أَوْجَعَنِي صَحَّتْ .

حِكَايَةُ ثَمَامَةَ عَنْ مُرُورٍ وَحَدَّثَنِي ثَمَامَةُ قالَ : مَرَرْتُ فِي غَبِّ مَطَرٍ وَالْأَرْضُ نَدِيَّةٌ وَالسَّمَاءُ مَتِغِيمةٌ وَالرَّيْحُ شَمَالٌ وَإِذَا شَيْخٌ أَصْفَرُ كَأَنَّهُ جَرَادَةٌ قَدْ جَلَسَ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَحِجَامٌ زَنْجِيٌّ يَحْجُمُهُ وَقَدْ وَضَعَ عَلَى كَاهِلِهِ وَأَخَذَ عَلَيْهِ مُحَاجِمٌ كُلَّ مُحِجَمَةٍ كَأَنَّهَا قَعْبٌ وَقَدْ مَصَّ دَمَهُ حَتَّى كَادَ أَنْ يَسْتَفْرِغَهُ قالَ : فَوَقَفْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ : يَا شَيْخُ لِمَ تَحْتَجِمُ فِي هَذَا الْبَرْدِ قالَ لِمَكَانِ هَذَا الصُّفَارِ الَّذِي بِي .

صَنِيعُ مُرُورٍ وَحَدَّثَنِي ثَمَامَةُ قالَ : حَدَّثَنِي سَعِيدُ بنِ مُسْلِمٍ قالَ : كُنَّا بِخُرَاسَانَ فِي مَنْزِلٍ بَعْضُ الدَّهَاقِينِ وَنَحْنُ شَبَابٌ وَفِينَا شَيْخٌ قالَ : فَأَتَانَا رَبُّ الْمَنْزِلِ بَدْهْنٍ طَيِّبٍ فَدَهَنَ بَعْضُنَا رَأْسَهُ وَبَعْضُنَا لَحْيَتَهُ وَبَعْضُنَا مَسَحَ

شَارِبَهُ وَبَعْضُنَا مَسَحَ يَدَيْهِ وَأَمَرَهُمَا عَلَى وَجْهِهِ وَبَعْضُنَا أَخَذَ بِطَرَفِ إصْبَعِهِ فَأَدْخَلَ فِي أَنْفِهِ وَمَسَحَ بِهِ شَارِبَهُ فَعَمِدَ الشَّيْخُ إِلَى بَقِيَّةِ الدَّهْنِ فَصَبَّهَا فِي أُذُنِهِ فَقُلْنَا له : وَيْحَكَ خَالَفْتَ أَصْحَابَكَ كُلَّهُمْ هَلْ رَأَيْتَ أَحَدًا إِذَا أَتَوْهُ بَدْهْنٍ طَيِّبٍ صَبَّهُ فِي أُذُنِهِ قالَ : فَإِنَّهُ مَعَ هَذَا يَضْرِبُنِي أَمْرٌ عَيْصُ سَيِّدِ بَنِي تَمِيمٍ وَحَدَّثَنِي مَسْعُودَةُ بنُ طَارِقٍ الذَّرَّاعُ قالَ : وَاللَّهِ إِنَّا لَوُقُوفٌ عَلَى حُدُودِ دَارِ فَلَانَ لِلْقِسْمَةِ وَنَحْنُ فِي خُصُومَةٍ إِذْ أَقْبَلَ عَيْصُ سَيِّدِ بَنِي تَمِيمٍ وَمُوسِرُهُمُ وَالَّذِي يَصَلِّي عَلَى جَنَائِزِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ مُقْبِلًا إِلَيْنَا أَمْسَكْنَا عَنْ الْكَلَامِ فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ : حَدِّثُونِي عَنْ هَذِهِ الدَّارِ هَلْ ضَمَّ مِنْهَا بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ أَحَدٌ قالَ مَسْعُودَةُ : فَأَنَا مُنْذُ سَتِينَ سَنَةً

أَفَكَّرْتُ فِي كَلَامِهِ مَا أُدْرِي مَا عَنَى بِهِ قالَ : وَقَالَ لِي مَرَّةً : مَا مِنْ شَرٍّ مِنْ ذَيْنِ قُلْتُ : وَلَمْ ذَاكَ قالَ : مِنْ جَرَا يَتَعَلَّقُونَ .

وَحَدَّثَنِي الْخَلِيلُ بنُ يَحْيَى السُّلُوكِيُّ قالَ : نَازَعَ التَّمِيمِيُّ بَعْضَ بَنِي عَمِّهِ فِي حَائِطٍ فَبِعَثَ إِلَيْنَا لَتَشْهَدَ (عَلَى شَهَادَتِهِ فَأَتَاهُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الْحَمِيرِيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَالزُّيَادِيُّ وَالْبَكْرَاوِيُّ فَلَمَّا صَرْنَا إِلَيْهِ وَقَفَ بِنَا عَلَى الْحَائِطِ وَقَالَ : أَشْهَدُكُمْ جَمِيعًا أَنَّ نِصْفَ هَذَا الْحَائِطِ لِي .

جَوَابُ مُرُورٍ قالَ : وَقَدِمَ ابْنُ عَمٍّ لَهْ إِلَى عُمَرَ بنِ حَبِيبٍ وَادَّعَى عَلَيْهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَقَالَ ابْنُ عَمِّهِ : مَا أَعْرِفُ مِمَّا قَالَ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا وَلَا لَهْ عَلَيَّ شَيْءٌ قالَ : أَصْلَحَكَ اللهُ تَعَالَى فَاكْتُبْ بِإِنْكَارِهِ قالَ : فَقَالَ عُمَرُ : (أَمْنِيَّةُ أَبِي عَتَابِ الْجَرَّارِ) قالَ : وَقُلْتُ لِأَبِي عَتَابِ الْجَرَّارِ : أَلَا تَرَى عَبْدَ الْعَزِيزِ الْغَزَّالَ وَمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ فِي قِصَصِهِ قالَ : وَأَيُّ شَيْءٍ قَالَ قُلْتُ : قالَ : لَيْتَ اللهُ تَعَالَى

لم يكن خلقني وأنا الساعة أعور قال أبو عتاب : وقد قصر في القول وأساء في التمني ولكني أقول : ليت الله تعالى لم يكن خلقني وأنا الساعة أعمى مقطوع اليدين والرجلين . (تعزية طريفة لأبي عتاب الجرار) ودخل أبو عتاب على عمرو بن هذاب وقد كف بصره والناس يعزونه فمثل بين يديه وكان كالجمل الخجوم وله صوت جهر فقال : يا أبا أسيد لا يسوءك ذهابهما فلو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت أن الله تعالى قد قطع يديك ورجليك ودق ظهرك وأدمى ضلعك .

داود بن المعتمر وبعض النساء

وبينما داود بن المعتمر الصبيري جالس معي إذ مرت به امرأة جميلة لها قوام وحسن وعينان عجبتان وعليها ثياب بيض فنهض داود

فلم أشك أنه قام ليتبعها فبعثت غلامي ليعرف ذلك فلما رجع قلت له : قد علمت أنك إنما قمت لتكلمها فليس ينفعك إلا الصدق ولا ينجيك مني الجحود وإنما غاييت أن أعرف كيف ابتدأت القول وأي شيء قلت لها وعلمت أنه سيأتي بآبدة وكان ملياً بالأوابد قال : ابتدأت القول بأن قلت لها : لولا ما رأيت عليك من سيماء الخير لم أتبعك قال : فضحك حتى استندت إلى الحائط ثم قالت : إنما يجمع مثلك من أتباع مثلي والطمع فيها ما يرى من سيماء الخير فأما إذ قد صار سيماء الخير هو الذي يطمع في النساء فإننا لله وإنا إليه راجعون .

وتبع داود بن المعتمر امرأة فلم يزل يطريها حتى أجابت ودلها على المنزل الذي يمكنها فيه ما يريد فتقدمت الفاجرة وعرض له

رجل فشغله وجاء إلى المنزل وقد قضى القوم حوائجهم وأخذت حاجتها فلم تنتظره فلما أتاها لم يرها قال : أين هي قالوا : والله قد فرغنا وذهبت قال : فأني طريق أخذت قالوا : لا والله ما ندري قال فإن عدوت في إثرها حتى أقوم على مجامع الطرق أتروني ألحقها قالوا : لا والله ما تلحقها قال : فقد فانت الآن قالوا : نعم قال : فعسى أن يكون خيراً فلم أسمع قط بإنسان يشك أن السلامة من الذنوب خير غيره . (قول أبي لقمان الممرور في الجزء الذي لا يتجزأ) وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذي لا يتجزأ : ما هو قال : الجزء الذي لا يتجزأ هو علي بن أبي طالب عليه السلام فقال له أبو العيناء محمد :

أفليس في الأرض جزء لا يتجزأ غيره قال : بلى حمزة جزء لا يتجزأ وجعفر جزء لا يتجزأ قال فما تقول في العباس قال : جزء لا يتجزأ قال : فما تقول في أبي بكر وعمر قال : أبو بكر يتجزأ وعمر يتجزأ قال : فما تقول في عثمان قال : يتجزأ مرتين والزبير يتجزأ مرتين قال : فأني شيء تقول في معاوية قال : لا يتجزأ ولا لا يتجزأ .

فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الإمام جزءاً لا يتجزأ إلى أي شيء ذهب فلم نقع عليه إلا أن يكون كان أبو لقمان إذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذي لا يتجزأ هاله ذلك وكبر في صدره وتوهم أنه

البابُ الأكبرُ من عِلْمِ الفلسفة وأن الشيءَ إذا عَظُمَ خَطَرُهُ سَمُوهُ بالجرء الذي لا يتجزأ .
وقد تَسَخَّفْنَا في هذه الأحاديث واستجَزْنَا ذلك بما تَقَدَّمَ من العُذر وسنذكر قَبْلَ ذِكْرِنَا القول في الحمام جَمَلًا
من غُرَرٍ ونَوَاحِرٍ وأشْعَارٍ ونُثفٍ وفَقَرٍ من قِصَائِدٍ قِصَارٍ وشَوَارِدٍ وأَبْيَاتٍ لِنُعْطِيَ قَارِئَ الكِتَابِ من كلِّ نوعٍ
تَذَهَبُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ نَصِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

تناسب الألفاظ مع الأغراض

ولكلِّ ضربٍ من الحديث ضَرْبٌ من اللفظ ولكلِّ نوعٍ من المعاني نوعٌ من الأسماء : فالسَّخِيفُ للسَّخِيفِ
والخَفِيفُ للخَفِيفِ والجَزَلُ للجَزَلِ والإفصاحُ في مَوْضِعِ الإفصاح والكِنَايَةُ في مَوْضِعِ الكِنَايَةِ والاسترسالُ في
مَوْضِعِ الاسترسال .

وإذا كان مَوْضِعُ الحديثِ على أَنَّهُ مُضْحِكٌ ومُلْهُ ودَاخِلٌ في بابِ المزاح والطَّيِّبُ فاستَعْمَلْتَ فيه الإعرابَ
انقَلَبَ عن جِهَتِهِ وإنْ كان في لَفْظِهِ سُخْفٌ وأَبْدَلْتَ السَّخَافَةَ بِالْجَزَالَةِ صَارَ الحديثُ الذي وَضِعَ على أَنِّ يُسَرُّ
النُّفُوسَ يُكْرَهُ بِهَا وَيَأْخُذُ بِأَكْظَامِهَا .

الوقار المتكلف

وبعض الناسِ إذا انتهى إلى ذِكْرِ الحِرِّ والأَيْرِ والنيك ارتَدَعَ وأظهر التَّقَرُّزَ واستَعْمَلَ بابَ التَّوَرُّعِ وأكثرُ مَنْ
تَجَدَّه كَذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ العِفَافِ والكَرَمِ والثُّبُلِ والوَقَارِ إِلَّا بَقَلَرٍ هَذَا الشَّكْلُ مِنَ التَّصْنَعِ وَلَمْ
يُكْشَفْ قَطُّ صَاحِبُ رِيَاءٍ وَنِفَاقٍ إِلَّا عَنْ لَوْمٍ مُسْتَعْمَلٍ وَنَدَالَةٍ مَتَمَكِّنَةٍ . (تَسْمُحُ بعضُ الأئمةِ في ذِكْرِ أَلْفَاظِ
(وقد كان لهم في عبدِ اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ مَقْنَعٌ حِينَ سَمِعَهُ بعضُ الناسِ يُنْشِدُ في المَسْجِدِ الحَرَامِ : (سَقَطَ : بيت
الشعر) (وهنا ** إِنْ تَصَدَّقَ الطَّيْرُ تَكَ لَمِيسَا)

فَقِيلَ لَهُ في ذَلِكَ فَقَالَ : إِنَّمَا الرَّفَقْتُ مَا كَانَ عِنْدَ النِّسَاءِ .

وَقَالَ الصَّحَّاحُ : لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ رَفَقًا لَكَانَ قَطْعُ لِسَانِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَقُولَ هُجْرًا قَالَ شَيْبٌ بِنُ
يَزِيدُ الشَّيْبَانِي لَيْلَةَ بَيْتِ عَتَّابِ بْنِ وَرْقَاءَ : مَنْ يَنْكِحِ الْغَيْرَ يَنْكِحْ نَيْكًا وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
حِينَ دَخَلَ عَلَى بعضِ الأَمْرَاءِ فَقَالَ لَهُ : مَنْ فِي هَذِهِ الْبُيُوتِ فَلَمَّا قِيلَ لَهُ : عَقَائِلُ مِنْ عَقَائِلِ

العرب قال عليٌّ : مَنْ يَطْلُ أَيْرُ أَبِيهِ يَتَطَّقُ بِهِ .

فَعَلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يَعْوَلُ فِي تَتْرِيهِ اللفظ وتَشْرِيفِ المعاني .

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ قَالَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : جِئْنَا بِعَجْرَانِكَ
وَسُودَانِكَ وَلَوْ قَدْ مَسَّ هَؤُلَاءِ وَخَزُ السَّلَاحِ لَقَدْ أَسْلَمُوكَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَضِضْتُ بِظُرِّ
الْأَلَّتِ .

وقد رووا مرفوعاً قوله : مَنْ يُعَذِّبُنِي مِنْ ابْنِ أُمِّ سَبَاعٍ مُقَطَّعَةُ الْبُظُورِ . (لكلِّ مقام مقال) ولو كان ذلك الموضع موضع كناية هي المستعملة وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ موضع استعمالها أهل هذه اللغة وكان الرأي ألا يلفظ بها لم يكن لأوّل كونها معنى إلا على وجه الخطأ ولكان في الحزم والصون لهذه اللغة أن تُرفع هذه الأسماء منها .
وقد أصاب كل الصواب الذي قال : لكلِّ مقام مقال .

صورة من الوقار المتكلف

ولقد دخل علينا فتى حدث كان قد وقّع إلى أصحاب عبد الواحد بن زيد ونحن عند موسى بن عمران فدار الحديث إلى أن قال الفتى : أفطرت البارحة على رغيف زيتونة ونصف أو زيتونة وثلاث أو زيتونة وثلاثي زيتونة أو ما أشبه ذلك بل أقول : أكلت زيتونة وما علم الله من

أخرى فقال موسى : إن من الورع ما يُغصه الله علم الله وأظن ورعك هذا من ذلك الورع .
وكان العنبي ربما قال : فقال لي المأمون كذا وكذا حين صار التجم على قمة الرأس أو حين جازني شيئاً أو قبل أن يوازي هامتي هكذا هو عندي وفي أغلب ظني وأكره أن أجزم على شيء وهو كما قلت إن شاء الله تعالى وقريباً ثم نقلت فيتوقف في الوقت الذي ليس من الحديث في شيء وذلك الحديث إن كان مع طلوع الشمس لم يزد ذلك خيراً وإن كان مع غروبها لم ينقصه ذلك شيئاً هذا ولعل الحديث في نفسه لم يكن قط ولم يصل هو في تلك الليلة البتة وهو مع ذلك زعم أنه دخل على أصحاب الكهف فعرف عددهم وكانت عليهم ثياب سبئية وكلبهم ممعط الجلد وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : لو أطلعت عليهم لويت منهم فراراً ولميت منهم رعباً .

بعض نواذر الشعر

وسنذكر من نواذر الشعر جملة فإن نشطت لحفظها فاحفظها فإنها من أشعار المذاكرة قال الثقفى : (مَنْ كَانَ ذَا عَضُدٍ يُدْرِكُ ظِلَامَتَهُ * * * إِنْ الدَّلِيلَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ عَضُدٌ) (تَنْبُو يَدَاهُ إِذَا مَا قَلَّ نَاصِرُهُ * * * وَيَأْنِفُ الضَّمِيمَ إِنْ أَثَرَى لَهُ عَدَدٌ) وقال أبو قيس بن الأسلت :

(بَرُّ امْرِئٍ مُسْتَسِيلٍ حَازِرٌ * * * لِلدَّهْرِ جَلْدٌ غَيْرٌ مِجْزَاعٍ) (الْكَيْسُ وَالْقُوَّةُ خَيْرٌ مِنْ أَل * * * إِشْفَاقٍ وَالْفَهْمُ وَالْمَاعِ) وقال عبدة بن الطبيب : (رَبُّ حَبَانَا بِأَمْوَالٍ مُخَوَّلَةٍ * * * وَكُلُّ شَيْءٍ حَبَاهُ اللَّهُ تَحْوِيلُ) وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يردد هذا النصف الآخر ويعجب من جودة ما قسم .

وقال المتلمس : (وأعلم علمَ حقٍّ غيرَ ظنٍّ ** وتقوى الله من خير العتاد) (لحفظُ المال أيسر من بُغاهُ **
 وضرب في البلادِ بغيرِ زاد) (وإصلاحُ القليلِ يزيدُ فيه ** ولا يبتقى الكثيرُ معَ الفسادِ) وقال آخر :
 وحفظك مالا قد غنيتَ بجمعه ** أشدُّ من الجمع الذي أنت طالبه) وقال حميد بن ثور الهلالي : (أتشغلُ
 عنا يابنَ عمِّ فلن تری أcha ** البخل إلا سوف يعتلُّ بالشغل) وقال ابن أحر : (هذا الشناء وأجبر أن
 أصاحبه ** وقد يدوم ريق الطامع الأمل)

وقال ابن مقبل : (هل الدهرُ إلا تارتان فمِنهما ** أموت وأخرى أبتغي العيشَ أكدحُ) وقال عمرو بن
 هند : (وإن الذي ينهاكم عن طلابها ** يناغي نساءَ الحي في طرة البردِ) (يُعللُ والأيامُ تنقصُ عمره **
 كما تنقصُ النيران من طرف الزند)

وقال أُمَيَّة إن كان قالها : (ربما تجزعُ النفوس من الأم ** ر له فرجة كحلَّ العقال) شعر في الغزل وقال
 آخر : (رمّني وسترُ الله بيني وبينها ** عشيةَ آرام الكناسِ رميمُ) ألا ربَّ يومٍ لو رمّني رميتها ولكنَّ
 عهدِي بالتصالِ قديمُ رميمُ التي قالتَ لجاراتِ بيتها ضمنتَ لكم أن لا يزالَ يهيمُ وقال آخر : (لم أعطها
 بيدي إذ بتُ أرضفها ** إلا تطاولَ غصنُ الجيدِ للجيدِ)

(كما تطاعم في خضرَاء ناعمةٍ ** مطوّقانِ أصاحا بعد تغريدِ) فإن سمعتَ بهلكَ للبحيلِ فقلُّ بعداً وسُحقاً
 له من هالكٍ مُودي وقال أبو الأسود الدؤلي : (المرءُ يسعى ثم يدركُ مجده ** حتّى يُزيّنَ بالذي لم يفعلِ)
 وترى الشقيّ إذا تكاملَ غيّه ** يُرمى ويقذفُ بالذي لم يعملِ) (رئيسُ حروب لا يزالُ ريئنه ** مشيحُ
 على محقوقِ الصلْبِ مُلبّدِ) (صبور على رزءِ المصائبِ حافظٌ ** من اليوم أعقاب الأحاديث في غدِ)
 وهونٌ وجدي أني لم أقل له ** كذبتَ ولم أبخلُ بما ملكتَ يدي)

وقال سعيد بن عبد الرحمن : (وإن امرأ يمسي ويصبحُ سالماً ** من الناس إلا ما جنى لسعيدِ) وقال أكتهم
 بن صيفي : (تُربّي وهلكَ أبائنا ** وبيننا تُربّي بيننا فنيّنا) وقال بعضُ المحدثين : (فالآنَ أسمعُ
 للخطوبِ فلا ** يُلقي فؤادي من حَدَثٍ يجبُ) (قلبي الدهرُ في قواله ** وكلُّ شيءٍ ليومِهِ سببُ) وقال
 آخر : (ألا يا موتُ لم أرَ منكُ بدءاً ** أبيتُ فما تحيفُ ولا تُحايي) (كأنك قد هجمت على مشيبي **
 كما هجمَ المشيب على شبابي)

وقال آخر : (يا نفس خوضي بحارَ العلمِ أو غوصي ** فالناسُ من بينَ مَعْمومٍ ومَخْصوصِ) (لا شيء في
 هذه الدنيا يُحاط به ** إلا إحاطة منقوص بمنقوصِ) شعر في التشبيه وأنشدنا للأحيمر : (بأقْبَ منطلقِ
 اللبّانِ كأنه ** سيّدُ تنصّل من حُجور سعالِ) وقال الآخر : (أراقبُ لحاً من سهيلِ كأنه ** إذا ما بدا من
 دُجّة الليلِ يطرفُ) وقالوا : قال خلف الأحر : لم أرَ أجمعَ من بيتِ لامرئ القيس وهو قوله :

(أَفَادَ وَجَادَ وَسَادَ وَزَادَ ** وقاد وذاد وعادَ وأفضل) ولا أجمع من قوله : (لَهُ أَيُّطَلَا ظَنِّي وَسَاقَا نَعَامَةٍ **
وإرخاء سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَنْفُلٍ) وقالوا : ولم نر في التشبيه كقوله حين شبه شيتين بشيتين في حالتين مختلفين
في بيت واحد وهو قوله : (كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا ** لَدَى وَكُرْهَا الْعُنَابُ وَ الْحَشَفُ الْبَالِي)
قطعة من أشعار النساء وسند كُرْ قِطْعَةً من أشعار النساء قالت أعرابية : (رَأَتْ نَضْوَ أَسْفَارٍ أُمِيمَةً شَاحِبًا **
عَلَى نَضْوِ أَسْفَارٍ فَجَنَّ جُنُوهَا) (فَقَالَتْ مِنْ أَيِّ النَّاسِ أَنْتَ وَمَنْ تُكُنَّ ** فَإِنَّكَ مَوْلَى فِرْقَةٍ لَا تَزِينُهَا)

وقالت امرأة من خثعم : (فَإِنْ تَسْأَلُونِي مَنْ أُحِبُّ فَإِنِّي ** أُحِبُّ وَبَيْتَ اللَّهِ كَعَبَ بَنَ طَارِقٍ) (أَحَبُّ الْفَقِي
الْجَعْدَ السَّلُولِيَّ نَاضِلًا ** عَلَى النَّاسِ مُعْتَادًا لَضَرْبِ الْمَفَارِقِ) وقالت أخرى : (وَمَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا فِي الدَّارِ
خَالِدٍ ** وَأَقْبَحَهَا لَمَّا تَجَهَّزَ غَادِيَا) وقالت أُمُ فُرُوةَ الْغَطَفَانِيَّةِ : (فَمَا مَاءُ مَرْبِ أَيُّ مَاءٍ تَقُولُهُ ** تَحْدَرُ مِنْ غُرٍّ
طِوَالَ الذَّوَاتِبِ) (نَفَى نَسَمَ الرِّيحِ الْقَذَا عَنْ مَتُونِهِ ** فَمَا إِنْ بِهِ عَيْبٌ يَكُونُ لِعَائِبٍ) (بِأَطْيَبِ مِمَّنْ يَقْصُرُ
الطَّرْفَ دُونَهُ ** تَقَى اللَّهَ وَاسْتَحْيَا بَعْضَ الْعَوَاقِبِ)

وقال بعض العشاق : (وَأَنْتِ الَّتِي كَلَّفْتَنِي دَلَجَ السَّرَى ** وَجُونَ الْقَطَا بِالْجَلْهَيْنِ جُثُومُ) (وَأَنْتِ الَّتِي
أَوْرَثْتَ قَلْبِي حَرَارَةً ** وَقَرَحْتَ قَرَحَ الْقَلْبِ وَهُوَ كَلِيمٌ) (وَأَنْتِ الَّتِي أَسْخَطْتَ قَوْمِي فَكَلُّهُمْ ** بَعِيدُ
الرَّضَا دَانِي الصَّدُودِ كَظِيمُ) فقالت المعشوقة : (وَأَنْتِ اللَّيْ الَّذِي أَخْلَفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي ** وَأَشْمَتَ بِي مَنْ كَانَ
فِيكَ يَلُومُ) (وَأَبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ حَتَّى تَرْكَنِي ** لَهُمْ غَرَضًا أُرْمَى وَأَنْتِ سَلِيمُ) (فَلَوْ أَنَّ قَوْلًا يَكْلِمُ الْجِسْمَ قَدْ
بَدَأَ ** بِجِلْدِي مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ كُلُّوْمُ) وقال آخر : (شَهِدْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ أَنَّكَ غَادَةٌ ** رَدَّاحٌ وَأَنَّ الْوَجْهَ
مِنْكَ عَتِيقُ) (وَأَنَّكَ لَا تَجْزِينِي بِمَوَدَّةٍ ** وَلَا أَنَا لِلْهَجْرَانِ مِنْكَ مُطِيقُ)

فأجابته : (شَهِدْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ أَنَّكَ بَارِدُ الْ ** ثَنَاءٍ وَأَنَّ الْخَصْرَ مِنْكَ رَقِيقُ)
شعر مختار وقال آخر : (اللَّهُ يَعْلَمُ يَا مَغِيرَةَ أَنْبِي ** قَدْ دُسَّتْهَا دُوسُ الْحِصَانِ الْهَيْكَلِ) (فَأَخَذَهَا أَخَذَ
الْمَقْصَبُ شَاتَهُ ** عَجَلَانِ يَشْوِيهَا لِقَوْمٍ نُزِّلِ) وقال كعب بن سعد الغنوي : (وَحَدَّثَمَانِي أَنَّ الْمَوْتَ بِالْقُرَى
** فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَقَلْبُ)

(وَمَاءُ سَمَاءٍ كَانَ غَيْرَ مَجْمَمَةٍ ** بَرِيَّةٍ تَجْرِي عَلَيْهِ جَنُوبِ) (وَمَنْزِلَةٌ فِي دَارِ صَدَقٍ وَغِبْطَةٍ ** وَمَا أَقْتَالَ فِي
حُكْمٍ عَلَيَّ طَبِيبُ) وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ (رَئِيسُ حُرُوبٍ لَا يَزَالُ رَبِيبَةً ** مَشِيحٌ عَلَى مُحَقَّقِ الصُّلْبِ
مُلْبِدِ) (صَبُورٌ عَلَى رُزْءِ الْمَصَائِبِ حَافِظٌ ** مِنَ الْيَوْمِ أَعْقَابَ الْأَحَادِيثِ فِي غَدِ) (وَهُوَ وَجَدِي أَنْبِي لَمْ
أَقْلُ لَهُ ** كَذَبْتُ وَلَمْ أَبْخُلْ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي) قطع من البديع وقطعة من البديع قوله :

(يَتَبَعْنَ مِنْهُمْ جُلَالًا أَتْلَعَا ** أَدْمَكُ فِي مَاءِ الْمَهَاوِي مُنْقَعَا) وقال الراجز في البديع الحمود : (قَدْ كُنْتُ إِذْ
حَبْلُ صَبَاكِ مُدْمَشٍ ** وَإِذَا هَاضِبُ الشَّبَابِ تَبْعَشُ) ومن هذا البديع المستحسن منه قول حُجْرِ بْنِ خَالِدٍ
بن مرثد : (سَمِعْتُ بِفَعْلِ الْفَاعِلِينَ فَلَمْ أَجِدْ ** كَفَعْلِ أَبِي قَابُوسَ حَزْمًا وَنَائِلًا) (يُسَاقُ الْعَمَامُ الْغُرْمُ مِنْ كُلِّ
بَلَدَةٍ ** إِلَيْكَ فَأُضْحَى حَوْلَ بَيْتِكَ نَازِلًا)

(فأصبح منه كل واحدٍ حللته ** وإن كان قد خوى المربع سائلا) (فإن أنت تهلك يهلك الباع والنداء **
وتنصحي قلوص الحمد جرباء حائلا) (فلا ملك ما يبلغك سعيه ** ولا سوقة ما يمدحك باطلا) (صدق
الظن وجودة الفراسة) قال أوس بن حجر : (الألمي الذي يظن بك الظ ** ن كأن قد رأى وقد سمعا)
وقال عمر بن الخطاب : إنك لا تنتفع بعقل الرجل حتى تعرف صدق فطنته .

وقال أوس بن حجر : (مليح نجيح أخو مازق ** نقاب يحدث بالغائب) وقال أبو الفضة قاتل أحمرب بن
شيط : (فلا ياتكم خير يقين ** فإن الظن يقص أو يزيد) وقيل لأبي الهذيل : إنك إذا راوغت واعتلت
وأنت تكلم النظام وقمت فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه قال : خمسون شكاً خير من يقين
واحد وقال كثير في عبد الملك : (رأيت أبا الوليد عداة جمع ** به شيب وما فقد الشبا) (فقلت له ولا
أعيا جواباً : ** إذا شابت لدات المرء شبا) (ولكن تحت ذلك الشيب حرم ** إذا ما قال أمرض أو
أصابا) وليس في جودة الظن بيت شعر أحسن من بيت بلعاء بن قيس :

(وأبغى صواب الظن أعلم أنه ** إذا طاش ظن المرء طاشت مقاديره) وقال الله عز وجل : ولقد صدق
عليهم إبليس ظنه فاتبعوه .
وقال ابن أبي ربيعة في الظن : (ودعاني إلى الرشاد فزاد ** كان للغي مرة قد دعاني) (وتقلبت في الفراش
ولا نع ** لم إلا الظنون أين مكاني)

من مختار الشعر

وقال ابن أبي ربيعة في غير هذا الباب : (وخل كت عين النصح منه ** إذا نظرت ومستمعا مطيعا)
أطاف بغية فنهيت عنها ** وقلت له أرى أمراً شيعا) (أردت رشاده جهدي فلما ** أبى وعصى أتيها
جميعا) وقال معمر بن حمار البارقى :
(الشعر لب المرء يعرضه ** والقول مثل مواقع النبل) (منها المقصر عن رميته ** ونوافذ يذهب بالحصل)
(أبيات للمحدثين حسان) وأبيات للمحدثين حسان قال العتبي : (وكم نعمة آتاها الله جزلة ** مبراة
من كل خلق يذمها) (فسلطت أخلاقاً عليها ذميمة ** تعاورنما حتى تفرى أديهما) (وكت امرأ لو شئت
أن تبلى المدى ** بلغت بأدنى نعمة تستدئها) (ولكن فطام النفس أعسر محملاً ** من الصخرة الصماء
حين ترومها)

وقال أيضاً : (وكت امرأ هيا به تستغزني ** رضاعي بأدنى ضجعة أستليها) (أوفي أمير المؤمنين بهمة **
توقل في نيل المعالي فتوئها) (رعى أمة الإسلام فهو إمامها ** وأدى إليها الحق فهو أمينها) (ويستريح
العماء حتى كأنما ** تغلغل في حيث استقر جنيها) (وما كل موصوف له يهتدي ** ولا كل من أم
الصوى يستبينها) (مقيم بمستن العلا حيث تلتقي ** طوارف أبقار الخطوب وغونها) وقال الحسن بن

هاني : (قُولاً لهارون إمام الهدى * عند احتفال المجلس الحاشد) (نصيحة الفضل وإشفائه * أحلى له وجهك من حاسد) (بصادق الطاعة ديّانها * وواحد الغائب والشاهد)

(أنتَ على ما بك من قُدرة * ما أنتَ مثل الفضل بالواجد) (وليس على الله بمستكر * أن يجمع العالم في واحد) وقال عديُّ بن الرِّقاع العاملي : (وقصيدة قد بُتُّ أجمعُ بيّتها * حتى أقومَ ميلها وسنادها) (نظرَ المثقف في كُحوب قناته * حتى يُقيمَ ثقافته مُنادها) (وعلمتُ حتى لستُ أسألُ عالماً * عن حرفٍ واحدةٍ لكي أزدادها) (صلى الإله على امرئٍ ودّعه * وأتمَّ نعمته عليه وزادها)

شعر لبنـت عدي بن الرقاع

قال : واجتمع ناسٌ من الشعراء باب عديّ بن الرقاع يُريدون مُماتنته ومُساجلته فخرجت إليهم بنتٌ له صغيرة فقالت : (تجمّعن من كلِّ أوبٍ ومنزل * على واحدٍ لا زلتم قرناً واحد)

شعر لعبد الرحمن الأنصاري وهو صغير وقال عبدُ الرحمن بن حسان الأنصاري وهو صغير : (الله يعلم أنّي كنتُ مُشتغلاً * في دارِ حسانٍ أصطادُ البعاسيا) وقال لأبيه وهو صبيٌّ ورجع إليه وهو يبكي ويقول : لسعني طائر قال : فصفه لي يا بنيّ قال وكان الذي لسهه زنبوراً .

شعر سهل بن هارون وهو صغير

وقال سهلُ بن هارون وهو يختلف إلى الكتابِ لجارٍ لهم : (بُيّتَ بَعْلُكَ مَبْطُوناً فَقُلْتَ لَهُ * فهل تَمَاتِلُ أو نَأْتِيهِ عَوَاداً) وقال طرفة وهو صبيٌّ صغير : (يا لَكَ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ * خلا لكِ الجوّ فيضي واصفري) وقال بعض الشعراء : (إذا ما ماتَ مَيِّتٌ مِنْ تَمِيمٍ * فسَرَكَ أن يَعِيشَ فجئِ بَراد)

(بخبزٍ أو بلحمٍ أو بِسْمَنِ * أو الشيء الملقف في البجاد) (تراه يطوف بالآفاق حرّصاً * ليأكل رأسَ لُقمان بن عاد) وقال الأصمعي : الشيء الملقف في البجاد : الوطْب . وقال أعرابيٌّ : ألا بَكَرَتْ تَلَحَّى قَتِيلَةً بَعْدَما بدا في سوادِ الرأسِ أبيض واضح (لثدرك بالإمساك والمنع ثروة * من المال أفنتها السنون الجوائح) (فقلت لها : لا تعذليني فإنما * بذكر التّدى تبكي عليّ النوائح) وقال بشراً أبياتاً تجوز في المذاكرة في باب المني وفي باب الحزم وفي باب المشورة وناسٌ يجعلونها للجمع جاع الأزدي وناسٌ يجعلونها لغيره وهي قوله :

(إذا بلغَ الرّأي المشورة فاستعن * برأيٍ نصيحٍ أو نصيحة حازم) (ولا تحسب الشورى عليك غصاصة * مكان الخوافي رافداً للقوادم) (وأذن من القرْبى المقرّب نفسه * ولا تُشهد الشورى امرأً غيرَ كاتِم) (وما خيرُ كفٍّ أمسك الغلُّ أختها * وما خيرُ نصلٍ لم يؤيد بقائم) (فإنك لا تستطردُ بهم بالمني * ولا

تَبْلُغُ الْعَلِيَا بَعِيرِ الْمَكَارِمِ (وقال بعض الأنصار : (وَبَعْضُ خَلَائِقِ الْأَقْوَامِ دَاءٌ ** كَدَاءِ الشَّيْخِ لَيْسَ لَهُ شِفَاءُ)
(وَبَعْضُ الْقَوْلِ لَيْسَ لَهُ عِنَاجٌ ** كَمَخْضِ الْمَاءِ لَيْسَ لَهُ إِتَاءُ) وقال تَأْبُطْ شَرًّا إِنَّ كَانَ قَالَهَا :

(شَامِسٌ فِي الْقَرِّ حَتَّى إِذَا مَا ** ذَكَتِ الشَّعْرَى فَبَرْدٌ وَظِلٌّ) (وَلَهُ طَعْمَانٍ : أَرِيَّ وَشَرِيَّ ** وَكِلَا الطَّعْمَيْنِ
قَدْ ذَاقَ كُلُّ) (مُسْبِلٌ فِي الْحَيِّ أَخَوَى رِفْلٌ ** وَإِذَا يَغْدُو فَيَسْمَعُ أَزْلٌ) (مُطَرِّقٌ يَرْشَحُ سُمًّا كَمَا ** أَطَرَقَ
أَفْعَى يَنْقُثُ السَّمَّ صِلٌ) (خَيْرٌ مَا نَابَنَا مُصْمِلٌ ** جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الْأَجَلُ)

(كُلُّ مَاضٍ قَدْ تَرَدَّى بِمَاضٍ ** كَسَنَّا الْبَرْقَ إِذَا مَا يُسَلُّ) (فَاسْقِنِيهَا يَا سَوَادَ بْنَ عَمْرٍو ** إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ
خَالِي لَخُلٌ) (وقال سلامة بن جندل : (سَأَجْزِيكَ بِالْوَدِّ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ** أَصْغَعُ إِنِّي سَوْفَ أَجْزِيكَ
صَغَصَا) (سَاهِدِي وَإِنْ كُنَا بِثَلَاثٍ مَدْحَةً ** إِلَيْكَ وَإِنْ حَلَّتْ يُبُوتُكَ لَعْلَعَا) (فَإِنْ يَكُ مُحَمَّدًا أَبُوكَ فَإِنَّا
** وَجَدْنَاكَ مَحْمُودَ الْخَلَائِقِ أَرْوَعَا) (فَإِنْ شِئْتَ أَهْدِينَا ثَنَاءً وَمَدْحَةً ** وَإِنْ شِئْتَ أَهْدِينَا لَكُمْ مَائَةً مَعَا)
فقال صغصعة بن محمود بن بشر بن عمرو بن مرثد : الثَّنَاءُ وَالْمَدْحَةُ

أَحَبُّ إِلَيْنَا وَكَانَ أَحْمَرُ بْنُ جَنْدَلٍ أَسِيرًا فِي يَدِهِ فَخَلَّى سَبِيلَهُ مِنْ غَيْرِ فِدَاءٍ .
وقال أوس بن حجر في هذا الشكل من الشعر وهو يقع في باب الشكر والحمد : (لَعْمُوكَ مَا مَلَّتْ ثَوَاءَ
ثَوِيَّهَا ** حَلِيمَةٌ إِذْ أَلْقَى مَرَايِي مُقْعَدٍ) (وَلَكِنْ تَلَقَّتْ بِالْيَدَيْنِ ضِمَانِي ** وَحَلَّ بِفَلَجٍ فَالْقِنَافِذُ غَوْدِي) (
ولم تُلْهِهَا تِلْكَ التَّكَالِيفُ إِنِّهَا ** كَمَا شِئْتَ مِنْ أَكْرُومَةٍ وَتَخَرَّدَ) (سَأَجْزِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنِّي مَثُوبٌ **
وَحَسْبُكَ أَنْ يُثْنَى عَلَيْكَ وَتُحْمَدِي)

وقال أبو يعقوب الأعور : (فَلَمْ أَجْزِهِ إِلَّا الْمَوَدَّةَ جَاهِدًا ** وَحَسْبُكَ مِنِّي أَنْ أَوَدَّ وَأَجْهَدَا)

من شعر الإيجاز

وأبيات تضاف إلى الإيجاز وحذف الفضول قال بعضهم ووصف كلاباً في حال شدِّها وعدوِّها وفي سرعة
رفع قوائمها ووضعها فقال : كَأَنَّمَا تَرَفَّعُ مَا لَمْ يُوضَعْ وَوَصَفَ آخَرُ نَاقَةً بِالنَّشَاطِ وَالْقُوَّةِ فَقَالَ : خَرَقَاءُ إِلَّا
أَمَّا صَنَاعَ وَقَالَ الْآخَرُ : اللَّيْلُ أَخْفَى وَالنَّهَارُ أَفْضَحُ وَوَصَفَ الْآخَرُ قَوْسًا فَقَالَ :

وقال الآخر : (وَمَهْمَهُ فِيهِ السَّرَابُ يَسْبَحُ ** كَأَنَّمَا دَلِيلُهُ مَطْوَحٌ) (يَدَّابُ فِيهِ الْقَوْمُ حَتَّى يَطْلَحُوا **
كَأَنَّمَا بَاتُوا بِحَيْثُ أَصْبَحُوا) ومثل هذا البيت الأخير قوله : (وَكَأَنَّمَا بَدْرٌ وَصِيلُ كُفَيْفَةٍ ** وَكَأَنَّمَا مِنْ
عَاقِلٍ أَرْمَامٌ) ومثله : (تَجَاوَزْتُ حُمْرَانَ فِي لَيْلَةٍ ** وَقُلْتُ قُسَاسٍ مِنَ الْحَرْمَلِ) ومن الباب الأول قوله : (
عَادَنِي اهُمُّ فَاعْتَلَجَ ** كُلُّ هَمٍّ إِلَى فَرْجٍ) وهذا الشعر لجعفر بن الميسر .
وقال الآخر :

(لم أَقْضِ من صَحْبَةِ زَيْدٍ أَرَبِيٍّ * فتى إذا تَبَهَّتْه لم يَغْضَبِ) (أَيْضُ بَسَامٍ وإن لم يعجب * ولا يَضِنُّ بالمتاع الخَقْبِ) (مُوَكَّلُ النَّفْسِ بِحِفْظِ الْغَيْبِ * أَقْصَى رَفِيقِهِ له كالأَقْرَبِ) (وَقَدْ تَعَلَّلْتُ ذَمِيلَ الْعَنْسِ * بالسَّوْطِ في دَيْمُومَةٍ كالتَّرْسِ) إذْ عَرَّجَ اللَّيْلَ بروجِ الشَّمْسِ وقال دُكَيْنٌ أَيْضاً : بِمَوْطِنٍ يُنْبِطُ فِيهِ الْمُخْتَسِي بِالْمَشْرِقِيَّاتِ نَطَافُ الْأَنْفَسِ

وقال الراجز : (طَالَ عَلَيْهِنَّ تَكَالِيفُ السَّرَى * والتَّصُّ في حِينِ الْهَجِيرِ والصَّحَى) (حَتَّى عُجَاهُنَّ فَمَا تَحْتَ الْعُجَى * رَوَاعِفُ يَخْضِبُنَّ مَيْضُ الْحَصَى) في هذه الأرجوزة يقول : وَضَحَكَ الْمَرْنُ بِهَا ثُمَّ بَكَى وَمِنَ الْإِيْجَازِ الْخُذُوفُ قَوْلُ الرَّاجِزِ وَوَصَفَ سَهْمَهُ حِينَ رَمَى غَيْراً كَيْفَ نَفَذَ سَهْمَهُ وَكَيْفَ صَرَعَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ : حَتَّى نَجَا مِنْ جُوفِهِ وَمَا نَجَا (شَعَرَ فِي الْإِتْعَازِ وَالزَّهْدِ) (أَنْتَ وَهَبْتَ الْفَتِيَّةَ السَّلَاحِيبُ * وَهَجُمَةً يَحَارُ فِيهَا الطَّالِبُ)

(وَغَنَمًا مِثْلَ الْجَرَادِ السَّارِبِ * مَتَاعَ أَيَّامٍ وَكُلَّ ذَاهِبٍ) ومثله قولُ المسعودي : (أَحْلَفُ وَأَنْطَفُ كُلُّ شَيْءٍ * زَعْرَعَتُهُ الرِّيحُ ذَاهِبٌ) وقال القُدارُ وَكَانَ سَيِّدَ عَزَّةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ : (أَهْلَكْتُ مُهْرِي فِي الرَّهَانِ لِحَاجَةٍ * وَمِنَ اللَّحَاجَةِ مَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ) قال : وَسمعت عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ينشد وكان فصيحاً : (إذا أَنْتَ لم تَنْفَعِ فَضُرَّ فَإِنَّمَا * يُرْجَى الْفَتَى كَيْمَا يَضُرُّ وَيَنْفَعَا) وقال الأَخْطَلُ : (شَمْسُ الْعِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَفَادَ لَهُمْ * وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدَرُوا)

وقال حارثة بن بدر : (طَرِبْتُ بِفَاثُورٍ وَمَا كَدْتُ أَطْرُبُ * سَفَاهَاً وَقَدْ جَرَّبْتُ فِيمَنْ يَجْرِبُ) (وَجَرَّبْتُ مَاذَا الْعَيْشُ إِلَّا تَعَلَّةٌ * وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مَنْجُونٌ يَقْلَبُ) (وَمَا الْيَوْمُ إِلَّا مِثْلُ أَمْسٍ الَّذِي مَضَى * وَمِثْلُ غَدٍ الْجَائِيِ وَكُلُّ سَيِّدٍ ذَاهِبٌ) (إِذَا أَلْهَمَ أَمْسَى وَهُوَ دَاءٌ فَأَلْقَهُ * وَلَسْتُ بِمُضْطَّهِ وَأَنْتَ تَعَادِلُهُ) (فَلَا تُتْرَلْنَ أَمْرَ الشَّدِيدَةِ بِأَمْرِي * إِذَا رَامَ أَمْرًا عَوَّقْتُهُ عَوَازِلُهُ) (وَقُلْ لِلْفُؤَادِ إِنْ نَزَا بِكَ نَزْوَةٌ * مِنَ الرُّوْعِ أَفْرُخُ أَكْثَرُ الرُّوْعِ بِأَطْلُهُ) (شَعَرَ فِي الْغَزْوِ) وقال الحارث بن يزيد وهو جدُّ الأَحِمِرِ السَّعْدِيِّ وَهُوَ يَقَعُ فِي بَابِ الْغَزْوِ وَتَمَدُّحِهِمْ بَعْدَ الْمَغْرَى : (لَا لَا أَعْقُ وَلَا أَحُو * بَ لَا أَغِيرُ عَلَى مُضَرٍّ) (لَكِنَّمَا غَرَوِي إِذَا * ضَجَّ الْمَطِيُّ مِنَ الدَّبْرِ) وقال ابن مَخْضُ الْمَازِنِيُّ :

(إِنْ تَكْ دِرْعِي يَوْمَ صَحْرَاءٍ كُليَّةٍ * أُصِيبْتُ فَمَا ذَاكُمُ عَلَيَّ بَعَارِ) (أَلَمْ تَكْ مِنْ أَسْلَابِكُمْ قَبْلَ ذَاكُمُ * عَلَى وَقَبِي يَوْمًا وَيَوْمَ سَفَارِ) (فَتِلْكَ سَرَابِيلُ ابْنِ دَاوُدَ بَيْنَنَا * عَوَارِيُّ وَالْأَيَّامُ وَغَيْرُ قِصَارِ) (وَنَحْنُ طَرْدُنَا الْحَيَّ بِكَرْبَنٍ وَائِلٍ * إِلَى سَنَةِ مِثْلِ الشَّهَابِ وَنَارِ) (وَمُؤْمٍ وَطَاعُونَ وَحُمَى وَحَصْبَةٍ * وَذِي لَبْدٍ يَعْشَى الْمَهْجَهَجَ ضَارِي)

وقال آخر : (خُذُوا الْعَقْلَ إِنْ أَعْطَاكُمْ الْقَوْمُ عَقْلَكُمْ * وَكُونُوا كَمَنْ سِيمَ الْهَوَانَ فَأَرْتَعَا) (وَلَا تُكْثِرُوا فِيهَا الضَّجَاجَ فَإِنَّهُ * مَحَا السَّيْفَ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ أَجْمَعَا) وقال أبو لَيْلَى : (كَأَنَّ قَطَاثًا كُرْدُوسُ فَحَلَّ * مَقْلَصَةً عَلَى سَاقِي ظَلِيمٍ)

شعر في السيادة

وقال أبو سلمى : (لا بدّ للسُّودد من أرماح ** ومن سفيه دائم الثُّباح)

ومن عديدي يتقى بالراح وقال الهذلي : (وإن سيادة الأقوام فاعلم ** لها صعداء مطلبها طويل) وقال حارثة بن بدر وأنشده سفيان بن عُيينة : (خلّت الديار فسدت غير مسودد ** ومن الشقاء تفردى بالسودد) وقال أبو نخيلة : (وإن بقوم سودوك لفاقه ** إلى سيد لو يظفرون بسيد) وقال إياس بن قتادة في الأحنف بن قيس : (وإن من السادات من لو أعطته ** دعاك إلى نار يفور سعيها) وقال حميضة بن حذيفة : (أظلمهم قسراً فتباً لسعيه ** وكل مطاع لا أباك يظلم)

وقال آخر : (فأصبحت بعد الحلم في الحي ظالماً ** تخمط فيهم والمسود يظلم) وكان أنس بن مدركة الخثعمي يقول : (عزمت على إقامة ذي صباح ** لأمر ما يسود من يسود) وقال الآخر : (كما قال الحمار لسهم رام ** لقد جمعت من شيء لأمر) وقال أبو حية : (إذا قلن كلاً قال والنفع ساطع ** بلى وهو واه بالجرأ أباجله) (إني رأيت أبا العوراء مرتفقاً ** بشط دجلة يشري التمر والسمكا) (كشدة الخيل تبقى عند مذودها ** والموت أعلم إذ قفي بمن تركا) (هذه مساعيك في آثار سادتنا ** ومن تكن أنت ساعيه فقد هلكا)

وقال شتيم بن خويلد أحد بني غراب بن فزارة : (وقلت لسيدنا يا حليم ** إنك لم تأس أسواً رفيقاً) (أعنت عدياً على شأوها ** تُعادي فريقاً وتُبقي فريقاً) (زحرت بها ليلة كلها ** فجئت بها مؤيداً خنفيقاً) وقال ابن ميادة : (أتيت ابن قشراء العجان فلم أجد ** لدى بابهِ إذناً يسيراً ولا نُزلاً) (وإن الذي ولاك أمر جماعة ** لأنقص من يمشي على قدم عقلا)

شعر في الجحد والسيادة

وقال آخر : (ورثنا الجحد عن آباء صديق ** أسأنا في ديارهم الصنيعة)

(سقط : بيت الشعر) (إذا الجحد الرفيع تعاورته ** بناة السوء أوشك أن يضيعة) وقال الآخر : (إذا المرء أترى ثم قال لقومه ** أنا السيد المفضى إليه المعم) (ولم يعطهم خيراً أبوا أن يسودهم ** وهان عليهم رغمه وهو أظلم) وقال الآخر : (تركت لبحر درهميه ولم يكن ** ليدفع عني خلتي درهمها بحر) (قلت لبحر خذهما واصطر فهما ** وأنفقهما في غير حمد ولا أجر) (أمتنع سؤال العشيرة بعد ما ** تسميت بحراً وأكيت أبا العمر) وقال الهذلي : (وكنت إذا ما الدهر أحدث نكبة ** أقول شوى ما لم يُصبن صميمي)

وقال آخر في غير هذا الباب : (سقى الله أرضاً يعلم الضَّبُّ أنَّها ** بعيدٌ من الأدواء طيبة البقل) (بنى بيته في رأس نَشْرٍ وكُدْيَةٍ ** وكلُّ امرئٍ في حِرْفَةِ العِيشِ ذو عقل)

أبو الحارث جمين والبرذون

وحدثني المكِّيُّ قال : نظر أبو الحارث جُمَيْن إلى برذون يُسْتَقَى عليه ماءٌ فقال : المرء حيث يضع نفسه هذا لو قد همجَلج لم يبتل بما ترى (بين العقل والحِط) وقال عبد العزيز بن زُرارة الكلابي : (وما بُب اللَّيْب بغير حظٍّ ** بأعنى في المعيشة من قَتيل) (رأيت الحِطَّ يسترُ كلَّ عَيْبٍ ** وهَيَّاتَ الحُطُوظ من العقول)

(هجو الخلف) وقال الآخر : (ذهبَ الَّذِينَ أُحِبُّهُمْ سَلَفًا ** وبقيت كالمقهور في خَلْفٍ) (من كلِّ مطويٍّ على حَقٍّ ** مُتَضَجِّعٌ يُكْفَى ولا يَكْفِي) (عبد العين) وقال آخر : (ومولى كَعْبَدِ العَيْنِ أَمَّا لِقَاؤُهُ ** فيَرْضَى وأَمَّا غِيْبُهُ فَظُنُونُ) ويقال للمرائي ولمن إذا رأى صاحبه تحرك له وأراه الخدمة والسرعة في طاعته فإذا غاب عنه وعن عينه خالف ذلك : إنَّما هو عَبْدُ عَيْنٍ .

وقال الله عزَّ وجلَّ : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً .

من إيجاز القرآن

وقد ذكرنا أبياتاً تُضَاف إلى الإيجاز وقلة الفضول ولي كتابٌ جَمَعَتْ فيه آياً من القرآن لتعرفَ بها فصل ما بين الإيجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات فإذا قرأتما رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبتُه لك في باب الإيجاز وترك الفضول فمنها قوله حين وصفَ حمرَ أهل الجنة : لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ وهاتان الكلمتان قد جَمَعْتَا جميعَ عُيوبِ حمرِ أهل الدنيا . وقوله عزَّ وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال : لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . جمع بهاتين الكلمتين جميعَ تلك المعاني .

وهذا كثيرٌ قد دلتك عليه فإن أردته فموضعه مشهور . وقال أعرابي من بني أسد : (يَقُولُونَ ثَمَرٌ ما اسْتَطَعْتَ وإنما ** لِوَارِثِهِ ما ثَمَرَ المَالُ كاسِبُهُ) (فكلُّهُ وأطعمهُ وخالِسُهُ وارثاً ** شحيحاً ودهراً تَعْتَرِيكَ نوائِبُهُ)

شعر في الهجاء

(

وقال رجلٌ من بني عَبَسَ : (أبلغُ قُرَاداً لقد حَكَمْتُمُ رجلاً ** لا يَعْرِفُ النَّصْفَ بل قد جَاوَزَ النَّصْفَ) (كان امرأً ثائراً والحقُّ يَغْلِبُهُ ** فجاءَ السَّهْلُ السَّهْلَ الحَقُّ واعتسفا) (وذاكمُ أنْ ذُلَّ الجارُ حالفكمُ ** وأنْ أنفَكُمُ لا يَعْرِفُ الأنفا) (إنَّ الحَكَمَ ما لَمْ يَرْتَقِبْ حَسَباً ** أو يَرْهَبِ السَّيْفُ أو حدَّ القنا جنفاً) (مَنْ لاذ بالسَّيْفِ لاقى قَرْصَهُ عجباً ** موتاً على عَجَلٍ أو عاش مُتَنَصِّفاً) (ببيعوا الحياةَ بها إذ سام طالبها ** إمّا رَواحاً وإمّا مِتَةً أنفا)

(ليس امرؤُ خالداً والموتُ يطلبُهُ ** هاتيك أجسادُ عادٍ أصبحتُ جيفاً) (أبلغُ لديك أبا كعب مغلغلةً ** أن الذي بيننا قد مات أو دنفا) (إني لأعلمُ ظَهَرَ الضَّغْنِ أعدله ** عني وأعلمُ أني آكلُ الكنفا)

شعر حكيمى

(وقال أسقفُ نجران : منعَ البقاءَ تصرُّفُ الشمسِ وطلوعُها من حيثُ لا تُمسي وطلوعُها بِيضاءَ صافيةً وغروبُها صفراءُ كالورسِ اليوم أعلم ما يحيى بهِ ومضى بفصلِ قضائه أفس)

وقال عبيدُ بن الأبرص : (وكلُّ ذي غِيبةٍ يَؤُوبُ ** وغائبُ الموتِ لا يَؤُوبُ) (مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ ** وسائلُ اللَّهِ لا يَخِيبُ) (وعاقِرٌ مثلُ ذاتِ رَحِمٍ ** وغانمٌ مثلُ مَنْ يَخِيبُ) (أَفْلَحَ بما شَتَّ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضِّ ** غفَ وَقَدْ يُخَدَعُ الأريبُ) (المرءُ ما عاش في تَكْذِيبٍ ** طُولُ الحِياةِ لَهُ تَعْذِيبُ) وقال آخر : (وَجَعَلْتُ أَوْصَابُهَا تَعْتَادُهَا ** فَهِيَ زُرُوعٌ قد دنا حَصَادُهَا)

مرثية في محمد المخلوع

وقال بنت عيسى بن جعفر وكان مُمْلَكَةً لِمُحمَّدٍ المخلوع حينَ قتل : (

(أَبْكِكَ لا لِلنَّعِيمِ والأَنسِ ** بَلْ لِلْمَعَالِي والرُّمَحِ والفَرَسِ) (أبكي على فارسٍ فُجِعْتُ بهِ ** أرْمَلَنِي قَبْلَ لَيْلَةِ العَرَسِ)

من نعت النساء

وقال سلمُ الخاسر : (تَبَدَّتْ فَقَلْتُ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا ** بِجِدِّ نَقْيِ اللَّوْنِ من أثرِ الورسِ) (فلما كَرَّرْتُ الطَّرْفَ قلت لصاحبي ** على مِرْيَةٍ : ما هاهنا مطلعُ الشمسِ)

شعر رثاء

وقال الآخر : (كفى حزنًا بدفكك ثم أني ** نفضتُ ترابَ قبرك عن يدَيَا) (وكانت في حياتك لي عظامٌ
** وأنتَ اليومَ أوعظُ منك حيًّا) قال مزاحمُ العقيلي : (يزين سنا الماوي كلَّ عشيةٍ ** على غفلاتِ الزَّينِ
والمُتجَمِّلِ) (وجوهٌ لو أنَّ المدلجينَ اعتشوا بها ** صدعنَ الدُّجى حتَّى ترى اللَّيلَ ينجلي) وقال الشَّمرَدل :
(إذا جرى المسكُ يندى في مفارِقِهِمْ ** راحوا كأنهمُ مرضى من الكرمِ)

(يشبهونَ ملوكًا من تجلَّتْهُمْ ** وطولِ أنضيةِ الأعناق والأُممِ) النضي : السَّهم الذي لم يُرش يعني أن
أعناقهم مُلسٌ مستوية والأُمم : القامات .
وقال القتال الكلابي : (يا ليتني والمنى ليست بنافعةٍ ** للملك أو لحصنٍ أو لسيَّارِ) (طوال أنضيةِ الأعناق
لم يجدوا ** ريحَ الإماء إذا راحت بأزفارِ) (لم يرَضَعوا الدَّهرَ إلا ثديً واضِحَةً ** لواضحِ الوجهِ يحمي
باحةَ الدَّارِ) وقال آخر : (إذا كان عقلُ قلتُم إنَّ عقلنا ** إلى الشَّاء لم تُحللْ علينا الأباغرُ) (وإنَّ امرأً
بعدي يُبادلُ ودَّكمُ ** بوَدِّ بني ذبيان مولى لخاسرِ)

(سقط : بيت الشعر) (أولئك قوم لا يهان هديهم ** إذا صرحت كحل وهبت أعاصر) (مَذالِق بالخليل
العناق إذا عدوا ** بأيديهمُ خطبةً وبواترُ)

وقال أبو الطَّمَحان القيني في المعنى الذي ذكرنا : (كم فيهم من سيِّد وابنِ سيِّد ** وفي بَعْدِ الجارِ حينَ
يُفارقه) (يكاد العمامُ الغُرُّ يرعدُ أن رأى ** وجوهَ بني لأمٍ وينهلُ بارقه) وقال لقيطُ بن زُرارة : (وإني
من القومِ الذين عَرَفْتُم ** إذا مات منهم سيِّدٌ قامَ صاحبه) (نجومُ سماءٍ كلما غار كوكبٌ ** بدا كوكبٌ
تأوي إليه كواكبه) (أضاءتْ لهمُ أحسابهمُ ووجوههمُ ** دجى اللَّيلِ حتَّى نَظَمَ الجرعُ ثاقبه) وقال بعض
التميميِّين يمدح عوفَ بنَ القَعْقاع بنِ مَعْبِد بن زُرارة : (بحقِّ امرئٍ سرو عتية خاله ** وأنتَ لَقَعْقاعُ
وعَمَّك حاجبُ) (دراري نجومٍ كلما انقضَّ كوكبٌ ** بدا كوكبٌ ترفضُّ عنه الكواكبُ)

وقال طفيلُ الغنوي : (وكان هُرَيْمٌ من سِنانِ خَلِيفَةٍ ** وعمرو ومن أسماءَ لما تَغَيَّبوا) (نجومُ ظلامٍ كلما
غاب كوكبٌ ** بدا ساطعاً في حِلسِ اللَّيْلِ كوكبٌ) (بقيَّةُ أقمارٍ من الغُرِّ لو خَبَتْ ** لَطَلَّتْ مَعْدُ في
الدُّجى تَنكَّسَعُ) (إذا قمرٌ منهم تَغَوَّرَ أو خبا ** بدا قمرٌ في جانبِ اللَّيْلِ يَلْمَعُ) وقال بعضُ غنيٍّ وهو يمدح
جماعةَ إخوة أنشدنيها أبو قطن الذي يقال له شهيد الكرم : (حَبَّرَ ثناءَ بني عمرٍ و فائِهِمُ ** أولو فضولٍ
وأثقالٍ وأخطارٍ) (إن يُسألوا الحَيْرُ يُعطوه وإن جُهِدوا فالجُهدُ يُخرجُ منهم طيبَ أخبارٍ)

وإن تَوَدَّدْتَهُمْ لاثُوا وإن شهِمُوا كَشَفَتْ أذمارَ حربٍ غيرَ أَعْمارٍ من تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقُلَ لاقِيَتُ سيِّدَهُمْ مِثْلُ
التَّجُومِ التي يسري بها السَّاري وقال رجلٌ من بني هُشَل : (إني لمن مَعَشَرَ أَفْنَى أوائلِهِمْ ** قيلُ الكُمَاةِ ألا
أينَ الحامُونَا) (لو كان في الألفِ مَنَّا واحدٌ فدَعَوْا ** من فارسٍ خالَهُمُ إِيَّاهُ يَعْنُونَا) (وليسَ يَذْهَبُ مِنَّا سيِّدٌ
أَبداً ** إلا افتلينا غلاماً سيِّداً فينا) وفي المعنى الأوَّل يقول التابغة الذبياني : (وذلك لأنَّ اللهَ أعطاك سورةً
** ترى كُلَّ مُلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبذبُ) (بأنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ** إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكبٌ) (

وَأَتَيْتُ حَيًّا فِي الْحُرُوبِ مُحَلِّهِمْ ** وَالْجَيْشُ بِاسْمِ أَبِيهِمْ يُسْتَهْزَمُ (فِي ذَلِكَ يَقُولُ الْفَرَزْدَقُ : (لَتَبُكَ وَكَيْعًا خَيْلٌ لَيْلٍ مُغِيرَةٌ ** تَسَاقَى السَّمَامَ بِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ)

(لَقُوا مِثْلَهُمْ فَاسْتَهْزَمُوهُمْ بِدَعْوَةٍ ** دَعَوْهَا وَكَيْعًا وَالرَّمَا حُ بِهِمْ تَجْرِي) وَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ : تَخَامِلُ الْمُحْتَدُ أَوْ هَزَامٌ فَإِنَّمَا ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ إِذَا قَامَ بِهَا خَامِلُ الذَّكَرِ وَالنَّسَبِ فَلَا يَحْسُدُهُ مِنْ أَكْفَانِهِ أَحَدٌ وَأَمَّا إِذَا قَامَ بِهَا مَذْكُورٌ يَبْنِي التَّقِيَّةَ وَالظَّفَرَ الْمُتَابِعَ فَذَلِكَ أَجُودُ مَا يَكُونُ وَأَقْرَبُ إِلَى تَمَامِ الْأَمْرِ .
وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ : (تَصَرَّمَ مَنِّي وَدَّ بَكْرَ بْنَ وَائِلٍ ** وَمَا كَانَ وَدِّي عَنْهُمْ يَتَصَرَّمُ) (قَوَارِصُ تَأْتِيَنِي وَيَحْتَقِرُونَهَا ** وَقَدْ يَمْلَأُ الْقَطْرُ الْأَنَاءَ فَيَفْعَمُ) وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ : (وَقَالَتْ أَرَاهُ وَاحِدًا لَا أَخَا لَهُ ** يَوْمَلَهُ فِي الْوَارِثِينَ الْأَبَاعُدُ)

(لَعَلَّكَ يَوْمًا أَنْ تَرِنِي كَأَنَّمَا ** بَنِي حَوَالِي الْأَسْوَدُ الْخَوَارِدُ) وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ أَيْضًا : (فَإِنْ كَانَ سَيْفٌ خَانٌ أَوْ قَتَرَ أَتَى ** لِمِيقَاتِ يَوْمٍ حَتْفُهُ غَيْرُ شَاهِدٍ) (فَسَيْفُ بَنِي عَبَسَ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ ** نَبَا بِيَدَيْ وَرَقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدٍ) (كَذَاكَ سَيْوْفُ الْهِنْدِ تَنْبُو طِبَائُهَا ** وَيَقْطَعُنَ أحيانًا مَنَاطَ الْقَلَائِدِ)

خَيْرُ قِصَارِ الْقِصَائِدِ وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَرَوِي مِنْ قِصَارِ الْقِصَائِدِ شِعْرًا لَمْ يُسَمَعْ بِمِثْلِهِ فَالْتَمِسْ ذَلِكَ فِي قِصَارِ قِصَائِدِ الْفَرَزْدَقِ فَإِنَّكَ لَمْ تَرَ شَاعِرًا قَطُّ يَجْمَعُ التَّجْوِيدَ فِي الْقِصَارِ وَالطُّوَالِ غَيْرَ .
وَقَدْ قِيلَ لِلْكُمَيْتِ : إِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى الْقِصَارِ قَالَ : مَنْ قَالَ الطُّوَالِ فَهُوَ عَلَى الْقِصَارِ أَقْلَرُ .

هَذَا الْكَلَامُ يَخْرُجُ فِي ظَاهِرِ الرَّأْيِ وَالظَّنِّ وَلَمْ نَجِدْ ذَلِكَ عِنْدَ التَّحْصِيلِ عَلَى مَا قَالَ .

جَوَابُ عَقِيلِ بْنِ عُلْفَةَ وَجَرِيرِ

وَقِيلَ لِعَقِيلِ بْنِ عُلْفَةَ : لَمْ لَا تُطِيلِ الْهَجَاءَ قَالَ : يَكْفِيكَ مِنَ الْقِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِالْعُنُقِ .

وَقِيلَ لَجَرِيرِ : إِلَى كَمْ تَهْجُو النَّاسَ قَالَ : إِنِّي لَا أَبْتَدِي وَلَكِنِّي أَعْتَدِي .

وَقِيلَ لَهُ : لَمْ لَا تَقْصُرْ قَالَ : إِنْ الْجَمَاحَ يَمْنَعُ الْأَذَى .

قَالَ عَمِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ : (نَبَيْتُ أَنَّ بَنِي جَدِيدَةَ أَوْعَبُوا ** نُفَرَاءَ مِنْ سَلَمَى لَنَا وَتَكْتَبُوا)

(وَلَقَدْ جَرَى لَهُمْ فَلَمْ يَتَعَيَّفُوا ** تَيْسٌ قَعِيدٌ كَالْهَرَاوَةِ أَعْضَبُ) (وَأَبُو الْفَرَاخِ عَلَى خَشَلَشٍ هَشِيمَةٍ **

مَتَنَكَّبٌ إِطْ الشَّمَانِلَ يَنْعَبُ) (فَتَجَاوَزُوا ذَاكُمْ إِلَيْنَا كُلَّهُ ** عَدَوًا وَقَرْطَبَةً فَلَمَّا قَرَّبُوا) (طُعِنُوا بِمُرَّانِ

الْوَشِيحِ فَمَا تَرَى ** خَلْفَ الْأَسِنَّةِ غَيْرَ عَرَقٍ يَشْخَبُ) (وَتَبَدَّلُوا الْيَعُوبَ بَعْدَ إِيهِمْ ** صَنَمًا فَفَرُّوا يَا

جَدِيلَ وَأَعْدَبُوا)

وَقَالَ آخَرُ : (أَلَمْ تَرَ حَسَّانَ بْنَ مَيْسِرَةَ الَّذِي ** بِجُؤَخَى إِلَى جِيرَانِهِ كَيْفَ يَصْنَعُ) (مَتَارِبُ مَا تَنْفَكُ مِنْهُمْ

عِصَابَةٌ ** إِلَيْهِ سِرَاعًا يَحْصِدُونَ وَيَزْرَعُ)

شعر في قوله يريد أن يعرّبه فيعجمه

وباب آخر مثل قوله : يريد أن يعرّبه فيعجمه كأن من يحفظها يضعها

وقال آخر : أهوج لا ينفعه التثقيف وقال بعض المحدثين في هذا المعنى : (إذا حاولوا أن يشعّبوا رأيها **
مع الشعب لا تزداد إلا تداعيا) وقال صالح بن عبد القدوس : (والشيخ لا يترك أخلاقه ** حتى يوارى
في ثرى رمسه) (إذا ارعوى عاد إلى جهله ** كذي الضنا عاد إلى نكسه) ومثل هذا قوله : (وتروض
عرسك بعد ما هربت ** ومن العناء رياضة الهرم) وقال حُسَيْل بن عُرْفُطَة : (ليهنك بغض في الصديق
وطنة ** وتحديثك الشيء الذي أنت كاذبه) (وأنت منشوء إلى كل صاحب ** فلاك ومثل الشر يكره
جانبه)

(وأنت مهدها الحنا نطف النثا ** شديد السباب رافع الصوت غالبه)
كلمة للزبرقان وقال الأصمعي : قال الزبرقان بن بدر : خصلتان كبيرتان في امرئ السوء : شدة السباب
وكثرة اللطام .
تمجيد الأقارب وقال خالد بن ضلّة : (لعمري لرَهْطُ المرء خير بقية ** عليه ولو عالوا به كل مركب)
من الجانب الأقصى وإن كان ذا ندى ** كثير ولا يُنيك مثل الجرب) (إذا كنت في قوم عدلا لست منهم
** فكل ما غلفت من حيث وطيب) (فإن تلتبس بي خيل دودان لا أرم ** وإن كنت ذا ذنب وإن غير
مذنب)

٤ (بكل واد بنو سعد) قال : ولما تأذى الأضبط بن قريع في بني سعد تحول عنهم إلى آخرين فأذوه فقال :
بكل واد بنو سعد .
مقطعات شتى (ألا ليس زين الرّحل قطع ونمرق ** ولكن زين الرّحل يا مّي راكمه) وقال أعرابي : (فما
وجد ملواح من الهيم خلئت ** عن الماء حتى جوفها يتصلصل) (تحوم وتغشاها العصي وحوها ** أقاطيع
أنعام ثعل وثنهل) (بأكثر ممي غلة وتعطفا ** إلى الورد إلا أنني أتجمل)

وقال خالد بن علقمة ابن الطيفان في عيب أخذ العقل والرضا بشيء دون الدّم فقال : (وإن الذي أصبحتم
تحلبونه ** دم غير أن اللون ليس بأحمرا) (فلا توعدوا أولاد حيان بعدما ** رضيتم وزوجتم سيالة
مسهرا) (وأعجب قرد يقضم القمل حالقا ** إذا عب في البقية بربرا) (إذا سكبوا في القعب من ذي
إنائم ** رأوا لونه في القعب وردا وأشقرا)

الغضب والجنون

في المواضع التي يكون فيها محمودا

(قال الأشهبُ بن رُميلة :

(هَرَّ الْمَقَادَةَ مِنْ لَا يَسْتَقِيدُهَا ** وَاعْصَوْصَبَ السَّيْرُ وَارْتَدَّ الْمَسَاكِينُ) (مِنْ كُلِّ أَشْعَثَ قَدْ مَالَتْ عِمَامَتُهُ ** كَأَنَّهُ مِنْ ضِرَارِ الضَّيِّمِ مَجْنُونٌ) وَقَالَ فِي شَبِيهِ ذَلِكَ أَبُو الْغُولِ الطُّهُويُّ : فَدَتْ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي مَعَاشِرَ صُدِّقَتْ فِيهِمْ ظُنُونِي مَعَاشِرَ لَا يَمْلُونَ الْمَنَايَا إِذَا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الطَّحُونُ وَلَا يَجْزُونَ مِنْ خَيْرٍ بَشَرٍ وَلَا يَجْزُونَ مِنْ غِلْظٍ بَلِينٍ وَلَا تَبْلَى بَسَائِلُهُمْ وَإِنْ هُمْ صَلُّوا بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ

هُمْ أَحْمَوُا حِمَى الْوَقَى بِضَرْبٍ يُؤَلَّفُ بَيْنَ أَشْتَاتِ الْمَنُونِ فَتَكَبَّ عَنْهُمْ دَرَّةُ الْأَعَادِي وَدَاوُوا بِالْجُنُونِ مِنَ الْجُنُونِ وَقَالَ ابْنُ الطُّثَرِيَّةِ : (أَوْ لَاحْتَطَبْتُ فَإِنِّي قَدْ هَمَمْتُ بِهِ ** بِالسَّيْفِ إِنْ خَطِيبَ السَّيْفِ مَجْنُونٌ) وَقَالَ آخَرُ : (حَمْرَاءُ تَامِكَةِ السَّنَامِ كَأَنَّهُمَا ** جَمَلٌ يَهُودَجُ أَهْلُهُ مَظْعُونٌ) (جَادَتْ بِهَا يَوْمَ الْوَدَاعِ يَمِينُهُ ** كَلَنَّا يَدَيْ عَمْرٍو الْغَدَاةَ يَمِينُ) (مَا إِنْ يَجُودُ بِمَثَلِهَا فِي مَثَلِهِ ** إِلَّا كَرِيمُ الْحَيِّمِ أَوْ مَجْنُونٌ)

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ حَسَّانُ أَوْ ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانَ : (إِنَّ شَرَّخَ الشَّيَابِ وَالشَّعَرَ الْأَسْ ** وَدَمَا لَمْ يُعَاصَرَ كَانَ جُنُونًا) (إِنْ يَكُنْ غَثٌّ مِنْ رَقَاشٍ حَدِيثٌ ** فِيمَا نَأْكُلُ الْحَدِيثَ سَمِينًا) وَفِي شَبِيهِ ذَلِكَ قَوْلُ الشَّنْفَرِيِّ : (فَدَقْتُ وَجَلْتُ وَاسْبَكْرْتُ وَأَكْمَلْتُ ** فَوَلَّ جُنَّ إِنْسَانٍ مِنَ الْحُسْنِ جُنَّتِ) وَقَالَ الْقُطَامِيُّ حِينَ وَصَفَ إِفْرَاطَ نَاقَتِهِ فِي الْمَرْحِ وَالنَّشَاطِ : (يَتَبَعْنَ سَامِيَةَ الْعَيْنَيْنِ تَحْسِبُهَا ** مَجْثُوثَةً أَوْ تُرَى مَا لَا تُرَى الْإِبِلُ) وَقَالَ ابْنُ أَحْمَرَ فِي مَعْنَى التَّشْبِيهِ وَالِاشْتِقَاقِ : (يَهْجُلُ مِنْ قَسَا ذَفَرِ الْخُرَامِي ** تَدَاعَى الْجُرِّيَاءُ بِهِ الْحَنِينَا)

(سَقَطَ : بَيْتُ الشَّعْرِ) (تَفَقَّأَ فَوْقَهُ الْقَلْعُ السُّوَارِي ** وَجَنَ الْحَازِبَازُ بِهِ جُنُونًا) وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ يَقُولُ الْأَعَشَى : (وَإِذَا الْغَيْثُ صَوَّبَهُ وَضَعَ الْقِدْ ** حَ وَجَنَّ التَّلَاحُ وَالْآفَاقُ) (لَمْ يَرِذْهُمْ سَفَاهَةٌ نَشْوَةُ الْخَمِ ** رِ وَلَا الْلَهُوُ فِيهِمْ وَالسَّبَاقُ) وَقَالَ آخَرُ فِي بَابِ الْمَرَاكِحِ وَالْبَطَالَةِ مِمَّا أَنْشَدْنَاهُ أَبُو الْأَصْبَغِ بْنِ رِبْعِيٍّ : (أَتُونِي بِمَجْنُونٍ يَسِيلُ لُعَابَهُ ** وَمَا صَاحِبِي إِلَّا الصَّحِيحُ الْمُسْلِمُ) وَأَنْشَدَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَانِيٍّ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَنْصُورٍ : (جُنُونُكَ مَجْنُونٌ وَلَسْتُ بِوَاحِدٍ ** طَبِيبًا يَدَاوِي مِنْ جُنُونِ جُنُونٍ)

إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَانِيٍّ وَالشَّعْرُ

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَانِيٍّ لَا يَقِيمُ شَعْرًا وَلَا أُدْرِي كَيْفَ أَقَامَ هَذَا الْبَيْتَ .
وَكَانَ يَدْعِي بِحَضْرَةِ أَبِي إِسْحَاقَ عِلْمَ الْحِسَابِ وَالْكَلامِ وَالْمُهَنْدِسَةِ وَاللَّحُونِ وَأَنَّهُ يَقُولُ الشَّعْرَ فَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : نَحْنُ لَمْ نَمْتَحِكْ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ فَلَكَ أَنْ تَدْعِيَهَا عِنْدَنَا كَيْفَ صَرْتَ تَدْعِي قَوْلَ الشَّعْرِ وَأَنْتَ إِذَا رَوَيْتَهُ لَغَيْرِكَ كَسَرْتَهُ قَالَ : فَإِنِّي هَكَذَا طَبَعْتُ أَنْ أَقِيمَهُ إِذَا قُلْتُ وَأَكْسَرَهُ إِذَا أَنْشَدْتُ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : مَا بَعْدَ هَذَا الْكَلَامِ كَلَامٌ .

وَقُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ أَيُّمَا أَشَدُّ غَلَمَةً : الْمَرْأَةُ أَوْ الرَّجُلُ فَأَنْشَدَ : (فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِي وَإِنِّي لَسَائِلُ ** أَلَّا يُرْ أَدْنَى لِلْفَجُورِ أَوْ الْحُرِّ) (وَقَدْ جَاءَ هَذَا مُرْخِيًّا مِنْ عِنَانِهِ ** وَأَقْبَلَ هَذَا فَاتِحًا فَاهَ يَهْدُرُ)

مقطعات شتى

وأنشد بعضهم : (أصبح الشَّيبُ في المفارقِ شاعاً ** واكتسى الرأسُ من بياضِ قناعا) (ثم وَلَّى الشَّبابُ
إلا سقيلاً ** ثم يَأْيى القليلُ إلا نزاعاً) وأنشد محمد بن يسير : (قلمتُ تُخاصرنى لِقَبَّتِها ** خَوْذُ تَأَطَّرُ ناعِمَ
بِكُرُ) (كلُّ يَوْمٍ أَنَّ الشَّبابَ له ** في كلِّ مبلغٍ لَنَقِّ عُنُرُ) وقال الآخرُ في خلاف ذلك أنشدني محمد بن
هشام السُّدري : (فلا تعذُراني في الإساءةِ إِنَّه ** أَشْرُ الرِّجالِ مَنْ يسيءُ فيُعَذَّرُ)

وقال ابن فسوة : (إلى مَعَشَرَ لا يَخْصِفُونَ نِعالَهُم ** ولا يلبسون السَّبْتَ ما لم يُحْضَرُ) وقال الطَّرِمَّاحُ بنُ
حكيم وهو أبو نفر : (لقد زادني حُبًّا لِنَفْسِي أَنِّي ** بَغِيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غَيْرِ طائِلِ) (إذا ما رَأَيْتُ قَطَعَ
الطَّرْفَ بَيْنَهُ ** وَيَنِّي فِعْلَ العارِفِ المتجاهِلِ) (ملأتُ عليه الأرضَ حتَّى كَأَنَّها ** من الضِّيقِ في عَيْنِهِ كِفَّةُ
حابل)

وقال آخر : (إذا أَبْصَرْتَنِي أَعْرَضْتَ عَنِّي ** كَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ قِبَلِي تَدُورُ) وقال الخُرَيْمِيُّ وذَكَرَ عماه :
أصغى إلى قاندي ليخبرني ** إذا التقينا عمن يميني) (أريدُ أن أَعْدِلَ السَّلامَ وَأَنْ ** أَفْصِلَ بَيْنَ الشَّرِيفِ
والدُّونِ) (اسْمَعْ ما لا أَرى فأكره أن ** أُخْطِئَ والسَّمْعُ غَيْرُ مَأْمُونِ) (لِلَّهِ عَيْنِي التي فجَعْتُ بها ** لو أَنَّ
دَهْرًا بها يَوَاتِبُنِي) (لو كُنْتُ خَيْرْتُ ما أَخَذْتُ بها ** تَعْمِيرَ نُوحٍ في مُلْكِ قَارُونِ) وقال بعضُ القدماء :
يُؤْمَلُ أَنْ يُعَمَّرَ عُمَرُ نُوحٍ ** وَأَمْرُ اللَّهِ يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلَةٍ)

وقال ابن عَبَّاسٍ بعد ما ذهب بصره : (إِنَّ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا ** ففِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ)
قلبي ذِكِّي وَعَقْلِي غَيْرُ ذِي دَخَلٍ ** وفي فمي صارمٌ كالسِّيفِ مَأْثُورُ) وقال حَسَّانُ يَذْكُرُ بيانَ ابنِ عَبَّاسٍ :
إذا قال لم يترك مقالاً ولم يقفْ ** لِعَيٍّ ولم يَنْ لِسَانَ على هُجْرٍ) (يَصْرَفُ بالقولِ اللِّسانَ إذا اتَّحَى **
وينظر في أعطافه نظرَ الصَّقْرِ)

شعر في الخصب والجذب

وقال بعضُ الأعراب يَذْكُرُ الخِصْبَ والجذب : (مُطِرْنَا فَلَمَّا أَنْ رَوَيْنَا تَهَادَرْتُ ** شَقَاشِقُ فِيهَا رَائِبٌ
وحَلِيبُ)

(ورابت رجالاً مِنْ رجالِ ظُلَامَةٍ ** وَعُدَّتْ ذُحُولُ بَيْنِهِمْ وَذُنُوبُ) (وَنُصَّتْ رِكابُ اللَّصْبِ فَتَرَوَحَتْ **
لَهُنَّ بما هاج الحبيبَ خَيْبُ) (وَطَنَ فَناءُ الحَيِّ حَتَّى كَأَنَّهُ ** رَحَى مِنْهَلٍ مِنْ كَرَّهِنَ نَجِيبِ) (فلو قَدْ تَوَلَّى
النَّبْتُ وامْتَبَرَتِ القُرى ** وَحَتَّتْ رِكابُ الحَيِّ حِينَ تَتَوَبُ) (وَصارَ غُبُوقُ الحُودِ وهي كريمةٌ ** على أهلها

ذو جُدَّتَيْنِ مَشُوبٍ ((وصار الَّذِي فِي أَنْفِهِ خُثْرًا وَانَّةٌ * ينَادِي إِلَى هَادِي الرَّحَى فَيَجِيبُ) (أَوْلَيْكَ أَيَّامٌ تُبَيِّنُ
مَا الْفَتَى * أَكَابَ سَكَيْتُ أَمْ أَشْمُ نَجِيبُ)

شعر لأنس بن إياس وقال : ولما وَلِيَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرِ سُرْقَ كُتِبَ إِلَيْهِ أَنَسُ بْنُ أَبِي إِيَّاسٍ الدُّيْلِيُّ : (أَحَارِ بْنُ
بَدْرِ قَدْ وَلَيْتَ وَلَايَةً * فَكُنْ جُرْدًا فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ) (وَبَاهٍ تَمِيمًا بِالْغِنَى إِنْ لِلْغِنَى * لَسَانًا بِهِ الْمَرْءُ الْهَيُوبَةُ
يَنْطِقُ) (وَلَا تَحْقِرَنَّ يَا حَارِثُ شَيْئًا مَلَكَتَهُ * فَحَظُّكَ مِنْ مَلِكِ الْعِرَاقَيْنِ سُرْقُ) (فَإِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ إِمَّا مُكَذِّبٌ
* يَقُولُ بِمَا يَهْوَى وَإِمَّا مُصَدِّقٌ) (يَقُولُونَ أَقْوَالًا وَلَا يَعْرِفُونَهَا * وَلَوْ قِيلَ هَاتُوا حَقِّقُوا لَمْ يَحَقِّقُوا) وقال
بعض الأعراب : (فَلَمَّا رَأَيْنَا الْقَوْمَ ثَارُوا بِجَمْعِهِمْ * رَعَيْنَا الْحَدِيثَ وَهُوَ فِيهِمْ مُضَيِّعٌ) (وَأَذْرَكْنَا مِنْ عِزِّ
قَيْسٍ حَفِيزَةً * وَلَا خَيْرَ فَيَمَنْ لَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ)

نصيحة رجل لبعض السلاطين

ويقال إنَّ رجلاً قال لبعض السلاطين : الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا حَدِيثٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَحْسَنِهَا حَدِيثًا
فافْعَلْ .

وقال حُذَيْفَةُ بْنُ بَدْرِ لِسَاحِيهِ يَوْمَ جَفَرِ الْهَبَاءَةِ حِينَ أَعْطَاهُمْ بِلْسَانِهِ مَا أُعْطِيَ : إِيَّاكَ وَالْكَلَامَ الْمَأْثُورَ .
وَأَنشَدَ الْأَصْمَعِيُّ : (كُلُّ يَوْمٍ كَأَنَّهُ يَوْمٌ أَضْحَى * عِنْدَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَوْ يَوْمٌ فِطْرٍ) وقال : وذكر لي بعضُ
البغداديين أَنَّهُ سَمِعَ مَدَنِيًّا مَرَّ بَبَابِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَعَلَى بَابِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ : (مَا لَقِينَا مِنْ جُودِ
فَضْلِ بْنِ يَحْيَى * تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ شُعْرَاءَ)

وقال الأصمعي : قال لي خَلْفُ الْأَحْمَرِ : الْفَارِسِيُّ إِذَا تَطَرَّفَ تَسَاكَتَ وَالتَّبَطُّيُّ إِذَا تَطَرَّفَ أَكْثَرَ الْكَلَامِ .
وقال الأصمعي : قال رجلٌ لأَعْرَابِيٍّ : كَيْفَ فَلَانٌ فِيكُمْ قَالَ : مَرْزُوقٌ أَحَقُّ قَالَ : هَذَا الرَّجُلُ الْكَامِلُ .
قال : وقال أعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ : كَيْفَ فَلَانٌ فِيكُمْ قَالَ : غَنِيٌّ حَظِيٌّ قَالَ : هَذَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْأَصْمَعِيُّ قَالَ :
أَخْبَرَنِي جَوْسِقٌ قَالَ : كَانَ يَقَالُ بِالْبَدُوِّ : إِذَا ظَهَرَ الْبَيَاضُ قَلَّ السَّوَادُ وَإِذَا ظَهَرَ السَّوَادُ قَلَّ الْبَيَاضُ قَالَ
الأصمعي : يَعْنِي بِالسَّوَادِ التَّمْرَ وَبِالْبَيَاضِ اللَّبَنَ وَالْأَقِطُ يَقُولُ : إِذَا كَانَتِ السَّنَةُ مُجْدِبَةً كَثُرَ التَّمْرُ وَقَلَّ اللَّبَنُ
وَالْأَقِطُ وَقَالَ : إِذَا كَانَ الْعَامُ خَصِيْبًا ظَهَرَ فِي صَدَقَةِ الْفِطْرِ الْبَيَاضُ يَعْنِي الْإِقِطُ وَإِذَا كَانَ جَدْبِيًّا ظَهَرَ السَّوَادُ
يعني التمر .

وتقول الفُرسُ : إِذَا زَخَرَتِ الْأَوْدِيَةُ بِالْمَاءِ كَثُرَ التَّمْرُ وَإِذَا اشْتَدَّتِ الرِّىُّ أَحْ كَثُرَ الْحَبُّ .

وقل في أثر الريح في المطر

وحدثني مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ عَنْ شُعَيْبِ بْنِ حَجَرٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ فَوَقَفَ بِمَاءٍ مِنْ مِيَاهِ الْعَرَبِ فَقَالَ :
أَعِنْدَكُمْ الرِّيحُ الَّتِي تَكُوبُ الْبَعِيرَ قَالُوا : لَا قَالَ : فَتَنْزِيهِ الْفَارِسِ قَالُوا : لَا قَالَ : فَكَمَا تَكُونُ يَكُونُ مَطَرُكُمْ .

وحدثني العُتْبِيُّ قَالَ : هَجَمْتُ عَلَى بَطْنٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَلَمْ أَرَ وَادِيًّا أَخْضَبَ مِنْهُ وَإِذَا رِجَالٌ يَتَرَكَّلُونَ عَلَى

مَسَاحِيهِمْ وَإِذَا وَجُوهٌ مَهْجَنَةٌ وَأَلْوَانٌ فَاسِدَةٌ قَلْتُ : وَادِيكُمْ أَخْضَبُ وَادٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْبَهُونَ الْمَخَاصِيِبَ قَالَ :
فَقَالَ شَيْخٌ مِنْهُمْ : لَيْسَ لَنَا رِيحٌ .

شعر في الخصب

وقال النمر بن تولب : (كَأَنَّ حَمَلَةَ أَوْ عَزَّتْ لَهَا شَبَّهَا ** فِي الْعَيْنِ يَوْمًا تَلَاقَيْنَا بِأَرَمَامِ) (مِثْلُ جَادَ عَلَيْهَا
وَابِلٌ هَطِلٌ ** فَأَمْرَعَتْ لَاحْتِيَالٍ فَرَطَ أَعْوَامِ) (إِذَا يَجْفُ ثَرَاهَا بَلَّهَا دِيمٌ ** مِنْ كَوَكَبٍ بَزَلِ بِالْمَاءِ سَجَامِ)
(لَمْ يَرَعْهَا أَحَدٌ وَارِبَتْهَا زَمَنًا ** فَأَوَّ مِنْ الْأَرْضِ مَخْفُوفٍ بِأَعْلَامِ) (تَسْمَعُ لِلطَّيْرِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلًا ** كَأَنَّ
أَصْوَاتَهَا أَصْوَاتُ جُرَّامِ) (كَأَنَّ رِيحَ خَزَامَاهَا وَحَنَوَهَا ** بِاللَّيْلِ رِيحٌ يَلْنَجُوجٌ وَأَهْضَامِ)

قال : فلم يَدْعُ مَعْنَى مِنْ أَجْلِهِ يُخْصِبُ الْوَادِي وَيَعْتَمُ نَبْتُهُ إِلَّا ذَكَرَهُ وَصَدَقَ النمر .
وقال الأسديُّ في ذِكْرِ الْخَصْبِ وَرَطُوبَةِ الْأَشْجَارِ وَلِدُونَةِ الْأَغْصَانِ وَكَثْرَةِ الْمَاءِ : (وَكَأَنَّ أَرْحَلَنَا بِجَوِّ
مُحْصَبٍ ** بِلَوَى غُنِيزَةٍ مِنْ مَقِيلِ التُّرْمُسِ) (فِي حَيْثُ خَالَطَتِ الْخُرَامِي عَرَفَجًا ** يَأْتِيكَ قَابِسُ أَهْلِهِ لَمْ
يُقْبَسِ) ذهب إلى أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ مِنَ الرُّطُوبَةِ فِي أَغْصَانِهِ وَعِيدَانِهِ أَنَّهَا إِذَا حُكَّ بَعْضُهَا بَبَعْضٍ لَمْ يَقْدَحْ وَفِي شَبِيهِ
بِذَلِكَ يَقُولُ الْآخَرُ وَذَهَبَ إِلَى كَثْرَةِ الْأَلْوَانِ وَالْأَزْهَارِ وَالْأَنْوَارِ :

(كَانَتْ لَنَا مِنْ غَطْفَانٍ جَارَةً ** كَأَنَّمَا مِنْ دَبَلٍ وَشَارِهِ) (وَالْحَلِي حَلِي التَّيْرِ وَالْحِجَارِهِ ** مَدْفَعٌ مِثْلُهَا إِلَى
قَرَارَةٍ) (إِلَيْكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَهُ وَقَالَ بَشَّارُ : (وَحَدِيثٌ كَأَنَّهُ قِطْعُ الرَّوِّ ** ضٍ فِيهِ الْحُمْرَاءُ وَالصَّفْرَاءُ)
(الْفَطْنُ وَفَهْمُ الرُّطَانَاتِ . .) (وَالْكُنَايَاتِ وَالْفَهْمُ وَالْإِفْهَامِ)

حديث المرأة التي طرقتها اللصوص

الأصمعي قال : كانت امرأة تنزل متنجّية من الحيّ وتحبّ الغزلة وكان لها غنمٌ فطرقتها اللصوص فقالت
لأمتها : اخرجني من هاهنا

قالت : هاهنا حيّان والحمارس وعامرٌ والحارثُ ورأسُ عنزٍ وشادنٌ وراعيا بهمننا : فنحن ما أولئك أي :
فنحن أولئك فلما سمعوا ذلك ظنوا أنّ عندها بنيتها وقال الأصمعي مرة : فلما سمعت حسّهم قالت لأمتها :
أخرجني سلّح بني من هاهنا .

قال : وسلّح جمع سُلّاح وحيّان والحمارس : أسماءُ ثيوس لها . (قصة الممّهورة الشياه والخمر) قال
الأصمعي : تزوّج رجل امرأة فساق إليها مهرها ثلاثين شاة وبعث بها رسولاً وبعث بزقّ خمر فعمد
الرسول فذبح شاة في الطريق فأكلها وشرب بعض الزقّ فلما أتى المرأة نظرت إلى تسع وعشرين ورأت
الزقّ ناقصاً فعلمت أنّ الرجل لا يبعث إلا بثلاثين وزقّ مملوء

فَقَالَتِ لِلرَّسُولِ : قُلْ لِّصَاحِبِكَ : إِنْ سُحِيمًا قَدْ رُثِمَ وَإِنْ رَسُولُكَ جَاءَنَا فِي الْحَقِّ فَلِمَا أَتَاهُ الرَّسُولُ بِالرَّسَالَةِ : قَالَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَكَلْتَ مِنَ الثَّلَاثِينَ شَاةً وَشَرِبْتَ مِنْ رَأْسِ الزَّقِّ فَاعْتَرَفَ بِذَلِكَ . (قصة العبريِّ الأَسِيرِ) الأَصْمَعِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنِي شَيْخٌ مِنْ بَنِي الْعَبْرِ قَالَ : أَسْرَبَنُو شَيْبَانَ رَجُلًا مِنْ بَنِي الْعَبْرِ قَالَ : دَعَوْنِي حَتَّى أُرْسَلَ إِلَى أَهْلِي لِيَفْدُونِي قَالُوا : عَلَى أَلَّا تَكَلَّمَ الرَّسُولَ إِلَّا بَيْنَ أَيْدِينَا قَالَ : نَعَمْ قَالَ : فَقَالَ لِلرَّسُولِ ائْتِ أَهْلِي فَقُلْ : إِنَّ الشَّجَرَ قَدْ أَوْرَقَ وَقُلْ : إِنَّ النِّسَاءَ قَدْ اشْتَكَّتْ وَخَرَزَتِ الْقُرْبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَتَعْقِلُ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ فَمَا هَذَا قَالَ : اللَّيْلُ قَالَ : أَرَأَيْكَ تَعْقِلُ انْطَلِقْ إِلَى أَهْلِي فَقُلْ لَهُمْ : عَرُّوا جَمَلِي الْأَصْهَبَ وَارْكَبُوا نَاقَتِي الْحُمْرَاءَ وَسَلُّوا حَارِثًا عَنْ أَمْرِي وَكَانَ حَارِثٌ صَدِيقًا لَهُ فَذَهَبَ الرَّسُولُ فَأَخْبَرَ هُمْ فَدَعَوْا حَارِثًا فَقَصَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ الْقِصَّةَ فَقَالَ أَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّ الشَّجَرَ قَدْ أَوْرَقَ فَقَدْ تَسَلَّحَ الْقَوْمُ

وَأَمَّا قَوْلُهُ : إِنَّ النِّسَاءَ قَدْ اشْتَكَّتْ وَخَرَزَتِ الْقُرْبَ فَيَقُولُ : قَدْ اتَّخَذَتِ الشُّكَا وَخَرَزَتِ الْقُرْبَ لِلْغُرُوِّ وَأَمَّا قَوْلُهُ : هَذَا اللَّيْلُ فَإِنَّهُ يَقُولُ : أَنَا كَمْ جَيْشٌ مِثْلُ اللَّيْلِ وَأَمَّا قَوْلُهُ : عَرُّوا جَمَلِي الْأَصْهَبَ فَيَقُولُ : ارْتَحِلُوا عَنْ الصَّمَانِ وَأَمَّا قَوْلُهُ : ارْكَبُوا نَاقَتِي الْحُمْرَاءَ فَيَقُولُ انْزِلُوا الدَّهْنَاءَ . وَكَانَ الْقَوْمُ قَدْ قَمِيَّوْا لَغُرُوهِمْ فَخَافُوا أَنْ يُنْزِرَهُمْ فَأَنْذَرَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَجَاءَ الْقَوْمُ يَطْلُبُونَهُمْ فَلَمْ يَجِدُوهُمْ .

قصة العطاردي

وَكَذَلِكَ صَنَعَ الْعُطَارْدِيُّ فِي شَأْنِ شَعْبِ جَبَلَةٍ وَهُوَ كَرْبُ بْنُ صَفْوَانَ وَذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ لَمْ يَرْجِعْ لَهُمْ قَوْلًا حِينَ سَأَلُوهُ أَنْ يَقُولَ وَرَمَى بِصُرَّتَيْنِ فِي إِحْدَاهُمَا شَوْكًا وَالْأُخْرَى تَرَابًا فَقَالَ قَيْسُ بْنُ زَهْرٍ : هَذَا رَجُلٌ مَأْخُودٌ عَلَيْهِ إِلَّا يَتَكَلَّمُ وَهُوَ يَنْزِرُكُمْ عَدَدًا وَشَوْكَةً . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ .

شعر في صفة الخيل والجيش

قَالَ أَبُو نُخَيْلَةَ : (لَمَّا رَأَيْتُ الدِّينَ دِينًا يُؤْفَكُ * وَأَمْسَتِ الْقُبَّةُ لَا تَسْتَمْسِكُ) (يُفْتَقُ مِنْ أَعْرَاضِهَا وَيُهْتَكُ * سَرَتْ مِنَ الْبَابِ فَطَارَ الدَّكَدُ) (مِنْهَا الدَّجُوجِيُّ وَمِنْهَا الْأَرْمَكُ * كَاللَّيْلِ إِلَّا أَنَّهَا تَحْرُكُ) وَقَالَ مَنصُورُ التَّمَرِيِّ : وَقَالَ آخِرُ : (كَأَنَّهُمْ لَيْلٌ إِذَا اسْتَنْفَرُوا * أَوْ لُجَّةٌ لَيْسَ لَهَا سَاحِلٌ)

وَقَالَ الْعِجَاجُ : (كَأَنَّمَا زُهَاوَهُ إِذَا جُهِرَ * لَيْلٌ وَرَزٌّ وَغَرٌّ إِذَا وَغَرَ) سَارَ سَرَى مِنْ قِبَلِ الْعَيْنِ فَجَرَّ فِي هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ مِنْهُ يَقُولُ بَشَّارُ : (كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ * وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ قَهَاوَى كَوَاكِبِهِ) وَقَالَ كَلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو : (تَبَنِي سِنَابُكُهُمْ مِنْ فَوْقِ أَرُوسِهِمْ * سَقَفَا كَوَاكِبِهِ الْبَيَاضُ الْمَبَاتِيرُ) وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ بَشَّارٌ كَمَا غَلَبَ عَنْتَرَةُ عَلَى قَوْلِهِ : (فَتَرَى الذُّبَابَ بِهَا يُغْنِي وَحَدَهُ * هَزِجًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمَتَرْتَمِ)

عَرِدًا يُحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ ** فَعِلَ الْمُكِبُّ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ (فُلُو أَنْ أَمْرًا الْقَيْسَ عَرَضَ فِي هَذَا الْمَعْنَى لِعَنْتَرَةَ لَا فَتَضَحَ .

مقطعات شتى

وقال بعضهم في غير هذا المعنى : (وفلاحة كائماً اشتمل ألي ** لُ على رَكْبِهَا بِأَبْنَاءِ حَامِ) (خَضَتْ فِيهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ بِالرَّ ** قَّةَ بَحْرِيَّ ظَهِيرَةٍ وَظَلَامِ) وقال العَرَجِيُّ : (سَمَّيْتَنِي خَلْقًا بَحْلَةً قَدُمْتُ ** وَلَا جَدِيدَ إِذَا لَمْ يُلْبَسِ الْخُلُقُ) (يَا أَيُّهَا الْمُتَحَلِّي غَيْرَ شَيْمَتِهِ ** وَمِنْ خِلَاتِقِهِ الْإِقْصَادُ وَالْمَلَقُ) (ارجعْ إِلَى خِيَمِكَ الْمَعْرُوفِ دَبْدُبُهُ ** إِنْ التَّخَلَّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ) وقال آخر : (أودى الحَيَارُ مِنَ الْمَعَاشِرِ كُلِّهِمْ ** وَاسْتَبَّ بِعَدِّكَ يَا كَتِيبُ الْمَجْلِسِ) (وَتَنَازَعُوا فِي كُلِّ أَمْرٍ عَظِيمَةٍ ** لَوْ قَدْ تَكُونُ شَهْدَتُهُمْ لَمْ يَنْسُوا)

وأبياتُ أبي نواسٍ على أنه مؤلِّد شاطر أشعرَ من شعر مهلهلٍ في إطراق النَّاسِ في مجلسِ كليبٍ وهو قوله : (على خبزِ إسماعيلَ وَاقِيَةَ الْبُخْلِ ** وَقَدْ حَلَّ فِي دَارِ الْأَمَانِ مِنَ الْأَكْلِ) (وما خبزُهُ إِلَّا كَأَوَى يُرى ابْنَهَا ** ولم تُرْ آوَى فِي الْخُرُونِ وَلَا السَّهْلِ) (يحدث عنها النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ** سِوَى صُورَةٍ مَا أَنْ تُمَرَّ وَلَا تُحْلِي) (وما خبزُهُ إِلَّا كَلِيبُ بْنُ وَائِلٍ ** لِيَالِي يَحْمِي عِزَّهُ مَنَبَتَ الْبَقْلِ) (وإذْ هُوَ لَا يَسْتَبُّ خَصْمَانِ عِنْدَهُ ** وَلَا الْقَوْلُ مَرْفُوعٌ بِجَدٍ وَلَا هَزَلٍ)

(فَإِنْ خَبَزُ إِسْمَاعِيلَ حَلَّ بِهِ الَّذِي ** أَصَابَ كَلِيبًا لَمْ يَكُنْ ذَاكَ عَنْ بَذَلٍ) (وَلَكِنْ قَضَاءٌ لَيْسَ يُسْطَاعُ دَفْعُهُ ** بِحِيلَةٍ ذِي دَهْنٍ وَلَا فِكْرٍ ذِي عَقْلِ)

شعر العرب والمولدين

والقضية التي لا أحتشمُ منها ولا أهابُ الخصومة فيها : أَنَّ عَامَّةَ الْعَرَبِ وَالْأَعْرَابِ وَالْبَدْوِ وَالْخَضِرِ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ أَشْعَرُ مِنْ عَامَّةِ شُعَرَاءِ الْأَمْصَارِ وَالْقُرَى مِنَ الْمَوْلَدَةِ وَالنَّابِتَةِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِوَاجِبٍ لَهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ . وقد رأيتُ ناساً مِنْهُ يَبْهَرُجُونَ أَشْعَارَ الْمَوْلَدِينَ وَيَسْتَسْقِطُونَ مَنْ رَوَاهَا وَلَمْ أَرِ ذَلِكَ قَطُّ إِلَّا فِي رَاوِيَةٍ لِلشَّعْرِ غَيْرِ بَصِيرٍ بِجَوْهَرِ مَا يَرَوِي وَلَوْ كَانَ لَهُ بَصَرٌ لَعَرَفَ مَوْضِعَ الْجَيْدِ مِمَّنْ كَانَ . وَفِي أَيِّ زَمَانٍ كَانَ .

وَأَنَا رَأَيْتُ أَبَا عَمْرٍو الشَّيْبَانِيَّ وَقَدْ بَلَغَ مِنْ اسْتِجَادَتِهِ لِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ وَنَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنْ كَلَّفَ رَجُلًا حَتَّى أَحْضَرَهُ دَوَاةً وَقِرْطَاسًا حَتَّى كَتَبَهُمَا لَهُ وَأَنَا أَزْعَمُ أَنَّ صَاحِبَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَا يَقُولُ شِعْرًا أَبَدًا وَلَوْلَا أَنْ أَدْخَلَ فِي الْحُكْمِ بَعْضَ الْفَتَاكَ لَزَعَمْتَ أَنَّ ابْنَهُ لَا يَقُولُ شِعْرًا أَبَدًا وَهَذَا قَوْلُهُ : (لَا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَلَى ** فَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُؤَالُ الرَّجَالِ) (كَلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنْ ذَا ** أَفْطَعَ مِنْ ذَاكَ لِنَلِّ السُّؤَالَ)

القول في المعنى واللفظ

وذهب الشَّيْخُ إلى استحسانِ المعنى والمعاني مطروحةً في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ والبدويُّ والقرويُّ والمدنيُّ وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزنِ وتحْيُرِ اللفظِ وسهولةِ المخرجِ وكثرةِ الماءِ

وفي صحَّةِ الطبعِ وجوْدَةِ السَّبكِ فإنَّما الشعرُ صناعةٌ وضَرْبٌ مِنَ النَّسجِ وجنسٌ مِنَ التَّصْوِيرِ .
وقد قيلَ للخليلِ بنِ أحمدَ : ما لك لا تقولُ الشَّعرَ قالَ : الذي يجيئني لا أرضاه والذي أرضاه لا يجيئني .
فأنا أستحسن هذا الكلامَ كما أستحسن جوابَ الأعرابيِّ حينَ قيلَ له : كيفَ تجذُّك قالَ :

شعر ابن المقفع

وقيلَ لابنِ المقفَّعَ : ما لك لا تجوزُ البيتَ والبيتينِ والثلاثةَ قالَ : إنْ جُرْتُها عرَفُوا صاحبَها فقالَ له السائلُ :
وما عليك أنْ تُعرِفَ بالطَّوَالِ الجيادَ فعلمَ أنَّه لم يفهمْ عنه .
الفرق بين المولد والأعرابي ونقول : إن الفرق بين المولد والأعرابي : أنَّ المولَّد يقولُ بنشاطه وجمع باله
الآياتِ اللاحقةَ بأشعارِ أهلِ البدو فإذا أَمعنَ انحَلَّتْ قُوَّتُهُ واضطربَ كلامُهُ .

شعر في تعظيم الأشراف وفي شبيهه بمعنى مهلهل وأبي نُوَاس في التَّعْظِيمِ والإطراقِ عندَ السَّادَةِ يقولُ الشاعرُ
في بعضِ بني مروان : (في كَفِّهِ خَيْرَانُ رِيحُهُ عَبَقٌ ** في كَفِّ أُرْوَعٍ في عَرِينِهِ شَمَمٌ) (يغضي حياءً ويغضي
من مَهَابَتِهِ ** فما يكَلِّمُ إلَّا حينَ يَبْتَسِمُ) (إن قال قال بما يَهْوَى جَمِيعُهُمْ ** وإن تكلَّم يوماً سَاخَتْ الكَلِمُ
(كَمَ هَاتِفُ بكَ مِنْ دَاعٍ وَهَاتِفَةٌ ** يَدْعُوكَ يَا قُتَمَ الحَيَّرَاتِ يَا قُتَمُ) (فترى الساداتِ ماثلةً ** لِسَلِيلِ
الشمس من قمره) (فهُمُ شَتَّى طُنُوبُهُمْ ** حَذَرَ المطويِّ من خَبَرِهِ)

وقال إبراهيم بنُ هَرَمَةَ في مديحِ المنصور وهو شبيهةٌ بهذا وليس منه : (له لحظات عن حِفَافِي سِريره ** إذا
كَرَّها فيها عقابٌ ونائلٌ) (فَأُمُّ الذي أَمَّتْ آمِنَةَ الرَّدَى ** وَأُمُّ الذي أوعدتْ بالثَّكُلِ ثَاكُلٌ) شعر في
الحلف والعقد وقال مُهْلَهْلٌ وهو يقع في باب الحلف وكَّدَ بعقد : (ملنا على وائل وأفلتنا ** يوماً عديَّ
جُرَيْعَةَ الذَّنِّ) (عتُ عنه الرِّمَاحُ مجتهداً ** حِفْظاً لحلفي وحلف ذي يَمَنٍ) (أذكُرُ من عهدنا وعهدهم
** عهداً وثيقاً بمنحَرِ البُدنِ) (ما بلَّ بحرٌ كَفَأَ بصوفتها ** وما أنافَ الهضابُ من حَضَنٍ) (يزيده اللَّيْلُ
والنَّهَارُ معاً ** شَدًّا خراطِ الجُمُوحِ في الشَّطَنِ)

شعر في مصرع عمرو بن هند وقال جابر بن حنِيٍّ التغلبيُّ : (فسائلُ شَرَحِيلاً بنا ومحلِّماً ** غداة نَكُرُ الحَيْلَ
في كلِّ خَنْدَقٍ) (لعمرُك ما عمرو بنُ هِنْدٍ وقد دعا ** لتخدمَ ليلى أُمُّهُ بموقِّي) (فقام ابنُ كُثُومٍ إلى
السَّيْفِ مُغْضَباً ** فَأَمْسَكَ مِنْ نَدْمَانِهِ بِالْمَخْتَقِ) (وعممه عمداً على الرَّأْسِ ضَرْبَةً ** بذِي شُطْبٍ صافي
الحديدة مخفَّق)

شعر في الأقارب وقال المتلمس : (على كلهم آسى وللأصل زلفة * فرحزح عن الأدين أن يتصدعوا) (وقد كان إخواني كريماً جوارهم * ولكن أصل العود من حيث يُنزع) وقال المتلمس : (ولو غير أخواي أرادوا نقيضتي * جعلت لهم فوق العرائن ميسما) (وما كنت إلا مثل قاطع كف * بكف له أخرى فأصبح أجذما) (يداؤه أصابت هذه حنفاً هذه * فلم تجد الأخرى عليها مقدماً) (فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى * مساعاً لنابيه الشجاع لصمما) (أحرث أنا لو تساط دماؤنا * تزايلن حتى لا يمس دمّ دما) قال : وسألت عن قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأبي مریم الحنفي : والله لأنا أشد بغضاً لك من الأرض للدم قال :

لأنّ الدم الجاري من كل شيء بين لا يغبض في الأرض ومتى جفّ وتجلّب ففرقته رأيت مكانه أبيض .
إلا إن صاحب المنطق قال في كتابه في الحيوان : كذلك الدماء إلا دم البعير .
أشعار شتى وقال التمر بن تولب : (إذا كت في سعد وأمك منهم * غريباً فلا تغررك أمك من سعد)
وقال : (وإن ابن أحت القوم مصغى إنأؤه * إذا لم يزاحم خاله بأب جلد)

وقال آخر : (تحيرهُ الله الغداة لدينه * على علمه والله بالعلم أفرس) وقال آخر : (وما ترك الهاجون لي في أديمكم * مصحاً ولكني أرى مترقعا) وقال العجليّ أو العكليّ لنوح بن جبر : (ولقد أرى والمقتضى متجوّز * يا نوح أن أباك لا يوفينا) وقال عمرو بن معد يكرب : (إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه إلى ما تستطيع) (وصله بالزمام فكل أمر * سماً لك أو سموت له ولوع) وقال المقنّع الكندي : (وصاحب السوء كالداء العياء إذا * ما ارفض في الجوف يجري هاهنا وهنا)

(يئني ويخبر عن عورات صاحبه * وما رأى عنده من صالح دفنا) (كمهر سوء إذا رفعت سيرته * رام الجماح وإن خفّضته حرناً) (إن يحيى ذاك فكأن منه بمعزلة * أو مات ذاك فلا تعرف له جننا)

خصال الحرم

فمن خصاله : أن الذئب يصيد الطي ويُرِيغه ويعارضه فإذا دخل الحرم كفّ عنه .

ومن خصاله : أنه لا يسقط على الكعبة حمام إلا وهو عليل يُعرف ذلك متى امتحن وتعرّف حاله ولا يسقط عليها ما دام صحيحاً .

ومن خصاله : أنه إذا حاذى أعلى الكعبة عرقّة من الطير كاليمام وغيره انفرت فرقتين ولم يعلها طائر منها .

ومن خصاله : أنه إذا أصاب المطر الباب الذي من شق العراق كان الخصب والمطر في تلك السنة في شق العراق وإذا أصاب الذي من شق الشام كان الخصب والمطر في تلك السنة في شق الشام وإذا عمّ جوانب

البيت كان المطرُ والحِصْبُ عامًّا في سائر البلدا .

ومن خصال الحرم : أنَّ حَصَى الجِمار يُرمى بها في ذلك المرمى مُذْ يومَ حَجِّ النَّاسِ البيتَ على طَوَالِ الدَّهرِ ثُمَّ كَأَنَّهُ على مقدارٍ واحدٍ ولولا موضع الآية والعلامة والأعجوبة التي فيها لقد كان ذلك كالجبال هذا مِنْ غير أن تكسحه السيول ويأخذ منه الناس .

ومن سُنَّتِهِمْ : أنَّ كُلَّ مَنْ علا الكعبةَ من العبيد فهو حرٌّ لا يرون الملكَ على من علاها ولا وبمكة رجالٌ من الصُّلحاء لم يدخلوا الكعبةَ قطَّ .

وكانوا في الجاهليَّة لا يبنون بيتاً مربعاً تعظيماً للكعبة والعربُ تسمِّي كلَّ بيتٍ مربعٍ كعبةً ومنه : كعبة نجران وكان أوَّلُ مَنْ بنى بيتاً مربعاً حميد بن زهير أحد بني أسد بن عبد العزى .
ثم البركة والشفاء الذي يجلبه مَنْ شرب من ماء زمزم على وجه الدهر

وكثرة من يُقيم عليه يجد فيه الشفاء بعد أن لم يدع في الأرض حَمَّةً إلَّا آتاها وأقام عندها وشرب منها واستنقع فيها .

هذا مع شأن الفيل والطَّيرِ الأبايلِ والحجارة السَّجَّيلِ وأنها لم تزل أماناً ولقاحاً لا تؤذي إتاوة ولا تدين للملوك ولذلك سَمِيَ البيت العتيق لأنَّه لم يزلُ حرّاً لم يملكه أحد .

وقال حرب بن أُميَّة في ذلك : (أبا مطر هَلُمَّ إلى صلاح * فَتَكْفِيكَ النَّدامى مِنْ قريشِ) (فتأمنَ وَسَطَهُمْ وَتَعيشَ فيهم * أبا مطر هُدَيْتَ لخيرِ عيشِ) (وَتَنْزِلُ بِلَدَةً عَزَّتْ قَدِيماً * وتأمنَ أن يَزُروكَ ربُّ جيشِ)
وقال الله عزَّ وجلَّ : وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ حكايةً عن إبراهيم :

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

خصال المدينة

والمدينة هي طيبة ولطيبها قيل تلفط خبثها وينصع طيبها وفي ريح تراها وبنة تربتها وعرف تراها ونسيم هوائها والنعمة التي توجد في سبكها وفي حيطانها دليلٌ على أنَّها جعلت آيةً حين جعلت حرماً .

وكلُّ من خرج من منزلٍ مطَّيبٍ إلى استنشاق ريح الهواء والتُّربة في كل بلدة فإنه لا بدَّ عند الاستنشاق والتَّثبت من أن يجدَها منتنةً فذلك على طبقاتٍ من شأنِ البلدان إلَّا ما كان في مدينة الرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فللصَّيَّاح والعُطر والبحور

والنضوح من الرائحة الطيبة إذا كان فيها أضعافُ ما يوجد له في غيرها من البلدان وإن كان الصَّيَّاح أجود والعُطر أفرحَ والبحور أثنى . (بعضُ البلدان الرديئة) ورُبَّتْ بلدةٌ يستحيل فيها العُطر وتذهب رائحته كقصبة الأهواز .

وقد كان الرشيدُ همَّ بالإقامة بأنطاكية وكره أهلها ذلك فقال شيخٌ منهم وصدقهُ : يا أمير المؤمنين ليست من بلادك ولا بلاد مثلك لأنَّ الطَّيبَ الفاخرَ يتغيَّر فيها حتَّى لا يُنتفعَ منه بكثير شيءٍ والسَّلاحُ يصدأ فيها ولو كان من قلعة الهند ومن طبع اليمن ومطرها ربَّما أقام

شهرين ليس فيه سكون فلم يُقيم بها .
ثمَّ ذكر المدينة فقال : وإنَّ الجُويريةَ السَّوداءَ لتَجعل في رأسها شيئاً من بلح وشيئاً من نَصُوحٍ مما لا قيمةَ له لهوانه على أهلها فتجد لذلك خُمرةً طيِّبةً وطيبَ رائحةٍ لا يعدلُها بيتُ عُرُوسٍ من ذوي الأقدار حتَّى إنَّ النُّوى المنقَع الذي يكونُ عندَ أهل العراق في غاية التَّنُّ إذا طال إنقاعه يكونُ عندهم في غاية الطَّيب والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر الحمام

أجناسه

قال صاحب الحمام : الحمام وحشيٌّ وأهليٌّ ويوتيٌّ وطوراني وكلُّ طائرٍ يعرف بالزَّواج وبحسن الصَّوت والهديل والدُّعاء والترجيع فهو حمام وإن خالف بعضهُ بعضاً في بعض الصَّوت واللَّون وفي بعض القُدِّ

ولحن الهديل وكذلك تختلف أجناس الدَّجاج على مثل ذلك ولا يخرجها ذلك من أن تكون دَجَاجاً :
كالدَّيكِ الهندي والحِلاسيِّ والتَّبْطِيَّيِّ وكالدَّجاج السَّنْديِّ والزَّنْجِيِّ وغير ذلك وكذلك الإبل : كالعِرابِ
والْبَحْتِ والفَواجِ والبَهَوَّاتِ والصَّرَصَرَانِيَّاتِ والحُوشِ والتَّجِبِ وغير ذلك من فحول الإبل ولا يخرجها ذلك من أن تكون إبلاً .

وما ذاك إلاَّ مخالفة الجُرْذانِ والفأرِ والتَّمَلِّ والذَّرِّ واختلاف الضَّأنِ والمَعزِ وأجناسِ البقرِ الأهليَّةِ والبقرِ الوحشيَّةِ وكقِرابَةِ ما بينهما وبين الجواميس .

وقد تختلف الحَيَّاتُ والعقاربُ بضروب الاختلاف ولا يخرجها ذلك من أن تكونَ عقاربَ وحَيَّاتٍ وكذلك الكلابُ والغُرَبانُ .

وحسبُك بتفاوتِ ما بين النَّاسِ : كالزَّنَجِ والصَّقَالِبَةِ في الشُّعُورِ والألوانِ وكأجوجِ ومأجوجِ وعادِ وثمودِ ومثلُ الكِنَعَانِيَّينَ والعمالقةِ .

فقد تخالف الماعزة الضائنة حتَّى لا يقع بينهما تسافدٌ ولا تلاقح وهي في ذلك غنمٌ وشاء .
قال : والقُمريُّ حمامٌ والفاخنةُ حمامٌ والورَّشانُ حمامٌ والشَّفَنِينِ حمامٌ وكذلك اليمام واليعقوب وضروبٌ أخرى كلها حمامٌ ومفاخرها التي فيها ترجع إلى الحمام التي لا تُعرف إلاَّ بهذا الاسم .

قال : وقد زعم أفليمون صاحب الفراسة أنَّ الحمام يتَّخذُ لضرُوب : منها ما يتَّخذُ للأنس والنساء والبيوتِ
ومنا ما يتَّخذُ للزَّجال والسباق .

والزجال : إرسال الحمام الهوائي

مناقب الحمام

ومن مناقب الحمام حُبُّه للناس وأنس الناس به وأَنَّك لم ترَ حيواناً قطُّ أعدلَ موضعاً ولا أقصدَ مرتبةً من
الحمام وأسفل الناس لا يكون دُون أن يتَّخذها وأرفع الناس لا يكون فوقَ أن يتَّخذها وهي شيءٌ يتَّخذها ما
بين الحجام إلى الملك الهمام .

والحمامُ مع عمومِ شهوةِ الناس له ليس شيءٌ مما يتَّخذونه همُّ أشدُّ شغفاً به ولا أشدُّ صباغةً منهم بالحمام ثمَّ
تجد ذلك في الخُصيان كما تجلُّه في الفحول وتجلُّه في الصَّبيان كما تجده في الرِّجال وتجلُّه في الفتيان كما
تجلُّه في الشيوخ وتجلُّه في النساء كما تجلُّه في الرِّجال .

والحمامُ من الطَّير الميامين وليس من الحيوان الذي تظهر له عورة وحجم قضيب كالكلب والحمارِ وأشباه
ذلك فيكون ذلك مما يكونُ يجب على الرِّجال ألاَّ يُدْخلوه دورهم .

كلمة لثني في الحمام قال مثنى بن زهير : ومن العجب أنَّ الحمامَ ملقَى والسَّكرانَ موقى فأنشده ابن يسير
بيت الحُرَيْمِيَّ : (وأعددتُه دُخْراً لكلِّ مُلِمَّةٍ * وسَهَّمُ المَيايا بالدَّخائرِ مُولَعٌ) ومتى رأى إنسان عطشان
الدَّيِّك والدَّجاجة يشربان الماء ورأى ذئباً وكلباً يلطعان الماء لطمعاً ذهبَ عطشه من قُبْح حسو الديك نغبة
نغبة ومن لطمع الكلب وإنَّه ليرى الحمام وهو يشرب الماء وهو ريان فيشتهي أن يكرَّعَ في ذلك الماء معه .

(صدق رغبة الحمام في النَّسل) والدَّيِّك والكلبُ في طلب السَّفاد وفي طلب النَّرء كما قال أبو الأخرز
الحِمَّاني : لا مُبتَغى الصَّنء ولا بِالْعازلِ والحمام أكثرَ معانيه الدَّرء وطلبُ الولد فإذا علم الدَّكرُ أنَّه قد أودع
رحم الأنثى ما يكون منه الولد تقدماً في إعداد العشِّ ونقل القَصَب وشِقِّ الخوصِ وأشباه ذلك من العِيدان
الخوارة الدِّقاق حتى يعملوا أفحوصة وينسجوها نسجاً مداخلاً وفي الموضع الذي قد رضياه اتخذاه

واصطنعاه بقدر جثمان الحمامة ثمَّ أشخَصا لئلك الأفحوصة حُرُوفاً غيرَ مرتفعةٍ لتحفظَ البيض وتَمَنَّعه من
التدحرج ولنلزم كنفِي الجَوْجُو ولنكون رفداً لصاحب الحُصْن وسداً للبيض ثمَّ يتعاوران ذلك المكان
ويتعاقبان ذلك القرموص وتلك الأفحوصة يسخَّنها ويدفِّئانها ويطيِّبانه وينفيان عنها طباعها الأوَّل ويحدثان
لها طبيعةً أخرى مشتقةً من طبائعهما ومستخرجةً من رائحة أبدانهما وقواهما الفاصلةَ منهما لكي تقع البيضةُ
إذا وقعت في موضعٍ أشبه المواضع طباعاً بأرحام الحمام مع الحضانة والوثارة لكي لا تنكسر البيضة بيئس

الموضع ولئلا ينكر طباعها طباغ المكان وليكون على مقدار من البرد و السخانة والرخاوة والصلابة ثم إن صر بها المخاض وطرقت

بيضتها بدرت إلى الموضع الذي قد أعدته وتحاملت إلى المكان الذي اتخذته وصنعتة إلا أن يقرعها رعد قاصف أو ريح عاصف فإئها ربما رمت بها دون كئها وظل عئها وبغير موضعها الذي اختارته والرعد ربما مرق عنده البيض وفسد كالمرأة التي تسقط من الفرع ويموت جنينها من الروع .
عناية الحمام وأثناء بالبيض وإذا وضعت البيض في ذلك المكان فلا يزالان يتعاقبان الحضن ويتعاورانه حتى إذا بلغ ذلك البيض مداه وانتهت أيامه وتم ميقاته الذي وظفه خالقه ودبره صاحبه انصدع البيض عن الفرخ فخرج

عاري الجلد صغير الجناح قليل الحيلة منسد الحلقوم فيعينانه على خلاصه من قبضه وترويح من ضيق هوته

عنايتهما بالفراخ وهما يعلمان أن الفرخين لا تتسع حلقوقهما وحواصلهما للغذاء فلا يكون لهما عند ذلك هم إلا أن ينفخا في حلقوقهما الريح لتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفق بعد ارتفاقها ثم يعلمان أن الفرخ وإن اتسعت حوصلته شيئاً أنه لا يحتمل في أول اغتذائه أن يزق بالطعم فيزق عند ذلك باللعب المختلط بقواهما وقوى الطعم وهم يسمون ذلك اللعب اللباء ثم يعلمان أن طبع حوصلته يرق عن استمراء الغذاء

وهضم الطعم وأن الحوصلة تحتاج إلى دئع وتقوية وتحتاج إلى أن يكون لها بعض المتانة والصلابة فيأكلن من شرج أصول الحيطان وهو شيء بين الملح الخالص وبين التراب الملح فيزقان الفرخ حتى إذا علما أنه قد اندبغ واشتد زقاه بالحب الذي قد غب في حواصلهما ثم زقاه بعد ذلك بالحب الذي هو أقوى وأطرى فلا يزالان يزقانه بالحب والماء على مقدار قوته ومبلغ طاقته وهو يطلب ذلك منهما ويضن نحوهما حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط فيعوده حتى إذا علما أن أداته قد تمت وأن أسبابه قد اجتمعت وأنهما إن فطماه فطماً مقطوعاً مجذوداً قوي على اللقط وبلغ لنفسه منتهى حاجته ضرباه إذا سألها الكفاية ونفياه متى رجع إليهما

ثم تنزع عنهما تلك الرحمة العجيبة منهما له وينسيان ذلك العطف المتمكن عليه ويذهلان عن تلك الأثرة له والكد المضني من الغدو عليه والرواح إليه ثم يبتديان العمل ابتداءً ثانياً على ذلك النظام وعلى تلك المقدمات .

فسبحان من عرفهما وألهمهما وهماهما وجعلهما دلالة لمن استدلل ومُخبراً صادقاً لمن استخبر ذلكم الله رب العالمين . ٤ (حالات الطعم الذي يصير في أجواف الحيوان) وما أعجب حالات الطعم الذي يصير في أجواف الحيوان وكيف تنصرف به الحالات وتختلف (

في أجناسه الوجوه : فمنها ما يكون مثل زق الحمام لفرخه والزق في معنى القيء أو في معنى التقيؤ وليس
بهما وجرة البعير والشاة والبقرة في معنى ذلك وليس به والبعير يريد أن

يعود في خضمه الأول واستقصاء طعمه وربما كانت الجرة رجيعاً والرجيع : أن يعود على ما قد أعاد عليه
مرة حتى ينزعه من جوفه ويقبله عن جهته . (زق الحمام) والحمام يُخرجه من حوصلته ومن مُستكنّه
وقراره وموضع حاجته واستمرائه بالأثرة والبر إلى حوصلة ولده قد ملك ذلك وطابت به نفسه ولم تغث
عليه نفسه ولم يتقذر من صنيعه ولم تخبث نفسه ولم تتغير شهوته ولعل لذته في إخراجها أن تكون كذاته في
إدخاله وإنما اللذة في مثل هذا بالجاري كنحو ما يعتري مجرى النطفة من استلذاذ مرور النطفة فهذا شأن
قلب الحمام ما في جوفه وإخراجه بعد إدخاله والتمساح يخرج على أنه رجعه ونجوه الذي لا يخرج له ولا
فرج له في سواه .

تصرف طبيعة الإنسان والحيوان في الطعام وقد يعتري ذلك الإنسان لما يعرض من الداء فلا يعرف إلا
الأكل والقيء ولا يعرف التجو إلا في الحين على بعض الشدة وليس ما عرض بسبب آفة كالذي يخرج على
أصل تركيب الطبيعة .

والسنور والكلب على خلاف ذلك كله لأنهما يُخرجهما بعرض يعرض لهما من خبث النفس ومن الفساد
ومن التثوير والانقباض ثم يعودان بعد ذلك فيه من ساعتها مشتتهين له حريصين عليه .
والإنسان إذا ذرعه ذلك لم يكن شيء أبغض إليه منه وربما استقاء وتكلف ذلك لبعض الأمر وليس
التكلف في هذا الباب إلا له .

وذوات الكروش كلها تقص بجرتها فإذا أجادت مضغه أعادته والجرة هي الفرث وأشد من ذلك أن تكون
رجيعاً فهي تبيد مضغها وإعادتها إلى مكانها إلا أن ذلك مما لا يجوز أفواهاها وليس عند الحافر من ذلك قليل
ولا كثير بوجه من الوجوه .

وقد يعتري سباع الطير شبيهة بالقيء وهو الذي يسمونه الزمج وبعض السمك يقيء قيتاً ذريعاً كالبلال فإنه
ربما دسغ الدسعة فتلقى بعض المراكب فيلقون من ذلك شدة والناقة الضجور ربما دسعت بجرتها في وجه
الذي يرخلها أو يعالجها فيلقى من ذلك أشد الأذى)
ومعلوم أنها تفعل ذلك على عمد .

فلذوات الأقدام في ذلك مذهب ولذوات الكروش من الظلف والخف في ذلك مذهب ولذوات الأنياب في
ذلك مذهب وللسمك والتمساح الذي يشبه السمك في ذلك مذهب .

ويزعمون أن جوف التمساح إن هو إلا معاليق فيه وأنه في صورة الجراب مفتوح الفم مسدود الدبر ولم
أحق ذلك وما أكثر من لا يعرف الحال فيه .

الرجوع إلى طلب النسل عند الحمام ثم رجع بنا القولُ في الحمام بعد أن استغنى ولده عنه وبعد أن نُزعت الرحمة منه وذلك أنه يبتدئ الذكرُ الدُّعاء والطرد وتبتدئ الأنثى بالتأني

والاستدعاء ثم تزيّف وتتشكّل ثم تمكّن وتمنع وتجبّ وتصدفّ بوجهها ثم يعاشقان ويتطاوعان ويحدث لهما من التغرُّل والتفُّل ومن السَّوف والقَبْل ومن المصِّ والرَّشف ومن التنفُّج والتنفُّج ومن الخيلاء والكبرياء ومن إعطاء التقبيل حقه ومن إدخال الفم في الفم وذلك من التطاءعم وهي المطاعمة وقال الشاعر : (لم أعطها بيدي إذ بتُ أرشُفُها * إلاَّ تطاولَ غصنُ الجيد بالجد) هذا مع إرسالها جناحيها وكفَّيها على الأرض ومع تدرعها وتعلُّها ومع تصاوله وتطاوله ومع تنفُّجه وتنفُّجه مع ما يعتريه مع الحكمة والتفلي والتفُّش حتّى تراه وقد رمى فيه بمثله .

ثم الذي ترى من كسحِه بذنبه وارتفاعه بصدرة ومن ضربِه بجناحِه ومن فرحه ومرَّحِه بعد قَمَطِه والفراغ من شهوته ثم يعتريه ذلك في الوقت الذي يفتر فيه أنكحُ النَّاس .

القوة التناسلية لدى الحمام

وتلك الخصلةُ يفوق بها جميع الحيوان لأنَّ الإنسان الذي هو أكثر الخلق في قوّة الشهوة وفي دوامها في جميع السّنة وأرغبُ الحيوان في التصنُّع و التغرُّل والتشكُّل والتفُّل أفتر ما يكون إذا فرغ وعندها يركبُه الفتور ويحبُّ فراق الزَّوج إلى أن يعود إلى نشاطه وترجع إليه قُوّته .

والحمامُ أنشط ما يكون وأفرح وأقوى ما يكون وأمرح مع الزَّهو والشكل واللهو والجلد أبرد ما يكون الإنسان وأفتره وأقطع ما يكون وأقصره .

هذا وفي الإنسان ضروبٌ من القوَى : أحدها فَضْلُ الشَّهْوَةِ والأخرى دوام الشهوة في جميع الدَّهر والأخرى قوة التصنُّع والتكلف وأنت إذا جمعت خِصَالَه كلها كانت دون قوّة الحمام عند فراغِه من حاجته وهذه فضيلةٌ لا يُنكرُها أحدٌ ومزِيّةٌ لا يجحدها أحد .

البغال ونشاطها

ويقال : إنَّ النَّاس لم يجدُوا مثلَ نشاط الحمام في وقت فَتْرَةِ الإنسان إلاَّ ما وجدوه في البغال فإنَّ البغال تحمِل أثقالاً عشية فتسيرُ بقيّة يومها وسوادَ ليلتها وصدَرَ نهارِ غَدِها حتّى إذا حطُّوا عن جميع ما كان محملاً من أصناف الدواب أحماها لم يكنُ لشيء منها هَمّةٌ ولا لِمَن رَكِبَها من النَّاس إلاَّ المَرَاغَة والماء والعلف وللإنسان الاستلقاء ورفعُ الرِّجْلين والغمُز والتَّأوُّه إلاَّ البغال فإنَّها في وقت إعياء جميع الدواب وشدة كلالها وشغلها بأنفسها ممّا مرَّ عليها ليس عليها عملٌ إلاَّ أنْ تَدليَ أيورها وتشطّ وتضربَ بها بطونها وتخطّها وترفعها وفي ذلك الوقت لو رأى المكاري امرأةً حسناء لما انتشر لها ولا همَّ بها ولو كان مُنعظاً ثم اعتراه بعض ذلك الإعياء لنسي الإنعاض .

وهذه خِصْلَةٌ تخالف فيها البغالُ جميعَ الحيوان وترعم العَمَلَة أنَّها تلتمس بذلك الرَّاحَة وتتداوى به فليس

العجبُ إن كان ذلك حقاً إلا في إمكان ذلك لها في ذلك الوقت وذلك لا يكون إلا عن شهوة وشبقٍ مُفرط

النشاط العجيب لدى الأتراك وشبهه آخرُ وشكلٌ من ذلك كالذي يُوجد عند الأتراك عند بلوغ المنزل بعد مسير الليل كله وبعض النهار فإن الناس في ذلك الوقت ليس لهم إلا أن يتمددوا ويقيدوا دوابهم والتركبي في ذلك الوقت إذا عاين ظبياً أو بعض الصيد ابتداء الركنض بمثل نشاطه قبل أن يسير ذلك السير وذلك وقت يهيم فيه الخارجي والخصي أنفسهما فإتتهما المذكوران بالصبر على ظهر الدابة (فطام البهائم أولادها وليس في الأرض بميمة تفتطم ولدها عن اللبن دفعة واحدة بل تجد الطيبة أو البقرة أو الأتان أو الناقة إذا ظنت أن ولدها قد أطاق الأكل منعتة بعض المنع ثم لا تنزل تنزل ذلك المنع وترتبه وتدرجه حتى إذا علمت أن به غنى عنها إن هي فطمته فطاماً لا رجعة فيه منعتة كل المنع .

والعرب تسمي هذا التدبير من البهائم التعفير ولذلك قال ليبد : (لمعقر قهقر تنارغ شلوه * غبس كواسب ما يمن طعماها) وعلى مثل هذه السيرة والعادة يكون عمل الحمام في فراخه .

من عجيب أمر الحمام

ومن عجيب أمر الحمام أنه يقلب بيضه حتى يصير الذي كان منه يلي الأرض يلي بدن الحمام من بطنه وباطن جناحه حتى يعطي جميع البيضة نصيبها من الحزن ومن مس الأرض لعلمها وخصلة أخرى محمودة في الحمام وذلك أن البغل المتولد بين الحمار والرمكة لا يبقى له نسل والراعي المتولد فيما بين الحمام والورشان يكثر نسله ويطول عمره ولده والبخت والفواج إن ضرب بعضها بعضاً خرج الولد منقوص الخلق لا خير فيه والحمام كيفما أدركته وكيفما زاجت بين متفقها ومختلفها يكون الولد تام الخلق مأمول الخير

فمن نتاج الحمام إذا كان مركباً مشتركاً ما هو كالراعي والورداني وعلى أن للورداني غرابة لون وظرافة قد للراعي فضيلة في عظم البدن والفراخ وله من الهديل والقرقرة ما ليس لأبويه حتى صار ذلك سبباً للزيادة في ثمنه وعلة للحرض على اتخاذه .

والغنم على قسمين : ضأن ومعرز والبقر على قسمين : أحدهما الجواميس إلا ما كان من بقر الوحش والظلف إذا اختلفا لم يكن بينهما تسافد ولا تلاق فهذه فضيلة للحمام في جهة الإنسال والإلقاح واتساع الأرحام لأصناف القبول وعلى أن بين سائر أجناس الحمام من الوراشرين والقماري والفواخت تسافداً وتلاقحاً .

مما أشبه فيه الحمام النّس

ومّا أشبه فيه الحمام النّس أنّ ساعات الحُصْن أكثرها على الأنثى وإنّما يحُصّن الذّكر في صدر النّهار حُصْناً يسيراً والأنثى كالمرأة التي تكفل

الصبي فتفطمه وترضه وتعهده بالتمهيد والتّحريك حتّى إذا ذهب الحُصْن وانصرم وقته وصار البيض فراخاً كالعيال في البيت يحتاجون إلى الطّعام والشّراب صار أكثر ساعات الرّق على الذّكر كما كان أكثر ساعات الحُصْن على الأنثى .

ومّا أشبه فيه الحمام النّس ما قال مثنى بن زهير وهو إمام النّس في البصرة بالحمام وكان جيّد الفراسة حاذقاً بالعلاج عارفاً بتدبير الخارجيّ إذا ظهرت فيه مَخيلة الخير واسم الخارجيّ عندهم : المجهول وعالماً بتدبير العريق المنسوب إذا ظهرت فيه علامات الفسولة وسوء الهداية وقد يمكن أن يخلف ابن قرشيين ويندب ابن خوزيّ من نبطيّة وإنّما فضلنا نتاج العلية على نتاج السفلة لأنّ نتاج النّجاسة فيهم أكثر والسّ قوط في أولاد السفلة أعظم فليس بواجب أن يكون السفلة لا تلد إلا السفلة والعلية لا تلد إلا العلية وقد يلد المجنون العاقل والسّخيّ البخيل والجميل القبيح .

وقد زعم الأصمعي أنّ رجلاً من العرب قال لصاحب له : إذا تزوّجت امرأة من العرب فأنظر إلى أخوالها وأعمامها وإخوتها فإنّها لا تخطئ الشّبه بواحدٍ منهم وإنّ كان هذا الموصي والحكيم جعل ذلك حكماً عاماً فقد أسرف في القول وإن كان ذهب إلى التّخويف والزّجر وقال مثنى بن زهير : لم أر قط في رجل وامرأة إلا وقد رأيت مثله في الذّكر والأنثى من الحمام : رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها كالمرأة لا تريد إلا زوجها وسيدها ورأيت حمامة لا تمنع شيئاً من الذّكورة ورأيت امرأة لا تمنع يد لأمس ورأيت الحمامة لا تزيّف إلا بعد طرد شديد وشلة طلب ورأيتها تزيّف لأوّل ذكر يريدّها ساعة يقصد إليها ورأيت من النساء كذلك ورأيت حمامة لها زوج وهي تمكّن ذكراً آخر لا تعدّوه ورأيت مثل ذلك من النساء ورأيتها تزيّف لغير ذكرها وذكرها يراها ورأيتها لا تفعل ذلك إلا وذكرها يطير أو يحُصّن ورأيت الحمامة تقمط الحمام الذكور ورأيت الحمامة تقمط الحمامة ورأيت أنثى كانت لي لا تقمط إلا الإناث ورأيت أخرى تقمط الإناث فقط ولا تدع أنثى تقمطها .

قال : ورأيت ذكراً يقمط الذّكورة وتقمطه ورأيت ذكراً يقمطها ولا يدعها تقمطه ورأيت أنثى (تزيّف للذّكورة ولا تدع شيئاً منها يقمطها .

قال : ورأيت هذه الأصناف كلّها في السّحاقات من المذكّرات والمؤنّثات وفي الرّجال الحلقين واللّوطيين وفي الرّجال من لا يريد النساء وفي النساء من لا يريد الرّجال .

قال : وامتنعتُ عليَّ خصلتهُ فو الله لقد رأيت من النساء من تزني أبدأً وتساحق أبدأً ولا تتزوج أبداً ومن الرجال من يلوط أبدأً ويزني أبدأً ولا يتزوج ورأيت حماماً ذكراً يقمط ما لقي ولا يزواج ورأيت حمامة تمكّن كل حمامٍ أرادها من ذكرٍ وأنثى وتقمط الذكورة والإناث ولا تزواج ورأيتها تزواج ولا تبيض وتبيض فيفسدُ بيضها كالمراة تتزوج وهي عاقر وكالمراة تلد وتكون خرقاء ورهاء ويعرض لها الغلظة والعفوق للأولاد كما يعتري ذلك العقاب .

وأما أنا فقد رأيت الجفاء للأولاد شائعاً في اللواتي حملن من الحرام ولربما ولدت من زوجها فيكون عطفها وتحننها كتحنن العفيفات

السّيرت فما هو إلا أن تزي أو تقحّب فكأن الله لم يضرب بينها وبين ذلك الولد بشبكة رَحِم وكأنها لم تلده .

قال مثنى بن زهير : ورأيت ذكراً له أنثيان وقد باضتا منه وهو يحضن مع هذه ومع تلك ويرق مع هذه ومع تلك ورأيت أنثى تبيض بيضة ورأيت أنثى تبيض في أكثر حالاتها ثلاث بيضات . وزعم أنه إنما جزم بذلك فيها ولم يظنه بالذكر لأنها قد كانت قبل ذلك عند ذكرٍ آخر وكانت تبيض كذلك .

ورأيت أنا حمامة في المنزل لم يعرض لها ذكرٌ إلا اشتدت نحوه بحلّة ونرق وتسرع حتى تنقر أين صادفت منه حتى يصد عنها كالحارب منها وكان زوجها جميلاً في العين رائعاً وكان لها في المنزل بنون وبنو بنين وبنات وبنات بنات وكان في العين كأنه أشب من جميعهن وقد بلغ من حظوته أني قلما رأيته أراد واحدة من عرض تلك الإناث فامتنعت عليه وقد كن يمتنع من غيره فبينما أنا ذات يوم جالسٌ بحيث أراهن إذ رأيت تلك الأنثى قد زافت لبعض بنيتها فقلت لخادمي :

ما الذي غيّر ها عن ذلك الخلق الكريم فقال : إني رحلت زوجها من القاطول فذهب ولهذا شهر فقلت : هذا عنر .

قال مثنى بن زهير : وقد رأيت الحمامة تزواج هذا الحمام ثم تتحول منه إلى آخر ورأيت ذكراً فعَل مثل ذلك في الإناث ورأيت الذكر كثير النسل قوياً على القمط ثم يُصفي كما يُصفي (الرجل إذا أكثر من النسل والجماع .

ثم عدد مثنى أبواباً غير ما حفظت لما يُصاب مثله في الناس . (خبرة مثنى بن زهير بالحمام) وزعموا أن مثنى كان ينظر إلى العاق والمخلف فيظن أنه يجيء من الغاية فلا يكاد ظنه يخطئ وكان إذا أظهر ابتياع حمام أغلوه عليه

وقالوا : لم يطأه إلا وقد رأى فيه علامة الجيء من الغاية وكان يلس في ذلك ففطنوا له وتحفظوا منه فربما اشترى نصفه وثلثه فلا يقصر عند الرجال من الغاية .

وكان له خصي يُقال له خديج يجري مجراه فكانا إذا تناظرا في شأن طائر لم تُخلف فراستهما .

المدة التي يبيض فيها الحمام والدجاج

قال : والحمام تبيض عشرة أشهر من السنة فإذا صانوه وحفظوه وأقلموا له الكفاية وأحسنوا تعهده باض في جميع السنة .

قالوا : والدجاجة تبيض في كل السنة خلا شهرين .

ضرور من الدجاج ومن الدجاجة ما هو عظيم الجثة يبيض بيضاً كبيراً وما أقل ما يحضن ومن الدجاج ما يبيض ستين بيضة وأكثر الدجاج العظيم الجثة يبيض أكثر من الصغير الجثة .

قال : أما الدجاجة التي نسبت إلى أبي ريانوس الملك فهو طويل البدن ويبض في كل يوم وهي صعبة الخلق وتقتل فراريجها .

ومن الدجاج الذي يرعى في المنازل ما يبيض مرتين في اليوم ومن الدجاج ما إذا باض كثيراً مات سريعاً لذلك العرض .

قال : والخطاف تبيض مرتين في السنة وتبي بيتها في أوثق مكان وأعلاه .

فأما الحمام والقواخت والأطرغلات والحمام البري فإنها تبيض مرتين في السنة والحمام الأهلي يبيض عشر مرات وأما القبع والدراج فهما يبيضان بين العشب ولا سيما فيما طال شياً والتوى .

خروج البيضة وإذا باض الطير بيضاً لم تخرج البيضة من حد التحديد والتلطيف بل يكون الذي يبدأ بالخروج الجانب الأعظم وكان الظن يسرع إلى أن الرأس المحدد هو الذي يخرج أولاً .

قال : وما كان من البيض مستطيلاً محدد الأطراف فهو للإناث وما كان مستديراً عريض الأطراف فهو للذكور .

قال : والبيضة عند خروجها لينة القشر غير جاسية ولا يابسة ولا جامدة .

بيض الريح والتراب قال : والبيض الذي يتولد من الريح والتراب أصغر وألطف وهو في الطيب دون الآخر ويكون بيض الريح من الدجاج والقبج والحمام والطاوس والإوز .

أثر حضن الطائر قال : وحضن الطائر وجنومه على البيض صلاح لبدن الطائر كما يكون صلاحاً لبدن البيض ولا كذلك الحضن على الفراخ والفراريج فربما هلك الطائر عن ذلك السبب .

تكون بيض الريح وزعم ناس أن بيض الريح إنما تكون من سفاد متقدم وذلك خطأ من وجهين : أما أحدهما فإن ذلك قد عرف من فراريج لم يرين ديكاً قط والوجه الآخر : أن بيض الريح لم يكن منه فرؤج قط إلا أن يسفد الدجاجة ديك بعد أن يمضي أيضاً خلق البيض .

معارف شتى في البيض قال : ويض الصَّيف الخضون أسرع خروجاً منه في الشتاء ولذلك تحضن الدجاجة البيضة في الصَّيف خمس عشرة ليلة .

قال : وربما عَرَضَ غَيْمٌ في الهواء أو رَعْدٌ في وقتِ حَضْنِ الطائر فيفسدُ البيض وعلى كل حال ففساده في الصيف أكثر والموتُ فيها في ذلك الزمان أعم وأكثر ما يكون فسادُ البيض في الجنائب ولذلك كان

ابن الجهم لا يطلبُ من نسائه الولد إلا والريِّح شمال وهذا عندي تعرُّضٌ للبلاء وتحكُّكٌ بالشرِّ واستدعاء للعقوبة .

وقال : وبعضهم يسمي بيضَ الرِّيح : البيض الجنوبيَّ لأنَّ أصناف الطَّير تقبلُ الرِّيح في أجوافها . وربما أفرخ بيضُ الرِّيح بسفادٍ كان ولكنَّ لونه يكونُ متغيِّراً وإن سفد الأنثى طائرٌ من غير جنسها غير خلق ذلك المخلوق الذي كان من الذَّكر المتقدِّم وهو في الديكة أعم .

ويقولون : إنَّ البيض يكون من أربعة أشياء : فمنه ما يكون من التُّراب ومنه ما يكون من السفاد ومنه ما يكون من التَّسيم إذا وصلَ إلى أرحامهن وفي بعض الزَّمان ومنه شيءٌ يعتري الحَجَل وما شاكله في الطَّبيعة فإنَّ الأنثى ربَّما كانت على سُفالة الرِّيح التي قُبَّ من شِقِّ الذَّكر في بعض الزَّمان فتحتشي من ذلك بيضاً ولم أرهم يشكون أن النَّحلة المُطلعة تكون بقرب الفُحَّال وتحت ريمه فتلقح بتلك الرِّيح وتكتفي بذلك

قال : وييضُ أبكار الطَّير أصغر وكذلك أولادُ النساء إلى أن تتسع الأرحام وتتنفخ الجنوب .

هديل الحمام

ويكون هديل الحمام الفقي ضئيلاً فإذا زقَّ مراراً فَتَحَ الزَّقُّ جلدة غبیه وحوصلته فخرجَ الصَّوتُ أغلظَ وأجهرَ .

حياة البكر وهم لا يقنون بحياة البكر من النَّاسِ كما يتقنون بحياة الثاني ويرون أنَّ طبيعة الشباب والابتداء لا يعطيانه شيئاً إلا أخذته تضايقُ مكانه من الرَّحم ويحبُّون أن تبكرَ بجارية وأظنُّ أن ذلك إنما هو لشدة خوفهم على الذَّكر وفي الجملة لا يتيَّمون بالبكر الذَّكر فإن كان البكر ابنَ بكرٍ تشاءموا به فإن كان البكر ابنَ بكرين فهو في الشُّوم

مثل قيس بن زهير والبسوس فإن قيساً كان أزرق وبكراً ابن بكرين ولا أحفظُ شأنَ البسوس حفظاً أجزمُ عليه .

ما يعتري الحمام والإوز بعد السفاد

قال : وأما الحمام فإنه إذا قمت تَنَفَّشَ وتكبَّرَ ونَفَضَ ذنبه وضربَ بجناحه وأما الإوز فإنه إذا سفد أكثر من السباحة اعتراه في الماء من المَرَح مثل ما يعتري الحمام في الهواء .

قال : ويبيض الدجاج يتم خلقه في عشرة أيام وأكثر شيئاً وأما بيض الحمام ففي أقل من ذلك .

احتباس بيض الحمامة

والحمامة ربما احتبس البيض في جوفها بعد الوقت لأمر تعرض لها : إما لأمر عرض لعشها وأفحوصها وإما لشف ريشها وإما لعلّة وجع من أوجاعها وإما لصوت رعد فإن الرعد إذا اشتد لم يبق طائر على الأرض واقع إلاّ عداء فرعاً وإن كان يطير رمى بنفسه إلى الأرض قال علقمة بن عبدة : (كأنهم صابت عليهم سحابة* صواعقها لطيرهنّ ديب)

تقبيل الحمام

قال : وليس التقبيل إلاّ للحمام والإنسان ولا يدع ذلك ذكر الحمام إلاّ بعد الهرم وكان في أكثر الظنّ أنّه أحوج ما يكون إلى ذلك التهييج به عند الكبر والضعف .
وترعم العوام أنّ تسافد الغربان هو تطاعمها بالمناقير وأنّ إلحاقها إنّما يكون من ذلك الوجه ولم أر العلماء يعرفون هذا .

قال : وإنّ الحمام إذا تسافدت أيضاً قبل بعضهنّ بعضاً ويقال إنّها تبيض عن ذلك ولكن لا يكون عن ذلك البيض فراخ وإنه في سبيل بيض الريح . (تكوّن الفرخ في البيضة) قال : ويستين خلق الفراخ إذا مضت لها ثلاثة أيام بليالها وذلك في شباب الدجاج وأما في المسانّ منها فهو أكثر وفي ذلك الوقت توجد الصفرة من الناحية العليا من البيضة عند الطرف المحدّد وحيث يكون أول نقرها فتمّ يستين في بياض البيضة مثل قطة من دم وهي تخلج وتحرك والفرخ إنّما يخلق من البياض ويغذي

الصفرة ويتم خلقه عشرة أيام والرأس وحلّة البيض العجيب قال : ومن الدجاج ما يبيض بيضاً له صفرتان في بعض الأحيان خبرني بذلك كم شئت من ثقات أصحابنا .

وقال صاحب المنطق : وقد باضت فيما مضى دجاجة ثمان عشرة بيضة لكل بيضة مُحْتَانِ ثمّ سخّنت وحضنت فخرج من كل بيضة فرّوجان ما خلا البيض الذي كان فاسداً في الأصل وقد يخرج من البيضة فرّوجان ويكون أحدهما أعظم جثة وكذلك الحمام وما أقل ما يغادر الحمام أن يكون أحد الفرخين ذكراً والآخر أنثى .

معارف في البيض قال : وربما باضت الحمامة وأشباهاها من القواخث ثلاث بيضات فأما الأطرغلات والقواخث فإنّها تبيض بيضتين وربما باضت ثلاث

بيضات ولكن لا يخرج منها أكثر من فرخين وربما كان واحداً فقط .

قال : وبعض الطير لا يبيض إلاّ بعد مرور الحول عليه كاملاً والحمامة في أكثر أمرها يكون أحد فرخيها

ذكرًا والآخر أنثى وهي تبيضُ أولاً البيضة التي فيها الذكر ثم تقيم يوماً وليلة ثم تبيض الأخرى وتحضنُ ما بين السبعة عشر يوماً إلى العشرين على قدر اختلاف طباع الزمان والذي قال : وأما جميع أجناس الطير فما يأكل اللحم فلم يظهر لنا أنه يبيضُ ويفرخ أكثر من مرة واحدة ما خلا الخطاف فإنه يبيض مرتين .
تربية الطيور فراخها والعقابُ تبيضُ ثلاث بيضات فيخرج لها فرخان واختلفوا فقال بعضهم : لأنها لا تحضن إلا بيضتين وقال آخرون : قد تحضنُ ويخرج

لها ثلاثة أفراخ ولكنها ترمي بواحدٍ استقلالاً للتكسب على ثلاثة وقال آخرون : ليس ذلك إلا بما يعترىها من الضعف عن الصيد كما يعترى الثفساء)

من الوهن والضعف وقال آخرون : العقاب طائر سيء الخلق رديء التربية وليس يستعان على تربية الأولاد إلا بالصبر وقال آخرون : لا ولكنها شديدة النهم والشره وإذا لم تكن أم الفراخ ذات أثر لها ضاعت .

وكذلك قالوا في العقق عند إضاعتها لفراخها حتى قالوا : أحق من عقق كما قالوا : أحذر من عقق . وقالوا : وأما الفرخ الذي يخرج العقاب فإن المكلفة وهي طائر يقال لها كاسر العظام تقبله وتربيته .
والعقاب تحضن ثلاثين يوماً وكذلك كل طائر عظيم الجنة مثل الإوز وأشباه ذلك فأما الوسط

والحدأة تبيضُ بيضتين وربما باضت ثلاث بيضات وخارج منهن ثلاثة فراخ .

قالوا : وأما العقبان السود الألوان فإنها تربي وتحضن .

وجميع الطير المعقف المخالب تطرد فراخها من أعشاشها عند قوتها على الطيران وكذلك سائر الأصناف من الطير فإنها تطرد الفراخ ثم لا تعرفها ما عدا الغداف فإنها لا تزال لولدها قابلة ولحالها متفقدة .
أجناس العقبان وقال قوم : إن العقبان والبزة التامة والجهاررانك والسمنان

والزمامج والزراقة إنما كلها عقبان وأما الشواهين والصقورة واليواي فإنها أجناس آخر .

حضن الطير قال : وقالوا : فراخ البزة سمينة طيبة جداً وأما الإوزة فإنها التي تحضن دون الذكر وأما الغريبان فعلى الإناث الحضن والذكورة تأتي الإناث بالطعمة .

وأما الحجل فإن الزوج منها يهتان للبيض عشتى ن وثيقين

مقسومين عليهما فيحضن أحدهما الذكر والآخر الأنثى وكذلك هما في التربية وكل واحد منهما يعيشُ خمساً وعشرين سنة ولا تلقح الأنثى بالبيض ولا يلحق الذكر إلا بعد ثلاث سنين .

قال : وأما الطاوس فأول ما تبيض ثمان بيضات وتبيض أيضاً يرض الريح والطاوس يلقي ريشه في زمن الخريف إذا بدأ أول ورق الشجر يسقط وإذا بدأ الشجر يكتسي ورقاً بدأ الطاوس فاكسي ريشاً .

ما ليس له عش من الطير قال : وما كان من الطير الثقيل الجنة فليس يهيئ لبيضه عشاً من أجل أنه لا يجيد

الطيران ويثقل عليه النهوض ولا يتحلّق مثل الدُّرّاج والقَبَجَ وإنما يبيض على التراب وفراخ هذه الأجناس كفرايح الدجاج وكذلك فرايح البط الصّيني فإنّ هذه كلّها تخرُج من البيض كاسية كاسية تلقط من ساعتها وتكفي نفسها .

القبجة قال : وإذا دنا الصيّاد من عُشّ القبجة ولها فراخٌ مرّت بين يديه مرّاً غير مفيت وأطمعته في نفسها ليتبعها فتمرّ الفراخ في رجوعها إلى موضع عُشّها والفراخ ليس معها من الهداية ما مع

أمّها وعلى أنّ القبجة سيّنة الدلالة والهداية وكذلك كلّ طائر يعجّل له الكيس والكسوة ويعجّل له الكسب في صغره .

وهذا إنّما اعتراها لقراية ما بينها وبين الدّيك .

قال : فإذا أmeen الصّائد خلفها وقد خرجت الفراخ من موضعها طارت وقد تحنّته إلى حيث لا يهتدي الرجوع منه إلى موضع عُشّها فإذا سقطت قريباً دعّتها بأصوات لها حتّى يجتمعن إليها .

قال : وإنّ القَبَجَ تبيض خمس عشرة بيضة إلى ست عشرة بيضة قال : والقَبَج طيرٌ منكّرٌ وهي تفرّ ببويضها من الذكر لأنّ الأُنثى تشغل بالحضن عن طاعة الذكر في طلب السّفاد والقَبَج الذكر يوصف بالقوّة على السّفاد كما يوصف الدّيك والحجلّ والعصفور .

قال : فإذا شغلت عنه بالحضن طلب مواضع يبضها حتى يفسده فلذلك ترتاد الأُنثى عُشّها في مخابئ إذا أحسّت بوقت البيض .

وثوب الذكورة على الذكورة وإذا قاتل بعض ذكورة القَبَج بعضاً فالغلوب منها مسفود والغالب

سافد وهذا العرض يعرض للدّيك ولذكور الدّرّاريج فإذا دخل بين الدّيك ديكٌ غريب فما أكثر ما تجتمع عليه حتّى تسفده وسفاد ذكورة هذه الأجناس إنّما يعرض لها هذه الأسباب فأما ذكورة الحمير والخنازير والحمام فإنّ ذكورها تتبّ على بعض من جهة الشّهوة .

وكان عند يعقوب بن صباح الأشعني هَرّان ضخمّان أحدهما يكوم الآخر متى أرادهُ من غير إكراهٍ ومن غير أن يكون المسفود يريد من السّفاد مثلاً ما يريد منه السّفاد وهذا الباب شائع في كثير من الأجناس إلّا أنّه في هذه الأجناس أوجَد . (صيد البزاة للحمام) ثمّ رجّع بنا القول إلى ذكر الحمام من غير أن يشاب بذكر غيره .

زعم صاحب المطلق أنّ البزاة عشرة أجناس فمنها ما يضرب الحمامة والحمامة جاثمة ومنها ما لا يضرب الحمامة إلّا وهو يطير ومنها ما لا يضرب الحمام في حال طيرانه ولا في حال جنومه ولا يعرض له إلّا أن يجده في بعض الأغصان أو على بعض الأنشاز والأشجار فعدّد أجناس صيدها ثمّ ذكر أنّ الحمام لا يخفي عليه في أول ما يرى البازي في الهواء أيّ البزاة هو وأي نوع صيئه فيخالف ذلك ولمعرفة الحمام بذلك من البازي أشكال : أول ذلك أنّ الحمام في أولّ نهوضه يفصل بين التّسرّ والعقاب وبين الرّحمة والبازي وبين الغراب

والصَّقر فهو يَرَى الكَرْكِيَّ والطَّبْرَزين ولا يستوحِشُ منهما ويرى الزُّرْقَ فيتضائل فإن رأى الشَّاهينَ فَقَدْ رأى السَّمَّ الذعاف الناقع .
والنَّعجة ترى الفِيلَ والزَّندِيلَ والجاموسَ والبعيرَ فلا يهزُّها ذلك وترى السَّبعَ وهي لم تره قبل ذلك وَعَضُوْهُ من أعضاء تلك البهائم أعظمُ

وهي أهولُ في العين وأشنعُ ثُمَّ ترى الأسدَ فتخافه وكذلك البَبرَ والنمرَ فإن رأت الذئبَ وحده اعتراها منه وحدهُ مثلُ ما اعتراها من تلك الأجناسِ لو كانت مجموعةً في مكانٍ واحدٍ وليس ذلك عن تجربةٍ ولا لأنَّ منظره أشنعُ وأعظمُ وليسَ في ذلك عِلَّةٌ إلَّا ما طُبِعَ عليه من تمييز الحيوانِ عندها فليس بمُسْتَكْرٍ أَنْ تَفْصِلَ الحمامةَ بينَ البازي والبازي كما فصلت بين البازي والكَرْكِيَّ .
فإن زعمتَ أنَّها تعرف بالمخالب فمِنقارُ الكَرْكِيَّ أشنعُ وأعظمُ وأفظعُ وأطولُ وأعرضُ فأما طَرَفُ منقار الأبعثُ فما كان كلُّ سنانٍ وإن كان مدبراً ليلغيه .

بلاهة الحمام وخرقه

قال صاحب الديك : وكيف يكون للحمام من المعرفة والفطنة ما تذكرون وقد جاء في الأثر : كُونُوا بُلْهًا كالحمام .
وقال صاحب الديك : تقول العربُ : أَخْرَقَ مِنْ حَمَامَةٍ وَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ عُبَيْدِ بْنِ الْأَبْرَصِ : (عَيُّوا بِأَمْرِهُمْ كَمَا * عَيَّتْ بَيِّضَتَهَا الْحَمَامَةُ)

فإن كان عبيدٌ إنما عَيَّ حَمَامَةً من حمامكم هذا الذي أنتم بِهِ تَفَخَّرُونَ فقد أكثرتم في ذكر تدبيرها لمواقع بيضها وإحكامها لصنعة عشاشها وأفاحيصها .
وإن قلتم : إنَّه إنما عَيَّ بعضَ أجناسِ الحَمَامِ الوحشي والبرِّي فقد أخرجتم بعضَ الحَمَامِ مِنْ حُسْنِ التَّدْبِيرِ وعبيدٌ لم يُخصَّ حماماً دُونَ حَمَامٍ .

رغبة عثمان في ذبح الحمام

وحدث أسامة بن زيد قال : سمعتُ بعضَ أشياخنا منذُ زمانٍ يحدثُ أَنَّ عثمانَ ابنَ عفَّانَ رضي الله تعالى عنه أراد أن يذبحَ الحَمَامَ ثُمَّ قال : لولا أَنَّها أُمَّةٌ من الأممِ لَأَمَرْتُ بِذَبْحِهنَ ولكنَّ قُصُوهنَّ فدلَّ بقوله : قُصُوهنَّ على أَنَّها إنما تُذْبَحُ لرغبةٍ مَنْ يَتَّخِذهنَّ ويلعبُ بهنَّ من الفَتَيانِ والأحداثِ والشُّطَّارِ وأصحابِ المراهنة والقمار والذين

يتشرَّفون على حُرْمِ الناسِ والجيرانِ ويختدِعُونَ بفراخِ الحَمَامِ أولادَ النَّسِ ويرمونَ بالجُلَاهِقِ وما أكثرَ مَنْ قد فقأَ عيناَ وهشمَ أنفاً وهشمَ فماً وهو لا يلري ما يصنع ولا يَقِفُ على مقدارِ ما ركبَ به القومُ ثم تذهب

جَنَائِئُهُ هَدَرًا وَيَعُودُ ذَلِكَ الدَّمُ مَطْلُولًا بِلا عَقْلٍ وَلَا قَوْدٍ وَلَا قِصَاصٍ وَلَا أَرُشَ إِذْ كَانَ صَاحِبُهُ مَجْهُولًا .
وعلى شبيهه بذلك كان عمرُ رضي الله عنه أمرَ بِذَبْحِ الدِّيَكَةِ وأمرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ .

قالوا : ففيما ذكرنا دليلٌ على أَنَّ أَكْلَ لحومِ الكِلَابِ لم يكنْ مِنْ دينهم ولا أخلاقهم ولا مِنْ دواعي شهواتهم ولولا ذلك لما جاء الأثرُ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعُثْمَانَ رضي الله تعالى عنهما بِذَبْحِ الدِّيَكَةِ والحَمَامِ وقَتْلِ الكِلَابِ ولولا أَنَّ الأمرَ على ما قلنا لقالوا : اقتلوا الدُّيُوكَ والحَمَامَ كما قال : اقتلوا الكِلَابَ وفي تفريقهم بينها دليلٌ على افتراقِ الحالاتِ عندهم .

قال : حدثني أسامة بن زيد وإبراهيم بن أبي يحيى أَنَّ عُثْمَانَ شكَّوا إليه الحَمَامَ وأَنَّهُ قال : مَنْ أَخَذَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فهو له وقد علمنا أَنَّ اللفظَ وإن كان قد وَقَعَ على شِكَايَةِ الحَمَامِ فإنَّ المعنى إِنَّمَا هو على شِكَايَةِ أصحابِ الحَمَامِ لَأَنَّهُ ليس في الحَمَامِ مَعْنًى يدْعُو إلى شِكَايَةٍ .
قال : وحدثنا عُثْمَانُ قال : سئل الحسنُ عن الحَمَامِ الذي يصطاده النَّاسُ قال : لا تأكله فَإِنَّهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ فجعله مالاً ونَهَى عن أَكْلِهِ بغيرِ إِذْنِ أَهْلِهِ وكلُّ ما كان مالاً فيبيعه حسنٌ وابتياعه حسنٌ فكيف يجوزُ لشيءٍ هذه صفته أَنْ يُذْبَحَ إِلَّا أَنْ يكونَ ذلك على طريقِ العقابِ والزَّجْرِ لمن اتَّخَذَهُ لما لا يحلُّ .
قال : ورووا عن الزُّهري عن سَعِيدِ بنِ المسيَّبِ قال : نَهَى عُثْمَانُ عن اللَّعِبِ بالحَمَامِ وعن رمي (أَمْنِ حَمَامِ مَكَّةَ وَغَزَلَانَهَا) والناسُ يقولون : آمَنُ مِنْ حَمَامِ مَكَّةَ وَمِنْ غَزَلَانِ مَكَّةَ وهذا شائعٌ على جميعِ الألسنة لا يردُّ أَحَدٌ ممن يعرفُ الأمثالَ والشواهدَ قال عُقَيْبَةُ الأَسَدِيُّ لابنِ الزُّبَيْرِ :

(ما زلتَ مذحِجٌ بمكةَ محرمًا ** في حيثُ يأمنُ طائرٌ وحَمَامٌ) (فَلتَنهَضَنَّ العيسُ تنفُخُ في البُرا ** يَجْتَنِبْنَ غُرُضَ مَخَارِمِ الأعلامِ) (أبُو المَغيرةِ مثلُ آلِ خُوَيْلِدٍ ** يا لِلرَّجالِ لِخَفَةِ الأحلامِ) وقال النابغةُ في الغَزَلانِ وأمنَها كقولِ جميعِ الشعراءِ في الحمامِ : (والمؤمنُ العائداتِ الطيرَ تمسَحُها ** رُكبانَ مَكَّةَ بينَ الغِيلِ والسَّعدِ) (ولو أَنَّ الطَّباءَ ابتُلِيتِ مِمَّنْ يَتَّخِذُها بِمثلِ الذي ابتُلِيتَ بهِ الحَمَامُ ثُمَّ ركبوا المسلمينَ في الغَزَلانِ بِمثلِ ما ركبهم بهِ في الحَمَامِ لساروا في ذَبْحِ الغَزَلانِ كسيرتهم في ذَبْحِ الحمامِ .
وقالوا : إِنَّهُ لَيَلُغُ مَنْ تعظيمِ الحَمَامِ حُرْمَةَ البيتِ الحرامِ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يشهدونَ عن آخرهم أَنَّهُمْ لم يروا حَمَامًا قطُّ سقطَ على ظهرِ الكعبةِ إِلَّا مِنْ

علَّةٍ عَرَضَتْ لَهُ فَإِنْ كانتِ هذهِ المعرفةُ اكتساباً من الحمامِ فالْحَمَامُ فوقَ جميعِ الطيرِ وكلِّ ذي أَرْبعٍ وإن كان هذا إِنَّمَا كان من طريقِ وقال الشاعرُ في أَمْنِ الحمامِ : (لقد علمَ القِبائلُ أَنَّ يَتَّى ** تفرَّعَ في الذَّوائبِ والسَّنامِ) (وَأَنَا نَحْنُ أَوَّلُ مَنْ تَبَنَّى ** بِمَكَّتِها البيوتُ معَ الحَمَامِ) وقال كثيرٌ أو غيره من بني سَهْمٍ في أَمْنِ الحَمَامِ : (لَعَنَ اللهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيًّا ** وَحُسَيْنًا مِنْ سَوْفَةٍ وَإِمَامٍ) (أَيَسَبُّ المَطيَّونَ جدوداً ** والكرامُ

الأحوال والأعمام (يأمن الظبي والحمام ولا يأ ** من آل الرسول عند المقام) (رحمة الله والسلام عليهم
** كلما قام قائمٌ بسلام)

وذكر شأن ابن الزبير وشأن ابن الحنفية فقال : (ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى ** من الناس يعلم أنه
غير ظالم) (سمي النبي المصطفى وابن عمه ** وفكاك أغلال ونفأ غارم) (أبي فهو لا يشري هدى
بضلالة ** ولا يتقي في الله لومة لائم) (ونحن بحمد الله نتلو كتابه ** حلولا بهذا الخيف خيف الحارم)
بحيث الحمام أمانت سواكن ** وتلقى العدو كالولي المسلم) قال صاحب الحمام : أما العرب والأعراب
والشعراء فقد أطبقوا على أن الحمامة هي التي كانت دليل نوح ورائده وهي التي استجملت

عليه الطوق الذي في عنقها وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحلية ومنحها تلك الزينة بدعاء نوح عليه
السلام حين رجعت إليه ومعها من الكرم ما معها وفي رجليها من الطين والحمة ما برجليها فعوضت من
ذلك الطين خضاب الرجلين ومن حُسن الدلالة والطاعة طوق العنق .

شعر في طوق الحمامة

وفي طوقها يقول الفرزدق : (فمن يك خائفاً لأذاة شعري ** فقد أمن الهجاء بنو حرام) (هم قادوا
سفيههم وخافوا ** قلائد مثل أطواق الحمام) وقال في ذلك بكر بن الططاح :

(إذا شئت غنتي ببغداد قينة ** وإن شئت غناني الحمام المطوق) (لباسي الحسام أو إزار مُعصر ** ودرع
حديد أو قميص مخلق) فذكر الطوق ووصفها بالغناء والإطراب وكذلك قال حميد بن ثور : (وليست من
اللاتي يكون حديثها ** أمام بيوت الحي إن وإنما) ثم قال : (وما هاج هذا الشوق إلا حمامة ** دعت
ساق حر ترحة وترثما)

(مطوقة خطباء تصدح كلما ** دنا الصيف وانجاب الربيع فأنجما) ثم قال بعد ذكر الطوق : (إذا شئت
غننتي بأجراع بيشة ** أو التخل من تثليث أو يللملما) (عجت لها أني يكون غناؤها ** فصيحاً ولم تغفر
بمنطقها فما) (ولم أر محزوناً له مثل صوتها ** ولا عريباً شاقه صوت أعجم) وقال في ذكر الطوق وأن
الحمامة نواحة عبد الله بن أبي بكر وهو شهيد يوم الطائف وهو صاحب ابن صاحب :

(فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ** ولا مثلها في غير جرم تطلق) (أعاتك لا أنساك ما هبت الصبا ** وما
نأح قمرئ الحمام المطوق) وقال جهم بن خلف وذكرها بالنوح والغناء والطوق ودعوة نوح وهو قوله : (وقد
شاقني نوح قمرية ** طروب العشي هتوف الضحى) (تغت عليه بلحن لها ** يهيج للصب ما قد
مضى) (مطوقة كسبت زينة ** بدعوة نوح لها إذ دعا) (فلم أر باكية مثلها ** تبكي ودمعنها لا ترى)

(أَضَلَّتْ فُرَيْخًا فَطَافَتْ لَهُ ** وَقَدْ عَلِقَتْهُ حَبَالُ الرَّدَى) (فلما بدا اليأس منه بَكَتْ ** عَلَيْهِ وما ذا يَرُدُّ
البُكَاءُ) (وقد صادَهُ ضَرْمٌ مُلْحِمٌ ** خَفُوقُ الْجَنَاحِ حَيْثُ التَّنَجَا)

(حديد المخالب عاري الوطي ** فِ ضارٍ من الورق فيه قنا) (تَرَى الطَّيْرَ والوَحْشَ مِنْ خَوْفِهِ ** جَوَامِزَ
منه إذا ما اغتدى) نزاع صاحب الديك في الفخر بالطوق قال صاحب الديك : وأما قوله : (مطوّقة
كسأها الله طوقاً ** ولم يَخْصُصْ به طيراً سِوَاهَا) كيف لم يَخْصُصْ بالأطواق غَيْرَ الحَمَامِ والتَّدَارِجِ أَحَقُّ
بالأطواق وأحسن أطواقاً منها وهي في ذكورتها أعمّ وعلى أنّه لم يصف بالطّوق الحَمَامَةَ التي فاخرتم بها
الديك لأنّ الحَمَامَةَ ليست بمطوّقة وإنما الأطواقُ لذكورة الوارشين وأشباه الوارشين من نوائح الطّير
وهواتفها ومغنياتها

(أَعَاتَكَ لَا أَنْسَاكِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا ** وما نَحَ قُمْرِي الحَمَامِ المطوّقُ) وقال الآخر : (وقد شاقني نوحَ قمرية
** طروب العشيّ هتوف الضحى) ووصفها فقال : (مطوّقة كُسيّت زينةً ** بدعوة نوح لها إذ دعا) فإن
زعمتم أنّ الحَمَامَ والقُمْرِيَّ واليَمَامَ والقَوَاحِثَ والدَّبَاسِيَّ والشَّقَاقِينَ والوارشين حمامَ كُلِّهِ قُلْنَا : إنا نزعم أنّ
ذكورة التَّدَارِجِ وذكورة القَبَجِ وذكورة الحَجَلِ ديوكٌ كلها فإن كان ذلك كذلك فالفخرُ بالطّوق نحن أولى
به .

قال صاحب الحَمَامِ : العرب تسمي هذه الأجناسَ كلها حماماً فجمعوها بالاسم العامّ وفرّقوها بالاسم الخاص
ورأينا صورها متشابهة وإن كان في الأجسام بعض الاختلاف وفي الجُثث بعض الائتلاف وكذلك المناقير
ووجدناها تتشابه من طريق الزّواج ومن طريق

الدُّعاء والغناء والتّوَحُّ وكذلك هي في القدودِ وصُورِ الأعناق وقصب الريش وصيغَةِ الرُّؤُوسِ والأرجل
والسُّوقِ والبرائين .

والأجناسُ التي عدّتم ليس يجمعها اسمٌ ولا بلدةٌ ولا صورةٌ ولا زواجٌ وليس بين الديكة وبين
تلك الذكورة نسبٌ إلّا أنّها من الطّير الموصوفة بكثرة السّفَادِ وأنّ فِرَاحَهَا وفرَاجِهَا تخرُجُ من بيضها كاسية
كاسية والبَطُّ طائرٌ مثقل وقد ينبغي أن تجعلوا فرخَ البطة فرّوجاً والأنثى دجاجةً والذكرَ ديكاً ونحن نجد
الحَمَامَ ونجد الوارشين تنسافد وتتلاقح ويحيى منها الراعيُّ والوردانيُّ ونجد القَوَاحِثَ والقُمَارِيَّ تنسافد
وتتلاقح مع ما ذكرنا من التشابه في تلك الوجوه وهذا كلّهُ يدلُّ على أنّ بعضها مع بعضٍ كالْبُخْتِ
والعرابِ ونتائج ما بينهما وكالبراذين والعنّاق وكلها خيلٌ وتلك كلها إبل وليس بين التَّدَارِجِ والقَبَجِ
والحَجَلِ والدَّجَاجِ هذه الأمور التي ذكرنا .

وعلى أنّا قد وجدنا الأطواقَ عامّةً في ذوات الأوضح من الحَمَامِ لأنّ فيها من الألوان ولها من الشّيآت
وأشكالِ وألوانِ الريش ما ليس لغيرها من الطّير ولو احتججنا بالتسافد دون التّلاقح لكان لقائل مقال
ولكنّا وجدناها تجمع الخصاليتين لأنّا قد نجد سُفْهَاءَ

الناس ومن لا يتَّقَد من الناس والأحداث ومن تشتدُّ غلمته عند احتلامه ويَقِلُّ طُرُوقه وتطول عُزْبته
كالعُزْب من الرِّعاء فَإِنَّ هذه الطَّبَقَة من الناس لم يَدْعُوا نَاقَةً ولا بَقَرَةً ولا شاةً ولا أَتاناً ولا رَمَكَةً ولا حِجْراً
ولا كَلْبَةً إِلَّا وقد وقعوا عليها .

ولَوْلَا أَنَّ في نفوس النَّاس وشَهَوَاتِهِمْ ما يدعو إلى هذه القاذورة لَمَا وَجَدْتَ هذا العَمَل شائعاً في أهل هذه
الصفة وَلَوْ جَمَعْتَهُمْ لَجَمَعْتَ أَكْثَرَ من أهلِ بَغْدَادَ والبصرة ثُمَّ لم يُلْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ شيئاً ولقد خَبَّرَنِي من إِخوانِي
من لا أَتُهُمْ خَبَرَهُ أَنَّ مملوكاً كان لبعض أهلِ القَطِيعَةِ أعني قَطِيعَةِ الرِّبيع وكان ذلك المملوكُ يَكُومُ بَغْلَةً

وَأَنَّهَا كانت تودق وتَلْمِظُ وَأَنَّهَا في بعض تلك الوقَعَاتِ تَأَخَّرَتْ وهو موعِبٌ فيها ذكره تطلبُ الزيادة فلم
يَزَلْ المملوكُ يتأخَّرُ وتتأخَّرُ البَغْلَةُ حتَّى أَسْنَدَتْهُ إلى زاوِيَةٍ مِنْ زَوَايا الإِصْطِبلِ فَاصْطَبَلَتْ فَصَغَطَتْهُ حتَّى بَرَدَ فدخل بعضُ
من دخل فراآه على تلك الحال فصاح بها ففَتَحَتْ وَخَرَّ الغلامُ مَيِّتاً .

وأخبرني صديقٌ لي قال : بلغني عن بَرْدُونٍ لَزُرْقَانِ المتكَلِّمِ أَنَّهُ كان يدرِخُ للِبغالِ والحَمِيرِ والبراذين حتى
تَكُومَهُ قال : فأقبلت يوماً في ذلك الإِصْطِبلِ فتناولت المجرِفَةَ فَوَضَعْتُ رَأْسَ عودِ المِجْرَفَةِ على

مَرَاتِهِ وإِنَّهُ لَأَكْثَرُ مِنْ ذِرَاعٍ ونصفٍ وإِنَّهُ لَحَشِنٌ غليظٌ غير محكوك الرأس ولا مَمْلَسَةٍ فدفعته حتى بلغ أقصى
العود وامتنع من الدُّخُولِ ببدنِ المِجْرَفَةِ فحَلَفَ أَنَّهُ ما رآه تَأْطَرُّ ولا اتنى .
قال صاحب الحمام : فهذا فرق ما بيننا وبينكم .)

ما وصف به الحمام من الإِسعاد

(. .)

وحسن الغناء والنوح

وَنَذَكُرُ ما وُصِفَ به الحمامُ من الإِسعاد ومن حُسْنِ الغناء والإطراب والنَّوْحِ والشَّجَا قال الحسن بن هانئ :
(إِذَا تَنَنَّتْهُ الغُصُونُ جَلَلَنِي ** فَيَنانُ ما في أَدِيمِهِ جُوبُ)

(تَبَيَّتْ في مَأْتَمِ حَمائِمِهِ ** كما تُرِنُّ الفِواقِدُ السُّلْبُ) (يَهَبُ شَوْقِي وشَوْقُهُنَّ مَعاً ** كَأَنَّمَا يَسْتَحْفِنُ طَرِبُ)
وقال آخر : (لَقَدْ هَتَفْتُ في جُنْحِ لَيْلِ حَمَامَةٍ ** على فَنَنِ وهنَّ وإِنِّي لَنانُ) (فقلْتُ اعتذاراً عند ذاك وإِنِّي
** لَنفسي ما قد سَمِعْتُ لَلانِ) (كَذَبْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ لو كُنْتُ عاشِقاً ** لما سَبَقْتَنِي بالبُكاءِ الحَمائِمُ) وقال
نصيب : (ولو قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صابئةً ** بسُعدي شَفِيتَ النَّفْسَ قَبْلَ التَّدْمِ) (وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَجَّ
لي الْبُكا ** بُكَاهَا فَقُلْتُ الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ) وقال أعرابي : (عَلَيْكَ سَلامُ اللَّهِ قاطعةُ القُوى ** على أَنْ قَلْبِي
لِلْفِرَاقِ كَلِيمُ)

(سقط : بيت الشعر) (قريح بتغريد الحمام إذا بكت ** وإن هب يوما للجنوب نسيم) وقال الجنون أو غيره : (ولو لم يهجنني الراحون لهاجنني ** حمام ورق في الديار وقوع) (تجاوبن فاستبكين من كان ذا هوى ** نوائح لا تجري لمن فموع) وقال الآخر : (ألا يا سيالات الدحائل باللوى ** عليكن من بين السيل سلام) (أرى الوحش آجالاً ليكن بالضحى ** لمن إلى أفيانكن بعام)

(وإني لجلوب لي الشوق كلما ** ترتم في أفنانكن حمام) وقال عمرو بن الوليد : (حال من دون أن أحل به الناء ** ي وصرف النوى وحرب عقام) (فبدلت من مساكن قومي ** والقصور التي بها الآطام) (كل قصر مشيد ذي أواس ** تتغنى على ذراه الحمام) وقال آخر : (ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ** فقد هاج لي مسراك وجداً على وجد) (أن هتفت ورقاء في روق الضحى ** على غصن غصن الثبات من الرند)

(سقط : بيت الشعر) (بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن ** جليدا وأبديت الذي لم تكن تبدى) (وقد زعموا أن أحب إذا دنا ** يمل وأن النأي يشفي من الوجد) (بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ** على أن قرب الدار خير من البعد)

أنساب الحمام

وقال صاحب الحمام : للحمام مجاهيل ومعروفات وخارجيات ومنسوبات والذي يشتمل عليه دواوين أصحاب الحمام أكثر من كتب النسب التي تضاف إلى ابن الكلبي والشرقي بن القطامي وأبي القظان وأبي عبيدة النحوي بل إلى دغفل ابن حنظلة وابن لسان الحمرة بل إلى صحر العبدى وإلى أبي السطاح اللخمي بل إلى النخار

العذري وصبح الطائي بل إلى مشجور بن غيلان الضبي وإلى سطح الذبي بل ابن شربة الجرهمي وإلى زيد بن الكيس النمري وإلى كل نسابة راوية وكل متفنن علامة .

ووصف الهذيل المازني مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام فقال : والله هو أنسب من سعيد بن المسيب وقادة بن دعامه للناس بل هو أنسب من أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقد دخلت على رجل

أعرف بالأمهات المنجبات من سحيم ابن حفص وأعرف بما دخلها من الهجنة والإقراف من يونس بن حبيب .

قال : ولما أشبه فيه الحمام الناس في الصور والشمائل ورقة الطباع وسرعة القبول والانقلاب أنك إذا كت صاحب فراسة فمر بك رجال بعضهم كوفي وبعضهم بصري وبعضهم شامي وبعضهم يمني لم يخف عليك أمورهم في الصور والشمائل والقُدود والنغم أيهم بصري وأيهم كوفي وأيهم يمني وأيهم مدني وكذلك الحمام لا ترى صاحب حمام تخفى عليه نسب الحمام وجنسها وبلادها إذا رآها .

مبلغ ثمن الحمام وغيره

وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمام الواحد يباع بخمسمائة دينار ولا يبلغ ذلك باز ولا شاهين ولا صقر ولا عقاب ولا طاوس ولا تدرج ولا ديك ولا بعير ولا حمار ولا بغل ولو أردنا أن نحقق الخبر بأن بردونا أو فرساً يبع بخمسمائة دينار لما قدرنا عليه إلا في حديث السمر .
وأنت إذا أردت أن تعرف مبلغ ثمن الحمام الذي جاء من الغاية ثم دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة وفيه أن الحمام إذا جاء من الغاية يبع الفرخ الذكر من فراخ بعشرين ديناراً أو أكثر ويبتع الأنثى بعشرة دنانير أو أكثر ويبتع البيضة بخمسة دنانير فيقوم الزوج منها في الغلة مقام ضيعة وحتى ينهض بمؤنة العيال ويقضي الدين وتبنى من غلاته وأثمان رقابه الدور الجياد وتبتاع الحوانيت المغلة هذا وهي في ذلك الوقت ملهى عجيب ومنظر أنيق ومعتبر لمن فكر ودليل لمن نظر .

عناية الناس بالحمام

ومن دخل الحجر ورأى قصورها المنيعة لها بالشامات وكيف اختزان تلك الغلات وحفظ تلك المؤونات ومن شهد أرباب الحمام وأصحاب الهدى وما يحملون فيها من الكلف الغلاظ أيام الرجل في حملها على ظهور الرجال وقبل ذلك في بطون السفن وكيف تُفرَّد في البيوت وتجمع إذا كان الجمع أمثل وتفرَّق إذا كانت التفرقة أمثل وكيف تُنقل الإناث عن ذكورتها وكيف تنقل الذكورة عن إناثها إلى غيرها وكيف يُخاف عليها الضوى إذا تقاربت أنسابها وكيف يُخاف على أعراقها من دخول الخارجيات فيها وكيف يحتاط في صحة طرقها ونجلها لأنه لا يؤمن أن يقط الأنثى ذكر من

عُرض الحمام فيضرب في النجل بنصيب فتعثره الهجنة والبيضة عند ذلك تنسب إلى طرقها وهم لا يحوطون أرحام نسائهم كما يحوطون أرحام المنجيات من إناث الحمام ومن شهد أصحاب الحمام عند زجلها من الغاية والذين يعلمون الحمام كيف يختارون لصاحب العلامات وكيف يتخيرون الثقة وموضع الصديق والأمانة والبعد من الكذب والرشوة وكيف يتوخون ذا التجربة والمعرفة اللطيفة وكيف تسخو أنفسهم بالجمالة الرفيعة وكيف يختارون حملها من رجال الأمانة والجلد والشفقة والبصر وحسن المعرفة لعلم عند ذلك صاحب الديك والكلب أنهما لا يجريان في هذه الحلبة ولا يتعاطيان هذه)
الفضيلة .

خصائص الحمام

قال : وللحمام من حسن الاهتداء وجودة الاستدلال وثبات الحفظ والذكر وقوة التراع إلى أربابه والإلف لوطنه ما ليس لشيء

وكفأك اهتداءً ونزاعاً أن يكون طائرٌ من بهائم الطير يحىء من برغمة لا بل من العليق أو من خرشنة أو من الصفصاف لا بل من البغراس ومن لؤلؤة .

ثم الدليل على أنه يستدل بالعقل والمعرفة والفكرة والعناية أنه إنما يحىء من الغاية على تلريج وتدريب وتنزيل والدليل على علم أربابه بأن تلك المقدمات قد نجعن فيه وعملن في طباعه أنه إذا بلغ الرقة غمروا به بكرة إلى الترب وما فوق الترب من بلاد الروم بل لا يجعلون ذلك

ولو كان الحمام مما يرسل بالليل لكان ممّا يستدل بالنجوم لأنّا رأينا يلزم بطن الفرات أو بطن دجلة أو بطون الأودية التي قد مرّ بها وهو يرى ويصير ويفهم انحدار الماء ويعلم بعد طول الجولان و بعد الرجال إذا هو أشرف على الفرات أو دجلة أن طريقه وطريق الماء واحد وأنه ينبغي أن ينحدر معه . وما أكثر ما يستدل بالحواد من الطرق إذا أعينته بطون الأودية فإذا لم يدر أمصعد أم منحدر تعرّف ذلك بالريح ومواضع قرص الشمس في السماء وإنما يحتاج إلى ذلك كله إذا لم يكن وقع بعد على رسم يعمل عليه فرما كرّ حين يزجل به يمينا وشمالا وجنوبا وشمالا وصبا ودورا الفراسخ الكثيرة وفوق الكثيرة .

(الغمر والجرب من الحمام) وفي الحمام الغمر والجرب وهم لا يخاطرون بالأعمار لوجهين : أحدهما أن يكون الغمر عريفاً فصاحبه يضمن به فهو يريد أن يدرّبه ويمرّنه ثم يكلفه بعد الشيء الذي اتّخذ له ويسببه اصطنعه واتّخذهُ وإما أن يكون الغمر مجهولاً فهو لا يتعنى ويشقى نفسه ويتوقّع الهداية من الأعمار المجاهيل . وخصلة أخرى : أن المجهول إذا رجّع مع الهدى المعروفات فحملة معها إلى الغاية فجاء سابقاً لم يكن له كبير ثمن حتى تتلاحق به الأولاد فإن أنجب فيهن صار أباً مذكوراً وصار نسباً يرجع إليه وزاد ذلك في ثمنه .

فأمّا الجرب غير الغمر فهو الذي قد عرفوه الورود والتحصّب لأنّه متى لم يقدر على أن ينقص حتى يشرب الماء من بطون الأودية والأنهار والغدران ومناقع المياه ولم يتحصّب بطلب بزور البراري وجاع وعطش التمس مواضع الناس وإذا مرّ بالقرى والعمران سقط وإذا سقط أخذ بالباكير

وبالقفاة وبالملقف وبالتدبيق وبالذشاخ ورمى أيضاً بالجلأهق وبغير ذلك من أسباب الصيد . والحمام طائرٌ ملقّى غير موقى وأعداؤه كثير وسباع الطير تطلبه أشدّ الطلب وقد يترفع مع الشاهين وهو للشاهين أخوف فالحمام

أطير منه ومن جميع سباع الطير ولكنّه يُدعّر فيجهل باب المخلص ويعتريه ما يعتري الحمار من الأسد إذا رآه والشاة إذا رأت الذئب والفارة إذا رأت السنور .

سرعة طيران الحمام

والحمام أشد طيراناً من جميع سباع الطير إلا في انقضاض وانحدار فإن تلك تنحط انحطاط الصخور و متى التقت أمّة من سباع الطير أو جفالة من بهائم الطير أو طرن على عرقه وخيط ممدود فكلها يعترها عند ذلك التقصير عما كانت عليه إذا طارت في غير جماعة

ولن ترى جماعة طير أكثر طيراناً إذا كثرن من الحمام فإنهن كلما التفغن وضاق موضعهن كان أشد طيرهن وقد ذكر ذلك التابغة الذبياني في قوله : (واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت ** إلى حمام شراع وارد التمد) (يحفه جانباً نيق ويتبعه ** مثل الرجاجة لم تكحل من الرمدي) (قالت : ألا ليما هذا الحمام لنا ** إلى حمامنا ونصفه فقد) (فحسبه فألقوه كما حسبت ** تسعا وتسعين لم تنقص ولم ترد) (فكملت مائة فيها حمامتها ** وأسرعت حسبة في ذلك العدد)

قال الأصمعي : لما أراد مديح الحاسب وسرعة إصابته شدّد الأمر وضيّقه عليه ليكون أحمد له إذا أصاب فجعلهُ حَزَرَ طيراً والطير أخف من غيره ثم جعله حماماً والحمام أسرع الطير وأكثرها اجتهاداً في السرعة إذا كثر عدهن وذلك أنه يشتد طيرانه عند المسابقة والمنافسة وقال : يحفه جانباً نيق ويتبعه فأراد أن الحمام إذا كان في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا

غايات الحمام

وصاحب الحمام قد كان يدرّب ويمرّن ويُنزل في الرجال والغاية يومئذٍ واسط فكيف يصنع اليوم بتعريفه الطريق وتعريفه الورود والتحصّب مع بُعد الغاية

ما يختار للزجل من الحمام والبغداديون يختارون للرجال من الغاية الإناث والبصريون يختارون الذكور فحجة البغداديين أن الذكر إذا سافر وبعد عهده بقمط الإناث وتآقت نفسه إلى السفاد ورأى أنثاه في طريقه ترك الطلب إن كان بعد في الجولان أو ترك السير إن كان وقع على القصد ومال إلى الأنثى وفي ذلك الفساد كله .

وقال البصري : الذكر أحن إلى بيته لمكان أنثاه وهو أشد متناً وأقوى بدناً وهو أحسن اهتداء فنحن لا ندع تقديم الشيء القائم إلى معنى قد يعرض وقد لا يعرض .

نصيحة شدفويه في تربية الحمام وسمعت شدفويه السلاحي من نحو خمسين سنة وهو يقول لعبد السلام بن أبي عمار : اجعل كعبة حمامك في صحن دارك فإن الحمام إذا كان متى خرج من بيته إلى المعلاة لم يصل إلى معلاته إلا بجمع النفس والجناحين وبالنهوض ومكابدة الصعود اشتد متنه وقوي

جناحه ولحمه ومتى أراد بيته فاحتاج إلى أن ينتكس ويحيء منقضاً كان أقوى على الارتفاع في الهواء بعد أن يروى وقد تعلمون أن الباطنيين أشد متناً من الظاهريين وأن النقرس لا يصيب الباطني في رجله ليس ذلك إلا لأنه يصعد إلى العالي فوق الكناديح درجة بعد درجة وكذلك نزوله فلو درّبتم الحمام على هذا الترتيب

كَانَ أَصُوبٌ وَلَا يُعْجَبُنِي تَدْرِيْبُ الْعَاتِقِ وَمَا فَوْقَ الْعَاتِقِ إِلَّا مِنَ الْأَمَاكِنِ الْقَرِيْبَةِ لِأَنَّ الْعَاتِقَ كَالْفَتَاةِ الْعَاتِقِ وَكَالْصَّبِيِّ الْغَرِيْبِ فَهُوَ لَا يَعْدِمُهُ ضَعْفُ الْبَدَنِ وَقَلَّةُ الْمَعْرِفَةِ وَسُوءُ الْإِلْفِ وَلَا يُعْجَبُنِي أَنْ تَتْرَكُوا الْحَمَامَ حَتَّى

إِذَا صَارَ فِي عِدَدِ الْمَسَانِّ وَاكْتَهَلَ وَوَلَدَ الْبَطُونَ بَعْدَ الْبَطُونَ وَأَخَذَ ذَلِكَ مِنْ قُوَّةِ شَبَابِهِ حَمَلْتُمُوهُ عَلَى الرَّجُلِ وَعَلَى التَّمْرَيْنِ ثُمَّ رَمَيْتُمْ بِهِ أَقْصَى غَايَةٍ لَا وَلَكِنَّ التَّلْدِيْبَ مَعَ الشَّبَابِ وَانْتِهَاءَ الْحِلَّةِ وَكَمَالَ الْقُوَّةِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْخُذَ الْقُوَّةُ فِي التَّقْصَانِ فَهُوَ يَلْقَنُ بِقَرِيْبِهِ مِنَ الْحَدَاثَةِ وَيُعْرِفُ بِخُرُوجِهِ مِنْ حَدِّ الْحَدَاثَةِ فَاِبْتَدِئُوا بِهِ التَّعْلِيْمَ وَالتَّمْرَيْنِ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الْوُسْطَى .

الْوَقْتُ الْمَلَائِمُ لَتَمْرَيْنِ فِرَاحِ الْحَمَامِ وَهُمْ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَمْرُتُوا الْفِرَاحَ أَخْرَجُوهَا وَهِيَ جَانِعَةٌ حَتَّى إِذَا أَقْبَوْا إِلَيْهَا الْحَبَّ أَسْرَعَتْ التَّرْوَلَ وَلَا تُخْرَجُ وَالرَّيْحُ عَاصِفٌ فَتُخْرَجُ قَبْلَ الْمَغْرَبِ وَانْتِصَافِ النَّهَارِ وَحَدَاقِهِمْ لَا يَخْرُجُوهَا مَعَ ذِكُورَةِ الْحَمَامِ فَإِنَّ الذُّكُورَةَ يَعْتَرِيهَا النَّشَاطُ وَالطَّيْرَانِ وَالْتِبَاعُذُ وَمَجَاوِزَةُ الْقَبِيْلَةِ فَإِنْ طَارَتْ الْفِرَاحُ مَعَهَا سَقَطَتْ عَلَى دُورِ النَّاسِ فِرْيَاضَتِهَا شَدِيدَةٌ وَتَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةٍ وَعِنَايَةٍ وَإِلَى صَبْرِ وَمُطَاوَلَةٍ لِأَنَّ الَّذِي يُرَادُ مِنْهَا إِذَا احْتِيجَ إِلَيْهِ بَعْدَ هَذِهِ الْمَقْدَمَاتِ كَانَ أَيْضًا مِنَ الْعَجَبِ الْعَجِيْبِ .

حَوَارِ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ مَعَ رَجُلٍ فِي اخْتِيَارِ الْحَمَامِ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ أَتَقَى بِهِ أَنَّ يَعْقُوبَ بْنَ دَاوُدَ قَالَ لِبَعْضِ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ ذَهَبَ عَنِّي اسْمُهُ وَنَسِيْتُهُ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ عَرَفْتُهُ : أَمَا تَرَى كَيْ أَحْلَفَ ظَنُّنَا وَأَخْطَأَ رَأْيُنَا حَتَّى عَمَّ ذَلِكَ وَلَمْ يَخْصَّ أَمَا كَانَ فِي جَمِيعِ مَنْ اصْطَنَعْنَاهُ وَاخْتَرْنَاهُ وَتَفَرَّسْنَا فِيهِ الْخَيْرَ وَأَرْدَنَاهُ بِهِ وَاحِدًا تَكْفِينًا مَعْرِفَتِهِ مَوْثِقَةً الْاِحْتِجَاجِ عَنْهُ حَتَّى صَرْتُ لَا أَقْرَعُ إِلَّا بِهِمْ وَلَا أَعَابُ إِلَّا بِاخْتِيَارِهِمْ قَالَ : فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ إِنَّ الْحَمَامَ يُخْتَارُ مِنْ جِهَةِ النَّسَبِ وَمِنْ جِهَةِ الْخِلْقَةِ ثُمَّ لَا يَرْضَى لَهُ أَرْبَابُهُ بِذَلِكَ حَتَّى تَرْتَبَهُ وَتَنْزِلُهُ وَتُدْرَجُهُ ثُمَّ تُحْمَلُ الْجَمَاعَةُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ التَّرْتِيْبِ وَالتَّلْدِيْبِ إِلَى الْغَايَةِ فَيَذْهَبُ الشَّطْرُ وَيَرْجِعُ الشَّطْرُ أَوْ شَبِيهَ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْتَ عَمَدْتَ إِلَى حَمَامٍ لَمْ تَنْظُرْ فِي أَنْسَابِهَا وَلَمْ تَتَأَمَّلْ مَخِيلَةَ الْخَيْرِ فِي خَلْقِهَا ثُمَّ لَمْ تَرْضَ حَتَّى ضَرَبْتَ بِهَا بِكَرَّةٍ وَاحِدَةٍ

إِلَى الْغَايَةِ فَلَيْسَ بِعَجَبٍ وَلَا مُنْكَرٍ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْكَ وَاحِدًا مِنْهَا وَإِنَّمَا كَانَ الْعَجَبُ فِي الرُّجُوعِ فَأَمَّا فِي الْمَضَالِّ فَلَيْسَ فِي ذَلِكَ عَجَبٌ وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ رَجَعَ مِنْهَا وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الْوَاحِدِ لَكَانَ خَطْوُكَ مَوْفَرًا عَلَيْكَ وَلَمْ يَنْتَقِصْهُ خَطَأٌ مِنْ أَخْطَأَ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يَجِيءَ طَائِرًا مِنَ الْغَايَةِ عَلَى غَيْرِ عَرَقٍ وَعَلَى غَيْرِ تَدْرِيْبٍ . (كَرَمُ الْحَمَامِ . .) (الْإِلْفُ وَالْأَنْسُ وَالْتَّرَاغُ وَالشَّقُوقُ) وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى ثَبَاتِ الْعَهْدِ وَحِفْظِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْفَظَ وَصَوْنِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُصَانَ وَإِنَّهُ لَخَلْقُ صِدْقٍ فِي بَنِي آدَمَ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْخَلْقُ فِي بَعْضِ الطَّيْرِ .) وَقد قَالُوا : عَمَرَ اللَّهُ الْبُلْدَانَ بِحُبِّ الْأَوْطَانِ .

قال ابن الزُّبَيْرِ : لَيْسَ النَّاسُ بِشَيْءٍ مِنْ أَقْسَامِهِمْ أَقْبَعَ مِنْهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ .

وأخبر الله عز وجل عن طبائع الناس في حبّ الأوطان فقال : قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا وَقَالَ : وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ . (و كُنْتُ فِيهِمْ كَمُمْطُورٍ بِلَدِّتِهِ * فَسِرُّ أَنْ جَمَعَ الْأَوْطَانَ وَالْمَطَرَا) فتجذّده يُرْسَلُ مِنْ مَوْضِعٍ فيجِيءُ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى أَضِيقِ مَوْضِعٍ وَإِلَى رِخَامٍ وَنَقَانٍ فَيُرْسَلُ مِنْ أَعْدٍ مِنْ ذَلِكَ فَيَجِيءُ ثُمَّ يَصْنَعُ بِهِ مِثْلُ ذَلِكَ الْمَرَارِ الْكَثِيرَةَ وَيَزَادُ فِي الْفِرَاسِخِ ثُمَّ يَكُونُ جِرَاؤُهُ أَنْ يَغْمَرَ بِهِ مِنَ الرَّقَّةِ إِلَى لَوْلُؤَةٍ فَيَجِيءُ وَيَسْتَرِقُ مِنْ مَنْزِلٍ

صاحبه فيقص ويغير هناك حولاً وأكثر من الحول فحين ينبت جناحه يحن إلى إلفه وينزع إلى وطنه وإن كان الموضع الثاني أنفع له وأنعم لباله فيهب فضلاً ما بينهما لموضع تربيته وسكنه كالإنسان الذي لو أصاب في غير بلاده الرّيف لم يقع ذلك في قلبه وهو يعالجهما على أن يعطى عُشراً ما هو فيه في وطنه . ثم ربّما باعه صاحبه فإذا وجد مخلصاً رجع إليه حتّى ربما فعل ذلك مراراً وربّما طار دهره وجال في البلاد وألف الطّيران والنقّاب في الهواء والنظر إلى الدنيا فيبدو لصاحبه فيقص جناحه ويلقيه في ديماس فينبت جناحه فلا يذهب عنه ولا يتغير له نعم حتّى ربّما جُدّف وهو مقصوص فأما صار إليه وإما بلغ عذراً .

قص جناح الحمام

ومتى قصّ أحد جناحيه كان أعجز له عن الطّيران ومتى قصّهما جميعاً كان أقوى له عليه ولكنه لا يبعد لأنّه إذا كان مقصوصاً من شقّ واحد اختلف خلقه ولم يعتدل وزنه وصار أحدهما هوائياً والآخر أرضياً فإذا قصّ الجناحان جميعاً طار وإن كان مقصوصاً فقد بلغ بذلك التعديل من جناحيه أكثر مما كان يبلغ بهما إذا كان أحدهما وافيّاً والآخر مبتوراً . فالكلب الذي تدعون له الإلف وثبات العهد لا يبلغ هذا وصاحب الديك الذي لا يفخر للديك بشيء من الوفاء والحفاظ والإلف أحقّ بالآل يعرض في هذا الباب . قال : وقد يكون الإنسان شديد الحضر فإذا قُطعت إحدى يديه فأراد العدو كان خطوه أقصر وكان عن ذلك القصد والسّنن أذهب وكانت غاية مجهوده أقرب .

حديث نباتة الأقطع وخبرني كم شئت أن نباتة الأقطع وكان من أشدّاء الفتيان وكانت يده قطعت من ذوين المنكب وكان ذلك في شقه الأيسر فكان إذا صار إلى القتال وضرب بسيفه فإن أصاب الضّريبة ثبت وإن أخطأ سقط لوجهه إذ لم يكن جناحه الأيسر يمسكه ويثقله حتى يعتدل بدنه . أجنحة الملائكة وقد طعن قوم في أجنحة الملائكة وقد قال الله تعالى : الحمد لله فاطر السموات والأرض

جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ . وَزَعَمُوا أَنَّ الْجَنَاحِينَ كَالْيَدَيْنِ وَإِذَا كَانَ الْجَنَاحُ اثْنَيْنِ أَوْ أَرْبَعَةً كَانَتْ مَعْتَدِلَةً وَإِذَا كَانَتْ ثَلَاثَةً

كَانَ صَاحِبُ الثَّلَاثَةِ كَالْجَادِ مِنْ الطَّيْرِ الَّذِي أَحَدُ جَنَاحَيْهِ مَقْصُوصٌ فَلَا يَسْتَطِيعُ الطَّيْرُ رَانَ لِعَدَمِ التَّعْدِيلِ وَإِذَا كَانَ أَحَدُ جَنَاحَيْهِ وَافِيًا وَالْآخَرُ مَقْصُوصًا اخْتَلَفَ خَلْقُهُ وَصَارَ بَعْضُهُ يَذْهَبُ إِلَى أَسْفَلٍ وَالْآخَرُ إِلَى فَوْقٍ .

وَقَالُوا : إِنَّمَا الْجَنَاحُ مِثْلُ الْيَدِ وَوَجَدْنَا الْأَيْدِيَ وَالْأَرْجُلَ فِي جَمِيعِ الْحَيَوَانِ لَا تَكُونُ إِلَّا أَزْوَاجًا فَلَوْ جَعَلْنَاهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَائَةَ جَنَاحٍ لَمْ تُنْكَرْ ذَلِكَ وَإِنْ جَعَلْنَاهُ أَقْصَصَ بَوَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ بَوَاحِدٍ لَمْ نَجُوزْهُ .
قِيلَ لَهُمْ : قَدْ رَأَيْنَا مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ مَا لَيْسَ لَهُ قَرْنٌ وَرَأَيْنَا مَا لَهُ قَرْنَانِ أَمْلَسَانِ وَرَأَيْنَا مَا لَهُ قَرْنَانِ لُهُمَا شُعْبٌ فِي مَقَادِيمِ الْقُرُونِ وَرَأَيْنَا بَعْضَهَا جُمًّا وَلِأَخَوَاتِهَا قُرُونٌ وَرَأَيْنَا مِنْهَا مَا لَا يَقَالُ لَهَا جُمٌّ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ لَهَا شَكْلُ ذَوَاتِ الْقُرُونِ وَرَأَيْنَا لِبَعْضِ الشَّيْءِ عِلَّةَ قُرُونٍ نَابِتَةٍ فِي عَظْمِ الرَّأْسِ أَزْوَاجًا وَأَفْرَادًا وَرَأَيْنَا قُرُونًا جُوفًا فِيهَا قُرُونٌ وَرَأَيْنَا قُرُونًا لَا قُرُونَ فِيهَا وَرَأَيْنَاهَا مُصَمَّمَةً وَرَأَيْنَا بَعْضَهَا يَتَّصِلُ قَرْنُهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ كَمَا تَسْلُخُ الْحَيَّةُ جِلْدَهَا وَتَنْفُضُ الْأَشْجَارُ وَرَقَهَا وَهِيَ قُرُونُ الْأَيَّامِ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ لِلْحِمَارِ الْهِنْدِيِّ قُرْنًا وَاحِدًا .

وَقَدْ رَأَيْنَا طَائِرًا شَدِيدَ الطَّيْرَانِ بِلَا رِيَشٍ كَالْخُفَاشِ وَرَأَيْنَا طَائِرًا لَا يَطِيرُ وَهُوَ وَافِي الْجَنَاحِ وَرَأَيْنَا طَائِرًا لَا يَمْشِي وَهُوَ الزَّرْزُورُ وَنَحْنُ نُوْمنُ أَنَّ جَعْفَرَ الطَّيَّارَ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ لَهُ جَنَاحَانِ يَطِيرُ بِهِمَا فِي الْجَنَانِ جُعِلَا لَهُ عَوْضًا مِنْ يَدَيْهِ اللَّتَيْنِ قَطَعْنَاهُ عَلَى لُؤَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي يَوْمِ مَوْثَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْجَابِ أَصْنَافِ الْخَلْقِ .
فَقَدْ يَسْتَقِيمُ وَهُوَ سَهْلٌ جَائِزٌ شَائِعٌ مَفْهُومٌ وَمَعْقُولٌ قَرِيبٌ غَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ يَكُونَ إِذَا وُضِعَ طَبَاعُ الطَّائِرِ عَلَى هَذَا الْوَضْعِ الَّذِي تَرَاهُ إِلَّا يَطِيرُ إِلَّا بِالْأَزْوَاجِ فَإِذَا وُضِعَ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَضْعِ وَرَكَّبَ غَيْرَ هَذَا التَّرْكِيبِ صَارَتْ ثَلَاثَةً أَجْنَحَةً وَفَوْقَ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ وَلَوْ كَانَ الْوَطْوَاطُ فِي وَضْعٍ أَحْلَاطُهُ وَأَعْضَانُهُ وَامْتِزَاجَاتُهُ كَسَائِرِ الطَّيْرِ لَمَا طَارَ بِلَا رِيَشٍ .

الطَّيْرُ الدَّائِمُ الطَّيْرَانِ وَقَدْ زَعَمَ الْبَحْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ طَائِرًا لَمْ يَسْقُطْ قَطٌّ وَإِنَّمَا يَكُونُ سَقُوطُهُ مِنَ اللَّذْنِ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْضِهِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ قَصْبُ رِيَشِهِ ثُمَّ يَطِيرُ فَلَيْسَ لَهُ رِزْقٌ إِلَّا مِنْ بَعُوضِ الْمَهْوَاءِ وَأَشْبَاهِ الْبَعُوضِ إِلَّا أَنَّهُ قَصِيرُ الْعُمُرِ سَرِيعُ الْإِنْخِطَامِ .

بَقِيَّةُ الْحَدِيثِ فِي أَجْنَحَةِ الْمَلَائِكَةِ وَلَيْسَ بِمُسْتَنَكِرٍ أَنْ يُمَزَّجَ الطَّائِرُ وَيُعْجَنَ غَيْرَ عَجْنِهِ الْأَوَّلِ فَيَعِيشُ ضَعْفَ ذَلِكَ الْعُمُرِ وَقَدْ يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ مَوْضِعُ الْجَنَاحِ الثَّالِثِ بَيْنَ الْجَنَاحَيْنِ فَيَكُونُ الثَّالِثُ لِلثَّانِي كَالثَّانِي لِلأَوَّلِ وَتَكُونُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ رِيَشَةٍ عَامِلَةً فِي الَّتِي تَلِيهَا مِنْ ذَلِكَ الْجِسْمِ فَتَسْتَوِي فِي الْقُوَى وَفِي الْحِصَصِ .

ولعلَّ الجَناحَ الذي أنكره الملحدُ الضَّيقُ العَظَنُ أن يكونَ مركزُ قِوَادِمِهِ في حاقِّ الصُّلبِ .
ولعلَّ ذلكَ الجَناحَ أن تكونَ الريشةُ الأولى منه معينةً للجَناحِ الأيمنِ والثانيةُ معينةً للجَناحِ الأيسرِ وهذا مما
لا يضيقُ عنه الوهم ولا يعجزُ عنه الجواز .
فإذا كان ذلكَ ممكناً في معرفة العبدِ بما أعاره الربُّ جلَّ وعزَّ كان ذلكَ في قدرة الله أجوز)
وما أكثر من يضيقُ صدرُهُ لقلَّةِ علمه .

أعضاء المشي لدى الحيوان والإنسان

وقد علموا أنَّ كلَّ ذي أربعٍ فَإِنَّهُ إذا مَشَى قَدَّمَ إحدى يديه ولا يجوز أن يستعمل اليدَ الأخرى ويقدمها بَعْدَ
الأولى حتَّى يستعمل الرَّجُلَ المخالفةَ لتلك اليد : إنَّ كانتَ اليدُ المتقدِّمةُ اليمنى حرَّكَ الرَّجُلَ اليسرى وإذا
حرَّكَ الرجل اليسرى لم يحرك الرَّجُلَ اليمنى وهو أَقْرَبُ إليها وأشبه بها حتَّى يحركَ اليدَ اليسرى وهذا كثير .

وفي طريقٍ أخرى فقد يقال : إنَّ كلَّ إنسانٍ فَإِنَّمَا رُكِبَتْهُ في رجله وجميع ذوات الأربع فَإِنَّمَا رُكِبَها في أيديها
وكلُّ شيءٍ ذي كَفٍّ وبنان كالإنسان والقرد والأسد والضَّبَّ والدُّبَّ فكفُّه في يده والطائر كفُّه في رجله .
استعمال الإنسان رجله فيما يعمل في العادة بيديه وما رأيتُ أحداً ليس له يدٌ إلَّا وهو يعمل برجليه ما كان
يعمل بيديه وما أقف على شيء من عمل الأيدي إلَّا وأنا قد رأيتُ قوماً يتكلفونه بأرجلهم .
ولقد رأيتُ واحداً منهم راهنٌ على أن يُفرِّغَ برجليه ما في دَسْتِيحَةِ نبيذٍ في قناني رطلِيَّاتٍ وفَقَاعِيَّاتٍ فراهنوه
وأزعجني أمرُ فتركته عند ثقاة لا أشك في خبرهم فزعموا أَنَّهُ وَفَى وزاد قلت :

قد عَرَفْتُ قولَكم وفي فما معنى قولكم زاد قالوا : هو أَنَّهُ لو صبَّ من رأس الدَسْتِيحَةِ حوالي أفواه القناني
كما يعجز عن ضَبْطِهِ جميعُ أصحاب الكمال في الجوارح لما أنكرنا ذلك ولقد فرَّغ ما فيها في جميع القناني
فَمَا ضَيَّعَ أَوْقِيَّةً واحدة .

قيام بعض الناس بعمل دقيق في الظلام وخبرني الحزاميُّ عن خليل أخيه أَنَّهُ متى شاء أن يَدْخُلَ في بيت ليلاً
بلا مصباح ويفرغ قربة في قناني فلا يصبُّ إستاراً واحداً فعله .

ولو حكى لي الحزاميُّ هذا الصَّنِيعَ عن رجل وُلِدَ أعمى أو عمي في صباه كان يعجني منه أقلُّ فأما من تعود
أن يفعل مثل ذلك وهو يبصر فما أشدَّ عليه أن يفعل وهو مغمض العينين فإن كان أخوه قد كان يقدر على
ذلك إذا غمَّضَ عينيه فهو عندي عجب وإن كان يبصر في الظلمة فهو قد أشبه في هذا الوجه السُّنُورَ والفأرَ
فإنَّ هذا عندي عجبٌ

آخر وغرائب الدُّنيا كثيرة عند كلِّ من كان كلفاً بتعرافها وكان له في العلم أصلٌ وكان بينه وبين التَّيْسِ
نَسَبٌ .)

اختلاف أحوال الناس عند سماعهم للغرائب وأكثر الناس لا تجدهم إلا في حالتين : إما في حال إعراض عن التبيين وإهمال للنفس وإما في حال تكذيب وإنكار وتسرع إلى أصحاب الاعتبار وتتبع الغرائب والرغبة في الفوائد ثم يرى بعضهم أن له بذلك التكذيب فضيلة وأن ذلك باب من التوقي وجنس من استعظام الكذب وأنه لم يكن كذلك إلا من حاق الرغبة في الصدق وبس الشيء عادة الإقرار والقبول والحق الذي أمر الله تعالى به ورغب فيه وحث عليه أن ننكر من الخبر ضربين : أحدهما ما تناقض واستحال والآخر ما امتنع في الطبيعة وخرج من طاقة الخلقة فإذا خرج الخبر من هذين البابين وجرى عليه حكم الجواز فالتدبير في ذلك الثبت

وأن يكون الحق في ذلك هو ضالتك والصدق هو بُغيتك كائناً ما كان وقَع منك بالموافقة أم وقع منك بالمكروه ومتى لم تعلم أن ثواب الحق وثمره الصدق أجدى عليك من تلك الموافقة لم تقَع على أن تعطي الثبت حقه .

قال : وهم يصفون الرماد الذي بين الأثافي بالحمامة ويجعلون الأثافي أطاراً لها للأنحاء الذي في أعالي تلك الأحجار ولأنها كانت معطّفات عليها وحانيات على أولادها قال ذو الرمة : (كأن الحمام الورق في الدار جثمت ** على خرق بين الأثافي جوازله) شبه الرماد بالفراخ قبل أن تنهض والجنوم في الطير مثل الربوض في الغنم وقال الشماخ : (وإرث رماد كالحمامة مائل ** وتؤين في مظلومتين كداهما)

وقال أبو حية : (من العرصات غير مَخَد نُؤي ** كباقي الوحي خطّ على إمام) وغير خوالد لُوخن حتى بمن علامة من غير شام (كأن بها حمامات ثلاثاً ** مثلن ولم يطرن مع الحمام) وقال العرجي : (ومربط أفراس وخيم مُصرع ** وهاب كجثمان الحمامة هامد) وقال البغيث : (ويسفع ثوين العام والعام قبله ** وسحق رماد كالتصيف من العصب) وقالوا في نوح الحمام قال جرّان العود : (واستقبلوا وادى أ نوح الحمام به ** كأنه صوت أنباط مكايل)

وقالوا في ارتفاع مواضع يوتها وأعشاشها وقال الأعشى : (ألم تر أن العرض أصبح بطنه ** خيلاً وزرعاً نابتاً وفصافصاً) (وذا شُرُفات يقصر الطرف دونه ** ترى للحمام الورق فيه قرامصاً) وقال عمرو بن الوليد : (فبدلت من مساكن قومي ** والقصور التي بها الآطام) (كل قصر مشيد ذي أواس ** تتغنى على ذراه الحمام) والحمام أيضاً ربما سكن أجواف الركايا ولا يكون ذلك إلا للوحشي منها وفي البئر التي لا تُورد قال الشاعر : (بدلو غير مُكرية أصابت ** حماماً في مساكنه فطاراً) يقول : استقى بسفرتة من هذه البئر ولم يستق بدلو وهذه بئر قد سكنها الحمام لأنها لا تُورد

وقال جهم بن خلف : (وقد هاج شوقي أن تغت حمامة ** مطوقة ورقاء تصدح في الفجر) (تغت بلحن فاستجاب لصوتها ** نوائح بالأصياف في فنن السدر) (إذا فترت كرت بلحن شج لها ** يهيج للصب

الحزينِ جَوَى الصَّلَرِ (دَعْتُهُنَّ مِطْرَابُ العَشِيَّاتِ والصُّحَى ** بصوتٍ يَهِيحُ المستَهَامَ على الذَّكَرِ) (فلم
أَرَا وَجداً يَزِيدُ صَبَابَةً ** عليها ولا تُكَلِّى ثُبَكِّي على بَكْرِ) (فَأَسْعَدْنَاهَا بِالنُّوحِ حَتَّى كَأَنَّمَا ** شَرِبْنَ سُلَافاً
من مَعْتَقَةِ الحَمْرِ) (تَجَاوَزْنَ لَحْناً فِي الغُصُونِ كَأَنَّهُمَا ** نَوَائِحُ مَيِّتٍ يَلْتَدِمْنَ لَدَى قَبْرِ) (بِسُرَّةٍ وَادٍ مِنْ تَبَالَةٍ
مُورِقَةٍ ** كَسَا جَانِبِيهِ الطَّلْحُ واعْتَمَ بِالزَّهْرِ)

استطرد لغوي ويقال : هدر الحمام يهدر قال : ويقال في الحمام الوحشي من القماري والقواخت
والدَّباسي وما أشبه ذلك : قد هدل يهدل هديلاً فإذا طَرَبَ قيل غَرَّدَ يغرد تغريداً والتغريد يكون للحمام
والإنسان وأصله من الطير .

وأما أصحابنا فيقولون : إنَّ الجمل يهدر ولا يكون باللام والحمام يهدل وربما كان بالراء .
وبعضهم يزعم أنَّ الهديلَ من أسماء الحمام الذَّكَرِ قال الرَّاعِي واسمه عبيد بن الحصين : (كَهْدَاهِدٍ كَسَرَ
الرُّمَاءُ جَنَاحَهُ ** يدْعُو بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ هَدِيلاً) وزعم الأصمعيُّ أنَّ قوله : هتوفُ تبكي ساقَ حرٍّ إنما هو
حكاية صوت وحشي الطير من هذه النَّوَاحَاتِ وبعضهم يزعم أنَّ ساقَ حرٍّ هو الذَّكَرُ وذَهَبَ إلى قول
الطَّرْمَاحِ في تشبيه الرَّمَادِ بالحمام فقال : (بين أَظَارٍ مَظْلُومَةٍ ** كَسَرَا السَّاقِ سَاقِ الحَمَامِ)

صفة فرس وقال آخر يصف فرساً : (يَنْجِيهِ مِنْ مِثْلِ حَمَامِ الأَغْلَالِ ** رَفَعُ يَدِ عَجَلَى وَرَجَلِ شِمَالٍ) تَظْمَأُ
من تحتُ وَثْرَوِي من عالِ الأَغْلَالِ : جمع غَلَلٍ وهو الماء الذي يجري بين ظهري الشَّجَرِ قال : والمعنى أنَّ
الحمام إذا كان يريد الماء فهو أَسْرَعُ لها وقوله : شِمَالٍ أي خفيفة .
ليس في الأرض جنسٌ يعتريه الأوضاح والشَّيَّاتِ ويكون فيها المَصْمَتُ والبهيمُ أكثرُ ألواناً و من أصناف
التَّحَاسِينِ ما يكون في الحمام فمنها ما يكون أخضرَ مُصْمَتاً وأحمرَ مصمتاً وأسودَ

مصمتاً وأبيض مصمتاً وضروباً من ذلك كلها مصمته إلا أنَّ الهدايةَ للخصرِ الثَّمرِ فإذا ابيضَّ الحمام كالنفيع
فمثله من النَّاسِ الصَّقْلَائيُّ فَإِنَّ الصَّقْلَائيَّ فَطِيرٌ خَامٌ لم تُنْضِجْهُ الأَرْحَامُ إذ كانت وإن اسودَّ الحمامُ فإنما ذلك
احتراقٌ ومجاوزةٌ لحدِّ النَّضْجِ ومثلُ سود الحمام من النَّاسِ الزَّنجِ فَإِنَّ أَرْحَامَهُمْ جَاوَزَتْ حَدَّ الإِنْضَاحِ إلى
الإحراقِ وشيَّطَتِ الشَّمْسُ شُعُورَهُمْ فَتَقَبَّضَتْ .
والشَّعر إذا أدبته من النَّارِ تَجَعَّدَ فَإِنَّ زِدَّتْهُ تَفَلَّغَ فَإِنَّ زِدَّتْهُ احترق .
وكما أنَّ عقولَ سُودَانِ النَّاسِ وَحُمُرَانِهِمْ دُونَ عقولِ السُّمْرِ كذلك يبيضُ الحمامُ وسودُّها دُونَ الخُضْرِ في
المعرفة والهداية .

استطرد لغوي وأصل الخضرة إنما هو لون الرِّيحَانِ والبقولِ ثم جعلوا بعدُ الحديدَ أخضرَ والسماءَ خضراءَ
حَتَّى سَمَوْا بِذَلِكَ الكُحْلَ واللَّيْلَ .

قال الشَّمَاخُ بْنُ ضَرَارٍ : (وَرُحْنٌ رَوَاحاً مَنْ زَرُودَ فَنَازَعَتْ ** زُبَالَةً جَلِبَاباً مِنَ اللَّيْلِ أَخْضَرَا)

وقال الرَّاجزُ : (حَتَّى انتصاه الصُّبحُ من ليلِ خَضِرٍ ** مثل انتضاء البَطَلِ السَّيفِ الذَّكَرُ) نضو هوى بال
على نضو سَفَرٍ وقال الله عزَّ وجلَّ : ومن دُونَهُمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَمَّتَانِ قال : ويقالُ :
إنَّ العراقَ إِنَّمَا سَمِّيَ سواداً بِلَوْنِ السَّعَفِ الَّذِي فِي التَّخْلِ وَمائِهِ .
والأَسودانِ : الماءُ والتمرُّ والأَبيضانِ : الماءُ واللبنُ والماءُ أَسودُ إذا كانَ مع التمرِّ وأَبيضُ إذا كانَ مع اللَّبنِ .

ويقولون : سَوْدُ البطونِ وَحَمْرُ الكُلَى ويقولون : سود الأَكبادِ يريدون العداوةَ وأنَّ الأحقادَ قد أحرقت
أَكبادَهُمْ ويقالُ للحافرِ أَسودَ البطنِ لأنَّ الحافرَ لا يكونُ في بطونِها شحمٌ .
ويقولون : نحنُ بخيرِ ما رأينا سَوادَ فلانٍ بينَ أظهرِنا يريدون شخصه وقالوا : بل يريدون ظلهُ .
فأَمَّا خَضِرُ مُحارِبٍ فَإِنَّمَا يريدون السُّودَ وكذلك : خَضِرُ غَسَّانٍ .
ولذلك قال الشاعرُ : (إِنَّ الحَضارِمَةَ الخَضِرُ الَّذِينَ غَدَوْا ** أَهْلَ البَرِيصِ ثَمَانٍ مِنْهُمْ الحَكَمُ) ومن هذا المعنى
قول القرشي في مديحِ نفسه :

(وَأَنَا الأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي ** أَخْضَرُ الجُلْدَةِ فِي بَيْتِ العَرَبِ) وإذا قالوا : فلانُ أَخْضَرُ القفا فَإِنَّمَا يعنونُ به
أنَّهُ قد ولدتهُ سوداءُ وإذا قالوا : فلانُ أَخْضَرُ البطنِ فَإِنَّمَا يريدون أنَّه حائِكٌ لأنَّ الحائِكَ بطنه لطول التزاقفه
بالخشبة التي يطوى عليها الثَّوبُ يسودُ .
وكان سببُ عداوةِ العروضي لِإِبْراهيمَ التَّظَامِ أنَّه كانَ يسمِّيهِ الأَخْضَرَ البطنِ والأَسودَ البطنِ فكانَ يكشفُ
بطنه للناسِ يريدُ بذلكَ تكذيبَ أَبِي إِسحاقَ حتى قالَ له إِسماعيلُ بنُ غَرْوانَ : إِنَّمَا يريدُ أنَّكَ من أبناءِ الحَاكَةِ
فعاداهُ لذلكَ .

استطرد لغوي فإذا قيل أَخْضَرُ التَّوْاجِدِ فَإِنَّمَا يريدون أنَّه من أَهْلِ القُرَى مَنْ يَأْكُلُ الكُرَّاثَ والبصلَ .
وإذا قيل لِلثَّورِ : خاضِبٌ فَإِنَّمَا يريدون أنَّ البقلَ قد خَضِبَ أَظْلافه بالخضرةِ وإذا قيل لِلظَّليمِ : خاضِبٌ فَإِنَّمَا
يريدونَ حمرةَ وظيفيه

فإنَّهما يَحْمَرَّانِ فِي القَيْظِ وإذا قيل لِلرَّجُلِ خاضِبٌ فَإِنَّمَا (
يريدون الحنَّاءَ فإذا كان خضابُه بغيرِ الحِنَاءِ قالوا : صَبَغَ ولا يقال خضِبَ .
ويقولون في شبيهِ البابِ الأوَّلِ : الأَحمرانِ : الذهبُ والرَّعفرانِ والأَبيضانِ : الماءُ واللَّبنُ والأَسودانِ : الماءُ
والتمرُّ .
ويقولون : أَهْلَكَ النِّساءُ الأَحمرانِ : الذَّهَبُ والرَّعفرانِ وَأَهْلَكَ النَّسَ الأَحامِرُ : الذهبُ والرَّعفرانِ واللَّحْمُ
والخمرُ .

والجديدانِ : اللَّيْلُ والنهارُ وهما الملوَّانِ .
والعصرُ : الدَّهْرُ والعصرانُ : صلاةُ الفَجْرِ وصلاةُ العِشي والعصرانُ : الغَداءُ والعِشيُّ قال (وَأَمْطَلُهُ
العَصْرَيْنِ حَتَّى يَمْلَأَنِ ** وَيَرْضَى بِنِصْفِ الدَّيْنِ وَالْأَنْفُ رَاغِمٌ)

ويقال : البائع بالخيار وإنما هو البائع والمشتري فدخل المتاع في البائع .
وقال الله عز وجل : وَلَأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاٰحِدٍ مِنْهُمَا السُّلُسُ مِمَّا تَرَكَ دَخَلَتْ اُمُّ فِي اسْمِ الْاَبْوَةِ كَأَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ
على اَنَّهُ الاسمين وكقولهم : ثَبِيرَيْنِ وَالْبَصْرَتَيْنِ وليس ذلك بالواجب وَقَدْ قَالُوا : سِيرَةُ الْعُمَرَيْنِ وَأَبُو بَكْرٍ
فَوْقَ عَمْرِ قَالَ الْفَرَزْدَقُ : (أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ * لَنَا قَمَرَاهَا وَالتُّجُومُ الطَّوَالِعُ) وَأَمَّا قَوْلُ ذِي
الرَّمَّةِ : (وَلَيْلٍ كَجَلْبَابِ الْعُرُوسِ اِذْ رَعَتْهُ * بَارُبَّةٍ وَالشَّخْصُ فِي الْعَيْنِ وَاحِدٌ) فَإِنَّهُ لَيْسَ يَرِيدُ لَوْنَ الْجَلْبَابِ
وَلَكِنَّهُ يَرِيدُ سُبُوغَهُ .

جواب أعرابي قال : وكذلك قول الأعرابي حين قيل له : بأي شيء تعرف حمل شاتك قال : إذا استفاضت
خاصرهما ودجت شعرهما فالداجي هاهنا اللابس .

قال الأصمعي ومسعود بن فيد الفزاري : ألا ترونه يقول : كان ذلك وثوب الإسلام داج وأما لفظ
الأصمعي فإنه قال : كان ذلك منذ دجا الإسلام يعني أنه ألبس كل شيء .
ثم رجع بنا القول إلى ذكر شيات الحمام .

وزعموا أن الأوصاح كلها ضعف قليلها وكثيرها إلا أن ذلك بالحصص على قدر الكثرة والقلّة كذلك هي
في جميع الحيوان سواء مستقبلها ومستدبرها وذلك ليس بالواجب حتى لا يغادر شيئاً البتة لأن الكلبة
السلوقيّة البيضاء أكرم وأصيد وأصبر من السوداء .
والبياض في الناس على ضروب : فالمعيب منه بياض المغرب

والأشقر والأحمر أقل في الضعف والفساد إذا كان مشتقاً من بياض البهق والبرص والبرش والشيب .
والمغرب عند العرب لا خير فيه البتة والفقيع لا يُنجب وليس عنده إلا حسن بياضه عند من اشتهى ذلك .
سوابق الخيل وزعم ابن سلام الجمحي أنه لم يرق قط بلقاء ولا أبلق جاء سابقاً وقال الأصمعي : لم يسبق
الحلبة أهضم قط لأنهم يمدحون المجفر من الخيل كما قال : (خيط على زفرة فتّم ولم * يرجع إلى دقة ولا
هضم) ويقولون : إن الفرس بعنقه وبطنه .
وخبرني بعض أصحابنا أنه رأى فرساً للمأمون بلقاء سبقت الحلبة وهذه نادرة غريبة .

نظلفة الحمام ونفع ذرفه

والحمام طائر ألوف ومحّب موصوف بالنظافة حتى إن ذرفه لا يعاف ولا نتن له كسلّاح الدجاج
والديكة وقد يعالج بذرقه صاحب الحصة والفلاحون يجدون فيه أكثر المنافع والحبّاز يُلقي الشيء منه في
الخمير لينفتح العجين ويعظم الرغيف ثم لا يستين ذلك فيه ولذرقه غلات يعرف ذلك أصحاب الحجر وهو
يصلح في بعض وجوه الدبغ . (الحمام طائر لنيم قاسي القلب) وقال صاحب الديك : الحمام طائر لنيم
قاسي القلب وإن برّ بزعمكم ولد غيرهِ وصنع به كما يصنع بفرخه وذلك أنهما يحضنان كل بيض ويزقان
كل فرخ وما ذاك منهما إلا في الفرط .

لؤم الحمام فأما لؤمه فمن طريق الغيرة فإنه يرى بعينه الذكر الذي هو أضعف منه وهو يطرد أنثاه ويكسح بذنبه حولها ويتطوَّس لها

ويستميلها وهو يرى ذلك بعينه ثم لم نر قط ذكراً وأنب ذكراً عند مثل ذلك .
فإذا قلت : إنه يشتدُّ عليه ويمنع إذا جثمت له وأراد أن يعلوها فكل ذكر وأنثى هنالك يفعل ذلك وليس ذلك من الذكر الغريب من طريق الغيرة ولكنه ضرب من البخل ومن التفاسه وإذا لم يكن من ذكرها إلا مثل ما يكون من جميع الحمام علم أن ذلك منه ليس من طريق الغيرة وأنا رأيت النواهض تفعل ذلك وتقطع على الذكر بعد أن يعلو على الأنثى .

قال : وأما ما ذكرتم من أن الحمام معطوف على فراخه ما دامت محتاجة إلى الرق فإذا استغنت نُزعت منها الرحمة فليس ذلك كما قلتم الحمام طائر ليس له عهد وذلك أن الذكر ربما كانت معه الأنثى السنين ثم تُنقل عنه وتوارى عنه شهراً واحداً ثم تظهر له مع زوج أضعف منه فيراها طول دهره وهي إلى جنب بيته وتماريده فكأنه لا يعرفها بعد معرفتها الدهر الطويل وإنما غابت عنه الأيام اليسيرة فليس يوجه ذلك الجهل الذي يُعامل به فراخه بعد أن كبرت إلا على

الغبابة وسوء الذكر وأن الفرخ حين استوى ريشه وأشبه غيره من الحمام جهل الفصل الذي بينهما .
فإن كان يعرف أنثاه وهو يجدها مع ذكر ضعيف وهو مسلم لذلك وقانع به وقليل الاكتراث به فهو من لؤم في أصل الطبيعة .

قسوة الحمام قال : وباب آخر من لؤمه : القسوة وهي الأم اللؤم وذلك أن الذكر ربما كان في البيت طائر ذكر قد اشتدَّ ضعفه فينقر رأسه والآخر مستنجد له قد أمكنه من رأسه خاضعاً له شديد الاستسلام لأمره فلا هو يرحمه لضعفه وعجزه عنه ولا هو يرحمه لخضوعه ولا هو يمل له عنده وتر ثم ينقر يافوخه حتى يقب عنه ثم لا يزال ينقر ذلك المكان بعد التقب حتى يخرج دماغه فيموت بين يديه .
فلو كان ممّا يأكل اللحم واشتهى الدماغ كان ذلك له عنراً إذ لم يعد ما طبع الله عليه سباع الطير .
فإذا رأينا من بعض بهائم الطير من القسوة ما لا نرى من سباع الطير لم يكن لنا إلا أن نقضي عليه من اللؤم على حسب مباينته لشكل

البهيمة ويزيد في ذلك على ما في جوارح الطير من السبعية .
أقوال لصاحب الديك في الحمام وقال صاحب الديك : زعم أبو الأصبع بن ربي قال : كان روح أبو همام صاحب المعنى عند مثنى ابن زهير فبينما هو يوماً وهو معه في السطح إذ جاء جماعة فصعدوا فلم يلبث أن جاء آخرون ثم لم يلبث أن جاء مثلهم فأقبل عليهم فقال : أي شيء جاء بكم وما الذي جمعكم اليوم قالوا : هذا اليوم الذي يرجع فيه مزاجيل الحمام من الغاية قال : ثم ماذا قالوا : ثم نتمتع بالنظر إليها (التلهي بالحمام) وقال مثنى بن زهير ذات يوم : ما تلهي الناس بشيء مثل الحمام ولا وجدنا شيئاً مما يتخذ الناس ويلعب به ويلهي به يخرج من أبواب

الهنزل إلى أبواب الجدد كالحمام وأبو إسحاق حاضر فعاظه ذلك وكظم على غيظه فلما رأى مشى سكوته عن الرد عليه طمع فيه فقال : يبلغ والله من كرم الحمام ووفائه وثبات عهده وحنينه إلى أهله أنني ربما قصص الطائر وبعد أن طار عندي دهرًا فمتى نبت جناحه كنباته الأول لم يدعه سوء صنيي إليه إلى الذهاب عني ولربما بعته فيقصه المبتاع حيناً فما هو إلا أن يجد في جناحه قوة على النهوض حتى أراه أتاني جادفاً أو غير جادف وربما فعلت ذلك به مراراً كثيرة كل ذلك لا يزداد إلا وفاء .

قال أبو إسحاق : أما أنت فأراك دائماً تحمده وتذم نفسك ولئن كان رجوعه إليك من الكرم إن إخراجك له من اللوم وما يعجبني من الرجال من يقطع نفسه لصلية طائر وينسى ما عليه في جنب ما للبهيمة ثم قال : خبرني عنك حين تقول : رجع إلي مرة بعد مرة وكلما زهدت فيه كان في أرغب وكلما باعدته كان لي أطلب إليك جاء وإليك حن أم إلى عشه الذي درج منه وإلى وكره الذي ربي فيه رأيته أن لو رجع إلى وكره وبيته ثم لم يملك وألفاك غائباً أو ميتاً أكان يرجع إلى موضعه الذي خلقه وعلى أنك تتعجب من هدايته وما لك فيه

مقال غيره فأما شكرك على إرادته لك فقد تبين خطأك فيه وإنما بقي الآن حسن الاهتداء والحنين إلى الوطن .

مشاهدة هداية الحمام هداية الرخم

وقد أجمعوا على أن الرخم من لئام الطير وبغائها وليست من عتاقها وأحرارها وهي من قواطع الطير ومن موضع مقطوعها إلينا ثم مرجعها إليه من عندنا أكثر وأطول من مقدار أبعد غايات حمامكم فإن كانت وقت خروجها من أوطانها إلينا خرجت تقطع الصحارى والبراري والجرائر والغياض والبحار والجبال حتى تصير إلينا في كل عام فإن قلت إنها ليست تخرج إلينا على سمت ولا على هداية ولا دلالة ولا على أمانة وعلامة وإنما هربت من الثلوج والبرد الشديد وعلمت أنها تحتاج إلى الطعم وأن الثلج قد ألبس ذلك العالم فخرجت هاربة فلا تزال في هربها إلى أن تصادف أرضاً خصباً دفناً فتيقن عند أدنى ما تجد فما تقول فيها عند رجوعها ومعرفتها بانحسار الثلوج عن بلادها أليست قد اهدت طريق الرجوع ومعلوم عند أهل تلك الأطراف وعند أصحاب التجارب

وعند القانص أن طير كل جهة إذا قطعت رجعت إلى بلادها وجبالها وأوكارها وإلى غياضها وأعشيتها فتجد هذه الصفة في جميع القواطع من الطير كرامها كلئامها وبمائمه كسباعها ثم لا يكون اهتداؤها على تمرين وتوطن ولا عن تدريب وتجريب ولم تلقن بالتعليم ولم تثبت بالتدبير والتقويم فالقواطع لأنفسها تصير إلينا ولأنفسها تعود إلى أوكارها .

وكذلك الأوبد من الحمام لأنفسها ترجع وإلها للوطن إلف مشترك مقسوم على جميع الطير فقد بطل جميع ما ذكرت .

قواطع السمك ثم قال : وأعجب من جميع قواطع الطير قواطع السمك كالأسبور والجواف والبرستوج فإن هذه الأنواع تأتي دجلة البصرة من

أقصى البحار تستعذب الماء في ذلك الإبان كأنها تتحمض بحلاوة الماء وعذوبته بعد ملوحة البحر كما تتحمض الإبل فتسلب الحمض وهو ملح بعد الحلة وهو ما حلا وعذب .
طلب الأسد للملح والأسد إذا أكثر من حسو الدماء والدماء حلوة وأكل اللحم واللحم حلو طلبت الملح لتملح به وتجعله كالحمض بعد الحلة .
والأسد يخرج للتملح فلا يزال يسير حتى يجد ملاحه وربما اعتاد الأسد مكاناً فيجده ممنوعاً)
فلا يزال يقطع الفراسخ الكثيرة بعد ذلك فإذا تملح رجع إلى موضعه وغبضته وعرينه وغابه وعريسته وإن كان الذي قطع خمسين فرسخاً .

مجيء قواطع السمك إلى البصرة

قواطع السمك ونحن بالبصرة نعرف الأشهر التي يقبل إلينا فيها هذه الأصناف وهي تقبل مرتين في كل سنة ثم نجدّها في إحدهما أسمن الجنس فيقيم كل جنس منها عندنا شهرين إلى ثلاثة أشهر فإذا مضى ذلك الأجل وانقضت علة ذلك الجنس أقبل الجنس الآخر فهم في جميع أقسام شهور السنة من الشتاء والربيع والصيف والخريف في نوع من السمك غير النوع الآخر إلا أن البرستوج يقبل إلينا قاطعاً من بلاد الزنج يستعذب الماء من دجلة البصرة يعرف ذلك جميع الزنج والبحريين .

بعد بلاد الزنج والصين عن البصرة وهم يزعمون أن الذي بين البصرة والزنج أبعد مما بين الصين وبينها . وإنما غلط ناس فرعموا أن الصين أبعد لأن بحر الزنج حفرة واحدة عميقة واسعة وأما عظامها ولذلك البحر ريح تهب من عُمان إلى جهة الزنج شهرين وريح تهب من بلاد الزنج تريد جهة عُمان شهرين على مقدار واحد فيما بين الشلّة واللين إلا أنها إلى الشدة أقرب فلما كان البحر عميقاً والرياح قوية والأمواج عظيمة وكان الشراع لا يحط وكان سيرهم مع الوتر ولم يكن مع القوس ولا يعرفون الحب والمكلاً صارت الأيام التي تسير فيها السفن إلى الزنج أقل .

البرستوج قال : والبرستوج سمك يقطع أمواج الماء ويسبح إلى البصرة من الزنج ثم يعود ما فضل عن صيد الناس إلى بلاده وبحره وذلك أبعد مما بين البصرة إلى العليق المزار الكثيرة وهم لا يصيدون من البحر فيما بين البصرة إلى الزنج من البرستوج شيئاً إلا في إبان مجيئها إلينا ورجوعها عنا وإلا فالبحر منها فارغ خال . فعامه الطير أعجب من حمامكم وعمامة السمك أعجب من الطير .

هداية السمك والحمام

والطَّيْرُ ذو جناحين يَحْلُقُ في الهواء فله سُرْعَةُ الدَّرَكِ وبلوغُ الغاية بالطيران وله إدراك العالم بما فيه بعلامات وأمارات إذا هو

حَلَقَ في الهواء وعلا فوق كل شيء والسَّمَكَةُ تَسْبَحُ في غَمْرِ الْبَحْرِ والماء ولا تَسْبَحُ في أعلاه ونسيمُ الهواء الذي يعيشُ به الطَّيْرُ لو دامَ على السَّمَكِ ساعة وقال أبو العبر : قال أبو نخيلة الراجز وذكرَ السمك : (تَغْمُهُ النَشْرَةُ والنسيمُ ** فلا يزال مُغْرَقًا يَعمُ) (في البحر والبحرُ له تخميمُ ** وأُمُّهُ الوالدة الرزؤم) تلهمهُ جهلاً وما يَريمُ

يقول : النَشْرَةُ والنسيم الذي يُحيي جَمِيعَ الحَيَوَانَاتِ إذا طال عليه الخُمُومُ واللَّخَنُ والعَنُ والرُّطوباتُ الغليظة فذلك يغمُ السمكُ ويكرُّهُ وأُمُّهُ التي ولدته تأكله لأنَّ السمكُ يأكلُ بعضهُ بعضاً وهو في ذلك لا يَريمُ هذا الموضع .

وقال رؤبة : (والحوت لا يَكْفِيهِ شيءٌ يَلْهَمُهُ ** يُصْبِحُ عَطْشَانٌ وفي الماءِ فَمَةٌ) يصف طباعه واتِّصاله بالماء وأنه شديد الحاجة إليه وإن كان غَرَقاً فيه أبداً .

شعر في الهجاء وأنشدني محمد بنُ يسير لبعض المدنيِّين يهجو رجلاً وهو قوله : (لو رأى في السَّقْفِ فرجاً ** لنزاً حتَّى يموتاً) (أو رآه وَسَطَ بحرٍ ** صارَ فيه الدَّهْرَ حُوتاً) شعر في الضفدع وقال الذَّكواني وهو يصف الضَّفْدَعُ : (يُدْخِلُ في الأشْدَاقِ ماءً يَنْصُفُهُ ** كَيْمَا يَنْقُ والتَّقِيْقُ يُتْلِفُهُ) قال : يقول : الضَّفْدَعُ لا يصوَّت ولا يتهَيَّأ له ذلك حتَّى يكون في فيه ماء وإذا أرادَ ذلك أدخل فكه الأسفلَ في الماء وترك الأعلى حتَّى يَلْغُ الماءُ نِصفَهُ .

والمثل الذي يَتَمَثَّلُ به النَّاسُ : فلان لا يستطيعُ أن يُجِيبَ خُصُومَهُ لأنَّ فاهُ مَلآنُ ماءً وقال شاعرُهُمْ : (وما نسيَت مكانَ الأَمْرِيكِ بذا ** يا مَنْ هَوِيَتْ ولكنَّ في فمي ماءً) وإنَّما جعلوا ذلك مثلاً حينَ وجَدُوا الإنسانَ إذا كان في فمه ماءً على الحقيقة لم يَسْتَطِعِ الكلامَ فهو تأويل قول الذَّكواني : يُدْخِلُ في الأشْدَاقِ ماءً يَنْصُفُهُ بفتح الياء وضمَّ الصَّادِ فَإِنَّهُ ذَهَبَ إلى قول الشاعر : (وكنتُ إذا جاري دَعَا لمُصَوِّفَةٍ ** أَشْتَرُ حتَّى يَنْصُفَ السَّاقَ مِيزَرِي) المصوِّفَةُ : الأمر الذي يشفقُ منه .

فإنَّ الظَّنَّ يَنْصُفُ أو يَزِيدُ وهذا ليس من الإنصاف الذي هو العَدْلُ وإنَّما هو من بلوغِ نِصْفِ الساق .

وأما قوله : كَيْمَا يَنْقُ والتَّقِيْقُ يُتْلِفُهُ فَإِنَّهُ ذَهَبَ إلى قول الشاعر : (ضفادِعُ في ظلماء ليل تجاوبتُ ** فَدَلَّ عَلِيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ الْبَحْرِ) معرفة العرب والأعراب بالحيوان وقلَّ معنَى سَمِعْنَاهُ في باب مَعْرِفَةِ الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتبِ الأطبَّاءِ والمتكلمين إلا ونَحْنُ قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب

وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا ولولا أن يطول الكتابُ لذكرتُ ذلك أجمع وعلى أنني قد تركتُ تفسيرَ أشعارٍ كثيرة وشواهد عديدة مما لا يعرفه إلا الراويةُ التحرير من خوف التّطويل .

حمام النساء وحمام الفراخ

وقال أفليمون صاحبُ الفِراسة : اجعل حمامَ النساءِ المسرولاتِ العِظامَ الحِسانَ ذواتِ الاختيال والتَّبختر والهدير واجعل حمامَ الفِراخِ ذواتِ الأنسابِ الشريفة والأعراقِ الكريمة فإنَّ الفِراخَ إنَّما تكثرُ عن حُسنِ التَّعهُدِ ونظافةِ القراميصِ والبُروجِ واتَّخِذْ لهنَّ بيتاً محفوراً على خِلقةِ الصَّومعةِ محفوفاً من أسفله إلى مقدارِ ثلثي حيطانه بالتماريد ولتكنَّ واسعةً وليكنَ بينها حِجازٌ وأجودُ ذلك أن تكونَ تماريدها محفورةً في الحائطِ على ذلك المِثالِ وتعهَّدُ البُرجُ بالكسِّ والرَّشِّ في زمانِ الرشِّ وليكنَ مخرجُهنَّ من كَوٍّ في أعلى

الصَّومعةِ وليكنَ مقتصداً في السَّعةِ والضَّيقِ بقدر ما يدخلُ منه ويخرجُ منه الواحد بعد الواحد وإن استطعتَ أن يكونَ البيتُ بقُربِ مزرعةٍ فافعلْ فإنَّ أعجزَكَ المنسوبُ منها فالتَّمسُّ ذلك بالفِراسةِ التي لا تخطئُ وقلماً يُخطئُ المتفرِّسُ .

قال : وليس كلُّ الهُدَى تقوى على الرَّجعةِ من حيثُ أرسلتْ لأنَّ منها ما تفضل قوَّته على هِدَايته ومنها البطيء وإن كان قوياً ومنها السَّريع وإن كان ضعيفاً على قدر الحنين والاغترام ولا بدَّ لجميعها من الصَّرامةِ ومن التَّعليمِ أولاً والتَّوطينِ آخراً .

انتخاب الحمام

وقال : جِماعُ الفِراسةِ لا يخرج من أربعة أوجه : أوَّلها التقطيعُ الثاني الجِسةُ والثالثُ الشِّمائلُ والرابعُ الحركةُ .

فالتَّقطيعُ : انتصابُ العنقِ والخِلقةِ واستدارةُ الرأسِ من غيرِ عِظَمٍ ولا صِغَرٍ مع عِظَمِ القرطمتين واتِّساعِ المنخرين والنُّهاتِ الشَّدقين

وهذان من أعلامِ الكَرَمِ في الخيلِ للاستِرواحِ وغير ذلك ثمَّ حُسْنُ خِلقةِ العينين وقصرِ المنقارِ في غيرِ دِقَّةٍ ثمَّ اتِّساعُ الصَّدرِ وامتلاءُ الجَوْجُو وطولُ العُنقِ وإشرافِ المنكبين وطولِ القِوادمِ في غيرِ إفراطٍ ولُحوقِ بعضِ الخِوافي ببعضِ وصلابةِ العَصَبِ في غيرِ انتفاخٍ ولا يُيسرُ واجتماعُ الخُلُقِ في غيرِ الجَعودةِ والكَرَّازَةِ وعِظَمُ الفخدين وقصرِ الساقين والوظيفين وافتراقِ الأصابعِ وقصرِ الذَّنْبِ وخِفَّتُهُ من غيرِ تَفْنينٍ وتَفَرُّقٍ ثمَّ تَوْقُدُ الحَدَقَيْنِ وصفاءُ اللَّونِ فهذه أعلامُ الفِراسةِ في التقطيعِ .

وأما أعلامُ الجِسةِ فوثاقَةُ الخُلُقِ وشِدَّةُ اللَّحْمِ ومِثانةُ العَصَبِ وصلابةُ القَصَبِ ولينُ الرِّيشِ في غيرِ رِقَّةٍ وصلابةِ المنقارِ في غيرِ دِقَّةٍ .

وأما أعلامُ الشِّمائلِ فقلَّةُ الاختيالِ وصفاءُ البصرِ وثباتُ النَّظَرِ

وشدة الحذر وحسن التلقت)

وقلة الرعدة عند الفزع وخفة التهوض إذا طار وترك المبادرة إذا لقط .

وأما أعلام الحركة فالطيران في علو ومد العنق في سمو وقلة الاضطراب في جو السماء وضم الجناحين في الهواء وتذافع الركض في غير اختلاط وحسن القصد في غير دوران وشدة المد في الطيران فإذا أصبته جامعا لهذه الخصال فهو الطائر الكامل وإلا فبقدر ما فيه من

أدواء الحمام وعلاجها

قال : فاعلموا أن الحمام من الطير الرقيق الذي تسرع إليه الآفة وتعرؤه الأدواء وطبيعته الحرارة واليأس وأكثر أدوائه الخنان والكباد والعطاش والسل والقمل فهو يحتاج إلى المكان البارد

والنظيف وإلى الجوب الباردة كالعس والملش والشعر المنحول والقرطم له بمنزلة اللحم للإنسان لما فيه من قوة الدسم .

فمما يعالج به الكباد : الزعفران والسكر الطبرزد وماء الهندباء يجعل في سكرجة ثم يوجر ذلك أو يمج في حلقه مجا وهو على الريق .

ومما يعالج به الخنان : أن يلين لسانه يوماً أو يومين بدهن البنفسج ثم بالرمد والملح يذلك بها حتى تنسلخ الجلدة العليا التي غشيت لسانه ثم يطلى بعسل ودهن ورد حتى يبرأ .

ومما يعالج به السل : أن يطعم الماش المقشور ويمج في حلقه من اللبن الحليب ويقطع من وظيفه عرقان ظهران في أسفل ذلك مما يلي المفصل من باطن .

ومما يعالج به القمل : أن يطلى أصول ريشه بالزريق اخلل بدهن البنفسج يفعل به ذلك مرات حتى يسقط قملهُ ويكنس مكانه الذي يكون فيه كنساً نظيفاً .

وقال : اعلم أن الحمام والطير كلها لا يصلح التعمير به من البعد وهدايته على قدر التعليم وعلى قدر التوطن فأول ذلك أن يخرج إلى ظهر سطح يعلم عليه وينصب عليه علم يعرفه ويكون طيرانه لا يجاوز محلته وأن يكون علفه بالغداة والعشي يلقي له فوق ذلك السطح قريباً من علمه المنسوب له حتى يألف المكان ويتعود الرجوع إليه ولكن

ليُنظر من أي شيء يتخذ العلم فإنه لا ينبغي أن يكون أسود ولا يكون شيئاً تراه من البعد أسود وكلما كان أعظم كان أدل .

ولا ينبغي أن يطيره وزوجته معاً ولكن ينفأ أحدهما ويطير الآخر ويُخرجان إلى السطح جميعاً ثم يطير

الوافي الجناح فإنه ينزع إلى زوجته وإذا عرف المكان ودار ورجع وألف)

ذلك الموضع ونبت ريش الآخر صنع به كذلك .

وأجود من ذلك أن يُخرَجَا إلى السَّطْحِ وهما مقصوصان حتَّى يألفا ذلك الموضع ثمَّ يطيرَ أحدهما قبل صاحبه ويصنَعُ بالثاني كما صنع بالأوّل .

وما أشبه قوله هذا بقول ماسرجويه فإنه وصفَ في كتابه طباعَ جميع الألبان وشربها للدَّواء فلمَّا فرغَ من الصِّقَّة قال : وقد وصفت لك حالَ الألبان في أنفسها ولكن انظرْ إلى من يسقيك اللَّبن فإنَّك بدءاً تحتاجُ إلى تنظيفِ جوفك وتحتاج إلى مَنْ يعرفُ مقدارَ علَّتكَ من قدر اللَّبن

٤

حوار مع نجار

ومثلُ ذلك قول نجَّار كان عندي دعوته لتعليق باب ثمين كريم فقلت له : إنَّ إحكامَ تعليق الباب شديدٌ ولا يحسنه من مائة نجَّارٍ نجَّارٌ واحدٌ وقد يُذكرُ بالخذقِ في نجارة السَّقُوف والقِباب وهو لا يكملُ لتعليق بابٍ على تمام الاحكام فيه والسَّقُوف والقِباب عند العامَّة أصعب .

ولهذا أمثال : فمن ذلك أنَّ الغلامَ والجارية يشويان الجُدِّيَ والحملَ ويحكما الشَّيَّ وهما لا يُحكمان شَيْئاً جنبٍ ومن لا عِلْمَ له يظنُّ أنَّ شَيْئاً البَعْضُ أهونُ من شَيْئٍ الجميع .

فقال لي : قد أحسنت حين أعلمتني أنَّك تُبصرُ العمل فإنَّ معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشفيق فعَلَّقْه فأحْكَمْ تعليقه ثمَّ لم يكن عندي حلقةٌ لوجه الباب إذا أردتُ إصفاقه فقلت له : أكره أن أحبسك إلى

أن يذهب الغلامُ إلى السوق ويرجع ولكن اتقُبْ لي موضعها فلما ثَقَبَهُ وأخذ حَقَّهُ ولأني ظَهَرَهُ للانصراف والفت لي فقال : قد جوَّدتُ الثَّقبَ ولكن انظرْ أيُّ نجَّارٍ يدقُّ فيه الزَّرَّةَ فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شقَّ الباب والشق عيب فعلمتُ أنَّه يفهمُ صناعته فهماً تاماً . (قص الحَمام ونفثه) وبعض الناس إذا أراد أن يعلم زوجاً قصَّهما ولم يَنْتَفِهما وبين التَّنْفِ والقَصِّ بونٌ بعيد والقَصُّ كثير القصِّ لا يُوجع ولا يُقرِّح مَغَارِزَ قصب الرِّيش والتَّنْفِ يُوهن المنكبين فإذا تُنِفَ الطائرُ مراراً لم يَقوَ على الغاية ولم يزلْ واهن المنكبين ومتى أبطأ عليه فنَفثَهُ وقد جَفَّتْ أصوله وقُرِبَتْ من الطَّرْحِ كان أهونَ عليه وكلما كان النباتُ أطرأً كان أضرَّ

عليه وإنه ليلبغ من مضرته وأنَّ الذَّكَرَ لا يجيدُ الإلقاح والأنثى لا تُجيدُ القبول وربَّما نفثت الأنثى وقد احتشت بيضاً وقد قاربت أن تبيضَ فتبطئُ بعدَ وقتها الأيامَ وربَّما أضرَّ ذلك بالبيض . (زجل الحمام) قال : وإذا بلغَ الثاني مبلغَ الأوَّلِ في استواء الرِّيش والاهتداء إلى العِلْمِ طيراً جميعاً ومُنعا من الاستقرار إلا أن يظنَّ بهما الإعياء والكلال ثمَّ يُوطَّنْ لهما المَراجِلُ براً وبحراً من حيث يبصران إذا هما ارتفعا في الهواء السَّمَتَ ونفسَ العِلْمِ وأقاصي ما كانا يريانه منها عند التَّباعد في الدَّورانِ والجَوْلانِ فإذا رَجعا من ذلك المكانِ مرَّاتٍ زُجلاً من أبعد منه وقد كانوا مرَّةً يعجبهم أن يزجُلوا من جميع التَّوطنات ما لم تبعُدْ مرَّتين مرَّتين فلا يزالان كذلك حتَّى يبلغا الغاية ويكون أحدهما محتبساً إذا أرسل صاحبه ليتذكَّره فيرجع إليه فإنَّ خيفَ عليه أن

يكون قد ملَّ زوجته عرضت عليه زوجة أخرى قبل الزَّجل فإذا تسنَّها مرةً حِيلَ بينه وبينها يومه ذلك ثمَّ عرضوها عليه قبل أن يُحمَل فإذا أطاف بها نُحِيت عنه ثمَّ حُمِلَ إلى الزَّجل فإنَّ ذلك أسرع له .
وقال : اعلموا أنَّ أشدَّ المزاجِلِ ما قلَّتْ أعلامُه كالصَّحارى والبحار .

قال : والطير تختلفُ في الطَّباع اختلافاً شديداً : فمنها القويُّ ومنها الضعيفُ ومنها البطيءُ ومنها السريعُ ومنها الذَّهولُ ومنها الذَّكورُ ومنها القليلُ الصَّبرِ على العطشِ ومنها الصَّبورُ وذلك لا يخفى فيهنَّ عند التَّعليمِ والتَّوطينِ في سرعة الإجابة والإبطاء فلا تَبْعَدَنَّ غايةَ الضَّعيفِ والذَّهولِ والقَليلِ الصَّبرِ على العطشِ ولا تَرجلَنَّ ما كان منشؤه في بلاد الحرِّ في بلاد البرد ولا ما كان منشؤه في بلاد البرد في بلاد الحرِّ إلاَّ ما كان بعد الاعتیاد ولا يصبرُ على طول الطيران في غير هوائه وأجوائه طائرٌ إلاَّ بطول الإقامة في ذلك المكان ولا تستوي حاله وحالُ من لا يَعْدُو هَوَاءَهُ والهَوَاءُ الذي يَقْرُبُ من طِباعِ هوائه . (

تعليم الحمام ورود الماء قال : ولا بدَّ أن يُعلَّم الورودُ فإذا أَرَدَتْ به ذلك فأورِدْهُ العيونَ والغُدْرانَ والأفْمارَ ثمَّ حُلِّ بينه وبين النَّظرِ إلى الماء حتى تكفَّ بصره بأصابعك عن جهة الماء واتَّساع الموردِ إلاَّ بقدر ما كان يشربُ فيه من المساقى ثمَّ أوسعْ له إذا عَبَّ قليلاً بقدر ما لا يروعه ذلك المنظر وليكن مُعْطِشاً فإنه أجدرُ أن يشربَ تفعلُ به ذلك مراراً ثمَّ تفسحْ له المنظرَ أولاً أولاً حتَّى لا يُنْكِرَ ما هو فيه فلا ترألُ به حتَّى يعتاد الشُّربَ بغيرِ سترة .

استئناسه واستيحاشه قال : واعلم أنَّ الحمامَ الأهليَّ الذي عايشَ النَّاسَ وشربَ من المساقى ولَقِطَ في البيوتِ يختلُّ بالوحدة ويستوحش بالغربة .

قال : واعلم أنَّ الوحشيَّ يستأنس بالأهليَّ يستوحش .

قال : واعلم أنَّه ينسى التأديبَ إذا أهْمِلَ كما يتأدَّب بعد الإهمال .

ترتيب الزَّجل وإذا زَجَلَتْ فلا تُحْطَرَف به من نصف الغاية إلى الغاية ولكن رتَّب ذلك فإنه ربَّما اعتادَ الحجيء من ذلك البُعد فمتى أرسلته من أقرب منه تحيَّر وأرادَ أن يبتدئ أمره ابتداءً وهم اليوم لا يفعلون ذلك لأنَّه إذا بلغ الرِّقَّة أو فوق ذلك شيئاً فقد صار عُقْدَةً وصار له ثمنٌ وغَلَّة فهو لا يرى أن يُخاطر بشيء له قدرٌ ولكنه إن جاء من هيت أدرب به لأنَّه إن ذهب لم يذهب شيء له ثمن ولا طائرٌ له رياسة

وليس له اسم ولا ذكر وإن جاء جاء شيء كبير وخطير وقال : لا ترسل الرَّاَقَ حتى تستأنف به الرِّياضة ولا تدع ما تُعِدُّه للزَّجال أن يحسن بيضاً ولا يجثم عليه فإنَّ ذلك ممَّا ينقضه ويُفْتَحُه ويعظم له رأسه لأنَّه عند ذلك يسمُن وتكثر رطوبته فتقذف الحرارة تلك الرُّطوبة الحادَّة العارضة إلى رأسه فإنَّ ثَقَبَ البيضِ وزقَّ وحسن احتجَّت إلى تضميره واستئناسه ولكنَّ إن بدا لك أن تستفرخه فانقلُ بيضه إلى غيره بعد أن تُعلِّمه بعلامةٍ تعرفه بها إذا انصدع .

علاج الحمام الفزع وإن أصاب الحمام أيضاً فَرَعَ وَذُعُرَ عن طلب شيء من الجوارح له فَيَأْكُ أُنْ تُعِيدَهُ إِلَى الرَّجُلِ حَتَّى تَرْضَمَهُ وَتُسْفِرْخَهُ فَإِنْ ذَلِكَ الدُّعْرُ لَا يَفَارِقُهُ وَلَا يَسْكُنُ حَتَّى تَسْتَأْنَفَ بِهِ التَّوْطِينَ .)
طريقة استئثار الحمام وإن أردت أن تستكثر من الفراخ فاعزل الذكور عن الإناث شهراً أو نحوه حتى يصل بعضها على بعض ثم اجمع بينها فإن بيضها سيكثر ويقل سقطه ومروقه وكذلك كل أرض أثرت وكذلك الحيات لما كان من الحيوان حائلاً قال الأعشى : (مِنْ سَرَاةِ الْهَجَانِ صَلَبَهَا الْعُ** ضُّ وَرْعَى الْحِمَى وَطُولُ الْحِيَالِ)

وقال الحارث بن عبادٍ وجعل ذلك مثلاً : دث أفليمون عن نفع الحمام وقال أفليمون صاحب الفراسة لصاحبه : وأنا محدثك عن نفع الحمام بحديث يزيدك رغبة فيها : وذلك أن ملكين طلب أحدهما ملكاً صاحبه وكان المطلوب أكثر مالا وأقل رجالاً وأخصب بلاداً وكانت بينهما مسافة من الأرض بعيدة فلما بلغه ذلك دعا خاصته فشاوَرَهُمْ فِي أَمْرِهِ وَشَكَا إِلَيْهِمْ خَوْفَهُ عَلَى مُلْكِهِ فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : دَامَتْ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّلَامَةُ وَوُقِيَتِ الْمَكْرُوهُ إِنَّ الَّذِي تَأَقَّتْ لَهُ نَفْسُكَ قَدْ يُحْتَالُ لَهُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الطَّمَعِ وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْعَاقِلِ التَّغْيِيرُ وَلَيْسَ بَعْدَ الْمُنَاجَزَةِ بَقِيَّةٌ وَالْمُنَاجَزُ لَا يَدْرِي لِمَنْ تَكُونُ الْعَلْبَةُ وَالتَّمَسُّكُ بِالثِّقَةِ خَيْرٌ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى الْفَرَرِ

وقال بعضهم : دَامَ لَكَ الْعِزُّ وَمَدَّ لَكَ فِي الْبَقَاءِ لَيْسَ فِي الدَّلِّ دَرَكٌ وَلَا فِي الرِّضَا بِالضَّيْمِ بَقِيَّةٌ فَالرَّأْيُ اتِّخَاذُ الْحُصُونِ وَإِذْكَاءُ الْعُيُونِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْقِتَالِ فَإِنَّ الْمَوْتَ فِي عِزٍّ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ فِي ذُلٍّ .
وقال بعضهم : وُقِيَتْ وَكُفِّيَتْ وَأُعْطِيَتْ فَضْلَ الْمُرِيدِ الرَّأْيُ طَلَبُ الْمَصَاهِرَةِ لَهُ وَالْخِطْبَةُ إِلَيْهِ فَإِنَّ الصَّهْرَ سَبَبُ أَلْفَةٍ تَقَعُ بِهِ الْحُرْمَةُ وَتَثْبِتُ بِهِ الْمُدَّةَ وَيُحِلُّ بِهِ صَاحِبُهُ اخْلَ الْأَدْنَى وَمِنْ حَلٍّ مِنْ صَاحِبِهِ هَذَا الْخَلُّ لَمْ يَخْلُ مَا عَرَاهُ وَلَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ مَنَاوَةِ مَنْ نَاوَاهُ فَالْتِمَسْ خِلَاطَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْخِلَاطَةِ عَدَاوَةٌ وَلَا مَعَ الشَّرَكَةِ مَبَايِنَةٌ .
فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ : كُلُّ قَدْ أَشَارَ بِرَأْيٍ وَلِكُلِّ مَدَّةٍ وَأَنَا نَاطِرٌ فِي قَوْلِكُمْ وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةِ وَبَشَكَرُهُ تَمُّ النِّعْمَةِ وَأَظْهَرَ الْخِطْبَةَ إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي فَوْقَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلًا وَأَهْدَى هَدَايَا وَأَمَرَهُمْ بِمَصَانِعَةٍ جَمِيعٍ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهِ وَدَسَّ رَجَالًا مِنْ ثِقَاتِهِ وَأَمَرَهُمْ بِاتِّخَاذِ الْحَمَامِ فِي بِلَادِهِ وَتَوَطُّيْنِهِنَّ وَاتَّخَذَ أَيْضاً عِنْدَ نَفْسِهِ مِثْلَهُنَّ فَرَفَعَهُنَّ مِنْ غَايَةِ إِلَى غَايَةٍ فَجَعَلَ هَؤُلَاءِ يَرْسِلُونَ مِنْ بِلَادِ صَاحِبِهِمْ وَجَعَلَ مَنْ عِنْدَ الْمَلِكِ يَرْسِلُونَ مِنْ بِلَادِ

الملك وأمرهم بمكاتبتهم بخبر كل يوم وتعليق الكتب في)
أصول أجنحة الحمام فصار لا يخفى عليه شيء من أمره وأطمعه الملك في التزويج واستفردته وطاوله وتابع بين الهدايا ودسَّ لُحْسِهِ رَجَالًا يَلَاطِفُونَهُمْ حَتَّى صَارُوا يَسْتَوْنَ بِأَبْوَابِهِ مَعَهُمْ فَلَمَّا كَتَبَ أَصْحَابُهُ إِلَيْهِ بِغَرَمِهِمْ وَصَلَ الْخَبْرَ إِلَيْهِ مِنْ يَوْمِهِ فَسَارَ إِلَيْهِ فِي جَنْدٍ قَدْ اتَّخَبَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ عَلَى لَيْلَةٍ أَوْ بَعْضِ لَيْلَةٍ أَخَذَ بِمَجَامِعِ الطُّرُقِ ثُمَّ بَيَّتَهُمْ وَوَتَّبَ أَصْحَابَهُ مِنْ دَاخِلِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ وَجَنْدُهُ مِنْ خَارِجٍ فَفَتَحُوا الْأَبْوَابَ وَقَتَلُوا الْمَلِكَ وَأَصْبَحَ قَدْ غَلَبَ عَلَى تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَعَلَى تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ فَعَظُمَ شَأْنُهُ وَأَعْظَمَتْهُ الْمُلُوكُ وَذُكِرَ فِيهِمْ بِالْحُرْمِ وَالْكَيْدِ

وإنما كان سبب ذلك كله الحمام .

حديث آخر في نفع الحمام قال : وأحدثك عن الحمام أيضاً بحديث آخر في أمر النساء والرجال وما يصاب من اللذة فيهن والصواب في معاملتهن قال : وذلك أن رجلاً أتاني مرة فشكا إليّ حاله في فتنة غلبها فتزوجها وكانت جارية غراً حسنة وكانت بكرًا ذات عقل وحياء وكانت غريرة فيما يحسن النساء من استمالة أهواء الرجال ومن أخذها بنصيحتها من لذة النساء فلما دخل بها امتنعت عليه ودافعت عن نفسها فراولها بكل ضرب كان يحسنه من لطف وأدخل عليها من نساؤه ونسائها من ظن أنها تقبل منهم فأعيتهن حتى هم برفضها مع شلة وجده بها فأتاني فشكا ذلك إليّ مرة فأمرته أن يفردّها ويخليها من الناس فلا يصل إليها أحد وأن يضعف لها الكرامة في اللطف والإقامة لما يصلحها من مطعم ومشرب وملبس وطيب وغير ذلك مما تلهو به امرأة وتعجب به وأن يجعل خادمها أعجمية لا تفهم عنها وهي في ذلك عاقلة ولا تفهمها إلا

بالإيماء حتى تستوحش إليها وإلى كل من يصل إليها من النساء وحتى تشتهي أن تجد من يراجعها الكلام وتشكو إليه وحشة الوحدة وأن يدخل عليها أزواجاً من الحمام ذوات صورة حسنة وتحيل وهدير فيصيرهن في بيت نظيف ويجعل هن في البيت تماريد وبين يدي البيت حجرة نظيفة ويفتح لها من بيتها باباً فيصرن نضب عينها فتلهو بهن وتنظر إليهن ويجعل دخوله عليها في اليوم دفعة إلى تلك الحمام والتسلي بهن والاستدعاء هن إلى الهدير ساعة ثم يخرج فأنها لا تلبث أن تفكر في صنيعهن إذا رأت حالهن فإن الطبيعة لا تلبث حتى تحرّكها ويكون أوفق المقاعد لها الدنو منهن وأغلب الملاهي عليها النظر إليهن لأن الحواس لا تؤدي إلى النفس شيئاً من قبل السمع والبصر والذوق والشم

والجسة إلا تحرك من العقل في قبول ذلك أو رده

والاحتيايل في إصابته أو دفعه والكراهية له أو السرور به بقدر ما حرك النفس منه فإذا رأيت الغالب عليها الدنو منهن والتأمل هن فأدخل عليها امرأة مجربة غزلة تأنس بها وتفطنها لصنيعهن وتعجبها منهن وتستميل فكرها إليهن وتصف لها موقع اللذة على قدر ما ترى من تحريك الشهوة ثم أخرج المرأة عنها وحاول الدنو منها فإن رأيت كراهية أمسكت وأعدت المرأة إليها فإنها لا تلبث أن تمكك فإن فعلت ما تحب وأمكتك بعض الإمكان ولم تبلغ ما تريد فأخبرني بذلك .

قال : وقلت له : مَر المرأة فلتسألها عن حالها في نفسها وحالك عندها فلعل فيها طبيعة من الحياء تمنعها من الانبساط ولعلها غر لا يلمس ما قبلها من الخرق ففعل وأمر المرأة أن تكشفها عن ذات نفسها فشكت إليها الخرق فأشارت عليها بالمتابعة وقالت : اعتبري بما ترين من هذا الحمام فقد ترين الزوجين كيف يصنعان قالت : قد

تَأَمَّلْتُ ذَلِكَ فَعَجِبْتُ مِنْهُ وَلَسْتُ أَحْسِنُهُ فَقَالَتْ لَهَا : لَا تَمْنَعِي يَدَهُ وَلَا تَحْمِلِي عَلَى نَفْسِكَ الْهَيْبَةَ وَإِنْ وَجَدْتَ مِنْ نَفْسِكَ شَيْئاً تَدْعُوكَ إِلَيْهِ لِلذَّةِ فَاصْنَعِيهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَأْخُذُ بَقَلْبِهِ وَيَزِيدُ فِي مَحَبَّتِكَ وَيَحْرُكُ ذَلِكَ مِنْهُ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَاكَ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَالَ حَاجَتَهُ وَذَهَبَتْ الْحَشْمَةُ وَسَقَطَتِ الْمَدَارَةُ فَكَانَ سَبَبُ الصُّنْعِ لِهَما والخروج من الْوَحْشَةِ إِلَى الْأُنْسِ وَمِنْ الْحَالِ الدَّاعِيَةِ إِلَى مَفَارِقَتِهَا إِلَى الْحَالِ الدَّاعِيَةِ إِلَى مَلَازِمَتِهَا وَالضَّنَّ بِهَا الْحَمَامِ .

الخوف على النساء من الحمام

وما أَكْثَرَ مِنَ الرِّجَالِ مِنْ لَيْسَ يَمْنَعُهُ مِنْ إِدْخَالِ الْحَمَامِ إِلَى نِسَائِهِ إِلَّا هَذَا الشَّيْءَ الَّذِي حَثَّ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْفِرَاسَةِ وَذَلِكَ أَنَّ تِلْكَ الرُّؤْيَا قَدْ تَذَكَّرَ وَتَشَهَّى وَتَمَحَّنَ وَأَكْثَرَ النِّسَاءَ بَيْنَ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ : إِمَّا امْرَأَةٌ قَدْ مَاتَ زَوْجُهَا فَتَحْرِيكُ طِبَاعِهَا خِطَارَ بِأَمَانَتِهَا وَعَفَافِهَا وَالْمَغْيَةِ

فِي مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى وَالثَّلَاثَةُ : امْرَأَةٌ قَدْ طَالَ لُبُّهَا مَعَ زَوْجِهَا فَقَدْ ذَهَبَ الْإِسْطِرَافُ وَمَاتَتِ الشَّهْوَةُ وَإِذَا رَأَتْ ذَلِكَ تَحْرُكُ مِنْهَا كُلُّ سَاكِنٍ وَذَكَرَتْ مَا كَانَتْ عَنْهُ بِمَنْدُوحَةٍ .

وَالْمَرْأَةُ سَلِيمَةُ الدِّينِ وَالْعِرْضِ وَالْقَلْبِ مَا لَمْ تَهْجَسْ فِي صَدْرِهَا الْخَوَاطِرُ وَلَمْ تَتَوَهَّمْ حَالَاتِ اللَّذَّةِ وَتَحْرُكُ الشَّهْوَةَ فَأَمَّا إِذَا وَقَعَ ذَلِكَ فَعَزَمُهَا أَضْعَفُ الْعَزْمِ وَعَزَمُهَا عَلَى رُكُوبِ الْهَوَى أَقْوَى الْعَزْمِ .
فَأَمَّا الْأَبْكَارُ الْغَرِيَّاتُ فَهِنَّ إِلَى أَنْ يُؤْخِذْنَ بِالْقِرَاءَةِ فِي الْمَصْحَفِ وَيُحْتَالَ لهنَّ حَتَّى يَصِرْنَ إِلَى حَالِ التَّشْيِخِ وَالْجَبَنِ وَالْكِرَازَةِ وَحَتَّى لَا يَسْمَعْنَ مِنْ أَحَادِيثِ الْبَاهِ وَالْغَزَلِ قَلِيلاً وَلَا كَثِيراً

نَادِرَةٌ لِعَجُوزٍ سَنَدِيَّةٍ وَلَقَدْ رَكِبَتْ عَجُوزٌ سَنَدِيَّةٌ ظَهَرَ بَعِيرٌ فَلَمَّا أَقْبَلَ بِهَا هَذَا الْبَعِيرُ وَأَدْبَرَ وَطَمَرَ فَمَخَضَهَا مَرَّةً مَخْضَ السَّقَاءِ وَجَعَلَهَا مَرَّةً كَأَنَّهَا تَرْهَزُ فَقَالَتْ بِلِسَانِهَا وَهِيَ سَنَدِيَّةٌ أَعْجَمِيَّةٌ أَخْزَى اللَّهُ هَذَا الذَّمْلَ فَإِنَّهُ يَذْكُرُ بِالسَّرِّ تَرِيدٌ : أَخْزَى اللَّهُ هَذَا الْجَمْلَ فَإِنَّهُ يَذْكُرُ بِالشَّرِّ حَدَّثَنَا بِهَذِهِ النَّادِرَةِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادَ بْنِ كَاسِبٍ
نَادِرَةٌ لِعَجُوزٍ مِنَ الْأَعْرَابِ وَحَدَّثَنَا رُبْعِيُّ الْأَنْصَارِيِّ : أَنَّ عَجُوزاً مِنَ الْأَعْرَابِ جَلَسَتْ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ إِلَى فَيْيَانٍ يَشْرَبُونَ نَبِيذاً لَهُمْ فَسَقَوْهَا قَدْحاً فَطَابَتْ نَفْسُهَا

وَتَبَسَّمَتْ ثُمَّ سَقَوْهَا قَدْحاً آخَرَ فَاحْمَرَّتْ وَجْهَهَا وَضَحِكَتْ فَسَقَوْهَا قَدْحاً ثَالِثاً فَقَالَتْ : خَبَّرُونِي عَنْ نِسَائِكُمْ بِالْعِرَاقِ أَيشْرَبْنَ مِنْ هَذَا الشَّرَابِ فَقَالُوا : نَعَمْ فَقَالَتْ : زَيْنَ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ . ٤

عقاب خصي

(٥) وَزَعَمَ إِبْرَاهِيمُ الْأَنْصَارِيُّ الْمَعْتَرِيُّ أَنَّ عَبَّاسَ بْنَ يَزِيدَ بْنَ جَرِيرٍ دَخَلَ مَقْصُورَةً لِبَعْضِ حَوَارِيهِ فَأَبْصَرَ حَمَاماً قَدْ قَطَعَ حَمَامَةً ثُمَّ كَسَحَ بَذَنبَهُ وَنَفَشَ رِيَشَهُ فَقَالَ : لِمَنْ هَذَا الْحَمَامُ فَقَالُوا : لِفُلَانٍ خَادِمِكَ يَعْنُونَ خَصِيّاً لَهُ فَقَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ .

وقد قال الحطيئة لفتيان من بني قُريَع وقد كانوا ربَّما جلسُوا بقُربِ خِيَمَتِهِ فَنَغَى بعضهم غناء الرِّكبان فقال : يا بني قُريَعِ إِيَّايَ والغناء فَإِنَّهُ داعيةُ الرِّنا .

أبو أحمد التمار وصاحب حمام وأما أبو أحمد التمار المتكلم فَإِنَّهُ شاهدَ صاحبَ حمامٍ في يومٍ مجيءِ حَمَامِهِ من واسطٍ وكانت واسطٍ يومئذٍ الغايةَ فرآه كلما أقبلَ طائرٌ من حمامه نعرَ ورقَصَ فقال له : واللهِ إِنِّي لأُرى منك عجباً أراك تفرِّحُ بأنْ جاءكَ حمامٌ من واسطٍ وهو ذلك الذي كان وهو الذي جاء وهو الذي اهتدى وأنتَ لم تجئ ولم تَهْتَدِ وحينَ جاءَ من واسطٍ لم يجئ معه بشيءٍ من خبر أبي حمزة ولا بشيءٍ من مقاريض واسطٍ وبزيون واسطٍ ولا جاء معه أيضاً بشيءٍ من خطمي ولا بشيءٍ من جوز

ولا بشيءٍ من زيبٍ وقد مرَّ بكسكَرَ فأين كان عن جداء كسكَرٍ ودجاج كسكَرٍ وسمك كسكَرٍ وصحناء كسكَرٍ ورُبَيْثاء كسكَرٍ وشعير كسكَرٍ وذهب صحيحاً نشيطاً ورجع مريضاً كسلان وقد غرمت ما غرمت فقل لي : ما وجه فرحك فقال : فرحي أَنِّي أرجو أن أبيعهُ بخمسين ديناراً قال : ومن يشتريه منك بخمسين ديناراً قال : فلان وفلان فقام ومضى إلى فلان فقال : زعم فلان أَنك تشتري منه حماماً جاء من واسطٍ بخمسين ديناراً قال : صدق قال : فقل لي لم تشتريه

بخمسين ديناراً قال : لأنَّه جاء من واسطٍ قال : فإذا جاء من واسطٍ فلمَ تشتريه بخمسين ديناراً قال : لأنَّي أبيع الفرخَ منه بثلاثةِ دنانيرٍ والبيضةِ بدينارين قال : ومن يشتري منك قال : مثلُ فلان وفلان فأخذَ نَعْلَهُ ومضى إلى فلان فقال : زعم فلان (

أَنَّك تشتري منه فرخاً من طائرٍ جاء من واسطٍ بثلاثةِ دنانيرٍ والبيضةِ بدينارين قال : صدق قال : فقل لي : لِمَ تشتري فرخةً بثلاثةِ دنانيرٍ قال : لأنَّ أباه جاء من واسطٍ قال : ولِمَ تشتريه بثلاثةِ دنانيرٍ إذا جاء أبوه من واسطٍ قال : لأنِّي أرجو أن يجيءَ من واسطٍ قال : وإذا جاء من واسطٍ فأَيُّ شيءٍ يكون قال : يكون أن أبيعهُ بخمسين ديناراً قال : ومن يشتريه منك بخمسين ديناراً قال : فلان فتركَه ومضى إلى فلان فقال : زعم فلان أن فرخاً من فراخه إذا جاء أبوه من واسطٍ اشتريته أنتَ منه بخمسين ديناراً قال : صدق قال : ولم تشتريه بخمسين ديناراً قال : لأنَّه جاء من واسطٍ قال : وإذا جاء من واسطٍ لم تشتريه بخمسين ديناراً قال : فأعاد عليه مثل قول الأوَّل فقل : لا رزق الله من يشتري حماماً جاء من واسطٍ بخمسين ديناراً ولا رزق الله إلاَّ مَنْ لا يشتريه بقليل ولا بكثير .

نوارد لأبي أحمد التمار وأبو أحمد هذا هو الذي قال وهو يعظ بعض المسرفين لو أن رجلاً كانت عنده ألفُ ألف دينار ثم أنفقها كلها لذهبت كلها وإنما سمع قول القائل : لو أن رجلاً عنده ألفُ ألف دينار وهو القائل في قصصه : ولقد عظمَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم حقَّ الجارِ وقال فيه قولاً أستحيي والله من ذكره .

وهو الذي قال لبعضهم : بلغني أنَّ في بستانك أشياءَ تَهْمَنِي فأحبُّ أن تَهَبَ لي منه أمراً من أمرِ الله عظيم .
وكان زَجَّالاً قبل أن يكون تماراً .

وزعم سليمان الرِّجَال وأخوه ثابت أنه قبل أن يكون تماراً قال يوماً وذكر الحمام حين زَهْد في بيع الحمام
وذكرَ بعضَ الملوك فقال : أمّا فلان فإنه لما بلغني أنه يلعبُ بالحمام سقط من عيني .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

تمَّ القولُ في الحمام والحمد لله وحده . (أجناس الدُّبَان) بسم الله وبالله والحمد لله ولا حول ولا قُوَّة إلا
بالله وصلى الله على سيِّدنا محمدٍ النبيِّ الأُمِّيِّ وعلى آله وصحبه وسلّم وعلى أبرارِ عِثْرَتِهِ الطَّيِّبِينَ الأخيار .
أوصيك أيُّها القارئ المتفهم وأيُّها المستمع المنصت المصيخ ألا تحقرَ شيئاً أبداً لصغر جثته ولا تستصغر قدره
لقلة ثمن .

(دلالة الدقيق من الخلق على الله) ثمَّ اعلم أنَّ الجبلَ ليس بأدَلَّ على الله من الحِصاة ولا الفلَكُ المشتمل
على عالمنا هذا بأدَلَّ على الله من بدن الإنسان وأنَّ صغيرَ ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله ولم تفتقرِ الأمورُ
في حقائقها وإنما افترقَ المفكِّرون فيها ومن أهملَ النَّظَرَ وأغفلَ مواضعَ الفرقِ وفصولَ الحدود .
فمن قَبْل تركِ النَّظَرَ ومن قَبْل قطعِ النَّظَرِ ومن قَبْل النظر من غير وجه النَّظَرِ ومن قَبْل الإخلال ببعض
المقدمات ومن قَبْل ابتداء النَّظَرِ من جهة النَّظَرِ واستتمام النظر مع انتظام المقدمات اختلَفوا .
فهذه الخصالُ هي جُماعُ هذا الباب إلا ما لم نذكره من باب العجز والقصر فإن الذي امتنع وإنما ذكرنا
بابَ الخطأ والصَّواب والتَّقْصِيرِ والتَّكْمِيلِ فإياك أن تسيءَ الظَّنَّ بشيءٍ من الحيوان لاضطراب الخلق
ولتفاوت التركيب ولأنه مشنوءٌ في العين أو لأنه قليلُ النفع والرَّدِّ فإنَّ الذي تَظُنُّ أنَّه أقلُّها نفعاً لعله أن
يكون أكثرَها رَدّاً فإلاَّ يكن ذلك من جهة عاجلِ أمرِ الدنيا

كان ذلك في آجلِ أمرِ الدين وثوابِ الدين وعقابه باقيا ومنافع الدنيا فانية زائلة فلذلك قدِّمت الآخرة
على الأولى .

فإذا رأيتَ شيئاً من الحيوان بعيداً من المعاونة وجاهلاً بسبب المكافئة أو كان مما يشتدُّ ضرره وتشتدُّ الحِراسة
منه كذوات الأنياب من الحيات والذئاب وذوات المخالب من الأسدِّ والثُّمور وذوات الإبر والشعر من
العقارب والدُّبُر فاعلم أنَّ مواقعَ منافعها من جهة الامتحان والبلوى ومن جهة ما أعد الله عزَّ وجلَّ
للباصرين ولمن فهم عنه ولمن علم أنَّ الاختيارَ والاختبارَ لا يكونان والدنيا كلها شرٌّ صِرْفٌ أو خيرٌ مخض
فإنَّ ذلك لا يكون إلا بالمرواجعة بين المكروه والحبوب والمؤلم والمِلْدِّ والحقيرِ والمُعْظَمِ والمأمون والمخوف فإذا
كان الحظُّ الأوفرُّ في الاختبار والاختيار وبهما يُتوسَّلُ إلى ولاية الله عزَّ وجلَّ وآبد كرامته وكان ذلك إنما
(يكون في)

الدار المزروجة من

الخير والشرّ والمشاركة والمرّكة بالنفع والضرر المشوبة باليسر والعسر فليعلم موضع النفع في خلق العقرب ومكان الصنع في خلق الحية فلا يحقرن الجرجس والفراش والذرة والذبان ولتقف حتى تفكر في الباب الذي رميت إليك بجملة فإني ستكثر حمد الله عز وجل على خلق المميج والحشرات وذوات السموم والأنياب كما تحمده على خلق الأغذية من الماء والتسيم .

فإن أردت الزراية والتحقير والعداوة والتصغير فاصرف ذلك كله إلى الجن والإنس واحقر منهم كل من عمل عملاً من جهة الاختيار يستوجب به الاحتقار ويستحق به غاية المقت من وجه والتصغير من وجه . فإن أنت أبغضت من جهة الطبيعة واستقلت من جهة الفطرة ضربين من الحيوان : ضرباً يقتلك بسمه وضرباً يقتلك بشدة أسره لم تلم إلا أن عليك أن تعلم أن خالفهما لم يخلقهما لأذاك وإنما خلقهما لتصبر على أذاهما ولأن تنال بالصبر الدرجة التي يستحيل أن تنالها إلا بالصبر

والصبر لا يكون إلا على حال مكروه فسواء عليك أكان المكروه سبباً وثاباً أو كان مريضاً قاتلاً وعلى أنك لا تدري لعل النزاع والعنز والحشرة أن يكون أشد من لدغ حية وضغمة سبع فلا تكن له حرقه كحرق النار وألم كالم الذفق فلعن هناك من الكرب ما يكون موقعه من النفس فوق ذلك .

وقد عمن أن الناس يسئون الانتظار لوقع السيف على صليف العنق جهد البلاء وليس ذلك الجهد من شكل لدغ النار ولا من شكل ألم الضرب بالعصا فافهم فهمك الله مواقع النفع كما يعرفها أهل الحكمة وأصحاب الأحساس الصحيحة .

ولا تذهب في الأمور مذهب العامة وقد جعلك الله تعالى من الخاصة فإنك مسؤول عن هذه الفضيلة لأنها لم تجعل لعباً ولم تترك

هملاً واصرف بغضك إلى مريد ظلمك لا يراقب فيك إلا ولا ذمة ولا مودة ولا كتاباً ولا سنة وكلما زادك الله عز وجل نعمة ازداد عليك حنقاً ولك بغضاً وفير كل الفرار واهرب كل الهرب واحترس كل الاحتراس ممن لا يراقب الله عز وجل فإنه لا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون لا يعرف ربه مع ظهور آياته ودلالاته وسبوغ آلائه وتتابع نعمائه ومع برهانات رسله وبيان كتبه وإما أن يكون به عارفاً وبدينه موقناً وعليه مجترئاً وبحرمانته مستخفاً فإن كان بحقه جاهلاً فهو بحقك أجهل وله أنكروا وإن كان به عارفاً وعليه مجترئاً فهو عليك أجراً ولحقوقك أضيع ولأياديك أكفر .

فإنما خلق البعوضة والنملة والفراشة والذرة والذبان والجعلان واليعاسيب والجراد فيأيك أن تنهون بشأن هذا الجنود وتستخف بالآلة التي في هذا النرء فربت أمة قد أجلاها عن بلادها النمل ونقلها

عن مساقط رؤوسها الذر وأهلك بالفار وجردت بالجراد وغذبت بالبعوض وأفسد عيشها الذبان فهي جند إن أراد الله عز وجل أن يهلك بما قوماً بعد طغيانهم وتجبرهم وعتوهم ليعرفوا أو ليعرف بهم أن كثير أمرهم لا يقوم بالقليل من أمر الله عز وجل وفيها بعد معتبر لمن اعتبر وموعظة لمن فكر وصلاح لمن استبصر وبلوى ومحنة وعذاب ونقمة وحجة صادقة وآية واضحة وسبب إلى الصبر والفكرة وهما جماع الخير في

باب المعرفة والاستبانة وفي باب الأجر وعظم المثوبة .
وسنذكر جملة من حال الذبان ثم نقول في جملة ما يحضرنا من شأن الغربان والجعلان

أمثال في الفراش والذباب

ويقال في موضع الدم والهجاء : ما هم إلا فراش نار وذبان طمع ويقال : أطيش من فراشة وأزهي من ذبان

وقال الشاعر : (كأن بني ذوية رهط سلمى * فراش حول نار يصطليها) (يطفن بحرّها ويقعن فيها **
ولا يدرين ماذا يتقينا) والعرب تجعل الفراش والنحل والزنابير والدبر كلها من الذبان وأما قولهم : أزهي
من ذباب فلأن الذباب يسقط على أنف الملك الجبار وعلى موق عينيه ليأكله ثم يطرده فلا يتردد .
والأنف هو النخوة وموضع التجبر .

وكان من شأن البطارقة وقواد الملوك إذا أنفوا من شيء أن ينخروا كما ينخر الثور عند الذبح والبرذون
عند النشاط .

والأنف هو موضع الخنزرة والثعرة وإذا تكبرت الناقة بعد أن تلحق فإمّا ترم بأنفها .
والأصيد : الملك الذي تراه أبداً من كبره مائل الوجه وشبهه بالأسد فقل أصيد لأن عنق الأسد من عظم
واحد فهو لا يلفت إلا بكّله فلذلك يقال للمتكبر : إنما أنفه في أسلوب ويقال : أرغم الله أنفه وأذل
معطسه ويقال : ستفعل ذلك وأهلك راغم والراغم : التراب ولولا كذا)
وكذا لهشمت أنفك وإنما يخصون بذلك الأنف لأن الكبر إليه يضاف قال الشاعر : (يا رب من يبعض
أذوادنا * رحن على بعضائه واعتدين) (لو نبت البقل على أنفه * لرحن منه أصلاً قد أين)

ويقال بعير مذبوب إذا عرض له ما يدعو الذبان إلى السقوط عليه وهم يعرفون الغدة إذا فشّت أو أصابت
بعيراً بسقوط الذبان عليه .

احتيال الجمالين على السلطان

وبسقوط الذبان على البعير يحتال الجمال للسلطان إذا كان قد تسخر إبله وهو لذلك كاره وإذا كان في
جماله الجمل النفيس أو الناقة الكريمة فإنه يعمد إلى الخضخاض فيصب فيه شيئاً من دبس ثم يطلى به ذلك
البعير فإذا وجد الذبان ريح الدبس تساقطن عليه فيدعي عند ذلك أن به غدة ويجعل الشاهد له عند
السلطان ما يوجد عليه من الذبان فما أكثر ما يتخلصون بكرائم أموالهم بالحيل من أيدي

السلطان ولا يظنُّ ذلك السلطانُ إلا أنه متى شاء أن يبيعَ مائةَ أعرابي بدرهم فَعَلَ والغدَّةُ عندهم تُعدي وطباع الإبل أقبلُ شيءٍ للأدواء التي تُعدي فيقول الجمالُ عند ذلك للسلطان : لو لم أخف على الإبل إلا بعيري هذا المغد أن يُعدي لم أبال ولكني أخاف إعداء الغدَّة ومضرَّتها في سائر مالي فلا يزال يستعطفه بذلك ويحتالُ له به حتَّى يخلِّي سبيلَه (نفور الذبَّان من بعض الأشياء) ويقال إنَّ الذبَّان لا يقربُ قدراً فيه كمأة كما لا يدخلُ سامٌ أبْرص بيتاً فيه زعفران . (الخوف على المكلوب من الذبَّان) ومن أصابه عض الكلب الكلبُ حموا وجهه من سقوط الذبَّان عليه قالوا : وهو أشدُّ عليه من ديب النَّبر على البعير .

النبر والنَّبر دويَّةٌ إذا دبَّت على البعير تورَّم وربَّما كان ذلك سببَ هلاكه .
قال الشاعرُ وهو يصف سِمَن إبله وعِظَم أبدانها : (حمر تحفَّت التَّجِيلُ كأنَّما * بجلودهنَّ مدارجُ الأثبارِ)
مميزات خلقية لبعض الحيوان وليس في الأرض ذبابٌ إلا وهو أفرح ولا في الأرض بعيرٌ إلا وهو أعلم كما أنه ليس في الأرض ثورٌ إلا وهو أفتس .
وفي أن كلَّ بعير أعلمُ يقولُ عنتره : (وحليل غانية تركتُ مجدلاً * تمكو فريصته كشدق الأعلم)

كأنه قال : كشدق البعير إذ كان كله بغير أعلم .

والشعراء يشبهون الضربة بشدق البعير ولذلك قال الشاعر : (كم ضربة لك تحكي فأقراسية ** من المصاعب في أشدائه شنع) وقال الكميت : مشافر قرحى أكلن البريوا (ولأنت أطيش حين تغدو سادراً ** حذر الطعان من القدوح الأقرح) يعني الذبان لأنه أقرح ولأنه أبداً يحكُّ بإحدى ذراعيه على

الأخرى كأنه يقدح بعودي مرخٍ وعفارٍ أو عرجون أو غير ذلك مما يقدح به .

أخذ الشعراء بعضهم معاني بعض ولا يعلم في الأرض شاعر تقدّم في تشبيه مصيب تام وفي معنى غريب عجيب أو في معنى شريف كريم أو في بديع مخترع إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً) فيه كالمعنى الذي تتنازع الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط وقال إنه خطر على بالي من غير سماع كما خطر على بال الأول هذا إذا قرعوه به إلا ما كان من عنتره في صفة الذباب فإنه وصفه فأجاد صفته فبحامي معناه جميع الشعراء

فلم يعرض له أحد منهم ولقد عرض له بعض الخدثين من كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر قال عنتره : (جادت عليها كل عين ثرة ** فتركن كل حديقة كاللرهم) (غرداً يحكُّ ذراعاه بذراعاه ** فعل المكب على الرناد الأجدم) قال : يريد فعل الأقطع المكب على الرناد والأجدم : المقطوع اليدين فوصف الذباب إذا كان واقفاً ثم حكَّ إحدى يديه بالأخرى فشبهه عند ذلك برجلٍ مقطوع اليدين يقدحُ بعودين ومتى سقط الذباب فهو يفعل ذلك . ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنتره .

قول في حديث وقد كان عندنا في بني العدوية شيخٌ منهم مُنكر شديد العارضة فيه توضيع فسمعني أقول : قد جاء في الحديث : إنَّ تحت جناح

الذباب اليمين شفاءٌ وتحت جناحه الأيسر سماً فإذا سقط في إناء أو في شرابٍ أو في مرقٍ فاغمسوه فيه فإنه يرفع عند ذلك الجناح الذي تحته الشفاء ويحطُّ الجناح الذي تحته السم فقال : بأبي أنت وأمي هذا يجمع العداوة والمكيدة .

قصة لتميمي مع أناس من الأزد وقد كان عندنا أناسٌ من الأزد ومعهم ابن حزن وابن حزن هذا عدويٌّ من آل عموج وكان يتعصب لأصحابه من بني تميم وكانوا على نبذ فسقط ذبابٌ في قدح بعضهم فقال له الآخر : غطَّ التميمي ثم سقط آخر في قدح بعضهم فقال الباقون : غطَّ التميمي فلما كان في الثالثة قال ابن

حزن : غطّه فإن كان تميمياً رَسَبَ وإن كان أزدياً طغاً فقال صاحب المنزل : ما يسرُّني أنّه كان نقصكم حرفاً وإنما عني أن أزدَ عُمان ملاحون .

(ضروب الذَّبَّانِ) والذَّبَّانِ ضروبٌ سوى ما ذكرناه من الفَراش والنَّحل والزَّنابير فمنها الشَّعْراء وقال
الراجز : ذَبَّانُ شَعْراءِ وَبَيْتِ ماذِلٍ وَلِلْكَلابِ ذِبابٌ عَلَى حِدَةٍ يَتَخَلَّقُ مِنْهَا وَلَا يُرِيدُ سِوَاهَا وَمِنْهَا ذَبَّانُ الْكَلأِ
وَالرِّياضِ وَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يَأْلَفُ مَا خَلَقَ مِنْهُ قَالَ أَبُو النَّجْمِ : (مَسْتَأْسِدُ ذَبَّانِهِ فِي غَيْطِلٍ ** يَقْلِنُ لِلرَّانِدِ
أَعَشَبَتْ انزَل)

شعر ومثل في طنين الذباب

والعربُ تسمي طنينَ الذَّبَّانِ والبعوض غناءً وقال الأخطلُ في صفة الثَّور : (فَرَدًا تَغْنِيهِ ذَبَّانُ الرِّياضِ كما
غَنَى الْغَوَاةُ بِصَنْجٍ عِنْدَ أُسْوارِ) وقال حَضْرَمِيُّ بنِ عامِرٍ في طنينِ الذباب : (ما زال إهداءُ الْقَصائِدِ بَيْنَنَا **
شَتَمَ الصَّدِيقِ وَكَثْرَةَ الْألقابِ) ويقال : ما قولي هذا عندك إلا طنينُ ذباب .

سَفاد الذباب وأعمارها

وللذَّبَّابِ وَقْتُ هَيْجٍ فِيهِ لِلسَّفادِ مع قصر أعمارها وفي الحديث : أنَّ عُمَرَ الذباب أربعون يوماً ولها أيضاً
وقت هَيْجٍ في أَكْلِ النَّاسِ

وعَضَّتْهم وشَرِبَ دِمائِهم وإنما يعرض هذا الذَّبَّانُ في البيوت عند قرب أيَّامها فإنَّ هلاكها يكون بعد ذلك
وشيكاً والذَّبَّانُ في وقتٍ من الأوقات من حتوف الإبل والدواب .

علة شدة عض الذباب

والذَّبَّابِ والبَعوض من

ذوات الخراطيم

ولذلك اشتدَّ عَضُّها وقويتْ على خَرَقِ الجلود الغلاظ وقال الراجز في وصف البعوضة : (مثل السُّفّاةِ دائِمٍ
طَنيئِها ** رَكَّبَ في خَراطِومِها سِكِّينِها) (ذوات الخراطيم) وقالوا : ذوات الخراطيم من كلِّ شيءٍ أقوى
عَضّاً وناباً وفكّاً كالذئب والخنزير والكلب وأما الفيل فإنَّ خراطومَه هو أنفه كما أنَّ لكلِّ شيءٍ من الحيوان
أنفاً وهو يده ومنه يُعْنَى وفيه يجري الصَّوت كما يُجري الزَّامرُ الصَّوتَ في القَصَبَةِ بالتَّفخِ ومَنى تضاغَطَ
الهواءُ صَوَّتَ على قَدَرِ الضَّغَطِ أو على قَدَرِ الثَّقَبِ .

أمثال من الشعر في الذباب

والذباب : اسم الواحد والذبان : اسم الجماعة وإذا أرادوا التصغير والتقليل ضربوا بالذبان المثل قال الشاعر : (رأيتُ الحَبَرَ عَزَّ لَدَيْكَ حَتَّى ** حَسِبْتُ الحُبَرَ فِي جَوِّ السَّحَابِ) (وما رَوَّحْتَنَا لَتَذُبَّ عَنَّا **) ولكنْ خَفَّتْ مَرَزِيَّةُ الذُّبَابِ (وقال آخر : (لما رَأَيْتُ القَصْرَ أُغْلِقَ بَابُهُ ** وتعلَّقتْ هَمْدَانُ بالأسبابِ) (أيقنتُ أَنَّ إِمَارَةَ ابنِ مضاربٍ ** لم يبقَ مِنْهَا قِيسٌ أَيْرِ ذُبَابٍ)

قال بعضهم : لم يذهب إلى مقدار أيره وإنما ذهب إلى مثل قول ابن أحرر : (ما كُتِبَ عَنْ قَوْمِي بِمَهْتَضَمٍ ** لو أَنَّ مَعْصِيًّا لَهُ أَمْرٌ) (كَلَفْتَنِي مُخَّ البَعُوضِ فَقَدْ ** أَقْصَرْتُ لَا نُجُحُّ وَلَا عُذْرُ) قال : وليس شيء مما يطير يَلُغُ فِي الدَّمِ وإنما يَلُغُ فِي الدَّمَاءِ مِنَ السَّبَاعِ ذَوَاتُ الأَرْبَعِ وَأَمَّا الطَّيْرُ فَإِنَّهَا تَشْرَبُ حَسَوًّا أَوْ عَبَّةً بَعْدَ عَبَّةٍ وَنُعْبَةً بَعْدَ نُعْبَةٍ وَسَبَاعِ الطَّيْرِ قَلِيلَةٌ الشَّرْبِ لِلْمَاءِ وَالْأُسْدُ كَذَلِكَ قَالَ أَبُو زَيْدٍ الطَّائِي : (تَذُبُّ عَنْهُ كَفٌّ بِهَا رَمَقٌ ** طَيْرًا عَكُوفًا كَرُورِ العُرْسِ)

(إِذَا وَنَى وَنِيَّةً دَلَفَنَ لَهُ ** فَهِنَّ مِنْ وَالِغٍ وَمُنْتَهِسٍ)
قال : والطير لا تلغ وإنما يَلُغُ الذباب وجعله من الطير وهو وإن كان يطير فليس ذلك من أسمائه فإذا قد جاز أن يستعير له اسم الطائر جاز أن يستعير للطير وَلُغَ السَّبَاعُ فيجعل حسوها وَلُغًا وقال الشاعر : (سراع إلى وَلُغِ الدَّمَاءِ رَمَاحِهِمْ ** وفي الحرب والهيحاء أُسْدٌ ضَرَاغِمُ)

خصلتان محمودتان في الذباب

قال وفي الذباب خصلتان من الخصال الحمودة .
أما إحداهما : فقرب الحيلة لصرف أذاها ودفع مكروهاها فمن أراد إخراجها من البيت فليس بينه وبين أن يكون البيت على المقدار الأول من الضياء والكن بعد إخراجها مع السلامة من التأذي بالذبان إلا أن يُغلق الباب فَإِنَّهُنَّ يَتَبَادَرْنَ إِلَى الخُرُوجِ وَيَتَسَابِقْنَ فِي طَلَبِ الضَّوِّءِ وَالهَرَبِ مِنَ الظُّلْمَةِ فَإِذَا أُرْخِيَ السِّتْرُ وَفُتِحَ البابُ عادَ الضَّوُّءُ وَسَلِمَ أَهْلُهُ مِنْ مَكْرُوهِ الذُّبَابِ فَإِنْ كَانَ فِي البابِ شَقٌّ وَإِلَّا جَافَى المَعْلُوقُ أَحَدَ البَايِنِ عَنْ صاحبه

ولم يطبقه عليه إطباقاً وربما خرجن من الفتح الذي يكون بين أسفل الباب والعتبة والحيلة في إخراجها والسلامة من أذاها يسيرة وليس كذلك البعوض لأن البعوض إنما يشتدُّ أذاه ويقوى سلطانه ويشتدُّ كَلْبُهُ فِي الظُّلْمَةِ كَمَا يَقْوَى سُلْطَانُ الذُّبَابِ فِي الضِّيَاءِ وَلَيْسَ يُمْكِنُ النَّاسَ أَنْ يُدْخِلُوا مَنَازِلَهُمْ مِنَ الضِّيَاءِ مَا يَمْنَعُ عَمَلَ البَعُوضِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِادْخَالِ الشَّمْسِ وَالبَعُوضُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الصَّيْفِ وَشَمْسُ الصَّيْفِ لَا صَبْرَ عَلَيْهَا وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ ضِيَاءٌ انْفَصَلَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا وَمَعَهُ نَصِيْبُهُ مِنَ الحَرِّ وَقَدْ يَفَارِقُ الحَرُّ الضِّيَاءَ فِي بَعْضِ المَوَاضِعِ وَالضِّيَاءُ لَا يَفَارِقُ الحَرَّ فِي مَكَانٍ مِنَ الأَمَاكِنِ .
فإمكان الحيلة في الذباب يسير وفي البعوض عسير .

والفضيلة الأخرى : أنه لولا أن الذبابة تأكل البعوضة و تطلبها وتلتمسها على وجوه حيوان البيوت وفي الزوايا لما كان لأهلها فيها قرار .

الحكمة في الذباب

وذكر محمد بن الجهم فيما خبرني عنه بعض الثقات أنه قال لهم ذات يوم : هل تعرفون الحكمة التي استفدناها في الذباب قالوا : لا .

قال : بلى إنها تأكل البعوض وتصيده وتلقطه وتغنيه : وذلك أنني كنت أريد القائلة فأمرت بإخراج الذباب وطرح الستر وإغلاق الباب قبل ذلك بساعة فإذا خرجن حصل في البيت البعوض في سلطان البعوض وموضع قوته فكنت أدخل إلى القائلة فيأكلني البعوض أكلاً شديداً فأتيت ذات يوم المنزل في وقت القائلة فإذا ذلك البيت مفتوح والستر مرفوع وقد كان الغلمان أغفلوا ذلك في يومهم فلما اضطجعت للقائلة لم أجد من البعوض شيئاً وقد كان غضبي اشتد على الغلمان فنمت في عافية فما كان من الغد عادوا إلى إغلاق الباب وإخراج الذباب فدخلت ألتمس القائلة فإذا البعوض كثير ثم أغفلوا إغلاق الباب يوماً آخر فلما رأيته مفتوحاً شتمتهم فلما صرت إلى القائلة لم أجد بعوضة واحدة فقلت في نفسي عند ذلك : أراني قد نمت في يومي الإغفال والتضييع وامتنع مني النوم في أيام التحفظ والاحتباس فلم لا أجرب ترك إغلاق الباب في يومي هذا فإن نمت

ثلاثة أيام لا ألقى من البعوض أذى مع فتح الباب علمت أن الصواب في الجمع بين الذبان وبين البعوض فإن الذبان هي التي تغنيه وأن صلاح أمرنا في تقريب ما كُنّا نباعد ففعلت ذلك فإذا الأمر قد تم فصرنا إذا أردنا إخراج الذبان أخرجناها بأيسر فهاتان خصلتان من مناقب الذبان .

طب القوابل والعجائز وكان محمد بن الجهم يقول : لا تنهاونوا بكثير مما ترون من علاج القوابل والعجائز فإن كثيراً من ذلك إنما وقع إليهن من قدماء الأطباء كالذبان يلقى في الإثمد ويسحق معه فيزيد ذلك في نور البصر ونفاذ النظر وفي تشديد مراكز شعر الأشفار في حافات الجفون

نفع دوام النظر إلى الحضرة وقلت له مرة : قيل لما سرجويه : ما بال الأكرة وسكان البساتين مع أكلهم الكراث والتمر وشروبهم ماء السواقي على المالح أقل الناس خفشاً وعمياناً وعمشاً وعوراً قال : إني فكرت في ذلك فلم أجد له علة إلا طول وقوع أبصارهم على الحضرة .
من لا يتقزز من الذبان والزناير والدود)

قال ابن الجهم : ومن أهل السفالة ناس يأكلون الذبان وهم لا يرمدون وليس لذلك أكلوه وإنما هم كأهل خراسان الذي يأكلون فراخ الزناير والزناير ذبان وأصحاب الجبن الرطب يأخذون الجبنة التي قد نعلت

دوداً فينكتها أحدهم حتى يخرج ما فيها من الدود في راحته ثم يقمحها كما يقمح السويق وكان الفرزدق يقول : ليت أنهم دفعوا إليّ

نصبي من الذبان ضربة واحدة دعوتان طريفتان لأحد القصاص وقال ثمامة : تساقط الذبان في مرق بعض القصاص وعلى وجهه فقال : كثّر الله بكن القبور وحكى ثمامة عن هذا القصص أنه سمعه بعبّادان يقول في قصصه : اللهم من علينا بالشهادة وعلى جميع المسلمين . (قصة في عمر الذباب) وقال لي المكي مرة : إنما عمر الذبان أربعون يوماً قلت : هكذا جاء في الأثر وكنا يومئذ بواسط في أيام العسكر وليس بعد أرض

الهند أكثر ذباباً من واسط ولربما رأيت الحائط وكانّ عليه مسحاً شديد السواد من كثرة ما عليه من الذبان فقلت للمكي : أحسب الذبان يموت في كل أربعين يوماً وإن شئت ففي أكثر وإن شئت ففي أقل ونحن كما ترى ندوسها بأرجلنا ونحن ها هنا مقيمون من أكثر من أربعين يوماً بل منذ أشهر وأشهر وما رأينا ذباباً واحداً ميتاً فلو كان الأمر على ذلك لرأينا الموتى كما رأينا الأحياء قال : إن الذبابة إذا أرادت أن تموت ذهبت إلى بعض الخربات قلت : فإننا قد دخلنا كل خربة في الدنيا ما رأينا فيها قط ذباباً ميتاً . للمكي وكان المكي طيباً طيب الحجاج ظريف الحيل عجيب العلل وكان يدعي كل شيء على غاية الإحكام ولم يحكم شيئاً قط لا من

الجليل ولا من الدقيق وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه وأخبرك عن بعض علله لتلهي بها ساعة ثم نعود إلى بقية ذكر الذبان .

نوار للمكي ادعى هذا المكي البصر بالبراذين ونظر إلى برذون واقف قد ألقى صاحبه في فيه اللجام فرأى فأس اللجام وأين بلغ منه فقال لي : العجب كيف لا يذرعه القيء وأنا لو أدخلت إصبعي الصغرى في حلقي لما بقي في جوفي شيء إلا أخرج قلت : الآن علمت أنك تبصر ثم مكث البرذون ساعة يلوك لجامه فأقبل عليّ فقال لي : كيف لا يبرد أسنانه قلت : إنما يكون علم هذا) عند البصراء مثلك ثم رأى البرذون كلما لآك اللجام والحديدة سال لعابه على الأرض فأقبل عليّ وقال : لولا أن البرذون أفسد الخلق عقلاً لكان ذهنه قد صفا قلت له : قد كنت أشك في بصرك بالدواب فأما بعد هذا فلست أشك فيه .

وقلت له مرة ونحن في طريق بغداد : ما بال الفرسخ في هذه الطريق يكون فرسخين والفرسخ يكون أقل من مقدار نصف فرسخ ففكر طويلاً ثم قال : كان كسرى يقطع للناس الفراسخ فإذا صانع صاحب القطيعة زادوه وإذا لم يصانع نقصوه .

وقلت له مرة : علمت أن الشاري حدثني أن المخلوع بعث إلى المأمون بجواب فيه سمسم كأنه يخبر أن عنده من الجند بعدد ذلك الحب وأن المأمون بعث إليه بديل أعور يريد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم

كما يلقط الذئك الحبَّ قال : فإنَّ هذا الحديث أنا ولَّدته ولكن انظر كيفَ سار في الآفق وأحاديثه وأعاجيبه كثيرة .

(معارف في الذَّباب) ثمَّ رجع بنا القول إلى صلة كلامنا في الإخبار عن الذَّبان .
فأمَّا سكَّان بلاد الهند فإنَّهم لا يطبخون قدراً ولا يعملون حلوى ولا يكادون يأكلون إلَّا ليلاً لما يتهافت من الذَّبان في طعامهم وهذا يدلُّ على عَفَنِ التَّربة وَلَخَنِ الهواء .
وللذَّبان يعاسيبٌ وجُحَلانٌ ولكن ليس لها قائدٌ ولا أمير ولو كانت هذه الأصناف التي يحرسُ بعضها بعضاً وتتخذ رئيساً يدبرها ويحوطها إنما أخرج ذلك منها العقلُ دونَ الطَّبع وكالشيء يخصُّ به البعض دون الكلِّ لكان النُّرُ والتملُّ أحقُّ بذلك من الكراكي والغرائق والثَّيران ولكان الفيلُ أحقُّ به من البعير لأنه ليس للنُّر قائدٌ ولا حارس ولا يعسوبٌ يجمعها ويحميها بعض

وكلُّ قائدٍ فهو يعسوبٌ ذلك الجنسُ المَقُود وهذا الاسمُ مستعارٌ من فحل النَّحل وأمير العسَّالات وقال الشاعر وهو يعني الثَّور : (كما ضُربَ اليعسوبُ إذ عاف باقراً* وما ذئبه إذ عافتِ الماءَ باقراً) وكما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صلاح الزَّمان وفساده : فإذا كان ذلك ضُربَ يعسوبٌ الدِّين بذئبه .

(وعلى ذلك المعنى قال حين مرَّ بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد قتيلاً يوم الجمل : لهفي عليك يعسوبُ قريش جدعتْ أنفي وشفيتْ نفسي .
قالوا : وعلى هذا المعنى قيل : يعسوب الطُّفاوة .

أقلر الحيوان وزعم بعض الحكماء أنَّه لا ينبغي أن يكون في الأرض شيءٌ من الأشياء أنتن من العذرة فكذلك لا شيء أقدر من الذَّبان والقمل وأمَّا العذرة فلولا أنَّها كذلك لكان الإنسان مع طول رؤيته لها وكثرة شمِّها من نفسه في كلِّ يوم صباحاً ومساءً لقد كان ينبغي أن يكون قد ذهبَ تقدُّره له على الأيام أو تمحَّق أو دخله النَّقص فنبأها ستين عاماً وأكثرَ وأقلَّ على مقدار واحد من النتن في أنفِ الرَّجل ومنهم من وجدناه بعد مائة عام كذلك وقد رأينا المِران والعادات وصنيعها في الطَّباع وكيف تهوُّن الشَّديد وتقلِّل الكثير فلولا أنَّنا فوق كلِّ شيءٍ من النتن لَمَا ثَبَّتَ هذا الثَّباتَ ولعرض لها ما يعرض لسائر النتن وبعد فلو كان إنمَّا يشمُّ شيئاً خرجَ من جوفٍ غيره ولم

يخرجَ من جوفٍ نفسه لكان ذلك أشبهَ فإذا قد ثبت في أنفه على هذا المقدار وهو منه دون غيره وحتى صار يجده أنتن من رَجيع جميع الأجناس فليس ذلك إلَّا لما قد خُصَّ به من المكروه .

وكذلك القول في القمل الذي إنمَّا يُخلق من عرق الإنسان ومن رائحته ووسخ جلدِه وبخار بدنه وكذلك الذَّبان المخالطة لهم في جميع الحالات والملازمة لهم دون جميع الهوامِّ والهمج والطَّير والبهايم والسِّباع حتَّى

تكون ألزم من كل ملازم وأقرب من كل قريب حتى ما يمتنع عليه شيء من بدن الإنسان ولا من ثوبه ولا من طعامه ولا من شرابه حتى لزمه لزوماً لم يلزمه شيء قط كلزومه حتى إنه يسافر السفر البعيد من مواضع الخصب فيقطع البراري والقفار التي ليس فيها ولا بقرها نبات ولا ماء ولا حيوان ثم مع ذلك يتوختى عند الحاجة إلى الغائط في تلك البرية أن يفارق أصحابه فيتباعد في الأرض وفي صحراء خللاء فإذا تبرز فمضى وقع بصره على برازه رأى الذبان ساقطاً عليه فقبل ذلك ما كان يراه فإن كان الذباب شيئاً يتخلق له في تلك الساعة فهذه أعجب مما رآه ومما أردنا وأكثر مما قلنا وإن كان قد كان ساقطاً على الصخور الملس والباق الجرد في اليوم القاطن وفي الهاجرة

التي تشوي كل شيء وينتظر مجيئه فهذا أعجب مما قلنا وإن كانت قد تبعته من الأمصار إما طائراً معه وإما (

ساقطةً عليه فلما تبرز انقلبت عنه إلى برازه فهذا تحقيق لقولنا إنه لا يلزم الإنسان شيء لزوم الذباب لأن العصافير والخطاطيف والزراير والسنانير والكلاب وكل شيء يألف الناس فهو يقيم مع الناس فإذا مضى الإنسان في سفره فصار كالمستوحش وكالتازل بالقفار فكل شيء أهلي يألف الناس فإنما هو مقيم على مثل ما كان من إلفه لهم لا يتبعهم من دور الناس إلى منازل الوحش إلا الذبان .

قال : فإذا كان الإنسان يستقير الذبان في مرقة وفي طعامه هذا الاستقذار ويستقير القمل مع محله من القرابة والنسبة هذا الاستقذار فمعلوم أن ذلك لم يكن إلا لما خص به من القدر وإلا فبدون هذه القرابة وهذه الملازمة تطيب الأنفس عن كثير من الخبث .

إلحاق الذباب قال : وفي الذبان خير آخر : وذلك أنهم ربما تعودن الميت على خوص فسيلة وأقلاهما من فسانل الدور أو شجرة أو كلة أو

باب أو سقف بيت فيطردن إذا اجتمعن لوقتهن عند المساء ليلتين أو ثلاث ليال فيتفرقن أو يهجرن ذلك المكان في المستقبل وإن كان ذلك المكان قريباً وهو لمن معرض ثم لا يدعن أن يلتمسن مبيتاً غيره ولا يعرض لمن من اللجاج في مثل ذلك مثل الذي يعرض لمن من كثرة الرجوع إلى العينين والأنف بعد الذب والطرد وبعد الاجتهاد في ذلك .

أذى الذباب ونحوها وقال محمد بن حرب : ينبغي أن يكون الذبان سماً نافعاً لأن كل شيء يشتد أذاه باللمس من غيره فهو بالمداخلة والملابسة أجدر أن يؤدي وهذه الأفاعي والتعابين والجرارات قد تمس جلودها ناس فلا تضرهم إلا بأن تلبس إبرة العقرب وناب الأفعى اللثم ونحن قد نجد الرجل يدخل في خرق أنفه ذباب فيجول في أوله من غير أن يجاوز ما حاذى

روثة أنفه وأرنبته فيخرجه الإنسان من جوف أنفه بالتفخ وشلة النفس ولم يكن له هنالك بُت ولا كان منه عض وليس إلا ما مس بقوائمه وأطراف جناحيه فيقع في ذلك المكان من أنفه من الدغدغة والأكل والحكة ما لا يصنع الخردل وبصل الثرجس ولبن الثين فليس يكون ذلك منه إلا وفي طبعه من مضادة طباع الإنسان

ما لا يبلغه مضادة شيء وإن أفرط .

قال : وليس الشأن في أنه لم ينخس ولم يجرح ولم يخز ولم يعص ولم يغمز ولم يחדش وإنما هو

٤

الأصوات المكروهة

وقد نجد الإنسان يغمم بتقص الفتيلة وصوتها عند قرب انطفاء النار أو لبعض البلل يكون قد خالط الفتيلة ولا يكون الصوت بالشديد ولكن الاعتماد به والتكره له ويكون في مقدار ما يعتريه من أشد الأصوات ومن ذلك المكروه الذي يدخل على الإنسان من غطيظ التائم وليست تلك الكراهة لعللة الشدة والصلاية ولكن من قبل الصورة والمقدار وإن لم يكن من قبل الجنس وكذلك صوت احتكاك الآجر الجديد بعضه ببعض وكذلك شجر الآجام على الأجراف فإن القس تكرهه كما تكره صوت الصاعقة ولو كان على ثقة من السلامة من الاحتراق لما احتفل بالصاعقة ذلك الاحتفال ولعل ذلك الصوت وحده ألا يقتله . فأما الذي نشاهد اليوم الأمر عليه فإنه متى قرب منه قتله ولعل ذلك إنما هو لأن الشيء إذا اشتد صدومه فسح القوة

أو لعل الهواء الذي فيه الإنسان واخيط به أن يحمى ويستحيل نارا للذي قد شارك ذلك الصوت من النار وهم لم يجدوا الصوت شديدا جدا إلا ما خالط منه النار . ما يقتات بالذباب وقال ابن حرب : الذبان قوت خلق كثير من خلق الله عز وجل وهو قوت الفرائج والخفافيش والعنكبوت والخلد وضروب كثيرة من الهمج همج الطير وحشرات السباع فأما الطير والسودانيات والحصانيات والشاهمركات وغير ذلك من أصناف الطير وأما الضباع فإنها تأكل الجيف وتدع في أفواهها فضولا وتفتح أفواهها

للذبان فإذا احتشت ضمت عليها فهذه إنما تصيد الذبان بنوع واحد وهو الاختطاف والاختلاس وإعجالها عن الوثوب إذا تلقطته بأطراف المناقير أو كبعض ما ذكرنا من إطباق الفم عليها . فأما الصيد الذي ليس للكلب ولا لعناق الأرض ولا للفهد ولا لشيء من ذوات الأربع مثله في الحذق والحل والمداورة وفي صواب الوثبة وفي التسليد وسرعة الخطف فليس مثل الذي يقال له الليث وهو الصنف المعروف من العناكب بصيد الذبان فإنك تجده إذا عاين الذبان ساقطاً كيف يلطأ بالأرض وكيف يسكن جميع جوارحه للوثبة وكيف يؤخر ذلك إلى وقت الغرة وكيف يريها أنه عنها لاه فإنك ترى من ذلك شيئا لم تر مثله من فهد قط وإن كان الفهد موصوفاً منعوتاً .

واعلم أنه قد ينبغي ألا يكون في الأرض شيء أصيد منه لأنه لا يطير ولا يصيد إلا ما يطير وبصيد طائراً

شديد الحذر ثم يصيد صياداً لأن الذباب يصيد البعوض وخديعتك للخداع وزعم الجرداني أن الوزغ تختل الذبان وتصيدها صيداً حسناً شبيهاً بصيد الليث .

قال : والزنبور حريص على صيد الذبان ولكنه لا يطمع فيها إلا أن تكون ساقطة على خرء دون كل تمر وعسل لشدة عجبها بالخرء وتشاغلها به فعند ذلك يطمع فيه الزنبور ويصيده وزعم الجرداني وتابعه كيسان : أن الفهد إنما أخذ ذلك عن الليث ومتى رآه الفهد يصيد الذبان حتى تعلم منه فظنت أنهما قلدا في ذلك بعض من إذا مدح شيئاً أسرف فيه .

٤

تقليد الحيوان للحيوان وتعلمه منه

ويزعمون أن السبع الصيود إذا كان مع سبع هو أصيد منه تعلم منه وأخذ عنه وهذا لم أحقه فأما الذي لا أشك فيه فأن الطائر الحسن الصوت الملحن إذا كان مع نوائح الطير ومغنياتها فكان بقرب الطائر من شكله وهو أحقق منه وأكرز وأمهر جاوبه وحكاه وتعلم منه أو صنع شيئاً يقوم مقام التعلم . (٤

تعليم البراذين والطير

والبرذون يراض فيعرف ما يراد منه فيعين على نفسه وربما استأجروا للطير رجلاً يعلمها فأما الذي رأيته أنا في البابل فقد رأيت رجلاً يدعى لها فيطارحها من شكل أصواتها . وفي الطير ما يخترع الأصوات واللحن التي لم يسمع بمثلها قط من المؤلف للحن من الناس فإنه ربما أنشأ لحناً لم يمر على أسماع المغنين قط .

وأكثر ما يجدون ذلك من الطير في القماري وفي السودانيات ثم في الكرارزة وهي تأكل الذبان أكلاً ذريعاً . ٤ (اللجوج من الحيوان) ويقال إن اللجاح في ثلاثة أجناس من بين جميع الحيوان : الخنفساء والذباب والدودة الحمراء فإنها في إبان ذلك تروم الصعود إلى السقف وتمر على الحائط الأملس شيئاً قليلاً فتسقط وتعود ثم لا تزال تزداد شيئاً ثم تسقط إلى أن تمضي إلى باطن السقف فرما سقطت ولم يبق عليها إلا مقدار إصبع ثم تعود .

والخنفساء تقبل قبل الإنسان فيدفعها فتبعد بقدر تلك الطردة والدفعة ثم تعود أيضاً فيصنع بها أشد من تلك ثم تعود حتى ربما كان ذلك سبباً لغضبه ويكون غضبه سبباً لقتلها . ٤

لجج الخنفساء واعتقاد المفاليس فيها

وما زالوا كذلك وما زالت كذلك حتى سقط إلى المفاليس أن الخنافس تجلب الرزق وأن دنوها دليل على رزق حاضر : من صلة أو جائزة أو ربح أو هدية أو حظ فصارت الخنافس إن دخلت في قمصهم ثم نفذت إلى سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً وأكثر ما عندهم اليوم الدفْع لها ببعض الرق وبطن بعضهم أنه إذا دافعها فعادت ثم دافعها فعادت أن ذلك كلما كان أكثر كان حظه من المال الذي يؤمّله عند مجيئها أجزل .

فانظر آية واقية وآية حافظة وأي حارس وأي حصن أنشأها لها هذا القول وأي حظ كان لها حين صدّقوا بهذا الخبر هذا التصديق والطمع هو الذي أثار هذا الأمر من مدافنه والفقر هو الذي اجتذب هذا الطمع واجتلبه ولكن الويل لها إن ألحت على غني عالم وخاصة إن كان مع جدته وعلمه حديداً عجولاً .

اعتقاد العامة في أمير الذبّان وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير الشديد الطين الملح في ذلك الجهير الصوت الذي تسميه الهوام : أمير الذبّان فكانوا يحتالون في صرفه وطرده وقتله إذا أكرههم بكثرة طينيه وزجّله وهماهمه فإنه لا يفتر فلما سقط إليهم أنه مبشّر بقدوم غائب وبُوء سقيم صاروا إذا دخل المنزل وأوسعهم شراً لم يهجه أحد منهم .

وإذا أراد الله عز وجل أن ينسي في أجل شيء من الحيوان هيئاً لذلك سبباً كما أنه إذا أراد ثم رجع بنا القول إلى إلحاح الذبّان .

عبد الله بن سوار وإلحاح الذباب كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار لم ير الناس حاكماً قط ولا زميناً ولا ركيناً ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ فلا يزال منتصباً ولا يتحرك له عضو ولا يلنفت ولا يحل حبوته ولا يحول رجلاً عن رجل ولا يعتمد على أحد شقيقه حتى كأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ثم يرجع لجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ثم رُما عاد إلى محله بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ثم يصلي العشاء الأخيرة وينصرف فالحق يقال : لم يُقم

في طول تلك المدّة والولاية مرّة واحدة إلى الوضوء ولا احتاج إليه ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها وفي صيفها وفي شتائها وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يُشير برأسه وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة فيينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواله وفي السّماطين بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ثم تحول إلى مؤق عينه فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضن وجهه أو يذب بإصبعه فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرّقه وقصد إلى

مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض فدعاه ذلك إلى أن وإلى بين الإطباق والفتح فتسحى ريشما سكن جفنه ثم عاد إلى مؤقّه بأشدّ من مرّته الأولى فغمس خرطومهُ في مكان كان قد أوهاهُ)

قبل ذلك فكان احتماله له

أضعف وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى فحرك أجفانه وزاد في شلّة الحركة وفي فتح العين وفي تتابع الفتح والإطباق فتسحى عنه بقدر ما سكّنت حركته ثم عاد إلى موضعه فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده فلم يجد بداً من أن يذب عن عينيه بيده ففعل وعيون القوم إليه ترمقه وكأثم لا يروّنه فتسحى عنه بقدر ما ردّ يده وسكّنت حركته ثم عاد إلى موضعه ثم ألجأه إلى أن يذب عن وجهه بطرف كفه ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك وعلم أن فعله كله بعين من حصره من أمثاله وجلساته فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألح من الخنفساء وأزهى من الغراب وأستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً وقد علمت أنّي عند الناس من أزمّت الناس فقد غلّني وفضحني أضعف خلقه ثم تلا قوله تعالى : وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا

وكان بين اللسان قليل فضول الكلام وكان مهيباً في أصحابه وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ولا في تعريض أصحابه للمثالة .

قصة في إلحاح الذباب فأما الذي أصابني أنا من الذبان فإني خرجت أمشي في المبارك أريد دير الربيع ولم أقدر على دابة فمررت في عشب أشب ونبات ملتف كثير الذبان فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفي فطردته فتحوّل إلى عيني فطرده فعاد إلى موق عيني فردت في تحريك يدي فتسحى عني بقدر شدة حركتي وذبي عن عيني ولذبان الكلا والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ثم عاد إلي فعدت عليه ثم عاد إلي فعدت بأشدّ من ذلك فلما عاد استعملت كمي فذبت به عن وجهي ثم عاد وأنا في ذلك أحت السير أوّمل بسرعتي انقطاعه عني فلما عاد نرعت طيلسانني من عنقي فذبت به عني بدّل كمي فلما

عاود ولم أجد له حيلة استعملت العدو فعدوت منه شوطاً تاماً لم أتكلّف مثله مذ كنت صبيّاً فللقائي الأندلسي فقال لي : ما لك يا أبا عثمان هل من حادثة قلت : نعم أكبر الحوادث أريد أن أخرج من موضع للذبان عليّ فيه سلطان فضحك حتى جلس وانقطع عني وما صدقت باقطاعه عني حتى تباعد جداً . ذبان العساكر وزعم بعض الناس أنّهم يتبعن العساكر ويسقطن على المتاع وعلى جلال الدواب وأعجاز البراذين التي عليها أسباجها حتى تؤدّي إلى المنزل الآخر . وقال المكّي : يتبعونا ليؤذونا ثم لا يركبون إلّا أعناقنا ودوابنا .

تخلق الذباب ويقول بعضهم : بل إنما يتخلق من تلك العنونات والأبجرة والأنفاس فإذا ذهبت فبيت مع

ذهابها ويزعمون أنهم يعرفون ذلك بكثرتها في الجنايب وبقلتها في الشمائل .
قالوا : وربما سدّدنا فَمَ الآنية التي فيها الشَّرَابُ بالصَّمامَةِ فإذا نزعناها وجدنا هناك ذباباً صغيراً .
وقال ذو الرِّمَّة : (وأيقنَ أنَّ القنec صارت نطافه *فَرَأَشا وَأَنَّ البَقْلَ ذَاوٍ وبأسُ) القنec : الموضع الذي
يجتمع فيه نقران الماء والفراش : الماء الرقيق الذي يبقى في أسفل الحياض .
وأخبرني رجلٌ من ثقيف من أصحاب التَّيِّدِ أنهم رُبَّما فلقوا السَّفرجلة أيامَ السَّفرجل للنَّقل والأكل وليس
هناك من صغار الذِّبَّان شيء البتَّة

ولا يُعَدُّهم أن يروا على مقاطع السَّفرجل ذباباً صغيراً وربما رصدوها وتأمَّلوها فيجدونها تعظم حتَّى
تلحق بالكبار في السَّاعة
حياة الذِّباب بعد موته قال : وفي الذِّباب طبع الجعلان فهو طبعٌ غريب عجيب ولولا أنَّ العيان قَهَرَ
أهلَهُ لكانوا خلقاءً أن يدفعوا الخبرَ عنه فَإِنَّ الجُعَلَ إذا ذُفِنَ في الوردِ مات في العين وفيت حرَّكاته كلُّها
وعاد جامداً تارزاً ولم يفصل الناظرُ إليه بينه وبين الجُعَلَ المَيِّت ما أقام على تأمله فإذا أعيد إلى الروث عادت
إليه حركة الحياة من ساعته .

وجرَّبْتُ أنا مثلاً ذلك في الخنفساء فوجدتُ الأمر فيها قريباً من صِفَةِ الجُعَلَ ولم يبلغ كلَّ ذلك إلاَّ لقرابة ما
بين الخنفساء والجُعَلَ .

ودخلت يوماً على ابن أبي كريمة وإذا هو قد أخرجَ إِبْجَانَةً كان فيها ماءٌ من غسالةِ أوساخ الثياب وإذا ذِبَّان
كثيرةٌ قد تساقطنَ فيه من اللَّيْلِ فَمَوْتُن هكذا كُنَّ في رأي العين فَعَبَّرَنَ كذلك

عَشِيَّتَهُنَّ وليلتهنَّ والعَدَّ إلى انتصاف النهار حتَّى انتفخنَ وعَفِنَ واسترخين وإذا ابن أبي كريمة قد أعدَّ آجِرَةً
جديدة وفُتاتَ آجِرٍ جديد وإذا هو يأخذ الخمسَ منهنَّ والستَ ثمَّ يضعهنَّ على ظهر الآجِرَةِ الجديدة ويلتزمُ
عليهنَّ من دقاق ذلك الآجِرِ الجديد المدقوق بقدر ما يغمرها فلا تلبث أن يراها قد تحرَّكت ثمَّ مشت ثمَّ
طارَت إلاَّ أنَّه طيرانٌ ضعيفٌ .

ابن أبي كريمة وعود الحياة إلى غلامه وكان ابنُ أبي كريمة يقول : لا والله لا دفنتَ ميتاً أبداً حتَّى يَنْتِنَ قلت
: وكيف ذاك قال : إنَّ غلامي هذا نُصِيراً ماتَ فَأَحْرَتُ دَفَنه لِبَعْضِ الأمر فقَدِم أخوه تلك اللَّيْلَةَ فقال : ما
أظنُّ أخي ماتَ ثمَّ أخذ فيلتيين ضخمتين فروَّاهما دهنًا ثمَّ أشعل فيها النَّارَ ثمَّ أطفأهما وقربهما إلى منخريه فلم
يلبث أن تحرَّكَ وها هو ذا قد تراه قلت له : إن أصحاب الحروب والذين يغسلون الموتى والأطباء عندهم في
هذا دَلالاتٌ وعلامات فلا تحمل على نفسك في واحدٍ من أولئك ألاَّ تسترهُ بالدفن حتَّى يجيف .

واخوس يقرَّبون المَيِّت من أنف الكلب ويستدلون بذلك على أمره فعلمت أن الذي عايناه من الذِّبَّان قد
زادَ في عزِّمه .

النُّعْر والنُّعْر : ضربٌ من الذِّبَّان والواحدة نُعْرَة وربما دخلت في أنف البعير أو السَّبع فيزُمُ بأنفه للذي يلقي

من المكروه بسببه فالعرب تشبه ذا الكبر من الرجال إذا صغر خده وزم أنفه بذلك البعير في تلك الحال فيقال عند ذلك : فلان في أنفه نكرة وفي أنفه خنزروانة وقال عمر : والله لا أقلع عنه أو أطير نعرته . ومنها القمعة وهو ضرب من ذبان الكلاء وقال أوس : وذلك مما يكون في الصيف وفي الحر .

أذى الذبان للدواب والذبان جند من جند الله شديد الأذى وربما كان أضرب من الدبر في بعض الزمان وربما أتت على القافلة بما فيها وذلك أنها تغشى الدواب حتى تضرب بأنفسها الأرض وهي في المفاوز وتسقط فيهلك أهل القافلة لأنهم لا يخرجون من تلك المفاوز على دوابهم وكذلك تضرب الرعاء يبلهم والجمالون بجمالمهم عن تلك الناحية ولا يسألونها صاحب دابة ويقول بعضهم لبعض : بادروا قبل حركة الذبان وقبل أن تتحرك ذبان الرياض والكلاء .

والزناير لا تكاد تدمي إذا لسعت بأذناها والذبان تغمس خراطيمها في جوف لحوم الدواب وتحرق الجلود الغلاظ حتى تنزف الدم نزفاً ولها مع شدة الوقع سموماً وكذلك البعوضة ذات سم ولو زيد في بدن البعوضة وزيد في حرقة لسعها إلى أن يصير بدنها كبذن الجرارة فإنها أصغر العقارب لما قام له شيء ولكن أعظم بليّة من الجرارة

النصيبية أضعافاً كثيرة وربما رأيت الحمار وكأنه ممعر أو معصفر وإنهم مع ذلك ليجللون حمرهم ويبرقونها وما يدعون موضعاً إلا ستروه بجهدهم وربما رأيت الحمير وعليها الرجال فيما بين عبّسي والندار بأيديهم المناخس والمذاب وقد ضربت بأنفسها الأرض واستسلمت للموت وربما رأيت صاحب وليس جلد البقرة والحمار والبعير عنده خطر ولقد رأيت ذباباً سقط على سالفة حمار كان تحتي فضرب بأذنيه وحرّك رأسه بكل

جهده وأنا أتأمله وما يقلع عنه فعمدت بالسوط لأخيه به فترا عنه ورأيت مع نزوه عنه الدم وقد انفجر كأنه كان يشرب الدم وقد سدّ المخرج بفيه فلما نحاه طلع . ونيم الذباب وترعم العامة أن الذبان يخرأ على ما شاء قالوا : لأننا نراه يخرأ على الشيء الأسود أبيض وعلى الأبيض أسود .

ويقال قد ونم الذباب في معنى خرى الإنسان وعمر الطائر وصام النعام وذرق الحمام قال الشاعر : (وقد ونم الذباب عليه حتى ** كأن ونيمه نقط المداد) وليس طول كؤم البعير إذا ركب الناقة والخنزير إذا ركب الخنزيرة بأطول ساعة من لبث ذكورة الذبان على ظهور الإناث عند السفاد .

تخلق الذباب والذباب من الخلق الذي يكون مرة من السفاد والولاد ومرة من تعفن الأجسام والفساد الحادث والبقلاء إذا عتق شيئاً في الأنبار استحال كله ذباباً فربما أغفلوه في تلك الأنبار فيعودون إلى الأنبار

وقد تطاير من الكوى والخروق فلا يجدون في الأنبار إلا القشور .
والذباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً ثم يعود ذباباً وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقبات في داخله شيء
كأنه مسحوق إذا كان الله قد خلق منه الذبان وصيره وما أكثر ما تجده فيه تآماً الخلق ولو تم جناحاه لقد
كان طار .

حديث شيخ عن تخلق الذباب وحدّثني بعض أصحابنا عن شيخ من أهل الحريّة قال : كنت أحبُّ الباقلاء
وأردت إمّا البصرة وإمّا بغداد ذهب عني حفظه فصرت في سفينة حملها باقلاء فقلت في نفسي : هذا والله
من الحظّ وسعادة الجدّ ومن التوفيق والتسديد ولقد أربع من وقّع له مثل هذا الذي قد وقع لي : أجلس في
هذه السفينة على هذا الباقلاء فأكل منه نياً ومطبوخاً ومقلّواً وأرضُ بعضه وأطحنه وأجعله مرقاً وإداماً وهو
يغذو غذاءً صالحاً ويُسمّن ويزيد في الباه فابتدأت فيما أمّلته ودفعنا السفينة فأنكرت كثرة الذبان فلما كان
الغد جاء منه ما لم أقدر معه على الأكل والشرب وذهبت القائلة وذهب الحديث وشغلت بالذّب على أنهنّ
لم يكن يبرحن بالذّب وكنّ

أكثر من أن أكون أقوى عليهنّ لأنّي كنت لا أطرّد مائة حتى يخلّفها مائة مكانها وهنّ في أول ما يخرجن من
الباقلاء كأنّهنّ زمانة فلما كان طيراهنّ أسوأ كان أسوأ لحالي (

فقلت للملاح : ويلك أي شيء معك حتى صار الذبان يتبعك قد والله أكلت وشربت قال : أو ليس
تعرف القصة قلت : لا والله قال : هي والله من هذه الباقلاء ولولا هذه البلية لجاءنا من الركب كما
يجيئون إلى جميع أصحاب الحمولات وما ظننته إلا ممن قد اغتفر هذا للين الكراء وحبّ التفرد بالسفينة
فسألته أن يقربني إلى بعض الفرض حتى أكثرى من هناك إلى حيث أريد فقال لي : أحبُّ أن أزوّدك منه قلت
: ما أحبُّ أن ألتقي أنا والباقلاء في طريق أبداً . من كره الباقلاء ولذلك كان أبو شمر لا يأكل الباقلاء
وكان أخذ ذلك عن معلّمه معمر أبي الأشعث وكذلك كان عبد الله بن مسلمة بن محارب والوكيعي ومعمّر
وأبو الحسن المدائني برهة من دهرهم .

وكان يقول : لولا أن الباقلاء عفن فاسد الطبع رديء يختر الدّم ويغلّظه ويورث السوداء وكلّ بلاء لما ولد
الذبان والذبان أقدر ما طار ومشى وكان يقول : كل شيء يبيت منكوساً فهو رديء للذهن كالباقلاء
والباذنجان .

وكان يزعم أن رجلاً هرب من غرمائه فدخّل في غابة باقلاء فتستّر عنهم بها فأراد بعضهم إخراجه
والدخول فيها لطلبه فقال : أحكمهم وأعلمهم كفاكم له بموضعه شراً .
وكان يقول : سمعت ناساً من أهل التجربة يخلفون بالله : إنّه ما أقام أحد أربعين يوماً في مبيت باقلاء وخرج
منه إلا وقد أسقمه سُقماً لا يرايل جسمه .

دُونَ الْقَطْعِ عَلَى غَيْبِ حَقَائِقِ الْعِلَالِ فَأَجْرَاهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ قَالَ قَوْلًا يَدْفَعُهُ الْعِيَانُ أَيْضًا مَعَ انْكَارِ الدِّينِ لَهُ .
وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرَبُ الشَّرَابَ وَلَيْسَ فِيهِمَا حَيَّةٌ وَلَا دَوْدَةٌ فَيُخْلَقُ مِنْهَا فِي جَوْفِهِ

ألوان من الحيات وأشكال من الديدان من غير ذكر ولا أنثى ولكن لابد لذلك الولاد واللقاح من أن يكون عن تناكح طباع وملاقة أشياء تشبه بطباعها الأرحام وأشياء تشبه في طبائعها ملقحات الأرحام . ٤

استطرد لغوي بشواهد من الشعر

وقد قال الشاعر : (فاستنكح الليل البهيم فألقحت ** عن هيجه واستنجت أحلاما) وقال الآخر : (وإذا الأمور تناكحت ** فالجود أكرمها نتاجا)

وقال ذو الرمة : (وإني لمدلاج إذا ما تناكحت ** مع الليل أحلام الهدان المتقل) (لبندر طفل في حصان الهوا ** مستزلق من رجم الشمس) وقال دكين الراجز أو أبو محمد الفقيسي : (وقد تعللت ذميل العنس ** بالسوط في ديمومة كالثرس) إذا عرج الليل بروج الشمس وقال أمية بن أبي الصلت : (والأرض نوحها الإله طروقة ** للماء حتى كل زئد مسفد)

(والأرض معقلنا وكانت أمنا ** فيها مقابرنا وفيها نولد) وذكر أمية الأرض فقال : (والطوط نزرعه فيها فنلبسه ** والصوف نجتره ما أردف الوبر) (هي القرار فما نبغي بها بدلا ** ما أرحم الأرض إلا أننا كُفر) (وطعنة الله في الأعداء نافذة ** تعيي الأطباء لا تنوى لها السبر) ثم رجع إليها فقال : (منها خلقتنا وكانت أمنا خلقت ** ونحن أبناؤها لو أننا شكر)

ما تستنكره العامة من القول وتقول العرب : الشمس أرحم بنا فإذا سمع السامع منهم أن جالينوس قال : عليكم بالبقلة الرحيمة السلق استشنعه السامع وإذا سمع قول العرب : الشمس أرحم بنا وقول أمية : ما أرحم الأرض إلا أننا كُفر لم يستشنعه وهما سواء . فإذا سمع أهل الكتاب يقولون : إن عيسى ابن مريم أخذ في يده اليمنى غرقة وفي اليسرى كسرة خبز ثم قال : هذا أبي للماء وهذه أمي لكسرة الخبز استشنعه فإذا سمع قول أمية : (والأرض نوحها الإله طروقة ** للماء حتى كل زئد مسفد) لم يستشنعه والأصل في ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم وأصحاب قهويل لأنهم حين عدّموا المعاني ولم يكن عندهم فيها طائل مألوا إلى تكلف ما هو أخضر وأيسر وأوجز كثيرا .

٤ (خطوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس)

ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منشور وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها ليديرها في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني كثير اللفظ . .

فصار حظ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم واتصلت بطبائعهم وجرت على ألسنتهم التناكح

والنتائج والمزاج والثور والظلمة والدفاع والمناع والساتر والغامر والمنحل والبطلان والوجدان والأثير
والصديق وعمود السبح وأشكالاً من هذا الكلام فصّار وإن كان غريباً

مرفوضاً مهجوراً عند أهل ملتنا ودعوتنا وكذلك هو عند عوامنا وجههورنا ولا يستعمله إلا الخواص والإلا
المتكلمون . ٤

اختيار الألفاظ وصوغ الكلام

وأنا أقول في هذا قولاً وأرجو أن يكون مرضياً ولم أقل أرجو لأني أعلم فيه خللاً ولكني أخذت بآداب
وجوه أهل دعوتي وملتي ولعني وجزيرتي وجبرتي وهم العرب وذلك أنه قيل لصُحار العبدِيّ : الرجل يقول
لصاحبه عند تذكره أياديّه وإحسانه : أما نحنُ فإننا نرجو أن نكونَ قد بلغنا من أداء ما يجبُ علينا مبلغاً
مُرضياً وهو يعلم أنه قد وفاه حقه الواجبَ وتفضل عليه بما لا يجب قال صُحار : كانوا يستحبون أن يدعوا
للقول متنفساً وأن يتركوا فيه فضلاً وأن يتجافوا عن حقّ إن أرادوه لم يُمنعوا منه .
فلذلك قلت أرجو فافهم فهمك الله تعالى .

فإن رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها والعادة فيها أن ألفظ
بالشيء العتيد الموجود وأدع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة .
وأرى أن ألفظ باللفظ المتكلمين ما دمت خائضاً في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام فإن ذلك أفهم لهم
عني وأخف لمؤنتهم علي .
ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها فلم تلتق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مُشاكلاً
بينها وبين تلك الصناعة .
وقبيح بالتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والتجار أو في مخاطبة
أهله وعبيده وأمنه أو في حديثه إذا تحدث أو خبره إذا أخبر .)

وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام
مقال ولكل صناعة شكل . ٤

خلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى

ثم رجع بنا القول إلى ما يحدث الله عز وجل من خلقه من غير ذكر ولا أنثى فقلنا : إنه لابد في ذلك من
تلاقي أمرين يقومان مقام الذكر والأنثى ومقام الأرض والمطر وقد تقرب الطباع من الطباع وإن لم تتحول

في جميع معانيها كالنطفة والدّم وكاللبن والدّم .

وقد قال صاحب المنطق : أقول بقول عام : لا بدّ لجميع الحيوان من دم أو من شيء يشاكل الدّم ونحن قد نجد الجيف يخلق منها الدّيدان وكذلك العذرة ولذلك الجوسي كلما تبرّز ذرّاً على بُرازه شيئاً من التراب لئلا يخلق منها

ديدان والجوسي لا يتغوّط في الآبار والبلاليع لأنّه بزعمه يُكرم بطن الأرض عن ذلك ويرغم أنّ الأرض أحد الأركان التي بُنيت العوالم الخمسة عليها بزعمهم : أبرسارس وأبرمارس وأبردس وكارس وحريرة أمنة وبعضهم يجعل العوالم ستة ويزيد أسرس ولذلك لا يدفون موتاهم ولا يحفرون لهم القبور ويضعونهم في التواويس وضعاً .

قالوا : ولو استطعنا أن نخرج تلك الجيف من ظهور الأرضين وأجواف الأحراز كما أخرجناها من بطون الأرضين لفعّلنا وهم يسمّون يوم القيامة روزرستهار كأنّه يوم تقوم الجيف فمن بُغضهم لأبدان الموتى سمّوها بأسمج أسمائهم .

قالوا : وعلى هذا المثال أعظمنا النار والماء وليس بأحقّ بالعظيم من الأرض .

وبعد فنحن ننزع الصّمامة من رؤوس الآنية التي يكون فيها بعض الشراب فنجد هنالك من الفراش ما لم يكن عن ذكر ولا أنثى وإنما ذلك لاستحالة بعض أجزاء الهواء وذلك الشراب إذا (وأبصرن أن القنّع صارت نطافه* فرأشاً وأنّ البقل ذاو ويابس) وكذلك كلّ ما تخلق من جُمّار النّحلة وفيها من ضروب الخلق والطير وأشباه الطير وأشباه نبات وردان والذي يسمّى بالفارسية فاذو وكالسوس والقوادح والأرصة وبنات وردان اللاتي يخلقن من الأجذاع والخشب والحشوش وقد نجد الأزج الذي يكبس فيه البيخ بخراسان كيف يستحيل كله ضفادع وما الضفدع بأدلّ على الله من الفراش .

وإنما يستحيل ذلك الثلج إذا انفتح فيه كقنر منخر الثور حتّى تدخله الرّيح التي هي اللاحقة كما قال الله عزّ وجلّ : (وأرسلنا الرّياح لواقح) فجعلها لاقحة ولم يجعلها ملقحة .)

ونجد وسط الدّهناء وهي أوسع من الدوّ ومن الصّمّان وعلى ظهر مسجد الجامع في غبّ المطر من الضفادع ما لا يُحصى عدده وليس أنّ ذلك كان عن ذكر وأنثى ولكنّ الله خلقها تلك الساعة من طبع تلك التّربة وذلك المطر وذلك الهواء المحيط بهما وتلك الرّيح المتحرّكة وإنّ زعموا أنّ تلك الضفادع كانت في

السّحاب فالذي أقروا به أعجب من الذي أنكروه وإنما تقيم الضفادع وتترى وتتوالد في منافع المياه في أرض تلاقي ماءً والسّحاب لا يوصف بهذه الصّفة قد نجد الماء يزيد في دجلة والفرات فتتزو البطون والحفائر التي تليها من الأرض فيخلق من ذلك الماء السمك الكثير ولم يكن في تلك الحفائر الحدث ولا في بحر تلك ولم نجد أهل القاطول يشكّون في أنّ الفأر تخلق من أرضهم وأنّهم ربّما أبصروا الفأرة من قبل أن يتم خلقها

فنسبوا بأجمعهم خلق الفأر إلى الذكر والأنثى وإلى بعض المياه والتُّربِ والأجواء والزمان كما قالوا في السمك والضَّفادع والعقارب .

٤

ضعف اطراد القياس والرأي في الأمور الطبيعية

فإن قلّ ذلك قاتس فقال : ليسَ بين الذَّبَّانِ وبنات وردان وبين الزَّنَابِيرِ فرق ولا بين الزَّنَابِيرِ والدَّبَرِ والخنافس فرق ولا بين الزَّرَازِيرِ والخفافيش ولا بين العصافير والزَّرَازِيرِ فرق فإذا فرغوا من خشاش الأرض صاروا إلى بغائها ثم إلى أحرارها ثم إلى الطواويس والتدارج والزمامج حتى يصعدوا إلى الناس قيل لهم : ليس ذلك كذلك وينبغي لكم بدّيّاً أن تعرفوا الطّبيعة والعادة والطّبيعة الغريبة من الطّبيعة العامّة والممكن من المُمتنع وأنَّ المُمكنَ على ضربين : فمنه الذي لا يزال يكون ومنه الذي لا يكاد يكون وما علة الكثرة والقلة وتعرفوا أنَّ الممتنع أيضاً على ضربين : فمنه ما يكون لعلّة موضوعة يجوز دفعها وما كان منه لعلّة لا يجوز دفعها وفصل ما بين العلة التي لا يجوز دفعها وهي على كل حال علة وبين الامتناع الذي لا علة له إلاّ عينُ الشيء وجنسُه .

وينبغي أن تعرفوا فرق ما بين المحال والممتنع وما يستحيل كونه من الله عزّ وجلّ وما يستحيل كونه من الخلق .

وإذا عرفتم الجواهر وحظوظها من القوى فعند ذلك فتعاطوا الإنكار والإقرار وإلّا فكونوا في سبيل المتعلم أو في سبيل من آثر الراحة ساعة على ما يورث كدّ التعلم من راحة الأبد قد يكون أن يجيء على جهة التوليد شيء يبعد في الوهم مَجِيئُه ويمتنع شيء هو أقرب في الوهم (من غيره لأنّ حقائق الأمور ومغيّبات الأشياء لا تُردُّ إلى ظاهر الرّأي وإنما يردُّ إلى الرّأي ما دخل في باب الحزم والإضاعة وما هو أصوب وأقرب إلى نيل الحاجة وليس عند الرّأي علمٌ بالتَّجَحُّ والإكداء كنعو محيى الزُّجَاج من الرَّمَلِ وامتناع الشَّبه والزُّنْبُق من أن يتحوّل في طبع الذهب والفضّة والزُّنْبُق أشبه بالفضّة المايعة من الرَّمَلِ بالزُّجَاج الفرعونيّ والشَّبه الدمشقيّ بالذهب الإبريز أشبه من الرَّمَلِ بفلق الزُّجَاج النقيّ الخالص الصافي .

ومن العجب أن الزُّجَاج وهو مولّد قد يجري مع الذهب في كثيرٍ مفاخر الذهب إذ كان لا يغيّر طبعه ماءً ولا أرض والفضّة التي ليست بمولدة إذا دفت زماناً غير طويلٍ استحالت أرضاً فأما الحديد فإنّه في ذلك سريع غير بطيء .

وقد زعم ناس أن الفرق الذي بينهما إنما هو أن كلّ شيء له في العالم أصلٌ وخميرة لم يكن كالشيء الذي

يكتسب ويحتلب ويلقّ ويلزّق وأنّ الذهب لا يخلو من أن يكون ركناً من الأركان قائماً منذ كان الهواء والماء والنار والأرض فإن كان كذلك فهو أبعد شيء من أن يولّد التّاسُ مثله وإن كان الذهب إنما حدث في عمق الأرض بأن يصادف من الأرض جوهرًا ومن الهواء الذي في خلالها جوهرًا ومن الماء الملائس لها جوهرًا ومن النار المحصورة فيها جوهرًا مع مقدار من طول مُرور الزمان ومقدار من مُقابلات البروج فإن كان الذهب إنما هو نتيجة هذه الجواهر على هذه الأسباب فواجب ألا يكون الذهب أبداً إلا كذلك .

فيقال لهؤلاء : أرايتم الفأرة التي خُلِقَتْ من صُلب جُرَذٍ ورحم فأرة وزعمتم أنّها فأرة على مقابلة من الأمور السّماوية والهوائية والأرضية وكانت نتيجة هذه الحُصَال مع استيفاء هذه الصّفات ألسنا قد وجدنا فأرة أخرى هيّ لها من أرحام الأرضيين ومن حَضانة الهواء ومن تلقيح الماء ومن مُقابلات السماويات والهوائيات فالزّمان أصارَ جميع ذلك سبباً لفأرة أخرى مثلها وكذلك كلُّ ما عددناه فمن أين يستحيل أن يخلط الإنسان بين مائيّة طبيعيّة ومائيّة جوهرٍ إمّا من طريق التّبعيد والتّقريب ومن طريق الطّنون والتّجريب أو من طريق أن يقع ذلك اتّفاقاً كما صنع النّاطف الساقط من يد الأجير في مُذاب الصّفَر حتى أعطاه ذلك اللّون وجلب ذلك النّفع ثم إنّ

الرّجالَ دبرته وزادَتْ ونقصَتْ حتى صارَ شَبهاً ذهبياً هذا مع التّوشاذر المولّد فلو قلتم : إنّ ذلك قائمٌ الجواز في العقل مطّرد في الرّأي غير مستحيل في التّطرّ ولكنّا وجدنا العالم بما فيه من التّاس منذ كانا فإنّ التّاس يلتمسون هذا وينتصبون له ويكلّفون به فلو كان (هذا الأمرُ يجيءُ من وجه الجمع والتّوليد والتركيب والتّجريب أو من وجه الاتّفاق لقد كان ينبغي أن يكون ذلك قد ظهر من أُلوفِ سنينٍ وأُلوفِ إذْ كان هذا المقدارُ أقلّ ما تُورّخُ به الأممُ ولكان هذا مقبولاً غيرَ مردودٍ وعلى أنّه لم يتبيّن لنا منه أنّه يستحيل أن يكون الذهبُ إلاّ من حيث وجد وليس قُربُ كونِ الشيء في الوهم بموجب لكوّنه ولا بعده في الوهم بموجب لامتناعه . ولو أنّ قائلًا قال : إنّ هذا الأمرَ إذْ قد يحتاج إلى أنْ تنهيّا له طباع الأرض وطباع الماء وطباع الهواء وطباع النار ومقادير حرّكات

الفلك ومقداراً من طول الزمان فمتى لم تجتمع هذه الحُصَال وتكمُل هذه الأمور لم يتمّ خلق الذهب وكذلك قد يستقيم أن يكون قد هيّاً لواحدٍ أن يجمع بين مائتي شكل من الجواهر فمزجها على مقادير وطبخها على مقادير وأغبها مقداراً من الزمان وقابلت مقداراً من حرّكات الأجرام السّماوية وصادفت العالم بما فيه على هيئة وكان بعضُ ما جرى على يده اتّفاقاً وبعضه قصداً فلما اجتمعت جاء منها ذهبٌ فوقَعَ ذلك في خمسة آلاف سنة مرّة ثمّ أراد صاحبه المعاودة فلم يقدرْ على أمثال مقادير طبائع تلك الجواهر ولم يضبط مقادير ما كان قصدَ إليه في تلك المرّة وأخطأ ما كان وقَعَ له اتّفاقاً ولم يقابل من الفلك مثل تلك الحرّكات ولا من العالم مثل تلك الهيئة فلم يُعدْ له ذلك .

فإن قال لنا هذا القول قائل وقال : بَيَّنوا لي موضع إحالته ولا تحتجُّوا بتباعد اجتماع الأمور به فإننا نقر لكم بتباعدها هل كان عندنا في ذلك قولٌ مقنع والدليل الذي تتلج به الصدور وهل عندنا في استطاعة النَّاس أن يولدوا مثل ذلك إلاَّ بأن يُعرَض هذا القول على العقول

السليمة والأفهام التامة وتردُّه إلى الرُّسل والكتب فإذا وجدنا هذه الأمور كلها نافية له كان ذلك عندنا هو المقنع وليس الشأن فيما يظهر اللسان من الشك فيه والتجوز له ولكن ليردَّه إلى العقل فإنه سيَّجده منكراً ونافياً له إذا كان العقل سليماً من آفة المرض ومن آفة التخبيل . ٤

ضروب التخبيل

والتخبيل ضروب : تخيلٌ من المرار وتخبيل من الشَّيطان وتخبيل آخر كالرجل يعمد إلى قلب رطب لم يتوقَّح وذهن لم يستمرَّ فيَحْمِلْهُ على الدقيق وهو بعدُ لا يفِي بالجليل ويتخطَّى المقدمات متسكعاً بلا أماراة فرجع حسيراً بلا يقين وغبر زماناً لا يعرف إلاَّ الشكوك

والخواطر الفاسدة التي متى لاقت القلب على هذه الهيئة كانت ثمرتها الحيرة والقلب الذي يفسد في يومٍ (قولهم : نبيذٌ يمنع جانبه ثم رجع بنا القول إلى ذكر الذَّبَّان . قيل لعلَّويه كلب المطبخ : أي شيء معنى قولهم : هذا نبيذٌ يمنع جانبه قال : يريدون أن الذَّبَّان لا يدنو منه وكان الرقاشي حاضراً فأنشد قول ابن عبدل : (عَشَّشَ الْعَنْكَبُوتَ فِي قَعْرِ دَنِّي * * * إِنَّ ذَا مِنْ رَزِيَّتِي لِعَظِيمٍ) (لَيْتَنِي قَدْ غَمَرْتُ دَنِي حَتَّى * * * أَبْصِرَ الْعَنْكَبُوتَ فِيهِ يَوْمٌ) (غَرَقَا لَا يُغِيثُهُ الدَّهْرُ إِلَّا * * * زَبَدٌ فَوْقَ رَأْسِهِ مَرَكُومٌ)

(مخرجاً كفه ينادي ذُبَاباً * * * أَنْ أَغْنِيَنِي فَإِنِّي مَعْمُومٌ) (قال : دَعْنِي فَلَنْ أُطِيقَ دُنُوءَا * * * مِنْ شَرَابٍ يَشْمُهُ الْمَرْكُومُ) قال : والذَّبَّان يضرب به المثل في القدر وفي استطابة النَّتْن فإذا عَجَزَ الذَّبَابُ عَنْ شَمِّ شَيْءٍ فَهُوَ الذي لا يكون أُنْتُ منه .

ولذلك حين رمى ابن عبدل محمَّد بن حَسَّان بن سَعْد بالبحر قال : (وما يدنو إلى فيه ذبابٌ * * * ولو طُلِيتْ مَشَافِرُهُ بَقْنَد) (يَرَيْنَ حَلَاوَةً وَيَخْفَنَ مَوْتاً * * * وَشَيْكَاً إِنْ هَمَمْنَ لَهُ بَوْرَد) ويقال لكلِّ أَبْخَر : أبو ذَّبَّان وكانت فيما زعموا كنية عبد الملك بن مروان وأنشدوا قول أبي خُرَابَةَ :

(أَمْسَى أَبُو ذَّبَّانَ مَخْلُوعَ الرَّسَنِ * * * خَلَعَ عِنَانٍ قَارِحٍ مِنَ الْحَصَنِ) وقد صَفَتْ بَيْعَتَنَا لابن حسن

شعر فيه هجاء بالذباب

قال رجل يهجو هلال بن عبد الملك الهنائي : (ألا مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي هِلَالاً ** مَوَدَّتَهُ وَخَلَّتَهُ بَقْلَسِ) (وأبرأ للذي يبتاع مِنِّي ** هِلَالاً مِنْ خِصَالٍ فِيهِ خُمْسٌ) (فمنهنَّ النِّغَانِغُ والمكاوي ** وآثَارُ الجروحِ وأَكْلُ ضُرْسِ) (ومن أَخَذَ الذُّبَابَ بِاصْبَعِيهِ ** وَإِنْ كَانَ الذُّبَابُ بِرَأْسِ جَعْسِ)

القول في آية قالوا : وضرب الله عز وجل لضغف النَّاسِ وعجزهم مثلاً فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . فقال بعضُ النَّاسِ : قَدْ سَوَّى بَيْنَ الذُّبَابِ وَالنَّاسِ فِي الْعِجْزِ : وقالوا : فَقَدْ يُولَدُ النَّاسُ مِنَ التَّعْفِينِ الْفَرَّاشِ وَغَيْرِ الْفَرَّاشِ وَهَذَا خَلْقٌ عَلَى قَوْلِهِ : وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ وَعَلَى قَوْلِهِ : أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ وَعَلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ : (وَأَرَاكَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعٌ ** ضِ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يُفْرِي) قيل لهم : إنما أراد الاختراع ولم يرد التقدير .

قول في شعر وأما قول ابن ميادة : (ألا لَا بُيَالِي أَنْ تُخْنِدَ خِنْدَفٌ ** وَلَسْنَا بُيَالِي أَنْ يَطْنَ ذُبَابُهَا) فإِذَا جَعَلَ الذُّبَابُ هَاهُنَا مَثَلاً وَقَدْ وَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ تَحْقِيرٍ لَهُ وَمَوْضِعٍ تَصْغِيرٍ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ : (بَنِي أَسَدٍ كَوْنُوا لِمَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ ** مَوَالِي ذَلَّتْ لِلْهَوَانِ رِقَابُهَا) (فلو حاربنا الجنُّ لم نرفع العصا ** عن الجنِّ حتَّى لَا تَهَرَّ كِلَابُهَا) وليس يريد تحقير الكلاب .
ويقال : هو ذباب العين وذباب السِّيفِ ويقال تلك أرضٌ مذبةٌ أي كثيرة الذُّبَابِ .

وقال أبو الشَّامِقِ فِي هِجَائِهِ لِبَعْضِ مَنْ ابْتَلَى بِهِ : (أَسْمَحَ النَّاسُ جَمِيعاً كُلَّهُمْ ** كَذُبَابٍ سَاقِطٍ فِي مَرَقَةٍ)
ويقال إنَّ اللَّبَنَ إِذَا ضُرِبَ بِالْكَنْدَسِ وَنَضَحَ بِهِ بَيْتٌ لَمْ يَدْخُلْهُ ذُبَابٌ .
أبو حَكِيمٍ وَثَامَةُ بْنُ أَشْرَسَ وَسَمِعَتْ أَبَا حَكِيمٍ الْكِيْمَانِيَّ وَهُوَ يَقُولُ لِثَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ : قُلْنَا لَكُمْ إِنَّا نَدْلُكُمْ عَلَى الْإِكْسِيرِ فَاسْتَقْلَمْتُمُ الْغُرْمَ وَأَرَدْتُمُ الْغَنَمَ بَلَا غَرَمٍ وَقُلْنَا لَكُمْ : دَعُونَا نَصْنَعُ هَذِهِ الْجُسُورَ صِنْعَةً لَا تَنْتَقِضُ أَبَداً فَأَبَيْتُمْ وَقُلْنَا لَكُمْ : مَا تَرْجُونَ مِنْ هَذِهِ الْمُسْتَنِيَّاتِ الَّتِي تَهْدِمُهَا الْمُدُودُ وَتَحَرِّبُهَا الْمَرَادِي نَحْنُ نَعْمَلُ لَكُمْ مُسْتَنِيَّاتٍ بِنِصْفِ هَذِهِ الْمُؤُونَةِ فَتَبْقَى لَكُمْ

أَبَداً ثُمَّ قَوْلُوا لِلْمُدُودِ أَنْ تَجْتَهِدَ جَهْدَهَا وَلِلْمَرَادِيَّ أَنْ تَبْلُغَ غَايَتَهَا فَأَبَيْتُمْ وَقَوْلُوا لِي : الذُّبَابُ مَا تَرْجُونَ مِنْهَا وَمَا تَشْتَهُونَ مِنَ الْبُعُوضِ وَمَا رَغِبْتُمْ فِي الْجُرْجَسِ لَمْ لَا تَدْعُونِي أَخْرِجْهَا مِنْ بَيْتِكُمْ بِالْمُؤُونَةِ الْيَسِيرَةِ وَهُوَ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ وَأَصْحَابُنَا يَضْحَكُونَ وَابْنُ سَافِرٍ جَالِسٌ يَسْمَعُ .
فلما نزلنا أخذ بيده ومضى به إلى منزله فغداه وكساه وسقه ثم قال له : أَحْبَبْتُ أَنْ تَخْرُجَ الْبُعُوضُ مِنْ دَارِي فَأَمَّا الذُّبَابُ فَإِنِّي أَحْتَمِلُهُ قَالَ : وَلَمْ تَحْمِلِ الْأَذَى وَقَدْ أَتَاكَ اللَّهُ بِالْفَرْجِ قَالَ : فَافْعَلْ قَالَ : لَا بَدَلِي مِنْ أَنْ أَخْلُطَ أَدْوِيَةً وَأَشْتَرِيَ أَدْوِيَةً قَالَ : فَكَمْ تَرِيدُ قَالَ : أُرِيدُ شَيْئاً يَسِيراً قَالَ : وَكَمْ ذَاكَ قَالَ : خَمْسُونَ دِينَاراً قَالَ : وَيَحْكُ خَمْسُونَ يَقَالُ لَهَا يَسِيرُ قَالَ :

أنت ليس تشتهي الراحة من قنر الذبان ولسع البعوض ثم لبس نعليه وقام على رجليه فقال له : اقعد قال : إن قعدت قبل أن آخذها ثم اشتريت دواء بمائة دينار لم تنفع به فإني لست أدخن هذه الدخنة إلا للذين إذا أمرتهم بإخراجهم أخرجوهم ولا أكتمك ما أريد إني لست أقصد إلا إلى العمار فما هو إلا أن سمع بذكر العمار حتى ذهب عقله ودعا له بالكيس وذهب ليزن الدنانير فقال له : لا تشق على نفسك هاكها بلا وزن عدداً وإنما خاف أن تحدث حادثة أو يقع شغل فتفوت فعدّها وهو زمع فغلط بعشرة دنانير فلما انصرف وزنها وعدّها فوجد دنانيره تنقص فبكر عليه يقتضيه الفضل فضحك أبو حكيم حتى كاد يموت ثم قال :

تسألني عن الفرع وقد استهلك الأصل ولم يزل يختلف إليه ويدافعه حتى قال له ثامة : ويلك أجمنون أنت قد ذهب المال والسخرية مستورة فإن نافرته فصحت نفسك وربحت عداوة شيطان هو والله أضرت عليك من عمار بيتك الذي ليس يخرجون عنك الذباب والبعوض بلا كلفة مع حق الجوار قال : هم سكاني وجيران قالوا : لو كان سمع منك أبو حكيم هذه الكلمة لكانت الخمسون ديناراً مائة دينار (شعر في أصوات الذباب وغنائها) (وتسمع للذباب إذا تغنى ** كتغريد الحمام على الفصون) وقال آخر : (حو مساربه ** تغنى في غياطله ذبابه)

وقال أبو النجم : (أنف ترى ذبابها تعلله ** من زهر الروض الذي يكلله) وقال أيضاً : (والشيخ تهديه إلى طحمانه ** فالروض قد نور في عزائه) (مختلف الألوان في أسمائه ** نوراً تخال الشمس في حمائه) (مكللاً بالورد من صفرائه ** يجاب المكاء من مكائه) (صوت ذباب العشب في درمائه ** يدعو كأن العقب من دعائه) صوت مغن مد في غنائه وقال الشماخ : (يكلفها ألا تخفض صوفاً ** أهاريح ذبان على غود عوسج) (بعيد مدى التطريب أول صوته ** سحيل وأعلاه نشيح الحشرج)

المغنيات من الحيوان والأجناس التي توصف بالغناء أجناس الحمام والبعوض وأصنف الذبان من الدبر والتحل والشعراء والهمع والتعر وليس للذبان الكلب غناء ولا لما يخرج من الباقلاء قال الشاعر : (تذب عنها بأنيث ذائل ** ذبان شعراء وصيف ماذل) (ألوان الذبان) وذبان الشعراء حمر قال : والذبان التي تهلك الإبل زرق .

قال الشاعر : (تربعت والدهر ذو تصفق ** حالية بذي سيب موق) (إلا من أصوات الذباب الأزرق ** أو من نقاتق الفلا المنقنق)

والذبان الذي يسقط على الدواب صفر .

وقال أوطاة بن سُهَيْب لزميل بن أم دينار : (أزميل إني إن أكن لك جازياً ** أعكر عليك وإن ترخ لا تسبق) (إني امرؤ تجد الرجال عداوتي ** وجد الركاب من الذباب الأزرق) وإذا مر بك الشعر الذي يصلح للمثل وللحفظ فلا تنس حظك من حفظه . (فهذا أو أن العرض جن ذبابه ** زبابيره والأزرق المتلمس) وبه سمي المتلمس .

وقال ابن ميادة : (بَعْتَرَيْسٍ كَأَنَّ الدَّبَرَ يَلْسَعُهَا ** إذا تَغَرَّدَ حَادٍ خَلْفَهَا طَرَبٌ) (ما يسمَّى بالذَّبَّانِ)
والدَّلِيلُ على أَنَّ أَجْنَاسَ النَّحْلِ والدَّبَرَ كُلُّهَا ذِبَّانٌ ما حدث به عَبَادُ بنِ صُهَيْبٍ وإِسْمَاعِيلُ المَكِّيُّ عن الأَعْمَشِ
عن عَطِيَّةِ بنِ سَعِيدٍ العَوْفِيِّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كُلُّ ذُبَابٍ في النَّارِ إِلَّا النَّحْلَةُ .
وقال سليمان : سمعت مجاهداً يكره قتل النحل وإحراق العظام يعني في الغزو .
وحدثنا عَنبِيسَةُ قال : حدثنا حَنْظَلَةُ السَّدُوسِيُّ قال : أنبأنا أَنَسُ بنُ مالِكٍ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : عمر الذبابِ أربعين يوماً والذبابُ في النار .

بحث كلامي في عذاب الحيوان والأطفال وقد اختلف الناس في تأويل قوله : والذباب في النار وقال قوم :
الذباب خلقٌ خُلِقَ للنَّارِ كما خلق الله تعالى ناساً كثيراً للنَّارِ وخلق أطفالاً للنَّارِ فهو لاء قومٌ خلَعُوا عُذْرَهُمْ
فصار أحدهم إذا قال : ذلك عَذْلٌ من الله عزَّ وجلَّ فقد بلغ أقصى العذر ورأى أَنَّهُ إذا أضاف إليه عذاب
الأطفال فقد مجَّده ولو وجد سيلاً إلى أن يقول إنَّ ذلك ظُلمَ لقاله ولو وجد سيلاً إلى أن يزعم أن الله
تعالى يخبر عن شيء أَنَّهُ يكون وهو لا يكون ثم يقول إلاَّ أنَّ ذلك صدق لقاله إلاَّ أَنَّهُ يخاف السَّيفَ عند هذه
ولا يخاف السَّيفَ عند تلك وإن كانت تلك أعظم في الفرية من هذه .
وبعض يزعم أن الله عزَّ وجلَّ إنما عَذَّبَ أطفالَ المشركين ليغمَّ بهم آباءهم ثم قال المتعاقلون منهم : بل
عَذَّبَهُمْ لِأَنَّهُ هكَذَا شاء ولأنَّ هذا له فليت شعري أيمتسب بهذا القول في باب التمجيد لله تعالى لأنَّ

كل من فعل ما يقدر عليه فهو محمود وكل من لم يخف سوط أمير فأتى قبيحاً فالذي يحسن ذلك القبيح أن
صاحبه كان في موضع أمن أو لَأَنَّهُ آمِنٌ يمتنع من مطالبة السلطان فكيف وكون الكذب والظلم والعبث
واللهو والبخل كلُّه محالٌ مَن لا يحتاج إليه ولا تدعوه إليه الدواعي .
وزعم أبو إسحاق أَنَّ الطَّاعَاتِ إذا استوتَّ استوى أهلُها في الثَّوابِ وَأَنَّ المعاصي إذا استوتَّ استوى أهلُها
في العقاب وإذا لم يكن منهم طاعةٌ ولا معصية استوتَّوا في النفضل .
وزعم أَنَّ أطفالَ المشركين والمسلمين كلَّهم في الجنة وزعم أَنَّهُ ليس بين الأطفال ولا بين البهائم والمجانين
فرق ولا بين السَّباع في ذلك وبين البهائم فرق .)

وكان يقول : إنَّ هذه الأبدان السُّبُعِيَّةَ والبهيمية لا تدخل الجنة ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ ينقل تلك الأرواح
خالصةً من تلك الآفات فيركبها في أيِّ الصُّورِ أَحَبَّ .
وكان أبو كلثة ومَعْمَرٌ وأبو الهذيل وصحَّح يكرهون هذا الجواب ويقولون : سواءً عند خواصِّنا وعوامِّنا
أقلنا : إنَّ أرواحَ كلابنا تصير إلى الجنة أم قلنا : إنَّ كلابنا تدخل الجنة ومتى ما اتَّصل كلابنا بذكر الكلب
على أيِّ وجهٍ كان فكأنَّا عندهم قد زعمنا أَنَّ الجنةَ فيها كلابٌ ولكنا نرغم أن جميع ما خلق الله تعالى مِن

السَّباعِ والبَهائم والحشرات والهمج فهو قبيح المنظرة مؤلم أو حسن المنظرة مُلِدٌّ فما كان كالحيل والظباء والطواويس والتدارج فإن تلك في الجنة ويلدُّ أولياء الله عز وجل بمنظرها وما كان منها قبيحاً في الدنيا مؤلم النظر

جعل الله عذاباً إلى عذاب أعدائه في النار فإذا جاء في الأثر : أنَّ الذباب في النار وغير ذلك من الخلق فإنما يراد به هذا المعنى .

وذهب بعضهم إلى أنها تكون في النار وتلدُّ ذلك كما أنَّ خزنة جهنم والذين يتولون من الملائكة التعذيب يلدُّون موضعهم من النار .

وذهب بعضهم إلى أنَّ الله تعالى يطبعهم على استلذاذ النار والعيش فيها كما طبع ديدان الثلج والحل على العيش في أماكنها .

وذهب آخرون إلى أنَّ الله عز وجل يحدث لأبدانهم علَّة لا تصل النار إليها وتنعم قلوبهما وأبدانهما من وجه آخر كيف شاء وقالوا : وقد وجدنا النَّاسَ يحتالون لأنفسهم في الدنيا حيلة حتى يدخل أحدهم بعض الأتاتين بذلك الطلاء ولا تضره النار وهو في معظمها وموضع الجاحم منها ففضل ما بين قدرة الله وقدره عباده أكثر من فضل ما بين حرَّ نار الدنيا والآخرة .

وذهب بعضهم إلى أنَّ سيلها فيها كسيل نار إبراهيم فإنه لما قُذِفَ فيها بعث الله عز وجل ملكاً يقال له ملك الظل فكان يحدثه ويؤنسه فلم تصل النار إلى أذاه مع قربه من طباع ذلك الملك .
وكيفما دار الأمر في هذه الجوابات فإن أحسنها وأشنعها أحسن من قول من زعم أنَّ الله تعالى يُعَذِّبُ بنار جهنم من لم يسخطه ولا يعقل كيف يكون السخط ومن العجب أنَّ بعضهم يزعم أنَّ الله تعالى إنما عذبه ليغم أباه وإنما يفعل ذلك من لا يقدر على أن يوصل إلى هم ضعف الاغتمام وضعف الألم الذي ينالهم بسبب أبنائهم فأما من يقلر على إيصال ذلك المقدار إلى من) يستحقه فكيف يوصله ويصرفه إلى من لا يستحقه وكيف يصرفه عن أسخطه إلى من لم يسخطه هذا وقد سمعوا قول الله عز وجل : (يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِنَا بِنَيْهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ كَلَّا إِنَّهَا لَأُتَىٰ نَرَاةً لِلشَّوَى) وكيف يقول هذا القول من يتلو القرآن ثم رجع بنا القول إلى الذبان وأصناف الذبان .

جهل الذبان وما قيل فيها من الشعر

والذبان أجهل الخلق لأنها تغشى النار من ذات أنفسها حتى تحترق وقال الشاعر : (خَتَمَتِ الْفُؤَادَ عَلَى حُبِّهَا ** كَذَاكَ الصَّحِيفَةَ بِالْخَاتَمِ) (هوت بي إلى حبها نظرة * هوي الفراشة للجاحم) وقال آخر : (كَانَ

مَشَافِرَ النَّجْدَاتِ مِنْهَا ** إِذَا مَا مَسَّهَا قَمْعُ الذُّبَابِ (بِأَيْدِي مَا تَمَّ مَتَسَاعِدَاتِ ** نَعَالُ السَّبَبِ أَوْ عَذَبَ الثِّيَابِ) نَقَدَ بَيْتَ مِنَ الشَّعْرِ وَقَالَ بَعْضُ الشَّعْرَاءِ يَهْجُو حَارِثَةَ بْنَ بَدْرِ الْعُدَانِيَّ :

وَزَعَمَ نَاسٌ أَنَّهُ قَالَ : يُرْوِيهِ مَا يُرْوِي الذُّبَابَ فَيَنْتَشِي سُكْرًا وَتُشْبِعُهُ كُرَاعُ الْأَرْنَبِ قَالُوا : لَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ : يُرْوِيهِ مَا يُرْوِي الذُّبَابَ وَيُوَارِيهِ جَنَاحُ الْجَنْدَبِ ثُمَّ يَقُولُ : وَيَشْبِعُهُ كِرَاعُ الْأَرْنَبِ .
وَإِنَّمَا ذَكَرَ كُرَاعَ الْأَرْنَبِ لِأَنَّ يَدَ الْأَرْنَبِ قَصِيرَةٌ وَلِذَلِكَ تَسْرِعُ فِي الصُّعُودِ وَلَا يَلْحَقُهَا مِنَ الْكِلَابِ إِلَّا كُلُّ قَصِيرِ الْيَدِ وَذَلِكَ مَحْمُودٌ مِنَ الْكَلْبِ وَالْفَرَسِ تُوصَفُ بِقَصْرِ الذَّرَاعِ . (قِصَّةُ فِي الْهَرَبِ مِنَ الذُّبَابِ) وَحَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْعُلُوِّيُّ قَالَ : مَرَرْتُ بِخَالِي وَإِذَا هُوَ وَحْدَهُ يَضْحَكُ فَأَنْكَرْتُ ضَحْكَهُ لِأَنِّي رَأَيْتُهُ وَحْدَهُ وَأَنْكَرْتُهُ لِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا زَمِينًا رَكِينًا قَلِيلَ الضَّحِكِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : أَتَانِي فَلَانٌ

يَعْنِي شَيْخًا مَدِينِيًّا وَهُوَ مَذْعُورٌ فَقُلْتُ لَهُ : مَا وَرَاعَكَ فَقَالَ : أَنَا وَاللَّهِ هَارِبٌ مِنْ بَيْتِي قُلْتُ وَلَمْ قَالَ : فِي بَيْتِي ذُبَابٌ أَزْرَقٌ كَلِمًا دَخَلْتُ ثَارَ فِي وَجْهِهِ وَطَارَ حَوْلِي وَطَنَّ عِنْدَ أُذُنِي فَإِذَا وَجَدَ مِنِّي غَفْلَةً لَمْ يُخْطِئْ مَوْقَ عَيْنِي هَذَا وَاللَّهِ دَائِبُهُ وَدَائِي دَهْرًا مَعَهُ قُلْتُ لَهُ : إِنَّ شَبَهَ الذُّبَابِ بِالذُّبَابِ كَشَبَهِ الْغَرَابِ بِالْغَرَابِ فَلَعَلَّ الَّذِي آذَاكَ الْيَوْمَ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ الَّذِي آذَاكَ أَمْسٍ وَلَعَلَّ الَّذِي آذَاكَ أَمْسٍ غَيْرَ الَّذِي آذَاكَ أَوَّلَ مَنْ أَمْسَ فَقَالَ : أَعْتَقُ مَا أَمْلِكُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ بَعِينَهُ مِنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَضْحَكُنِي .

قِصَّةُ فِي سَفَادِ الذُّبَابِ

وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ يَحْيَى : قَدْ رَأَيْتُ الْخَنْزِيرَ يَرْكَبُ الْخَنْزِيرَةَ عَامَّةً نَهَارَهُ وَرَأَيْتُ الْجَمَلَ يَرْكَبُ النَّاقَةَ سَاعَةً مِنْ نَهَارِهِ وَكَتَبْتُ قَبْلَ ذَلِكَ أَغْبَطُ

الْعَصْفُورَ وَالْعَصَمَ فَإِنَّ الذَّكَرَ وَإِنْ كَانَ سَرِيعَ التَّنَزُّلِ عَنْ ظَهْرِ الْأُنْثَى فَإِنَّهُ لَسُرْعَةِ الْعُودَةِ وَلِكثَرَةِ الْعِدَدِ كَأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْخَنْزِيرِ وَالْجَمَلَ وَحَتَّى رَأَيْتُ الذُّبَابَ وَفُطِنْتُ لَهُ فَإِذَا هُوَ يَرْكَبُ الذُّبَابَةَ عَامَّةً نَهَارَهُ فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْبَكْرَاوِيِّ : لَيْسَ ذَلِكَ هُوَ السَّفَادُ قَالَ : أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَ الْعَيْنَانَ فَهَذَا حَكْمُهُ فَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ تَطِيبَ نَفْسُكَ بِإِنْكَارِ مَا تَعْرِفُ فَمَا قَسَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنَ خَلْقِهِ مِنْ فَضُولِ اللَّذَّةِ فَدُونَكَ . .
سَفَادُ الْوَرَلِ وَيَزْعَمُونَ أَنَّ لِلْوَرَلِ فِي ذَلِكَ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ .

(قِصَّةُ آكَلِ الذَّبَّانِ) وَأَنْشَدَ ابْنُ دَاحَةَ فِي مَجْلِسِ أَبِي عُبَيْدَةَ قَوْلَ السَّيِّدِ الْحَمِيرِيِّ : كَانُوا يَرُونَ فِي الْأُمُورِ عَجَائِبُ يَأْتِي بَيْنَ تَصَرُّفِ الْأَزْمَانِ (أَنَّ الْخِلَافَةَ فِي ذَوَابَةِ هَاشِمٍ ** فِيهِمْ تَصِيرُ وَهَيْبَةُ السُّلْطَانِ) وَكَانَ ابْنُ دَاحَةَ رَافِضِيًّا وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ خَارِجِيًّا صُفْرِيًّا فَقَالَ لَهُ : مَا مَعْنَاهُ فِي قَوْلِهِ : آكَلِ الذَّبَّانِ فَقَالَ : لِأَنَّهُ كَانَ يَذُبُّ عَنْ عَطْرِ ابْنِ جُدْعَانَ قَالَ : وَمَتَى احْتَاجَ الْعَطَّارُونَ إِلَى الْمَذَابِ قَالَ : غَلَطْتَ إِنَّمَا كَانَ يَذُبُّ عَنْ حَيْسَةِ ابْنِ جُدْعَانَ قَالَ : فَابْنُ جُدْعَانَ وَهَشَامُ

بن المغيرة كان يُحاسُّ لأحدهما الحَيَّسَةُ على عِدَّة أنطاع فكان يأكلُ منها الراكبُ والقائمُ والقاعدُ فأين كانت تقعُ مَذْبَةُ أَبِي قُحَافَةَ من هذا الجبل قال : كان يذبُّ عنها ويدورُ حوالَيْها فضحكوا منه فهجر مجلسهم سنة . (تحقير شأن الذبابة) قال : وفي باب

تحقير شأن الذبابة

وتصغير قدرها يقول الرسول : لو كانت الدنيا تُساوي عند الله تعالى جناح ذبابةٍ ما أعطى الكافر منها شيئاً .

أعجوبة في ذبان البصرة

وعندنا بالبصرة في الذَّبَّانِ أعجوبة لو كانت بالشَّاماتِ أو بمصر لأدخلوها في باب الطَّلَسَمِ وذلك أن التَّمْرَ يكونُ مصبوباً في بيارِ التمر في شقِّ البساتين فلا ترى على شيءٍ منها ذُبَابَةً لا في الليل ولا في النهار ولا في البرْدَيْنِ ولا في أنصافِ النهار نعم وتكون هناك المعاصر ولأصحاب المعاصر ظلال ومن شأن الذَّبَّابِ الفِرَارُ من الشمس إلى الظِّلِّ وإنَّما تلك المعاصر بين تمرة ورُطْبَةٍ ودَيْسٍ وثَجِيرٍ ثم لا تكاد ترى في تلك الظِّلالِ والمعاصر في انتصافِ النهار ولا في وقت طلب الذَّبَّانِ الكِنَّ إلاَّ دونَ ما تراه في المنزل الموصوف بقلة الذَّبَّانِ .

وهذا شيء يكون موجوداً في جميع الشَّقِّ الذي فيه البساتين فإن تحولَ شيء من تمر تلك الناحية إلى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة غشيه من الذَّبَّانِ ما عسى ألا يكون بأرض الهند أكثر منه

وليس بين جزيرة هَر دُيَس وبين موضع الذَّبَّانِ إلاَّ فيض البصرة ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب وبين موضع الذَّبَّانِ كما يقابله إلاَّ سيحان وهو ذلك التمر وتلك المعصرة ولا تكون تلك المسافة إلاَّ مائة ذراع أو أزيدَ شيئاً أو أنقصَ شيئاً .

نوم عجيب لصُروبٍ من الحيوان وأعجوبة أخرى وهي عندي أعجبُ من كلِّ شيءٍ صلَّنا به جملة القول في الذباب فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينأى كالصافر والتَّوْطُ فإنَّهما إذا كان الليلُ فإنَّ أحدهما يتدلَّى من غصن الشَّجرة ويضمُّ عليه رجله وينكس رأسه ثم لا يزال يصيحُ حتَّى يبرقَ الثور والآخر لا يزالُ يتنقلُ في زوايا بيته ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه فلا يزال كذلك وقد نتفَّ قبل ذلك ممَّا على ظهور

الأشجار ممَّا يشبه الليف فنفضه ثم قتلَ منه حبلاً ثم عملَ منه كَهَيْئَةِ القَفَّةِ ثم جعله مُدَلَّى بذلك الحبل وعقده بطرفِ غُصْنٍ من تلك الأغصان إلاَّ أن ذلك بترصيعٍ ونسجٍ ومُداخلةٍ عجيبةٍ ثم يتخذ عشه فيه ويأوي إليه مخافة على نفسه .

والأعرابُ يزعمون أنَّ الذَّبَّابَ شديدُ الاحتراسِ واللهُ يُرواح بينَ عَيْنَيْهِ فتكونُ واحدة مطبقة نائمة وتكون

الأخرى مفتوحة حارسه ولا يشكّون أنّ الأرنب تنام مفتوحة العينين .
وأما الدّجاج والكلاب فإنما تعزّب عقولهما في النّوم ثمّ ترجع إليهما بمقدار رجوع الأنفاس فأما الدّجاج فإنها تفعل ذلك من الجبن وأما الكلب فإنّه يفعل ذلك من شدّة الاحتراس .
وجاؤوا كلهم يخبرون أنّ الغرائيق والكراكي لا تنام أبداً إلّا في أبعد المواضع من النّاس وأحرّزها من صغار سباع الأرض كالثعلب وابن آوى وأنها لا تنام حتى تقلّد أمرها رئيساً وقائداً وحافظاً وحارساً وأنّ الرئيس إذا أعيأ رفع إحدى رجله ليكون أيقظ له .

سلطان النّوم وسلطان النّوم معروف وإن الرّجل من يغزو في البحر ليعتصم بالشّراع وبالعود وبغير ذلك وهو يعلم أنّ النّوم متى خالط عينيه استرخت يده ومتى استرخت يده باينته الشّيء الذي كان يركبه ويستعصم به وأنه متى باينه لم يقدر عليه ومتى عجز عن اللّحاق به فقد عطب ثمّ هو في ذلك لا يخلو إذا سهر ليلة أو ليلتين من أنّ يغلبه النّوم ويقهره وإمّا أن يحتاج إليه الحاجة التي يريه الرأى الخوان وفساد العقل المغمور بالعلّة الحادثة أنّه قد يمكن أن يُغفى وينتبه في أسرع الأوقات وقبل أن تسترخي يده كلّ الاسترخاء وقبل أن تباينه الحشبة إن كانت خشبة .

العجبية في نوم الذّبان

وليس في جميع ما رأينا وروينا في ضروب نوم الحيوان أعجب من نوم الذّبان وذلك أنّها ربما جعلت مأواها بالليل درون الباب وقد غشّوه ببطانة ساج أملس كأنّه صفاة فإذا كان اللّيل لزقت به وجعلت قوائمها مما يليه وعلقت أبدانها إلى الهواء فإن كانت لا تنام البتّة ولا يخالطها غزوب المعرفة فهذا أعجب : أن تكون أمة من أمم الحيوان لا تعرف النّوم ولا تحتاج إليه وإن كانت تنام ويعزب عنها ما يعزّب عن جميع الحيوان سوى ما ذكرنا فما تخلو من أن تكون قابضة على مواضع قوائمها ممسكة بها أو تكون مرسلّة لها مخليّة عنها فإن كانت مرسلّة لها فكيف لم تسقط وهي أثقل من الهواء وإن كانت ممسكة لها فكيف يجامع التشدّد والتثبّت النّوم .

بعض ما يعتري النائم ونحن نرى كلّ من كان في يده كيس أو درهماً وحبلاً أو عصا فإنّه متى خالط عينيه النّوم استرخت يده وانفتحت أصابعه ولذلك يتشاءب المحتال للعبد الذي في يده عنان دابة مولاة ويتناوم له وهو جالس لأنّ من عادة الإنسان إذا لم يكن بحضرته من يشغله ورأى إنساناً قبالة ينوّد أو ينعس أن يتشاءب وينعس مثله فمتى استرخت يده أو قبضته عن طرف العنان وقد خامره سُكْر النّوم ومتى صار إلى هذه الحال ركب المحتال الدّابة ومرّ بها .

الغربان

اللهم جنبنا التكلف وأعدنا من الخطأ واحمنا العجب بما يكون منه والثقة بما عندنا واجعلنا من المحسنين .

نذكر على اسم الله جمل القول في الغربان والإخبار عنها وعن غريب ما أودعت من الدلالة واستخزنت من عجب الهداية .

وقد كنا قدّمنا ما تقول العرب في شأن منادمة الغراب والديك وصادقته له وكيف رهنه عند الحمار وكيف خاس به وسخر منه وخدعه وكيف خرج سالماً غير غارم وغاماً غير خائب وكيف ضربت به العرب الأمثال وقالت فيه الأشعار وأدخلته في الاشتقاق لزرجرها عند عيافتها وقيافتها وكيف كان السبب في ذلك .

ذكر الغراب في القرآن فهذا إلى ما حكى الله عز وجل من خبر ابني آدم حين قربا قرباناً فحسد الذي لم يتقبل منه المتقبل منه فقال عندما هم به من قتله وعند إمساكه عنه والتخلية بينه وبين ما اختار لنفسه : إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ثم قال : فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين

فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ حتّى قال القائل وهو أحد ابني آدم ما قال : فلولاً أن للغراب فضيلة وأموراً محمودّة وآلة وسبباً ليس لغيره من جميع الطير لما وضعه الله تعالى في موضع تأديب الناس ولما جعله الواعظ والمذكّر بذلك وقد قال الله عز وجل : فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ فأخبر أنّه مبعوث وأنه هو اختاره لذلك من بين جميع الطير .

قال صاحب الديك : جعلت الدليل على سوء حاله وسقوطه الدليل على حسن حاله وارتفاع مكانه وكلما كان ذلك المقرّع به أسفل كانت الموعظة في ذلك أبلغ ألا تراه يقول : يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأورِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ التَّادِمِينَ .

ولو كان في موضع الغراب رجل صالح أو إنسان عاقل لما حسن به أن يقول : يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا العاقل الفاضل الكريم الشريف وإذا كان دوناً وحقيراً فقال : أعجزت وأنا إنسان أن أحسن ما يحسنه هذا الطائر ثم طائر من شرار الطير وإذا أراه ذلك

في طائر أسود)

محترق قبيح الشمائل رديء المشية ليس من بهائم الطير المحمودّة ولا من سباعها الشريفة وهو بعد طائر يتنكّد به ويتطير منه أكل جيف رديء الصيد وكلما كان أجهلاً وأذلاً كان وأما قوله : فأصبح من التادمين فلم يكن به على جهة الإخبار أنّه كان قتله ليلاً وإنما هو كهوله : ومن يؤلّهم يومئذ ذبّره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل في الكلام من عادات الناس كان من فر من الزحف ليلاً لم يلزمه وعيد وإنما وقع الكلام على ما عليه الأغلب من ساعات أعمال الناس وذلك هو النهار دون الليل .

وعلى ذلك المعنى قال صالح بن عبد الرحمن حين دفعوا إليه جواباً الخارجي ليقتله وقالوا : إن قتله برئت الخوارجُ منه وإن ترك قتله فقد

أبدى لنا صفحته فتأول صالح عند ذلك تأويلاً مستكراً : وذلك أنه قال : قد نجدُ التَّقيَّةَ تسبيغ الكفر والكفر باللسان أعظم من القتل والقذف بالجراحة فإذا جازت التَّقيَّةُ في الأعظم كانت في الأصغر أجوز فلما رأى هذا التأويل يطرد له ووجد على حال بصيرته ناقصةً وأحسَّ بأنه إنما التمس عُذراً ولزق الحجة تلزيقاً فلما عزم على قتل جواب وهو عنده واحد الصُّفريَّة في النُّسك والفضل قال : إني يوم أقتل جواباً على هذا الضَّرب من التأويل لحريص على الحياة ولو كان حين قال إني يوم أقتل جواباً إنما عني النهار دون الليل كان عند نفسه إذا قتله تلك القتلة ليلاً لم يَأْثُم به وهذا أيضاً كقوله تعالى : ولا تقولنَّ لشيءٍ إني فاعِلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله .

ولو كان هذا المعنى إنما يقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل بين الناس لكان إذا قال من أول الليل : إني فاعِلٌ ذلك غداً في السَّحر أو مع الفجر أو قال الغداة : إني فاعِلٌ يومي كله وليتي كلها لم يكن عليه حيث ولم يكن مخالفاً إذا لم يستثن وكان إذن لا يكون مخالفاً إلا فيما وقع عليه

اسمُ غد فأما كلُّ ما خالف ذلك في اللفظ فلا وليس التأويل كذلك لأنه جلَّ وعلا إنما ألزم عبده أن يقول : إن شاء الله ليتَّقى عادة النَّالِي ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبدِّ والمستغني وعلى أن يكون عند ذلك ذاكرَ الله لأنه عبدٌ مدبِّر ومقلَّب ميسر ومصرفٌ مسخر . وإذا كان المعنى فيه والغاية التي جرى إليها اللفظ إنما هو على ما وصفنا فليس بين أن يقول أفعَلُ ذلك بعدَ طرفَةٍ وبين أن يقول أفعَلُ ذلك بعدَ سنةٍ فرق .

وأما قوله : فَأَصْبَحَ مِنَ التَّادِمِينَ فليس أنه كان هنالك ناسٌ قتلوا إخوانَهُمْ وتدموا فصارَ هذا) القتالُ واحداً منهم وإنما ذلك على قوله لآدم وحواء عليهما السلام : ولا تقرَّبا هذه الشَّجرة فتكونا مِنَ الظَّالِمِينَ على معنى أن كلَّ من صنع صنيعكما فهو ظالم .

الاستثناء في الحلف

وعجبت من ناسٍ ينكرون قولنا في الاستثناء وقد سمعوا الله عزَّ وجلَّ يقولُ : إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا

يَسْتَنْتُونَ فطافَ عليها طائفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ مع قوله عزَّ وجلَّ : وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله .

تسمية الغراب ابن دابة

والعربُ تسمِّي الغرابَ ابنَ دأيةَ لأنَّه إذا وجدَ دَبْرَةً في ظهر البعير أو في عنقه قرحة سقط عليها ونقره وأكله حتَّى يبلغ الدَّيَّات قال الشاعر : (نَجِيبة قَوْمٌ شَادَهَا الْقَتُّ وَالْتَوَى ** يِشْرَبَ حَتَّى نُيُّهَا مَتَظَاهِرُ) (فقلتُ لها سيري فما بكِ عِلَّةٌ ** سنامكِ ملمومٌ ونابُكِ فاطرُ) (فمِثْلُكِ أو خيراً تركتُ رَذِيَّةً ** تقلِّبُ عينيها إذا مرَّ طائرُ)

ومثله قول الرَّاعي : (فلو كنتَ معذوراً بنصركِ طيرتِ ** صقورِي غُرْبَانُ البَعِيرِ المقيدِ) هذا البيت لعنترة في قصيدة له ضرب ذلك مثلاً للبعير المقيد ذي الدَّبر إذا وقعت عليه الغُرْبَانُ . وإذا كان يظهر البعير دَبْرَةً غرزوا في سنامه إمَّا قوادِمَ ريش أسود وإمَّا خرقاً سوداً لتفزع الغُرْبَانُ منه ولا تسقط عليه قال الشاعرُ وهو ذو الحِرْقِ الطُّهوي : (لما رأتُ إبلي حطت حولتها ** هزلي عجافاً عليها الرِّيشُ والحِرْقُ)

(قالتُ ألا تبغِي عيشاً نعيشُ به ** عمّا نلاقي فشرُّ العيشة الرِّقُّ) الرِّقُّ بالراء المهملة وبالنون هو الكدرُ غير الصافي وقال آخر : (كأنَّها ريشةٌ في غاربٍ جرزٍ ** في حيشما صرفته الرِّيحُ ينصرف) جَرَزَ : عظيم قال رؤبة : (

عن جَرَزٍ منه وجوزٍ عارٍ غرز الرِّيش وجوز عاره وقد توضع الرِّيش في أسنمتها وتغرز فيها لغير ذلك وذلك أن الملوك كانت تجعل الرِّيش علامة لحباء الملك تحميها بذلك وتشرف صاحبها .

قال الشاعر : (يهبُ الهيجانُ بريشها ورعائها ** كالليلِ قبلَ صَباحِهِ المتبلجِ) وللرِّيش مكان آخر : وهو أن الملوك إذا جاءهما الخرائطُ بالظفر غرزتُ فيها قوادِمَ ريشٍ سود

غربان الإبل

وقال الشاعر : (سارَفُ قَوْلًا لِلْحُصَيْنِ وَمَالِكٍ ** تطيرُ به الغُرْبَانُ شَطَرَ المَواسِمِ)

(وتروى به الهيمُ الظَّماءُ ويَطْيِي ** بأمثالِهِ الغازينَ سَجْعُ الحِمامِ) يعني غُرْبَانُ الليل وأما قوله : وتروى به الهيمُ الظَّماءُ فمثل قول الماتح : (عِلِّقْتُ يا حارثُ عِنْدَ الوَرْدِ ** بمِجاذِلِ لا رَفيلَ التَّرْدِي) ولا عِيَّيَّ بابتداء الجِدِّ شعر في تعرض الغربان للإبل

شعر في تعرض الغربان للإبل وقالوا في البعير إذا كان عليه حملٌ من تمر أو حبٍّ فتقدَّم الإبلَ بفضل قُوَّتِهِ ونشاطه فعرض ما عليه للغربان قال الرَّاجز : (قد قلتُ قولاً للغرابِ إذ حَجَلُ ** عليك بالقيود المسانيف الأول) تَعَدَّ ما شئتَ على غير عَجَلٍ (يقدِّمُها كُلُّ عِلاةٍ مذعان ** حمراءَ من مُعَرَّضاتِ الغُرْبَانِ)

أمثال في الغراب

ويقال : أصبحُ بدنًا منْ غرابٍ و أبصرُ منْ غُرابٍ و أصفى عينًا منْ غرابٍ .
وقال ابن ميادة : (ألا طرقتنا أمْ أوسٍ ودونها ** حِراجٌ من الظلِّماء يعشى غُرابُها) (فبتنا كأننا بيننا لطميةٌ
** من المسك أو داريةٌ وعياؤها) يقول : إذا كان الغراب لا يبصر في حراج الظلِّماء وواحد الحراج حرجة
وهي هاهنا مثلٌ حيث جعل كلَّ شيءٍ النفسَ وكثفَ من الظلام حراجاً وإثما الحراجُ من السدرِ وأشباه
السدر .

يقول : فإذا لم يبصر فيها الغرابُ مع حلةٍ بصره و صفاء مُقلته فما ظنُّك بغيره وقال أبو الطمحان القبي : (إذا شاء راعيتها استقى منْ وقيةٍ ** كعين الغراب صفوها لم يكثر)

استطرد لغوي والوقية : المكان الصلب الذي يُمسك الماء والجمع الوقائع .
استطرد لغوي (إذا ما استبالوا الخيل كانت أكفهم ** وقائع للأبوال والماء أبرد) يقول : كانوا في فلاةٍ
فاستبالوا الخيل في أكفهم فشربوا أبواها من العطش .
ويقال شهد الوقية والوقعة بمعنى واحد قال الشاعر : (لعمرى لقد أبقت وقيةً راهطٍ ** على زفرٍ داءٍ من
الشَّرِّ باقيا) وقال زُفر بن الحارث : (لعمرى لقد أبقت وقيةً راهطٍ ** لمروان صدعاً بيننا متنائيا)
وقال الأخطل : (لقد أوقع الجحافُ بالبشرِ وقعةً ** إلى الله منها المشتكى والمعوّل)

أمثال من الشعر والنثر في الغراب

وفي صحّة بدن الغراب يقول الآخر : (إنَّ مُعَاذَ بنِ مسلمٍ رجلٌ ** قد ضجَّ منْ طُولِ عُمُرِهِ الأبد) (قد
شاب رأسُ الزَّمانِ واكتهل اللّه ** ر وأثوابُ عُمُرِهِ جُدُد) (يا نَسْرَ لَقَمَانِ كمَ تعيش وكم ** تَسْحَبُ ذيلَ
الحياة يا لُبْد)

(سقط : بيت الشعر) (قد أصبحت دار آدم خربت ** وأنت فيها كأنك الوتد) (تسألُ غرابُها إذا
حجَلتْ ** كيف يكون الصُّداعُ والرَّمْدُ) ويقال : أرضٌ لا يطير غرابها قال النَّابغة : وَلِرَهْطِ حَرَابٍ وَقَدْ
سَوْرَةٌ فِي المجد ليس غرابها بمطارٍ جعله مثلاً يعني أنَّ هذه الأرض تبلغ من خصبها أنَّه إذا دخلها الغراب لم
يخرُج منها لأنَّ كلَّ شيءٍ يريدُه فيها .
وفي زهو الغراب يقول حسَّان في بعض قريش : (إنَّ الفرافصة بن الأحوصِ عنده ** شجنٌ لأمك من بناتِ
عُقَاب) (أجمعتُ أنَّك أنت الأمُّ منْ مشى ** في فحشِ مُوسى وزهو غراب)

ويقال : وجد فلان ثمرة الغراب كأنه يتبع عندهم أطيب التمر ويقال : إنَّه لأحذرُ منْ غرابٍ و : أشد
سواداً من غرابٍ وقد مدحوا بسواد الغراب قال عنتره : (فيها اثنتان وأربعون حلوبةٌ ** سوداً كخافية
الغرابِ الأسحم) وقال أبو ذؤاد : (تنفي الحصى صعداً شَرْقيَّ منسِمْها ** نفي الغرابِ بأعلى أنفه الغردا)

(يَحُجُّ مَأْمُومَةً فِي قَعْرِهَا لَجَفَّ ** فَاسَتْ الطَّيِّبُ قَذَاهَا كَالْمَغَارِيدِ) وقد ذكرنا شِدَّةَ منقاره وحِدَّةَ بصره في غير هذا المكان .

شعر في مديح السواد وقالوا في مديح السواد قال امرؤ القيس : (العَيْنُ قَادِحَةٌ وَالْيَدُ سَابِحَةٌ ** وَالْأُذُنُ مَصْغِيَّةٌ وَاللُّونُ غَرِيبٌ) وفي السَّوَادِ يَقُولُ رِبْعَةُ أَبُو ذُرَّابِ الْأَسَدِيِّ قَاتِلَ عَتِيْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ شَهَابٍ : (إِنْ الْمَوْدَةَ وَالْهَوَادَةَ بَيْنَنَا ** خَلَقَ كَسَحَقِ الْيَمْنَةِ الْمُنْجَابِ) (إِلَّا بِجَيْشٍ لَا يَكْتُ عَدِيدُهُ ** سُودِ الْجُلُودِ مِنَ الْحَدِيدِ غَضَابِ)

شعر ومثل في شيب الغراب وفي المثل : لَا يَكُونُ ذَلِكَ حَتَّى يَشِيبَ الْغُرَابُ وَقَالَ الْعُرْجِيُّ : (لَا يَحُولُ الْفَوَادُ عَنْهُ بُوْدٌ ** أَبْدَأُ أَوْ يَحُولُ لَوْنُ الْغُرَابِ) وقال ساعدة بن جُوَيْيَّة : (شَابَ الْغُرَابُ وَلَا فَوَادُكَ تَارَكَ ** عَهْدَ الْغَضُوبِ وَلَا عَتَابَكَ يُعْتَبُ) معاوية وأبو هوذة الباهلي ومما يذكر للغراب ما حدث به أبو الحسن عن أبي سليم أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَالَ لِأَبِي هُوَذَةَ بْنِ شِمَاسٍ الْبَاهِلِيِّ : لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَجْمَلَ جَمْعًا مِنْ بَاهِلَةٍ فِي سَفِينَةٍ ثُمَّ أَغْرَقَهُمْ فَقَالَ أَبُو هُوَذَةَ : إِذَنْ لَا تَرْضَى بَاهِلَةً بَعْدَهُمْ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ قَالَ : اسْكُتْ أَيُّهَا الْغُرَابُ الْأَبْقَعُ وَكَانَ بِهِ بَرَصٌ

فَقَالَ أَبُو هُوَذَةَ : إِنَّ الْغُرَابَ الْأَبْقَعَ رُبَّمَا دَرَجَ إِلَى الرَّحْمَةِ حَتَّى يَنْقُرَ دِمَاعَهَا وَيَقْلَعَ عَيْنَيْهَا فَقَالَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ : أَلَا تَقْتُلُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : مَهْ وَنَهَضَ مَعَاوِيَةَ ثُمَّ وَجَّهَهُ بَعْدُ فِي سَرِيَّةٍ فَقَتَلَ فَقَالَ مَعَاوِيَةُ لِيَزِيدَ : هَذَا أَخْفَى وَأَصُوبٌ .

شعري نقر الغراب العيون وقال آخر في نقر الغراب العيون : (أَتَوَعَّدُ أَسْرَقِي وَتَرَكْتَ حُجْرًا ** يُرِيعُ سَوَادُ عَيْنَيْهِ الْغُرَابُ) (وَلَوْ لَا قَيْتَ عِلْبَاءَ بْنِ جَحْشٍ ** رَضِيَتْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ) وقال أبو حِيَّةٍ فِي أَنَّ الْغُرَابَ يَسْمُونَهُ الْأَعُورَ تَطْيِيرًا مِنْهُ : (وَإِذَا تُحِلُّ قَتُودَهَا بِتَوَفَةٍ ** مَرَّتْ تَلِيحٌ مِنَ الْغُرَابِ الْأَعُورِ) لِأَنَّهَا تَخَافُ مِنَ الْغُرَابِ لِمَا تَعْلَمُ مِنْ وَقُوعِهَا عَلَى الدَّبَرِ

شعر فيه مدح لون الغراب (غُرَابٌ كَانَ أَسْوَدَ حَالِكِيًّا ** أَلَا سَقِيًّا لَذَلِكَ مِنْ غُرَابِ) وقال أبو حِيَّةٍ : (زَمَانَ عَلَيَّ غُرَابٌ غَدَاةٌ ** فَطِيرُهُ الدَّهْرُ عَنِي فَطَارَا) (فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ ذَاكَ الْغَدَاةَ ** وَإِنْ كَانَ لَا هُوَ إِلَّا أَدْكَارَا) (فَأَصْبَحَ مَوْضِعُهُ بَائِضًا ** مُحِيطًا خِطَامًا مُحِيطًا عَذَارَا) وقال أبو حِيَّةٍ فِي غَيْرِ ذَلِكَ وَهُوَ مِمَّا يُعَدُّ لِلْغُرَابِ : (كَأَنَّ عَصِيمَ الْوَرَسِ مِنْهُمْ جَاسِدٌ ** بِمَا سَالَ مِنْ غُرَابُهُمْ مِنَ الْخَطَرِ)

والغراب ضروب ويقع هذا الاسم في أماكن فالغراب حدُّ السكين والفأس يقال فأسٌ حديدة الغراب وقال الشماخ : (فأنحى عليها ذات حدٍّ غرابها ** عدوٌّ لأوساطِ العضاءِ مُشارِرُ) المشاركة : المعادة والمخاشنة . والغراب : حدُّ الورك ورأسه الذي يلي الظهر ويبدأ من مؤخر الرِّدف والجمعُ غِربان قال ذو (وقَرَّبَنَ بالزُّرقِ الحمائل بعد ما ** تَقَوَّبَ من غِربان أوراكها الخطرُ) تقوَّب : تقشر ما على أوراكها من سلحِها وبولها من ضربها بأذنانها .

غراب البين

وكلَّ غراب فقد يقال له غراب البين إذا أرادوا به الشؤم أمَّا غراب البين نفسه فإنه غرابٌ صغير وإنَّما قيل لكلِّ غراب غراب البين لسقوطها في مواضع منازلهم إذا بانوا عنها قال أبو خولة الرِّياحيّ : (فليس يربوع إلى العقل فافّة ** ولا دنس يسودُّ منه ثيابُها) (فكيف بنوكي مالك إن كفرتم ** لهم هذه أم كيف بعدُ خطابُها) (مَشائِمَ ليسُوا مُصلِحينَ عشيرةً ** ولا ناعب إلاَّ بينَ غرابها) ٤ (الوليد بن عقبة وعبد الله بن الزبير) ومن الدليل على أنَّ الغراب من شرار الطير ما رواه أبو الحسن قال : كان ابنُ الزبير يقعد مع معاوية على سريرهِ فلا يقدر معاوية أن يمتنع

منه فقال ذات يوم : أما أحدٌ يكفيني ابن الزبير فقال الوليد بن عقبة : أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين فسبق فقعد في مقعده على السرير وجاء ابن (تسمي أبا نأ بعد ما كان نافعاً ** وَقَدْ كان ذَكوانٌ تكتي أبا عمرو) فانحدر الوليد حتى صار معه ثم قال : (ولولا حُرّة مهْدَتْ عليكم ** صَفِيَّةٌ ما عُدْذتم في التَّفيرِ) (ولا عُرِفَ الزبيرُ ولا أبوه ** ولا جلس الزبير على السرير) (ودُذنا أن آمكم غراب ** فكنتم شرَّ طيرٍ في الطيور)

القواطع والأوابد

قال أبو زيد : إذا كان الشتاء قطعت إلينا الغربان أي جاءت بلادنا فهي قواطعُ إلينا فإذا كان الصيف فهي رواجع والطير التي تقيم بأرض شتاءها وصيفها أبداً فهي الأوابد والأوابد أيضاً

هي الدواهي يقال جاءنا بآبدة ومنها أوابد الوحش ومنها أوابد الأشعار والأوابد أيضاً : الإبل إذا توحَّش منها شيء فلم يُقدر عليه إلا بعقر وأنشد أبو زيد في الأوابد : (ومَنْهَل وَرَدَّته التَّقَاطا ** طام فلم ألقَ به فُرَاطا) (إلاَّ القَطا أوابداً غَطَاطا

صوت الغراب

ويقال نغق الغراب ينغق نغيقاً بغين معجمة ونعت ينبع نعيماً بعين غير معجمة فإذا مرَّت عليه السنون الكثيرة وغلظ صوته قيل شحج يشحج شحيجاً وقال ذو الرُّمَّة : (ومُسْتَشحجاتٍ بالفراقِ كأنَّها ** مثاكيلُ من صَيَّابةِ الثُّوبِ نُوح) والثُّوبة توصف بالجزع .

أثر البادية في رجال الروم والسند وأصحاب الإبل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والروم للإبل يرون أنهم يصلحون على معاشها وتصلح على قيامهم عليها .
ومن العجب أن رجال الروم تصلح في البدو مع الإبل ودخول الإبل بلاد الروم هو هلاكها فأما السند فإن السندي صاحب الخبرة إذا صار إلى البدو وهو طفل خرج أفصح من أبي مَهْدِيَّة ومن أبي مطرف الغوي ولهم طبيعة في الصَّرف لا ترى بالبصرة صيرَفِيًّا إلا وصاحب كيسه سِنْدِي .

نبوغ أهل السند واشترى محمد بن السَّكْن أبا رَوْحَ السَّكْنِي فكسب له المال العظيم فقلَّ صيدلانيَّ عندنا إلا وله غلامٌ سِنْدِيٌّ فبلغوا أيضاً في البرِّهَار والمعرفة بالعقاقير وفي صحَّة المعاملة وللسَّند في الطبخ طبيعة ما أكثر ما ينجبون فيه .
وقد كان يحيى بن خالد أراد أن يحوِّل إجراء الخيل عن صبيان الحيشان والثَّوبَة إلى صبيان السند فلم يفلحوا فيه وأراد تحويل رجال السند إلى موضع الفَرَّاشين من الروم فلم يفلحوا فيه)
وفي السند حلوق جياد وكذلك بنات السند .

استطرد لغوي والغراب يسمَّى أيضاً حاتماً وقال عوف بن الخرع : (ولكنما أهْجُو صفِيَّ بن ثابت ** مَبْجَعَةً لاقت من الطَّيْرِ حاتماً) وقال المرقش من بني سدوس : (ولقد عَدَوْتُ وكنتُ لا ** أَعْدُو على واق وحاتم) (فإذا الأشْأَم كالأيا ** من والأيا من كالأشْأَم) (وكذلك لا خيرٌ ولا ** شرٌّ على أحدٍ بدائِم)

وأشدُّ حُثيم بن عديٍّ : (وليس بهَيَّاب إذا شدَّ رحله ** يقولُ عدائي اليوم واق وحاتم) (ولكنه يمضي على ذاك مُقدماً ** إذا صدَّ عن تلك الهناتِ الحُثَارم) والحُثَارم : هو المتطير من الرجال وأما قوله : واق وحاتم فحاتم هو الغراب والواق هو الصَّرد كأنه يرى أن الزَّجر بالغراب إذا اشتقَّ من اسمه الغربة والاعتراب والغريب فإن ذلك حتم ويشق من الصَّرد التصريد والصَّرد وهو البرد ويدلك على ذلك قوله : (دعا صردَّ يوماً على غصنٍ شوَّحطٍ ** وصاح بذاتِ البين منها غرابُها) (فقلتُ : أتصريدٌ وشوَّحطٌ وغربةٌ ** فهذا لعمرى نأيتها واعترابُها)

فاشتقَّ التَّصْرِيد من الصَّرد والغربة من الغراب والشَّحْط من الشَّوَّحط .

ويقال أغرب الرَّجُل : إذا اشتدَّ مرضه فهو مُغرَب .

قال : والعناء المُغرَب العقاب لأنها تجيء من مكان بعيد .

أصل التطير في اللغة قال : وأصل التطير إنما كان من الطَّير ومن جهة الطير إذا مرَّ بارحاً أو سائحاً أو رآه يتفلى وينتفٍ حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من النَّاس أو البهائم أو الأعصب أو الأبر زجروا عند ذلك

وتطَيَّرُوا عندها كما تطَيَّرُوا من الطير إذا رأوها على تلك الحال فكان زجر الطير هو الأصل ومنه اشتقوا التطيَّر ثم استعملوا ذلك في كل شيء .

والغراب لسواده إن كان أسود ولاختلاف لونه إن كان أبقع ولأنه غريب يقطع إليهم ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم

يتقَمَّم إلا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم ولأنه ليس شيء من الطير أشد على ذوات الدبر من إبلهم من الغربان ولأنه حديد البصر فقالوا عند خوفهم من عينه الأعور كما قالوا : غراب لا غترابه وغربته وغراب البين لأنه عند بينوتهم يوجد في دورهم .

ويسمونه ابن داية لأنه يقب عن الدبر حتى يبلغ إلى دابات العنق وما اتصل بها من خرزات الصلْب وفقار الظهر . (مراعاة التفاؤل في التسمية) وللطيرة سَمَت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفازة وكنوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم إذ كان يحتم الزجر به على الأمور فصار تطيُّرهم من القعيد والتطيح ومن جرد الجراد ومن أن الجراد ذات ألوان وجميع ذلك دون التطيُّر بالغراب

٤ (ضروب من الطيرة) ولإيمان العرب بباب الطيرة والفأل عقدوا الرتائم وعشروا إذا دخلوا القرى
تعشير الحمار ٤

قاعدة في الطيرة

ويكُل على أنهم يشتقون من اسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون قول سوار ابن المضرب : (تغنى الطائران بين ليلي ** على غصنين من غرب وبان)

(فكان البان أن بانت سليمي ** وفي الغرب اغتراب غير دان) فاشتق كما ترى الاغتراب من الغرب والبيونة من البان .

وقال جران العود : (جرى يوم رُحنا بالجمال نُزِفُها ** عقاب وشحاج من البين يبرح) (فأما العقاب فهي منها عقوبة ** وأما الغراب فالغريب المطوح) فلم يجد في العقاب إلا العقوبة وجعل الشحاج هو الغراب البارح وصاحب البين واشتق منه الغريب المطوح .

ورأى السمهي غراباً على بانه ينتف ريشه فلم يجد في البان إلا البيونة ووجد في الغراب جميع معاني المكروه فقال : (رأيت غراباً واقعاً فوق بانه ** ينتف أعلى ريشه ويطيره)

(سقط : بيت الشعر) (فقلت ، ولو أني أشاء زجرته ** بنفسي للنهدى : هل أنت زاجره) (فقال : غراب باغتراب من النوى ** وبالبان بين من حبيب تعاشره) فذكر الغراب بأكثر مما ذكر به غيره ثم ذكر بعد شأن الريش وتطيره وقال الأعشى : (ما تعيف اليوم في الطير الروح ** من غراب البين أو تيس برح) فجعل التيس من الطير إذ تقدم ذكر الطير وجعله من الطير في معنى التطيُّر .

وقال النَّابغة : (زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنَّ رَحِلَتْنَا غَدًا ** وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ) وقال عنترة : (ظَنَنَ الَّذِينَ فَرَّاقَهُمْ أَتَوْقَعُ ** وجرى بينهم الغرابُ الأبقعُ) (حَرَقَ الْجَنَاحُ كَأَن لَّحْيِي رَأْسِهِ ** جَلَمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُؤَلَعٌ)

(فَرَجَرْتُهُ أَلَّا يُفَرِّخَ بَيْضُهُ ** أَبَدًا وَيُصْبِحَ خَائِفًا يَتَفَجَّعُ) (إِنَّ الَّذِينَ نَعَبَ لِي بِفَرَاقِهِمْ ** هُمُ أَسْهَرُوا لَيْلِي التَّمَامَ فَأَوْجَعُوا) فقال : وجرى بينهم الغرابُ لَأَنَّهُ غَرِيبٌ وَلَأَنَّهُ غَرَابُ الْبَيْنِ وَلَأَنَّهُ أَبْقَعَ ثُمَّ قَالَ : حَرَقَ الْجَنَاحُ تَطِيرًا أَيْضًا مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ جَعَلَ لَحْيِي رَأْسِهِ جَلَمَيْنِ وَالْجَلَمَ يَقْطَعُ وَجَعَلَهُ بِالْأَخْبَارِ هَشًّا مُؤَلَعًا وَجَعَلَ نَعِيهِ وَشَحِيحَهُ كَالْخَبَرِ الْمَفْهُومِ .

قال : فالغراب أكثر من جميع ما يُتَطَيَّرُ به في باب الشؤم ألا تراهم كلما ذكروا مِمَّا يَتَطَيَّرُونَ مِنْهُ شَيْئًا ذَكَرُوا الْغَرَابَ مَعَهُ .

وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره ثم إذا ذكروا كلَّ واحدٍ من هذا الباب لا يمكنهم أَنْ يَتَطَيَّرُوا مِنْهُ إِلَّا مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ وَالْغَرَابُ كَثِيرُ الْمَعَانِي فِي هَذَا الْبَابِ فَهُوَ الْمَقْدَمُ فِي الشُّؤْمِ

دفاع صاحب الغراب قال صاحبُ الغراب : الغرابُ وغير الغراب في ذلك سواءٌ والأعرابيُّ إن شاء اشتقَّ من الكلمة وتوهمَ فيها الخيرَ وإن شاء اشتقَّ منها الشرَّ وكلُّ كلمةٍ تحتُمَلُ وجوها .
ولذلك قال الشاعر : (نظرتُ وأصحابي يطن طويلع ** ضَحِيًّا وَقَدْ أَفْضَى إِلَى اللَّبِّ الْحَبْلُ) (إِلَى ظَبِيَّةٍ تَعْطُو سِيالًا تَصُورُهُ ** يَجَاذِبُهَا الْأَفْنَانُ ذُو جُدِّ طِفْلٍ) (فَقُلْتُ وَعِفْتُ : الْحَبْلُ حَبْلٌ وَصَالُهَا ** تَجَذُّذٌ مِنْ سَلْمَاكِ وَأَنْصَرَمِ الْحَبْلُ) (وَقُلْتُ : سِيَالٌ قَدْ تَسَلَّتْ مَوَدِّيَّ ** تَصُورُ غُصُونًا صَارَ جِثْمَانِهَا يَعْلُو)

(وَعِفْتُ الْغَرِيرَ الطِّفْلَ طِفْلًا أَتَتْ بِهِ ** فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : مَضِيْكُمْ جَهْلٌ) (رُجُوعِي حَزَمٌ وَامْتِرَائِي ضِلَّةٌ ** كَذَلِكَ كَانَ الزَّجْرُ يَصْدُقُنِي قَبْلُ) (بَشَّرَ الظَّبْيُ وَالْغَرَابُ بُسْعُدِي ** مَرْحَبًا بِالَّذِي يَقُولُ الْغَرَابُ) وقال آخر : (بَدَا إِذْ قَصَدْنَا عَامِدِينَ لِأَرْضِنَا ** سَنِيعٌ فَقَالَ الْقَوْمُ : مَرَّ سَنِيعٌ) (وَهَابَ رَجُلٌ أَنْ يَقُولُوا وَجَمَّحُوا ** قُلْتُ لَهُمْ : جَارِ إِلَيَّ رِيحُ) (عَقَابٌ بِأَعْقَابٍ مِنَ الدَّارِ بَعْدَ مَا ** مَضَتْ نِيَّةٌ لَا تَسْتَطَاعُ طُرُوحُ) (وَقَالُوا : دَمٌّ دَامَتْ مَوَدَّةٌ بَيْنَنَا ** وَعَادَ لَنَا غَضُ الشَّبَابِ صَرِيحُ) (وَقَالَ صَحَابِي : هُدْهُدٌ فَوْقَ بَانَةٍ ** هُدًى وَبَيَانٌ فِي الطَّرِيقِ يَلُوحُ) (وَقَالُوا : حَمَامَاتٌ فَحَمٌّ لِقَاؤُهَا ** وَطَلْحٌ فَيَلْتُ وَالْمَطِيُّ طَلِيحُ)

قالوا : فهو إذا شاء جعل الحمام من الحمام والحميم والحُمى وإن شاء قال : وقالوا حماماتٌ فحَمٌّ لِقَاؤُهَا وإذا شاء اشتقَّ البين من البان وإذا شاء اشتقَّ منه البيان .

وقال آخر : (وَقَالُوا : عَقَابٌ قَلْتُ عُقْبَى مِنَ الْهَوَى ** دَنْتُ بَعْدَ هَجَرٍ مِنْهُمْ وَنَزَوْحُ) (وَقَالُوا : حَمَامَاتٌ فَحَمٌّ لِقَاؤُهَا ** وَعَادَ لَنَا حُلُوُّ الشَّبَابِ رِيحُ) (وَقَالُوا : تَعْنَى هُدْهُدٌ فَوْقَ بَانَةٍ ** فَقُلْتُ : هُدًى نَغْدُو بِهِ وَنَزَوْحُ) (وَلَوْ شَاءَ الْأَعْرَابِيُّ أَنْ يَقُولَ إِذَا رَأَى سَوَادَ الْغَرَابِ : سَوَادٌ سَوَدٌ وَسَوَادُ الْإِنْسَانِ : شَخْصُهُ)

وسواد العراق : سعف نخله والأسودان : الماء والتمر وأشبه ذلك لقاله .

قال : وهؤلاء بأعيانهم الذين يصرفون الزجر كيف شأوا وإذا لم يجدوا من وقوع شيء بعد الزجر بدأهم الذين إذا بدا لهم في ذلك بداء أنكروا الطيرة والزجر البتة .

تطير النابغة وما قيل فيه من الشعر

وقد زعم الأصمعي أن النابغة خرج مع زبّان بن سيار يريدان الغزو فبينما هما يريدان الرحلة إذ نظر النابغة وإذا على ثوبه جرادة تجرد ذات ألوان فتطير وقال : غيري الذي خرج في هذا الوجه فلما رجع زبّان من تلك الغزوة سالماً غائماً قال : (تحبّر طيره فيها زياداً ** لتخبره وما فيها خبير) (أقام كأن لقمان بن عادٍ ** أشار له بحكمته مُشير) (تعلم أنه لا طير إلا ** على متطير وهو الثبور) (بلى شيء يوافق بعض شيء ** أحياناً وباطله كثير) فرغم كما ترى زبّان وهو من دهاة العرب وساداتهم أن الذي يجدونه إنما هو شيء من (تعلم أنه لا طير إلا ** على متطير وهو الثبور)

وهذا لا ينقض الأول من قوله : أما واحدة فإنه إن جعل ذلك من طريق العقاب للمتطير لم ينقض قوله في الاتفاق وإن ذهب إلى أن مثل ذلك قد يكون ولا يشعر به اللاهي عن ذلك والذي لا يؤمن بالطيرة فإن المتوقّع فهو في بلاء مادام متوقعاً وإن وافق بعض المكروه جعله من ذلك .

تطير ابن الزبير ويقال إن ابن الزبير لما خرج مع أهله من المدينة إلى مكة سمع بعض إخوته ينشد : (وكل بني أمّ سيمسون ليلة ** ولم يبق من أعيانهم غير واحد) فقال لأخيه : ما دعك إلى هذا قال : أما إني ما أردته قال : ذلك أشدّ له .

وهذا منه إيمان شديد بالطيرة كما ترى بعض من أنكر الطيرة

ومن كان لا يرى الطيرة شيئاً المرقش من بني سدوس حيث قال : (إني غدوت وكت لا ** أغدو على واق وحاتم) (فإذا الأشئام كالأيا ** من الأيام كالأشئام) (فكذلك لا خير ولا ** شرّ على أحد بدائم) (ومن تعرّض للغربان يزجرها ** على سلامته لا بدّ مشؤوم) (ومن كان ينكر الطيرة ويوصي بذلك الحارث بن حلزة وهو قوله قال أبو عبيدة : أنشدنيها أبو عمرو وليست إلا هذه الأبيات وسائر القصيدة مصنوع مولد وهو قوله : (يا أيها المزمع ثم اتنى ** لا يشك الحازي ولا الشاحج)

(ولا قعيد أغضب قرئه ** هاج له من مريع هائج) (بينا الفتى يسعى ويسعى له ** تاح له من أمره خاليج) (يترك ما رقع من عيشه ** يعيث فيه همج هامج) (لا تكسع الشول بأخبارها ** إنك لا تدري من الناتج) وقال الأصمعي : قال سلم بن قتيبة : أضللت ناقة لي عشراء وأنا بالبدو فخرجت في طلبها فللقاني رجل بوجهه شين من حرق النار ثم تلقاني رجل أخذ بخطام بعيره وإذا هو ينشد : (فلن بغيت لها البغا ** ة فما البغا بواجدينا)

ثم من بعد هذا كلّه سألت عنها بعض من لقيته فقال لي : التمسها عند تلك النار فأتيتهم فإذا هم قد ننجوها حوَّاراً وقد أوقدوا لها ناراً فأخذت بخطامها وانصرفت .

عدم إيمان النَّظَّام بالطيرة وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النَّظَّام قال : جعْتُ حتَّى أكلت الطين وما صيرت إلى ذلك حتَّى قليت قلبي أتذكّر : هلُ بها رجلٌ أصيبُ عنده غداءً أو عشاءً فما قدرت عليه وكان عليّ جُبَّةٌ وقميصان فنزعتُ القميص الأسفل فبعته بلريهمات وقصدتُ إلى فُرْصَةِ الأهواز أريد قصبةَ الأهواز وما أعرف بها أحداً وما كان ذلك إلَّا شيئاً أخرجه الصَّجَر وبعض التعرُّض فوافيتُ الفرصة فلم أصبُ فيها سفينة فتطيرتُ من ذلك ثم إني رأيت سفينةً في صدرها خرْقٌ وهشم فتطيرتُ من ذلك أيضاً وإذا فيها حولة فقلت للملاح : تحملني قال : نعم قلت : ما اسمك قال : داوداذ وهو بالفارسية الشَّيْطان فتطيرت من

ذلك ثم ركبت معه تصكَّ الشمال وجُهي وتُثير بالليل الصَّقيعَ على رأسي فلما قربنا من الفرصة صِحت : يا حَمَّال معي لحافٌ لي سَمَل ومضربة خلق وبعضُ ما لا بُدَّ لثلي منه فكان أول حَمَّال أجابني أعور فقلت لبَقَّار كان واقفاً : بكم تكري ثورك هذا إلى الخان فلما أدناه من متاعي إذا الثَّور أعصبُ القرن فازددت طيرة إلى طيرة فقلت في نفسي : الرُّجوع أسلم لي ثم ذكرت حاجتي إلى أكل الطين فقلت : ومن لي بالموت فلما صرتُ في الخان وأنا جالس فيه ومتاعي بين يديّ وأنا أقول : إن أنا خلفته في الخان وليس عنده من يحفظه فُشَّ البابُ وسرق وإن جلست أحفظه لم يكن نجيتُ إلى الأهواز وجَّه فينا أنا جالس إذ سمعت قرع الباب قلت : من هذا عافك الله تعالى قال : رجلٌ يريدك قلت : ومن أنا قال : أنت إبراهيم فقلت : ومن إبراهيم قال : إبراهيم النَّظَّام قلت : هذا خَنَاق أو عدوٌّ أو رسولُ سلطان ثم إني تحاملتُ وفتحتُ البابَ فقال : أرسلني إليك إبراهيم بن عبد العزيز ويقول : نحن وإن كُنَّا اختلفنا في بعض المقالة فإنَّا قد نرجع بعد ذلك إلى حقوقِ الإخلاق والحرِّيَّة وقد رأيتك حين مررت بي

على حال كرهتها منك وما عرفتك حتى خبرني عنك بعضُ من كان معي وقال : ينبغي أن يكون قد نرعتُ بك حاجة فإن شئت فأقيم بمكانك شهراً أو شهرين فعسى أن نبعث إليك ببعض ما يكفيك زمناً من دهرك وإن اشتهيت الرُّجوع فهذه ثلاثون مثقالاً فخذها وانصرف وأنت أحقُّ من عَدَرَ .

قال : فهجم والله عليّ أمرٌ كاد ينقضني أما واحدةٌ : فأني لم أكنُ ملكتُ قبل ذلك ثلاثين ديناراً في جميع دهري والثَّانية : أنَّه لم يطلع مقامي وغيبني عن وطني وعن أصحابي الذين هم عليّ (

حال أشكل بي وأفهم عني والثَّالثة : ما بين لي من أنَّ الطيرة باطل وذلك أنَّه قد تتابع عليّ منها ضروبٌ والواحدة منها كانت عندهم مُعطبة .

قال : وعلى مثل ذلك الاشتقاق يعملُ الذين يعبرون الرُّؤيا .

عجبية الغربان بالبصرة وبالْبصرة من شأن الغربان ضروبٌ من العجب لو كان ذلك بمصر أو ببعض الشامات : لكان عندهم من أجودِ الطَّلسم وذلك أنَّ

الغربان تقطع إلينا في الخريف فتري النخل وبعضها مصرومة وعلى كل نخلة عددٌ كثيرٌ من الغربان وليس منها شيءٌ يقرب نخلةً واحدةً من النخل الذي لم يُصرم ولو لم يبق عليها إلا عذقٌ واحدٌ وإنما أوكار جميع الطير المصوّت في أقلاب تلك النخل والغراب أطيرٌ وأقوى منها ثم لا يجترئ أن يسقط على نخلة منها بعد أن يكون قد بقي عليها عذقٌ واحدٌ .

منقار الغراب

ومنقار الغراب معولٌ وهو شديدُ النَّقَرِ وإِنَّه ليصلُ إلى الكمأة المندفنة في الأرض بنقرةٍ واحدةٍ حتى يشخصها وهو أبصرُ بمواضع الكمأة من أعرايٍ يطلبها في منبت الإجرّد والقصيص في يومٍ له شمسٌ حارّةٌ وإن الأعرايَ ليجتاحُ إلى أن يرى ما فوقها من الأرض فيه بعضُ الانتفاخ والانصداع وما يجتاحُ الغرابُ إلى دليلٍ وقال أبو ذؤادُ الإياديّ : (تَنفِي الحصى صُعْدًا شرقي منسما ** نَفَى الغراب بأعلى أَنفه الغردا)

ولو أن الله عزَّ وجلَّ أذن للغراب أن يسقط على النخلة وعليها الثمرة لذهبت وفي ذلك الوقت لو أن إنساناً نقر العذق نقرةً واحدةً لانتشر عامّة ما فيه وهلكت غلاتُ الناس ولكنك ترى منها على كل نخلة مصرومة الغربان الكثيرة ولا ترى على التي تليها غراباً واحداً حتى إذا صرموا ما عليها تسابقن إلى ما سقط من الثمر في جوف الليف وأصول الكرب لتستخرجه كما يستخرج المتناخُ الشوك .

حوار في نفور الغربان من النخل

فإن قال قائل : إنما أشباح تلك الأعذاق المدلاة كالخرق السود التي تُفزع الطير أن يقع على البزور وكالقدوم السود تغرُّ في أسنمة ذوات الدبر من الإبل لكيلا تسقط عليها الغربان فكأنها إذا رأت سواد الأعذاق فرعت كما يفزع الطير من الخرق السود .

قال الآخر : قد نجدُ جميع الطير الذمي يفزع بالخرق السود فلا يسقط على البزور يقع كله على النخل وعليه الحمل وهل لعامة الطير وكور إلا في أقلاب النخل ذوات الحمل .
قال الآخر : يشبه أن تكون الغربان قطعت إلينا من مواضع ليس فيها نخلٌ ولا أعذاق وهذا الطير الذي يفزع بالخرق السود إنما خلقت ونشأت في المواضع التي لم تزل ترى فيها النخيل والأعذاق ولا نعرف لذلك علة سوى هذا .

قال الآخر : وكيف يكون الشأن كذلك ومن الغربان غربانٌ أوابدٌ بالعراق فلا تبرحُ تعشش في رؤوس النخل وتفرحُ إلا أنّها لا تقرب النخلة التي يكون عليها الحمل .
والدليل على أنها تعشش في نخل البصرة وفي رؤوس أشجار البادية قول الأصمعيّ : (ومن زردك مثل مكن الضباب ** يناوح عيدانه السيمكان) (ومن شكر فيه عُشُ الغراب ** ومن جيسرانٍ وبندايجان)

وقال أبو محمد الفقعسيُّ وهو يصف فحل هَجْمَة : (يتبعُها عَدَبَسٌ جُرَانُضٌ * أكلفُ مربدُّ هَاصُورٌ هَانُضٌ)
بحيثُ يعتشُّ الغرابُ البائِضُ

ما يتفائل به من الطير والنبات

والعامَّةُ تنطيرُ من الغراب إذا صاح صيحة واحدة فإذا ثنى تفاعلتُ به .
واليوم عند أهل الرِّيِّ وأهل مَرَوْ يُتفاعل به وأهل البصرة يتطيرون منه والعربيُّ يتطيّرُ من الخلاف والفارسيُّ
يُتفاعل إليه لأنَّ اسمه بالفارسية باذامك أي يبقى وبالعربية خلاف والخلاف غيرُ الوفاق .
والريحان يُتفاعل به لأنه مشتقٌّ من الرُّوح ويتطيّرُ منه لأن طعمه مُرٌّ وإن كان في العين والأنف مقبولاً .

وقال شاعرٌ من المحدثين : (أهدى له أحبابه أُثْرُجَّةٌ * فبكى وأشفق من عيافة زاجرٍ) (متطيّراً لما أتاه
فطعمه * * لوان باطنه خلافُ الظَّاهرِ) والفرس تحبُّ الآس وتكره الورد لأن الورد لا يدوم والآس دائم .
قال : وإذا صاح الغرابُ مرتين فهو شرٌّ وإذا صاح ثلاث مرّات فهو خير على قدر عدد الحروف .

عداوة الحمار للغراب

ويقال : إنَّ بين الغراب والحمار عداوةً كذا قال صاحب المنطق .
وأنشدني بعض النحويّين : (عاديتنا لا زلت في تبابٍ * عداوة الحمار للغراب)

أمثال في الغراب

ويقال : أصحُّ من غراب وأنشد ابن أبي كريمة لبعضهم وهو يهجو صريع الغواني مسلم بن الوليد : (فما
ريحُ السَّدابِ أشدُّ بُغْضاً * إلى الحَيَاتِ منك إلى الغواني) وأنشد : (وأصلب هامةً من ذي جُيُودٍ * ودُون
صداعه حُمَى الغراب) وزعم لي داهيةٌ من دهاة العرب الحوائن أنَّ الأفاعي وأجناس الأحناس تأتي أصول
الشيخِ والحُرْمَل تستظل به وتستريح إليه .
ويقال : أغربُّ من غراب وأنشد قول مضرّس بن لقيط : (كأيُّ وأصحابي وكريّ عليهم * على كلِّ حال
من نشاط ومن سأم) (غرابٌ من الغِربانِ أيامَ قرّةٍ * رأيُن لحاماً بالعِراض على وضم)

حديث الطيرة وقد اعترض قومٌ علينا في الحديث الذي جاء في تفرقة ما بين الطيرة والفأل وزعموا أنّه ليس
لقوله : كان يعجبه الفألُ الحسن ويكره الطيرة معنى وقالوا : إن كان ليس لقول القاتل : يا هالك وأنت
باغٍ وجهٌ ولا تحقيق فكذلك إذا قال : يا واجد ليس له تحقيق وليس قوله يا مضلُّ يا مهلك أحقُّ بأن يكون
لا يوجب ضلّالاً ولا هلاكاً من قوله يا واجد يا ظافر من ألا يكون يوجب ظفراً ولا وجوداً فإمّا أن يكونا
جميعاً يوجبان وإما أن يكونا جيمعاً لا يوجبان قيل لهم : ليس التأويل ما إليه ذهبتُم لو أن الناس أمَلوا فائدة

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَجُوا عَائِدَتَهُ عِنْدَ كُلِّ سَبَبٍ ضَعِيفٍ وَقَوِيٍّ لَكَانُوا عَلَى خَيْرٍ وَلَوْ غَلَطُوا فِي جِهَةِ الرَّجَاءِ لَكَانَ لَهُمْ بِنَفْسِ ذَلِكَ الرَّجَاءِ خَيْرٌ وَلَوْ أَنَّهُمْ بَدَلُوا ذَلِكَ قَطَعُوا أَمَلَهُمْ وَرَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَكَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ وَالْقَالَ أَنْ يَسْمَعَ كَلِمَةً فِي نَفْسِهَا مُسْتَحْسَنَةٌ ثُمَّ إِنْ أَحَبَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَوْ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَحْدُثَ طَمَعًا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ نَفْسُ الطَّمَعِ خِلَافَ الْيَأْسِ وَإِنَّمَا خَبِرَ أَنَّهُ كَانَ يَعِجِبُهُ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْفُطْرَةِ كَيْفَ هِيَ وَعَنِ الطَّبِيعَةِ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَنْقَلِبُ .

وَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِ الْفُقَهَاءِ : مَا الْقَالَ قَالَ : أَنْ تَسْمَعَ وَأَنْتَ مُضِلٌّ : يَا وَاجِدَ وَأَنْتَ خَائِفٌ : يَا سَالِمَ وَلَمْ يَقُلْ إِنَّ الْقَالَ يُوْجِبُ لِنَفْسِهِ السَّلَامَةَ وَلَكِنَّهُمْ يَحْبُونُ لَهُ إِخْرَاجَ الْيَأْسِ وَسُوءَ الظَّنِّ وَتَوَقُّعَ الْبَلَاءِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَحَالِ الطَّيْرِ حَالٍ مِنْ تِلْكَ الْحَالَاتِ وَيَحْبُونَ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ رَاجِيًا وَأَنْ يَكُونَ حَسَنَ الظَّنِّ فَإِنْ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ الْمَرْجُوَّ يُوَافِقُ بِنِطْقِ الْكَلِمَةِ فَفَرَحَ بِذَلِكَ فَلَا بَأْسَ بِتَطْيِيرِ بَعْضِ الْبَصْرِيِّينَ وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : هَرَبَ بَعْضُ الْبَصْرِيِّينَ مِنْ بَعْضِ الطَّوَاعِينَ فَرَكِبَ وَمَضَى بِأَهْلِهِ نَحْوَ سَفَوَانَ (لَنْ يُسَبِّقَ اللَّهُ عَلَى حِمَارٍ **) وَلَا عَلَى ذِي مَيْعَةٍ مَطَّارٍ (أَوْ يَأْتِي الْحَيْنُ عَلَى مَقْدَارٍ **) قَدْ يَصْبِحُ اللَّهُ أَمَامَ السَّارِي (فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ رَجَعَ بِهِمْ .

معرفة في الغربان

قال : والغربان تسقط في الصحارى تلتمس الطعم ولا تزال كذلك فإذا وجبت الشمس فهضت إلى أوكارها معاً و ما أقل ما تخلط البقع بالسود المصمتة .

الأنواع الغريبة من الغربان قال : ومنها أجناس كثيرة عظام كأمثال الحداء السود ومنها صغاراً وفي مناقيرها اختلاف في الألوان والصور ومنها غربان تحكي كل شيء سمعته حتى إنما في ذلك أعجب من البيغاء وما أكثر ما يتخلف منها عندنا بالبصرة في الصيف فإذا جاء القيظ قلتُ وأكثر المتخلفات منها البقع فإذا جاء الخريف رجعت إلى البساتين لتتال مما يسقط من التمر في كرب التخل وفي الأرض ولا تقرب النخلة إذا كان عليها عذق واحد وأكثر هذه الغربان سود ولا تكاد ترى فيهنّ أبقع

قبح فرخ الغراب وقال الأصمعيّ : قال خلف : لم أر قطُّ أقبح من فرخ الغراب رأيته مرةً فإذا هو صغير الجسم عظيم الرأس عظيم المنقار أجرد أسود الجلد ساقط النفس متفاوت الأعضاء .

غربان البصرة قال : وبعضها يقيم عندنا في القيظ فأما في الصيف فكثير وأما في الخريف فالدهم وأكثر ما تراه في أعالي سطوحنا في القيظ والصيف البقع وأكثر ما تراه في الخريف في النخل وفي الشتاء في البيوت السود .

وفي جبل تكريت في تلك الأيام غربان سود كأمثال الحداء السود عظماً .

تسافد الغربان وناس يزعمون أنّ تسافدها على غير تسافد الطير وأنها تراق بالمناكير وتلقح من هناك .

نوادِر وأشعار نَذَر شَيْئاً من نوادر وأشعار وشيئاً من أحاديث من حارّها وباردها .
قال ابن نُجَيْم : كان ابن مِيَادَة يستحسن هذا البيت لأرطاة بن سُهَيْبَة : (قتلْت لها يا أمّ بيضاء إته ** هُريقَ
شبابي واستشَنّ أديمي) صار شتاً .

وكان الأصمعي يستحسن قول الطرماح بن حكيم ، في ضفة الظليم : (مجتاب شَمْلَة بُرْجِدٍ لِسَرَاتِهِ ** قَلَرَأً
وَأَسْلَمَ ما سِوَاهُ الْبَرْجِدُ) ويستحسن قوله في ضفة الثور : (يَدُوْهُ وَتَضْمُرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ ** سَيْفٌ عَلَى شَرَفٍ
يُسَلُّ وَيُعْمَدُ) وكان أبو نُوَاسٍ يستحسن قول الطرماح : (إِذَا قُبِضَتْ نَفْسُ الطَّرْمَاحِ أَخْلَقَتْ ** عُرَى الْجَدِ
وَاسْتَرَخَى عَنانَ الْقَصَائِدِ) وقال كثير : (إِذَا الْمَالُ يُوْجِبُ عَلَيْكَ عَطَاؤُهُ ** صَنِيعَةُ بَرٍّ أَوْ خَلِيلٍ تَوَامِقُهُ)
مَنْعَتْ وَبَعْضُ الْمَنْعِ حَرَمٌ وَقُوَّةٌ ** فَلَمْ يَفْتَلِكْ الْمَالُ إِلَّا حَقَائِقَهُ)

وقال سهل بن هارون يمدح يحيى بن خالد : (عَدُوُّ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَنْوِيهِ ** مَنْوَعٌ إِذَا مَا مَنْعُهُ كَانَ أَحْزَمًا)
قال : وكان رِبعيُّ بن الجارود يستحسن قوله : (فَخَيْرُ مَنْكَ مِنْ لَا خَيْرَ فِيهِ ** وَخَيْرُ مَنْ زِيَارَتِكَ الْقُعُودُ)
وقال الأعشى : (قَدْ نَطَعْنَ الْعَبْرَ فِي مَكْنُونٍ فَانْهَ ** وَقَدْ يَشِيْطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبَطْلُ)

وقال العلاء بن الجارود : (أَظْهَرُوا لِلنَّاسِ نَسْكَاً ** وَعَلَى الْمَنْقُوشِ دَارُوا) (وَلَهُ صَامُوا وَصَلُّوا ** وَلَهُ
حَجُّوا وَزَارُوا) (وَلَهُ قَامُوا وَقَالُوا ** وَلَهُ حَلُّوا وَسَارُوا) (لَوْ غَدَا فَوْقَ الثَّرْيَا ** وَلَهُمْ رِيْشٌ لَطَارُوا)
وقال الآخر في مثل ذلك : (شَمْرُ ثِيَابِكَ وَاسْتَعْدَّ لِقَابِلٍ ** وَاحْكُكْ جَبِيْنَكَ لِلْقَضَاءِ بَثْوَمِ) (وَامْشِ الدَّيْبَ
إِذَا مَشَيْتَ لِحَاجَةٍ ** حَتَّى تَصِيْبَ وَدِيعَةً لَيْتِيْمِ) وقال أبو الحسن : كان يقال : من رَقَّ وَجْهُهُ رَقَّ عِلْمُهُ .
وقال عمر : تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَسْوَدُوا .

وقال الأصمعي : وَصَلْتُ بِالْعِلْمِ وَكَسَيْتُ بِالْمَلْحِ .
ومن الأشعار الطيبة قول الشاعر في السمك والخادم : (مَقْبَلُ مَدْبَرٍ خَفِيفٍ ذَفِيفٍ ** دَسَمَ الثَّوْبَ قَدْ شَوَى
سَمَكَاتِ)

(مِنْ شَبَابِيْطٍ لَجَّةٍ ذَاتِ غَمَرٍ ** حُدُبٌ مِنْ شُحُومِهَا زَهْمَاتِ) وقال الشاعر : (إِنْ أَجْزَى عِلْقَمَةَ بَنِ سَيْفٍ
سَعِيَهُ ** لَا أَجْزَهُ بِلَاءٌ يَوْمٍ وَاحِدٍ) (لِأَحَبِّني حُبِّ الصَّبِيِّ وَرَمْنِي ** رَمَّ الْمَدْيِيِّ إِلَى الْغَنِيِّ الْوَاجِدِ) (وَلَقَدْ
شَفِيتُ غُلِيْلَتِي وَنَقَعْتُهَا ** مِنْ آلِ مَسْعُودٍ بِمَاءِ بَارِدٍ) وقال رجل من جرم : (نَبِئْتُ أَخْوَالي أَرَادُوا عَمُومَتِي
** بِشَنْعَاءٍ فِيْهَا ثَامِلُ السُّمِّ مُنْقَعَا) (سَأَرْكَبُهَا فَيَكُمُ وَأُدْعَى مَفْرَقاً ** وَإِنْ شَتَمَ مِنْ بَعْدُ كَتَّ مَجْمَعَا)

وقال يونس بن حبيب : ما أَكَلْتُ فِي شِتَاءٍ شَيْئاً قَطُّ إِلَّا وَقَدْ بَرَدَ وَلَا أَكَلْتُ فِي صَيْفٍ شَيْئاً إِلَّا وَقَدْ سَخَنَ .
وقال أبو عمرو المديني : لو كانت البَلَايا بِالْحَصَصِ ما نَالِي كما نَالِي : اختلفت الجارية بالشاة إلى التَّيْلَسِ
اختلافاً كثيراً فرجعت الجارية حاملاً والشاة حائل .

وقال جعفر بن سعيد : الخِلاَفُ مُوَكَّلٌ بِكُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ حَتَّى الْقَذَاةُ فِي الْمَاءِ فِي رَأْسِ الْكُوْزِ فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ
تَشْرَبَ الْمَاءَ جَاءَتْ إِلَى فَيْكِ وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَصْبَّ مِنْ رَأْسِ الْكُوْزِ لَتَخْرُجَ رَجَعَتْ .

وقال إسماعيل بن غزوان : بَكَرْتُ اليوم إلى أبي عمران فَلَزِمْتُ الجَادَّةَ فاستقبلني واحدٌ فَلَزِمَ (الجَادَّةُ التي أنا عليها فلما غشيتني انحرفتُ عنه يَمَنَةً فأنحرفَ معي فَعُدْتُ إلى سَمَنِي فَعَادَ فَعُدْتُ فَعَادَ ثُمَّ عُدْتُ فَعَادَ فَلَوْلَا أَنَّ صاحبَ بَرْدُونٍ فرَّقَ بيننا لكان إلى الساعة يكُدُّني فَدَخَلْتُ على أبي عمران فدعا بَعْدَاءَهُ فَأَهْوَيْتُ بِلَقْمَتِي إلى

الصَّبَاغِ فَأَهْوَى إليه بعضهم فَنَحَّيْتُ يَدِي فَحَيَّ يَدَهُ ثُمَّ عُدْتُ فَعَادَ ثُمَّ نَحَيْتُ فَحَيَّ فَقُلْتُ لأبي عمران : أَلَا ترى ما نحن فيه قال سأحدثك بأعجبَ من هذا أنا منذُ أكثرَ مِنْ سنة أَشْفَقُ أن يراني ابنُ أبي عون الخياط فلم يَنْفَقْ لي أن يراني مرَّةً واحدة فلما أن كَانَ أَمْسِ ذَكَرْتُ لأبي الحارث الصُّنْعَ في السلامة من رؤيته فاستقبلني أَمْسِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ . ٤

نواذر وبلاغات

وذكر محمد بن سلام عن محمد بن القاسم قال : قال جرير : أَنَا لَا أَبْتَدِي وَلَكِنِّي أَعْتَدِي .
وقال أبو عبيدة : قال الحجاج : أَنَا حَدِيدٌ حَقُودٌ حَسُودٌ قال : وقال قنيد بن منيع لجدي ع بن علي : لَكَ حَكَمُ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ

وقال أبو إسحاق وذكر إنساناً : هو واللَّهِ أَتَرَفُ من رَيْبِ مَلِكٍ وأُحْرَقُ من امرأةٍ وأُظْلَمُ وقال لي أبو عبيدة : ما ينبغي أن يكون كان في الدنيا مثل هذا اللَّتْظَامِ قلت : وكيف قال : مرَّ بي يوماً فَقُلْتُ : واللَّهِ لَأُمْتَحِنَنَّه وَلَا سَمْعَنَ كَلَامِهِ فَقُلْتُ له : ما عيبُ الزُّجَاجِ قال : يُسْرِعُ إليه الكسر ولا يقبل الجبر من غير أن يكون فَكَّرَ أو ارتدع .

قال : وقال جَبَّارُ بن سُلَيمٍ بن مالك وذكر عامر بن الطفيل فقال : كان لا يضلُّ حتَّى يضلَّ النَّجْمُ ولا يَعْطِشُ حتَّى يَعْطِشَ البَعِيرُ ولا يهابُ حتَّى يهاب السيل كان واللَّهِ خَيْرَ ما يكون حينَ لَا تَظُنُّ نَفْسٌ بِنَفْسٍ خَيْراً .

وقال ابن الأعرابي : قال أعرابي : اللَّهُمَّ لَا تُنْزِلْني ماءً سَوَاءً فَأَكُونَ أَمراً سَوَاءً يقول : يدعوني فَلَنُتِّهُ إلى منعه .
وقال محمد بن سلام عن حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس : إِنَّ الْأُحْنَفَ كان يكره الصَّلَاةَ في المقصورة فقال له بعضُ القوم : يا أبا بحر لم لا تصلي في المقصورة قال : وأنت لم لا تصلي فيها قال : لَا أَتْرُكُ .
وهذا الكلام يدل على ضروب من الخير كثيرة .

ودخل عبد الله بن الحسن على هشامٍ في ثيابٍ سَفَرِهِ فقال : اذكر حوائجك فقال عبد الله : (ركابي مُنَاخَةً وَعَلَيَّ ثِيَابُ سَفَرِي فقال : إِنَّكَ لَا تَجِدُنِي خيراً مِنِّي لك الساعة .
قال أبو عبيدة : بلغ عمرَ بن عبد العزيز قدومُ عبدِ اللَّهِ بن الحسن فأرسل إليه : إني أخاف عليك طواعينَ الشام وإِنَّكَ لَا تُغْنِمُ أَهْلَكَ خيراً لَهم منك فَالْحَقْ بِهِمْ فَإِنْ حَوَانَجْهُمْ سَتَسْبِقُكَ .

وكان ظاهر ما يكلمونه به ويرونه إياه جميلاً مذكوراً وكان معاناهم الكراهة لمقامه بالشام وكانوا يرون جماله ويعرفون بيانه وكماله فكان ذلك العمل من أجود التدبير فيه عند نفسه .

٤

شعر في الزهد والحكمة

وأنشد : (تليح من الموت الذي هو واقع * وللموت باب أنت لا بد داخله) وقال آخر : (أكلكم أقام على عجوز * عشنزة مقلدة سخابا) وقال آخر : (الموت باب وكل الناس داخله * فليت شعري بعد الباب ما الدار) (لو كنت أعلم من يدري فيخبرني * أجنة الخلد ما وانا أم النار) وقال آخر : (اصبر لكل مصيبة وتجلد * واعلم بأن المرء غير مخلد) وقال آخر : (والشمس تنعى ساكن ال * دنيا ويسعدوها القمر)

(أين الذين عليهم * ركم الجنادل والمدر) (أفناهم غلس العشا * يهز أجنحة السحر) (ما للقلوب رقيقة * وكان قلبك من حجر) (ولقلما تبقى وعو * ذك كل يوم يهتصر) وقال زهير : (ومن يوف لا يندم ومن يفض قلبه * إلى مطمئن البر لا يتجمجم) (ومن يغترب يحسب عدواً صديقه * ومن لا يكرم نفسه لا يكرم) (ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وإن خالها تخفى على الناس تعلم) (ومن لا يزل يسترحل الناس نفسه * ولا يعفها يوماً من الدم يندم) وقال زهير أيضاً : (يطعنهم ما ارتقوا حتى إذا طعنوا * ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا)

وقال : (سقط بيت الشعر) (وجار البيت والرجل المنادى * أمام الحي عقدهما سواء) وقال : (جوار شاهد عدل عليكم * وسيان الكفالة والتلاء) (فإن الحق مقطعه ثلاث : * يمين أو نفاً أو جلاء) فتفهم هذه الأقسام الثلاثة كيف فصلها هذا الأعراي . وقال أيضاً : (فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت * ولكن حمد المرء ليس بمخلد) (ولكن منه باقيات ورائة * فأورث بنيك بعضها وتروذ) (تروذ إلى يوم الممات فإنه * وإن كرهته النفس آخر معهد) وقال الأسدي : (فإني أحب الخلد لو أستطيع * وكالخلد عندي أن أموت ولم ألم) وقال الحادرة : (فاثنوا علينا لا أبا لأبيكم * يا حساننا إن الشاء هو الخلد) وقال الغنوي : (فإذا بلغت أهلكم فتحدثوا * ومن الحديث مهالك وخلود)

وقال آخر : (سقط : بيت الشعر) (فقتلا بتقتيل وعقرا بعقركم * جزاء العطاس لا يموت من اتار) وقال زهير : (والإثم من شر ما تصول به * والبر كالغيث نبته أمر) أي كثير ولو شاء أن يقول : والبر كالماء نبته أمر استقام الشعر ولكن كان لا يكون له معنى وإنما أراد أن النبات يكون على الغيث أجود ثم قال : (قد أشهد الشارب المعدل لا * معروفه منك ولا حصر) (في فتية لبي المآزر لا * ينسون أحلامهم إذا سكروا) (يشوون للضيف والغفاة ويو * فون قضاء إذا هم نلروا)

يمدحُ كما ترى أهلَ الجاهلية بالوفاء بالثدور أنشدني حَبَّان بن عَتِيان عن أبي عبيدة من الشوارد التي لا أربابَ لها قوله : (إن يَغْدِرُوا أو يفجروا ** أو يينخلوا لم يحفلوا) (يَغْدُوا عليك مرجلي ** ن كَأَنَّهُمْ لم يفعلوا) (كأبي بَرَاقِشَ كلَّ يو ** م لَوْنَهُ يَتَخَيَّلُ) (أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفَى الكَبِي ** رَ كُرَّ الغَدَاةَ ومُرَّ العشي) (إذا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يومها ** أتى بعد ذلك يوم فتي) (نروح ونغدو لحاجتنا ** وحاجة من عاش لا تنقصي) (تموت مع المرءِ حاجته ** وتبقى له حاجة ما بقي) (إذا قلتَ يَوْمًا لدى مَعْشَرٍ ** أُرُونِي السَّرِيَّ أَرَوُكُ) (الغني)

(أَلَمْ تَرَ لَقَمَانَ أوصى بني ** ه وأوصيتَ عمرًا فنعِم الوصي) (وسِرُّكَ ما كان عندَ امرئٍ ** وسرُّ الثلاثة غير الخفي) أنشدني مُحَمَّد بن زياد الأعرابي : (ولا تُلبِثُ الأطماعُ من ليس عنده ** من الدِّينِ شيءٌ أن تميلَ به النَّفْسُ) (ولا يُلبِثُ الدَّخَسُ الإهابَ تحوزهُ ** بجمْعِكَ أن ينهَاهُ عن غيركَ الترس) وأنشدني أبو زيد النحوي لبعض القدماء : (ومَهْمَا يَكُن رَيْبُ المُنُونِ فَإِنِّي ** أرى قمر الليلِ المَعْدَرِ كالفتى) (يعودُ ضئيلاً ثم يرجعُ دائماً ** ويعظم حتى قيل قد ثاب واستوى) (كذلك زَيْدُ المرءِ ثم انتقاصه ** وتكراره في إثره بَعْدَ ما مضى)

(مَيَّزَ عَنْهُ فُتْرَعًا من قُنْرُعٍ ** مَرُّ اللَّيَالِي أَبْطِي وأسرع) (أفناه قِيلَ لِلَّهِ لِلشَّمْسِ اطلعي ** ثم إذا واركُ أَتَقَى فارجمي) وقال عمرو بن هند : (وإن الذي ينهاكم عن طلابها ** يُناغي نِسَاءَ الحَيِّ في طَرَةِ البُرْدِ) (يعللُ والأَيَّامُ تنقصُ عمره ** كما تنقصُ النَّبْرُ أن من طَرَفِ الرِّدِّ) وقال ابن ميادة : (هل ينطقُ الرَّبْعُ بالعلياء غيره ** سافي الرِّيحِ ومستنَّ له طُنبُ) وقال أبو العتاهية : أسرع في نقص امرئٍ تمامه وقال : (ولمرَّ الفناء في كلِّ شيءٍ ** حركاتُ كَأَنَّهُنَّ سَكُونُ) وقال ابن ميادة :

(أَشَأَقُكُ بالقِنَعِ الغَدَاةَ رُسُومُ ** دَوَارِسِ أدنى عهدهنَّ قديمُ) (يلحنَ وقد جرَّمنَ عشرينَ حِجَّةً ** كما لاح في ظهر البنانِ وشومُ) (في مرفقيها إذا ما عُونَقَتْ جَمَمَ ** عَلَى الضَّجِيعِ وفي أنيابها شَبَ) وقال ابن ميادة في جعفر ومحمد ابني سليمان وهو يعني أمير المؤمنين المنصور : (وفي لكما يا ابني سليمان قاسم ** بجَدِّ النُّهْيِ إذ يقسمُ الخيرَ قاسِمُهُ) (فبيتكما بيتٌ رفيعٌ بناؤه ** متى يلقُ شيئاً مُحَدَّثاً فهو هادمُهُ) (لَكُمْ كَبْشٍ صِدْقِ شَذَبِ الشُّوْلَ عنكم ** وكسَّرَ قَرْنِي كلَّ كَبْشٍ يصادمُهُ)

من يهجي ويذكر بالشؤم

قال دِعْبِل بن عليٍّ في صالح الأفقم وكان لا يصحبُ رجلاً إلَّا ماتَ أو قُتِلَ أو سقطتَ منزلته : (قل للأمين أمين آل محمدٍ ** قول امرئٍ شفقٍ عليه محام) (إِيَّاكَ أن تُغْتَرَّ عنكَ صنِيعَةٌ ** في صالح بن عطية الحجام) (ليس الصَّنَائِعُ عنده بصنائِعٍ ** لكنهنَّ طوائِلُ الإسلام) (اضربْ به نحرَ العدوِّ فَإِنَّهُ ** جيشٌ من الطاعون والبرسام) وقال محمد بن عبد الله في محمد بن عائشة : (لِلْهَلَالِي قَتِيلٌ ** أبداً في كلِّ عامٍ) (قَتَلَ الفضلُ بن سهلٍ ** وعليَّ بن هشامٍ) (وعجيفاً آخر القو ** م بأكتاف الشام)

(وغدا يطلب من يق ** تل بالسيف الحسام) (فأعاذ الله منه ** أحمداً خير الأنام) وقال عيسى بن زئب
في الصخري وكان مشووماً : (يا قوم مَنْ كان له والدٌ ** يأكل ما جَمَعَ مِنْ وَفَرٍ) (فَإِنَّ عِنْدِي لَابْنَهُ حيلة
** يموتُ إِنْ أَصْحَبَهُ الصخري) (كَأَنَّمَا فِي كَفِّهِ مِيرْدٌ ** يَبْرُدُ مَا طَالَ مِنَ الْعُمُرِ)

شعر في مديح وهجاء

وقال الأعشى : (فما إِنْ عَلَى قَلْبِهِ غَمْرَةٌ ** وما إِنْ بَعْظِمُ لَهُ مِنْ وَهْنٍ) وقال الكميت : (ولم يَقُلْ عِنْدَ زَلَّةٍ
لَهُمْ ** كُرُّوا الْمَعَاذِيرَ إِنَّمَا حَسَبُوا) وقال آخر : (فلا تَعْذِرَانِي فِي الْإِسَاءَةِ إِنَّهُ ** شِرَارُ الرِّجَالِ مِنْ يَسِيءُ
فِيَعْذُرُ)

وقال كلثوم بن عمر العتّابي : (رحل الرِّجَاءُ إِلَيْكَ مَغْتَرِباً ** حُشِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ) (وجعلت عَتَبَكَ
عُتْبَ مَوْعِظَةٍ ** ورجاء عفوك مُنْتَهَى غُلْزِي) وقال أعشى بكر : (قَلَّدْتَكَ الشَّعْرَ يَا سَلَامَةَ ذَا ** الْإِفْضَالِ
وَالشَّيْءُ حَيْثُ مَا جُعِلَا) (وَالشَّعْرُ يَسْتَنْزِلُ الْكَرِيمَ كَمَا اسْ ** تَنْزَلَ رَعْدُ السَّحَابَةِ السَّيْلَا) (لو كنت ماءً
عِدّاً جَهَمْتَ إِذَا ** مَا وَرَدَ الْقَوْمَ لَمْ تَكُنْ وَشَلَا) (أَنْجَبَ آبَاؤُهُ الْكَرَامُ بِهِ ** إِذْ نَجَلَاهُ فَنِعَمَ مَا نَجَلَا) (استأثّر
اللَّهُ بِالْبَقَاءِ وَبِالْحَمِّ ** دِوَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرِّجَالَا)

وقال الكذاب الجرماني لقومه أو لغيرهم : (لو كُتِمُ شَاءَ لَكُنْتُمْ نَقْدًا ** أو كُنْتُمْ مَاءً لَكُنْتُمْ ثَمْدًا) أو
كُنْتُمْ قَوْلًا لَكُنْتُمْ فَنْدًا وقال الأعشى في الثياب : (فعلى مثلها أزرُ بني قِي ** س إِذَا شَطَّ بِالْحَبِيبِ الْفِرَاقُ
(المهينين ما لهم في زَمَانِ الْ ** سَوْءِ حَتَّى إِذَا أَفَاقَ أَفَاقُوا) (وَإِذَا ذُو الْفَضُولِ ضَنَّ عَلَى الْمَوِ ** لِي
وصارت لخيّمها الأخلاق) (أَخَذُوا فَضْلَهُمْ هُنَاكَ وَقَدْ تَجَّ ** رِي عَلَى عَرِيقِهَا الْكَرَامُ الْعِتَاقُ)

(وَإِذَا الْغَيْثُ صَوَّبُهُ وَضَعَ الْقِدْرَ ** حَ وَجُنَّ التَّلَاحُ وَالْآفَاقُ) (لم يَزِدْهُمْ سَفَاهَةً شَرِبُ الْخَمِّ ** رِ وَلَا اللَّهْوُ
فِيهِمْ وَالسَّبَاقُ) (واضعاً في سِرَاقِ نَجْرَانِ رَحْلِي ** نَاعِماً غَيْرَ أَنِّي مُشْتَاقُ) (فِي مَطَايَا أَرْبَابُهُنَّ عِجَالٌ **
عَنْ نَوَاءٍ وَهُمْ هُنَّ الْعِرَاقُ) (دَرَمْتُ غُدُوَّةً لَنَا وَنَشِيلٌ ** وَصَبُوحٌ مَبَاكِرٌ وَاعْتِبَاقُ) (وَنَدَامَى يَبْضُ الْوَجُودِ
كَأَنَّ الشَّ ** رَبَّ مِنْهُمْ مَصَاعِبُ أَفْنَاقُ) (فِيهِمْ الْخِصْبُ وَالسَّمَاحَةُ وَالنَّجْ ** دَةُ جَمْعاً وَالْخَاطِبُ الْمَسْلَاقُ)
(وَأَبْيُونٌ لَا يُسَامُونَ ضَيْمًا ** وَمَكِيثُونَ وَالْحُلُومُ وَثَاقُ) (وَتَرَى مَجْلِسًا يَغْصُّ بِهِ الْمَحْ ** رَبُّ بِالْقَوْمِ
وَالثَّيَابُ رِقَاقُ)

وقال أيضاً في الثياب : (أزرور يزيدَ وعبدَ المسيحِ ** وقيساً هُمُ خَيْرُ أَرْبَابِهَا) (وَكَعْبَةُ نَجْرَانِ حَتَمَ عَلِي **
لِكِ حَتَّى تُنَاخِي بِأَبْوَابِهَا) (إِذَا الْحَبْرَاتُ تَلَوَّتْ بِهِمْ ** وَجَرُّوا أَسَافِلَ هُدَايِهَا) (أُسَيْلِمُ ذَاكُمُ لَا خِفَا بِمَكَانِهِ **
لَعَيْنِ تُرْجِي أَوْ لِأَذُنِ تَسْمَعُ) (مِنْ التَّنْفِرِ الْبَيْضِ الَّذِينَ إِذَا اتَّمَوْا ** وَهَابَ الرِّجَالُ حَلَقَةَ الْبَابِ قَعَقَعُوا)
جلا الأذفر الأحرى من المسك فرقه ** وطيب الدهان رأسه فهو أترع) (إِذَا التَّنْفِرُ السُّودَ الْيَمَانُونَ)

حاولوا ** له حوك برديه أجادوا وأوسعوا) وقال كثير : (يجرّ سربلاً عليه كأنه ** سيّ هلالٍ لم تفتق شرانقه) وقال الجعدي :

(أتاني نصرهم وهم بعيدٌ ** بلادهم بأرض الخيزران) يريد أرض الخصب والأغصان اللينة .
وقال الشاعر : (في كفه خيزرانٌ ريجها عيقٌ ** بكفّ أروع في عرينه شمم) لأن الملك لا يختصر إلا بعودٍ
لذن ناعمٍ وقال آخر : (تجاوبها أخرى على خيزرانةٍ ** يكاد يدينها من الأرض لينها)

عين الرضا وعين السخط

وقال آخر : وقال المسيّب بن علس : (قصار الهم إلا في صديقٍ ** كأنّ وطابهم موشى الصّباب) (عين
الرضا وعين السخط) وقال المسيّب بن علس : (تامت فؤادك إذ عرضت لها ** حسن برأي العين ما تمقّ
(وقال ابن أبي ربيعة : حسن في كلّ عين من تودّ وقال عبد الله بن معاوية : (وعين الرضا عن كلّ عيب
كليلةٍ ** ولكنّ عين السخط تُبدي المساويا) وقال روح أبو همام : (وعين السخط تبصر كلّ عيبٍ **
وعين أخي الرضا عن ذاك تعمى)

شعر وخبر

وقال الفرزدق : (سؤال امرئ لم يُغفل العلم صدره ** وما السائل الواعي الأحاديث كالعمي) وقيل
لدغفل : أتى لك هذا العلم قال : لسان سؤلٍ وقلب عقولٍ وقال النابغة : (فآب مضلوه بعين جليةٍ **
وغودر بالجوّان حزمٍ ونائل)

مضلوه : دافوه على حدّ قوله تعالى : إذا ضللنا في الأرض .
وقال المخبل : (أضلت بنو قيس بن سعدٍ عميدها ** وفارسها في الدّهر قيس بن عاصم) قوال زهير أو
غيره في سنان بن أبي حارثة : (إن الرزية لا رزيةً مثلها ** ما تبغي غطفان يوم أضلت) ولذلك زعم بعض
الناس أنّ سنان بن أبي حارثة خرف فذهب على وجهه فلم يوجد .

من هام على وجهه فلم يوجد

ويزعمون أنّ ثلاثة نفر هاموا على وجوههم فلم يجدوا : طالب بن أبي طالب وسنان بن أبي حارثة
ومرداس بن أبي عامر . (وإني لأستحيي أخي أن أرى له ** عليّ من الفضل الذي لا يرى ليا) وقال امرؤ
القيس : (وهل يعمّن إلا خليّ منعمٍ ** قليل الموم ما يبيت بأوجال) وقال الأصمعي : هو كقولهم :
استراح من لا عقل له .
وقال ابن أبي ربيعة :

(وأعجبها من عيشها ظلَّ غرفةٍ ** وريانُ مُلثفُ الحدائقِ أخضرُ) (ووال كفاها كلَّ شيءٍ يَهْمُها **
 فليستَ لشيءٍ آخرَ اللَّيلِ تسهرُ) (مديح الصَّالحين والفُقهاء) قال ابنُ الحَيَّاطِ يمدح مالك بن أنس : (يَأبِي
 الجوابَ فما يُراجِعُ هَيَّيَّةَ ** والسائلونَ نواكِسُ الأذقانِ) (هديُّ التقيِّ وعز سلطانِ التقيِّ ** فهو المطاعُ
 وليس ذا سُلطانِ) وقال ابنُ الحَيَّاطِ في بعضهم : (فتى لم يجالس مالكاَ منذ أن نشأ ** ولم يقتبس من علمه
 فهو جاهلٌ) وقال آخر : (فأنت بالليل ذئبٌ لا حريمَ له ** وبالتَّهَارِ على سَمْتِ ابنِ سيرينِ) وقال الخليل
 بن أحمد وذكروا عنده الخطَّ والجِدَّ فقال : أمَّا الجِدُّ

فلا أقول فيه شيئاً وأمَّا الخطَّ فأخزى الله الخطَّ فإنه يلد الطالب إذا أكل عليه ويبعد المطلوب إليه من مذمة الطالب .

وقال ابن شبرمة : (لو شئت كنت ككرز في تعبده ** أو كابن طارق حول البيت والحرم) (قد حال دون
 لذيد العيش خوفهما ** وسارعا في طلاب العزِّ والكرم) (لا درَّ درَّ خطوب الدهر إذ فجعت **
 بالأصمعي لقد أقت لنا أسفاً) (عش ما بدا لك في الدنيا فلست ترى ** في الدهر منه ولا من علمه خلفا
)

وقال الحسن بن هانئ في مريثة خلف الأحمر : (لو كان حيَّ وائلاً من التلّف ** لوألت شعواء في أعلى
 الشّعف) (أم فريخٍ أحرزته في لجف ** مُرْعَبِ الألفاد لم يأكل بكف)

(هاتيك أم عصماء في أعلى الشرف ** تظلُّ في الطِّبَاقِ والتَّرْعِ الألف) (أودى جماعُ العلم مذ أودى
 خلف ** قليدُم من العيالم الحسَف) وقال يرثيه في كلمة له : (بتُّ أعزِّي القواد عن خلفٍ ** وبات دمي
 إلا يقض يكف) (أنسى الرزايا ميتً فجعتُ به ** أضحي رهيناً للثرب في جدف) (كان يسنى برفقه
 غلقُ ال ** أفهام في لا خرق ولا عُنف) (يجوبُ عنك التي عشيت لها ** حيران حتى يشفيك في لطف)

(لا يهْمُ الحاء في القراءة بالحاء ** ء ولا لامها مع الألف) (ولا مضلاً سبيل الكلام ولا ** يكون إسناده
 عن الصُّحُف) وقال آخر في ابن شبرمة : (إذا سألت الناس أين المكرمة ** والعزُّ والجُرْثومةُ المقدَّمةُ) (وأين فاروقُ الأمورِ الحكمه ** تتابع النَّاسُ على ابنِ شبرمةُ)

شعر مختار

وقال ابن عرفة : (ليهنيك بُغضُ للصديق وظنَّةُ ** وتحديثك الشيء الذي أنت كاذبه) (وأئك مشنوءٌ
 إلى كلِّ صاحبٍ ** بلاك ومثل الشر يكره جانبهُ) (وأئك مهداءُ الحنا نطف النثا ** شديد السببِ رافعُ
 الصَّوتِ غالبهُ)

وقال التابغة الجعدي : (أبا لي البلاء وأني امرؤ ** إذا ما تبَيَّت لم أرُتب) (وليس يريد آتُه في حال تبَيَّته غير
 مُرتاب وإنما يعني أن بصيرته لا تتغير .

وقال ابنُ الجهم ذات يوم : أنا لا أشكُّ قال له المكِّيُّ : وأنا لا أكاد أوقن وقال طرفه : (وتقصيرُ يوم
الدَّجنِ والدَّجنِ معجبٌ ** بهكئةٍ تحت الخباءِ المملدِ) (أرى قبرَ نُحَامٍ بخيلٍ بماله ** كقبرِ غويٍّ في البطالةِ
مُفسدِ) (لعمركُ إنَّ الموتَ ما أخطأَ الفتى ** لكالطَّولِ المرُخى وثنياه باليد) (أرى الموتَ أعدادَ النفوسِ
ولا أرى ** بعيداً غداً ما أقربَ اليومَ من غد)

(وظلمَ ذوي القربى أشدَّ مضاضةً ** على المرءِ من وقع الحسامِ المهنَّد) (وفي كثرة الأيدي عن الظلم زاجرٌ
** إذا خطرتُ أيدي الرِّجالِ بمشهد)

الجعلان والخنافس

وسنقولُ في هذه الحشرات من الأرض وفي المذكور من بغاث الطَّير وخشاشه ممَّا يقتات العذرة
ويُوصف باللؤم ويَتَقَرَّزُ من لمسه وأكل لحمه كالخنفساء والجعل والهداهد والرَّخم فإنَّ هذه الأجناس أطلبُ
للعذرة من الخنازير .

فأولُ ما نذكُر من أعاجيبها صداقةُ ما بين الخنافس والعقارب وصداقة ما بين الحيات والوزغ وتزعمُ
الأعراب أنَّ بين ذكورة الخنافس وإناث الجعلان تسافداً وأنهما ينتجان خلقاً ينزع إليهما جميعاً .

وأنشد خَشَنَامُ الأعور النحويُّ عن سيبويه النَّحويِّ عن بعض الأعراب في هِجائه عدوًّا له كان شديد
السَّواد : (عاديتنا يا خُنْفَساً كأمَّ جُعْلٍ ** عداوة الأوعالِ حَيَّاتِ الجبلِ) (من كلِّ عودٍ مُرْهَفٍ التَّابِ عُلٌّ
** يَخْرُقُ إنَّ مَسَّ وإنَّ شَمَّ قَتْلُ) ويثبت أكل الأوعال للحَيَّاتِ الشَّعْرُ المشهور الذي في أيدي أصحابنا وهو
: (علٌّ زِيداً أن يُلاقِي مرَّةً ** في التماسِ بعضَ حَيَّاتِ الجبلِ) (يتوارى في صُدوعِ مرَّةً ** رَبْدَى الخُطْفَةِ
كالقِدْحِ المُولِ) (وترى السَّمَّ على أشدِّاقه ** كشعاعِ الشَّمْسِ لاحِتٍ في طَفْلٍ) (طرد الأروى فما تقرُّهُ
** ونفى الحَيَّاتِ عن بيضِ الحَجَلِ)

وإنما ذكر الأروى من بين جميع ما يسكن الجبال من أصناف الوحش لأنَّ الأروى من بينها تأكلُ الحَيَّاتِ
للعداوة التي بينها وبين الحَيَّاتِ .

استطراد لغوي

والأروى : إناث الأوعال واحدها أروية والنس يُسمُّون بناتهم باسم الجماعة ولا يسمُّون البنت الواحدة
باسم الواحدة منها : لا يسمُّون بأروية ويسمُّون بأروى وقال شماخ بن ضِرار : (فما أروى وإنَّ كُرُمْتُ
علينا ** بأدنى من موقِّفةِ حَرُونِ) وأنشد أبو زيدٍ في جماعة الأورِيَّة : (فما لك من أروى تعاديت بالعمى **

ولاقيتِ كلاباً مُطلاً وراميا (يقال : تعادى القومُ وتفاقدوا : إذا مات بعضهم على إثر بعض .)
وقالت في ذلك ضباعةُ بنت قُرُط في مريثة زوجها هشام بن المغيرة :

(سقط : بيت الشعر) (إن أبا عثمان لم أنسه ** وإن صمتا عن بكاء لحوب) (تفافدوا من معشرٍ ما لهم
** أي ذنوب صوبوا في القلب) (طلب الحيات البيض) وأما قوله : ونفى الحيات عن ييض الحجل فإن
الحيات تطلبُ بيض كل طائر وفراخه وييض كل طائرٍ مما يبيض على الأرض أحبُّ إليها فما أعرف لذلك
علةً إلا سهولة المطلب .
والأياثل تأكل الحيات والخنزيرُ تأكل الحيات وتعاديها .

عداوة الحمار للغراب

وزعم صاحبُ المنطق أن بين الحمار والغراب عداوة وأنشدني بعضُ التحويين : (عاديتنا لا زلت في تباب
** عداوة الحمار للغراب)

وأنشد ابن أبي كريمة لبعض الشعراء في صريع الغواني : (فما ريحُ السدّابِ أشدَّ بُغضاً ** إلى الحياتِ منك
إلى الغواني)

أمثال

والفساء يُوصف بن ضربان من الخلق : الخنفساء والظربان .
وفي لجج الخنفساء يقول خلف الأحمر : (لنا صاحبٌ مولعٌ بالخلافِ ** كثيرُ الخطاءِ قليلُ الصوابِ) (ألجُّ
لجاجة من الخنفساء ** وأزهى إذا ما مشى من غراب)

طول ذماء الخنفساء

وقال الرقاشي : ذكرت صبر الخنزير على نفوذ السهام في جنبه فقال لي أعرابي : الخنفساء أصبر منه ولقد
رأيت صبيّاً من صبيانكم البارحة

وأخذ شوكة وجعل في رأسها فتيلةً ثم أوقد نهاراً ثم غرزها في ظهر الخنفساء حتى أنفذ الشوكة فغبرنا ليلتنا
وإنها لتجولُ في الدارِ وتصبحُ لنا واللهِ إنِّي لأظنها كانت مُقرباً لانتفاخ بطنها .
قال : وقال القنائي : العواساء : الحامل من الخنافس وأنشد : بكرأ عواساء تفاسا مُقرباً

أعاجيب الجعل

قال : ومن أعاجيب الجعل أنه يموت من ريح الورد ويعيش إذا أعيد إلى الروث ويضرب بشدة (مُهَرَّتْ
الأشداق عود قد كَمَلْ * كَأَنَّمَا قُمَصَ من لِيَطِرْ جُعَلْ) والجعل يظلُّ دهرًا لا جناحَ له ثم يثبت له جناحان
كالنمل الذي يغبر دهرًا لا جناحَ له ثم يثبت له جناحان وذلك عند هَلَكَتِهِ .

تطور الدعاميص

والدعاميص قد تغبر حينًا بلا أجنحة ثم تصير فراشًا وبعوضًا وليس كذلك الجراد والذَّبَّان لأنَّ أجنحتها
تثبت على مقدار من العمر ومرور من الأيام .

وزعم ثمامة عن يحيى بن خالد : أنَّ البرغوث قد يستحيل بعوضة .

عادة الجعل

والجعل يحرسُ التي ام فكلما قام منهم قائمٌ فمضى لحاجته تبعه طمعاً في أنه إنما يريد الغائط وأنشد بعضهم
قول الشاعر : (يبيتُ في مجلسِ الأَقْوامِ يَرْبُؤُهُم * كَأَنَّهُ شَرِطِيَّ باتَ في حَرَسِ) وأنشد بعضهم لبعض
الأعراب في هجائه رجلاً بالفسولة وبكثرة الأكل وبِعَظَم حِجْم النَّجْو : (حَتَّى إِذَا أَضْحَى تَدْرَى وَاكْتَحَل
* جَارَتِيهِ ثُمَّ وَلَّى فَنَثَلَ)

سمى القرني والجعل إذ كانا يقتاتان الزُّبْلَ أنوقين والأنوق : الرَّحْمَةُ وهي أحد ما يقتات العذرة وقال الأعشى
: (يا رَحْمًا قَاظَ على يَنْخُوب * يُعْجَلُ كَفَّ الخارِئِ المُطِيبِ) المطيب : الذي يستطيب بالحجارة أي يتمسحُ
بها وهم يسمُّون بالأنوق كلَّ شيءٍ يقتات النَّجْو والزُّبْلَ إلاَّ أنَّ ذلك على التشبيه لها بالرَّحْم في هذا المعنى
وحده وقال آخر : (يا أيُّهَذَا النَّاجِي نَبِّحِ القَبْلَ * يدْعُو عَلَيَّ كلما قام يُصَلِّ) (رافع كَفَّيْهِ كما يفري
الجُعْلُ * وقد ملأتُ بطنه حتى أتل) غيظاً فأَمسى ضَعْنُهُ قد اعتدل والقبل : ما أقبل عليك من الجبل وقوله
أتل أي امتلأ عليك غيظاً فقَصَرَ في مشيته وقال الجعدي : (منعَ الغدر فلم أهتم به * وأخو الغدر إذا همَّ
فعل) (خشيةُ الله وأني رجلٌ * إنما ذكري كنار بقبل)

وقال الرَّاجز وهو يهجو بعضهم بالفسولة وبكثرة الأكل وعِظَم حِجْم النَّجْو : باتَ يَعِشِي وحده أَلْفِي جُعْل
(إذا لاقيتَ جمع بني أبان * فإني لَأَنَّم للجعْدِ لاحي) (كسوتُ الجعد جَعْد بني أبان * ردائي بعد عُرِّي
وافترض) ثم شَبَّهه بالجعل فقال : (كأنَّ مؤشَرَ العَصْدَيْنِ جَحَلًا * هُدُوجاً بين أَقْلَبَةِ مِلاح) (تضمن
نعمتي فعدا عليها * بُكُوراً أو تَجَرَّ في الرِّواح)
وقال الشَّمَّاح : (وإنَّ يُلْقِيَا شَأْواً بَارِضٍ هوى له * مفروضُ أطرافِ الدَّرَاعَيْنِ أَفْلَحِ)

استطرد لغوي والشأ هاهنا : الرّوث كأنه كثره حتّى ألحقه بالشأ الذي يخرج من البئر كما يقول أحدهم إذا أراد أن يُنقي البئر : أخرج من تلك البئر شأواً أو شأوين يعني من التراب الذي قد سقط فيها وهو شيء كهيئة الرّيبيل الصّغير .

والشأو : الطّلق والشأو : الفوت .

والمفرض الأفلج الذي عنى هو الجعل لأنّ الجعل في قوائمه تحزير وفيها تفريج .

معرفة في الجعل

وللجعل جناحان لا يكادان يُريان إلاّ عند الطّيران لشدة سوادهما وشبههما بجلده ولشدة تمكّنها في ظهره . قال الشاعر حيث عدّد الخوّة وحثّ الأمير على محاسبتهم : (واشدّد يديك بزيد إن ظفرت به ** واشف الأرامل من دُحروجة الجعل) والجعل لا يدحرج إلاّ جعراً يابساً أو بعة . وقال سعد بن طريف يهجو بلال بن رباح مولى أبي بكر : (وذاك أسود نوبيّ له ذفر ** كأنه جُعْل يمشي بقرواح) وسنذكر شأنه وشأن بلال في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

أبو الخنافس وأبو العقارب

وكان بالكوفة رجلاً من ولد عبد الجبار بن وائل بن حُجر الحضرميّ يكنى أبا الخنافس راضياً بذلك ولم تكن الكنية لقباً ولا نبزاً وكان من الفقهاء وله هيئة ورواء وسألته : هل كان في آبائه من يكنى أبا الخنافس فإن أبا العقارب في آل سلم مولى بني العباس كثير على اتباع أثر وكان أبو الخنافس هذا اكنى به ابتداءً . وقال لي أبو الفضل العنبري : يقولون : الضّب أطول شيء ذمّاء والخنافس أطول منه ذمّاء وذلك أنه يُغرز في ظهرها شوكة ثاقبة وفيها ذبالة تستوقد وتُصيح لأهل الدار وهي تدبُّ بها

وتجول وربما كانت في تضاعيف جبل قتّ أو في بعض الحشيش والعُشب والخلا فتصير في فم الجمل فيبتلعها من غير أن يضغّم الخنافس فإذا وصلت إلى جوفه وهي حيّة جالت فيه فلا تموت حتى تقتله . فأصحاب الإبل يتعاورون تلك الأوراريّ والعلوفات خوفاً من الخنافس .

هجاء جواس لحسان بن بحدل وقال جواس بن القعطل في حسان بن بحدل : (هل يهلكني لا أبالكُم ** دَنَسُ الثيابِ كطابخِ القدرِ) (جُعْلٌ تمطّى في عمايته ** زَمِرُ المروءةِ ناقصُ الشّبرِ) (لزبابة سوداء حنظلة ** والعاجز التّدبير كالوَبَرِ)

فأمّا الهجاء والمدح ومفاخرة السّودان و الحمران فإنّ ذلك كلّهُ مجموعٌ في كتاب الهجاء والصّرحاء . وقد قدّمنا في صدر هذا الكتاب جملةً في القول في الجعلان وغير ذلك من الأجناس اللّيمة

المهدد

وأما القول في الهدهد فإن العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزة التي على رأسه ثوابٌ من الله تعالى على ما كان من برّه لأُمّه لأنّ أمّه لما ماتت جعل قبرها على رأسه فهذه القنزة عوضٌ عن تلك الوهدة .
والهدهد طائرٌ مُنتن الريح والبدن من جوهره وذاته فربّ شيءٍ يكون مُنتنًا من نفسه من غيرِ عَرَضٍ يعرِضُ له كالتيوس والحيات وغير ذلك من أجناس الحيوان .
فأما الأعراب فيجعلون ذلك التَّنّ شيئاً خامره بسبب تلك الجيفةِ

التي كانت مدفونة في رأسه وقد قال في ذلك أميّة أو غيره من شعرائهم فأما أميّة فهو الذي يقول : (تَعَلَّمَ
بأنّ الله ليس كصنعه * صنيعٌ ولا يخفى على الله ملحدٌ) (وبكل منكرةٍ له معروفة * أخرى على عين بما
يتعمّد) (جُدُدٌ وتوشيم ورسمُ علامة * وخزائنٌ مفتوحة لا تنفدُ) (عمن أراد بها وجاب عيانه * لا
يستقيم خالق يتريدُ) (غيم وظلماء وغيث سحابة * أزمان كفّن واستراد الهدهدُ) (مهذاً وطينا فاستقل
بحمله * في الطير يحملها ولا يتأودُ) (من أمّه فجزي بصالح حملها * ولداً وكلف ظهره ما تفقد) (فتراه
يدلّح ما مشى بجنازة * فيها وما اختلف الجديد المسند)

معرفة الهدهد بمواضع المياه

ويزعمون أنّ الهدهد هو الذي كان يدلّ سليمان عليه السلام على مواضع المياه في قعور الأرضين إذا أراد
استنباط شيء منها .

سؤال ومثل في الهدهد

ويروون أنّ نجدة الحُروريّ أو نافع بن الأزرق قال لابن عباس : إنك تقول إنّ الهدهد إذا نقر الأرض عرف
مسافة ما بينه وبين الماء والهدهد لا يُبصر الفخّ دُوين التراب حتى إذا نقر التمرة انضمّ عليه

الفخّ فقال : ابنُ عبّاس إذا جاء القدرُ عمي البصرُ .

ومن أمثالهم : إذا جاء الحينُ غطّى العين .

وابن عباسٍ إن كان قال ذلك فإنما عنى هدهد سليمان عليه السلام بعينه فإنّ القول فيه خلافُ القول في
سائر الهداهد .

وقد قال الناس في هدهد سليمان و غراب نوح و حمار عُزير وذئب أهبان بن أوس وغير ذلك من هذا الفنّ
أقوال وسنقول في ذلك بجملة من القول في موضعه إن شاء الله .

بيت الهدهد

وقد قال صاحبُ المنطق وزعم في كتاب الحيوان أنّ لكلّ طائرٍ يعيش شكلاً يتخذ عشّه منه فيختلف ذلك
على قدر اختلاف المواضع

وعلى قدر اختلاف صور تلك القراميص والأفاحيص وزعم أن المدهد من بينها يطلب الزبل حتى إذا وجده نقل منه كما تنقل الأرضة من التراب ويبنى منه بيتاً كما تبنى الأرضة ويضع جزءاً على جزء فإذا طال مُكثته في ذلك البيت وفيه أيضاً ولد أو في مثله وترى ريشه وبدنه بتلك الرائحة فأحلق به أيضاً أن يورث ابنه النتن الذي علقه كما أورث جدُّه أباه وكما أورثه أبوه قال : ولذلك يكون منبتاً . وهذا وجه أن كان معلوماً أنه لا يتخذ عشه إلا من الزبل .

فأما نسل كثير فيزعمون أن رُبَّ بدن يكون طيب الرائحة كفارة المسك التي ربما كانت في البيوت ومن ذلك ما يكون مُنبتن البدن كالذي يحكى عن الحيات والأفاعي والثعابين ويوجد عليه الثيوس .

اغتيال

وذكر صاحب المنطق أن الطير الكبير الذي يسمى باليونانية اغتيال يحكم عشه ويتقنه ويجعله مستديراً مُدخلاً كأنه كرة معمولة وروى أنهم يزعمون أن هذا الطائر يجلب الدارصيني من موضعه فيفرش به عشه ولا يعيش إلا في أعالي الشجر المرتفعة المواضع قال : وربما عمد الناس إلى سهام يشدون عليها رصاصاً ثم يرمون بها أعشيتها فيسقط عليهم الدارصيني فيلنقطونه ويأخذونه . من زعم البحرين في الطير يزعم البحرّيون أن طائرين يكونان ببلاد السفالة أحدهما يظهر قبل قدوم السفن إليهم وقبل أن يمكن البحر من نفسه لخروجهم في متاجرهم فيقول الطائر : قرب آمداً فيعلمون بذلك أن الوقت قد دنا وأن الإمكان قد قرب .

قالوا : ويجيء به طائر آخر وشكل آخر فيقول : سمارو وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم فيسمون هذين الجنسين من الطير : قرب وسمارو كأنهم سمّوهما بقولهما وتقطيع أصواتهما كما سمّت العرب ضرباً من الطير القطا لأن القطا كذلك تصيح وتقطيع أصواتها قطا وكما سمّوا البيغاء بتقطيع الصوت الذي ظهر منه . فيزعم أهل البحر أن ذينك الطائرين لا يطير أحدهما أبداً إلا في إناث وأن الآخر لا يطير أبداً إلا

وفاء الشفنين

وزعم لي بعض الأطباء ممن أصدق خبره أن الشفنين إذا هلك أنثاه لم يتزوج وإن طال عليه التعرّب وإن هاج سفد ولم يطلب الزواج .

من عجائب الطير

وحكوا أن عندهم طائرين أحدهما وافي الجناحين وهو لم يطير قط والآخر وافي الجناحين ولكنه من لدن ينهض للطير إن فلا يزال يطير ويقتات من الفراش وأشبه الفراش وأنه لا يسقط إلا ميتاً إلا أنهم ذكروا أنه قصير العمر .

كلام في قول أرسطو ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدارصيني وإن كنت لا أعرف الوجه في أن طائراً ينهض من وكره في الجبال أو بفارس أو باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدارصيني وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد أو من القواطع وإن كان من القواطع فكيف يقطع الصَّحَّاحان الأملس

وبطون الأودية وأهضام الجبال بالتدويم في الأجواء وبالمضي على السمت لطلب ما لم يره ولم يشمه ولم يذقه وأخرى فإنه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً إلا بالاختلاف الطويل وبعد فإنه ليس بالوطيء الوثير ولا هو له بطعام .
فأنا وإن كنت لا أعرف العلة بعينها فلست أنكر الأمور من هذه الجهة فاذكر هذا .

قول أبي الشيص في الهدهد

وقال أبو الشيص في الهدهد : (لا تأمنن على سري وسركم ** غيري وغيرك أو طي القراطيس) (أو طائر ساحليه وأنعته ** ما زال صاحب تنقير وتدسيس)

(سود برائه ميل ذوائبه ** صفر حمالقه في الحسن مغموس) (قد كان هم سليمان ليذبحه ** لولا سعايته في ملك بلقيس) وقد قدمنا في هذا الكتاب في تصاعيفه عدة مقطعات في أخبار الهدهد .

الرخم

و يقال : إن لنام الطير ثلاثة : الغربان والبوم والرخم

أسطورة الرخم

ويقال : إنه قيل للرَّحمة : ما أحمكت قالت : وما حُمقي وأنا أقطع في أول القواطع وأرجع في أول الرواجع ولا أطيّر في التحسير

ولا أغتر بالشكير ولا أسقط على الجفير .

وقد ذكرنا تفسير هذا وقال الكميّ : (إذ قيل يا رخم انطقي ** في الطير إنك شر طائر) بعض الملوك العجم والجلندي الزدي وقال أبو الحسن المدائني : أمر بعض ملوك العجم الجلندي بن عبد العزيز الأزدي وكان يقال له في الجاهلية عرجلة فقال له : صدي شر الطير واشوه بشر الحطب وأطعمه شر الناس فصاد رحمة وشواها بعر وقرّبها إلى خوزي فقال له الخوزي : أخطأت

في كل شيء أمرك به الملك : ليس الرحمة شر الطير وليس البعرة شر الحطب وليس الخوزي شر الناس ولكن اذهب فصد بومة واشوها بدفلى وأطعمها نبطياً ولد زني ففعل وأتى الملك فأخبره فقال : ليس يحتاج

الغراب والرحمة

والغراب يقوى على الرحمة أعظم من الغراب وأشدُّ والرحمة تلمس لبيضها المواضع البعيدة والأماكن الوحشية والجبال الشامخة وصُدوع الصخر فلذلك يقال في بيض الأنوق ما يقال .
ما قيل في بيض الأنوق وقال عُتْبَةُ بْنُ شَمْسٍ : (إِنَّ أَوْلَى بِالْحَقِّ فِي كُلِّ حَقٍّ ** ثُمَّ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ حَقِيقًا)

(مِنْ أَبَوْهُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرِوَا ** نَ وَمَنْ كَانَ جُلَّةَ الْفَارُوقِ) (رَدَّ أَمْوَالَنَا عَلَيْنَا وَكَانَتْ ** فِي ذُرَى شَاهِقِ تَفُوتِ الْأَنْوَقِ) وطلب رجلٌ من أهل الشام الفريضة من معاوية فجاءه بها فسأل لولده فأبى فسأله لعشيرته فقال معاوية : (طلب الأبلق العقوق فلما ** لم يجده أراد بيض الأنوق) وليس يكون العقوق إلا من الإناث فإذا كانت من الأبلق كانت بقاء وإما هذا كهولهم : زَلَّ فِي

وقد يرون بيض الأنوق ولكن ذلك قليلاً ما يكون وأقل من القليل لأنَّ بيضها في المواضع الممتعة وليست فيها منافع فيتعرض في طلبها للمكروه .
وأنا أظنُّ أن معاوية لم يقل كما قالوا : ولكنه قدم في اللفظ بيض الأنوق فقال : طلب بيض الأنوق فلما لم يجده طلب الأبلق العقوق .

ما يسمَّى بالهدهد وأما قول ابن أحرر : (يمشي بأوظفةٍ شديدٍ أسرها ** شَمَّ السَّنَابِكِ لَا تَقِي بِالْجُدُجِ) (إِذْ صَبَحَتْهُ طَاوِيًا ذَا شِرَّةٍ ** وَفَوَّادُهُ زَجَلٌ كَعَرْفِ الْمَهْدِ)

فقد يكون ألا يكون عني بهذا الهدهد لأنَّ ذكورة الحمام وكلَّ شيء غنى من الطير وهدر ودعا فهو هُدهد ومن روى كَعَرْفِ الْمَهْدِ فليس من هذا في شيء .

وقد قال الشاعر في صفة الحمام : (وَإِذَا اسْتَشَرْنَ أَرْنَ فِيهَا هَدَهُدٌ ** مِثْلُ الْمَدَاكِ خَضْبَتِهِ بِجَسَادِ)
قصة في ميل بعض النساء إلى المال وخطب رجلٌ جميلٌ امرأةً وخطبها معه رجلٌ دميمٌ فتزوجت الدميم لماله وتركتها فقال :

(سَقَطَ : بَيْتُ الشَّعْرِ) (أَلَا يَا عِبَادَ اللَّهِ مَا تَأْمُرُونِي ** بِأَحْسَنَ مِنْ صُلَى وَأَقْبَحَهُمْ بَعَلَا) (يَدِبُّ عَلَى أَحْسَانِهَا كُلَّ لَيْلَةٍ ** دَيْبَ الْقَرْيَةِ بَاتَ يَقْرُو نَقًّا سَهْلًا)

ما يطلب العذرة

والأجناس التي تريد العذرة وتطلبها كثيرة كالخنازير والدجاج والكلاب والجراد وغير ذلك ولكنها لا تبلغ مبلغ الجعل والرحمة .

بعض ما يأكل الأعراب من الحيوان وقال ابن أبي كريمة : كتُّ عند أبي مالك عمرو بن كِرْكِرَة وعنده أعرابيٌّ فجري ذكر القرئى قال : فقلت له : أتعرف القرئى

قال : وما لي لا أعرف القرنبي فو الله لربما لم يكن غدائي إلا القرنبي يُحسّسُ لي قال : فقلت له : إنها دويّة تأكل العذرة قال : ودجاجكم تأكل العذرة .
وقال : قال بعض المدنيّين لبعض الأعراب : أتأكلون الحيات والعقارب والجعلان والخنافس فقال : نأكل كلّ شيء إلا أمّ حنين قال : فقال المدنيّ : لتهنّ أمّ الحنين العافية .
قال : وحدثنا ابن جريج عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من الدوابّ أربع لا يُقتلن : النملة والنحلة والصرّد والهدّهد .

الخفّاش

فأول ذلك أن الخفّاش طائر وهو مع أنّه طائرٌ من عَرَضِ الطير فإِنَّه شديد الطيران كثير التكفّي في الهواء سريع الثقلب فيه ولا

يجوز أن يكون طعمه إلا من البعوض وقوته إلا من الفراش وأشباه الفراش ثمّ لا يصيده إلا في وقت طيرانه في الهواء وفي وقت سلطانه لأنّ البعوض إنّما يتسلط بالليل ولا يجوز أن يبلغ ذلك إلا بسرعة اختطافٍ واختلاس وشدة طيران ولين أعطاف وشدة متن وحسن تأتٍ ورفقٍ في الصيد وهو مع ذلك كلّه ليس بذى ريش وإنما هو لحم وجلد فطيرانه بلا ريش عجب وكلما كان أشدّ كان أعجب .

من أعاجيب الخفّاش

ومن أعاجيبه أنّه لا يطير في ضوء ولا في ظلمة وهو طائر ضعيفُ قوَى البصر قليلُ شعاع العين الفاصل من النّاطر ولذلك لا يظهر في الظلمة لأنّها تكون غامرة لضياء بصره غالباً لمقدار قوَى شعاع ناظره ولا يظهر نهراً لأنّ بصره لضعف ناظره يلتمع في شدة بياض النهار ولأنّ الشيء المتألّئ ضارّ لعيون الموصوفين بحدة البصر

ولأنّ شعاع الشمس بمخالفة مخرج أصوله وذهابه يكون رادعاً لشعاع ناظره ومفرّقاً له فهو لا يبصر ليلاً ولا نهراً فلما علم ذلك واحتاج إلى الكسب والطعم التمس الوقت الذي لا يكون فيه من الظلام ما يكون غامراً قاهراً وعالياً غالباً ولا من الضياء ما يكون مُعشياً رادعاً ومفرّقاً قامعاً فالتمس ذلك في وقت غروب القرص وبقية الشفق لأنّه وقت هيّج البعوض وأشباه البعوض وارتفاعها في الهواء ووقت انتشارها في طلب أرزاقها فالبعوض يخرج للطعم وطعمه دماء الحيوان وتخرج الخفافيش لطلب الطعام فيقع طالبُ رزق على طالب رزق فيصير ذلك هو رزقه وهذا أيضاً مما جعل الله في الخفافيش من الأعاجيب .

علاقة الأذن بنتاج الحيوان

ويزعمون أن السُّكَّ الآذان والممسوحة من جميع الحيوان أنها تبيضُ بيضاً وأنَّ كلَّ أشرف الآذان فهو يلد ولا يبيض ولا ندرى لم كان الحيوان إذا كان أشرفُ الآذان ولد وإذا كان ممسوحاً باض .
ولآذان الخفافيش حجمٌ ظاهر وشخص يَبِّن وهي وإن كانت من الطير فإنَّ هذا لها وهي تجل وتلد وتحيض وترضع .

ما يحيض من الحيوان

وقد زعم صاحب المنطق أنَّ ذوات الأربع كُلَّها تحيضُ على اختلافٍ في القلَّة والكثرة والزَّمان والحمرة والصفرة والرقَّة والغلظ قال : ويبلغ من ضنِّ أنثى الخفافيش بولدها ومن خوفها عليه أنها تحمله تحت جناحها وربَّما قبضت عليه بفيها وربَّما أرضعته وهي تطير وتقوى من ذلك ويقوى ولدها على ما لا يقوى عليه الحمام والشَّاهمرك وسباع الطير .

معارف في الخفّاش

وقال معمرٌ أبو الأشعث : ربَّما أتامت الخفافيشُ فتحمل معها الولدين جميعاً فإنَّ عظماً عاقبتُ بينهما .
والخفّاش من الطير وليس له منقار مخروط وله فمٌ فيما بين مناسر السِّباع وأفواه البوم وفيه أسنانٌ حداد صلاب مرصوفة من أطراف الخنك إلى أصول الفك إلا ما كان في نفس الخطم وإذا قبضت على الفرخ وعضت عليه لتطير به عرفت ذرّب أسنانها فعرفت أي نوع ينبغي أن يكون ذلك العض فنجعله أزمأً
ولا تجعله عضاً ولا تنبيهاً ولا ضُعماً كما تفعل الهرة بولدها فإنَّها مع ذرّب أنيابها وحلّة أظفارها ودقّتها لا تحدش لها جلداً إلا أنها تُمسكها ضرباً من الإمساك وتأزم عليها ضرباً من الأزم قد عرّفته .
وقد نرى الطائر يغوص في الماء فহারه ثم يخرج منه كالشَّعرة سلّتها من العيجن غير مبتلّ الریش ولا لتقّ الجناحين ولو أن أرقق الناس رفقا راهن على أن يغمس طائراً منها في الماء غمسةً واحدة ثم خلّى سربه ليكون هو الخارج منه لخرج وهو متعجّن الریش مُفسد النظم مقبوض التآليف ولكان أجود ما يكون طيراً أن يكون كالجداد فهذا أيضاً من أعاجيب الخفّاش .

من أعاجيب الخفافيش

ومن أعاجيبها تركها ذرى الجبال وبسيط الفياض وأقلام النخل وأعالى الأغصان ودغل الغياض والرياض وصدوع الصّخر وجزائر البحر ومحيثها تطلب مساكن الناس وقربهم ثم إذا صارت إلى بيوتهم وقربهم قصدت إلى أرفع مكان وأحصنه وإلى أبعد المواضع من مواضع الاجتياز وأعرض الحوائج .

طول عمر الخفّاش

ثمَّ الخَفَاشُ بعد ذلك من الحيوان الموصوف بطول العمر حتى يجوز في ذلك العُقَابَ والورشان إلى النسر ويجوز حد الفيلة والأسد وحمير الوحش إلى أعمار الحيات .

ومن أعاجيب الخفافيش أنَّ أبصارها تصلح على طول العمر ولها صبرٌ على طول فقد الطعم فيقال إنَّ اللواتي يظهرن في القمر من الخفافيش المستات المعمرات وإنَّ أولادهن إذا بلغن لم تقو أبصارهنَّ على ضياء القمر .

ومن أعاجيبها أنَّها تضخم وتجسم وتقبل الشحم على الكبر وعلى السن .

القدرة التناسلية لدى بعض الحيوان

وقد زعم صاحب المنطق أنَّ الكلاب السلوقيَّة كلما دخلت في السنَّ كان أقوى لها على المعازلة . وهذا غريبٌ جداً وقد علمنا أنَّ الغلام أحدُّ ما يكون وأشقُّ وأنكحُ وأحرصُ عند أوّل بلوغه ثم لا يزال كذلك حتى يقطعه الكبر أو إصفاء أو تعرض له آفة . ولا تزال الجارية من لدن إدراكها وبلوغها وحركة شهوتها على شبيه بمقدار واحد من ضعف الإرادة وكذلك عامتتهنَّ فإذا اكتهلن

وبلغت المرأة حدَّ التّصف فعند ذلك يقوى عليها سلطانُ الشّهوة والحرص على الباهِ فإنما تميج الكهلة عند سُكون هيج الكهل وعند إدبار شهوته وكلال حلّه . وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش فإنهم يزعمون أنَّ الخفّاش إذا عضَّ الصبي لم ينزع سنّه من لحمه حتى يسمع هميق حمار وحشيٍّ فما أنسى فرعي من سنِّ الخفّاش ووحشي من قربه إيماناً بذلك القول إلى أن بلغت . وللنساء وأشباه النساء في هذا وشبهه خرافاتٌ عسى أن نذكر منها شيئاً إذا بلغنا إلى موضعه (إن شاء الله .

ضعف البصر لدى بعض الحيوان

ومن الطير وذوات الأربع ما يكون فاقد البصر بالليل ومنها ما يكون سيّء البصر فأما قولهم : إنّه الفأرة والسنور وأشياء أخر أبصر بالليل فهذا باطل .

والإنسان رديء البصر بالليل والذي لا يبصر منهم بالليل تسميه الفرس شبكُور وتأويله أنّه أعمى ليلٍ وليس له في لغة العرب اسم أكثر من أنّه يُقال لمن لا يُبصر بالليل بعينه : هُدب ما سمعتُ إلا بهذا فأما

الأغطش فإنه السيء البصر بالليل والنهار جميعا .
وإذا كانت المرأة مُعْرِبة الْعَيْن فكانت رديّة البصر قيل لها : جَهْرَاء وأنشد الأصمعيّ في الشاء : (جهراء لا تألو إذا هي أظهرت ** بصراً ولا من عيلة تُغني)

وذكروا أنّ الأجهر الذي لا يبصر في الشمس وقوله لا تألو أي لا تستطيع وقوله : أظهرت صارت في الظهيرة والعيلة : الفقر قال : يعني به شاة .
وقال يحيى بن منصور في هجاء بعض آل الصّعق : (يا ليتني والمنى ليست بمغنية ** كيف اقتصاصك من ثار الأحايش) (أتكحون مواليهم كما فعلوا ** أم تغمضون كإغماض الخفافيش) وقال أبو الشمقمق وهو مروان بن محمد : (أنا بالأهواز محزو ** وبالبصرة داري) (في بني سعدٍ وسعد ** حيث أهلي وقراري) (صرت كالحفاش لا أب ** صر في ضوء النهار) وقال الأخطل التغلبيّ : (وقد غبر العجلان حيناً إذا بكى ** على الزاد ألقته الوليدة في الكسر)

(فيصبح كالحفاش يدلك عينه ** فقبح من وجه لئيم ومن حجر) وقالوا : السحاة مقصورة : اسم الحفاش والجمع سحاً كما ترى .
وقالوا في اللّغز وهم يعنون الحفاش : (أبي شعراء التّلس لا يُخبروني ** وقد ذهبوا في الشّعري في كلّ مذهب) (بجلدة إنسان وصورة طائر ** وأظفار يربوع وأنياب ثعلب)

النهي عن قتل الضفادع والخفافيش

هشام الدّستوائي قال : حدّثنا قتادة عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن عمر أنّه قال : لا تقتلوا الضفادع فإنّ نقيعهنّ تسبيح ولا تقتلوا الحفاش فإنه إذا خرب بيت المقدس حيث حرق ولا تقتلوا الضفادع فإنّ نقيعها أغرقهم .

حماد بن سلمة قال : حدّثنا قتادة عن زرارة بن أوفى قال : قال عبد الله بن عمر : لا تقتلوا الحفاش فإنه استأذن في البحر : أن يأخذ من مائه فيطفي نار بيت المقدس حيث حرق ولا تقتلوا الضفادع فإنّ نقيعها تسبيح .

قال : وحدّثنا عثمان بن سعيد القرشي قال : سمعت الحسن يقول : فمى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الوطواط وأمر بقتل الأوزاغ .

قال : والحفاش يأتي الرمانة وهي على شجرهما فينقب عنها فيأكل كلّ شيء فيها حتى لا

قال : ولحوم الخفافيش موافقة للشواهين والصقورة والبوازي ولكثير من جوارح الطير وهي تسمن عنها وتصح أبدانها عليها ولها في ذلك عمل محمود نافع عظيم النفع بين الأثر والله سبحانه وتعالى أعلم .

الجزء الرابع

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ نَبْدَأُ فِي هَذَا الْجُزْءِ بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَأْيِيدِهِ بِالْقَوْلِ فِي جُمْلَةِ الذَّرَّةِ وَالنَّمْلَةِ كَمَا شَرَطْنَا بِهِ آخِرَ الْمَصْحَفِ الثَّالِثِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

خصائص النملة

قد علمنا أنَّ ليس عند الذَّرَّةِ غَنَاءُ الْفَرَسِ فِي الْحَرْبِ وَالذَّفْعُ عَنِ الْحَرِيمِ وَلَكِنَّا إِذَا أَرَدْنَا مَوْضِعَ الْعَجَبِ وَالتَّعْجِيبِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى التَّدْبِيرِ ذَكَرْنَا الْحَسِيسَ الْقَلِيلَ وَالسَّخِيفَ الْمِهِينِ فَأَرَيْنَاكَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحِسِّ اللَّطِيفِ وَالتَّقْدِيرِ الْغَرِيبِ وَمِنَ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ وَمَشَاكِلَةِ الْإِنْسَانِ وَمَزَاجَتِهِ .
وَالْإِنْسَانُ هُوَ الَّذِي سُخِّرَ لَهُ هَذَا الْفَلَكَ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ .

وقد علمنا أنَّ الذَّرَّةَ تَدْخُرُ لِلشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ وَتَتَقَدَّمُ فِي حَالِ الْمُهْلَةِ وَلَا تُضَيِّعُ أَوْقَاتَ إِمْكَانِ الْحَزْمِ ثُمَّ يَلِغُ مِنْ تَفَقُّدِهَا وَحُسْنِ خَبَرِهَا وَالنَّظَرِ فِي عَوَاقِبِ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَخَافُ عَلَى الْحُبُوبِ الَّتِي ادَّخَرَتْهَا لِلشِّتَاءِ

فِي الصَّيْفِ أَنْ تَعْفَنَ وَتُسْوَسَ يَقْبِلُهَا بَطْنُ الْأَرْضِ فَتَخْرِجُهَا إِلَى ظَهَرِهَا ثُمَّ رُبَّمَا كَانَ بَلْ يَكُونُ أَكْثَرُ مَكَائِهَا نَدِيًّا وَإِنْ خَافَتْ أَنْ تَنْبِتَ نَقَرَتْ مَوْضِعَ الْقَطْمِيرِ مِنْ وَسْطِ الْحَبَّةِ وَتَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ تَبْتَدِئُ وَتَنْبِتُ وَتَنْقُلُ فَهِيَ تَفْلُقُ الْحَبَّ كُلَّهُ أَنْصَافًا فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْحَبُّ مِنَ حَبِّ الْكَزْبُرَةِ فَلَقْتَهُ أَرْبَاعًا لِأَنَّ أَنْصَافَ حَبِّ الْكَزْبُرَةِ يَنْبِتُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْحُبُوبِ فَهِيَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مَجَاوِزَةٌ لِفِطْنَةِ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ حَتَّى رُبَّمَا كَانَتْ فِي ذَلِكَ أَحْزَمَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَلَهَا مَعَ لَطَافَةِ شَخْصِهَا وَخِفَّةِ وَزْنِهَا فِي الشَّمِّ وَالِاسْتِرَاحِ مَا لَيْسَ لَشَيْءٍ .
وَرُبَّمَا أَكَلَ الْإِنْسَانُ الْجَرَادَ أَوْ بَعْضُ مَا يَشْبَهُ الْجَرَادَ فَتَسْقُطُ مِنْ يَدِهِ الْوَاحِدَةُ أَوْ صَدْرُ الْوَاحِدَةِ وَلَيْسَ يَرَى بِقُرْبِهِ ذَرَّةٌ وَلَا لَهُ بِالذَّرِّ عَهْدٌ

فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ فَلَا يَلْبِثُ أَنْ تُقْبَلَ ذَرَّةٌ قَاصِدَةٌ إِلَى تِلْكَ الْجَرَادَةِ فَتَرُومُهَا وَتَحَاوِلُ قَلْبُهَا وَنَقْلُهَا وَسَحْبُهَا وَجَرَّهَا فَإِذَا أَعْجَزَتْهَا بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ عُذْرًا مَضَتْ إِلَى جُحْرِهَا رَاجِعَةً فَلَا يَلْبِثُ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَرَاهَا قَدْ أَقْبَلَتْ وَخَلَفَهَا صُوبَ مَجَائِزِهَا كَالْحَيْطِ الْأَسْوَدِ الْمَمْدُودِ حَتَّى يَتَعَاضَدَ عَلَيْهَا فَيَحْمِلُهَا فَأَوَّلُ ذَلِكَ صِدْقُ الشَّمِّ لَمَّا لَا يَشْمُهُ الْإِنْسَانُ الْجَائِعُ ثُمَّ بَعْدَ الْهَمَّةِ وَالْجَرَادَةِ عَلَى مُحَاوَلَةِ نَقْلِ شَيْءٍ فِي وَزْنِ جَسْمِهَا مِائَةَ مَرَّةٍ وَأَكْثَرَ مِنْ (مِائَةِ مَرَّةٍ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوَانِ يَقْوَى عَلَى حَمْلِ مَا يَكُونُ ضَعْفُ وَزْنِهِ مَرَارًا غَيْرَهَا وَعَلَى أَنَّهُ لَا تَرْضَى بِأَضْعَافِ الْأَضْعَافِ إِلَّا بَعْدَ اقْطَاعِ الْأَنْفَاسِ فَإِنْ قُلْتُ : وَمَا عَلَّمَ الرَّجُلَ أَنَّ الَّتِي حَاوَلَتْ نَقْلَ الْجَرَادَةِ فَعَجَزَتْ هِيَ الَّتِي أَخْبَرَتْ صُوبَ مَجَائِزِهَا مِنَ الذَّرِّ وَأَنَّهَا كَانَتْ عَلَى مَقْدَمَتَيْنِ قَلْنَا : لِطُولِ التَّجَرُّبَةِ وَلَأَنَّا لَمْ نَرِ ذَرَّةً قَطْ حَاوَلَتْ نَقْلَ جَرَادَةٍ فَعَجَزَتْ عَنْهَا ثُمَّ رَأَيْنَاهَا رَاجِعَةً إِلَّا رَأَيْنَا مَعَهَا مِثْلَ ذَلِكَ وَإِنْ كُنَّا لَا نَفْصِلُ فِي الْعَيْنِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَخَوَاتِهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ يَقَعُ فِي الْقَلْبِ غَيْرُ الَّذِي قَلْنَا وَعَلَى أَنَّنَا لَمْ نَرِ ذَرَّةً قَطْ حَمَلَتْ شَيْئًا أَوْ مَضَتْ إِلَى جُحْرِهَا فَارِغَةً فَتَلْقَاهَا

ذَرَّةٌ إِلَّا وَاقَفَتْهَا سَاعَةٌ وَخَبَّرَتْهَا بِشَيْءٍ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا فِي رَجْوَعِهَا عَنِ الْجَرَادَةِ إِنَّمَا كَانَتْ لِأَشْبَاهِهَا كَالرَّائِدِ لَا يَكْذِبُ أَهْلُهُ وَمِنَ الْعَجَبِ أَنَّكَ تُنْكِرُ أَنَّهَا تُوْحِي إِلَى اخْتِبَارِهَا بِشَيْءٍ وَالْقُرْآنُ قَدْ نَطَقَ بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ أضعافاً وَقَالَ رُوْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ : (لَوْ كُنْتُ غَلَمْتُ كَلَامَ الْحُكْلِ * عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامَ النَّمْلِ) وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَقَدْ أَخْبَرِ الْقُرْآنُ أَنَّهَا قَدْ عَرَفَتْ سُلَيْمَانَ وَأَثَبَتْ عَيْنَهُ وَأَنَّ عِلْمَ مَنْطِقِهَا عِنْدَهُ وَأَنَّهَا أَمَرَتْ صُوبِحَاتِهَا بِمَا هُوَ أَحْرَمٌ وَأَسْلَمَ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهَا تَعْرِفُ الْجُنُودَ مِنْ غَيْرِ الْجُنُودِ وَقَدْ قَالَتْ : (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) وَنَحْنُ أَكْبَرُ الْمُنْكَرِ تَبَسُّمُهُ بِجَاهِنَّ أَنَّكَ لَمْ تَعْرِفْ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَبَعْدَهُ شَيْئاً مِنْ هَذَا الشَّكْلِ مِنَ الْكَلَامِ وَلَا تَدْبِيرَ فِي هَذَا الْمَقْدَارِ وَأَمَّا مَا فَوْقَ ذَلِكَ فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَدَّعِيَهُ وَلَكِنْ مَا تُنْكِرُ مِنْ أَمْثَالِهِ وَأَشْبَاهِهِ وَمَا دُونَ ذَلِكَ وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهَا بَيَاناً وَقَوْلًا وَمَنْطَقًا يَفْصِلُ بَيْنَ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ بِسَبِيلِهَا فَعَلَهَا مَكْلَفَةٌ وَمَأْمُورَةٌ مِنْهِيَ وَمُطَبَّعَةٌ عَاصِيَةٌ فَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ مِنْ مَسَائِلِ الْجَهَالَاتِ وَإِنَّ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ الشُّبْهَةُ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ لِنَاقِصِ الرَّوْيَةِ رَدِّيُ الْفِكْرَةِ . وَقَدْ عَلِمْنَا وَهُمْ نَاسٌ وَلَهُمْ بِذَلِكَ فَضِيلَةٌ فِي الْغَرِيزَةِ وَفِي الْجَنَسِ وَالطَّبِيعَةِ وَهُمْ نَاسٌ إِلَى أَنْ يَنْتَهَوْا إِلَى وَقْتِ الْبُلُوغِ وَتُرْوَلِ الْقَرْضُ حَتَّى لَوْ وَرَدَتْ ذَرَّةٌ لَشَرِبَتْ مِنْ أَعْلَاهُ .

شعر فيه ذكر النمل

(سقط : الصفحة كاملة) (عند غيري فالتمس رجلاً * يَأْكُلُ التَّوْمَ وَالسَّلْعَا) (ذَاكَ شَيْءٌ لَسْتُ آكُلُهُ * وَأَرَاهُ مَا كَلَا فِطْعَا) وَقَالَ أَبُو النِّجْمِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ : (وَكَانَ نَشَابُ الرِّيحِ سَنِبِلَهُ * وَاخْضَرُ نَبْتَا سَدْرِهِ وَحَرْمَلِهِ) (وَأَبْيَضُ إِلَّا قَاعَهُ وَجَذُولَهُ * وَأَصْبَحَ الرُّوْضُ لَوِيَا حَوْصَلَهُ) (وَاصْفَرُّ مِنْ تَلَعٍ فَلِجٍ بِقَلِهِ * وَانْحَتَ مِنْ حَرَشَاءٍ فَلِجٍ وَخَرْدَلِهِ)

(سقط : بيتين الشعر) (وانشق عن فصيح سواء عنطله * وانفض البروق سودا فلفله) (واختلف النمل قطارا يبقله * طار عن المهر تسيل ينسله) (استطراد لغوي قال أبو زيد : الحَمْكَةُ الْقَمْلَةُ وَجَمْعُهُ حَمَكٌ وَقَدْ يَنْقَاسُ ذَلِكَ فِي الذَّرَّةِ .

قال أبو عبيدة : قرية النمل من الثراب وهي أيضاً جرثومة النمل وقال غيره : قرية النمل ذلك الثراب والجحر بما فيه من الذرّ والحبّ والمازن والمازن هو البيض وبه سمّوا ملازن .

قال أبو عمرو : الزبال ما حملت النملة بفيها ، وهو قول ابن مقبل : (كريم التّجارِ حمى ظهره * فلم يُرْتَرَأْ بِرُكُوبِ زَبَالَا)

شعر في التعذيب بالنمل

وأنشد ابن نُجَيْمٍ : (هَلَكُوا بِالرُّعَافِ وَالنَّمْلِ طَوْرًا ** ثُمَّ بَالَتْحَسِ وَالضَّبَابِ الذُّكُورِ) وقال الأَصْمَعِيُّ فِي تَسْلِيْطِ اللَّهِ الذَّرَّ عَلَى بَعْضِ الْأُمَمِ : (لَحَقُوا بِالزَّهَوِيِّينَ فَأَمْسُوا ** لَا تَرَى عُقْرَ دَارِهِمْ بِالْمِيْنِ) (سَلَّطَ اللَّهُ فَازِرًا وَعُقَيْفًا ** نَ فَجَازَاهُمْ بِدَارٍ شَطُونِ)

(يَتَّبِعُ الْقَارَّ وَالْمَسَافِرَ مِنْهُمْ ** تَحْتَ ظِلِّ الْهَدْيِ بَذَاتِ النُّصُونِ) فَازِرٌ وَعُقَيْفَانِ : صَنَفَانِ مِنَ الذَّرِّ وَكَذَلِكَ ذَكَرُوهُ عَنْ دَغْفَلِ بْنِ حَنْظَلَةَ النَّاسِبِ وَيُقَالُ : إِنَّ أَهْلَ قَهْمَةِ هَلَكُوا بِالرُّعَافِ مَرَّتَيْنِ قَالَ : وَكَانَ آخِرُ مَنْ مَاتَ بِالرُّعَافِ مِنْ سَادَةِ قَرِيْشٍ هِشَامُ بْنُ الْمَغِيْرَةِ .
قَالَ أُمِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ فِي ذَلِكَ : (نَزَعَ الذُّكْرُ فِي الْحَيَاةِ وَغَنَا ** وَأَرَاهُ الْعَذَابَ وَالتَّدمِيرَا) (ذَكَرُ النَّرِّ إِنَّهُ يَفْعَلُ الشَّرَّ ** رَّ وَإِنْ الْجَرَادُ كَانَ تُبُورَا)

النبي سليمان والنملة

وَقَرَأَ أَبُو إِسْحَاقَ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُودُهُ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهَمَّ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ فَقَالَ : كَانَ ذَلِكَ الْوَادِي مَعْرُوفًا بِوَادِي النَّمْلِ فَكَأَنَّهُ كَانَ حِمَى وَكَيْفَ تُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ حِمَى وَالنَّمْلُ رَبَّمَا أَجَلَتْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ عَنْ بِلَادِهِمْ .
وَلَقَدْ سَأَلَتْ أَهْلَ كَسَكِرَ فَقُلْتُ : شَعِيرُكُمْ عَجَبٌ وَأَرْزُكُمْ عَجَبٌ وَسِمَكُكُمْ عَجَبٌ وَجِدَاؤُكُمْ عَجَبٌ وَبَطْكُكُمْ عَجَبٌ وَدَجَاجُكُمْ عَجَبٌ فَلَوْ كَانَتْ لَكُمْ أَعْنَابٌ فَقَالُوا : كُلُّ أَرْضِ كَثِيرَةِ النَّمْلِ لَا تَصْلُحُ فِيهَا الْأَعْنَابُ ثُمَّ قَرَأَ : قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ فَجَعَلْتُكَ الْحِجْرَةَ مَسَاكِنَ وَالْعَرَبُ تَسْمِيهَا كَذَلِكَ ثُمَّ قَالَ : لَا يَخْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ فَجَمَعْتُ مِنْ اسْمِهِ وَعَيْنِهِ

وَعَرَفْتُ الْجُنْدَ مِنْ قَائِدِ الْجُنْدِ ثُمَّ قَالَتْ : وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَكَانُوا مَعْدُورِينَ وَكُنْتُمْ مَلُومِينَ وَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ فَلِذَلِكَ قَالَ : فَبَسَمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا لَمَّا رَأَى مِنْ بُعْدِ غُورِهَا وَتَسْدِيدِهَا وَمَعْرِفَتِهَا فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ : رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ قَالَ : وَيُقَالُ : الْطِفُّ مِنْ ذَرَّةٍ وَ : أَضْبَطُ مِنْ نَمْلَةٍ قَالَ : وَالنَّمْلَةُ أَيْضًا : قُرْحَةٌ تَعْرِضُ لِلسَّاقِ وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ قَالَ : وَيُقَالُ : أَنْسَبُ مِنْ ذَرِّ قَوْلٍ فِي بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ فَأَمَّا قَوْلُهُ : (لَوْ يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّ ** رَّ عَلَيْهَا لِأَنْدَبَتْهَا الْكَلُومُ)

فَإِنَّ الْحَوْلِيَّ مِنْهَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَسَائِلِهَا وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ : (تَلْقَطُ حَوْلِيَّ الْحَصَى فِي مَنَازِلٍ ** مِنْ الْحَيِّ أَمْسَتْ بِالْحَبِيِّينَ بَلْقَعَا) قَالَ : وَحَوْلِيَّ الْحَصَى : صَغَارُهَا فَشَبَّهَ بِالْحَوْلِيِّ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ

أحاديث وآثار في النمل

ابن جريج عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مِنَ الدَّوَابِّ أَرْبَعٌ لَا يُقْتَلْنَ : التَّمَلَّةُ وَالتَّحْلَةُ وَالصُّرْدُ وَالْهُدْهُدُ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَسْعُودِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَعْدٍ مَوْلَى عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْزِلًا فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَجَاءَ وَقَدْ أَوْقَدَ رَجُلٌ عَلَى قَرْيَةٍ نَمْلٌ إِمَّا فِي شَجَرَةٍ وَإِمَّا فِي أَرْضٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ فَعَلَ هَذَا أَطْفَنَهَا أَطْفَنَهَا وَيَجِيءُ بِنِيبٍ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ قَالَ أَنَبَأَنَا أَبُو زُرْعَةَ

عن أبي هريرة قال : نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَعَصَّتْهُ غَمْلَةٌ فَقَامَ إِلَى نَمْلٍ كَثِيرٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَقَتَلَهُنَّ فَقِيلَ لَهُ : أَفَلَا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ .

وعبد الله بن زياد المدني قال : أَخْبَرَنِي ابْنُ شَهَابٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَقَرَصَتْهُ نَمْلَةٌ فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا ثُمَّ أَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأَحْرَقَتْ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ غَمْلَةٌ أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ يَسْبَحُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَهَلَّا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ يَجِيءُ بِنِيبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ الْغُبَرَةِ بْنِ الْحَارِثِ الرَّمَّانِيُّ عَنْ هِشَامِ الدَّسْتَوَائِيِّ قَالَ : إِنَّ النَّمْلَ وَالذَّرَّ إِذَا كَانَا فِي الصَّيْفِ كُلَّهُ يَنْقُلْنَ الْحَبَّ فَإِذَا كَانَ الشِّتَاءُ وَخِفْنَ أَنْ يَنْبِتَ فَلَقْنَهُ هِشَامُ بْنُ حَسَّانٍ أَنَّ أَهْلَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ لَقُوا مِنَ النَّمْلِ أَذَى فَأَمَرَ الْأَحْنَفُ بِكُرْسِيِّ فَوَضَعَ عِنْدَ جُحْرِهِمْ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَشَهَّدَ فَقَالَ : لَتَنْتَهَنَّ أَوْ لَنُحَرِّقَنَّ عَلَيْكَ أَوْ لَنَفْعَلَنَّ أَوْ لَنَفْعَلَنَّ قَالَ : فَذَهَبَ

وعوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال : قَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ : إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَادَةً حَتَّى إِنَّ لِلنَّمْلِ سَادَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ الْمَدَنِيُّ قَالَ : أَنَبَأَنَا ابْنُ شَهَابٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : خَرَجَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالنَّاسِ يَسْتَسْقُونَ فَإِذَا هُمْ بِنَمْلَةٍ رَافِعَةٍ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ ذَلِكَ النَّبِيُّ : ارْجِعُوا فَقَدْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ هَذَا النَّمْلِ مِسْعَرٌ بِنِيبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا زَيْدُ الْقَمِيِّ عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّاجِيِّ قَالَ : خَرَجَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْتَسْقِي فَرَأَى غَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا رَافِعَةً قَوَائِمَهَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ تَقُولُ :

اللَّهُمَّ إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ خَلْقِكَ لَيْسَ بِنَا غَنَى عَنْ (

سُقَيْكَ فَإِمَّا أَنْ تَسْقِينَا وَتَرْزُقَنَا وَإِمَّا أَنْ تُمِيتَنَا وَتُهْلِكَنا فَقَالَ : ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ .
تأويل آية وحدثني أبو الجهم قال : سَأَلَ أَبُو عَمْرٍو الْمُكَفُوفُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) فَتَبَسَّمَ صَاحِبُكَ مِنْ قَوْلِهَا فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ نَذِيرًا يَعْجَبُ مِنْهُ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ يَعْظُمُ خَطَرُهُ حَتَّى يُضْحِكُهُ لَعَجِبُ قَالَ : فَقَالَ : لَيْسَ التَّأْوِيلُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ قَالَ : فَإِنَّهُ قَدْ يُضْحِكُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ كَلَامِ الصَّبِيِّ وَمِنْ نَادِرَةِ غَرِيبَةٍ وَكُلُّ شَيْءٍ يَظْهَرُ مِنْ غَيْرِ مَعْدِنِهِ كَالنَّادِرَةِ تُسَمِعُ مِنَ الْجَنُونِ فَهُوَ يُضْحِكُ فَتَبَسَّمَ سُلَيْمَانُ عِنْدِي عَلَى أَنَّهُ اسْتَظَرَفَ ذَلِكَ الْمَقْدَارَ مِنَ التَّمَلَّةِ فَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ

وقال أبو الجهم : سألته عن قول أبي موسى : إن لكل شيء سادة حتى الذر قال : يقولون : إن سادتها اللواتي يخرجن من الجحر يرتدن بجماعتها ويستبقن إلى شم الذي هو من طعامهن

تأويل شعر لزهير وقال زهير : (وقال سأقضي حاجتي ثم أتقي * عذوي بألف من ورائي ملجم) (فشدة ولم تفزع يوت كثيرة * لدى حيث ألت رخلها أم قشعم) قال بعض العلماء : قرية النمل استطرد لغوي قال : ويقال في لسانه حبة : إذا كان في لسانه ثقل يمنع من البيان فإذا كان الثقل الذي في لسانه من قبل العجمة قيل : في لسانه حكلة والحكل من الحيوان كله ما لم يكن له صوت يستبان باختلاف مخارجه عند حرجه وضجره وطلبه ما يغذوه أو عند هياجه إذا أراد السفاد أو عند وعيد لقتال وغير ذلك من أمره . رأي الهند في سبب اختلاف كلام الناس وترجم الهند أن سبب ماله كثر كلام الناس واختلفت صور ألفاظهم ومخارج كلامهم ومقادير) أصواتهم في اللين والشنّة

وفي المد والقطع كثرة حاجاتهم وكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم واتسعت على قدر اتساع معرفتهم قالوا : فحوائج السنائر لا تعدو خمسة أوجه : منها صياحها إذا ضربت ولذلك صورة وصياحها إذا دعت أخواتها وآلفها ولذلك صورة وصياحها إذا دعت أولادها للطعم ولذلك صورة وصياحها إذا جمعت ولذلك صورة فلما قلت وجوه المعرفة وجوه الحاجات قلت وجوه مخارج الأصوات وأصواتها تلك فيما بينها هو كلامها وقالوا : ثم من الأشياء ما يكون صوتها خفياً فلا يفهمه عنها إلا ما كان من شكلها ومنها ما يفهم صاحبه بضروب الحركات والإشارات والشمائل وحاجاتها ظاهرة جليلة وقليلة العدد يسيرة ومعها من المعرفة ما لا يقصر عن ذلك المقدار ولا يجوزه وراصة الإبل والرعاء ورؤاض الدواب في المروج والسوأس وأصحاب القنص بالكلاب والفهود يعرفون باختلاف الأصوات والهيئات والتشوف واستحالة البصر والاضطراب ضرورياً من هذه الأصناف ما لا يعرف مثله من هو أعقل منهم إذا لم يكن له من معاينة أصناف

الحيوان ما لهم فالحكل من الحيوان من هذا الشكل وقد ذكرناه مرة قال رؤبة : (لو أنني عمرت عمر الحسل * أو أنني أوتيت علم الحكل) علم سليمان كلام التمل تأويل بيت للعماني وقال أبو العباس محمد بن ذؤيب الفقيمي وهو الذي يقال له العماني في بعض قصائده في عبد الملك بن صالح والعماني ممن يعد من جمع الرجز والقصيد كعمر بن لجأ وجريز بن الخطفي وأبي التجم وغيرهم . قال العماني : (ويعلم قول الحكل لو أن ذرة * تساود أخرى لم يفتنه سوادها) يقول : الذر الذي لا يسمع لمناجاته صوت لو كان بينها سواد لفهمه والسواد هو السرار قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود :

أذنكَ حتى أساودك أي تسمع سيوادي وقالت ابنة قال أبو كبير المُدَلِّي : (ساودت عنها الطَّالِبِينَ فلمْ أَنَمْ **
حتى نَظَرْتُ إلى السَّمَاءِ الأعْزَلِ)
وقال النمر بن تول : (ولقد شهدتُ إذا القداحُ تَوَحَّدَتْ ** وشهدتُ عند اللَّيْلِ مُوقِدَ نارها) (عن ذاتِ
أولية أساودُ رَبِّها ** وكانَ لَوْنُ المِلحِ تحتِ شِفارها) وقد فَسَّرنا شأنَ الحُكَل وقال التيميُّ الشاعِرُ المتكلم
وأَنشدَ لِنفسه وهو يهجو ناساً من بني تَغْلِبَ معروفين : (عَجْمٌ وَحُكْلٌ لَا تُبِينُ وَدِينُهَا ** عِبَادَةُ أَعْلَاجٍ عَلَيْهَا
البرانسُ)

ففصل بين الحُكَل والعُجَم فجعل العجم مثل ذواتِ الحافر والظلف والخفّ وجعل الحُكَل كالذَرِّ والنَّمَلِ
والخنافس والأشكال التي ليست تصيحُ من أفواهاها فقال لي يومئذ حفصُ القَرْدُ : أشهدُ أَنَّ الذي يقال فيه
حقٌّ كانَ والله نصرانيّاً ثم صار يخبر عن النصارى كما يخبر عن الأعراب بين الأصمعي والمفضل وقال
الأصمعيُّ للمفضل لما أَنشدَ المفضلُ جعفرَ بن سليمان قولَ أوسِ بن حجر : (وذاتُ هدمٍ عارٍ نواشِرُها **
تُصْمِتُ بالماءِ تَوَلِّباً جَدِعا)

فجعل الذَّلَّ معجمة وفتحها وصحَّف وذهب إلى الأجذاع قال الأصمعيُّ : إنما هي : تَوَلِّباً جَدِعا الذَّلَّ
مكسورة وفي الجَدِيع يقول أبو زبيد : (ثُمَّ استَقاها فلم يقطع نظامها ** عن التَضْيَبِ لَا عَجَلٌ وَلَا جَدِيعٌ)
وإنما ذلك كقول ابن حَبْناء الأشجعي : (وَأَرْسَلَ مُهْمَلًا جَدِعا وَخُفًّا ** وَلَا جَدِيعُ الثَّبَاتِ وَلَا جَدِيبُ)
ففنخ المفضلُ ورفع بها صوته وتكلَّم وهو يصيح فقال الأصمعي : لو نفخت بالشَّبُور لم ينفعك تكلَّم بكلامِ
النَّمَلِ وَأَصِيبُ

والشَّبُور : شيء مثل البوق والكلمة بالفارسية وهو شيء يكون لليهود إذا أراد رأسُ الجالوت أن يحرم
كلامَ رجلٍ منهم نفخُوا عليه بالشَّبُور .
حريم الكلام لدى اليهود والنصارى وليس تحريمُ الكلام من الحدود القائمة في كتبهم ولكنَّ الجاثليقَ ورأس
الجالوت لا يمكنُهُما في دار الإسلام حبسٌ ولا ضربٌ فليس عندهما إلَّا أَنْ يَغْرِمَا المالَ وَيُحْرِمَا الكلامَ على
أَنَّ الجاثليقَ كثيراً ما يتغافل عن الرَّجُلِ العظيمِ القدرِ الذي له من السُّلْطانِ ناحيةً وكان طيمانو
رئيس الجاثليق قد هَمَّ بتحريمِ كلامِ عَوْنِ العباديِّ عندما بلغه من اتِّخَاذِ السَّراري فتوعَّده وحلف : لنن فعل
لِيُسَلِّمَنَّ وكما ترك الأثقالَ وميخايلَ وتوفيلَ

سَمَلٌ عَيْنٌ مَنُويلٌ وفي حكمهم أَنَّ من أعان المسلمين على الرُّومِ يقتل وإن كان ذا رأي سَمَلُوا عَيْنِهِ ولم
يقتلوه فتركوا سُنَّتَهُم فيه وقد ذكرنا شأنهم في غير ذلك في كتابنا على النَّصاريِّ فإن أردته فاطلبه هنالك
معنى بيت لابن أبي ربيعة وقال عمر بن أبي ربيعة : (لَوْ دَبَّ ذَرٌّ فَوْقَ ضاحيِ جِلْدِها ** لِأَبَانَ مِنْ آثَارِهنَّ
حُدُورٌ) والحدَرُ : الورم والآثرُ يكون عن الصَّرْبِ .

التسمية بالنمل

وقد يسمَّى بِمِلَّةٍ وَنَمِيلَةٍ وَيَكْتُونُ بِهَا وَتَسْمَوُا بَنَرٍ وَاكْتَنُوا بِأَيِّ ذَرٍّ وَيَقَالُ : سَيْفٌ فِي مَتْنِهِ ذَرٌّ وَهُوَ ذَرِيٌّ
السَّيْفُ ٤

أشعار في صفة السيف

وقال ابن ضبه : (سقط بيتين الشعر) (وقد أغدو مع الفتيا ** ن بالمنجرد التـر) (وذى البركة كالتابو **
ت والمحرم كالقر)

(سقط : أربعة أبيات من الشعر) (معي قاضية كالمح ** ح في متنيه كالذر) (وقد اعتسر الضرب ** ة
تنخى شن الشتر) وقال الآخر : (تكاد الريح ترميها صرارا ** وترجف لأن يلثمها حمار) (على صفحتيه
بعد حين جلانه ** ويرعب قلبها الذر الصغار) قال أوس بن حجر في صفة السَّيْفِ : (كأن مدبَّ النملِ
يتَّبعُ الرُّبَا ** ومدرج ذرَّ خاف برداً فأسهلاً)

انتقام عقيل بن علفه من خطب إحدى بناته قال : وخطب إلى عقيل بن علفه بعض بناته رجلٌ من الحُرقة من
جُهينة فأخذه فشده قِماطاً ودهن استه رُبُّ وقمطه وقربه من قرية النمل فأكل النمل حُشوة بطنه .
شعر فيه ذكر النمل وقال ذو الرمة : (وَقَرِيَّةٌ لَا جِنَّ وَلَا أَنْسِيَّةٌ ** مُدَاخِلَةٌ أَبْوَابُهَا بُنِيَتْ شَزْرًا) (نزلنا بها
ما نبتغي عندها القَرَى ** ولكنها كانت لمزلنا قَدْرًا) وقال أبو العتاهية : (أَخْبَثُ بَدَارٍ هَمُّهَا أَشْبُ ** جَثَلُ
الْفُرُوعِ كَثِيرَةُ شُعْبِهِ) (إِنَّ اسْتِهَانَتَهَا بِمَنْ صَرَعَتْ ** لِبَقْدَرٍ مَا تَعْلُو بِهِ رُتْبَهُ)

(وإذا استوتْ لِلنَّمْلِ أَجْنَحَةٌ ** حتى يطير فقد دنا عطبه) وقال البعيث : (ومولى كَبَيْتِ النَّمْلِ لَا خَيْرَ
عنده ** لمولاه إِلَّا سَعْيُهُ بِمِيمٍ) قال : وقد سمعت بعض الأعراب يقول : إنه لنمائمٌ مُمْلِيٌّ على قَوْلِهِمْ : كَذَبَ
عَلِيٌّ نَمْلٌ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْبَرُوا أَنَّهُ نَمَامٌ وقال حميد بن ثور في تموين قوَّةِ الذرِّ : (مَنْعَمَةٌ لَوْ يُصْبِحُ النَّرُّ سَارِيًّا
** على جُلْدِهَا بَضَّتْ مَدَارِجُهُ دِمَا) وقال الله عز وجل : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ قال : وقيل لعائشة رضي الله تعالى عنها وقد تصدَّقتْ بِحَبَّةِ عَنبٍ : أَتَصَدَّقِينَ بِحَبَّةِ عَنبٍ قالت :
إن فيها لمثاقيل ذرٍّ .

(لغز في النمل) ومما قيل في الشَّعْرِ من اللُّغْزِ : فما ذو جناحٍ له حافرٌ وليس يضُرُّ ولا يَنْفَعُ يَعْنِي النَّمْلُ فزعم
أنَّ لِلنَّمْلِ حَافِرًا وَإِنَّمَا يَحْفَرُ جُحْرَهُ وَلَيْسَ يَحْفَرُهُ بِفَمِهِ التَّعْذِيبُ بِالنَّمْلِ وَعَذَّبَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو
الْحَرَشِيِّ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ فَقِيلَ لَهُ : إِنْ أَرَدْتَ أَلَّا يُفْلِحَ أَبَدًا فَمُرْهُمْ أَنْ يَنْفَخُوا فِي دُبُرِهِ التَّمْلَ ففعلوا فلم يفلح
بعدها .

ما يدخر قوته من الحيوان

قالوا : وأجناسٌ من الحيوان تدخرُ وتُشَبَّهُ في ذلك بالإنسان ذي العقل والرَّوْيَةِ وصاحب النَّظَرِ في العواقب

والتفكير في الأمور : مثلُ الذرِّ والتملِّ والفأر والجردان والعنكبوت والتحلُّ إلا أنَّ النحل لا يدَّخر من الطعام إلاَّ جنساً واحداً وهو العسل . (أكل النرِّ والضباع للنمل) وزعم الیقطريُّ أنَّك لو أدخلتَ غملاً في جحر ذرٍّ لأكلتها حتى تأتي على عامتها وذكر أنَّه قد جرَّب ذلك وقال صاحب المنطق : إنَّ الضَّبَاع تَأْكُل النمل أكلاً ذريعاً وذلك أنَّ الضَّبَاع تأتي قريةَ التَّمْلِ في وقتِ اجتماعِ التملِّ فتلحس ذلك التَّمْلَ بلسانها بشهوةٍ شديدةٍ وإرادةٍ قويّةٍ .

أكل النمل للأرضة

قالوا : وربّما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم وأكلت كلَّ شيءٍ لهم ولا تزالُ كذلك حتى يَنشُؤَ في تلك القرى التَّمْلُ

فيسلّط الله ذلك التملَّ على تلك الأرضة حتى تأتي على آخرها وعلى أنَّ التَّمْلَ بعد ذلك سيكون له أذى إلاَّ أنَّه دونَ الأرضةِ تعدّياً وما أكثرَ ما يذهبُ التَّمْلُ أيضاً من تلك القرى حتى تتمَّ لأهلها السَّلامةُ من النوعين جميعاً وزعم بعضهم أنَّ تلك الأرضة بأعيانها تستحيلُ نَمْلاً وليسَ فناؤها لأكلِ التَّمْلِ لها ولكنَّ الأرضةَ نفسها

مثل في النمل

قال : وبالتَّمْلِ يُضربُ المثلُ يقال : جاؤوا مِثْلَ التَّمْلِ . والزَّئجُ نوعان : أحدهما يفخرُ بالعدد وهم يسمُّون التَّمْلَ والآخِرُ يفخرُ بالصَّبرِ وعَظَمِ الأبدان وهم يسمُّون الكلابَ وأحدهما يكبو والآخِرُ ينبو فالكلابُ تكبو والتَّمْلُ ينبو . (أجنحة التَّمْلِ) قال : ومن أسبابِ هلاكِ التَّمْلِ نباتُ الأجنحة له وقد قال الشاعرُ :

وإذا استوتَ للتَّمْلِ أجنحةٌ حتى يطيرَ فقد دنا عَطْبُهُ وإذا صارَ التَّمْلُ كذلك أخصبتِ العصافيرُ لأنها تصطادها في حال طيرانها .

وسيلة لقتل النمل

قالوا : وتُقْتَلُ بأنَّ يصبَّ في أفواه بيوتها القَطْران والكَبْرِيتُ الأصفرُ ويُدَسَّ في أفواهها الشَّعرُ وقد جرَّبنا ذلك فوجدناه باطلاً انتهى . (جملة القول في القِرْدِ والحَنَزِيرِ) وفي تأويلِ المَسْخِ وكيف كان وكيف يُمَسَخُ الناس على خلقتهم دونَ كلِّ شيءٍ وما فيهما من العبرة والخنة وفي خصالهما المنمومة وما فيهما من الأمور الحمودة وما الفصل الذي بينهما في التَّقْص وفي الفَضْل وفي النَمِّ وفي الحمد .

ما ذكر في القرآن من الحيوان وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ في القرآن العنكبوتَ والنرَّ والتَّمْلَ والكلبَ والحِمارَ

وَالْتَحَلَ وَالْمُهْدَهْدَ وَالْغُرَابَ وَالذَّنْبَ وَالْفِيلَ وَالْخَيْلَ وَالْبَغَالَ وَالْحَمِيرَ وَالْبَقَرَ وَالْبَعُوضَ وَالْمَعَزَ وَالضَّأْنَ وَالْبَقَرَةَ وَالنَّعْجَةَ وَالْحَوْتَ وَالْتُونُ فَذَكَرَ مِنْهَا أَجْنَاساً فَجَعَلَهَا مِثْلاً فِي الدَّلَّةِ وَالضَّعْفِ فِي الْوَهْنِ فِي الْبَدَاءِ وَالْجَهْلِ .

هوان شأن القرد والخنزير

وقال الله عز وجل : إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مِثْلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَقَلَّلَهَا كَمَا تَرَى وَحَقَّرَهَا وَضَرَبَ بِهَا الْمِثْلَ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ جَلٌّ وَعَلَا لَمْ يَمْسُخْ أَحَدًا مِنْ حَشَوِ أَعْدَائِهِ وَعَظْمَائِهِمْ بِعَوْضَةٍ . وقال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مِثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ إِنَّمَا قَرَعَ الطَّالِبُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَنْكَارُهُ وَضَعْفُهُ إِذْ عَجَزَ ضَعْفُهُ عَنْ ضَعْفِ

مطلوب لا شيء أضعف منه وهو الذباب ثم مع ذلك لم نجد جُلَّ وعلا ذكر أنه مسخ أحداً ذُبَاباً . وقال : وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيُوتِ لَيَبُوتُ الْعَنْكَبُوتِ فَلَمَّا بَوَّهْنُ بَيْتَهُ عَلَى وَهْنِ خَلْقِهِ فَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ دَلِيلًا عَلَى التَّصْغِيرِ وَالتَّقْلِيلِ وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ : إِنِّي مَسَخْتُ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِي عَنْكَبُوتًا .

وقال تعالى : فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ فَكَانَ فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى ذَمِّ طَبَاعِهِ وَالْإِخْبَارِ عَنْ تَسَرُّعِهِ وَبَذَائِهِ وَعَنْ جَهْلِهِ فِي تَدْبِيرِهِ وَتَرْكِهِ وَأَخَذَهُ وَلَمْ يَقُلْ إِنِّي مَسَخْتُ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِي كَلْبًا . وذكر الذرة فقال : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْغَايَاتِ فِي الصَّغَرِ وَالْقِلَّةِ وَفِي خِفَةِ الْوِزْنِ وَقِلَّةِ

الرجحان ولم يذكر أنه مسخ أحداً من أعدائه ذرة وذكر الحمار فقال : كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا فَجَعَلَهُ مِثْلاً فِي الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ وَفِي قِلَّةِ الْمَعْرِفَةِ وَغِلَظِ الطَّبِيعَةِ وَلَمْ يَقُلْ إِنِّي مَسَخْتُ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِي حِمَارًا وَكَذَلِكَ جَمِيعَ مَا خَلَقَ وَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ بِالذَّمِّ وَالْحَمْدِ .

فأما غير ذلك مما ذكر من أصناف الحيوان فإنه لم يذكره بذم ولا نقص بل قد ذكر أكثرهن بالأمر الحمودة حتى صار إلى ذكر

القرد فقال : وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ فَلَمْ يَكُنْ لِهَمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ حَالٌ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ جَعَلَ لِهَمَا فِي صُدُورِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ مِنَ الْقُبْحِ وَالتَّشْوِيهِ وَنَذَالَةِ النَّفْسِ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ لَشَيْءٍ غَيْرِهِمَا مِنَ الْحَيَوَانِ لَمَّا خَصَّهِمَا اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْعَقْرَبَ أَشَدُّ عِدَاوَةً وَأَذَى وَأَفْسَدُ وَأَنَّ الْأَفْعَى وَالتُّعْبَانَ وَعَامَّةَ الْأَحْنَاشِ أَبْغَضُ إِلَيْهِمْ وَأَقْتُلُ لَهُمْ وَأَنَّ الْأَسَدَ أَشَدُّ صَوْلَةً وَأَنَّهُمْ عَنْ دَفْعِهِمْ لَهُ أَعْجَزَ وَبَغْضِهِمْ لَهُ عَلَى حَسَبِ قُوَّتِهِ عَلَيْهِمْ وَعَجَزِهِمْ عَنْهُ وَعَلَى حَسَبِ سُوءِ أَثَرِهِ فِيهِمْ وَلَمْ نَرَهُ تَعَالَى مَسَخْ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِهِ عَلَى صُورَةٍ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ وَلَوْ كَانَ الْأَسْتِنْدَالُ وَالْأَسْتِثْقَالُ وَالْأَسْتِسْقَاطُ أَرَادَ لَكَانَ الْمَسْخُ عَلَى صُورَةِ بَنَاتِ وَرْدَانَ أَوَّلَى وَأَحَقُّ وَلَوْ كَانَ التَّحْقِيرُ وَالتَّصْغِيرُ أَرَادَ لَكَانَتِ الصُّوَابَةُ وَالْجُرْجَسَةُ أَوَّلَى بِذَلِكَ وَلَوْ كَانَ إِلَى الْأَسْتِصْغَارِ ذَهَبَ لَكَانَ النَّرُّ وَالْقَمْلُ وَالذُّبَابُ أَوَّلَى بِذَلِكَ وَالذَّلِيلُ عَلَى قَوْلِنَا قَوْلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ

الْجَحِيمِ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ وَلَيْسَ أَنَّ النَّاسَ رَأَوْا شَيْطَانًا قَطُّ عَلَى صُورَةٍ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى
قَدْ جَعَلَ فِي طِبَاعِ جَمِيعِ الْأُمَمِ اسْتِقْبَاحَ جَمِيعِ صُورِ الشَّيَاطِينِ وَاسْتِسْمَاجَهُ وَكَرَاهَتَهُ وَأَجْرَى عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِهِمْ
ضَرْبَ الْمَثَلِ فِي ذَلِكَ رَجْعَ بِالْإِيحَاشِ وَالتَّغْيِيرِ وَبِالْإِخَافَةِ

والتفريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخريين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم
وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات نبت باليمن .
وقال الله عز وجل لنبيه : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ فذكر أنه رجس وذكر

الخنزير

وهو أحد المسوخ ولم يذكر في هذه الآية التي أحصى فيها أصناف الحرام وأباح ما وراء ذلك القرد . وصار
بعضهم إلى تحريمه من جهة الحديث وهو عند كثير منهم يحتمل المعارضة . (الخنزير) مساوى الخنزير فلولا
أن في الخنزير معنى متقدماً سوى المسخ وسوى ما فيه من قبح المنظر وسماجة التمثيل وقبح الصوت وأكل
العذرة مع الخلاف الشديد

واللواط المفروط والأخلاق السمجة ما ليس في القرد الذي هو شريكه في المسخ لما ذكره دونه تحريم الخنزير
في القرآن دون القرد وقد زعم ناس أن العرب لم تكن تأكل القرد وكان من تنصر من كبار القبائل
وملوكتها يأكل الخنزير فأظهر لذلك تحريمه إذ كان هناك عالم من الناس وكثير من الأشراف والوضعاء و
الملوك والسوقة يأكلونه أشد الأكل ويرغبون في لحمه أشد الرغبة قالوا : ولأن لحم القرد ينهى عن نفسه
ويكفي الطباع في الزجر عنه غنثه ولحم الخنزير مما يستطاب ويتواصف وسيل لحم القرد كسيل لحم
الكلب بل هو شر منه وأجبت وقد قال الشاعر للأسدي الذي ليم بأكل لحم الكلب : (يا فقعمسي لم
أكلته لمة * لو خافك الله عليه حرمة) فما أكلت لحمه ولا دمه وليس يريد بقوله : لو خافك الله عليه
أن الله يخافه على شيء أو يخافه من شيء ولكنه لما كان الكلب عنده مما لا يأكله أحد

وَلَا يُخَافُ عَلَى أَكْلِهِ إِلَّا الْمَضْطَرُ جَعَلَ بَدَلُ قَوْلِهِ : أَمِنَ الْكَلْبُ عَلَى أَكْلِ لَحْمِهِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي لَمْ يَخَفْ
ذَلِكَ فِيحَرِّمَهُ وَهَذَا مِمَّا لَا تَقِفُ الْأَعْرَابُ عَلَيْهِ وَلَا تَتَّبِعُ الْوَهْمُ مُوَاضِعَهُ لِأَنَّ هَذَا بَابٌ يَدْخُلُ فِي بَابِ الدِّينِ
فِيمَا يُعْرَفُ بِالنَّظَرِ .

ما قيل في جودة لحوم الكلاب وقد يأكل أجراء الكلاب ناس ويستطيونها فيما يزعمون ويقولون : إن جرو
الكلب أسمن شيء صغيراً فإذا شب استحال لحمه كأنه يشبه بفرخ الحمام مادام فرخاً وناهضاً إلى أن
يستحكم ويشته ذكر من يأكل السنابير وما أكثر من يأكل السنابير والذين يأكلونها صنفان من الناس :
أحدهما الفتى المغرور الذي يقال له أنت مسحور ويقال له : من أكل ستوراً أسود بهيماً لم يعمل فيه السحر

فياكله لذلك)

فإذا أكله لهذه العلة وقد غسل ذلك وعصره أذهب الماء زهُومته ولم يكن ذلك المخدوعُ بمستقنيرٍ ما استطابه ولعله أيضاً أن يكون عليه ضربٌ من الطعام فوق الذي هو فيه فإذا أكله على هذا الشرط ودبر هذا التدبير ولم ينكره عاوده فإذا عاوده صار ذلك ضراوةً له .

والصنف الآخر أصحاب الحمام فما أكثر ما ينصبون المصائد للسنائير التي يُلَقَّونَ منها في حمامهم وربما صادف غيظ أحدهم وحنقه وَغَضَبُهُ عليه أن يكون السنور مُفْرِطَ السَّمَنِ فيدع قتله ويدبحه فإذا فعل ذلك مرةً أو مرتين صار ضراوةً عليها وقد يتقزز الرجلُ من أكل الضبِّ والورل والأرنب فما هو إلا أن يأكله مرةً لبعض التجربة أو لبعض الحاجة حتى صار ذلك سبباً إلى أكلها حتى يصير بهم الحال إلى أن يصيروا أرغبَ فيها من أهلها طيب لحم الجراد وها هنا قومٌ لا يأكلون الجرادَ الأعرايَّ السمين ونحن لا نعرف طعاماً أطيبَ منه والأعراب إنَّما يأكلون الحياتِ على شبيهِ هذا الترتيب وهذه العوارض أكل الأفاعي والحيات وزعم بعض الأطباء والفلاسفة أنَّ الحياتِ والأفاعي تؤكل نيئةً ومطبوخةً ومشويةً وأنَّها تغذو

رؤبةً وأكل الجرادان وزعم أبو زيد أنه دخل على رؤبة وعنده جردانٌ قد شَوَّاهُنَّ فإذا هو يأكلهنَّ فأنكر ذلك عليه فقال رؤبة : هُنَّ خيرٌ من اليرابيع والضبابِ وأطيبُ لَأَمَّا عندكم تأكلُ الخبزَ والتمرَ وأشباهَ ذلك وكفأك بأكل الجردان ولولا هول الحياتِ في الصدور من جهة السموم لكانت جهة التقذّر أسهلَ أمراً من الجردان أكل الذبان والزنابير ونسٌ من السفالة يأكلون الذبان وأهل خراسان يُعجبون باتخاذ البرماورد من فراخ الزنابير ويعافون أذنان الجرادِ الأعرايَّ السمين وليس بين ريح الجرادِ إذا كانت مشويةً وبين ريح العقاربِ مشويةً فرق والطعمُ تبعٌ للرائحة : خبيثها لخبثها وطيبها لطيبها وقد زعم ناسٌ ممن يأكلون العقاربَ مشويةً ونيئةً أنَّها كالجراد السَّمان

وكان الفضل بن يحيى يوجّه خدمه في طلب فراخ الزنابير ليأكلها وفراخها ضربٌ من الذبان .
أكل لحوم البراذين)

فأمّا لحوم البراذين فقد كثر علينا وفيما نحن أنسنا به وزعم بعضهم أنَّه لم يأكلَ أطيبَ من رأسِ برذونٍ وسرته فأمّا السرّة والمعرفة فإنهم يراحمون بها الجداء والدجاج ويقدمون الأسرامَ أكل السراطين ونحوها ومن أصحابنا من يأكل السراطين أكلاً ذريعاً فأمّا الرق والكوسج فهو من أعجب طعام البحرين وأهل البحر يأكلون البلبل فهو اللحم الذي في جوف الأصداف والأعرايُّ إذا وجد أسوداً سالخاً رأى فيه ما لا يرى صاحب الكسمير في كسميره .

أكل ديدان الجبن وخبرني كم شئت من الناس أنَّه رأى أصحاب الجُنِّ الرطبِ بالأهوازِ وقراها يأخذون

الْقِطْعَةُ الصَّخْمَةُ مِنَ الْجَبْنِ الرُّطْبِ وَفِيهَا كُكُوءُ الزَّنَابِيرِ وَقَدْ تَوَلَّدَ فِيهَا الدَّيْدَانُ فَيَنْفُضُهَا وَسْطَ رَاحَتِهِ ثُمَّ يَقْمَحُهَا فِي فِيهِ كَمَا يَقْمَحُ السَّوِيقَ وَالسُّكَّرَ أَوْ مَا هُوَ أَطْيَبُ مِنْهُ .

ذَكَرَ بَعْضُ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَقَدْ خَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ النَّقَمِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْعَذَابِ وَمَا أَخَذَ مِنَ الشَّكْلِ وَالْمُقَابَلَاتِ فَقَالَ : فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَقَالَ : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ وَلَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ شَيْءٌ أَبْلَغُ فِي الْمُثَلَّةِ وَالشَّنْعَةِ مِمَّنْ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ فَالْخَنَزِيرُ يَكُونُ أَهْلِيًّا وَوَحْشِيًّا كَالْحَمِيرِ وَالسَّنَانِيرِ مِمَّا يَعِيشُ النَّاسُ وَكُلُّهَا لَا تَقْبَلُ الْآدَابَ وَإِنَّ الْفُهُودَ وَهِيَ وَحْشِيَّةٌ تَقْبَلُ كُلُّهَا كَمَا تَقْبَلُ الْبَوَازِي وَالشَّوَاهِينَ وَالصَّقُورَ وَالزُّرُقَ وَالْيُبُورَ وَالْعُقَابَ وَعَنَاقَ الْأَرْضِ وَجَمِيعَ الْجَوَارِحِ الْوَحْشِيَّاتِ ثُمَّ يَفْضُلُهَا الْفَهْدُ بِخَصْلَةٍ غَرِيبَةٍ وَذَلِكَ أَنَّ كِبَارَهَا وَمَسَانِيَهَا أَقْبَلُ لِلْآدَابِ وَإِنْ تَقَادَمَتْ فِي الْوَحْشِ مِنْ أَوْلَادِهَا الصَّغَارِ وَإِنْ كَانَتْ تَقْبَلُ الْآدَابَ لِأَنَّ الصَّغِيرَ إِذَا أُدْبَ

فَبَلَغَ خَرَجَ جَبِينًا مُوَكِيلًا وَالْمَسَنَّ الْوَحْشِيَّ يَخْلُصُ لَكَ كُلُّهُ حَتَّى يَصِيرَ أَصِيدًا وَأَنْفَعُ وَصَغَارُ سَبَاعِ الطَّيْرِ وَكِبَارُهَا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ يَقْبَلُ الْآدَابَ وَالْخَنَزِيرُ وَإِنْ كَانَ أَهْلِيًّا فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ الْآدَابَ عَلَى حَالٍ حَتَّى كَانَتْهُ وَإِنْ كَانَ بِهَيْمَةٍ فِي طَبَاعِ ذَنْبٍ وَذَلِكَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَخَذَ جُرَّوً ذَنْبًا وَكَانَ النُّقْطَةُ النُّقَاطُ فَقَالَ : أَخَذْتُهُ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَبَوِيَّ وَلَا عَمَلَهُمَا وَهُوَ غَرٌّ لَمْ يَصِدْ شَيْئًا فَهُوَ إِذَا رَبَّيْنَاهُ وَالْفَنَاءُ أَنْفَعُ لَنَا مِنَ الْكَلْبِ فَلَمَّا شَبَّ عَدَا)

عَلَى شَاةٍ لَهُ فَقَتَلَهَا وَأَكَلَ لَحْمَهَا فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : أَكَلْتُ شُوَيْهَتِي وَرَبَّيْتُ فِينَا فَمَنْ أَدْرَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذَيْبٌ فَالذَّيْبُ وَجُرَّوُ الذَّيْبِ إِذَا كَانَا سَبْعِينَ وَحَشِيَّيْنِ كَانَا ثُمَّ مِنْ أَشَدِّ الْوَحْشِ تَوْحُشًا وَأَلْزَمَهَا لِلْفَقَارِ وَأَبْعَدَهَا مِنَ الْعِمْرَانِ وَالذَّيْبُ أَغْدَرُ مِنَ الْخَنَزِيرِ وَالْخَنُوصِ وَهُمَا بِهَيْمَتَانِ .

ضُرُّ الْخَنَزِيرِ وَأَمَّا ضُرُّهُ وَإِفْسَادُهُ فَمَا ظَنُّكَ بِشَيْءٍ يُتَمَنَّى لَهُ الْأَسَدُ وَذَلِكَ أَنَّ الْخَنَازِيرَ إِذَا كَانَتْ بِقَرَبِ ضِيَاعٍ قَوْمٌ هَلَكَتْ تِلْكَ الضِّيَاعُ وَفَسَدَتْ تِلْكَ الْغَلَّاتُ وَرَبَّمَا طَلَبَ الْخَنَزِيرُ بَعْضَ الْعُرُوقِ الْمَدْفُونَةِ فِي الْأَرْضِ فَيَخْرُبُ مَائَةَ جَرِيبٍ وَنَابَهُ لَيْسَ يَغْلِبُهُ مِعْوَلٌ فَإِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ تَمَنَّوْا أَنْ يَصِيرَ فِي جَنْبِهِمْ أَسَدٌ وَلَرَبَّمَا صَارَ فِي ضِيَاعِهِمُ الْأَسَدُ فَلَا يَهَيِّجُونَهُ وَلَا يُوْذُونَهُ وَلَوْ ذَهَبَ إِنْسَانٌ لِيَحْفَرَ لَهُ زُبْيَةً مَنَعُوهُ أَشَدَّ الْمَنَعِ إِذْ كَانَ رَبَّمَا حَمَى جَانِبَهُمْ مِنَ الْخَنَازِيرِ فَقَطَّ فَمَا ظَنُّكَ بِإِفْسَادِهَا وَمَا ظَنُّكَ بِبَهِيمَةٍ يُتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ بِدَلْهَا أَسَدٌ ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ إِذَا اجْتَمَعُوا لِلْخَنَازِيرِ بِالسَّلَاحِ وَبِالْأَلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ الَّتِي تَقْتُلُ بِهَا فَرَبَّمَا قَتَلَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ أَوْ عَقَرَهُ الْعَقْرَ الَّذِي لَا يَنْدِمُ لِأَنَّهُ لَا يَضْرِبُ بِنَابِهِ شَيْئًا إِلَّا قَطَعَهُ كَانَتْ مَا كَانَ فَلَوْ قَتَلُوا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْهَا مَائَةً وَقَتَلْتُ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِنْسَانًا وَاحِدًا لَمَا كَانَ فِي ذَلِكَ عَوَاضٌ .

والخنازير تطلب العذرة وليست كالجلالة لأنها تطلب أحرها وأرطبها وأنتنها وأقربها عهداً بالخروج فهي في القرى تعرف أوقات الصبح والفجر وقبل ذلك وبعده لبروز الناس للغائط فيعرف من كان في بيته نائماً في الأسحار ومع الصبح أنه قد أسحر وأصبح بأصواتها ومرورها ووقع أرجلها في تلك الغيطان وتلك المتبرزات وبذلك ضربوا المثل بكمور الخنزير كما ضربوا المثل بحذر الغراب وروغان الثعلب على أن الثعلب ليس بأروغ من الخنزير ولا أكدر للفارس ولا أشد إتعاباً لصاحبه .

فأما قُبْح وجهه فلو أن القُبْح والإفلاس والعذر والكذب تجسدت ثم تصوّرت لما زادت على قُبْح الخنزير وكل ذلك بعض الأسباب التي مُسخ لها الإنسان خنزيراً وإنَّ القرد لَسَمِجُ الوجه قُبْحٌ كل شيء وكفاك به أنه للمثل المضروب ولكنه في وجه آخر مليح فيملحه يعترض على قُبْحه

فيمارزجه ويُصلح منه والخنزير أقبح منه لأنه ضرب مُصمّت بهم فصار أسمع بعيد .
وثب الذكورة على الذكورة وحدثني بعض أهل العلم من طال ثواؤه في أرض الجزيرة وكان صاحب أخبار وتجربة وكان)

كلّفاً يحبّ التّين معترضاً للأمور يحبُّ أن يُفضيَ إلى حقائقها وتثبّت أعيانها بعلمها وتمييز أجناسها وتعرف مقادير قواها وتصرف أعمالها وتنقل حالاتها وكان يعرف للعلم قدره وللبيان فضله قال : ربّما رأيت الخنزير الذّكر وقد ألجأه أكثر من عشرين خنزيراً إلى مضيق وإلى زاوية فينزون عليه واحداً واحداً حتى يبلغ آخرهم وخبرني هذا الرّجل وغيره من أهل النظر وأصحاب الفكر أنّهم رأوا مثل ذلك من الحمير وذكروا أن ذلك إما تأنيث في طبعه وإما أن يكون له في أعينها من الاستحسان شبيه بالذي يعتري عيون بعض الرجال في الغلمان والأحداث الشّباب . وقد يكون هذا بين الغرائق والكراكي والتّسافد بين الذّكر والأنثى والسافد والمسفود إذا كانا من جميع الذكورة كثير في جميع أصناف

الحيوان إلّا أنّه في جميع الخنازير والحمير أفشى معارف في الخنزير وباب آخر ممّا ذكر صاحب المنطق فزعم أنّ من الخنازير ما له ظلف واحد وليس لشيء من ذوات الأنياب في نابه من القوّة والذّرب ما للخنزير الذّكر وللجمل والفهد والكلب قال : والإنسان يلقي أسنانه وكذلك الحافر والخفّ قال : والخنزير لا يلقي أسنانه البتّة .

من لم يتغر ويقال : إنّ عبد الصّمد بن عليّ لم يتغر قط وأنه دخل قبره بأسنان الصّبا .

أسنان الذّنب والحية وزعم بعضهم أنّ أسنان الذّنب مخلوقة في الهك ممطولة في نفس العظم وذلك ممّا توصف به أسنان الحية قال الشّاعر : (مُطْلَنَ فِي اللَّحْيَيْنِ مَطْلًا إِلَى * الرّأْسِ وَأَشْدَاقِ رَحِيَّاتِ) والشّاعر يمدح الشيء فيشدّد أمره ويقوّي شأنه وربّما زاد فيه ولعلّ الذي قال في الذّنب ما قال هذا أراد ولا يشكّون أنّ الصّبيح كذلك .

مرق لحم الحيوان قال وليس يجمدُ مرق لحم الحيوان السمين مثل الخنزير والفرس وأما ما كان كثير الثرب فمرقته

طباع الخنزير قال : والخنزير الذكر يقاتل في زمن المهبج فلا يدعُ خنزيراً إلا قتلته ويدنو من الشجرة ويدلُّكُ جلده ثم يذهب إلى الطين والحماة فيتلطخ به فإذا تساقط عاد فيه .

قال : وذكورة الخنازير تطرد الذكورة عن الإناث وربما قتل أحدهما صاحبه وربما هلكا جميعاً وكذلك الثيران والكباشُ والثيران في أقاطيعها وهي قبل ذلك الزمان متسالة .

ما يعرض لبعض الحيوان عند المهبج والجمل في تلك الحالة لا يدعُ جهلاً ولا إنساناً يدنو من هجمته والجمل خاصة يكره قرب الفرس ويقاتله أبداً . ومثل هذا يعرض للذئبة والذئب والأسد ليس ذلك من صفاتها لأن بعضهما لا يأوي إلى بعض بل ينفرد كل واحد بلبؤته وإذا كان للذئبة الأنثى جراء ساءت أخلاقها وصعبت وكذلك إناث الخيل والفيال : يسوء خلقها في ذلك الزمان والفيالون يجمونها للنزول لأنها إذا نزلت جهلت جهلاً شديداً واعتراها هيج لا يُقام له وإذا كان ذلك الزمان أجادوا عقله وأرسلوه في القبيلة الوحشية فأما الخنزير والكلب فإيهما لا يجعلان على الناس لمكان الألفة

قال : وزعم بعض الناس أن إناث الخيل تمتلئ رجاً في زمان هيجها فلا يباعدون الذكورة عنها وإذا اعتراها ذلك ركضت ركضاً شديداً ثم لا تأخذ غوباً ولا شرقاً بل تأخذ في الشمال والجنوب ويعرض مثل هذا العرض لإناث الخنازير فإذا كان زمن هياج الخنازير تطأ رؤوسها وتحرك أذناها تحريكاً متتابعاً وتتغير أصواتها إذا طلبت السفاد وإذا طلبت الخنزيرة السفاد بالت بولاً متتابعاً .

تناسل الخنازير قال : وإناث الخنازير تحمل أربعة أشهر وأكثر ما تحمل عشرون خنوصاً وإذا وضعت أجراً كثيرة لم تقو على رضاعها وتربيتها .

قال : وإناث الخنازير تحمل من نزوة واحدة وربما كان من أكثر وإذا طلبت الذكر لم تنزع حتى تطاوع وتسامح وترخي أذناها فإذا فعلت ذلك تكفي بنزوة واحدة ويعلف الذكر الشعير في أوان النزول ويصلح للأنثى .

مدد الحمل للحيوان والخنزيرة تضع في أربعة أشهر والشاة في خمسة والمرأة والبقرة في تسعة أشهر والحافر كله في سنة

خصائص الخنزير قال : ومتى قلعت العين الواحدة من الخنزير هلك وكثير من الخنازير تبقى خمسة عشر عاماً والخنزير ينزو إذا تم له ثمانية أشهر والأنثى تريد الذكر إذا تمت لها ستة أشهر وفي بعض البلدان ينزو إذا تم له أربعة أشهر والخنزيرة إذا تمت لها ستة أشهر ولكن أولادهما لا تحيي كما يريدون وأجود النزول أن يكون ذلك منه وهو ابن عشرة أشهر إلى ثلاث سنين وإذا كانت الخنزيرة بكرًا ولدت جراء ضعافاً وكذلك البكر من كل شيء الحلال .

وقال الله تبارك وتعالى : كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ثُمَّ ذَكَرَ غَيْرَ الطَّيِّبَاتِ فَقَالَ : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ

ثُمَّ قَالَ : هَلْ أُتْبِعُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ وَقَالَ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

استطرد لغوى وقوله تعالى : طَيِّبَاتٍ تَحْتَمِلُ وجوهاً كثيرة يقولون : هذا ماء طيب يريدون العذوبة وإذا قالوا للبرِّ والشعير والأرز طيب فإنما يريدون أنه وسط وأنه فوق الدُّون ويقولون : فَم طيب الريح) وكذلك البر يريدون أنه سليم من التَّن ليس أن هناك ريحاً طيبة ولا ريحاً منتنة ويقولون : حلال طيب وهذا لا يحل لك ولا يطيب لك وقد طاب لك أي حل لك كقول : فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ .

قال طُوَيْسُ المَغَنِيِّ لبعض ولد عثمان بن عفان : لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى أهلك الطيب يريد الطهارة ولو قال : شهدت زفاف أمك الطيبة إلى أهلك المبارك لم يحسن ذلك لأن قولك طيب إنما يدل على قدر ما اتصل به من الكلام .

وقد قال الشاعر : والطيبون معاقِد الأزر وقد يخلو الرجلُ بالمرأة فيقول : وجدتما طيبة يريد طيبة الكوم لذينة نفس الوطء وإذا قالوا : فلان طيب الخلق فإنما يريدون الطرف والمُح والمُح وقال الله عز وجل : حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ يَرِيدُ رَيْحاً لَيْسَتْ بِالضَّعِيفَةِ وَلَا الْقَوِيَّةِ .

ويقال : لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه وقال الله عز وجل : فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً وَقَالَ : لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ وذلك إذ كانت طيبة الهواء وقال : إِنَّا لَذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ثُمَّ قَالَ : الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

وفي هذا دليل على أن التأويل في امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام على غير ما ذهب إليه كثير من أصحاب التفسير : وذلك أنهم حين سمعوا قوله عز وجل : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا فِدْلٌ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَغْنِ الْخِيَانَةُ فِي الْفُرْجِ وَقَدْ يَقَعُ اسْمُ الْخِيَانَةِ عَلَى ضُرُوبٍ : أَوَّلُهَا الْمَالُ ثُمَّ يَشْتَقُّ مِنَ الْخِيَانَةِ فِي الْمَالِ الْعَشُّ فِي النَّصِيحَةِ وَالْمَشَاوِرَةِ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُوَجِّهَ الْخَبَرَ إِذَا نَزَلَ فِي أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحُرْمِ الرُّسُلِ عَلَى أَسْمَحِ

الوجوه إذا كان للخبر مذهب في السلامة أو في القصور على أدنى العيوب وقد علمنا أن الخيانة لا تتخطى إلى الفرج حتى تبدئ بالمال وقد

يستقيم أن يكونا من المناقنين فيكون ذلك منهما خيانة عظيمة ولا تكون نساؤهم زواني)
فيلزمهم أسماء قبيحة وقال الله عز وجل : إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ وَقَالَ : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَقَالَ : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَقَالَ تَعَالَى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ وَقَالَ : وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ وَقَالَ : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ فَقَوْلُهُ : طَيِّبَ يَقَعُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَقَدْ فَصَّلْنَا بَعْضَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْبَابِ .

ثم رجع بنا القول إلى موضعنا من ذكر الخنزير ثم قال : قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَا تَرَاهُ قَدْ ذَكَرَ أَصْنَافَ مَا حَرَّمَ وَلَمْ يَذْكُرْهَا بِأَكْثَرٍ مِنَ التَّحْرِيمِ فَلَمَّا ذَكَرَ الْخِنْزِيرَ قَالَ : فَإِنَّهُ رِجْسٌ فَجَعَلَ الْخِنْزِيرَ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَيْتَةٍ أَوْ ذَكَرَ الذَّابِحَ عَلَيْهِ اسْمُ اللَّهِ أَنَّهُ رِجْسٌ وَلَا نَعْلَمُ لِهَذَا الْوَجْهِ إِلَّا الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ ذِكْرِ الْمَسْخِ فَأَرَادَ تَعْظِيمَ شَأْنِ الْعِقَابِ وَتَرْوِيلِ الْغَضَبِ وَكَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ لَيْسَ مِمَّا يَضُرُّ الْخِنْزِيرَ وَفِيهِ الرَّجْرَجُ عَنْ مُحَارَمِهِ وَالتَّخْوِيفُ

من مواضع عذابه وَإِنْ قِيلَ : يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَسْخٌ صُورَةَ الْقَرْدِ فَهَلَّا ذَكَرَهُ فِي التَّحْرِيمِ مَعَ أَصْنَافِ مَا حَرَّمَ ثُمَّ خَصَّهُ أَيْضًا أَنَّهُ مِنْ بَيْنِهَا رِجْسٌ وَهُوَ يَرِيدُ مَذْهَبَهُ وَصَفَتَهُ قُلْنَا إِنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَكُنْ تَأْكُلُ الْقُرُودَ وَلَا تَلْتَمِسُ صَيْدَهَا لِلْأَكْلِ وَكُلُّ مَنْ تَنَصَّرَ مِنْ مَلُوكِ الرُّومِ وَالْحَبْشَةِ وَالصِّينِ وَكُلِّ مَنْ تَجَسَّسَ مِنْ مَلِكٍ أَوْ سُوقَةٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَرُونَ لِلْحَمِّ الْخِنْزِيرِ فَضِيلَةً وَأَنَّ لَحْمَهَا مِمَّا يَقُومُ إِلَيْهِ النَّفُوسُ وَكَانَ فِي طَبَاعِ النَّاسِ مِنَ التَّكْرَهُ لِلْحَوْمِ الْقَرْدَةِ وَالتَّقْدَرُ مِنْهَا مَا يُعْنِي عَنْ ذِكْرِهَا فَذَكَرَ الْخِنْزِيرَ إِذْ كَانَ بَيْنَهُمَا هَذَا الْفَرْقُ وَلَوْ ذَكَرَ ذَلِكَ وَأَلْحَقَ الْقَرْدَ بِالْخِنْزِيرِ لِمَوْضِعِ التَّحْرِيمِ لَكَانَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ عَلَى وَجْهِ التَّوَكِيدِ لِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي طَبَائِعِهِمْ مِنَ التَّكْرَهُ وَالتَّقْدَرُ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ .

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

وجوه التحريم وقد أنبأك كما ترى عن التحريم أنه يكون من وجوه : فمنها ما يكون كالكذب والظلم والغشم)

والغش وهذه أمور لا تحل على وجه من الوجوه ومنها ما يحرم في العقل من ذبح الإنسان الطفل وجعل في العقول التبيين بأن خالق الحيوان أو المالك له والقادر على تعويضه يقبح ذلك في السماع على ألسنة رسله

وهذا مما يحرم بعينه وبذاته لا أنه حرم لعله قد يجوز دفعها والظلم نفسه هو الحرام ولم يحرم لعله غير نفسه

وهو ما جاء من طريق التعلد وما يعرف بالجملة ويعرف بالتفسير .

ومنه ما يكون عقاباً ويكون مع أنه عقاباً امتحاناً واختياراً كنعو ما ذكر من قوله : ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْضِهِمْ
وكنحو أصحاب البقرة الذين قيل لهم : اذبحوا بقرة فأني أريد أن أضرب بها القتل ثم أحبيهما جميعاً ولو
اعترضوا من جميع البقر بقرة فذبحوها كانوا غير مخالفين فلما ذهبوا مذهب التلكو والتعلل ثم التعرض
والتعتت في طريق التعتت صار ذلك سبب تغليظ الفرض

وقد قال الله عز وجل : مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي
الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْحَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ وَمِثْلَهُ : رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ
عَنَّا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا يريدون صرف العذاب ويجوز أن يكون إنما يريدون تخفيف الفرائض وقد يجوز أن
يكون على قول من قال : لا أستطيع النظر إلى فلان على معنى الاستقبال .

وباب آخر من التحريم وهو قوله : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ

شعر في الخنزير وقال مروان بن محمد :

وقال آخر : (نَعَمْ جَارَ الْخَنزِيرَةِ الْمَرْضِعُ الْعَرَّ * نَى إِذَا مَا غَدَا أَبُو كَلْشُومِ) (طاوياً قد أصاب عند صديق
** مِنْ ثَرِيدٍ مُلَبَّدٍ مَادُومِ) (ثُمَّ أَنَحَى بِجَعْرِهِ حَاجِبَ الشَّمِّ * سِ فَالْقَى كَالْمُغْلَفِ الْمَهْدُومِ) جرير والحضرمي
وقال أبو الحسن : وفد جرير على هشام فقال الحضرمي : أَيُّكُمْ يَشْتُمُهُ فَقَالُوا : مَا أَحَدٌ يَقْدِمُ عَلَيْهِ قَالَ :
فَأَنَا أَشْتُمُهُ وَيَرْضَى وَيَضْحَكُ قَالَ : فَقَامَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَنْتَ جَرِيرُ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : فَلَا قَرَبَ اللَّهِ دَارَكَ وَلَا
حَيًّا مَزَارَكَ يَا كَلْبَ فَجَعَلَ جَرِيرٌ يَنْفَخُ ثُمَّ قَالَ لَهُ : رَضِيتَ فِي شَرْفِكَ وَفَضْلِكَ وَعَفَافِكَ أَنْ تُهَاجِرَ الْقَرْدَ
العاجز يعني الفرزدق فضحك .

فحدث صديق لي أبا الصَّلَعِ السَّنْدِيِّ بهذا الحديث قال : فَشِعْرِي أَعْجَبُ مِنْ هَذَا لِأَنِّي شَتَمْتُ الْبُخْلَاءَ
فَشَتَمْتُ نَفْسِي بِأَشَدِّ مِمَّا شَتَمْتُهُمْ فَقَالَ : وَمَا هُوَ قَالَ قَوْلِي : (لَا تَرَى بَيْتَ هَجَاءٍ * أَبَدًا يُسْمَعُ مِنِّي)
الهِجَاءُ أَرْفَعُ مِمَّنْ * قَدْرُهُ يَصْغُرُ عَنِّي)

طريقة قال أبو الحسن : كان واحداً يسخر بالناس ويدعي أنه يرقى من الضر إذا ضرب على صاحبه
فكان إذا أتاه من يشتكي ضره قال له إذا رقا : إِيَّاكَ أَنْ تَذَكَرَ إِذَا صِرْتَ إِلَى فِرَاشِكَ الْقَرْدَ فَإِنَّكَ إِنْ
ذَكَرْتَهُ بَطَلَتِ الرُّقْيَةُ فَكَانَ إِذَا آوَى إِلَى فِرَاشِهِ أَوَّلَ شَيْءٍ يَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ ذِكْرُ الْقَرْدِ وَبَيْتٌ عَلَى حَالِهِ مِنْ
ذَلِكَ الْوَجَعِ فَيَغْدُو إِلَى الَّذِي رَقَاهُ فَيَقُولُ لَهُ : كَيْفَ كَتَبَ الْبَارِحَةَ فَيَقُولُ : بَتُّ وَجَعًا فَيَقُولُ : لَعَلَّكَ ذَكَرْتَ

القرد فيقول : نعم فيقول : مِنْ نَمَّ لَمْ تَنْتَفِعْ بِالرُّقِيَّةِ شَعْرَ لِبَعْضِ ظُرْفَاءِ الْكُوفِيِّينَ وَقَالَ بَعْضُ ظُرْفَاءِ الْكُوفِيِّينَ :
(فَإِنْ يَشْرَبْ أَبُو فَرْوُخَ أَشْرَبَ ** وَإِنْ كَانَتْ مَعْتَقَةً عُقَارًا) (وَإِنْ يَأْكُلْ أَبُو فَرْوُخَ آكَلُ ** وَإِنْ كَانَتْ
خَنَانِيصًا صِغَار)

قرد يزيد بن معاوية وقال يزيد بن معاوية : (فَمَنْ مَبْلَغُ الْقِرْدِ الَّذِي سَبَقَتْ بِهِ ** جِيَادَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَتَانُ) (تَعْلَقُ أبا قَيْسٍ بِمَا إِنْ أَطْعَنِي ** فَلَيْسَ عَلَيْهَا إِنْ هَلَكْتَ ضَمَانُ) جَزَعُ بَشَارٍ مِنْ شَعْرِ الْحَمَادِ وَزَعَمَ الْجُرْدَانِيُّ
أَنَّ بَشَارًا الْأَعْمَى لَمْ يَجْزَعْ مِنْ هِجَاءٍ قَطُّ كَجَزَعِهِ مِنْ بَيْتِ حَمَادٍ عَجَرِدٍ حَيْثُ يَقُولُ : (وَيَا أَقْبَحَ مِنْ قِرْدٍ **
إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ)

شعر في الهجاء وقال بُشَيْرُ بْنُ أَبِي جَذِيمَةَ الْعَبْسِيُّ : (أَتَخْطُرُ لِلْأَشْرَافِ حَذِيمُ كِبَرَةٌ ** وَهَلْ يَسْتَعْدُّ الْقِرْدُ
لِلْخَطَرَانِ) (أَبِي قِصْرُ الْأَذْنَابِ أَنْ يَخْطُرُوا بِهَا ** وَلَوْمْ قُرُودٍ وَسَطَ كُلِّ مَكَانٍ) (لَقَدْ سَمِعْتُ قِرْدًا يُكَلِّمُ آلَ
حَذِيمٍ ** وَأَحْسَابَكُمْ فِي الْحَيِّ غَيْرُ سِمَانٍ) الْأَصْمَعِيُّ عَنْ أَبِي الْأَشْهَبِ عَنْ أَبِي السَّلِيلِ قَالَ : مَا أَبَالِي أَخْتَزِيرًا
رَأَيْتُ يُجَرُّ بَرَجْلَهُ أَوْ مِثْلَ عَبِيدٍ يَنَادِي : يَا لَ فُلَانٍ اسْتَطْرَادَ لَغَوِي

الأصمعي عن أبي ظبيان قال : الْخُوزُ هُمُ الْبُنَاةُ الَّذِينَ بَنَوْا الصَّرْحَ وَاسْمُهُمْ مَشْتَقٌّ مِنَ الْخَنْزِيرِ ذَهَبَ إِلَى اسْمِهِ
بِالْفَارَسِيَةِ خَوْكُ فَجَعَلَتِ الْعَرَبُ خَوْكُ خَوْزًا إِلَى هَذَا ذَهَبَ .

تناسل المسخ وقد قال النَّاسُ فِي الْمَسْخِ بِأَقَاوِيلَ مُخْتَلِفَةٍ : فَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَسْخَ لَا يَتَنَاسَلُ وَلَا يَبْقَى إِلَّا
بِقَدَرٍ مَا يَكُونُ مَوْعِظَةً وَعِبْرَةً فَتَقْطَعُوا عَلَى ذَلِكَ الشَّهَادَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَبْقَى وَيَتَنَاسَلُ حَتَّى جَعَلَ الضَّبُّ
وَالْجُرِّيُّ وَالْأَرَانِبُ وَالْكَلَابُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَادِ تِلْكَ الْأُمَمِ الَّتِي مُسَخَّتْ فِي هَذِهِ الصُّورِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ
فِي الْحَيَاتِ وَقَالُوا فِي الْوَزَغِ : إِنْ أَبَاهَا لَمَّا صَنَعَ فِي نَارِ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ مَا صَنَعَ أَصَمُّهُ اللَّهُ وَأَبْرَصَهُ فَقِيلَ
: سَامَ أَبْرَصَ فَهَذَا الَّذِي

نَرَى هُوَ مِنْ وَلَدِهِ حَتَّى صَارَ فِي قَتْلِهِ الْأَجْرُ الْعَظِيمُ لَيْسَ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَقْتُلُهُ كَالَّذِي يَقْتُلُ الْأُسْدَ وَالذَّبَّابَ إِذَا
خَافَهَا)

على المسلمين وقالوا في سهيل وفي الزُّهْرَةَ وفي هَارُوتَ وَمَارُوتَ وفي قَيْرَى وعيرَى أَبُوِي ذِي الْقَرْنَيْنِ
وَجُرُّهُمْ مَا قَالُوا .

القول في المسخ

فَأَمَّا الْقَوْلُ فِي نَفْسِ الْمَسْخِ فَإِنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ : فَأَمَّا الدُّهْرِيَّةُ فَهَمُ فِي ذَلِكَ صِنْفَانِ : فَمِنْهُمْ مَنْ جَحَدَ
الْمَسْخَ وَأَفَرَّ بِالْحُسْفِ وَالرَّيْحِ وَالطَّوْفَانِ وَجَعَلَ الْحُسْفَ كَالزَّلَازِلِ وَزَعَمَ أَنَّهُ يَقَرُّ مِنَ الْقَذْفِ بِمَا كَانَ مِنَ الْبَرْدِ
الْكِبَارِ فَأَمَّا الْحِجَارَةُ فَإِنَّهَا لَا تَحْيَى مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ وَقَالَ : لَسْتُ أَجُوزُ إِلَّا مَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ أَنَّهُ قَدْ
يَحْدُثُ فِي الْعَالَمِ فَأَتَكَرَّ الْمَسْخَ الْبَيْتَةُ .

أثر البيئة وقال الصنف الآخر : لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام

كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني وترى طباع بلاد الترك كيف تطيع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم : من سيع وبهيمية على طبائعهم وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضراء وتراها في غير الخصرة على غير ذلك وترى القملة في رأس الشاب الأسود الشعر سوداء وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء وتراها في رأس الأشمط شطاء وفي لون الجمل الأورق فإذا كانت في رأس الخصيب بالحمرة تراها حمراء فإن نصل خضابه صار فيها شكلة من بين بيض وحمرة وقد نرى حرّة بني سليم وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمية وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء

وقد خبرنا من لا يحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجلاً من نبط بيسان ولهم أذنان إلا تكن كأذنان التماسيح والأسد والبقر والخيول إلا كأذنان السلاحف والجردان فقد كان لهم عجوب طوال كالأذنان وربما رأينا الملاح التبطي في بعض الجعفرات على وجهه شبه القرد وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ إلا القليل وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الحبيث والتربة الرديئة ناساً في صفة هؤلاء المغربيين والأنباط ويكونون جهالاً فلا يرتحلون ضئالة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور وفي تلك الأذنان وفي تلك الألوان الشقر وفي تلك الصور المناسبة للقروء قالوا : ولم نعرف ولم يثبت عندنا بالخبر الذي لا يعارض أن الموضع الذي قلب صور قوم إلى صور الخنازير هو الموضع الذي لا يعارض أن صور القروء وقد يجوز أن تكون هذه الصور انقلبت في مهبّ الريح الشمالي والأخرى

في مهبّ الجنوب ويجوز أن يكون ذلك كان في دهر واحد ويجوز أن يكون بينهما دهرٌ ودهور قالوا : فلسنا ننكر المسخ إن كان على هذا الترتيب لأنه إن كان على مجرى الطباع وما تدور به الأدوار فليس ذلك بناقض لقولنا ولا مثبت لقولكم قال أبو إسحاق : الذي قلتم ليس بمحال ولا يُنكر أن يحدث في العالم برهانات وذلك المسخ كان على مجرى ما أعطوا من سائر الأعاجيب والدلائل والآيات ونحن إنما عرفنا ذلك من قبلهم ولولا ذلك لكان الذي قلتم غير ممتنع ولو كان ذلك المسخ في هذا الموضع على ما ذكرتم ثم خبر بذلك نبي أو دعا به نبي لكان ذلك أعظم الحجة فأما أبو بكر الأصم وهشام بن الحكم فإنهما كانا يقولان بالقلب ويقولان : إنه إذا جاز أن قلب الله خردلة من غير أن يزيد فيها جسماً وطولاً أو عرضاً جاز أن قلب ابن آدم قرداً من غير أن ينقص من جسمه طولاً أو عرضاً .

وأما أبو إسحاق فقد كان لولا ما صحّ عنده من قول الأنبياء وإجماع المسلمين على أنه قد كان وأنه قد كان

حُجَّةٌ وبرهاناً في وقته لكان لا ينكر مذهبه في هذا الموضع وقوله هذا قولُ جميع من قال بالطَّباع ولم يذهبْ مذهب جهم وحفص الفرد .

وقال ابن العنسي يذكر الفرد : (فهَلَّا غَدَاةَ الرَّمْلِ يَا قِرْدَ حَذِيمٍ * تَوَامِرُهَا فِي نَفْسِهَا تَسْتَشِيرُهَا)
القول في تحريم الخنزير قال : وسأل سائلون في تحريم الخنزير عن مسألة فمنهم من أراد الطعن ومنهم من أراد الاستفهام ومنهم من أحب أن يعرف ذلك من جهة الفتيا إذ كان قوله خلاف قولنا .
قالوا : إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ فَذَكَرَ اللَّحْمَ دُونَ الشَّحْمِ وَدُونَ الرَّأْسِ وَدُونَ الْمَخِّ وَدُونَ الْعَصَبِ

ودون سائر أجزائه ولم يذكره كما ذكر الميتة بأسرها وكذلك الدَّمُ لأنَّ القول وقع على جملتهما فاشتمل على جميع خصالهما بلفظ واحد وهو العموم وليس ذلك في الخنزير لأنه ذكر اللحم من بين جميع أجزائه وليس بين ذِكْرِ اللَّحْمِ وَالْعِظْمِ فَرْقٌ وَلَا بَيْنَ اللَّحْمِ وَالشَّحْمِ فَرْقٌ وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي فِي قِيَاسِكُمْ هَذَا لَوْ قَالَ : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَشَحْمُ الْخِنْزِيرِ أَنْ تَحْرَمُوا الشَّحْمَ وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّحْمَ فَلِمَ حَرَّمْتُمُ الشَّحْمَ وَمَا بِالْكُمِ تَحْرِمُونَ الشَّحْمَ عِنْدَ ذِكْرِ غَيْرِ الشَّحْمِ فَهَلَّا حَرَّمْتُمُ اللَّحْمَ بِالْكِتَابِ وَحَرَّمْتُمَا مَا سِوَاهُ بِالْخَبَرِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ فَإِنْ بَقِيَتْ خَصْلَةٌ أَوْ خَصْلَتَانِ مِمَّا لَمْ تُصَيِّوَا ذِكْرَهُ فِي كِتَابٍ مَنْزِلٌ وَفِي أَثَرٍ لَا يَدْفَعُ رَدِّدَقْوَهُ إِلَى جِهَةِ الْعَقْلِ قُلْنَا : إِنَّ النَّاسَ عَادَاتٌ وَكَلَامًا يَعْرِفُ كُلُّ شَيْءٍ بِمَوْضِعِهِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى قَدَرِ اسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ وَانْتِفَاعِهِمْ بِهِ وَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ كَيْلَهُ : اشْتَرِ لِي بِهَذَا الدِّينَارِ لَحْمًا أَوْ بِهَذِهِ الدِّرَاهِمِ فَيَأْتِيهِ بِاللَّحْمِ فِيهِ الشَّحْمُ وَالْعِظْمُ وَالْعِرْقُ وَالْعَصَبُ وَالْغُضْرُوفُ وَالْقُوَادِ وَالطَّحَالُ وَالرِّتَّةُ وَبَعْضُ أَسْقَاطِ الشَّاةِ وَحَشْوِ الْبُطْنِ وَالرَّأْسِ لَحْمٌ وَالسَّمَكُ أَيْضًا لَحْمٌ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا فَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ ذَهَبَ إِلَى الْمُسْتَعْمَلِ مِنْ ذَلِكَ وَتَرَكَ بَعْضَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ لَحْمٍ فَقَدْ أَخَذَ بِمَا عَلَيْهِ صَاحِبُهُ إِذَا قَالَ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ لَحْمًا فَكَأَنَّهُ قَالَ : لَحْمُ الشَّاةِ وَالْبَقَرَةِ

والجُرُورِ وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : أَكَلْتُ لَحْمًا وَإِنَّمَا أَكَلَ رَأْسًا أَوْ كَبْدًا أَوْ سَمَكًا لَمْ يَكُنْ كَاذِبًا وَلِلنَّاسِ أَنْ يَضَعُوا كَلَامَهُمْ حَيْثُ أَحَبُّوا إِذَا كَانَ لَهُمْ مَجَازٌ إِلَّا فِي الْمَعَامَلَاتِ فَإِنْ قُلْتُ : فَمَا تَقُولُ فِي الْجِلْدِ فَلَيْسَ لِلْخِنْزِيرِ جِلْدٌ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ جِلْدٌ إِلَّا بِقَطْعِ مَا ظَهَرَ لَكَ مِنْهُ بِمَا تَحْتَهُ وَإِنَّمَا الْجِلْدُ مَا يُسْلَخُ وَيُدْحَسُ فَيَتَبَرَأُ مِمَّا كَانَ بِهِ مُلْتَزِقًا وَلَمْ يَكُنْ مُلْتَحِمًا كَفَرَقَ مَا بَيْنَ جِلْدِ الْخَوْصَلَةِ وَالْعِرْقَيْنِ .

فَإِنْ سَأَلْتَ عَنِ الشَّعْرِ وَعَنِ جِلْدِ الْمُنْخَنِقَةِ وَالْمَوْقُودَةِ وَالْمُتَرَدِّةِ وَالنَّطِيطَةِ وَمَا أَكَلَ السَّيِّعُ فَإِنِّي أَزْعِمُ أَنَّ جِلْدَهُ لَا يُدْبَغُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا الْأَسَاكِفَةُ وَالْقَوْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ كُلَّهُ مُحَرَّمٌ وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ وَكَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ) يَشَاءَ اللَّهُ وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلرَّجُلِ الصَّانِعِ نَجَارًا إِنْ كَانَ لَا يَعْمَلُ بِالْمِثْقَبِ وَالْمِنْشَارِ وَنَحْوِهِ وَلَا يَضْرِبُ بِالْمِضْلَعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَتَسْمِيَّتُهُ خَبَازًا إِذَا كَانَ يَطْبَخُ وَيَعْجَنُ وَتَسْمِيَّتُ الْعِيرِ لَطِيمَةً وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَحْمِلُ الْعِطْرَ إِلَّا وَاحِدٌ وَتَقُولُ : هَذِهِ طُعْنُ فُلَانٍ لِلْهُوَادِجِ إِذَا كَانَتْ فِيهَا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُقَالُ : هَوْلَاءُ بَنُو فُلَانٍ وَإِنْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الرِّجَالِ

فلما كان اللحم هو العمود الذي إليه يُقصد وصار في أعظم الأجزاء قدراً دَخَلَ سائرُ تلك الأجزاء في اسمه ولو كان الشَّحْمُ معتزلاً من اللحم ومفرداً في جميع الشَّحَام كشحوم الكلى والثُّروب لم يَجْزِ ذلك وإذا تكلمت على المفردات لم يكن المخُّ لحمًا لا الدماغ ولا العظم ولا الشَّحْم ولا الغُصروف ولا الكروش ولا ما أشبه ذلك فلما قال : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيِرِ وكانت هذه الأشياء المشبهة باللحم تدخل في باب العموم في اسم اللحم كان القول واقعاً على الجميع .

وقال الشاعر : (مَنْ يَأْتِنَا صُبْحاً يَرِيدُ غَدَاءَنَا * فَهَامُ مَنْضُجَةٍ لَدَى الشَّحَامِ) (لحمٌ نَضِيجٌ لَا يُعْنِي طابِخاً * يُؤْتِي بِهِ مِنْ قَبْلِ كُلِّ طَعَامٍ) وإذ قد ذكرنا بعض الكلام والمسائل في بعض الكلام فسندكر شأن الهدهد والمسألة في ذلك قال الله عز وجل : وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا أَوْ أَذْذَبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ثم قال : فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ يعني الهدهد فقال لسليمان المتوعد له بالذبح عقوبة له والعقوبة لا تكون

إلا على المعصية لبشري آدمي لم تكن عقوبته الذبح فلذلك على أن المعصية إنما كانت له ولا تكون المعصية لله إلا لمن يعرف الله أو ممن كان يمكنه أن يعرف الله تعالى فترك ما يجب عليه من المعرفة وفي قوله لسليمان : أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَّأٍ بَنِيَّائِينَ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ثم قال بعد أن عرف فصل ما بين الملوك والسوقة وما بين النساء والرجال وعرف عظم عرشها وكثرة ما أوتيت في ملكها قال : وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ فَعَرَفَ السُّجُودَ لِلشَّمْسِ وَأَثَرَ الْمَعَاصِي ثُمَّ قَالَ : أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ وَيَتَعَجَّبُ مِنْ سَجُودِهِمْ لغير الله ثم علم أن الله يعلم غيب السموات والأرض ويعلم السر والعلانية ثم قال : اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ وهذا يدل على أنه أعلم من ناس كثير من المميزين المستدلين الناظرين .

قال سليمان : سَتَنْظُرُونَ أَصْدَقَتْ أَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْكَاذِبِينَ ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ

وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ . فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ . وذلك أنها قالت : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ثُمَّ قَالَ سليمان للهدهد : ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ وقال : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَازِيدُ شُكْرَهُ وَلَنْفُكُ مِنْ كَفَرٍ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ فَطَعَنَ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ طَاعِنُونَ فقال بعضهم : قد ثبت أن الهدهد يحتمل العقاب

والعتاب والتكليف والثواب والولاية ودخول الجنة بالطاعة ودخول النار بالمعصية لأن المعرفة تُوجب الأمر والنهي والأمر والنهي يوجبان الطاعة والمعصية والطاعة والمعصية يوجبان الولاية والعداوة فينبغي للهداهد أن يكون فيها العدو والولي والكافر والمسلم والزنديق والدّهري .
وإذا

كان حُكْمُ الجنس حُكْماً واحداً لزم الجميع ذلك وإن كان الهدهد لا يبلغ عند جميع الناس في المعرفة مبلغ الذرة والنملة والقملة والفيل والقرد والخنزير والحمام وجميع هذه الأمم تُقدّمها عليه في المعرفة فينبغي أن تكون هذه الأصناف المتقدّمة عليه في عقول هذه الأمة والأنبياء وقد رأينا العلماء يتعجبون من خرافات العرب والأعراب في الجاهليّة ومن قولهم في الديك والغراب ويتعجبون من الرواية في طوق الحمام فإن الحمام كان رائد نوح على نبينا وعليه السلام وهذا القول الذي تؤمنون به في الهدهد من هذا النوع قلنا : إنّ الله تعالى لم يقل : وَتَقْدَرُ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى هَدَهداً مِنْ عُرْضِ الْهَدَاهِدِ فَلَمْ يَوْقِعْ قَوْلَهُ عَلَى الْهَدَاهِدِ جُمْلَةً وَلَا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا غَيْرَ مَقْصُودٍ إِلَيْهِ وَلَمْ يَذْهَبْ إِلَى الْجِنْسِ عَامَّةً وَلَكِنَّهُ قَالَ : وَتَقْدَرُ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدَهدَ فَأَدْخَلَ فِي الْأَسْمِ الْأَلْفَ وَاللَّامَ فَجَعَلَهُ مَعْرِفَةً فَدَلَّ بِذَلِكَ الْقَصْدَ عَلَى أَنَّهُ ذَلِكَ الْهَدَهدُ بَعِينَهُ وَكَذَلِكَ غُرَابُ نُوْحٍ وَكَذَلِكَ هَمَارُ عُزَيْرٍ وَكَذَلِكَ ذَنْبُ أَهْبَانَ بْنِ أَوْسٍ فَقَدْ)
كَانَ لِلَّهِ فِيهِ وَفِيهَا تَدْبِيرٌ وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ آيَةً لَأَنْبِيَائِهِ وَبِرَهَانًا لِرُسُلِهِ

ولا يستطيع أَعْقِلُ الناس أن يعملَ عملَ أجرِ الناس كما لا يستطيع أجرُ الناس أن يعملَ أعمالَ أَعْقِلِ الناس فبأعمالِ الجانينِ والعُقلاءِ عَرَفْنَا مقدارَهما من صحّةِ أذهانهما وفسادها وباختلافِ أعمالِ الأطفالِ والكهولِ عَرَفْنَا مقدارَهما في الضعفِ والقوّةِ وفي الجهلِ والمعرفةِ ويمثّلُ ذلكَ فَصَلْنَا بينَ الجمادِ والحيوانِ والعالمِ وأَعْلَمَ منه والجاهلِ وأَجْهَلَ منه ولو كان عند السَّبَّاحِ والبهائمِ ما عند الحكماءِ والأدباءِ والوزراءِ والخلفاءِ والأممِ والأنبياءِ لأَثَرَتِ تلكَ العقولُ باضطرابِ إثمارِ تلكَ العقولِ وهذا بابٌ لا يخطئُ فيه إلا المانيّةُ وأصحابُ الجهالاتِ فقط فأَمَّا عَوَامُ

الأممِ فضلاً عن خواصهم فهم يعلمون من ذلك مثلاً ما نعلم وإنما يُتفاضَلُ بالبيان والحِفظِ وبنسقِ الحفظِ فأَمَّا المعرفةُ فحَنَ فيها سواء ولم نعرفِ العقلَ وعدَمه ونقصانه وإفادته وأقدارَ معارفِ الحيوانِ إلا بما يظهرُ منها وبذلك الأدلّةِ عَرَفْنَا فرقَ ما بين الحيِّ والميتِ وبين الجمادِ والحيوانِ فإن قال الخصمُ : ما نعرفُ كلامَ الذئبِ ولا معرفةَ الغرابِ ولا عِلْمَ المدهدِ قلنا : نحن نؤمن بأنَّ عيسى عليه السلام خُلِقَ من غيرِ ذكرٍ وإنما خُلِقَ من أُنثى وأنَّ آدَمَ وَحَوَاءَ خُلِقَا من غيرِ ذكرٍ وأنثى وأنَّ عيسى تكَلَّمَ في المهدِ وأنَّ يحيى بن زكريّا نطقَ بالحكمةِ في الصَّبَا وأنَّ عقيماً أَلْقَحَ وأنَّ عاقراً ولدت وبأشياءَ كثيرةَ خرجت خارجةً من نَسَقِ العادةِ فالسَّببُ الذي به عَرَفْنَا أَنَّهُ قد كان لذلك المدهدِ مقدارٌ من المعرفةِ دونَ ما توهمتم وفوقَ ما مع المدهدِ ومتى سألتُمونا عن الحِجَّةِ فالسبيلِ واحدةٌ ونحن نقرُّ بأنَّ مَنْ دخلَ الجنةَ من الجانينِ والأطفالِ يدخلون عقلاءَ كاملين من غيرِ تجاربٍ وتمرينِ وترتيبٍ فمَسَأَلْتُكُمْ عما أَلْهَمَ المدهدُ هي المسألةُ عما أَلْهَمَ الطفلُ في الجنةِ

فإن قال قائلٌ : فإنَّ كَانَ ذلكَ القولُ كُلُّهُ الذي كان من المدهدِ إنما كان على الإلهامِ والتَّسْخِيرِ ولم يكن ذلكَ عن معرفةٍ منه فلم قال : لأَعَذِّبُهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ قُلْنَا : فَإِنَّهُ قد يتوعَّدُ الرَّجُلُ ابنَهُ وهو بَعْدُ لم يَجِرْ عَلَيْهِ الأحكامُ بالضَّرْبِ الوجيعِ إن هو لم يَأْتِ السُّوقَ أو يحفظُ سورةَ كَذَا وَكَذَا فلا يَعْنِفُهُ أَحَدٌ على ذلكَ الوعيدِ ويكذبُ فيضربه على الكذبِ ويضربُ صبيّاً فيضربه لأنَّهُ ضربه وهو في ذلكَ قد حَسَنَ خطّه وجادَ حسابه وشَدَا من النَّحوِ والعروضِ والفرائضِ شَدَوْاً حسناً ونفعَ أهله وتعلّمَ أعمالاً وتكلّمَ بكلامٍ وأجاب في الفتيا بكلامٍ فَوْقَ معاني المدهدِ في اللطافة والغموضِ وَهُوَ في ذلكَ لم يكْمُلْ لاحتمالِ الفرضِ وَالْوَلَايَةِ وَالْعَدَاوَةِ فإن قال : فهل يجوزُ لأَحَدٍ أن يقولَ لابنِهِ : إنَّ أَنتَ لم تَأْتِ السُّوقَ ذُبْحَكَ وَهُوَ جَادٌ قُلْنَا : لا يجوزُ ذلكَ وَإِنَّمَا جازَ ذلكَ في المدهدِ لأنَّ سَليمانَ وَمَنْ هو دونَ سَليمانَ من جميعِ العالمِ له أن يذبحَ المدهدَ والحمامَ والدَّيْكَ والعنّاقَ والجذْيَ والدَّبْحَ سَيْلٌ من سُبُلِ منايهم فلو ذبحَهُ سَليمانُ لم يكن في ذلكَ إلا بقدرِ التَّقْدِيمِ والتَّأخِيرِ وإلاَّ بقدرِ صَرَفِ ما بين أن يموتَ حَتْفَ أَنفِهِ أو يموتَ بالدَّبْحِ وَلَعَلَّ صَرَفَ ما بينهما

لا يكون إلا بمقدار ألم عشرين دِرَّةً ولعلَّ نَفثَ جناحِهِ يَفِي بذلك الضرب وإذا قلنا ذلك فقد أعطينا ذلك الهدهدَ بعينه حقاً ما دَلَّت عليه الآية ولم نُجْزْ ذلك في جميع الهداهد ولم نَكُنْ كَمَنْ ينكر قدرة الله على أن يُرَكِّبَ عصفوراً من العصفير ضرباً من التراكيب يكون أدهى من قيس بن زهير ولو كان الله تعالى قد فعل ذلك بالعصفير لظهرت كذلك دلائل على أنَّ لو تأولنا الذَّبْحَ على مثال تأويل قولنا في ذبح إبراهيم وإسماعيلَ عليهما السلام وإنما كان ذلك ذبحاً في المعنى لغيره أو على معنى قول

القاتل : أمّا أنا فقد ذبحته وضربت عنقه ولكن السيف خانني أو على قولهم : المسك الذبيح أو على قولهم : فجئت وقد ذبحني العطش لكان ذلك مجازاً ولو أنَّ صبيّاً من صبياننا سُئِلَ قبل أن يبلغَ فرضَ البلوغ بساعة وكان رأى مَلِكَةً سِياً في جميع حالاتها لما كان بعيداً ولا ممتنعاً أن يقولَ : رأيتُ امرأةً مَلِكَةً ورأيتها تسجُدُ للشَّمْسِ من دون الله ورأيتها تُطِيعُ الشَّيْطَانَ وتَعْصِي الرَّحْمَنَ ولا سيما إنَّ كانَ من صبيان الخلفاء والوزراء أو من صبيان الأعراب والدليل على أنَّ ذلك الهدهد كان مسخراً وميسراً مَضِيَّه إلى اليمن ورجوعه من ساعته ولم يكن من الطير القواطع فرجع إلى وكره والدليل على ذلك أنَّ سليمان عليه السلام لم يقل : نعم قد رأيت كلَّ ما ذكرت وأنت لم تعلم حين مضيت بطلاً هارباً من العمل أَتُكْذِبُ أم تنجح أو ترى أعجوبة أو لا تراها ولكنَّه توعَّده على ظاهر الرَّأْيِ ونافره القول يُظهِرُ الآية والأعجوبة .

طعن الدهرية في ملك سليمان ثم طعن في مُلْكِ سُلَيْمَانَ ومَلِكَةِ سِياً نَسَّ من الدهرية وقالوا : زعمتم أنَّ سليمان سأل رَبَّهُ فقال : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي

وأنَّ الله تعالى أعطاه ذلك فملكه على الجنِّ فضلاً عن الإنس وعلمه منطق الطير وسخر له الرِّيح فكانت الجنُّ له خولاً والرِّياحُ له مسخرة ثم زعمتم وهو إمّا بالشَّام وإمّا بسَوَادِ الْعِرَاقِ أَنَّهُ لا يعرف باليمن مَلِكَةً هذه صفتها وملوكنا اليوم دون سليمان في القدرة لا يخفى عليهم صاحب الخَزَرِ ولا صاحب الروم ولا صاحب الترك ولا صاحب الثوبة وكيف يجهل سليمان موضع هذه الملكة مع قُربِ دارها واتِّصَالِ بلادها وليس دونها بحار ولا أوعارٌ والطريق فَجٌّ للخُفِّ والحافر والقدم فكيف والجنُّ والإنس طَوْعٌ يمينه ولو كان حين خبره الهدهد بمكانها أَضْرَبَ عنها صفحاً لكان لقائل أن يقول : ما أتاه الهدهدُ إلَّا بأمرٍ يعرفه فهذا وما أشبهه دليلٌ على فساد أخباركم . قلنا : إنَّ الدُّنْيَا إذا خلاها الله وتديرَ أهلها ومجاري أمورِها وعاداتها كان لعمري كما تقولون ونحن نزعم أنَّ يَعْقُوبَ بْنَ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَنبَةً أَهْلُ زَمَانِهِ لِأَنَّهُ نَبِيٌّ ابْنُ نَبِيٍّ وَكَانَ يَوْسُفُ وَزِيرَ مُلْكٍ مِصْرَ مِنَ النَّبَاهَةِ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ وَلَهُ الْبُرْدُ وَإِلَيْهِ يَرْجَعُ جَوَابُ الْأَخْبَارِ ثُمَّ لَمْ يَعْرِفْ يَعْقُوبُ مَكَانَ يَوْسُفَ وَلَا يَوْسُفُ مَكَانَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ دَهراً من الدُّهُورِ مع النَّبَاهَةِ وَالْقُدْرَةِ وَاتِّصَالِ الدَّارِ وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي التَّيِّهِ فَقَدْ

كانوا أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ يَتَكَسَّعُونَ أَرْبَعِينَ عَاماً فِي مَقْدَارِ فِرَاسِخٍ سِيرَةٍ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْمَخْرَجِ وَمَا كَانَتْ بِلَادُ التَّيِّهِ إِلَّا مِنْ مَلَاعِبِهِمْ وَمُنْتَزَهَاتِهِمْ وَلَا يَعْدَمُ مِثْلُ ذَلِكَ الْعَسْكَرِ الْأَدْلَاءَ وَالْجَمَّالِينَ وَالْمُكَارِبِينَ وَالْفُيُوجَ وَالرُّسُلَ وَالتَّجَارَ وَلَكِنَّ اللَّهَ صَرَفَ أَوْهَامَهُمْ وَرَفَعَ ذَلِكَ الْفَصْلَ مِنْ صُدُورِهِمْ . وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ

يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فَنَقُولُ : إِنَّهُمْ لَوْ كَانَ كَلِمَا أَرَادَ مُرِيدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَصْعَدَ ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ رُجِمَ صَاحِبُهُ وَأَنَّهُ كَذَلِكَ مِنْذُ كَانَ لَمْ يَصِلْ مَعَهُ أَحَدٌ إِلَى اسْتِرَاقِ السَّمْعِ كَانَ مُحَالًا أَنْ يَرَوْهُ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَعَ الذِّكْرِ وَالْعِيَانِ .

ومثل ذلك أَنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ إِبْلِيسَ لَا يَزَالُ عَاصِيًا إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ وَلَوْ كَانَ إِبْلِيسُ فِي حَالِ الْمَعْصِيَةِ ذَاكِرًا لِإِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَزَالُ عَاصِيًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ خَبْرَهُ صِدْقٌ كَانَ مُحَالًا أَنْ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَيَطْمَعُ فِي ذَلِكَ مَعَ تَصَدِيقِهِ بِأَنَّهُ لَا يَخْتَارُ الْإِيمَانَ أَبَدًا .

ومن المحال أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ وَجُودِ الْإِسْطَاعَةِ وَعَدَمِ الدَّوَاعِي وَجَوَازِ الْفِعْلِ .
ولو أَنَّ رَجُلًا عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ كَانَ مُحَالًا أَنْ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ وَلَكِنْ إِبْلِيسُ لَمَّا كَانَ مُصْرُوفَ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ ذَلِكَ الْخَبَرِ دَخَلَ فِي حَدِّ الْمُسْتَطِيعِينَ وَمِثْلَ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَشَّرَهُ اللَّهُ بِالظَّفَرِ وَتَمَامِ الْأَمْرِ بِشَرِّ أَصْحَابِهِ بِالنَّصْرِ وَنَزُولِ الْمَلَائِكَةِ وَلَوْ كَانُوا لِذَلِكَ ذَاكِرِينَ فِي كُلِّ حَالٍ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخَارِبَةِ مُؤَوْنَةٌ وَإِذَا لَمْ يَتَكَلَّفُوا الْمُؤَوْنَةَ لَمْ يُؤْجَرُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَنَظَرَهُ إِلَيْهِمْ رَفَعَ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ

عَنْ أَوْهَامِهِمْ لِيَحْتَمِلُوا مَشَقَّةَ الْقِتَالِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ : أَيْغَلِبُونَ أَمْ يُغَلَّبُونَ أَوْ يَقْتُلُونَ أَمْ يُقْتَلُونَ وَمِثْلَ ذَلِكَ مَا رَفَعَ مِنْ أَوْهَامِ الْعَرَبِ وَصَرَفَ نَفْسَهُمْ عَنِ الْمَعَارِضَةِ لِلْقُرْآنِ بَعْدَ أَنْ تَحَدَّاهُمْ الرَّسُولُ)
بِنَظْمِهِ وَلِذَلِكَ لَمْ نَجِدْ أَحَدًا طَمِعَ فِيهِ وَلَوْ طَمِعَ فِيهِ لَتَكَلَّفَهُ وَلَوْ تَكَلَّفَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ فَجَاءَ بِأَمْرِ فِيهِ أَدْنَى شُبْهَةٍ لِعَظُمَتِ الْقِصَّةُ عَلَى الْأَعْرَابِ وَأَشْبَاهِ الْأَعْرَابِ وَالنِّسَاءِ وَأَشْبَاهِ النِّسَاءِ وَلَأَلْقَى ذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ عَمَلًا وَلَطَلَبُوا الْحَاكِمَةَ وَالتَّرَاضِيَّ بَعْضُ الْعَرَبِ وَلَكَثُرَ الْقِيلُ وَالْقَالَ فَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُسَيْلَمَةَ وَأَصْحَابَ ابْنِ النُّوَاحَةِ إِنَّمَا تَعَلَّقُوا بِمَا أَلْفَ هُمْ مُسَيْلَمَةَ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا عَدَا عَلَى الْقُرْآنِ فَسَلَبَهُ وَأَخَذَ بَعْضَهُ وَتَعَاطَى أَنْ يُقَارِنَهُ فَكَانَ لِلَّهِ ذَلِكَ التَّدْبِيرُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ الْعِبَادُ وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ فَإِنْ كَانَ الدُّهْرِيُّ يُرِيدُ مِنْ أَصْحَابِ الْعِبَادَاتِ وَالرُّسُلِ مَا يَرِيدُ مِنْ

الدُّهْرِيُّ الصَّرْفِ الَّذِي لَا يُقَرُّ إِلَّا بِمَا أَوْجَلَهُ الْعِيَانُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى الْعِيَانِ فَقَدْ ظَلَمَ . وَقَدْ عَلِمَ الدُّهْرِيُّ أَنَّنَا نَعْتَقِدُ أَنَّ لَنَا رَبًّا يَخْتَرِعُ الْأَجْسَامَ اخْتِرَاعًا وَأَنَّهُ حَيٌّ لَا بِحَيَاةٍ وَعَالَمٌ لَا بِعِلْمٍ وَأَنَّهُ شَيْءٌ لَا يَنْقَسِمُ وَلَيْسَ بِذِي طُولٍ وَلَا عَرْضٍ وَلَا عُمُقٍ وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ تَحْيِي الْمَوْتَى وَهَذَا كُلُّهُ عِنْدَ الدُّهْرِيِّ مُسْتَنَكِرٌ وَإِنَّمَا كَانَ يَكُونُ لَهُ عَلَيْنَا سَبِيلٌ لَوْ لَمْ يَكُنِ الَّذِي ذَكَرْنَا جَائِزًا فِي الْقِيَاسِ وَاحْتِجْنَا إِلَى تَثْبِيهِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَصَدِيقِ الرِّسَالَةِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا وَكَانَ كَوْنُهُ غَيْرَ مُسْتَنَكِرٍ وَلَا مُحَالٍ وَلَا ظُلْمٌ وَلَا عَيْبٌ فَلَمْ يَقَعْ لَهُ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَنَا عَنِ الْأَصْلِ الَّذِي دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِلَى تَثْبِيهِ الرِّسَالِ وَفِي كِتَابِنَا الْمَنْزِلِ الَّذِي يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّهُ صِدْقٌ نَظْمُهُ الْبَدِيعُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهِ الْعِبَادُ مَعَ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الدَّلَائِلِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مَنْ جَاءَ بِهِ وَفِيهِ مَسْطُورٌ أَنَّ سَلِيمَانَ بْنَ دَاوُدَ غَيْرَ

حيناً وهو ميت معتمداً على عصاه في الموضع الذي لا يُحجب عنه إنسي ولا جنيّ والشياطينُ منهم المكذوبُ بالعمَل الشديد ومنهمُ الخبوسُ والمستعبد وكانوا كما قال

الله تعالى : يَعمَلُونَ لَهُ ما يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كالجَوَابِي وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ وقال والشياطينَ كُلَّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ وَأَنَّهُ غَبَرَ كَذَلِكَ حِيناً وهو تُجَاهُ أعينهم فلا هُمْ عَرَفُوا سَجِيَّةَ وَجْهِهِ المَوْتَى ولا هو إذْ كان ميتاً سَقَطَ سَقُوطَ المَوْتَى وثبتَ قائماً معتمداً على عصاه وعصاه ثابتة قائمة في يده وهو قابضٌ عليها وليست هذه الصفةُ صفةَ موتانا وقال : فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ونحنُ دونَ الشياطينَ والجنِّ في صِدْقِ الحَسِّ ونُفُوذِ البَصَرِ ولو كُنَّا مِنْ بعضِ المَوْتَى بهذا المكانِ لما خَفِيَ علينا أمرُهُ وكان أدنى ذلك أن نَظُنَّ ونرتابَ ومتى ارتابَ قومٌ وظنُّوا وماجُوا وتكلموا وشاوروا لَقِنُوا وتُبَّتُوا ولا سِيَّما إذا كانوا في العذابِ ورأوا تَبَاشِيرَ الفَرَجِ

ولولا الصَّرفَةُ التي (يُلْقِيها اللهُ تعالى على قَلْبٍ مَنْ أَحَبَّ ولولا أن الله يَقْدِرُ على أن يشغَلَ الأوهامَ كيف شاءَ ويذكرُ بما يشاءُ ويُنسِي ما يشاءُ لما اجتمع أهلُ دارِهِ وقصرُهُ وسُورُهُ وربَّضُهُ وخاصَّتُهُ ومن يخدمُهُ من الجنِّ والإنسِ والشياطينَ على الإطباقِ بأنَّه حيٌّ كذلك كان عندهم فحدث ما حَدَّثَ مِنْ موته فلَمَّا لم يشعُروا به كانوا على ما لم يزالوا عليه فَعَلِمْنَا أَنَّ الجنَّ والشياطينَ كانت تُوهِمُ الأغبياءَ والعوامَّ والحُشَوَةَ والسُّفَلَةَ أَنَّ عندهما شيئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ والشياطينَ لا تعلم ذلك فأراد اللهُ أَنْ يَكْشِفَ مِنْ أَمْرِهِمُ لِلْجَهْلِ ما كان كَشَفَهُ للعلماءِ فبهذا وأشباهه مِنْ الأمورِ نحنُ إلى الإقرارِ به مضطرون بالحججِ الاضطراريَّةِ فليس لخصومنا حيلةٌ إِلَّا أن يواقِفُونَا وينظروا في العلةِ التي اضطرتنا إلى هذا القولِ فإن كانت صحيحةً فالصَّحِيحُ لا يُوجِبُ إِلَّا الصَّحِيحَ وإنْ كانت سقيمةً عَلِمْنَا أَنَّما أُتِينا مِنْ تَأويلنا وأما قوله : لأُعَذِّبَنَّه فَإِنَّ العَذِيبَ يكون بالحسِّ كما قال اللهُ

عزَّ وجلَّ : لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ وَإِنَّمَا كَانُوا مُخَيِّسِينَ وقد يقول العاشقُ لمعشوقته : يا معذِّبتي وقد عذبتني ومن العذابِ ما يَكُونُ طويلاً وَمِنْهُ ما يَكُونُ قَصيراً الوقتِ ولو خَسَفَ اللهُ تعالى بقومٍ في أَقلِّ من عُشْرِ ساعةٍ لجازَ لقائل أن يقول : كان ذلك يومَ أَحَلَّ اللهُ عَذابَهُ ونِقَمَتَهُ ببلادِ كذا وكذا .

قوة الخنزير وشدة احتماله وقال أبو ناصرة : الخنزير ربَّما قتل الأسدَ وما أَكْثَرَ ما يَلْحَقُ بِصاحبِ السَّيْفِ والرُّمَحِ فيضربه بِنايِهِ فيقطعُ كُلَّ ما لقيه مِنْ جَسَدِهِ : مِنْ عَظْمٍ وَعَصَبٍ حتَّى يَقْتَلَهُ وَربَّما احتالَ أَنْ يَنْبَطِحَ على وجهِهِ على الأرضِ فلا يَغْنِي ذلك عَنْهُ شيئاً : وليس لشيءٍ مِنَ الحيوانِ كاحتمالِ بدنِهِ لَوَقْعِ السَّهامِ ونُفُوذِها فِيهِ .

بعض طباع الخنزير وهو مع ذلك أَرَوُّغُ مِنْ ثعلبٍ إذا أرادَهُ الفارسُ وإذا عدا أَطَمَعَ في نَفْسِهِ كُلَّ شيءٍ وإذا طولبَ أَعْيَا الخَيْلَ العِتاقَ والخنزيرُ مع ذلك أَنْسَلُ

الخلق لأن الخنزيرة تصنع عشرين خنوصاً وهو مع كثرة إنسالة من أقوى الفحول على السفاد ومع القوة على السفاد هو أطولها مكثاً في سفاده فهو بذلك أجمع للفحولة وإذا كان الكلب والذئب موصوفين بشدة القلب لطول الخطم فالخنزير أولى بذلك وللليل ناب عجيب ولكنه لقصر عنقه لا يبلغ الثاب مبلغاً وإنما يستعين بخروطومه وخروطومه هو أنفه والخطم غير الخرطوم .

ما قيل في طيب لحمه وإهالته قال أبو ناصرة : وله طيب وهو طيب لحمه ولحم أولاده وإذا أرادوا وصف اختلاط ذلك الكركي في مرق طيخ قالوا كأن إهالته إهالة خنزير لأنه لا يسرع إليها الجمود وسرعة جمود إهالة

الماعز في الشتاء عيب وللضأن في ذلك بعض الفضيلة على الماعز ولا يلحق بالخنزير .
قبول عظم الخنزير للالتحام بعظم الانسان صوت الخنزير وإذا ضرب فصاح لم يكن السامع يفصل بين صوته وبين صوت صبي مضروب .
طيب لحمه وفي إطباق جميع الأمم على شهوة أكله واستطابة لحمه دليل على أن له في ذلك ما ليس لغيره .

٤

زعم الجوس في المنخقة ونحوها

والجوس تزعم أن المنخقة والموقودة والمتردية وكل ما اعتبط ولم يمت حتف أنفه فهو أطيب لحماً وأحلى لأن دمه فيه والدم حلو

دسم وإنما عافه من عافه من طريق العادة والديانة لا من طريق الاستقذار والزهد الذي يكون في أصل الطبيعة .

اختلاف ميل الناس إلى الطعام وقد عاف قوم الجري والضباب على مثل ذلك وشغف به آخرون وقد كانت العرب في الجاهلية تأكل دم الفصد وتفضل طعمه وتخير عما يورث من القوة قال : وأي شيء أحسن من الدم وهل اللحم إلا دم استحال كما يستحيل اللحم شحماً ولكن الناس إذا ذكروا معناه ومن أين يخرج وكيف يخرج كان ذلك كاسيراً لهم ومانعاً من شهوته .

وكيف حال النار في حسنها فإنه ليس في الأرض جسم لم يصبغ أحسن منه ولولا معرفتهم بقتلها وإحراقها وإتلافها والألم والحرق المولدين عنها لتضاعف ذلك الحس عندهم وإنهم ليرَوْنها

في الشتاء بغير العيون التي يرونها بها في الصيف ليس ذلك إلا بقدر ما حدث من الاستغناء عنها وكذلك جلاء السيف فإن الإنسان يستحسن قد السيف وخرطه وطبعه وبريقه وإذا ذكر صنيعه والذي هبى له بدا له في أكثر ذلك وتبدل في عينه وشغله ذلك عن تأمل محاسنه ولولا علم الناس بعداوة الحيات لهم وأهمها وحشية لا تأنس ولا تقبل أدباً ولا ترعى حق تربية ثم رأوا شيئاً من هذه الحيات البيض المنقشة الظهور لما يبتوها ونوموها إلا في المهدي مع صبيانهم .

ردُّ على من طعن في تحريم الخنزير فيقال لصاحب هذه المقالة : تحريم الأغذية إنَّما يكونُ من طريق العبادة والمِحَنَةِ وليس أنه جوهر شيء من المأكول يوجبُ ذلك وإنَّما قلنا : إنَّا وجدنا الله تعالى قد مسحَ عباداً من عباده في صُورِ الخنزير دونَ بقيَّة الأجناس فعلمنا أنَّه لم يفعل ذلك إلاَّ لأُمور اجتمعت في الخنزير فكان المسخ على صورته أبلغ من التَّنكِيل لم نقل إلاَّ هذا .

طباع القرد والقرد يصحك ويطرب ويقعي ويحكي ويتناول الطعامَ بيديه ويضعه في فيه وله أصابع وأظفار وينقي الجوز ويأنس الأُنس الشديد ويلقن بالتلقين الكثير وإذا سقط في الماء غرق ولم يسبح كالإنسان قبل أن يتعلَّم السباحة فلم تجد النَّاسُ للذي اعتري القرد من ذلك دونَ جميع الحيوان علة إلاَّ هذه المعاني التي ذكرتها من مناسبة الإنسان مِن قِلِّها ويحكي عنه من شلَّة الزَّواج والغيرة على الأزواج ما لا يحكي مثله إلاَّ عن الإنسان لأنَّ الخنزير يغارُ وكذلك الجمل والفرس إلاَّ أنَّها لا تزواج والحمار يغارُ ويحمي عائلته الدهر كله ويضربُ فيها كضربه لو أصابَ أتاناً من غيرها وأجناس الحمام تزواج ولا تغار واجتمع في القرد الزَّواج والغيرة وهما خصلتان كريمتان واجتماعهما من مفاخر الإنسان على سائر الحيوان ونحن لم نرَ وجه شيء غير الإنسان أشبهَ صورةً وشبهاً على ما فيه من الاختلاف ولا أشبهَ فماً ووجهاً بالإنسان من القرد وربما رأينا وجه بعض الحمر إذا كان ذا خطمٍ فلا نجدُ بينه وبين القرد إلاَّ البسير .

أمثال في القرد وتقول الناس : أكيسُ من قِشَّة وأملحُ من رُبَّاحٍ ولم يقل أحد : أكيس من خنزير وأملحُ من خنوص وهو قول العامة : القرد قبيحٌ ولكنه مليح . وقال النَّاسُ في الضبِّ : إنه مسحٌ وقالوا : انظر إلى كفه وأصابعه فكفَّ القرد وأصابعه أشبهُ وأصنعُ فقدَّمتِ القرد على الخنزير من هذا الوجه .

علة تحريم لحم الخنزير وأما القولُ في لحمه فإنَّنا لم نزعِمْ أنَّ الخنزير هو ذلك الإنسان الذي مُسَخ ولا هو من نسله ولم ندعْ لحمه من جهة الاستقذار لشهوته في العذرة ونحن نجد الشُّبوط والجُرِّيَّ والدجاج والجُرَّادَ يشاركنه في ذلك ولكن للخصال التي علَّدنا من أسباب العبادات وكيف صار أحقُّ بأن تمسَخ الأعداء على صورته في خلقه .

حديث عبيد الكلابي قال : وقلت مرَّةً لعبيد الكلابي وأظهرَ من حُبِّ الإبل والشَّعَفِ بها ما دعاني إلى أن قلت لهُ : أبينها وبينكم قرابة قال : نعم لها فينا خُؤولة إنِّي والله ما أعني البخاتي ولكني أعني العراب التي هي أعرب قلت لهُ : مسحك الله تعالى بعيراً قال : الله لا يمسخ الإنسان على صورة كريمة وإنما يمسخه على صورة لئيم مثل الخنزير ثم القرد فهذا قولُ أعرابي جلفٍ تكلم على فطرته .

قول في آية وقد تكلم المخالفون في قوله تعالى : واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في

السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَقَدْ طَعَنَ نَاسٌ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا بَيَانٍ فَقَالُوا : وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وَلَيْسَ بَيْنَ أَنْ تَحْجِيَ فِي كُلِّ هَالَالٍ فَرْقٌ وَلَا بَيْنَهَا إِذَا جَاءَتْ فِي رَأْسِ الْهَالَالِ فَرْقٌ وَلَا بَيْنَهَا إِذَا جَاءَتْ فِي رَأْسِ السَّنَةِ فَرْقٌ .

هجرة السمك وهذا بحرُ البصرة والأبلة يأتيهم ثلاثة أشهر معلومة معروفة من السنة السمكُ الأسبور فيعرفون وقت مجيئه ويتطرونه ويعرفون وقت انقطاعه ومجيء غيره فلا يمكث بهم الحال إلا قليلاً حتى يُقبل السمكُ من ذلك البحر في ذلك الأوان فلا يزالون في صيد ثلاثة أشهر معلومة من السنة) وذلك في كل سنة مرتين لكل جنس ومعلومٌ عندهم أنه يكون في أحد الزمانين أسمى وهو الجواف ثم يأتيهم الأسبور على حساب مجيء الأسبور والجواف فأما الأسبور فهو يقطع إليهم من بلاد الزنج وذلك معروفٌ عند البحرين وأن الأسبور في الوقت الذي يقطع إلى دجلة البصرة لا يوجد في الزنج وفي الوقت الذي يوجد في الزنج لا يوجد في دجلة وربما اصطادوا منها شيئاً في الطريق في وقت قطعها المعروف وفي وقت رجوعها ومع ذلك أصنافٌ من

السمك كالإربيان والرق والكوسج والبرد والبرستوج وكل ذلك معروف الزمان متوقع المخرج وفي السمك أوابد وقواطع وفيها سيرة لا تقيم وذلك الشبه يُصابُ ولذلك صاروا يتكلمون بخمسة السنة يهذونها سوى ما تعلّقوا به من غيرها ثم القواطع من الطير قد تأتينا إلى العراق منهم في ذلك الإبان جماعات كثيرة تقطع إلينا ثم تعود في وقتها .

رد على المعترض قلنا لهؤلاء القوم : لقد أصبتم في بعض ما وصفتم وأخطأتم في بعض قال الله تعالى : إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ وَيَوْمَ السَّبْتِ يدور مع الأسابيع والأسابيع تدور مع شهور القمر وهذا لا يكون مع استواء من الزمان وقد يكون السبت في الشتاء والصيف والخريف وفيما بين ذلك وليس هذا من باب أزمان قواطع السمك وهيج الحيوان وطلب السفاد وأزمان الفلاحة وأوقات الجزر والمد وفي سبيل الأنواء والشجر كيف يقض الورق والثمار والحيات كيف تسلخ والأبائل كيف تلقى قرونها والطير كيف تنطق ومتى تسكت ولو قال لنا قائل : إني نبيّ وقلنا له : وما آيتك وعلامتك فقال : إذا كان في آخر تشرين الآخر أقبل إليكم الأسبور من جهة البحر ضحكوا منه وسخروا به ولو قال : إذا كان يوم الجمعة أو يوم الأحد أقبل إليكم الأسبور حتى لا يزال يصنع ذلك في كل

جمعة علمنا اضطراراً إذا عايننا الذي ذكر على نسقه أنه صادق وأنه لم يعلم ذلك إلا من قبل خالق ذلك تعالى الله عن ذلك وقد أقرنا بعجيب ما نرى من مطالع النجوم ومن تناهي المد والجزر على قدر امتلاء القمر ونقصانه وزيادته ومحاقه واستراره وكل شيء يأتي على هذا النسق من المجاري فإنما الآية فيه لله

وحده على وحدانيته فإذا قال قائل لأهل شريعة ولأهل مُرسى من أصحاب بحر أو نهر أو وادٍ أو عين أو جدول : تأتيكم الحيتان في كل سبت أو قال : في كل)

رمضان ورمضان متحولُ الأزمانِ في الشتاء والصيف والرَّبيع والخريف والسَّبت يتحولُ في جميع الأزمان فإذا كان ذلك كانت تلك الأعجوبة فيه دالةً على توحيد الله تعالى وعلى صدقِ صاحب الخبر وأنه رسولُ ذلك المسخر لذلك الصنف وكان ذلك المجيءُ خارجاً من النَّسق القائم والعادة المعروفة وهذا الفرقُ بذلك بينَ والحمدُ لله .

شعبة الخنزير والقرد

قال الله تعالى : فَلَمَّا عَوَّا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ وفي الموضع الذي ذَكَرَ أَنَّهُ مَسَخَ ناساً خنازير قد ذكر القُرود ولم يذكرُ أَنَّهُ مَسَخَ قوماً خنازير ولم يمسَخَ منهم قروداً وإذا كان الأمر كذلك فالمسَخُ على صورة القردة أشنع إذ كان المسخُ على صورتها أعظمَ وكان العقابُ به أكبرَ وإنَّ الوقت الذي قد ذكر أَنَّهُ قد مسخَ ناساً قروداً فقد كان مسخَ ناساً خنازير فلم يدعْ ذَكَرَ الخنازير وذَكَرَ القُرودَ إلاَّ والقُرودُ في هذا الباب أوجعُ وأشنعُ وأعظمُ في العقوبة وأدلُّ على شِدَّةِ السَّخطة هذا قول بعضهم .

استطرد لغوي قال : ويقال لموضع الأنف من السَّباع الخطم والخُرطوم وقد يقال ذلك للخنزير والفنطيسة والجمع الفنطيس وقال الأعرابي : كَأَنَّ فَنَاطِيسَهَا كَرَائِرُ الْإِبِلِ .
خصائص بعض البلدان وقال صاحب المنطق : لا يكونُ خنزيراً ولا إيلَ بحريّاً وذكر أنَّ خنازيرَ بعضِ البلدان يكونُ لها ظلفٌ واحد ولا يكونُ بأرضٍ لها وئدَ حِمَارٌ لشِدَّةِ برْدِ الموضع ولأنَّ الحِمَارَ صَرْدٌ .
وقال : في أرضٍ كذا وكذا لا يكونُ بها شيءٌ من الخلدِ وإنَّ قعله إنسانٌ إليها لم يحفر ولم يتَّخذ بها بيتاً وفي الجزيرة التي تسمَّى صِقْلِيَّة لا يكونُ بها صنفٌ من النمل الذي يسمَّى أقرشا .

قول أهل الكتابين في المسخ وأهل الكتابين يُنكرون أن يكونَ الله تعالى مسخَ النَّاسِ قروداً وخنازير وإنما مسخَ امرأة لوط حَجراً كذلك يقولون .

القول في الحيات

اللهمَّ جنبنا التكلفَ وأعْذنا من الخطلِ واحمنا من العُجبِ بما يكونُ مِنَّا والثَّقةَ بما عندنا واجعلنا من المحسنين .

احتياال الحيات للصيد

حدثنا أبو جعفر المكشوف الحويّ العبريّ وأخوه رَوْحُ الكاتب ورجالٌ من بني العُبر أن عندهم في رمال بلعبر حَيَّة تصيد العَصافير وصِغارَ الطير بأعجب صيدٍ زعموا أنها إذا انتصفَ النهارُ واشتدَّ الحرُّ في رمال بلعبر وامتنت الأرض على الحافي والمنتعل ورمض الجندب

غمست هذه الحَيَّة ذنبها في الرَّمْل ثم انتصبت كأنها رمحٌ مركوزٌ أو عودٌ ثابت فيجيء الطائر الصغيرُ أو الجرادَةُ فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوُقُوعَ على الرَّمْل لشدة حرِّه وَقَعَ على رأس الحَيَّة على أنها عودٌ فإذا وَقَعَ على رأسها قبضت عليه فإن كان جرادَةً أو جُعلاً أو بعضَ ما لا يُشبعها مثله ابتلعتُه وبقيت على انتصابها وإن كان الواقعُ على رأسها طائراً يُشبعها مثله أكلته وانصرفت وأنَّ ذلك دأبها ما منع الرَّمْل جانبها في الصَّيفِ والقَيْظِ في انتصافِ النهارِ والمهاجرة وذلك أنَّ الطائرَ لا يشكُّ أنَّ الحَيَّةَ عودٌ وأنه سيقوم له مقام الجُدُلِ للجرِّاءِ إلى أن يسكن الحرُّ ووهج الرَّمْلِ وفي هذا الحديث من العَجَبِ أن تكون هذه الحَيَّة تَهْتَدِي لمثل هذه الحيلة وفيه جهلُ الطائرِ بفرق ما بين الحيوانِ والعودِ وفيه قلةُ اكتراثِ الحَيَّةِ بالرَّمْل الذي عاد كالجمرِ وصلاحُ أن يكون مَلَّةٌ وموضِعاً للخبرة ثم أن يشتمل ذلك الرَّمْل على ثلث الحَيَّة ساعاتٍ من النَّهارِ والرَّمْل على هذه الصفة فهذه أعجوبةٌ من أعاجيب ما في الحَيَّات .

رضاع الحية وإعجابها باللبن

وزعم لي رجالٌ من الصَّقَالِبة خَصِيانٌ وفحولٌ أنَّ الحَيَّة في بلادهم تأتي البقرةَ المحفلة فتطوي على فخذَيْها ورُكبتَيْها إلى عراقيبها ثم تُشخص صدرها نحو أخلافِ ضرعها حتى تلتقم الخلف فلا تستطيع البقرةُ مع قوَّتها أن تترَمِّمَ فلا تزالُ تمصُّ اللبن وكلما مصَّت استرخت فإذا كادت تتلفُ أرسلتها وزعموا أن تلك البقرة إما أن تموت وإما أن يصيبها في ضرعها فسادٌ شديدٌ تعسُرُ مداواته والحَيَّة تُعَجَّبُ باللبن وإذا وجدت الأفاعي الإناء غيرَ محمَّر

كرعت فيه ورُبَّما مجَّت فيه ما صار في جوفها فيصيبُ شاربَ ذلك اللَّبن أذىً ومكروةً كثيرٌ ويقال إنَّ اللَّبن محتَضِرٌ وقد ذهب ناسٌ إلى العَمَّارِ على قولهم إنَّ الثوبَ المعصفرَ محتَضِرٌ فظنَّ كثيرٌ من العلماء أن المعنى في اللَّبن إنما رَجَعَ إلى الحَيَّات .
والحَيَّة تُعَجَّبُ باللُّفَّاحِ والبَطِيخِ وبالْحُرْفِ والخردلِ المُرْخُوفِ وتكره رِيحَ السذابِ والشَّيْحِ كما تكره الوردُغُ رِيحَ الزَّعْفَرانِ .

قوة بدن الحية

وليس في الأرض شيءٌ جسمه مثلُ جسمِ الحَيَّةِ إلا والحَيَّة أقوى بدنًا منه أضعافاً ومن قوَّتها أنها إذا أدخلت رأسها في جُحرٍها أو في صدعٍ إلى صدرها لم يستطع أقوى النَّاسِ وهو قابضٌ على ذنبها بكلتا يديه أن يخرجها لشدة اعتمادها وتعاونِ أجزائها وليست بذاتِ قوائمٍ لها أظفارٌ أو مخالبٌ أو أظلاف تُنْشِبُها في

الأرض وتتشبث بها وتعتمد عليها وربما انقطعت في يدي الجاذب لها مع أنها لد نة ملساء علكة فيحتاج الرفيق في أمرها عند ذلك أن يرسلها من يديه بعض الإرسال ثم ينشطها كالمختطف والمختلس وربما انقطع ذنبها في يد الجاذب لها فأما أذنان الأفاعي فإنها تنبت

ومن عجيب ما فيها من هذا الباب أن نابها يقطع بالكاز فينبت حتى يتم نباته في أقل من ثلاث ليال . نزع عين الخطاف والخطاف في هذا الباب خلاف الخنزير لأن الخطاف إذا قلمت إحدى عينيه رجعت وعين

الاحتيايل لناب الأفعى

وناب الأفعى يُحتال له بأن يُدخل في فيها حمّاض أترج ويطبق لحياها الأعلى على الأسفل فلا تقتل بعصتها أياماً صالحة والمغنطيس الجاذب للحديد إذا حك عليه الثوم لم يجذب الحديد .

خصائص الأفعى

والأفعى لا تدور عينها في رأسها وهي تلد وتبيض وذلك أنها إذا طرقت ببيضها تحطم في جوفها فترمي بفراخها أولاداً حتى كأنها من الحيوان الذي يلد حيواناً مثله وفي الأفاعي من العجب أنها تذبح حتى يُفري منها كل ودج فتبقى كذلك أياماً لا تموت وأمرت الحايي فقبض على خرزة عنقها فقلت له : اقبضها من الخرزة التي تليها قبضاً رقيقاً فما فتح بينها بقدر سم الإبرة حتى بردت ميتة وزعم أنه قد ذبح غيرها من الحيات فعاشت على شبيه بذلك ثم إنه فصل تلك الخرزة على مثال ما صنع بالأفعى فماتت بأسرع من الطرف .

قوة بدن المسحوك وكل شيء مسحوك البدن ليس بذي أيدٍ ولا أرجل فإنه يكون شديد البدن كالمسكة والحية حديث في سم الأفعى وزعم أحمد بن غالب قال : باعني حواء ثلاثين أفعى بدينارين وأهدي إلي خمساً اصطادها من قبالة القلب في تلك الصحارى على شاطئ دجلة قال : وأردتها للترياق قال : فقال لي حين جاءني بها : قل لي : من يعالجها قال : فقلت له : فلان الصيدلاني فقال : ليس عن هذا سألتك قل لي : من يذبحها ويسلخها قال : قلت : هذا الصيدلاني بعينه قال : أخاف أن يكون مغروراً من نفسه إنه والله إن أخطأ موضع المفصل من قفاؤه وحركته أسرع من البرق فإن كان لا يحسن

ولا يدري كيف يتغفله فينقره نقرة لم يُفلح بعدها أبداً ولكني سأتطوع لك بأن أعمل ذلك بين يديه قال : فبعثت إليه وكان رأسه إلى الجونة فيغفل الواحدة فيقبض على قفاها بأسرع من الطرف ثم يذبحها فإذا ذبحها سال من أفواها لعاباً أبيض فيقول : هذا هو السم الذي يقتل قال : فجالت يله جولة وقطرت من ذلك

اللُّعَابُ قَطْرَةٌ عَلَى طَرَفِ قَمِيصِ الصَّيْدَلَانِيِّ قَالَ : فَتَفَشَّيَ ذَلِكَ الْقَاطِرُ حَتَّى صَارَ فِي قَدْرِ الدَّرْهِمِ الْعَظِيمِ ثُمَّ
إِنْ الْحَوَاءُ امْتَحَنَ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ فَتَهافت

في يده وبقيت الأفاعي مُدْبِجَةٌ تَجُولُ فِي الطُّسْتِ وَيَكْدُمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حَتَّى أَمْسَيْنَا قَالَ : وَبَكَرْتُ عَلَى أَبِي
رَجَاءً إِلَى بَابِ الْجِسْرِ أَحَدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ فَقَالَ لِي وَدِدْتُ أَنِّي رَأَيْتُ)
مَوْضِعَ الْقَطْرَةِ مِنْ قَمِيصِ الصَّيْدَلَانِيِّ قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا رَمَيْتُ حَتَّى مَرَّ مَعِيَ إِلَى الصَّيْدَلَانِيِّ فَأَرَيْتُهُ مَوْضِعَهُ
وَأَصْحَابُنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ لُعَابَ الْأَفَاعِي لَا يَعْمَلُ فِي الدَّمِ إِلَّا أَنَّ أَحْمَدَ ابْنَ الْمُثَنَّى زَعَمَ أَنَّ مِنَ الْأَفَاعِي جِنْسًا لَا
يُضُرُّ الْفَرَارِيحَ مِنْ بَيْنِ الْأَشْيَاءِ وَلَا أَدْرِي أَيُّ الْخَبَرَيْنِ أَبْعَدُ : أَخْبَرُ ابْنَ غَالِبٍ فِي تَفْسِيخِ الثُّوبِ أَوْ خَبَرَ ابْنَ
الْمُثَنَّى فِي سَلَامَةِ الْفَرْجِ عَلَى الْأَفْعَى مَا تَضِيءُ عَيْنَهُ مِنَ الْحَيَوَانِ وَزَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ الْجَهْمِ أَنَّ الْعَيُونَ الَّتِي تَضِيءُ
بِاللَّيْلِ كَأَنَّهَا مَصَابِيحُ عَيُونِ الْأَسَدِ وَالنَّمُورِ وَالسَّنَانِيرِ وَالْأَفَاعِي فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ مَنْ يَجْلِبُ
الْأَفَاعِي مِنْ سِجِسْتَانَ وَيَعْمَلُ التَّرْيَاقَاتِ وَيَبِيعُهَا أَحْيَاءً وَمَقْتُولَةً فَقَالَ لَهُ : حَدَّثْتَهُمُ بِالَّذِي حَدَّثْتَنِي بِهِ مِنْ عَيْنِ
الْأَفْعَى قَالَ : نَعَمْ كُنْتُ فِي مَنْزِلِي نَائِمًا فِي ظُلْمَةٍ وَقَدْ كُنْتُ جَمَعْتُ رُؤُوسَ أَفَاعٍ

كُنْتُ عِنْدِي لِأَرْمِي بِهَا وَأَغْفَلْتُ تَحْتَ السَّرِيرِ رَأْسًا وَاحِدًا فَفَتَحْتُ عَيْنِي تَجَاهَ السَّرِيرِ فِي الظُّلْمَةِ فَرَأَيْتُ ضِيَاءً
إِلَّا أَنَّهُ ضَيْلٌ ضَعِيفٌ رَقِيقٌ فَقُلْتُ : عَيْنُ غُولٍ أَوْ بَعْضُ أَوْلَاءِ السَّعَالَى وَذَهَبَتْ نَفْسِي فِي أَلْوَانٍ مِنَ الْمَعَانِي
فَقُمْتُ فَقَدَحْتُ نَارًا وَأَخَذْتُ الْمَصْبَاحَ مَعِيَ وَمَضَيْتُ نَحْوَ السَّرِيرِ فَلَمْ أَجِدْ تَحْتَهُ إِلَّا رَأْسَ أَفْعَى فَأَطْفَأْتُ
السَّرَاجَ وَنَمْتُ وَفَتَحْتُ عَيْنِي فَإِذَا ذَلِكَ الضُّوءُ عَلَى حَالِهِ فَهَضْبْتُ فَصَنَعْتُ كَصَنِيعِي الْأَوَّلِ حَتَّى فَعَلْتُ ذَلِكَ
مِرَارًا قَالَ : فَقُلْتُ آخِرَ مَرَّةٍ : مَا أَرَى شَيْئًا إِلَّا رَأْسَ أَفْعَى فَلَوْ نَحَيْتُهُ فَنَحَيْتُهُ وَأَطْفَأْتُ السَّرَاجَ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى
مَنَامِي فَفَتَحْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَرَ الضُّوءَ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْ عَيْنِ الْأَفْعَى ثُمَّ سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ فَإِذَا الْأَمْرُ حَقٌّ وَإِذَا هُوَ
مَشْهُورٌ فِي أَهْلِ هَذِهِ

عِلَّةُ قُوَّةِ بَدَنِ الْحَيَّةِ قَالَ : وَرَبَّمَا قَبْضَ الرَّجُلِ الشَّدِيدِ الْأَسْرَ وَالْقُوَّةَ الْقَبْضَةَ عَلَى قِفَا الْحَيَّةِ فَتَلْتَفُّ عَلَيْهِ
فَتَصْرَعُهُ وَفِي صُعُودِهَا وَفِي سَعْيِهَا خَلْفَ الرَّجُلِ الشَّدِيدِ الْحُضْرُ أَوْ عِنْدَ هَرَبِهَا حَتَّى تَفُوتَ وَتَسْبِقُ وَلَيْسَتْ
بِذَاتِ قَوَائِمٍ وَإِنَّمَا

تَنْسَابُ عَلَى بَطْنِهَا وَفِي تَدَافُعِ أَجْرَائِهَا وَتَعَاوُنِهَا وَفِي حَرَكََةِ الْكُلِّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا دَلِيلٌ عَلَى إِفْرَاطِ قُوَّةِ بَدْنِهَا
وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّمَا لَا تَمَضَّغُ وَإِنَّمَا تَبْتَلَعُ فَرَبَّمَا كَانَ فِي الْبَضْعَةِ أَوْ فِي الشَّيْءِ الَّذِي ابْتَلَعَتْهُ عَظْمٌ فَتَأْتِي جَذْمَ شَجَرَةٍ أَوْ
حَجَرًا شَاخِصًا فَتَنْطَوِي عَلَيْهِ انْطَوَاءً شَدِيدًا فَيَتَحَطَّمُ ذَلِكَ الْعَظْمُ حَتَّى يَصِيرَ رَفَاتًا ثُمَّ يَقْطَعُ ذَنْبُهَا فَيَنْبِتُ ثُمَّ
تَعِيشُ فِي الْمَاءِ إِنْ صَارَتْ فِي الْمَاءِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بَرِّيَّةً وَتَعِيشُ فِي الْبَرِّ بَعْدَ أَنْ طَالَ مُكُوثُهَا فِي الْمَاءِ وَصَارَتْ مَائِيَّةً
قَالَ : وَ إِنَّمَا أَتَتْهَا هَذِهِ الْقُوَّةُ وَاشْتَدَّتْ فَقَرَّ ظَهْرُهَا هَذِهِ السَّلَّةُ لِكثَرَةِ أَضْلَاعِهَا وَذَلِكَ أَنَّ لَهَا مِنَ الْأَضْلَاعِ
عَدَدَ أَيَّامِ الشَّهْرِ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ أَطْوَلُ الْحَيَوَانِ عَمْرًا مَوْتَ الْحَيَّةِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْحَيَّةَ لَا تَمُوتُ حَتَّى أَنْفَهَا
وَإِنَّمَا تَمُوتُ بَعْضُهَا يَعْزُضُ لَهَا وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَيَوَانِ شَيْءٌ هُوَ أَصْبَرُ عَلَى جُوعٍ مِنْ حَيَّةٍ لِأَنَّهَا إِنْ

كَانَتْ شَابَةً فَدَخَلَتْ فِي حَائِطٍ صَخْرٍ فَتَتَبَعُوا مَوْضِعَ مَدْخَلِهَا بَوْتِدٍ أَوْ بِحَجَرٍ ثُمَّ هَدَمُوا هَذَا الْحَائِطَ وَجَدُوهَا هُنَاكَ مَنْطُوبَةً

وهي حَيَّةٌ فَالشَّابَةُ تُذَكِّرُ بِالصَّبْرِ عِنْدَ هَذِهِ الْعَلَّةِ فَإِنْ هَرِمَتْ صَغُرَتْ فِي بَدَنِهَا وَأَقْتَنَعَهَا النَّسِيمُ وَلَمْ تَشْتَهَ الطَّعْمَ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ : وَهُوَ جَاهِلِيٌّ : (فَأَبْعَثْ لَهُ مِنْ بَعْضِ أَعْرَاضِ اللَّمَمِ * لُمِيمَةً مِنْ حَشٍّ أَعْمَى أَصَمٌ) (قَدْ عَاشَ حَتَّى هُوَ لَا يَمَشِي بِدَمٍ * فَكُلَّمَا أَقْصَدَ مِنْهُ الْجُوعُ شَمٌ) وَهَذَا الْقَوْلُ لِهَذَا الْمَعْنَى وَفِي هَذَا الْوَجْهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ : (دَاهِيَةٌ قَدْ صَغُرَتْ مِنَ الْكِبَرِ * صِلَ صَفَاً مَا يَنْطَوِي مِنَ الْقِصَرِ)

(طَوِيلَةُ الْإِطْرَاقِ مِنْ غَيْرِ خَفَرٍ * كَمَطَرٍ قَدْ ذَهَبَتْ بِهِ الْفِكْرُ) جَاءَ بِهَا الطُّوفَانُ أَيَّامَ زَحٍّ صَبَرُ الْحَيَّةِ عَلَى فَقْدِ الطَّعْمِ وَمِنْ أَعَاجِيبِهَا أَنَّهُ إِنْ كَانَتْ مَوْصُوفَةً بِالشَّرِّهِ وَالنَّهَمِ وَسُرْعَةِ الْإِبْتِلَاعِ فَلَهَا فِي الصَّبْرِ فِي أَيَّامِ الشِّتَاءِ مَا لَيْسَ لِلزَّهِيدِ ثُمَّ هِيَ بَعْدُ ثَمًّا يَصْبِرُ بِهَا الْحَالُ إِلَى أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنِ الطَّعْمِ

النمس والتعابين

ثُمَّ قَدْ يَزْعُمُونَ أَنَّ بِمِصْرَ دَوِيَّةً يَقَالُ لَهَا النَّمْسُ يَتَّخِذُهَا النَّاطُورُ إِذَا اشْتَدَّ خَوْفُهُ مِنَ التَّعَابِينِ لِأَنَّ هَذِهِ الدَّابَّةَ تَنْقَبِضُ وَتَنْضُمُ

تَتَضَاعَلُ وَتَسْتَدْقُ حَتَّى كَأَنَّهَا قُدَيْلَةٌ أَوْ قِطْعَةٌ حَبْلٍ فَإِذَا عَضَّتْهَا الشُّعْبَانُ وَانطَوَى عَلَيْهَا زَفَرَتْ وَأَخَذَتْ بِنَفْسِهَا وَزَخَرَتْ جَوْفَهَا فَانْتَفَخَ فَفَعَلَ ذَلِكَ وَقَدْ انطَوَى عَلَيْهَا فَقَطَعَهُ قِطْعَةً مِنْ شِلَّةِ الزَّرْحَةِ وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْأَحَادِيثِ

القواتل من الحيات

وَالْتَّعَابِينُ إِحْدَى الْقَوَاتِلِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا ثَلَاثَةٌ أَجْنَسٌ لَا يَنْجَعُ فِيهَا رُقِيَّةٌ وَلَا حِيلَةٌ كَالشُّعْبَانِ وَالْأَفْعَى وَالْهِنْدِيَّةُ وَيَقَالُ : إِنَّ مَا سِوَاهَا فَإِنَّمَا يَقْتُلُ مَعَ مَا يُمِدُّهَا مِنَ الْفَرْعِ فَقَدْ يَفْعَلُ الْفَرْعُ وَحْدَهُ فَكَيْفَ إِذَا قَارَنَ سُمُّهَا وَسُمُّهَا إِنْ لَمْ يَقْتُلْ أَمْرَضَ .

مَا يَفْعَلُ الْفَرْعُ فِي الْمَسْمُومِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَتَدَلَّتْ عَلَيْهِ حَيَّةٌ مِنْهَا فَعَضَّتْ رَأْسَهُ فَاثْبَتَتْهُ بِمِحْمَرِّ الْوَجْهِ فَحَكَ رَأْسَهُ وَتَلَقَّتْ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا فَوَضَعَ رَأْسَهُ بَيْنَ أَوَامٍ مَدَّةً طَوِيلَةً لَا يَرَى بِأَسَافًا فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ كَانَ رَأَى تَدَلِّيَهَا عَلَيْهِ ثُمَّ تَقَلَّصَهَا عَنْهُ وَهَرَوَبَهَا مِنْهُ : هَلْ عَلِمْتَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ انْتِبَاهُكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ قَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ قَالَ : بَلَى فَإِنَّ الْحَيَّةَ الْفُلَانِيَّةَ نَزَلَتْ عَلَيْكَ حَتَّى عَضَّتْ رَأْسَكَ فَلَمَّا جَلَسْتَ فَرَعًا تَقَلَّصَتْ عَنْكَ وَتَرَاوَجَتْ فَفَرَعَ فَرْعَةً وَصَرَخَ صَرْخَةً كَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ وَكَأَنَّهُمْ تَوَهُمُوا أَنَّهُ لَمْ يَفِرْ وَاضْطَرَبَ وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ السَّمُّ مَغْمُورًا مُمْنَعًا فَرَالَ مَانِعُهُ وَأَوْغَلَهُ ذَلِكَ الْفَرْعُ حِينَ تَفْتَحَتْ مَنَافِسُهُ إِلَى مَوْضِعِ الصَّمِيمِ

والدماغ وعمق البدن فانحل موضع العقد الذي انعقدت عليه أجزاؤه وأحلاطه .
وأنشد الأصمعي : نكيته تنهشه بمبذ

وأنشد لأبي ذؤاد الإيادي : (فأتاني تقحيم كعب لي المن ** طق إن النكيته الإقحام)
أثر الفزع في فعل السم قال : فالفزع إما أن يكون يوصل السم إلى المقاتل وإما أن يكون معيناً له كسعاون
الرجلين على نزع وتد فهم لا يجزمون على أن الحية من القواطل البتة إلا أن تقتل إذا عصت النائم والمغشي
عليه والطفل الغرير والجنون الذي لا يعقل وحتى تجرب عليه الأدوية .

الترياق وانقلاب الأفعى

وكتت يوماً عند أبي عبد الله أحمد بن أبي ذؤاد وكان عنده سلمويه وابن ماسويه وبخيشوع بن جبريل فقال
: هل ينفع الترياق من فمشة

أفعى فقال بعضهم : إذا عصت الأفعى فأدركت قبل أن تنقلب نفع الترياق وإن لم تدرك لم ينفع لأنهم إن
قللوا من الترياق قتله السم وإن كثروا منه قتله الفاضل عن مقدار الحاجة قلت : فإن ابن أبي العجوز خيرني
بأنها ليست تنقلب لِمَجِّ السم وإفراغه ولكن الأفعى في ناهها عصل وإذا عصت استفرغت إدخال الثاب كله
وهو أحجن أعصل فيه مشابه من الشص فإذا انقلبت كان أسهل لنزعه وسله فأما لصب السم وإفراغه فلا
قال : والله لعله ما قلت قلت : ما أسرع ما شككت ثم قلت له : فكأنما وضعوا الترياق واجلبوا الأفاعي
وضنوا وعزموا على أنه لا ينفع إلا بدرك الأفعى قبل أن تنقلب وكيف صار الترياق بعد الانقلاب لا يكون
إلا في إحدى منزلتين : إما أن يقتل بكثرته وإما ألا ينفع بقلته فكأن الترياق ليس نفعه إلا في المنزلة الوسطى
التي لا تكون فاضلة ولا ناقصة ولكني أقول لك : كيف يكون نفعه إذا كان الترياق جيداً قوياً وعوجل
فسقي المقدار الأوسط قبل أن يبلغ الصميم ويغوص في العمق وعلى هذا وضع وهم كانوا أحزم

وأحلق من أن يتكلفوا شيئاً ومقداره من النفع لا يوصل إلى معرفته .
ويقول بعض الحذاق : إن سقي الترياق بعد النهش بساعة أو ساعتين موت المنهوش ثم قلت له : وما علمك
وبأي سبب أيقنت أنها تمج من جوف ناهها شيئاً ولعله ليس هنالك إلا مخالطة جوهر ذلك الثاب لدم الإنسان
أو لسنا قد نجد من الإنسان من يعض صاحبه فيقتله ويكون معروفاً بذلك وقد تقرأون أن الهندية والثعبان
يقتلان إما بمخالطة الريق الدم وإما بمخالطة السن الدم من غير أن تدعوا أن أسنانهما مجوفة وقد أجمع جميع
أصحاب التجارب أن الحية تضرب بقصبة فتكون أشد عليها من العصا وقد يضرب الرجل على جسده
بقضبان اللوز وقضبان الرمان وقضبان اللوز أعلك وألدن ولكنها أسلم وقضبان الرمان أخف وأسحق
ولكنها أعطت وقد يطاء الإنسان على عظم حية أو إبرة عقرب وهما ميتين فيلقى الجهد وقد يخرج السكين
من الكبر وهو مضمي فيغمس في اللبن

فمضى خالطَ الدَّمَّ قامَ مقامَ السمِّ من غير أن يكون مَجَّ في الدَّمِّ رطوبةً غليظةً أو رقيقةً .
وبعض الحجارة يُكوى بها وهو رخو الأورام حتى يفرقها ويُحمصها من غير أن يكون نَفَذَ إِلَيْهَا شيءٌ مِنْهُ
وليس إلا الملاقاة قلتُ : ولعلَّ قُوَى قد انفصلتْ من أنياب الأفاعي إلى دماء النَّاسِ وقد رَوَوْا أَنَّهُ قِيلَ
لجالينوس : إِنَّ هَنا رجلاً يَرقي العقاربَ فَمُوتُ أو تنحلَّ فلا تعملُ فرآه يرقِيها ويتفَلَّ عليها فدعا به
بمحضرة جماعةٍ وهو على الرِّيقِ ودعا بَعْدائه فتَعَدَّى مَعَهُ ثُمَّ دُعِيَ له بالعقارب فتَفَلَّ عليها فلم يجدْ لعابه يصنعُ
شيئاً إلا أن يكون ريقاً وهو حديثٌ يدورُ بينَ أهلِ الطبِّ وأنت طيب فلم أرهُ في يومه ذلك قال شيئاً إلا من
طريق الحَزَرِ والحَدْسِ السَّمومِ وسموم الحَيَّاتِ ذواتِ الأنيابِ والعقاربِ ذواتِ الإبرِ إِنما تَعْمَلُ في الدَّمِّ
بالإجمادِ والإذابةِ وكذا سمومُ ذواتِ الشعرِ والقُرُونِ والجُمِّ إِنما تَعْمَلُ في العصبِ ومنها ما يعملُ في الدم .

(شرب المسموم للبن) وحلَّتني بعضُ أصحابنا قال : كُنْتُ إِما برماي وإما بباري وهما بلادُ حَيَّاتٍ وأفاعٍ
ونحنُ في عُرْسٍ إذ أدخلوا الحِلْرَ العروسَ فأبطؤوا عليه شيئاً فأغفى وتلوتُ على ذراعه أفعى فذهبَ ينفذُها
وحَجَمْتُ على ذراعه وقد يقال ذلك إذا كانت العَصَّةُ في صورةِ شَرَطِ الحِجَامِ فَصَرَخَ وجاؤوا يتعادونُ
فوجدوها فقتلوا وسقوه في تلك اللَّيلةِ لَبَنٍ أربعينَ عتراً كُلَّمَا استقرَّ في جوفه قَعْبٌ من ذلك اللَّبَنِ قاءَ
فِيخْرُجُ مِنْهُ كَأَمْثالِ طَلْعِ الفُحَّالِ الأبيض فيه طرائق من دَسَمٍ تعلوه خُضرةٌ حتى استوفى ذلك اللَّبَنُ كُلَّهُ قال
: فعندها قال شيخٌ من أهلِ القرية : إن كنتم أخرَجْتُم ذلك السَّمَّ فقد أخرَجْتُم نَفْسَهُ مَعَهُ قال : فغَبَرَ أَيَّاماً
بأسوا حالٌ ثُمَّ مات قال : وكُنْتُ أعجَبُ من سُرْعَةِ استحالةِ اللَّبَنِ وجُموده .

اكتفاء الحيات والضباب بالنسيم

(سقط : السطر الأول) قلت : والحيات البرية إذا هرمت تنسمت النسيم فاكثفت به ، وكذلك الضباب
إذا هرمت . قال : ولا يكون ذلك للمائية من حَيَّاتِ الغياضِ وشُطوطِ الأنهارِ ومناقعِ المياه .

الحيات المائية

قال : والحيَّات المائية إما أن تكون بريَّةً أو جبليَّةً فاكْتَسَحَتْها السُّيُولُ واحتملَتْها في كثيرٍ من أصنافِ
الحشراتِ والدَّوابِّ والسَّباعِ فوالدت تلك الحَيَّاتُ وتلاَقَحَتْ هناك وإِما أن تكون كانت أمهاتها وآباؤها
في حَيَّاتِ الماءِ وكيف دارت الأمورُ فَإِنَّ الحَيَّاتِ في أصلِ الطَّبعِ مائيةٌ وهي تعيشُ في التَّنَدِي وفي الماءِ وفي البرِّ
وفي البحرِ وفي الصَّخَرِ والرَّمْلِ ومن طباعها أن ترقَّ وتلطف على شكلين : أحدهما لطول العمر والآخر
للبعد من الرِّيفِ وعلى حسب ذلك تعظمُ في المياه والغياض .

ما أشبه الحيات من السمك

قال : وكلُّ شيءٍ في الماءِ كما يعيش السمكُ مما أشبه الحياتِ كالمارماهي والأنكليس فإنها كلها على ضربين : فأحدهما من أولاد الحيات انقلبت بما عرض لها من طباع البلد والماء والآخر من نسل سمك وحيات تلاقحت إذ كان طباع السمك قريباً من طباع تلك الحيات والحيات في الأصل مائية وكلها كانت حيات .

قراءة بعض النبات لبعض

وقد زعم أهل البصرة أنَّ مُشَّان الكوفة قريبٌ من بُرني البصرة قلبته البلدة ويزعم أهل الحجاز أنَّ نخل النارجيل هو نخل المُقل ولكنّه اقلب لطباع البلدة وأشباه ذلك كثير ويزعمون أنَّ الفيلة مائة الطباع بالجاموسية والخنزيرية التي فيهاب والنسيم

الذئب والنسيم قال : والذئب أيضاً وإن كان عندهم ممّا لا يجتري بالنسيم فإنّه من الحيوان الذي يفتح فاه للنسيم ليبرد جوفه من اللهيب الذي يعتري السباع ولأنّ ذلك يمدّ قوّته ويقطع عنه برودته ولطافته الرقيق فإن كان ذا سُعر إذا عدا احتشى ربحاً .

اختلاف صبر الذئب والأسد على الطعام وربما جاع الأسد ففعل فعل الذئب فالأسد والذئب يختلفان في الجوع والصبر لأنّ الأسد شديد النهم رغيبٌ حريص شرّهُ وهو مع ذلك يحتملُ أن يبقى أياماً لا يأكل شيئاً والذئب وإن كان أقفر منزلاً وأقلّ خصباً وأكثرَ كدّاً وإخفاً فلا بدّ له من شيء يُلقيه في جوفه فإذا لم يجد شيئاً استعار النسيم . (

حيلة بعض الجائعين والناس إذا جاعوا واشتدّ جوعهم شدّوا على بطونهم العمائم فإن استقلوا وإلاّ شدّوا الحَجَرَ شعر في الذئب (كَسيد الغصا العادي أضلّ جِراءهُ ** على شرفِ مُستقبلِ الرّيح يَلحَبُ) كأنّه يجمع استندخال الرّيح والنسيم فلعله أن يجد ريح جِرائه . وقال الرَّاجز : (يَسْتَخبرُ الرّيح إذا لم يَسْمَعِ ** بِمِثْلِ مِقْراع الصّفا الموقّع)

(شمّ الظليم) والظليم يكون على بيضه فيشمّ ريح القانص من أكثر من غلوة ويبعد عن رئاله فيشمّ ريحها من مكان بعيد .

وأنشدني يحيى بن نُجيم بن زَمعة قال : أشمّ من هيقٍ وأهدى من جملٍ وأنشدني عمرو بن كِريرة : ما زال يشتمّ اشتمام الهيق قال : وإنّما جعله ذئب غصاً لأنهم يقولون : ذئبُ الحمر أخبث ويقولون : شيطان الحماطة : يريدون الحية .

وكلّ حيّة خفيفة الجسم فهي شيطان والثقال لا تنشط من أرض إلى أرض وتنقلُ عمّا تبلغه المستطيلات الخفاف وقال طرفة : (تلاعبُ مثنى حَضرمي كأنّه ** تَعْمُجُ شيطانٍ بذِي خِرُوعٍ قَفَرٍ)

الكرماني عن أنس ولا أدري من أنس هذا في صفة ناقة : (شَناحيّة فيها شِناحُ كأنّها ** حَبابٌ بكفّ الشّأو من أسطح حَشَرٍ) والحباب : الحية الذكر .

بعض المضاف إلى النبات من الحيوان وكما يقولون : ذئب الحمر يقولون : أرنب الخلة وتيس الرّبل وضبّ السّحا والسّحا بقلة تحسّن حاله مَنْ أكلها وكذلك يقولون : ما هو إلّا قُنْفَذُ بُرْقَةٍ لأنه يكون أخبث له)
وذلك كله على قدر طبائع البلدان والأغذية العاملة في طبائع الحيوان .

بعض طبائع البلدان ألا ترى أنّهم يزعمون أنّ مَنْ دخلَ أرضَ ثُبَّتَ لم يزلْ ضاحكاً مسروراً من غير عَجَبٍ حتّى يخرج منها ومن أقام بالموصل حولاً ثم تفقد قوّته وجد فيها فضلاً ومن أقام بالأهواز حولاً فتفقد عقله ذو فِرَاسَةٍ وجد الثّقصان فيه بيئاً كما يقال في حُمى خيبر وطحال البحرين

(كَأَنَّ نَطَاةَ خَيْبَرَ زَوَدَتْهُ ** بَكُورَ الْوَرْدِ رِيْنَةَ الْقُلُوعِ) وقال أوسُ بن حجر : (كَأَنَّ به إِذْ جَنَّتُهُ خَيْبَرِيَّةٌ ** يَعُودُ عَلَيْهِ وَرْدُهَا وَقَلَالُهَا) وقال آخر : كَأَنَّ حُمَى خَيْبَرَ تَمْلُهُ وكذلك القول في وادي جُحْفَةٍ وفي مَهْيَعَةٍ وفي أصول النخل حيث كان . وقال عبد الله بن همام السَّلُولِيُّ في دماميل الجزيرة :

(أُتِيحَ لَهُ مِنْ شَرْطَةِ الْحَيِّ جَانِبٌ ** غَلِيْظُ الْقَصْرِى لَحْمُهُ مُتَكَوِسُ) (تَرَاهُ إِذَا يَمْضِي يَحْكُ كَأَنَّمَا ** به من دَمَامِيلِ الْجَزِيرَةِ نَاحِسُ) فحدثني أَبُو زُفَرَ الضَّرَّارِيُّ قال : مات ضِرَارُ بن عمرو وهو ابن تسعين سنةً بالدماميل قلت : والله إنّ هذا لعجب قال : كلاًّ إنّما احتملها من الجزيرة وكذلك القول في طواعين الشّام قال أحدُ بني المعيرة فيمن مات منهم بطواعين الشّام ومن مات منهم بطعن الرّماح أَيّامَ تلك المغازي : (مَنْ يَنْزِلُ الشّامَ وَيَعْرَسُ بِهِ ** فَالشّامُ إِنْ لَمْ يُفْنِهِ كَاذِبُ) (أَفْنَى بَنِي رَيْطَةَ فُرْسَانَهُمْ ** عَشْرِينَ لَمْ يُقْصَصْ لَهُمْ شَارِبُ) (طَعْنٌ وَطَاعُونٌ مَنَايَهُمْ ** ذَلِكَ مَا خَطَّ لَنَا الْكَاتِبُ)

قدوم عبد الله بن الحسن على عمر بن عبد العزيز وهشام قال : ولما قَدِمَ عبدُ الله بن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم على عمرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه في حَوَائِجَ له فلما رأى مكانه بالشّام وعَرَفَ سِنَّتَهُ وَسَمَّتَهُ وعقله ولسانه وصلاته وصيامه فلم يكن شيء أحبّ إليه من ألاّ يراه أحدٌ من أهل الشّام فقال له : إني أخافُ عَلَيْكَ طَوَاعِينَ الشّامِ فَإِنَّكَ لَنْ تُغْنِمَ أَهْلَكَ أَكْثَرَ مِنْكَ فَالْحَقْ بِهَمْ فَإِنَّ حَوَائِجَكَ سَتَسِيْقُكُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ (

قدم على هشام فكره عبدُ الله أن يدخل منزله حتّى يَأْتِيَهُ في ثياب سفره مخافة سوء ظنّه فلما أعلمه الحاجب مكانه ودخل عليه وعأينه كره أن يقيم بها طرفة عين قال : اذكر حوائجك قال : أحطُّ رَحْلِي وَأَضَعُ ثِيَابَ سَفَرِي وَأَتَذَكَّرُ حَوَائِجِي قال : إِنَّكَ لَنْ تَجِدَنِي في حالٍ خيراً لك مِنِّي السّاعة يريد أن القلوب أرقُّ ما تكون إذا تلاقت العيون عن بُعد عهد وليس ذلك أراد .

طحال البحرين والعامّة تنشد : (مَنْ يَسْكُنُ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمُ طَحَالُهُ ** وَ يُغْبِطُ بِمَا فِي بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعُ) ونظر دُكَيْنُ الرَّاجِزُ إلى أبي العباس محمّد بن ذُوَيْبِ الْفَقِيمِيِّ الرَّاجِزِ وهو غُلِيْمٌ مصفرُّ مَطْحُولٍ جرب الزنج وحدثني

يوسفُ الرُّنجي أَنَّهُ لَا بَدَّ لِكُلِّ مَنْ قَدِمَ مِنْ شِيقِ الْعِرَاقِ إِلَى بِلَادِ الرُّنْجِ إِلَّا يَزَالُ جَرِبًا مَا أَقَامَ بِهَا وَإِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُرْبِ نَبِيذِهَا أَوْ شَرَابِ النَّارَجِيلِ طَمَسَ الْحُمَارُ عَلَى عَقْلِهِ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْتَوَةِ إِلَّا الشَّيْءُ الْيَسِيرُ .

طبيعة المصيصة وخبرني كم شئت من الغزاة أن من أطل الصَّوم بالمصيصة في أيَّام الصَّيف هاج به المزارع وأن كثيراً منهم قد جثوا عن ذلك الاحتراق .

طبيعة قصبة الأهواز فأما قصبة الأهواز فإنها قلبت كل من نزلها من بني هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم ولا بد للهاشمي قبيح الوجه كان أو حسناً أو دميماً كان أو بارعاً رائعاً من أن يكون لوجهه وشمائله طابع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب فلقد كادت البلدة أن تنقل ذلك فتبدله ولقد تخيفته وأدخلت الضيم عليه وبيت أثرها فيه فما ظنك بصنيعها في سائر الأجناس وفساد عقولهم ولؤم طبع بلادهم لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة

والصَّياع الفاشية يجئون من البنين والبنات ما يجبه أوساط أهل الأمصار على الثروة والبسار وإن طال ذلك والمال منبته كما تعلمون وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل اليسير فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين ولا يرضى لنسائه مثل الذي كان يرضاه قبل ذلك وليس في الأرض صناعة مذكورة ولا أدب شريف ولا مذهب محمود لهم في شيء منه نصيب وإن خس ولم أر بها (وجنة حمراء لصبي ولا صبي ولا دماً ظاهراً ولا قريباً من ذلك وهي قتالة للغرباء وعلى أن حُمّاها خاصة ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب ووباؤها وحُمّاها في وقت انكشاف الوباء وتزوع الحمى عن جميع البلدان وكل محموم في الأرض فإن حُمّاها لا تنزع عنه ولا تفارقه وفي بدنه منها بقية فإذا نزع عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة إلى أن يعود إلى الخلط وأن يجمع في جوفه الفساد وليست كذلك الأهواز

لأنها تعاود من نزع عنه من غير حدث كما تعاود أصحاب الحدث لأنهم ليسوا يؤتون من قبل النهم ومن قبل الخلط والإكثار وإنما يؤتون من عين البلدة وكذلك جمعت سوق الأهواز الأفاعي في جبلها الطاعن في منازلها المطل عليها والجرات في بيوتها ومقابرها ومنابرها ولو كان في العالم شيء هو شر من الأفعى والجرارة لما قصرت قصبة الأهواز عن توليده وتلقيحه وبليتها أنها من ورائها سباح ومناقع مياه غليظة وفيها أنهار تشقق مسایل كنفهم ومياه أمطارهم ومتوضأتهم فإذا طلعت الشمس فطال مقامها وطالت مقابلتها لذلك الجبل قبل

بالصخرية التي فيه تلك وقد تحدث تلك السباح وتلك الأنهار بخاراً فاسداً فإذا التقى عليهم ما تحدث السباح وما قدفه ذلك الجبل فسد الهواء وفسد الهواء يفسد كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء . وحديثي

إبراهيمُ بنُ عباس بنُ محمد بن منصورٍ عن مَشَيْخَةٍ من أهل الأهواز عن القوابل أَنَّهُنَّ رَبَّما قَبِلْنَ الطُّفْلَ المولودَ فيجدُنَّهُ في تلك السَّاعَةِ محمومًا يَعْرِفُنَ ذلكَ ويحدِّثُنَّ به .

عيون الحيات والخطاطيف

قال : ويعرض لفراخ الحيات مثل الذي يعرض لفراخ الخطاطيف فإن نازعاً لو نزع عيون فراخ الخطاطيف وفراخ الحيات لعدت بصيرةً .

مفارقة السلحفاة والرق والضفدع للماء وزعم أن السلحفاة والرق والضفدع مما لا بد له من التنفس ولا بد لها من مفارقة الماء وأنها تبيض وتكتسب الطعم وهي خارجة من الماء وذلك للنسب الذي بينها وبين الضب وإن كان هذا برياً وهذا بحرياً .

شبه بعض الحيوان البري بنظيره من البحري ويزعمون أن ما كان في البر من الضب والورل والحرباء والحلكاء وشحمة الأرض والوزغ والعطاء مثل الذي في البحر من السلحفاة والرق والتمساح والضفدع وأن تلك الأجناس البرية وإن اختلفت في أمورها فإنها قد تشابه في أمور وأن هذه الأجناس البحرية من تلك ككلب الماء من كلب الأرض .

صوم بعض الحيوان وقد زعم صاحب المنطق أن الحية وسام أبرص من العطاء والتمساح تسكن في أعشيتها الأربعة أشهر الشديدة البرد لا تطعم شيئاً وأن سائر الحيات تسكن بطن الأرض فأما الأفاعي فإنها تسكن في صدوع الصخر وليس لشيء من الحيوان من الصبر عن الطعم ما لهذه الأجناس وإن الفيل ليناسبها من وجهين : أحدهما من طول العمر فإن منها ما قد عاش أربعمئة سنة والوجه الآخر أن الفيلة مائية وهذه الأجناس مائية وإن كان بعضها لا يسكن الماء .

داهية الغبر قال : وسمعت يونس بن حبيب يقول : داهية الغبر قال : وقيل

ذلك لأنها ربما سكنت بقرب ماء إما غدير وإما عين فنحني ذلك الموضع وربما غبر ذلك الماء في المنقع حيناً وقد حمته وقال الكذاب الحرمازي : (يا ابن المعلی نزلت إحدى الكُبر * داهية الدهر وصمأ الغبر) قال : وسأل الحكم بن مروان بن زنباع عن بني عبد الله بن غطفان قال : أفعى إن أيقظتها لسعتك وإن تركتها لم تضرك . (

نادرة تتعلق بالحيات

وذكر عن سعيد بن صخر قال : نُهِشَ رجلٌ من أهل البادية كثيرُ المال فأشفى على الموت فأتاهم رجلٌ فقال : أنا أَرْقِيهِ فما تُعْطُونِي

فشارطوه على ثلاثين درهماً فرفاه وسقاه أشياء ببعض الأخلاط فلماً أفاق قال الرَّاقِي والمداوي : حقي قال المددوغ : وما حقه قالوا : ثلاثون درهماً قال أعطيه من مالي ثلاثين درهماً في نَفَثَاتٍ نَفَثَهَا وَحَمَضَ سَقَاهُ لَا تُعْطُوهُ شَيْئاً .

حديث سكر الشطرنجي وحدثني بعض أصحابنا عن سَكْرِ الشَّطْرَنْجِيِّ وَكَانَ أَحَقُّ الْقَاصِينَ وَأَحْذَقَهُمْ بَلَعِبِ الشَّطْرَنْجِ وَسَأَلْتُهُ عَنْ خَرَقٍ كَانَ فِي خَرَمَةِ أَنْفِهِ فَقُلْتُ لَهُ : مَا كَانَ هَذَا الْخَرَقُ فَذَكَرَ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى جَبَلٍ يَتَكَسَّبُ بِالشَّطْرَنْجِ فَقَدِمَ الْبَلَدَةَ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا دِرْهَمٌ وَاحِدٌ وَلَيْسَ يَدْرِي أَيْبَحُّ أَمْ يُخَفِّقُ وَيَجِدُ صَاحِبَهُ الَّذِي اعْتَمَلَهُ أَمْ لَا يَجِدُهُ فَوَرَدَ عَلَى حَوَاءٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ جُورَنٌ عَظِيمٌ فِيهَا حَيَاتٌ جَلِيلَةٌ . وَالْحَيَّةُ إِذَا عَضَّتْ لَمْ تَكُنْ غَايِبَةً النَّهْشُ أَوْ الْعَضُّ وَأَنْ تَرْضَى بِالنَّهْشِ

وَلَكِنَّهَا لَا تَعَضُّ إِلَّا لِلْأَكْلِ وَالْإِبْتِلَاعِ وَرَبَّمَا كَانَتِ الْحَيَّاتُ عِظَامًا جَدًّا وَلَا سُمُومَ لَهَا وَلَا تَعْقِرُ بِالْعَضِّ كَحَيَّاتِ الْجَوْلَانِ وَفِي الْبَادِيَةِ حَيَّةٌ يَقَالُ لَهَا الْحَفَّاتُ وَالْحُفَّاتُ مِنَ الْحَيَّاتِ تَأْكُلُ الْفَأْرَ وَأَشْبَاهَ الْفَأْرِ وَلَهَا وَعِيدٌ مُنْكَرٌ وَنَفْخٌ وَإِظْهَارٌ لِلصَّوْلَةِ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ شَيْءٌ وَالْجَاهِلُ رَبَّمَا مَاتَ مِنَ الْفَرْعِ مِنْهَا وَرَبَّمَا جَمَعَتِ الْحَيَّةُ السَّمَّ وَشَلَّةَ الْجَرَحِ وَالْعَضُّ وَالْإِبْتِلَاعُ وَحَطَمَ الْعِظَمَ فَوَقَفَ سُكَّرٌ عَلَى الْحَوَاءِ وَقَدْ أَخْرَجَ مِنْ جَوْنِهِ أَعْظَمَ حَيَّاتٍ فِي الْأَرْضِ وَادَّعَى نَفُوذَ الرُّقِيَّةِ وَجُودَةَ التَّرْيَاقِ فَقَالَ لَهُ سُكَّرٌ : خُذْ مِنِّي هَذَا الدَّرْهَمَ وَارْقِنِي رُقِيَّةً لَا تُضَرِّيَنِي مَعَهَا حَيَّةً أَبَدًا قَالَ : فَإِنِّي أَفْعَلُ قَالَ : فَأَرْسِلْ قَبْلَ ذَلِكَ حَيَّةً حَتَّى تَرْقِيَنِي بَعْدَ أَنْ تَعَضَّنِي فَإِنْ أَهْتُ عَلِمْتُ أَنَّ رُقِيَّتَكَ صَحِيحَةٌ قَالَ : فَإِنِّي أَفْعَلُ فَاخْتَرُ أَيَّتَهُنَّ شِئْتَ فَأَشَارَ إِلَى وَاحِدَةٍ ثُمَّ تَعَضُّ لِلْأَكْلِ دُونَ السَّمِّ فَقَالَ : دَعْ هَذِهِ فَإِنَّ هَذِهِ إِنْ قَبِضْتَ عَلَى لِحْمِكَ لَمْ تَفَارِقْكَ حَتَّى تَقْطَعَكَ قَالَ : فَإِنِّي لَا أُرِيدُ غَيْرَهَا وَظَنُّ أَنَّهُ إِنَّمَا زَوَّاهَا عَنْهُ لِفَضِيلَةٍ فِيهَا قَالَ : أَمَّا إِذَا آوَيْتَ إِلَّا هَذِهِ فَاخْتَرُ مَوْضِعًا مِنْ جِسَدِكَ حَتَّى أَرْسِلَهَا عَلَيْهِ فَاخْتَارَ أَنْفَهُ فَنَاشَدَهُ وَخَوْفَهُ فَأَبَى إِلَّا ذَلِكَ

أَوْ يَرُدُّ عَلَيْهِ دِرْهَمَهُ فَأَخَذَهَا الْحَوَاءُ وَطَوَّاهَا عَلَى يَدِهِ كَيْ لَا يَدْعُهَا تَتَكَزَّرُ فَقَطَعَ أَنْفَهُ مِنْ أَصْلِهِ ثُمَّ أَرْسَلَهَا عَلَيْهِ فَلَمَّا أَنْشَبَتْ أَحَدَ نَابَيْهَا فِي شِقِّ أَنْفِهِ صَرَخَ عَلَيْهِ صَرْخَةً جَمَعَتْ عَلَيْهِ أَهْلَ تِلْكَ الْبَلَدَةِ ثُمَّ غَشِيَ عَلَيْهِ فَأَخَذَ الْحَوَاءُ)

فَوُضِعَ فِي السِّجْنِ وَقَتَلُوا تِلْكَ الْحَيَّاتَ وَتَرَكَوهَ حَتَّى أَفَاقَ كَأَنَّهُ أَجْنُ الْخَلْقِ فِطَوَّعُوا بِحِمْلِهِ فَحَمَلُوهُ مَعَ الْمَكَارِي وَرَدُّوهَ إِلَى الْبَصْرَةِ وَبَقِيَ أَثَرُ نَابِهَا فِي أَنْفِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ .

مَا يَغْتَصِبُ بَيْتَ غَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ قَالَ : وَأَشْيَاءُ مِنَ الْحَشَرَاتِ لَا تَتَّخِذُ لِنَفْسِهَا وَلَا لِبَيْضِهَا وَلَا أَوْلَادِهَا بَيْتًا بَلْ تَظْلِمُ كُلَّ ذِي جُحْرٍ جُحْرَهُ فَتَخْرِجُهُ مِنْهُ أَوْ تَأْكُلُهُ إِنْ ثَبَتَ لَهَا وَالْعَرَبُ يَقُولُ لِلْمُسِيِّ : أَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ لِأَنَّ الْحَيَّةَ لَا تَتَّخِذُ لِنَفْسِهَا بَيْتًا وَكُلُّ بَيْتٍ قَصَدَتْ نَحْوَهُ هَرَبَ أَهْلُهُ مِنْهُ وَأَخْلَوْهُ لَهَا .

عداوة الورل والحية

والورل يقوى على الحياتِ ويأكلها أكلاً ذريعاً وكلُّ شيلةٍ يلقاها

ذو جُحرٍ منها فهي تلقى مثلَ ذلك من الورل والورل ألطفُ جرماً من الضَّبِّ وزعم أنَّهم يقولون : أظلمُ من ورل كما يقولون : أظلمُ من حيةٍ وكما يقولون : أظلمُ من ذئبٍ ويقولون : من استرعى الذئبَ ظلم . الورل والضَّبُّ وبرائن الورل أقوى من برائن الضَّبِّ والضَّبَّابُ تحفرُ جحرَها في الكُدَى والورل لا يحفرُ لنفسه بل يُخرجُ الضَّبَّ من بيته فتزعم الأعرابُ أنه إنما صار لا يحفرُ لنفسه إبقاءً على برائته ويمنع الحيةَ أن تحفرُ بيتها أن أسنانها أكلُ من أسنان الفأر ومن التي تحفرُ بالأفواه والأيدي كالنمل والذرَّ وما أشبه ذلك والحية لا ترى أن تعاني ذلك وحفرُ غيرها ومعاناته يكفيها

شعر في ظلم الحية

وفي . ضربِ المثل بظلم الحية يقول مضرّس بن لقيط : (لعمرك إني لو أخاصم حيةً ** إلى فقعس ما أنصفتني فقعس) (إذا قلت مات الداء بيني وبينهم ** سعى حاطبٌ منهم لآخر يقبس) (فما لكم طلساً إلى كأنكم ** ذئاب الغضا والذئب بالليل أطلس) وجعله أطلس لأنه حين تشتدُّ ظلمة الليل فهو أخفى له ويكون حينئذٍ أخبث له وأضرى .

وقال حريز بن نُسبة العدوي لبني جعفر بن كلاب وضربَ جور الحية والذئب في الحكم مثلاً فقال :

(كأني حين أحبو جعفرأ مدحى ** أسقيهم طرق ماء غير مشروب) (ولو أخاصم أفعى نأبها لثق ** أو الأسود من صم الأهاصيب) (لكنتم معها ألباً وكان لها ** نابٌ بأسفل ساقٍ أو بعرقوب)

فم الأفعى

قال : والحية واسعة الشَّحْوِ والفم لها خطم ولذلك ينفذ نأبها وكذلك كلُّ ذي فمٍ واسع الشَّحْوِ كفم الأسد فإذا اجتمع له سعة الشَّحْوِ وطول اللَّحِينِ وكان ذا خَطَمٍ وخُرطومٍ فهو أشدُّ له كالخنزير والذئب والكلب ولو كان لرأس الحية عَظْمٌ كان أشدَّ لعَضَّتْها ولكنه جلدٌ قد أطبقَ على عَظْمَيْنِ رقيقينِ مستطيلين بفكِّها الأعلى والأسفل ولذلك إذا أهوى الرَّجُلُ بحجرٍ أو عصى رأيتها تلوي رأسها

وتحتال في ذلك وتمنعه بكلِّ حيلةٍ لأنَّها تعلم وتحسُّ بضعف ذلك الموضع منها وهو مَقْتَلٌ وما أكثر ما يكون في أعناقها تحصييراً ولصدورها أغاب وذلك في الأفاعي أعمُّ وذلك الموضع المستدق إنما هو شيء كهينة الخريطة وكهينة فم الجراب منضمُّ الأثناء مُتَنَّى الغضون فإذا شئت أن تفتح انفتح لك فمٌ واسع ولذلك قال إبراهيم بن هانئ : كان فُتْحُ فم الجرابِ يحتاجُ إلى ثلاثة أيدي ولولا أن الحمالين قد جعلوا أفواههم بدل اليد

الثالثة لقد كان ذلك ممتنعاً حتى يستعينوا بيد إنسان . وهذا مما يعدُّ في مجون ابن هاني وكذلك خلوق الحيات وأعناقها وصدورها قد تراها فتراها في العين دقيقة ولا سيما إذا أفرطت في الطول .

شراة الحية والأسد

وهي تبتلع فراخ الحمام والحية أنهم وأشره من الأسد والأسد يبلع البضعة العظيمة من غير مضغ وذلك لما فيه من فضل الشره وكذلك الحية وهما واتقان بسهولة وسعة المخرج . تئين أنطاكية

ومما عظمها وزاد في فرع الناس منها الذي يرويه أهل الشام وأهل البحرين وأهل أنطاكية وذلك أنني رأيتُ الثالث الأعلى من منارة مسجد أنطاكية أظهر جدّة من الثلثين الأسفلين فقلت لهم : ما بال هذا الثلث الأعلى أجد وأطرى قالوا : لأن تئيناً ترَفَع من بحرنا هذا فكان لا يمرُ بشيء إلا أهلكه فمرَّ على المدينة في الهواء محاذياً لرأس هذه المنارة وكان أعلى مما هي عليه فضربه بذنبه ضربةً حذفت من الجميع أكثر من هذا المقدار فأعادوه بعد ذلك ولذلك اختلف في المنظر .

الخلاف في التين ولم يزل أهل البقاع يتدافعون أمر التين ومن العجب أنك تكون في مجلس وفيه عشرون رجلاً فيجري ذكرُ التين فينكره بعضهم وأصحاب التين يدعون العيان والموضع قريب ومن يعاينه كثير وهذا اختلافٌ شديد .

والأعراب تقول في الأصله قولاً عجيباً : ترعُم أن الحية التي يقال لها الأصله لا تمرُ بشيء إلا احترق مع تماويل كثيرة وأحاديث شنيعة .

الأجدهاني

وترعَم الفُرس أن الأجدهاني أعظم من البعير وأن لها سبعة رؤوس وربما لقيت ناساً فتبتلع من كل جهة فمٍ ورأسٍ إنساناً وهو من أحاديث الباعة والعجائز .

الحية ذات الرأسين

وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان فسألتُ أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق فقلت له : فمن أي جهة الرأسين تسعى ومن أيهما تأكل وتعص فقال : فأما السعي فلا تسعى ولكنها تسعى إلى حاجتها بالنقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل وأما الأكل فإنها تتعشى بقم وتتغذى بقم وأما العض فإنها تعض برأسها معاً فإذا به أكذب البرية وهذه الأحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها وفي تهويل أمرها . فرائق الأسد ومثل شأن التين مثل أمر فرائق الأسد فإن ذكره يجري في المجلس فيقول بعضهم : أنا رأيته

فرع الناس من الحية

وربما زاد في الرعب منها والاستهالة لمنظرها قولُ جميع المحدثين : إنّ من أعظم ما خلقَ الله الحيةَ والسرطانَ والسّمك

طول عمر الحية

وتقول الأعراب : إنّ الحية أطولُ عمراً من النّسر وإنّ الناسَ لم يجدوا حيةً قطُ ماتت حتفَ أنفها وإنما تموت بالأمر يعرض لها وذلك لأمر منها قولهم : إنّ فيها شياطينَ وإنّ فيها من مسخ وإنّ إبليسَ إنما وسوس إلى آدم وإلى حواء من جوفها .
زعم الفضل بن إسحاق وزعم لي الفضل بن إسحاق أنه كان لأبيه نخان وأنّ طولَ كلّ نخّ تسعة عشر ذراعاً

ضروب الحيات

ومن الحيات الجرّد والزرع وذلك فيها من الغالب ومنها ذواتُ شعر ومنها ذواتُ قرون وإنما يتخلق لها في كلّ عام قشّرٌ وغلاف فأما مقادير أجسامها فقط .
انسلاخ جلد الإنسان وأما الجلود فإنّ الأرمينيّ زعم أنه كان عندهم رجلٌ ينقشّر من جلده وينسلخ في كلّ شهرٍ مرّةً قال فجمع ذلك فوجد فيه ملء جراب أو قال : أكثر .

علة الفرع من الحية

وأما الذي لا أشك في أنه قد زاد في أقدارها في النفوس وعظم من أخطارها وهول من أمرها ونّبّه على ما فيها من الآية العجيبة والبرهان النير والحجة الظاهرة فما في قلب العصا حيّة

وفي ابتلاعها ما هولَ به القوم وسحروا من أعين الناس وجأؤوا به من الإفك قال الله عزّ وجلّ : وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ حَقِّقْ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنَّ كُنْتَ جَاءَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ إِلَى قَوْلِهِ : فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ إِنَّمَا حَوْلَ الْعَصَا ثُعْبَانًا لَهُمْ جَاؤُوا بِجِبَالٍ وَعِصِيٍّ فَحَوَّلُوهَا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ كُلِّهَا حَيَاتٍ فَلِذَلِكَ قَلَبَ اللَّهُ الْعَصَا حَيَةً عَلَىٰ هَذِهِ الْمَعَارِضَةِ وَلَوْ كَانُوا حِينَ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ جَعَلُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ذُنَابًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَثَمُورًا لَجَعَلَ اللَّهُ عَصَا مُوسَىٰ ذَنْبًا أَوْ نَمِرًا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَخَاصَّةٍ فِي بَدَنِ الْحَيَةِ قُلْنَا : الدّليل على باطل ما قلتم قولُ الله تعالى : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا)

إلى قوله : وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ فقلبت العصا جَانًّا وليس هناك حبال ولا عَصِيٌّ وقال الله : قَالَ لِبْنٍ اتَّخَذَتْ إِلَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ فَقَلَّبُ الْعَصَا حَيَّةً كَانَتْ فِي حَالَاتٍ شَتَّى فَكَانَ هَذَا مِمَّا زَادَ فِي قَلْبِ الْحَيَّةِ وَقَدْ وَرَدَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي دُعَائِهِ أَنْ لَا يَمِيتَهُ اللَّهُ لَدَيْعًا وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يَمُوتَ لَدَيْعًا وَأَنْ تَكُونَ مِيتَتُهُ بِأَكْلِ هَذَا الْعَدُوِّ إِلَّا وَهُوَ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ بَلْ مِنْ أَشَدِّهِمْ عداوةً وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ كَأَنَّهُ كَانَ فِي الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَقْتُلُ أَحَدًا

وَلَا يَتَّفَقُ ذَلِكَ إِلَّا فِي أَشْرَارِ الْخَلْقِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الَّذِي اتَّفَقَ مِنْ قَتْلِ أَبِي بَنْ خَلْفٍ بِيَدِهِ وَالتَّضَرُّعُ بِنِ الْحَارِثِ وَعُقْبَةُ بِنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَمَعَاوِيَةُ بِنِ الْمُغِيرَةِ بِنِ أَبِي الْعَاصِي صَبْرًا .

وَحَدَّثَتْ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بِنِ أَبِي هَنْدٍ قَالَ : حَدَّثَنِي صَيْفِيُّ بِنِ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّبْعِ : كَانَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَذْمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّرْدِيِّ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَمِّ وَالْغَرَقِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَرَقِ وَالْهَرَمِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَجَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ مُدْبِرًا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَمُوتَ لَدَيْعًا . وَطَلْحَةُ بِنِ عَمْرٍو قَالَ : حَدَّثَنِي عَطَاءٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَسَدِ وَالْأَسْوَدِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَذْمِ .

اسْتَطْرَادَ لَغَوِي قَالَ : وَيُقَالُ لِلْحَيَّةِ : صَفَرَتْ تَصْفَرُ صَغِيرًا وَالرَّجُلُ يَصْفِرُ بِالطَّيْرِ لِلتَّغْيِيرِ وَبِالدَّوَابِّ وَبِغُضِّ الطَّيْرِ لِلتَّعْلِيمِ وَتَتَخَذُ الصَّفَّارَةُ يُصْفَرُ بِهَا لِلْحِمَامِ وَالطَّيْرِ فِي الْمَزَارِعِ قَالَ أَعَشَى هَمْدَانُ يَهْجُو رَجُلًا : (وَإِذَا جِثَا لِلزَّرْعِ يَوْمَ حَصَادِهِ ** قَطَعَ النَّهَارَ تَأْوُهَاً وَصَغِيرًا)

لسان الحية

وَالْحَيَّةُ مَشْقُوقَةُ اللِّسَانِ سَوْدَاؤُهُ وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ لِبَعْضِ الْحَيَّاتِ لِسَانَيْنِ وَهَذَا عِنْدِي غَلْطٌ وَأُظُنُّ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى افْتِرَاقَ طَرَفِ اللِّسَانِ قَضَى بِأَنَّ لَهُ لِسَانَيْنِ .

عَجِيبَةٌ لِلضَّبِّ وَيُقَالُ : إِنَّ لِلضَّبِّ أَيْرَيْنِ وَيُسَمَّى أَيْرُ الضَّبِّ نَزْكًَا قَالَ الشَّاعِرُ :

(سقط : بيت الشعر) (كضب له نركان كانا فضيلة ** على كل حاف في الأنام وناعل) قَالَ أَبُو خَلْفِ
النمرى : سئل أبو حَيَّةَ النمرى عن أير الضَّبِّ فزعم أن أير الضَّبِّ كلسان الحَيَّة : الأصل واحد الفرع
اثنان

زعم بعض المفسرين في عقاب الحية

وبعض أصحاب التفسير يزعم أن الله عاقب الحية حين أدخلت إبليس في جوفها حتى كلم آدم وحواء
وخدعهما على لسانها بعشر خصال : منها شقُّ اللسان قالوا : فلذلك ترى الحية إذا ضربت للقتل كيف
تخرج لسانها لثري الضارب عقوبة الله كأنها تسترحم وصاحب هذا التفسير لم يقل ذلك إلا الحية كانت
عنده تتكلم ولولا ذلك لأنكر آدم كلامها وإن كان إبليس لا يحتال إلا من جهة الحية ولا يحتال بشيء غير
مؤه ولا مشبه .

استطرد لغوي قال : ويقال : أرض محوأة ومحية من الحيات كما يقال أرض مضبة ومضبة من الضباب
وفائرة من الفأر .
قولهم : هذا أجل من الحرش وقال الأصمعي في تفسير قولهم في المثل : هذا أجل من الحرش : إن الضب قال
لابنه : إذا سمعت صوت الحرش فلا تخرجن قال : وذلك أنهم يزعمون أن الحرش تحريك اليد عند جحر
الضب ليخرج إذا ظن أنه حية قال : وسمع ابنه صوت الحفر فقال : يا أبه هذا الحرش قال : يا بني هذا أجل
من الحرش فأرسلها مثلاً .

أسماء ما يأكل الحيات

بين الحيات وبين الخنازير عداوة والخنازير تأكلها أكلاً ذريعاً

وسموم ذوات الأنياب من الحيات وذوات الإبر سريعة في الخنازير وهي تهلك عند ذلك هلاكاً وشيكاً
فلذلك لا ترضى بقتلها حتى تأكلها وتأكل الحيات العقبان والأيتل والأراوي والأوعال والسنانير
والشاهمرك والقنفذ إلا أن القنفذ أكثر ما يقصد إلى الأفاعي وإنما يظهر بالليل قال الراجز : قنفذ ليل دائم
التجأ وهذا الراجز هو أبو محمد الفقعي القول في القنفذ وكذلك يشبه النمام والمداخل والدسيس
بالقنفذ لخروجه بالليل دون النهار ولاحتياله للأفاعي قال عبدة بن الطبيب : (يزجي عقاربه ليعث بينكم
** حرباً كما بعث العروق الأخدع)

(حران لا يشفي غليل فؤاده ** غسل بماء في الإناء مشعشع) (لا تأمنوا قوماً يشب صبيهم ** بين
القوابل بالعداوة ينشع) وهذا البيت الآخر يضم إلى قول مجنون بني عامر : (أتاني هواها قبل أن أعرف

الهوى * فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا) ويضم إليه قول ابن أودٍ : الطينة تَقْبِلُ الطباع ما كانت كَيِّنَةً .
ثم قال عبدة بن الطيب في صلة الأبيات التي ذكر فيها القنفذ والنميمة : (إن الذين تُروّئهم خلانكم **
يشقي صداع رؤوسهم أن تُصرعوا) (قوم إذا دمس الظلام عليهم * جدعوا قنافذ بالنميمة تمزغ)

وهذا الشعر من غرر الأشعار وهو مما يحفظ .
وقال الأودي : (كقنفذ القن لا تخفى مدارجُه * حب إذا نام عنه الناس لم ينم) عهد آل سجستان على
العرب وفي عهد آل سجستان على العرب حين افستحوها : لا تقتلوا قنفاذاً

ولا ورلاً ولا تصيدوا لأنها بلاد أفاع وأكثر ما يجتلب أصحاب صنعة الترياق والخواوون الأفاعي من
سجستان وذلك) كسب لهم وحرقة ومتجر ولولا كثرة قنفاذها لما كان لهم بها قرار . ٤

أكل القنفذ للحية

والقنفذ لا يبالي أي موضع قبض من الأفعى وذلك أنه إن قبض على رأسها أو على قفاها فهي مأكولة على
أسهل الوجوه وإن قبض على وسطها أو على ذنبها جذب ما قبض عليه فاستدار وتجمع ومنحه سائر بدنه
فمتى فتحت فاه لتقبض على شيء منه لم تصل إلى جلده مع شوكة الثابت فيه والأفعى قرب منه وطلبه لها
وجراءته عليها على حسب هربها منه وضعفها عنه .

أمثال في الحية والورل والضب وأما قولهم : أضل من حية وأضل من ورل وأضل من ضب فأما الحية فإنها
لا تتخذ لنفسها بيتاً والذكر لا يقيم في الموضع وإنما يقيم على بيضها بقدر ما تخرج فراخها وتقوى على
الكسب والتماس الطعم ثم تصير الأنثى سياراً فمتى وجدت جحرًا دخلت واثقة بأن

السّاكن فيه بين أمرين : إما أقام فصار طعماً لها وإما هرب فصار البيت لها ما أقامت فيه ساعة كان

بيض الحيات

وقد رأيت بيض الحيات وكسرتها لأتعرّف ما فيها فإذا هو بيضٌ مستطيلٌ أكثرُ اللون أخضر وفي بعضه
نمشٌ ولَمَعٌ فأما داخله فلم أرَ قِيحاً قط ولا صديدًا خرَجَ من جرحٍ فاسدٍ إلا والذي في بيضها أَسْمَجُ منه
وأقدر ويزعمون أنها كثيرة البيض جداً وأن السلامة في بيضها على دون ذلك وأن بيضها يكون منصّداً في
جوفها طويلاً على غرار واحد وعلى خيط واحد وهي طويلة البطن والأرحام وعدد أضلاعها عدد أيام
الشهر وكان ذلك بعض ما زاد في شدة بدنها .

أكثر الحيوان نسلًا والخلق الكثير الذرء الدجاج والضب أكثر بيضاً من الدجاجة والخزيرة تضع عشرين
خنوصاً .

ويخرجُ من أجوافِ العقاربِ عقاربُ صغارٌ كثيرةٌ العددُ جدًّا وعمامةُ العقاربِ إذا حَبَلَتْ كان حَنَفُها في ولادها لأنَّ أولادها إذا اسْتَوَى خَلَقُها أَكَلَتْ بطونَ الأمهاتِ حتَّى تتقبها وتكونُ الولادةُ من ذلك الثقب فتخرج والأمهاتُ ميّنة .)

وأكثرُ من ذلك كله ذُرءُ السَّمَكِ لأنَّ الإنسانَ لو زَعَمَ أنَّ بيضةً واحدةً من بعضِ الأسبور عشرة آلاف بيضةً لكان ذلك لعظمِ ما تحمِلُ ولدقةً حبّه وصِغره ولكن يعترِبها أمران : أحدهما الفساد والآخر أنَّ الذكورة في أوانِ ولادةِ الإناثِ تَتَّبِعُ أَذْنايَها فكلُّما زَحَرَتْ بشيءٍ التقمتهُ والتهمتهُ . ثمَّ السَّمَكُ بعد ذلك في الجملة إنما طبعها أن يأكل بعضها بعضاً .

علة كثرة الأولاد ويزعمون أن الكثرة في الأولاد إنما تكون من العفنِ واللّخنِ وعلى قدرِ كثرةِ المائية وقليتها فذهبوا إلى أن أرحامَ الرُّومِيَّاتِ والنَّصْرانيَّاتِ أكثرُ لِحْنًا ورطوبةً لأنَّ غَسْلَ الفُرُوجِ بالماءِ الباردِ مرارًا في اليومِ ممّا يَطْبِبُ الأرحامَ وينفي اللّخنَ والعفنَ ويزعمون أنَّ المرأةَ إذا كان فرجُها نظيفاً وكانت مُعْطَرَةً قويّةُ المُنَّةِ قَلَّ حملُها فإنَّ أفرطتْ في السَّمَنِ عادتْ عاقراً وسِمَانُ الرِّجالِ لا يكاد يعترِبهم ذلك . وكذلك العاقر من إناث الإبل والبقر والغنم والتَّخْلُ إذا قويت النَّخلةُ وكانت شابّةً وسَمِنَ جُمَارُها صارتْ عاقراً لا تحمِلُ فيحتالون عند ذلك بإدخال الوهن عليها .

اعتراض على التعليل السابق وقد طعن في ذلك نَسٌّ فقالوا : إنَّ في الضَّبِّ على خلاف ما ذكرتم قد تبيضُ الأنثى سبعين بيضةً فيها سبعون حِسْلاً ولولا أنَّ الضَّبَّ يأكلُ ولده لانتفشَت الصحارى ضباباً والضَّب لا يجفر إلاَّ في كُدْيَةٍ وفي بلادِ العَرادِ وإذا هَرمتْ تَبَلَّغتْ بالتَّسِيمِ وهذا كله ممّا يستدلُّ

به على بُعْدِ طبعها من اللّخنِ والعفنِ .

وقيل لهم : قد يمكنُ أن يكون ذلك كذلك في جميع صفاتها إلاَّ في أرحامها فقط .

سَفاد الحيات

وليس للحياتِ سَفادٌ معروفٌ يَنْتَهي إليه علْمٌ ويقف عليه عيانٌ وليس عند الناس في ذلك إلاَّ الذي يروْنَ من ملاقاتِ الحيةِ للحيةِ والتواءِ كلِّ منهما على صاحبه حتّى كأنهما زوجٌ خيزرانٍ مفتولٌ أو خَلخالٌ مفتولٌ فأماً أن يقفوا على عضوٍ يدخل أو فرجٍ يدخل فيه فلا .

شعر في الأيم والجرادة الذكر والعرب تذكُرُ الحياتِ بأسمائها وأجناسها فإذا قالوا : أَيْمُ فإنما يريدون الذكر دونَ الأنثى ويذكرونه عِنْدَ جودَةِ الانسيابِ

وخِفَّةِ البدنِ كما تذكُرُ الشُّعراءُ في صفةِ الحيلِ الجرادةِ الذَّكَرَ دُونَ الأنثى فهم وإن ألحَقُوا لها فإنما يريدون الذَّكَرَ قال بشرُ بن أبي خازم : لأنَّ الأنثى لا تكون صفراء وإنما الموصوفُ بالصُّفْرةِ الذَّكَرَ لأنَّ الأنثى تكون بين حالتين : إمّا أنَّ تكون حُبلى بِيضِها فهي مُثْقَلَةٌ وإمّا أن تكون قد سرأت وقذفت بيضها فهي أضعفُ ما

تكون .

قال الشاعر : (أَتَذْهَبُ سَلَمَى فِي اللَّمَامِ وَلَا تُرَى ** فِي اللَّيْلِ أَيْمٌ حَيْثُ شَاءَ يَسِيبُ)

آثار الحيات والعطاء في الرمال

وإذا انسابت في الكُثبانِ والرَّمَلِ بينُ مواضعٍ مَزَاحِفِها وعُرِفَتْ آثارُها .
وقال آخر : (كَأَنَّ مَزَاحِفَ الْحَيَّاتِ فِيهَا ** قُبَيْلَ الصُّبْحِ آثَارُ السَّيَاطِ) وكذلك يعرفون آثار العطاء وأنشد ابن الأعرابي : (بِهَا ضَرْبُ أَذْنَابِ الْعِظَاءِ كَأَنَّهَا ** مَلَاعِبُ وَلَدَانٍ تَحْطُّ وَتَمْصَعُ) وقال الآخر وهو يصف حَيَّاتٍ : (كَأَنَّ مَزَاحِفِها أُنْسَعُ ** جُرُونُ فُرَادَى وَمَشَاتِهَا) (كَأَنَّ مَزَاحِفَ الْهَزَلَى صَبَاحاً ** خُدُودُ رَصَائِعِ جُدَلَتْ تَوَامَا)

والهَزَلَى من الْحَيَّاتِ قال جرير أو غيره : (ومن ذاتِ أَصْفَاءِ سُهُوبِ كَأَنَّهَا ** مَزَاحِفُ هَزَلَى بَيْنَهَا مَتَابَعُدُ) وقال بعضُ المحدثين وذكر حال البرامكة كيف كانتْ وإلى أيِّ شيءٍ صارت : (وإذا نَظَرْتَ إِلَى التَّرى بِعَرَاصِمِهِمْ ** قُلْتَ : الشَّجَاعُ ثَوَى بِهَا وَالْأَرْقَمُ) وقال البعيث : (لَقِيَ حَمَلَتَهُ أُمُّهُ وَهِيَ ضَيْفَةٌ ** فَجَاءَتْ بَيْتَنَ لِلضَّيَافَةِ أَرْشَمًا) (مُدَامِنُ جَوْعَاتٍ كَأَنَّ عُرُوقَهُ ** مَسَارِبُ حَيَّاتٍ تَسْرَبْنَ سَمْسَمًا)

روعة جلد الحية

ولا ثوبَ ولا جناحَ ولا سِتْرَ عَنكَبُوتٍ إِلَّا وَقَشَرُ الْحَيَّةِ أَحْسَنُ مِنْهُ وَارِقٌ وَأَخْفَى وَأَنْعَمُ وَأَعْجَبُ صَنَعَةٌ وَتَرْكِيبًا .
ولذلك وصف كُثَيِّرٌ قَمِيصَ مَلِكٍ فَشَبَّهَ بِسَلَخِ الْحَيَّةِ حَيْثُ يَقُولُ : (إِذَا مَا أَفَادَ الْمَالُ أَوْدَى بِفَضْلِهِ ** حَقُوقَ فِكْرِهِ الْعَاذِلَاتِ يُوَافِقُهُ) وَالسَّيِّءُ : السَّلَخُ والجلد قال الشاعر : وقد نَصَلَ الْأَطْفَارُ وَأَنْسَبَا الْجُلْدُ

صمم النعام والأفعى

وترعَّمُ الْعَرَبُ أَنَّ النَّعَامَ وَالْأَفْعَى صُمَّ لَا تَسْمَعُ وَكَذَلِكَ هُمَا مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَنَسْأَلُكَ مِنْ ذَلِكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ طَرَفًا وَنُؤَخِرُ الْبَاقِي إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي نَذْكُرُ فِيهِ جُمْلَةَ الْقَوْلِ فِي النَّعَامِ أَصْحَابِ الدَّعَاوَى الْكَبِيرَةِ وَقَدْ ابْتَلَيْنَا بَصَرَيْنِ مِنَ النَّاسِ وَدَعَاوَاهُمَا كَبِيرَةٌ أَحَدُهُمَا يَلْبِغُ مِنْ حُبِّهِ لِلْغَرَائِبِ أَنْ يَجْعَلَ سَمْعَهُ هَدَفًا لِتَوَلِيدِ الْكَذَّابِينَ وَقَلْبَهُ قَرَارًا لِلْغَرَائِبِ الزُّورِ وَلِكَلْفِهِ بِالْغَرِيبِ وَشَعْفِهِ بِالطُّرْفِ لَا يَقِفُ عَلَى النَّصِيحِ وَالتَّمْيِيزِ فَهُوَ يَدْخُلُ الْغَتَّ فِي السَّمِينِ وَالْمَمَكَنِ فِي الْمَمْتَنِعِ وَيَتَعَلَّقُ بِأَدْنَى سَبَبٍ ثُمَّ يَدْفَعُ عَنْهُ كُلَّ الدَّفْعِ .
وَالصَّنْفُ الْآخَرُ وَهُوَ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ مِنْهُ عِنْدَ مَنْ يَسْمَعُهُ يَتَكَلَّمُ إِلَّا مِنْ خَافِ التَّقَرُّزِ مِنَ الْكَذِبِ .

قول في صمم الأفعى وعماه

(أَنْعَتْ نَضْنَاضًا مِنَ الْحَيَّاتِ * أَصَمَّ لَا يَسْمَعُ لِلرُّقَاةِ) قد ذكروا بالصَّمِّ أجناساً من خبيثات الحيات وذهبوا إلى امتناعها من الخروج عند رُقِيَةِ الرَّاقِي عند رأس الجُحْرِ فقال بعضهم : (وذاتِ قَرْنَيْنِ مِنَ الْأَفَاعِي * صَمَاءٌ لَا تَسْمَعُ صَوْتَ الدَّاعِي) ويزعمون أَنَّ كُلَّ نَضْنَاضٍ أَفْعَى وقال آخر : (وَمِنْ حَشَشٍ لَا يُجِيبُ الرُّقَا * ةَ أَرْقَشَ ذِي حُمَةٍ كَالرَّشَا) (أَصَمَّ سَمِيعٌ طَوِيلُ السُّبَا * تِ مِنْهَرَتِ الشَّدَقِ عَارِي النِّسَا) فرغم أَنَّهُ أَصَمُّ سَمِيعٌ فَجَازَ لَهُ أَنْ يَجْعَلَ أَصَمَّ بِقَوْلِهِ : وَمِنْ حَشَشٍ لَا يُجِيبُ الرُّقَاةَ وقال الآخر : (أَصَمُّ أَعْمَى لَا يُجِيبُ الرُّقَى * يَفْتَرُّ عَنْ عُصْلِ حَدِيدَاتِ) والأفْعَى لَيْسَ بِأَعْمَى وَعَيْنُهُ لَا تَنْطَبِقُ وَإِنْ قَلَعَتْ عَيْنُهُ عَادَتْ وَهُوَ قَائِمُ الْعَيْنِ كَعَيْنِ الْجَرَادَةِ كَأَنَّهَا مِسْمَارٌ مَضْرُوبٌ وَلَهَا بِاللَّيْلِ شُعَاعٌ خَفِيٌّ قَالَ الرَّاعِي يَصِفُ الْأَفْعَى :

(وَيُذِنِي ذِرَاعِيهِ إِذَا مَا تَبَادَرَا * إِلَى رَأْسِ صِلٍ قَائِمِ الْعَيْنِ أَسْفَعِ) وهذه صفةٌ سَلِيمِ الْأَفْعَى فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ وَصَفَهَا بِالنَّمْعِ مِنَ الْخُرُوجِ بِالصَّمِّ كَمَا وَصَفَهَا بِالْعَمَى لِمَكَانِ السُّبَاتِ وَطُولِ الْإِطْرَاقِ . (أَصَمَّ سَمِيعٌ طَوِيلُ السُّبَاتِ * مِنْهَرَتِ الشَّدَقِ عَارِي الْقَرَا) وقال آخر : (مِنْهَرَتِ الشَّدَقِ رُقُودُ الصُّحَى * سَارِ طَمُورٍ بِالْدُّجَنَاتِ) (وَتَارَةً تَحْسِبُهُ مَيْتًا * مِنْ طُولِ إِطْرَاقٍ وَإِخْبَاتِ) (يُسَبِّتُهُ الصُّبْحُ وَطَوْرًا لَهُ * نَفْخٌ وَنَفْثٌ فِي الْمَغَارَاتِ) وَيَعْلَمُ أَنَّهُ وَصَفَ أَفْعَى بِقَوْلِهِ : (أَصَمُّ أَعْمَى لَا يُجِيبُ الرُّقَى * يَفْتَرُّ عَنْ عُصْلِ حَدِيدَاتِ) مِنْهَرَتِ الشَّدَقِ رُقُودُ الصُّحَى الْخِثْمُ ذَكَرَ أَنْبَاؤُهُ فَقَالَ : (قُدَّ مِنْ عَنِّ ضِرْسِيهِ وَاسْتَأْخَرَا * إِلَى صِمَاخَيْنِ وَهَوَاتِ)

فَجَعَلَهُ أَعْصَلَ الْأَنْيَابِ مِنْهَرَتِ الْأَشْدَاقِ ثُمَّ وَصَفَهَا بِالسُّبَاتِ وَطُولِ الْإِطْرَاقِ وَبِسُرْعَةِ النَّشْطَةِ وَخَفَةِ الْحَرَكَةِ إِذَا هَمَّتْ بِذَلِكَ وَكَانَتْ تَعْظُمُ .

شعر امرأة جمع صفة الحية وقد وصفتها امرأة جاهليّة بجميع هذه الصّفة إلا أنّها زادت شيئاً والشعر صحيح وليس في وقد رأيت عند داود بن محمد الهاشمي كتاباً في الحيات أكثر من عشرة أجلاد ما يصحُّ منها مقدار جلدٍ ونصف .

ولقد ولّدوا على لسانٍ خلفٍ الأحمرِ والأصمعيّ أرجازاً كثيرةً فما ظنّك بتوليدهم على ألسنة القدماء . ولقد ولّدوا على لسانٍ جَحَشَوِيٍّ فِي الْخِلَاقِ أَشْعَارًا مَا قَالَهَا جَحَشَوِيٌّ قَطْ فَلَوْ تَقَنَّرُوا مِنْ شَيْءٍ تَقَنَّرُوا مِنْ هَذَا الْبَابِ .

والشعر الذي في الأفْعَى : (قَدْ كَادَ يَقْتُلَنِي أَصَمُّ مُرْقَشٌ * مِنْ حُبِّكُمْ وَالْخَطْبُ غَيْرُ كَبِيرِ) (خُلِقَتْ لَهَا زِمَةٌ عَزِيزٌ وَرَأْسُهُ * كَالْقُرْصِ فُلُطَحَ مِنْ دَقِيقِ شَعِيرِ)

(وَيَذِيرُ عَيْنًا لِلْوَقَاعِ كَأَنَّهَا * سَمَرَاءُ طَاحَتْ مِنْ نَفِيزِ بَرِيرِ) (وَكَأَنَّ مَلْقَاهُ بِكُلِّ تَوْفَةٍ * مَلْفَاكَ كِفَّةٍ مُنْخَلٍ مَاطُورِ) (وَكَأَنَّ شِدْقِيهِ إِذَا اسْتَعْرَضَتْهُ * شِدْقًا عَجُوزَ مَضْمَضَتِ لِطُهُورِ) فقد زعمت كما ترى أنّها تدير عيناً وزعم الأول أنّها قائمة العين إلا أنّ تزعم أنّها لم تُردِّ بالإدارة أنّ مقلتها تزول عن موضعها ولكنها أرادت أنّها جَوَالَةٌ فِي إِدْرَاكِ الْأَشْخَاصِ الْبَعِيدَةِ وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا جَعَلَهَا سَمِيعَةً لِدَقَّةِ الْحِسِّ وَكَثْرَةِ

الاكتراث وجوده الشم لا جوده السمع فان الذين زعموا ان النعامة صماء زعموا انها تدرك من جهة الشم والعين جميع الأمور التي كانت تعرفها من قبل السمع لو كانت سمیعة وقد قال الشاعر في صفة الحية :

(تهوي إلى الصوت والظلماء عاكفة ** تعرد السيل لاقى الحيد فاطلعا) هذا بعد أن قال : (إني وما تبغي مني كملتسم ** صيدا وما نال منه الرّي والشبعا) (أهوى إلى باب جحر في مقدمه ** مثل العسيب ترى في رأسه نزعا) (اللون أربد والأنياب شابكة ** عصل ترى السم يجري بينها قطعا) (أصم ما شم من خضراء أيسها ** أو شم من حجر أوهاه فأنصدعا) فقد جعل لها أنيابا عصلا ووصفها بغاية الحبث وزعم أنها تسمع فهؤلاء ثلاثة شعراء .

الثقة بالعلماء فإن قلت : إن المولد لا يؤمن عليه الخطأ إذ كان دخیلاً في ذلك الأمر وليس كالأعرابي الذي إنما يحكي الموجود الظاهر له الذي عليه

نشأ وبمعرفة غذي فالعلماء الذين اتسعوا في علم العرب حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم هم الذين نقلوا إلينا ومتى أخبرني بعض هؤلاء بخبر لم أستظهر عليه بمسألة الأعراب ولكنه إن تكلم وتحدث فأنكرت في كلامه بعض الإعراب لم أجعل ذلك قدوة حتى أوقفه عليه لأنه ممن لا يؤمن عليه اللحن الخفي قبل التفكير فهذا وما أشبهه حكمه خلاف الأول .

الرقية والرقية تكون على ضرور : فمنها الذي يدعي الحواء والرقاء وذلك يشبه بالذي يدعي نلس من العزائم على الشياطين والجن وذلك أنهم يزعمون أن في تلك الرقية عزيمة لا يمتنع منها الشيطان فكيف العامر وأن العامر إذا سئل بها أجاب فيكون هو الذي يتولى إخراج الحيات من الصخر فإن كان الأمر على ما قالوا فما ينبغي أن يكون بين خروج الأفاعي الصم .

وغيرها فرق إذا كانت العزائم والرقى

والثقت ليس شيئاً يعمل في نفس الحية وإنما هو شيء يعمل في الذي يخرج الحية وإذا كان ذلك كذلك فالسميع والأصم فيه سواء .

وكذلك يقولون في التحبيب والتبغيض وفي النشرة وحل العقدة وفي التعقيد والتحليل .

العزيمة ويزعمون أن الجن لا تحيب صاحب العزيمة حتى يتوحش ويأتي الخرابات والبراري ولا يأنس بالناس ويتشبه بالجن ويغسل بالماء القراح ويتبخر باللبان الذكر ويراعي المشتري فإذا دق ولطف وتوحش وعزم أجابته الجن وذلك بعد أن يكون بدنه يصلح هيكلها وحتى يلد دخوله وادي منازلها وألا يكره ملابسته والكون فيه فإن هو ألح عليها بالعزائم ولم يأخذ لذلك أهبة خبلته وربما قتلته لأنها تظن أنه متى توحش لها واحتوى وتنظف

فقد فرغ وهي لا تجيب بذلك فقط حتى يكون المعزم مشاكلاً لها في الطباع .

فيزعمون أن الحيات إنما تخرج إخراجاً وأن الذي يخرجها هو الذي يخرج سمومها من أجساد الناس إذا عزم

عليها . التعويد والرُقِيَّةُ الأخرى بما يُعرفُ من التعويد قال أبو عُبَيْدَةَ : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ : قد جاءكم أحدُكم يسترْفِئُكم فارقوه قال : فَعَوَّذُوهُ ببعضِ العوائد .
والوجه الآخر مشتق من هذا ومحمولٌ عَلَيْهِ كَالرَّجُلِ يَقُولُ : ما زال فلانٌ يرقِي فلاناً حتَّى لَانَ وأجاب .

رقى الحيات

وقد قالت الشعراء في الجاهليَّة والإسلام رُقَى الحيات وكانوا يؤمنون بذلك ويصدقون به
ومنهم مَنْ زعم أنَّ إخراجَ الحية من جُحرها إلى الرَّاقِي إنما كان للعزيمة والإقسام عليها ولأنَّها إذا فهتْ ذلك أجابتْ ولم تمتنع .
وكان أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ لا يعرف قولهم في أنَّ العُمَارَ هم الذين يُجيبون العزائم بإخراج الحيات من بيوتها وفي ذلك يقول : (والحية الذكر الرقشاء أخرجها ** من جحرها أمانات الله والقسم) (إذا دعا باسمها الإنسان أو سمعت ** ذات الإله بدا في مشيها رزم) (من خلفها حمة لولا الذي سمعت ** قد كان ثبتها في جحرها الحمم) (نابٌ حديدٌ وكفٌ غير وادعة ** والخلق مخلفٌ في القول والشيم) (إذا دعين بأسماء أجبن لها ** لنافثٍ يعتديه الله والكلم) (لولا مخافة رب كان عذبا ** عرجاء تطلع في أنيابها عسم)
(وقد بلته فذاقت بعض مصدقه ** فليس في سمعها من رهبة صمم) (فكيف يأمنها أم كيف تألفه **
وليس بينهما قربي ولا رحم) يقول : لو أنَّها أخرجت حين استُخْلِفتُ بالله لما خرجت إذ ليس بينهما قُربى ولا رَحِمٌ ثم ذكر الحُمَّة والتَّاب .
وقال آخرون : إنما الحية مثل الضبِّ والضَّبُّ إذا سمع بالله والهدم والصَّوت خرج ينظر والحواء إذا دنا من الجُحْرِ رفع صوته وصفَّقَ بيديه وأكثر من ذلك حتى يخرج الحية كما يُخرج الضب)
والضَّبُّ .
وقال كثيرٌ : (وسوداءَ مطراقٍ إليَّ من الصفا ** أنيَّ إذا الحاوي دنا فصدا لها) والتَّصْدِية التَّصْفِيقُ قال الله تعالى : وما كان صلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيةً الْآيَةِ فَالْمُكَاءُ : صوتٌ بين النَّفْخِ والصَّغِيرِ والتَّصْدِيةُ : تصفيقُ اليد باليد .
فكان الحوَّاء يحتالُ بذلك للحية ويُوهم مَنْ حضرَ أنَّه بالرُقِيَّةِ

أخرجها وهو في ذلك يتكلم ويعرِّضُ إِلَّا أنَّ ذلك صوتٌ رفيعٌ وهو لو رَفَعَ صوته ببيتٍ شعرٍ أو بخُرافَةٍ لكان ذلك والذي يظهر من العزيمة عند الحية سواءً وإنما ينكر الصَّوتَ كما ينكره الضَّبُّ وغير ذلك من الوحش .
ثم قال : (كَفَفْتُ يَدًا عنها وأَرْضِيْتُ سَمْعَهَا ** من القولِ حتَّى صدَّقَتْ ما وعى لها) (وأشعرتها نفثاً بليغاً فلو ترى ** وقد جعلت أن ترعني النَّفْثَ بالها) فقال كما ترى : كَفَفْتُ يَدًا عنها وأَرْضِيْتُ سَمْعَهَا ثم قال :

وأشعرهما نَفْثًا بليغاً فلو ترى وقال الأعشى : (أبا مِسْمَعٍ إني امرؤ من قبيلةٍ ** بنى لي عزراً موئها وحيائها)
(فلا تلمس الأفعى يديك تريدها ** إذا ما سعت يوماً إليها سفائها)

وقال آخر : (يدْعُو به الحية في أقطاره ** فإن أبي شَم سفا وجاره) والسفا : التراب اليابس بين التربين
يقال سفاً وسفاة .

تمويه الحواء والراقي والحواء وَ الرَّاقِي يُرِي النَّاسَ أَنَّهُ إِذَا رَأَى جَحْرًا لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ : أجحر حية هو أم جُحْر
شيء غيره فإن كان جُحْر حية لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَهْي فِيهِ أَمْ لَا ثُمَّ إِذَا رَقِيَ وَعَزَمَ فامتنعت من الخروج وخاف أن
تكون أفعى صمَاءَ لَا تَسْمَعُ وَإِذَا أَرَاغَهَا لِيَأْخُذَهَا فَأَخْطَأَ لَمْ يَأْمَنَ مِنْ أَنْ تَنْقَرَهُ نَقْرَةً لَا يُفْلِحُ بَعْدَهَا أَبَدًا فَهُوَ
عند ذلك يستبري بأن يشم من تراب الجُحْر فلا يخفى عَلَيْهِ : أَهْي أَفْعَى أَمْ حِيَّةٌ مِنْ سَائِرِ الْحَيَاتِ فَلِذَلِكَ قَالَ :

يدعو به الحية في أقطاره والوجار : الجُحْر .

ريح الأفعى

وزعم لي بعضُ الحوَّائِنَ أَنَّ لِلْحَيَّاتِ نَفْثًا وَسَهْكَاً وَأَنَّ رِيحَ الْأَفْعَى مَعْرُوفَةٌ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَغْلَقَ وَلَا أَعْتَقَ وَلَا
أَسْرَعَ أَخْذًا لِرَائِحَةٍ مِنْ طِينٍ أَوْ تَرَابٍ وَأَنَّهُ إِذَا شَمَّ مِنْ طِينَةِ الْجُحْرِ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ وَقَالَ : اعتبر ذلك بهذا
الطين السداني والرَّاهِطِي إِذَا أُلْقِيَ فِي الرَّعْفَرَانِ وَالْكَافُورِ أَوْ غَيْرِهِ ذَلِكَ مِنَ الطَّيِّبِ فَإِنَّهُ مَتَى وَضَعَ إِلَى جَنْبِ
رَوْثَةٍ أَوْ غُذْرَةٍ قَبْلَ ذَلِكَ الْجَسْمِ وَالرِّقَاءِ يُوْهِمُ النَّاسَ إِذَا دَخَلَ دُورَهُمْ لَا سِتْخَرَا حَيَّاتٍ أَنَّهُ يَعْرِفُ أَمَا كُنْهَا
بِرَائِحَتِهَا فَلِذَلِكَ يَأْخُذُ قَصَبَةً وَيَشْتَعِبُ رَأْسَهَا ثُمَّ يَطْعُنُ بِهَا فِي سَقْفِ الْبَيْتِ وَالزَّوَايَا ثُمَّ يَشْمُهَا وَيَقُولُ مَرَّةً :
فِيهَا حَيَّاتٌ وَيَقُولُ مَرَّةً : بَلَى فِيهَا حَيَّاتٌ عَلَى قَدْرِ الطَّمَعِ فِي الْقَوْمِ وَفِي عَقُولِهِمْ .
تأثير الأصوات وَأَمْرُ الصَّوْتِ عَجِيبٌ وَتَصَرُّفُهُ فِي الْوُجُوهِ عَجَبٌ فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ مِنْهُ

ما يقتل كهوت الصاعقة ومنها ما يسرُّ النفوس حتى يُفْرِطَ عَلَيْهَا السُّرُورُ فَتَقَلِّقَ حَتَّى تَرْقُصَ وَحَتَّى رُبَّمَا رَمَى
الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ مِنْ حَالِقٍ وَذَلِكَ مِثْلُ هَذِهِ الْأَغَانِي الْمَطْرِبَةِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْمَدُ وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَزِيلُ الْعَقْلَ حَتَّى
يُغْشَى عَلَى صَاحِبِهِ كَنَحْوِ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ الشَّجِيَّةِ وَالْقَرَاءَاتِ الْمَلْحَنَةِ وَلَيْسَ يَعْتَرِيهِمْ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْمَعَانِي
لَأَنَّهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ لَا يَفْهَمُونَ مَعَانِي كَلَامِهِمْ وَقَدْ بَكَى مَاسِرْجُوهُ مِنْ قِرَاءَةِ أَبِي الْخَوْخِ فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ
بَكَيْتَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا تَصَدِّقْ بِهِ قَالَ : إِنَّمَا أَبْكَانِي الشَّجَا .

وبالأصوات ينوِّمون الصِّبْيَانَ وَالْأَطْفَالَ .

أثر الصوت في الحيوان)

أثر الأصوات في الحيوان

وَالدَّوَابُّ تُصْرُّ أَذَانَهَا إِذَا غَنَّى الْمُكَارِي وَالْإِبِلُ تُصْرُّ أَذَانَهَا إِذَا حْدَا فِي آثَارِهَا الْحَادِي وَتَزْدَادُ نَشَاطًا وَتَزِيدُ فِي

مشيها ويجمع بها الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له وذلك أنهم يضربون بعضي معهم ويعططون فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار مصغية إلى تلك الأصوات حتى تدخل في الحظيرة ويضرب بالطساس للطير وتصاد بها ويضرب بالطساس للأسد وقد أقبلت فتروغها تلك الأصوات .
وقال صاحب المنطق : الأيائل تصاد بالصقير والغناء وهي لا تنام مادامت تسمع ذلك من حاذق الصوت فيشغلونها بذلك ويأثون من خلفها فإن رأوها مسترخية الآذان وثبوا عليها وإن كانت قائمة الأذنين فليس إليها سبيل .

والصقير تسمى به الدواب الماء وتنقر به الطير عن البذور .
وزعم صاحب المنطق أن الرعد الشديد إذا وافق سباحة السمك

في أعلى الماء رمّت ببضها قبل انتهاء الأجل وربما تم الأجل فتسمع الرعد الشديد فيتعطل عليها أياماً بعد الوقت . ٤

قول لأبي الوجيه العكلي

وقال أبو الوجيه العكلي : أحب السحابة الخرساء ولا أحبها فقيل له : وكيف ذلك قال : لأنها لا تحرس حتى تملي ماء وتصب صبا كثيرا ويكون غيثا طبقا وفي ذلك الحيا إلا أن الكماة لا تكون على قدر الغيث ذهب إلى أن للرعد في الكماة عملا . ٤

دعابة لجعفر بن سعيد

وقال جعفر بن سعيد : سأل كسرى عن الكماة فقيل له : لا تكون بالمطر دون الرعد ولا بالرعد دون المطر قال : فقال كسرى : رشوا بالماء واضربوا بالطبول وكان من جعفر على التمليح وقد علم جعفر أن كسرى لا يجهل هذا المقدار .

فالحيّة واحدة من جميع أجناس الحيوان الذي للصوت في طبعه عمل

فإذا دنا الحوّا وصفق بيديه وتكلم رافعا صوته حتى يزيد خرج إليه كل شيء كان في الجحر فلا يشك من لا علم له أن من لا علم له أن الحية خرجت من جهة الطاعة وخوف المعصية وأن العامر أخرجها تعظيما للعزيمة ولأن المعتزم مطاع في العمار والعامّة أسرع شيء إلى التصديق . ٤

شعر في الروح وهيكلها

وفي الروح وفي أن البدن هيكل لها يقول سليمان الأعمى وكان أخا مسلم ابن الوليد (الأنصاري وكانوا لا يشكون بأن سليمان هذا الأعمى كان من مستجيبى بشار الأعمى وأنه كان يختلف إليه وهو غلام فقبل عنه ذلك الدين وهو الذي يقول : (إن في ذا الجسم معتبرا * لطلوب العلم مقتبسة)

(هَيْكَلُ الرُّوحِ يَنْطِقُهُ ** عِرْفُهُ وَالصَّوْتُ مِنْ نَفْسِهِ) (لَا تَعْظُ إِلَّا اللَّيْبَ فَمَا ** يُعْدِلُ الضَّلْعُ عَلَى قَوْسِهِ)
(رُبَّ مَغْرُوسٍ يُعَاشُ بِهِ ** فَقَدَتْهُ كَفُّ مُعْتَرِسِهِ) (وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ مَأْتَمُهُ ** أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ)
وكانت العرب تقول : كان ذلك إذ كان كلُّ شيءٍ ينطق وكان ذلك والحجارة رطبة قال أُمَيَّةُ : (وإذ هم
لا لبوس لهم تقيهم ** وإذ صم السلام لهم رطاب) (بآية قام ينطق كل شيء ** وخان أمانة الديك
الغراب) (وأرسلت الحمامة بعد سبع ** تدل على المهالك لا قهاب) (تلمس هل ترى في الأرض عينا **
وعاينة بها الماء العباب) (فجاءت بعد مار كضت بقطفٍ ** عليها التَّأَطُّ والطين الكباب)

(فلما فرسوا الآيات صاغوا ** لها طوقاً كما عقد السخاب) (إذا ماتت تورثه بنيتها ** وإن تقتل فلي له
انسلاخ) فذكر رطوبة الحجارة وأنَّ كلَّ شيءٍ قد كان ينطق ثمَّ خيَّرَ عن منادمة الديك الغراب واشترط
الحمامة على نوح وغير ذلك ممَّا يدلُّ على ما قلنا ثم ذكر الحية وشأن إبليس وشأنها فقال : (كذي الأفعى
تربَّها لَدَيْهِ ** وذو الجنِّي أرسلها نَسَابُ) (فلا رَبُّ البرية يأمَنُها ** ولا الجنِّي أصبح يُسْتَنَابُ) فإن قلتَ
: إنَّ أُمَيَّةَ كان أعرابياً وكان بدوياً وهذا من خرافاتِ أعراب الجاهلية وزعمت أنَّ أُمَيَّةَ لم يأخذ ذلك عن
أهل الكتاب فإني سأُنشِئُكَ لعدِي بن زيدٍ وكان نصرانياً دياناً وترجُماناً وصاحبَ كتب وكان من ذُهاة أهل
ذلك الدهر .

قال عدِي بن زيدٍ يذكُرُ شأنَ آدمَ ومعصيته وكيف أغواه وكيف دخل في الحية وأنَّ الحية
كانت في صورة جَمَلٍ فمسحها الله عقوبة لها حين طawعت عدُوَّه على وليِّه فقال :

(قضى لستة أيامٍ خليقته ** وكان آخرها أن صور الرجال) (دعاه آدم صوتاً فاستجاب له ** بنفخة
الروح في الجسم الذي جبلا) (ثم أورثه الفردوس يعمرها ** وزوجه صنعة من ضلعه جعلاً) (لم ينهه
ربه عن غير واحدٍ ** من شجر طيب أن شم أو أكلا) (فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت ** كما ترى
ناقة في الخلق أو جملاً) (فعمداً للتي عن أكلها هنيئاً ** بأمر حواء لم تأخذ له الدغلا) (كلاهما خاط إذ برا
لبوسهما ** من ورق التين ثوباً لم يكن غزلاً) (فلاطها الله إذ أغوت خليقته ** طول الليالي ولم يجعل لها
أجلاً) (تمشي على بطنها في الدهر ما عمرت ** والترب تأكله حزننا وإن سهلاً)

(وأوتيا الملك والإنجيل نقرؤه ** نشفى بحكمته أحلامنا عللاً) (من غير ما حاجةٍ إلا ليجعلنا ** فوق
البرية أرباباً كما فعلاً)

عقاب حواء و آدم والحية

فرووا أنَّ كعبَ الأحبار قال : مكتوبٌ في التوراة أنَّ حَوَاءَ عِنْدَ ذَلِكَ عُوقِبَتْ بعشر خصال وأنَّ آدمَ لما
أطاع حَوَاءَ وعصى رَبَّهُ عُوقِبَ بعشر خصال وأنَّ الحيةَ التي دخل فيها إبليس عُوقِبَتْ أيضاً بعشر خصال .
وأوَّلُ خِصالِ حَوَاءَ التي عُوقِبَتْ بها وَجَعُ الافتضاض ثم الطلق ثم النَّزْعُ ثم بقناع الرَّأس وما يصيبُ الوحى

والنفساء من المكروه والقصرُ في البيوت والحيض وأنَّ الرجال هم القوامون عليهنَّ أن تكونَ عندَ الجماع هي الأسفل .

وأما خصال آدم عليه السلام : فالذي انتقص من طوله وبما جعله الله يخافُ من الهوامِّ والسَّباع ونكد العيش وبتوقع الموت ويسكنى الأرض وبالْعُرْي من ثياب الجنة وبأوجاع أهل الدنيا وبمقاساة التحفظ من إبليس وبالخاسبة بالطَّرف وبما شاع عليه من اسم العصاة وأما الحية فإنها عوقبت بقص جناحها وقطع أرجلها والمشي على بطنها وباعراء جلدها حتى يقال : أغرَى مِنْ حَيَّةٍ وبشقِّ لسانها لذلك كلما خافت من القتل أخرجت لسانها لترِيهم العقوبة وبما ألقى عليها من عداوة النَّاس وبمخافة الناس وبجعله لها أولَ ملعونٍ من اللحم)
والدَّم والذي يُنسب إليها من الكذب والظلم .

ظلم الحية وكذبها

فأما الظلم قهولهم : أظلم من حَيَّةٍ وأما الكذب فإنها تنطوي في الرَّمْل على الطَّرِيق وتُدْخِلُ بعض جسدِها في الرَّمْل فظهر كأنها طبقٌ خيزرانٍ ومنها حَيَّاتٌ بيضٌ قِصارٌ تجمعُ بين أطرافها على طُرُقِ الناس وتستديرُ كأنها طَوْقٌ أو خلخالٌ أو سوارٌ ذهبٍ أو فضةٍ ولما تلقي على نفسها من السُّبَات ولما تُظهر من الهَرَب من الناس وكلَّ ذلك إنما تغرُّهُمْ وتصطادُهُمْ بتلك الحيلة فذلك هو كذبُها .

عقاب الأرض قال : وعوقبت الأرض حين شَرِبَتْ دم ابن آدم بعشرِ خِصال : أثبتَ فيها الشوك وصيرَ فيها الفيافي وخرقَ فيها البحار وملحَ أكثرَ مائها وخلقَ فيها الهوامَّ والسَّباع وجعلها قَراراً لإبليسَ والعاصين وجعل جهنَّم فيها وجعلها لا تُرْبِي ثمرها إلا في الحرِّ وهي تعذبُ بهم إلى يوم شراب الأرض للدم ثم لم تشرب بعد دم ابن آدم دَمَ أحدٍ من ولده ولا من غير ولده قال : ولذلك قال عمر بن الخطَّاب رضي الله تعالى عنه لأبي مريم الحنفيَّ : لأنا أشدُّ لك بُغْضاً مِنَ الأرضِ للدم .
وزعم صاحبُ المنطق أنَّ الأرض لا تشرب الدَّم إلا يسيراً من دماء الإبل خاصَّة .
اختبار العسل وإذا أرادوا أن يمتحنوا جودَةَ العسل من رداءته قَطَرُوا على الأرض

منه قَطْرَةً فإذا استدارت كأنها قطعة زَبَقٍ ولم تأخذْ مِنَ الأرض ولم تُعْطِها فهو الماذي الخالصُ الذَّهَبِيُّ فإن كان فيه عُشوشةٌ نفشت القطرة على قدر ما فيها وأخذتْ من الأرض وأعطتها وإن لم يقدروا على اللحم الغريز دَفْؤُهُ وغرقوه في العسل فإنهم متى رجعوا فغسلوه عنه وجَدُّوه غَضّاً طرياً لأنَّه ذهبيُّ الطَّباع ليس بينه وبين سائر الأجرام شيء فهو لا يعطيه شيئاً ولا يأخذ منه . وكذلك الذَّهَبُ إذا كان مدفوناً .
زمن القطحل وهذه الأحاديثُ وهذه الأشعارُ تدلُّ على أنَّهم قد كانوا يقولون : إِنَّ الصُّخُورَ كانت رَطْبَةً

لَيِّنَةً وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَانَ يَعْرِفُ وَيَنْطِقُ وَإِنَّ الْأَشْجَارَ وَالنَّحْلَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا شَوْكٌ وَقَدْ قَالَ (أَوْ عُمَرَ
نُوحٍ زَمَنَ الْفُطْحِلِ ** وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطِينِ الْوَحْلِ) ٤

مرويات كعب الأحبار

وأنا أظنُّ أن كثيراً ممَّا يُحكى عن كعب أنَّه قال : مكتوبٌ في التوراة أنَّه إنَّما قال : نجدُ في الكتب وهو إنَّما
يعني كتب الأنبياء والذي يتوارثونه من كتب سليمان وما في كتبهم من مثل كتب إشعياء وغيره

والذين يروون عنه في صفة عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه وأشباه ذلك فإن كانوا صدَّقوا عليه وكان
الشيخ لا يضعُ الأخبارَ فما كان وجهُ كلامه عندنا إلا على ما قلتُ لك .

نطق الحية

وفي أنَّ الحيةَ قد كانت تسمعُ وتنطق يقول التَّابِغَةُ في المثل الذي ضَرَبَهُ وهو قوله : (أليس لنا مولىَّ يحب
سراحنا ** فيعذرنا من مرة المتناصرة) (ليهنكم أن قد نفيتم بيوتنا ** محل عبيدان اخلا باقره)

(وإني للاق من ذوي الضغن نكبةً ** بلا عشرةٍ والنفس لا بد عاثره) (كما لقيت ذات الصفا من حليفها
** وما انفكت الأمثال في الناس سائرهم) (فواتقها بالله حتى تراضيا ** فكانت تديه الجزع خفياً وظاهره)
(فلما توفي العقل إلا أقله ** وجارت به نفسٌ عن الخير جائره) (تفكر أي يجمع الله شمله ** فيصبح ذا
مالٍ ويقتل واتره) (فظل على فأسٍ يحد غرابها ** ليقتلها والنفس للقتل حاذره) (فلما وقاها الله ضربة
فأسه ** والله عينٌ لا تغمض ساهره) (فقال : تعالى نجعل الله بيننا ** على العقل حتى تنجری لي آخره)

(فقالت يمين الله أفعل إنني ** رأيتك ختاراً يمينك فاجره) (أبي لك قبرٌ لا يزال مواجهاً ** وضربة فأسٍ
فوق رأسي فاقره) فذهب التَّابِغَةُ في الحياتِ مذهبَ أمية بن أبي الصَّلْتِ وعدي بن زيدٍ وغيرهما من الشعراء

الصخور والأشجار في ماضي الزمان وأنشدني عبد الرحمن بن كيسان : (فكان رطبياً يومَ ذلك صخرها **
وكان خَضِيداً طَلْحُها وَسَيَالُها)

فرعم كما ترى أنَّ الصُّخُورَ كانت لَيِّنَةً وأنَّ الأشجارَ : الطَّلَحَ والسَّيَالَ كانت خَضِيداً لا شوكَ عليها .
وزعم بعضُ المفسرين وأصحابُ الأخبار أنَّ الشَّوكَ إنما اعتراها في صبيحة اليوم الذي زعمتِ النَّصارى فيه
أنَّ المسيح ابنُ الله .

أثر قدم إبراهيم عليه السلام وكان مقاتلاً يقولُ حَدَّثَنَا بذلك عنه أبو عقيل السَّوَّاق وكما أحد روايته
والحاملين عنه إنَّ الصُّخُورَ كانتْ لَيِّنَةً وإنَّ قدم إبراهيم عليه السلام أثرت في تلك الصخرة كتأثير أقدام

الناس في ذلك الزمان إلا أن الله تعالى توفى تلك الآثار وعفى عليها ومسحها ومحاه وترك أثر مقام إبراهيم عليه السلام والحجة إنما هي في إفراده بذلك ومحو ما سواه من آثار أقدام الناس ليس أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان وطئ على صخرة خلقاء يابسة فآثر فيها .

فضل المتكلمين والمعتزلة وأنا أقول على تثبيت ذلك بالحجة ونعوذ بالله من الهذر والتكلف وانتحال ما لا أقوم به أقول : إنه لولا مكان المتكلمين هلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم هلكت العوام من المعتزلة فيني أقول : إنه قد أُنْجِجَ لَهُمْ سُبُلًا وَفَتَقَ لَهُمْ أُمُورًا وَاخْتَصَرَ لَهُمْ أَبْوَابًا ظَهَرَتْ فِيهَا الْمُنْفَعَةُ وَشَمِلَتْهُمْ بِهَا النِّعْمَةُ .

ما يحتاج إليه الناس

وأنا أزعم أن الناس يحتاجون بدياً إلى طبيعة ثم إلى معرفة ثم إلى إنصاف وأول ما ينبغي أن يبتدئ به صاحب الإنصاف أمره ألا يعطى نفسه فوق حقها وألا يضعها دون مكانها وأن يتحفظ من شيئين فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما : أحدهما تهمة الإلـف والآخر تهمة السابـق إلى القلب والله الموفق .
حديث عن تأليف هذا الكتاب وما أكثر ما يعرض في وقت إكبابي على هذا الكتاب وإطالتي الكلام وإطالبي في القول بيت ابن هرمة حيث يقول : (إن الحديث تغر القوم خلوته * حتى يلج بهم عي وإكثار) وقولهم في المثل : كل مُجَرِّ في الخلاء يُسَرُّ .)

وأنا أعود بالله أن أُغَرَّ من نفسي عند غيبة خصمي وتصفح العلماء لكلامي فيني أعلم أن فتنـة اللسان والقلم أشد من فتنـة النساء والحرص على المال .

وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه أول ذلك العلة الشديدة والثانية قلة الأعوان والثالثة طول الكتاب والرابعة أي لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ثم كان من كتب العـرض والجوهر والطفرة والتولد والمداخلة والغرائز

والتماس لكان أسهل وأقصر أياماً وأسرع فراغاً لأني كنت لا أفرغ فيه إلى تلقط الأشعار وتتبع الأمثال واستخراج الآي من القرآن والحجج من الرواية مع تفرق هذه الأمور في الكتب . وتباعد ما بين الأشكال فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف أو من تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكر بعد أن صوّرت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي .

ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه إذ كنت لم ألتمس به إلا إفهامك مواقع الحجج لله وتصاريـف تدبيره والذي أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته كما تعرّضت لهذا المكروه فإن نظرت في هذا الكتاب فانظر فيه نظراً من يلتمس لصاحبه المخارج ولا يذهب مذهبه التعنت ومذهب من إذا رأى خيراً كتمه وإذا رأى شراً أذاعه .

وليعلم من فعل ذلك أنه قد تعرّض لباب إن أخذ بمثله وتعرّض له

في قوله وكتبه أن ليس ذلك إلا من سبيل العقوبة والأخذ منه بالظلمة فليُنظر فيه على مثال ما أدب الله به وعرف كيف يكون النظر والتفكير والاعتبار والتعليم فإن الله عز وجل يقول : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ .

الحكمة الجليلة في دقيق الأشياء فينبغي أن تكون إذا مررت بذكر الآية والأعجوبة في الفراشة والجرجسة ألا تحقر تلك الآية وتصغر تلك الأعجوبة لصغر قدرهما عندك ولقلة معرفتهما عند معرفتك لصغر أجسامهما عند جسمك ولكن كن عند الذي يظهر لك من تلك الحكم ومن ذلك التدبير كما قال الله عز وجل : وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ قَالَ : فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ وَقَدْ قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ : الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .)

حث على الإخلاص والتنبه عند النظر وأنا أعيد نفسي بالله أن أقول إلا له وأعيذك بالله أن تسمع إلا له وقد قال الله عز وجل : وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَهْتَدُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ فَاحْذَرْ مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ وَمَنْ يَنْظُرْ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ وَهُوَ لَا يَبْصُرُهَا وَمِمَّنْ يَبْصُرُهَا بَفَتْحِ الْعَيْنِ وَاسْتِمَاعِ الْآذَانِ وَلَكِنْ بِالتَّوَقُّفِ مِنَ الْقَلْبِ وَالتَّثَبُّتِ مِنَ الْعَقْلِ وَبِتَحْفِيزِهِ وَتَمَكِينِهِ مِنَ الْيَقِينِ وَالْحُجَّةِ الظَّاهِرَةِ وَلَا يَرَاهَا مِنْ يُعْرِضُ عَنْهَا .

وقد قال الله عز وجل : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالَ : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ كَانُوا صَمًّا بُكْمًا وَكَانُوا هُمْ لَا يَعْقِلُونَ لَمَا عَرَّاهُمْ بِذَلِكَ كَمَا لَمْ يُعَيِّرْ مَنْ خَلَقَهُ مَعْتَوْهَا كَيْفَ لَمْ يَعْقِلْ وَمَنْ خَلَقَهُ أَعْمَى كَيْفَ لَمْ يَبْصُرْ وَكَمَا لَمْ يَلْمِ الدَّوَابَّ وَلَمْ يَعَاقِبِ السَّبَاحَ وَلَكِنَّهُ سَمَّى الْبَصِيرَ الْمُتَعَامِي أَعْمَى وَالسَّمِيعَ الْمُتَصَامِمَ أَصَمَّ وَالْعَاقِلَ الْمُتَجَاهِلَ جَاهِلًا .

وقد قال الله عز وجل : فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

فَانْظُرْ كما أمرك الله وانظر من الجهة التي دلك منها وخذ ذلك بقوة قال تعالى : خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ .

عود إلى الحيات ثم رجع بنا القول إلى ما في الحيات من العلم والعبرة والفائدة والحكمة ولذلك قال أبو ذر الغفاري : لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يمر بنا طائرٌ إلا وعندنا من شأنه علمٌ وهذا القول صحيح عن أبي ذر ولم يخص أبو ذر خشاش الطير من بغائتها وأحرارها ولا ما يدخل في بابه الهمج وقد أريناك من تحقيق قوله طرفاً ولعلك إن جمعت نظرك إلى نظرنا أن تستتم هذا الباب فقد قال الشاعر : (خليلي ليس الرأي في رأي واحدٍ * أشيراً عليَّ اليومَ ما تَربَّانِ) وقال الأحنف : ما من الناس أحدٌ إلا وقد

تَعَلَّمْتُ مِنْهُ شَيْئاً حَتَّى مِنْ الْأَمَةِ الْوَرَهَاءِ وَالْعَبْدِ وَالْحَيَّاتِ مَخْلِفَاتُ الْجِهَاتِ جَدًّا وَهِيَ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي يَكْثُرُ
اخْتِلَافُ أَجْنَاسِهَا فِي الضَّرَرِ وَالسَّمِّ وَفِي الصَّغَرِ وَالْعِظَمِ وَفِي التَّعَرُّضِ لِلنَّاسِ

وَفِي الْهَرَبِ مِنْهُمْ فَمِنْهَا مَا لَا يُوْذِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ قَدْ آذَوْهَا مَرَّةً وَأَمَّا الْأَسْوَدُ فَإِنَّهُ يَحْقِدُ وَيُطَالِبُ
وَيَكْمُنُ فِي الْمَنَاعِ حَتَّى يُدْرِكَ بِطَائِلَتِهِ وَلَهُ زَمَانٌ)
يَقْتُلُ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ فَهَشَهُ .

وَأَمَّا الْأَفْعَى فَلَيْسَ ذَلِكَ عِنْدَهَا وَلَكِنَّهَا تَظْهَرُ فِي الصَّيْفِ مَعَ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِذَا سَكَنَ وَهَجَ الرَّمْلِ وَظَاهِرُ الْأَرْضِ
فَتَأْتِي قَارِعَةَ الطَّرِيقِ حَتَّى تَسْتَدِيرَ وَتَطْحَنَ كَأَنَّهَا رَحَى ثُمَّ تُلْصِقُ بَدَنَهَا بِالْأَرْضِ وَتُشْخِصُ رَأْسَهَا لئَلَّا يَدْرِكَهَا
السُّبَاتُ مَعْتَرِضَةً لئَلَّا يَطَّأَهَا إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ فَتَنْهَشُهُ كَأَنَّهَا تَرِيدُ إِلَّا تَنْهَشَ إِلَّا بَأَنٍ يُتَعَرَّضُ لَهَا وَهِيَ قَدْ تَعَرَّضَتْ
لَنْهَشِهِ بِاعْتِرَاضِهَا فِي الطَّرِيقِ وَتَنَاقُضُهَا عَلَيْهِ وَهِيَ مِنَ الْحَيَّاتِ الَّتِي تَرُصِدُ وَتُوصَفُ بِذَلِكَ قَالَ مَعْقِلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ
: (أَبَا مَعْقِلٍ لَا تُوطِّنْكُمْ بَغَاضَتِي ** رُؤُوسَ الْأَفَاعِي فِي مَرَاصِدِهَا الْغُرْمِ)

يُرِيدُ : الْأَفَاعِي فِي مَرَاصِدِهَا وَكُلُّ مَنْقَطَةٍ فَهِيَ عَرْمَاءٌ مِنْ شَاةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ .
وَقَالَ آخَرُ : (وَكَمْ طَوْتُ مِنْ حَنْشٍ وَرَاصِدٍ ** لِلسَّفَرِ فِي أَعْلَى الْبَيَاتِ قَاصِدٍ) وَالْأَفْعَى تَقْتُلُ فِي كُلِّ حَالٍ
وَفِي كُلِّ زَمَانٍ وَالشُّجَاعُ يُوَاتِبُ وَيَقُومُ عَلَى ذَنْبِهِ وَرَبَّمَا بَلَغَ رَأْسُهُ

ما يقتل الحية والعقرب من الحيوان

وَلَيْسَ يَقْتُلُهَا إِذَا تَطَوَّقَتْ عَلَى الطَّرِيقِ وَفِي الْمَنَاهِجِ أَوْ اعْتَرَضَتْهَا لِقَطْعِهَا عَابِرَةً إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ شَيْئاً
كَأَقَاطِيعِ الشَّيَاطِينِ إِذَا مَرَّتْ بِهَا وَكَذَلِكَ الْإِبِلُ الْكَثِيرَةُ إِذَا مَرَّتْ فَإِنَّ الْحَيَّةَ إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَ أَرْجُلِهَا كَانَ هَمُّهَا
نَفْسَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا هَمٌّ إِلَّا التَّخَلُّصَ بِنَفْسِهَا لئَلَّا تَعْجَلُهَا بِالْوُطْءِ فَإِنْ نَجَتْ مِنْ وَطْءِ أَيْدِيهَا لَمْ تَنْجُ مِنْ وَطْءِ
أَرْجُلِهَا وَإِنْ سَلِمَتْ مِنْ وَاحِدَةٍ لَمْ تَسْلَمْ مِنَ الَّتِي تَلِيهَا إِلَى آخِرِهَا .
وَقَالَ عَمْرُ بْنُ لَجَأٍ وَهُوَ يَصِفُ إِبِلَهُ : تَعَرَّضُ الْحَيَّاتُ فِي غِشَّاشِهَا

وَقَالَ ذُو الْأَهْدَامِ : تُعْجَلُهَا عَنْ فَهَشِهَا وَالتَّنْكَزِ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعَقْرَبَ تَقَعُ فِي يَدِ السَّنَوْرِ فَيَلْعَبُ بِهَا سَاعَةً مِنَ
الَّيْلِ وَهِيَ فِي ذَلِكَ مَسْتَرْخِيَةٌ مُسْتَحْذِيَّةٌ لَا تَضْرِبُهُ وَالسَّنَانِيرُ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِي لَا تَسْرِعُ السُّمُومُ فِيهِ .

مسألة الأفعى للقنص والراعي

وَرَبَّمَا بَاتَتْ الْأَفْعَى عِنْدَ رَأْسِ الرَّجُلِ وَعَلَى فَرَاشِهِ فَلَا تَنْهَشُهُ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ذَلِكَ مِنَ الْقَانِصِ وَالرَّاعِي قَالَ
الشَّاعِرُ : (تَبَيْتُ الْحَيَّةَ النَّضْنَاضُ مِنْهُ ** مَكَانَ الْحَبِّ مُسْتَمِعَ السَّرَارِ) قَالَ : الْحَبُّ : الْحَيْبُ وَالنَّضْنَاضُ مِنَ
الْحَيَّاتِ : الَّذِي يَحْرُكُ

لسانهُ وعن عيسى بن عمر قال : قلتُ لذي الرُّمّة : ما النضناض فأخرجَ لسانهُ يحرّكه .
وإنما يصف القانص وأنه يبيت بالقفر ومثله قولُ أبي النجم : (تحكي لنا القُرْناءُ في عِرْزالها ** جَرِي الرّحَى
تَجْرِي على ثغالها) العِرْزال : المكان وفي ذلك يقول أبو وَجْرة : (تبيت جارتَهُ الأفعى وسامرهُ ** ربدُ به
عاذرٌ منهنّ كالجَرَب) وقوله : رُبد يريد البعوض وعاذر : أثر .
قصة في مسالة الأفعى قال : وبات يحيى بن منقاش مع دارم الدارمي فلما أصبح يحيى

رأى بينهما أفعى مستوية فوثب يحيى ليقْتلها فقال له دارم قد اعتقْتُها وحرَّرتها ولم تَقْتُلها وهي ضجعتي من
أوّل الليل (أعودُ برَبِّي أن تُرى لي صحبتي ** يُطيفُ بنا ليلاً مُحَرَّرُ دارم) (من الخُرْس لا ينجو صحيحاً
سليمها ** وإن كان معقوداً بحلي التمام) مسالة العقارب للناس والعقاربُ في ذلك دون الحياتِ إلّا
الجرّارات فإنها ربّما باتت في لحافِ الرَّجُلِ اللَّيلةَ بأسرها وتكونُ في قميصه عامّة يومها فلا تلسعه فهي
بالأفعى أشبه .

فأمّا سائرُ العقاربِ فإنها تقصِدُ إلى الصّوت فإذا ضربتُ إنساناً فرّت كما يصنع المسيء الخائف للعقَاب .
والعقرب لا تضرب الميت ولا المغشي عليه ولا النائم إلّا أن يحرك شيئاً من جسده فإنها عند ذلك تضربه .
مسالة الخنافس للعقارب والحيات)

ويقال إنّها تأوي مع الخنافس وتسألها ولا تصادق من الحياتِ إلّا كلّ أسودَ سالخ .
عقارب نصر بن الحجاج وحَدَّثَ أبو إسحاق المكي قال : كان في دار نصر بن الحجاج السُّلمي

عقاربُ إذا لسعتُ قَتَلَتْ فدبّ ضيفٌ لهم على بعضِ أهلِ الدار فضربتَهُ عقربٌ على مذاكيره فقال نصرٌ
يعرّضُ به : (إذا غفلَ الناسُ عن دينهم ** فإن عقاربها تضرب) قال : فأدخلَ النَّسُ بها حواءً وحكوا له
شأن تلك العقارب فقال : إنّ هذه العقارب تستقي من أسودَ سالخ ونظر إلى موضع في الدار فقال :
احفروا هاهنا فحفروا عن أسودين : ذكرٍ وأنثى وللذكرِ خُصيتان ورأوا حولَ الذّكرِ عقاربَ كثيرةً فقتلوها .

قال : وقال الفضلُ بن عبّاس حين راهنه عقرب بالشعر وقيل لكل واحدٍ منهما : لست في شيءٍ حتّى تغلبَ
صاحبك فقال الفضل : (قد تجرّ العقرب في سوقنا ** لا مرحباً بالعقرب التاجر)

(كل عدوٍ يتقي مقبلاً ** وعقرب تخشى من الدابره) (كل عدوٍ كيده في استه ** فغير ذي أيدٍ ولا ضائره)
(قد ضاقت العقرب واستيقنت ** بأن لا دنيا ولا آخره) (إنّ عادت العقرب عدنا لها ** وكانت النعل
لها حاضره) من سمى بعقرب واسم أم حارثة بن بدر عقرب وآل أبي موسى يكتنون بأبي العقارب ومن
هؤلاء الذين يكتنون بالعقرب : ابن أبي العقرب الليثي الخطيب الفصيح الراوية .
وقال الصّبيّ : أنا عقربٌ أضُرُّ ولا أنفع .

الجرّارات وكان الرَّجُلُ تلسعه الجرّارة بعسكر مُكرّم أو بجند يسابور

فقتله وربما تناثر لحمه وربما تعفن وأنتن حتى لا يدنو منه أحد إلا وهو مُحَمَّرٌ أنفه مخافة إعدائه ولا سيما إن كان قد نال من اللحم وهو لا يعلم أن الوخزة التي وخرها كانت من جرارة .
وكانوا إذا شعروا بها دعوا حجاماً يحجم ذلك الموضع ويمصه قبل أن يتفشى فيه السم ويدخل تلك المداخل فكان الحجام لا يجيئهم حتى يقبض دنانير كثيرة وإنما كانوا يجودون له)
بذلك لما كان لصاحبهم في ذلك من الفرج وما على الحجام في ذلك من ضرر وذلك أن وجهه ربما اسماً واربد وربما عطلت مقادير أسنانه وتوجعت عليه فيلقى من ذلك الجهد وذلك لما كان يتصل إلى فيه من بخار الدم ومن ذلك السم المخالط لذلك الدم ثم إنهم بعد ذلك حشوا أذناب الحجام بالقطن فصار القطن لا يمنع قوة المص والجذب ولم يدعه يصل إلى فم الحجام ثم إنهم بعد مدة سنين أصابوا نبتة في بعض الشعب فإذا عاجلوا الملسوع بها حسنت حاله .
والجرارات تألف الأخطاء التي تكون بحضرة الأتاتين وتألف الحشوش والمواضع النارية وسُمها

قول ماسرجويه في العقرب وقيل ماسرجويه : قد نجد العقرب تسع رجلين فقتل أحدهما ويقتلها الآخر وربما نجت ولم تمت كما أنه ربما عُقِرَتْ ولم تفت ونجدها تضرب رجلين في ساعة واحدة فيختلفان في سوء الحال ونجدها تختلف مواضع ضررها على قدر الأغذية وعلى قدر الأزمان وعلى قدر مواضع الجسد ونجد واحداً يتعالج بالمسوس فيحملة ونجد آخر يدخل يده في مدخل حار من غير أن يكون فيه ماء فيحمده ونجد آخر يعالجه بالتخالة الحارة فيحمدها ونجد آخر يحجم ذلك الموضع فيحمده ونجد كل واحد من هؤلاء يشكو خلاف ما يوافقه ثم إننا نجد يعاود ذلك العلاج عند لسعة أخرى فلا يحمله .
قال ماسرجويه : لما اختلفت السموم في أنفسها بالجنس والقدر وفي الزمان باختلاف ما لاقاه اختلف الذي وافقه على حسب اختلافه .
وكان يقول : إن قول القاتل في العقرب : شر ما تكون حين تخرج من جحرها ليس يعنون من ليلتها إذ كان لا بد من أن يكون لها

نصيب من الشلة ولكنهم إنما يعنون : في أول ما تخرج من جحرها عند استقبال الصيف بعد طول مكثها في غير عالمنا وغداًنا وأنفاسنا ومعايشنا .
زعم العامة في العقرب والعامة تزعم أنها شر ما تكون إذا ضربت الإنسان وقد خرج من الحمام لفتح المسام وسعة الجاري وسخونة البدن ولذلك صار سمها في الصيف أشد هذا قول أبي إسحاق كأنه كان يرى أن الهواء كلما كان أحر وكان البدن أسخن كان شراً .

ونحن نجدهم يصرخون من لسعتها الليل كله وإذا طلعت الشمس سكن ما بهم فإذا بقيت)
فضلة من تلك الجراحة في الشمس فما أكثر ما يسكن وسمومها بالليل أشد إلا أن يزعم أن أجواف الناس في برد الليل أسخن وفي حر النهار أفر .
الدساس وزعم لي بعض العلماء ممن قد روى الكتب وهو في إرث منها أن الحية التي يقال لها : الدساس تلد ولا تبيض وأن أنثى النمر لم تضع غراً قط إلا ومعه أفعى .

زعم استحالة الكمأة إلى أفاع

والأعرابُ تزعم أنَّ الكمأةَ تبقى في الأرض فتُمْطَرُ مَطَرَةً صَيْفِيَّةً فيستحيل بعضها أفاعي فسمعَ هذا الحديثَ مِنِّي بعضُ الرؤساءِ الطَّائِفِينَ فرعم لي أَنَّهُ عَيْنَ كَمَاءٍ ضَخْمَةٍ فتأملها فإذا هي تتحرَّكُ فنهض إليها فقلَّعها فإذا هي أفعى هذا ما حدثته عن الأعراب حتى برئت إلى الله

معارف في الحيات عن صاحب المنطق

وزعم صاحبُ المنطق أنَّ الوَزَغَةَ والحَيَّاتِ تَأْكُلُ اللَّحْمَ والعُشْبَ وزعم أنَّ الحَيَّاتِ أَظْهَرُ كَلْبًا من جميع الحيوان مع قَلَّةِ شربِ الماءِ وأنَّ الأسدَّ مع نَهْمِهِ قَلِيلُ شربِ الماءِ قال : ولا تضبطُ الحَيَّاتِ أَنْفُسَهَا إذا شَمَّتْ رِيحَ السَّدَابِ وربما اصطيدتْ به وإذا أصابوها كذلك وجدوها وقد سَكِرَتْ .

قال : والحيات تبتلع البيض والفراخ والعشب .

سلخ الحيوان وزعم أنَّ الحياتِ تَسْلُخُ جلودَها في أوَّلِ الرَّبِيعِ عند خروجها من أعشَّتِها وفي أوَّلِ الخريفِ

وزعم أنَّ السَّلْخَ يتبدى من ناحية عيونها أوَّلًا قال : ولذلك يظنُّ بعض من يُعَانِيهَا أنها عمياء وهي تَسْلُخُ من جلودها في يومٍ وليلةٍ من الرأسِ إلى الذَّنْبِ ويصيرُ داخل الجُلْدِ هو الخارج كما يُسلخ الجنُّ من المِشِيمةِ وكذلك جميع الحيوان المحزَّز الجسد وكلُّ طائر لجناحه غِلافٌ مثل الجُعَلِ والدَّبَرِ وكذلك السَّرَطَانِ يسْلخُ أيضاً فيضعف عند ذلك من المشي .
وتسلخ جلودها مراراً .

والسَّلخ يصيب عامة الحيوان : أمَّا الطير فسلخها تحسیرها وأمَّا ذوات الخوافر فسلخها عقانقها وسلخ الإبل طرْحُ أوبارها وسلخُ الجراد انسلاخ جلودها وسلخ الأيائل إلقاء قرونها وسلخ الأشجار إسقاط ورقها .

٤

أصل الأسروع

والأسروع : دَوِيَّةٌ تَسْلُخُ فتصيرُ فَرَّاشَةً وقال الطَّرِمَاحُ شعراً : (وتجرَدُ الأسرُوعُ واطَّردَ السَّفَا ** وجرت بجاليها الحِدَابُ القَرْدُدُ) (وانساب حَيَّاتِ الكَثِيبِ وَأَقْبَلَتْ ** وَرُقُ القَرَّاشِ لما يَشُبُّ الموقِدُ) يصف الزَّمانَ .

والدَّعْمُوصُ ينسلخُ فيصيرُ إمَّا بعوضةً وإمَّا فراشةً . ٤

انسلاخ البرغوث

وزعم ثمامة عن يحيى بن برمك أن البرغوث ينسلخ فيصير بعوضة وأنة البعوضة التي من سلخ ديموص ربما انسلخت برغوثة .

والنمل تحدث لها أجنحة ويتغير خلقها وذلك هو سلخها وهلكها يحين عند طيراتها .

انسلاخ الجراد

والجراد ينسلخ على غير هذا النوع قال الراجز : مَلْعُونَةٌ تَسْلَخُ لَوْنًا لَوْنَيْنِ
أثر البلدان في ضرر الأفاعي ونحوها قال : وعَضُ السَّبَاعِ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ وَلِدَغُ الْهُوَامِ يَخْتَلِفُ بِقَدْرِ اخْتِلَافِ
الْبُلْدَانِ كَالَّذِي يَبْلُغُنَا عَنْ أَفَاعِي الرَّمْلِ وَعَنْ جَرَّارَاتِ قَرَى الْأَهْوَازِ وَعَقَارِبِ نَصِيبِينَ وَثَعَالِينَ مِصْرَ وَهِنْدِيَّاتِ
الْحَرَابَاتِ .

وفي الشَّبَّانِ وَالزَّنَائِيرِ وَالرُّتَيْلَاتِ مَا يَقْتُلُ فَأَمَّا الطَّبَّوعُ فَإِنَّهُ شَدِيدُ الْأَذَى وَلِلضَّمَجِ أَذَى لَا يَبْلُغُ ذَلِكَ .

أقوال لصاحب المنطق وقال صاحب المنطق : ويكون بالبلدة التي تسمى باليونانية : طبقون حيّة صغيرة
شديدة اللدغ إلا أن تُعالج بحجر يُخْرَجُ مِنْ بَعْضِ قُبُورِ قَدَمَاءِ الْمُلُوكِ وَلَمْ أَفْهَمْ هَذَا وَلَمْ كَانَ ذَلِكَ .
وإذا أكل بعض ذوات السموم من جسد بعضها كانت أردأ ما تكون سمّاً مثل العقارب والأفاعي .
قال : وَالْأَيْلُ إِذَا أَلْقَى قُرُونَهُ عِلِمَ أَنَّهُ قَدْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ لَا يَظْهَرُ وَكَذَلِكَ إِنْ سَمِنَ عِلِمَ أَنَّهُ يُطْلَبُ فَلَا يَظْهَرُ
وَكَذَلِكَ أَوَّلَ مَا يَنْبَغُ قُرْنُهُ يَعْضُهُ لِلشَّمْسِ لِيَصْلُبَ وَيَجْفَى وَإِنْ لَدَغْتَ الْإَيْلَ قَالَ : وإذا وضعت أنثى الأيل
ولداً أكلت مشيمتها فَيُظَنُّ أَنَّ الْمَشِيمَةَ شَيْءٌ يَتَدَاوَى بِهِ مِنْ عِلَّةِ الْنفَاسِ .
قال : وَالذُّبَّةُ إِذَا هَرَبَتْ دَفَعَتْ جِرَاءَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَإِنْ خَافَتْ عَلَى أَوْلَادِهَا غَيَّبَتْهَا وَإِذَا لَحِقَتْ صَعِدَتْ فِي
الشَّجَرِ وَحَمَلَتْ مَعَهَا جِرَاءَهَا .

قال : وَالْفَهْدُ إِذَا عَرَاهُ الدَّاءُ الَّذِي يَقَالُ لَهُ : خَانِقِ الْفُهُودِ أَكَلَ الْعَذْرَةَ فَبَرئَ مِنْهُ .
قال : وَالسَّبَاعُ تَشْتَهِي رَائِحَةَ الْفُهُودِ وَالْفَهْدُ يَتَغَيَّبُ عَنْهَا وَرَبَّمَا فَرَّ بَعْضُهَا مِنْهُ فَيُطْمَعُ فِي نَفْسِهِ فَإِذَا أَرَادَهُ
السَّبْعُ وَثَبَ عَلَيْهِ الْفَهْدُ فَأَكَلَهُ .
قال : وَالتَّمْسَاحُ يَفْتَحُ فَاهُ إِذَا غَمَّهُ مَا قَدْ تَعَلَّقَ بِأَسْنَانِهِ حَتَّى يَأْتِيَ طَائِرٌ فَيَأْكُلُ ذَلِكَ فَيَكُونُ طَعَاماً لَهُ وَرَاحَةً
لِلتَّمْسَاحِ .
قال : وَأَمَّا السُّلْحَفَةُ فَإِنَّهَا إِذَا أَكَلَتْ الْأَفْعَى أَكَلَتْ صَعْتراً جَبلياً وَقَدْ فَعَلَتْ ذَلِكَ مَرَاراً فَرَبَّمَا عَادَتْ فَأَكَلَتْ
مِنْهَا ثُمَّ أَكَلَتْ مِنَ الصَّعْتَرِ مَرَاراً كَثِيرَةً فَإِذَا أَكْثَرَتْ مِنْ ذَلِكَ هَلَكَتْ .
قال : وَأَمَّا ابْنُ عَرِسٍ فَإِنَّهُ إِذَا قَاتَلَ الْحَيَّةَ بَدَأَ بِأَكْلِ السَّدَابِ لِأَنَّ رَائِحَةَ السَّدَابِ مَخَالِفَةٌ لِلْحَيَّةِ كَمَا أَنَّ سَامَ
أَبْرَصَ لَا يَدْخُلُ بَيْتاً فِيهِ زَعْفَرَانُ . (

قال : والكلاب إذا كان في أجوافها دودٌ أكلت سُنبُل القمح .
قال : وتتقاتل الحيات المشتركة في الطعم .

وزعم أن القنَافذ لا يخفى عليها شيءٌ من جهة الرِّيح وتحوُّلها وهبوبها وأنه كان بقُسْطَنْطِينِيَّة رجلٌ يُقَدِّمُ
ويعْظُمُ لأنه كان يعرفُ هبوبَ الرِّيح ويخبرهم بذلك وإنما كان يعرف الحال فيها بما يرى من هيئة القنَافذ .
العيون الحمر العيُونُ الحمرُ لِلْعَرَضِ المَفارِقِ كعينِ الغُضبانِ وعينِ السَّكرانِ وعَيْنِ الكَلْبِ وعَيْنِ الرَّمَدِ .
العيون الذهبية والعيُونُ الذهبِيَّةُ عيُونُ أصنافِ البزاة من بين العقاب إلى الزُّرَقِ .
العيون التي تسرج بالليل والعيُونُ التي تُسْرِجُ بالليل عيُونُ الأسدِ وعيُونُ النَمورِ وعيُونُ السَّنانيرِ وعيُونُ
الأفاعي قال أبو حَيَّة : خبر وشعر في العين (غَضابٌ يُثِيرُونَ الدُّخُولَ عيُونُهُمْ ** كَجَمَرِ الغُضا ذِكْيَتُهُ فتوقداً
(

وقال آخر : (سقط : بيت الشعر) (ومدجج يسعى بشكته ** محمرة عيناه كالكلب) رجع بالكلب إلى
صفة المدجج .

وقال معاوية لصُحار العبدِيّ : يا أحمَر قال : والذهب أحمَر قال يا أزرق قال : والبلَازي أزرق وأنشدوا :
ولا عيبَ فيها غيرُ شُكْلَةٍ عَينِها ** كذاك عِتاقُ الطيرِ شُكْلٌ عيُونُها) وقال آخر : (وشُكْلَةُ عَيْنٍ لو حُيت
بِعَظْمِها ** لكنت مكانَ العَينِ مَرأى وَمَسْمَعاً)

بعض ألوان العيون ومن العيون المَغرَب والأزرق والأشْكل والأسْجَر والأشْهل والأخيف وذلك إذا اختلفا
وعين الفأرة كَحَلَاء وهي أبصرُ بالليل من الفَرَسِ والعقاب .
وفي حمرة العينين وضيائهما يقولُ مُحَمَّدُ بْنُ ذُوَيْبِ العُمَائيُّ في صفة الأسد : (أجمراً مِنْ ذِي لِبْدَةٍ هَمَّاسٍ **
غَضَنْفَرٍ مُضَبَّرٍ رَهَّاسٍ)

(مَناعُ أَخْيَاسٍ إلى أَخْيَاسٍ ** كَأَنَّمَا عَيناهُ في مِرَاسٍ) شعاعُ مِقْبَاسٍ إلى مِقْبَاسٍ وقال المَرَّار : كَأَنَّمَا وَقَدْ عَينِيهِ
النَّمرُ نحو الضَّبِّ والورل والحَيَّة والقنفذ وما أشبه ذلك .
يقال للضَّبِّ والحَيَّة والورل : فَحَّ يَفْحُ فَحِيحاً وقال رؤبة : (فَحَيَّ فلا أَفَرِّقُ أنْ تَفِجِّي ** وأنْ تُرَحِّي كَرَحِي
المَرَحِّي) (أَصْبَحَ مِنْ نَحْجَةٍ وَأَحَّ ** يحكي سُعالُ النَّسْرِ الأَبَحِّ)

قال : الفحيح : صوتُ الحَيَّة مِنْ فيها والكشيش والنشيش : صوتُ جلدِها إذا حَكَت بعضَه ببعض قال
الرَّاجز في صفة الشَّخَبِ والحَلَب : (حَلَبْتُ لِلأَثَرِشِ وهو مُغَضِّ ** حمراءُ منها شَخْبَةٌ بالمخض) (ليستُ
بذات وَبَرٍ مِيضٌ ** كَأَنَّ صَوْتَ شَخْبِها المَرْفُضُ) كشيشُ أفعى أَجمعت لَعَضَ ويقال للضَّبِّ والورل :
كش يكش كشيشاً وأنشد أبو الجراح : (تَرى الضَّبَّ إن لم يرهَب الضَّبُّ غَيرَه ** يكشُ له مستكراً
ويطاولُه) (ضرب المثل للرجُلِ الداهية وللحيِّ الممتنع بالحَيَّة) قال ذو الإصبع العَدواني :

(بَغَى بَعْضُهُمْ ظُلْمًا ** فلم يُرْعَ على بَعْضٍ) (وفيهم كَانَتْ السَّادَاتُ ** تُوْفُونَ بِالْقَرْضِ) يقال : فلان حَيَّةُ الوادي وما هو إِلَّا صِلُّ أَصْلَالٍ وَصَلُّ : الدَاهِيَةُ وَالْحَيَّةُ قَالَ التَّابِيُّ : (مَاذَا رَزُّنَا بِهِ مِنْ حَيَّةٍ ذَكَرَ ** نَضْنَا ضَةً بِالرَّزَايَا صِلُّ أَصْلَالٍ) وقال آخَرُ : (صِلُّ صَفًا تَنْطَفُ أَنْيَابُهُ ** سِمَامَ ذِيْفَانٍ مَجِيرَاتٍ) وقال آخَرُ : (مُطَرِّقٌ يَرْشَحُ سَمًا كَمَا ** أَطَرَّقَ أَفْعَى يَنْفُثُ السَّمَّ صِلُّ) ومن أمثالهم : صَمِي صَمَامٍ وَصَمِي ابْنَةُ الْجَبَلِ وَهِيَ الْحَيَّةُ .

قال الكميّ : (إِذَا لَقِيَ السَّفِيرَ هَا وَنَادَى ** بِهَا : صَمِي ابْنَةُ الْجَبَلِ السَّفِيرُ)

قولهم جاء بأم الربيق على أريق

ومن أمثالهم : جاء بأمّ الرُّبَيْقِ على أَرَيْقٍ أمّ الرُّبَيْقِ : إحدى الحيات وأَرَيْقٍ : أمّ الطَّبَقِ ضربوا به (إِذَا وَجَدْتَ بَوَادٍ حَيَّةً ذَكَرًا ** فَادْهَبْ وَدَعْنِي أُمَارِسُ حَيَّةَ الْوَادِي)

قولهم أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة

وفي المثل : أدرك القُويِّمة لا تأكلها الهُويِّمة يعني الصبي الذي يدرج ويتناول كلَّ شيءٍ سَحَ له ويَهْوِي به إلى فيه كأنه قال لأُمَّة : أدركيه لا تأكله الهامّة وهي الحَيَّة وهو قوله في العويد : ومن كلِّ شيطانٍ وهامّةٍ ونفَسٍ وعينٍ لأمّة .

شعر للأخطل في ذكر الحية

وقال الأخطل في جعلهم الرّجل الشُّجاعَ وَذَا الرَّأْيِ الدَّاهِيَةَ حيةً وكذلك يجعلون إذا أرادوا تعظيمَ شأنها وإذا أرادوا ذلك فما أكثر ما يجعلون الحَيَّةَ ذَكَرًا قَالَ الأخطل : (أَبْنَيْتُ كَلْبًا تَمْنَى أَنْ يَسَافِهُنَا ** وَطَالَمَا سَافَهُنَا ثُمَّ مَا ظَفَرُوا)

(كَلَفْتُمُونَا رَجُلًا قَاطِعِي قَرْنٍ ** مُسْتَحْلِقِينَ كَمَا يَسْتَلْحِقُ الْيَسْرُ) (لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ إِذَا عَدَتْ خِصَالُهُمْ ** خَصْلٌ وَلَيْسَ لَهُمْ إِجْبَابٌ مَا قَمَرُوا) (قَدْ أَنْذَرُوا حَيَّةً فِي رَأْسِ هَضْبَتِهِ ** وَقَدْ أَتَتْهُمْ بِهِ الْأَنْبَاءُ وَالنَّذْرُ) (بَاتُوا رَقُودًا عَلَى الْأَمْهَادِ لَيْلَهُمْ ** وَلَيْلَهُمْ سَاهَرٌ فِيهَا وَمَا شَعَرُوا) (حَيَّةُ الْمَاءِ) وَمَا أَكْثَرَ مَا يَذْكُرُونَ حَيَّةَ الْمَاءِ لِأَنَّ حَيَّاتِ الْمَاءِ فِيهَا تَفَاوُتُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ لَا تَضُرُّ كَبِيرَ ضَرَرٍ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَقْتَلَ مِنَ الْحَيَّاتِ وَالْأَفَاعِي .

الهنديّات ويقال إنّ الهنديّات إنّما تصير في البيوت والدُّور والإصطبلات والخرابات لأنّها تُحْمَلُ فِي الْقُضْبِ وفي أشباه ذلك .

علة وجود الحيات في بعض البيوت

والحياتُ تأكل الجرادَ أَكْلاً شديداً فربّما فَتَحَ رأسُ كُرْزِهِ وجرا به وجوالقه الذي يأتي الجراد وقد ضَرَبَهُ برْدُ السَّحَرِ وقد تراكم بعضُهُ على بعضٍ لأنّها موصوفةٌ بالصَّرَدِ .

والحياتُ توصفُ بالصَّرَدِ كذلك الحمير والماعزُ من الغنم ولذلك قال الشاعرُ :

(بليت كما يلى الوكأ ولا أرى ** جناباً ولا أكنافَ ذروة تخلُقُ) (أُلَوِي حَيَازِيمِي بَهْنِ صَبَابَةً ** كما تَتَلَوِي الحَيَّةَ المَشْرِقُ) وإنما تَشْرِقُ إذا أدركها برْدُ السَّحَرِ ولم تصر بعدُ إلى صلاحها وإذا خرجت بالليل تكتسب الطعم كما يفعل ذلك سائر السَّباعِ فربما اجترَفَ صَاحِبُ الكُرْزِ الجرادَ فأدخله كُرْزَهُ وفيه الأفعى وأسودُ سَاحٍ حتى يُنْقَلَ ذلك إلى الدُّورِ فربّما لَقِيَ النَّاسُ منها جهداً .

وقال بشر بن المعتمر في شعره المزاج : (يا عجباً والدَّهْرُ ذو عجائب ** مِنْ شَاهِدٍ وَقَلْبُهُ كَالْغَائِبِ) (وحاطبٌ يَحْطُبُ في مجادِهِ ** في ظلمة الليلِ وفي سَوَادِهِ) (يَحْطُبُ في مجاده الأيِّمَ الذَّكَرَ ** والأَسْوَدَ السَّاحِ مَكْرُوهَ النَّظَرِ) شعر في حية الماء فممن ذكر حَيَّةَ الماء عبد الله بن هَمَّام السُّلُويُّ فقال : (كَحَيَّةِ الماء لا تنحاشُ مِنْ أَحَدٍ ** صُلْبُ المراسِ إذا ما حُلَّتْ النُّطْقُ)

وقال الشَّماخُ بِنُ ضِرار : (خُوصُ العيونِ تَبَارَى في أَرْزَمَتِهَا ** إذا تَفَصَّدَنَ مِنْ حَرِّ الصَّيَاخِيدِ) (وكلَّهن تُبَارِي ثَنِي مَطَرِدٍ ** كَحَيَّةِ الماءِ وَلَيَّ غَيْرَ مَطْرُودِ)
وقال الأَحْطَلُ : (ضفادعُ في ظُلُماءِ ليلٍ تَجَاوَبَتْ ** فدل عليها صَوْتُهَا حَيَّةَ البَحْرِ) (سقط : كل أبيات الشعر التي في الصفحة) وقال أيضاً : (هلم ابن صفار فإن قتالنا ** جهارا وما منا ملاوذة العذر) (فإنك في قيس لتال مذبذب ** وغيرك منهم ذو الثناء وذو الفخر) (ونحن منعنا ماء دجلة منكم ** ونمنع ما بين العراق إلى البشر) (ألا يا ابن الصفار فلا ترم العلى ** ولا تذكرن حيات قومك في الشعر) (فما تركت حياتنا لك حية ** تحرك في أرض براح ولا بحر) وقال نفيع يعيره بالكحيل :

(سقط : كل أبيات الشعر التي في الصفحة) (إِنْ تَكِ قَتْلَاكُمْ بِدَجْلَةٍ غَرَقَتْ ** فما أَشْبِهَتْ قَتْلِي حنين ولا بدر) (ثوروا إذا لقونا بالكحيل كما ثوى ** شاماً إلى يوم القيامة والحشر) (بدجلة حالت حرينا دون قومن ** وأوطاننا ما بين دجلة فالخضر) (ولو كنتم حيات بحر لكنتم ** غداة الكحيل إذ تقومون في الغمر) (ما يشبهه بالأيم فالأيم الحَيَّةُ الذَّكَرُ يشبهون به الزَّمام وربّما شَبَّهُوا الجاريةَ المجدولةَ الخميصةَ الخواصرِ في مشيها بالأيم لأنَّ الحَيَّةَ الذَّكَرَ ليس له عَقبٌ وموضعٌ بطنه مجدولٌ غيرُ متراخٍ وقال ابنُ ميادة :

(قعدت على السَّعْلاةِ تنفض مسحاً ** وتجذبُ مِثْلَ الأيِّمِ في بلدٍ قَفَرٍ) (تيمِّمُ خَيْرَ النَّاسِ مِنْ آلِ حاضِرٍ ** وتحملُ حاجاتِ تَضَمَّنَها صَدْرِي) شعر في حمرة عين الأفعى وقال الآخر في حمرة عين الأفعى : (لولا الهراوة والكِفَاتُ أوردني ** حَوْضَ المنيَّةِ قَتْلُ لِمَنْ عَلَقَا) (أصمُّ منهرتُ الشَّدَقَيْنِ ملتبدةٌ ** لم يُغْدَ إِلَّا المنايا

مِنْ لَدُنْ خُلِقَا) (كَأَنَّ عَيْنَيْهِ مِسْمَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ ** جَلاهُمَا مِدْوسُ التَّلَاقِ فَانْتَلَقَا) شعر في حمرة عيون الناس وقال في حمرة عيون الناس في الحرب وفي الغضب ابن ميادة :

(وعند الفزاري العراقي عارض ** كَأَنَّ عِيُونَ الْقَوْمِ فِي نَبْضَةِ الْجَمْرِ) وفي حمرة العين من جهة الخلقة يقول أبو فرْدُودة في ابن عمار حين قتله الثُّعْمان : (إِنَّ الْمَلُوكَ مَتَى تَنْزِلُ بِسَاحَتِهِمْ ** تَطِرُ بِنَارِكَ مِنْ نِيرَانِهِمْ شَرَرَةً) (يا جَفَنَةً كِإِذَا الْحَوْضُ قَدْ هُدِمَتْ ** وَمَنْطِقًا مِثْلَ وَشْيِ الْيَمَنَةِ الْحَبَرَةِ)

معرفة في الحية

وأكثر ما يذكرون من الحيات بأسمائها دون صفاتها : الأفعى والأسود والشجاع والأرقم قال عمر بن لُجَأ : يلزق بالصَّخْرِ لُزُوقَ الْأَرْقَمِ وقال آخر : (وَرَفَعَ أَوَّلَى الْقَوْمِ وَقَعَ خِرَادِلٍ ** وَوَقَعَ نَبَالَ مِثْلَ وَقَعِ الْأَسَاوِدِ)

ذكر الأفاعي في بعض كتب الأنبياء

وفي بعض كتب الأنبياء أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : يَا أَوْلَادَ الْأَفَاعِي . مثل وشعر في الحية ويقال : رَمَاهُ اللَّهُ بِأَفْعَى حَارِيَةٍ وَهِيَ الَّتِي تَحْرِي وَكَلِمَا كَبُرَتْ فِي السِّنِّ صَغُرَتْ فِي الْجِسْمِ وأنشد الأصمعيُّ في شِدَّةِ اسوداد أسودٍ سَالِحٍ : وقال جريرٌ في صفة عُروُقِ بَطْنِ الشَّبْعَانِ : (وَأَعُورٌ مِنْ نَبْهَانٍ أَمَّا فَهَارُهُ ** فَأَعْمَى وَأَمَّا لَيْلُهُ فَصَبِيرٌ)

(رَفَعْتُ لَهُ مَشْبُوبَةً يَلْتَوِي بِهَا ** يَكَاذُ سَنَاها فِي السَّمَاءِ يَطِيرُ) (فَلَمَّا اسْتَوَى جَنْبَاهُ لَاعَبَ ظِلَّهُ ** عَرِيضُ أَفَاعِي الْحَالِيْنَ ضَرِيرٌ) قال : ويقال : أَبْصَرُ مِنْ حَيَّةٍ كَمَا يَقَالُ : أَسْمَعُ مِنْ فَرَسٍ وَأَسْمَعُ مِنْ عُقَابٍ وَقَالَ الرَّاجِزُ : أَسْمَعُ مِنْ فَرُخِ الْعُقَابِ الْأَشْجَعِ وَقَالَ آخَرُ : (أَسْوَدُ شَرَّى لَأَقْتَ أَسْوَدَ خَفِيَّةٍ ** تَسَاقَوْا عَلَى حَرْدٍ دِمَاءَ الْأَسَاوِدِ)

ضَرَبَ الْمَثَلَ بِجَنْسَيْنِ مِنَ الْأَسْوَدِ إِذْ كَانَا عِنْدَهُ الْغَايَةَ فِي الشَّلَّةِ وَالْهَوْلِ فَلَمْ يَقْنَعْ بِذَلِكَ حَتَّى رَدَّ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى سَمُومِ الْحَيَّاتِ .

ما يشبه بالأسود وفي هَوَلٍ مَنْظَرُ الْأَسْوَدِ يَقُولُ الشَّاعِرُ : (مِنْ دُونِ سَيْبِكَ لَوْ لَيْلٌ مُظْلِمٌ ** وَخَفِيفٌ نَافِجَةٌ وَكَلْبٌ مُوسِدٌ) (وَالضَّيْفُ عِنْدَكَ مِثْلُ أَسْوَدٍ سَالِحٍ ** لَا بَلَّ أَحْبَهُمَا إِلَيْكَ الْأَسْوَدُ) (أَلَا لَا تَغُرَّنَّ أَمْرًا نَوْفَلِيَّةً ** عَلَى الرَّأْسِ مِنْهَا وَالتَّرَائِبُ وَضَحٌ) (وَلَا فَاحِمٌ يُسْقَى الدَّهَانَ كَأَنَّهُ ** أَسَاوِدُ يَزْهَاهَا لَعَيْنُكَ أَبْطَحُ)

استطرد لغوي قال : والخرشاء : القشرة الغليظة بعد أن تنقب فيخرج ما فيها وجماعه الخراشي غير مهموز قال : وخرشاء الحية : سلخها حين تسليخ وقال : هذا أسود سالح وهذان أسودان سالحان .

وأساود سالحة وقال مرقش : (إِنْ يَعْضِبُوا يَغْضِبُ لِنَاكُمُ كَمَا ** يَنْسِلُ عَنْ خِرْشَائِهِ الْأَرْقَمُ) تعليق الحلبي

والخلايل على السليم وكانوا يرون أن تعليق الحلي وخشخشة الخلايل على السليم مما لا يفيد ولا يبرأ إلا به وقال زيد الخيل : (أيم يكون النعل منه ضجعة ** كما غلقت فوق السليم الخلايل) وخبرني خالد بن عقبة من بني سلمة بن الأكوع وهو من بني المسيع أن رجلاً من حرّ من بني عذرة يسمّى أسباط قال في تعليقهم الحلي على السليم :

(أرفتُ فلم تطعم لي العين مهجعاً ** وبتُ كما بات السليم مقرّعا) وقال الذبياني : (فبتُ كأني ساورتني ضيلة ** من الرقش في أنيابها السم نافع) (يسهّد من ليل التمام سليمها ** حلّي النساء في يديه قعاقع) استطرد فيه لغة وشعر قال : ويقال لسان طلق ذلق يقال للسليم إذا لدغ : قد طلق وذلك حين ترجع إليه نفسه وهو قول النابغة : (تناذرها الرافون من سوء سمها ** تطلقه طورا وطورا تراجع) وقال العبدى إن كان قاله :

(تبيتُ الهوم الطارقات يعدّني ** كما تعترى الأهوال رأس المطلق) وأنشد : (تلاقى من تذكر آل ليلي ** كما يلقي السليم من العداد)

والعداد : الوقت يقال : إن تلك اللسعة لتعاده : إذا عاده الوجع في الوقت الذي لسع فيه .
حديث الحمل المصلي وذكر النبي صلى الله عليه وسلم السم الذي كان في الحمل المصلي الذي كانت اليهودية قدمته

جلد الحية

وفي الحية قشرها وهو أحسن من كل ورقة وثوب وجناح وطائر وأعجب من ستر العنكبوت وغرقى البيض .

ما يشبه بلسان الحية

ويقال في مثل إذا مدحوا الحفّ اللطيف والقدم اللطيفة قالوا : كآته لسان حية .

نفع الحية

وبالحية يتداوى من سم الحية وللدغ الأفاعي يؤخذ الترياق الذي لا يوجد إلا بمتون الأفاعي قال كثير : (وما زالت رفاك تسأل ضغني ** وتخرج من مكامنها ضبابي) (وترقيني لك الحاؤون حتى ** أجابك حية تحت الحجاب)

قصة امرأة لدغتها حية جوير بن إسماعيل عن عمه قال : حججتُ فإنا لفي وقعة مع قوم نزلوا منزلنا ومعنا امرأة فنامت فانتبهت وحية منطوية عليها قد جمعت رأسها مع ذنبها بين ثدييها فهاها ذلك وأزعجتنا فلم نزل

مُنطويةٌ عليها لا تضرُّها بشيء حتَّى دخلنا أنصاب الحرم فانسابت فدخلتُ مكةَ فقضينا نسكنا وانصرفنا حتَّى إذ كنّا بالمكان الذي انطوت عليها فيه الحَيَّة وهو المنزل الذي نزلناه نزلتُ فنامت واستيقظت فإذا الحَيَّة مُنطويةٌ عليها ثمَّ صَفَرَت الحَيَّةُ فإذا الوادي يسيلُ حَيَّاتٍ عليها فنهشتها حتَّى نَقَت عظامها فقلت لجارية كانت لها : وَيَحَلِكُ : أخبرينا عن هذه المرأة قالت : بَعَثْتُ ثلاثَ مرَّاتٍ كلَّ مرَّةٍ تأتي بولدٍ فإذا وضعته سَجَرَت التَّور ثمَّ أَلْقَتْه فيه .

قول امرأة في عليٍّ والزَّبير وطلحة قال ونظرت امرأةً إلى عليٍّ والزَّبير وطلحة رضي الله تعالى عنهم وقد اختلفت أعناقُ دوابِّهم حين القوا فقالت : من هذا الذي كأنه أرقمُ يتلمَّظ قيل لها : الزَّبير قالت : فمن هذا (هذا) الذي كأنه كُسرٍ ثمَّ جُبِرَ قيل لها : عليٌّ قالت : فمن هذا الذي كأن وجهه دينارٌ هِرْقَلِيَّ قيل لها : طلحة . ٤

استطراد لغوي

وقال أبو زيد : نَهَشْتُ أَنَهَشُ نَهْشاً وَالتَّهَشُ : هو تناولك الشَّيءَ بفيك فتمضغُه فتؤثِّر فيه ولا تجرحه وكذلك نَهَشَ الحَيَّةُ وَأَمَّا نَهَشَ السَّبعُ فتناوله من الدَّابَّةِ بفيه ثمَّ يقطع ما أخذَ منه فوه ويقال نَهَشَت اللحمَ أَهْمَشُهُ نَهْشاً وهو انتزاع اللحم بالثنايا للأكل ويقال نَشَطَتِ العَقْدُ نَشْطاً : إذا عقدته بأنشطة ونَشَطَتِ الإبلُ نَشِيطاً نَشِيطاً : إذا ذهبَتْ على هدى أو غير هدى نزعاً أو غير نزع ونَشَطَتِ الحَيَّةُ فهي

تنشطه نَشِيطاً وهو أن تَعْصَهُ عَصاً ونَكَرَتِ الحَيَّةُ تَنْكَرُهُ نَكَراً وهو طعنُها الإنسانَ بأنفها فالتَكَرَّ من كلِّ دَابَّةٍ سوى الحَيَّةِ العَصَّ ويقال : نَشَطَتُهُ شُعُوبٌ نَشِيطاً وهي المنيَّة . قال : وتقول العرب نشطته الشعوب فدخل عليها التعريف .

علة تسمية النهيش بالسليم ويسمون النهيش سليماً على الطيرة قال ابنُ ميادة : (كَأَنِّي بِهَا لَمَّا عَرَفْتُ رُسُومَهَا ** قَتِيلٌ لَدَى أَيْدِي الرُّقَاةِ سَلِيمٌ) شعر في الحية ومما يضربون به المثلَ بالحَيَّاتِ في دواهي الأمر كقول الأَقْبِيلِ القيني : (لَقَدْ عَلِمْتُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَنْفَعُهُ ** أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى الْحَجَّاجِ تَغْرِيرُ)

(لَنْ ذَهَبْتُ إِلَى الْحَجَّاجِ يَقْتُلْنِي ** إِنِّي لِأَحْمَقُ مَنْ تُحْدِي بِهِ الْعَيْرُ) استطراد لغوي وقال الأصمعي : يقال للحَيَّةِ الذَّكَرُ أَيْمٌ وأيمٌ مثقلٌ ومخففٌ نحو لَيْنٍ وَلِينٍ وَهَيْنٍ وَهَيْنٌ قال الشاعر : (هَيْنُونَ كَيْنُونَ أَيْسَارٌ ذَوُو يَسَرٍ ** سَوَاسُ مَكْرَمَةٍ أَبْنَاءُ أَيْسَارٍ) وأنشد في تخفيف الأيم وتشديده : (وَلَقَدْ وَرَدَتْ الْمَاءُ لَمْ تَشْرَبْ بِهِ ** زَمَنَ الرَّبِيعِ إِلَى شَهْرِ الصَّيْفِ) (إِلَّا عَوَاسِرُ كَالْمِرَاطِ مُعِيدَةٌ ** بِاللَّيْلِ مَوْرِدُ أَيْمٍ مَتَغَصِّفٌ)

الصَّيْفُ يعني مَطَرَ الصَّيْفِ والعواسر : يعني ذناباً رافعة أذناها .

والمرط : السهام التي قد تَرطَ ريشها ومُعيدة : يعني معاودة للورْد يقول هو مكانٌ لخلائه يكون فيه الحَيَّاتُ وتَرْدُه الذَّنابُ ومتعصِّفٌ يريد بعضُه على بعض يريد تنني الحَيَّة .

وأُشد لابن هند : (أودى بأمِّ سُلَيْمَى لاطئٌ لَبْدٌ * كحِيَّةٍ مُنْطَوٍ من بين أحجارٍ) وقال محمد بن سَعِيد : (قريحة لم تُدْنِها السَّيَّاط ولم * تُورَدَ عِرَاكاً ولم تعصر على كَدَرٍ) (الليث لليث منسوبٌ أَظْفِرُهُ * والحَيَّةُ الصَّلُّ نَجْلُ الحَيَّةِ الذَّكَرِ)

وقال ذو الرِّمَّة : (وأحوى كَأَيْمِ الصَّالِ أَطْرَقَ بَعْدَمَا * حَبَا تحتَ فِينَانٍ من الظِّلِّ وارِفِ) قال : ويقال انبَسَّت الحَيَّاتُ : إذا تفرَّقَتْ وكثُرَتْ وذلك عند إقبال الصَّيْفِ قال أبو التَّجَم : وانبسَ حَيَّاتُ الكَثِيبِ الأَهْيَلِ وقال الطَّرْمَاح : (وتَجَرَّدَ الأسرُوعُ وَأَطْرَدَ السَّفَا * وَجَرَتْ بِجَالِيهَا الحِدَابُ القَرْدُدُ) وانسابَ حَيَّاتُ الكَثِيبِ وأقبلتْ وَرُقُ الفَرَّاشِ لما يَشْبُ المَوْقِدُ .

قال : ويقال جباً عليه الأسود من حجره : إذا فاجأه وهو يجبأ جباً وجَبَوًّا .
وقال رجلٌ من بني شيبان : (وَمَا أَنَا مِنْ رَبِّبِ المَنُونِ بِجَبَأٍ * وَمَا أَنَا مِنْ سَبِّبِ الإِلَهِ بِيَائِسِ) ما يشرع في اللَّيْنِ قال : ويقال : اللَّيْنُ مُحْتَضَرٌ فَعَطَّ إِنْاءَكَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الجَنَّ تَشَرَّعَ فيه على تصديق الحديث في قول المفقود لعمر حين سألَه وقد استَهَوَّتْهُ الجَانُّ : ما كان طعامهم قال الرِّمَّة يريد العظم البالي وتقول الأعراب : ليس ذلك إلَّا في اللَّيْنِ وأما النَّلسُ فيذهبون إلى أَنَّ الحَيَّاتِ تشرع في اللَّيْنِ وكذلك سَأَمُ أبرص كذلك الحَيَّاتِ تشرع في المرق .
حديث في المعصفر وجاء في الحديث : لا تَبَيُّتُوا في المعصفر فإنها مُحْتَضَرَةٌ أي يحضرها الجنُّ والعُمَارُ .

وقال الشاعر فيما يمجِّنون به من ذكر الأفعى : (رَمَاكَ اللَّهُ مِنْ أَيْرٍ بِأَفْعَى * ولا عَافَاكَ من جَهْدِ البَلَاءِ) (أجنِباً في الكريهة حين تَلْقَى * وَنَعْظاً ما تَفْتَرُّ في الحَلَاءِ) (فلولاً اللَّهُ ما أَمْسَى رَفِيقِي * ولولاً البولُ عُوْجِلَ بالخِصَاءِ) وقال أبو التَّجَم : (نَظَرْتُ فَأَعْجَبَهَا الذي في دِرْعِهَا * من حُسْنِهَا ونَظَرْتُ في سِرْبَالِهَا) (فرأت لها كفلاً ينوء بحَصْرِهَا * وعثا روادفُهُ وأخْتَمَ ناتِيا)

(ورأيتُ منتشرَ العِجَانِ مُقْبِضًا * رَخِوًّا هائلُهُ وجِلْدًا بالِيا) (أَدْنِي لَهُ الرِّكَبَ الحَلِيقَ كَأَنَّمَا * أَدْنِي إِلَيْهِ عَقَارِبًا وَأَفَاعِيا) وقال آخر : (تَسِيبُ انْسِيَابَ الأَيْمِ أَخْصَرَهُ التَّدْيُ * يَرْفَعُ من أطرافه ما تَرَفَّعا) شعر في العُقْرَبان وقال إِيَّاسُ بن الأَرْت : (كَأَنَّ مَرَعَى أَمَكُمُ سَوَاءٌ * عَقْرَبَةٌ يَكُومُهَا عُقْرُبَانُ)

(إِكْلِيلُهَا زَوْلٌ وفي شَوْهَا * وَخَزْ حَدِيدُهُ مِثْلُ وَخْرِ السَّنَانِ) (كُلُّ امرئٍ قَدْ يَتَفَقَى مُقْبِلًا * وَأَمَكُمُ قَدْ تُتَفَقَى بِالْعِجَانِ) وقال آخرٌ لِمُضَيْفِهِ : (تَبَيْتُ تُدْهِدُهُ القِدَانُ حَوْلِي * كَأَنَّكَ عِنْدَ رَأْسِي عُقْرُبَانُ) (فلو أطعمتني حَمَلًا سَمِينًا * شَكَرْتُكَ وَالطَّعَامُ لَهُ مَكَانُ)

شعر في الحيات الأفاعي

وقال النابغة : (فلو يستطيعون دبّت لنا ** مذاكي الأفاعي وأطفالها) وقال رجلٌ من قريش : (ذو مِرّة تفرّق الحيات صولته ** عفّ السمائل قد شدّت له المرّ) (لم يأتهم خبرٌ عنه يلبّن له ** حتى أتاهم به عن نفسه الخبر) وقال بشار : (تزلّ القوافي عن لِساني كأنّها ** حُماتُ الأفاعي ريقهنّ قِضاء) وقال : (فكم من أخٍ قد كان يأملُ نفعكم ** شجاعٍ له نابٌ حديدٌ ومخلَبُ) (أخ لو شكرتُم فعله لو عضضتُم ** رؤوس الأفاعي عض لا يتهب)

وقال الحارث دعي الوليد في ذكر الأسود بالسّم من بين الحيات : (فإن أنت أقررتِ العداة بنسبي ** عرفتُ وإلا كنتُ فقعا بقردد) (ويشمت أعداءٌ ويجذلُ كاشحٌ ** عمّرتُ لهم سُمّا على رأس أسود) وقال آخر : (ومعشرٍ مُتّفعٍ لي في صُدورهم ** سمُّ الأسود يغلي في المواعيد) (وسمتهم بالقوافي فوق أعينهم ** وسَم المعيديّ أعناق المقاحيد) وقال أبو الأسود : (سقط بيت الشعر) (ليتك آذنتي بواحدة ** جعلتها منك آخر الأبد)

(تحلفُ ألا تبرّني أبداً ** فإن فيها برداً على كبدِي) (إن كان رزقي إليك فارم به ** في ناظري حيّة على رصدي) وقال أبو السّفّاح يرثي أخاه يحيى بن عميرة ويسمّيه بالشجاع : (يعدّو فلا تكذبُ شدائهُ ** كما عدا اللّيث بوادي السّباع) (يجمعُ عزماً وأناةً معاً ** ثمتَ ينباعُ أنبياعُ الشجاع) وقال المتلمّس : (فاطرّق إطراقَ الشجاع ولو يرى ** مساعاً لتأبّيه الشّجاع لصمّما) وقال معمر بن لقيط أو ابن ذي القروح : (شمسٌ يظلّ القوم معتصماً به ** وإن كان ذا حرمٍ من القوم عادياً)

(أيت كما بات الشجاع إلى الذّرى ** وأعدّو على همّي وإن بت طاوياً) (وإني أهضُ الصّيم منّي بصارمٍ ** رهيفٍ وشيخٍ ماجدٍ قد بنى ليا) وهكذا صفة الأفعى لأنها أبداً نابتةٌ مستوية فإن أنكرت شيئاً فنشطتها كالبرق الخاطف ووصف آخر أفعى فقال : (وقد أرايني بطويّ الحسّ ** وذات قرنين طحون الضّرْس) (لما التقينا بمضيق شكس ** حتى قصتُ قرنّها بخمس) وهم يتهاجون بأكل الأفاعي والحيات قال الشاعر : (فإياكم والرّيف لا تقرّبته ** فإن لديه الموت والحتم قاضيا) (هم طردوكم عن بلاد أبيكم ** وأنتم حلولٌ تشتون الأفاعيا) وقال عمر بن أبي ربيعة : (ولما فقدتُ الصّوت منهم وأطفنت ** مصابيحُ شبت بالعشاء وأنور)

(وغاب قُمرٌ كت أرجو مغيبه ** وروح رُعيانٍ وهوم سمر) (ونفضت عني اللّيل أقبلتُ مشيّة ال ** حبابٍ ورُكني خيفة القوم أزور) (ضرب المثل بسم الأسود) وضربَ كلثوم بن عمرو والمثل بسم الأسود فقال : (تلوم على ترك الغنى باهليّة ** طوى الدهرُ عنها كل طرّف وتالد) (رأت حولها النّسوان

يرفُلْنَ فِي الْكُساَ ** مَقْلَدَةً أَجْيَادُهَا بِالْقَلَانِدِ (يَسْرُكُ أَنِّي نَلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرُ ** مِنْ الْمَلِكِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ)

(سقط : بيت الشعر) (وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْضَنِي ** مَعْضُهُمَا بِالْمَرْهَفَاتِ الْبَوَارِدِ) (ذَرِينِي تَجَنِّي مَيْتِي مُطْمَئِنَّةً ** وَلَمْ أَتَقَحَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْمَوَارِدِ) (فَإِنْ كَرِيَمَاتِ الْمَعَالِي مَشُوبَةٌ ** بِمَسْتَوْدَعَاتٍ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ)

حيات الجبل

وفي التشيع لحيات الجبل يقول اللَّعِينُ الْمُتَقَرِّبِيُّ لِرُؤْبَةِ بْنِ الْعَجَّاجِ :

(إِنِّي أَنَا ابْنُ جَلَا إِنْ كُنْتَ تَعْرِفْنِي ** يَا رُؤْبَ وَالحَيَّةَ الصَّمَاءَ فِي الْجَبَلِ) (أَبَا الْأَرَاغِينِ يَا ابْنَ اللَّؤْمِ تُوعِدُنِي ** وَفِي الْأَرَاغِينِ جَلْبُ اللَّؤْمِ وَالْكَسَلِ)

خبران في الحيات

الأصمعيُّ قال : حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي طَرَفَةَ قَالَ : مَرَّ قَوْمٌ حُجَّاجٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ مَعَ الْمَسَاءِ بِرَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو خِرَاشٍ فَسَأَلُوهُ الْقِرَى فَقَالَ لَهُمْ : هَذِهِ قَدْرٌ وَهَذِهِ مِسْقَاةٌ وَبِذَلِكَ الشَّعْبُ مَاءٌ فَقَالُوا : مَا وَفَّيْتَنَا حَقَّ قِرَانَا فَأَخَذَ الْقِرْبَةَ فَقَلَّدَهَا يَسْقِيهِمْ فَنَهَشَتْهُ حَيَّةٌ .

قال أبو إسحاق : بلغني وأنا حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اخْتِنَاثِ فَمِ الْقِرْبَةِ وَالشَّرْبِ مِنْهُ قَالَ : فَكُنْتُ أَقُولُ إِنَّ لِهَذَا الْحَدِيثِ لَشَأْنًا وَمَا فِي الشَّرْبِ مِنْ فَمِ قِرْبَةٍ حَتَّى يَحِيءَ فِيهَا هَذَا النَّهْيُ حَتَّى قِيلَ : إِنَّ رَجُلًا شَرِبَ مِنْ فَمِ قِرْبَةٍ فَوَكَعَتْهُ حَيَّةٌ فَمَاتَ وَإِنَّ الْحَيَّاتِ تَدْخُلُ فِي أَفْوَاهِ الْقِرْبِ فَعَلِمْتُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَا أَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ لَهُ مَذْهَبًا وَإِنْ جَهِلْتُهُ .

شعر في سلخ الحية

وقال الشاعرُ فِي سَلْخِ الْحَيَّةِ : (حَتَّى إِذَا تَابَعَ يَبْنَ سَلْخَيْنِ ** وَعَادَ كَالْمَيْسَمِ أَحْمَاهُ الْقَيْنِ) (أَقْبَلَ وَهُوَ وَاثِقٌ بِشَنْتَيْنِ : ** بِسَمِّهِ الرَّأْسِ وَنَهَشِ الرَّجْلَيْنِ) قَالَ : كَأَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ سَمَّهُ لَا يَكُونُ قَاتِلًا مُجْهَرًا حَتَّى تَأْتِيَ عَلَيْهِ سِنْتَانِ .

وزعم بعضهم أَنَّ السَّلْخَ لِلْحَيَّةِ مِثْلُ الْبُزُولِ وَالْقُرُوحِ لِلْخَفِّ وَالْحَافِرِ قَالَ : وَلَيْسَ يَنْسَلِخُ إِلَّا بَعْدَ سِنِينَ كَثِيرَةٍ وَلَمْ يَقْفُوا مِنَ السِّنِينَ عَلَى حَدٍّ .

قول فِي سَلْخِ الْحَيَّةِ وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْحَيَّةَ تَسْلُخُ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّتَيْنِ وَالسَّلْخُ فِي الْحَيَاتِ كَالْتَّحْسِيرِ مِنَ الطَّيْرِ وَأَنَّ الطَّيْرَ لَا تَجْمَعُ قُوَّةً إِلَّا بَعْدَ التَّحْسِيرِ وَقَامَ نَبَاتُ الرَّيْشِ وَكَذَلِكَ الْحَيَّةُ تَضْعَفُ فِي أَيَّامِ السَّلْخِ ثُمَّ تَشْتَدُّ بَعْدَ .

قال الأصمعيّ : أخبرني أبو رفاعة شيخ من أهل البادية قال : رأيتُ في المنام كَأني أَتخطى حَيَات فمطرت السماء فجعلت أَتخطى سُيولاً .

وحكى الأصمعيّ أنّ رجلاً رأى في المنام في بيوته حَيَات فسأل عن ذلك ابن سِيرين أو غيره فقال : هذا رجلٌ يدخل منزله أعداء المسلمين وكانت الخوارجُ تجتمعُ في بيته .
شعر للعرجي والشمّاخ في الحيات قال العرجي في ديب السمّ في المنهوش : (وأشربَ جَلدي حُبّها ومَشى به ** كمشي حُميا الكَلَس في جلد شارب) (يدبُّ هواها في عظامي وحبها ** كما دبَّ في الملسوع سمُّ العقارب) وقال العرجي في العرماء من الأفاعي وكونها في صدوع الصخر فقال : (تأتي بليل ذو سعاة فسَلّها ** بما حافظ هاد ولم أرق سلما) (كمثل شهاب النَّار في كفّ قابسٍ ** إذا الرِّيحُ هبت من مكانٍ تضرّما) (أبرّ على الحوَاء حتى تناذروا ** حماءَ حمامة من النلس فاحمى)

(يظلّ مُشبحاً سامعاً ثمّ إنّها ** إذا بُعثت لم تَأَلْ إِلَّا تَقْدُما) قال : ويقال : تطوّت الحَيّة وأنشد العرجي : (وقال الشّمّاخ أو البعث : (وأطرقَ إطراقَ الشجاع وقد جَرى ** على حَدِّ ناييه الذُّعافُ المسمّم) ما ينبح من الحيوان والأجناس التي تُذكرُ بالتَّبَاح : الكلب والحَيّة والطَّيُّ إذا أَسَنَّ وألهدهُ وقد كتبنا ذلك مرة ثمّ قال أبو التّجم : (والأسد قد تَسْمَعُ مِنْ زَيرِها ** وباتت الأفعى على مَحْفُورِها) (تأسيرُها يَحْتَكُ في تأسيرِها ** مرّ الرّحى تجري على شَعيرِها)

(كَرَعَة الجراء أو هديرِها ** تضرُّمُ القَصَباء في ثُورِها) (توقّرُ النَّفس على توقيرِها ** تعلّم الأشياء في تنقيِرِها) في عاجل النفس وفي تأخيرها قول في آية وسنذكر مسألة وجوابها وذلك أنّ ناساً زعموا أنّ جميع الحيوان على أربعة أقسام شيء يطير شيء يمشي شيء يعوم وشيء ينساح .
وقد قال الله عزّ وجلّ : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .
وقد وَضَعَ الكلام على قسمة أجناس الحيوان وعلى تصنيف ضروب الخلق ثمّ قَصَرَ عن الشيء الذي وضع عليه كلامه فلم يذكر ما يطير وما يعوم ثمّ جعل ما ينساح مثل الحَيَات والديدان ممّا يمشي والمشي لا يكون إلّا برجل كما أنّ العَصّ لا يكون إلّا بفمٍ والرَّمح لا يكون إلّا بحافر وذكر ما يمشي على أربعٍ وما هنا دوابٌ كثيرةٌ تمشي

على ثمانِ قوائمٍ وعلى ستٍّ وعلى أكثرَ من ثمانٍ ومن تفقّد قوائِمَ السَّرطانِ وبناتٍ وَرَدَانٍ وَأصنافَ العناكب عَرَفَ ذلك .

قلنا : قد أخطأتم في جميع هذا التّأويل وَحَدّه فما الدَّلِيلُ على أنّه وضع كلامه في استقصاء أصناف القوائم وبأيّ حُجّة جَزَمْتُم على ذلك وقد قال الله عزّ وجلّ : وَقُوْذُهَا النَّاسُ وَالْجِجَارَةُ وَتَرَكْ ذِكْرَ الشَّيَاطِينِ وَالنَّارِ

لَهُمْ أَكَلٌ وَعَذَابُهُمْ بِهَا أَشَدُّ فَتَرَكَ ذِكْرَهُمْ مِنْ غَيْرِ نَسِيَانٍ وَعَلَى أَنَّ ذَلِكَ مَعْلُومٌ عِنْدَ الْمُخَاطَبِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ (جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا) أَخْرَجَ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَقَدْ قَصَدَ فِي مَخْرَجِ هَذَا الْكَلَامِ إِلَى جَمِيعِ وَلَدِ آدَمَ وَقَالَ : هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا أَدْخَلَ فِيهَا آدَمَ وَحَوَّاءَ ثُمَّ قَالَ عَلَى صِلَةِ الْكَلَامِ : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ أَخْرَجَ مِنْهَا آدَمَ وَحَسَنُ ذَلِكَ إِذْ كَانَ الْكَلَامُ لَمْ يُوضَعَ عَلَى جَمِيعِ مَا تَعْرِفُهُ الْقُوسُ مِنْ جِهَةِ اسْتِقْصَاءِ اللَّفْظِ فَقَوْلُهُ : فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ كَانَ عَلَى هَذَا الْمَثَالِ الَّذِي ذَكَرْنَا وَعَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ فَهُوَ مَا يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَالَّذِي يَمْشِي عَلَى ثَمَانٍ هُوَ مَا يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ وَعَلَى رِجْلَيْنِ

وَإِذَا قُلْتَ : لِي عَلَى فُلَانٍ عَشْرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ فَقَدْ خَبَّرْتَ أَنَّ لَكَ عَلَيْهِ مَا بَيْنَ دِرْهَمٍ إِلَى عَشْرَةِ آلَافٍ . وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : إِنَّ الْمَشْيَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْأَرْجْلِ فَيَنْبَغِي أَيْضًا أَنْ تَقُولُوا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى إِنَّ ذَلِكَ خَطَأٌ لِأَنَّ السَّعْيَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْأَرْجْلِ .

وَفِي هَذَا الَّذِي جَهَلْتُمُوهُ ضَرْوبٌ مِنَ الْجَوَابِ : أَمَّا وَجْهٌ مِنْهُ : فَهُوَ قَوْلُ الْقَائِلِ وَقَوْلُ الشَّاعِرِ : مَا هُوَ إِلَّا كَأَنَّهُ حَيَّةٌ وَكَأَنَّ مَشْيَهُ مِثْلُ حَيَّةٍ يَصِفُونَ ذَلِكَ وَيَذْكُرُونَ عِنْدَهُ مِثْلَةَ الْأَيْمِ وَالْحُبَابِ وَذِكْرُ الْحَيَّاتِ وَمَنْ جَعَلَ لِلْحَيَّاتِ مِثْلًا مِنَ الشَّعْرَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ نَقِفَ عَلَيْهِمْ وَلَوْ كَانُوا لَا يَسْمُونَ انْسِيَابَهَا وَانْسِيَا حَيَّاتِهَا مِثْلًا وَسَعْيًا لَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَجُوزُ عَلَى التَّشْبِيهِ وَالْبَدَلِ وَأَنَّ الشَّيْءَ مَقَامَ الشَّيْءِ أَوْ مَقَامَ صَاحِبِهِ فَمِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنْ تَشَبَّهُ بِهِ فِي حَالَاتٍ كَثِيرَةٍ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ وَالْعَذَابُ لَا يَكُونُ نُزْلًا وَلَكِنَّهُ أَجْرَاهُ مُبْجَرَى كَلَامِهِمْ كَقَوْلِ حَاتِمٍ حِينَ أَمْرُوهُ بِفَصْدِ بَعِيرٍ وَطَعَنَهُ فِي سَنَامِهِ وَقَالَ : هَذَا فَصْدُهُ .

وَقَالَ الْآخَرُ : (فَقُلْتُ يَا عَمْرُو اطْعِمْنِي تَمْرًا ** فَكَانَ تَمْرِي كَهَرَّةٍ وَزَبْرًا) وَذَمَّ بَعْضُهُمُ الْفَارَ وَذَكَرَ سَوْءَ أَثَرِهَا فِي بَيْتِهِ فَقَالَ : (يَا عَجَلُ الرَّحْمَنِ بِالْعِقَابِ ** لِعَامِرَاتِ الْبَيْتِ بِالْخَرَابِ) يَقُولُ : هَذَا هُوَ عِمَارَتُهَا كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ مَا نَرَى مِنْ خَيْرِكَ وَرَفْدِكَ إِلَّا مَا يَلْغُنَا مِنْ حَطْبِكَ عَلَيْنَا وَقَتِكَ فِي أَعْضَادِنَا . وَقَالَ النَّابِغَةُ فِي شَبِيهِ هَذَا وَلَيْسَ بِهِ : (وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ ** بَيْنَ فُلُولٍ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَّابِ) وَوَجْهٌ آخَرُ : أَنَّ الْأَعْرَابَ تَزْعُمُ وَكَذَلِكَ قَالَ نَاسٌ مِنَ الْحَوَائِثِ وَالرَّقَائِنِ إِنَّ لِلْحَيَّةِ حُرُوزًا فِي بَطْنِهِ فَإِذَا مَشَى قَامَتْ حُرُوزُهُ

وَإِذَا تَرَكَ الْمَشْيَ تَرَاجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا وَعَادَتْ تِلْكَ الْمَوَاضِعُ مُلْسًا وَلَمْ تُوجَدْ بَعِيْنٌ وَلَا لَمَسٌ وَلَا يُلْغِيهَا إِلَّا كُلُّ حَوَّاءٍ دَقِيقِ الْحِسِّ .

وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ شِقْشِقَةِ الْجَمَلِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّهُ يَظْهَرُهَا كَالدَّلْوِ فَإِذَا هُوَ أَعَادَهَا إِلَى لَهَا تَه تَرَاجَعَ ذَلِكَ الْجِلْدُ إِلَى مَوْضِعِهِ فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَيْهِ بِلَمَسٍ وَلَا عَيْنٍ وَكَذَلِكَ عُرُوقُ الْكُلِيِّ إِلَى الْمِثَانَةِ الَّتِي يَجْرِي فِيهَا الْحَصَى الْمُتَوَلِّدُ فِي الْكُلِيَّةِ إِذَا قَذَفَتْهُ تِلْكَ الْعُرُوقُ إِلَى الْمِثَانَةِ فَإِذَا بَالُ الْإِنْسَانِ انْضَمَّتِ الْعُرُوقُ وَاتَّصَلَتْ بِأَمَاكِنِهَا وَالتَّحَمَّتْ حَتَّى كَانَ مَوْضِعُهَا كَسَائِرِ مَا جَاوَزَ تِلْكَ الْأَمَاكِنَ .

ووجه آخر : وهو أن هذا الكلام عربي فصيح إذ كان الذي جاء به عربياً فصيحاً ولو لم يكن قرآناً من عند الله تبارك وتعالى ثم كان كلام الذي جاء به وكان ممن يجهل اللحن ولا يعرف مواضع الأسماء في لغته لكان هذا خاصةً مما لا يجهره .

فلو أننا لم نجعل ل محمد صلى الله عليه وسلم فضيلة في نبوة ولا مزينة في البيان والفصاحة لكنا لا نجد بدءاً من أن نعلم أنه كواحد من الفصحاء فهل يجوز عندكم أن يخطئ أحد منهم في مثل هذا في حديث أو وصف أو خطبة أو رسالة فيزعم أن كذا وكذا يمشي أو يسعى أو يطير وذلك الذي قال ليس من لغته ولا من لغة أهله فمعلوم عند هذا الجواب وعند ما قبله أن تأويلكم هذا خطأ .

وقال الله عز وجل : إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكْهُونَ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ لَا يوصفون بالشغل وإنما ذلك جواب لقول القائل : خبرني عن أهل الجنة بأي شيء يتشاغلون أم لهم فراغ أبداً فيقول المجيب : لا ما شغلهم إلا في اقتضاض الأبقار وأكل فواكه الجنة وزيارة الإخوان على نجائب الباقوت .

وهذا على مثال جواب عامر بن عبد قيس حين قيل له وقد أقبل من جهة الحلبة وهو بالشام : مَنْ سَقَى قَالَ : رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل : فَمَنْ صَلَّى قَالَ : أبو بكر قال : إِنَّمَا وهو كقول المفسر حين سُئِلَ عن قوله : لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا فقال : ليس فيها بُكْرَةٌ وَعَشِيٌّ وقد صدق القرآن وصدق المفسر ولم يتناكرا ولم يتنافيا لأن القرآن ذهب إلى المقادير والمفسر ذهب إلى الموجود من دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها .

وعلى ذلك المعنى روي عن عمر أنه قال : مُتَعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا أَنْتَهَى عَنْهُمَا وَأَضْرَبُ عَلَيْهِمَا .)

قد كان المسلمون يتكلمون في الصلاة ويطبّقون إذا ركعوا فَنَهَى عن ذلك إمام من الأئمة وَضَرَبَ عليه بعد أن أظهر النسخ وعرفهم أن ذلك من المنسوخ فكأن قائلًا قال : أتتهانا عن شيء وقد كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : نعم وقد قدّم الاحتجاج في النسخ والمنسوخ .

ومن العجب أن ناساً جعلوا هذا القول على المنبر من عيوبه فإن لم يكن المعنى فيه على ما وصفنا فما في الأرض أجهل من عمر حين يُظهر الكُفْرَ في الإسلام على منبر الجماعة وهو إنما علاه بالإسلام ثم في شيء ليس له حجة فيه ولا علة وأعجب منه تلك الأمة وتلك الجماعة التي لم تُنكر تلك الكلمة في حياته ولا بعد موته ثم ترك ذلك جميع التابعين وأتباع التابعين حتى أفضى الأمر إلى أهل دهرنا هذا .
وتلك الجماعة هم الذين قتلوا عثمان على أن سير رجلا .

وهذا لا يقوله إلا جاهل أو معاند .

وعلى تأويل قوله : هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ قَالَ : جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسَّ الْمَهَادُ وَقَالَ تَعَالَى : حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا

فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ فَجَعَلَ لِلنَّارِ خَزَائِنَ وَجَعَلَ لَهَا خَزَنَةً كَمَا جَعَلَ فِي الْجَنَّةِ خَزَائِنَ وَجَعَلَ لَهَا خَزَنَةً .

ولو أن جهنم فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَنُحِيَ عنها الخَزَنَةُ ثُمَّ قِيلَ لِكُلِّ لَصٍّ فِي الْأَرْضِ وَلِكُلِّ خَائِنٍ فِي الْأَرْضِ : دُونَكَ فَقَدْ أُيِّحَتْ لِكُلِّمَا دَنَا مِنْهَا وَقَدْ جُعِلَ لَهَا خَزَائِنٌ وَخَزَنَةٌ وَإِنَّمَا هَذَا عَلَى مِثَالِ مَا ذَكَرْنَا وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ .

والآيُ التي ذكرنا في صِدْقِ هذا الجواب كلها حُجَجٌ عَلَى الْخَوَارِجِ فِي إنْكَارِهِمُ الْمُنْزِلَةَ بَيْنَ الْمُنْزِلَيْنِ .

شعر لخلف الأحمر في الحيات وقال خَلَفُ الْأَحْمَرُ فِي ذِكْرِ الْحَيَّاتِ : (يرون الموت دوني أن رأوني ** وصل صفاً لنابيه ذباب) (من المنحرمات بكهف طودٍ ** حرام ما يرام له جناب) (أبي الحاوون أن يطئوا حماه ** ولا تسرى بعقوته الذئاب) (إذا ما استجرس الأصوات أبدى ** لساناً دونه الموت الضباب) (إذا ما الليل ألبسته دحاه ** سرى أصمى تصيح له الشعاب)

(سقط : بيت الشعر) (إذا ما الليل ألبسه دحاه ** سرى أصمى تصيح له الشعاب)
فقلت لحيان بن عتيبي : لِمَ قال موسى بن جابر الحنفِيُّ : (طَرَدَ الْأَرَوَى فَمَا تَقَرَّبُهُ ** وَفَنَى الْحَيَّاتِ عَنْ يَبِضِ الْحِجْلَةِ) قال : لِأَنَّ الذَّئَابَ تَأْكُلُ الْحَيَّاتِ قَلَّتْ : فلم قال خلف الأحمر : ولا تسري بعقوته الذئاب قال : لِأَنَّ الذَّئَابَ تَأْكُلُ الْحَيَّاتِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ حَلَسَ وَلَمْ يَقُلْ بِعَلَمِ .

منافضة شعرية للزيادي ويحيى بن أبي حفصة

وقال الزِيَادِيُّ فِي يَحْيَى بْنِ أَبِي حَفْصَةَ : (إني ويحيى وما يبغى كملتَمِسٍ ** صَيْدًا وما نال منه الرِّيِّ وَالشَّبْعَا) (أَهْوَى إِلَى بَابِ جُحْرِ فِي مَقْدَمِهِ ** مِثْلُ الْعَسِيبِ تَرَى فِي رَأْسِهِ قَرَعَا) (اللَّوْنُ أَرْبَدُ وَالْأَنْيَابُ شَابِكَةٌ ** عَصْلٌ تَرَى السَّمَّ يَجْرِي بَيْنَهَا قِطْعَا) (يَهْوِي إِلَى الصَّوْتِ وَالظُّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ ** تَعْرَدُ السَّبِيلَ لَا قَى الْحَيْدِ فَاطْلَعَا) (لو نَالَ كَفْكَ آبَتْ مِنْهُ مَخْضَبَةٌ ** بَيْضَاءَ قَدْ جَلَّتْ أَنْيَابُهَا قَرَعَا) (بِيَعَتْ بَوَكْسٍ قَلِيلٍ فَاسْتَقَلَّ بِهَا ** مِنْ الْهَزَالِ أَبُوهَا بَعْدَ مَا رَكَعَا) (كَمْ حَيَّةٍ تَرْهَبُ الْحَيَّاتُ صَوْلَتَهُ ** يَحْمَى لِرَيْدِيهِ قَدْ غَادَرَتْهُ قِطْعَا)

(يَلْقَيْنَ حَيَّةً قَفٌّ ذَا مُسَاوَرَةٍ ** يُسْقَى بِهِ الْقِرْنُ مِنْ كَأْسِ الرَّدَى جُرْعَا) (تَكَادُ تَسْقُطُ مِنْهُنَّ الْجُلُودُ لِمَا ** يَعْلَمُنَّ مِنْهُ إِذَا عَايَنَهُ قَرَعَا) (أَصَمَّ مَا شَمَّ مِنْ خَضْرَاءٍ أَيْسَهَا ** أَوْ مَسَّ مِنْ حَجَرٍ أَوْهَاهَ فَانْصَدَعَا) شعر في الحيات وقال آخر : (وكم طوت من حنشٍ راصدٍ ** للسفر في أعلى الثنيات) (أصم أعمى لا يجب الرقي ** يفتن عن عصلي حديدات) (منهزت الشدق رقود الضحى ** سار طمور في الدجانات) (ذي هامةٍ رقطاع مفطوحة ** من الدواهي الجليات) (صل صفاً تنطف أنياه ** سمام ذيفان مجيرات)

(مطلق في اللحين مطلقاً إلى ** رأس وأشدق رحيات) (قدم من عن ضرسين واستأخرا ** إلى سماخين
ولهوات) (يسبته الصبح وطوراً له ** نفخ وفث في المغارات) قال آخر وهو جاهلي : (لاهم إن كان
أبو عمرو ظلم ** وخاني في علمه وقد علم) (فابعث له في بعض أعراض اللمم ** لميمة من حش أعمى
أصم) (أصر زحافاً من الرقط العرم ** قد عاش حتى هو لا يمشي بدم) (فكلما أقصد منه الجوع شم **
حتى إذا أمسى أبو عمرو ولم) (يمس منه مضض ولا سقم ** قام وود بعدها أن لم يقم)

(ولم يقم لإبل ولا غنم ** ولا خوف راعه ولا لهم) (حتى دنا من رأس نضاض أصم ** فخاضه بين
الشراك والقدم) (بمزرب أخرج من جوف كم ** كأن وخز نابه إذا انتظم) ومخالب الأسد وأشباه
الأسد من السباع تكون في غلف إذا وطئت على بطون أكفها ترفعت المخالب ودخلت في أكمام لها وهو
قول أبي زبيد : (بمزرب كاخاجن في فنوخ ** يقيها قصّة الأرض الدخيس) وكذلك أنياب الأفاعي هي ما
لم تعض فمضوئة في أكمام ألا تراه يقول : (فخاضه بين الشراك والقدم ** بمزرب أخرج من جوف كم)

رجز وشعر في لعاب الحية وقال آخر : (أنعت نضاضاً كثير الصقر ** مولده كمولد ابن الدهر) (كانا
جبعاً ولداً في شهر ** يظل في مرأى بعيد القعر) بين حوافي سدير وصخر وقال : (وكيف وقد أسهرت
عينك تبغي ** عناداً لناي حية قد تربدا) (من الصم يكفي مرة من لعابه ** وما عاد إلا كان في العود
أحمداً) شعر خلف في الأفعى وقال خلف الأحمر وهي مخلوطة فيها شيء وله شيء من العبرة

وما علمت أن وصف عين الأفعى على معرفة واختبار غيره وهو قوله : (أفعى رخوف العين مطراق
البكر ** داهية قد صغرت من الكبر) (صل صفاً ما ينطوي من القصر طويلة ** الإطراق من غير حسر)
(كأنما قد ذهبت به الفكر ** شقت له العينان طولاً في شتر) (مهررة الشدقين حولاء النظر ** جاء بها
الطوفان أيام زخر) أحاديث في الوزغ هشام بن عروة قال : أخبرني أبي أن عائشة أم المؤمنين رضي الله
عنها كانت تقتل الأوزاغ يحيى بن أبي أنيسة عن الزهري عن عروة عن عائشة

قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ : فويسق .

قالت : ولم أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتله .

قال : قالت عائشة رضي الله عنها : سمعت سعداً يقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله .

عبد الرحمن بن زياد قال : أخبرني هشام عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
للوزغ : الهويسق أبو بكر الهذلي عن معاذ عن عائشة قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ
وفي يدي عكاز فيه زج فقال : يا عائشة ما تصنعين بهذا قلت : أقتل به الوزغ في بيتي قال : إن تفعلين فإن
الدواب كلها حين ألقى إبراهيم صلى الله عليه وسلم في النار كانت تطفئ عنه وإن هذا كان ينفخ عليه
فصم وبرص .

وهذه الأحاديث كلها ينجح بها أصحاب الجهالات ومن زعم أن الأشياء كلها كانت ناطقة تأول آيات من

الكتاب وتأولوا قوله تعالى : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ

وقالوا : قال الله عز وجل : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا وقال تعالى : يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وقال : وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . فذهبت الجهمية ومن أنكر إيجاد الطباع مذهبا وذهب ابن حائط ومن لف لقه من أصحاب (الجهالات مذهبا وذهب ناس من غير المتكلمين واتبعوا ظاهر الحديث وظاهر الأشعار وزعموا أن الحجارة كانت تعقل وتطق وإنما سلبت المنطق فقط فأما الطير والسباع فعلى ما كانت عليه . قالوا : والوطواط والصرد والضفدع مطيعات ومثابات والعقرب والحية والحداة والغراب والوزغ والكلب وأشباه ذلك عاصيات معاقبات .

ولم أقف على واحد منهم فأقول له : إن الوزغة التي تقتلها على أنها كانت تُضرم النار على إبراهيم أهي هذه أم هي من أولادها فمأخوذة هي بذنب غيرها أم ترعم أنه في المعلوم أن وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الأحاديث وأي ضرب منها يكون مردودا وأي ضرب منها يكون متأولا وأي ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل .

ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين هلكت العوام واختلطت واسترقت ولولا المعتزلة هلك المتكلمون . أحاديث في قتل الوزع شريك عن التميمي عن ليث عن نافع أن ابن عمر كان يقتل الوزغ في بيته ويقول هو شيطان .

هشام بن حسان عن خالد الربيعي قال : لم يكن شيء من خشاش الأرض إلا كان يُطفئ النار عن إبراهيم إلا الوزغ فإنه كان ينفخ عليه .

حنظلة بن أبي سفيان قال : سمعت القاسم بن محمد يقول إن الأوزاع كانت يوم حرق بيت المقدس تنفخه والوطواط بأجنحتها .

شريك عن التميمي عن جابر عن ابن عباس قال : الوزغ شريك الشيطان .

أبو داود الواسطي قال : أخبرنا أبو هاشم قال : من قتل وزغة حط الله عنه سبعين خطيئة ومن قتل سبعا كان كعتق رقبة .

هشام بن حسان عن واصل مولى أبي عيينة عن عقيل عن يحيى بن يعمر قال : لأن أقتل مائة من الوزغ أحب إلي من أن أعتق مائة رقبة .

وهذا الحديث ليس من شكل الأول لأن يحيى بن يعمر لم يزعم أنه يقتله لكفره أو لكفر أبيه ولكنها دابة

تُطَاعَمُ الْحَيَاتِ وَتُزَاكُّهَا وَتَقَارُبُهَا وَرَبَّمَا قَتَلَتْ بَعْضَتُهَا وَتَكَرَّرَ فِي الْمَرْقِ وَاللَّبَنِ ثُمَّ)
تَمَجُّهُ فِي الْإِنَاءِ فَيُنَالُ النَّاسَ بِذَلِكَ مَكْرُوهٌ كَبِيرٌ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَقَتْلُهُ فِي سَبِيلِ قَتْلِ الْحَيَاتِ وَالْعَقَارِبِ .
صَنَعَ السَّمَّ مِنَ الْأَوْزَاغِ وَأَهْلُ السَّجَنِ يَعْمَلُونَ مِنْهَا سُمُومًا أَنْفَذَ مِنْ سَمِّ الْبَيْشِ وَمِنْ رَيْقِ

الْأَفَاعِي وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُدْخِلُونَ الْوَزَغَ قَارُورَةً ثُمَّ يَصُبُّونَ فِيهَا مِنَ الزَّيْتِ مَا يَغْمُرُهَا وَيَضَعُونَهَا فِي الشَّمْسِ
أَرْبَعِينَ يَوْمًا حَتَّى تَحْتَلِطَ بِالزَّيْتِ وَتَصِيرَ شَيْئًا وَاحِدًا فَإِنْ مَسَحَ السَّجَنِ مِنْهُ عَلَى رَغِيفٍ مَسْحَةً يَسِيرَةً فَأَكَلَ
مِنْهُ عَشْرَةُ أَفْسٍ مَاتُوا وَلَا أَدْرِي لِمَ تَوَخَّوْا مِنْ مَوَاضِعِ الدَّفْنِ عَتَبَ الْأَبْوَابِ .

حَدِيثٌ فِيهِ نَصَائِحٌ يَحْيَى بْنُ أَبِي أُتَيْسَةَ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعٍ وَنَهَانَا عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَنَا أَنْ نُجِيفَ أَبْوَابَنَا وَأَنْ نَخْمُرَ آتِنَاتِنَا وَأَنْ نُوَكِّيَ أَسْقِينَاتِنَا وَأَنْ نُطْفِئَ
سُرُجَنَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا وَجَدَ بَابًا مُجَافًا لَمْ يَفْتَحْهُ وَإِنَاءً مُخْمَرًا لَمْ يَكْشِفْهُ وَسِقَاءً مُوَكَّى لَمْ يَحْلَهُ وَإِنَّ الْفُؤَيْسِقَةَ
تَأْتِي الْمَصْبَاحَ فَتُضْرِمُهُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ وَنَهَانَا عَنْ أَرْبَعٍ : نَهَانَا عَنْ اشْتِمَالِ الصَّمَاءِ وَأَنْ يَمْشِيَ أَحَدُنَا فِي النَّعْلِ

الْوَحْدَةِ أَوْ الْخُفِّ الْوَاحِدِ وَأَنْ يَحْتَبِيَ الرَّجُلُ مَنَّا فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ لَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ وَأَنْ يَسْتَلْقِيَ أَحَدُنَا عَلَى
ظَهْرِهِ وَيَرْفَعَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى .

وَهَذَا الْحَدِيثُ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعُهُ وَهُوَ يَقَعُ فِي بَابِ جُمْلَةِ الْقَوْلِ فِي النَّارِ وَهُوَ يَقَعُ بَعْدَ هَذَا الَّذِي يَلِي الْقَوْلَ فِي
النِّعَامِ .

ما جاء في الحيات من الحديث

شُعْبَةُ أَبُو بَسْطَامٍ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو قَيْسٍ قَالَ : جَلَسْتُ إِلَى عُلْقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ وَرَبِيعِ بْنِ خَثِيمٍ فَقَالَ رَبِيعٌ : قُولُوا
وَأَفْعَلُوا خَيْرًا خَيْرًا وَقَالَ عُلْقَمَةُ : مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَلَّا يَرَى الْحَيَّةَ إِلَّا قَتَلَهَا إِلَّا الَّتِي مِثْلُ الْمِيلِ فَإِنَّهَا
جَانٌّ وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ قَتْلُ حَيَّةٍ أَوْ كَافِرٍ .

إِسْمَاعِيلُ الْمَكِّيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ عُلْقَمَةَ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَقَتَلَ كَافِرًا .
ثُمَّ سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدٍ يَقُولُ : مَنْ قَتَلَ حَيَّةً أَوْ عَقْرَبًا فَقَتَلَ كَافِرًا . وَهَذَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ الْمَسْعُودِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ الْقَاسِمَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَقُولُ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : مَنْ قَتَلَ حَيَّةً أَوْ عَقْرَبًا فَكَأَنَّمَا
قَتَلَ كَافِرًا فَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَكُونُ تَأْلِيفُ الْحَدِيثِ .

سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَا سَأَلْنَاكُمْ مِنْ مُذْ حَارَبْنَاكُمْ .

سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ : مَنْ تَرَكَ قَتْلَ حَيَّةٍ مَخَافَةَ أَنْتَارِهَا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ .
الرَّبِيعُ بْنُ صَيْحٍ عَنْ عَطَاءِ الْخُرَّاسَانِيِّ قَالَ : كَانَ فِيمَا أُخِذَ عَلَى الْحَيَاتِ أَلَّا يَظْهَرْنَ فَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُنَّ حَلَّ قَتْلُهُ

وقتلهنَّ كقتال الكفار ولا يترك قتلهنَّ إلا شكاً .

وهذا لما يتعلق به أصحاب ابن حاطط .

محمد بن عجلان قال : سمعت أبي يحدث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما سألناهم مذ حاربناهم .

ابن جريج قال : أخبرني عبد الله بن عبيد بن عمير قال :

أخبرني أبو الطفيل أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول : اقلوا من الحيات ذا الطفتين والكلب الأسود البهيم ذا الغرّتين .

قال : والغرة : حوة تكون بعينه .

قال صاحب المنطق : الطير على ضربين : أوابد وقواطع ومنه ما يأكل اللحم لا يأكل غيره وإن لم يكن ذا سلاح فأمّا ذو السلاح فواجب أن يكون طعامه اللحم ومن الطير ما يأكل الحبوب لا يعدوها ومنه المشترك الطباع كالعصفور والدجاج والغراب فإنها تأكل النوعين جميعاً وكطير الماء يأكل السمك ويلقط الحب ومنه ما يأكل شيئاً خاصاً مثل جنس النحل المعسل الذي)

غذاؤه شيء واحد وجنس العنكبوت فإن طعم النحل المعسل والعنكبوت يعيش من صيد الذباب .

ما له مسكن من الحيوان ومن الحيوان ما له مسكن ومأوى كالحلذ والفأر والتمل والتحل والضب ومنه ما لا يتخذ شيئاً يرجع إليه كالحيات لأن ذكورة الحيات سيارة وإنائها إنما تقيم في المكان إلى تمام خروج الفراخ من البيض واستغناء الفراخ بأنفسها ومنها ما يكون يأوي إلى شقوق الصخور والحيطان والمدخل الضيقة مثل سام أبرص .

قال : والحيات تألفها كما تألف العقارب الخنافس والعظايا تألف المزابيل والخرابات والوزغ قريبة من الناس .

وزعم زرادشت أن العظايا ليست من ذوات السموم وأن سام أبرص من ذوات السموم وأن أهرمن لما قعد ليقسم السموم

كان الحظ الأوفر لكل شيء سقى إلى طليه كالأفاعي والثعابين والجرارات وأن نصيب الوزغ نصيب وسط قصد لا يكمل أن يقتل ولكنه يراق الحية فتميره لما عندها ومتى دبر الوزغ جاء منه السم القاتل أسرع من سم اليش ومن لعاب الأفاعي فأما العظاية فإنها احتبست عن الطلب حتى نفذ السم وأخذ كل شيء قسطه على قدر سبق والبكور فلما جاءت العظاية وقد فني السم دخلها من الحسرة ومما علاها من الكرب حتى جعلت وجهها إلى الخرابات والمزابيل فإذا رأيت العظاية تمشي مشياً سريعاً ثم تقف فإن تلك الوقفة إنما هي لما يعرض لها من التذكر والحسرة على ما فاتها من نصيبها من السم .

رد عليه ولا أعلم العظاية في هذا القياس إلا أكثر شروراً من الوزغ لأنها لولا إفراط طباعها في الشرارة لم يدخلها من قوة الهمة مثل الذي دخلها

ولم يستب للناس من اغتباط الوزغ بنصيبه من السم بقدر ما استبان من ثكل العظاية وتسللها وإحضارها وبكائها وحزنها وأسفها على ما فاتها من السم .
زعم زرادشت في خلق الفأرة والسنور ويزعم زرادشت وهو مذهب الجوس أن الفأرة من خلق الله وأن السنور من خلق الشيطان وهو إبليس وهو أهرمن فإذا قيل له : كيف تقول ذلك والفأرة مفسدة تجذب فئيلة المصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة والمدن العظام والأرباض الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال وتقرض دفاتر العلم وكتب الله ودقائق الحساب والصكك والشروط وتقرض الثياب وربما طلبت القطن لتأكل بزرة فتدع اللحاف غربالاً وتقرض الجرب وأوكية الأسقية والأزقاق والقرب فتخرج جميع ما فيها وتقع في الآنية

وفي البر فتموت فيه وتخرج الناس إلى مؤن عظام وربما عصت رجل التائم وربما قتلت الإنسان بعضتها والفار بحراسان ربما قطعت أذن الرجل وجردان أنطاكية تعجز عنها السنابير وقد جلا عنها قوم وكرهها آخرون لمكان جردانها وهي التي فجرت المسناة حتى كان ذلك سبب الحسر بأرض سبأ وهي المضروب بها المثل وسيل العرم فما تورخ بزمانه العرب والعرم : المسناة وإنما كان جرداً .
وتقتل التخل والفسيل وتخرّب الضيعة وتأتي على أزيمة الركاب والخطم وغير ذلك من الأموال .
والناس ربما اجتلبوا السنابير ليدفعوا بها بوائق الفار فكيف صار خلق الضار المفسد من الله

والسنور يُعدى به على كل شيء خلقه الشيطان من الحيات والعقارب والجعلان وبنات وردان والفأرة لا نفع لها ومؤنها عظيمة .

قال : لأن السنور لو بال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة .
فهل سمعت بحجة قط أو بحيلة أو بأضحوكة أو بكلام ظهر على تلقيح هرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم .
وأنشد أبو زيد : (والله لو كنت لهذا خالصاً * لكنت عبداً أكل الأبارصا) يعني جماع سام أبرص :
أبارص .

أثر أكل سام أبرص ونحوه وسام أبرص ربما قتل أكله وليس يؤكل إلا من الجوع الشديد وربما قتل السنابير وبنات عرس والشاهمرك وجميع اللقافات .
وقال آخر : (كأن القوم عثوا لحم ضأن * فهم نعيجون قد مالت طلاهم) وهو شيء يعرض عن أكل

دَسَمَ الصَّانَ وهو أيضاً يلقي على دسمه النَّعاسُ وقد يفعل ذلك والحشخشُ يسمَّى بالفارسيَّة أنارُ كَبُو وتأويله رَمَانُ الحَسِّ وإنما اشتقَّ له ذلك إذ كان يورثُ النَّعاسُ كما يورثه الحَسُّ .

أَكَلَ السَّمَانِيَّ وَأَكَلَ الطَّعَامَ الَّذِي فِيهِ سَمَانٌ يُورِثُ الدُّوَارَ وزعموا أنَّ صَبِيًّا مِنَ الْأَعْرَابِ فِيمَا مَضَى مِنَ الدَّهْرِ صَادَ هَامَةً عَلَى قَبْرِ فَظْنِهَا سُمَانٌ فَأَكَلَهَا فَغَنَتْ نَفْسَهُ فَقَالَ : نَفْسِي تَمَقَّسُ مِنْ سُمَانِ الْأَقْبَرِ اسْتَطْرَادَ لِعُوي وَيَقَالُ : غَنَتْ نَفْسَهُ غَنَى أَنَا وَغَنِيًّا وَلَقِسَتْ تَلَقَّسُ لَقَسًا وَتَمَقَّسَتْ تَتَمَقَّسُ تَقَسًّا : إِذَا غَنِيَتْ .

أَكَلَ الْأَعْرَابُ لِلْحَيَاتِ

وَأَخْبَرَنِي صَبَاحُ بْنُ خَاقَانَ قَالَ : كُنْتُ بِالْبَادِيَةِ فَرَأَيْتُ نَاسًا حَوْلَ نَارٍ فَسَأَلْتُ عَنْهُمْ فَقَالُوا : قَدْ صَادُوا حَيَاتٍ فَهُمْ يَشْوُونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا إِذْ نَظَرْتُ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ يَنْهَشُ حَيَّةً قَدْ أَخْرَجَهَا مِنَ الْحِمْرِ فَرَأَيْتُهُ إِذَا

امْتَنَعَتْ عَلَيْهِ يَمِدُّهَا كَمَا يُمِدُّ عَصَبٌ لَمْ يَنْضَحْ فَمَا صَرَفْتُ بَصْرِي عَنْهُ حَتَّى لُبَطَ بِهِ فَمَا لَيْتَ أَنْ مَاتَ فَسَأَلْتُ عَنْ شَأْنِهِ فَقِيلَ لِي : عَجَّلْ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ تَنْضَحَ وَتَعْمَلَ النَّارَ وَقَدْ كَانَ قَدْ بَعْدَادَ وَفِي الْبَصْرَةِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْحَوَائِنِ يَأْكُلُ أَحَدُهُمْ أَيَّ حَيَّةٍ أَشْرَتْ إِلَيْهَا فِي جَوْنَتِهِ غَيْرَ مَشْوِيَّةٍ وَرَبَّمَا أَخَذَ الْمَرَاةَ وَسَطَ رَاحَتِهِ فَلَطَعَهَا بِلِسَانِهِ وَيَأْكُلُ عَشْرِينَ عَقْرَبَانَةً نَيَّةً بِلِزَامِهِمْ وَأَمَّا الْمَشْوِيُّ فَإِنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ غُرْسٌ .

شَعَرَ فِي الْحَيَاتِ وَقَالَ كَثِيرٌ : (وَمَا زَالَتْ رُقَاكَ تَسْلُ ضِغْنِي ** فَتُخْرِجُ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِيبَايَ) (وَتَرْقِيَنِي لَكَ الْحَاوُونَ حَتَّى ** أَجَابَتْ حَيَّةٌ خَلْفَ الْحِجَابِ)

وَقَالَ أَبُو عَدْنَانَ وَذَكَرَ ابْنَ ثُرَوَانَ الْخَارِجِيَّ حِينَ كَانَ صَارَ إِلَى ظَهْرِ الْبَصْرَةِ وَخَرَجَ إِلَيْهِ مَنْ خَرَجَ مِنْ بَنِي ثُمَيْرٍ : (حَسِبْتُ ثُمَيْرًا يَا ابْنَ ثُرَوَانَ كَالْأُلَى ** لَقَيْتَهُمْ بِالْأَمْسِ : ذُهْلًا وَيَشْكُرًا) (كَمَا ظَنَّ صَيَّادُ الْعَصَافِيرِ أَنَّ فِي ** جَمِيعِ الْكُؤَى جَهْلًا فَرَاخًا وَأَطِيرًا) (فَأَدْخَلَ يَوْمًا كَفَّهُ جُحْرًا أَسْوَدَ ** فَشَرَّشَرَهُ بِالتَّهَشِّ حَتَّى تَشَرَّشَرَا) (أَرَادَ قَوْلَ رُؤْبَةٍ : (كُنْتُمْ كَمَنْ أَدْخَلَ فِي حُجْرٍ يَدَا ** فَأَخْطَأَ الْأَفْعَى وَلَاقَى الْأَسْوَدَا) فَقَدَّمَ الْأَسْوَدَ عَلَى الْأَفْعَى وَهَذَا لَا يَقُولُهُ مَنْ يَعْرِفُ مِقْدَارَ سَمِّ الْحَيَاتِ .

وَقَالَ عَنَتْرَةُ : (حَلَفْنَا لَهُمْ وَالْخَيْلُ تَرْدِي بِنَا مَعًا ** نَزَائِلُكُمْ حَتَّى تَهَرُّوا الْعَوَالِيَا) (عَوَالِي سُمْرٍ مِنْ رِمَاحِ رُدَيْنَةٍ ** هَرِيرِ الْكِلَابِ يَتَّقِينَ الْأَفَاعِيَا) حَدِيثٌ فِي الْحَيَّةِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اتَّقُوا ذَا الطُّفَيْتَيْنِ (وَالْأَبْتَرُ .)

شَبَّهَ الْخَيْطِينَ عَلَى ظَهْرِهِ بِخُوصِ الْمَقْلِ وَأَنْشَدْتُ لِأَبِي ذُؤَيْبٍ : (عَفَتْ غَيْرَ نُؤْيٍ الدَّارِ لِأَيَّاءِ أَبِيئِهِ ** وَأَقْطَاعِ طُفْنِي قَدْ عَفَتْ فِي الْمَعَاقِلِ)

وَالطُّفَى : خُوصُ المَقْل .

وهم يَصْفُون بَطْنَ المرأةِ الهيفاءِ الخميصةِ البطنِ يطن الحيةَ وهي الأيم وقال العجاج : وَبَطْنٌ أيمٍ وَقَوَامٌ
عُسْلَجًا مناقضة شعرية وقال أذهم بن أبي الزَّعْرَاءِ وشبهه نفسه بحية : (وما أسودُّ بالبأس ترتاح نفسه ** إذا
حلية جاءت ويطرق للحس) (سقط : بيت الشعر) (به نقط حمر وسود كأنما ** تنضج نضجاً بالكحيل
وبالورس)

(أصم قطارىٌ يكون خروجه ** قبيل غروب الشمس مختلط الدمس) (له منزلٌ أنف ابن قنبرة يغتذى **
به السم لم يظهر فماراً إلى الشمس) (يقلب إذا ما قال بين شواهي ** تزل العقاب عن نفاستها الملس)
بأجراً مني يا ابنة القوم مقدماً ** إذا الحرب دبت أو لبست لها لبسى) فأجابه عنترة الطائي فقال : (عَسَاكَ
تمنى من أرقام أرضنا ** بأرقم يسقى السم من كل منطفٍ)

شعر في الأسود وقال عنترة : (أترجو حياةً يا ابن بشر بن مسهر ** وقد علقت رجلاك في ناب أسودا) (
أصم جبالي إذا غص عضه ** ترايل عنه جلده فنبدا) (بسلع صفاً لم بيد للشمس قبلها ** إذا ما رآه
صاحب اليم أرحدا) (له ربة في عنقه من قميصه ** وسائره عن منته قد تقددا) (رقود ضحيات كأن
لسانه ** إذا سمع الإجراس مكحال أرحدا) (يفيت النفوس قبل أن يقع الرقي ** وابن أبرق الحاوي عليه
وأرحدا)

شعر في الحية (لا ينبت العشب في وادٍ تكون به ** ولا يجاورها وحش ولا شجر) (ربداء شابكة الأنياب
ذابلة ** ينبو من اليبس عن يافوخها الحجر) (لو سرحت بالندى ما مسها بللٌ ** ولو تكفها الحاوون ما
قدروا) (قد حاوروها فما قام الرقاة لها ** وخالوها فما نالوا ولا ظفروا) (تقصر الورل العادي بضربتها
** نكراً ويهرب عنها الحية الذكر)

جملة القول في الظليم

فمما فيه من الأعاجيب أنه يغتذي الصخر ويتلع الحجارة ويعمد إلى المرو والمرو من الحجارة التي توصف
بالملاسة ويتلع الحصى والحصى أصلب من الصخر ثم يميجه ويذيه في قانصته حتى يجعله كالماء الجاري
ويقصد إليه وهو واثق باستمرائه وهضمه وأنه له غذاء وقوام .
وفي ذلك أعجوبتان : إحداهما التغذي بما لا يتغذى به والأخرى استمراؤه وهضمه للشيء الذي لو ألقي في
شيء ثم طبخ أبداً ما انحل ولا لان والحجارة هو المثل المضروب في الشدة قال الشاعر : حتى يلين لضرس
الماضح الحجر وقال آخر : (ما أطيب العيش لو أن الفتى حَجَرَ ** تنبو الحوادث عنه وهو ملموم) ووصف
الله قلوب قوم بالشدة والقسوة فقال : فهي كالحجارة أو أشد قسوة وقال في التشديد : ناراً وقودها الناس
والحجارة

لأنه حين حذر النَّاسَ أعلمهم أنه يُلقِي العصاة في نار تَأْكُلُ الحِجَارَةَ .
ومن الحِجَارَةِ ما يَتَّخِذُهُ الصَّفَارُونَ عِلَاقَةً دُونَ الْحَدِيدِ لِأَنَّهُ أَصْبَرُ عَلَى دَقِّ عِظَامِ الْمَطَارِقِ وَالْفِطْيَسَاتِ .
فَجَوْفُ النِّعَامَةِ يُذَيِّبُ هَذَا الْجَوْهَرَ الَّذِي هَذِهِ صِفَتُهُ .

شواهد لأكل النعام الحصى والحجارة

وقال ذو الرُّمَّة : (أَذَاكَ أُمُّ خَاضِبٍ بِالسِّيِّ مَرْتُهُ ** أَبُو ثَلَاثِينَ أُمْسَى وَهُوَ مُنْقَلِبٌ) (شَخَتْ الْجُرَارَةُ مِثْلُ
الْبَيْتِ سَانِرُهُ ** مِنْ الْمُسُوحِ خَذِبٌ شَوْقَبٌ خَشِبٌ)

(كَأَنَّ رَجُلِيهِ مِسْمَاكَانِ مِنْ عُشْرِ ** صَقْبَانِ لَمْ يَتَقَشَّرْ عَنْهُمَا التَّجَبُّ) (الْهَاهُ آءٌ وَتَنُومٌ وَعُقْبَتُهُ ** مِنْ لَانِحِ
الْمَرْوِ وَالْمَرْعَى لَهُ عُقْبٌ) وقال أَبُو النَّجْمِ : (وَالْمَرْوُ يُلْقِيهِ إِلَى أَمْعَانِهِ ** فِي سَرَطِمٍ مَادَ عَلَى التَّوَانِهِ)

(يَمُورُ فِي الْحَلْقِ عَلَى عِلْبَانِهِ ** تَمْعُجُ الْحَيَّةُ فِي غِشَائِهِ) هَادٍ وَلَوْ حَارَ بِجَوْصَلَانِهِ

إذابة جوف الظليم للحجارة

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ جَوْفَ الظَّلِيمِ إِنَّمَا يُذَيِّبُ الْحِجَارَةَ بَقِيْظَ الْحَرَارَةِ فَقَدْ أَخْطَأَ وَلَكِنْ لَا بَدَّ مِنْ مَقْدَارٍ لِلْحَرَارَةِ وَنَحْوِ
غَرَائِزٍ أُخَرَ وَخَاصِيَّاتٍ أُخَرَ أَلَا تَرَى أَنَّ الْقُدُورَ الَّتِي يُوقَدُ تَحْتَهَا الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي لَا تَذُوبُ . (الْقَوْلُ فِي
الْخَاصِيَّاتِ وَالْمُقَابَلَاتِ وَالْغَرَائِزِ) وَسَاءَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ فِي الْخَاصِيَّاتِ وَالْمُقَابَلَاتِ وَالْغَرَائِزِ حَقٌّ أَلَا تَرَى أَنَّ
جَوْفَ الْكَلْبِ وَالذِّيبِ يَذِيبَانِ الْعِظَامَ وَلَا يَذِيبَانِ نَوَى التَّمْرِ وَنَوَى التَّمْرِ أَرْخَى وَأَلَيْنَ وَأَضْعَفُ مِنَ الْعِظَامِ
الْمُصَمَّمَةِ وَمَا أَكْثَرَ مَا يَهْضِمُ

العظم وقد يهضم العظم جوف الأسد وجوف الحية إذا ازدردت بضع اللحم بالشره والنهم وفيها بعضُ
العظام .

والبراكين التي يُحِيلُ أَجْوَأُهَا الْقَتَّ وَالْبَنَ رَوْثًا لَا تَسْتَمِرُّ الشَّعِيرُ .
وَالْإِبِلُ تَقْبِضُ بِأَسْنَانِهَا عَلَى أَغْصَانِ أُمِّ غَى لَأَنَّ وَلَهُ شَوْكٌ كَصِيَاصِي الْبَقْرِ وَالْقُضْبَانُ عِلْكَةٌ يَابِسَةٌ جَرْدٌ
وَصَلَابٌ مَتِينَةٌ فَتَسْتَمِرُّهَا وَتَجْعَلُهَا ثَلْطًا وَلَا تَقْوَى عَلَى هَضْمِ الشَّعِيرِ الْمُنْقَعِ وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْخِصَائِصِ
وَالْمُقَابَلَاتِ .

وقد قَدَّرَ كُلُّ شَيْءٍ لَشَيْءٍ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا نَفَذَ خَرَطُومُ الْبَعُوضَةِ وَالْجُرْجَسَةِ فِي جِلْدِ الْفِيلِ وَالْجَامُوسِ وَلَمَّا
رَأَيْتَ الْجَامُوسَ يَهْرُبُ إِلَى الْإِنْعِمَاسِ فِي الْمَاءِ مَرَّةً وَمَرَّةً يَتَلَطَّخُ بِالطِّينِ وَمَرَّةً يَجْعَلُهُ أَهْلُهُ عَلَى رِيثِ الدَّكَانِ وَلَوْ
دَفَعُوا إِلَيْكَ مِسْلَةً شَدِيدَةً لَمَّا أَدْخَلْتَهَا فِي جِلْدِ الْجَامُوسِ إِلَّا بَعْدَ التَّكْلُفِ وَإِلَّا بَعْضُ الْإِعْتِمَادِ .
وَالَّذِي سَخَّرَ جِلْدَ الْجَامُوسِ حَتَّى انْفَرَى وَانْصَدَعَ لَطْعَنَةِ الْبَعُوضَةِ

وسخَّر جلد الحمار لطعنة الذُّباب وسخَّر الحجارة لجوف الظليم والعظم لجوف الكلب هو الذي سخَّر الصَّخر الصُّلب لأذنان الجراد إذا أرادت أن تُلقِي بيضها فإنَّها في تلك الحال متى عقدت ذنبها في صاحي صخرة انصدعت لها ولو كان انصداعها من جهة الأسر ومن قوَّة الآلة ومن الصَّدَم وقوَّة الغمز لانصدعت لما هو في الحسَّ أشدُّ وأقوى ولكنَّه على جهة التَّسخير والمقابلات والخصائص .
وكذلك عُود الحلفاء مع دِقَّتِه ورخاوته ولين انعطافه إذا نبت في عمق الأرض وتلقَّاه الآجرُ والخرفُ الغليظ ثَقَبَ ذلك عند نباته وشبابه وهو في ذلك عبقرٌ نصير .

وزعم لي ناسٌ من أهل الأرْدُنَّ أنَّهم وجدوا الحلفاء قد خرَّقَ جوف القار .
وزعم لي أبو عتاب الجرَّار أنَّه سمع الأكرة يُخبرون أنَّهم وجدوه قد خرَّقَ فُلْساً بَصْرِيّاً .

وليس ذلك لشدة الغمز وحلَّة الرأس ولكنه يكون على قدر ملاقة الطباع .
ويزعمون أنَّ الصَّاعقة تسقطُ في حانوت الصَّيقل فتذيب السُّيُوفَ بطبعها وتدع الأعمادَ على (شبيهه بحالها وتسقطُ على الرَّجل ومعه الدراهم فتُسبك الدِّراهم ولا يصيبُ الرَّجلُ أكثرُ من الموت .
والبحريُّون عندنا بالبصرة والأُبلة التي تكون فيها الصَّواعق لا يدعون في صُحُون دُورهم وأعالِي سُطوحهم شيئاً من الصُّفر إلَّا رَفَعُوهُ لَأَنَّهُم تنقضُّ من أصل مخرجها على مقدارٍ من محاذاة الأرض ومقابلة المكان فإذا كان الصُّفر لها ضاحياً عدلتُ إليه عن سَنِّها .
وما أنكر ما قالوا وقد رأيتهم يستعملون ذلك .
وقد يَسْقُطُ النَّوى في ثرابِ الموطأ فإذا صهرجَ نَبَتَ فإذا انتهى إلى الصَّاروج أمسك وإن كان الصَّاروج رقيقاً فإنَّ قُبْرَ وجعل غِلْظُهُ بقدر طول الإبهام نبت ذلك النَّوى حتَّى يخرِّقَ ذلك القار .

ولو رام رَجُلٌ خرَّقَهُ بمسمار أو سِكة لما بلغ إرادته حتَّى يشقَّ على نفسه .
والذي سخَّر هذه الأمور القويَّة في مذهب الرَّأي وإحساسِ النَّاسِ هو الذي سخَّر القُمَّمَ والطَّيِّجنَ والمِرْجَلَ والطَّستَ لإبرة العقرب فما أُحصي عددُ مَنْ أخبرني من الحوَّائين من أهل التَّجارب أنَّها ربَّما خرجت من جُحرها في اللَّيْلِ لطلبِ الطَّعم ولها نشاط وعُرام فتضربُ كلَّ وزعم لي خاقانُ بن صبيح واستشهد المشيَّ بن بشرٍ وما كان يحتاجُ خبرُهُ إلى شاهدٍ لصدقه أنَّه سمع في داره نَقْرَةً وقعت على قُمَّمٍ وقد كان سمع بهذا الحديث فنهض نحو الصَّوت فإذا هو بعقرب فتعاورها هو والمشيَّ بنعالهما حتَّى قتلاها ثُمَّ دَعَوَا بماء فصَبَّاه في القُمَّمِ في عَشِيَّتِهِمَا وهو صحيحٌ لا يسيلُ منه شيء .
فمن تعجَّب من ذلك فليصرفُ بَدِيّاً تعجُّبه إلى الشيء الذي

تقذفه بذنبها العقربُ في بدن الإنسان والحمير والبغال فليفكِّر في مقدار ذلك من القلة والكثرة فقد زعم لي ناسٌ من أهل العسْكر أنَّهم وزنوا جرَّارَةً بعد أن أُلْسِموها فوجدوا وزنها على تحقيق الوزن على مقدارٍ واحد

فإن كان الشيء المقدوف من شكل الشيء الحارّ فلم قصّرت النَّارُ عن مبلغ عمله وإن كان من شكل الشيء البارد فلم قصّر الثلج عن مبلغ عمله فقد وجب الآن أن السمّ ليس يقتل بالحرارة ولا بالبرودة إذا كان بارداً ولو وجدنا فيما أردنا شيئاً بلغ مبلغ الثلج والنار لذكرناه .

فقد دلّ ما ذكرنا على أن جوف النّعامِ ليس يذُيب الصّخرَ الأملسَ بالحرارة ولكنّه لا بدّ على (كلِّ حالٍ من مقدارٍ من الحرارة مع خاصيّاتٍ أُخرَ ليست بذاتِ أسماءٍ ولا تعرفُ إلاّ بالوهم في الجملة .

علة قتل السم

والسمّ يقتل بالكمّ والكيف والجنس والكمّ المقدار والكيف : الحدّ والجنس : عَيْنُ الجوهرِ وذاتُه وترعمُ الهندُ أن السمّ إنما يقتل بالغرابة وأنّ كلَّ شيءٍ غريب خالطَ جوفَ حيوانٍ قتلَهُ وقد أبى ذلك ناسٌ فقالوا : وما بالله يكون غريباً إذا لاقى العصبَ واللحمَ وربّما كان عاملاً فيهما جميعاً بل ليس يقتل إلاّ بالجنس وليس تُحسُّ النفسُ إلاّ بالجنس ولو كان الذي يميت حسّهما إنّما يميتُهُ لأنّه غريبٌ جازٍ أيضاً أن يكون الحسّاسُ إنّما حسّ لأنّه غريب ولو كان هذا جائزاً لقليل في كلّ شيء .

وقال ابن الجهم : لولا أن الذهب المانع والفِضة المانعة يجمدان إذا صارا في جوف الإنسان وإذا جمدا لم يجاوزا مكانهما لكنا من القواتل بالغرابة .

وهذا القول دعوى في النَّفس والنفسُ تضيق جدّاً وما قرأت للقدماء في النفس الأجلاد الكثيرة وإنما يستدلُّ ببقاء تلك الكتب على وجه الدّهر إلى يومنا هذا ونسخ الرّجال لها أمّة بعد أمّة وعمراً بعد عمر على جهل أكثر النَّاسِ بالكلام والمتكلمون

يريدون أن يعلموا كلّ شيء ويأبى الله ذلك فهذا بابٌ من أعاجيب العظيم .

وهو ابتلاؤه الجمرَ حتى ينفذ إلى جوفه فيكون جوفه هو العامل في إطفائه ولا يكون الجمرُ هو العامل في إحراقه .

وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظام وكنا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماعٍ أو عيان أنّه شهدَ محمد بن عبد الله يلقي الحجرَ في النار فإذا عاد كالجرم قدف به قدّامه فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمرَ كنت قلت له : إنّ الجمرَ سخيفٌ سريعُ الانطفاء إذا لقي الرّطوبات ومتى أطبقَ عليه شيء يحولُ بينه وبين التّسليم خمدَ والحجرَ أشدُّ إمساكاً لما يتداخله من الحرارة وأثقلُ ثقلًا وألّزقُ لزوقاً وأبطأ انطفاءً فلو أحميت الحجارة فأحماها ثم قدف بها إليه فابتلع الأولى فارتبت به فلما ثنى وثلث اشتدّ تعجبي له فقلت له : لو أحميت أواقي الحديد ما كان منها رُبْع رطلٍ ونصف رطل ففعل فابتلعه فقلت : هذا أعجبُ من الأوّل والثاني وقد بقيت علينا واحدةٌ وهو أن نُنظر : أيسْتَمري الحديد كما يستمري الحجارة ولم يتركنا بعضُ

السفهاء

وأصحاب الخرق أن نتعرّف ذلك على الأيام وكنت عزمتُ على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته فلعّل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمد بعضُ ثدماثه إلى سكينٍ فأحميَ ثم ألقاه إليه فابتلعه فلم يجاوز

أعلى حلقة حتى طلع طرف السكين من موضع مذبجه ثم خرّ ميتاً فمَنَعْنَا بخرقه من استقصاء ما أردنا .
وفي النعامة أنّها لا طائر ولا بغير وفيها من جهة المنسم والوظيف والحرمة والشقّ الذي في أنفه ما للبعير
وفيها من الريش والجناحين والذنب والمنقار ما للطائر وما كان فيها من شكل الطائر أخرجها ونقلها إلى
البيض وما كان فيها من شكل البعير لم يخرجها ولم ينقلها إلى الولد وسماها أهل فارس : أشترمرغ كأنهم
قالوا : هو طائر وبعير .

شعر في شبه النعامة بالبعير والطائر
وقال يحيى بن نوفل : (فأنت كساقط بين الحشايا ** تصير إلى الخبيث من المصير) (ومثلُ نعامٍ تُدعى بغيراً
** تعاضمها إذا ما قيل طيري) (فإن قيل أحملني قالت فإنني ** من الطير المريبة بالوكور) ثم هجا خالداً
فقال : (وكنت لدى المغيرة غير سوء ** تصول من المخافة للزئير)

(لأعلاج ثمانية وعلج ** كبير السنّ ذي بصر ضير) (هتفت بكل صوتك : أطعموني ** شرباً ثم بُلّت
على السرير) وإنما قيل ذلك في النعامة لأنّ الناس يضربون بها المثل للرجل إذا كان ممن يعتل في كل شيء
يكلفونه بيلة وإن اختلف ذلك التكليف وهو قولهم : إنما أنت نعامٌ إذا قيل لها احملني قالت :

قصة أذني النعامة

وترعمُ الأعرابُ أنّ النعامة ذهبت تطلبُ قرين فرجعت مقطوعة الأذنين فلذلك يسمونه الظليم ويصفونه
بذلك .

وقد ذكر أبو العيال الهذلي ذلك فقال :

(وإخال أن أخاكم وعتابه ** إذ جاءكم بتعطف وسكون) (يُمسي إذا يُمسي بطن جائع ** صفر وجهه
ساهم مدّهون) (فعداً يمت ولا يرى في بطنه ** مثقال حبة خردل موزون) (أو كالنعامة إذ غدت من
بيتها ** ليصاغ قرناًها بغير أذنين) (فاجتشت الأذنان منها فأنشت ** صلماء ليست من ذوات قرون)

تقليد الغراب للعصفور ويقولون : ذهب الغراب يتعلم مشية العصفور فلم يعلمها ونسي مشيته فلذلك
صار يحجل ولا يقفز ففران العصفور .

مشي طوائف من الحيوان والبرغوث والجرادة ذات قفز ولا تمشي مشية الديك والصقر والبازي ولكن
تمشي مشية المقيد أو المحجل خلقه .

قال أبو عمران الأعمى في تحوّل قضاة إلى قحطان

عن نزار : (كما استوحش الحي المقيم ففارقوا ** الخليط فلا عزّ الذين تحمّلوا) (كنارك يوماً مشية من
سجية ** لأخرى ففأنته فأصبح يحجل)

عظام النعامة

ومن أعاجيبها أنها مع عظم عظامها وشدة عدوها لا مخّ فيها .
وفي ذلك يقول الأعلام الهذلي : (عَلَى حَتِّ الْبُرَايَةِ زَمْخَرِيَّ السَّ * * *) واعدِ ظَلَّ في شَرِي طَوَالِ) يعني ظليماً
شبه به عدو فرسه والحثُّ : السريع والشري :

الحنظل وبرايته : قوته على ما يبّريه من السّير والسّواعد : مجاري مخّه في العظم وكذلك مجاري غُروق
الضرع يقال لها السّواعد .

قال : ونظنّ إنّما قيل لها ذلك لأنّ بعضها يُسعدُ بعضاً كأنّه من التعاون أو من المواساة .
قال : والزّمخريّ : الأجوف ويقال : إنّ قَصَبَ عَظْمِ الظّليم لا مخّ له وقال أبو التّجّم : وواحد السّواعد :
ساعد .

وقال صاحب المنطق : ليس المخّ إلّا في الجوفّة مثل عظم الأسد .
وفي بعض عظامه مخّ يسير وكذلك المخّ قليل في عظام الخنازير وليس في بعضها منه شيء البتّة .

بيض النعام وما قيل فيه من الشعر

ومن أعاجيبها أنها مع عظم بيضها تكثرُ عددُ البيض ثمّ تصعّ بيضها طويلاً حتى لو مددت عليها خيطاً لما
وجدت لها منه خروجا عن الأخرى تُعطي كلّ بيضة من ذلك قسطه ثم هي مع ذلك ربّما تركت
بيضها وذهبت تلتمسُ الطّعام فتجدُ بيضَ أخرى فتحضنه وربّما حضنت هذه بيضَ تلك وربّما ضاع البيضُ
بينهما .

وأما عددُ بيضها ورائها فقد قال ذو الرّمة : (أذاك أم خاضبٌ بالسّيّ مرثعهُ * * * أبو ثلاثين أمسى وهو
مُنْقَلِب) وفي وضعها له طويلاً وعرضاً على خطّ وسطرٍ يقول : (وَمَا يَبْضُتُ ذِي لَبْدٍ هَجَفٌ * * * سُقَيْنَ
بِرَاجِلٍ حَتَّى رَوَيْنَا) (يَبِيتُ يَحْفَهُنَّ بِمَرْفَقَيْهِ * * * وَيَلْحَفُهُنَّ هَفَهَا ثَخِينَا)

وقال الآخر : (قهوى بها مكرباتٌ في مرافقها * * * فتلّ صلابٌ مياسيرٌ معاجيل) (يدا مهاةٍ ورجلا خاضبٍ
سنقي * * * كأنه من جناه الشرى مخلول) (هيقٍ هجفٍ وزفانيةٍ مرطى * * * زعراء ريش جناحيها هراميل)

(كأنما منثى أقماع ما هصرت * * * من العفاء بليتيها تآليل) (تروحا من سنام العرق فالتبطا * * * إلى القنان
التي فيها المداخيل) (إذا استهلا بشؤبوب فقد فعلت * * * بما أصابا من الأرض الأفاعيل) (فصادفا البيض
قد أبدت مناكبها * * * منها الرثال لها منها سراويل) (فنكبا يبقفان البيض عن بشرٍ * * * كأنها ورق البسباس
مغسول)

تشبيه القدر الضخمة بالنعامة

والشُّعراء يشيِّهون القِدْرَ الصَّخْمَةَ التي تكون بمنزِلِ العَظيمِ وأشباهِهِ من الأجواد بالنَّعامة قال الرَّمَّاحُ ابنُ مَيَّادة : (إلى جامعٍ مثل النَّعامة يلتقي ** عوازه فوق) جامع : يعني القدر وجعلها مثل النَّعامة . وقال ابن ميادة يمدح الوليدَ بنَ يزيد : (نتاج العِشارِ المنقيات إذا شَتَّ ** روابِدها مثل التَّعامِ العواطفِ) وقال الفرزدق : (وقدرٍ كحيزوم النَّعامة أُحْمِشَتْ ** بأجْدالِ خُشبٍ زالَ عَنْها هَشيْمُها)

الذَّنب والنعام

وضحك أبو كَلَلَةَ حين أنشِدَ شعرَ ابنِ التَّطَّاحِ وهو قوله : والذَّنبُ يلعب بالنَّعامِ الشَّاردِ قال : وكيف يلعب بالنَّعامِ والذَّنبُ لا يَعرِضُ لبيض النَّعامِ وفراخه حين لا يكونان حاضرين أو يكون أحدهما لأنَّهُما متى ناهضاه ركضَهُ الذَّكَرُ فرماه إلى الأنثى وأعجلتُهُ الأنثى فَرَكَضَتُهُ ركضَةً تُلقِيه إلى الذَّكَرِ فلا يزالان كذلك حتى يقتلاه أو يعجزهُما هَرَباً وإذا حاولَ ذلكَ منه أَحَدُهُما لم يَقوَ عليه قال : فكيف يقول :

والذَّنبُ يلعب بالنعام الشارد وهذه حاله مع النَّعامِ . وزعم أن نعامتين اعتورتا ذنباً فهزمتاه وصعد شجرةً فجالدهما فنقره أحدهما فتناول الذَّنبُ رأسه فقطعه ثم نزل إلى الآخر فساوره فهزَّمه . (جُنُ الظليم ونفاره) والظَّليم يُوصَفُ بالجُنِّ ويوصَفُ بالنَّفارِ والتَّوَحُّشِ . وقال سَهْمُ بن حنظلة في هجائه بني عامر : (إذا ما رَأَيْتَ بني عامرٍ ** رَأَيْتَ جَفَاءً وَتَوَكَّأً كَثِيراً) (نعامٌ تَجُرُّ بأَعناقِها ** ويمنعها نُوكُها أن تطيرا)

ضرر النعام

والنَّعامة تتخذها النَّاسُ في الدُّورِ وضررها شديدٌ لأنَّها ربَّما رأت في أذن الجارية أو الصبيَّة قُرْطاً فيه حجرٌ أو حَبَّةً لؤلؤً فَتَحْطِفُهُ

لتأكله فكم أذنٍ قد خرقتها وربَّما رأت ذلك في لَبَةِ الصبيِّ أو الصبيَّة فتضربه بمنقارها فربَّما خرقت ذلك المكان .

شعر في تشبيه الفرس بالظليم

(وخذ أسيلٌ كالمِسْنِ وبرِكةٍ ** كَجَوْجُو هَيْقٍ دَفَّهُ قد تمورا) وقال عُقْبَةُ بن سَابِق : (وله بركة كَجَوْجُو هَيْقٍ ** ولَبَانٌ مَضْرَجٌ بالخَضَابِ) وقال أبو داؤد الإيادي :

(يَمْشِي كَمْشِي نَعَامَتَ ** يَنْ يُتَابِعَانِ أَشَقَّ شَاخِصٍ) وقال آخر : (كَأَنَّ حِمَامَةَ كُرْدُوسٍ فَحَلٍ ** مَقْلَصَةٌ عَلَى سَاقِي ظَلِيمٍ) وقال أبو داؤد الإيادي : (كَالسَّيِّدِ مَا اسْتَقْبَلْتَهُ وَإِذَا ** وَلَّى تَقُولُ مُلَمَّمٌ ضَرْبُ) (لَأَمْ

إذا استقبلته ومَشَى ** متتابعاً ما خائنه عَقَبُ) (يَمْشِي كَمْشِي نَعَامَةً تَبَعْتُ ** أُخْرَى إِذَا مَا رَاعَهَا خَطْبُ)
القول فيما اشْتَقَّ له من البَيض اسم قال العَدْبَس الكِنَانِي : باضت البُهْمَى : أي سقطت نصالها

وباض الصَّيْف وباض القَيْطُ : اشتدَّ الحرُّ وخرج كلُّ ما فيه من ذلك . (فَجِنَّا وقد باضَ الكَرَى في عُيُونِنَا
** فَتَى مِنْ عُيُوبِ الْمُقْرِفِينَ مُسَلِّمًا) وقال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ : (رَكِبْتُ بَيْضَةَ الْبَيَاتِ عَلَيْهِمْ ** لم يُحِسُّوا
منها سِوَاهَا نَذِيرًا) وقال الرَّاعِي يَهْجُو ابْنَ الرَّقَاعِ : (لو كُنْتُ مِنْ أَحَدٍ يُهْجَى هَجْوَتُكُمْ ** يا ابْنَ الرَّقَاعِ
ولكن لَسْتُ مِنْ أَحَدٍ) (تَأْبَى قُضَاعَةٌ لَمْ تَقْبَلْ لَكُمْ نَسَبًا ** وَابْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ)
وفي المديح قولُ عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه : أنا بَيْضَةُ الْبَلَدِ ومنه بيضة الإسلام وبيضة القبة : أعلاها
وكذلك الصَّوْمَعَةُ والبَيْضُ : قلانس الحديد .

وقال أبو حِيَّةَ التُّمَيْرِيُّ : (وَصَدَّ الْغَانِيَاتُ الْبَيْضُ عَنِّي ** وما إنْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ تَقَالِي) (رَأَيْنَا الشَّيْبَ بَاضَ
عَلَى لِدَاتِي ** وَأَفْسَدَ مَا عَلَيَّ مِنَ الْحَمَالِ) وَبَيْضُ الْجُرْحِ وَالْخُرَاجِ وَالْحَيْنِ : الودع الذي يُجْمَعُ فِيهِ الصَّدِيدُ
إِذَا خَرَجَ بَرٌّ وَصَلَحَ وَقَدْ يُسْمَوْنَ مَا فِي بَطُونِ إناثِ السَّمَكِ بَيْضًا وَمَا فِي بَطُونِ الْجَرَادِ بَيْضًا وَإِنْ كَانُوا لَا
يَرَوْنَ قِشْرًا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ وَلَا قَيْضًا يَكُونُ لِمَا فِيهِ حِضْنًا .

شعر في التشبيه بالبَيْض وقال الأعشى في تشبيه اللِّغَاءِ الحَسَنَاءِ بالبَيْضَةِ : (أَوْ بَيْضَةٍ فِي الدَّعْصِ مَكُونَةٍ **
أَوْ دُرَّةٍ سَيَقَتْ إِلَى تَاجِرٍ) وقال في بَيْضِ الْحَدِيدِ : (كَأَنَّ نَعَامَ الدَّوِّ بَاضَ عَلَيْهِمْ ** إِذَا شَامَ يَوْمًا لِلصَّرِيخِ
الْمُنْدَدِ) وقال الأعشى : (أَتَتْنَا مِنَ الْبَطْحَاءِ يَبْرُقُ بَيْضُهَا ** وَقَدْ رُفِعَتْ نِيرَانُهَا فَاسْتَقْلَتْ)

وقال زيد الخيل : (كَأَنَّ نَعَامَ الدَّوِّ بَاضَ عَلَيْهِمْ ** فَأَحْدَأَهُمْ تَحْتَ الْحَدِيدِ خَوَازِرُ) استطراد لغوي قال :
ويقال تَقِيضَتِ الْبَيْضَةُ وَالْإِنَاءُ وَالْقَارُورَةُ تَقِيضًا : إِذَا انْكَسَرَتْ فَلَقًا فَإِذَا هِيَ لَمْ تَتَفَلَّقْ فَلَقًا وَهِيَ مُتَلَازِقَةٌ فَهِيَ
مُنْقَاضَةٌ انْقِيَاضًا وَقِيضُ الْبَيْضَةِ : قَشْرَتُهَا الْيَاسَةِ وَغَرَفَتُهَا : الْقَشْرَةُ الرَّقِيقَةُ الَّتِي بَيْنَ اللَّحْمِ وَبَيْنَ الصَّمِيمِ قَالَ
: وَالصَّمِيمُ : الْجِلْدَةُ .

قال : وَيُقَالُ غَرَقَاتُ الْبَيْضَةِ : إِذَا خَرَجَتْ وَلَيْسَ لَهَا قَشْرٌ ظَاهِرٌ غَيْرَ الْغَرَقَةِ .
قال الرَّدَادُ : غَرَقَاتُ الدَّجَاجَةِ بَيْضُهَا فَالْبَيْضَةُ مُغْرَقَاةٌ وَالْخِرْشَاءُ : الْقَشْرَةُ الْغَلِيظَةُ مِنَ الْبَيْضَةِ بَعْدَ أَنْ تَنْقَبَ
فِيخْرَجَ مَا فِيهَا مِنَ الْبَلَلِ وَجَمَاعُهَا الْخِرَاشِيُّ غَيْرُ مَهْمُوزٍ .
قال : وَقَالَ رَدَادٌ : خِرْشَاءُ الْحَيَّةِ : سَلَخُهَا حِينَ تَسْلَخُ .
قال : وَتَعَدَّى أَعْرَابِيٌّ عِنْدَ بَعْضِ الْمُلُوكِ فَدَبَّتْ عَلَى حَلْقِهِ قَمْلَةً فَتَنَاولَهَا فَقَصَعَهَا بِإِهْمَامِهِ وَسَبَّابَتِهِ ثُمَّ قَتَلَهَا فَقَالُوا
لَهُ : وَيْلَكَ مَا صَنَعْتَ فَقَالَ : بِأَيِّ أَنْثَى وَأُمِّي مَا بَقِيَ إِلَّا خِرْشَاؤُهَا .

وَقَالَ الْمُرْقَشُ : (إِنْ تَغَضَّبُوا نَغْضَبْ لَذَاكُمْ كَمَا ** يَنْسَلُّ مِنْ خِرْشَانِهِ الْأَرْقَمُ) وقال ثُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ فِي بَيْضِ الْحَدِيدِ : قَالَ : وَيُقَالُ فِي الْحَافِرِ نَزَا يَنْزُو وَأَمَّا الظِّلْمُ فَيُقَالُ : قَعَا يَقْعُو

مِثْلَ الْبَعِيرِ يُقَالُ : قَاعَ يَقْوَعُ قَوْعًا وَقِيَاعًا وَقَعَا يَقْعُو قَعْرًا فِهَذَا مَا يَسُوُّونَ فِيهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَعِيرِ وَيُقَالُ : خَفَّ الْبَعِيرُ وَالْجَمْعُ أَخْفَافٌ وَمَنْسَمُ الْبَعِيرِ وَالْجَمْعُ مَنْاسِمٌ وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِلتَّعَامَةِ .
وَقَالَ الرَّاعِي : (وَرَجُلٌ كَرَجُلٍ الْأَخْلَرِيِّ يُشِيلُهَا ** وَطِيفٌ عَلَى خُفِّ التَّعَامَةِ أَرْوَحُ) وقال جِرَانُ الْعُودِ :
قَالَ : وَالزَّاجِلُ : مَاءُ الظِّلْمِ وَهُوَ كَالْكَرَاضِ مِنْ مَاءِ الْفَحْلِ وَأَنْشَدَ لَابْنُ أَحْمَرَ : (وَمَا بِيضَاتُ ذِي لَبْدٍ هِجَفٌ ** سَقِينِ بَرَاجِلٍ حَتَّى رَوَيْنَا) وقال الطَّرِمَاحُ : (سَوْفَ تُذْنِيكَ مِنْ لَمِيسَ سَبْنَدَا ** ةً أَمَارَتْ بِالْبَوْلِ مَاءَ الْكَرَاضِ)

وَرَبَّمَا اسْتَعَارُوا الْمَنَاسِمَ قَالَ الشَّاعِرُ : (تَوْعَدُنِي بِالسَّجْنِ وَالْآدَاتِ ** إِذَا عَدَّتْ تَأْطَبَّتْ آدَاتُ) تَرْبِطُ بِالْحَبْلِ أَكْثَرِ عَاتٍ قَالَ : وَيُقَالُ لَوْلَدِ التَّعَامِ : الرَّآلُ وَالْجَمْعُ رِئَالٌ وَرِئَالَانٌ وَحَقَّانٌ وَحَقَّانَةٌ لِلْوَحْدَةِ وَالْجَمْعُ حَقَّانٌ وَحِسْكَلٌ وَيُقَالُ : هَذَا خَيْطٌ نَعَامٌ وَخَيْطَانٌ وَقَالَ الْأَسْوَدُ بْنُ يَغْفَرٍ : (وَكَأَنَّ مَرْجِعَهُمْ مَنَاقِفُ حَنْظَلٍ ** لِعَبِّ الرِّئَالِ بِهَا وَخَيْطُ نَعَامٍ) وَيُقَالُ : قَطِيعٌ مِنْ نَعَامٍ وَرَعْلَةٌ مِنْ نَعَامٍ .

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الرَّعْلَةُ : الْقِطْعَةُ مِنَ النَّعَامِ وَالسَّرْبُ مِنَ الظَّبَاءِ وَالْقَطَا وَالْإِجْلُ مِنَ الظَّلْفِ وَقَالَ طُفَيْلٌ الْغَنَوِيُّ فِي بَيْضَةِ الْحَيِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ : (ضَوَائِعُ تَتَوِي بِبَيْضَةِ الْحَيِّ بَعْدَمَا ** أَذَاعَتْ بَرِيْعَانِ السَّوَامِ الْمَرْبِ)

قَالَ : وَيُقَالُ : لِلظِّلْمِ إِذَا رَعَى فِي هَذَا النَّبَاتِ سَاعَةً وَفِي هَذَا سَاعَةً قَدْ عَقَبَ يُعَقَّبُ تَعْقِيًّا وَأَنْشَدُنِي لَذِي الرَّمَّةِ : (أَلِهَاءُ آءٍ وَتَشْوَمُ وَعَقْبَتُهُ ** مِنْ لَانِحِ الْمَرْوِ وَالْمَرْعَى لَهُ عَقَبٌ) قَالَ : وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ صَغِيرَ الْأَذْنَيْنِ لَا صَفَتَيْنِ بِالرَّأْسِ : أَصَمِعَ وَامْرَأَةً صَمْعَاءَ وَيُقَالُ : خَرَجَ السَّهْمُ مَتَّصِمًا : إِذَا ابْتَلَتْ قُدُّهُ

مِنَ الدَّمِّ وَانْضَمَّتْ وَقَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ : سَهْمًا فَخَرَّ وَرِيْشُهُ مَتَّصِعٌ وَيُقَالُ : أَتَانَا بِشَرِيْدَةٍ مُصَمَّعَةٍ : إِذَا دَقَّقَهَا وَحَدَّدَ رَأْسَهَا وَصَوْمَعَةَ الرَّاهِبِ مِنْهُ لِأَنَّهَا دَقِيقَةُ الرَّأْسِ وَفُلَانٌ أَصَمِعَ الْقَلْبَ : إِذَا كَانَ ذَكِيًّا حَدِيدًا مَاضِيًّا وَقَالَ طَرْفَةُ : (لَعَمْرِي لَقَدْ مَرَّتْ عَوَاطِسُ جَمَّةٍ ** وَمَرَّ قُبَيْلَ الصُّبْحِ ظِيٌّ مَصْمَعٌ) أَرَادَ : مَاضِيًّا .
شَعَرَ فِي الْبَيْضِ وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي بَيْضَةِ الْبَلَدِ :

(أَقْبَلْتُ تُوضِعُ بَكْرًا لَا خِطَامَ لَهَا ** حَسِبْتَ رَهْطُكَ عِنْدِي بَيْضَةَ الْبَلَدِ) وَيُشَبَّهِ عِظَامُ جَمَاجِمِ الرُّؤُوسِ بَبَيْضِ النَّعَامِ وَقَالَ الْأَعْرَجُ الْقَبَنِيُّ : (جَمَاجِمُ غُوْدِرَتْ بِحِمَامٍ عَرَقٍ ** كَأَنَّ فَرَاشَهَا بَيْضُ النَّعَامِ) وَقَالَ مِقَاتِلُ بْنُ طَلَبَةَ : (رَأَيْتُ سَحِيْمًا فَاقَدَ اللَّهَ بَيْنَهَا ** تَنِيكُ بِأَيْدِيهَا وَتَأْبَى أَبُوْرُهَا) وَقَالَ السُّحَيْمِيُّ يَرُدُّ عَلَيْهِ : (مُقَاتِلُ بَشَّرَهَا بِبَيْضِ نَعَامَةٍ ** وَإِنْ لَمْ تَبَشِّرْهَا فَأَنْتَ أَمِيرُهَا) وَقَالَ أَبُو الشَّيْصِ الْخَزَاعِيُّ فِي بَيْضَةِ الْخُدَرِ :

(وأبرزَ الحِدرَ من ثَنِيَّهِ بَيَّضَتَهُ ** وأعجلَ الرُّوعَ نصلَ السَّيْفِ يُخْتَرَطُ) (فثَمَّ تَفْدِيكَ مِنَّا كُلُّ غَانِيَةٍ **
والشَّيْخُ يَفْدِيكَ والوِلْدَانُ والشُّمُطُ) وقال جحشُ بنُ نصيب : (كَأَنَّ فُلاقَ الهامِ تحتَ سِوْفِنَا ** خَذَارِيفُ
بَيَّضَ عَجَلُ التَّقْفُ طائرُهُ) وقال مهلهلُ في بيضةِ الحِدرِ : (وتَجُولُ بِيضَاتُ الحُدُورِ حَواسِرًا ** يَمَسَحُنَ
فَضْلُ ذَوَاتِبِ الأَيْتَامِ) وهو وما قبله يدلان على أَنَّهُم لا يُشَبِّهُونَ بَيَّضَ النِّعَامِ إِلَّا الأَبْكَارَ .
قال الشاعرُ :

(هَجُومٌ عَلَيْهَا نَفْسُهُ غَيْرَ أَنَّهُ ** مَتَى يُرْمَ فِي عَيْنَيْهِ بِالشَّخْصِ يَنْهَضُ) يعني بالبَيضِ يَبْضُ النِّعَامِ وَسَمَاوَةُ الشَّيْءِ
: شَخْصُهُ لِأَنَّ الظِّلْمَ لما رَأَاهُم فَرَعَ وَنَهَضَ وهذا اليتيمُ أيضاً يدلُّ على أَنَّهُ فَرُوقَةٌ .
وقال ذو الرُّمَّةِ في بَيضِ النِّعَامِ : (تراه إِذا هَبَّ الصَّبَا دَرَجَتْ بِهِ ** غَرَابِيبُ مِنْ بِيضٍ هَجَانِنَ دَرْدَقُ) قال :
والصَّبَا والجَنُوبُ قَبَّانِ في أَيَّامِ يُوسُ البَقْلَ وهو الوقتُ الذي
يَتَقَبُّ النِّعَامُ فِيهِ البَيضُ يَقُولُ : درجت به رِثْلَانُ سَوْدٌ غَرَابِيبُ وهي مِنْ بِيضٍ هَجَانِنَ : أَيِ بَيضٍ والدَّرْدَقُ :
الصَّعَارُ وهو مِنْ صُعَرِ الرِّثْلَانِ .

الحصول على بيض النعام

قال طِفِيلُ بنِ عوفٍ الغَنَوِيُّ وذكرَ كيفَ يأخذونَ بَيضَ النِّعَامِ : (عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ بُبُوحَ مَقَامَةٍ ** ولم تَرِ
نَاراً تَمَّ حَوْلَ مجْرَمٍ) (سِوَى نارِ بَيضِ أو غَرَالٍ مُغْفَرٍ ** أَغْنَى مِنْ الحُتْسِ المُنَاخِرِ تَوَعَّمِ)
هذه إِبِلُ رَاعٍ مَعْرَبٍ صَاحِبِ بَوَادٍ وَبَدْوَةٍ لا يَأْتِي المَحَاضِرَ والمِيَاءَ حَيْثُ تَكُونُ التَّيْرَانِ وهو نارُ الصَّيْدِ وهذه
النَّارُ هي النَّارُ التي يُصْطَادُ بِهَا الطُّبَاءُ والرِّثْلَانُ وَيَبْضُ النِّعَامُ لِأَنَّ هذه كُلُّهَا تَعْشَى إِذَا رَأَتْ ناراً ويحدثُ لها
فِكْرَةٌ فِيهَا ونظرُ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ كذلكِ وأَوَّلُ ما يَعَابَثُ الرِّضِيعُ أَوَّلَ ما يَنَاجِي المَصْبَاحَ .
وقد يَعْتَرِي مِثْلُ ذَلِكَ الأَسَدَ وَيَعْتَرِي الضَّفَدَةَ لِأَنَّ الضَّفَدَةَ يَنْقُ فَإِذَا رَأَى ناراً سَكَتَ وهذه الأَجْنَاسُ قد
تُعْتَرُّ بالنَّارِ وَيُحْتَالُ لها بِهَا .

(تشبیه الغيوم بالنعام) وتوصف الغيوم المتراكمة بأنَّ عليها نعاماً قال الشاعرُ : (كَأَنَّ الرَّبَابَ ذَوَيْنَ السَّحَا
** بَ نَعَامٍ تَعْلَقُ بالأَرْجُلِ) وقال آخرُ : (خَلِيلِي لا تَسْتَسْلِمَا وَادْعُوا الَّذِي ** له كُلُّ أَمْرٍ أَنْ يَصُوبَ رَبِيعُ
(حَيًّا لِبِلَادٍ أَبْعَدَ المَحَلِّ أَهْلِهَا ** وفي العَظَمِ شَيْءٌ فِي شَطَاةٍ صُدُوعِ) (بِمَنْتَضِكٍ غَرَّ النَّشَاصِ كَأَنَّهَا **
جِبَالٌ عَلَيْهِنَّ النُّسُورُ وَقُوعُ)

استطرد لغوي وقال آخرُ : (وَضَعَ النِّعَامَاتُ الرِّجَالَ بِرَيْدِهَا ** مِنْ بَيْنِ مَخْفُوضٍ وَبَيْنِ مَظَلَّلٍ) والنِّعَامُ فِي
السَّمَاءِ والنِّعَامُ والنِّعَامَتَانِ مِنْ آلاَتِ البَرِّ والنِّعَامَةِ : بَيْتُ الصَّائِدِ .
وقال في مِثْلِ ذَلِكَ عُرْوَةُ بنُ مُرَّةٍ الهذليُّ :

(وذاتِ رَيْدٍ كَرَّتْكَ الْفَاسِ مُشْرِفَةً ** طريقها سَرِبَ بالنَّاسِ مُجُوبٌ) (لم يَبْقَ من عَرْشِها إِلَّا نَعَامُها **
حالانِ منهزَمٌ منها وَمَنْصُوبٌ)

مسكن النعام

وفي المثل : ما يُجْمَعُ بين الأروى والنعام لأنَّ الأروى تسكن الجبال ولا تُسهلُ والنعام تسكن السهل ولا
تُرقى في الجبال ولذلك قال الشاعرُ :

(وَخَيْلٌ تُكَرِّدُسُ بالدَّارِعِينَ ** كَمْشِي الوُغُولِ على الظَّاهِرَةِ) وقال كثيرٌ : (يَهْدِي مَطَايَا كَالْحَيِّ ضَوَامِرًا
** بِنِيطِ أَغْبَرِ شَاخِصِ الأَمْيَالِ) (فَكَأَنَّهُ إِذْ يَعْتَدِي مُتَسَنِّمًا ** وَهَذَا فَوْهَدًا نَاعِقٌ بَرْنَالِ) وقال الأعشى في
تشبيه النعام بما يتدلى من السحاب من قطع الرباب :

(يا هَلْ تَرَى بَرَقًا على الِ ** جَلَيْنِ يُعْجِبُنِي انْجِيَاهُ) (مِنْ سَاقِطِ الأَكْنَفِ ذِي ** زَجَلٍ أَرَبَّ به سَحَابُهُ)
مثل النعام مُعْلَقًا ** لَمَّا زَقَا ودنا رَبَابُهُ) وقال وشبَّه نَاقَتَهُ بِالظَّلِيمِ : (وَإِذَا أَطَافَ لِبَابِهِ بِسَدِيسِهِ ** وَمَسَافِرًا
وَلَجَا به وَتَرِيدًا) (شَبَّهَتْهُ هَقْلًا يُبَارِي هَقْلَةً ** رِبْدَاءَ فِي خَيْطٍ نَقَانِقَ أَرْبَدَا)

وذكر زهيرُ الظَّلِيمَ وأولاده حتَّى شبَّه نَاقَتَهُ بِالظَّلِيمِ : (كَأَنِّي وَرَدْتُ والقُرَابَ ونَمِرَقي ** على خَاضِبِ
السَّاقِينَ أَرَعَنَ نَقِيقَ) (تَرَامِي به حَبِ الصَّحَارَى وقد رَأَى ** سَمَاوَةَ قَشْرَاءِ الوُظَيْفِينَ عَوْهَقِ) (تَحَنُّ إلى مِيلِ
الْجَنَاحِينَ جِثْمٍ ** لَدَى سَكَنِ من بِيضِهَا المَفْلَقِ) (تَحْطِمُ عنها عن خِرَاطِمِ أُسَيْحٍ ** وعن حِذْقِ كَالسَّبَجِ لم
يَتَفَلَّقِ) السَّبَجُ : الحُرْزُ .

النعامه فرس خالد بن فضلة

وكان اسمُ فرسِ خَالِدِ بْنِ فَضْلَةَ : النَّعَامَةُ قال : (تَدَارِكُ إِرْخَاءَ النَّعَامَةِ حَنْشَرًا ** وَدُودَانَ أَدَّتُهُ إِلَيَّ مُكَبَّلًا)
تشبيه مشي الشيخ بمشي الرئال وقال عروة بن الورد : (أليسَ وراني أن أدبَّ على العَصَا ** فَيَأْمَنَ
أَعْدَائِي وَيَسَامُنِي أَهْلِي) (رَهِينَةَ قَعْرِ المَيْتِ كُلِّ عَشِيَّةٍ ** يُطِيفُ بِي الْوِلْدَانُ أَهْدِجُ كَالرَّالِ)

شبَّه هَدَجَانَ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ في مشيته بهَدَجَانَ الرَّالِ .

وقال أبو الزَّحَفِ : (أَشْكُو إِلَيْكَ وَجَعًا بِرَكْبِي ** وَهَدَجَانًا لم يَكُنْ في مِشْيَتِي) كَهَدَجَانِ الرَّالِ حَوْلَ
الْهِقَّتِ وقال آخر ولست أدري أَيُّهُمَا حَمَلَ على صاحبه : (أَشْكُو إِلَيْكَ وَجَعًا بِمِرْفَقِي ** وَهَدَجَانًا لم يَكُنْ
في خُلُقِي) كَهَدَجَانِ الرَّالِ حَوْلَ النَّقْنَقِ ولم يَفْضَحْهُ إِلَّا قَوْلُهُ : لَأَنَّ الْأَوَّلَ حَكَى أَنَّ وَجَعَهُ في المَكَانِ الَّذِي
يُصِيبُ الشَّيْخَ وَوَجَعُ المِرْفَقِ مِثْلُ وَجَعِ الْأُذُنِ وَضَرْبَانِ الصَّرْسِ لَيْسَ من أَوْجَاعِ الْكِبَرِ في شَيْءٍ .

شعر فيه ذكر النعامه وقال ابن ميادة وذكر بني نعامه من بني أسد وقد كان قَطْرِيُّ بن الفجاءة يَكْنَى أبا

نعامة : (فهل يَمْنَعُنِي أَنْ أُسِيرَ بِلَدَةٍ ** نَعَامَةٌ مِفْتَاحُ الْمَخَازِي وَبَابُهَا) وهجا ثُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ رَجُلًا فَجَعَلَ
الْبَيْضَةَ الْفَاسِدَةَ مَثَلًا لَهُ ثُمَّ أَحَقَّ النَّسْرَ بِأَحْرَارِ الطَّيْرِ وَكَرَامِهَا وَمَا رَأَيْتُهُمْ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ لِنَسْرِ فَقَالَ : (فَإِنِّي
عَلَى رَغَمِ الْعَذُولِ لَنَازِلٌ ** بَحِثِ التَّقَى عَيْطٌ وَبَيْضُ بَنِي بَذْر) (أَيَا حَكَمَ السَّوْءَاتِ لَا تَهْجُ وَأَضْطَجِعْ **
فَهَلْ أَنْتَ إِنْ هَاجَيْتَ إِلَّا مِنَ الْخُضْرِ) (وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا بَيْضَةٌ مَاتَ فَرْخُهَا ** ثَوَتْ فِي سُلُوحِ الطَّيْرِ فِي بَلَدٍ قَفْرٍ
(حَوَاهَا بَغَاثٌ : شَرُّ طَيْرٍ عَلِمَتْهَا ** وَسَلَاءٌ لَيْسَتْ مِنْ عُقَابٍ وَلَا نَسْرِ)

استطرد لغوي ويقال للأنثى من ولد النعامة : قلووس على التشبيه بالنعام من الإبل وهذا الجمع إلى ما
جعلوه له من اسم البعير وإلى ما جعلوا له من الخفِّ والمنسم والحرمَة وغير ذلك . (تَأْوِي لَهُ قُلُوصُ النَّعَامِ
كَمَا أَوَتْ ** حَزَقٌ يَمَانِيَّةٌ لِأَعْجَمَ طِمْطِمٍ) وقال شِمَاخُ بْنُ ضِرَارٍ :
قلووس نَعَامٍ زَفَها قَدْ تَمَوَّرَا وَصَفَ الرِّثَالِ وَوَصَفَ لِبَيْدِ الرِّثَالِ فَقَالَ :

(فَأَضْحَتْ قَدْ خَلَتْ إِلَّا عِرَارًا ** وَعَرَفَا بَعْدَ أَحْيَاءٍ حِلَالٍ) (وَخَيْطًا مِنْ خَوَاصِبَ مَزَلَفَاتٍ ** كَأَنَّ رِثَالَهَا
وَرُقُّ الْإِفَالِ) وقال حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (لِعَمْرُكَ إِنْ إِلَكَّ فِي قُرَيْشٍ ** كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ
النَّعَامِ)

وقد عاب عَلَيْهِ هَذَا الْبَيْتَ نَاسٌ وَظَنُوا أَنَّهُ أَرَادَ التَّعْبِيدَ فَذَكَرَ شَيْئَيْنِ قَدْ يَتَشَابَهُانِ مِنْ وَجْهِهِ وَحَسَنٌ لَمْ يَرِدْ
هَذَا وَإِنَّمَا أَرَادَ ضَعْفَ نَسَبِهِ فِي قُرَيْشٍ وَأَنَّهُ حِينَ وَجَدَ أَدْنَى نَسَبٍ انْتَحَلَ ذَلِكَ النَّسَبَ .

النعامة فرس الحارث بن عباد

وقال الفرزدقُ وَذَكَرَ الْفَرَسَ الَّذِي يَقَالُ لَهُ : النِّعَامَةُ وَهُوَ فَرَسُ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ الَّذِي يَقُولُ فِيهَا : (قَرَّبَا
مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي ** لَقَحَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنْ حِيَالٍ) وَقَوْلُ الْفَرَزْدَقِ : (تُرِيكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ
** كَرَامُ بَنَاتِ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ) (نِسَاءُ أَبَوْهِنَّ الْأَغْرَ وَلَمْ تَكُنَّ ** مِنْ الْحُتِّ فِي أَجْبَاهَا وَهَدَادٍ)

أَبُوهَا الَّذِي آوَى النَّعَامَةَ بَعْدَمَا أَبَتْ وَائِلٌ فِي الْحَرْبِ غَيْرَ تَمَادٍ وَقَدْ مَدَحُوا بَنَاتِ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ هَذَا فَمِنْ
ذَلِكَ قَوْلُهُ : (جَاؤُوا بِحَارِشَةِ الضَّبَابِ كَأَنَّهُمْ ** جَاؤُوا بِبَنَاتِ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ) وَيَلْحَقُ هَذَا الْبَيْتَ بِمَوْضِعِهِ
مِنْ قَوْلِهِمْ بَاضَ الصَّيْفُ وَبَاضَ الْقَيْظُ .

وقال مَضْرُوسٌ : (بَلْمَاعَةٌ قَدْ بَاكَرَ الصَّيْفُ مَاءَهَا ** وَبَاضَتْ عَلَيْهَا شَمْسُهُ وَحَرَائِرُهُ)

ابن النعامة فرس خرز بن لودان وابن النعامة : فرس خُرَزُ بْنُ لُؤْدَانَ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ لَامْرَأَتِهِ حِينَ أَنْكَرَتْ
عَلَيْهِ إِثَارَهُ فَرَسَهُ بِاللَّبَنِ : (إِنِّي لِأَخْشَى أَنْ تَقُولَ خَلِيلَتِي ** هَذَا غِبَارٌ سَاطِعٌ قَلْبَبٍ)

(إِنَّ الْعَدُوَّ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ ** إِنْ يَأْخُذُوكَ تَكْهَلِي وَتَحْضِي) (وَيَكُونُ مَرْكَبُكَ الْقَعُودَ وَحِذْجَهُ ** وَابْنُ
النَّعَامَةِ يَوْمَ ذَلِكَ مَرْكَبِي)

شعر في النعامة

وقال أبو بكر الهذلي : (وَضَعَ النِّعَامَاتِ الرَّجُلُ بِرَبِّدِهَا ** يُرْفَعْنَ بَيْنَ مُشْعَشَعٍ وَمُهْلَلٍ) وقال ذو الإصبع العدواني : (ولي ابنُ عمِّ علي ما كان من خُلُقٍ ** مخالفٌ لي أَقْلِيهِ وَيَقْلِينِي) (أُرْزَى بنا أَنَّا شَالَتْ نَعَامَتُنَا ** فَخَالَنِي دُونَهُ بل خِلْتُهُ دُونِي)

وقال أبو داود الإيادي في ذكر الصَّيْدِ وَذَكَرَ فَرَسَهُ : (وَأَخَذْنَا بِهِ الصَّرَارَ وَقَلْنَا ** بِحَقِيرِ بَنَانِهِ أَضْمَارُ) (وَأَتَى يَبْتَغِي تَفْرُسَ أُمِّ الْبَيِّ ** ضِ شَدًّا وَقَدْ تَعَالَى النَّهَارُ) (غَيْرَ جُعْفٍ أَوَابِدٍ وَنَعَامٍ ** وَنَعَامٍ خِلَالِهَا أَثْوَارُ) ثم قال : (يَتَكَشَّفْنَ عَنْ صَرَائِعَ سِتِّ ** قُسِّمَتْ بَيْنَهُنَّ كَأُسِّ عَقَارُ) (بَيْنَ رَبْدَاءَ كَالْمِظَلَّةِ أَفْقٍ ** وَظَلِيمٍ مَعَ الظَّلِيمِ حِمَارُ) (وَمَهَاتَيْنِ حَرِيرَيْنِ وَرِئَالٍ ** وَسَيُوبٍ كَأَنَّهُ أَوْتَارُ)

شعر في تشبيه الناقة بالظليم ووصف علقمة بن عبدة ناقته وشبهها بأشياء منها ثم أطب في تشبيهه إياها بالظليم : (تلاحظ السوط شزراً وهي ضامزة ** كما توجس طاوى الكشح موشوم) (كأنها خاضب زعرٍ قوائمه ** أجنى له باللوى شرى وتوم) (يظل في الحنظل الخطبان ينقفه ** وما استطف من التنوم مخدوم) (فله كفق العصا لا يا تبينه ** أسك ما يسمع الأصوات مصلوم) (يكاد منه احتل مقلته ** كأنه حاذرٌ للنخس مشهوم)

(حتى تذكر بيضاتٍ وهيجه ** يوم رذاذٍ عليه الريح مغيوم) (فلا تزيد في مشيه نفقٌ ** ولا الزيف دوين الشد مسنوم) (يأوي إلى حسكلٍ زعرٍ حواصلها ** كأنهن إذا بركن جرثوم) (وضاعةٌ كعصى الشرع جوجؤه ** كأنه بتناهي الروض علجوم)

(يومي إليها يانقاصٍ ونقنقةٍ ** كما تراطن في أفدائها الروم) (صعلٌ كان جناحيه وجوجؤه ** يبتُ أطافت به خرقاءٌ مهجوم) (تحفه هقلةٌ سطعاء خاضبةٌ ** تحببه بزمارٍ فيه ترنيم)

رؤيا النعامة

الأصمعيّ قال : أخبرني رجلٌ من أهل البصرة قال : أرسل شيخٌ من ثقيفٍ ابنه فلاناً ولم يحفظ اسمه إلى ابن سيرين فكلّمه بكلامٍ وأمّ ابنه هذا قاعدةٌ ولا يظنُّ أنها تمطّن فقال له : يا بنيّ اذهب إلى ابن سيرين فقل له : رجلٌ رأى أنّ له نعامةً تطحن قال : فقلت له

فقال : هذا رجلٌ اشترى جاريةً فحَبَّأَهَا في بني حنيفة قال : فجنبت أبي فأخبرته فنافرته أمي وما زالت به حتى اعترف أنّ له جارية في بني حنيفة .

وما أعرفُ هذا التأويل ولولا أنّه من حديث الأصمعي مشهورٌ ما ذكرته في كتابي .

مسيلمة الكذاب وأما قول الشاعر الهذلي في مسيلمة الكذاب في احتياله وتمويهه وتشبيهه ما يحتال به من

أعلام الأنبياء بقوله : قال : هذا شعرٌ أنشدناه أبو الزُّرقاء سَهْمُ الخنعمي هذا منذُ أكثرَ من أربعينَ سنة
والييتُ من قصيدةٍ قد كان أنشدنيها فلم أحفظُ منها إلا هذا البيت .
فذكر أنَّ مسيلمة طاف قبلَ التَّني في الأسواق التي كانت بين دُورِ العجم والعربَ يلتقون فيها للتسوق
والبياعات كنحو سوق الأبلَّة وسوق لقه وسوق الأنبار وسوق الحيرة .

قال : وكان يلتمس تعلُّم الحيل والنَّيرجات واختيارات النُّجوم والمتنبين وقد كان أحكمَّ حيل السِّدَّة
والحواءِ وأصحاب الزُّجر والخطِّ ومذهب الكاهن والعياف والسَّاحر وصاحب الجنِّ الذي يزعم أنَّ معه
تأبَعُهُ .

قال : فَخَرَجَ وقد أحكم من ذلك أموراً فمن ذلك أنَّه صبَّ على بيضةٍ من خلٍّ قاطع والبيضُ إذا أطيل
إنقاعه في الخلِّ لان قشره الأعلى حتَّى إذا مددته استطال واستدقَّ وامتدَّ كما يمتدُّ العِلْكُ أو على قريبٍ من
ذلك قال : فلمَّا تمَّ له فيها ما طاول وأمل طولها ثمَّ أدخلها (
قارورةً ضيقة الرأسِ وتركها حتَّى جفَّت وييسَّت فلمَّا جفَّت

انضمت وكلما انضمت استدارتُ حتى عادت كهيتها الأولى فأخرجها إلى مُجاعةٍ وأهل بيته وهم أعراب
وادَّعى بها أعجوبةً وأنها جُعِلت له آية فآمنَ به في ذلك المجلس مُجاعةٌ وكان قد حمل معه ريشاً في لون ريش
أزواج حمامٍ وقد كان يراها في منزل مُجاعةٍ مقاصيصَ فالفت بعد أن أراهم الآية في البيض إلى الحمام فقال
لِمُجاعةٍ : إلى كم تعذب خلقَ الله بالقصِّ ولو أراد الله للطير خلافَ الطير أن لَمَّا خلقَ لها أجنحةً وقد
حرمتُ عليكم قصَّ أجنحة الحمام فقال لهُ مُجاعة كالمنعت : فسَلِ الذي أعطاك في البيض هذه الآية أن
يُنبت لك جنَّاح هذا الطائر الذَّكر السَّاعة .

فقلت لسهم : أما كان أجودَ من هذا وأشبهَ أن يقول : فسَلِ الذي أدخلَ لك هذه البيضة فَمَ هذه القارورة
أن يخرجها كما أدخلها قال فقال : كأنَّ القوم كانوا أعراباً ومثُلُ هذا الامتحان من مُجاعة كثير ولعمري إنَّ
المتنبي ليخدع ألفاً مثل قيس ابن زهير قبل أن يخدع

واحداً من آخر المتكلمين وإن كان ذلك المتكلم لا يشقُّ غبارَ قيس فيما قيسُ بسبيله .
قال مسيلمة : فإنَّ أنا سألتُ الله ذلك فانتبهَ له حتى يطيرَ وأنتم ترونهُ أتعلمون أي رسول الله إليكم قالوا :
نعم قال : فإني أريد أن أناجي ربِّي وللمناجاة خلوةٌ فانهضوا عني وإن شئتم فادخلوه هذا البيت وأدخلوني
معه حتى أخرجهم إليكم السَّاعة في الجناحين يطير وأنتم ترونهُ ولم يكن القوم سمعوا بتغريز الحمام ولا كان
عندهم بابُ الاحتياط في أمر المحتالين وذلك أن عبيداً الكيس فإته المقلِّم في هذه الصناعة لو منعوه السَّتر
والاختفاء لَمَّا وصل إلى شيء من عمله جلَّ ولا دقَّ ولكان واحداً من النَّاس .
فلما خلا بالطائر أخرج الريش الذي قد هيأه فأدخل طرفَ كلِّ ريشةٍ فما كان معه في جوف ريش الحمام
المقصود من عند المقطع والقصِّ وقصَّبُ

الرَّيشُ أَجَوْفٌ وَأَكْثَرُ الْأَصُولِ حَدَادٌ وَصَلَابٌ فَلَمَّا وَفَّى الطَّائِرَ رِيشَهُ صَارَ فِي الْعَيْنِ كَأَنَّهُ بَرْدُونٌ مُوَصُولُ الذَّنْبِ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ ارْتَابَ بِهِ وَالْحِمَامُ بِنَفْسِهِ قَدْ كَانَ لَهُ أَصُولُ رِيشٍ فَلَمَّا غُرِّزَتْ قُتِمَ فَلَمَّا أُرْسِلَهُ مِنْ يَدِهِ طَارَ وَيَنْبَغِي أَلَّا يَكُونَ فَعَلَ ذَلِكَ بِطَائِرٍ قَدْ كَانُوا قَطُوهَ بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ عِنْدَهُمْ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ازْدَادَ مَنْ كَانَ آمَنَ بِهِ بِصِيرَةً وَآمَنَ بِهِ آخَرُونَ لَمْ يَكُونُوا آمِنُوا بِهِ وَنَزَعَ مِنْهُمْ فِي أَمْرِهِ كُلُّ مَنْ كَانَ مُسْتَبْصِرًا فِي تَكْذِيبِهِ .

قال : ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ لَهُمْ وَذَلِكَ فِي مِثْلِ لَيْلَةِ مُنْكَرَةِ الرِّيَّاحِ مُظْلِمَةٍ فِي بَعْضِ زَمَانِ الْبُورَاحِ (إِنَّ) الْمَلَكَ عَلَى أَنْ يَنْزِلَ إِلَيَّ وَالْمَلَائِكَةُ تَطِيرُ وَهِيَ ذَوَاتُ أَجْنَحَةٍ وَنَحْيَاءُ الْمَلِكِ زَجَلٌ وَخَشْخَشَةٌ وَقَعْقَعَةٌ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ ظَاهِرًا فَلْيَدْخُلْ مَنْزِلَهُ فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ اخْطِطَفَ بَصَرُهُ .
ثُمَّ صَنَعَ رَايَةً مِنْ رَايَاتِ الصَّبِيَّانِ الَّتِي تَعْمَلُ مِنَ الْوَرَقِ الصَّيِّ

وَمِنْ الْكَاعْدِ وَتُجْعَلُ لَهَا الْأَذْنَابُ وَالْأَجْنَحَةُ وَتَعْلَقُ فِي صَدُورِهَا الْجَلَالُجِلُ وَتُرْسَلُ يَوْمَ الرِّيحِ بِالْخِيُوطِ الطُّوَالِ الصَّلَابِ قَالَ : فَبَاتَ الْقَوْمُ يَتَوَقَّعُونَ نَزُولَ الْمَلِكِ وَيَلْحَظُونَ السَّمَاءَ وَأَبْطَأَ عَنْهُمْ حَتَّى قَامَ جَلُّ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَأَطْنَبَتِ الرِّيحُ وَقَوِيَتْ فَأُرْسِلَهَا وَهُمْ لَا يَرَوْنَ الْخِيُوطَ وَاللَّيْلُ لَا يُبَيِّنُ عَنْ صُورَةِ الرَّقِّ وَعَنْ دَقَّةِ الْكَاعْدِ وَقَدْ تَوَهَّمُوا قَبْلَ ذَلِكَ الْمَلَائِكَةَ فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ وَرَأَوْهُ تَصَارَخُوا وَصَاحَ : مَنْ صَرَفَ بَصَرَهُ وَدَخَلَ بَيْتَهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَصْبَحَ الْقَوْمُ وَقَدْ أَطْبَقُوا عَلَى نَصْرَتِهِ وَالدَّفْعِ عَنْهُ فَهُوَ قَوْلُهُ : (بَيْضَةُ قَارُورٍ وَرَايَةُ شَدَانٍ **) وَتَوْصِيلُ مَقْصُودٍ مِنَ الطَّيْرِ (جَادِفٍ) فَقُلْتُ لِسَهْمٍ : يَكُونُ مِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ الْعَجِيبِ فَلَا يَقُولُ فِيهِ شَاعِرٌ وَلَا يَشِيعُ بِهِ خَبَرٌ قَالَ : أَوْكَلَمَا كَانَ فِي الْأَرْضِ عَجَبٌ أَوْ شَيْءٌ

غَرِيبٌ فَقَدْ وَجَبَ أَنْ يَشِيعَ ذِكْرُهُ وَيُقَالَ فِيهِ الشَّعْرُ وَيَجْعَلُ زَمَانُهُ تَارِيخًا أَلَسْنَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ نَزْعُومُ أَنَّ كَسْرَى أَبْرُويزَ وَهُوَ مِنْ أَحْرَارِ فَارَسَ مِنَ الْمُلُوكِ الْأَعْظَمِ وَسَلِيلُ مُلُوكٍ وَأَبُو مُلُوكٍ مَعَ حَزْمِهِ وَرَأْيِهِ وَكَمَالِهِ خُطِبَ إِلَى الثُّعْمَانَ بْنِ الْمَنْذَرِ وَإِلَى رَجُلٍ يَرْضَى أَنْ تَكُونَ أَمْرَاتُهُ ظَنَرًا لِبَعْضِ وَلَدِ كَسْرَى وَهُوَ عَامِلُهُ وَيُسَمِّيهِ كَسْرَى عَبْدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَحْمِرٌ أَقْيَشَرُ إِمَّا مِنْ أَشْأَاءِ قَصِيٍّ بْنِ مَعْدٍ وَإِمَّا مِنْ غُرُضِ لَحْمٍ وَهُوَ الَّذِي قَالُوا : تَرَوِّجَ مَوْمَسَةً وَهِيَ الْفَاجِرَةُ وَلَا يُقَالُ لَهَا مَوْمَسَةٌ إِلَّا وَهِيَ بِذَلِكَ مَشْهُورَةٌ وَعَرَفَهَا بِذَلِكَ وَأَقَامَ عَلَيْهَا وَهْجِيَّيَ بِهَا وَلَمْ يَحْفَلْ بِمُجَانَّتِهِمْ وَمَا زَادَ فِي شَهْرَتِهَا قِصَّةُ الْمَرْقَشِ وَنَاكِهَا قُرَّةَ بِنِ هُبَيْرَةَ حِينَ سَبَاهَا فَعَلِمَ بِذَلِكَ وَأَقَامَ عَلَيْهَا ثُمَّ لَمْ يَرْضَ حَتَّى قَالَ لَهَا : هَلْ مَسَّكَ قَالَتْ : وَأَنْتَ وَاللَّهِ لَوْ قَدَّرَ عَلَيْكَ لَمَسَّكَ فُلَمَّ يَرْضَ بِهَا حَتَّى قَالَ لَهَا : صِفِيهِ لِي فَوَصَفَتْهُ حَتَّى قَالَتْ : كَأَنَّ شَعْرَ خَدَيْهِ حَلَقُ الدَّرْعِ وَبَالَ عَلَى رَأْسِهِ خَلْفَ ابْنِ نَوَالَةَ الْكِنَانِيِّ عَامَ حَجَّ وَنَصَرَهُ عَدِيُّ بْنُ

زَيْدٌ بِأَحَقِّ سَبَبٍ . وَخُطِبَ أَخُوهُ الْمَنْذَرُ إِلَى عَيْلَةٍ بِنِ هَمَامٍ ، فَرَدَهُ أَقْبَحَ الرَّدِّ ، وَقَالَ : (أَتَوْنِي وَلَمْ أَرْضَ مَا بَيَّتُوا **) وَقَدْ طَرَفُونِي بِأَمْرِ نُكْرٍ (لَأُنْكِحَ أَيْمَهُمْ مُنْذِرًا **) وَهَلْ يُنْكِحُ الْعَبْدَ حُرًّا لِحُرٍّ) ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ خُطِبَ إِلَيْهِ كَسْرَى بَعْضَ بَنَاتِهِ فَرَغِبَ بِهَا عَنْهُ حَتَّى كَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هَرْبِهِ وَعِلَّةَ لِقَتْلِهِ فَهَلْ رَأَيْتَ شَاعِرًا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَعَ كَثْرَةِ الشُّعْرَاءِ فِيهِ وَمَعَ افْتِخَارِهِمْ بِالَّذِي كَانَ مِنْهُمْ فِي (

يوم جلولى ويوم ذي قار وفي وقائع المثني بن حارثة وسعد بن أبي وقاص فهل سمعت في ذلك بشعر صحيح طريف المخرج كما سمعته في جميع مفاخرهم لما لا يداني هذا المفخر .

ولقد خطب بعض إخوته إلى رجال من نزار من غير أهل البيوتات فرغبوا عنهم . وأم النعمان سلمى بنت الصانع : يهودي من أنباط الشام ثم كان نجلة لفضل غير محمود .
وقد قال جبلة بن الأيهم لحسان بن ثابت : قد دخلت علي ورأيتني فأين أنا من النعمان قال : والله . . .
فالتعمان مع هذه المثالب كلها قد رغب بنفسه عن مصاهرة كسرى وهو من أنبه الأكاسرة وكما كان أبرويز أعظم خطراً

كانت أنفته أفرح للعرب وأدل على ما يدعون من العلو في النسب وكان الأمر مشهوداً ظاهراً ومردداً على الأسماع مستفيضاً فإذا قد تمياً أن يكون مثل هذا الأمر الجليل والمفخر العظيم والعرب أفرح الأمم ومع ذلك قد أغفلوه فشان مسيلمة وأنشدني يوسف لبعض شعراء بني حنيفة وكان يسمى مسيلمة ويكنى أبا ثمامة :
(لهي عليك أبا ثمامة ** لهي على ركني شمامة) (كم آية لأبيهم ** كالشمس تطلع من غمامة) وقد كتبنا قصته وقصة ابن التواحة في كتابنا الذي ذكرنا فيه فصل ما بين النبي والمتبي وذكرنا جميع المتنبيين وشأن كل واحد منهم على حديثه وبأي ضرب كان يحتال وذكرنا جملة احتيالاتهم والأبواب التي تدور عليها مخاريقهم فإن أردت أن تعرف هذا الباب فاطلب هذا الكتاب فإنه موجود .

هجاء النعمان وقد هجا عبد القيس بن خفاف البرجمي النعمان بن المنذر في الجاهلية وذكر ولادة الصانع له فقال : (لئن الله ثم تنى بلعن ** ابن ذا الصانع الظلوم الجهولا) (يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ** ثم لا يرزأ العدو فييلا) سهم الحنفي وكان سهم الحنفي يلي طبرستان لعن بن زائدة مع حداثة سنه يومئذ وكان له مروعة وقدر كثيرة الشعر وقتله في بعض قبائل العرب)

كثرة الشعر وقتله في بعض قبائل العرب

وبنو حنيفة مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكرأ كلها ومع ذلك لم تر قبيلة قط أقل شعراً منهم وفي إخوتهم عجل قصيد ورجز وشعراء ورجازون وليس ذلك لمكان الحصب وأنهم أهل مدر وأكالو تمر لأن الأوس والخزرج كذلك وهم في الشعر كما قد علمت وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين فقد تعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة .

وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب وليس ذلك من

قَبْلَ رِداءِ الغِذاءِ ولا من قِلَّةِ الحِصْبِ الشَّاعِلِ والغِنى عن النَّاسِ وإنَّما ذلك عن قَلْبٍ ما قَسَمَ اللَّهُ لهم من الحِظوظِ والغرائزِ والبلادِ والأعراقِ مكانها .

وبنو الحارث بن كعب قبيلٌ شريفٌ يَجْرُونَ مَجاريَ ملوكِ اليمنِ ومجاريَ ساداتِ أعرابِ أَهْلِ نَجْدٍ ولم يكن لهم في الجاهليَّةِ كبيرُ حَظٍّ في الشعرِ ولهم في الإسلامِ شعراءُ مَفْلُوقُونَ .

وبنو بَدْرِ كانوا مَفْحَمِينَ وكان ما أطلقَ اللَّهُ به ألسنةُ العربِ خيراً لهم من تَصْيِيرِ الشعرِ في أنفسهم .
وقد يَحْظَى بالشعرِ ناسٌ ويَجْرُجُ آخرونَ وإن كانوا مثلهم أو فوقهم ولم تُمدَحْ قبيلةٌ في الجاهليَّةِ من قريشٍ كما مُدحت

مخزوم ولم يتهَيَّأ من الشَّاهدِ والمثلِ لِمادِحٍ في أحدٍ من العربِ ما تَهَيَّأ لبني بَدْرِ .
وقد كان في ولدِ زُرارةٍ لصلبه شعرٌ كثيرٌ كَشَعْرِ لَقِيْطٍ وحاجِبٍ وغيرهما من ولده ولم يكن لحذيفة ولا حِصْنٍ ولا عيينة بنِ حِصْنٍ ولا لَحْمِلِ بنِ بَدْرِ شِعْرٌ مذكور .
حظوةُ الخلفاءِ الولاةِ بالشعرِ وقد كان عبدُ العزيز بنِ مَرْوَانَ أَحْظَى في الشعرِ من كثيرٍ من خلفائهم ولم يكن أحدٌ من أصحابنا من خُلَفائنا وأئمتنا أَحْظَى

في الشعرِ من الرَّشيدِ وقد كان يزيد ابن مَرْيَدٍ وَعَمُّهُ مَنَّ أَحْظَاهُ الشَّعْرُ .
وما أعلمُ في الأرضِ نعمةَ بَعْدَ وِلايَةِ اللَّهِ أَعْظَمَ من أن يكونَ الرَّجُلُ ممدوحاً . (الصَّمُّ من الحيوانِ) تقولُ العربُ : ضربانِ من الحيوانِ لا يَسْمَعانِ الأصواتِ وذلكَ عامٌّ في الأفاعي والتعامِ واعتدَ من ادَّعى للتعامِ الصَّمَمَ بقولِ عُلَقَمَةَ : (فُوهُ كَشَقِّ الْعَصَا لَأَيَّاءُ تَبَيَّنَهُ * * * أَسْكُ ما يَسْمَعُ الأصواتِ مَصْلُومٌ)

قال : ولا يصلحُ أن تكونَ ما في الموضعِ الذي ذَكَرَ لأنَّ ذلكَ يصيرُ كَقولِ القائلِ : التمرُ حلوا والثَّلجُ باردٌ والنارُ حارَّةٌ ولا يحتاجُ إلى أن يُخبرَ أن الذي يُسْمَعُ هذا الصَّوتُ لأنَّهُ لا مسموعَ إلا الصَّوتُ .
قال خصمه : فقد قال عُلَقَمَةُ بنُ عَبْلَةَ : (حَتَّى تَلَأَفَى وَقُرْنَ الشَّمْسِ مَرْتَفَعٌ * * * أُذْحِي عَرْسِينَ فِيهِ الْيَبْضُ مَرَكُومٌ) (يوحى إليها بانقراضِ وَنَقْنَقَةٍ * * * كما تَرَاظُنُ في أَفْدانِها الرُّومُ) ثم قال : (تَحْفُهُ هِقْلَةٌ سَفْعَاءُ خاذِلَةٌ * * * تَجِبُهُ بَزِمَارٍ فِيهِ تَرْنِيمٌ) واحتجَّ من زعم أنَّها تسمعُ بقوله :

(مَتَى ما تَشَأْ تَسْمَعُ عِراراً بِقَفْرَةٍ * * * يُجِيبُ زِمَاراً كَالْيَرَّاعِ الْمُثَقَّبِ) وقال الطَّرِمَّاحُ : (يدعو العِرارُ بها الزِّمَارَ كَأَنَّهُ * * * أَلَمْ تَجَاوِبُهُ النَّسَاءُ الْعُودُ) قال : وصوتُ النعامِ الذَّكَرِ : العِرارُ وصوتُ الأنثى : الزِّمَارُ .
وأنشدَ الذي زَعَمَ أَنَّها لا تسمعُ قولَ أسامةَ بنِ الحارثِ الهذليِّ : (تَذَكَّرْتُ إِخْوانِي فَبِتُّ مُسَهَّداً * * * كما ذَكَرْتُ بَوْأً مِنَ اللَّيْلِ فَاقْدُ)

(لعمري لقد أَمَهَلْتُ في نَهْيِ خالِدٍ * * * عَنِ الشَّامِ إِمَّا يَعْصِيَنَّكَ خالِدٌ) (وَأَمَهَلْتُ في إِخوانِهِ فَكأنَّما * * * تَسْمَعُ بالْنَهْيِ النَّعامُ المُشَرَّدُ) وقال الذي زعم أنَّها تسمعُ : فقد قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ وَلَوْ عَنَى أَنَّ عَمَاهُمْ كَعَمَى الْعُمَيَّانِ وصَمَمَهُمْ كَصَمَمِ الصُّمَّانِ لما قال : أَفْلا

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَقَوْلِهِ : إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَكَيْفَ تَسْمَعُ الْمُدْبِرَ عَنْكَ وَلِلذَلِكَ يَقَالُ : إِنَّ الْحُبَّ يُعْمِي وَيُصِمُّ وَقَدْ قَالَ الْهَذَلِيُّ : (تَسْمَعُ بِالنَّهْيِ النَّعَامَ الْمَشْرُدَّ وَالشَّارِدَ الْنَافِرَ عَنْكَ لَا يوصف بالفهم ولو قال : تسمع بالنهي وسكت كان أبلغ فيما يريد (رِدِي رِدِي وَرَدَ قَطَاةٌ صَمًّا ** كُدْرِيَّةٌ أَعْجَبَهَا بَرْدُ الْمَاءِ)

أي لأنها لا تسمع صوتاً يثنيها ويردّها .

وَأَنشَدَ قَوْلَ الشَّاعِرِ : (دَعَوْتُ خُلَيْدًا دَعْوَةً فَكَأَنَّمَا ** دَعَوْتُ بِهِ ابْنَ الطَّوْدِ أَوْ هُوَ أَسْرَعُ) وَالطَّوْدُ : الْجَبَلُ وَابْنُهُ : الْحَجَرُ الَّذِي يَتَدَهَّنُهُ مِنْهُ كَقَوْلِهِ : كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ وَقَالَ الرَّاجِزُ : (وَمَنْهَلٌ أَعْوَرَ إِحْدَى الْعَيْنَيْنِ ** بَصِيرٍ أُخْرَى وَأَصَمَّ الْأُذُنَيْنِ)

كَأَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَنْهَلِ بَيْرَانٌ وَالْأَبَارُ أَعْيُنٌ فَغَوَّرَتْ إِحْدَى الْبَيْرَيْنِ وَتَرَكْتَ الْأُخْرَى وَقَوْلُهُ : أَصَمَّ الْأُذُنَيْنِ لِمَا أَنَّ كَانَ عِنْدَهُ فِي الْأَرْضِ فَضَاءً وَخَلَاءً حَيْثُ لَا يَسْمَعُ فِيهِ صَوْتَ جَعَلَهُ أَنْ كَانَ لَا يَسْمَعُ صَوْتًا أَصَمَّ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِفَقْدِ الْأَصْوَاتِ .

شاهد من الشعر لسمع الناقة

قال : وقد قال الحارث بن حلزة قولاً يدلُّ على أَنَّهَا تسمع حيث قال :

(بَزُفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ أَمْ ** مُمْ رِئَالٍ دَوِيَّةٌ سَفْعَاءُ) ثُمَّ قَالَ : (آنَسْتُ نَبَأَةً وَأَفْرَعَهَا الْقَنْ ** اصْ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ) (فَرَى خَلْفَهُنَّ مِنْ سُرْعَةِ الْمَشِّ ** يَ مَنِياً كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ) وَلَوْ قَالَ : أَفْرَعَهَا الْقُنَّاصُ وَلَمْ يَقُلْ : آنَسْتُ نَبَأَةً وَالنَّبَأَةُ الصَّوْتُ لَكَانَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ مَقَالٌ وَقَالَ أَمْرُو الْقَيْسِ : (وَصَمُّ صِلَابٌ مَا يَقِينُ مِنَ الْوَجَى ** كَأَنَّ مَكَانَ الرَّدْفِ مِنْهُ عَلَى رَالٍ)

وَإِنَّمَا يَعْنِي أَنَّهَا مُصَمَّمَةٌ غَيْرُ جَوْفَاءٍ وَقَالَ الْآخَرُ : (قُلْ مَا بَدَأَ لَكَ مِنْ زُورٍ وَمِنْ كَذِبٍ ** حَلْمِي أَصَمُّ وَأُذُنِي غَيْرُ صَمَاءٍ) يَرِيدُ أَنْ حَلْمَهُ لَيْسَ بِسَخِيفٍ مُتَخَلِّخٍ وَلَيْسَ بِخَفِيفٍ سَارٍ وَلَكِنَّهُ مَصْمَتٌ قَالَ الشَّاعِرُ : وَأَسْأَلُ مِنْ صَمَاءٍ ذَاتِ صَلِيلٍ وَإِنَّمَا يَرِيدُ أَرْضًا يَابِسَةً وَرَمْلَةً نَشَافَةً تَسْأَلُ الْمَاءَ : أَيِ تَرِيدُهُ وَتَتَلَعَّهُ وَهِيَ فِي ذَلِكَ صَمَاءٌ (ذَكَرَ الصَّمُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ) وَقَدْ قَالَ اللَّهُ لِنَاسٍ يَسْمَعُونَ : صَمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ذَلِكَ عَلَى الْمَثَلِ وَقَالَ : وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صَمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى مَا فَسَّرْنَا وَقَالَ : وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا

عَلَيْهَا صَمًّا وَعُمِيَانًا وَقَالَ أَيْضًا : إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

شعر في معنى الصمم

وقال عنترة : (ظَلَلْنَا نَكْرُ الْمَشْرِقِيَّةَ فِيهِمْ ** وَخُرْصَانَ صُمِّ السَّمْهَرِيِّ الْمُتَقَفِّ) وقال العَجِيرُ السَّلُولِيُّ : (وقد جَذَبَ الْقَوْمُ الْعَصَائِبَ مُؤَخَّرًا ** ففِيهِنَّ عَنْ صَلْعِ الرِّجَالِ حُسُورُ) (فَظَلَّ نِدَاءُ الْعَصَبِ مُلْقَى كَأَنَّهُ ** سَلَى فَرَسٍ تَحْتَ الرِّجَالِ عَقُورُ) (لو ان الصُّخُورَ الصَّمَّ يَسْمَعْنَ صَلَقْنَا ** لَرُحْنٌ وَفِي أَعْرَاضِهِنَّ فُطُورُ) وقال زهير :

(لَيْتَنِي خُلِقْتُ لِلْأَبَدِ ** صَخْرَةً صَمَاءَ فِي كَبَدِ) وقالت جُمْلُ بنتُ جَعْفَرٍ : (بني جَعْفَرٍ لَا سِلْمَ حَتَّى تَزُورَكُمُ ** بِكُلِّ رُدِينِي وَأَبْيَضَ ذِي أَثَرِ) (وَحَتَّى تَرَوْا وَسْطَ الْبُيُوتِ مُغِيرَةً ** تُصْمِكُمُ بِالضَّرْبِ حَاشِيَةَ الذُّعْرِ) (تَبِنُ لَذِي الشَّكِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ دَرَى ** وَيُبْصِرُهَا الْأَعْمَى وَيَسْمَعُ ذُو الْوَقْرِ) وقال دريد : (متى كان الملوكة قَطِينًا ** عَلَيَّ وَلَايَةُ صَمَاءَ مِنِّي)

مثل وحديث في الصمم

ومن الأمثال قولهم : صَمَّتْ حَصَاةٌ بِدَمٍ قَالَ : فأصله أَنْ

يَكْثُرَ الْقَتْلُ وَسَفْكُ الدِّمَاءِ حَتَّى لَوْ وَقَعَتْ حَصَاةٌ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا صَوْتُ لِأَنَّهَا لَا تَلْقَى صَلَابَةً الْأَرْضِ .

وقد جاء في بعض الحديث : إذا كانت تلك الملاحِمُ بَلَّغَتْ الدِّمَاءُ الثَّنْ يَعْني ثَنَ الْخَيْلِ وَهُوَ الشَّعْرُ الَّذِي خَلْفَ الْخَافِرِ .

صمت السيف

وقال الزُّبَيْرُ بن عبد المَطَّلَبِ : لِأَنَّ السَّيْفَ إِذَا مَرَّ فِي الْعِظْمِ مَرًّا سَرِيعًا فَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَوْتُ كَانَ فِي مَعْنَى الصَّامِتِ .

شعر في مجاز الصمم

وقال ابن مِيَادَةَ : (متى أَدْعُ فِي قَيْسِ بن عِيْلَانَ حَائِفًا ** إِلَى فَرْعٍ تُرَكِبُ إِلَيَّ خَيُْولُهَا) (بَعْلَمُومَةُ كَالطَّوْدِ شَهْبَاءٍ فَيَلْقَى ** رَدَاحٍ يَصْمُ السَّامِعِينَ صَلِيلُهَا) لِأَنَّ الصَّوْتَ إِذَا اشْتَدَّ جَدًّا لَمْ يُفْهَمْ مَعْنَاهُ إِنْ كَانَ صَاحِبُهُ أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ شَيْءٍ وَمَتَى كَثُرَتِ الْأَصْوَاتُ صَارَتْ وَغَى وَمَنَعَ بَعْضُهَا مِنْ الْفَهْمِ فَإِذَا لَمْ يَفْهَمْهَا صَارَ فِي مَعْنَى الْأَصَمِّ فَجَازَ أَنْ يَسْمَى بِاسْمِ الْأَصَمِّ .

وعلى ذلك قَالَ الْأَضْبَطُ بن قُرَيْعٍ حِينَ آذَوْهُ بَنُو سَعْدٍ فَتَحَوَّلَ مِنْ جَوَارِهِمْ فِي آخِرِينَ فَأَذَوْهُ فَقَالَ : بِكُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ .

وقال جرّانُ العود : (وَقَالَتْ لَنَا وَالْعِيسُ صُعُرٌ مِنَ الْبُرَى * وَأَخْفَاهَا بِالْجَنْلِ الصَّمُّ تَقْدِيفُ)

قول منكر صمم النعام

(أَصَلَكُ مُصَلِّمَ الْأُذُنَيْنِ أَجَنَى * لَهُ بِالْسَيِّ تَنُومٌ وَآءُ) ويقول أوس بن حجر : (وَيَنْهَى ذَوِي الْأَحْلَامِ عَنِّي حُلُومُهُمْ *) وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلنَّعَامِ الْمَخْرَمِ (يريد خَرَقَ أَنْفَهُ وهو في موضعِ الْحَرَمَةِ من البعير .
وأما قوله : وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلنَّعَامِ فَإِنَّمَا خَصَّ بِذَلِكَ النَّعَامَ لِأَنَّهَا تَجْمَعُ الشَّرُودَ وَالْفَرَارَ إِلَى الْمَوْقِ وَسُوءَ الْفَهْمِ ولو قال : وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلْحَمِيرِ وَالِدَوَابِّ لَكَانَ كَذَلِكَ وَالْمُصَلِّمَةُ : السُّكَّ الَّتِي لَيْسَ لِأَذَانِهَا حَجْمٌ .

رد عليه قال : قَوْلُ الَّذِي زَعَمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِصَمَاءَ لَا يَجُوزُ لِأَنَّ الدَوَابَّ تَسْمَعُ وَتَفْهَمُ الرَّجَرَ وَتَجِيبُ الدُّعَاءَ بل لو قال : وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلصَّخُورِ وَالْحِجَارَةِ كَانَ صَوَاباً وَكَانَ لِرَفْعِ صَوْتِهِ مَعْنَى إِذْ كَانَ الرَّفْعُ وَالْوَضْعُ عِنْدَ الصَّخُورِ سَوَاءً وَلَيْسَ كَذَلِكَ الدَوَابُّ وَلَوْ كَانَ إِنَّمَا جَعَلَهُ مُصَلِّماً وَجَعَلَ آذَانَ النَّعَامِ مُصَلِّمَةً لِأَنَّهُ لَيْسَ لِأَذَانِهَا حَجْمٌ فَالطَّيْرُ كُلُّهُ كَذَلِكَ إِلَّا الْخَفَاشَ وَكُلُّ شَيْءٍ يَبْصُرُ مِنَ الْحَيَوَانِ فَلَيْسَ لَهَا حَجْمٌ آذَانَ فِيهِ قَصْدُهُمْ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ إِلَى النَّعَامِ بَيْنَ جَمِيعِ مَا لَيْسَ لِأُذُنَيْهِ حَجْمٌ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَأْوِيلَكُمْ خَطَأً قَالَ عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِةَ :
وَقَالَتْ كَبْشَةُ بِنْتُ مَعْدٍ يَكْرَبُ :

(وَأَرْسَلَ عَبْدُ اللَّهِ إِذْ حَانَ يَوْمُهُ * إِلَى قَوْمِهِ أَلَّا تَغْلُوا لَهْمُ دَمِي) (وَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُمْ إِفَالاً وَأَبْكَرًا *) وَتُتْرِكَ فِي بَيْتٍ بِصَعْدَةِ مُظْلِمٍ (جَدَعْتُمْ بَعْدَ اللَّهِ آئِفَ قَوْمِكُمْ *) بَنِي مَازِنٍ أَنَّ سُبَّ رَاعِيِ الْمَخْرَمِ (فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَتَّارُوا لِأَخِيكُمْ *) فَمَشُوا بِآذَانِ النَّعَامِ الْمُصَلِّمِ (فَلَوْ كَانَتْ إِنَّمَا تَرِيدُ أَنَّهُ لَيْسَ لِمَسَامِعِهَا حَجْمٌ كَانَتْ الدُّنْيَا لَهَا مُعْرَضَةٌ وَقَالَ عَنَتْرَةُ :

(وَكَأَنَّمَا أَقْصُ إِلَّا كَامَ عَشِيَّةُ * بِقَرِيبٍ بَيْنَ الْمَنْسَمِينَ مُصَلِّمِ) (تَأْوِي لَهُ حَزَقُ النَّعَامِ كَمَا أَوَتْ *) حَزَقٌ يَمَانِيَّةٌ لِأَعْجَمَ طَمَطَمٍ (وَلَوْ كَانَ عَنَتْرَةُ إِنَّمَا أَرَادَ عِلْمَ الْحَجْمِ لَقَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا لَهُ مُعْرَضَةً .
وقال زهير : (بَارِزَةُ الْفَقَارَةِ لَمْ يَخُنْهَا *) قَطَافٍ فِي الرِّكَابِ وَلَا خِلَاءُ (كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ *) من الظَّالِمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ (أَصَلَكُ مُصَلِّمَ الْأُذُنَيْنِ أَجَنَى *) لَهُ بِالْسَيِّ تَنُومٌ وَآءُ (رد منكر صمم النعام قال القوم : فَإِنَّا لَا نَقُولُ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْعَرَبَ فِي أَمْثَالِهَا تَقُولُ : إِنَّ النَّعَامَةَ ذَهَبَتْ تَطْلُبُ قَرَيْنَ قَتَعُوا أُذُنَيْهَا لِيَجْعَلُوهَا مِثْلًا فِي الْمَوْقِ وَسُوءَ التَّدْبِيرِ فَإِذَا ذَكَرَ الشَّاعِرُ الظَّلِيمَ وَذَكَرَ أَنَّهُ مُصَلِّمَ الْأُذُنَيْنِ

فإنما يريد هذا المعنى فكثُرَ ذَلِكَ حَتَّى صَارَ قَوْلُهُمْ : مُصَلِّمَ الْأُذُنَيْنِ مِثْلَ قَوْلِهِمْ صَكَاءَ وَسَوَاءَ قَالَ صَكَاءَ أَوْ قَالَ نَعَامَةً كَمَا أَنَّهُ سَوَاءَ قَالَ خَنْسَاءَ أَوْ قَالَ مَهَاءَ وَنَعَجَةً وَبَقْرَةً وَطَبِيَّةً لِأَنَّ الطَّبَاءَ وَالْبَقَرَ كُلُّهُمَا فُطُسٌ خَنْسٌ وَإِذَا سَمَوْا امْرَأَةً خَنْسَاءَ فَلَيْسَ الْخَنْسَ وَالْفُطُسَ يُرِيدُونَ بَلْ كَانَهُمْ قَالُوا : مَهَاءٌ وَطَبِيَّةٌ وَلِذَلِكَ قَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ

عَلَسَ فِي صِفَةِ النَّاقَةِ : (صَكَاءٌ ذُعْلَبَةٌ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا * حَرَجٌ إِذَا اسْتَدْبَرَتْهَا هِلَوَاعٌ) فَفَهِمُوا هَذَا الْبَيْتَ فَإِنَّهُ
قَدْ أَحْسَنَ فِيهِ جَدًّا . وَالصَّكَّاءُ فِي النَّاسِ وَالْإِصْطِكَاكُ فِي رَجُلِي النَّاقَةِ عَيْبٌ فَهُوَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِفَهَا بِمَا فِيهِ عَيْبٌ
وَلَكِنَّهُ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ قَوْلِهِ صَكَاءٌ وَبَيْنَ

قوله نعامه وكذلك لا يفرقون بين قولهم أعلم وبين قولهم : بعير قال الراجز : (إني لمن أنكر أو تواسم **
أخو خناير يهود الأعلم) كأنه يقول : يهود بعيراً وهو كقول عنتره : (وحليل غانية تركت مجدلاً **
تمكو فريسته كشدق الأعلم) فقال من ادعى للنعام الصمم : أما قولكم : من الدليل على أن النعام
تسمع قول الشاعر : تدعو النعام به العرار وقوله : (متى ما تشأ تسمع عراراً بقفرة ** يجب زمراً
كاليراع المنقب) وقوله : (آنست نبأة وأفرعها ** القنص عصراً وقد ذنا الإمساء) فليس ذلك أراد وقد
يراك الأخرس من الناس والأخرس أصم

فيعرف ما تقول بما يرى) من صورة حركتك كما يعرف معانيك من إشارتك ويدعوك ويطلب إليك
بصوت وهو لم يسمع صوتك قط فيقصد إليه ولكنه يريد تلك الحركة وتلك الحركة تولد الصوت أراده هو
أو لم يرده ويضرب فيصيح وهو لم يقصد إلى الصياح ولكنه متى أدار لسانه في جوبة الفم بالهواء الذي فيه
والنفس الذي يحضره جماع الفم حدث الصوت وهذا إنما غايته الحركة فيعرف صورة تلك الحركة .
والأخرس يرى الناس يصفقون بأيديهم عند دعاء إنسان أو عند الغضب والحد فيعرف صورة تلك الحركة
لطول ترددها على عينيه كما يعرف سائر الإشارات وإذا تعجب ضرب فالتعام تعرف صورة إشارة
الرئان وإرادتها فتعقل ذلك وتجاوبها بما تعقل عنها من الإشارة والحركة وغدت لركبتها أصوات ولو كانا
يسمعان لم تزد حالهما في التفاهم على ذلك .

شم النعام والعرب تقول : أشم من نعام وأشم من ذرة قال الراجز : أشم من هني وأهدى من جمل وقال
الحرملي في أرجوزته : وهو يشتم اشتيم الهني قال : وأخبرنا ابن الأعرابي أن أعرابياً كلم صاحبه فراه لا
يفهم عنه ولا يسمع فقال : أصلح كصلح النعام .
شم الفرس والذئب والذر وقد يكون الفرس في الموكب وخلفه على قاب غلوتين حجر أو رمكة فيتحصن
تحت راحيه من غير أن تكون صهلت .
والذئب يشتم ويستروح من ميل والذرة تشتم ما ليس له ريح لما لو وضعته على أهك ما وجدت له رائحة
وإن أجدت التشم كرجل

الجرادة تنبذها من يدك في موضع لم تر فيه ذرة وقال الشاعر وهو يصف استرواح الناس : (وجاء كمثل
الرأل يتبع أنفه ** لعقبه من وقع الصخور قعاقع) فإن الرأل يشتم رائحة أبيه وأمه والسبع والإنسان من
مكان بعيد وشبه به رجلاً جاء يتبع الريح فيشتم .
استطرد لغوي وقال الآخر : (والمرء لم يغضب لمطلب أنفه ** أو عرسه لكريهة لم يغضب) ومطلب أنفه :

فَرَجُ أُمِّهِ لِأَنَّ الْوَلَدَ إِذَا تَمَّتْ أَيَّامُهُ فِي الرَّحِمِ قَلَا مَكَانَهُ وَكَرِهَهُ وَضَاقَ بِهِ مَوْضِعُهُ فَطَلَبَ بِأَنْفِهِ مَوْضِعَ الْمَخْرَجِ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْكَرْبِ حَتَّى يَصِيرَ أُنْفُهُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَمِ الرَّحِمِ تَلْقَاءَ فَمِ الْمَخْرَجِ فَلَا نَاءَ وَالْمَكَانُ يَرْفَعَانِهِ فِي تِلْكَ الْجِهَةِ وَالْوَلَدُ يَلْتَمِسُ تِلْكَ الْجِهَةَ بِأُنْفِهِ

ولولا أَنَّهُ يَطْلُبُ الْهَوَاءَ مِنْ ذَاتِهِ وَيَكْرَهُ مَكَانَهُ مِنْ ذَاتِهِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ خِلَافَ عَالَمِهِ الَّذِي رُبِّيَ فِيهِ لَمَاتَ كَمَا يَمُوتُ السَّمَكُ إِذَا فَارَقَهُ الْمَاءَ وَلَكِنَّ الْمَاءَ لَمَّا كَانَ قَابِلًا لَطِبَاعِ السَّمَكِ غَاذِيًا لَهَا وَالسَّمَكُ مَرِيدًا لَهُ كَانَ فِي مَفَارِقَتِهِ لَهُ عَطْبُهُ وَكَانَ فِي مَفَارِقَةِ الْوَلَدِ لَجُوفُ الْبَطْنِ وَاغْتِنَائِهِ فَضَلَاتِ الدَّمِ مَا لَا يَنْقُصُ شَيْئًا مِنْ طِبَاعِهِ وَطِبَاعِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ لَهُ مَرَّةً مَسْكِنًا فَلِذَلِكَ قَالَ (وَالْمَرْءُ لَمْ يَغْضَبْ لِمَطْلَبِ أُنْفِهِ ** أَوْ عَرَسَهُ لِكَرْهِيهِ لَمْ يَغْضَبْ) يَقُولُ : مَتَى لَمْ يَحْمِ فَرَجَ أُمِّهِ وَامْرَأَتَهُ فَلَيْسَ مِمَّنْ يَغْضَبُ مِنْ شَيْءٍ يُؤُولُ إِلَيْهِ . (قَوْلُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي صَمِّ الْأَخْرَسِ) وَزَعَمَ الْمُتَكَلِّمُونَ أَنَّ الْأَخْرَسَ أَصَمُّ وَأَنَّهُ لَمْ يُوتَ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُنْطِقِ لَشَيْءٍ فِي لِسَانِهِ وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا أَتَى فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ حِينَ لَمْ يَسْمَعْ صَوْتًا قَطُّ مُؤَلَّفًا أَوْ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ لَمْ يَعْرِفْ كَيْفِيَّتَهُ فَيَقْصِدُ إِلَيْهِ وَأَنَّ جَمِيعَ الصُّمِّ لَيْسَ فِيهِمْ مُصَمَّتٌ وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتْونَ فِي الشَّلَّةِ وَاللَّيْنِ فَبَعْضُهُمْ يَسْمَعُ الْهَدَّةَ وَالصَّاعِقَةَ وَنَهِيْقَ الْحِمَارِ إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ

وَالرَّعْدَ الشَّدِيدَ لَا يَسْمَعُ غَيْرَ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ السَّرَارَ وَإِذَا رَفَعَتْ لَهُ الصَّوْتُ لَمْ يَسْمَعْ وَمَتَى كَلَّمْتَهُ وَقَرَّتِ الشَّكَايَةُ فِي أُذُنِهِ فَهَمَّ عَنْكَ كُلُّ الْفَهْمِ وَإِنْ تَكَلَّمْتَ عَلَى ذَلِكَ الْمَقْدَارِ فِي الْهَوَاءِ وَلَمْ يَكُنْ يَنْفِذُ فِي قَنَاقَةٍ تَحْصُرُهُ وَتَجْمَعُهُ حَتَّى تُؤَدِّيَهُ إِلَى دِمَاغِهِ لَمْ يَفْهَمْهُ .
فَالْأَصَمُّ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ الْأَخْرَسُ وَالْأَخْرَسُ إِنَّمَا سَمِيَ بِذَلِكَ عَلَى التَّشْبِيهِ وَالْقَرَابَةِ وَمَتَى ضَرَبَ الْأَصَمُّ مِنَ النَّاسِ إِنْسَانًا أَوْ شَيْئًا غَيْرَهُ ظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يَبَالِغْ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتَ الضَّرْبَةِ قَالَ الشَّاعِرُ : وَقَالَ الْأَسَدِيُّ :
وَأَوْصِيكُمْ بِطِعَانِ الْكُمَاةِ ** فَقَدْ تَعْلَمُونَ بِأَنَّ لَا خُلُودًا)

(وَضَرَبَ الْجُمَا جَمَّ ضَرَبَ الْأَصَمِّ ** حَنْظَلَ شَابَةً يَجْنَى الْهَيْبِدَا) وَقَالَ الْهَذَلِيُّ : (فَالطَّعْنُ شَعْشَعَةً وَالضَّرْبُ مَعْمَعَةً ** ضَرَبَ الْمُعْوَلُ تَحْتَ الدَّيْمَةِ الْعَصْدَا) وَإِنَّمَا جَعَلَهُ تَحْتَ الدَّيْمَةِ لِأَنَّ الْأَغْصَانَ وَالْأَشْجَارَ تُصَوِّرُ أَلْدَنَ وَأَعْلَكَ فَيَحْتَاجُ الَّذِي يَضْرِبُ تِلْكَ الْأَصُولَ قَبْلَ الْمَطَرِ إِلَى عَشْرِ ضَرَبَاتٍ حَتَّى يَقْطَعَ ذَلِكَ الْمَضْرُوبَ فَإِذَا أَصَابَهُ الْمَطَرُ احْتَاجَ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .

تَحْقِيقُ مَعْنَى شَعْرِي وَأَنْشَدَنِي يَحْيَى الْأَغْرَ : (كَضْرَبِ الْقَيْوَنِ سَبِيلِكَ الْحَدِيدِي ** دِيَوْمَ الْجَنَانِبِ ضَرْبًا وَكِيدًا) فَلَمْ أَعْرِفْهُ فَسَأَلْتُ بَعْضَ الصَّيَاقِلَةِ فَقَالَ : نَعَمْ هَذَا بَيِّنٌ مَعْرُوفٌ إِذَا أَخْرَجْنَا الْحَدِيدَةَ مِنَ الْكَبِيرِ فِي يَوْمِ شَمَالٍ وَاحْتِاجَتْ فِي الْقَطْعِ إِلَى مِائَةِ ضَرْبَةٍ احْتَاجَتْ فِي قَطْعِهَا يَوْمَ الْجَنُوبِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَإِلَى أَشَدِّ مِنْ ذَلِكَ الضَّرْبِ لِأَنَّ الشَّمَالَ يُبَيِّنُ وَيَقْصِفُ وَالْجَنُوبَ يَرْطُبُ وَيَلْدُنُ .
وَالْإِنْسَانُ أَبَدًا أَخْرَسُ إِذَا كَانَ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَتَبَيَّنُ الْأَصْوَاتَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ عَلَى مَعْنَاهُ وَيَقَالُ فِي غَيْرِ

الإنسان على غير ذلك قال كثير : (ألم تسألني يا أم عمرٍ و فتخبري ** سلّمت وأسقاك السحابُ البوارقُ)
(بكيًا لصوتِ الرعدِ خرس روائح ** ونعق ولم يُسمعَ لهن صواع)

وتقول العرب : ما زلت تحت عينِ خرساء والعين : السحابة تبقى أيامًا تمطر وإذا كثرت ماؤها وكثف ولم يكن فيها مخارق ثم مدح بirq .

سرعة الضوء وسرعة الصوت ومتى رأيتَ البرقَ سمعتَ الرعدَ بعدُ والرعدُ يكون في الأصل قبله ولكنَّ الصوتَ لا يصل إليك في سرعة البرق لأنَّ البارقَ والبصرَ أشدُّ تقارباً من الصوتِ والسمعِ وقد ترى الإنسانَ وبينك وبينه رحلهُ فيضرب بعضاً إمّا حجراً وإمّا دابةً وإمّا ثوباً فتري الضربَ ثم تمكثُ وقتاً إلى أن يأتيتك الصوتُ .

السحابة الخرساء

فإذا لم تصوتِ السحابةُ لم تبشّر بشيءٍ وإذا لم يكن لها ررٌ سميت خرساءً .
وإذا كانت الصخرةُ في هذه الصفةِ سميت صماءَ قال الأعشى : (وإذا تجيءُ كتيبةً ملمومةً ** مكروهةً
يخشى الكمأةَ نزالها) وعلى غير هذا المعنى قال كثير : (كأني أنادي صخرةً حين أعرضتُ ** من الصمِّ لو
تمشي بها العضمُ زلت)

ومن هذا الشكل قولُ زهير : (وتؤفقه عَمِيَاءَ لَا يَجْتَازُهَا ** إِلَّا الْمَشِيعُ ذُو الْفُؤَادِ الْهَادِي) (ففقر هَجَعْتُ بها
ولستُ بنائمٍ ** وذراعُ مُلْقِيَةِ الْجِرَانِ وَسَادِي) (وَوَقَعْتُ بَيْنَ قُتُودِ عَنَسٍ ضَامِرٍ ** لِحَاطَةِ طِفْلِ الْعَشِيِّ
سِنَادٍ) فجعل التؤوفةَ عَمِيَاءَ حين لم تكن بها أمارات .

الزبابة

ودابةٌ يقال لها الزبابةُ عَمِيَاءَ صَمَاءَ تشبه الفأرةَ وليست

بالخُلْد لأنَّ الخُلْدَ أعمى وليس بأصمَّ والزبَاب يكون في الرَّمْل وقال الشاعر : (وَهَمَّ زَبَابٌ حَائِرٌ ** لَا
تَسْمَعُ الْآذَانَ رَعْدًا) وكلُّ مولودٍ في الأرض يُولد أعمى إن كان تأويل العمى أنّه لا يُبصر إلا بعد أيام فمنه
ما يفتح عينيه بعد أيامٍ كالجُرُودِ إِلَّا أَوْلَادَ الدَّجَاجِ فَإِنَّ فِرَارِيحَهَا تَخْرُجُ كَاسِيَةٍ كَاسِيَةٍ .
شعر فيه مجون وقال أبو الشمقمق وجعل الأير أعمى أصمَّ على التشبيه فقال : (فَسَلَّمْ عَلَيْهِ فَاتَرَ الطَّرْفِ
صَاحِكًا ** وَصَوَّتْ لَهُ بِالْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ)

(بِأَصْلَعٍ مِثْلِ الْجُرُودِ جَهْمٍ غَضَنَفَرٍ ** مُعَاوِدٍ طَعْنٍ جَائِفٍ وَسِنَادٍ) (أَصَمٌّ وَأَعْمَى يُنْغِضُ الدَّهْرَ رَأْسَهُ ** يسير
على مِيلٍ بغير قيادٍ) قول لمن زعم أن النعامة تسمع وقال من زعم أن النعامة تسمع : يدلُّ على ذلك قول
طرفة : (هَلْ بِالْدِّيَارِ الْغَدَاةُ مِنْ خَرَسٍ ** أَمْ هَلْ بِرَبْعِ الْجَمِيعِ مِنْ أَنَسٍ) (سِوَى مَهَاةٍ تَقْرُو أَسْرَتَهُ **

وَجُوذِرَ يَرْتَعِي عَلَى كَنْسٍ (أَوْ خَضَابٍ يَرْتَعِي بِهَقْلَتِهِ * متى تَرَعُهُ الْأَصْوَاتُ يَهْتَجِسُ) فقد قال طَرْفَةُ كما ترى : متى تَرَعُهُ الْأَصْوَاتُ يَهْتَجِسُ فَكَاهَةٌ

وروى الهيثم بن عدي وسمعه بعض أصحابنا من أبي عبيدة قال : تضارط أعرابيان عند خالد بن عبد الله أحدهما تميمي والآخر أزدِي فضرط الأزدِي ضرطَةً ضئيلة فقال التميمي : (حَبَقْتَ عَجِيفًا مُحْتَلاً وَلَوْ أَنَّنِي * حَبَقْتُ لَأَسْمَعْتُ النَّعَامَ الْمَشَرَّدَا) (فمرَّ كمَّ ر المنجنيق وصوته * يبدُ هزيم الرعد بدءاً عمرداً) من لقبه : نعامه وزعم أبو عمرو الشيباني عن بعض العرب أن كلَّ عربيٍّ وأعرابيٍّ كان يلقب نعامه فإنما يلقب بذلك لشدة صممه وأنه سألته عن الظليم : هل يسمع فقال : يعرفُ بأنفه وعينه ولا يحتاج معهما إلى سَمْعٍ وَأَنْشَدَنِي : (فَجَسْتُكَ مِثْلَ الْهَقْلِ يَشْتُمُ رَأْلَهُ * ولا عَرَفَ إِلَّا سَوْفَهَا وَشَمِيمُهَا)

وزعم أنَّ لَقَبَ بيهس نعاماً وأنه لَقِبَ بذلك لأنه كان في خلُق نعامه وكان شديد الصَّمَم مائلاً فأشَدَّ لعدي بن زيد : (وَمَنْ حَلَزَ الْأَيَّامَ مَا حَزَّ أَنْفُهُ * قَصِيرٌ وَخَاضَ الْمَوْتَ بِالسَّيْفِ بِيَهْسُ) (نعاماً لما صرَّع القوم رَهْطُهُ * تَبَيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ كَيْفَ يَلْبَسُ) (مُنْتَخَبُ اللَّبِّ لَهُ ضَرْبَةٌ * خَدْبَاءُ كَالْعَطِّ مِنَ الْخِدْعِلِ)

يقول : هذا السَّيْفُ أهْوَجُ لا عقل له والحدب في هذا الموضوع : الهوَجُ وقهاوي الشيء لا يَتِمَالِكُ ويقال للسَّيْفِ لا يُبَالِي مَا لَقِيَ .

شعر في النعام والتشبيه به وقال الأعشى في غير هذا الباب : (كَحَوْصَلَةِ الرَّالِ فِي جَرِيهَا * إذا جَلِيَتْ بَعْدَ إِقْعَادِهَا) كحوصلة الرال يصف الخمرَ بالحمرة جلوت بالحمرة جلوت : أخرجت وهو مأخوذ من جلوة العروس القاعلة) إذا قَعَدَتْ عن الطَّلَب ومثله في غير الخمر قول علقمة : (تَأْوِي إِلَى حِسْكِ حُمُرٍ حَوَاصِلُهُ * كَأَنَّهُنَّ إِذَا بَرَكْنَ جُرْثُومُ) وقال الأحنس بن شهاب : (تَظَلُّ بِمَا رُبْدُ النَّعَامِ كَأَنَّهَا * إِمَاءٌ تُزَجِّي بِالْمَسَاءِ حَوَاطِبُ)

تُزَجِّي : تَدْفَعُ وذلك أنه يتقل حملها فتمشي مشية النعام وقال الراجز : (وَإِذَا الرِّيحُ تَرَوَّحَتْ بِعَشِيَّةٍ * رَتَكَ النَّعَامُ إِلَى كَيْفِ الْعَرْفَجِ) والرتك : مشيٌّ سريع يقول تبادرُ إلى الكثيف تستتر به من البرد وقال :

استقبال الظليم للريح وليس لقول من زعم أن الظليم إذا عدا استقبال الريح وإنما ذلك مخافة أن تكون الريح من خلفه فتكبتة معنى لأننا نجدهم يصفون جميع ما يستدعونه باستقبال الريح قال عبدة بن الطبيب يصف الثور : (مُسْتَقْبِلُ الرِّيحِ يَهْفُو وَهُوَ مُبْتَرِكٌ * لسائنه عن شمال الشَّدَقِ مَعْدُولُ) ووصف الذئب طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ فقال : (كَسِيدِ الْغَصَا الْعَادِي أَضَلَّ جِرَاءَهُ * عَلَى شَرَفٍ مُسْتَقْبِلِ الرِّيحِ يَلْحَبُ)

استطرد ويلحق بموضع ذكر الضرب الشديد قولهم في المثل : ضَرَبْنَاَهُمْ ضَرْبَ غَرَابِ الْإِبِلِ قال أبو حية : (جَدِيرُونَ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْ يُخْضِبُوا الْقَنَا * وَأَنْ يَتْرُكُوا الْكَبْشَ الْمَدَجَّ ثَاوِيَا) (ضَرَبْنَاَهُمْ ضَرْبَ الْجَنَابِيِّ عَلَى جَبِي * غَرَابِ تَغْشَاهُ حَرَاراً ضَوَارِيَا) وإذا جاءت عطاشاً قد بلغ منها العطش واليُسُّ قيل : جاءت تَصِلُ

أجوافها صليلاً قال الراعي : قال : وأنشدنا أبو مَهْدِيَّةٍ لمَراحِمِ العُقَيْلِيَّ : (عَدَتْ مِنْ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا تَمَّ ظَمُؤُهَا
** تَصِلُ وَعَنْ قَيْضِ بَرِيْزَاءَ مَجْهَلٍ) قال الزَّيْرَاءُ : المكان الغليظ .
وقال آخر : (أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أُمَّ حَسَّانَ أَنِّي ** إِذَا عَبْرَةٌ نَهْنَهْتُهَا فَتَجَلَّتِ) (رَجَعَتْ إِلَى صَلْبٍ كَجِرَّةٍ حَنْتِمْ
** إِذَا قُرِعَتْ صِفْراً مِنَ الْمَاءِ صَلَّتِ)

اختبار أمير المؤمنين المنصور لأحد الحوَاء وزعم ابن أبي العجوز الحوَاء أَنَّ الْأَفَاعِيَّ صُمُّ فَلذَلِكَ لَا تُجِيبُ
الرُّقْيَ ثُمَّ زَعَمَ لِي فِي ذَلِكَ الْجُلُوسَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورَ أَرَادَ امْتِحَانَهُ رُقْيَ حَيَّةٍ وَأَنْ يَتَعَرَّفَ صَحَّتَهَا مِنْ
سُقْمِهَا وَأَنَّهُ أَمَرَ فِصَاغُوا لَهُ أَفْعَى مِنْ رِصَاصٍ فَجَاءَتْ وَلَا يَشْكُ النَّاطِرُ فِيهَا وَأَنَّهُ أَمَرَ بِالزَّاقِهَا فِي مَوْضِعٍ مِنْ
السَّقْفِ وَأَنَّهُ أَحْضَرَهُ وَقَالَ لَهُ : إِنَّ هَذِهِ الْأَفْعَى قَدْ صَارَتْ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَقَدْ كَرِهْتُهَا لِمَكَانِهَا فَإِنْ احْتَلَّتْ لِي
بُرْقِيَّةٌ أَوْ بِمَا أَحْبَبْتَ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ قَالَ : إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْذَهَا هَرَبْتُ وَلَكِنْ أَرْقِيهَا حَتَّى تَنْزِلَ فَرَقَاهَا فَلَمَّا
رَأَاهَا لَا تَتَحَرَّكَ زَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ وَأَلْقَى قِنَاعَهُ فَلَمَّا رَأَاهَا لَا تَتَحَرَّكَ نَزَعَ عِمَامَتَهُ وَزَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ فَلَمَّا
رَأَاهَا لَا تَتَحَرَّكَ نَزَعَ قَلَنْسُوتَهُ وَزَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ فَلَمَّا رَأَاهَا لَا تَتَحَرَّكَ نَزَعَ ثِيَابَهُ وَزَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ حَتَّى
أَزْبَدَ وَتَمَرَّغَ

فِي الْأَرْضِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ سَالَ ذَلِكَ الرَّصَاصُ وَذَابَ حَتَّى صَارَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَاقْرَءَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَنْصُورُ بِجُودَةٍ
رُقْيَتِهِ .
فَقُلْتُ لَهُ : وَبِلَكَ زَعَمْتَ قُبَيْلُ أَنَّ الْأَفَاعِيَّ لَا تُجِيبُ الرُّقْيَ لِأَنَّهَا لَا تَسْمَعُ وَهِيَ حَيَوَانٌ ثُمَّ زَعَمْتَ أَنَّهَا أَجَابَتْ
وَهِيَ جَمَادٍ .

شعر وخبر في نفار النعامة وقال الشَّاعِرُ : (وَرَبْدَاءُ يَكْفِيهَا الشَّمِيمُ وَمَا لَهَا ** سِوَى الرُّبْدِ مِنْ أَنْسٍ بَتَلَكِ
الْجَاهِلِ) يُخْبِرُ أَنَّ النِّعَامَةَ لَا تَسْتَأْنِسُ بِشَيْءٍ مِنَ الْوَحْشِ وَأَنَّ الشَّمَّ يَغِيثُهَا فِي فَهْمٍ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ
إِذَا صَارَتْ إِلَى دُورِ النَّاسِ فَلَيْسَ مَعَهَا مِنَ الْوَحْشَةِ مِنْهُمْ عَلَى قَلْبٍ مَا يَذْكُرُونَ وَفِي الْوَحْشِ مَا يَأْنِسُ وَفِيهَا مَا
لَا يَأْنِسُ وَقَالَ كَثِيرٌ : (فَأَقْسَمْتُ لَا أَنْسَاكِ مَا عِشْتُ لَيْلَةً ** وَإِنْ شَحَطْتُ دَارًا وَشَطَّ مَزَارُهَا) (وَمَا اسْتَنَّ
رَقْرَاقُ السَّرَابِ وَمَا جَرَتْ ** بَيْضُ الرُّبَا أَنْسِيَّهَا وَنَوَارُهَا)

ووصف بلاداً قفاراً غير مأنوسة فقال : خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا أَنْفَرُ وَأَشْرَدُ وَأَقْلُ أَنْسَاءً مِنْ جَمِيعِ الْوَحْشِ .
وقال الأحيمر : كُنْتُ أَتَى الظَّبِّيَّ حَتَّى أَخَذَ بِذِرَاعِيهِ وَمَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ مِهَائِمِ الْوَحْشِ يَنْكُرُنِي إِلَّا التَّعَامَ
وَأَنْشَدَ قَوْلَ ذِي الرُّمَّةِ : (وَكُلَّ أَحَمِّ الْمُقْلَتَيْنِ كَأَنَّهُ ** أَخُو الْإِنْسِ مِنْ طُولِ الْخَلَاءِ الْمَغْفَلِ)

نقار الوحش وهربها من الصحارى يدل على ذلك في قَلْبٍ مَا شَاهَدْنَا أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ إِلَى الصَّحَارَى الْأَغْفَالِ
الَّتِي لَمْ يُذْعَرْ صَيْدُهَا وَلَا يَطُؤُهَا النَّاسُ فَيَأْتُونَ الْوَحْشَ فَوْضَى هَمَلًا وَمَعَهُمْ كَلَابُهُمْ وَفَهُودُهُمْ تَتَلَوَّى بِأَيْدِيهِمْ
فَيَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي لَوْ كَانُوا ابْتَدَوْا الصَّيْدَ مِنْ جِهَتِهَا لَأَخَذُوا مَا أَخَذُوا فَإِذَا نَفَرَتْ وَحُوشُ هَذِهِ
الْأَرْضِ وَمَرَّتْ بِالْأَرْضِ الْجَاوِرَةِ لَهَا نَفَرَتْ سَكَّانُ تِلْكَ الْأَرْضِ مَعَ هَذِهِ التَّوَافِرِ وَلَا تَعُودُ تِلْكَ الصَّحَارَى إِلَى

مثل ما كانت عليه من كثرة الوحش حيناً .

ومتى لم تنفرها الأعراب بالكلاب والقسي ونصب الحبال رتعت بقرهم ثم دنت منهم أولاً فأولاً حتى تطأ أكناف يوقمهم وهي اليوم في حير المعتصم بالله والواق بالله على هذه الصفة .

هجرة الطباء إلى الناس

وخبرني إبراهيم بن السندي قال خبرني عبد الملك بن صالح وإسحاق بن عيسى وصالح صاحب الموصل أن خالد بن برمك بناه على سطح من سطوح القرى مع قحطبة وهم يتغدون وذلك في بعض منازلهم حين فصلوا من خراسان إلى الجبل قال : وبين قحطبة وبين الأعداء مسيرة أيام وليال قال : فبينا خالد يتغدى معه وذلك حين ثلوا وبهم كلال السير وحين علقوا على دوابهم ونصبوا قدورهم وقربوا سفرهم .

قال فنظر خالد إلى الصحراء فرأى أقاطيع الطباء قد أقبلت من جهة الصحارى حتى كادت تخالط العسكر فقال لقحطبة : أيها الأمير ناد في الناس : يا خيل الله اركبي فإن العدو قد حث إليك السير وغاية أصحابك أن يسرجوا ويلجموا قبل أن يروا سرعان الخيل فقام قحطبة مذعوراً فلما لم ير شيئاً يرؤعه ولم ير غباراً قال لخالد : ما هذا الرأي قال : أيها الأمير لا تتشاغل بي وبكلامي وناد في الناس أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت فارقت مواضعها حتى خالطت الناس إن وراءها جمعاً عظيماً قال : فوالله ما أجموا وأسرجوا حتى رأوا ساطع الغبار ولا تلبسوا وتسلاحوا حتى رأوا الطليعة فما التأموا حتى استوى أصحاب قحطبة على ظهور خيولهم ولولا نظرة خالد بن برمك وفراسته لقد كان ذلك الجيش اصطلم .

قصة في قوة الشم

قصة في قوة الشم

وكان إبراهيم بن السندي يحدثنا من صدق حس أبيه في الشم بشيء ما يحكى مثله إلا عن السباع والنمر والنعام وزعم أن أباه قال ذات يوم : أجدر ربح بول فأرة ثم تشمم وأجال أنفه في المجلس فقال : هو في تلك الزاوية فنظروا فإذا على طرف البساط من البلبل بقدر الدرهم أو أوسع شيئاً فقصوا أنه بول فأرة .

قال : وشهدته مرة وأشرأطه قيام على رأسه في السمطين فقال : أجدر ربح جورب عفن منتن فتشمنا بأجمعنا فلم نجد شيئاً ثم تشمم وقال : انزعوا خف ذاك فنزعوا خفه فكلموا مد النازع له شيئاً بدا من لفافته فما زال الثن يكتف ويزداد حتى خلع خفه ونزعه من رجله فظهر من ثن لفافته ما عرف به صدق حسه ثم قال : انزعوا الآن أخفافكم بأجمعكم فلا بد من ألا يكون في جميع اللفائف منتن غير لفافته أو تكون لفافته أنتنها فنزعوا فلم يجدوا في جميعها لفافة منتنة غيرها . وأنشدوا : (غرا ابن عمير غروة تركت لنا * ثناء كنتن الجورب المتخرق)

أقوى درجات التشمم وليس الذي يُحكى من صدق الحسّ في الشّم عن بعض النّاس وعن النّعام والسّباع والفار والنّرّ وضروب من الحشرات من شكل ما نطق به القرآن العظيم من شأن يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسّلام حين يقول تعالى : قَالَ أَبُوهُمَ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُون قَالُوا تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ وكان هذا من يعقوب بعد أن قال يوسف : اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ولذلك قال : وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمَ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُون ثُمَّ قَالَ : فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا .

وإنّما هذا علامة ظهرت له خاصة إذ كان النّاس لا يشتمّون أرواح أولادهم إذا تباعدوا عن أنوفهم وما في طاقة الحصان الذي يجذّ ريح الحجر ممّا يجوزُ الغلوتين والثلاث فكيف يجذّ الإنسان وهو بالشّام ريح ابنه في قميصه ساعة فصل من أرض مصر ولذلك قال : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .
(بعض المجاعات)

بعض المجاعات

وقد غبر موسى وهو يسير أربعين عاماً لا يدوق ذواقاً وجاع أهل المدينة في تلك الحطمة حتى كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشدّون الحجر على بطونهم من الجوع والجهد وكان النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين يقول : إِنِّي لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ إِنِّي آيْتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِيَنِي . حجاج في ذبح الحيوان وقنله ورجال ممّن يتحلّ الإسلام يظهرُون التقدّر من الصّيد ويرون أنّ ذلك من القسوة وأنّ أصحاب الصّيد لتؤدّيهم الصّراوة التي اعترقتهم

من طروق الطير في الأوكار ونصب الحبال للظباء التي تقطع عن الحشقات حتى تموت هزلاً وجوعاً وإشلاء السّباع على بهائم الوحش وسُسلِم أهلها إلى القسوة وإلى التهاون بدماء النّاس .
والرحمة شكل واحد ومن لم يرحم الكلب لم يرحم الطّي ومن لم يرحم الطّي لم يرحم الجدّي ومن لم يرحم العصفور لم يرحم الصّبي وصغار الأمور تؤدّي إلى كبارها .
وليس ينبغي لأحد أن يتهاون بشيء ممّا يؤدي إلى القسوة يوماً ممّا وأكثر ما سمعت هذا الباب من ناس من الصّوفيّة ومن النصارى لمصاهاة النصارى سبيل الرّنادقة في رفض الذبائح والبُغض لإراقة الدّماء والزّهد في أكل اللّحمان .

وقد كان يرحمك الله على الرّنديق ألاّ يأتي ذلك في سبّاح الطير وذوات الأربع من السّباع فأما قتل الحيّة والعقرب فما كان ينبغي لهم البتّة أن يقفوا في قتلها طرفة عين لأنّ هذه الأمور لا تخلو من أن تكون شرّاً صرّفاً أو يكون ما فيها من الخير مغموراً بما فيها من الشرّ والشرّ شيطانٌ والظلمة عدوُّ الثّور فاستحياء الظلمة وأنّ قادرٌ على إمامتها لا يكون من عمل الثّور بل قد ينبغي أن تكون رحمة الثّور لجميع الخلائق والنّاس إلى استنقاذهما من شرور

وكما ينبغي أن يكون حسناً في العقل استحياء الثور والعمل في تخليصه والدفع عنه فكذلك ينبغي أن يكون قتل الظلّمة وإماتتها والعون على إهلاكها وتوهمين أمرها حسناً .
والبهيمة التي يرون أن يدفعوا عنها أيضاً ممزوجة إلا أن شرّها أقلّ فهم إذا استبقوها فقد استبقوا الشرور المخالطة لها .

فإن زعموا أن ذلك إنما جاز لهم لأن الأغلب على طباعها الثور فليغفروا في هذا الموضع إدخال الأذى على قليل ما فيها من أجزاء الشرّ كما اغفروا ما في إدخال الروح والسرور على ما (في البهيمة من أجزاء الظلّمة لدفعهم عن البهيمة إذ كان أكثر أجزائها من الثور .
وإنما ذكرت ما ذكرت لأنهم قالوا : الدليل على أن الذي أنتم فيه من أكل الحيوان كلّ يوم من الذبائح مكروه عند الله أنكم لم تروا قط ذبّاحي الحيوان ولا قتالي الإنسان ولا الدين لا يقتاتون إلا اللحمان يفلحون أبداً ويستغنون كنحو صيادي السمك وصيادي الوحش وأصناف الجزارين والقصّابين والشوّابين والطهّانين

والفهادين والبيّازة والصقّارين والكلايين لا ترى أحداً منهم صار إلى غنى ويُسّر ولا تراه أبداً إلا فقيراً مُحارفاً وعلى حالٍ مشبهة بحاله الأولى .
وكذلك الجلادون ومن يضرب الأعناق بين يدي الملوك وكذلك أصحاب الاستخراج والعذاب وإن أصابوا الإصابات وجميع أهل هذه الأصناف . نعم وحتى ترى بعضهم وإن خرج نائراً خارجياً ونال منهم ثروة وجاهاً وسلطاناً فيما أن يقتل وإما يُعصّب نفسه بميتة عاجلة عند سروره بالثروة أو يبعث الله عليه الحق فلا ينمو له شيء وإما ألا يجعل من نسلهم عقباً مذكوراً ولا ذكراً نبياً وذريّة طيبة مثل الحجاج بن يوسف وأبي مسلم ويزيد بن أبي

مسلم ومثل أبي الوعد ومثل رجال ذكروهم لا نحب أن نسميهم .
قال : فإن هؤلاء مع كثرة الطرقة وظهور القدرة ومع كثرة الإنسال قد قبح الله أمرهم وأخمل أولادهم فهم بين من لم يعقب أو بين من هو في معنى من لم يعقب .

فقلت للتصارى بدياً : كيف كان الناس أيام الحكم بما في التوراة أيام موسى وداود وهما صاحباً حروب وقتل وسبّاء وذبائح نعم حتى كان القربان كُله أو عامته حيواناً مذبوحةً لذلك سمّيت بيت المذبح . ولستنا نسألكم عن سيرة التصارى اليوم ولكننا نسألكم عن دين موسى وحكم التوراة وحكم صاحب الزبور وما زالوا عندكم إلى أن أنكروا ربوبيّة المسيح على أكثر من حالنا اليوم في الذبائح وأنتم في كثير من حالاتكم تُعلّون علينا السمك حتى تنوحى أياماً بأعيانها فلا نشترى السمك إلا فيها طلباً للإمكان والاسترخاص وهي يوم الخميس ويوم السبت ويوم الثلاثاء لأن شراءكم في ذلك

اليوم يقل على أنكم تُكثرون من الذبائح في أيام الفصح وهل تدعون أكل الحيوان إلا أياماً معدودة وساعات معلومة .

فإذا كانت الحِرْفَةُ والخن إنَّما لَزِمَا القَصَّابِينَ والجزَّارِينَ والشَّوَّائِينَ وَأَصْنَافَ الصَّيَّادِينَ من جهة)
العقوبة فأنتم شركاء صيَّادي السَّمَكِ خاصَّةً لأنَّكم آكلُ الخلقِ له وأنتم أيضاً شركاءُ القَصَّابِينَ في عامَّةِ
الدَّهْرِ فلا أنتم تَدِينُونَ للإسلام فتعرفوا ما عليكم ولكم وفصل ما بين الرَّحْمَةِ والقَسْوَةِ وما الرَّحْمَةُ وفي أيِّ
موضعٍ يكونُ ذلك القتلُ رحمةً فقد أجمعوا على أنَّ قَتْلَ الْبَعْضِ إحياءٌ للجميعِ وأنَّ إصلاحَ النَّاسِ في إقامةِ
جزاءِ الحسنةِ والسيئةِ وَلَكُمْ في الْقِصَاصِ حَيَاةٌ . وَالْقَوْدُ حَيَاةٌ وهذا شيءٌ تَعْمَلُ به الأممُ كلها غَيْرَ الزَّنَادِقَةِ
وَالزَّنَادِقَةُ لَمْ تَكُنْ قَطُّ أُمَّةً ولا كان لها مُلْكٌ وَمَمْلَكَةٌ وَلَمْ تَزَلْ بَيْنَ مَقْتُولٍ وهاربٍ ومنافقٍ فلا أنتم زَنَادِقَةٌ ولا
ينكر لمن كان ذلك مَذْهَبُهُ أن يقول هذا القولُ .

فأنتم لا دَهْرِيَّةٌ ولا زَنَادِقَةٌ ولا مُسْلِمُونَ ولا أنتم رَاضُونَ بِحُكْمِ اللَّهِ أَيَّامَ التَّوْرَةِ .
فإن كان هذا الحُكْمُ قد أمرَ اللَّهُ به وهو عدلٌ فليس بين الزَّمَانَيْنِ فرق .

وَبَعْدُ فَإِنَّا نَجِدُكُمْ تَأْكُلُونَ السَّمَكَ أَكْلاً ذَرِيعاً وتغذرون من اللُّحْمَانِ أَفْلَأَنَّ السَّمَكُ لا يَأْلُمُ الْقَتْلَ أم لأنَّ
السَّمَكَ لَمَّا قَتَلْتُمُوهُ بَلَا سَكِّينَ لم يُحْسَ قَتْلُهُ فالجميع حيوانٌ وكلُّ مقتولٍ يَأْلُمُ وكلُّ يُحْسُ فكيف صار أكلُ
اللُّحْمِ قَسْوَةً وَأَكْلُ السَّمَكِ لَيْسَ بِقَسْوَةٍ وكيف صار ذبحُ البهائمِ قسوةً ولا تكون تفرقةً ما بين السَّمَكِ
والماءِ حتَّى تموت قسوةً وكيف صار ذبحُ الشَّاةِ قَسْوَةً وصيدُ السمكِ بالسَّنانِ المذَرَّةِ المعقَّفةِ ليس لها
شعائرٌ تخالف العقافَ المنصوص في جهاتها وكيف وهي وإن لم تنشب في أجوافها وتقبض على مجامع أرواحها
لم تقلِّدْ على أخذها .

وكيف صار وَجَعُ اللَّبَّةِ من الجزور أقسى من ضَرْبِ النَّبَائِلِ أم كيف صار طعنُ العَيْرِ بالرُّمَحِ ونصبُ الحبالِ
للطَّيِّاءِ وإرسالُ الكلابِ عليها أَشَدَّ مِنْ وَقْعِ النَّبَائِلِ في ظَهْرِ السَّمَكِ .

ولأنَّكُمْ تَكْثُرُونَ قَوْلَكُمْ : لا نأكل شيئاً فيه دَمٌ أَيَّامَ صَوْمِنَا فَلِلسَّمَكِ دَمٌ ولا بدَّ لجميعِ الحيوانِ من دمٍ أو
شيءٍ يُشَاكِلُ الدَّمَ فما وجهُ اعتلالكم بالدَّمِ لأنَّ كلَّ شيءٍ فيه دَمٌ فهو أَشدُّ أَلماً فكيف نعلم ذلك وما الدَّلِيلُ
عليه .

فإن زعمتم أنَّ ذلك داخلٌ في بابِ التَّعْبُدِ والمُصْلَحَةِ لا في بابِ القِيَّاسِ والرَّحْمَةِ والقَسْوَةِ فهذا باب آخر إلا
أنَّ تَدْعُوا أنَّ ذَوَاتِ الدِّمَاءِ أقوى للأبدانِ وأَشْرُ لِلنَّفُوسِ فأردتم بذلك قِلَّةَ الأَشْرِ وَضَعْفَ البدنِ فإن كان
ذلك كذلك فقد ينبغي أن يكون هذا المعنى مُسْتَبِيناً في آكلي السَّمَكِ من البحريين .

وأما ما ذكرْتُم من مُلَازِمَةِ الحِرْفَةِ لهؤلاء الأصنافِ فإنَّ كلَّ مَنْ نَزَلَتْ صِنَاعَتُهُ وَدَقَّ خَطَرُ
وأحلُّ الكَسْبِ كُلُّهُ وَأَطْيَبُهُ عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ سَقْيُ الْمَاءِ إمَّا على الظَّهْرِ وإمَّا على دَابَّةٍ ولم أرَ سَقَاءً قَطُّ بَلَغَ
حَالَ الْيَسَارِ والثَّرْوَةِ وكذلك ضَرَابُ اللَّبَنِ وَالطَّيَّانِ وَالْحَرَاثُ وكذلك ما صَغُرَ من التَّجَارَاتِ والصَّنَاعَاتِ .
ألا ترون أنَّ الأموالَ كثيراً ما تكونُ عندَ الكُتَّابِ وعندَ أَصْحَابِ الْجَوْهَرِ وعندَ أَصْحَابِ الْوَشْيِ والأنماطِ
وعند الصَّيَّارَةِ

والحنَّاطين وعند البحرَّيين والبصريين والجُلَّابُ أبداً والبيازرة أيسرُ ممن يبتاع منهم .
وجُمِّلُ الأموالِ حقَّ بأنْ تُربِحَ الجُمْلَ من تفريق الأموال وكذلك سبيل القصاب والجزَّار والشَّوَاءِ والبازيار
والفَهَّاد .

وأما ما ذكرتم من انقطاع نسل القساة وخول أولادهم كاقطاع نسل فرعون وهامان ونمرود وبخت نصر
وأشباههم فإن الله يقول : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .
وإن شئتم أن تعدوا من المذكورين بالصلاح أكثر من هؤلاء فمن كان عقيماً أو كان ميناثاً أو يكون ممن
نبت لهم أولاد سوء عقوهم في حياتهم وعرضوهم للسب بعد موتهم لوجدهم .
وعلى أي لم أنصب نفسي حرباً للحجاج بن يوسف ويزيد

بن أبي مسلم أتخرى بهما وهما وعلى أنكم ليس القصابين أردتم ولكنكم أردتم دين المسلمين . وقد خرج
الحجاج من الدنيا سليماً في بدنه وظاهر نعمته وعلي مرتبة من الملك ومكانه من جواز الأمر والنهي .
فإن كان الله عندكم سلمه وعاقب أولاده وكان ذلك دينكم فإن هذا قول إن خاطبتم به الجريفة فعسى أن
تعلقوا منهم بسبب فأما من صحح القول بالعدل فإن هذا القول عنده من الخطأ الفاحش الذي لا شبهة فيه .

شعر في القانص وفقره وكان لما أنشدوا من الدليل على أن القانص لا يزال فقيراً قول ذي الرمة :

(حتى إذا ما لها في الجدر واتخذت * شمس النهار شعاعاً بينها طيب) (ولاح أزهر مشهور بنقيته **
كأنه حين يغلو عاقراً لهب) (هاجت به جوع طلس مخصرة * شواذب لاحها التغريث والجنب) (جرد
مهرته الأشداق ضارية ** مثل السراحين في أعناقها العذب)

(ومطعم الصيد هبال لبغيته * ألقى أباه بذاك الكسب يكتسب) (مقرع أطلس الأطمار ليس له ** إلا
الضراء وإلا صيدها نشب) قال : فجعله كما ترى مقرعاً أطلس الأطمار وخير أن كلابه نشبه وأنه ألقى
أباه كذلك وأنشدوا في ذلك قول الآخر :

(وأعصم أنسته المنية نفسه * رعى النبع والظيان في شاهق وعر) (موارد قلَّتْ تصفقه الصبا ** بنيق
مزل غير كدر ولا نزر) (قرته السحاب ماؤها وقهدلت * عليه غصون دانيات من السمر) (أتيح له
طلح إزاه بكفه * هتوف وأشباه تخيرن من حجر) (أو صبية لا يستدر إذا شتا ** لقوحاً ولا عتراً وليس
بذي وفر)

(له زوجة شطاء يدرج حولها * فطيم تناجيه وآخر في الحجر) (مشوهة لم تعب طيباً ولم تبت * تقتر
هندياً بليل على جمر) (محددة العرقوب ثلم ناهما * تعرقها الأوذار من فقر الحمر) (مسفحة الخدين سود
درعها * تقدرها بالليل والأخذ بالقدر) (كغول الفلاة لم تخضب بناها ** ولم تدر ما زي الخرائد بالمصر)
(فأرسل سهماً أرهف القين حده * فأنفذ حصينه فخر على النحر)

مساءلة المنانية وذلك أَنَّ المنانِيَّةَ تزعمُ أَنَّ العَالَمَ بما فيه من عشرةِ أجناسٍ : خمسةٌ منها خيرٌ ونورٌ وخمسةٌ منها شرٌّ وظُلْمَةٌ وكلُّها حاسَّةٌ وَحارَّةٌ .

وَأَنَّ الإنسانَ مركَّبٌ مِنْ جَمِيعِها على قدرٍ ما يكونُ في كلِّ إنسانٍ من رُجْحَانِ أجناسِ الخيرِ على أجناسِ الشرِّ ورُجْحَانِ أجناسِ الشرِّ على أجناسِ الخيرِ .

وَأَنَّ الإنسانَ وإن كان ذا حَوَاسٍّ خمسةٍ فَإِنَّ في كُلِّ حاسَّةٍ متوناً من ضلَّهِ من الأجناسِ الخمسةِ فمتى نَظَرَ الإنسانُ نَظْرَةً رَحمَةً ففلكَ النَّظْرَةُ من الثُّورِ ومن الخيرِ ومتى نَظَرَ نَظْرَةً وعيدٍ ففلكَ النَّظْرَةُ من الظلمةِ وكذلك جميعِ الحواسِّ .

وَأَنَّ حاسَّةَ السَّمْعِ جنسٌ على حِلَّةٍ وَأَنَّ الذي في حاسَّةِ البصرِ من الخيرِ والثُّورِ لا يعين الذي) في حاسَّةِ السَّمْعِ من الخيرِ ولكنه لا يضادُّه

ولا يُفاسِدُهُ ولا يَمْنَعُهُ فهو لا يعينه لمكان الخِلافِ والجِنسِ ولا يعين عليه لَأَنَّهُ ليس ضِدًّا .
وَأَنَّ أجناسَ الشرِّ خِلافٌ لأجناسِ الشرِّ ضِدٌّ لأجناسِ الخيرِ وأجناسِ الخيرِ يخالِفُ بعضها بعضاً ولا يضادُّ وَأَنَّ التَّعاونَ والتَّأدي لا يقعُ بين مختلفيها ولا بين متضادِّها وإنما يقعُ بين متفقها .

قال : فيقال للمنانِيَّ : ما تقول في رَجُلٍ قال لرجُلٍ : يا فلان هل رأيت فلاناً فقال المسؤول : نعم قد رأيته أليس السَّامِعُ قد أَدَّى إلى النَّاطِرِ والنَّاظِرُ قد أَدَّى إلى الدَّاخِلِ وإلَّا فَلِمَ قال اللِّسانُ : وهذه المسألة قصيرة كما ترى ولا حيلة له بأن يَدْفَعَ قَوْلَهُ . مُساءلة زنديق ومساءلة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين الزَّنديقُ الذي كان يكنى بأبي عليٍّ وذلك عندما رأى من تطويلِ مُحَمَّدٍ بن الجهم وعجزِ العُتبي وسوءِ فهمِ القاسم بن سيار فقال له المؤمنون : أسألك عن حَرفين

فقط خبِّرنِي : هل ندمَ مُسيءٌ قَطَّ على إساءته أو نكون نحنُ لم نندمَ على شيءٍ كان متاً قط قال : بل ندم كثيرٌ من المسيئين على إساءتهم قال : فَخَبِّرْنِي عن النَّدَمِ على الإساءة إساءةً أو إحسان قال : إحسان قال : فالذي ندم هو الذي أساء أو غيرُهُ قال : الذي ندم هو الذي أساء قال : فأري صاحبَ الخيرِ هو صاحب الشرِّ وقد بطل قولكم : إِنَّ الذي ينظرَ نَظْرَ الوعيدِ غيرُ الذي ينظرَ نَظْرَ الرَحمَةِ قال : فإني أزعمُ أَنَّ الذي أساءَ غيرُ الذي ندمَ قال : فندم على شيءٍ كان منه أو على شيءٍ كان من غيره فقطعه بمسألته ولم يُبْ ولم يرجع حتى مات وأصلَّاه الله نارَ جَهَنَّمَ .

شعر في هجو الزنادقة وقد ذكر حمَّادُ عَجْرَدٍ ناساً في هجائه لبشار فقال : (لو كنت زنديقاً عمار جوتني ** أو كنت أعبد غير رب محمد) (أو كابن حمادٍ ربيَّة دينكم ** جبل وما جبل الغوى بمرشد) (لكنني وحدت ربي مخلصاً ** فجفوتني بغضاً لكل موحد)

وحبوت من زعم السماء تكونت والأرض خالقها لها لم يمهَّد (والنسيم مثل الزرع آن حصاده ** منه الحصيد ومنه ما لم يحصد) وحمَّادُ هذا أشهر بالزَّندقة من عُمارة بن حربية الذي هجاه بهذه الأبيات .
وأما قوله : وَحَبَوْتَ مَنْ زَعَمَ السَّمَاءَ تَكَوَّنَتْ فليس يقول أحدٌ : إِنَّ الفلكَ بما فيه من التَّدييرِ تَكَوَّنَ بنفسه

وَمِنْ نَفْسِهِ فَجَهِلَ حَمَّادٌ بِهَذَا الْمَقْدَارِ مِنْ مَقَالَةِ الْقَوْمِ كَأَنَّهُ عِنْدِي ثَمَّا يَعْرِفُهُ مِنْ بَرَاءَتِهِ السَّاحَةِ فَإِنْ كَانَ قَدْ أَجَابَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ مَقْلَدِيهِمْ .

وهجا حَمَّادُ بْنُ الزُّبْرَقَانِ حَمَّاداً الرَّائِيَةَ فَقَالَ : (نِعَمَ الْفَتَى لَوْ كَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ ** وَيَقِيمُ وَقْتَ صَلَاتِهِ حَمَّادٌ) (هَدَلْتُ مَشَافِرَهُ الدَّنَانُ فَأَنَفُهُ ** مِثْلُ الْقَدُومِ يَسْتَنُهَا الْحَدَّادُ) (وَأَبْيَضَ مِنْ شَرْبِ الْمُدَامَةِ وَجْهُهُ ** فَبَيَّاضَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ سَوَادٌ) (هَدَلْتُ مَشَافِرَهُ الدَّنَانُ فَأَنَفُهُ ** مِثْلُ الْقَدُومِ . . .) (فَقَدْ رَأَيْتُ جَمَاعَةً مِّنْ يُعَاقِرُونَ الشَّرَابَ قَدْ عَظُمَتْ آثْفُهُمْ وَصَارَتْ لَهُمْ خِرَاطِيمُ مِنْهُمْ رَوْحُ الصَّائِغِ وَعَبْدُ الْوَاحِدِ صَاحِبُ الْوُلُوفِ

وَجَمَاعَةٌ مِنْ نُدَمَانِ حَمَّادِ بْنِ الصَّبَّاحِ وَعَبْدُ اللَّهِ أَخُو نَهْرِ بْنِ عَسْكَرٍ وَنَاسٌ كَثِيرٌ .
وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِرَةِ قَوْلُ جَرِيرٍ لِلْأَخْطَلِ : (وَشَرِبْتَ بَعْدَ أَبِي ظَهِيرٍ وَابْنِهِ ** سَكَرَ الدَّنَانُ كَأَنَّ أَنْفَكَ دُمْلٌ) (وَكَانَ مِنْهُمْ يُونُسُ بْنُ فَرُوقَةَ وَفِي يُونُسٍ يَقُولُ حَمَّادُ عَجْرَدُ : (أَمَا ابْنُ فَرُوقَةَ يُونُسُ فَكَأَنَّهُ ** مِنْ كِبَرِهِ أَيْرُ الْحَمَارِ الْقَائِمِ) (مَا النَّاسُ عِنْدَكَ غَيْرَ نَفْسِكَ وَجَدَهَا ** وَالْخَلْقُ عِنْدَكَ مَا خَلَكَ بِهَائِمِ) (إِنْ الَّذِي أَصْبَحَتْ مَفْتُونًا بِهِ ** سَبَزُولُ عَنكَ وَأَنْفُ جَارِكَ رَاغِمِ) (فَتَعُضُ مِنْ نَدَمٍ يَدِيكَ عَلَى الَّذِي ** فَطَرْتَ فِيهِ كَمَا يَعُضُ النَّادِمِ)

(فَلَقَدْ رَضِيتُ بِعَصِيَّةِ آخِيَتِهِمْ ** وَإِخَاهِمُ لَكَ بِالْمَعْرِفَةِ لَازِمِ) (فَعَلِمْتُ حِينَ جَعَلْتَهُمْ لَكَ دَخْلَةً ** أَنِّي لَعَرَضُ فِي إِخَانِكَ ظَالِمِ) (ذَكَرَ بَعْضُ الزُّنَادِقَةِ وَكَانَ حَمَّادُ عَجْرَدُ وَحَمَّادُ الرَّائِيَةِ وَحَمَّادُ بْنُ الزُّبْرَقَانِ وَيُونُسُ بْنُ هَارُونَ وَعَلِيُّ بْنُ الْخَلِيلِ وَيَزِيدُ بْنُ الْفَيْضِ وَعُبَادَةُ وَجَمِيلُ بْنُ مَحْفُوظٍ وَقَاسِمُ وَمُطِيعُ وَوَالِبَةُ بْنُ الْحَبَابِ وَأَبَانُ بْنُ عَبْدِ

بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَعِمَارَةُ بْنُ حَرِيْبَةَ يَتَوَاصِلُونَ وَكَأَنَّهُمْ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ وَكَانَ بِشَارٌ يَنْكَرُ عَلَيْهِمْ .
وَيُونُسُ الَّذِي زَعَمَ حَمَّادُ عَجْرَدُ أَنَّهُ قَدْ غَرَّ نَفْسَهُ بِهَؤُلَاءِ كَانَ أَشْهَرَ بِهَذَا الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَدْ كَانَ كَتَبَ كِتَابًا لِلْمَلِكِ الرَّوْمِ فِي مِثَالِ الْعَرَبِ وَعُيُوبِ الْإِسْلَامِ بِزَعْمِهِ .
هَجَاءُ فِي أَبَانَ وَالزُّنَادِقَةِ وَذَكَرَ أَبُو نَوَاسٍ أَبَانَ بْنَ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْأَحْقَقِيِّ وَبَعْضَ هَؤُلَاءِ ذَكَرَ إِنْسَانٌ يَرَى لَهُمْ قَدْرًا وَخَطَرًا فِي هَجَائِيَّةِ لِأَبَانَ وَهُوَ قَوْلُهُ : (جَالَسْتُ يَوْمًا أَبَانًا ** لَادِرُ دَرِ أَبَانَ) (وَنَحْنُ حَاضِرُ رَوَاقِ ال ** أَمِيرِ بِالنَّهْرَوَانِ)

(حَتَّى إِذَا مَا صَلَاةُ الْآ ** وَلِي أَنْتَ لِأَذَانِ) (فَقَامَ ثَمَّ بِهَا ذُو ** فَصَاحَةً وَبَيَانَ) (فَكَلَّ مَا قَالَ قَلْنَا ** إِلَى انْقِضَاءِ الْأَذَانِ) (فَقَالَ كَيْفَ شَهِدْتُمْ ** بِذَا بَغِيرِ عِيَانِ) (فَقُلْتُ سَبْحَانَ رَبِّي ** فَقَالَ سَبْحَانَ مَا نِي) (فَقُلْتُ عَيْسَى رَسُولٌ ** فَقَالَ مِنْ شَيْطَانِ) (فَقُلْتُ مُوسَى كَلِيمُ ال ** مَهِيمِنِ الْمَنَانِ)

(فقال ربك ذو مق ** لة إذا ولسان) (فنفسه خلقتة ** أم من فقامت مكاني) (عن كافر يتمرى **
بالكفر بالرحمن) (يريد أن يتسوى ** بالعصبة المجان) (بعجردس وعباد ** والوالي الهجان) (وقاسم
ومطيعس ** ربحانة الندمان) (وتعجبي من أبي نواس وقد كان جالس المتكلمين أشد من تعجبي من حماد
حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولا لا يقوله أحد وهذه قرة عين المهجو والذي يقول : سبحان ما ي عظم
أمر عيسى تعظيماً شديداً

فكيف يقول : إنه من قبل شيطان .

وأما قوله : فنفسه خلقتة أم من فإن هذه مسألة نجدها ظاهرة على ألسن العوام والمتكلمون لا
يكون هذا عن أحد .

والعجب أنه يقول في أبان : إنه ممن يتشبه بعجرد ومطيع ووالبة بن الحباب وعلي بن الخليل وأصبع وأبان
فوق ملء الأرض من هؤلاء ولقد كان أبان وهو سكران أصح عقلاً من هؤلاء وهم صحاة فأما اعتقاده فلا
أدري ما أقول لك فيه : لأن الناس لم يؤثروا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ولكن للناس تأس
وعادات وتقليد للآباء والكبراء ويعملون على الهوى وعلى ما يسبق إلى القلوب ويستقلون التحصيل
ويهملون النظر حتى يصيروا في حال متى عاودوه وأرادوه نظروا بأبصار قليلة وأذهان مدخولة ومع سوء
عادة والتقس لا تحيب وهي مستكرهة وكان

يقال : العقل إذا أكره عمي ومتى عمي الطباع وجسا وغلط وأهل حتى يالف الجهل لم يكدر يفهم ما عليه
وله فلهذا وأشباهه قاموا على الإلف والسابق إلى القلب . ٤

شعر حماد عجرد

وقال حماد عجرد : (اعلموا أن لودّي ** ثمنا عندي ثميناً) (ليت شعري أي حكم ** قد أراكم تحكمونا
(ابن لقمان بن عاد ** في است هذا الدين دينا) وما رأيت أحداً وضع لقمان بن عاد في هذا الموضع
غيره .

وقال حماد عجرد في بشار : (اعلموا أن لودي ** ثمنا عندي ثميناً) (ليت شعري أي حكم ** قد أراكم
تحكمونا) (أن تكونوا غير معطي ** ن وأنتم تأخذونا) (ابن لقمان بن عاد ** في است هذا الدين دينا)
وما رأيت أحداً وضع لقمان بن عاد في هذا الموضع غيره وقال حماد عجرد في بشار : (يا ابن الحبيثة إن
أم ** ك لم تكن ذات اكتنام) (وتبدلت ثوبان ذا ال ** أير المضير والعرام)

(ثوبان دقاق الأرز ** بأرواث حسام) (عرد كقائمة السر ** يربيلها عند الرطام) (وأت سمعة بعدها
** بالمصملات العظام) (وقال حماد يذكر بشاراً : (غزالة الرجسة أو بنتها ** سميعة الناعية الفهرا)
وقال وذكر أمه : (أبني غزالة يا بني جشم استها ** ليحققكم أن تفرحوا لا تجزعوا) ٤

وما كان ينبغي لبشار أن يناظر حماداً من جهة الشعر وما يتعلّق

بالشعر لأنّ حماداً في الحضيض وبشاراً مع العيوق وليس في الأرض مولد قرويّ يعدّ شعره في الحدث إلاّ وبشار أشعر منه .

شعر في هجو بعض الرنادقة وقال أبو الشمقمق في جميل بن محفوظ : (وهذا جميلٌ على بغله ** وقد كان يعدو على رجله) (يروح ويغدو كأثر الحمار ** ويرجع صيفراً إلى أهله) (وقد زعموا أنّه كافرٌ ** وأنّ الترنّدق من شكله) غلو أبي النّواس في شعره وأمّا أبو نّواس فقد كان يتعرّض للقتل بجهده وقد كانوا يعجبون من قوله : (كيف لا يُدّنيك من أملٍ ** من رسول الله من نقره)

فلما قال : (فاحبّ قريشاً حبّ أحمدها ** واشكر لها الجزل من مواهبها) جاء بشيء غطّى على الأوّل . وأنكروا عليه قوله : لو أكثر التّسبيح ما نجّاه

فلما قال : (يا أحمد المرثجى في كلّ نائية ** قم سيدي نعص جبار السموات) غطّى هذا على الأوّل وهذا البيت مع كفره مقيتٌ جداً وكان يُكثر في هذا الباب .

وأما سوى هذا الفنّ فلم يعرفوا له من الخطأ إلاّ قوله : (أمستخبر الدار هل تنطق ** أنا مكان الدار لا أنطق) (كأنها إذ خرست جارم ** بين ذوي تفنيد مطرق) فعابوه بذلك وقالوا : لا يقول أحد : لقد سكّت هذا الحجر كأنّه

إنسان ساكت وإنما يوصف خرس الإنسان بخرس الدار ويشبه صممه بصمم الصخر . وعابوه بقوله حين وصف عين الأسد بالجحوظ فقال : (كأنّ عينه إذا التهبت ** بارزة الجفن عين مخنوق) وهم يصفون عين الأسد بالغورور قال الرّاجز : كأنما ينظر من جوف حجر وقال أبو زبيد : (كأنّ عينيه في وقبين من حجر ** قيضاً اقتياضاً بأطراف المناقير) ومع هذا فإنّنا لا نعرف بعدّ بشار أشعر منه . وقال أبو زبيد : (وعينان كالوقبين في ملء صخرة ** ترى فيهما كالجمرتين تسعّر) قصة راهبين من الرّنادقة وحدّثني أبو شعيب القلال وهو صفيّ قال : رهبان الرّنادقة

سيّاحون كأنهم جعلوا السيّاحة بدل تعلق النّسطوري

في المطامير .

قال : ولا يسيحون إلا أزواجاً ومتى رأيت منهم واحداً فالفت رأيت صاحبه والسيّاحة عندهم ألا بيت أحدهم في منزل ليلتين قال : ويسيحون على أربع خصال : على القدس والطهر والصدق والمسكنة فأمّا المسكنة فإنّ يأكل من المسألة ومّا طابت به أفسس الناس له حتّى لا يأكل إلاّ من كسب غيره الذي عليه

عُرْمُهُ وَمَأْتَمُهُ وَأَمَّا الطَّهْرُ فَتَرَكَ الْجَمَاعَ وَأَمَّا الصَّدَقُ فَعَلَى الْإِلَّا يَكْذِبَ وَأَمَّا الْقُدُسُ فَعَلَى أَنْ يَكْتُمَ ذَنْبَهُ وَإِنْ سئل عنه .

قال : فدخل الأهوازَ منهم رجالانَ فمضى أحدهما نحو المقابرِ للغائطِ وجلس الآخرُ بقربِ حانوتِ صائغٍ وخرجت امرأةٌ من بعض تلك القُصُورِ ومعها حقٌّ فيه أحجارٌ نفيسةٌ فلما صعدت من الطريق إلى دكان الصائغ زلقت فسقط الحقُّ من يدها وظليمٌ لبعض أهل تلك الدُّورِ يتردَّدُ فلما سقط الحقُّ وبأينه الطِّبْقُ تبدَّ ما فيه من الأحجارِ فالتَّمَّ

ذلك الظليمُ أعظمَ حجرٍ فيه وأنفَسَهُ وذلك بعينِ السَّائِحِ ووثب الصائغُ وعلمانهُ فجمَعُوا تلك الأحجارَ ونَحَّوْا النَّاسَ وصاحُوا بهم فلم يَدُنْ منهم أحدٌ وفقدوا ذلك الحجرَ فصرخت المرأةُ فكشف القومُ وتناحَوْا فلم يصيبوا الحجرَ فقال بعضهم : والله ما كان بقربنا إلَّا هذا الرَّاهِبُ الجالسُ وما ينبغي أن يكون إلَّا معه فسألوه عن الحجرِ فكَرِهَ أن يخبرَهم أنه في جوف الظليمِ فيَذْبَحُ الظليمُ فيكون قد شارك في دَمِ بعض الحيوانِ فقال ما أخذتُ شيئاً وبجئوه وفتشوا كلَّ شيءٍ معه وألحوا عليه بالضربِ وأقبل صاحبهُ وقال : اتَّقُوا اللَّهَ فأخذوه وقالوا : دفعته إلى هذا حتَّى غيَّبهُ فقال : ما دفعتُ إليه شيئاً فضرَبوهما ليموتا فيبينما هما كذلك إذ مرَّ رَجُلٌ يَعْقِلُ ففهم عنهُم القِصَّةَ ورأى ظليماً يتردَّدُ فقال لهم : أكان هذا الظليمُ يتردَّدُ في الطريقِ حينَ سقطَ الحجرُ قالوا : نعم قال : فهو صاحبكم فعوضُوا أصحابَ الظليمِ وذبحوه وشقُّوا عن قانصته فوجدوا الحجرَ وقد قَصَّصَ في ذلك المقدارِ من الزَّمانِ شَيْهًا بِشَطْرِهِ إلَّا أنها أعطته لَوْنًا صارَ الذي استفادوه من جهةِ اللَّوْنِ أربعَ لهم من وزنِ ذلك الشَّطْرِ أَنْ لَوْ كَانَ لَمْ يَذْهَبَ .
ونارُ القانصةِ غيرُ نارِ الحجرِ .

(القول في التَّيرانِ وأقسامها) ونحن ذاكرونَ جُملاً من القولِ في التَّيرانِ وأجناسها ومواضعها وأيَّ شيءٍ منها يضافُ إلى العَجَمِ وأيَّ شيءٍ منها يضافُ إلى العربِ ونُخَبِرُ عن نيرانِ الدِّياناتِ وغيرِ الدِّياناتِ وعمَّنَ عَظَمَها وعمَّنَ استهانَ بها وعمَّنَ أفرطَ في تعظيمها حتَّى عبَّدها ونُخَبِرُ عن المواضعِ التي عَظُمَ فيها مِنْ شأنِ النَّارِ .

نار القربان

فمن مواضعها التي عَظُمَتْ بِهَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جعلها لبني إسرائيلَ في موضعِ امتحانِ إخلاصهم وتعرُّفِ صدق نياهم فكانوا يتقرَّبونَ بالقربانِ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُخْلِصاً نزلتُ نارٌ من قِبَلِ السَّمَاءِ حتَّى تُحِيطَ بِهِ فَنَأْكُلُهُ فَإِذَا فَعَلَتْ ذَلِكَ كَانَ صَاحِبُ الْقُرْبَانِ مُخْلِصاً فِي تَقَرُّبِهِ وَمَتَى لَمْ يَرَوْهَا وَبَقِيَ الْقُرْبَانُ عَلَى حَالِهِ قَضَوْا بِأَنَّهُ كَانَ مَدْخُولَ الْقَلْبِ فَاسِدَ النَّيَّةِ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ

قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .
والدليل على أن ذلك قد كَانَ معلوماً قولُ الله عزَّ وجلَّ : قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ
ثُمَّ إِنْ اللَّهُ سَتَرَ عَلَى عِبَادِهِ وَجَعَلَ بَيَانَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ وَكَانَ ذَلِكَ التَّدْبِيرَ مصلحةً ذَلِكَ الزَّمَانِ وَوَفَّقَ
طَبَائِعَهُمْ وَعَلَّلَهُمْ وَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ مِنَ الْمَعَانِدَةِ وَالْعَبَاوَةِ عَلَى مَقْدَارٍ لَمْ يَكُنْ لِيَنْجِعَ فِيهِمْ وَيَكْمُلَ لِمَصْلَحَتِهِمْ إِلَّا
مَا كَانَ فِي هَذَا الْوِزْنِ فَهَذَا بَابٌ مِنْ عِظَمِ شَأْنِ النَّارِ فِي صُدُورِ النَّاسِ .
وَمَا زَادَ فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ النَّارِ فِي صُدُورِ النَّاسِ قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ : وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَاراً
فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا
مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَلَّسِ طُورِي وَقَالَ عزَّ وجلَّ : إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي
آنَسْتُ نَاراً سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي
النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .
وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا زَادَ فِي قَدْرِ النَّارِ فِي صُدُورِ النَّاسِ .

وَمِنْ ذَلِكَ نَارُ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ : قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ
إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ثُمَّ قَالَ : قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ فَلَمَّا قَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ : قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَانَ

تنويه القرآن الكريم بشأن النار

وهو قوله عزَّ وجلَّ : الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ .
وَالنَّارُ مِنْ أَكْبَرِ الْمَاعُونِ وَأَعْظَمِ الْمَنَافِعِ الْمُرَافِقِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى عِبَادِهِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ
قَدْ جَعَلَهَا الزَّاجِرَةَ عَنِ الْمَعَاصِي لَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ فِي قَلْبِهَا وَفِي نَبَاهَةِ ذِكْرِهَا .
وَقَالَ تَعَالَى : أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . ثُمَّ قَالَ : نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً
وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ فَقَفَّ عِنْدَ قَوْلِهِ : نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتَاعاً

فَإِنْ كُنْتَ بِهَذَا الْقَوْلِ مُؤْمِناً فَتَذَكَّرْ مَا فِيهَا مِنَ النِّعْمَةِ أَوَّلًا ثُمَّ آخِرًا ثُمَّ تَوَهَّمْ مَقَادِيرَ النِّعَمِ وَتَصَارِيفَهَا .
وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ الْأُمَمَ بِالْعَرَقِ وَالرِّيحِ وَبِالْحَاصِبِ وَالرُّجْمِ وَبِالصَّوَاعِقِ وَبِالْحَسْفِ وَالْمَسْخِ وَبِالْجُوعِ
وَبِالْقَصَصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ وَلَمْ يَبْعَثْ عَلَيْهِمْ نَاراً كَمَا بَعَثَ عَلَيْهِمْ مَاءً وَرِيحاً وَحِجَارَةً وَإِنَّمَا جَعَلَهَا مِنْ عِقَابِ
الْآخِرَةِ وَعَذَابِ الْعُقُوبِ وَهِيَ أَنْ يُحْرَقَ بِهَا شَيْءٌ مِنَ الْهَوَامِّ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا تُعَذِّبُوا
بِعَذَابِ اللَّهِ فَقَدْ عَظُمَ مَا تَرَى .

فَتَفَهَّمْ رَحِمَكَ اللَّهُ فَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ إِفْهَامَكَ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُتَّقِينَ : يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحْلٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ فَبَئِىَ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَجَعَلَ

الشُّواظِ وَالنُّحَاسَ وَهُمَا النَّارُ وَالْدُّخَانُ مِنَ الْآيَةِ وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَى نَسَقِ الْكَلَامِ : فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلَمْ يَعْزِ أَنْ التَّعْذِيبَ بِالنَّارِ نِعْمَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَكِنَّهُ أَرَادَ التَّحْذِيرَ بِالْخَوْفِ وَالْوَعِيدَ بِهَا غَيْرَ إِدْخَالِ النَّاسِ فِيهَا وَإِحْرَاقِهِمْ بِهَا .

شعر في بعض النبات وقال المَرَّار بن منقذ : (وَكَأَنَّ أَرْحُلَنَا بِجَوْ مُخْصَبٍ * بِلَوَى غُنِيْزَةٍ مِنْ مَقِيلِ التُّرْمُسِ) (فِي حَيْثُ خَالَطَتْ الْخِزَامَى عَرَفَجًا * يَأْتِيكَ قَابِسُ أَهْلِهَا لَمْ يُقْبَسِ) أَرَادَ خَصْبَ الْوَادِي وَرَطوبَتَهُ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ تَقْدَحْ عِيدَانُهُ فَإِنْ دَخَلَهَا مُسْتَقْبَسٌ لَمْ يُورِ نَارًا وَقَالَ كَثِيرٌ : (لَهُ حَسْبٌ فِي الْحَيِّ وَإِرْ زِنَادُهُ * عَفَّارٌ وَمَرْخٌ حَتَّى الْوَرِيِّ عَاجِلٌ)

وَالْعَفَّارُ وَالْمَرْخُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْعِيدَانِ الَّتِي تُقْدَحُ أَكْثَرُهَا فِي ذَلِكَ وَأَسْرَعُهَا .
قال : وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : فِي كُلِّ الشَّجَرِ نَارٌ وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَّارُ .
وَنَارٌ أُخْرَى وَهِيَ النَّارُ الَّتِي كَانُوا يَسْتَمْطِرُونَ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى فَإِنَّمَا كَانُوا إِذَا تَتَابَعَتْ عَلَيْهِمُ الْأَزْمَاتُ وَرَكَدَ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ وَاشْتَدَّ الْجَدْبُ وَاحْتَاجُوا إِلَى الْاسْتِمْطَارِ اسْتَجْمَعُوا وَجَمَعُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْبَقَرِ ثُمَّ عَقَدُوا فِي أُذُنَائِهَا وَبَيْنَ عَرَاقِيبِهَا السَّلْعَ وَالْعُشْرَ ثُمَّ صَعَدُوا بِهَا فِي جَبَلٍ وَغَرَّ وَأَشْعَلُوا النَّيْرَانَ وَضَجُّوا بِالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الشَّقِيَاءِ وَلِذَلِكَ قَالَ أُمَيَّةٌ : (سَنَةُ أَزْمَةٍ تَحِيلُ بَالِنَا * سَ تَرَى لِلْعِضَاهِ فِيهَا صَرِيرًا)

(إِذْ يَسْفُونَ بِالْدَّقِيقِ وَكَانُوا * قَبْلَ لَا يَأْكُلُونَ شَيْئًا فَطِيرًا) (وَيَسُوقُونَ بَاقِرًا يَطْرُدُ السَّه * لَ مَهَازِيلَ خَشِيَّةً أَنْ يَبُورَا) (عَاقِدِينَ النَّيْرَانَ فِي شُكْرِ الْأَذ * نَابَ عَمْدًا كَيْمَا تَهِيْجُ الْبُحُورَا) (فَاشْتَوَتْ كُلُّهَا فَهَاجَ عَلَيْهِمْ * ثُمَّ هَاجَتْ إِلَى صَبِيرٍ صَبِيرًا) (فَرَاَهَا إِلَهُ تَرْشَمَ بِالْقَط * رَ وَأَمْسَى جَنَابُهُمْ مَمْطُورَ) (فَسَقَاها نَشَاصُهُ وَاكْفَ الْغِي * ثَ مِنْهُ إِذْ رَادَعُوهُ الْكَبِيرَا) (سَلْعٌ مَا وَمِثْلُهُ عَشْرٌ مَا * عَائِلٌ مَا وَعَالَتْ الْبُقُورَا)

هَكَذَا كَانَ الْأَصْمَعِيُّ يَنْشِدُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ فَقَالَ لَهُ عِلْمَاءُ بَغْدَادَ : صَحَّفْتَ إِنَّمَا هِيَ الْبُقُورُ وَأَنْشَدَ الْقَحْذَمِي لِلْوَرَلِ الطَّائِي : (لَا دَرَّ دَرُّ رِجَالٍ خَابَ سَعِيَّهُمْ * يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الْأَزْمَاتِ بِالْعُشْرِ) (أَجَاعَلُ أَنْتَ بَيُّقُورًا مُسَلَّعَةً * ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ)

اسْتَطْرَادَ لُغَوِي قَالَ : وَيُقَالُ بَقْرٌ وَبَقِيرٌ وَبَيُّقُورٌ وَبَاقِرٌ وَيُقَالُ لِلْجَمَاعَةِ مِنْهَا قَطِيعٌ وَاجِلٌ وَكَوْرٌ وَأَنْشَدَ : (فَسَكَّنْتَهُمْ بِالْقَوْلِ حَتَّى كَانَتْهُمْ * بَوَاقِرُ جُلُحٍ أَسَكَّنَتْهَا الْمَرَاتِعُ) وَأَنْشَدَ : (وَلَا شُبُوبٌ مِنَ النَّيْرَانِ أَفْرَدَهُ * عَنْ كَوْرِهِ كَثْرَةُ الْإِغْرَاءِ وَالطَّرْدُ)

نار التحالف والحلف

ونار أخرى هي التي توقد عند التحالف فلا يعقدون حلفهم إلا عندها فيذكرون عند ذلك منافعها ويدعون إلى الله عز وجل بالحرمات والمنع من منافعها على الذي ينقض عهد الحلف ويخيس بالعهد . ويقولون في الحلف : الدَّمُ الدَّمُ والهدمُ الهدمُ يجركون الدال في هذا الموضع لا يزيده طلوع الشمس إلا شدةً وطول الليالي إلا مدًا ما بل البحر صوفة وما أقام رضوى في مكانه إن كان جبلهم رضوى .

وكل قوم يذكرون جبلهم والمشهور من جبالهم . وربما دَنُوا منها حتى تكاد تحرقهم ويهولون على من يخاف عليه العذرُ بحقوقها ومنافعها والتخويف من حرمان منفعاتها وقال الكُميت : (كهولة ما أوقد الحلفو ** ن للحالفين وما هولوا) وأصل الحلف والتحالف إنما هو من الحلف والأيمان ولقد تحالفت قبائل من قبائل مرة بن عوف فتحالفوا عند نار فدَنُوا منها وعشوا بها حتى محشتهم فسُموا : الحاش . وكان سيدهم والمطاع فيهم أبو ضمرة يزيد بن سنان بن أبي حارثة ولذلك يقول التابغة : (جمع محاشك يا يزيد فإني ** جمعتُ يربوعاً لكم وتميما)

(ولحقت بالنسب الذي عيرتني ** وتركت أصلاً يا يزيد ذميما) وقوله : تميم يريد : تميمة فحذف الهاء . التحالف والتعاقد على الملح وربما تحالفوا وتعاقدا على الملح والملح شيئان : أحدهما المرقعة والأخرى اللبن وأنشدوا لشتيم بن خويلد الفراري : (لا يبعد الله رب العباد ** والملح ما ولدت خالدة)

وأنشدوا فيه قول أبي الطمحان : (وإني لأرجو ملحها في بطونكم ** وما بسطت من جلد أشعث أغبراً) وذلك أنه كان جاورهم فكان يسقيهم اللبن فقال : أرجو أن تشكروا لي ردَّ إلي علي ما (شربتم من ألبانها وما بسطت من جلد أشعث أغبر كأثني يقول : كنتم مهازيل والمهزول يتقشَّف جلده وينقبض فبسط ذلك من جلودكم .

نار المسافر

ونار أخرى وهي النار التي كانوا ربما أوقدوها خلف المسافر

وخلف الزائر الذي لا يجنون رجوعه وكانوا يقولون في الدعاء : أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً خلفه وفي إثره وهو معنى قول بشار وضربه مثلاً : (صحت وأوقدت للجهل ناراً ** ورد عليك الصبا ما استعارا) (وجمّة أقوام حملت ولم تكن ** لتوقد ناراً إثرهم للتندم) والجمّة : الجماعة يمشون في الصلح وقال الراجز في إبله : تقسم في الحق وتعطى في الجمم يقول : لا تندم على ما أعطيت في الجمالة عند كلام الجماعة فتوقد خلفهم ناراً كي لا يعودوا

نار الحرب

ونار أخرى وهي النار التي كانوا إذا أرادوا حرباً وتوقعوا جيشاً عظيماً وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم نارا ليبلغ الخبر أصحابهم .

وقد قال عمرو بن كلثوم : (ونحن غداة أوقد في خزاز * رقدنا فوق رقد الرافدين) وإذا جدوا في جمع عشائهم إليهم أوقدوا نارين وهو قول الفرزدق : (لولا فوارس تغلب ابنة وائل * سد العدو عليك كل مكان) (ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا * نارين أشرفتا على النيران)

(نار الحرتين) ونار أخرى وهي نار الحرتين وهي نار خالد بن سنان أحد بني مخزوم من بني قُطَيْعَةَ بْنِ عَبَسَ ولم يكن في بني إسماعيل نبي قبله وهو الذي أطلقا الله به نار الحرتين وكانت ببلاد بني عبس فإذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء وكانت طيئ تنفث بها إبلها من مسيرة ثلاث وربما ندرت منها العنق فتأتي على كل شيء فتحرقه وإذا كان النهار فإنما هي دخان يفور فبعث الله خالد بن سنان

فاحتفر لها بئراً ثم أدخلها فيها والناس ينظرون ثم اقتحم فيها حتى غيَّبها وسمع بعض القوم وهو يقول : هلك الرجل فقال خالد بن سنان : كذب ابن راعية المعز لأخرجن منها وجيبي يندى فلما حضرته الوفاة قال لقومه : إذا أنا متُّ ثم دفنتموني فاحضروني بعد ثلاثٍ فإني أتكم ترون غيراً أبتري يطوف بقبري فإذا رأيتم ذلك فانبشوني فإني أخبركم بما هو كائن إلى يوم القيامة فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه اختلفوا فصاروا فرقتين وابنه عبد الله في الفرقة التي أبت أن تنبشه وهو يقول : لا أفعلُ إني إذا أذعى ابن المنبوش فتركوه .

وقد قُلبت ابنته على النبي صلى الله عليه وسلم فبسط لها رداءه وقال : هذه ابنة نبي ضيعه قومه . قال : وسمعت سورة : قل هو الله أحد فقالت : قد كان أبي يتلو هذه السورة .

نبوة خالد بن سنان

والمتكلمون لا يؤمنون بهذا ويزعمون أن خالداً هذا كان أعرابياً وبرياً من أهل شرج وناظرة ولم يبعث الله نبياً قط من الأعراب ولا من الفدادين أهل الوبر وإنما بعثهم من أهل القرى وسكان المدن . وقال خُلَيْدُ عَيْنِي : (وأي نبي كان في غير قومه * وهل كان حُكْمُ اللَّهِ إلا مع النخل) وأنشدوا : (كنار الحرتين لها زفير * يصم مسامع الرجل السميع)

عبادة النار وتعظيمها

وما زال الناس كافةً والأمم قاطبةً حتى جاء الله بالحق مؤلِّعين بعظيم النار حتى ضلَّ كثيرٌ من الناس لإفراطهم فيها أنهم يعبدونها .

فأما النار العلوية كالشمس والكواكب فقد عُبِدَت البتَّة قال الله تعالى : وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

وقد يجيء في الأثر وفي سُنَّة بعض الأنبياء تعظيمها على جهة التَّعَبُّدِ والْحَنَةِ وعلى إيجاب ويزعم أهل الكتاب أَنَّ اللَّهَ تعالى أوصاهُمْ بها وقال : لا تُطْفِنُوا النَّيرانَ مِنْ يُوْقِيْ فَلَذَلِكَ لا تَجِدُ الْكُنَائِسَ وَالْبَيْعَ وَبُيُوتَ الْعِبَادَاتِ إِلَّا وَهِيَ لا تَخْلُو مِنْ نارٍ أَبَدًا لَيْلًا وَلَا نَهَارًا حَتَّى اتَّخَذَتْ لِلنَّيرانِ الْيُبُوتَ وَالسَّدَنَةَ وَوَقَّفُوا عَلَيْهَا الْعَلَاتِ الْكَثِيرَةَ .

إطفاء نيران الجوس أبو الحسن عن مسلمة وقحدم أَنَّ زِيادًا بعثَ عَبْدَ اللَّهِ بنَ أَبِي بَكْرَةَ وأمرَهُ أَنْ يَطْفِئَ النيرانَ فَأَرَادَ عَبْدَ اللَّهِ أَنْ يَبْدَأَ بِنارِ

جُورٍ فَيَطْفِئَهَا فَقِيلَ لَهُ : لَيْسَتْ لِلْمَجُوسِ نَارٌ أَعْظَمُ مِنْ نارِ الْكَارِيانِ مِنْ دارِ الْحارِثِ فَإِنْ أَطْفَأَهَا لَمْ يَمْنَعِ عَلَيْكَ أَحَدٌ وَإِنْ أَطْفَأْتَ سَافَلَتْهَا اسْتَعْدُّوا لِلْحَرْبِ وَامْتَنِعُوا فَأَبْدَأَ بِهَا فَخَرَجَ إِلَى الْكَارِيانِ فَتَحَصَّنَ أَهْلُهَا فِي الْقَلْعَةِ وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْفُرسِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْبِلادِ مَعْرُوفٌ بِالشَّدَّةِ لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ وَكَانَ يَمُرُّ كُلَّ عَشِيَّةٍ بِبَابِ مَنْزِلِهِ اسْتَخْفَافًا وَإِذْلَالًا بِنَفْسِهِ فَعَمَّ ذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ فَقَالَ : أَمَا لِهَذَا أَحَدٌ وَكَانَ مَعَ عَبْدَ اللَّهِ بنِ أَبِي بَكْرَةَ رَجُلٌ مِنَ عَبْدِ الْقَيْسِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَطْشًا وَكَانَ جَبَانًا فَقَالُوا لَهُ : هَذَا الْعَبْدِيُّ هُوَ شَدِيدٌ جَبَانٌ وَإِنْ أَمَرْتَهُ بِهِ خَافَ الْقِتَالَ فَلَمْ يَعْزِضْ لَهُ فَاحْتَلَّ لَهُ حِيلَةٌ فَقَالَ : نَعَمْ .

قال : فبينما هو في مجلسه إِذْ مَرَّ الْفَارِسِيُّ فَقَالَ عَبْدَ اللَّهِ : مَا رَأَيْتُ مِثْلَ خَلْقٍ هَذَا وَمَا فِي الْأَرْضِ كَمَا زَعَمُوا أَشَدُّ مِنْهُ بَطْشًا مَا يَقْوَى

عليه أَحَدٌ فَقَالَ الْعَبْدِيُّ : مَا تَجْعَلُونَ لِي إِنْ احْتَمَلْتُهُ حَتَّى أَدْخِلَهُ الدَّارَ وَأَكْنِفُهُ فَقَالَ لَهُ عَبْدَ اللَّهِ : لَكَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ دَرَاهِمٍ فَقَالَ : تَقُونَنِي بِالْفِ قَالَ : نَعَمْ فَلَمَّا كَانَ الْعُدْمُ مَرَّ الْفَارِسِيُّ فَقَامَ إِلَيْهِ الْعَبْدِيُّ فَاحْتَمَلَهُ فِيمَا امْتَنَعَ وَلَا قَدْرَ أَنْ يَتَحَرَّكَ حَتَّى أَدْخَلَهُ الدَّارَ وَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ وَوَثَبَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَقَتَلُوهُ وَغُشِيَ عَلَى الْعَبْدِيِّ حِينَ قَتَلُوهُ فَلَمَّا قُتِلَ أُعْطِيَ أَهْلُ الْقَلْعَةِ بِأَيْدِيهِمْ فَقَتَلَ ابْنُ أَبِي بَكْرَةَ الْمُرَابِذَةَ وَأَطْفَأَ النَّارَ وَمَضَى يُطْفِئُ النَّيرانَ حَتَّى بَلَغَ سِجِسْتَانَ .

تعظيم الجوس للنار والجوس تقدم النار في التعظيم على الماء وتقدم الماء في التعظيم على الأرض ولا تكاد تذكر الهواء .

نار السعالي والجن والغيلان

ونار أخرى التي يحكونها من نيران السعالي والجن وهي غير نار الغيلان وأنشد أبو زيد لسهم بن الحارث :

(وَنَارٍ قَدْ حَضَاتُ بُعِيدَ هُدًى ** بدارٍ لا أريدُ بها مُقَامًا) (سَوَى تَحْلِيلِ رَاحِلَةٍ وَعَيْنٍ ** أَكَالَتْهَا مَخَافَةٌ أَنْ تَنَامَا) (قَتَلْتُ : إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ ** زَعِيمٌ : نَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا) وهذا غلط وليس من هذا الباب وسنضعه في موضعه إن شاء الله تعالى بل الذي يقع ههنا قول أبي المطراب عُبيد بن أُيُوبَ :
(فَلَلَهُ دُرُّ الْغَوْلِ أَيُّ رَفِيقَةٍ ** لَصَاحِبِ قَفَرٍ خَائِفٍ مُتَقَفِّرٍ) (أَرْتَتْ بِلَحْنٍ بَعْدَ لَحْنٍ وَأَوْقَدَتْ ** حَوَالِيَّ نِيرَانًا تَبُوخُ وَتَوَهَّرُ)

نار الاحتيال

وما زالت السدنة تحتال للناس جهة النيران بأنواع الحيل كاحتيال رهبان كنيسة القمامة بيت المقدس بمصاييحها وأن زيت قناديلها يستوقد لهم من غير نارٍ في بعض ليالي أعيادهم .
قال : وبمثل احتيال السادن خالد بن الوليد حين رماه بالشرر
ليوهمه أن ذلك من الأوثان أو عقوبة على ترك عبادتها وإنكارها والتعرض لها حتى قال : (يا عَزُّ كُفْرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ ** إِنِّي وَجَدْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ) حتى كشف الله ذلك الغطاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نار الصيد والبيض

ونار أخرى وهي النار التي تُوقد للظباء وصيدها لتعشى إذا أدامت النظر وتُخجل من ورائها ويطلب بها بيض النعام في أفاحيصها ومكناتها .
ولذلك قال طُفَيْلُ الغنوي : (عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ بُبُوحَ مَقَامَةٍ ** وَلَمْ تَرَ نَارًا تَمَّ حَوْلَ مُجَرِّمٍ) (سَوَى نَارِ بَيْضٍ أَوْ غَزَالٍ بِقَفْرَةٍ ** أَغْنَى مِنَ الْخُنْسِ الْمُنَاخِرِ نَوَامٍ)
وقد يُوقدون النيران يُهَوِّلُون بها على الأسد إذا خافوها والأسد إذا عاين النار حذق إليها وتأملها فما أكثر ما تشغله عن السابلة .
قصة أبي ثعلب الأعرج ومروء أبو ثعلب الأعرج على وادي السباع فعرض له سبع فقال له المكاربي : لو أمرت غلمانك فأوقدوا ناراً وضربوا على الطساس الذي معهم ففعلوا فأحجم عنها فأنشدني له ابن أبي كريمة في حبه بعد ذلك للنار ومدحه لها وللصوت الشديد بعد بُغْضِهِ لَهَا وهو قوله : (فَأَحْبَبْتُهَا حُبًّا هَوَيْتُ خِلَاطَهَا ** وَلَوْ فِي صَمِيمِ النَّارِ نَارِ جَهَنَّمَ) (وَصِرْتُ أَلَذُّ الصَّوْتِ لَوْ كَانَ صَاعِقًا ** وَأَطْرَبُ مِنْ صَوْتِ الْحِمَارِ الْمَرْقَمِ) وروي أن أعرابياً اشتد عليه البرد فأصاب ناراً فدنا منها ليصطلي بها وهو يقول : اللَّهُمَّ لَا حَيْرَةَ الضفدع عند رؤية النار ولما إذا أبصر النار اعترته الحيرة الضفدع فإنه لا يزال ينقُ فإذا أبصر النار سكَّت .

نار الحباحب

ومن النيران نار الحباحب وهي أيضاً نار أبي الحباحب وقال أبو حية : (يُعَشَّرُ فِي تَقْرِيْبِهِ إِذَا انْخَنَى ** عَلَيْهِنَّ فِي قَفٍّ أَرْتَتْ جَنَادِلُهُ) (وَأَوْقَدْنَ نِيرَانَ الْحَبَابِ وَالتَّقَى ** غَضًا تَتَرَاقَى بَيْنَهُنَّ وَلَاوِلُهُ) وقال القطامي في نار أبي الحباحب : (تُخَوِّدُ تَخْوِيدَ التَّعَامَةِ بَعْدَمَا ** تَصَوَّبَتِ الْجَوَازَاءُ قَصْدَ الْمَغَارِبِ)

(أَلَا إِنَّمَا نِيرَانُ قَيْسٍ إِذَا اشْتَوَتْ ** لَطَارِقِ لَيْلٍ مِثْلُ نَارِ الْحَبَابِ) ويصفون ناراً أخرى وهي قرية من نار أبي الحباحب وكل نار تراها العين ولا حقيقة لها عند التماسها فهي نار أبي الحباحب ولم أسمع في أبي حباحب نفسه شيئاً .

نار البرق

وقال الأعرابي وذكر البرق :

يقول : كل نار في الدنيا فهي تحرق العيدان وتبطلها وتهلكها إلا نار البرق فإنها تحي بالغيث وإذا غيشت الأرض ومطرت أحدث الله للعي دانه جلته وللأشجار أغصاناً لم تكن .

نار البراعة

ونار أخرى وهي شبيهة بنار البرق ونار أبي حباحب وهي نار البراعة والبراعة : طائر صغير إن طار بالنهار كان كبعض الطير وإن طار بالليل كان كآئه شهاب قدف أو مصباح يطير .
الدفء بروية النار وفي الأحاديث السائرة المذكورة في الكتب أن رجلاً ألقى في ماء راكده في شتاء بارد في ليلة من الحنابس لا قمر ولا ساهور وإنما ذكر ذلك لأن ليلة العشر والبدر والطوق الذي يستدير حول القمر يكون كاسيراً من برد تلك الليلة قالوا : فما زال الرجل حياً

وهو في ذلك تارز جامد ما دام ينظر إلى نار كانت تجاه وجهه في القرية أو مصباح فلما طفت انقض .
نار الخلاء والهراب) وقال الشاعر : يقول : بادرت الليل لأن النار لا ترى بالنهار كأنه كان خليعاً أو مطلوباً .

وقال آخر : (وَدَوِيَّةٌ لَا يَثْقُبُ النَّارَ سَفَرُهَا ** وَتُضْحِي بِهَا الْوَجَنَاءُ وَهِيَ لَهِيدُ) كأنهم كانوا هراباً فمن حثهم السير لا يوقدون لبرمة ولا ملة

لأن ذلك لا يكون إلا بالنزول والتمكث وإنما يجتازون بالبسياسة أو بأدنى غلقة وقال بعض اللصوص :
ملساً بذود الحديسي ملساً * نهت عنهن غلاماً غساً) (لَمَّا تَغَشَّى فُرُوءَ وَحِلْسَا * مِنْ غُدُوءٍ حَتَّى كَانَتْ الشَّمْسَا) (بِالْأَفْقِ الْغُرْبِيِّ تَكْسَى وَرْسَا * لَا تَحْبِزَا حَبْزاً وَبَسَا بَسَا)

(ولا تُطِيلَا بُنَاخَ حَبَسَا ** وَجَنَّبَاهَا أَسَدًا وَعَبَسَا) قال : والبسيصة : أن يبيل الدقيق بشيء حتى يجمع ويؤكل . (نار الوشم) ونار أخرى وهي

نار الوشم

والميسم يقال للرجل : ما نار إيلك فيقول : علاط أو خباط أو حلقة أو كذا وكذا .
وقرب بعض اللصوص إيلاً من الهواشة وقد أغار عليها من كل

جانب وجمعها من قبائل شتى فقرّبها إلى بعض الأسواق فقال له بعض التجار : ما نارك وإنما يسأله عن ذلك لأنهم يعرفون بميسم كل قوم كرم إيلهم من لؤمها فقال : (تسألني الباعة ما نجارها ** إذ زعرعوها فسمت أبصارها) (فكل دار لأنس دارها ** وكل نار العالمين نارها) وقال الكردوس المرادي : (تسألني عن نارها ونتاجها ** وذلك علم لا يحيط به الطمش) والطمش : الخلق والورى : الناس خاصة .

الجزء الخامس

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

نبدأ في هذا الجزء بتمام القول في نيران العرب والعجم ونيران الديانة ومبلغ أقدارها عند أهل كل ملّة وما يكون منها مفخراً وما يكون منها مذموماً وما يكون صاحبها بذلك مهجوراً .
ونبدأ بالإخبار عنها وبدئها وعن نفس جوهرها وكيف القول في كمونها وظهورها إن كانت النار قد كانت موجودة العين قبل ظهورها وعن كونها على المجاورة كان ذلك أم على المداخله وفي حدوث عينها إن كانت غير كامنة وفي إحالة الهواء لها والعود جماً إن كانت الاستحالة جائزة وكانت الحجة في تثبيت الأعراض صحيحة وكيف

القول في الضرام الذي يظهر من الشجر وفي الشر الذي يظهر من الحجر وما القول في لون النار في حقيقتها وهل يختلف الشرار في طبائعها أم لا اختلاف بين جميع جواهرها أم يكون اختلافها على قدر اختلاف مخرجها ومدخلها وعلى قدر اختلاف ما لاقاها وهيجه

قول النظام في النار

ونبدأ باسم الله وتأويله بقول أبي إسحاق .
قال أبو إسحاق : الناس اسم للحرّ والضيء فإذا قالوا : أحرقت أو سحّنت فإنما الإحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين وهو الحرّ دون الضياء .

وزعم أن الحرَّ جوهر صَعَادٌ وإنما اختلفا ولم يكن اتِّفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما لأنهما متى صارا من العالم العلويّ إلى مكانٍ صار أحدهما فوق صاحبه .

وكان يجزِم القول ويُبَرِّم الحكم بأنّ الضياء هو الذي يعلو إذا انفرد ولا يُعلَى .
قال : ونحن إنما صرنا إذا أطفأنا نارَ الأثون وجدنا أرضه وهوائه وحيطانه حارّة ولم نجدْها مضية لأن في الأرض وفي الماء الذي قد لابسَ الأرض حرّاً كثيراً وتداخلاً مُتَشَابِكاً وليس فيهما ضياء وقد كان حرُّ النارِ هَيَّجَ تلكَ الحارّة فأظهرها ولم يكنْ هناك ضياءٌ من مُلَابِسِ هَيَّجَةِ الضياء وأظهره كما اتصل الحرُّ بالحرِّ فأزاله من موضعه وأبرزه من مكانه فلذلك وجدنا أرضَ الأثون وحيطانها وهواها حارّة ولم نجدْها مضية .
وزعم أبو إسحاق أنّ الدليل على أن في الحجر والعود ناراً مع اختلاف الجهات أنه يلزَم من (ومن قال ذلك لزمه أن يقول : أن ليس في الإنسان دم وأنّ اللّم

إنما تَخَلَّقَ عند البطّ وكان ليس بين مَنْ أنكرَ أن يكون الصبرُ مرّ الجوهر والعسلُ حُلُوّ الجوهر قبل ألا يذاقا وبين السمسَم والزيتون قبل أن يُعصرَا فَرَق .
وإن زعمَ الزاعم أنّ الحلاوة والمرارة عَرَضَانِ والزيتَ والخلَّ جوهر وإذا لزم من قال ذلك في حلاوة العسل وحموضة الخلّ وهما طعمان لزمه مثلُ ذلك في ألوانهما فيزعم أن سوادَ السَّبَجِ وبياضَ

التلجِ وحُمْرَةَ العُصْفُرِ وصُفْرَةَ الذهبِ وخُضْرَةَ البَقْلِ إنما تحدّث عند رؤية الإنسان وإن كانت المعاينة والمقابلة غيرَ عاملتين في تلك الجواهر .

قال : فإذا قاسَ ذلك المتكلِّم في لَوْنِ الجسم بعد طعمه وفي طوله وعرضه وصورته بعد رائحته وفي خفته وثقل وزنه كما قاس في رخاوته وصلابته فقد دخل في باب الجهالات ولحق بالذين زعموا أن القربة ليس فيها ماء وإن وجدوها باللمس ثقيلة مزكورة وإنما تَخَلَّقَ عند حلِّ رباطها وكذلك فليقولوا في الشمس والقمر والكواكب والجبال إذا غابت عن أبصارهم .

قال : فمن هرب عن الانقطاع إلى الجهالات كان الذي هرب إليه أشدَّ عليه .
وكان يضربُ لهما مثلاً ذكرته لِظُرَافَتِهِ : حُكِيَ عن رجلٍ أحْدَبَ سَقَطَ في بئرٍ فاستوت حدبته وحدت له أُدرّة في خُصِيَّتِهِ فهُنَّاهُ

رد النظام على ضرار في إنكار الكمون وكان أبو إسحاق يزعم أن ضرارَ بنَ عمرو قد جَمَعَ في إنكاره القول بالكمون الكفرَ والمعادنة لأنه كان يزعم أن التوحيد لا يصحُّ إلا مع إنكار الكمون وأن القول بالكمون لا يصحُّ إلا بأن يكون في الإنسان دمٌ وإنما هو شيءٌ تَخَلَّقَ عند الرؤية .

قال : وهو قد كان يعلم يقيناً أنَّ جوفَ الإنسانِ لا يخلو من دم .
قال : ومن زعم أنَّ شيئاً من الحيوان يعيشُ بغيرِ الدمِّ أو شيءٍ

يشبهُ الدمَّ فواجبٌ عليه أن يقول بإنكارِ الطبائعِ ويدفع الحقائقَ بقول جَهْم في تسخين النار وتبريد الثلج وفي الإدراك والحسِّ والغذاء والسَّمِّ وذلك بابٌ آخر في الجهالات .

ومن زعم أنَّ التوحيدَ لا يصلحُ إلا بالآ يكون في الإنسان دم وإلا بأن تكون النارُ لا توجب الإحراق والبصرُ الصحيحُ لا يوجب الإدراك فقد دلَّ على أنه في غاية النقص والغباوة أو في غاية التكذيب والمعاندة .

وقال أبو إسحاق : وجدنا الخطب عند انحلال أجزائه وتفرُّق أركانه التي بُني عليها ومجموعاته التي رُكِّبَ منها وهي أربع : نارٌ ودخان وماءٌ ورَمَادٌ ووجدنا للنار حرّاً وضياءً ووجدنا للماء صوتاً ووجدنا للدُّخان طعماً ولوناً ورائحةً ووجدنا للرَّمَادِ طعماً ولوناً ويُسّاً ووجدنا

ووجدنا الخطب رُكِّبَ على ما وصفنا فرَعَمنا أنه رُكِّبَ من المُزْدَوِجاتِ ولم يُرَكِّبَ من المفردات .
قال أبو إسحاق : فإذا كان المتكلمُ لا يعرف القياسَ ويُعطيه حقه فرأى أنَّ العود حين احتكَّ بالعود أحدث النار فإنه يلزُمُه في الدخان مثلُ ذلك ويلزُمُه في الماء السائل مثلُ ذلك وإن قاس قال في الرَّمَادِ مثلُ قوله في الدخان والماء وإلا فهو إما جاهلٌ وإما متحكم .

وإن زَعَمَ أنه إنما أنكرَ أنَّ تكون النارُ كانت في العودِ لأنه وجدَ النارَ أعظم من العود ولا يجوز أن يكون الكبيرُ في الصغير وكذلك الدخان فلَيَزَعُمُ أنَّ الدخان لم يكن في الخطب وفي الزيت وفي النَّفْطِ .
فإن زعمَ أنهما سواءٌ وأنه إنما قال بذلك لأن بدنَ ذلك الخطب لم يكن يسعُ الذي عين من بدنِ النار والدخان فليس ينبغي لمن أنكر كُموئها من هذه الجهة أن يزعم أنَّ شَرَرَ القَدَّاحَةِ والحَجَرِ لم يكونا كامنين في الحجر والقَدَّاحَةِ .)

وليس ينبغي أن يُنكرَ كُمونَ الدم في الإنسان وكُمونَ الدُّهْنِ في السمسم وكُمونَ الزيت في الزيتون ولا ينبغي أن يُنكرَ من ذلك إلا ما لا يكون الجسمُ يسعُه في العين .
فكيف وهم قد أجروا هذا الإنكارَ في كلِّ ما غابَ عن حواسِّهم من الأجسام المستترة بالأجسام حتى يعود بذلك إلى إبطال الأعراض

كنحو حموضة الخلِّ وحلاوة العسلِ وعذوبة الماء ومرارة الصبر .
قال : فإن قاسوا قولهم وزعموا أنَّ الرمادَ حادثٌ كما قالوا في النار والدُّخان فقد وجبَ عليهم أن يقولوا في جميع الأجسام مثلُ ذلك كالدقيق المخالف للبرِّ في لونه وفي صلابته وفي مساحته وفي أمورٍ غير ذلك منه فقد ينبغي أن يزعم أنَّ الدقيقَ حادثٌ وأن البرَّ قد بطلَ .
وإذا زعم ذلك زعم أنَّ الرُّبْدَ الحادثَ بعد المخضِّ لم يكن في اللبنِ وأنَّ جُبْنَ اللبنِ حادثٌ وقاسَ ماءَ الجُبْنِ على اللبنِ وليس اللبنُ إلا الجُبْنُ والماءُ .

وإذا زعم أنهما حادثان وأن اللبن قد بطلَ لزمه أن يكون كذلك الفخار الذي لم نجده حتى عَجْنَا الترابَ
اليابسَ المتهافتَ على حَدِّته بالماءِ الرُّطْبِ السَّيَالِ على حَدِّته ثم شَوَيْنَاهُ بالنارِ الحارَّةِ الصَّعَادَةِ على حَدِّتها
ووجدنا الفخار في العينِ واللمسِ والدُّوقِ والشَّمِّ وعند النَّقْرِ والصَّكِّ على خلافِ ما وجدنا عليه النارَ
وحدها والماءَ وحده والترابَ وحدهُ

فإنَّ ذلكَ الفخار هو تلك الأشياءُ والحطبُ هو تلك الأشياءُ إلا أن أحدهما من تركيب العباد والآخرَ من
تركيب الله .

والعبد لا يقلبُ المركَّباتِ عن جواهرها بتركيبه ما ركب منها .

فإن زعموا أن الفخار ليس ذلك التُّرابَ وذلك الماءَ وتلك النارَ وقالوا مثل ذلك في جميع الأخبصة والأنبذة
كان آخرُ قياسهم أن يُجيبوا بجواب أبي الجهم فإنه زعم أن القائمَ غيرُ القاعد والعجينَ غيرُ الدقيق وزعم
ولو أنه لم يقل ذلك أن الحَبَّة متى فُلقت فقد بطلَ الصحيح وحدثَ جِسْمَان في هيئةِ نصفَي الحَبَّة وكذلك إذا
فُلقت بأربع فلق إلى أن تصيرَ سَوِيْقاً ثم تصيرَ دَقِيقاً ثم تصيرَ عَجِيناً ثم تصيرَ خُبْزاً ثم تعودُ رَجِيعاً وزُبْلاً ثم
تعودُ رِيحَاناً وبَقْلاً ثم يعودُ الرجيع أيضاً لبناً وزُبْداً لأنَّ الجلالَةَ من البهائم تأكله فيعودُ لحمًا ودمًا .
وقال : فليس القولُ إلا ما قال أصحابُ الكُمونِ أو قولَ هذا .

ردَّ النظام على أصحاب الأعراض قال أبو إسحاق : فإن اعترض علينا مُعْتَرِضٌ من أصحاب الأعراض
فرغم أن النارَ لم تكن كامنةً وكيف تكمنُ فيه وهي أعظم منه ولكنَّ العودَ إذا احتكَّ بالعودِ حَمِيَّ العودان
وحَمِي من الهواءِ المحيطُ بهما الجزءُ الذي بينهما ثم الذي يلي ذلك منهما فإذا احتدم رِقْ ثم جفَّ والتهبَ فإِذَا
النارُ هَوَاءٌ استحالَ .

والهواءُ في أصل جوهره حارٌّ رقيق وهو جسم رقيق وهو جسمٌ حَوَّارٌ جيِّد القبول سريع الانقلاب .
والنار التي تراها أكثرَ من الحطبِ إنما هي ذلك الهواءُ المستحيل وانطفأؤها بطلان تلك الأعراضِ الحادثة من
النارية فيه فالهواءُ سريعُ الاستحالة إلى النارِ سريعُ الرجوع إلى طبعه الأول وليس أنها إذا عُدِمَتْ فقد
انقطعتْ إلى شكل لها غُلُويٌّ واتصلت وصارتْ إلى تِلَادِها ولا أنَّ أجزاءها أيضاً تفرقتْ في الهواء ولا أنها
كانت كامنةً

في الحطبِ متداخلةً منقبضة فيه فلما ظهرت انبسطت وانتشرت وإنما اللهبُ هَوَاءٌ استحال ناراً لأنَّ الهواءَ
قريبُ القربة من النارِ والماءُ هو حِجَارٌ بينهما لأنَّ النارَ يابسةٌ حارة والماءُ رطبٌ بارد والهواءُ حارٌّ رطبٌ فهو
يُشَبِّه الماءَ من جهة الرطوبة والصفاء ويُشَبِّه النارَ بالحرارة والخفة فهو يخالِفُهُما ويوافقُهُما فلذلك جازَ أن
ينقلبَ إليهما انقلاباً سريعاً كما ينصرفُ الهواءُ إذا استحال رطباً وحدثَ له كثافةٌ إلى أن تعودَ أجزاءه مطراً
فالماءُ ضدُّ النارِ والهواءُ خلافُهما وليس بضدٍّ ولا يجوزُ أن يقلبَ الجوهرُ إلى ضده حتى ينقلبَ بَدِياً إلى
خلافه فقد يستقيم أن ينقلبَ الماءُ هَوَاءً ثم ينقلبَ الهواءُ ناراً وينقلبَ الهواءُ ماءً ثم ينقلبَ الماءُ أرضاً فلا بدَّ في

الانقلاب من الترتيب والتدريج وكلُّ جوهر فله مقدمات لأن الماء قد يحيل الطين صخراً وكذلك في العكس فلا يستحيل الصخرُ هواءً والهواءُ صخراً إلا على هذا التنزيل والترتيب .

وقال أبو إسحاق لمن قال بذلك من حُذاق أصحاب الأعراس : قد زعمتم أن النار التي عاينّاها لم تخرج من الحطب ولكنّ الهواءَ المحيطُ بهما احتدَمَ واستحالَ ناراً فلعلّ الحطب الذي يسيل منه الماءُ الكثيرُ أن يكون ذلك الماءُ لم يكن في الحطب ولكنّ ذلك المكان من الهواءِ

استحالَ ماءً وليس ذلك المكان من الهواءِ أحقُّ بأن يستحيل ماءً من أن يكون سبيلُ الدخان في الاستحالة سبيلُ النار والماء .)

فإن قسَّ القومُ ذلك فزعموا أن النار التي عاينّاها وذلك الماء والدخان في كثافة الدخان وسَوادِهِ والذي يتراكمُ منه في أسافل القدور وسُقُف المطابخ إنما ذلك هواء استحال فلعلّ الرماد أيضاً هواءً استحالَ رماداً . فإن قلتم : الدُّخان في أول ثقله المتراكم على أسافل القدور وفي بُطون سُقُفِ مواقدِ الحمامات الذي إذا ذُبِرَ ببعض التدبير جاء منه الأنفاسُ العجيبةُ أحقُّ بأن استحال أرضياً فإن قاسَ صاحب العَرَضِ وزعم أن الحطب انحَلَّ بأسره فاستحال بعضه رماداً كما قد كان

بعضه رماداً مرةً واستحال بعضه ماءً كما كان بعضه ماءً مرةً وبعضه استحال أرضاً كما كان بعضه أرضاً مرةً ولم يقلْ إن الهواءَ المحيطَ به استحالَ رماداً ولكنَّ بعضَ أخلاطِ الحطبِ استحالَ رماداً ودُّخاناً وبعضُ الهواءِ المتصل به استحالَ ماءً وبعضه استحالَ ناراً على قدرِ العوامل وعلى المقابلات له وإذا قال صاحبُ العرض ذلك كان قد أجاب في هذه الساعةِ على وهذا باب من القول في النار وعلينا أن نستقصيَ للفريقين والله المعين . (ردُّ على منكري الكُمون) وبابٌ آخرُ وهو أن بعض من ينكرُ كُمونَ النار في الحطب قالوا : إن هذا الحرَّ الذي رأيناه قد ظهرَ من الحطب لو كان في الحطب لكان واجباً أن يجده مَنْ مَسَّه كالجمر المتوقد إذا لم يكن دونه مانعٌ منه ولو كان هناك مانعٌ لم يكن ذلك المانعُ إلا البردُ لأن اللونَ والطعمَ والرائحةَ لا يفسدُ الحرُّ ولا يُمانعه إلا الذي يُضادُّه دون الذي يخالفه ولا يضاده .

فإن زعم زاعمٌ أنه قد كان هناك من أجزاء البرد ما يعادلُ ذلك الحرَّ ويُطاوله ويكافيه ويوازيه فلذلك صرنا إذا مَسَسْنَا الحطبَ لم نجدْهُ مؤذياً وإنما يظهرُ الحرقُ ويُحرقُ لزوال البرد إذا قام في مكانه وظهر الحرُّ وحده فظهر عمله ولو كان البردُ المعادلُ لذلك الحرَّ مقيماً في العود على أصل

كُمونه فيه لكان ينبغي لمن مَسَّ الرَّمَادَ بيده أن يجده أبرد من الثلج فإذا كان مسّه كمسٍّ غيره فقد علمنا أنه ليس هناك من البرد ما يعادلُ هذا الحرَّ الذي يُحرق كلَّ شيءٍ لِقِيَّهِ .

فإن زعم أنهما خرجا جميعاً من العود فلا يخلو البردُ أن يكون أخذَ في جهته فلم وجدنا الحرَّ وحده وليس هو بأحقُّ أن نجدَ من ضلِّه وإن كان البردُ أخذَ شَمَلاً وأخذَ الحرُّ جنوباً فقد قالوا : فلما وجدنا جميعَ أقسامِ هذا الباب علمنا أن النار لم تكن كامنة في الحطب .

قال أبو إسحاق : والجواب عن ذلك أنا نزعُ أن الغالبَ على العالمِ السفليِّ الماءُ والأرض وهما (

جميعاً باردان وفي أعماقهما وأضعافهما من الحر ما يكون مغموراً ولا يكون غامراً ويكون مغموراً ولا يكون قامعاً لأنه هناك قليل والقليل ذليل والدليل غريب والغريب محفور فلما كان العالم السفلي كذلك اجتذب ما فيه من قوة البرد وذلك البرد الذي كان في العود عند زوال مانعه لأن العود مقيم في هذا العالم ثم لم ينقطع ذلك البرد إلى برد الأرض الذي هو كالقُرص

له إلا بالطفرة والتخليف لا بالمرور على الأماكن واخذاً لها وقام برّد الماء منه مقام قرص الشمس من الضياء الذي يدخل البيت للخرق الذي يكون فيه فإذا سُدّ فمع السدّ ينقطع إلى قُرصه وأصل جوهره . فإذا أجاب بذلك أبو إسحاق لم يجد خصمه بُدّاً من أن يتبدى مسألة في إفساد القول بالطفرة والتخليف . ولولا ما اعترض به أبو إسحاق من الجواب بالطفرة في هذا الموضع لكان هذا مما يقع في باب الاستدلال على حدوث العالم .

قول النظام في الكمون وكان أبو إسحاق يزعم أن احتراق الثوب والخطب والقطن إنما هو خروج نيرانه منه وهذا هو تأويل الاحتراق وليس أن ناراً جاءت من مكانٍ فعملت في الخطب ولكن النار الكامنة في الخطب لم تكن تقوى على نفي ضدها عنها فلما اتصلت بنار أخرى واستمدت منها

قويتاً جميعاً على نفي ذلك المانع فلما زال المانع ظهرت فعند ظهورها تجزأ الخطب وتنفذ وتنفذ لمكان عملها فيه فأحرقك للشيء إنما هو إخراجك نيرانه منه .

وكان يزعم أن حرارة الشمس إنما تخرق في هذا العالم بإخراج نيرانها منه وهي لا تُحرق ما عقد العرض وكثف تلك الندوة لأن التي عقدت تلك الأجزاء من الحر أجناس لا تحرق كاللون والطعم والرائحة والصوت والاحتراق إنما هو ظهور النار عند زوال مانعها فقط .

وكان يزعم أن سم الأفعى مقيماً في بدن الأفعى ليس يقتل وأنه متى ما زج بدناً لا سم فيه لم يقتل ولم يُتلف وإنما يتلف الأبدان التي فيها سموم ممنوعة مما يضادها فإذا دخل عليها سم الأفعى عاون السم الكامن ذلك السم الممنوع على مانعه فإذا زال المانع تلف البدن فكان المنهوش عند أبي إسحاق إنما كان أكثر ما أتلفه السم الذي معه .

وكذلك كان يقول في حرّ الحمام والحر الكامن في الإنسان : أن الغشي الذي يعتريه في الحمام ليس من الحر القريب ولكن من الحر الغريب حرّ الكامن في الإنسان وأمدّه ببعض أجزائه فلما قوي عند ذلك على مانعه فأزاله صار ذلك العمل الذي كان يُوقعه بالمانع واقعاً به وإنما ذلك كماء حار يحرق اليد صُبَّ عليه ماء

بارد فلما دخل عليه الماء البارد صار شُغله بالداخل وصار من وضع يده فيه ووضع يده في شيء قد شغل فيه بغيره فلما دفع الله عز وجل عنه ذلك الجسم الذي هو مشغول به صار ذلك الشغل مصروفاً إلى من وضع يده فيه إذ كان لا ينفك من عمله .

وكان مع ذلك يزعم أنك لو أطفأت نار الأتون لم تجد شيئاً من الضوء ووجدت الكثير من الحر لأن الضياء

لما لم يكن له في الأرض أصلٌ ينسب إليه وكان له في العلوُّ أصلٌ كان أولى به .
وفي الحقيقة أنهما جميعاً قد اتصلا بجوهرهما من العالم العلويّ وهذا الحر الذي تجده في الأرض إنما هو الحرُّ
الكامن الذي زال مانعه .

هكذا كان ينبغي أن يقول وهو قياسه .

وكان يزعم أنك إن أبصرت مصباحاً قائماً إلى الصُّبح أن الذي رأيته في أول وهلة قد بطلَ من هذا العالم
وظفر من الدهن بشيء من وزنه وقدره بلا فضل ثم كذلك الثالث والرابع والتاسع فأنت إن ظننت أن هذا
المصباح ذلك فليس به ولكن ذلك المكان لما كان لا يخلو من أقسامٍ متقاربة متشابهة و لم يكن في الأول

شيءٌ ولا علامة وقع عندك أن المصباح الذي رأيته وكان يزعم أن نار المصباح لم تأكل شيئاً من الدهن ولم
تشربه وأن النار لا تأكل ولا تشرب ولكن الدهن ينقص على قدرٍ ما يخرج منه من الدخان والنار الكامنين
اللذين كانا فيه وإذا خرج كل شيء فهو بطلانه .

المجاز والتشبيه الأكل

وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل وعلى الاشتقاق وعلى التشبيه .

فإن قلتم : فقد قال الله عزّ وجلّ في الكتاب : الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَنْ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا
بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا كَلِمَهُمُ بِلُغَتِهِمْ .
وقد قال أوس بن حَجَر : (فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُعَصِّمٌ ** وَأَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلَا)

(وقد أَكَلَتْ أَظْفَارُهُ الصَّخْرُ كُلَّمَا ** تَعَايَا عَلَيْهِ طُولُ مَرْقَى تَوَصَّلَا) فجعل النحت والتقصُّ أكلاً .

وقال خفاف بن ندبة : (أبا خُرَاشَةَ أَمَّا كُنْتُ ذَا نَفَرٍ ** فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ الضُّعُ)

باب آخر مما يسمونه أكلاً . وقال مرداس بن أدية : (وَأَدَّتِ الْأَرْضُ مِنِّي مِثْلَ مَا أَكَلَتْ ** وَقَرَّبُوا الْحِسَابِ
الْقِسْطِ أَعْمَالِي) وأكلُ الأرض لما صارَ في بطنها : إحالتها له إلى جوهرها .

باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل

وهو قول الله عزّ وجلّ : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَزَّ اسْمُهُ : أَكَّالُونَ لِلْسُّخْتِ وَقَدْ
يَقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ وَإِنْ شَرَبُوا بَتَلَكَ الْأَمْوَالُ الْأَنْبَنَةُ وَلَبَسُوا الْحُلَّ وَرَكَبُوا الدَّوَابَّ وَلَمْ يَنْفَقُوا مِنْهَا دِرْهَمًا وَاحِدًا
فِي سَبِيلِ الْأَكْلِ .

وقد قال الله عزّ وجلّ : إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَهَذَا مجاز آخر .

وقال الشاعر في أحد السنين من أجزاء الخمر : (أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمَتْ مِنْهَا ** وَتَبَقَّى مُصَاصَهَا الْمَكُونَا)

وقال الشاعر : (مَرَّتْ بِنَا تَخْتَالُ فِي أَرْبَعٍ * يَأْكُلُ مِنْهَا بَعْضُهَا بَعْضًا) وهل قوله : وقد أَكَلْتُ أَطْفَارَهُ الصَّخْرُ إِلَّا كَقَوْلِهِ :

وإذا قالوا : أَكَلَهُ الْأَسَدُ فَإِنَّمَا يَذْهَبُونَ إِلَى الْأَكْلِ الْمَعْرُوفِ وَإِذَا قَالُوا : أَكَلَهُ الْأَسْوَدُ فَإِنَّمَا يَعْنُونَ النَّهْشَ وَاللَّدَغَ وَالْعَضَّ فَقَطْ .

وقد قال الله عز وجل : أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا وَيَقَالَ : هُمُ لَحْمُ النَّاسِ .
وقال قتيلٌ لإسماعيل بن حماد : أَيُّ اللَّحْمَانِ أَطْيَبُ قَالَ : لَحْمُ النَّاسِ هِيَ وَاللَّهُ أَطْيَبُ مِنَ الدَّجَاجِ وَمِنَ الْفَرَاخِ وَالْعُنُوزِ الْحُمْرِ .

ويقولون في باب آخر : فَلَانٌ يَأْكُلُ النَّاسَ وَإِنْ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ طَعَامِهِمْ شَيْئًا .
وأما قولُ أوس بن حجر : (وَذُو شُطْبَاتٍ قَدَّهُ ابْنُ مَجْدَعٍ * لَهُ رَوْنَقٌ ذَرِيَّةُ يَتَاكَلُ)

فهذا على خلاف الأول وكذلك قول دُهمان النهري : (سَأَلْتَنِي عَنْ أَنْسٍ أَكَلُوا * شَرِبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَأَكَلَ) فهذا كله مختلف وهو كله مجاز .

باب آخر في مجاز الذوق

وهو قول الرجل إذا بالغ في عقوبة عبده : ذُقْ وَ : كيف ذقته وَ : كيف وجدتَ طعمه

وأما قولهم : ما ذُقتَ اليومَ ذَوَاقًا فإنه يعني : ما أَكَلْتُ اليومَ طعامًا ولا شَرَبْتُ شرابًا وإنما أراد القليل والكثير وأنه لم يذقه فضلًا عن غير ذلك .

وقال بعض طبقات الفقهاء ممن يشتهي أن يكون عند الناس متكلمًا : ما ذُقتَ اليومَ ذَوَاقًا على وجه من الوجوه ولا على معنى من المعاني ولا على سبب من الأسباب ولا على جهة من الجهات ولا على لون من الألوان .

وهذا من عجيب الكلام .

قال : ويقول الرجل لو كيله : إيتِ فلانًا فذُقْ ما عنده .

وقال شماخ بن ضرار : (فذاق فأعطته من اللين جانبًا * كَفَى وَلَهَا أَنْ يُغْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ) وقال ابن مقبل : (أَوْ كَاهْتِرَازِ رُدَيْنِي تَذَاوَقَهُ * أَيَدِي التَّجَارِ فَرَادُوا مَتْنَهُ لِينًا)

وقال نهشل بن حرّيب : (وَعَهْدُ الْغَانِيَاتِ كَعَهْدِ قَيْنٍ * وَتَ عَنْهُ الْجَعَائِلُ مُسْتَذَاقِ) الجعائل : من الجُعَلِ .
وتجاوزوا ذلك إلى أن قال يزيد بن الصّعق لبني سليم حين صنعوا بسيدهم العباس ما صنعوا وقد كانوا توجوه وملكوه فلما خالفهم في بعض الأمر وثبوا عليه وكان سبب ذلك قلة رهطه وقال يزيد بن الصّعق :
(وَإِنَّ اللَّهَ ذَاقَ حُلُومَ قَيْسٍ * فَلَمَّا ذَاقَ خِفَّتْهَا قَلَاهَا)

(رآها لا تطيعُ لها أميراً ** فخلّاهَا تردّدُ في خلاها) فزعم أن الله عزّ وجلّ يذوق .
وعند ذلك قال عباس الرّعلي يجبر عن قلبه وكثرهم فقال : (وأمّكم تُزجي التّؤام لبعلها ** وأمّ أخيكُم
كثرة الرّحم عاقر) وزعم يونس أن أسلم بن زرعة لما أنشد هذا البيت اغرورقت عيناه .
وجعل عباس أمّه عاقراً إذ كانت نزوراً وقد قال الغبويّ : (وتحدّثوا ملاً لتصبح أمنا ** عذراء لا كهّل ولا
مؤلود) جعلها إذ قلّ ولدها كالعذراء التي لم تلد قطّ لما كانت كالعذراء جعلها عذراء .

وللعرب إقدام على الكلام ثقةً بفهم أصحابهم عنهم وهذه أيضاً فضيلة أخرى .
وكما جوّزوا لقولهم أكل وإنما عضّ وأكل وإنما أفنى وأكل وإنما أكل وإنما أبطل عينه (وإن شئتُ
حرّمتُ النساء سواكم ** وإن شئتُ لم أطعم ثقاخاً ولا برداً) وقال الله تعالى : إنّ الله مُبتليكم بنهرٍ فمن
شرب منه فليس مِنّي ومن لم يطعمه فإنه مِنّي يريد : لم يذق طعمه .
وقال علقمة بن عبلة : (وقد أصاحب فتينا طعامهم ** حُمُر المزداد لحم فيه تنشيم)

يقول : هذا طعامهم في الغزو والسفر البعيد الغاية وفي الصيف الذي يُغيّر الطعام والشراب والغزو على
هذه الصفة من المفارح ولذلك قال الأول : (لا لا أعق ولا أخو ** ب ولا أُغير على مُضر) (لكِنّا
غزوي إذا ** ضجّ المطي من الدبر) وعلى المعنى الأول قول الشاعر : (قالت ألا فاطم عميراً تمرا **
وكان تمرّ كهرّة وزبرا) وعلى المعنى الأول قال حاتم : هذا فصدي أنّه

ولذلك قال الرّاجز : لعامرات البيت بالخراب (تأويل النظام لقولهم : النار يابسة) وكان أبو إسحاق
يتعجب من قولهم : النار يابسة قال : أما قولهم : الماء رطب فيصح لأننا نراه سيّلاً وإذا قال الأرض يابسة
فإنما يريد التراب المتهاف فقط فإن لم يُرد إلا بدن الأرض الملازم بعضه لبعض لما فيها من اللدونة فقط فقد
أخطأ لأن أجزاء الأرض مخالطة لأجزاء الماء فامتنعت من التهاف على أقدار ذلك .
ومتي حفرنا ودخلنا في عمق الأرض وجدنا الأرض طيناً بل لا تزال تجد الطين أرطب حتى (
تصير إلى الماء والأرض اليوم كلها أرض ماء والماء ماء وأرض وإنما يلزمها من الاسم على قدر الكثرة
والقلة فأما النار فليست بيايسة البدن ولو كانت يابسة البدن لتهافتت تهافت التراب ولتبرأ بعضها من بعض
كما أن الماء لما كان رطباً كان سيّلاً .

ولكن القوم لما وجدوا النار تستخرج كل شيء في العود من النار فظهرت الرطوبات لذلك السبب
ووجدوا العود تتميز أخلاطه عند

خروج نيرانه التي كانت إحدى مراتعها من التمييز فوجدوا العود قد صار رماداً يابساً مُتهافتاً ظنوا أن يُيسّه
إنما هو مما أعطته النار وولدت فيه .

والنار لم تُعطه شيئاً ولكن نار العود لما فارقت رطوبات العود ظهرت تلك الرطوبات الكامنة والمائعة فبقي

من العودِ الجزء الذي هو الرماد وهو جزء الأرض وجَوْهَرُها لأن العود فيه جزء أرضي وجزء مائي وجزء ناري وجزء هوائي فلما خرجت النار واعتزلت الرطوبة بقي الجزء الأرضي .
فقولهم : النار يابسة غلط وإنما ذهبوا إلى ما تراه العيون ولم يغوصوا على مُعَيَّباتِ العِلَالِ وكان يقول : ليس القوم في طريق خُلص المتكلمين ولا في طريق الجهابذة المتقدمين .
قول النظام في علاقة الذكاء بالجنس وكان يقول : إنَّ الأُمَّة التي لم تنضجها الأرحام ويخالفون في ألوان أبدانهم وأحداق عيونهم وألوان شعورهم سبيل الاعتدال لا تكون

عقولهم وقرائحهم إلا على حسب ذلك وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم وشمائلهم وتصرفهم همهمهم في لؤمهم وكرمهم لاختلاف السبكِ وطبقات الطبخ وتفاوت ما بين القطير والخمير والمقصر والمجاز وموضع العقل عضو من الأعضاء وجزء من تلك الأجزاء كالتفاوت الذي بين الصَّالِبَةِ والزَّجَجِ .
وكذلك القول في الصور ومواضع الأعضاء ألا ترى أن أهل الصين والتبت حذاق الصناعات لها فيها الرِّفق والحذق ولطف المداخل والاتساع في ذلك والغوص على غامضه وبعيده
تخطئة من زعم أن الحرارة تورث اليبس قال : وكان يخطئهم في قولهم : إن الحرارة تورث اليبس لأن الحرارة إنما ينبغي أن تورث السخونة وتولد ما يشاكلها ولا تولد ضرباً آخر مما ليس منها في شيء ولو جاز أن تولد من الأجناس التي تخالفها شكلاً واحداً لم يكن ذلك الخلاف باحق من خلاف آخر إلا أن يذهبوا إلى سبيل الخجاز : فقد يقول الرجل : إنما رأيتك لأني التفت وهو إنما رآه لطبع

في البصر الدراك عند ذلك الالتفات .

وكذلك يقول : قد نجد النار تداخل ماء القمقم بالإيقاد من تحته فإذا صارت النار في الماء لا بسسته واتصلت بما فيه من الحرات والنار صاعدة فيحدث عند ذلك للماء غلياناً لحركة النار التي قد صارت في أضعافه وحركتها تصعد فإذا ترفعت أجزاء النار رفعت معها لطائف من تلك الرطوبات التي قد لا بسستها فإذا دام ذلك الإيقاد من النار الداخلة على الماء صعدت أجزاء الرطوبات الملبسة لأجزاء النار ولقوة حركة النار وطلبها التلاذ العُلوي كان ذلك فمتى وجد من لا علم له في أسفل

القمقم كالجيس أو وجد الباقي من الماء مالحاً عند تصعد لطائفه على مثال ما يعتري ماء البحر ظناً أن النار التي أعطته اليبس .

وإن زعموا أن النار هي المييسة على معنى ما قد فسرنا فقد أصابوا فإن ذهبوا إلى غير وكذلك الحرارة إذا مكنت في الأجساد بعثت الرطوبات ولا بسستها فمتى قويت على الخروج أخرجتها منه فعند خروج الرطوبات توجد الأبدان يابسة ليس أن الحر يجوز أن يكون له عمل إلا التسخين والصعود والتقلب إلى الصعود من الصعود كما أن الاعتزال من شكل الزوال .
وكذلك الماء الذي يفيض إلى البحر من جميع ظهور الأرضين وبطونها إذا صار إلى تلك الحفرة العظيمة فالماء غسال مصاص والأرض تقذف إليه ما فيها من الملوحة .

وحرارة الشمس والذي يخرج إليه من الأرض من أجزاء النيران المخالطة يرفعان لطائف الماء بارتفاعهما وتبخيرهما فإذا رَفَعَا اللطائف فصَارَ منهما مطرٌ وما يشبه المطر وكان ذلك دأبهما عادً

ذلك الماء ملحاً لأن الأرض إذا كانت تعطيه الملوحة والنيران تخرجُ منه العذوبة واللطافة كان واجباً أن يعود إلى الملوحة ولذلك يكون ماء البحر أبداً على كيلٍ واحدٍ ووزن واحدٍ لأن الحرارة تطلب القرارَ وتجري في أعماق الأرض وترفع اللطائف فيصير مطراً وبرداً وثلجاً وطلاً ثم تعود تلك الأمواه سيولاً تطلب الحدورَ وتطلب القرارَ وتجري في)

أعماق الأرض حتى تصير إلى ذلك الهواء فليس يضيع من ذلك الماء شيء ولا يبطلُ منه شيء والأعيان قائمة فكأنه منجئونُ غرف من بحرٍ وصبَّ في جدولٍ يفيضُ إلى ذلك النهر . فهو عملُ الحرارة إذا كانت في أجواف الحطب أو في أجواف الأرضين أو في أجواف والحر إذا صار في البدن فإنما هو شيء مكره والمكره لا يألو يتخلصُ

وهو لا يتخلص إلا وقد حملَ معه كلَّ ما قوِيَ عليه مما لم يشتد فمتى خرج خرج معه ذلك الشيء . قال : فمن هاهنا غلط القوم .

قول الدهرية في أركان العالم قال أبو إسحاق : قالت الدهرية في عالمنا هذا بأقوايلَ : فمنهم من زعم أن عالمنا هذا من أربعة أركانٍ : حرٌّ وبردٌ ويس وبلَّةٌ وسائر الأشياء نتائجُ وتركيبٌ وتوليدٌ وجعلوا هذه الأربعة أجساماً .

ومنهم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركانٍ : من أرضٍ وهواءٍ وماءٍ ونارٍ وجعلوا الحر والبرد واليُس والبلَّةَ أعراضاً في هذه الجواهر ثم قالوا في سائر الأرياح والألوان والأصوات : ثمارُ هذه الأربعة على قدر الأخلاط في القلة والكثرة والرقَّة والكثافة .

فقدّموا ذكر نصيب حاسة اللمس فقط وأضربوا عن أنصباء الحواس الأربع . قالوا : ونحن نجد الطعومَ غاذيةً وقاتلةً وكذلك الأرياح ونجد

الأصوات مُلذدة ومؤلمة وهي مع ذلك قاتلة وناقصةً للقوى مُتلفة ونجد للألوان في المضار والمنافع واللدّاذة والألمَ المواقع التي لا تجهل كما وجدنا مثل ذلك في الحر والبر واليُس والبلَّة ونجد لم نجد الأرض باردة يابسة غير أنا نجدها مالحة أي ذات مذاقة ولون كما وجدناها ذات رائحة وذات صوت متى قرعَ بعضها بعضاً .

فبرُدُ هذه الأجرام وحرّها ويُسُّها ورطوبتها لم تكن فيها لعلّة كون الطعوم والأرياح والألوان فيها وكذلك طعومها وأرياحها وألوانها لم تكن فيها لمكانِ كمون البرد واليُس والحر والبلَّة فيها . ووجدنا كلَّ ذلك إما ضاراً وإما نافعاً وإما غاذياً وإما قاتلاً وإما مؤلماً وإما مُلذناً . وليس يكون كون الأرض مالحة أو عذبة ومنبتة أو طيبة أحقَّ بأن يكون علة لكون اليُس والبرد والحر والرطوبة من أن يكون كون الرطوبة واليُس والحر والبرد علة لكون اللون والطعم)

والرائحة .

وقد هجم الناسُ على هذه الأعراضِ الملازمةِ والأجسامِ المشاركةِ هجومًا واحدًا على هذه الحلية والصورة أَلْفَاها الأولُ والآخِرُ .

قال : فكيف وقع القول منهم على نصيب هذه الحاسة وحدها

ونحن لم نر من البلية أو من اليأس نفعاً ولا ضرراً تنفرد به دون هذه الأمور .

قال : والهواء يختلف على قَلْبِ العوامل فيه من تحت ومن فوق ومن الأجرامِ المشتملة عليه والمخالطة له وهو جسم رقيق وهو في ذلك محصورٌ وهو خَوَّارٌ سريعُ القبول وهو مع رَقَّتِه يقبل ذلك الحصر مثل عمل الريح والزَّقُّ فإنها تدفعه من جوانبه وذلك لعللة الحصر ولقَطْعُه عن شكله .

والهواء ليس بالجسم الصعاد والجسم التَّزَال ولكنه جسم به تعرف المنازل والمصاعد .

والأمور ثلاثة : شيء يصعدُ في الهواء وشيء ينزل في الهواء وشيء مع الهواء فكما أن الصاعد فيه والمنحدر لا يكونان إلا مخالفين فالواقع معه لا يكون إلا موافقاً .

ولو أن إنساناً أرسل من يده وهو في قَعْرِ الماء زِقاً منفوخاً فارتفع الزَّقُّ لدفع الريح التي فيه لم يكن لقائل أن يقول : ذلك الهواء شأنه الصعود بل إنما ينبغي أن يقول : ذلك الهواء من شأنه أن يصير إلى جوهره ولا يقيم في غير جوهره إلا أن يقول : من شأنه أن يصعد في الماء كما أن

من شأن الماء أن ينزل في الهواء وكما أن الماء يطلبُ تِلَادَ الماء والهواء يطلبُ تلاد الهواء .

قالوا : والنار أجناسٌ كثيرة مختلفة وكذلك الصاعد ولا بدّ إذا كانت مختلفة أن يكون بعضها أسرع من بعض أو يكون بعضها إذا خرج من عالم الهواء وصار إلى نهاية إلى حيث لا منفذ ألا يزال فوق الآخر الذي صعد معه وإن وجد مذهباً لم يقم عليه .

ويدلُّ على ذلك أنا نجد الضياء صَعَاداً والصوت صَعَاداً ونجد الظلام رايداً وكذلك البرد والرطوبة فإذا صح أن هذه الأجناس مختلفة فإذا أخذت في جهة علمنا أن الجهة لا تخالف بين الأجناس ولا توافق وأن الذي يوافق بينهما ويخالف اختلافُ الأعمال .

ولا يكون القطعان متفقين إلا بأن يكون سرورهما سواء وإذا صارا إلى الغاية صار اتصال كل واحد منهما بصاحبه كاتصال بعضه ببعض ثم لا يوجد أبداً إلا إما أعلى وإما أسفل .

قال أبو إسحاق : فيستدل على أن الضياء أخفُّ من الحر بزواله وقد يذهب ضوء الآتون (وتبقى سخونته .

قال أبو إسحاق : لأمر ما حُصر الهواء في جوف هذا القَلَك ولا بد لكل محصور من أن يكون تقلبه وضغطه على قلبه شدة الحصار وكذلك الماء إذا احتق .

قال : والريح هواء نزل لا غير فليَمَ قَضَوْا على طبع الهواء في جوهريته باللدونة والهواء الذي يكون بقرب

الشمس والهواء الذي بينهما على خلاف ذلك ولولا أن قُوَى البرد غريزيّة فيه لما كان مروّحاً عن النفوس ومنفّساً عن جميع الحيوان إذا اختنق في أجوافها البخار والوهج المؤذي حتى فرغت إليه واستغاثت به وصارت تجتلب من رَوْحه وبردِ نسيمه في وزن ما خَرَجَ من البخار الغليظ والحرارة المستَكِنّة .

قال : وقد علموا ما في اليُس من الخصومة والاختلاف وقد زعم قومٌ أن اليُس إنما هو عدم البَلّة قالوا : وعلى قدر البلة قد تتحول عليه الأسماء حتى قال خصومهم : فقولوا أيضاً إنما نجدُ الجسم بارداً على قدر قلة الحرّ فيه .

وكذلك قالوا في الكلام : إن الهواء إنما يقع عندنا أنه مُظلم لفقدان الضياء ولأن الضياء قرصٌ قائم وشعاع ساطعٌ فاصل وليس للظلام قرص ولو كان في هذا العالم شيء يقال له ظلامٌ لما قام إلا في قرص فكيف تكون الأرض قُرْصَةً والأرض غبراء ولا ينبغي أن يكون شعاع الشيء أسبغ منه .

قال : والأول لا يشبه القول في اليُس والبلة والقول في الحر والبرد والقول في اليُس والرطوبة والقول في الخشونة واللين لأن التراب لو كان كله يابساً وكان اليُس في جميع أجزائه شائعاً لم يكن بعضه أحق بالتقطيع والتبرد والتهافت من الجزء الذي نجده متمسكاً .

قال خصمه : ولو كان أيضاً التهافت الذي نجده فيه إنما هو لعدم البلة وكله قد عدم البلة لكان ينبغي للكل أن يكون متهافناً ولا نجد منه جزأين متلازقين .

فإن زعمتم أنه إنما اختلف في التهافت على قدر اختلاف اليُس فينبغي لكم أن تجعلوا اليُس طبقات كما يجعل ذلك للخضرة والصفرة .

وقال إبراهيم : أرأيت لو اشتهل اليُس الذي هو غاية التراب كله كما عرض لنصفه أما كان وأبو إسحاق وإن كان اعترض على هؤلاء في باب القول في اليُس فإن المسألة عليه في ذلك أشد .)

وكان أبو إسحاق يقول : من الدليل على أن الضياء أخفُّ من الحرّ أن النار تكون منها على قاب غلوة فيأتيك ضوءها ولا يأتيك حرها ولو أن شمعة في بيت غير ذي سقف لارتفع الضوء في الهواء حتى لا تجد منه على الأرض إلا الشيء الضعيف وكان الحرُّ على شبيه بحاله الأول .

رد النظام على الديصانية وقال أبو إسحاق : زعمت الديصانية أن أصل العالم إنما هو من ضياء وظلام وأن الحرّ والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هي نتائج على قدر امتزاجهما .

ف قيل لهم : وجدنا الحبر إذا اختلط باللبن صار جسماً أغبر وإذا خلطت الصبر بالعسل صار جسماً مُرّ الطعم على حساب ما زدنا وكذلك نجد جميع المركبات فما لنا إذا مزجنا بين شيئين من ذوات المناظر خرجنا إلى ذوات الملامس وإلى ذوات المذاقة والمشمّة

وهذا نفسه داخلٌ على من زعم أن الأشياء كلها تولدت من تلك الأشياء الأربعة التي هي نصيبُ حاسةٍ واحدة .

نقد النظام لبعض مذاهب الفلاسفة وإن زعموا أن الأشياء يحدث لها جنسٌ إذا امتزجت بضربٍ من المزاج فكيف صار المزاج يُحدث لها جنساً وكلٌ واحد منه إذا انفرد لم يكن ذا جنس وكان مفسداً للجسم وإن فصل عنها أفسد جنسها وهل حكمٌ قليلٌ ذلك إلا كحكم كثيره ولم لا يجوز أن يُجمع بين ضياءٍ وضياءٍ فيحدث لهما منع الإدراك .

فإن اعتلَّ القومُ بالزاج والعفص والماء وقالوا : قد نجدُ كلَّ واحد من هذه الثلاثة ليس بأسودَ وإذا اختلطت صارت جسماً واحداً أشدَّ سواداً من الليل ومن السَّبح ومن الغراب قال أبو إسحاق :

يبني وبينكم في ذلك فَرَقٌ أنا أزعمُ أن السواد قد يكون كامناً ويكون ممنوع المنظرة فإذا زال مانعه ظهر كما أقولُ في النار والحجر وغير ذلك من الأمور الكامنة فإن قلتم بذلك فقد تركتم قولكم وإن أبيتم فلا بدَّ من القول قال أبو إسحاق : وقد خلط أيضاً كثيرٌ منهم فرعموا أن طباع الشيخ البلغم . ولو كان طباعه البلغم والبلغم لَينَ رَطْبٌ أبيضُ لما ازداد عظمه نحولاً ولونه سواداً وجلده تقبضاً . وقال الثَّمرُ بنُ تَوَلَّب : (كَأَنَّ مِحْطاً فِي يَدَيَّ حَارِثِيَّةٌ * صَنَاعٌ عَلَتْ مِنِّي بِهِ الْجِلْدَ مِنْ عُلِّ) وكثرت فواضل الإهاب قال : ولكنهم لما رَأَوْا بَدَنَهُ يَتَغَضَّنُ ويظهرُ من ذلك التَغَضُّنِ

رطوباتٌ بدنية كالبلغم من الفم والمخاط السائل من الأنف والرَّمَص والدمع من العين ظنوا أن ذلك لكثرة ما فيه من أجزاء الرطوبات وأرادوا أن يقسِّموا الصِّبَا والشباب والكهولة والشيوخة على أربعة أقسام كما همياً لهم ذلك في غير باب .

وإذا ظهرت تلك الرطوباتُ فإنما هي لنفْيِ اليُسِّ لها ولعَصْرِهِ قُوَى البدنِ ولو كان الذي ذكروا لكان دمعُ الصِّبَا أكثرَ ومخاطه أغزرَ ورطوباته أظهر وفي القول والرياحين والأغصان والأشجار ذلك إذ كانت في الحداثة أرطبَ وعلى مرور السنين والأيام أيس .

قال الرَّاجِز : (اسمع أنبتك بآيات الكبر * نوم العشي وسعال بالسحر) (وقلة النوم إذا الليل اعتكر * وقلة الطعام إذا الزاد حضر)

(وسرعة الطرف وضعف في النظر * وترك الحسنة في قبل الطهر) (وحذر أزداده إلى حذر * والناس يبلون كما يلى الشجر) وكان يتعجَّب من القول بالهيوَلَى .

وكان يقول : قد عرفنا مقدارَ رزانة البِلَّةِ وسنعتيكم أن للبرد وزناً أليس الذي لا تشكُّون فيه أن الحر خفيف ولا وزن له وأنه إذا دخل في جرم له وزنٌ صار أخفَّ وإنكم لا تستطيعون أن تثبتوا لليس من الوزن مثل ما تثبتون للبِلَّةِ وعلى أن كثيراً منكم يزعم أن البرد أجْمِدُ للماء هو أيس . وزعم بعضهم أن البرد كثيراً ما يصاحب اليس وأن اليس وحده لو حلَّ بالماء لم يُجمدْ وأن البرد وحده لو

حلّ بالماء لم يجمد وأن الماء أيضاً يجمد لاجتماعهما عليه وفي هذا القول أن شيئين مجتمعين قد اجتمعا على الإجماد فما تنكرون أن يجمع شيان على الإذابة .

وإن جاز لليس أن يجمد جاز للبلّة أن تذيب .

قال أبو إسحاق : فإن كان بعض هذه الجواهر صعاداً وبعضها ترّالاً ونحن نجد الذهب أثقل من مثله من هذه الأشياء النزّالة فكيف يكون أثقل منها وفيه أشياء صّعادة . (

فإن زعموا أن الخفة إنما تكون من التخلخل والسّخف وكثرة أجزاء الهواء في الجرم فقد ينبغي أن يكون الهواء أخفّ من النار وأن النار في الحجر كما أن فيه هواءً والنار أقوى رفع الحجر من الهواء الذي فيه . وكان يقول : من الدليل على أن النار كامنة في الحطب أن الحطب يُحرق بمقدار من الإحراق ويمنع الحطب أن يخرج جميع ما فيه من النيران فيجعل فحماً فمتى أحييت أن تستخرج الباقي من النار استخرجته فترى النار عند ذلك يكون لها لهبٌ دون الضرام فمتى أخرجت تلك النار الباقية ثم أوقدت عليها ألف عام لم تستوقد وتأويل : لم تستوقد إنما هو ظهور النار التي كانت فيه فإذا لم يكن فيه شيء فكيف يستوقد . وكان يُكثر التعجّب من ناس كانوا ينافسون في الرّاسة إذا رآهم يجهلون جهل صغار العلماء وقد ارتفعوا في أنفسهم إلى مرتبة كبار العلماء .

وذلك أن بعضهم كان يأخذ العود فينقيه فيقول : أين تلك النار الكامنة ما لي لا أراها وقد ميّزت العود قشراً بعد قشر . ٤

استخراج الأشياء الكامنة

فكان يقول في الأشياء الكامنة : إن لكل نوع منها نوعاً من الاستخراج وضرباً من العلاج فالعبدان تُخرج نيرانها بالاحتكاك واللبن يُخرج زبدُه بالمنخض وجُبْنُه يُجمع بإنفحة وبضروب من علاجه . ولو أن إنساناً أراد أن يخرج القطران من الصنوبر والزفت من الأرز لم يكن يخرج له بأن يقطع العود ويدقه ويقشّره بل يوقد له ناراً بقربه فإذا أصابه الحرُّ عرق وسال في ضروب من العلاج . ولو أن إنساناً مزج بين الفضة والذهب وسبكهما سبيكة واحدة ثم أراد أن يعزل أحدهما من صاحبه لم يمكنه ذلك بالفرض

والدق وسبيل التفريق بينهما قريبة سهلة عند الصّاعة وأرباب الحُمْلانات .

رد النظام على أرسطاطاليس وزعم أبو إسحاق أن أرسطاطاليس كان يزعم أن الماء الممازج للأرض لم ينقلب أرضاً وأن النار الممازجة للماء لم تنقلب ماء وكذلك ما كان من الماء في الحجر ومن النار في الأرض والهواء وأن الأجرام إنما يخف وزنها وتسخف على قدر ما فيها من التخلخل ومن أجزاء الهواء وأنها ترزّز

وتصلب وتمتد على قدر قلة ذلك فيها .

ومن قال هذا القول في الأرض والماء والنار والهواء وفيما تركب منها من الأشجار وغير ذلك لم يصل إلى أن يزعم أن في الأرض عرضاً يحدث وبالحراً أن يعجز عن تفتت كون الماء والأرض والنار عرضاً .

وإذا قال في تلك الأشجار بتلك القالة قال في الطول والعرض والعمق وفي التريبع والتثليث والتدوير بجواب أصحاب الأجسام وكما يلزم أصحاب الأعراض أصحاب الأجسام بقولهم في تفتت السكون والحركة أن القول في حرّك الحجر كالحقول في سكونه كذلك أصحاب الأجسام يلزمون كل من زعم أن شيئاً من الأعراض لا يقص أن الجسم يتغير في المذاقة والملمسة والمنظرة والمشممة من غير لون الماء وفي برودة نفس الأرض وتفتتها كذلك .

ومتى وجدنا طينة مربعة صارت مدورة فليس ذلك بحدوث تدوير لم يكن فكان عنده تغييره في العين أولى من تغيير الطينة في العين من البياض إلى السواد وسبيل الصلابة والرخاوة والثقل والخفة سبيل الحلاوة والملوحة والحرارة والبرودة .

أصحاب القول بالاستحالة وليس يقيس القول في الأعراض إلا من قال بالاستحالة وليس في الاستحالة شيء أقيح من قولهم في استحالة الجبل الصخري إلى مقدار خردلة من غير أن يدخل أجزاءه شيء على حال فهو على قول من زعم أن الخردلة تنصف أبداً أحسن فأما إذا قال بالجزء الذي لا يتجزأ وزعم أن أقل الأجسام الذي تركيبه من ثمانية أجزاء لا تتجزأ أو ستة أجزاء لا تتجزأ يستحيل جسماً على قدر طول العالم وعرضه وعمقه فإننا لو وجدناه كذلك لم نجد بداً من أن نقول : إنا لو رفعنا من أو هامنا من ذلك شبراً من الجميع فإن كان مقدار ذلك الشبر جزءاً واحداً فقد وجدناه جسماً أقل من ثمانية أجزاء ومن ستة أجزاء وهذا نقض الأصل مع أن الشبر الذي رفعناه من أو هامنا فلا بد إن كان جسماً أن يكون من ستة أجزاء أو من ثمانية أجزاء وهذا) كله فاسد .

الأضواء والألوان

والنار حرّ وضياء ولكلّ ضياء بياض ونور وليس لكلّ بياض نور وضياء وقد غلط في هذا المقام عالم من المتكلمين .

والضياء ليس بلون لأن الألوان تنفاسد وذلك شائع في كلها وعام في جميعها فاللبن والحبر يتفاسدان ويتمازج التراب اليابس والماء السائل كما يتمازج الحار والبارد والحلو والحامض فصنيع البياض في السواد كصنيع السواد في البياض والتفاسد الذي يقع بين الخضرة والحمرة فبذلك الوزن يقع بين البياض وجميع

الألوان .

وقد رأينا أن البياض مَيَّاعٌ مفسدٌ لسائر الألوان فأنت قد ترى الضياء على خلاف ذلك لأنه إذا سقط على الألوان المختلفة كان عمله فيها عملاً واحداً وهو التفصيل بين أجناسها وتمييز بعضها من بعض فبين عن جميعها إبانة واحدة ولا تراه يخص البياض إلا بما يخص بمثله السواد ولا يعمل في الخضرة إلا مثل عمله في الحمرة فلذلك على أن جنسه خلاف أجناس الألوان وجوهره خلاف جواهرها وإنما يدل على اختلاف الجواهر اختلاف الأعمال فباختلاف الأعمال واتفاقها تعرف اختلاف الأجسام واتفاقها .

جملة القول في الضد والخلاف والوفاق

قالوا : الألوان كلها متضادة وكذلك الطعوم وكذلك الأرايح وكذلك الأصوات وكذلك الملامس : من الحرارة والبرودة واليبس والرطوبة والرخاوة والصلابة والملاسة والخشونة وهذه جميع الملامس . وزعموا أن التضاد إنما يقع بين نصيب الحاسة الواحدة فقط فإذا اختلفت الحواس صار نصيب هذه الحاسة الواحدة من المحسوسات خلاف نصيب تلك الحاسة ولم يضادها بالضد كاللون واللون لمكان النفاسد والطعم والرائحة لمكان النفاسد . ولا يكون الطعم ضد اللون ولا اللون ضد الطعم بل يكون خلافاً ولا يكون ضداً ولا وفاقاً لأنه من غير جنسه ولا يكون ضداً لأنه لا يفاسده . وزعم من لا علم له من أصحاب الأعراض أن السواد إنما ضاد البياض لأتهما لا يتعاقبان ولا قال القوم : لو كان ذلك من العلة كان ينبغي لذهاب الجسم قُدماً أن يكون بعضه يضاد بعضاً لأن كونه في المكان الثاني لا يوجد مع كونه

في المكان الثالث وكذلك التربيع : كطينة لو رُبعت بعد تثليثها ثم رُبعت بعد ذلك ففي قياسهم أن هذين التربيعةين ينبغي لهما أن يكونا متضادين إذ كانا متنافيين لأن الجسم لا يحتل في وقت واحد طولين وأن الضد يكون على ضدين : يكون أحدهما أن يخالف الشيء الشيء من وجوه عدة والآخر أن يخالفه من وجهين أو وجه فقط .

قالوا : والبياض يخالف الحمرة ويضادها لأنه يُفاسدُها ولا يفاسدُ الطعم وكذلك البياض للصفرة والخوة والخضرة فأما السواد خاصة فإن البياض يضاده بالنفاسد وكذلك النفاسد وكذلك السواد . وبقي لهما خاصة من الفصول في أبواب المضادة : أن البياض ينصبغ ولا يصبغ والسواد يصبغ ولا ينصبغ وليس كذلك سائر الألوان لأنها كلها تصبغ وتُنصبغ .

قالوا : فهذا بابٌ يساق . (إن الصفرة متى اشتدت صارت حمرة) (ومتى اشتدت الحمرة صارت

سوادا

وكذلك الخضرة متى اشتدت صارت) (سواداً .)

والسود يضاد البياض مضادة تامة وصارت الألوان الأخر فيما بينها تتضاد عادة وصارت الطُوم والأرايح والملامس تخالفها ولا تضادها .

أصل الألوان جميعها وقد جعل بعض من يقول بالأجسام هذا المذهب دليلاً على أن الألوان كلها إنما هي من السود والبيض وإنما تختلفان على قدر المزاج وزعموا أن اللون في الحقيقة إنما هو البياض والسود وحكموا في المقالة الأولى بالقوة للسود على البياض إذ كانت الألوان كلها كلما اشتدت قربت من السود وبُعدت من البياض فلا تزال كذلك إلى أن تصير سواداً .

وقد ذكرنا قبل هذا قول من جعل الضياء والبياض جنسين مختلفين وزعم أن كل ضياء بياض وليس كل بياض ضياء . عظم شأن المتكلمين وما كان أحوَجَ وأحوَجَ جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين وإلى أن يكون المتكلمون علماء فإن الطب لو كان من نتائج خُذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد .

ألوان النيران والأضواء وزعموا أن النار حمراء وذهبوا إلى ما ترى العين والنار في الحقيقة بيضاء ثم قاسوا على خلاف الحقيقة المِرَّة الحمراء وشبهوها بالنار ثم زعموا أن المرة الحمراء مِرَّة وأُخْلِقَ بالدخان أن يكون مرّاً وليس الدخان من النار في شيء .

وكل نور وضياء هو أبيض وإنما يحمرُّ في العين بالعرض الذي يعرض للعين فإذا سلِمَتْ من ذلك وأفضت إليه العين رآته أبيضاً وكذلك نار العود تنفصل من العود وكذلك انفصال النار من الدُّهن ومعها الدخان . لأجزائها فإذا وقعت الحاسة على سوادٍ أو بياض في مكان واحد كان نتائجهما في العين منظره الحمرة . ولو أن دخاناً عرض بينك وبينه قرص الشمس أو القمر لرأيتَه أحمر وكذلك قرص الشمس في المشرق أحمر وأصفر للبخار والغبار المعترض بينك وبينه والبخار والدخان أخوان .

ومتى تحلَّقَ القرص في كبد السماء فصار على قمة رأسك ولم يكن بين عينيك وبينه إلا بقدر ما تمكن البخار من الارتفاع في الهواء صُعُداً وذلك يسيراً قليل فلا تراه حيثنَّه إلا في غاية البياض . وإذا انحطَّ شرقاً أو غرباً صار كلُّ شيء بين عينيك وبين قرصها من الهواء ملابساً للغبار والدخان والبخار وضروب الضباب والأنداء فتراها إما صفراء وإما حمراء .

ومن زعم أن النار حمراء فلم يكذب إن ذهب إلى ما ترى العين ومن ذهب إلى الحقيقة والمعلوم في الجوهرية فرعم أنها حمراء ثم قاس على ذلك جهلاً وأخطأ .

وقد نجد النار تختلف على قدر اختلاف النِّفط الأزرق والأسود والأبيض وذلك كله يدور في العين مع كثرة الدخان وقلته .

ونجد النار تغير في ألوانها في العين على قدر جفوف الحطب ورطوبته وعلى قدر أجناس العيدان والأدهان فنجدُها شقراء ونجدُها خضراء إذا كان حطبها مثل الكبريت الأصفر .

علة تلون السحاب ونجد لون السحاب مختلفاً في الحمرة والبياض على قدر المقابلات والأعراض ونجد السحابة بيضاء فإذا قابلت الشمس بعض المقابلة فإن كانت السحابة غريبة أفقية والشمس منحطة رأيتهما صفراء ثم سوداء تعرض للعين لبعض ما يدخل عليها .

وقال الصلتان الفهمي في النار : (وتوقدها شقراء في رأس هضبة ** ليعشوا إليها كل باغ وجازع)

وقال مزرد بن ضيرار : (فأبصر ناري وهي شقراء أوقدت ** بعلاء نشر للعيون النواظر) وقال آخر : (ونار كسحر العود يرفع ضوءها ** مع الليل هبات الرياح الصوارد) والغبار يناسب بعض الدخان ولذلك قال طفيل الغنوي : (إذا هبطت سهلاً كأن غباره ** بجانبها الأقصى دواخن تنضب) لأن دخانه يكون أبيض يشبه الغبار وناره شقراء .

والعرب تجمع الدخان دواخن وقال الأزرق الهمداني :

(ونوقدها شقراء من فرع تنضب ** ولكم أروى للنزال وأشبع) وذلك أن النار إذا ألقى عليها اللحم فصار لها دخان اصهأبت بدخان ماء اللحم وسواد القنار وهذا يدل أيضاً على ما قلنا .

وفي ذلك يقول الهيبان الفهمي : (ولكن للطبخ وقد عراها ** طليح المهم مستلب الفراء) (وما غذيت بغير لظى فنارى ** كمرتكم الغمامة ذي العفاء) وقال سحر العود : (له نار تشب على يفاع ** لكل مريع الأهدام بالي)

(ونار فوقها بجر رحاب ** ميجلة تقاذف بالمحال)

علة اختلاف ألوان النار ويدل أيضاً على ما قلنا : أن النار يختلف لونها على قدر اختلاف جنس الدهن والخطب والدخان وعلى قدر كثرة ذلك وقلته وعلى قدر يئسه ورطوبته قول الراعي حين أراد أن يصف لون ذئب فقال : (وقع الربيع وقد تقارب خطوه ** ورأى بعقوته أزل نسولا)

(متوضح الأقرب فيه شبهة ** هش اليدين تخاله مشكولا) (كدخان مرتجل بأعلى تلة ** غرثان ضرر عرفجاً مبلولا) المرتجل : الذي أصاب رجلاً من جراد فهو يشويه وجعله غرثان لكون الغرث لا يختار الخطب اليابس على رطبه فهو يشويه بما حضره وأدار هذا الكلام ليكون لون الدخان بلون الذئب (تعظيم زرادشت لشأن النار) وزرادشت هو الذي عظم النار وأمر بإحيائها ونهى عن إطفائها ونهى الحيض عن مسها والدنو منها وزعم أن العقاب في الآخرة إنما هو بالبرد والزمهرير والدمق .

علة تخويف زرادشت أصحابه بالبرد والتلج وزعم أصحاب الكلام أن زرادشت وهو صاحب الخوس جاء من بلخ وادعى أن الوحي نزل عليه على جبال سيلان وأنه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة الذين لا يعرفون إلا الأذى بالبرد ولا يضربون المثل إلا به حتى يقول الرجل لعبه : لئن عدت إلى هذا لأنزعن ثيابك

ولأقيمَنَّك في الريح ولأوقفَنَّك في الثلج فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع جعل الوعيد بتضاعفه وظنَّ أن ذلك أزجرُ لهم عما يكره .

وزرأشت في توعده تلك الأمة بالثلج دون النار مُقرُّ بأنه لم يُبعث إلا إلى أهل تلك الجبال وكأنه إذا قيل له : أنت رسول إلى من قال لأهل البلاد الباردة الذين لابدَّ لهم من وعيدٍ ولا وعيدَ لهم إلا بالثلج . وهذا جهلٌ منه ومن استجاب له أجهلُ منه .

رد على زرادشت في التخويف بالثلج
والثلج لا يكْمُل لمضادَّة النار فكيف يبلغ مبلغها والثلج يُوكَل ويشرب ويُقضم قضمًا ويمزج بالأشربة ويدفن فيه الماء وكثير من القواكه .
وربما أخذ بعض المترفين القطعة منه كهامة الثور فيضعها على رأسه ساعة من نهار ويتبرّد .
بذلك .

ولو أقام إنسان على قطعة من الثلج مقدارَ صخرة في حَمَدان ريح ساعة من نهار لما خيفَ عليه المرض قطُّ .
فلو كان المبالغة في التنفير والزجر أراد وإليه قصدٌ لذكر ما هو في الحقيقة عند الأمم أشدُّ والوعيد بما هو أشد وبما يعم بالخوف سكان البلاد الباردة والحارة أشبه إذا كان المبالغة يريد .
والثلج قد يداوى به بعض المرضى ويتولد فيه الدود وتحوضه الحوافرُ والأطلاف والأخفاف والأقدام بالليل والنهار في الأسفار .
وفي أيام الصيد يهون على من شرب خمسة أرتال نبيذ أن يعدو عليه خمسة أشواط .

معارضة بعض الجوس في عذاب النار وقد عارضني بعض الجوس وقال : فلعلَّ أيضاً صاحبكم إنما توعّد أصحابه بالنار لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمَق وإنما هي ناحية الحرور والوهج والسّموم لأن ذلك المكروه أزجر لهم فرأى هذا الجوسي أنه قد عارضني فقلت له : إن أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف وشدة البرد في الشتاء لأنها بلاد صخور وجبال والصخر يقبل الحر والبرد ولذلك سمت الفرس بالفارسية العرب والأعراب : كَهَيَّان والكَه بالفارسية هو الجبل فمتى أحببت أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء وحرّها في الصيف فانظر في أشعارهم وكيف قسّموا ذلك وكيف وضعوه لتعرف أن الحاليتين سواء عندهم في الشدة .

القول في البرودة والثلج والبلاد ليس يشتد بردها على كثرة الثلج فقد تكون بلدة أبرد وثلجها أقل والماء ليس يجمد للبرد قطّ فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر .
وقد تكون الليلة باردة جداً وتكون صَبْرَةً فلا يجمد الماء ويجمد

فيما هو أقلُّ منها برداً وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدّرون ويظنون .
وقد خبرني من لا أرتاب بخبره أنهم كانوا في موضعٍ من الجبل يستعشّون به بلبس المبطّات ومتى صبوا ماءً

في إناء زجاج ووضعه تحت السماء جَمَدَ من ساعته .
فليس جُمُود الماء بالبرد فقط ولا بد من شروطٍ ومقادير واختلافِ جواهر ومقابلات أحوال كسرعة البرد
في بعض الأدهان وإبطائه عن بعض وكاختلاف عمله في الماء المغلى وفي الماء المتروك على حاله وكاختلاف
عمله في الماء والنيبذ وكما يعتري البول من الخثورة والجمود على قدر طبائع الطعام والقلة .
والزيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحرّ .
ردّ آخر على الجوس وحجة أخرى على الجوس وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال : لم
أبعث إلا إلى أهل مكة لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة فأما وأصل نبوته والذي عليه مخرج أمره
وابتداء مبعثه إلى ساعة وفاته

أنه المبعوث إلى الأحمر والأسود وإلى الناس كافة وقد قال الله تعالى : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
جَمِيعاً وقد قال تعالى : نَذِيرًا لِلْبَشَرِ فلم يبق أن يكون مع ذلك قولهم معارضة وأن يُعَدَّ في باب الموازنة .
مما قيل في البرد ومما قالوا في البرد قول الكميت : (إذا النفاة دون الفتاة الضَّجِيعُ ** ووَخَوْحَ ذُو الْقُرْوَةِ
الْمُرْمِلُ)

(سقط : بيت الشعر) (وراح الفنيق مع الرانحات ** كإحدى أوائلها المرسل) وقال الكميت أيضاً في
مثل ذلك : (وجاءت الريح من تلقاء مغربها ** وَضَنَّ مِنْ قِدْرِهِ ذُو الْقَدْرِ بِالْعُقْبِ) (وكهكّه المدلجُ
المقروء في يده ** واستدفاً الكلب في المأسور ذي الذئب)
وقال في مثله جِرَانُ الْعُودِ : (ومشبوح الأشاجع أريحي ** بعيد السمع كالقمر المنير) (رفيع الناظرين إلى
المعالي ** على العلات في الخلق اليسير) (يكاد المجدد ينضح من يديه ** إذا دُفِعَ الْيَتِيمُ عَنْ الْجُرُورِ)

(وألجأت الكلاب صباً بليلاً ** وآل نباهنّ إلى الحرير) (وقد جعلت فتاة الحي تدنو ** مع الهلاك من
عَرَنِ الْقُدُورِ) وقال في مثل ذلك ابن قميّة : ليس طعمي طعم الأنامل إذ قلّص درُّ اللقاح في الصنبرِ)
ورأيت الإمام كالجعش الباء ** لي عكوفاً على قرارة قدر) (ورأيت الدخان كالودع الأله ** جنّ ينباع من
وراء الستر)

(حاضر شركم وخير كم د ** رُ خروسٍ من الأرناب بكر) (وإذا العذارى بالدخان تَقَنَعَتْ **
واستعجلت نَصَبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتْ) (دَرَّتْ بِأَرْزَاقِ الْعِيَالِ مَعَالِقُ ** بيدي من قَمَعَ الْعِشَارِ الْجِلَّةُ)

وقال الهذلي : (وليلة يصطلي بالفرث جازرها ** يخنسُ بالثَقَرَى الْمُثْرَيْنَ دَاعِيَهَا) (لا ينبح الكلب فيها غيرَ
واحدة ** من الشتاء ولا تسري أفاعيها) وفي الجمد والبرد والأزمات يقول الكميت : (وفي السنة الجمادِ
يكون غيثاً ** إذا لم تعط درهما الغضوب) (ورؤحت اللقاح مبهلاتٍ ** ولم تُعْطَفَ عَلَى الرَّبْعِ السَّلُوبُ)

(وكان السَّوْفُ للفتيان قوتاً ** تعيش به وهُيَّيتِ الرقوب) وفي هذه القصيدة يقول في شدة الحر : (وخرق تعزف الجنان فيه ** لأفئدة الكماة لها وجيب) (قطعت ظلام ليلته ويوماً ** يكاد حصى الإكام به يذوب) وقال آخر لمعشوقته : (وأنت التي كلفتني البرد شاتياً ** وأوردتني فأنظري أيَّ موردٍ) فما ظنك ببرد يؤدِّي هذا العاشق إلى أن يجعل شدَّته عذراً له في تركه الإلمام بها وذلك قوله في هذه القصيدة : (فيا حسنهما إذ لم أعج أن يقال لي ** تروِّح فشيعنا إلى ضحوة الغد) (فأصبحتُ مما كان بيني وبينها ** سوى ذكرها كالقابض الماء باليد) ومما يقع في الباب قبل هذا ولم نجد له باباً قول مسكين الدارمي :

(وإني لا أقومُ على فتاتي ** أسبُّ الناسَ كالكلب العقور) (وإني لا أحلُّ بطن وادٍ ** ولا آوي إلى البيت القصير) (وإني لا أحاورُ عقدَ نادٍ ** ولا أدعو دعائي بالصغير) (ولستُ بقاتل للعبد أو قدٍ ** إذا أوقدت بالهود الصغير) ولو تأملتَ دخان أثون واحد من ابتدائه إلى انقضائه لرأيت فيه الأسود الفاحم والأبيض الناصع .

والسود والبياض هما الغاية في المصاداة وذلك على قدر البخار والرطوبات وفيما بينهما ضروب من الألوان .
وكذلك الرماد منه الأسود ومنه الأبيض ومنه الأصهب ومنه الخفيف وذلك كله على فهذا بعض ما قالوا في البرد .

بعض ما قيل في صفة الحر

وسنذكر بعض ما قالوا في صفة الحر قال مضر بن زُرارة بن لقيط : (تدلَّت عليها الشمسُ حتى كأنه ** من الحر يُرمى بالسكينة نُورها) (سجوداً لدى الأرطى كأن رؤوسها ** علاها صداغٌ أو فوالٍ يصورها) وقال القطامي :

(فهن معترضاتٌ والخصى رمضٌ ** والريحُ ساكنةٌ والظلُّ معتدلٌ) (حتى وردن رَكِيَّاتِ الغُويرِ وقد ** كاد الملاء من الكتان يشعلُ) وقال الشماخ بن ضرار : (كأن قُتودي فوق جأب مطردٍ ** من الحقب لاحته الجداد الغوارز) (طوى ظمأها في بيضة القيظ بعد ما ** جرت في عِنانِ الشَّعْرَيْنِ الأماغرُ) (وظللت يَمُودُ كأن عيونها ** إلى الشمس هلا تدنو ركيَّ نواكر)

ولهذه الأبيات كان الخطيئة والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية التقديم . (ونار وديقة في يوم هيجٍ ** من الشعري نصبتُ لها الجبينا) (إذا معزاء هاجرة أوئتُ ** جنادُها وكان العيسُ جونا) وقال مسكين الدارمي : (وهاجرة ظلتُ كأنَّ ظباءها ** إذا ما أفتتها بالقرون سجودُ) (تلوذ لشُبوبٍ من الشمس فوقها ** كما لا ذ من حرِّ السنن طريدُ) وقال جرير : (وهاجدٍ موماً بعثتُ إلى السرى ** وللنوم أحلى عنده من جنى النحل)

(يكون نزولُ الركب فيها كَلَاً وَلَا ** غشاشاً ولا يدنون رحلا إلى رحل) (ليوم أتت دون الظلال سمومه
** وظلّ ألمها صوراَ جهاجها تغلي) وفيها يقول جرير : (تمنى رجال من تميم لي الردى ** وما زاد عن
أحسابهم ذائداً مثلي)

احتجاج النظام للكمون

وقال أبو إسحاق : أخطأ من زعم أن النار تصعدُ في أول العود وتنحدر وتغوص فيه وتظهر وقال : العود
النار في جميعه كامنة وفيه سائحة وهي أحد أخلاطه والجزء الذي يُرى منها في الطرف الأول غير الجزء
الذي في الوسط

والجزء الذي في الوسط غير الجزء الذي في الطرف الآخر فإذا احتك الطرف فحمي زال مانعه وظهرت
النار التي فيه وإذا ظهرت حمي لشدة حرها الموضع الذي يليها وتنحى أيضاً مانعه وكذلك الذي في الطرف
الآخر ولكن الإنسان إذا رأى النار قد اتصلت في العود كله وظهرت أولاً فأولاً ظن أن الجزء الذي كان في
المكان الأول قد سرى إلى المكان الثاني ثم إلى المكان الثالث فيخبر عن ظاهر ما يرى ولا يعرف حقيقة ما
بطن من شأنها .

وقال أبو إسحاق : ولو كانت العيدان كلها لا نار فيها لم يكن سرعة ظهورها من العراجين ومن المرخ
والغفار أحقّ منها بعود العنّاب والبرديّ وما أشبه ذلك لكنها لما كانت في بعض العيدان أكثر وكان مانعها
أضعف كان ظهورها أسرع وأجزؤها إذا ظهرت أعظم وكذلك ما كمنّ منها في الحجارة ولو كانت
أجناس

الحجارة مستوية في الاستسار فيها لما كان حجرُ المرو أحقّ بالقَدْح إذا صُكّ بالقَدّاحة من غيره من الحجارة
ولو طال مُكثّه في النار ونُفِخَ عليه بالكير .

ولم صار لبعض العيدان جَمْرٌ باقٍ ولبعضها جمر سريع الانحلال وبعضها لا يصير جَمراً ولم صار البرديّ مع
هَشاشته وبيسه ورخاوته لا تعمل فيه النيران ولذلك إذا وقع الحريق في السُّوق سلِمَ كل مكان يكون بين
أضعاف البردي ولذلك ترى النار سريعة الانطفاء في أضعاف البرديّ ومواضع جميع اللَّيف .
وقال أبو إسحاق : فلمَ اختلفت في ذلك إلا على قدر ما يكون فيها من النار وعلى قدر قوة الموانع وضعفها
.

ولم صارت تقدح على الاحتكاك حتى تلهيت كالساج في السفن إذا اختلط بعضه ببعض عند تحريك
الأمواج لها ولذلك أعدّوا لها الرجال لَصَبّ من الماء صبّاً دائماً وتدوّم الريح فتحتك عيدان الأغصان في
الغياض فتلهب نار فتحدث نيران .

ولم صار العود يحمى إذا احتك بغيره ولم صار الطلّق لا يحمى فإن قلت لطبيعة هناك)

فهل دللتمونا إلا عَلَى اسم عَلَّقْتُمُوهُ عَلَى غير معْنَى وجلَّتُمُوهُ أَوْ لَسْنَا قَدْ وَجَدْنَا عِيُونَ مَاءٍ حَارَةً وَعِيُونَ مَاءٍ بَارِدٍ بَعْضُهَا يَرِصُ وَيُنْفِطُ الْجِلْدَ وَبَعْضُهَا يُجَمِّدُ الدَّمَ وَيُورِثُ الْكَرَّازَ أَوْ لَسْنَا قَدْ وَجَدْنَا عِيُونَ رِيحٍ وَعِيُونَ نَارٍ فَلَيْمَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الرِّيحَ وَالْمَاءَ كَانَا مُحْتَتِقِينَ فِي بَطُونِ الْأَرْضِ وَلَمْ تَجُوزُوا لَنَا مِثْلَ ذَلِكَ

فِي النَّارِ وَهَلْ بَيْنَ اخْتِنَاقِ الرِّيحِ وَالْمَاءِ فَرْقٌ وَهَلْ الرِّيحُ إِلَّا هَوَاءٌ تَحْرُكُ وَهَلْ بَيْنَ الْمُخْتَتِقِ وَالْكَامِنِ فَرْقٌ .
وزعم أبو إسحاق : أنه رمى بردائه في بئر النبي صلى الله عليه وسلم التي من طريق مكة فردته الريح عليه

وحدثني رجل من بني هاشم قال : كنت برامة من طريق مكة فرميت في بئرها ببعرة فرجعت إليّ ثم أعدتها فرجعت فرميت بحصاة فسمعت لها حريقاً وحفيفاً شديداً وشبيهاً بالجولان إلى أن بلغت قرار الماء .
وزعم أبو إسحاق أنه رأى عين نار في بعض الجبال يكون دخانها نهاراً وليلاً أو ليس الأصل الذي بُني عليه أمرهم : أن جميع الأبدان

من الأخلاط الأربعة : من النار والماء والأرض والهواء فإذا رأينا موضعاً من الأرض يخرج منه ماء قلنا : هذا أحد الأركان فما بالنا إذا رأينا موضعاً من الأرض يخرج منه نارٌ لم نقل مثل ذلك فيه .

ولم نقول في حجر النار إنه متى وُجد أخف من مقدار جسمه من الذهب والرصاص والزئبق إنما هو لما خالطه من أجزاء الهواء الرافعة له وإذا وجدناه أغلِكَ غلوكة وأمتن متانة وأبعد من التهافت جعلنا ذلك لما خالطه من أجزاء الماء وإذا وجدناه يقض الشرر ويظهر النار جعلنا لك للذي خالطه من الهواء ولم جعلناه إذا خف عن شيء بمقدار جسمه لما خالطه من أجزاء الهواء ولا نجعله كذلك لما خالطه من أجزاء النار ولا سيما إذا كانت العين تجده يقدح بالشرر ولم تجر أجزاء الهواء فيه عندنا عياناً فلم أنكروا ذلك وهذه القصة توافق الأصل الذي بنوا عليه أمرهم .

قال : أو ليس من قوله أنه لولا النيران المتحركة في جوف الأرض التي منها يكون البخار الذي بعضه أرضي وبعضه مائي لم يرتفع ضبابٌ ولم يكن صواعق ولا مطرٌ ولا أنداء .

الصواعق وما قيل فيها

ومتى كان البخار حاراً يابساً قدحَ وقذفَ بالنار التي تسمى الصاعقة إذا اجتمعت تلك القوى في موضع منه فإن كانت القوى ريماً كان لها صوتٌ وإن كانت ناراً كانت لها صواعقٌ حتى زعم كثير من الناس أن بعض السيف من خبث نيران الصواعق وذلك شائع على أفواه الأعراب والشعراء قال أبو الهول الحميري : حاز صمصامة الزبيدي من بين جميع الأنام موسى الأمين (سيف عمرو وكان فيما سمعنا ** خير ما أطبقت عليه الجفون)

(أوفدت فوقه لاصواعق ناراً ** ثم ساطت به الزعاف المنون) وقال منهم آخر : قال الأصمعيّ : الانعقاد : تشقّق البرق ومنه وصف السيف بالعقيقة وأنشد : وسيفي كالعقيقة وهو كميّ وقال الأخطل : (وأرّقني من بعد ما نمّت نومة * وعَضَبُ إباضي كالعقيق يمانِي)

ونذكرُ بَعَوْنِ اللَّهِ وتأييده جُمْلَةً مِنَ الْقَوْلِ فِي الْمَاءِ ثُمَّ نَصِيرُ إِلَى ذِكْرِ مَا ابْتَدَأْنَا بِهِ مِنَ الْقَوْلِ فِي النَّارِ .
ذكروا أن الماء لا يغذو وإنما هو مَرَكَبٌ وَمَعْبَرٌ وَمَوْصِلٌ لِلْغَدَاءِ واستدلُّوا لذلك بأن كلَّ رقيق سَيَّالٍ فإنك متى طَبَخْتَهُ انْعَقَدَ إلا الماء وقالوا في القياس : إنه لا ينعقد في الجوف عند طبخ الكبد له فإذا لم ينعقد لم يجئ منه لحمٌ ولا عظم ولأننا لم نر إنساناً قَطُّ اغتذاه وثبت عليه روحه وإن السمك الذي يموت عند فقدده لَيَغْذُوهُ سِوَاهُ مما يكون فيه دونه .

قال خصمهم : إنما صار الماء لا ينعقد لأنه ليس فيه قُوَى مستفادّة مأخوذة من قُوَى الجواهر والماء هو الجوهرُ القابلُ لجميعِ القُوَى فبضرب من القُوَى والقبول يصير دُهْنًا وبضرب آخر يصير خلًّا وبضرب آخر يصير دمًا وبضرب آخر يصير لبنًا وهذه الأمور كلها إنَّما اختلفت بالقُوَى العارضة فيها فالجوهرُ المقلَّبُ في جميع الأجرام السَّيَّالَةِ إنما هو الماء فيصير عند ضرب من وعصير كل شيء ماؤه والقابلُ لقُوَى ما فيه فإذا طَبَخْتَ الماء صِرْفًا سالمًا على وجهه ولا قُوَى فيه لم ينعقد وانحلَّ بخارًا حتى يتفانى وإنما ينعقد الكامن من الملابس له فإذا صار الماء)
في البدنِ

وحده ولم يكن فيه قُوَى لم ينعقد وانعقاده إنما هو انعقاد ما فيه .
والماء لا يخلو من بعض القَبُول ولكنَّ البعض لا ينعقد ما لم يكثر .
وزعم أصحاب الأعراض أن الهواء سريعُ الاستحالة إلى الماء وكذلك الماء إلى الهواء للمناسبة التي بينهما من الرطوبة والرقّة وإنما هما غير سَيَّارين ويدل على ذلك اجتذابُ الهواء للماء وملابسته له عند مَصِّ الإنسان بفيه فم الشَّرَابَةِ ولذلك سَرَى الماء وجرى في جوف قَصَبِ الخيزُرَانِ إذا وضعت طرفه في الماء .
وكذلك الهواء فيه ظلامٌ الليل وضياء النهار وما كان فيه من الأشباح والحدقة لا ترى من الضياء العارض في الهواء ما تباعد منها .

ألوان الماء

والماء يرقّ فيكون له لون ويكون عمقه مقداراً عَدَلًا فيكون له لون فإن بعد غوره وأفرط عمقه رأيتُه أسود .

وكذلك يحكون عن الدردور

ويزعمون أن عين حوارا ترمى بمثل الزنوج .

فتجد الماء جنسًا واحدًا ثم تجد ذلك الجنس أبيض إذا قلَّ عمقه وأخضر إذا كان وسطًا وأسود إذا بعد غوره

تحقيق في لون الماء ويختلف منظره على قدر اختلاف إنائه وأرضه وما يقابله فدلّ ذلك على أنه ليس بذي لون وإنما يعتريه في التخييل لون ما يقابله ويحيط به ولعلّ هذه الأمور إذا تقابلت أن تصنع في العين أموراً فيظنّ الإنسان مع قرب المجاورة والالتباس أن هذه الألوان المختلفة إنما هي لهذا الماء الراق الخالص الذي لم يتقلب في نفسه ولا عَرَضَ له ما يقلبه وكيف يعرض له ويقبله وعين كل واحد منهما غير عين صاحبه وهو يرى الماء أسود كالبحر متى أخذ منه أحد غرفة رآه كهيئته إذا رآه قليل العمق . تشابه الماء والهواء ويتشابهان أيضاً لسرعة قبولهما للحر والبرد والطيب والتّين والفساد والصّلاح .

حجة للنظام في الكمون قال أبو إسحاق : قال الله عزّ وجلّ عند ذكر إنعامه على عباده وامتنانه على خلقه فذكر ما أعانهم به من الماعون : أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ وكيف قال شَجَرَتَهَا وليس في تلك الشجرة شيء وجوفها وجوف الطّلق في ذلك سواء وقدرة الله على أن يخلق النار عند مسّ الطّلق كقدرته على أن يخلقها عند حكّ العود وهو تعالى وعز لم يُرد في هذا الموضع إلا التعجيب من اجتماع النار والماء .

وهل بين قولكم في ذلك وبين من زعم أن البذر الجيّد والرديء والماء العذب والملح والسبخة والخبرة الرّخوة والزمان المخالف والموافق سواء وليس بينها من الفرق إلا أن الله شاء أن يخلق عند اجتماع هذه حبّاً وعنباً وقصباً وزيتوناً ونخلًا دون تلك الأضداد .

ومن قال بذلك وقاسه في جميع ما يلزم من ذلك قال كهول الجَهْمِيَّةِ في جميع المقالات وصار إلى الجهالات وقال يانكار الطبائع والحقائق .

وقال الله عزّ وجلّ : الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ . ولو كان الأمر في ذلك على أن يخلقها ابتداءً لم يكن بين خلقها عند أخضر الشجر وعند اليابس المهشيم فرق ولم يكن لذكر الخضرة الدّالة على الرطوبة معنى .

وقد ذكرنا جملة من قولهم في النار وفي ذلك بلاغ لمن أراد معرفة هذا الباب وهو مقدار قصّد لا طويل ولا قصير .)

فأما القول في نار جهنم وفي شواظها ودوامها وتسعورها وخبؤها والقول في خلق السماء من دُخان والجآن من نار السّموم وفي مَفْخَر

النار على الطين وفي احتجاج إبليس بذلك فإننا سندكر من ذلك جملة في موضعه إن شاء الله تعالى .

ما قيل في حسن النار

ونحن راجعون في القول في النار إلى مثل ما كنا ابتدأنا به القول في صدر هذا الكلام حتى نأتي من أصناف النيران على ما يحضرنا إن شاء الله تعالى .

قالوا : وليس في العالم جسمٌ صِرْفٌ غير ممزوج ومرسلٌ غير مركب ومطلق القُوَى غير محصور ولا مقصور أحسنُ من النار .

قال : والنار سماوية علوية لأن النار فوق الأرض والهواء فوق الماء والنار فوق الهواء ويقولون : شراب كانه النار و كأن لونَ وجهها النار وإذا وصفوا بالذكاء قالوا : ما هو إلا نار وإذا وصفوا حمرة القرمز وحمرة الذهب قالوا : ما هو إلا نار .

قال : وقالت هند : كتُ والله في أيام شبابي أحسنَ من النار الموقلة .

وأنا أقول : لم يكن بها حاجة إلى ذكر الموقدة وكان قولها : أحسنَ من النار يكفيها وكذلك وقال قدامة حكيم المشرق في وصف الذهب : شعاعٌ مركوم ونسَمٌ معقود ونورٌ بصَّاص وهو النار الخامدة والكبريت الأحمر .

ومما قال العتّابي : وجهالُ كل مجلس بأن يكون سَقْفُهُ أحمرَ وبساطُهُ أحمر .

وقال بشار بن بُرد : (هِجَانٌ عليها حُمْرَةٌ في بياضِها ** ترُوقُ بها العَيْنَيْنِ والحَسَنُ أحمرُ) وقال أعرابي : (هِجَانٌ عليها حمرةٌ في بياضِها ** ولا لونَ أدنى للهيجان من الحُمْرِ) (تعظيم الله شأن النار) قال : ومما عظم الله به شأن النار أنها تنتقم في الآخرة من جميع أعدائه وليس يستوجبها بشريٌّ من بشريٍّ ولا جنيٌّ من جنيٍّ بضغينةٍ ولا ظلمٍ ولا جنابةٍ ولا عُذْوَانٍ ولا يَسْتَوْجِبُ النارُ إلا بعداوةَ الله عزَّ وجلَّ وحده وبها يشفي صدور أوليائه من أعدائهم في الآخرة .

عظم شأن ما أضيف إلى الله وكل شيء أضافه الله إلى نفسه فقد عظم شأنه وشدَّ أمره وقد فعل ذلك بالنار فقالوا بأجمعهم : دَعَهُ في نار الله وسقَرَهُ وفي غضب

الله ولعنته وسَخَطَ الله وغضبه هما ناره أو الوعيدُ بناره كما يقال : بيتُ الله وزُورَ الله وسماءُ الله وعرشُ الله .

المنة الأولى بالنار ثم ذكرها فامتَنَّ بها على أهل الأرض من وجهين : أحدهما قوله عزَّ وجلَّ : الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ فَجَعَلَهَا من أعظم الماعون معونة وأخفها مؤونة .

استطرد لغوي والماعون الأكبر : الماء والنار ثم الكَلَأُ والملح .

قال الشاعر في الماعون بيتاً جامعاً أحسن فيه التأدية حيث قال : (لا تَعْدِلَنَّ أَتَاوِيَيْنِ قد نزلوا ** وَسَطَ الْفَلَاةِ بِأَصْحَابِ الْمُجَلَّاتِ) والمُجَلَّات هي الأشياء التي إذا كانت مع المسافرين حلَّوا حيثُ شأؤوا وهي القَدَاحَة

والقربة والمسحاة فقال : إياك أن تعدل إذا أردت النزول من معه أصناف الماعون بأتاوين يعني واحداً أتى من هاهنا

وآخر أتى من هاهنا كأنهم جماعة القوا من غير تعريف بنسب ولا بلد وإذا تجمعوا أفذاذاً لم يكمل كل واحد منهم خصال الخلات .

قال أبو النجم : وقالت امرأة من الكفار وهي تحرض الأوس والخزرج حين نزل فيهم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه : (أظعنم أتاوي من غيركم * فلا من مراد ولا مذحج) ولم ترد أنهما أشرف من قريش ومن الحيين كعب وعامر ولكنها أرادت أن تؤلب وتذكي العصبية .

اختيار ما تبني عليه المدن وقالوا : لا تبتني المدن إلا على الماء والكلا والمختطب فدخلت النار في المختطب إذ كان كل عود يوري .

المنة الثانية بالنار وأما الوجه الآخر من الامتنان بما فكفوله تعالى : يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ثم قال على صلة الكلام : فبأي آلاء ربكما تكذبان وليس يريد أن إحراق الله عز وجل العبد بالنار من آلائه ونعمائه ولكنه رأى أن الوعيد الصادق إذا كان في غاية الزجر عما يطغيه ويرديه فهو من النعم السابغة والآلاء العظام .

وكذلك قول في خلق جهنم : إنها نعمة عظيمة ومنة جليلة إذا كان زاجراً عن نفسه ناهياً وكيف تكون النقم نعمة ولو كانت النعمة نعمة لكانت رحمة ولكن السخط رضا وليس يهلك على البينة إلا هالك وقال الله عز وجل : لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .

عظمت للحسن البصري وقال الحسن : والله يا ابن آدم ما توبقك إلا خطاياك قد أريد بك النجاة فأيت إلا أن توقع نفسك .

وشهد الحسن بعض الأمراء وقد تعدى إقامة الحد وزاد في عدد الضرب فكلمه في ذلك فلما رآه لا يقبل النصيح قال : أما إنك لا تضرب إلا نفسك فإن شئت فقل وإن شئت فكثر . وكان كثيراً ما يتلو عند ذلك : فما أصبرهم على النار .

عقاب الآخرة وعقاب الأولى والعقاب عقابان : فعقاب آخرة وعقاب دنيا فجميع عقاب الدنيا بليّة من وجه ونعمة من وجه إذ كان يؤدي إلى النعمة وإن كان مؤلماً فهو عن المعاصي زاجر وإن كان داخلاً في باب الامتحان والتعبّد مع دخوله في باب العقاب والنعمة إذ كان زجراً وتنكيلاً لغيره وقد كلّفنا الصبر عليه والرضا به والتسليم لأمر الله فيه .

وعقاب الآخرة بلاء صرف وخزي بحث لأنه ليس بمخرج منه ولا يحتمل وجهين .

وقال أبو إسحاق : الجمرُ في الشمس أصهب وفي الفَيء أشكلُ وفي ظلَّ الأرض الذي هو الليل أحمر وأيُّ صوتٍ خالطته النار فهو

أشدُّ الأصوات كالصاعقة والإعصار الذي يخرج)

من شقِّ البحر وكصوت الموم والجذوة من العود إذا كان في طرفه نارٌ ثم غمسته في إناء فيه ماء نُوى مُتَمَع .
ثم بالنار يعيش أهل الأرض من وجوه : فمن ذلك صنيعُ الشمس في بردِ الماء والأرض لأنها صلاءُ جميع
الحيوان عند حاجتها إلى دفع عادية البردِ ثم سراجهم الذي يستصبحون به والذي يميزون بضائه بين الأمور

وكلُّ بخار يرتفع من البحار والمياه وأصول الجبال وكل ضباب يعلو وندى يرتفع ثم يعود بركة ممدودة على
جميع النبات والحيوان فالماء الذي يحلُّه ويلطفه ويفتح له الأبواب ويأخذ بضبعه من قعر البحر والأرض النارُ
المخالطة لهما من تحت والشمس من فوق .

عيون الأرض وفي الأرض عيون نار وعيون قطران وعيون نَظْط وكباريت وأصناف جميع القلِّز من الذهب
والفضة والرصاص والنحاس فلولا

ما في بطونها من أجزاء النار لما ذاب في قعرها جامدٌ ولما انسبك في أضعافها شيءٌ من الجواهر ولما كان
لمتقاربها جامع ولمختلفها مُفَرَّق .

قال : وتقول العرب الشمسُ أرحمُ بنا .

وقيل لبعض العرب : أيُّ يوم أنفع قال : يومُ شَمالٍ وشمس .

وقال بعضهم لامراته : (تَمَيَّنِ الطَّلَاقَ وَأَنْتِ عِنْدِي * بَعِيشِ مِثْلَ مَشْرِقَةِ الشَّمَالِ) وقال عُمر : الشمسُ
صِلاءُ العرب قال عُمر : العربيُّ كالبعير حيشما دارت الشمسُ استقبلها بهامته .

ووصف الرَّاَجَز إبلاً فقال : تستقبل الشمسَ بِجُمُجُمَاتِهَا وقال قَطْران العبسيّ : (بمستأسد القُرَيَّانِ حُوٌّ تِلَاعُهُ
** فَوَارُهُ مِيلٌ إِلَى الشَّمْسِ زَاهِرُهُ) الْخَيْرِيُّ وَالْخَيْرِيُّ يَنْضُمُ وَرَقَهُ بِاللَّيْلِ وَيَنْفَتِحُ بِالنَّهَارِ .

ولإسماعيل بن غَزْوَان في هذا نادرةٌ وهو أن سائلاً سألنا من غير أهل الكلام فقال : ما بالُ)

ورق الخيري ينضم بالليل وينتشرُ بالنهار فأنبرى له إسماعيل بنُ غَزْوَان فقال : لأن بردَ الليل وثقله من
طباعهما الضمُّ والقبض والتنويم وحرَّ شمس النهار من طباعه الإذابة والنشر والبسط والخفَّة والإيقاظ قال
السائل : فيما قلت دليلٌ ولكنه قال إسماعيل : وما عليك أن يكون هذا في يدك إلى أن تصيب شيئاً هو خيرٌ
منه .

تسرع الحمر الألوان وفالج ذوي البدانة وكان إسماعيل أحمر حليماً وكذلك كان الحرَّامي وكنت أظن بالحرمر

الألوانِ التسرعَ والحلَّةَ فوجدت الحِلْمَ فيهم أعمّ وكنت أظن بالسَّمانِ الحِدالِ العظامِ أنَّ الفالَجَ إليهم أسرعُ فوجدتهُ في الذينَ يُخالفون هذه الصِّفَّةَ أعمّ .

أثر الشمس والحركة والجوِّ في الأبدان وقال إياسُ بن معاوية : صِحَّةُ الأبدان مع الشمس ذهب إلى أهل العَمَد والوبر .

وقال مثنى بن بشير : الحركة خيرٌ من الظل والسُّكون .

وقد رأينا لِمَن مدح خلاف ذلك كَلَاماً وهو قليل .

وقيل لابنة الخسِّ : أَيُّمَا أَشدُّ : الشتاء أم الصيف قالت : ومن يجعل الأذى كالزمانة .

وقال أعرابيٌّ : لا تَسُبُّوا الشَّمالَ فإنها تضعُ أنفَ الأفعى وترفع أنفَ الرِّقَّة .

وقال خاقانُ بن صبيح وذكر نُبلَ الشتاء وفضله على نُبلِ الصيف فقال : تغيب فيه الهوام وتتجحر فيه

الحشرات وتظهر الفرشة والبزّة ويكثرُ فيه الدَّجَنُ وتطيب فيه خِمرةُ البيت ويموت فيه الذِّبان والبَعوض

ويبردُ الماء ويسخنُ الجوفُ ويطيبُ فيه العِناق .

وإذا ذكرت العربُ بَرْدَ الماء وسخونة الجوفِ قالت : حرّةٌ تحت قِرّة .

ويجود فيه الاستمراء لطول الليل لتفصّي الحرّ .

وقال بعضهم : لا تُسرَّنْ بكثرة الإخوان ما لم يكونوا أحياناً فإن الإخوان غيرَ الحِيارِ بمِثْلَةِ النار قليلُها متاعٌ

وكثيرها بوار .

نار الزحفتين

قال : ومن النيران نار الزَّحَفَتَيْنِ وهي نار أبي سريع وأبو سريع هو العَرَفَجُ .

وقال قُتيبة بن مسلم لعمَرَ بن عَبَّاد بن حُصَيْن : والله لَلسُّودُّ أسرعُ إليك من النار في ييس العَرَفَجِ .

وإنما قيل لنار العَرَفَجِ : نار الزحفتين لأن العَرَفَجَ إذا التَّهَبَّتْ فيه النار أسرعَتْ فيه وعَظُمَتْ وشاعت

واستفاضت في أسرعَ من كل شيء فمن كان في قُربها يزحف عنها ثم لا تلبثُ أن تنطفئ من ساعتها في مثل

تلك السرعة فيحتاج الذي يزحف عنها أن يزحفَ إليها من ساعته فلا تزالُ للمصْطَلِي كَذَلِكَ ولا يزال

المصْطَلِي بها كذلك فمن أجل ذلك قيل : نار الزَّحَفَتَيْنِ

قال : وقيل لبعض الأعراب : ما بالُ نساءكم رُسْحاً قال : أَرَسَحَهُنَّ عَرَفَجُ الهَلْبَاءِ .

صورة عقد بين الراعي والمسترعي وهذا شرط الراعي فيما بينه وبين من استرعاه ماشيته في القارِّ والحرِّ

وذلك أن شرطهم عليه أن يقول المسترعي للراعي : إن عليك أن تردّ ضالّتها وتحمّأ جرّباها وتلوط حوضها ويذكّ مبسوطّة في الرّسل ما لم تُنْهَك حَلْباً أو تضرّ بنسل .

قال : فيقول عند ذلك الراعي لربّ الماشية بعد هذا الشرط : ليس لك أن تذكّر أُمّي بخير ولا شرّ

ولك حدفّة بالعصا عند غضبك أخطأت أو أصبّت ولي مفعدي من النار وموضع يدي من الحارّ والقارّ .

شبه ما بين النار والإنسان

قال : ووَصَف بعض الأوائل شبه ما بين النار والإنسان فجعل ذلك قرابة ومشاكلة قال : وليس بين الأرض وبين الإنسان ولا بين الإنسان والماء ولا بين الهواء والإنسان مثل قرابة ما بينه وبين النار لأن الأرض إنما هي أمّ للنبات وليس للماء إلا أنه مركّب وهو لا يغدو إلا ما يعقده الطبخ وليس للهواء فيه إلا النسيم والمتقلب وهذه الأمور وإن كانت زائدة وكانت النفوس تتلف مع فقد بعضها فطريق المشاكلة والقرابة غير طريق إدخال المرفق وجرّ المنفعة ودفع المضرة .

قال : وإنما قضيت لها بالقرابة لأني وجدت الإنسان يحيا ويعيش في حيث تحيا النار وتعيش وتموت وتلف حيث يموت الإنسان ويتلف .

وقد تدخل نار في بعض المطامير والجباب والمغارات

والمعادن فتجدها متى ماتت هناك علمنا أن الإنسان متى صار في ذلك الموضع مات ولذلك لا يدخلها أحد ما دامت النار إذا صارت فيها ماتت ولذلك يعتمد أصحاب المعادن والحفائر إذا هجموا على فتق في بطن الأرض أو مغارة في أعماقها أو أضعافها قدّموا شمعة في طرفها أو في رأسها ناراً فإن ثبتت النار وعاشت دخلوا في طلب الجواهر من الذهب وغير ذلك وإلا لم يتعرّضوا له وإنما يكون دخولهم بحياة النار وامتناعهم بموت النار .

وكذلك إذا وقعوا على رأس الجبّ الذي فيه الطعام لم يجسّروا على النزول فيه حتى يرسلوا في ذلك الجبّ قنديلاً فيه مصباح أو شيئاً يقوم مقام القنديل فإن مات لم يتعرّضوا له وحركوا قال : ومما يشبه النار فيه بالإنسان أنك ترى للمصباح قبل انطفائه ونفاد دهنه اضطراباً وضياءً ساطعاً وشعاعاً طائراً وحركة سريعة وتنقضاً شديداً وصوتاً متداركاً فعندها يخمد المصباح .

وكذلك الإنسان له قبل حال الموت ودوين انقضاء مدّته بأقرب

الحالات حال مُطْمِعة تريد في القوة على حاله قبل ذلك أضعافاً وهي التي يسمونها راحة الموت وليس له بعد تلك الحال بُث .

قول أحد المتكلّمين في النفس وكان رئيس من المتكلمين وأحد الجلّة المتقدمين يقول في النفس قولاً بليغاً عجيباً لولا شُنْعتَه (

لأظهرت اسمه وكان يقول : الهواء اسم لكل فتق وكذلك الحيز والفتق لا يكون إلا بين الأجرام الغلاظ وإلا

فإنما هو الذي يسميه أصحاب الفلك اللجّ وإذا هم سألوهم عن خُضْرَةِ الماء قالوا : هذا لُجّ الهواء وقالوا : لولا أنك في ذلك المكان لرأيت في اللجّ الذي فوق ذلك مثل هذه الخضرة وليس شيء إلا وهو أرقُّ من كَتِفِهِ أو من الأجرام الحاصرة له وهو

اسمٌ لكل متحرّكٍ ومُتَقَلِّبٍ لكل شيء فيه من الأجرام المركبة ولا يستقيم أن يكون من جنس النسيم حتى يكون محصوراً إما بمحصر كَتِفِيٍّ كالسفينة لما فيها من الهواء الذي به حَمَلَتْ مثل وزن جرمها الأضعاف الكثيرة وإما أن يكون محصوراً في شيء كهينة البيضة المشتملة على ما فيها كالذي يقولون في القلّك الذي هو عندنا : سماء .

قال : وللنسيم الذي هو فيه معنى آخر وهو الذي يجعله بعضُ الناسُ ترويحاً عن النفس يعطيها البرْدَ والرِّقَّةَ والطَّيْبَ ويدفعُ النَّفْسَ ويُخرجُ إليه البخارَ والعَلْظَ والحراراتِ الفاضلة وكلّ ما لا تقوى النَّفْسُ على نفيه وأطراذه .

قال : وليس الأمر كذلك بل أزعِمُ أنَّ النفس من جنس النسيم وهذه النفسُ القائمةُ في الهواء المحصور عرضُ لهذه النفسِ المتفرّقة

في أجرام جميع الحيوان وهذه الأجزاء التي في هذه الأبدان هي من النسيم في موضع الشعاع والأكتاف والفروع التي تكون من الأصول .

قال : وضياء النفس كضياء دخل من كوة فلما سدّت الكوة انقطع بالطرفة إلى عنصره من قُرْصِ الشمس وشعاعها المشرق فيها ولم يُقِمَ في البيت مع خلاف شكله من الجُروم ومتى عمّ السدُّ لم تُقِمِ النفسُ في الجُرم فوق لا .

وحكمُ النفس عند السدِّ إذ كنا لا نجدُها بعد ذلك كحكم الضياء بعد السدِّ إذ كنا لا نجدُه بعد ذلك . فالنفسُ من جنس النسيم وبفساده تفسدُ الأبدانُ وبصلاحه تصلحُ وكان يعتمدُ على أن الهواء نفسه هو النفسُ والنسيم وأن الحرَّ واللدونةَ وغير ذلك من الخلاف إنما هو من الفساد العارض . قيل له : فقد يفسدُ الماءُ فيفسدُ الأجرام من الحيوان بفساده ويصلحُ

فتصلح بصلاحه وتمنعُ الماءُ وهي تنازعُ إليه فلا تحلُّ بعد المنازعة إذا تمَّ المنعُ وتوصلُ بِجرْمِ الماء فتقيمُ في مكانها فلعل النفسَ عند بُطْلانِها في جسمها قد انقطعت إلى عنصر الماء بالطرفة .) وبعدُ فما علّمَكَ لعلّ الخنقَ هيّجَ على النفس أضداداً لها كثيرةً عمرتها حتى غرقت فيها وصارت مغمورةً بها .

وكان هذا الرئيس يقول : لولا أن تحت كلّ شعرة ورغبةً مجرى نفسٍ لكان المخنوق يموتُ مع أوّلِ حالات الخنق ولكن النفسَ قد كان لها اتصالٌ بالنسيم من تلك المجاري على قدرٍ من الأقدار فكان نُوطُها جوف الإنسان فالريّح والبُخارُ لما طَلَبَ المنفذ فلم يجدْه دارَ وكُثفَ وقويَ فامتدَّ له الجلدُ فسدَّ له المجاري فعند ذلك ينقطع النفسُ ولولا اعتصامها بهذا السبب لقد كانت انقطعت إلى أصلها من القُرْصِ مع أوّلِ حالات الخنق

وكان يقول : إن لم تكن النفس غُمرت بما هُيِّجَ عليها من الآفات ولم تقطع للطَّفر إلى أصلها جاز أن يكون الضياءُ الساقطُ على أرض البيت عند سدِّ الكوة أن يكون لم يقطع إلى أصله . ولكن

وكان يعظّم شأنَ الهواء ويُخبر عن إحاطته بالأمور ودخوله فيها وتفضُّل قوّته عليها .
وكان يزعم أن الذي في الرّق من الهواء لو لم يكن له مَجَارٍ ومنافسٌ ومُنْعٌ من كل جهةٍ لأقلَّ الجَمَلِ الضخم .

وكان يقول : وما ظنك بالرّطل من الحديد أو بالرُّبْرَة منه أنه متى أرسل في الماء خَرَقَه كما يخرق الهواء قال : والحديد يسرّع إلى الأرض إذا أرسلته في الهواء بطبعه وقوّته ولطلبه الأرض المشاكلة له ودفع الهواء له وتبرّيه منه ونفيه له بالمصاداة واطّرادِه له بالعداوة .
قال : ثم تأخذ تلك الرُّبْرَة فتبسّطها بالمطارق فتنزل نزولاً دون ذلك لأنها كلما اجتمعت فكان الذي يلاقيها من الماء أصغر جرمًا كانت أقوى عليه .
ومتى ما أشخصت هذه الرُّبْرَة المبطوحة المسطوطة المنقوشة بنق الحيطان في مقدار غِلظ الإصبع حَمَلَ مثلاً زَنْتِه المَرارَ الكثيرة

وليس إلا لما حصرت تلك الإصبع من الهواء وكلما كان تنوُّ الحيطان أرفع كان للأنتقال أحملَ وكان الهواء أشدَّ انحصاراً .

قال : ولولا أن ذلك الهواءَ انحصورَ متّصلٌ بهواء انحصور في جرم الحديد وفي جرم الخشب والقارِ فَرَفَعَ بذلك الاتصال السفينة علوّاً كما كان يبلغ من حصر ارتفاع إصبع للهواء ما يحمله البُعل .
ويدلّ على ذلك شأن السكّابة فإنك تضع رأس السكّابة الذي يلي الماء في الماء ثم قمصه من الطرف الآخر فلو كان الهواء انحصورُ في تلك الأنبوبة إنما هو مجاورٌ لوجه الماء ولم يكن متصلاً)
بما لا بس جرم الماء من الهواء ثم مصصته بأضعاف ذلك الجذب إلى ما لا يتناهى كما ارتفع إليك من الماء شيءٌ رأساً .

وكان يقول في السبيكة التي تُطيل عليها الإيقاد كيف لا تتلوّى فما هو إلا أن يُنفخ عليها بالكبر حتى تدخل النيران في تلك المداخل وتعاونها الأجزاء التي فيها من الهواء .
وبمثل ذلك قام الماء في جوف كوز المسقاة المنكس ولعلمهم بصنيع

الهواء إذا احتصر وإذا حُصر جعلوا سَمَكَ الصّينية مثلاً طولها أعني المركب الصّينيّ .
وكان يخبر عن صنيع الهواء بأعاجيب .

وكان يزعم أن الرّجل إذا ضُربت عنقه سقط على وجهه فإذا انتفخَ انتفخَ غُرمُوله وقامَ وعظُمَ قَلْبُه عند ذلك على القفا فإذا جاءت الضّبع لتأكله فرأته على تلك الحال ورأت غُرمُوله على تلك الهيئة استدخلته وقضت وطرها من تلك الجهة ثم أكلت الرّجل بعد أن يقوم ذلك عندك أكثر من سفاد الدّيح .

والذَّيْخُ : ذَكَرُ الضَّبَّاعِ العَرَقَاءِ .

وذكر بعضُ الأعراب أنه عاينها عند ذلك وعند سِفَادِ الضَّبْعِ لها فوجد لها عند تلك الحال حركةً وصياحاً لم يجده عندها في وقت سِفَادِ الذَّيْخِ لها .

ولذلك قال أبو إسحاق لإسماعيل بن غزوان : أشهد بالله إنك لَصَبْعٌ لأن إسماعيل شدَّ جاريةً له على سَلَمٍ وحَلَفَ ليضربها مائة سَوَطٍ دون الإزار ليلتزقَ جلدُ السَّوْطِ بجلدها فيكون أَوْجَعُ لها

فلما كشفَ عنها رَطْبَةً بَضَّةً خَدَلَةً وَقَعَ عليها فلما قضى حاجته منها وفرَّغَ ضربها مائة سوط فعند ذلك قال أبو إسحاق ما قال .

اختلاف أحوال الغرقى وإذا غرقت المرأة رَسِيتْ فإذا انتفخت وصارت في بطنها ريح وصارت في معنى الزَقِّ طفا بدئها وارتفع إلا أنها تكون مُنْكَبَةً ويكونُ الرَّجُلُ مستلقياً .

وإذا ضُربتْ عُنُقُ الرَّجُلِ وأُلْقِيَ في الماء لم يَرَسُبْ وقام في جوف الماء وانتصب ولم يَغْرَقْ ولم يلزم القعر ولم يظهر كذلك يكون إذا كان مضروب العنق كان الماء جارياً أو كان ساكناً حتى إذا خَفَّ وصار فيه الهواء وصار كالزَّقِّ المنفوخ انقلبَ وظَهَرَ بدنه كله وصار مستلقياً كان الماء جارياً أو كان قائماً فَوُقُوفُهُ وهو مضروب العنق شبيهةً بالذي عليه طباعُ العقرب التي فيها)

الحياة إذا أُلْقِيَتْها في ماء غَمَرُ لم تطفُ ولم ترسبَ وبقيت في وسط غُمُقِ الماء لا يتحرَّك منها

ما يسبح من الحيوان والعقرب من الحيوان الذي لا يسبح فأما الحية فإنها تكونُ جِيلَةً السباحة إذا كانت من اللواتي تنساب وترحف فأما أجناس الأفاعي التي تسير على جنب فليس عندها في السباحة طائل .
والسَّباحة المعوتة إنما هي للإوزة والبقرة والكلب فأما السمكة فهي الأصل في السباحة وهي المثل وإليها جميع النسبة .

والمضروب العنق يكون في غُمُقِ الماء قائماً والعقربُ يكون على خلاف ذلك . (ثم رجع بنا القول إلى ذكر النار) قال : وللنار من الخصال الحمودة أنَّ الطفل لا يُناغي شيئاً كما يُناغي المصباح وتلك المناغة نافعة له في تحريك النفس وتهيج الهمة والبعث على الخواطر وفتق اللهاة وتسديد اللسان وفي السرور الذي له في النفس أكرمُ أثر .

قول الأديان في النار قال : وكانت النار معظَّمةً عند بني إسرائيل حيث جعلها الله تعالى تأكل القربان وتدل على إخلاص المتقرب وفساد نية المدغل وحيث قال الله لهم : لا تُطْفِئُوا النَّارَ مِنْ بُيُوتِي ولذلك لا تجد الكنائس والبيع أبداً إلا وفيها المصابيح تزهر ليلاً ونهاراً حتى نَسَخَ الإسلام ذلك وأمرنا بإطفاء النيران إلا بقدر الحاجة .

فَذَكَرَ ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو الزَّيْبِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إِذَا رَقَدْتَ فَأَغْلِقْ بَابَكَ وَخَمِّرْ إِيَّاهُ وَأَوِّكْ سِقَاءَكَ وَأَطْفِئْ مَصْبَاحَكَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلَقًا وَلَا يَكْشِفُ إِيَّاهُ وَلَا يَحِلُّ وَكَاءً وَإِنَّ الْفَأْرَةَ الْقَوِيسِقَةَ تَحْرِقُ أَهْلَ الْبَيْتِ .

وَفُطِرَ بَنُ خَلِيفَةَ عَنْ أَبِي الزَّيْبِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
أَغْلِقُوا أَبْوَابَكُمْ وَأَوِّكُوا أَسْقِيَتَكُمْ وَخَمِّرُوا آيَتَكُمْ وَأَطْفِئُوا سُرُجَكُمْ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلَقًا وَلَا يُحِلُّ وَكَاءً وَلَا يَكْشِفُ غِطَاءً وَإِنَّ الْقَوِيسِقَةَ تَضْرِمُ الْبَيْتَ عَلَى أَهْلِهِ

وَكُفُّوا مَوَاشِيَكُمْ وَأَهْلِيَكُمْ حِينَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ حَتَّى تَذْهَبَ فَحِمَةُ الْعِشَاءِ .

قَالَ : وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَأْمُرْ بِحِفْظِهَا إِلَّا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَيَأْمُرُ بِإِطْفَائِهَا (
إِلَّا عِنْدَ الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهَا مَا حَدَّثَ بِهِ عَبَادُ بْنُ كَثِيرٍ قَالَ : حَدَّثَنِي الْحَسَنُ بْنُ ذَكْوَانَ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ : أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَحْبِسُوا صِبْيَانَكُمْ عِنْدَ فَحِمَةِ الْعِشَاءِ وَأَنْ تُطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ وَأَنْ تَوَكِّتُوا الْأَسْقِيَةَ وَأَنْ تَخْمُرُوا الْآلِيَةَ وَأَنْ تَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ قَالَ : فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لَا بَدَّ لَنَا مِنَ الْمَصَابِيحِ لِلْمَرْأَةِ النَّفْسَاءِ وَلِلْمَرِيضِ وَلِلْحَاجَةِ تَكُونُ

قَالَ : فَلَا بَأْسَ إِذَا فَإِنَّ الْمَصْبَاحَ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ مَذْبُةٌ لِلْهُوَامِ مَدْلَّةٌ عَلَى الْمَلُصُوصِ .

نَارُ الْغُولِ قَالَ : وَنَارٌ أُخْرَى وَهِيَ الَّتِي تَذَكُرُ الْأَعْرَابُ أَنَّ الْغُولَ تَوَقَّدُهَا بِاللَّيْلِ لِلْعَبَثِ وَالتَّخْلِيلِ وَإِضْلَالِ السَّابِلَةِ .

قَالَ أَبُو الْمَطْرَابِ عُبَيْدُ بْنُ أَيُّوبَ الْعَنْبَرِيُّ : (فَلِلَّهِ دَرُّ الْغُولِ أَيُّ رَفِيقَةٍ ** لَصَاحِبِ قَهْرٍ خَائِفٍ مُتَّقِرٍ) (
أَرْتَبْتُ بَلَحْنَ بَعْدَ لَحْنٍ وَأَوْقَدْتُ * حَوَالِيَّ نِيرَانًا تَبُوخُ وَتَزْهَرُ) جَمَرَاتُ الْعَرَبِ قَالَ : وَجَمَرَاتُ الْعَرَبِ : عَبَسٌ وَضَبَّةٌ وَنُمَيْرٌ يَقَالُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ : جَمْرَةٌ .

وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو حَيَّةَ التَّمِيمِيُّ قَوْمَهُ خَاصَّةً فَقَالَ : (وَهُمْ جَمْرَةٌ لَا يَصْطَلِي النَّاسُ نَارَهُمْ * تَوَقَّدُ لَا تُطْفَأُ لِرَيْبِ التَّوَائِبِ) وَيُرْوَى : الدَّوَابِرُ .

ثُمَّ ذَكَرَ هَذِهِ الْقَبَائِلَ فَعَمَّهُمْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا كُلُّهَا مُضَرِّيَّةٌ فَقَالَ : (نُمَيْرٌ وَعَبَسٌ تُتَّقَى صَقَرَاتُهَا * وَضَبَّةٌ قَوْمٌ بِأَسْهُمٍ غَيْرِ كَاذِبٍ) يَعْنِي شَدَّتْهَا . (إِلَى كُلِّ قَوْمٍ قَدْ دَلَفْنَا بِجَمْرَةٍ * لَهَا عَارِضٌ جَوْنٌ قَوِيٌّ الْمَنَاكِبِ)

٤

سقوط الجمرة

وعلى ذلك المعنى قيل : قد سقطت الجمرة إذا كان في استقبال زمان الدِّقَاءِ ويقولون : قد سقطت الجمرة الأولى والثانية والثالثة . ٤

استطراد لغوي

والجمار : الحصى الذي يُرمَى به والرَّمَى : التجمير قال الشاعر :

(ولم أرَ كالتجميرِ منظرَ ناظرٍ * ولا كليا لي الحجَّ أفتنَّ ذا هوى) والتجمير أيضاً : أن يُرمَى بالجُند في ثغر من الثُّغور ثم لا يُؤذَن لهم في الرجوع .
وقال حُمَيْدُ الأَرْقَطُ : (فاليومَ لا ظلمَ ولا تنبِيرُ * ولا لغازٍ إنْ غَزَا تَجْمِيرُ) وقال بعضُ مَنْ جُمِرَ من الشعراء في بعض الأجناد : (أَجْمَرْتَنَا تَجْمِيرَ كِسْرَى جُنُودَهُ * وَمَنَيْتَنَا حَتَّى مَلَلْنَا الأَمَانِيَا)

وقال الجعديُّ : (كاخلايا أنشأنَ من أهل سابا * طَ بَجندَ مُجَمَّرٍ بأَوَالِ) ويقال قد أجهر الرجل : إذا أسرع أو أعجلَ مركبَه .
وقال لبيد : (وإذا حَرَكَتْ غَزْرِي أَجْمَرَتْ * أو قَرَابِي عَدُوَّ جَوْنٍ قَدْ أَبْلَ) وقال الراجز : أَجْمَرَ إِجْمَاراً لَهُ تَطْمِيمُ التَّطْمِيمِ : الارتفاع والعلوُّ ويقال : أَجْمَرَ ثوبَه إذا دَخَنَه .
والمِجْمرة والمِجْمَر : الذي يكون فيه الدُّخنة وهو مأخوذٌ من الجُمَر .

ويقال : قد جَمَرَتِ المرأةُ شَعْرَهَا إذا ضَفَرَتْه والضَفَرُ يقال له الجمير قال : ويسمى الهلالُ قبل ليلةِ السَّرارِ بِلَيْلَةٍ : ابن جَمِير قال أبو حَرْدَبَةَ : (فهل الإلهُ يُشَيِّعُنِي بفوارسٍ * لَبْنِي أَمِيَّةً في سِرارِ جَمِيرِ) وأنشدني الأَصمعيُّ : ويقال : قد تَجَمَّرَ القومُ إذا هم اجتمعوا حتى يصيرَ لهم بَأْسٌ ويكونوا كالنارِ على أعدائهم (فكأنهم جَمْرَةٌ أو كأنهم جَمِيرٌ من شعر مضافٍ أو حبل مُرَصَّع القُوَى .
وبه سَمَّيت تلك القبائلُ والبطونُ من تميم : الجمار .
والجَمَرُ مشدَّد الميم : حيث يقع حصى الجمار وقال الهذلي :

(لأَدْرِكُهُمْ شُعْتَ التَّوَاصِي كَأَنَّهُمْ * سَوَابِقُ حُجَّاجٍ تُؤَافِي الجَمَرَا) ويقال خُفَّ مَجْمَرٌ : إذا كان مجتمعاً شديداً .

ويقال : عدَّ فلانٌ إبله أو خيله أو رجاله جَمَاراً : إذا كان ذلك جُمْلَةً واحدة وقال الأعشى : (فَمَنْ مَبْلَغٌ وائلاً قومنا * وأعني بذلك بَكَراً جَمَارَا) قال : ويقال في النار وما يسقط من الرُّند : السَّقَطُ والسَّقَطُ ويقال : هذا مَسْقَطُ الرمل أي مُنْقَطَعُ الرمل ويقال : أتانا مَسْقَطُ التَّجْمِ إذا جاء حين غاب .
ويقال رَفَعَ الطائرُ سِقْطِيه وقال الشاعر : (حتى إذا ما أضاء الصُّبْحُ وانبعثت * عنه نِعَامَةٌ ذِي سِقْطَيْنِ مُعْتَكِرِ)

أراد ناحيتي الليل .

ويقال : شَبَّتِ النارُ والحربُ تَشِبُّ تَشَبُّاً وشَبَّتها أنا أشبَّها شَبًّا وهو رجل شَبُوبٌ للحرب .

ويقال : حَسَبُ ثاقب أي مضيء متوقد وكذلك يقال في العلم ويقال : هب لي ثقباً وهو ما أثقبت به النار من غُطبة أو من غيرها ويقال : أثقب النار إذا فح عَيْنُهَا لاشتعل وهو لثقب ويقال : ثقب الزند ثقباً إذا ظهرت ناره وكذلك النار والزند الثاقب الذي إذا قدح ظهرت النار منه .
ويقال : ذَكَرَ النارُ تَذَكُّرُ ذُكُوراً إذا اشتعلت ويقال ذَكَّهَا إذا أريد اشتعالها وذُكَاءُ اسم للشمس مضموم الذال المعجمة وابن ذُكَاءُ : الصبح ممدود مضموم الذال وقال العجاج :

وابنُ ذُكَاءٍ كامنٌ في كَفَرٍ وقال ثعلبة بن صُعير المازني وذكر ظليماً ونعامَةً : (تَذَكَّرَا تَقَلَّلاً رَثِيذاً بعداً ما **
لَقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا في كافرٍ) وأما الذكاء مفتوح الذال ممدود فحدّه الفؤاد وسُرْعَةُ اللَّقْنِ .
وقالوا : أَضْرَمْتُ النارَ حتى اضطرمتْ وأهْبَتْهَا حتى التهمت وهما واحد والضَّرامُ من الحطب : ما ضعُف منه ولان والجَزَلُ : ما غلُظ واشتدَّ فالرَّمْتُ وما فوقه جَزَلٌ والعَرَفَجُ وما)
دونه ضرام والقصب وكل شيء ليس له جمرٌ فهو ضرام وكل ما له جمر فهو جَزَلُ .
ويقال : ما فيها نافخ صرمة أي ما فيها أحدٌ ينفخ ناراً .
ويقال : صَلَّيتُ الشاةَ فأنا أصلُّها صلياً إذا شويتها فهي مَصْلِيَّةٌ ويقال :

صَلَّى الرجلُ النارَ يَصْلَاهَا وَأَصْلَاهُ اللَّهُ حرَّ النارِ إصلاءً وتقول : هو صال حرَّ النارِ في قومٍ صالين وصلَّى .
ويقال : هَمَدَتِ النارُ تَهْمُدُ هُمُوداً وطفنت تطفأ طُفُوءاً إذا ماتت وخمدت تَحْمُدُ حُمُوداً إذا سكن لهبها وبقي جمرًا حاراً .

وشبَّتِ النارُ تشبُّ شُبُوباً إذا هاجتْ والتهمت وشبَّ الفرسُ يديه فهو يشبُّ شِبَاباً وشبَّ الصبيُّ يشبُّ شِبَاباً
ويقال : ليس لك عَصَاضٌ ولا شَبَابُ .

ويقال : عَشَا إلى النارِ فهو يعشو إليها عَشُوءاً وعَشُوءاً وذلك يكون من أول الليل يرى ناراً فيعشو إليها يستضيءُ بها قال الحطيئة : (متى تَأْتِيهِ تَعَشُوءُ إلى ضَوْءِ نارِهِ ** تجدُ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدٍ) وقال الأعشى :
وبأت على النارِ الندى والخلقُ ويقال : عَشِيَ الرجلُ يَعْشَى عَشَاوَةً وهو رجلٌ أعشى وهو الذي لا يبصر بالليل وعشي الرجلُ على صاحبه يعشَى عَشَاً شديداً .

نار الحرب وذكرون ناراً أخرى وهي على طريق المثل والاستعارة لا على طريق الحقيقة كقولهم في نار الحرب قال ابن ميادة : (يداه : يدٌ تَنْهَلُ بالخير والتدا ** وأخرى شديدة بالأعادي ضُرِيرُها) (وناراه : نارٌ نارٌ كلُّ مُدْفِعٍ ** وأخرى يُصِيبُ المجرمينَ سَعِيرُها) وقال ابن كُنَاسَةَ : (خَلَفَهَا عَارِضٌ يَمُدُّ عَلَى الآ ** فاق سِتْرَيْنِ مِنْ حديدٍ ونار) (نارٌ حرب يشبُّها الحدُّ والج ** د وتُعْشَى نوافدُ الأبصارِ) وقال الراعي :
وَعَارَتْنا أَوْدُنُهم ببهراءِ إهْمَا ** تصيبُ الصَّريحَ مرّةً والموالي)

(وكانت لنا ناران : نارٌ بجاسِمٍ ** ونارٌ بدمْعٍ يُحرقانِ الأعاديا) جاسم : بالشام ودمْع : جَبَلٌ بالعالية .
نار القري ونار أخرى وهي مذكورة على الحقيقة لا على المثل وهي من أعظم مفاخر العرب وهي النار التي
ترْفَعُ للسَّفر ولمن يلتمسُ القري فكلما كان موضعها أرفع كان أفخر . (لا الغيايات متوأك ولكن ** في
ذُرَى مُشْرِفِ القصورِ ثَوَاكاً) وقال الطائي : (وبوأت بيتك في مَعْلَمٍ ** رفيع المباءة والمسرح)

(كيفت العُفَاة طلابَ القري ** ونبح الكلاب لمستبح) (ترى دعسَ آثارِ تلك المط ** يُّ أحاديثَ كاللحم
الأفيح) (ولو كنتَ في نفقٍ رائعٍ ** لكنتَ على الشريك الأوضح) وأنشدني أبو الزُّبرقان : (له نارٌ تُشَبُّ
بكلِّ ريعٍ ** إذا الظلماءُ جَلَّتِ البقاعا) (وما إن كان أكثرهم سَوَاماً ** ولكن كان أرحبهم ذِرَاعاً)
ويروى : وَلَمْ يَكْ أَكْثَرَ الْفِتْيَانِ مَالاً .)

وفي نار القري يقول الآخر : (على مثل هَمَامٍ وَلَمْ أَرْ مثله ** تُبْكِي البواكي أو لبشرِ بنِ عامر) (غلامان
كان استوردا كلَّ مَوْرِدٍ ** من المجد ثم استوسعا في المصادر)

(كأنَّ سَنَا ناريهما كلَّ شتوةٍ ** سَنَا الفجرِ يبدو للعيونِ التواظِر) (ومستنبح يخشي القواء ودونه ** من
الليلِ باباً ظلمةً وستورها) (رفعتُ لَهُ ناري فلما اهتدى بها ** زجرتُ كلابي أن يهرَّ عقورها) (فلا
تسأليني واسألني عن خليقتي ** إذا رَدَّ عافي القدرِ من يستعيرها) (ترى أنْ قدرِي لا تزالُ كأنها ** لذي
الفروة المَقْرور أم يزورها) (مبرزة لا يجعلُ الستر دونها ** إذا أحمد النيرانُ لاح بشيرها) (إذا الشولُ
راحتْ ثم لَمْ تَفِدْ لحمها ** بألبانها ذاقَ السنانُ عقيرها)

خبر وشعر في الماء أما إن ذكرنا جملةً من القول في الماء من طريق الكلام وما يدخل في الطب فستذكر من
ذلك جملة في باب آخر : قالوا : مدَّ الشعبي يده وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشراب فلم يدرِ
صاحب الشراب اللبن أم العسل أم بعض الأشربة فقال له : أي الأشربة أحبُّ إليك قال : أعزُّها مفقوداً
وأهونها موجوداً قال قتيبة : اسقيه ماءً .

وكان أبو العتاهية في جماعة من الشعراء عند بعض الملوك إذ شرب رجلٌ منهم ماءً ثم قال : بَرَدَ الماءُ وطابَ
فقال أبو العتاهية : اجعله شعراً ثم قال : مَنْ يَجِيزُ هذا البيت فأتقِ القومُ (بَرَدَ الماءُ وطاباً ** حَبَّذا الماءُ
شرباً) وقال الله عز وجل : أَنَهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ثم لم يذكره

بأكثر من السلامة من التغير إذ كان الماء متى كان خالصاً سالماً لم يحتج إلى أن يُشربَ بشيء غير ما في خلقته
من الصفاء والغذوبة والبرد والطيب والحسن والسَّلَس في الحلق وقد قال عديُّ بن زيد : (لو بَغِيْرُ الماءِ
حَلْقِي شَرِقٌ ** كنتُ كَالْفَصَّانِ بالماءِ اعتصاري) قال أبو المطراب عبيد بن أيوب العبدي : (وأوَّلُ خُبْتِ
الماءِ خُبْتُ ثَرَابِهِ ** وأوَّلُ خُبْتِ النَّجْلِ خُبْتُ الحَلَالِ)

وأوصى رجلٌ من العرب ابنته ليلة زفافها بوصايا فكان مما قال لها : احذري مَوَاقِعَ أنفه واغتسلي بالماء
القَرَّاح حتى كأنك شئتُ ممطور .

وأوصت امرأةً ابنتها بوصايا فكان منها : وليكن أطيبَ طيبك الماءُ .
وزعموا أنها القائلةُ لبنتها :

(بُنَيْتِي إِنْ نَامَ نَامِي قَبْلَهُ ** وَأَكْرَمِي تَابِعُهُ وَأَهْلُهُ) (وَلَا تَكُونِي فِي الْخِصَامِ مِثْلَهُ * فَتَخْصِمِيهِ فَتَكُونِي بَعْلُهُ)
ومن الأمثال : وأخذ المسيحُ عليه السلامُ في يده اليمْنَى ماءً وفي يده اليسرى خُبْزاً فقال : هذا أبي وهذا أمِّي
فجعل الماءَ أباً لأن الماءَ من الأرض يقوم مقام النطفة من المرأة .
وإذا طُبِخَ الماءُ ثم بَرَدَ لم تَلْقَحَ عليه الأشجارُ وكذلك قُضبانُ الشجرِ والجويفُ والبذور لو طُبِخَتْ طَبِخَةً ثُمَّ
بُدِرَتْ لم تَعْلُقَ .

وقالوا في النظر إلى الماء الدائم الجريان ما قالوا .
وجاء في الأثر : من كان به برصٌ قديمٌ فليأخذْ دِرْهَمًا حلالاً فليشْتَرِ به عَسَلًا ثم يَشْرِبُهُ بماءِ سماءٍ فإنه يبرأ
ياذن الله .
والتريف هو الماء عند العرب .

وما ظَنُّكُمْ بِشَرَابٍ خَبِثَ وَمَلَحَ فَصَارَ مِلْحًا زُعَاقًا وَبَحْرًا أَجَاجًا وَلَدَ الْعَنْبَرِ الْوَرْدَ وَأَنْسَلَ التَّرَّ النَّفِيسَ فَهَلْ
سَمِعْتَ بَنَجْلٍ أَكْرَمَ مِنْ نَجْلِهِ وَمِنْ نِتَاجٍ أَشْرَفَ مِنْ نَسْلِهِ .
وما أحسن ما قال أبو عَبَّادٍ كَاتِبُ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ حَيْثُ يَقُولُ : مَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيَّ رَجُلٌ قَطُّ إِلَّا تَمَثَّلَ لِي أَنِّي
سَاجِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَا سَرَّيْ دَهْرٌ قَطُّ إِلَّا شَغَلَنِي عَنْهُ تَذَكُّرُ مَا يَلِيقُ بِالْدَهْوَرِ مِنَ الْغَيْرِ .
قال الله عز وجل : قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا لِأَنَّ الزَّجَاجَ أَكْثَرُ مَا
يُمَدَحُ بِهِ أَنْ يَقَالَ : كَأَنَّهُ الْمَاءُ فِي الْفَيَافِي

وقال الله عز وجل : هَذَا عَذَبٌ فَرَأَتْ سَائِغَ شَرَابِهِ .
وقال القُطَامِيُّ : وَهْنٌ يَنْبِذَنَّ مِنْ قَوْلٍ يُصَيِّنُ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَاللَّهُ
خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ . ()
فيقال : إنه ليس شيء إلا وفيه ماء أو قد أصابه ماء أو خلق من ماء والنُّطْفَةُ ماء والماء يسمى نُطْفَةً وقال الله
تعالى : وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : موج مكفوف .
وقال عز وجل : وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا .
التسمية بماء السماء وحين اجتهدوا في تسمية امرأةٍ بالجمال والبركة والحسن والصفاء والبياض قالوا : ماء
السماء وقالوا : المنر بن ماء السماء .

ويقال : صَبَغَ له ماء ولَوْنُ له ماء وفلان ليس في وجهه ماء وَرَدَنِي فلانٌ ووجهي بمائه قال الشاعر : شعر في صفة الماء وقالت أُمُّ فُرُوة في صفة الماء : (وما ماء مَزِنِ أيُّ ماء تقوله ** تحلر من غر طِوالِ الذوائبِ) (بمنعرج أو بطنٍ وإِدٍ تحدبت ** عليه رياحُ المزن من كلِّ جانب) (نفى نَسْمُ لارِيحِ القذا عن متونه ** فما إنَّ به عيب تراه لشارب) (بأطيبَ مَنٍ يقصرُ الطرفَ دونه ** تقى الله واستحياء بعض العواقب) ما يحبه الحيوان من الماء والإبل لا تحبُّ من الماء إلا الغليظَ والخوافر لا تحبُّ العذوبة وتكره الماء الصافي حتى ربَّما ضَرَبَ الفرسُ يده الشريعة ليشوَّ الماء ثم يشربه .
والبقرة تعافُ الماءَ الكثيرَ ولا تشرب إلا الصافي .

والظباء تُكرِّعُ في ماء البحرِ الأجاج وتخصِّمُ الحنظل . ٤

استطراد لغوي

والأبيضان : الماء واللبن والأسودان : الماء والتمر .
شعر في صفة الماء وقال العُكَلِيّ في صفة الماء : (عاد من ذكرٍ سلمى عوده ** والليل داجٍ مطلقم أسوده) (فبتُّ ليلي ساهراً ما أرقُده ** حتى إذا الليل تولى كبده) (وانكبَّ للغورِ انكباباً فرقده ** وحثه حادٍ كميشتٍ يطرده) (أغرُّ أجلى مغربٌ مجردة ** أصبح بالقلبِ جوى ما يبرده)
(ماء غمامٍ في الرصاف مقلدة ** زل به عن رأسٍ نيقٍ صدده) (عن ظهر صفوانٍ مزل مجسده ** حتى إذا السيل تناهى مدده) (وشكد الماء الذي يشكده ** بين نعامي ودبورٍ تلهته) (كلُّ نسيمٍ من صباً تستورده ** كأنما يشهده أو يفقده) فهو شِفَاءُ الصاد مما يَعْمِدُهُ وقال آخر في الماء :
(يا كأس ما ثغبُّ برأس شظيةٍ ** نزل أصاب عراضها شؤبوب) (ضحيانُ شاهقةٍ يرف بشامه ** نديانٍ يقصر دونه العيقوب) وقال جرير :

(لو شئتِ قد نَقَعَ الفؤادُ بشربةٍ ** تدعُ الحوائمَ لا يجذُنَ غليلاً) (بالعذب من رصفِ القلاتِ مَقِيلُهُ ** قضُّ الأباطح لا يزال ظليلاً) فضل الماء قال : وفي الماء أنَّ أطيَّبَ شرابٍ عُمِلَ ورُكِّبَ مثل السَّكَنْجَبِينَ والجَلَّابِ والبَنْفَسَجِ وغير ذلك مما يُشْرَبُ من الأشربة فإنَّ لَدَّ

وطاب فإنَّ تمامَ لذته إنَّ يجرَّعَ شاربُهُ بعد شربه له جُرْعاً من الماء يغسل بها فمه ويطيَّب بها نفسه وهو في هذا الموضع كالخَلَّةِ والحَمْضِ جميعاً وهو لتسويغ الطعام في المَرِيءِ والمَرَكْبِ والمُعْبَرِ والمتوصِّلِ به إلى الأعضاء .

فالماء يُشْرَبُ صِرْفاً ومزوجاً والأشربة لا تُشْرَبُ صِرْفاً ولا يُنتَفَعُ بها إلا بممازجة الماء وهو بعد طهور الأبدان

وغسول الأدران .

وقالوا : هو كالماء الذي يطهر كل شيء ولا ينجسه شيء .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في بئر رومة : الماء لا ينجسه شيء .

ومنه ما يكون منه الملح والبرد والتلج فيجتمع الحُسن في العين والكرم في البياض والصفاء وحسنُ الموقع في النفس .)

(غَضِي ولا والله يا أهلها * لا أَشْرَبُ البَارِدَ أو تَرْضَى) ويقولون : لو عِلِمَ فلانٌ أَنَّ شَرْبَ البَارِدِ يَضَعُ من مَرُوءَتِهِ لما ذاقه وسَمَّى الله عز وجل أصلَ الماء غَيْثًا بعد أن قال : وَكَانَ عَرَشُهُ عَلَى الماء . ومن الماء ماء زمزم وهو لِمَا شَرِبَ له ومنه ما يكون دواءً وشفاءً بنفسه كالماء للحمي . (علّة ذكر النار في كتاب الحيوان) قد ذكرنا جملة من القَوْل في النار وإن كان ذلك لا يدخل في باب القول في أصناف الحيوان فقد يرجع إليها من وجوه كريمة نافعة الذكر باعثة على الفكر وقد يعرضُ من القَوْل ما عسى أن يكون أنفع لقارئ هذا الكتاب من باب القول في الفيل والزندبيل

والقرد والخنزير وفي الدُّب والذئب والضَّبّ والضَّيْع وفي السَّمْع والعسبار . وعلى أن الحكمة ربما كانت في الذبابة مع لطافة شخصها ونذالة قدرها وخساسة حالها أظهرَ منها في الفرس الرائع وإن كان الفرسُ أنفع في باب الجهاد وفي الجاموس مع عظم شخصه وفي دودة القزّ وفي العنكبوت أظهرَ منها في الليث المصور والعقاب الشَّعْوَاء . وربما كان ذكرُ العظيم الجُثة الوثيق البدن الذي يجمعُ حِدّة الناب وصوله الخلق أكثرَ فائدةً وأظهرَ حِكْمَةً من الصَّغيرِ الحقير ومن القليل القمّي كالبعير والضَّوابة والجاموس والتعلب والقملة . وشأن الأَرْضَةِ أعجبُ من شأن البَيْرِ مع مسالة الأسد له ومحاربتة للنمر . وشأن الكُرْكِيَّ أعجبُ من شأن العنديلِبِ فإن الكُرْكِيَّ من أعظم الطَّيْرِ والعنديلِبِ أصغر من ابن تَمْرَةٍ .

ولذلك ذكر يونس بعضَ لاطَةِ الرُّوَاة فقال : يضربُ ما بين الكُرْكِيَّ إلى العنديلِبِ يقول : لا يدع رجلاً ولا صبيّاً إلاَّ عَفَجَه .

ويشبه ذلك هجاءُ خلفِ الأحمر أبا عبيدة حيثُ يقول : (ويضربُ الكُرْكِيَّ إلى القُنْبَرِ * لا عانساً يبقى ولا مُحْتَلِمٌ) والانس من الرجال مثله من النساء .

فلسنا نُطَبُّ في ذكر العظيم الجُثة لعظم جُثَّتِهِ ولا نَرْغَبُ عن ذكر الصَّغيرِ الجُثة لصغر جُثَّتِهِ وإنما نلتمس ما كان أكثرَ أعجوبة وأبلغَ في الحكمة وأدلَّ عند العامة على حكمة الرّبِّ وعلى إنعام هذا السَّيِّد .

ورُبَّ شيءٍ الأعجوبةُ فيه إنما هي في صورته وصنّعه وتركيب أعضائه وتأليف أجزائه كالطاووس في تعاريج ريشه وقناويل

ألوانه وكالزرافة في عجب تركيبها ومواضع أعضائها والقولُ فيها شبيهٌ بالقول في التدرُّج والتَّعامة .
وقد يكون الحيوانُ عَجِيبَ صِنْعَةِ الْبَدَنِ ثم لا يُدْكَرُ بعدَ حُسْنِ الْخَلْقِ بِخُلُقِ كَرِيمٍ وَلَا حِسِّ ثاقِبٍ وَلَا مَعْرِفَةٍ
عَجِيبَةٍ وَلَا صِنْعَةٍ لَطِيفَةٍ ومنه ما يكون كاللبغاء والنخلة والحمامة والثعلب والدُّرَّةُ وَلَا تَكُونُ الْأَعْجُوبَةُ فِي
تصويره وتركيب أعضائه وتنضيد ألوان ريشه في وزن تلك الأشياء التي ذكرناها أو يكون الْعَجَبُ فيما
أعطى في حنجرته من الأغاني العجيبة والأصوات الشجيّة المطربة والمخارج الحسنة مثل العجب فيما أعطى
من الأخلاق الكريمة أو في صنعة الكفّ اللطيفة والهداية الغريبة أو المرفق النافع أو المضرة التي تدعو إلى
شدّة الاحتراس ودقة الاحتياط فيقدّم في الذكر لذلك .

وأيّ شيء أعجب من الْعَقَقِ وَصَلَقِ حِسِّهِ وَشَلَّةِ حَذَرِهِ وَحُسْنِ مَعْرِفَتِهِ ثم ليس في الأرض طائر أشدّ
تَضْيِيعاً لبيضه وفراخه منه

وَالْحُبَارَى مع أنّها أحمقُ الطير تحوطُ ببيضها أو فراخها أشدَّ الحياطة وبأغمَضِ معرفة حتى قال عثمان بن عفان
رضي الله عنه : كلُّ شيء يحب والله حتى الحبارى يضربُ بها المثل في الموق .
العقّاق ثم العقّاق مع حذقه بالاستلاب وبسرعة الخطف لا يستعمل ذلك إلا فيما لا ينتفع به فكَمَ من عقْدٍ
ثمين خطير ومن قُرْطٍ شريف نفيس قد اختطف من بين أيدي قومٍ فإمّا رمى به بعد تحلّقه في الهواء وإمّا
أحرزه ولم يلتفت إليه أبداً .

وزعم الأصمعيّ أنّ عقّاقاً مرّةً ستلبَ سخاباً كريماً فقوم فأخذ أهل السّخاب أعراييةً كانت عندهم فبينما
هي تُضْرَبُ وتُسَحَبُ وتسبُّ إذ مرّ العقّاق والسّخابُ في منقاره فصاحوا به فرمى به فقالت الأعرايية
وتذكرت السلامة بعد أن كانت قد ابتليت ببلية أخرى فقالت :

(وَيَوْمَ السَّخَابِ مِنْ تَعَاجِيبِ رَبَّنَا * * كما أنه من بلدةِ السَّوءِ نَجَّانِي) تعني الذين كانت نزلت بهم من أهل
الحاضرة .

كلام في الاستطراد (

ولا بأس بذكر ما يعرض ما لم يكن من الأبواب الطّوال التي ليس فيها إلا المقاييس المجردة والكلامية الخضة
فإن ذلك مما لا يخفُّ سماعه ولا تهشُّ النفوس لقراءته وقد يحتمل ذلك صاحب الصناعة وملتزم الثواب
والحسبة إذا كان حليفاً فكّر أليفَ عبرٍ فمتى وجدنا من ذلك باباً يحمل أن يوشح بالأشعار الطريفة البليغة
والأخبار الطريفة العجيبة تكلفنا ذلك ورأيناه أجمع لما ينتفع به القارئ .

وأنا كاتبٌ لك بعد هذا إذ كنتُ قد أملتُك بالتطويل وملتك على أصعب المراكب وأوغر الطرق إذ قد
ذكرنا فيه جملةً صالحةً من كلام المتكلمين ولا أرى أن أزيد في سآمتك وأحمّلك استفراغ طاقك بأن أبتدئ
القول في الإبل والبقر والغنم والأسد والذئاب والحُمير والظباء وأشباه ذلك مما أنا كاتبُه لك .
ولكني أبدأ بصغار الأبواب وقصارها ومُحَقَّرَاتِهَا ومِلاحِهَا

لئلا تخرج من الباب الأول إلا وأنت نشيط للباب الثاني وكذلك الثالث والرابع إلى آخر ما أنا كاتبه لك إن شاء الله . (سَرَد منهج سائر الكتاب) ونبدأ بذكر ما في العصفور ثم نأخذ في ذكر ما في الفأر والعقرب والذي بينهما من العداوة مع سائر خصالهما .
ثم القول في العقرب والخنفساء وفي الصداقة بينهما مع سائر خصالهما .
ثم القول في السنور وبعض القول في العقرب .
ثم القول في البعوض والبراغيث ثم القول في القمل والصئبان ثم القول في الورل والضب ثم القول في اليربوع والقنفذ ثم القول في النسر والرحم .
ثم القول في العقاب وفي الأرنب ثم القول في القردان والضفادع ثم القول في الجبارى وما أشبه ذلك وإن كنا قد استعملنا في هذا الكتاب جملاً من أخبار ما سمينا بذلك .
وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبواباً من الشعر طريفة تصلح

للمذاكرة وتبعث على النشاط معه وتُسَخِّفَ معه قراءة ما طال من الكتب الطوال .
ولولا سوء ظني بمن يُظْهِرُ التماس العلم في هذا الزمان ويذكر اصطناع الكتب في هذا الدهر لَمَا احتجْتُ في مداراتهم واستمالتهم وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم مع كثرة فوائد هذا الكتاب إلى هذه الرياضة الطويلة وإلى كثرة هذا الاعتذار حتى كَأَنَّ الذي أُفِيدُهُ إياهم)
أستفيده منهم وحتى كَأَنَّ رغبتني في صلاحهم رغبةً من يرْعَبُ في دنياهم ويتضرَّعُ إلى ما حوته أيديهم .
هذا ولم أذكر لك من الأبواب الطوال شيئاً ولو قد صرت إلى ذكر فرق ما بين الجن والإنس وفرق ما بين الملائكة والأنبياء وفرق ما بين الأنثى والذكر وفرق ما بينهما وبين ما ليس بأنثى ولا ذكر حتى يمتدَّ بنا القول في فضيلة الإنسان على جميع أصناف الحيوان وفي ذكر الأمم والأعصار وفي ذكر القسم والأعمار وفي ذكر مقادير العقول والعلوم والصناعات ثم القول في طباع الإنسان منذ كان نقطة إلى أن يُفْنِيَهُ الهرم وكيف حقيقة ذلك الردّ إلى أرذل العمر فإن ملَّكَ الكتابَ واستَقَلَّتْ القراءة فأنت حينئذٍ أَعْلَزُ وَلَحْظُ نفسك أَبْخَسُ وما عندي

لك من الحيلة إلا أن أصوِّره لك في أحسن صورة وأقْبَلَك منه في الفنون المختلفة فأجعلكَ لا تخرجُ من الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور ولا تخرجُ من الحديث إلا إلى الشَّعْر الصحيح ولا تخرجُ من الشَّعْر الصحيح الظريف إلا إلى المثل السائر الواقع ولا تخرج من المثل السائر الواقع إلا إلى القول في طُرف الفلسفة والغرائب التي صَحَّحَتْهَا التجربة وأبرزها الامتحان وكشَفَ قِنَاعَهَا الْبُرْهَانُ والأعاجيب التي للنفوس بما كَلَفَتْ شديداً وللعقول الصحيحة إليها النزاع القوي .
فانظر فيه نظر المنصف من الأكفاء والعلماء أو نظر المسترشد من المتعلمين والأتباع فإن وجدت الكتاب الذي كتبتُه لك يخالفُ ما وصفتُ فأنقِصْني من نشاطك له على قدر ما نَقَصْتُكَ مما ينشطك لقراءته وإن أنت وجدتني إذا صحَّ عقلُك وإنصافُك قد وقَّيتُكَ ما ضمنت لك فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولاً وحدَّكَ مفلولاً فاعلم أنا لم نُؤْتَ إلا من فُسُولِنَا ومن فسَادِ طبعك ومن إثَارِكَ لما هو أضرُّ بك .

مديح النصارى واليهود والجوس والأنذال وصغار الناس

من ذلك ما هو مديحُ رغبة ومنه ما هو إحماد .

أنشدنا أبو صالح مسعود بن قد الفزاري في ناسٍ خالطهم من اليهود : (وجدنا في اليهود رجالَ صدقٍ *
على ما كان من دينٍ يريبُ) (لعمرك إني وابني عريضٌ *
لمثلُ الماء خالطهُ الحليبُ) (خيلان
اكتسبتهُمات واني *
لخلةٍ ماجد أبدأ كسوبُ) وقال أبو الطمّحان الأسديّ وكان نديماً لناسٍ من بني
الحدّاء وكانوا نصارى فأحمدَ ندامهم)
فقال :

(كأن لم يكن قصر مقاتلٍ *
وزورة ظلّ ناعمٌ وصديق) (ولم أرد البحطاء أمزجُ ماءها *
بخمير من البرِّ
وقين عتيقُ) (معي كلُّ فضفاض لا قميص كأنه *
إذا ما جرى فيه المدامُ فنيقُ) (هو الصلت والحداء كلُّ
سميدعٍ *
له في العروق الصالحات عروقُ) (واني وإن كانوا نصارى أحبهم *
ويرتاح قلبي نحوهم ويتوقُ)
(

وقال ابن عبدل ، أو غيره ، في مجوسي ساق عنه صداقا فقال : (شهدت عليك بطيب المشا *
ش وأنك
بحر جواد خضمُ) (وأنك سيدُ أهل الجحيم *
إذا ما ترديت فيمن ظلمُ) (نظيراً لهامان في قعرها *
وفرعون والمكتنى بالحكم) (كفاني المجدوسي مهراً الربا *
ب فدى للمجوسي خالي وعمُ) فقال له المجوسيُّ
: جعلتني في النار أما ترضى أن تكون مع من سميتُ قال : بلى قال : فمن تعني بالحكم قال : أبا جهل بن
هشام .

وأنشدني أبو الرّدني العُكليّ لبعض العُكليّين وكان قينٌ

لهم أحدٌ جليماً له فقال يمدحه : يا سودُ يا أكرم قين في مضرٍ لك المساعي كلها والمفتخر على قيون الناس و
الوجه الأغرُّ كان أبوك رجلاً لا يُقتسر ثبناً إذا ما هو بالكير ازبأراً زادك نفخاً تلطّطي منه سقرٌ حتى يطير
حوله منها شرٌّ بالشعب إن شاء وإن شاء سمرٌ ما زال مُذْ كان غلاماً يشتير له على العيرِ إكافٌ وثغرُ

والكلبتان والعلاءة والوتر فانظر ثوابي والثوابُ يستظرُ)

في جلميّ والأحاديث عبر

من أراد أن يمدح فهجا

قال سعيد بن سلم : لما قال الأخطل بالكوفة : أخطأ الفرزدق حين قال : (أبني غُدانة إني حرّرتكم *
فوهبتكم لعطية بن جعال) (لولا عطيةٌ لا جتدعتُ أنوفكم *
من بين الأم أعين وسبال)

كيف يكون قد وهبهم له وهو يهجوهم بمثل هذا الهجاء قال : فانبرى له فتى من بني تميم فقال له : وأنت الذي قلت في سويد بن منجوف : (وما جذعُ سوءٍ رقق السُّوسُ جوفهُ ** لِمَا حُمَلَتْهُ وائلٌ بمطيق) أردت هجاءه فرعمت أن وائلاً تعصبُ به الحاجات وقَدُرُ وسويد لا يبلغ ذلك عندهم فأعطيته الكثيرَ ومنعته القليلَ .

وأردت أن تهجوَ حاتمَ بنَ العَمانِ الباهليَّ وأن تصغَّرَ شأنه وتَضَع منه فقلت : (وسودَ حاتمًا أن ليس فيها ** إذا ما أوقدَ النيرانُ نارُ) فأعطيته السُّودَدَ من قيس ومنعته ما لا يضرُّهُ .
وأردت أن تمدح

سيماك بن زيد الأسدي فهجوتَه فقلت : (نِعِمَ الحَجِرُ سِمَاكُ من بني أسدٍ ** بالطَّفِّ إذ قَتَلْتَ جيرانَهَا مُضِرُّ)
(قد كنتُ أحسبه قيناً وأنبؤهُ ** فاليومَ طيرَ عن أثوابه الشرُّ) وقلت في زُفر بن الحارث : (بني أُمَيَّةَ إني ناصحٌ لكم ** فلا يبينَ فيكمُ آمناً زُفرُ)

(مُفْتَرِشاً كافتراش الليث كلِّكَلُهُ ** لَوْقَعَةٍ كائن فيها لكم جزرُ) فأردت أن تُغري به بني أُمَيَّةَ فوهنتُ أمرهم وتركتهم ضِعْفَاءَ مُمْتَهِنِينَ وأعطيت زُفرَ عليهم من القوة ما لم يكن في حسابه .
قال : ورجع أبو العطف من عند عمرو بن هَدَّاب في يومين كانا لعمرو وأبو العطف يضحك فسئل عن ذلك فقال : أما أحدُ اليومين فإنه جَلَسَ للشعراء فكان أولُ من أنشده المديح فيه طريفُ بن سَوادة فما زال يُنشدُهُ أرجوزةً له طويلة حتى انتهى إلى قوله : (أبرصُ قياضِ اليَدَيْنِ أَكَلَفُ ** وَالْبُرْصُ أَنْدَى بِاللَّهْيِ وَأَعْرَفُ)

مجلودٌ في الرَّحَفَاتِ مِرْحَفُ المجلودُ : السريع .
وكان عمرو أبرص فصاح به ناس : ما لك قطع الله لسانك : قال عمرو : مه البرصُ من مفاخر العرب أما سمعتم ابن حبناء يقول :

(إني امرؤُ حنظليُّ حين تنسُبني ** لأمِلْ عَتِكَ ولا أحوالي العوقُ) (لا تحسبن بياضاً في منقصةٍ ** إنَّ اللّهُمِيمَ في أقرابها بَلَقُ)

أو ما سمعتم قول الآخر : (يا كأسُ لا تستنكري نُحُولِي ** ووضحاً أوفى على خصيلي) (فإن نعتَ الفرسِ الرّجِيلِ ** يكملُ بالغرّة والتّحجيل) أو ما سمعتم بقول أبي مسهر : (يشتمني زيدٌ بأن كنتُ أبرصاً ** فكلُّ كريمٍ لا أبالك أبرصُ) (يا أختَ سعدٍ لا تُعْري بالروقِ ** ليس يضرُّ الطُّرْفُ توليعُ البلقُ) إذا جرى في حلبة الخيل سَبَقٌ ومحمد بن سلام يزعم أنه لم يرَ سابقاً قطّ أبلقَ ولا بَلَقَاءَ .
وقد سبق للمأمون فرسٌ إمّا أبلقُ وإمّا بَلَقَاءَ .

وأنشدني أبو نواسٍ لبعض بني هُشَل : (نَفَرَتْ سودةٌ عني أن رأتُ ** صَلَعَ الرَّأْسِ وفي الجِلْدِ وَضَحُ)
قلت يا سودة هذا والذي ** يَفْرِجُ الكُرْبَةَ مِنَّا والكلحُ)

(هُوَ زَيْنٌ لِي فِي الْوَجْهِ كَمَا * زَيْنَ الطَّرْفِ تَحَاسِينُ الْقَرَحِ) وزعم أبو نُؤاس أنهم كانوا يتبركون به وأن جذيمة الوضاح كان يفخر بذلك .

وزعم أصحابنا أن بلعاء بن قيس لما شاع في جلده البرص قال له قائل : ما هذا يا بلعاء فقال : هذا سيف الله جلّاه وكنانة تقول : سيف الله حلّاه .

ثم رجع الحديث إلى أبي العطف وضحكته قال : وأما اليوم الآخر فإن عمراً لما ذهب بصره ودخل عليه الناس يُعزّونه دخل عليه إبراهيم بن جامع وهو أبو عتاب من آل أبي مصاد وكان كالجمل المحجوم فقام بين يدي عمرو و فقال : يا أبا أُسَيْد لا تجزعن من

ذهاب عينيك وإن كانتا (

كريميتك فإنك لو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت أن يكون الله عز وجل قد قطع يديك ورجليك ودقّ ظهرك وأدمى ضلعك .

قال : فصاح به القوم وضحك بعضهم فقال عمرو : معناه صحيحٌ ونيتُه حسنة وإن كان قد أخطأ في اللفظ .

وقلت لأبي عتاب : بلغني أن عبد العزيز الغزال قال : ليت أن الله لم يكن خلّقي وأني الساعة أعور قال أبو عتاب : بئس ما قال وددتُ والله أن الله لم يكن خلّقي وأني الساعة أعمى مقطوعُ اليدين والرجلين . وأتى بعض الشعراء أبا الواسع وبُئوه حوله فاستعفاه أبو الواسع من إنشاد مديحه فلم يزل به حتى أذن له فلما انتهى إلى قوله : (فكيف تُنفى وأنت اليوم رأسهم * وحولك الغر من أبنائك الصيد) قال أبو الواسع : ليتك تركتهم رأساً برأس .

ومدح الممزق أبو عباد بن الممزق بشر بن أبي عمرو وليس هو بشر بن أبي عمرو بن العلاء فقال : (من كان يزعم أن بشراً ملصق * فالله يجزيه وربك أعلم) (أن الصريح أخض فيه دلالة * والعرق منكشف لمن يتوسم) (أما لسانك واحتياؤك في الملاء * ففرارة العُدسي عندك أعجم) (إني لأرجو أن يكون مقامهم * زوراً وشائتك الحسود المرغم)

خطأ الكميت في المديح

ومن المديح الخطأ الذي لم أر قط أعجب منه قول الكميت بن زيد

وهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلم فلو كان مديحه لبني أمية لجاز أن يعيهم بذلك بعض بني هاشم أو لو مدح به بعض بني هاشم لجاز أن يعترض عليه بعض بني أمية أو لو مدح أبا بلال الخارجي لجاز أن تعييه العامة أو لو مدح عمرو بن عبّيد لجاز أن يعييه المخالف أو لو مدح المهلب لجاز أن يعييه أصحاب الأحف . فأما مديح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذي يسوءه ذلك حيث قال : (فاعتب الشوق من فؤادي

ولاشع ** رُ إلى من إليه مُعْتَبُ (إلى السراج المنير أحمد لا ** يَعدِلني رَغْبَةٌ ولا رَهَبٌ) (عنه إلى تغيّره
ولو رفعَ النّا ** سٌ إلى العيونَ توارَتْقُبُوا) (إليك يا خير من تَضَمّت الأَر ** ضٌ ولو عابَ قولِي العُيْبُ) (
لجَ بتفضيلِكَ اللسانَ ولو ** أكثرَ فيكَ الضجّاجَ واللبّجُ) (أنتَ المصفي المَخصُ المَهْدَبُ في ال ** نسبة إنْ
نص قومكَ النسبُ)

ولو كان لم يقل فيه عليه السلام إلا مثل قوله : (وَبُورِكَ قَبْرٌ أَنْتَ فِيهِ وَبُورَكَتْ ** به وله أهلٌ بذلك يَثْرُبُ
(لقد غَيَّبُوا بُرّاً وَحَزَماً وَنَائِلاً ** عَشِيَّةً وَارَاكَ الصَّفِيحُ المنصَّبُ) فلو كان لم يمدحْه عليه السلام إلا بهذه
الأشعار التي لا تصلح في عامة العرب لما كان ذلك باخمود فكيف مع الذي حَكينا قبل هذا .

غلط بعض الشعراء في المديح والفخر

ومن الأشعار الغائظة لقبيلة الشاعر وهي الأشعار التي لو ظنّت الشعراء أن مَضَرَّتْهَا تَعُودُ بِعُشْرٍ ما عادتْ به
ولكان الخرسُ أهْوَنَ عليها من ذلك القول فمن ذلك قولُ لبيد بن ربيعة : (أبني كلابٍ كيفَ تُنفي جعفرُ
** وبنو صَبِينَةَ حاضِرُ والأجبابِ)

(قتلوا ابنَ عروَةَ ثُمَّ لَطَوْا دُونَهُ ** حتى تحاكمتُم إلى جوابِ) (متاظهرٌ حلقُ الحديدِ عليهمُ ** كني زرارة
أو بني عتابِ) (قومٌ لهم عَرَفَتْ مقعدٌ فضلُها ** والحقُّ يعرفُهُ ذوو الألبابِ) (ومن هذا الباب قولُ منظور
بن زَبانِ بن سَيَّارِ بن عَمْرٍو بن جابرِ الفَزَارِيِّ وهو أحدُ سادةِ غطفانِ :

(فجاؤوا بِجَمْعٍ مُخْرِنٌ كَأَنَّهُمْ ** بنو دارمٍ إذا كان في الناسِ دارمُ) وذلك أن تيمماً لما طالَ افخارُ قيسِ
عليها بأن شعراء تميم كانت تضربُ المثلَ بقبائل قيس ورجالها فغَيَّرَتْ تيممٌ زماناً لا ترفعُ رؤُوسها حتى
أصابَتْ هذينَ الشعْرَيْنِ من هذينَ الشّاعِرَيْنِ العَظِيمَيْنِ القدرُ فرال عنها الذُّلُّ وانتصفت فلو علم هذان
الشاعران الكريمان ماذا يصنعان بعشائرها لكانَ الخرسُ أحبَّ إليهما .
قال أبو عبيدة : ومن ذلك قولُ الحارث بن حِزْزَةَ وأنشدَها الملكُ وكان به وضَحٌ وأنشدَه من وراء سِتر
فبلغ من استحسانه القصيدة إلى أن أمرَ برفعِ السِّترِ .

ولكراحتهم لدنو الأبرص منهم قال لبيد بن ربيعة للنُّعْمان بن المنذر في الربيع بن زياد : (مَهْلاً أَيْتَ اللَّعَنَ
لا تَأْكُلْ مَعَهُ ** إِنَّ اسْتَه مِنْ بَرَصٍ مُلْمَعَةٍ) (وإنه يُدْخِلُ فيها إصْبَعَهُ ** يُدْخِلُها حتى يُوارِي أَشْجَعَهُ)

كأنما يطلب شيئاً ضيعه قال ابنُ الأَعرابي : فلما أنشدَ الملكَ لبيدُ في الربيع بن زيادٍ ما أنشدَ قال الربيعُ :
أَبَيْتَ اللَّعْنَ وَاللَّهَ لَقَدْ نَكْتُ أُمَّهُ قَالَ : فقال لبيد : قد كانت لَعْمَرِي يَتِيمةً في حِجْرِكَ وَأَنْتَ رَيْبَتْهَا فَهَذَا
بِذَاكَ وَإِلَّا تَكُنْ فَعَلْتَ مَا قُلْتَ فَمَا أَوْلَاكَ بِالْكَذِبِ وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الْفَاعِلَةُ فَإِنَّمَا مِنْ نِسْوَةٍ لَذَلِكَ فَعُلَ يَعْنِي
بذلك أن نساءَ عَجَسَ فَوَاجِرُ لَأَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ عَجَسِيَّةً .

والعربيُّ يعافُ الشَّيْءَ ويَهْجُو به غيره فإن ابْتُلِيَ بِذلك فَخَرَّ به ولكنه لا يفخرُ به لنفسه مِنْ جَهَةٍ ما هجا به

صاحبه فافهم هذه فإن الناس يَغْلُطُونَ على العَرَبِ ويَظُنُّون أنهم قد يمدحون (الشيء الذي قد يهجون به وهذا باطل فإنه ليس شيء إلا وله وجهان وطرفان وطريقان

فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين .

والحارثُ بنُ حِزْزَةَ فَخَرَ بِيَكْرَ بْنِ وائِلٍ على تَغْلِبَ ثُمَّ عَاتَبَهُمْ عِتَاباً دَلَّ على أَنَّهُمْ لَا يَنْتَصِفُونَ مِنْهُمْ فَقَالَ : (وَأَتَانَا عَنْ الْأَرَاقِمِ أَنبَاءٌ * * وَخَطَبٌ نَعْنَى بِهِ وَنِسَاءٌ) (يَخْلُطُونَ الْبَرِيءَ مِنَّا بِذِي الذَّنِّ * * بَ لَا يَنْفَعُ الْخَلِيَّ الْخِلَاءُ) (زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعِي * * رَ مَوَالٍ لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءُ) (إِنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَغْلُو * * نَ عَلَيْنَا فِي قَوْلِهِمْ إِحْفَاءُ) (وَاتْرَكُوا الطَّيِّخَ وَالتَّعَاشِيَّ وَإِمَّا * * تَتَعَاشَوْنَ فِيهِ التَّعَاشِيَّ الدَّاءُ) (وَاذْكُرُوا حَلْفَ ذِي الْجَزَّازِ وَمَا قَ * * دَمَ فِيهِ الْعَهْودُ وَالْكَفْلَاءُ) (حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِيَّ وَهَلْ يَنْ * * قُضَى مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ)

(وَاعْلَمُوا أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ فِي * * مَا اشْتَرَطْنَا يَوْمَ اخْتَلَفْنَا سُوءًا) (أُمُّ عَلَيْنَا جَنَّا كَنْدَةَ أَنْ يَغ * * نَمَّ غَازِيَهُمْ وَمَنَا الْجَزَاءُ) (أُمُّ عَلَيْنَا جَرَا حَنِيفَةً أُمُّ مَا * * جَمَعَتْ مِنْ مُحَارِبٍ غِبْرَاءُ) (أُمُّ عَلَيْنَا جَرَا قَضَاعَةً أُمُّ لِي * * سَ عَلَيْنَا فِيمَا جَنُوا أُنْدَاءُ) (لَيْسَ مِنَّا الْمَضْرُوبُونَ وَلَا قِي * * سٌ وَلَا جَنْدَلٌ وَلَا الْخِدَاءُ) (أُمُّ جَنَابِ بْنِ عَتِيقٍ . فَمَنْ يَغ * * دَرُ فَإِنَّا مِنْ غَدَرِهِمْ بَرَاءُ) (عَنَّا بِاطْلًا شَدُوخًا كَمَا تَع * * تَرُ عَنْ حَجَرَةٍ لَارِيضِ الظُّبَاءِ) (وَمَنْ الْمَدِيحِ الَّذِي يَقْبَحُ قَوْلُ أَبِي الْحَلَالِ فِي مَرْتَبَةِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

(يَا أَيُّهَا الْمَيِّتُ بِخَوَارِينَا * * إِنَّكَ خَيْرُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ) (وَقَالَ الْآخَرُ : (مَدَحْتُ خَيْرَ الْعَالَمِينَ عَنَقَشًا * * يَشِبُّ زَهْرَاءَ تَقُودُ الْأَعْمَشَا) (إِنَّ الَّذِي أَمْسَى يُسَمَّى كُوزًا * * اسْمًا نَبِيهَاً لَمْ يَكُنْ تَنْبِيْزًا) (لَمَّا ابْتَدَرْنَا الْقَصَبَ الْمَرْكُوزَا * * وَجَدْتُنِي ذَا وَثْبَةٍ أَبْوَزًا) (وَدَخَلَ بَعْضُ أَغْثَاثِ شُعْرَاءِ الْبَصْرِيِّينَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَشْرَافِ الْوُجُوهِ يُقَالُ فِي نَسَبِهِ فَقَالَ : إِنِّي) (مَدَحْتُكَ بِشَعْرٍ لَمْ تُمَدِّحْ قَطُّ بِشَعْرٍ هُوَ أَنْفَعُ لَكَ مِنْهُ قَالَ : مَا أَحْجَوْنِي إِلَى الْمَنْفَعَةِ وَلَا سِيَّمَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ يَخْلُدُ عَلَى الْأَيَّامِ فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ فَقَالَ : (سَأَلْتُ عَنْ أَصْلِكَ فِيمَا مَضَى * * أَبْنَاءَ تَسْعِينَ وَقَدْ نَبَّهُوا)

(فَكُلُّهُمْ يَخْبِرُنِي أَنَّهُ * * مُهَذَّبٌ جَوْهَرُهُ يُعْرِفُ) (فَقَالَ لَهُ : قُمْ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ فَلَعَنَكَ اللَّهُ وَلَعَنَ مَنْ سَأَلْتُ وَلَعَنَ مَنْ أَجَابَكَ . (فِي السُّخْفِ وَالْبَاطِلِ) (وَسَنَدُّكَ لَكَ أَبَاً مِنَ السُّخْفِ وَمَا نَتَسَخَّفُ بِهِ لَكَ إِذْ كَانَ الْحَقُّ يَثْقُلُ وَلَا يَخْفُ إِلَّا بِبَعْضِ الْبَاطِلِ .

أَنشَدَنَا أَبُو نُؤَاسٍ فِي التَّدْلِيكِ : (إِنَّ تَبْخَلِي بِالرَّكَبِ اخْلُوقِ * * فَإِنَّ عِنْدِي رَاحَتِي وَرَيْقِي) (وَمَا يُظَنُّ أَنَّهُ وَلَدَهُ قَوْلُهُ : (لَمْ أَرْ كَاللَّيْلَةِ فِي التَّوْفِيقِ * * حِرًّا عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ) (كَأَنَّ فِيهِ لَهَبَ الْحَرِيقِ وَأَنشَدَنِي ابْنُ الْخَارِكِ لِبَعْضِ الْأَعْرَبِ فِي التَّدْلِيكِ : (لَا بَارَكَ إِلَّا فِي الْأَحْرَاحِ * * فَإِنَّ فِيهَا عَدَمَ اللَّقَاحِ) (لَا خَيْرَ فِي السَّفَاحِ وَاللَّقَاحِ * * إِلَّا مُنَاجَاةَ بَطُونِ الرَّاحِ)

وَأَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ : (تَسْأَلُنِي مَا عِنْدِي وَعِنْدِي * * فَإِنِّي يَا بِنْتَ آلِ مَرْثَدٍ) (رَاحِلَتِي رَجُلَايَ اسْرَاتِي يَدِي وَأَنشَدَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا لِبَعْضِ الْمَدَنِيِّينَ : (أَصْفِي هَوَى النَّفْسِ غَيْرَ مُتَّيَّبٍ * * حَلِيلَةً لَا تَسُومُنِي نَفَقَةً) (

تكونُ عوني على الزمانِ لِلَّ * كَسْبَ إِذَا مَا أَخْفَقْتُ مُرْتَفِقَهُ (وشعرٌ في ذلك سمعناه على وجه الدهر وهو قوله : (إِذَا نَزَلَتْ بَوَادٍ لَا أُنِيسَ بِهِ * فَاجْلِدْ عُمَيْرَةَ لَا عَارَ وَلَا حَرَجُ)

وأنشدنا أبو خالد النميري (لو أَنَا رَخْصَةٌ قَضَيْتُ مِنْ وَطْري * لَكِنَّ جِلْدَتَهَا تُرْبِي عَلَى السَّفَنِ) (أشكو إلى الله نَعْظًا قَدْ بُلِيتُ بِهِ * وما أَلَاقي مِنَ الْإِمْلَاقِ وَالْحَزَنِ) وقال الذَّكْوَانِيُّ يَرُدُّ عَلَى الْأَوَّلِ قَوْلَهُ : (جَلْدِي عُمَيْرَةَ فِيهِ الْعَارُ وَالْحُوبُ * وَالْعَجْزُ مُطْرَحٌ وَالْفُحْشُ مَسْئُوبُ) (وبالعراق نساءً كَالْمَهَا قُطْفُ * بأَرْخَصِ السَّوْمِ خَدَلَاتٍ مَنَاجِبُ) (وما عُمَيْرَةُ مِنْ ثَدْيَاءَ حَالِيَةِ * كَالْعَاجِ صَفَرُهَا الْأَكْنَانُ وَالطَّيْبُ) قال : مَثَلُ هَذَا الشَّعْرِ كَمَثَلِ رَجُلٍ قِيلَ لَهُ : أَبُوكَ ذَاكَ الَّذِي مَاتَ جُوعًا قَالَ : فَوَجَدَ شَيْئًا فَلَمْ يَأْكُلْهُ وَقَالَ الْحَرَامِيُّ : (عِيَالٌ عَالَّةٌ وَكَسَادُ سُوقٍ * وَأَيُّرٌ لَا يَنَامُ وَلَا يُنِيمُ)

مما قالوا في السر

(قال ابن ميادة : (أَتُظْهِرُ مَا فِي الصَّدْرِ أَمْ أَنْتَ كَاتِمُهُ * وَكِتْمَانُهُ دَاءٌ لِمَنْ هُوَ كَاتِمُهُ) وتقول العرب : من ارتاد لسره موضعاً فقد أشاعه .

وأرى الأول قد أذن في واحدٍ وهو قوله : (وَسِرُّكَ مَا كَانَ عِنْدَ امْرِئٍ * وَسِرُّ الثَّلَاثَةِ غَيْرُ الْخَفِيِّ) وقال الآخر فيما يوافق فيه المثل الأول : (فَلَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ * فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا)

(فإني رأيتُ غَوَاةَ الرِّجَا * لَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا) وقال مسكينُ الدَّارِمِيُّ : (إِذَا مَا خَلِيلِي خَانِي وَائْتَمَنْتُهُ * فَذَاكَ وَدَاعِيهِ وَذَاكَ وَدَاعُهَا) (رَدَدْتُ عَلَيْهِ وَدَّهَ وَتَرَكْتُهَا * مَطْلَقَةً لَا يُسْتَطَاعُ رِجَاعُهَا) (وإني امرؤٌ مني الحياءُ الَّذِي تَرَى * أَعِيشُ بِأَخْلَاقٍ قَلِيلٍ خِدَاعُهَا) (أُوَاخِي رَجَالًا لَسْتُ أُطْلِعُ بَعْضَهُمْ * عَلَى سِرٍّ بَعْضُ غَيْرِ أُنِي جَمَاعُهَا) (يَظْلُونَ شَتَّى فِي الْبِلَادِ وَسِرُّهُمْ * إِلَى صَخْرَةٍ أَعْيَا الرِّجَالُ انْصِدَاعُهَا) وقال أبو مِجْنَنٍ النَّقَّافِيُّ : (وَقد أَجُودُ وَمَا مَالِي بِذِي فَنَعٍ * وَأَكْتُمُ السِّرَّ فِيهِ ضَرْبُهُ الْعُنُقِ)

وقال عمر بن الخطاب ، رض الله عنه : من كتم سره كان الخيار بيده وقال بعضُ الحكماء : لَا تُطْلِعْ وَاحِدًا مِنْ سِرِّكَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا لَا تَجِدُ فِيهِ بَدَأًا مِنْ مَعَاوَنَتِكَ وَقَالَ آخَرُ : إِنْ سِرِّكَ مِنْ دَمِكَ فَانْظُرْ أَيْنَ تُرِيقُهُ . وقال الشاعر : (وَلَوْ قَدَرْتُ عَلَى نَسْيَانِ مَا اسْتَمَلْتُ * مِنِّي الضَّلُوعُ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَبَرِ) (لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ يَنْسِي سِرَّائِهِ * إِذْ كُنْتُ مِنْ نَشْرِهَا يَوْمًا عَلَى خَطَرٍ) وقال الآخر : (فَإِذَا اسْتَوْدَعْتَ سِرًّا أَحَدًا * فَقَدْ اسْتَوْدَعْتَ بِالسَّرِّ دَمَكَ) وقال قيس بن الخطيم : (وَإِنْ ضَيَّعَ الْإِخْوَانُ سِرًّا فَإِنِّي * كُنُومٌ لِأَسْرَارِ الْعَشِيرِ أَمِينُ) (يَكُونُ لَهُ عِنْدِي إِذَا مَا اتَّيَمَّنْتُهُ * مَكَانٌ بِسَوْدَاءِ الْفُؤَادِ مَكِينُ)

وقيل لمُرَبَّد : يَا مُزَبَّدُ مَا هَذَا الَّذِي تَحْتَ حَصْنِكَ فَقَالَ : يَا أَحْمَقُ فَلَمْ خَبَأْتُهُ وَقَالَ أَبُو الشَّيْصِ : (ضَعِ السِّرَّ فِي صَمَاءٍ لَيْسَتْ بِصَخْرَةٍ * صَلَوْدٌ كَمَا عَايَنْتَ مِنْ سَائِرِ الصَّخَرِ) (وَلَكِنَهَا قَلْبُ امْرِئٍ ذِي حَفِيزَةٍ * يَرَى ضَيْعَةَ الْأَسْرَارِ هَتَرًا مِنَ الْهَتَرِ) وقال سُحَيْمُ الْفُقْعَسِيُّ فِي نَشْرِ مَا يُودَعُ مِنَ السَّرِّ :

(ولا أكنتم الأسرارَ لكنْ أذيعها ** ولا أدعُ الأسرارَ تعلِّيَ على قلبي) (وإن قليلَ العقلِ من باتَ ليله **
تقلبه الأسرارُ جنباً إلى جنب) وقال الفرّار السُّلَمي وهذا الشعر في طريقِ شعرِ سُحيمٍ وإن لم يكن في معنى
السّر وهو قوله : (وكتيبةٌ لبستها بكتيبةٍ ** حتى إذا التبتُ نفضتُ بها يدي) (وتركْتُهُمُ تقصُّ الرماحُ
ظهورهم ** من بين منجلدٍ وآخر مسندٍ) (ما كانَ ينفعني مقالُ نساءهم ** وقتلتُ دونَ رجالهم : لا تبعدِ
(تحاذل أسلم بن زرعةٍ وقيل لأسلم بن زُرعةٍ إنك إن انهزمتَ من أصحابِ مُردّاسِ

بن أديةٍ غضبَ عليك الأمير عبيدُ)

اللّه بن زياد قال : يغضبُ عليّ وأنا حيُّ أحبُّ إليّ من أن يرضى عني وأنا ميت .
قال : ووليّ دسّتي فخرج إليها في أصحابه فلما شارفها عرضتْ له الخوارجُ وكان أكثرَ منهم عدداً وعدّة
فقال : واللّه لأصافّهم ولأعْيَنَ أصحابين فلعلهم إذا رأوا كثرتهم انصرفوا ولا أزال بذلك قوياً في عملي
هذا فلما رأت الخوارج كثرةَ القوم نزلوا عن خيولهم فعزّبوها وقطّعوأ أجفانَ سيوفهم ونبذوا كل دقيقي
كان معهم وصَبُّوا أسقيتهم فلما رأى ذلك رأى الموتَ الأحمر .

فأقبل عليهم فقال : عرقتُم دوابكم وقطّعتُم أجفانَ سيوفكم ونبذتم دقيقتكم خارَ اللّه لنا ولكم ثم ضربَ
وجوهَ أصحابه وانصرفَ عنهم .

ضيق النّظام بِحَمَلِ السّرّ وكان أبو إسحاق إبراهيم بن سيارِ النّظام أضيقَ الناسِ صدراً بحملِ سرّ وكان سرّاً
ما يكون إذا يؤكّد عليه صاحبُ السرّ وكان إذا لم يؤكّد عليه ربما نسي القِصّةَ فيسلمُ صاحبُ السرّ .
وقال له مرةً قاسمُ التّمّار : سبحان اللّه ما في الأرض أعجبُ منك أودعتك سيراً فلم تصبر عن نشره يوماً
واحداً واللّه لأشكوّنك للناس .

فقال : يا هؤلاء سلّوه نَمَمْتُ عليه مرةً واحدةً أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً فلمن الذنبُ الآن لم يرضَ بأن
يشاركه في الذنب حتى صيرَ الذنبَ كله لصاحب السّرّ .

شعر في حفظ السر

(وقال بعضُ الشعراء : (هوى بي إلى حُبّها نظرةٌ ** هوىّ الفراشةَ للجاحمِ) وقال البعيث : (فإنّ تك
لَيْلى حَمَلْتَنِي لُبّاًنةً ** فلا وأبي ليلي إذا لا أخوئها) (حَفِظْتُ لها السّرّ الذي كان بيننا ** ولا يحفظُ الأسرارَ
إلا أَمِينُها) وقال رجلٌ من بني سَعْد : (إذا ما ضاقَ صدركَ عن حديثٍ ** فأفشتُهُ الرجالُ فمنْ تلومُ) (
إذا عاتبْتُ من أفشى حديثي ** وسري عنده فأنا الظلومُ) (وإني حينَ أسأَمُ حملَ سرّي ** وقد ضَمَنْتُهُ
صدري سؤومُ) (ولستُ محدثاً سرّي خليلاً ** ولا عرسي إذا خطرتُ همومُ) (وأطوي السرّ دونَ الناسِ
إني ** لمكا استودعتُ من سرِّ كتومُ)

عذار شيخ قال : وقيل لشيخ : ويحك هاهنا ناسٌ يسرق أحدهم خمسين سنة ويزني خمسين سنة ويصنع العظائم خمسين سنة وهو في ذلك كله مستور جميل الأمر وأنت إنما لُطت منذ خمسة أشهر وقد شُهرت به في الآفاق قال : بأبي أنت ومن يكون سرُّه عند الصَّيَّان أي شيء تكون حاله .

أبو الحسن عن محمد بن القاسم الهاشمي قال : قال العباسُ بن عبد المطلب لعبد الله ابنه : يا بُني أنت أعلمُ مِنِّي وأنا أفقهُ منك

إن هذا الرجل يُدْنِيكَ يعني عُمَرُ بن الخطاب فاحفظ عني ثلاثاً : لا تُنْقَشْ له سرّاً ولا تَعْتَابَنَّ عنده أحداً ولا يَطَّلِعَنَّ منك على كَذِبَةٍ . (في ذكر المني) قال : سئل ابن أبي بكرة : أي شيء أَدْوَمُ إمتاعاً قال : المني . قال : وقال يزيد بن معاوية على منبره : ثلاثٌ يُخْلِقْنَ العقلَ وفيها دليل على الضَّعف : سرعةُ الجواب وطولُ التَّمَنِّي والاستغراق في الضَّحْك . وقال عبايةُ الجُعْفِي : ما سرَّني بنصبي من المني حُمْرُ النَّعَم .

وقال الأصمعي : قال ابن أبي الزناد : المني والحلم أخوان . وقال مُعَمَّرُ بن عَبَّاد : الأمانى للنفس مثلُ التُّرَّهاتِ لِلِّسان . وقال الشاعر : (اللهُ أَصْدَقُ والآمالُ كاذبةٌ ** وجلُّ هَذي المَني في الصَّدورِ وسَواسُ) وقال الآخر : (إذا تَمَتَّيتُ مَلاً بَتُّ مُعْتَبِطاً ** إنَّ المَني رَوسُ أُمُوالِ المَفاليسِ) (لولا المَني مِيتُ من هَمٍّ ومن حَزَنٍ ** إذا تَذَكَّرْتُ ما في داخِلِ الكيسِ) وقال بعضُ الأعراب :

(أمانِيٌّ مِنْ سَلَمَى حَسانٌ كَأَنما ** سَقَتْنِي بِها سَلَمَى على ظمأ برداً) وقال بشار : (كَرَرْنَا أَحاديثَ الزمانِ الذي مَضَى ** فلَذا لَنا مَحمودُها وذَمِيمُها) وروى الأصمعيُّ عن بعضهم أنه قال : الاحتلام أطيبُ من الغشيان .

وتَمَيَّكَ لشيءٍ أوفَرُ حَظًّا في اللَّذَّةِ مِنْ قُدْرَتِكَ عليه . قال : كأنه ذهبَ إلى أنه إذا مَلَكَ وَجَبَتْ عليه في ذلك المِلْكِ حَقوقٌ وخاف الزوالَ واحتاجَ إلى الحفظ . وقال : وفي الحديث المأثور : ما عَظُمَتْ نعمةُ اللهِ على أَحَدٍ إلَّا عَظُمَتْ مَؤُونَةُ الناسِ عليه . قال : وقيل لمزبَّد : أيسرُك أن عنكَ قَتِينَةٌ شَرَّابٌ قال : يا ابنُ أُمٍّ من يسرُّه دخولُ النارِ بالجاز . قال : وقدموا إلى أبي الحارث جُمَيْرِ جامٍ خييصٍ وقالوا له :

أهذا أطيبُ أم الفالودج قال : لا أقضي على غائب . قال : وقال مَدِينِيٌّ لرجل : أيسرُك أن هذه الدار لك قال : نعم قال : وليس إلا نَعَمَ قَطَط قال : فما أقول قال : تقول : نَعَم وأحمَ سَنَةَ قال : نعم وأنا أعور . قال : وقيل لمزبَّد : أيسرُك أن هذه الجُبَّةُ لك قال : نعم وأضربُ عشرين سوطاً قال : ولم تقولُ هذا قال :

لأنه لا يكون شيء إلا بشيء .

قال : وقال عبد الرحمن بن أبي بكرة : مَنْ تَمَنَّى طول العمر فليوطن نفسه على المصائب .
يقول : إنه لا يخلو من موت أخ أو عم أو ابن عم أو صديق أو حميم وقال المجنون : (أيا حرجات الحي
حيث تحملوا * بذى سلم لا جادكن ربيع)

(وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى * بلين بلى لم تبلهن ربوع) (فقدتك من قلب شعاع قطالما * نهيتك عن
هذا وأنت جميع) (ففرت لي غير القريب وأشرفت * منك ثنايا ما هنّ طلوع) (أمانى بعض الخوارج)
قال : وقال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : لولا أربع خصال ما أعطيت عربياً طاعة : أو ماتت أم عمرو
يعني أمه ولو نسب ولو قرأت القرآن ولو لم يكن رأسي صغيراً .
قال : وقدم عبد الملك وكان يحب الشعر فبعثت إلى الرواة فما أتت عليّ سنة حتى رويت الشاهد والمثل
وفضولاً بعد ذلك وقدم

مُصعّب وكان يحبّ النسب فدعوتُ النسّابين فتعلمته قال : وقال يزيد بن المهلب : لا أخرج حتى أحجّ
وأحفظ القرآن وتموت أمي فخرج قبل ذلك كله .
وقال عبيد الله بن يحيى : كان من أصحابنا بمرو جماعة فجلّسنا ذات يوم نتمنى فمئيت أن أصير إلى العراق
من أيامي سالماً وأن أقدم

فأتزوج سماع ألي كسكر .
قال : فقدمت سالماً وتزوجت سماع ووليت كسكر .

خبر وشعر في نهر دجلة والفرات

قال : ووقف هشام بن عبد الملك على الفرات ومعه عبد الرحمن بن رستم فقال هشام : ما في الأرض نهر
خير من الفرات فقال عبد الرحمن : ما في الأرض نهر شر من الفرات أوّلُهُ للمُشركين وآخرُهُ للمنافقين .
وقال أبو الحسن : الفرات ودجلة رائدان لأهل العراق لا يكذبان .
قال الأصمعيّ وأبو الحسن : فهما الرائدان وهما الرافدان .

وقال الفرزدق : (أمير المؤمنين وأنت عفّ * كريم لست بالوالي الحريص) (ولم يك قبلها راعي مخاضٍ
* ليأمنه على وركي قلوص) (تفهّق بالعراق أبو المثنى * وعلم قومه أكل الخبيص)

قال : وبيننا غيلان بن خرشة يسيرُ معبد الله بن عامر إذ وردا على نهر أم عبد الله فقال ابن عامر : ما أنفع
هذا النهر لأهل هذا المصر قال غيلان : أجل أيها الأمير والله إنهم ليستغذّبون منه وتفيض مياهم إليه

ويتعلم صبيانهم فيه العوم وتأتيهم ميرتهم فيه .
فلما أن كان بعد ذلك سائر ذات يوم زياداً وكان زياداً عدواً لابن عامر فقال زياد : ما أضرب هذا النهر بأهل هذا المصر فقال : أجل والله أيها الأمير تنز منه دورهم ويغرق فيه صبيانهم ويضعون ويبرغثون .

القول في العصافير

وسنقول باسم الله وعونه في العصفور بجملة من القول .
وعلى أنا قد ذكرنا من شأنه أطرافاً ومقطعات من القول تفرق في تضاعيف تلك الأصناف وإذا طال الكلام وكثرت فنونه صار الباب القصير من القول في غماره مستهلكاً وفي حومته غرقاً فلا بأس أن تكون تلك الفقر مجموعات وتلك المقطعات موصولات وتلك الأطراف مستقصيات مع الباقي من ذكرنا فيه ليكون الباب مجتمعاً في مكان واحد فبالاجتماع تجتمع القوة ومن الأبعاض يلتئم الكل وبالنظام تظهر الخاسن .

دعوى الإحاطة بالعلم

ولست أدعي في شيء من هذه الأشكال الإحاطة به والجمع لكل شيء فيه ومن عجز عن نظم الكثير وعن وضعه في مواضعه كان عن بلوغ آخره وعن استخراج كل شيء فيه أعجز والمنح أهون من الاستنباط والحصد أيسر من الحرث .

وهذا الباب لو ضمته على كتابه من هو أكثر مني رواية أضعافاً وأجود مني حفظاً بعيداً وكان أوسع مني علماً وأتم عزمًا وأطفَ نظراً وأصدق حساً وأغوص على البعيد الغامض وأفهم للعويص الممتنع وأكثر خاطراً وأصح قريحة وأقل سامة وأتم عناية وأحسن عادة مع إفراط الشهوة وفراغ البال وبُعد الأمل وقوة الطمع في تمامه والانتفاع بشمرته ثم مد له في العمر ومكنته المقدرة لكان قد ادعى مُعضلة وضمن أمراً معجزاً وقال قولاً مرغوباً عنه متعجباً منه وكان لغواً ساقطاً وحارصاً بهرجاً وكان ممن يفضل قوله على فعله ووعده على مقدار إنجازهِ لأن الإنسان وإن أُضيف إلى الكمال وعُرف بالبراعة وغمر العلماء فإنه لا يكمل أن يُحيط علمه بكل ما في جناح بعوضة أيام الدنيا ولو استمد بقوة كل نظار حكيم واستعار حفظ كل بحاث واع وكل نقاب في البلاد ودراسة للكتب .

تفاوت الخلق في العلم

وما أشك أن عند الوزراء في ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء والذي عند الله أكثر والخلق عن بلوغه أعجز وإنما علّم الله كل طبقة من خلقه بقدر احتِمَالِ فطرهم ومقدار مصلحتهم . (القول في : علّم آدم

(الأسماء كلها)

فإن قلت : فقد علم الله عز وجل آدم الأسماء كلها ولا يجوز تعريف الأسماء بغير المعاني وقلت : ولولا حاجة الناس إلى المعاني وإلى التعاون والترافد لما احتاجوا إلى الأسماء وعلى أن المعاني تفضل عن الأسماء والحاجات تجوز مقادير السمات وتفوت ذرع العلامات فمما لا اسم له خاص الخاص والخصيات كلها ليست لها أسماء قائمة .

وكذلك تراكيب الألوان والأرايح والطعوم ونتائجها .

وجوابي في ذلك : أن الله عز وجل لم يخبرنا أنه قد كان علم آدم كل شيء يعلمه تعالى كما لا يجوز أن يُقدره على كل شيء يقدر عليه .

وإذا كان العبدُ الحدودُ الجسم الحدود القوى لا يبلغ صفة ربه الذي اخترعه ولا صفة خالقه الذي ابتدعه فمعلوم أنه إنما عني بقوله : (وعلم آدم الأسماء كلها) علم مصلحته في دنياه وآخرته .
وقال الله عز وجل : وفوق كل ذي علم عليم وقال الله عز وجل : ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعد سبعة أبهر ما نفدت كلمات الله وقال الله تعالى : يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وقال تقدست أسماءه : وما يعلم جنود ربك إلا هو وقال الله عز وجل : ويخلق ما لا تعلمون .
وهذا الباب من المعلوم غير باب علم ما يكون قبل أن يكون لأن باب كان قد يعلم بعضه وباب يكون لا سبيل إلى معرفة شيء منه والمخاطبة وقعت على جميع المتعبدين واشتملت على جميع أصناف الممتحنين ولم تقع على أهل عصر دون عصر ولا على أهل بلد دون بلد ولا على جنس دون جنس ولا على تابع دون متبوع ولا على آخر دون أول .

(أجناس الطير التي تألف دور الناس) العصفير والخطاطيف والزراير والحفافيش فبين هذه وبين الناس مناسبة ومشاكلة وإلف ومحبة .

والخطاطيف تقطع إليهم وتعزب عنهم والعصفير لا تفارقهم وإن وجدت داراً مبنية لم تسكنها حتى يسكنها إنسان ومتى سكنتها لم تقم فيها إذا خرج منها ذلك الإنسان بفراقه تفارق ويسكنها تسكن وهذه فضيلة لها على الخطاطيف .

الحمام لا يقيم معهم في دورهم إلا بعد أن يثبتوه ويعلموه ويرتبو حاله ويدرجوه ومنها ما هو وحشي طوراني وربما توحش بعد الأئس والعصفير على خلاف ذلك فلها بذلك فضيلة على الحمام وعلى الحطاف .

وقد يلرب العصفور ويثبت فيستجيب من المكان البعيد ويثبت

ويدجن فهو مما يثبت ويعايش الناس من تلقاء نفسه مرةً وبالشئ مرةً وليس كذلك شيء مما يأوي إلى الناس من الطير .

وقد بلغني أن بعض ما يستجيب منها قد دُرِبَ فرجع من ميل فأما الهداية من تلقاء نفسه فمن الفراسخ الكثيرة .

وحدثني حمويه الحرّبي وأبو جرّاد الهزّارديّ قالا : إذا كان زمان البيادر لم يبق بالبصرة عُصفورٌ إلا صار إلى البساتين إلا ما أقام على بيضه وفراخه وكذلك العصافير إذا خرج أهل الدار من الدار فإنه لا يقيم في تلك الدار عُصفورٌ إلا على بيض أو فراخ فإذا لم يكن لها استوحشت والتمست لأنفسها الأوكار في الدور المعمورة ولذلك قال أبو يعقوب إسحاق الحرّبي : (فإلك بغداد ما تبني من ال ** وحشة في دورها عصارها)

قالا : فعلى قدر قرب القبائل من البساتين سقّ العصافير إليها فإذا جاءت العصافير التي تلي أقرب القبائل منها إلى أوائل البساتين فوجدت عصافير ما هو أقرب إليها منها قد سبقت إليها تعدّها إلى البساتين التي تليها وكذلك صنع ما بقي من عصافير القبائل الباقية حتى تصير عصافير آخر البصرة إلى آخر البساتين وذلك شبيهة بعشرين فرسخاً فإذا قضت حاجتها وانقضى أمر البيادر أقبلت من هناك على أمارات لها معروفة وعلامات قائمة حتى تصير) إلى أوكارها .

ضروب الطير

والطير كله على ثلاثة أضرب : فضرب من بهائم الطير وضرب كسباع الطير وضرب كالمشترك المركب منها جميعاً .
فالبهيمة كالحمام وأشباه الحمام مما يغتذي الحبوب والبزور والنبات ولا يغتذي غير ذلك والسبع : الذي لا يغتذي إلا اللحم .

وقد يأكل الأسد الملح ليس على طريق التغذي ولكن على طريق التملح والتحمض .

ما يشارك فيه العصفور الطير والحيات

فمما يشارك فيه العصفور بهائم الطير أنه ليس بذي مخالب ولا منسر أو هو مما إذا سقط على عودٍ قدّم أصابعه الثلاث وأخر الدابة وسباع الطير تقدّم إصبعين وتؤخر إصبعين .
ومما شارك فيه السبع أن بهائم الطير ترقّ فراخها والسباع تُلقيم فراخها .
والفراخ على ثلاثة أضرب : ففرخ كالفرّوج لا يُرق ولا يُلقم وهو يظهر كاسباً وفرخ كفرخ الحمام وأشباه الحمام فهو يُرق ولا يُلقم وفرخ كفرخ العقاب والبازي والزرّق والشاهين والصقر وأشباهها من

السَّباع فهو يُلقَم ولا يُزَقّ فأشبهها العُصفورُ من هذا الوجه .
وفيه من أخلاق السَّباع : أنه يصيد الجرادة والنمل الطَّيَّار ويأكل اللحم ويُلقَم فراخه اللحم وليس في الأرض رأسٌ أشبه برأس حَيَّةٍ من رأس عصفور الأجناس التي تعيش الناس والأجناس التي تعيش الناس : الكلبُ والسَّنور والفرس والبعير والحمار والبغل والحمام والخُطَّاف والزَّرزور والخُفَّاش والعصفور .
أطول الحيوان عمراً وأقصره قالوا : وليس في جميعها أطولُ عُمرًا من البغل ولا أقصرُ عمراً من العصفور .
قالوا : ونظن ذلك إنما كان لقلة سفاد البغل وكثرة سفاد العصفور .

ويزعمون أن محمد بن سليمان أنزى البغال على البغلات كما أنزى العتاق على الحُجُور والبراذين على الرِّمَّاء والحمير على الأتُن فوجد تلك الفُحُولَة من البغال بأعيانها أقصرَ أعماراً من سائر الحافر حين سوَّى بينها في السَّفاد ووجد البغال تلحق إلحاقاً فاسداً لا يتم ولا يعيش .
وذكروا أن قصر العُمر لم يعرض لإناثها كما عرض لذكورها .
وهذا شبيهة بما ذكر صاحب المنطق في العصافير فإنه ذكر أن إناثها أطولُ أعماراً وأن ذكورها لا تعيش إلا سنةً واحدة .

أثر السمن في الحمل والمرأة تنقطع عن الحبل قبل أن ينقطع الرجل عن الإحبال بدهر وتُفَرط في السمن فتصير عاقراً ويكون الرجل أسمن منها فلا يصير عاقراً

وكذلك الحجر والرَّمكة والأتان وكذلك النخلة المطعمية ويسمن لبُّ الفُحَّال فيكون أجود لإلقاحه وهما يختلفان كما ترى .

الأجناس الفاضلة من الحيوان

وللعصفور فضيلة أخرى وذلك أنَّ من فضل الجنس أن تتميز ذكوره في العين من إناثه كالرجل والمرأة والديك والدجاجة والفُحَّال والمطعمية والتيس والصفية والطاوس والتُّرُج والدُّرَّاج وإناثها .

وليس ذلك كالحجر والفرس والرَّمكة والبرذون والناقة والجمال والبعير والأتان والأسد واللَّبَّوة فإن هذه الأجناس تُقبَلُ نحوك فلا ينفصل في العين الأنثى من الذكر حتى تنفقد مواضع القُبِّ والأطباء وموضع الصَّرع والثَّيل وموضع ثُفْرِ الكلبة من القضيبي .
لأنَّ للعصفور الذَّكَرَ حيةً سوداء وليس للحية إلا للرجل والجمال والتيس والديك وأشياء ذلك فهذه أيضاً فضيلة للعصفور وذكر ابن الأعرابي أن للناقة عُشُوناً كعشون الجمال وأنها متى كان عُشُونها أطول كان فيها أَحَمَد .

حب العصافير فراخها

وليس في الأرض طائرٌ ولا سبعٌ ولا بهيمةٌ أحنى على ولدٍ ولا أشدَّ به شغفاً وعليه إشفاقاً من العصافير فإذا أصيبت بأولادها أو خافت عليها العطب فليس بين شيء من الأجناس من

المساعدة مثل الذي مع العصافير لأن العصفور يرى الحية قد أقبلت نحو جحره وعُشته وكره لتأكل بيضه أو فراخه فيصيح ويترق فلا يسمع صوته عصفوراً إلا أقبل إليه وصنع مثل صنيعه بتحرُّق ولوعةٍ وقلقٍ واستغاثةٍ وصُراخٍ وربما أفلت الفرخ وسقط إلى الأرض وقد ذهبت الحية فيجتمعن عليه إذا كان قد نبت ريشه أدنى نبات فلا يزلن يهيَّجنه ويطنن حوله لعلهما أن ذلك يحدث للفرخ قوةً على النهوض فإذا نهض طرن حواليه ودونه حتى يحشَّنه بذلك العمل .
وكان الحرَّميّ ينشد :

وينشد : واحتثَّ مُحْتَثَاتِهَا الحُدُورا وتقول العرب : العاشية تهيج الآية ولو أن إنساناً أخذ فرخي عصفورٍ من وكره ووضعها بحيث يراها أبواهما في منزله لوجد العصفور يتقمَّح في ذلك المنزل حتى يدخل في ذلك القفص فلا يزال في تعهده بما يعيشه حتى يستغني عنه ثم يَحْتَمِلَانِ في ذلك غاية التغرير والخطر وذلك من فرط الرقة على أولادهما .

ما لا يسمح بالمشي من الحيوان وأجناس الحيوان التي لا تستطيع أن تُسمح بالمشي ضروب : منها

الضبع لأنها خلقت عرجاء فهي أبداً تخمَع قال الشاعر : (وجاءت جِيَّالٌ وأبو بنيها * أَحْمُ المَاقِينِ به خُمَاغُ) وقال مدرك بن حصن : (من الغثر ما تلري أرجلُ شمالها * بها الظلع إمَّا هَرَوَلَتْ أم يَمِينُها) والذئب أقول شَنَجِ النسا وإن أُحِثَّ إلى المشي فكأنه يتوجَّى .

وكذلك الطَّبِيُّ شَنَجُ النَّسا فهو لا يُسْمَحُ بالمشي قال الشاعر : ظيُّ أشعب : إذا كان بعيد ما بين القرنين ولا يسمع له نباح وإذا أراد العدو فإنما هو النَّقْزُ)
والوثب ورفع القوائم معاً .

ومن ذلك الأسد فإنه يمشي كأنه رهيص وإذا مشى تخلَّع .
قال أبو زبيد : (إذا تبهَّسَ يمشي خِلْتُهُ وعِثَا * وعَتَ سِوَا عُدُ منه بعد تكسير) ومن ذلك الفرس لا يُسمح بالمشي وهو يوصف بشَنَجِ النسا .
وقال الشاعر : شَنَجِ الأنساءِ من غيرِ فَحَجٍ

ومن ذلك الغراب فإنه يحجل كأنه مقيد قال الشاعر : (كنتارك يوماً مشيةً من سَجِيَّةٍ * لأخرى ففانتَه فأصبح يحجلُ) وقال الطَّرمَاح : (شَنَجِ النسا أدفى الجناح كأنه * في الدَّارِ بعد الطَّاعِنين مُقَيَّدُ) والسَّنُورُ

والفَهْدُ وأشباهُهما في طريق الأسد .

والحَيَّةُ تمشي ومنها ما يَثْبُ منها ما ينتصبُ ويقومُ على ذنبه .

والأفعى إذا نهشت أو انباعت للنهش لم تستقلْ ببدنها كله ولكنها تستقلْ ببدنها الذي يلي الرأس بحركة ونَشْطٍ أسرع من اللَّمَحِ .

والجرادة تطير وتمشي وتطمر فإذا صيرت إلى العصفور ذهب المشي البتة وأكثر ما عند البرغوث الطُمور والثوب .

وقال الحسنُ بن هانئ يصفُ رجلاً يفلي القملَ والبرغوث بأنامله : (أو طامريِّ واثبٍ * لم يُنجِهْ منه وثابُهُ) لأن البرغوث مشاء وثاب .

قال : وقول الناس : طامر بن طامر إنما يريدون البرغوث .

والعصفور ليس يعرفُ إلا أن يجمعَ رجله ثم يثب فيضعهما معاً ويرفعهما معاً فليس عنده إلا النَّقْرَانُ ولذلك سُمِّيَ العصفورُ نَقَّازاً .

وهو العصفور والجمع عصافير ونَقَّاز والجمع نَقَاقِيز وهو الصَّعو ويزعمون أن العرب تجعلُ الحرق والقنبر والحمر وأشباه ذلك كله من العصافير والعصفور طيرانه نَقْرَانُ أيضاً فهو لا) يُسمَحُ بالطيران كما لا يسمح بالمشي .

شدة وطء العصفور

وليسَ لشيء جسمه مثلُ جسمِ العُصفور مراراً كثيرةً من شلَّةِ الوطء وصلابة الوقع على الأرض إذا مشى أو على السطح ما للعصفور فإنك إذا كنتَ تحت السطح الذي يمشي عليه العصفور حسيتَ وقَّعه عليه وقَّعَ حَجَرَ .

والكلبُ منعوتٌ بشلَّةِ الوطء وكذلك الخِصْيَانُ من كل شيء والعصفور يأخذ بنصيبه من ذلك أكثرَ من قسْطِ جسمه من تلك الأجسام بالأضعاف الكثيرة .

ما يجيد المشي من الحيوان والذباب من الطير الذي يجيدُ المشي ويمشي مشياً سَبْطاً حَثِيثاً وحسناً مستوياً . والقطة مَلِيحَةُ المِشْيَةِ مقاربة الخطو .

وقد توصف مِشْيَةُ المرأة مِشْيَةُ القطة وقال الكُمَيْت : (يمشينَ مَشْيَ قَطَا البطح تأوداً * قَبَّ البُطونِ رَوَاجِحَ الأكفالِ)

وقال الشاعر : (يمشينَ كما تم * شي قِطاً أو بقراتُ) لأن البقرة تتبخترُ في مشيتها .

وقلت لابن دُبُوْقَاء : أي شيء أول التَّشَاجِي قال : التَّباهرُ والقَرْمَطَةُ في المشي وقال : وكلُّ حيوان من ذوات الرجلين والأربع إذا انكسرت لها قائمة تحاملت بالصحيحة إلا النعامة فإنها تسقط البتة

سفاد العصفور

قال : وكثرة عدد السفاد والمبالغة في الإبطاء والدوام في كثرة العدد لضروب من الحيوان فالإنسان يغلب هذه الأجناس بأن ذلك دائم منه في جميع الأزمنة فأما الإبطاء في حال السفاد فللجمال والورل والذبّان والخنزير فهذه فضيلة لذة لهذه الأجناس والأصناف فأما كثرة العدد فللعصافير .

سفاد التيس

وقد زعم أبو عبد الله العيني الأبرص وكان قاطع الشهادة عند أصحابنا البصريين أن الذي يقال له المشرطي قرع في يوم واحد نيفاً وثمانين قرعة .

إلا أن ذلك منه ومن مثله يتمحق حتى يعود جافراً في الأيام القليلة . (تيس بني حمان) وبنو حمان يزعمون أن تيس بني حمان قرع وألقح بعد أن ذبح وفخروا بذلك فقال بعض من (ألهي بني حمان عسب عتودهم ** عن المجدي حتى أحرزته الأكارم)

زعم لصاحب المنطق وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان أن ثوراً فيما سلف من الدهر سفد وألقح من ساعته بعد أن خصي .

فإذا أفرط المديح وخرج من المقدار أو أفرط التعجب وخرج من المقدار احتاج صاحبه إلى أن يشبهه بالبيان أو بالخبر الذي لا يكذب مثله وإلا فقد تعرض للتكذيب .

ولو جعلوا حركتهم خيراً وحكاية وتبرؤوا عن عينيه ما ضرهم ذلك وكان ذلك أصون لأقدارهم وأتم لمروءات كتبهم .

القول في الجناح واليد والرجل

وقالوا : وكل طائر جيد الجناح يكون ضعيف الرجلين كالزُرْزُور والحُطَّاف وجناحاهما أجود من جناح العصفور ورجل العصفور قويّة .

والجناحان هما يدا الطائر لأنهم يجعلون كل طائر وإنسان

ذا أربع : فجناحا الطائر يدها ويدا الإنسان جناحاه ولذلك إن قطعت يدا الإنسان لم يجد العدو وكذلك إن قطعت رجل الطائر لم والدابة قد تقوم على رجلين دون يديها والإنسان قد يمشي على أربع قالوا : فهم في عدد الأيدي والأرجل سواء وفي الآلات الأربع إلا أن الآلة تكون في مكان ببعض الأعمال أليق وهو عليها أسهل فتجذبها طبائعها إلى ما فيها من ذلك كمشي الدابة على يديها وتقل ذلك على الإنسان .

والحمام يضرب بجناحه الحمام ويقاتله به ويدفع به عن نفسه فقوادمه هي أصابعه وجناحه هو يده ورجله كالقدم وهي رجل وإن سمّوها كفّاً حين وجدوها تكفّ به كما يصنع الإنسان بكفّه .

وكلُّ مقطوعِ اليدينِ وكل من لم يُخلق له يدانِ فهو يصنعُ برجليه عامَّةً ما يصنعه الوافرُ الخلق بيديه .
وكل سُّع يكون شديدَ اليدينِ فإنه يكونُ ضعيفَ الرجلين .
وكل شيء من ذوات الأربع من البرائن والحوافر فإن أيديها

أكبرُ من أرجلها والناس أرجلهم أكبرُ من أيديهم وأقدامهم أكبرُ من أكفهم .
وجعلوا رُكَبَهُم في أرجلهم وجعلوا رُكَبَ الدَّواب في أيديها .
وللعصافير طباهجات وقلايا تُدعى العصافيرية ولها حشاوي يطعمها العوامُ المفلوج والعوامُ تأكلها للقوة
على الجماع وعظامُ سوقيها وأفخاذها أحدُّ وأدرب من الإبر وهي مخوفةٌ على المعدة والأمعاء .
وهي تحرب السُّقف تخريباً فاحشاً وتجتلبُ الحيات إلى منازل الناس لحرص الحيات على ابتلاع العصافير
وفراخها وبيضها .

عمر العصفور

والذين زعموا أن ذكورهما لا تعيش إلا سنةً يحتاجون إلى أن يعرفوا الناس ذلك وكيف يستطيعون تعريفهم
وقد تكون القرى بقرب المزارع والبيادر مملوءة عصافير ومملوءة من بيضها وفراخها وهم مع ذلك لم يروا
عصفوراً قط ميتاً .
والذين يزعمون أن الذباب لا يعيش أكثر من أربعين يوماً وكانوا لا يكادون يرون ذبابة ميتة أعذرُ لأنهم
ذهبوا إلى الحديث وأصحاب الحديث لا يؤخذون بما يؤخذ به الفلاسفة .
والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلَّة السَّفاد والعصفور إنما قصُرَ عمره لكثرة السَّفاد وعلمته لو قالوا
بذلك على جهة الظنِّ والتقريب لم يلزمهم أحد من العلماء والأمور المقرَّبة غير الأمور الموجبة فينبغي أن
يعرفوا فصل ما بين الموجب والمقرَّب وفصل ما بين الدليل وشبه الدليل ولعلَّ طول عمر البغل يكون للذي
قالوا ولشيء آخر .
وليس ينبغي لنا أن نجزم على هذه العلة فقط إلا بعد أن يحيط علمنا بأن عمره لم يفصل على أعمار تلك
الأجناس إلا لهذه العلة .

بعض خصال العصفور

والعصفور لا يستقرُّ ما كان خارجاً من وكره حتى كأنه في دوام الحركة صبيُّ له صوت حديد مؤذ .
وزعموا أن البلب لا يستقر أبداً وهذا غلط لأن البلب إنما يلقُ لأنه محصورٌ في قفص والذين عابوا البلب
والعصافير في أوكارها وغير محصورة في الأقفاص يعلمون فضل العصفور على البلب في الحركة .
فأما صلق الحسِّ وشلَّة الحذر والإزكان الذي ليس عند خبيث الطير ولا عند الغراب إن عند العصفور منه
ما ليس عند جميع ما ذكرنا لو اجتمعت قوهم ورُكبوا في نصاب واحد .

من ذلك أنه يغمّ بحدة صوته بعض من يقرب منه فيصيح به ويهوي بيديه إلى الأرض كأنه يريد أن يرميه بحجر فلا يراه

يخجل بذلك فإن وقعت يده على حصاة طار من قبل أن يتمكن من أخذها .
وزعم صاحب المنطق أن بين الحمار وعصفور الشوك عداوة وقال : لأن الحمار يدخل الشجر والشوك فرما زاحم الموضع الذي فيه وكره فيبدد عشه وربما نقى الحمار فسقط فرخ العصفور أو بيضه من جوف وكره قال : ولذلك إذا رآه العصفور رنق فوق رأسه وعلى عينيه وأذاه بطيرانه وصياحه .
وربما كان العصفور أبلق ويصاب فيه الأصبع والجرادي والأسود والفيق والأغبس فإذا أصابه كذلك باعوه بالثمن الكثير .
وقال أبو بدر الأسدي : قيل لعبد الأعلى القاص : لم سمي العصفور

عصفوراً قال : لأنه عصى وقرّ وقيل : ولم سمي الطفشيل طفشياً قال : لأنه طفا وشال وقيل له : لم سمي الكلب القلطي قلطياً قال : لأنه قلّ ولطى وقيل له : لم سمي الكلب السلوقي سلوقياً قال : لأنه يستل ويلقى قال : وحدّثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن صهيب مولى ابن عامر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من إنسان يقتل عصفوراً أو ما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عنها قيل : يا رسول الله : وما حقها قال : أن تدبجها فتأكلها ولا تقطع رأسها فترمي بها .

صياح العصافير ونحوها

ويقال : قد صرّ العصفور يصرّ صريراً قال : ويقال للعصافير

والمكاكي والقنابر والخرق والحمر : قد صفر يصفر صغيراً وقال طرفة بن العبد : (يا لك من قبرة بمعمر
** خلا لك الجو فيضي واصفري) وتقري ما شيت أن تنقري ويقال : قد نطق العصفور وقال كثير :
سوى ذكرك منها إذا الركب عرسوا ** وهيت عصافير الصريم النواطق) ولذكر العصفور موضع آخر :
وذلك أن العصافير تصيح مع الصبح وقال كثيرون بن عمرو :

(يا ليلة لي بخوارين ساهرة ** حتى تكلم في الصبح العصافير) وقال خلف الأحمر : (فما أصانت عصافيره
** ولاحت تبشير أرواقه) وقال الوليد بن يزيد : (فلما أن دنا الصبح ** بأصوات العصافير)

أحلام العصافير

ولها موضع آخر وذلك أنهم يضربون المثل بأحلام العصافير لأحلام السخفاء وقال دريد بن الصمة : (يا
آل سفيان ما بالي وبالكُم ** أنتم كثير وفي أحلام عصفور) وقال حسّان بن ثابت : (لا بأس بالقوم من
طول ومن عظم ** جسم البغال وأحلام العصافير) ومن هذا الباب في معنى التصغير والتحقير قول لبيد :

فَإِنْ تَسْأَلُنَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا *عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ وَالْمَسْحَرِ (الْمَخْدَعُ عَلَى قَوْلِهِ : وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ
وَالشَّرَابِ وَقَالَ لَبِيد :

فَكَأَنَّهُ يَخْبِرُ عَنْ ضَعْفِ طِبَاعِ الْإِنْسَانِ .
وَقَالَ قَوْمٌ : الْمَسْحَرُ يَعْنِي كُلَّ ذِي سَحَرٍ يَذْهَبُ إِلَى الرَّثَةِ لِقَوْلِهِ : وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

قَوْلُهُمْ صَرِيمٌ سَحَرٌ

وَلِذِكْرِ السَّحَرِ مَوْضِعٌ آخَرٌ يَقُولُ الرَّجُلُ لِصَاحِبِهِ : صَرِمْتُ سَحَرِي مِنْكَ أَيُّ لَسْتُ مِنْكَ وَقَالَ خُفَّافُ بْنُ
نُدْبَةَ : (وَلَوْلَا ابْنَا ثُمَاضِرٍ أَنْ يُسَاوُوا * وَأَنْتِي مِنْكَ غَيْرُ صَرِيمٍ سَحَرٍ) فَكَأَنَّهُ قَالَ : لَسْتُ كَذَلِكَ مِنْكَ .
وَقَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ : (تَقُولُ طُعِينَتِي لَمَّا اسْتَقَلَّتْ * أَتَتْرُكُ مَا جَمَعْتَ صَرِيمَ سَحَرٍ) أَيُّ قَدْ تَرَكْتَهُ آيِسًا
مِنْهُ .
وَأَنشَدَ الْآخَرُ :

(أَيْذَهَبُ مَا جَمَعْتُ صَرِيمَ سَحَرٍ * ظَلِيفًا أَنْ ذَا هُوَ الْعَجِيبُ)

العصفور والضب

وَإِذَا وَصَفُوا شِدَّةَ الْحَرِّ وَصَفُوا كَيْفَ يُوفِي الْحَرْبَاءُ عَلَى الْعُودِ وَالْجِذْلِ وَكَيْفَ تَلْجَأُ الْعَصَافِيرُ إِلَى جِحْرَةِ
الضَّبَّابِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ .
وَقَالَ أَبُو زُبَيْدٍ : (أَيُّ سَاعٍ سَعَى لِيَقْطَعَ شَرِبِي * حِينَ لَا حَتَّ لِلصَّابِحِ الْجُوزَاءُ)
وَاسْتَكَنَّ الْعَصْفُورُ كَرْهًا مَعَ الضَّبِّ وَأَوْفَى فِي عَوْدِهِ الْحَرْبَاءُ (وَنَفَى الْجَنْدُبُ الْحَصَى بِكَرَاعِي * هِ وَأَذْكُتُ
نِيرَانَهَا الْمَعْرَاءُ) (مِنْ سَمُومٍ كَأَنَّهَا لَفَحُ نَارٍ * صَقَرَتْهَا الْمَهْجِرَةُ الْغَرَاءُ) وَأَنشَدُوا : (تَجَاوَزْتُ وَالْعَصْفُورُ فِي
الْجَحْرِ لَا جِئْتُ * مَعَ الضَّبِّ وَالشَّقْدَانُ تَسْمُو صُدُورَهَا) قَالَ : الشَّقْدَانُ : الْحَرَابِيُّ قَوْلُهُ : تَسْمُو أَيُّ تَرْتَفِعُ
عَلَى رَأْسِ الْعُودِ وَالْوَاحِدُ مِنَ الشَّقْدَانِ شَقْدَانٌ بِتَحْرِيكِ الْقَافِ وَفَتْحِ الشَّيْنِ .

عصافير النعمان

وَكَانُوا يَقُولُونَ : صَنَعَ بِهِ الْمَلِكُ كَذَا وَكَذَابَهُ وَكَذَا وَوَهَبَ لَهُ مِائَةَ مِنْ عَصَافِيرِهِ .
وَعَصْفُورٌ وَدَاعِرٌ وَشَاغِرٌ وَذُو الْكَيْلَيْنِ : فَحَوْلَةٌ إِبِلِ النِّعْمَانِ .
وَعَصَافِيرُ الرَّحْلِ وَاحِدُهَا عَصْفُورٌ .

عصفور القواس

وعصفور القوّاس إليه تضاف القسيّ العصفورية وقد ذكره

ابن يسير حين دعا على حمام له بالشّواهين والصّقورة والسّنابير والبنادق فقال : (من كلّ أكلف بات
يدجن ليله ** فغدا بغدوة ساغب ممطور) (ضرم يقلب طرفه متأنساً ** شيئاً فكّن له من التقدير) (يأتي
لهنّ ميامناً ومياسراً ** صكاً بكلّ مذلق مطور) (لا ينبج منه شريدهنّ فإنّ بحا ** شيء فصار بجانبات الدور
(

(لمشمرين عن السواعد خسر ** عنها بكلّ رشيقّة التوتير) (ليس الذي تشوي يداه رمية ** فيهم بمعذر
ولا معذور) (ينبوعون مع الشروق غدية ** في كل معطية الجذاب نتور) (ينفثن عن جذب الأكفّ
سواسياً ** متشابهات صغن بالتدوير) (تجري لها مهجّ النفوس وإنها ** لنواصل سلب من التحسير)
(ما إن يني متباين متباعداً ** في الجو يحسر طرف كل بصير) (عن ستمهنّ إذا قصدن لجمعه ** متقطراص
متضمخاً بعبير) (فيؤوب ناجيهنّ بين مجلهق ** دام ومخلوب إلى منسور) (عاري الجناح من القوادم
والقرا ** كاس عليه بصائر التهور)

شعر في العصفور

وقال أبو السريّ وهو معدّان الأعمى المديريّ وهو يذكر ظهوراً لإمام وأشراف خروجه فقال :

(في زمانٍ تبيض فيه الخفاف ** شُ وتُسقى سُلالة الجريال) (وقيم العصفور سلماً مع الأي ** م وتحمي الذئاب لحم السخال) يقول : إذا ظهر الإمام فآية ذلك أن تبيض الخفافيش وهي اليوم تلد وتل لنا الخمر وتسالم الحيات العصافير والذئاب السخال .

سجود عيسى بن عقبة ورووا في طول سجود عيسى بن عقبة أنه كان يطيل ذلك حتى يظن العصفور أنه كالشيء الذي لا يخاف جانبه وحتى يظن العصفور أنه سارية فيسقط عليه .
وذكر عمر بن الفضل عن الأعمش عن يزيد بن حيّان قال :

كان عيسى بن عقبة إذا سجد وقعت العصافير على ظهره من طول سجوده .
وكان محمد بن طلحة يسجد حتى إن العصافير ليسقطن على ظهره ما يحسبته إلا حائطاً .

مثل الشيخ والعصفور

وفي المثل : أن شيخاً نصّب للعصافير فخاً فارتبّن به وبالفخ وضربه البرد فكلما مشى إلى الفخّ وقد انضمّ على عصفور فقبض عليه

ودقّ جناحه وألقاه في وعائه دمعت عينه مما كان يصكّ وجهه من برد الشمال قال : فتوامرت العصافير بأمره وقلن : لا بأس عليك فإنه شيخ صالح رحيم رقيق الدمعة قال : فقال عصفور منها : لا تنظروا إلى دموع عينيه ولكن انظروا إلى عمل يديه .

استطرد ومن أمثال العامة للشيء تتعرفه بغير مؤونة : الحجر مجان والعصفور مجان .

قال : ويقال عصفور وعصفورة . وأنشد قوله : (ولو ألما عصفورة لحسبتها ** مسومة تدعو غبيداً وأزماً)
شعر فيما يصوره الفرع وقال في هذا المعنى جريراً وإن لم يكن ذكر العصفور حيث يقول : (مازلت تحسب كل شيء بعدهم ** خيلاً تشدّ عليكم ورجالا) قال يونس : أخذ هذا المعنى من قول الله : يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو . (

وقال الشاعر : (كأن بلاد الله وهي عريّة ** على الخائف المطلوب كفة حابل)

(يؤدّي إليه أن كل ثنية ** تيممها ترمي إليه بقاتل) وقال بشار في شبيه ذلك : (كأن فواده كرة تنزى **
حذار البين لو نفع الحذار) (جفت عيني عن التغميض حتى ** كأن جفونها عنه قصار) (يروعه السرار بكل أمر ** مخافة أن يكون به السرار) وقال غبيد بن أيوب : وقال أبان اللّاحقي : حديث الغاضري ومن ملح أحاديث الأصمعي قال : حدثني شيخ من أهل المدينة وكان عالي السنّ قال : قال الغاضري : كانت هذه الأرض لقوم

ابتدؤوها وشقوها وكانت الثمرة إذا أدركت قال قائلهم لقيمه : اثلّم الحائط ليصيب المارّ مما فيه والمعتفي ثم يقول : أرسل إلى آل فلان بكذا وكذا وإلى آل فلان بكذا وكذا فإذا بيعت الثمرة قال : أرسل إلى فلان بكذا وكذا ودينار وإلى فلان بكذا وكذا فيضج الوكيل فيقول : ما أنت وهذا لا أم لك فلما غمرت الأرضون وأغنت أقطعها قوم سواهم فإن أحدهم ليسد حائطه ويصغر بابه ثم يدلج فيمر فيقول : ما هذه الثلثة ويستطيف من وراء الحائط فهو أطول من معقل أبي كريب .

وإذا دخل حائطه دخل معه بقذافة فإذا رأى العصفور على القنا رماه فيقع العصفور مشوياً على قرص والقرص كالعصفور .

العصافير الهبرية

وبحمنص العصافير الهبرية وهي تطعم على رفوف وتكون آمن من السمائي وأطيب من كل طير وهي تهدى إلى ملوكنا وهي قليلة هناك .
وقال الراعي : (ما زال يركب روقيه وكلّكله ** حتى استثار سفاة دونها التأذ)

(حتى إذا نطق العصفور وانكشفت ** عماية الليل عنه وهو معتمد) وقال الراعي : (وأصفر مجدول من القيد مارن ** يلاث بعينيهما فيلوى ويطلق) (لدى ساعدي مهريّة شديّة ** أنيخت قليلاً والعصافير تنطق)

صيد العصافير

قال : وتصاد العصافير بأهون حيلة وذلك أنهم يعملون لها مصيدة ويجعلون لها سلّة في صورة المحبرة التي يقال لها : اليهودية المنكوسة الأنوبة ثم ينزل في جوفها عصفور واحد فتنقض عليه العصافير ويدخلن عليه وما دخل منها فإنه لا يجد سبيلاً إلى الخروج منها

فيصيد الرجل منها في اليوم الواحد المئتين وهو وادع وهنّ أسرع إلى ذلك العصفور من الطير إلى البوم إذا جعلن في المصائد .

ومتى أخذ رجل فراخ العصافير من أوكارها فوضعها في قفص بحيث تراها الآباء والأمهات فإنما تأتيها بالطعم على الخطر الشديد والخوف من الناس والسنانير مع شدة حذرهما ودقة حسّها ليس ذلك إلا لبرّها بأولادها وشدة حبّها لها .

في العقارب والفأر والسنانير والجردان

نقول في العقارب والفأر والجردان بما أمكن من القول وإنما ذكرنا العقارب مع ذكرنا للفأر للعداوة التي بين الفأر والعقارب كما رأينا أن نذكر السنانير في باب ذكر الفأر للعداوة التي بينهما .

فإن قلت : قد عرفنا عداوة الفأر للعقرب فكيف تُعادي الفأرة السَّور والفأرة لا تقاوم السَّور قيل : لعمري إن جرذان أنطاكية لُتساجلُ السنانير في الحرب التي

بينهما وما يقوم لها ولا يقوى عليها إلا الواحد بعدَ الواحد وهي بخراسان قويَّة جداً وربما قطعتُ أذنَ النائم .
وفي الفأر ما إذا عضَّ قتل أخبرني أبو يونس الشريطي أنه عاين ذلك .
وأنا رأيتُ سَّوراً عندنا ساور جرذاً في بيت الحطب فأفلتَ الجرذُ منه وقد فقا عينَ السَّور .
قتال الحيوان والقتال يكونُ بين الديكة وبين الكباش والكلاب والسُّمائي والقبيح وضروب مما يقبل التحريش ويوانب عند الإغراء .
ويزعمون أنهم لم يروا قتالاً قطُّ بينَ ميمتين ولا سبعين أشدَّ من قتال يكونُ بين جرذين فإذا ربط أحدهما بطرف خيطٍ وشدَّ رجل

الآخر بالطرف الآخر من الخيط فلهما عند ذلك من الخلب والخمش والعض والتَّسيب والنفاس ما لا يوجد بين شيئين من ذوات العقار والهراش إلا أن ذلك ما دام في الرِّباط فإذا انحلَّ أو انقطع ولَّى كلُّ واحد منهما عن صاحبه وهرب في الأرض وأخذ في خلاف جهته الآخر .
وإن جُعلا في إناء من قوارير أعني الجرذ والعقرب وإنما ذكرت القوارير لأنهما لا تستر عن أعين الناس صنيعهما ولا يستطيعان الخروجَ لملاسة الحيطان فالفأرة عند ذلك تحتلُّ العقرب

فإن قبضتْ على إبرتها قرصتها وإن ضربها العقربُ ضرباً كثيراً فاستنفدتْ سمها كان ذلك من أسباب حتفها .

قتال العقارب والجرذان

ودخلت مرة أنا وحمَّدان بن الصباح على عبيد بن الشُّونيزي فإذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقرباً وعشرون فأرة فإذا هي تقتتل فخيَّل لي أن تلك الفأرة قد اعتراها ورمَّ من شدة وقع اللسع ورأيت العقارب قد كلَّت عنها وتاركنها ولم أر إلا هذا المقدار الذي وصفت .
وحدثنا عنها عبيدٌ بأعاجيب ولو كان عبيدٌ إسناداً لخبرت عنه ولكن موضعَ البياض من هذا الكتاب خيرٌ من جميع ما كان لعبيد .

تدبير في الجرذ

وللجرذ تدبير في الشيء يأكله أو يحسوه فإنه ليأتي القارورة الضيقة

الرأس فيحتال حتى يُدخل طرف ذنبه في عنقها فكلما ابتل بالدهن أخرجته فلطعه ثم أعاده حتى لا يدع في القارورة شيئاً .

ورأيتُ من الجرذان أعجوبةً وذلك أن الصيادة لما سقطت على جرذٍ منها ضخم اجتمعن لإخراجه وسلَّ عنقه من الصيادة فلما أعجزهنَّ ذلك قرضنَ الموضعَ المنضمَّ عليه من جميع الجوانب ليتسع الخرقُ فيجذبُنه فهجمتُ

على نُحَاتَةٍ لو اعتمدتُ بسكين على ذلك الموضع لظننت أنه لم يكن يمكنني إلا شبيهةً بذلك .
وزعم بعضُ الأطباء أن السنور إنما يدفنُ خُرَاه ثم يعودُ إلى موضعه فيشتمه فإن كان يجدُ من ريحه بعدُ شيئاً زاد عليه من التراب لأنَّ الفأرة لطيفة الحسِّ جيّدة الشَّم فإذا وجدتْ تلك الرائحة عرفتْها فأمعنتْ في الهربِ فلذلك يصنعُ السنورُ ما يصنع .

ولا يشكُّ الناسُ في أن أرضَ سبأ وجنَّتَيْها إنما خربتا حين دخلهما

سِيلُ العرمِ والعرمِ : المسنّة وأن الذي فجّر المسنّة وسبّب لدخول الماء الفأرة .
والسِيل إذا دخل أخربَ بقدر قوّته وقوَّته من ثلاثة أوجه : إمّا أن تدفعه ريحٌ في مكان يفحشُ فيه الريح وإمّا أن يكون وراءه وفوقه ماءٌ كثير وإمّا أن يُصيبَ حدوراً عميقاً .

حديث ثمانية عن الفأر

وأما حديث ثمانية فإنه قال : لم أر قطُّ أعجبَ من قتالِ الفأر كنتُ في الحبسِ وخدي وكان في البيت الذي أنا فيه جُحرُ فأر يقابله جُحر آخر فكان الجرذ يخرجُ من أحد الجُحرين فيرقص ويتوعّد ويضربُ بذيئه ثم يرفع صدره ويهزُّ رأسه فلا يزال كذلك حتى يخرجَ الجرذ الذي يقابله فيصنعُ كصنيعه فبينما هما إذ عدا أحدهما فدَخَلَ جُحره ثم صنع الآخرُ مثلَ ذلك فلم يزل ذلك دأبهما في الوعيد وفي الفرار وفي التحايز وفي ترك التلاقي إلا أني في كل مرة أظنُّ

للذي يظهرُ لي من جدِّهما واجتهادهما وشدة توَعُّدهما أنهما سيلتقيان بشيء أهوئهُ العَضّ والخمَش ولا والله إن التقيا قطُّ فعجبتُ من وعيدٍ دائمٍ لا إيقاعَ معه ومن فرارٍ دائمٍ لا ثباتَ معه ومن هربٍ لا يمنعُ من العودة ومن إقدامٍ لا يوجبُ الالتقاء كيف يتوعّدُ صاحبه ويتوعّدُ الآخر وبأي شيء يتوعّدُهُ وهما يعلمان أنهما لا يلتقيان أبداً فإن كان قتالهما ليس هو إلا الصَّخَب والتَّييب فلم يفرُّ كل واحدٍ منهما حتى يدخل جُحره وإن كان غير ذلك فأَيُّ شيء يمنعُهما من الصَّدمة وهذا أعجبُ .

أطول الحيوان ذمَاءً وأقصره وتقول العرب : الضبُّ أطولُ شيء ذمَاءً .
ولا أعلمُ في الأرض شيئاً أقصرَ ذمَاءً ولا أضعفَ منَّةً ولا أجدرُ أن يقتلَهُ اليسير من الفأر .

لعِب السنور بالفأر

وبلغ من تحرُّزه واحتياطه أنه يسكن السقوف فرجماً فاجأه السنور وهو يريد أن يعبرَ إلى بيته والسنور في الأرض والفأرة في السَّقْف ولو شاءت أن تدخل بيتها لم يكن للسنور عليها سبيل فتَحَيَّرَ فيقول السنور بيده كالمشير ببساره : ارجع فإذا رجعت أشار بيمينه : أن عُدَّ فيعود وإنما يطلب أن تعيا أو تزلق أو يُدارَ بها ولا يفعل ذلك بها ثلاث مرّات حتى تسقط إلى الأرض فيشبَّ عليها فإذا وثبَ عليها لعبَ بها ساعةً ثم أكلها وربما خلى سبيلها وأظهر التغافل عنها فتمعن في الهرب فإذا ظننت أنها نجتْ وثبَ عليها وثبة فأخذها فلا يزال كذلك كالذي يجبُ أن يستخرَ من صاحبه وأن يخدعه وأن يأخذهُ أقوى ما يكون طمعاً في السَّلامة وأن يُورِثه الحسرة والأسف وأن

يلدّ بتنغيصه وتعذيبه .

وقد يفعل مثل ذلك العقاب بالأرنب ويفعل مثل ذلك السنور بالعقرب .

أكل الجرذان واليرابيع والضباب والضفادع

وقال أبو زيد : دخلتُ على رُوبةٍ هو يملُ جرذاناً فإذا نضجت أخرجها من الجمر فأكلها فقلت له : أأأكل الجرذان قال : هي خيرٌ من اليرابيع والضباب إنما عندكم تأكل التمر والجبن والسويق والخبز وتحسُّو الزيت والسمن .

وقد كان ناسٌ من أهل سيف البحر من شقّ فارس يأكلون الفأر والضفادع ممقورةً ومملوحةً وكانوا يسمونها : جَنك جَنك ووال ووال .
وقال أوس بن حجر :

(لَحَيْنَهُمْ لَحَى الْعَصَا فَطَرَدْنَهُمْ ** إِلَى سَنَةِ جِرْذَانِهَا لَمْ تَحْلَمْ) يقال : تَحْلَم الصَّيَّ : إذا بدأ في السَّمَن فإذا زاد على المقدار قيل قد ضَبَبَ أي سَمِنَ سِمْنًا متناهياً .
ويقال : أَسْرَقَ من زَبَايَةِ والزَّبَايَةِ : الفأرة ويقال : أَسْرَقَ من جُرْذ .

وقال أنس بن أبي إياس لحارثة بن بدر حين وليّ أرض سُرق : (أحرّ بن بدر قد وليتَ تولايةً ** فكنْ جرذاً فيها تحونُ وتسرقُ) (وباهِ تميماً بالغنى إنَّ للغنى ** لساناً به المرء الهيوبَةُ ينطقُ) (فإنَّ جميعَ الناسِ إما مكذبٌ ** يقول بما قوى وإما مصدقُ) (يقولون أقوالاً ولا يعلمونَها ** وإن قيلَ هاتوا حَققوا لم يحققوا) (فلا تحقرنْ يا حارِ شيئاً أصبته ** فحظك من ملك العراقرين سرقُ) فلما بلغتْ حارثةَ بن بدر قال : لا يعمى عليك الرُّشد .

طلب كثرة الجرذان

قال : ووقفت عجزوً على قيس بن سعد فقالت : أشكو إليك قلة الجرذان قال : ما أَلطَفَ ما سألتِ لأَمْلَأَنَّ بيتك جرذاناً تذكر أن بيتها قفرٌ من الأدم والمأدوم فأكثر لها يا غلامُ من ذلك قال : وسمعت قاصاً مدينيّاً يقول في دعائه : اللهم أكثر جرذانا وأقل صبياننا .

فزع بعض الناس من الفأر

وبين الفأر وبين طباع كثير من الناس منافرةً حتى إن بعضهم لو وطئ على ثعبان أو رُمي بثعبان لكان الذي يدخله من المكروه والوحشة والفزع أيسرَ مما يدخله من الفأرة لو رُمي بها أو وطئ عليها .
وخبرني رجالٌ من آل زائدة بن مقسم أن سليمان الأزرق دُعِيَ

حَيَّةٌ شَنْعَاءٌ قَدْ صَارَتْ فِي دَارِهِمْ فَدَخَلَتْ فِي جُحْرٍ وَأَنَّهُ اغْتَصَبَهَا نَفْسُهَا حَتَّى قَبِضَ عَلَى مَا أَلْفَى مِنْهَا ثُمَّ أَدَارَهَا عَلَى رَأْسِهِ كَمَا يُصْنَعُ بِالْمِخْرَاقِ وَأَهْوَى بِهَا إِلَى الْأَرْضِ لِيَضْرِبَهَا بِهَا فَاِبْتَدَرَتْ مِنْ حَلْقِهَا فَأَرَاهُ كَانَتْ ارْزَدَرَتْهَا فَلَمَّا رَأَى الْفَأْرَةَ هَرَبَ وَصَرَخَ صَرْخَةً قَالُوا : فَأَخَذَ مَشَابِيحُنَا الْغِلْمَانُ بِإِخْرَاجِ الْفَأْرَةِ وَتِلْكَ الْحَيَّةُ الشَّنْعَاءُ إِلَى مَجْلِسِ الْحَيِّ لِيَعِجَّبُوهُمْ مِنْ إِنْسَانٍ قَتَلَ هَذِهِ وَفَرَّ مِنْ هَذِهِ .

علة نتن الحيات

وَسَأَلْتُ بَعْضَ الْحَوَائِينَ مَنْ يَأْكُلُ الْأَفَاعِيَّ فَمَا دَوَّعُنَا فَقُلْتُ : مَا بِالْحَيَّاتِ مُنْتَنَةُ الْجُلُودِ وَالْجُرُومِ قَالَ : أَمَّا الْأَفَاعِيَّ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِمُنْتَنَةٍ لِأَنَّهَا لَا تَأْكُلُ الْفَأْرَ وَأَمَّا الْحَيَّاتُ عَامَةً فَإِنَّهَا تَطْلُبُ الْفَأْرَ طَلَبًا شَدِيدًا وَرَبَّمَا رَأَيْتُ الْحَيَّةَ وَمَا يَكُونُ غَلْظُهَا إِلَّا مِثْلَ غَلْظِ إِبْهَامٍ

الكبير ثم أجدها قد ابتلعت الجرذ أغلظ من الذراع فأنكر نتن الحيات إلا من هذا الوجه ولم أر الذي قال قولاً . ودخل أعرايى بعض الأمصار فلقني من الجرذان جهداً فرجز بها ودعا عليها فقال : (يعجل الرحمن بالعقاب ** لعامرات البيت بالخراب) (حتى يُعَجَّلَنَّ إِلَى الشَّيَابِ ** كَحُلِّ الْعَيُونِ وَقَصْرِ الرِّقَابِ) (مستتبعات خلفه الأذنان ** مثل مداري الحصن السلاب)

ثم دعا عليهنَّ بالسَّيِّئَاتِ فَقَالَ : (أَهْوَى لِهِنَّ أَمْرُ الْإِهَابِ ** مَنَهَرْتُ الشَّدَقِ حَدِيدُ النَّابِ) كَأَمَّا بُرْثَنَ بِالْخِرَابِ

التشبيه بالجرذان

وَتُوصَفُ عَضَلُ الْحَفَّارِ وَالْمَاتِحِ وَالَّذِي يَعْمَلُ فِي الْمَعَادِنِ فَتُشَبَّهُ بِالْجُرْذَانِ إِذَا تَفَلَّقَ لَحْمَهُ عَنْ صَلَابَةٍ وَصَارَ زَيْمًا قَالَ الرَّاجِزُ : أَعَدَدْتُ لِلْوَرْدِ إِذَا الْوَرْدُ حَفَزَ غَرْبًا جَرُورًا وَجَلَالًا خُرْخُورًا

(وَمَاتِحًا لَا يَبْنِي إِذَا احْتَجَزَ ** كَأَنَّ جَوْفَ جِلْدِهِ إِذَا احْتَفَزَ) فِي كُلِّ غُضُو جُرْذَيْنِ أَوْ خُرْزِ

أنواع الفأر

وَالزَّبَابُ وَالْخُلْدُ وَالْبَرَابِيعُ وَالْجُرْذَانُ كُلُّهُ فَأَرُ وَيُقَالُ لَوْلَدِ الْبَرَابِيعِ دِرْصٌ وَأَدْرَاصٌ وَالْخُلْدُ أَعْمَى لَا يَزَالُ كَذَلِكَ وَالزَّبَابُ أَصَمُّ لَا يَزَالُ كَذَلِكَ وَأُنْشِدُ : (وَهُمْ زَبَابٌ حَائِرٌ ** لَا تَسْمَعُ الْآذَانُ رَعْدًا) هَكَذَا أَنْشَلُونَا .

شعر وخبر في الفأر

وَأُنْشِدُ الْأَصْمَعِيَّ لِمَزْرَدِ بْنِ ضِرَارٍ فِي تَشْبِيهِ الْجَرَعِ فِي حُلُوقِ الْإِبِلِ

بِحِشْمَانِ الزَّبَابِ وَهُوَ الشَّكْلُ الَّذِي وَصَفْنَاهُ فَقَالَ فِي وَصْفِ ضَيْفٍ لَهُ سَقَاهُ فَوَصَفَ جَرَعَهُ : (فَقُلْتُ لَهُ اشْرَبْ لَوْ وَجَدْتَ بِهَازِرًا ** طَوَالَ الذَّرِيِّ مِنْ مَفْرَهَاتِ خَنَاجِرِ) (وَلَكِنَّمَا صَادَفْتَ ذُودًا مَنِحَةً ** لِمِثْلِكَ يَأْتِي لِلْقَرَى غَيْرِ

عاذِرِ) (فأهوى له الكفين وامتد حلقه ** بجرع كائباج الزباب لازنابر) وقال أعراي وهو يطنر بغريم له
ويذكر قرص الفأر

الصكاك عند فراره منه : الزم الصك لا يقرضه الفأر هزؤوا به : (التابعي ناشراً عندي صحيفته ** في السوق
بين قطين غير أبرار) (جاءوا إلي غضاباً يغطون معاً ** يشفى إراهم أن غاب أنصاري) (لما أبوا جهرة إلا
ملازمتي ** أجمعت مكرأ بهم في غير إنكار) (وقلتُ إني سيأتي غداً جلي ** وإن موعدكم دار ابن هبار)

(وما أواعدهم إلا لأرهم ** عني فيخرجني نقضي وإمراري) (وما جلبتُ إليهم غير راحلة ** تخدي برحلي
وسيف جفنه عاري) (إن القضاء سيأتي دونه زمن ** فاطو الصحيفة واحفظها من الفار) (وصفقة لا يقال
الريح تاجرها ** وقعتُ فيها وقوع الكلب في النار) والعربُ تعيبُ الإنسان إذا كان ضيق الفم أو كان دقيق
الخطم يشبهون ذلك بفم الفأرة وقال عبدة بن الطبيب : يشبهون ذلك بفهم الفأرة . وقال عبدة بن الطبيب :
(ما مع أنك يوم الورد ذو لغط ** ضخم الجزارة بالسلمين وكار)

(تكفي الوليدة في النادي مؤثراً ** فاحلب فإنك حلاب وصرار) (ما كنت أول صب صاب تلعته ** غيث
فأمرع واسترخت به الدار) (تدعو بنيك عباداً وحذيمة ** فأفارة شجها في الجحر محفار)

شعر أبي الشمقمق في الفأر والسنور

وقال أبو الشمقمق في الفأر والسنور : (ولقد قلتُ حين أفقر بيتي ** من جراب الدقيق والفخار) (ولقد كان
آخلاً غير قفر ** مخصباً خيرُهُ كثير العماره) (فأرى الفأر قد تحنن بيتي ** عائذاتٍ منه بدار الإماره) (ودعا
بالرحيل ذبان بيتي ** بين مقصوفة إلى طياره) (وأقام السنورُ منه من شدة الجو ** ع وعيش فيه أذى ومراهِ
(

(قلتُ لما رأيته ناكس الرأس ** س كئيباً في الجوف منه حراره) (ويك صبراً فأنت من خير سن ** ورأته
عيناى قطُّ بحاره) (قال : لا صبر لي وكيف مقامي ** ببيت قفر كجوف الحماره) (قلتُ : سر راشداً إلى
بيت جارٍ ** مخصب رحله عظيم التجاره) وإذا العنكبوت تغزل في دنٍ وحبي الكوز والقرقاره

(سقط : بيت الشعر) (وأصاب الجحام كلبى فأضحى ** بين كلب وكلبة عياره) وقال أيضاً : (ولقد قلتُ
حين أجحرنى البر ** دُ كما تجحر الكلابُ ثعاله) (في بيت من الغضارة ي قفر ** ليس فيه إلا النوى
والمخاله) (عطلتُهُ الجرذان من قلة الخير ** وطار الذباب نحو زباله) (هاربات منه إلى كل خصب ** جيدة لم
يرتجى منه بلاله) (وأقام السنورُ فقيه بشر ** يسأل الله ذا العلا والجلاله) (أن يرى فأرة فلم ير شيئاً **
ناكساً رأسه لطلو الملاله) (قلتُ لما رأيته ناكس الرأس ** س كئيباً يمشي على شرِّ حاله) (قلتُ صبراً يا ناز
رأس السنأ ** نير وعلته بحسن مقاله) (قال : لا صبر لي وكيف مقامي ** في قفار كمثل بيد تباله) (لا أرى
فيه فأرة أنقض الرأس ** س ومشي في البيت مشي خياله)

(قلت : سر راشداً فحار لك الله ** ولا تعد كريج البقاله) (فإذا ما سمعت أنا بخير ** في نعيم من عيشة ومنال) (فائتنا راشداً ولا تعدونا ** إن من جاز رحلتنا في ضلاله) (ثم ولي كأنه شيخ سوء ** أخرجه من محبس بكفاله) وقال أيضاً : (نزل الفأر ببتي ** رفقة من بعد رفقه) (حلقاً بعد قطار ** نزلوا بالبيت صفقه)

(ابن عرس رأس بيتي ** صاعداً في رأس نبقه) (سيفه سيفٌ جديدٌ ** شقه من ضلع سلقه) (جاءنا يطرق بالليل ** فدى الباب دقه) (دخل البيت جهاراً ** لم يدع في البيت فلقه) (وتترس برغيف ** وصفق نازويه صفقه) (صفقة أبصرت منها في سواد العين زرقه) (زرقه مثل ابن عرس ** أغبش تعلقه بلقه) (وقال أيضاً : (أخذ الفأر برجلي ** جفلوا منها خفافي) (وسراويلات سوء ** وتباين ضعاف)

(سقط : بيتين الشعر) (درجوا حولي بزفن ** ويضرب بالدفاف) (قلت : ما هذا ؟ فقالوا : ** أنت من أهل الزفاف) (ساعة ثمت جازوا ** عن هواي في خلاف) (نقرأوا استي وباتوا ** دون أهلي في لحافي) (لعقوا استي وقالوا ** ريح مسك بسلاف) (صفعوا نازويه حتى ** استهلّت بالرُعاف)

أحاديث في الفأرة والهرة

يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : خمس يُورثن النسيان : أكل التفاح وسُور الفأرة والحِجامة في النقرة ونبد القملة والبول في الماء الراكد .

وابن جريج قال : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا رقدت فأغلق بابك وخمر إناذك وأوك سقاءك وأطفئ مصباحك فإن الشيطان لا يفتح غلقاً

ولا يكشف إناء ولا يحل وكاء وإن الفأرة الفويسقة تحرق على أهل البيت .

قالوا : في قول النبي صلى الله عليه وسلم في السنابير : إنهم من الطوافات عليكم وفي تفرقه بين سُور السَّور وسُور الكلب دليل على حبه لاتخاذهن وليس لاتخاذهن وجه إلا إفناء الفأر وقتل الجرذان فكأن النبي صلى الله عليه وسلم كما أحب استحياء السنابير فقد أحب وعن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : عذبت امرأة في هرة سجنتها ويقال : ربطتها فلم تطعمها ولم تسقها ولم تُرسلها تأكل من خشاش الأرض . وعن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : دخلت امرأة ممن كان قبلكم النار في هرة ربطتها فلا هي

أطعمتها ولا هي تركتها تُصيب من خشاش الأرض حتى ماتت فأدخلت النار كلما أقبلت فمشتها وكلما أذبرت نهشتها .

قال : وذكر النبي صلى الله عليه وسلم صاحب المخبج يجر قصبه في النار حتى قال : وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تدعها تأكل من خشاش الأرض .

وصف السنور بصفة الأسد

قال ابن يسير في صفة السنور فوصفه بصفة الأسد إلا ما وصفه به من التتمير فإن السنور يوصف بصفة الأسد إذا أرادوا به الصورة

والأعضاء والوثوب والتخلع في المشي ألا إن في السنانير السود والثمر والبلق والخلنجية وليس في ألوان الأسد من ذلك شيء إلا كما ترون في النواذر : من الفأرة البيضاء والفاخنة البيضاء والورشان الأبيض والفرس الأبيض فقال ابن يسير في دعائه على حمام ذلك الجار حين انتهى إلى ذكر السنور : (مما أعير مفر أعصف ضيغم ** عن كل أعصل كالسنان هصور)

(متسريل ثوب الدجى أو غبشة ** شبت على متنيه بالتمير) (يختص كل سليل سابق غاية ** محض النجار مهذب مخبور) فزع الناقة من الهر وإذا وصفوا الناقة بأنها رواع شديدة النفزع لفرط نشاطها ومراحها وصفوها بأن هراً قد نيب في دفها وأكثر ما يذكرون في ذلك الهر لأنه يجمع العض بالناب والخمش بالمخالب وليس كل سبع كذلك .
وقال ضابئ بن الحارث :

(بأدماء حرجوج ترى تحت غرزها ** قهاويل هراً و تهاويل أخيلا) وقد أوس بن حجر : (كأن هراً جنياً تحت مغرضها ** والتف ديك برجلها وخنزير) وقال عنتره : (وكأنا ينأى بجانب دفها ال ** وحشي من هزج العشي مؤوم) (هر جنيب كلما عطفت له ** غصبي اتقاها باليدين وبالقم)

السنور في الهجاء

ومما يقع في باب الهجاء للسنور قول عبد الله بن عمرو بن الوليد في أم سعيد بنت خالد : (وما السنور في نفسي بأهل ** لغزلان الخمائل والبراق) (فطلقها فلست لها بأهل ** ولو أعطيت هنداً في الصداق)

الرجم بالسنانير

قال صاحب الكلب : قالوا : ولما مات القصبي وكان من موالي بني ربيعة بن حنظلة وهو عمرو القصبي ومات بالبصرة رجم بالسنانير الميتة قال : وقد صنعوا شبيهاً بذلك بخالد بن طليق حين

زعم أهله أن ذلك كان عن تدبير محمد بن سليمان .

وقالوا : ولم نر الناس رموا أحداً بالكلاب الميتة والكلاب أكثر من السنانير حيّة وميتة فليس ذلك إلا لأن السنانير أحقر عندهم وأنتن .

استطرد لغوي قال : ويقال للجردان العضلان وأولاد الفأر أدراس والواحد درص وكذلك أولاد اليرابيع يقال

: أدراس ودُروس وقال أوسُ بن حَجَر : قال : واليرابيع ضربٌ من الفأر قال : ويقال : نفق اليربوع ينفق تنفيقاً إذا عمل النافقاء وهي إحدى مجاحره ومحافره وهي النافقاء والقاصعاء والدَّامَاء والراهطاء وقال الشاعر :

(فَمَا أُمُّ الرُّدَيْنِ وَإِنْ أَدَلَّتْ * بِعَالِمَةِ بَأْخَالِقِ الْكِرَامِ) (إذا الشيطانُ قَصَّعَ في قَفَاها * تنفَّقناه بالحبلِ التَّوَامِ)
فإذا طُلِبَ من إحدى هذه الحفائر نافق أي فخرج النافقاء وإن طُلِبَ من النافقاء قَصَّعَ ويقال : أنفقتَه إنفاقاً :
إذا صاح به حتى يخرُجَ ونَفَقَ هو : إذا خرَجَ من النافقاء .

احتيال اليربوع

وفي احتيال اليرابيع بالنافقاء والقاصعاء والدَّامَاء والراهطاء وفي جَمْعها التراب على نفسِ باب الجحر وفي تقدمها بالحيلة والحراسة وفي تغليطها لمن أرادها والتَّورِيَّة بشيء عن شيء وفي معرفتها بباب الخديعة وكيف تُؤهم عَدُوها خلاف ما هي عليه ثم في وطنها على زمعاتها في السهولة وفي الأرض اللينة كي لا يعرف أثرها الذي يقتصُّه وفي استعمالها

واستعمال بعض ما يقاربها في الحيلة التوبير والتوير : الوطء على مآخِر أكفِّها العجبُ العجيب .
وزعم أبو عقيل بن دُرُسْت وشَدَّاد الحارثيَّ وحسين الزهريَّ أن الزباء الروميَّة إنما عملت تلك الأنفاق التي ذكرها الشاعر فقال :

(أقام لها على الأنفاقِ عَمْرٌ و * * ولم تشعُرْ بأنَّ لها كميناً) على تدبير اليرابيع في محافيرها هذه ومخارجها التي أعدَّتها ومدخلها وعلى قدر ما يفجؤُها من الأمر .

وأن أهل ثبَّت والرُّوم إنما استخرجوا الاحتيا لبالأنفاق والمطامير والمخارق على تدبير اليرابيع .
اشتقاق المنافق وإنما سمى الله عزَّ وجلَّ الكافرَ في باطنه المورِّي بالإيمان والمستتر

بخلاف ما يُسرَّ بالمنافق على النافقاء والقاصعاء وعلى تدبير اليربوع في التورية بشيء عن شيء قال الشاعر :
(إذا الشيطانُ قَصَّعَ في قَفَاها * تنفَّقناه بالحبلِ التَّوَامِ) وهذا الاسم لم يكن في الجاهلية لمن عمل بهذا العمل ولكن الله عزَّ وجلَّ اشتق لهم هذا الاسم من هذا الأصل .

كلمات إسلامية وقد علمنا أن قولهم لمن يُحجج : صرورة ولمن أدرك الجاهلية والإسلام : مخضرم قولهم وتسميتهم لكتاب الله : قرآنًا فرقانًا وتسميتهم للتمسُّح بالتراب : التيمُّم وتسميتهم للقاذف ب فاسق أن ذلك لم يكن في الجاهلية .

وإذا كان للنابغة أن يبتدئ الأسماء على الاشتقاق من أصل اللغة كقوله : والتُّوي كالحوضِ بالظُلومة الجَلَد)

وحتى اجتمعت العرب على تصويبه وعلى اتباع أثره وعلى أنها لغة عربية فالله الذي له أصل اللغة أحقُّ بذلك .

شعر شَمَاح في الرَّمُوع وذكر شَمَاحُ بْنُ ضَرَارِ الرَّمُوع وكيف تَطَأُ الأَرنبُ عَلَى زَمَعَاتِهَا لِتَغَالِطَ الكِلَابَ وَجَمِيعَ مَا يَطَالِبُهَا فَذَكَرَ بَدِيئاً شَأْنَ العَيْرِ والعَانَةِ فَقَالَ : (إِذَا مَا اسْتَأْفَهَنَّ ضَرَبْنَ مِنْهُ ** مَكَانَ الرُّمَحِ مِنْ أَنْفِ القَدُوعِ) (وقد جَعَلَتْ ضَغَائِنَهُنَّ تَبْدُو ** بِمَا قَدْ كَانَ نَالَ بِلَا شَفِيعِ) (مُدِلَّاتٍ يُرِدْنَ النَّأْيَ مِنْهُ ** وَهِنَّ يَعْينُ مُرْتَقِبٌ تَبُوعِ) (ثُمَّ أَخَذَ فِي صِفَةِ العُقَابِ وَصَارَ إِلَى صِفَةِ الأَرنبِ فَقَالَ : (كَأَنَّ مُتَوَنِّهْنَ مَوَلِّياتٍ ** عَصَى جَنَاحِ طَالِبَةٍ لَمُوعِ)

(سَقَطَ : بَيْتَ الشَّعْرِ) (قَلِيلاً مَا تَرِيثُ إِذَا اسْتَفَادَتْ ** غَرِيضَ اللَّحْمِ عَنْ ضَرْمِ جَزُوعِ) ثُمَّ قَالَ : (فَمَا تَنْفَكُ بَيْنَ عَوِيرَضَاتٍ ** تَجْرُ بِرَأْسِ عَكْرِشَةٍ زَمُوعِ) (تَطَارِدُ سَيِّدَ صَارَاتٍ وَيَوْمًا ** عَلَى خِزَانِ قَارَتَاتِنِ الْجُوعِ) (تَلَوِّذُ ثَعَالِبُ الشَّرَفِينَ مِنْهَا ** كَمَا لِأَذِ الغَرِيمِ مِنَ التَّبِيعِ) (نَمَاهَا الغَزُّ فِي قَطْنِ نَمَاهَا ** إِلَى فَرَخِينَ فِي وَكْرِ رَفِيعِ) (تَرَى قِطْعًا مِنَ الأَنَاشِ فِيهَا ** جَمَاهُجَهُنَّ كَالْخِشْلِ النَزِيعِ) (وَالزَّمُوعُ : الَّتِي تَمْشِي عَلَى زَمَعَاتِهَا : مَآخِرِ رِجْلَيْهَا)

قَالَ أَبُو الْمُفَضَّلِ : تَوَبَّرَ بِيَدَيْهَا وَتَمْشِي عَلَى زَمَعَاتِهَا عَلَى رِجْلَيْهَا وَهِيَ مَوَاضِعُ الثَّنَنِ مِنَ الدُّوَابِّ وَالزَّمْعِ المَعْلَقِ خَلْفَ الظِّلْفِ مِنَ الشَّاةِ وَالظِّيِّ وَالثَّوْرِ قَالَ : وَكُلُّ ذَلِكَ تَوْبِيرٌ وَهُوَ أَنْ تَطَأَ عَلَى مَآخِرِ قَوَائِمِهَا كَيْ لَا يَعْرِفَ أَثَرُهَا إِنْسَانٌ وَلَا كَلْبٌ .

وَذَكَرَ أَنَّهَا تَطَارِدُ ذَبَابَ مَرَّةٍ وَخُزْزًا مَرَّةً وَهُوَ الذَّكَرُ مِنَ الأَرَانِبِ وَالْعِكْرِشَةِ : الأَنْثَى وَالْخُرْنَقُ : وَلَدُهَا إِذَا قَلَّتْ أَرْنَبٌ أَوْ عُقَابٌ فَلَيْسَ إِلَّا التَّائِيثُ هَذِهِ العُقَابُ وَهَذِهِ الأَرَانِبُ إِلَّا أَنْ تَقُولَ : خَزَزَ .

وَقَطْنٌ : جَبَلٌ مَعْرُوفٌ وَالْأَحْنَاشُ : الْحَيَاتُ وَأَحْنَشُ الأَرْضِ : الضَّبُّ وَالْقَنْفُذُ وَالْيَرْبُوعُ وَهِيَ أَيْضاً حَشْرَاتُ الأَرْضِ فَجَعَلَ الحَيَّةَ

حَنْشًا عَلَى قَوْلِهِمْ : قَدْ آذَنِي دَوَابُّ رَأْسِي : يَعْنُونَ الْقَمَلَ)

وَعَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ .

قَالَ أَبُو الْمُفَضَّلِ العَنْبَرِيُّ : مَا أَرَادَ إِلَّا الْحَيَّاتَ بِأَعْيَانِهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَإِنَّ الْعِقْبَانَ أَسْرَعُ إِلَى أَكْلِ الْحَيَّاتِ مِنَ الْحَيَّاتِ إِلَى أَكْلِ الْفَأْرِ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ رُؤُوسَ الْحَيَّاتِ بِأَعْيَانِهَا قَوْلُهُ : (تَرَى قِطْعًا مِنَ الأَحْنَاشِ فِيهَا ** جَمَاهُجَهُنَّ كَالْخِشْلِ النَزِيعِ) لِأَنَّ أَرُؤُسَ الْحَيَّاتِ سَخِيفَةٌ قَلِيلَةُ اللَّحْمِ وَالْعِظَامُ فَلِذَلِكَ شَبَّهَهَا بِالْخِشْلِ النَزِيعِ وَالْخِشْلُ : الْمُقْلُ السَّخِيفُ الْيَابِسُ الْخَفِيفُ .

شَعَرَ فِيهِ ذَكَرَ الْمُقْلِ وَالْحَيَّيَّ قَالَ خَلْفُ الأَحْمَرِ : (سَقَى حِجَاجَنَا نَوَاءَ الشَّرِيَا ** عَلَى مَا كَانَ مِنْ مِطْلٍ وَبِخْلِ) (هُمُ جَمَعُوا النِّعَالَ فَأَحْرَزُوهَا ** وَسَدُّوا دُونَهَا بَابًا بِقِفْلٍ)

(إِذَا أَهْدَيْتَ فَاكْهَةً وَشَاةً ** وَعَشَرَ دَجَاجٍ بَعَثُوا بِنَعْلٍ) (وَمَسَاكِينَ طَوْلَهُمَا ذِرَاعٌ ** وَعَشَرَ مِنْ رَدِيِّ الْمُقْلِ خِشْلٍ) (أَنَاسٌ تَائِهُونَ لَهُمْ رِوَاءٌ ** تَغِيْمُ سَمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ وَبِلٍ) (إِذَا انْتَسَبُوا فَفَرَّخَ مِنْ قُرَيْشٍ ** وَلَكِنْ الْفَعَالُ فَعَالٌ عَكْلٍ) (وَالْحَيَّيَّ الْمُقْلُ عَلَى وَجْهِهِ وَقَالَ أَبُو ذُؤَيْبٍ : (لَا دَرَّ دَرِّي إِنْ أَطْعَمْتُ نَازِلَهُمْ ** قِرْفَ الْحَيَّيِّ وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزٌ)

لِلسَّنُورِ فَضِيلَةٌ عَلَى جَمِيعِ أَصْنَافِ الْحَيَّوَانِ مَا خَلَا الْإِنْسَانَ

وإذا قال القائل : فلان وضع كتاباً في أصناف الحيوان فليس يدخل فيها الملائكة والجن وعلى هذا كلام الناس .
وللحيوان موضع آخر وهو قول الله عز وجل في كتابه : وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .
قد علمنا أن العجم من السباع والبهائم كلما قربت من مُشاكلة الناس كان أشرف لها والإنسان هو الفصيح
وهو الناطق .

إطلاق الناطق على الحيوان وقد يشتقون لسان الحيوان الذي يُصَوَّتُ ويصيح اسم الناطق إذا قرئ في الذكر
إلى الصامت ولهذا الفرق أعطوه هذه المشاكلة وهذا الاشتقاق فإذا تهيأ من لسان بعضها من الحروف مقداراً
يُفَضَّلُ به على مقادير الأصناف الباقية كان أولى بهذا الاسم عندهم

فلما تهيأ للقطاة ثلاثة أحرف قاف وطاء وألف وكان ذلك هو صوتها سمّوها بصوتها ثم زعموا أنها صادقة في
تسميتها نفسها قطا قال الكميت : (كالناطقات الصادقا ** ت الواسقات من الذخائر) وقال الآخر وذكر
القطاة : (وصادقة قد خبرت ما بعثتها ** طروراً وباقي الليل في الأرض مُسَدِّفُ) فجعلها مُخْبِرة وجعل خبرها
صدقا حين زعمت أنها قطاً وإنه كانت القطاة لم تَرْمُ ذلك .
والعرب تتوسع في كلامها وبأي شيء تفاهم الناس فهو بيان إلا أن بعضه أحسن من بعض والذي تهيأ للشاة
قولها : ما ولذلك قال ذو الرمة : (لا يرفع الصوت إلا ما تحوّه ** داع يناية باسم الماء مبعوم)

وقال أبو عبّاد النميري خربق العميري وكان يتعشقه ورآه قد اشترى أضحية فقال : (يا ذابح الماه ماه **
فعلت فعل الجفاه) (أما رحمت من المو ** ت يا خريق شاه) والصبيان هم الذين يسمون الشاة : ماه كأنهم
سمّوها بالذي سمعوه منها حين جهلوا اسمها .

وزعم صاحب المنطق أن كل طائر عريض اللسان والإفصاح بحروف الكلام منه أوجد .
ولابن آوى صياح يشبه صياح الصبيان وكذلك الخنزير وقد تهيأ للكلب مثل : عَفْ عَفْ ووو (وو وأشباه
ذلك وهيئاً

للغراب القاف وقد تهيأ للهازردستان وهو العندليب ألوان آخر وقد تهيأ للبيغاء من الحروف أكثر فإذا صرّت إلى
السنانير وجدتها قد تهيأ لها من الحروف العدد الكثير ومتى أحببت أن تعرف ذلك فتسمع تجاوب السنانير
وتوعّد بعضها لبعض في جوف الليل ثم احص ما تسمعه وتتبعه وتوقف عنده فإنك ترى من عدد الحروف ما لو
كان لها من الحاجات والعقول والاستطاعات ثم ألّفَتْها لكانت لغة صالحة الموضع متوسطة الحال العلة في صعوبة
بعض اللغات واللغات إنما تشتدّ وتعسر على المتكلم بما على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها وعلى قدر
كثرة العدد وقلته وعلى قدر مخارجها وخفتها وسلسها وثقلها وتعقدها في أنفسها كفرق ما بين الرّنجي والخوزي
فإن الرجل ينتخس في بيع الرّنج وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلّم بعامة كلامهم ويباع الخوز ويجاورهم زمناً فلا
يتعلّق منهم بطائل .

والجملة : أن من أعون الأسباب على تعلّم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك وعلى قدر الضرورة إليها في المعاملة

يكونُ البلوغُ فيها والتقصيرُ عنها .

والسنور يناسبُ الإنسانَ في أمور : منها أنه يعطسُ ومنها أنه يتشاءبُ ومنها أنه يتمطى ويغسل وجهه وعينيه بلعابه وتلطع الهرةُ وبرَ جلدٍ ولدها بعدَ الكبر وفي الصغر حتى يصير كأن الدهان تجري في جلده .
ما يتهياً للغربان من الحروف وينتهياً لبعض الغربان من الحروف والحكاية ما لا يعشيره الببغاء .

نفع الفأر

وزعمت الأطباء أن خُرءَ الفأر يُسقاهُ صاحبُ الأسر فيُطلق عن

بوله والأسر هو حُصر البول ولكن لا يسمّى بذلك وهو الأسر بالألف دون الياء .
ويصيب الصبيَّ الحُصر فيحتمل من خُرءِ الفأر فيُطلق عنه فقد قهياً في خُرءِ الفأر دواءان لداءين قاتلين مُجهزين ولذلك قيل لأعرابي قد اجتمعت فيه أوجاعٌ شداد : أي شيء تشتكى قال : أمّا الذي يعمدني فحُصرٌ وأُسْر .

استطراد لغوي

يقال : خَنَى الثور يَخْنِي خَنْياً وواحد الأخشاء خَنْيٌّ كما ترى .
قال ابن الأعرابي : لا يكون النَجْوُ جَعراً حتى يكون يابساً .
ويقال : ونَمَ الذُّبابُ واسم نجوه : النويم وقال الشاعر :

(وقد وَنَمَ الذُّبابُ عليه حتى * كَأَنَّ وَنِيمَهُ نَقَطُ الْمَدَادِ) وهو وَنِيمَ الذُّبابِ وَغُرَّةُ الطائرِ وصوم التَّعامِ وَرَوث الحمار وبعر البعير والشاةِ والظبي وخِثي البقر .

وقال الزُّبَيْر : مَنْ أَهْدَى لَنَا مِكَتَلاً مِنْ غُرَّةٍ أَهْدَيْنَا لَهُ مِكَتَلاً مِنْ تَمْر .
قال : العُرَّةُ اسمٌ لجميع ما يكون من جميع الحيوان ولذا قال الزُّبَيْرُ ما قال .
قال : ويقال : رَمَصَت الدجاجة وذرقت وسلّحت فردا صاروا إلى الإنسان والفأرة قالوا : خرء الإنسان وخرء الفأرة ويقال

خروء الفأرة أدخلوا الهاء فيه كما قالوا ذكورة للذكوان وقد يُستعار ذلك لغير الإنسان والفأرة قالت دَخَتْنُوس بنتُ لقيط بن زُرارة في يوم شعبِ جَبَلَة : (فرّت بنو أسدٍ خرو * * * الطَّيْرُ عن أربابها) فلذلك يقال لبني أسد : خروء الطير وقيل لهم : عبيد العَصَا .
بيت قاله صاحبهم بشر بن أبي خازم قالها لأوس بن حارثة :

ميسم الشعراء

فيحبُّ على العاقل بعد أن يعرف ميسم الشعرُ مَصْرَته أن يتَّقِي لسانَ أحسنِّ الشعراء وأجهلهم شعراً بشطَر ماله بل بما أمكن من ذلك فأما العربيُّ أو المولى الراوية فلو خرج إلى الشعراء من)

جميع ملكه لما عتقته .

والذي لا يكثرث لوقع نبال الشعر كما قال الباخريزي : (ما لي أرى الناس يأخذون ويعطون ** ن ويستمتعون بالنشيب) (وأنت مثل الحمار أبهم لا ** تشكو جراحات ألسن العرب) ولأمر ما قال حذيفة لأخيه والرماح شوارع في صدره : إياك والكلام المأثور .

وهذا مذهب فرعت فيه العرب جميع الأمم وهو مذهب جامع لأسباب الخير .

استطراد لغوي

قال : ويقال لموضع الغائط : الحلاء والمذهب والمخرج والكنيف والحش والمراحض والمرفق .
وكل ذلك كناية واشتقاق وهذا أيضاً يدل على شدة هربهم من الدناءة والفسولة والفحش والقذع .
وخبرني أبو العاص عن يونس قال : ليس الرجيع إلا رجيع

القول والسفر والجرة قال الله تعالى : والسما ذات الرجع وقال الهذلي وهو المتخيل : (أبيض كالرجع رسوب إذا ** ما ثاخ في محتفل يختلي) وفي الحديث : فلما قدمنا الشام وجدنا مرافقهم قد استقبل بها القبلة فكنا ننحرف ونستغفر الله

(شعر ابن عبدل في الفأرة والسنور) وقال ابن عبدل في الفأرة والسنور : (يا أبا طلحة الجواد أغني ** بسجالي من سيبك المقسوم) (أحي نفسي فدتك نفسي فاني ** مفلس قد علمت ذاك عديم) (أو تطوع لنا بسلف دقيق ** أجره إن فعلت ذاك عظيم) (قد علمتم فلا تعامس عني ** ما قضى الله في طعام اليتيم) أراد : لا تعامسوا فاكتفى بالضممة من الواو وأنشد : (فلو أن الأطباء كان حولي ** وكان مع الأطباء الأساءة) (وكساء أبيعه برغيف ** قد رقعنا خروقه بأديم) (وإكاف أعارنيه نشيط ** هو لحاف لكل ضيف كريم)

(ونبيد لما يبيع صهيب ** يذر الشيخ رحمه ما يقوم) (ربّ حلا فقد ذكرت أضيصي ** ولحافي حتى يغور النجوم) (كل بيت عليه نصف رغيف ** ذاك قسم عليهم معلوم) (فر منه موليا فأر بيتي ** ولقد كان ساكناً ما يريم) (قلت : هذا صوم النصارى فحلوا ** لا تليخوا شيو خكم في السموم) (ضحك الفأر ثم قلن جميعاً ** أهو الحق كل يوم تصوم) (قلت : إن البراء قد قام في ال ** ناس ياذن وأنت فينا ذميم) (حملوا زادهم على خنفسات ** وقراد مخيس مزموم) (وإذا ضفدع عليه إكاف ** علموه بعد النفار الرسيم) (خطموا أنفه بقطعة حبل ** يا لقومي لأنفه المخطوم) (تصبوا منجنيقهم حول بيتي ** يا لقومي لبيت المهدوم)

(وإذا في الغباء سم بُريص ** قائم فوق بيتنا بقدم) (قلن : لولا سنورتاه احتفنا ** مسكناً تحت تمره المركوم) (إن ثلاق سنورتاه فضاء ** تذرانا وجمعنا كاهزيم) (عشن العنكبوت في قعر دى ** إن ذا من رزيي لعظيم) (ليتني قد غمرت تدنى حتى ** أبصر العنكبوت فيه يعوم) (غرقاً لا يغيشه الدهر إلا ** زيد

فوق رأسه مركوم) (مخرجاً كفه ينادي ذباباً ** أن أعثني فإنني مظلوم) (قال ذرني فلن أطيع دنواً ** من نبذ
يشمه المركوم)

وقال في الفأر والسنور : (قد قتال سنورنا وأعهدهُ ** قد كان عضباً مقوهاً لسنا) (لو أصبحت عندنا جنازتها
** لحنطت واشترى لها كفناً) (ثم جمعنا أصحابي وغدوا ** فيهم كريبٌ ييكي وقام لنا) (كلُّ عجوزٍ حلو
شمالها ** كانت جرذان بيتنا شحنا) (من كلِّ حدباء ذات خشخشة ** أو جرذ ذي شوارب أرنا) (سقياً
لسنورة فجعتُ بها ** كانت لميثاء حقةً سكنا) قال : والفأر ضروب : فمنها الجرذان والفأر المعروفان وهما
كالجواميس والبقر وكالبُخْت والعُراب ومنها الزباب ومنها الخلدُ

والبراييع شكلٌ من الفأر اسم ولد اليربوع درص مثل ولد الفأر .
ومن الفأر فأرة المسك وهي دويبةٌ تكونُ في ناحية تُبَت تصادُ لنوافجها وسرَّرها فإذا اصطادها صائدٌ عصب
سرَّتها بعصاب شديد وسرَّتها مدلاة فيجتمع فيها دمها فإذا أحكم ذل ذبحها .
وما أكثر من يأكلها فإذا ماتت قور السرة التي كان عصبها له والفأرة حية ثم دفنها في الشعر حتى يستحيل
ذلك الدم اختبئ هناك الجامد بعد موتها مسكاً ذكياً بعد أن كان ذلك الدم لا يُرام تنناً .
قال : وفي البيوت أيضاً قد يوجد فأراً مما يقال له : فأر المسك وهي جرذان سودٌ ليس عندها إلا تلك الرائحة
اللازمة له .

قال : وفي الجرذان جنسٌ لها عبتٌ بالعقود والشُئوف والدراهم والدنانير على شبيه بالذي عليه خُلُق العقعق إلا
أن هذه الجرذان

تفرح بالدنانير والدراهم وبخشخاش الحلبي وذلك أنها تخرجُها من حجورها في بعض الزمان فتلعب عليها
وحوايلها ثم تنقلها واحداً واحداً حتى)
فرعم الشرقي بن القطامي وقد رَوَّه عن شوكر أن رجلاً من أهل الشام أطلع على جرذٍ يخرج من جحره
ديناراً ديناراً فلما رآه قد أخرج مالا صالحاً استخفه الحرص فهم أن يأخذهُ ثم أدركه الحرص وفتح له الرزق
المقسوم باباً من الفطنة فقال : الرأي أن أمسك عن أخذه ما دام يخرج فإذا رأيته يُدخل فعند أول دينار يغيبه
ويعيده إلى مكانه أثب عليه فأجترِفُ المال .

قال : ففعلتُ وعدتُ إلى موضعي الذي كنتُ أراه منه فبينما هو يُخرجُ إذ ترك الإخراج ثم جعل يرقصُ ويشبُّ
إلى الهواء ويذهبُ يَمَنَةً ويسرةً ساعة ثم أخذ ديناراً فولَّى به فأدخله الجحر فلما رأيتُ ذلك قمتُ إلى الدنانير
فأخذتها فلما عاد ليأخذ ديناراً آخر فلم يجد الدنانير أقبل يشبُّ في الهواء ثم يضربُ بنفسه الأرض حتى مات .
وهذا الحديث من أحاديث النساء وأشباه النساء . (باب آخر يدعونه للفأر) وهو الذي ينظر فيه أصحاب
الفراسة في قرض الفأر كما ينظر بعضهم في الخيلان وفي الأكتاف وفي أسرار الكف : ويزعمون أن أبا جعفر
المنصور نزل في بعض القرى فقرض الفأر مسحاً له كان يجلسُ عليه فبعث به ليرفأ فقال لهم الرفاء : إن هنا أهل

بَيْتٍ يَعْرِفُونَ بَقَرَضٍ الْفَارُ مَا يَنَالُ صَاحِبَ الْمَتَاعِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَلَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْرِضُوهُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ تَصْلَحُوهُ
فَبَعَثَ الْمَنْصُورُ إِلَى

شَيْخِهِمْ فَلَمَّا وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى مَوْضِعِ الْقَرْضِ وَثَبَ وَقَامَ قَائِمًا ثُمَّ قَالَ : مَنْ صَاحِبُ هَذَا الْمِسْكِ فَقَالَ الْمَنْصُورُ :
أَنَا فَقَامَ ثُمَّ قَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَاللَّهُ لَتَلِينَنَّ الْخِلَافَةَ أَوْ أَكُونَ جَاهِلًا أَوْ كَذَابًا .
ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ عَمْرُو بْنُ مَجْمَعٍ السَّكُونِيُّ الصَّرِّيمِيُّ وَقَدْ قَضَى عَلَى بَعْضِ الْبُلْدَانِ .

فَأَرَاةُ الْمِسْكِ

وَسَأَلْتُ بَعْضَ الْعِطَارِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا الْمُعْتَزِلَةِ عَنْ فَأَرَاةِ الْمِسْكِ فَقَالَ : لَيْسَ بِالْفَأَرَةِ وَهُوَ بِالْخِشْفِ أَشْبَهَ ثُمَّ قَصَّ
عَلَيَّ شَأْنَ الْمِسْكِ وَكَيْفَ يُصْنَعُ وَقَالَ لَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَطَيَّبَ بِالْمِسْكِ لَمَا تَطَيَّبَتْ بِهِ
فَأَمَّا الرِّبَادُ فَلَيْسَ مِمَّا يَقْرُبُ ثِيَابِي مِنْهُ شَيْءٌ .

قُلْتُ لَهُ : وَكَيْفَ يَرْتَضِعُ الْجَدِيُّ مِنْ لَبَنِ خَنْزِيرَةٍ فَلَا يَحْرُمُ لَحْمُهُ قَالَ : لِأَنَّ ذَلِكَ اللَّبَنَ اسْتَحَالَ لَحْمًا وَخَرَجَ مِنْ
تِلْكَ الطَّبِيعَةِ وَمِنْ تِلْكَ الصُّورَةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْأَسْمِ وَكَذَلِكَ حَوْمُ الْجَلَالَةِ فَالْمِسْكِ غَيْرُ الدَّمِّ وَالْحَلُّ غَيْرُ الْخَمْرِ
وَالْجَوْهَرُ لَيْسَ يَحْرُمُ بَعِينُهُ وَإِنَّمَا يَحْرُمُ لِلْأَعْرَاضِ وَالْعِلَلِ فَلَا تَقْزُرُ مِنْهُ عِنْدَ تَذَكُّرِ الدَّمِّ الْحَقِيقِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِهِ وَقَدْ
تَتَحَوَّلُ النَّارُ هَوَاءً وَالهَوَاءُ مَاءً فَيَصِيرُ الشَّيْءُ الَّذِي بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ بَعِيدًا جَدًّا .

بَيْتُ الْفَارِ

وَالْجُرَذَانُ لَا تَحْفِرُ بِيَوْمَهَا عَلَى قَارِعَةٍ طَرِيقٍ وَتَجْتَنِبُ الْخَفِضَ لِمَكَانِ الْمَطَرِ وَتَجْتَنِبُ الْجَوَادَّ لِأَنَّ الْحَوَافِرَ قَدْ هَدُمَ عَلَيْهَا
بِيَوْمَهَا فَإِذَا أَخْرَجَهَا وَقَعَ حَافِرُ فَرَسٍ مَعَ هَذَا الصَّنِيعِ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى شِدَّةِ الْجَرِيِّ وَالْوَقْعِ وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ يَصِفُ
فَرَسَهُ : (فَلِلْسُوطِ أَهْوَبُ وَلِلرَّجْلِ دَرَّةٌ ** وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعُ أَهْوَجَ مَنْعَبٍ)

(فَادْرِكْ لَمْ يَعْرِقْ مَنَاطُ عِذَارِهِ ** يَدْرُ كَخَذَرُوفِ الْوَلِيدِ الْمُثَقَبِ) (تَرَى الْفَارَ فِي مَسْتَعَكِدِ الْأَرْضِ لَا جَنَّا ** إِلَى
جَدَدِ الصَّحْرَاءِ مِنْ شِدَّةِ مُرْكَبٍ) خَفَاهُنَّ : أَظْهَرَهُنَّ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا بَفَتْحِ الْأَلْفِ أَيْ
أَظْهَرَهَا وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ : (فَإِنْ تَذَفُّنَا الدَّاءَ لَا نُخْفِهِ ** وَإِنْ تَبْعَثُوا الْحَرْبَ لَا نَقْعُدُ)

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : إِنْ بَنِيَ عَامِرٌ جَعَلْتَنِي عَلَى حَنْدِيرَةٍ أَعَيْنُهَا تَرِيدُ أَنْ تَخْتَفِيَ دَمِي .
وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : أَرْبَعَةُ أَحْرَفٍ قَهْمَزُهَا عُقِيلٌ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْعَرَبِ تَقُولُ : فَأَرَاةُ وَمُؤَسَى وَجُؤَنَةٌ وَخُؤَتُ .
فَأَصْنَافُ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْفَأَرَةِ : فَأَرَاةُ الْبَيْشِ وَفَأَرَاةُ الْبَيْتِ

وفأرة المسك وفأرة الإبل وفي فأرة المسك يقول حُمَيْدُ الأَرْقَطُ : (مَمْطُورَةٌ خَالَطَ مِنْهَا النَّشْرُ ** ذَا أَرَجٍ شَقَّقَ عَنْهُ الْفَأْرُ)

وفي فأرة الإبل قال الشاعر : (كَأَنَّ فَأْرَةَ مِسْكِ فِي مِبَاءِهَا ** إِذَا بَدَأَ مِنْ ضِيَاءِ الصُّبْحِ تَبَشِيرُ) وهذا شبيهة بالذي قال الراعي وليس به : (تَبَيَّتْ بَنَاتُ الْقَفْرِ عِنْدَ لَبَانِهِ ** بِأَحْقَفَ مِنْ أَنْقَاءِ تَوْضِيعِ هَائِلِ) (كَأَنَّ الْقِطَارَ حَرَّكَتْ فِي مَبِيَّتِهِ ** جَذِيَّةَ مِسْكِ فِي مُعْرَسِ قَافِلِ)

الأصمعي وأبو مَهْدِيَةَ قال الأصمعيّ : قلت لأبي مَهْدِيَةَ : كيف تقول : لا طيب إلا المسك قال : فأين أنت من العنبر قال : فقلت : لا طيب إلا المسك والعنبر قال : فأين البان فقلتُ : لا طيب إلا المسك والعنبر والبان قال : فأين أنت عن أدهان بحجر قال : فقلت : لا طيب إلا المسك والعنبر والبان قال : فأين أنت عن أدهان بحجر قال : فقلت : لا طيب إلا المسك والعنبر والبان وأدهان بحجر قال : فأين فأرة الإبل صادرة قال الأصمعيّ : وفأرة الإبل .

فأرة البيش والسمندل

وفأرة البيش دَوِّيَّةٌ تَغْتَذِي السُّمُومَ فلا تضرها والبِيش سمّ وحكمه حُكْمُ الطائر الذي يقال له : سَمَنْدَلٌ فإنه يسقط في النار فلا يحترق ريشه .

ما لا يقبل الاحتراق وتُبَيَّتَ عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال : لو أُخِذَ الطُّحْلَبُ فَجَفَفَ فِي الظِّلِّ ثُمَّ أَسْقِطَ فِي النَّارِ لَمْ يَحْتَرَقَ . ولولا ما عاينوا من شأن الطَّلَقِ والْعُودِ الذي يُجَاءُ بِهِ مِنْ كَجَرٍ لَاشْتَدَّ إنكارهم . وزعم ابن أبي حرب أن قَيْسًا رَاهِنًا عَلَى أَنَّ الصَّلِيبَ الذي في عُقْبِهِ مِنْ خَشَبٍ أَنَّهُ لَا يَحْتَرِقُ لِأَنَّهُ مِنَ الْعُودِ الذي كَانَ صُلْبَ عَلَيْهِ الْمَسِيحِ وَأَنَّهُ كَانَ يَفْتَنُ بِذَلِكَ نَاسًا مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ حَتَّى فُطِنَ لَهُ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَأَتَاهُمْ بِقِطْعَةٍ عُودٍ يَكُونُ بِكَرْمَانَ فَكَانَ أَبْقَى عَلَى النَّارِ مِنْ صَليْبِهِ .

مساوي السنابير

قال صاحب الكلب : والسنور لصٌّ لئيمٌ وَشَرٌّ خَوُّونٌ فمن ذلك أن صاحب المنزل يرمي إليه ببعض الطعام فيحتمله احتمال المريب واللصّ المغير حتى يُوجِبَ بِهِ خَلْفَ حُبٍّ أَوْ رَاقُودٍ أَوْ عِدْلٍ أَوْ حُطْبٍ ثُمَّ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا وَهُوَ يَتَلَقَّتْ يَمِينًا وَشِمَالًا كَالَّذِي يَخَافُ أَنْ يُسَلَّبَ مَا أُعْطِيَ أَوْ يُعْثَرَ عَلَى سَرِقَتِهِ فَيَعَاقِبُ ثُمَّ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ خَبِيْثَةً إِلَّا وَهُوَ يَأْكُلُهَا مِثْلَ الْخَنَافِسِ وَالْجُعْلَانِ وَبَنَاتِ وَرْدَانَ وَالْأَوْزَاغِ وَالْحَيَاتِ وَالْعَقَارِبِ وَالْفَأْرِ وَكُلِّ نَتْنٍ وَكُلِّ خَبِيْثَةٍ وَكُلِّ مُسْتَقْدَرٍ .

وهذه الأنعام تدخل الغيظ فتجتنب مواضع السموم بطباعها وتتخطاها ولا تلتفت لفتها وربما أشكل الشيء على البعير فيمتحنه

بالشَّمة الواحدة فلا تغلط الإبلُ إلا في البيش وحده ولا تغلط الخيل إلا في الدفلى وحده .
والسنانيرُ تموت عن أكل الأوزاغ والحيات والعقارب وما لا يحصى عدده من هذه الحشرات فهذا يدلُّ على
جهل بمصلحة المعاش وعلى حسِّ غليظ وشرِّ شديد . هَيْجَ الحيوان قالوا : وكل أنثى من جميع الحيوان ما خلا
المرأة فلا بدَّ لها من هَيْج في زمان معلوم ثم لا يُعرف ذلك منها وفيها إلا بالدلائل والآثار أو ببعض المعاينة .
وإنثُ السنانير إذا هجن للسَّفاد آذِن بصياحهنَّ أهل القبائل ليلاً ونهاراً بشيء ظاهر قاهر عليّ لا يعتريهن فترةٌ
ولا ملالةٌ ولا سامةٌ فربَّ رجلٍ حُرٍّ شديد الغيرة وهو جالسٌ مع نسائه وهُنَّ يتردَّدن على مثل هذه الهيئة
ويصرُخن في طلب السَّفاد فكم من حرة قد خجلت وحُرٌّ قد انتقضت طبيعته .

وليس لشيء من فحولتها مثل ذلك فكل جنس في العالم من الحيوان فذكورته أظهر هيجاً إلا السنانير .
وليس لشيء من فحولة الأجناس مثل الذي للجمل من الإزباد وهجران الرغي وترك الماء حتى تنضم أياطله
ويتورم رأسه ويكون كذلك الأيام الكثيرة وهو في ذلك الوقت لو حُمِّل على ظهره مع امتناعه شهراً من الطعام
ثلاثة أضعاف حمله لحملها .
المكي وإسماعيل بن غزوان ونظر المكي إلى جمل قد أزيد وتلغم وطار على رأسه منه كشق البرس وقد زم بأفقه
(وهو)

يهدر ويقب لا يعقل شيئاً إلا ما هو فيه فقال لإسماعيل بن غزوان : والله لوددت أن أهل البصرة رأوني يوماً
واحداً إلى الليل على هذه الصفة وأنِّي خرجت من قليل مالي وكثيره فقال له إسماعيل : وأي شيء لك في ذلك
قال : كنت والله لا أصبح حتى يوافي داري جميع نساء أهل البصرة وجواريك فيهن فلا أبدأ إلا بهن قال
إسماعيل : إنك والله ما سبقتني إلا إلى القول وأما

حال بعض الحيوان عند معاينة الأنثى وللحمار والفرس عند معاينة الحجر والأتان هيجٌ وصياحٌ وقلقٌ وطلبٌ
والجملُ يقيم على تلك الصفة عاين أو لم يعاين ثم يدنى من هذه الذكورة إناثها فلا تسمح بالإمكان إلا بعد أن
تسوَّى وتدارى .

مقارنة بين السنور والكلب

قالوا : والسنانير إذا انتقل أربابها من دارٍ إلى دارٍ كان وطنها أحبَّ إليها منهم وإن أثبتت أعيانهم فإن هم
حوّلوها فأنكرت الدار لم تقم على معرفتهم فربما هربت من دارهم الحادثة ولم تعرف دارهم الأولى فتبقى مترددة
: إما وحشية وإما مأخوذة وإما مقتولة .
والكلب يخلي الدار ويذهب مع أهل الدار والحمام في ذلك كالسنور .

اختلاف أثمان السنور

قال صاحب الكلب : السنور يسوى في صغره درهماً فإذا كبر لم يسو شيئاً وقال العمي : (فَإِنَّكَ فِيمَا قَدْ أَتَيْتَ مِنْ الْخَنَاءِ * سَفَاهَا وَمَا قَدْ رَدَّتْ فِيهِ يَافِرَاطُ) (كَسَنُورٍ عَبْدُ اللَّهِ بَيْعَ بَدْرِهِمْ * صَغِيرًا فَلَمَّا شَبَّ بَيْعَ بَقِيرَاطِ) وصاحب هذا الشعر لو غبر مع امرئ القيس بن حُجْر والنابعة الذبياني وزهير ابن أبي سُلمى ثم مع جرير والفرزدق والراعي والأخطل ثم مع بشار وابن هرمة وابن أبي عُيينة ويحيى بن نوفل

وأبي يعقوب الأعور ألف سنة لما قال بيتاً واحداً مرضياً أبداً .
وقد يضاف هذا الشعر إلى بشار وهو باطل . حُلاق الحيوان وزعم لي مَنْ لا أَرُدُّ خبره أن الحُلاق قد يعرض للسنانير كما يعرض للخنازير والحمير .
وزعم لي بعضُ أهلِ النظر أن الزنج أشبهوا الحمير في كلِّ شيء حتى في الحُلاق فإنه ليس على ظهرها زنجيٌّ إلا وهو حَلَقِيٌّ .
وقد غلط ليس عليها زنجيٌّ عليه مؤونة من أن يُنَاكَ وليس هذا تأويل الحُلاق وتأويل الحُلاق أن يكون هو الطالب .

والنبيذ يهتكُ ستر الحَلَقِيّ وينقضُ عزم المتجمل وهم يشربون النبيذ أبداً وسوء الاحتمال له وسرعة السكر إليهم عامٌ فيهم .
وعندنا منهم أممٌ فلو كان هذا المعنى حقاً لكان علمه ظاهراً فخبّرني صاحبنا هذا أن في منزل أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي هرين ذكرين عظيمين يكون أحدهما الآخر ، وذلك كثيراً ما يكون . وأن المنكوح لا يمانع الناكح ، ولا يلتمس منه مثل الذي يبذله له .

أكل الهرة أولادها

قالوا : والهرة تأكل أولادها فكفأك بهذه الخصلة لؤماً وشرهاً وعقوقاً وغلظ قلب وقال السيد الحميري وذكر مسير عائشة رضي الله تعالى عنها إلى البصرة مع طلحة والزبير حين شهدت ما لم يشهدا وأقدمت على ما نكصا عنه : (جاءت مع الأشقين في هودج * تزجي إلى البصرة أجنادها) (كَأَنَّهَا فِي فِعْلِهَا هِرَّةٌ * تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ أَوْلَادَهَا) ولبس ما قال في أم المؤمنين وبنات الصديق وقد كان قادراً على أن يوفر على علي رضي الله عنه فضله من غير أن يشتتم الحواريين وأمهات المؤمنين ولو أراد الحق لسار فيها وفي ذكرها سيرة علي بن أبي طالب فلا هو جعل علياً قدوة ولا هو رعى للنبي صلى الله عليه وسلم حرمة .

وذكورة سنانير الجيران تأكل أولاد الهرة ما دمن صغاراً أو فوق الصغار شيئاً وتقتلها وتطلبها أشد الطلب والأمهات تحرسها منها وتقاتل دونها مع عجزها عن الذكورة .
الألوان الأصيلة في الحيوان قال أبو إسحاق : السنور الذي هو السنور هو المنمر وهو الأغر وهو الذي يُقال له : البقالي وذلك لكثرة اتخاذ البقالين لها من بين سائر السنانير لأنها أصيد للفأر .
قال : وجميع ألوان السنانير إنما هي كالشيات الداخلة على اللون .

قال : وكذلك الحمار إنما هو الأخضر والألوان الأخر داخله عليه .
قال : فأما الأسد فليست بذات شيات ولا تعدو لوناً واحداً ويكون ذلك اللون متقارباً غير متفاوت .

أحوال إناث السنابير وذكرها

قال : ومن فضيلة ما في السنابير أنها تصنع في السنة مرتين وكذلك الماعزة في القرى إلا ما داس الحب .

قال : ويحدث لإناث السنابير من القوة والشجاعة إذا كامها الفحل وهرب منها عند الفراغ فلو لحقته قطعتة .
ويحدث للذكر استخاءً كما يحدث للذئب القوي إذا ناله الخدش اليسير ويحدث للضعيف من الجراة عليه حتى يشب عليه فيأكله فلا يمتنع منه كما قال الشاعر : ويحدث مثل ذلك للجرذ إذا خشي من الحرذ على سائر
الجرذان حتى يشب فيقطعها وتقرب منه ضعفاً عنه .

وسائر الحيوان إنما يعتريه الضعف عن أمثاله إذا خشي وترك أمثاله على حالها .
قول زرادشت في الفأر والرد عليه ثم رجعنا إلى قول زرادشت في الفأر .
زعم زرادشت أن الفأرة من خلق الله وأن السنور من خلق الشيطان فليل للمجوس : ينبغي على أصل قولكم
أن يكون الشيء

الذي خلق الله خيراً كله ونفعاً كله ومرفقاً كله ويكون ما خلق الشيطان على خلاف ذلك ونحن نجد عياناً أن
الذي قلتم به خطأ رأينا الناس كلهم يرون أن الفأر بلاء ابتلوا به فلم يجدوا بداً من الاحتيا لصره مضرته
كالداء النازل الذي يلتمس له الشفاء ثم وجدناهم قد أقاموا السنابير مقام التدوي والتعالج وأقاموا الفأر مقام
الداء الذي أنزله الله وأمر بالتدوي منه فاجتلبوا لذلك السنابير وبنات عرس ثم نصبوا لها ألوان الصيادات
وصنعوا لها ألوان السموم والمعجونات التي إذا أكلت منها ماتت واستفروها السنابير واختاروا الصيادات .
واجتبوا السنور دون ابن عرس لأن ابن عرس يعمل في الفأر والطير كعمل الذئب بالغنم فأول ما يصنع
بالفريسة أن يذبحها ثم لا يأكلها إلا في الفرط والسور يقتل ثم يأكل فالفار من السنور أشد فرعاً وهو الذي
قوبل به طباعها وطباعه .

وكما أن الذي يأكل الدجاج كثير وأن الذي جعل يازائه ابن آوى وكما أن الذي يأكل الغنم كثير والذي
جعل يازائها الذئب .)

والأسد أقوى منه على النعجة والتعجة من الذئب أشد فرقا .
والحيات تطالب الفأر والجرذان وهي من السنور أشد فرعاً .
وإن كان في الجرذان ما يساوي السنور فإنها منه أشد فرعاً .
فإن كنتم إنما جعلتموه من خلق الشيطان لأكله صنفاً واحداً من خلق الله فالأصناف التي يأكلها من خلق
الشيطان أكثر .

وزعم زَرَادُشْتُ أَنَّ السَّنُورَ لو بال في البحر لَقَتَلَ عشرة آلاف سَمَكَة .
فإن كان إنما استَبَصَرَ في ذمّه في قتل السمك فالسمكُ أحقُّ بأن يكون من خلق الشيطان لأن السمك يَأْكُلُ
بعضه بعضاً والذكر يتبع الأنثى في زمان طَرَحَ البيض فكلما قذفت به التهمة وإن غرقَ إنسان في الماء بَحْرًا كان
أو وادياً أو بعضُ ذواتِ الأربع فالسمكُ أسرعُ إلى أكله من الضَّبَاعِ والنسورِ إلى الحَيَفِ .
وعلى أَنَّ اعتلاله على السنور وقوله : لو بال في البحر قتل عشرة آلاف سمكة فما يقول فيمن زَعَمَ أَنَّ الجُرَذَ لو
بال في البحر قَتَلَ

مائة ألف سَمَكَة وبأي شيء يبين منه وهل ينبغي لمن كسر هذا القول الظاهر الكسر المكشوف الموق أن يفرح
وهل تقرُّ الجماعةُ والأممُ بأنَّ في الفأر شيئاً من المرافق وهل يُمازجُ مَصْرَفُهَا شيءٌ من الخير وإن قلَّ أو ليست
الفأرُ والجُرَذَانُ هي التي تَأْكُلُ كُتُبَ اللَّهِ تعالى وكتبَ العِلْمِ وكتبَ الحسابِ وتقرضُ الثَّيَابَ الثمينةَ وتطلبُ سِرَّ
نوى القطنِ وتُفسدُ بذلك اللُّحُفَ واللَّوَاويجَ والجبابِ والأقبيّةَ والخفّاتين وتحسُّ الأدهانَ فإن عجزتْ أفواهُها
أخرَجَتْهَا

بأذنانها أو ليست التي تنقب السَّلالَ وتقرضُ الأوكيةَ وتأكلُ الجُرَبَ حتى يُعَلِّقَ المتاعُ في الهواء إذا أمكن تعليقه .
وتجلبُ إلى البيوتِ الحَيَاتِ للعداوة التي بينها وبين الحَيَّاتِ وحرصُ الحَيَّاتِ على أكلها فتكون سبباً في اجتماعها
في منازلهم وإذا كثرن قتلن النفوس .
وقال ابن أبي العجوز : لولا مكان الفأر لما أقامت الحَيَّاتُ في بيوت الناس إلا ما لا بال به من الإقامة .
وتقتل الفسيل والنخل وتملك العلفَ والزرع وربما أهلكن القَرَّاحَ كله وحملنَ شعير الكدس وبرّه .
أو ليس معلوماً من أخلاقها اجتذابُ فتائل المصاييح (رغبةً في تلك الأدهان حتى ربما جذبتْها)
جهلاً وفي أطرافها الآخر السُّرَج

تستوقد فتحرق بذلك القبائلَ الكثيرة بما فيها من الناس والأموال والحيوان .
وهي بعدُ آكل للبيض وأصناف الفِراخ من الحَيَّاتِ لها .
فكيف لم تكن من هذه الجهة من خَلْقِ الشيطان .
هذا وبين طباعها وطباع الإنسان مُنافرةً شديدةً ووَحْشَةً مفرطةً وهي لا تأنسُ بالناس وإن طالت معايشتها لهم
والسَّنُورُ آنسُ الخلق بهم .
وكيف تأنس بهم وهم لا يُقلعون عن قتلها ما لم تقلع هي عن مَسَاءَتِهِمْ فلو كنَّ مما يؤكل لكان في ذلك بعض
المرفق فكيف وإنما لُتْلِقَى في الطريق مَيِّتةً فما يعرض لها الكلبُ الجائع .
فالأمم كلها على التفادي منها واتخاذ السنابير لها .
وزَرَادُشْتُ بهذا العقل دعا الناس إلى نكاح الأمهات وإلى

التوضؤ بالبول وإلى التوكيل في نيك المغيبات وإلى إقامة سُورٍ للسُّنْبِ وصاحب الخائض والنفساء .
علة نجاح زرادشت ولولا أَنَّهُ صادف دهرًا في غاية الفسادِ وأُمَّةً في غاية البُعدِ من الحرية ومن الغيرة والألفة

ومن وقد زعم ناسٌ أن ذلك إنما كان وإنما تمّ لأنه بدأ بالملك فدعاه على قدّر ما عرّف من طباعه وشهوته وخلّقه فكان الملكُ هو الذي حمّل على ذلك رعيّته .

والذي قال هذا القول ليس يعرف من الأمور إلا بقدر ما باين به العامة لأنه لا يجوز أن يكون الملك حملَ العامة على ذلك إلا بعد أن

يكون زَرَادشتُ ألقى على ذلك الفسادِ أجنادَ الملك ولم يكن الملك ليقوى على العامة بأجناده وب عشرة أضعاف أجناده إلا أن يكون في العامة عالمٌ من الناس يكونون أعواناً للأجناد على سائر الرعية .

وعلى أن الملوك ليس لها في مثل هذه الأمور علّة تدعو إلى المخاطرة بملكها وإنما غاية الملوك كل شيء لا بد للملوك منه فأمّا ما فضّل عن ذلك فإنها لا تخاطر بأصول الملك تطلب الفضول إلا من كان مُلكه في نصاب إمامة وإمامته في نصاب بُبوة فإنه يتبع كلّ شيء توجبه الشريعة وإن كان ذلك سبيلَ الرأي لأن الذي شرع الشريعة أعلمُ بغيب تلك المصلحة وقد ينبغي أن يكون ذلك الزمان كان أفسدَ زمان وأولئك الأهل كانوا شرّ أهل ولذلك لم ترقُ ذَا دين تحوّل إلى الجوسيّة عن دينه ولم يكن ذلك المذهب إلا في شِقِّهِم وصُقْعِهِم من فارس (

والجبال وخراسان وهذه كلها فارسية .

أثر البيئة في العقيدة فإن تعجّبت من استسقاطي لعقل كسرى أبرويز وآبائه

وأحبّائه وقرابينه وكُتّابه وأطبائه وحكّمائهم وأساورته فإني أقول في ذلك قولاً تعرف به أي ليس إلى العصبية ذهبت .

اعلم أي لم أعن بذلك القول الذين وُلدوا بعد على هذه المقالة ونشؤوا على هذه الديانة وغُذوا بهذه النحلة ورُبُّوا جميعاً على هذه الملة فقد علمنا جميعاً أن عقولَ اليونانية فوقَ الديانة بالدهرية والاستبصار في عبادة البروج والكواكب وعقول الهند فوق الديانة بطاعة البُدّ . وعبادة البِدّة وعقول العرب فوق الديانة بعبادة الأصنام والخشب المنجور والحجر المنسوب والصخرة المنحوتة .

فداء المنشأ والتقليد داء لا يُحسنُ علاجه جالينوس ولا غيره

من الأطباء وتعظيم الكبراء وتقليد الأسلاف وإلفُ دين الآباء والأنس بما لا يعرفون غيره يحتاج إلى علاج شديد والكلام في هذا يطول .

فإن آثرت أن تتعجب حتى دعاك التعجّب إلى ذكر أبرويز فاذا ذكر سادات قُريش فإنهم فوق كسرى وآل كسرى .

دفاع صاحب السور

وقال المحتجّ للسنانير : قد قالوا : أبر من هرّة وأعق من ضبّ وهذا قول الذين عاينوها تأكل أولادها وزعموا أن ذلك من شدة الحبّ لها وقال بعضهم : إنما يعتريها ذلك من جنونٍ يعتريها عند الولادة وجوعٍ يذهب معه علمها بفرق ما بين جرّائها وجرّاء غيرها من الأجناس ولأنها متى أُشيعت أو أُطعمت شَطَرَ شَبَعها لم تعرض

لأولادها والرد على الأمم أمثالها عملٌ مسخوط والعربُ لا تتعصب للسنور على الضبّ فيؤثم عليها في ذلك خلافُ الحقِّ وإنما هذا منكم على جهة قولكم في السنور إذا نَجَتْ لنجوه ثم ستره ثم عاودَ ذلك المكان

فشمه فإذا وجد رائحةً زاد عليه من التراب فقلتم : ليس الكرمَ وستر القبيح أراد وإنما أراد تأنيس الفأر فنحن لا ندعُ ظاهر صنيعة الذي لا حكم له إلا الجميل لما يدعي مدح من تصاريف الضمير وعلى أن الذي قَلْتُمُوهُ إن كان حقاً فالذي أعطيتُمُوهُ من فضيلة التدبير أكثر مما سلَبْتُمُوهُ من فضيلة الحياء .

العيون التي تسرج بالليل قال : والعيون التي تُسرج باللي : عيون الأسد والأفاعي والسنانير والثُمور . والأسدُ سُجِرَ العيون وعيون السنانير منها زُرُق ومنها ذهبية كعيون أحرار الطير وعِتاقها (تَريدُ كَأَنَّ السَّمْنَ فِي حَجَرَاتِهِ ** نُجُومُ الثُّرَيَّا أَوْ عُيُونُ الضِّيَاوِنِ) الضِّيُون : السَّنُور .

تحقيق في الألوان وإذا قال الناس : ثوب أزرق فإنهم يذهبون إلى لون واحد وإذا وصفوا بذلك العينَ وَقَعَ على لونين لأن البازي يسمى أزرق وكذلك العقاب والزُّرْقُ وكل شيء ذهبيُّ العينُ فإذا قالوا : سنور أزرق لم يُدرَ أذهبوا إلى ألوان الثياب أم إلى ألوان عيون البزاة .

وقد قال صُحَارُ العبدِيّ حين قال له معاوية : يا أزرق قال : البازي أزرق وأنشد : (وَلَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ شُكْلَةٍ عَيْنِهَا ** كَذَاكَ عِتَاقُ الطَّيْرِ شُكْلُ عِيُونِهَا) والذهب قد يقال له أصفر ويقال له أحمر .

وقال بعض بني مروان لبعض ولد متمم بن نويرة : يا أحمر قال : الذهب أحمر فلذلك زعم أن (عِتَاقَ الطَّيْرِ شُكْلُ عِيُونِهَا) .

وقال الأخطل : (وَمَا زَالَتِ الْقَتْلَى تُمُورُ دِمَاؤُهُمْ ** بِدِجْلَةٍ حَتَّى مَاءُ دِجْلَةٍ أَشْكُلُ) فالشُّكْلَةُ عندهم تقع على الصُّفْرَةِ والحمرة إذا خالطا غيرهما .

الزرق العيون من العرب

فمن الزرق من الناس صُحَارُ العبدِيّ وعبدُ الرحمن ابنه ودأود بن متمم بن نويرة والعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ومرون بن محمد بن مروان وسعيد بن قيس الهمداني وزرقاء اليمامة وهي عَنَز من بنات لقمان بن عاديا .

ومن الزُّرْقُ مَنْ كَانُوا يَتَشَاءُمُونَ بِهِ : قيس بن زهير وكان أزرق وكان بكرّاً وابن بكرين وكانت البسوسُ زَرْقَاءَ وبكرّاً بنت بكرين ولها حديث لا أحقه .

وكانت الزَّبَاءُ زرقاء والزُّرْقُ العيون من بني قيس بن ثعلبة منهم المرقشان وغيرهما .

الحمر الحماليق من العرب والحمُرُ الحماليق من بني شيبان وكان النعمان أزرق أقشرَ أحمرَ العينين أحمر الحماليق وفيه يقول أبو قُرْدُودَةَ حين هَمَى ابن عمار عن منادمته : (إِنِّي هَمَيْتُ ابْنَ عِمَارٍ وَقَلْتُ لَهُ ** لَا تَأْمَنْ أَحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ وَالشَّعْرَةَ) (إن الملوك متى تنزلُ بساحتهم ** تطر بنارك من نيرانهم شرره) (يا جَفْنَةً كِإِزَاءِ الْخَوْضِ قَدْ هَدَمُوا

**** ومنطقاً مثل وشي اليمنة الحبرة) شعر في الزرق وقال عبد الله بن همام السلولي : وقال آخر : (لقد زَرَقْتُ عيناك يا ابن مُكْعَبٍ ** كما كلُّ ضَبٍّ من اللؤمِ أزرَق)**

وفي باب آخر يقول زهير : (فلما وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ * وَضَعْنَ عَصِيَّ الحاضر المتخيم) معارف في حمرة العين وقال يونس : لم أَرَقَرَشِيّاً قطُّ أَحمرَ عروقِ العينين إلا كان سيِّداً شجاعاً .
وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أشكلَ العينين ضليع الفم .
شعر في الدعاء على الفأر قال : ونزل أبو الرُّغل الجرمي بعض قرى أنطاكية فلقي من جرذاتها شرّاً فدعا عليها بالسنانير فقال : (يا رب شَعَثْ بري الإسّاد أو جههم * ومُنَزَلِ الحُكم في طه وحاميم)

(أتحّ لشيخ ثوي بالشام مُعْتَرِياً * نائي النصار بعيده الدار مهموم) (تَكَنَّفَتْهُ قُرِيَّاتُ الخطة دُكُنْ * وقصُ الرقاب لطيفاتُ الخراطيم) (حجنُ المخالب والأنياب شابةً * غلبُ الرقاب رحيباتُ الحيازيم) (حتى أبيت وزادي غير منعكم * على النزيل ولا كرزي بمعكوم) وأنشدني ابنُ أبي كريمة ليزيد بن ناجية السَّعْدِي : سعد بن بكر وكان لقي من الفأر جهداً فدعا عليهنّ بالسنانير فقال : (أزهر مالك لا يهملك ما بي * أخزى إله محمد أصحابي) (كحلُ العيون صغيرة آذانها * جُح الحنادس يعتورن جراي) (شَمُ الأنوف لريح كل قفية * يلحظن لحظ مروع مراتب)

(دُكُنُ الجباب تدرعت أبدانها * صُعلُ الرُّؤوسِ طويلة الأذنان) (شُخْتُ المخالب والأنياب والشوى * تجلُ الخصور رحيبة الأقارب) (أسقى الإله بلادهنّ سحائباً * غرّ النَّشَاصِ بعيدة الأطناب) (ترمي بغُبس كالليوث تسرّبلت * منها الجلود مدارع السنجاب) (غلبُ الرقاب لطيفة أعجازها * فُطَح الجباه رهيفة الأنياب) (مُتِهِنَسَاتٍ للطراد كأنها * آسادُ بيشة أدمجت بخضاب) (ونحن نظنُّ أنّ هذه القصيدة من توليد ابن أبي كريمة

معارف في السنور والسنور ثاقبُ البصر بالليل وكذلك الفأرة سوداء العينين وهي في ذلك ثاقبة البصر .
والسنور ضعيفُ الهامة وهامته من مقاتله ولا يستطيع أن يذوق الطعام الحارّ والحامض . (مقارنة بين السنور والكلب) قال : وللسنور فضيلة أخرى : أنه كثيرُ الأسماء القائمة بأنفسها غير المشتقات ولا أنها تجمع الصفات والأعمال بل هي أسماء قائمة من ذلك : القطُّ والهرُّ والضَيَّون والسنور .
وليس للكلب اسمٌ سوى الكلب ولا للديك اسمٌ إلا الديك .
وليس للأسد اسمٌ إلا الأسد اللَّيْث وأما الضيغم والخنابس والرَّئِبال وغيرها فليست بمقطوعة والباقي ليست بأسماء مقطوعة ولا تصلح في كل مكان .

وكذلك الخمر فإذا قالوا : قهوة ومدامةً وسُلاف وخندريسٍ وأشباه ذلك فإنما تلك أسماء مشتركة وكذلك السيف وليس هذه الأسماء عند العامة كذلك .
قال : وعلى السنور من الحبة ولا سيما من محبة النساء ومعه من الإلف والأنس والدنو والمضاجعة والنوم في

اللَّحاف الواحد ما ليس مع الكلب ولا مع الحمام ولا مع الدَّجاج ولا مع شيء مما يعيش الناس .
هذا ومنها الوحشي والأهليّ فلولا قُوَّةُ حَبِّه للناس لما كان في هذا المعنى أكثر من الكلاب والكلاب كلّها أهلية

قالوا : وليس بعجيب إن يكون الكلب طيّبَ الفم لكثرة ريقه ولُبُعد قرابته ومشاكلته للأسد وإنما العجبُ في طيب فم السَّور وكأنه في الشَّبه من أشبال الأسد .
ومن يُقبَلُ أفواه السنانير وأجراءها من الخرائد وربّات الحِجال والمخدَّرات والمطهَّمات والقينات أكثر من أن يُحصى لهنَّ عدد وكلهنَّ يخبرنَّ عن أفواهها بالطَّيب والسلامة مما عليه أفواه السباع وأفواه ذوات الجرّة من الأنعام .

وما رأينا ضيعة قطُّ ولا رفيعة قبَّلت فَمَ كلبٍ أو ديكٍ وما كان ذلك من حارس قطُّ ولا من كلابٍ ولا من مكَّلبٍ ولا من مُهَارِشٍ .
والسنور يُخَضَّبُ وتُصاغُ له الشنوف والأقُرطة وتُتحف ويدلُّ .
ومن رأى السنور كيف يَحْتِلُ العُصفورَ مع حَذَرِ العُصفور وسُرعة طيرانه على أن جهته في الصيدِ جهةُ الفهد والأسد ومن رآه كيف يرتفع بوَثْبته إلى الجراة في حال طيرانها علم أنه أَسْرَعُ من الجراة .
وله إهابٌ فضفاضٌ وقميصٌ من جلده واسعٌ يموج فيه بدنه وهو مما يضع لسعة إبطيه ولو)
شاء إنسان أن يعقده صُلْبُهُ وَيَنْشِيَ أوْلَهُ على آخِرِهِ كما يُنْشَى المِخْرَاق وكما ينشئ قضيبُ الخيزران لفعل .
ويوصفُ الفرسُ بأنَّه رهِل اللَّبان رحيبُ الإهاب واسع

الآباط وعيب الحمار للكرّازة التي في يديه وفي منكبَيْهِ وانضمامهما إلى إبطيه وضيق جلده وإنما يعدُّو بعُنقه .

التجارة في السنانير

قالوا : وللسنور تجارٌ وباعة ودلّالون وناسٌ يعرفون بذلك ولها راضة .
وقال السَّنْدِيُّ بن شاهك : ما أعياني أحدٌ من أهل الأسواق : من التجار ومن الباعة والصناع كما أعياني أصحابُ السنانير يأخذون السَّورَ الذي يأكل الفراخ والحمام ويوئب أقفاص الفواخيت والوراشين والدَّباسي والشفانين يودخلونه في دَنٍّ ويشدُّون رأسه ثم يدخرجونه على الأرض حتى يَشْغَلَهُ الدُّوَارُ ثم يدخلونه في قفص فيه الفراخ والحمام فإذا رآه المشتري رأى شيئاً عجيباً وظنَّ أنه قد ظفر بحاجته فإذا مضى به إلى البيت مضى بشيطانٍ فيجمع عليه

بليتين إحداهما أكلُ طيوره وطيور الجيران والثانية أنه إذا ضَرِيَ عليها لم يطلُب سِواها .
ومررتُ يوماً وأنا أريدُ منزلَ المكيِّ بالأساورة وإذا امرأة قد تعلَّقت برجل وهي تقول : بيني وبينك صاحبُ المسلَّحة فإنك دلَّلتني على سَنُورٍ وزعمت أنه لا يقربُ الفراخ ولا يكشفُ القدُور ولا يدنو من الحيوان وزعمت أنك أبصر الناس بسنور فأعطيتك على بصرك و دلالتك دانقاً فلما مضيتُ به إلى البيت مضيتُ

بشيطان قد والله أَهْلَكَ الجيرانَ بعد أن فرَغَ منا ونحنُ منذ خمسةِ أيامٍ نَحْتال في أخذه وها هو ذا قد جئتكَ به فرُدَّ عَلَيَّ دانقي وخُذْ ثمنه من الذي باعني ولا والله إن تُبْصِرَ من السنابير قليلاً ولا كثيراً .

قال الدلالُ : انظروا بأيِّ شيء تستقيلني ولا والله إن في ناحيتنا فتًى هو أبصرُ بسنور منِّي وذلك من مَن سيّدي ومولاي .
فقلتُ للدلالُ : ولا والله إن في هذه الناحية فتًى هو أشكر لله منك .

أكل السنابير

وناس يأكلون السنابيرَ ويستطيونها وليس يأكل الكلبَ أحدٌ إلا في الفُرط .
والعامة تزعم أن من أكل السَّنورَ الأسود لم يَعْمَلْ فيه السحر والكلبُ لا يؤكل .
أكل الديك والديك خبيث اللحم عَضِلَه إلا أن يُخْصَى وتلك حيلة لأهل حِمَص وليست عندنا فيه حيلة كيف صبري عن مثل جُمُجْمة الهرِّ تشنَّى بِمُسْبَطَرٍ متين (ليس يخفى عليك حين تراها ** أنها عُدَّةٌ لداءٍ دفين)

سكينة التابوت قالوا : وزعم بعضُ أهل الكتاب وبعضُ أصحاب التفسير أن السَّكينة التي كانت في تابوت موسى كانت رأس هِرٍّ .

استطراد لغوي قالوا : وقلتم في الاشتقاق من اسم الكلب : كَلِب و كلاب ومَكْلَبَة ومُكالب وأصاب القومُ كَلْبَة الزمان مثل هَلْبَة وهي الشدَّة .

والكِلابُ واحِدُها كَلْب وتجمع على كلاب وأكلب وكليب كما يجمع البُخْتُ بَخِيتاً وأبْجَتْ .
والكَلابُ بتشديد اللام : صاحب الكلاب والمُكَلَّبُ بتشديد اللام وضم الميم : الذي يعلم الكِلابَ الصَّيْدَ وقال طُفيلُ الغنويّ :

(تُبَارِي مَرَاخِيهَا الرِّجَاجَ كَأَنَّهَا * ضِرَاءٌ أَحَسَّتْ نَبَأَةً مِنْ مَكَلَّبِ) وقال الآخر : (خُوصٌ تَرَاخُ إِلَى الصُّدَاحِ إِذَا غَدَتْ * فِعْلُ الضَّرَاءِ تَرَاخُ لِلْكَالِبِ) والكَلْبُ : داء يقع في الإبل فيقال كَلِبَتِ الإِبِلُ تُكَلِّبُ كَلْباً وأَكَلَبَ القومُ : إِذَا وَقَعَ فِي إِبِلِهِمُ الْكَلْبُ وَيُقَالُ كَلِبَ الْكَلْبُ وَاسْتَكَلَبَ : إِذَا ضَرَبَ وَتَعَوَّدَ أَكَلَ النَّاسَ وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا عَضَّه الْكَلْبُ الْكَلِبُ : قَدْ كَلِبَ الرَّجُلُ .

ويقال : إن الرَّجُلَ الْكَلِبَ يَعَضُّ إِنْسَاناً آخَرَ فَيَأْتُونَ رَجُلًا شَرِيفًا فَيَقْطُرُ لَهُمْ مِنْ دَمٍ إِصْبَعَهُ فَيَسْقُونَ ذَلِكَ الْكَلْبَ فَيَبْرَأُ وَقَالَ الْكُمَيْتُ : (أَحْلَامُكُمْ لِسِقَامِ الْجَهْلِ شَافِيَةٌ * كَمَا دِمَاؤُكُمْ يُشْفَى بِهَا الْكَلْبُ)

قالوا : فقد يقولون للسَّنورِ هِرٌّ ولِلْأَنْثَى هِرَّةٌ ويقال من ذلك هِرَّ الْكَلْبُ يَهْرُ هَرِيرًا وتسمَّى المرأةُ هِرَّةً ويكنى الرَّجُلُ أبا هِرٍّ وأبا هُريرة وقال الأعشى : (وَدَّعْ هُريرةً إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ * وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ) وقال امرؤ القيس : (دَارٌ هُرٌّ وَالرَّيَابُ وَفَرَّتَنِي * وَلَمِيسَ قَبْلَ تَفَرُّقِ الْيَامِ)

وقال ابن أحرار : (إِنَّ امراً القيسِ عَلَى عَهْدِهِ * في إرثٍ ما كان بناه حُجْرٌ) (بَنَتْ عَلَيْهِ الملك أُنَابَهَا * كَأْسُ رَنْوَنَةٍ وَطَرْفٍ طَمِرٌ) أطباء الهرة وحملها قال : وللهرة ثمانية أطباء : أربعة تقابل أربعة أولهن بين الإبط والصدر وآخرهن عد الرُفْعِ وتحملُ خمسين يوماً وتضع جراها غُمياً وليس بين تفقيحها وتفقيح جراء الكلاب إلا اليسير .

إيثار الهرة والديك والهرّة من الخلق الذي يؤثر على نفسه ولها فضيلة في ذلك على الديك الذي له الفضيلة في ذلك على جميع الحيوان إلا أن الديك لا يفعل ذلك بالدجاج إلا مادام شاباً ولا يفعل ذلك بأولاده ولا يعرفهم وإنما يفعل ذلك بالدجاج على غير الزواج وعلى غير القصد إلى واحدة يقصد إليها بالهوى .

والهرّة يلقى إليها الشيء الطيب وهي جائعة فتدعو أولادها وقد استغنين عن اللبن وأطعن الأكل والتقمم والتكسب نعم حتى ربما فعلت ذلك بمنّ وهنّ في العين شبيهات بها في العظم فلا تزال ممسكة عن تلك الشحمة على جوعها ومع شره السنانير حتى يُقبلَ ولدها فيأكله .

ورجل من أصحابنا ائتمنوه على مال فشدّ عليه فأخذه فلما لامه بعض نصحائه قال : يطرحون اللحم قدام السنور فإذا أكله ضربوه .

فصرب شرّة السنور مثلاً لنفسه .

والهرّة ربما رموا إليها بقطعة اللحم فتقصّد نحوها حتى تقف

عليها فإذا أقبلَ ولدها تجافت عنها وربما قبضت عليها بأسنانها فرمت بها إليه بعد شم الرائحة وذوق الطعم .
نقل الهرة أولادها)

والهرّة تنقل أولادها في المواضع من الخوف عليها ولا سبيل لها في حملها إلا بفيها وهي تعرف دقة أطراف أنيابها وذرب أسنانها فلها بتلك الأنياب الحداد ضرب من القبض عليها والعصّ لها بمقدار تبلغ به الحاجة ولا تؤثر فيها ولا تؤذيها .

مخالب الهرة والأسد فأما كُفُّها والمخالبُ المعقّفة الحِدادُ التي فيها فإنها مصونة في أكمامها فمتى وقعت كُفُّها على وجه الأرض صارت في صون ومتى أرادت استعمالها تشركها وافة غير مكلمة ولا مثلومة كما وصف أبو زبيد كفّ الأسد فقال :

(بِحُجْنٍ كَالْحَاجِنِ فِي قُتُوبٍ * يَقيها قِصَّةُ الأَرْضِ الدَّخِيسُ) أنياب الأفاعي كذلك مخالبها ومخالب الأسد وأنياب الأفاعي وقد قال الرّاجز وهو جاهليّ : (حتّى دنا من رأس نضناض أصمّ * فخاضه بين الشراك والقَدَمِ)

زعم بعض المفسرين في السنانير والخنازير

وزعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد وأن الخنزير خلق من سلحة الفيل لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل

سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الفأر وشكوا إلى نوح ذلك سأل ربّه الفرج فأمره أن يأمر الأسد فيعطس فلما عطس خرج من منخره زوج سنابير : ذكر وأنثى خرج الذكر من المنخر الأيمن والأنثى من المنخر الأيسر فكفياهم مؤونة الجرذان ولما تأذوا بري نجوهما شكوا ذلك إلى نوح وشكا ذلك إلى ربّه فأمره أن يأمر الفيل فليسلح فسلاح زوج خنازير فكفياهم مؤونة رائحة النجو .

وهذا الحديث نافق عند العوامّ وعند بعض القصّاص .
إنكار تخلّق الحيوان من غير الحيوان فقد أنكر ناس أن يكون الفأر تخلّق في أرحام إنائها من أصلاب ذكورها ومن أرحام بعض الأرضين كطينة القاطول

فإن أهلها زعموا أنهم ربما رأوا الفأرة لم يتمّ خلقها بعد وإن عينيها لتبصّان ثم لا يرمون حتى يتمّ خلقها وتشتدّ حركتها .

وقالوا : لا يجوز لشيء خُلِقَ من الحيوان أن يُخلق من غير الحيوان ولا يجوز أن يكون شيء له في العالم أصل أن يؤلّف الناس أشياء تستحيل إلى مثل هذا الأصل فأنكروا من هذا الوجه تحويل الشبه ذهباً والزئبق فضة .
وقد علمنا أن للتوشاذر في العالم أصلاً موجوداً وقد يصعدون الشعر ويدبرونه حتى يستحيل كحجر النوشاذر ولا يغادر منه شيئاً في عمَل ولا بدّن .

وقد يدبرون الرمّاد والقلّي فيستحيل حجارة سوداً إذا عمَل منها أرحاء كان لها في الرّبع فضيلة .
قالوا : وللمرداسنج في العالم أصل قائم والرصاص يُدبر فيستحيل مُرداسنجا وللرصاص في العالم أصل قائم فيدبرون المرداسنج فيستحيل رصاصاً .
وللتوتياء أصل قائم فيدبرون أقليميا الثّحاس فنستحيل ثوتياء .

وكذلك المينا له أصل قائم وقد عمَله الناس .
وكذلك الحجارة السّود للطحين وغير ذلك .
فأما قولهم : لا يجوز أن يكون شيء من الحيوان يُخلق من ذكر وأنثى فيجيء من غير ذكر وأنثى فقد قلنا في جميع ذلك في صدر كتابنا هذا بما أمكننا .
معارف في الحيات قال : والحية إن رأت حية ميتة لم تأكلها ولا تأكل الفأر ولا الجرذان الميتة ولا العصافير الميتة مع حرص الحية عليها ولا تأكل إلا لحم الشيء الحيّ إلا أن يدخل الحوّاء في حلوقها

اللحم إدخالاً فأما من تلقاء نفسها فإن وجدته وهي جائعة لم تأكله .
فينبغي أن يكون صاحب المنطق إنما عني بقوله : أخبث ما تكون ذوات السموم إذا أكل بعضها بعضاً لا بتلاع دون كل شيء وهم لا يعرفون ذلك في الحيات إلا للأسود فإنه ربما كان مع الافاعي في جونة فيجوع فيبتلعها وذلك إذا أخذها من قبل رؤوسها وإن رام ذلك من جهة)

الرأس فعوضته الأفعى قتلته .

وزعموا أن الحية لا تصاعد في الحائط الأملس ولا في غير الأملس وإنما يقول ذلك أصحاب المخاريق والذين يستخرجون الحيات بزعمهم من السقوف ويشمون أرايح أبدانها من أطراف القصب إذا مسحوها في ترايع البيوت .

قالوا : وقد تصعد الحيات في الدرج وأشباه الدرج لتطلب بيوت العصافير والفأر والخطاطيف والزراير والخفافيش وتنحامي في السقف .

في العقرب

وسنذكر تمام القول في العقرب إذ كنا قد ذكرنا من شأنها شيئاً في باب القول في الفأر .
ولما قيل ليحيى بن خالد النازل في مربة الأحنف وزعموا أنهم لم يروا رجلاً لم يختلف إلى البيمارستانات ولا رجلاً مسلماً ليس بنصراني ولا رجلاً لم ينصب نفسه للتكسب بالطب كان أطب منه فلما قيل له : إن القيني قال : أنا مثل العقرب أضر ولا أنفع قال : ما أقل علمه بالله عز وجل لعمرى إنها لتتفع إذا شق بطنها ثم شد على موضع اللسعة فإنها حينئذ تنفع منفعة بينة .

نفع العقرب

والعقرب تجعل في جوف فخار مشدود الرأس مطين الجوانب ثم يوضع الفخار في تنور فإذا صارت العقرب رماداً سقي من ذلك الرماد من به الحصاة مقدار نصف دائق .
وقال حنين : وقد يسقى منه الدائق وأكثر فيفتت الحصاة من غير أن يضر بشيء من الأعضاء والأخلاط وخير الدواء ما قصد إلى العضو السقيم وسلمت عليه الأعضاء الصحيحة .
وقال يحيى : وقد تلسع أصحاب ضروب من الحميات العقارب فيفقدون وتلسع الأفاعي فتموت ومنها ما يلسع بعضها بعضاً فيموت الملسوع فهي من هذا الوجه تكفي الناس مؤونة وتلقى العقرب في الدهن وتترك فيه حتى يأخذ الدهن منها ويمتص ويجتذب قواها كلها بعد الموت فيكون ذلك الدهن يفرق الأورام الغلاط وقد عرف ذلك حنين .

بعض أعاجيب العقرب

ومن أعاجيبها أنها لا تسبح ولا تتحرك إذا ألقيت في الماء كيف كان الماء : ساكناً أو جارياً

والعقرب تطلب الإنسان وتقصد نحوه فإذا قصد نحوها فرّت وهربت وتقصد أيضاً نحو الإنسان فإذا ضربته هربت هرب من قد أساء وتعلم أنها مطلوبة .

والزناير تطالب من تعرض لها وتقصد لعينه ولا تكاد تعرض للكاف عنها .

فصل ما بين المودة والمسالمة في الحيوان وبين العقارب وبين الخنافس مودة والمودة غير المسالمة .
والمسالمة : أن يكون كل واحد من الجنسين لا يعرض للآخر بخير ولا شر بعد أن يكون كل واحد منهما مقرباً لصاحبه .

والعداوة أن يعرض كل واحد منهما لصاحبه بالشر والأذى والقتل ليس من جهة أن أحدهما طعام لصاحبه .
والأسد ليس يشب على الإنسان والحمار والبقرة والشاة من جهة العداوة وإنما يشب عليه من طريق طلب المطعم ولو مر به وهو غير جائع لم يعرض له الأسد والنمر على غير ذلك ولكن قد يقال : إن بين البئر والأسد مسالمة .

والمودة : كما يكون بين العقارب والخنافس فإن بعضها يتألف بعضاً وليست تلك بمسالمة وكما بين الحيات والوزغ فإنها تساقى السم وتزاق وكما بين ضروب من العقارب وأسود ساخ .
والأسود ربما جاع في جونة الحواء فأكل الأفعى وربما عصته الأفعى فقتلته .
علاقة الرائحة بالطعم وريح العقارب إذا شويت مثل ريح الجراد .
وما زلت أظن أن الطعم أبداً يتبع الرائحة حتى حقق ذلك عندي بعض من يأكلها مشوية ونية أنه ليس بينها وبين الجراد الأعراي السمين فرق .

رؤية الخرق الذي في إبرة العقرب

وزعم لي بختيشوع بن جبريل أنه عاين الخرق الذي في إبرة

العقرب وإن كان صادقاً كما قال فما في الأرض أحدٌ بصراً منه وإنه لبعيدٌ وما هو بمستنكر .
وفي العقارب أعجوبة أخرى لأنه يقال : إنها مائية الطباع وإنما من ذوات الدُّرِّ والإنسال وكثرة الولد كما يعترى ذلك السمك والضَّبَّ والخزيرة في كثرة الخنايص .

موت العقرب بعد الولادة

قال : ومع ذلك إن حنَّها في أولادها وإن أولادها إذا بلغنَ حانَ وقتُ الولادة أكلنَ جلدَ بطنها من داخل حتى إذا خرَّقنه خرَّجنَ منه وماتت الأم .
وقد يطاء الإنسان على العقرب وهي ميتة فتغترز إبرتها في رجليه فيلقى الجهدَ الجاهدَ وربما أمرضتُ وربما قتلتُ .

قال : وفي أشعار اللُّغز قيلَ في أكل أولاد العقرب بطنَ الأمِّ وأنَّ عَطَبَها في أولادها : (وحاملة لا يكملُ الدهرَ حملُها ** تموتُ ويبقى حملُها حينَ تَعطَبُ) وليس هذا شيئاً .

خَبَّرَنِي مَنْ أَثَقَّ بِعَقْلِهِ وَأَسْكَنُ إِلَى خَبْرِهِ أَنَّهُ أَرَى الْعَقْرَبَ عِيَانًا وَأَوْلَادُهَا يُخْرُجْنَ مِنْ فِيهَا وَذَكَرَ عِدَدًا كَثِيرًا وَأَنَّهَا صِغَارٌ بِيضٌ عَلَى ظُهُورِهَا نَقَطٌ سُودٌ وَأَنَّهَا تَحْمِلُ أَوْلَادَهَا عَلَى ظَهْرِهَا وَأَنَّهُ عَايَنَ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَقُلْتُ : إِنْ كَانَتِ الْعَقْرَبُ تَلِدُ مِنْ فِيهَا فَأَخْلِقُ بِهَا أَنْ يَكُونَ تَلَأْفُحُهَا مِنْ

العقارب القاتلة

والعقاربُ القاتلةُ تكونُ في موضعين : بشَهْرَزُورٍ وقرى الأهوازِ إلا أن القَوَاتِلَ التي بالأهوازِ جرَّاراتٌ لم نذكر عقاربَ نصيبين لأن أصلها فيما لا يشكُّون فيه من شَهْرَزُورٍ حين حُوصِرَ أهلها ورُموا بالجانيق وبكيزان محشوة من عقارب شَهْرَزُورٍ حتَّى تَوَالَدَتْ هناك فأعطى القومُ بأيديهم .

لغز في العقرب

ومن اللُّغزِ فيها في غير هذا الجنس : (وما بكرة مضبورة مقمطرة * مسرة كبر أن تُنال فتمرضا) (بأشوسَ منها حين جاءت مُدِلَّةٌ * لتقتل نفساً أو تصيب فتمرضا) (فلما دنا نادي أواباً بنعم غيرها * ديراً إذا نال الغريفة أو قَصَا) (استخراج العقارب بالجراد والكراث) قال : والعقارب تُسْتَخْرَجُ من بيوتها بالجراد : تُشَدُّ الجرادُ في طرف عود ثم تُدْخَلُ الجُحْرُ فَإِذَا عَايَنَتْهَا تَعَلَّقَتْ بِهَا فَإِذَا أُخْرِجَ الْعُودُ خَرَجَتِ الْعَقْرَبُ وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْجَرَادَةِ .

فأما إبراهيم بن هانيء فأخبرني أنه كان يُدْخِلُ في جُحْرِهَا خُوطَ كَرَاثٍ فلا يبقى منها عقربٌ إلا تبعته .
ألسنة الحيات والأفاعي ألسنة الحيات كلها سودٌ وألسنة الأفاعي حمراءٌ إلا أنها مشقوقة .

جرَّاراتُ الأهوازِ وسنذكر عقارب الشتاء وعُقَيْرِبَ الْحَرِّ وكلَّ شيء من هذا الباب ولكننا نبدأ بذكر جرَّاراتِ الأهوازِ .

ذكروا أنَّ أَقْتَلَهَا عَقْرَابُ عَسْكَرٍ مُكْرَمٍ وَأَنَّهَا مَتَى ضَرَبَتْ رَجُلًا فُظِنَ أَنَّ تِلْكَ الْعَضَّةَ عَضَّةُ فَمْلَةٍ أَوْ وَخْزَةُ شَوْكَةٍ فَنَالِ مِنَ اللَّحْمِ تَضَاعَفَ مَا بِهِ .

وربما باتت مع الرجل في إزاره فلم تضربه .

وهي لا تدبُّ على كل شيء له غَفَرٌ وَلَا تَدْبُ عَلَى الْمُسُوحِ وَمَا أَكْثَرَ مَا تَأْوِي فِي أَصُولِ الْآجُرِّ الَّذِي قَدْ أُخْرِجَ مِنَ الْأَتَاتَيْنِ وَنَضَّدَ فِي الْأَنْابِيرِ .

وكان أهل العسكر يرون أن من أصلح ما يُعالج به موضع اللسعة أن يُحَجِّمَ وكان الحجاج لا يرضى إلا بدنانير ودنانير لأن ثنياه ربما نَصَلَتْ وَجِلْدَهُ وَجْهَهُ رُبَّمَا تَبَطَّطَ مِنَ السَّمِّ الَّذِي يَرْتَفِعُ إِلَى فِيهِ

بِمَصَّتِهِ وَجَذَبَتْهُ مِنْ أَذْنَابِ الْحَاجِمِ حَتَّى عَمِدُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ قُطْنٍ فَحَشَوْا بِهِ تِلْكَ الْأَنْبُوبَةَ فَإِذَا جَذَبَ بِمَصَّتِهِ فَارْتَفَعَ إِلَيْهِ مِنْ بَخَارِ الدَّمِّ أَجْزَاءٌ مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ تَعَلَّقَتْ بِالْقُطْنِ وَلَمْ تَنْفِذْ إِلَى فِيهِ وَالْقُطْنُ لَيْسَ مِمَّا يَدْفَعُ قُوَّةَ الْمَصِّ ثُمَّ وَقَعُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى حَشِيشَةٍ فَوَجَدُوا فِيهَا الشِّفَاءَ .

من أعاجيب العقرب ومن أعاجيب ما في العقرب أنا وجدنا عقارب القاطول يموت بعضها عن لسع بعض ثم لا يموت عن لسعها شيء غير العقارب .

ونجد العقرب تلسع إنساناً فيموت الإنسان وتسليع آخر فتموت هي فدل ذلك على أنها كما تعطي تأخذ وأن للناس أيضاً سُموماً عجيبة ولذلك صار بعضهم إذا عض قتل .
ومن أعاجيبها أنها تضرب الطست أو القمقم فتخرقه وربما ضربته

فتثبت فيه إبرتها ثم تنصل حتى تبين منها .

العنبر وأثره في الطيور والبال والعنبر يقذفه البحر إلى عبريه فلا يأكل منه شيء إلا مات ولا ينقره طائر بمنقار إلا نصل فيه منقاره فإذا وضع رجليه نصلت أظفاره فإن كان قد أكل منه قتله ما أكل وإن لم يكن أكل والبحريون والعطارون يخبروننا أنهم ربما وجدوا فيه المنقار والظفر وإن البال ليأكل منه اليسير فيموت .
والبال : سمكة ربما كان طولها أكثر من خمسين ذراعاً .

أعاجيب لسع العقرب

ومن أعاجيب العقارب أنها تلسع الأفعى فتموت الأفعى ولا تموت هي وتلسع بعض الناس فتموت هي ولا ينال الملسوع منها من

المكروه قليل ولا كثير ويزعم العوام أن ذلك إنما يكون لمن لسعت أمه عقرباً وهو حمل في بطنها .
وقد لسعت عقرب رجلاً مفلوجاً فذهب عنه الفالج وقصة هذا المفلوج معروفة وقد عرفها صليبا وغيره من الأطباء .

ومن العقارب طيارات وجرارات ومعققات وخضر وحرر .

اختلاف السموم واختلاف علاجها وتختلف سموم العقارب بأسباب : منها اختلاف أجناسها كالجراحة وغيرها ومنها اختلاف التربة كفرق ما بين جرارات عقارب شهرزور وعسكر مكرم .

وتختلف مضرة سمومها على قدر طباع الملسوع ويختلف قدر سمومها على قدر مواضع اللسعة وعلى قدر اختلاف ما بين النهار والليل وعلى قدر ما صادفت عليه الملسوع من غذائه ومن تفتح منافسه وعلى قدر ما تصادف عليه العقرب من الحبلى وغير الحبلى وعلى قدر لسعتها في أول الليل عند خروجها من جحرها بعد أقامت فيه

شتوتها وأشد من ذلك أن تلسع أول ما تخرج من جحرها بعد أن أقامت فيه يومها .

قال ماسرجويه : فلذلك اختلفت وجوه العلاج فصار ضرب من العلاج يفيق عنه إنسان ولا يصلح أمر الآخر .

لسعة الزنبور وخبرني ثمامة عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال : قال لي بختيشوع ابن جبريل وسلمويه وابن ماسويه : إن الذباب إذا ذللك به موضع لسعة الزنبور سكن فلسعني زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين

ذبابة فما سكن إلا في قدر الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج فلم يبق في يدي منهم إلا أن يقولوا :
كان هذا الزبور حَقًّا قاضيًا ولولا هذا العلاج لَقَتَلَك .

حُجِّجُ الْأَطِبَّاءِ وكذلك هم إذا سَقَوْا دواءً فَضُرَّ أو قطعوا عِرْقًا فَضُرَّ قالوا : أنت مع هذا العلاج الصَّوابِ تجِدُ
وقيل لي وقرأت في كتاب الحيوان إنَّ رِيحَ السَّذَابِ يشتدُّ على الحَيَّاتِ فَأَلْقَيْتُ على وجوه)
الأفاعي جُرَزَ السَّذَابِ فما كان عندها إلا كسائر البَقْلِ .
فلو قلت لهم في هذا شيئًا لَقَالُوا : الحَيَّاتِ غير الأفاعي وهذا باطلُ الأفاعي نوع من الحيات وكلهم قد عمَّ ولم
يُخَصَّ .

ما يَدَّخِر من الحيوان وجميع الحشرات والأحناش وجميع العقارب وهذه الدَّبَّابَات التي تعضُّ وتلسع التي تَكُمُن في
الشتاء لا تَأْكُلُ شيئًا في تلك الأشهر ولا تشرب وكذا كل شيء من الهمج والحشرات مما لا يتحرك في الشتاء
إلا النمل والذَرَّ والنحل فإنها قد ادخرت ما يكفيها وليست كغيرها مما تثبت حياؤه مع ترك الطعام .

حرص العقارب والحيات على أكل الجراد

وللعقرب ثماني أرجل وهي حريصة على أكل الجراد وكذلك الحيات وما أكثر ما تلدغ وتنهش صاحب الجراد .

أثر المُرَضِّع في الرضيع ومن عجيب سَمِّ الأفاعي ما خبرني به بعضُ من يُخْبِرُ شَأْنَ الأفاعي قال : كنت بالبادية
ورأيت ناقةً ترتعُ وفصيلها يرتضعُ من أخلافها إذ هَمَّشَتِ الناقةُ على مشافرها أفعى فبقيت واقفةً سادرةً والفصيلُ
يرتضع فيينا هو يرتضعُ إذ خرَّ ميتًا .

فكان موته قبل موت أمه من العجب وكان مرورُ السمِّ في تلك الساعة القصيرة أعجبَ وكان ما صار من
فضول سمها في لبنِ الضَّرْعِ حتى قَتَلَ الفصيلَ قبل أمه عجباً آخر .
والمرأةُ المَرْضِعُ تشربُ النَبِيذَ فيسكر عن لبنها الرضيع وتشربُ دواءَ المشي فيعتري الرضيع الخِلْفَةُ فلذلك يختار

الحكماء لأولادهم الظئر البريئة من الأدوية : في عقلها وفي بدنها .
وتوهموا أن اللبن إنما جاع في الفصيل لقراة اللبنِ والدَّم فصار ذلك السمُّ أسرعَ إليه منه إلى أمه ولعل ضعف
الفصيل قد أعان أيضاً على ذلك .

قصتان في من لسعته العقرب

قال أبو عُبَيْدَةَ : لسعت أعرابياً عقربٌ بالبصرة فخيَّفَ عليه فاشتدَّ جزَعُهُ فقالَ بعضُ الناس : ليس شيءٌ خيراً له
من أن تُغَسَّلَ له خِصْيَةُ زنجي عَرِقَ وكانت ليلة غَمَقَةٍ فلما سَقَوْه قَطْبَ فُقَيْلٍ له : طعم ماذا تجد قال : طعمُ قُرْبَةٍ
جديدة .

وخبرني محمد وعليُّ ابنا بشير أن ظئراً لسليمان بن رياش لسعتها عقربٌ فملأت الدنيا صُراخاً فقال سليمان :

اطلبوا لها هذه العقرب فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان فقالت العجوز : قد برئت وقد سكن وجعي ولا حاجة لي إلى هذا العلاج قال :

فأتوه بعقرب لا والله إن يدرى : أهى تلك أم غيرها فأمر بها فأمسكت فقالت : أنشدك بالله واللبن فأبى وأرسلها عليها فلسعتها فغشي عليها ومرضت زمناً وتساقط شعر رأسها فقبل لسليمان في ذلك فقال : يا مجانين لا والله إن رد علي روحها إلا اللسعة الثانية ولولا هي لقد كانت ماتت . (في القمل والصواب) وسنقول في القمل والصواب ما وجدنا تمكيناً من القول إن شاء الله تعالى .
ذكروا عن إياس بن معاوية أنه زعم أن الصنبان ذكورة القمل

والقمل إناثها وأن القمل من الشكل الذي تكون إناثه أعظم من ذكوره .
وذكروا عنه أنه قال : وكذلك الزرارة والزرة فجعل البراة في الإناث .
وليس فيما قال شيء من الصواب التسديد وقد خبرناكم عن حكايته في الشبوط حين جعله كالبلغل وجعله مخلوقاً من بين البني والزجر .
والقمل يعتري من العرق والوسخ إذا علاهما ثوب أو ريش أو شعر حتى يكون لذلك المكان عفن وخموم . (أثر لون الشعر في لون القملة) والقملة تكون في رأس الأسود سوداء ورأس الأبيض

الشعر بيضاء وتكون خصيفة اللون وكالحبل الأبرق إذا كانت في رأس الأشمط وإذا كانت في رأس الخاضب بالحمرة كانت حمراء وإن كان الخاضب ناصلاً الخضاب كان في ولونها شكلة إلا أن يستولي على الشعر التناول فتعود وهذا شيء يعتري القمل كما تعتري الخضره دود البقل وجراده وذبابه وكل شيء يعيش فيه أثر البيئة في الحيوان وليس ذلك بأعجب من حرّة بن سليم فإن من طباع تلك الحرّة أن تسود كل شيء يكون فيها : من إنسان أو فرس أو حمار أو شاة أو بعر أو طائر أو حية .
ولم نسمع ببلدة أقوى في هذا المعنى من بلاد الترك فإنما تصوّر إبلهم خيلهم وجميع ما يعيش فيها على صورة الترك .

تولد القمل

والقمل يعرض لثياب كل الناس إذا عرض لها الوسخ والعرق والخموم إلا ثياب المجذمين فإنهم لا يقرمون .
وإذا قمل إنسان وأفرط عليه ذلك زأبق رأسه إن كن في رأسه أو جسده وإن كن في ثيابه فموئن .
وقال أبو قطيفة لأصحابه : أتدرون ما يذراً القمل قالوا : لا قال : ذاك والله من قلة عنايتكم بما يصلح أبدانكم يذراً القمل الفسء .

فأما ثمانية فحدثني عن يحيى بن خالد البرمكي أن شيتين يورثان القمل :

أحدهما الإكثار من التين اليابس والآخر بخار اللبن إذا ألقى على الجمرة .
وربما كان الإنسان قمل الطباع وإن تنظف وتعطر وبدل الثياب كما عرض لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن

العَوَام استأذَنَّا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في لباس الحرير فأذنَ لهما فيه ولولا أنهم كانوا في حدٍّ ضرورة لَمَا أذِنَ لهما فيه مع ما قد جاء في ذلك من التشديد .

فلما كان في خلافة عمر رأى عمر على بعض بني المغيرة من أخواله قميصَ حريرٍ فعَلَاهُ بالدَّرَّة فقال المغيريُّ : أو ليس عبد الرحمن بنُ عوفٍ يلبسُ الحرير قال : وأنت مثل عبد الرحمن لا أمَّ لك . (

الاحتتيال للبراغيث واحتاج أصحابنا إلى التسلُّم من عضِّ البراغيث أيامَ كُنَّا بدمشق ودخلنا أنطاكية فاحتالوا لبراغيثها بالأَسِرَّة فلم ينتفعوا بذلك لأن براغيثهم تمشي . وبراعيتهم نوعان : الأَبْجَلُ البَقَّ إنما سَمُوا ذلك الجنس على شبيهه بما حَكَى لي ثَمَامَةُ عن يحيى بن خالدٍ البرمكيِّ فإن يحيى زعمَ أن البراغيثَ من الخلق الذي يعرضُ له الطيرَان فيستحيل بقًا كما يعرض الطيرَانُ لِلنَّمْلِ وكما يعرض الطيرَانُ للدَّعَامِيس فإن الدعاميصَ إذا انسلخت صارت فكان أصحابنا قد لَقُوا من تلك البراغيث جَهْدًا وكانت لها بَلِيَّةٌ أخرى : وذلك أن الذي تُسَهِّرُهُ البراغيث لا يستريح إلا أن يقتلها بالعرْكَ والقَتْلُ وإلى أن يقبضَ عليها فيرمي بها إلى الأرض من فوق سريره فيرى أَنَّهُنَّ إذا صِرْنَ عشرينَ كان أهونَ عليه من أن يَكُنَّ إحدى وعشرينَ فكان الرجلُ إذا رام ذلك من واحدة منها نَتَتْ

يده وكانوا مُلوكًا ومثل هذا شديدٌ على مثلهم فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قُمَصَ الحرير الصَّيْنِيِّ وجعلوها طويلة الأُردان والأُبدان فناموا مستريحين .

خروج القمل من جسم الإنسان

وخبرني كم شئت من أطباء الناس وأصحاب التجارب منهم من يقشعر من الكذب ويتقزز منه أنهم رأوا القمل عيانًا وهو يخرج من جلد الإنسان فإذا كان الإنسان قَمِلًا كان قملُه مستطيلًا في شبيهه بخَلْقَةِ الديدانِ الصغار البيض .

ويذكر أن مثل ذلك قد كان عرضَ لأَيُوبَ النبي صلى الله عليه وسلم حين كان امتَحَنَ بتلك الأوجاع حتى سُمِّيَ : المبتَلَى .

وخبرني شيخٌ من بني ليث أنه اعتراه جَرَبٌ وأنه تَطَلَّى بِالْمُرْتَكِ والدُّهْنِ ثم دخل الحمام فرأى

وخبرني أبو موسى العباسيُّ صديقُنَا أنه كان له غلامٌ بمصر وكان الغلام ربما أخذه إبرة ففتَحَ بها فتَحًا في بعض جسده في الجُلْد فلا يلبثُ أن يطلع من تحت الجلد في القيحِ قملة .

قمل الحيوان

والقمل يُسرَعُ إلى الدَّجَاج والحمام إذا لم يغتَسِلْ يَكُنْ نظيف البيت وهو يعرض للقرْد ويتولَّد من وسَخِ جلد الأسير وما في رأسه من الوسخ ولذلك كانوا يَضْجُون ويقولون : أَكَلْنَا الْقِدُّ والقمل .

تلييد الشعر وكانوا يلبدون شعورهم وذلك العمل هو التلييد والحاك الملبد هو هذا وقال الشاعر : (يا ربَّ
ربَّ الراقصاتِ عشيةً ** بالقومِ بين منى وبين ثبيرِ) (رُحِفِ الرّواحِ قد انقضتْ مُناتُهُمُ ** يحملُن كلَّ ملبدٍ
مأجورِ)

وقال عبد الله بن العجلان النهدي : (إني وما مارَ بالفرقي وما ** قرقرَ بالجلهتين من سربِ) جماعة من القطا
وغيره واحداً سريةً وعبر بها هاهنا عن الحجاج . (والعتر عتر النسيك يخفر بال ** بُدن ليل الإحرام والنصبِ
(وقال أمية بن أبي الصلت : (شاحينَ آبائهم لم ينزعوا تفثاً ** ولم يسألوا لهم قملاً وصيباناً) ويروى : لم
يقربوا تفثاً قال الله عز وجل : ثم ليقتضوا

تفثهم وما أقل ما ذكروا التفث في الأشعار .
والتلييد : أن يأخذ شيئاً من خطمي وآسٍ وسدرٍ وشيئاً من صمغٍ فيجعله في أصول شعره وعلي رأسه كي يتلبد
شعره ولا يعرق ويدخله الغبار ويحم فيقمل .
وكانوا يكرهون تسريح الشعر وقتل القمل فكان ذلك العمل يقلُّ معه القمل .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لكعب بن عُجرة : هل آذاك هَوامف رأسك تعير هَوازن وأسدٍ بأكل القرّة
وقال ابن الكلبي : عُيرت هَوازنُ وسدٌ بأكل القرّة وهما

بنو القملة وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم يمئى وضع كل رجل منه على رأسه قبضةً من دقيق
فإذا حلقوا رؤوسهم سقط ذلك الشعرُ مع ذلك الدقيق ويجعلون الدقيق صدقةً فكان ناسٌ من الصُّركاء وفيهم
ناسٌ من قيس وأسد يأخذون ذلك الشعر بدقيقه فيرمون بالشعر وينتفعون بالدقيق . (ألم تر جرماً أنجذتُ
وأبوكم ** مع الشعر في قص الملبدِ شارغُ) (إذا قرّة جاءت يقول أصب بها ** سوى القمل إني من هَوازنِ
ضارغُ)

شعر في هجو القملين

وقال بعض العقيليين ومرّ بأبي العلاء العقيلي وهو يتفلى فقال :

(وإذا مررت به مررت بقانصٍ ** متصيدٍ في شُرقةٍ مقررٍ) (للقمّل حول أبي العلاء مصارعٌ ** من بين مقتول
وبين عقيرٍ) (وكأنّ لدي خبُون قميصه ** قدّ وتوأمٌ بمسمٍ مقشورٍ) (صرّج الأنامل من دماء قتييلها ** حنق
على أخرى العدو مغيرٍ) وقال الحسن بن هانئ في أيوب وقد ذهب عني نسبه وطالما رأيته في المسجد : (من ينأ
عنه مصادُهُ ** فمصادُ أيوب ثيابه) (تكفيه فيها نظرةٌ ** فتعلّ من علّق حرايه) (يا ربّ محترس بجنبٍ ** ن
الدرز تكفه صوابه) (فاشي النكاية غير معلوم ** م إذا دبّ انسياه)

(سقط : بيت الشعر) (أو طامري وائبٍ ** لم ينجه عنه وثابه) الطامري : البرغوث ثم قال : أهوى له بمذلّق
الغربين إصبعه نصابه) (لله درك من أخي ** قص أصابعه كلابه)

أحاديث وأخبار في القمل

وفي الحديث أن أكل التفاح وسُورَ الفأر وتَبَذَ القملة يورث النسيان .
وفي حديث آخر أن الذي يبنذ القملة لا يُكفَى الهم .
والعامة تزعم أن لبس النعال السود يورث الغم والنسيان .
وتناول أعرابي قملة دبَّت على عنقه ففدغها ثم قتلها بين باطن إهامه وسبَّابته فقبل له : ما تصنع وبلك بحضرة
الأمير فقال :

بأي أنت وأمي : وهل بقي منها إلا خرشاؤها يعني جلدتها وقشرتها وكل وعاء فهو خرشاء .
المأمون وسعيد بن جابر وحدثني إبراهيم بن هانيء قال : حدثني سعيد بن جابر قال : لما كادت الأجناد تحيط
ببغداد من جوانبها قال لنا المخلوع : لو خرجنا هكذا قُطِرُبل على دوابنا ثم رجعنا من فورنا كان لنا في ذلك
نُشرة قال : فلما صرنا هناك هجمنا على موضع خمارين فرأى أناساً قد تطافروا من بعض تلك الحانات فسأل
عنهم فإذا هم أصحاب قمار وترد ونبذ فبعث في آثارهم فردوا وقال لنا : أشتهي أن أسمع حديثهم وأرى
مجلسهم وقمارهم قال : فدخلنا

إلى موضعهم فإذا تحت الترد قطعة لبند وإذا فصوص الترد من طين بعضه مسود وبعضه متروك وإذا الكعبان من
عروة كوز محككة وإذا بعضهم يتكئ على ذن خال وتحتهم بوار قد تنسرت قال : فبينما هو يضحك منهم إذ
رأيت قملة تدب على ذيله فتغلقه وأخذتها فآبني وقد تناولت شيئاً فقال لي : أي شيء تناولت فقلت : دويبة
دبت على ذيلك من ثياب هؤلاء قال : وأي دابة هي قلت : قملة قال : أرنيها فقد والله سمعت بها .
قال : فتعجبت يومئذ من المقادير كيف ترفع رجالاً في السماء وتحط آخرين في الثرى .

معارف وخبر في القمل

قال : والقرد يتفلى فإذا أصاب قملة رمى بها إلى فيه .
ونساء العوام يعجبهن صوت قصف القمل على الأظفار .
ورأيت مرة أنا وجعفر بن سعيد بقالا في العتيقة وإذا امرأته جالسة بين يديه وزوجها يحذنها وهي تفلّي جيها
وقد جمعت بين باطن إهامها وسبَّابتها عدة قمل فوضعتها على ظفر إهامها الأيسر ثم قلبت عليها ظفرها الأيمن
فشدختها به فسمعت لها فرقة فقلت لجعفر : فما منعها أن تضعها بين حجرين قال : لها لذة في هذه الفرقة
والمباشرة أبلغ عندها في اللذة فقلت : فما تكره مكان زوجها قال : لولا أن زوجها يعجب بذلك لنهاها .
شعر لابن ميادة وقال ابن ميادة :

(وسقتني سقاة الجد من آل ظالم ** بأرشية أطرافها في الكواكب) (وإن بأعلى ذي النخيل نسية ** يسرون
أعياراً شداد المناكب) (يشلن بأستاه عليهن دسمة ** كما شال بالأذنان سمر العقارب)

في البرغوث

والبرغوث أسودٌ أحذبُ نَزَاءٍ من الخلق الذي لا يمشي صِرْفاً .
وبما قال بعضهم : ديبُّها من تحتي أشدُّ عَلَيَّ مِنْ عَصْطِهَا .

وليس ذلك بديبٍ وكيف يمكنه الدَّيْبُ وهو مُلْزَقٌ عَلَى النَّطْعِ بجلد جنب النائم ولكنَّ البرغوثَ خبيثٌ فمتى
أَرَادَ الإنسانُ أن ينقلب من جنب إلى جنب انقلب البرغوث واستلقى على ظهره ورفع قوائمه فدغدغه بها فيظنُّ
من لا علم عنده أنه إنما يمشي تحت جنبه .
وقد ذكرنا من شأنه في مواضع ولو كان الباب يكبر حتى يكون لك مجموعاً ولم تعرفه تكلفت لك جمعه .

شعر في البرغوث

وقال بعضُ الأعراب : ليلُ البراغيثِ عَنَانِي وَأَنْصَبِي لا بَارِكَ اللَّهُ في ليلِ البراغيثِ (كَأَنَّهُنَّ وَجِلْدِي إِذْ خَلَوْنَ بِهِ
** أَيْتَامُ سَوْءٍ أَغَارُوا في المَوَارِيثِ)

وقال محبوب بن أبي العشنَّط النهشلي : (للنورِ فيه إذا مَجَّ النَّدى أَرْجُ ** يشفي الصداغَ ويشفي كلَّ مَمْغوثِ)
(أَمَلا وَأَحْلَى لَعِينِي إِنْ مَرَرْتُ بِهِ ** مِنْ كَرْخِ بَغْدَادَ ذِي الرُّمَانِ وَالتُّوثِ) (اللَّيْلُ نَصْفَانِ : نَصْفٌ لِلْهُومِ فما
** أَقْصَى الرِّقَادِ وَنَصْفٌ لِلْبِرَاغِيثِ) (أَيْبْتُ حِينَ تُسَامِينِي أَوَانِلَهَا ** أَنْزِرُوا وَأَخْلَطِ تَسْبِيحاً بَتَغْوِيثِ)

(سُودٌ مَدَالِيحُ في الظلماءِ مؤذِيَةٌ ** وليس ملتَمِسٌ منها بمسبوثِ) وقد جعل التوثُ بالثناء ووجه الكلام بالثناء
وتعجيمها نقطتان من فوقها .

وقال آخر : (لَقَدْ عَلِمَ الْبَرْغُوثُ حِينَ يَعْصَنِي ** ببغدادَ إِنِّي بِالْبِلَادِ غَرِيبُ) وقال آخر : (وَإِنَّ أَمْرًا تَوْذِي
الْبِرَاغِيثُ جِلْدَهُ ** وَيُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ لَدَلِيلُ) (أَلَا رُبَّ بَرْغُوثٍ تَرَكْتُ مَجْدَلًا ** بِأَبْيَضِ مَاضِي الشَّفَرَتَيْنِ صَقِيلِ
(وقال آخر :) (لَقِيتُ مِنَ الْبَرْغُوثِ جَهْدًا وَلَا أَرَى ** أَمِيرًا عَلَى الْبَرْغُوثِ يَقْضِي وَلَا يُعْدي) (يَقْلِبُنِي فَوْقَ
الْفِرَاشِ دَيْبُهُ ** وَتَصْبِحُ آثَارُ تَبَيَّنَ في جِلْدِي)

(أَلَا يَا عِبَادَ اللَّهِ مَنْ لِقَبِيلَةٍ ** إِذَا ظَهَرَتْ في الْأَرْضِ شَدَّ مُعِيرُهَا) (فَلَا الدِّينُ يَنْهَاهَا وَلَا هِيَ تَنْتَهِي ** وَلَا ذُو
سِلَاحٍ مِنْ مَعَدٍّ يَصِيرُهَا) وقال يزيد بن نُبَيْه الكِلَاطِي : (أَصْبَحْتُ سَأَلْتُ الْبِرَاغِيثَ بَعْدَمَا ** مَضَتْ لَبِةُ مَنِي وَقَلَّ
رُقُودُهَا) (فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُورُنَّ بِلْدَةَ ** قِيلَ لَهَا أَوْ بِأَشْهَى وَسَنِيذُهَا) (وَهَلْ أَسْمَعُنُ الدَّهْرَ أَصْوَاتَ ضَمَرٍ
** تُطَالِعُ بِالرَّكْبَانِ صُعْرًا خُدُودَهَا) (وَهَلْ أَرَيْنَ الدَّهْرَ نَارًا بِأَرْضِهَا ** بِنَفْسِي وَأَهْلِي أَرْضُهَا وَوَفُودَهَا)
تراطنُ حَوْلِي كَمَا ذَرَّ شَارِقُ ** ببغدادَ أُنْبَاطَ الْقُرَى وَعَيْبُودُهَا) وقال آخر : لا بَارِكَ اللَّهُ في البرغوثِ إِنْ لَهُ لَدَعًا
شَدِيدًا كَلَدَعَ الْكَيِّ بِالنَّارِ (أَقُولُ وَالْجَمُّ قَدْ غَارَتْ أَوَائِلُهُ ** وَغَلَسَ الْمَدْلُجُ السَّارِي بِأَسْحَارِ) (لِبَرَقَةٍ مِنْ بَرَاقِ
الْحَزَنِ أَعْمَرُهَا ** فِيهَا الطَّبَاءُ تُرَاعِي غَبَّ أَمْطَارِ)

(أَشْفَى لِدَانِي مِنْ دَرَبٍ بِهِ نَبْطٌ ** وَمَنْزِلٌ بَيْنَ حَجَامٍ وَجَزَارٍ) (مَنْ يَنْحَرُ الشَّوْلَ لَا يُحْطَى قَوَائِمُهَا ** بُمْدِيَةِ كَشْرَارِ النَّارِ بَنَارٍ) (إِنَّ هَذَا الْمَصْلُوبَ لَا شَكَّ فِيهِ ** هُوَ مِنْ بَعْدِ صَلْبِهِ مَبْعُوثٌ) حَلٌّ مِنْ حَيْثُ لَيْسَ يَأْكُلُهُ الْبَقُّ وَلَا يَهْتَدِي لَهُ الْبَرْغُوثُ (بَيْنَ حِنَوَى مُطِيَّةٍ إِنَّ يَسْقُهَا ** سَائِقَاهَا فَذَاكَ سِرٌّ مَكِيثٌ) (فَعَلِيهِ الدِّبَارُ وَالْخَزْيُ لَمَّا ** قُلْتُ مَنْ ذَا فَقَالَ لَصٌّ خَبِيثٌ) وَقَالَ أَبُو الرَّمَاحِ الْأَسَدِيُّ : (تَطَاوَلَ بِالْفَسْطَاطِ لَيْلِي وَلَمْ يَكُنْ بِحِنُوِ الْقَصَى لَيْلٌ عَلَيَّ يَطُولُ)

(يُوْرِقُنِي حُدْبٌ صَغَارٌ أَذْلَةٌ ** وَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِنُهُ لَذَلِيلٌ) (إِذَا جُلْتُ بَعْضَ اللَّيْلِ مِنْهُمْ جَوْلَةٌ ** تَعْلَقَنِي أَوْ جُلُنْ حَيْثُ أَجُولُ) (إِذَا مَا قَتَلْنَاهُمْ أَضْعَفُ كَثْرَةً ** عَلَيْنَا وَلَا يُنْعَى لَهُنَّ قَتِيلٌ) (أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً ** وَلَيْسَ لِبَرْغُوثٍ عَلَيَّ سَبِيلٌ) وَقَالَ أَبُو الشَّمَقْمَقِ : (يَا طَوَّلَ يَوْمِي وَطَوَّلَ لَيْلِيَّةٍ ** إِنَّ الْبَرَاغِيثَ قَدْ عَشِنَ بَيْتَهُ) (فِيهِنَّ بُرْغُوثَةٌ مُجَوَّعَةٌ ** قَدْ عَقَدَتْ بَنْدَهَا بِفَقْحِيَّةٍ) وَقَالَ آخَرُ : (تَطَاوَلَ فِي بَغْدَادَ لَيْلِي وَمَنْ يَكُنْ ** بِبَغْدَادَ يَلْبَثُ لَيْلَهُ غَيْرَ رَاقِدٍ) (بَلَادٌ إِذَا جَنَّ الظَّلَامُ تَقَافَزَتْ ** بَرَاغِيثُهَا مِنْ بَيْنِ مِثْنَى وَوَاحِدٍ)

(دِيَازَجَةٌ سُودُ الْجُلُودِ كَأَنَّمَا ** بَغَالٌ بَرِيدٌ أُرْسِلَتْ فِي مَدَاوِدِ) وَقَالَ آخَرُ : (أَرَقَّنِي الْأَسْيُودُ الْأَسْكَ ** لَيْلَةَ حَكٍّ لَيْسَ فِيهَا شَكٌّ) (أَحْكُ حَتَّى مَالَهُ مَحَكٌّ ** أَحُلُّ حَتَّى مِرْفَقِي مُنْقَكٌ) وَقَالَ آخَرُ : (يَا أُمَّ مَثْوَايَ عَدِمْتُ وَجْهَكَ ** أَنْقَذَنِي رَبُّ الْعُلَا مِنْ مِصْرِكَ) (وَلَذَعُ بَرْغُوثٍ أَرَاهُ مُهْلِكِي ** أَيْبُ لَيْلِي دَائِمُ التَّحَكُّكِ) تَحَكُّكِ الْأَجْرَبِ عِنْدَ الْمَبْرَكِ وَقَالَ آخَرُ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ بَرْغُوثٌ يُورِقُنِي ** أَحْيَلِكُ الْجُلْدَ لَا سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ)

وَقَالَ آخَرُ : (قَبِيلَةٌ فِي طَوْلِهَا وَعَرَضِهَا ** لَمْ يُطَبِّقُوا عَيْنًا لَهُمْ بَعْضُهَا) (عَقَارَبًا تَرْفُضُ مِنْ مُرْفَضِهَا ** إِنْ دَامَ هَذَا هَرَبْتُ مِنْ أَرْضِهَا) يَا رَبِّ فَأَقْتُلْ بَعْضَهَا بِبَعْضِهَا

معارف في البرغوث

قال : والبرغوث في صورة الفيل وزعموا أنها تبيض وتفرخ وأنهم رأوا بيضها رؤية العين والبراغيث تنكح وهي مستدبرة ومتعاطلة وهي من الجنس الذي تطول ساعة كونهما .

استقذار القمل وليس الناس لشيء مما يعصهم ويؤذيهم من الجرجس والبق والبراغيث والذبان أشد استقذاراً منهم للقمل ومن العجب أن قرابته أمس فأما قملة التسر وهي التي يقال لها بالفارسية : دده وهي تكون بالجبل فإنها إذا عصت قتلت .

القول في البعوض حدثني إبراهيم بن السندي قال : لما كان أبي بالشام والياً أحب أن يسوي بين القحطاني والعدناني وقال : لسنا نقدمكم إلا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء وكلكم إخوة وليس للنزاري عندي شيء ليس لليماني مثله .

قال : وكان يتغذى مع جملة من جملة الفريقين ويسوي بينهم في الإذن والمجلس وكان شيخ اليمانية يدخل عليه معتمداً وقد جذب كور عمامته حتى غطى بها حاجبه وكان لا ينزعها في حر ولا برد فأراد فتى من قيس وقد كان

أبي يستخليه ويقرّبه أن يُسقطه من عين أبي ويوحّشه منه فقال له ذات يوم ووجدَ المجلس خالياً : إني أريدُ أن أقول شيئاً ليس يخرجني مني إلا الشكر والحرية وإلا المودة والنصيحة ولولا ما أعرفُ من تقزُّزك وتنطُّسك وأنك

متى انتهت على ما أنا مُلقِيه إليك لم آمَنُ أن تستغثني وإن لم تُظهِره لي إن هذا اليمانيّ إنما يعتم أبدأً ويمدُّ طرّة العمامة حتى يغطّي بها حاجبيّه لأن به داءٌ لو علِمْتَ به لم تؤاكلهُ .

قال : فقال أبي : فرماني والله بمعنى كاد ينقضُ عليّ جميع ما بيدي وقلتُ : والله لئن أكلت معه وبه الذي به إن هذا هو البلاء ولئن منعت الجميع مؤاكلتي لأوحِشَنهم جميعاً بعد المباشطة والمباثة والملابسة والمؤاكلة ولئن خصصْتُهُ بالمنع أو أقعدتُهُ على غير مائدتي ليغضِبَنَّ ولئن غضِبَ ليغضِبَنَّ معه كل قحطاني بالشام فبتْ بليلة طويلة فلما كان العَدُوّ جلست ودخلوا للسلام جرى شيءٌ من ذكر السمومِ وغرائبِ أعمالها فأقبل عليّ ذلك الشيخ فقال : عندي من هذا بالمعانية ما ليس عند أحد خرجت مع ابن اخي هذا ومع ابن عمّي هذا ومع ابني هذا أريدُ قريتي القُلانيّة فإذا بقُرب الجادّة بعير قد نهشته أفعى وإذا هو وافرُ اللحم وكل شيء)

واليه من الطير والسباع ميت ، فقمنا منه على قاب أرماع تتعجب ، وإذا عليه بعوض كثيرة .
فبينما أنا أقول لأصحابي : يا هؤلاء إنكم لترون العَجَب : أولُ ذلك أن بعيراً مثل هذا يتفسّخ من عَصَةِ شيء لعله أن لا يكون في جسم عرق من عروقه أو عَصَبَةٍ من عصبه فما هذا الذي مَجَّه فيه وقذفه إليه ثم لم يرض بأن قتله حتى قتل كل طائر ذاق منه وكل سَبُع عضّ عليه وأعجب من هذا قتله لأكابر السَّباع والطير وتركه قتل البعوضة مع ضعفها ومهانيتها .

فبينما نحن كذلك إذ هبَّت ريحٌ من تلقاء الجي ففطّيرت البعوض إلى شِقِّنا وتسقط بعوضة على جبهتي فما هو إلا أن عصتني إذ استمأذ وجهي تورّم رأسي فكنت لا أضربُ بيدي إلى شيء أحكُّه من رأسي وحاجبي إلا انتشر في يدي فحُمِلت إلى منزلي في محمل

وعولجتُ بأنواع العلاج فَبَرأت بعد دهر طويل على أنه أبقى عليّ من الشَّيْن أنه تركني أقرعَ الرأس أمرط الحاجبين .

قال : والقومُ يخوضون معه في ذلك الحديث خَوْضَ قوم قد قتلوا تلك القصة يقيناً .
قال : فتبسّمت ونكّس الفتى القيسيُّ رأسه فظن الشيخ أنه قد جرى بيننا في ذلك ذرءٌ من القول فقال : إن هذا القيسيّ خبيث ولعله أن يكون قد احتال لك بحيلة قال إبراهيم : فلم أسمع في السموم بأعجب من هذا الحديث .

طلسمات البعوض ويزعم أهل أنطاكية أنهم لا يُبعضون لِطَلْسَمٍ هناك

ولو ادعى أهلُ عقر الدَّير المتوسطة لأجّة ما بين البصرة وكَسْكَر لكان طَلْسَمُهُمْ أعجب .
ويزعم أهلُ حِمص أن فيها طَلْسَمًا من أجله لا تعيشُ فيها العقارب وإن طُرِحَتْ فيها عَقْرَبٌ غريبةٌ مأتت من ساعتها . و لعمري إنه ليجوزُ أن تكون بلدة تضادُّ ضرباً من الحيوان فلا يعيش فيها ذلك الجنس فيدعي كذابو أهلها أن ذلك برُقية أو دعوة أو طلسم .

ألم عضه البرغوث والقملة

والبرغوث إذا عض وكذاك القملة فيس هناك من الحرقه والألم ما له مدة قصيرة ولا طويلة .
وأما البعوض فأشهد أن بعوضة عضت ظهر قدمي وأنا بقرب كاذة والعوجاء وذلك بعد أن صلى الناس المغرب فلم أزل منها في أكال وحرقه وأنا أسير في السفينة إلى أن سمعت أذان العشاء .
ولذلك يقال : إن البعوضة لو ألحقت بمقدار جرم الجرارة فإنها

أصغر العقارب ثم زيدت مم تضاعيف ما معها من السم على حسب ذلك لكانت شرّاً من الدويبة التي تسمى بالفارسية : دده وهي أكبر من القملة شيئاً وتكون بمهرجان فذق فإنها مع صغر جسمها تفسخ الإنسان في أسرع من الإشارة باليد وهي تعض ولا تلسع وهي من ذوات الأفواه وهي التي بزعمهم يقال لها قملة التسر وذلك أن التسر في بعض الزمان إذا سقط بتلك الأرض سقطت منه قملة تستحيل هذه الدابة الخبيثة .
والبعوضة من ذوات الخراطيم .

وحدثني محمد بن هاشم السدري قال : كنت بالزط فكنت والله أرى البعوضة تطير عن ظهر الثور فتسقط على الغصن من

الأغصان فتقلس ما في بطنها ثم تعود .

والبعوضة تغمس خرطومها في جلد الجاموس كما يغمس الرجل أصابعه في الشريد .
ومن العجب أن بين البصرة وواسط شطرين فالشطر الذي يلي الطف وباب طنج بيت أهله في عافية وليس عندهم من البعوض ما يذكر والشطر الذي يلي زقاق الهفة لا ينأى أهله من البعوض فلو كان هذا ببلاد الشام أو بلاد مصر لأدعوا الطلسم .

وحدثني إبراهيم النظام قال : وردنا فم زقاق الهفة في أجمة البصرة فأردنا النفوذ فمئنا صاحب المسلحة فأردنا التأخر إلى الهوز الذي خرجنا منه فأبى علينا ووردنا عليه وهو سكران وأصحابه سكارى فغضب على ملاح نبطي فشده قماطاً ثم رمى به في الأجمة على موضع

أرض تصل بموضع أكواخ صاحب المسلحة فصاح الملاح : اقتلني أي قتلة شئت وأرخني فأبى وطرحه فصاح ثم عاد صياحه إلى الأنين ثم خفت وناموا في كليلهم وهم سكارى فجئت إلى المقموط وما جاوز وقت عتمة فإذا هو ميت وإذا هو أشد سواداً من الزنجي وأشد انتفاخاً من الزق المنفوخ وذلك كله بقدر ما بين العشاء والمغرب فقلت : إنما لما)

لسبته ولسعته من كل جانب لسعا على لسع إن اجتماع سمومها فيه أربت على نمشة أفعى بعيداً فهي ضرر ومحنة ليس فيها شيء من المرافق .

نفع العقرب والعقارب بأكلها مشوية من بعينه ريح السبل فيجدها صالحة ويرمى بها في الزيت حتى إذا تفسخت وامتص الزيت ما فيها من قواها

فطلوا بذلك الدهن الحصى التي فيها النفخ فرق تلك الريح حتى تحمص الجلدة ويذهب الوجع .
فإذا سمعت بدهن العقارب فإنما يعنون هذا الدهن . (في البق والجرجس والشران والفراش والأدي) وقال الله تعالى : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها قال : يريد فما دونها .
وهو قول القائل للرجل يقول : فلان أسفل الناس وأنذلهم

فيقول : هو فوق ذلك يضع قوله فوق في موضع : هو شر من ذلك .
قال : وضروب من الطير لا تلتمس أرزاقها إلا بالليل منها الخفاش والثومة والصدى والضئوع وغراب الليل .
وللبعوض بالنهار تؤدي بعض الأذى وإنما سلطانها بالليل وكذلك البراغيث .
وأما القمل فأمره في الحالات مستور وليس للذبّان بالليل عمل إلا آتي متى بيّت معني في القبة ما صار إليها
وسكن فيها من الذبّان ولم أطردها بالعشي وبعد العصر فإني لا أجذ فيها بعوضة واحدة .

شعر ورجز في البعوض

وقال الراجز في خرطوم البعوضة :

وقال الهذلي : (كأن وعى الخמוש بجانبه * وعى ركب أميم ذوي هياط) والخموش : أصناف البعوض
والوعى : أصوات الملتفة التي لا يبين واحدتها عن معنى وهو كما تسمع من الأصوات الجيئين إذا التقيا على
الحرب وكما تسمع من ضجة السوق .
وقال الكميت وهو يذكر قانصاً وصاحب فترة لأنه لا يبتني بيته إلا عند شريعة ينهاها)
الوخش فقال وهو يصف البعوض :

(به حاضر من غير جن ترؤعه * ولا أنس ذو أرنان وذو زجل) والحاضر : الذي لا يبرحه البعوض لأن
البعوض من الماء يتخلق فكيف يفارقه والماء الراكد لا يزال يولده فإن صار نطافاً أو ضحطاً استحال
دعاميص وانسلخت الدعاميص فصارت فراشاً وبعوضاً وقال ذو الرمة : (وأيقن أن القنع صارت نطافه *
فراشاً وأن البقل ذاو ويا بس) وصف الصيف وقال أبو وجزة وهو يصف القانص والشريرة والبعوض :

(تبيت جارتة الأفعى وسامره * رمد به عاذر منهن كالجرب) رمد في لونها يعني البعوض وهي التي تسامر
القانص وتُسهره والعاذر : الأثر يقول : في جلده وقال الراجز يصف البعوض : (وليلة لم أدر ما كراها *
أمارس البعوض في دجها) (كل زجول خفي حشاها * ست لدى إيفائها شواها)

(لا يطرب السامع من غناها * حنانة أعظمها أذاها) أرجل الجرادة والعقرب والنملة والسرطان وكذلك
قوائم الجرادة هي ست : يدان ورجلان والميشاران وبهما تعتمد إذا نرت .
فأما العقرب فلها ثمان أرجل وللنملة ست أرجل .

وللسَّرَطَانِ ثَمَانِ أَرْجُلٍ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَسْتَعِينُ بِأَسْنَانِهِ فَكَأَنَّهُ يَمْشِي عَلَى عَشْرِ وَعَيْنَاهُ فِي ظَهْرِهِ وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَشْوِيهِ وَيَأْكُلُهُ لِلشَّهْوَةِ لَا لِلْحَاجَةِ وَلَا لِلْعِلَاجِ .

شعر ورجز في البعوض

وقال الرَّاجِزُ وَوَصَفَ حَالَهُ وَحَالَ الْبَعُوضِ : (لَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ وَلَا مُذْ قَطُّ ** أَطُولَ مِنْ لَيْلِي بِنَهْرِ بَطٍّ) (كَأَنَّمَا نَحْمُومُهُ فِي رُبُطٍ ** أَبَيْتُ بَيْنَ خُطَيِّ مَشْتَطٍّ)

(سقط : بيت الشعر) (من البعوض ومن التغطي ** إذا تغنين غناء الزط) (وَهْنٌ مَنِّي بِمَكَانِ الْقَرْطِ ** فِتْنٌ بِوَقْعِ مِثْلِ وَقْعِ الشَّرْطِ) وقال أيضاً : (إذا البعوضُ زَجَلَتْ أَصْوَاتُهَا ** وَأَخَذَ اللَّحْنَ مَغْنِيَّاتُهَا) (لَمْ تَطْرِبِ السَّامِعَ خَافِضَاتُهَا ** كُلُّ زَجُولٍ تُتَقَى شِدَائُهَا) (صَغِيرَةٌ عَظِيمَةٌ أَذَاتُهَا ** تَنْقُصُ عَنْ بُغْيَتِهَا بُغَائُهَا) (وَلَا تَصِيبُ أَبَدًا رُمَاتُهَا ** رَاحَةٌ خُرُطُومُهَا قَنَائُهَا)

وأنشدني جعفر بن سعيد : (ظَلَلْتُ بِالْبَصْرَةِ فِي تَهْوَاشٍ ** وَفِي بَرَاغِيثٍ أَذَاهَا فَاشِي) (من نافر منها وذي اهتمام ** يرفع جَنَبِيَّ عَنِ الْفِرَاشِ) (فَأَنَا فِي حَكٍّ وَفِي تَخْرَاشٍ ** تَتْرُكُ فِي جَنَبِيَّ كَالْخِرَاشِ) (وَزَوْجَةٌ دَائِمَةٌ الْهَرَّاشِ ** تَغْلِي كَغْلِي الْمَرْجِلِ التَّشَاشِ) (تَأْكُلُ مَا جَمَعْتَ مِنْ تَهْيَاشٍ ** بَلْ أُمُّ مَعْرُوفٍ خَمُوشٌ نَاشٍ) وقال رجل من بني حِمَّانَ وَقَعَ فِي جُنْدِ الثَّغُورِ : (أَأَنْصُرُ أَهْلَ الشَّامِ مَنْ يَكِيدُهُمْ ** وَأَهْلِي بَنَجْدٍ سَاءَ ذَلِكَ مَنْ نَصَرِ)

(سقط : بيت الشعر) (براغيث تَرْدِينِي إِذَا النَّاسُ نَوْمُوا ** وَبَقِ أَقَاسِيهِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ) (فَإِنْ يَكُ فَرَضٌ بَعْدَهَا لَا أَعُدُّ لَهُ ** وَإِنْ بَذَلُوا حُمْرَ الدَّنَانِيرِ كَالْجُمُرِ)

في العنكبوت

قال الله عز وجل : مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ثُمَّ قَالَ عَلَى إِثَرِ ذَلِكَ : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ يريد ذكره بالوهن وكذلك هو ولم يُرِدْ إِحْكَامَ الصَّنْعَةِ فِي الرِّقَّةِ وَالصَّفَاقَةِ وَاسْتَوَاءِ الرِّقَّةِ وَطُولِ الْبَقَاءِ إِذَا كَانَ لَا يَعْمَلُ فِيهِ تَعَاوُرُ الْأَيَّامِ وَسَلَمٌ مِنْ جُنَايَاتِ الْأَيْدِي .

شعر في العنكبوت

وقال الحُدَّانِيُّ : (يَزْهَدُنِي فِي وُدِّ هَارُونَ أَنَّهُ ** غَدَتُهُ بِأَطْبَاءِ مُلْعَنَةٍ عَكْلُ) (كَأَنَّ قَفَا هَارُونَ إِذْ قَامَ مُدْبِرًا ** قَفَا عَنكَبُوتٍ سَلٍّ مِنْ دُبْرِهَا غَزَلٌ) (أَلَا لَيْتَ هَارُونَ أَيْسَافُرَ جَائِعًا ** وَلَيْسَ عَلَى هَارُونَ خَفٌّ وَلَا نَعْلٌ) (وَلَوْ أَنَّ شَيْخًا ذَا بَنِينَ كَأَنَّمَا ** عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شَامِلِ الشَّيْبِ قَوْسٌ) (وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَضْرَاسِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ ** إِذَا مَسَّهُ يَدْمَى مِرَارًا وَيَضْرُسُ) (تَبَيَّتْ فِيهِ الْعَنْكَبُوتُ بَنَاتُهَا ** نَوَاشِي حَتَّى شَبِنَ أَوْ هُنَّ عُنُسُ) (لَظَلَّ إِلَيْهَا رَانِيًا وَكَأَنَّهُ ** إِذَا كَشَّ ثَوْرٌ مِنْ كَرِيصٍ مُنَمَّسُ)

(أجناس العنكبوت ونسجها) قال : ومن أجناس العنكبوت جنس رديء التدبير لأنه ينسج ستره على وجه الأرض والصخور ويجعله على ظهر الأرض خارجاً وتكون الأطراف داخله فإذا وقع عليه شيء مما يعتذيه من شكل الذبان وما أشبه ذلك أحذه .

وأما الدقيق الصنعة فإنه يصعد بيته ويمد الشعرة ناحية القرون والأوتاد ثم يسدي من الوسط ثم يهيئ اللحمه ويهيئ مصيدته في الوسط فإذا وقع عليها ذباب تحرك ما هناك ارتبط ونشبت به فبتركه على حاله حتى إذا وثق بوهنه وضعفه غله وأدخله إلى خزانته وإن كان جائعاً مصاً من رطوبته ورمى به فإذا فرغ رم ما تشعث من نسجه .

وأكثر ما يقع على تلك المصيدة من الصيد عند غيوبة الشمس .

وإنما اتسج الأنثى . فأما الذكر فإنه ينقض ويفسد .

وولد العنكبوت أعجب من الفروج الذي يظهر إلى الدنيا كاسباً محتالاً مكتفياً .

قال : وولد العنكبوت يقوم على النسج ساعة يولد .

قال : والذي ينسج به لا يخرج من جوفه بل من خارج جسده .

وقال الحداني : (كأن قفما هارون إذ قام مذبراً * قفا عنكبوت سل من دبرها غزل) فالنحل العنكبوت ودود القز تختلف من جهات ما يقال إنه يخرج منها .

العنكبوت الذي يسمى الليث

ومن العناكب جنس يصيد الذباب صيد الفهود وهو الذي يسمى : الليث وله ست عيون وإذا رأى الذباب لطى بالأرض وسكن أطرافه وإذا وثب لم يخطئ وهو من آفات الذبان ولا يصيد إلا ذبان الناس .

ذبان الأسد والكلاب وذبان الأسد على حدة وذبان الكلاب على حدة وليس يقوم لها شيء وهي أشد من الزناير وأضر من العقارب الطيارة وفيها من الأعاجيب أنها تعض الأسد كما يعض الكلب وكذلك ذبان الكلاب لما يغشى الكلاب من بعير وغير ذلك ولها عض منكر ولا يبلغ مبلغ ذبان الأسد .

فمن أعاجيبها سوى شدة عضها وسمها وأنها مقصورة على الأسد وأنها متى رأت بأسد دماً من جراح أو رمي ولو في مقدار الخديش الصغير فإنها تستجمع عليه فلا تقلع عنه حتى تقتله .

وهذا شبيه بما يروى ويخبر عن الذر فإن الذر متى رأت بحية خدشاً لم تقلع عنه حتى تقتله وحتى تأكله .

ولوع النمل بالأراك ولقد أردت أن أغرس في داري أراكاً فقالوا لي : إن الأراك

إنما تنبت من حب الأراك وفي نباتها عسر وذلك أن حب الأراك يغرس في جوف طين وفي قواصر ويسقى الماء أياماً فإذا نبت الحب وظهر نباته فوق الطين وضعت القوصرة كما هي في جوف الأرض ولكنها إلى أن تصير في جوف الأرض فإن الذر يطالبها مطالبة شديدة وإن لم تحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها .

فعمدتُ إلى منارات من صُفَر من هذه المسارج وهي في غاية الملاسة واللّين فكنْتُ أَصْعُ القوصَرَ عَلَى الثُّرسِ الذي فوق العمود الأملس فأجد فيها الذرّ الكثير فكنْتُ أُنْقِلُ المنارة من مكان إلى مكان فما أفلح ذلك الحبّ .

ضروب العناكب

قال : والعناكب ضروبٌ : منها هذا الذي يقال له الليث وه

و الذي يصيد الذبّان صيد الفهد وقد ذكرنا في صدر هذا الكلام جذقه ورقفه وتأثيه وحيلته .
ومنها أجناس طوّال الأرجل والواحدة منها إذا مشت على جلد الإنسان تبثّر ويقال إن العنكبوت الطويلة الأرجل إنما اتخذت بيتاً وأعدّت فيه المصايد والحبال والخيوط التي تلتفّ على ما يدخل بيتها من أصناف الذبّان وصغار الزنابير لأنها حين علّمت أنها لا بدّ لها من قوت وعرفت ضعف قوائمها وأنها تعجز عما يقوى عليه الليث احتالت بتلك الحيل .
فالعنكبوت والفأر والنحل والذرّ والنمل من الأجناس التي تتقدم في إحكام شأن المعيشة ومنها جنس رديء مشنوء الصورة غليظ الأرجل كثيراً ما يكون في المكان الثّرب من الصناديق والقماطر والأسفاط وقد قيل : إنّ بينه وبين الحيّة كما بين الخنفساء والعقرب .

وإنّث العناكب هي العوامل : تغزل وتنسج والذكور أخرج ينقض ولا ينسج وإن كان ما قال صاحب المنطق حقاً فما أغرب الأعجوبة في ذلك وذلك أنه زعم أن العنكبوت تقوى على النّسج وعلى التّقدم في إحكام شأن المعاش حين تولد .

الكاسب من أولاد الحيوان وقالوا : وأشياء من أولاد الحيوان تكون عالمة بصناعتها عارفة بما يعيشها ويصلحها حتى تكون في ذلك كأمهاتها وآبائها حين تخرج إلى الدنيا وكالفروج من ولد الدجاج والحسّل من ولد الضبّاب وفرخ العنكبوت .

وهذه الأجناس مع الفأر والجردان هي التي من بين جميع الخلق تدّخر لنفسها ما تعيش به من الطّعم .

في النحل

زعم صاحب المنطق أن خلية من خلايا النحل فيما سلف من الزمان اعتلت ومَرَض ما كان فيها من النحل وجاء نحل من خلية أخرى

يقاتل هذا النحل حتى أخرجت العسل وأقبل القيم على الخلايا يقتل بذلك النحل الذي جاء إلى خليته .
قال : فخرج النحل من الخلية يقاتل النحل الغريب والرجل بينها يطرد الغريب فلم تلسعه نحل الخلية التي هو حافظها لدفعه المكروه عنها .

قال : وأجود العسل ما كان لونه لون الذهب .

نظام النحل

قال : والنحل تجتمع فتقسم الأعمال بينها فبعضها يعملُ الشمع وبعضها يعملُ العسل وبعضها يبني البيوت وبعضها يَسْتَقِي الماء ويصُبُّه في الثقب ويلطخه بالعسل .
ومنه ما يَبْكُرُ إلى العمل ومن النحل ما يَكْفُهُ حتى إذا نهضتْ واحدة طارت كلها يقال : بَكَرَ بُكُورَ الْيَعْسُوبِ يريد أمير النحل لأنها تتبعه غُدوةً إلى عملها

ومنها ما ينقل العسل من أطرافِ الشجر ومنها ما ينقل الشمع الذي تبني به فلا تزالُ في عملها حتى إذا كان الليل آتت إلى قال : والأرزي : عمل العسل يقال : أرت تأري أرباً والأرزي في غير هذا الموضع : القيء وقال أبو ذؤيب : (بأري التي تأري إلى كل مغربٍ *) إذا اصفرَّ ليطُ الشمس حان انقلابها (ومغارب : جمع مغرب وكل شيء وارك من شيء فهو مغرب كما جعله أبو ذؤيب والأصل مغرب الشمس وقال أبو ذؤيب : (فباتَ بِجَمْعٍ ثُمَّ تَمَّ إِلَى مَنَى *) فأصبحَ رَأْدًا يَبْغِي الْمَرْجَ بِالسَّحْلِ (المَرْجُ : العسل والسَّحْلُ : النقد .

ما له رئيس من الحيوان ومن الحيوان ما يكون لكل جماعة منها رأس وأمير ومنها ما لا يكون ذلك له فأما الحيوان الذي لا يجد بدءاً ولا مصلحة لشأنه إلا في اتخاذ رئيس ورقيب فمثل ما يصنع الناس ومثل ما تتخذ النحل والغرائيق والكراكي .

فأما الإبل والحمير والبقر فإن الرياسة لفحل الهجمة ولعير العانة ولثور الربوب وذكورتها لا تتخذ تخذ الرقباء من الذكورة .

وقد زعم ناس أن الكراكي لا تُرى أبداً إلا فرأى فكأن الذي يجمعها الذكر ولا يجمعها إلا ولا أدري كيف هذا القول والنحل أيضاً تسير بسيرة الإبل والبقر والحمير لأن الرئيس هو الذي يوردها ويصدرها وتنهضُ بنهوضه وتقع بوقوعه واليعسوب

هو فحلها فترى كما ترى سائر الحيوان الذي يتخذ رئيساً إنما هي إناث الأجناس إلا الناس فإنهم يعلمون أن صلاحهم في اتخاذ أمير وسيد ورئيس .

وزعم بعضهم أن رياسة اليعسوب وفحل الهجمة والثور والعير لأحد أمرين : أحدهما لاقتدار الذكر على الإناث والآخر لما في طباع الإناث من حبّ ذكورتها .

ولم تتأمر عليها الفحول لكانت هي لحبها الفحول تغدو بغدوها وتروح برواحها .

قالوا : وكذلك الغرائيق والكراكي فأما ما ذكروا من رؤساء الإبل والبقر والجواميس والحمير فما أبعدهم في ذلك عن الصواب .

وأما إلحاقهم الغرائيق والكراكي بهذه المنزلة فليس على ما قالوا .

وعلى أنّا لا نجد بدءاً من أن يعلم أن ذكورتها أقوى على قسر الإناث وجمعها إليها من الإناث وعلى أنه لا بد من أن يكون بعض طاعة الإناث لها من جهة ما في طباعها من حبّ ذكورتها

ولو كان اتخاذ الغرائيق والكراكي الرؤساء والرُقباء إنما علته المعرفة لم يكن للغرائيق والكراكي في المعرفة فضل على الذرّ والنمل وعلى الذئب والفيل وعلى الثعلب والحمام .

وقد تخضع الحيات للحية والكلاب للكلب والذئوك للذئب حتى لا تروّمه ولا تحاول مدافعته قصة في خنوع الكلب ولقد خرجت في بعض الأسحار في طلب الحديث فلما صرت في مربعة الحلة ثار إليّ عدّة من الكلاب من ضخامها ومما يختارُه الحُرّاس فبينما أنا في الاحتيال هُنَّ وقد غشيّني إذ سكّنت سكتة واحدة معاً ثم أخذ كل واحد في شقّ كالحائف المستخفي وسمعت نغمة إنسان فانتهزت تلك الفرصة من إمساكهنّ عن الثّباح فقلت :
إِنَّ هَهُنَا

لَعَلَّةُ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلَانِ وَمَعَهَا كَلْبٌ أَزْبُ ضَخْمٌ دَوَسِرَ وَهُوَ فِي سَاجُورٍ وَلَمْ أَرَ كَلْباً قَطُّ أَضَخَمَ مِنْهُ فَقُلْتُ : إِنْ هُنَّ إِنَّمَا أَمْسَكْنَ عَنِ الثّباح وتسترن من الهيبة له وهي مع ذلك لا تتخذ رئيساً .
(سادة الحيوان)

وروي عن عبّاد بن صهيب عن عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال : قال أبو موسى : إن لكل شيء سادة حتى إن للنمل سادة فقال بعضهم : سادة النمل : المتقدّمات .
وهذا تخريج ولا ندري ما معنى ما قال أبو موسى في هذا .
ولو كان اتخاذ الرئيس من النحل والكراكي والغرائيق والإبل والخمير والثيران لكثرة ما معها من المعرفة لكانت القروود والفيلة والذرّ والثعالب أولى بذلك فلا بد من معرفة ولا بد

والحمام يُزجلن من لؤلؤة وهنّ بصريّات وبغداديات وهنّ جُماع من هاهنا وهاهنا فلا تتخذ رئيساً . (طعن ناس من الملحدين في آية النحل) وقد طعن ناس من الملحدين وبعض من لا علم له بوجوه اللغة وتوسّع العرب في لغتها وفهم بعضها عن بعض بالإشارة والوحي فقالوا : قد علمنا أن الشمع شيء تنقله النحل مما يسقط على الشجر فتبني بيوت العسل منه ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها كما يسقط الترنجيب والمن وغير ذلك إلا أن مواضع الشمع وأبدانه خفيّ

وكذلك العسل أخفى وأقلّ فليس العسل بقيء ولا رجع ولا دخل للنحلة في بطن قط .
وفي القرآن قول الله عز وجل : وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

ولو كان إنما ذهب إلى أنه شيء يلتقط من الأشجار كالصمغ وما يتولد من طباع الأنداء والأجواء والأشجار إذا تمازجت لمان كما في ذلك عجب إلا بمقدار ما نجده في أمور كثيرة .

قلنا : قد زعم ابن حائط وناس من جهال الصوفيّة أن في النحل أنبياء لقوله عز وجل : وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ وَزَعَمُوا أَنَّ الْخَوَارِئِينَ كَانُوا أَنْبِيَاءَ لقوله عز وجل : وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِئِينَ .

قلنا : وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله عز وجل على المخرج العام : وَأَوْحَى

رُبُّكَ إِلَى التَّحْلِ ولم يخصَّ الأمهات والملوك واليعاسيب بل أطلق القول إطلاقاً .
وبعدُ فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين وإلا تكونوا مسلمين فلم يجعلون الحجة)
علي نبوة النحل كلاماً هو عندكم باطل قول في الجواز وأما قوله عز وجل : يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ فَالْعسل
ليس بشراب وإنما هو شيء يحوّل بالماء شراباً أو بالماء نبيذاً فسماه كما ترى شراباً إذ كان يجيء منه الشراب .
وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم .
وقد قال الشاعر : (إذا سقط السماء بأرض قومٍ ** رعيناه وإن كانوا غضاباً) ومتى خرج العسل من جهة
بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها .

وَمَنْ حمل اللغة علي هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم وبه
وبأشباهه اتسعت وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة وهذيلاً وضواحي كِنانة وهؤلاء أصحاب العسل
والأعرابُ أعرف بكل صَمَغَةٍ سائلة وعسلة ساقطة فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب أو طعن عليه من هذه
الحجة

أحاديث في العسل

حُدِّثَ عن سفيان الثوري قال حَدَّثَنَا أَبُو طُعْمَةَ عن بكر بن معز عن ربيع ابن خُثَيْم قال : ليس للمريض عندي
دواءٌ إلا العسل .

وعن هشام بن حسان عن الحسن أنه كان يعجبه إذا استمشي الرجل أن يشرب اللبن والعسل إبراهيم بن أبي
يحيى قال : بلغني عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئِلَ : أيُّ الشراب أفضل قال : الحُلُو البارد .
وسفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال : عليكم بالشفاءين : القرآن والعسل .
شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال : مضى رجل

إلى ابن مسعود فقال : إن أخي يشتكي بطنه وقد نُعِتَتْ له الخمر فقال : سبحان الله ما كان الله ليجعل شفاءهُ
في رجس وإنما جعل الشفاء في اثنين : في القرآن والعسل .
سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه
وسلم فقال إن أخي يشتكي بطنه فقال عليه السلام : اسقه عسلاً ثم (
أتاه فقال : قد فعلت قال : اسقه عسلاً ثم أتاه فقال قد فعلت فقال : اسقه عسلاً ثم أتاه الرابعة فقال : صدق
الله وكذَّبتُ بطنُ أخيك اسقه عسلاً فسقاه فبرأ الرجل .
قال : والذي يدلُّ على صحة تأويلنا لقول الله عز وجل : يَخْرُجُ

مَنْ بَطُونَهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ أَنْ تَكُونَ الْمَعْجُونَاتُ كُلُّهَا إِنَّمَا بِالْعَسَلِ وَكَذَلِكَ الْأَنْبِجَاتُ .
نفع العسل وإذا أُلقي في العسل اللحم الغريض فاحتاج صاحبه إليه بعد شهر أخرجه طريقاً لم يتغير .
وإذا قَطَرَتْ مِنْهُ قَطْرَةٌ عَلَيَّ وَجْهِ الْأَرْضِ فَإِنْ اسْتَدَارَ كَمَا يَسْتَدِيرُ الزُّنْبُقُ وَلَمْ يَتَفَشَّ وَلَمْ يَخْتَلِطْ بِالْأَرْضِ وَالتُّرَابِ
فَهُوَ الصَّحِيحُ وَأَجُودُهُ الذَّهَبِيُّ .

ويزعم أصحاب الشراب أنهم لم يروا شراباً قطُّ أَلَذَّ وَلَا أَحْسَنَ وَلَا أَجْمَعَ لِمَا يَرِيدُونَ مِنْ شَرَابٍ وَفِيهِ أَعْجُوبَةٌ :
وذلك أنهم لا يعملونه إلا بماء التَّيْلِ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ وَكَلِمَا كَانَ أَكْثَرُ كَانَ أَصْفَى وَإِنْ عَمِلُوهُ بِالصَّافِي فَسَدَ .

وقد يُلقَى العسل على الزَّيْبِ وعلى عصير الكَرَمِ فيجودهم .
التشبيه بالعسل وهو المثلُّ في الأمور المرتفعة فيقولون : ماءٌ كَأَنَّهُ الْعَسَلُ وَيَصِفُونَ كُلَّ شَيْءٍ حَلْوٍ فيقولون : كَأَنَّهُ
العسل ويقال : هو معسول اللسان وقال الشاعر : (لسائلك معسولٌ ونفسك شحَّةٌ * ودون الثَّريَّا من
صديقك مالكا)

التنويه بالعسل في القرآن وقال الله عزَّ وجلَّ في كتابه وذكر أَمَّارُ الْجَنَّةِ فَقَالَ : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا
أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى
فَاسْتَفْتَحَ الْكَلَامَ بِذِكْرِ الْمَاءِ وَخَتَمَهُ بِذِكْرِ الْعَسَلِ وَذَكَرَ الْمَاءَ

وَاللَّبَنَ فَلَمْ يَذْكُرْهُمَا فِي نَعْتِهِمَا وَوَصَفَهُمَا إِلَّا بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَسَنِ وَالتَّغْيِيرِ وَذَكَرَ الْخَمْرَ وَالْعَسَلَ فَقَالَ : مِنْ خَمْرٍ
لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى فَكَانَ هَذَا ضَرْباً مِنَ التَّفْضِيلِ وَذَكَرَهَا فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ فَنَفَى عَنْهَا عِيُوبَ خَمْرٍ
الدُّنْيَا فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ اسْمُهُ : لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ فَكَانَ هَذَا الْقَوْلُ

في القِرَادِ

يقال : أَسْمَعُ مِنْ قِرَادٍ وَأَلْزَقُ مِنْ قِرَادٍ وَمَاهُو إِلَّا قِرَادٌ تَفَرَّ وقال الشاعر :

(هُمُ السَّمْنُ بِالسُّتُوتِ لَا أَلْسَ فِيهِمْ *) وَهُمْ يَمْنَعُونَ جَارَهُمْ أَنْ يُقَرِّدَا (السُّتُوتُ عِنْدَ أَهْلِ مَكَّةَ : الْعَسَلُ وَعِنْدَ
آخَرِينَ : الْكُمُونُ .

وقال الحطيئة : (لَعَمْرُكَ مَا قِرَادُ بَنِيكَلِيبَ *) إِذَا نَزَعَ الْقِرَادُ بِمَسْتَطَاعٍ (قَالَ : وَذَلِكَ أَنَّ الْفَحْلَ يَمْنَعُ أَنْ يُخْطَمَ
فَإِذَا نَزَعُوا مِنْ قِرَادَاتِهِ شَيْئاً لَدَّ لِذَلِكَ وَسَكَنَ إِلَيْهِ وَلَانَ لِصَاحِبِهِ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَلْقَى الْخُطَامَ فِي رَأْسِهِ .

قال : وأخبرني فراس بنُ خَنْدَقٍ وَأَبُو بَرْزَةَ قَالَ : كَانَ جَحْدَرٌ إِذَا نَزَلَتْ رُقْفَةٌ قَرِيباً مِنْهُ أَخَذَ شَتَّةً فَجَعَلَ فِيهَا
قِرْدَاناً ثُمَّ نَثَرَهَا بِقَرَبِ الْإِبِلِ فَإِذَا وَجَدَتِ الْإِبِلُ مَسَّهَا نَهَضَتْ وَشَدَّ الشَّتَّةَ فِي ذَنْبِ بَعْضِ الْإِبِلِ فَإِذَا سَمِعَتْ صَوْتَ
الشَّتَّةِ وَعَمِلَتْ فِيهَا الْقِرْدَانُ نَفَرَتْ ثُمَّ كَانَ يَشُبُّ فِي ذِرْوَةِ مَا نَدَّ مِنْهَا وَيَقُولُ : اِرْحَمِ الْغَارَةَ الضَّعَافَ يَعْنِي الْقِرْدَانَ

قال أبو بَرزَة : ولم تكن هِمَّتُهُ تَجَاوِزُ بَعِيرًا .

القراد في الهجو

قال رُشيد بن رُميْض : (لنا عِزٌّ ومَأْوَانَا قَرِيبٌ ** ومَوْلَى لا يَدْبُ مع القُرَادِ) وهجَاهم الأَعَشَى فقال : (فلسنا لباعِي المَهْمَلَاتِ بِقِرْفَةٍ ** إذا ما طَمَأ بالليل مُنْتَشِرَاتَهَا) (أبا مِسْمَعٍ أَقْصِرْ فَإِنْ قَصِيدَةً ** متى تَأْتِكُمْ تُلْحَقُ بِهَا أَخَوَاتُهَا)

وهجَاهم حُضَيْن بن المنذر فقال :

(تنازعني ضَبِيعَةٌ أَمْرٌ قَوْمِي ** وما كانت ضَبِيعَةٌ لِلْأُمُورِ) (وهل كانت ضَبِيعَةٌ غَيْرَ عَبْدٍ ** ضَمَمْنَاهُ إِلَى نَسَبِ شَطِيرِ) وأوصاني أبي فحفظتُ عَنْهُ بِفِكَ الغُلِّ عَنْ عُتْقِ الأَسِيرِ وَأَوْصَى جَحْدَرٌ فَوْقِي بَنِيهِ يَارِسَالِ القُرَادِ عَلَى البَعِيرِ قال : وفي القردان يقول الآخر قال : وبعضهم يجعلها في البراغيث وهذا باطل : (ألا يا عبادَ اللَّهِ مَنْ لِقَبِيلَةٍ ** إذا ظَهَرَتْ في الأرض شَدَّ مُعِيرُهَا) (فلا الدِّينُ يَنْهَاها ولا هي تَنْتَهِي ** ولا ذُو سِلَاحٍ مِنْ مَعَدٍّ يَضِيرُهَا) فمن أصناف القِرْدان : الحَمْنان والحَلَم والقِرْشام والعَلُّ والطَّلح .

شعر ومثل في القراد

وقال الطَّرْمَاح : (لَمَّا وَرَدَتِ الطَّوْىَ والحَوْضُ كَالِ ** صَيْرَةٍ دَفَنَ الإِزَاءَ مَلْتَبِدُهُ) (سَافَتْ قَلِيلًا عَلَى نَصَائِبِهِ ** ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ فِي طَامِسٍ تَحْدَهُ) (وَقَدْ لَوَى أَنْفَهُ بِمَشْفَرِهَا ** طَلَحَ قِرَاشِيمَ شَاخِبٍ جَسَدِهِ) عَلَّ طَوِيلُ الطَّوْىَ كِبَالِيَةِ السَّفْعِ مَتَى يَلْقَى الْعَلُوَّ يَصْطَعِدُهُ

وفي لزوق القُرَادِ يَقُولُ الراعي : (نَبَتَتْ مِرَافِقُهُنَّ فَوْقَ مَزِلَّةٍ ** لا يَسْتَطِيعُ بِهَا القُرَادُ مَقِيلًا) والعَرَبُ يَقُولُ : أَلْزَقُ مِنَ الْبَرَامِ كَمَا يَقُولُ : أَلْزَقُ مِنَ الْقُرَادِ وَهُمَا وَاحِدٌ . شعر لأمية في الأرض والسماء وذكر أمية بن أبي الصلتِ خَلَقَ السَّمَاءَ وَإِنَّهُ ذَكَرَ مِنْ مَلَأْسِيهَا أَنَّ الْقُرَادَ لَا يَغْلُقُ بِهَا فَقَالَ : (وَالْأَرْضُ مَعْقَلُنَا وَكَانَتْ أَمْنًا ** فِيهَا مَعَاقِلُنَا وَفِيهَا نَوْلُدُ) (فِيهَا تَلَامِيذٌ عَلَى قِذْفَاتِهَا ** حَبَسُوا قِيَامًا فَالْفَرَائِصُ تَرْعَدُ)

(فَبْنَى الْإِلَهَ عَلَيْهِمْ مَخْصُوفَةً ** خُلُقَاءَ لَا تَبْلَى وَلَا تَتَأَوَّدُ) (فَلَوْ أَنَّهُ تَحْدُو الْبَرَامَ بِمَنْتِهَا ** زَلَّ الْبَرَامُ عَنِ النَّيِّ لَا تَقْرُدُ) قال : الْقُرَادُ أَوَّلُ مَا يَكُونُ وَهُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ يُرَى مِنْ صِغَرِ قَمَقَامَةٍ ثُمَّ يَصِيرُ حَمْنَانَةً ثُمَّ يَصِيرُ قُرَادًا ثُمَّ يَصِيرُ حَلَمَةً .

قال : وَيُقَالُ لِلْقُرَادِ : الْعَلُّ وَالطَّلْحُ وَالْقَتِينُ وَالْبَرَامُ وَالْقِرْشَامُ .

قال : وَالْقُمْلُ وَاحِدَتُهَا قَمْلَةٌ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ الْقِرْدَانِ وَهِيَ أَصْغَرُ مِنْهَا .

تخلق القرداء والقمل

قال : والقِرْدَانُ يُتَخَلَّقُ مِنْ عَرَقِ الْبَعِيرِ وَمِنْ الْوَسَخِ وَالتَّلَطُّخِ بِالثَّلُوطِ وَالْأَبْوَالِ كَمَا يُتَخَلَّقُ مِنْ جِلْدِ الْكَلْبِ وَكَمَا يُتَخَلَّقُ الْقَمَلُ مِنْ عَرَقِ الْإِنْسَانِ وَوَسَخِهِ إِذَا انْطَبَقَ عَلَيْهِ ثَوْبٌ أَوْ شَعْرٌ أَوْ رِيشٌ .
والْحَلَمُ يَعْرِضُ لِأُذُنِي الْكَلْبِ أَكْثَرَ ذَلِكَ .

أمثال وأخبار في القرداء

قال : ويقال أَقْطَفُ مِنْ حَلْمَةٍ وَالزَّقُ مِنْ بُرَامٍ وَأَذَلُّ مِنْ قُرَادٍ وقال الشاعر :

(يكاد خَلِيلِي مِنْ تَقَارُبِ شَخْصِهِ ** يَعِضُّ الْقُرَادُ بِاسْتِهِ وَهُوَ قَائِمٌ) وقال أبو حَنَسٍ لَقَيْسِ بْنِ زَهِيرٍ : وَاللَّهِ
لَأُتَتْ بِهَا أَذَلُّ مِنْ قُرَادٍ فَقَدَّمَهُ وَضَرَبَ عُنُقَهُ .

وقال الراجز : مِنَ الْخَلَاءِ وَمِنْ الْخَوِيِّ .

ويقال كلمة الشدي : القرداء وقال عديُّ بْنُ الرَّقَاعِ :

(كَأَنَّ قُرَادِيَّ صَدْرِهِ طَبَعَتْهُمَا ** بَطِينٍ مِنَ الْجَوْلَانِ كِتَابُ أَعْجَمٍ) والقُرَادُ يَعْرِضُ لِاسْتِ الْجَمَلِ وَالنَّمْلِ يَعْرِضُ
لِلْخُصْيِ وقال الشاعر : (وَأَنْتَ مَكَائِكُ مِنْ وَائِلٍ ** مَكَانُ الْقُرَادِ مِنْ اسْتِ الْجَمَلِ) قال المَمْزِقُ : (تُنَاخُ
طَلِيحًا مَا تُرَاغُ مِنَ الشَّدَا ** وَلَوْ ظَلِّي فِي أَوْصَالِهَا الْعَلُّ يَرْتَقِي)

ويروى : فَبَاتَتْ ثَلَاثًا لَا تُرَاعُ يَصِفُ شِدَّةَ جَزْعِهَا مِنَ الْقِرْدَانِ .

وقال بشار بن بُرْدٍ : (أَعَادِي الْهَمِّ مِنْفَرِدًا بِشَوْقٍ ** عَلَى كِبْدِي كَمَا لَزِقَ الْقُرَادُ) وَكَانُوا إِذَا خَافُوا الْجَدْبَ
وَالْأَزْمَةَ تَقْدَمُوا فِي عَمَلِ الْعِلْهِزِّ وَالْعَلْهِزِّ . قِرْدَانٌ يُعَالِجُ بَدْمَ الْقَصْدِ مَعَ شَيْءٍ مِنْ وَبَرٍ فَيَدْخِرُونَ ذَلِكَ كَمَا يَدْخُرُ
مَنْ خَافَ الْحَصَارَ الْأَكَارِعَ وَالْجَاوَرِسَ .

وَالشُّعْبِيَّةُ تَهْجُو الْعَرَبَ بِأَكْلِ الْعِلْهِزِّ وَالْفَتْ وَالِدُّعَا

وَالْهَبِيدَ وَالْمَغَافِرَ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ وَقَالَ (لَمْ يُعَلَّلَنَّ بِالْمَغَافِرِ وَالصَّمِّ ** غَ لَا شَرِّي حَنْظَلِ الْخُطْبَانِ) وَقَالَ الطَّرِمَّاحُ
: (لَمْ تَأْكُلِ الْفَتْ وَالِدُّعَا وَلَمْ ** تَنْقِفْ هَيْبِدًا يَجْنِيهِ مُهْتَبِدُهُ) وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : قَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِرَجُلٍ
: أَيْسُرُكَ :

أَنْ تَعِيشَ حَتَّى تَجِيءَ حَلْمَةٌ مِنْ إِفْرِيقِيَّةٍ مَشِيًّا قَالَ : فَأَنْتَ يَسْرُكَ ذَلِكَ قَالَ : أَخَافُ أَنْ يَقُولَ إِنْسَانٌ : إِنَّمَا بِمَخِيضٍ
فِيُغَشَّى عَلَيَّ وَمَخِيضٌ عَلَى رَأْسِ بَرِيدٍ مِنَ الْمَدِينَةِ .

ويقولون : أُمُّ الْقِرَادِ لِلوَاحِدَةِ الْكَبِيرَةِ مِنْهَا وَيَتَسَمَّوْنَ بِقِرَادٍ وَيَكْتَنُونَ بِأَبِي قِرَادٍ وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو النِّجَمِ فَقَالَ :
لِلْأَرْضِ مِنْ أُمِّ الْقِرَادِ الْأَطْحَلِ وَفِي الْعَرَبِ بَنُو قِرَادٍ .

في الحبارى

وَنُقُولُ فِي الْحُبَارَى يَقُولُ مُوجِزٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .
قال ابن الأعرابي : قال أعرابيُّ إنه ليقْتُلُ الحُبَارَى هزلاً ظَلَمَ الناسَ بعضهم لبعض قال يقول : إذا كثرت الخطايا
منَعَ الله عز وجل دَرَّ السَّحَابِ وإنما تصيب الطيرُ من الحبِّ ومن الثمر على قدر المطر .

وقال الشاعر : (يسقط الطيرُ حيثُ ينتثرُ الحُجَّ*بُ وتغشى منازلُ الكُرماءِ) وهذا مثل قوله : (أما رأيتَ
الألسنَ السَّلاطَا* والأذرعَ الواسعةَ السَّباطا) إن الندى حيثُ ترى الضَّغاطا

ما قيل من المثل في الحبارى

وقالوا في المثل : مات فلانٌ كَمَدَ الحُبَارَى : وقال أبو الأسود الدؤلي : (وزَيْدٌ مَيَّتَ كَمَدَ الحُبَارَى* إذا ظننت
هنيئدة أو ثلماً) وذلك أن الطير تتحسّر

وتتحسّر معها الحُبَارَى والحُبَارَى إذا نُفِثَتْ أو تحسّرتْ أبطأ نبات ريشها فإذا طار صُوِّجِبَاتُهَا ماتت كمداً .
وأما قوله : أو تلمّ يقول : أو تقارب أن تظعن .
وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : كلُّ شيء يحبُّ ولدَهُ حتى الحُبَارَى يضرب بها المثل في الموق .

سلاح الحبارى وغيرها من الحيوان

قال : وللحُبَارَى خِزَانَةٌ بين دُبُرِهِ وأمعائه له فيها أبدأ سَلَحٌ رقيق لزج فمقَى ألح عليها الصقرُ وقد علمت أن
سلاحها من أجود سلاحها وأنها إذا ذرقتهُ بقي كالمكتوف أو المدبّق المقيّد فعند ذلك تجتمع الحبارياتُ على
الصقر فينتفن ريشه كلّ طاقةً طاقةً وفي ذلك هلاكُ الصقر .

قال : وإنما الحُبَارَى في سَلَحِهَا كالطَّرايِّ في فُسائِهَا وكالثعلب في سُلَاحِهِ وكالعقرب في إبرقَمَا والزنبور في
شعرته والثور في قرنه والدَّيَك في صِيصِيَّتِهِ والأفعى في نابِهَا والعُقَاب في كَفِّهَا والتمساح في ذنبه .
وكلُّ شيء معه سلاحٌ فهو أعلم بمكانه وإذا عدم السِّلَاحَ كان أبعصرَ بوجوه الهرب كالأرنب في إيثارها
للصَّعداء لقصر يديها وكاستعمال الأرنب للتوبيير والوطء على الزَّمَعَاتِ واتخاذ اليرابيع القاصعاء والنَّافِقاء
والدَّامَاءَ والراهِطاء .

شعر في الحبارى

وقال الشاعر : (وهم تركوك أسلَحَ مِنْ حُبَارَى* رأتْ صقراً وأشردَ من نَعَامٍ) يريد : نعامه وقال قيسُ بن
زهير : (متى تنحزَمَ بالناطق ظالماً* لتجري إلى شأوٍ بعيد وتسبح) (تَكُنْ كالحُبَارَى إِنْ أَصِيبَتْ فَمِثْلُهَا*)

أُصِيبَ وَإِنْ تَفَلَّتْ مِنَ الصَّقْرِ تَسْلَحِ (وقال ابن أبي فتنٍ يصفُ ناساً من الكُتَّابِ في قصيدة له ذكرَ فيها خيانتهم فقال :

(رَأَوْا مَالَ الْإِمَامِ لَهُمْ حَلَالاً ** وقالوا الدِّينُ دِينُ بَنِي صَهَارَى) (ولو كانوا يحاسبُهُمْ أَمِينٌ ** لقد سَلَحُوا كما سَلَحَ الْحُبَارَى) الحرب والنهار والحرب : ذكر الحُبَارَى والنهار : فرخ الحُبَارَى وفرخها حارض ساقط لا خير فيه وقال متمم (وَضَيْفٌ إِذَا أَرغَى طُروقاً بَعِيرَهُ ** وعانِ ثوى في القَدِّ حتى تَكْنَعَا) (وأرملَةٌ تَمشي بأشعثٍ مُحْتَلٍ ** كَفَرخِ الحُبَارَى رأسه قد تَصَوَّعا) وقال أعرابي :

(أَحَبُّ أَنْ أَصْطَادَ ضَبًّا سَحَبَلًا ** وَخَرَبًا يَرعى ربيعاً أَرْمَلًا) فجعل الحربَ أَرْمَلًا لأن ريشه يكون أكثر وقد ذكرنا ما في هذا الباب فيما قد سلف من كتابنا .

خبر فيه ذكر الحبارى

وقال أبو الحسن المدائني : قال سعيد التواء : قدِمْتُ المدينةَ فلقِيتُ عليَّ بنَ الحسين فقلت : يا ابنَ رسولِ الله متى يُبعثُ أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب قال : إِذَا بُعِثَ النَّاسُ . قال : ثم تذاكرنا أيامَ الجملِ فقال : ليتَه كان ممنوعاً قبل ذلك بعشرين سنة أو كلمة غير هذه قال : فأتيت حسن بن حسنٍ فذكرتُ له ما قال فقال : لَوِدِدْتُ وَالله أَنَّهُ كان يقاتلهم إلى اليوم قال : فخرجت من فوري ذلك إلى عليِّ بن الحسين فأخبرته بما قال فقال : إنه لقليلُ الإبقاء على أبيه .

قال : وبلغ الخبرُ المختارَ فقال : أَيَضْرَبُ بين ابني رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لأَقْتُلَنَّهُ فتواريت ما شاء الله ثم لم أشعر إلا وأنا بين يديه فقال : الحمد لله الذي أمكنني منكَ فقال فقلت : أنت استمكنْتَ مِنِّي أَمَا وَالله لولا رؤيا رأيتها لَمَا قَدَرْتُ عليَّ قال : وما رأيت فقلت : رأيتُ عثمانَ بن عفان فقالت : أنت عثمانُ بنُ عفان فقال : أنا حُبَارَى تركتُ أصحابي حَيَارَى لا يهود ولا نصارى .

فقال : يا أهل الكوفة انظروا إلى ما أرى الله عدوكم ثم خَلَى سبيلي وقد روي هذا الكلامُ عن شُتَيْرِ بن شَكل أَنَّهُ رأى معاويةَ في النوم فقال الكلامَ الذي روي عن عثمان . ووجهُ كلامِ عليِّ بن الحسين الذي رواه عنه سعيدُ التواءُ إن كان صادقاً فإنه للذي كان يسمعُ من الغالية من الإفراط والغلوِّ والفُحْشِ .

فكانه إنما أرادَ كسرهم وأن يُحْطَهم عن الغلوِّ إلى القصد

فإن دين الله عزَّ وجلَّ بينَ التقصير والغلوِّ وإلا فعليُّ بن الحسين أَفْقَهُ في الدين وأَعْلَمُ بمواضع الإمامة من أن يخفى عليه فضلُ ما بين عليٍّ بين طلحة والزبير .

شعر ومعرفة في الحبارى وقال الكمي : والحبارى طائرٌ حسن وقد يُتَّخَذُ في الدور . وناسٌ كثيرٌ من العرب وقريش يستطيعون مَحْسِيَّ الحُبَارَى جدًّا .

قال : والحُبَارَى من أَشدَّ الطير طيراناً وأبعدها مَسْقِطاً وأطولها شَوْطاً وأقلها عُرجةً وذلك أَنها تُصْطاد بظهر البَصرة

عندنا فيشقق عن حواصلها فيوجد فيه الحبة الخضراء غصّة لم (

تتغير ولم تفسد .

وأشجار البطم وهي الحبة الخضراء بعيدة المنابت مِنَّا وهي علوية أو ثغرية أو جَلِيَّة فقال الشاعر : (ترتعي الصُرُور من بَرَأَش أو هَيْلا ** نَ أو يانعا من العُثم)

شجر الزيتون والصُرُور شجر البطم وهي الحبة الخضراء بالجبال شجرهما .

وقال الكوْذَن العِجْلِيّ ويروى العُكْلِيّ : البطم لا يعرفه أهل الجلس وبلاد نجد هي المجلس وهو ما ارتفع والغور هو ما انخفض .

وبرَأَشُ : واد باليمن كان لقوم عاد وبرأَشُ : كلبية كانت تشاءم بها العرب وقال حمزة بن بيض :

(بل جناها أَخ عَلِيّ كَرِيمٌ * وعلى أهلها بَرَأَشُ تَجْنِي) (القول في الضأن والمعز) قال صاحب الضأن : قال

الله تبارك وتعالى : ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين فقدم ذكر الضأن .

وقال عز وجل : وَقَدْ يَنَازُهُ بِذُبْحٍ عَظِيمٍ وقد أجمعوا على أنه كبش ولا شيء أعظم مما عظم الله عز وجل ومن شيء فُدي به نبي .

وقال تعالى : إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ولم يقل إن هذا أخي له تسع وتسعون عَنَزاً ولي عَنَزٌ واحدة لأن الناس يقولون : كيف النعجة يريدون الزوجة .

وتسمى المِها من بقر الوحش نعاجاً ولم تسم بعنوز وجعله الله عز وجل السَّنة في الأصاحي والكبش للعقيقة وهدية العُرس

وجعل الجذع من الضأن كاللثني من المعز في الأُضحية .

وهذا ما فضل الله به الضأن في الكتاب والسنة . (فضل الضأن على المعز) تولد الضأن مرة في السنة وتُفرد ولا تُنم والماعزة قد تولد مرتين وقد تضع الثلاث وأكثر وأقل .

والبركة والثماء والعدد في الضأن والخنزيرة كثيرة الخنايص يقال إنما تلد عشرين خنوصاً ولا ثماء فيها . قال : و

فضل الضأن على المعز

أن الصوف أغلى وأثمن وأكثر قدراً من الشعر والمثل السائر : إنما فلان كبش من الكباش وإذا هجوه

قالوا : إنما هو تيس من التيوس إذا أرادوا النت أيضاً فإذا أرادوا الغاية في الغابة قالوا : ما هو إلا تيس في سفينة .

وَالْحُمْلَانُ يَلْعَبُ بِنَا الصَّبِيَّانَ وَالْجَدَاءُ لَا يَلْعَبُ بِنَا وَلَبْنُ الضَّأْنِ أَطْيَبُ وَأَخْشَرُ وَأَدْسَمُ وَزُبْدُهُ أَكْثَرُ وَرُؤُوسُ الضَّأْنِ الْمَشْوِيَّةُ هِيَ الطَّيِّبَةُ الْمَفْضِلَةُ وَرُؤُوسُ الْمَعَزِ لَيْسَ عَنْدهَا طَائِلٌ .

وَيَقَالُ رُؤُوسُ الْحُمْلَانِ وَلَا يَقَالُ رُؤُوسُ الْعَرَضَانِ .

وَيَقَالُ لِلْوَطِيِّ الَّذِي يَلْعَبُ بِالْحُدَّرِ مِنْ أَوْلَادِ النَّاسِ : هُوَ يَأْكُلُ رُؤُوسَ الْحُمْلَانِ لِمَكَانِ أَلِيَةِ الْحَمَلِ وَلِأَنَّهُ أَخْدَلَ وَأَرْطَبَ وَلَمْ يَقُولُوا فِي الْكُنَايَةِ وَالْتَعْرِيزِ : هُوَ يَأْكُلُ رُؤُوسَ الْعَرَضَانِ .
وَالشَّوَاءُ الْمَنْعُوتُ شِوَاءُ الضَّأْنِ وَشَحْمُهُ يَصِيرُ كُلُّهُ إِهَالَةً أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ وَالْمَعَزُ يَبْقَى شَحْمُهُ عَلَى حَالِهِ وَكَذَلِكَ لَحْمُهُ وَلِذَلِكَ صَارَ الْحَبَّازُونَ الْحَذَاقُ قَدْ تَرَكَوا الضَّأْنَ لِأَنَّ الْمَعَزَ يَبْقَى شَحْمُهُ وَلَحْمُهُ فَيَصْلَحُ

لِأَنَّهُ يَسْتَحَنُّ مَرَاتٍ فَيَكُونُ أَرْبَحَ لِأَصْحَابِ الْعَرَسِ .

وَالْكَبَاشُ لِلْهَدَايَا وَلِلنَّطَاحِ فَتِلْكَ فَضِيلَةٌ فِي النُّجْدَةِ وَفِي الثَّقَافَةِ وَمِنْ الْمُلُوكِ مَنْ يُرَاهِنُ عَلَيْهَا وَالْكَبْشُ الْكَرَازُ يَحْمِلُ الرَّاعِيَّ وَأَدَاةَ الرَّاعِيِّ وَهُوَ لَهُ كَالْحِمَارِ فِي الْوَقِيرِ وَيَعِيشُ الْكَرَّازُ عَشْرِينَ سَنَةً .

وَإِذَا شَبِقَ الرَّاعِيَّ وَاعْتَلَمَ اخْتَارَ النُّعْجَةَ عَلَى الْعَنْزِ وَإِذَا نَعَتُوا شِكْلًا مِنْ أَشْكَالِ مَشْيِ الْبَرَاذِينِ الْفَرَّهَ قَالُوا : هُوَ يَمِشِي مَشْيَ النَّعَاجِ .

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا فَقَدَّمَ الصُّوفَ .

وَالْبَيْخَتُ هِيَ ضَأْنُ الْإِبِلِ مِنْهَا الْجَمَازَاتُ وَالْجَوَامِيسُ هِيَ ضَأْنُ الْبَقَرِ يَقَالُ لِلْجَامُوسِ الْفَارَسِيَّةِ : كَاوْمَاشُ .

وَلَا يُذَكَّرُ الْمَاعِزُ بِفَضِيلَةٍ إِلَّا ارْتِفَاعُ ثَمَنِ جِلْدِهِ وَغَزَارَةُ لَبْنِهِ فَإِذَا صِرَتْ إِلَى عَدَدِ كَثْرَةِ النَّعَاجِ (

وَجُلُودُ النَّعَاجِ وَالضَّأْنُ كُلُّهَا أَرْبَى ذَلِكَ عَلَى مَا يَفْضَلُ بِهِ الْمَاعِزُ الضَّأْنَ فِي ثَمَنِ الْجِلْدِ وَالْعَزْرُ فِي اللَّبَنِ .

قول ابنة الخس ودغفل في المعز

وقيل لابنة الخس : ما تقولين في مائة من الماعز قالت : قَنَى

قيل : فمائة من الضأن قالت : غَنَى قيل : فمائة من الإبل قالت : مَنَى وسئل دغفل بن حنظلة عن بني مخزوم

فقال : مِعْزَى مَطِيرَةٍ عَلَيْهَا قُشْعَرِيرَةٌ إِلَّا بَنِي الْمَغِيرَةِ فَإِنَّ فِيهِمْ تَشَادُقَ الْكَلَامِ وَمَصَاهِرَةَ الْكِرَامِ .

ما قيل من الأمثال في العنز

وتقول العرب : لهُوَ أَصْرَدُ مِنْ عَنْزٍ جَرَبَاءٍ وتقول العرب : الْعَنْزُ تُبْهِي وَلَا تُبْنِي لِأَنَّ الْعَنْزَ تَصْعَدُ عَلَى ظُهُورِ

الْأَخْيَةِ

فَتَقْطَعُهَا بِأَظْلَافِهَا وَالنُّعْجَةَ لَا تَفْعَلُ ذَلِكَ .

هَذَا وَيَبُوتُ الْأَعْرَابُ إِذَا تَعَمَّلُ مِنَ الصُّوفِ وَالْوَبَرِ فَلَيْسَ لِلْمَاعِزِ فِيهَا مَعُونَةٌ وَهِيَ تَخْرِقُهَا وَقَالَ الْأَوَّلُ : (لَوْ

نزل الغيثُ لأَبَيْنِ امرأً * كانت له قَبَّةٌ سَحَقَ بِجَادُ (أبناءه : إذا جعل له بناءً وأبنية العرب : خيامهم ولذلك يقولون : بني فلان على امرأته البارحة

ضرر لحم الماعز

وقال لي شَمُوزُ الطيب : يا أبا عثمان إياك ولحم الماعز فإنه يورثُ الهمَّ ويحرِّكُ السَّوداء ويورثُ التَّسيان ويُفسدُ الدَّم وهو والله يَحْبِلُ الأولاد .

وقال الكلابيُّ : العُنُقُ بعد التُّوق ولم يقل : الحمل بعد الحمل .
وقال عمرو ابن العاص للشيخ الجُهنيَّ المعترض عليه في شأن الحكمين : وما أنتَ والكلام يا تيس جُهينة ولم يقل يا كبش جُهينة لأن الكبش مدحٌ والتيس ذمٌّ .
وأما قوله : إن الظِّلْف لا يُرى مع الحُفِّ فالبقرُ والجواميس والضأن والمعز في ذلك سواء .
قال : وأُتِيَ عبدُ الملك بن مروان في دخوله الكوفة على موائد بالجداء فقال : فأين أنتم عن العماريس فقيل له : عماريس الشام أطيب .
وفي المثل : هو أذلُّ من النقد النقد هو المعز وقال الكذاب الحرَّمازيُّ :

(لو كنتم قولاً لكنتم فنداً * * أو كنتم ماءً لكنتم زبداً) (أو كنتم شاةً لكنتم نقداً * * أو كنتم عوداً لكنتم عُقداً)

اشتقاق الأسماء من الكبش

قال : والمرأة تسمى كَبْشَةً وكُبَيْشَةً والرجل يكنى أبا كَبْشَةٍ وقال أبو فَرْدودة : (كبيشة إذ حاولت أن تَبِ * * ينَ يستبقُ الدمعُ مني استباقاً) (وقامتْ تريكُ غداةَ الفراق * * كشحاً لطيفاً وفخداً وساقاً) (ومنسدلاً كمثاني الحبا * * ل توسعه زُبَيْقاً أو خلافاً) (كبيشة عُرُسي تريدُ الطلاقاً * * وتسألني بعدَ وهنٍ فراقاً)

قول القصاص في تفضيل الكبش على التيس

وقال بعضُ القصَّاص : ومما فضل الله عزَّ وجلَّ به الكبش أن جعله مستورَ العورة من قُبُل ومن دُبُر ومَّا أهان الله تعالى به التيس أن جعله مهتوكَ الستر مكشوف القُبُل والدُّبُر .

التيس في الهجاء

وقال حسان بن ثابت الأنصاري : (سألت قريشاً كلها فشرارها ** بنو عامر شاهت وجوه الأعباد) (إذا جلسوا وسط الندى تجابوا ** تجاوب عتدان الربيع السوافد) وقال آخر : (أعثمان بن حيان بن آدم ** عتو في مقارقه يبول)

(ولو أني أشاء قد ارفأنت ** نعامته ويعلم ما أقول) وقال الشاعر : (سُميت زيدا كي تريد فلم تُرد ** فعاد لك المسمي فسماك بالقحر) (نتن التيس كالكلب لأنه يقزح بوله فيريد به حاق خيشومه وبول التيس من أخثر البول وأنتنه وريح أبدان التيس إليها ينتهي

المثل ولو كان هذا العرض في الكيش لكان أعذر له لأن الحموم واللخن والعفن والتتن لو عرض لجلد ذي الصوف المتراكم الصفيق الدقيق والملف المستكيف لأن الريح لا تتخلله والنسيم لا يتخرقه لكان ذلك أشبه . فقد علمنا الآن أن للتيس مع تخلخل شعره وبروز جلده وجفوف عرقه وتقطع بخار بدنه فضلاً ليس لشيء سواه والكلب يوصف بالتتن إذا بله المطر والحيات توصف بالتتن ولعل ذلك أن يجده من وضع أنفه على جلودها .

وبول التيس يخالط خيشومه وليس لشيء من الحيوان ما يشبه هذا إلا ما ذكرنا من الكلب على أن صاحب الكلب قد أنكر هذا .

وجلود التيس وجلود آباط الزنج مُنتنة العرق وسائر ذلك سليم والتيس إبط كله ونتنه في الشتاء كتنه في الصيف وإنا لندخل السكة وفي أقصاها تياس فنجد نتنها من أدناها حتى

لا يكاد أحدنا يقطع تلك السكة إلا وهو مخمّر الأنف إلا ما كان مما طبع الله عز وجل عليه البلوي) وعلياً الأسواري فإن بعضهما صادق بعضاً على استطابة ريح التيس وكان ربما جلسا على باب التياس ليستنشقا تلك الرائحة فإذا مرّ بهما من يعرفهما وأنكر مكانهما ادّعى أنهما ينتظران بعض من يخرج إليهما من بعض تلك الدور .

المكي وجاريتيه فأما المكي فإنه تعشّق جارية يقال لها سندرة ثم تزوجها نهارية وقد دعاني إلى منزلها غير مرة وخبرني أنها كانت ذات صنان

وأنه كان معجباً بذلك منها وأنها كانت تعالجه بالمرتك وأنه لها مراراً حتى غضب عليها في ذلك قال : فلما عرفت شهوتي كانت إذا سألتني حاجة ولم أفضها قالت : والله لأتمرتكنّ ثم والله لأتمرتكنّ ثم والله لأتمرتكنّ فلا أجذبُ بدءاً من أن أقضي حاجتها كائناً ما كان .

اشتاء ريح الكرياس وحدثني مؤيس بن عمران وكان هو والكذب لا يأخذان في طريق ولم يكن عليه في الصدق مؤونة لإيقاره له حتى كان يستوي عنده ما يضر وما لا يضر قال : كان عندنا رجل يشتهي ريح الكرياس لا يشفيه دونه شيء فكان قد أعد مجزباً أو سكة حديد في صورة المبرد فيأتي الكرياس التي تكون في الأزقة القليلة

المارة فيحرق الكرياس ولا يبالي أكان من خزف أو قال : فلقبي الناس من سيلان كرايسهم شرّاً حتى عثروا عليه فما منعهم من حبسه إلا الرحمة له من تلك البلية مع الذي رأوا من حسن هيئته فقال لهم : يا هؤلاء لو مررتم بي إلى السلطان كان يبلغ من عقابي أكثر مما أبلغ من نفسي قالوا : لا والله وتركوه .

نتن العنز

قالوا : وهذا شأن التيس وهو أبو العنز ولا تلد الحية إلا حية ولا بد لذلك التين عن ميراث في ظاهر أو باطن وأنشدوا لابن أحرر : (إني وجدت بني أعيا وجاملهم ** كالعنز تعطف روقها فترتضع) وهذا عيب لا يكون في النعاج .

مثالب العنز

والعنز هي التي ترتضع من خليفها وهي مُحفلة حتى تأتي

على أقصى لبنها وهي التي تنزع الوتد وتقلب المغلف وتنشر ما فيه .

وإذا ارتعت الضائنة والماعزة في قصيل نبت ما تأكله الضائنة ولا ينب ما تأكله الماعزة لأن الضائنة تقرض بأسنانها وتقطع والماعزة تقبض عليه فتثيره وتجذبه وهي في ذلك تأكله ويضرب (فكانت كعنز السوء قامت بظلفها ** إلى مدية تحت الثراب تُثربها)

تيس بني حمان

وقال الشاعر : (لعمرك ما تدري فوارس منقر ** أفي الرأس أم في الإست تلقى الشكائم) (وألهي بني حمان عسب عتودهم ** عن المجد حتى أحرزته الأكارم) وذلك أن بني حمان تزعم أن تيسهم قرع شاة بعد أن ذبح وأنه ألقحها .

أعجوبة الضأن

قالوا : في الضأن أعجوبة وذلك أن العجة ربما عظمت أليتها حتى تسقط على الأرض ويمنعها ذلك من المشي فعند الكباش رفق في السفاد وحذق لم يسمع بأعجب منه وذلك أنه يدنو منها ويقف منها موقفاً يعرفه ثم يصلك أحد جانبي الألية ب صدره بمقدار من

الصك يعرفه فيفرج عن حياها المقدار الذي لا يعرفه غيره ثم يسفدها في أسرع من اللّمع .

فضل الضأن على الماعز

وقالوا : والصَّانُ أَحْلَى للبرد والجَمَدِ وللرَّيحِ والمطر .
قالوا : ومن مفاخر الصَّانِ على المعز أن التمثيل الذي كان عند كسرى والتَّخْيِيرُ إنما كان بين النعجة والنخلة
ولم يكن هناك للعنز ذكر وعلى ذلك الناسُ إلى اليوم .
والموتُ إلى المعزِ أَسْرَعُ وأَمْرَاضُهَا أَكْثَرُ وإنما معادنُ الغنمِ الكثير الذي يعتمدُ الناسُ الجبالُ والمعز لا تعيش
هناك وأصوافُ الكِبَاشِ أَمْنَعُ للكِبَاشِ من غِلْظِ جُلُودِ المعز ولولا أن أجوافَ الماعزِ أبردُ وكذلك كُلاهما لَمَا
احتشَّتْ من الشَّحمِ كما تحتشي .

جمال ذكورة الحيوان وقبح التيوس

وذكورة كلِّ جنسٍ أتمُّ حُسناً من إناثها وربما لم يكنْ للإناث شيءٌ من الحُسْنِ وتكون الذكورةُ في غاية الحسن
كالطواويس

والتُّدَارِجُ وإناثها لا تدانيها في الحُسْنِ ولها من الحسن مقدارٌ وربما كُنَّ دونَ الذُّكُورِ ولهنَّ من الحسن مقدار
كإناث الدَّرَارِيجِ والقَبَجِ والدجاجِ والحمامِ والوراشينِ وأشباه ذلك .
وإذا قال الناسُ : تَبَاسَ عَرِفَ معناه واستَقْدِرَتْ صناعته وإذا قالوا : كَبَاشَ فإنما يعنون بيعَ الكِبَاشِ واتخاذها
للنَّطَاحِ .

والتُّيُوسُ قبيحةٌ جداً وزاد في قبحها حُسْنُ الصَّفَايا .
وإذا وصفوا أعداقَ النخلِ العِظامِ قالوا : كأثَّها كِبَاشُ .
وقال الشاعر : كأنَّ كِبَاشَ السَّاجِسِيَّةِ عُلِّقَتْ دُونِ الخوافي أو غرايرَ تاجرٍ وصوّرَ عُبيدُ اللَّهِ بن زياد في زقاق
قصره أسداً وكلباً وكبشاً ففَرَنَهُ مع سَبْعِينَ عَظِيمِي الشَّانِ : وحشيٍّ وأهليٍّ تَفَاوُلًا به . (

شعر في ذم العنز

وما ذمُّوا فيه العنزَ دونَ النعجةِ قولُ أبي الأسودِ الدُّؤلي : (ولستُ بمعرّاضٍ إذا ما لقيته ** يعبَسُ كالغَضَبانِ
حين يقولُ) (ولا بيسيس كالعنزِ أطولُ رِسْلها ** ورثمًا يومان ثم يزولُ) وقال أبو الأسود أيضاً : (ومن
خير ما يتعاطي الرجالُ ** نصيحةُ ذي الرأي للمجتبيها) (فلا تكُ مثلَ التي استخرجتْ ** بأظلافها مديَّةً أو
بفيها) (فقام إليها ذابحٌ ** ومن تدع يوماً شعوبٌ يجيها)

وقال مسكين الدارمي : (إذا صَبَّحْتَنِي من أناسٍ ثَعَالِبُ ** لترفع ما قالوا مَنَحْتُهُمْ حَقْرًا) (فكانوا كعنزِ السَّوءِ
تنغو حَينها ** وتحفرُّ بالأظلافِ عن حتفها حَفْرًا) وقال الفرزدق : (وكان يُجِيرُ الناسَ من سيفِ مالكٍ **
فأصبح يبغي نفسه من يُجيرُها) (وكان كعنزِ السَّوءِ قامت بظلفها ** إلى مُدْيَةٍ تحت الترابِ تشيرُها) أمنية أبي
شعيب القلال وقال رمضان لأبي شعيب القلال وأبو الهذيل حاضر : أي شيء تشتهي وذلك نصفُ النهار وفي
يومٍ من صيفِ البصرة قال أبو شعيب : أشتهي أن أجيءَ إلى بابِ صاحبِ سَقَطٍ وله على بابِ حانوته أليَّةٌ معلقة
من تلك المَبْزُرةِ المشرَّجة وقد اصفرَّت وودَّكها يقطر من

حاقَّ السَّمَنَ فَآخَذَ بِحَصْنِهَا ثُمَّ أَفْتَحَ لَهَا فَمَيَّ فَلَا أَزَالُ كَدَمًا كَدَمًا وَنَهَشًا نَهَشًا وَوَدَكَهَا يَسِيلُ عَلَى شِدْقِي حَتَّى أَبْلُغَ عَجَبَ الذَّنْبِ قَالَ أَبُو الْهَذِيلِ : وَيْلَكَ قَتَلْتَنِي قَتَلْتَنِي يَعْنِي مِنَ الشَّهْوَةِ .

باب في الماعز

قال صاحب الماعز : في أسماء الماعز وصفاتها ومنافعها وأعمالها دليلٌ على فضلها فمن ذلك أن الصفة أحسن من النعجة وفي اسمها دليل على تفضيلها ولبنها أكثر أضعافاً وأولادها أكثر أضعافاً وزُبدُها أكثر وأطيب . وزعم أبو عبد الله العتيبي أن التيس المشراطي قرع في يوم

واحد نيفاً وثمانين قرعة وكان قاطع الشهادة وقد بيع من نسل المشراطي وغيره الجدي بثمانين درهماً والشاة بنحو من ذلك وتحلب خمسة مكايك وأكثر وربما بيع الجلد جلد الماعز فيشتره الباضوركي بثمانين درهماً وأكثر .

والشاة إذا كانت كذلك فلها غلة نافعة تقوم بأهل البيت .

والنعال البقرية من السبت وغير السبت مقسومٌ نفعها بين الماعز والبقر لأن للشرك من جلودها خطراً وكذلك القيال والشسع .

ووصف حميد بن ثور جلدًا من جلودها فقال : (تتابع أعوامٌ علينا أطبناها ** وأقبل عامٌ أصلح الناسَ واحدٌ)

(سقط : بيت الشعر) (وجاءت بذى أونين ما زال شابه ** تعمر حتى قيل لها مات خالد) وقال راشد بن سهاب : (ترى رائدات الخيل حول بيوتنا ** كمعزى الحجاز أغوزتها الزرائب)

لحم الماعز والضأن

ومن منافعها الانتفاع بشحم الثرب والكلية وهما فوق شحم الألية وإذا مدحوا اللحم قالوا : لحم الماعز الحصى الثني وقال الشاعر :

(كأن القوم عُشُّوا لحمَ ضأنٍ ** فَهُمْ نَعِجُونَ قَدْ مَالَتْ طُلَاهُمُ) والمرورون الذين يصرعون إذا أكلوا لحم الضأن اشتدَّ ما بهم حتى يصرعهم ذلك في غير أوان الصرع . وأوان الصرع الأهلة وأنصاف الشهور وهذان الوقتان هما وقت مد البحر وزيادة الماء ولزيادة القمر إلى أن يصير بدرًا أثرٌ بين في زيادة الدماء والأدمغة وزيادة جميع الرطوبات .

أمثال في المعز والضأن

ويقال : فلان ماعزٌ من الرجال وفلان أمعزٌ من فلان والعنقا معز الخيل والبراكين ضأنها وإذا صفوا الرجل بالضعف والموق قالوا : ماهو إلا نعجة من النعاج ويقولون في التقديم

وقال الشاعر : (نشي وما جمعتُ من صفدٍ * وحيثُ من سبدٍ ومن لبدٍ) (هم تقاذفت الموم بما * فنزعن من بلدٍ إلى بلدٍ) (يا روح من حسمت قناعته * سبب المطامع من غدٍ وغدٍ) (من لم يكن لله متهماً * لم يحس محتاجاً إلى أحدٍ) وهذا شعر رويته على وجه الدهر .

وزعم لي حسين بن الصّحّاك أنه له وما كان ليَدّعي ما ليس له .

وقال لي سعدان المكفوف : لا يكون : فنزعن من بلد إلى بلد بل كان ينبغي أن يقول : فنازعن .

فضل الماعز وقال : والماعزة قد تولد في السنة مرتين إلا ما ألقى منها في الدّياس ولها في الدّياس نفع موقعه كبير وربما باعوا عندنا بطن الماعز بثمن شاة من الضأن .

قال : والأقط للمعز وقرونها هي المنتفع بها .

قال : والجدّي أطيّب من الحمل وأكرم وربما قدموا على المائدة الحمل مقطوع الألية من أصل الذنب ليوهبوا أنه جدّي .)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعقول الخلفاء فوق عقول الرعية وهم أبصر بالعيش استعملوا ذلك أو تركوه فقال : أثرون أي لا أعرف الطيبات لباب البر بصغار المعزى .

وملوكنّا يُحمل معهم في أسفارهم البعيدة الصفايا الحوامل المعروفات أزمان الحمل والوضع ليكون لهم في كل منزل جداء معدّة وهم يقدرّون على الحملان السمان بلا مؤونة .

والعناق الحمراء والجداء هي المثل في المعز والطيب ويقولون : جداء البصرة وجداء كسكر .

وسلخ الماعز على القصّاب أهون والتّجار يذكر في خصال السّاج سلسة تحت القدوم والثقب والميشار .

أمارات حمل الشاة

وقيل لأعرابي : بأي شيء تعرف حمل شاتك قال : إذا تورّم حيّاها ودجت شعرقها واستفاضت خاصرقتها .

وللداجي يقال : قد كان ذلك وقد دجا ثوب الإسلام وكان ذلك وثوب الإسلام داجٍ . (المرعزي وقرابة

الماعزة من الناس) قال : وللماعز المرعزي وليس للضأن إلا الصوف .

والكيساء كلها صوف ووبر وريش وشعر وليس الصوف إلا للضأن وذوات الوبر كالإبل والثعالب والخنزير والأرنب وكلاب

الماء والسمور والفنك والقاقم والسنجاب والدّبّاب .

والتي لها شعر كالبقرة والجواميس والماعز والظباء والأسد والتمور والذئاب والثيور والكلاب والفهود والضباع

والعتاق والبراذين والبغال والحمير وما أشبه ذلك .

والإنسان الذي جعله الله تعالى فوق جميع الحيوان في الجمال والاعتدال وفي العقل والكرم ذو شعر .
فالماعزة بقرابتها من الناس بهذا المعنى أفخر وأكرم .

الماعز التي لا ترد

وزعم الأصمعي أن لبني عُقَيْلٍ ماعزًا لا ترد فأَحَسِبُ واديَهُم أَخَصَبَ وادٍ وأرطبه أليس هذا من أعجب العجَب

جلود الماعز

ومن جلودها تكون القِرْبُ والزَّقاق وآلة المشاعِل وكلُّ نَتْنِي وسَعْنٍ ووَطْبٍ وشُكِّيَّةٍ وسِقَاءٍ وَمَزَادَةٍ مسطوْحَةٍ
كانت أو مثلثة ومنها ما يكون الخون وعِكمُ السِّلَفِ والبطائن

والجُرْبُ ومن الماعزة تكون أنطاع البُسْط وجِلال الأثقال في الأسفار وجِلال قِيَابِ الملوك وبقباب الأدم تتفاخر
العرب وللقباب الحمر قالوا : مضر الحمراء وقال عبيد بن الأبرص : (فاذهبْ إِلَيْكَ فَإِنِّي مِنْ بَنِي أَسَدٍ ** أَهْلِ
القِيَابِ وَأَهْلِ الجُرْدِ والنَّادِي)

الفخر بالماعز

وقالوا : وفخرتم بكبشة وكبيشة وأبي كبشة فَمِنَّا عنز اليمامة وعنز وائل ومنا ماعز بن مالك صاحب التوبة
النَّصوح .

وقال صاحبُ الماعز : وطعنتم على الماعزة بحفرها عن حتفها فقد قيل ذلك للضأن . من ذلك البكري للعنبرية
وهي قيلة وصار معها إلى النبي فسأله الدهناء فاعترضت عنه قيلة فقال لها البكري : إني وإياك كما قال القائل :
عن حتفها تبحت ضأن بأظلافها فقالت له العنبرية : مهلاً فَإِنَّكَ ما علمت : جواداً يذِي الرجل هادياً في الليلة
الظلماء عفيفاً عن الرفيقة فقال : لا زلت مصاحباً بعد أن أثبت علي بحضرة الرسول بهذا

ضرر الضأن ونفع الماعز

وقالوا : والنعجة حرب واتخاذها خسراً إلا أن تكون في نعاج سائمة لأنها لا ترفع رأسها من الأكل . والنعجة
أكلٌ من الكيش

والحجر أكل من الفحل والرمكة أكل من البرذون . والنعجة لا يقوم نفعها بمؤونتها . والعنز تمنع الحيَّ الجلاء
فإن العرب تقول : إن العنوق تمنع الحيَّ الجلاء .

والصفية من العراب أغرر من بختية بعيداً .
ويقال : أحق من راعي ضأن ثمانين .

كرم الماعز

وأصناف أجناس الأظلاف وكرامها بالمعز أشبه لأن الطباء والبقر من ذوات الأذنان والشعر وليست من ذوات الألياء والصوف . والشمل والتعاويد والقلائد إنما تتخذ للصفايا ولا تتخذ

للنجاج ولا يخاف على ضرورها العين والنفس .

والأشعار التي قيلت في الشاء إذا تأملتها وجدت أكثرها في المعز : في صفاياها وفي حوها وفي تيوستها وفي عنوقها وجدائها . وقال محارق ابن شهاب المازني وكان سيداً كريماً وكان شاعراً فقال يصف تيس غنمه : (وراحت أصيلاً كأن ضروعها ** دلاء وفيها واتد القرن لبلب) (له رعشات كالشئوف وغرة ** شديخ ولون كالوذيلة مذهب) (إذا دوحة من مخلف الضال أربلت ** عطاها كما يعوذرى الضال قرهب)

(تلاد رقيق الخد إن غد نجره ** فصردان نعم النجر منه وأشعب) أبو الغر والحو اللواتي كأنها من الحسن في الأعناق جزع متقب (إذا طاف فيها الحالبان تقابلت ** عقائل في الأعناق منها تحلب) (ترى ضيفها فيها يبيت بغبطة ** وضيف ابن قيس جائع يتحوب) قال : فوفد ابن قيس هذا على النعمان فقال له : كيف المخارق فيكم قال : سيد شريف من رجل يمدح تيسه ويهجو ابن عمه

وقال الراجز : أنعت ضاناً أمجرت غثائاً والمجر : أن تشرب فلا تروى . وذلك من مثالبها .

وقال رجل لبعض ولد سليمان بن عبد الملك : ماتت أمك بغراً وأبوك بشما .

وقال أعرابي : (مولى بني تيم ألس مؤدياً ** منيحتنا كما تؤدى المنايح) (فإنك لو أديت صعدة لم تزل ** بعلياء عندي ما ابتغى الريح رايح) (ولو أشليت في ليلة رجبية ** لأرواها هطل من الماء سافح)

(لجأت أمام الحالبين وضرعها ** أمام صفافها مبد مضارح) (وويل أمها كانت نتيجة واحد ** ترامي بها بيد الإكام القراوح) أصناف الظلف وأصناف الحافر ليس سبيل الظلفي التشابه سبيل أصناف الحافر والخفة . واسم النعم يشتمل على الإبل والبقر والغنم . وبعد بعض الظلف من بعض كبعده من الحافر والخف لأن الظلف للضان والمعز والبقر والجواميس والطاء والخنازير وبقر الوحش وليس بين هذه الأجناس تسافد ولا تلاقح لا الغنم في الغنم من الضأن والماعز ولا الغنم في سائر الظلف ولا شيء من سائر تلك الأجناس تسافد غيرها أو تلاقحها . فهي تختلف

في الصوف والشعر وفي الأنس والوحشة وفي عدم التلاقح والتسافد وليس كذلك الحافر والخف . (رجز في العنز) وقال الراجز : (كهفي على عنزين لا أنساها ** كأن ظل حجر صغراًهما) قوله : صالح يريد انتهاء السن والمعطرة : الحمراء مأخوذة من العطر وقوله : كأن ظل حجر صغراًهما يريد أنها كانت سوداء لأن ظل

الحجر يكون أسود وكلما كان الساتر أشد اكتنازاً كان الظل أشد سواداً .
قوله أظل من حجر وتقول العرب : ليس شيء أظل من حجر ولا أدفأ من شجر وليس يكون ظل أبرد ولا
أشد سواداً من ظل جبل وكلما كان أرفع

سمكاً وكان مسقط الشمس أبعد وكان أكثر عرضاً وأشد اكتنازاً كان أشد لسواد ظله .
ويزعم المنجمون أن الليل ظل الأرض وإنما اشتد جداً لأنه ظل كرة الأرض وبقدر ما زاد بدنها في العظم ازداد
سواد ظلها .
وقال حميد بن ثور : (إلى شجر ألى الظلال كأنها * رواهب أحرمن الشراب غدوب) والشفة الحماء يقال لها
لمياء يصفون بذلك اللثة فجعل ظل الأشجار الملتفة ألى .

أقط الماعز

(لنا غنم نسوقها غزار لنا * كأن قرون جلتها العصي) فدل بصفة القرون على أنها كانت ماعزة ثم قال :
فتملاً بيتنا أقطاً وسمناً * وحسبك من غنى شيع وري) فدل على أن الأقط منها يكون .
استطرد لغوي وقال : ويقال لذوات الأظلاف : قد ولدت الشاة والبقرة مضمومة الواو مكسورة اللام
مشدودة يقال هذه شاة تحلب قفيزاً ولا يقال تحلب والصواب ضم التاء وفتح اللام .
ويقال أيضاً : وضعت في موضع ولدت وهي شاة ربى من حين تضع إلى خمسة عشر يوماً وقال أبو زيد : إلى
شهرين من غنم

رُبَاب مضمومة الراء على فعال كما قالوا : رجل ورُجال وظئر وظوار وهي رُبَى بيّنة الرُبَاب والرُبّة بكسر الراء
ويقال هي في ربأها وأنشد : حنين أم البوّ في ربأها والرُبَاب مصدر وفي الرُبَى حديث عمر : دَعِ الرُبَى والمَاحِض
والأَكُولَة وقال أبو زيد : ومثل الرُبَى من الضأن الرَعُوث قال طرفة : (فليت لنا مكان المَلِكِ عَمِرٍ و * رَعُوثاً
حَوْلَ قُبَيْتِنَا نُحَوِّر)

وقالوا : إذا وضعت العنز ما في بطنها قبل سليل ومليط وقال أبو زيد : هي ساعة تضعه من الضأن والمعز جميعاً
ذكرأ كان أو أنثى : سخله وجمعها سخل وسخال فلا يزال ذلك اسمه ما رضع اللبن ثم هي البهمة للذكر
والأنثى وجمعها بهم وقال الشاعر : (وليس يزجركم ما تُوعظون به * والبهم يزجرها الراعي فتتزرجر)
ويروى : يُزَجِر أحياناً وإذا بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها وأكلت من البقل واجترت فما كان من أولاد
المعز فهو جَفَر والأنثى جَفْرَة والجمع جَفَار ومنه حديث عمر رضي الله عنه حين قضى في الأرنب يُصيّبها الحرم
بجَفَر .

فإذا رعى وقوي وأتى عليه حول فهو عريض وجمعه عِرْضَان والعِتود نحو منه وجمعه أَعْتِدَة وعِندَان وقال يونس :
جمعه أَعْتِدَة وعند وهو في ذلك كله جدّي والأنثى عناق وقال الأخطل :

وعند ، هو في ذلك كلمه جدي ، والأنثى عناق ، وقال الأخطل : (وأذكرُ غَدَانَةً عِنْدَانَا مُرَكَّمَةً * من الحبْلُقِ يُبْنَى حولها الصَّيْرُ) ويقال له إذا تبع أمّه وفطم : تَلَوُ والأنثى : تِلْوَةٌ لأنه يتلو أمّه .

ويقال للجَدْيِ : إمْرَ والأنثى أَمْرَةٌ وقالوا : هَلَعٌ وهَلَعَةٌ والبَدْرَةُ : العَنَاقُ أيضاً والعُطْطُ : الجدي فإذا أتى عليه الحَوْلُ فالذكر تيس والأنثى عَنَزَ ثم يكون جَذَعاً في السَّنَةِ الثانية والأنثى جَذَعَةٌ ثم ثَنِيّاً في الثالثة والأنثى ثَنِيَّةٌ ثم يكون رَباعياً في الرابعة والأنثى رباعيةٌ ثم يكون سَدِيساً والأنثى سَدِيسٌ أيضاً مثل الذكر بغير هاء ثم يكون صالغاً والأنثى صالغةٌ والصالغُ بمنزلة البازل من الإبل والقارح

من الخيل ويقال : قد صَلَغَ يَصْلُغُ صَلُوغاً والجمع الصَّلُغُ وقال رؤبة : والحربُ شهباءُ الكباشِ الصَّلُغُ وليس بعد الصالغ شيء .

وقال الأصمعيّ : الحُلَامُ والحُلَانُ من أولاد المعز خاصة وجاء في الحديث : في الأرنب يصيبها المحرمُ حُلَامٌ قال ابن أحرر : (تُهْدِي إليه ذراعَ البكرِ تَكْرَمَةً * إِمَّا ذَكِيّاً وَإِمَّا كَانَ حُلَانًا) ويروى : ذراع الجدي ويروى : ذَيْبِحاً والذَيْبِحُ هو الذي أَدْرَكَ أن يَضْحَى به وقال مهلهل بن ربيعة :

(كُلُّ قَتِيلٍ فِي كَلِيبِ حُلَامٍ * حَتَّى يَنَالِ الْقَتْلُ آلَ هَمَامٍ) وقالوا في الضأن كما قالوا في المعز إلا في مواضع قال الكسائي : هو خروف في موضع العريض والأنثى خروفة ويقال له حَمَلٌ والأنثى من الحِمْلَانِ رَحِلٌ والجمع رُحَالٌ كما يقال ظئر وظَوَارٌ وتَوَامٌ وتَوَامٌ والبَهْمَةُ : الضأن والمعز جميعاً فلا يزال كذلك حتى يَصِيفَ فإذا أكل وَاجْتَرَّ فهو فَرِيرٌ وفُرارةٌ وفُرْفُورٌ وعَمْرُوسٌ وهذا كله حينَ يَسْمَنُ ويجترُ والجِلَامُ بكسر الجيم وتعجيم نقطة من تحت الجيم قال الأعشى :

(سَوَاهِمُ جَذَعَانِهَا كَالْجِلَامِ * وَأَقْرَحَ مِنْهَا الْقِيَادُ النُّسُورَا) يعني الخوافر .

والْيَعْرُ : الجدي يأسكان العين وقال البريق الهذليّ : مُقِيمًا بِأَمْلَاحٍ كَمَا رُبِطَ الْيَعْرُ وَالْبَذَجُ : من أولاد الضأن خاصة وقال الراجز : (قَدْ هَلَكْتُ جَارِئًا مِنَ الْهَمَجِ * فَإِنْ تَجُعْتُ تَأْكُلُ عَتُودًا أَوْ بَذَجٌ)

والجمع بَذَجَان .

دعاء أعرابي وقال أعرابيّ : اللَّهُمَّ مِيتَةً كَمِيتَةِ أَبِي خَارِجَةَ قَالُوا : وما مِيتَةُ أَبِي خَارِجَةَ قال : أَكَلُ بَذَجًا وَشَرَبُ مِشْعَلًا وَنَامُ فِي الشَّمْسِ فَأَتَتْهُ الْمَنِيَّةُ شَبْعَانُ رِيَانٌ دَفَانٌ .

تيس بني حمان وفي المثل : أغلّم من تيس بني حِمَانٍ وبَنُو حِمَانٍ تَزْعَمُ أَنَّهُ قَفَطُ سَبْعِينَ عَنَزاً وَقَدْ فُرِيتُ أَوْدَاجَهُ . زعم لصاحب المنطق وقد ذكر أرسطوطاليس في كتاب الحيوان أنه قد ظهر ثورٌ

وَتَبَّ بعد أن خُصِي فنزا على بقرَةٍ فَأَحْلَبَهَا .

ولم يَحْكُ هذا عن مُعَايِنَةٍ وَالصَّدُورُ تَضِيقُ بِالرَّدِّ عَلَى أَصْحَابِ النَّظَرِ وَتَضِيقُ بِتَصْدِيقِ هَذَا الشَّكْلِ .

أحاديث وآثار في الغنم قال : وَحَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ طَرِيقٍ عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ ثُبَاتَةَ قَالَ : سَمِعْتُ عَلِيّاً يَقُولُ : مَا أَهْلُ بَيْتٍ لَهُمْ شَاةٌ إِلَّا يُقَدِّسُونَ كُلَّ لَيْلَةٍ .

وقال : حدثنا عنبسة القطان قال حدثنا السكن بن عبد الله بن عبد الأعلى القرشي عن رجل من الأنصار أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال : امسحوا رُعامَ الشَّاءِ ونُقُوا مَرابِضَها مِنَ الشَّوْكِ والحِجَارَةِ فَإِنَّها فِي الجَنَّةِ .
وقال : ما مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ شاةٌ إِلَّا قُدِّسَ كُلُّ يَوْمٍ مَرَّةً فَإِنْ كَانَتْ لَهُ شَاتَانِ قُدِّسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ قال : وحدثنا عنبسة القطان بهذا الإسناد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أُوصِيكُمْ بالشَّاءِ خَيْراً فَنَقُّوا مَرابِضَها مِنَ الحِجَارَةِ والشَّوْكِ فَإِنَّها فِي الجَنَّةِ .

وعن محمد بن عجلان عن وهب بن كيسان عن محمد بن عمرو بن عطاء العامري عن بني عامر بن لؤي أن رجلاً مرَّ على أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وهو بالعقيق فقال : أين تريد قال : أريد غَنِيمةً لي قال : امسح رُعامها وأطب مَرأَها

وصلَّ في جانبِ مَرأَها فَإِنَّها من دوابِّ الجنة .)

وعن فرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن رجل من أصحاب أبي الدرداء أنه عَمِلَ طعاماً اجتهد فيه ثم دعا فأكل فلما أكل قال : الحمد لله الذي أَطْعَمَنَا الخَمِيرَ وأَلْبَسَنَا الحَبِيرَ بعد الأسودين : الماء والتمر قال : وعند صاحبه ضائنة له فقال : هذه لك قال : نعم قال : أطب مَرأَها واغسل رُعامها فَإِنَّها من دوابِّ الجنة وهي صفوة الله من البهائم .

قال : وحدثنا إبراهيم بن يحيى عن رجل عن عطاء بن

أبي رباح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله عزَّ وجلَّ خَلَقَ الجنةَ بيضاءَ وخيرُ الرِّيّ البياضُ قال : وبعث إلى الرُّعيان : من كانت له غنمٌ سُودٌ فَلْيَخْلُطْها بِعَفْرِ فَإِنَّ دَمَ عَفْرَاءٍ أَزْكى مِنْ دَمِ سَوْدَاوِينَ .

وحدثنا أبو المقدام قال : حدثنا عبد الرحمن بن حبيب عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بالرُّعاةِ فَجُمِعُوا لَهُ فقال : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرَعَى غَنَمًا سُودًا قال : وجاءته امرأةٌ فقالت : يا رسول الله إني اتخذت غنماً

رجوت نسلها ورسلها وإني لا أراها تنمو قال : فما ألوانها قالت : سود قال : عَفْرِي أَيِ اخْلُطِي فِيها بِيضًا .
قال : وحدثنا طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الغنمُ بَرَكَةٌ مَوْضُوعَةٌ والإبلُ جَمالٌ لأَهْلِها والخِيرُ مَعْقُودٌ فِي نَواصِي الخَيْلِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ حنظلةُ بن أبي سفيان المكي قال : سمعت طاووساً يقول : من هاهنا أطلع الشيطان قرنيه من مطلع الشمس والجفاء والكِبَرُ في أهل الخيل والإبل في الفدَّادين أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم .

قال وحدثنا بكر بن خنيس عن يحيى بن عُبَيْد الله بن عبد الله بن مَوْهَب عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأسُ الكُفْرِ قِبَلِ المَشْرِقِ والفَخْرُ والحِيلاءُ في أهل الخيل والإبل والقَدَّادِينَ

أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم والإيمانُ يمانٌ والحكمةُ يمانية .
وعن عوف بن أبي جميلة عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الفخرُ في أهل الخيل والجفاءُ في أهل الإبل والسكينةُ في أهل الغنم .
وعن عثمان بن مقسم عن نافع أن ابنَ عمرَ حدثه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : السكينةُ في أهل الغنم .
جاءت سليمٌ ولها قديدٌ . (

أخبار ونصوص في الغنم وكان من الأنبياء عليهم السلام مَنْ رعى الغنم ولم يرعَ أحدٌ منهم الإبل وكان منهم شعيب وداود وموسى ومحمد عليهم السلام قال الله جلَّ وعزَّ : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى .
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرعى غنيمات خديجة .
والمعزبون بنزولهم البُعدَ من الناسِ في طباع الوحش .
وجاء في الحديث : من بدأ جفا .
ورعاً الغنم وأربابها أرقُّ قلوباً وأبعد من الفظاظَة والغلظة .
وراعى الغنم إنما يرعاها بقرب الناس ولا يُعزَّبُ ولا يبدو ولا ينتجع قالوا : والغنم في النوم غنمٌ .
وقالوا في الغنم : إذا أقبلتْ أقبلتْ وإذا أدبرتْ أقبلت .

الحامي والسائبة والوصيلة وكان لأصحاب الإبل مما يجرمونه على أنفسه : الحامي والسائبة ولأصحاب الشاء الوصيلة .
والعتيرة أيضاً من الشاء وكان أحدهم إذا نذر أن يذبح من العتائر والرجبية كذا وكذا شاة فبلغ الذي كان يتمنى في نذره

وشحَّ على الشاء قال : والطَّباءُ أيضاً شاء وهي تُجْزِي إذا كانت شاء : فيجعل عتائره من صيدِ الطَّباء وقال الحارث بن جِلْزَة : (عَتَاً باطلاً وظلماً كما تُعْ ** تَتَرُّ عن حَجَرَةِ الرَّيِّضِ الطَّباءُ) وقال الطَّرِمَّاح : (كَلَوْنِ الغَرِيِّ الفَرْدِ أجْسَدُ رأسه ** عَتَائِرُ مَظْلُومِ المَهدِيِّ المَذْبَحِ) ومنها الغَدَوِيُّ والغَدَوِيُّ جميعاً وقال الفرزدق : (ومهورٌ نَسَوْتَهُمْ إذا ما أُنْكَحُوا ** غَدَوِيُّ كُلِّ هَبْنَقٍ تَنبَالِ)

ميل الحيوان على شقه الأيسر وقال أبو عَتَّاب : ليس في الأرض شاة ولا بعيرٌ ولا أسدٌ ولا كَلْبٌ يريدُ الرُّبُوض إلا مال على شقه الأيسر إبقاءً على ناحية كبده .

قال : ومتى تفقدتم الصفايا التي في البيوت والنعاج والجِداء والحُمْلَان وجدتموها كذلك . (معالجة العقاب الفريسة قال : والعقاب تستعمل كفها اليمنى إذا أصْعَدَتْ بالأرانب والثعالب في الهواء وإذا

ضربت بمخالبها في بطون الطّباء والذئاب فإذا اشتكت كبدها أحسّت بذلك فلا تزال إذا اصطادت شيئاً تأكل من كبده حتى تبرأ وإن لم تُعاین فريسة فرجاً جلّت على الحمار الوحشيّ فتقضّ عليه انقضاء الصخرة فتقدّ بدابرتها ما بين عجب ذنبه إلى منسجه وقد ذكرنا من شأنها في باب القول فيها ما فيه كفاية .

أخذ الحيوان على يساره حين يهرب قال : وليس في الأرض هاربٌ من حربٍ أو غيرها استعمل

الحُضر إلا أخذ على يساره إذا ترك عزّمه وسوم طبيعته وأنشد : (تخامص عن وحشيّه وهو ذاهلٌ ** وفي الجوف نازٌ ليس يخبو ضرامها) وأنشد الأصمعي للأعشى : (ويسرّ سهماً ذا غرار يسوقه ** أمين القوى في ضالة المترنم) (فمرّ نصي السهم تحت لبانه ** وحال على وحشيّه لم يعتم) قال : ووضع : على موضع : عن

ميل شقشقة الجمل ولسان الثور وفي باب آخر يقول أوس بن حجر : وذلك أنه ليس في الأرض

جملٌ هاج وأخرج شقشقته إلا عدلَ بها إلى أحد شقيّ حنكه والثور إذا عدا عدل بلسانه عن شقّ شماله إلى يمينه وقال عبدة بن الطبيب : (مستقبل الريح يهفو وهو مبتركٌ ** لسانه عن شمال الشّدق معدول) حال الثور عند الكر والفر قال : وإذا كثر الكلب أو الثور فهو يصنع خلاف صنيعه عند الفرّ وقال الأعشى : (فلما أضاء الصبح قام مبادراً ** وحن انطلاق الشاة من حيث يما)

(فصبحه عند الشروق غدبة ** كلاب الفتي البكري عوف بن أرقما) (فأطلق عن مجنوبها فاتبعه ** كما هيّج السامي المعسل خشرماً) (فأخى على شؤمي يديه فذاها ** بأظماً من فرع الذؤابة أسحماً) ثم قال : (وأدبر كالشعرى وضوحاً وثقبة ** يواعس من حرّ الصريمة معظماً) علة غزو العرب أعداءهم من شق اليمين قال : ولعلم العرب بأن طبع الإنسان داعية إلى الهرب من شقّ

الشمال يحبون أن يأتوا أعداءهم من شقّ اليمين قال : ولذلك قال شُتيم بن خويلد : وأما رواية أصحابنا فهي : فجئناهم من أيمن الشق عندهم .

الأعسر من الناس واليسر وإذا كان أكثر عمل الرجل بيساره كان أعسر فإذا استوى عملاً بهما قيل أعسر يسر فإذا كان أعسر مُصمّماً فليس بمستوى الخلق وهو عندهم إذا كان كذلك فليس بميمون الخلق ويشتقون من اليد العسرى العسر والعسرة فلما سمّوها الشمال أجروها في الشؤم وفي المشؤوم على ذلك المعنى وسموها اليد اليسار واليد اليسرى على نفي العسر والنكد كما قالوا : سليم ومفازة ثم أفصحوا بها في موضع فقالوا اليد الشؤمي .

مما قيل من الشعر في الشمال ومما قالوا في الشمال قول أبي ذؤيب : (أ بالصّر من أسماء جدّ بك الذي ** جرى بيننا يوم استقلت ركابها) (زجرت لها طير الشمال فإن يكن ** هواك الذي هوى يصبك اجتنابها) وقال شُتيم بن خويلد : (وقلت لسيدنا يا حلیم ** إنك لم تأس أسوأ رفيقا) (زجرت بها ليلة كلها ** فجئت بها مؤيداً خنفيما)

(أَطَعْتَ غُرَيْبَ إِبْطَ الشَّمَالِ ** تُنَحِّي لِحْدِ الْمَوَاسِي الْحُلُوقَا) وقال آخر : (وَهُوَ وَجْدِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ لَهُمْ **
غَرَابَ شِمَالٍ يَنْفُضُ الرِّيشَ حَاتِمًا) وإذا مال شَيْقَةُ قَالُوا : أَحُولُ شَيْقُهُ وَقَالَ الْأَشْتَرُ بْنُ عُمَارَةَ : (عَشِيَّةً يَدْعُو
مِعْتَرَّ يَالَ جَعْفَرٍ ** أَحُوكُمْ أَحُوكُمْ أَحُولُ الشَّقِّ مَائِلُهُ) وقال آخر :

(أَيُّ أَخٍ كَانَ لِي وَكُنْتُ لَهُ ** أَشْفَقَ مِنْ وَالِدٍ عَلَى وَلَدٍ) (حَتَّى إِذَا قَارَبَ الْحَوَادِثُ مِنْ ** خَطُورِي وَحَلَّ
الزَّمَانُ مِنْ عُقْدِي) (أَحُولَ عَنِّي وَكَانَ يَنْظُرُ مِنْ ** عَيْنِي وَيُرْمِي بِسَاعِدِي وَيَدِي) الوقت الجيد في الحمل على
الشاء قال الأصمعي : الوقت الجيد في الحمل على الشاء أن تخلّى سبعة أشهر بعد ولادها ويكون حملها خمسة
أشهر فتولد في كل سنة مرة فإن حمل عليها في كل سنة مرتين فذلك الإمغال يقال : أمغل بنو فلان فهم
مُغْمَلُونَ والشاء مُغْل .
وإذا وُلِدَتِ الشاةُ ومَضَى لها أربعة أشهر فهي لجة والجميع

اللِّجَابُ واللِّجَبَاتُ وذلك حين استطراد لغوي قال : والأير من البعير : المِقْلَمُ ومن الحافر الجُرْدَانُ ومن الظلف
كله : القضيبي ومن الفرس العتيق : النَّضِيَّ زعم ذلك أبو عبيدة .
وما أراد من الحافر الفحل فهو الوداق وهو من الإبل الضبعة ومن الضأن الحنوّ ويقال : حنّت تحنو حنوّاً وهي
نعجة حانٍ كما ترى وما كان من المعز فهو الحرمة ويقال : عنز حرّمى وأنكر بعضهم قولهم : شاة صارف
وزعم أنه مولد .

قال : وهو من السباع الإجماع يقال : كلبه مُجْعَلٌ فإذا عظم بطنها قيل أَجَحَّتْ فهي مُجِحٌّ .

وما كان من الخف فهو مِشْفَرٌ وما كان من الغنم فهو مِرْمَةٌ وما كان من الحافر فهو جَحْفَلَةٌ .
وإذا قلت لكل ذات حمل وضعت جاز فإذا ميزت قلت للخف : نُتِجَتْ وللظلف : وَلِدَتْ والبقرة تجري هذا
الجرى وقلت للحافر : نِتِجَتْ .

ويقال للحافر من بين هذا كله إذا كان في بطنها ولد : نَتُوجُ وإذا عظم بطن الحافر قيل قد أعقّت فهي عَقُوقُ
والجماع عَقُقٌ وبعضهم يقول : عقائق .

ويقال للبقرة الوحشية نعجة والبقرة تجري مجرى الضأنة في حالها .
وما كان من الخف فصوته بُغَامٌ فإذا ضجّت فهو الرُّغَاءُ فإذا طرّبت في إثر ولدها قبل حنّت قال : والإلماع في
السباع وفي الخيل دون البهائم وهو أن تشرق ضرعها .

قال : والخروف في الخيل والضأن دون البهائم كلها .

قال : ويقال للطير : قد قمطها يقمطها ويقال للئيس والكلب : قد سَفَدَ يُسَفَدُ سِفَادًا ويقال في
الخيال : كامها يَكُومُهَا كَوْمًا وكذلك في الحافر كَلَّهُ وفي في الحمار وحده : باكها يُبُوكُهَا بَوَكًا .
قولهم : ما له سَبَدٌ ولا لَبَدٌ وتقول العرب : ما له عندي سَبَدٌ ولا لَبَدٌ فَقَدِمُوا السَّبَدَ ففي هذا المعنى أنهم قدموا

الشَّعْر على الصوف .

فإن قال قائل : فقد قدّموا في مواضع كثيرة ذكر ما هو أحسن فقالوا : ما له عندي قليل ولا كثير والعبر والتّغير حتى قالوا : الحلّ والزيت وقالوا : ربيعة ومُضَرّ وسَلِيم وعامر والأوس

والخزرج وقال الله : لا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .

والذي يدلُّ على أن ذلك الذي قلنا كما قلنا قولُ الراعي : (حتى إذا هَبَطَ الْغِيْطَانُ وانقطعت ** عنه سلاسل رَمَلٍ بينها عُقْدُ) (لاقى أَطْيَلَسَ مَشَاءً بِأَكْلِهِ **) إثر الأوابد ما ينمي له سَبْدٌ (فَقَدَّمَ السَّبْدَ ثم قال : وقال الراعي : (أما الْفَقِيرُ الذي كانت حُلُوبُهُ ** وَفَقَّ الْعِيَالِ فلم يُتْرَكْ له سَبْدٌ) وهو لو قال : لم يُتْرَكْ له لَبَدٌ ولو قال : ما ينمي له لَبَدٌ لقام الوزْنُ ولكان له معنى فدلَّ ذلك على أنه إنما أراد تقديم المقدم .

مفاخرة بين صاحب الضأن وصاحب الماعز

قال صاحب الضأن : فخرتم على الضأن بأن الإنسان ذو شعر وأنه

بالماعز أشبه فالإنسان ذو ألية وليس بذي ذنب فهو من هذا الوجه بالضأن أشبه .

قال صاحب الماعز : كما فخرتم بقوله : ثمانية أزواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وقلتم : فقد قدّمها فقال الله : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ .

فإن وجب لضأنك التقديم على الماعز بتقديم هذه الآية وجب للجنّ التقديم بتلك الآية .

في الضفادع

علّمك الله علماً نافعاً وجعل لك من نفسك سامعاً وأعاذك من العُجْبِ وعرفك لباسَ التقوى وجعلك من الفائزين .

اعلم رحمك الله تعالى أن الله جل وعز قد أضاف ست سور من كتابه إلى أشكال من أجناس الحيوان الثلاثة منها مما يسمونها باسم البهيمة وهي سورة البقرة وسورة الأنعام وسورة الفيل وثلاثة منها مما يعدون اثنتين منها من الهمج وواحدة من الحشرات .

فلو كان موقع ذكر هذه البهائم وهذه الحشرات والهمج من الحكمة والتدبير موقعها من قلوب الذين لا يعتبرون ولا يفكرون ولا يميزون

ولا يحصلون الأمور ولا يفهمون الأقدار لما أضاف هذه السور العظام الخطيرة و الشريفة الجليلة إلى هذه الأمور الخفّة المسخّفة والمغمورة المقهورة .

ولأمر ما وضعها في هذا المكان ونوّه بأسمائها هذا التنويه فافهم فإن الأديب الفهم لا يعود قلبه الاسترسال وخذ نفسك بالفكرة وقلبك بالعبرة .

وأنا ذاكرٌ من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلي وهو قليلٌ في جنب ما عند علمائنا والذي عند علمائنا لا

يَحْسُ في جنب ما عند غيرهم من العلماء والذي عند العلماء قليل في جنب ما عند الأنبياء والذي عند الأنبياء قليل في جنب ما عند الله تبارك وتعالى .

من ذلك الضَّفَدِيع لا يصيحُ ولا يمكنه الصياح حتى يدخل حنكَه الأسفل في الماء فإذا صار في فمه بعض الماء صاح ولذلك لا تسمع للضفادع نقيقاً إذا كُنَّ خارجاتٍ من الماء .

زعم في الضفادع

والضفادعُ من الحيوان الذي يعيشُ في الماء ويبيضُ في الشطّ مثل الرّق والسُّلحفاة وأشباه ذلك . (زعم في الضفادع) والضفادع من الحيوان الذي يُخلقُ في أرحام الحيوان وفي أرحام الأرضين إذا ألقتها المياه لأن اليَحَّ يخرسان يُكبس في الآزاج ويحال بينه وبين الرِّيح والهواء والشمس بأحكامٍ ما يقدرون عليه وأوثقه ومتى انخرق في تلك الخزانة خَرَقَ في مقدار مَنَحِر الثور حتى تدخله الريح استحال ذلك اليَحُّ كله ضفادع . ولم نعرف حقَّ هذا وصدقه من طريق حديث الرجل والرجلين بل نجدُ الخبرُ عنه كالإطباق

أعجوبة في الضفادع

وفيها أعجوبة أخرى : وذلك أنا نجد من كبارها وصغارها الذي لا يحصى في غِبِّ المطر إذا كان المطر ديمة ثم نجدُها في

المواضع التي ليس بقرها بحرٌ ولا نهرٌ ولا حوضٌ ولا غديرٌ ولا وادٍ ولا بئرٌ ونجدُها في الصَّحاح الأماليس وفوق ظهورِ مساجد الجماعة حتى زعم كثيرٌ من المتكلفين ومن أهل الخسارة ومن لا يحتفل بسوء الحال عند العلماء ولا يكثرث للشكّ أنها كانت في السحاب . ولذلك طمع بعضُ الكذابين ممن نكَّره اسمه فذكر أن أهل أيدَج مُطِروا مرةً أكبر شبائيطَ في الأرض وأسمَّها وأعذبها وأعظمها وأهم اشتروا وملَّحوا وقرَّسوا وتزوَّد منه مسافرهم وإنما تلك الضفادع شيءٌ يخلق في تلك الحال بمزاوجة الزمان وتلك المطرة وتلك الأرض وذلك الهواء .

معارف في الضفدع

والضفادعُ من الخلق الذي لا عظامَ له .

ويزعم أصحاب الغرائب أن العلاجيَّ منها الذكورة السود . وترعمُ الأعرابُ أن الضفدِيع كان ذا ذنب وأن الضَّبَّ سلبه إياه وذلك في خُرافة من خرافات الأعراب ويقول آخرون : إن الضفدِيع إذا كان صغيراً كان ذا ذنب فإذا خرجت له يدانٍ أو رجلان سقطَ . جملة من الأمثال وتقول العرب : لا يكون ذلك حتى يُجمع بين الأروى والنعام وحتى يُجمع بين الماء والنار

وحتى يشيب الغراب وحتى يبيض القار وحتى تقع السماء على الأرض .
ومن حديث الأمثال : حتى يجيء نسيط من مرو وهو لأهل

البصرة وحتى يجيء مصقلة من طبرستان وهو لأهل الكوفة .
وقال الله عز وجل : وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .
وتقول العرب : لا يكون ذلك حتي يُجمع بين الضب والنون وحتى يُجمع بين الضفدع والضَّب وقال الكميت :
(يُولَّفُ بين ضِفْدَعَةٍ وَضَبٍّ * وَيَعْجَبُ أَنْ نَبَرَ بَنِي أَبِينَا) وقال في النون والضَّب : (ولو أنهم جاؤوا بشيء
مُقَارِبٍ * لشيءٍ وبالشكل الموافق للشكل)

معارف في الضفدع

وهو من الخلق الذي لا يصاب له عظم والصفدعُ أجحظ الخلق عيناً
والأسد تتأبها في الشرائع وفي منافع المياه والآجام والغياض فتأكلها أكلاً شديداً .
وهي من الخلق المائي الذي يصبر عن الماء أياماً صالحة والصفداع تعظم ولا تسمن كالذرّاج والأرنب فإن
سمنهما أن يحملا اللحم .
وفي سواحل فارس ناسٌ يأكلونها .

قول مسيلمة في الضفدع

ولا أدري ما هيّج مسيلمة على ذكرها ولم ساء رأيه فيها حيث جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه : يا
صفدعُ نقي كمْ تنقي نصفك في الماء ونصفك في الطين لا الماء تُكدّرِين ولا الشارب تمنعين .

معيشة الضفادع مع السمك

والصفادعُ من الخلق الذي يعيش مع السمك في الماء وليس كل شيء يعيش في الماء فهو سمك وقد قال
الصلّتان العبديّ في القضاء الذي

قضى بين جرير والفرزدق و الفصل الذي (فإن يك بحرُ الحنظليين زاخراً * فما تستوي حيتانه والصفادعُ)
طلب الحيات والصفادع والحيات تأتي منافع الماء تطلب الصفادع والفأر تكون بقرب المياه كثيرةً فلذلك تأتي
الحيات تلك المواضع ولأن صيدها من أسهل الصيد عليها وهي تعرف صيدها ألا تراها تحيد عن ابن عرس وإن
رأت جُرذاً أكبر منه لم تنهه دون أن تبخله وترى الوزل فتفر منه وترى الوحرة فتشد عليها وترى القنفذ وإن
صغر

فلا تجترئ أن تمرّ به خاطفة وترى الوبرة وهي مثل ذلك القنفذ مرتين فتأكلها .
ولطلبها الضفادع بالليل في الشرائع يقول الأخطل : (ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت ** فدلّ عليها صوتها حيّة
البحر) وقد سرق معناه بعض الشعراء فقال وهو يذكر الضفدع وأنه لا ينقّ حتى يدخل حنكه الماء : (يُدخِل
في الأشداق ماءً ينصفه ** كيما ينقّ والتّقيق يُتلفه)

شعر في الضفادع

وقال زهير : (يُحيل في جدول تحبّو ضفادعُه ** حبّو الجوّاري ترى في مائه تُطفا)

(يخرجن من شربات ماؤها طحلّ ** على الجدوع يحفن الغمّ والعرقا) وقال أوس بن حجر : (فباكرن جونا
للعلاجيم فوقه ** مجالس غرقى لا يحلا ناهله) جون قال : يريد غديراً كثيراً الماء قال : وإذا كثر الماء وكثر
عمقه اسودّ في العين والعلاجيم : الضفادع السود وجعلها غرقى يقول : هي فيما شاءت من الماء كقولك :
فلان في خير غامر من قبل فلان وجعل لها مجالس حول الماء وفوقه لأن هذه الأجناس التي تعيش مع السمك في
الماء وليست بسمك أكثر حالاً من إذ لم تكن سمكا خالصاً

أن تظهر على شطوط المياه وفي المواضع التي تبيض فيها من الدغل وذلك كالسرطان والسلحفاة والرق
والضفدع وكلب الماء وأشباه ذلك .
استطرد لغوي ويقال : نقّ الضفدع ينقّ نقيقاً وأنقض ينقض إنقاضاً وقال رؤبة : (إذا دنا منه إنقاض النقيق
** في الماء والساحل خصخاض البقي) وقد زعم ناس أن أبا الأخرز الحماني حيث قال : تسمع القنفذ صوت
القنفذ

إنما أراد الضفدع قالوا : وكذلك الطرماع حيث يقول : (يخافتن بعض المضغ من خشية الردى ** وينصتن
للصوت انتصات القنائن) قالوا : لأن الضفدع جيّد السمع إذا ترك النقيق وكان خارجاً من الماء وهو في ذلك
الوقت أحذر من الغراب والعصفور والعقّاق وأسمع من فرس وأسمع من قراد وأسمع من عقاب وبكل هذا جاء
الشعر .

ذكر ما جاء في الضفادع في الآثار

إبراهيم بن أبي يحيى عن سعيد بن أبي خالد بن فارض

عن سعيد بن مسيب عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الضفدع .
قال : وحدّثنا سعيد عن قتادة قال : سمعت زُرارة يحدث أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : لا تسبوا الضفادع
فإن أصواتها تسبيح .

قال : وحدّثنا هشام صاحب الدستوائي عن قتادة عن زُرارة بن أوفى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : لا تقتلوا
الضفادع فإن

نقيقهنَّ تسبيحٍ ولا تقتلوا الخفاش فإنه إذا خرب بيت المقدس قال : يا ربَّ سلّطني على البحر حتى أغرقهم .
وعن حماد بن سلمة عن قتادة عن زُرارة قال : قال عبد الله بن عمرو : لا تقتلوا الخفاش فإنه استأذن البحر أن يأخذ من مائه فيطفيئَ بيتَ المقدس حيث حرّق ولا تقتلوا الضفادع فإن نقيقها تسبيح .
وعن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب وفي إسناد له : أن طبيباً ذكر الضفدع عن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجعل في دواء فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع .
ما يوصف بجودة الحراسة وشدة الحذر والعربُ تصف هذه الأصناف التي ذكرناها بجودة الحراسة وبشدة الحذر وأعطوا الثعلبَ والذئبَ أموراً لا يبلغها كثيرٌ من الناس .
قول صاحب المنطق في الغرائيق)

قول صاحب المنطق في الغرائيق

وقال صاحبُ المنطق في الغرائيق قولاً عجيباً فزعم أن الغرائيق من الطيور القواطع وليست من الأوابد وأنها إذا أَحَسَّت بتغيُّر الزمان اعتزمت على الرجوع إلى بلادها وأوكارها وذكر أنها بعيدةٌ سحيقةٌ قال : فعند ذلك تتخذ قائداً وحارساً ثم تنهض معاً فإذا طارت ترفعت في الجواء جداً كي لا يعرض لها شيء من سباع الطير أو يبلغها سهمٌ أو بُنْدُق وإن عاينت غيماً أو مطراً أو خافتُ مطراً أو سقطتُ لطلبٍ ما لا بدَّ لها منه من طعم أو هجم عليها الليل أمسكتُ عن الصياح وضمتُ إليها أجنتها فإذا أرادت النوم أدخل كل واحد منها رأسه تحت جناحه لأنه يرى أن الجناح أحملُ لما يَرُدُّ عليه من رأسه أو بعض ما في رأسه : من العين وغير ذلك ويعلم أنه ليس بعد ذهاب الرأس حياة ثم ينام كل واحد

منها وهو قائم على رجليه لأنه يظن أنه إن مكَّنهما نام إن كان لا يحب النوم أو نام ثقيلًا إن كان يجب أن يكون نومه غراماً فأما قائدُها وسائقُها وحارسُها فإنه لا ينام إلا وهو مكشوفُ الرأس وإن نام فإن نومه يكون أقلُّ من الغشاش وينظرُ في جميع النواحي فإن أَحَسَّ شيئاً صاح بأعلى صوته .
صيد طير الماء وسألتُ بعضَ من اصطادَ في يومٍ واحد مائة طائر من طير الماء فقلت له : كيف تصنعون قال : إن هذا الذي تراه ليس من صيدٍ يوم واحد وإن كلَّه صيدٌ في ساعة واحدة قلت له : وكيف ذاك قال : وذلك أنا نأتي مناقعَ الماء ومواضعَ الطير فنأخذ قرعةً يابسةً صحيحةً فنرمي بها في ذلك الماء فإذا أبصرها الطير تدنو منه بدفع الرِّيح لها في جهته مرة أو مرتين فيزِع فإذا كثر ذلك عليه أنس وإنما ذلك

الطير طير الماء والسَّمَكُ فهي أبداً على وجه الماء فلا تزال الرِّيح تقرّبها وتباعدها وتزداد هي بها أنساً حتى ربما سقط الطائرُ عليها والقرعة في ذلك إما واقفةً في مكان وإما ذاهبةً وجائيةً فإذا لم نرها تنفرُ منها أخذنا قرعةً أخرى أو أخذناها بعينها وقطعنا موضعَ الإبريق منها وخرقنا فيها موضعَ عينين ثم أخذناها أخذنا فأدخلَ رأسه فيها ثم دخل الماء ومشى فيه إليها مشياً رؤيُداً فكلما دنا من طائر قبض على رجليه ثم غمسه في الماء ودقَّ جناحه وخلاه فبقي طافياً فوق الماء يسبحُ برجليه ولا يطيقُ الطيران وسائرُ الطير لا ينكر انغماسه ولا يزال كذلك حتى يأتي على آخر الطير فإذا لم يبق منها شيء رمى بالقرعة عن رأسه ثم نلقطها ونجمعها ونحملها .

علاج الملسوع)

قال : ومن جيّد ما يُعالج به الملسوع أن يُشقّ بطن الضفدع

ثم يرفد به موضع اللسعة ولسنا نعني لدغة الحية وإنما نعني لسعة العقرب .
والضفدع إذا رأى النار أمسك عن النقيق وإذا رأى الحجر . والأسد إذا رأت النار أحجمت عن الإقدام وإذا
اشتد الأصوات .
استطرد لغويّ قال : ويقال للضفدع : تقّ ينقّ وهدر يهدر وقال الراعي :

قول صاحب المنطق في الضفادع والسمك

وأما قول صاحب المنطق في أن الضفادع لا تنقّ حتى تُدخّل فكها الأسفل في الماء لزن الصوت لا يجيئها حتى
يكون في فكها ماء فقد قال ذلك وقد وافقه عليه ناسٌ من العلماء وادعوا في ذلك العيان .
فأما زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعام إلا ببعض الماء فأيّ عيان دلّ على هذا وهذا عسرٌ .

القول في الجراد أحضرني على اسم الله ذهنك وفرغ لما ألقى إليك قلبك فربّ حرّف من حروف الحكم
الشريفة والأمثال الكريمة قد عفا أثره ودثر ذكره ونبا الطّرف عنه ولم يُشغل الذهن بالوقوف عليه وربّ بيتٍ
هذا سبيله وخطبة هذه حالها .
ومدار الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ والحقائق لا العبارات فكّم من دارس كتاباً خرج غفلاً كما دخل وكم
من متفهّم لم يفهم ولن يستطيع الفهم إلا من فرّع قلبه للتفهم كما لا يستطيع الإفهام إلا من صحت نيته في
التعليم .

فضل الإنسان على سائر الحيوان

فأقول : إن الفرق الذي بين الإنسان والبهيمة والإنسان والسّبع والحشرة والذي صبر الإنسان إلى استحقاق
قول الله عز وجلّ : وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ لَيْسَ
هو الصورة وأنه خلّق من نطفة وأن أباه خلق من تراب ولا أنه يمشي على رجليه ويتناول حوائجه بيديه لأن
هذه الخصال كلها مجموعة في البُله والجنان والأطفال والمنقوصين .
والفرق الذي هو الفرق إنما هو الاستطاعة والتمكين وفي وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة وليس يوجب
وجودهما وجود الاستطاعة .
وقد شرف الله تعالى الجنّ وفضّله على السّبع والبهيمة بالذي أعطاه من الاستطاعة الدالة على وجود العقل
والمعرفة .
وقد شرف الله الملائكة وفضلهم على الجنّ وقدمهم على الإنسان وألزمهم من التكليف على حسب ما خوّلهم
من النعمة وليست لهم صورة الإنسان ولم يخلّقوا من التّطف ولا خلق أبوهم من التراب وإنما الشأن في العقل

والمعرفة والاستطاعة .

أفتظنُّ أن الله عز وجل يخصُّ بهذه الخصال بعضَ خلقه دون بعضٍ ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعضَ من أعدمه ذلك وأغراه منه فلم أعطاه العقل إلا للاعتبار والتفكير ولم أعطاه المعرفة إلا ليؤثر

الحقُّ على هواه ولم أعطاه الاستطاعة إلا لإلزام الحجة .

فهل فكرتَ قطُّ في فصل ما بينك وبين الخلق المسخَّر لك وبين الخلق الذي جعل لك والخلق المسلط عليك وهل فكرتَ قطُّ في فصل ما بين ما جعله عليك عادياً وبين ما جعله لك غاذياً وهل فكرتَ قطُّ في فصل ما بين الخلق الذي جعل لك عذاباً والخلق الذي جعل لك قاتلاً وبين ما أنسه بك وبين ما أوحشهُ منك وبين ما صغَّره في عينك وعظمه في نفسك وبين ما عظمه في عينك وصغَّره في نفسك .

بل هل فكرتَ في النحلة والعنكبوت والنملة أنت ترى الله تقدَّس وعزَّ كيف نوّه بذكره ورفع من قدرها وأضاف إليها السُّور العظام والآيات الجسام وكيف جعل الإخبار عنها قرآناً وفرقاً حيث يقول : وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ فَفَقَّ عَلَى صَغَرِ النِّحْلَةِ وَضَعَفَ أَيُّهَا ثُمَّ أَرَمَ بِعَقْلِكَ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ : ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا فَإِنَّكَ تَجِدُهَا

أكبر من الطُّود وأوسع من الفضاء ثم انظر إلى قوله : حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ فَمَا تَرَى فِي) مقدار النملة في عقل الغيِّ وغير الذكيِّ فانظر كيف أضاف الوادي إليها وخبر عن حذرهما ونصحها لأصحابها وخوفها من قد مكنَ فإنك تجدُّها عظيمةَ القدر رفيعةَ الذكر قد (عَجَزُ الْإِنْسَانِ وَصِغَرُ قَدْرِهِ) وخبرني عن الله تعالى أما كان قادراً أن يعذب الكنعانيين والجبابرة والفراعنة وأبناء العمالقة : من نسل عاد وثمود وأهل العترة والعنود بالشیاطين ثم بالمردة ثم بالعفاريت ثم بالملائكة الذين وكلهم الله تعالى بسوق السحاب وبالمدد والجزر ويقبض أرواح الخلق وبقلب الأرضين وبالماء والرياح وبالكواكب والنيران وبالأسد والنمور والبُيور وبالفيلة والإبل وبالجواميس وبالأفاعي والتعابين وبالعقارب والجرات والعقبان والنسور وبالتماسيح وباللُحْم والدُّلُفِين .

فلم عذبهم بالجراد والقمل والضفادع وهل يتلقَّى عقلك قبل التفكير إلا أنه أراد أن يعرفهم عجزهم ويذكرهم صغر أقدارهم ويذلُّهم على ذلك بأذل خلقه ويعرفهم أن له في كل شيء جُنْدًا وأن القويَّ من قوَّاه وأعانه والضعيف من ضَعْفِهِ والمنصور من نصره والمخذول من خَلَّاه وخذله وأنه متى شاء أن يقتل بالعسل الماذي والماء الزُّلال كما يقتل بالسَّم الساري والسيف الماضي قتل .

ولم كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا رأى على جسده البثرة ابتهل في الدعاء وقال : إن الله ولم قال لنا : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ . فافهم عنه تعالى ذكره وتقديس أسماؤه قوله : آيات ثم قال : مُفَصَّلَاتٍ فهل وقفت قطُّ على هذه الآيات وهل توهَّمت تأويل قوله : هذا آية وغير آية وهل وقفت على فصل ما بين الآية وغير الآية وإذا كانت مفصَّلات كان ماذا وإذا لم تكن مفصَّلات كان ماذا .

فافهم قوله : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَنْقَصُ مَعْرِفَةً وَعِلْمًا وَلَا أضعفُ قُوَّةً وَبَطْشًا وَلَا أَوْهَنُ رُكْنًا وَعَظْمًا
من ضيفدع فقد قال كما ترى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ فقد جعله كما ترى
أفضل آياته والعذاب الذي أرسله على أعدائه .

وقد قال جل وعز : فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَأَظْهَرِ الْمَاءَ جَلًّا ثَنَاءً مِنْ أَعْدٍ مَوَاضِعِ الْمَاءِ مِنْ ظَنُونِهِمْ وَخَبَرَنَا
بذلك كي لا نخلي أنفسنا من الحذر والإشفاق ولنكون علماء بالعلم الذي أعطانا ولنكون راجين خائفين ليصح
الاختيار ويحسن الاختيار : فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ)
الخالقين ما أحسن ما قدر وأتقن ما برا .

وكان السبب الذي سلطه الله تعالى على العرم وهو مُسَنَّةٌ جَنَّتِي بِلَادِ سِيَا جُرْدًا فهو الذي خرّقه وبدّل نعمتهم
بؤسًا ومُلْكُهُمْ يَبَابًا وَعِزُّهُمْ ذَلَالًا إِلَى أَنْ عَادُوا فَقَرَاءَ فَقَالَ اللَّهُ : وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتِيهِمْ جَنَّتِينَ ذَوَاتِي أَكَلِ خَمْطٍ وَأَنَلِ
وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ هَذَا بَعْدَ

أَنْ قَالَ : لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ
وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ .

شعر في سد مأرب وقال الأعشى : (فففي ذاك للمؤتسي أسوة * * * ومأرب قفى عليه العرم) (رُخَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ
حَمِيرٌ * * * إِذَا جَاءَ مَاؤُهُمْ لَمْ يَرِمِ) وأنشد أبو عمرو بن العلاء : (مِنْ سَبَا الْحَاضِرِينَ مَأْرَبَ إِذْ * * * يَنْتُونُ مِنْ دُونِ
سَيْلِهِ الْعَرِمَا)

معارف في الجراد

ثم انظر إلى الجراد وهذا باب القول فيه .
قال : فأول ما يبدو الجراد إذا باض سرءً وسرؤه : بيضه .
يقال : سَرَأَتْ تَسْرَأُ سَرَاءً .
فانظر الآن فكم ترى فيه من أعجوبة ومن آيةٍ بليغة فأول ذلك التماسُّها لبيضها الموضع الصلِّد والصخور الصَّمَّ
المُلْسَ ثَقَّةً بَأَنَها إِذَا ضَرَبَتْ بِأَذْنَابِهَا فِيهَا انْفَرَجَتْ لَهَا .

ذنب الجرادة وإبرة العقرب

ومعلوم أن ذنب الجرادة ليس في خلقة المسمار ولا طرف ذنبها كحدِّ السَّنان ولا لها من قوة الأسر ولذنبها من
الصلابة ما إذا اعتمدت به على الكُدْيَةِ والكَدَّانَةِ جرح فيهما فكيف وهي
تتعدى إلى ما هو أصْلَبُ من ذلك وليس في طرف ذنبها كإبرة العقرب .
وعلى أن العقرب ليس تحرق القمقم من جهة الأيد وقوة البدن بل إنما ينفرجُ بطبعٍ مجعول هناك وكذلك انفراجُ
الصخورِ لأَذْنَابِ الجراد .

ولو أن عُقاباً أرادت أن تحرق في جلد الجاموس لما انخرق لها إلا بالتكُلف الشديد والعُقَابُ فإذا غرَزَت الجُرادة وألقت بيضها وانضمت عليها تلك الأحاديث التي أحدثتها وصارت كالأفاحيص لها وصارت حافظة لها ومرتبة وصانعة وواقية حتى إذا جاء وقت دبيب الروح فيها أحدث الله في أمرها عجباً آخر فسيحان من استخزنها حكمته وحشاها بالأدلة عليه وأنطقها بأنها مدبرة ومُدَلَّةٌ ميسرة ليفكر مفكر ويعتبر معتبر ذلكم الله رب العالمين وتبارك الله رب العالمين .

مراتب الجراد

وقال الأصمعي : يقال : قد سرأت الجُرادة تسراً سرّاً فإذا خرج من بيضه فهو دَباً والواحدة دَباة ويخرج أصهب إلى البياض فإذا اصفر وتلوّنت فيه خطوطٌ واسودَّ فهو بُرقان يقال رأيت دَباً بُرقاناً والواحدة بُرقانة فإذا بدت فيه خطوطٌ سودٌ وبيضٌ وصُفرٌ فهو المَسِيحُ فإذا بدا حجمُ جناحه فذلك الكُتِفان لأنه حينئذٍ يكتف المشي واحدة كتفانة قال ابن كناسة : (يكتف المشي كالذي يتخطى * طنباً أو يشك كالتمادي) يصف فرساً فإذا ظهرت أجنحته وصار أحمر إلى الغبرة فهو الغَوغاء والواحدة غوغاء وذلك حين يستقل ويموج بعضه في بعضه ولا يتوجّه جهةً ولذلك قيل لرعا ع الناس غوغاء فإذا بدت في لونه الحمرة والصفرة وبقي بعض الحمرة واختلف في ألوانه فهو الخيفان والواحدة خيفانة ومن ثمة قيل للفرس خيفانة .

فإذا اصفرّت الذكورة واسودّت الإناث ذهبت عنه أسماء غير الجراد فإذا باض قيل غَرَزَ الجرادُ وقد رزَّ . فإذا كثر الجراد في السماء وكثف فذلك السُدُّ ويقال : رأيتُ سُدّاً من جرادٍ ورأيتُ رجلاً من جرادٍ للكثير منه وقال العجاج : سَيرَ الجراد السُدُّ يرتاد الحَصِرُ

مثل في الجراد

ومما تقول العرب : أصرد من جرادة وإنما يُصْطاد الجراد بالسحر إذا وقع عليه الندى طلب مكاناً أرفع من موضعه .

فإن كان مع الندى بردٌ لبد في موضعه ولذلك قال الشاعر : (وكتيبة لبستها بكتيبة * كالثائر الحيران أشرف للندى) الثائر : الجراد أشرف : أتى على شرف للندى : أي من أجل الندى . ويقال : سحّت الجرادة تسخّ سخّاً ورزّت وأرزت وجرادة رزّاء وراز ومُرَزَّ : إذا غمزت ذنبها في الأرض وإذا ألقت بيضها قيل : سرأت تسراً سرّاً .

ويقال : قد بشر الجراد الأرض فهو يبشرها بشراً : إذا حلّقها فأكل ما عليها ويقال : جرد الجرادُ : إذا وقع على شيء فجرده وأنشدني ابن الأعرابي : كما جرد الجارود بكر بن وائل ولهذا البيت سمي الجارود .

وأنشدني آخر : (يقول أميرٌ : ها جرّادٌ وضبّةٌ ** فقد جرّدت بيتي وبيتَ عيالها) وهذا من الاشتقاق .
ومنه قيل ثوب جرّادٌ يأسكان الرء إذا كان قد انجرد وأخلّق قالت سعدى بنت الشّمردان : (سيّءٌ عادية
وهادي سُرّبةٌ ** ومقاتلٌ بطلٌ وليثٌ مسلّعٌ) (أجعلت أسعداً للرّماح درينةٌ ** هيلتك أمك أي جرّدت ترفع)
تطيّر النابغة ويدخل في هذا الباب ما حدّثنا به الأصمعيّ قال : تجهز النابغة

الذيانيّ مع زبّان بن سيّار الفزاريّ للغزو فلما أراد الرحيل نظراً إلى جرادة قد سقطت عليه فقال : جرادة تجرّد
وذاث لونين غيري من خرج في هذا الوجه : ولم يلتفت زبّان إلى طيرته وزجره ونفذ لوجهه فلما رجع إلى
موضعه الذي كان النابغة فارقه فيه وذكر ما نال من السلامة والغنيمة أنشأ يذكر شأن)
النابغة فقال : (تحبّ طيرةً فيها زيادٌ ** لتخبره وما فيها خبرٌ) (أقام كأن لقمان بن عادٍ ** أشار له بحكمته
مسيرٌ) (تعلّم أنه لا طيرٌ إلا ** على متطيّر وهو الثبور) (بلى شيءٌ يوافق بعض شيءٍ ** أحياناً وباطله كثيرٌ
(واسم النابغة زياد بن عمرو وكنيته أبو ثمامة وأنشدني أبو عبيدة : (وقائلةٌ : من أمّها واهتدى لها ** زياد بن
عمرو أمّها واهتدى لها) استطراد لغوي قال : ويقال أبشرت الأرض إبطاراً : إذا بُذِرَتْ فخرج منها
بذرهما فعند ذلك يقال : ما أحسنَ بَشرةَ الأرض .

وقال الكميت وكنية الجراد عندهم : أمّ عوف وجناحها : بُرداها ولذا قال : وأنشدنا أبو زيد : (كأن رجليه
رجلاً مُقْطَفٍ عَجَلٍ ** إذا تجاوبَ من بُردَيه ترنيمٌ) يقول : كأن رجلي الجندب حين يضربُهما الأرض من
شدة الحرّ والرّمضاء رجلاً رجل مُقْطَفٍ والمقطف : الذي تحته دابةٌ قُطوف فهو يهملُهما برجليه .

شعر في الجندب والجراد

وقال أبو زيد الطائي يصف الحرّ وشدته وعملَ الجندب بكراعيه : (أي ساعٍ سعى ليقطع شربي ** حين
لاحت للصباح الجوزاء) (واستكنّ العصفورُ كرهاً مع الضّ ** ب أوفى في عوده الجرباء) (ونفى الجندبُ
الحصى بكراعٍ ** به وأذكت نيرانها المعزاء) وأنشد أبو زيد لعوف بن ذرّة في صفة الجراد : (قد خفت أن
يحدّرنا للمصرين ** ويترك الدّين علينا والدّين) (زحف من الخيفان بعد الزّحفين ** من كلّ سفعاء القفا
والخدين)

(ملعونة تسليخ لونا عن لونٍ ** كأنها ملتفةٌ في بُردين) أنصبه منصبه في قحفين وعلى معنى قوله : (تُنحي على
الشمراخ مثل الفأسين ** أو مثل متشار عليظ الحرفين) قال حماد لأبي عطاء : (فما صفراءُ تُكنى أمّ عوفٍ **
كأن رُجِلَتِيها منجلان)

تشبيه الفرس بالجرادة

ويُوصَفُ الفرسُ فيشبه بالجرادة ولذا قال الشاعر :

(فإذا أتيت أباك فاشترِ مثلها ** إنَّ الرِّدافَ عن الأَحَبَّةِ يَشْغَلُ) (فإذا رَفَعْتَ عِنائها فجرادةٌ ** وإذا وضَعْتَ عِنائها لا تَفْشَلُ) ولم يرض بشرُّ بن أبي خازم بأن يشبَّهه بالجرادة حتى جعله ذكراً حيث يقول : (بكلِّ قِيادٍ مُسَنِّفَةٍ عَنودٍ ** أَضَرَّ بها المسالِحَ والعِوارُ) (مُهارِشَةُ العِنانِ كأنَّ فيها ** جَرادَةٌ هَبْوةٌ فيها اصفرارُ) فوصفها بالصفرة لأنَّ الصفرة هي الذكورة وهي أخفُّ أبداناً وتكون لُحفة الأبدان أشدَّ

تشبيه مسامير الدرع بحدق الجرادة

ويوصف قَتيرُ الدَّرْعِ ومساميرُها فيشَبَّه بحدَقِ الجرادِ وقال قيس بن الخطيم :

(ولما رأيتُ الحربَ حرباً تَجَرَّدَتْ ** لبست مع البرذَينِ ثوبَ الحارِبِ) (مضاعفةٌ يَغشَى الأناملَ فضلُها ** كأنَّ قَتيرَها عِيونُ الجنادِبِ) وقال المَقنَّعُ الكِنْدِيُّ : (ولي نَثرةٌ ما أَبْصَرْتَ عِينُ ناظِرٍ ** كصُنْعٍ لها صُنْعاً ولا سَرْدَها سَرْدًا) (تلاحَمَ منها سَرْدُها فكأَما ** عِيونُ الدُّبَا في الأرضِ تجرُّها جَرْدًا) وقال عمرو بن معد يكرب : (تمناني ليقاني أيُّ ** وددتُ وأين ما مَنِي ودادي) (تمناني وسابغتي دِلاصٌ ** حَوس الحسِّ مُحْكَمَةُ السَّرادِ) (مضاعفةٌ تُخَيِّرُها سُلَيْمٌ ** كأنَّ سِكاكَها حَدَقُ الجرادِ)

تشبيه وسط الفرس بوسط الجرادة

ويوصفُ وسطُ الفَرَسِ بوسطِ الجرادةِ قال رجلٌ من عبد القيس يصف فرساً :

تشبيه الحباب بحدق الجراد

ويوصفُ حَبابُ الشَّرابِ بحدَقِ الجرادِ قال المتلمِّسُ : (كأني شاربٌ يومَ اسْتَبَدُّوا ** وحثَّ بهم وراءَ البِيدِ حادي) (عُقاراً عَتَّقَتْ في الدَّنِّ حتى ** كأنَّ حَبابَها حَدَقُ الجرادِ)

لعاب الجندب

وإذا صفا الشَّرابُ وراقَ شَبَّهوه بلُعبِ الجندبِ ولذا قال الشاعر :

(صفراءُ من حَلَبِ الكرومِ كأَنها ** ماءُ المفاصِلِ أو لُعبُ الجُنْدُبِ) ولُعبُ الجندبِ سَمٌّ عَلَي الأشجارِ لا يقع على شيءٍ إلا أَحرقه .

زعم في الدُّبَا ولا يزالُ بعضُ من يدَّعي العِلْمَ يزعمُ أن الدُّبَا يُريدُ الحُضرةَ ودونها النهرُ الجاري فيصيرُ بعضه جسراً لبعضٍ وحتى يعبرُ إلى الحُضرةِ وأن تلك حيلةٌ منها .

وليس ذلك كما قال : ولكنَّ الزَّحَفَ الأولُ من الدُّبَا يريدُ الحُضرةَ فلا يستطيعها إلا بالعبورِ إليها فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافيةً صارت تلك لعمري أرضاً للزحف الثاني الذي يريد الحُضرةَ فإن سَمَّوا ذلك جسراً استقام فأما أن يكون الزحفُ الأولُ مَهَّدَ للثاني وَمَكَّنَ له وآثره بالكفاية فهذا ما لا يُعرف .

ولو أن الرّحفين جميعاً أشرفا على النهر وأمسك أحدهما عن تكلف العبور إلى أن يمهد له الآخر كان ذلك قولاً

استطرد لغوي ويقال في الجراد : خرقة من جراد والجميع خرّق وقال الشاعر :

(وكأها خرّق الجرادِ ** ينورُ يومَ غبارٍ) ويقال للقطعة الكثيرة منها رجل جراد ورجلة من جراد والنّول : القطعة من النحل .

وتوصف كثرة النّبل ومرورها وسرعة ذلك بالجراد وقال أبو النجم : (كأنما المغزأ من نضالها ** رجلُ جرادٍ طار عن حدالها)

وإذا جاء منه ما يسد الأفق قالوا : رأينا سداً من جراد وقال المفضل التكري : (كأنّ النّبلَ بينهم جرادٌ ** تُهيجُه شاميةٌ خرّيقُ) والمرتل : الذي قد أصاب رجل جرادٍ فهو يشويه .
وقال بعض الرّجّاز وهو يصف خيلاً قد أقبلت إلى الحيّ : ولأنّ الحفانَ أتمّها أبداناً قال ابنُ الزّبرعى : (ليتَ أشياخي بديرٍ شهلوا ** جزعَ الخرجِ من وقعِ الأسلِ) (حينَ ألقتُ بقباءِ برّكها ** واستحرَّ القتلُ في عبدِ الأشلِ)

(ساعةٌ ثمّ استخفوا رقصاً ** رقصَ الحفانِ في سفحِ الجبلِ) (وقبلنا الضّعفَ من ساداتهم ** وعدلنا ميلَ بدرٍ فاعتدل)

طيب الجراد الأعرابي

والجرادُ الأعرابيُّ لا يتقدمه في الطيب شيء وما أحصي كم سمعتُ من الأعرابِ مَنْ يقول : ما شبتُ منه قطُّ وما أدعُهُ إلا خوفاً من عاقبته أو لأني أعيا فأتركه .

أكل الجراد والجرادُ يطيب حارّاً وبارداً ومشوياً ومطبوخاً ومنظوماً في خيط ومجعولاً في الملة .

والبيض الذي يتقدّم في الطيب ثلاثة أجناس : بيض الأسبور وبيض الدّجاج وبيضُ الجراد فوق بيض الأسبور

في الطيب وبيضُ الأسبور فوق بيض الدّجاج .

وجاء في الأثر أن الجراد ذكرَ عندَ عمر فقال : ليت لنا منه قفّةٌ أو قفعتين .

والجرادُ المأكولُ ضروبٌ فمنه الأهوازي ومنه المذبّ وأطيبه الأعرابي وأهل خراسان لا يأكلونه .

قصة في الولوع بأكل الجراد وحدثني رثيل بن عمرو بن رثيل قال : واللّه إني لجالس على باب دار في بني صبر إذ أقبلت امرأةٌ لم أر قط أتم حسناً وملحاً

وجسماً منها ورأيت في مشيها تأوُّداً ورأيتها تتلَفَّت فلم ألْبَثُ أن طلعتُ أخرى لا أدري أيتهما أقدمُ إذ قالت التي رأيتها بدياً للآخرى : ما لك لا تلحقيني قالت : أنا منذ أيام كثيرة أكلُ هذا الجراد فقد أضعفني فقالت : وإنك لتحبيبه حباً تحتملين له مثل ما أرى بك من الضعف قالت : والله إنه لأحبُّ إليَّ من الحبل .

طرفة في الجراد

وقال الأصمعي : قال رجلٌ من أهل المدينة لامرأته : لا جزاكِ الله خيراً فإنك غيرُ مُرعيةٍ ولا مبقيةٍ قالت : لأنا والله أرعى وأبقى من التي كانت قبلي قال : فأنت طالقٌ إن لم أكنُ كنتُ آتيها بجرادةٍ فتطبخ منها أربعة ألوان وتُسوي جنبها فرفعتُه إلى القاضي فجعل القاضي يفكر ويطلبُ له المخرج فقال للقاضي : أصلحك الله أأشكلك عليك المسألة هي طالقٌ عشرين .

تشبيه الجيش بالدبا

ووصف الراجزُ حرباً فوصفَ دنوَّ الرِّجَالَةِ من الرِّجَالَةِ فقال : أو كالدِّبِّا دَبَّ ضَحَى إلى الدِّبِّا و أبي إسحاق في آية الضفادع وقرأ بعضُ أصحابنا بحضرة أبي إسحاق : وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فقال رجلٌ لأبي إسحاق : انظر كيف قرَنَ الضفادعَ مع ضعفها إلى الطوفان مع قوة الطوفان وغلَبته قال أبو إسحاق : الضفادعُ أعجبُ في هذا الموضع من الطوفان وإذا أراد الله تعالى أن يصيِّرَ الضفادعَ أضراً من الطوفان فعل .

شعر في تشبيه بالجراد

وقال أبو الهندي :

(لَمَّا سَمِعْتُ الدَّيْكَ صَاحَ بِسُحْرَةٍ ** وَتَوَسَّطَ النَّسْرَانِ بَطْنَ الْعَقْرِبِ) (وتتابعتْ عُصَبُ النُّجُومِ كَأَنَّمَا ** غُفِرُ الطَّبَاءِ عَلَى فُرُوعِ الْمَرْقَبِ) (وَبَدَأَ سُهَيْلٌ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ ** نَوَّرَ وَعَارَضَهُ هِجَانُ الرَّتَبِ) (صفراءُ تنزُو في الإناء كَأَنَّمَا ** عَيْنُ الْجَرَادَةِ أَوْ لَعَابُ الْجُنْدُبِ) (نَزَوَ الدِّبُّ مِنْ حَرِّ كُلِّ ظَهِيرَةٍ ** وَقَادَةَ حِرْبَاؤُهَا يَنْقَلِبُ) وقال أبو الهندي أيضاً : (فَإِنَّ هَذَا الْوُطْبَ لِي ضَائِرٌ ** فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ وَفِي الْغَامِضِ) (إِنَّ كُنْتُ تَسْقِينِي فَمِنْ قَهْوَةٍ ** صفراءُ مثلُ الْمُهْرَةِ النَّاهِضِ) (تَنْزُوُ الْفَقَاقِيعُ إِذَا شُعْشِعَتْ ** نَزَوَ جَرَادُ الْبَلَدِ الرَّامِضِ) وقال الأَفْوُهُ : (بِمَنَاقِبِ بَيْضِ كَأَنَّ وَجُوهَهُمْ ** زَهْرٌ قُبَيْلَ تَرْجُلِ الشَّمْسِ)

(دَبُّوا كَمَنْتَشَرِ الْجَرَادِ هَوَتْ ** بِالْبَطْنِ فِي دِرْعٍ وَفِي ثُرْسٍ) (وكَأَنَّمَا آجَالُ عَادِيَةٍ ** حَطَّتْ إِلَى إِجْلِ مِنَ الْخُنْسِ) (أقوال فيما يضر من الأشياء وروى الأصمعي وأبو الحسن عن بعض المشايخ قال : ثلاثة أشياء ربما صرعت أهل البيت عن آخرهم : أكلُ الجراد و لحوم الإبل والفُطْر من الكُمَاة . وقال غيرُهما : شربُ الماء في الليل يورث الحبل والنظر إلى المختصر يُورث ضعف القلب والاطلاع في الآبار العادية ينقُض التركيب ويُسوِّل مصارعَ السَّوء فأمَّا الفُطْر الذي يُخلَق في ظلِّ شجر الزيتون

فإنما هو حَتَفٌ قاضٍ وَسَمٌ نافعٌ وكل شيء يخلق تحت ظلال الشجر يكون رديناً وأردؤه شجر الزيتون وربما قتل وإن كان مما اجتنبوه من أوساط الصحارى قالوا : ومما يقتلُ : الحَمَامُ على المِلْأَةِ والجماع على البِطْنَةِ والإكثارُ من القديدِ اليبس .

وقال الآخر : شربُ الماء البارد على الظمِّ الشديد إذا عَجَلَ الكَرْعَ وعَظَّمَ الجرعَ ولم يقطع النفس يقتل .
قالوا : وثلاثٌ تورثُ الهُزالَ : شربُ الماءِ عَلَى الرَّيقِ والنوم على غيرِ وِطاءٍ وكثرة الكلام برفع الصوت .
والجماعُ على الامتلاء من الطعام ودخوله وربما خيف عليه أن يكون قاتل نفسه .
وقالوا : وأربعةُ أشياء تسرعُ إلى العقل بالإفساد : الإكثارُ مِنَ البَصْلِ والباقي والجماع والخمار .

وأما ما يذكرون في الباب من الهمِّ والوحدة والفكرة فجميع الناس يعرفون ذلك وأما الذي لا يعرفه إلا الخاصة فالكفاية التامة والتعظيم الدائم وإهمال الفكر والأنف من التعلم هذا قول أبي إسحاق .

وقال أبو إسحاق : ثلاثةُ أشياء تخلق العقلَ وتُفسدُ الذهنَ : طول النظر في المرأة والاستغراق في وقال مُعَمَّرُ :
قُطعت في ثلاثة مجالس ولم أجِدْ لذلك علةً إلا أني أكثرْتُ في أحد تلك الأيام من أكل الباذنجان وفي اليوم الآخر من أكل الزيتون وفي اليوم الثالث مِنَ الباقي .

وزعم أنه كلم رجلاً من الملحدين في بعض العشايا وأنه علاه غُلُوءٌ ظاهراً قاهراً وأنه بَكَرَ على بقية ما في مسألته من التخريج فأَجَبَلَ وأصَفَى فقال له خصمه : ما أحدثتَ بعدي قال : قلتُ : ما أَتَّهِمُ إلا إكثاري البارحة من الباذنجان فقال لي وما خالف إلى التُّهمة : ما أشكُ أنك لم تُؤتَ إلا منه .

وقال لي مَنْ أَتَقُبُّ به : ما أخذت قط شيئاً من البلاذُرِ فنازعت أحداً إلا ظَهَرْتُ عليه .
وقال أبو ناضرة : ما أعرف وجه انتفاع الناس بالبلاذُرِ إلا أن يؤخذ للعصب قلت : فأَيُّ شيء بقي بعد صلاح العصب وأنتم بأجمعكم تزعمون أن الحسَّ للعصب خاصة .

في القطا

تقول العرب : أَصَدَقَ من قطاة وأَهْدَى من قطاة .
وفي القطا أعجوبةٌ وذلك أنها لا تضعُ بيضها أبداً إلا أفراداً ولا يكونُ بيضها أزواجاً أبداً وقال أبو وَجْزَةَ :
وَهْنٌ يَنْسَبُ وَهْنًا كُلُّ صَادِقَةٍ * بَاتَتْ تُبَاشِرُ عُرْماً غيرَ أزواجٍ (والعُرمُ التي عَنَى : بيض القطا لأنها منقطة وقال الأخطل :

(شَفَى النَّفْسَ قَتْلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ * وَلَمْ يَشْفِهَا قَتْلَى غَنَى * وَلَا جَسَرَ) (وَلَا جُشَمَ شَرِّ الْقَبَائِلِ إِنْهُمْ *
كَبِضِ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودٍ وَلَا حُمْرٍ) وقال مَعْقِلُ بن خويلد : (أبا مَعْقِلَ لَا توطِّنْكُمْ بَغَاضَتِي * رُؤُوسَ
الْأَفَاعِي فِي مَرَاصِدِهَا الْعُرْمِ) يريد : الْأَفَاعِي الْعُرْمِ في مراصدها وهي منقطة الظهور وما أكثرَ ما تبيض العقاب

ثلاث بيضات إلا أنها لا تلحم ثلاثةً بل تخرج منهنَّ واحدة وربما باضت الحمامة ثلاثَ بيضات إلا أن واحدة تفسد لا محالة وقال الآخر في صفة البيض :

(نتوج ولم تُقْرِفَ لِمَا يُمْتَنَى لَهُ ** إذا أُنتَجَتْ مَائَتْ وَحْيٍ سَلِيلُهَا) يعني البيضة نتوج حامل : ولم تُقْرِفَ : لم تُدَانِ لما يُمْتَنَى : أي للضَّرَاب والامتناء : انتظارك الناقة إذا ضُرِبَتْ أَلَاقَح هي أم لا .
وقال ابنُ أحرمر : (بَنِيهَا قَفَرٌ وَالْمَطِيُّ كَأُهَا ** قَطَا الْحَزَنُ قَدْ كَانَتْ فِرَاحاً بَيُوضُهَا) وذلك أنها قد كانت قبل ذلك الوقت تشرَب من الغُدُر فلما أفرخت صافت فاحتاجت إلى طلب الماء من مكان بعيد فذلك أسرَع لها .

تشبيه مشي المرأة بمشي القطاة

ويشبه مشي المرأة إذا كانت سمينة غير خَرَّاجَة طَوَّافَة بمشي القطاة في القرمطة والدَّلَّ وقال ابنُ ميادة : (إذا الطَّوَال سَدُونُ الْمَشْيِ فِي خَطَلٍ ** قَامَتْ تَرِيكَ قَوَّاماً غَيْرَ ذِي أَوْدٍ) (تمشي ككدرية في الجوّ فاردة ** تهدي سُروِب قَطَا يَشْرَبْنَ بِالثَّمَدِ) وقال جرّان العود : وقال الكميت : (يمشين مشي قَطَا البِطَاح تَأْوُدَا ** قُبَّ البُطُونِ رَوَّاحِ الْأَكْفَالِ)

شعر في التشبيه بالقطاة

وقال الآخر في غير هذا المعنى : (كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُعْدَى ** بَلِيلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ) (قَطَا غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ** تُجَادِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ) وقال آخر : (وَكُنَّا كَرُوجٍ مِنْ قَطَاً بِمَفَازَةٍ ** لَدَى خَفَضِ عَيْشٍ وَنَقِ مُورِقِ رَغْدٍ) (فَخَائِنَهُمَا رَبُّ الزَّمَنِ فَأَفْرِدَا ** وَلَمْ تَرَ عَيْنِي قَطُ أَقْبَحَ مِنْ فَرْدٍ)

شعر في صدق القطاة

وفي صدق القطاة يقول الشاعر : (وَصَادِقَةٌ مَا خَبَّرَتْ قَدْ بَعَثْتُهَا ** طُرُوقاً وَبَاقِي اللَّيْلِ فِي الْأَرْضِ مُسْدِفٍ) (ولو تركتُ نَامَتْ وَلَكِنْ أَعَشَّيْتُهَا ** أَذَى مِنْ قِلَاصٍ كَالْحَنِيِّ الْمُعْطَفِ) وتقول العرب : لو تُرِكَ القِطَا لَنَامَ وَيُقَالُ : أَعَشَّشْتُ الْقَوْمَ إِعْشَاشاً : إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ وَهُمْ كَارِهُونَ لَكَ فَتَحَوَّلُوا عَنْ مَنْزِلِهِمْ .
وقال الكميت : (لَا تَكْذِبُ الْقَوْلَ إِنْ قَالَتْ قَطَا صَدَقَتْ ** إِذْ كُلُّ ذِي نِسَبَةٍ لَا يَدَّ يَنْتَحِلُ) وقال مُزَاحِمُ الْعُقَيْلِيِّ فِي تَجَاوُبِ الْقَطَاةِ وَفَرُوحِهَا : (فَنَادَتْ وَنَادَاهَا وَمَا اعْوَجَّ صَدْرُهَا ** بِمِثْلِ الَّذِي قَالَتْ لَهُ لَمْ يُبَدِّلِ)

والقطاة لم تُرد اسم نفسها ولكن الناس سموها بالحروف التي تخرج من فيها وزاد في ذلك أنها على أبنية كلام العرب فجعلوها صادقةً ومُخْبِرةً ومُرِيدةً وقاصدةً .

استطرد لغوي ويقال سِرْبُ نَسَاءٍ وَسِرْبُ قَطَا وَسِرْبُ طِبَاءٍ كُلُّ ذَلِكَ بِكسر السين وإسكان الراء فإذا كان من الطريق والمذهب قالوا : خَلَّ سَرَبُهُ وَ : فَلَانٌ خَلِي السَّرْبُ بفتح السين وإسكان الراء وهذا عن يونس بن حبيب وقال الشاعر : (أَمَا الْقَطَاةُ فَإِنِّي سَوْفَ أُنْعِتُهَا ** نَعْتاً يُوَافِقُ نَعْتِي بَعْضَ مَا فِيهَا) (سَكَاءٌ مَخْطُوفَةٌ فِي رِيَشِهَا طَرَقَ ** سُوْدُ قَوَادِمِهَا صُهْبٌ خَوَافِهَا)

ويقال في ريشها فَتَخ وهو اللَّين ويقال في جناحه طَرَق : إذا غطى الرِّيشُ الأعلى الأسفلَ وقال ذو الرُّمَّة : (طراقُ الخوافي واقعٌ فوقَ رِيعَةٍ ** ندى ليلِهِ في ريشِهِ يترَقُّرُقُ) ويقال : اطَّرَقَت الأرض : إذا ركب الترابُ بعضُهُ بعضاً ولزَمَ بعضُهُ بعضاً فصار كطراق النَّعال طَبَقاً وقال العجاج : فاطرَقَتْ إلّا ثلاثاً دُخَسا والطَّرَق يأسكان الرءاء : الضربُ بالحصى وهو من فِعال الحَزاة والعائفين : وقال لبيدٌ أو البعيث : (

(لعمرُك ما تدري الطوارقُ بالحصى ** ولا زاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ) قال : ويقال طَرَقَت القِطاةُ ببيضِها : إذا حان خروجُها وتعضَّلت به شيئاً قال أبو عبيد ولا يقال ذلك في غير القِطاة وغرَّهُ قولُ العَبديّ : (وقد تحذت رجلي لدى جَنبِ غرِّها ** نسيهاً كأفحوصِ القِطاةِ المطرَّقِ) وهذا الشاعرُ لم يقلْ إن التطريق لا يكونُ إلّا للقِطاة بل يكونُ لكلِّ بَيَاضَةٍ ولكلِّ ذاتٍ ولدٍ وكيف يقول ذلك وهم يروون عن قابلة البادية أنها قالت لجارية تسمى سَحابة وقد ضربها المخاضُ وهي تُطَلِّقُ على يدها : ولا تُرينا طَرَفَ البُطيرِ

وقال أوسُ بنُ حجرٍ : (بكلِّ مكانٍ ترى شطبةً ** موليةً رهاً مسبطراً) وأحمرُّ جعداً عليه النسو ** رُ وفي ضنبه ثعلبٌ منكسرُ) (وفي صدره مثلُ جيبِ الفتاة ** ة تشهقُ حيناً وحيناً تَهْرُ) (فإنا وإخوتنا عامراً ** على مثلٍ ما بيننا نأتمرُ) (لنا صرخةٌ ثمَّ إسكاته ** كما طرقتُ بنفاسٍ بَكِرُ) فهذا كما ترى يردُّ عليه . ولادة البكر وإنما ذكر أوسُ بن حجرٍ البكرَ دون غيرها لأن الولاد على

البكر أشدَّ وخروج الولد أعسر والمخرج أكزَّ وأضيق ولولا أن البكر أكثر ما تلدُ أصغرُ جثةً وألطفُ جسماً إلى أن تتسع الرحمُ بتمطُّي الأولاد فيها لكان أعسر وأشق .

أجود قصيدة في القِطا

(بلادٌ مرواةٌ يحارُّ بها القِطا ** ترى الفرخَ في حافاتها يتحرَّقُ) (يظلُّ بها فرخُ القِطاةِ كأنه ** يتيَّمُ جفا عنه مواليه مُطرقُ) (بديمومةٍ قد مات فيها وعينه ** على موته تغضى مراراً وثرمقُ) (شبيهةٌ بلا شيءٍ هنالك شخصه ** يواريه قيضٌ حوله متفلقُ)

(له محجَّرٌ ناب وعينٌ مريضةٌ ** وشدقٌ بمثل الزعفرانِ مخلُقُ) (تُعاجيه كحلأُ المدامعِ حرةٌ ** لها ذنبٌ وحفٌّ وجيدٌ مطوقُ) (سِمَاكِيةٌ كدريَّةٌ عُرعريَّةٌ ** سُكاكِيةٌ غبراءُ سمراءُ عسَلقُ) (إذا غادرته تبتغي ما يُعيشه ** كفاه رذاياها النجاء الهبنقُ) (غدت تستقي من منهلٍ ليس دونه ** مسيرةً شهراً للقِطا متعلّقُ) (لأزغبَ مطروحٍ بجوزِ تنوِّفةٍ ** تلظى سَمُوماً فيظه فهو أورقُ) (تراه إذا أمسى وقد كاد جلده ** من الحرِّ عن أوصاله يتمزقُ)

(غدت فاستقلَّت ثم ولَّت مُغيرةً ** بها حين يزهاها الجناحانِ أولقُ) (تيممُ ضحضاحاً من الماء قد بدت ** دعاميصة فالماء أطحلُ أورقُ) (فلما أتنه مقذراً تغوثٌ تغوثٌ ** تغوثٌ مخنوقٌ فيطفو ويغرقُ) (فلما ارتوت من

مانه لم يكن لها ** أناة وقد كادت من الري تبصق (طمت طموة صعداً ومدت جرائها ** وطار كما طار
السحاب الخلق)

شعر البعيث في القطا

وقال البعيث :

(نجت بطولات كأن نجاءها ** هوي القطا تعرف المناهل جونها) (طوين سقاء الخمس ثمت قلصت ** لورد
المياه واستتبت قرونها) (إذا ما وردن الماء في غلس الضحى ** بللن أداوي ليس خرز يشينها) (أداوي
خفيفات الحامل أشنقت ** إلى ثغر اللبات منها حصينها) (جعلن حباب الماء حين حملنه ** إلى غصص قد
صاق عنها وتينها) (إذا شئن أن يسمعن الليل واضع ** هذا ليلة والريح تجري فئونها) (تناوم سرب في
أفاحيصه السفا ** وميتة الخرشاء حي جينها) (يروين زغباً بالفلاة كأنها ** بقايا أفاني الصيف حمرأ بطونها)
يروين من قولك : رويت : أي حملت في رواية .

(سقط : بيت الشعر) (إذا ملأت منها قطة سقاءها ** فلا تعكم الأخرى ولا تستعينها)
ذكر نوادر وأحاديث وأشعار وكلام يتم بها هذا الجزء قالوا : خرف النمر بن تولب فكان هجيراًه : اصبحوا
الركب اغبقوا الركب .
وخرفت امرأة من العرب فكان هجيراًها : زوجوني زوجوني فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لما لهج به
أخو عكل خير مما لهجت به صاحبكم .
وحدثني عبد الله بن إبراهيم بن قدامة الجمحي قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى رجلاً
يضرِبُ في كلامه قال : أشهد أن الذي خلَقَكَ وخلق عمرو بن العاص واحد .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لصعصعة بن صوحان في المنذر بن الجارود : ما وجدنا عند صاحبك
شيئاً قال : إن قلت ذاك إنه لنطار في عطفيه فقال في شراكيه تعجبه حمرة برديه .
قال : وحدثنا جرير بن حازم القطعي قال : قال الحسن : لو كان الرجل كلما قال أصاب وكلما عمل أحسن
لأوشك أن يُجنَّ من العجب .
عن أبان بن عثمان قال : سمعت أبا بلال في جنازة وهو يقول : كل ميتة ظنون إلا ميتة الشجاء قالوا : وما ميتة
الشجاء قال :

أخذها زياداً فقطع يديها ورجليها فقليل لها : كيف ترين يا شجاء فقالت : قد شغلني هول المطلاع عن برد
حديدكم هذا .)

قال : وقيل لرابعة القيسية : لو أذنت لنا كلمنا قومك فجمعوا لك ثمن خادم وكان لك في ذلك مرفق وكفتك
الخدمة وتفرغت للعبادة فقالت والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا فكيف أسأل الدنيا من لا

يملكها .

والناسكات المتزهديات من النساء المذكورات في الزُّهد والرياسة من نساء الجماعة وأصحاب الأهواء فمن نساء الجماعة : أم الدرداء ومُعَاذَةُ العَدْوِيَّة ورابعة القيسيَّة .

ومن نساء الخوارج : الشَّجَاء وحمادة الصُّفْريَّة وغزالة الشَّيبانيَّة قُتِلْنَ جميعاً وصُلِبَت الشَّجَاء وحمادة قتل خالد بن عتَّاب غزالة وكانت امرأة صالح بن مُسَرِّح .

ومن نساء الغالية : الميلاء وحميدة ولىلى الناعظية .

محمد بن سلام عن ابن جُعْدُبَةَ قال : ما أبرم عُمر بن الخطاب أمراً قط إلا تمثَّلَ ببيت شعر .

وعن أبان بن عثمان قال عبد الملك : لقد كنت أمشي في الزَّرْع فأتَّقِي الجُنْدَبَ أن أقتله وإن الحجاجَ ليكتب إليَّ في قتل فتانٍ من الناس فما أحفَلُ بذلك .

وقيل له وقد أمر بضرب أعناق الأسراء : أفسَتَكَ الخلافةُ يا أمير المؤمنين وقد كنت رؤوفاً قال : كلا ما أفسَتَنِي ولكن أفساني احتمال الضغن على الضغن .

قالوا : ومات يونسُ النحويُّ سنة اثنتين وثمانين ومائة هو ابن ثمان وثمانين سنة وقال يونس : ما وحدثني محمد بن يسير قال : قال أبو عمرو المدايني : لو كانت البَلَايا بِالْحِصَصِ ما نالني كل ما نالني : اختلفت جارييتي بالشاة إلى التَّيَّاسِ وبِي إلى حملها حاجة فرجعت جارييتي حاملاً والشاة حائلاً .

محمد بن القاسم قال : قال جرير : أنا لا أبتدي ولكني أعْتَدِي .

وقال القَيَّي : أنا مثل العقرب أضُرُّ ولا أنفع .

وقال القَيَّي : أنا أصدق في صغار ما يضُرُّني لأكذب في كبار ما ينفعني .

قال أبو إسحاق : استراح فلانٌ من حيث تعب الكرام .

وقال الحجاج : أنا حديدٌ حقود حَسود .

وحدثني نُفَيْع قال : قال لي القَيَّي : أنا لا أصدق مادام كذبي يخفى .

قال : وذكر شبيب بن شبيبة عند خالد بن صفوان فقال خالد : ليس له صديق في السر ولا عدوٌّ في العلانية .

وقال أبو نَحِيلَةَ في شبيب بن شبيبة : (إذا غَدَتْ سَعْدٌ على شَبِيبِهَا * على فتاها وعلى خطيبتها) (مِنْ مطلع

الشمس إلى مغيبها * عَجِبْتَ مِنْ كَثَرَتِهَا وطيبها)

وقال حسين بن أبي علي الكرخي : أنا إنسان لا أبالي ما استقبلت به الأحرار . وقال عمرو بن القاسم : إنما قويت على خصمي بأني لم أستر قط عن شيء من القبيح فقال أبو إسحاق : نلت اللذة وهتكت المروعة وغلبتك النفس الدنية فأرتك مكروه عملك محبوباً وشيء قولك حسناً ومن كان على هذا السبيل لم يتلفت إلى خير يكون منه ولم يكثر بشراً يفعله .

وقال الفرزدق : (وكان يُجيرُ الناس من سيفِ مالك * فأصبح يبغي نفسه من يُجيرُها) ومن هذا الباب قول الثوث اليماني : (على أي باب أطلبُ الإذنَ بعد ما * حُجبتُ عن الباب الذي أنا حاجبه) ومن هذا الشكل قولُ عدي بن زيد : (لو بغير الماء حَلقي شرق * كت كالعصانِ بالماء اعتصاري) وقال زهير : (فلما وَرَدَ الماءُ زُرْقاً جمامه * وَضَعْنَ عَصِيَّ الحاضِرِ المتخيم)

وكتب سُويد بن منجوف إلى مُصعب بن الزبير : (فأبلغ مُصعباً عني رسولا * وهل يُلقى النصيحُ بكل وادٍ) وحدثني إبراهيم بن عبد الوهاب قال : كتب شيخٌ من أهل الري على باب داره : جرى الله من لا يعرفنا ولا نعرفه خيراً فأما أصدقاؤنا الخاصة فلا جزاهمُ الله خيراً فإننا لم نُؤتَ قط إلا منهم وأنشدني النهشلي لأعرابي يصف نخلاً : (ترى مخارِفها تَنبِي جوانبها * كأن جاني بَيضِ النَّحلِ جانِبها) ووصف آخر نخلاً فقال : إذا علا قِمَتُها الرَّاقِي أهْل وقال الشاعر :

(ومن تَقَلُّ حلوبتُهُ وَيَنكُلُ * عن الأعداء يَغْبِقُهُ القَرَّاحُ) (رأيتُ معاشراً يُثْنِي عليهم * إذا شَبِعوا وأَوْجَهُهُم قَبَاحُ) (ظلُّ المَصْرُمُون لهم سُجُوداً * وإن لم يُسَقَ عندهم ضِيَّاحُ) وقال الشاعر : (الباتين قريباً من يوقم * ولو يشاؤون آيوا الحيَّ أو طَرَقوا) يقول : لرغبته في القروى وفي طعام الناس بيت بهم ويدعُ أهله ولو شاء أن يبيت عندهم لفعل . (تَقْرِي قدورهم سُرَاءَ ليلهم * ولا يبيتون دون الحيِّ أضيافا) وقال جرير : (وإني لأستحيي أخي أن أرى له * عليَّ من الحق الذي لا يرى ليا)

قال : أستحيي أن يكون له عندي يدٌ ولا يرى لي عنده مثلها .

وقال امرؤ القيس : (وهل ينعمن إلا خلي منعم * قليل الهموم ما يبيت بأوجال) قال : وهو كقوله : استراح من لا عقل له وأنشد مع هذا البيت قول عمر بن أبي ربيعة ويحكي أن المنصور كان يعجبه النصف الأخير من البيت الثاني جداً ويتمثل به كثيراً حتى انتقده بعض من قضى به عليه أن المعنى قدَّمه دهرًا وكان استحسانه عن فضل معرفته بإحقاقه فيه وصواب قوله : (وأعجبها من عيشها ظلُّ غُرْفَةٍ * وريانُ مُلْتَفُ الحداثقِ أخضرُ) (ووال كفَّها كلَّ شيء يَهْمُها * فليستَ لشيء آخر الدهر تسهرُ) وأنشد : (إذا ابتدرَ الناسُ المعالي رأيتهم * وقوفاً بأيديهم مسوكُ الأرناب) (إذا ابتدرَ الناسُ المكارمَ والغلا * أقاموا رُتوباً في التَّهْوَجِ اللهاجمِ)

يُخْبِرُهُمْ يَسْأَلُونَ النَّاسَ وَالنَّهْجَ وَاللَّهْجَ : الطريق الواسع .
 وقال الآخر : (لَنَا إِبْلُ يَرَوْنَ يَوْمًا عِيَالَنَا ** ثَلَاثُ وَإِنْ يَكْثُرْنَ يَوْمًا فَأَرْبَعُ) (نُمِدُّهُمْ بِالمَاءِ لَا مِنْ هَوَانِهِمْ **
 وَلَكِنْ إِذَا مَا قَلَّ شَيْءٌ يَوْسَعُ)
 وقال الآخر : (مِنْ الْمُهِدَيَاتِ المَاءَ بِالمَاءِ بَعْدَمَا ** رَمَى بِالْمَقَادِي كُلِّ قَادٍ وَمُعْتَمٍ) وقال الآخر : (وَدَاعٍ دَعَا
 وَاللَّيْلُ مُرْخٍ سُدُولَهُ ** رَجَاءَ الْقَرَى يَا مُسْلِمَ بْنَ حِمَارٍ) (دَعَا جُعَلًا لَا يَهْتَدِي لِمَبِيَّتِهِ ** مِنْ اللُّومِ حَتَّى
 يَهْتَدِي أَبُوبَارٍ) وقال الحسن بن هانئ : (أَضْمَرْتُ لِلنَّيْلِ هِجْرَانًا وَمَقْلِيَّةً ** إِذْ قِيلَ لِي إِنَّمَا التَّمْسَاحُ فِي النَّيْلِ
) (فَمَنْ رَأَى النَّيْلَ رَأَى الْعَيْنَ مِنْ كَتَبٍ ** فَمَا أَرَى النَّيْلَ إِلَّا فِي الْبَوَاقِيلِ)

وقال ابن ميادة : (فَإِنَّ الَّذِي وَلَّاكَ أَمْرَ جَمَاعَةٍ ** لَأَنْقَضُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ عَقْلٍ) ومن هذا الباب قوله :
 (إِنِّي رَأَيْتُ أَبَا الْعَوْرَاءِ مُرْتَفَقًا ** بِشَطِّ دَجَلَةٍ يَشْرِي التَّمْرَ وَالسَّمَكَا) (كَثِيرَةُ الْخَيْلِ تَبْقَى عِنْدَ مَذُودِهَا **
 وَالْمَوْتُ أَعْلَمُ إِذْ قَفَى بَعْنَ تَرْكَا) (هَذِي مَسَاعِيكَ فِي آثَارِ سَادَتِنَا ** وَمَنْ تَكُنْ أَنْتَ سَاعِيهِ فَقَدْ هَلَكَ) ومن
 هذا الباب قوله : (وَرَثْنَا الْمَجْدَ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ ** أَسَانَا فِي دِيَارِهِمُ الصَّنِيعَا) (إِذَا الْمَجْدُ الرَفِيعُ تَعَاوَرَتْهُ **
 وَوَلَاةُ السُّوءِ أَوْشَكَ أَنْ يَضِيعَا) وقال جرير العود : (أَرَأَيْتَ لِحَا مِنْ سُهَيْلٍ كَأَنَّهُ ** إِذَا مَا بَدَأَ فِي دُجْيَةِ اللَّيْلِ
 يَطْرَفُ)

وقال : (وَلَمْ أَجِدِ الْمَوْقُودَ تُرْجَى حَيَاتُهُ ** إِذَا لَمْ يَرَعْهُ المَاءُ سَاعَةً يُنْضَحُ) وكان أبو عباد التميمي أتى باب
 بعض العمال يسأله شيئاً من عمل السلطان فبعثه إلى أَسْتَقَانَا فسرَقُوا كُلَّ شَيْءٍ فِي الْبَيْدَرِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ فَعَاتَبَهُ
 فِي ذَلِكَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو عَبَّادٍ : (فَتَقَنَّنَصْتُ بِي الصَّ ** عَوْ فَأَوْهَنْتَ الْقُدَامَى) (وَإِذَا مَا أُرْسِلَ الْبَا ** زِي
 عَلَى الصَّغْوِ تَعَامَى)

أراد قول أبي النجم في الراعي : (يَمُرُّ بَيْنَ الْغَانِيَاتِ الْجَهْلُ ** كَالصَّقَرِ يَجْفُو عَنْ طِرَادِ الدُّخْلِ)

وبات أبو عباد مع أبي بكر الغفاري في ليالي شهر رمضان في المسجد الأعظم فدب إليه وأنشأ يقول : (يَا
 لَيْلَةً لِي بَتُّ أَلْهُوٍ بِهَا ** مَعَ الْغَفَارِيِّ أَبِي بَكْرٍ) (قَمْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ مَا قَدْ مَضَى ** ثُلُثٌ مِنَ اللَّيْلِ عَلَى قَدْرِ)
 (فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَيَا مَنْ رَأَى ** أَدَبَ مَنِّي لَيْلَةَ الْقَدْرِ) (مَا قَامَ حَمْدَانُ أَبُو بَكْرٍ ** إِلَّا وَقَدْ أَفْرَعَهُ نَخْرِي)
 وقال في قلبان صديقتيه : (إِنَّ قَلْبَانًا قَدْ بَعَتْ ** لَشَقَائِي وَقَدْ طَعَتْ) (وَإِذَا لَمْ تُنْكُ بِأَيِّ ** رِ عَظِيمِ الْقَوَى
 بَكَتْ) وقال مسكين الدارمي : (لَدَى كُلِّ قَرْمُوصٍ كَأَنَّ فَرَاخَهُ ** كُلِّي غَيْرَ أَنْ كَانَتْ لَهْنُ جُلُودُ)

وقال أبو الأسود الدؤلي واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان : (أَمِنْتُ عَلَى السَّرِّ امْرَأً غَيْرَ كَاتِمٍ ** وَلَكِنَّهُ فِي
 النَّصْحِ غَيْرُ مُرِيبٍ) (أَدَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّهُ ** بَعْلِيَاءَ نَارًا أَوْقَدَتْ بِتَقُوبٍ) (وَكَنتَ مَتَى لَمْ تَرَعْ سِرَّكَ
 تَنْتَشِرُ ** قَوَارِعُهُ مِنْ مَخْطِئِي وَمُصِيبٍ) (وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ** وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نَصْحَهُ بَلِيبٍ)
 (وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ وَاحِدٍ ** فَحَقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبٍ) وقال أيضاً : (إِذَا كُنْتَ مَظْلُومًا فَلَا

تُلَفَ رَاضِيًا ** عَنِ الْقَوْمِ حَتَّى تَأْخُذَ النِّصْفَ وَاعْظَبِ (وَإِنْ كُنْتَ أَنْتَ الظَّالِمُ الْقَوْمَ فَاطْرَحْ ** مَقَالَتَهُمْ
وَأَشْغَبِ بِهِمْ كُلَّ مَشْغَبٍ (وَقَارِبْ بِذِي جَهْلٍ وَبَاعِدْ بِعَالِمٍ ** جَلُوبٍ عَلَيْكَ الْحَقُّ مِنْ كُلِّ مَجْلَبٍ)

(فَإِنْ حَذَبُوا فَاقْعَسْ وَإِنْ هُمْ تَقَاعَسُوا ** لِيَسْتَمْسِكُونَ مِمَّا وِرَاءَكَ فَاحْدَبِ (وَلَا تُدْعِنَنَّ لِلْحَقِّ وَاصْبِرْ عَلَى
الَّتِي ** بِهَا كُنْتَ أَقْضِي لِلْبَعِيدِ عَلَى أَبِي) (فَإِنِّي أَمْرٌ أَحْشَى إِلَهِي وَأَتَّقِي ** مَعَادِي وَقَدْ جَرَّبْتُ مَا لَمْ تَجْرِبِ)
(إِنِّي إِذَا الْأَصْوَاتُ فِي الْقَوْمِ عَلَتْ ** فِي مَوْطِنٍ يَحْشَى بِهِ الْقَوْمُ الْعَنَتَ) (مُوْطِنٌ نَفْسِي عَلَى مَا خَيَّلَتْ **
بِالصَّبْرِ حَتَّى تَجْلِي عَمَّا انْجَلَتْ) وَقَالَ الْكَمِيتُ : (وَيُضِرُّ رِقَاقَ خِفَافِ الْمُتُونِ ** تَسْمَعُ لِلْبَيْضِ مِنْهَا صَرِيرًا
(تُشَبِّهُ فِي الْهَامِ آثَارُهَا ** مَشَافِرَ قَرْحَى أَكْلَنِ الرِّيرَا) وَأَنْشَدَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ : (نُصِيحُهَا قَيْسًا بَلَا اسْتَبْقَائِهَا
** صَفَاتُهَا فِيهَا فَضُولُ مَائِهَا) (مِنْ كُلِّ غَضَبٍ عَلَّ مِنْ دِمَائِهَا ** إِذَا عَلَا الْبَيْضَةُ فِي اسْتَوَائِهَا) (رَوْنُهَا
أَوْقَدَ فِي حَرْبَائِهَا ** نَارًا وَقَدْ أَنْخَضَ مِنْ وَرَائِهَا) وَأَنْشَدَنِي لِرَجُلٍ مِنْ طَيْئِ : (لَمْ أَرْ فِتْيَانَ صَبَاحٍ أَصْبَرًا **
مِنْهُمْ إِذَا كَانَ الرَّمَاحُ كَسْرًا)

(سَفَعَ الْحُدُودَ ذُرْعًا وَحُسْرًا ** لَا يَشْهَوْنَ الْأَجَلَ الْمُؤَخَّرَا) وَقَالَ ابْنُ مَفْرَعٍ : (قُبُ الْبَطُونِ وَالْهُوَادِي قَوْدُ
** إِنْ حَادَتِ الْأَبْطَالُ لَا تَحِيدُ) وَمِنْ الْجَهْلُولَاتِ : (عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنْ مَنْزِلٍ قَفَرٍ ** فَقَدْ هَجَّتْ لِي شَوْقًا
قَدِيمًا وَمَا تَدْرِي) (عَهْدَتِكَ مِنْ شَهْرٍ جَدِيدًا وَلَمْ أَخْلُ ** صُرُوفَ التَّوَى تُبْلِي مَغَانِيكَ فِي شَهْرِ) الْخَرَيْمِيُّ أَبُو
يَعْقُوبَ : (لَعَمْرُكَ مَا أَخْلَقْتُ وَجْهًا بِذَلِكَ ** إِلَيْكَ وَلَا عَرَضْتُهُ لِلْمَعَايِرِ) أَي لَا أُعَيِّرُ لِقَصْدِكَ . (فَتَى
وَفَرْتُ أَيْدِي الْحَامِدِ عَرْضَهُ ** عَلَيْهِ وَخَلَّتْ مَالَهُ غَيْرَ وَافِرٍ) وَقَالَ مَطِيْعُ بْنُ إِيْسَ : (قَدْ كَلَّفْتَنِي طَوِيلَةَ الْعُنُقِ
** وَحُبُّ طُولِ الْأَعْنَاقِ مِنْ خُلُقِي) (أَفْلَقْتُ مِنْ بَعْدِهَا فَإِنْ قَرَبْتُ ** فَالْقُرْبُ أَيْضًا يَزِيدُ فِي قَلْقِي)
وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : إِذَا أَمْرٌ ضَاقَ عَنِّي لَمْ يَضِقْ خُلُقِي مِنْ أَنْ يَرَانِي غَنِيًّا عَنْهُ بِالْيَاسِ

(وَلَا يَرَانِي إِذَا لَمْ يَرَعْ أَصِرْتِي ** مُسْتَمَرًّا دَرَرًا مِنْهُ بِإِسَاسٍ) (لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كَيْ أُغْنِيَ بِفَضْلَتِهِ ** مَا كَانَ
مَطْلَبُهُ فَقَرًّا إِلَى النَّاسِ) (عَدَّ تَلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَنْبُوهُ ** مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْزَمًا) (فَيَسَّانَ حَالَاهُ لَهُ
فَضْلُ مَنْعِهِ ** كَمَا يَسْتَحِقُّ الْفَضْلُ إِنْ هُوَ أَنْعَمَا) (مَذَلُّ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ غَيْرَ أَنْ تَرَى ** مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنْ
الْحَقِّ مَغْنَمًا) وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ لَزِيَادَ : (لَعَمْرُكَ مَا حَشَاكَ اللَّهُ رُوحًا ** بِهِ جَشَعٌ وَلَا نَفْسًا شَرِيرَةً) (وَلَكِنْ
أَنْتَ لَا شَرَّ غَلِيظٌ ** وَلَا هَشٌّ تَنَازَعُهُ خُؤُورَةٌ) (كَأَنَّا إِذْ أَتَيْنَاهُ نَزَلْنَا ** بِجَانِبِ رَوْضَةٍ رَيًّا مَطِيرَةً)

الجزء السادس

الخطوط ومراقفها

بسم الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
اللهم جنبنا فضول القول بما عندنا ولا تجعلنا من المتكلفين . قد قلنا في الخطوط ومراقفها وفي عموم منافعها
وكيف كانت الحاجة إلى استخراجها وكيف اختلفت صورها على قدر اختلاف طبائع أهلها وكيف كانت

ضرورتهم إلى وضعها وكيف كانت تكون الهلة عند فقدها .
وقلنا في العقد ولم تكلفوه وفي الإشارة ولم اجتلبوها ولم شبهوا جميع ذلك ببيان اللسان حتى سموه بالبيان .
ولم قالوا : القلم أحد اللسانين والعين أعم من اللسان .
وقلنا في الحاجة إلى المنطق وعموم نفعه وشدة الحاجة إليه وكيف صار أعم نفعاً لجميع هذه الأشكال أصلاً
وصار هو المشتق منه

والحمول عليه وكيف جعلنا الأجسام الصامتة نطقاً والبرهان الذي في الأجرام الجامدة بياناً .
وذكرنا جملة القول في الكلب والديك في الجزأين الأولين وذكرنا جملة القول في الحمام وفي الذبّان (وفي
الغريبان وفي الخنافس وفي الجعلان إلا ما بقي من فضل القول فيهما فإننا قد أخرنا ذلك لدخوله في باب
الحشرات وصواب موقعهما في باب القول في الهمج في الجزء الثالث .
وإذا سمعت ما أودعها الله تعالى من عظيم الصنعة وما فطرها الله تعالى عليه من غريب المعرفة وما أجرى
بأسبابها من المنافع الكثيرة والمحن العظيمة وما جعل فيها من الداء والدواء أجللتها أن تسميها همجاً
وأكبرت الصنف الآخر أن تسميه حشرة وعلمت أن أقدار الحيوان ليست على قدر الاستحسان ولا على
أقدار الأثمان .
وذكرنا جملة القول في الدرة والتَّملة وفي القرد والخنزير وفي الحيات والتعام وبعض القول في النار في الجزء
الرابع .

والنار حفظك الله وإن لم تكن من الحيوان فقد كان جرى من السبب المتصل بذكرها ومن القول المضمّر بما
فيها ما أوجب ذكرها والإخبار عن جملة القول فيها .
وقد ذكرنا بقية القول في النار ثم جملة القول في العصفير ثم جملة القول في الجرذان والسنانير والعقارب
ولجمع هذه الأجناس في باب واحد سبب سيعرفه من قرأه ويتبينه من رآه .
ثم القول في القمل والبراغيث والبعوض ثم القول في العنكبوت والتحل ثم القول في الحبارى . ثم

الإطباب والإيجاز

وقد بقيت أبقاك الله تعالى أبواباً توجب الإطالة وتُحوج إلى الإطباب وليس بإطالة ما لم يُجاوز مقدار
الحاجة ووقف عند منتهى البغية .

وإنما الألفاظ على أقدار المعاني فكثيرها لكثيرها وقليلها لقليلها وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها
والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهات
الملتبسة .

ولو جَهِدَ جميعُ أهلِ البلاغة أن يُخبروا من دونهم عن هذه المعاني بكلامٍ وجيزٍ يُغني عن التفسير باللسان والإشارة باليد والرأس لما قَدَرُوا عليه وقد قال الأول : إذا لم يكن ما تُريدُ فأردُ ما يكون وليس ينبغي للعاقل أن يسوم اللغات ما ليس في طاقتها ويسوم النفوس ما ليس في جبلتها ولذلك صار يحتاجُ صاحبُ كتاب المنطق إلى أن يفسره لمن طُلب من قبله علم المنطق وإن كان المتكلم رفيق اللسان حسن البيان إلا أنني لا أشكُّ على حال أن النفوس إذ كانت إلى الطرائف أحنَّ وبالنوادير أشغف وإلى قصار الأحاديث أميل وبها أصبَّ أنها خليقةً لاستثقال الكثير وإن استحقَّت

تلك المعاني الكثيرة وإن كان ذلك الطويلُ أنفعَ وذلك الكثيرُ أردَّ .

رجع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

وسنبداً بعون الله تعالى وتأييده بالقول في الحشرات والهمج وصغار السباع والجهولات الحاملة الذكر من البهائم ونجعل ذلك كله باباً واحداً وتتكلم بعد صنع الله تعالى على أن ذلك الباب إذ كان أبواباً كثيرة وأسماء مختلفة أن القارئ لها لا يملُّ باباً حتى يخرج به الثاني إلى خلافه وكذلك يكون مقامُ الثالث من الرابع والرابع من الخامس والخامس من السادس

مقياس قدر الحيوان

وليس الذي يعتمد عليه من شأن الحيوان عظم الجثة ولا كثرة العدد ولا ثقل الوزن والغاية التي يُجرى إليها والغرض الذي نرمي إليه غير ذلك

لأن خلق البعوضة وما فيها من عجب التركيب ومن غريب العمل كخلق الذرة وما فيها من عجب التركيب ومن الأحاسيس الصادقة والتدابير الحسنة ومن الروية والنظر في العاقبة والاختيار لكل ما فيه صلاحُ المعيشة ومع ما فيها من البرهانات النيرة والحجج الظاهرة . وكذا خلق النحلة مع ما فيها من غريب الحكم وعجب التدبير ومن التقدم فيما يعيشها والادخار ليوم العجز عن كسبها وشمها ما لا يُشم ورؤيتها لما لا يرى وحسن هدايتها والتدبير في التأمر عليها وطاعة ساداتها وتقسيط أجناس الأعمال بينها على أقدار معارفها وقوة أبدانها . فهذه النحلة وإن كانت ذبابة فانظر قبل كل شيء في ضروب انتفاع ضروب الناس فيها فإنك تجدّها أكبر من الجبل الشامخ والقضاء الواسع .

وكلُّ شيء وإن كان فيه من العجب العاجب ومن البرهان التاصع ما يوسع فكر العاقل ويملا صدر المفكر فإن بعض الأمور أكثرُ أعجوبة وأظهر علامة وكما تختلف برهاناتها في الغموض والظهور فكذلك تختلف في طبقات الكثرة وإن شملتها الكثرة ووقع عليها اسم البرهان .

(رَجَعَ إِلَى سِرْدِ سَائِرِ أَبْوَابِ الْكِتَابِ) وَلَعَلَّ هَذَا الْجُزْءَ الَّذِي نَبْتَدِئُ فِيهِ بِذِكْرِ مَا فِي الْحَشْرَاتِ وَالْهَمَجِ أَنْ يَفْضَلَ مِنْ وَرَقِهِ شَيْءٌ فَنَرْفَعُهُ وَنَتِمَّهُ بِجُمْلَةِ الْقَوْلِ فِي الطَّبَاءِ وَالذَّنَابِ فَإِنَّهُمَا بَابَانِ يَقْصُرَانِ عَنِ الطُّوْلِ وَيَزِيدَانِ عَلَى وَقْدِ بَقِيٍّ مِنَ الْأَبْوَابِ الْمُتَوَسِّطَةِ وَالْمُقْتَصِدَةِ الْمَعْتَدِلَةِ الَّتِي قَدْ أَخَذَتْ مِنَ الْقِصْرِ لِمَنْ طَلَبَ الْقِصْرَ

(بِحِطٍّ وَمَنْ الطُّوْلُ لِمَنْ طَلَبَ الطُّوْلَ بِحِطٍّ وَهُوَ الْقَوْلُ فِي الْبَقْرِ وَالْقَوْلُ فِي الْحَمِيرِ وَالْقَوْلُ فِي كِبَارِ السَّبَاعِ وَأَشْرَافِهَا وَرُؤُسَائِهَا وَذَوِي النَّبَاهَةِ مِنْهَا كَالْأَسَدِ وَالنَّمْرِ وَالْبَيْرِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ مِمَّا يَجْمَعُ قُوَّةَ أَصْلِ النَّابِ وَالذَّرْبِ وَشَحْوِ الْقَمِ وَالسَّيِّعِيَّةِ وَحِدَّةِ الْبَرْتَنِ وَتَمَكُّنِهِ فِي الْعَصَبِ وَشِدَّةِ الْقَلْبِ وَصِرَامَتِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَوَثَاقَةِ خَلْقِ الْبَدَنِ وَقُوَّتِهِ عَلَى الْوُثْبِ .

وَسَنَذَكُرُ تَسَالُمَ الْمَتَسَالِمَةِ مِنْهَا وَتَعَادِي الْمَتَعَادِيَةِ مِنْهَا وَمَا الَّذِي

أَصْلَحَ بَيْنَهَا عَلَى السَّبَّيَّةِ الصَّرْفِ وَاسْتَوَاءِ حَالِهَا فِي اقْتِيَاتِ اللَّحْمَانِ حَتَّى رُبَّمَا اسْتَوَتْ فَرِيضَتُهَا فِي الْجَنَسِ . وَقَدْ شَاهَدْنَا غَيْرَ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ يَكُونُ تَعَادِيهَا مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا وَلَيْسَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ السَّبَاعِ بِأَعْيَانِهَا تَفَاوُتٌ فِي الشَّدَّةِ فَتَكُونُ كَالْأَسَدِ الَّذِي يَطْلُبُ الْفَهْدَ لِأَكْلِهِ وَالْفَهْدُ لَا يَطْمَعُ فِيهِ وَلَا يَأْكُلُهُ فَوْجِدْنَا التَّكَافُؤَ فِي الْقُوَّةِ وَالْآلَةِ مِنْ أَسْبَابِ التَّفَاسُدِ وَإِنَّ ذَلِكَ لَيَعْمَلُ فِي طَبَاعِ عَقَلَاءِ الْإِنْسِ حَتَّى يُخْرِجُوا إِلَى تَهَارُشِ السَّبَاعِ فَمَا بَالُهَا لَمْ تَعْمَلْ هَذَا الْعَمَلَ فِي أَنْفُسِ السَّبَاعِ وَسَنَذَكُرُ عِلَّةَ التَّسَالُمِ وَعِلَّةَ التَّعَادِي وَلَمْ تُطَبِّعْ رُؤُسَاءَ السَّبَاعِ عَلَى الْغَفْلَةِ وَبَعْضُ مَا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْكَرَمِ دُونَ صِغَارِ السَّبَاعِ وَسَفَلَتِهَا وَحَاشِيَتِهَا وَحَشَوَهَا وَكَذَلِكَ أَوْسَاطُهَا وَالْمَعْتَدِلَةُ الْآلَةُ وَالْأَسْرُ مِنْهَا . وَلَمْ نَذَكُرْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْغَرَائِبِ وَطَرِيفَةٍ مِنْ هَذِهِ الطَّرَائِفِ إِلَّا وَمَعَهَا شَاهِدٌ مِنْ كِتَابِ مُنْزَلٍ أَوْ حَدِيثٍ مَأْثُورٍ

أَوْ خَبَرٍ مُسْتَفِيضٍ أَوْ شَعْرٍ مَعْرُوفٍ أَوْ مِثْلٍ مُضْرُوبٍ أَوْ يَكُونُ ذَلِكَ مِمَّا يَشْهَدُ عَلَيْهِ الطَّيِّبُ وَمَنْ قَدْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ الْكُتُبِ أَوْ بَعْضُ مَنْ قَدْ مَارَسَ الْأَسْفَارَ وَرَكِبَ الْبَحَارَ وَسَكَنَ الصَّحَارِيَ وَاسْتَنْزَى بِالْهَضَابِ وَدَخَلَ فِي الْغِيَاضِ وَمَشَى فِي بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ .

وَقَدْ رَأَيْنَا أَقْوَاماً يَدْعُونَ فِي كُتُبِهِمُ الْغَرَائِبَ الْكَثِيرَةَ وَالْأُمُورَ الْبَدِيعَةَ وَيَخَاطِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بِمَرُوءَاتِهِمْ وَيُعَرِّضُونَ أَقْدَارَهُمْ وَيَسْلُطُونَ السُّفْهَاءَ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ وَيَجْتَرُّونَ سُوءَ الظَّنِّ إِلَى أَخْبَارِهِمْ وَيَحْكُمُونَ حُسْنَ النِّعَمِ فِي كُتُبِهِمْ وَيَمَكِّنُونَ لَهُمْ مِنْ مَقَالَتِهِمْ وَبَعْضُهُمْ يَتَّكِلُ عَلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ أَوْ عَلَى التَّسْلِيمِ لَهُمْ وَالتَّقْلِيدِ لِدَعْوَاهُمْ وَأَحْسَنَهُمْ حَالاً مَنْ يُحِبُّ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَيْهِ بِسَطِّ الْعُذْرِ لَهُ وَيُتَكَلَّفُ الْإِحْتِجَاجُ عَنْهُ وَلَا يَبَالِي أَنْ يُمَنَّ بِذَلِكَ عَلَى عَقْبِهِ أَوْ مِنْ دَانَ بِدِينِهِ أَوْ اقْتَبَسَ ذَلِكَ الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ كُتُبِهِ .

وَنَحْنُ حَفِظُكَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا اسْتَطَقْنَا الشَّاهِدَ وَأَحْلَنَّا عَلَى الْمِثْلِ فَالْخُصُومَةَ حِينَئِذٍ إِنَّمَا هِيَ (بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا إِذْ كُنَّا نَحْنُ لَمْ نَسْتَشْهَدِ إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَا وَفِيمَا ذَكَرْنَا مَقْنَعٌ عِنْدَ عُلَمَائِنَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ يَثْبُتُ

بالقياس أو يبطل بالقياس فواضع الكتاب ضامنٌ لتخليصه وتلخيصه ولتثبيته فأما الأبوابُ الكبارُ فمثلُ القول في الإبل والقول في فضيلة الإنسان على جميع الحيوان كفضل الحيوان على جميع النامي وفضل النامي على جميع الجماد .

وليس يدخل في هذا الباب القول فيما قسم الله عزّ وجلّ لبعض البقاع من التّعظيم دون بعض ولا فيما قسم من الساعات والليالي والأيام والشهور وأشباه ذلك لأنه معنيّ يرجع إلى المختبرين بذلك من الملائكة والجنّ والآدميين .

فمن أبواب الكبار القول في فصل ما بين الذكورة والإناث وفي فصل ما بين الرجل والمرأة خاصّة . وقد يدخل في القول في الإنسان ذكر اختلاف الناس في الأعمار وفي طول الأجسام وفي مقادير العقول وفي تفاضل الصناعات وكيف

قال من قال في تقديم الأول وكيف قال من قال في تقديم الآخر .

فأما الأبوابُ الأخر كفضل الملك على الإنسان وفضل الإنسان على الجنّ وهي جملة القول في اختلاف جواهرهم وفي أيّ موضع يتشاكلون وفي أيّ موضع يختلفون فإن هذه من الأبواب المعتدلة في القصر والطول . وليس من الأبواب بابٌ إلا وقد يدخله نثفٌ من أبوابٍ أخرٍ على قدر ما يعلّق بها من الأسباب ويعرض فيه من التضمنين ولعلك أن تكون بها أشدّ انتفاعاً .

وعلى أيّ رجا وشئت هذا الكتاب وفصلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام وطرف أخبار وغرر أشعار مع طرف مضاحيك ولولا الذي نُحاول من استعفاف على استتمام انتفاعكم لقد كنّا تسخّفنا وسخّفنا شأن كتابنا هذا .

وإذا علم الله تعالى موقع النية وجهة القصد أعان على السلامة من كلّ مخوف .

العلة في عدم إفراد باب للسّمك

ولم نجعل لما يسكن الملح والعدوبة والأهمار والأدوية والمناقع والمياه الجارية من السّمك ونمّا يخالف السّمك نمّا يعيش مع السّمك باباً مجرداً لأنّي لم أجِد في أكثره شعراً يجمع الشاهد ويوثق منه بحسن الوصف وينشط بما فيه من غير ذلك للقراءة ولم يكن الشاهد عليه إلا أخبار البحرّيين وهم قومٌ لا يعدّون القول في باب الفعل وكلّما كان الخبرُ أغرب كانوا به أشدّ عجباً مع عبارة غثّة ومخارج سَمِجة . وفيه عيبٌ آخر : وهو أنّ معه من الطول والكثرة ما لا تحتملونه ولو غنّاكم جميعه مُخارق وضرب عليه زلزل وزمر به

برصوماً فلذلك لم أتعرّض له .

وقد أكثر في هذا الباب أرسطاطاليس ولم أجِد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه . ولقد قلت لرجل من البحرّيين : زعم أرسطاطاليس أنّ السّمكة لا تبتلع الطعم أبداً إلا ومعه شيءٌ من ماء

مع سعة المدخل وشرّ النفس فكان من جوابه أن قال لي : ما يعلم هذا إلا مَنْ كان سمكة مرّة أو أخبرته به سمكة أو حدّثه بذلك الحواريّون أصحاب عيسى فإنهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح . وهذا البحريُّ صاحبُ كلام وهو يتكلّف معرفة العلل وهذا كان

جوابه ولكني لن أدع ذكرَ بعض ما وجدته في الأشعار والأخبار أو كان مشهوراً عند من ينزل الأسياف وشطوط الأودية والأنهار ويعرفه السّمّاكون ويُقرُّ به الأطباء بقدر ما أمكن من القول . زعم إياس بن معاوية في الشُّبُوط وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار أن إياس بن معاوية زعم أن الشُّبُوط كالْبُغْل وأن أمّها بُنيّة وأباها زَجَرٌ وأنّ من الدليل على ذلك أن الناس لم يجدوا في بطن شُّبُوطَة قطّ بيضاً . وأنا أخبرك أنّي قد وجدته فيها مراراً ولكنّي وجدته أصغر جُثّة وأبعد من الطيّب ولم أجده عامّاً كما أجده في بطون جميع السمك .

فهذا قول أبي واثلة إياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي وصاحب الإزكان وأقوف من كرّز الشك في أخبار البحرين والسّمّاكين والمترجمين فكيف أسكنُ بعد هذا إلى أخبار البحرّيين وأحاديث السّمّاكين وإلى ما في كتاب رجلٍ لعله أن لو وجد هذا المترجم أن يُقيمه على المصنّبة ويبرأ إلى النَّاس من كذبه عليه ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته .

فصيلة الضب

والذي حضرنى من أسماء الحشرات ممّا يرجع عمود صورها إلى

قالب واحد وإن اختلفت بعد ذلك في أمور فأول ما نذكر من ذلك الضب . والأجناسُ التي ترجع إلى صورة الضبّ : الورل والحرياء والوحرة والحلّكة وشحمة الأرض وكذلك العطاء والوزغ والحردون وقال أبو زيد : وذكر العظاية هو العضرُفوط ويقال في أمّ حين حُبينة وأشباؤها ممّا يسكن الماء : الرّقّ والسُّلحفاة والغيلم والتّمساح وما أشبه ذلك .

الحشرات

وممّا نحن قاتلون في شأنه من الحشرات : الظربان والعُثّ والحفّات

والعربد والعضرُفوط والوبر وأمّ حجين والجعل والقرنبي والدّسّاس والخنفساء والحية والعقرب والشّبث والرّثلاء والطّبوع والحرقوص والدّم وقملة النّسر والمثل

والنَّير وهي دويبة إذا دبَّت على جلد البعير تورَّم ولذلك يقول الشاعر وهو يصف إبله بالسَّمن : (كأنَّها من بُدنٍ واستيقارٌ ** دبَّت عليها ذربات الأنبار) وقال الآخر : (حمر تحقنت النجيل كأنما ** مجلودهن مدارجُ الأنبار)

والضَّمج والقنفذ والنَّمْل والنَّرّ والدَّسلس ومنها ما تتشاكل في وجوه وتختلف من وجوه : كالْفأر والجُرذان والزباب والخلد واليربوع وابن عرس وابن مقرض

ومنها العنكبوت الذي يقال له منونة وهي شرُّ من الجرارة والضَّمج .

ما فيه الوحشي والأهلي من الحيوان

وسنقول في الأجناس التي يكون في الجنس منها الوحشيُّ والأهليُّ كالقيلة والخنازير والبقر والحمير والسنانير .

والظباء قد تدجُن وتولد على صُعوبة فيها وليس في أجناس الإبل جنس وحشيٌّ إلَّا في قول الأعراب . ومَّا يكون أهليًّا ولا يكون وحشيًّا وهو سبعُ الكلاب وليس يتوحَّش منها إلَّا الكلب الكلب فأما الضَّبَاع والدَّنَاب

والأسد والنمور واليُبور والنعالب وبنات آوى فوحشيَّة كلها وقد يقلِّم الأسد وتُنزع أُنْيابه ويطول ثَوَاهُ مع الناس حتى يهرم مع ذلك ويحسَّ بعجزه عن الصَّيد ثم هو في ذلك لا يُؤتمنُ غرامه ولا شروده إذا انفرد عن سِوَاهُ وأبصر غيضة فذامها صحراء .

قصة الأعرابي والدَّب وقد كان بعض الأعراب ربَّى جرو ذئب صغيراً حتَّى شبَّ وظنَّ أنه يكون أغنى غنَاء من الكلب وأقوى على الدَّب عن الماشية فلمَّا قوي شيئاً وثب على شاة فذبحها وكذلك يصنع الدَّب ثمَّ أكل منها فلمَّا أبصر الرَّجل أمره قال : (أَكَلْتُ شُوَيْهِي وَرَبَيْتُ فِينَا ** فَمِنْ أَنْبَاكَ أَنْ أَبَاكَ ذَيْبُ)

وقد أنكر ناسٌ من أصحابنا هذا الحديث وقالوا : لم يكن ليألفه ويقيم معه بعد أن اشتدَّ عظمه ولمَّ لمَّ يذهب مع الدَّنَاب والضَّبَاع ولم تكن البادية أحبَّ إليه من الحاضرة والقفار أحبَّ إليه من المواضع المأنوسة . كيف يصير الوحشيُّ من الحيوان أهليًّا وليس يصير السبع من هذه الأجناس أو الوحشيُّ من البهائم أهليًّا بالمقام فيهم وهو لا يقدر ما يعتري الوحشي إذا صار إلى الناس وقد تتسافد وتتوالد في الدُّور وهي بعد وحشيَّة وليس ذلك فيها بعامٍّ ومن الوحش ما إذا صار إلى النَّاس وفي دُورهم ترك السَّفاد ومنها ما لا يطعم ولا يشرب البتَّة بوجهٍ من الوجوه ومنها ما يُكره على الطَّعم

ويدخل في حلقة كالحية ومنها ما لا يسفد ولا يدجُن ولا يطعم ولا يشرب ولا يصيحُ حتى يموت وهذا المعنى في وحشيِّ الطَّير أكثر .

السوراني ورياضته للوحوش والذي يحكى عن السوراني القنَّاص الجبليِّ ليس بناقضٍ لما قلنا لأنَّ الشَّيء

الغريبَ والنادرَ الخارجيَّ لا يقاس عليه وقد زعموا أنه بلغ من حدِّقه بتدريب الجوارح وتضربتها أنه ضرى ذئباً حتّى اصطاد به الطَّيَّاء وما دونها صيداً ذريعاً وأنه ألفه حتّى رجع إليه من ثلاثين فرسخاً وقد كان بعضُ العُمال سرقه منه وقد ذكروا أنّ هذا الذئب قد صار إلى العسكر وأن هذا السُّوراني ضرى أسداً حتّى اصطاد له الحمير فما دونها صيداً ذريعاً وأنه ضرى الزَّناييرَ فاصطاد بها الذِّبَّانَ وكلُّ هذا عجب وهو غريبٌ نادرٌ بديعٌ خارجيٌّ

وذكروا أنه من قيس عيلان وأن حليلة ظئر النبي صلى الله عليه وسلم قد ولدته .
الحيوانات العجيبة وليس عندي في الحمار الهنديّ شيء وقد ذكره صاحب المنطق فأما الدِّبَّاب وفأرة المسك والفنك والقاقم والسَّنجاب والسَّمُور وهذه الدوابّ ذوات الفراء والوبر الكثيف النَّاعم والمرغوب فيه والمنافع به فهي عجيبة .
وإنما نذكر ما يعرفه أصحابنا وعلمائنا وأهلُ باديّتنا ألا ترى أنّي لم أذكر لك الحريش والدُّخس ولا هذه السِّباع المشتركة الخلق

المتولّدة فيما بين السِّباع المختلفة الأعضاء المتشابهة الأرحام التي إذا صار بعضها في أيدي القرّادين والمتكسّبين و الطوّافين وضعوا لها أسماء فقالوا : مقلّاس وكيلاس وشلقطير وخلقطير وأشباه ذلك حين لم تُكن من السِّباع الأصلية والمشهورة النسب والمعروفة بالنفع والضّرر .
وقد ذكرنا منها ما كان مثل الضبع والسَّمع والعِساب إذ كانت معروفةً عند الأعراب مشهورة في الأخبار منوّهاً بها في الأشعار .

الاعتماد على معارف الأعراب في الوحش وإنما أعتمد في مثل هذا على ما عند الأعراب وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما احتيج إليه منها من جهة العناية والفلاية ولا من جهة التذاكر والتكسُّب ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبعاً أو بهيمةً أو مشترك الخلق فإنما هي ميثوثة في بلاد الوحش : من صحراء أو وادٍ أو غائط أو غيضة أو رملة أو رأس جبل وهي في منازلهم ومناشئهم فقد نزلوا كما ترى بينها وأقاموا معها وهم أيضاً من بين النَّاس وحشٌّ أو أشباه الوحش .
وربّما بل كثيراً ما يُبتلون بالناب والمخلب وباللدغ واللّسع والعصّ والأكل فخرجت بهم الحاجة إلى تعرّف حال الجاني والجراح والقاتل وحال الخبيّ عليه والجروح والمقتول وكيف الطَّلُب والهرب وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء

ومن هذه الجهة عرفوا الآثار في الأرض والرمل وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن كل من كان بالصَّحاح الأماليس حيث لا أمانة ولا هادي مع حاجته إلى بعد الشَّقة مضطراً إلى التماس ما ينجيه ويُؤديه .

ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجذب وضنه بالحياة اضطرتته الحاجة إلى تعرُّف شأن الغيث .
ولأنه في كلِّ حال يرى السَّماء وما يجري فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثابت

٤

أقوال لبعض الأعراب في النجوم

وسئلت أعرابيةً فقيل لها : أتعرفين النجوم قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً عليَّ كلَّ ليلة .
وقال القطريّ : وصف أعرابيُّ لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل
والسُّعُود والنُّجُوس فقال قائلٌ لشيخ عباديَّ كان حاضراً : أما ترى هذا الأعرابيَّ يعرف من النُّجوم ما لا
نعرف قال : ويل أمك من لا يعرف أجذاع بيته قال : وقلت لشيخ من الأعراب قد خرفَ وكان من
دُهاتهم : إني لا أراك عارفاً بالنُّجوم قال : أما إنها لو كانت أكثر لكنتُ بشأها أبصر ولو كانت أقلَّ لكنت
لها أذكر .

وأكثر سبب ذلك كله بعد فرط الحاجة وطول المداينة دِقَّة الأذهان وجودة الحفظ ولذلك قال مجنونٌ من
الأعراب لمَّا قال

له أبو الأصْبَغ بن رُبَيعيَّ : أما تعرّف النجوم قال : وما لي أعرف من لا يعرفني فلو كان لهذا الأعرابيَّ المجنون
مثل عُقول أصحابه لعرف مثل ما عرفوا .

ما يجب في التعليم

ولو كان عندي في أبدان السَّمُور والفَنك والقَاقِم ما عندي في أبدان الأرانب والثَّعالب دون فرائها لذكرتها
بما قلَّ أو كثر لكنّه لا ينبغي لمن قلَّ علمه أن يدعَ تعليم من هو أقلُّ منه علماً (الدَّسَّاس وعلة اختصاصه
بالذكر) ولو كانت الدَّسَّاس من أصناف الحَيَّات لم نخصَّها من بينها بالذكر ولكنها وإن كانت على قالب
الحَيَّات وخرطها وأفرغت

كإفراغها وعلى عُمود صُورها فخصائصها دون خصائصها كما يناسبها في ذلك الحُفَّات والعُرِيد وليس من
الحَيَّات كما أن هذا ليس من الحَيَّات لأنَّ الدَّسَّاس ممسوحة الأذن وهي مع ذلك ممَّا يلد ولا يبيض والمعروف
في ذلك أنَّ الولادة هي في الأشرف والبيض في الممسوح .

وقد زعم ناسٌ أنَّ الولادة لا تُخرج الدَّسَّاس من اسم الحَيَّة كما أن الولادة لا تخرج الحُفَّاش من اسم الطير .

وكلّ ولد يخرج من بيضه فهو فرخ إلا ولد بيض الدجاج فإنه فرج .
والأصناف التي ذكرناها مع ذكر الضبّ تبيض كلّها ويسمى ولدها بالاسم الأعم فرخاً .
وزعم لي ابن أبي العجوز أنّ الدسّاس تلد وكذلك خيري به محمد بن أيوب ابن جعفر عن أبيه وخيري به
الفضل بن إسحاق

بن سليمان فإن كان خبرهما عن إسحاق فقد كان إسحاق من معادن العلم .
وقد زعموا بهذا الإسناد أنّ الأروية تضع مع كلّ ولد وضعته أفعى في مشيمة واحدة .
وقال الآخرون : الأروية لا تعرف بهذا المعنى ولكنه ليس في الأرض ثمرة إلا وهي تضع ولدها وفي عنقه
أفعى في مكان الطوق وذكروا أنّها تنهش وتعصّ ولا تقتل .
ولم أكتب هذا لتقرّ به ولكنها رواية أحيت أن تسمعها ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر وكذلك لا يعجبني
الإنكار له ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل .

الشك واليقين

وبعد هذا فاعرف مواضع الشكّ وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له وتعلم
الشكّ في المشكوك فيه تعلماً فلو لم يكن في ذلك إلاّ تعرف التوقف ثمّ الثبّت لقد كان ذلك ممّا يحتاج إليه .
ثمّ اعلم أنّ الشكّ في طبقات عند جميعهم ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف .
ولمّا قال ابن الجهم للمكيّ : أنا لا أكاد أشكّ قال المكيّ : وأنا لا أكاد أوقن ففخر عليه المكيّ بالشكّ في
مواضع الشكّ كما فخر عليه ابن الجهم باليقين في مواضع اليقين .
وقال أبو إسحاق : نازعت من الملحدين الشاك والجاحد فوجدت الشكّ أكاد أبصر بجوهر الكلام من أصحاب
المجود .
وقال أبو إسحاق : الشاك أقرب إليك من الجاحد ولم يكن يقيناً

قط حتى كان قبله شكّ ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شكّ .
وقال ابن الجهم : ما أطمعني في أوبة المتحير لأنّ كل من اقتطعته عن اليقين الحيرة فضالته التبين ومن وجد
ضالته فرح بها .

وقال عمرو بن عبّيد : تقرير لسان الجاحد أشدّ من تعريف قلب الجاهل .
وقال أبو إسحاق : إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم وفي أيّ طبقة هو وأردت أن تدخله الكور
وتنفخ عليه ليظهر لك فيه الصّحة من الفساد أو مقداره من الصّحة والفساد فكُن عالماً في صورة متعلّم ثم
أسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجته منه .

فصل ما بين العوام والخواص في الشكّ والعوام أقلّ شكوكاً من الخواص لأنّهم لا يتوقفون في التصديق

والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق الجرد أو على التكذيب الجرد وألغوا الحال الثالثة من حال الشك التي تشتمل على طبقات الشك وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك وعلى مقادير الأغلب .

حرمة المتكلمين وسمع رجل ممن قد نظر بعض النظر تصويب العلماء لبعض الشك فأجرى ذلك في جميع الأمور حتى زعم أن الأمور كلها يعرف حقها وباطلها بالأغلب .

وقد مات ولم يخلف عقياً ولا واحداً يدين بدينه فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكن أسأت ولكي على حال أكره التتويه بذكر من قد تحرم بجرمة الكلام وشارك المتكلمين في اسم الصناعة ولا سيما إن كان ممن ينتحل تقديم الاستطاعة .

الأوعال والنياتل والأيايل فأما القول في الأوعال والنياتل والأيايل وأشبه ذلك فلم يحضرنا فيها ما إن نجعل لذكرها باباً موباً ولكننا سنذكرها في مواضع ذكرها من تضاعيف هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

الضب

وأنا مبتدئ على اسم الله تعالى في القول في الضب على أنني أذم هذا الكتاب في الجملة لأن الشواهد على كل شيء بعينه وقعت متفرقة غير مجمعة ولو قدرت على جمعها لكان ذلك أبلغ

في تركية الشاهد وأنور للبرهان وأملأ للنفس وأمتع لها بحسن الرصف وأحمده لأن جملة الكتاب على حال مشتملة على جميع تلك الحجج ومحيطه بجميع تلك البرهانات وإن وقع بعضه في مكان بعض تأخر متقدّم وتقدّم متأخر .

جحر الضب وما قيل فيه من الشعر

وقالوا : و من كئس الضب أنه لا يتخذ جحره إلا في كذبة وهو الموضع الصلب أو في ارتفاع عن المسيل والبسيط ولذلك توجد برائته ناقصة قليلة لأنه يحفر في الصلابة ويعمق الحفر ولذلك قال خالد بن الطيقان :

(ومولى كمولى الزبرقان دملته ** كما دملت ساق قهاض بها كسر)

(إذا ما أحالت والجبانر فوقها ** مضى الحول لا برء مبین ولا جبر) (تراه كأن الله يجدع أنفه ** وأذنيه إن مولاه تاب له وفر) وقال كثير : (فإن شئت قلت له صادقاً ** وجدتك بالقف ضباً جحولا) (من اللاء يحفرن تحت الكدى ** ولا يتغين الدماث السهولا) وقال دريد بن الصمة : وجدنا أبا الجبار ضباً مورساً له في الصفاة برثن ومعاول

(له كدِيَّةٌ أُعيت على كلِّ قانصٍ ** ولو كان مِنْهُمْ حارِشان وحابلُ) (ظَلَلْتُ أَراعي الشمس لولا ملائتي
** ترلَعُ جلدي عِنْدَهُ وهو قائلُ) وأنشد لدريد بن الصمة : (وعوراء مِنْ قِيلِ امرئٍ قد رَدَدْتُها ** بسالمةِ
العَيْنينِ طالبةِ غُلْرا) (ولو أني إذ قالها قُلْتُ مِثْلَها ** وأكثر منها أورثتُ بَيْننا غِمْرًا) (فَأَعْرَضْتُ عنها
وانتظرت به غداً ** لعلَّ غداً يُبدي مُنتظِرُ أَمرا) (لأُخرج ضبًّا كان تحت ضلوعِهِ ** وأَقْلِمَ أظفاراً أطال بها
الحفرا)

وقال أوسُ بنُ حَجَرٍ في أكل الصَّخِرِ للأظفار : (فأشْرطَ فيها نفسُهُ وهو مُعَصِّمٌ ** وألقى بأسبابَ لَهُ
وتوَكَّلًا) فقد وصفوا الضَّبَّ كما ترى بأنه لا يحفِرُ إلَّا في كدِيَّةٍ ويطيلُ الحفَرَ حتَّى تَفنى برائنه ويتوَحَّى به
الارتفاع عن مجاري السَّيلِ و المياه وعن مدقِ الخوافر لكيلا يَنْهارَ عليه بيته .

الموضع الذي يختاره الضب لجحره

ولمَّا علم أَنَّهُ نَسَاءٌ سَيِّئِ الهداية لم يحفر وجاره إلَّا عند أكمةٍ أو صخْرةٍ أو شجرةٍ ليكون متى تباعد من جُحره
لطلب الطَّعم أو لبعضِ الخوفِ فالتفت ورآه أحسن الهداية إلى جحره ولأَنَّهُ إذا لم يُقِمَّ عِلْمًا فلعلَّه أن يُلجَّ
على ظرَبانٍ أو وَرَلٍ فلا يكون

دون أكله له شيءٌ .

فقالت العرب : حَبُّ ضَبٍّ و : أَحَبُّ مِنْ ضَبٍّ و أَخْدَعُ مِنْ ضَبٍّ و : كُلُّ ضَبٍّ عِنْدَ مِرْدَاتِهِ .

وإذا خَدَعُ في زوايا حَفيرته فقد تَوَقَّعَ لنفسه عند نفسه .

حذر بعض الحيوان ولهذه العلَّةُ اتَّخذَ اليربوع القاصعاء والناقعاء والدَّامَاءَ والرَّاهِطَاءَ وهي أبوابٌ قد اتَّخذها
لحفيرته فمَنى أَحسَّ بِشَرٍّ خالف تلك الجهة إلى الباب .

ولهذا وشبهه من الحذر كان التوبير من الأرناب وأشباهاها والتوبير : أن تَطأَ على زمعائها فلا

ولمَّا أشبه هذا التَّدبير صار الظبي لا يدخل كَناسَهُ إلَّا وهو مستدبر يستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه

شعر في حزم الضب واليربوع

وقد جمع يحيى بن منصور الذُّهليُّ أبواباً من حزم الضب وخبثه وتدبيره إلَّا أَنَّهُ لم يرد تفضيل الضب في ذلك
ولكنه بعد أن قَدَّمه على حَقِّي الرِّجال قال : فكيف لو فكَرْتُم في حَزْمِ اليربوع والضَّبِّ .

وأنشدني فقال : (وبعضُ النَّاسِ أَقْصَى رأيِ حَزْمٍ ** من اليربوع والضَّبِّ المَكُونِ)

(يَرى مُرْدَاتُهُ مِنْ رَأْسِ مِيلٍ ** وَيَأْمَنُ سَيْلَ بَارِقَةٍ هُتُونِ) (وَيَحْفِرُ فِي الْكُدَى خَوْفَ أَهْيَارٍ ** وَيَجْعَلُ مَكْوَهُ رَأْسَ الْوَجِينِ) (وَيَحْدَغُ إِنْ أُرْذَتْ لَهُ احْتِيَالاً ** رَوَاغَ الْفَهْدِ مِنْ أَسَدٍ كَمِينِ) (وَيَدْخُلُ عَقْرَباً تَحْتَ الذَّنَابِي ** وَيَعْمَلُ كَيْدَ ذِي خَدِّعِ طِينِ) (فَهَذَا الضَّبُّ لَيْسَ بِذِي ** حَرِيمٍ مَعَ الْيَرْبُوعِ وَالذَّبُّ اللَّعِينِ) وَقَدْ ذَكَرَ يَحْيَى جَمِيعَ مَا ذَكَرْنَا إِلَّا احْتِيَالَهُ بِأَعْدَادِ الْعَقْرَبِ لِكَفِّ الْمُحْتَرَشِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكَرْ هَذِهِ الْحِيلَةَ مِنْ عَمَلِهِ وَسَنَذْكَرُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ وَالشَّعْرَ الَّذِي يُثَبِّتُ لَهُ ذَلِكَ كَثِيرٌ .
فَهَذَا شَأْنُ الضَّبِّ فِي الْحَفْرِ وَإِحْكَامُ شَأْنِ مَنْزِلِهِ .

الورل وعدم اتخاذه بيتاً ومن كلام العرب أنّ الورل إنّما يمنعه من اتّخاذ البيوت أنّ اتخاذاها لا يكون إلاّ بالخرّ والورل يُبقي على برائته ويعلم أنّها سلاحه الذي به يقوى على ما هو أشدُّ بدناً منه وله ذنبٌ يؤكل ويُستطاب كثيرُ الشَّحم .

قول الأعراب في مطايا الجن من الحيوان

والأعراب لا يصيدون يربوعاً ولا قُنْفُذاً ولا ورلاً من أول الليل وكذلك كل شيء يكون عندهم من مطايا الجن كالنَّعام والطَّيَاء .
ولا تكون الأرنبُ والضَّبعُ من مراكب الجن لأن الأرنب تحيض ولا تغتسل من الحيض والضَّياع تركبُ أيورَ القتلى والموتى إذا جِئَتْ أبدانهم وانتفخوا وأنعظوا ثم لا تغتسل عندهم من الجنابة ولا حنابة إلا ما كان للإنسان فيه شرك ولا تمتطي القروود لأن القرد زان ولا يغتسل من فإن قتل أعرابي قُنْفُذاً أو ورلاً من أول الليل أو بعض هذه

المراكب لم يأمن على فحل إبله ومتى اعتراه شيءٌ حكم بأنه عقوبةٌ من قبلهم .
قالوا : ويسمعون الهاتف عند ذلك بالتَّعْيِ وبضروب الوعيد .

قول الأعراب في قتل الجن من الحيات وكذلك يقولون في الجنّ من الحيات وقتل الجنّ عندهم عظيم ولذلك رأى رجلٌ منهم جناً في قعر بئر لا يستطيع الخروج منها فنزل على خطر شديد حتّى أخرجها ثم أرسلها من يده فانسابت وغمّض عَيْنَيْهِ لكيلا يرى مدخلها كأنه يريد الإخلاص في التقرب إلى الجن .
قال المازني : فأقبل عليه رجلٌ فقال له : كيف يقدر على أذاك مَنْ لم ينقذه من الأذى غيرك

ما لا يتم له التدبير إذا دخل الأنفاق

وقال : ثلاثة أشياء لا يتم لها التدبير إذا دخلت الأسراب والأنفاق والمكامن والتّوالج حتّى يغص بها الخرق .
فمن ذلك :

أن الظربان إذا أراد أن يأكل حِسْلَةَ الضَّبِّ أو الضَّبَّ نفسه اقتحم جُحْر الضَّبِّ مستديراً ثم التمس أضيق موضع فيه فإذا وجدَه قد غَصَّ به وأيقنَ أَنَّهُ قد حال بينه وبين الآخر : أن الرجل إذا دخل وجارَ الضبع ومعه حَبْل فإن لم يسُدَّ يَدَنه وبشوبه جميع المخارق والمنافذ ثم وصل إلى الضبع من الضياء بمقدار سَمِّ الإبرة وثبتَ عليه فقطعته ولو كان أشدَّ من الأسد . والثالث : أن الضب إذا أراد أن يأكل حُسُوله وقف لها من جحرها في أضيق موضع من منفذه إلى خارج فإذا أحكم ذلك بدأ فأكل منها فإذا امتلأ جوفه انخطَّ عن ذلك المكان شيئاً قليلاً فلا يُفْلِتُ منه شيءٌ من ولده إلا بعد أن يشبع ويَزُولَ عن موضعه فيجد منفذاً . وقال بعض الأعراب :

(ينشب في المسلكِ عِنْدَ سَلْتِهِ ** تراحم الضبَّ عصى في كُدَيْتِهِ) (شعر في أكل الضبِّ ولده) وقال : الدليل على أن الضبَّ يأكلُ ولده قول عَمَلَس بن عقيل بن عُلْفَةَ لأبيه : (أَكَلْتُ بَنِيكَ أَكُلَ الضَّبِّ حَتَّى ** وجدت مَرَاةَ الكَلأِ الوَبِيلِ) (فلو أن الأولى كانوا شهوداً ** مَنَعَتْ فَنَاءَ بَيْتِكَ من بَجِيلِ) وأنشد لغيره :

وقال عمرو بن مسافر : عتبت على أبي يوماً في بعض الأمر قُتِلَتْ : (كيف ألومُ أباي طِيْشاً ليرحمَني ** وَجَدَهُ الضَّبُّ لم يتركْ لَهُ وَلَدًا) وقال خدّاش بن زُهَيْر : (فَإِنْ سَمِعْتُمْ بِجَيْشٍ سَالِكاً سَرِفاً ** أو بطنُ قوْ فَاخْفُوا الجُرْسَ واكْتُمُوا) (ثُمَّ ارْجِعُوا فَاكْبُوا فِي يُيُوتِكُمْ ** كما أَكَبَّ على ذي بَطْنِهِ الهَرْمُ) جعله هَرْمًا لطول عمره وذي بطنه : ولده .

وقال أبو بكر بن أبي قُحافة لعائشة رضي الله عنهما : إِنِّي كُنْتُ لَخَلْتُكَ سَبْعِينَ وَسَقًا من مالي بالعالية وإِنَّكَ لَمْ تُخَوِّزِهِ وَإِنَّمَا هُوَ مَالُ الْوَارِثِ وَإِنَّمَا هُوَ أَخْوَاكَ وَأَخْتَاكَ قَالَتْ : مَا أَعْرِفُ

لي أختاً غير أسماء قال : إِنَّهُ قد أُلْقِيَ في رُوعِي أن ذا بطن بنت خارجة جارية .

قال آخرون : لم يعنِ بذِي بطنه ولده ولكنَّ الضَّبَّ يرمي ما أكل أي بقيء ثم يرجعُ فيأكله فذلك هو ذو بَطْنِهِ فشَبَّهُوه في ذلك بالكلب والستور .

وقال عمرو بن مسافر : ما عني إلا أولاده فكأنَّ خدّاشاً قال : ارجعوا عن الحرب التي لا تستطيعونها إلى أكل النَّرِيَّةِ والعيال .

قول أبي سليمان الغنوي في أكل الضبة أولادها

قال : وقال أبو سليمان الغنوي : أبرأ إلى الله تعالى من أن تكون الضَّبَّةُ تَأْكُلُ أولادها ولكنها تدفنهنَّ وتطمُّ عليهنَّ التُّرابَ وتعهدهنَّ في كلِّ يوم حتَّى يُخْرِجَنَ وذلك في ثلاثة أسابيع غير أن الثَّعَالِبَ وَالظَّرِبَانَ وَالطَّيْرَ تحفر عنهنَّ فتأكلهنَّ ولو أفلت منهنَّ كلُّ فراخ الضَّبَابِ لَمَلَأَنَّ الْأَرْضَ جميعاً .

ولو أن إنساناً نحل أم الدَّرْدَاءِ أو مُعَاذَةَ الْعُدُويَّةِ أو رابعة القيسيَّةِ أَهْنً يأكلن أولادهنَّ لما كان عند أحدٍ من النَّاسِ من إنكار ذلك ومن التكذيب عنهنَّ ومن استعظام هذا القول أكثر مما قاله أبو سليمان في التَّكْذِيبِ على الضَّبَابِ أن تكون تأكل أولادها .)

قال أبو سليمان : ولكن الضبّ يأكلُ بعره وهو طيّبٌ عنده وأنشد : (يعود في تبعه حدّثان مَوْلِيهِ ** فإنَّ
أسنَّ تغدَى نَجْوَهُ كَلِفا)

قال : وقال أفر بن لقيط : التّبع : القيء ولكنّا رويناه هكذا إنما قال : يعودُ في رجّعه وكذلك الضبُّ يأكلُ
رجّعه .

وزعم أصحابنا أنّ أبا المنجوف السّدوسيّ روى عن أبي الوجيه العُكَلِيّ قوله : (وأظنّ من ضبٍّ إذا خافَ
حَارِشاً ** أعدَّ لَهُ عِنْدَ التَّلْمُسِ عَقْرَبَا)

جملة القول في نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب أوّل ذلك طولُ الدّماء وهو بقيّة النّفس وشلّة
انعقاد الحياة والرّوح بعد الذبح وهشْم الرّأس والطّعن الجائف النافذ حتّى يكون في ذلك أعجب من الخنزير
ومن الكلب ومن الخنفساء وهذه الأشياء التي قد تفرّدت بطول الدّماء .

ثمّ شارك الضبُّ الوزغة والحية فإن الحية تُقطع من ثلث جسمها فتعيش إن سلمت من النّزّ فجمع الضبُّ
الخصلّين جميعاً إلا ما رأيت في دَخَال الأذن من هذه الخصلة الواحدة فإنّي كنتُ أقطعُه بنصفين فيمضي أحدُ
نصفيه يَمِنَةً والآخر يَسرة إلا أنّي لا أعرفُ مقدار بقائهما بعد أن فاتا بصري .

ومن أعاجيبه طولُ العمر وذلك مشهورٌ في الأشعار والأخبار ومضروبٌ به المثلُ فشارك الحيات في هذه
الفضيلة وشارك الأفعى الرّمليّة والصّخرية في أنّها لا تموتُ حتّى أنّفها وليس إلا أن تُقتل أو تصطاد فتبقى
في جُوف الحوائن تذيّلها الأيدي وتُكره على

الطّعم في غير أرضها وهوائها حتى تموت أو تحتملها السيول في الشّتاء وزمان الزّمهرير فما أسرع موتها
حينئذ لأنّها صرّدة . ٤

مثل في الحية

وتقول العرب : أصرد من حية كما تقول : أعرى من حية وقال القشيريّ : واللّه لهي أصردُ من عنزٍ جرّاء
. ٤ (حُتوف الحيات) وحُتوفها التي تُسرّع إليها ثلاثة أشياء : أحدها مُرور أقاطيع الإبل والشّاء وهي
منبسطةٌ على وجه الأرض إما للتشرّق نهاراً في أوائل البرد وإما للتبرّد ليلاً في ليالي الصّيف وإما لخروجها في
طلب الطّعم .)

والخصلة الثانية ما يسلّط عليها من القنافذ والأوعال والورل فإنّها

تطالبها مطالبة شديدة وتقوى عليها قوّة ظاهرة وخنازير تأكلها . وقد ذكرنا ذلك في باب القول في الحيات .

والخصلة الثالثة : تكسّب الحوائن بصيدها وهي تموت عندهم سريعاً .

ما يشارك الضب فيه الحية والضبُّ يشاركها في طول العمر ثمّ الاكتفاء بالنسيم والتّعيش ببرد الهواء وذلك

عند الهرم وفناء الرطوبات ونقص الحرات وهذه كلها عجب .
عود إلى أعاجيب الضب ثم اتخذه الحجر في الصلابة وفي بعض الارتفاع خوفاً من الانهدام ومسيل المياه ثم لا يكون ذلك إلا عند علم يرجع إليه إن هو أضل جحره ولو رأى بالقرب تراباً متراكباً بقدر تلك المرداة والصخرة لم يحفل بذلك فهذا كله كئس وحزم وقال الشاعر :

(سقى الله أرضاً يعلم الضب أنها ** عذبة بطن القاع طيبة البقل) (يرود بها بيتاً على رأس كذبة ** وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل) وقال البطين : (وكل شيء مصيب في تعيشه ** الضب كالثون والإنسان كالسبع) ومن أعاجيبه أن له أيرين وللضبة حرين وهذا شيء لا يعرف إلا لهما فهذا قول الأعراب وأما قول كثير من العلماء ومن قَبَّ في البلاد وقرأ الكتب فإنهم يزعمون أن للسقنقور أيرين وهو الذي يتداوى به العاجز عن النكاح ليورثه ذلك القوة .
قالو : و إن للجرذون أيضاً أيرين وإنهم عاينوا ذلك

معاينة وآخر من زعم لي ذلك موسى بن إبراهيم .
والجرذون دوية تشبه الحرباء تكون بناحية مصر وما والاها وهي دويّة مليحة موشاة بألوان ونقط .
وقال جالينوس : الضب الذي له لسانان يصلح لحمه لكذا وكذا فهذه أيضاً أعجوبة أخرى في الضب : أن يكون بعضه ذا لسانين وذا أيرين .
ومن أعاجيب الضبة أنها تأكل أولادها وتجاوز في ذلك خلق الهرة حتى قالت الأعراب : أعق من ضب . (احتيال الضب بالعقرب وزعمت العرب أنه يُعِدُّ العقرب في جحره فإذا سمع صوت الحرش استنفرها فألصقها بأصل عجب الذنب من تحت وضم عليها فإذا أدخل الحارث يده ليقبض على أصل ذنبه لسعته العقرب .
وقال علماؤهم : بل يهَيِّء العقارب في جحره لتلسع المحترش إذا أدخل يده .
وقال أبو المنجد بن رويشد : رأيت الضب أخور دابة في

الأرض على الحر تراه أبداً في شهر ناجر بباب جحره متدخلاً يخاف أن يقبض قابض بذنبه فربما أتاه الجاهل ليستخرجه وقد أتى بعقرب فوضعها تحت ذنبه وبينه وبين الأرض يحبسها بعجب الذنب فإذا قبض الجاهل على أصل ذنبه لسعته فسهل بنفسه .
فأما ذو المعرفة فإن معه عويداً يحركه هناك فإذا زالت العقرب قبض عليه .
وقال أبو الوجيه : كذب والله من زعم أن الضبة تستنفر عقرباً ولكن العقارب مسالة للضبب لأنها لا تعرض لبيضها وفراخها والضب يأكل الجراد ولا يأكل العقارب وأنشد قول التميمي الذي كان ينزل به الأزدي : إنه ليس إلى الطعام يقصد وليس به إلا أنه قد صار به إلفاً وأنيساً فقال : (أتأنس بي ونجرك غير نجري ** كما بين العقارب والضباب)

وأنشد : (تَجَمَّعْنَ عِنْدَ الضَّبِّ حَتَّى كَأَنَّهُ ** عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْوَدُ الْجِلْدِ خَنْفَسُ) لأن العقارب تألف الخنافس وأنشدوا للحكم بن عمرو البهراي : (وَالْوَزْغُ الرُّقْطُ عَلَى ذُلِّهَا ** تُطَاعِمُ الْحَيَاتِ فِي الْجَحْرِ) (وَالْخَنْفَسُ الْأَسْوَدُ مِنْ نَجْرِهِ ** مَوْدَةُ الْعَقْرِبِ فِي السَّرِّ) لأنك لا تراهما أبداً إلا ظاهرتين يطأعمان أو يتسايران ومتى رأيت مكنة أو أطلعت على جحر فرأيت إحداهما رأيت الأخرى .

قال : وما يؤكد القول الأول قوله : (وَمُسْتَشْفَرٌ دُونَ السَّوِيَّةِ عَقْرَباً ** لَقَدْ جَنَّتْ بِجُرْيَا مِنَ الدَّهْرِ أَعُوجَا)

يقول : حين لم ترض من الدهاء والتكر إلا بما مخالف عنده الناس وتجوزهم •

إعجاب الضب والعقرب بالتمر وأنشدني ابن داحية لحذيفة بن دأب عم عيسى بن يزيد الذي يقال له ابن دأب في حديث طويل من أحاديث العشاق : (لَنْ خُدِعْتُ حُبِّي بِسَبِّ مُزَعَفِرٍ ** فَقَدْ يُخْدَعُ الضَّبُّ الْمَخَادِعَ بِالْتَمْرِ)

لأن الضب شديد العُجب بالتمر فضرب الضب مثلاً في الحُبث والخديعة .
والذي يدل على أن الضب والعقرب يُعجبان بالتمر عجباً شديداً ما جاء من الأشعار في ذلك وأنشدني ابن الأعرابي لابن دغماء العجلي : (سَوَى أَنْكَمْ دُرْبَتُمْ فَجَرَيْتُمْ ** عَلَى دُرْبَةِ الضَّبِّ يُحْبَلُ بِالْتَمْرِ) فجعل صيده بالتمر كصيده بالحباله وأنشدني القشيري : (وَمَا كُنْتُ ضَبّاً يُخْرِجُ التَّمْرَ ضِغْنَهُ ** وَلَا أَنَا مِمَّنْ يَزِدُّهُ وَعِيدُ) وقال بشر بن المعتمر في قصيدته التي ذكر فيها آيات الله عز ذكره في صنوف خلقه مع ذكر الإباضية والرافضة والحشوية

والنابتة فقال فيها : (وَهَقْلَةٌ تَرْتَاغُ مِنْ ظِلِّهَا ** لَهَا عِرَارٌ وَلَهَا زَمْرُ) (وَضِبَةٌ تَأْكُلُ أَوْلَادَهَا ** وَغُرْفَانٌ بَطْنُهُ صِفْرُ) (يُوْثِرُ بِالطَّعْمِ وَتَأْذِينُهُ ** مُنْجَمٌ لَهُ فِكْرُ) (وَظَبِيَّةٌ تَخْضَمُ فِي حَنْظَلٍ ** وَعَقْرَبٌ يُعْجِبُهَا التَّمْرُ) وقال أيضاً بشر في قصيدة له أخرى : (أَمَا تَرَى الْهَقْلَ وَأَمْعَاءَهُ ** يَجْمَعُ بَيْنَ الصَّخْرِ وَالْجَمْرِ) (وَفَارَةَ الْيَشْرِ عَلَى بَيْشِهَا ** أَحْرَصَ مِنْ ضَبٍّ عَلَى تَمْرِ) وقال أبو دارة وقد رأيته أنا وكان صاحب قَصص : (وَمَا التَّمْرُ إِلَّا آفَةٌ وَبَلِيَّةٌ ** عَلَى جُلِّ هَذَا الْخَلْقِ مِنْ سَاكِنِ الْبَحْرِ) (وَفِي الْبَرِّ مِنْ ذَنْبٍ وَسَمْعٍ وَعَقْرَبٍ ** وَثُرْمَلَةٍ تَسْعَى وَخَنْفَسَةٍ تَسْرِي) (وَقَدْ قِيلَ فِي الْأَمْثَالِ إِنْ كُنْتَ وَاعِياً ** عَذِيرُكَ إِنْ الضَّبُّ يُحْبَلُ بِالْتَمْرِ)

وسنفسر معاني هذه الأبيات إذا كتبنا القصيدتين على وجوههما بما يشتملان عليه من ذكر الغرائب والحكم والتدبير والأعاجيب التي أودع الله تعالى أصناف هذا الخلق ليعتبر معتبر ويفكر مفكر فيصير بذلك عاقلاً عالماً وموحداً مخلصاً .

طول ذم الضب والدليل على ما ذكرنا من تفسير قولهم : الضَّبُّ أَطْوَلُ شَيْءٍ ذِمَاءُ قَوْلِهِمْ : إِنَّهُ لِأَحْيَا مِنْ ضَبٍّ لِأَنَّ حَارِشَهُ رَبَّمَا ذَبَحَهُ فَاسْتَقْصَى فَرِي الْأَوْدَاجِ ثُمَّ يَدْعُهُ فَرَبَّمَا تَحْرُكُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .

وقال أبو ذؤيب الهذلي : (ذَكَرَ الْوَرُودُ بِهَا وَشَاقَى أَمْرَهُ ** شَوْماً وَأَقْبَلَ حِينَهُ يَتَّبِعُ) (فَأَبْدَهْنَ حُتُوْفَهُنَّ فَهَارِبٌ ** بِذِمَائِهِ أَوْ سَاقِطٌ مَتَجَعِّجُ) وكان الناس يروون : فهاربٌ بدمائه يريدون من الدم وكانوا

يكسرون الدال حتى قال الأصمعيّ : بزمانه معجزة الدال مفتوحة وقال كثير : (ولقد شهدت الخيل يحمل
شِكتي * متلمّظٌ خذم العنان بهيم) (باقي الدماء إذا ملكت مُناقِلٌ * وإذا جمعتُ به أجشُّ هزيم) خبث
الضب والضَبّ إذا خدع في جُحره وُصِفَ عند ذلك بالخبث والمكر ولذلك قال الشاعر : (إنا مُنينا بضَبٍّ
من بني جُمح * يرى الحيانة مِثْلَ الماء بالعسل) وأنشد أبو عصام : (إن لنا شيخين لا ينفعاننا * غنيين لا
يجدي علينا غناهما)

(سقط : بيت الشعر) (كأنهما ضبان ضبا مغارة * كيران غيداقان صفر كشاهما) (فإن يُحبّلا لا يوجد
في حباله * وإن يُرصدًا يوماً يُحبُّ راصداهما) ولذلك شَبَّهوا الحقد الكامن في القلب الذي يسري ضرره
وتدبُّ عقاربهِ بالضَبِّ فسموا ذلك الحقد ضَبًّا قال معن بن أوس : (ألا مَنْ لمولى لا يزالُ كأَنَّهُ * صفاً فيه
صدعٌ لا يُدانيه شاعِبٌ) (تدبُّ ضبابُ الغشِّ تحت ضلوعه * لأهلِ الندى من قومه بالعقارب) وقال أبو
ذهبل الجمحي : (فاعلمُ بأنِّي لِمَنْ عاديتَ مضطغُنَّ * ضبًّا وإني عليك اليوم محسودٌ) وأنشد ابن الأعرابي
: (يا رَبُّ مولى حاسدٍ مُباغضٍ * عليّ ذي ضغنٍ وضبٍّ فارِضٍ)

له قُرُوءٌ كفُرُوءِ الحائضِ كأنه ذهب إلى أن حِقْدَه يخبو تارةً ثم يستعر ثم يخبو ثم يستعر .
وقال ابن ميادة وضرب المثل بنفخ الضب وتوتُّبه : (فإن لقيس من بغضٍ أقاصياً * إذا أسدٌ كَشَتْ لفخر
ضبابُها) وقال الآخر : (ولو ضبٌّ أعلى ذي دميثٍ حَلَمَنا * إذا ظلَّ يَمْطو من حبالكم حَبَلًا) والضب
يُوصَفُ بشلّةِ الكبر ولا سِيما إذا أخصب وأمن وصارَ كما قال عبدة بن الطيّب فإنه ضرب الضب مثلاً
حيث يقول ليحيى بن هزّال :

(لأعزّيك يومَ الورْدِ ذا لَعَطٍ * ضخَمَ الجُرارةَ بالسَّلَمينِ وَكَارٌ) (تكفي الوليدة والرُعيانَ مؤتزراً *
فاحلبُ فإنك حلابٌ وصرارٌ) (ما كُنْتُ أولَ ضبٍ صابٍ تلَعَتَهُ * غيثٌ فأمرعَ واسترخت به الدارُ)
وقال ابن ميادة : (ترى الضبُّ أن لم يرهَبِ الضبُّ غيره * يكشُّ له مُسْتَكْبِراً ويُطاولُهُ) وقال دَعْلَجٌ عبْدُ
المنجاب : (إذا كان يَتُ الضبُّ وسَطَ مَضْبَةٍ * تطاول للشيخ الذي هو حابله) المضبّة : مكان ذو
ضباب كثيرة ولا تكثر إلاّ وبقرها حيّة أو ورل أو ظربان ولا يكون ذلك إلاّ في موضع بعيد من الناس فإذا
أمن وخلا له جوّه وأخصب نفخ وكشَّ نحو كل شيء يُريده .

ما يوصف بالكبر من الحيوان وما يوصف بالكبر الثور في حال تشرُّقه وفي حال مشيته الخيلاء في الرِّياض
عند غبّ ديمة (كَشوبٍ ذي كبرياء من الوَح * دة لا يبتغي عليها ظهيرا) وهذا كثيرٌ وسيقع في موضعه
من القول في البقر .

ومما يوصف بالكبر الجملُ الفحل إذا طافت به نوق المهجمة ومرَّ نحو ماءٍ أو كالأ فتبعنه وقال الرَّاجز : (

فَإِنْ تَشَرَّدَنْ حَوَالِيهِ وَقَفَ * قَالِبَ حِمْلَاقِيهِ فِي مِثْلِ الْجُرْفِ (لَوْ رُضَّ لِحْدُ عَيْنِهِ لَمَا طَرَفَ * كَبِيرًا وَإِعْجَابًا وَعِزًّا وَتَرَفًا) وَالتَّاقَةُ يَشْتَدُّ كَبِيرُهَا إِذَا لَقِحت وَتَزُمُّ بِأَنْفِهَا وَتَنْفَرِدُ عَنْ صَحَابَاتِهَا وَأَنْشُدُ الْأَصْمَعِي :

(وَهُوَ إِذَا أَرَادَ مِنْهَا عِرْسًا * دَهْمَاءَ مِرْبَاعِ اللَّقَاحِ جَلَسَا) (عَايِنَهَا بَعْدَ السَّنَانِ أَنْسَا * حَتَّى تَلَقَّتْهُ مَخَاضًا قُعْسًا) (حَتَّى احْتَشَتْ فِي كُلِّ نَفْسٍ نَفْسًا * عَلَى الدَّوَامِ ضَامِرَاتٍ خُرْسًا) خُوصًا مُسِرَّاتٍ لِقَاحًا مُلْسًا وَأَمَّا قَوْلُ الشَّمَاخِ : (جُمَالِيَّةٌ لَوْ يُجْعَلُ السَّيْفُ غَرَضُهَا * عَلَى حَدِّهِ لَا اسْتَكْبَرَتْ أَنْ تَضُورَا) فَلَيْسَ مِنَ الْأَوَّلِ فِي شَيْءٍ .

وَالْمَذْكُورُونَ مِنَ النَّاسِ بِالْكَبِيرِ ثُمَّ مِنْ قَرِيشٍ : بَنُو مُحْزُومٍ وَبَنُو أُمَيَّةَ وَمِنْ الْعَرَبِ : بَنُو جَعْفَرِ بْنِ كَلَابٍ وَبَنُو زُرَّارَةَ بْنِ عُدُسٍ خَاصَّةً .

فَأَمَّا الْأَكَاسِرَةُ مِنَ الْفَرَسِ فَكَانُوا لَا يَعُدُّونَ النَّاسَ إِلَّا عَبِيدًا وَأَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَرْبَابًا . وَلَسْنَا نُبْخِرُ إِلَّا عَنْ دَهْمَاءِ النَّاسِ وَجُمْهُورِهِمْ كَيْفَ كَانُوا مِنْ مَلُوكٍ وَسُوقَةٍ . الْكَبِيرُ فِي الْأَجْنَاسِ الذَّلِيلَةِ وَالْكَبِيرُ فِي الْأَجْنَاسِ الذَّلِيلَةِ مِنَ النَّاسِ أَرْسَخٌ وَأَعْمٌ وَلَكِنَّ الذَّلِيلَةَ وَالْقَلَّةَ مَانِعَتَانِ مِنْ ظَهْوَرِ كِبَرِهِمْ فَصَارَ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ كَعَبِيدِنَا مِنَ السِّنْدِ وَذِمَّتِنَا مِنَ الْيَهُودِ . وَالْجُمْلَةُ أَنَّ كُلَّ مَنْ قَدَّرَ مِنَ السَّفَلَةِ وَالْوُضْعَاءِ وَالْخَقَرِينَ أَدْنَى قَدْرَةٍ ظَهَرَ مِنْ كِبَرِهِ عَلَى مَنْ تَحْتَ قَدْرَتِهِ عَلَى مَرَاتِبِ الْقُدْرَةِ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ فَإِنْ كَانَ ذَمِيًّا وَحَسَنَ بِمَا لَهُ فِي صَدُورِ النَّاسِ تَرِيدٌ فِي ذَلِكَ وَاسْتَظْهَرَتْ طَبِيعَتُهُ بِمَا يَظُنُّ أَنَّ فِيهِ رَفَعَ ذَلِكَ الْخَرْقَ وَحِيَاصَ ذَلِكَ الْفَتْقَ وَسَدَ تِلْكَ الثُّلُمَةَ

فَنَفَقَدَ مَا أَقُولُ لَكَ فَإِنَّكَ سَتَجِدُهُ فَاشِيًّا .

وَعَلَى هَذَا الْحِسَابِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ صَارَ الْمَمْلُوكُ أَسْوَأَ مُلْكَةٍ مِنَ الْحُرِّ . وَشَيْءٌ قَدْ قَتَلْتَهُ عِلْمًا وَهُوَ أَنِّي لَمْ أَرَ ذَا كَبِيرٍ قَطُّ عَلَى مَنْ دُونَهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْدُلُّ مَنْ فَوْقَهُ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَوِزْنِهِ . فَأَمَّا بَنُو مُحْزُومٍ وَبَنُو أُمَيَّةَ وَبَنُو جَعْفَرِ بْنِ كَلَابٍ وَبَنُو زُرَّارَةَ بْنِ عُلُسٍ فَأَبْطَرُهُمْ مَا وَجَدُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْفَضِيلَةِ وَلَوْ كَانَ فِي قُوَى عَقُولِهِمْ وَدِيَانَتِهِمْ فَضْلٌ عَلَى قُوَى دَوَاعِي الْحَمِيَّةِ فِيهِمْ) لَكَانُوا كَبَنِي هَاشِمٍ فِي تَوَاضُعِهِمْ وَفِي إِنْصَافِهِمْ لِمَنْ دُونِهِمْ .

وَقَدْ قَالَ فِي شَبِيهِ هَذَا الْمَعْنَى عَبْلَةُ بْنُ الطَّيِّبِ حَيْثُ يَقُولُ : (إِنْ الذِّينَ تُرَوَّنُهُمْ خَلَانُكُمْ * يَشْفِي صُدَاعَ رُؤُوسِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا) (فَضَلْتُ عِدَاؤَهُمْ عَلَى أَحْلَامِهِمْ * وَأَبَتْ ضِيَابُ صُدُورِهِمْ لَا تَتَرَعُ) مِنْ عَجَائِبِ الضَّبِّ فَأَمَّا مَا ذَكَرُوا أَنَّ لِلضَّبِّ أَيْرِينَ وَلِلضَّبَّةِ حَرِينَ فَهَذَا مِنَ الْعَجَبِ

الْعَجِيبُ وَلَمْ نَجِدْهُمْ يَشْكُونَ وَقَدْ يَخْتَلِفُونَ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى هَذَا الْعَمُودِ وَقَالَ الْفَزَارِيُّ : (جَبَى الْمَالُ عَمَّالُ الْخَرَّاجِ وَجَبُوتِي * مُحْدَقَةُ الْأَذْنَابِ صُفْرُ الشَّوَاكِلِ) (رَعِينُ الدَّبَا وَالْبَقْلُ حَتَّى كَأَنَّمَا * كَسَاهُنَّ سُلْطَانُ ثِيَابِ الْمَرَاجِلِ) (سَبَحَلُ لَهُ نَزَكَانِ كَانَا فَضِيلَةً * عَلَى كُلِّ حَافٍ فِي الْبِلَادِ وَنَاعِلِ)

(ترى كلّ ذِيَالٍ إذا الشمسُ عارضتْ ** سما بين عُرْسِيهِ سُمُوَ المخايلِ) واسم أيره التَّزْكُ معجمة الزَّاي والنون من فوق بواحدة وساكنة الزاي فهذا قول الفزاريّ (تفرَّقْتُمُ لا زِلْتُمُ قِرْنَ واحدٍ ** تفرَّقُ أير الضَّبِّ والأصل واحد) فهذا يؤكد ما رواه أبو خالد النميري عن أبي حَيَّة التَّمِيرِي قال أبو خالد : سئل أبو حَيَّة عن ذلك فزعم أن أير الضَّبِّ كلسان الحَيَّة : الأصل واحدٌ والفرعُ اثنان . ٤ (زعم بعض المفسرين في عقاب الحية) وبعضُ أهل التفسير يزعم أن الله عزَّ وجلَّ عاقب الحَيَّة حين أدخلتْ إبليس في جوفها حتَّى كلَّم آدم على لسانها بعشر خصال منها شقُّ اللسان .
قالوا : فلذلك ترى الحَيَّة أبداً إذا ضُربت تُقتل كيف تُخرجُ

لسانها تلويه كما يصنعُ المسترحمُ من النَّاسِ بإصبعه إذا ترخَّم أو دعا لتريَ الظالمَ عقوبةَ الله تعالى لها .
قول بعض العلماء في تناسل الضب قال أبو خالد : قال أبو حَيَّة : الأصل واحد والفرع اثنان وللأنثى مدخلان وأنشد حَمِيَّ المدنيَّة : (وَدِدْتُ بَأَنَّهُ ضَبٌّ وَأَيُّ ** كَضْبَةٍ كُذِيَّةٍ وَجَدْتُ خَلَاءَ) قال : قالت هذا البيت لابنها حين عذلها لأنَّها تزوجتْ ابنَ أمِّ كلاب وهو فتى حدثٌ وقال ابن الأعرابي : للأنثى سيّلان ولرحمها قُرْنان وهما زاويتا الرَّحِمِ فإذا امتلأت الزَّاويتان أتامت وإذا لم تمتلئ أفردت .
وقال غيره من العلماء : هذا لا يكون لذوات البيض والفراخ وإنما

هذا من صفة أرحام اللواتي يُخلبن بالأولاد ويضعن خلقاً كخلقهنَّ ويُرضعن وكيف تُفرد الضبَّة وهي لم تنتم قط وهي تبيض سبعين بيضةً في كلّ بيضةٍ حِسْل .
قال : ولهذه الحشرات أيورٌ معروفة إلاَّ أن بعضها أحقر من بعض فأما الخصى فشيءٌ ظاهرٌ لمن شقَّ عنها .
تناسل الذباب وجسر أبو خالد فرعم أنه قد أبصر أير ذباب وهو يَكُوم ذبابة وزعم أن اسم أيره المُتْك وأنشد لعبد الله بن همام السَّلُولِي : (لما رَأَيْتُ القَصْرَ غُلِقَ بابُه ** وتعلَّقتْ هُمْدانُ بالأسبابِ) (أيقنتُ أنَّ إمارة ابن مُضاربٍ ** لم يبقَ منها قيسُ أيرِ ذبابٍ) وهذا شعراً لا يدلُّ على ما قال .
وقال أصحابنا : إنّما المُتْك البُظْر ولذلك يقال للعِلَج : يابن المُتْكاء كما يقال له : يابن البطراء .

القول فيمن استطاب لحم الضب ومن عافه
روى أنَّه أُقي به على خوان النبي صلى الله عليه وسلم فلم يأكله وقال : ليس من طعام قومي وأكله خالد بن الوليد فلم يُنكر عليه .
وروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا أحلُّه ولا أحرمُّه وأنكر ذلك ابنُ عباس وقال : ما بعثه الله تعالى إلاَّ ليُحلَّ ويحرمَّ .
وحرمه قومٌ ورووا أنَّ أُمّتين مُسختا أخذت إحداهما في البرِّ فهي الضَّبَّاب وأخذت الأخرى في طريق البحر فهي الجَرِّي .)
وروا عن بعض الفقهاء أنه رأى رجلاً أكل لحم ضبٍّ فقال : اعلم أنَّك قد أكلت شيئاً من مشيخة بني

إسرائيل .

وقال بعض من يعافه : الذي يدلُّ على أنَّه مسخٌ شبه كفه بكفِّ الإنسان .

وقال العُدار الأبرص نديم أيوب بن جعفر وكان أيوب لا يغبّ أكل الضباب في زمانها ولها في المربد سوقٌ تقوم في ظلِّ دار جعفر ولذلك قال أبو فرعون في كلمة له طويلة : سُوِّق الضباب خير سوقٍ في العرب وكان أبو إسحاق إبراهيم النظام والُعدار إذا كان عند أيوب قاما عن خوانه إذا وضع له عليه ضبٌّ ومما قال فيه العُدار قوله : قول العوام في المسخ

والعوام تقول ذلك وناسٌ يزعمون أن الحية مسخٌ والضبُّ مسخٌ والكلب مسخٌ والإريان مسخٌ والفأر مسخٌ .

قول أهل الكتاب في المسخ ولم أر أهل الكتاب يُقرُّون بأنَّ الله تعالى مسخٌ إنساناً قط خنزيراً ولا قرداً إلا أنهم قد أجمعوا أنَّ الله تبارك وتعالى قد مسخ امرأة لوطٍ حَجراً حين التفتت .
وتزعم الأعراب : أنَّ الله عزَّ ذكره

قد مسخ كلَّ صاحب مَكْسٍ وجابي خراج وإتاوة إذا كان ظالماً وأنه مسخٌ ما كسين أحدهما ذنباً والآخر ضبعاً .

شعر الحكم بن عمرو في غرائب الخلق وأنشد محمد بن السَّكَن المَعْلَم النحويُّ للحكم بن عمرو البهراني في ذلك وفي غيره شعراً عجيباً وقد ذكر فيه ضرورياً كلّها طريف غريب وكلها باطل والأعراب تؤمن بها أجمع .

وكان الحكم هذا أتى بني العنبر بالبادية على أنَّ العنبر من بهراء ففوه من البادية إلى الحاضرة وكان يتفقّه ويفتي فنيا الأعراب وكان مكفوفاً ودهرياً عُلَمِيّاً وهو الذي يقول : (إنَّ ربيِّ لما يشاءُ قديرٌ ** ما لشيءٍ أراده من مفرٍّ)

(بعث النملَ والجرادَ وقفى ** بنجيع الرُّعافِ في حيِّ بكرٍ) (خرقتُ فارةً بأنفِ ضئيلٍ ** عروماً محكمٍ الأساسِ بصخرٍ) (فجرتَه وكانَ جيلانَ عنه ** عاجزاً لو يرومُه بعدَ دهرٍ) (مسخُ الضبِّ في الجدالة قدماً ** وسهيلُ السماءِ عمداً بصغرٍ) (والذي كانَ يكتنى برغالٍ ** جعلَ اللهُ قبره شَرَقِبرٍ) (وكذا كلُّ ذى سفينٍ وخرجٍ ** ومكوسٍ وكلُّ صاحبِ عشرٍ) (منكبٌ كافراً وأشرطُ سوءٍ ** وعريفٌ جزاؤه حرُّ جمرٍ) (وتزوجتُ في الشبيبةِ غولاً ** بغزالٍ وصدقتي زقُّ خمرٍ) (ثيبٌ إن هويتُ ذلك منها ** ومتى شئتُ لم أجدُ غيرَ بكرٍ) (بنتُ عمرو وخالها مسحلُ الخي ** ر وخالِي هميمُ صاحبُ عمرو) (ولها خطَّةٌ بأرضٍ وبارٍ ** مسحوها فكانَ لي نصفُ شطرٍ) (أرضُ حوشٍ وجاملٌ عكنانٍ ** وعروجٌ من المؤبِّلِ دثرٍ)

(سادة الجنّ ليس فيها من الج ** نّ تاجر وآخر مكر) (ونفوا عن حريمها كلّ عفر ** يسرقُ السمعَ كل ليلة بدر) (تأكل القولُ ذا البساطة مسياً ** بعد روث الحمار في كل فجر) (جعلُ الله ذلك الروث بيضا ** من أنوق ومن طروقة نسر) (ضربت فردةً فصارتُ هباءً ** في محاق القمرِ آخرَ شهر) (تركتُ عبدلاً ثمالَ اليتامى ** وأخوه مزاحم كان بكرى) (وضعتُ تسعةً وكانت نرورا ** من نساء في أهلها غير نزر) (غلبتني على النجابة عرسي ** بعد ما طار في النجابة ذكرى)

(وأرى فيهم شمائل إنس ** غير أن النجار صورة عفر) (وبها كنت راكباً حشرات ** ملجماً قنفذاً ومسرج وبر) (كنت لا أركبُ الأرانب للحي ** ض ولا الضبع أنها ذات نكر) (تركبُ المقعص الخفيف ذا النع ** ظ وتدعو الضباع من كل جحر) (جانباً للبحار أهدى لعربي ** فلأفلاً مجتئى وهضمة عطر) (وأحلى هربير من صدف البح ** ر وأسقى العيال من نيل مصر) (ويسنى المعقود نفثى وحلى ** ثم يخفى على السّواحر سحري) (وأجوب البلاد تحت ظي ** ضاحك سنه كثير التمرى) (يحسبُ الناظرون أنّي ابن ماء ** ذاكرُ عشه بضفة نهر) (ربّ يوم أكلت من كبدِ اللي ** ث وأعقت بين ذئبٍ ونمر) (ليس ذا كم كمن يبيت بطيناً ** من شواء ومن قلية جزر)

(ثم لاحظتُ خلّتي في غدو ** بين عيني وعينها السّم مجرى) (ثم أصبحتُ بعد خفضٍ وهو ** مدنفاً مفرداً مخالف عسر) (أتراني مقتاً من ذبح الدي ** ك وعاديتُ من أهاب بصقر) (وسمعتُ النقيق في ظلم اللي ** ل فجأوبته بسرٍ وجهر) (ثم يرمى بي الجحيمُ جهاراً ** في خمير وفي دراهم قمر) (فلعلّ الإله يرحمُ ضعفي ** ويرى كبرتي ويقبلُ عندي)

في حل الضب واستطابته

وسنقول في الذين استحلوه واستطابوه وقتّموه .

قالوا : الشيء لا يحرم إلا من جهة كتاب أو إجماع أو حجة عقل أو من جهة القياس على أصل في كتاب الله عز وجل أو إجماع ولم نجد في تحريمه شيئاً من هذه الخصال وإن كان إنمّا يُترك من قبل التفرز فقد أكل الناس الدجاج والشبائط ولحوم الجلالة وأكلوا السراطين والعقصور وفراخ الزناوير والصحناء

والرّيشا فكان التفرز مما يغتذي العذرة رطبةً ويابسةً أولى وأحقّ من كلّ شيء يأكل الضروب التي قد ذكرناها وذكرها الرّاجز حيث يقول : (يا ربّ ضبّ بين أكناف اللّوى ** رعى المزار والكبات والدّبا) (حتّى إذا ما ناصِلُ الهُمى ارتقى ** وأجفنت في الأرض أعرافُ السّفا) (ظلّ يباري هُبصاً وسَطَ المالا ** وهو بعيني قانصٍ بالمرتبّا) (كان إذا أخفّق من غير الرعا ** رازم بالأكباد منها والكُشى)

فإن عفتّموه لأكل الدّبا فلا تأكلوا الجراد ولا تستطيوا بيضه .

وقد قال أبو حجين المنقري : (ألا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً ** بأسفل وادٍ ليس فيه أذان) (وهل أكلنُ

ضَبًّا بِأَسْفَلِ ثَلْعَةٍ** وعرفج أكماع المديد خواني) . أقوم إلى وقت الصلاة وريحه بكفي لم أغسلهما بشنن (وهل أشربن من ماء لينة شربة** على عطش من سور أم أبان) وقال آخر :

(أحب إلينا أن يجاور أرضنا** من السمك البني والسلجم الوخم) وقال آخر في تفضيل أكل الضب : (أقول له يوماً وقد راح صحتي** وبالله أبغي صبيته وأخاتله) (فلما التقت كفي على فضل ذيله** وشالت شمالي زایل الضب باطله) (فأصبح محوذاً نضيجاً وأصبحت** تمشى على القيزان حولاً حلائله) (شديد اصفرار الكشيتين كأنما** تطلى بورس بطنه وشواكله) (فذلك أشهى عندنا من بياحكم** لحى الله شاريه وقبح أكله)

وقال أبو الهندي من ولد شبت بن ربي : (أكلت الضباب فما عفتها** وإني لأهوى قديد الغنم) (وركت زبدًا على تمره** فنعم الطعام ونعم الأدم) (وسمن السلاء وكم القصيص** وزين السديف كبود النعم) (ولحم الخروف حنيذاً وقد** أتيته به فاتراً في الشبم)

(فأما البهط وحيثانكم** فما زلت منها كثير السقم) (وقد نلت ذاك كما نلتكم** فلم أر فيها كضب هرم) (ومكن الضباب طعام الغريب** ولا تشتهي نفوس العجم) وإلى هذا المعنى ذهب جران العود حين أطعم ضيفه ضباً فهجاه ابن عم له كان يغمز في نسيه فلما قال في كلمة له : (وتطعم ضيفك الجوعان ضباً** وتأكل دونه تمرًا بزبد) وقال في كلمة له أخرى : (وتطعم ضيفك الجوعان ضباً** كأن الضب عندهم غريب) قال جران العود :

(فلولاً أن أصلك فارسي** لما عبت الضباب ومن قرأها) (قريت الصيف من حبي كشأها** وأي لوية إلا كشأها)

واللوية : الطعيم الطيب واللطف يرفع للشيخ والصبي وقد قال الأخطل : (فقلت لهم هاتوا لوية مالك** وإن كان قد لاقى لبوساً ومطعماً) بزماورد الزنابير وقال مؤيس بن عمران : كان بشر بن المعتمر خاصاً بالفضل

بن يحيى فقدم عليه رجل من مواليه وهو أحد بني هلال بن عامر فمضى به يوماً إلى الفضل ليكرمه بذلك وحضرت المائدة فذكروا الضب ومن يأكله فأفرط الفضل في ذمه وتابعه القوم بذلك ونظر الهلالي فلم ير على المائدة عربياً غيره وغازله كلامهم فلم يلبث الفضل أن أتى بصحفة ملانة من فراخ الزنابير ليتخذ له منها بزماورد والدبر والتحل عند العرب أجناس من الذبان فلم يشك الهلالي أن الذي رأى من ذبان البيوت والحشوش وكان الفضل حين ولي خراسان استظرف بها بزماورد الزنابير فلما قدم العراق كان يشههاها فطلب له من كل مكان فشمت الهلالي به وبأصحابه وخرج وهو يقول :

(وَعَلَجَ يَعْفُ الضَّبُّ لَوْمًا وَبُطْنَةً ** وبعضُ إدام العِلْجِ هَامُ ذُبَابٍ) (ولو أن مَلَكًا في المَلَا ناك أمه **
لَقَالُوا لَقَدْ أُوتِيَتْ فَصَلَّ حَطَابٍ) شعر أبي الطروق في مهر امرأة لما قال أبو الطروق الضبي : (يقولون
أصْدِفُهَا جَرَادًا وَضَبَّةً ** فقد جَرَدَتْ يَتِي وَيَّتَ عِيَالِيَا) (وَأَبْقَتْ ضِيَابًا فِي الصُّدُورِ جَوَانِمًا ** فَيَا لَكَ مِنْ
دَعْوَى تُصِمُّ المُنَادِيَا) (وعاديتُ أعمامي وهم شرُّ جيرةٍ ** يُدْبُونُ شَطْرَ اللَّيْلِ نَحْوِي الْأَفَاعِيَا)
(وَقَدْ كَانَ فِي قَعْبٍ وَقُوسٌ وَإِنْ أَشَأْ ** مِنْ الْأَقْطِ مَا بَلَّغْنَ فِي الْمَهْرِ حَاجِيَا) (فلو كان قَعْبًا رَضَى قَعْبُكَ
جَنْدَلٌ ** وَلَوْ كَانَ قَوْسًا كَانَ لِلنَّبْلِ أَذْكَرَا) فقال عمُّها : دعوني والعبد .

شعر في الضب

(وَأَنْشُدْ لِلدُّيُورِي : (أَعَامِرَ عَبْدِ اللَّهِ إِنِّي وَجَدْتُكُمْ ** كَعَرَفَجَةِ الضَّبِّ الَّذِي يَتَذَلُّ) قال : هي لينة
وعودُها لئن فهو يعلوها إذا حضروا بالقيظ ويتشوّف عليها ولست تَرَى الضَّبَّ إِلَّا وَهِيَ سَامِيَةٌ بِرَأْسِهَا تَنْظُرُ
وَتَرْقُبُ وَأَنْشُدْ :

(بِلَادٍ يَكُونُ الْحَيْمَ أَطْلَالَ أَهْلِهَا ** إِذَا حَضَرُوا بِالْقَيْظِ وَالضَّبُّ نَوْنُهَا) وقال عمرو بن خويلد : (رَكَابُ
حُسَيْلٍ أَشْهَرُ الصَّيْفِ بُدْنٌ ** وَنَاقَةٌ عَمْرٍو مَا يُحَلُّ لَهَا رَحْلٌ) (إِذَا مَا ابْتَنَيْنَا بَيْتَنَا لِمَعِيشَةٍ ** يَعُودُ لِمَا نَبْنِي
فِيهِدُمُهُ حِسْلٌ) (وَيزعم حِسْلٌ أَنَّهُ فَرَعٌ قَوْمِهِ ** وَمَا أَنْتَ فَرَعٌ يَا حُسَيْلُ وَلَا أَصْلُ) (وَلِدْتَ بِحَادِي النَّجْمِ
تَسْعَى بِسَعِيهِ ** كَمَا وَلَدْتَ بِالنَّحْسِ دِيَانَهَا عُكْلٌ)

استطرد لغوي وهم يسمّون بحسل وحسيل : وضب وضبة فمنهم ضبة بن آد وضبة بن محض وزيد بن
ضبّ ويقال : حفرة ضب وفي قريش بنو حسل ومن ذلك ضبة الباب ويسمّى حلب الناقة بخمس أصابع
ضبّا يقال ضبّها يضبُّها ضبّا : إذا حلبها كذلك وضبّ الجرح وبضّ : إذا سال دماً مثل ما تقول : جذب
وجذو : إله لخبّ ضبّ وإله لأخذع من ضبّ والضبّ : الحقد إذا تمكّن وسرّت عقاربُه وأخفى مكانه
والضبّ : ورمّ في خفّ البعير وقال الرّاجز : ليس بذئ عرك ولا ذي ضبّ

ويقال ضبّ خدع أي مراوغ ولذلك سموا الخزانة المخدع وقال راشد بن شهاب : (أَرَقْتُ فَلَمْ تَخْدَعْ
بِعَيْنِي نَعْسَةً ** وَوَاللَّهِ مَا دَهْرِي بِعَشَقٍ وَلَا سَقَمٍ) وقال ذو الرُّمَّة : (مَنْاسِمَهَا خُثْمٌ صِلَابٌ كَأَنَّهَا **
رُؤُوسَ الضَّبَابِ اسْتَخَرَجَتْهَا الظَّهَائِرُ) شعر فيه ذكر الضبّ ويدلُّ على كثرة تصريفهم لهذا الاسم ما
أنشدناه أبو الرُّدَيْنِي : (لَا يَعْقِرُ التَّقْيِيلُ إِلَّا زُبِّي ** وَلَا يُدَاوِي مِنْ صَمِيمِ الْحُبِّ)

والضبّ في صَوَانِهِ مُجَبّ (يَا أُمَ سَمَّالٍ أَلَمَّا تَلَرِي ** أَنِّي عَلَى مَيَاسِرِي وَعَسْرِي) (يَكْفِيكَ رِفْدِي رَجُلًا
ذَا وَفَرٍ ** ضَخَمَ المِثَالِثِ صَغِيرَ الْأَيْرِ) (إِذَا تَغَدَّى قَالَ تَمْرِي تَمْرِي ** كَأَنَّهُ بَيْنَ النَّرَى وَالْكِسْرِ) ضبّ

تَصَحَّى بِمَكَانٍ قَفَرٍ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : (قَدْ اصْطَدْتُ يَا يَقْظَانُ ضَبًّا وَلَمْ يَكُنْ ** لِيُصْطَادْ ضَبٌّ مِثْلُهُ بِالْحَبَانِلِ) (يَظَلُّ رِعَاءُ الشَّاءِ يَرْتَمِضُونَهُ ** حَنِيدًا وَيُجْنِي بَعْضُهُ لِلْحَلَالِ)

(عَظِيمُ الْكَشَى مِثْلُ الصَّبِيِّ إِذَا عَدَا ** يَفُوتُ الصَّبَابَ حِسْلُهُ فِي السَّحَابِ) وَقَالَ الْعَمَانِي : (إِنِّي لَأَرْجُو مِنْ عَطَايَا رَبِّي ** وَمِنْ وَلِيِّ الْعَهْدِ بَعْدَ الْغَيْبِ) (رُومِيَّةٌ أَوْجَحُ فِيهَا ضَبِّي ** لَهَا حَرٌّ مُسْتَهْدِفٌ كَالْقَبِ) مُسْتَحْصِفٌ نَعْمَ قِرَابُ الرُّبِّ وَقَالَ الْآخَرُ : (إِذَا اصْطَلَحُوا عَلَى أَمْرٍ تَوَلَّوْا ** وَفِي أَجْوَاهِهِمْ مِنْهُ ضِيَابٌ) (وَمِنَ الْمَوَالِي ضَبٌّ جَنْدَلَةٌ ** زَمِرُ الْمَرْوَةِ نَاقِصُ الشَّبْرِ) فَالْأَوَّلُ جَعَلَ أَيْرَهُ ضَبًّا وَالثَّانِي جَعَلَ الْحَقْدَ ضَبًّا .
وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ فِي ظَهْرِ الْبَصْرَةِ مِمَّا يَلِي قَصْرَ أَنَسَ :

(زُرُّ وَادِي الْقَصْرِ نَعْمَ الْقَصْرُ وَالْوَادِي ** لَا بُدَّ مِنْ زُورَةٍ عَنْ غَيْرِ مِيعَادِ) (تَرَى بِهِ السُّفْنَ كَالظُّلْمَانِ وَاقِفَةً ** وَالضَّبَّ وَالثُّونَ وَالْمَالِحَ وَالْحَادِي) وَقَالَ فِي مِثْلِ ذَلِكَ ابْنُ أَبِي عُيَيْنَةَ : (يَا جَنَّةُ فَاتَتْ الْجِنَانُ فَمَا ** يَبْلُغُهَا قِيَمَةٌ وَلَا تَمْنُ) (أَلْفَتْهَا فَاتَّخَذَتْهَا وَطَنًا ** إِنَّ فَوَادِي لِأَهْلِهَا وَطَنٌ) (زُوجِ حَيَاتِنَاهَا الضَّبَابَ بِمَا ** فَهَذِهِ كَنَّةٌ وَذَا خَتْنٌ) (فَانْظُرْ وَفَكِّرْ فِيمَا تُطِيفُ بِهِ ** إِنَّ الْأَرِيبَ الْمَفَكِّرَ الْفَطْنُ)

(مِنْ سُفْنٍ كَالنَّعَامِ مَقْبَلَةٍ ** وَمِنْ نَعَامٍ كَأَنَّهَا سُفْنٌ)
وَقَالَ عَقْبَةُ بْنُ مُكَلَّمٍ فِي صِفَةِ الْفَرَسِ : (وَلَهَا مَنَحَرٌ إِذَا رَفَعَتْهُ ** فِي الْمَجَارِقِ مِثْلُ وَجَرِ الضَّبَابِ) وَأَنشَدَ :
وَقَالَ أَبُو حَيَّةَ التَّمِيمِي : وَقَرَّبُوا كُلَّ قِنْعَلَسٍ قُرَاسِيَّةً أَبَدًا لَيْسَ بِهِ ضَبٌّ وَلَا سَرَرٌ وَقَالَ كَثِيرٌ : (وَمَحْتَرَشُ ضَبٍّ الْعَادَاةُ مِنْهُمْ ** بِحُلُوِّ الرُّقَى حَرَشِ الضَّبَابِ الْخَوَادِعِ) وَقَالَ كَثِيرٌ :

(سَقَطَ : بَيْتُ الشَّعْرِ) (وَمَحْتَرَشُ ضَبٍّ الْعَادَاةُ مِنْهُمْ ** بِحُلُوِّ الرُّقَى حَرَشِ فِي الضَّبَابِ الْخَوَادِعِ) وَقَالَ كَثِيرٌ أَيْضًا : وَمَا زَالَتْ رُقَاكَ تَسْلُ ضِغْنِي وَتُخْرِجُ مِنْ مَضَائِبِهَا ضِيَابِي

شعر في الهجاء فيه ذكر الضب

فَأَمَّا الَّذِينَ ذَمُّوا الضَّبَّ وَأَكَلَهُ وَضَرَبُوا الْمِثْلَ بِهِ وَبِأَعْضَائِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ فَكَمَا قَالَ التَّمِيمِي : (لِكِسْرَى كَانَ أَعْقَلَ مِنْ تَمِيمٍ ** لِيَالِي فَرٍّ مِنْ أَرْضِ الضَّبَابِ) (فَأَنْزَلَ أَهْلُهُ بَبِلًا رِيفٍ ** وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ عِذَابِ) (وَصَارَ بَنُو بَنِيهِ بِهَا مَلُوكًا ** وَصَرْنَا نَحْنُ أَمْثَالُ الْكِلَابِ)

(فَلَا رَحِمَ الْإِلَهِ صَدَى تَمِيمٍ ** فَقَدْ أَرَى بَنِيَّ فِي كُلِّ بَابٍ) وَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ : (تُفَاخِرُ أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ سَفَاهَةً ** وَبَوْلُكَ يَجْرِي فَوْقَ سَاقِكَ وَالْكَعْبِ) وَقَالَ الْآخَرُ : (فَحَبَدْنَا هُمْ وَرَوَى اللَّهُ أَرْضَهُمْ ** مِنْ كُلِّ مُنْهَمِرٍ الْأَحْشَاءَ ذِي بَرَدٍ) (وَلَا سَقَى اللَّهُ أَيَّامًا غَنِيَتْ بِهَا ** بَبْطُنٍ فَلَجَّ عَلَى الْيَنْسُوعِ فَالْعَقْدِ) (مَوَاطِنٌ مِنْ تَمِيمٍ غَيْرِ مُعْجَبَةٍ ** أَهْلُ الْجَفَاءِ وَعَيْشُ الْبُؤْسِ وَالصَّرَدِ) (هُمُ الْكَرَامِ كَرِيمُ الْأَمْرِ تَفَعَّلُهُ ** وَهُمْ سَعْدٌ بِمَا تُلْقِي إِلَى

(المَعِدِ) (أصحابِ ضَبٍّ ويَبْرُوعٌ وَحَظْلَةٌ ** وَعَيْشَةٌ سَكَنُوا مِنْهَا عَلَى ضَمَدٍ) (إِنَّ يَأْكُلُوا الضَّبَّ بَاتُوا مُنْخَبِينَ بِهِ ** وَزَادَهَا الْجُوعُ إِنْ بَاتَتْ وَلَمْ تَصِدِ)

(لَوْ أَنَّ سَعْدًا لَهَا رَيْفٌ لَقَدْ دُفِعَتْ ** عَنْهُ كَمَا دُفِعَتْ عَنْ صَالِحِ الْبَلَدِ) (مِنْ ذَا يَقَارِعِ سَعْدًا عَنْ مَفَازِهَا ** وَمَنْ يُنَافِسُهَا فِي عَيْشِهَا التَّكْدِ) وقال في مثل ذلك عَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ : (وَتَرَكْنَا عُمَيْرَهُمْ رَهْنَ ضَيْعٍ ** مُسْلَحِبًا وَرَهْنَ طُلَسِ الدَّنَابِ) (نَزَلُوا مَنْزَلَ الصَّيَافَةِ مِنْهَا ** فَقَرَى الْقَوْمَ غِلْمَةَ الْأَعْرَابِ) (وَرَدَدْنَاهُمْ إِلَى حَرَّتِهِمْ ** حَيْثُ لَا يَأْكُلُونَ غَيْرَ الضَّبَابِ) (جَاؤُوا بِحَارِثَةِ الضَّبَابِ كَأَنَّمَا ** جَاؤُوا بِبَنَاتِ الْحَارِثِ بْنِ عَبَادٍ) (وَقَائِلَةُ هَذَا الشَّعْرِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي مُرَّةَ بْنِ عَبَادٍ .

وقال الحارث الكندي : (لَعَمْرُكَ مَا إِلَى حَسَنِ أَمْنًا ** وَلَا جِنًا حُسَيْنًا يَابْنَ أَنْسِ) (وَلَكِنْ ضَبٌّ جَنْدَلَةٌ أَتَيْنَا ** مُضَيَّبًا فِي مَضَابِنِهَا يُفْسِي) (فَلَمَّا أَنْ أَتَيْنَاهُ وَقَلْنَا ** بِحَاجَتِنَا تَلَوْنَ لَوْنَ وَرَسِ) (وَأَضَّ بِكَفِّهِ يَحْنُكُ ضِرْسًا ** يُرِينَا أَنَّهُ وَجَعَ بِضِرْسِ) (فَقُلْتُ لِصَاحِبِي أَبَاهُ كُرَازٌ ** وَقُلْتُ أُسِرُّهُ أَتْرَاهُ يُمَسِي) (وَقَمْنَا هَارِينَ مَعًا جَمِيعًا ** نَحَازِرُ أَنْ نَزْنَ بِقَتْلِ قَسِ) وقالت عائشة ابنة عثمان في أبان بن سعيد بن العاص حين

خطبها وكان نزل أيلة وترك المدينة : (نَزَلَتْ بَيْتِ الضَّبِّ لَا أَنْتِ ضَائِرٌ ** عَدُوًّا وَلَا مُسْتَنْفَعًا أَنْتِ نَافِعُ) وقال جرير : (وَجَدْنَا بَيْتَ ضَبَّةٍ فِي تَمِيمٍ ** كَيْتِ الضَّبِّ لَيْسَ لَهُ سَوَارِي) (يَا ضَيْعَ الْأَكْهَافِ ذَاتِ الشَّعْبِ ** وَالْوُثْبِ لِلْعَنْزِ وَغَيْرِ الْوُثْبِ) (عَيْشِي وَلَا تَحْشِينَ إِلَّا سَبِيَّ ** فَلَسْتُ بِالطَّبِّ وَلَا ابْنِ الطَّبِّ) (إِنَّ لَمْ أَدْعِ يَتَكَ بَيْتَ الضَّبِّ ** يَضِيقُ عِنْدَ ذِي الْقَرْدِ الْمَكْبُ) وقال الفرزدق :

(لَحَى اللَّهُ مَاءَ حَنْبَلٍ خَيْرُ أَهْلِهِ ** قَفَا ضَبَّةٍ عِنْدَ الصَّقَاةِ مَكُونِ) (فَلَوْ عَلِمَ الْحَجَّاجُ عِلْمَكَ لَمْ تَبِعْ ** يَمِينُكَ مَاءً مُسْلَمًا بِيَمِينِ)

وأنشد : (زَعَمْتَ أَنَّ الضَّبَّ أَعْمَى وَلَمْ يَفْتَ ** بِأَعْمَى وَلَكِنْ فَاتَ وَهُوَ بَصِيرُ) بل الضَّبُّ أَعْمَى يَوْمَ يَخْسُ بَاسْتِهِ إِلَيْكَ بِصَحْرَاءِ الْبَيَاضِ غَيْرُ وَقَالَتْ امْرَأَةٌ فِي وَلَدِهَا وَتَهْجُو أَبَاهُ : (وَهَيْئَتُهُ مِنْ ذِي تُفَالٍ خَبٌّ ** يَقْلُبُ عَيْنًا مِثْلَ عَيْنِ الضَّبِّ)

ليس بمعشوق ولا مُحَبٍّ وقال رجلٌ من فزارة : (وَجَدْنَاكُمْ رَأَبًا بَيْنَ أُمَّ قَرْفَةٍ ** كَأَسْنَانِ حِسْلٍ لَا وَفَاءٌ وَلَا غَدْرُ) (ثَلَاثُونَ رَأَبًا أَوْ تَزِيدُ ثَلَاثَةً ** يَقَاتِلُنَا بِالْقَرْنِ أَلْفٌ مَقْنَعُ) والرَّابُّ : السَّوَاءُ وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ يَشْبَهُ قَوْلَهُ : (سَوَاسٍ كَأَسْنَانِ الْحِمَارِ فَلَا تَرَى ** لِدِي شَيْبَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَاشِي فَضْلًا)

وأنشد ابن الأعرابي : (قُبِحَتْ مِنْ سَالِفَةٍ وَمِنْ صُدُغٍ ** كَأَنَّهَا كُشْيَةُ ضَبٍّ فِي صُقْعٍ) أراد صُقْعُ بِالْعَيْنِ فَقَلْبُ وَقَالَ الْآخَرُ : أَعَقَّ مِنْ ضَبٍّ وَأَفْسَى مِنْ ظَرْبٍ وَأَنَشَدَ : (فَجَاءَتْ قَهَابُ الدَّمِّ لَيْسَتْ بِضَبَّةٍ ** وَلَا سَلْفَعٍ يَلْقَى مِرَاسًا زَمِيلُهَا)

يقول : لا تحدع كما يحدع الضَّبُّ في جُحره .

وأنشد ابن الأعرابي لحيان بن عبيد الربيعي جد أبي محضة : (يا سهل لو رأيته يومَ الجُفرِ ** إذ هو يسعى
يَسْتَجِيرُ لِلسُّورِ) (يرمي عن الصَّفو ويرضى بالكدرِ ** لا زددت منه قدراً على قدرِ) (يضحك عن ثغر
ذميم المَكْتَشَرِ ** ولثته كأنها سِرُّ حورِ) وأنشد السُّلَري : (هو القرني ومشي الضب تعرفه ** وخصيتا
صرصاني من الإبلِ)

(والخال ذو فُحمٍ في الجري صادقة ** وعاتقٌ يتعقَى مابض الرجلِ)
واعلم حفظك الله تعالى أنه قد أكتفي بالشاهد وتبقى في الشعر فضلةٌ مما يصلح للمذاكرة ولبعض ما بك إلى
معرفة حاجة فأصله به ولا أقطعه عنه .

وأنشد لابن لجأ : (وغنوي يرمي بأسهمِ ** يلصق بالصخر لصوق الأرقمِ) لو سئم الضبُّ بها لم يسأم
وقال أعرابي من بني تميم : (تسخرُ مني أن رأني أحترش ** ولو حرشت لكشفت عن حرشِ) يريد عن
حرك .

قال : وقال أبو سعدة : (قلهمزمان جعدة لِحاهما ** عاداهما الله وقد عاداهما) صباً كدَى قد غمرت
كشاهما

وأنشد الأصمعي : (إني وجدتك يا جرثوم من نفرِ ** جرثومة اللوم لا جرثومة الكرمِ) (إنا وجدنا بني
جلان كلهم ** كساعِدِ الضَّبِّ لا طول ولا عِظم) وقال ابن ميادة : (فإن لقيس من بغض لناصراً ** إذا
أسد كشت لفخر ضيائها) وفي هذه القصيدة يقول : (ولو أن قيساً قيسَ عيلان أقسمت ** على الشمسِ
لم يطلع عليك حجابها) وهذا من شكل قول بشر : (إذا ما غضبنا غضبةً مُضريّةً ** هتكنا حجاب
الشمسِ أو مطرت دما)

وأنشد لأبي الطمّحان : (مهلاً نَمِرُ فَإِنَّكُمْ أَمْسَيْتُمْ ** مِنَّا بَتَغْرِ ثَنِيّةٍ لم تسترِ) (سوداً كَأَنَّكُمْ ذئابٌ خطيطةٌ
** مطرُ البلادِ وحرْمُها لم يُمطرِ) (يجئون بين أجاً وبرقةٍ عاجِ ** جبو الصُّبابِ إلى أصولِ السَّخْبِرِ)
وتركهم قصب الشُّريفِ طوامياً ** قهوي ثَنِيّةُ كعينِ الأعورِ)

مفاخرة العث للضب وقال العث واسمه زيد بن معروف للضب غلام رُثيل بن غلاق : وقد رأيت من سَمي
عنزاً)

وثوراً وكلباً ويربوعاً فلم نر منهم أحداً أشبه العنز ولا الثور ولا الكلب ولا اليربوع وأنت قد ثقّلت
الضبُّ حتى لم تغادر منه شيئاً فاحتمل ذلك عنه فلماً قال : (من كان يدعى باسمٍ لا يناسبه ** فانت
والاسمُ شَنُّ فوقه طبقُ) فقال ضبُّ لعت : (إن كنتُ صبّاً فإنَّ الضبَّ مُحْتَبَلٌ ** والضبُّ ذو ثمن في
السُّوقِ معلومِ) (وليس للعث حبالٌ يُراوِغُه ** ولست شيئاً سوى قرصٍ وتقليمِ) وما أكثر ما يجيء
الأعرابي بقرية من ماء حتى يفرغها في جحره

ليخرج فيصطاده ولذلك قال الكميت في صفة المطر الشديد الذي يستخرج الضباب من جحرهما وإن كانت لا تتخذها إلا في الارتفاع فقال : (وعله بتركها تخفش الأكُ* م ويكفي المضبب الفجير) والمضبب هو الذي يصيد الضباب . (القول في سن الضب وعمره) (تعلقت واتصلت بعكل* خطي وهزّت رأسها تستبلي)

(تسألني من السنين كم لي* فقلت لو عمرت عمر الحسل) (أو عمر نوح زمن القطحل* والصخر مبتل كطين الوحل) صرت رهين هرم أو قتل وهذا الشعر يدل على طول عمر الحسل لأنه لم يكن ليقول : (أو عمر نوح زمن القطحل* والصخر مبتل كطين الوحل) إلا وعمر الحسل عنده من أطول الأعمار . وروى ابن الأعرابي عن بعض الأعراب أن سن الضب واحدة أبداً وعلى حال أبداً قال فكأنه قال : لا أفعله ما دام سنها كذلك لا ينقص ولا يزيد .

وقال زيد بن كثوة : سن الحسل ثلاثة أعوام وزعم أن قوله ثمة : لا أفعله سن الحسل غلط ولكن الضب طويل العمر إذا لم يعرض له أمر . وسن الحسل مثل سن القلوص ثلاث سنين حتى يلحق

ولو كانت سن الحسل على حال واحدة أبداً لم تعرف الأعراب الفتى من المدكي . وقد يكون الضب أعظم من الضب وليس بأكبر منه سناً . قال : ولقد نظرت يوماً إلى شيخ لنا يفر ضباً جحلاً سيحلاً قد اصطاده فقلت له : لم تفعل ذلك فقال : أرجو أن يكون هرمًا .

بيض الضب

قال : وزعم عمرو بن مسافر أن الضبة تبيض ستين بيضة فإذا كان ذلك سدت عليهن باب الجحر ثم تدعهن أربعين يوماً فيتفقس البيض ويظهر ما فيه فتحفر عنهن عند ذلك فإذا كشفت عنهن أحضرن وأحضرت في أثرهن تأكلهن فيحفر المفلت منها لنفسه جحراً ويرعى من البقل .

قال : ويبيض الضب شبيه ببيض الحمام قال : وفرخه حين يخرج كيساً كاسياً خبيثاً مطيقاً للكسب وكذلك ولد العقرب وفراخ البط وفرايح الدجاج وولد العناكب . (سن الضب) وقال زيد بن كثوة مرة بعد ذلك : إن الضب ينبت سنه معه وتكبر مع كبر بدنه فلا يزال أبداً كذلك إلى أن ينتهي بدنه منتهاه قال : فلا يدعى حسلاً إلا ثلاث ليال فقط .

وهذا القول يخالف القول الأول وأنشد : نعم لعمر الله مهر العرسين أنشدني ابن فضال : أمهرها وزعم أنه كذلك سمعها من أعرابي .

وقد يكون أن يكون الحسل لا يُتني ولا يُربع فتكون أسنانه أبداً على أمر واحد ويكون قول رؤية بن العجاج في طول عمره حقاً .
ويدل على أن أسنانه على ما ذكروا قول الفراري : (وجدناكم رباباً بني أمّ قرفة * كأسنان حسل لا وفاء ولا غدُر) يقول : لا زيادة ولا نقصان .

قصة في عمر الضب

وقال زيد بن كثوة المزني : قال العبري وهو أبو يحيى : مكثت في عنفوان شببي وريعان من ذلك أريغ ضباً وكان ببعض بلادنا في وشاز من الأرض وكان عظيماً منها مُنكراً ما رأيت

مثله فمكثت دهرأ أريغه ما أقدر عليه ثم إني هبطت إلى البصرة فأقمت بها ثلاثين سنة ثم إني والله كررت راجعاً إلى بلادي فمررت في طريقي بموضع الضب معتمداً لذلك فقلت : والله لأعلمن اليوم علمه وما دهرني إلا أن أجعل من جلده عكّة للذي كان عليه من إفراط العظم فوجهت الرواحل نحوه فإذا أنا به والله مُحرّبناً على تلعة فلما سمع حسّ الرواحل ورأى سواداً مقبلاً نحوه مرّ مسرعاً نحو جحره وفاتني والله الذي لا إله إلا هو . (مكن الضبة) وقال ابن الأعرابي : أخبرني ابن فارس بن ضبعان الكلبي أن الضبة يكون بيضها في بطنها وهو مكنها ويكون بيضها متسقاً فإذا أرادت أن تبيضه حفرت في الأرض أدحياً مثل أدحجي النعامة ثم

ترمي بمكنها في ذلك الأدحجي ثمانين مكنة وتدفعه بالثراب وتدعه أربعين يوماً ثم تحجيء بعد الأربعين فيبحث عن مكنها فإذا حسلة يتعادين منها فتأكل ما قدرت عليه ولو قدرت على جميعهن لأكلتهن قال : ومكنها جلد لئن فإذا يبست فهي جلد فإذا شويتهأ أو طبختها وجدّت لها مُحاً كمحّ بيض الدجاج . (عداوة الضبة للحية) قال : والضبة تقاتل الحية وتضربها بذنبها وهو أحسن من السّن وهو سلاحها وقد أعطيت فيه من القوّة مثل ما أعطيت العقاب في أصابعها فربما قطعنها بضربة أو قتلتهأ أو قدّتها وذلك إذا كان الضب ذيّالاً مذنباً وإذا كان مرائساً قتلته الحية .

والتدنيب : أن الضب إذا أرادت الحية الدّخول عليه في جحره أخرج الضب ذنبه إلى فم جحره ثم يضرب به كالمخراق يميناً وشمالاً فإذا أصاب الحية قطعها والحية عند ذلك تهرب منه والمراءة : أن يخرج الرأس ويدع الذنب ويكون عُمرأ فتعضه الحية فتقتله .

استطرد لغوي قال : وتقول : أمكت الضبة والجرادة فهي تمكن إمكاناً : إذا جمعت البيض في جوفها واسم البيض المكن والضبة مكنون فإذا باضت الضبة والجرادة قيل قد سرأت والمكن والسّراء : البيض كان في بطنها أو بعد أن تبيضه وضبة

سرّوء وكذلك الجرادة تسرّأ سرّأ حين تُلقَى بيضها وهي حينئذٍ سِلْقَة .
وتقول : رزّت الجرادة ذنبها في الأرض فهي ترزّز رزّاً وضربت بذنبها الأرض ضرباً وذلك إذا أرادت أن
تلقي بيضها .

المضافات من الحيوان ويقولون : ذئب الحمر وشيطان الحمّاطة وأرنب الحلّة وتيس الرّئبل وضبّ السّحا
والسّحا : بقلة تحسّن حاله عنها .

ويقال : هو قنفذ بُرْقَة إذا أراد أن يصفّه بالحُبث .

وما أكثر ما يذكرون الضّبّ إذا ذكروا الصّيف مثل قول الشاعر : (سار أبو مسلم عنها بصيرمته **
والضّبّ في الجحر والعصفور مُجتمع) وكما قال أبو زيد : (أيُّ ساعٍ سعى ليقطع شربي ** حين لاحت
للصّباح الجوزاء) (واستكنّ العصفور كرهاً مع الضّ ** بّ وأوفى في عوده الحرباء) وأنشد الأصمعيّ : (
تجاوزتُ والعصفور في الجحر لاجئٌ ** مع الضّبّ والشّقذان تسمو صدورها)
قال : والشّقذان : الحراييّ قوله : تسمو : أي ترتفع في رؤوس العيدان الواحد من الشّقذان بكسر الشين
وإسكان القاف شقذ بتحريك القاف .

أسطورة الضب والصفدع

وتقول الأعراب : خاصم الضّبّ الصفدع في الظّمأ أيهما أصبر وكان للصفدع ذئب وكان الضّبّ ممسوح
الذنب فلما غلبها الضّبّ أخذ ذئبها فخرجا في الكلاء فصبرت الصفدع يوماً ويوماً فنادت : يا ضبّ ورداً
ورداً فقال الضّبّ : (إلّا عراداً عرداً ** وصليّاناً برّداً) فلما كان في اليوم الثالث نادت : يا ضبّ ورداً
ورداً قال :

فلما لم يُجبها بادرت إلى الماء وأتبعها الضّبّ فأخذ ذئبها فقال : في تصدّاق ذلك ابن هرمة : (ألم تارق
لضوء البرّ ** ق في أسحَمَ لَمّاح) (كأعناق نساء المهنّ ** د قد شيبَتْ بأوضح) (تُؤام الودق كالزّاح **
ف يزجى خلف أطلّاح) (كأنّ العازف الجنّ ** يّ أو أصوات أنواح) (على أرجائها الغرّ ** تهديها
بمصباح)

(فقال الضّبّ للصفدع ** ع في بيداء قرواح) (تأمل كيف تنجو اليو ** م من كرب وتطواح) (فإني
سابع ناج ** وما أنت بسباح) (فلما دق أنف المُرّ ** ن أبدى خير إرواح) (وسحّ الماء من مُستحّ **
لَب بالماء سحّاح) (رأى الضّبّ من الصفدع ** ع عوماً غير منجاح) (تقال المشي كالسّكرا ** ن يمشي
خلفه الصّاحي) ثم قال في شأن الصفدع والضّب الكميّ بن ثعلبة :

(على أخذها يوم غب الورود * وعند الحكومة أذناها) وقال عبيد بن أيوب : (ظللت وناقني نضوي
فلاة * كفرخ الضب لا يبغي ورودا)
وقال أبو زياد : قال الضب لصاحبه : (أهدموا بيتك لا أبالك * وزعموا أنك لا أخالك) وأنا أمشي
الحكي حوالكا

قول العرب أروى من الضب

وتقول العرب : أروى من ضب لأن الضب عندهم لا يحتاج

إلى شرب الماء وإذا هرم اكتفى ببرد التسييم وعند ذلك تغنى رطوبته فلا يبقى فيه شيء من الدم ولا مما يشبه
الدم وكذلك الحية فإذا صارت كذلك لم تقتل بلعاب ولا بمجاج ولا بمخالطة ريق وليس إلا مخالطة عظم
السِّنّ لدماء الحيوان وأنشدوا : فكلما أقصد منه الجوع شَمَّ وأما صاحب المنطق فإنه قال : باضطرار إنه لا
يعيش حيوان إلا وفيه دم أو شيء يشاكل الدم

إخراج الضب من جحره

والضب تذلقه من جحره أمور منها السيل وربما صبوا

في جحره قربة من ماء فأذلقوه به وأنشد أبو عبيدة : (يذلق الضب ويخفيه كما * يذلق السيل يرايع التفق
(يخفيه مفتوحة الياء وتذلقه وقع حوافر الخيل ولذلك قال امرؤ القيس بن حُجر : (خفاهن من أنفاقهن
كأنما * خفاهن ودق من سحاب مركب) تقول : خفيته أخفيه خفياً : إذا أظهرته وأخفيتها إخفاءً : إذا
سترته وقال ابن أحر : (فإن تدفوا الداء لا نخفه * وإن تبعثوا الحرب لا نقعد) ولا بد من أن يكون وقع
الحوافر هدم عليها أو يكون أفرعها فخرجت وأهل الحجاز يسمون التباش المخنفي لأنه يستخرج الكفن من
القبر ويظهره .

وحكوا عن بعض الأعراب أنه قال : إن بني عامر قد جعلوني على حنديرة أعينها تريد أن قول أبي عبيدة في
تفضيل أبيات لامرئ القيس وأنشد أبو عبيدة : (ديمة هطلاء فيها وطف * طبق الأرض تحرى وتلر)
تخرج الضب إذا ما أشجذت * وتواريه إذا ما تعكر) (وترى الضب ذفيفاً ماهراً * ثانياً برثنه ما ينعفر
(

وكان أبو عبيدة يقدم هذه القصيدة في الغيث على قصيدة عبيد بن الأبرص أو أوس بن حجر التي يقول
فيها أحدهما : (دان مسف فوق الأرض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح) (فمن بنجوته كمن يعقوته
* والمستكن كمن يمشي بقرواح) وأنا أتعجب من هذا الحكم .

قولهم : هذا أجلُّ من الحرش ومما يضيفون إلى هذه الضَّبَاب من الكلام ما رواه الأصمعيّ في تفسير المثل وهو قولهم : هذا أجلُّ من الحرش أن الضَّبَّ قال لابنه : إذا سمعتَ صَوْتَ الحرشِ فلا تَخْرُجَنَّ قال : والحرش :

تحريكُ اليدِ عند جُحر الضب ليخرج ويرى أنّه حيّة قال : فسمع الحِسلُ صَوْتَ الحفر فقال

الضب والصفدع والسمة

وقال الكميت : (يُؤْلَفُ بَيْنَ صِفْدَعَةٍ وَضَبٍّ *) وَيَعْجَبُ أَنْ نَرَى بَنِي أَبِينَا (وقال في الضَّبِّ والثُّون : (وَلَوْ أَنَّهُمْ جَاؤُوا بِشَيْءٍ مُّقَارِبٍ *) لَشِئْءٍ وَبِالشَّكْلِ الْمُقَارِبِ لِلشَّكْلِ (وَلَكِنَّهُمْ جَاؤُوا بِحِثَانٍ لُجَّةٍ *) قَوَامِسَ وَالْمَكْنِيِّ فِينَا أبا حِسلٍ (وقال الكميت : (وما خَلَّتْ الضَّبَابُ مُعْطَفَاتٍ *) على الحيتان مِنْ شَبِّهِ الحِسلِ (وقال آخر : والعربُ تقولُ في الشَّيْءِ الْمُتَنَعِ : لا يكونَ ذلكَ حتى يَرِدَ الضَّبُّ وفي تَبْعِيدِ ما بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ : حتى يُؤْلَفَ بَيْنَ الضَّبِّ وَالثُّونِ .

استطرد لغوي قال : ويقال أَضَبَّتْ أرضُ بني فلان : إذا كَثُرَتْ ضِبَابُهَا وهذه أرضٌ مَضْبَّةٌ وأرضُ بني فلان مَضْبَةٌ مثل فِتْرَةٍ من الفأر وَجَرْدَةٍ من الجُرَذَانِ وَمَحَوَاةٍ وَمَحْيَاةٍ من الحَيَاتِ وَجَرْدَةٍ من الجراد وسِرْفَةٍ من السُرْفَةِ وَمَأْسَدَةٍ من الأَسُودِ وَمَنْعَلَةٍ من الثَّعَالِبِ لأنَّ الثَّعْلَبَ يَسْمَى ثَعَالَةً وَالدُّبُّ ذُوَالَةٌ .
ويقال أرضٌ مَذْبَةٌ من الدُّبَابِ مَذَابَةٌ من الدُّبَابِ .
ويقال في الضَّبِّ : وَقَعْنَا فِي مَضَابٍّ مَنكَرَةٍ وهي قِطْعٌ من الأرضِ تكثرُ ضِبَابُهَا .
قال : ويقال أرضٌ مَرْبَعَةٌ كما يقال مَضْبَةٌ إذا كانت ذاتِ يَراييعٍ وَضِبَابٍ واسمُ بيضِها المَكْنُ والواحدة مَكْنَةٌ .

ويقال لفرخه إذا خرج حِسلٌ والجميعُ حَسَلَةٌ وأحسالٌ وحُسلٌ

وهو حِسلٌ ثمَّ مُطْبَخٌ ثمَّ غِداقٌ ثمَّ جَحْلٌ وَالسَّحْبَلُ : ما عَظُمَ منها وهو في ذلكَ كُلِّهِ ضَبٌّ .
وبعضُهم يقول : يكونُ غِداقاً ثمَّ يكونُ مطْبَخاً ثمَّ يكونُ جَحْلاً وهو العَظِيمُ ثمَّ هو خُضْرَمٌ ثمَّ يكونُ ضَبّاً وهذا خطأ وهو ضَبٌّ قبل ذلك وقال الرَّاجِزُ : (يَنْفِي الغِيَادِيقَ عَنِ الطَّرِيقِ *) قَلَّصَ عَنْهُ بَيْضُهُ فِي نِيقٍ (ما يوصفُ بِسُوءِ الهِدَايَةِ مِنَ الحَيَوَانِ ويقال : أَضَلُّ من ضَبٍّ والضلالُ وَسُوءُ الهِدَايَةِ يكونُ في الضَّبِّ وَالْوَرَلِ وَالدَّيْلِكِ .

الضب وشلة الحر

وإذا غَيَّرَ الحَرُّ لَوْنَ جِلْدِ الضَّبِّ فَذَلِكَ أَشَدُّ ما يكونُ مِنَ الحَرِّ وقال الشَّاعِرُ : (وَهَاجِرَةٌ تُنْجِي عَنِ الضَّبِّ جِلْدَهُ *) قَطَعَتْ حَشَاهَا بِالغُرَيْرِيَّةِ الصُّهْبِ (

أمثال في الضب

وفي المثل : خلّ دَرَج الضبّ وفي المثل : تعلّمني بضبّ أنا حرّشْتُهُ و : هذا أجَلُّ من الحرّش و : أضلُّ من ضبّ و : أحبُّ من ضبّ و : أروى من ضبّ و : أعقُّ من

ضبّ و : أحيّا من ضبّ و : أطولُ ذمّا من ضبّ و : كلُّ ضبّ عند مرّداته ويقال : أقصرُّ من إهّام الضبّ كما يقال : أقصر من إهّام القطة وقال ابن الطّبريّة : ويوم كإهّام القطة ومن أمثالهم : لا آتيك سنّ الحسل وقال العجاج :

ثُمّت لا آتيه سنّ الحسل كأنّه قال حتّى يكون ما لا يكون لأنّ الحسل لا يستبدل بأسنانه أسناناً .
أسنان الذنب وزعم بعضهم أنّ أسنان الذنب ممطولة في فكّيه وأنشد : وليس في هذا الشعر دليلٌ على ما قال لأنّ الشاعر يُشبع الصفة إذا مدح أو هجا وقد يجوز أن يكون ما قال حقاً .
ما قيل في عبد الصمد بن علي فأما عبد الصمد بن علي فإنه لم يُنثر ودخل القبر بأسنان الصبّا .

استطرد لغوي وقد يقال للضبّ والحية والورل وما أشبه ذلك : فحّ يفحّ فحيحاً والفحيح : صوت الحية من جوفها والكشيش والقشيش : صوت جلدّها إذا حكّت بعضها ببعض .
وليس كما قال ليس يُسمع صوت احتكاك الجلد بالجلد إلّا للأفعى فقط وقال رؤبة : (فحّي فلا أفرّق أن تفحّي *) وأن تُرحّي كرحي المرحي) وقال ابن ميادة : (ترى الضبّ إن لم يرهّب الضبّ غيره *) يكشّ له مستكبراً ويطاوله) (حديث أبي عمرة الأنصاري) ويكتب في باب حبّ الضبّ للتمر

حديث أبي عمرة الأنصاري

رووه من كلّ وجه أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرجل من أهل الطائف : الحُبلة أفضل أم النخلة قال : بل الحُبلة أتربّيها وأشمّسها وأستظل في ظلّها وأصلح بُرمّي منها قال عمر : تأتي ذاك عليك الأنصار .
ودخل أبو عمرة عبد الرحمن بن محصن النجّاري فقال له عمر : الحُبلة أفضل أم النخلة قال : الزبيب إنّ أكله أضرس وإنّ أثرُكّه أغرث ليس كالصقر في رؤوس الرّقل الراسخات في

الوحد المطعمات في المحل خُرقة الصائم وتُحفة الكبير وصُمتة الصغير وخُرسة مريم ويُحترشُ به الضباب من الصلعاء يعني الصحراء .

دية الضب واليربوع

قال : ويقالُ في الضَّبِّ حُلَامٌ وفي اليربوع جُفْرَةٌ والجفرة :

التي قد انتفخ جَنَبَاهَا وشَدَنْت والحُلَامُ فوق الجدي وقد صَلَحَ أن يُذْبَحَ للنُّسك والحُلَانُ بالنون : الجدي الصغير الذي لا يصلح للنُّسك .

وقال ابن أحر : (تَهْدِي إليه ذراع الجَدْي تَكْرِمَةً ** إِمَّا ذَبِيحاً وَإِمَّا كَانَ حُلَانًا) والحُلَانُ والحُلُونُ جميعاً : رشوة الكاهن وقد نُهي عن زَبَدِ المشركين وحُلُون الكاهن وقال مهلهل : أقوال لبعض الأعراب وقال الأصمعي : قال أعرابيٌّ يَهْزَأُ بصاحبه : اشتر لي شاةً قَفْعَاء

كَأَنَّهَا تَضْحَكُ : مندلقةٌ خاصرتهاا كأنها في مَحْمِلٍ لها ضَرْعٌ أَرْقَطُ كَأَنَّهُ ضَبٌّ قال : فكيف العَفْلُ قال : أو لهذه عَفْلُ قال : وسأل مَدْيَنُ أعرابياً قال : أَتَأْكُلُونَ الضَّبَّ قال : نعم قال : فاليربوع قال : نعم قال : فالورل قال : نعم قال : أَتَأْكُلُونَ أُمَّ حَبِينٍ قال : لا قال : فليهنِ أُمَّ حَبِينٍ العافية .
شعر في الضب وقال فراس بن عبد الله الكلابي : (لَمَّا خَشِيتُ الْجُوعَ وَالْإِرْمَالَ ** وَلَمْ أَجِدْ بِشَوْلِهَا بَلالًا)

(أَبْصَرْتُ ضَبًّا دَحِنًا مُخْتَالًا ** أَوْ فَدَّ فَوْقَ جُحْرِهِ وَذالًا) (فَدَبَّ لِي يُخْتَلِنِي اخْتِيالًا ** حَتَّى رَأَيْتُ دَوْنِي الْقَذالًا) (وَمِيلَةً مَا مِلْتُ حِينَ مَالًا ** فَدَهَشْتُ كَفَايَ فَاسْتَطالًا) (مَنِي فَلَا نَزْعَ وَلَا إِرسالًا ** فَحَاجَزَا وَبَرًّا الْأَوْصالًا) (مَنِي وَلَمْ أَرْفَعْ بِذَلِكَ بِالًا ** لَمَّا رَأَتْ عَيْنِي كُشْيَ خِدَالًا)

أسماء لعب الأعراب البُقَيْرِ وَعُظِيمُ وَضاح والخطرة والدَّارَةُ والشَّحْمَةُ والحلق ولُعبَةُ الضَّبِّ .
فالبُقَيْرُ : أن يجمع يديه على التراب في الأرض إلى أسفله ثم يقول لصاحبه : اشْتَهَ في نفسك فيصيبُ ويخطئُ .

وعُظِيمُ وَضاح : أن يأخذ بالليل عظاماً أبيضَ ثم يرمي به واحدٌ من الفريقين فَإِنْ وَجَدَهُ واحدٌ من الفريقين رَكِبَ أصحابه الفريق الآخر من الموضع الذي يجدونه فيه إلى الموضع الذي رموا به منه .
والخطرة : أن يعملوا مِخْرَاقاً ثم يرمي به واحدٌ منهم من خلفه

إلى الفريق الآخر فَإِنْ عَجَزُوا عن أخذه رموا به إِلَيْهِمْ فَإِنْ أَخَذُوهُ رَكِبُوهُمْ .
والدَّارَةُ هي التي يقال لها الخراج .

والشَّحْمَةُ : أن يمضيَ واحدٌ من أحد الفريقين بغلامٍ فيتنحَوْنَ ناحيةً ثم يقبلون ويستقبلهم الآخرون فَإِنْ مَنَعُوا الغلامَ حَتَّى يصيروا إلى الموضع الآخر فقد غلبوهم عليه ويُدْفَعُ الغلامُ إِلَيْهِمْ وَإِنْ هُمْ لَمْ يَمْنَعُوهُ رَكِبُوهُمْ وهذا كله يكون في ليالي الصَّيْفِ عن غِبِّ ربيعٍ مُخَصَّبٍ ولُعبَةُ الضَّبِّ : أن يصوِّروا الضَّبَّ في الأرض ثم يحوِّلُ واحدٌ من الفريقين وجهه ثم يضع بعضهم يده على شيءٍ من الضَّبِّ فيقول الذي يحوِّلُ وجهه : أنف الضَّبِّ أو عين الضَّبِّ أو ذنب الضَّبِّ أو كذا وكذا من الضَّبِّ على الولاء حَتَّى يفرغَ فَإِنْ أخطأ ما وَضَعَ عليه يَدُهُ رَكِبَ وَرُكِبَ أصحابه وَإِنْ أَصابَ حَوَّلَ وجهه الذي كان وضع يده على الضَّبِّ ثم يصيرُ هو السائل .

ويقول : الأطباء : إنَّ خُرء الضَّب صالح للبياض الذي يصير في العين .

والأعرابُ ربَّما تداوَوْا به من وجع الظهر .

ونسُ يزعمون أنَّ أكل لحمان الحيوان المذكور بطول العمر يزيد في العمر فصلَّق بذلك ابن)

الخاركي وقال : هذا كما يزعمون أن أكل الكُلية جيّد للكُلية وكذلك الكبْدُ والطَّحال والرَّئة واللَّحم يثبت اللحم والشَّحم يثبت الشَّحم فغَبَرَ سنةً وليس يأكلُ إلَّا قديد لحوم الحمر الوحشية وإلا الورشان والضَّبَّاب وكلُّ شيء قَدَّر عليه ممَّا يقضي له بطول العُمُر فانتقض بدنه وكاد يموت فعاد بعدُ إلى غذائه الأوَّل .

تفسير قصيدة البهراني نقول في تفسير قصيدة البهراني فإذا فرغنا منها ذكرنا ما في الحشرات من المنافع والأعاجيب والروايات ثم ذكرنا قصيدتي أبي سهل

بشر بن المعتمر في ذلك وفسرناهما وما فيهما من أعاجيب ما أودع الله تعالى هذا الخلق وركبهُ فيهم إن شاء الله تعالى وبالله تبارك وتعالى أستعين .

أما قوله : (مَسَخَ الماكِسِينَ ضُبْعًا وَذَنبًا ** فلهذا تناجلا أمَّ عَمْرٍو) فإن ملوك العرب كانت تأخذُ من الثَّجَّار في البرِّ والبحر وفي أسواقهم المكس وهو ضريبةٌ كانت تؤخذ منهم وكانوا يظلمونهم في ذلك ولذلك قال التَّغَلبي وهو يشكو ذاك في الجاهلية ويتوعد وهو قوله : (أَلَا تَسْتَحِي مِنَّا مُلُوكٌ وَتَتَّقِي ** حارِمنا لا يَبُورُ الدَّمُ بالدم) (في كُلِّ أسواقِ العراقِ إتاوةٌ ** ي كلِّ ما باعَ امرؤُ مكسُ درهم) والإتاوة والأربان والخروج كله شيء واحد وقال الآخر :

(لا ابنُ المُعلَى خِلْتنا أمَّ حَسِبْتنا ** صراري نعطي الماكسين مَكُوسا) وقال الأصمعيُّ في ذكر المكس والسفن التي كان تُعشَر في قصيدته التي ذكر فيها من أهلك الله عز ذكره من الملوك وقسم من الجبابرة وأباد من الأمم الخالية فقال : (أَعْلَقْتُ تَبْعًا حِبَالُ المُنُونِ ** وانتهت بعده على ذي جُدُونِ) (ملكُ الحضر والفُراتِ إلى دَجْ ** لة شرقاً فالطور من عَبدِينِ) (كل حِمْلٌ يمرُّ فوق بعير ** فله مكسُهُ ومكسُ السُّفِينِ) والأعراب يزعمون أن الله تعالى عزَّ وجلَّ لم يدعَ ما كَسًا ظالمًا إلَّا أنزل به بليَّةً وأثَّه مسخَّ منهم ضُبْعًا وَذَنبًا فلهذه القرابة

تسافدا وتناجلا وإن اختلفا في سوى ذلك فمن ولدهما السَّمع)

والعِساب وإنما اختلفا لأنَّ الأمَّ ربما كانت ضُبْعًا والأبُ ذنبًا وربما كانت الأمُّ ذنبًا والأبُ ذِيحًا والذَّيخ : ذكر الضَّبَّاع .

ذكر من أهلك الله من الأمم وأما قوله : (بَعَثَ الذَّرَّ والجِرادَ وقَفَى ** بنجيع الرُّعافِ في حَيِّ بَكَرٍ) فإنَّ الإعراب تزعم أن الله تعالى قد أهلك بالذرَّ أمَّا وقد قال أميَّة بن أبي الصَّلْت : (أرسل الذَّرَّ والجِرادَ عليهم ** وسنينًا فأهلكَهم ومُورا) (ذَكَرَ الذَّرَّ إِنَّه يفعلُ الشَّ ** رَ وإنَّ الجِرادَ كان بُورا) وأما قوله : وقَفَى

بنجيع الرُعاف في حيِّ بكر فإته يريد بكر بن عبد مناة لأنَّ كنانة بنزولها مكَّة كانوا لا يزالون يصيبهم من الرُعاف ما يصير شبيهاً بالموتان ويجارف الطاعون وكان آخر من

وكان الرُعاف من منايا جرهم أيام جرهم ولذلك قال شاعرٌ في الجاهلية من إباد : (ونحْنُ إيَّادُ عبادُ الإله ** ورهط مُناجيه في سُلَم) (ونحْنُ ولَاةُ حجاب العتيق ** زمان الرُعافِ على جُرهم) ولهذا المناجي الذي كان يناجي الله عز وجل في الجاهلية على سُلَم حديث .

سيل العرم فأما قوله : (خرقتُ فأرةً بأنفِ ضئيلٍ ** عرماً مُحكَمَ الأساسِ بصخرٍ) فقد قال الله عز وجل : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَالْعَرِمِ : المستاة التي كانوا أحكموا عملها لتكون حجازاً بين ضياعهم وبين

السييل ففجرت ه فارة فكان ذلك أعجب وأظهر في الأعجوبة كما أفر الله تعالى عز وجل ماء الطوفان من جوف ثُور ليكون ذلك أثبت في العبرة وأعجب في الآية .

ولذلك قال خالد بن صفوان اليماني الذي فخر عليه عند المهدي وهو ساكت فقال المهدي : وما لك لا تقول قال : وما أقول لقوم ليس فيهم إلا دابغ جلد وناسج بُردٍ وسائسُ قرد وراكب عرْد غرقتهم فارة وملكتهم امرأة ودلَّ عليهم هدهد . (فَجَرَّتْهُ وَكَانَ جِيلَانُ عَنْهُ ** عاجزاً لو يرومه بعدَ دَهرٍ) فإنَّ جيلان فعلة الملوك وكانوا من أهل الجبل وأنشد الأصمعي : (أَرْسَلَ جِيلَانُ يَنْتَحِنُونَ لَهُ ** سَاتِيْدَمَا بِالْحَدِيدِ فَانْصَدَعَا)

وأنشد : (وَتَبَنِي لَهُ جِيلَانُ مِنْ نَحْتِهَا الصَّفَا ** قُصُوراً تُعَالَى بِالصَّفِيحِ وَتُكَلْسُ) وأنشد لامرئ القيس : (أُتِيحَ لَهُ جِيلَانُ عِنْدَ جَدَّاهِ ** وَرُدَّدَ فِيهِ الطَّرْفُ حَتَّى تَحِيَّرا) يقول : فَجَرَّتْهُ فارةٌ ولو أنَّ جيلان أرادت ذلك لامتنعَ عليها لأنَّ الفارة إنما خرقتها لما سخر الله عز ذكره لها من ذلك العرم وأنشدوا : (مِنْ سَبَأِ الْحَاضِرِينَ مَأْرَبَ إِذْ ** يَبْتُونُ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا)

ومأرب : اسمٌ لقصر ذلك الملك ثم صار اسماً لذلك البلد ويدلُّ على ذلك قول أبي الطَّمَحانِ القيني : (أَلَا تَرَى مَأْرَباً مَا كَانَ أَحَصَنَهُ ** وَمَا حَوَالِيَهُ مِنْ سُورٍ وَبُنْيَانٍ) (ظَلَّ الْعِبَادِيُّ يُسْقَى فَوْقَ قُلْتِهِ ** وَلَمْ يَهَبْ رَبِّبَ دَهرٍ حَقَّ خَوَانٍ) وقال الأعشى : (فِي ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِي أُسُوءَ ** وَمَأْرَبُ قَفَى عَلَيْهِ الْعَرَمُ) (رَخَامٌ بَنَتْهُ لَهُ حَمِيرٌ ** إِذَا جَاءَ مَأْهُمْ لَمْ يَرِمْ) (فَأَرَوَى الْحُرُوثَ وَأَعْنَابَهَا ** عَلَى سَاعَةِ مَأْهُمْ إِذْ قَسِمَ) (فَطَارَ الْقِيُولُ وَفَيَّاهَا ** بِيَهْمَاءَ فِيهَا سَرَابٌ يَطْمُ)

(فَكَانُوا بِذَلِكَ حَقَبَةً ** فَمَالَ بِهِمْ جَارِفٌ مُنْهَدِمٌ) (فَطَارُوا سِرَاعاً وَمَا يَقْدِرُوا ** نَ مِنْهُ لَشَرْبِ صَبِيٍّ فُطْمُ) (مَسَخَ الضَّبَّ وَسهيل) وأما قوله : (مَسَخَ الضَّبَّ فِي الْجَدَالَةِ قَدْماً ** وَسهيلَ السَّمَاءِ عَمْداً بِصُغْرِ) فإنهم يزعمون أنَّ الضَّبَّ وَسهيلاً كانا ماكسين عشرين فمسخ الله عز وجل أحدهما في الأرض والآخر في السماء والجدالة : الأرض ولذلك يقال : ضربه فجذله أي ألزقه بالأرض أي بالجدالة وكذلك قول عنتره : وأنشد أبو زيدٍ سعيد بن أوسٍ الأنصاري : (قَدْ أَرْكَبَ الْحَالَةَ بَعْدَ الْحَالَةِ ** وَأَثْرُكَ الْعَاجِزِ بِالْجَدَالَةِ)

أبو رغال وأما قوله : (والذي كان يَكْتَنِي بِرِغَالٍ * جَعَلَ اللَّهُ قَبْرَهُ شَرًّا قَبْرٍ) (وكذا كلُّ ذي سُفَيْنٍ وَخُرْجٍ * وَمُكُوسٍ وَكُلِّ صَاحِبِ عُشْرٍ) فإنما ذكر أبا رغال وهو الذي يَرْجَمُ الناس قبره إذا أتوا مكة وكان وجهه صالحُ النبي صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون على صدقات الأموال فخالف أمره وأساء السيرة فوثب عليه تقيف وهو قَسِيٌّ بنُ مُنْبِهٍ فقتله قتلاً شنيعاً وإنما ذلك لسوء سيرته في أهل الحرم فقال غيلان بن سلمة وذكر قسوة أبيه على أبي رغال : نحن قَسِيٌّ وقسا أبونا وقال أمية بن أبي الصلت : (نفوا عن أرضهم عدنان طراً * وكانوا للقبائل قاهرينا) (وهم قتلوا الرئيس أبا رغال * بنخلة إذ يسوق بها الطعينا)

وقال عمرو بن دراك العبدي ، وذكر فجور أبي رغال وحبته ، فقال : (وإني إن قطعت حبال قيسٍ * وحالفتُ المزونَ على تميمٍ) (لأعظمُ فجرةً من أبي رغالٍ * وأجورُ في الحكومة من سدومٍ) وقال مسكين الدارمي : (وأرجمُ قبره في كلِّ عامٍ * كرجمِ الناسِ قبرَ أبي رغالٍ) وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لغيلان بن سلمة حين أعتق عبده وجعل ماله في رتاج الكعبة : لئن لم ترجع في مالك ثم مت لأرجمن قبرك كما رجم قبر أبي رغال وكلاماً غير هذا قد كلمه به .

المنكب والعريف وأما قوله : (مَنْكِبٌ كَافِرٌ وَأَشْرَاطُ سَوَاءٍ * وَعَرِيفٌ جَرَاؤُهُ حَرْجَمِرٍ) فإنما ذهب إلى أحكام الإسلام كأنه قد كان لقي من المنكب والعريف جهداً وهم ثلاثة : مَنْكِبٌ ونقيب وعريف وقال جُبَيْهَاءُ الأشجعي : (رعا عاوتَ بكرًا عليه * كما جُعِلَ العريفُ على النَّقِيبِ) الغول والسعلاة) وتروجتُ في الشَّيْبَةِ غُولاً * بغزالٍ وصدقتي زقُ حَمَرٍ) فالغول اسمٌ لكلِّ شيءٍ من الجن يعرضُ للسُّقَارِ ويتلَوْنُ في ضروب الصور والخيال ذكرًا كان أو أنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى .

وقد قال أبو المطراب غُبَيْدُ بنُ أَيُّوبَ العبدي : (وحالفتُ الوحوشَ وحالفتني * بقرب عُهودهنَّ وبالبعادِ) (وأمسى الذئبُ يرصدني مخشاً * لحفةً ضربتي ولضعف آدي) (وغولاً قفرةً ذكرًا وأنثى * كأنَّ عليهما قطعَ البجادِ) فجعل في الغيلان الذكرَ والأنثى وقد قال الشاعر في تلوثها : (فما تدوم على حال تكون بها * كما تلونُ في أثوابها الغولُ) فالغول ما كان كذلك والسعلاة اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تغول لتفتن السُّقَارِ .

قالو : وإنما هذا منها على العبث أو لعلها أن تفرع إنساناً جميلاً

فغيرَ عقله فتداخله عند ذلك لأنهم لم يُسلطوا على الصَّحيح العقل ولو كان ذلك إليهم لبدؤوا بعلي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وبأبي بكر وعمر في زمانهم وبغيلان والحسن في دهرهما وبواصل وعمرو في أيامهما . (وساخرة مني ولو أن عينها * رأت ما ألقىه من الهولِ جنتِ) (أزلُّ وسعلاةً وغولٌ بقفرةٍ *

إذا الليل وارى الجن فيه أرئت)

وهم إذا رأوا المرأة حديدة الطّرف والذهن سريعة الحركة ممشوقة مُمَحَّصَة قالوا : سَعَلَة وقال الأعشى :

(ورجال قتلَى مجنبي أريك ** ونساء كَأَهْن السَّعالي)

تزاوج الجن والإنس

ويقولون : تزوّج عمرو بن يربوع السَّعَلَة وقال الرَّاجز : (يا قاتلَ اللهُ بني السَّعَلَة ** عمرو بن يربوع
شِرَارَ النَّاتِ) وفي تلونُ الغول يقول عَبَّاسُ بنُ مرداسٍ السُّلَميُّ : أَصَابَتِ العامِ رِعالاً غولٌ قومهم وَسَطُ
البيوتِ ولونُ الغولِ ألوانٌ وهم يتأولون قوله عز ذكره : وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .

وقوله عز وجل : لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ قَالُوا : فلو كان الجنّ لم يُصِبْ مِنْهُنَّ قَطٌّ ولم يَأْتِهِنَّ وَلَا
كان ذلك مما يجوز بين الجن وبين النساء الآدميات لم يقل ذلك .
وتأولوا قوله عز وجل : وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَجَعَلَ مِنْهُنَّ النَّسَاءَ إِذْ قَدْ جَعَلَ
منهم الرِّجالُ وقوله تبارك وتعالى : أَفْتَسْخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي .
وزعم ابنُ الأعرابي قال : دعا أعرابيُّ ربّه فقال : اللهم إني أعوذُ بك من عفاريت الجن اللهم لا تُشْرِكْهُمْ في
ولدي ولا جسدي ولا دمي ولا مالي ولا تُدخلْهم في بيتي ولا تجعلْهم لي شركاء في شيء من أمر الدنيا
والآخرة .

قال أبو عبيدة : فقيل له : لم تدعو بهذا الدُّعاء قال : وكيف لا أدعو به وأنا أسمعُ أيوب النبي واللّه تعالى
يخبر عنه ويقول : واذكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ حَتَّى

قيل له : اركُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وكيف لا أستعيد بالله منه وأنا أسمع الله يقول : الَّذِينَ
يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ وَأَسْمِعْهُ يَقُولُ : إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا رَأَى الْمَلَائِكَةَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ كَمَا قَالَ
الله عز ذكره : فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَقَدْ
جاءهم في صورة الشيخ التجدي وكيف لا أستعيد بالله منه وأنا أسمع الله عز ذكره يقول : وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي
السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مِنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ
وكيف)

لا أستعيد بالله منه وأنا أسمع الله تعالى يقول : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ
الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنِ رَبِّهِ ثُمَّ قَالَ : يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ

كالجواب

وقُدُورِ راسياتٍ وكيف لا أدعو بذلك وأنا أسمع الله تعالى يقول : قال عَفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ .

وكيف لا أقول ذلك وأنا أسمع الله عز وجل يقول : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ .

تزويد الأعراب وأصحاب التأويل في أخبار الجن

والأعراب يتزيدون في هذا الباب وأشبه الأعراب يغلطون فيه وبعض أصحاب التأويل يجوز في هذا الباب ما لا يجوز فيه وقد قلنا في ذلك في كتاب النبوات بما هو كافٍ إن شاء الله تعالى .

مذاهب الأعراب وشعرائهم في الجن

وسيقع هذا الباب والجواب فيه تاماً إذا صرنا إلى القول في الملائكة وفي فرق ما بين الجن والإنس وأما هذا الموضوع فإنما مغرانا فيه الإخبار عن مذاهب الأعراب وشعراء العرب ولولا العلم بالكلام وبما يجوز مما لا يجوز لكان في دون إطباقهم على هذه الأحاديث ما يغلط فيه العاقل .

قال عبيد بن أيوب وقد كان جَوَّالاً في مجهول الأرض لما اشتد خوفه وطال تردُّده وأبعد في الهرب : (لقد خِفْتُ حَتَّى لَوْ ثَمَرُ حَمَامَةٍ ** لَقُلْتُ عَدُوٌّ أَوْ طَلِيعَةُ مَعْشَرٍ) (وخِفْتُ خَلِيلِي ذَا الصَّفَاءِ وَرَأَيْتُ ** وَقِيلَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ فَاحْذَرِ) (فَلِلَّهِ دَرُّ الْعُولِ أَيُّ رَفِيقَةٍ ** لَصَاحِبٍ قَفَرٍ خَائِفٍ مُتَقَتِّرٍ) (أَرَأَيْتَ بَلَحْنَ بَعْدَ لَحْنٍ وَأَوْقَدْتَ ** حَوَالِيَّ نِيرَانًا تَلُوحُ وَتَزْهَرُ) (وَأَصْبَحْتَ كَالْوَحْشِيِّ يَتَّبِعُ مَا خَلَا ** وَيَتْرَكَ مَأْبُوسَ الْبِلَادِ الْمَدْعَرِ) (وقال في هذا الباب في كلمة له وهذا أولها : (أَذِقْنِي طَعْمَ الْأَمْنِ أَوْ سَلْ حَقِيقَةَ ** عَلَيَّ فَإِنْ قَامَتْ فَفَصِّلْ بَنَانِي) (خَلَعْتَ فِرَادِي فَاسْتَطِيرَ فَأَصْبَحْتَ ** تَرَامِي بِي الْبَيْدُ الْقِفَارُ تَرَامِي) (كَأَنِّي وَآجَالُ الطَّبَّاءِ بِقَفْرِ ** لَنَا نَسَبٌ نَرَعَاهُ أَصْبَحَ دَانِيَا)

(رَأَيْتُ ضَيْلَ الشَّخْصِ يَظْهَرُ مَرَّةً ** وَيَخْفَى مَرَاراً ضَامِرَ الْجِسْمِ عَارِيَا) (فَأَجْفَلَنَ نَفْراً ثُمَّ قُلْنَ ابْنُ بَلَدَةٍ ** قَلِيلُ الْأَذَى أَمْسَى لَكُنْ مُصَافِيَا) (أَلَا يَا ظِبَاءَ الْوَحْشِ لَا تُشْهَرُنِي وَأَخْفِينِي إِذْ كُنْتُ فَيَكُنْ خَافِيَا) (أَكَلْتُ عُرُوقَ الشَّرِيِّ مَعَكُنَّ وَالتُّوَّى ** بِحَلْقِي نَوْرُ الْقَفْرِ حَتَّى وَرَانِيَا) (وَقَدْ لَقِيتُ مِنِّي السَّبَاعَ بَلِيَّةً ** وَقَدْ لَاقَتْ الْغِيلَانُ مِنِّي الدَّوَاهِيَا) (وَمِنْهُنَّ قَدْ لَاقِيتُ ذَاكَ فَلَمْ أَكُنْ ** دَجَبَانًا إِذَا هَوَّلُ الْجَبَانِ اعْتَرَانِيَا) (أَيَّتُ ضَجِيعَ الْأَسْوَدِ الْجَوْنِ فِي الْهُوَى ** كَثِيراً وَأَثْنَاءَ الْحَشَّاشِ وَسَادِيَا)

(إذا هَجَنَ بي في جُحْرِهِنَّ اكْتَفَنِيَّ ** فليت سُلَيْمَانُ بن وَبَرٍ يرانیا) (فما زِلْتُ مُذْ كُنْتُ ابنَ عَشْرِينَ حِجَّةً ** أخا الحربَ مَجْنِيًّا عَلَيَّ وَجَانِيَا) (وما ذَكَرَ فِيهِ الْغِيلَانُ قَوْلُهُ : (قَولُ وَقَدْ أَلَمْتُ بِالْإِنْسِ لَمَّةً ** مُخَضَّبَةٌ الْأَطْرَافِ خُرْسُ الْخَلَاخِلِ) (أَهَذَا خَلِيلُ الْغُولِ وَالذُّبِّ وَالَّذِي ** يَهِيْمُ بِرَبَاتِ الْحِجَالِ الْكَوَاهِلِ) (رَأَتْ خَلْقَ الْأَدْرَاسِ أَشْعَثَ شَاحِبًا ** عَلَى الْجَذْبِ بَسَامًا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ) (تَعَوَّدَ مِنْ آبَائِهِ فَنَكَاتِهِمْ ** وَإِطْعَامَهُمْ فِي كُلِّ غَبْرَاءٍ شَامِلِ) (إِذَا صَادَ صَيْدًا لَفَّهُ بِضْرَامِهِ ** وَشِيكًا وَلَمْ يَنْظُرْ لِنَصَبِ الْمَرَاجِلِ) (وَنَهَسًا كَنَهَسَ الصَّقْرُ ثُمَّ مَرَّاسُهُ ** بِكَفِّيهِ رَأْسَ الشَّيْخَةِ الْمُتَمَائِلِ)

(فلم يسحب المنديل بين جماعةٍ ** ولا فاردًا مذ صاح بين القوابلِ) (وما قال في هذا المعنى : (علام تُرَى ليلي تعذب بالئني ** أخا قفراتٍ كان بالذئب يأنسُ) (وصار خليل الغول بعد عداوة صفياً وربته القفارُ البسابسُ) (فلولا رجالٌ يا منيع رأيتهم ** لهم خلقٌ عند الجوار حميدُ) (لنالكُم مني نكالٌ وغارةٌ ** لها ذنبٌ لم تدركوه بعيدُ) (أقلُّ بنو الإنسان حتى أغرتمُ ** على من يثير الجنَّ وهي هجودُ)

أخبار وطرف تتعلق بالجن

وقال ابن الأعرابي : وعدت أعرابيةً أعرابياً أن يأتيها فكمن

في عُشْرَةٍ كانت بقرهم فنظر الزوجُ فرأى شَبَحًا في العُشْرَةِ فقال لامرأته : يا هَتَّاهُ إِنَّ إِنْسَانًا لِيُطَالِعُنَا مِنَ العُشْرَةِ قالت : مه يا شيخُ ذاك جانُّ العُشْرَةِ إليك عني وعن ولدي قال الشيخ : وعني يرحمك الله قالت : وعن أبيهم إن هو غطى رأسه ورقد قال : ونام الشيخ وجاء الأعرابي فسفع برجليها ثم أعطاها حتى رضيت .

وروى عن محمد بن الحسن عن مُجَالِدٍ أو عن غيره وقال : كنّا عند الشَّعْبِيِّ جُلُوسًا فمرَّ حَمَلٌ على ظهره ذَنٌّ خَلٌّ فلما رأى الشَّعْبِيُّ وضع الذَّنَّ وقال للشَّعْبِيِّ : ما كان اسمُ امرأةِ إبليس قال : ذاك نكاحٌ ما شهدناه .

وأبو الحسن عن أبي إسحاق المالكي قال : قال الحجاج ليحيى بن سعيد بن العاص : أخبرني عبدُ الله بن هلال صديق إبليس أنك تشبه إبليس قال : وما ينكر أن يكون سيد الإنس يُشبهه وروى الهيثم عن داود بن أبي هند قال : سئل الشَّعْبِيُّ عن لحم الفيل فبلا قوله عزّ ذكره : قُلْ لَا أَجِدُ فِيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ إلى آخر الآية وسئل عن لحم الشَّيْطَانِ فقال : نحن نرضى منه بالكفاف فقال له قائل : ما تقول في الذَّبَّانِ قال : إن اشتهيته فكلُّهُ .

وأشدوا قول أعرابي لامرأته : ألا تموتين إنا نبتغي بدلا إن اللواتي يموتن الميامين (أم أنت لازلت في الدنيا معمرةً ** كما يُعَمَّرُ إبليسُ الشَّيَاطِينِ) وقال أبو الحسن وغيره : كان سعيد بن خالد بن عبد الله بن أسيد تصيبه مُوتة نصف سنة ونصف سنة يصح فيحبو ويُعطي ويكسو

وَيَحْمِلُ فَأَرَادَ أَهْلُهُ أَنْ يَعَاجِلْجُوهُ فَتَكَلَّمَتْ امْرَأَةٌ عَلَى لِسَانِهِ فَقَالَتْ أَنَا رُقِيَّةُ بِنْتُ مَلْحَانَ سَيِّدِ الْجَنِّ وَاللَّهِ أَنْ لَوْ عَلِمْتُ مَكَانَ رَجُلٍ أَشْرَفَ مِنْهُ لَعَلَّقْتُهُ وَاللَّهِ لَنْنَ عَاجِلْتُمُوهُ لِأَقْتَلَنَّهُ فَتَرَكُوا عَاجِلَهُ .
وتقول العرب : شيطان الحِمَاطَةِ وغول القَفْرَةِ وجانُّ العُشْرَةِ وأنشد : (فانصَلَّتْ لِي مِثْلَ سَعْلَةِ الْعُشْرِ **
تروح بالوَيْلِ وتَعْدُو بِالْغَيْرِ) وأنشد : الْعَمَلُولُ : الحَمَرُ مِنَ الْأَرْضِ اخْتِبَأَ فِيهِ هَذَا الرَّجُلُ وَضَغَبَ ضَغْبَةً
الْأَرْبَ لِيَفْزِعَهُ وَيُوْهِمَهُ أَنَّهُ)
عامر لذلك الخمر .

رؤية الغيلان وسماع عزيف الجان

(من ادعى من الأعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان ويسمعون عزيف الجان) وما يشبهون بالجن والشياطين وبأعضائهم وبأخلاقهم وأعمالهم .
وأنشد : (كَأَنَّهُ لَمَّا تَدَانِي مَقْرَبُهُ ** واقطعت أودامه وكُرْبُهُ) (وجاءت الخيلُ جميعاً تَذْنُبُهُ ** شيطان جنّ في هواء يرقبه) أذنب فانقضَّ عليه كوكبه وأنشد : (إِنَّ الْعُقَيْلِيَّ لَا تَلْقَى لَهُ شَبْهًا ** وَلَوْ صَبَرْتَ لَنَلْقَاهُ عَلَى الْعَيْسِ) (بَيْنَا تَرَاهُ عَلَيْهِ الْخُرُّ مَتَكِنًا ** إِذْ مَرَّ يَهْدِجُ فِي خَيْشِ الْكَرَابِيسِ)

(وقد تَكَنَّفَهُ غُرَامُهُ زَمَنًا ** أَشْبَاهُ جِنٍّ عَكُوفٍ حَوْلَ إِبْلِيسِ) وهو الذي يقول : (أَصْبَحْتَ مَا لَكَ غَيْرُ جُلْدِكَ تَلْبَسُ ** قَطَرَ السَّمَاءِ وَأَنْتَ عَارٍ مُفْلِسُ) وقال الخطفى : (يَرْفَعْنَ بِاللَّيْلِ إِذَا مَا أَسْدَفَا ** أَعْنَاقَ جَنَانٍ وَهَامًا رُجْفًا) وَعَنْقًا بَعْدَ الرَّسِيمِ خِيْطَفَا

وأنشد ابن الأعرابي : (غناءً كليياً تَرَى الْجِنَّ تَبْتَغِي ** صَدَاهُ إِذَا مَا آبَ لِلْجَشَنِ آيِبُ) وقال الحارث بن حنزة : (رَبُّنَا وَابْنَا وَأَفْضَلُ مَنْ يَمُومُ ** شَيْءٌ وَمَنْ دُونَ مَا لَدَيْهِ الشَّاءُ) (إِرْمِيْ بِمِثْلِهِ جَالَتْ الْجِ ** نٌ فَآبَتْ لِحَصْمِهَا الْأَجْلَاءُ) وقال الأعشى : (فَإِنِّي وَمَا كَلَفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ ** لِيَعْلَمَ مِنْ أَمْسَى أَعَقَّ وَأُحْوَا) (لَكَالْتَوَّرَ وَالْجَنِيُّ يَضْرِبُ ظَهْرَهُ ** وَمَا ذَنْبُهُ أَنْ عَافَتْ الْمَاءَ مَشْرَبًا)

وقال الرِّفْيَانُ الْعَوَافِي واسمه عطاء بن أسيد أحد بني عُوَافَةَ بن سعد : وقال ذو الرُّمَّة : (قد أَعْسَفُ النَّازِحَ الْجُهُولَ مَعْسُفُهُ ** فِي ظِلِّ أَغْضَفٍ يَدْعُو هَامَهُ الْبُومُ) (لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلٌ ** كَمَا تَنَاحَ يَوْمَ الرِّيحِ عَيْشُومُ)

(دَاوِيَّةٌ وَدُجَى لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا ** يَمُّ تَرَاطُنُ فِي حَافَاتِهِ الرُّومُ) وقال : (وَكَمْ عَرَسَتْ بَعْدَ السُّرَى مِنْ مُعْرَسَ ** به من كلام الجن أصوات سامر) وقال : (كَمْ جَبَّتْ دُونَكَ مِنْ يَهْمَاءٍ مُظْلَمَةٍ ** تِيهِ إِذَا مَا مُعْنِي جِنَّةٌ سَمَرَا) (وَرَمَلَ عَزِيفَ الْجِنِّ فِي عَقْدَاتِهِ ** هَزِيْرُ كَتَضْرَابِ الْمَغْنَنِ بِالطَّبْلِ) وقال :

(وَتِيهِ خَبَطْنَا غَوَّهَا وَارْتَمَىٰ بِنَا ** أَبُو الْبَعْدِ مِنْ أَرْجَائِهَا الْمَتَاوُحُ) (فَلَاةٌ لِصَوْتِ الْجَنِّ فِي مُنْكَرَاتِهَا ** هَزِيئٌ
وَلِلْأَبْوَامِ فِيهَا نَوَائِحُ) (وَطُولُ اغْتِمَاسِي فِي الدُّجَىٰ كُلَّمَا دَعَتْ ** مِنَ اللَّيْلِ أَصْدَاءَ الْمَتَانِ الصَّوَائِحُ) (بِلَاداً
يَبِيتُ الْبُومُ يَدْعُو بَنَاتِهِ ** بَهَا وَمِنَ الْأَصْدَاءِ وَالْجَنِّ سَامِرُ) وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ : (وَلِلْوَحْشِ وَالْجِنِّ كُلِّ عَشِيَّةٍ
** بَهَا خِلْفَةٌ مِنْ عَازِفٍ وَبُعَامٍ) وَقَالَ الرَّاعِي : (وَدَاوِيَّةٌ غِبْرَاءَ أَكْثَرِ أَهْلِهَا ** عَزِيفٌ وَبُومٌ آخِرَ اللَّيْلِ صَائِحُ
(

(أَقْرَبُ بَهَا جَاشِي تَأْوُلُ آيَةٍ ** وَمَاضِي الْحَسَامِ غَمْلُهُ مَتَصَائِحُ)

لطيم الشيطان

ويقال لمن به لقوة أو شتر إذا سُبَّ : يا لطيم الشيطان .
وكذلك قال عبيد الله بن زياد لعمر بن سعد حين أهوى بسيفه ليطعن في خاصرة عبد الله بن معاوية
وكان مستضعفاً وكان مع الضحَّاك فأَسِرَ فلَمَّا أهوى له السيفَ وقد استردفه عبيدُ الله واستغاث بعبيد الله
قال عبيد الله لعمر بن سعد : يدك يا لطيم الشيطان .
قوله : ظل النعامة وظل الشيطان ويقال للرجل المفرط الطول : يا ظلَّ النعامة وللمتكبر الضخم : يا ظلَّ
الشيطان كما قال الحجاج لعمد بن سعد بن أبي وقاص : بينا أنت يا ظلَّ الشيطان أشدُّ الناس كِبَرًا إذْ
صيرت مؤذناً لفلان .

وقال جريرٌ في هجائه شَبَّهَ بنَ عِقَالٍ وكان مُفْرَطُ الطَّوْلِ : (فَصَحَّ الْمَنَابِرُ يَوْمَ يَسْلُحُ قَائِمًا ** ظِلُّ النِّعَامَةِ شَبَّهَ
بُنَ عِقَالٍ) قوله : ظل الرمح فأما قوله : مُنِينَا يَوْمَ كَظَلَّ الرَّمْحُ فَإِنَّهُمْ لَيْسَ يَرِيدُونَ بِهِ الطَّوْلَ قَطُّ
ولكنهم يريدون أَنَّهُ مع الطول ضيقٌ غيرٌ واسع .
وقال ابن الطُّرَيْحِيِّ : (وَيَوْمَ كَظَلَّ الرَّمْحُ قَصَّرَ طَوْلُهُ ** دَمُ الزَّقِّ عَنَّا وَاصْطَفَاكَ الْمَزَاهِرُ) قال : وليس يوجد
لظلَّ الشخص نهاية مع طلوع الشمس .

التشبيه بالجن

قال : وكان عمر بن عبد العزيز أول من فهم الناس عن حمل
الصبيان على ظهور الخيل يوم الحلبة وقال : تَحْمِلُونَ الصَّبِيَّانَ عَلَى الْجِنِّانِ . (إِنْسٌ إِذَا أَمْنُوا جَنَّ إِذَا فَرَعُوا
** مُرَزَّوْنَ بِهَالِيلٍ إِذَا حَشَدُوا) وَأَنشَدُوا : (وَقُلْتُ وَاللَّهِ لَنَرَحَلَنَّا ** قَلَائِصًا تَحْسِبُهُنَّ جَنًّا) وقال ابن ذي
الزوائد : (وَحَوْلِي الشَّوْلُ رُزْحًا شُسْبًا ** بِكِيَةِ الدَّرِّ حِينَ تُمْتَصَّرُ)

(ولَاذِي الْكَلْبُ لَا بُاحَ لَهُ ** يَهْرُ مُخْرَجًا وَيَنْجَحِرُ) (بُحُورُ خَفَضَ لِمَنْ أَلَمَ بِهِمْ ** جِنَّ بِأَرْمَاحِهِمْ إِذَا خَطَرُوا) وَأَنْشَدُوا : (إِنِّي أَمْرٌ تَابَعَنِي شَيْطَانِيهِ ** أَخِيَّتُهُ عُمْرِي وَقَدْ آخَانِيهِ) (يَشْرَبُ فِي قَعْبِي وَقَدْ سَقَانِيهِ ** فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِيهِ) (قَرْمًا وَخَرْقًا فِي خُدُودِ وَاضِيهِ ** تَرَبَّعَتْ فِي عُقْدٍ فَلَمَّاوِيهِ) (بَقْلًا نَضِيدًا فِي تِلَاحٍ حَالِيهِ ** حَتَّى إِذَا مَا الشَّمْسُ مَرَّتْ مَاضِيهِ) (قَامَ إِلَيْهَا فَتِيَّةٌ ثَمَانِيهِ ** فَتَوَرَّوا كُلٌّ مَرِيٍّ سَاجِيهِ)

أَخْلَافُهَا لِذِي الْأَكْفِ مَالِيهِ وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : قَالَ لِي أَعْرَابِي مَرَّةً مِنْ غَيٍّ وَقَدْ نَزَلَتْ بِهِ قَالَ : وَهُوَ أَخْفُ مَا نَزَلْتُ بِهِ وَ أَطْيَبُهُ فَقُلْتُ : مَا أَطْيَبُ مَاءٍ كَمْ هَذَا وَأَعْدَى مَنْزِلِكُمْ قَالَ : نَعَمْ وَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ بَعِيدٌ مِنَ الْعِرَاقِ وَالْيَمَامَةِ وَالْحِجَازِ كَثِيرَ الْحَيَاتِ كَثِيرَ الْجَنَانِ فَقُلْتُ : أَتَرَوْنَ الْجِنَّ قَالَ : نَعَمْ مَكَائِهِمْ فِي هَذَا الْجَبَلِ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ سَوَاجٍ قَالَ : ثُمَّ حَدَّثَنِي بِأَشْيَاءَ .

شعر فيه ذكر الجن

وقال عبيد بن أوس الطائي في أخت عدي بن أوس :

(هَلْ جَاءَ أَوْسًا لِيَلْتِي وَنَعِيمَهَا ** وَمَقَامُ أَوْسٍ فِي الْخِيَاءِ الْمُشْرِجِ) (مَا زِلْتُ أَطْوِي الْجِنَّ أَسْمَعُ حِسَّهُمْ ** حَتَّى دَفَعْتُ إِلَى رَبِيَّةٍ هُودَجِ) (فَوَضَعْتُ كَفِّي عِنْدَ مَقْطَعِ خَصْرِهَا ** فَتَنَفَّسْتُ بُهْرًا وَلَمَّا تَنَهَجَ) (فَتَنَاولْتُ رَأْسِي لِتَعْرِفَ مَسَّهُ ** بِمَخْضَبِ الْأَطْرَافِ غَيْرِ مُشْتَجِ) (قَالَتْ بَعْشٍ أَخِي وَحُرْمَةُ وَالِدِي ** لِأُبَيِّنَنَّ الْحَيَّ إِنْ لَمْ تَخْرُجْ) (فَخَرَجْتُ خَيفَةً قَوْمَهَا فَتَبَسَّمْتُ ** فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تَلْجِجْ) (فَلَثَمْتُ فَاهَا قَابِضًا بِقُرُونِهَا ** شَرَبْتُ التَّرْزِيفَ بَرْدَ مَاءِ الْحَشْرِجِ)

(ذَهَبْتُمْ فَعُدْتُمْ بِالْأَمِيرِ وَقُلْتُمْ ** تَرَكْنَا أَحَادِيثًا وَلِحْمًا مُوضَعًا) (فَمَا زَادَنِي إِلَّا سَنَاءً وَرِفْعَةً ** وَلَا زَادَكُمْ فِي الْقَوْمِ إِلَّا تَخَشُّعًا) (فَمَا نَفَرْتُ جَنِّي وَلَا فُلٌّ مِبْرَدِي ** وَمَا أَصْبَحْتُ طَيْرِي مِنَ الْخَوْفِ وَقَعًا) (وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : وَلِلَّهِ لِأَضْرِبَنَّهُ حَتَّى أَنْزِعَ مِنْ رَأْسِهِ شَيْطَانَهُ فَقَالَ : (وَدَاوِيَّةٌ سَبَسَبَ سَمَلَقٍ ** مِنْ الْبَيْدِ تَعْرِفُ جَنَائِهَا) (قَطَعْتُ بَعِيرَانِي كَالْفَنِي ** قِيَمَرُخُ فِي الْآلِ شَيْطَانُهَا) (فَجَمَعَ فِي هَذَا الْبَيْتِ تَنْبِيْهُ عَزِيفِ الْجِنِّ وَأَنَّ الْمَرَاحَ وَالنَّشَاطَ وَالْخِيَلَاءَ وَالْغَرْبَ هُوَ شَيْطَانُهَا)

وَأَبِينُ مَنْ ذَلِكَ قَوْلُ مَنْظُورِ بْنِ رَوَاحَةَ : (أَتَانِي وَأَهْلِي بِالْدَّمَاحِ فَعَمْرَةٍ ** مَسْبُ عَوِيفِ اللَّوْمِ حَيَّ بَنِي بَدْرِ) (فَلَمَّا أَتَانِي مَا يَقُولُ تَرْقَصْتُ ** شَيْطَانِي رَأْسِي وَانْتَشَيْنَ مِنَ الْخَمْرِ)

من المثل والتشبيه بالجن

وَمِنَ الْمَثَلِ وَالتَّشْبِيهِ قَوْلُ أَبِي النَّجْمِ : (وَقَامَ جَنِّي السَّنَامُ الْأَمِيلَ ** وَامْتَهَدَ الْغَارِبَ فَعَلَ الدُّمْلَ) (بِهَجْلٍ مِنْ قَسَا ذِفْرِ الْخُرَامَى ** تَدَاعَى الْجُرِيَاءُ بِهِ الْحَنِينَا)

(تكسّر فوقه القلْع السَّواري ** وجنَّ الحارِباز به جنونا) وقال الأعشى : (وإذا الغيثُ صَوْبُهُ وضع القِدَّ
** ح وجنَّ التَّلَاعُ والآفاقُ) (لم يزدْهم سفاهَةً شَرُّبُ الخَمِّ ** ر ولا اللهوُ بينهمُ والسِّبَاق) وقال النابغة :
(وخيَّسَ الجنَّ إِنِّي قد أدنُتُ لَهُمُ ** يَتَنُونَ تَدْمُرُ بالصُّفَّاح والعمَدِ)

ما يزعمون أنه من عمل الجن

وأهلُ تدمُر يزعمون أنَّ ذلك البناءُ بُنيَ قبلَ زمنِ سليمان عليه السلامَ بأكثرَ مما بيننا اليومَ وبين سليمان بن داود عليهما السلامَ قالوا : ولكنكم إذا رأيتمُ بنياناً عجيباً وجهانتهم موضعَ الحيلةِ فيه أضفتموه إلى الجنِّ ولم تعانوه بالفكر .

وقال العرجيُّ : (سدَّتْ مسامعُها بفرجِ مِراجِلِ ** مِنْ نَسَجِ جنٍّ مثله لا يُنسَجُ)

وقال الأصمعيُّ : السيوفُ المأثورة هي التي يقال إنها من عمل الجن والشياطين لسليمان بن داود عليهما السلامَ فأما القوارير والحمامات فذلك ما لا شك فيه وقال البعيث : (بنى زيادٌ لِذِكْرِ اللَّهِ مَصْنَعَةً ** من الحِجارةِ لم تُعملْ من الطِّينِ) (كأنَّها غيرُ أنَّ الإنسَ ترفعُها ** مما بنتُ لسليمانَ الشياطينَ) وقال المقنَّع الكنديُّ : (وفي الظَّعائِنِ والأخداجِ أُمْلَحُ مِنْ ** حَلِّ العِراقِ وَحَلِّ الشَّامِ واليَمَنِ) (جَنِيَّةٌ مِنْ نِسَاءِ الإنسِ أَحْسَنُ مِنْ ** شَمْسِ التَّهَارِ وَبَلَرِ اللَّيْلِ لو قُرِنا) (مَكْتُومَةُ الذِّكْرِ عِنْدِي ما حَيَّتْ لَهُ ** قَدْ لَعَمْرِي مَلِلْتُ الصَّرمَ والحَزْنَ) وقال أبو النجم : (أدركَ عقلاً والرَّهانَ عمله ** كَأَنَّ تُرْبَ القِلاعِ حينَ تَسَحُّلهُ) صيْقُ شياطينَ زَفَنَهُ شَمَّالَهُ

وقال الأعشى في المعنى الأوَّل من بناء الشياطين لسليمان بن داود عليهما السلامَ : (أرى عَادِيًا لم يَمْنَعِ الموتُ رَبَّهُ ** وَوَرَدُ بَيْمَاءِ اليَهُودِيِّ أَيْلَقُ) (بناه سُلَيْمانُ بنُ داودَ حَقْبَةً ** لَهُ جَنْدَلٌ صُمٌّ وَطِيٌّ موثِقُ) وكما يقولون : قنفذ بُرْقَة وضبُّ سحاً وأرب الخَلَّةِ وذئبُ خَمَرٍ فيفرون بينها وبينَ ما ليست كذلك إمَّا في السَّمَنِ وإمَّا في الحُبِّ وإمَّا في القُوَّة فكذلك أيضاً يفرون بين مواضع الجن فإذا نَسَبُوا الشَّكْلَ منها إلى موضعٍ معروفٍ فقد خَصَّصُوهُ مِنَ الحُبِّ والقُوَّة والعِرامة بما ليس لجملتهم وجمهورهم قال لبيد :

(غُلِبَ تَشَدُّرٌ بالدُّحُولِ كَأَنَّها ** جنُّ البَدِيِّ رِواسِيًا أَقْدَامُها) وقال التابغة : (سَهَكِينَ مِنْ صَدِيدِ الحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ ** تَحْتَ السَّنَوَرِ جَنَّةُ البَقَارِ) وقال زهير : (عَلَيَّهِنَّ فُتَيانٌ كَجَنَّةِ عَبْقَرٍ ** جَدِيرون يَوْمًا أَنْ يُنِيفُوا فَيَسْتَعْلُوا) وقال حاتم : (عَلَيَّهِنَّ فُتَيانٌ كَجَنَّةِ عَبْقَرٍ ** يَهْزُونُ بِالْأَيْدِي الوَشِيحَ المَقُومًا) ولذلك قيل لكلِّ شيءٍ فائقٍ أو شديدٍ : عبقرى .

وفي الحديث في صفةِ عمرِ رضي الله عنه فلم أرَ عبقرياً يفري فَرِيَه قال أعرابي : ظلمي والله ظُلماً عبقرياً . ثمَّ ينزلون الجن في مراتب فإذا ذكروا الجَنِّيَّ سالماً قالوا : جني فإذا أرادوا أَنَّهُ مِّنْ سَكَنِ مع النَّاسِ قالوا :

عامر والجميع عُمَار وإن كان ممن يعرض للصبيان فهُمْ أرواح فإن خُبث أحدُهم وتعرَّم فهو شيطان فإذا زاد على ذلك فهو مارد قال الله عز ذكره : وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ فإن زاد على ذلك في القوَّة فهو عفريت والجميع عفاريت قال الله تعالى : قال عَفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ . وهم في الجملة جنٌّ وخوافي قال الشاعر :
ولا يُحَسُّ سِوَى الْخَافِي بِهَا أَثَرُ

فإن طهرَ الجنِّي ونظفَ ونقيَّ وصار خيراً كُلُّهُ فهو مَلَكٌ في قول من تأول قوله عز ذكره : كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ على أن الجنَّ في هذا الموضع الملائكة .
وقال آخرون : كان منهم على الإضافة إلى الدَّارِ والدَّيَّانَةِ لا على أَنَّهُ كان من جنسهم وإنَّما ذلك على قولهم سليمان بن يزيد العدوي وسليمان بن طرخان التيمي وأبو علي الحرمازي وعمرو بن فائد الأسواري أضافوهم إلى الحال وتركوا أنسابهم في الحقيقة .
استطرد لغوي وقال آخرون : كلُّ مُسْتَجِنٍّ فهو جِنِّيَّ وجانٌّ وجنين وكذلك الولدُ قيل له جنينٌ لكونه في البطن

(ولا شَطْأٌ لم تدعِ المنايا * لها مِنْ تِسْعَةٍ إِلَّا جَنِينًا) يُخبر أَنَّها قد دَفَنَتْهُمْ كُلَّهُمْ .
قالوا : وكذلك الملائكة من الحَفَظَةِ والحَمَلَةِ والكُرُويِّينَ فلا بدَّ من طبقات وربُّما فُرِّقَ بينهم بالأعمال واشتقَّ لهم الاسم من السَّبب كما قالوا لواحدٍ من الأنبياء : خليل الله وقالوا لآخر : كليم الله وقالوا لآخر : روح الله . ٤

مراتب الشُّجَعان

والعرب تُنزل الشُّجَعاء في المراتب والاسم العامُّ شجاعٌ ثمَّ بطلٌ ثمَّ بُهْمَةٌ ثمَّ أليس هذا قول أبي عبيدة .
فأمَّا قولهم : شيطان الحماسة فإنَّهم يعنون الحَيَّةَ وأنشد الأصمعي : (تُلَاعِبُ مَثْنَى حَضْرَمِيَّ كَأَنَّهُ * تَعْمُجُ شَيْطَانٌ بِذِي خِرْوَعٍ قَفَرٍ)

وقد يُسمُّون الكِبَرَ والطغيانَ والخُنْزِوانَةَ والغضبَ الشَّدِيدَ شَيْطَانًا على التَّشْبِيهِ قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : والله لا نَزِعَ نَعْرَتَهُ ولأَضْرِبَنَّهُ حتى أنزعَ شَيْطَانَهُ مِنْ نَحْرَتِهِ .

مراتب الجن والأعراب تجعل الخوافي والمستجِنَّات من قبل أن ترتب المراتب جنسين يقولون جنٌّ وحنٌّ بالجيم والحاء وأنشدوا : (أَيْتُ أَهْوِي فِي شَيْطَانٍ ثُرْنٌ * مُخْتَلَفٍ نَجْوَاهُمْ حَنٌّ وَجَنٌّ) ويجعلون الجنَّ فوق الحنِّ وقال أعشى سليم : (فما أنا مِنْ جِنٍّ إِذَا كُنْتُ خَافِيًا * وَلَسْتُ مِنَ النَّسْنَسِ فِي عِنْصَرِ الْبَشَرِ)

ذهب إلى قول من قال : البشر ناسٌ ونسناسٌ والخوافي حنٌّ وجنٌّ يقول : أنا من أكرم الجنسين حيثما كنت .

شيطان ضعفة النَّسَّك والعباد وَضَعْفَةُ النَّسَّك وَأَغْيَاءُ الْعِبَاد يزعمون أنَّ لهم خاصَّةً شيطَاناً قد وُكِّلَ بهم ويقال له المذهب يُسْرِجُ لهم النَّيران ويُضيء لهم الظُّلْمَةَ ليفتتهم وليربهم العجب إذا ظنُّوا أنَّ ذلك من قِبَلِ اللَّهِ تعالى .

شيطان حفظة القرآن وفي الحديث أنَّ الشَّيْطَانَ الذي قد تفرَّد بحفظة القرآن يُنْسِيهِم القرآن يسمى خَتَرَب وهو صاحب عثمان بن أبي العاص .

الخابل والخبيل

قال : وأما الخابل والخبيل فإِذَا ذلك اسمٌ للجنِّ الذين يخلون النَّاسَ بأعيانهم دون غيرهم وقال تناوح جَنَانُ بَهْنٍ وَخُبْلٌ كَأَنَّهُ أَخْرَجَ الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَتَعَرَّضُونَ مِّنْ لِّسِّ عِنْدَهُ إِلَّا الْعَزِيفَ وَالتَّوْحَ وَفَصَلَ أَيْضاً لَبِيدٌ بَيْنَهُمْ فَقَالَ : (أَعَاذَلُ لَوْ كَانَ النَّدَادُ لَهَوْتُلُوا ** وَلَكِنْ أَنَا كُلُّ جَنَّ وَخَابِلٍ) وقد زعم ناسٌ أنَّ الخبلَ والخابلَ ناسٌ قالوا : فإذا كان ذلك كذلك فكيف يقول أوس بن حجر : تناوح جَنَانُ بَهْنٍ وَخُبْلٌ ٤

استطرد لغوي

قالوا : وإذا تعرَّضَتِ الْجَنَّةُ وتلَوْنَتْ وَعَبَثَتْ فهي شيطانة ثم غول والغول في كلام العرب الدَّاهية ويقال : لقد غالته غول وقال الشاعر :

(تقول بيتي في عَزٍّ وفي سَعَةٍ ** فَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ أَنْتَ مَدْخُولٌ) (لَا بِأَسَ بِالْيَيْتِ إِلَّا مَا صَنَعْتَ بِهِ ** تَبْنِي وَتَهْدِمُهُ هَذَا لَهُ غُولٌ) وقال الرَّاجِزُ : (تَقْلِبُ لِلْأَوْتَارِ وَالذُّحُولِ ** حِمْلَاقَ عَيْنٍ لَيْسَ بِالْمَكْحُولِ)

زواج الأعراب للجن

ومن قول الأعراب أنهم يظهرون لهم ويكلمونهم ويناكحونهم ولذلك قال شمر بن الحارث الضَّيِّي : (وَنَارٍ قَدْ حَضَّتْ بُعَيْدَ هَذِهِ ** بَدَارٍ لَا أُرِيدُ بِهَا مَقَامًا) (سِوَى تَحْلِيلِ رَاحِلَةٍ وَعَيْنٍ ** أَكَلْتُهَا مَخَافَةَ أَنْ تَنَامَا)

(أَنَا نَارِي فَقُلْتُ مَنْوَنَ قَالُوا ** سِرَاةَ الْجَنِّ قُلْتُ عَمُوا ظِلَامًا) (فَقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فَقَالَ مِنْهُمْ ** زَعِيمٌ نَحْسَدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا) وذكر أبو زيدٍ عنهم أنَّ رجلاً منهم تزوج السَّعْلَةَ وَأَمَّا كَانَتْ عِنْدَهُ زَمَانًا وَوَلَدَتْ مِنْهُ حَتَّى رَأَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ بَرْقًا عَلَى بِلَادِ السَّعَالِي فَطَارَتْ إِلَيْهِنَّ فَقَالَ : (رَأَى بَرْقًا فَأَوْضَعَ فَوْقَ بَكْرِ ** فَلَا بَكَ مَا أَسَالُ وَمَا أَغَامَا) فمن هذا النَّتَاجِ الْمُشْتَرَكِ وَهَذَا الْخَلْقِ الْمُرَكَّبِ عِنْدَهُمْ بَنُو السَّعْلَةِ مِنْ بَيْنِ عَمْرُو بْنِ يَرْبُوعَ وَبَلْقَيْسُ مُلْكَةً سَبَأً وَتَأَوَّلُوا قَوْلَ الشَّاعِرِ :

(سَقَطَ : بَيْتَ الشَّعْرِ) (لَا هُمْ إِنْ جَرَّهَمَا عِبَادُكَ ** النَّاسُ طَرَفٌ وَهُمْ تَلَادُكَ) فَرَعَمُوا أَنَّ أَبَا جُرْهَمٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ كَانُوا إِذَا عَصُوا فِي السَّمَاءِ أَنْزَلُوا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا قِيلَ فِي هَارُوتَ وَمَارُوتَ فَجَعَلُوا سُهَيْلاً عَشَّاراً مُسَخَّجاً وَجَعَلُوا الزُّهْرَةَ امْرَأَةً بَغِيًّا مُسَخَّتِ نَجْمًا وَكَانَ اسْمُهَا أَنَاهِيدُ .

وتقول الهند في الكوكب الذي يسمّى عطارِدَ شبيهاً بهذا .
المخدومون ويقول الناس : فلانٌ مخدومٌ يذهبون إلى آتِه إذا عَزَمَ على الشَّيَاطِين والأرواح والعُمَّار أجابوه
وأطاعوه منهم عبد الله بن هلال الحميري الذي كان يقال له صديق إيليس ومنهم كرباش الهندي وصالح
المديري .

شروط إجابة العامر للعزيمة وقد كان عبيدٌ مُجَّ يقول : إن العامر حريصٌ على إجابة العزيمة ولكنَّ البدنَ إذا
لم يصلحْ أن يكون له هيكلًا لم يستطعْ دخوله والحيلة في ذلك أن يتبخَّرَ باللبان الذَّكر ويراعي سَيْرَ المشتري
ويغتسلَ بالماء القراح ويدعُ الجماعَ وأكلَ الرُّهُومات ويتوحَّش في القيافي ويكثر دخول الخرابات حتى يرقَّ
ويلطف ويصفو ويصير فيه مشابهٌ من الجنِّ فإن عزم عند ذلك فلم يُجب فلا يعودنَّ)
لمثلها فإنه مَن لا يصلح أن يكون بدنه هيكلًا لها ومتى عاد خُبطَ فربما جنَّ وربما مات .

قال فلو كنت ممن يصلح أن يكون لهم هيكلًا لكنت فوق عبد الله بن هلال .

رؤية الجن

قال الأعراب : وربما نزلنا بجمعٍ كثير ورأينا خياماً وقباباً وناساً ثم فقدناهم من ساعتنا .
والعوام تروى أن ابن مسعود رضي الله عنه رأى رجالاً من الرُّط فقال : هؤلاء أشبه من رأيت بالجن ليلة
الجن .

قال : وقد رُوي عنه خلاف ذلك .
وتأولوا قوله تعالى : وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ولم يهلك الناس
كالتأويل .
ومما يدل على ما قلنا قول أبي التَّجَم حيث يقول : بحيثُ تُستقُّ مع الجنِّ الغولُ فأخرج الغول من الجنِّ للذي
بانتَ به من الجنِّ .

وهكذا عادتهم : أن يُخرجوا الشيء من الجملة بعد أن دخلَ ذلك الشيء في الجملة فيظهر لأمر خاص .
وفي بعض الرواية أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمةً وأن خالد بن الوليد حين هدم
العزى رمته بالشَّرَر حتى احترق عامَّةُ فخذه حتى عادهُ النبي صلى الله عليه وسلم .
وهذه فتنةٌ لم يكن الله تعالى ليتمتحنَ بها الأعراب وأشباه الأعراب من العوام وما أشك أنه قد كانت للسَّنة
حِيلٌ وألطف لمكان التَّكسُّب .

ولو سمعت أو رأيت بعض ما قد أعدَّ الهنْد من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم لعلمت أن الله تعالى قد مَنَّ

على جملة الناس بالمتكلمين الذين قد نشؤوا فيهم .

افتنان بعض النصارى بمصايح

كنيسة قمامة وقد تُعرف ما في عجائز النصارى وأغمارهم من الافتنان بمصايح كنيسة قمامة فأما علماؤهم وعقلاؤهم فليسوا بمتحاشين من الكذب الصّرف والجراءة على البُهتان البَحْت وقد تعودوا المكابرة حتى درّبوا بها الدّرب الذي لا يفطن له إلا ذو الفراسة الثّابتة والمعرفة الثّابتة .

إيمان الأعراب بالهواتف

والأعرابُ وأشباهُ الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف بل يتعجبون من ردّ ذلك فمن ذلك حديث الأعشى بن نباش بن زرارة الأسدي أنه سمع هاتفًا يقول : قال : فقلتُ مجيباً له : (ألا أيّها الناعي أخا الجود والتدى ** من المرء تنعاه لنا من بين فُهر) فقال : (نعت ابن جدعان بن عمرو أخا التدى ** وذا الحسب القدُموس والحسب القهر)

وهذا الباب كثير .

قالوا : ولنقل الجنّ الأخبارَ علمَ الناس بوفاة الملوك والأمور المهمة كما تسامعوا بموت المنصور بالبصرة في اليوم الذي تُوفي فيه بقرب مكة وهذا الباب أيضاً كثير . (من له رأي من الجن) وكانوا يقولون : إذا ألف الجني إنساناً وتعطف عليه وخبره ببعض الأخبار وجد حسّه ورأى خياله فإذا كان عندهم كذلك قالوا : مع فلان رأي من الجن ومن يقولون ذلك فيه عمرو بن لُحي بن قَمعة والمأمور الحارثي وعتيبة بن الحارث بن شهاب في ناسٍ معروفين من ذوي الأقدار من بين فارس رئيس وسيد مطاع .

فأما الكهان : فمثل حارثة جهينة وكاهنة باهلة وعُزّى سلمة ومثل شقّ وسطيح وأما العراف وهو دون الكاهن فمثل الأبلق الأسدي والأجلح الزهري وعروة ابن زيد الأسدي وعراف اليمامة رباح بن كَحلة

وهو صاحب بنت المستنير البلتعي وقد قال الشاعر : (فقلت لعراف اليمامة داوِني ** فإنك إن أبرأتني لطيب) وقال جُبَيْهَاء الأشجعي : (أقام هوى صفية في فؤادي ** وقد سيرت كل هوى حبيب) (لك الخيرات كيف منحت ودي ** وما أنا من هواك بذي نصيب) (أقول وعروة الأسدي يرقى ** أذاك برقية الملق الكذوب) (لعمرك ما التثاوبُ يا ابن زيد ** بشاف من رُفك ولا مُجيب) (لَسِيرُ التّاعجات أظنّ أشفى ** لما بي من طيب بني الذّهوب)

وليس الباب الذي يدّعيه هؤلاء من جنس العيافة والزّجر والخطوط والتّظر في أسرار الكفّ وفي مواضع قرض الفار وفي الخيلان في الجسد وفي النظر في الأكتاف والقضاء بالنجوم والعلاج بالفكر .
وقد كان مُسيلمة يدّعي أن معه رثيًّا في أوّل زمانه ولذلك قال الشّاعر حين وصّف مخاريقه وخدّعه :

(سقط : بيت الشعر) (ببيضة قارور وراية شادن ** وخلة جني وتوصيل طائر) ألا تراه ذكر خُلة الجني .

ظهور الشق للمسافرين

ويقولون : ومن الجنّ جنسٌ صورةُ الواحدٍ منهم على نصف صورة الإنسان واسمه شِقٌّ وإثنه كثيراً ما يعرض للرجل المسافر إذا كان وحده فربّما أهلكه فرعاً وربما أهلكه ضرباً وقتلاً .
قالوا : فمن ذلك حديثُ علقمة بن صفوان بن أمية بن محرث الكناني جدّ مروان بن الحكم خرج في الجاهلية وهو يريد مالا له بمكة وهو على حمار وعليه إزارٌ ورداء ومعه مِقرعة في ليلةٍ إضحانة حتى انتهى إلى موضعٍ يقال له حائط حزمان فإذا هو بشقٍّ له يدٌ ورجلٌ وعينٌ ومعه سيفٌ وهو يقول : (عَلَقْمُ إِنِّي مَقْتُولٌ ** وإن لحمي مأكولٌ)

(أَضْرِبُهُمْ بِالْهَذْلُولِ ** ضَرْبَ غَلَامٍ شُمْلُولٍ) رَحِبَ الدَّرَاعِ بُهْلُولُ فقال علقمة : (يَا شَقَّهَا مَالِي وَلَكِ ** اغْمِدِ عَنِّي مُنْصَلُكَ) فقال شِقٌّ : (عَيَيْتُ لَكَ عَيَيْتُ لَكَ ** كَيْمَا أُتِيحَ مَقْتَلُكَ) فاصبر لما قَدْ حُمَّ لَكَ قَالَ : فاضرب كل واحدٍ منهما صاحبه فخرّاً مَيِّتَيْنِ فَمَمْنٌ قَتَلَتِ الْجَنَّ عَلْقَمَةُ ابْنِ صَفْوَانَ هَذَا وَحَرْبُ بَنِ أُمِيَّةٍ .
قالوا : وقالت الجنّ : (وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفَرٍ ** وَلَيْسَ قُرْبُ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ)

قالوا : ومن الدليل على ذلك وعلى أَنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مِنْ أَشْعَارِ الْجِنِّ أَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْشُدَهُمَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَّصِلَةً لَا يَتَتَّعُ فِيهَا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْشُدَ أَثْقَلَ شَعْرٍ فِي الْأَرْضِ وَأَشَقَّهُ عَشْرَ مَرَّاتٍ وَلَا يَتَتَّعُ . (ذكر من قتلته الجنّ أو استهوته) قال : وقتلت مرداس بن أبي عامر أبا عباس بن مرداس وقتلت الغريضة خنقاً بعد أن غنّى بالغناء الذي كانوا همّوه عنه وقتلت الجنُّ سعد بن عبادة بن دُليم وسمعوا الهاتف يقول :
(سقط : بيت الشعر) (قد قتلنا سيد الحرّ ** ج سعد بن عباده) (رَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ ** فَلَمْ نُخْطِ فُؤَادَهُ) واستهوا سِنَانُ بْنُ أَبِي حَارِثَةَ لَيْسَتْ فَحَلَوْهُ فَمَاتَ فِيهِمْ وَاسْتَهَوْا طَالِبَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ أَثَرٌ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

واستهوا عمرو بن عديّ اللَّحْمِيّ الْمَلِكُ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ : شَبَّ عَمَرٌ وَعَنِ الطَّوْقِ ثُمَّ رُدُّوهُ عَلَى خَالِهِ جَذِيمَةَ الْأَبْرَشِ بَعْدَ سَنَيْنِ وَسَنَيْنِ .

واستهوا عمارة بن الوليد بن المغيرة ونفخوا في إحليله فصار مع الوحش .
ويروون عن عبد الله بن فائد يأسنادٍ له يرفعه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : خُرَافَةُ رَجُلٍ مِنْ عُذْرَةٍ اسْتَهَوَتْهُ الشَّيَاطِينُ وَأَنَّهُ تَحَدَّثَ يَوْمًا بِحَدِيثٍ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِهِ : هَذَا مِنْ حَدِيثِ خُرَافَةٍ قَالَ : لَا وَخُرَافَةُ حَقٌّ .

طعام الجن

وروا عن عُمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سأل المفقود الذي استهوته الجن : ما كان طعامهم قال :
القول قال : فما كان شراهم قال : الجدف .

وروا أن طعامهم الرّمة وما لم يذكر اسمُ الله عليه .
وروا عن النبي صلى الله عليه وسلم والحديث صحيح أنه قال : خَمَّرُوا آيَتَكُمْ وَأَوْكُوا أَسْقِيَتَكُمْ وَأَجِفُّوا
الْأَبْوَابَ وَأَطْفَنُوا الْمَصَابِيحَ وَاكْفُفُوا صَبِيانَكُمْ فَإِنَّ لِلشَّيَاطِينِ انْتِشَاراً وَخَطْفَةً

رؤوس الشياطين

وقد قال الناس في قوله تعالى : إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فرغم ناس
أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه .
والمكلمون لا يعرفون هذا التفسير وقالوا : ما عني إلا رؤوس

الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم فقال أهل الطعن والخلاف : كيف يجوز أن يضرب
المثل بشيء لم نره فتوهمه ولا وُصِفَتْ لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق ومخرج الكلام يدل على
التخويف بتلك الصورة والتفريع منها وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره فكيف يكون
الشأن كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صورته لهم واصف صدوق اللسان
بليغ في الوصف ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايش
أهل الكتابين وحمل القرآن من المسلمين ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ولا
يفزعون منه فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً .
قلنا : وإن كنا نحن لم نر شيطناً قط ولا صور رؤوسها لنا

صادق بيده ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين : أحدهما أن
يقولوا : هو أقبح من الشيطان والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطناً على جهة التطير له كما تسمى
الفرس الكريمة شوهاً والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطير له ففي
إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة أقبح من
كل قبيح .

والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت في طبائعهم بغاية التشيت .
وكما يقولون : هو أقبح من السحر فكذلك يقولون كما قال عمر بن عبد العزيز لبعض من (

أحسن الكلام في طلب حاجته هذا والله السحر الحلال .
وكذلك أيضاً ربّما قالوا : ما فلان إلا شيطان على معنى الشّهامة والنّفاذ وأشباه ذلك .

صفة الغول والشيطان والعامّة تزعم أنّ الغول تتصوّر في أحسن صورة إلا أنه لا بدّ أن تكون رجلها رجل حمار .

وخبروا عن الخليل بن أحمد أنّ أعرابياً أنشده : (وحافر العير في ساق خدلجة ** وجفن عين خلاف الإنس في الطول) وذكروا أنّ العامّة تزعم أنّ شقّ عين الشيطان بالطول وما أظنّهم أخذوا هذين المعين إلا عن الأعراب .

ردّ على أهل الطعن في الكتاب وأما إخبارهم عن هذه الأمم وعن جهلها بهذا الإجماع والاتّفاق والإطباق فما القول في ذلك إلا كالقول في الزبانية وخزنة جهنّم وصور الملائكة الذين يتصوّرون في أقبح الصّور إذا حضروا لقبض أرواح الكفار وكذلك في صور منكر ونكير تكون للمؤمن على مثال وللكافر على مثال .

ونحن نعلم أنّ الكفار يزعمون أنهم لا يتوهّمون الكلام والحاجة من إنسان ألقى في جاحم أثون فكيف بأن يلقى في نار جهنّم فالحجة على جميع هؤلاء في جميع هذه الأبواب من جهة واحدة وهذا الجواب قريب والحمد لله .
وشقّ فم العنكبوت بالطول وله ثمانى أرجل .

سكنى الجن أرض وبار

(وتزعم الأعراب أنّ الله عزّ ذكره حين أهلك الأمة التي كانت تسمّى وبار كما أهلك طسماً وجديساً وأميماً وجاسماً وعملاقاً وثموداً وعاداً أنّ الجن سكنت في منازلها وحتتها من كلّ من أرادها وأنها أخصب بلاد الله وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً وأكثرها حباً وعباً وأكثرها نخلاً وموزاً فإن دنا اليوم إنسان من تلك البلاد متعمداً أو غالطاً حتوا في وجهه التراب فإن أبى الرّجوع خبلوه وربّما قتلوه .

والموضع نفسه باطل فإذا قيل لهم : دلّونا على جهته ووقفونا على حدّه وخلاكم ذمّ زعموا أنّ من أراد ألقى على قلبه الصّرقة حتّى كأنهم أصحاب موسى في التّيه وقال الشاعر : (وداع دعا واللّيل مرخ سدوله ** رجاء القرى يا مُسلم بن حمار) (دعا جعلاً لا يهتدي لمقبله ** من اللّوم حتّى يهتدي لوبار) فهذا الشاعر الأعرابي جعل أرض وبار مثلاً في الضلال والأعراب يتحدّثون عنها كما يتحدّثون عمّا يجدونه بالدّور والصّمتان والدهناء ورمل يبرين وما أكثر ما يذكرون أرض وبار في الشّعْر على معنى هذا الشاعر .
قالوا : فليس اليوم في تلك البلاد إلا الجن والإبل الحوشية .

الحوشية من الإبل والحوش من الإبل عندهم هي التي ضربت فيها فحول إبل الجن فالحوشية من نسل إبل الجن

جَرَّت رَحَانَا مِنْ بِلَادِ الْحَوْشِ وَقَالَ ابْنُ هَرِيمٍ : (كَأَنِّي عَلَى حَوْشِيَّةٍ أَوْ نَعَامَةٍ * لها نَسَبٌ فِي الطَّيْرِ وَهُوَ ظَلِيمٌ) وَإِنَّمَا سَمَّوْا صَاحِبَةَ يَزِيدَ بْنِ الطُّثَرِيَّةِ حَوْشِيَّةً عَلَى هَذَا الْمَعْنَى . (التَّحَصُّنُ مِنَ الْجِنِّ) وَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا : إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا إِذَا صَارُوا فِي تِيهِ مِنَ الْأَرْضِ وَتَوَسَّطُوا بِلَادَ الْحَوْشِ خَافُوا عَثَ الْجَنَّانِ وَالسَّعَالِي وَالْغِيلَانَ وَالشَّيَاطِينَ فَيَقُومُ أَحَدُهُمْ فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ : إِنَّا عَائِدُونَ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي فَلَا يُؤْذِيهِمْ أَحَدٌ وَتَصِيرُ لَهُمْ بِذَلِكَ خَفَارَةٌ .

أثر عشق الجن في الصرع

وهم يزعمون أن المجنون إذا صرعه الجنية وأن المجنونة إذا صرعها الجني أن ذلك إنما هو على طريق العشق والهوى وشهوة النكاح

وأن الشيطان يعشق المرأة من أن نظرت إليه من طريق العجب بما أشد عليها من حمى أيام وأن عين الجن أشد من عين الإنسان .

قال : وسمع عمرو بن عبيد رضي الله عنه ناساً من المتكلمين ينكرون صرع الإنسان للإنسان واستهواء الجن للإنس فقال وما ينكرون من ذلك وقد سمعوا قول الله عز ذكره في أكلة الربا وما يصيبهم يوم القيامة حيث قال : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ لَمْ يَخْطُ أَحَدًا لَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ أَكْلَةَ الرِّبَا فَقِيلَ لَهُ : وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ مَرَّةً فَذَهَبَ قَالَ : وَلَعَلَهُ قَدْ كَثُرَ فَازْدَادَ أَضْعَافًا قَالَ : وَمَا يُنْكِرُونَ مِنَ الْإِسْتِهْوَاءِ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ .

زعم العرب أن الطاعون طعن من الشيطان قال : والعرب تزعم أن الطاعون طعن من الشيطان ويسمونه الطاعون رماح الجن قال الأسدي للحارث الملك الغساني :

(لَعَمْرُكَ مَا خَشِيتُ عَلَى أَبِي * رِمَاحَ بَنِي مُقَيْدَةَ الْحِمَارِ) (وَلَكِنِّي خَشِيتُ عَلَى أَبِي * رِمَاحَ الْجِنِّ أَوْ إِيَّاكَ حَارِ) يقول : لم أكن أخاف على أبي مع منعه وصرامته أن يقتله الأندال ومن يرتبط المعير دون الفرس ولكني إنما كنت أخافك عليه فتكون أنت الذي تطعنه أو يطعنه طاعون الشام . وقال العُماني يذكر دولة بني العباس : وقال زيد بن جندب الإيادي : (ولولا رِمَاحُ الْجِنِّ مَا كَانَ هَزْهَمُ * رِمَاحِ الْأَعَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمٍ)

ذهب إلى قول أبي دؤاد : (سُلِّطَ الموتُ والمنونُ عليهم ** فلهم في صدى المقابر هَامٌ) يعني الطاعون الذي كان أصاب إباداً .

وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الطَّاعُونُ فقال : هو وَخَزٌ من عَدُوِّكُمْ : وأنَّ عَمْرُو بن العاص قام في النَّاسِ في طاعون عَمَوَاسَ فقال : إنَّ هذا الطَّاعُونُ قد ظهر وإنما هو وَخَزٌ من الشَّيْطَانِ ففَرُّوا منه في هذه الشَّعَابِ .

وبلغ مُعَاذُ بن جَبَلٍ فأنكر ذلك القول عليه . (تصور الجنَّ والغيلان والملائكة والناس) وترعم العامة أنَّ الله تعالى قد مَلَكَ الجنَّ والشياطينَ والعَمَّارَ والغيلانَ أن يتحوَّلوا في أيِّ صورة شاؤوا إلاَّ الغول فإنَّها تتحوَّلُ في جميع صورة المرأة ولباسها إلاَّ رجليها فلا بُدَّ من أن تكون رجلي حمار .

وإنما قاسوا تصوُّر الجن على تصوُّر جبريل عليه السلام في صورة دحية بن خليفة الكلبي وعلى تصوُّر الملائكة الذين أتوا مريم وإبراهيم ولوطاً وداود عليهم السلام في صورة الآدميين وعلى ما جاء في الأثر من تصوُّر إبليس في صورة سُرَّاقَة بن مالك بن جعشم وعلى تصوُّره في صورة الشيخ النجدي وقاسوه على تصوُّر مَلَكِ الموت إذا حضر لقبض أرواح بني آدم فإنه عند ذلك يتصوَّر على قدر الأعمال الصالحة والطالحة .

قالوا : وقد جاء في الخبر أنَّ من الملائكة من هو في صورة الرِّجَال ومنهم من هو في صورة الثَّيْرَانِ ومنهم من هو في صورة النسور ويدلُّ

على ذلك تصديقُ النبي صلى الله عليه وسلم لأمية بن أبي الصلت حين أنشد : (رَجُلٌ وَثُورٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ ** والنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَبَيْتٌ مُرْصَدٌ) قالوا : فإذا قد استقام أن تختلف صُورهم وأخلاق أبدانهم وتتفق عقولهم وبياناتهم واستطاعتهم جاز أيضاً أن يكون إبليس والشَّيْطَانُ والغول أن يتبدلوا في الصُّور من غير أن يتبدلوا في العقل والبيان والاستطاعة .

قالوا : وقد حوَّلَ الله تعالى جعفر بن أبي طالب طائراً حتى سماه المسلمون الطَّيَّارَ ولم يخرجْه ذلك من أن نراه غداً في الجنة وله مثلُ عقل أخيه علي رضي الله عنهما ومثل عقل عمه حمزة (

أحاديث في إثبات الشيطان

قالوا : وقد جاء في الأثر النهي عن الصَّلَاة في أعطان الإبل لأنها خلقت من أعنان الشياطين .
وجاء أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الصَّلَاة عند طلوع الشَّمْسِ حتى طلوعها فإنَّها بين قرني شيطان .
وجاء أنَّ الشياطين تُغَلِّ في رمضان .

فكيف تنكر ذلك مع قوله تعالى في القرآن : والشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ .
ولشهرة ذلك في العرب في بقايا ما ثبتوا عليه من دين إبراهيم عليه السلام قال النابغة الذبياني : (إلا
سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ لَهُ ** قُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ فَاحْذُوهَا عَنِ الْفَنَدِ) (وَخَيْسَ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ ** يَشُون
تَلْمُزَ بِالصُّفَّاحِ وَالْعَمْدِ) (فَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبَهُ مُعَاقِبَةً ** تَنْهَى الظُّلُومَ وَلَا تَقْعُدُ عَلَى ضَمْدٍ) وجاء في قتل
الأسود البهيم من الكلاب وفي ذي النُّكُتَيْنِ

وفي الحية ذات الطُّفَّتَيْنِ وفي الجانِّ .

وجاء : لا تشربوا من ثلثة الإناء فَإِنَّهُ كِفْلُ الشَّيْطَانِ وفي العاقد شعره في الصلاة : إِنَّهُ كِفْلُ الشَّيْطَانِ وَأَنَّ
النبي صلى الله عليه وسلم قال : تراصُّوا بينكم في الصلاة لا تتخللکم الشَّيَاطِينُ كَأَنَّهَا بَنَاتٌ حَذَفَ وَأَنَّهُ هَمِي
عن ذبائح الجنِّ .

وروا : أن امرأة أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : إن ابني هذا به جنونٌ يصيبه عند الغداء
والعشاء قال : فمسح النبي صلى الله عليه وسلم صدره فثع ثعة فخرج من جوفه جروٌ أسود يسعى .
قالوا : وقد قضى ابن علانة القاضي بين الجنِّ في دم كان بينهم بحكم أقنعهم .

رجع إلى تفسير قصيدة البهراني ثم رجع بنا القول إلى تفسير قصيدة البهراني : أما قوله : (وتزوَّجْتُ في
الشَّيْبَةِ غَوْلًا ** بغزالٍ وَصَدَّقْتِي زِقَّ خَمْرٍ) فرعم أنه جعل صداقها غزلاً وزِقَّ خمر فالخمر لطيب الرائحة
والغزال لتجعله مَرْكَبًا فَإِنَّ الطُّبَّاءَ مِنْ مَرَاكِبِ الْجِنِّ .
وأما قوله : (تَيْبٌ إِنْ هَوَيْتُ ذَلِكَ مِنْهَا ** ومتى شئتُ لم أجد غير بكرٍ)

شياطين الشعراء

وأما قوله : (بنت عَمْرٍ وَوَخَالَهَا مِسْحَلُ الْخِي ** ر وَخَالِي هُمِيمٌ صَاحِبُ عَمْرٍ) فَإِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ مَعَ كُلِّ
فحل من الشعراء شيطاناً يقول ذلك الفحل على لسانه الشعر فزعم البهراني أَنَّ هَذِهِ الْجَنِّيَّةُ بِنْتُ عَمْرٍ
صَاحِبِ

المخَبَلِ وَأَنَّ خَالَهَا مِسْحَلُ شَيْطَانِ الْأَعَشَى وَذَكَرَ أَنَّ خَالَهُ هُمِيمٌ وَهُوَ هَمَامٌ وَهَمَامٌ هُوَ الْفَرَزْدَقُ وَكَانَ غَالِبُ بْنُ
صَعْصَعَةَ إِذَا دَعَا الْفَرَزْدَقُ قَالَ : يَا هُمِيمُ .

وأما قوله : صَاحِبُ عَمْرٍ وَكَذَلِكَ أَيْضاً يُقَالُ إِنَّ اسْمَ شَيْطَانِ الْفَرَزْدَقِ عَمْرٍ وَقد ذكر الأعشى مِسْحَلًا
حين هجاه جُهَنَامَ فَقَالَ : (دَعَوْتُ خَلِيلِي مِسْحَلًا وَدَعَا لَهُ ** جُهَنَامَ جَدْعًا لِلْهَجِينِ الْمَذْمُومِ) وذكره
الأعشى فقال : (حَبَانِي أَخِي الْجَنِّيُّ نَفْسِي فِدَاؤُهُ ** بِأَفْيَحَ جَيْشِ الْعَشِيَّاتِ مِرْجَمٍ) وقال أعشى سليم :

(سقط : بيت الشعر) (وما كان جني الفرزدق قدوة ** وما كان فيهم مثل فحلي المخبل) (وما في الخوافي مثل عمرو وشيخه ** ولا بعد عمرو شاعرٌ مثلٌ مسحَل) وقال الفرزدق في مديح أسد بن عبد الله : (لِيُبلغن أبا الأشبال مدحتنا ** مَنْ كان بالغُورِ أو مَرُوي خراسانا) (كَأَنَّها الذَّهَبُ العَقِيانُ حَبَّها ** لسانُ أشعر خَلَقَ اللهُ شيطاناً) وقال : (فلو كُنْتُ عِنْدِي يومٌ قوُّ عذرتني ** يومَ دهْنِي جُنَّه وأخابله) فمن أجل هذا البيت ومن أجل قول الآخر : (إذا ما راعَ جارتَهُ فلاقى ** خبالَ اللهِ مِنْ إنسٍ وجِنٍّ) زعموا أنَّ الخابل التَّاس .

ولما قال بشَّار الأعمى : (دعاني شينِقناقٌ إلى خَلْفِ بكرةٍ ** فقلتُ : اتركني فالتفرَّدُ أحمَدُ) يقول : أحمَدُ في الشعر أن لا يكون لي عليه معين فقال أعشى سليم يردُّ عليه : (إذا أَلَفَ الجَنِّي قِرْدًا مُشْتَفًا ** فقل لخنازير الجزيرة أبشري) فجزع بشَّارٌ من ذلك جزعاً شديداً لأنَّه كان يعلم مع تغزُّله أنَّ وجهه وجهُ قِرْدٍ وكان أوَّل ما (ويا أقبحَ من قِرْدٍ ** إذا ما عَمِيَ القِرْدُ) وأما قوله : (ولها خِطَّةٌ بأرضٍ وبار ** مسحوها فكان لي نصفُ شطرٍ) فإنما ادَّعى الرُّبْع من ميراثها لأنَّه قال :

(تركتُ عَبْدلاً ثَمالَ اليتامى ** وأخوه مزاحمَ كان بكر) (وَضَعَتْ تِسْعَةً وكانتْ نَزوراً ** من نِساءٍ في أهلها غيرُ نُزْرٍ) وفي أنَّ مع كلِّ شاعرٍ شيطاناً يقول معه قول أبي النجم : (إني وكلَّ شاعرٍ من البَشَرِ ** شيطانه أنثى وشيطاني ذكر) وقال آخر : (إني وإن كنتُ صغيرَ السِّنِّ ** وكان في العين بُؤٌّ عني) فإنَّ شيطاني كبير الجنِّ

كلاب الجن

وأما قول عمرو بن كلثوم : فإنهم يزعمون أنَّ كلاب الجنِّ هم الشعراء .

أرض الجن

وأما قوله : (أرض حُوشٍ وجمالٍ عَكَنانٍ ** وغُروجٍ من المؤبَّلِ دَثَرٍ)

فأرض الحوش هي أرضُ وَبارٍ وقد فسَّرنا تأويل الحوش والعَكَنان : الكثير الذي لا يكون فوقه عدد قوله : عروج جمع عَرَجٍ والعَرَج : أَلَفٌ من الإبل نقص شيئاً أو زاد شيئاً والمؤبَّل من الإبل يقال إبل مؤبَّلة ودراهم مُدْرَهمة وبدر مبدرة مثل قوله تعالى : وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ وأما قوله : دثر فإنهم يقولون : مال دَثَرٌ ومالٌ دَبَرٌ ومال حَوْمٌ : إذا كان كثيراً .

استراق السمع

وأما قوله : (وَنَفَوْا عَنْ حَرِيمِهَا كُلَّ عَفْرِ ** يسرقُ السَّمْعَ كُلَّ لَيْلَةٍ بَدْرٍ) فالعِفْرُ هو العفريت وجعله لا يسرق السمع إلا جهاراً في أضواء ما يكون البدر من شدة معاندته وفرط قوته .
وأما قوله : (فِي فُتُوٍّ مِنَ الشَّنَقْنَقِ غُرٌّ ** ونساء من الزَّوابع زُهرٍ)

الزوابع : بنو زُوبعة الجَنِّي وهم أصحاب الرَّهَج والقَتَام والتَّثْوِير وَقَالَ راجزهم : (إِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَوْنِي أَرْبَعَهُ ** فِي عَيْشِ اللَّيْلِ وَفِيهِمْ زَوْبَعُهُ) فأما شَنَقْنَق وشَيْصَبَان فقد ذكرهما أبو النجم : لابن شَنَقْنَق وشَيْصَبَان فهذان رئيسان ومن آباء القبائل وقد قال شاعرهم : (إِذَا مَا تَرَعَرَعَ فِينَا الْغَلَامُ ** فليس يقال له من هُوَ) (إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ الْإِزَارِ ** فذلك فينا الذي لا هُوَ) (ولي صاحبٌ من بني الشَّيْصَبَا ** ن فطوراً أَقُولُ وطوراً هُوَ)

وهذا البيت أيضاً يصلح أن يلحق في الدليل على أنهم يقولون : إن مع كل شاعر شيطناً ومن ذلك قول بشَّار الأعمى : (دَعَانِي شَنَقْنَقٌ إِلَى خَلْفِ بَكْرَةٍ ** فقلت : اتْرُكْنِي فَالْتَفَرُّدُ أَحْمَدُ) قال : وأصحاب الرُّقَى والأخذ والعزائم والسَّحَر والشَّعْبَذَة

يزعمون أنَّ العدد والقوَّة في الجنِّ والشَّيَاطِينَ لَنَازِلَةُ الشَّامِ والهند وأنَّ عظيم شياطين الهند يقال له : تنكوير وعظيم شياطين الشام يقال له : دركاذب .

وقد ذكرهما أبو إسحاق في هجائه محمد بن يَسِير حين ادَّعى هذه الصناعة فقال : (قد لعمرى جمعت مِلَّ آصَفِيَا ** ت ومن سَفَرِ آدَمِ والجِرَابِ) (وتفردت بالطوالق والهي ** كل والرهنيات من كلِّ بابِ)

(وعلمت الأسماء كيما تُلاقي ** زُحلاً والمريخ فوق السحابِ) (واستثرت الأرواح بالبحر يأت ** ين لصرع الصحيح بعد المصابِ) (جامعاً من لطائف الدهشياء ** ت كبوساً نمقتها في كتابِ) (ثُمَّ أَحْكَمْتَ مَتَقْنَ الْكُرُويَا ** ت وفعل الناريس والنجابِ) (ثُمَّ لَمْ تَعْيِكَ الشَّعَابِيذُ وَالْخُدَّ ** مةً وَالْاحْتِفَاءُ بِالطَّلَابِ) (بِالْخَوَاتِيمِ وَالْمَنَادِيلِ وَالسَّعِ ** ي بَتْنَكُويرٍ وَدِرْكَاذَابِ) قتل الغول بضربة واحدة وأما قوله : فَإِنَّ الْأَعْرَابَ وَالْعَامَّةَ تَرْغُمُ أَنَّ الْغُولَ إِذَا ضُرِبَتْ ضَرْبَةً مَاتَتْ إِلَّا أَنْ يُعِيدَ عَلَيْهَا الضَّرَابُ قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ تُمِتْ وَقَالَ شاعرهم :

(فَتَنَيْتُ وَالْمِقْدَارُ يَحْرُسُ أَهْلَهُ ** فَلَيْتَ يَمْنِي قَبْلَ ذَلِكَ شَلَّتِ) وأنشد لأبي البلاد الطُّهُوي : (لَهَا نَ عَلَى جَهَنَّمَ مَا أَلَا قِي ** من الروعاتِ يَوْمَ رَحَى بَطَانِ) (لَقَيْتُ الْغُولَ تَسْرِي فِي ظِلَامٍ ** بسهبٍ كَالْعَبَايَةِ صَحْصَحَانِ) (فَقُلْتُ لَهَا كَلَانَا قُضِ أَرْضِ ** أَخُو سَفَرٍ فَصَدَّى عَنْ مَكَانِي) (فَصَدْتُ وَانْتَحَيْتُ لَهَا بَعْضُ ** حَسَامٍ غَيْرِ مُؤْتَشَبٍ يَمَانِي) (فَقَدْ سَرَا تَهَا وَالْبَرْكُ مِنْهَا ** فَخَرْتُ لِلْيَدِينِ وَلِلْجِرَانِ) (فَقَالَتْ زِدْ فَقُلْتُ رَوَيْدَ إِنِّي ** عَلَى أَمَثَالِهَا ثَبْتُ الْجَنَانِ) (شَدَدْتُ عَقَالَهَا وَحَطَطْتُ عَنْهَا ** لِأَنْظُرَ غَدَوَةَ مَاذَا دَهَانِي) (إِذَا عَيْنَانِ فِي وَجْهِ قَبِيحٍ ** كَوَجْهِ الْهَرِّ مَشْقُوقِ اللِّسَانِ) (وَرَجُلَا مَخْدَجٍ وَلِسَانٍ كَلْبٍ ** وَجِلْدٌ مِنْ فِرَاءٍ أَوْ سَنَانِ)

وأبو البلاد هذا الطهوي كان من شياطين الأعراب وهو كما ترى يكذب وهو يعلم ويُطيل (فقالت زِدْ فقلت رُوَيْدَ إني ** على أمثالها ثَبَّتُ الْجَنَانِ) لأنهم هكذا يقولون يزعمون أن الغول تستزيد بعد الضربة الأولى لأنها تموت من ضربة وتعيش من ألف ضربة . (مناكحة الجنِّ ومحالفتهم) وأما قوله : (غلبتني على النجابة عرسي ** بعد أن طالَ في النجابة ذكري) (وأرى فيهم شمائل إنسٍ ** غير أن التجار صورة عفر) فإنه يقول : لما تركب الولد مني ومنها كان شبهها فيه أكثر .
وقال عبيد بن أئوب : (أخو قفرات حالف الجن وانفضى ** من الإنس حتى قد تقصت وسائله)

(له نسب الإنسي يعرف نجله ** وللعن منه خلقه وشمائله) وقال : (وصار خليل الغول بعد عداوة ** صقياً وربته القفار البسابس) (يظل ولا يبدو لشيء نهاره ** ولكنّه ينبأغ والليل دامس) قال : وقال القعقاع بن مَعْبَد بن زُرارة في ابنه عوف بن القعقاع : والله لما أرى من شمائل الجن في عوف أكثر مما أرى فيه من شمائل الإنس .

وقال مسلمة بن محارب : حدثني رجل من أصحابنا قال : خرجنا في سفر ومعنا رجل فانتبهنا إلى واد فدعونا بالغداء فمدّ رجل يده إلى الطعام فلم يقدر عليه وهو قبل ذلك يأكل معنا في كل منزل فاشتدّ اغتنامنا لذلك فخرجنا نسأل عن حاله فلقنا أعرابي فقال : ما لكم فأخبرناه خبر الرجل فقال : ما اسم صاحبكم قلنا : أسد

قال : هذا واد قد أخذت سباعه فارحلوا فلو قد جاوزتم الوادي استمرى الرجل وأكل .

مراكب الجن

وأما قوله : (وبها كنت ركباً حشرات ** ملجماً قنفذاً ومُسرج وبر) (وأجوب البلاد تحي ظبي ** صاحك سنه كثير التمري) (موج دُبره حواية مكو ** وهو بالليل في العفاريت يسري) وأنشد ابن الأعرابي لبعض الأعراب : (كل المطايا قد ركبنا فلم نجد ** ألد وأشهى من مذاكي الثعالب) (ومن عنطوان صعبة شمريه ** تخب برجليها أمام الركائب)

(ومن جرد سرح اليمين مفرج ** يعوم برحلي بين أيدي المراكب) (ومن فارة تزداد عتقا وحلة ** تبرح بالخصوص العتاق التجائب) (ومن كل فتلاء الذراعين حرّة ** مدربة من عافيات الأرناب) (ومن ورل يغتال فضل زمامه ** أضرب به طول السرى في السبابس) قال ابن الأعرابي : فقلت له : أترى الجن كانت تركبها فقال : أحلف بالله لقد كنت أجد بالطباء التوقيع في ظهورها والسمة في الآذان وأنشد :

(كل المطايا قد ركبنا فلم نجد ** ألد وأشهى من ركوب الجنادب) (ومن عصفروط حط بي فأقمته ** يبادر ورداً من عطاء قوارب) (وشر مطايا الجن أرنب خلة ** وذئب الغضا أوق على كل صاحب) (ولم أر فيها مثل قنفذ برقة ** يقود قطاراً من عظام العناكب) (وقد فسرنا قولهم في الأرناب لم لا تركب وفي

أرب الخلة وقنفذ البرقة .

وحدثني أبو نواس قال : بكرتُ إلى المربد ومعِيَ ألواحِي أطلبُ أعرابياً فصيحاً فإذا في ظلِّ دار جعفر أعرابيٍّ لم أسمع بشيطان أقيح منه وجهاً ولا بإنسان أحسن منه عقلاً وذلك في يومٍ لم أر كبرده برداً فقلتُ له : هلاً قعدت في الشمس فقال : الخلوة أحبُّ إليَّ فقلتُ له

مازحاً : أرايت القنفذ إذا امتطاه الجنيُّ وعلا به في الهواء هل القنفذ يحمل الجنيَّ أم الجنيُّ يحمل القنفذ قال :

(هذا من أكاذيب الأعراب وقد قلت في ذلك شعراً قلت فأنشدنيهِ فأنشدني بعد أن كان قال لي : قلت هذا الشعر وقد رأيت ليلة قنفذاً ويربوعاً يلتمسان بعض الرزق : (فما يُعجبُ الجنانَ منك عديمتهنَّ ** وفي الأسد أفراسٌ لهم ونجائبُ) (أتسرج يربوعٌ وتُلجم قنفذاً ** لقد أعوزتهم ما علمت المراكبُ) (فإن كانت الجنانُ جنت فبالحرى ** ولا ذنب للأقدار والله غالبُ) (وما الناس إلا خادعٌ ومخدعٌ ** وصاحبُ إسهابٍ وآخر كاذبُ) قال : فقلتُ له : قد كان ينبغي أن يكون البيت الثالث والرابع بيت آخر قال : كانت والله أربعين بيتاً ولكنَّ الحطمة والله حطمتها قال : فقلتُ : فهل قلت في هذا الباب غير هذا قال : نعم شيءٌ قلتهُ لزوجتي وهو والله عندها أصدقُ شيءٍ قلتهُ لها : (أراه سميعاً للسرار كقنفذٍ ** لقد ضاع سرُّ الله يا أمَّ معبدٍ)

شعر فيه ذكر الغول

ويكتب مع شعر أبي البلاد الطهوي : (فمن لامي فيها فواجه مثلها ** على غيرة ألفت عطاها ومنزرا) (لها ساعداً غول ورجلاً نعامه ** ورأس كمشحاة اليهودي أزعراً) (وبطن كائنات المردة رفعت ** جوانبه أعكائه وتكسراً)

(وثديان كالخرجين نيطت غراهما ** إلى جوجو جاني الترائب أزوراً) قال : كان أبو شيطان واسمه إسحاق بن رزين أحد بني السمط سمط جعدة ابن كعب فأتاهم أميرٌ فجعل ينكب عليهم جوراً وجعل آخر من أهل بلده ينقب عليهم : أي يكون عليهم نقيباً . فجعل يقول : (يا ذا الذي نكبتنا ونقبا ** زوجه الرحمن غولاً عقرباً) (جمع فيها ماله ولبأ ** لبالب التيس إذا تهبها) (حتى إذا ما استطربت واستطرباً ** عاين أشنا خلق ربيزربنا) ذات نواتين وسلع أسقبا

يعني فرجها ونواتها . يقول . لم تختن .

جنون الجن وصرعهم

وأما قوله : فإن كانت الجَنَانُ جُنَّتْ فبالحرى فإنهم قد يقولون في مثل هذا وقد قال دَعْلُجُ بن الحكم : (وكيف يفيق الدهرَ كعبُ بنُ ناشبٍ ** وشيطانه عندَ الأهلةِ يُصرَعُ) شعر فيه ذكر الجنون وأنشدني عبد الرحمن بن منصور الأُسَيْدِيُّ قبل أن يُجَنَّ : (جنونك مجنونٌ ولست بواجدٍ ** طَبِيباً يُداوي من جنون جنون) وأنشدني يومئذ : (أتوني بمجنون يسيلُ لعابهُ ** وما صاحي إلا الصَّحِيحُ المسلَّم) وفيما يشبه الأول يقول ابن ميادة :

(فلما أتاني ما تقولُ محاربٌ ** تَغَنَّتْ شياطيني وجُنَّ جنونُها) (وحَاكَتْ لها لما أقول قصائدًا ** تراحتُ بها صُهْبُ المَهَارِي وجُونُها) (إنَّ شرَّ الشَّبابِ والشَّعرِ الأَسَّ ** ودَّ ما لم يُعاصَ كان جنونا) وقال الآخر : (قالت عهدتُك مجنوناً فقلتُ لها ** إنَّ الشَّبابَ جنونٌ بُرؤهُ الكبرُ) وما أحسن ما قال الشاعر حيث يقول : (فدَقَّت وجَلَّتْ واسبكرت وأكملت ** فلو جنَّ إنسانٌ من الحُسْنِ جُنَّتِ)

وما أحسن ما قال الآخر : (حمراء تامِكَةُ السَّنامِ كأنَّها ** جَمَلٌ بمودج أهلهِ مظعونُ) (جادتُ بها عند الغداةِ يمين ** كلتا يدي عَمَرُو الغداةِ يمينُ) (ما إن يجودُ بمثلها في مثلها ** إلا كريمُ الحليمِ أو مجنونُ) وقال الجميع : (لو أنني لم أنلُ منكم مُعاقبةً ** إلا السَّنانَ لذاقَ الموتَ مظعونُ) (أو لاخطبتُ فإني قد هَمَمْتُ به ** بالسَّيفِ إنَّ خطيبَ السَّيفِ مجنونُ)

وأنشد : (هُم أَحَمَوَا حِمَى الوَقْبَى بضربٍ ** يؤلَّفُ بَيْنَ أَشتاتِ المُتون) وأنشدني جعفر بن سعيد : (إنَّ الجنونَ سِهَامٌ بين أربعةٍ ** الرِّيحُ والبحرُ والإنسانُ والجَمَلُ) وأنشدني أيضاً : (اخنَرَ مغايظَ أقوامِ ذوي حَسَبٍ ** إنَّ المغيظَ جهولُ السَّيفِ مجنونُ) وأنشدني أبو تمام الطائي : (من كلِّ أصْلَعٍ قد مالتَ عمامتهُ ** كأنَّه من حِذارِ الضَّيِّمِ مجنونُ) وقال القطامي : (يَتَبَعْنَ سَامِيَةَ العَيْنينَ تحسبُها ** مجنونةٌ أو تُرى ما لا تُرى الإبلُ)

وقال في المعنى الأولَ الرِّفَافُ العُوافي : (أنا العُوافي فَمَنْ عاداني ** أدقَّتْهُ بواِدِرُ الهوان) حتَّى تراه مُطْرِقَ الشَّيْطَانِ وقال مروان بن محمد :

(وإذا تجنَّ شاعرٌ أو مُفَحِّمٌ ** أسعطته بمرارة الشَّيْطَانِ) وقال ابن مُقْبِل : وقد صغَرَ الدُّهَيْمُ ليس على التحقير ولكن هذا مثل قولهم : دَبَّتْ إليهم دويهيَّة الدهر .
أحاديث الفلاة وقال أبو إسحاق : وأما قول ذي الرُّمَّة : (إذا حَثَّهِنَّ الرِّكَبُ في مُدْهَمَّةٍ ** أحاديثُها مثلُ اصطخَابِ الضَّرَائِرِ) قال أبو إسحاق : يكون في النَّهار ساعاتُ ترى الشَّخْصَ الصَّغِيرَ في تلك المهامه عظيمًا ويوجد الصَّوْتُ الخافضُ رفيعاً ويُسمع الصَّوْتُ الذي ليس بالرفيع مع انبساط الشَّمْسِ غدوة من المكان البعيد ويوجد لأوساط الفياض والقفار والرَّمال والحرار في أنصاف النَّهار مثلُ اللَّوِيِّ من طبع ذلك الوقت وذلك المكان عند ما يعرض له ولذلك قال ذو الرُّمَّة : (إذا قال حادينا لتشبيهه نَبَأٌ ** صَهٍ لم يكن

(إلا دويّ المسامع)

قالوا : وبالدّويّ سميت دويّة وداوية وبه سمّي الدوّ دَوًّا .

تعليل ما يتخيله الأعراب من عزيف الجنان وتغول الغيلان

وكان أبو إسحاق يقول في الذي تذكر الأعراب من عزيف الجنان

وتغول الغيلان : أصلُ هذا الأمرُ وابتدأؤه أنّ القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ومن انفرد وطال مُقامه في الوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى أو بالتفكير والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة وقد ابتلى بذلك غيرُ حاسب كأي يس ومُثنّى ولد القنافر .
وخبرني الأعمش أنه فكر في مسألة فأنكر أهله عقله حتى حمّوه وداووه .

وقد عرض ذلك لكثير من الهند .

وإذا استوحش الإنسان تمثّل له الشّيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرّق ذهنه وانتقضت أخلاطه فرأى ما لا يرى وسمع ما لا يُسمع وتوهم على الشّيء اليسير الحقيق أنه عظيمٌ جليل .
ثم جعلوا ما تصوّر لهم من ذلك شعرا تناشدوه وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيماناً ونشأ عليه الناشئ ورُئي به الطّفل فصار أحدهم حين يتوسّط الغيافي وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس فعند أوّل وحشة وفرعة وعند صياح بُوم ومجاوبة صدّى وقد رأى كلّ باطل وتوهم كلّ زور وربما كان في أصل الخلق والطبيعة كذاباً نفاجاً وصاحب تشنيع وقهويل فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصّفة فعند ذلك يقول : رأيتُ الغيلان وكلمت السّعلاة

ثمّ يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتهما ثمّ يتجاوز ذلك إلى أن يقول : رافقتها ثمّ يتجاوز ذلك إلى أن يقول : تزوّجتها . (فلله درُّ الغول أيُّ رقيقةٍ * لصاحب قفرٍ خائفٍ متقترٍ) وقال : (أهذا خليلُ الغولِ والذئبِ والذي * يهيمُ برّباتِ الحِجالِ المراكِلِ) وقال : (أخو قفّراتِ حالفِ الجنِّ وانتفى * من الإنسِ حتى قد تقصّصت وسائله) (له نسبُ الإنسيّ يُعرفُ نجله * وللجنِّ منه خَلْقُه وشمائله) وهما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومدّ لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه (الأخبار إلا أعرابياً مثلهم وإلا عامياً لم يأخذ نفسه قط بتميّز ما يستوجب التكذيب والتّصديق أو الشكّ ولم يسلك سبيل التوقف والتّثبت في هذه الأجناس قطّ وإمّا أن يلقوا رَاوِيَةً شعر

أو صاحب خبرٍ فالرّواية كلّما كان الأعرابيُّ أكذبَ في شعره كان أطرفَ عنده وصارت روايته أغلبَ ومضاحيكُ حديثه أكثر فلذلك صار بعضهم يدّعي رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها وآخر يزعم أنه رافق في مفازةٍ نمرّاً فكان يطاعمه ويؤاكله فمن هؤلاء خاصّة القتال الكلاي فإنّه الذي يقول : (أيرسلُ

مَرَوَانُ الأَمِيرُ رسالة ** لَاتِيهِ إِنِّي إِذَا لَمَصَلُّ (سقط : بيت الشعر) (وما بي عصيان ولا بعد منزل **
ولكنني من خوف مروان أو جل)

(وفي باحة العَنَقَاءِ أو في عَمَايَةٍ ** أو الأَدَمِي من رَهْبَةِ الموتِ مَوْتُلُ) (ولي صاحبٌ في الغارِ هَدَكُ صاحباً **
هو الجَوْنُ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْلَلُ) (إِذَا مَا التَقَيْنَا كَانَ جُلَّ حَدِيثِنَا ** صُمَاتٌ وَطَرْفٌ كَالْمَعَابِلِ أَطْحَلُ) (تَضَمَّنَتْ
الْأَرْوَى لَنَا بِطَعَامِنَا ** كَلَانَا لَهُ مِنْهَا نَصِيبٌ وَمَأْكَلُ) (فَأَغْلِبُهُ فِي صَنَعَةِ الزَّوَادِ إِنِّي ** أُمِيطُ الْأَذَى عَنْهُ وَلَا
يَتَأَمَّلُ)

(وَكَانَتْ لَنَا قَلْتُ بِأَرْضِ مَصْلَةٍ ** شَرِيعَتُنَا لِأَيْنَا جَاءَ أَوَّلُ) (كَلَانَا عَدُوٌّ لَوْ يَرَى فِي عَدُوِّهِ ** مَحْزَأٌ وَكَلُّ
فِي الْعَدَاوَةِ مُجْمِلُ) (وَأَنْشِدِ الْأَصْمَعِي : (ظَلَلْنَا مَعًا جَارَيْنِ نَحْتَرِسُ الثَّأْيَ ** يُسَائِرُنِي مِنْ نُطْفَةٍ وَأَسَائِرُهُ)
ذَكَرَ سَبْعًا وَرَجُلًا قَدْ تَرَافَقَا فَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْعُ فَضْلًا مِنْ سُورِهِ لِيَشْرَبَ صَاحِبُهُ الثَّأْيَ : الفساد
وخبِرَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَحْتَرِسُ مِنْ صَاحِبِهِ .

وقد يستقيم أن يكون شعر النابغة في الحية وفي القتل صاحب القبر وفي أخيه المصالح للحية أن يكون إنما
جعل ذلك مثلاً وقد أثبتناه في باب الحيات فلذلك كرهنا إعادته في هذا الموضع فأما جميع ما ذكرناه عنهم
فإنما يخبرون عنه من جهة المعاينة والتحقيق وإنما المثل في هذا مثل

(قد كان شيطانك من خطأها ** وكان شيطاني من طلابها) حيناً فلما اعتراك ألقى بها الاشتباه في
الأصوات والإنسان يجوع فيسمع في أذنه مثل الدوي وقال الشاعر : (دويُّ الفَيَافِي رَابَهُ فَكَأَنَّهُ ** أَمِيمٌ
وساري الليل للضرِّ مُعَوِّرُ) مُعَوِّرُ : أي مُصْحَرُ .
وربما قال الغلام لمولاه : أدعوتني فيقول له : لا وإنما اعتري مسامعه ذلك لعرض لا أنه سمع صوتاً .
ومن هذا الباب قول تأبط شراً أو قول قائل فيه في كلمة له :

(يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمَسِّي بِقَفْرَةٍ ** جَحِيشًا وَيَعْرُوزِي ظُهُورَ الْمَهَالِكِ) (وَيَسْبِقُ وَقَدْ الرِّيحَ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي **
بِمَنْخَرٍ مِنْ شَدِّهِ الْمَتَارِكِ) (إِذَا خَاطَ عَيْنِيهِ كَرَى التَّوَمَ لَمْ يَزَلْ ** لَهُ كَالِيٍّ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانٍ فَاتِكِ) (
وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ رَبِيبَةً قَلْبِهِ ** إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَخْضَرٍ بَاتِكِ) (إِذَا هَزَّهُ فِي عَظَمِ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ ** نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ
الْمَنَايَا الضَّوَّاحِكِ) نزول العرب بلاد الوحش والحشرات والسباع ويدل على ما قال أبو إسحاق من نزولهم
في بلاد الوحش

وبين الحشرات والسباع ما رواه لنا أبو مُسَهَّرٍ عن أعرابيٍّ من بني تميم نزل ناحية الشَّامِ فكان لا يَعْدُمُهُ في
كلِّ ليلةٍ أَنْ يَعْصَهُ أو يَعْصُ وَلَدَهُ أو بَعْضَ حَاشِيَتِهِ سَبْعٌ مِنَ السَّبَاعِ أو دَابَّةٌ مِنْ دَوَابِّ الْأَرْضِ فَقَالَ : (
تَعَاوَرَنِي دِينَ وَذُلٌّ وَغُرْبَةٌ ** وَمَزَقَ جِلْدِي نَابُ سَبْعٍ وَمِخْلَبُ) (وفي الأرض أحنشٌ وسبعٌ وحاربٌ **
ونحن أسارى وسطحها نتقلبُ) (رُتَيْلًا وَطَبُوعٌ وَشِبْثَانُ ظُلْمَةٍ ** وَارْقُطُ حُرْقُوصٌ وَضَمَجٌ وَعَقْرَبُ) (ونمل

كَأَشْخَاصِ الْخَنَافِسِ قُطِبَ ** وَأَرْسَالُ جَعْلَانٍ وَهَزْلِي تَسَرَّبُ) (وَغُثُّ وَحَفَاتُ وَضَبُّ وَعَرِبِدُ ** وَذَرُّ
وَدَحَاسٍ وَفَارٌّ وَعَقْرَبُ) (وَهَرُّ وَظَرَبَانٌ وَسِمْعٌ وَدَوْبَلٌ ** وَثُرْمَلَةٌ تَجْرِي وَسَيْدٌ وَثَعْلَبُ)

(وَغَمْرٌ وَفَهْدٌ ثُمَّ ضِعٌّ وَجِيَالٌ ** وَلَيْثٌ يُجُوسُ الْأَلْفَ لَا يَتَهَيَّبُ) (وَلَمْ أَرَ آوَى حَيْثُ أَسْمَعُ ذِكْرَهُ ** وَلَا
الدُّبَّ إِنَّ الدُّبَّ لَا يَتَنَسَّبُ) فَأَمَّا الرُّتَيْلَا وَالطَّبُوعُ وَالشَّبَثُ وَالْحُرْقُوصُ وَالضَّمَجُ وَالْعَنْكَبُوتُ وَالْخَنْفُسَاءُ
وَالْجُعْلُ وَالْعُثُّ وَالْحَفَاتُ وَالْدَحَاسُ وَالظَّرَبَانُ وَالذَّبُّ وَالتَّلْعَبُ وَالنَّمْرُ وَالْفَهْدُ وَالضَّعْبُ وَالْأَسَدُ فَسَقُولُ فِي
ذَلِكَ إِذَا صَرْنَا إِلَى ذِكْرِ هَذِهِ الْأَبْوَابِ وَقَبْلَ ذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِ الْحَشَرَاتِ فَأَمَّا الضَّبُّ وَالْوَرَلُ)
وَالْعَقْرَبُ وَالْجُعْلُ وَالْخَنْفُسَاءُ وَالسَّمْعُ فَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَهَزْلِي تَسَرَّبُ فَالْهَزْلِي هِيَ
الْحَيَاتُ كَمَا قَالَ جَرِيرُ :

مَزَاحِفَ هَزْلِي بَيْنَهَا مَتَابَعْدُ وَكَمَا قَالَ الْآخَرُ : (كَأَنَّ مَزَاحِفَ الْهَزْلِي عَلَيْهَا ** خَدُودُ رَصَائِعٍ جُدِلَتْ ثَوَامًا)
وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَلَمْ أَرَ آوَى حَيْثُ أَسْمَعُ ذِكْرَهُ فَإِنَّ ابْنَ آوَى لَا يَنْزِلُ الْقَفَارَ وَإِنَّمَا يَكُونُ حَيْثُ يَكُونُ الرِّيفُ .
وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَيْثُ قَالَ هَذَا الشَّعْرُ تَوَهَّمُ أَنَّهُ بَبِيضُ نَجْدٍ .
وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَلَا الدُّبَّ إِنَّ الدُّبَّ لَا يَتَنَسَّبُ فَإِنَّ الدُّبَّ عِنْدَهُمْ عَجْمِيٌّ وَالْعَجْمِيُّ لَا يَقِيمُ نَسَبَهُ .
وَرَوَوْا فِي الْمُلْحِ أَنَّ فَتًى قَالَ لَجَارِيَةٍ لَهُ أَوْ لَصَدِيقَةٍ لَهُ : لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحْسَنُ مِنِّي : وَلَا أَمْلَحُ مِنِّي فَصَارَ
عِنْدَهَا كَذَلِكَ فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهَا عَلَى

هَذِهِ الصِّفَةِ إِذْ قَرَعَ عَلَيْهَا الْبَابَ إِنْسَانٌ يَرِيدُهُ فَاطَّلَعَتْ عَلَيْهِ مِنْ خَرَقِ الْبَابِ فَرَأَتْ فَتًى أَحْسَنَ النَّاسِ
وَأَمْلَحَهُمْ وَأَتْبَلَهُمْ وَأَتَمَّهُمْ فَلَمَّا عَادَ صَاحِبُهَا إِلَى الْمَنْزِلِ قَالَتْ لَهُ : أَوْ مَا أَخْبَرْتَنِي أَنَّكَ أَمْلَحُ الْخَلْقِ وَأَحْسَنُهُمْ
قَالَ : بَلَى وَكَذَلِكَ أَنَا فَقَالَتْ : فَقَدْ أَرَادَكَ الْيَوْمَ فَلَانَ وَرَأَيْتُهُ مِنْ خَرَقِ الْبَابِ فَرَأَيْتُهُ أَحْسَنَ مِنْكَ وَأَمْلَحَ قَالَ
: لَعَمْرِي إِنَّهُ لَحَسَنٌ مَلِيحٌ وَلَكِنَّ لَهُ جَنِّيَّةً تَصْرَعُهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّتَيْنِ وَهُوَ يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَسْقُطَهُ مِنْ عَيْنِهَا
قَالَتْ : أَوْ مَا تَصْرَعُهُ فِي الشَّهْرِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي جَنِّيَّةٌ لَصْرَعْتُهُ فِي الْيَوْمِ أَلْفَيْنِ .
وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَرْعَ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ لَيْسَ هُوَ عِنْدَ الْعَوَامِّ إِلَّا عَلَى جِهَةٍ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْجَمَاعِ .
وَمِنْ هَذَا الضَّرْبِ مِنَ الْحَدِيثِ مَا حَدَّثَنَا بِهِ الْمَازِنِيُّ قَالَ : ابْتَاعَ فَتًى صَلَفٌ بَذَاخَ جَارِيَةٍ حَسَنَاءَ بَدِيعَةٍ ظَرِيفَةٍ
فَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهَا قَالَ لَهَا مَرَارًا وَيْلَكَ مَا أَوْسَعَ حَرَكٍ فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهَا قَالَتْ : أَنْتَ الْفِدَاءُ لِمَنْ كَانَ يَمْلُؤُهُ .
فَقَدْ سَمِعَ هَذَا كَمَا تَرَى مِنَ الْمَكْرُوهِ مِثْلَ مَا سَمِعَ الْأَوَّلُ .)
وَزَعَمُوا أَنَّ رَجُلًا نَظَرَ إِلَى امْرَأَةٍ حَسَنَاءَ ظَرِيفَةٍ فَالَحَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ : مَا تَنْظُرُ قُرَّةَ عَيْنِكَ

وَزَعَمَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيُّ أَنَّ رَجُلًا تَبَعَ جَارِيَةً لِقَوْمٍ فَرَاوَعَتْهُ فَلَمْ يَقْطَعْ عَنْهَا فَحَثَّتْ فِي الْمَشْيِ فَلَمْ يَقْطَعْ عَنْهَا
فَلَمَّا جَاذَتْ بِمَجْلِسِ قَوْمٍ قَالَتْ : يَا هَؤُلَاءِ لِي طَرِيقٌ وَلِهَذَا طَرِيقٌ وَمَوْلَايَ يَنْيَكُنِي فَسَلُّوا هَذَا مَا يَرِيدُ مِنِّي
وَزَعَمَ أَيْضًا أَنَّ سَيَارَ الْبَرْقِيِّ قَالَ : مَرَّتْ بَنَا جَارِيَةٌ فَرَأَيْنَا فِيهَا الْكِبَرَ وَالتَّجَرُّ فَقَالَ بَعْضُنَا : يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
مَوْلَى هَذِهِ الْجَارِيَةِ يَنْيَكُهَا قَالَتْ : كَمَا يَكُونُ .

فلم أسمع بكلمة عامية أشنع ولا أدلّ على ما أرادت ولا أقصر من كلمتها هذه .
وقد قال جحشويه في شعر شبيهاً بهذا القول حيث يقول : (تواعدني لتكحني ثلاثاً ** ولكن يا مشوم بأيّ
أيرٍ) فلو خُطبت في صفة أيرٍ خطبة أطول من خطبة قيس بن خازجة بن سنان في شأن الحمالة لما بلغ مبلغ
قول جحشويه : ولكن يا مشوم بأيّ أيرٍ وقول الخادم : كما يكون .

وزعموا أن فتى جلس إلى أعرابية وعلمت أنّه إنما جلس لينظر إلى محاسن ابنتها فضربت بيدها على جنبها ثم
قالت : (علنداة يئط الأيرُ فيها ** أطيط العرّز في الرّحل الجديد) ثم أقبلت على الفتى فقالت : ودخل
قاسم منزل الخوارزمي النخّاس فرأى عنده جارية كأنها جانّ وكأنها خوط بانٍ وكأنها جدل عنان وكأنه
الياسمين نعمةً وبياضاً فقال لها : أشتريك يا جارية فقالت : افتح كيسك تسرّ نفسك ودخلت الجارية منزل
النخّاس فاشتراها وهي لا تعلم ومضى إلى المنزل ودفعها الخوارزمي إلى غلامه فلم تشعر الجارية إلا وهي
معه في جوف بيت فلما نظرت إليه وعرفت ما وقعت فيه قالت له : ويلك إنك والله لن تصل إليّ إلا بعد
أن أموت فإن كنت تجسرّ على نيك من قد أدرجوه في الأكفان فدوّنك والله إن زلت منذ رأيتك ودخلت
إلى الجوّاري أصف هنّ قبحك وبلية امرأتك بك فأقبل عليها يكلمها بكلام المتكلمين فلم تقبل منه فقال :
فلم

قلت لي : افتح كيسك تسرّ نفسك وقد فتحت كيسي فدعيني أسرّ نفسي وهو يكلمها وعين الجارية إلى
الباب ونفسها في توهم الطريق إلى منزل النخّاس فلم يشعر قاسم حتّى وثبت وثبة إلى الباب كأنها غزال ولم
يشعر الخوارزمي إلا والجارية بين يديه مغشيّ عليها فكرّ قاسم إليه)
راجعاً وقال : ادفعها إليّ أشفي نفسي منها فطلبوا إليه فصّح عنها واشتراها في ذلك المجلس غلاماً أملح منها
فقامت إليه فقبلت فاه وقاسم ينظر والقوم يتعجبون ممّا قها له وقها لها .

وأما عيسى بن مروان كاتب أبي مروان عبد الملك بن أبي حمزة فإنه كان شديد التغزل والتصنّد حتّى
شرب لذلك النبيذ وتطرّف بقطيع ثيابه وتغنّى أصواتاً وحفظ أحاديث من أحاديث العشاق ومن الأحاديث
التي تشتهيها النساء وتفهم معانيها وكان أقبح خلق الله تعالى أنفاً حتّى كان أقبح من الأخّس ومن الأفتس
والأجدع فإمّا أن يكون صادقاً ظريفةً وإمّا أن يكون تروّجها فلما خلا معها

في بيتٍ وأرادها على ما يريد الرّجل من المرأة امتنعت فوهب لها ومناها وأظهر تعشقها وأراعها بكلّ حيلة
فلما لم تُجب قال لها : خبريني ما الذي يمتكّك قالت : قبح أنفك وهو يستقبل عيني وقت الحاجة فلو كان
أنفك في قفّك لكان أهون عليّ قال لها : جعلت فداك الذي بأنفي ليس هو خلقه وإمّا هو ضربة ضربتُها في
سبيل الله تعالى فقالت واستغربت ضحكاً : أنا ما أبالي في سبيل الله كانت أو في سبيل الشيطان إنّما بي
قبحه فخذ ثوابك على هذه الضربة من الله أمّا أنا فلا . (باب الجِدِّ من أمر الجنّ) ليس هذا حفظك الله
تعالى من الباب الذي كنّا فيه ولكنّه كان مُستراحاً وجماماً وسنقول في باب من ذكر الجنّ لتنتفع في دينك

أشد الانتفاع وهو جدُّ كله .

والكلام الأول وما يتلوه من ذكر الحشرات ليس فيه جدُّ إلا وفيه خلطٌ من هزلٍ وليس فيه كلامٌ صحيح إلا وإلى جنبه خرافة لأن هذا الباب هكذا يقع .

وقد طعن قومٌ في استراق الشياطين السمع بوجوه من الطعن فإذ

قد جرى لها من الذكر في باب الهزل ما قد جرى فالواجب علينا أن نقول في باب الجدِّ وفيما يرد على أهل الدين بجملة وإن كان هذا الكتاب لم يُقصد به إلى هذا الباب حيث ابتدئ وإن نحن استقصيناه كنا قد خرجنا من حدِّ القول في الحيوان ولكننا نقول بجملة كافية واللَّه تعالى المعين على ذلك .

رد على المحتجِّين لأنكار استراق السمع بالقرآن قال قوم : قد علمنا أن الشياطينَ ألطف لطافةً وأقلُّ آفةً وأحدُّ أذهاناً وأقلُّ فضولاً وأخفُّ أبداناً وأكثرُ معرفةً وأدقُّ فطنةً منا والدليلُ على ذلك إجماعهم على أنَّه ليس في الأرض بدعةً بدعيةً دقيقةً ولا جليلةً ولا في الأرض معصيةً من طريق الهوى والشهوة خفيةً كانت أو ظاهرة إلا والشيطانُ هو الدَّاعي لها والمزِينُ لها والذي يفتح باب كلِّ بلاءٍ وينصب كلَّ حبالَةٍ وخدعةٍ ولم تكن لتعرف أصناف جميع الشرور والمعاصي حتى تعرف جميع أصناف الخير والطاعات .

ونحن قد نجد الرجل إذا كان معه عقلٌ ثم علم أنَّه إذا نقب حائطاً قطعت يده أو أسمع إنساناً كلاماً قطع لسانه أو يكون متى رام

ذلك حيلَ دونه ودونَ ما رام منه أنَّه لا يتكلف ذلك ولا يرومه ولا يحاول أمراً قد أيقن أنَّه لا يبلغه . وأنتم تزعمون أنَّ الشياطين الذين هم على هذه الصفة كلِّما صعد منهم شيطانٌ ليسترق السمع قذف بشهاب نار وليس له خواطئ فيما أن يكون يصيبه وإما أن يكون نذيراً صادقاً أو وعيداً إنَّ يقدم عليه رمى به وهذه الرُّجوم لا تكون إلا لهذه الأمور ومتى كانت فقد ظهر للشيطان إحراق المستمع والمسترق والموانع دون الوصول ثم لا نرى الأول ينهي الثاني ولا الثاني ينهي الثالث ولا الثالث ينهي الرابع عجب وإن كان الذي يعود غيره فكيف خفي عليه شأنهم وهو ظاهر مكشوف .

وعلى أنَّهم لم يكونوا أعلمَ منا حتى ميَّزوا جميع المعاصي من جميع الطاعات ولولا ذلك لدعوا إلى الطاعة بحساب المعصية وزينوا لها الصَّلاح وهم يريدون الفساد فإذا كانوا ليسوا كذلك فإدنى حالهم أن يكونوا قد عرفوا أخبار القرآن وصدقوها وأنَّ الله تعالى محقق ما أوعد

كما يُنجز ما وعد وقد قال الله عزَّ وجل : وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَقَالَ تَعَالَى : وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ وَقَالَ تَعَالَى : إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ وَقَالَ تَعَالَى : هَلْ أَتَيْنَكُمْ عَلَى مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ تَنْزَلُ عَلَى كُلِّ أَفْكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ مَعَ قَوْلِ الْحَنِّ : أَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ بَعْنٌ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا وَقَوْلُهُمْ : أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا وَأَنَا كُنَّا نَقُودُ مِنْهَا مَقَاعِدَ (

لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا .

فكيف يسترق السَّمْعَ الذين شاهدوا الحالتين جميعاً وأظهروا اليقين بصحة الخير بأنَّ للمستمع بعد ذلك القذف بالشُّهب والإحراق بالنار وقوله تعالى : إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ وقوله تعالى : وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ في آيٍ غيرِ هذا كثير فكيف يُعوذُونَ إلى استراق السَّمْعِ مع تيقنهم بأنَّه قد حُصِّنَ بالشُّهب ولو لم يكونوا مُوقِنين من جهة حقائق الكتاب ولا من جهة أنَّهم بَعْدَ قعودِهِم مقاعد السَّمْعِ لَمَسُوا السَّمَاءَ فَوَجَدُوا الأَمْرَ قد تَغَيَّرَ لَكَانَ في طول التَّجَرُّبَةِ والعِيَانِ الظَّاهِرِ وفي إخبار بعضهم لبعض ما يكونُ حَاتِلًا دُونَ الطَّمَعِ وقاطعاً دون التَّمَلُّسِ الصُّعُودِ وبعد فأيُّ عاقلٍ يُسِرُّ بأنَّ يسمع خبراً وتُقَطَّعَ يَدُهُ فضلاً عن أن تحرقه النَّارُ وبعد فأيُّ خبرٍ في ذلك اليوم وهل يصلون إلى النَّاسِ حتَّى يجعلوا ذلك الخَبْرَ سبباً إلى صَرْفِ الدَّعْوَى قِيلَ لَهُمْ : فَإِنَّا نَقُولُ بِالصَّرْفَةِ في عَامَّةِ هذه الأصول وفي هذه الأبواب كَنَحْوِ مَا أُلْقِيَ عَلَى قُلُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ يُجْبَلُونَ في التَّيِّهِ وَهُمْ في العِلْدِ وفي كثرة الأدلَّةِ والتَّجَارِ وَأَصْحَابِ الأَسْفَارِ وَالْحَمَارِينَ وَالْمُكَارِينَ من الكثرة على ما قد سمعتم به وعرفتموه وَهُمْ مع هذا يَمْشُونَ حتَّى يُصْبِحُوا مع شِدَّةِ الاجتهاد في الدَّهْرِ الطَّوِيلِ ومع قُرْبِ مَا بَيْنَ طَرَفِي التَّيِّهِ وَقَدْ كَانَ طَرِيقاً مَسْلُوكاً وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ التَّيِّهِ حِينَ تَاهَوْا فِيهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حِينَ أَرَادَ أَنْ يَمْتَحِنَهُمْ وَيَتْلِيَهُمْ صَرَفَ أَوْهَامَهُمْ .

ومثل ذلك صَنِيعُهُ في أَوْهَامِ الأُمَّةِ الَّتِي كَانَ سُلَيْمَانُ مَلِكُهَا وَنَبِيِّهَا مع تَسْخِيرِ الرِّيحِ والأَعَاجِبِ الَّتِي أُعْطِيَهَا وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَلِكِهِمْ وَمَمْلَكَتِهِمْ وَبَيْنَ مُلْكِ سَبَأَ وَمَمْلَكَةِ بَلْقِيسَ مَلِكَتِهِمْ بَحَارٌ لَا تُرْكَبُ وَجِبَالٌ لَا تُثْرَامُ وَلَمْ يَتَسَامَعَ أَهْلُ الْمَمْلَكَتَيْنِ وَلَا كَانَ فِي ذِكْرِهِمْ مَكَانُ هَذِهِ الْمَلِكَةِ .

وقد قلنا في باب القول في المَهْدُودِ مَا قُلْنَا حِينَ ذَكَرْنَا الصَّرْفَةَ وَذَكَرْنَا حَالَ يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ وَحَالَ سُلَيْمَانَ وَهُوَ مَعْتَمِدٌ عَلَى عَصَاهُ وَهُوَ مَيِّتٌ وَالْجَنُّ مُطِيفَةٌ بِهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمَوْتِهِ وَذَكَرْنَا مِنْ صَرْفِ أَوْهَامِ الْعَرَبِ عَنْ مُحَاوَلَةِ مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ وَلَمْ يَأْتُوا بِهِ مُضْطَرِباً وَلَا مُلَفَّقاً وَلَا مُسْتَكْرَهاً إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ لِأَهْلِ الشَّعْبِ مُتَعَلِّقٌ مَعَ غَيْرِ ذَلِكَ تَمَّا يُخَالَفُ فِيهِ طَرِيقُ الدَّهْرِيَّةِ لِأَنَّ الدَّهْرِيَّ لَا يَقْرَأُ إِلَّا بِالْخُسُوسَاتِ وَالْعَادَاتِ عَلَى خِلَافِ هَذَا الْمَذْهَبِ .

ولعمري ما يستطيع الدَّهْرِيُّ أَنْ يَقُولَ بِهَذَا الْقَوْلِ وَيَحْتَجَّ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ مَا دَامَ لَا يَقُولُ بِالتَّوْحِيدِ (

وما دام لا يعرف إلا الفلَكَ وعَمَلَهُ وَمَادَامَ يَرَى أَنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ يَسْتَحِيلُ وَأَنَّ الأَمْرَ وَالتَّهْيِ وَالثَّوَابَ

وَالْعِقَابَ عَلَى غَيْرِ مَا يَقُولُ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَ مِنْ جِهَةِ الْإِخْتِبَارِ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ وَكَذَلِكَ نَقُولُ وَنَزْعُ أَنْ أَوْهَامِ هَذِهِ الْعَفَارِيتِ تُصَرَفُ عَنِ الذِّكْرِ لِتَقَعِ الْخُتْنَةُ وَكَذَلِكَ يَقُولُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ لَوْ كَانَ فِي جَمِيعِ تِلْكَ الْهَزَاهِزِ مَنْ يَذْكُرُ قَوْلَهُ تَعَالَى : وَاللَّهُ يَعِصُّكَ مِنَ النَّاسِ لَسَقَطَ عَنْهُ مِنَ الْخُتْنَةِ أَغْلَظُهَا وَإِذَا سَقَطَتِ الْخُتْنَةُ لَمْ تَكُنِ الطَّاعَةُ وَالْمَعْصِيَةُ وَكَذَلِكَ عَظِيمُ الطَّاعَةِ مَقْرُونٌ بِعَظِيمِ الثَّوَابِ .

وما يصنع الدهري وغير الدهري بهذه المسألة وبهذا التسطير ونحن نقول : لو كان إبليس يذكر في كلِّ حال قوله تعالى : وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وعلم في كلِّ حال أنَّه لا يُسَلِّمُ لَوَجَبَ أَنْ اخْتَنَ كانت تسقط عنه لأن من علم يقيناً أنَّه لا يمضي غداً إلى السوق ولا يقبض دراهمه من فلان لم يطمع فيه ومن لم يطمع في الشيء انقطعت عنه أسباب الدواعي إليه ومن كان كذلك فمُحالٌّ أَنْ يَأْتِيَ السُّوقَ .

فنقول في إبليس : إنه يَنْسَى ليكون مُخْتَبِراً مُتَحَنِّناً فليعلموا أن قولنا في مسترقي السمع كقولنا في إبليس وفي جميع هذه الأمور التي أَوْجَبَ علينا الدِّينُ أَنْ نقول فيها بهذا القول . وليس له أَنْ يدْفَعَ هذا القولَ على أصل ديننا فإن أحبَّ أَنْ يسأل عن الدين الذي أوجب هذا القول علينا فيلْفَعْلُ واللَّهِ تعالى المعين والموفق .
وأما قولهم : مَنْ يُخَاطِرُ بِذَهَابِ نَفْسِهِ خَيْرٌ يَسْتَفِيدُهُ فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ أصحاب الرِّيَاسَاتِ وإن كان ولعلَّ بعض الشياطين أن يكون معه من التَّفَخِّ وَحِبِّ الرِّيَاسَةِ ما يهَوِّنُ عليه أَنْ يبلغ دُوَيْنَ المواضع التي إن دنا منها أصابه الرَّجْمُ والرَّجْمُ إنما ضمن أنه مانع من الوصول ويعلم أنه إذا كان شهاباً أنه يُحْرِقُهُ ولم يضمن أنه يتلف عنه فما أكثر من تخترقه الرِّمَاحُ في الحرب ثم يعاودُ ذلك المكان ورزقُهُ ثمانون دِينَاراً ولا يأخذ إلا نصفه ولا يأخذه إلا قمحاً فلولا أن مع قَدَمِ هذا الجنديّ ضرراً مما يهزُّه وينجِّده ويدعو إليه ويُغْريه ما كان يعود إلى موضعٍ قد قطعت فيه إحدى يديه أو فقتت إحدى عينيه .

ولم وقع عليه إذا اسمُ شيطانٍ وماردٍ وعفريتٍ وأشبه ذلك ولم صار الإنسان يُسَمَّى بهذه الأسماء ويوصف بهذه الصفات إذا كان فيه الجزء الواحد من كلِّ ما هم عليه .
وقالوا في باب آخر من الطَّعْنِ غير هذا قالوا في قوله تعالى : وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ (فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شِهَاباً رَصَداً فقالوا : قد دلَّ هذا الكلام على أن الأخبار هناك كانت مُضَيَّعَةً حَتَّى حُصِّنَتْ بعد فقد وصفتُم الله تعالى بالتَّضْيِيعِ والاستِثْرَاكِ .
قلنا : ليس في هذا الكلام دليلٌ على أنهم سمعوا سراً قط أو هجموا على خبر إن أشاعوه فسد به شيء من الدين وللملائكة في السَّماءِ تَسْبِيحٌ وقَهْلِيلٌ وتَكْبِيرٌ وتلاوة فكان لا يبلغُ الموضعَ الذي يُسْمَعُ ذلك منه إلا عفاريَّتُهُمْ .

وقد يستقيم أن يكون العفريتُ يكذب ويقول : سمعت ما لم يسمع ومتى لم يكن على قوله برهانٌ يدلُّ على صدقه فإنما هو في كذبه من جنس كلِّ متبنيٍّ وكاهنٍ فإن صدقه مصدقٌ بلا حُجَّةٍ فليس ذلك بحُجَّةٍ على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

اغتجون بالشعر لرجم الشياطين قبل الإسلام وذهب بعضهم في الطَّعْنِ إلي غير هذه الحُجَّةِ قالوا : زعمتم أن

الله تعالى جعل هذه الرِّجُومَ للخوافي حُجَّةً للنبي صلى الله عليه وسلم فكيف يكون ذلك رجماً وقد كان قبل الإسلام ظاهراً مرئياً وذلك موجودٌ في الأشعار وقد قال بشر بن أبي خازم في ذلك : (فجأجأها من

أول الرِّيِّ غُدوة ** وَلَمَّا يَسْكَنُهُ مِنَ الْأَرْضِ مَرْتَعُ) (بَأْكَلِيَةِ زُرْقٍ ضَوَارٍ كَأَنَّهَُا * خطاطيفُ من طول الطريدة تلمعُ) (فجال على نَفَرٍ تَعَرَّضَ كَوَكَبُ ** وقد حال دُونَ النَّقْعِ وَالتَّقَعُّ يَسْطَعُ) (فوصف شَوَاطِثَ الثَّوَرِ هَارِباً مِنَ الْكَلَابِ بِانْقِضَاضِ الْكَوَكَبِ فِي سُرْعَتِهِ وَحُسْنِهِ وَبَرِيقِ جِلْدِهِ وَلِذَلِكَ قَالَ الطَّرِمَاحُ : (يَبْدُو وَتَضُمُّرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ * سَيْفٌ عَلَى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُعْمَدُ) (وَأَنشَدَ أَيْضاً قَوْلَ بَشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ : (وَالْعِيرُ يُرْهِقُهَا الْخَبَارُ وَجَحَشُهَا * يَنْقُضُ خَلْفَهُمَا انْقِضَاضُ الْكَوَكَبِ)

قالوا : وقال الصَّبِيُّ : (يَنَالُهَا مَهْتَكُ أَشْجَارِهَا * بِذِي غُرُوبٍ فِيهِ تَحْرِيبُ) (كَأَنَّهُ حِينَ نَحَا كَوَكَبُ * أو قَبَسٌ بِالْكَفِّ مَشْبُوبُ) وقال أَوْسُ بْنُ حَجَرَ : (فَانْقُضْ كَاللَّيْلِ يَتَّبِعُهُ * تَقَعُ يَثُورُ تَحَالُهُ طُنْبًا) (يَخْفَى وَأَحْيَاناً يُلُوحُ كَمَا * رَفَعَ الْمَشِيرُ بِكَفِّهِ لَهَا) (وَرَوَوْا قَوْلَهُ : (فَانْقُضْ كَاللَّيْلِ مِنْ مُتَحَدِّرٍ * لَمَعَ الْعَقِيْقَةُ جَنَحَ لَيْلٍ مُظْلِمٍ) وقال عَوْفُ بْنُ الْخَرَجِ :

(يَرُدُّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُونَ أَنْفِهِ * أَوِ الثَّوْرُ كَاللَّيْلِ يَتَّبِعُهُ اللَّيْلُ) (وقال الأَفْوَه الأَوْدِي : (كَشْهَابُ الْقَذْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ * فَارِسٌ فِي كَفِّهِ لِلْحَرْبِ نَارُ) (وقال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ : (يُلْقَى عَلَيْهَا فِي السَّمَاءِ مَذَلَّةٌ * وَكَوَاكِبٌ تَرْمِي بِهَا فَتَعَرِّدُ) (قلنا لهؤلاء القوم : إِنْ قَدَّرْتُمْ عَلَى شَعْرِ جَاهِلِيٍّ لَمْ يُدْرِكْ مَبِيعَتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا مَوْلَدُهُ فَهُوَ بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِثْلُكُمْ وَإِنْ كَانَ الْجَوَابُ فِي ذَلِكَ سَيِّئَتِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَأَمَّا أَشْعَارُ الْمُخَضَّرِينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ فَلَيْسَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ وَاجْهَلِيٍّ مَا لَمْ يَكُنْ أَدْرَكَ الْمَوْلَدَ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَتَعَلَّقُوا بِهِ وَبَشَرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ فَقَدْ أَدْرَكَ الْفَجَارَ

والنبي صلى الله عليه وسلم شهد الفجار وقال : شهدت الفجار فكنت أنبل على عمومتي وأنا غلام .
والأعلام ضروب فمنها ما يكون كالبشارات في الكتب لكون الصفة إذا واقفت الصفة التي لا يقع مثلها اتفاقاً وعرضاً لزممت فيه الحجة وضروب أخر كالإرهاص للأمر والتأسيس له وكالتعبيد والترشيح فإنه قلَّ نبيٌّ إلَّا وقد حدثت عند مولده أو قُبِيلَ مولده أو بعد مولده أشياء لم يكن يحدث مثلها وعند ذلك يقول الناس : إِنَّ هَذَا لِأَمْرٍ وَإِنَّ هَذَا لِبَرَادٍ بِهِ أَمْرٌ وَقَعَ أَوْ سَيَكُونُ لِهَذَا نَبَأٌ كَمَا تَرَاهُمْ يَقُولُونَ عِنْدَ الذَّوَائِبِ الَّتِي تَحْدُثُ لِبَعْضِ الْكَوَاكِبِ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ فَمِنَ التَّرْشِيحِ وَالتَّأْسِيسِ وَالتَّنْفِخِمْ شَأْنُ عَبْدِ الْمُطَلَبِ عِنْدَ الْقُرْعَةِ وَحِينَ خُرُوجِ

الماء من تحت رُكْبَةٍ جَمَلَةٍ وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْفِيلِ وَالطَّيْرِ الْأَبَابِيلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا إِذَا تَقَدَّمَ لِلرَّجُلِ زَادٌ فِي ثُبُلِهِ وَفِي فَخَامَةِ أَمْرِهِ وَالتَّوَقُّعُ أَبَدًا مَعْظَمٌ .

فإن كانت هذه الشهب في هذه الأيام أبداً مرئية فإنما كانت من التأسيس والإرهاص إلا أن يُنْشِدُونَا مِثْلَ شَعْرِ الشَّعْرَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَدْرِكُوا الْمَوْلَدَ وَلَا بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنْ عَدَدَهُمْ كَثِيرٌ وَشَعْرَهُمْ مَعْرُوفٌ .
وقد قيل الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطول مما بيننا اليوم وبين أول الإسلام وأولئكم عندهم أشعر ممن كان بعدهم .

وكان أحدهم لا يدع عظماً منبوذاً بالياً ولا حجراً مطروحاً ولا خنفساء ولا جُعلاً ولا دودة ولا حية إلا قال فيها فكيف لم يتهياً من واحدٍ منهم أن يذكر الكواكب المنقضة مع حُسْنها وسُرْعتها والأعجوبة فيها وكيف أمسكوا بأجمعهم عن ذكرها إلى الزَّمان الذي يَحْتَجُّ فيه خصومُكم .
وقد علمنا أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حين ذُكر له يوم ذي قار قال : هذا أوَّلُ يومٍ انتصفت فيه العربُ من العجم وبى نُصروا .

ولم يكن قال لهم قبل ذلك إنَّ وقعةً ستكون من صِفَتها كذا ومن شأنها كذا وتُصرون على العجم وبى تنصرون .

فإن كان بشرٌ بن أبي خازمٍ وهؤلاء الذين ذكرتم قد عايَنُوا انقضاض الكواكب فليس بمستكرٍّ أن تكون كانت إرهاباً لمن لم يُخبر عنها ويَحْتَجُّ بها لنفسه فكيف وبشر بن أبي خازم حيٌّ في أيام الفُجار التي شهدها النبيُّ صلى الله عليه وسلم بنفسه وأنَّ كنانةً وقُريشاً به نُصروا .
وسنقول في هذه الأشعار التي أنشدتموها ونُخبر عن مقاديرها وطبقاتها فأما قوله : (فانقضَّ كالذُّريِّ من متحدرٍ ** لَمَعَ العقيقة جُنَحَ ليل مُظلم) فخيرني أبو إسحاق أن هذا البيت في أبياتٍ آخر كان أسامة صاحب رَوْح بن أبي هَمَّام هو الذي كان ولدها فإن اتَّهمت خبر أبي إسحاق فسمَّ الشاعِرَ وهات القصيدة فإنَّه لا يُقبل في مثل هذا إلا بيتٌ صحيح صحيح الجوهر من قصيدةٍ صحيحة لشاعر معروف وإلاَّ فإن كلَّ من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل بيتٍ منها أجودُّ من هذا البيت .

وأسامة هذا هو الذي قال له رَوْحٌ : (اسقني يا أسامة ** مِنْ رحيق مُدامَه) (اسقنيها فأني ** كافرٌ بالقيامة) وهذا الشعر هو الذي قتله وأما ما أنشدتم من قول أوس بن حجر : (فانقضَّ كالدريء يتبعه ** نَقَعٌ يثور تحالُه طُبا) وهذا الشعر ليس يرويه لأوسٍ إلاَّ من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر وشريح ابن أوس وقد (والعبر يرهقها الخبارُ وجَحَشها ** ينقضُّ خلفهما انقضاض الكوكب) فرعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عَدُوَّ الحمار بانقضاض الكوكب ولا بَدَنَ الحمار ببدن الكوكب وقالوا : في شعر بشر مصنوعٌ كثير مما قد احتملته كثيرٌ من الرُّواة على أنَّه من صحيح شعره فمن ذلك قصيدته التي يقول فيها :
(فرجِّي الخير وانتظري إياي ** إذا ما القارِطُ العنزِيُّ آبا) وأما ما ذكرتم من شعر هذا الضَّبِّي فإنَّ الضَّبِّيَّ مخضرم .

وزعمتم أنَّكم وجدتم ذكر الشُّهب في كتب القُدماء من الفلاسفة وأنَّه في الآثار العلوية لأرسطاطاليس حين ذكر القول في الشُّهب مع القول في الكواكب ذوات الذوائب ومع القول في القُوس والطُوق الذي يكون حول القمر بالليل فإن كنتم بمثل هذا تستعينون وإليه تفزعون فإنَّا نوجدكم من كذب التَّراجمه وزيادتهم ومن فساد الكتاب من جهة تأويل الكلام ومن جهة جهل المترجم بنقل لغةٍ إلى لغةٍ ومن جهة فساد النَّسخ

ومن أنه قد تقدم فاعترضتْ دونه الدُّهورُ والأحقابُ فصار لا يؤمن عليه ضروبُ التَّبدِيلِ والفساد وهذا الكلام معروفٌ صحيح .

وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي فلعمري إنَّه لجاهليٌّ وما وجدنا أحداً من الرُّواة يشكُّ في أن القصيدة مصنوعةٌ وبعد فَمِنْ أين علم الأفوه أنَّ الشهب التي يراها إنما هي قذْفٌ ورجمٌ وهو جاهليٌّ

ولم يدعِ هذا أحدٌ قطُّ إلا المسلمون فهذا دليلٌ آخر على أن القصيدة مصنوعة رجع إلى تفسير قصيدة البهراني ثم رجع بنا القول إلى تفسير قصيدة البهراني : وأما قوله : (جائباً للبحار أهدي لِعُرْسِي * فلفلاً مجتئى وهَضْمَةٌ عِطْر) (وأحلي هُرَيْرَ مِنْ صدف البَحْ * ر وأسقي العيال من نيل مِصرِ) فإن الناس يقولون : إن السَّاحر لا يكون ماهراً حتَّى يأتي بالفلفل الرطب من سرنديب وهُريرة : اسم امرأته الجنيَّة . وذكر الطَّيِّ الذي جعله مَرَكِبَهُ إلى بلاد الهند فقال : (وأجوبُ البلاد تحتي طيِّ * ضاحكٌ سنَّه كثيرُ التَّمَرِي) (مَوْجٌ دَبْرُهُ خَوَايَةُ مَكْوٍ * وهو بالليل في العفاريث يسري) يقول : هذا الطَّيِّ الذي من جُنبه وحدره من بين جميع الوحش لا يدخل حراره إلا مستديراً لتكون عيناه تلقاء ما يخاف أن يغشاه

هو الذي يسري مع العفاريث بالليل ضاحكاً بي هازناً وأما قوله : (يحسبُ النَّاظِرُونَ أي ابنُ ماء * ذاكرٌ عَشَّةً بضقةٍ نهرٍ) فإن الجنيَّ إذا طار به في جوِّ السماء ظنَّ كلُّ من رآه أنه طائر ماء . (قولهم : أروى من ضب) وأما قولهم في المثل : أروى من ضبِّ فإني لا أعرفه لأنَّ كلَّ شيء بالدوِّ والدَّهْناء والصَّمَانِ وأوساط هذه المهامه والصَّحاح فإن جميع ما يسكنها من الحشرات والسَّباع لا يردُّ الماء ولا يربذه لأنه ليس في أوساط هذه الفيا في الصَّيف كله وفي القيظ جميعاً منقَع ماء ولا غدير ولا شريعة ولا وشَلْ فإذا استقام أن يمرَّ بظائها وأرانها وتعالها وغير ذلك منها الصَّيفة كلها والقيظ كله ولم تنق فيها قطرة

ماء فهي له في الشتاء أترك لأنَّ من اقتات اليبس إذا لم يشرب الماء فهو إذا اقتات الرطب أترك . وليس العجب في هذا ولكنَّ العجب في إبل لا ترد الماء .

وزعم الأصمعيُّ أنَّ لبني عقيل ماعزاً لم يرد الماء قطَّ فينبغي على ذاك أن يكون واديهم لا يزالُ يكون فيه من البقل والورق ما يُعيشُها بتلك الرطوبة التي فيها .

ولو كانت تعالب الدَّهْناء وظباؤها وأرانها ووحشها تحتاج إلى الماء لطلبتَه أشدَّ الطلب فإن الحيوان كلَّه يهتدي إلى ما يُعيشه وذلك في طبعه وإنما سلب هذه المعارف الذين أعطوا العقل والاستطاعة فوكلوا إليهما .

فأمَّا من سلب الآلة التي بها تكون الروية والأداة التي يكون بها التصرف وتخرج أفعاله من حد الإيجاب إلى حد الإمكان وعوض التمكين فإن سبيله غير سبيل من منح ذلك فقسم الله تعالى لتلك الكفاية وقسم لهؤلاء الابتلاء والاختيار .

قصيدتا بشر بن المعتمر

أول ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش

بشعرٍ بشرٍ بن المعتمر فإن له في هذا الباب قصيدتين قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة وقد كان يمكننا أن نذكر من شأن هذه السباع والحشرات بقدر ما تتسع له الرواية من غير أن نكتبهما في هذا الكتاب ولكنهما يجمعان أموراً كثيرة .
أما أول ذلك فإن حفظ الشعر أهون على النفس وإذا حفظ كان أعلق وأثبت وكان شاهداً وإن احتيج إلى ضرب المثل كان مثلاً .

وإذا قسمنا ما عندنا في هذه الأصناف على بيوت هذين الشعرين وقع ذكرهما مصنفًا فيصير حينئذ آتق في الأسماع وأشد في الحفظ .

القصيدة الأولى

قال بشر بن المعتمر : (الناس دأباً في طلاب الغنى ** وكلهم من شأنه الخثر) (كأذوب تنهشها أذوب ** لها عواءٌ ولها زفرٌ) (تبارك الله وسبحانه ** بين يديه النفع والضر)

(من خلقه في روقه كلهم ** الذبيح والنبيل والغفر) (وساكن الجو إذا ما علا ** فيه ومن مسكنه القفر)
(والصدع الأعصم في شاهق ** وجأبة مسكنها الوعر) (والحية الصماء في جحرها ** والتفل الرائع والذر) (وإلقة ترغث رباحها ** والسهل والنوفل والنضر) (وهقلة ترتاع من ظلها ** لها عرازٌ ولها زمر)
(تلتهم المروء على شهوة ** أحب شيء عندها الجمر) (وضبة تأكل أولادها ** وعتران بطنه صفر)
(يؤثر بالطعم وتأذينه ** منجم ليس له فكر)

(وكيف لا أعجب من عالم ** حشوته النأيس والدغر) (وحكمة يبصرها عاقل ** ليس لها من دونها ستر)
(جرادة تخرق متن الصفا ** وأبعث يصطاده صقر) (سلاحه رمح فما عذره ** وقد عراه دونه الذعر)
(يحجم عن فرط أعاجيبها ** وعن مدى غاياتها السحر) (وظبية تخضم في حنظل ** وعقرب يعجبها التمر)
(وخنفس يسعى بجعلانه ** يقوقها الأرواث والبعر) (يقتلها الورد وتحيا إذا ** ضم إليها الروث والجعر)
(وفارة اليش إمام لها ** والخلد فيه عجب هتر)

(وقتفد يسرى إلى حية ** وحية يخلى له الجحر) (وعضر فوط ماله قبلة ** وهدد يكفره بكر) (وفرقة العقرب من لسعها ** تخبر أن ليس لها عنز) (والببر فيه عجب عجب ** إذا تلاقى الليث والببر)
(وطائر أشرف ذو جردة ** وطائر ليس لها وكر) (وثرمل تأوى إلى دويل ** وعسكر يتبعه النسر) (يسالم الضبع بذي مرة ** أبرمها في الرحم العمر) (وتمسح خلله طائر ** وسابح ليس لها سحر)

(والعتُّ والحفَّاتُ ذو فحْفَحٍ ** وخرنقٌ يسفدُهُ وبر) (حرباؤها في قِيظها شامِسٌ ** حتى يوافي وقتهُ
العصر) (يميل بالشقِّ إليها كما ** يميلُ في روضتهِ الزهر) (والظربانُ الورْدُ قد شفه ** حبُّ الكشي
والوحر الحمَر) (يلوذُ منه الضبُّ مذلولياً ** ولو نجا أهلكهُ الذعرُ) (وليس ينجيه إذا ما فسا ** شيءٌ
ولو أحرزه قصرُ)

(وهيشنةٌ تأكلها سرفَةٌ ** وسمعُ ذنبٍ همُّه الحضرُ) (لا تردُّ الماءَ أفاعي النقا ** لكنما يعجبها الحمَرُ)
وفي ذرى الحرملِ ظلُّها ** إذا غلا واحتدمَ الهجرُ) (فبعضها طعمٌ لبعض كما ** أعطى سهامَ الميسرِ
القمرُ) (وتمسحُ النيلُ عقابُ الهوا ** والليثُ رأسٌ وله الأسرُ) (ثلاثةٌ ليس لها غالبٌ ** إلا بما ينقضُ
الدهرُ) (إني وإن كُنتُ ضعيفَ القوى ** فاللهُ يقضى ولهُ الأمرُ) (لست إياضياً عبياً ولا ** كرافضياً
غره الجفرُ)

(كما يغرُّ الآل في سببٍ ** سفيراً فأودى عنده السفرُ) (لسنا من الحشو الجفافةِ الأولى ** عابوا الذي
عابوا ولم يدروا) (أن غبتَ لم يسلمك من قهمةٍ ** وإن رنا فلحظهُ شُرُ) (يعرضُ إن سالمته مدبراً **
كأنما يلسبه الدبرُ) (أبلهٌ خبُّ ضغنٍ قلبه ** له احتيالٌ وله مكرُ) (وانتحلوا جماعةً باسمها ** وفارقوها
فهمُ اليعر) (وأهوجُ أعوجُ ذو لوثةٍ ** ليس له رأىٌ ولا قدرُ) (قد غره في نفسه مثله ** وغرهم أيضاً
كما غروا) (لا تنجع الحكمةُ فيهم كما ** ينبو عن الجرولة القطرُ) (قلوبهم شتى فما منهم ** ثلاثةٌ
يجمعهم أمرُ)

(إلا الأذى أو بهتَ أهلِ التقى ** وأنهم أعينهم خزرُ) (أولئك الداءُ العضالُ الذي ** أعيا لديه الصابُ
والمقر) (حيلةٌ من ليست له حيلةٌ ** حسنُ عزاءِ النفسِ والصبرُ)

القصيدة الثانية

(ما ترى العالمَ ذا حشوةٍ ** يقصر عنها عدد القطر) (أوابد الوحشِ وأحناشها ** وكلُّ سبعٍ وافر الظفر)
(وبعضه ذو همجٍ هامجٍ ** فيه اعتبارٌ لذوي الفكر) (والوزغُ الرقط على ذلها ** تطاعمُ الحياتِ في الجحر
(والخفسُ الأسودُ في طبعه ** مودةُ العقرب في السر) (والحشراتُ الغبرُ منبئةٌ ** بين الورى والبلدِ
الفقر) (وكلها شرٌّ وفي شرها ** خيرٌ كثيرٌ عند من يدرى) (لو فكرَ العاقلُ في نفسه ** مدةُ هذا الخلقِ
في العمر) (لم ير إلا عجباً شاملاً ** أو حجةً تنقشُ في الصخر) (فكم ترى في الخلق من آيةٍ ** خفيةٍ
الجسمان في قعرِ)

(أبرزها الفكر على فكرةٍ ** يحارُ فيها وضحُ الفجر) (لله درُّ العقلِ من رائدٍ ** وصاحب في العسرِ
واليسر) (وحاكمٍ يقضى على غائبٍ ** قضيةَ الشاهدِ للأمرِ) (وإن شيئاً بعضُ أفعاله ** أن يفصلَ الخيرَ
من الشرِّ) (بل أنت كالعين وإنسانها ** ومخرج الخيشوم والنحر) (فشرهم أكثرهم حيلةٌ ** كالذئبِ

والثعلب والذرة () والليث قد جلده علمه ** بما حوى من شدة الأسر () فتارة يحطمه خابطاً ** وتارة يشنيه بالهصر () والضعف قد عرف أربابه ** مواضع الفرّ من الكر () تعرف بالإحساس أقدارها ** في الأسر والإلحاح والصبر () والبخت مقرون فلا تجهلن ** بصاحب الحاجة والفقير () وذو الكفايات إلى سكرة ** أهون منها سكرة الخمر () والضبع الغثراء مع ذيخها ** شرّ من اللبوة والنمر ()

(لو خلى الليث بطن الوري ** والنمر أو قد جرى بالبر () كان لها أرجى ولو قضقت ** ما بين قرنيه إلى الصدر () والذئب إن أفلت من شره ** فبعد أن أبلغ في العنر () وكلّ جنس فله قلب ** وعنصر أعراقه تسرى () وتصنع السرفة فيهم على ** مثل صنيع الأرض والبذر () متى يرى عدوه قاهراً ** أحوجه ذاك إلى المكر () كما ترى الذئب إذا لم يطق ** صاح فجاءت رسلاً تجرى () وكلّ شيء فعلى قدره ** يحجم أو يقدم أو يجرى () والكيس في المكسب شملّ لهم ** والعندليب الفرخ كالنسر ()

(والخلد كالذئب على خبيثه ** والليل والأعلم كالوبر () والعبد كالحرّ وإن ساءه ** والأبعث الأغثر كالصقر () لكنهم في الدين أيدي سبا ** تفاوتوا في الرأي والقدر () قد غمر التقليد أحلامهم ** فناصروا القياس ذا السبر () فافهم كلامي واصطر ساعة ** فإنما النجاح مع الصبر () وانظر إلى الدنيا بعين امرئ ** يكره أن يجري ولا يدري () أما ترى الهقل وأمعاه ** يجمع بين الصخر والجمر () وفارة البيش على بيشها ** طيبة فاتقة العطر () وطائر يسبح في جاحم ** كماهر يسبح في غمر () ولطعة الذئب على حسوه ** وصنعة السرفة والدبر ()

(وظيفية تدخل في توجّح ** مؤخرها من شدة الذعر () تأخذ بالحزم على قانص ** يرغبها من قبل الدبر () والمقرّم المعلم ما إن له ** مرارة تسمع في الذكر () وخصبة تنصل من جوفه ** عند حدوث الموت والنحر () ولا يرى من بعدها جازر ** شقشقة مائلة الهلر () وليس للطرف طحال وقد ** أشاعه العالم بالأمر () وفي فؤاد الثور عظم وقد ** يعرفه الجازر ذو الخبر () وأكثر الحيتان أعجوبة ** ما كان منها عاش في البحر () إذ لا لسان سقى ملحه ** ولا دماغ السمك النهري () يدخل في العذب إلى جمه ** كفعل ذي النقلة إلى البرّ ()

(تدبر أوقاتاً بأعيانها ** على مثال الفلك الجرى () وكلّ جنس فله مدة ** تعاقب الأنواء في الشهر () وأكبد تظهر في ليلها ** ثم تواري آخر الدهر () ولا يسبغ الطعم ما لم يكن ** مزاجه ماءً على قدر () والتفل الرائغ إما نضا ** فشطر أنوب على شطر () متى رأى الليث أخا حافر ** تجده ذا فئس وذو جزر () وإن رأى النمر طعاماً له ** أطعمه ذلك في النمر ()

(وإن رأى مخلبه وافيّاً ** ونابه يجرح في الصخر () منهزت الشلق إلى غلصم ** فالنمر مأكول إلى الحشر () وما يعادي النمر في ضيغم ** زئيره أصبر من نمر () لولا الذي في أصل تركيبه ** من شدة الأضلاع ()

والظهر) (يبلغ بالجسر على طبعه ** ما يسحر المختال ذا الكبر) (سبحان ربّ الخلق والأمر ** ومنشر الميت من القبر) (فاصبر على التفكير فيما ترى ** ما أقرب الأجر من الوزر)

تفسير القصيدة الأولى

نقول بعون الله تعالى وقوته في تفسير قصيدة أبي سهل بشر بن المعتمر ونبدأ بالأولى المرفوعة التي ذكر في آخرها الإباضية والرافضة والناطقة فإذا قلنا في ذلك بما حضرنا قلنا في قصيدته ما قيل في الذئب أمّا قوله : كأذوب تنهشها أذوب لها عواءٌ ولها زفرٌ

فإنّها قد تتهارش على الفريسة ولا تبلغ القتل فإذا أدمى بعضها بعضاً وثبت عليه فمزقه وأكلته وقال الرّاجز : (فلا تكوني يا ابنة الأشمّ ** ورقاء دمي ذنبها المدمي) وقال الفرزدق : (وكنت كذئب السوء لما رأى دماً ** بصاحبه يوماً أحال على الدّم) نعم حتى رُبما أقبلًا على الإنسان إقبالاً واحداً وهما سواء على عداوته والجزم على أكله فإذا أدمى أحدهما وثب على صاحبه المدمى فمزقه وأكله وترك الإنسان وإن كان أحدهما قد أداماه .

ولا أعلم في الأرض خلقاً ألام من هذا الخلق ولا شراً منه ويحدث عند رؤيته الدّم له في صاحبه الطمع ويحدث له في ذلك الطمع فضل قوة ويحدث للمدمي جبنٌ وخوف ويحدث عنهما ضعف واستخذاء فإذا تهيأ ذلك منهما لم يكن دون أكله شيء والله أعلم حيث لم يعط الذئب قوة الأسد ولم يعط الأسد جبن الذئب الهارب بما يرى في أثر الدم من الضعف مثل ما يعتري الهر والهرة بعد الفراغ من السّقاء فإن الهر قبل أن يفرغ من سقاء الهرة أقوى منها كثيراً فإذا سَفَدها ولّى عنها هارباً واتبعته طالبةً له فإنها في تلك الحال إن لحقته كانت أقوى منه كثيراً فلذلك يقطع الأرض في الهرب وربّما رمى بنفسه من حالق وهذا شيء لا يعدمانه في تلك الحال .

ولم أرهم يقفون على حدّ العلة في ذلك وهذا بابٌ سيقع في موضعه من القول في الذئب تاماً بما فيه من الرواية وغير ذلك .

الذئخ والثيتل والغفر وأمّا قوله : من خلقه في رزقه كلّهم الذئخ والثيتل والغفر الذئخ : ذكر الضبع والثيتل شبيهة بالوعل وهو ممّا يسكن في رؤوس الجبال ولا يكون في القرى وكذلك الأوعال وليس لها حُضرٌ ولا عملٌ محمود على البسيط وكذلك ليس للظباء حُضرٌ ولا عملٌ محمود في رؤوس الجبال . وقال الشاعر : وقال أيضاً : (والظبي في رأس اليفاع تحاله ** عند الهضاب مُقيداً مشكولاً) والغفر : ولد الأروية : واحد الأروى والأروى : جماعة من إناث الأوعال .

الصَّدْع والجَاب وأما قوله : (والصَّدْعُ الأعْصَمُ في شَاهِقٍ ** وجَابَةٌ مَسْكُنُهَا الوَعْرُ) فالصَّدْع : الشَّاب من الأَوْعَال والأَعْصَم : الذي في عَصْمَتِهِ بَيَاضٌ وفي المِعْصَم منه سَوَادٌ وَلَوْ نُحْالِفُ لَوْنُ جَسَدِهِ وَالْأُنْثَى عَصْمَاءُ والجَاب : الحِمَارُ الغَلِيظُ الشَّدِيدُ والجَابَةُ : الأَتَانُ الغَلِيظَةُ والجَابُ أَيضاً مَهْمُوزٌ : المَغْرَةُ وَقَالَ عَنَتْرَةُ : (فَجَا أَمَامَ رِمَاحِهِنَّ كَأَنَّهُ ** فَوَتْ الأَسِنَّةَ حَافِرِ الجَابِ) شَبَّهَهُ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ لُطُوحِ الدِّمَاءِ بِرَجُلٍ يَحْفَرُ فِي مَعْدَنِ المَغْرَةِ والمَغْرَةُ أَيضاً المَكْرُ ولذلك قَالَ أَبُو زُبَيْدٍ فِي صِفَةِ الأَسَدِ المَخْمَرِ بِالدِّمَاءِ : (يَعَاجِيهِمُ لِلشَّرِّ ثَانِي عِطْفِهِ ** عَنَانِيتهُ كَأَنَّمَا بَاتَ يُمَكِّرُ)

الحِيَةِ وَالتَّعْلَبُ وَالدَّرُّ وَأما قوله : (وَالحِيَةِ الصَّمَاءُ فِي جُحْرِهَا ** وَالتَّعْلَبُ الرَائِعُ وَالدَّرُّ) فَالتَّعْلَبُ هُوَ التَّعْلَبُ وَهُوَ مَوْصُوفٌ بِالرَّوْعَانِ وَالحَبْثُ وَيَضْرِبُ بِهِ المِثْلُ فِي التَّنَادُلَةِ وَالدَّنَاءَةِ كَمَا يَضْرِبُ بِهِ المِثْلُ فِي الحَبْثِ وَالرَّوْعَانُ .

وَقَالَ طَرْفَةُ : (وَصَاحِبٌ قَدْ كُنْتُ صَاحِبَتُهُ ** لَا تَرَكَ اللهُ لَهُ وَاضِحَةً) (كُلُّهُمْ أَرْوَعٌ مِنْ تَعْلَبٍ ** مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ) وَقَالَ ذُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ :

(وَمُرَّةٌ قَدْ أَدْرَكْتُهُمْ فَتَرَكْتُهُمْ ** يَرَوْعُونَ بِالْعَرَاءِ رَوْعَ التَّعَالِبِ) وَقَالَ أَيضاً : (وَلَسْتُ بِتَعْلَبٍ إِنْ كَانَ كَوْنٌ ** يَدُسُّ بِرَأْسِهِ فِي كُلِّ جُحْرٍ) وَلَمَّا قَالَ أَبُو مُحَجَّنٍ التَّقْفِيُّ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَائِطِ الطَّائِفِ مَا قَالَ : قَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : إِنَّمَا أَنْتَ تَعْلَبٌ فِي جُحْرٍ فَابْرُزْ مِنَ الْحَصْنِ إِنْ كُنْتَ رَجُلًا .

وَمَا قِيلَ فِي ذِلَّةِ التَّعْلَبِ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ حِينَ وَجَدَ التَّعْلَبَانِ بَالٍ عَلَى رَأْسِ صَنْمِهِ :

(إِلَهَ يَبُولُ التَّعْلَبَانُ بِرَأْسِهِ ** لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ التَّعَالِبُ) (تَمَيَّنِي قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ سَفَاهَةً ** وَأَنْتَ امْرُؤٌ لَا تَحْتَوِيكَ المِقَانِبُ) (وَأَنْتَ امْرُؤٌ جَعَدْتَ القِفَا مُتَعَكِّسٌ ** مِنَ الأَقْطِ الحَوْلِيِّ شَبْعَانِ كَانِبُ) إِذَا انْتَسَبُوا لَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَ تَعْلَبٍ إِلَيْهِمْ وَمِنْ شَرِّ السَّبَاعِ التَّعَالِبُ وَأَنْشَدُوا فِي مِثْلِ ذَلِكَ : (مَا أَعْجَبَ الدَّهْرَ فِي تَصَرُّفِهِ ** وَالدَّهْرُ لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ) (يَبْسُطُ آمَالَنَا فَنَبْسُطُهَا وَدُونَ ** آمَالِنَا نَوَائِبُهُ) (وَكَمْ رَأَيْنَا فِي الدَّهْرِ مِنْ أَسَدٍ ** بَالَتْ عَلَى رَأْسِهِ تَعَالِبُهُ)

فَفِي التَّعْلَبِ جِلْدُهُ وَهُوَ كَرِيمُ الْوَبَرِ وَلَيْسَ فِي الْوَبَرِ أَعْلَى مِنَ التَّعْلَبِ الْأَسْوَدِ وَهُوَ ضَرْبٌ وَمِنْهُ الْأَيْضُ الَّذِي لَا يُفْصَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْفَنَكِ وَمِنْهُ الْخُلْنَجِيُّ وَهُوَ الْأَعْمَى .

وَمِنْ أَعَاجِيْبِهِ أَنْ نَضِيَّةً وَهُوَ قَضِيْبِيَّةٌ فِي خَلْقَةِ الْأَنْبُوبَةِ أَحَدِ شَطْرَيْهِ عَظْمٌ فِي صُورَةِ الْمُثَقَبِ (وَالْآخَرُ عَصَبٌ وَلَحْمٌ وَلِذَلِكَ قَالَ بَشَرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ : (وَالتَّعْلَبُ الرَائِعُ إِمَّا نَضَا ** فَشَطْرُ أَنْبُوبٍ عَلَى شَطْرِ) وَهُوَ سَعْيٌ جَبَانٌ جَدًّا وَلَكِنَّهُ لَفَرَطِ الحَبْثِ وَالحِيلَةِ يَجْرِي مَعَ كِبَارِ السَّبَاعِ .

وزعم أعرابيٌّ ممن يُسمَعُ منه أنّه طاردهُ مرّةً بكلابٍ له فراوغه حتّى صار في خمرٍ ومرّ بمكانه فرأى ثعلباً ميتاً
وإذا هو قد زكّر بطنه ونفخه فوهمه أنّه قد مات من يومٍ أو يومين قال : فتعدّيته

وشمّ رائحة الكلاب فوثب وثبّة فصار في صحراء .

وفي حديث العامّة أنّه لما كثرت البراغيثُ في فروته تناول بفيه إمّا صوفةً وإمّا ليقة ثم أدخل رجله في الماء
فترقّعت عن ذلك الموضع فما زال يغمسُ بدنه أولاً فأولاً حتّى اجتمعن في خَطْمه فلما غمس خَطْمه أولاً
فأولاً اجتمعن في الصوفة فإذا علم أنّ الصوفة قد اشتملت عليهن تركها في الماء ووثب فإذا هو خارجٌ عن
جميعها .

فإن كان هذا الحديث حقّاً فما أعجبه وإن كان باطلاً فإنّهم لم يجعلوه له إلّا للفضيلة التي فيه من الحبث
والكيس .

وإذا مشى الفرسُ مشياً شبيهاً بمشي الثعلب قالوا : مشى الثعلبية قال الراعي : (وغملى نصي بالمتان كأنها
** ثعالبٌ موتى جلدها قد تسلعا)

وقال الأصمعيّ : سرق هذا المعنى من طفيل الغنوي ولم يجد السرق .

وفي تشبيه بعض مشيته قال المرار بن مُنقذ : (صفة الثعلب أدنى جرّيه ** وإذا يُركضُ يعفُورُ أشير) وقال
امرؤ القيس : واليت الذي ذكره الأصمعيّ لطفيل الغنوي أنّ الراعي سرق معناه هو قوله : (وغملى نصي
بالمتان كأنها ** ثعالبٌ موتى جلدها لم ينزع) وأنشدوا في جنيّه قول زهير بن أبي سلمى :

(وبلدة لا تُرام خائفة ** زوراء مُعبّرة جوانبها) (تسمع للجنّ عازفين بها ** تصبحُ من رهبة ثعالبها)
كلّفَتْها عَرِيساً غداً فرةً ** ذات هباب فُعماً مناكبها) (تُراقبُ المُحصّد الممرّ إذا ** هاجرة لم تقلّ جنادبها)
والذي عندي أنّ زهيراً قد وصف الثعلب بشدّة القلب لأنهم إذا هؤولوا بذكر الظلّمة الوحشيّة والغيلان لم
يذكروا إلّا فزع من لا يكاد يفزع لأنّ الشاعر قد وصف نفسه بالجراءة على قطع هذه الأرض في هذه
الحال .

وفي استنداله وجنبه قالت أمّ سالم لابنها معمر : (أرى معمرأ لا زين الله معمرأ ** ولا زانه من زائر يتقرّبُ
(

(أعاديتنا عاديك عزّ وذلةً ** كأنك في السربال إذ جئت ثعلب) (فلم ترَ عيني زائراً مثل معمر ** أحقّ
بأن يُجنى عليه ويُضرب) (تأمل لما قد نال أمك هجرس ** فإلك عبدٌ يا زميل ذليل) (وإني متى أضربك
بالسيف ضربة ** أصبح بني عمرٍ و وأنت قتيل) الهجرس : ولد الثعلب قال : وكيف يضطاد وهو على
هذه الصفة فأنشد شعر ابن ميادة : (ألم تر أنّ الوحش يخذعُ مرّةً ** ويخدعُ أحياناً فيصطاد نورها)
بلى وضواري الصيد تُخفقُ مرّةً ** وإن فرهت عقباؤها وتُسورها) قال : وسألت عنه بعض الفقهاء فقال :
قيل لابن عباس : كيف ترعمون أنّ سليمان بن داود عليهما السلام كان إذا صار في البراري حيث

لا ماء ولا شجر فاحتاج إلى الماء دله على مكانه الهدهد ونحن نغطي له الفخ بالتراب الرقيق ويبرز له الطعام فيقع فيه جهلاً بما تحت ذلك التراب وهو يدل على الماء في قعر الأرض الذي لا يوصل إليه إلا بأن يحفر عليه القيم الكيس .

قال : فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا جاء القدر لم ينفع الحذر .
وأشدوا : (خير الصديق هو الصدوق مقالة ** وكذلك شرهم الميؤن الأكذب) وقال حسّان بن ثابت رضي الله عنه : (بني عابدٍ شاهت وجوه الأعباد ** بطاء عن المعروف يوم الترايد)

(فما كان صيفي يفي بأمانة ** قفا تلعب أعيا بعض المراسد) وأنشد : (ويشربُه مذقاً ويسقي عياله **
سجاجاً كأقرب الثعالب أوقفا) وقال مالك بن مرّداس : (يا أيها ذا الموعدي بالضرر ** لا تلعبن لعبة المغترّ
(أخاف أن تكون مثل هرر ** أو تلعب أضيع بعد حرر)

(هاجت به مخيلة الأظفر ** عسراء في يوم شمال قرّ) (يجول منها لقي الذعر ** بصرد ليس بذئ محجر)
تنفض أعلى فروه المغبر ** تنفض منها نابها بشزر (نفصاً كلون الشره المخمر المخيلة : العقاب الذكر
الأشيث صرد : مكان مطمئن .

وقال القطري : كان اسم أبي الضريس ديناراً فقال له مولاه : يا دينير فقال : أتصغري وأنت من سلاح
الثعلب ومن أشد سلاح الثعلب عندكم الروغان والتماوت وسلاحه أنتن والزج وأكثر من سلاح الحباري .

وقالت العرب : أدهى من ثعلب وأنتن من سلاح الثعلب .
وله عجيبة في طلب مقتل القنفذ وذلك إذا لقيه فأمكنه من ظهره بال عليه فإذا فعل ذلك به ينسبط فعند
ذلك يقبض على مرقا بطنه .
أرزاق الحيوان ومن العجب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله ويصيد الثعلب القنفذ فيأكله
ويُرغ القنفذ الأفعى فيأكلها وكذلك صنيعة في الحيات ما لم تعظم الحية والحية تصيد العصفور فتأكله
والعصفور يصيد الجراد فيأكله والجراد يلتهم فراخ الزناير وكل شيء يكون أفحوصه على المستوي
والزنبور يصيد التحلة فيأكلها والتحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها .
الإلقة والسهل والنوفل والنضر وأما قوله : فالإلقة هاهنا القردة تُرغث : ترضع والرُبّاح : ولد القردة

والسهل : الغراب والتوفل : البحر والنضر : الذهب وكل جريرة من النساء وغير ذلك فهي إلقة وأنشدني
بشر بن المعتمر لرؤبة : جدّ وجدت إلقة من الإلق وقد ذكرنا الهقل وشأنه في الجمر والصخر وأكل الضب
أولاده في موضعه من هذا الكتاب وكذلك قوله في العُترُفان وهو الديك الذي يؤثر الدجاج بالحب وكأته

منجم أو صاحب أسطربلاب وذكرنا أيضاً ما في الجراد في موضعه ولسنا نُعيدُ ذكر ذلك وإن كان مذكوراً في شعر بشر .

الأبغث وأما قوله : وأبغث يصطاده صقر ثم قال : (سلاحه رُمحٌ فما عُذْرُهُ * وقد عَراه دُونُه الذعرُ) يقول : بدنُ الأبغث أعظمُ من بدن الصقر وهو أشدُّ منه شِدَّةً ومنقاره كسنان الرُمح في الطول والذرب وربما تجلَّى له الصَّقرُ والشَّاهينُ فَعَلَقَ الشَّجَر والعَراَر وهتك كلَّ شيء يقول : فقد اجتمعت فيه خصالُ في الظَّاهر معيَّةٌ له عليه ولولا أنَّه على حال يعلم أنَّ الصَّقر إنما يأتيه قُبلاً ودُبْراً واعتراضاً ومن علٍّ وأنه قد أعطى في سلاحه وكفِّه فضل قوَّة لما استخذى له ولما أطعمه بهرِّه حتَّى صارت جرَّاته عليه بأضعاف ما كانت .

قال بعضُ بني مروان في قتل عبد الملك عمرو بن سعيد : (كأنَّ بني مروان إذ يقتلونه * بغاثٌ من الطَّيرِ اجتمعن على صقرٍ) ما يقبل التعليم من الحيوان وأما قوله :

(والدُّبُّ والقرد إذا علَّما * والفيل والكَلْبَةُ واليَعْرُ) فإن الحيوان الذي يَلْقَن ويَحكي ويَكِسُّ ويُعَلِّم فيزداد بالتعليم في هذه التي ذكرنا وهي الدُّبُّ والقرد والفيل والكلب . وقوله : اليعر يعني صغار الغنم ولعمري أنَّ في المكيَّة والحبشيَّة لعباً . حب الطَّيِّب للحنظل والعقرب للتمر وأما قوله : (وطبيَّةٌ تحضِّمُ في حَنَظَل * وعَقْرَبٌ يُعْجِبُها التَّمْرُ) ففي الطَّيِّب أعاجيبُ من هذا الضرب وذلك أنَّه ربَّما رعى الحنظل فتراه يقبضُ وبعضُ على نصف حنظلة فيقذِّها قد الخسفة فيمضغُ ذلك النصفَ وماؤه يسيلُ من شدقيه وأنت ترى فيه الاستلذاذ له والاستحلاء لطعمه . وخبرني أبو محجن العنزي خال أبي العميثل الرَّاجز قال : كت

أرى بأنطاكية الطَّيِّب يُرْدُ البحر و يشربُ المالح الأجاج . والعقرب ترمي بنفسها في التَّمْر وإنما تطلب النَّوى المُتَمِّع في قعر الإناء . فأئى شيء أعجبُ من حيوانٍ يستعذب مُلوحَة البحر ويستحلي مرارة الحنظل . وسنذكر خصال الطَّيِّب في الباب الذي يقع فيه ذكره إن شاء الله تعالى ولسنا نذكر شأن الضبِّ والتَّمَل والجعل والرَّوْث والورد لأنَّنا قد ذكرناه مرَّة . فأرة اليش وأما قوله : (وفأرة اليش إمامٌ لها * والخلدُ فيه عجبٌ هتُرُ) فإن فأرة اليش دُوَيْبَة تشبه الفأرة وليست بفأرة ولكن هكذا تسمَّى وهي تكون في العياض والرِّياض ومنابت الأهضام وفيها سمومٌ كثيرة كقرون السُّبُل وما في القُسْط فهي تتخلَّل تلك

وقد ذكرنا شأن القنفذ والحَيَّة في باب القول في الحَيَّات . العصفُوط والهدهد وأما قوله : وعصفُوطٌ ما له قِبلة فهو أيضاً عندهم من مطايا الجنِّ وقد ذكره أيمن بن

خُرِيمَ فَقَالَ : (وَخَيْلُ غَزَالَةٍ تَنْتَابُهُمْ ** تَجُوبُ الْعِرَاقَ وَتَجْبِي النَّيْطَا) (تَكُرُّ وَتُجْحِرُ فُرْسَانَهُمْ ** كَمَا أَجْحَرَ الْحَيَّةُ الْعَضْرَفُوطَا)

لأن العضر فوط دويبة صغيرة ضعيفة والحيات تأكلها وتغصبها أنفسها .
وأنشدوا على ألسنة الجن : (وَمِنْ عَضْرَفُوطٍ حَطَّ بِي فَأَقَمْتُهُ ** يَبَادِرُ وَرِدَاً مِنْ عِظَاءِ قَوَارِبِ) وأما قوله :
وهدهدٌ يُكْفِرُهُ بِكْرُ فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ حَاجَّ بَكْرِ ابْنِ أَخْتِ عَبْدِ الْوَاحِدِ صَاحِبِ الْبِكْرِيَّةِ فَقَالَ لَهُ : أَخْبِرْ
عَنْ حَالِ الْمُهْدُودِ بِخَبَرٍ إِنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ طَاعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَقَدْ تَرَكَ مَوْضِعَهُ وَسَارَ إِلَى بِلَادِ سَبَأٍ
وَهُوَ وَإِنْ أَطْرَفَ سُلَيْمَانَ بِذَلِكَ الْخَبَرَ وَقِيلَ مِنْهُ فَإِنَّ ذَنْبَهُ فِي تَرْكِ مَوْضِعِهِ الَّذِي وَكَّلَ بِهِ وَجُولَانِهِ فِي الْبُلْدَانِ
عَلَى حَالِهِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِمَّا يَجْعَلُ ذَنْبَهُ السَّابِقَ إِحْسَانًا وَالْمَعْصِيَةَ لَا تَنْقَلِبُ

طاعة فلم لا تشهد عليه بالتَّفَاقُ قَالَ : فَإِنِّي أَفْعَلُ قَالَ : فَحَكَى ذَلِكَ عَنْهُ فَقَالَ : أَمَّا هُوَ فَقَدْ كَانَ سَلِمَ عَلَى
سُلَيْمَانَ وَقَدْ كَانَ قَالَ : لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِأَتَيْنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَلَمَّا أَتَاهُ بِذَلِكَ الْخَبَرَ رَأَى
أَنَّهُ قَدْ أَدَّى بِحُجَّةٍ فَلَمْ يَعَذِّبْهُ وَلَمْ يَذْبَحْهُ فَإِنَّ كَانَ ذَنْبُهُ عَلَى حَالِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ مَا هَجَمَ عَلَيْهِ فَمَا لَمْ يُرْسَلْ فِيهِ
وَلَمْ يَقْصِدْ لَهُ حُجَّةٌ وَكَيْفَ يُبْقَى هَذَا عَلَيْهِ .

وبكر يزعم أن الأطفال والبهايم لا تأثم ولا يجوز أن يؤثم الله تعالى إلا المسيئين فقال بشرٌ لبكر : بأي شيء
تستدلُّ على أن المسيء يعلم أنه مسيء قال : بمنجله واعتذاره بتوبته قال : فإنَّ العقرب متى لسعت فرت
من خوف القتل وهذا يدلُّ على أنَّها جانية وأنت تزعم أن كلَّ شيءٍ عاصٍ كافرٌ فينبغي للعقرب أن تكون
كافرة إذا لم يكن لها عنزٌ في الإساءة .

البر والنمر وأما قوله : (وَالْبَبْرُ فِيهِ عَجَبٌ عَجَبٌ ** إِذَا تَلَاقَى اللَّيْثُ وَالنَّمْرُ) لأنَّ البر مسالمٌ للأسد
والنمر يطالبه فإذا التقيا أعان البر الأسد .

الخفافش والطائر الذي له وكر

وأما قوله : (وَطَائِرٌ أَشْرَفُ ذُو جُرْدَةٍ ** وَطَائِرٌ لَيْسَ لَهُ وَكْرٌ) فَإِنَّ الْأَشْرَفَ مِنَ الطَّيْرِ الْخَفَّاشُ لِأَنَّهُ لَا ذَاغَمَا
حَجْمًا ظَاهِرًا وَهُوَ مُتَجَرِّدٌ مِنَ الرِّغَبِ وَالرَّيْشِ وَهُوَ يَلِدُ .

والطائر الذي ليس له وكر هو طائرٌ يخبر عنه البحرِيُّونَ أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ إِلَّا رِيثَمَا يَجْعَلُ لَبِيضُهُ أُدْحِيًّا مِنْ تَرَابٍ
وَيُعْطِي عَلَيْهِ وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ أَبَدًا حَتَّى يَمُوتَ وَإِنْ لَقِيَ ذَكَرًا أَنْثَى تَسَافَدَا فِي الْهَوَاءِ وَبِيضُهُ يَتَفَقَّصُ مِنْ نَفْسِهِ
عِنْدَ انْتِهَاءِ مُدَّتِهِ فَإِذَا أَطَاقَ فَرَخُهُ الطَّيْرَانِ كَانَ كَأَبْوِيهِ فِي عَادَاتِهِمَا .

النعالب والنسور والضباع وأما قوله : (وَثُرْمُلٌ تَأْوِي إِلَى دَوْبَلٍ ** وَعَسْكَرٌ يَتَّبِعُهُ النَّسْرُ) (يُسَالِمُ الصَّبْعَ
بِذِي مَرَةٍ ** أُبْرَمَهَا فِي الرَّحِمِ الْعُمُرُ)

فالثرملة : أنثى النعالب وهي مسالمة للدَّوْبَلِ وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَعَسْكَرٌ يَتَّبِعُهُ النَّسْرُ فَإِنَّ النَّسْرَ تَتَّبِعُ الْعَسَاكِرَ
وَتَتَّبِعُ الرَّفَاقَ ذَوَاتِ الْإِبِلِ وَقَدْ تَفْعَلُ ذَلِكَ الْعِقْبَانُ وَتَفْعَلُهُ الرَّخَمُ وَقَدْ قَالَ النَّابِغَةُ : (وَتَقَتَّ بِالْأَنْصَرِ إِذْ قِيلَ لَهُ

قد غدت * كئائب من غسان غير أشائب (بنو عمه دنيا وعمرو بن عامر * أولئك قوم بأسهم غير كاذب) (إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم * عصائب طير تهدى بعصائب) (جوانح قد أيقن أن قبيله * إذا ما التقى الجمعان أول غالب) (تراهن خلف القوم خزراً عيونها * جلوس الشيوخ في مسوك الأرناب)

والأصمعي يروي : جلوس الشيوخ في ثياب المرناب .
وسباع الطير كذلك في اتباع العساكر وأنا أرى ذلك من الطمع في القتلى وفي الرذايا والحسرى أو في الجهيض وما يُجرَح .
وقد قال النابغة : (سَمَاماً تُباري الرِّيحَ خُصوماً عِيُونُهَا * لَهْنٌ رِذايا بالطَّرِيقِ وَدَائِعُ) وقال الشاعر :
يشقُّ سَمَاحِقَ السَّلا عن جَنِينِهَا * أَخُو قَفْرَةٍ بِأَدْيِ السَّغَابَةِ أَطْحَلُ)
وقال حميد بن ثور في صفة ذئب : (إذا ما بدا يوماً رأيتَ غيابةً * من الطير ينظرون الذي هو صانع) لآته لا محالة حين يسعى وهو جائع سوف يقع على سبع أضعف منه أو على بهيمة ليس دونهما مانع .
وقد أكثر الشعراء في هذا الباب حتى أطنب بعض الخدثين وهو مسلم بن الوليد بن يزيد فقال : (يكسو السيوف نفوس الناكثين به * ويجعل الهام تيجان القنا الذُّبُل)

(قد عودَ الطَّيْرَ عاداتٍ وثقنَ بها * فُهْنٌ يَتَبَعْنَهُ في كُلِّ مُرْتَحِلٍ) ولا نعلم أحداً منهم أسرف في هذا القول وقال قولاً يُرْغَبُ عنه إلا النابغة فإنه قال : (جوانحُ قد أيقنَّ أنَّ قبيلَهُ * إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبٍ) وهذا لا نُثبتُهُ . وليس عند الطَّيْرِ والسَّباعِ في اتِّباعِ الجُمُوعِ إلَّا ما يسقط من ركابتهم ودوابهم وتوقع القتل إذ كانوا قد رأوا من تلك الجُمُوعِ مرَّةً أو مراراً فأما أن تقصد بالأمل واليقين إلى أحد الجمعين فهذا ما لم يقله أحد .
نسر لقمان وقد أكثر الشعراء في ذكر النسور وأكثر ذلك قالوا في بُد .
قال النابغة :

فضربه مثلاً في طول السلامة وقال لبید : (لما رأى صبحٌ سوادَ خليله * من بين قائم سيفه والحمل)
صبحنَ صبحاً يوم حقَّ حذاره * فأصاب صبحاً قائماً لم يعقل) (فالتفَّ منقصفاً وأضحى نجمه * بين التراب وبين حنو الكلكل) (ولقد جرى لبُدُّ فأدرَكْ جريه * ريبُ الزمانِ وكان غيرَ مثقلٍ) (لما رأى لبُد النسور تطايرت * رفع القوادِمَ كالفقير الأعزل)

(من تحته لقمانُ يرجو نفعه * ولقد رأى لقمانُ أن لم يأتل) وإن أحسنت الأوائل في ذلك فقد أحسن بعض الخدثين وهو الخزرجي في ذكر النَّسر وضرب المثل به وبلبد وصحَّة بدن الغراب حيث ذكر طول عمر مُعاذِ بن مُسلم بن رجاء مولى القعقاع بن شُور وكان من المعمرين طعن في السن مائةً وعشرين سنةً

وهو قوله : (إن معاذَ بنَ مسلمٍ رجلٌ ** قد ضجَّ من طولِ عمره الأبدُ) (قد شابَ رأسُ الزمانِ واختضب
ال ** دهرٌ وأثوابُ عمرٍ جلد) (يا نسرَ لقمانَ كمَ تعيشُ وكمَ ** تلبسُ ثوبَ الحياةِ يا لبد)

(قد أصبحتُ دارُ آدمَ خربتُ ** وأنتَ فيه كأنك الوند) ٤

شعر وخبر فيما يشبه بالنسور

وما تعلق بالسحاب من الغيم يشبه بالنعام وما تراكب عليه يشبه بالنسور قال الشاعر : (خليلي لا
تستسلما وادعوا الذي ** له كلُّ أمر أن يصبوب ربيع) (حيا لبلادٍ أنفذ الخُلُ عودها ** وجبرٌ لعظم في
شظاه صدوغ) (بمنتصر غرّ النشاص كائها ** جبالٌ عليهنَّ النسورُ وقوغ) (عسى أن يحلَّ جزعاً وإها **
وعلَّ النوى بالطاعنينَ تربع)

وشبه العجير السلوي شيوخاً على باب بعض الملوك بالنسور فقال : (فمنهنَّ إسادي على ضوء كوكب **
له من عمانيَّ التجوم نظيرُ) (ومنهنَّ قرعي كلَّ باب كائما ** به القومُ يرجون الأذين نُسورُ) (إلى فطنٍ
يستخرج القلبَ طرفه ** له فوق أعواد السَّيرِ زئيرُ) وذكرت امرأة من هذيل قتيلاً فقالت : (تمشى
النسورُ إليه وهي لاهية ** مشيَ العذارى عليهنَّ الجلايبُ) تقول : هي آمنةٌ أن تُدعر . (وعند الكلابيَّ
الذي حلَّ بيته ** بجو شخابٍ ماضٍ وصبوح)

(ومكسورةٌ حمراً كأنَّ متونها ** نُسورٌ إلى جنبِ الخوانِ جُتوحُ) مكسورة : يعني وسائد مثنية وقال ابن
ميادة : (ورَجَعْتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبابِ وعصره ** شيخاً أزب كائهُ نسرُ) وقال طرفة : (فلاَ مَنَعَنَّ مَنَابِ
الضَّ ** مران إذ منع النسور) وفي كتاب كليله ودمنة : وكن كالتسر حوله الجيف ولا تكن كالجيف
حولها النسور فاعترض على ترجمة ابن المقفع بعض المتكلمين من فتيان الكتاب فقال : إنما كان ينبغي أن
يقول : كن كالضرس حَفَّ بالتَّحَفِّ ولا تكن كاهبرة تطيف بها الأكلة أظنه أراد الضروس فقال الضرس
وهذا من الاعتراض عجب .

ويوصف النسر بشدة الارتفاع حتى ألحقوه بالأنوق وهي الرِّحَّة .
وقال عديُّ بن زيد :

(فوقَ علياء لا يُنال ذراها ** يَلْعَبُ النَّسْرُ دُونَهَا والأنوقُ) وأنشدوا في ذلك : (يدنون ما سألوا وإن
سُئلوا ** فهمُ مع العيوق والنَّسْرِ) وقال زيد بن بشر التغلبي في قتل عمير بن الحباب : (لا يُجوزنَّ أرضنا
مُضَرِّيُّ ** بخفير ولا بغير خفير) (طحنتَ تغلبُ هوازنَ طحناً ** وألحت على بني منصور) (يومَ تَرُدِّي
الكمةَ حولَ عمير ** حجلانَ النسور حَوْلَ جَزُورِ) وقال جميل : (وما صائبٌ من نابلٍ قذفت به ** يدُ
ومرُّ العقدين وثيقُ)

(له من خوافي النسْرِ حَمٌّ نظائرٌ ** ونصلُ كنصل الزاعبي رقيقُ) (على نبعة زوراءَ أما خطامها ** فمتنٌ وأما عودها فعتيقُ) (بأوشك قتلاً منك يومَ رميتني ** نوافذَ لم تظهرَ لهن خروقُ) (فلم أرَ حرباً يا بئناً كحربنا ** تكشفُ غماها وأنتَ صديقُ) مسالة النسْرِ للضيع وأما قوله : (يُسلم الضَّيع بذي مِرَّةٍ ** رمها في الرَّحِمِ العُمُرُ)

لأنَّ النَّسْرَ طيرٌ ثَقِيلٌ عَظِيمٌ شَرَّةٌ رَغِيبٌ هُم إِذَا سَقَطَ عَلَى الْجَيْفَةِ وَتَمَلَّأَ لَمْ يَسْتَطِعِ الطَّيْرَانِ حَتَّى يَشَبَّ وَثَبَاتٍ ثُمَّ يَدُورُ حَوْلَ مَسْقَطِهِ مِرَاراً وَيَسْقُطُ فِي ذَلِكَ فَلَا يَزَالُ يَرْفَعُ نَفْسَهُ طَبَقَةً طَبَقَةً فِي الْهَوَاءِ حَتَّى يُدْخِلَ تَحْتَهُ الرِّيحَ فَكُلُّ مَنْ صَادَفَهُ وَقَدْ بَطِنَ وَتَمَلَّأَ ضَرْبَهُ إِنْ شَاءَ بَعْضاً وَإِنْ شَاءَ بِحَجَرٍ حَتَّى رُبَّمَا اصْطَادَهُ الضَّعِيفُ مِنَ النَّاسِ . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَشَارِكُ الضَّيْعَ فِي فَرِيَسَةِ الضَّيْعِ وَلَا يَشَبُّ عَلَيْهِ مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِعَجْزِهِ عَنِ الطَّيْرَانِ وَزَعَمَ أَنَّ تَقَتَهُ بِطُولِ الْعُمُرِ هُوَ الَّذِي جَرَّاهُ عَلَى ذَلِكَ . ٤

ستطراد لغوي

ويقال : هَوَتْ الْعُقَابُ قَهْوِي هَوِيّاً : إِذَا انْقَضَتْ عَلَى صَيْدٍ أَوْ غَيْرِهِ مَا لَمْ تَرِغْهُ فَإِذَا أَرَاغَتْهُ قِيلَ أَهَوَتْ لَهُ إِهْوَاءً وَالْإِهْوَاءُ أَيْضاً التَّنَاوُلُ بِالْيَدِ وَالْإِرَاغَةُ أَنْ يَذْهَبَ بِالصَّيْدِ هَكَذَا وَهَكَذَا .
ويقال دَوَّمَ الطَّائِرُ فِي جَوْ السَّمَاءِ وَهُوَ يَدَوِّمُ تَدْوِيماً : إِذَا دَارَ فِي السَّمَاءِ وَلَا يَحْرُكُ جَنَاحِيهِ .

ويقال نسره بالمنسر وقال العجاج : (شاكي الكلايب إذا أهوى ظفرٌ ** كعابرِ الرؤوس منها أو نسرُ) والنسر ذو منسر وليس بذي مخلب وإنما له أظفارٌ كأظفار الدجاج .
وليس له سلاحٌ إنما يقوى بقوة بدنه وعظمه وهو سعيٌ لثيمٌ عديم السلاح وليس من أحرار ولوع عتاق الطير بالحمرة ويقال إنَّ عتاق الطير تنقضُّ على غُموذ الرّحل وعلى الطنفسة والنمرق فتحسبه لحمرة حمماً وهم مع ذلك يصفونها بمحذّة البصر ولا أدري كيف ذلك .)

وقال غيلان بن سلمة : (في الآل يخفضُها ويرفعُها ** ريعٌ كأنَّ متونه السَّحْلُ) (عَقْلاً وَرَقْماً ثُمَّ أَرْدَفَهُ ** كِلَلٌ عَلَى أَلْوَانِهَا الْحَمْلُ) (كدم الرُّعافِ على مآزرها ** وكأَنَّهُنَّ ضَوَامِرٌ إِجْلُ) وهذا الشَّعرُ عندنا للمسيَّب بن علسٍ وقال علقمة بن عبدة : (رَدَّ الْإِمَاءُ جِهَالَ الْحَيِّ فَاحْتَمَلُوا ** وَكَلَّهَا بِالتَّرِيدِيَّاتِ مَعْكُومُ)

(عَقْلاً وَرَقْماً يَظَلُّ الطَّيْرُ يَتَّبِعُهُ ** كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الْأَجَوَافِ مَدْمُومُ) شعر في العقاب وقال الهذلي : (ولقد غَدَوْتُ وَصَاحِبِي وَحْشِيَّةٌ ** تَحْتَ الرَّدَاءِ بَصِيرَةٌ بِالْمَشْرِفِ) يعني عقاباً وقوله : بصيرة بالمشرف يريد الرِّيحَ من أشرفَ لها أصابته .

وقال الآخرُ في شبيهه بهذا : (فَإِذَا أَتَيْتُكُمْ هَذِهِ فَتَلَبَّسُوا ** إِنَّ الرِّمَاحَ بِصِيرَةٍ بِالْحَاسِرِ) وقال آخر :

(كَأَنِّي إِذْ عَدَوْتُ صَمَمْتُ بَرْيٍ ** مِنْ الْعِقْبَانِ خَائِنَةً طُلُوبًا) (جَرِيْمَةٌ نَاهَضَتْ فِي رَأْسِ نَيْقٍ ** تَرَى لِعِظَامِ مَا جَمَعَتْ صَلِيْبًا) وقال طُفَيْلُ الْغَنَوِيِّ : (تَبَيَّتْ كَعِقْبَانَ الشَّرِيفِ رَجَالَهُ ** إِذَا مَا نَوَّوْا إِحْدَاثَ أَمْرِ مُعْطَبٍ) أي أَمْهَلُوا وقال دُرَيْدٌ : (تَعَلَّلْتُ بِالشَّطَاءِ إِذْ بَانَ صَاحِبِي ** وَكُلُّ أَمْرِيَّ قَدْ بَانَ إِذْ بَانَ صَاحِبُهُ) (كَأَنِّي وَبَرِّي فَوْقَ فَتْحَاءَ لِقْوَةٍ ** لَهَا نَاهَضٌ فِي وَكْرِهَا لَا تَجَانِبُهُ)

(فَبَاتَتْ عَلَيْهِ يَنْفَضُ الطَّلَّ رِيْشُهَا ** تَرَاقِبُ لَيْلًا مَا تَعَوَّزُ كَوَاكِبُهُ) (فَلَمَّا تَجَلَّى اللَّيْلُ عَنْهَا وَأَسْفَرَتْ ** تَنْفَضُ حَسْرَى عَنْ أَحْصَى مَنَاكِبِهِ) (رَأَتْ ثَعْلَبًا مِنْ حَرَّةٍ فَهَوَتْ لَهُ ** إِلَى حَرَّةٍ وَالْمَوْتُ عَجَلَانُ كَارِبُهُ) جَفَاءُ الْعُقَابِ زَعَمَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ فِي الطَّيْرِ أَجْفَى لِفِرَاحِهِ مِنَ الْعُقَابِ وَأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يُخْرَجَ وَاحِدًا وَرَبْمَا طَرَدَهُنَّ جَمِيعًا حَتَّى يَحْيَى طَائِرٌ يَسْمَى كَاسِرَ الْعِظَامِ فَيَتَكَفَّلُ بِهِ .
ودرِيدُ بْنُ الصَّمَّةِ يَقُولُ : (كَأَنِّي وَبَرِّي فَوْقَ فَتْحَاءَ لِقْوَةٍ ** لَهَا نَاهَضٌ فِي وَكْرِهَا لَا تَجَانِبُهُ) مَا يَعْتَرِي الْعُقَابَ عِنْدَ الشَّيْبِ وَقَدْ يَعْتَرِي الْعُقَابَ عِنْدَ شَبَعِهَا مِنْ لَحْمِ الصَّيْدِ شَبِيْهُ الَّذِي ذَكَرْنَا فِي النَّسْرِ وَأَنْشَدَ أَبُو صَالِحٍ مَسْعُودُ بْنُ قَنْدٍ لِبَعْضِ الْقَيْسِيِّينَ :

(قَرَى الطَّيْرُ بَعْدَ الْيَأْسِ زَيْدًا فَأَصْبَحَتْ ** بَوَحْفَاءَ قَفَرٍ مَا يَدْبُ عُقَابُهَا) (وَمَا يَتَخَطَّى الْفَحْلُ زَيْدًا بِسَيْفِهِ ** وَلَا الْعِرْمَسُ الْوَجْنَاءَ قَدْ شَقَّ نَابُهَا) (وَإِنْ قِيلَ مَهْلًا إِنَّهُ شَدِيدَةٌ ** يَقْطَعُ أَقْرَانَ الْجِبَالِ جَدَابُهَا) خَيْرَ أَنَّهُ يَعْتَرِي الْعُقَابَ مِنَ الثَّقَلِ عِنْدَ الطَّيْرَانِ مِنَ الْبَطْنَةِ مَا يَعْتَرِي النَّسْرَ .
شَعَرَ فِي الْعُقَابِ وَقَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ إِنْ كَانَ قَالَهُ

: فَأَبْصَرْتُ شَخْصَهُ مِنْ فَوْقِ مَرْقِيَةٍ وَدُونَ مَوْقِعِهَا مِنْهُ شَنَاخِيبُ (فَأَقْبَلْتُ لِحْوَهُ فِي الْجَوِّ كَاسِرَةً ** يُحِثُّهَا مِنْ هَوَىِّ اللَّوْحِ تَصَوِّبُ) (صَبَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمِّمٍ ** إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشْقَيْنِ مُصَوِّبُ) (كَالِدُلُوْ بَتَتْ عَرَاهَا وَهِيَ مَثْقَلَةٌ ** إِذْ خَافَهَا وَذَمَّ مِنْهَا وَتَكْرِيْبُ) (لَا كَالْتِي فِي هَوَاءِ الْجَوِّ طَالِبَةٌ ** وَلَا كَهَذَا الَّذِي فِي الْأَرْضِ مَطْلُوبُ) (كَالْبَرْقِ وَالرَّيْحِ مَرَاتَاهُمَا عَجَبٌ ** مَا فِي اجْتِهَادٍ عَلَى الْإِصْرَارِ تَغْيِيْبُ) (فَأَدْرَكَهُ فَنَالَتَهُ مَخَالِبُهَا ** فَانْسَلَّ مِنْ تَحْتِهَا وَالدَّفُّ مَثْقُوبُ) (يَلُوْذُ بِالصَّخْرِ مِنْهَا بَعْدَ مَا فَتَرَتْ ** مِنْهَا وَمِنْهُ عَلَى الصَّخْرِ الشَّايِبُ)

(سَقَطَ : بَيْتُ الشَّعْرِ) (يَلُوْذُ الصَّخْرَ مِنْهَا بَعْدَ مَا فَتَرَتْ ** مِنْهَا وَمِنْهُ عَلَى الصَّخْرِ الشَّايِبُ) (ثُمَّ اسْتَغَاثَتْ بِمَتْنِ الْأَرْضِ تَعْفَرُهُ ** وَبِاللِّسَانِ وَبِالشَّدَقَيْنِ تَتْرِيْبُ) (مَا أَخْطَأَتْهُ الْمَنَائِيْ قَيْسَ أَعْمَلَةٍ ** وَلَا تَحْزَرَ إِلَّا وَهُوَ مَكْتُوبُ) (يَظُلُّ مَنَجْحَرًا مِنْهَا يَرِاقِبُهَا ** وَيَرْقُبُ اللَّيْلَ إِنَّ اللَّيْلَ مَحْبُوبُ)
وقال زهير : (تَنْبُذُ أَفْلَاذَهَا فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ ** تَنْتَبِخُ أَعْيُنُهَا الْعِقْبَانُ وَالرَّحِمُ) تَنْتَبِخُ : أَي تَنْزِعُ وَتَسْتَخْرِجُ
والعرب تسمي المنقاش المتناخ . (حَدِيثًا مِنْ سَمَاعِ الدَّلِّ وَعَرَّ ** كَأَنَّ نَفِيقَهُنَّ نَفِيقُ رُحِمٍ) والنقيق مشترك يقال : نَقَّ الضفدع يَنُقُّ نَقِيْقًا .

ويقال : أعزُّ من الأبلق العُقوق و : أبعدُ من بيض الأنوق .

فأما بيض الأنوق فرمما رأي ذلك أنَّ الرَّحْمَ تختارُ أعاليَ الجبالِ وصدُوعَ الصَّخَرِ والمواضعَ الوحشيةَ وأما الأبلق فلا يكون عقوقاً وأما العقوق البلقاء فهو مثلاً وقال : (ذكرناكِ أنْ مرَّتْ أمامَ ركبنا ** من الأدمِ محماصِ العشيِّ سلوبُ) (تدلَّتْ عليها تنفُصُ الرِّيشِ تحتها ** برائِثُها وراحِهنَّ خَصيبُ) (خداريةٌ صقَّعاء دُونِ فراخِها ** من الطَّودِ فأوَّ بينها وهوبُ) (إذا القانِصُ المحرومُ آبَ ولم يُصِبْ ** فمطعمُهُ جُنْحُ الظَّلامِ نَصيبُ) (فأصبحت بعد الطير ما دون فارة ** كما قام فوق المنصِتين خطيبُ) وقال بشرُ بن أبي خازم :

(فما صدَّعَ بخيَّةٍ أو بشرقٍ ** على زَلَقِ زُمالِقَ ذي كهافٍ) (تَرُلُ اللَّقْوةُ الشَّغْواء عنها ** محالِّبها كأطرافِ الأشافي) وقال بشر أيضاً : فإن تجعلِ النِّعماءَ منك تامةً ونُعماك نعي لا تزال تفيضُ (تكنُ لك في قومي يدٌ يشكرونها ** وأيدي التدى في الصالحين قروض) وعلى شبيهِ هذا البيت الآخر قال الخطيئة : (مَنْ يفعل الخيرَ لا يَعدِمُ جِوازِيهٗ ** لا يَذهبُ العُرفُ بينَ اللهِ والنَّاسِ)

وقال عقيل بن العرنس : (حبيب لقرطاس يؤدّي رسالة ** فيالك نفساً كيف حان ذهوها) (و كنت كفرخ النسر مُهّد وكُرّه ** بملثقة الأفنان حيل مقلها)
التمساح والسّمك وأما قوله : (وتمسح خللة طائر ** وسابح ليس له سحر) فالتمساح مختلف الأسنان فينشب فيه اللحم فيغمه فيتن عليه وقد جعل في طبعه أن يخرج عند ذلك إلى الشط ويشحاه فاه لطائر يعرفه بعينه يقال إنه طائر صغير أرقط مليح فيحيء من بين الطير حتى يسقط بين لحيه ثم ينقره بمنقاره حتى يستخرج جميع ذلك اللحم فيكون غذاء له ومعاشاً ويكون تخفيفاً عن التمساح وترفيهاً فالطائر الصغير يأتي ما هنالك يلتمس وأما قوله : وسابح ليس له سحر فإن السمك كله لا رنة

له قالوا : وإنما تكون الرنة لمن يتنفس هذا وهم يرون منخري السمك والخرق النافذ في مكان الأنف منه ويجعلون ما يرون من نفسه إذا أخرجوه من الماء أن ذلك ليس بنفس يخرج من المنخرين ولكنه تنفس جميع البدن .

العث والحفّاث وأما قوله : (والعث والحفّاث ذو نفخة ** وخرق يسفده وبر) فإن الحفّاث دابة تشبه الحية وليست بحية وله وعيد شديد ونفخ وتوثب ومن لم يعرفه كان له أشد هبة منه للأفاعي والتعابين وهو لا يضرب بقليل ولا كثير والحيات تقتله وأنشد : (أيفايشون وقد رأوا حفّاثهم ** قد عضه فقضى عليه الأسود) والعث : دويبة تقرض كل شيء وليس له خطر ولا قوة ولا بدن .
قال الرّاجز :

(يحثني وردان أي حث ** وما يحث من كبير عث) إهابه مثل إهاب العث (وعث قد وكلت إليه أهلي **
فطاح الأهل واجتبح الحريم) (وما لاهي به طرف فيوحي ** ولا صك إذا ذكر القصيم) وأنشد آخر : (
فإن تشتمونا على لؤمكم ** فقد يقرض العث ملّس الأديم)
وقالوا في الحفّاث هجا الكروي أخاه فقال : (حباري في اللقاء إذا التقينا ** وحفّاث إذا اجتمع الفريق)
وقال أعرابي : (ولست بحفّاث يطاول شخصه ** وينفخ نفخ الكير وهو لئيم) وقع بين رجل من العرب
ورجل من الموالي كلاماً فأربى عليه المولى وكان المولى فيه مشابهة من العرب والأعراب فلم يشك ذلك العربيُّ

أن ذلك المولى عربيٌّ وأنه وسط عشيرته فأنخل عنه فلم يكلمه فلما فارقه وصار إلى منزله علم أنه مولى فبكر عليه غدوة فلما رأى خذلان جلسائه له ذل واعتذر فعند ذلك قال العربيُّ في كلمة له : (ولم أدر ما الحفّاث حتى بلوته ** ولا نفص للأشخاص حتى تكشف) وقد أدركت هذه القضية وكانت في البحرين عند مسحر بن السكن عندنا بالبصرة فهو قوله : والعث والحفّاث ذو نفخة لأن الحفّاث له نفخ وتوثب وهو ضخّم شنيع المنظر فهو يهول من لا يعرفه .

وكان أبو ديجونة مولى سليمان يدّعي غاية الإقدام والشجاعة والصرامة فرأى حُفَاتًا وهو في طريق مكة فوجده وقد قتله أعرابيٌّ وراه أبو ديجونة كيف ينفخ ويتوعد فلم يشك إلا أنه أختٌ من الأفعى ومن الثعبان وأنه إذا أتى به أباه وادعى أنه قتله سيقضي له بقتل الأسد والبُر والنمر في نقاب فحملة وجاء به إلى أبيه وهو مع أصحابه وقال : ما أنا اليوم إلا ذبيح وما ينبغي لمن أحسَّ بنفسه مثل الذي أحس أن يُرمى في المهالك والمعاطب وينبغي أن يستبقها لجهادٍ

أو دفع عن حُرمة وحريمٍ يذبُّ عنه وذلك أبي هجمت على هذه الحية وقد منعت الرفاق من السلوك وهربت منها الإبل وأمعن في الهرب عنه كلُّ جَمالٍ ضخم الجزاراة فهزتني إليه طبيعة الأبطال فراوغتها حتى وهب الله الظفر وكان من البلاء أنهما كانت بأرضٍ ملساء ما فيها حصاة وبصُرْتُ بفهر على قاب غلوة فسعيت إليه وأنا أسوارٌ كما تعلمون فو الله ما أخطأتُ حقاً لهزمته حتى رزق الله عليه الظفر وأبوه والقوم ينظرون في وجهه وهم أعلم الناس بضعف الحفّات وأنه لم يؤذ أحداً قط فقال له أبوه : ارم بهذا من يلك لعنك الله ولعنه معك ولعن تصديقي لك ما كنت تدّعيه من الشجاعة والجرأة فكبروا عليه وسَمّوه قاتل ومما هجوا به حين يشهون الرجل بالعث في لوئمه وصغر قدره قول مُخارق الطائي (حيث)

(سقط : صفحة من الكتاب) (عن الأضياف والجيران عزب ** فأودت والفتى دنس لثيم) (وإني قد علمت مكان ظرف ** أغر كأنه قرس كريم) (له نعم يعام الخل فيها ** ويروى الضيف والرزق العظيم) الوبر والخرنق وأما قوله : وخرنق يسفدُه وبرُ فإن الأعراب يزعمون أن الوبر يشتهي سِفاد العكرشة وهي أنثى الأرنب ولكنه يعجز عنها فإذا قدر على ولدها وثب عليه والأنثى تسمى العكرشة والذكر هو الخُرَر والخرنق ولدهما قال الشاعر : (قبح الإله عصابة نادمُهم ** في جحجحان إلى أسافلِ نقتن) (أخذوا العتاق وعرضوا أحسابهم ** خربَ ذكر الحديد مُعرق)

(ولقد قرعت صفاتكم فوجدتكم ** مُتَشَبِّين بزاحفٍ متعلّق) (ولقد غمزتُ قناتكم فوجدتها ** خرعاءً مكسرها كعودٍ محرق) (ولقد قبضتُ بقلبِ سلَمة قبضةً ** قبضَ العقاب على فؤاد الخرنق) قالوا : إنه قالها أبو حبيب بعد أن قال جُشُم ما قال وقد قدّم إليه طعامه . مايشبه الخرز ووصف أعرابيٌّ خلق أعرابيٌّ فقال : كأن في عضلته خُرْزاً وكأن في عضله جُرْذاً . وأنشدوا لما تح ووصف ماتحاً وراه يستقي على بره فقال : (أعلدت للورد إذ الوردُ حفزُ ** دلوا جروراً وجلالاً خُرْزُ) (وماتحاً لا ينثني إذا احتجزُ ** كأن تحت جلده إذا احتفز) في كلِّ عضوٍ جرّدين أو خُرْزُ وسنقول في الأرنب بما يحضرنا إن شاء الله تعالى .

وسنقول في الأرنب بما يحضرنا إن شاء الله تعالى . القول في الأرنب قال الشاعر : (زعمتُ غُدانة أن فيها سيّداً ** ضخماً يوازنه جناحُ الجندب) (يرويه ما يروي الدُّباب فينتشي ** سكرًا ويُشبعه كراعُ الأرنب) وإنما ذكر كراع الأرنب من بين جميع الكراعات

لأنَّ الأرنب هي الموصوفة بقصر الذراع وقصر اليد ولم يُرد الكراع فقط وإنما أراد اليد بأسرها وإنما جعل ذلك لها بسبب نحن ذاكروه إن والفرس يُوصف بقصر الذراع فقط . ٤

التوبيير

والتوبيير لكل محتال من صغار السباع إذا طمع في الصيد

أو خاف أن يُصاد كالتعلب وعناق الأرض هي التي يقال لها الثفة وهي دابة نحو الكلب الصغير تصيد صيداً حسناً وربما واثب الإنسان فعقره وهو أحسن صيداً من الكلب .
وفي أمثالهم : لأنت أغنى من الثفة عن الرقة وهو التبن الذي تأكله الدواب والماشية من جميع البهائم والثفة سبع خالص لا يأكل إلا اللحم .

والتوبيير : أن تضم برائتها فلا تطأ على الأرض إلا بطن الكف حتى لا يرى لها أثر برائت وأصابع وبعضها يطأ على زمعاته وبعضها لا يفعل ذلك وذلك كله في السهل فإذا أخذت في الحزونة والصلابة وارتفعت عن السهل حيث لا ترى لها آثار قالوا : ظلفت الأثر تظلفه ظلفاً وقال الثميري : أظلفت الأثر إظلافاً .
بعض ما قيل في الأرنب وعن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر : ما الدنيا

في الآخرة إلا كنفجة أرنب .

وقال أبو الوجيه العكلي : لو كانت والله الضبة دجاجة لكانت الأرنب دجاجة ذهب إلى أن الأرنب والدراج لا تستحيل لحومها ولا تنقلب شحوماً وإنما سمنها بكثرة اللحم وذهب إلى ما يقول المعجبون منهم بلحم الضب فإنهم يزعمون أن الطعمين متشابهان وأنشد : (وأنت لو ذقت الكشي بالأكباد ** لما تركت الضب يسعى بالواد) قال : والضب يعرض لبيض الظليم ولذلك قال الحجاج لأهل الشام : إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفي عنها المذر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب ويحرسها من

الذئاب يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء وأنتم العدة والحذاء . ٤

ما يشبه بالأرنب

ثم رجع بنا القول إلى الأرنب فمما في الخيل مما يشبه الأرنب قول الأعشى : (أمّا إذا استقبلته فكأنه ** جذع سماً فوق النخيل مشدّب) (وإذا تصفحه القوارس معرضاً ** فتقول سرحان الغضا المنتصب) (أمّا إذا استدبرته فتسوقه ** ساق يقمصها وظيف أحذب) (منه وجاعة كأن حماتها ** كشطت مكان الجل عنها أرنب) (كأن حماتيهما أرنبا ** ن غيضا خيفة الأجدل)

طول عمر الأغصف والأرنب

وأنشد الأثرم : (بأغصَفَ الأُذُنِ الطَّوِيلِ العِمْرَ ** وأرنب الحُلَّةِ تَلُو الدَّهْرَ) قد سمعتُ من يذكر أن كِبَرَ أذن الإنسان دليلٌ على طول عمره حتَّى زعموا أن شيخاً من الزنادقة لعنهم الله تعالى قَلَمُوهُ لِيُضْرَبَ عَنْقُهُ فَعَدَا إِلَيْهِ غِلَامٌ سَعْدِيٌّ كَانَ لَهُ فَقَالَ : أَلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ يَا مَوْلَايَ أَنَّ مِنْ طَالَتْ أُذُنُهُ طَالَ عَمْرُهُ قَالَ : بَلَى قَالَ : فَهَاهُمْ يَقْتُلُونَكَ قَالَ : إِنَّمَا قُلْتُ : إِنْ تَرَكَوهُ .
وأنا لا أعرف ما قال الأثرم ولا سمعتُ شعراً حديثاً ولا قديماً يُخبرُ عن طول عُمر الأرنب قال الشاعر : (مَعْبِلَةٌ فِي قِدْحٍ نَبْعٍ حَادِرٍ ** تَسْقِي دَمَ الْجَوْفِ لظَفَرٍ قَاصِرٍ) (إذ لا تزال أرنبٌ أو فادِرٌ ** أو كروانٌ أو حُبَارَى حَاسِرٍ) إلى حمار أو أتان عَاقِرٌ

لبن الأرناب قال : ويزعمون أنه ليس شيءٌ من الوحش في مثل جسم الأرنب أقلُّ لبناً وذروراً على ولدٍ منها ولذلك يُضْرَبُ بِدَرِّهَا المثل فَمَنْ قَالَ فِي ذَلِكَ عَمْرُو بْنُ قَمَيْتَةَ حَيْثُ يَقُولُ : (لَيْسَ بِالْمَطْعَمِ الأَرْنَابُ إِذْ قُلَّ ** صَ دَرُّ اللَّقَاحِ فِي الصَّنْبَرِ) (وَرَأَيْتَ الإِمَاءَ كَالْجِعْثِ الْبَا ** لِي عُكُوفاً عَلَى قُرَارَةِ قَلْبٍ) (وَرَأَيْتَ الدُّخَانَ كَالْوَدْعِ الْإِلَهَ ** جَنِّ يَنْبَاعٍ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ) (حَاضِرٌ شَرُّكُمْ وَخَيْرُكُمْ دَ ** رُ خُرَيْسٍ مِنَ الأَرْنَابِ بِكَرٍ) ٤

قصر يدي الأرنب

والأرنب قصير اليدين فلذلك يخفُّ عليه الصَّعْدَاءُ والتَّوَقُّلُ فِي الْجِبَالِ وَعَرَفَ أَنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ فَصَرَفُ بَعْضَ حِيلِهِ إِلَى ذَلِكَ عِنْدَ إِرْهَاقِ الْكِلَابِ إِلَيْهِ وَلِذَلِكَ يَعْجَبُونَ بِكُلِّ كَلْبٍ قَصِيرِ الْيَدَيْنِ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ أَجْدَرَ أَنْ يَلْحَقَهَا . ٤

من أعاجيب الأرنب

وفي الأرناب من العجب أنها تحيض وأنها لا تسمن وأن قضيب الحُزْزِ رَبِّمَا كَانَ مِنْ عَظْمٍ عَلَى صُورَةِ قُضَيْبِ الثَّلَعِ .

ومن أعاجيبها أنها تنام مفتوحة العين فرَبِّمَا جَاءَ الْأَعْرَابِيُّ حَتَّى يَأْخُذَهَا مِنْ تَلْقَاءِ وَجْهَيْهَا ثَقَّةٌ مِنْهُ بِأَنَّهَا لَا تَبْصُرُ .

وتقول العرب : هذه أرنبٌ كما يقولون : هذه عُقَابٌ وَلَا يَذْكُرُونَ فِيهَا التَّوْبِيرَ الَّذِي لَيْسَ لشيءٍ مِنَ الدُّوَابِّ الَّتِي تَحْتَالُ بِذَلِكَ صَانِدَةً كَانَتْ أَوْ مَصِيدَةً وَهُوَ الْوُطْءُ عَلَى مَوْخَرِ الْقَوَائِمِ كَيْ لَا تَعْرِفَ الْكِلَابُ آثَارَهَا وَلَيْسَ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنَ الْكِلَابِ إِلَّا الْمَاهِرُ وَإِنَّمَا تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ اللَّيِّنَةِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لَمْ تَسْرِعْ

في الهَرَب وإن خافت أن تدرك انحرفت إلى الحُرُونَة والصَّلابة وإنما تستعمل التَّوْبِير قبل دنو الكلاب .
وليسَ لشيء من الوحشَ لما يُوصَف بِقَصَر اليدينِ ما للأرنب من السرعة والفرس يوصف بقصر الكُراع فقط . ٤

تعليق في كعب الأرنب

وكانت العربُ في الجاهليَّة تقول : مَنْ عُلِقَ عليه كعبُ أرنب لم تصبه عينٌ ولا نفسٌ ولا سحرٌ وكانت عليه واقيةٌ لأنَّ الجنَّ هرب منها وليست من مطاياها لمكان الحيض .
وقد قال في ذلك امرؤ القيس :

(مُرْسَعَةٌ بين أرساغه * به عَسَمٌ يبتغي أرنباً) (ليَجْعَلَ في يَدِهِ كَعْبَهَا * حِذَارُ المنيَّة أنْ يَعْطَبَا) وفي الحديث : بكى حتَّى رسعت عينه مشدَّدة وغير مشدَّدة أي قد تغيَّرت ورجلٌ مرسَّع وامرأة مرسَّعة . ٤

تعشير الخائف

وكانوا إذا دخل أحدهم قريةً من جنِّ أهلها ومن وباء الحاضرة أشدَّ الخوف إلا أن يقف على باب القرية فيعشِّر كما يعشِّر الحمارُ في نهيقه ويعلِّق عليه كعبَ أرنب ولذلك قال قائلهم : (ينفع التَّعْشِيرُ في جَنْبِ جِرْمَةٍ * ولا دَعْدَعٌ يغني ولا كعبُ أرنب) الجرمة : القطعة من النخل وقوله : دعدع كلمة كانوا يقولونها عند العِثَار وقد قال الحادرة : (وَمَطِيَّةٌ كَلَّفَتْ رَحْلَ مَطِيَّةٍ * حَرَجٌ تُنَمُّ من العِثَارِ بدَعْدَعِ)

وقالت امرأة من اليهود : (وليس لوالدةٍ نَفْثُها * ولا قَوْلُها لابنها دَعْدَعِ) (تداري غراء أحواله * وربُّكَ أَعْلَمُ بالمصرِّعِ) لعمري لئن عَشَّرْتُ من خيفةٍ نُهاقَ الحَمِيرِ إِنِّي لَجَرُوحٌ ٤

نفع الأرنب

وللأرنب جلدٌ وَوَبَرٌ يُنْتَفَعُ به ولحمه طَيِّبٌ ولا سَيْمًا إنْ جُعِلَ مَحْشِيًّا لَأَنَّهُ يَجْمَعُ حُسْنَ المنظر واستفادة العلم مما يرون من تدبيرها وتدبير الكلاب والانتفاع بالجلد وبأكل اللَّحْم وما أَقْلٌ ما تجتمع هذه الأمور في شيءٍ من الطَّيْرِ .

وأما قوله : (إذا ابتَدَرَ النَّاسُ المعالي رأيتهم * قِياماً بأيديهم مسوكُ الأرانِبِ) فَإِنَّهُ هجَاهُمْ بِأَتَمِّهم لا كسب لهم إلاَّ صيدُ الأرانِبِ وبيع جلودها .

الحُلَكَاءُ وأما قوله : (وغائصٌ في الرمل ذو حَدَّةٍ * ليس له نابٌ ولا ظُفْرٌ) فهذا الغائص هو الحلكاء والحلكاء : دويبة تغوصُ في الرمل كما يصنع الطَّائِر الذي يسمَّى الغَمَّاس في الماء وقال ابن سُهَيْم في

قصيدته التي قصّد فيها للغرائب : شحمة الرمل ومّا يغوص في الرّمْل ويسبح فيه سباحة السّمكة في الماء
شحمة الرّمْل وهي شحمة الأرض بيضاء حسنة يشبه بها كف المرأة وقال ذو الرّمة في تشبيه البنان بها :

(خرايب أمثالُ كأنّ بنائها ** بناتُ النقا تحفّى مراراً وتظهرُ) وقال أبو سليمان الغنوي : هي أعرض من
العظاء بيضاء حسنة منقطة بحمرة وصفرة وهي أحسن دواب الأرض .
وتشبه أيضاً أطراف البنان بالأساريع وبالغنم إذا كانت مطرقة وقال مرقش : (التّشّرُ مسكٌ والوجوهُ دنا
** نيرٌ وأطراف الأُكفّ عَم) وصاحب البلاغة من العامة يقول : كأنّ بناها البياح والدّواج ولها ذراعٌ
كأنها شبيطة .

ويشبه أيضاً بالدمقس .

شعر فيه خرافة ومن خرافات أشعار الأعراب يقول شاعره : (أشكو إلى الله العليّ الأجدد ** عشائراً مثل
فراخ السرهدي)

(عشائراً قد نبّوا بفدّ ** قد ساقهم خبث الزمان الأنكد) (وكلّ نفاض القفا ملهد ** يصب رجليه
حذار المعتدي) (وشحمة الأرض وفرخ الهدد ** والفار واليربوع ما لم يسفد) (فانهم ثاقبة لم تخمد **
شواء أحنش ولم تفرّد) (من الحين والعطاء الأجرد ** يبيت يسري ما دنا بفدّ) (وكلّ مقطوع العرا
معلكد ** حتّى ينالوه بعود أو يد) (منها وأبصار سعال جهد ** يغدون بالجهد والتشرّد) (زحفاً وحجواً
مثل حبو المقعد الحرباء

الحرباء وأما قوله : (حرباؤها في قِيظها شامس ** حتّى يوافي وقته العَصْرُ) (يميل بالشّق إليها كما ** يميل
في روضته الزهر) قال : والحرباء دويبة أعظم من العظاء أغبر ما كان فرخاً ثم يصفر وإمّا حياته الحر
فتراه أبداً إذا بدت جونة يعني الشّمس قد لجأ بظهره إلى جنديل فإن رمضت الأرض ارتفع ثم هو يقلّب
بوجهه أبداً مع الشّمس حيث دارت حتّى تغرب إلا أن يخاف شيئاً ثم تراه شاحجاً بيديه كما رأيت من
المصلوب وكلما حميت عليه الشّمس رأيت جلده قد يخضر وقد ذكره ذو الرّمة بذلك فقال : (يظلّ بها
الحرباء للشّمس مثلاً ** على الجندل إلا أنّه لا يكبر)

(إذا حوّل الظلّ العشيّ رأيته ** حنيفاً وفي قرن الضحى يتنصر) (غداً أصفر الأعلى وراح كأنّ ** من
الضحّ واستقباله الشّمس أخضر) خضوع بعض الأحياء للشّمس وكذا الجمل أيضاً يستقبل بهامته الشّمس
إلا أنّه لا يدور معها كيف دارت كما يفعل الحرباء وشقائق النعمان والخيري يصنع ذلك ويتفتح بالنهار
وينضم بالليل والتيلوفر الذي ينبت في الماء يغيب الليل كلّ ويظهر بالنهار والسّمك الذي يقال له الكوسج
في جوفه شحمة طيبة وهم يسمونها

الكبد فإن اصطادوا هذه السمكة ليلاً وجدوا هذه الشحمة فيها وافرّة وإن)
اصطادوها نهاراً لم توجد وقد ذكر الخطيئة دوران التبات مع الشمس حيث يقول : (بمُستأسد القرّيان حو

تَلَاْعُهُ ** فُتَوَّارُهُ مِيلٌ إِلَى الشَّمْسِ زَاهِرُهُ) وقال ذو الرُّمَّةُ : (إِذَا جَعَلَ الْحِرْبَاءُ يَغْبِرُ لَوْنُهُ ** وَيَخْضُرُ مِنْ لَفْحِ
الْمَحْجِرِ غِبَاغِيهِ) وقال ذو الرُّمَّةُ أَيْضاً : (وَهَاجِرَةٌ مِنْ دُونِ مَيَّةٍ لَمْ يَقُلْ ** قَلُوصِي بِهَا وَالْجُنْدُبُ الْجَوْنُ يَرْمُحُ)
(إِذَا جَعَلَ الْحِرْبَاءُ مِمَّا أَصَابَهُ ** مِنَ الْحَرِّ يَلْوِي رَأْسَهُ وَيَرْتُجُ) وقال آخر : (كَأَنَّ يَدَيَّ حِرْبَائَهَا مَتَشَمَّسًا **
يَدَا مُجْرِمٍ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ تَائِبٌ) وقال آخر :

(لَطْفِي يَلْفَحُ الْحِرْبَاءَ حَتَّى كَانَتْهُ ** أَخُو حَرَبَاتٍ بُزَّ ثَوْبِيهِ شَابِحُ) وأنشدوا : (قَدْ لَاحَهَا يَوْمَ شَمْسٍ مِلْهَابُ
** أَتْلُجُ مَا لَشَمْسِهِ مِنْ جَلْبَابُ) (يَرْمِي الْإِكَامَ مِنْ حِصَاةٍ طَبْطَابُ ** شَالَ الْحَرَابِيُّ لَهُ بِالْأَذْنَابُ) وقال
العباس بن مرداس : (عَلَى قُلُوصٍ يعلو بِهَا كُلُّ سَبَبٍ ** تَخَالُ بِهِ الْحِرْبَاءُ أَنْشَطَ جَالِسًا) وقال الشاعر :
تَجَاوَزْتُ وَالْعُصْفُورُ فِي الْحَجَرِ لَاجئٌ ** الصَّبِّ وَالشَّقْدَانُ تَسْمُو صُدُورُهَا) (وَاسْتَكَنَّ الْعُصْفُورُ كَرَّهَا مَعَ
الضِّ ** بَّ وَأَوْفَى فِي عُودِهِ الْحِرْبَاءُ) والشَّقْدَانُ : الحِرَابِيُّ وقوله : تَسْمُو أي تَرْتَفِعُ فِي الشَّجَرَةِ

وعلى رأس العود والواحد من الشَّقْدَانِ يَأْسُكُنُ الْقَافَ وَكَسَرَ الشَّيْنُ شَقْدًا بِتَحْرِيكِ الْقَافِ .
وأنشد : (فِيهَا إِذَا الْحِرْبَاءُ مَدَّ بِكَفِّهِ ** قَامَ مَثِيلُ الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ) وذلك أَنَّ الْحِرْبَاءَ إِذَا انْتَصَفَ التَّهَارُ فَعَلَا
فِي رَأْسِ شَجَرَةٍ صَارَ كَأَنَّهُ رَاهِبٌ فِي صَوْمَعَتِهِ .
وقال آخر : (أَنَّى أُتِيحَ لَكُمْ حِرْبَاءُ تَنْضِبَةٍ ** لَا يَتْرُكُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسَّكًا سَاقًا) التَّشْبَهُ بِالْعَرَبِ قَالَ :
وَكَانَ مَوْلَى لِأَبِي بَكْرِ الشَّيْبَانِيِّ فَادَّعَى إِلَى الْعَرَبِ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ إِلَى الْجُلُوسِ فِي الشَّمْسِ قَالَ : قَالَ لِي مُحَمَّدُ
بْنُ مَنْصُورٍ : مَرَرْتُ بِهِ

فَإِذَا هُوَ فِي ضَاحِيَةٍ وَإِذَا هُوَ يَحْكُ جِلْدَهُ بِأُظْفَارِهِ حَمَشًا وَهُوَ يَقُولُ : إِنَّمَا نَحْنُ إِبِلٌ .
وَقَدْ كَانَ قَبْلَ لَهُ مَرَّةً : إِنَّكَ تَتَشَبَّهُ بِالْعَرَبِ فَقَالَ : أَلَيْ يَقَالُ هَذَا أَنَا وَاللَّهِ حِرْبَاءُ تَنْضِبَةٌ يَشْهَدُ لِي سَوَادُ لَوْنِي
وَشِعَاتِي وَغُورُ عَيْنِي وَحُبِّي لِلشَّمْسِ .
قَالَ : وَالْحِرْبَاءُ رُبَّمَا رَأَى الْإِنْسَانَ فَنَوَعَلَهُ وَنَفَخَ وَتَطَاوَلَ لَهُ حَتَّى رُبَّمَا فَرَعَ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ وَلَيْسَ عِنْدَهُ شَرٌّ
وَلَا خَيْرٌ .
وَأَمَّا الَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْ أَصْحَابِنَا فَإِنَّ الْوَرْلَ السَّامِدَ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَمْ أَسْمَعْ بِهَذَا فِي الْحِرْبَاءِ إِلَّا مِنْ هَذَا
الرَّجُلِ .

قَالَ : وَالْحِرْبَاءُ أَيْضاً : الْمَسْمَارُ الَّذِي يَكُونُ فِي حَلَقَةِ الدَّرْعِ وَجَمْعُهُ حِرَابِي .
اسْتَدْرَاكَ لَمَّا فَاتَ مِنْ ذِكْرِ الْوَبْرِ وَقَدْ كُنَّا غَفَلْنَا أَنْ نَذْكُرَ الْوَبْرَ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ :

(إِذَا رَجَوْنَا وَلَدًا مِنْ ظَهْرٍ ** جَاءَتْ بِهِ أَسْوَدُ مِثْلِ الْوَبْرِ) مِنْ بَارِدِ الْأَدْنَى بَعِيدِ الْقَعْرِ وَقَالَ مُنْخَارِقُ بْنُ
شِهَابٍ : (فَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِ ** بَنِي فَالِجٍ حَيْثُ اسْتَقَرَّ قَرَارُهَا) (هَلُمُّوا إِلَيْنَا لَا تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ **
بِلَاقِعُ أَرْضٍ طَارَ عَنْهُ وَبَارُهَا) (وَأَرْضُ الَّتِي أَنْتُمْ لَقِيتُمْ بِجَوَّهَا ** كَثِيرٌ بِهَا أَوْعَالُهَا وَمِدَارُهَا) فَهَجَا هَؤُلَاءِ
بِكَثْرَةِ الْوَبْرِ فِي أَرْضِهِمْ وَمَدَحَ هَؤُلَاءِ بِكَثْرَةِ الْوَعُولِ فِي جَبَلِهِمْ وَقَالَ آخَرُ : (جُعِلَتْ تَمَطَّى فِي غِيَابَتِهِ ** زَمِيرُ

المروءة ناقص الشَّبرِ) (لِزُبَابَةِ سَوْدَاءَ حَنْظَلَةٍ ** والعاجز التَّدْبِيرِ كَالْوَبْرِ) وَيَضْرِبُ الْمَثْلَ بَنَتْنِ الْوَبْرِ وَلِذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

(تَطْلَى وَهِيَ سَيِّئَةُ الْمَعْرِى ** بوضر الوبر تحسبه ملايا)

ونتن الوبر هو بول مما يتمازح به الأعراب ومما تتمازح به الأعراب فمن ذلك قول الشاعر : (قد هدم الصَّفْدُغُ يَتَّ الْفَارَهُ ** فجاء الرُّبِيَّةَ وَالْوِبَارَةَ) وحلَمَ يَشْدُ بِالْحِجَارِهِ وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : (اخْتَلَطَ التَّقْدُّ عَلَى الْجِعْلَانِ **) وَقَدْ بَقِيَ دَرِيهِمْ وَثَلَاثَانِ)

الظَّربَانِ وَأَمَّا قَوْلُهُ : (وَالظَّربَانُ الْوَرْدُ قَدْ شَفَّهَ ** حُبُّ الْكُشِيِّ وَالْوَحْرُ الْحُمْرُ) (وَلَيْسَ يُنْجِيهِ إِذَا مَا فَسَأَ ** شَيْءٌ وَلَوْ أَحْرَزَهُ قَصْرٌ) قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْغَنَوِيُّ : الظَّربَانُ أَخْبَثُ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَأَهْلَكَهُ لِفَرَاخِ الضَّبَّةِ . قَالَ : فَسَأَلْتُ زَيْدَ بْنَ كُنُوءَةَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إِي وَاللَّهِ وَلِلضَّبِّ الْكَبِيرِ .

وَالظَّربَانُ دَابَّةٌ فَسَاءَةٌ لَا يَقُومُ لَشَرِّ فَسُوءِهَا شَيْءٌ قُلْتُ : فَكَيْفَ يَأْخُذُهَا قَالَ : يَأْتِي جُحْرُ الضَّبِّ وَهُوَ بَبَابُهُ يَسْتَرْوِحُ فَإِذَا وَجَدَ الضَّبُّ رِيحَ فَسُوءِهِ دَخَلَ هَارِبًا فِي جُحْرِهِ وَمَرَّ هُوَ مَعَهُ مِنْ فَوْقِ الْجُحْرِ مُسْتَمِعًا حَرَشَهُ وَقَدْ أَصْغَى يَأْخُذِي أذُنِيهِ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ نَحْوَ صَوْتِهِ وَهُوَ أَسْمَعُ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ فَإِذَا بَلَغَ الضَّبُّ مَنْتَهَا وَصَارَ إِلَى أَقْصَى جُحْرِهِ

وَكَفَّ حَرَشَهُ اسْتَدْبَرَ جُحْرَهُ ثُمَّ يَفْسُو عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَهُوَ مَتَى شَمَّهَ غُشْيَ عَلَيْهِ فَيَأْخُذُهُ . قَالَ : وَالظَّربَانُ وَاحِدٌ وَالظَّربَانُ : الْجَمِيعُ مِثْلُ الْكَرَوَانِ لِلوَاحِدِ وَالْكَرَوَانِ لِلْجَمِيعِ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ذِي الرُّمَّةِ : (مِنْ آلِ أَبِي مُوسَى تَرَى الْقَوْمَ حَوْلَهُ ** كَأَنَّهُمْ الْكَرَوَانُ أَبْصَرْنَ بَازِيَا) وَالْعَامَّةُ لَا تَشْكُ فِي أَنَّ الْكَرَوَانَ ابْنَ الْحُبَارَى لقول الشاعر : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الرُّبْدَ بِالْتَّمْرِ طَيِّبٌ ** وَأَنَّ الْحُبَارِيَّ خَالَةَ الْكَرَوَانِ) وَقَالَ غَيْرُهُ : الظَّربَانُ يَكُونُ عَلَى خَلْقَةِ هَذَا الْكَلْبِ الصَّيْنِيِّ وَهُوَ مَنَتٌ جَدًّا يَدْخُلُ فِي جُحْرِ وَالضَّبَابِ الدَّلَالِيِّ أَيْضًا الَّتِي يَدْخُلُ عَلَيْهَا السَّيْلُ فَيُخْرِجُهَا وَأَنْشَدَ : (يَا ظَرْبَانًا يَتَعَشَّى ضَبًّا ** رَأَى الْعُقَابَ فَوْقَهُ فَخَبَا) (كَأَنَّ خُصْيِيَهُ إِذَا أَكْبَا ** فَرُوجَتَانِ تَطْلِبَانِ حَبًّا) أَوْ ثَعْلَبَانِ يَحْفِرَانِ ضَبًّا

وَأَنْشَدَ الْفَرَزْدَقُ : (أَبُوكَ سَلِيمٌ قَدْ عَرَفْنَا مَكَانَهُ ** وَأَنْتَ بَجِيرِي قَصِيرٌ قَوَائِمُهُ) (وَمَنْ يَجْعَلُ الظَّرْبِيَّ الْقَصَارَ ظُهُورُهَا ** كَمَنْ رَفَعْتُهُ فِي السَّمَاءِ دَعَائِمُهُ) سِلَاحُ بَعْضِ الْحَيَوَانِ قَالَ : وَالظَّرْبَانُ يَعْلَمُ أَنَّ سِلَاحَهُ فِي فَسَائِهِ لَيْسَ شَيْءٌ عِنْدَهُ سِوَاهُ وَالْحُبَارَى تَعْلَمُ أَنَّ سِلَاحَهَا فِي سَلْحِهَا لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ سِوَاهُ قَالَ : وَلَهَا فِي جَوْفِهَا خِزَانَةٌ لَهَا فِيهَا أَبَدًا رَجْعٌ مُعَدٌّ فَإِذَا احتاجتْ إِلَيْهِ وَأَمَكْنَهَا الاستعمال استعملته وهي تعلم أن ذلك وقاية لها وتعرف مع ذلك شدة لَزَجِهِ وَخَبَثِ نَتْنِهِ وَتَعْلَمُ أَنَّهَا تَسَاوِرُ بِذَلِكَ الزُّرْقَ وَأَنَّهَا تُثْقَلُهُ فَلَا يَصِيدُ . وَيَعْلَمُ الدَّلِيكَ أَنَّ سِلَاحَهُ فِي صَيصِيَّتِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ لَهُ سِلَاحًا وَيَعْلَمُ أَنَّهُ تِلْكَ الشُّوْكَةُ وَيَدْرِي لِأَيِّ مَكَانٍ يَعْتَلِجُ وَأَيَّ مَوْضِعٍ يَطْعَنُ بِهِ .

والقنافذ تعلم أن فروتها جنة وأن شوك جلدها وقاية فما كان منها مثل الدلدل ذوات المداري فإنها ترمي فلا تُخطئ حتى يمر مرور السهم المسدد وإن كانت من صغارها قبضت على الأفعى وهي واثقة بأنه ليس في طاقة الأفعى لها من المكروه شيء ومتى قبضت على رأس الأفعى فالخطب فيها يسير وإن قبضت على الذنب أدخلت رأسها فقرضتها وأكلتها أكلاً وأمكنتها من جسمها تصنع ما شاءت ثقةً منها بأنه لا يصل إليها بوجه من الوجوه .

والأجناس التي تأكل الحيات : القنافذ والخنازير والعقبان والسنانير والشاهمرك على أن التسنور والشاهمرك لا يتعرضان للكبار .

ويعلم الزنبور أن سلاحه في شعرته فقط كما تعلم العقرب أن سلاحها في إبرتها فقط وتعلم الذبان والبعوض والقملة أن سلاحها في خراطيمها وتعلم جوارح الطير أن سلاحها في مخالبها ويعلم الذئب والكلب أن سلاحهما في أشداقهما فقط ويعلم الخنزير والأفعى أن سلاحهما في أنيابهما فقط . ويعلم الثور أن سلاحه قرنه لا سلاح له غيره فإن لم يجد الثور

والكباش والتيس قروناً

وكانت جماً استعملت باضطراب مواضع القرون .

والبرذون يستعمل فمه وحافر رجله .

ويعلم التمساح أن أحد أسلحته وأعوتها ذنبه ولذلك لا يعرض إلا لمن وجله على الشريعة فإنه يضربه ويجمعه إليه حتى يلقى في الماء .

وذئب الضب أنفع من برائه . لجوء بعض الحيوان إلى الخبث وإنما تفرغ هذه الأجناس إلى الخبث وإلى ما في طبعها من شدة الحضر إذا عديم السلاح فعند ذلك تستعمل الحيلة : مثل القنفذ في إمكان عدوه من فروته ومثل الطي واستعمال الحضر في المستوي ومثل الأرنب واستعماله الحضر في الصعداء .

وإذا كان ممن لا يرجع إلى سلاحه ولا إلى خبثه كان إما أن يكون أشد حُضرًا ساعة الهرب من غيره وإما أن يكون ممن لا يمكنه الحضر ويقطعه الجبن فلا يبرح حتى يؤخذ .

ما يقطعه الجبن من الحيوان وإنما تتقرب الشاة بالمنابعة والانقياد للسبع تظن أن ذلك مما ينفعها فإن الأسد إذا أخذ الشاة ولم تتابعه ولم تعنه على نفسها

فربما اضطر الأسد إلى أن يجريها إلى عرينه وإذا أخذها الذئب عدت معه حتى لا يكون عليه فيها مؤونة وهو إنما يريد أن ينحيتها عن الراعي والكلب وإن لم يكن في ذلك الوقت هناك كلب ولا راع فيرى أن يجري على عادته .

وكذلك الدجاج إذا كنَّ وقفاً على أغصان الشجر أو على الرفوف فلو مرَّت تحتها كل كلب وكل سنور وكل ثعلب وكل شيء يطالبها فإذا مرَّ ابن آوى بقربها لم يبق منها واحدة إلا رمت بنفسها إليه لأن الذئب هو المقصود به إلى طباع الشاة وكذلك شأن ابن آوى والدجاج يخيل إليها أن ذلك مما ينفع عنده وللجبن

تفعل كل هذا .

ولمثل هذه العلة نزل المنهزم عن فرسه الجواد ليحضر ببدنه يظن اجتهاده أنجي له وأنه إذا كان على ظهر الفرس أقل كذاً وأن ذلك أقرب له إلى الهلاك .

ولمثل هذه العلة يتشبث الغريق بمن أراد إنقاذه حتى يغرقه نفسه وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم وأنهما إنما هما

في ذلك كالرجل المعافى الذي يتعجب ممن يشرب الدواء من يد أعلم الناس به فإن أصابته شقيقة أو لسعة عقرب أو اشتكى خاصرته أو أصابه حُصْر أو) أُسْر شرب الدواء من يد أجهل الخليفة أو جمع بين دواعين متضادين .

فالأشياء التي تعلم أن سلاحها في أذناها وماخرها الزنبور والنعلب والعقرب والحبارى والظربان وسيقع هذا الباب في موضعه إن شاء الله تعالى .

وليس شيء من صنف الحيوان أردأ حيلة عند معاينة العدو من الغنم لأنها في الأصل موصولة بكفايات الناس فأسندت إليهم في كل أمر يصيبها ولولا ذلك لخرجت لها الحاجة ضرراً من الأبواب التي تعينها فإذا لم يكن لها سلاح ولا حيلة ولم تكن ممن يستطيع الانسياب إلى جحره أو صدع صخرة أو في ذروة جبل كانت مثل الدجاجة فإن أكثر ما عندها من الحيلة إذا كانت على الأرض أن ترتفع إلى رف وربما كانت في الأرض فإذا دنا المغرب فزعت إلى ذلك .

ما له ضروب من السلاح وربما كان عند الجنس من الآلات ضروب كبحر زبرة الأسد ولبدته فإنه حمل السلاح إلا في مراق بطنه فإنه من هناك ضعيف جداً وقال التغلبي : (ترى الناس من جلد أسود صالح* وزبرة صرغام من الأسد ضيغم) وله مع ذلك بعد الوثبة واللزوق بالأرض وله الحبس باليد وله الطعن بالمخلب حتى ربما حبس العير بيمينه وطعن بمخلب يساره لبته وقد ألقاه على مؤخره فيتلقى دمه شاحياً فاه وكأنه ينصب من فؤارة حتى إذا شربه واستفرغه صار إلى شق بطنه وله العض بأنياب صلاب حداد وفك شديد ومنخر واسع وله مع الثرث والثك بأظفاره دق الأعناق وحطم الأصاب وله أنه أسرع حُضراً من كل شيء أعمل الحُضْر في الهرب منه وله من الصبر

على الجوع ومن قلة الحاجة إلى الماء مع غيره وربما سار في طلب الملح ثمانين فرسخاً في يوم وليلة ولو لم يكن له سلاح إلا زئيره وتوقد عينيه وما في صدور الناس له لكفاه .

والإنسان يستعمل في القتال كفيه في ضروب ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمه ورأسه وصدره كل ذلك له سلاح ويعلم مكانه يستوي في ذلك العاقل والجنون كما يستويان في الهداية في الطعام والشراب إلى الفم . سلاح المرأة والمرأة إذا ضعفت عن كل شيء فزعت إلى الصراخ والولولة التماساً للرحمة واستجلاً للغياث

من حُمَاتِهَا وَكُفَاتِهَا أَوْ مِنْ أَهْلِ الْحُسْبَةِ فِي أَمْرِهَا .)

باب أسماء أولاد الحيوان قال : ويقال لولد السَّبع الهجرس والجمع هجارس ولولد الضبع

الفرغل والجمع فراعيل قال ابن حبناء : (سلاحين منها بالركوب وغيرها ** إذا ما رآها فرغل الضبع كفرا) قال : والدَّيسم ولد الذئب من الكلبة .

وسألت عن ذلك أبا الفتح صاحب قطرب فأنكر ذلك وزعم أنَّ الدَّيسمة الذرة واسم أبي الفتح هذا ديسم .

ويقال إِنَّهُ دَوِيَّةٌ غَيْرَ مَا قَالُوا .

ويقال لولد البربوع والفأر درص والجمع أدراص ويقال لولد الأرنب خرق والجمع خرائق قال طرفة : (إذا جلسوا خيلت تحت ثيابهم ** خرائق تُوفي بالضَّعيف لها نلرا) أشعارُ فيها أخلاط من السباع والوحش والحشرات .

قال مسعود بن كبير الجرمي من طيِّ يقولها في حمارٍ اشتراه فوجدَهُ على خلاف ما وصفهُ به النخاس :

(إنَّ أبا الخرشن شيءٌ هَنُبٌ ** معجَّبٌ ما يحتويه العُجْبُ) (قد قلتُ لما أنَّ أجَدَّ الرُّكْبُ ** واعترا القوم صحار رحبُ) (يا أجنحُ الأذنِ ألا تحبُّ ** أهانك الله فبئس النَّجْبُ) (ما كان لي إذ اشتريك قلبٌ ** بلى ولكن ضاع ثمَّ اللَّبُّ) (إن الذي باعك خبُّ ضبُّ ** أخبرني أنك عيْرُ نَدْبُ) (وشرُّ ما قال الرجال الكذبُ ** صَبَّ عليه ضيْعٌ وذَبُّ) (سرحانةٌ وجيَّالٌ قِرَشَبٌ ** ذبحَ عدتهُ رَمْلَةٌ وهضْبُ)

كأنه تحت الظَّلام سَقْبُ يأخذ منه من رآه الرُّعْبُ (وأنت تفارقُ هناك ضبُّ ** وصيَحَ الراعي مُجَرَّاً وغبُّ) (ورحماتُ بيْنهنَّ كعبٌ ** وأكرُعُ العيْرِ وفُرْتُ رطبُ) يقول : أدنوني إلى شرائه ويقال ثرية لقيق لغة طائية .

وقال قُرَواش بن حَوَظ : (نَبْتُ أن عقلاً بنَ خويلدٍ ** بنعافٍ ذي عَدَمٍ وأنَّ الأعلماء)

(ضُبْعاً مجاهرةً وليثاً هُدنةً ** وثعلباً خمرٍ إذا ماء أظلماً) (لا تسأمني من رَسيسِ عداوةٍ ** أبداً فلستُ بسائمٍ إنَّ تساماً) (غُصّاً الوعيدِ فما أكونُ لموعدي ** فيناً ولا أكلاً له متخصّماً) (فمتى ألاقكما البراز ثلاقياً ** عركاً يفلُّ الحدَّ شاكاً مُعلِّماً) الوحر قال : وقال العَدْبَس الكنائي : والوَحرة دويَّة كالعظاءة هراء إذا اجتمعتُ تلصق بالأرض وجمع وَحَرَةٌ وَحَرٌ مفتوحة الحاء ومنه قيل وَحَرُ الصَّدْر كما قيل للحقدِ ضَبُّ ذهبوا إلى لزوقه بالصَّدْر كالتزاق الوَحرة بالأرض وأنشد :

(بئسَ عَمَرَ الله قومٌ طُرِفُوا ** فَقَرُوا أضيافُهُمْ لَحْماً وَحِر) يقال لحم وَحَر : إذا دَبَّت عليه الوَحرة مقرف : مُوئى ويقال فئر : إذا وقعت فيه فارةٌ وقال الحكمي : (بأرضٍ باعدَ الرَّحْمُ ** نُ عَنْهَا الطَّلَحَ والعُشْرَا) ولم يجعل مصاديها ** يَرابيعاً ولا وَحَرَا)

لهيشة وأما قوله : (وهيشةٌ تأكلها سُرْفَةٌ ** وَسَمِعَ ذئبٌ هَمُّهُ الحُضْرُ) فالهيشة أم حبين وأنشد : (أشكو

إليك زماناً قد تعرّق ** كما تعرّق رأس الهيشة الذيب) وأمّ جيين وأمّ حيينه سواء وقد ذكرنا شأنها في صدر هذا الكتاب

ويقال إنها لا تقيم بمكان تكون فيه هذه الدودة التي يقال لها السرقة وإليها ينتهي المثل في الصنعة ويقال : أصنع من سرفة ويقال إنها تقوم من أمّ حيين مقام القراد من البعير إذا كانت أمّ حيين في الأرض التي تكون فيها هذه الدودة .

ذكر من يأكل أم حيين والقرني والجردان قال : وقال مدني لأعرابي : أأأكلون الضبّ قال : نعم قال : فاليربوع قال : نعم قال : فالوحره قال : نعم حتى عدّ أجناساً كثيرة من هذه الحشرات قال أأأكلون أمّ حيين قال : لا قال : فلتنه أمّ حيين العافية . قال ابن أبي كريمة : سألت عمرو بن كريمة أعرابياً وأنا عنده فقال : أأأكلون القرني قال : طال والله ما سال ماؤه على شذقي .

وزعم أبو زيد النحوي سعيد بن أوس الأنصاري قال : دخلت على رؤية وإذا قدّامه كانون وهو يملّ على جمره جرداً من جردان البيت يخرج الواحد بعد الواحد فيأكله ويقول : هذا أطيب من اليربوع يأكل التمر والجبن ويحسو الزيت والسمن .

وأشد : (ترى التيمي يرحف كالقرني ** إلى تيمية كففا القدوم) وقال آخر : (يدب على أحشائها كلّ ليلة ** ديب القرني بات يعلو نقا سهلاً) اليربوع قال : واليربوع دابة كالجرذ منكب على صدره لقصر يديه طويل الرجلين له ذنب كذنب الجرذ يرفعه في الصعداء إذا هرول وإذا رأيته كذلك رأيت فيه اضطراباً وعجباً والأعراب تأكله في (الجهد وفي الحصب .

أحبّ الحيوان قال : وكلّ دابة حشاها الله تعالى خبثاً فهو قصير اليدين فإذا خافت شيئاً لاذت بالصعداء فلا يكاد يلحقها شيء .

أكل المسيب بن شريك لليربوع قال : وأخبرني ابن أبي نجيح وكان حجّ مع المسيب بن شريك عام حجّ المهدي مع سلسيل قال : زاملت المسيب في حجته تلك فبينما نحن نسير إذ نظرنا إلى يربوع يتخلل فراسن الإبل فصاح بغلمانة : دونكم اليربوع فأحضروا في إثره فأخذوه فلمّا حططنا قال : اذبحوه ثم قال : اسلخوه واشووه واثبوني به في غدائي قال : فأتي به في آخر الغداء على رغيف قد رعبوه فهو أشدّ حمرة من الزهوة يريد البسرة فعطف عليه فثنى الرغيف ثم غمره بين راحتيه ثم فرج الرغيف فإذا هو قد أخذ من دسمه فوضعه بين يديه ثم تناول

الربوع فترع فخذاً منه فتناولها ثم قال : كل يا أبا محمد فقلت : ما لي به حاجة فضحك ثم جعل يأتي عليه عضواً عضواً .

قال : وأما أم حُين فهي المَيْشَة وهي أم الحين وهي دويبة تأكلها الأعراب مثل الحرباء إلا أنها أصغر منها وهي كدراء لسواد بيضاء البطن وهو خلاف قول الأعرابي للمدني .

وصاة أعرابي لسهل بن هارون وقال أعرابي لسهل بن هارون في توارى سهل من غرمائه وطلبهم له طلباً شديداً فأوصاه الأعرابي بالحزم وتدبير الربوع فقال : (انزل أبا عمرو على حدّ قرية ** تريغ إلى سهل كثير السلائق) (وخُذْ نَفَقَ الربوع واسلُكْ سبيله ** ودَعْ عنك إني ناطقٌ وابنُ ناطق) (وكنْ كأبي قُطْنِ على كلِّ زائغ ** له منزلٌ في ضيقِ العَرَضِ شاهق)

وإنما قال ذلك لاحتيال الربوع بأبوابه التي يخرج من بعضها إذا ارتاب بالبعض الآخر وكذا كانت دار أبي قطنة الخناق بالكوفة في كندة و يزعمون أنه كان مولى لهم وأنشد أبو عُبَيْلة قال : أنشدني سفيان بن عيينة : (إذ ما سرَّكَ العَيْشُ ** فلا تمرُّزْ على كِنْدَةٍ) وقد قُتِلَ أبو قُطْنَة وصُلِبَ .

الخناقون ومَن كان يخنق الناس بالمدينة عَدِيَّةُ المَدِينَةُ الصَّقْرَاءُ وبالبصرة رادويّه والمرميئون بالخنق من القبائل وأصحاب النَّحْلِ والتَّوِيلَاتِ هم الذين ذكَّرَهم أعشى هَمْدَانِ في قوله : (إذا سرَّتْ في عَجَلٍ فسرِّ في صحابةٍ ** وكنْدَةَ فاحذرْها جذارك للخنسِفِ) (وفي شِيعَةِ الأعمى خِناقٌ وغيْلَةٌ ** وقشْبٌ وإعمال لجندلة القذف) (وكلُّهُمْ شرٌّ على أنْ رأسهم ** حميدة والميلاء حاضنة الكِسْفِ)

(متى كُنْتُ في حَيٍّ بجيلة فاستمع ** فإنَّ لها قصفاً يدلُّ على حَنَفٍ) (إذا اعتزموا يوماً على قَتْلِ زائر ** تداعَوْا عَلَيْهِ بالتُّبَّاحِ والعَرْفِ) وذلك أن الخناقين لا يسرون إلا معاً ولا يقيمون في الأمصار إلا كذلك فإذا عَزَمَ أهلُ دارٍ على خنقِ إنسانٍ كانت العلامةُ بينهم الضرب على دُفٍّ أو طبلٍ على ما يكون في دُورِ الناس وعندهم كلابٌ مرَبُطَةٌ فإذا تجاؤبوا بالعَرْفِ ليخفي الصَّوْتِ ضربوا تلك الكلاب فنبحتَ وربما كان منهم معلَّمٌ يؤدِّبُ في الدَّربِ فإذا سمع تلك الأصوات أمرَ الصَّبِيَّانَ برفعِ الهجاء والقراءة والحساب .

المغيرية والغالية والمنصورية وأما الأعمى فهو المغيرة بن سعيدٍ صاحبُ المغيرية مولى بجيلة والخارج على خالد بن عبد الله (تقول من التَّوَاكَةِ أطعموني ** شراباً ثم بَلَّتْ على السَّرِيرِ) (لأعلاجِ ثمانيةٍ وشيخٍ ** كليلٍ الحَدَّ ذي بصرٍ ضروبٍ) وأما حميدة فكانت من أصحاب لَيْلى الناعظية ولها رياسة

في الغالية والميلاء حاضنة أبي منصور صاحب المنصورية وهو الكِسْفُ قالت الغالية : إِيَّاهُ عَنَى اللَّهُ : وإنَّ يَرَوْا كِسْفًا من السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرَكُومٌ وإِيَّاهُ عَنِ مَعْدَانِ الأعمى حيث يقول : (إنَّ ذا الكِسْفِ صَدَّ آلُ كُمَيْلٍ ** وكُمَيْلٌ رَذُلٌ من الأَرْدَالِ) (تَرَكَا بالعِراقِ ذاءً دويًّا ** ضَلَّ فِيهِ تَلَطُّفُ المحتالِ) تفسير بيت وأما قوله : انزل أبا عمرو على حدّ قرية تريغ إلى سهل كثير السلائق فأراد الهرب لأنه متى كان

في ظهر فظ كثير الجواد والطرائق كان أمكر وأخفى وما أحسن ما قال النابغة في صفة الطريق إذا كان
يتشعب حيث يقول : (وناجية عديت في ظهر لاحب ** كسحل اليماني قاصداً للمناهل)

(له خليج تهوي فرادى وترعوي ** إلى كل ذي نيرين بادي الشواكل) وهذا موضع الربوع في تدبيره
ومكره . أرجوزة في الربوع وأكل الحشرات والحيات وقال الآخر في صفة الربوع وفي حيلته وفي خلقه
وفي أكل الحشرات والحيات : (يا ربَّ يربوع قصير الظهر ** وشاخص العجب ذليل الصدر) (ومحكم
البيت جميع الأمر ** يرعى أصول سلم وسنر) (حتى تراه كمدا العكر ** باكرته قبل طلوع الفجر)
(بكل فياض الديدن غمر ** وكل قنص قليل الوفر) (مرتفع التجم كريم التجر ** فعاد متي بعيد القعر)
(مختلف البطن عجيب الظهر ** وتدمري قاصع في جحر)

(في العسر إن كان وبعد العسر ** أطيب عندي من جني التمر) (وشحمة الأرض طعام الثري ** وكل
جبار بعيد الذكر) وهيشة أرفعها لفطري ليوم حفل وليوم فخر (وكل شيء في الظلام يسري ** من
عقرب أو قنفذ أو وبر) (أو حية أملها في الجمر ** فلك همي وإليها أجري) (في كل حال من غنى
وفقر ** وكل شيء لقضاء يجري) (والذبح والسَّمْع وذنب القفر ** والكلب والتنفل بعد الهر)
(والضب والحوث وطير البحر ** والأعور الناطق يوم الرجر) (آكله غير الحراي الحضير ** أو جعل صلي
صلاة العصر) (يشكر إن نال قرى من جعر ** يا ويله من شاكر ذي كفر)
أفسد والله علي شكري فرعم أنه يستطيع كل شيء إلا الحرباء الذي قد اخضر من حر الشمس

وإلا الجعل الذي يصلي العصر وزعم أنه إنما جعل ذلك شكراً على ما أطمع من العذرة وأن ذلك الشكر
هو اللؤم والكفر .

ولا أعرف معنى صلاة الجعل وقد روى ابن الأعرابي عن زاهر قال : يا بُني لا تصل فإتما يصلي الجعل ولا
تصم فإتما يصوم الحمار وما فهمته بعد .

وأراه قد قدم الهيشة وهي أم حيين وهذا خلاف ما روي عن الأعرابي والمديني .
الربيع وأما قوله : وتدمري قاصع في جحر (وإني لأصطاد الربيع كلها ** شفاريتها والتدمري المقصعا)

والربيع ضربان : الشفاري والتدمري مثل الفتى والمذكي .

وقال جرير حين شبه أشياء من المرأة بأشياء من الحشرات وغيرها وذكر فيها الجعل فقال : (ترى التيمي
يزحف كالقربي ** إلى تيمية كعصا الليل) (تشين الزعفران عروس تيم ** وتمشي مشية الجعل الدحول)
(يقولوا المجتلون عروس تيم ** شوى أم الحين ورأس فيل) شعر فيه ذكر الربوع وقال عبيد بن أيوب
العنبري في ذكر الربوع : (حملت عليها ما لو أن حمامة ** تحمله طارت به في الخفافح)

(نطوعاً وأنساعاً وأشلاء مُدَنَفٍ ** يرى جسمه طول السرى في المخاوف) (فرحنا كما راحت قطاة
تنورت ** لأزغب ملقى بين غبر صفاصف) (ترى الطير والربوع يحشن وطأها ** وينقرن وطء المنسم

(المتقاذف) وقال ابن الأعرابي وهو الذي أنشدنيهِ : ترى الطير واليربوع يعني أنهما يبحثان في أثر خُفِّها ملجأً يلجآن إليه إمّا لشدة الحر وإما لغير ذلك وأنشد أصحابنا عن بعض الأعراب وشعرائهم أنه قال (فما أمُّ الرُّدين وإن أدلتْ ** بعالمه بأخلاقِ الكرام)

(إذا الشَّيْطان قصَّعَ في قَفَّاهَا ** تَنَفَّقَناه بالحِلِّ التَّوَامِ) يقول : إذا دخل الشَّيْطان في قاصعاء قفَّاهَا تنفَّقناه أي أخرجناه من النافقَاء بالحِلِّ المشي وقد مثَّل وقد أحسن في نعت الشَّعر وإن لم يكن أحسن في العقوق وأنشد قتي قوس : (لا كَرَّةَ السَّهم ولا قَلْوَعُ ** يدرُجُ تحت عَجْسِها اليربوعُ) القَلْوَع من القسي : التي إذا نُزِعَ فيها اهتلت على كفِّ النَّازِع وأما قوله : وأما قوله : (تَخَالُ به السَّمْعُ الأزلَّ كَأَنَّهُ ** إذا ما عدا) قيام الذَّنْب بشأن جِراء الضبع ويقولون : إن الضبع إذا هلكَتْ قام بشأنِ جرائها الذَّنْب وقال الكُميت :

(كما خَامَرَتْ في حَضْنِها أمُّ عامرٍ ** لِذي الحَبْلِ حتَّى عالَ أوسٌ عِيالها) وأنشد أبو عبيدة في ذلك شعراً فسَّر به المعنى وهو قوله : (والذَّنْبُ يَغْذُو بناتِ الذَّيخِ نافلةً ** بلْ يحسبُ الذَّنْبُ أنَّ التَّجْلَّ للذَّيْبِ) يقول : لكثرة ما بين الذئاب والضباع من التَّسافُدِ يظن الذَّنْب أنَّ أولاد الضبع أولادُه .
والأمر في الأعراب عجب في أكل السَّبَاع والحشرات فمنهم من يظهر استطابتها ومنهم من يفخر بأكلها كالذي يقول : (أيا أمَّ عمرو ومَنْ يَكُنْ عَقْرُ داره ** جِوارَ عَدِيٍّ يَأْكُلُ الحَشَرَاتِ)
ما تحبه الأفاعي وما تبغضه وأما قوله : (لا تَرُدُّ الماءَ أفاعي النَّقا ** لكنَّها يُعْجِبُها الحُمْرُ)

(وفي ذَرَى الحَرْمَلِ ظِلٌّ ** إذا علا واحتدمَ الهَجْرُ) فإن من العجب أنَّ الأفعى لا تَرُدُّ الماءَ ولا تريده وهي مع هذا إذا وجدت الحمر شربت حتى تسكر حتى ربَّما كان ذلك سبب حَتْفِها .
والأفاعي تكره ريح السَّدَاب والشَّيخ وتستريح إلى نبات الحَرْمَلِ وأما أنا فأبني أَلْقَيْتُ على رأسها وأنفها من السَّدَاب ما غمرها فلم أر على ما قالوا دليلاً .

أكل بعض الحيوان لبعض وأما قوله : (وبعضها طُعْمٌ لبعضٍ كما ** أُعْطِيَ سِهامُ الميسِرِ القَمْرُ) فإن الجرذ يخرج يلتمس الطُّعْمَ فهو يَحْتالُ لَطُعْمِهِ وهو يأكل ما دونه في القُوَّة كحجِّ صغارِ الدَّوَابِّ والطَّيرِ وبيضها وفراخها ومما لا يسكن في جُحْرٍ أو تكون أفاحيصُه على وجه الأرض فهو يَحْتالُ لذلك ويَحْتالُ لِمَنْعِ نفسه من الحيات ومن سِباعِ الطَّيرِ .

والحية تُريغ الجرذ لتأكله وتَحْتالُ أيضاً للامتناع من الورل والقنفذ وهما عليه أقوى منه عليهما والورل إنما يَحْتالُ للحية ويَحْتالُ للتَّعَلُّبِ والتَّعَلُّبُ يَحْتالُ لما دونه .

قال : وتخرج البعوضة لطلب الطُّعْمِ والبعوضة تعرف بطبعها أنَّ الذي

يعيشها الدم ومتى أبصرت الفيل والجموسَ وما دونهما علمت إنما خلقت جلودهما لها غذاءً فتسقطُ عليهما وتطعنُ بنحطوما ثقةً منها بنفوذ سلاحها وبمجومها على الدَّمِ .

وتخرج الدُّبابة ولها ضروبٌ من المطعم والبعوض من أكبرها صيدها وأحبُّ غذائها إليها ولولا الذُّبَابُ لكان

ضررُ البعوضِ نهاراً أكثر .

وتخرجُ الوزغةُ والعنكبوت الذي يقال له الليث فيصيدان الذباب بألطف حيلة وأجود تدبير ثم تذهب تلك أيضاً كشأن غيرهما .

كأنه يقول : هذا مذهبٌ في أكل الطيبات بعضها لبعض وليس لجميعها بُدٌّ من الطعم ولا بدٌّ للصائد أن يصطاد وكلٌ ضعيفٌ فهو يأكلُ أضعف منه وكلٌ قويٌّ فلا بدُّ أن يأكله من هو أقوى)
منه والناسُ بعضهم على بعضٍ شبيه بذلك وإن قصروا عن درك المقدار فجعل الله عزَّ وجلَّ بعضها حياةً لبعضٍ وبعضها موتاً لبعض .

شعر للمنهال في أكل بعض الحيوان لبعض وقال المنهال : (ووثبة من خُزِرٍ أعفرٍ* وخرقٍ يلعبُ فوقَ الترابِ)

(وَعَصْرُ فُوطٍ قد تقوى على* مُحْلُولِكِ البقرة مثل الحباب) (وظالمٌ يعدُّو على ظالمٍ* قد ضجَّ منه حشراتُ الشَّعَابِ) وهذان الظَّالمان اللذان عني : الأسودُ والأفعى فإنَّ الأسود إذا جاع ابتلع الأفعى .
أكل الأسود للأفاعي وشكا إليَّ حواءٌ مرةً فقال : أفقرني هذا الأسودُ ومنعني الكسْبَ وذلك أن امرأتِي جهلت فرمت به في جُونةٍ فيها أفاعي ثلاثٌ أو أربعٌ فابتلعهنَّ كلهنَّ وأراني حيَّةً مُنْكَرَةً ولا يبعد ما قال .
والعرب تقول للمسيء : أظلمُ من حيَّةٍ وقد ذكرنا ذلك في موضعه من هذا الكتاب .
ولا يستطيع أن يروم ذلك من الأفعى إلاَّ بأن يغتالها فيقبض على رأسها وقفاها فإنَّ الأفعى وصف سم الحية وإذا وصفوا سم الحية بالشدة والإجهاز خبروا عنها أنه لم يبقَ في بدنها دمٌ ولا بِلَّةٌ ولذلك قال الشاعر :

(لو حُرِّ ما أخرجتُ منه يدٌ بللاً* ولو تكتنَّفه الراقون ما سمعا) وقال آخر : (لُميمةٌ من حنشٍ أعمى أصمٌ* قد عاش حتى هو ما يمشي بدمٍ) سلاح الحيوان والشأن في السلاح أنه كلما كان أقلَّ كان أبلغ وكلما كان أكثرَ عدداً وأشدَّ ضرراً كان أشجعَ وأخذ لكلٍّ من عرف أنه دونه وأنشد أبو عبيدة : (مشي السبَّتي إلى هيجاءٍ مُفْطَعةٍ* له سلاحانِ أنيابٌ وأظفارُ) كالأسد له فم الذئب وحسبك بفم الذئب وله فضل قوة المخالب وللنسر منسرٌ وقوةٌ)
بدن يكون بهما فوق العقاب ولذلك قال ابن مناذر :

(أتجعلُ ليشاً ذا عرين ترى له* يُوباً وأظفاراً وعِرساً وأشبالاً) (كآخرَ ذا نابٍ حديدٍ ومِخْلَبٍ* ولم يتخذ عِرساً ولم يحم مَعْقِلاً) وذلك أن فتيين تواجنا بالحناجر أحدهما صُبيري والآخر كُلبي فحملا إلى الأمير فضرب الصُبيري مائة سوط فلم يحمدا صبره وشغل عن الكلبي فضربه يوم العرض خمسمائة سوط فصبر صبراً حمداً ففخر الكلبي بذلك على الصُبيري .

وابن مناذر مولى سليمان بن عبيد بن علان بن شماس الصُبيري فقال هذا الشعر ومعناه أن شجاعاً لو لقي الأسد وهو مسلَّح بأرضٍ هو بها غريبٌ وليس هو بقرب غيظته وأشباله لما كان معه مما يتخذ مثل الذي يكون معه في الحال الأخرى يقول : وإنما صبر صاحبكم لأنه إنما ضرب بحضرة الأكفاء والأصدقاء والأعداء

فكان هذا مما أعانه على الصبر وضرب صاحبنا في الخلاء وقد وكل إلى مقدار جودة نفسه وقطعت المادة بحضور البطالة .

حمدان وغلّامه وسمعت حمدان أبا العقب وهو يقول لغلّام له وكيف لا تستطيل عليّ وقد ضربوك بين الناس خمسين سوطاً فلم تنطق فقلت : إذا ضربه السجّان مائة قناة في مكان ليس فيه أحد فصبر فهو أصبر الناس . تفسير بيت الخنساء وأما قوله : مشني السبّنتي فإن السبّنتي هو النمر ثم صار اسماً لكل سبع جريء ثم صاروا مشني السبّنتي وجد السبّنتي رؤساء الحيوان وأما قوله : وتمسح النّيل عقاب الهوا واليث رأس وله الأسر (ثلاثة ليس لهم غالب * إلا بما ينتفض الدهر)

فإنهم يزعمون أن الهواء للعقاب والأرض للأسد والماء للتمساح وليس للنار حظ في شيء من أجناس الحيوان : فكأنه سلّم الرياسة على جميع الدّنيا للعقاب والأسد والتمساح ولم يمدّ الهواء وقصر الممدود أحسن من مدّ المقصور . رواية المعتزلة للشعر وروى المعتزلة المذكورون كلّهم رواية عامّة الأشعار وكان بشرّ أرواهم للشعر خاصّة .

الهوائي والمائي والأرضي من الحيوان وقولهم : الطائر هوائيّ والسّمك مائيّ مجاز كلام وكلّ حيوان في الأرض فهو أرضيّ قبل أن يكون مائيّاً أو هوائيّاً لأنّ الطائر وإنّ طار في الهواء فإنّ طيرانه فيه كسباحة الإنسان في الماء وإنّما ذلك على التكلف والحيلة ومتى صار في الأرض ودلّى نفسه لم يجد بداً من الأرض . وأما بقية القصيدة التي فيها ذكر الرافضة والإباضية والثابتة فليس هذا موضع تفسيره .

وسنقول في قصيدته الأخرى بما أمكننا من القول إن شاء الله تعالى . انقضت قصيدة بشر بن المعتمر الأولى .

تفسير القصيدة الثانية

وأما قوله : أوابد الوحش وأحناشها فإن الأوابد المقيمة والأحناش الحيات ثم صار بعد الضبّ والورل والحرباء والوحرة وأشباه ذلك من الأحناش . وأما قوله : (وكلّها شرّ وفي شرّها * خير كثير عند من يدري) يقول : هي وإن كانت مؤذية وفيها قواطل فإن فيها دواءً وفيها عبرة لمن فكّر وأذاها محنة واختبار فبالاختبار يطيع الناس وبالطاعة يدخلون الجنة . وسئل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه غير مرّة في علل نالته ف قيل له : كيف أصبحت فقال : بشرّ ذهب

إلى قوله عز وجل : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ .
وأما قوله : (فَشَرُّهُمْ أَكْثَرُهُمْ حِيلَةً ** كَالذَّبِّ وَالتَّغْلِبِ وَالدَّرِّ)

فقد فسره لك في قوله : (والليث قد بلده علمه ** بما حوى من شدة الأسر) وهكذا كل من وثق بنفسه
وقلت حاجته .

ويزعم أصحاب القنص أن العقاب لا تكاد تراوغ الصيد ولا تعاني ذلك وأنها لا تزال تكون على المرقب
العالي فإذا اصطاد بعض سباع الطير شيئاً انقضت عليه فإذا أبصرها ذلك الطائر لم يكن همه إلا الهرب وترك
صيده في يدها ولكنها إذا جاعت فلم تجد كافياً لم تمتنع عليها الذئب فما دونه وقد قال الشاعر : (مُهَبِّلٌ
ذئبها يوماً إذا قلبت ** إليه من مُسْتَكْفٍ الجوّ حملاقاً) وقال آخر : (كأنها حين فاض الماء واحتملت **
صقعاً لاح لها بالقفرة الذيب) (صبت عليه ولم تنصب من أمم ** إن الشقاء على الأشقين مصوب)
وأما قوله : (تعرف بالاحساس أقدارها ** في الأسر والإلحاح والصبر)

يقول : لا يخفى على كل سبع ضعفه وتجلده وقوته وكذلك البهيمة الوحشية لا يخفى عليها مقدار قوة بدنيتها
وسلاحها ولا مقدار عدوها في الكرّ والفر وعلى أقدار هذه الطبقات تظهر وأما قوله : (والضبع الغراء
مع ذينها ** شر من اللبوة والنمر) (كما ترى الذئب إذا لم يطق ** صاح فجاءت رسلاً تجري) (وكل
شيء فعلى قدره ** يخجم أو يُقدِّم أو يجري) فإن هذه السباع القويّة الشريفة ذوات الرياسة : الأسد
والثور واليؤر لا تعرض للنس إلا بعد أن تهرم فتعجز عن صيد الوحش وإن لم يكن بها جوع شديد فمر
بها إنسان لم تعرض له وليس الذئب كذلك لأن الذئب أشدّ مطالبةً فإن خاف العجز عوى عواء استغاثة
فتسامعت الذئاب وأقبلت فليس دون أكل ذلك الإنسان شيء .

وقسم الأشياء فقال : إنما هو نكوص وتأخر وفرار وإحجام وليس بفرار ولا إقدام وكذلك هو

المنديل والنسر وأما قوله : (والكيس في المكسب شمل لهم ** والعندليل الفرخ كالتسر) فالعندليل طائر
أصغر من ابن تمرة وابن تمرة هو الذي يضرب به المثل في صغر الجسم والنسر أعظم سباع الطير وأقواها
بدناً .

وقال يونس النحوي وذكر خلفاً الأحمر فقال : يضرب ما بين العندليل إلى الكركي وقد قال فيه الشاعر :
(ويضرب الكركي إلى القنبر ** لا عانساً يبقى ولا مُحْتَلِم) وقال : (وبما أقول لصاحبي خلف ** إيها إليك
تحدرن خلف) (فلو أن بيتك في ذرى علم ** من دون قلة رأسه شعف) (لخشيت قدرك أن يبيتها **
إن لم يكن لي عنه مُنصرف) وفي المثل : كل طائر يصيد على قدره .

كسب الذئب وخبثه وأما قوله : (والخلد كالذئب على كسبه ** والفيل والأعلم كالوَبَر) فإنه يقال :

أَغْدُرُ مِنْ ذَنْبٍ وَأُخْبِثُ مِنْ ذَنْبٍ وَأُكْسِبُ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَوْلِ الْآخِرِ : أَكْسَبُ لِلْخَيْرِ مِنَ الذَّنْبِ الْأَزْلَ
والخير عنده في هذا الموضع ما يُعِيشُ وَيُقَوِّتُ وَالْخَيْرُ فِي مَكَانٍ آخَرَ : الْمَالُ بَعِينُهُ عَلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّ
تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ وَعَلَى قَوْلِهِ : وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ أَيُّ إِيَّاهُ مِنْ أَجْلِ حُبِّ الْمَالِ لِبُخِيلٍ عَلَيْهِ ضَنِينٌ بِهِ
مُتَشَدِّدٌ فِيهِ .

والخير في موضعٍ آخَرَ : الْخَصْبُ وَكَثْرَةُ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ تَقُولُ : مَا أَكْثَرَ خَيْرِ بَيْتِ فُلَانٍ وَالْخَيْرِ الْخَصْ :
الطَّاعَةُ وَسَلَامَةُ الصَّدْرِ .
وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : أَخْبِثُ مِنْ ذَنْبٍ خَمَرَ فَعَلَى قَوْلِ الرَّاجِزِ : (أَمَا أَتَاكَ عَنِّي الْحَدِيثُ * إِذْ أَنَا بِالْغَائِطِ أُسْتَعِثُّ)
(وَالذَّنْبُ وَسْطُ أَعْزِي يَعِثُّ * وَصَحْتُ بِالْغَائِطِ يَا خَبِيثٌ) وَقَالُوا فِي الْمَثَلِ : مُسْتَوْدَعُ الذَّنْبِ أَظْلَمُ .

الْخُلْدُ وَالْخُلْدُ دَوِيَّةٌ عَمِيَاءُ صَمَاءٌ لَا تَعْرِفُ مَا يَدْنُو مِنْهَا إِلَّا بِالشَّمِّ تَخْرُجُ مِنْ جُحْرِهَا وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ لَا سَمْعَ
وَلَا بَصَرَ لَهَا وَإِنَّمَا تَشْتَحِي فَاهَا وَتَقْفُ عَلَى بَابِ جُحْرِهَا فَيَجِيءُ الذُّبَابُ فَيَسْقُطُ عَلَى شِدْقِهَا وَيَمْرُؤُ بَيْنَ لَحْيَيْهَا
فَتَسُدُّ فَمَهَا عَلَيْهَا وَتَسْتَدْخِلُهَا بِجَذْبَةِ النَّفْسِ وَتَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ رِزْقُهَا وَقَسَمَهَا فَهِيَ تَعْرِضُ لَهَا نَهَارًا دُونَ
اللَّيْلِ وَفِي السَّاعَاتِ مِنَ النَّهَارِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الذُّبَابُ أَكْثَرُ لَا تَفَرُّطُ فِي الطَّلَبِ وَلَا تَقْصُرُ فِي الطَّلَبِ وَلَا
تَخْطِي الْوَقْتَ وَلَا تَغْلُطُ فِي الْمَقْدَارِ .

وَالْخُلْدُ أَيْضًا تَرَابٌ حَوْلِيٌّ جُحْرُهُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنَ الْجَحْرِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَصْلُحُ لِمَالِكِ النَّفْسِ إِذَا بُلَّ
بِالْمَاءِ وَطُلِيَ بِهِ ذَلِكَ الْمَكَانُ .
الْأَعْلَمُ وَأَمَّا قَوْلُهُ : وَالْفِيلُ وَالْأَعْلَمُ كَالْوَبْرِ فَالْفِيلُ مَعْرُوفٌ وَالْأَعْلَمُ : الْبَعِيرُ وَبِذَلِكَ يُسَمَّى لِأَنَّهُ أَبَدًا مَشْقُوقُ
الشَّفَةِ

الْعَلِيَا وَيُسَمَّى الْإِنْسَانُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ بِهِ .
وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَعْلَمَ وَالْبَعِيرَ سِوَاءَ قَوْلِ الرَّاجِزِ : (إِنِّي لَمَنْ أَنْكَرَ أَوْ تَوَسَّما * أَخُو خَنَائِرِ أَقْوَدِ الْأَعْلَمَا)
وَقَالَ عَنْتَرَةُ : (وَحَلِيلُ غَانِيَةٍ تَرَكَتْ مُجْدَلًا * تَمْكُو فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ) يَرِيدُ شِدْقَ الْبَعِيرِ فِي السَّعَةِ
وَقَالَ الْآخَرُ : (كَمْ ضَرْبَةٍ لَكَ تَحْكِي فَاقْرَاسِيَّةً * مِنْ الْمَصَاعِبِ فِي أَشْدَاقِهِ عِلْمٌ) بَعْضُ مَا قِيلَ مِنَ الشَّعْرِ فِي
صِفَةِ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مَشَافِرَ قَرْحَى أَكْلَنِ الْبَرِّيرَا وَقَالَ آخَرُ : (بِضَرْبٍ يُلْقِحُ الضَّبْعَانُ مِنْهُ * طُرُوقَتُهُ
وَيَأْتِفُ السَّفَادَا) وَقَالَ الشَّاعِرُ الْبَاهِلِيُّ : (بِضَرْبٍ كَأَذَانِ الْفِرَاءِ فُضُولُهُ * وَطَعْنٍ كَأِيزَاغِ الْمَخَاضِ تَبُورُهَا)

كَأَنَّهُ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ فَعَلِقَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّحْمِ كَأَمثالِ آذَانِ الْحَمِيرِ .
وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ وَهُوَ ذُو الْيَمِينِينَ : (وَمَقْعَصٌ تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ * قَدْ بَانَ عَنْ مَنَكِبِهِ الْكَاهِلُ) (فَصَارَ مَا
بَيْنَهُمَا هَوَّةً * يَمْشِي بِهَا الرَّامِحُ وَالتَّابِلُ) وَفِي صِفَاتِ الطَّعْنَةِ وَالضَّرْبَةِ أَنْشَدَنِي ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : (تَمَّتْ أَبُو

اليقظانِ عندي هَجَمَةٌ ** فسَهِّلْ مأوى ليلها بالكلاكيلِ (ولا عَقْلَ عندي غيرُ طعنٍ نوافذٍ ** وضربِ
كأشداقِ الفِصالِ الهوازلِ) (وسَبَّ يود المرءُ لو ماتَ ذُونه ** كوقَعِ المضابِ صُدَعَتْ بالمعاولِ) وقل
الآخر : وقال البعيث : (أئن أمرعتَ مغزى عطيةٍ وارتعتَ ** تلاعاً من المُرُوتِ أحوى جميعها)

(تعرَّضتَ لي حتَّى ضربتُك ضربةً ** على الرأسِ يَكبو لليدينِ أميمها) إذا قاسها الآسي النَّطاسيُّ أرعشتُ
أناملُ آسيها وجاشتُ هزُومها وقال الآخر : (ونائحةٍ رافعِ صَوْنُها ** تَنُوحُ وقد وقعَ المِهْلَمُ) (تَنُوحُ
وتُسَبِّرُ قَلَّاسَةً ** وقد غابتِ الكفُّ والمعصمُ) وقال آخر : (ومُسْتَنَّةٌ كاستنانِ الخُرُو ** ف قد قطعَ الحبلُ
بالمُرُودِ) (دفوعِ الأصابعِ ضَرَحَ الشَّمُو ** سِ نَجلاءَ مُؤَيِّسَةِ العُودِ) وقال محمد بن يسير :

(وطعنِ خليسٍ كَفَرُغِ التَّضْيِيحِ ** أُفْرِغْ مِنْ نَعَبِ الحاجرِ) (تُهالُ العوائِدُ من فَتَقِها ** تردُّ السِّبَّارَ على
السَّابِرِ) وأنشدوا لرجلٍ من أزدِ شنوءة : (إذا باشروها بالسِّبَّارِ تَقَطَّعَتْ ** تقطعُ أم السكرِ شيبَ عقوفِها
(وروي للفيندِ الرَّمَّاني ولا أظنُّه له :) (كففنا عن بني هندٍ ** وقلنا القومُ إخوانُ)

(عسى الأيامُ ترجعهم ** جميعاً كالذي كانوا) (فلمَّا صرَحَ الشرُّ ** وأضحى وهو عريانُ) (شددنا شدةَ
الليثِ ** عدا والليثُ غضبانُ) (بضربٍ فيه تفجيعٌ ** وتوهينٌ وإرنانُ) (وطعنِ كَفَمِ الزَّقِّ ** وهي
والزَّقُّ مَلَّانُ) وأنشد السُّدِّيُّ لرجلٍ من بلحارث : (أتيتَ الحَرَمَ في رحله ** فشمَرَ رحلي بعنَسٍ خبُوبِ)

(تذكرُ مِنِّي خطوباً مضتْ ** ويومَ الأباءِ ويومَ الكُثيبِ) (ويومَ خرازَ وقد أَلْجَمُوا ** وأشرطتِ نفسِي بأنْ
لا أثُوبُ) (ففرجتُ عنهم بنفاحَةٍ ** لها عائدٌ مثلُ ماءِ الشَّعِيبِ) (إذا سبروها عوى كلبها ** وجاشتُ
إليهم بآنٍ صيبُ) (طعنةٌ ما طعنتُ في جمحِ الذِّ ** مَّ هلالٍ وأين مِنِّي هلالُ) (طعنةُ النَّائِرِ المصممِ حتى **
نجمُ الرَّمحِ خلفه كالخالالِ) وقال الحارث بن حِلْزَةَ : (لا يقيمُ العزيرُ بالبلدِ السَّهْ ** ل ولا ينفَعُ الذليلُ
النَّجاءُ) (حولَ قيسٍ مستلثمينَ بكِشٍ ** قرطى كأنَّهُ عبلاءُ)

(فرددناهم بضربٍ كما يخُ ** رَجُ من خربةِ المَزادِ الماءُ) (وفعلنا بهم كما علمَ الله ** وما إنَّ للحائنينِ
دماءُ) وقال ابنُ هَرَمَةَ : (بالمشرفَةِ والمظاهرِ نَسْجُها ** يَوْمَ اللَّقاءِ وكلِّ وَرْدٍ صاهِلِ) (وبكلِّ أَرْوَغٍ
كالحرِّيقِ مُطاعنٍ ** فمسايفٍ فمعاقٍ فمُنازِلِ) ويروى : فمعاذل .
الإفراط في صفةِ الضربِ والطعنِ وإذ قد ذكرنا شيئاً من الشَّعرِ في صفةِ الضربِ والطعنِ فقد ينبغي أن
نذكر بعضَ ما يشاكلُ

هذا الباب من إسرافٍ من أسرفَ واقتصادٍ من اقتصد فأما من أفرط فقول مُهلhel :

وقال الهذلي : (والطعنِ شَغْشَغَةً والضَّرْبُ هَيْقَعَةً ** ضَرَبَ المَعُولَ تحتَ الدِّيمَةِ العَصدا) (وللقسي أزاميلُ
وغَمَمَةٌ ** حَسَّ الجنوبِ سوقَ الماءِ والقردا) ومن ذلك قول عنترة : (بِرَحِيبةِ الفَرَّغينِ يهدي جرسُها **

بالليل مُعَسَّ السَّبَاعِ الضَّرْمِ) وقال أبو قيس بن الأسلت : (قد حصَّت البيضة رأسي فما ** أطمعُ يوماً
غيرَ تهجاعِ) وقال دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ : (أعاذِلُ إنَّما أفنى شبابي ** رُكوبي في الصَّريخِ إلى المنادي)

(مع الفتیان حتَّى خلَّ جِسمي ** وأفرَحَ عاتقي حَمْلُ النَّجادِ) ومما يدخلُ في هذا الباب قولُ عنترة :
رُغْنَاهُمْ وَالخَيْلُ تَرْدِي بِالْقَنَا ** وَبُكْلٌ أَيْضَ صَارِمٍ قَصَّالِ (وأنا المنيَّةُ في المِوَاطِنِ كُلِّهَا ** والطَّعْنُ مِنِّي
سَابِقُ الْأَجَالِ) وأمَّا قوله : وقال مُهْشَلُ بن حَرِيٍّ : (وما زال رُكْنِي يَرتقي من ورائه ** وفارسٌ هيجاً ينفُضُ
الصدرَ واقِفٌ) فوصف نفسه بأنَّه مجتَمع القلب مَرِيرٌ لا يبرح .

وقد كان حميد بن عبد الحميد يوصف بذلك لأنَّه كان لا يرمي بَسْهَمٍ ولا يطعنُ بِرُمحٍ ولا يضربُ بِسيفٍ
ولكن التصبر والتَّحريضَ والثَّباتَ إذا انهزمَ كلُّ شُجاعٍ منْ نذرٍ في حِمِّهِ المقتول نَذراً فبلغ في طلبِ ثأره
الشفاء . قال العباسي : (دَعَوْتُ اللَّهَ إِذْ قَدْنَا إِلَيْهِمْ ** لَنَلْقَى مِنْقَرًا أَوْ عَبْدَ عَمْرٍو) (وكانتْ حَلْفَةً حَلِفَتْ
لِوَثْرٍ ** وشاءَ اللَّهُ أَنْ أَدْرَكَتُ وَتَرِي) (وإني قد سَقَمْتُ فَكان بُرْنِي ** بِقِرْوَاشِ بْنِ حارِثَةَ بْنِ صَخْرٍ)
والأعرابُ تعدُّ القَتْلَ سَقَمًا وداءً لا يبرته أخذُ ثأره دون أخٍ أو ابنِ عَمٍّ فذلك الثَّأرُ المَنِيمُ .
ومَن قال في ذلك صَبَّارٌ بين التَّوَعُّمِ اليشكري في طلبِ الطَّائِلَةِ وأنَّ ذلك داءٌ ليس له بُرءٌ وكانوا قبلوا أخاه
إِساف بن عباد فلما أدرك ثأره قال :

(أَلَمْ يَأْتِهَا أَنِّي صَحَوْتُ وَأَنَّنِي ** شَفَانِي مِنَ الدَّاءِ الْمُخَامِرِ شافٍ) (وكنْتُ مَغْطًى فِي قِنَاعِي حِقْبَةً ** كَشَفْتُ
قِنَاعِي وَاعْتَظَفْتُ عَطَافِي) وفي شبيه هذا المذهب منْ ذِكرِ الدَّاءِ والرَّئِءِ قال الآخر : (قالتْ عَهْدَتِكَ مَجْنُونًا
فَقُلْتُ لَهَا ** إِنَّ الشَّبَابَ جُنُونٌ بِرُؤْيُهِ الْكِبَرُ) وفي شبيهه بالأوَّلِ قولُ الشَّيْخِ الْبَاهِلِيِّ حينَ خَرَجَ إِلَى الْمَبَارَزَةِ
على فرسٍ أعجف فقالوا : بال على بال فقال الشَّيْخُ : (رَأَيْتِ الْأَشْعَرِيَّ فَقَالَ بِال ** على بالٍ ولم يعرفْ
بِلَائِي) (ومثلُكَ قد كَسَرْتَ الرُّمَحَ فِيهِ ** قَابَ بَدَائِهِ وَشَفِيتُ دَائِي) وقالت بنتُ المُنْذَرِ بن ماءِ السَّمَاءِ :
بَعِينَ أَبَاغَ قَاسِمَنَا الْمَنَايا ** فَكان قَسِيمُهَا خَيْرَ الْقَسِيمِ) وقالوا فارس الهِجاءِ قلنا كذاك الرُّمَحُ يَكْلَفُ
بِالْكَرِيمِ

وقال الأسدي : (رَفَعْنَا طَرِيفًا بِأَرْمَاحِنَا ** وَبِالرَّاحِ مِنَّا فَلَمْ يَدْفَعُونَا) (فطاح الوَشِيطُ وَمَالَ الْجُمُوحُ ** ولا
تَأْكُلُ الْحَرْبُ إِلَّا السَّمِينَا) وقال الخريمي : وقال السَّمُوعِلُ بنُ عَاديَا : (يَقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ أَجَالَنَا لَنَا **
وَتَكَرَّهَهُ أَجَاهُهُمْ فَطُولُ) (لَأَنَّا أَنْسُ لا نَرى الْقَتْلَ سَبَّةً ** إِذَا ما رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسُلُولُ) وقال أبو العِزَّار :

(يَدْنُو وَتَرَفُّعُهُ الرِّمَاحُ كَأَنَّهُ ** شِلْوُ تَنْشَبَ فِي مَخَالِبِ ضَارِي) (فَنَوَى صَرِيعًا وَالرِّمَاحُ تُوشِئُهُ ** إِنَّ الشُّرَاةَ
قَصِيرَةُ الْأَعْمَارِ) وقال آخر وهو يُوصِي بلبسِ السَّلاحِ : (فَإِذَا أَتَيْتُكُمْ هَذِهِ فَتَلَسَّسُوا ** إِنَّ الرِّمَاحَ بِصِيرَةٍ
بِالْحَاسِرِ) وقال الآخر : (يَا فَارِسَ النَّاسِ فِي الْهَيْجَا إِذَا شُعِلَتْ ** كِلْتَا الْيَدَيْنِ كَرُورًا غَيْرَ وَقَافٍ) قوله
شُعِلَتْ يريد بالسَّيفِ والثَّرْسِ وَأَنشد أبو اليقْطان : وكان ضروباً باليدين وباليدِ أمَّا قوله : ضروباً باليدين

فإنه يريد القِداح وأما قوله : باليد فإنه يريد السيف .
وأما قول حسان لقائده حين قربوا الطعام لبعض الملوك : أطعام يدين أم يد فإنه قال هذا وإن كان الطعام
حيساً أو ثريداً أو حريرة فهو طعام يدٍ وإن كان شواءً فهو طعام يدين .

من أشعار المقتصدين في الشعر ومن أشعار المقتصدين في الشعر أنشدني قطرب : (تركت الركاب لأربابها
فأجته ** دت نفسي على ابن الصعق) (جعلت يدي وشاحاً له ** وبعض الفوارس لا يعتنق) ومن صدق
على نفسه عمرو بن الإطنابة حيث يقول : (وإقدامي على المكروه نفسي ** وضري هامة البطل المشيح)
(وقولي كلما جشأت وجاشت ** مكانك تجمدي أو تستريحي) (قل آخر : (وقلت لنفسي إنما هو عامرٌ
** فلا ترهبه وانظري كيف يركب) (وقال عمرو بن معد يكرب : (ولما رأيت الخيل زوراً كأنها **
جداول زرع أرسلت فاسبطرت) (فجاشت إلى النفس أول مرة ** فردت على مكروهاها فاستقرت)

وقال الطائي : (ركضت فينا وفيهم ساعة ** لهذميأت وبيض كالشهب) (تروا القاع لنا إذ كرهوا **
غمرات الموت واختاروا الهرب) (وقال النمر بن تولب : (سمونا ليشكر يوم النهاب ** فزقنا سمهرياً
طوالاً) (فلما التقينا وكان الجلاذ ** أحبوا الحياة فولوا شلالاً) (وكما قال الآخر : (هم المقدمون الخيل
تدمي نحورها ** إذا ابيض من هول الطعان المساح) (وقال عنترة : (إذ يتقون بي الأسنة لم أحم ** عنها
ولكني تضايق مقدمي) (وقال قطري بن الفجاعة : (وقولي كلما جشأت لنفسي ** من الأبطال ويحك لا
تراعي)

(فإنك لو سألت حياة يوم ** سوى الأجل الذي لك لم تطاعي) (وقالت الخنساء : (يهين النفوس وهون
النفوس ** غداة الكريهة أبقى لها) (أقول لنفسي لا يجاد بمثلها ** أقلّي المراح إنني غير مقصر) (وقال جرير
: (إن طاردوا الخيل لم يشؤوا فوارسها أو نازلوا عائقوا الأبطال فاهتصروا وقال ابن مقروم الصبي : (وإذا
تعلل بالسياط جياذها ** أعطاك ثابئة ولم يتعلل) (فدعوا نزال فكنث أول نازل ** وعلام أركبه إذا لم
أنزل)

وقال كعب الأشقري : (إليهم وفيه منتهى الخزم والندی ** وللرب فيهم والخصاصة فاسح) (ترى علماً
تغشى النقوش رشاشه ** إذا انفرجت من بعدهن الجوانح) (كأن القنا الخطى فينا وفيهم ** أشاطين بر
هيجهن المواتح) (هناك قذفنا بالرماح فمائل ** هنالك في جمع الفريقين رانح) (ودرنا كما دارت على
قطبها الرحي ** ودارت على هام الرجال الصفائح)

وقال مهلهل : (ودلنا بجمعنا لبني شي ** بان إن الخليل يبغي الخيلاً) (وقال عبدة وهو رجل من عبد
شمس :) (ولما زجرنا الخيل خاصت بنا القنا ** كما خاصت البزل النهاء الطواميا) (رمونا برشق ثم إن
سيوفنا ** وردن فأنكرن القبيل المراميا) (ولم يك يشني التبل وقع سيوفنا ** إذا ما عقدنا للجلاذ التواصيا

(في ذكر الجبن ووهل الجبان قال الله عز وجل : يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤَفِّكُونَ ويقال إن جريواً من هذا أخذ قوله : (ما زلت تحسب كل شيء بعدهم ** خيلاً تكرر عليكم ورجالا)

وإلى هذا ذهب الأول : (ولو أنها عصفورة لحسبتها ** مسومة تدعو غيبداً وأزماً) وقال جران العود : (يوم ارتحلت برحلي قبل بردعتي ** والقلب مستوهل للين مشغول) (ثم اغترزت على نضوى ليحملني ** إثر الحمول الغواصي وهو معقول) وهذا صفة وهل الجبان وليس هذا من قوله : وقال الذكواني أو زمرة الأهوازي ففسر ذلك حيث يقول : (يجعل الخيل كالسفين ويرقى ** عادياً فوق طرفه المشكول) لأنهم ربما تنادوا في العسكر : قد جاؤوا ولا بأس فيسرج الفارس

فرسه وهو مشكول ثم يركبه ويحثه بالسوط ويضربه بالرجل فإذا رآه لا يعطيه ما يريد نزل فأخضر على رجليه ومن وهل الجبان أن يذهل عن موضع الشكال في قوائمه ففرسه وربما مضى باللجام إلى عجب ذنبه وهو قوله : يجعل الخيل كالسفين لأن لجام السفينة الذي يغمزها به والشكال هو في الذنب . وقال سهل بن هارون الكاتب في المنهزمة من أصحاب ابن نهيك بالنهر وان من خيل هرثمة بن أعين : (يُخَيَّلُ للمهزوم إفراط روعه ** بأن ظهور الخيل أدنى من العطب) لأن الجبن يرى أن عدوه على رجليه أنحي له كأنه يرى أن النجاة إنما تكون على قدر الحمل للبدن .

وقال آخر حين اعتل عليه قومه في القتال بالورع : (كأن ربك لم يخلق لخشيته ** سواهم من جميع الناس إنساناً) وقال آخر : وقال الشاعر : يروعه السراير بكل أرض مخافة أن يكون به السراير وأنشدني ابن رُحيم القراطيسي الشاعر ورمى شاطراً بالجبن فقال : (رأى في النوم إنساناً ** فوارى نفسه أشهر) ويقولون في صفة الحديد إذا أرادوا أنه خالص فمن ذلك قول هميان : يمشون في ماء الحديد تنكباً

وقال ابن الجأ : أخضر من ماء الحديد جمجم وقال الأعشى في غير هذا : (وإذا ما الأكس شبه بالأر ** وق عند الهيجا وقل البصاق) وقال الأعشى : (إذ لا نقاتل بالعصي ** ولا نرامي بالحجاره) وقال الأخطل : (وما تركت أسيفنا حين جردت ** لأعدائنا قيس بن عيلان من غدر) (وبنو فرارة إنها ** لا تلبث الحلب الحلاب) يقول : لا تلبث الحلاب حلباً حتى تهزمهم .

يقول : لا تلبث الحلاب حلباً حتى تهزمهم .

السندل وأما قوله : (وطائر يسبح في جاحم ** كماهر يسبح في غمر) فهذا طائر يسمى سنل وهو هندي يدخل في أتون النار ويخرج ولا يحترق له ريشة . ذكر ما لا يحترق وزعم ثمامة أن المؤمن قال : لو أخذ إنسان هذا الطحلب الذي يكون على وجه الماء في مناقع المياه فجففه في الظل وألقاه في النار لما كان يحترق .

وزعموا أنَّ الفلفل لا يضرُّه الحرق ولا الغرق والطلق لا يصير جمرًا أبدًا قال : وكذلك المغرة .
فكانَ هذا الطائرُ في طباعه وفي طباع ريشه مزاجٌ من طلاء التّفاطين وأظنُّ هذا من طلق وخطميٍّ ومغرة .
وقد رأيتُ عُوداً يُؤتَى به من ناحية كِرْمان لا يحترق وكان عندنا نصرانيٌّ في عنقه صليبٌ منه وكان يقول
لضعفاء الناس : هذا العود من الخشبة التي صُلب عليها المسيح والنار لا تعمل فيها الماهر وأما قوله :
كماهرٍ يسبحُ في غمرٍ

فالماهر هو السَّابح الماهر وقال الأعشى : (مثلَ الفراقِ إذا ما طما ** يقذفُ بالبوصيِّ والماهرِ) وقال الربيع
بن قَعْب : (وترى الماهرَ في غمرته ** ثلَّ كَلْبِ الماء في يومِ مَطَرٍ)
لطة الذئب صونعة السرفة والدبر وأما قوله : (ولطعة الذئب على حسوه ** وصنعة السرفة والدبر) قال
: فإنَّ الذئب يأتي الجمل الميَّت فيفضي بغمغمته فيعتمدُ على حجاج عينه فيلحسُ عينه بلسانه حسياً فكأنما
قوّرت عينه تقويراً لما أعطى من قوّة الرّدة وردّه لسانه أشدُّ مرّاً

في اللّحم والعصب من لسان البقر في الخلى .
فأما عَصَتُهُ ومَصَّتُهُ فليس يقعُ على شيء عظاماً كان أو غيره إلّا كان له بالغاً بلا معاناةٍ من ويقال : إنّه ليس
في الأرض سبعٌ يعضُّ على عظمٍ إلّا ولكسرتُهُ صَوْتُ بين لحية إلّا الذئب فإنَّ أسنانه توصفُ بأنّها تبرى
العظم برّي السيف المنعوت بأنَّ ضربه من شلّة مُرورها في العظم ومن قلة ثبات العظم له لا يكون له
صوت قال الزُّبَيْر بن عبد المطلب : (ويُنْبِي نخوةَ احتلال عني ** غموضُ الصوتِ ضَرْبته صَمُوتٌ) ولذلك
قالوا في المثل : ضربه ضربةً فكأنما أخطأه لسرعة المرّ لأنّه لم يكن له صوت .
وقال الرَّاجز في صفة الذئب :

(أطلس يخفي شخصه غبارُهُ ** في شدّقه شَفَرته ونارُهُ) وسنأتي على صفة الذئب في غير هذا الباب من
أمره في موضعه إن شاء الله تعالى .

وأما ذكر صنعة السُرْفَةِ والدَّبَرِ فإنّه يعني حكمتها في صنعة يبوها فإنَّ فيها صنعةً عجيبَةً .
سمع القُرَاد والحِجَر وأما قوله : (ومَسْمَع القِرْدان في مَنهَلٍ ** أعجبُ ممّا قيل في الحِجَر) فإنهم يقولون :
أسمعُ من قَرَسٍ ويجعلون الحِجَر فرساً بلا هاء وإثما يعنون بذلك الحِجَر لأنّها أسمع .
قال : والحِجَر وإن ضُرِبَ بها المثل فالقُرَادُ أعجب منها

لأنّها تكون في المنهل فت موج ليلة الورْد في وقت يكون بينها وبين الإبل التي تريد الورود أميالٌ فتزعمُ
الأعراب أنّها تسمعُ رغاءها وأصوات أخفافها قبل أن يسمعها شيء .
والعرب تقول : أسمعُ من قُرَادٍ وقال الرَّاجز : أسمعُ من قُرَحِ العُقَابِ الأسحِمِ ما في الجمل من الأعاجيب
وأما قوله : (والمقرّمُ المَعْلَمُ ما إن له ** مرارة تُسمَعُ في الذِّكْرِ) (وحصيةٌ تنصلُّ من جوفه ** عندَ حدوثِ

الموت والنَّحْرُ) (ولا يرى بعدهما جازراً ** شقشقةً مانلة الهنر) فهذا بابٌ قد غلط فيه من هو أغنى بتعرُّف أعاجيب ما في العالم من بشر .

ولقد تنازع بالبصرة ناسٌ وفيهم رجلٌ ليس عندنا بالبصرة أطيبُ منه فأطبقوا جميعاً على أنَّ الجمل إذا نُحر ومات فالتُمتت خُصيتُه وشقشقتُه أنهما لا توجدان فقال ذلك الطَّيب : فلعلَّ مرارة الجمل أيضاً

كذلك ولعلَّه أن تكون له مرارةٌ ما دام حيّاً ثمَّ تبطل عند الموت والنَّحْر وإِنما صرنا نقول : لا مرارةٌ له لأنَّنا لا نصلُ إلى رؤية المِراة إلاَّ بعد أن تفارقه الحياة فلم أجِد ذلك عمل في قلبي مع إجماعهم على ذلك فبعثت إلى شيخٍ من جرَّاري باب المغيرة فسألته عن ذلك فقال : بلى لعمري إنهما لتوجدان إن أرادهما مريد وإِنما سمعت العامة كلمةً وربَّما مزَّحنا بها فيقول أحدنا : خُصية الجمل لا توجد عند منحره أجلُ واللَّه ما توجدُ عند منحره وإِنما توجد في موضعها وربَّما كان الجمل خياراً جيِّداً فتلحق خُصيتاه بكلَّيته فلا توجدان لهذه العلَّة فبعثت إليه رسولاً : إنَّه ليس يشفيني إلاَّ المعاينة فبعث إليَّ بعد ذلك يومٍ أو يومين مع خادمي نفيس بشقشقةٍ وخُصية .

ومثل هذا كثيرٌ قد يغلط فيه من يشتدُّ حرصه على حكاية الغرائب .

ما في الفرس والثور من الأعاجيب وأمَّا قوله : (وليس للطَّرف طِحالٌ وقد ** أشاعهُ العالمُ بالأمر) (وفي فُواد الثَّور عَظْمٌ وقد ** يعرفهُ الجازرُ ذو الخبر)

وليس عندي في الفرس أنَّه لا طِحال له إلاَّ ما أرى في كتاب الخيل لأبي عبيدة والتَّوادر لأبي الحسن وفي الشَّعر لبشرٍ فإن كان جوف الفرس كجوف البرذون فأهلُ خراسان من أهل هذا وأمَّا العظم الذي يوجد في قلب الثَّور فقد سمعنا بعضهم يقول ذلك ورأيتُه في كتاب الحيوان لصاحب المنطق .
أعجوبة السمك وأمَّا قوله : (وأكثرُ الحيتان أعجوبةً ** ما كان منها عاشَ في البَحْرِ) (إذ لا لسانٌ سقي ملحهُ ** ولا دماغ السمك النهري) فهو كما قال : لأنَّ سمك البحر كلُّه ليس له لسانٌ ولا دماغ . ٤

القواطع في السمك

وأصنافٌ من حيتان البحر تجيء في كلِّ عام في أوقاتٍ معلومةٍ حتَّى تدخل دجلة ثمَّ تجوز إلى البطاح فمنها الأسبور ومنها البرستوك

ووقته ومنها الجُوف ووقته وإِنما عرِفَتْ هذه الأصناف بأعيانها وأزمانها لأنها أطيبُ ذلك السمك وما أشكَّ أنَّ معها أصنافاً آخر يعلم منها أهلُ الأبلَّة مثل الذي أعلم أنا من هذه الأصناف الثلاثة .
كبد الكوسج (وأكبدٌ تَظْهَر في ليلها ** ثمَّ توارى آخرَ الدَّهرِ) (ولا يُسَيِّغ الطَّعم ما لم يكنْ ** مزاجهُ ماءً على قنرٍ) (ليس له شيءٌ لإزلاقه ** سوى جِرابٍ واسع الشَّجَرِ) فإنَّ سمكاً يقال له الكوسج غليظ الجلد أجرد يشبه الجرِّي وليس بالجرِّي في جوفها شحمة طيبة فإن اصطادوها ليلاً وجدوها وإن اصطادوها نهاراً لم يجدوها .

وهذا الخبر شائع في الأبله وعند جميع البحرّيين وهم يسمّون تلك الشحمة الكبد .
وأما قولهم : السمكة لا تسيغ طعامها إلا مع الماء فما عند بشرٍ ولا عندي إلا ما ذكر صاحب المنطق وقد
عجب بشرٌ من امتناعها من بلع الطعم وهي مستنقعة في الماء مع سعة جرابِ فيها .

والعرب تسمّي جوف البئر من أعلاه إلى قعره جراب البئر .
وأما ما سوى هذه القصيدة فليس فيها إلا ما يعرف وقد ذكرناه في موضع غير هذا من هذا الجزء خاصّة .

الضبع

وسنقول في باب الضبع والقنفذ والحرقوص والورل وأشباه ذلك ما أمكن إن شاء الله تعالى .
قال أبو زياد الكلابيّ : أكلت الضبع شاة رجلٍ من الأعراب فجعل يخاطبها ويقول : (ما أنا يا جعارٍ من
خطّابك ** عليّ دقّ العُصْل من أنيابك) على هذا جُحِرِكَ لا أهَابُكَ جَعَارٍ : اسمُ الضبع ولذلك قال
الراجز : (يا أيّها الجفّر السّمين وقومُه ** هزلي تجرُّهُم ضِباعُ جَعَارٍ) ثم قال الأعرابيّ : (ما صنعتُ شاتي
التي أكلتُ ** ملأتُ منها البطنَ ثُمَّ جُلْتُ) وخُتِنِي وبُسَ ما فعلتُ

(قالت له : لا زلتَ تلقى الهما ** وأرسل الله عليك الحمى) لقد رأيتُ رجلاً معتمًا (قال لها : كذبتِ يا
خبّاثِ ** قد طال ما أمسيْتُ في اكتراثِ) (قالت له والقول ذو شجون : ** أسهتِ في قولك كالجنون)
(أما وربّ المرسل الأمين ** لأفجعنّ بعيرك السّمين) (وأمه وجحشيه القرين ** حتّى تكون عُقْلَةُ العُيونِ)
(قال لها ويحكِ حذّريني ** واجتهدي الجهد وواعديني) (وبالأمانِ فعلليني ** لأقطعنّ مُلتقى الوتينِ)
منك وأشفى لهم من دفيني ** فصدّقيني أو فكذبيني) (أو اتركي حقّي وما يليني ** إذا فشلتُ عندها يميني
(تعرّفني ذلك باليقينِ قالت : أبا القتلِ لنا تهدد وأنت شيخٌ مهترٌ مفندُ

(سقط : بيت الشعر) (قالت : أبا القتلِ لنا تهدد ** وأنت شيخٌ مهترٌ مفند) (قولك بالجبنِ عليك يشهدُ
** منك وأنت كالذي قد أعهدُ) (قال لها : فأبشري وأبشري ** إذا تجردتُ لشأني فاصبري) (أنتِ
زعمتِ قد أمنتِ منكري ** أحلفُ بالله العليّ الأكبر) (يمين ذي ثرية لم يكفرِ ** لأخضبنّ منك جنبَ
المنحر) (برمّية من نازع مذكرٍ ** أو تتركين أحمرى وبقرى) (مكبوبةً لوجهها والمنخر ** والشيخُ قد
مالَ بغربِ مجزرٍ) (ثمّ اشتوى من أحمرٍ وأصفرٍ ** منها ومقدورٍ وما لم يُقدر)

جلد الضبع

وقال الآخر : (يا ليت لي نعلين من جلد الضبع ** وشركاً من استها لا يقطعُ) كلّ الحذاء يحتذي الحافي
الوقع وهذا يدلُّ على أنّ جلدّها جلدٌ سوء .

وإذا كانت السنّة جدبةً تأكلُ المالَ سُمَّتها العربُ الضَّبَعُ قال الشاعر : (أبا خُرَاشةَ أَمَّا كُنْتُ ذا نَفَرٍ ** فَإِنَّ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ الضَّبَعُ)

تسمية السنة الجدبة بالضبع

وقال عُمر بن الخطاب :

(فبَشْرِي الْقَيْنَ بَطْعَنَ شَرَجٌ ** يَشْبَعُ أَوْلَادَ الضَّبَاعِ الْعُرْجُ) (ما زال إسدائي لهم ونسجي ** حتى اتَّقوني بظُهُورِ ثُبُجٍ)

مما قيل من الشعر في الضباع

وقال رجلٌ من بني ضَبَّةَ : (يا ضَبْعاً أَكَلْتَ آيَارَ أَحْمَرَةٍ ** فِيهِ الْبَطُونُ وَقَدْ رَاحَتْ قِرَاقِيرُ) (ما منكم غير جعلانٍ ممددة ** دَسَمُ الْمِرْفَاقِ أَنْذَالَ عَوَاوِيرُ) (وَغَيْرُ هَمَزٍ وَلَمْزٍ لِلصَّدِيقِ وَلَا ** تَنْكِي عَدُوَكُمْ مِنْكُمْ أَظَافِيرُ) (وَإِنِّكُمْ مَا بَطَنْتُمْ لَمْ يَزَلْ أَبَدًا ** مِنْكُمْ عَلَى الْأَقْرَبِ الْأَدْنَى زَنَابِيرُ)

وأنشد : (الْقَوْمُ أَمْثَالُ السَّبَاعِ فَانْشَمِرْ ** فَمِنْهُمْ الذَّنْبُ وَمِنْهُمْ التَّمَرُّ) وَالضَّبَعُ الْعَرَجَاءُ وَاللَيْثُ الْهَضِيرُ وقال العلام : (معاوِرِ حَلْبَاتِهِ الشَّخْصَ أَعْمُ ** كَالدَّيْخِ أَفْنَى سِنِّهِ طَوْلُ الْهَرَمِ) وأنشد : (فجاوز الحرض ولا تشممه ** لسابع المشفر رحب بلعمه)

يقول : وَبَرُّ لَحْيَيْهَا كَثِيرٌ كَأَنَّهُ شَعْرٌ ذِيخٌ قَدْ بَلَّهِ الْمَطَرُ وَأَنْشَدَ : (لِمَا رَأَيْنَا مَاتِحاً بِالْعَرَبِ ** تَخَلَّجَتْ أَشْدَاقُهَا لِلشَّرْبِ) تَخَلَّجَ أَشْدَاقُ الضَّبَاعِ الْغُلْبِ يَعْنِي مِنَ الْحَرَصِ وَالشَّرِّهِ وَتَمَثَّلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : (خُذْنِي فَجَرِّبْنِي جَعَارٍ وَأَبْشِرِي ** بِلَحْمٍ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدْ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ)

وإنما خصَّ الضَّبَاعَ لِأَنَّهَا تَنْبَشُ الْقُبُورَ وَذَلِكَ مِنْ فِرْطِ طَلِبِهَا لِلْحُومِ النَّاسِ إِذَا لَمْ تَجِدْهَا ظَاهِرَةً وَقَالَ تَابُطُ شَرّاً : (فَلَا تَقْبُرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحَرَّمٌ ** عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ خَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ) (إِذَا ضَرَبُوا رَأْسِي فِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي ** غُودِرَ عِنْدَ الْمَلْتَقَى ثُمَّ سَاوَرِي) (هُنَالِكَ لَا أَبْغِي حَيَاةً تَسْرُنِي ** سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبْسِلاً بِالْجُرَائِرِ) (إعجابُ الضَّبَاعِ بِالْقَتْلِ) قال اليعقوبي : وَإِذَا بَقِيَ الْقَتِيلُ بِالْعَرَاءِ انْتَفَخَ أَيْرُهُ لِأَنَّهُ إِذَا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ يَكُونُ مُنْبَطِحاً عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا انْتَفَخَ انْقَلَبَ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَجِيءُ الضَّبَعُ فَتَرْكِبُهُ فَتَقْضِي حَاجَتَهَا ثُمَّ تَأْكُلُهُ .

وكانت مع عبد الملك جاريةً شهدت معه حربَ مُصْعَبٍ فنظرت إلى مصعبٍ وقد انقلبَ وانتفخَ أيره وورمَ وغلظَ فقالت : يا أمير المؤمنين ما أغلظَ أَيْوَرُ المنافقين . فلطمها عبد الملك ٤

حديث امرأة وزوجها

ابن الأعرابي : قالت امرأة لزوجها وكانت صغيرة الركب وكان زوجها صغير الأير : ما للرجل في عظم الركب منفعة وإنما الشئان في ضيق المدخل وفي المص والحرارة ولا ينبغي أن يلتفت إلى ما ليس من هذا في شيء وكذلك الأير إنما ينبغي أن تنظر المرأة إلى حر جلدته وطيب غسيلته ولا تلتفت إلى كبره وصغره وأنعظ الرجل على حديثها إنعاضاً شديداً فطمع أن ترى أيره في تلك الحال عظيماً فأراها إياه وفي البيت سراج فجعل الرجل يشير إلى أيره وعينها طامحة إلى ظل أيره في أصل الحائط فقال : يا كذابة لشدة شهوتك في عظم ظل الأير لم تفهمي عني شيئاً قالت : أما إني لو كنت جاهلاً كان أنعم لبالك يا مائق لو كان منفعة عظم الأير كمنفعة عظم الركب لما طمحت عيني إليه قال الرجل : فإن للركب العظيم حظاً في العين وعلى ذلك تتحرك له الشهوة قالت : وما تصنع بالحركة وشك يؤدي

إلى شك الأير إن عظم فقد ناك جميع الحر ودخل في تلك الزوايا التي لم تزل تستظم من بعيد وغيرها المستظم دونها وإذا صغر قال القبطي : أمكنها والله من القول ما لم يمكنه . ٤

حديث معاوية وجاريته الخراسانية

وقال : وخلا معاوية بجارية له خراسانية فما هم بها نظر إلى وصيفة في الدار فترك الخراسانية وخلا بالوصيفة ثم خرج فقال للخراسانية : ما اسم الأسد بالفارسية قال : كفثار فخرج وهو يقول : ما الكفثار فقيل له : الكفثار الضبع فقال : ما لها قاتلها الله أدركت بثأرها والفرس إذا استقبح وجه الإنسان قالت : روي كفثار أي وجه الضبع . ٤

كتاب عمر بن يزيد إلى قتيبة بن مسلم

قال : وكتب عمر بن يزيد بن عمير الأسدي إلى قتيبة بن مسلم حين عزل وكيع بن سؤد عن رئاسة بني تميم ولأها ضرار بن حسين الضبي : عزلت السباع ووليت الضباع . (

٤

شعر فيه ذكر الضبع

وأنشد لعباس بن مرداس السلمي : (فلو مات منهم من جرحنا لأصبحت * ضباعاً بأكناف الأراك عرائسا) وقال جريبة بن أشيم : (فلا تدفني في ضراً وادفني * بديمومة تنزو على الجنادب) (وإن أنت لم تعقر على مطي * فلا قام في مال لك الدهر حالب) (فلا يأكلني الذئب فيما دفتني * ولا فرعل مثل الصريمة حارب)

(أزل هليب لا يزال مآبطاً ** إذا ضربت أنيابه والمخالب) وأنشد : (تركوا جارهم تأكله ** صبغ الوادي وترميه الشجر) يقول : خذلوه حتى أكله ألأم السباع وأضعفها وقوله : وترميه الشجر يقول : حتى صار يرميه من لا يرمي أحداً .

بقية الكلام في الضبع

وقد بقي من القول في الضبع ما سنكتبه في باب القول في الذئب .

الحرقوص

وأما الحرقوص فرعموا أنه دويبة أكبر من البرغوث وأكثر ما ينبت له جناحان بعد حين وذلك له خير . وهذا المعنى يعتري التمل وعند ذلك يكون هلاكه ويعتري الدعاميص إذا صارت فراشاً ويعتري الجعلان . والحرقوص دويبة عضها أشد من عض البراغيث وما أكثر

ما يعرض أحرار النساء والخصى وقد سمي بحرقوص من مازن أبو كابية بن حرقوص قال الشاعر : (أنتم بني كابية بن حرقوص ** كلهم هامته كالأفحوص) وقال بشر بن المعتمر في شعره المزاج حين ذكر فضل علي على الخوارج وهو قوله : تق صفحة من الكتاب قال : والحرقوص يسمى بالتهيك وعض التهيك ذلك الموضع من امرأة أعراي فقال :

(وما أنا للحرقوص إن عض عضة ** لها بين رجلها بجد عقر) (تطيب بنفسي بعد ما تستفزني ** مقاتلها إن التهيك صغير) (ولو أن حرقوصاً على ظهر قملة ** يكر على صفي تميم لوكت) قالوا : ولو كان له جناحان لما أركبه ظهر القملة وليس في قول الطرمح دليل على ما قال وقال بعض الأعراب وعض الحرقوص خصيته : (لقد منع الحراقيص القراراً ** فلا ليلاً نقر ولا نهاراً) (يغالين الرجال على خصاهم ** وفي الأحرار دساً والمنحجارا) وقالت امرأة تعني زوجها : (يغار من الحرقوص أن عض عضة ** بفخذي منها ما يجذ غيور)

(لقد وقع الحرقوص مني موقعاً ** أرى لذة الدنيا إليه تصير) وأنشدوا الآخر : (برح بي ذو النقطتين الأملس ** يقرض أحياناً وحيناً ينهس) فقد وصفه هذا كما ترى وهذا يصدق قول الآخر ويرد على من جعل الحراقيص من البراغيث قال الآخر : (يبيت بالليل جواباً على دمث ** ماذا هنالك من عض الحراقيص)

الورل

وسنقول في الورل بما أمكن من القول إن شاء الله تعالى وعلى أننا قد فرّقنا القول فيه على أبواب قد كتبناها قبل هذا .

قالوا : الورل يقتل الضَّبَّ وهو أشدُّ منه وأجودُ سلاحاً وألطفُ بدناً قالوا : والسَّافِد منها يكون مهزولاً وهو الذي يَزِيْف إلى الإنسان وينفخ ويتوعّد .

قال : واصطدت منها واحداً فكسرت حجراً وأخذتُ مَرُوءَةً

فدبجت بها حتّى قلت قد نخعته فاسبطراً حينه فأردت أن أصغي إليه وأشرتُ بإبهامي في فيه فعضَّ عليها عضةً اختلعت أنيابه فلم يخلّها حتى عضضت على رأسه .

قال : فأثبت أهلي فشققْتُ بطنه فإذا فيها حيتان عظيمتان إلاَّ الرأس .

قال : وهو يشدخ رأس الحية ثم يبتلعها فلا يضره سمُّها وهذا عنده أعجب ما فيه فكيف لو رأى الحوائين عندنا وأحدّهم يُعطى الشيء اليسير فإن شاء أكل الأفعى نياً وإن شاء شواءً وإن شاء قديداً فلا يضره ذلك بقليل ولا كثير .

وفي الورل أنه ليس شيء من الحيوان أقوى على أكل الحيات وقتلها منه ولا أكثر سفاداً حتى لقد طمّ في ذلك على التيس وعلى الجمل وعلى العُصفور وعلى الخنزير وعلى الذبّان في العدد وفي طول المكث

وفيه أنه لا يحتفر لنفسه بيتاً ويغتصب كلّ شيء بيته لأنها أيّ جحر دخلته هرب منه صاحبه فالورل يغتصب الحية بيتها كما تغتصب الحية بيوت سائر الأحناس والطير والضَّب .

وهو أيضاً من المراكب وهو أيضاً مما يُستطاب وله شحمة ويستطيون لحم ذنبه والورل دابة خفيف الحركة ذاهباً وجائياً ويميناً وشمالاً وليس شيء بعد العظاءة أكثر تلفتاً منه وتوقفاً .

زعم الجوس في العظاءة

وترجم الجوس أن أهرمن وهو إبليس لما جلس في مجلسه في أوّل الدهر ليقسم الشرّ والسُّموم فيكون ذلك عدّة على مناهضة صاحب الخير إذا انقضى الأجل بينهما ولأن من طباعه أيضاً فعل الشر على كلّ حال كانت العظاءة آخر من حضر فحضرت وقد قسم السمّ كلّهُ فتدخلها الحسرة والأسف فتراها إذا اشتدت وقفت وقفة

تذكر لما فاتها من نصيبها من السمّ (

ولغريبتها في الإبطاء حتى صارت لا تسكن إلا في الخرابات والحشوش لأنها حين لم يكن فيها من السمّ شيء لم تطلب مواضع الناس كالوزغة التي تسكن معهم البيوت وتكرع في آنيتهم الماء وتمجّه وتراق الحيات وتمجّحها عليهم ولذلك نفرت طباع الناس من الوزغة فقتلوا تحت كلّ حجر وسلمت منهم العظاءة تسليماً منهم .

ولم أر قولاً أشدَّ تناقضاً ولا أَمُوقَ من قولهم هذا لأنَّ العطاءَ لم يكن ليعترِيها من الأسف على فوت السِّمِّ على ما ذكروا أوَّلاً إلاَّ وفي طبعها من الشرارة الغريزيَّة أكثرُ ممَّا في طبع الأفعى .

شعر فيه ذكر للورل

قال الرَّاجز في معنى الأوَّل : (يا ورلاً رقرق في سَرابٍ ** أَكأنَ هذا أولُ الثَّوابِ) قال : ورقرقته : سرعته ذاهباً وجائياً ويميناً وشمالاً .

قال أبو دُواد الإيادي في صفة لسان فرسه : (عَن لسان كَجَنَّةِ الورلِ الأخِ ** مَرَّ مَجَّ الثَّرى عليه العَراُ) وقال خالد بن عُجرة :

(كَأَنَّ لسانه ورلٌ عليه ** بدارٍ مَضِنَّةٍ مَجَّ العَراِ) ووصف الأصمعيُّ حمرة في بعض أراجيزه فقال :

فروة القنفذ

قد قلنا في القنفذ وصنيعه في الحَيَّات وفي الأفاعي خاصَّة وفي أنه من المراكب وفي غير ذلك من أمره فيما تقدم هذا المكان من هذا الكتاب .

ويقول من نَزَعَ فروته بأُما مملوءة شحيمة والأعراب تستطيبُ أكله وهو طيبٌ للأرواح .

شعر فيه ذكر للقنفذ والقنفذ لا يظهر إلا بالليل كالمستخفي فلذلك شبه به قال أيمن بن خُرَيْم : (كقنفذ الرَّمْل لا تخفى مدارجُه ** حَبٌّ إذا نام عنه النَّاسُ لم يَنم) وقال عَبْدَةُ بن الطبيب : (قومٌ إذا دَمَسَ الظَّلامُ عليهم ** حَدَجُوا قَنافِدَ بالتَّمِيمَةِ تَمَزَّغُ) وقال : (شَرِيتُ الأُمُورَ وغالَيْتُها ** فأوَّلَى لَكُمْ يا بَنِي الأَعْرَجِ) تدبُّون حول رَكِيَّاتِكُمْ ** ذَيْبَ القَنافِدِ في العَرَفِجِ) وقال الآخر في غير هذا الباب :

وقال عَبَّاس بن مِرْدَاس السُّلَمِيُّ يَضْرِبُ المَثَلَ به وبأذنيه في القَلَّةِ والصَّغَرِ : (فَإِنَّكَ لَمْ تَكْ كَابِنَ الشَّرِيدِ ** ولكنَّ أبوكَ أبو سَالِمٍ) (حَمَلْتَ المَينَ وأتَقَالها ** على أَذْنِي قَنَفُذٍ رَازِمٍ) (وأشْبَهْتَ جَدَّكَ شرَّ الجُدُودِ ** وَالْعَرَقُ يَسْرِي إلى التَّائِمِ) وأنشدني الدَّهْمُ بن شهاب أحد بني عوف بن كنانة من عُكَل قال : أنشدنيهِ نَفِيع بن طارِق في تشبيه رَكَبِ المرأة إذا جَمَمَ بجلد القنفذ : (علقَ من عنائه وشقوته ** وقد رأيتَ هَدَجاً في مشيته) (وقد جَلَا الشَّيبُ عِذارَ لحيته ** بَتَ ثَماني عَشْرَةَ من حجته) (يظنها ظَنًّا بغيرِ رؤيته ** تَمَشَّى بجَهمٍ ضيقُهُ من همته)

(لم يحزه الله برحب سَعته ** جَمَمَ بَعْدَ حلقِهِ ونورته) (كقنفذ القَفِّ اختفى في فروته ** لا يبلغ الأيُّ بنزع رهوته) (ولا يكرُّ راجعاً بكرته ** كَأَنَّ فيه وهجاً من ملته) من تسمى بقنفذ ويتسمَّون بالقنفاذ وذو البرة الذي ذكره عمرو بن كلثوم هو الذي يقال له : بُرة القنفذ وهو كعب (وذو البرة الذي حَدَّثَ عنه ** به

نَحْمَى وَنَشْفِيسُ الْمُلْجَبِينَ) كبار القنافذ ومن القنافذ جنس وهو أعظم من هذه القنافذ وذلك أن لها شوكة كصياصي الحماكة وإنما هي مدارى قد سُخِّرَتْ لها وذلك

تلك المغارز والمنابت ويكون متى شاء أن ينصل منها رمى به الشخص الذي يخافه فعلاحتى كأنه السهم الذي يخرج الوتر .

ولم أر أشبه به في الحذف من شجر الخروع فإن الحب إذا جف في أكمامه وتصدع عنه بعض الصدع حذف به بعض الغصون فربما وقع على قاب الرمح الطويل وأكثر من ذلك

تحريك بعض أعضاء الحيوان دون بعض

(

والبرذون يسقط على جلده ذبابة فيحرك ذلك الموضع فهذا عام في الخيل فأما الناس فإن المخنث ربما حرك شيئاً من جسده وأي موضع شاء من بدنه .

والكاعاني وهو اسم الذي يتجنن أو يتفالج فالج الرعدة والارتعاش فإنه يحكي من صرع الشيطان ومن الإزباد ومن النفضة ما ليس يصدر عنهما وربما جمعهما في نقاب واحد فأراك الله تعالى منه مجنوناً مفلوجاً يجمع الحركتين جميعاً بما لا يجيء من طباع الجنون .

والإنسان العاقل وإن كان لا يحسن بيني كهيئة وكر الزُّبُور ونسج العنكبوت فإنه إذا صار إلى حكاية أصوات البهائم وجميع الدواب

وحكاية العُمَيان والعُرجان والفأفاء وإلى أن يصور أصناف الحيوان بيده بلغ من حكايته الصورة والصوت والحركة ما لا يبلغه المحكي .

الحركات العجيبة وفي الناس من يحرك أذنيه من بين سائر جسده وربما حرك إحداها قبل الأخرى ومنهم من يحرك شعر رأسه كما أن منهم من يبكي إذا شاء ويضحك إذا شاء .

وخبرني بعضهم أنه رأى من يبكي بإحدى عينيه وبالتي يقترحها عليه الغير .

وحكى المكّي عن جوار باليمن لهن قرون مضمفورة من شعر رؤوسهن وأن إحداهن تلعب وترقص على إيقاع موزون ثم تُشخص قرناً من تلك القرون ثم تلعب وترقص ثم تُشخص من تلك الصفائر المرصعة واحدة بعد أخرى حتى تنتصب كأنها قرون أوأبد في رأسها فقلت له : فلعل التصفير والترصيع أن يكون شديد الفتل ببعض

الغسل والتلبيد فإذا أخرجته بالحركة التي تُثبِتُها في أصل تلك الضفيرة شخصت فلم أره ذهب إلى ذلك ورأيته يحققه ويستشهد بأخيه .

نوم الذئب وتزعّم الأعراب أن الذئب ينأى بإحدى عينيه ويزعمون أن ذلك من حاق الخنزير وينشد شعر (ينأى بإحدى مقلتيه ويتقي ال ** منأيا بأخرى فهو يقظان هاجع) وأنا أظن هذا الحديث في معنى ما مُدح به

تَأْبَطُ شَرًّا : (إِذَا خَاطَ عَيْنِيهِ كَرَى التَّوَمَ لَمْ يَزَلْ ** لَهُ كَالْيُ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتَكَ) (وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ رَبِيبَةً قَلْبِهِ ** إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدٍّ أَخْضَرَ بَاتَكَ)

قولهم : أسمع من قنفذ ومن دلدل ويقال : أسمع من قنفذ وقد ينبغي أن يكون قولهم : أسمع من الدلدل من الأمثال المولدة .)

المتقاربات من الحيوان و فرق ما بين القنفذ والدلدل ك فرق ما بين القار والجُرذان والبقر والجواميس والبخاتي والعرب والضأن والمعز والذئب والتمل والجواف والأسبور وأجناس من الحيات وغير ذلك فإن هذه الأجناس منها ما يتسافد ويتلاقح ومنها ما لا يكون ذلك فيها .

قولهم : افحش من فاسية ويقال : إنه لأفحش من فاسية وهي الخنفساء لأنها تفسو في يد من مسها وقال بعضهم : إنه عنى الطربان لأن الطربان يفسو في وسط الهجمة فتفرق الإبل فلا تجتمع إلا بالجهد الشديد

قولهم : ألج من الخنفساء ويقال : ألج من الخنفساء وقال خلف الأحمر وهو يهجو رجلاً : رجز في الضبع وأنشد أبو الرديني عن عبد الله بن كراع أخي سويد بن كراع في الضبع : (مَنْ يَجْنُ أَوْلَادَ طَرِيفٍ رَهْطًا ** مُرْدًا أَوْلَهُ شُمُطًا) (رَأَى عَضَارِيْطَ طَوَالًا تُطَا ** كَاضِعٍ مُرْطٍ هَبْطُنَ هَبْطًا) (ثُمَّ يَفْسَيْنَ هَزِيلاً مَرُطًا ** إِنَّ لَكُمْ عِنْدِي هَنَاءً لَعَطًا) خَطَمًا عَلَى أَنْفِكُمْ وَعَلَطًا

قصة أبي مجيب وحكى أبو مجيب ما أصابه من أهله ثم قال : وقد رأيت رؤيا عبَّرتها : رأيتُ كأني طردت أرنبا فأنجحرت فحفرتُ عنها حتى استخرجتها فرجوت أن يكون ذلك ولداً أرزقه وإنه كانت لي ابنة عم هاهنا فأردتُ أن أتزوجها فما ترى قلت : تزوجها على بركة الله تعالى ففعلتُ ثم استأذني أن يقيم عندنا أياماً فأقام ثم أتاني فقلتُ : لا تخبرني بشيء حتى أنشدك ثم أنشدته هذه الأبيات : (يَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ أَبِي مَجِيبٍ ** إِذَا بَاتَ فِي مَجَاسِدٍ وَطِيبِ)

(مُعَانِقًا لِلرَّشَاءِ الرَّيْبِ ** أَأَقْحَمَ الْخِفَارَ فِي الْقَلِيبِ) قال : بلى كان والله رخواً يابس القضيبي والله لكأنك كنت معنا ومُشَاهِدَنَا .

خصال الفهد

فأما الفهد فالذي يحضرنا من خصاله أنه يقال إن عظام السباع تشتهي ريحه وتستدل برائحته على مكانه وتُعجب بلحمه أشد العجب .

وقد يصاد بضروب منها الصَّوْتُ الحَسَنُ فإنه يُصْغَى إليه إصغاءً حسناً وإذا اصطادوا المسنَّ كان أنفع لأهله في الصيد من الجرو الذي يربونه لأنَّ الجرو يخرج خباً ويخرج المسنُّ على التأديب صيوداً غير خب ولا مؤاكل في صيده وهو أنفع من صيد كل صائد وأحسن في العين وله فيه تديبرٌ عجيب .

وليس شيءٌ في مثل جسمِ الفهد إلا والفهد أثقلُ منه وأحطمُ لظهر الدابة التي يرقى على مؤخرها .
والفهد أنوم الخلق وليس نومه ك نوم الكلب لأن الكلب نومه نعلس واختلاس والفهد نومه مُصنمت : قال
أبو حية التميمي : (بعداريها أناساً نام حلمهم ** عَنَّا وعنك وعنهما نومة الفهد) وقال حميد بن ثور الهلالي
:

أرجوزة في صفة الفهد

وقال الرقاشي في صفة الفهد : (قد أغتدى والليل أحوى السدّ ** والصبحُ في الظلماء ذو قمدى) (مثل
اهتزازِ العصبِ ذى الفرندِ ** بأهتِ الشدقين ملتد) (أربدَ مضبورِ القرا علكدِ ** طاوى الحشا في طيِّ
جشمٍ معد)

(كثرَ البراجيمِ هصور الجدِّ ** برامز ذى نكتٍ مسودّ) (وسحر اللجين سحر وردٍ ** شربثِ أغلبِ
مصعدّ) (كالليث إلا عاين بعدَ الجهدِ ** على قطاة الردف ردف العبد) (سر سرعنتنا بحس صلد **
واقضُ يادو غير مجرهدّ) (في ملهبٍ مه وختلٍ إدّ ** مثل انسياب الحية العريد) (وقوله : مثل انسياب
الحية العريد هذه الحية عين الدابة التي

يقال لها العريد وقد ذكرها مالك بن حريم في قوله لعمر بن معد يكرب : (يا عمرو لو أبصرتني **
لرفوتني ف ياخيل رفوا) (فلقيت مني عربداً ** يقطو أمام الخيل قطوا) (لما رأيتُ نساءهم ** يدخلنَ
تحت البيت حبوا) (وسمعتُ زجرَ الخيل في ** جوفِ الظلام هبى وهبوا) (في فيلقٍ ملمومةٍ ** تسطو على
الخبراتِ سطوا)

وقال الرقاشي أيضاً في الفهد : (لما غدا للصيّد آل جعفرٍ ** رهطُ رسولِ الله أهلُ المنخر) (بفَهْدَةٍ ذات
قراً مُضَبَّرٍ ** وكاهلٍ بادٍ وعنقٍ أزهر) (ومُقْلَةٍ سال سوادُ الحجرِ ** منها إلى شديقٍ رُحابِ المقعر) (وذنبٍ
طالٍ وجلدٍ أنمرٍ ** وأيطلٍ مستأسدٍ غضنفر) (وأذنٍ مكسورةٍ لم تجبرٍ ** فطسَاءَ فيها رَحَبٌ في المنخر) (
مثل وجار السفل المهور ** أرثها إسحاق في التعذر) (منها على الخدين والمعدّر)

نعت ابن أبي كريمة للفهد

(كأنَّ بناتِ القفر حين تشعّبتْ ** غدوت عليها بالمانيا الشواعب)

(بذلك نبغي الصيد طوراً وتارةً ** بمُخْطَفةِ الأحشاء رُحْبِ الترائب) (مُوقَّعةِ الأذنان نُمرٍ ظهورها **
مُحْطَّطةِ الآماقِ غلبِ الغوارب) (مُولَّعةِ فُطْحِ الجبَاهِ عوايسٍ ** تحالُ على أشداقها خطَّ كاتبٍ) (فوارسُ ما

لم تلقَ حرباً ورجلةً ** إذا آتست بالبيد شهبَ الكتائب (تصاعَلُ حتَّى ما تكاد تُبينها ** عيونٌ لدى الصّراتِ غيرِ كواذب) (توسّد أجياذ الفرائس أذرُعاً ** مُرمّلة تحكي عناقَ الحباب)

ما يضاف إلى اليهود من الحيوان

قال : والصبيان يصيحون بالفهد إذا رأوه : يا يهوديّ وقد عرفنا مَقاهم في الجريّ .

والعامة تزعم أن الفأرة كانت يهوديّة سحّارة والأرضة يهودية أيضاً عندهم ولذلك يُلطّخون الأجذاع بشحم الجزور .

والضّبّ يهوديّ ولذلك قال بعضُ القصّاص لرجل أكل ضبّاً : اعلم أنّك أكلت شيخاً من بني ولا أراهم يضيفون إلى النصرانية شيئاً من السّباع والحشرات .
ولذلك قال أبو علقمة : كان اسم الذئب الذي أكل يوسف رجحون فقيل له : فإنّ يوسف لم يأكله الذئب وإنما كذبوا على الذئب ولذلك قال الله عزّ وجلّ : وَجَاوُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قال : فهذا اسم للذئب الذي لم يأكل يوسف .
فينبغي أن يكون ذلك الاسم لجميع الذئاب لأنّ الذئاب كلها لم تأكله .

زعم الجوس في لبس أعوان سومين

وترعّم الجوس أنّ بشوتن الذي ينتظرون خروجه ويزعمون أنّ الملك يصيرُ إليه يخرج على بقرّة ذات قرون ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود الفهود لا يعرف هراً ولا برّاً حتى يأخذ جميع الدنيا .

الهرّ والبرّ وكذلك إلغازهم في الهرّ والبرّ وابن الكلبي يزعم عن الشّرقى بن القطاميّ أنّ الهرّ السنور والبرّ الفارة .

جوارح الملوك

وليس ترى شريفاً يستحسن حمل البازي لأنّ ذلك من عمل البازيار ويستهجن حمل الصّقور والشواهين وغيرها من الجوارح وما أدري علّة ذلك إلا أنّ الباز عندهم أعجميّ والصّقر عربيّ .
ومن الحيوان الذي يدرّب فيستجيب ويكيس وينصح العفّاقُ فإنّه يستجيبُ من حيث تستجيبُ الصّقور ويُزجر فيعرف ما يُراد منه ويخبأ الحلي فيُسأل عنه ويُصاح به فيمضي حتى يقف بصاحبه على المكان الذي خبّاه فيه ولكن لا يلزم البحث عنه .
وهو مع ذلك كثيراً ما يُضيع بيضه وفراخه .

مخبئات الدراهم والحلى وثلاثة أشياء تُخبي الدراهم والحلى وتفرح بذلك من غير انتفاع به منها : العقق ومنها ابن مقرض : دويبة ألق من ابن عرس وهو صعب وحشي يحب الدراهم ويفرح بأخذها ويحبها وهو مع ذلك يصيد العصافير صيداً كثيراً وذلك أنه يؤخذ فيربط بحيط شديد الفتل ويقابل به بيت العصفور فيدخل عليه فيأخذه وفراخه ولا يقتلها حتى يقتلها الرجل فلا يزال كذلك ولو طاف به على ألف جحر فإذا حلّ خيطه ذهب ولم يقم .

وضرب من الفار يسرق الدراهم والدنانير والحلى ويفرح به ويظهره ويغييه في الجحر وينظر إليه ذنب الوزغة قال : وخطب الأشعث فقال : أيها الناس إنه مابقي من عدوكم إلا كما بقي من ذنب الوزغة تضرب به يميناً وشمالاً ثم لاتلبث أن تموت

فمر به رجل من قشير فسمع كلامه فقال : قبح الله (تعالى هذا ورأيه يأمر أصحابه بقلّة الاحتراس وترك الاستعداد . وقد يقطع ذنب الوزغة من ثلثها الأسفل فتعيش إن أفلتت من الذر . أشد الحيوان احتمالاً للطعن والبتير وقد تحمل الخنافس والكلاب من الطعن الجائف والسهم النافذ ما لا يحتمل مثله شيء والخنافس أعجب من ذلك وكفاك بالضب . والجمل يكون سنانه كالهذف فيكشف عنه جلده في المجهدة ثم يجث من أصله بالشفا ثم تعاد عليه الجلدة ويدأوى فيبرأ ويحمل ذلك وهو أعجب في ذلك من الكبش في قطع أليته من أصل عجب ذنبه وهي كالترس وربما فعل ذلك به وهو لا يستطيع أن يقل أليته إلا بأداة تتخذ ولكن الألية على كل حال طرف زائد والسنام قد طبق على جميع ما في الجوف .

ذكاء إيلس ونظر إيلس بن معاوية في الرحبة بواسط إلى آجرة فقال : تحت هذه الآجرة دابة : فزعوا الآجرة فإذا تحتها حية متطوّقة فسئل عن ذلك فقال لأني رأيت ما بين الآجرتين ندياً من جميع تلك الرحبة فعلمت أن تحتها شيئاً يتنفس .

هداية الكلاب في الثلج وإذا سقط الثلج في الصحارى صار كله طبقة واحداً إلا ما كان مقابلاً لأفواه جحرة الوحش والحشرات فإن الثلج في ذلك المكان ينحسر ويرق لأنفاسها من أفواهها ومناخرها ووهج أبدانها فالكلاب في تلك الحال يعتادها الاسترواح حتى تقف بالكلايين على رؤوس المواضع التي تنبت الإجرّد والقصيص وهي التربة التي تُنبئ الكمأة وتربيها .

تعرف مواضع الكمأة وربما كانت الواحدة كالرمانة الفخمة ثم تتخلق من غير بزر وليس لها عرق قص به من قوى تلك الأرض ولكنها قوى اجتمعت

من طريق الاستحالات كما ينطبخ في أعماق الأرض من جميع الجواهر وليس لها بد من تربة ذلك من جوهرها ولا بد لها من وسمي فإذا صار جانبيها إلى تلك المواضع ولا سيما إن كان اليوم يوماً لشمسه وقّع فإنه إذا أبصر الإجرد والقصيص استدلل على مواضعها بانتفاخ الأرض وانصداعها .

وإذا نظر الأعرابي إلى موضع الانتفاخ يتصدع في مكانه فكان تفتحه في الحالات مستويًا علم أنه (نوادر وأشعار وأحاديث) قال الشاعر : (وعصيت أفر ذوي النهى * وأطعت رأي ذوي الجهالة) (فاحتلت حين صرمتني * والمرء يعجز لا المحالة) (والعبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه المقالة)

وقال بشر : (وصاحب كالدمل الممد * حملته في رقة من جلدي) (الحر يلحى والعصا للعبد * وليس للملحف مثل الرد) وقال خليفة الأقطع : (العبد يقرع بالعصا * والحر تكفيه الملامة) (القول في العرجان) قال رجل من بني عجل : (وشي بي واش عند ليلى سفاهة * فقالت له ليلى مقالة ذي عقل) (وخبرها أنني عرجت فم تكن * كورهاء تجتر الملامة للبعل) (وما بي من عيب الفتى غير أنني * جعلت العصا رجلاً أقيم بها رجلي) وقال أبو حية في مثل ذلك : (وقد جعلت إذ ما قمت يوجعني * ظهري فقام الشارب السكر)

(وكنت أمشي على رجلين معتدلاً * فصرت أمشي على أخرى من الشجر) وقال أعرابي من بني تميم : (وما بي من عيب الفتى غير أنني * ألفت قناتي حين أوجعني ظهري) وكان بنو الحذاء عرجاناً كلهم فهجاهم بعض الشعراء فقال : (لله در بني الحذاء من نفر * وكل جار على جيرانه كلب) (إذا غدوا وعصي الطلح أرجلهم * كما تنصب وسط البيعة الصلب) والذي طفف الجدار من الدع روقد بات قاسم الأنفال

فعدا خامعاً بأيدي هشيم وبساق كعود طلع بال (وله حديث .

عصا الحكم بن عبل

وكان الحكم بن عبل أعرج وكان بعد هجائه لحمد بن حسان بن سعد لا يبعث إلى أحد بعصاه التي يتوكأ عليها وكتب عليها حاجته إلا قضاها كيف كانت فدخل على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وهو أمير الكوفة وكان أعرج وكان صاحب شرطته أعرج فقال ابن عبل : (ألقى العصا ودع التعارج والتمس * عملاً فهذي دولة العرجان)

(فأمرنا وأمير شرطتنا معاً * يا قومنا لكليهما رجلا) (فإذا يكون أميرنا ووزيره * وأنا فإن الرابع الشيطان) وقال آخر ووصف ضعفه وكبر سنه : (آتي الندي فلا يقرب مجلسي * وأقود للشرف الرفيع حمارياً) وكان من العرجان والشعراء أبو ثعلب وهو كليب بن أبي الغول ومنهم أبو مالك الأعرج وفي

أحدهما يقول البيهقي : (أبو ثعلب للناطقي مؤازرٌ * على خبثه والناطقي غيورٌ) (وبالغلة الشهباء رقة حافرٌ * وصاحبنا ماضي الجنان جسورٌ) (ولا غرو أن كان الأعرج أرها * وما الناس إلا آيرٌ وميرٌ)

(البدء والثنيان) وقال الشاعر : (تلقى ثنانا إذا ما جاء بدأهم * وبدؤهم إن أتانا كان ثنيانا) فالبدء أضخم السادات يقال ثنى وثنيان وهو اسم واحد وهو تأويل قول الشاعر : (يصد الشاعر الثنيان عني * صدود البكر عن قرم هجان) لم يمدح نفسه بأن لا يغلب الفحل وإنما يغلب الثنيان وإنما

أراد أن يصغر بالذي هجاه بأنه ثنيان وإن كان عند نفسه فحلاً وأما قول الشاعر : ومن يفخر بمثل أبي وجدتي يحى قبل السوابق وهو ثان

أحاديث من أعاجيب الممالك

أتيت باب السعداني فإذا غلام له مليحٌ بالباب كان يتبع دابته فقلت له : قل لمولاك إن شئت بكرت إلي وإن شئت بكرت إليك قال : أنا ليس أكلم مولاي ومعني أبو القنافذ فقال أبو القنافذ : ما نحتاج مع هذا الخبر إلى معانية .

وقال أبو البصير المنجم وهو عند قثم بن جعفر لغلام له مليح صغير السن : ما حبسك يا حلقي والحلقي : المخث ثم قال : أما والله

لئن قمت إليك يا حلقي لتعلمن قلماً أكثر عليه من هذا الكلام بكى و قال : أدعو الله على من جعلني حلقياً .

حدثني الحسن بن المرزبان قال : كنت مع أصحاب لنا إذ أتينا بغلام سندي يباع فقلت له : اشتريك يا غلام فقال : حتى أسأل عنك قال المكّي : وأتي المتني بن بشر بسندي ليشتريه على أنه طبّاح فقال له المتني : كم تحسن يا غلام من لون فلم يجبه فأعاد عليه وقال : يا غلام كم تحسن من لون فكلم غيره وتركه فقال المتني في الثالثة : ما له لا يتكلم يا غلام كم تحسن من لون فقال السندي : كم تحسن من لون كم تحسن من لون وأنت لا تحسن ما يكفيك أنت قال : حسبك الآن : ثم قال المتني للدلال : وحدثني ثمامة قال : جاءنا رجل بغلام سندي يزعم أنه طبّاح حاذق فاشتريته منه فلما أمرت له بالمال قال الرجل : إنه قد غاب عنا غيبة فإن اشتريته على هذا الشرط وإلا فاتركه فقلت للسندي : أكنت أبقت قط قال : والله ما أبقت قط فقلت : أنت الآن قد جمعت مع الإباق الكذب قال : كيف ذلك قلت : لأن هذا الموضع لا يجوز أن يكذب فيه البائع قال : جعلني الله

تعالى فدأك أنا والله أخبرك عن قصتي : كنت أذنبت ذنباً كما يذنب هذا وهذا جميع غلمان الناس

فحلف بكلّ يمين ليضربني أربعمئة سوط فكنت ترى لي أن أقيم قلت : لا والله قال : فهذا الآن إباق قلت لا قال : فاشتريته فإذا هو أحسن الناس خبراً وأطيبهم طبخاً .

وخبرني رجلٌ قال : قال رجلٌ لـغلامٍ له ذاتَ يومٍ : يا فاجرٍ قال : جعلني الله فـدك مولى القوم منهم . وزعم روح بن الطائفية وكان روحٌ عبداً لأخت أنس بن أبي شيخ وكانت قد فوّضت إليه كلَّ شيءٍ من أمرها قال : دخلت السوق أريدُ شراءَ غلامٍ طبّاحٍ فبينما أنا واقفٌ إذ جيءَ بغلامٍ يُعرَضُ بعشرةِ دنانيرٍ ويساوي على حُسْن وجهه وجودةِ قدّه وحدائِةِ سنّهُ دونَ صناعتهِ مائةِ دينارٍ فلمّا رأيتهُ لم أتمالك أن دنوتُ منه فقلت : ويحك أقلُّ ثمنك على وجهك مائةَ دينارٍ والله ما يبيّعُك مولاك بعشرةِ دنانيرٍ إلاّ وأنت شرُّ الناس فقال : أمّا لهم فأنا شرُّ الناس وأمّا لغيرهم فأنا أساوي مائةً ومائةً قال : فقلت : التزّينُ بجمالِ هذا وطيبِ طبّخه يوماً واحداً عند أصحابي خيرٌ من عشرةِ دنانيرٍ فابتعته ومضيتُ به إلى المنزل فرأيت من حذقه وخدمته وقلةِ تزّيده ما إن بعثته إلى الصيرفي ليأتيني من قبله بعشرين ديناراً فأخذها ومضى على وجهه

فر الله ما شعرت إلاّ والتّاشد قد جاءني وهو يطلب جُعْله فقلت : لهذا وشبهه باعك القومُ بعشرةِ دنانيرٍ قال : لولا أنّي أعلم أنّك لا تصدّق عيني وكيف طرّت الدنانير من ثوبي ولكّني أقولُ لك واحدة : احتبسني واحترس مني واستمتع بخدمتي واحتسب أنّك كنت اشتريتنى بثلاثين ديناراً قال : فاحتبسته لهواي فيه وقلت لعلّه أن يكون صادقاً ثمّ رأيتُ والله من صلاحه وإنابته وحُسْن خدمته ما دعاني إلى نسيان جميع قصّته حتى دفعتُ إليه يوماً ثلاثين ديناراً ليوصلها إلى أهلي فلمّا صارت إلى يده ذهبَ على وجهه فلم ألثُ إلاّ أياماً حتى ردّه التّاشد فقلت له : زعمت أنّ الدنانير الأولى طرّت منك فما قولك في هذه الثانية قال : أنا والله أعلم أنّك لا تقبل لي عُذراً فدعني خارجَ الدار ولا تجاوز بي خدمةَ المطبخ ولو كان الضّربُ يرُدُّ عليك شيئاً من مالك لأشرتُ عليك به ولكنّ قد ذهبَ مالك والضّربُ ينقُص من أجرك ولعليّ أيضاً أموت تحت الضّرب فتندم وتأمّم وتفتضح

ويطلبك السلطان ولكن اقتصر بي على المطبخ فأني سأسرّك فيه وأوفره عليك وأستجيد ما أشتريه وأستصلحه لك وعدّ أنّك اشتريتنى بستين ديناراً فقلت له : أنت لا تفلح بعد هذا اذهبْ فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى فقال لي : أنت (

عبدٌ فكيف يجوز عتقك قلت فأبيعُك بما عَزَّ أو هان فقال : لا تبغني حتّى تُعَدَّ طبّاحاً فإنّك إن بعيتني لم تنغذْ غداءً إلاّ بخبزٍ وباقلّاء قال : فتركته ومَرّت بعد ذلك أيامٌ فبينما أنا جالسٌ يوماً إذ مرّت عليّ شاةٌ لبونٌ كريمةٌ غزيرة الدّر كنا فرّقنا بينها وبين عناقها فأكثرَتْ في الثّغاء فقلت كما يقول الناس وكما يقول الصّبحر : اللهمّ العن هذه الشاة ليت أن الله بعث إنساناًذبّحها أو سرّقها حتى نستريح من صياحها قال : فلم ألثُ إلاّ بقلّ ما غاب عن عيني ثمّ عاد فإذا في يده سكينٌ وساطورٌ وعليه قميصُ العمل ثمّ أقبل عليّ فقال : هذا اللحم ما نصنع به وأيُّ شيءٍ تأمرني به فقلت : وأيُّ لحمٍ قال : لحم هذه الشاة قلت :

وأيّما شاةٍ قال : التي أمرت بذبّحها قلت : وأي شاةٍ أمرت بذبّحها قال : سبحان الله أليس قد قلت السّاعة : ليت أن الله تعالى قد بعث إليها من يذبّحها أو يسرقها فلما أعطاك الله تعالى سؤلك صرت تتجاهل قال روح : فبقيت والله لا أقدرُ على حبسه ولا على بيعه ولا على عتقه . (أشعارُ حسان) وقال مسكينٌ

الدَّارِمِيّ : (كَأَنَّ عَلَى خُرطومِهِ مَتَهافِتاً ** مِنْ الْقَطَنِ هاجتَهُ الْأَكْفُ النَوادِفُ) (وَلِلصَّدَأِ الْمُسَوْدُ أَطْيَبُ
عِنْدَنَا ** مِنْ الْمِسْكِ دافِئُهُ الْأَكْفُ الدَّوائِفُ)

(وَيَصْبَحُ عِرْفَانُ الدَّرُوعِ جُلُودَنَا ** إِذَا جَاءَ يَوْمٌ مُظْلِمُ اللَّوْنِ كاسِفُ) (تَعْلُقُ فِي مِثْلِ السَّوَارِي سَيُوفُنَا **
وَمَا بَيْنَهَا وَالْكَعْبِ مِثْلُ تَنَائِفُ) (وَكُلُّ رُدِّيْنِي كَأَنَّ كُحُوبَهُ ** قِطْأً سَابِقُ مُسْتَوْرِدُ الْمَاءِ صَائِفُ) (كَأَنَّ هَيْلَالاً
لَا حَ فَوْقَ قَنَاتِهِ ** جَلَا الْعَيْمَ عَنْهُ وَالْقَتَامَ الْحَرَاغِفُ) (لَهُ مِثْلُ حُلُقُومِ النَّعَامَةِ حَلَّةٌ ** وَمِثْلُ الْقِدَامِي سَاقِهَا
مِثْنَصَفُ) وَقَالَ أَيْضاً مِسْكِيْنُ الدَّارِمِيّ : (وَإِذَا الْفَاحِشُ لَاقَى فَاحِشاً ** فَهَنَّا كُمْ وَافَقَ الشَّنُّ الطَّبَقُ) (إِنَّمَا
الْفُحْشُ وَمَنْ يَعْتَادُهُ ** كَغُرَابِ الْبَيْنِ مَا شَاءَ نَعَقُ) (أَوْ حِمَارِ السَّوْءِ إِنْ أَشْبَعَتْهُ ** رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ جَاعَ
نَهَقُ)

(أَوْ غَلَامِ السَّوْءِ إِنْ جَوَّعَتْهُ ** سَرَقَ الْجَارَ وَإِنْ يَشْبَعُ فَسَقُ) وَقَالَ ابْنُ قَيْسِ الرِّقِيَّاتِ : (مَعْقِلُ الْقَوْمِ مِنْ
قُرَيْشٍ إِذَا مَا فَازَ بِالْجَهْلِ مَعْشَرٌ آخَرُونَا وَقَالَ ابْنُ قَيْسٍ أَيْضاً وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ : (لَوْ كَانَ حَوْلِي بَنُو أُمَيَّةٍ لَمْ
يَنْطِقُ رَجُلٌ إِذَا هُمْ نَطَقُوا) (إِنْ جَلَسُوا لَمْ تَضُقْ مَجَالِسَهُمْ ** أَوْ رَكِبُوا ضَاقَ عَنْهُمْ الْأَفْقُ) (كَمْ فِيهِمْ مِنْ
فَتَى أَحْيَى ثَقَّةً ** عَنْ مَنْكِبِيهِ الْقَمِيصُ مَنْخَرَقُ) (تَحْبُهُمْ عُودُ النِّسَاءِ إِذَا ** مَا احْمَرَّتْ تَحْتَ الْقَوَانِسِ الْحَدَقُ) (وَأَنْكَرَ الْكَلْبُ أَهْلَهُ وَرَأَى الشَّرَّ ** وَطَاحَ الْمَرْوَعُ الْفَرَقُ) وَقَالَ النَّابِغَةُ : (سَهَكِينَ مِنْ صَدَا الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ
** تَحْتَ السَّنَوْرِ جَنَّةُ الْبَقَارِ)

وقال بشار بن برد : (يَطْيَبُ رِيحُ الْخَيْرِ زَائِنَةٌ بَيْنَهُمْ ** عَلَى أَنَّهَا رِيحُ الدِّمَاءِ تَضُوعُ) سَقُولُ فِي الشَّهْبِ وَفِي
اسْتِرَاقِ السَّمْعِ وَإِنَّمَا تَرَكْنَا جَمْعَهُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَطُولُ عَلَى الْقَارِئِ وَلَوْ قَدْ قَرَأَ فَضَّلَ
الْإِنْسَانُ عَلَى الْجَانِّ وَالْحِجَّةَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْجَانَّ لَمْ يَسْتَقِلَّهُ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَقْصِدُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى هَذَا
الْبَابِ فَإِذَا أَدْخَلْنَاهُ فِي بَابِ الْقَوْلِ فِي صَغَارِ الْوَحْشِ وَالسَّبَاعِ وَالْهَمْجِ وَالْحَشَرَاتِ قَالُوا : زَعَمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
قَالَ : وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَقَالَ تَعَالَى : وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
رَجِيمٍ وَقَالَ تَعَالَى : وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَنَحْنُ لَمْ نَجِدْ قَطُّ كَوْكَباً خِلا مَكَانَهُ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ وَاحِداً
مِنْ جَمِيعِ

هَذَا الْخَلْقِ مِنْ سَكَّانِ الصَّحَارَى وَالْبَحَارِ وَمَنْ يَرَاعِي التَّجُومَ لِلْإِهْتِدَاءِ أَوْ يَفَكِّرُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ أَنْ يَكُونَ
يَرَى كَوْكَباً وَاحِداً زَائِلاً مَعَ قَوْلِهِ : وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ .
قِيلَ لَهُمْ : قَدْ يَجْرُكُ الْإِنْسَانُ يَدَهُ أَوْ حَاجِبَهُ أَوْ إِصْبَعَهُ فَتَضَافُ تِلْكَ الْحَرَكَةُ إِلَى كُلِّهِ فَلَا يَشْكُونُ أَنَّ الْكَلَّ هُوَ
الْعَامِلُ لِتِلْكَ الْحَرَكَةِ وَمَتَى فَصَلَ شَهَابٌ مِنْ كَوْكَبٍ فَأَحْرَقَ وَأَضَاءَ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ فَقَدْ حَكَّمَ كُلُّ إِنْسَانٍ
بِإِضَافَةِ ذَلِكَ الْإِحْرَاقِ إِلَى الْكَوْكَبِ وَهَذَا جَوَابٌ قَرِيبٌ سَهْلٌ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .
وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ : إِنَّهُ يَجِبُ فِي قَوْلِهِ : وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ أَنَّهُ يَعْنِي الْجَمِيعَ فَإِذَا كَانَ قَدْ صَحَّ أَنَّهُ إِنَّمَا عَنِ
الْبَعْضِ فَقَدْ عَنِ نُجُومِ الْجَوَرَةِ وَالنَّجُومِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي لَيَالِي الْحَنَادِسِ لِأَنَّهُ مُحَالٌ)

أن تقع عينٌ على ذلك الكوكب بعينه في وقت زواله حتّى يكون الله عزّ وجلّ لو أفنى ذلك الكوكب من بين جميع الكواكب الملتفة لعرف هذا المتأملُ

مكانه ولو جدّ مسّ فقده ومن ظنّ بجهله أنّه يستطيع الإحاطة بعدد النجوم فإنه متى تأملها في الحنادس وتأمل الحجرة وما حولها لم يضرب المثل في كثرة العدد إلّا بما دون الرمل والتراب وقطر السحاب .
وقال بعضهم : يدنو الشهاب قريباً ونراه يحىء عرّضاً لا منقّضاً ولو كان الكوكب هو الذي ينقضُّ لم يُر كالخيط الدقيق ولأضاء جميع الدنيا ولأحرق كلّ شيء مما على وجه الأرض قيل له : قد تكون الكواكب أفعية ولا تكون علوية فإذا كانت كذلك فصل الشهاب منها عرّضاً وكذلك قال الله تعالى : إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ وقال الله عزّ وجلّ : أو آتيكم بشهاب قبس فليس لكم أن تقضوا بأنّ المباشر لبدن الشيطان هو الكوكب حتى لا يكون غير ذلك وأنتم تسمعون الله تعالى يقول :

فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ والشهاب معروفٌ في اللغة وإذا لم يُوجِبْ عليها ظاهر لفظ القرآن لم ينكر أن يكون الشهاب كالحطّ أو كالسهم لا يضيء إلّا بمقدار ولا يقوى على إحراق هذا العالم وهذا قريبٌ والحمد لله .
وطعن بعضهم من جهة أخرى فقال : زعمتم أنّ الله تبارك وتعالى قال : وحفظاً من كلّ شيطانٍ مارِدٍ لا يسمعون إلى الملا الأعلى ويُقدفون من كلّ جانب دُحوراً ولهم عذابٌ واصبٌ وقال على سنن الكلام : إلّا من خطف الخطفة فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ قال : فكيف تكون الخطفة من المكان الممنوع قيل له : ليس بممنوع من الخطفة إذ كان لا محالة مرمياً بالشهاب ومقتولاً على أنّه لو كان سليم بالخطفة لما كان استفاد شيئاً للتكاذيب والرياسة وليس كلّ من كذب على الله وادّعى النبوة كان على الله تعالى أن يُظهر تكذيبه بأن يحسف به الأرض أو يبطّق بتكذيبه في تلك الساعة وإذا وجبت في العقول السليمة ألاّ يصدق في الأخبار لم يكن معه بُرهان فكفى بذلك .
ولو كان ذلك لكان جائزاً ولكنّه ليس بالواجب وعلى أنّ

ناساً من النحويين لم يدخلوا قوله تعالى : إلّا من خطف الخطفة في الاستثناء وقال : إنّما هو كقوله : (إلّا كخارجة المكلف نفسه ** وابني قبضة أن أغيب ويشهداً) وقوله أيضاً : (إلّا كناشرة الذي كلّتم ** كالعصن في غلوائه المتنبّت)

وقال الشاعر في باب آخر ثما يكون موعظةً له من الفكر والاعتبار فمن ذلك قوله : (مهما يكن ريبُ المُنون فإنني ** أرى قمر الليل المعذر كالفق) (يكون صغيراً ثمّ يعظم دانياً ** ويرجع حتّى قيل قد مات وانقضى) (كذلك زيد المرء ثمّ انتقصه ** وتكراره في إثره بعد ما مضى) وقال آخر : ومستنبّت لا بالليالي نباته وما إن تلاقي ما به الشفتان

(وآخر في خمسٍ وتسعٍ تمامه ** ويُجهد في سبعٍ معاً وثمانٍ)

ما قيل من الشعر في إنقاص الصحة والحيا

وقال أبو العتاهية : أَسْرَعَ في نَقْصِ امرئٍ تمامه وقال عبدُ هند : (فَإِنَّ السَّنَانَ يَرْكَبُ المرءُ حَلَّةً ** من العارِ أو يَعدُّو على الأسدِ الوَرْدِ) (وَإِنَّ الذي يَنتَهاكُمُ عن طَلابِها ** يُناغي نِساءَ الحَيِّ في طَرَةِ البُرْدِ) (يُعَلِّلُ والأَيَّامُ تَنقُصُ عَمَرَهُ ** كما تَنقُصُ النَّيرانُ من طَرَفِ الرُّنْدِ) وفي أمثال العرب : كُلُّ ما أَقامَ شَخْصٌ وَكُلُّ ما ازدادَ نَقْصٌ ولو كان يُمِيتُ النَّاسَ الدَّاءُ لَأَعاشَهُمُ الدَّواءُ .

وقال حميد بن ثور : (أَرى بَصَرِي قد رَابَنِي بَعْدَ صَحَّةٍ ** وَحَسْبُكَ داءٌ أَنْ تَصَحَّ وتَسَلِمَا) وقال النمر بن تَوَلَب : (يُحِبُّ الفَتَى طُولَ السَّلامَةِ والبَقا ** فَكَيْفَ تَرى طُولَ السَّلامَةِ يَفْعَلُ) وقيل للمؤبد : متى أبنك يعني أبنك قال : يوم ولد .

وقال الشاعر : (تَصَرَّفْتُ أَطواراً أَرى كُلَّ عِبرَةٍ ** وَكان الصَّبَا مَنِّي جَدِيداً فَأَخْلَقَا) (وما زادَ شيءٌ قَطُّ إلا لَنَقْصِهِ ** وما اجتمع الإلفان إلا تَفَرَّقَا) وقيل لأعرابي في مرضه الذي مات فيه : أي شيء تشكي قال : تمام العدة وانقضاء المدة .

وقيل لأعرابي في شكاته التي مات فيها : كيف تجلِّك قال : أجدني أجداً ما لا أشتهي وأشتهي ما لا أجد .

وقيل لعمرو بن العاص في مَرَضَتِهِ التي ماتَ فيها : كيف تجلِّك قال : أجدني أذوب ولا أثوب وقال مَعمرٌ : قَلْتُ لرجلٍ كانَ مَعِي في الحِيسِ وَكانَ ماتَ بالبَطْنِ : كيفَ تجلِّك قال : أجدُ رُوحِي قد خَرَجَتْ من نِصْفِي الأسفلِ وأجد السَّماءَ مُطَبَّقَةً عَلَيَّ ولو شئتُ أَنْ أَلْسَها بيدي لَفَعَلْتُ ومَهما شَكَّكتُ فيه فلا أَشكُ أَنَّ الموتَ بَرْدٌ وَيُبْسُ وَأَنَّ الحِياةَ حَرارةٌ ورطوبَةٌ .

شعر في الرثاء

وقال يعقوب بن الرِّبيع في مَرثِيَةٍ جاريةٍ كانتَ لَهُ : (رَجَعَ اليقينُ مطامِعِي يأساً كما ** رَجَعَ اليقينُ مطامِعَ المتلمِّسِ)

وقال يعقوب بن الرِّبيع : (لئن كان قُرْبُكَ لي نافِعاً ** لَبَعْدُكَ قد كان لي أنفعا) (لَأَني أَمِنْتُ رَزَايا الدُّهُورِ ** وَإِنْ جَلَّ خَطْبُ فلن أَجْزَعَا) وقال أبو العتاهية : (وَكانتَ في حِياتِكَ لي عِظَاتٌ ** فَأَنتَ اليومَ أَوْعَظُ مِنكَ حَيًّا) وقال التيمي : (لَقَدْ عَزَى رِبيعةٌ أَنْ يَوماً ** عَلَیْها مِثْلَ يَومِكَ لا يَعودُ) (وَمَن عَجَبَ قِصَدَ لَهُ المَنايا ** عَلَي عَمَدٍ وَهَنَّ لَهُ جُنُودُ) وقال صالح بن عبد القدوس : (إِنْ يَكُنْ ما أَصِبتُ فيه جَليلاً ** فَذهابُ العِزاءِ فيه أَجَلٌ) ونظر بعض الحكماء إلى جنازة الإسكندر فقال : إِنَّ الإسكندرَ كانَ أَمَسَ أَنْطَقَ

منه اليوم وهو اليوم أَوْعَظُ منه أمس .

وقال غسان : (واستنْفِدَ الْقَرْنَ الذي أنا مِنْهُمْ ** وكفى بذلك علامةً لحصادي) وقال أعرابي :

(إذا الرِّجَالُ وَلَدَتْ أولادُها ** واضطربت من كِبَرِ أعضادُها) (وَجَعَلَتْ أَسْقَامُهَا تَعْنَادُهَا ** فهي زُرُوعٌ قد دَنَا حصادُها) وقال ضِرَارُ بْنُ عَمْرٍو : مَنْ سَرَّهُ بُؤُهُ سَاءَتْهُ نَفْسُهُ .
وقال عبدُ الرحمن بن أبي بكرةٍ مَنْ أَحَبَّ طُولَ الْعُمُرِ فليُوطِنْ نَفْسَهُ على المصائب .
وقال أخو ذي الرُّمَّة : (ولم يُنْسِنِي أَوْفَى الْمِلَمَاتِ بَعْدَهُ ** وَلَكِنْ نَكْءَ الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ أَوْجَعُ)

بعض الجون

وقال بعض المُجَنَّان : (نُرْقِعْ دُنْيَانَا بتمزيق ديننا ** فلا دِينُنَا يَبْقَى ولا ما نُرْقِعُ) وسئل بعضُ المُجَنَّان : كيف أنتَ في دينك قال : أخرِّقْهُ بالمعاصي وأرْقِعْهُ بالاستغفار .

شعر في معنى الموت (نُراعى إذا الجنائزُ قابلتُنَا ** ويجزُننا بُكاءُ الباقيات) (كَرَوَعَةٌ ثَلَاثَةٌ لِمَغَارِ سَبْعٍ ** فلما غابَ عَادَتْ رَاتِعَاتِ) وقال أبو العتاهية : (إذا ما رأيتم مَيِّتِينَ جَزَعْتُمْ ** وإن لم تَرَوْا ملتم إلى صَوَاتِهَا)
وقالت الخنساء : (تَرْتَعُ ما غَفَلْتُ حَتَّى إذا اذْكَرْتُ ** فَإِنَّمَا هي إِقْبَالٌ وإِدْبَارٌ) وكان الحسن لا يتمثل إلا بهذين البيتين وهما : (يسرُّ الفتي ما كان قَدَمٌ من ثَقَى ** إذا عَرَفَ الدَّاءَ الذي هو قَاتِلُهُ) والبيت الآخر : (ليس مَنْ مَاتَ فاستراحَ بِمَيِّتٍ ** إِنَّمَا المَيِّتُ مَيِّتٌ الأحياءِ)

وكان صالحُ المُرَيِّ يتمثل في قصصه بقوله : (فباتَ يُروِّي أصولَ الفسيلِ ** فَعاشَ الفسيلُ وماتَ الرجلُ)
وكان أبو عبد الحميد المكفوف يتمثل في قصصه بقوله : (يا راقِدَ اللَّيْلِ مسروراً بأَوَّلِهِ ** إنَّ الحوادثَ قد يطرُقُن أسحاراً) (عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى ** وتنجلي عنهم غيابات الكرى)
وقال أبو النجم :

(كلنا يأملُ مدًّا في الأجلِ ** والمنايا هي آفاتُ الأملِ) فأما أبو النجم فإنه ذهب في الموت مذهبَ
زهير حيث يقول : (إنَّ الفتي يُصْبِحُ للأسقامِ ** كالغَرَضِ المنصوبِ للسَّهامِ) أخطأه رامٍ وأصاب رامٍ وقال
زهير : (رأيتُ المنايا خَبَطَ عَشَوَاءَ مَنْ نُصِبَ ** تُمْتَهُوْ مَنْ تَخْطِى يُعَمَّرُ فَيَهْرَمُ) مقطعات شتى وقال الآخر :
وإذا صَنَعْتَ صَنِيعَةً أَتَمَّتْهَا ** بيلدين ليس نَدَاهُما بِمَكْدَرٍ (وإذا تَباعُ كَرِيمَةٌ أو تُشْتَرى ** فسواك بائعُها
وأنت المُشْتَرى)

وقال الشاعر : (قصيرُ يدِ السَّرْبَالِ يَمْشِي معرِّداً ** وشرُّ قريشٍ في قريشٍ مُرَكَّباً) (بعثت إلى العراقِ
ورافديه ** فزارياً أَحَدَ يدِ القَميصِ) (تفيهقُ بالعراقِ أبو المثنى ** وعَلِمَ قومه أكلَ الخبيصِ) وقال الآخر :

(جَبَدَا رَجَعُهَا إِلَى يَدَيْهَا ** بِيَدَيَّ دِرْعَهَا تَحُلُّ الْإِزَارَا) وأنشد : (طَوَّئُهُ الْمَنَايَا وَهُوَ عَنْهُمْ غَافِلٌ ** مَبْنَحِرَقِ السَّرْبَالِ عَارِي الْمَنَاكِبِ) (جَرِيءٌ عَلَى الْأَهْوَالِ يَعْدِلُ دَرْعَهَا ** بِأَيْضِ سَقَّاطٍ وَرَاءَ الضَّرَائِبِ)

وقال جرير : (تَرَكْتُ لَكُمْ بِالشَّامِ حَبْلَ جِهَادَةٍ ** مَتَيْنَ الْقُوَى مُسْتَحْصِدِ الْفَتْلِ بَاقِيَا) (وَجَدْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفِرُّهُ ** وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِيَا) وقال الأسيدي : (كَثِيرَ الْمَنَاقِبِ وَالْمَكْرَمَاتِ ** يَجُودُ مَجْدًا وَأَصْلًا أَثِيلَا) (تَرَى يَدَيْهِ وَرَاءَ الْكَمِيِّ ** تَبَالَهُ بَعْدَ نَصَالِ نَصُولَا)

(تَمْنَى السَّفَاهَ وَرَأَى الْخَنَا ** وَضَلَّ وَقَدْ كَانَ قَدِمًا ضَلُولَا) (سَقَطَ : بَيْتُ الشَّعْرِ) (فَإِنْ أَنْتَ تَنْزِعَ مِنْ وَدْنَا ** فَمَا أَنْ وَجَدْتَ لِقَلْبِي مَحِيلَا)

الجزء السابع

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

في إحساس أجناس الحيوان

اللهم إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَنَسْأَلُكَ الْهُدَايَةَ إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاصَّةً وَعَلَى أَنْبِيَائِهِ عَامَّةً وَنَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تَدْعُونَا الْحُجَّةَ لِإِتْمَامِ هَذَا الْكِتَابِ إِلَى أَنْ نَصِلَ الصَّدَقَ بِالْكَذِبِ وَنُدْخِلَ الْبَاطِلَ فِي تَضَاعِيفِ الْحَقِّ وَأَنْ نَتَكَثَّرَ بِقَوْلِ الزُّورِ وَنَلْتَمِسَ تَقْوِيَةَ ضَعْفِهِ بِالْفُظْهِ الْحَسَنِ وَنَسْتَرِ قَبْحَهُ بِالتَّأْلِيفِ الْمُوْنِقِ أَوْ نَسْتَعِينَ عَلَى إِبْصَاحِ الْحَقِّ إِلَّا بِالْحَقِّ وَعَلَى الْإِفْصَاحِ بِالْحُجَّةِ إِلَّا بِالْحُجَّةِ وَنَسْتَمِيلَ إِلَى دِرَاسَتِهِ وَاجْتِنَائِهِ وَنَسْتَدْعِي إِلَى تَفْضِيلِهِ وَالْإِشَادَةِ بِذِكْرِهِ بِالْأَشْعَارِ الْمَوْلُودَةِ وَالْأَحَادِيثِ الْمَصْنُوعَةِ وَالْأَسَانِيدِ الْمَدْخُولَةِ بِمَا لَا شَاهِدَ عَلَيْهِ إِلَّا دَعْوَى قَاتِلِهِ وَلَا مَصَدَّقَ لَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُوثَقُ بِمَعْرِفَتِهِ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَوْلِ وَخَطَلِهِ وَمِنْ الْإِسْهَابِ وَتَقَحُّمِ أَهْلِهِ وَالاعْتِمَادِ فِيمَا بَيْنَنَا

وبين كثيرٍ من أهل هذا الزمان على حسن الظنِّ والاتِّكَالِ فِيهِمْ عَلَى الْعُذْرِ فَإِنْ كَثُرَ أَمَّنْ يَتَكَلَّفُ قِرَاءَةَ الْكُتُبِ وَمَدَارَسَةَ الْعِلْمِ يَقِفُونَ مِنْ جَمِيعِ الْكُتُبِ عَلَى الْكَلِمَةِ الضَّعِيفَةِ وَاللَّفْظَةِ السَّخِيفَةِ وَعَلَى مَوْضِعٍ مِنَ التَّأْلِيفِ قَدْ عَرِضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ اسْتِكْرَاهٍ أَوْ نَالَهُ بَعْضُ اضْطِرَابٍ أَوْ كَمَا يَعْرِضُ فِي الْكُتُبِ مِنْ سَقَطَاتِ الْوَهْمِ وَقَلَّتَاتِ الصَّجَرِ وَمِنْ خَطَا النَّاسِخِ وَسُوءِ تَحْفُظِ الْمَعَارِضِ عَلَى مَعْنَى لَعْلَهُ لَوْ تَدَبَّرَهُ بِعَقْلِ غَيْرِ مُفْسَدٍ وَنَظَرٍ غَيْرِ مَدْخُولٍ وَتَصَفِّحَهُ وَهُوَ مُحْتَرِسٌ مِنْ عَوَارِضِ الْحَسَدِ وَمِنْ عَادَةِ التَّسْرُّعِ وَمِنْ أَخْلَاقِ مَنْ عَسَى أَنْ يَتَّسِعَ فِي الْقَوْلِ بِمَقْدَارِ ضَيْقِ صَدْرِهِ وَيُرْسِلَ لِسَانَهُ إِرْسَالًا الْجَاهِلِ بِكُنْهٍ مَا يَكُونُ مِنْهُ وَلَوْ جَعَلَ بَدَلَ شُغْلِهِ بِقَلِيلٍ مَا يَرَى مِنَ الْمَنُومِ شُغْلَهُ بِكَثِيرٍ مَا يَرَى مِنَ الْحَمُودِ كَانَ ذَلِكَ أَشْبَهَ بِالْأَدَبِ الْمَرْضِيِّ وَالْحَيِّمِ الصَّالِحِ وَأَشَدَّ مَشَاكِلَهُ لِلْحِكْمَةِ وَأَبْعَدَ مِنْ سُلْطَانِ الطَّيْشِ وَأَقْرَبَ إِلَى عَادَةِ السَّلَفِ وَسِيرَةِ الْأَوَّلِينَ وَأَجْدَرَ أَنْ يَهَبَ اللَّهُ لَهُ السَّلَامَةَ فِي كِتَابِهِ وَالذَّفَاعَ عَنْ حُجَّتِهِ يَوْمَ مَنَاضِلَةِ خُصُومِهِ وَمَقَارَعَةِ أَعْدَائِهِ .

وليس هذا الكتابُ يرحمك الله في إيجاب الوعد والوعيد فيعترض عليه المرجى ولا في تفضيل عليٍّ فينصب له العثماني ولا هو في تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجي ولا هو في)
تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام ولا هو في تفضيل البصرة على الكوفة ومكة على المدينة والشَّام على الجزيرة ولا في تفضيل العجم على العرب وعدنان على قحطان وعمر و علي واصل فيردّ بذلك الهذيلي على النظامي ولا هو في تفضيل مالك على أبي حنيفة ولا هو في تفضيل امرئ القيس على التَّابغة وعامر ابن الطفيل على عمرو بن معد يكرب وعباد بن الحصين على عبيد الله بن الحرّ ولا في تفضيل ابن سريج على الغريص ولا في تفضيل سيبويه على الكسائي ولا في تفضيل الجعفري على العقيلي ولا في تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية وتفضيل قتادة على الزهري فإن لكل

صنف من هذه الأصناف شعبة ولكل رجل من هؤلاء الرجال جُند وعدداً يخاصمون عنهم وسفهاؤهم المتسرعون منهم كثير وعلماءهم قليل وأنصاف علمائهم أقل .
ولا تنكر هذا حفظك الله أنا رأيت رجُلين بالبصرة على باب مُويس بن عمران تنازعا في العنب التَّيروزي والرازي فجري بينهما اللعين حتى توثبا فقطع الكوفي إصبع البصري وفقاً البصري عين الكوفي ثم لم ألبث إلا يسيراً حتى رأيتهما متصافيين متنادمين لم يقعا قطّ على مقدار ما يُغضب من مقدار ما يُرضي فكيف يقعان على مقادير طبقات الغضب والرضا والله المستعان .
وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسَّواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً وأضربوا عنه صفحاً فليس إلا لا أو نعم إلا أن قولهم لا موصول منهم بالغضب وقولهم نعم موصول منهم بالرضا وقد غُزلت الحرّية جانباً ومات ذكر الحلال والحرام ورُفض ذكر القبيح والحسن .

قد كتبنا من كتاب الحيوان ستة أجزاء وهذا الكتاب السابع هو الذي ذكرنا فيه القليل بما حضرنا من جملة القول في شأنه وفي جملة أسبابه والله الموفق .
وانما اعتمدنا في هذه الكتب على الإخبار عما في أجناس الحيوان من الحجج المتظاهرة وعلى الأدلة المترادفة وعلى التنبيه على ما جلَّلها الله تعالى من البرهانات التي لا تعرف حقائقها إلا بالفكرة وغشائها من العلامات التي لا تنال منافعها إلا بالعبارة وكيف فرّق فيها من الحكم العجيبة والأحاسيس الدقيقة والصنعة اللطيفة وما ألهمها من المعرفة وحشائها من الجبن والجرأة وبصرها بما يُقيتها ويُعيشها وأشعرها من الفطنة لما يحاول منها عدوها ليكون ذلك)

سبباً للحذر ويكون حذرُها سبباً للحراسة وحراستها سبباً للسلامة حتى تجاوزت في ذلك مقدار حراسة الجرب من الناس والخائف المطلوب من أهل الاستطاعة والروية كالذي يروى من تحارس الغرائق والكرابي وأشكال من ذلك كثيرة حتى صار الناس لا يضربون المثل إلا بها ولا يذمّون

ولا يمدحون إلا بما يجدون في أصناف الوحش من الطير وغير ذلك فقالوا : أحذر من عَقَق وأحذر من غراب وأحذر من عصفور وأسمع من فَرخ العُقاب وأسمع من قَراد وأسمع من فَرَس وأجِن من صِفَرِد وأسَخِ من لافِظَة وأصنع من تُنوطٍ وأصنع من سُرْفَة وأصنع من دَبَر وأهدى من قَطاة وأهدى من حمام وأهدى من جمل وأزهى من غراب وأزهى من ذباب وأجرأ من الليث وأكسب من الذئب وأخدع من ضَبَّ وأرَوغ من ثعلب وأعق من ضَبَّ وأبر من هِرَّة وأسرع من سِمع وأظلم من حَيَّة وأظلم من وَرَلٍ وأكذب من فاختة وأصدق من قطاة وأموق من رَحمة وأحزم من فَرخ العُقاب .

ونبّهنا تعالى وعزّ على هذه المناسبة وعلى هذه المشاركة وامتحن ما عندنا بتقديمها علينا في بعض الأمور وتقديمنا عليها في أكثر الأمور وأراد بذلك ألا يُخلينا من حُجة ومن النظر إلى عبرة وإلى ما يعود عند الفكرة موعظة وكما كره لنا من السهو والإغفال ومن

البطالة والإهمال في كلِّ أحوالنا لا تُفَتِّح أبصارنا إلا وهي واقعة على ضرب من الدلالة وعلى شكل من أشكال البرهانات وجعل ظاهر ما فيها من الآيات داعياً إلى التفكير فيها وجعل ما استخرناها من أصناف الأعاجيب يُعرف بالتكشيف عنها فمناها ظاهر يدعوك إلى نفسه ويشير إلى ما فيه ومنها باطنٌ يزيدك بالأمور ثقةً إذا أفصيتَ إلى حقيقته لتعلم أنَّك مع فضيلة عقلك وتصرف استطاعتك إذا ظهر عجزك عن عمل ما هو أعجز منك أن الذي فضلك عليه بالاستطاعة والمنطق هو الذي فضله عليك بضروب أخر وأنكما ميسران لما خلقتما له ومُصَرَّفان لما سُخِّرَتما له وأن الذي يعجز عن صنعة السُرْفَة وعن تدبير العنكبوت في قلتها ومهانتها وضعفهما وصغر جرمهما لا ينبغي أن يتكبر في الأرض ولا يمشي الخيلاء ولا يتهمك في القول ولا يتألَّى ولا يستأمر وليعلم أن عقله منيعة من ربه وأن استطاعته عارئة عنده وأنه إنما يستبقي النعمة بإدامة الشكر والتعرض لسلبها بإضاعة الشكر .

ثم حَبَّ إليها طلب الذرء والسفاد الذي يكون مجلبة للذرء وحَبَّ إليها أولادها ونجلها وذرءها ونسلها حتى قالوا : أكرم الإبل أشدّها حيناً وأكرم الصّفايا أشدّها حباً لأولادها) وزاوج بين أكثرها

وجعل تألفها مع بعضها من الطروقة إذا لم يكن الزّواج لها خلقاً وجعل إلف العرس لها عادة وقواها على المسافلة لتتم النعمة وتعظم المنّة وألهمها المبالغة في التربية وحسن التبعّد وشدة التفقّد وسوى في ذلك بين الجنس الذي يُلقم أولاده تلقياً وبين الذي يُرضعها إرضاعاً وبين الذي يرقّها رقاً وبين ما يحضن وما لا يحضن ومنها ما أخرجها من أرحام البيض وأرحام البطون كاسيةً ومها ما أخرجها كاسيةً كاسيةً وأمتنعها وألذّها وجعلها نعمة على عباده وامتحناً لشكرهم وزيادة في معرفتهم وجلاء لما يتراكم من الجهل على قلوبهم فليس لهذا الكتاب ضدّ من جميع من يشهد الشهادة ويصلي إلى القبلة ويأكل الدّبيحة ولا ضدّ من جميع الملحدين من لا يقرُّ بالبعث ويتحلل الشرائع وإن ألحد في ذلك وزاد ونقص إلا الدّهريّ فإن الذي ينفي الربوبية ويحيل الأمر والتّهي ويُنكر جواز الرّسالة ويجعل الطّينة قديمة ويجحد الثواب والعقاب ولا يعرف الحلال والحرام ولا يقرُّ بأن في جميع العالم برهاناً يدلّ على صانع ومصنوع وخالق ومخلوق ويجعل

الفلك الذي لا يعرف نفسه من غيره ولا يفصل بين الحديث والقديم وبين الحسن والمسيء ولا يستطيع
الزيادة في حركته ولا التقصان من دورانه

ولا مُعاقبةً للسُّكون بالحركة ولا الوقوف طَرَفَةً عين ولا الانحراف عن الجهة هو الذي يكون به جميع الإبرام
والنقض ودقيق الأمور وجليلها وهذه الحُكم العجيبة والتدابير المتقنة والتأليف البديع والتركيب الحكيم
على حساب معلوم ونسق معروف على غايةٍ من دقاتق الحكمة وإحكام الصُّنعة .

ولا ينبغي لهذا الدهريِّ أيضاً أن يعرض لكتابنا هذا وإن دلَّ على خلافِ مذهبه ودعا إلى خلافِ اعتقاده لأن
الدهريِّ ليس يرى أنَّ في الأرض ديناً أو نَحلةً أو شريعةً أو ملةً ولا يرى للحلال حُرمةً ولا يعرفه ولا
للحرام نهايةً ولا يعرفه ولا يتوقع العقابَ على الإساءة ولا يترجى الثواب على الإحسان وإنما الصواب
عنده والحقُّ في حُكمه أنه والبهيمة سَيَّانٍ وأنه والسَّبعُ سَيَّانٍ ليس القبيحُ عنده إلا ما خالف هواه وليس
الحسن عنده إلا ما وافق هواه وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك وعلى اللذة والألم وإنما الصواب فيما
نال من المنفعة وإن قتل ألف إنسانٍ صالحٍ لِمَنالةٍ درهم رديءٍ فهذا الدهريُّ لا يخاف إن ترك

الطَّعن على جميع الكتب عقاباً ولا لائمةً ولا عذاباً دائماً ولا منقطعاً ولا يرجو إن ذمَّها ونَصَبَ لها ثواباً في
عاجل ولا آجل .

فالواجبُ أن يسلم هذا الكتابُ على جميع البرية إذا كان موضِعُهُ على هذه الصِّفة ومُجرَاهُ إلى (
هذه الغاية والله تعالى الكافي الموقِّ بلطفه وتأيدته إنه سميع قريب فعال لما يريد .

ثم رجع بنا القولُ إلى الإخبار عن الحيوان بأيِّ شيء تفاضلتُ وبأيِّ شيء خُصَّت وبماذا أُبينتُ وقد عَرَفْنَا ما
أُعْطيت في الشَّمِّ والاستِرواح قال الرَّاجز وذكر الذئب : (يستنخِرُ الرِّيحَ إذا لم يسمع * * * بِمِثْلِ مِقْرَاعٍ
الصَّخَا المَوْقِعِ) وقد عرفنا كيف شَمُّ السَّنَانِيرِ والسَّباعِ والذئابِ وأعجبُ من ذلك وجدانُ الدَّرَّةِ لرائحة
شيءٍ لو وضَعْتَهُ على أَفْئِكَ لَمَا وَجَدْتَهُ له رائحةً كرجل جرادةٍ يابسةٍ منبوذةٍ كيف تجدُ رائحتها من جوف
جُحْرٍها حتى تخرج إليها فإذا تكلَّفتَ حملَهَا فأعجزَتْها كيف تستدعي إليها سائر الدَّرَّ وتستعينُ بكلِّ ما كان
منها في الجُحْرِ .

ونحو شَمِّ الفَرَسِ رائحةَ الحِجْرِ

من مَسيرة ميل والفرس يسير قُدماً والحجر خلفه بذلك المقدار من غير تَلَفٍّ ولا معاينةٍ من جهة من
الجهات وهذا كثيرٌ وقد ذكرناه في غير هذا الموضع فأما السَّمْعُ فدعنا من قَوْلِهِمْ : أسمعُ من فَرَسٍ : أسمعُ من
فَرْخِ العقابِ وأسمعُ من كذا وأسمعُ من كذا ولكننا نقصد إلى الصَّغِيرِ الحَقِيرِ في اسمه وخطره والقليل في
جسمه وفي قَدْرِهِ .

وتقول العرب : أسمعُ من فُرَادٍ ويستدلون بالقرودان التي تكون حَوْلَ الماءِ والبئرِ فإذا كان ليلة ورود القَرَبِ
وقد بعث القومُ من يصلح لإبلهم الأَرْضِيَّةَ وأداةَ السقي وباتت الرجال عند الماء تنتظر مجيء الإبل فإنها
تعرف قَرَبَهَا منهم في جوف الليل بانتفاش القُرودان وسرعة حركتها وخشخشتها ومرورها نحو الرعاء وزجر

الرءاء ووقع الأءفاف على الأرض من غير أن يُحسّ أولئك الرجال حساً أو يشعروا بشيء من أمرها فإذا استدلوأ بذلك من القردان نهضوا فتلبّوا واتزروا وتهيؤوا للعمل .

فأمّا إدراك البصر فقد قالوا : أبصر من غراب وأبصر من فرس وأبصر من هدهد وأبصر من عقاب .
والسنانير والفأر والجردان والسباع تُبصر بالليل كما تبصر بالنهار فأمّا الطعم فيظنّ أنها بفرط الشره
والشهوة وبفرط الاستمراء وبفرط الحرص والنهم أن لذهما تكون على قدر شرهما وشهوتهما تكون على قدر
ما ترى من حركتها وظاهر حرصها . ونحن قد نرى الحمار إذا عاين الأتان والفرس إذا عاين الحجر
والرمكة والبغل والبغلة والئيس والعنز فنظن أن اللذة على قدر الشهوة والشهوة على قدر الحركة وأن
الصيآح على قدر غلبة الإرادة . ونجد الرجال إذا)
اعتراهم ذلك لا يكونون كذلك إلا في الوقت الذي هم فيه أشد غلّمة وأفرط شهوة .
فإن قال قائل : إن الإنسان يغشى النساء في كلّ حال من الفصلين والصميمين وإنما هيّج السباع

(سقط : بيت الشعر) (ثم يسكن هيّج التيس والجمال * فالإنسان المدلوم أحسن مالا) قلنا : إنّا لم نكن
في ذكر المخايرة بين نصيب الإنسان في ذلك مجموعاً ومفرقاً وبين نصيب كلّ جنس من هذه الأجناس
مجموعاً ومفرقاً وإنما ذكرنا نفس المخالطة فقط وما يديركم أيضاً لعلها أن تستوفي في هذه الأيام اليسيرة
أضعاف ما يأتي الإنسان في تلك الأيام الكثيرة .

وعلى أنّا قد نرى ما يعترى الحمار والفرس والبغل وضروباً كثيرة إذا عاينوا الإناث في غير أيام الهيّج
وهاهنا أصناف تُدّيم ذلك كما يُدّيمه الإنسان مثل الحمام والديكة وغير ذلك .
وقد علمنا أن السنانير وأشباه السنانير لها وقت هيّج ولكن ذلك يكون مراراً في السنة على أشد من هيّج
الإنسان فليس الأمر على ما يظنون .

فإن كان الإنسان موضع ذهنه من قلبه أو دماغه يكون أدق وأرق وأنفذ وأبصر فإن حواس هذه الأشكال
أدق وأرق وأبصر وأنفذ وإن كان الإنسان يبلغ بالروية والتصفّح والتحصيل والتمثيل ما لا يبلغه شيء من
السباع والبهائم فإن لها أموراً تتركها وصنعة تحذقها تبلغ منها بالطباع سهواً وهواً ما لا يبلغ الإنسان في
ما هو بسيله إلا أن يكره نفسه على التفكير وعلى إدامة التنقير والتكشيف والمقاييس فهو يستثقله .

ولكلّ شيء ضرب من الفضيلة وشكل من الأمور الحمودة لينفي تعالى وعز عن الإنسان العجب ويقبح
عنده البطر ويعرفه أقدار القسم .

وسنذكر من فطن البهائم وأحسّس الوحش وضروب الطير أموراً تعرفون بها كثرة ما أودعها الله تعالى من
المعارف وسخر لها من الصنعة ثم لا نذكر من ذلك في هذا الموضع إلا كلّ طائر منسوب إلى الموق وإلا كلّ
بهيمة معروفة بالغثاثة بعدة ما فيه أشكالها من المعرفة والفتنة ولو أردنا الأجناس المعروفة بالمعارف الكثيرة

والأحساس اللطيفة لذكرنا الفيل والبعر والدرة والنملة والذئب والثعلب والغرنوق والنحلة والعنكبوت والحمام والكلب وسنذكر على اسم الله تعالى بعض ما في البهائم والسباع والطير من المعرفة ثم نخص في هذا الكتاب المنسوبات إلى الموق والمعروفات بالغبابة وقلة المعرفة كالرَّحمة والزبور والرَّبع من أولاد الإبل والنسر من عظام الطير .

وقال المفضل الضبي : قلت لمحمد بن سهل راوية الكميث : ما معنى قول الكميث في الرَّحمة : (وذات اسمين والألوان شتى * تُحَمَّقُ وهي كيسة الحويل) (لها خبٌ تلوذُ به وليست * بضائعة الجين ولا مَذُول)

قال : كأنَّ معناه عندي حفظُ فراخها أو موضع بيضها وطلب طعمها واختيارها من المساكن ما لا يَطُوره سبع طائر ولا ذو أربع قال : فقلتُ : فأَيُّ كيس عند الرَّحمة إلا ما ذكرت ونحن لا نعرف طائراً أَلَمَ لَوَماً ولا أقدر طُعْمةً ولا أظهر مَوْقاً منها حتى صارت في ذلك مثلاً فقال محمد بن سهل : وما حَقُّها وهي تحضن بيضها وتحمي فراخها وتحبُّ ولدها ولا تَمَكُنُ إلا زوجها وتقطع في أول القواطع وترجع في أول الرواجع ولا تطير في التحسير ولا تغترُّ بالشكير ولا تُرَبُّ بالوكور ولا تسقط على الجفير .

أما قوله : تقطع في أول القواطع وترجع في أول الرواجع فإنَّ الرُّماة وأصحاب الحبال والقناص إنما يطلبون الطير بعد أن يعلموا أنَّ القواطع قد قَطَعَتْ فَيَقْطَع الرَّحمة يستدلُّون فلا بدَّ للرَّحمة من أن تنجو سالمة إذا كانت أولَّ طالع عليهم .

وأما قوله : ولا تُرَبُّ بالوكور فإنه يقول : الوكر لا يكون إلا في غرض الجبل وهي لا تَرْضَى إلا بأعالي الهضاب ثم مواضع الصَّدوع وخلال الصخور وحيث يمتنع على جميع الخلق المصيرُ إلى فراخها ولذلك قال الكميث :

(ولا تجعلوني في رجائي وذُكم * كراج على يبيض الأنوق احتبالها) والأنوق هي الرَّحمة وقال ابن نوفل : (وأنت كساقط بين الحشايا * يصيرُ إلى الخيث من المصير) (ومثلُ نعامٍ تُدعى بعيراً * تعاطمها إذا ما قيل طيري) (وإن قيل احملي قالت فأَيُّ * من الطير المربة في الوكور) وأما قوله : ولا تطير في التحسير ولا تغترُّ بالشكير فإنما تدعُ الطيران أيام التحسير فإذا نبت الشكير وهو أول ما ينبت من الريش فإنها لا تنهض حتى يصير الشكير قصباً وأما قوله : ولا تسقط على الجفير فإنما يعني جعبة السَّهام يقول : إذا رآته علمت أنَّ هناك سهماً فهي لا تسقط في موضع تخاف فيه وقع السَّهام .

اتباع الرخم والنسور والعقبان للجيش

والرَّخم والنسور والعقبان تتبع الجيوش لتوقع القتال وما يكون لها من الجيف وتتبع أيضا الجيوش والحجاج لما يسقط من كسير الدواب وتتبعها أيضاً في الأزمنة التي تكون فيها الأنعام والحجور حوامل لما تؤمل من الإجهاض والإخداج قال النابغة : (وثقتُ له بالنَّصر إذ قيلَ قد غدت * كئائب من غسان غير أشائب) (

بنو عمّه دُنْيَا وعمرُو بن عامر * أولئك قومٌ بأسُهُم غير كاذبٍ (إذا ما غَزَوْا بالجيش حَلَقَ فوقَهُم *
عصائب طيرٍ تهتدي بعصائب) (جوانح قد أيقنَ أن قبيله * إذا ما التقى الجمعان أولُ غالب) (تراهُنَّ
خَلْفَ القومِ خُزْراً عيونُها * جلوس شيوخٍ في مُسوك الأرنابِ) (إذا ما غزا يوماً رأيتَ عصابةً * من
الطيرِ ينظُرُن الذي هو صانع)

وقال آخر : (يكسو السيوف نفوس الناكثين به * ويجعل الرؤس تيجان القنا الذبلِ) (قد عودَ الطيرِ
عاداتٍ وتغن بها * فهنَّ يتبعنه في كلِّ مُرتحل) فقال الكميت كما ترى : تحمق وهي كيسة الحويلِ فرعم
أن التلس يحمقونها وهي كيسة .

قول بعض الأعراب وقال بعض أصحابنا : قيل لأعرابي : أحسن أن تأكل الرأسَ قال : نعم قيل : وكيف
تصنع به قال : أبخسُ عينيه وأسحَى خديّه وأعفص أذنيه وأفكُ لحييّه وأرمي بالمخِّ إلى مَنْ هو أحوجُ مِنّي
إليه قيل له : إنك لأحمق من رُبّع قال : وما حمق الرُبّع والله إنه ليَجْتَبُ العداوَاء ويتبع أمّه في المرعى ويُراوِحُ
بين الأطباء ويعلم أن حنينها رُغاء فأين حمقُهُ .

قتل المكاء للثعبان

وحدث ابنُ الأعرابي عن هشام بن سالم وكان هشام من رهط ذي الرُّمة قال : أكلت حية بيضَ مكاء فجعل
المكاء يشرشر على رأسها ويدنو منها حتى إذا فتحت فاهما تريده وهمت به ألقى فيه حَسَكَةً فلم يزل يُلقى
فيه حَسَكَةً بعد حَسَكَةٍ فأخذتُ بحلقها حتى ماتت .

وأنشد ابنُ الأعرابي عند هذا الحديث قولَ الشاعر : (كأنَّ لكلَّ عند كُلِّ سخيمة * يُريد بتخريق الأديم
استلاها) وأنشد أبو عمرو الشيباني بيت شعر وهو هذا المعنى بعينه وهو قول الأسدِيّ الدُّبيريّ : (إنَّ
كنتَ أبصرتني فذاً ومُصْطَلَمًا * فربّما قتلَ المكاءُ ثعباناً) يقول : قد يظفر القليل بالكثير والقليلُ الأعوانِ
بالكثير الأعوان والمكاء من أصغر الطير وأضعفه وقد احتال للثعبان حتى قتله .

قول جالينوس في معرفة أنثى الطير

وقال جالينوس في الإخبار عن معارف البهائم والطير وفي التعجب من ذلك وتعجب الناس منه : قولوا لي :
مَنْ علَّمَ النسرَ الأنثى إذا خافت على بيضها وفراخها الخفافيش أن تفرش ذلك الوكرَ بورق الدُّلب حتى لا
تقر به الخفافيش وهذا أعجب والأطباء والعلماء لا يتدافعونه

حزم فرخ العقاب

وقال ابنُ الأعرابي وأبو الحسن المدائني : قال رجلٌ من الأعراب : كان سنان بن أبي حارثة أحزم من فرخ
العقاب وذلك أن جوارح الطير تتخذ أوكارها في عُرض الجبال فربّما كان الجبلُ عموداً فلو تحركَ الفرخ إذا

طلب الطعم وقد أقبل إليه أبواه أو أحدهما وزاد في حركته شيئاً من موضع مجثمه لهُوى من رأس الجبل إلى الحضيض وهو يعرف مع صغره وضَعفه وقلة تجربته أن الصواب في ترك الحركة .

اختلاف عادات صغار الحيوان

ولو وُضع في أوكار الوحشيات فرخٌ من فراخ الأهليّات لتهافتن قهأناً كفراخ القطا والحجل والقَبج والدَّرَاج والدَّجاج لأنّ هذه تدرُج على البسيط وذلك لها عادة وفراخ الوحشية لا تجاوز الأوكار لأنها تعرف وتعلم أنّ الهلكة في الجاوزة وأولاد الملاحين الذين ولدوا في السفن الكبار والمنشآت العظام لا يخاف الآباء والأمّهات عليهم إذا درجوا ومشوا أن يقعوا في الماء ولو أن أولاد سُكان القصور والدّور صاروا مكان أولاد أرباب السفن لتهافتوا ولكلّ شيء قدّر وله موضعٌ وزمانٌ وجهةٌ وعادةٌ . وأبوا فرخ الخطّاف يعلمانه الطيران تعلّماً .

الختان عند اليهود والمسلمين والنصارى

وزعم ناسٌ من أطباء النصارى وهم أعداء اليهود أن اليهود يختنون أولادهم في اليوم الثامن وأن ذلك يقع ويوافق أن يكون

في الصّميمين كما يوافق الفصلين وأنهم لم يروا قطّ يهودياً أصابه مكروه من قبل الختان وأنهم قد رأوا من أولاد المسلمين والنصارى ما لا يُحصى ممّن لقي المكروه في ختانه إذا كان ذلك في الصّميمين من ربح الحمرة ومن قطع طرف الكمرة ومن أن تكون الموصى حديثاً العهد بالإحداد وسقي الماء فتشيط عند ذلك الكمرة ويعتريها برص والصبيّ ابن ثمانية أيام أعسر ختانا من الغلام الذي قد شبّ وشدن وقويّ إلا أنّ ذلك البرص لا يتفشى ولا يعدو مكانه وهو في ذلك كنعو البرص الذي يكون من الكي وإحراق النار فإنهما يفحشان ولا يتسعان .

ختان أولاد السفلة وأولاد الملوك وأشباههم

ويختن من أولاد السّفلة والفقراء الجماعة الكثيرة فيؤمن عليهم خطأ الختان وذلك غير مأمون (على أولاد الملوك وأشباه الملوك لفرط الاجتهاد وشدة الاحتياط ومع ذلك يزعم ومع الزمّع

والرعدة يقع الخطأ ، وعلى قدر رعدة اليد ينال القلب من الاضطراب على حسب ذلك . حسن التدبير في الختان وليس من التدبير أن يحضّر الصبيّ والختان إلا سفلة الخدم ولا يحضره من يهاب .

قدم ختان العرب

وهذا الختان في العرب في النساء والرجال من لدن إبراهيم وهاجر إلى يومنا هذا ثم لم يولد صبي محتون قط أو في صورة محتون .

ختان الأنبياء

ونلس يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى بن مريم ولدا محتونين والسبيل في مثل هذا الرجوع إلى الرواية الصحيحة والأثر القائم .

أثر الختان في اللذة

قال : والبطراء تجد من اللذة ما لا تجده المختونة فإن كانت مُستأصلةً مستوعبةً كان على قدر ذلك وأصل ختان النساء لم يُحاول به الحسنُ دونَ التماسِ نقصان الشهوة فيكون العفاف عليهن مقصوراً .
قال :

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للخاتنة : يا أم عطية أشتيه ولا تنهكيه فإنه أسرى للوجه وأحظى عند البعل كأنه أراد صلى الله عليه وسلم أن ينقص من شهوتها بقدر ما يردّها إلى الاعتدال فإن شهوتها إذا قلت ذهب التمتع ونقص حب الأزواج وحب الزوج قيد دون الفجور والمرأة لا تكون في حال من حالات الجماع أشد شهوةً منها للكوم الذي لقحت منه .
وقد كان رجل من كبار الأشراف عندنا يقول للخاتنة : لا تقرضي إلا ما يظهر فقط .

أثر الختان في العفاف والفجور

وزعم جناب بن الحشخشاش القاضي أنه أحصى في قرية واحدة النساء المختونات والمعبرات فوجد أكثر العفاف مستوعبات وأكثر الفواجر مُعبرات .
وأن نساء الهند والروم وفارس إنما صار الزنا وطلب

الرجال فيهن أعم لأن شهوتهن للرجال أكثر ولذلك اتخذ الهند دوراً للزواني قالوا : وليس لذلك علة إلا وفارة البظر والقلفة .

والهند توافق العرب في كل شيء إلا في ختان النساء والرجال ودعاهم إلى ذلك تعمقهم في توفير حظ الباه قالوا : ولذلك اتخذوا الأدوية وكتبوا في صناعة الباه كتباً ودرسوها الأولاد)

السحق قالوا : ومن أكبر ما يدعو النساء إلى السحق أنهن إذا ألصقن موضع محز الختان وجدن هناك لذة عجيبة وكلما كان ذلك منها أوفر كان السحق ألد قال : ولذلك صار حذاق الرجال يضعون أطراف الكمر ويعتمدون بها على محز الختان لأن هناك مجتمع الشهوة . (ظمأ الأيل إذا أكل الحيات) ومن هذا

الباب الذي ذكرنا فيه صِدَقَ إحساس الحيوان ثم اللاقي يضاف منها إلى الموق وينسب إلى الغثارة قال داود النبي عليه السلام في الزبور : شوقي إلى المسيح مثل الأيل إذا أكل الحيات

والأيل إذا أكل الحيات فاعتراه العطش الشديد تراه كيف يدور حَول الماء ويحجزه من الشرب منه علمه بأن ذلك عطشه لأن السموم حينئذٍ تجري مع هذا الماء وتدخل مداخل لم يكن ليبلغها الطعام بنفسه وليس علم الأيل بهذا كان عن تجربة متقدمة بل هذا يوجد في أول ما يأكل الحيات وفي آخره .
تعلق رؤوس الحيات في بدن الأيل وربما اصطيد الأيل فيجد القنَّاصُ رؤوس الأفاعي وسائر الحيات ناشبة الأسنان في عنقه وجلده وجهه لأنه يريد أكلها فربما بدرته الأفعى والأسود وغيرهما من الحيات فتعضه وهو يأكلها ويأكل ما ينال منها ويفوته ما تعلق به منها بالعَضِّ فتبقى الرؤوس مع الأعناق معلقة عليه إلى أن

نصول قرن الوعل

قالوا : وليس شيء من ذوات القرون ينصل قرنه في كل عام إلا الوعل فإذا علم أنه غير ذي قرن وأنه عديم السلاح لم يظهر من مخافة السباع فإذا طال مُكثته في موضعه سمن فإذا سمن علم أن حركته تفقد

وتبطئ فراد ذلك في استخفائه وقلة تعرضه واحتال بالأ يكون أبداً على علاوة الريح فإذا نجم قرنه لم يجد بُداً من أن يطمعه ويعرضه للشمس والريح حتى إذا أيقن أنه قد اشتد أكثر الحجيء والذهاب التماساً أن يذهب شحمه ويشدد لحمه وعند ذلك يحتال في البعد من السباع حتى إذا أمكنه استعمال قرنيه في النزال والاعتماد عليهما والثوب من جهتهما رجع إلى حاله من مراعيه وعاداته ولذلك قال عصام بن زفر : (تَرَجُّو النَّوَابَ مِنْ صَبِيحٍ يَأْتِي حَمَلٌ * * قَدْ مَصَّهُ الدَّهْرُ فَمَا فِيهِ بَلَلٌ) (إن صبيحاً طاعنٌ فمحتملٌ * * فلا تَنْدُ مِنْكَ بِشَيْعٍ مِنْ جَبَلٍ) كما يلوذ من أعاديهِ الوعلُ فضرِبَ به المثل كما ترى في الاحتيال والهرب من أعدائه : وقال الراجز : (لما رأيتُ البرقَ قد تبسَّما * * وأخرجَ القَطْرُ القُرُوعَ الأعصَما)

بيوت الزنابير

وقال ابن الكلبي : قال الشرقي بن القطامي ذات يوم : رأيتم لو فكَّرَ رجلٌ منكم عُمرَه الأطولَ في أن يتعرَّفَ الشيء الذي تتخذ الزنابير بيوتها المخرَّقة بمثل المجاوب المستوية في الأقدار المتحاجزة بالحيطان السخيفة

في المنظر الخفيفة في الحمل المستديرة المضمرة بعضها ببعض المتقاربة الأجزاء وهي البيوت التي تعلم أنها بُنيت من جوهر واحد وكأها من ورق أطباق صغار الكاغد المزروعة قولوا لي : كيف جمعته ومن أي شيء أخذته وهو لا يشبه البناء ولا النسيج ولا الحياطة .

ولم يفسر ابن الكلبي والشرقي في ذلك شيئاً فلم يصِرْ في أيدينا منهما إلا التعجب والتعجب فسألت بعد

ذلك مشايخ الأكرّة فزعموا أنّها تلتقطه من زبد المدود فلا يدرى أمن نفس الزبد تأخذ أم من شيء يكون في الزبد .

والذي عرّف الرنابير مواضع تلك الأجزاء ودلّها على ذلك الجوهر هو الذي علّم العنكبوت ذلك النسيج وقد قال الشاعر : (كأنّ قفا هارون إذ يعتلونه * قفا عنكبوت سلّ من دبرها غزل) وأما دودة القزّ فلا نشك أنّها تخرجه من جوفها .

معرفة الحقنة من الطير

وترغم الأطباء أنّهم استفادوا معرفة الحقنة من قبل الطائر الذي إذا أصابه الحُصر أتى البحر فأخذ بمنقاره من الماء المالح ثم استدخله فمجّه في جوفه وأمكنه ذلك بطول العنق والمنقار فإذا فعل ذلك ذرق فاستراح .

ما يتعالج به الحيوان

والقنفذ وابن عرس إذا ناهشا الأفاعي والحيات الكبار تعالّجا بأكل الصعتر البرّي .
والعقاب إذا اشتكت كبدها من رفعها الأرنب والثعلب في الهواء وحطّها لهما مراراً فإنها لا تأكل إلاّ من الأكباد حتى تبرأ من وجع كبدها .

رغبة الثعلب في القنفذ

قال : وسألت القنّاص : ما رغبة الثعلب في أكل القنفذ وإن كان حشوا إهابه شحمًا سميناً وفي ظاهر جلده شوك صلاب حداد متقارب كتقارب الشعر في الجسد فزعموا أنّ الثعلب إذا أصابه قلبه لظهره ثم بال على بطنه فيما بين مغرز عجزه إلى فكّيه فإذا أصابه ذلك البول اعتراه الأسن فأسبط وتمدّد فينقر عن بطنه فمن تلك الجهة يأكل جميع بدنه ومسلوخه الذي يشتمل عليه جلده .

صيد الطربان للضب

وقالوا : وبشبيه هذه العلة يصيد الطربان الضبّ في جوف جحره حتى يغتصبه نفسه وذلك أنّه يعلم أنّه أنتن خلق الله قسوة فإذا دخل

عليه جحره سدّ خصاصه وفروجه ببدنه وهو في ذلك مستدبر له فلا يفسو عليه ثلاث فسوات حتى يُعطى بيده فيأكله كيف شاء .

قالوا : وربّما فسا وهو بقرب الهجمة وهي باركة فتفرّق في الصحراء فلا يجمعها راعيها إلاّ بجهد شديد ولذلك قال الشاعر : (لا تمنحوا صقراً فما لمنيحة * أتت آل صقر من ثواب ولا شكر) (فما طربان يؤبس الضبّ فسوه * بالأمّ لوماً قد علمناه من صقر) ولذلك قال الراجز وهو يذكر تكسب الطربان

بفسوه لَطْعْمِهِ وقوته كما يتكسَّب الناس بالصناعات والتجارات فقال : (باتا يُحكَّان عراصيف القتب *
مستمسكين بالبطان والحقب) (لا ينفع الصاحب إلا أن يسب * كالظربان بالفساء يكتسب)

ما قيل في بلاهة الحمام

قال ابن الأعرابي : قلت لشيخ من قريش : مَنْ علِّمك هذا وإنما يُحسن من هذا أصحاب التجارات
والتكسُّب وأنت رجل مكفيٌّ مودَّع قال : علِّمني الذي علم الحمامة على بلهها تقليب بيضها كي تعطي
الوجهين جميعاً نصيبهما من الحُصْن وخوف طباع الأرض إذا دام على الشَّقِّ الواحد .
والحمام أبله ولذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كونوا بلهاً كالحمام ألا ترى
أن الحمام في الوجه الذي أهمه الله مصالح ما يعيشه ويُصلح به شأن ذرته ونسله ليس بدون الإنسان في
ذرته ونسله مع ما خوَّل من المنطق وأهم من العقل وأُعطي من التصريف في الوجوه

حيلة الفأرة للعقرب

وإذا جمَعَ بعضُ أهل العَبَث وبعضُ أهل التَّجَرِبَةِ بين العقرب وبين الفأرة في إناء زجاج فليس عند الفأرة
حيلةٌ أبلغ من قرض إبرة العقرب فإمّا أن تموتَ من ساعتها وإمّا أن تتعجل السَّلامةَ

علم الذرة

قال : ومن علِّم الذرَّة أن تفلق الحَبَّة فتأكل موضع القطمير لنلاً

تنبتَ ففسد فإذا كانت الحَبَّة من حبِّ الكرْبُرَةِ فملقتها أنصافاً لم ترض حتى تفلقها أرباعاً لأن الكرْبُرَةَ من
بين جميع الحبِّ تنبت وإن كانت أنصافاً وهذا علِّم غلض .
إذا عرفه الشيخ الفلاح المجرب والفاشكار الرئيس والأكار الحاذق فقد بلغوا النهاية في الرِّياسة .

معرفة الدب

(وقال جالينوس : ومن علِّم الدبَّ الأنثى إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً قُرْب به من الذرِّ
والنمل لأنها تضعه كقدرة من لحمٍ غير متميِّز الجوارح فهي تخاف عليه الذرُّ وذلك له حنفٌ فلا تزال رافعةً
له وراصدةً ومُتَقَدِّدةً ومُحوَّلةً له من موضع إلى موضع حتى يشتد وتنفرج أعضاؤه .
شعر لبشار وقال بشار الأعمى : (وكلُّ قسمٍ لللعقبان أكثره * والحظُّ شيءٌ عليه الدهر مقصورُ)

أمنيةٌ بشر أخي بشار وقال بشر أخو بشار وكانوا ثلاثةً واحد حنفيٌّ وواحد سدوسيٌّ وبشار عَقيليٌّ وإنما
نزل في بني سدوس لسبب أخيه وقد كان قبيلاً لأخيه : لو خيرك الله أن تكون شيئاً من الحيوان أي شيء
كنتَ تتمنى أن تكون قال : عُقاب قيل : ولم تتميت ذلك قال : لأنها تبيت حيث لا يناها سُبُع ذو أربع

وَتَحِيدُ عَنْهَا سِبَاغَ الطَّيْرِ .

وهي لا تعاني الصَّيْدَ إِلَّا فِي الْفَرْطِ وَلَكِنَّهَا تَسْلُبُ كُلَّ صَيْودٍ صَيْدَهُ وَإِذَا جَامَعَ صَاحِبُ الصَّقْرِ وَصَاحِبُ الشَّاهِينَ وَصَاحِبُ الْبَازِي صَاحِبَ الْعُقَابِ لَمْ يَرْسِلُوا أَطْيَارَهُمْ خَوْفًا مِنَ الْعُقَابِ وَهِيَ طَوِيلَةُ الْعُمُرِ عَاقَّةٌ بَوْلُهَا وَهِيَ لَا تَحْمِلُ عَلَى نَفْسِهَا فِي الْكَسْبِ وَهِيَ إِنْ شَاءَتْ كَانَتْ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ شَاءَتْ كَانَتْ بَقْرُبِ كُلِّ شَيْءٍ وَتَتَغَدَّى بِالْعِرَاقِ وَتَتَعَشَّى بِالْيَمَنِ وَرِيشُهَا الَّذِي عَلَيْهَا هُوَ فَرُوهَا فِي الشِّتَاءِ وَخَيْشُهَا فِي الصَّيْفِ وَهِيَ أَبْصَرُ خَلْقِ اللَّهِ .
هذا قولُ صاحبِ المنطقِ في عُقُوقِ الْعُقَابِ وَجَفَانِهَا بِأَوْلَادِهَا فَأَمَّا أَشْعَارُ الْعَرَبِ فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ قَالَ دَرِيدُ بْنُ الصَّمَّةِ :

(وَكُلُّ لَجُوجٍ فِي الْعِنَانِ كَأَنَّهَا * إِذَا اغْتَمَسَتْ فِي الْمَاءِ فَتَخَاءُ كَاسِرُ)

الحمق من الحيوان

والحيوان الحمق الرَّخْمَةُ وَالْحُبَارَى قَالَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كُلُّ شَيْءٍ يَحِبُّ وَلَدَهُ حَتَّى الْحُبَارَى . وَأَنْشَى الذَّنَابَ وَهِيَ الَّتِي تَسْمَى جَهِيْزَةً وَالضَّبْعَ وَالنَّعْجَةَ وَالْعَنْزَ هَذِهِ مِنَ الْمَوْصُوفَاتِ بِالْمُوقِ جَدًّا .
قَالَ : وَمِنَ الْحَيَوَانِ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا الْجَمَالُ وَالْحَسَنُ كَالطَّائِفِ وَهُوَ مِنَ الطَّيْرِ الْحَمَقُ وَكَذَلِكَ التُّدْرُجُ مَعَ جَمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَعَجِيبٌ وَشَيْءٌ وَالزَّرَافَةُ وَهِيَ أَيْضًا مَوْصُوفَةٌ بِالْمُوقِ وَلَيْسَ عِنْدَهَا إِلَّا طَرَاةُ الصُّورَةِ

وَعَرَابَةُ النَّتَاجِ وَهِيَ مِنَ الْخَلْقِ الْعَجِيبِ مَوَاضِعِ الْأَعْضَاءِ وَيَتَنَازَعُهَا أَشْبَاهُ كَثِيرَةٌ .
وَالْفِيلُ عَجِيبٌ ظَرِيفٌ وَلَكِنَّهُ قَبِيحٌ مَسِيخٌ وَهُوَ فِي ذَلِكَ بِمِثْلِ نَبِيلٍ وَالْعَيْنُ لَا تَكْرَهُهُ وَالْخَنْزِيرُ قَبِيحٌ مَسِيخٌ وَالْعَيْنُ تَكْرَهُهُ وَالْقَرْدُ قَبِيحٌ مَلِيحٌ .
وَعِنْدَ الْبَيْغَاءِ وَالْمَكَاءِ وَالْعَنْدَلِيبِ وَابْنِ تَمْرَةٍ مَعَ صَغَرِ أَجْرَامِهَا وَلَطَافَةِ شُخُوصِهَا وَضَعْفِ أَسْرِهَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْكَيْسِ وَالْفِطْنَةِ وَالْحُبِّ مَا لَيْسَ عِنْدَ الزَّرَافَةِ وَالطَّائِفِ وَالْبَيْغَاءِ عَجِيبٌ

ما قيل في حق الأجناس المائية وفطنتها

فَأَمَّا الْأَجْنَاسُ الْمَائِيَّةُ مِنْ أَصْنَافِ السَّمَكِ وَالْأَجْنَاسُ الَّتِي تُعَاشِ السَّمَكُ فَإِنَّ جَمَاعَتَهَا مَوْصُوفَةٌ بِالْجَهْلِ وَالْمُوقِ وَقِلَّةُ الْمَعْرِفَةِ وَلَيْسَ فِيهَا خُلُقٌ مَذْكُورٌ وَلَا خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْفِطَنِ إِلَّا كَنَحْوِ مَا يَرَوْنَ مِنْ صَيْدِ الْجَرِّيِّ

لِلْجَرِّدَانِ وَحَمْلُ تِلْكَ الدَّابَّةِ لِلْعَرَقِيِّ حَتَّى تُؤَدِّيَهُمْ إِلَى السَّاحِلِ .
شِدَّةُ بَدَنِ السَّمَكَةِ وَالْحَيَّةِ وَالسَّمَكَةُ شَدِيدَةُ الْبَدَنِ وَكَذَلِكَ الْحَيَّةُ وَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَسْتَعِينُ بِيَدِهِ وَلَا رِجْلٍ وَلَا جَنَاحٍ وَإِنَّمَا يَسْتَعْمِلُ أَجْزَاءَ بَدَنِهِ مَعًا فَإِنَّهُ يَكُونُ شَدِيدَ الْبَدَنِ .

حيلة الشبوط في التخلص من الشبكة

وخبرني بعض الصيادين أنَّ الشبوة تنتهي في النهر إلى الشبكة فلا تستطيع النفوذ منها فتعلم أنها لا يُنجيها إلا الوثوب فتأخر قلدراً قاب رُمح ثم تتأخر جامعةً لجراميزها حتى تشب فربما كان ارتفاع وثبيتها في الهواء أكثر من عشر أذرع وإنما اعتمدت على ما وصفنا وهذا العمل أكثر ما رووه من معرفتها وليس لها في المعرفة نصيبٌ مذكور .

ما يغوص من السمك في الطين

وأنواع من السمك يغوص في الطين وذلك أنها تنخر وتنفس في جوفه وتلزم أصول النبات إذا لم يرتفع وتلتصق الطعم والسفاد .
ونحن لم نر قط في بطن دجلة والفرات وجميع الأودية والأنهار عند انصباب الماء وانكشاف الأرض وظهور وجه الطين وعند الجزر والتقصان في الماء في مَوَاحِر الصَّيْفِ وأيام مجاورة الأهلَّة والأُنصاف جُحراً قَطُّ فضلاً على ما يقولون أنَّ لها في بطن الأنهار بيوتاً . (جَحْرَة الوحش) ورأيتُ عَجَباً آخرَ وهو أنَّي في طول ما دخلت البراري ودخلت البلدان في صحارى جزيرة العرب والروم والشَّام والجزيرة وغير ذلك ما أعلمُ أني رأيتُ على لَقَمٍ طريقٍ أو جادةٍ أو شَرَكٍ مُصَاقِبٍ ذلك

أو إذا جانبُ الطُّرُقِ وأمعنتُ في البراري وضربت إلى الموضع الوحشي جُحراً واحداً يجوز أن يدخله ضبع أو تيس ظباء أو بعض هذه الأجناس الوحشية وما أكثر ما أرى الجَحْرَة ولكني لم أرَ شَيْئاً يتسع للتعلب وابن آوى فضلاً على هذه الوحوش الكبار مما هو مذكور بالتَّوَلَّجِ والوَجارِ وبالكِناسِ والعَرينِ .
وجُحْرُ الضَبِّ يسمَّى عريناً وهو غير العَرين الذي يضاف إلى الشَّجَرِ .
وأما حفظ الحياة والبصر بالكسب والاحتراز من العدو والاستعداد بالحيل فكما أعَدَّ الضَبُّ واليربوع .

أوقات اختفاء الفهد والأيل

والفهد إذا سَمِنَ عَرَفَ أنه مطلوب وأنَّ حركته قد تهمت فهو يُخفي نفسه بجهده حتى ينقضي ذلك الزمان الذي تسمن فيه الفهود ويعلم أنَّ رائحة بدنه شهيةً إلى الأسد والنمر وهو أَلطَفُ شَيْئاً لأرياح السباع

القوية من شَمِّ السباع للرائحة الشهية فهي لا تكاد تكون إلا على غلاوة الريح .
والأيلُ ينصلُّ قَرْنَه في كلِّ عام فيصير كالأَجَمِّ فإذا كان ذلك الزمانُ استخفى وهربَ وكَمَنَ فإذا نبت قَرْنُه عَرَضَهُ للرياح والشمس في الموضع الممتنع ولا يظهر حتى يصلُّ قَرْنُه ويصير سلاحاً يمتنع به وقَرْنُه مُصَمَّتٌ وليس في جوفه تجويفٌ ولا هو مصمتُّ الأعلى أجوف الأسفل .

معرفة الإبل بما يضرها وما ينفعها

والبعير يدخل الرّوضة و الغيضة وفي النبات ما هو غذاءٌ ومنه ما هو سمٌّ عليه خاصة ومنه ما يخرج من الحالين جميعاً ومن الغذاء ما يريد في حال ولا يريد في حالٍ أخرى كالحمض والحلّة ومنه ما يغتذيه غير جنسه فهو لا يقربُه وإن كان ليس بقاتل ولا مُعْطَب فمن تلك الأجناس ما يعرفه برؤية العين دون الشم ومنها ما لا يعرفه حتّى يشمّه وقد تغلّط في اليبس فتأكله كصنّع الحافر في الدفلى .

معرفة الإبل بالزجر والناقة تعرف قولهم : حلّ والجمل يعرف قولهم : جاه قال الراجز وهو يحمق رجلاً هَجاه : (يقول للناقة قولاً للجمل * يقول جَاهٍ يَشِيهِ بِحَلْ)

قدرة الحيوان على رفع اللبن وإرساله

ومّا فضلت به السباع على بني آدم أنّ الله جعل في طباع إناث السباع والبهائم من الوحشيّة والأهلية رَفَعَ اللبن وإرساله عند حضور الولد والمرأة لا تقدر أن تدرّ على ولدها وترفع لبنها في صدرها إذا كان ذلك المُقَرَّب منها غير ولدها .

والذي أعطى الله البهائم من ذلك مثل ما تعرف به المعنى وتوهّمه .

اعلم أنّ الله تعالى قد أقدر الإنسان على أن يجبس بولّه وغائطه إلى مقدار وأن يخرجهما ما لم تكن هناك علة من حُصْرٍ وأسرٍ وإنما يخرج منه بولّه ورجيعه بالإرادة والتوجيه والتهيؤ لذلك وقد جعل الله حبسه

وإخراجه وتأخيرَه وتقديمه على ما فسّرنا فعلى هذا الطريق طوّقُ إناثِ السّباع والبهائم في رفع اللبن .
حشر الحيوان في اليوم الآخر وقد قال الله جل ثناؤه : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ فالكلمة في الحشر مطلقة عامة ومرسلة غير مستثنى منها فأوجب في عموم الخبر على الطّير الحشَر والطّير أكثر الخلق والحديث : إنّ أكثر الخلق الجراد .

ما يطراً عليه الطيران

ومن العقارب طيّارة قاتلة وزعم صاحب المنطق أنّ بالحبشة حيات لها أجنحة .
وأشياء كثيرة تطير بعد أن لم تكن طيّارة مثل الدعاميص والتمل والأرضة والجعلان .
والجراد تنتقل في حالات قبل نبات الأجنحة .

جعفر الطيار قالوا : وحين عظم الله شأن جعفر بن أبي طالب خلق له جناحين

يطير بهما في الجنة كأنه تعالى ألحقه بشبه الملائكة في بعض الوجوه .

ما يطير ولا يسمى طيراً وذكر الله الملائكة فقال : أُولِي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع . ولا يقال للملائكة

طير ولا يقال إنما من الطير رفعاً لأقدارها .

ولا يقال للنمل والدعاميص والجعلان والأرصة إذا طارت : من الطير كذلك لا يقال للجرجس والبعوض وأجناس الهمج إنما من الطير وضعاً لأقدارها عن أقدار ما يسمّى طيراً فالملائكة تطير ولا يسمونها طيراً لرفع أقدارها عن الطير والهمج يطير ولا يسمّى طيراً لوضع أقدارها عن الطير .
ملائكة العرش وفي الرواية أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أنشده قول أمية بن أبي الصلت : (رَجُلٌ وَثُورٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ ** وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصِدٌ) فقال : صدق وقوله نسر يعني في صورة نسر لأنّ الملك لا يقال له نسر ولا صقر ولا عقاب ولا باز .

ما جاء فيه الأثر من الطير

وذكروا غراب نوح وحمامة نوح وهدهد سليمان والنحل والدراج وما جاء من الأثر في ذلك الديك الذي يكون في السماء .

وقال الناس : غراب نوح وهدهد سليمان وحمامة نوح ورووا في الخطاف والصرد .
أشرف الخيل والطير ولا تعرف شيئاً من الحيوان أشرف اسماً من الخيل والطير لأنهم يقولون : فرس جواد وفرس كريم وفرس وسيم وفرس عتيق وفرس رائع .
وقالوا في الطير لدوات المخالب المعقفة والمناسر الحذبة : أحرار ومضرحيات وعناق وكواسب وجوارح وقال لبيد بن ربيعة : (فانتضلنا وابن سلمى قاعد ** كعتيق الطير يغضي وبجل)

وقال الشاعر : (حُرٌّ صَنَعْتَاهُ لِحُسْنِ كَفِّهِ ** عَمَلُ الرِّفِيقَةِ وَاسْتِلَابُ الْأُخْرَقِ) ولولا أنا قد ذكرنا شأن الهدهد والغراب والنمل وما ذكرها به القرآن والحاصل التي فيها من المعارف ومن القول والعمل لذكرناه في هذا الموضع .

ما جاء في ذكر الطير قال الله جل ثناؤه : وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَالَ اللَّهُ : وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِي وَتُثْرِي الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَقَالَ : وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالَ اللَّهُ : أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْتَقِي رَبَّهُ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ وَقَالَ : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ وَقَالَ اللَّهُ : وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ .

ولم يذكر منطق البهائم والسباع والهمج والحشرات .

وقال الله : فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ لَأَنْتَ حَيْثُمَا تَجِدَ الْمَنْطِقَ تَجِدَ الرُّوحَ وَالْعَقْلَ وَالِاسْتِطَاعَةَ .

وقالوا : الإنسان هو الحي الناطق وقال الله : فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ

مُوسَى وَقَالَ : أَفَلَا يَرَوْنَ أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ثُمَّ قَالَ : وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ
وَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَقَدْ كَانَ اللَّهُ سَخَّرَ لَهُ جَمِيعَ ذَلِكَ ثُمَّ وَلَمْ يَتَفَقَدْ شَيْئًا فَمَا سَخَّرَ لَهُ وَلَا دَلَّ
سُلَيْمَانَ عَلَى مَلِكَةٍ سِوَا إِلَّا طَائِرٌ .

وَقَالَ اللَّهُ : وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ وَقَالَ اللَّهُ : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ فَلَمَّا ذَكَرَ دَاوُدَ قَالَ : وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَقَالَ اللَّهُ
: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالَ : وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا
قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .

وَقَالُوا : مَنْطِقُ الطَّيْرِ عَلَى التَّشْبِيهِ بِمَنْطِقِ النَّاسِ ثُمَّ قَالُوا بَعْدُ : الصَّلَامَتِ وَالنَّاطِقِ ثُمَّ قَالُوا بَعْدَ لِلدَّارِ : تَنْطِقُ .
وَقَالَ اللَّهُ : يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا

تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ .
وَقَالَ اللَّهُ : وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ .

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : لَيْسَ يَعْنِي بِقَوْلِهِ : تُكَلِّمُهُمْ مِنَ الْكَلَامِ وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْكَلَمِ وَالْجِرَاحِ وَجَمْعُ
الْكَلَمِ كَلُومٌ وَلَمْ يَكُنْ يَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْطِقِ بَلْ يَجْعَلُهُ مِنَ الْخُطُوطِ وَالْوَسْمِ كَالْكِتَابِ وَالْعَلَامَةِ الَّذِينَ يَقُومَانِ مَقَامَ
الْكَلَامِ وَالْمَنْطِقِ .

وَقَالَ الْآخَرُونَ : لَا نَدْعُ ظَاهِرَ اللَّفْظِ وَالْعَادَةَ الدَّالَّةَ فِي ظَاهِرِ الْكَلَامِ إِلَى الْمَجَازَاتِ قَالُوا : فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الدَّابَّةَ
بِالْمَنْطِقِ كَمَا ذَكَرُوا فِي الْحَدِيثِ كَلَامَ الذَّنْبِ لِأَهْبَانَ بْنِ أَوْسٍ وَقَوْلُ الْهَدَّاهِ مَسْطُورٌ فِي الْكِتَابِ بِأَطُولِ
الْأَقَاصِيصِ وَكَذَلِكَ شَأْنُ الْغَرَابِ .

وَقَالَ اللَّهُ : وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَجَعَلَ اللَّهُ مَقَالَةَ النَّمْلَةِ
قِرَاءَةً وَقَالَ : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ
وَقَالَ فِي مَكَانٍ آخَرَ : وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَقَالَ : وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَهْ أَوَّابٌ وَذَكَرَ الْمَلَائِكَةُ فَقَالَ :
أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ .

وَأَنشَدُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَ أُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ : (رَجُلٌ وَتَوَّرَ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ *) وَالنَّسْرُ
لِلْآخَرَى وَلَيْثٌ مَرَّصَدٌ) فَقَالَ : صَدَقَ .

وَخَلَقَ اللَّهُ لْجَعْفَرِ جَنَاحَيْنِ فِي الْجَنَّةِ عَوَضًا مِنْ يَدَيْهِ الْمَقْطُوعَتَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالُوا : وَلَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ يَدٌ
تَفْضُلُ الْجَنَاحَ لْجَعَلَهَا اللَّهُ بَدَلَ الْجَنَاحِ وَسَمَّاهُ الْمُسْلِمُونَ الطَّيَارَ .

وَيُقَالُ : مَا هُوَ إِلَّا طَائِرٌ إِذَا أَرَادُوا مَدِيحَ الْإِنْسَانِ فِي السَّرْعَةِ وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ : (جَاؤُوا مَعَ الرِّيحِ أَوْ طَارُوا
بِأَجْنِحَةٍ *) وَخَلَّفُوا فِي جُؤَاثَا سَيِّدِي مُضْرًا) وَالْأُمَمُ كُلُّهَا تَضْرِبُ الْمَثَلَ بَعْنَاقِ مُغْرِبٍ وَقَدْ جَاءَ فِي نَسْرِ لَقِمَانَ
مَا قَدْ جَاءَ مِنَ الْآثَارِ وَالْأَخْبَارِ وَقَالَ الْخَزْرَجِيُّ : (إِنَّ مُعَاذَ بْنِ مُسْلِمٍ رَجُلٌ *) قَدْ ضَجَّ مِنْ طُولِ عُمرِهِ الْأَبْدُ

(قد شابَ رأسُ الزَّمانِ واختَضَبَ الـ ** دَهْرُهُ وأَثوابُ عَمْرِهِ جُدُدُ) (يا نَسْرَ لَقِمانَ كَمْ تَعِيشُ وكم **
تَسَحَّبُ ذَيْلَ الحِياةِ يا بُدُّ) (قد أَصْبَحَتْ دارُ آدَمَ خَرِبَتْ ** وأنتَ فيها كَأَنَّكَ الوِتْدُ) (تَسألُ غَرِبانَها إذا
حَجَلَتْ ** كيفَ يَكُونُ الصُّداعُ و الرَّمْدُ)
وقال النابغة : (أَصَحَتْ خِلاءً وأَضَحَى أَهلُها احْتَمَلوا ** أَخنى عليها الذي أَخنى على لُبِّدِ)

وقال الله : وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا لأن ذلك الصنم كان على صورة النَّسر .
وقالوا : أحرار فارسَ وأحرار الرِّياحين وأحرار البقول وأحرار الطير وهي الأحرار والعناق والكواشبُ
والجوارح والمضرحيات .
وقال الله : وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتى قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بلى وَلَكِنْ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي قالَ
فَخذُ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ أَسماء ما في النجوم
والبروج والفُرسِ والنَّاسِ وغير ذلك من أسماء الطير مما يُعَدُّ في الفُرسِ من أسماء الطير : الفَرَّاشُ : وهو المنخر
والذِّبابُ : وهو ذُباب العَيْنِ والصُّلُصُلُ : وهو الدائرة في الجبهة والعصفور : وهو الجلدة تحت الناصية
والحدأة : وهو أصل الأذن والهامة : وهو الجلدة التي فيها الدماغ والفُرخُ : موضع الفَهْقَة والتَّاهِضانُ : في
المنكين والصُّرَدُ : عرق تحت اللسان والسَّمامة : الدائرة في عرض العنق والقُطاة : موضع الرِّدْف والغرابان
:

العظمان الناتان بين الوركين ويقال للغراب طرف الورك والساق : ساق الفرس وهو ذكر الحمام والخُطَّاف
: موضع الرِّكاب من جنبه والرَّخمة : البُضعة الناتة في ظهر الفخذ والأصقع : الأبيض الناصية .
وقال الله : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنّا فَضْلاً يا جِبَالَ أَوْبى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلَنّا لَهُ الحَدِيدَ .
وفي السماء النَّسر الطائر والنسر الواقع .

وفي الأوثان القديمة وثَنٌ كان يسمَّى نَسرا ويزعمون أنه كان على صورة نسر وقال الله : وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا
سُوعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وقال : وَادْكُرْ عَبْدنا دَاوُدَ ذا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنّا سَخَرنا
الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْراقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ .

وفي أسماء الناس : غُراب وصُرَد وفي أسماء النساء : فاختة وحمامة وفي أسماء الناس : يَمام ويمامة
وشاهين وفي أسماء النساء : عقاب وقطاة وقُطَيَّة ودَجاجة يكون للرجال والنساء ويسمُّون بعصفور ونقَّاز
وحَجَل ويسمُّون الرجال بِقُطاميٍّ مثل أبي الشَّرقيِّ بن القُطامي الشاعر وإذا كانت امرأة قالوا قُطامٍ مثل
حَذام وقال امرؤ القيس بن حجر :

(وأنا الذي عَرَفْتَ مَعَدُّ فضْلُهُ ** ونشَدْتَ حُجْراً ابنَ أُمِّ قُطامٍ) ويسمون بمضرحيٍّ وكبار الطير هي
المضرحية وأكثر ما يستعمل ذلك في عِناق الطير وأحرارها ويسمون بحُرٍّ وليس الحر من الطير إلاَّ العقيق
وقال الشاعر : (حرَّ صَنَعناه لِحَسَنِ كَفُّهُ ** عَمَلَ الرِّفِيقَةِ واسْتِلابَ الأَخْرِقِ) ويسمُّون صَعوةً وسُمائى
وسَمامةً ويسمُّون بِجَناحٍ ويلقبون بمنقار ويسمون بفُرخ وفُريخ وصقر وصقير وأبي الصَّقَر وطاؤُس وطويس

وفي الألقاب يُؤيُّو وَزَرَ في الأسماء حَيَّقُطَان وهو الثُّرَّاج الذَّكَر ويسْمُون بِحَذَفٍ وَحَذِيفَةٍ وَأَبِي حَذِيفَةٍ وفي الألقاب أبو الكراكي وفي الصفات الغرائق والغرنوق .

نطق الطير وقال أمية أبي الصلت : (والوحش والأنعام كيف لغائها * والعلم يُقسَم بينهم ويُلدُّ) وقال الله عز وجل مخبراً عن سليمان أنه قال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وقال الشاعر : (يا لَيْلَةً لي بِحَوَارِينَ سَاهِرَةً * حَتَّى تَكَلَّمَ فِي الصُّبْحِ الْعَصَافِيرُ) وقال الشاعر : (وَغَتَّ الطَّيْرُ بَعْدَ عُجْمَتِهَا * واستوفت الخمر حَوْلَهَا كَمَلًا) وقال الكمي : (كالناطقات الصادقا * ت الواسقات من الذخائر) تدير الحيوان قال : ولكل جنس من أجناس الحيوان احترامٌ وتكسُّبٌ وَرَوَّغَانٌ من الباغي عليه واحتيالٌ لما أراد صيده فهو يحتال لما هو

دونه ويحتال في الامتناع مما فوقه ويختار الأماكن الحصينة ما احتملته والاستبدال بها إذا أنكرها .

(سقط : بيت الشعر) (بنى بيته منها على رأس كدبة * وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل) منطق الطير ولها منطقٌ تفاهم بها حاجات بعضها إلى بعض ولا حاجة بها إلى أن يكون لها في منطقها فضلٌ لا تحتاج إلى استعماله وكذلك معانيها في مقادير حاجاتها .

وقيل لرجل من الحكماء : متى عقلت قال : ساعةٌ ولدتُ فلما رأى إنكارهم لكلامه قال : أما أنا فقد بكيت حين خفت وطلبت الأكل حين جُعتُ وطلبت الثدى حين احتجتُ وسكتُ حين أعطيت يقول هذه مقاديرُ حاجاتي ومن عَرَفَ مقادير حاجاته إذا مُنِعها وإذا أُعْطِيها فلا حاجة به في ذلك الوقت إلى أكثر من ذلك العقل ولذلك قال الأعرابي : (سَقَى اللَّهُ أَرْضاً يَعْلَمُ الضَّبُّ أَنَّهَا * بَعِيدٌ مِنَ الْآفَاتِ طَبِيعَةُ الْبَقْلِ) (بنى بيته منها على رأس كُدِيَّةٍ * وكلُّ امرئ في حِرْفَةِ الْعَيْشِ ذُو عَقْلٍ) منطق الطير وعقله فإن قال قائل : ليس هذا بمنطق قيل له : أما القرآن فقد نطقَ بأنَّه منطقٌ والأشعارُ قد جعلته منطقاً وكذلك كلامُ العرب فإن كنتَ إنما أخرجته من حدِّ البيان وزعمت أنه ليس بمنطق لأنك لم تفهم عنه فأنت أيضاً لا تفهم كلامَ عامَّةِ الأمم وأنت إن سميتَ كلامهم رطانةً وطُمُطمةً فإنك لا تمتنع من أن تزعم أن ذلك كلامهم ومنطقهم وعامَّةِ الأمم أيضاً لا يفهمون كلامك ومنطقك فجانزٌ لهم أن يُخْرِجُوا كلامك من البيان والمنطق وهل صار ذلك الكلامُ منهم بياناً ومنطقاً إلا لفاهمهم حاجة بعضهم إلى بعض ولأن ذلك كان صوتاً مؤلفاً خرج من لسانٍ وفيه فهلاً كانت أصواتُ أجناس الطير والوحش والبهائم بياناً ومنطقاً إذ قد علمت أنها مقطعة مصورة ومؤلفة منظمة وبها تفاهموا الحاجات وخرجت من فمٍ ولسانٍ فإن كنتَ لا تفهم من ذلك إلا البعض فكذلك تلك الأجناس لا تفهم من كلامك إلا البعض .

وتلك الأقدارُ من الأصوات المؤلفة هي نهاية حاجاتها والبيان عنها وكذلك أصواتك المؤلفة هي نهاية حاجاتك وبيانك عنها وعلى أنك قد تعلم الطير

الأصوات فتتعلم وكذلك يُعلم الإنسان الكلام فيتكلم كتعليم الصبي والأعجمي والفرق بين الإنسان والطير أن ذلك المعنى معني يسمى منطقاً وكلاماً على التشبيه بالناس وعلى السبب الذي يجري والناس ذلك لهم على كل حال .

وكذلك قال الشاعر الذي وصفها بالعقل وإنما قال ذلك على التشبيه فليس للشاعر إطلاق) هذا الكلام لها وليس لك أن تمنعها ذلك من كل جهة وفي كل حال فافهم فهمك الله فإن الله قد أمرك بالتفكير والاعتبار وبالتعرف والاتعاظ .

وقد قال الله عز وجل مخبراً عن سليمان : يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ فجعل ذلك منطقاً وخص الله سليمان بأن فهمه معاني ذلك المنطق وأقامه فيه مقام الطير وكذلك لو قال علّمنا منطق البهائم والسباع لكان ذلك آية وعلامة .

وقد علم الله إسماعيل منطق العرب بعد أن كان ابن أربع عشرة سنة فلما كان ذلك على غير وقال ابن عباس وذكر عمر بن الخطاب فقال : كان كالطائر الحنير فشبهه عزم عمر وتخوفه من الخطأ وحذره من الخدع بالطائر .

ما قيل في تجاوب الأصداء والديكة وقال ابن مقبل : (فلا أقوم على المولى فأشتمه ** ولا يخرقه نابي ولا ظفري) (ولا تهينني المومة أركبها ** إذا تجاوبت الأصداء بالسحر) فجعلها تتجاوب وقال الطرمح بن حكيم وذكر تجاوب الديكة كما ذكر ابن مقبل تجاوب الأصداء فقال : (فيا صبح كمش غبر الليل مصعداً ** بيم ونبه ذا الغفاء الموشح) (إذا صاح لم يخذل وجاوب صوته ** حماش الشوى يصدحن من كل مصدح) ما قيل في ضبحة الثعلب وقبعة القنفذ والقرني وحديث أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال : خطب ابن الزبير خطبة فاعترض له رجل فأذاه بكلمة ثم طأطأ الرجل رأسه فقال ابن الزبير : أين المتكلم فلم يجبه فقال : قاتله الله ضبح ضبحة الثعلب وقبع قبعة القنفذ وقال ابن مقبل :

(ما جاء في الشعر من إحساس الطير . .)

وغير ذلك من الحيوان

قال أبو عبيدة : تسليح الحبارى على الصقر وذلك من أحد سلاحها وهي تعلم أنها تدبّق جناحيه وتكتفه حتى تجتمع عليه الحباريات فينتفن ريشه طاقةً طاقةً فيموت الصقر .

والحبارى إذا تحسّرت فأبطأ نبت ريشها وهي لا تنهض بالشكير فربما طار صويحباها إذا)

تقدّم نبت ريشها قيل نبت ريش تلك الحبارى فعند ذلك تكمد حزناً حتى تموت كمداً ولذلك قال أبو الأسود الدؤلي : (وزيد ميت كمد الحبارى ** إذا ظعت مليحة أو تلم) وليس في الطير أسرع طيراً منها لأنها تصاد عندنا بظهر البصرة فيوجد في حواصلها حبة الخضراء غضة طرية وبينها وبين مواضع ذلك الحب

بلاد وبلاد ولذلك قال بشر بن مروان في قتل عبد الملك عمرو بن سعيد : (كأن بني مروان إذ يقتلونه **
بُعَاثٌ مِنَ الطَّيْرِ اجْتَمَعْنَ عَلَى صَقْرٍ) وَبُعَاثُ الطَّيْرِ ضِعَافُ الطَّيْرِ وَسَفَلَتُهَا مِنَ الْعِظَامِ الْأَبْدَانِ وَالْخَشَاشُ مِثْلُ

ذلك إلا أنها من صغار (سألت الناس عن أنس فقالوا ** بأندلس وأندلس بعيد) (كَأَنِّي بَعْدَ سَكَنِ مَضْرَحِيَّ
** أَصَابَ جَنَاحَهُ عَنَتٌ شَدِيدٌ) (فَقَدْ طَمِعَتْ عِتَاقُ الطَّيْرِ فِيهِ ** وَكَانَتْ عَنْ عَقِيرَتِهِ تَحِيدُ) وقال الذَّكْوَانِي
: (بِفَاثُ الطَّيْرِ تَعْرِفُ قَانِصِيهَا ** وَكَلَّ مَكْبَدٍ مِنْهَا لَهِيدُ) يقول : لكل جنس من الجوارح ضرب من
الصيد وضرب من الطلب فالمصيد منها يعرف ذكر فيجعل المهرب من الآخر ثم ذلك أنها تعرف الصائد
المعتل من الصحيح وهو معنى الخريمي حيث يقول : (ويعلم ما يأتي وإن كان طائراً ** ويعلم أقدار الجوارح
والْبُغْثُ) وقوله الْبُغْثُ يريد به جمع أبغث وقال الأول : (بُغَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فُرُوحاً ** وَأُمُّ الْبَاازِ مَقْلَاتٌ
نَزْرُورُ) وأنشدني ابن يسير :

(بِالْجَدِّ طَوْرًا ثُمَّ بِالْجَدِّ تَارَةً ** كَذَلِكَ جَمِيعُ النَّاسِ فِي الْجَدِّ وَالطَّلَبِ) والجَدُّ مفتوح الجيم يقول : الطير
كالناس فمرة تصيد بالخط وبما يتفق لها ومرة بالحيلة والطلب وبجده يتقلب العصفور قال : وقال زاهر
لصبيانه : يرزقكم الذي يرزق عصفير الدو وقال صالح المري : تغدو الطير حِمَاصاً وتُروُّحُ شِبَاعاً وَاتَّقِ أَنْ
لَهَا فِي كُلِّ غَدْوَةٍ رِزْقًا لَا يَفُوتُهَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنْ لَوْ
غَدَوْتُمْ عَلَى أَسْوَاقِكُمْ عَلَى مِثْلِ إِخْلَاصِهَا لِرُحْمٍ وَبَطُونِكُمْ أَبْطُنُ مِنْ بَطُونِ الْخَوَامِلِ .
وقال أعشى همدان : (قَالَتْ تَعَاتِبْنِي عِرْسِي وَتَسْأَلُنِي ** أَيْنَ الدَّرَاهِمُ عَنَّا وَالذَّنَائِرُ) (فَقُلْتُ أَنْفَقْتُهَا وَاللَّهِ
يُخْلِفُهَا ** وَالذَّهْرُ ذُو مَرَّةٍ عَسْرٌ وَمَيْسُورٌ) (إِنَّ يَرْزُقِ اللَّهُ أَعْدَائِي فَقَدْ رُزِقْتُ ** مِنْ قَبْلِهِمْ فِي مَرَاغِيهَا
الْخَنَازِيرُ) (قَالَتْ : فَرَزَقَكَ رِزْقٌ غَيْرُ مَتَّسِعٍ ** وَمَا لَدَيْكَ مِنَ الْخَبَرَاتِ قِطْمِيرٌ) (وَقَدْ رَضِيتَ أَنْ تَحْيَا عَلَى
رَمَقٍ ** يَوْمًا فَيَوْمًا كَمَا تَحْيَا الْعَصَافِيرُ)

وَإِنَّمَا خَصَّ الْعَصَافِيرُ بَقَلَّةِ الرِّزْقِ لِأَنَّهَا لَا تَتَبَاعَدُ فِي طَلَبِ الطَّعْمِ وَإِلَّا فَإِنَّ السَّبَّاعَ وَوَحْشَ الطَّيْرِ كُلَّهَا تَغْدُو
حِمَاصاً وَتَرُوحُ بَطَانًا .

وقال لبيد : (فَإِنْ تَسَأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا ** عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسَحَّرِ) (عَصَافِيرٌ وَذِبَّانٌ وَدَوْدٌ **
وَأَجْرًا مِنْ مَجْلَحَةِ الذَّنَابِ) ولولا أن تفسر هذا قد مرَّ في باب القول في العصفير في كتاب الحيوان لقلنا في
ذلك .

اختلاف طبائع الحيوان وما يعتريها من الأخلاق

الذئب لا يطمع فيه صاحبه فإذا دمي وثب عليه صاحبه فأكله وإذا عضَّ الذئبُ شاةً فأفلتت منه بضرب من
الضروب فإنَّ عادة الغنم إذا وجدت ريحَ الدِّمِ أن تشمَّ موضع أنياب الذئب وليس عندها عند ذلك إلا أن
ينضمَّ بعضها إلى بعض ولذلك قال جرير لعمر بن لُجَأِ التَّيْمِيِّ : (فَلَا يَضَعُمَنَّ اللَّيْثُ تَيْمًا بَغْرَةً ** وَتَيْمٌ
يَشْمُونُ الْفَرِيسَ الْمَتِيَّ)

فذكر أنهم كالغنم في العجز والجبن وإذا دمي الحمار ألقى نفسه إلى الأرض وامتنع من يريده بالعض وبكل ما قدر عليه غير أنه لا ينهض ولا يبرح مكانه وإذا أصاب الأسد خدش أو شحطة بعد أن يدمى مكانه فإن ذبان الأسد تلح عليه ولا تقلع عنه أبداً حتى تقتله .

وللأسود ذبان على حدة وكذلك الكلاب وكذلك الحمير وكذلك الإبل وكذلك الناس .
وإذا دمي الإنسان وشم الذئب منه ريح الدم فما أقل من يتجو منه وإن كان أشد الناس بدنأ وإذا دمي الببر استكلب فخافه كل شيء كان يسأله من كبار السباع كالأسود والثمور والببر على خلاف جميع ما حكينا .

وإذا أصاب الحية خدش فإن الذر يطالبه أشد الطلب فلا يكاد ينجو ولا يعرف ذلك إلا في القوط .
وإذا عض الإنسان الكلب الكلب فإن الفأر يطالبه ليول عليه وفيه هلكته فهو يحتال له بكل حيلة .
وربما أعد البعير فلا يعرف ذلك الجمال حتى يرى الذبان يطالبه .
وإذا وضعت الذئبة جروها فإنه يكون حينئذ ملتزق الأعضاء أمعط كأنه قطعة لحم وتعلم الذئبة أن الذر يطالبه فلا تزال رافعة له يديها ومحولة له من مكان إلى مكان حتى تفرج الأعضاء ويشتد اللحم .
وإذا وضعت الهرة جروها فإن طرحوها لها لحماً من ساعتها أو روبة

أو بعض ما يشبه ذلك فأكلته لم تكد تأكل أجراءها لأن الهرة يعتريها عند ذلك جوع وجنون وخفة .
والأجناس التي تحدث لها قوة على غير سبب يعرف في تقدير الرأي منها الذئب الضعيف الوائب على الذئب القوي إذا رأى عليه دماً والهرة إذا سفدها الهر فإنها عند ذلك تشد عليه)
وهي واثقة باستخذائه لها وفضل قوتها عليه والجرد إذا خصي فإنه يأكل الجرذان أكلاً ذريعاً ولا يقوم له شيء منها .

فأما الفيل والكركدن والجمال عند الاغتلام وطلب الضراب فإنها وإن تركت الشرب والأكل الأيام الكثيرة فإنه لا يقوم لشيء منها شيء من ذلك الجنس وإن كان قوياً شاباً أكلاً شارباً .
وأما الغيران والغضبان والسكران والمعين للحرب فهم يختلفون في ذلك على علل قد ذكرناها في القول في فضيلة الملك على الإنسان والإنسان على الجان فإن أردته فالتمسهُ هناك فإن إعادة الأحاديث الطوال والكلام الكثير مما يهجر في السماع ويهجن الكتب . (ما يستدل به في شأن الحيوان على حسن صنع الله)
(وإحكام تدبيره وأن الأمور موزونة مقدرة قالوا : الأشياء البيضاء طائر ومشرك وذو أربع ومُنساح فمنها ما يبيض في صدوع الصخر وأعلى المضاب ومنها ما يعيش في الجحرة كسائر الحيات .

وأما الدسّاس منها فإنها تلد ولا تبيض وهي لا ترضع ولا تلثم والخفاش تلد ولا تبيض وترضع وهذا مختلف

والدجاج والحجل والقطا وأشبه ذلك من الترابيع وغيرها أفاحيها في الأرض .
والحمام منها طورائي جبلي ومنها ألوف أهلي فالجبلي تبيض في أوكار لها في عرض مقاطع الجبال والأهلي

منها يبيض في السيوت والعصافير بيوتها في أصول أجذاع السُّفُف والخطاطيف تتخذ بيوتها في باطن السقف في أوثق ذلك وأمنعه والرخم لا ترضى من الجبال إلا بالوحشي منها ومن البعيد في أسحقها وأبعدها عن مواضع أعدائها ثم من الجبال إلا في رؤوس هضابها ثم من الهضاب إلا في صدوع صخورها ولذلك يُضرب بامتناع بيضها المثل .

وأما الرِّقَّ والصَّفَدِيع والسَّلْحَفَة والتمساح وهذه الدواب المائية فإنها تبيض في الأرض وتحضن

ومن الحيوان ما لا يجثم كالضبة فإنها لا تجثم على بيضها ولكن تغطيها بالتراب وتنتظر أيام انصداعها .

مواضع الفراخ والبيض

فإذا كان مواضع الفراخ والبيض من القطا وأشباه القطا فهو أفحوصة وإذا كان من الطير الذي يهوى ذلك المجثم من العيدان والرَّيش والحشيش فهو عُشّ وإذا كان من الظليم فهو أدحيّ ذكر ذلك أبو عبيدة والأصمعي وكلها وكور ووكون ووكنات ووكرات . (أكثر الحيوان بيضاً وأقله) فالذي يبيض الكثير من البيض الذي لا يجوزه شيء في الكثرة السَّمَك ثم الجراد ثم العقارب ثم الضبة لأن السَّمَك لا ترق ولا تلقم ولا تلجم ولا تحضن ولا ترضع فحين كانت كذلك كثر الله تعالى ذرءها وعدد نسلها فكان ذلك على خلاف شأن الحمام الذي يُزاوج أصناف الحمام ومثل العصافير والتعام فإنها لا تزواج . فأما الحمام فلما جعله الله يرق ويحضن ويحتاج إلى ما يغذيه و يغذو به ولله ويحتاج إلى الرِّق وهو ضرب من القياء وفيه عليها وهنّ

وشدة ولذلك لا يُزجل إذا كان زاقاً فلما أن ولما كانت الدجاجة تحضن ولا ترق وهي تأكل الحب وكل ما دبّ ودرج زاد الله في بيضها وعدد فرايجها ولم يجعل ذلك في عدد أولاد السَّمَك والعقارب والضباب التي لا تحضن البتة ولا ترق ولا تلقم .

ولما جعل الله أولاد الضب لها معاشاً زاد في عدد بيضها وفراخها وصار ما يسلم كثيراً غير متجاوز للقدر . وكذلك الظليم لما كان لا يرق ولا يحضن اتسع عليه مطلب الرِّزق من الحبوب وأصول الشجر . وجعلها تبيض ثلاثين بيضة وأكثر وقال ذو الرمة : (أذاك أم خاضب بالسّي مرتعه * أبو ثلاثين أمسى فهو منقلب) وبيضها كبار وليس في طاقتها أن تشتمل وتجثم إلا على القليل منها وكذلك الحية تضع ثلاثين بيضة ولها ثلاثون ضلعاً وبيضها وأضلاعها عدد أيام الشهر ولذلك قويت أصلاها لكثرة عدد الأضلاع وحمل عليها في الحضن بعض الحمل إذ كانت لا ترضع .

أثر الإلقام والزق في الحيوان

والطائر الذي يُلقم فرخه يكون أقوى من الطائر الزاق وكذلك من البهائم المرضعة .

ولما كانت العصافير تصيد الجراد والنمل والأرصة إذا طارت وتأكل الحب واللحم وكانت مع هذا ثلثم لم تكثر من البيض كتكثير الدجاج ولم تقلل كتقليل الحمام .

ما يزواج من الحيوان

وللعصافير فيها زواج وكذلك النعام وليس في شيء من ذوات الأربع زواج وإنما الزواج في اللاتي تمشي على رجلين كالإنسان والطير والنعام وليس هو في الطير بالعام وهو في الحمام وأصناف الحمام من هذه المغنيات والنوائح عام وسبيل الحجل والقبج سبيل الديكة والدجاج .
والدجاجة تمكن كل ديك والديك يشب على كل دجاجة وربما غير الحمام الذكر حياته كلها لا يقمط غير أنثاه وكذلك الأنثى لا تدعو إلا زوجها وربما أمكنت غيره وفي الحمام في هذا الباب من الاختلاف ما في النساء والرجال .
فأما الشفنين فإنه لا يقمط غير أنثاه وإن هلك الأنثى لم يزواج أبداً وكذلك الأنثى للذكر .

عجائب البيض

فأما العلة في وضع القطا بيضها أفراداً وخروج البضة من جهة أوسع الرأسين واستدارة بيض الرق واستطالة بيض الحيات وما يكون

منها أرقط وأخضر وأصفر وأبيض وأكثر وأقل
معارف في البيض قالوا : وإنما يعظم البيض على قدر جنة البياضة وبيض الأبقار أصغر فأما كثرة العدد فقالوا إنه كلما كان أكثر سفاداً كان أكثر عدداً وليس الأمر كذلك لأن العصفور أكثر سفاداً من أجناس كثيرة هي أقل بيضاً منه .

والجراد والسّمك لا حضن ولا زق ولا رضاع ولا تلقيم عليهن فحين جعل الفراخ كثيرة العدد وكانت الأمهات والآباء عاجزة عنها لم يجعلها محتاجة إلى الأمهات والآباء .
فنفهم هذا التدبير اللطيف والحكمة البالغة .

أقل الحيوان نسلاً وأكثره قالوا : والأقل في ذلك البازي والأكثر في ذلك الذرّ والسّمك .
قال الشاعر : (بغاثُ الطير أكثرها فروخاً ** وأُمُّ البازِ مقلاتٌ نَزُورُ)

وقال صاحب المنطق : نسل الأسد أقل لأنه يجرح الرحم فيعقم .
قالوا : والفيلة تضع في سبع سنين وأقل الخلق عدداً وذراً الكركدن لأن الأنثى تكون نزوراً وأيام حملها كثيرة جداً وهي من الحيوان الذي لا يلد إلا واحداً وكذلك عظام الحيوان وهي مع ذلك تأكل أولادها ولا يكاد يسلم منها إلا القليل لأن الولد يخرج سوياً نابت الأسنان والقرن شديد الحافر .

ما جاء في الفيلة

من عجيب التركيب وغريب التأليف والمعارف الصحيحة والأحاسيس اللطيفة وفي قبولها التثقيف والتأديب وسرعتها إلى التلقين والتقويم وما في أبدانها من أعضاء الكريمة والأجزاء الشريفة . (بسم الله الرحمن الرحيم) والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على سيدنا محمد خاصة وعلى أنبيائه عامة ونسأله التأييد والعصمة ونعوذ به من كل سبب جانب الطاعة ودعا إلى المعصية إنه قريب مجيب فعال لما يريد .

قد قلنا في أول هذا الجزء وهو الجزء السابع من القول في الحيوان في إحساس أجناسها المَجعولة فيها وفي معارفها المطبوعة عليها وفي أعاجيب ما رُكِّبَتْ عليه من الدَّفْع عن أنفسها والتَقَدُّم فيما يُحييها

وفي تحسُّسها عواقب أمورها وكل ما خوِّفت من حوادث المكروه عليها بقدر ما ينوبها من الآفات ويعتريها من الحادثات وأنها تدرك ذلك بالطَّبع من غير رَوِيَّة وبِحَسِّ النَّفْس من غير فِكْرة ليعتبر مُعْتَبِرٌ ويفكر مُفَكِّرٌ ولينفي عن نفسه العُجب ويعرف مقداره من العجز ونهاية قُوَّته ومبلغ نفاذِ بصره وأنه مخلوق مدبّر ومصرف وميسر وأنَّ الأعجم من أجناس الحيوان والأخرس من تلك الأشكال يبلغ في تدبير معيشتِه ومصلحة شأنه وفي كلِّ ما هو بسبيله ما لا يبلغه ذو الرَوِيَّة التامة والمنطق البليغ وأنَّ منها ما يكون أَلْطَفَ مَدْخَلًا وأدقَّ مسلَكًا وأصنَعَ كَفًّا وأجودَ حنْجَرة وأطبعَ على الأصوات الموزونة وأقوَمَ في حفظ ما يُعيشه طريقةً إلاَّ أنَّ ذلك منها مفرَّق غيرُ مجموع ومنقطع غير منظوم .

والإنسان ذو العقل والاستطاعة والتصرف والروية إذا علم علماً غامضاً وأدرك معنى خفياً لم يكْدَ يمتنع عليه ما دونه إذا قاس بعض أمره على بعض .
وأجناس الحيوان قد يعلم بعضها علماً ويصنع بكفِّه صنعةً يفوقُ بها الناس ولا يهتدي إلى ما هو دون ذلك بطبع ولا روية وعلى أنَّ الذي عجز عنه في تقدير العقول دون الذي قَدَرَ عليه .

وأنا ذاكرٌ إن شاء الله ما جاء في الفيلة من عجيب التركيب وغريب التأليف والمعارف الصَّحيحة والأحاسيس اللطيفة وفي قبولها التثقيف والتأديب وسرعتها إلى التلقين والتقويم وما في أبدانها من الأعضاء الكريمة والأجزاء الشريفة وكم مقدارُ منافعها ومبلغُ مضارِّها (وبكم فضَّلَتْ أجناسَ الحيوان وفاقَتْ تلكَ الأجناسَ .

وما جعل الله تعالى فيها من الآيات والبرهانات والعلامات النيرات التي جلاها لُيُون خلقه وعرفَ بينها وبين عَمَلِ عباده وقِيَدِها عليهم وحَفِظَها لهم ليكثرَ لهم من الأدلة ويزيدَهم في وضوح الحُجَّة ويسخِّرَهم لتمام النِّعمة والذي ذكرها الله به في الكتاب الناطق والخبر الصادق وما في الآثار المعروفة والأمثال المضروبة والتجارب الصحيحة .

وما قالت فيها الشعراء ونطقت به الخطباء وميزَّته العلماء وعجَّبت منه الحكماء وحالها عند الملوك وموضع

نفعها في الحروب ومهابتها في العيون وجلالتها في الصُّدور وفي طول أعمارها وقوة أبدانها وفي اعتزامها وتصميمها وأحقادها وشدة اكترائها وطلبها بطوائفها وارتفاعها عن ملك السُّقَّاط والحشوة وعن اقتناء الأندال والسفلة وعن ارتخاصها في الثمن وارتباطها على الخسف وابتذالها وإذلتها وعن امتناع طبائعها وتمتع غرائرها أن تصلح أبدانها وتثبت أنيابها وتعظم جوارحها وتتسافد

وتتلاقح إلا في معادنها وبلادها وفي منابتها ومغارس أعراقها مع التماس الملوك ذلك منها حتى أعجزت الحيل وخرجت من حد الطمع وعن الإخبار عن حملها ووضعها ومواضع أعضائها والذي خالفت فيه الأشكال الأربعة التي تحيط بالجميع مما ينساح أو يعوم أو يمشي أو يطير وجميع ما ينتقل عن أولية خلقه وما يبقى على الطبائع الأول من صورته وعمّا يتنازع من شبه الحيوان أو ما يخالف فيه جميع الحيوان وعن القول في شدة قلبه وأسرّه وفي جرأته على ما هو أعظم بدناً وأشدُّ كلباً وأحدُ أظفاراً وعن الإخبار عن خصاله المذمومة وأموره الحمودة وعن القول في لونه وجلده وشعره ولحمه وشحمه وعظمه وبوله ونجوه وعن لسانه وفمه وعن أذنه وعينه وعن خرطوميه وغُرموله وعن مقاتله ومواضع سلاحه وعن أدوائه ودوائه وعن القول في أنيابه وسائر أسنانه وسائر عظامه وفرق ما بين عظامه وعظام غيره وعن مواضع عجزه وقوته والقول في ألبانها وضروعها وعدد أخلافها وأماكن ذلك منها وعن سياحتها ومشيتها وحضرها وسرعتها وخفة وطنها ولين ظهورها وإلذاذ راكبها وعن ثبات خفّها في الوحل والرمل وفي الحدر والصعداء وعن أمن راكبها من العثار .

وكيف حالها عند احتياجها واغتيالها وعن سكونها وانقضاء هيجانها عند حملها

وعن طربها وطاعتها لسؤاسها وفهمها لما يُراد منها وكيف حيلة نظرها والفهم الذي يُرى في طرفها (مع الوقار والتبيل والإطراق والسكون ولم اجتمعت الملوك عربها وعجمها وأحمرها وأسودها على اقتنائها والترئين بها والفخر بكثرة ما قُبِّحَ لهم منها حتى صارت عندهم من أكرم الهدايا وأشرف الألفاف وحتى صار اتخاذها مروءة وعتاداً وعدة ودليلاً على أن مُقتنيها صاحبُ حرب .

وفي تفضيل خصال الفيل على خصال البعير وفي أي مكان يكون أنفع في الحرب من الفرس وأصبر عند القتال من النمر وأقفل للأسد من الجملوس وأكلب من البر إذا تعرّم وأشدّ من الكرّ كدّن إذا اغتلم حتى لا يبلغه مقدار ما يكون من تماسيح الخُلجان وخيل الليل وعقبان الهواء وأسد الغياض .
قصيدة هاورن مولى الأزدي في الفيل وقد جمع هاورن مولى الأزدي الذي كان يرُدُّ على الكميت ويفخر بقحطان وكان شاعر أهل المولتان ولا أعرف من شأنه أكثر من

اسمه وصناعته وقد قال في صفات الفيل أشعاراً كثيرة ذكر فيها كثيراً مما قدّمنا ذكره فمن ذلك قوله : (أليس عجبياً بأن خلقة * له فطنُ الإنس في جرم فيل) وأنشدني هذا البيت صفوان بن صفوان الأنصاري وكان من رُواة داود بن مزيد : (أليس عجبياً بأن خلقة * له فطنُ الإنس في جرم فيل) (وأظرف من قشة زولة * بحلم يحل عن الخنسليل) (وأوقص مختلف خلقة * طويل الثوب قصير النصيل) (ويلقى

العدو بناب عظيم ** وجوف رحيب وصوت ضئيل (وأشبه شيء إذا قستته ** بخنزير برّ وجاموس غيل)
(ويخضع لليث العرين ** بأن ناسب الهر من رأس ميل) (ويعصف بالبر بعد الثمور ** كما تعصف
الريح بالعنديل)

(وشخص ترى يده أنفه ** فإن وصلوه بسيف صليل) (وأقبل كالطود هادي الخميس ** بهول شديد
أمام الرعيل) (ومرّ يسيل كسيل الأتي ** بخطو خفيف وجرم ثقيل) (فإن شمتته زاد في هوله ** شناعة
أذنين في رأس غول) (وقد كنت أعددت هراً له ** قليل التهيب للزنديل) (فلما أحس به في العجاج
** أتاها الإله بفتح جميل) (فطار وراغم فيآله ** بقلب نحيب وجسم نبيل) (فسبحان خالقه وحده ** إله
الأنام ورب الفيول)

احتيا ل هارون بالهر لهزيمة الفيل

وذكر صفوان بن صفوان أنّ هارون هذا خباً معه هراً تحت حصنه ومشى بسيفه إلى الفيل وفي خرطومه
السيف والفيالون يذمرونه فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه فأدبر هارباً وسنذكر الهر في هذا الشعر كما
كتبته لك .

استطرد لغوي وأما قوله : بحلم يجل عن الخنثليل فقد قال الأنصاري في صفة النخل : (ثليص العشاء
بأذناها ** وفي مدر الأرض عنها فضول) (ويشبعها المص مص الثرى ** إذا جاءت الشاة والخنثليل)
وهذا غير قوله : (قد علمت جارية عطلول ** أني بنصل السيف خنثليل) العنديل وأما العنديل فهو
طائر صغير جداً ولذلك قال الشاعر : (وما كان يوم الريح أول طائر ** يروح كروح العنديل إلى الوكر
(لأن الريح تعصف به من صغره فهو يعرف ذلك من نفسه فإذا قويت الريح دخل جحره ويقولون
عندليب وعنديل وكل صواب ولذلك قال هارون :

(سقط : بيت الشعر) (ويعصف بالبر بعد الثمور ** كما تعصف الريح بالعنديل) وسنخبر عن تقرير ما
في هذه القصيدة مفصلاً إذ لم نقدر عليه مجموعاً متصلاً ولو أمكن ذلك لكان أحسن للكتاب وأصح لمعناه
وأفهم لمن قرأه . ايدخل في ذكر الفيل . .

وفيه أخلاط من شعر وحديث وغير ذلك

(قال رؤية في صفة الفيل : (أجرد كالحنن طويل التابن ** مشرف اللحي صغير الفقمين) عليه أذنان

كفضّل الثَّوَيْنِ وأنشد ابنُ الأعرابيِّ : (هو البعوضةُ إنْ كَلَفَتْه كَرَمًا ** والفيلُ في كلِّ أمرٍ أصلُهُ لُومٌ) وقال أعرابيٌّ وَوصَفَ امرأةً له : لو أَكَلْتُ فيلَيْنِ لم تَخْشَ البَشَمَ وقال أعرابيٌّ يصف الأكرباء :

(لو تركبُ البُخَيَّيَّ مِيلًا لَا نَحْطُمُ ** أو تركبُ الفيلَ بها الفيلُ رَزَمٌ) (أَرْكَبُ شيطاناً ومِسْحاً وَهَضْبَةً **)
إلا إنْ رأيي قبل ذاك مُضَلَّلٌ (فقالوا له : لو علوته ما كانَ عندك إلّا كالْبُعْلُ فلما علاه صاح : الأرضُ
الأرضُ فلما خافوا أنْ يرْمِي نفسه وهو شيخٌ كبيرٌ أنزلوه فقال بعد ذلك في كلمة له : (وما كانَ تحتي يومَ
ذلك بَعْلَةً ** ولكنَّ جُلْبًا مِنْ رَفِيعِ السَّحَابِ) وقال بعضُ المتحدِّثين والمملّحين في بعض النساء : (أرادت
مرّةً بيتاً ** ها فيه تماثيلُ) (فلما أبصرتْ سِتْرًا ** لوجهيه تماويلُ) (وفيه الفيلُ منقوشاً ** وفي مِشْفَرِهِ
طُولُ) (قالت : انزعوا الستر ** فلا يأكُلني الفيلُ)

وقال خلف بن خليفة الأقطع حين ذكر الأشراف الذين يدخلون على ابن هُبيرة : (وقامت قريشٌ قريشُ
البطاح ** مع العُصْبِ الأوّلِ الدّاخِلِ) (يقودهم الفيلُ والزّندبيلُ ** وذو الضّرّسِ والشّقّةِ المائلِ) الفيلُ
والزّندبيلُ : أبان والحكم ابنا عبد الملك بن بشر بن مروان وذو الضّرّس : خالد بن سلّمة المخزومي
الخطيب وهو ذو الشّقّة قتل مع يزيد بن عُمر ابن هُبيرة فيمن قتل .
وقد فصل خلف بن خليفة الفيلَ من الزّندبيلِ ولم يفسّر وقد اختلفوا في ذلك وسندكره إذا جرّ سببه إن
شاء الله تعالى .

طرائف من اللغات والأخبار في الفيل

الفيلُ المعروف بهذا الاسم ويقال رجلٌ فيلٌ إذا كان في رأيه فيّالةٌ والفيّالة : الخطأ والفساد ويسمّون أيضاً
الرّجل بفيلٍ منهم فيلٌ

مولى زياد وحاجبه وفي أنهار الفرات بالبصرة نهر يقال له فيل بانان وموضع آخر يقال له فيلان .
وقد يعرض بقدم الإنسان ورم جاسٍ حتّى تعظم له قدمه وساقه وصاحبه لا يبرأ منه ويسمّي ذلك الورم داءَ
الفيل .

ويسمّي الرّجل بدغفلٍ وهو ولد الفيل ولا يسمّون بزّندبيل وبعض العرب يقول للذكر من الفيلة فيل
وللأنثى فيلة كما يقولون أسد وأسلة وذئب وذئبة ولا يقولون مثل ذلك في ثعلب وضع وأمور غير ذلك
إلّا أن يكون اسماً لإنسان .

وبعث رجلٌ من العرب بديلاً مكانه في بعض البعوث وأنشأ يقول : (إذا ما اختبّت الشّقرأُ مِيلًا ** فهانَ
عليّ ما لقيَ البديلُ) وأنشدنا الأصمعيّ : (يفرّون والفيلُ الجبان كأنّه ** أَرَبُ خَصِيٍّ نفَرْتُهُ القعاقعُ) قال
سلّمة بن عيّاش : قال لي رؤية : ما كنت أحب أن أرى في رأيك فيّالة .

وبالكوفة باب الفيل وبواسط باب الفيل .

ومنهم فيلويه وهو أبو حاتم بن فيلويه وكان أبو مسلم ربيّ أبا حاتم حتى اكنهله وهما سقيا أبا مسلم السم حتى غولج بالترياق فأفاق فقتلهما أبو مسلم بعد ذلك وكانا على شبيه بدين الحرمة .

ويقولون عنبة الفيل وهو النحوي وهو أحد قدماء النحويين الحذاق وهو عنبة بن معدان وكان معدان يروض فيلاً لزياد فلما أنشد عنبة بن معدان هجاء جرير للفرزدق قال الفرزدق : (لقد كان في معدان والفيل زاجرٌ * لغنبة الراوي علي القصائد) فلما تناشد الناس بعد ذلك هذا الشعر قال عنبة : إنما قال الفرزدق : لقد كان في معدان واللوم زاجرٌ فقالوا : إن شيئاً فررت منه إلى اللوم لناهيك به قبحاً فعند ذلك سمي عنبة الفيل .

وغيلان الراجز كان يقال له غيلان راكب الفيل كان الحجاج بن يوسف ربماً حملة على الفيل (قال أبو عبيدة : حدثني يونس قال : لما بنى فيل مولى زياد داره وحمّاه بالسباجة عمل طعاماً لأصحاب زياد ودعاهم إلى داره وأدخلهم

حمّاه فلما خرجوا منه غداهم ثم ركب وغر في وجوههم فقال أبو الأسود الدؤلي : (لعمر أيك ما حمّام كسرى * على الثلثين من حمّام فيل) وقال الجارود بن أبي سبرة : (وما إرقاصنا خلف الموالى * كسنتنا على عهد الرسول) وأنشد الأصمعي وغيره : (خلافاً علينا من فيالة رأيه * كما قيل قبل اليوم خالف فتذكراً) ويقال للرجل إذا عتف عند الرأي يراه : لم تقبل رأيك وقد قال رأي فلان .

وحدثنا عبد الله بن بكر عن حميد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما انتهيت إلى السدرة إذا ورقها أمثال آذان الفيلة وإذا ثمرها أمثال القلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتاً .

وقال صاحب الكيمياء في جرير بن يزيد : (مهلاً أبا العباس رفقا ولا * تكن خصيم المَعشَرِ الحُونِ) (أنت إذا ما غدا أهل الحجا * والحلم كالأحنف في سين)

الفرخ والفروج وكل طائر يخرج من البيض وكل ولد يخرج من البيض وإن لم يكن طائراً فإنما يسمى فرخاً كفرخ الحمام والوزغة والعظاة والرق والسُّلحفاء والحُكَّاء وبنات النقا وشحمة الأرض والضب والحردون والورل والحرباء إلا ما يخرج من بيض الدجاج فإنه يقال له فروج ولا يقال له فرخ إلا أن الشعراء يتوسعون في ذلك قال شماخ بن أبي شداد : (ألا من مبلغ خاقان عنا * تأمل حين يضربك الشتاء) (أتجعل في عيالك من صغير * ومن شيخ أضرب به الفناء) (فراخ دجاجة يتبعن ديكاً * يلذّن به إذا حيس الوغاء) وقال الآخر : (أحب إلينا من فراخ دجاجة * ومن ديك أنباط تنوس غباغة)

وإذا سمي أهل البصرة إنساناً بغيل فأرادوا تصغيره قالوا فيلويه كما يجعلون عمراً عمرويه ومحمداً حمدويه . وكان محمد بن إبراهيم الرافقي الفارس النجيد قتيل نصر بن شيب مولى بني نصر بن معاوية له كنيستان : أبو

الفيل وأبو جعفر ولم يكن بالجزيرة أفرس من داود بن عيسى وأبي الفيل وعيسى بن منصور من ساكني الرافقة .

حمل الفيل وعمره

وذكر بعض الفيليين أن الفيلة تضع لسبع سنين ولداً مستوي الأسنان وأنهم يرصدون ذلك الوقت من الوحشية منها ويحتالون في أخذ الولد وأن ذلك الولد يعيش في أيديهم ما بين الثمانين سنة إلى المائة وأن عمر الوحشية أطول .

وأن كل شيء منها اليوم بالعسكر إناث وأن الموت بالعراق إلى الذكورة أسرع وأن نابه لا يطول عندنا وأنهم يعملون من جلودها الترس أجاد من جلود الجواميس ومن الخيزران ومن الدرق والحجف التي تتخذ من جلود الإبل ومن هذه المعقبة المطلية ومن جميع ما يؤلف من أنواع الخشب والجلود التي قد أُطيل إنقاذها في اللبن ومن كل تبي وصيني .

مروج الفيلة

وذكر أن لها مروجاً وأن المروج أصلح لها من القرى ومواضعها من الوحش أصلح لها من المروج .

فهم الفيل

وذكر رسول لي إلى سائسها أنه قد اتبعها إلى دجلة وأن بعض الغوغاء صاح بها : يا حجّام بأك وهذا الكلام اليوم ظاهر على السنة الجهال وأن فيلاً منها ركله برجله ركلة صك بها الحائط حتى خيف عليه منها وأنه رأى منها الإنكار لذلك القول وأن الفيل كان يحثها على الانتقام لَمّا صاح بها .

وإذا عرف الكلب اسمه وكذلك السنور وكذلك الشاة والفرس والطفل والمجنون المصمت الجنون وعرفت التاقّة فصل ما بين حلّ وجهه وعرف الحمار الصوت الذي يُلمس به وقوفه والذي يلمس به سيره وعرف الكلب مخاطبة الكلاب والبيغاء مناغاة المكلّم له فجاء أن يكون الفيل بفضل فطنته أن يفهم أضعاف ذلك فإذا أمره بضرب إنسان عند ضرب من الكلام استعاد ذلك وأدامه لم ينكر أن يعرفه على طول الترداد .

فائدة نجو الفيل

قالوا : وإذا احتملت المرأة شيئاً من نجو الفيل بعد أن يُخلط به شيء من عسل فإنها لا تحبل أبداً .

قالوا : ومما يؤكّد ذلك أنك لو علقت على شجرة من نجوه شيئاً إن تلك الشجرة لا تحبل في قالوا : وزواني الهند يفعلن ذلك استبقاء للطراء وللشباب ولأنها إذا كانت موقوفة على جميع الأجناس من الرجال كانت أسرع إلى الحمل لأنها لا تعدّم موافقاً لطبعها وإذا حملت ووضعت مراراً بطلت .

ضروب من الدواء وليس هذا بعجيب لأنهم يزعمون أن صاحب الحصاة إذا أخذ روث الحمار حين يروثه حاراً فعصره وشرب مائه أنه كثيراً ما يبول تلك الحصاة وفي ماء روث الحمار أيضاً دواء للضرس المأكول . وقال الأصمعي : سألت بعض الأكلة ممن كان يقدم على ميسرة التراس : كيف تصنع إذا جهدتك الكظة والعرب تقول : إذا كنت بطيئاً فعدّل نفسك زمناً فقال : آخذ روث حمار حاراً) فأعصره وأشرب مائه فأختلف عنه مراراً فلا أثبت أن يلحق بطني بصلبي فأشتهي الطعام .

والمرأة من نساها اليوم إذا استحيضت استفتت مثقالاً من الإثمد لأنها عدهن إذا فعلت ذلك لم تلد . وأنا رأيت امرأة قد فعلت ذلك ثم ولدت . وخرء الكلب إذا كان الجعر أبيض اللون وكان غذاء الكلب العظام دون اللحم فهو عجيب وخرء الفار يكون شيفاً للصبيان يحملونه إذا استوكى بطن أحدهم وإن كان من خرء الجرذان وكان عظيماً كان الواحد منه هو الشيف . ويصلح أيضاً خرء الفار لداء الثعلب وهو القرع الذي يعرض لشعر الرأس . وخرء الحمام الأحمر يصلح من المبولات للرمل والحصى يفتح منه وزن درهم مع مثله من الدارصيني .

شعر في الفيل

وقال بعض المحدثين : (يا حية طالت على نوكها ** كأنها حية جبريل)

(لو كان ما ينصب من مائها ** نهراً إذا طم على النيل) (أو كان ما يقطر من دهنها ** كيلاً لو فى ألف قنديل) (فلو تراها وهي قد سرحت ** حسبته بدا على فيل) وأنشد أبو عمرو الشيباني لبعض المولدين : (إذا تلاقى الفيول وازدحمت ** فكيف حال البعوض في الوسط) (وما الفيل أحملهُ موقراً ** رصاصاً بأثقل من معبد) (ولا قرملي عليه الغبيط ** ينوء بعدلين من إثم) (وجاموسة أوقرت زبقاً ** بأثقل منه ولا أنكد) وقال آخر : (باب يرى ليس له داخل ** إلا خيراً جُمع في الزاوية) (إن جئت فالفيل على هامتي ** ومثله نيط بأوصاليه) ووصف مرة بن محكان قديراً فقال : (

(ترمي الصلاة بنبل غير طائشة ** وفقاً إذا آنست من تحتها لها) (زيافة مثل جوف الفيل مجفرة ** لو يُقذف الرأل في حيزومها ذهباً) وقال بعض الأكرباء في امرأة كان حملها : (بيضاء من رقيقة عمران الأصم ** لا ثعل في سنّها ولا قصم) (بهكنة لو تركب الفيل رزم ** كأنها يوم تُوافي بالحرم) غمامة غراء عن غبّ رهم وقال روبة بن العجاج :

(سقط : بيت الشعر) (إن الردافي والكرى الأرقبا ** يكفيك درء الفيل حتى تركبا) ثم قال : (يشقى بي الغيران حتى أحسباً ** سيداً مغيراً أو لياحاً مغرباً)

ما ورد في شأن الفيل من الأمثال في كلیلة ودمنة

ومما قرأه الناس من الأمثال في شأن الفيل التي وجدوها في كتاب كلیلة ودمنة فمن ذلك قوله : أَفَلَا تَرَى أَنَّ الكلب يُبصصُ بذنبه مراراً حتى تُلقَى له الكِسرة وإنَّ الفیلَ المَغتَلَمَ لَیَعرِفُ قوَّتَه وفضله إذا قُدِّمَ إِلَیه عَلفه مُكرَماً لم یأكلُ حتى یُمسحَ ویُتمَلَقَ .

قال : وقيل في أعماله ثلاثة لا يستطيعها أحدٌ إلا بمَعونَةٍ من ارتفاعِ هِمةٍ وعظیمِ خطرٍ منها عملُ السلطان وتجارة البحر ومناجزة العدو وقالت العلماء في الرَّجُلِ الفاضل الرشید : إِنَّه لا ینبغی أن یُرى إلا في مَکائِن ولا یلیقُ به غیرهما إِمَّا مع الملوک مُكرَماً وإِمَّا مع النَّساک متبَتِّلاً كالفیل إنما بهاؤه وجماله في مَکائِن : إِمَّا في بریة وحشیّاً وإِمَّا مَرکَباً للملوک .

قال : وقد قيل في أشياء ثلاثة فضِّلُ ما بينها متفاوت : فضل المقاتل على المقاتل وفضل الفیل على الفیل وفضل العالم على العالم .

وقال في كلام آخر : فإن لم تنجع الحيلة فهو إذا القَدَرُ الذي لا یُدفع فإنَّ القَدَرَ هو الذي یسلب الأسد قوَّتَه حتى یُدخله التَّأبوت وهو الذي یَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعیفَ على ظهر الفیل المَغتَلَمِ وهو الذي یسلِّطُ الحوَّاء على الحیة ذات الحُمة فیتَرَعُ حمتها ویلعبُ بها .

قال : ومَن لم یرضَ من الدُّنیا بالكفَّاف الذي یُغنیه وطمحت عيناه إلى ما فوق ذلك ولم یَظنر إلى ما یتخوَّفُ أمامه كان مثله مثل الذباب الذي لیس یرضی بالشجر والریاحین حتى یطلب الماء الذي یسیر من أذن الفیل المَغتَلَمِ فیضربه بأذنه فیهلك .)

وقال : فأقام الجملُ مع الأسد حتى إذا كان ذاتَ یومٍ توجَّه الأسد نحو الصيد فلَقِیَه فیلٌ فقاتله قتالاً شديداً وأفلتَ الأسد مُتَقَلِّلاً یسیر دماً قد جرحه الفیل بأنیابه فكان لا یستطیع أن یطلبَ صیداً فلبث الذئب والغراب وابن آوى أياماً لا یجدون ما یعيشون به من فضول الأسد .

وقال : وكيف یرجو إخوانك عندك وفاءً وكرماً وأنتَ قد صَنَعْتَ بملكك الذي كَرَّمَك وشَرَّفَك ما صَنَعَتْ بل مَثَلُكَ في ذلك كما قال الناجر : إِنَّ أرضاً یأكلُ جُرذانها مائةَ مَنٍّ من حديد غیرُ مستَکَرٍّ أن تخطف بُزائِها القِیلة .

قال : وقال الجرذ للغراب : أشد العداوة عداوة الجواهر وعداوة الجواهر عداوتان منها عداوة متجارية كعداوة الفیل والأسد فإنه ربَّما قتل الفیلُ الأسد وربَّما قتل الأسدُ الفیل ومنها عداوة إنما ضرَّرها من أحد الجانبین على الآخر كعداوة ما یبني وین السَنور فإنَّ العداوة بیننا وقال : إنَّ الکَریم إذا عَثَرَ لم یستعن إلا

بالكريم كالفيل إذا وحل لم يستخرجه إلا الفيلة .

ضروب العداوات وسندكرُ عداوة الشيطان للإنسان والإنسان للشيطان وهما عداوتان مختلفتان وعداوة الله للكافر وعداوة الكافر لله وهاتان العداوتان غير تينك وهما في أنفسهما مختلفتان وهما والتي قبلها مخالفة لعداوة العقرب للإنسان وعداوة العقرب لمخالفة لعداوة الحية وعداوة الإنسان لهما مخالفة لعداوة كل منهما للإنسان وعداوة الذئب والأسد

والأسد والإنسان خلاف عداوة العقرب والحية وعداوة النمر للأسد والأسد للنمر مخالفة لجميع ما وصفنا ومسالمة البير للأسد غير مسالمة الخنفساء والعقرب وشأن الحيات والوزغ خلاف شأن الخنافس والعقارب وعداوة الإنسان خلاف عداوة ذلك كله وابن عرس أشد عداوة للجُرذان من السنور وعداوة البعير للبعير والبرذون للبرذون والحمار للحمار شكل واحد وعداوة الذئب خلاف ذلك والشاة أشد فرقا منه منها من الأسد والنمر والبير وهي أقوى عليها من الذئب وفرق الدجاج من ابن آوى أشد من فرقها من الثعلب والحمام أشد فرقا من الشاهين منه من الصقر والبازي .

عداوات الناس وأسباب عداوات الناس ضروب : منها المشكلة في الصناعة ومنها التقارب في الجوار ومنها التقارب في النسب والكثرة من أسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة والسكان عدو للمسكين والفقير عدو للغني وكذلك الماشي والراكب وكذلك الفحل والخصي و بعضاء السوق موصولة (بالملوك وكذلك المعتق عن ذُبر والموصى له بالمال الرغيب وكذلك الوارث والموروث وجميع هذا تفسير ولكنه يطول .

عداوات الحيوان وذكر صاحب المنطق عداوة الغراب للحمار والتحويون ينشدون في ذلك قول الشاعر : (عاديتنا لا زلت في تباب ** عداوة الحمار للغراب) ولا أدري من أين وقع هذا إليهم . وذكر أيضاً عداوة البوم للغراب وكذلك عصفور الشوك للحمار وفي هذا كلام كثير قد ذكرنا بعضه في أول كتابنا هذا من الحيوان .

رجع إلى الأمثال في كيلة ودمنة ثم رجعنا إلى الإخبار عن الأمثال .

قال : وأكيس الأقوام من لا يلتمس الأمر بالقتال ما وجد عن القتال مذهبا فإن القتال إنما النفقة فيه من الأنفس

وسائر الأشياء إنما النفقة فيها من الأموال فلا يكون قتال البوم من رأيك فإن قال : فأجابه الجرذ فقال : إنه رُبَّ عداوة باطنة ظاهرها صداقة وهي أشد ضرراً من العداوة الظاهرة ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه الثعلب . قال : واعلم أن كثيراً من العدو لا يستطيع بالشدة والمكابرة حتى يُصاد بالرفق والملاينة كما يصاد الفيل الوحشي بالفيل الأهلي .

وقال : إِنَّ الْعُشْبَ كَمَا رَأَيْتَ فِي اللَّيْلِ وَالضَّعْفِ وَقَدْ يُجْمَعُ مِنْهُ الْكَثِيرُ فَيَصْنَعُ مِنْهُ الْحَبْلَ الْقَوِيَّ الَّذِي يُوْتَقُ بِهِ الْفِيلُ الْمَغْتَلَمُ .

قال : وقالوا : نريدُ أَحَبَّ بَنِيكَ إِلَيْكَ وَأَكْرَمَهُمْ عَلَيْكَ

ونريدُ كَالِ الْكَاتِبِ صَاحِبِ سَرِّكَ وَالسَّيْفِ الَّذِي لَا يَوْجَدُ مِثْلَهُ وَالْفِيلِ الْأَبْيَضَ الَّذِي لَا تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ الَّذِي هُوَ مَرَكِبُكَ فِي الْقِتَالِ وَنريدُ الْفِيلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكُونَانِ مَعَ الْفِيلِ الذَّكَرِ .

الفيلة في الحروب

وقد سمعنا في هذا الحديثِ والإخبارِ عن أيامِ الْقَادِسِيَّةِ ويومِ جِسْرِ مِهْرَانَ وَقَسَّ النَّاطِفِ وَجَلُولَاءِ وَيَوْمِ نَهَاوَنْدَ بِالْفِيلِ الْأَبْقَعَ وَالْفِيلِ الْأَسْوَدِ وَالْفِيلِ الْأَبْيَضِ وَالنَّاسِ لَمْ يَرَوْا بِالْعِرَاقِ فَيْلًا أَوْ بَرًا وَلَا فَيْلًا أَشْعَرَ .

الفيلة المستأنسة

والفيلة التي كانت مع الفرس حُكْمُهَا حُكْمُ الْفَيْلَةِ التي كانت عند أمير المؤمنين المنصور وعند سائر الخلفاء من بَعْدِهِ وَكُلُّهَا جُرْدٌ مُغْضَبَةٌ وَلَمْ نَلْقَ أَحَدًا رَأَاهَا وَحَشِيَّةً قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ فِي الْقُرَى وَالْمَوَاضِعِ الَّتِي يَذْكُرُهَا .
تبدل حال الحيوان إذا أخرج من موطنه وقد علمنا أَنَّ الطائرَ الصَّيُودَ مِنَ الْجَوَارِحِ لَوْ أَقَامَ فِي بِلَادِهِ مِائَةَ عَامٍ لَمْ يَحْدُثْ لِمَنْسَرِهِ زَوَائِدٌ وَغَيْرُ الْعَانَةِ إِذَا أَقَامَ فِي غَيْرِ بِلَادِهِ احْتِجَاجٌ إِلَى الْأَخْذِ مِنْ حَافِرِهِ وَ إِلَى أَنْ يُخْتَلَفَ بِهِ إِلَى الْبَيْطَارِ وَالطَّائِرِ الْوَحْشِيِّ مِنْ هَذِهِ الْمَغْنِيَّاتِ وَالنَّوَائِحِ لَوْ أَقَامَ عِنْدَنَا دَهْرًا طَوِيلًا لَمْ يُصَوِّتْ إِذَا أَخَذْنَاهُ وَقَدْ كُرِّزَ وَكَذَلِكَ الْمَزَاجِجَةُ وَالتَّعْشِيشُ وَالتَّفْرِيحُ .

التكاثر بالفيلة

قال : وَكُلُّ مَلَكٍ كَانَ يَصِلُ إِلَى أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ فِي لَيْلَةٍ فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَدَعُ الْاسْتِكْثَارَ مِنْهَا وَالتَّجَمُّلَ بِهَا وَالتَّهْوِيلَ بِمَكَانِهَا عِنْدَهُ وَلَا يَدَعُ رُكُوبَهَا فِي الْحُرُوبِ وَفِي الْأَعْيَادِ وَفِي يَوْمِ الزَّيْنَةِ .

الفيل في الشعر

وقد كانت عند حمير والتبابعة والمقاول والعباهلة من ملوكهم وأبي اليكسوم من ملوك الحبشة وعند ملوك سبأ مقربة مكرمة يدل على ذلك الأشعارُ المعروفة والأخبارُ الصحيحة ألا ترى أَنَّ الْأَعْشَى ذَكَرَ مَأْرَبَ وَمُلُوكَ سَبَأَ وَسَيْلَ الْعَرَمِ فَقَالَ :

(فَفِي ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِّي أُسُوءَ * * وَمَأْرَبُ عَفَى عَلَيْهَا الْعَرَمُ) (رَخَامٌ بَنَتْهُ لَهُ حَمِيرٌ * * إِذَا جَاءَ مَأْوَهُمْ لَمْ يَرِمَ) (فَأَرَوِ الْحُرُوثَ وَأَعْنَابَهَا * * عَلَى سَاعَةِ مَأْوَهِمْ قَدْ قَسِمَ) (وَطَارَ الْفَيْلُ وَفِيَّالَهَا * * بَتِيهَاءَ فِيهَا سَرَابٌ يَطْمَ) (وَكَانَ الْأَقْبِيلُ الْقَيْنِيَّ مَعَ الْحَجَّاجِ يَقَاتِلُ ابْنَ الرُّبَيْرِ فَلَمَّا رَأَى الْبَيْتَ يُرْمَى بِالْمَنْجَنِيقِ أَنْشَأَ يَقُولُ :) (وَلَمْ أَرِ

جَيْشًا غُرَّ بِالْحَجِّ قَبْلَنَا ** وَلَمْ أَرِ جَيْشًا مِثْلَنَا كُلَّهُمْ خَرَسُ (دَلَفْنَا لَيْتَ اللَّهِ نَرْمِي سُتُورَهُ ** بِأَحْجَارِنَا نَهَبَ
الْوَلَانِدَ لِلْعُرْسِ) (دَلَفْنَا لَهُمْ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ مِنْ مَنَى ** بِجَيْشِ كَصَدْرِ الْفِيلِ لَيْسَ لَهُ رَأْسُ) فَلَمَّا فَرَعَ وَعَاذَ
بِقَبْرِ مِرْوَانَ وَكَتَبَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ كِتَابًا إِلَى الْحَجَّاجِ يَخْبِرُهُ فِيهِ وَفَوْضَ الْأَمْرَ إِلَيْهِ قَالَ :

(وَقَدْ عَلِمْتُ لَوْ أَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُنِي ** أَنَّ أَنْطِلَاقِي إِلَى الْحَجَّاجِ تَغْيِيرُ) (مُسْتَحَقِّبًا صُحُفًا تَذْمِي طَوَابِعُهَا **
وَفِي الصَّحَافِ حَيَاتٌ مَنَاقِبُ)

لسان الفيل

وَكُلُّ حَيَوَانٍ فِي الْأَرْضِ ذُو لِسَانٍ فَأَصْلُ لِسَانِهِ إِلَى دَاخِلٍ وَطَرَفُهُ إِلَى خَارِجٍ إِلَّا الْفِيلَ فَإِنَّ طَرَفَ لِسَانِهِ إِلَى
دَاخِلٍ وَأَصْلَهُ إِلَى خَارِجٍ .
بَعْضُ خَصَائِصِ الْحَيَوَانِ وَقَوْلُ الْهِنْدِ : إِنَّ لِسَانَ الْفِيلِ مَقْلُوبٌ وَلَوْلَا أَنَّهُ مَقْلُوبٌ ثُمَّ لَقَنَّ الْكَلَامَ لَتَكَلَّمَ .
وَكُلُّ سَمَكٍ يَكُونُ فِي الْمَاءِ الْعَذْبِ فَإِنَّ لَهُ لِسَانًا وَدِمَاعًا إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَاءِ الْمَلْحِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِسَمَكِ الْبَحْرِ
لِسَانٌ وَلَا دِمَاعٌ .
وَكُلُّ شَيْءٍ يَأْكُلُ بِالْمَضْغِ دُونَ الْإِبْتِلَاعِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْرُكُ فَكَّهُ الْأَسْفَلَ إِلَّا التَّمَسَّاحَ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْرُكُ فَكَّهُ الْأَعْلَى .
وَكُلُّ ذِي عَيْنٍ مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ مِنَ السَّبَاعِ وَالْبَهَائِمِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْأَهْلِيَّةِ فَإِنَّمَا الْأَشْفَارُ لِحْفُونِهَا الْأَعَالِي إِلَّا
الْإِنْسَانَ فَإِنَّ الْأَشْفَارَ لِلْأَعَالِي وَالْأَسَافِلِ .
وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذِي صَدْرٍ فَإِنَّهُ ضَيْقُ الصَّدْرِ إِلَّا الْإِنْسَانَ فَإِنَّهُ وَاسِعُ الصَّدْرِ
وَلَيْسَ لَشَيْءٍ مِنْ ذِكُورَةِ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ وَإِنَاثَتِهَا ثَدْيٌ فِي صَدْرِهِ إِلَّا الْإِنْسَانَ وَالْفِيلَ وَقَالَ ابْنُ مُقْبِلٍ :

ضخم الفيل وظهره

وَالْفِيلُ أَضْخَمُ الْحَيَوَانِ وَهُوَ مَعَ ضِخْمِهِ أَمْلَحُ وَأَظْرَفُ وَأَحْكَى وَهُوَ يَفُوقُ فِي ذَلِكَ كُلَّ خَفِيفِ الْجِسْمِ رَشِيقِ
الطَّبِيعَةِ .
وَإِنَّمَا الْحِكَايَةُ مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ فِي الْكَلْبِ وَالْقِرْدِ وَالذَّبِّ وَالشَّاةِ الْمَكِّيَّةِ وَلَيْسَ عِنْدَ الْبَيْغَاءِ إِلَّا حِكَايَةُ صَوْرِ
الْأَصْوَاتِ فَصَارَ مَعَ غِلْظِهِ وَضِخْمِهِ وَفَخَامَتِهِ أَرْشَقَ مَذْهَبًا وَأَدَقَّ ظَرْفًا وَأَظْهَرَ طَرَبًا وَهَذَا مِنْ أَعْجَابِ الْعَجَبِ
وَمَا ظَنُّكُمْ بِعَظَمِ خَلْقِ رَبِّمَا كَانَ فِي نَائِيهِ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِمِائَةٍ مِّنْ

أعظم الحيوان في قول المتعصبين على الفيل

فَقَالَ مِنْ يِعَارِضُهُمْ : قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ الْحَيَوَانِ خَلَقًا السَّمَكَةُ وَالسَّرَطَانُ وَحَكَاةً عَنِ عِظَمِ بَعْضِ
الْحَيَّاتِ حَتَّى أَلْحَقُوهُ بِمَا وَأَكْثَرُوا فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ التَّنِينِ فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَدَّعُوا لِلْفِيلِ مَا ادَّعَيْتُمْ .

رد صاحب الفيل على خصمه

قال صاحب الهند والمعبر عن خصال الفيل : أمّا الفيل وعلوّ سَمَكه وعِظَم جُفْرته واتّساع صَهْوته وطول خُرطوميه وسعةُ أذنه وكِبَر غُرْموله مع خِفّة وطنه وطول عُمره وثقل حمّله وقلة اكترائه لِمَا وُضع على ظهره فقد عاينَ ذلك من الجماعات مَنْ لا يستطيعُ الرّدَّ عليها إلّا جاهلٌ أو مُعاندٌ وأمّا ما ادّعيتُم من عِظَم الحَيّة وأنا متى مسّحنا طولها وثخنها وأخذنا وزّنها كانت أكثرَ من الفيل فإنّا لم نَسْمَعْ هذا إلا في أحاديث الرّقّاتين وأكاذيب الحوائين وتزيّد البحرّيين .

وأما التّين فإنّما سبيلُ الإيمان به سبيلُ الإيمان بعِثْقَاءِ مُعَرِّبٍ وما رأيتُ مجلساً قطُّ جَرى فيه ذكر التّين إلّا وهم ينكرونه

ويكذبون المُخبر عنه إلّا أنا في الفَرْط ربّما رأينا بعضَ الشاميّين يزعمُ أنّ التّين إعصارٌ فيه نار يخرج من قِبَل البحر في بعض الزّمان فلا يمرُّ بشيء إلّا أحرّقه فسمّى ذلك ناسُ التّين ثمّ جعلوه في صورة حَيّة .
وأما السّرطان فلم نَرِ أحداً قطُّ ذكرَ أنّه عاينَه فإنّ كُنّا إلى قول بعض البحرّيين نرجع فقد زَعَم هؤلاء أنّهم ربما قَرَّبوا إلى بعض جزائر البحر وفيها الغياض والأودية واللّخاقيق وأنّهم في بعض ذلك أوقدوا ناراً عظيمة فلما وصلتْ إلى ظهر السرطان هاجَ بهم وبكلِّ ما عليه من التّبات حتّى لم ينجُ منهم إلّا الشريد .
وهذا الحديثُ قد طُمّ على الخرافات والثّرّهات وحديث الخلوة .
وأما السّمك فلعمري إنّ السمكة التي يقال لها الببال لفاحشةُ العظم وقد عاينوا ذلك عياناً وقتلوه يقيناً ولكن أحسبوا أنّ

الشّأن في الببال على ما ذكرتم فهل علمتم أنّ فيه من الحسّ والمعرفة واللّقن والحكاية والطّرب وحسن المواتاة وشلّة القتال والتمهّد تحت الملوك وغير ذلك من الخصال كما وجدنا ذلك وأكثر منه في الفيل .
وهل رغبتُ في صيده الملوك واحتالت له التجار أو تَمَتَّى الطّفَر بأجزائه بعض الأطبّاء وهل يصلح لدواء أو غذاء أو لبس إمّا غاية البحرّيين أنّ يسلمُوا من عبثه إن هجموا عليه نائماً أو غافلاً حتّى ينفر ويفزع وينبه بقرع العصا واصطكاك الخشب .

وإنّما قدّمنا خصالَ الفيل على خصالِ الحيوان الذي في كَفّه ومنقاره الصنعةُ العجيبةُ أو يَكُون فيه من طريف المعرفة وغريب الحسّ وتقوب البصر أو بعض ما فيه من الجمال والحُسْن ومن التفاريح ومن التّحاسين والوشى والتلاوين بالتأليف العجيب والتّنضيد

الغريب أو بعض ما في حنجرته من الأصوات الملحّنة والمخارج الموزونة والأغاني الدّاخلة في الإيقاع الخارجة من سبيل الخطأ ممّا يجمع الطّرب والشّجَا ومما يفوق النواحي ويروق كلّ مغنٍّ حتّى يُضرب بحسن تخريجه وصفاء صوته وشجّا مخرجه المثل حتّى يشبّه به صوتُ المزمّار والوتر .
وأما بعض ما يُعرف بالمكر والحيل والكيس والرّوغان وبالْفِطنة وبالحديعة والرّفق والتكسّب والعلم بما

يُعِيشُهُ وَالْحَذَرِ مَّا يُعْطِيهِ وَتَأْتِيهِ لَذَّةُ ذَلِكَ وَحِدَقُهُ بِهِ وَأَمَّا بَعْضُ مَا يَكُونُ فِي طَرِيقِ الثَّقَافَةِ يَوْمَ الثَّقَافَةِ وَالْبَصَرِ
بِالْمُشَاوَلَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَطَاوَلَةِ وَالْعَزْمِ وَالرَّوْغَانِ وَالْكِرِّ وَالْجَوْلَانِ وَوَضْعُ تِلْكَ التَّدَابِيرِ فِي مَوَاضِعِهَا حَتَّى لَا
تَرُدُّ لَهُ طَعْنَةً وَلَا تَخْطِئَ لَهُ وَثْبَةً وَأَمَّا بَعْضُ مَا يُعْرِفُ بِالنَّظَرِ فِي الْعَاقِبَةِ وَيُحْكَمُ شَأْنُ الْمَعِيشَةِ وَالْأَخْذُ لِنَفْسِهِ
بِالثِّقَةِ وَبِالتَّقَدُّمِ فِي حَالِ الْمُهْلَةِ وَالْإِدْحَارِ لِيَوْمِ الْحَاجَةِ وَالْأَجْنَسُ الَّتِي تَدَّخِرُ لِنَفْسِهَا لِيَوْمِ الْعِجْزِ عَنْ

الطَّلَبِ وَالتَّكْسُّبِ فَمِثْلُ الذَّرَّةِ وَالنَّمْلَةِ وَالْجُرْذِ وَالْفَأْرَةِ وَكَنْحُو الْعَنْكَبُوتِ وَالتَّلْحِ .
فَإِذَا كَانَ لَيْسَ لِلْفِيلِ إِلَّا عِظْمُهُ وَإِنْ كَانَ الْعِظَمُ قَدْ يَدْخُلُ فِي بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَفَاخِرَةِ فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ
يُنَاهِدَ بِهِ الْأَبْدَانِ الَّتِي لَهَا الْخِصَالُ الشَّرِيفَةُ وَيَنَاضِلَ بِهَذِهِ ذَوَاتِ الْمَفَاخِرِ الْعَظِيمَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِيَدِهِ قَدْ جُمِعَ مَعَ
الْعِظَمِ مِنَ الْخِصَالِ الشَّرِيفَةِ مَا يُفْنِي الطَّوَامِيرَ الْكَثِيرَةَ وَيَسْتَغْرِقُ الْأَجْلَادَ الْوَاسِعَةَ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ مِنْ جَهْلٍ
هَذِهِ السَّمَكَةُ بِمَا يُعِيشُهَا وَيُصَلِّحُهَا أَنَّهَا شَدِيدَةُ الطَّلَبِ وَالشَّهْوَةِ (.
لَأَكُلَ الْعَنْبَرِ وَالْعَنْبَرُ أَقْتُلُ لِلْبَالِ مِنَ الدَّفْلَى لِلدَّوَابِّ فَإِذَا أَصَابُوهُ مَيِّتًا اسْتَخْرَجُوا مِنْ جَوْفِهِ عَنْبَرًا كَثِيرًا فَاسِدًا .
وَمَا فِيهِ مِنَ النِّفْعِ إِلَّا أَنْ دَهْنَهُ يَصْلُحُ لِمَرِينِ سُفُنِ الْبَحْرِيِّينَ .

تعصب غانم الهندي على الفيل

فَسَمِعَنِي غَانِمُ الْعَبْدِ يَوْمًا وَأَنَا أَحْكِي هَذَا الْكَلَامَ وَكَانَ مِنْ أَمُوقِ النَّاسِ وَأَرْقَعَهُمْ رَقَاعَةً مَعَ تَبِيهِ شَدِيدٍ وَعُجْبٍ
وَرِضًا عَنْ نَفْسِهِ وَسُخْطَ عَلَى النَّاسِ فَمِنْ حُمَقِهِ أَنَّهُ هِنْدِيٌّ وَهُوَ يَتَعَصَّبُ عَلَى الْفِيلِ فَقَالَ لِي : مَا تَقُولُ الْهِنْدُ
فِي الْحَوْتِ الَّذِي يَحْمِلُ الْأَرْضَ أَلَيْسَ أَعَمَّ نَفْعًا وَأَعْلَى أَمْرًا قُلْتَ

لَهُ : يَا هَالِكُ إِنَّ مَدَارَ هَذَا الْكَلَامِ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَى الْأَقْسَامِ الْأَرْبَعَةِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْمَاءِ وَفِي
الْأَرْضِ وَفِي الْهَوَاءِ كَالَّذِي يَنْسَاحُ مِنْ أَجْنَسِ الْحَيَاتِ وَالذِّيدَانِ وَكَالَّذِي يَمْشِي مِنَ الدَّوَابِّ وَالنَّاسِ وَكَالَّذِي
يَطِيرُ مِنْ أَحْرَارِ الطَّيْرِ وَبَغَائِثِهَا وَخَشَاشِهَا وَهَمَجِهَا وَكَالَّذِي يَعُومُ كَالسَّمَكِ وَكُلِّ مَا يَعَاشِ السَّمَكُ .
فَأَمَّا الْحَوْتُ الَّذِي تَكُونُ الْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِهِ فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ فِي الْمَلَاكَةِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْحَوْتِ مَرَارًا
وَلَوْلَا مَكَانُ مَنْ قَدْ حَضَرْنَا لَكَانَ مِمَّنْ لَا يَسْتَأْهِلُ الْجَوَابَ وَهَذَا مَقْدَارُ مَعْرِفَتِهِ .

قوة الفيل

قَالُوا : وَالْفِيلُ أَقْوَى مِنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ إِنَّ حُمْلَ الْأَثْقَالِ وَمِنْ قُوَّةِ عِظَمِهِ وَعَصَبِهِ أَنَّهُ يَمُرُّ خَلْفَ الْقَاعِدِ مَعَ
عِظَمِ بَدَنِهِ فَلَا يَشْعُرُ بِوِطْنِهِ وَلَا يُحْسُ بِمَمَرِّهِ لِاحْتِمَالِ بَعْضِ بَدَنِهِ لِبَعْضٍ وَهَذِهِ أَعْجُوبَةٌ أُخْرَى .
وَلَيْسَ فِي حَوَامِلِ إِنَاثِ الْحَيَوَانِ أَطْوَلُ مَدَّةَ حَبْلِ مِنَ الْفِيلِ

والكركدن فإنه مذكور في هذا الباب والفيل يزيد عليه في قول بعضهم .
فأما الهند ففتنتهم بالكركدن أشد من فتنتهم بالفيل .

فأما ما كان دون ذلك من أجناس الحيوان فأطولها حملاً الحافر والخف ولا يزيدان على الستة إلا أن تُسحب الأنثى وتجر أياماً فأما الظلف فعلى ضربين فما كان منها من البقر فإن مدة حملها وحمل النساء تسعة أشهر وما كان من الغنم فإن حملها خمسة أشهر .
وقد ذكرنا حال أجناس الحيوان في ذلك فيما سلف من كتابنا هذا .

سولة الفيل

قالوا : والفيلة هؤلها في العين فاحذر أن تتخذ ظهورها كالمناظر والمساح والأرصاد .
وللفيل قتال وضرب بحرطومه وخبط بقوائمه وكانت الأكاسرة ربما قتلت الرجل بوطء الفيلة وكانت قد دربت على ذلك وعلمته فإذا ألقوا إليها الرجل تركت العلف وقصدت نحوه فداسته ولذلك أنشد

العباس بن يعقوب العامري لناهض بن ثومة العامري قوله : (أنا الشاعر الخطار من دون عامر ** وذو الضعم إذ بعض المحامين ناهش) وأنشد الأصمعي وأبو عمرو لتميم بن مقبل : (بني عامر ما تأمرون بشاعر ** تخير آيات الكتاب هجائيا) (أأغفو كما يغفو الكريم فإني ** أرى الشعب فيما بيننا متدانيا) (أم اخبط خبط الفيل هامة رأسه ** بجرّد فلا أبقي من الرأس باقيا) بعض من رمي تحت أرجل الفيلة وكانت الأكاسرة وهي الكسور تؤدبها وتعودها وطء الناس وخبطهم إذا ألقى تحت قوائمها بعض أهل الجنایات فكان ممن رمي

به تحت أرجل الفيلة الثعمان بن المنذر وقال في ذلك الشاعر : (إن ذا التاج لا أبا لك أضحى ** وذرى بيته بجوز الفيول) (إن كسرى عدا على الملك النع ** مان حتى سقاه أم البليل) كتاب ملك الصين وذكر الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير قال : رأيت في ديوان معاوية بعد موته كتاباً من ملك الصين فيه : من ملك الصين الذي على مربطه ألف فيل وبُيت داره بلين الذهب والفضة والذي تحدمه بنات ألف ملك والذي له نهران يسقيان الألوة إلى قالوا : ولما أراد كسرى قتل زيوشث المغني لقتله فهلبذ المغني وأمر أن يرمى به تحت الفيلة وقال : قتلت أحسن الناس غناءً وأجودهم إمتاعاً للملك حسداً له فلما سجدوا نحو الفيلة نفت إلى كسرى وقال : إذا قتلت زيوشث المغني وقد قتل زيوشث فهلبذ فمن يطربك فقال كسرى : المدة التي بقيت لك هي التي أنطقك خلوا سييله .

تأديب الهند الفيلة

وقال صفوان بن صفوان الأنصاري وكان عند داود بن يزيد بالمولتان : الهند تؤدب الفيلة بأنواع من التأديب وبضروب من التقويم فمنها آداب الحروب حتى ربّطوا السيف الهدام الرغيب الشديد المتن

الحديد الغُرب التَّام الطَّويل السَّيلان في طَرَف خُرطوم الفيل وعلموه كيف يضرب به قُدماً يميناً وشمالاً وكيف يرفعه بخرطومه حتى يكون فوق رؤوس القِيالين القعود على ظهره .

شعر هارون في الفيل

قال : وأنشدني هارون بن فلان المولى مولى الأزد قصيدته التي ذكر فيها خروجه في الحرب إلى فيل في هذه الصفة فمشى إليه فلما كان حيث يناله السيف وثب وثبة أعجله بها عن الضربة ولصق بصدر الفيل وتعلق بأصول نابيه وهما عندهم قرناه فجال به الفيل

جولة كاد يحطمه من شدة ما جال به وكان رجلاً شديد الخلق رابط الجأش قال : فاعتمدت وأنا في تلك الحال وأصول الأنياب جوف فانقلعا من أصلهما وأدبر الفيل وصار القرنان في يدي وكانت الهزيمة وغنم المسلمون غنائم كثيرة وقلت في ذلك : (مشيتُ إليه وادعاً متمهلاً ** وقد وصلوا خُرطومهم بجسام) (فقلتُ لنفسي : إنه الفيل ضاربٌ ** بأبيض من ماء الحديد هُذَام) (فإن تنكلي عنه فعذرُك واضحٌ ** لدى كل منخوب الفؤاد عَبا) (وعند شجاع القوم أكلفُ فاحمٌ ** كظلمة ليل جُللت بقتام) (ولما رأيتُ السيف في رأس هضبةٍ ** كما لاح برقٌ من خلال غمام) (فناهشته حتى لصقتُ بصدرةٍ ** فلما هوى لازمتُ أي لزام) (وعدتُ بقرنيه أريدُ لَبَانَهُ ** وذلك من عادات كل محامي) (فجال وهجيراً صوتٌ مُحضرمٌ ** وأبتُ بقرني يذبلُ وشمام) (وقال هارون : (ولما أتاني أنهم يعقدونه ** بقائم سيفٍ فاضل الطول والعرض)

(وحين رأيتُ السيف يهتر قائماً ** ويلمع لمع الصبح بالبلد المفضي) (وصار كمخراق بكف حَزَوْرٍ ** يُصرِّفه في الرُّفْع طوراً وفي الخفض) (فأقبل يفري كل شيء سما له ** وصرتُ كأني فوق مزَلَقَةٍ دَحْض) (وأهوي لجاري فاغتنمتُ ذُهوْلَهُ ** فلاذ بقرنيه أخو ثقةٍ محض) (فجال وجال القرن في كفٍّ ماجدٍ ** كثيرٍ مراسٍ الحرب مجتبٍ الخفض) (فطاح وولى هارباً لا يهيده ** رطانة هِندي برفعٍ ولا خفض)

نابا الفيل

والهند ترعم أن نابي الفيل يخرجان مستبطين حتى يخرج الحنك ويخرجا أعقفين وإنما يجعلهما نابين من لا يفهم الأمور قالوا : والدليل على ذلك أنهما أصليان في موضع مخارج القرون يُوجد ذلك عند سلخ جلده ولأن القرن لا يكون إلا مصمت الأعلى مجوف الأسفل وكذلك صفة هذا الذي يسميه من لا علم له ناباً ومع ذلك إنا لا نجد الفيل يعض الأسد للأكل ولا كعض الجمل الصَّوُول

للقتل ولا كعض الأفعى لإخراج السم ولا تراه يصنع به ويستعمله إلا على شبيه بما تستعمله ذوات القرن عند القتال والغضب .

فقال لهم بعضٌ من يردُّ عليهم : أمّا قولكم إنّ القرنَ لا يكون إلاّ مجوّفَ الأصل فهذا قرنُ الأيّل مُصمّت من أوّلِه إلى آخره وهو ينصل في كلّ سنة فإذا نبتَ حديثاً لم يظهرُ حتى يستحکم في يُيسه وصلابته وإذا علم أنه قد بلغ ذلك ظهرَ وأكثرُ القُرُونِ الجوفِ يكون في أجوافها قرونٌ وليس ذلك لقرن الفيل .
قالوا : ولم نجد هذا القرنَ في لون القُرُون ووجدناه بسائر أسنانه وأضراسه أشبه للبياض والبيس وليس كذلك صفةُ القرون .

وتقول الهند : فم الأيّل صغير وهو أفقَم ولا يجوز أن يكون مثل ذلك اللَّحْي والهُكَّ يَنبُتُ فيه ومنه نابان يكون فيهما ثلاثمائة منّ وقد رأيتُ قروناً كثيرة الأجناس بيضاً وبُرْشاً وصُهباً وهذه أيضاً من أعاجيب الفيل .

وقرن الكركدّن أغلظ من مقدار ذراع وليس طوله على قدر غلظه وهو أصلب وأكرم من قرني الفيل .

أعضاء التناسل لدى الحيوان ويقال : إنّ أكبرُ أيور الحيوان أير الفيل وأصغرُها قضيبُ الظبي وقضيب البط لا يذكر مع هذه الأشكال وليس شيءٌ على قدره ومقدار جسمه أعظمُ أيراً من البغل .
وقد علمنا أنّ للضب أيرين وكذلك الحردّون والسقنقور وعرفنا مقدار ذلك ولكنّه لا يدخل في هذا الباب لضعف لا ينفى .

خرطوم الفيل

ولو لم يكن من أعاجيب الفيل إلاّ خرطومُه الذي هو أنفه وهو يدُه وبه يوصل الطعامَ والشّرَابَ إلى جوفه وهو شيءٌ بينَ الفُضروف واللحم والعصب وبه يقاتل ويضرب ومنه يصيح وليس صياحه في مقدار جرم بدنه ويضربُ به الأرضَ ويرفعه في السّماء ويصرّفه كيف شاء وهو مقلّ من مقاتله والهند تربط في طرفه سيفاً شديداً المثن فيقاتلُ به مع ما في ذلك من التهويل على من عايته .

سباحة الفيل والجاموس والبعير

وهو مع عظم بدنه جيّد السّباحة إلاّ أنه يخرج خرطومَه ويرفعه في الهواء صُعداً لأنّه أنفه ألا ترى أنّ الجاموسَ يغيب جميعُ بدنه في الماء إلاّ منخرية .
والبعير قبيح السّباحة : لأنّه لا يسبح إلاّ على جنبه فهو في ذلك بطيء ثقيل والبعير مما يُخاير بينه وبين الفيل فلذلك ذكرناه .

وقد علمنا أنّ الإنسان يغرق في الماء ما لم يتعلّم السّباحة فأما الفرسُ الأعسرُ والقرد فإنّهما يغرقان البتّة والعقرب تقوم وسط الماء لا طافية ولا لازقة بالأرض .

أشراف السباع وساداتها وأشراف السّباع وساداتها وكبارها ورؤساؤها ثلاثة : الكركدّن والفيل والجاموس قال : ولعلّ بعض من اعتاد الاعتراض على الكتب

يقول : وأين الخيل والإبل وفيها من خصال الشرف والمنافع والعناء في السفر والحضر وفي الحرب والسلم وفي الزينة والبهاء وفي العلة والعتاد ما ليس عند الكركدن ولا عند الفيل ولا عند الجاموس .

قال القوم : ليس إلى هذا الباب ذهبنا ولا إليه قصدنا ولا ذلك الباب مما يجوز أن ندخله في هذا الباب ولكننا ذهبنا إلى المحاماة والدفع عن الأفس والقتال دون الأولاد وإلى الامتناع من الأضداد بالحيلة اللطيفة وبالبطش الشديد وليس عند الخيل والإبل إذا صافت الأسد والثور والبور ما عند الجاموس والفيل فأما الكركدن فإن كل شيء من الحيوان يقصر عن غايته التقصير الفاحش .
إنكار الكركدن والعناء وما أكثر من ينكر أن يكون في الدنيا حيوان يسمى الكركدن ويزعمون أن هذا وعناء مغرب)

سواء وإن كانوا يرون صورة العناء مصورة في بسط الملوك واسمها عندهم بالفارسية سيمرك كأنه قال : هو وحده ثلاثون طائراً لأن قولهم بالفارسية سي هو ثلاثون

بالعربية ومغ بالفارسية هو الطائر بالعربية والعرب إذا أخبرت عن هلاك شيء وبطلانه قالت : حلقت به في الجور عنقاء مغرب وفي بعض الحديث : أن بعض الأمم سألوها نبئهم وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفعل كذا وتفعل كذا أو تلقي في فم العنقاء اللجام وترد اليوم أمس .

شعر في العنقاء قال أبو السري الشميطي وهو معدان المكفوف المديري : (يا سمي النبي والصادق الوع ** د وجد الصبي ذي الخلخال) (صاحب التومة التي لم يشنها ** بعد حرس مئاقب اللال) (مهدهه العنقاء وهي عقيم ** رب مهدي يكون فوق الهلال)

(يوم تصغي له النعامة والأحنا ** ش طراً لشللة الزلزال) فأهل هذه النحلة يشنون العنقاء ويزعمون أنها عقيم .

وقال زُرارة بن أعين مولى بني أسعد بن همام وهو رئيس الشميطية وذكر هذا الصبي الذي تكلمه العنقاء فقال : (ولكنه ساعى بأم وجدته ** وقال سيكفيني الشقيق المقرب) (وآخر برهاناته قلب يومكم ** وإجماعه العنقاء في العين أعجب) (يصيف بساباط ويشئو بآمد ** وذلك سر لو علمناه معجب) (أماغ له الكبريت والبحر جامد ** وملكه الأبراج والشمس تجب) (فيومند قامت شماط بقدرها ** وقام عسيب القفر يثني ويخطب) (وقام صبي دردق في قماطه ** عليهم بأصناف اللسانين مغرب)

فنبّت زرارة بنُ أعينَ قولَ أبي السّريّ في العنقاء وزادنا تنبيت الكبريت الأحمر ولا أعلم في الأرض قومًا يُشبّهون العنقاء على الحقيقة غيرهم .
الكركدن قال : والذي يشبّ الكركدن أن داود النبي صلى الله عليه وسلم ذكره في الزبور حتّى سمّاه .
وقد ذكره صاحب المنطق في كتاب الحيوان إلّا أنه سمّاه بالجمار الهنديّ وجعل له قرنًا واحدًا)
في وسط جبهته وكذلك أجمع عليه أهل الهند كبيرهم وصغيرهم .
وإنما صار الشكُّ يعرضُ في أمره من قبل أن الأنثى منها تكون نرورًا وأيام حملها ليست بأقل من أيام حمل الفيلة فلذلك قلّ عدّد هذا الجنس .
وترعم الهند أن الكركدن إذا كانت بيلاد لم يرع شيء من الحيوان شيئاً من أكناف تلك البلاد حتّى يكون بينه وبينها مائة فرسخ من جميع جهات الأرض هيبةً له وخضوعاً له وهرباً منه .
وقد قالوا في ولدها وهو في بطنها قولاً لولا أنه ظاهرٌ على السنّة الهند لكان أكثر الناس بل كثيرٌ من العلماء يَدْخلونه في باب الخرافة

وذلك أنهم يزعمون أن أيام حملها إذا كادت أن تتم وإذا نضجت وسُجيت وجرت وجرى وقت الولادة فرمما أخرج الولد رأسه من ظبيتها فأكل من أطراف الشجر فإذا شبع أدخل رأسه حتّى إذا تمت أيامه وضاق به مكانه وأنكرته الرّحم وضعته مطيقاً قوياً على الكسب والحضر والدفع عن نفسه بل لا يعرض له شيء من الحيوان والسباع .)

ولد الفيل

وقد زعم صاحب المنطق أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول لبثه في بطنها .
وهذا جائزٌ في ولد الفيل غير مُنكر لأن جماعة نساء معروفات الآباء والأبناء قد ولدن أولادهم ولهم أسنان نابتة كالذي روّوا في شأن مالك بن أنس ومحمد بن عجلان وغيرهما أعاجيب الولادة وقد زعم ناسٌ من أهل البصرة أن خاقان بن عبد الله بن الأهمم استوفى في بطن أمه ثلاثة عشر شهراً وقد مُدح بذلك وهُجّي وليس

هذا بالمستنكر وإن كنت لم أر قطّ قابلاً تُقرّ بشيء من هذا الباب وكذلك الأطباء وقد روّوه كما علمت ولكنّ العجب كلّ العجب ما ذكروا من إخراج ولد الكركدن رأسه واعتلافه ثم إدخاله رأسه بعد الشّبع والبطنة ولا بدّ أكرمك الله لما أكل من نجوٍ فإن كان بقي ذلك الولد يأكل ولا يروث فهذا عجبٌ وإن كان يروث في جوفها فهذا أعجب .

وإنما جعلناه يروث حيثُ سمّوه حمراً وهذا لما ينبغي لنا أن نذكره في خصال الحمير إذا بلغنا ذلك الباب .

ولا أُقِرُّ أَنَّ الولدَ يُخرج رأسه من فرج أمِّه حتى يأكل شبعه ثمَّ يدخل رأسه من فرج أمِّه (ولستُ أراه مُحالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا ممتنعاً في الطبيعة وأرى جوازَه مَوْهُوماً غيرَ مستحيل إلاَّ أنَّ قلبي ليس يقبلُه وليس في كونه ظُلُمٌ ولا عَبَثٌ ولا خطأ ولا تقصير في شيء من الصفات الحمودة ولم نجد القرآن يُنكره ولا الإجماع يدفعه والله هو القادر دون خَلْقِه ولستُ أبْتُ بإنكاره وإن كان قلبي شديداً الميل إلى ردِّه وهذا ثَمَّا لا يعلمه النَّاسُ بالقياس ولا يعرفونه إلاَّ بالعيان الظاهر والخبر المتظاهر .

عجوبة الدساس

وليس الخبر عنه مثل الخبر عن الدَّسَّاس التي تَلِدُ ولا تَبِيضُ وإنما أنكر ذلك ناسٌ لأنَّ الدَّسَّاس ليس بأشرف كالحُفَّاش بل هو من الممسوح كسائر الطير وكاللواتي يبضن من ذوات الأربع من المائيات والأرضيات . عجائب الدلفين واللَّخْم والكوسج وليس الخبر عن الكركدن أيضاً كالخبر عن الدُّلْفَيْن أنَّها تَلِدُ وعن اللَّخْم مثل ذلك وأنَّ الكوسج يتولَّد من بين اللَّخْم وسمكةٍ أخرى وهذا كُلُّهُ غيرُ مستحيل إلاَّ أنَّي لا أجعل الشيءَ الجائزَ كونه كالشيء الذي تثبته الأدلة ويخرجه البرهان من باب الإنكار والواجبُ في مثل هذا الوقفُ وإن كان القلبُ إلى نقض ذلك أميل . والميل أيضاً يكون في طبقات وكذلك الظن قد يكون داخلاً في باب الإيجاب وربما قصَّر عن ذلك شيئاً .

زعم ولادة السمك وقد زعم ناسٌ من أهل العلم أنَّ السَّمَكَ كُلَّهُ يَلِدُ وأنهم إنما سمَّوا ذلك الحَبَّ بيضاً على التشبيه والتمثيل لأنَّه لا قشر له هناك ولا مَحٌّ ولا بِيَضٌ ولا غَرَقِيٌّ وأنَّ السمكةَ لا تخرج أبداً إلاَّ فارغة البُطْنِ أو محشوة ولم نر الحَبَّ الذي يقرب مبالها أعظم ولم نرها ألقت إحدى تلك الطوامير وبقت الأخرى وإنما غلط في ذلك ناسٌ من قِبَل ضيق السيل والمسلك فظنوا أنَّ خرق المبال يضيق عن عِظَم ذلك الجسم العظيم اجتمع من الحَبِّ الصغار قالوا : فإنما تُخرج تلك الطوامير واحداً فواحداً وأولاً فأولاً . عجائب الولادة وما بذلك بأعجب ولا أضيق من حياء الناقة والسَّقْبُ والحائلُ يخرجان منه خروجاً سَلِساً إذا أذن الله بذلك وكذلك المرأة وولدها والفيلة والجاموسة والرمكة والحجر والأتان والشاة في (ذلك كُلُّهُ مثل السمكة . وقالوا : لا بُدَّ للبيض من حَضْنٍ ومتى حَضَّنت السمكةَ بيضها لا تلتفت إلى بيضها وفراخها .

زعم العوام في الكركدن والعوامُ تضربُ المثلَ في الشلَّة والقوَّة بالكركدن وتزعم أنه ربما شطح الفيل فرفعه بقرنه الواثد في وسط جَبْهته فلا يشعرُ بمكانه ولا يحسُّ به حتَّى ينقطع على الأيام . وهذا القولُ بالخرافة أشبه .

مزاعم في ضروب من الحيوان وأعجبُ من القول في ولد الكركدن ما يخبرنا به ناسٌ من أهل النظر والطبِّ وقراءة الكتب وذلك أنَّهم يزعمون أنَّ النمرة لا تصعُ ولدها أبداً إلاَّ وهو متطوَّق بأفعى وأنها تعيش وتنهش

إلا أنما لا تقتل ولو كنت أجسر في كتي على تكذيب العلماء ودراسي الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر .
وليس هذا عندي كزعمهم أن الأفعى تلد وتبيض لأن تأويل ذلك أن الأفعى تتعضل بيضها فإذا طرقت
بالببيض تلوت فحطمتها في جوفها ثم ترمي بتلك القشور والخرأشي أولاً فأولاً كما لا بد لكل ذات حمل أن
تلقى مشيمتها .

ويزعم كثير من الأعراب أن الكمأة تتعفن ويتخلق منها أفاعي فهذا الخبر وإن كنت لا أتسرّع إلى رده فإني
على أصحابه ألين كنفاً .

قرن الكركدن وأما قرن الكركدن فخيرني من رآه ممن أثق بعقله وأسكن إلى خبره أن غلط أصله وسعة
جسمه يكون نحواً من شبرين وليس طوله على قدر ثخنه وهو محدّد الرأس شديد الملاسة ملموم الأجزاء
مدّمج ذو لدونة وعلوكة في صلابة لا يمتنع عليه شيء ويجهز من عندنا بالبصرة إلى الصين لأنه يقع إلينا
قبلهم فإذا قطعوه ظهرت في مقاطعه صورٌ عجيبه وفيه خصال غير ذلك لها يطلب .
وقد كنا نزعّم أن الهواء للعقاب والماء للتمساح والغياض للأسد حتى زعم أصحابنا أن في نيل مصر خيولاً
تأكل التماسيح أكلاً ذريعاً

وتقوى عليها قوة ظاهرة وتغتصّبها أنفسها فلا تمتنع عليها وعارضوا من أنكر خيل الماء بخنازير الماء
وبكلاب الماء وبدخس الماء .)

إنقاذ بعض حيوان البحر للغريق ولم أجدهم يشكّون أن بعض الحيوان الذي يكون في البحر كما ليس بسمك
وهو يعايش السمك وقد ذهب عني اسمه أنه متى أبصر غريقاً عرض له وصار تحت بطنه وصدره فلا يزال
كالحامل له والمزجي والمعين حتى يقذف به إلى جزيرة أو ساحل أو جبل .
وأصناف سمك البحر وأجناس ما يعايش سمك البحر لا تكون في أوساط اللّجج وفي تلك الأهواز العظام
مثل لجة سقوطراً وهر كند وصنجي وكذلك أهل البحر إذا عاينوا نباتاً أو طيراً أيقنوا بقرب الأرض إلا أن
ذلك القريب قد سمي بعيداً فلذلك سلّم ذلك الغريق بمعونة ذلك الحيوان .
مسألة الأسد للبر ومعاداته للنمر فأما الأسد والببر فمتسالمان وأما الأسد والنمر فمتعادبان والظفر بينهما
سبجال والنمر وإن كان ينتصف من الأسد فإن قوّته على سائر

الحيوان دون قوّته على الأسد وبدنه في ذلك أحمل لوّقع السّلاح ولا يعرض له الببر وقد أيقنا أنّهما ليسا من
بابته فلا يعرض لهما لسلامة ناحيته وقلة شرّه وهما لا يعرضان له لما يعرفان من أنفسهما من العجز عنه وأما
البهائم الثلاث اللواتي ذكرناها فإنها فوق الأسد والنمر .

والببر هندي أيضاً مثل الفيل وأما الكركدن فلا يقوم له سبع ولا بهيمة ولا يطمع فيه ولا يروم ذلك منه .
مبارزة الجاموس للأسد وأما الجاموس والأسد فخيرني محمد بن عبد الملك أن أمير المؤمنين المعتصم بالله أبرز
للأسد جاموسين فغلباه ثم أبرز له جاموساً ومعها ولدها فغلبته وحمّت ولدها منه وحصنته ثم أبرز له جاموساً

وَحَدَّه فَوَائِهُ ثُمَّ أَدْبَرَ عَنْهُ .

هذا وفي طبع الأسد الجرأة عليه لأنه يعدّ الجاموسَ من طعامه والجاموسُ يعرف نفسه بذلك فمع الأسد من الجرأة عليه على حسب ذلك

ومع الجاموس من الخوف على قنر ذلك وفي معرفة الأسد أن له في فمه من السلاح ما ليس لشيء سواه وفي معرفة الجاموس بعدم ذلك السلاح منه فمعه من الجرأة عليه بمقدار ما مع الجاموس من التهيب له فيعلم أنه قد أعطي في كفه ومخالبه من السلاح ما ليس لشيء سواه ويعلم الأسد والجاموسُ جميعاً أنه ليس في فم (الجاموس ويده وظلفه من السلاح قليل ولا كثير فمع الأسد من الجرأة عليه ومع الجاموس من الخوف منه على حسب ذلك ويعلم الأسد أن بدنه يُموج في إهابه وأن له من القوة على الوثوب والضرب والحضر والطلب والهرب ما ليس في الجاموس بل ليس ذلك عند الفهد في وثوبه ولا عند السمع في سرعة مره ولا عند الأرنب في صعداء ولا هبوط ولا يبلغه نقران الظبي إذا جمَعَ جراميزه ولا ركض الخيل العتاق إذا أُجيد إضمارها والجاموسُ يعرف كل ذلك منه .

ومع الجاموس من التكوّص عنه بقدر ما مع الأسد من الإقدام عليه ويعلم أنه ليس له إلا قرنه وأن قرنه ليس في حدة قرون بقر الوحش فضلاً عن حدة أطراف مخالب الأسد وأنيابه

وأن قرنه مُبْتَدَلٌ لا يَصَانُ عن شيءٍ ومخالب الأسد في أكامام وصوان .
وإذا قوي الجاموسُ مع هذه الأسباب المجبنة على الأسد مع تلك الأسباب المشجعة حتى يقتله أو يعرّده كان قد تقدّمه تقدماً فاحشاً وقد علاه علواً ظاهراً فلذلك قدّمنا الجاموسَ وهو بهيمة وقدّمنا رؤساء البهائم على رؤساء السباع هذا سوى ما فيها من المرافق والمنافع والمعاون .
والجاموس أجزع خلق الله من عضّ جرجسة وبعوضةٍ وأشدّه هرباً مِنْهُمَا إلى الماء وهو يمشي إلى الأسد رَحِيّاً البال رابط الجأش ثابت الجنان فأما الفيل فلم يولد الناسُ عليه وعلى

مغالبة الفيل للأسد

والهند أصحابُ البُيور والقبول كما أن الثوبة أصحابُ الزرافات دونَ غيرهم من الأمم وأهل غانة إنما صار لباسهم جلودَ النمور لكثرة النمور بها إلا أنها على حالٍ موجودةٍ في كثيرٍ من البلدان .
وقد ذكروا بأجمعهم قوّة الفيل الوحشيّ على الأسد وقالوا في الفيلة الأهلية إذا لقيت عندنا بالعراق الأسد وجعنا بينهما قالوا : أما واحدة فإن ذكور الفيلة لا تكاد تعيشُ عندكم وأنيابها التي هي أكبرُ سلاحها لا تنبتُ في بلادكم ولا تعظمُ ولا تريدُ على ما كانت عليه ما أقامت في أرضكم وهي أيضاً لا تتنازع عندكم وذلك من شدة مخالفة البلدة لطبائعها ونقضها لقواها وإنما أسرع إليها الموتُ عندكم للذي يعتريها من الآفات والأعراض في دوركم فاجتمعت عليها خصال أول ذلك أنها مع الوحش وفي صميم بلادها أجراً وأقوى وأشهّم نفساً وأمضى فلما اصطدناها بالجيل وصيرناها مقصورة أهلية بعد أن كانت وحشية وفي

غير غذائها لأنها كانت تشرب إذا احتاجت وتأكل إذا احتاجت وتأخذ من ذلك على مقادير ما تعرف من موقع الحاجة فلما صارت

إلى قيام العبيد عليها والأجراء بشأنها والوكلاء بما يصلحها دخل ذلك من النقض والخور والخطأ والتقصير على حسب ما تجد في سائر الأشياء ثم لم نرض بذلك حتى نقلناها من تلك البلدة على إنكارها لتلك اللة فصيرناها إلى الضد بعد أن كانت في الخلاف .

وقد علمنا أن سبيلها سبيل سائر الحيوان فإن الإبل تموت ببلاد الروم وتهلك وتسوء حالها والعقارب تموت في مدينة حمص والتماسيح تموت إن نُقلت إلى دجلة والفرات والناس يصيبهم الجلاء فيموتون ويتهافتون وقد علمنا أن الرّنج إذا أُخرجوا من بلادهم فما يحصل بالبصرة عندنا منهم إلاّ اليسير وكذلك لو نقلوا إليكم بزر الفلّفل والسّاج والصنّدل والعود وجميع تلك الأهضام فما امتناع نبات العاج ببلادكم إلاّ كامتناع نبات الآبنوس وإن كان يثبت في حيوان والآخر في أرض .

فلا يفتخرن مفتخر في الأسد في هذه البلدة إذا قاوم الفيل والأسد هاهنا في بلاده وفي الموضع الذي تتوقّر أموره عليه لأنّ أسد العراق هي الغاية وأقواها أسد السّوداء ثم أسد الكوفة ولأنّ الفيلة عندكم أيضاً

ترى عندكم السنّانير وقد جعل الله في طبع الفيل الهرب من السنّور (

والوحشة منه كما أن بعض شجعانكم يمشي إلى الأسد ويقبض على الثعبان ولا يستطيع التّظر إلى الفأر والجرذان حتى يهرّب منها كلّ الهرب ويعتريه من التقضة واصفرار اللّون ما لا خوف عبد الله بن خازم من الجرذ وذكر عليّ بن محمد السّميري قال : بينما عبد الله بن خازم السّلميّ عند عبيد الله بن زياد إذ أدخل على عبد الله جرد أبيض ليُعجّب منه فأقبل عبيد الله على عبد الله فقال : هل رأيت يا أبا صالح أعجّب من هذا الجرذ قط وإذا عبد الله قد تضاعل حتى صار كأنه فرخ واصفرّ حتى صار كأنه جرادة ذكرّ فقال عبيد الله : أبو صالح يعصي الرّحمن ويتهاون بالشيطان ويقبض على الثعبان ويمشي إلى الأسد ويلقى الرّماح بوجهه وقد اعتراه من جرّذ ما ترون أشهد أنّ الله على كلّ شيء قدير .

خوف الفيل من السنور

وإذا عاين الفيل الأسد رأى فيه شبه السنور فيظنّ أنه سنور عظيم فلا يبلغ منه مقدار تلك المناسبة وذلك الشبه ومقدار ذلك الظنّ ما يبلغ رؤية السنور نفسه وليس هربُه منه من جهة أنّه طعام له وأنّه إن ساوره خافه على نفسه وإن كان في المعنى يرجع إلى أنّه طعام لصغار السّباع وكبارها وهل قتل أسد قطّ فيلاً ومتى أكله وإنّه مع ذلك لرُبما ركّله الرّكّلة فيأمنه أن يقتله وإمّا أن يذهب عنه هارباً في الأرض وإمّا أن يُجلّيه . وآية حُجّة على الفيل في أن يرى سنوراً فينفّر منه فالأسد يُشار إليه بشعلة من نار أو يُضرب له بالطست فيهرب منه فإنما هذا كسحو تفزّع الفرس من كلّ شيء يراه في الماء وهو عطشان فيأباه . ويزعم ناسٌ من أصحاب الخيل أنّ الفرس ليس يضرب بيديه في الماء الصافي ليثور له لأنّ الماء الكدر أحبُّ

إليه وما هو إلا كالثور الذي يحب الصافي ويختاره ولكنه إذا وقف على الماء الصافي رأى فيه ظله وظل غيره من الأشخاص فيفرغه ذلك فلمعرفته بأن الماء الكدر لا تتصور فيه الصور يضرب بيديه هذا قول هؤلاء وأما صاحب

المنطق وغيره من يدعي معرفة شأن الحيوان فإنه يزعم أن الفرس بالماء الكبر أشد عجباً منه بالماء الصافي كما أن الإبل لا يعجبها الماء إلا أن يكون غليظاً وذلك هو الماء التمر عندهم وإنما تصلح الإبل عندهم على الماء الذي تصلح عليه الخيل .

تداوي الحبشة والنوبة بأضراس خيل الماء وأعفاجها ويزعم من أقام ببلاد السودان أن الذين يسكنون شاطئ النيل من الحبشة والثوبة أنهم يشربون الماء الكبر ويأكلون السمك النيء فيعتر بهم طحال شديد فإذا شدوا على بطونهم ضرساً من أضراس خيل الماء وجدوه صالحاً لبعض ما يعرض من ذلك ويزعمون أن أعفاج هذا الفرس دفاع صاحب الأسد وقال بعض من ينصر الأسد : إن الأسد في الهند أضعف بل هي ضعيفة جداً والفيل في بلادهم أقوى والوحشي منها أجراً والمغتلّم لا يقوم له إلا الكركدن وإنه ليهجم عليه فيحجم عنه حتى

تذهب عنه سكرة الغلّمة فيرجع إلى معرفة حال الكركدن فلا يطور طواره ولا يحل بأداني أرضه .
وأما الفيل فإذا كان غير هائج والأسد في غير أيام هياجه ثم يكون الأسد عراقياً ويكون سوادياً ويكون من أجمّة أبريقيا فإن الفيل لا يقوم له .

قول صاحب الفيل

وقال صاحب الفيل : الفيل لا يُعائن أسداً أبريقياً حتى تفسخه البلدة وتهديمه الوحشة ويُمرضه الغداء ويُفسده الماء وهو لا يصل إلى ذلك المكان حتى يجمع بينه وبين ذلك الأسد وحتى يسمع تجاوب السنابير وتضاغيا وهو أسمع من قراد فيغيب ذلك في صدره وتزايد تلك الوحشة في نفسه فمتى رأى أسداً قائماً فربما دعت الوحشة منه والبغض المجعول فيه إلى الصدود والذهاب

عنه فيظن كثير من الناس أن ذهابه هرب وأن صدوده جبن وإنما هو من الوحشة منه والكراهة لمنظرته وربما اضطره الأسد بحرقه حتى يُنقَضَ حلمه ويُغَلَبَ وقاره فيخبطه خبطة لا يفلح بعدها أبداً .
فخر صاحب فرس الماء قال صاحب الفرس : زعمتم أن الأسد في الأرض كالعقاب في الهواء وكالتمساح في الماء وأن تمساحاً وأسداً اعتلجا على شريعة فقتل كل واحد منهما صاحبه وكان التمساح ضرب الأسد بذنبه في الشريعة وضعم الأسد رأسه فماتا جميعاً .

قال : والفرس المائي بالنيل يقتل التماسيح ويقهرها ويأكلها ولا يساجلها الحرب ولا تقع بينهما مغالبة ومجاذبة وتكون الأيام بينهما ذولاً فهذه فضيلة ظاهرة على الأسد وشرف فرس الماء)
راجع إلى فرس الأرض فإن كان فرس الأرض لا يقوى على الأسد ولا على التمر ولا على البئر فإن ابن

عمّه وشكله في الجنس قد قوِيَ على التمساح وهو رئيسُ سُكان الماء .
قالوا : أمّا واحدة فإن التمساح ليس برئيسِ سُكان الماء إلا أن تريد بعضَ سكان الأودية والأنهار والخُلجان
والبحيرات في بعض

المياه العذبة والكوسج واللّخم والسرطان والدُّلّفين وضروبُ من السباع مما يعيش السّمك ليس التمساح
من بابهِ وعلى أن التمساح إنما يأكله ذلك الفرسُ وهو في الماء وليس للتمساح في جوف الماء كبيرُ عملٍ إلا
أن يحتمل شيئاً بذنبه ويحتجّه إليه ويدخله الماء وربما خرج إلى الأرض للسّفاد ولحضن البيض فلا يكون
على ظهر الأرض شيءٌ أذلُّ منه وذلك على ظهر الأرض شبيهٌ بذلّ الأسد في وسط الماء العَمُر ولعمري أن لو
عرّض له هذا الفرسُ في الشرائع فغلبه لقد كان ذلك من مفاخره فلذلك لم تُذكر الخيل في باب الغلبة
والقتال والمساجلة والانتصاف من الأعداء .

والفرسُ قد يُقاتل الفرسَ في المُرُوج إذا أراد أن يحميَ الحُجُور كما يحمي العيرُ العانة ويقاثل دونها كلّ عيرٍ
يريد مشاركتها فيها وهذا شيءٌ يعرض لجميع الفُحولة في زمن الهيج .
وقد يصاولُ الجملُ الجملَ فرُبما قتلَ أحدهما صاحبه ولكنّ هذه الفُحولة لا تعرض لشيءٍ من الحيوان في غير
هذا الباب .

وإن أرادَ الفرسُ أسدً فليس عنده من إحراز نفسه وقَتْل عدوّه ما عند الجاموس فإن فضّله الجاموسُ بقرنيه
فإن السّلاح الذي في فم الفرس لو استعمله لكان سلاحاً ولو استدبّر الأسد فركله ورمحه وعَضّه بفيه
لكان ذلك ممّا يدفع عنه ويحمي لحمه .

وليس للجاموس في أظلافه وفي يديه ورجليه وفي فمه سلاح فقد دلت الحال على أن مدار الأمر إنّما هو في
شجاعة القلب .

وفي هذا القياس أن الصّقر إنّما يواثب الكُرْكِيّ لمكان سلاحه دون شجاعة القلب التي يقوى بها وسأقرب
ذلك عندك ببعض ما تعرفه لا تشكّ أن الهرَّ أقوى من الهرّة في كلّ الحالات حتى إذا سفدها فحدثت بينهما
بغضاء ومطالبة حدثت للهرّة شجاعةٌ وللهرّ ضعف فصارت الهرّة في هذه الحال أقوى منه وصار الهرّ أضعف
ولولا أنّه يُمعن في الهرب غاية الإمعان ثمّ لحقته لقطّعته وهو مستخذٍ .

ومثل ذلك أن الجرذ يُخصّي ويرمى به في أنابيب التّجار

وفي الأقرحة والبيادر فلا يدعُ جرذاً (

ضخماً قد أعيا الهرّ وابن عرسٍ إلا قتلَه وإن كان أعظم منه وأشدّ .

والخصيُّ من كلّ شيءٍ أضعفُ قوّةً من الفحل إلا الجرذ فإنه إذا خصّي أحدث له الخصاء شجاعةً وجراءة
وأحدثت له الشّجاعة قوّةً وأحدث علم الجرذان بحال الخصاء لها جُبناً وأحدث الجُبْن لها ضعفاً .

والرّجلُ الشّديدُ الأسر قد يفرّغ فتحلُّ قوَاهُ ويسترخي عصبه حتّى يضربه الصبيُّ والدّئبُ القويُّ من ذئاب

الخمير يكون معه الذئب الضعيف من ذئاب البراري فيصيب القويَّ خدشً يسيراً فحينَ يشم ذلك الذئبُ الضعيف رائحةَ الدَّم وثب عليه فيعتري ذلك القويَّ عند ذلك من الضَّعف بمقدار ما يعتري الضعيف من القُوَّة حتى يأكله كيف شاء .

والأسد الذي يعتريه الضَّعف في الماء العَمَر حتى يركب ظهره الصبيُّ ثم يقبض على أذنيه فيعطه وقد يفعل به ذلك غلمان السَّوَاد وشاطئ الفرات إذا احتملت المدودُ الأسدَ لا تملك من أنفُسها شيئاً وهو مع ذلك يشدُّ على العسكر حتى يفرقه فرَّقَ الشَّعرَ ويطويه طيَّ السَّجَل ويهارشُ النمرَ عامَّةً يومه لا يقتلُ أحدهما صاحبه وإن كان الجمل الهائجُ باركاً أتاه فضرب جنبه ليشنيَ إليه عنقه كأنه يريد عضه فيضربُ بيساره إلى مشفره فيجذبه جذبةً يفصل بها بين دأيات عنقه وإن ألقاه قائماً وثب وثبة فإذا هو في ذروة سنامه فعند ذلك يصرفه كيف شاء ويتلَّعب به كيف أحبَّ .

ونحن لا نشكُّ أنَّ للفرس تحتَ الفارس غناءً في الحرب لا يُشبهه غناءٌ ولذلك فضَّل في القسَم وإنما ذلك بتصريف رايته له وقتاله عليه فأما هو نفسه فإنه إذ كان أوفرَ سلاحاً من الجاموسِ

وخام عن قرنه واستسلم لعدوه فإنه من هاهنا لا يقدم على غيره ولم يكن الله ليُجعل انحصارَ جميع أقسام الخير في شخص واحد ولكن لما أن كان الفرس عليه تقاتل الأنبياءُ وأتباع الأنبياء ملوك الكفار وأتباع ملوك الكفار حتى يقمع الله الباطلَ ويظهر الحقَّ فلذلك قدَّمناه على جميع البهائم والسَّباع وإنما تقدَّمه على الوجه الذي قدَّمه الله فيه .

الرد على صاحب فرس الماء واعترضَ على أصحاب فرس الماء معترضون فقالوا : الفرسُ لا يكون إلاَّ بهيمةً والبهائم لا تصيد (والخيْلُ في إطعامها اللَّحْم ضررٌ * نطعمُها اللَّحْم إذا عَزَّ الشَّجرُ) في كلمته التي يقول فيها : (

اللهُ من آياته هذا القمرُ وقد تُعلَف في تلك الحالاتِ اللَّحْم اليابس وهسيسَ السَّمك فأما الهسيس فلخيول أهل الأسياف خاصَّة .

الرد على صاحب فرس الماء قيل لهؤلاء المعترضين على فرس الماء : وقد يكون في الخلق المشترك وغير المشترك ما يأكل اللَّحْم والحبَّ فالمشترك مثل الإنسان الذي يأكل الحيوان والنبات وهذا العصفور من الخلق المشترك لأنه يأكل الحبَّ ويصطاد النمل الطَّيار والأرضة فيأكلها ويأكل اللَّحْم والدَّجاج تأكل اللَّحْم والدَّيدان وتحسُّ الدَّم وتلقط الحبَّ والغراب لا يدعُ شيئاً إلاَّ أكله .

وما خرج من حدِّ المشترك وهو كنعو الذئب والضَّبِّ وكنحو الشَّاهين والصَّقر فإن هذه وأشباهها لا تعرف إلاَّ اللَّحْم والحمامُ وضروبٌ من الطير لا تعرف إلاَّ الحبَّ والنبات والمشارك أجمعُ مما هو غير مشترك .

والسمكة تأكل الطين والتبات وتأكل الجيف التي تصيب في الماء وتُصاد بضروب من الحيوان والجريي يأكل الجرذان ويصيدها وهو آكل لها من السننير

والحيات والكلاب السلوقية ويأكل الجريي جميع جيف الموتى والسمك يأكل السمك ويأكل من كل حب ونبات يسقط في الماء .

وإن استفهم مستفهم أو اعترض معترض فقال : وكيف يأكل الجريي الجرذان والجرذان أرضية بيوتية والجريي مائي قيل له : يخبرنا جميع من يبيت في السفن وفي المشارع في فيض البصرة عندنا أن جرذان الأنابير تخرج أرسالا بالليل كأنها بنات عرس والجريي قد كمن هن وهو فاتح فاه فإذا دنا الجرذ من الماء فعب فيه التهمه ليس دون ذلك شيء بشجر فم واسع يدخل في مثله الضب الهرم وإنما يضع بخطمه على الشريعة . وسنذكر شيئا من الطرف والحكم والأشعار إذ كنّا قد ذكرنا من الكلام في الحيوان صدرا صالحا وأبوابا جامعة ثم نعود في ذكر الفيل إن شاء الله والله الموفق .

شيء من الطرف والحكم والأشعار قال الشاعر : (ونحن أناس لا حجاز بأرضنا ** مع الغيث ما نلقى ومن هو غالب)

(وإن قصرت أسيافنا كان وصلها ** خطانا إلى أعدائنا فنضارب) (ترى كل قوم ينظرون إليهم **)
(وتقصّر عما يبلغون الذوائب) (لكل أناس سلم يرتقى به ** وليس إلينا في السلايل مطلع) (ومنزلنا الأعلى حجاز لمن به ** وكل حجاز إن هبطناه بلقع) (وينفر منا كل وحش وينتمي ** إلى وحشنا وحش البلاد فيربع) وقال حسّان بن ثابت : (ونَدْمَانِ صِدْقٍ تَقْطُرُ الْخَيْرَ كَفَّهُ ** إِذَا رَاحَ فَضْفَاضَ الْعَشِيَّاتِ خِضْرُمَا) (وصلت به كفي وخالط شيمتي ** ولم أكن عَصَا في الندامى ملوما) (لنا حاضر فعم وباد كأنه ** شمرايح رَضَوَى عِزَّةً وَتَكْرُمًا) (ولدنا بني العنقاء وابني محرق ** فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا) (لنا الجففات الغر يلمعن في الضحى ** وأسيافنا يقطرن من نجدة دما) وقال أعرابي غزلي : (بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له ** ببعض الأذى لم ينر كيف يجيب) (ولم يعتذر عن البريء ولم تزل ** به سكتة حتى يُقال مُريب) وقال أعرابي من هذيل : (رعاك ضمان الله يا أم مالك ** ولله أن يسقيك أولى وأوسع)

قطعة من أشعار الاتعاظ قال الشاعر : (عليك من امرك ما تستطيع ** وما ليس يُغنيك عنه فذر) (وللصمت أجمل في حينه ** من القول في خطل أو هذر) (وكم غائب كان يخشى الردى ** فعاد وأودى الذي في الحضر) (وبيننا الفتى يُعجب الناظري ** ن مال إلى عطفه فانقعر) (وبعض الحوادث إن يُيقه ** فإن الفنا شائه والكبر) (وكم من أخي نجلة ماهر ** تعلقه الدهر حتى عثر) (وكم من أخي عشرة مُقتر ** تأتي له الدهر حتى المجبر) وقال علقمة بن عبدة : (وكل قوم وإن عروا وإن كثروا ** عريفهم بأثافي الشر مرجوم) (والحمد لا يشتري إلا له ثمن ** لما يضمن به الأقوام معلوم) (والجهل منقصة شين لصاحبه ** والحلم آونة في الناس معدوم) (وكل حصن وإن طالت سلامته ** على دعائمه لا بد مهودم) (ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه ** أتى توجّهه والحروم محروم) وقال عدي بن زيد العبادي وهو أحد من قد

حُمِلَ عَلَى شعره الحَمْلُ الكثير ولأهل الحيرة بشعره عنايةً وقال أبو زيد النحوي : لو تَمَيَّت أن أقول الشعر ما قلت إلا شعر عدي بن زيد :

(كَفَى زاجراً للمرء أيامَ عمره * تروح له بالوعاظِ وتغتدي) (فنفسك فاحفظها من الغيِّ والرَدَى * متى تُعوها تُعو الذي بك يفتدي) (فإن كانت النعماءُ عندك لامرئ * فمثلاً بها فاجزِ المُطالب أو زدِ) (عن المرء لا تسأل وأبصرُ قرينه * فإنَّ القرينَ بالمقارنِ مُقتدي) (ستدرك من ذي الجهل حَقَّ كله * بحلمك في رفقٍ ولَمَّا تشدَّد) (وظلم ذوي القرَبى أشدَّ عداوةً * على المرء من وَقَعَ الحُسامُ المهتدِ) (وفي كثرة الأيدي عن الظلمِ زاجرٌ * إذا خَطَرَتْ أيدي الرِّجالِ بمشهدِ) قال المهلب بن أبي صفرة : عَجِبْتُ لمن يشتري الممالكِ بماله كيف لا يشتري الأحرارَ بمعرُوفه .

وقال عبد الله بن جعفر لرجلٍ يُوصيه : عليك بصُحبة مَنْ إن صحبته زَانَك وإن تركته شَانَك إن سألتَه أعطاك وإن تركته ابتدأك إن رأى منك سيئة سَدَّها وإن رأى حسنةً عَدَّها وإن وَعَدَكَ لم يُجْرِضْكَ وإن أَلَجَّتْ إليه لم يرفُضْكَ .

وسأل يزيد بن المهلب رجلاً من أصحابه حاجةً وذكرَ له خَلَّةً فقال : أوجَّه بها إليك ثم حَمَلَ إليه خمسين ألفَ درهم ثم كتب إليه : قد وجَّهْتُ إليك بخمسين ألفَ درهم لم أذكرها تمَنُّاً ولم أدعُ ذكرها تجبُّراً ولم أقطعُ بها لك رجاءً ولم أرِدُ بها منك جزاءً .

وقيل ليزيد : ما أحسنُ ما مُدِحْتَ به قال : قول زياد الأعجم : (فتى زاده السُّلطان في الحمد رغبة * إذا غيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليلٍ) شبيهة بقول الآخر : (فتى زاده عزُّ المهابة ذلَّة * وكلَّ عزيزٍ عنده متواضع) (وقال الآخر وهو يدخل في باب الشكر : (شوقي إليك يا أبا العباس * طير ما أبليتني نعاسي) (إني لمعروفك غير ناس * والشكرُ قدماً في خيار النَّاسِ) أبيات لبعض الشعراء العميان أنشدني ابن الأعرابيَّ لرجل من بني قريع يرثي عينه ويذكر طيباً : (لقد طُفْتُ شرقيَّ البلادِ وغربها * فأعيا عليَّ الطبُّ والمتطبُّ) (يقولون إسماعيلُ نَقَّابٌ أعين * وما خير عينٍ بعد ثَقَبٍ بمثقب) (ولكِنَّه أيامَ أنظرُ طيبٌ * بعيني قُطاميَّ علا فوق مَرَقَبِ) (كأنَّ ابنَ حَجَلٍ مدَّ فضلُ جناحه * على ماءِ إنسانيهما ماءَ طحلبِ) وقال الخُرَيمِيُّ : (كفى حزناً أن لا أزورَ أحبتي * من القُربِ إلَّا بالتكَلُّفِ والجهْدِ)

(وأني إذا حُيِّتُ ناجيتُ قاندي * ليعدلي قبل الإجابة في الردِّ) (إذا ما أفاضوا في الحديث تقاصرت * بي النَّفسُ حتى ما أحيرَ وما أبدي) (كأني غريبٌ بينهم لستُ منهم * فإن لم يحولوا عن وفاءٍ ولا عهدِ) (أقاسي خطوباً لا يقوم بنقلها * من الناسِ إلَّا كلُّ ذي مرَّةٍ جلدِ) (باب في الحاجة قال ابن الأعرابي : قيل للأحنف : أتيناك في حاجة لا ترزؤك ولا تنكوك فقال : ليس مثلي يؤتى في حاجة لا ترزأ ولا تنكأ . وقال أعرابيٌّ لرجل : إني لم أصنُ وجهي عن الطُّلبِ إليك فصنُ وجهك عن ردِّي وأنزلي من كرمك بحيث وجهي من رجائك .

وقال أبو عقيل بن دُرُست : لم يَقْضِ ذِمَامَ التَّأْمِيلِ ولم يَقُمْ بِجُرْمَةِ الرَّجَاءِ إِلَّا مَنْ أَعْطَاهَا حَقَّهَا وَوَقَّاهَا حَظَّهَا وَعَرَفَ قَدْرَهَا وَكَيْفَ يَسْتَبْقِي النِّعْمَةَ فِيهَا وَكَيْفَ الشُّكْرُ عَلَى أَدَاءِ حَقِّهَا بِالْبَشْرِ عِنْدَ الْمَسْأَلَةِ وَقَلَّةِ التَّضَجُّرِ عِنْدَ الْمَعَاوِدَةِ وَتَوْكِيدِ الضَّمَانِ عِنْدَ الْعِدَّةِ وَانْتِهَازِ الْفُرْصَةِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ وَيَكُونُ التَّجَحُّجُ الْمَعْجَلُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ عُذْرِ الْمَصْدَقِ وَحَتَّى يَرَى أَنَّ حَقَّكَ عَلَيْهِ فِي بَذْلِ وَجْهِكَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ حَقِّهِ عَلَيْكَ فِي تَحْقِيقِ

أَمْلَكَ فِيهِ ثُمَّ إِيْجَابِ سِتْرِهَا فَإِنَّ سِتْرَهَا هُوَ)

المخبر عنها والدالُّ عليها والزائد في قدرها والمتوَلِّي لنشرها .

وقال الشاعر : (فَإِنَّ إِحْيَاءَهَا إِمَاتُهَا ** وَإِنَّ مَتًّا بِهَا يَكْدُرُهَا) باب في الوعد والوفاء به والخلف له قال عمرو بن الحارث : كُتِبَتْ مَتَى شَيْءٌ أَنْ أَجِدَ صَفَةً مِنْ يَعِدُ وَيُنْجِزُ وَجَدْتُهُ فَقَدْ أَعْيَانِي مِنْ يَعِدُ وَلَا يَنْجِزُ . وقال أبو إسحاق النَّظَامُ : كُنَّا نَلْهُو بِالْأَمَانِيِّ وَنَطِيبُ أَنْفُسًا بِالْمَوَاعِيدِ فَذَهَبَ مَنْ يَعِدُ وَقَطَعْنَا الْهَمُومَ عَنْ فَضُولِ الْأَمَانِيِّ .

وقال الشاعر : (قَدْ بَلَوْنَاكَ بِحَمْدِ اللَّهِ إِنْ أَغْنَى الْبِلَاءُ ** فَإِذَا جُلُّ مَوَاعِيدِكَ وَالْجَحْدُ سِوَاءُ)

وذمَّ أعرابيُّ رجلاً فقال : إِذَا أَوْعَدَ صَدَقَ وَإِذَا وَعَدَ كَذَبَ وَيَغْضَبُ قَبْلَ أَنْ يُشْتَمَ وَيَجْرِمُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ . وقال عبدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ الرِّقَيَّاتِ : (اخْتَرْتُ عَبْدَ الْعَزِيزِ مَرْتَبَا ** وَاللَّهُ لِلْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ قَسَمَا) (مِنْ الْبَهَائِلِ مِنْ أُمِّيَّةٍ يَزِي ** دَاؤُ إِذَا مَا مَدَحْتَهُ كَرَمَا) (جَاءَتْ بِهِ حُرَّةٌ مَهْدَبَةٌ ** كَلْبِيَّةٌ كَانَ بَيْتُهَا دِعْمَا) (هُنَّ الْعَرَانِيْنَ مِنْ قِضَاعَةٍ أَمْ ** نَالُ بَنِيهِنَّ تَمْنَعُ الذِّمَّا) (تُكْنِيهِ خِرْقَةُ الدَّرْفَسِ مِنَ الشَّمِّ ** سِ كَلَيْثٍ يُفْرِجُ الْأَجْمَا) (يَقُوتُ شِبْلَيْنِ فِي مَغَارِهِمَا ** قَدْ نَاهَزَا لِلْفِطَامِ أَوْ فُطِمَا) (لَمْ يَأْتِ يَوْمٌ إِلَّا وَعِنْدَهُمَا ** لَحْمُ رَجَالٍ أَوْ يَوْلَغانِ دِمَا) (فَذَاكَ أَشْبَهْتُهُ ابْنَ لَيْلَى وَلِ ** كَنَّ ابْنَ لَيْلَى يَفُوقُهُ شَيْمًا)

(مَنْ يَهَبُ الْبُخْتَ وَالْوَلَانَدَ كَالْ ** غِزْلَانِ وَالْحَيْلَ تَهْلِكُ اللَّجْمَا) (يُنْكَرُ لَا إِنْ لَا لِمَكْرَةٍ ** مِنْ فِيهِ إِلَّا مُحَالِفًا نَعْمَا) وقال زيادة بن زيد : (فَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ الْأُمُورَ إِذَا اغْتَدَتْ ** عَلَيْكَ رَتَاجًا لَا يُرَامُ مُضْئِبًا) (كَفَاكَ الْغِنَى يَوْمًا إِذَا مَا تَقَلَّبْتَ ** بِهِ صَيْرَفِيَّاتُ الْأُمُورِ تَقَلُّبًا) (وَإِنِّي لِمُزَوَّرٌ قَلِيلٌ تَقَلُّبِي ** لَوْجِهِ أَمْرِي يَوْمًا إِذَا مَا تَجَنَّبَا) (قَلِيلٌ لِيَوْمِ الشَّرِّ وَيَكُ تَعْرُضِي ** فَإِنْ حَلَّ يَوْمًا قَلْتُ لِلشَّرِّ مَرَحَبًا) (مَلَكْنَا وَلَمْ نُمْلِكْ وَقُدْنَا وَلَمْ نُقَدِّ ** وَكَانَ لَنَا حَقًّا عَلَى النَّاسِ تُرْتُبَا) وقال هُدْبَةُ الْعُدْرِيِّ : (فَأُبِ بِي إِلَى خَيْرٍ فَقَدْ فَاتَنِي الصَّبَا ** وَصِيحَ بَرِيعَانَ الشَّبَابِ فَنَفَّرَا) (أُمُورٌ وَالْوَانُ وَحَالٌ تَقَلَّبْتُ ** بِنَا وَزَمَانٌ عُرْفُهُ قَدْ تَنَكَّرَا) (أَصْبِنَا بِمَا لَوْ أَنَّ سَلَمَى أَصَابَهُ ** لَسَهَّلَ مِنْ أَرْكَانِهِ مَا تَوَعَّرَا)

(فَإِنْ نَجَّ مِنْ أَهْوَالٍ مَا خَافَ قَوْمُنَا ** عَلَيْنَا فَإِنَّ اللَّهَ مَا شَاءَ يَسَّرَا) (وَإِنْ غَالَنَا دَهْرٌ فَقَدْ غَالَ قَبْلَنَا ** مَلُوكَ بَنِي نَصْرٍ وَكِسْرَى وَقَيْصَرَا) (وَذِي نِيرَبٍ قَدْ عَابَنِي لِينَالِي ** فَأَعْيَا مَدَاهُ عَنْ مَدَايِ فَقَصَّرَا) (فَإِنْ يَكُ دَهْرٌ نَالِي فَأَصَابَنِي ** بَرِيْبٌ فَإِنْ تُشْوِي الْحَوَادِثُ مَعْشَرَا) (فَلَسْتُ إِذَا الضَّرَاءُ نَابَتْ بِجِبَا ** وَلَا جَزَعَ إِنْ كَانَ دَهْرٌ تَغْيَرَا) وَكَانَ هُدْبَةُ هَذَا مِنْ شَيَاطِينِ عُذْرَةٍ وَهَذَا شَعْرُهُ كَمَا تَرَى وَقَدْ أُمِرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ وَشَدِّ

خِناقه و قليلاً ما ترى مثلَ هذا الشَّعر عند مثل هذه الحال وإنَّ امرأً مجتمَعَ القلبَ صحيحَ الفكر كثير الرين
عَضَبَ اللِّسان في مثل هذه الحال لَنَاهِيكَ به مطلقاً غير موثق وإدعاً غير خائف ونعوذُ باللَّهِ من امتحان
الأخيار .

وهو القائلُ في تلك الحال : (فلا تعذليني لا أرى الدهر معتباً ** إذا ما مضى يومٌ ولا اللوم مرجعاً) (
ولكن أرى أن الفتى عرضة الردى ** ولاقي المنايا مصعداً ومفرعاً)

(وإن التقى خير المتاع وإنما ** نصيب الفتى من ماله ما تمتمعا) (فلا تنكحي إن فرق الدهر بيننا ** أغم
القفا والوجه ليس بأنزعا) (ضروبا للحييه على عظم زوره ** إذا القوم هشوا للفعال تمتمعا) (وأخرى إذا
ما زار بيتك زائرٌ ** زيا لك يوماً كان كالدهر أجمعاً) (سأذكر من نفسي خلائق جمّة ** ومجداً قديماً طالما قد
ترفعاً) (فلم أر مثلي كأوياً لدوائه ** ولا قاطعاً عرقاً سنونا وأحدعاً) (وما كنت ممن أرث الشر بينهم
** ولا حين جد الشر من تخشعا) وما قرأتُ في الشَّعر كشعر عبد يغوث بن صلاءة الحارثي وطرفة بن
العبد وهدبة هذا فإنَّ شعْرهم في الخوف لا يقصّر عن شعْرهم في الأَمْن وهذا قليلٌ جداً .

من أشعار الأعراب أنشدني ابنُ الأعرابيِّ في معنى قوله : كمخض الماء ليس له إناء وما كان مثلي يعتريك
رجاؤه ولكن أساءت هِمّة من فتى مَحْضٍ (وإني وإشارافي إليك بهمّتي ** لكالمترجي زُبدًا من الماء بالمنخض)
وقال الآخر في مثل قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : (فلولاً اتقاء الله قلتُ مقالة ** تسير مع الرُكبان
أبردّها يغلي) (ابن لي فكن مثلي أو ابتغ صاحباً ** كمثلك إني مُبتغٍ صاحباً مثلي) (ولا يلبثُ الأصحابُ
أن يتفرَّقوا ** إذا لم يؤلف رُوح شكلٍ إلى شكلٍ) فقال : (لكل امرئ شكلٌ يقرُّ بعينه ** وفُرّة عينِ الفسَل
أن يتبع الفسلا) (وتعرف في جُودِ امرئ جُودَ خاله ** ويندُل أن تلقى أخاً أمّه نذلاً)

(أبلغ بني ثعلٍ عني مُغلَلةً ** فقد أتى لك من نبيٍّ يأنصاج) (أمّا النهار ففي قيدٍ وسلسلةٍ ** واللَّيل في
جوفٍ منحوتٍ من السَّاج) وقال بعضُ اللصوص : (أقيّدُ وحْبَسٌ واغترابٌ وفرقةٌ ** وهجرٌ حبيب إن ذا
لَعظيمُ) (وإن امرأً دامت مَواثيقُ ودّه ** على عَشْرِ ما بي إنّه لكريمُ) (ومن المراثي المستحسنة قولُ حارثة
بن بدر الغداني يرثي زياداً ابن أبيه : (أبا المغيرة والدنيا مغيرةٌ ** وإن من غرّت الدنيا لمغرورُ) (قد كان
عندك للمعروف مَعْرِفةٌ ** وكان عندك للتَّكراء تنكيرُ) (وكت ثَوْتِي فتَوْتِي الخير من سعةٍ ** إن كان
قبرُك أَمْسَى وهو مهجورُ) (صَلَّى الإلهُ على قبرِ بِمَحْنَةٍ ** دُونَ الثَّوْيَةِ يسفي فوقهُ المورُ) وأنشد ابنُ
الأعرابيِّ : (وما حسَبُ الأَقْوامِ إلا فِعالهم ** ورُبَّ حَسِيبٍ الأَصْلِ غيرُ حَسِيبٍ)

وقال الآخر في مثله : (ليس الكريمُ بمن يدنسُ عِرْضه ** ويَرى مُروءته تكون بمن مضى) وقال عبد الله بن
معاوية بن عبد الله بن جعفر : (لَسْنَا وإن كُرِمَتْ أوائلُنا ** يوماً على الأحسابِ تَنَكُّلُ) (نَبْنِي كما كانت
أوائلُنا ** تَبْنِي ونَفْعَلُ مِثْلَ ما فَعَلُوا) وقال عُمر بن الخطَّاب : كفى بالمرء عيباً أن تكون فيه خلعة من ثلاث :

أن يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه أو يعيب شيئاً ثم يأتي مثله أو يؤذي جلسه فيما لا يعنيه .
ووصف أعرابيُّ رجلاً فقال : آخذُ النَّاسَ بما به أمرٌ وأثرُكهم لما عنه زجر .

من هجا امرأته قديم أعرابيُّ فحلفَ بطلاقِ امرأته على شيء فحث ثم هرب فقال : (لو يعلم الغمَّاء
منزلتيهما ** ما خوفي بالطلاقِ العاجلِ) (قد ملنا ومللتُ من وجهيهما ** عجفاءَ مرضعةٍ وأخرى حاملُ
(وقال الأقرع بن مُعاذ القُشيري : (لعمرك إنَّ المسَّ من أمِّ خالدٍ ** إليَّ وإنَّ ضاجعتها لبغيضُ) (إذا بُزَّ
عنها ثوبها فكأنما ** على الثوب غلٌّ عاذمٌ وبَعوضُ)

وقال أعرابيُّ يتألهُ لامرأته وما الأعرابُ وهذا المذهبُ ولكن كذا وقَعَ والله أعلمُ بكثيرٍ من (لولا مخافةُ ربِّي
أنَّ يعاقبني ** وأنها عدَّةٌ تُقضى وأوتارُ) (لقد جعلتُ مكانَ الطوقِ ذا شُطْبٍ ** وثبتُّ بعدُ فإنَّ اللهَ غفارُ)
وقال بعضُ المولدين : (تجهزي للطلاقِ وانصري ** ذاكِ جزاءَ الجوامحِ الشُّمسِ) (ليلتي حينَ بتُّ طالقةً
** ألدُّ عِندي من ليلةِ العُرسِ) وأنشدني ابنُ الأعرابيِّ لأعرابي : (قد قرنوني بعجوزِ جحمرش ** ناتية
النابِ كرومِ قنفرش) (كأنما دلاها على الفرش ** من آخر الليلِ كلابٌ قمتش) (وجلدها من حكها
القملِ برش ** كأن طي بطنها كرش) (قماء في حصنِ الضجيعِ تَتمش ** تخشخش الضبِ دنا
للمحترش) وقال رجلٌ من بني نُميرٍ لامرأته وكانت حصرية : (لعمري لأعرابيةً بدويةً ** تطلُّ برؤفي بيتها
الريحُ تحفُّ) (أحبُّ إلينا من ضيَّاكِ ضِفَّةٍ ** إذا رُفعت عنها المراويحُ تعرقُ) (كبطيخةِ البُستانِ ظاهرُ
جلدها ** صحيحٌ ويبدو داؤها حينَ تُفتقُ) (أنبتُ أن فتاةً كنتُ أخطبُها ** عرقوبها مثلُ شهرِ الصَّومِ في
الطولِ)

وأنشدني محمد بن يسير في امرأته أو في غيرها : (سقط : بيت الشعر) (أنبتُ أن فتاةً كنتُ أخطبُها **
عرقوبها مثل شهرِ الصَّومِ في الطولِ) (أسنانها مائةٌ أو زدن واحدةً ** كأنها حين يبدو وجهها غولُ) وإنما
أكتب لك من كلِّ بابٍ طرفاً لأنَّ إخراجك من بابٍ إلى بابٍ أبقى لنشاطك ولو كتبتُه بكماله لكان أكملَ
وأبلى ولكن أخافُ التَّطويلَ وأنتَ جديرٌ أن تعرفَ بالجملةِ التفصيلَ والآخرُ بالأوَّل . من هجته زوجته قالت
عصيمة الحنظليَّة : (كأنَّ الدَّارَ حين تكونُ فيها ** علينا حُفرةٌ ملئتُ دُخانا) (فليتك في سفينِ بني عبادٍ **
فتصبحَ لا تراك ولا تَرانا) (فلو أنَّ البُذورَ قبلن يوماً ** لقد أعطيتها مائةً هجانا) وقالت امرأةٌ من بني
ضبة لزوجها : (تراه أهوجٌ ملعوناً خليفته ** يمشي على مثلِ معوجِّ العراجينِ) (وما دعوتُ عليه قطُّ ألعنه
** إلَّا وأخرُ يتلوه بآمينِ) (فليته كان أرضُ الرُّومِ منزله ** وأني قبله صيرتُ بالصَّينِ)

(لعمرك ما إنَّ أبو وائلٍ ** إذا ذُكرَ القومُ بالطائلِ) (فيا ليتني لم أكنَ عرسه ** وعوجلتُ بالحدثِ العاجلِ
(وقالت امرأةٌ من بني زياد الحارثي : (فلا تأمروني بالتزوجِ إني ** أريد كرامَ النَّاسِ أو أتبتلُ) (أريد
فتى لا يملأُ الهولُ صدره ** يُريحُ عليه حلمه حين يجهلُ) (كمثل الفتى الجعدِ الطَّويلِ إذا عدا ** كعالية
الرَّمحِ الطَّويلِ أو أطولُ) وقالت امرأةٌ من باهلة : (أحبُّ الفتى ينفي الفواحشَ سمعه ** كأنَّ به كلُّ فاحشةٍ
وقراً) (سليمٌ دواعي الصَّنرِ لا باسطٌ أذى ** ولا مانعٌ خيراً ولا قائلٌ هُجراً) (كمثل الفتى الذُّهليُّ

تحسب وجهه ** إذا ما بدا في ظلمة طالعا بدرا) وقال لبید بن ربیعۃ : (إنما يحفظ النقي الأبرار ** وإلى الله يستقر القرار) (وإلى الله ترجعون وعند ** الله ورد الأمور والإصدار) (إن يكن في الحياة خير فقد أن ** ظرت لو كان ينفع الإنظار) وأنشدني الأصمعي قال : أنشدني رجل ولم يُسمه : (إذا ما بدا عمر و بدت منه صورة ** تدل على مكنونه يُقيل) (بياض خراسان وكنه فارس ** وجته رومي وشعر مفلل) (لقد ألفت أعضاء عمر و عصاة ** يدل عليها آخر القوم أول)

وقالت أخت ذي الرمة ترثيه : (تعزيت عن أوفى بغيلان بعده ** عزاء وجفن العين ملآن مترع) (ولم تنسي أوفى المصيات بعده ** ولكن نكء القرع بالقرح أوجع) وذو الرمة القائل : إذا قلت كأن فلم أجد مخرجا فقطع الله لساني .

وأنشد : (لا أتقي حسك الصغائن بالرقي ** فعل الدليل ولو بقيت وحيدا) (لكن أعد لها ضغائن مثلها ** حتى أدواي بالحقود حقودا) (كالخمر خير دوائها منها بها ** تشفي السقيم وتبرئ المنجودا) فأخذ الحكمي هذا فقال : (وكأس شربت على لذة ** وأخرى تداويت منها بها) (إن أياديك عندي غير واحدة ** جلّت عن الوصف والإحصاء والعدد) (وليس منها يد إلا وأنت بها ** مستوجب الشكر مني آخر الأبد) وقال الآخر : (سأشكر ما أبقاني الله خالداً ** كشكري ولا ينري علي بن ثابت) (حملت عليه مُثقالاً فاطاقه ** وحملتني من شكره فوق طاقتي) ورأى رجلاً من النبط الحجاج بعد موته في منامه فقال : يا حجاج

إلام صيرك ربك فقال : وماذا عليك يا ابن الرانية فقال : ما سلّمنا من قولك ميتاً ولا من فعلك حياً . وقال الأشهب رجلاً من أهل الكوفة يهجو نوح بن درّاج : (إن القيامة فيما أحسب اقتربت ** إذ صار حاكمنا نوح بن درّاج) (لو كان حياً له الحجاج ما سلّمنا ** صحيحة يده من قش حجاج) وكان الحجاج يشم أيدي النبط علامة يعرفون بها .

وقال رجل من طي لرجل من فزارة وكان الرجل يتوعده : (فإن كان هذا يا فزار تجلباً ** لنخشى فما نرتاع للجلباب) (أألان لما أن علا الشيب مفرقي ** وصارت نبوب العود مختلفات) (أأست فزارياً تين لؤمه ** إذ قام بين الأنف والسبلات) (ترى الخيل تستحي إذا ما ركبتم ** عليها حياء البدن الخفريات) وقال أبو عبيدة : ما ينبغي أن يكون في الدنيا مثل النظام : سأله وهو صبي عن عيب الزجاج فقال : سريع الكسر بطيء الجبر .

ومدحوا النخلة عنده فقال : صعبة المرتقى بعيدة المهوى خشنة المس قليلة الظل . وذكر النظام الخليل بن أحمد فقال : توحد به العجب فأهلكه وصور له الاستبداد صواب رأيه فتعاطى ما لا يحسنه ورام ما لا يناله وفتنته دوائر التي لا يحتاج إليها غيره .

وكان أبو إسحاق إذا ذكر الوهم لم يشك في جنونه وفي اختلاط عقله وهكذا كان الخليل وإن كان قد

أَحْسَنَ فِي شَيْءٍ .

وكان النطام كثيراً ما ينشد : (فلو كنت أَرْضَى لا أبالك بالذي ** به الخامل الجنام في الخفض قانع) ()
قَصِرْتُ عَلَى أَذْنِ الهموم وأصْبَحْتُ ** عَلَيَّ وعندي للرجال صنائع) وقال المَرِيسِيُّ لأبي الهذيل بحضرة
المأمون بعد كلام جرى : كيف ترى هذه السَّهَام قال : لَيْتَنِي كَالزُّبْدِ حُلُوة كَالشَّهْدِ فكيف ترى سهامنا قال
: ما أَحْسَسْتُ بها قال : لَأَنَّهُا صَادَقَتْ وَأُنْشِدَ أَبُو الهذيل : (فإذا تَوَهَّم أن يراها ناظرٌ ** ترك التَّوَهَّم
وجَهَّها مَكْلُوما) فقال : هَذِهِ تُنَاكُ بِأَيْرٍ من خاطر وأنشدني أبو الهذيل بعد أن أنشد هذا البيت : (اسجُدْ
لِقِرْدِ السَّوءِ في زمانِهِ ** ولا تُسْأَلْ عن خَبِيءِ شَأْنِهِ) وقال آخر : (كم من كريم ضَعُضَعَ الدَّهْرُ حالَهُ **
وكم من لئيم أَصْبَحَ اليَوْمَ صاعِداً) (وقد قال في الأمثال في النَّاسِ واعِظٌ ** بتجربة أَهْدَى النَّصِيحَةِ جَاهِدا
(

(إذا دولةٌ لِلْقِرْدِ جاءت فُكُنْ لَهُ ** وذلك من حُسْنِ المِداراةِ ساجداً) (بذاك تدارِيهِ وَيُوشِكُ بَعْدَهَا **
تَراه إلى تُبَانِهِ الرَّثِّ عانداً) وأنشدني الأَصْمَعِيُّ في معنى قول الفرزدق : به لا بَطِيٍّ بِالصَّرِيمَةِ أعفرا لرجل من
بني القَيْنِ : (أقول لصالحٍ لما دهته ** بنات الدهر ويحك ما دهاكا) (أتيتك زائراً فرجعت صفراً ** كذاك
تكون أوبة من أتاكا) (أحب لك السلامة يا ابن أُمي ** وإن كنت امرأً بخلت يداكا) (حفاظاً للعشيرة لا
بعرفٍ ** فإن العرف من به سواكا) وقال الفرزدق : (ألا خَبَرُونِي أَيُّها النَّاسُ إِنِّي ** سألتُ ومن يَسْأَلُ
عن العِلْمِ يَعْلَمُ) (سؤالَ امرئٍ لم يُغْفَلِ العِلْمَ صدرُهُ ** وما العالم الواعي الأحاديثَ كالعَمي) وقال أيضاً :
(أَلَمْ تَعْلَمُوا يا آل طَوْعَةَ أَنما ** تَهيجُ جَلِيَّاتِ الأمور دَقِيقُها) (سَأُتْنِي على سَعْدٍ بما قد عَلِمْتِهِ ** وخير
أَحاديثِ الرِّجالِ صدوقُها)

قال أبو عثمان : وما أكذب لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كلُّ وقَّاحٍ أخبارُ بعض العلماء
وبعض من يؤلِّف الكتب ويقرؤها ويدارس أهل العبر ويتحفظها .
زعموا أنَّ الضَّبَّ تكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى وسمعت هذا من جماعة منهم مَنْ لا أَسْتَجِيزُ تسميته .
قال الفضل بن إسحاق : أنا رأيتُ العَفْصَ والبُلُوطَ في غصن واحد .
قال : ومن العَفْصِ ما يكونُ مثلَ الأُكْرَ وقد خَبَّرَنِي بذلك غيره وهو يشبه تحوُّلَ الأنثى ذكراً والذكر أنثى .
وقد ذكرت العربُ في أشعارها الضَّبَّاعَ والدَّنَّابَ والسَّمْعَ والعِسْبَارَ وجميعَ الوحوش والحشرات وهم أَخْبَرُ
الخلق بشأن الضَّبَّعِ فكيف تركت ما هو أعجب وأطرف .
وقد ذكرت العلماء الضَّبَّاعَ في مواضع من الفُتْيَا لم نَرِ أحداً ذَكَرَ ذلك وأولئك بأعيانهم هم الذين زعموا أنَّ
النمر الأنثى تضع في مشيمةٍ واحدةٍ جروراً وفي عنقه أفعى قد تطوَّقت به وإذا لم يأتنا في تحقيق

هذه الأخبارِ شعراً شائعاً أو خبراً مستفيضاً لم نلتفت لِفَتْنِهِ وقد أقرَرنا أنَّ للسَّقَنْقُورِ أَيْرِينَ وكذلك الحُرْذُونَ
والضَّبَّ حِينَ وَجَدْنَاهُ ظاهراً على ألسنة الشعراء وحكاية الأطباء .

خرطوم الفيل والخرطوم للفيل هو أنفه ويقوم مقام يده ومقام عنقه والخرق الذي هو فيه لا ينفذ وإنما هو

وعاءٌ إذا مَلَأَهُ الفيل من طعام أو ماء أُولِجَه في فيه لِأَنَّهُ قَصِيرُ العُنُق لا ينال ماء ولا مرعى وإنما صار وَلَدُ
البُخْتِيِّ من البُخْتِيَّةِ جُرُورَ لحمٍ لِقَصَرِ عُنُقِهِ وَلِعَجْزِهِ عن تناول الماء والمرعى .
خرطوم البعوضة وللبعوضة خرطومٌ وهي تُشَبَّه بالفيل إِلَّا أَنَّ خرطومها أَجوفٌ فإذا طَعَنَ به في جوف
الإنسان وللذبابة خرطومٌ تخرجه إذا أرادت الدَّم وتُدْخِلُهُ إذا رَوَيْتُ فَأَمَّا

مَنْ سَمَّى خَطْمَ الخنزيرِ والكلبِ والدَّئِبِ خرطوماً فإنما ذلك على التشبيه وكذلك يقولون لكل طويل الخطم
قصير اللِّحْيَيْنِ .

وقد يقال للخطم خرطوم على قوله : سَنَسِمُهُ عَلَى الخُرْطُومِ .

وأشدنا ابن الأعرابي لفتى من بني عامر : (ولا أقوم على شيخي فأشتُمهُ ** ولا أمرُ على تلك الخراطيم)
جعل سادة عشيرته في النَّادي والمجالس كاخراطيم والمقاديم والهوادي وعلى ذلك قالوا : بنو فلان أنفُ بني
فلان ورؤوسُهم وخراطيمُهم ومعنى العامري الذي ذهب إليه في شعره كأنه عظم المشيخة أن يمر بهم وقد
قال الشاعر : هم الأنفُ المقدمُ والسَّنامُ والفيلُ والبُبرُ والطَّائِسُ والبَيْغُ والدَّجَاجُ السَّنْدِيُّ والكركدانُ مما
خص الله به الهند وقد عدَّد ذلك مطيعُ بن إيس حين خاطب جاريةً له كانت تسمى رُوقة فقال : (روق
أي روق كيف فيك أقول ** سادسنا دوني وأرمائل)

(وبعيدٌ من بينه حيثما كا ** ن وبين الحبيب قنديل) (ببلاد بها تبيض الطواوي ** س وفيها يزواج
الزنبيل) (وبها البغاء والصفر والعو ** د له في ذرى الأراك مقيلا) (والخموع العرجاء والأيل الأق **
رن والليث في الغياض النسول) وقال أبو الأصلع الهندي يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند : (لقد
يعذلني صبحي ** وما ذلك بالأمثل) (وفي مدحتي الهند ** وسهم الهند في المقتل) (وفيه الساج والعاج
** وفيه الفيل والدغفل) (وإن التوتيا فيه ** كمثل الجبل الأطول) (وفيه الدار صيني ** وفيه يبيت
الفلفل) (والمتشابه عندهم من الحيوان الفيل والخنزير والبعوضة والجاموس وقال روبة : (ليث يدق الأسد
الهموسا ** والأقهبين الفيل والجاموسا)

هجاء أبي الطروق لامرأته ولما هجا أبو الطروق الضبي امرأته وكان اسمها شَغْفَر بالقُبْح والشناعة فقال : (
جاموسة وفيلةٌ وخنزِرٌ ** وكلهنَّ في الجمال شَغْفَرُ) (كأنَّ الذي يَبْدُو لنا من لِنَامِها ** جَحافلٌ عَيرٌ أو
مشافر فيل) (

شعر في الفيل

والفيل يوصف بالفَقَم ولذلك قال الأعرابي : (قد قادي أصحبي المعمم ** ولم أكن أخدع فيما أعلم) (إذا
صفق الباب العريض الأعظم ** وأدنى الفيل لنا وترجوا) (وقيل إن الفيل فيلٌ مرجم ** خبعثٌ قد تم منه
الخزم)

(أجرد أعلى الجسم منه أصحم ** يجر أرحاءً ثقلاً تحطم) (ما تحتها من قرصها وتهشم ** وحك حين يمد أفقم) (ومشفر حين يمد سرطم ** يرده في الجوف حين يطعم) (لو كان عندي سبب أو سلم ** نحيث نفسي جاهداً لا أظلم) وقال آخر : (مَنْ يركب الفيل فهذا الفيل ** إن الذي يركبه محمول) (على تماويل لها تهويل ** كالطود إلا أنه يجول) وقال عمار بن عقيل يضرب المثل بقوة الفيل : (إذا أتانا أمير لم يقل لهم ** هيداً وجالت بنا منه الأحابيل)

(وعَضَّ مجهودنا الأقصى وحَمَلَه ** مِنَ المَظالم ما لا يحِملُ الفيلُ) (وقال أبو دَهْلِيل يمدح أبا الفيل الأشعري : (إنَّ أبا الفيل لا تحصي فضائله ** قد عمَّ بالعرف كلَّ العُجم والعرب) ونظر ابن شهلة المدني إلى خرطوم الفيل وإلى غُرموله فقال : (ولم أرَ خرطومين في جسم واحد ** قد اعتدلاً في مشرب ومبال) فقد غلط لأنَّ الفيل لا يشرب بحرطومه ولكن به يُوصِلُ الماء إلى فمه فشبه غُرموله بالخرطوم وغُرموله يشبه بالجبعة والقنديل والبربخ . وقال المخبل في تعظيم شأن الفيل : (أتهزأ مني أم عمرة أن رأيت ** هماراً وليلاً بلياني فأسرعا) (فإن أكْ لاقيت الدهاريسَ منهما ** فقد أفنيا النعمان قبلي وتبعا) (ولا يلبث الدهرُ المفرق بينه ** على الفيل حتى يستدير فيصرعا) وقال مروان بن محمد وهو أبو الشَّمَقَمَق وحَدَّثني صديق لي قال سألت أبا الشَّمَقَمَق عن اسمه

(يا قوم إني رأيتُ الفيلَ بعدكم ** فبارك الله لي في رؤية الفيل) (رأيت بيتاً له شيء يحركه ** فكدتُ أصنع شيئاً في السراويل) وقالت دودة لأُمِّها : (يا أمَّ إني رأيتُ الفيلَ من كَبِّ ** لا بارك الله لي في رؤية الفيل) (لما بصُرتُ بأير الفيل أذهلني ** عن الحمير وعن تلك الأباطيل)

خطبة بدوي فيها ذكر الفيل

وقال الأصمعي : جَنَى قومٌ من أهل اليمامة جنابة فأرسل إليهم السلطان جنداً من بُخاريّة ابن زياد فقام رجلٌ من أهل البادية يُدَمِّرُ أصحابه فقال : يا معشر العرب ويا بني الحصنات قَاتِلُوا عَنْ أَحسابكم ونسائكم والله لئن ظَهَرَ هؤلاء القومُ عليكم لا يدعون بها لينةَ حمراء ولا نخلةَ خضراء إلا وضعوها بالأرض ولا أغرُكم من نِشَابٍ معهم في جِباب كأنها أيور الفيلة ينزعون في قسي كأنها العتلُ

تنط إحداهنَّ أطيطَ الزُرْنوق يَمَغْطُ أحدهم فيها حتى ينفرق شعرُ إبطيه ثم يُرْسِلُ نِشَابَةً كأنها رِشَاءٌ منقطع فما بينَ أحَدكم وبين أن تفضخ عينه أو يُصدع قلبه منزلة . قال : فخلعَ قلوبهم فطاروا رُعباً .

قالوا : الفيلة ضربان : فيلٌ وزندبيل وقد اختلفوا في أشعارهم وأخبارهم فبعضهم يقول كالْبُخْتِ والعَرابِ والجواميسِ والبقرِ والبراذين والخيَلِ والفأرِ والجُرْذَانِ والنَرِّ والنمل وبعضهم يقول : إنما ذهبوا إلى الذَّكَرِ والأنثى .

قال خالدُ القنَّاصُ وفي قصيدته تلك المزاوِجةَ والمخمَّسة التي ذكر فيها الصَّيْدَ فأطنَّبَ فيها فقال حينَ صار إلى ذِكرِ الفيل : (ذاك الذي مِشْفَرُهُ طويلٌ * وهو من الأفيال زَنْدَبِيلُ)

فذهب إلى العِظَمِ وقال الذِّكْوَانِي : وفيلة كالطَّوْدِ زنديل وقال الآخر : من بين فيلاتٍ وزَنْدَبِيلٍ فجعل الزَّندَبِيلُ هو الذكر وقال أبو اليقْظان سحيماً بنُ حفص : إنَّ الزَّندَبِيلَ هو الأنثى فلم يَقِفُوا من ذا على شيءٍ .

الجنَّ والخنَّ وبعض النَّاسِ يَقْسِمُ الجنَّ على قِسْمَيْنِ فيقول : هم جنَّ وخنَّ ويجعل التي بالحاء أضعفها وأما أبيتُ أهوي في شياطينَ تُرَنَّ مختلفٍ نَجْرَاهُمُ جنَّ وخنَّ ففرق هذا بين الجنسين .
(الناس والنسناس)

الناس والنسناس

وسمع بعضُ الجهَّال قولَ الحسن : ذهبَ النَّاسُ وَبَقِيَتْ في النَّسْناسِ فجعلَ النَّسْناسُ جنساً على حِدةٍ وسمع آخرون هم أجهلُ من هؤلاء قولَ فجعلَ النَّسْناسُ جنساً على حِدةٍ وسمع آخرون هم أجهلُ من هؤلاء قولَ الكميث : نَسْناسهم والنَّسَانسا فرعموا أَنَّهُمْ ثلاثةُ أَجناسٍ : ناسٍ ونَسْناسٍ ونَسَانِسُ هذا سوى القول في الشَّقِّ وواق وذوال باي وفي العُدَّار وفي أولاد السَّعَالِي من الناس وفي غير ذلك مما ذكرناه في موضعه من ذكر الجنَّ والإنس .
وقد علم أهلُ العقلِ أَنَّ النَّسْناسِ إنما وَقَعَ على السَّفْلةِ والأوغاد والغَوغاء كما سَمَّوا الغوغاء الجراد إذا ألقى البيض وسخف وخفَّ وطار .)

هياج الفيل

قال : وإذا اغْتَلَمَ الفيلُ قَتَلَ الفِيلَةَ والفَيَّالين وكلَّ مَنْ لَقِيَهُ من سائر النَّاسِ ولم يَقمْ له شيءٌ حتى لا يكونَ لِسُوَاسِهِ هَمٌّ إِلَّا الهَرَبُ وَإِلَّا الاحْتِيالُ لأنفسهم .

وترغَّم الفرَسُ أنَّ فيلاً من قبلة كِسرى اغْتَلَمَ فَأَقْبَلَ نحو النَّاسِ فلم يَقمْ له شيءٌ حتى دنا من مَجْلِسِ كِسرى فَأَقْشَعَ عنه جُنْدَهُ وأسلمتهُ صنائعهُ وقصد إلى كِسرى ولم يبقَ معه إِلَّا رجلٌ واحدٌ من فرسانه كان أخصَّهُم به حالاً وأرفعَهُم مكاناً فلَمَّا رَأَى قُرْبَهُ من الملكِ شَدَّ عليه بِطَبْرَزينِ كان في يده فضربَ به جبهته ضربةً غابَ لها جميعُ الحديدِ في جبهته فصَدَفَ عنها وارتدَّع وأبى كِسرى أن يَزُولَ من مكانه فلَمَّا أيقنَ بالسَّلامةِ قال لذلك الرجل : ما أنا بما وَهَبَ اللَّهُ لي من الحياةِ على يلك بأشدَّ سروراً مِنِّي بالذي رأيتَ من هذا الجلدِ والوفاء والصَّبرِ في رجلٍ من صنائعي وحين لم تخطئُ فِرَاسَتِي ولم يَفِلْ رأيي فهل رأيتَ أحداً قطُّ أشدَّ منك قال : نعم قال : فحدَّثني عنه قال : على أن تؤمِّنني فأَمَنَهُ فحدَّثَ عنبهرام جُويينَ بحديثٍ شقَّ على الملكِ وكرِهَهُ إذ كان عدُوَّهُ على تلك الصَّفةِ .

قال : إذا اغتلم الفيل وصال وغضب وخمط خلاه الفيالون والرائض فربما عاد وحشياً . (أهلي الفيلة ووحشيتها) والفيلة من الأجناس التي يكون فيها الأهلي والوحشي كالسنابير والظباء والحمير وما أشبه ذلك وأنشد الكرماني لشاعر المولتان قوله : فكنت في طلي من عنده فرجاً كراكب الفيل وحشياً ومعتلماً وهذه القصيدة هي التي يقول فيها : قد كنت صعدت عن بغير مغترباً حتى لقيت بها حلف الندى حكماً (قرم كأن ضياء الشمس سنته * لو ناطق الشمس ألفت نحوه الكلم)

خصال كسرى وتقول الفرس : أعطى كسرى أبرويز ثمان عشرة خصلة لم يعطها ملك قط ولا يعطاها أحد أبداً من ذلك أنه اجتمع له تسعمائة وخمسون فيلاً وهذا شيء لم يجتمع عند ملك قط ومن ذلك أنه أنزى الذكورة على الإناث وأن فيلة منها وضعت عنده وهي لا تتلاقح بالعراق فكانت أول فيلة بالعراق وآخر فيلة تضع .

قالو : ولقي رستم الآزري المسلمين يوم القادسية ومعه من الفيلة عشرون ومائة فيل وكن من بقايا فيلة كسرى أبرويز .

قالوا : ومن خصاله أن الناس لم يروا قط أمداً قامة ولا أتم ألواحاً ولا أبرع جهلاً منه فلما مات فرسه الشبديز كان لا يحمله إلا فيل من فيله وكان يجمع وطاعة ظهر الفيل وثبات قوائمه ولين مشيته وبعد خطوه وكان أطفها بدناً وأعد لها جسماً .

(أكثر خلفاء المسلمين فيلة) قالوا : ولم يجتمع لأحد من ملوك المسلمين من الفيلة ما اجتمع عند أمير المؤمنين المنصور اجتمع عنده أربعون فيلاً فيها عشرون فحلاً .)

شرف الفيل

قالوا : والفيل أشرف مراكب الملوك وأكثرها تصرفاً ولذلك سأل وهز الأسوار عن صاحب الحبشة حين صافهم في الحرب ف قيل له : ها هو ذاك على الفيل فقال : لا أرميه وهو على مركب الملوك ثم سأل عنه ف قيل له : قد نزل عنه وركب الفرس قال : لا أرميه وهو على مركب الحماة قيل : قد نزل عنه وركب الحمار قال : قد نزل عن مركبه لحمار فدعا بعصابة رفع بها حاجبيه وكان قد أسن حتى سقط جاجباه على عينيه ثم رماه فقتله .

ذكاء الفيل

وكان سهل بن هارون يتعجب من نظر الفيل إلى الإنسان وإلى كل شيء يمر به وهو الذي (ولما رأيت الفيل ينظر قاصداً * ظننت بأن الفيل يلزمه الفرض)

قال أبو عثمان : وقد رأيتُ أنا في عَيْنِ الفِيلِ من صحَّةِ الفَهمِ والتَّأَمُّلِ إذا نَظَرَ بها وما شَهِتَ نَظَرَهُ إلى الإنسانِ إلَّا بنَظَرِ ملكٍ عَظيمٍ الكِبَرِ راجِحِ الحِلْمِ وإذا أَرَدَتِ أن تَرى من الفِيلِ ما يُضَحِّكُ وتَراهُ في أَسخَفِ حالاتِهِ وأَجْهَلِهِ فَأَلْقَ إليه جِوزَةً فَإِنَّهُ يَريدُ أن يأخِذَ بِطَرَفِ خُرطومِهِ فإذا دنا منها تَنَفَّسَ فإذا تَنَفَّسَ طارت الجِوزةُ من بين يَدَيْهِ ثُمَّ يَدنو ثَانيةً لِيأخِذَها فيتنَفَّسُ أُخرى فتَبعدُ عنه فلا يَزالُ ذلك دأبَهُ . (

فضله في الحرب

قالوا : وبِفضْلِ الفِيلِ الفَرسَ في الحربِ أنَّ الفِيلَ يَحمي الجُماعةَ كُلَّهم ويقاتلُ ويَرمي ويَزجُّ بالمِزاريقِ وله من الهولِ ما ليسَ للفرسِ وهو أَحسنُ مِطاوَعَةً ولا يُعرَفُ بِجِماحٍ ولا طِمَاحٍ ولا حِرانٍ .
والخِوَلُ العِناقُ رَبَّما قَتَلَتِ الفُرسانَ بِالْحِرانِ مَرَّةً وبِالْإقدامِ مَرَّةً وبِالسُّوءِ الطَّاعةِ وشِدَّةِ الجِزعِ ورَبَّما شَبَّ الفَرسُ بِفارِسِهِ حَتَّى يَلقِيَهُ بينَ الحِوافِرِ والسُّيُوفِ لِلسَّهْمِ يَصِيبُهُ والحِجَرِ يَقَعُ بِهِ وما يَشَبُهَ ظَهْرُ الفَرسِ مِن ظَهِرِهِ وظَهْرُ الفِيلِ مَنظَرَةٌ مِنَ المِناظِرِ وَمَسْلَحةٌ مِنَ المِساخِ .

عمر الفيل

وفي الفِيلةِ عَجَبٌ آخَرُ وذلكَ أنَّ قِصَرَ الأَعمارِ مَقرونٌ بِالْإبلِ والبِراذِينِ وبِكلِّ خَلقٍ عَظيمٍ وَكُلُّ شَيْءٍ يَعايشُ النَّاسَ في دُورِهِم وقُراهِم ومَنازِلِهِم فَالنَّاسُ أَطولُ أَعماراً مِها كالجِملِ والفَرسِ والبِرذَوْنِ والبِغْلِ والحِمارِ والقُورِ والشَّاةِ والكَلبِ والدَّجَاجِ وَكُلٌّ صَغيرٌ وَكَبيرٌ إلَّا الفِيلُ فَإِنَّهُ أَطولُ عَمراً .
والفِيلُ أَعظَمُ مِن جَميعِ الحِياوانِ جِسمًا وَأَكثَرُ أَكلاً وهو يَعيشُ مائةَ السَّنَةِ ومائَتِي السَّنَةِ .
وزَعِمَ صاحِبُ المَناطِقِ في كِتابِ الحِياوانِ أَنَّهُ قَد ظَهَرَ فِيلٌ عاشَ أربعمائةَ سَنَةٍ فالفِيلُ في هَذا الوَجهِ يَشاركُ الصُّبَّابَ والحِياتَ والنُّسُورَ وإذا كانَ كَذلكَ فَهو فِوقَ الوَرِثانِ وَعَيرِ العانَةِ وهو مِنَ المَعمرينِ وفِوقَ المَعمرينِ وهو مَعَ ذلكَ أَعظَمُ الحِياوانِ بَدَنًا وَأَطولُها عَمراً . (

الأسد والفيل

وقال بعض من يستفهم ويجب التعلُّمُ : ما بال الأسد إذا رأى الفيلَ عَلِمَ أَنَّهُ طَعامٌ لَهُ وإذا رأى النَّمِرَ والبَبرَ لم يَكونا عِندَهُ كَذلكَ وَكيفَ وَهو

أَظمُّ وَأَضخَمُ وَأَشنَعُ وَأَهولُ فَإِن كانَ الأَسَدُ إِنما اجترأَ عَلَيهِ لَأَنَّهُ مِن لَحْمٍ وَدَمٍ واللَّحْمُ طَعامُهُ واللَّمَّ شِرابُهُ فالبَبرُ والنَّمِرُ مِن لَحْمٍ وَدَمٍ وَهُما أَقلُّ مِنَ هَؤُلاءِ وَأَقمًا جِسمًا .
قال القومُ : ومَتى قَدَّرَ الأَسَدُ في الفِيلِ أَنَّهُ إذا قاتَلَهُ غلبَهُ وإذا غلبَهُ قَتَلَهُ وإذا قَتَلَهُ أَكَلَهُ وَقَد نَجَدُ البَبرَ فِوقَ الأَسَدِ وَهو لا يَعرِضُ لَهُ والأَسَدُ فِوقَ الكَلبِ وَهو يَشْتَهِي لَحْمَهُ وَيَشْتَهِي لَحْمَ الفَهِدِ بِأَكثَرِ ثَمًّا يَشْتَهِي لَحْمَ الصَّبِيعِ والدَّبِّ وَليسَتِ عِلَّتُهُ المِواثِبَةُ الَّتِي ذَهَبَتِ إِلَيها .

مَعْرِفَةُ الحِياوانِ فَأَمَّا عَلَّمَ جَميعَ الحِياوانِ بِمِواضِعِ ما يُعِيشُها فَمَنْ عَلَّمَ البَعوضَةَ أَنَّ مِنَ وراءِ ظاهِرِ الجِلدِ الجِلْموسَ

دَمًا وَإِنَّ ذَلِكَ الدَّمَّ غَدَاءٌ لَهَا وَأَتَتْهَا مَتَى طَعَنْتْ فِي ذَلِكَ الْجِلْدِ الْغَلِيظِ الشَّشْنَ الشَّدِيدِ الصُّلْبِ أَنْ خَرَطُومَهَا
يَنْفِذُ فِيهِ عَلَى غَيْرِ مُعَانَاةٍ .

ولو أن رجلاً طعن جلده بشوكة لانكسرت الشوكة قبل أن تصل إلى موضع الدم وهذا بابٌ يُدْرَكُ
بالحسّ وبالطبع وبالشبه وبالحلقة والذي سخر لخرطوم البعوضة جلد الجملوس هو الذي سخر الصخرة
لذئب الجرادة وهو الذي سخر قمقم النحل لإبرة العقرب .

علة عدم تلاقح الفيلة بالعراق

وقال بعض خصماء الهند : لو كانت الفيلة لا تتلاقح عندنا بالعراق لأنها هندية لتغير الهواء والأرض فعقر
ذلك أرحامها وأعقم أصلها لكان ينبغي للطواويس أن لا تتزوج عندنا ولا تبيض ولا تُفْرَخَ ونحن قد
نصيد البابل والدباسي والوراشين والقواخت والقمارى والقبيج والدراج فلا تتسافد عندنا في البيوت وهي
من أطيّار بساتيننا وضياعنا ولا تتلاقح إذا اصطدناها كرازرة بل لا تصوت ولا تغني ولا تنوح وتبقى عندنا
وحشية كمدة ما عاشت فإن أخذناها فراحاً زواجت وعششت وباضت وفرخت فلعلكم أن تكونوا لو
أهديتم إلينا أولادها صغاراً فنشأت عندنا وذهب عنها وحشة الخلاء وجدت أنس الأهلي فإن الوحشة هي
التي أكمدتها ونقضت قوتها وأفت شهوتها .

وفاء الشفنين

وقد نجد الشفنين الذكر قبل أن يزوج غيرها أبداً في بلادها كان ذلك أو في غير بلادها ونحن لو
جننا بالأسد والذئب والثور والبور فأقامت عندنا الدهر الطويل لم تتلاقح قصة الذئب والأعرابي وقد
أصاب أعرابي جرو ذئب فرباه ورجا حراسته وأن يألفه فيكون خيراً له من الكلب فلما قوي وثب على شاة
له فأكلها فقال الأعرابي : (أَكَلْتُ شُوَيْهَيَّ وَرَبَيْتَ فِينَا ** فما أدراك أن أباك ذيب) وقد تتسافد عندنا
حمير الوحش وقد تلاقحت عند بعض الملوك .

تلاقح الأطباء في البيوت وكان جعفر بن سليمان أحضر على مائدته بالبصرة يوم زاره الرشيد ألبان الأطباء
وزيادها وسلاها ولبأها فاستطاب الرشيد جميع طعومها

فسأل عن ذلك وغمز جعفر بعض الغلمان فأطلق عن الأطباء ومعها خشفائها وعليها شملها حتى مرّت في
عرصة تُجَاهَ عَيْنِ الرَّشِيدِ فلما رآها على تلك الحال وهي مقرطة مخضبة استخفّه الفرح والتعجب حتى قال :
ما هذه الألبان وما هذه السمنان واللأ والرأب والرؤد الذي بين أيدينا قال : من حلب هذه الأطباء ألفت
وهي خشفان فتلاقحت وتلاحقت .

استنتاج الذئب والأسد بالعراق (

ولو أطلقوا الذئب والأسد في مروج العراق وأقاموا لها حاجتها لتسافدت وتلاقحت فلعلهم لو تقدّموا في

اصطناع أولاد الفيلة واقتنائها صغاراً أن تأنس حتى تتسافد وتتلاقح وقد زعمتم أن كسرى أبرويز استنبح دَغْلاً واحداً .

احتجاج الهندي قال الهندي : تكفيننا هذه الحجة وهي بيننا وبينكم أو ليس قد جُهد في ذلك جميع الملوك من جميع الأمم في قديم الدهر فلم يستتجوا إلا واحداً وعلى أن هذه الأحاديث من أحاديث الفُرس وهم أصحاب نَفْجٍ وتزويد ولا سيمًا في كل شيء مما يدخل في باب العصية ويزيد في أقدار الأكاسرة وإن كانوا كذلك فهم أظناء والمتهم لا شهادة له ولكن هل رأيت قطُ هندياً أقرَّ بذلك أو هل أقرَّت بقايا سائر الأمم للفرس بهذا الأمر للفيل المعروف بهذا الاسم .

استطرد لغوي ويقال رجل فيلٌ إذا كان في رأيه فيالة والفيالة الخطأ والفساد وهم يسمون الرجل بفيل منهم فيلٌ مولى زياد ويكون بأبي الفيل منهم أبو الفيل الأشعري الذي امتدحه أبو دَهْبَل .
وقال : الرَّاجز غَيَّلان

يقال له راكبُ الفيل : ومنهم عَنبَسَةُ الفيل وكذلك يقال لابنه مَعْدان وله حديث وقال الفرزدق : (لقد كان في مَعْدانَ والفيلِ زاجرٌ * لعنْبَسَةَ الراوي عليَّ القصائد) وقال الأصمعي : إذا كان الرجلُ نبيلًا جبانًا قيلَ هذا فيلٌ وأنشد : (يقولون للفيلِ الجبان كَأَنَّهُ * أَزْبُ خَصِيٍّ نَفَرَتْهُ الْقَعَاقِعُ) وقال سلمة بن عِيَّاش : قال لي رؤية : ما كنتُ أُحِبُّ أَنْ أَرَى في رأيك فيالة .

ويقول الرجلُ لصاحبه : لم يَقُلْ رأيك وهو رأيُ فاتلٍ ورجلٌ فيلٌ وبالكوفة بابُ الفيل ودار (لَعَمْرُ أَيْكَ ما حَمَامٌ كِسْرَى * على الثلثين من حَمَامِ فيلٍ) وقال الجارود بن أبي سبرة : (وما إِرْقَاصُنَا خَلْفَ الْمَوَالِي * كَسْتُنَا على عهد الرِّسُولِ) وأبو الفيل محمد بن إبراهيم الرافقي كان فارس أهل العراق .
وفيلويه السَّقْطِي هو الذي كان يُجري لَأَمَّهُ كلَّ أضْحَى درهمًا فحدثني امرأة قالت قلتُ لَأَمِّ فيلُويَه : أو ما كان يجري فيلُويَه في كلِّ أضْحَى إلا درهمًا قالت : إي والله وربِّما أدخل أضْحَى في أضْحَى .

مثالب الفيل

وقال بعضُ من يخالف الهند : الفيل لا يُنْتَفَعُ بلحمه ولا بلبنه ولا بسمنه ولا يزبد ولا بشعره ولا بوبره ولا بصوفه عظيم المؤونة في النفقة شديد التشنُّن على الرِّوَّاض وإن اغتلم لم تفِ جميع منافعه في جميع دهره بمضرة ساعة واحدة وهو مرتفع في الثمن وإن أخطوا في تدبير مَطْمِهِ ومَشْرَبِهِ وتعلُّمه وتلقنه هلك سريعاً ولا يتصرَّف كتصرُّف الدَّوابِّ ولا يُركب في الحوائج والأسواق وفي الجنائز والزيارات ولو أن إنساناً عادَ مريضاً أو اتَّبَعَ جنازة على فيل لصار شهرةً

رؤيا الفيل

وسئل ابن سيرين عن رجل رأى فيما يرى النَّائم كأنه راكبٌ على فيل فقال : أمرٌ جسيمٌ لا منفعة له .
قالوا : وقال رجلٌ للحجاج بن يوسف : رأيت في المنام رجلاً من عمالك قدَّمَ فيلاً فضربَ عنقه فقال : إن صدقت رؤياك هلك ذاهر بن بصبهرى .

حكم أكل لحمه

وسئل الشعبي عن أكل لحم الفيل فقال : ليس هو من بهيمة الأنعام .

خرطوم الفيل

وخرطومه الذي هو سلاحه والذي به يطشُ وبه يعيش من مقاتله .
وقال زهرة بن جؤية يوم القادسية : أمّا لهذه الدابة مقتل قالوا : بلى خرطومه فشدّ عليهم حتى خالطهم ودنا من الفيل فحمل كل واحدٍ منهما على صاحبه فضربَ خرطومه فبرك وأدبر القوم .

بعض صفة الفيل

قال : والفيل أقصمُ قصير العنق مقلوبُ اللسان مشوهُ الخلق فاحش القبح ولم يفلح ذو أربع قطُّ قصير العنق في طلب ولا هرب ولولا أن مسلوخ الثور يجول في إهابه ولولا سعته وغيبه لما خطأ

مع قصر عنقه ولذلك قال الأعرابي : ومن جعل الأوقص كالأعناق والمطبق كالضابع وقال الشاعر في غب الثور وهو إسحاق بن حسان الحرّميّ : (وأغلب فضفاض جلد اللبّان * * يدافع غبّبه بالوظيف) وليس يؤتى البعير في حضره مع طول عنقه إلّا من ضيق جلده والفيل ضئيل الصوت وذلك من أشدّ عيوبه والفيل إذا بلغ في الغلظة أشدّ المبالغ أشبه الجمل في ترك الماء والعلف حتى تنضمّ أبطاله ويتورّم رأسه وقد وصف الرّاجزُ الجملَ الهائج فقال : (سامٍ كأنّ رأسه فيه ورَم * * إذ صمّ إطليله هياجٌ وقَطَمَ) وآض بعد البذن ذاً لحمٍ زيم

ولولو لم يكن في الفيلة من العيب إلا أن علة أيام حملها كعمر بعض البهائم لكان ذلك عيباً وقد ترك أهل المدينة غراس العجوة لما كانت لا تطعم إلا بعد أربعين سنة .)

قدرته على حمل الأثقال

قال : وليس شيءٌ يحمل من عدد الأبطال ما يحمل الفيل لأنّ الذي يفضل فيما بين حمل الفيل وحمل البُخني أكثر من قدر ما يفضل بين جسم الفيل على جسم البُخني .
وقد قال الأعرابي الذي أدخل على كسرى ليغجب من جفائه وجهله حين قال له : أيُّ شيء أبعد صوتاً قال : الجمل قال : فأَيُّ شيءٍ أطيبُ لحماً قال : الجمل قال : فأَيُّ شيءٍ أنضُّ بالحمل قال : الجمل قال

كسرى : كيف يكون الجملُ أبعدَ صوتاً ونحن نسمعُ صوتَ الكرْكِيِّ من كذا وكذا ميلاً قال الأعرابي :
ضَعِ الكرْكِيَّ في مكانِ الجملِ وضَعِ الجملَ في مكانِ الكرْكِيِّ حتى يُعرفَ أَيُّهما أبعدُ صوتاً قال : وكيف
يكون لحمُ الجملِ أطيبَ من لحمِ البطِّ والدَّجاجِ والفِراخِ

والدُّرَّاجِ والتَّوَاهِضِ والجِدَاءِ قال الأعرابي : يُطَبِّخُ لحمُ الدَّجاجِ بماءٍ وملحٍ ويُطَبِّخُ لحمُ الجملِ بماءٍ وملحٍ حتى
يُعرفَ فَضْلُ ما بين اللَّحْمَيْنِ قال كسرى : فكيف ترعُمُ أنَّ الجملَ أَحْمَلُ لِلثَّقَلِ من الفيلِ والفيلُ يَحْمِلُ كذا
وكذا رطلاً قال الأعرابي : لِيَبْرِكِ الْفِيلُ وَيَبْرِكِ الْجَمْلُ وَلِيَحْمَلَ عَلَى الْفِيلِ حِمْلُ الْجَمْلِ فَإِنْ نَهَضَ بِهِ فَهُوَ
أَحْمَلُ لِلثَّقَالِ .

قال القوم : ليس في استطاعة الجمال النهوضُ بالأحمالِ ما يوجب لها فضيلةً على حَمَلِ ما هو أثقل ولعمري
إنَّ للجملِ بِلِينِ أرساغه وطُولِ عنقه لفضيلةً في التَّهَوُّضِ بعد البروكِ فأما نفسُ الثقلِ فالذي بينهما أكثر من
أن يقع بينهما الخيار .

مناقب الفيل

فأما باب الحمدِ فقد حَدَّثَنَا عَنْ شَرِيكِ عَنْ جَابِرِ الْجُعْفِيِّ قَالَ : رَأَيْتُ الشَّعْبِيَّ خَارِجاً قَهْلَتْ لَهُ : إِلَى أَيْنَ قَالَ
: أَنْظِرْ إِلَى الْفِيلِ .
قال : وسألتُ أبا عبيدةً فَقَهْلْتُ : ما لونُ الفيلِ قال : جَوْنُ .

ما يحث به الفيل

ومن أعاجيب الفيل أن سَوَطَهُ الذي به يُحَثُّ وَيَصْرَفُ مِجْحَنُ حديدٍ طَرَفُهُ في جبهته والطَّرَفُ الْآخَرُ في يدِ
راكبه فإذا راد منه شيئاً غَمَزَ تلكَ الحديديةَ في لحمه على قَنْزِ إرادته لوجوه التصرفِ .

قصة الفيل

وقد ذكر ذلك أبو قيس بن الأسلت في الجاهلية وهذا الشعرُ حَجَّةٌ في صَرْفِ اللَّهِ الْفِيلَ وَالطَّيْرَ الْأَبَابِيلَ
وصدَّ أبي يكسوم عن البيت وسنذكر من ذلك طرفاً إن شاء الله تعالى قال أبو قيس : (وَمِنْ صُنْعِهِ يَوْمُ فِيلِ
الْحُبُوِّ ** شَ إِذْ كَلَّمَا بَعُثُوهُ رَزَمَ) (محاجنهم تحت أقرابه ** وقد كَلَّمُوا أَنْفَهُ فَأَنْخَرَمَ) (فأرسلَ من فوقهم
حاصباً ** يلفُّهم مثلَ لَفِّ الْقَرْمِ)

وقال أيضاً صَيْفِيُّ بْنُ عَامِرٍ وَهُوَ أَبُو قَيْسٍ بِنِ الْأَسْلَتِ وَهُوَ رَجُلٌ يَمَانٍ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ وَلَيْسَ بِمَكِّيٍّ وَلَا تَهَامٍ
وَلَا قُرَشِيٍّ وَلَا حَلِيفِ قُرَشِيٍّ وَهُوَ جَاهِلِيٌّ : (قوموا فصلوا ربكم وتعوذوا ** بأركان هذا البيت بين
الأخاشب) (فعندكم منه بلاءٌ مصدقٌ ** غداة أبي يكسوم هادي الكتائب) (فلما أجازوا بطن نعمان
ردهم ** جنود الإله بين سافٍ وحاصبٍ) (فولوا سراعاً نادمين ولم يوب ** إلى أهله ملحيش غير عصائب

(ويدلُّ على صحَّة هذا الخبر قول طُفيل الغَنَوِيِّ وهو جاهليٌّ وهذه الأشعارُ صحيحةٌ معروفةٌ لا يرتابُ بها أحدٌ من الرواة وإنما قال ذلك طُفيلٌ لأنَّ غَنِيًّا كانت تنزلُ تهامة فأخرجتها كِنانةُ فيمن أخرجَتْ فهو قوله :
(تَرَعَى مَدَانِبَ وَسَمِيَّ أَطَاعَ لَهُ ** بِالْجَزْعِ حَيْثُ عَصَى أَصْحَابَهُ الْفِيلُ)

قال أبو الصَّلْت واسمه ربيعة وهو أبو أمية بن أبي الصَّلْت وهو تَقَفِيٌّ طائفيٌّ وهو جاهليٌّ)
وتَقِفٌ يومئذ أضداد بالبلدة وبالمال وبالحدائق والجنان ولهم اللاتُ والعَبَبُ وبيتٌ له سَدَنَةٌ يضاهيُون بذلك قريشاً فقال مع اجتماع هذه الأسباب التي توجب الحسدَ والمنافسة : (حَسَّ الْفِيلَ بِالْمَغْسِ حَتَّى ** ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ) (واضعاً حَلَقَةَ الْجِرَانِ كَمَا قُطَّ ** رَ صَخْرٌ مِنْ كَبْكَبٍ مَحْدُورُ) وقال بعضهم لأَبْرَهَةَ الأشرم : (أَيْنَ الْمَقْرُ وَالْإِلَهَ الطَالِبُ ** وَالْأَشْرُمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ) وقال عبد المطلب يوم الفيل وهو على حِراء : (لَاهُمُ إِنَّ الْمَرْءَ يَمُ ** نَعُ رَحْلَهُ فَاثْمَعُ حِلَالِكُ)

(لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ ** وَمِحَالُهُمْ أَبَدًا مِحَالِكُ) (إِنَّ كَمَتَ تَارِكَهُمْ وَقَبْ ** لَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ) وقال نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَنَعَمِيُّ وهو جاهليٌّ شَهِدَ الْفِيلَ وَصَنَعَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَ : (أَلَا رُدِّيْ جَمَالِكَ يَا رُدَيْنَا ** نَعِمْنَاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا) (فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ وَلَنْ تَرِيَهُ ** لَدَى جَنْبِ الْمَحْصَبِ مَا رَأَيْنَا) (أَكَلُ النَّاسِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ ** كَأَنَّ عَلِيَّاً لِلْحُبَشَانِ دَيْنَا) (حَمِدْتُ اللَّهَ أَنْ عَايَنْتُ طَيْراً ** وَحَصَبَ حِجَارَةٍ تُلْقَى عَلَيْنَا)
وقال المغيرة بن عبد الله المخرومي : مُحْتَبَسٌ تَرَهَّقُ فِيهِ الْأَنْفُسُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ وَأَنْزَلَ هَذِهِ السُّورَةَ وَقَرِيشٌ يَوْمَئِذٍ مُّجْلِبُونَ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا شَيْءٌ

أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَرَوْا لَهُ سَقَطَةً أَوْ عَثْرَةً أَوْ كِذْبَةً أَوْ بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِثْلُهُمْ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ أَذْكَرَهُمْ أَمْرًا لَا يَتَدَفَعُونَهُ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْعَدُوُّ انْكَارَهُ لِذَلِكَ يُرَى مِنْ إِطْبَاقِ الْجَمِيعِ عَلَيْهِ لَوْجَدُوا أَكْبَرَ الْمَقَالِ فَهَذَا بَابٌ يَكْثُرُ الْكَلَامُ فِيهِ وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَيْهِ فِي كِتَابِ الْحُجَّةِ .
وقال : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ مِثْلَ قَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَقَالَ : وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ وَهَذَا كُلُّهُ لَيْسَ مِنْ رُؤْيَا الْعَيْنِ لَنَا .

استطرد لغوي وباب آخر من هذا وهو قوله : وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ويقول الرجلُ : رَأَيْتُ الرَّجُلَ قَالَ كَذَا وَكَذَا وَسَمِعْتُ اللَّهَ قَالَ كَذَا وَفُلَانٌ يَرَى السَّيْفَ وَفُلَانٌ يَرَى رَأْيَ أَبِي حَنِيفَةَ وَقَدْ رَأَيْتَ عَقْلَهُ حَسَنًا وَقَالَ ابْنُ مُقْبِلٍ :

وَإِذَا قَابِلُ الْجِبْلِ الْجِبْلَ فَهُوَ يَرَاهُ إِذْ قَامَ مِنْهُ مَقَامُ النَّازِلِ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَيْهِ .
وتقول العرب : دَارُ فُلَانٍ تَنْظُرُ إِلَى دَارِ فُلَانٍ وَدُورُ بَنِي فُلَانٍ تَتَنَازَرُ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنا بريء من كل مسلم مع مشرك قيل : ولم يا رسول الله قال : لا تتراءى ناراهما .

ويقولون : إذا استقيمت تلقاء وجهك فظفر إليك الجبل فخذ عن يمينك وقال الكميت : (وفي ضيق حقف يري حقفه * خطاف وسرحه والأحدل)

جسامة الفيل

قال أبو عثمان : خرجت يوم عيد فلما صرت بعيساباذ إذا أنا بتل مجلل بقطوع ومقطعات وإذا رجال جلوس عليهم أسلحتهم

فسألت بعض من يشهد العيد فقلت : ما بال هذه المسلحة في هذا المكان وقد أحاط الناس بذلك التل فقال لي : هذا الفيل فقصدت نحوه وما لي هم إلا النظر إلى أذنيه فرجعت عنه بعد طول تأمل وأنا أتوهم عامة أعضائه بل جميع أعضائه إلا أذنيه وما كانت لي في ذلك علة إلا شغل قلبي بكل شيء هجمت عليه منه وكله كان شاغلا لي عن أذنه التي إليها كان قصدي فذاكرت في ذلك سهل بن هارون فذكر لي أنه ابتلى بمخلها (أتيت الفيل محتسبا بقصدي * لأبصر أذنه ويطول فكري) (فلم أر أذنه ورأيت خلقا * يقرب بين نسياني وذكري) أعجب الأشياء قال : وقال رجل مرة : أخرى الله الفيل فما أقبحه فقال بكر بن عبد الله المزني : لا تشتم شيئا جعله الله آية في الجاهلية وإرهاصا للنبوّة . وقال سعدان الأعمى النحوي : قلت للأصمعي : أي شيء رأيت أعجب قال : الفيل .

وقيل لابن الجهم : أي أمور الدنيا أعجب قال : الشم .
وقيل لإبراهيم النظام : أي أمور الدنيا أعجب قال : الروح .
وقيل لأبي عقيل بن درست : أي أمور الدنيا أعجب قال : التوم واليقظة .
وقيل لأبي شمر : أي أمور الدنيا أعجب قال : النسيان والذكر .
وقيل لسلم الخلال : أي أمور الدنيا أعجب قال : النار .
وقيل لبطليموس : أي أمور الدنيا أعجب قال : بدن الفلك وقال مرة أخرى : الضياء .
وقيل لأبي علي عمر بن فائد الأسواري : أي شيء لما رأيت أعجب قال : الآجال والأرزاق وكان إبراهيم بن سيار النظام شديد التعجب من الفيل .

قول الخضر في بعض الدواب أبو عقيل السواق عن مقاتل بن سليمان قال : قال موسى للخضر : أي الدواب أحب إليك وأيتها أبغض قال : أحب الفرس والحمار والبعير لأنها من مراكب الأنبياء وأبغض الفيل والجموس والثور .

فَأَمَّا البعير فمركب هُودٍ وصالحٍ وشعيبٍ والنبيّين عليهم السلام وأما الفرس فمركب أولي الغُرم من الرُّسل وكلٌّ من أمره الله بحمل السِّلَاحِ وقتالِ الكفَّارِ وأما الحِمَارُ فمركب عيسى بنِ مَريمَ وعُزَيرَ وبلعمَ وكيف لا أحبُّ شيئاً أحياه الله بعد موتِه قبل الحشرِ .

قال : ولَمَّا نظر الفضلُ بن عيسى الرِّقَاشِيَّ إلى سَلَمَ بن قُتَيْبَةَ على حمارٍ يريد المسجد قال : قَعْدَةُ نَبِيٍّ وبِذْلَةٍ جَبَّارٍ .

وأبغض الفيل لآله أبو الخنزير وأبغض الثَّور لآله يشبه الجاموس وأبغض الجملوس لآله يشبه الفيل .
وأنشدني في هذا المعنى جَعْفَرُ ابنُ أختٍ واصلٍ في منزل الفضل بن عاصم الباخريّ :

(ما أبغض الخضر فيلاً منذ كان ولا ** أحبَّ غيراً إذا كم غاية الكذب) (وكيف يبغض شيئاً فيه معتبرٌ **
وكان في القللك فراجاً من الكرب) (ولو تتوجَّع فينا واحدٌ فرأى ** زيَّ الملوكِ لقد أوفى على الركبِ)
(يبغضى ويركعُ تعظيماً لهيبته ** وليس يعدُّ له النشوانُ في الطربِ) (وليس يجذلُ إلا كلُّ ذي فخرٍ ** حرٍ
ومنبته من خالص الذهبِ) (مثل الزنوج فإنَّ الله فضَّلهم ** بالجوْد والتَّطويل في الخطبِ)
قال : أنشدنيها يونس لابن رباح الشارزنجي فمدحَ الفيل كما ترى بالطَّرب والحِكاية وأنه قد أدب وعُلِّمَ
السجودَ للملوك .)

سجود الفيل للملك

وزعموا أنَّ أوَّلَ شيءٍ يؤدَّبونه به السجودُ للملك قالوا : خرج كِسرى أبرويز ذات يومٍ لبعض الأعياد وقد صَفَّوا له أَلَفَ

فيل وقد أحدق به وبها ثلاثون ألفَ فارسٍ فلما بصُرَتْ به الفيلةُ سجدتْ له فما رَفَعَتْ رأسها حتى جُدِبَتْ بالمحاجن وراطَها الفَيَّالون .

وقد شهد ذلك المشهد جميعُ أصناف الدوابِّ : الخيلُ فما دونها وليس فيها شيءٌ يفصلُ بين الملوك والرعيَّة فلما رأى ذلك كسرى قال : ليت أنَّ الفيلَ كان فارسيّاً ولم يكن هنديّاً انظُروا إليها وإلى سائر الدوابِّ وفضِّلُوها بقدر ما تروْنَ من فَهْمها وأدبها .

وأما ما ذَكَرَ به الزَّنج من طولِ الخطبِ فكذلك هم في بلادهم وعند نوابيهم ولكنَّ معانيهم لا ترتفع عن أقدار الدوابِّ إلَّا بما لا يذكر .)

ما قيل في تعظيم شأن الفيل

وأنشدوا في تعظيم شأن الفيل وصحة نظره وجودة تحديقه وتأمله وسكون طرْفه والشعر لبعض المتكلمين :
(إذا ما رأيت الفيل ينظر قاصداً ** ظننت بأنَّ الفيلَ يلزمه الفَرَضُ) وقد قيل إنَّ الشعرَ لسهل بن هارون .

مثل النون والضب وقال عبد الأعلى القاصّ : يقال في المثل : إنّ النون قال للضبّ حين رأى إنساناً في الأرض : إني قد رأيتُ عجباً قال : وما هو قال : رأيتُ خَلْقاً يمشي على رجله ويتناول الطعام بيديه فَيَهْوِي به إلى فيه قال : إنّ كان ما تقولُ حقاً فإنه سيُخرجني من قعر البحر ويُنزلُك من وَكرِكَ من رأس الجبل . (

تناول الفيل والقرد طعامه

والفيل أعجبُ منه لأنَّ يده أنفه وأيدي البهائم والسباع على حال عاملة شيئاً والقردُ يأكل بيديه وَيَتَقَي الجوزة ويتغلى وَيَقْلِي أنثاه وليس شيءٌ يكرَعُ بأنفه ويوصلُ الطعامَ إلى فيه بأنفه غير الفيل .
إطعام الدب ولدها والدب الأنثى تُقيم أولادها تحت شجرة الجوز ثم تصعد الشجرة فتجمع الجوز في كفِّها ثم تضرب باليمين على اليسرى فتحطم ذلك الجوز فتزرمي به إلى أولادها فلا تزال كذلك حتى إذا شبعن نزلت .

وربّما قطع الدبُّ من الشجرة الغصن العُبل الضخم الذي لا يقطعه صاحب الفأس إلاّ بالجهد الشديد ثم يشدُّ به على الفارس قابضاً عليه في موضع مقبض العصا فلا يصيبُ شيئاً إلاّ هتكه . (

قلة تصرف يدي الفيل

قال صاحب المنطق : ليس شيءٌ من ذوات الأربع إلاّ وتصرفُ يديه في الجهات أقلُّ من تصرفِ يدي الفيل .
وقال أبو عثمان : ويوصف جلدُ الفيل وجلدُ الجاموس بالقوّة قال جميل : (إذا ما علتُ نَشْراً تمدُّ زمامها **
كما امتدَّ نهيُّ الأَصْلَفِ المترقّق) (وما يبتغي مِنِّي العُدّةُ تفاقدا ** ومن جلدِ جاموسٍ سمين مطرّق) (وأيضاً من ماء الحديدِ اصطفيته ** له بعد إخلاص الضريبة روثُ)

شعر فيه ذكر الفيل وقال كعبُ بن زهير في اعتذاره إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم : (لقد أقومُ مقاماً لو يقوم به ** أرى وأسمعُ ما لو يسمعُ الفيلُ) (لظَلَّ يُرْعَدُ إلاّ أن يكون له ** من الرّسولِ بأمر الله تنوِيلُ)
وذكر أُميّة بن أبي الصلت سفينة نوح فقال : (تصرخ الطيرُ والبريةُ فيها ** مع قوِيّ السّباع والأفيالِ) (حينَ فيها من كلّ ما علشَ زوجٌ ** بين ظهريّ غواربِ كالجبالِ) ()
وقال أُميّة أيضاً : (خَلَقَ النَّحْلُ مُعْصِرَاتِ تَرَاهَا ** تَعْصِفُ اليباساتِ والمخضُورا) (والتماسيحِ والثبائِلِ والأئيّ ** لَ شَتَّى والرَّيمِ واليعفورا)

(وأسوداً عوادياً وفيولاً ** وسباعاً والتمرَ والخنزيرا) ()

طيب عرق الفيل

وترعم الهند أن جبهة الفيل في بعض الزمان تعرق عرقاً غليظاً غير سائل يكون أطيب رائحة من المسك وهذا شيء يعتريه كل عام وموضع ذلك ينبوع في جبهته .

فأرة المسك والإبل والتاس يجدون ريح المسك في يوتهم في بعض الأحيان وهي ريح فأرة يقال لها فأرة المسك والذي يكون في ناحية خراسان الذي له فأر المسك ليس بالفأر وهو بالحشف حين تضعه الطيبة أشبه

وتقول العرب في فأرة الإبل صادرة : إنَّ أَرَجَ ذلك العرق أطيب من المسك الأذفر في ذلك الزمان وفي ذلك الوقت من الليل والنهار .

قال الراعي : (لها فأرة ذفراء كل عشية ** كما فتق الكافور بالمسك فاتقه) قال الأصمعي قلت لأبي مهدية أو قيل لأبي مهدية : كيف تقول لا طيب إلا المسك قال : فأين أنت من البان قال : فليل له :

فقل : لا طيب إلا المسك والبان قال : فأين أنت عن أدهان بججر قالوا له : فقل : لا طيب إلا المسك والبان وأدهان بججر قال : فأين أنتم عن فأرة الإبل صادرة .

قالوا : وربما وجد الناس في يوتهم الجرذ يضرب إلى السواد يجدون من بدنه إذا عدا إلى جحره رائحة تشبه رائحة المسك وبعض الناس يزعم أن هذا الجنس هو الذي يخبأ الدنانير والدراهم والحلي كما يصنع العقق والغراب .

وهذا الجرذ غير فأرة المسك التي تكون بخراسان وتلك بالحشف الصغير أشبه وإنما يأخذون سرته وهي ملأى من دم عيط .)

الآية في الفيل

قالوا : وقد جعل الله الفيل من أكبر الآيات وأعظم البرهانات للبيت الحرام ولقبلة الإسلام وتأسيساً لنبوّة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لشأنه ولما أجرى من ذلك على يدي جلّه عبد المطلب حين غدت الحيشة لتهدم البيت الحرام وتذلّ العرب فلم يذكر الله منهم ملكاً ولا سوقة باسم ولا نسب ولا لقب وذكر الفيل باسمه المعروف وأضاف السورة التي ذكر فيها الفيل إلى الفيل وجعل فيه من الآية أنهم

كانوا إذا قصدوا به نحو البيت تعاصى وبرك وإذا خلوه وسومه صدّ عنه وصدف وفي أضعاف ذلك التقمّ أذنه نفيل بن حبيب وقال : ابرك محمود وكان ذلك اسمه .

الطعن في قصة الفيل وقد طعن في ذلك ناس فقالوا : قد يستقيم أن ينصرف عنه ويخرّد دونه كل ذلك بتصريف الله له وكيف يجوز أن يفهم كلام العرب ويعرف معنى قول نفيل فإن قلتم : قد يفهم الفيل عن الفيل جميع الأدب والقويم وجميع ما يريد منه عند الخطّ والرحيل والمقام والمسير قلنا : قد يفهم بالهندية كما يعرف الكلب اسمه ويعرف قولهم اخساً وقد يعرف السور اسمه ويعرف الدعاء والزجر وكذلك الطفل والجنون وكذلك الحمار والفرس إذا كنّ قد عودن تلك الإشارة وسماع تلك الألفاظ فأما الفيل وهو هندي

جلبه إلى تلك البلدة حبشيٌّ فخرج من عجمة إلى عجمة كيف يفهم مع ذلك لسان العرب وسرار نُفيل بن حبيب بالعربية

قلنا : قد يستقيم أن يكون قال له كلاماً بالهندية كان قد تعودَ سماعه من الفَيَّالين فيكون ترجمته بالعربية هذا الكلام الذي حكوه وقد يكون الذي أنطقَ الذئبَ لأهبانَ بنِ أوس وجعل عود المنبر يحنّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يصوّرَ لوهم الفيل إرادة نُفيل بن حبيب وقد يستقيم مع لقن الفيل ذكائه وحكايته ومؤاناته أن يعرف ذلك كله وأكثرَ منه لطول مُقامه في أرض الحبشة واليمن وليس يبعد أن يكون بأرض الحبشة جماعةٌ كثيرةٌ من العرب من وافد وباغٍ وتاجرٍ وغير ذلك من الأصناف فيسمع ذلك منهم الفيل فيعرفه وليس هذا المقدار بمستنكرٍ من الفيل مع الذي قد أجمعوا عليه من فهم الفيل ومعرفته .

وكان منكه المتطّبّ الهنديّ صحيح الإسلام وكان إسلامه بعد المناظرة والاستقصاء والتثبت قالوا : فسمع مرةً من رجل وهو يقرأ : أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَسمع)

بعض الجاهل يقول : فكيف لو رأى الفيل فعذله قوم فقال منكه : لا تعذّله فإنه لا شك أن خلق الفيل أعجبُ فقيل له : فكيف لم يضرب به الله تعالى المثلَ دون البعير فقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام فقلت له : ليس الفيلُ بأعجبَ من البعير واجعله يعجبُ من البعير وهو

إنما خاطب العرب وهم الحجة على جميع أهل اللغات ثم تصير تلك المخاطبة لجميع الأمم بعد الترجمة على ألسنة هؤلاء العرب الذين بهم بدأت المخاطبة لجميع الأمم وكيف يجوز أن يعجب جماعة الأمم من شيء لم يروه قطّ ولا كان على ظهرها يوم نزلت هذه السورة رجلٌ واحد كان قد شهد الفيلَ والحبشة وعلى أن الفيلَ وافى مكة وما بها أحدٌ إلا عبدُ المطلب في نهر من بقيّة النَّاس ولا كانوا حيث يتأملون الفيل .

وقد قال ناسٌ : كان النَّاسُ رَجُلَيْنِ رَجُلٌ قد سمع بهذا الخبر من رجال قريش الذين يجترونها إلى أنفسهم بذلك التعظيم كما كانت السدنة تكذب للأوثان والأصنام والأنصاب لتجترّ بذلك المنافع ورجلٌ لم يكن عنده علمٌ بأن هذا الخبر باطل فلم يتقدّم على إنكار ذلك الخبر وجميع قريش تثبته .

قيل لهم : إن مكة لم تزل دارَ خِزاعة وبقايا جرهم وبقايا

الأمم البائدة وكانت كنانة منها النساة وكانت مرّ بن أذ من رهط صوفة والرّبيط منها أصحاب المزدلفة وإليهم كانت السدانة وكانت عدوان وأبو سيّارة عميلة بن أعزل تدفع بالناس وقد كان بين خِزاعة وبقايا جرهم ما كان حتى انتزعوا البيت منهم وقد كان بين ثقيف وقريش لقرب الدار والمصاهرة والتشابه في الثروة والمشاركة في الجاورة تحاسدً وتنافر وقد كان هنالك فيهم المولى والحلفاء والقحطان والنازلة ومن يحجّ في كلّ عام وكان البيت مزوراً على وجه الدهر يأتيه رجلاً وركباناً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كلّ فجٍّ عميق وبشقّ الأنفس كما قال الله تعالى : فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَكَانُوا يَقْرَبُ سُوقَ عَكَاظٍ وَذِي الْجَازِ وَهُمَا سُوقَانِ مَعْرُوفَانِ وَمَا زَالَا قَائِمِينَ حتى جاء الإسلام فلا يجوز أن يكون السّالِب والمسلوب والمفتخر به والمفتخر عليه والحاسد والخسود والمتدّين به والمنكر له مع

اختلاف الطبائع وكثرة العلل يُجمعون كلهم على قبول هذه الآية والحلون من العرب ممن كان لا يرى للحرَم ولا للشَّهر الحرام حُرمةً : طَبِئَ كلُّها وخنَعَمَ كلُّها وكثيرٌ من أحياء قُضاعةٍ وَيَشْكُرُ والحارث بن كعب وهؤلاء كلُّهم أعداءٌ في الدِّينِ والنَّسَبِ هذا مع ما كان في العرب من التَّصارى الذين يخالفون دِينَ مُشركي العرب كلَّ الخلاف كَتَغَلَبَ وشييانَ)

وعبد القيس وقضاعةٌ وغَسَّانَ وسَلِيحَ والعبادَ وتَنُوخَ وعاملةٌ ولَحْمٍ وَجُذَامَ وكثيرٌ من بلحارث بن كعب وهم خُلطاء وأعداء يُغاوِرون وَيَسُونُ وَيُسَبِّونَ وفيهم الثُّورُ والأوتار والطوائِلُ وهي العربُ وألسنتُها الحِدادُ وأشعارُها التي إنما هي مِياسمٌ وَهَمَمُها البعيدة وطلُبُها للطوائِلِ وذمُّها لكلِّ دَقِيقٍ وجليلٍ من الحَسَنِ والقبيحِ في الأشعار

والأرجاز والأسجاع والمزدوج والمنثور فهل سمعنا بأحد من جميع هؤلاء الذين ذكرنا أنكرَ شأنَ الفيل أو عَرَضَ فيه بحرف واحد .)

كلام الفيل والذنب

ورَزِينُ العَرُوضِيِّ وهو أبو زهير لم أرَ قطُّ أَطِيبَ منه احتجاجاً ولا أَطِيبَ عبارة قال في شعرٍ له يهجو ولدَ عَقبةَ بن جعفر فكان في احتجاجة عليهم وتقريعه لهم أن قال : (تَهْتُمُّ علينا بأن الذَّنْبَ كَلَّمَكُمُ *) فقد لعمرى أَبوكُمُ كَلَّمَ الذَّبِيَّ) (هذا السُّنْدِيُّ لا أَصلٌ ولا طرفٌ *) يَكَلِّمُ الفِيلَ تَصْعِيداً وَتَصْوِيباً) ولو كان ولدُ أَهبان بن أوسٍ ادَّعَا أَن أَباهم كَلَّمَ الذَّنْبَ كانوا مجانين وإِما ادَّعَا أَن الذَّنْبَ كَلَّمَ أَباهم وأتاه ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم وأتاه صدَّقه .

والفيلُ ليس يَكَلِّمُ السُّنْدِيَّ ولم يدَّعِ ذلك السُّنْدِيُّ قطُّ وربَّما كان السُّنْدِيُّ هو المَكَلَّمُ له والفيلُ هو الفَهِمُ عنه

فذهب رَزِينُ العَرُوضِيِّ من الغَلَطِ في كلِّ مذهب .

ما يَكَلِّمُ من ضروب الحيوان والنَّاسِ قد يَكَلِّمون الطيْرَ والبَهائمَ والكلابَ والسَّنائِرَ والمَرَاكِبَ وكلَّ ما كان تحتهم من أصناف الحيوان التي قد خَوَّلَها وَسَخَّرَتْ لهم وربَّما رأيتَ القَرَّادَ يَكَلِّمُ القِرْدَ بكلِّ ضربٍ من الكلام وبُطِيعه القِرْدَ في جميع ذلك وكذلك ربَّما رأيته يلقِّن البِغَاءَ ضروباً من الكلام والبِغَاءَ تحكيه وإن في غراب البَيْنِ لَعَجَباً وكذلك كلامهم للذب والكلب والشاة المَكِيَّةَ وهذه الأصناف التي تَلْقَنَ وتَحْكِي .

تكليم الأنبياء للحيوان وقد رَوَى النَّاسُ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم في كلام السَّبَّاح والإبلِ ضروباً ولم يذهبوا إلى أنها نطقت بحروفٍ مقطَّعة ولكنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إما أن يكون الله أوحى إليه بحاجاتها وإِما أن تكون فراسته وحِسَّه وتثبُّته في الأمور مع ما يُحْضِرُهُ الله من التوفيق بَيِّنَ له)

معانيها وجلالها له واستدلَّ بظاهر على باطنٍ وبهيئة وحركة على

موضع الحاجة وإمّا أن يكون الله ألهمه ذلك إلهاماً .

وأما جهة سليمان بن داود صلى الله على نبينا وعليه في المعرفة بمنطق الطير ومنطق كل شيء فلا ينبغي أن يكون ذلك إلا أن يقوم منها في الفهم عنها مقام بعضها من بعض إذا كان الله قد خصّه بهذا الاسم وأبانه بهذه الدلالة وأعلام الرُّسل لا يكثُر عددها ولا تعظم أقدارها على أقدار فضائل الأنبياء لأن أكثر الأنبياء فوق سليمان بن داود وأدنى ذلك أن داود فوّقه لأن الحكم في الوارث والمورث والخليفة والذي استخلفه أن يكون الموروث أعلى والمستخلف أرفع كذلك ظاهر هذا الحكم حتى يخصّ ذلك برهان حادث .

وإنما تكثر العلامات وتعظم على قدر طبائع أهل الزمان وعلى قدر الأسباب التي تتفق وتتهيا لقوم دون قوم وهو أن يكونوا جبابرة عتاة أو أغبياء منقوصين أو علماء معاندين أو فلاسفة محتالين أو قوماً قد شملهم من العادات السيئة وتراكم على قلوبهم من الإلف للأمور المردية مع طول لبث ذلك في قلوبهم أو تكون نخلتهم وملتهم ودعوتهم تحتمل من الأسباب والاحتمالات أكثر ممّا يحتمل غيرها من ذلك فإن من الكفر ما يكون عند المسألة والجواب أسرع انتشاراً وأظهر انتقاضاً ومنه ما يكون أمتن

شيئاً وإن كان مصير الجميع إلى الانتقاض وإلى الفساد ومنه شيء يحتاج من المعالجة إلى أكثر وأطول وإنما يتفاضل العلماء عند هذه الحال وقد يكون أن ينقدح في قلوب الناس عداوات وأضغان سببها التّحاسد الذي يقع بين الجيران والمتفقين في الصّناعة وربما كانت العداوة من جهة العصبية فإنّ عامّة من ارتاب بالإسلام إنما كان أوّل ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدّي إلى القتال فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبّ من أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف والقدوة .

أثر الغلّة في الجسم والعمر وتزعم الهند أن شبة غلّة الفيل وطول أيّامه فيها وهجرانه الطّعام والشراب وبقية تلك الطبيعة وعمل ذلك العرق السّاري هو الذي يمنع الفيل أن يصير في جسمه مرّتين لأنّ ذلك من أمتن أسباب الهزال وإذا تقادم ذلك في بدن وغبّ فيه عمل في العظم والعصب

بعد الشّحم واللّحم وإذا كان رفع الصوت والصّياح وكثرة الكلام والغضب والحدة إنما صار يورث الهزال (

لأنّ البدن يسخن عن ذلك و إذا شاعت فيه الحرارة أحرقت وأكلت وشربت ولذلك صار الخصى من الدُّبوك والأنعام أمتن .

وزعموا أنّه ليس فيما يعايش الناس من أصناف الحيوان أقصر عمراً من العصفور ولا أطول عمراً من البغل وللأمور أسباب فليس يقع الظنّ إلا على قلة سِفاد البغل وكثرة سِفاد العُصفور .

قالوا : ونجد العمر الطّويل أمراً خاصاً في الرُّهبان فنظنّ أيضاً أنّ تركها الجماع من أسباب ذلك .

قالوا : وإذا اغتلم الذكر من الحيوان فهو أخبث ما يكون لحماً وإذا كثر سِفاده تضاعف فيه ذلك وصار لحمه أيسر ودّمه أقل .

قال الشاعر : (أُحِبُّ أَنْ أَصْطَادَ ضَبًّا سَحْبَلًا * أو جُرْدًا يَرعى رَيْبَعًا أَرْمَلًا) فجعله أَرْمَلًا لا زوجة له ليكون أَسْمَنَ له لأنَّ كثرة السِّفَادِ مما يورث الهزال ولا يكثر سِفاده إلا من شِدَّة غلمته .

وهجا أعرابيُّ صاحبه حين أكل لحمَ سَوْءٍ غَثٍّ فقال : (أكلته من غَرَثٍ ومن قَرَمٍ * كاللَّوْرِ السَّافِدِ يَعْنِي بالتَّسَمِّ) لأنَّ لَحْمَ اللورِ لا يشبه لحم الضَّبِّ وهم لا يرغبون في أكله لأنه عَضِلٌ مَسِيخٌ ولأنهم كثيراً ما يجدون في جوفه الحَيَّاتِ والأفاعي وله ذنبٌ سَمِينٌ وذلك عامٌّ في الأذنان وإن رأيتها في العين كأنها عضل فإذا كان لحمها كذلك ثم كان في زمن هيجه وسفاده كان شراً له .

وللورل في السِّفَادِ ما يجوز به حدَّ الجملِ والخزير .

قال : والنسم هو التَّسِيمُ في هذا المكان .

وقالت أمُّ فَرْوَةَ القرنية : (نفى نَسَمَ الرِّيحِ القَدَى عن مُتُونِهِ * فما إنَّ به عيبٌ تراه لشارب) وأنا أعلمُ أني لو فسَّرتُ لك معاني هذه الأشعار وغريبها لكان أتمُّ للكتاب وأنفعَ لمن قرأ هذه الأبواب ولكني أعرف مَلَالَةَ الناس للكتاب إذا طال قال الشاعر يهجو من قرأه لحم كلب :

(فجاءَ بَجْرُشَاوِيَّ شَعِيرَ عليهما * كَرَادِيْسُ من أوصالٍ أعقدَ سافِدِ)

فلم يرضَ أن يجعله كلباً حتى جعله سافداً فأما ابنُ الأعرابيِّ فزعم أنه إنما عَنَى تيساً وقد أَبْطَلَ وعلى أن المعنى فيهما سواء .

أثر الخِصَاءِ في اللحم قالوا : وإنما صار الخِصْيُ من كلِّ جنسٍ أَسْمَنَ لآثِهِ لا يَسْفَدُ ولا يَهِيحُ .

السقنقور قالوا : والسقنقور إنما يَنْفَعُ أَكَلُهُ إذا اصطادوه في أيام هَيْجِهِ وسِفاده لأنَّ العاجز عن النَّسَاءِ يتعالج بأكل لحمه فصار لحمُ الهائجِ أَهْيَجَ له .

أبو نواس والحرامي أقبل أبو نواس ومعه الحراميُّ الكاتب وكان أَطْيَبَ الخَلْقِ وقد كانا قبل ذلك قد نظرا إلى الفيلة فأبصرا غُرْمُولَ فيلٍ منها وعلم الحراميُّ أن غُرْمُولَ الفيلِ يُوصَفُ بِالْجَعْبَةِ فوصف لنا غُرْمُولَهُ وأنشدنا فيه شعراً لنفسه : (كأنه لما بدا للسَّفَدِ * جَعْبَةٌ تُرْكِيَّ عليها لِبْدُ) قلنا له : أَقْوَيْتَ واجتلبتَ ذِكرَ اللَّبْدِ عن غير حاجة قال : فَإِنِّي قد قلتُ غيرَ هذا قلنا : فَأَنشِدْنَا فقال : (كأنه لما دنا للشدِّ * شَمْعَةٌ قِيلَ لُفَّتْ في لِبْدِ) قلنا : فلا نرى لك بُدًّا من اللَّبْدِ على حال قال : قال أبو نواس : فَإِنِّي أقولُ عنك بيتين قال : فهاتهما فقال : (كأنه لما دنا للوثبة * أُيُورُ أَعْيَارٍ جَمْعَ ضَرْبَةٍ)

قال الحراميُّ لأبي نواس : هَبْهُمَا لي على أن لا تدَّعِيهما فعمسى أن أنجِلهما قلت له : وما ترجو من هذا الضَّرْبِ من الأشعار قال : قد رأيتُ غُرْمُولَهُ فما غُنْري عند الفيلِ إن لم أَقُلْ فيه شيئاً . (فهم الفيلُ الهنديةُ) وحَدَّثني صديقٌ لي قال : رأيتُ الفَيَّالينَ على ظهر فيلٍ من هذه الفيلةِ وأقبلَ صبيٌّ يريدُ السَّنْدِيَّ الرَّاكِبَ

فكَلَّمَ الفِيلَ بالهندية فوقف ثم كَلَّمَهُ فمدَّ يَدَهُ رَافِعَهَا فِي الهَوَاءِ حَتَّى رَكِبَهَا الغَلامُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ حَتَّى مَدَّ السَّنْدِيَّ يَدَهُ فَأَخَذَ بِيَدِ الصَّبِيِّ .

أَخْلَافُ الحَيَوَانِ وَأَطْبَاؤُهُ وَلِلْبَقَرِ وَالْجَوَامِيسِ أَرْبَعَةُ أَخْلَافٍ فِي مُؤَخَّرِ بَطُونِهَا وَلِلشَّاةِ خِلْفَانِ وَلِلنَّاقَةِ أَرْبَعَةٌ فِي مُؤَخَّرِ البَطْنِ وَلِلْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ وَالْفِيلِ ثَدْيَانِ فِي الصَّدْرِ وَثَدْيُ الْفِيلِ يَصْغُرُ جَدًّا إِذَا قَرْنَتْهُ إِلَى بَدَنِهِ وَلِلسَّنَّورِ ثَمَانِيَةُ أَطْبَاءٍ وَكَذَلِكَ الْكَلْبَةُ فِي جَمِيعِ بَطُونِهَا وَالْخَنزِيرَةُ كَثِيرَةُ الْأَطْبَاءِ وَلِلْفَهْدَةِ

فِي بَطْنِهَا أَرْبَعَةُ أَطْبَاءٍ وَلِلْبُؤَةِ طَبَّيَانِ لَا يَصْغُرَانِ عَنْ مَقْدَارِ بَدَنِهَا وَالْبَقَرَةُ وَالْأَتَانِ وَالرَّمَكَةُ وَالْحِجْرُ فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ إِلَّا أَنَّهُمَا مِنَ الْحَافِرِ أَطْبَاءٌ وَمِنَ الظَّلْفِ أَخْلَافٌ وَالسَّبَاغُ فِي ذَلِكَ وَالْحَافِرُ سَوَاءٌ .)

عضو الفيل

وَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ : غُرْمُولُ الْفِيلِ يَصْغُرُ عَنْ مَقْدَارِ بَدَنِهِ وَخُصِيَّتُهُ لَا حَقَّةَ بِكُلِّيَّتِهِ لَا تُرَى وَلِذَلِكَ يَكُونُ سَرِيعَ السَّقَادِ .

وَزَعَمَ الْهِنْدِيُّ صَاحِبُ كِتَابِ الْبَاهِ أَنَّ أَعْظَمَ الْأَيُّورِ أَيْرُ الْفِيلِ وَأَصْغَرُهَا أَيْرُ الطَّبَّيِّ .

الفيل في كتاب الحيوان

وَمَا أَعْجَبَ مَا قَرَأْتُ فِي كِتَابِ الْحَيَوَانِ لِصَاحِبِ الْمَنْطِقِ وَجَدْتُهُ قَدْ ذَكَرَ رَأْسَ الْفِيلِ وَقَصَرَ عُنُقَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ انْقِلَابَ لِسَانِهِ وَذَلِكَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَلَمْ يَذْكُرْ فِي كَمِّ يَضَعُ وَلَا مَقْدَارَ وَزَنِ أَعْظَمِ الْأَنْيَابِ وَكَيْفَ يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ نَابِتِ الْأَسْنَانِ .

خصائص الفيلة

وَالْفِيلَةُ لَا تَلِدُ التَّوَامَ قَالَ : وَهِيَ تَفْعُدُ وَتُفَرِّدُ قَالَ : وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَا يَقَالُ أَفَدَّتْ وَلَا أَفَرَدَتْ إِلَّا لَمَّا يَجُوزُ أَنْ يُتَنَّم .

قَالَ : وَأَمْرَاضُهَا أَقَلُّ مِنْ أَمْرَاضِ غَيْرِهَا إِلَّا أَنَّ النَّفْخَ وَالرِّيَّاحَ يَعْرِضُ لَهَا كَثِيرًا وَيُؤْذِيهَا أَذًى شَدِيدًا وَعَامَّةُ أَمْرَاضِهَا مِنْ ذَلِكَ حَتَّى رُبَّمَا مَنَعَهَا الْبَوْلُ وَغَيْرَ ذَلِكَ قَالَ : وَإِذَا أَكَلَتِ التُّرَابَ ضَرَّهَا ذَلِكَ وَلَا سِيَّما إِذَا أَكْثَرَتْ مِنْهُ فَعَاوَدَتْهُ .

قَالَ : وَرُبَّمَا ابْتَلَعَتْ مِنْهُ الْحَجَارَةَ قَالَ : وَإِذَا أَصَابَهَا اسْتِطْلَاقُ سُقَيْتِ الْمَاءِ الْحَارِّ وَعُلِقَتْ الْحَشِيشَ الْمَغْسُولَ وَإِذَا أَتَعَبُوهَا اعْتَرَاهَا السَّهَرُ فَنَعَالَجَ عِنْدَ ذَلِكَ بِأَنْ تُدَلَّكَ أَكْتَانُهَا بِزَيْتٍ وَمَاءٍ حَارٍّ قَالَ : وَبَعْضُهَا يَشْرَبُ الزَّيْتَ شَرْبًا ذَرِيعًا .

تَذَلِيلُ الْفِيلِ قَالَ : وَإِذَا تَصَعَّبَ الْفِيلُ وَكَانَ فِي حِدَثَانٍ مَا اقْتَطَعُوهُ مِنَ الْوَحْشِ فَإِنَّهُمْ يُتْرَوْنَ عَلَيْهِ فَيَلَّا مِثْلَهُ وَيَحْتَالُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَمَا أَكْثَرَ مَا يَجِدُونَهُ بَعْدَ ذَلِكَ قَدْ لَانَ .

قال : وهو مادام راكمه عليه فهو ألين من كل ذي أربع وأحسن طاعة ولكن لبعضها صعوبة عند نزوله عنه فإذا شدوا مقادير قوائمها بالحبال شداً قوياً لانت .

قال : وهي على صعوبتها تأنس سريعاً وتلقن سريعاً فأول ما يعلم السجود للملك فإذا عرفه فكلما رآه سجد له .

صدق حس الفيل فأما صديق الحس فهو يفوق في ذلك جميع الحيوان وهو والجمال سواء إذا علما لأن الأنثى إذا لقحت لم يعاوداها للضراب فهذه فضيلة مذكورة في حس الجمال وقد شاركه الفيل فيها وبأينه في خصال آخر .

وإنث الفيلة وذكورها متقاربة في السن وكذلك النساء والرجال وهو بحري الطباع ونشأ في الدفاء وهو أجرد الجلد فلذلك يشتد جزعه من البرد فإن كان أجرد الجلد فما قولهم في أحاديثهم : طلبوا من الملك الفيل الأبيض والفيل الأبقع وجاء فلان على الفيل الأسود .

حقق الفيل قال : وأخبرني رجل من البحرين لم أر فيهم أقصد ولا أسد ولا أقل تكلفاً منه قال : لم أجدهم يشكون أن فيلاً ضرب فيلاً فأوجعه فأخ عليه وأنهم عند ذلك نهوه وخوفوه وقالوا : لا تنم حيث

ينالك فإنه من الحيوان الذي يحقد ويطلب ولما أراد ذلك السائس القائلة شده إلى أصل شجرة وأحكم وثاقه ثم تنحى عنه بمقدار ذراع ونام ولذلك السائس جممة قال : فتناول الفيل بحرطومه غصناً كان مطروحاً فوطئ على طرفه حتى تشعث ثم أخذه بحرطومه فوضع ذلك الطرف على جممة الهندي ثم لواها بحرطومه فلما ظن أنها قد تشبكت به وانعقدت جذب العود جذبة فإذا الهندي تحت قوائمه فخبطه خبطة كانت نفسه فيها .

فإن كان الحديث حقاً في أصل مخرجه فكفاك بالفيل معرفة ومكيدة وإن كان باطلاً فإنهم لم يتحلوا الفيل هذه التحلة دون غيره من الدواب إلا وفيه عندهم ما يحتمل ذلك ويليق به . طيب عرق الفيل قال : والعرق الذي يسيل من جبهته في زمن من الزمان يضارع المسك في طيبه ولا يعرض له وهو في غير بلاده . ٤)

أثر المدن في روائح الأشياء

وقد علمنا أن لرائحة الطيب فضيلة إذا كان بالمدينة وأن الناس إذا وجدوا ريح النوى المنقع بالعراق هربوا منه وأشرف أهل المدينة

ينتأبون المواضع التي يكون فيها ذلك التماساً لطيب تلك الرائحة .

ويزعم تجار الثبت من قد دخل الصين والزاج وقلب تلك الجزائر وقب في البلاد أن كل من أقام بقصبة ثبت اعتراه سرور لا يلري ما سببه ولا يزال مبتسماً ضاحكاً من غير عجب حتى يخرج منها .

ويزعمون أنَّ شيرازَ من بين قُرى فارس لها فغمَّة طيِّبة ومَن مَشَى واختلف في طُرقات مدينة الرِّسُول صلى الله عليه وسلم وجدَ منها عَرَفاً طَيِّباً وَبَنَةً عَجِيبةً لا تَخْفَى على أَحَدٍ ولا يستطيع أن يسمِّيها .
ولو أدخلت كلَّ غالية وكلَّ عطر من المعجونات وغير المعجونات قَصبة الأهواز أو قَصبة أنطاكية لوجدته قد تغيَّر وفَسَد إذا أقام فيها الشَّهْرَيْن والثَّلاثة .)
وأَجَمَعَ أهلُ البَحْرَيْن أنَّ لهم تمرًا يسمى النَّاجِي وأنَّ من

فَضَحَه وجَعَلَه نبيذاً ثمَّ شربه وعليه ثوبٌ أبيض صبغهُ عرقه حتى كأنه ثوب أَتْحَمِي .
استعمال الفيلة وزعم لي بعضُ البَحْرِيَّين أنَّها بالهند تكون ثَقَالَةً وعوامِلَ كعوامِلِ البقر والأبل والثَّقالة التي تكون في الكَلَاءِ والسُّوقِ وأنَّها تذللُ لذلك وتُسَامِح وتُطَاوِع وأنَّ لها غَلَّاتٍ من هذا الوجه .
وزعم لي أنَّ أَحَدَ هذه الفِيلةِ التي رأيناها بسرٍّ من رأى أنَّه كان لَقَصَّارٍ بأرض سَنَدانٍ يحملُ عليه الثَّيابَ إلى الموضع الذي يغسلها فيه ولا أعلمُه إلاَّ الفيلَ الذي بعثَ به ماهانُ أو زكريا بن عطية .
العاج قالوا : وعظامُ الفيل كلها عاجٌ إلاَّ أنَّ جوهرَ النَّابِ أثمنُ وأكرمُ وأكثرُ ما تَرى من العاج الذي في القِبابِ والحِجَالِ والفُلُكِ والمداهنِ إنما هو من عظامِ الفيل يعرفُ ذلك بالرزانة والملاسة .

والعاجُ متَجَرٌ كبيرٌ ويتصرَّف في وجوهٍ كثيرةٍ ولولا قَدْرُهُ لما فخر الأحنفُ بن قيس فيما فخر به على أهل الكوفة حيث قال : نحن أكثرُ منكم عاجاً وساجاً وديجاجاً وخراجاً ويقال إنَّه من كلامِ خالد بن صفوان ويقال إنَّه من كلامِ أبي بكر الهذلي .
وإذا خفق بأذنه الفيلُ فأصاب ذباباً أو يعسوباً أو زنبوراً لم يفلح والفرسُ الكريمُ تقَعُ الذُّبابةُ على مُوقِي عينيهِ فيصْفِقُ بأحدِ جفنيهِ فنحِرُ الذُّبابةَ ميَّتةً

وقال ابن مُقبل : (كأنَّ اصطفاقَ مَأْقِيهِ بِطَرْفِهِ ** صِفَاقُ أَدِيمٍ بِالْأَدِيمِ يُقَابِلُهُ) ويصيحُ الحمارُ فتصعقُ منه الذُّبابةُ فتَموتُ قال العَبْشَمِيُّ : (مِنِ الحَمِيرِ صَعَقاً ذِبَانُهُ ** بَكَلٌ مَيْثَاءَ كَتَغْرِيدِ المَغْنِ) وقال عُقبة بن مَكْنَمِ التَّغْلَبِي : (وَتَرَى طَرْفَهَا حديداً بعيداً ** أَعُوْجِيّاً يَطْنُ رَأْسَ الذُّبَابِ) وقال ابن مُقبل : (تَرى التُّعْرَاتِ الحُضْرَ تحتَ لَبَانِهِ ** فَرَادَى وَشَتَّى أَصْعَقَتْهَا صَوَاهِلُهُ) وأنشد في غير هذا الباب : (وإِنِّي لِقاضٍ بينَ شِيانٍ وائلٍ ** وَيَشْكُرُ إِنِّي بالقضاءِ بصيرُ) (وجدنا بني شِيانٍ خُرطومٍ وائلٍ ** وَيَشْكُرُ خنزيرٌ أَدَنٌ قَصرُ)
وليس هذا موضعُ هذين البيتين وأنشد : (أَمسى المَصْأُ ورهطُهُ في غِطَّةٍ ** ليسُوا كما كان المَصْأُ يَقولُ)
قول زياد في بناء داره أبو الحسن قال : قال زياد ودخل داره وكان بناها له فيلٌ مولاهُ فلم يرضَ ببناءها فقال : ادْعُوا لي فيلاً فلم يجدوه فقال : لَيْتَهَا في بطن فيلٍ وفيلٌ في البحر .)

قصة فيل مولى زياد

وكان فيلٌ مولى زيادٍ شديدُ اللُّكْنَةِ وأهدى بعضهم إلى زيادٍ حمارَ وحش فقال فيل : أصلح الله الأمير قد
أهدوا لنا حمارَ وهش

فقال : أي شيء تقول ويملك قال : أهدوا لنا أيراً يريد عيراً فقال زياد : الأول أمثل .)

العيثوم

وكان أبو مالك يقول : العيثوم الفيلُ الأنثى وذهب إلى قول الشاعر : وطئتُ عليك بحفّها العيثومُ ويدلّ
قول علقمة بن عبلة على أن العيثوم من صفات الفيل العظيم الضخّم وقال : (تتبعُ جونا إذا ما هيّجتُ
زجلتُ ** كأنّ دُفاً على العلياءِ مهزومُ) (إذا ترغّم من حافاتها رُبْعٌ ** حنت شعاميمُ من أوساطها كُومُ)

ضرب المثل ببعد ما بين الجنسين وقد أكثروا في ضرب المثل ببعد ما بين الجنسين وقال عبد الرحمن بن الحكم
: (أتغضب أن يقال أبوك عَفٌّ ** وترضى أن يقال أبوك زاني) (وأشهد أن رحك من زيادٍ ** كرحم
الفيل من ولد الأتان) فجعل معاوية من نسل الفيل لشرفه وجعل زياداً من نسل الحمار لضعفه ولعمري لقد
باعد لأن الغنم وإن كانت من النعم من ذوات الجيرة والكروش فإن ما بين الغنم والإبل بعيد .
وكذلك قول الكميت : (وما خلّت الصّبابَ معطّفاتٍ ** على الحيتان من شبه الحُسُولِ) قال : فهذا أبعد
وأبعد لأنه وإن ذهب إلى أن ولد نزارٍ عربٌ فهم في معنى الصّباب وساكني
الصّحارى وأولئك عجم فجعلهم كالسّمك

الذي يعيش في الماء ألا ترى أن معاوية بن أبي سفيان بن يزيد بن معاوية لما قتلته ضبّة دسّت في استه سَمكة

قال جرير : (ما بين تيم وإسماعيل من نسب ** إلا قرابة بين الرّجج والرّوم) فقال قطرب : الصّقالبة أبعد
قيل له : إن جريراً لا يفصل بين الصّقالبة والرّوم .

وتقول العرب : لا يكون ذك حتى يجمع بين الأروى والتّعام لأنّ الأروى جبلية والتّعام سهلية وقد قال
الكميت : (يؤلف بين ضفدعة وضبّ ** ويعجب أن نرّ بني أبينا) وهذا هو معناه الأول وأبعد من هذا
قول الشاعر : حتّى يؤلف بين الثلج والنّار

قصة الجارية وأمها وقال أبو الحسن المدائني : قال أبو دهمان الغلابي عن الوقاصي قال وحدثني بذلك
العبدَاقِي عن الوقاصي قال : قالت جارية لأمّها ليلة زفافها : يا أمّة إن كان أيرُ زوجي مثل أير الفيل كيف
أحتال حتى أنفع به قال : فقالت الأم : أي بُنيّة قد سألت عن هذه المسألة أُمّي فذكرت أنّها سألت عنها
أمّها فقالت : لا يجوز إلا أن يجعلك الله مثل امرأة الفيل قال : فسكتُ حولاً ثم قالت لأمّها يا أمّه فإنّي إن
سألتُ ربّي أن يجعلني مثل امرأة الفيل أتطمعين أن يفعل ذلك قالت : يا بُنيّة قد سألت عن هذه المسألة أُمّي

فذكرتُ أنها سألتُ عنها أمُّها فقالت : لا يجوز ذلك إلا أن يجعلَ اللهَ جميعَ نساءِ الرجالِ مثلَ نساءِ الفيلة
قال : فسكتتُ عنها حولاً ثم قالت : فإن سألتُ

ربِّي أن يجعلَ نساءَ جميعِ الرجالِ مثلَ نساءِ الفيلة أتطمعين أن يفعلَ ذلك قالت : يا بُنَيَّةُ قد سألتُ عن مثلِ
هذه أمِّي فذكرتُ أنها سألتُ أمُّها عنها فقالت : لا يجوز ذلك إلا أن يجعلَ اللهَ جميعَ رجالِ النساءِ مثلَ رجالِ
نساءِ الفيلة قال : فسكتتُ عنها حولاً ثم قالت فإن سألتُ ربِّي أن يجعلَ جميعَ رجالِ النساءِ مثلَ جميعِ رجالِ
نساءِ الفيلة أتطمعين أن يفعلَ ذلك قال : يا بُنَيَّةُ قد سألتُ عن هذه المسألة أمِّي فذكرتُ أنها قد سألتُ أمُّها
عنها وأنها قالت : يا بُنَيَّةُ إنَّ اللهَ إنَّ جعلَ جميعَ الناسِ فيلةً لم تجدِ امرأةُ الفيلِ مع عِظَمِ بدنِها من اللذة إلا مثلَ
ما تجدِين أنتِ اليومَ مع زوجك من اللذة ثم تذهبِ عنك لذةُ الشَّمِّ والتَّقبيلِ والضمِّ والتَّقليبِ (
والعُطْرُ والصَّبغُ والحلْيُ والمشطُ والعِتابُ والتفديةُ وجميعُ ما لكِ اليومَ قال : فسكتتُ حولاً ثم قالت : يا أمَّةُ
إنَّ سألتُ ربِّي أن يجعلَ أيرَ الفيلِ أعظمَ أتطمعين أن يفعلَ ذلك قالت الأمُّ : أي بُنَيَّةُ قد سألتُ عن هذه
المسألة أمِّي فذكرتُ أنها سألتُ عنها أمُّها وأنها قالت : أي بُنَيَّةُ إنَّ اللهَ إنَّ جعلَ أيرَ الفيلِ أعظمَ جعلَ حِرَّ
امرأةِ الفيلِ أوسعَ وأعظمَ فيعودُ الأمرُ كُلُّه إلى الأمرِ الأولِ قال : فسكتتُ عنها حولاً ثم قالت : يا أمَّةُ فإنَّ
سألتُ ربِّي أن يجعلَ أيرَ الفيلِ أشدَّ غُلْمَةً فيصيرَ عددُ أكوامه أكثرَ أتطمعين أن يفعلَ ذلك قالت : أي بُنَيَّةُ قد
سألتُ عن هذه المسألة أمِّي فذكرتُ أنها سألتُ عنها أمُّها وأنها قالت : أي بُنَيَّةُ سَلِّي اللهَ أن يجعلَ زوجك
أشدَّ غُلْمَةً ممَّا هو عليه ولكن لا تسأليه ذلك حتى تسأليه أن يزيدك في غلمتك قالت : يا أمَّةُ فإنَّ سألتُ ربِّي
أن يجعلَه في غُلْمَةٍ

التيس أتطمعين أن يفعلَ ذلك قالت : أي بُنَيَّةُ قد سألتُ عن مثلِ هذه المسألة أمِّي فذكرتُ أنها سألتُ عنها
أمُّها وأنها قالت : لا يجوز أن يجعلَه في غُلْمَةٍ التيس حتى يجعلَه تيساً قالت : يا أمَّةُ فإنَّ سألتُ ربِّي أن يجعلَه
تيساً أتطمعين في ذلك قالت : أي بُنَيَّةُ إنه لا يجعلَه تيساً حتى يجعلَكَ عَنزاً قال : أي أمَّةُ فإنَّ سألتُه أن يجعلَه
تيساً ويجعلني عنزاً أتطمعين أن يفعلَ ذلك قالت : أي بُنَيَّةُ قد سألتُ عن هذه المسألة أمِّي فذكرتُ أنها زارتُ
أمُّها لتسألها عن هذه المسألة فوجدتها في آخرِ يومٍ من الدُّنيا وأوَّلِ يومٍ من الآخرةِ وما أشكُّ أن يَومِي قد دنا

فلم تلبثِ الأمُّ إلا أياماً حتى ماتت .)

باب الظلف

وهي الطَّباء وهي مَعَزٌ والمعزُ أجناسٌ والبقرُ الوحشيُّ ذاتُ أظلافٍ وهي بالمعزِ أشبهُ منها بالبقرِ الأهليِّ وهي
في ذلك تسمَّى نعاجا وليس بينها وبين الطَّباء وإن كانت ذواتِ جِرَّةٍ وكُرُوشٍ وقُرُونٍ وأظلافٍ تَسافِدُ ولا
تلاقح وهي تُشبهُها في الشعرِ وفي عَدَمِ السَّنامِ .

ومن الظلف الوعل والنيتل والتأمور والأيل جبلات كلها لا أدري كيف التسافد والتلاقح منها .
ومن الظلف الخنازير وهي بلا كرش ولا جرة ولا قرن وليس بينهما موافقة إلا في الظلف وفي الخنازير ما
ليس ظلفه بمنشق فذاك هو المخالف بالتأب وبعد هذه الأشياء كلها وتشاكل المعز والبقرة والظباء بالشعر
وقصر الذنب وتخالف البقر والجواميس في طول الذنب وفي عدد أيام الحمل .
ومن الظلف الضأن والمعز وقد يكون بينهما تسافد وتلاقح إلا أنها تُلقيه مَلِيطاً قبل أن يُشعر وذلك أقل من
القليل .

ومن الظلف البقر الأهلي والجواميس وهي أهلية أبداً وهي موافقة للضأن في القرن وفي علم التأب وفي
الجرة والكرش وتخالف الضأن في الصوف والسنام وتوافق المعز في الشعر وتخالف في السنم وتخالف جميع
الغنم في الحمل لأن الغنم تضع خمسة أشهر والبقر تضع كما تضع المرأة في تسعة أشهر وليس تشبه المرأة
في غير ذلك إلا ما يذكرون من العقب وتثو الكاهل فإنهما ربما كانا في بعض النساء وأكثر ذلك في نساء
الدهاقين .

في الزرافة

قالوا : والزرافة تكون في أرض الثوبة فقط قالوا : وهي تسمى بالفارسية أُشْتَرُكَاوُ بـلنك كأنه قال : بعير
بقرة نمر لأن كاو هو البقرة وأشتر هو الحمل وبلنك هو النمر .
فرعموا أن الزرافة ولد النمرة من الحمل فلو زعمتم أن الحمل يكون الصبيح ويكون بعض ما له ظلف ما
كان إلا كذلك والمسافدة في أجناس المخلب والخف والحافر أعم فلو جعلوا الفحل هو النمر والأنثى هي
الناقة كان ذلك أقرب في الوهم .
وليس كل ذكر يكون أنثى يُلْقِها وقد يكون الإنسان الدابة بشهوةٍ منهما جميعاً ولا يكون تلاقح كما اتفقا
في المسافدة وإن الراعي يكون الغنم وغير الغنم .
وانظر كم من ضربٍ ادَّعَوْا بما لا يُعرف : فواحدة أن بهيمة

ذكراً اشتهى سباعاً أنثى وهو من قالوا : غورهم عظام وإيلهم لطاف وقد تتسع أرحام القلاص العربية لفواج
كرمان فبيجيء بهذه الجمّازات ولولا أنه فسّر لجاز أن يكون النمر يكون الناقة فتتسع أرحامها لذلك .
قالوا : وفي أعالي بلاد الثوبة تجتمع سباعٌ ووحوشٌ ودوابٌ كثيرة في حمارة القيظ إلى شرائع المياه فتسافد
هناك فيلقح منها ما يلقح ويمتنع ما يمتنع فيجيء من ذلك خلقٌ كثيرٌ مختلفٌ الصورة والشكل والقدر منها
الزرافة .

وللزرافة خطمٌ الحمل والجلد للنمر والأظلاف والقرن للأيل والذنب للظني والأسنان للبقرة فإن كانت أمها
ناقة فقد كامها نمرٌ وظنيٌ وأيلٌ في تلك الشرائع وهذا القول يدل على جهل شديد .

والزَّرافة طويْلُهُ الرَّجْلَيْنِ منحنية إلى مآخِرها وليس لرجليْها ركبَتان وإنما الرُّكبتان ليديها وكذلك البهائم كُلُّها وعَسَاهُ إِنَّمَا أَرَادَ

الْفَنَات والإنسان رُكْبَتاه في رجليه .

ويقولون : أُشْتُرَ مُرْكٌ لِلنَّعَامَةِ عَلَى التَّشْبِيهِ بِالْبَعِيرِ وَالطَّائِرِ يَرِيدُونَ تَشَابُهَ الْخَلْقِ لَا عَلَى الْوِلَادَةِ .
ويقولون للجاموس كاوماش على أن الجاموس يُشَبِّه الكَبِشَ وَالثَّوْرَ لَا عَلَى الْوِلَادَةِ لِأَنَّ كَاو بَقَرَةٌ وَمَاشٍ اسْمٌ لِلضَّأْنِ .

وقال آخر : تَضَعُ أُمُّ الزَّرافَةِ وَلَدَهَا مِنْ بَعْضِ السَّيَّاحِ وَلَا يَشْعُرُ النَّاسُ بِذَلِكَ الذَّكَرُ قَالُوا : كَاوماش على شَبِّهِ الْجَوَامِيسِ بِالضَّأْنِ لِأَنَّ الْبَقَرَ وَالضَّأْنَ لَا يَقَعُ بَيْنَهُمَا تَلَاقِحٌ وَالتَّقْلِيسُ الَّذِي فِي الزَّرافَةِ لَا يُشَبِّهُ الَّذِي فِي الثَّمَرِ وَهُوَ بِالْبَيْرِ أَشَبُّهُ وَمَا النَّمْرُ بِأَحَقَّ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مِنَ الْفَهْدِ . ()

تسافد الأجناس المختلفة

وقد يمكن أن تُسَمِّحَ الضَّبُعُ لِلذَّنْبِ وَالذَّبَّةُ لِلذَّيْخِ وَالْكَلْبَةُ لِلذَّنْبِ وَكَذَلِكَ الثَّعْلَبُ وَالْهَرَّةُ وَكَذَلِكَ الطَّيْرُ وَأَجْناسُ الْحَمَامِ كَالْوَرْدَانِيَّ

وَالْوَرَّشَانِ وَالْحَمَامِ وَكَالشَّهْرِيِّ مِنْ بَيْنِ الْحِجَرِ وَالْبِرْدَوْنِ وَالرَّمَكَةِ وَالْفَرَسِ وَالْبَغْلِ مِنْ بَيْنِ الرَّمَكَةِ وَالْحَمَارِ .
فَأَمَّا بُرُوكُ الْجَمَلِ عَلَى الثَّمَرَةِ وَالْجَمَلُ لَا بَدَأَ أَنْ تَكُونَ طَرُوقُهُ بَارَكَةً فَكَيْفَ تَبْرُكُ الثَّمَرَةُ لِلْجَمَلِ وَالسَّيَّاحِ
إِنَّمَا تَتَسَافَدُ وَتَتَلَاقِحُ قَائِمَةٌ وَكَذَلِكَ الظُّلْفُ وَالْحَافِرُ وَالْمِخْلَبُ وَالْخَفَّ وَالْإِنْسَانُ وَالتَّمْسَاحُ يَتَبَطَّنَانِ الْأُنْثَى
وَالطَّيْرُ كُلَّهُ إِنَّمَا يَتَسَافَدُ وَيَتَلَاقِحُ بِالْأَسْتَاهِ مِنْ خَلْفٍ وَهِيَ قَائِمَةٌ . ()

شواذ السفاد

وعَمُوا أَنَّ الْغَرَابَ يُرَاقُ وَالْحُمُرُ وَالْقَبَجُ رَبَّمَا أَلْقَحَا الْإِنَاثَ إِذَا كَانَا عَلَى عِلَاوَةِ الرِّيحِ وَلَا تَكُونُ الْوِلَادَةُ إِلَّا
فِي مَوْضِعِ إِلْقَاءِ الْتُّطْفَةِ وَالشَّيْءِ الَّذِي يَلْقَحُ مِنْهُ .
وَأَمَّا السَّمَكَةُ فَقَدْ عَايَنَ قَوْمٌ مُعَارَضَةَ الذَّكَرِ لِلْأُنْثَى فَإِذَا سَبَحَ الذَّكَرُ إِلَى جَنْبِ الْأُنْثَى عَقَفَ ذَنْبَهُ وَعَقَفَتْ
ذَنْبَهَا فَيَلْتَقِي الْمَبَالَانِ فَتَكُونُ الْوِلَادَةُ مِنْ حَيْثُ يَكُونُ التَّلْقِيحُ لَا يَجُوزُ غَيْرُ ذَلِكَ .
وَالَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْحِجَلَةَ تَلْقَحُ مِنَ الْحِجَلِ إِذَا كَانَتْ فِي سَفَاةِ

الرَّيْحِ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَصِلُ مِنَ الذَّكَرِ فَإِنَّمَا شَبَّهُوا الْحِجَلَ بِالتَّخْلِ فَإِنَّ النَّخْلَةَ رُبَّمَا لَقِحَتْ مِنْ رِيحٍ كَافُورٍ الْفُحَّالِ
إِذَا كَانَتْ تَحْتَ الرَّيْحِ . ()

المخايرة بين ذوات القرون والجم

قال : وسئل الشَّرْقِيُّ عن مخايرة ما بين ذوات القرون والجَمِّ فقال : الإبل والحيل من الخفّ والحافر والبرثن والمخلب والقدم التي هي للإنسان قال : فمن خصال ذي القرن أنّ منه وإليه ينسب ذو القرنين الملك المذكور في القرآن ويزعم بعضهم أنه الإسكندر وقال أمية بن أبي الصلت : (رَجُلٌ وَثُورٌ تَحْتَ رِجْلٍ يَمِينِهِ ** والنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدٌ) استطراد لغوي ويقال ضربه على قرنه وقرن من دم كما يقال قرن من عرق والقرن : أمة بعد أمة والقرن : شيء يصيب فروج النساء يُشَبِّه العَفْلَةَ .

ذوات القرون

والفيل من ذوات القرون وفي الحيات والأفاعي ما لها قرون وإنما ذلك الذي تسمع أنه قرن إنما هو شيء يقولونه على التشبيه لأنه من جنس الجلد والغضروف ولو كان من جنس القرون لكانت الحية صلبة الرأس والحية أضعف خلق الله رأساً ورأسه هو مقتله لأن كل شيء له قرن فرأسه أصلب وسلاحه أتم والقرن سلاح عتيق غير مجتلب ولا مصنوع وهو لذوات القرون في الرؤوس وللكركدن قرن في جبهته والجلهوس أوثق بقرنه من الأسد بمخلبه ونابه .

وتقول الجوس : يحىء بشوتن على بقرة ذات قرون .
وظهرت الآية في شأن داود وطالوت في القرن وشبور اليهود من قرن .
والثوق في الحروب مذ كانت الحرب إنما كان قرناً .

وثوق الرّحى قرن والأيل ينصل قرنه في كل عام وكان سينان رُمح الفارس في الجاهلية روق ثور .)

ما يسمى بروق

ويسمى الرّجل بروق والروق كالشيء يعاقب الشيء وقال بشار في التعاقب : أعقبته الجنوب روقاً من الأريب (دان له الروقان من وائل ** وقبله دانت له حمير) الروقان : بكر وتغلب . ٤

استطراد لغوي

ويقال قرن الضحى وقرن الشمس وقرون الشعر وقرن الكلاء وقرون السنبل وأطراف عذوق النخل وأطاف عروق الحلفاء وإبرة العقرب كلها قرون .

علاقة القرون واللحي بالذكور

والأجناس التي تكون لها القرون تكون قرونها في الذكور منها وقد يكون الفحل أجم كما أن اللحي عام في الرجال وقد يكون فيهم السناط .

أنواع القرون وقد تشعب قرون الأطباء إذا أسنت .

وقرونُ الطِّباءِ وبقرِ الوحشِ شِدَادٌ جَدًّا وإنما تعتمدُ الأوعالُ في الوثوبِ وفي القذفِ بأنفسها من أعالي الجبالِ على القُرونِ والأغلبُ على القُرونِ أن تكون اثنيْنِ اثنين وقد يكون لبعضِ الغنمِ قرونٌ عدَّةٌ .

والجواميسُ تمنعُ أنفسها وأولادها من الأسدِ بالقُرونِ وبقرِ الوحشِ تمنعُ أنفسها وأولادها من كِلابِ القُنَّاصِ ومن السِّباعِ التي تُطيفُ بها بالقُرونِ قال الطَّرِمَّاحُ : (أَكَلَ السَّيِّعُ طَلَاها فما ** تَسْأَلُ الأشْباحَ غَيْرَ انْهْزَامِ)

قصة في سفادِ الخنزيرِ وقال ابنُ التُّوشْجَانِيٍّ : أقبلتُ من خراسانِ في بعضِ طُرُقِ الجبالِ فرأيتُ أكثرَ من مِليْنِ متَّصلين في مواضعٍ كثيرةٍ من الأرضِ أثرُ سِتِّ أرجلِ قهلت في نفسي : ما أعرفُ دابةً لها ستُّ أرجلٍ فاضطرَّني الأمرُ إلى أن سألتُ المُكَارِيَّ فزَعَمَ أنَّ الخنزيرَ الذَّكَرَ في زمانِ الهَيْجِ يركبُ الخنزيرةَ وهي ترتفعُ أو تذهبُ نحوَ مَبِيَّتِها فلا يَقْطَعُ سفادهُ أميالاً ويدهاهُ على ظَهرِها ورجلاهُ خَلْفَ رجليها فَمَنْ رَأَى تلكَ الآثارَ رأى ستَّ أرجلٍ لا يدري كيفَ ذلكُ .)

ما يعرفُ بطولِ السِّفادِ قال : فالخنزيرُ في ذلكَ على شَبِيهِ بحالِ الذِّبابِ الذَّكَرِ إذا سقطَ على ظهرِ الأنثى في طولِ السِّفادِ .

وإنَّ الجملَ في ذلكَ لعجيبُ الشَّأنِ فأَمَّا العددُ فالعصفورُ ويُحْكِي أنَّ للورلِ في ذلكَ ما ليسَ لشيءٍ يعني في القوةِ وأنشد أبو عبيدة :

(سقط : بيتين الشعر) (في عظمِ أيرِ الفيلِ في رهزِ الفرسِ ** وطولِ عيسِ جهلِ إذا دحس) (

فرس الماء

قال عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ : فرس الماءِ يأكلُ التماسيحَ قال : ويكونُ في النَّيْلِ خِيولٌ وفي تلكَ البحورِ يعني تلكَ الخُلُجانِ مثلُ خيولِ البرِّ وهي تأكلُ التماسيحَ أكلاً شديداً وليسَ للتماسيحِ في وسطِ الماءِ سلطانٌ شديدٌ إلاَّ على ما احتمَلَه بذَنبِهِ من الشَّرِيعَةِ .

قال : وفرس الماءِ يُوْذِنُ بطلوعِ النَّيْلِ بأثرِ وطءِ حافره فحيثُ وجدَ أهلُ مِصرَ أثرَ تلكَ الأرجلِ عرفوا أنَّ ماءَ النيلِ سينتهي في طلوعه إلى ذلكَ المكانِ .

وهذا الفَرَسُ ربَّما رعى الزُّروعَ وليسَ يبدأ إذا رعى في أَذْنَى الزَّرْعِ إليه ولكنَّه يحزُرُ منه قَدْرَ ما يأكلُ فيبدأُ بأكله من

أقصاه فيرعى مُقْبِلاً إلى النَّيْلِ وربَّما شربَ هذا الفرسُ من الماءِ بعدَ المَرَعَى ثم قاءَه في المكانِ الذي رعى فيه فِينبَتُ أيضاً .

والطَّيْرُ عندنا يأكلُ الثُّوتَ وَيَذْرِقُه فينبِتُ من ذَرْقِه شَجَرُ الثُّوتِ .

قالوا : وإذا أصابوا من هذه الخيلِ فِلْواً صغيراً ربَّوه مع نساءهم وصبيانهم في البيوتِ ولم يزدِ على هذا الكلامِ شيئاً .

قال : وفي سنِّ من أسنانه شفاءٌ من وجعِ المَعِدَةِ .

قال : والثوبَةُ وناسٌ من الحبشة يأكلون الحيتان نِيَّةً بغير نار ويشربون الماء العكر فيمرضون فإذا علّقوا سنّ هذا الفرس أفاقوا قال : وأعفاج هذا الفرس تُبرئ من الجنون والصّرَع الذي يعتري مع الأهلة .
قال : وكذلك لحومُ بنات عِرْسٍ صالحةٌ لِمَنْ به هذه العلة .

صيد الذئب للإنسان

قال : وإنما يكون الإنسان من مصايد الذئب إذا لقيه والأرض ثلجاء فإنه عند ذلك يحتمش وجه الأرض ويجمعه ويضرب وجه الرجل فارساً كان أو راجلاً قال : ودقاق الثلج وغباره إذا صكَّ وجه الفارس سَدِيرَ واسترخى وتحيرَ بصره فإذا رأى ما قد حلَّ به فرَّباً بَعَجَ بطن الدَّابة وربما عضَّها فيقبضُ على الفارس فيصرعه ولا حرَّاك به فيأكله كيف شاء وإلا أن يكون الفارس مجرباً ماهراً فيشدُّ عليه عند ذلك بالسلاح وهو في ذلك يَسِيرُ ويقطعُ المفازة ولا يدعه حينئذٍ يتمكّن من النفر عليه .

تعليم الذئب وتأليفه

وزعم عبويه أن الحصيَّ العبدى الفقيه من أهل هَمَدان السُودانيَّ الجَلِّيَّ وهو رجل من العرب قد ولدته حليلةٌ ظنَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهو من بني سعد بن بكر فرعم أن السُودانيَّ أشبهه خلق الله بجراحةٍ وأحكمهم بتدبير ذئبٍ وكلبٍ وأسدٍ ونمرٍ وتعليمٍ وتثقيفٍ وأنه

بلغ من حذقه ورفقه أنه ضرى ذئباً وعلمه حتى اصطاد له الطَّباء والنَّعالب وغير ذلك من الوحوش وأن هذا الذئب بعينه سرَّحه فرجع إليه من ثلاثين فرسخاً وذكر أن هذا الذئب اليوم بالعسكر وحدثني بهذا الحديث في الأيام التي قام بها أمير المؤمنين المتوكِّلُ على الله وذكر أنه ضرى أسداً حتى ألف وصار أهلياً صَيُوداً حتى اصطاد الحميرَ والبقرَ وعِظامَ الوحش صيداً ذريعاً إلا أن الأسد بعد هذا كله وثب على ولدٍ له فأكله فقتله السُوداني .

والذي عندنا في الذئب أنه يألف ولو أخذَ إنسانٌ جرواً صغيراً من جرائه ثم ربَّاه لما نزعَ إلا وحشياً غَدُوراً مُفسِداً ولذلك قال الأعرابي : (أَكَلَتْ شُويْهَتِي وَنَشَأَتْ فِينَا * فَمِنْ أَنْبَاكَ أَنْ أَبَاكَ ذَيْبٌ) فالذي حكى عبويه من شأن هذا الذئب والأسد من غريب الغريب .

مصارعة كلبة لثعلب

وأخبرني عبويه صاحب ياسر الخادم قال : أرسلتُ كلبة لي فحاصرت ثعلباً فوالله إن زالا

من خصائص الكبار والفلاسفة

قال : وإذا أَسَنَّ القرشيُّ رَحَلَ إلى الحجاز .
وقال : ما احتنك رجل قطُّ إلا أحبَّ الخلوة وقالوا : ما فكَّرَ فيلسوفٌ قطُّ إلا رأى الغربةَ أجمعَ)
لهمَّه وأجودَ لخواطره .

(قول بكر المزني في الأَرْضَة) قال : وشمَّ رجلٌ الأَرْضَة فقال بكر بن عبد الله المزني : مَهْ فهي التي أَكَلَتْ
جميعَ الصَّحيفَةِ التي تعاقَدَ المشركون فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ذكرَ رسول الله وبها
تبَيَّنَت الجنَّ أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين وبها تَكشَّفَ أمرُها عند العوَّام بعد الفتنة
العظيمة عندهم وكان على الخاصة من ذلك أعظمُ الخن .)

طول ذماء الضب

وخبرني رجلٌ من بني هاشمٍ كان منهوماً بالصَّيْدِ لَهْجاً به أَنَّهُ ضَرَبَ وَسَطَ ضَبٍّ بالسَّيْفِ قَطْعَهُ نَصْفَيْنِ
فَتَحَرَّكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى حَيَالِهِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ سَكَنَا .

الورل والضب

وحكى أَنَّ الورلَ يقتل الضبَّ على معنى الصائد والطالب وأن الضبَّ يقاتل على معنى المَحْرَجِ وَأَنَّهُ هَارِشٌ
بين الورل والحَيَّة فوجد الورلُ الحَيَّةَ ويأكلها ويقتل الضبَّ ولا يأكله ولكن حُسُولُهُ .

علة عدم قتل الأعراب للورل والقنفذ

وزعم أَنَّهُ وَجَدَ مشايخَ الأعرابِ لا يقتلون وَرَلاً ولا قَنَفْذاً ولا يدْعُونَ أحداً يصطادهما لأَمَّا يَقْتُلَانِ الأَفَاعِيَّ
وَيُوجِحَانِ النَّاسَ مِنْهَا . نَوَادِرُ مِنَ الشَّعْرِ وَالْخَبَرِ وَأَنشَدَ أَبُو عبيدة لأبي ذؤيب : (وَسَوَدَ ماءُ المَرْدِ فَاهَاً فَلَوْنُهُ
** كَلَوْنِ التَّوُورِ وَهِيَ بَيضاءُ سَارُهَا) وَأَنشَدَ شَبِيهاً بِهِ لِلنَّابِغَةِ : (يَتَحَلَّبُ اليَعْصِيدُ مِنْ أَشْدَاقِهَا ** صَفْراً
مَنَاخِرُهَا مِنَ الجُرْجَارِ) وَأَنشَدَ شَبِيهاً بِذَلِكَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هَرْمَةَ : (كَأَنَّهَا إِذْ خُضِيتَ حِنّاً وَدَمٌ ** وَالْحُرْضُ
وَالْعَسَنُ وَالْهَرَمُ الْعُصْمُ) (تَعْلَمُ الأَكْلَ أَوْلَادُ الطَّبَّاءِ بِهَا ** فَمَا يَحْسُ بُهَا سَيِّدٌ وَلَا أَسَدٌ) وَأَنشَدَ :

(ذَكَرْتُكَ ذِكْرَةَ فَاصْطَدْتُ ظَبِيّاً ** وَكُنْتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ لَا أَحِبُّ) (مِنْحَتُكُمْ المَوَدَّةَ مِنْ فَوَادِي ** وَمَا لِي
فِي مَوَدَّتِكُمْ نَصِيبٌ) وَقَالَ ابْنُ مُقْبِلٍ : (وَكَمْ مِنْ عَدُوٍّ قَدْ شَقَقْنَا قَمِيصَهُ ** بِأَسْمَرَ عَسَّالٍ إِذَا هُرَّ عَامِلُهُ)
وَقَالَ أَيْضاً : (وَلَمْ أَصْطَبِ صَهْبَاءَ صَافِيَةَ الْقَدَى ** بِأَكْثَرَ مِنْ ماءِ اللَّهَابَةِ وَالْعَجَبِ) (وَلَمْ أَسِرْ فِي قَوْمٍ كَرَامٍ
أَعَزَّةَ ** غَطَارِقَةٍ شَمَّ الْعَرَانِينَ مِنْ كَلْبِ) اللَّهَابَةِ وَالْعَجَبِ : مَاءَانُ مِنْ مِيَاهِ كَلْبٍ مَوْصَفَانِ بِالْعُدُوَّةِ وَهِيَ فِي
ذَلِكَ كِدْرَةٌ وَأَنشَدَ ابْنُ مَرْزُوقٍ لَعْدِيَّ بْنَ غُطَيْفٍ الْكَلْبِيِّ وَكَانَ جَاهِلِيّاً : (أَهْلَكْنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَعَا **
وَالدَّهْرُ يَعْدُو عَلَى الْفَتَى جَذَعَا) (وَالشَّمْسُ فِي رَأْسِ فُلْكِةٍ نُصِبَتْ ** رَفَعَهَا فِي السَّمَاءِ مِنْ رَفْعَا) (أَمْرٌ
بَلِيطِ السَّمَاءِ مُكْتَسَمٌ ** وَالنَّاسُ فِي الأَرْضِ فُرُقُوا شَبَعَا)

(سقط : بيت الشعر) (كما سطا بالآرام عاد وبالبحج ** ر وأركى لتبع تبعاً) (فليس مما أصابني عجب ** إن كنت شيباً أنكرت أو صلعا) (فليس مما أصابني عجب ** إن كنت شيباً أنكرت أو صلعا) قال : هو عاد بن عوص بن إرم وسطاً بالحجر أي بأهل الحجر وأركى أي آخر والإركاء : التأخير .
وقال كعب بن زهير : (فَعَمَّ مُقْلَدُهَا عَبْلٌ مَقِيدُهَا ** في خَلْقِهَا عن بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْضِيلُ) (حَرْفٌ أَخَوَهَا أَبُوها من مُهْجَنَةٍ ** وعمُّها خالُّها قوداء شَمْلِيلُ) وكما قال ذو الرمة : أخوها أبوها والضوى لا يضيرُها

وقال سالم بن دارة : (حَدَوْتُ بِهِمْ حَتَّى كَانَتْ رِقَابُهُمْ ** من السَّيْرِ في الظَّلَمَاءِ خِيْطَانُ خَرْوَعِ) وقال بعض الخدثين : (وقد شربوا حتى كَانَتْ رِقَابُهُمْ ** من اللَّيْنِ لم تُخْلَقْ لَهْنٌ عَظَامُ) وقال آخر : (كَأَنَّ هَامَهُمْ وَالتَّوْمُ واضِعُهَا ** على المناكب لم تُعَمِّدْ بِأَعْنَاقِ) (وفي اللَّزْبَاتِ إذا ما السَّنُو ** نَ أُلْقِيَ مِنْ بَرَكِهَا كَلْكُلُ) (لعامٍ يقولُ له المُؤَلِّقُو ** نَ هذا المُقِيمُ لنا المُرَحِّلُ) وقال أيضاً : (الطَّيِّبُو تُرْبِ المَغَارِ ** سِ والمُنَابِتِ والمَكَاسِرِ) (والساحبون اللاحقو ** ن الأرضَ هَذَابَ المَآزِرِ)

(أنتم معادن للخلاف ** ة كابرًا من بعد كابر) (بالتسعة المتتابعي ** ن خلانفًا وبخير عاشر) وقال أيضاً : (ولا يكن قوله إلا لرائدها ** أعشبت فانزل إلى معشوشب العشب) ذهب إلى قوله : (مُسْتَأْسَدٌ ذِبَابُهُ في غَيْطٍ ** يَقْلُنَ للرَّائِدِ أعشبت انزل) ولكن انظر كم بين الدُّيَّاجَتَيْنِ وفي الأوَّلِ ذَهَبَ إلى قول الأعشى : (إذا الحَبَرَاتُ تَلَوَّتْ بِهِمْ ** وجرؤا أسافل هُدَّابِها) قال : كان أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : كونوا بلُهاً كالحمام ولقد كان الرجل منهم قال : وهذا يخالف قول عمر رضي الله عنه حين قيل له : إن فلاناً لا يعرف الشرَّ قال : ذلك)

أجدر أن يقع فيه .

وقال النابغة الذبياني : (ولا يحسبون الخيرَ لا شرَّ بعده ** ولا يحسبون الشرَّ ضربةً لازب)

وقال الآخر : ولا تعذراني في الإساءة إنَّه شِرَارُ الرجال من يسيء فيَعْدِرُ وقالت امرأة ترثي عُمر بن مَعْد بن زُرارة : (أَعَيْنُ أَلَا فابكي عُمرَ بن مَعْدِ ** وكان ضرُوباً باليدين وباليد) تقول : بالسيف وبالقداح لأنَّ القداح تُضْرَبُ باليدين جميعاً وقال ابن مقبل : (وللقواد وجيب عند أهره ** لَدَمَ الوليد وراء الغيب بالحجر) وقال ابن أحرر : وفوادُه زَجَلٌ كعزف الهُدُودِ وكان حسان يقول لقائده إذا شهد طعاماً : أطعامُ يد أم طعام يدين طعام يدين : الشَّوَاءُ وما أشبه ذلك وطعام اليد : الثرائد وما أشبهها .
وقال بعض السلاطين لِعَلامٍ من غلمانِه وبين يديه أسيّر : اضرب

قال : بيدٍ أو يدين قال : بيد فضربه بالسَّيَّاط قال : اذهب فأنت حرٌّ وزوجَه وأعطاه مالا .

وسارَّ رجلاً من الملوك بعضُ السُّعَاةِ بابنٍ له ذكر أنَّه بموضع كذا وكذا يشرب الخمر مع أصحاب له فبعثَ غلاماً له يتعرَّفَ حاله في الشراب فلما رجع وجدَّ عنده ناساً فكرِه التفسير فقال له : مهيم قال : كان نَقْلُهُ

جُبْنًا قَالَ : أَنْتَ حُرٌّ لِأَنَّ مُعَاوِيَةَ الْخَمِرِ يَتَنَقَّلُونَ بِالْجُبْنِ لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ .
وَكَانَ فَرَجُ الْحَجَّامِ مَمْلُوكُ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ إِذَا حَجَّمَهُ أَوْ أَخَذَ مِنْ شَعْرِهِ لَمْ يَتَكَلَّمْ وَلَمْ يَتَحَرَّكْ وَلَمْ يَأْخُذْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْفَضُولِ فَقَالَ جَعْفَرُ ذَاتَ يَوْمٍ : وَاللَّهِ لَأَمْتَحِنَنَّ فَإِنْ كَانَ الَّذِي هُوَ فِيهِ مِنْ عَقْلِ لَا يَنْتَهُ وَإِنْ كَانَ كَالطَّبِيعَةِ وَالْخَلْقَةِ لَأَحْمَدَنَّ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ يَوْمًا : مَا اسْمُكَ يَا غَلَامُ قَالَ : فَرَجُ قَالَ : وَمَا كُنْيَتُكَ قَالَ : لَا أَكْنِي بِحَضْرَةِ الْأَمِيرِ قَالَ : فَهَلْ تَحْتَجِمُ قَالَ نَعَمْ قَالَ : مَتَى قَالَ : عِنْدَ هَيْجِهِ قَالَ : وَهَلْ تَعْرِفُ وَقْتَ الْهَيْجِ قَالَ : فِي أَكْثَرِ ذَلِكَ قَالَ : فَأَيُّ شَيْءٍ تَأْكُلُ عَلَى الْحِجَامَةِ قَالَ : أَمَا فِي الصَّيْفِ فَسِكَبَاجَةٌ مَحْمُضَةٌ

عَذْبَةٌ وَأَمَّا فِي الشِّتَاءِ فَدِجِيرَاجَةٌ خَائِرَةٌ حُلُوةٌ فَاعْتَقَهُ وَزَوَّجَهُ وَوَهَبَ لَهُ مَالًا . (

وَكَانَ قَاطِعَ الشَّهَادَةِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ مَوَالِيهِ يَطْمَعُ أَنْ يُشْهَدَهُ إِلَّا عَلَى شَيْءٍ لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ الْفُقَهَاءُ وَهُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو فِرْعَوْنَ فَقَالَ : وَكَانَ أَهْلُ الْمَرْبِدِ يَقُولُونَ : لَا نَرَى الْإِنْصَافَ إِلَّا فِي حَانُوتِ فَرَجِ الْحَجَّامِ لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَنْ أَعْطَاهُ الْكَثِيرَ دُونَ مَنْ أَعْطَاهُ الْقَلِيلَ وَيَقْدِّمُ الْأَوَّلَ ثُمَّ الثَّانِي ثُمَّ الثَّالِثَ أَبَدًا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى آخِرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ يَأْتِيهِ مِنْ يَأْتِيهِ فَكَانَ الْمُؤَخَّرَ لَا يَغْضَبُ وَلَا يَشْكُو .
وَقَالَ ابْنُ مَقْرُومٍ الضَّبِّي :

(وَإِذَا تُعْلِلُ بِالسَّيَاطِ جِيَادُنَا ** أَعْطَاكَ نَائِلَهُ وَلَمْ يَتَعَلَّلِ) (فَدَعَوْا نَزَالَ فَكَنْتُ أَوَّلَ نَازِلٍ ** وَعَلَامَ أَرْكَبُهُ إِذَا لَمْ أَنْزَلِ) (وَلَقَدْ أَفْذَتُ الْمَالَ مِنْ جَمْعِ امْرِئٍ ** وَظَلَفْتُ نَفْسِي عَنْ لَيْمِ الْمَأْكَلِ) (وَدَخَلْتُ أَبْنِيَةَ الْمَلُوكِ عَلَيْهِمْ ** وَلَشَرُّ قَوْلِ الْمَرْءِ مَا لَمْ يَفْعَلِ) (وَشَهِدْتُ مَعْرَكَةَ الْقُيُولِ وَحَوْلَهَا ** أَبْنَاءُ فَارَسَ يَبْضُهَا كَالْأَعْبَلِ) (مَتَسَرَّبِلِي حَلَقَ الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ ** جُرْبُ مُقَارِفَةٍ عَنِئَةٍ مُهْمَلِ) (